أحمد حسين

موسوعة تاريخ مصر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

الاهـــداء

الى روح مصر الخـالدة ، التى وهبتهـا كل حيـاتى وصحتى ، الى الأجيال القادمة والشباب المعاصر .

الى الشهداء الذين تساقطوا عبر العصور ، لتحقيق مجـد مصر ومن بينهم ابنى الطيـــار ســـامح مرعى عبد الرازق ، أهدى هذه الموسوعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد . اما بعد . فقد قلت فى كتابى تاريخ الانسانية : ـ

الانسان فى العصر التاريخى :

يبدأ دخول الانسان فى عصر التاريخ ، ونعنى بذلك التاريخ المحقق والمدون على الآثار وجدران المعابد والتماثيل ، أو فى بطون الكتب وأوراق البردى على شتى الصور والأشكال . فعن طريق التدوين أو بالأحرى الكتابة دخل الانسان فى عصر جديد أصبح من المستطاع فيه تراكم المعلومات والمعارف الانسانية للاستفادة بها ، والانتفاع بثمراتها عبر الزمان ... وعلى اختلاف الأمكنة .

واذا كان اختراع اللغة الملفوظة هو الذى أقام هذا الفارق الضخم بين الانسان وغير الانسان . فان اختراع الكتابة قد فرق بين العصور وجعل ما قبلها يوصف بأنه ما قبل التاريخ وأما ما بعدها فقد دخل فى نطاق التاريخ .

كيفية اختراع الكتابة :

ولقد تم اختراع الكتابة بالطريقة التى تم ويتم بها أى اختراع انسانى ، أى من خلال سلسلة من التطور نتيجة تراكم المعلومات ، وتعقد الحاجات فليس من شك فى أن أول نقش نقشه الانسان على الحجر ، أو رسم ملون يحكى به صورة ثور أو أسد أو حصان ، كان يضع اللبنة الأولى فى اختراع الكتابة ، فقد أصبحت الصورة ترمز للواقع وأمكن استحضار شىء غائب الى الذهن برسم صورته .

ومن الصور التى ترمز لموضوعيتها بدأ التطور الذى انتهى بالأبجدية .. فمن الصور الكاملة للدلالة الى شىء معين ... الى الصورة المبسطة (١) . فمجرد الخطوط الأساسية ، ثم الى استعمال هذا الرمز للدلالة على صوت معين وهكذا نشأت الأبجدية أى الصور الخطية الدالة على الأصوات الملفوظة .

---

(١) لا تزال الكتابة الصينية تقف عند هذه المرحلة .

مصر القـــديمة :

والاجماع منعقد تقريبـــا بين الباحثين والدارسين على أن مصر القديمـــة هى مبدعة اختراع الكتابة وعنهـــا تلقت باقى شعوب وأمم ما يعرف الآن بالشرق الأدنى أو الشرق العربى ، وتولت فينيقيا (لبنـــان الحديث) صياغة الأبجدية فى صورتهـــا الحاضرة المـــألوفة ونشرها فى أنحاء عالم ذلك الزمان .

وسواء أكانت مصر القديمـــة هى مخترعة الكتابة ، أم أنها نقلتها عن الشـــعوب المجـــاورة ، فان ثمة حقيقة لا تجـــد خلافا عليها ، وهى أن أقدم نصوص مكتوبة قد وجدت فى مصر ، حيث تشير الى معرفة المصريين القـــدماء للتقويم الشمسى وتقسيم السنة الى ٣٦٥ يوما وأن هذا التقويم قد بدىء فى استعماله عام ٤٢٤١ ق . م .

على أن هنـــاك من يقول أن التاريخ المكتوب يجب أن يبدأ عنـــد مصب الدجـــلة والفرات ، حيث كانت سومر وبابل وأشور وأن المصريين القـــدماء أنفسهم ، انمـــا جاءوا من هذا القسم من العالم حاملين حضارته عن طريق شبه جزيرة سيناء (١) . ونحن الذين حاولنا أن نثبت أن آسيا هى موطن الانسان الأول ومنشـــأ الحضارة ، لا نرى ما يدفعنـــا الى دحض هذا الرأى ، ولكن ثمة آراء أخرى تقول أن المصريين القـــدماء قد جاءوا من الجنوب سائرين مع النيل شمالا حتى وصلوا الى مصـــبه ، وأن آسيا كانت موطنهم الأول ، وقد كانت الأرض متصلة بين آســـيا وأفريقيـــا ، وحتى بعد أن حدث الصدع وغمر ماء البحر بوغاز باب المنـــدب ، فقد ظل المضيق يسمح بالانتقـــال عبر البحر من اليمن الى الحبشـــة وبالعكس . والذين يأخـــذون بهذا الرأى يقولون أن حضارة وادى النيل قد سبقت حضارة الدجلة والفرات .

ومرة أخرى نقول كما قلنا بالنسبة للكتابة ، سواء سبقت الحضارة فى ســـومر وبابل وأشور أم كانت ســـابقة على ضفاف النيل ، فالحقيقة الثابتـــة المقررة ، أن أهرامات مصر هى أقدم الآثار المبنيـــة فوق سطح الأرض فى الوقت الحاضر وعلمـــاء الآثار يتراوحون فى تحديد تاريخها بين ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق.م . ولا يعرف ســـطح الكرة الأرضية أثرا قائمـــا باقيـــا على الزمن أقدم من هرم زوسر والمصاطب التى سبقت بناءه .

الانسان فى مصر القـــديمة :

ولمـــا كانت أهرامات الجيزة أو بالأحرى هرم خوفو بالذات يمثل ذروة ما وصلت اليه امكانيات الانسان وحضارته ، وكان بناؤها قد تم كما قدمنا فى الألف الثالث قبل الميلاد ، فلا بد أن تكون مظاهر الحضارة قد سبقت ذلك التاريخ ببضعة آلاف أخرى من السنين ، وأكثر التقديرات تواضعا لبـــدء الحضـــارة فى مصر القـــديمة ترجع الى منتصف الألف السادس قبل الميلاد (٢) . فقد خلف لنا المصرى القديم فى هذا العهد

(١) عبد العزيز الدسوقى — الكيان العربى — ص ١٧ .

(٢) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر — ص ٧٨ .

المبكر ما يدل على انه قد تجاوز العصر الحجرى القديم والأوسط وبدأ العصر الحجرى الحديث الذى لم يبـدأ فى مناطق أخرى الا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين . فلم يعد المصرى يجيد التكلم ويحذق صنع الآلات واشـعال النيران ويستأنس الحيوان ويزرع الأرض بطريقة بدائية فحسب ، بل كان قد دخل بالفعل الى متطلبات التطور الزراعى فأصبحت الآلات أكثر تطورا وفاعلية كالفؤوس والقواديم واسنان المناجل ، وزاد عليها صناعة جديدة تمثل درجة جديدة من الحضارة وهى صناعة الفخـار ، أى صنع الأوانى من الطين ثم حرقها بعد ذلك بالنار لزيادة صلابتها : بل انه ذهب الى أبعد من ذلك فبدأ يلون هذه الأوانى ويرسم عليها .

صناعة النسيج :

وبدأ الانسان المصرى فى هذا العصر السحيق ، الصـناعة الأخرى التى لا تزال حتى الآن تعتبر أهم صناعة فى الوجود ، لأنها صناعة الكسـاء عن طريق الغزل ، وقد خلف لنا الانسان المصرى فى آثاره من هـذه الحقبة أنسجة الكتان التى يعجب أئمـة النسيج فى أيامنا هـذه كيف استطاع المصريون أن يتطوروا فيما بعد بهذه الصناعة الى هذا الحد المعجز . واذا كان الانسان المصرى قد حذق صناعة الفخار والنسيج فلا عجب اذا خلف لنا فيما خلف من صناعات هذا المهد ، السلال والحصير والحبال وتغص اليوم المتاحف ودور العـاديات بهـذه الآثار التى استجلبت كلهـا من مناطق معروفة ومشهورة بين علمـاء الآثار والمشتغلين بالتاريخ وهى مرمدة بنى سـلامة — حلوان — والفيوم — ودير تاسا .. الخ (١) .

عصر بداية المعادن فى مصر :

وتلا هذا العصر الحجرى الحديث المبكر فى مصر عصر بداية المعادن ، اى منذ أواسط الألف الخامس قبل الميـلاد ، فبدأنا نرى مصنوعات نحاسية فى منطقة البدارى بأسيوط ومنطقة نقاده .

ويحاول الباحثون وعلماء الآثار أن يتخيلوا كيف توصل المصرى القـديم الى استخلاص النحاس من مركباته لأول مرة من خلال عمليات الصهر بالنـار ، ويبدأ خيالهم من الحقيقة الثابتة وهى أن النحاس متوفر فى شـبه جزيرة سـيناء حيث يختلط بكربوناته الخضراء (التوتيا الخضراء) والزرقاء (كبريتات النحاس) فلا بد أن يكون حدث مرة ان استعمل بعض هـذه الأحجار فى موقد من المواقد فاذا هو يكتشف يوما من الأيام بمحض الصدفة قطعة من المعدن البراق فى مخلفات النار .

وكيفما كان الأمر فقد عرف المصرى القديم صـناعة التعدين وهى استخلاص النحاس من مركباته مبتدئا بذلك مرحلة من مراحل التطور البشرى ، وتتجلى أهمية

---

(١) المرجع السابق — ص ٩٢ .

هـذا الكشف اذا تذكرنا أن النحاس لا يزال هو اعظم وسيط لنقل الكهرباء التى تؤلف القوى المحركة فى دنيانا الحديثة .

وهكذا بدأنا نرى فى آثار المصرى القديم الأدوات الحجرية القديمة والفخار .

ومضت صناعة الآلات فى تطورها نحو الفاعلية والدقة ، فطرأ تغيير جديد على صناعة البناء .. اذ أصبح المصرى يبنى بيته بقوالب منظمة الشكل من الطين بدلا من هذه (الجواليص) غير المنظمة التى كان يبنى بها مسكنه من قبل . ومع اكتشاف صنع قوالب الطين (اللبن) كانت صناعة البناء تدخل مرحلة جديدة سوف تصل فى ذروتها الى الأهرام كما سترى .

انشاء المدن :

وظهرت المدن بمعناها المفهوم لنا لأول مرة على صفحات التاريخ حيث يسكن الزراع والصناع وأصحاب الحرف الأخرى الى جوار بعضهم فى علاقات منظمة تحكمها قيادة واحدة وتقاليد واحدة ، وأنظمة واحدة . وكانت المدينة تنشأ دائما حول هيكل الرب المعبود لهذه الجماعة . ولا شك فى أن كاهن هذا المعبد وسادنه كان هو أول حاكم وملك للجماعات الأولى فقد كانت السلطات كلها تنحدر من هذا الاله ، والقوانين والتعاليم والأوامر والنواهى كلها لا تتصور الا باعتبارها أوامر الاله ، فكان الناطق باسم الاله هو دائما صاحب السلطة والآمر المطاع ... وهى حالة ستظل تقابلنا فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة ... وستظل تهيمن على المجتمع البشرى خلال العصور ، ولا تكاد تخف حدتها فى بعض المجتمعات حتى تعود لسلطانها كأقوى ما كانت فى أى وقت مضى .. كما سيكون عليه الحال فى أوربا فى ظل المسيحية وبابوات المسيحية ثم ملوك المسيحية .

تكوين الدولة المصرية :

ونشأة المدن حول هيكل المعبود وتمتع سادن الهيكل بالسلطة والنفوذ ظاهرة مقررة فى كل المجتمعات ... ولكن كثيرا من المجتمعات حتى فى عصور متأخرة وحديثة قد ظلت عند دائرة المدن لا تعدوها ، فتؤلف كل مدينة وحدة سياسية قائمة بذاتها ويكون لها جيشها الخاص واستقلالها الذى تحرص عليه كما حدث ذلك عند الاغريق ... بل وفى ايطاليا وأوروبا كلها فى العصور الوسطى .

ولكنا نرى مصر القديمة تشذ عن هذه القاعدة منذ عصر مبكر فنراها كلها وقد توحدت فى ظل دولة مركزية فى العالم كله ، حيث تدار الأمور من عاصمة تخضع لها سائر المدن والمناطق . ولا شك فى أن نهر النيل وفيضانه السنوى كان هو العامل الذى أدى الى توحيد مصر فى هذا العصر المبكر . فقد كان هذا الفيضان الذى يشكل فى كثير من الأحوال خطرا داهما مشتركا لكل من يعيش على ضفتيه ، ولم يكن هناك ثمة سبيل لدفع هذا الخطر الا من خلال تعاون جميع الساكنين على شاطئيه ، واذا كان

النيل من ناحيـة أخرى يؤلف شريانا حيويا للمواصـلات ، وليس كالمواصلات بين الجماعات سبيلا الى توحيدها وتجميعها ، فقد انتهى النيل بأن كان على رأس العوامل التى وحدت مصر سياسيا . ولذلك فليس هناك ما هو أصدق من كلمة هيرودوت المؤرخ الاغريقى الذى سيزور مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد .. عندما يقرر أن مصر هبة النيل ، فها هو النيل يخلق أول دولة تساس على الطراز العصرى منـذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد كان النيل قبل ذلك هو خالق دلتا النيل خلقا من العدم بما يجلبه كل عام من طمى يقذف به الى البحر (١) .

عهـد الأسرات :

وهكذا يطالعنا تاريخ مصر بجلوس مينا على عرش المملكة المصرية الموحدة ، ويلبس لأول مرة تاجى الوجه القبلى والبحرى معا عام ٢٩٠٠ ق.م على أكثر الآراء مبالغة فى تقريب هذا التاريخ (٢) اذ أن هناك كثيرين وعلى رأسهم بريستيد يرجعون بهذا التاريخ خمسة قرون الى الوراء .

وهكذا نرى أنفسنا لأول مرة أمام أكبر تكتل بشرى يمتد على رقعة طويلة من الأرض ويخضع لسلطة مركزية تبدأ برئيس دولة يعاونه وزراء وقضاة ويبعث بحكامه الى بقية المحافظات والمديريات ... ويجبى الضرائب ويقيم العدل بين الناس على أسس من قوانين ثابتة مكتوبة وأنظمة ادارية محكمة .

وبدأنا نشهد مجتمعا ينطوى على كل ما تنطوى عليه مجتمعاتنا الحديثة من مظاهر ومقومات ، فعمل فى سبيل الانتاج ، وعمل فى الادارة ، وجد ولهو واستمتاع مادى ومعنوى بالحياة . فأجود الأطعمة المطهية والأشربة والأنبذة والفواكه وأصناف الحلوى والخبز والكعك ، كل ذلك قد عرف طريقه الى المائدة .

والفنون بكل أنواعها من موسيقى ورقص وشعر وأدب ورسم ونحت ، بل ان النحت ليصل الى ذروة لم يصل اليها أى نحات فى القديم أو الحديث . والألعاب الرياضية وألعاب الفروسية ، من قذف بالجلة والرمح والعدو والمصارعة والملاكمة والسباحة والتجديف والصيد كل ذلك قد أصبح يمارس على أوسع نطاق .

وأصحاب المهن والصـناعات المتخصصون بدأوا فى الظهور ابتـداء من البنائين والنجارين والمبيضين ، حتى الكتـاب والموظفين والأطبـاء والمعلمين . وهكذا نرى الانسان قد توصل فى هذا العهد البعيد الى الحياة الاجتماعية الراقية كما نفهمها وكما نزاولها ، ويستمتع بحياته كما يستمتع بها أحدث انسان عصرى ، عندما يتخذ من لعب الكرة أو مشاهدة مباريات الكرة أعظم هواياته .

---

(١) تبلغ كمية الطمى التى يحملها النيل الى مصر سنويا ٨٥ مليون طن أنظر كتاب من وحى الجنوب للمؤلف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم .

اختراع الورق :

واذا كان انسان ما قبل التاريخ قد وضع أسس اللغات أو صناعة الآلات .. الخ مما أشرنا اليه فيما سبق ، فان أحد اختراعات انسان التاريخ جدير بأن يشار اليه لعظيم خطره فى الأجيال والقرون التالية وذلك هو اختراع الورق ، فلو لم يكن الورق لظلت الكتابة بكل جلالها وخطرها محدودة النفع والأثر ، وليس مثلنا فى العصر الحديث من يقدر قيمة الورق ، وكيف أن حضارتنا الحديثة اذا كان يحلو للكثيرين أن يصفوها أحيانا بأنها حضارة الحديد والصلب والكهرباء ، ويقيسوا رقى الشعوب بنصيب كل فرد من الصلب أو الكهرباء ، فما أحراهم أن يصفوها أولا بأنها حضارة الورق قبل أن تكون حضارة الصلب والكهرباء ، فلولا الورق لما كان شيء من ذلك كله ، وانى لأجهد نفسى فى تصور ماذا كان يمكن أن تكون عليه حياتنا لو لم يكن فيها هذا الورق أكان من الممكن أن أخط هذا الكتاب ... أكان من الممكن أن يجد سبيله الى الوف القراء ما لم يكن هناك ورق ... من أين كنت أستقى معارفى اذا لم يكن هناك ورق ... كيف يمكن للتعليم أن يتم بغير كتب وورق ، كيف يمكن لأية حكومة أن تزاول سلطانها عن غير طريق الورق ، أكان يمكن لأى اختراع أو اكتشاف أن يتم ما لم يكن هناك ورق توضع عليه الرسومات الأولى والتصميم .

والانسان فى مصر كان هو أول صانع للورق بلا جدال أو شبهة ولذلك لا يزال اسمه فى اللغات الأوروبية كلها يحمل الاسم المصرى الذى اشتقه الاغريق من اسم نبات البردى وهو Papyrus ، وسوف نرى أن الاداة التى يصنع منها الورق سوف تتغير على مر العصور .. فيصنع أحيانا من رق الغزال أى جلده ، وسيصنعه الصينيون من القماش وسنصنعه فى عصرنا الحديث من لب النباتات .. ولكن الأساس والفكرة واحدة وهى صنع هذه الأداة الخفيفة البسيطة البيضاء لنكتب علبها .

الهندسة والرى والطب والفلك والكيمياء والتعدين :

وبقيام المجتمع المتكامل والدولة الموحدة ، كان طبيعيا أن تصب المعارف الانسانية فى علوم يستقل بعضها عن بعض ويتخصص فى كل فرع منها المتخصصون ، فكان علم الفلك حيث استطاع الانسان فى هذا الوقت البعيد أن يحدد السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوما ، ولن تتجلى عظمة هذا الكشف الا عندما تدرك أن الانسانية بعد ذلك لم تستطع أن تغير من هذا الحساب الا بقدر خمس ساعات وكسور . وقام علم الهندسة والطب والكيمياء والجيولوجيا أى التعدين ووجد الأطباء والمهندسون والكيميائيون والوزراء والحكام الاداريون والقضاة والكتبة وسائر الموظفين .

الدين :

ووصل الوازع الدينى ، أو بالأحرى الضمير الانسانى وهو المقيـــاس الذى يمكن أن يقاس به درجة رقى أى مجتمع الى درجة عالية ، ولست أحسب أن هناك ما يمكن أن نسوقه لتصوير ما كان عليه الانسان فى مصر فى هذه الحقبة من التاريخ ، من حيوية

الضمير ويقظته أكثر من أن ننقل نصا واحدا من مئات النصوص التى وجدت منقوشة على القبور والتى يقدم فيها الميت الحساب عن أعماله .

فهذا حاكم مقاطعة (جبل الحية القرناء) يقول عن نفسه :

« لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع فى جبل الحية القرناء .

« ولقد كسوت كل من كان عاريا هناك .

« لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة .

« ما ظلمت أحدا حتى شكا منى بسبب ذلك لاله مدينتى ، ولكنى كنت أنطق بما هو خير وأتحدث به .

« لم يوجد شخص يستولى عليه الخوف بسبب شخص أقوى منه حتى شكا منه للاله .

« لقد كنت صانع معروف ، انى لا أنطق بأكذوبة ، لأنى كنت شخصا يحبه أبوه وتثنى عليه أمه ، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوبا لدى أخته (١) » .

وقد يكون كل ما جاء فى هذا النص ، لا ينطوى على غير المباهاة والتفاخر الكاذب ، فنحن نعلم أن الحكام فى كثير من الأحيان يقولون ما لا يفعلون ، بل ان ماكيافللى قد أوصى الحكام بذلك على أساس أن ذلك هو فن الحكم . ونحن نعلم أن أتباع الحكام ينافقونهم فيصفونهم بما ليس فيهم ، وقد يصفونهم بالعدل وهم فى أوج الطغيان ، ومع ذلك فان هذا النص يسجل لنا دستور الحكم ومبادئه الانسانية من ناحية ، والأخلاق الفاضلة من ناحية اخرى والتى يجب أن يتصف بها الحاكم ليكون جديرا بالثناء عليه عند الآلهة وعند الناس .

أنظر اليه وهو يتحدث عن توفيره أنواع الماشية ووضع كل منها فى مكانه الصحيح تراه يفتخر بما تفتخر به الدولة العصرية بمضاعفة الانتاج .

وانظر اليه وهو يتحدث عن اطعام الجائع وكسوة العارى تجد أن الفكرة الاشتراكية التى تقوم على احسان التوزيع بين الناس كانت معروفة لدى هذا الحاكم منذ ستة آلاف من السنين .

وانظر اليه وهو يقول انه لم يوجد فى رعاياه من يمتلىء قلبه خوفا من انسان لكونه أقوى منه ... لترى أعظم مظاهر الديموقراطية التى تقوم لتأكيد حقوق الانسان أو ما نطلق عليه التحرر من الخوف . وأخيرا انظر الى علاقته بأبويه وأخيه واخته وكيف يفخر بأنه كان محبوبا منهم جميعا ، تجد أمامك النفس البشرية فى رقتها وصفائها .

ولعل القارىء يدرك قبل ذلك من مطالعة هذا النص ، ان أشد ما يفزع الحاكم فى الدرجة الأولى ، هو ان يشكوه المظلوم الى اله المدينة .

(١) بريستيد ـ تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ـ ص ٢٤٢ .

التدين سر الحضارة المصرية :

والحق أن الخوف من الله كان هو مفتـاح الحضارة المصرية القـديمة ، وليس باستطاعتنا أن ندرك قليلا أو كثيرا من تفوق قدماء المصريين الخـارق الا على ضـوء فهم عقيدتهم الدينية التى كانت تملأ عليهم كل حياتهم . لقد كانوا ينظرون الى الدنيا باعتبارها معبرا الى الحياة الثانية ، وليس باستطاعتنا فى هذه العجالة أن نفصل الكثير من أحكام هذه الديانة (١) ، وحسبنا أن نشير الى أن المصريين قد عرفوا جوهر الأديان كلها ، وأعنى به الايمان بالأمور الغيبية ، كالبعث بعد الموت والحساب على ما قدمت يد الانسان فى هذه الدنيا ، ثم الثواب والعقاب فاما الى جنة الخلد أو الى قاع الجحيم ، واذا كان القرآن الكريم قد تحدث كثيرا عن الميزان الذى توزن به أعمال الانسان (فمن يعمل مثال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقـال ذرة شرا يره) فان قدماء المصريين بلغتهم التصويرية قد صوروا الميزان على جدران قبورهم وقد وضع فى احدى كفتيه قلب الانسان .

أهرامات الجيزة :

والحق أن ايمان المصرى القديم قد أوصله الى درجة جعلته يفعل المعجزات التى ما كان يمكن أن يقوم بها لولا هذا الايمان .. وعلى رأس هذه المعجزات بناء الهرم .

فنحن نعلم أن الهرم قد بنى على مساحة ١٣ فدانا ويبلغ من الارتفاع ٤٨٠ قدما وقد ظل هذا الارتفاع هو أعلى بناء فى العالم حتى مطلع القرن العشرين أى طوال خمسة آلاف سـنة . وقد تطلب من الصخور لبنائه مليونين وثلثمائة ألف حجر ، متوسط ثقل الصخرة الواحدة طنان ونصف ، أى أن ثقل هذه الأحجار فى مجموعها يبلغ خمسة ملايين طن . وقد قطع الجزء الأكبر من هذه الصخور من جبل المقطم ونقل الى صحراء الهرم عبر النيل . أما كسوة الهرم الخارجية ودهاليزه الداخلية وحجرات الدفن فقد صنعت من حجر الجرانيت الذى استجلب من أسوان ، وحيث تبلغ زنة بعض الأحجار من عشرين طنا الى ١٥٠ طنا (٢) .

وعلينا أن نستحضر الآن فى أذهاننا ، أن الصلب لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت وكذلك الطاقة الكهربائية ، فبأى قوة وطاقة أمكنهم قطع هذه الأحجار ونحتها ، ثم نقلها هذه المسافات الطويلة ورفعها بعد ذلك الى هذا المدى الكبير .

بل علينا أن نتصور قبل ذلك وبعد ذلك ، بأى عقول قد صممت هذه الأهرامات ورسمت ، ثم بأى قدرة وبأى تجربة وبأى فن نفذت بهذه الدقة العجيبة التى تذهل أعظم المهندسين دقة فى العصر الحديث فحيث يبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٠ قدما فان نسبة الخطأ فى طول بقية الأضلاع والمسح والفراغ لا تبلغ $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ كما أن مواضـع

---

(١) اقرأ المؤلف كتاب « فى الايمان والاسلام » .

(٢) ول دورانت ـ قصة الحضارة الجزء الاول ـ ص ٧٠ .

تلأصق الصخور الضخمة لا تزيد مسافتها عن $\frac{1}{10000}$ من البوصة . ويقول بريستيد « وان هذه الدقة فى السطوح والحافات التى تشمل مسافات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين العصريين ، الذين لا تتعدى دقتهم بضع أقدام أو ياردات » (١) .

الأهرام رمز لقدرة الانسان :

وما أكثر ما ارتفعت الأصوات من حين لآخر تحاول على ضوء مقاييس العصر الحديث أن تحكم على صواب هذا العمل ، وأن تتخذ منه رمزا على الطغيان والاستبداد وان تصور الاهرام على انها مجرد قبر لانسان فرد ، وعندنا أن ذلك كله هو لون من ألوان التخبط والقاء الكلام على عواهنه ، فما كان الطغيان بقادر على أن يبنى ويعمر فضلا عن أن ينشىء معجزة الدهور كلها .

وما كان لشعب يرزح تحت أثقال الظلم ، أن ينهض بهذا العمل الجبار ، ولا أن يجد العقول المبدعة التى تبدعه ، وانما الحق يقال أن ليس سوى شعب مؤمن بفكرة الخلود ، وتوفرت لديه العزيمة على تحدى الزمن وعوامل الفناء ، من يقدر على بناء هذا الهرم الذى قال قائلهم فيه بحق « ان العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان نفسه يرهب الأهرام (٢) ! » .

والحق أن بناء الأهرام يجب أن ينظر اليه على انه رمز لعظمة الانسان فى كل زمان ومكان ، وكما يحاول كل شعب وتحاول كل أمة أن تبنى بناء يرمز لما وصلت اليه من قوة واقتدار ... فيجب أن يعتبر الأهرام رمزا ناطقا على مر الدهور ، ان الانسان قبل خمسة آلاف سنة وصل الى هذه الدرجة من القوة والاقتدار والسيطرة على الطبيعة وتحديها .

ذلك ما كتبته فى كتابى تاريخ الانسانية الذى هو فى حقيقته فصل من كتابى الأكبر عن الأمة الانسانية والذى حاولت عند كتابته أن أنسلخ من عواطفى ومشاعرى المحلية والاقليمية وأن أتحدث بمشاعر الانسان الذى ينتمى الى الانسانية جمعاء دون أن يتعصب لوطن من الأوطان .

ولكن تاريخ مصر والاشادة بحضارتها قد فرض نفسه على فرضا كما يفرضه على كل من يحاول دراسة تاريخ الانسانية فأيا كان منشأ الانسان الأول وأيا كانت الحضارات الأولى لبنى الانسان فالأمر المحقق أن الحضارة الانسانية كما هى اليوم تبدأ طلعتها بحضارة مصر القديمة فعنها نقلتها فينيقيا ونشرتها فى أرجاء حوض البحر الأبيض ثم كان الاغريق الذين انتفعوا بهذه الحضارة وبدأوا يحولونها الى علوم نظرية تلقفها منهم العالم بعد ذلك .

(١) بريستيد — تاريخ مصر — ترجمة حسن كمال — ص ٧٧ .

(٢) دورانت — قصة الحضارة — ص ٧٢ .

ويتصور الكثيرون أن دور مصر الرائد يقف عند التاريخ الفرعوني ولكنك سترى في هذه الموسوعة أن مصر بحكم تكوينها الجغرافي الذي يكاد يجعل منها قلب العالم قد فرض عليها أن تقوم بدور الريادة على مر عصور التاريخ وهذه حقيقة تخفى على بعض العلماء والمحققين أنفسهم ذلك أنهم يتصورون أن مصر قد فقدت هذه الريادة بعد العصر الفرعوني وهناك باحثون يضيفون الى هذا العصر تاريخ مصر الاسلامي ولكنهم يتصورون مصر قد غرقت في الظلام وأصبحت لا تؤدي دورها القيادي للعالم خلال فترتين الفترة الأولى خلال الحكم الروماني لمصر والذي ينتهي بدخول الاسلام الى مصر والفترة الثانية خلال الحكم العثماني والتي تنتهي مع بداية تاريخ مصر الحديث الذي يبدأ بحملة نابليون ولكنك سوف ترى في هذه الموسوعة من الحقائق التاريخية الثابتة أن مصر لم تكف عن أداء رسالتها وارسال اشعاع النور فيما حولها يوما واحدا وكل الاختلاف الذي كان يحدث هو في درجة هذا الاشعاع وقوته وحسبك أن تعلم أن مصر في عهد الرومان كانت تخوض معركة المسيحية ضد الوثنية حتى انتهى الأمر بانتصار المسيحية كما سوف ترى .

ولذلك فقد تحدثت عن تاريخ الكنيسة المصرية باسهاب نسبي باعتباره جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر ، وانى لأعتز بهذه الاضافة فقبل هذه الموسوعة كان تاريخ الكنيسة القبطية يكتب على حدة مع أنه هو كل تاريخ مصر في هذه الحقبة من تاريخها ، وقبل ظهور الاسلام كانت المسيحية والكفاح في سبيل نشرها وفهمها هي أعلى ذروة للحضارة الانسانية .

ويرجع عزمي على تأليف هذه الموسوعة أو بالأحرى الحافز الذي دفعني بطريقة مباشرة الى صياغتها على هذا النسق هو أنه وقع في يدي ما يسمى موسوعة تاريخ العالم الذي أشرف على وضعه وليم لانجر ونسقه بطريقة السنوات أي أن الانسان يستطيع أن يعرف ماذا حدث في أي بلد من بلاد العالم في سنة معينة فهو أشبه بالقاموس منه الى كتب التاريخ فعن لي أن أصوغ تاريخ مصر بهذا الأسلوب ورأيت أن أشرك معي في وضع هذا القاموس عن تاريخ مصر بعض زملائي المتخصصين كل فيما تخصص فيه كالأستاذ أحمد عزت في التاريخ الفرعوني والأستاذ محمد صبيح في التاريخ الاسلامي والأستاذ أنور الجندي في التاريخ الحديث والأستاذ عبد العزيز الدسوقي لتاريخ الأدب بالذات . ولكن الفكرة تطورت بعد ذلك فلم أشأ أن ألجأ لأسلوب لانجر فقد كان مضطرا الى هذا الاختزال الشديد لأنه يؤرخ للعالم كله وأراد أن يكون كتابه أشبه بالقاموس أما أنا فأؤرخ لوطن واحد . ولما كنت مولعا طوال حياتي بتاريخ مصر فأردت أن يكون الكتاب موسوعة بالفعل وأن أنفرد بوضعه حتى يكون هنالك تناسق في جميع أجزائه وأنا على ثقة أن سيأتي بعد ذلك دور احتشاد المتخصصين لوضع موسوعة عن تاريخ مصر وقد يكون اصدار هذه الموسوعة بالذات حافزا على ذلك فشرعت في العمل على بركة الله وكانت المصادر متوفرة بكثرة كبيرة عن العصر الفرعوني وعن العصر الاسلامي والحديث ولكنها شحيحة كما قدمت عن العصرين الروماني والعثماني ولكني استطعت بعون الله أن أغطيهما كما سوف يرى

القارىء بحيث لا يشعر بالفراغ فى هاتين الحقبتين . وكان فى عزمى وتصميمى أن أتحدث عن هذه المصادر وأن أعرف بها القارىء فى توسع واسهاب فى هذه المقدمة ولكن شاءت ارادة الله لحكمة يعرفها أن أصاب بالشلل الكلى فى أكتوبر عام ١٩٦٩ وكنت قد وصلت فى الموسوعة الى سنة ١٩٠٨ ولم أفرغ من كتابة المقدمة التى كنت قد أخرت كتابتها حتى أفرغ من كتابة التاريخ كله . واليوم وبعد قرابة تسعة أشهر وقد من الله على بحياة جديدة أعود بعون الله وحمده للامساك بالقلم لأقدم هذه الموسوعة بعد أن تفضلت ادارة « كتاب الشعب » فرأت أن تقدم هذا العمل الذى قطعت فى تأليفه بضع سنوات وقدمت فى النهاية صحتى على مذبحه .

واذ أعود للكتابة فلست بمستطيع أن أنفذ ما كان فى عزمى وهو أن أصوغ هذه المقدمة كما كنت أشتهى وأرغب تاركا التعريف بالمصادر الى نهاية البحث ولكن الأمر الذى لا أستطيع تأخيره ولكنى أستطيع أن أوجزه فى هذه المقدمة هو الانطباع العام الذى استقر فى ذهنى عن طبيعة الشعب المصرى ودوره فى التاريخ والخصائص التى اختص بها من بين شعوب العالم وجملة ما يقال فى الشعب أن طبيعة مصر والنيل جعلت الشعب المصرى يستقر على الأرض المصرية ويكون مسباقا الى اكتشاف الزراعة والزراعة بطبيعتها تحتاج الى الاستقرار والأمن والسلام وتحتاج قبل ذلك وبعد ذلك الى سلطة قوية لاقرار هذا الأمن وهذا السلام . فالشعب المصرى شعب متحضر من الرأس حتى أخمص القدم . اذ كان هو منشىء الحضارة الانسانية . ثم توالت عليه مختلف الحضارات الانسانية من فرعونية واغريقية ورومانية ومسيحية واسلامية وحديثه وأصبحت الحضارة تجرى فى دمه والحضارة عنده هى فى أن يعيش فى أمن وسلام ويعمل وينتج ويؤمن بالله وانه ستكون حياة ثانية ، وهو يقدس العدل على الأرض ، ويحافظ على الحقوق ، ويكره العنف ويميل الى حل كل مشاكله بالحق والعمل والانتاج .

وسوف يعرض لنا أن الشعب المصرى تعرض خلال حياته الطويلة الى غزوات الشعوب الأقل حضارة منه والتى لا تزال فى أدوارها البدائية الأولى ، فغلبوه على أمره واستولوا على السلطة ، ولا لوم فى ذلك على الشعب المصرى ولا تثريب ، فان أى انسان بدائى ، يستطيع أن يغلب أى انسان مثقف ، وكذلك شأن الجماعات كلما كانت أكثر بدائية ، كانت أكثر همجية ووحشية أى تميل الى العنف فى حل مشاكلها .

وقد استطاعت مصر دائما أن تغزو غزواتها ، فتحضرهم بحضارتها ومدنيتها ، ثم لا تلبث أن تنتصر عليهم ، اذ يكون مصيرهم الزوال ، ويبقى الشعب المصرى ماضيا فى طريقه ، مؤديا رسالته فى الحفاظ على المدنية والحضارة السائدة فى العالم ، والتى لا يتغير لبها وجوهرها أبدا ، وهى العمل والانتاج فى ظل السلام القائم على العدل .

سوف يمر علينا فى هذه الموسوعة استيلاء كثير من الامبراطوريات على مصر . فيجب أن لا يزعجنا ذلك ، ويقلل من اعتزازنا بأنفسنا ، فهذه الامبراطوريات لم

تستول على مصر فقط ، بل استولت على كل العالم المعروف فى وقتها ، وكانت هذه الامبراطوريات لا تستكمل قوتها وعظمتها ، وقدرتها على الحياة الا بالاستيلاء على مصر قلب العالم ، وسرعان ما كانت مصر تلعب دورا رئيسيا فى حياة الامبراطورية الغازية، ثم لا تلبث هذه الامبراطوريات أن تزول وتبقى مصر ويبقى شعبها كما قدمنا ، حصنا للحضارة والمدنية . وقد كان من حظنا نحن أبناء الجيل الحاضر أن نشـهد انحلال الامبراطورية الانجليزية التى اعتدت علينا كما سوف نرى فى عام ١٨٨٢ م وخرجت مصر من محنتها أشد لمعانا وتألقا كما كان شأنها دائما . فالشعب المصرى تعلم طوال تاريخه أن ينتصر بالعمل والانتاج والصبر ، ولا يجب أن يخجلنا ذلك فنحن شعب متحضر ومتمدن ، نلوذ بالمثل العليا أكثر مما نلوذ بالقوة والعنف ثمة حقيقة اخرى يجب أن يتمثلها من يطالع هذا التاريخ ، وهو يشهد الشعب المصرى يقف دائما موقفا سلبيا ازاء السلطات التى كانت تتنازع فيما بينها لتحكمه ، اقول ان هناك حقيقة يجب أن لا تغرب عن بال القارىء وهى أن الدولة فى القديم لم تكن كما هو شأنها اليوم وانما كانت الأسرة والعائلة هى وحدة المجتمع ، فالمصرى منـذ أقدم العصـور يعنى بعائلته وأرضه ودينه ، فما لم يتعرض له أحد فى هذه الثلاثة فهو يؤثر العيش فى أمن وسلام ومن هنا كان الحاكمون على اختلاف أجناسهم يحرصون أشد الحرص على ترك المصريين ومقدساتهم وهى العائلة والأرض والدين .

وسيرى المطالع لهذه الموسوعة انها تبدأ تاريخ مصر بتاريخ الكوكب الأرضى وذلك لكى يعرف مكانة تاريخ مصر من هذا الكوكب ولكن هذا القسم أقرب الى الجيولوجيا منه الى التاريخ ولكن كان لا مناص من تسجيله وتسجيل تكوين مصر ، ولكن هـذا الجزء الذى تبدأ به الموسوعة قد يكون جافا فليتجاوزه القارىء العادى الى الفصول التالية حيث يبدأ تاريخ مصر المتدفق .

والمطالع لهذه الموسوعة سيقطع معنا شوطا كبيرا فعلى بركة الله وباسم الله نقول وبالله التوفيق ،،،

الروضة فى ١٦/٨/١٩٧٠

أحمد حسين

الفصل الأول

ماقبل مصر والمصريين
وحدة الارض ووحدة الجنس الانسانى

ليست مصر الا جزءا من الكوكب الأرضى ، وليس المصريون الا فرعا من هذا الجنس البشرى .. فتاريخ مصر وارضها ، هو تاريخ هذا الكوكب ونشوئه وتطوره ، وتاريخ الانسان المصرى ، هو جزء من تاريخ الانسان منذ وجد على هذا الكوكب .

وقد انتهى وجدان الانسان ، والمعرفة التى ألهمها الهاما ، الى أن هذا الكون الذى هو جزء منه ، من خلق قوة قديمة تسبقه فى الوجود ، قوة لا أول لها أو آخر ، أبدية أزلية عالية ، قادرة ، مريدة ، فعالة ، شاءت ، لحكمة لا يدركها الانسان ولا يستطيع أن يدركها ، أن تحدث هذا الكون وأن تخلق الحياة والانسان .

والأديان السماوية التى حملها نفر من أعلام البشر وهداتهم ، قد تحدثت عن هذا الاله الخالق ، ودعت الانسان لعبادته بالعمل والانتاج والعيش فى تعاون وسلام .

والاحاطة بالاله الخالق المبدع على هذه الصورة التى عرفها الانسان من خلال الوجدان والالهام ، لا يمكن أن تكون من موضوعات العلم ، الذى يقوم على المحسوس والملموس ، والقياس والكيل والميزان ، والعقل بكل مداه ليس الا جزءا ... والله هو الكل وما كان الجزء ليحيط بالكل ، ولذلك فمعرفة الله لا تتم الا بالوحى والالهام والوجدان الذى هو سر يعلو على سر العقل .

وقد انتهى العلم الى ما انتهى اليه الوجدان من قبله من ان هذا الكون ، كان حيث لم يكن من قبل . أى انه لم يكن على هذه الصورة التى هو عليها اليوم ، وان ما نراه حولنا من شموس ونجوم وأقمار وكواكب ، وبحار وجبال ووديان ، ونباتات وحيوانات وانسان هى ثمرة تطور ونشوء وارتقاء .

بدأت رحلتها الأولى من المادة المجردة ، التى كان يظن فى وقت ما ، انها مؤلفة من هذه الذرات التى تكون مختلف العناصر ، ثم تبين أن هذه الذرات ليست كلها سوى ذبذبات كهربية ما بين سالب وموجب على اختلاف فى النسب ، وان هذه الذبذبات أو الأمواج الكهرومغناطيسية ، تطور من الاشعاع الذى هو أحد خصائص الضوء ، وهكذا انتهى العلم المادى الحديث ، الى أن لبنة الكون الأولى هى وحدة الضوء .... وهكذا انتهى بنا العلم المادى التجريبى ، الى حيث توصل الانسان منذ اللحظة الأولى ، بأن الله خالق نور السموات والأرض ، أو كما يقول كتاب العهد القديم فى البدء كان النور .

وليس من مهمة كتاب يؤرخ لجزء من الكوكب الأرضى ، أن يخوض فى مباحث لاهوتية عن اثبات وجود الله ، فنحن انما نبدأ تاريخنا من الحقيقة المحسوسة

الموجودة . من أن هذا الكوكب الذى يعيش عليه موجود قائم ، وأنه كان حيث لم يكن من قبل .

وتقول أرجح النظريات الفلكية ، ان الأرض فى أصلها جزء من الشمس كبقية الكواكب انفصلت عن الشمس ، وقيل فى سبب الانفصـــال عديد من النظريات . وهناك قول بأن الأرض هى جزء من نجم آخر غير الشمس قد تمزق ، وهى تدور حول الشمس طبقا لقانون الجاذبية .

ومرة أخرى تبين لنا الحقيقة المحسوسة الملموسة من اننـا نعيش على هـذا الكوكب الأرضى ، والذى كان يظن أن الشمس تدور حوله ، ثم ثبت لنا أن الأرض هى التى تدور حول الشمس .

والرأى العلمى الآن على أن الأرض بدأت حياتها المستقلة على صورة كرة هائلة من النيران والمواد الملتهبة ، تنطلق فى الفضاء دائرة حول الشمس فيما يوصف بأنه قطاع اهليلجى ، أى أقرب الى شـكل البيضـة منه الى الكرة ، بسرعة ١٨٫٥ ميلا فى الثانية ، وعلى بعد ٩٣ مليون ميل تقريبا .

وكما كان رأى العلم يكاد يستقر على أن الأرض قد انفصلت عن الشمس ثم نشأت نظريات تقول غير ذلك ، فكذلك كان العلم قد أوشك على أن يستقر على انه لأمر ما انفصل القمر عن الأرض ، حتى لقـد حـددوا المكان الذى انفصل منه جرم القمر وهو المحيط الهادى فقد نشأت نظريات تقول غير ذلك . ولا جدال أن وصول الانسان الى القمر ، سوف يزيد من تحقيق هذه الواقعة ، وعما اذا كان القمر قد انفصـل من الأرض ، أم أنه قد تكون بصورة أخرى .

والمهم أن ثمة قمرا يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس .. والفضاء يغص بالنجوم والكواكب والشموس .

عمر الأرض بالطبقات والأملاح :

وقد اهتدى الانسان فى العصر الحديث الى ما يشبه أن يكون ساعة زمنية لتحديد عمر صخور القشرة الأرضية التى تكونت بعد أن برد سطح الكرة الأرضية الملتهبة وذلك عن طريق حساب الزمن اللازم لتحويل اليورانيوم الى رصاص .

ولكن كم من الوقت مضى قبل أن يبرد سطح الكرة الأرضـيـة وتنشأ قشرتها وتتنوع صخورها ، كل ذلك لا يزال محلا للتخمينات ومختلف النظريات فقـدره البعض بألفى مليون سنة .. بينما يضاعف البعض هذا الرقم فقدره بأربعة آلاف مليون سنة ، وكل ذلك لا يعدو أن يكون فروضا وتخمينـات لا تعتمد على أسـاس يعتد به ومع ذلك فلا مناص لنا من أن نتخذ من هـذه التخمينات نقطـة ابتداء لتاريخ الأرض ، وبدء تكون قشرتها الأرضية ، لنبدأ رحلتنا الزمنية عبر هذه الدهور والحقب السحيقة والمعنة فى القدم .

٤٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

التاريخ المفترض لبدء تكون القشرة الأرضية وتخانتها وتقلصها .

٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

العصر الاركى ، أو ما قبل الكامبرى Pre-Cambrian Time
وهو ما يطلق عليه بالعربية اسم الدهر السحيق ، وفى هذا الدهر تكونت الصخور النارية المعروفة كالجرانيت والبازلت والصخور المتحولة من هذين النوعين .

ومن المؤكد أن الأرض لم تعرف الحياة فى الثلثين الأولين من هذا الدهر ، ولكن بعض العلماء لا يستبعدون نشوء الحياة فى البحار فى الثلث الأخير من هـذا الدهر ، ولا يغض من هذا الفرض عدم عثورنا فى صخور هـذه الحقبة على بقايا هذه الحياة فان هذه الصور البدائية البسيطة من الحياة ، لا يمكن أن تترك أثرا على الصخور .

٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠

حقبة الدهر القديم أو الباليوزوى Paleozoic Era وفى هـذا الدهر الأحدث عهدا نسبيا بدأت معالم الأرض تتحدد وبدأ كتابها يصبح أكثر يسرا فى مطالعته ، وذلك بسبب نشوء نوع جديد من الصخور الرسوبية ، التى هى فى الأصل فتات من الصخور القديمة ، فدلتنا هذه الصخور على طغيان البحر على اليابسة وانحساره عنها أكثر من مرة .

وينقسم هذا الدهر القديم فى دراسته عادة الى ستة أزمنة تتمايز بأنواع الحياة المختلفة ، فنرى فى أولها ازدهار الحياة النباتية فى المستنقعات والبحيرات والحيوانات وحيدة الخلية واللافقرية ، ثم نشوء أول صنوف الأسماك ثم ظهور النباتات الأرضية، فالحيوانات البرمائية الأكثر تطورا ، فأول أنواع الزواحف ، حيث بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس الهواء ، وان ظلت جذورها فى الماء ، ولذلك فقد كان يتعين عليها دائما أن تعود اليه لتضع بيضها .

على أن كل أنواع الحياة فى هذه الحقب القديمة تخالف كل الاختلاف ما نعرفه من حياة فى حقبتنا الحديثة .

٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ — ٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠

حقبة الدهر الوسيط الميزوزى Mesozoic Era وتتميز هـذه الحقبـة بالهدوء النسبى فلم تحدث هزات أرضية أو بركانية شديدة ونشطت حركة التعرية، وتنقسم

هذه الحقبة فى دراسة الأحياء بها الى ثلاث أقسام ، فنشاهد فى القسم الأول منهـا اول نشأة حيوان الديناصور .

وفى القسم الثانى منها يصل الديناصور الى ذروته فيبلغ طوله من الرأس حتى الذنب ٨٤ قدما ويعتبر بذلك (ملك الأرض) وتبلغ بعض الزواحف الى مائة قدم ، كما ينشأ نوع من الطيور الجبارة . وفى القسم الثالث والأخير من هذه الحقبة تنقرض لسبب غير معروف الديناصورات والطيور الجبارة .

كما تسجل لنا الصخور الرسوبية من هذه الحقبة حفريات نباتات أقرب ما تكون شبها الى نبـاتات حقبة الدهر الحديث ، فهى بمثابة حلقة الاتصال ، بين القـديم والحديث .

٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ — ٠٠٠ر٠٠٠ر١١

حقبة الدهر الحديث Cenozoic Era وفى هـذا الدهر الحديث تكونت سلاسل الجبال العظمى مثل الهملايا وروكى والانديز والألب والبرانس والأطلس ، وانحسر البحر عن جزء كبير من القارات . وغمرت مياه البحر بعض الفجوات والشقوق مثل شق البحر الأحمر .

وقد عرفت الأرض فى هذه الحقبة ازدهار ذلك النوع المتطور من الحيوانات ، التى لم تعد تقنع فى عملية اكثار النوع بوضع بيض تتخلى عنه بعـد ذلك ، بل أصبحت تحتضن الجنين فى داخلها وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى اذا خرج أرضعته من احدى غددها التى تفرز لبنا ، وتلك هى الثدى ، ومن هنا فقد أطلق على هذه الحيوانات اسم الحيوانات الثديية أو اللبونة وكل ما حولنا من حيوانات فى الوقت الحاضر من أمثال الأرنب والقطة والشاة والبقرة والكلب والأسد ... الخ ليست الا فروعا من هذا النوع الذى عرفته الأرض فى هذه الحقبة .

وقد تنوعت الثدييات وسادت وبلغت ذروة تطورها فيما يطلق عليه اسم الرئيسات Primate وهى الغوريلا والشمبـانزى والاورانج أو تانج والجيبون حيث نجد لدى هذه القردة ، أول مظاهر الاجتماع فتعيش متجاورة فى جماعات يقلد بعضها بعضـا ويراقبه ويحذره وينذره عند اقتراب الخطر .

وتنقسم هذه الحقبة من الدهر الحديث الى : ما يسمى الزمن الثالث **Tertiary** الذى ينقسم بدوره الى خمسة أقسام :

٠٠٠ر٠٠٠ر٧٠ عصر الباليوسين Paleocene

٠٠٠ر٠٠٠ر٥٨ عصر الايوسين Eocene

(حيث بدأت معالم القارات الحديثة تأخذ شكلها المعروف) .

ويتلوه عصر الاوليجوسين Oligocene

٠٠٠ر٠٠٠ر٢١ عصر الميوسين Meocene

وهو العصر الذى ظهرت فيه الحيتان والنسانيس وأكلة الأعشاب (وانحدار أجداد اشباه الانسان نحو الغوريلا) .

٠٠٠ر٠٠٠ر١١ عصر البليوسين Piliocene

وفيه ظهرت الحيوانات آكلة اللحوم .

ويعقب الزمن الثالث ، الزمن الرابع والذى ينقسم الى عصرين :

٠٠٠ر٠٠٠ر١ عصر البليستوسين Pliostocene

وهو العصر الذى يعتبره الكثيرون ، عصر ظهور أصول الانسان الأول ، مما يطلق عليه انسان الفجر ، على اختلاف فى أزمنة الوجود ، ما بين المليون سنة والمائة الف سنة . وذلك ان الجليد قد زحف خلال هذه الفترة أربع مرات ، بحيث كان يغطى فى كل مرة الكثير من أجزاء أوروبا وآسيا ، ثم لا يلبث أن ينكشف فتتكاثر الحياة بشتى صورها واشكالها من جديد .

٠٠٠ر٥٠٠ عصر الجليد الأول :

ويعرف باسم جونز Gunz أى التى انكشف فيها الجليد ويقع فى الفترة بين ٠٠٠ر٤٧٥ سنة و ٠٠٠ر٤٠٠ سنة .

٠٠٠ر٤٠٠ عصر الجليد الثانى :

وهو اعظمها شأنا وأجلها خطرا والفترة التى توسطت بين هذا العصر والتالى أى انكشف فيها الجليد ٠٠٠ر٣٧٥ — ٠٠٠ر١٧٥ ويعرف باسم مندل Mindel

٠٠٠ر١٧٥ العصر الجليدى الثالث :

والفترة التى توسطت بين هذا العصر والتالى هى من ٠٠٠ر١٥٠ — ٠٠٠ر٥٠ سنة

١٢٥٫٠٠٠ :

اذا كان بعض علماء الحفريات لا يستبعدون وجود الانسان الأول أو انسان الفجر منذ مليون سنة سالفة ، فان الأبحاث الأكثر واقعية ، تجعل هذا التاريخ هو ١٢٥ ألف سنة ، ويطلق على حفريات الانسان فى هذه المرحلة اسم الثقافة أو الصناعة السابقة على العهد الشيلى Pre-Chellean ، حيث يظهر على الأحجار أنها صنعت ، وانما استخدمت كما وجدت فى الطبيعة ، وقد كان وجود بعض هذه الأحجار ولها مقابض تلائم قبضة اليد ، ولها طرف واحد ، هو الذى جعل البعض يرجح انها من صنع انسان ذلك العهد وخاصة فى الحقبة الأخيرة منه (دورانت ــ جزء ١ مجلد ١ ص ١٥٩) .

١٠٠٫٠٠٠ عصر الثقافة الشيلية :

حيث تحسنت الآلة الحجرية بارهاف جانبيهـا وان ظلت على شىء من الفلطحة وبتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة .

٧٥٫٠٠٠ سنة الثقافة الأشولية :

٥٠٫٠٠٠ سنة العصر الجليدى الرابع :

والذى انسحب منذ خمسة وعشرين ألف سـنة ، والرأى على أننا نعيش الآن فى أعقابه .

ويرجح البعض ان الانسان قد اكتشف النار فى هذه الفترة .

٤٠٫٠٠٠ سنة الثقافة الموستيرية :

حيث عثر على انسان نياندرتال وهيدلبرج .

واللذين يعتبرهما البعض أصل الانسان الحقيقى الأول بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الانسان الحديث .

والقائلون بنظرية تطور الانسان عن الحيوان مازالوا يعترفون بوجود فجوة كبيرة بين أرقى القردة وأول صورة للانسان ، وتبدو هذه الفجوة فى ضخامة مخ أول انسان ، بالنسبة لأرقى نوع من القرود ولذلك يفترض التطوريون دائما وجود حلقة مفقودة لم يتحقق اكتشافها حتى الآن . وتقول الدارونية الحديثة ــ لتتغلب على هذه الحقبة وتسد هذه الثغرة ــ ان التطور قد يتم على سبيل الطفرات ويجب التسليم بحدوث طفرة فى الحياة ، انتهت بالانسان . كما حدثت الطفرة فى الحضارة الانسـانية كمـا سوف نرى .

واذا كان ذلك كله لا يزال من باب التخمينات والفروض العلمية التى لم تصل بعد الى حل قاطع قلنا ما تقوله الكتب السماوية ، وما يؤيده الواقع المشاهد المحسوس بل ويؤكده هذا العرض الذى استعرضناه من تطور الثقافة الانسانية وهى أنه منذ كان الانسان انسانا فى أبسط الصور التى يريد التطوريون أن يعتبروها نقطة البدء فانه قد اختص بالعقل والحرية فى الاختيار والعمل الأمر الذى جعله يتكلم ويصنع آلاته ويشعل النار ، ويمضى فى تطور مستمر — فى الوقت الذى نرى فيه كل ما فى الوجود من كائنات أخرى جامدة ثابتة على صورتها التى هى عليها منذ كانت فى الوجود . ففى الطبيعة اليوم كل صور الحياة ، ابتداء من الخلية الأولى حتى مختلف فروع الأجناس وأطوارها . ولو كانت نظرية التطور صحيحة على اطلاقها ، لوجب أن تتطور هذه الصور البدائية ، الأمر الذى يدل على أن الطبيعة قد قصدت قصداً الى وجود كل نوع وكل جنس ، وكل طراز على سبيل الاستقلال والذاتية . . . ومن هنا تبقى حجية كتب الوحى والالهام قائمة غير منقوضة .

وقد خلف من بعده آثار تدل على افتراقه عن الحيوان بالكلام وصناعة الآلات ، والتطور الدائم المستمر حيث تجمد كل صور النباتات والحيوانات الكائنة على ظهر البسيطة على الصورة التى هى عليها مذ كانت .

وان أقدم هذه الكتب بين أيدينا وهو كتاب العهد القديم يحدثنا عن خلق الانسان بهذا الترتيب الذى مر علينا ، فقد خلق الله السموات ثم الأرض ، والماء ومن الماء خلق الحياة فكانت الأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، وبعد ذلك كله كان خلق الانســـان . فصـــنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافها ورأى الله أن ذلك حسن وقال الله لنصنع الانســـان على صورتنـــا ومثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهـــائم وجميع الأرض ، وكل الدابات الدابة على الأرض ، فخلق الله الانسان على صورته ، وان الرب الاله جعـــل الانسان ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفسا حيه (سفر التكوين — الفصل الأول والثانى) .

ونجد فى القرآن الكريم ذات الصورة التى يقول بها العلم من انفصـــال الكوكب الأرضى عن نجم سماوى وخلق الحياة من المـــاء .

« السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من المـــاء كل شيء حى » . سورة « الأنبياء » .

ويقول عن خلق الانسان :

« لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنـــا العلقة مضغة فخلقنا المضـــغة عظاما فكسونا العظام لحما » . سورة « المؤمنون » .

ويطلق كتاب العهد القديم على هذا الانسان الأول اسم آدم ، وعلى انثاه حواء

ويتابع القرآن الكريم العهد القديم على هذه التسمية للذكر والأنثى الأولين على ظهر هذا الكوكب من أنهما آدم وحواء .

ويمضى العهد القديم متابعا حياة هذا الانسان فقد ولد لآدم قابيل ثم هابيل ثم شيتا وبعد ذلك ولدت بنات وتزوج البنون البنات فكثروا ونموا حتى جاء نوح ، وفى أيامه وقع الطوفان الذى اغرق كل الأحياء ، ثم بدأت الحياة على الأرض من جـديد حيث رزق نوح أولادا ثلاثة سام وحام ويافث ، ومن هؤلاء الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا .

فأما يافث فهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وهم المغول (أى الجنس الأصفر) .

وأما سام فهو جد شعوب العرب والروم والفرس (أى الجنس الأبيض) .

وأما الابن الثالث وهو حام فهو والد القبط والأحباش السودان والبربر (أى الجنس الزنجى) أو من تسميهم التوراة كوش ومصرافيم وقوط وكنعان .

هذا الأصل الواحد لبنى الانسان وتفرعه الى هذه الفروع الثلاثة ، هو ما حاول علم الأجناس الحديث أن يلفظه ويبنى أبحاثه على تقاسيم وتفاريع جديدة ... فاذا به ينتهى فى خاتمة المطاف الى هذا التقسيم الثلاثى ، فقسم الجنس البشرى الى مجموعة بيضاء ، ومجموعة مغولية ، وثالثة زنجية .

وحاول علماء الأجنـاس من الأوروبيين ، أن يحطموا وحدة الجنس البشرى ، فزعموا أن الجنس الأبيض هو وحده الانسان ، وأن الجنسين المغولى ، وبصفة خاصة الزنجى أمس رحما بالحيوان ، وان كلا من الأجناس الثلاثة قد تفرع من أصل حيوانى خاص به ، حتى لقد اعتبروا هذه الثقافات المختلفة التى أشرنا اليها أمرا خاصـا بأوروبا دون باقى العالم ، ثم وجدوا آثار هذه الثقافات بهذا التطور فى كل جزء من أجزاء العالم تقريبا ..

وقد انتهى ذلك كله بالتسليم بما جاء فى كتب الوحى والالهام من وحدة الأصل الانسانى حيث اجتمع علماء الأجناس الاعلام من سبعة عشرة دولة فى موسكو عام ١٩٦٤ فى مؤتمر دولى ، وأصدروا بيانا من ثلاث عشرة نقطة جاء على رأسها :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهى الى نوع واحد هو النوع البشرى . وكلها ترجع الى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرعت فيهما الجماعات البشرية عن هـذا الأصـل المشترك — « الأمة الانسانية (أحمد حسين) » .

واذ انتهينا الى الفراغ من تتبع تاريخ هذا الكوكب الأرض ونشأة الحياة ووجود الانسان على ظهرها وتفرعه وانتشاره على أرضها ، فقد آن الأوان لنبدأ تاريخ مصر والمصريين ، باعتباره أقدم تاريخ مسجل ومكتوب فى تتابع منذ أقدم حقب التاريخ حتى

عصرنا الحاضر ، وليس ما يماثل تاريخ مصر والمصريين فى هذه الناحية الا تاريخ حوض الدجلة والفرات .

وسنرى أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر فكل منهما متصل أشد الاتصال بالآخر، حتى لا يمكن التفريق بينهما .

وقد قسم هذا العصر الانسانى الحجرى ، الذى كانت فيه الأحجار هى آلات الانسان ، الى عصر حجرى قديم أسفل ، وحجرى قديم أوسط ، وحجرى قديم أعلى .

وقد تهيأت الفرصة للأوروبيين للسبق والتعمق فى دراسة هذه الأطوار الانسانية، فقسموا آثار هذا الانسان الحجرية الى ما أسموه ثقافة أو صناعة ، وهى تبدأ بالثقافة السابقة على العهد الشيلى .

١٢٥٫٠٠٠ ما قبل الشيلى : Pre Chellean

ومعظم الأحجار الصوانية (الظران) التى وجدت فى هذه الطبقة الوطيئة من طبقات الأرض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صنعوها بأيديهم وانما يبدو أنهم استخدموها كما وجدوها فى الطبيعة ان كانوا قد استخدموها اطلاقا ، ولكن ما جعل البعض يرجح وجود انسان قد استعملها هو وجود أحجار كثيرة بينها ، لها مقبض يلائم قبضة اليد ولها حد وطرف (الى حد ما) وهو ما جعل البعض من الأوروبيين يزعمون أن الانسان السابق على العهد الشيلى قد استعمل أول آلة وهى المدية الحجرية .

ولكن عدم وجود بقايا للانسان من هذا العصر هو الذى يجعل كثيرا من الباحثين يشكون فى وجود هذا الانسان .

١٠٠٫٠٠٠ ق . م الثقافة الشيلية : Chellean

وقد سميت كذلك نسبة لبلدة شيليه بفرنسا ، وقد تحسنت فيها المدية الحجرية بارهاف جانبيها ، ارهافا على شىء من الغلظة وتدبيبها بحيث تتخذ شكل اللوزة أو النواه ، ثم تهيئتها تهيئة تجعلها أكثر صلاحية لقبضة اليد البشرية .

٧٥٫٠٠٠ ق . م الثقافة الأشولية : Acheulean

ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوروبا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وافريقية والشرق الأدنى والصين والهند ، فى هذه المرحلة ، لم تتطور المدية الحجرية ، لتصبح أكثر تناسقا وأحد طرفا وأشد فاعلية فحسب ، بل قد وجد الى جوار المدية أنواع كثيرة من الآلات : كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورؤوس السهام وسنان الرماح والمدى .

٤٠٫٠٠٠ ق . م الثقافة الموستيرية : Mousterian

نسبة الى بلدة مستوييه بفرنسا وتوجد آثارها فى القارات كلها ، والمدية الحجرية نادرة نسبيا بين آثار هذه الفترة ، بعد أن حل محلها آلة جديدة ، وهى رقيقة من الصخر . أخف من المدية السابقة وزنا وأرهف حدا وأحسن شكلا . وقد بدأ يعثر من هذه الفترة على آثار النار وقبور الموتى أو يطلق على الانسان فى هذه الحقبة انسان نياندرتال وهيدلبرج واللذين يعتبرهما البعض أصل الانسان الحقيقى الأول .

٢٥٫٠٠٠ ق . م الثقافة الأورجناسية : Aurignacian

وهى أولى المراحل الصناعية بعد عصر الجليد وأولى الثقافات المعروفة لانسان كرومانيون بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الانسان الحديث .

وفى هذه المرحلة أضيف الى آلات الحجر ، آلات من العظم ، مشابك وسندانات وحاملات ، وظهر الفن فى نقوش غليظة منحوتة على الصخر أو فى رسوم ساذجة بارزة أغلبها رسوم لنساء عاريات ، ثم جاءت فى مرحلة متقدمة من مراحل تطور انسان كرومانيون ثقافة أخرى هى :

٢٠٫٠٠٠ ق . م الثقافة السولترية : Solutrean

حيث وجدت آثار انسان هذا العهد فى فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وشمال افريقيا التى يرى البعض أنها مصدر هذه الثقافة (ول دورانت ـ جزء ١ ـ مجلد ١ ـ ص ١٦١) .

ومن آثار هذه الفترة فوق آثار الثقافات الماضية ، صفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ، وابر دقيقة حادة من العظم ، وعدة آلات من قرن الوعل ، وقد تنقش قرون الوعل أحيانا برسوم .

١٦٫٠٠٠ ق . م الثقافة المجدلية : Magdalenian

وهى تتميز فى الصناعة بمجموعة كبيرة منوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وتبلغ ذروة تطورها فى مشابك وابر متواضعة ولكنها تصل الى حد الكمال فى الاتقان . وهذه المرحلة هى التى تميزت فى الفن برسوم التاميرا **Altamira** وهى أدق وأرق ما صنعه انسان كره كرومانيون .

والى هذا الانسان الأول تعزى كما رأينا معرفتنا للكلام ، والنار والفن .

وعند هذا الحد من التطور تنقطع سلسلة الثقافات الانسانية البدائية فى أوروبا لتبدأ الانسانية فى عصر التاريخ والحضارات المزدهرة التى لا تقارن بها هـذه الآثار البدائية ، ويبزغ نور هذه الحضارة من حوض الدجلة والفرات فيما يسمى اليوم بالعراق ، وحوض النيل فيما يسمى مصر ، وسنرى فيما هو آت وثاقة الصلة على مر عصور التاريخ بين سكان هذين الحوضين وشدة تأثر كل منهما بالآخر ، بحيث يكاد يؤلف تاريخهما وحدة لا تقبل الانفصام .

١٠٫٠٠٠ ــ ٨٫٠٠٠ ق . م : العصر الحجرى المتوسط :

وهو عصر انتقال ، أى المرحلة الانتقالية من العصر الحجرى القـديم الى العصر الحجرى الحديث ، وهو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ، ويرى العلماء الذى يقولون به .. انه يجب أن تكون هنـاك فترة انتقـال متميزة بين العصر القديم والحديث يطلقون عليها اسم العصر الحجرى المتوسط وينسبون الى هـذه الفترة ما وجد من آلات قزمية فى مدينة آزيل .

ولكن لا مناص لنـا ، قبـل البدء فى فصلنا الثانى عن الانتقال من العموم الى الخصوص بالتحدث عن تاريخ مصر ، أن نلفت النظر الى اننا أتينا بما تذكره الكتب العلمية عن تطور الانسان ، بعد انفصاله عن القردة العليا ، وكيف وجد ما يسمى بانسان الفجر أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، ثم انسان نياندرتال وكرمانيون ، الذى يعتبر جدا للانسان العصرى الذى يبدأ أول تاريخه بعشرة آلاف سنة .

٨٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ ق . م : العصر الحجرى الحديث :

وهنا سنجد الانسان قد بدأ حضارة واسعة النطاق ، يجب أن تعتبر طفـرة بالنسبة لكل ما سبقها حيث لا نجد فيها تسلسل التطور فقد عرف الانسان الزراعة ، واستأنس الحيوان ونسج القماش ، وصنع الخزف وشيد المبانى وعرف الدين .

وقد كان الانسان الذى تحققت على يديه هذه الطفرة هو الانسان الساكن فى حوض الدجلة والفرات أو فى حوض النيل .

ولذلك فقـد حان الوقت لننتقل بتاريخ الانسان من الشـمول والعموم ، الى التخصص فى وادى النيل ، حيث بزغت الحضارة الانسـانية عملاقة جبـارة تذهل المراقبين .

الفصل الثاني

مصر والنيل
چيولوچيا وجغرافيا وشعبا

تكون الصخور النارية كالجرانيت والديوريت وكذلك الصخور المتحولة والتى ترجع الى الزمن الجيولوجى الابتــدائى ، أى ما قبل الكامبرى أو الآركى ، الدعامة الأولى لأرض مصر ، وتتمثل فى الوقت الحاضر فى ســلاسل جبــال البحر الأحمر والمنطقة الجنوبية من شبه جزيرة سيناء ، والمرتفعات الجنوبية الغربية بالصحراء الغربية ، كما تظهر فى منطقة الجندل الأول قرب أسوان وخانق كلابشــة جنوب أسوان بخمسين كيلو متر .

وقد شهدت مصر فى تاريخها الجيولوجى حركات أرضية تختلف بين الانخفاض تحت سطح البحر وبين الارتفاع فوقه ، وقد ظلت أجزاء كبيرة منها مغمورة بالماء كجزء من بحر كبير ، عدة ملايين من السنين ، ثم انحسرت ميــاه البحر وبدأ البحر الأبيض المتوسط يأخذ صورة أقرب ما تكون الى صــورته الحاضرة . كمـا تكون منخفض البحر الأحمر ، وبرزت على جانبيــه الجبال كنتيجة لحركات التوائية وانكسارية .

ثم ظهر نيل مصر آتيا من الحبشة بعد ان نجح فى حفر مجراه وتعميقه بواسطة التعرية النهرية متجها نحو الشمال وفقا لميل الأرض ، شاقا طريقه بين صحراوين عظيمين .

ويقول الجيولوجيون أن ميــاه البحر عادت لتطغى من جــديد فى أواسط عصر البليوسين على مجرى النيل ، كأثر لانخفاض الأرض من جديد ، ووصلت مياه البحر حتى منطقة اسنا جنوبا ، وربما حتى أسوان نفسها ، مكونة خليجا بحريا .

ولكن النيل عاد من جديد ، حاملا معه الرواسب من الرمال والحصى والطمى ، فكون لنفسه مجرى أعلى من مجراه الأول ، وتغلب على البحــر ، فاســتطاعت رواسبه أن تغطى الخليج بالتدريج ، مكونة فى خاتمة المطاف تلك الأرض المنبسطة المثلثة الشكل التى أطلق عليها الاغريق اسم دلتا لأنها تشبه احد حروفهم الهجائية بهذا الاسم . (مصر الخالدة ــ عبد الحميد زايد) .

وكان يظن فى القــديم ان نهــر النيل ينبع من جنادل أســوان ، أو ما نسميه الشلال الأول : وما عرف فى التاريخ باسم بلاد النوبة ، ولكن هذا المنبع ظل يتراجع الى الوراء ، كلما توغل المصريون جنوبا . وثمة رأى قال به العرب ، من أن النيل ينبع من قبة فى الجنة ، مع عدد آخر من الأنهار . وهو معنى يرمز لما يجلبه النهر

من الخير العميم لأبناء وادى النيل ، وهو امتداد لتقديس القدامى لنهر النيل هذا التقديس الذى وصل الى حد العبادة .

ونحن نعلم اليوم أن نهر النيل يبدأ جنوبى خط الاستواء بثلاث درجات من هضبة وسط افريقيا التى ترتفع ٤ آلاف قدم فوق سطح البحر ، ويتجه شمالا نتيجة انحدار الأرض ، فيصل فى عصرنا الحاضر الى البحر الأبيض المتوسط على بعد ٥ر٢١ درجة شمال خط الاستواء .

ويبلغ طول نهـر النيل ٤١٥٧ ميلا وهو بهذا على أحـدث الآراء أطول انهـار الدنيا ، وهو ينبع من بحيرات خط الاسـتواء (فيكتوريا) والتى تعتبر بدورها خزانا كبيرا للميـاه التى تصب فيها من عديد من النهيرات وأهمها نهر كاجيرا . وسمى النيل فى أول مراحله الآن بنيل فيكتوريا حتى اذا وصل الى بحيرة البرت نيانزا التى تمده بدورها ببعض الميـاه . يصبح اسمه بحر الجبل ، ويتصل به من الشرق بحر السوباط الذى ينبع من الحبشة ويسمى النيل بعد ذلك بالنيل الأبيض . ويؤلف النيل الأبيض ٢/٧ من موارد النيل المائية على طول العام .

وعند خط العرض السادس عشر وعلى بعد ١٣٠٠ ميل من البحر يلتقى من جهته الشرقية بالنيل الأزرق الذى يجلب الى النيل مياهه الفزيرة حتى ليقدر ما يمد به النيل ٤/٧ ميـاهه ، ٧٠٪ من الغرين (الطمى) الذى كون أرض مصر الزراعية ودلتا مصر (١) ، وبعد مائة وأربعين ميلا يصب فى النيل من جهة الشرق كذلك نهر العطبرة الذى يمد النيل بمياه شمال غرب الحبشة .

ثم يتعرج النيل أشـبه بحرف S وسـط صحراء قاحلة ، وتعترض مجراه شلالات صخرية غير منظمة يبلغ عددها ستة ، وهى أقرب ما تكون الى الجنادل منها الى الشلالات ، حيث تتصدى عـدة صخور جرانيتية ضخمـة . ويطلق على الأرض التى تحف شاطىء النيل الجبلية قبل وصوله الى أسوان ، بلاد النـوبة وتشمل الأرض الممتدة بين الجندلين الأول والرابع . وبالقرب من أسوان يعترض النيل شلاله الأول المعروف بشلال أسـوان ، حيث أنشىء السـد العالى ، ويسير النيل بعـد ذلك حتى مصـبه فى البحر الأبيض ، بطيء نسبيا فى جريانه لقلة انحدار الأرض وعدم وجود صخور رملية فى تربته ، فلا تكاد السرعة تتجاوز ثلاثة أميال فى السـاعة — وأقصى عرض يبلغـه النيل فى مصر هـو ألف ومائة ياردة وذلك فى موضعين فقط على طول مجراه .

ويسير النيل بعد ذلك شاقا واديه بين سلسلتين من المرتفعات والهضاب ، مغطيا مساحة من الأرض تصلح للزراعة لا تتجاوز فى أوسع حالاتها ١٢ ميـلا . وقبل أن يصـل النيل الى نقطـة تفرعه ، يقع خارج واديه على مسيرة بضـعة كيلو مترات من حافته الغربية ، اقليم جغرافى قائم بذاته هو اقليم الفيوم وهـو عبارة عن منخفض فى الصحراء الغربية .

(١) يبلغ الطمى الذى كان يحمله النيل سنويا الى مصر ما يقدر بـ ٨٥ مليون طن .

وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر يتفرع النيل الى عدة أفرع ، بلغت فى فترة من الفترات سبعا ، بل ان بعضا منها كان يصب فى البحر الأحمر وقت طغيان المياه على شمال مصر .

ولم يبق من فروع النيل سوى فرعان هما دمياط ورشيد ، بعـد أن حلت الترع الصناعية محل فروع النيل .

ويمتاز نهر النيل بأنه أطول أنهار الدنيا على الاطلاق باستقامة مجراه الذى لا يكاد ينحرف عن الخط المستقيم الا مرتين ، يعود بعدها للاتساق العجيب حتى لقد شبهه البعض بالنخلة الفارعة التى تنتهى بتاجها من الفروع المثمرة .

ويمتاز قبل ذلك كله وبعده باتساق فيضانه العجيب الذى يبلغ الساعة فى دقته وانتظامه ، حتى لقد كان أحد السبل التى مكنت المصريين القدامى من تحديد الدورة الزراعية ، ومعرفة السنة الشمسية .

ولما كان يسير فى أرض صحراوية بحتة ، فقد جعل حياة من يعيشون على شاطئيه تعتمد اعتمادا كاملا عليه ، فألهوه وقدسوه كما رأينا وكما سوف نرى .

وقد استقر الرأى على تقسيم أرض مصر الى أربعة أجزاء رئيسية ، هذا الوادى الذى أنشأه نهر النيل فى تدفقه نحو الشمال والذى ينتهى بالدلتا التى هى من انشاء النيل ، مما جعلت كلمة « هيرودوت » « مصر هبة النيل » ، تخلد على مر الزمن . ثم الصحراء الغربية (الليبية) وهى جزء من صحراء افريقيا الكبرى ، الشديدة الجفاف ، القليلة الميـاه . أما الى الشرق من الوادى فتقع الصحراء الشرقية ، والتى تطل على النيل بحافة قليلة الارتفاع ثم يتدرج الارتفاع حتى ينتهى بسلسلة من الجبال الشاهقة التى تمتد محاذية لساحل البحر الأحمر .

واما القسم الرابع فهو شبه جزيرة سيناء ، التى هى فى حقيقتهـا جزء من الصحراء الشرقية ، ولكن خليج السويس فصلها عنها .

وقد احتلت شبه جزيرة سينا ، دورا بارزا فى التاريخ المصرى القديم كما سنرى ، لكثرة معادنها ، ولأنها الطريق الذى يربط مصر بغـرب آسـيا ، حيث جرت الهجرات غربا وشرقا من وادى النيل ووادى الدجلة والفرات .

اصل المصريين :

يقول كتاب العهد القديم أن حام بن نوح قـد انجب كوشين ومصرايم وقوط وكنعان .

ويقول الطبرى فى تاريخه على سبيل الرواية : ويقال ان مصرايم ولد القبط والبربر .

ومضى مؤرخو العـرب والمصريين يفرعون هذا الايجاز فيقول لنا ابن تغـرى

بردى فى النجوم الزاهرة : فأما مصر فقد سميت هكذا نسبة الى مصرايم بن بيصر ابن حام بن نوح .

وكان لمصرايم اربعة أولاد ـ وهم قبط وأشمون وأثريب ورحا ، واقباط مصر يضافون فى النسب الى أبيهم قبط .

ولا يعترف علماء الآثار بهذه الأقوال بطبيعة الحال ، حيث لا دليل عليها من نوع الأدلة التى يعترفون بها .

وعلى أية حال فقد افترق علماء الأجناس والحفريات حول أصل قدماء المصريين، فمن قائل انهم من الاصل الحامى (نسبة الى حام) الذى يكون شمال افريقيا ، وآخرون يرون أنهم من الجنس السامى (نسبة الى سام) وفدوا الى مصر من آسيا ، على اختلاف فى طريق الوصول ، فمن قائل انهم جاءوا عن طريق برزخ السويس ، ومن قائل بل عن طريق الجنوب .

ونحن الذين لا نعلق كبير اهتمام على الفوارق بين الأجناس . فسواء كانوا من الجنس الحامى أو السامى ، فهذه التسمية فى حد ذاتها تعود بنا الى نوح والد سام وحام .

وكيفما كان الأمر ، فالأمر لا يخلو فى مصر كما هو الشأن فى أى بقعة أخرى على ظهر الأرض ، من استيطان بنى الانسان فى بقعة من البقع ، ثم يفد عليهم الوافدون ، مهاجرين أو غازين ومعتدين ، حيث يهاجرون بدورهم أو يعبرون .. وفى كل ذلك يختلطون ويمتزجون بسلالة أسلافهم من بنى الانسان الأقدم عهدا منهم ، وسنرى أن مصر منذ أقدم عصور التاريخ حتى عصرنا الحاضر ، وكما ستظل دائما بوتقة تنصهر فيها مختلف الأجناس والفروع والشعوب والثقافات والمدنيات .

وقد شهدت أرض مصر كل العصور والحقب التى مرت بالكوكب الأرضى ، ومنذ وجد انسان عليها ، اجتاز هذه المرحلة التى قطعها الانسان الفجر خلال عصور التاريخ الحجرية كلها قديمها ومتوسطها وحديثها .

فكان بها العصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاث الذى يجعل البعض كما ذكرنا بدايته ترجع الى مائة الف سابقة .

وعثر على أدوات حجرية تنسب الى الثقافات المتعددة ، ما قبل الأشيلين والاشيلين والأشولية والمستورية .

وقد عثر على هذه الأدوات الأبرليتية (القبضية) على عمق مائة قدم ، كما عثر على أدوات أشيلية عند مستوى خمسين قدما ، كما عثر على أدوات موسنيرية عند مستوى ٣٠ قدما .

كما عثر على مصانع من العصر الحجرى القديم ، عند العباسية حيث مصب النيل القديم ، وبالقرب من نجع حمادى ، وأسوان ، والى الشرق من الواحة الخارجية ، وعلى حافة الدلتا الشرقية .

ولأن مناخ مصر كان أغزر مطرا منه الآن ، وأكثر برودة بعشر درجات على الاقل فقد كانت الحياة فى الصحارى المصرية تختلف عن صورتها الآن ، فقد كانت تغص بألوان الحياة تنمو بها الأعشاب والأشجار وتكثر فيها الحيوانات سواء آكلة العشب أو المفترسة ، لذلك فقد عاش بها الانسان متخذا منها مسرحا لحياته وتاركا آثاره فى داخلها أو فى أطرافها على حافة وادى النيل .

وقد اعتمد انسان ذلك العصر فى طعامه على جمع الثمار وصيد الحيوانات وعاش الانسان فى قبائل ، تحكم بعادات القبائل والتقاليد .

١٤٫٠٠٠ ق . م :

توصل المصرى القديم الى الزراعة وقد كان هذا الرأى متنازعا عليه حيث كان يتصور أن أقدم أثر للزراعة قد اكتشف بالقرب من ايحا فى الأردن ويرجع تاريخها الى ٩٨٠٠ سنة قبل الميلاد .

ولكن الأبحاث الأخيرة التى قامت بها البعثات الأمريكية والبولندية والمصرية فى منطقة توشكا بالقرب من ادفو واسنا مديريتى أسوان وقنا قد كشفت عن وجود آلات حجرية للمصرى القديم استعملها لحصد الحبوب ، حيث وجدت مسننة ومشحوذة كالمنشار ، كما عثر على رحايا لطحن الحبوب ـ وقد حدد عمر هذه الآلات الحجرية بواسطة الكربون المشع رقم ١٤ فحددت عمرها بـ ١٤٫٠٠٠ سنة قبل الميلاد . كما دلت هذه الأبحاث على أن طول الانسان المصرى القديم كان ١٨٠ سم ـ كما عثر بين الهياكل العظمية على ما يفيد وجود البقر البرى وسيد قشطة والغزال السودانى والزراف والضباع والحمار البرى ، وكلها من حيوانات السافانا التى تعيش حاليا فى منطقة جنوب السودان .

١٠٫٠٠٠ ـ ٨٫٠٠٠ : وعلى آثار العصر الحجرى القديم الأعلى وجدت آثار من العصر الحجرى المتوسط (الميزولتين : Le Mesolithique

وهو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ، بينما يرى علماء آخرون أنه يجب تحديد فترة انتقال متميزة بين العصر الحجرى القديم والحديث .

٨٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ ق . م . ـ العصر الحجرى الحديث :

وتتفق بداية هذا العصر مع تقهقر الجليد الذى ظل الى يومنا هذا وحيث يبدأ تاريخ مصر القديم أكثر اتساقا ، ويسرا فى مطالعته ، وبدأت مصر تصبح آهلة بالسكان الذين بدأوا يتجهون نحو سكنى الوادى ، مخلفين الصحراء التى كان الجفاف قد بدأ يزحف عليها . ولا يعود ثمة شك فى انتشار الزراعة على أوسع مدى ، فقد وجدت

فى أمعاء جثث هذا العصر ، حبوب الشعير والذرة الرفيعة والقمح ، ولما كانت هذه النباتات لا تنمو فى مصر بريا فدل ذلك على معرفة الزراعة فى هذا العصر المتقدم .

كما استأنس مصريو هذا العهد الحيوان وأولهم الكلب وذلك لأن الكلب كان أول من رافق الانسان عند رحيله من الصحراء الى النيل ، وكان يعيش على فتات طعام الانسان ثم استؤنس بعده الخنزير والبقر والحمير واستخدمه لأغراضه ، فأخذ اللحم لغذائه ، والجلد لملبسه وغطائه ، والعظام لأدواته وأسلحته .

وقد تمت عدة كشوف من هذا العصر ، تكشف عن خصائصه ، ومن بينها حفائر الفيوم أ ، ب .

ولكن الكشف الأهم من حيث قوته فى الدلالة ، هو مرمدة بنى سلامة بوردان مركز امبابة ، حيث تم الكشف عن قرية كاملة من قرى هذا العصر بعد أن غطاها طمى النيل ، وهى أحسن مثل لمدينة من العصر الحجرى الحديث ، حيث يعيش سكانها على الصيد والزراعة ، فقد عثر على بقايا من سنابل القمح وظهرت عظام للخنزير مما أيد استئناس الانسان للخنزير ، ووجد كذلك عظام حيوان فرس النهر (سيد قشطة) وظهر أنهم يسكنون فى مساكن منظمة على شوارع مستقيمة . وان صناعة الفخار بها ، متقدمة متطورة عن مثيلاتها فى مناطق العالم الأخرى ، وتمتاز بدقة الصنع وجمال الصقل ، وتعدد الأشكال ، واللونين الأحمر والأسود ، وكانت العشش تقام من الغاب (البوص) بيضية الشكل محكمة الغلق من الجهة المعرضة لهبوب الرياح ، وكانت أرضية المسكن مغطاة بطبقة من الطين ، والجزء المنخفض من هذه الأرضية به اناء مثقوب من أسفله لاستعماله فى تصريف الميـــاه . وكانت المدافن قريبة من القرية ، وهى حفر بيضية الشـــكل بوضـــع فيها الموتى على الجانب الأيمن بضم الركبتين نحو الصدر ، وموجهة ناحية المساكن . مع وضع بعض الحبوب فى الأيدى . واحتوى القبر على أجران فخارية ، وألواح لطحن الكحل الأخضر وآلات من الظران (الصوان) .

ويدل وجود هذه الأدوات ، والحبوب على أن الاعتقاد بالبعث بعد الموت، مستقرا فى قلوب المصريين منذ هذا العصر المبكر .. والايمان بالبعث بعد الموت ، هو جوهر أى دين من الأديان .

العمرى : وقد تم الكشف عن قرية أخرى كاملة من هذا العهد أطلق عليها اسم العمرى نسبة الى المرحوم أمين العمرى الذى اكتشفها فى وادى حوف شمالى حلوان، وقد دلت الآثار التى كشفت بها على اطراد التقدم فى سلم الحضارة ، اذ وجد بها أوانى من الفخار مزخرفة برسوم جميلة ، وآنية اسطوانية من الحجر ، وأقداح من الحجر الجيرى والمرمر والبازلت والجرانيت الوردى ، ووجدت عششها مستديرة وفى وسطها موقد ، وعلى مقربة منها كانت تقام سلال كبيرة من الحصر المجدول ولها غطاء ومدهوكة بالطمى وتستعمل كمخازن للحبوب .

أما المدافن فكانت تحفر فى مكان خاص بالقرب من القرية على حافة الصحراء ، ونظام الدفن كمثيله فى مرمدة .

وقد عثر فى الوجه القبلى بدوره على خير نموذج ومثال للعصر الحجرى الحديث وذلك فى دير تاسا بالقرب من البدارى ، وقد وجد بها مقابر فقيرة وبعض آثار لمساكن متفرقة بسيطة ، واوانى فخارية يدوية ، على نوعين ، أحدهما بنى والثانى اسود ، وان كان لم يحرق حرقا محكما فان عليه زخارف هندسية ، والمميز لهذه الثقافة الأوانى ذات البوق والمحلاة بزخارف غائرة نوعا ما ومطعمة بالعجينة البيضاء . وكانوا يستعملون الفؤوس المقولة ، ومغارف كبيرة حجرية ، وآلات تدل على أنهم من الزارعين . ومخازن للمحاصيل فى اقفاص كبيرة من الخوص . كما وجد بها عقود من الخرز المصنوع من العاج أو العظم أو العقيق . وكانت المقابر بيضية الشكل وكان الميت يدفن مقرفصا ويكفن اما بجلود الماعز أو الحصير وغطاء من فروع الشجر وكانت توضع تحت راس الميت مخدة من القش .

٦٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ ق . م عصر بداية استعمال المعادن : Le Neolithique

ظهرت المعادن فى العصور السابقة على شكل حلى للزينة ولكن العهد لم يطلق عليه عهد استعمال المعادن الا عندما استعملت المعادن فى الأسلحة والأدوات .

واهم نموذج لثقافة هذا العصر قد تجلت فى حفائر البدارى بالقرب من أسيوط، وهى التى تأتى فى التاريخ مباشرة بعد ثقافة دير تاسا .

واهم مميزات ثقافة البدارى هو اوانيها الفخارية التى امتازت بتزين سطح الفخار الخارجى ، عن طريق تطعيمه بخطوط بيضاء ، مع رقة سمكه بالرغم من أنه كان لايزال يصنع يدويا . وبدأ الصانع يزخرف الفخار بأشكال آدمية وحيوانية ونباتية .

ولم يعثر الا على قليل من مساكن القوم مبعثرة وأكثر الكشوف كانت فى مقابرهم . وقد دلت على أنهم كانوا يعرفون الكتان ، وان ظلت ملابسهم العادية من الجلد ــ وكانوا يزرعون ويستأنسون الأغنام والثيران اذ وجدت عظام هذه الحيوانات وكانوا يتحلون بعقود من العاج والصدف وأنواع من الخرز ، ووجدت لوحات من حجر الشست لدق الكحل وتزيين الأعين ، ووجدت واحدة منها فى كل مقبرة امام وجه الميت .

وكان القبر حفرة بيضية الشكل ووجد الميت مكفنا فى حصير أو جلد ماعز وكان يوضع فيما يشبه التابوت وهو صندوق من القش المجدول ، وقد استدل من ذلك على ان الانسان المصرى بدأ يفكر فى صنع التابوت الذى وجدناه فيما بعد من الفخار أو الخشب . كما وجدت بعض الدمى فى المقابر ، وهى التى ستصادفنا فيما بعد فى كل مقابر المصريين القدماء ، والتى كانت تدل على عقيدة القوم فى الحياة الآخرة ، وعلى حاجة الميت الى من يخدمه ، ومن يدفع عنه مختلف أنواع الشرور التى ستقابله فى الحياة الآخرى .

عصر ما قبل الأسرات

٤٥٠٠ ق ٠ م ـ عصر ما قبل الأسرات :

رأينا فيما مر بنا ، كيف أن المصرى القديم بدأ يخوض غمار الحضارة بقدم ثابتة وعزم صادق ، كما تكشف لنا عن ذلك قبوره المتتابعة ، فمن حالة البدائية الأولى ، وحياة الصيد ، الى حيـــاة الاستقرار ، واستنباط الزراعة واستئناس الحيوان ، وتشييد المساكن المجتمعة مؤلفا بذلك القرية المصرية . وهكذا بدأ يمهــد السبيل للقيام بأول وحدة سياسية عرفها التاريخ ، حيث بدأت الآثار والكتابة تحدثنا عن قيام المدن وتقوية الصلات فيما بينها ، مما أدى الى ظهور الوحدات الاقلمية ، وقيام الامارات المحلية بدلا من نظام العشائر والأسرات .

٤٢٤١ ق ٠ م :

التاريخ الذى يرى كثير من العلماء وعلى رأسهم بريستيد ، ان المصرى القديم قد عرف فيه السنة الشمسية لأول مرة وقسمها الى اثنى عشر شهرا وكل شهر ثلاثين يوما ، وكانوا يضيفون فى آخر كل سنة خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيهـا الأعيـاد .

وقد أمكننا التوصل لتحديد هذا التاريخ ، استنادا على أن المصريين القدماء ، قد بدأ دراستهم الشمسية الأولى ، باقتران نجم الشعرى مع شروق الشمس .

وقد حسب بعض علماء الفلك عن تاريخ وقوع هذا الحادث ، فوجده وقع فيما وقع فى ١٩ يوليو سنة ٤٢٤١ ق.م. ولما كان هذا الحادث يتكرر مرة كل ١٤٦٠ سنة ، فان بعض العلماء الآخرين يبدأون التاريخ المصرى متأخرا بهذا القدر (وليم لانجر ـ موسوعة تاريخ العالم) .

ويقول سليم حسن ان الآراء قد أصبحت متفقة على اتخاذ تاريخ طريق وسط على جعل التاريخ المصرى يبدأ عام ٣٢٠٠ .

ونحن ممن يميلون الى ترجيح اكتشاف المصريين للسنة الشمسية منذ اشتغلوا بالزراعة ذلك ان فيضان النيل ، يتم بطريقة دورية تتفق ودورة الفصول ، وقد كان هو أول كاشف للمصريين على أن هناك دورة زمنية هى السنة الشمسية .

وقد أصبح عصر ما قبل الأسرات محدد المعالم نتيجة كشوف وحفريات السير فلندر ريترى الذى قسم عصر ما قبل الأسرات الى ثلاثة أقسام ووضع تاريخا متتابعا

بالنسبة لتطور الفخار فى هذه الحقبة ، وأعد جدولا بهذه الحلقات المتتالية من ١ — ١٠٠ ومعتبرا عصر ما قبل الأسرات يبدأ بالأرقام المتتابعة من ٣٠ الى ٧٨ حيث يبدأ عهد الأسرات من الرقم التتابعى ٧٩ أما الأقسام الثلاثة لعصر ما قبل الأسرات كما رتبه فلندر تيرى فيجرى على الوجه التالى :

١ — عصر ما قبل الأسرات القديم :

وتتابع أرقام فخاره من ٣٠ — ٣٧ .

ويدخل فى هذه الحقبة حضارة « العمرة » نسبة الى قرية العمارة بجوار نجع حمادى ، حيث عثر على صناعة الحجر الصوان بخد واحد ، كما صنع منه مناجل ومباشر ، وبلط مصقولة . وفخار هذه الحضارة من النوع الأحمر المصقول أو ذات الفم الأسود ومزينة برسومات الحيوانات والأزهار — وكانت هناك صلات تجارية مع الأقاليم الأخرى ، اذ وجد بها الذهب النوبى والخشب السورى ، وانسان هذا العصر يؤمن كأسلافه بالحياة الأخرى ، يدل على ذلك وجود الآلات والحراب داخل القبور .

٢ — عصر ما قبل الأسرات المتوسط وتتابع أرقامه من ٣٨ — ٦٠ :

وتتدرج حضارة جرزة فى شمال ميدوم بالفيوم ، تحت هذا القسم وهى تتميز بوجود أوانى حجرية برسومات حلزونية وأنواع الصبار عليها . وقد بدأت صناعة الأوانى الحجرية تظهر فى هذا العصر ، بحيث انتهت للقضاء على صناعة الفخار المزخرف فى ختام العصر .

وفى هذه المرحلة تقدمت الزراعة وزادت الأراضى الزراعية ، وزرع شجر النخيل والسنط والجميز وأصبحت صناعة الآلات الصوانية (الظران) فى غاية الدقة ، ومن أهم مصنوعاتها سكين ديل السمكة . ومعظم أوانيها الفخارية ، كانت تزين بتقليد نقوش الأوانى الحجرية التى تميز بها العصر .

٣ — عصر ما قبل الأسرات الحديث :

وتتابع أرقامه من ٦١ — ٧٨ :

ويتدرج تحت هذا العصر ما يعرف بحضارة السمانية نسبة الى مدينة سمانية شرق مدينة العمرة بنجع حمادى ، حيث دلت الأبحاث على انه كانت توجد مبادلات تجارية مع آسيا الغربية — العراق — راحت تزيد على مر الزمن . وهذا العصر هو عصر التحول الى نشوء عصر الأسرات ، وتطورت عنه صناعة المعادن وارتقت صناعة الأوانى الحجرية ، فصنعت من المرمر والديوريت ، وزينت ونقشت عليها الصور والأشكال — وظهرت أنواع المينا الزجاجية ، وازدانت الأوانى الفخارية التى وجدت بمناظر جميلة واستعمل النحاس فى تفريغ الأوانى الحجرية ، وجهزت الآلات الحجرية

بمقابض من المعادن ، فقد وجدت سكين جبل العرقى بناحية نجع حمادى والمحفوظة الآن باللوفر ولها يد من ذهب ، وهى مزينة بمناظر صيد الحيوان . كما وجد من هذا العصر الواح من الأردواز وقطع من العاج . ويرى بعض علماء الآثار ، أن نظام فلندرز بترى التتابعى الذى وضعه لهذه الحقبة من تاريخ مصر : ينطبق تمام الانطباق على الأوانى الفخارية ولكن نظرا لاندثار صناعة الفخار فى أواخر هذا العصر وظهور الأوانى الحجرية متطورة بصورة سريعة ، تجعل نظام بترى لا يصلح .

٣٢٠٠ ق٠م — اندماج الأقاليم :

كانت درجة الحضارة قد اخذت طريقها نحو التطور السريع حتى أشرفت على العصر التاريخى ، وكان من أسباب هذا التطور التقدمى اندماج الأقاليم التى نشأت تحت سيطرة أمير واحد ، فأصبح الجميع ينشدون غاية واحدة ، ويترسمون طريق قائدهم ، وقويت بينهم الروابط الاجتماعية والقومية ، وتركزت الثروة فى أيدى الحكومات ، فأعان ذلك على القيام بالمشروعات العامة للنهوض بالبلاد .

وقد أوحت الينا الأساطير المصرية ، ان الوحدة المصرية بدأت أول ما بدأت فى الوجه البحرى ، حيث تألفت به دولتان احداهما غرب الدلتا فى البحيرة وعاصمتها بوتو ، والثانية فى صا الحجر (سايس) .

وحدث اندماج مماثل فى اقاليم الوجه القبلى واتخـذت مدينة نخن (الكاب) عاصمة لهذه الدولة .

ويحدثنا حجر بلرمو عن هذه الدولة بأنهم أتباع حور الجنوبيين واتبـاع حور الشماليين .

وسجل لنا اعمال بعض هؤلاء الملوك فى شن الحروب واقامة الأعياد ، وتأسيس المعابد والمدن وعمل التعداد ، وقياس النيل وقت الفيضان .

الملك العقرب : وأهم أثر وصل لنا عن عصر ما قبل الأسرات هو رأس ديوس من الحجر الجيرى لملك يدعى العقرب . وقد وجد فى نخن العاصـمة الجنوبيـة ، ويرى به أعلام الأقاليم المختلفة التابعة له ، ويتدلى من كل منها طائر مذبوح يرمز الى أعدائه الذين انتصر عليهم .

ومن الآراء العلمية التى بدأت تتردد الآن ، ان وحدة الاقليمين فى مملكة واحدة تحت لواء الشماليين قد تحقق مرة أولى قبل بداية التـاريخ المعروف لنـا والذى يبدأ بمينا كما سوف نرى . والظاهر أن هذه الوحدة قد انفصمت عراها لأسـباب دينية ثم عادت من جديد فى أول العصر التـاريخى عنـدما اخضع أهل الجنـوب الشماليين .

وقامت الوحدة التاريخية التى بدأتها الأسرة الأولى التى انهت عصر ما قبل التاريخ وبدأت التاريخ .

الفصل الثالث

الدولة القديمة

٣١٠٠ ــ ٢٨٩٠ ق٠م :

الأسرة الأولى الطينية ــ نسبة الى بلدة طينة بمديرية جرجا التى ينتسب اليها مينا مؤسس الأسرة حسب ما أورده مانتون ومينا هو الذى وفق الى تحقيق الوحدة السياسية للبلاد ، حسب أكثر المصادر التاريخية والبعض يميل الى انه « نعرمر » صاحبة لوحة الشست الموجودة فى المتحف المصرى التى تصوره لنا وهو يكافح الشماليين بينما هو يحمل تاج الصعيد ، حيث يرى فى الوجه الثانى للوحة وهو يحمل تاجى الوجهين البحرى والقبلى واستطاع ان يكون لمصر حكومة ثابتة ويؤسس أول أسرة حكمت مصر الفرعونية . وقد أقام الجدار الأبيض عند رأس الدلتا ، قرب البدرشين ، لتكون نواة لعاصمة استمرت عشرة قرون وهى مدينة « من نفر » التى حرفت الى منف ويطلق عليها اليوم منفيس ويقال انه حول مجرى النيل .

أنا الاله الرسمى لهذه الدولة الموحدة فلم يكن أحد الآلهة السابقين مثل أوزير أو حور ورع ولكنه كان الاله المحلى للعاصمة الجديدة واسمه الاله « بتاح » .

وقد اعتبر المصريون الملوك الذين حكموا البلاد قبل مينا أشباه آلهة الذين جاءوا بعد أسرات الآلهة . وكان ملك الوجه القبلى يلبس التاج الأبيض وتحميه الآلهة النسر (نخبت) وملك الوجه البحرى يلبس التاج الأحمر وتحميه الآلهة « الصل » أى الثعبان .

وقال مانتون أن مينا حكم ٦٢ عاما ويظن البعض أن نعرمر غير مينا غير عحا وأنها أسماء لثلاثة أشخاص مختلفين ، ولكن الرأى على أن نعرمر هو مينا . وأن عحا هو ابن نعرمر من زوجه نبت حتب وخلفاؤه هم :

جر ــ زر ، أجو ــ زت ، دق (ودمو) ، وتولى العرش بعده ابنه عزايب ، وقد تولى العرش بعده سمرخت الذى محا اسم عزايب عن الآثار ، وكذلك محا قع الذى خلفه اسمه بدوره وأهم ما فعله سمرخت انه قام بحملة الى وادى المغارة فى شبه جزيرة سينا واحتفل بعيده الثلاثينى وقد عثر على معظم قبورهم بالعرابة المدفونة بالبلينا وقد وجد مدفن الملك ودمو الذى حكم ثلاثين عاما ــ وقد قام بحملات كثيرة فى سينا بالعرابة المدفونة ارضيتها من الجرانيت وهو أول مرة نعثر فيها على الجرانيت ــ كما عثر على مقبرة لزوجته مرت نيت أى محبوبته نيت معبودة صا الحجر ــ وقد كشف فى سقارة مقبرة كبيرة بها ٤٥ مخزنا لأحد أشراف هذا الملك ويسمى حماكا وهى تحوى كثيرا من الآثار الرائعة وتحتل مكانا بارزا بالدور الثانى من المتحف المصرى .

٢٨٩٠ – ٢٦٨٦ ق٠م – الأسرة الثانية :

ومؤسسها الملك حتب سخموى وقد عثر له على تمثال بالمتحف المصرى من الجرانيت تمثله وهو راكع وعلى كتفه اسمه راسمى الملكين اللذين جاءو من بعده ثم خلفه الملك « نب رع » (كاكاو) ثم الملك نتر – ان وبعده الملك بيرايب سن – وقد احدث انقلابا اذ غير اسمه الحورى الى اسم الاله ست كما أعاد عاصمة الملك الى العرابة .

ثم خع سخموى ومعنى اسمه « الاثنان القويان » أى الاله حور والاله ست .

وقد امتاز عهده بالتقدم والسلام والهدوء ، ويبدو انه نجح فى القضاء على عوامل الفتنة التى كادت تؤدى الى هلاك البلاد وقد عثر له على مقبرة ضخمة فى أبيدوس ، وقد بنى بها حجرة كاملة من الحجر الجيرى الأبيض لأول مرة فى تاريخ العمارة المصرية ، ويغلب على الظن ان الملكة « نى ماعت حتب » هى زوجته وأم زوسر مؤسس الأسرة الثالثة .

٢٦٩٦ – ٢٦١٣ ق ٠ م :

الأسرة الثالثة المنفية : وعدد ملوكها خمسة وبها يبدأ ما يسمى بالدولة القديمة حيث اتخذت منف عاصمة لها : وقد اسسها الملك نترخت زوسر وقد حكم ٢٩ سنة وكان من أهم ملوك هذا العصر البعيد وهو أول ملك بنى لنفسه مقبرتين احداهما مصطبة ضخمة من الطوب اللبن فى بيت خلاف بجوار البلينا بصفته ملكا للوجه القبلى والثانية شيدت له باعتباره ملكا للوجه البحرى فوق الهضبة المجاورة لمدينة منف بسقارة وهى اقدم هرم عرف حتى الآن فى التاريخ ، ويعتبر الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقى ، ويعرف باسم الهرم المدرج .

وكان « امحتب » المهندس الذى أشرف على تصميم وبناء هذا الهرم كاهن الملك ووزيره ، وكان زيادة على تفوقه فى الهندسة من أكبر علماء الطب وله قدم راسخة فى الادارة ، حتى لقد اعتبر اله الطب ، وبقى اسمه خالدا حتى عصر اليونان ولكنه حرف الى « أموتس » .

وقد عثر على تمثال جميل للملك زوسر فى سردابه وكشف عن مدة مبانى له وخاصة معبده الجنائزى ومقبرتى ابنه ونحن ازاء هذه المبانى نحس اننا نشاهد خطوة انتقال فى تاريخ فن العمارة وتصميم البناء بالأحجار فى وادى النيل .

كما اننا نضع المهندس الذى وضع تصميمها والعمال الذين قاموا بتنفيذها بأعلى مراتب الشرف والعلم .. وهرم زوسر أو سقارة المدرج عبارة عن ست مصاطب فوق قبره ، كل منها أصغر مما تحتها حجماً .

ويبلغ ارتفاع المصاطب الست ١٩٥ قدما وكان الغموض يكتنف خلفاء سنفرو ، ولكن أعمال الحفر التى قامت بها مصلحة الآثار المصرية فى المدة من ١٩٥١ — ١٩٥٤ كشفت عن هرم مدرج لم يتم بناؤه لملك يدعى سخم حت ، وقد القى الضوء على مكان بانيه بين ملوك الأسرة الثالثة .

وهناك احتمال أن يكون خليفة لزوسر . وثمت ملك آخر من ملوك هذه الأسرة وهو « ساخت » له مقبرة فى بيت خلاف ثم الملك حابا ، ثم نفركا ولا يعرف عنهما شىء .

أما آخر ملوك هذه الأسرة فهو الفرعون حو ويدعى حونى ومعناه (الضارب) وقد اقام لنفسه هرما فى دهشور فى جنوب سقارة وهو الحلقة الموصلة بين الهرم المدرج والهرم الكامل .

وقد جاء ذكره فى ورقة عثر عليها من عهد الدولة الوسطى تنص على ان حونى هذا هو السلف المباشر للفرعون سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة .

وهناك مباحث حديثة ومحاولات جادة لتحقيق ملوك هذه الأسرة واعادة ترتيبهم ، وتحقيق آثارهم على ضوء آخر المكتشفات .

« مصر الخالدة — للدكتور عبد الحميد زايد » .

٢٦١٣ — ٢٤٩٤ ق٠م — الأسرة الرابعة :

عصر بناة الاهرام العظمى — اهرامات ميدوم — دهشور الجيزة وابو رواش .
عمليات تعدينية فى سينا — تجارة مع ببلوس للأخشاب — محاجر لاستخراج الجرانيت من أسوان وصحراء النوبة .

وقد أسسها الملك سنفرو (١) الذى تزوج ابنة الملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة « حتب حرس » وهى التى اكتشف قبرها حديثا فدلنا على أساس تسلم سنفرو للعرش نتيجة المصاهرة — وتأسيس هذه الأسرة بعد أن كانت غامضة . وقد نقلت محتويات هذه المقبرة الى غرفة خاصة بجوار غرفة الحلى بالمتحف المصرى، وتقول حتب حرس عن نفسها انها ابنة الملك « حونى » وزوجة الملك « سننفرو » وأم الملك « خوفو » .

وقد بنى سنفرو لنفسه أخذا بالتقاليد القديمة مقبرتين على شكل أهرام ، احداهما فى ميدوم بالقرب من الواسطى وهو يقرب من الهرم الكامل ، قاعدته مربعة وله وجوه أربعة مثلثة — أما الهرم الثانى ففى دهشور جنوبى سقارة ، توفرت فيه كل صفات الهرم الكامل بزواياه المضبوطة .

---

(١) يعتبره بريستد آخر الاسرة الثالثة — ولكن مانيتون ذكره على راس الاسرة الرابعة والاكتشافات الاخيرة قد أيدت ذلك .

وفى عهده قامت حملة بحرية الى سوريا وعادت بأربعين سفينة محملة بالأخشاب ، فكان ذلك أول أسطول بحرى عرفه التاريخ .

وكان الملك سنفرو بناء عظيما ، محبوبا لدى الشعب وقد ظل صدى هذا الحب عالقا فى أذهان النـاس لعدة قرون ، وقـد اعتبر المؤسس الأخير النفوذ المصرى فى سيناء ــ وقد افتخر الملوك بعد عهده بألف سنة أن مشروعاتهم فى سيناء قد فاقت مشروعاته ، ويعتبر عصره بصفة عامة عصر رقى وقوة ورخاء وازدهار ، بلغت فيه الدولة القديمة درجة رفيعة وقد حكم ٢٩ سنة تقريبا .

٢٥٨٤ ق ٠ م:

ولى الملك ((خوفو)) ابن الملك سنفرو وقد تزوج فيما يعتقـد البعض اختـه ((مريت ايتس)) واستفاد خوفو من خبرة رجال أبيه وجهود عهده وقد توفر له من سعة السلطان أكثر مما توفر لأبيه وتوفر لمصر فى عهده من الامكانيات المادية والكفايات الفنية ما لم يتوفر لها فى العهود السابقة او التالية .. وكان هذا هو ما مكنه من بناء أخلد ما عرفت الدنيا من معجزات ، فقـد كان يقال ان الأهرام أحد معجزات الدنيا السبع ، وقد زالت المعجزات الست الأخرى ولم يعد لها وجود ، أما معجزة الأهرام فلا تزال باقية فحق بأن يوصف أنه معجزة المعجزات .

ويشغل مبنى الهرم مساحة قدرها ١٣ فدانا وارتفاعه الأصلى ١٤٦ مترا أو أقل قليلا وقاعدته مربعة يبلغ طول أحد أضلاعها ٧٥٠ قدما واستخدم البناءون فى بنائه على ما يقال مليونين وثلثمائة ألف كتلة حجر تراوحت زنة الواحدة بين طنين وثلاثة أطنان ويصل وزن بعضها الى ١٥ طنا ، قطعت جميعها من الحجـر الجـيرى وكان يظن الى وقت قريب جدا أنها من محاجر المقطم جنوبى القاهـرة ــ ولكن الرأى اثبت الآن أنها من هضبة الجيزة نفسها . فيما عدا الكســاء الخارجى للهرم قطعوا لوحاته السميكة من الحجارة الرملية .

وقد جرى الخلاف ولا يزال قائما حول الكيفية التى استجلبت بها حجارة الأهرام الى موقع العمل ، ثم رفعت بعد ذلك لبناء الهرم . وقد روى هيردوت أن المصريين قد استعملوا الحبال والبكر لرفع الأحجار ثم جاء من اعترض على ذلك مقررا أن طريقة المزالق (الطريق المنحدر) هو الذى استعمل لرفع الأحجار وأن حفائر الجامعة المصرية عثرت على بكرتين بجوار الأهرام (ص ٢٨٨) جزء أول .

كما كسيت بعض حجرات المـدفن بالأحجار الجرانيتية وقـد عثر حـول الهرم على كثير من قبور بعض أفراد أسرته . ولكن نقوش هذه الآثار لم تتحدث كثيرا عن أيام حكمه وقال هيرودوت فى تاريخه ، ان عدد الذين استعملوا فى بناء الهـرم ١٠٠ الف ... ولا يجد علماء الآثار مبالغة فى هذا الرقم ، وكانوا يعملون لمدة ثلاثة أشــهر ثم يستبدلون بغيرهم .

ومن عجائب الأقدار أن جثــة الملك الذى بنى هذه المقبرة للمحافظة عليها ، لم يعثر عليها .

ولم يعثر لخوفو الا على تمثال صغير من العاج فى أبيدوس وهو محفوظ بمتحف القاهرة . ومن أهم المكتشفات الأثرية فى عهده العثور على مراكب الشمس المصنوعة من الخشب طول الواحدة منها ٥٥ مترا .

وقد حكم خوفو ٢٣ سنة .

٢٥٦١ ق . ـ ولى العهد « ددف رع » :

ويقول برستيد انه يجهل تاريخه وعلاقته بأسرة خوفو ، ولكن المباحث الحديثة بعد الكشف عن مراكب الشمس ، قد رجح أنه ابن خوفو ، ذاته هو الذى اشرف على دفن مراكب الشمس بعــد وفاة أبيــه وشرع فى تشييد هرم خاص به فى أبى رواش يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه مائة متر أما ارتفاعه فى الوقت الحاضر فلا يزيد على عشرة أمتار ، ولم يبق من مداميكه الا القليل .

وقد حكم ثمانى سنوات ، وقد نحت له الفنانون عدة تماثيل رائعة أظهروا فيها ملامح وجهه بأسلوب واقعى صارم حزين وابتدعوا فى عهــده فيما يظن أول نموذج لتماثيل ابو الهول برأس انسان وجسم أسد رابض .

٢٥٥٣ ق . م :

تولى خفرع العرش بعد أخيه ددف رع واسمه المصرى القديم حرفيا « خعفرع » وكان أول من أطلق على نفسه اسم ابن رع . وقد بنى لنفسه هرما ، وان كان أصغر من هرم خوفو (١٤٣ ارتفاع) ولكن مهندسه وضــعه على هضبة مرتفعة ليعوض نقص ارتفاعه ، وهو لا يزال حافظا لرونقه أكثر من الهرم الاكبر ، ووجد فى معبــده الجنائزى بقايا كثيرة من تماثيله ، ويرجع ذلك الى الثورة التى قامت فى أواخر الأسرة السادسة التى حطمت آثار الأسر السابقة عليهــا . ولكن وجد له تمثالان من حجر الديوريت فى معبد الوادى الملاصق لأبى الهول واحدهما يعتبر من القطع الثمينة التى يمتلكها المتحف المصرى .

وتتمثل ذروة ما وصل اليه فن النحت فى عهده فى تمثال أبو الهول والذى دلت آخر الكشوف على أن خفرع كان هو الآمر بنحته ، وقد نحت من صخرة واحــدة ، على صورة رأس خفرع ولكن فى جسد أسد ، ويرى سليم حسن أنه رمز للاله آتوم (اله الشمس) وقد أطلق عليه فى العصــور المتأخرة اسم (حور أم أخت) وحــدث أن قطن فى المنطقة قوم من الآسيويين فاعتبروا أبا الهول ، هو الههم حورون ، وسموا

المنطقة التى يقع فيها أبو الهول (بو حول) فحرفها العرب عنـدما دخلوا مصر الى (أبو الهول) .

٢٥٢٨ ق ٠ م :

تولى العرش بعده الملك (منكا ورع) وقد لقب بالصقر الذهبى ، وذكره هيردوت باسم مركيز نيوسى وعبر عنه مانيتوف باسم منخريس وهناك بعض الشك فى كونه ابن خفرع ، فقـد وردت بعض دلائل فى ورقة تورين وغيرها على وجود اسم ملك يتوسط بين خفرع ومنقرع وهو الذى بنى الهرم الثالث الذى لا يزيد ارتفاعه عن ٥ر٦٦ مترا أى اقل من نصف ارتفاع هرمى خفرع وخوفو وقـد ذكـر هيرودوت أن المصريين أحبوا منقرع أكثر مما أحبوا أباه وجده .

وقد وجد من الآثار ما يدل بالفعل على أنه كان أكثر برا بالرعية ورجال حاشيته وقد حكم عشرين سنة .

وقد كشفت الحفائر فى معبد الوادى لمنقرع عن نفائس فنية ودينية تعـد أنفس مجموعة وجدت فى الدولة القديمة من الأسرة الرابعة ومن بينهـا مجاميع السهات المقاطعات ، وتمثالان لمنقرع وزوجته فى قطعة واحدة بالحجم الطبيعى من الجرانيت وهما يعدان من أجمل قطع الفن فى هذا العصر .

٢٥٠٨ ق ٠ م :

تقريبا ـ تولى العرش ابن منقرع الملك ((شبسكاف)) وقد خلا اسـمه من كلمة ((رع)) كما لم يبن لنفسه هرما وانما بنى لنفسه مصطبة كبيرة ووضع فوقها بنـاء على هيئة تابوت سميت مقبرته (مصطبة فرعون) (١٠٠ متر طولا ٧٢ عرضا ١٨ مترا ارتفاعا) .

وقـد قال بعض العلماء ومن بينهم (سليم حسن) أن عدم وجود لفظ (رع) فى اسم شبسكاف وعدم بنائه لنفسه هرما ، يدل على أنه رغب عن عبادة رع ، بعـد أن رأى تزايد نفوذ كهنته . ولكن البعض الآخر ، لا يرون هذا الرأى ، ويرجعون عدم بنائه هرما . . ((الى قلة الموارد المالية . .)) وأن اسمه وان خلى من لفظ ((رع)) فقد يكون ذلك مبالغة فى التقديس فاكتفوا بالاشارة له بطريق الرمز وحرف الضمير فى آخر اسمه وهو (الفاء) خاصة وانه ظل يحتفظ باسم ((سارع)) أى ((ابن رع)) (عبد العزيز صالح) .

٢٥٠٤ ق ٠ م :

تقريبا ـ احتلت العـرش بنت منقرع أخت شبسكاف الملكة ((خنت كاوس)) وقد كتب على مقبرتها التى تشبه مقبرة أخيها على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة

صخرية مربعة « ملك الوجهين القبلى والبحرى » ، والأم الملكة وبنت الاله وكل شىء تأمر به ينفذ لأجلها .

وقد تزوجت خنت كاوس شخصا من غير الدم الملكى وكذلك لم تذكر اسمه فى مقبرتها وقد يكون هو من بين كهنة الاله « رع » وأنجبت « أوسركاف » الذى أسس الأسرة الخامسة ، فكأن خنت كاوس هى حلقة الصلة بين الأسرتين الرابعة والخامسة .

ويرى البعض أن خنت كاوس ، هى التى أشار اليها مانتون تحت اسم « نيتوكريس » وانها التى أتمت بناء الهرم الثالث ... كما كانت هى التى أوحت بالأسطورة الخيالية التى صاغها الاغريق عمن بنوا الهرم ، وورد ذكر « رودوبيس » وانها بانية الهرم الثالث ــ وقد تولى هيرودوت تفنيد هذه الأسطورة ، ويضع برستيد تاريخها قبل ذلك اى عام ٢٧٥٠) .

الأسـرة الخـامسة

٢٤٩٤ ق . م ـ تقريبا :

قيام الأسرة الخامسة ـ تسع ملوك ـ أسركاف ـ ساحورع ـ نفرابر كارع ـ (كاكاو) ـ شبسكارع ـ نفر فرع ـ نيوسيرع ـ منكاوخور ـ ديدكارع ـ أوناس . ارتفاع شأن كهنة هليوبوليس ـ العودة الى عبادة الدولة ـ اهرامات بمعابد الشمس فى أبو صير ـ اتمام لحوليات يلرم ـ معارك مع الليبيين ـ رحلات تجارية مع بونت ونوبيا ـ بدأ اللامركزية فى السلطة ـ قيام أمراء الاقطاع .

كان تأسيس هذه الأسرة غامضا بالنسبة للظروف التى بدأت بها .

وهناك أسطورة عن أصلها جاءت فى بردية وستكار وتنسب لأحد السحرة المسمى ديدى ، فقد تنبأ بين يدى « خوفو بولادة أطفال ثلاثة ستلدهم زوجة كبير كهنة « رع » وان كلا منهم سيكون حاكما للبلاد ، وبالفعل أسس الأسرة أوسر كاف .

وتفسر هذه الاسطورة لماذا اعتبر فراعنة مصر أبناء رع منذ ذلك الحين حتى آخر التاريخ المصرى . واتخذوا ملوك هذه الأسرة منف قاعدة لحكمهم ، وأصبح اسم الملك يسبق دائما بانه ابن الشمس بعد أن كان ينسب الى المعبود حوريس ـ وبنوا بجوار منف معابد للشمس ، يحتوى كل منها على مسلة ويزين جدران ممراته وقاعدته بمناظر ذات ألوان زاهية تمثل مختلف صور الحياة القديمة ، وقد تهدم الهرم الذى بناه « وسركاف » ومعبداه فى منطقة أبو غراب جنوبى الجيزة ولكن بقيت له رأس ضخمة لامعة من الجرانيت ، لابد أنها كانت رأسا لتمثال كامل .

وحكم أوسركاف ٧ سنوات ، كما تقول بردية تورين ، ويقرر مانتون أنه حكم ثمانى سنوات .

٢٥٦٣ ق . م :

وخلفه ساحورع الذى حكم ١٢ سنة على ما تقول بردية تورين وحيث يقول مانتون بأنه حكم ١٣ سنة وأقام معبدا للشمس بأبى صير شمال سقارة بالقرب من هرمه الذى أقامه بهذه الناحية وهو يعتبر أحسن مثال لهذه المعابد المميزة لهذه الأسرة ، وقد نقش عليه بأنه أرسل أسطولا الى فينقيا وبعث بحملة بحرية أخرى الى بلاد بونت (الصومال) لاحضار البخور .

٢٥٥١ ق ٠ م :

ثم تولى الحكم اخـوه **نفرابر كارع (كاكاى)** ، وبنى له هـرما ومعبـدا بابو صير ولم يبق منه سوى كتل كبيرة منقوش عليها أسماؤه وألقابه ــ وقد فقد من بردية تورين ما يدل على مدة حكمه ، ولكن حجر بلرمو ثبت به ما يدل على أنه حكم على الأقل عشر سنوات .

٢٥٤١ ق ٠ م :

تولى بعده الملك **شبسكارع** ــ وحكم مدة قصيرة بلغت سبع سنوات على ما جاء فى بردية تورين .

٢٥٣٧ ق ٠ م :

وتولى الحكم من بعده نفراف رع واسمه الحوريس نفرخو والذى قام ببناء هرم له فى ناحية أبو صير ولكنه لم يتمه وقد جاء اسمه على مسرد ابيدوس ثم تولى الملك « نى أوسررع » وترك لنا بناحية أبى صير هرمه ومعبده الذى نقش عليه أقدم احتفال لبلوغه الثلاثين سنة فى حكمه ولكن البعض يشكون فى ذلك ، وبردية تورين ممزقة فى مكان ذكر مدة حكمه وكان من بين الكهنة المخصصين لمعابد هرمه الكاهن « تى » الذى شاد لنفسه ولابنه مقبرة كبيرة بصقارة أمدتنا بمعلومات غزيرة قيمة عن الحياة الاجتماعية والدينية فى هذا العصر .

٢٤٥٠ ق ٠ م :

قيام الامبراطورية الاكادية على يد سرجون الذى حكم اكادوسومير وعيلام واشور وشمال سورنة وورث الحضارة السومرية .

٢٤١١ ق ٠ م :

ثم تولى ملك مصر الملك من كاوحور وذكرت بردية تورين انه حـكم ٨ أعوام . وكل ما نعرفه عنه انه أرسل حملة الى شبه جزيرة سيناء .

٢٤٠٣ ق ٠ م :

ثم تلاه « ددكارع » ــ « اسيسى » وكان عصره حافلا بالأعمال العظيمة ، وأرسل

بعثات الى بلاد بنت واحضر منها قزما من نوع نادر ، وعثر لهذا الملك على أربعة نقوش فى وادى المغارة بشبه جزيرة سيناء وقد وصف على أحدها بأنه ابن الشمس .

كما أرسل حملة الى بلاد النوبة .

وقد كان « فتاح حتب » صاحب التعاليم المشهورة التى تعد أقدم ما وصل الينا من حكم المصريين للآن ، مربى الملك « أسيسى » وقد أملى تعاليمه فى شيخوخته لاعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته فى البلاط . . وكان مما قاله وصفا لشيخوخته :

« حلت الشيخوخة ونزل هذيانها ــ وامتلأت الأعضاء آلاما وظهرت حالة الشيخوخة كأنها شيء جديد ، وانمحت القوة أمام الهزال ، وصمت الفم فلم يعد ينطق ، وغارت العينان ، وصمت الآذان ، والقلب كثير النسيان ، والعظام تتألم من كبر السن ، والأنف كتم وأصبح لا يتنفس ، والقيام والقعود كلاهما مؤلم والطيب أصبح خبيثا ، وكل ذوق قد ولى . وما يفعله التقدم فى السن مع الانسان هو أن يصير حاله سيئا فى كل شيء ، فمرنى أن أضع عكازا لكبر السن ، ودع ابنى يأخذ مكانى لأعلمه أحاديث من يسمعون وأفكار من سلفوا » . (سليم حسن) .

وكان من وصاياه لابنه :

« لا تتعال بمعرفتك ، ولا تشغل عقلك بأنك عالم اذا ارتقيت بعد صغر شأنك ، وحزت ثراء بعد عوز قديم فى قرية تعرفها فلا تتنكر لما حدث لك من قبل ولا تتكل على ثرائك ولا تتخلف عن غيرك ممن أوتوا حظا أقل مما أوتيت » .

ترفق حين تستمع الى حديث الشاكى ، ولا تنهره حتى يفضى بما فى جوفه ويحكى ما جاء من أجله فالمتظلم يجب أن يؤمن السامع على قوله حتى ينهى ظلامته والهموم يفضل أن يواسيه السامع عن أن يقض له حاجته ومن شأن حسن الاستماع أن يريح الفؤاد .

واستمر فتاح حوتب يدعو ولده لتهذيب نفسه فأوصاه أن يجنبها الكبر والتعالى والجشع والنهم ، والحقد ورغبة الانتقام وأوصاه أن يحمل نفسه على أداء واجباتها الضرورية . وأن يتكفل بتأسيس داره ونفقات أولاده وكماليات زوجته وختم وصاياه :

« فاذا عرفت أن تحيا بالقناعة أتاك ما قدره الأرباب لك بأكمله » .

« واعلم أن الرزق وفق ارادة الرب ــ والجهول هو من يعترض على ارادته » .

(عبد العزيز صالح)

وقد حكم الملك ٢٨ سنة .

٢٣٧٥ ق.م :

وخلفه أحسن ملوك الاسرة وأعظمهم شهرة وهو الملك أوناس الذى حكم ثلاثين عاما على ما تقول بوردية تورين واشتهر ببناء هرمه بصقارة وقد نقش على جدران حجرة مدفنه تعاويذ وصلوات دينية باسم متون الأهرام ، وهى من أهم المصـــادر التى يمكننا لمعرفة معتقدات المصريين القدماء وأساطيرهم .

وستصادفنا هذه النقوش نفسها عبر التاريخ المصرى القديم وقد سجلت بالمداد الأسود على توابيت الموتى من عليـــاء القوم ... كما سنراها فيما بعـــد فى الدولة الحديثة مكتوبة على أوراق البردى بعد أن غزرت مادتها فيما اشتهر بين علماء الآثار باسم كتاب الموتى .

وقد كشفت أجزاء من الطريق الموصل بين معبده الجنائزى ومعبد الوادى التابع لهرمه وكان هذا الطريق مسقوفا بأحجار ضخمة من الحجر الجيرى ومزينة بالنجوم لتجمل قبـــة السماء أما جانبـــا الطريق فقد نقشنا بمناظر غاية فى الاتقان بعضها جنائزى ، والبعض الآخر يمثل الحياة العامة وحياة البلاط .

وبانتهاء حكم أناس انطـــوت صفحة الأسرة الخامســة التى تعتبر فترة ازدهار اتسعت فيه آفاق دين الشمس وشملت أمور الدنيا والآخرة وازداد التقارب خلالها بين ملوك وكبار أفراد الشعب ، ومضى التطور الطبقى بخطى وئيدة وبلغ فن العمارة والنحت والتصوير والنقش ذرى عالية واستأنفت مصر خلالها صـــلاتها التجارية الخارجية على نطاق واســـع مع فينيقيا فى شمالها الشرقى وبلاد بونت فى جنـــوبها الشرقى .

الأسـرة السـادسة

٢٣٤٥ ـ ٢١٨١ ق ٠ م تقريبا

((من دائرة المعارف)) :

ثمانية ملوك بما فيهم تيتى ـ أسركار ـ بيبى الأول ـ مرنو ـ بيبى الثانى نفتكارى ـ ثلاثة ملوك من بينهم ملكة (نيتو كريس) . زيادة التجارة البحرية مع بابليوس وبونت ـ نومارخ الفينتين يسوق قوافل الى السودان ـ نمو قوة نومارخ ـ مدافن خاصة كبيرة ـ بيبى الثانى يحكم أكثر من تسعين سنة أطول حكم فى التاريخ .

لم تكشف الآثار حتى الآن عن أصل قيام الأسرة السادسة ، غير أنه من الراجح أن ملوكها قد تولوا الحكم عن غير طريق العنف أو الخلاف الشديد والقول الآن على أن مؤسسها هو الملك تيتى واسمه الحوريسى ((سحتب توى)) ، ويتجه الظن الى أنه كان زوجا للأميرة ((أبوة)) أو ((أبوت)) ابنـه أوناس)) وانه اكتسب شرعيـة اعتلاء العرش عن طريقها . وان كان قـد تزوج بعدها بأميرة أخرى تدعى خوية . وله هرم بصقارة نهبته اللصوص ومنقوش على جدران حجرة المدفن به جزء كبير من فنون الأهرام وقد ذكر مانيتون أن هذا الملك قد قتله الحراس .

وفى عهد تيتى بدأ ((أونى)) حياته وهو يعد من أكبر الموظفين المصريين فى هـذا العصر ، وقد عاش فى عهد عدة ملوك ، وقد دفن فى العرابة وترك لنا على أحد جدران مقبرته أطول نقش عن حياة شخص وهو يعتبر أهم وثيقة تاريخية وصلت الينا من الدولة القديمة .

وقد تلا حكم تيتى عصر غامض ربما كان سببه الاضطراب الذى حدث بعد قتله طبقا لرواية مانتون ، وكل ما نعلمه عن هـذه الفترة أن قائمة الملوك بالعرابة ذكرت لنا اسم ملك خلف تيتى لا نعرف عنه شيئا مطلقا وهو وسر كارع .

بيبى الأول : وظهر بعد هذا الغموض على عرش مصر فتى يدعى بيبى وقد ظـل قابضا على زمام الأمور فى البلاد بقوة وعزم نحو خمسين سنة ، وهـو يعد بحق من أكبر الفراعنة الذين قبضـوا على زمام الأمور فى مصر فى كل عصور تاريخها بحـزم ونشاط .

وقد عثر له على تمثال آية فى دقة الصنع من النحاس ، وهو يفوق كل ما صنع

قبله من التماثيل حتى تلك التى عثر عليها لخفرع ومنقارع ، وهو يعد عند علماء الآثار من أعظم ما عثر عليه من كنوز فنية .

وقد بنى بيبى لنفسه هرما فى سقارة وهو اكبر من هرم أوناس ومن هرم تيتى ، ويمتاز بالتفنن فى اخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات فى طريق الوصول اليها ولكن رغم كل التحفظات التى بذلت فى هذا السبيل ، فان ذلك لم يحل بين اللصوص وبين تمزيق جثة هذا الفرعون العظيم .. وربما كان ذلك من عمل الثوار الذين ثاروا فى ختام هذه الأسرة .

(أونى) وقد حدثنا أونى الذى أشرنا اليه فيما سبق ، كيف أنه من أبناء الشعب . نشأ فى وظيفة بسيطة ، ورقى حتى وصل الى وظيفة كبيرة فى الدولة ، وحاز ثقة بيبى الأول ، حتى لقد عينه قاضيا للفصل فى قضية خاصة بزوجته الملكة .

وبلغ من حب الملك له ان أهداه بناء على طلبه تابوتا من احجار طره .. ويمضى « أونى » فى سرد أعماله بالتفصيل وكيف قاد خمس حملات ، وتلا الملك بيبى الأول ابنه الملك مرن رع ولم يمكث على العرش أكثر من سبعة أعوام ومات وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى من عمره .

وقد بدأ بناء هرمه عند توليه الحكم مباشرة ، وكان الموظف الكبير المشرف على بناء الهرم هو « ونى » .

وقد عثر على مومياء ، هذا الملك سليمة ، وهى اول جثة عثر عليها لفرعون بقيت الى عهدنا هذا ، وقد لوحظ أن خصلة الشعر التى كان يتميز بها الفتيان حديثو السن لا تزال عالقة بجمجمتها مما يدل على أن (مرن رع) كان لا يزال صبيا عند وفاته .

وقد عين « ونى » حاكما على الوجه القبلى ولقب بحاكم الجنوب ، ولقد سجل لنا « ونى » قائمة بأعماله ، لعل من أهمها حفر قنوات خمس عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التى كانت تعترض صخورها ، مما مكن من تسيير التجارة بين مصر والنوبة .

وبعد « حر خوف » أحد عظماء حكام « الفنيين » الذى لا يزال قبره محفوظا للآن على الضفة الغربية من شلال أسوان ومن أعظم أبطال هذا المضمار ــ وقد قام حر خوف ، بثلاث رحلات ــ داخل الأقطار الافريقية قبل وفاة سيده « مرن رع » وكان يحمل لقب « مدير القوافل » وقد قص علينا بنفسه المخاطرات المختلفة التى قام بها على قبره بكل دقة ــ حيث وصف لنا تفاصيل ثلاث رحلات ، تدل على أنه كان كاشفا عظيما فى عصره وانه يعد أول من فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام للتوغل فى مجاهل أفريقيا ، واستجلاب مختلف الخبرات منها ــ وسوف نسمع عنه من جديد فى عهد الملك الصغير الذى تولى زمام الملك بعد وفاة « مرن رع » .

مات « مرن رع » وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى وخلفه على العرش أخوه

« بيبى الثانى » وقد ذكر لنا « مانيتون » انه جاس على عرش البلاد وهو فى السادسة من عمره ، وقال انه حكم حتى بلغ المائة من عمره ، ومعنى ذلك أنه حكم ٩٤ سنة ، وقد أكدت الآثار هذا القول ، وهى أطول مدة حكمها أى ملك فى التاريخ الانسانى كله وكانت مدة حكمه مليئة بالبعثات الى البلاد الأجنبية وخاصة الفترة الأولى من حكمه — ففى السنة الثانية من حكمه قام « حرخوف » بحملته الرابعة وتعد مفخرته التى توجت حياته — وقد توغل فى داخل أفريقيا حتى توصل الى أقزام أواسط أفريقيا ، وافلح فى اقتناص قزم أو اغراء واحد منهم ليصحب القافلة الى البلاط المصرى .

وعندما بلغ خبر هذا القزم الى بيبى الثانى ، كتب لحرخوف يقول : « عد فى الحال الى البلاط نازلا فى النهر واترك كل شىء آخر ولتحضر معك هذا القزم الذى جلبته معك من بلاد الارواح حيا وسليما معافى حتى يقوم بالرقص المقدس وليسرى عن القلب وليسر فؤاد ملك الوجه القبلى والوجه البحرى نفر كارع عاش أبديا » .

وهناك نقوش اخرى لشخصين كبيرين أحدهما موظف كبير يدعى « بيبى نخت » وقد قام برحلتين احداهما الى بلاد النوبة والثانية نحو شمال البحر الأحمر .

أما الموظف الثانى الكبير فهو أحد عظماء أسوان ويدعى « سبنى » وقد قام بحملة شبيهة بحملة « بيبى نخت » لاحضار جثمان والده الذى مات شهيدا فى مجاهل أفريقيا فى بلاد الزنوج وهو يرتادها .

ولا عجب اذا استطال حكم بيبى الثانى ، أن يكثر فى عهده الرجال الذين ولوا الوزارة فى أيامه ، ووصلوا الى قمة السلطان ، ولعل أشهرهم زاو ، وابنه « أبى » وقد ترك كل منهما خلفه مقبرة قد سجل عليها الكثير مما كشف لنا عن روح العصر ومعتقداته . .

وكان مما جاء على مقبرة « ابى » :

« انى اعطيت خبزا للجائع ، وملابس للعريان . . وحبوبا وثيرانا وفلاحين من أوقافى » .

وخلف بيبى الثانى فرعون آخر يدعى مرن رع محتى لا نعرف شيئا عن حكمه — وقد عدت بردية تورينو ١٨١ سنة مدة حكم ملوك هذه الأسرة ، فذكرت أربعة ملوك جاءوا بعد بيبى الثانى — ولكن مانتون عندما كتب تاريخه عن مصر أنهاه بحكم ملكة أطلق عليها اسم نيتوكريس وقال عنها مانيتون أنها « أنبل وأحب نساء عصرها » وذكر هيرودوت قصة انتحارها حيث قام بعض المصريين بقتل أخيها .

وكيفما كان الحال فالاتفاق على ان نهاية الأسرة السادسة كانت غامضة ، ولم يعثر فى الآثار حتى الآن ما يكشف الستار عن حقيقة ما جرى .

سقوط الدولة القديمة :

والحق أن سلطة الفراعنة فى الأسرة السادسة ، كانت قد أخذت فى التدهور

شيئا فشيئا وخاصة فى عهد الفرعون « بيبى الثانى » الذى حكم البلاد اكثر من ثلاثة أجيال ، وقد رأينا كيف بدأ كبار الموظفين يخلدون أعمالهم ويبنون لأنفسهم المقابر بعيداً عن مقبرة الملك ، ويستولون على السلطة ـ حتى انتهى الأمر بانهيار السلطة المركزية وانفراط عقد الوحدة الذى دام الف سنة ، فعادت كما كانت قبل الوحدة ، الى عدة ولايات وامارات متطاحنة متضاربة .

وقد اعتبر ملوك الدولة المصرية القديمة عبر التاريخ المصرى القديم كله آلهة تعبد، وقد استمر المصريون يعبدونهم حتى الأسرة السادسة والعشرين فكانوا يثابرون على تعيين الكهنة برسم الاشراف على عبادتهم ، ولا عجب فى ذلك فقد كان هؤلاء الملوك هم الذين وطدوا أركان المملكة وحشدوا قواتها ووجهوها نحو العمل النافع المثمر . وآثارهم من المعابد والمقابر والأهرام المنتشرة على طول النظر لعدة أجيال تشهد لهم بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة فى الاعمال الآلية والأنظمة الداخلية ، وبناء السفن لعبور البحار وارتياد البلاد للكشف ، وكانوا هم الذين وصلوا الى أواسط أفريقيا ، وحسنوا فن الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيدوا أعظم العمائر ، وبرعوا فى سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا القوانين المتينة العادلة ، وأعدوا الرجال المتضلعين فى القضاء .

وكانوا هم واضعى أساس الديانة المصرية العتيدة التى تؤمن ببعث بعد الموت ، وحساب يثاب فيه المرء أو يعاقب على ما قدمت يداه .

وانتشرت مدنيتهم فى العالم المعروف فى ذلك الزمان فتأثرت بها كل المنطقة وتفاعلت معها .

ملاحظات على الدولة القديمة

كانت حياة مصر الاقتصادية تقوم على الزراعة التى تتأثر بالفيضان وقد قسمت السنة الى فصول ثلاثة كل واحد منها أربعة أشهر . وهى فصل الفيضان وفصل الانبثاق أو الازدهار حيث تكون الأرض قد ظهرت بعد الفيضان وتودع فيها البذور ، ويثمر الزرع ، وأخيرا فصل الجفاف .

وهذه الصورة لم تتغير سواء قبل عهد الاسرات أو بعد الدولة القديمة . وكانت الحكومة هى التى تقوم باستصلاح الأراضى . فقام نعرمر مينا بمثل هذا العمل .

وقد سجل المصريون مقاييس النيل من أيام الأسرة الأولى .

والمحصولات الرئيسية هى الشعير والقمح ـ وكانت هنـاك محاصـيل ثانوية كالخص والبصل واللوبيا والعدس .

وكان المساحون يأتون بعد أن تنمو الزراعة ـ الى ارتفاع معين ويقومون بتقدير الضرائب على الغلات المنتظرة .

وتحصد الحبوب بالمناجل ، وتقوم الحمير بعملية الدراس ثم تدوس المـاشية على السنابل ، وتقوم النساء بعد ذلك بالتذرية ، وتخزن الغلة بعد ذلك فى اكوام أو فى مخازن وبعد ذلك يعطى المالك أو صاحب الأرض نصيبه وكانت التقاوى تعـار للفلاحين ، كما تعار الحمير والثيران للقيام بعمليات النقل أو الحراثة ، وهناك بعض الوثائق التى تظهر تسامح بعض كبار الملاك مع الزراع الذين لم يقوموا بأداء ما عليهم من ضريبة نتيجة عوارض طبيعية .

وكان الفرعون هو مصدر القانون ويحكم بمراسيم كأنها قرارات أوحى اليه بها .

وبتقدم الحضارة المصرية وجدت وظيفة الوزير الذى يجتمع بالملك كل صباح ومساء ليرفع له تقريرا عن حالة البـلاد وكان الوزير هو القـاضى الأعلى ورئيس السجلات .

وكانت الادارة التى تعمل تحت اشراف الوزير مقسمة الى ادارات مختلفة ـ ادارة الخزانة وادارة الزراعة .

وبعد هذه الفترة المبكرة سنجد التصوير الأبدى لحالة الفلاح وهو اذ يصور بؤس الفلاح من ناحيـة ، فهو يظهر أن القلوب الرحيمة والأصوات قـد ارتفعت دائما لنصرته .

الا تذكر حالة الفلاح الذى تعب أمام جامع الضريبة الذى أتاه لتحصيل ضريبة الحصاد ـ وقد حصدت الحملة نصفه وابتلع فرس النهر النصف ، ان الثيران كثيرة فى الحقول والجراد قادم ـ ان العصافير تجلب الكارثة للفلاح ، ثم يهبط الكاتب الى شاطىء النهر وهو على أهبة تحصيل ضريبة الحصاد ـ والحجاب يحملون الدفوف ورجال الشرطة يحملون العصى ويقولون سلم الحبوب مع أنه لا يوجد شىء منها ـ ويضرب الفلاح فى كل أنحاء جسمه ويوثق ويرمى فى بئر ويغطس ويوضع رأسه الى أسفل ، ويوثق أمام زوجته بينما أولاده فى القيود (ص ٢٧٠ عبد الحميد زايد) .

هذا الحديث السابق ـ من أقوال الكتاب الذين يقومون بتعليم الأولاد فى الكتاب فى الريف .

ولكن الرسوم والنقوش على القبور تحمل صورة غير هذه فالفلاح يقوم بالغناء الجماعى أو الفردى ـ والصيادون والرعاة يقومون بعملهم فى جد ونشاط يدل على الاستمتاع والحيوية ، فهم يتحركون أو يحصدون فى صف واحد وقد لوحوا بمناجلهم بانسجام على لحن الأغانى بينما يعزف لهم حامل الناى ، وقد جاءت النسوة تحمل لهن الطعام .

وأما عن مركز المرأة فى الدولة القديمة كابنة اله أو زوج اله أو أم اله ـ وكانت الأم تسـيطر على الأسرة فى المجتمع المصرى وكان للفراعنـة حق الزواج بأكثر من واحدة ـ ولكن الزوجة الأولى تعتبر أغلى الزوجات ـ وهذا هو السبب فى زواج الأخ بأخته لتأكيد صفة الألوهية .

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر :

الفول ـ العدس ـ الحمص ـ البامية ـ الفاقوس ـ البطيخ ـ الكرات ـ الكرفس ـ الخص ـ البصل ـ الثوم ـ التوابل (الكزبرة ـ الكراويا ـ الكمون) ـ العنب (ويستخرج منه النبيذ ما بين أبيض وأسود) .

الرمان ـ الألياف ـ الكتان ـ وهناك من يقولون ان مصر عرفت القطن .

وشجر الزيتون .

والبردى .

أما آلات الفلاح فهى : المحراث ـ المحشة (المنجل) والاقسـاط والمطـارق والمجارف والمكانس والمناخل والغرابيل .

الحيوانات المقدسة (قبل الأسرات) :

الفهد ـ فرس النهر ـ الذئب ـ الفيل ـ وحيد القرن ـ الأسـد واللبوءة ـ التمساح ـ الصل أو الثعبان .

(الخنزير ـ الضبع ـ الدواجن) .

النحل .

الغنم ــ الحمار ــ الثور ــ الحصان ــ الجمل .

الكلب ــ القطة ــ النمس المصرى ــ فأر فرعون ــ القرد .

كان المصرى يعامل حيواناته برفق ، ويقودها الى الحقل وهو ينشد لها الأغانى .

كانت الحيوانات تعد كل عامين (حجر بلزم) .

وانواع السمك : البلطى ــ والبورى ــ القرموط .

وكان المصرى يعرف القوس والنشاب .

ويصنع الفخاخ لصيد الغزلان .

واستعمل الخية .

الأحجار التى عرفها :

ــ الحجر الجيرى .

ــ الحجر الرملى .

ــ حجر الجرانيت .

ــ حجر المرمر .

ــ حجر البازلت .

واستعمل فى غير البناء :

أحجار البرشيا الخضراء والحمراء وحجر الديوريت والدولوميت والظران او الصوان ــ واستعمل الجبس وحجر الشست والأردواز .

وكان تقطيع الأحجار السهلة يتم بفصل الكتلة المرغوب قطعها من جهاتها الأربع عن الصخر الأصلى وذلك بخوابير من الخشب وعروق مبللة بالماء والآلات التى تستعمل فى ذلك من المعدن فكان من النحاس حتى الدولة الوسطى حيث حل البرنز . ومدقات من الخشب ومطارق من الحجر . أما بالنسبة للاحجار القاسية ، فلا يزال الأمر محل تكهنات حيث قال البعض ان لا بد أن يكون المصريون قد عرفوا الصلب .. وان كان الأستاذ سليم حسن كدأبه فى تبسيط الأمور ، يرى غير ذلك .

أحجار الزينة الأحجار الكريمة :

العقيق ــ الحمشت ــ الزمرد المصرى الاخضر ــ حجر الدم (العقيق الأحمر) ــ العقيق الابيض (شمسى اللون) ــ المرجان وهو أبيض أو أحمر ــ حجر الأمزون (الفلسبار الأخضر) ــ حجر سيلان (أحمر قاتم) ــ حجر التملايت ــ حجر الدم

(اكسيد الحديد) ـ اليشم أو حجر الجاد ـ حجر البشت ـ اللازورد ـ ازرق قاتم ـ حجر الدهنج (التونيا) ـ اللؤلؤ ـ الفيروز .

المعـــادن :

النحاس ـ الذهب ـ الحديد ـ) على اختلاف وعدم تأكيد (والقصدير والفضة والرصاص ـ البرنز ـ (خليط من النحاس والقصدير) ـ والالكتروم (خليط من الذهب والفضة).

الأعمال فى الدولة القديمة :

١ ـ الأعمال الحكومية ـ فى الادارة ـ استغلال المناجم والمحاجر .

٢ ـ الأعمال الحرة كالحرف والصناعات وكانوا أحرارا غير تابعين لفرد معين او للحكومة وكانوا يعملون فى مقابل اجر يتفق عليه فى حرية .

٣ ـ اعمال الضياع العظيمة .

طرق المواصلات :

الاعتماد الأكبر كان على النيل ، والذى جعلهم أمة ملاحية منذ أقدم العصور ، ففى وقت الفيضان لم يكن ثمة سبيل للانتقال من قرية الى أخرى الا فوق الماء .

وكان الحمار هو مادة الحمل العادية.

النقـــود :

والرأى على أنهم عرفوا النقود ، فقد جاء فى احدى الوثائق اشارة الى الشعت الذى يعتبره المصريون معيـارا من المعدن . وينتهى سليم حسن من بحثـه باعتماد فكرة النقود .

تجارة مصر الخارجية :

عثر فى مقابر جبيل (بابلوس) على بعض آثار من طراز صناعة ما قبل الأسرات .

وذكر حجر بلفم علاقات مصر مع آسيا فى عهد سنفرو وقد عثر فى أساس معبد ببلوص على قطع اثرية منقوشة عليها أسماء ملوك من الأسرة الرابعة .

وتدل الكشوف على احتمال وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وخاصة كريت قبل عهد الأسرات .

والعلاقة وثيقة مع بلاد بونت .

العـــلوم :

كان المصرى ماهرا فى العلوم التطبيقية وفى المسائل الفنية ــ يقول هيرودوت ان علم الهندسة كان وليد الحاجة عند المصرى عندما أراد أن يقسم الأراضى الزراعية الى قطع منتظمة .

استعمل المصرى للمقـاييس السطحية الذراع والشبر والقبضة والأصـبع والقيراط . وكان المساحون الملكيون يقيسون الأرض بوحدة تسمى « ستا » وتساوى ٢٧٥٦ مترا .

وكان يستعمل الأرقام فى الحساب منذ فجر التاريخ قبل عهد الأسرات ــ ومنذ عهد الملك نعرمر كان يوجد فى مصر نظام الارقام بكل علاماته حتى العلامة التى تدل على الف .

وقد وجدت برديات تحتوى عمليات حسابية ولعل من أهمها ورقة (رند) .

علم الفلك :

وكان فى عين شمس كاهن خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرائى العظيم ، وفى المعابد جماعات كهنة لمراقبة سير النجوم .

وتقسيم السنة الى اشهر قمرية كل منها ثلاثون يوما اكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر . أما الأشهر القبطيـة ــ توت وبابة وهاتور وكيهك وتمثـل فصـل الفيضان .

ثم طوبة وامشير وبرمهات وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع النبت .
ثم بشنس وبئونة وأبيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف .

واليوم ينقسم الى اثنتى عشرة ساعة نهارا واثنتى عشرة ساعة ليـلا ــ وكان الوقت يعرف « بالمزولة » واستخدام الظل والفلاح يستعملها حتى الان .

وهناك ساعات مائية ــ أما فى الليل فيميز من النجوم .

وكان الى جوار علم الفلك ــ يوجد علم التنجيم .

الطب :

بدأ التحنيط منذ الأسرة الثانية (علم التشريح) وكان الأطبـــاء متخصصين ــ اعين ــ باطنى ــ أسنان ــ وكانت هناك كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامســة وهناك برديات وأهمها بردية سميث ، ويظهر منها أن الطب لم يرتكز عـلى مجرد التعاويذ السحرية وهى بحث فى الجراحة ــ وطب الجراحة ومعــالجة الأمراض الظاهرة والتشريح .

والمعلومات مرتبة ترتيبا علميا منطقيا حيث فحص مؤلفها الجسم الانسانى من الرأس الى القدمين ورتب مادتها وقد دون بها عشر حالات عن الجمجمة وتسعا عن الأنف وعشرا عن الفك والأذن والشفتين وست عن الزور والرقبة وخمس عن الترقوة والكتف ومشط الكتف وست عن الصدر ومقدمته ، وواحدة عن العمود الفقرى .

نظام الأسرة فى الدولة القديمة :

المساواة فى الميراث بين الأولاد ـ الابن الأكبر كان يتولى ادارة الوقف .

كبرى البنات تقدم لوالدتها القربان .

الزوجة تمثل بحجم زوجها فى غير المناظر الرسمية .

والابن الأكبر فى مناظر تمثيل الأسرة يشعر بسيطرة على امه الارملة .

العهد الانتقالى الأول

٢١٨١ ــ ٢٠٤٠ ق٠م

«العهد الانتقالى الأول ــ الأسرة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة » .

«ملوك ضعاف يحكمون فى منفيس ــ الأمراء فى مصر العليا يؤلفون أسرات حاكمة خاصة بهم ــ الآسيويون والليبيون فى الدلتا » .

قيام أسرة هيركلوبونيس (الأسرة التاسعة) : خيبى الأل ــ ١٢ ملكا حكموا الشمال ــ أمراء طيبة أحرزوا تأييدا وتغلبوا على اهناسيا » .

يعد العصر الذى تلا الأسرة السادسة الى ظهور الأسرة الحادية عشرة من أظلم العصور فى تاريخ مصر ، وقد اختلف المؤرخون فى تقدير طول هذا العصر فقدره ريزنر بـ ٣٤٤ سنة من بداية الأسرة السابعة الى الحادية عشرة وقدره بريستيد بنحو ٣١٥ سنة من الأسرة السابعة الى العاشرة .

ويظن البعض (الأستاذ بترى) أن الوجه البحرى وجزء من الوجه القبلى قد غزيا فى نهاية الأسرة السادسة ، بأقوام جاءوا من الشمال الشرقى .

وثمة شواهد دل عليها الأدب الذى بقى من هذه الفترة على أن ما يشبه أن يكون أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ قد شبت لظاها فى مصر ، حيث قام الشعب على حكامه فقتل وحرق ونهب وخرب .

ويقول لنا مانيتون أن هذه الأسرة كانت تضم سبعين فرعونا حكموا سبعين يوما ، وربما كانت هذه اشارة من مانيتون على ما ساد مصر من الفوضى .. أو انها انقسمت الى عديد من الامارات التى تسمى كل واحدة فيها بفرعون .

ثم ظهرت أسرة جديدة هى الأسرة الثامنة وقد ذكر مانيتون أن ملوكها كانوا ثمانية عشر دون أن يذكر أسماءهم ــ أما ورقة تورين فقد ذكرت أسماء ملوك ثمانية ــ بينما ذكرت قائمة العرابة اسماء سبعة عشر منهم ، أما قائمة سقارة فلم تذكر اسم واحد بعد بيبى الثانى الى أوائل الأسرة الحادية عشرة أى أنها أهملت الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة .

أما الآثار فلم تذكر لنا شيئا عن هذه الحقبة يشفى الغليل .

٢١٦٠ ـ ٢٠٤٠ ق٠م الأسرتان التاسعة والعاشرة :

وكان مقر حكمها مدينة هيراكليوبوليس (اهناس المدينة ببنى سويف) وقيـل أن ملوك هاتين الأسرتين من أصل ليبى نزحوا الى مصر من ناحيـة الفيوم ، وتولوا الحكم بعد اغتصابه من الأسرة الثامنة المنفية .. وكان يمكن أن لا نعتمد شيئا عن هذه الأسرة لولا النقوش التى دونها امراء أسيوط على جدران قبورهم ، وقد كانوا معاصرين ومحالفين لحكام هاتين الأسرتين ، وساعدوهم على نشر نفوذهم (الأسمى) على البلاد .

ومؤسس هـذه الأسرة هو الملك « خيتى الأول » وقد كانت اه شهرة سـيئة فى التاريخ حسبما جاء فى الروايات التى رواها لنا عنه مانيتون ، وكررها من بعـده المؤرخ الاسكندرى ارستاتونيس ، من انه من بين الفراعنة التسعة عشر الذين حكموا فى أهناس نحو ٤٠٩ سنة كان خيتى الأول هذا أسوأ أسلافه وقد أنزل الضرر بكل سكان مصر وانتهى امره بأن جن جنونه واغتال حياته تمساح .

وكانت مصر فى هذه الفترة منقسمة الى ثلاثة أقسام ـ فالدلتا كانت فى قبضة الآسيويين ، بينما تمكن الأهناسيون بمسـاعدة امراء أسيوط من اخضـاع مصر الوسطى ـ أما الصعيد فقـد التف حول أمراء طيبة ، الذين شرعوا ينازعون ملوك أهناسيا السلطان بالتدريج .

وقد حكم خيتى الأول ٢٢ سنة ..

ثم حكم بعده خيتى الثانى الذى لانعلم عنه سوى انه مات فى سلام ودفن فى قبره .

ثم تلاه « خيتى الثالث » ومنذ اعتلائه على أريكة البـلاد قام بينه وبين أحد البيوتات الكبيرة فى الجنوب نزاع كان له خطره عليه وعلى خلفائه من بعـده وعلى مستقبل العـالم المتحضر فى تلك الفترة . وكان مقر حكومة هذا البيت العظيم بلدة « طيبة » وكان حاكمها هو أنتف العظيم (أنتف عا) ابن انتف الأول مؤسس هـذا البيت .

وكانت طيبة فى ذلك الوقت مدينة صـغيرة لا تقارن بمـدن الشمال وقد كتب خيتى الثالث وصيته لابنه خيتى الرابع ويملى عليه تجاربه ، وقد وصلت الينا هـذه الوثيقـة فالقت لنا ضوء على النزاع الذى وقع بين فرعون اهناسـيا وحاكم طيبة « انتف » ، والذى بدأ بعدوان جنود الملك على العرابة المدفونة وانتهكوا حرمات القبور المقدسة ، مما جعل الرأى العام يشتعل غضبا ضد خيتى الثالث وجنوده ، وقوى نفوذ انتف وعلى الرغم من أن بعض امراء أسيوط حلفاء ملك أهناسيا يتحدثون عن هزيمة انتف مرتين واغراق أسطوله النهرى فى النيل ، ولكنا نراه منتصرا فى خاتمـة المطاف وعقد صلحا مع فرعون لا يدفع له بمقتضـاه الجزية ويحق له استخراج ما يلزمه من حجر الجرانيت من محاجر أسوان . ومات انتف العظيم وخلفه اثنان من الأمراء حكم كل منهما فى عهـد خيتى الرابع مدة قصـيرة ثم خلفهما فرعون يدعى « منتحتب الثانى » وقد جاء فى نقوش له عثر عليها فى الجبلين انه قبض على أمراء

الأرضين وانه المسيطر على الجنوب والشمال وعلى الأرض المرتفعة وعلى القطرين وعلى قبائل البدو التسع والأرضين — ومعنى ذلك انه كان قد أسقط أسرة أهناسيا العاشرة مبتدئا حكم الأسرة الحادية عشرة التى يمكن اعتبارها بدأ الدولة الوسطى .

الأدب فى فترة الانتقال :

ولكن اذا كان تاريخ مصر السياسى فى هذه الفترة مضطربا ومشوشا ، انحلت فيه وحدة البلاد ، فان أجمل أثرين ادبيين بين أيدينا الآن هما من هذه الحقبة .

فأما أول الأثرين ، فهو قصة الفلاح الفصيح التى لدينا منها اربع نسخ اطلق عليها علماء الآثار « سكارى » وهى تؤلف كتابا مثالا فى البلاغة والفصاحة ، وتدور حول موظف، كبير اغتصب حمير فلاح بائس بحمولتها فقصد الفلاح الى مدير بيت الملك وقدم له شكوى مكتوبة وقد أعجب مدير بيت الملك بأساوب الشكوى فعرضها على الملك الذى أعجب بها بدوره وطاب من مدير بيته ، ان يسكت عن الفلاح فى الوقت الذى يمد فيه زوجته واهل بيته بالطعام دون أن يشعر الفلاح .. فراح الفلاح ينهال بالشكاوى واحدة اثر أخرى حتى بلغت ثمانية وهى تعطينا صورة دقيقة بما كان يجرى فى هذا العهد من المظالم .

أما الوثيقة الثانية فهى وصية خيتى الثالث لابنه .. يتحدث لأول مرة فى التاريخ حديث الندم ، فهو لم يعد الآله ، بل الانسان الذى يحس بذنوبه . حيث راح يوصى ابنه بمصانعة أهل الجنوب .. وفى حديثه ايماء لسياسة عدم العنف حيث يقول لابنه محذرا منه « ان الضربة انما تقابل بالضربة » .

ويشيد بقوة السياسة (الحوار والحجة والمنطق) « قوة المرء فى لسانه وان الحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال » .

« اعمل على اقامة الحق طول عمرك وخد بيد الحزين والبائس ولا تظلم أرملة ولا تقتل ، فالقتل لا يفيد » .

لا تنظر الى الرجل العظيم على حساب الرجل الفقير بل عامل كلا على حسب أعماله وكفاءته .

واعبد الله وعظمه — ان الله يتقبل أعمال الصالحين وهى أفضل من اى تقدمه أو قرابين — الله يعلم ما تسره وما تعلنه هو راعى الناس ، خالق السموات والأرض وما بها من ماء للظامىء ، وهذا الهواء ليحيا به الناس .. ثم يختم نصائحه بقوله « أرع الدنيا كلها تحبك » .

والوثيقة الثالثة — بردية محفوظة بمتحف برلين وهى تصور شجارا وقع بين انسان كان قد سئم الحياة وبين روحه ، فالرجل يريد أن ينتحر والروح تأبى عليه وتروح تصف له فظائع القبر حيث ترى بذور الشك فى الحياة الآخرة والثواب والعقاب ، وعدل الآلهة واضح وجلى « اذا تذكرت الدفن فانه حزن ، وذكراه تثير

الدمع وتفعم القلب حزنا ، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل ولن تخرج قط لترى الشمس أن هؤلاء الذين بنــوا بالجرانيت الأحمــر واقاموا حجر دفن فى الهرم ، وهؤلاء الجميلون الذين شيدوا هذا المبنى الجميل وأصبحوا مثل الآلهة ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم . فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويبعث بهم . أصغ الى أنه لجــدير بالناس أن يصغوا ، تمتع بيوم سرور وانسى الهموم .

وهكذا مع زوال عهـــد الملوك الاقوياء .. تجلت كما هو الشأن روح الشعب ، أو ما يمكن أن نصفه فى عصرنا الحديث بالديمقراطية أو الاشتراكية .. وعلو شخصية الانسان الفرد .

الفصل الرابع

الدولة الوسطى

الأسرة الحادية عشرة

٢١٣٣ – ١٩٩١ ق.م :

ثلاثة أو أربعة من مصر العليا يسمون أنتف أو منتوحتب بما فيهم منتوحتب الثانى نب تاوى رع – منتوحتب الثالث سانخ كارع – منتوحتب الرابع نب تاوى رع.

منتوحتب الثانى وحد مصر ٢٠٠٠ ق.م وطرد الآسيويين من الدلتا – استئناف التجارة مع آسيا وبونت . أعاد فتح النوبة ثانية .

أسس هذه الأسرة انتف عا أى أنتف العظيم حاكم طيبة فى بدء صراعه مع ملوك أهناسيا ، وأخذ النزاع يشتد ويزداد عدد البلاد التى كان يستولى عليها ، يوما بعد آخر ولم تكن طيبة التى اتخذت عاصمة لهذه الأسرة الجديدة الا قرية صغيرة ولم تكن عاصمة الاقليم الذى تقع فيه اقليم (واست) والكلمة تعنى الصولجان ، فقد كانت عاصمة ارمنت ، ومع ذلك فقد بدأ اسمها يظهر فى تاريخ مصر ابتداء من ذلك العصر وبدأ شأن الهها آمون يرتفع ومعبده الصغير يكبر .

وبعد وفاته تولى ابنه أنتف الثانى لواء الثورة على اهناس ، ولكنه لم يصل بها حتى نهايتها وأقام لنفسه مقبرة بجوار الدير البحرى .

وتولى بعده أنتف الثالث الذى أخذ فى استكمال القبض على ناصية الملك ، فاستولى على البلاد من ابيدوس شمالا ، حتى نهاية الشلال .

وولى الحكم بعده ابنه أنتف الرابع ، الذى واصل نضاله ضد ملوك أهناسيا .

ثم وصل الى الحكم منتوحتب الأول ، وكان معاصرا لخيتى الثالث ملك اهناسيا ، فدارت بينهما المعارك التى أشرنا اليها .

وأخيرا تربع على العرش منتوحتب الثانى الذى دام حكمه خمسين سنة ، وفى عهده كسر شوكة الملوك الأهناسيين نهائيا . ووحد القطرين فى دولة واحدة مرة اخرى ، وتسمى ٢٠٠٩ ق.م بموحد الأرضين وملك الوجهين البحرى والقبلى ، وبنى ذلك المعبد الجميل على صخور طيبة الغربية والذى استوحاه من هيئة اهرام الدولة القديمة ومقابر عصره المنحوتة ذات الأبهاء التى شادها سلفه القريب للأناتفة وعدل فى هذه وتلك وخرج منهما بأسلوب مبتكر خلدته فيما بعد حتشبسوت عندما شيدت معبدها بالدير البحرى . وسجلت أعماله على كثير من آثار هذه الحقبة .

ثم تولى الملك بعده منتوحتب الثالث ، ويبدو أنه كان شارك ايام ابيه فى حرب الأهناسيين اذ سجلت الآثار منظره وهو فى لباس الحرب وعدته ، لأنه فى مدة حكمه التى استمرت اثنى عشرة سنة ، كانت حكمها سلام وتوفيق ، وخلفه ابنه منتوحتب الرابع ، ثم الخامس ويظهر ان الخلاف بدأ يدب بين أفراد الأسرة حول وراثة العرش ، ولذلك فقد كان هذا الملك هو آخر أفراد هذه الأسرة ، اذ استطاع وزيره امنمحات أن يستولى على الملك مؤسسا بذلك الأسرة الثانية عشرة .

ولعل أوضح ما يذكر من النشاط الاقتصادى للأسرة الحادية عشرة هو اتجاهها نحو استعادة الاستثمار الواسع لموارد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وما بهما من مناجم ومحاجر واستعادة الاتصـــال الواسع ببلاد النوبة وبلاد بونت وكان ذلك كله يستدعى ضربا من ضروب المخاطرة والبسالة فلدينـــا من الآثار الأدبيـــة عن هذه الفترة قصة « الملاح الغريق » وان كان الأجدر بها أن تسمى « نجاة الملاح » وهى تروى قصة مغامرة أحد رجالات البلاد الذى كلفه الفرعون بالقيام بمهمة فيما وراء أرض واوات .

جعلت القوائم الملكية سفنخ كارع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة ــ وقد ذكرت بردية تورين أن فترة حكمه دامت اثنى عشر عاما ــ وأضافت بعده سبع ســنوات لم تنسبها الى ملك معين .

الأسرة الثانية عشرة

١٩٩١ – ١٧٨٠ ق.م :

ثمانية ملوك – امنمحعت الأول – سنوسرت الأول – امنمحعت الثانى – سنوسرت الثانى – سنوسرت الثالث – امنمحعت الثالث – امنمحعت الرابع – الملكة سوبيك نفرووع .

العهد الذهبى للفن – والصناعات اليدوية – عودة الازدهار الى مصر – مقابر الأمراء الأثرياء – نقل العاصمة من طيبة الى الفيوم – تجارة كثيرة مع فلسطين وسوريا – غزو النوبة السفلى واتمامه – الرى واستصلاح الأراضى فى اليوم .

صادفنا امنمحات فى أيام حكم منتوحتب الرابع ، حيث كان وزيرا له ، وترك آثار بعثاته التى قام بها لسيده ومولاه . وهو لا ينحدر من سلالة ملكه ، فقد كان والده من العامة يدعى سنوخرت ولكن مهارته وقدرته . قد مكنته على ما يظهر أن يلى اريكة الملك .

فان مهارة ودهاء امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة هو الذى مكنه من أن يخضع حكام الاقطاع لسلطانه وأن يكون له فضل كبير فى أعطاء مصر عصرا يعتبر من عصورها الذهبية . وقد قضى على الفوضى التى عمت البلاد ونشر السلام فى أطنابها – ويشبهه دورانت مؤلف تاريخ الحضارة بشرلمان فى عصور أوروبا القديمة اذ قبض بيد من حديد على زمام الأمور وأعاد النظام الى البلاد .

وهو أول من احتضن المعبود آمون (الخفى) الذى لم يكن معروفا بين آلهة الدولة القديمة ، فسماه « آمون رع » وجعله رب الارباب ، ليصرف سكان المنطقة عن عبادة « مثنو » الذى كان معبود أمراء طيبة . وما زال يرعى آمون الذى بدأ يعلو نجمه فوق بقية الآلهة حتى وصل الذروة كما سنرى فى الدولة الحديثة .

وكان من حكمة امنمحات الأول ، انه لم يتخذ طيبة عاصمة لملكه حتى لا يصادم عواطف القوم ، كما لم يتخذ منف عاصمة له ، أو اهناسيا . انما اتخذ عاصمة جديدة فى اللشت وكانت تبعد ثمانية عشر كيلو الى الجنوب من منف وكانت تسمى « ايثت تاوى » أى منشأ الأرضين ليكون قريبا من الشمال .

وقد سعى لحكم البلاد حكما مطلقا ، كما فعل ملوك الدولة ، القديمة ، ولكن تغير

الأحوال الكبير الذى تم خلال الظروف الأخيرة ، وخاصة بعد قيام الثورة الاجتماعية ، وظهور الفردية والروح الديمقراطية ، كان يستحيل معه العودة الى النظام القديم . فمناظر قبور بنى حسن الجميلة المنحوتة فى الصخر (فى اقليم الوعل) يظهر لنا مدى ما وصل اليه حكام الاقاليم من قوة ونفوذ ، ما كان يمكن أن يتمتعوا به فى عهد الدولة القديمة .

ومن الرسوم التى وجدت فى هذه المقـابر فى قبر « حنوم حتب » حاكم اقليم الوعل صور هذه القبيلة الكنعانية التى بلغ عدد أفرادها ٣٨ من ذكر وأنثى بملابسهم المزركشة ولحى رجالهم المرسلة ، يتقدمهم زعيم لهم يدعى « بشاى » حاكم البلاد الأجنبية .

وقد قرن بعض المؤرخين بين هذه المنـاظر وما روته التوراه عن مقدم سـيدنا ابراهيم الى مصر .

غير أن مؤرخين آخرين يجعلون مقدم ابراهيم أيام أمنمحعت الثانى (١) .

ومن الواضح أن أمنمحات اعتمد على حكام الأقاليم ، ولم يحاول أن يلغى سلطان الحكام الوراثيين ، بل أعاد لهم الكثير من كرامتهم وامتيازهم . وفى العام العشرين من حكمه رأى من الخير أن يشرك معه ابنه سيزويستريس أو سنوسرت (وكانت تقرأ خطأ اسرتسن) فحكما معا عشر سنوات . وقد كانت هذه سنة اتبعها كل خلفاء أمنمحات فأشركوا أولادهم معهم فى الحكم قبل وفاتهم .

وفى فترة هذه المشاركة وتحت اشراف سنوسرت احتل المصريون النوبة السفلى حربيا . وامتد الفتح فى العام التاسع والعشرين حتى كرسكو .

وقد ترك أمنمحات لولده سنوسرت الأول تعاليم تعطينا صورة واضحة صادقة عن هذا العهد ، ليس فقط فى السياسة الخارجية ، بل وفى سياسة أمنمحات الداخلية وقد لا تكون هذه التعاليم من وضع أمنمحات نفسه وأيا كان الحق فى هذه النسبة . فذلك لا يقلل من شأن أهمية هذه الوثيقة التاريخية .

ويستدل من هذه الوثيقة على أن أمنمحات كان محل مؤامرة فى أخريات حياته ، ولكنه استطاع أن ينجو منها ، وان كانت قد تركت فى نفســه مرارة شديدة فهو يقول لابنه :

« أنت يا من ظهرت الها ، اصغ الى ما أقوله لك لكى تكون ملكا على البلاد وحاكما على ضفاف الأنهر ، ولكى تصب الخير الوفير تمنع على مرؤوسيك لئلا يقع ما لا يحسب . لا تدن منهم فى وحدتك . لا تملأ قلبك بأخ أو صديق ، ولا تجعل لك خلصاء ذلك مما لن تحمد عقباه ــ لقد أعطيت الفقير وآويت اليتيم ولكن الذى أكل زادى هو الذى قاد جندا ، والذين ارتدوا أفخر ثيابى هم الذين نظروا الى كخرقة بالية » .

(١) موكب الشمس ص ٢٤٤ الجزء الثانى .

ولعل هذه النصائح هى بذاتها بعض ما كان ماكيافللى يوصى به الأمير ، مما يدل على ان فن الحكم المطلق ، صورة تتكرر فى كل زمان ومكان .

وقد وصل نعى أمنمحات الأول الى ابنــه ، وهو يحارب الليبيين على الحدود الغربية فلم يخبر الجيش بالخبر واسرع من فوره الى اث توى مقر الحكم وتسلم مقاليد الحكم .

أما الوثيقة الأدبية الثانية التى خلدها التاريخ فهى قصة سنوحى ، وهو أمير مصرى ، فر هاربا من مصر لسبب مجهول وأقام فى آسيا بعض سنوات ، ولكنه ظل طوال الوقت يحن للعودة الى مصر ، حتى بلغ خبره مسامع سنوسرت الأول فرعون مصر ، فكتب له يقــول « انك غادرت البــلاد برغبتك ، ولم تتحدث بسوء حتى تحاسب » .

واصدر فرعون رغبته لسنوحى أن يعود الى مصر معززا مكرما . وعندما وصل سنوحى الى حضرة الفرعون قال له « ها قد رجعت الينا بعــد أن طويت الأقطار واصبحت شيخا كاملا » .

١٩٧١ ق.م ــ سنوسرت الأول :

بدأ تولى سنوسرت الأول العرش بالاشتراك مع أبيه ، واذا كنا نعلم انه حكم عشر سنوات فى حياة أبيه ، فان انفراده بالعرش بدأ عام ١٩٦٢ ق.م .

وقد بلغ العمران فى عهده الى الأوج ، فقد وجد آثار من عهده فى ٣٥ منطقة موزعة على الوادى من الاسكندرية حتى الجندل الأول ، ومن أهم أعماله انشاء معبد عين الشمس ، اذ جعل الفضل فى وصوله الى العرش للاله « رع » ، وقد زالت آثار هذا المعبد الكبير ولكن مسلته العظيمة لا تزال قائمة حتى اليوم (فى المطرية) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدما وهى مكونة من كتلة واحدة من الجرانيت الوردى ، وقــد نقش عليها اسم سنوسرت الأول ، وأقيمت بمناسبة عيد سد وهو العــام الثلاثين لتوليه العرش .

واستتب الأمن فى عهده ــ ووصــل سلطان مصر الى ما بين الجندل أو الشلال الرابع والثالث حيث تقع ارض كوش .

واستؤنف عمليات استغلال المنــاجم والمحاجر على أوســع نطاق ، حتى لقــد بلغ الأمر الى ايفاد بعثة الى وادى الحمامات مؤلفة من سبعة آلاف رجل لقطع كتل حجرية خاصــة لتشييد تمثال لأبى الهول غير مائة وخمسين تمثــالا آخر . كمــا استخرج الذهب بكثرة .

وساد العدل فى وقته كما يتجلى ذلك مما قاله آمتى حاكم اقليم الوعل حيث يقول « اننى لم أظلم أرملة ، ولم أحتقر فلاحا ، ولا راعيا ، ولم أسخر عمالا فى أى عمل ، ولم يوجد فقير فى أرضى ولا جائع فى عهدى ، ولما ان جاءت سنى القحط قمت

بحرث كل اقليم الوعل الى الحدود الجنوبية والشمالية ولم يبق جائع فيها ، واكرمت الارمل والزوجة بدرجة واحدة ، ولم أخير الغنى على الفقير فى كل ما قمت » .

وسواء صدق حاكم آمتى فيما قال .. أم ان هذا الذى سجله على قبره هو من نوع التفاخر والادعاء المألوف الذى لا يتفق مع الحقيقة فى كثير من الأحوال .
(مقال عبد الحميد زايد)

فان هذا النص شاهد ، على وجود دستور للحكم الصالح يحث الحاكم أن يتصف به . ويقوم على العدل وتأمين جميع المحكومين من الجوع والمرض والخوف .

وبنى سنوسرت لنفسه هرما فى الجهة الجنوبية من المعبد الذى بناه والده . وقد نهب اللصوص هذا الهرم . ومات بعد أن حكم ٤٦ سنة . واشرك ولده معه فى اربع سنوات .

١٩٢٩ ق.م – امنمحات الثانى :

بدأ تولى امنمحات الثانى الملك ابان حياة أبيه ، وقد جرى على سياسة أبيه وأشرك معه فى آخر حكمه ابنه « سنوسرت الثانى » لمدة ثلاث سنوات ، وتقدر حكم هذين الملكين بخمسين عاما ، لبست مصر خلالها حلل الرخاء والسعادة والرفاهية ، حيث فتحت مناجم وتوطدت العلاقات التجارية مع بونت . وأصبح السفر الى بلاد الصومال مسألة عادية ومألوفة لدى المصريين ، ويحفظ لنا الأدب من هذه الفترة قصة بحار مصرى تشبه قصة السندباد البحرى فقد غرقت السفينة فهلك كل من كان عليها ، الا بحار واحد ، يقول عن نفسه : « ثم دفعت بى موجة الى جزيرة ، وامضيت ثلاثةأيام وحيدا ، اذ لم يكن فى صحبتى الا قلبى ثم سمعت صوتا كالرعد واعتقدت انها موجة بحر ، ولما كشفت الغطاء عن وجهى وجدت انه ثعبان اخذ يقترب منى يبلغ طوله ثلاثين ذراعا ، وأما لحيته فيبلغ طولها خمسة أذرع ، وقد طلا جسمه بالذهب ، ثم سألنى « من احضرك الى هنا (وكرر ذلك ثلاثا) » .

وهكذا تمضى القصة ، التى يكاد يرجح الانسان انها كانت هى الوحى لقصص السندباد التى اشتهرت فى العربية بعد ذلك بألوف السنين .

وكانت علاقة مصر بآسيا فى هذه الفترة علاقة ود وصفاء .

وقد كشف فى بلدة طود فى مصر العليا عام ١٩٣٦ عن كنز فى أساس معبد يرجع الى الأسرة الثانية عشرة ومن أيام امنمحات الثانى وهو عبارة عن صناديق مصنوعة من البرونز عليها اسم امنمحات الثانى وبداخلها أوانى ذهبية وفضية بلغت حوالى مائتى اناء وكذلك سبائك من الذهب والفضة ، وقد لاحظ البعض تأثرا واضحا فى صناعة هذه الأوانى (بالفن الايجى والبابلى) مما ينطق بعمق تأثر المنطقة كلها بحضارات ذلك العهد .

وقد أقام هرما جنوب سقارة بناحية دهشور : وكان باطن الهرم مقاما باللبن وكسى

من الخارج بالحجر الجيرى ، وقد سلب قديما ، ومما يؤسف له اننا لم نعثر لهذا الفرعون على مبان كثيرة غير انه قام باصلاح دور العبادة التى تهدمت . وكان اداريا حازما استطاع ان يسيطر على حكام الاقاليم . وقد جاء ذكر ذلك على قبر امير اقليم انوعل . وبعد أن جلس امنمحات الثانى على عرش البلاد ٣٥ سنة اشرك ابنه « سنوسرت الثانى » ، وقد وجد ذلك منقوشا على صخر عند الجندل الأول .

١٨٩٧ ق.م :

اشترك سنوسرت الثانى فى الحكم مع والده ــ وقد جاء فيما كتبه مانتون عنه ، انه كان من أطول الملوك قامة اذ بلغ أربعة اذرع وثلاثة اشبار واصبعين ــ ولم يدم حكمه طويلا فلم يجلس على العرش اكثر من تسع عشرة سنة ضمنها الفترة التى اشترك فيها مع والده .

ولم يكن يميل للخروج الى الحرب ، ومن أجل ذلك حاول النوبيون الخروج عليه ، وراحوا يهددون الحدود الجنوبية ــ وقام بنشاط عمرانى كأسلافه .

ووصل حسن الجوار مع البلاد الآسيوية المجاورة ، أن يرى مسجلا على جدران مقبرة « خنوم حتب الثانى » ، قدم جماعة من العامو وعددهم ٣٨ يحملون الجزية من الكحل وغزال ألبت وكان رئيسهم يدعى بحاكم البلاد الأجنبية ، وعلى وجوههم مسحة سامية (يقول عبد الحميد زايد ــ وليس لهذه الجماعة علاقة بدخول يعقوب وأولاده الى مصر ، أو بدخول ابراهيم وأسرته) .

والجدير بالذكر ان الآسيويين كثر مجيئهم الى مصر ايام الأسرتين الثانية والثالثة عشر ، رجالا ونساء فى اعداد كبيرة يعملون فى منازل الأغنياء .

وقد أقام سوسرت الثانى لنفسه هرما باللاهون عند مدخل الفيوم وقد اقامه فوق صخرة واكمل بناءه بالأحجار واللبن وكساه بالحجر الجيرى .

ويرى البعض أن سنوسرت الثانى هو الذى بدأ المشروع الكبير الخاص بالتحكم فى مياه النيل عند الفيوم واستغلال المياه فى رى الأراضى ــ وقد أتم خلفاؤه من بعده هذا المشروع وخاصة حفيده امنمحات الثالث .

١٨٧٨ ق.م ــ سنوسرت الثالث :

ولى الملك سنوسرت الثالث ، الذى يعتبر علما من أعلام التاريخ ، حيث اثبت انه رجل حرب وادارة ممتاز فى نفس الوقت ، فقد واصل جهوده فى بلاد النوبة حتى اخضعها نهائيا لسلطانه وجعلها جزءا من مصر بصفة نهائية ، وأعاد شق الترعة التى كان « أونى » قد انشأها فى الدولة القديمة بين صخور الشلال الاول سميت باسم طريق سوسرت الجميل ، وشيد عند آخر حدود النوبة بسمنة قلعة كبيرة بنيت على ربوة لا تزال باقية حتى الآن .

وقد بلغ عدد القلاع التى بناها فى بلاد النوبة أربع عشرة قلعة وأقام بكل هـذه القلاع معابد تقام فيها الصلوات لآلهة هذه المناطق ولما جاء « تحتمس الثالث » بعده بثلثمائة وسبعين عاما أعاد الاحتفالات التى كانت تقام فى دور العبادة ببلاد النوبة واله سنوسرت الثالث ، كما ان عامة الشعب قدسوه .

وفى عهده بدأ على ما يبدو أول اصطدام حربى مع سكان آسيا (فلسطين) فقد أرسل أحد قواده المدعو « سبك خو » على رأس حملة الى فلسطين ، وقد ذكر انه تقدم شمالا للقضاء على البدو الآسيويين وبلغ مدينة سكمم وكانت تقع فى قلب فلسطين ، وقضى على أهل رتنو .

ومن أعماله العمرانية الخالدة ــ حفر قناة فى شرق الدلتا وصل بها ما بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى طميلات والبحيرات المرة وتعد هذه القناة أقدم محاولة لربط البحرين الأبيض بالأحمر ، فقد كانت السفن الآتية من البحر الأبيض تشق طريقها فى النيل ثم الى هذه القناة ومنها الى البحر الأحمر ، فتواصل طريقها الى بلاد بونت « الصومال » .

وقد حكم سنوسرت الثالث أربعة وثلاثين سنة ولما تقدم به السن أشرك معه ابنه امنمحات الثالث ودون ذلك على جدار معبد مدينة ارسينو بالفيوم ــ وحكم بالاشتراك مع ابنه بعد ذلك أربع سنوات .

١٨٤٢ ق.م ــ امنمحات الثالث :

حكم امنمحات الثالث ، وقد سمى باسم نى ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمسة وأربعين سنة مرت على مصر فى هدوء وسلام وملئت بالمشاريع الكبرى العمرانية .

كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الرى الذى ابتكره للوجه البحرى بأن اتخذ من منخفض اقليم الفيوم الذى ينخفض فى بعض أجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدما خزان للماء حيث لاتزال بحيرة قارون آية على ذلك فشيدوا على الفتحة فى سلسلة جبال ليبيا التى تربط وادى النيل بمنخفض الفيوم ــ سدا عظيما ، فنشأت هذه البحيرة الهائلة فى التاريخ التى عرفت باسم بحيرة موريس ، والتى كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق ، أشبه بخزان اسوان أو السد العالى فى عصرنا الحديث . .

وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فهو قد أنقذ الفيوم من الفرق الذى كانت تتعرض له كل عام ، واستصلح أراضى زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحاريق .

ومن الأعمال العمرانية العظيمة التى تنسب الى امنمحات الثالث ، القصر العظيم الذى أطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت وكان طوله يبلغ الف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهدا دينيا واداريا ، وحوى مجموعة من الحجرات بقدر عدد

أقسام مصر وفى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنسوبة اليه .

وأيا كانت رغبتنا فى الايجاز بقدر الامكان فلسنا نستطيع مقاومة النقل عن هيرودوت وصفا لهذين الأثرين ونعنى بهما بحيرة موريس وقصر اللابيرانت ، فقد رآها رأى العيان ووصف ما رأى عامة وسجل انبهاره .

« ان اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان اذ لو قدر لامرىء أن يجمع معرضا للمبانى والآثار الفنية التى شيدها اليونانيون لبدت عملا أقل من هذه اللابيرانت » .

واذا كانت الأهرام تجل عن الوصف ، فان اللابيرانت تفوق الأهرام ــ وبه اثنا عشر بهوا مسقوفا ، مداخلها متقابلة ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة تحيط بها سور خارجى واحد ــ وهناك نوعان من القاعات بعضها تحت الأرض وبعضها فوق سطح الأرض وعددها ثلاثة آلاف قاعة خمسمائة وألف من كل نوع . ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التى فوق سطح الأرض وجسنا خلالها وانا لن نتمكن من التعبير عما شاهدناه بأعيننا من أعمال تفوق طاقة البشر . فالممرات خلال الردهات والمتعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الابهاء كانت مصدر اعجاب لا حد له . وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ــ والجدران ممتلئة بأشكال محفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة باتقان فائق .

ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس :

« ومع ان اللابيرانت على هذه الدرجة من العظمة » لكن البحيرة المسماة ببحيرة « موريس » والتى بنى اللابيرانت بالقرب منها تثير اعجابا أشد ــ وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم ، وكيف يصل اليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر » ثم يرجع منها الى النيل مدة ستة أشهر ثانية(١) كما تحدث عن تمثالين لامنمحات الثالث (٢) .

ويرى بعض أساتذة التاريخ فى العصر الحديث .. ان وصف هيرودوت لهذا القصر فيه كثير من المبالغة ، وغنى عن البيان أن هيرودوت لم يعد حجرات القصر ، وانما روى ما قيل له .. غير أن الذى لا شك فيه أن مظهر القصر كان من الروعة والضخامة بحيث جعلت رجلا كهيرودوت يتقبل ما قيل له عن عدد حجرات القصر .

وهكذا ارتفعت شهرة اقليم الفيوم وأصبح من أكثر أقاليم مصر عمارا ، وارتفع بالتالى شأن معبوده سبك أى التمساح ، حتى ضاهى شهرة « آمون » ، حتى لقد سمى آخر فراعنة هذه الأسرة نفسه سبك نفرو رع نسبة الى المعبود سبك وقد عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة الى المعبود سبك .

وحكم امنمحات الثالث مصر خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد ، حتى ترنم القوم بالفرعون قائلين :

---

(١) وهى القناة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف .
(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ــ محمد صقر خفاجة .

« انه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظــــيم .. لقد زاد القطرين قوة .. كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ، هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ، هو المغذى لخلفائه ، هو الغذاء وفى فمه الخير » .

١٨٠٠ ق.م ــ الملك حمورابى ــ والعصر الذهبى فى بابل :

١٧٩٨ ق.م ــ امنمحات الرابع :

حكم امنمحات الرابع بعد أبيه البلاد .. ولكنه لم يكن بقوة شخصية أبيه ــ وتقول بردية تورين انه حكم تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوما ولعل ذلك يظهر على مدى الدقة التى بدأ التاريخ يدون بها ومات فيما يبدو بغير وريث .

١٧٨٩ ق.م :

وليت « سبك نفرو » أخت امنمحات الرابع عرش البلاد ــ وقد ذكرت ورقة تورين انها حكمت ثلاث سنوات وأربعة شهور وأربعة وعشرين يوما وقد ذكرت فى مدونة سقارة بلغتها سبك كارع على انها خليفة امنمحات الرابع .

وهذه هى المرة الثانية فى التاريخ تحكم فيه أمرأة مصر العليا والسفلى ، ولكن الشيء الذى يستلفت النظر ، أن بكلتيهما تبدأ بذور المآسى والفوضى ، فقد انهارت الدولة الوسطى بعد حكم سبك نفرو .. كما انهارت من قبل بعد حكم نيتو كريس .

بالنسبة للنوبة ــ قضى الأمر بضمها الى مصر فأصبحت جزءا منهـا وأقيمت سلسلة من القلاع أهمها سمنة .. كما انشئت منطقة للتجارة جنوبها عند الشلال الثالث ــ الكرما .

وأصبحت مناجم النوبة هى المصدر الأساسى للذهب والعاج والأبنوس وجلود الفهد وريش النعام ــ وكانت الأحجار الثمينة والرفيعة تستجلب من السودان الى مركز التجارة ، حيث كانت تستبدل بالبضائع المصرية .

وفى آسيا زاد نفوذ فرعون مصر ــ وبلاط أمراء باباوس أصبح مصريا ــ ومن المألوف العثور على المنتجات المصرية من هذه الحقبة فى المدن السورية . وقد حارب الجيش المصرى فى فلسطين وكان الرقيق الآسيوى ، سواء عن طريق التجارة أو أسرى حرب يملأون بيوت الأسر الكبيرة فى مصر .

ملاحظات عامة عن العهد الوسيط

لم تصل العمارة فى الدولة الوسطى مبلغها فى الدولة القديمة ، فسائر الأهرام التى بنيت لملوك الأسرة الثانية عشرة فى اللشت ودهشور واللاهون وهوارة بنيت كلها باللبن من الداخل وكسيت بالحجر الجيرى من الخارج فقط (ماعدا هرم امنمحات الأول) ، وقد بقيت لنا آثارا واضحة عن مدينة سنوسرت الثانى بالقرب من هرم اللاهون ، حيث عثر على مساكن مؤلفة من أربع حجرات خاصة بعمال الملك — كما عثر أيضا على مساكن فاخرة لها أفنية وردهات وعدد من الغرف بلغ فى بعض الأحيان ٧٠ غرفة — ويحتفظ متحف القاهرة بنموذجين لمنزلين بهما حديقتان من أواخر الأسرة الحادية عشرة وقد صنعا من الخشب ، وعثر عليهما فى قبر حامل الختم « مكت رع » .

أما عن التصوير والزخرفة الملونة ، فاننا نستطيع أن نرى أمثلة رائعة من هذا العهد ممثلة خير تمثيل فى قبور بنى حسن ومقابر وتوابيت دير البرشا — حيث نجد مناظر تفصيلية رائعة للرقص الجماعى وأعمال المصارعة — ومناظر الصيد ولعب الداما .

ولم تعد التوابيت تصنع من الحجر ، وانما من الخشب ومزدوجة أى أحدها فى داخل الآخر وعلى سطحها الخارجى صورة لعينين واقيتين تمثل عينى حورس وباب تستطيع روح الميت أن تخرج منه حين تريد الخروج — ويزين دائر التابوت شريط من كتابات هيروغليفية زرقاء اللون كثيرة الزخرفة — تتضمن أسماء وألقاب صاحب المقبرة ، أما الجدران الداخلية للتابوت فانها تمثل الأشياء التى كان الميت يستخدمها فى حياته .

أما بالنسبة للفنون الصغرى مثل الحلى ، فان الفنان فى أيام الأسرة الثانية عشرة قد بلغ الذروة فى الاتقان — والى مستوى من الامتياز لم يتجاوزه مرة أخرى فى التاريخ المصرى بعد ذلك . وان الحلى ، والمتعلقات الخاصة بالحريم الملكى التى وجدت مدفونة فى دهشور واللاهون تعطينا فكرة طيبة عن سلامة الذوق والكمال الفنى ، وحسن الاخراج .

الأدب :

هناك اعتراف من جمهرة المؤرخين باعتبار هذه الفترة من فترات التاريخ الفرعونى العصر الذهبى فى الآداب المصرية — وقد ظلت اللغة الخاصة بالدولة الوسطى وهى لغة وجيزة وراقية تستعمل فى كل التأليف بعد ذلك .

وبقيت هى اللغة الكلاسيكية لمصر فى الدولة الحديثة وقد عاشت فى شكلها المتاخر فى بعض الأغراض الأثرية التذكارية والأدبية حتى العهود اليونانية الرومانية وقد أشرنا فيما سبق الى نصائح الملك امنمحات الأول الى ابنه .

والى قصة الفلاح الفصيح ، والى مشاجرة رجل مع روحه والى قصة الملاح الغريق وقصة سنوحى .

المسرح :

بل وقد عثر على أجزاء من وثائق خاصة بمسرحيتين كانتا تمثلان داخل المعابد والهياكل وهى الدراما المنفية : ودراما التتويج ، وقد وجدناهما محفوظين فى نسخة متأخرة منقوشة على ما اصطلح على تسميته حجر شاباكو المعروض فى المتحف البريطانى — وعلى بردية مشهورة من أواخر الأسرة الثانية عشرة كشف عنها فى قبر تحت معبد الرامسيوم — وتعتمد احداهما على أسطورة أوزوريس ، ويصف « اخرنوفرت » فى سرور وابتهاج وقد عاش أيام سنوسرت الثالث على لوحه المشهور المحفوظ بمتحف برلين ، كيف قام بدوره فى تمثيل الاله هورس فى صورة اله .

العلوم :

والى هذا العهد ترجع الآثار العلمية التى لدينا عن الطب والرياضة والهندسة ، وقد تكون هذه المعارف من صنع أجيال سابقة ، ولكن النسخ المكتوبة منها فى هذه الفترة هى التى وصلت لنا .

الدين :

امتاز عصر المملكة الوسطى بتغير واضح فى عقيدة القوم الدينية . فقد اخذت عبادة الشمس شكلا رسميا كما رأينا فى مبدأ الأسرة الخامسة ، ثم كانت الأسرة السادسة وما عقب سقوطها من اضطراب وانقسام ، ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس ، حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر ، واضطر كهنة المعبودات الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا ان هذه المعبودات هى صور متنوعة للمعبود رع ، ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فاعتبروا أسماء معبوداتهم مرادفة لاسم رع أيضا .

فكهنة المعبود سبك نسبوا معبودهم الى رع — وكذلك كهنة آمون فى طيبة اسموه آمون رع .

على أن عبادة الشمس لم تكن وحدها العبادة السائدة عند المصريين — بل كان يوجد الى جوارها عبادة أوزوريس باعتباره اله الموتى والذى كان مقره ابيدوس ، حيث كان كل مصرى (ابتداء من الفرعون والوزير حتى رجل الشارع) يطمع أن يدفن فى هذا المكان المقدس — فاذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد بجبانة العرابة .

وكان الاعتقاد ان كل ميت لا بد أن يمثل فى حضرة أوزوريس لمحاسبته وكانت محكمة أوزوريس تتكون من اثنين واربعين قاضيا يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر . فاذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض اثما من آثامه يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله — أما الاثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزوريس « فهى بعينها الاثام المستهجنة فى عصرنا .

« السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرباء والتنابذ بالألقاب والتجسس وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية « وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى » .

وكان الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزوريس بالأجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون بها ضوء الشمس .

والشخص الذى تبرئه محكمة أوزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل « صادق القول » أو المنتصر ، ويتنعم بالحياة الآخرة فى جزيرة يارو التى تنبت أرضها قمحا يبلغ طوله اثنتى عشرة قدما . وقد أدى انتشار عبادة أوزوريس الى اندماج بقية المعبودات الأخرى فيها كما هو الحال بالنسبة للشمس .

المرحلة الانتقالية الثانية

١٧٨٦ ق.م – بدأ قيام الأسرة الثالثة عشرة :

بدأ قيام الأسرة الثالثة عشر – بتولى الملك « سخم رع خوتاى » وكانت المملكة فى أيام حكمه ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثانى جنوبا – وقد وجدت باقليم الشلال الثانى نقوش لقاسات مياه النيل فى الأربع السنين الأولى لحكم هذا الملك – وان رسوم وضرائب الأملاك قد جمعت من الوجه البحرى كالمعتاد .

ثم توالى من بعده الملك بطريقة وراثية خلال أربعة ملوك ثم اغتصب الملك من يدعى يوفنى YUFNI على ما ورد فى بردية تورين ، ثم عم الاضطراب وطمع الكثيرون فى العرش واستعمل الكثيرون الألقاب الملكية فى أسمائهم . حتى أن مانيتون عد ستين ملكا حكموا ١٥٣ سنة ، ويرى البعض أن هذا الرقم خطأ من مانيتون فلا يمكن أن يتجاوز حكم هذه الأسرة المدة من ١٧٨٦ – ١٦٣٣ ق.م .

أما بردية تورين فقد عدت من حكام هذه الفترة ما بين خمسين وستين – وقد كان ملوك هذه الأسرة من أصل طيبى ومن عدد ملوك هذه الأسرة الطيبية وقصر مدة حكمهم يدل على انفراط عقد الوحدة من جديد فى البلاد – وكان ذلك مؤديا الى دخول الآسيويين الى مصر ، الذين كانوا من العنصر السامى . وبدأوا متسللين فى جماعات محدودة فى بادىء الأمر ، لم تلبث أن تزايد عددها بالتدريج ، واستغلت التفكك الذى سرى فى أوصال الدولة ، فاستقروا فى مناطق من الدلتا : وعلى مر السنين ، توطدت أقدامهم وأصبحت لهم قوة وسلطة فيما يحيط بهم .

ولكن التاريخ لا يزال يذكر لنا قيام أسرة مصرية رابعة عشر . يقدر مانيثون عدد ملوكها بـ ٧٦ ملكا وان مقرهم كان مدينة سخا فى غرب الدلتا ، وانهم حكموا ١٨٤ عاما ، ومعنى ذلك ان حكام هذا الاقليم قد استطاعوا أن يحافظوا على استقلال خاص بهم على الرغم من وقوع الجزء من البلاد تحت الحكم الأجنبى .

١٦٧٥ ق.م :

التاريخ المطور لاحتلال الآسيويين الذين سماهم مانيثون (على ما قيل عنه جوزينوس) بالهيكسوس ، أى ملوك الرعاة ، ولم يترك هؤلاء القوم من بعدهم فى مصر الا آثارا يسيرة . ومن هذه الآثار القليلة ، ما سجلته الملكة حتشبسوت بعد خروج

الهيكسوس بحولين حيث قالت « لقد أصلحت التلف وأكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الآسيويين لأهالى البلاد الشمالية فى عاصمتهم أواريس بالدلتا ، فقد أتلف هؤلاء القوم الآثار الجيـــدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبـود رع (بريستيد ص ١٣٩) » .

وهناك رواية عن طرد الهيكسوس انتشرت فى مصر ، وقد جاء فيها :

« وأصبح القطر المصرى فى أيدى قوم قذرين غاصبين فتعذر على المصريين ان يملكوا على أنفسهم واحدا منهم . وكان فى ذلك الوقت الملك سكترع يحكم قســم طيبة الجنوبى .

والملك أبونيس الهيكسوسى يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التى انتجتها أراضى الوجهين القبلى والبحرى واتخذ الملك ابونيس المعبود سوتخ الها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا .. » .

وهذه الرواية تدل على أن الهيكسوس قوم آسيويون حكموا مصر واتخـذوا أواريس عاصمة لهم .

وقد نقل جوسيفوس عن مانيثون ما قاله عن هؤلاء الهيكسوس ، وهو لا يخـرج فى مجموعه عما سبق .

« كان القطر المصرى محكوما فى وقت من الأوقات بملك يدعى تيمايوس ، وفى عهده غضب الاله على مصر لسبب أجهله فلم يمنحه رضاه . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون ، فأجأوا أهله بالاغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن أهل مصر كانوا وقتئذ فى ثورة وهيجان . ولما أخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام عبثوا بالبلاد وبغوا وطغوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستعملوا أفظع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الأطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا يحكمهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له ونظم الحكومة وحسن الادارة ومهد الأحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه فى الوجه القبلى والبحرى ، ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تثور عليه ، وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ فخاف أن يتطلع القوم الى مصر ويضموها الى أملاكهم ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات المنتظر الاغارة منها . ثم فكر فى أمره فوجد مدينة فى شرق النيل بجوار تل بسطة سماها هدارة (أواريس) لأسباب دينيـة فجدد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفـة من ٢٤٠ (١) الف جندى وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة فى صيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويمرن قواته على الحركات الحربية حتى يرهب الأجانب .

---

(١) مبالغة كبيرة من مانيثون .

وكان يقال لهؤلاء الغاصبين هيكسوس ومعناها ملوك الرعاة لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو هيك معناه باللغة البربائية « ملك » أما سوس فلفظ فى اللغة الدارجة معناه الراعى (بريستيد) . ولكن هذه التسمية ليست محل اتفاق ، فهناك رأى آخر بأنها تعنى « رئيس بلد أجنبى ، ومنذ أيام الدولة الوسطى كانت تعنى مشايخ البدو » .

وقد قسم مانيثون فترة حكمهم التى استغرقت فى تقديره ٤٥٣ سنة الى أسرتين وهما الخامسة عشر والسادسة عشر .

فأما الأسرة الخامسة عشرة فقد ذكر ســـتة ملوك منها بأسمائهم ومدة حكم كل منهم .

سلاطيس ١٩ ــ نيون حكم ٤٤ سنة ــ ابشتان حكم ٣٦ سنة وسبعة شهور ــ ابونيس لمدة ٦١ سنة وأياناس (خيان) لمدة خمسين سنة وشهر واخيرا أسيس لمدة ٤٩ سنة وشهرين .

وهذه البيانات كلها غير دقيقة ، لكل ما يتصل بهذه الحقبة من حكم الهيكسوس ، من ذلك ما ذكره افريكانوس أن عدد ملوك الهيكسوس فى الأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة بلغ خمسا وسبعين ملكا . بينما لا يمكن أن يتصور هذا العـدد الا باعتبارهم حكاما لعديد من الولايات والرأى الراجح على أن الأسرة السادسة عشرة كانت معاصرة للأسرة الخامسة عشر . والآثار تسجل لنا أسماء ثلاث ملوك يقال لهم ابوفيس وملك رابع يقال له خيان الذى وجد اسمه على آثار فى جنوب مصر وآخر يدعى خنزر يعقوب حر .

وقد انتهى الهيكسوس بأن انصهروا فى الحضارة المصرية ، وتثقفوا بالثقـافة المصرية شـأن مصر فى كل تاريخها . فانتحل ملوكهم الألقـاب الفرعونية ، واقاموا لأنفسهم تماثيل على الطراز الفرعونى ــ وعبـدوا الاله سوتخ احد اشـكال المعبود ست القديم الشبيه فى نظرهم ببعل السورى .

الأسرة السابعة عشرة

١٦٥٠ - ١٥٦٧ ق.م :

بدأ تاريخ الأسرة السابعة عشرة التى تقسم الى مجموعتين : المجموعة الأولى من الهيكسوس وعددهم ٤٣ ملكا كانوا يحكمون فى أواريس (صا الحجر) وقسم من المصريين كانوا يحكمون فى طيبة وينتهى حكمهم بطرد الهيكسوس .

وقد ظهرت باكورة الثورة المصرية بمجرد أن ضعف حكام الهيكسوس وتناقصت قوتهم ، اذ انتهز أمراء طيبة الفرصة وأشعلوا نيران الثورة ، ودخلوا فى سلسلة من المصادمات مع قوى الهيكسوس ، وتسجل لنا الآثار أن اشتعال نار الثورة لأول مرة بدأ فى عهد أبو فيس الثالث الذى رأى أن حاكم طيبة قد بلغ من القوة الى حد أصبح يشكل خطرا على الهيكسوس فأرسل اليه يثيره ويتحداه ليدفعه الى قتاله ، وكان الحاكم فى ذلك العهد هو « سنكرع » ١٦٠٠ ق.م فقبل التحدى وخرج على رأس جيش لمحاربة الهيكسوس ، ونشبت معارك بين القوتين حامية الوطيس ، سقط فيها سكننرع شهيدا وقد عثر على مومياته ضمن كنوز الدير البحرى وهى محفوظة بدار المتحف المصرى وعلى الرأس أثر جرح مميت يرجح أنه سبب مصرعه .

وقد حفظ لنا التاريخ « قصة دارجة » لاكتها الألسن فى زمن الرمسيسيين وهى مرجعنا العلمى الذى يكاد يكون وحيدا عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث فى القطر بعد ذلك ، والمظنون أن هذه القصة دونت بعد خروج الهيكسوس بأربعمائة سنة . وتقول القصة (التى سبق أن أشرنا اليها) أنه عندما حل عيد من أعياد المصريين المقدسة جمع ابو فيس رجال دولته وتداول معهم فى أشياء لا تزال مجهولة ، ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاغتيال الملك سكننرع الجالس بطيبة ، وتمضى القصة فتصف لنا كيف أن أبو فيس بعث الى سكننرع وفدا يتحرش به ، ويدعى « أن فرس البحر القاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالته النوم نهارا وليلا فصياحه يرن فى أذن جلالته باستمرار (١) وواضح أن هذا الزعم الذى يذكرنا بقصة الذئب والحمل ، كان هو نقطة البدء للاشتباكات التى بدأت بين امراء مصر يمثلهم سكننرع وبين الهكسوس .

---

(١) هناك ترجمة جديدة لهذا النص تقول ان أبو فيس طلب من سكننرع أن يدع أفراس البحر فى هدوء - حيث كان يعبد فى أوزايس (مصر الخالدة ص ٤٨٥) .

وبعد وفاة سكننرع خلفه ابنه كاموس بتشجيع من أمه زوجة سكتنرع « أياح حتب » كما ورد ذلك مثبتا فى لوحة كتبت فى السنة الثالثة من حكمه وكشف عنها عام ١٩٥٤ فى معهد الكرنك . وقد أعتبر بعض المؤرخين أن الملكة « اياح حتب » هى روح ثورة الاستقلال باعتبارها زوجة بطلها الأول وأم بطليها الأخيرين . وقد كشف عن تابوت الملكة « اياح حتب » وكان يضم مجوهراتها التى تحمل اسمى كاموس وأحمس .

وقد أراد الهيكسوس فى حربهم مع كاموس (١) أن يضربوه من الخلف فألبوا عليه حكام النوبة وكانوا خاضعين لسلطانه ، فاضطر كاموسا أن يدع الحرب مع الشمال وأن يتجه الى الجنوب فتغلب على النوبيين وأخمد ثورتهم وأعادهم الى الطاعة ، ثم عاد يستأنف جهاده ضد الهيكسوس ، فواصل بزحفه شمالا ، فاستطاع أن يخلص مصر الوسطى ، وامتد ملكه حتى الأشمونيين ، على أن المنية لم تلبث أن عاجلته .

١٥٨٠ ق.م :

فخلفه أخوه أحمس الذى واصل مهمة سلفه ، فطارد الهيكسوس حتى أخرجهم من عاصمة ملكهم أواريس ، وتعقبهم فى انسحابهم خارج مصر حتى قلب فلسطين فى بلدة شاروهين ثم قفل راجعا الى طيبة متخذا منها عاصمة لحكم البلاد ، ومؤسسا الأسرة الثامنة عشرة على ما يقول مانيثون .

وقد جاءت أخبار هذه الحقبة من تاريخ مصر على صورة نقوش من قبر ضابط مصرى من جهة الكاب كان مواليا لملوك طيبة واشترك معهم فى مهاجمة الهيكسوس .

ومن المصادفات أن هذا الضابط يقال له « أحمس بن ابانا » ، واليك ما قاله هذا الضابط مترجما عما وجد منقوشا على قبره : « أمضيت أيام شبابى فى مدينة الكاب وكان أبى ضابطا فى جيش جلالة ملك القطرين البحرى والقبلى سكننرع ، ولما توفى أبى وظفت مكانه فى سفينة تسمى القربان وذلك أيام المرحوم أحمس الأول ، وكنت اذ ذاك شابا لم أتزوج .. فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى لما شوهد فى من الشجاعة والاقدام ـ وكنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته . ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمى » وتمضى النقوش فى سردها للوقائع ، والتى انتهت بسقوط أواريس عاصمة الهيكسوس فى قبضة الملك ، حيث أسر أحمس القائد رجلا وثلاث نسوة وهبهن الملك عبيدا له .

---

(١) كاموس ـ وقد عثر على عدة وثائق من حرب التحرير أيام الملك كاموس يكمل بنصها نقصا . ومن هذه الوثائق يتضح :

(ا) ان كاموس دعا مجلسا من رجال الرأى والمشورة ليتباحث معهم فى حرب الهيكسوس .

(ب) أن أصحاب الرأى والمشورة ، قد أشاروا بعدم الدخول فى صدام مع الهيكسوس .

(جـ) ان الملك أبدى عدم رضائه عن اجابة مجلس الاشراف وأعلن عن اصراره على محاربة العدو .

(د) وأن الملك مضى فى حرب العدو حتى أخرجه من مصر الوسطى وقضى على مدنهم وحرق أمكنتهم فأضحت بقايا حمراء الى الابد ، وذلك ردا على الخسارة التى سببوها لمصر

وبعد تلك الحملات عاد كاموس الى طيبة حيث استقبل بها **استقبالا حارا وطلب الملك أن ينقش** كل ذلك على لوح يقام فى الكرنك ـ فنفذ ذلك على أحسن وجه (مصر الخالدة ـ ص ٤٨٩) .

والمعروف أن حصار أواريبس دام عدة سنوات وان مدته طالت .

ويحدثنا الضابط بعد ذلك عن تعقب أحمس للهيكسوس فى فلسطين ومحاصرته لقاعدتهم الجديدة فى شاروهين .

ويمضى حديث أحمس بن ايانا ، بما يفهم منه أنه بعد أن طرد أحمس الهيكسوس من مصر ، وجه همه نحو بلاد النوبة والسودان فأعاد اخضاعها .

ولم تكن اقامة الهيكسوس فى مصر بغير فوائد ، فالتاريخ يسجل لهم ادخالهم أسلحة جديدة من أدوات الحرب ، فوجدت أنواع جديدة من الخناجر والسيوف والأسلحة البرنزية والأقواس المركبة الآسيوية — كما تطوروا بفن تحصين المدن الذى كان يفوق ما ألفه المصريون من قبل .

ولكن أثرهم الأكبر ، يتجلى فى ادخال الحصان والعربة التى تجرها الجياد ، والتى سيبرع المصريون فى استخدامها فيما بعد ويخوضون معاركهم المقبلة مزودين بها .

وقد اعتبر جوسيفس اليهودى — أن الهيكسوس هم بنو اسرائيل — ولكن هذا الرأى لا يقول به علماء التاريخ . فضلا عن أن التوراة نفسها تنفيه فهى لم تزعم أن بنى اسرائيل قد حكموا مصر .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

١٥٧٥ ق.م ــ « أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة » :

(موسوعة تاريخ العالم) .

« ١٥٨٠ ــ الأسرة ١٨ ــ العاصمة طيبة ــ احمس ١٥٨٠ ــ ١٥٥٧ طرد الهيكسوس ــ غزو شمال النوبة من جديد ــ وضع حدا لسلطان الأمراء المحليين ــ أمونس الأول ــ ١٥٥٧ ــ ١٥٣٦ ــ تحتمس الأول (١٥٣٦ ــ ١٥٢٠) حاربا فى فلسطين وسوريا ووصلا الى الفرات ــ حتشبسوت هى الحاكم الحقيقى منذ عام ١٥٢٠ ــ حتى وفاتها عام ١٤٨٠ وهى أخت ليست شقيقة وزوجة لتحتمس الثانى أولا ، ثم لتحتمس الثالث .

(دائرة المعارف البريطانية) بدء الامبراطورية ــ الأسرة الثامنة عشرة

١٥٦٧ ــ ١٣٢٠ ق.م :

١٤ حاكم ــ أحمس الأول ــ أمنحتب الأول ــ تحتمس الأول ــ تحتمس الثانى ــ تحتمس الثالث ــ أمنحتب الثانى ــ تحتمس الرابع ــ أمنحتب الثالث ــ اخناتون أو أمنحتب الرابع ــ سمنكارع ــ توت عنخ آمون ــ آى ــ حور محب . طرد الهيكسوس واعادة فتح النوبة ــ اعادة معظم مصر ــ نمو معبد آمون بالكرنك .

عصر الاستعمار ــ فتح فلسطين وسوريا حتى الفرات والنوبة (كوش) حتى الشلال الرابع .

علاقات دبلوماسية بين القوى الكثيرة ــ عصر العمارنة .

الثروة العظمى فى عهد أمنحتب الثالث (العظيم) .

١٤١٧ ــ ١٣٧٩ ق.م .

عبادة آتون (الهرطقة) الغاء آمون بمعرفة اخناتون ــ عودة آمون الى العبادة بمعرفة توت عنخ آمون ــ حور محب يعيد النظام .

١٥٧٥ ق.م ــ أحمس الأول :

جعله مانيتون مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وهو الرأى الجدير بالاعتبار فعلى يديه تم اخراج الهيكسوس من مصر كما رأينا ، وفى أيامه نعمت البلاد بالحرية .

وقد سجل أحد كتاب الرعامسية على معبد الرمسيوم تقسيم تاريخ مصر فوضع احموس ثب بحتى رع على رأس الدولة الحديثة .

وفى العام الثانى والعشرين من حكمه أقام أحمس لوحة كبيرة بدار آمون بالكرنك ذكر فيها الكثير من نشاطه وما قامت به والدته « اياح حتب » واتصالها بحكام جزيرة كريت . فبدأ اللوحة بوصف شامل لألقاب أحموس وملكه العظيم الواسع — ثم ينتقل الى الدعوة لتبجيل الملكة « اياح حتب » واصفا اياها بأنها سيدة الجزر « وان اسمها رفيع القدر فى كل بلد أجنبى » وتحصى اللوحة بعد ذلك اصلاحات الملك لدور العبادة وهى تظهر لنا علاقات مصر بجيرانها . . ومقدار مكانة الملكة الأم ودورها فى الحياة المصرية .

وكان من أثر العلاقات الطيبة بين مصر وجزر البحر المتوسط أن تأثرت الصناعة وخاصة صناعة الأسلحة وظهر ذلك على سلاحين كان يحملهما أحموس حيث زين هذين الخنجرين برسوم وصور فيها تأثير الفن الايجى وهى محفوظة بمتحف القاهرة .

وبالرغم من حروب أحمس الأول ، سواء فى الشمال لطرد الهيكسوس ، أو فى الجنوب للقضاء على الثورات فى النوبة واسترجاع سلطان مصر الوطيد عليها .

فقد كان بطلا . . كذلك من أبطال السلام والتعمير قام ببناء دور العبادة وأولها دار آمون — وأعيد فى عهده فتح المحاجر واستؤنف العمل فيها لاستخراج الأحجار اللازمة لترميم المعابد والهياكل .

وقد حظيت زوجته « أحمس نفرتارى » على مكانة رفيعة فى التاريخ المصرى القديم حيث ظلت ذكراها حية حتى الأسرة الحادية والعشرين . وأقيمت لها احتفالات كتلك التى تقام للآلهة ، ولقبت على الآثار بالابنة الملكية والأخت الملكية والزوجة الملكية العظيمة والأم الملكية والحاكمة العظيمة وسيدة الأرضين وقد عثر على تابوتها وهى محفوظة بمتحف القاهرة ويضم تابوتا آخر به جثتها .

وهكذا تطالعت الأسرة الثامنة عشرة ، والدولة الحديثة كلها ببلوغ المرأة المصرية فى هذا العصر البعيد الى أوج سلطتها فيما سوف تتعدد مظاهره حتى تصل ذروتها فى حكم حتشبسوت الطويل .

وذكر مانيتون أنه حكم ٢٥ سنة وانه مات قبل الخمسين . ولكن المؤرخ المعاصر أحمد بدوى يرجح أنه غادر الدنيا ولم يتم الحلقة الرابعة من عمره « ص ٣٨٢ الجزء الثانى » وقد عثر بجثته فى مقبرة الدير البحرى ، وقد وجد حول عنقه اكليل من الزهر وتبين من فحصها أنه كان ربعة من الرجال ، قوى الجسم ، عظيم الكتفين ، عريض ما بينهما ، فاحم الشعر ، مجعده بارز عظام الخدين رقيق الشفتين — تكاد ملامحه رغم ما كسيها من ألوان العدم ومظاهر الموت أن تنطق بقوة عزيمته وشدة بأسه .

ويتبعه ابنه أمنحتب الأول ـ وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الموظفين من عهده ومنهم ستى نائب بلاد كوش (النوبة) وقد عاش حتى أدرك تحتمس الثانى ـ و « نتى كى » رئيس المدينة الجنوبية (طيبة) وعلى قبره مناظر تمثل الحياة الاجتماعية فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة .

ومن بين كبار الموظفين أحمس بن أبانا وكان قد أصبح رئيس بحارة الفرعون وعاش حتى أدرك أمنحتب الأول . وأحمس نبتحتب وقد عمر حتى أيام تحتمس الثالث وكان يحمل فوق القابه الحربية لقب مربى الأميرة نفرو رع ابنة حتشبسوت .

١٥٥٠ ق.م :

ولى أمنحتب الأول (أمونوفيس الأول) بعد أبيه الحكم ولكنه كان لم يبلغ بعد مبلغ الرجال ـ ويبدو أن أمه أحموس نفرتارى هى التى أخذت بيدها زمام الأمور بمعونة كبار رجال البلاط كما فعلت من قبلها أم الملك بيبى الثانى ـ أوخنت كاوس « با أمنحتب » .
من قبلها .

وقد اضطر الى غزو النوبة للمرة الثانية لاستتباب الأمن ، وقطع دابر الحكام العصاة ، فسحقهم وكسر شوكتهم مرة ثانية ، وعهد بحكمها الى حاكم الكاب . وكان فى معيته القائدان العظيمان احمس ابن ابانا الذى قال لنـا أن الملك أسر « رئيس الاعداء وسط جنده بالنوبة كما قل لنا مفتخرا انه تمكن بذكائه ومهارته من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين ـ المسافة تبلغ مائتى ميل تقريبا ـ اما القائد الثانى فهو أحمس بن نخبت ، الذى استنتج البعض من حديثه ، أن امنحتب الأول ، شن حربا ثانية على الليبيين ولما ان استتب الأمن والنظام داخل البلاد ، رنا ببصره الى الغزو الخارجى ، فسارع بجيوشه الى فلسطين وسوريا حتى وصلت جيوشه الى نهر الفرات . وقد بنى الملك معبدا صغيرا فى منطقة الدير البحرى هدمه البناءون أيام حتشبسوت عندما أخذوا يعدون لها مكانا لتشييد معبدها الرائع . وقد قدسه الشعب بعد وفاته فرفعه الى درجات الآلهة . فأقيمت الأعياد له فى جبانة طيبة كما تقام للأرباب . بل ان بعض علماء المصريين (جورجى صبحى) على ما ينقل عنه الدكتور أحمد بدوى يقول ان المصريين القـدماء سموا باسمه أحد شهور العام الذى يقع فيه عيد الاحتفال بذكراه وهو شهر برمهات وأصله « با أمنحتب » .

وقد بقيت جثة هذا الملك رغم الحوادث وتقلبات الدهر ورغم اعتداء اللصوص ونباشى القبور ، والثورات والفتن ـ ملفوفة فى الأكفان ، مزدانة بالزهور من قمة الرأس حتى أخمص القدم داخل تابوت صنع على هيئة آدمى ، ثم كسى باللون الأبيض وظلت الحوادث تنقلها بين مناطق الجبانة المختلفة حتى وجدت طريقها أخيرا الى متحف القاهرة (ص ٣٩١ مركب الشمس) .

وفى عهد هذا الملك بدأت مظاهر الحياة الجديدة فنبلاء العصر والمترفون أصبحوا يتنقلون على عجلات تجرها جياد الخيل ، بعد أن كانوا يتنقلون فى محفات تحمل على

اكتاف الرجال — فلم يكد المصريون يعرفون العجلات والخيــل أيام الهيكسوس ويستخدمونها في القتال ، حتى استخدموها في السلم فراحوا يخرجون بها الى الصيد والرياضة والانتقال بين المزارع والحقول وعلى شواطىء النهر . وأقبل الناس الكبار في ذلك العهد على تطوير حياتهم اليومية تطويرا يكاد يكون كاملا .

١٥٢٨ ق.م — تحتمس الأول (عاخبر كارع) :

لم يثبت اذا كان امنحتب الأول ترك ولدا وريثا ، وانما الثابت ان الذى خلفه هو « تحتمس الأول » وهو ابن امرأة صلتها بالأسرة المالكة غير جلية ، وقد وصل الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى « احعموس » والمرجح انها أخت أمنحتب الأول وبهذه الوسيلة أعلن نفسه ملكا على مصر بمجرد وفاة « أمنحتب الأول» .

وقد أرسل تحتمس الأول نسخة من مرسوم تتويجه الى نائب الملك المدعو تورى في كوش (المنطقة الواقعة بين الشلال الثانى والرابع) .

ويحدد المرسوم صفات الملك بأنه توج ملكا على شطرى الوادى فجلس على عرش حورس رب الأحياء وغدا بذلك معدوم القرين وكانت القابه حورس الفحل الظـافر صعب الحق رب التاجين الصقر الذهبى مدى السنين محيى النفوس ملك القطرين تحتمس ولد الشمس — والجديد في هذه الألقاب هو وصفه نفسه بأنه الفحـل الظافر — وهو يأمر نائبه في كوش أن يقدم القرابين لأرباب الجنوب احتفالا بهـذه الذكرى ويوصيه بأن يأمر الناس أن يجعلوا قسمهم بحياة فرعون وينبئه آخر الأمر أنه موفور الصحة والعافية . وكان صدور المرسوم في الشهر الثالث من فصول الشتاء من عام فرعون الأول .

على ان الأمر قد احتاج فيما يبدو الى أن يشن « تحتمس» الحرب على اقليم النوبة ، وان يذهب بنفسه ، ويعيد حفر قناة سنوسرت ، ويعود عن طريقها بعد ان قتل أعداءه وذلك في الثانى والعشرين من أول شهور الصيف من ثالث أعوام الملك على ما يروى نائبه تورى .

ثم أغار الليبيون على حدود مصر الغربية ، فحمل عليهم بجيشه وظل يقاتلهم حتى هزمهم وشردهم في بطون الصحراء . ولما فرغ من أمور الجنوب والغرب ولى وجهه شطر الشرق أو بالأحرى صوب فلسطين وسوريا ، حيث كان الهيكسوس قد استأنفوا نشاطهم في مختلف أقاليم الشرق القريب . باعثين الفتن ومنظمين المؤامرات ، فشن تحتمس عدة حملات انتهت بنصر عظيم مكنه من وضع الأساس لما اعتبر أول امبراطورية في التاريخ ، فانتشرت أملاكه على حد تعبير أهل زمانه بين مشرق الأرض من وراء الشلال الرابع وأطراف المياه المنعكسة : ويعنون بها مياه الدجلة والفرات حيث تسير عكس مياه النيل من الشمال الى الجنوب .

وقد كان تحتمس الثالث هو الذى يشير الى فتوحات سلفه وانه بلغ منعرج الفرات بالقرب من قرقميش حيث أقام لنفسه نصبا الى جوار نصب سلفه (الذى

لم يعثر عليه). وتقع قرقميش عند اعالى الفرات على مسيرة مائة كيلو متر الى الشمال الشرقى من حلب .

وبدأ أمراء سوريا وفلسطين يقدرون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكانتها فارسلوا اليها الهدايا الثمينة والجزية ، فازدهرت المالية المصرية ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوتمس على اصلاح ما تلف من المعابد والهياكل فندب مهندسه الماهر المدعو اتيتى وكلفه بتشييد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الارز اللبنانى وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رؤوسها مصنوعة من الذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الآسيوى ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب وأصلح الملك معبد أوزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالآثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة ، كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس ورتب الملك أوقافا مستديمة على ذلك المعبد وترك فى آخر عمده تعليمات للكهنة ليتبعوها ، وقد فعل هذا تخليدا لذكراه على مر الدهور .

ومن أهم الآثار التى كشفت لنا عن الحياة الاجتماعية فى عهد تحوتمس الأول ، مقبرة « باحرى » وهو أحد كبار الموظفين فى عهده وقد نشأ فى مدينة الكاب ثم أصبح حاكما لها وكان المشرف على الأرض الزراعية فى الجنوب وفى نقوش المقبرة ورسومها ، نجد مختلف الأعمال الزراعية وطريقة الدراس والحصاد مما لم يتغير كثيرا عما يجرى فى بعض الحقول فى عصرنا الحاضر . وأحاديث عن نكات العمال وشكاويهم من كثرة العمل .

وقد حكم تحوتمس فترة تتراوح بين خمسة عشر عاما وثمانية عشر .

ومات بعد أن بلغ الستين ، ودفن فى قبره الذى أعده له بناء العصر « انتى » ثم نقل جثمانه الى قبر ابنته حتشبسوت ، ثم عثر عليه فى ذلك المخبأ الذى ضم رفات الفراعنة بجوار الدير البحرى ونقل أخيرا الى متحف القاهرة حيث يثوى الآن .

١٥١٠ ق٠م – تحوتمس الثانى :

قام جدل كبير بين علماء التاريخ المصرى حول من تولى العرش بعد تحوتمس الأول، والخلاف والمنازعات فى أسرة التحامسة ولكن الرأى الأخير على أن أكبر أولاد تحتمس الأول مات فى حياته ولم يعمر من أولاده الذكور الا ولد سماه تحوتمس وهو من احدى جواريه وتدعى موت نفرت – وكذلك كانت له بنت واحدة من زوجته الشرعية (أحموس) وقد سماها « حتشبسوت » وقد كانت هى المسيطرة على الموقف أيام تحوتمس الثانى ، فلم يكن فرعونا الا بالرمز لان حتشبسوت اعتبرت هى الوريثة الحقيقية للعرش . وعلى الرغم من أن اباها قد عهد لها فى أخريات حياته بالعرش فالظاهر أن بعض التيارات كانت تأبى عليها حكم مصر ، فتزوجت تحوتمس الثانى وغدا بذلك صاحب حق فى العرش .

وكان من أثر الخلافات فيمن يتولى العرش أن اشتعلت نار فى بلاد النوبة بمجرد

تولى تحوتمس الثانى الملك . ولكن تحوتمس الثـانى غضب لهـذه الأنباء وأقسم أن يبيدهم جميعا ، وبعث اليهم بالجيوش التى سحقت الثورة وانتصرت عليهم ، وقد وجدت هذه الثورة مسجلة على الصخور الواقعة بين أسوان والشلال الأول . وقد حدثنا أحموسى الكابى عن حرب أدار رحاها فى الشرق تحت امرة تحوتمس الثـانى فضرب فيها بدو الصحراء الذين يعيشون على حدود سوريا . وقال البعض انه قام بحملات فى سوريا نفسها . وقد نقش تحوتمس على جدار معبد حتشبسوت انه تسلم الجزية من أعدائه المتهورين .

وواضح من ذلك أن جهود أسلافه لم تحوجه لشن كثير من الحروب .

وقد وجدت له آثار فى واحة الفرارة وفى اسنا وقمنة وسمنة ووادى حلفا .

وقد قيل أنه بدأ فى اقامة الصرح الثامن من أبواب الكرنك ولم يقدر له أن يتمه .

وذكر مانيتون انه حكم عشرين عاما وهو تقدير لا يبعد كثيرا عن الحقيقة فقد عثر فى خرائب طيبة على أجزاء من حطام تمثال يسجل العام الثامن عشر من سنى حكمه .

ويتبين من فحص جثته انه كان مديد القامة عريض ما بين المنكبين ، ومع ذلك فلا يبدو عليه ما يشير الى قوة بدنه وكان كبير الرأس ، بارز الثنايا جميل التقاسيم ولقد بالغ بعضهم فى وصف أناقته ورقته واغراقه فى التأنق والترف .

ولم تنجب له أخته وزوجته حتشبسوت غير ابنتين فلم تحقق لها الظروف ما أرادت من أن ترزق من زوجها بذكر يمهد لها الطريق الى الحكم عن طريق الوصاية .

وقد سجل انتى وفاة تحوتمس الثانى فى كلمات هذا نصها : « لما صعد الى السماء اتحد مع الآلهة ، وجاء ولده مكانه كملك للأرضين حاكما على عرشه من خلفه ، بينما كانت أخته زوجة الاله « حتشبسوت » تحكم الأرض ، وكانت الأرضين تحت رقابتها وقد عمل الناس من أجلها وخضعت مصر .

١٥٠٤ ق.م — التاريخ الذى تربعت فيه حتشبسوت على السلطة لا ينازعها فيها منازع :

نظرا لأن تحوتمس الثالث كان لايزال فى مطلع العقد الثانى وكانت ابنة حتشبسوت من أخيها تحوتمس الثانى صغيرة كذلك . فزوجت تحوتمس الثالث من ابنتها فعينت هى وصية على العرش فلم تلبث أن احتكرت السلطة لنفسها باعتبارها ملكة ، وقد نقشت صورها على الآثار فى صورة رجل وملابس رجل .

وفى السنوات الأولى من حكمها اكتفت بأن سمت نفسها ملكة فقط ، وبعد ذلك لم يتوقف طموحها ، ولم تمر سنون طويلة حتى اتخذت الخطوة الهامة فوضعت التاج المزدوج ، وتمثلت بالرجال وارتدت ملابس الرجال ، وهناك آثار كثيرة بالكرنك ظهرت

فيها حتشبسوت كرجل وتتقدم على تحوتمس الثالث ، وقد ظهر هو كملك شريك . وقد كانت توصف بضمائر الأنثى .

وما كان لامرأة أن تصل الى ما وصلت اليه من قوة جبارة الا بمساعدة الرجال ، ولذلك فان جبانة طيبة تحتفظ بقبور عظيمة لبعض كبار موظفيها ، وجميعها تتحدث عنها بأسلوب فيه تملق شديد ، ولعل من أظهرهم سنموت الذى كان لقبه الرئيسى « رئيس الاستقبال الخاص بالاله آمون » وكانت ثروة معبد الكرنك الهائلة تحت تصرفه وكان له شرف القيام على تقويم وتربية الأميرة رع نفر ابنة حتشبسوت وهى الوارثة الثانية للعرش من « تحتمس الثانى » .

وقد اكثر المؤرخون من الحديث عن ذلك الرجل واثاروا حوله الريب والظنون ، وانتقلوا من التلميح الى التصريح فهو « صفى الملكة وخليلها » .

والأمر المقطوع به انه كان من أشد أعوان الملكة قوة ونفوذا وسلطانا . .

وانها استطاعت بمعاونته ومعاونة أمثاله ، أن تعلن نفسها الملكة الوحيدة على الوادى وان تستأثر بالسلطة المطلقة من غير منازع ابتداء من عام ١٤٩٤ ق.م ويحفظ التاريخ لنا ان « حتشبسوت » بالرغم من كل شيء أبقت على تحوتمس الثالث حيا فلم تتخلص منه — وذلك بعد أن صاغ لها أنصارها أسطورة طريفة تجعلها فى نظر الكهنة ورجال الدين وعامة الشعب المصرى — صاحبة الحق فى عرش البلاد ، وخلاصة هذه الاسطورة أن الاله آمون هو الذى أودع رحم أحموسى زوجة تحوتمس الأول . نطفة حتشبسوت ، وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم وقضى أن تكون وارثة للعرش وان تحكم الوادى من أقصاه لأدناه وقد سجلت هذه الاسطورة بتفاصيلها على جدران معبد الدير البحرى .

وقد اتجه نشاط الملكة الى أعمال العمران فاستأنفت بناء معبدها الواقع فى صخور الدير البحرى ، وكانت تحب هذا المعبد وتعتز به وجعلت منه بستانا لآمون . وجعلت من رفافه منابت لأشجار المر والعطور لتجعلها على غرار منابت المر والعطور فى بلاد بونت التى كانت فى عقيدة آل فرعون أحب بلاد الدنيا الى الأرباب جميعا وعلى رأسهم آمون .

ومن أجل ذلك بعثت بأسطول من خمس سفائن أقلعت على متن النيل من شواطىء طيبة ، سالكة بعد ذلك للوصول الى البحر الأحمر قناة سنوسرت وعاد الاسطول الى طيبة محملا بالبخور وأشجار العطور والمر ، التى غرست بالفعل فى ساحات المعبد ، ومختلف الجواهر والحلى والوان الأطعمة والأشربة والسلاح .

وكان سنموت هو الذى خط المعبد ونفذه وقد اتخذ فكرته من معبد « منتوحتب» قبل عصره بستة قرون ولكنه وصل فى التنفيذ الى حد الابداع . فالمعبد يقع بالدير البحرى فى نصف الدائرة الكبيرة والمشرف عليه التلال المرتفعة ، وقد تشابه طرازه كثيرا مع معبد منتوحتب الأول الذى يقع فى الناحية الجنوبية منه . وقد استخدم

مصمم المعبد سفوح الجبل فحوله الى ثلاثة مدرجات انشأت فوقها ثلاثة اروقة يعلو بعضها البعض الآخر . وليس يوجد بين الآثار المصرية الحاضرة ما هو أعظم وأروع من معبد الدير البحرى — وان النقوش التى تشاهد خلف أعمدة الأروقة فريدة فى نوعها . وقد أشرنا من قبل الى ما نقش على جدران هذه الأعمدة وجدران الأروقة من أعمال الملكة وأساطيلها واسطورة ميلادها .

قــد أراد البناء أن يظهر الشعب على قوة الملكة وبأسها — فزين الطريق الى مدخل المعبد بتماثيل للملكة نحتها على هيئة أبى الهول .

ثم بنت لنفسها قبرا نقلت اليه رفات والدها تحوتمس الأول ، وأقامت له مقصورة فى المعبد تجرى فيها الشعائر الدينية على روح أبيها — وبالغت حتشبسوت فى اظهار ولائها وتوكيد حبها لأبيها فأكثرت من تصويره على جدران المعبد ، فى حين لم تظهر صورة أخيها وزوجها تحوتمس الثانى على الاطلاق ، والذى يبدو انها عاشرته كارهة له ساخطة عليه باعتباره مغتصب العرش منها . ولما خشى الكهان خطر اللصوص من نباشى القبور نقلوا رفات الملكة مع ما نقلوا من رفات أسلافها وخلفائها الى تلك الحفرة المعروفة فى الدير البحرى فاستقرت هناك نحوا من الفين وخمسمائة سنة ثم نقلت الى متحف القــاهرة فى العصر الحديث .. ولكن رفات حتشبسوت لم تكن بين ما عثر عليه .

وقد أقامت لنفسها مسلتين عظيمتين ، بمناسبة ذكرى عيدها الثلاثينى الأول على ما قالت ولذكرى أبيها تحتمس الأول وربها آمون .

وتشير الآثار الى انها أقامت مســلتين(1) آخريين فى الكرنك احتفالا بالذكرى الثانية لعيدها الثلاثينى ولكن لم يعرف الى الآن موضع اقامتهما فى الكرنك ، ولم يبق منهما غير قمة مسلة آلت الى المتحف المصرى .

وأتاحت أيام السلم فى عهد حتشبسوت أن تنفق جهودها فى التعمير والانشاء فصرفت همها لاصلاح ما خربه الهيكسوس . ولم يقم أسلافها باصلاحه كاملا وقد ساعدها فى ذلك رجل قصرها سنموت ، الذى لم يترك فرصة للدعاية لمليكته دون أن ينتهزها ارضاء لها وتفانيا فى حبها وحب نفسه أيضا .

ويحدثنا تاريخ هذه الفترة أن سنموت أفل نجمه وسقط من عليائه قبل انتهاء حياة سيدته حتشبسوت ويرى البعض أن ذلك قد يكون بفعل الملكة نفسها التى خشيت من قوة نفوذه ، أو التى تكون قد زهدت فيه .

وهكذا تسبق هذه الصورة ، بثلاثين قرنا على الأقل ، حياة الملكة اليزابيث ، ورجالها الأقوياء الذين كانت تسقطهم من أعلى عليين ، خوفا منهم ، وزهدا فيهم ، وتعلقا بغيرهم .

---

(1) وطول كل منهما ٢٩٫٥ مترا وقد بلغ وزن كل منهما ما يزيد على ٣٠٠ طن وقد اقتضى نقلهما بناء سفينة بلغ طولها ٨٢ مترا وقد نقشت قصــة هاتين المسلتين وسفن نقلهما على جدار معبد الدير البحرى.

وأعادت حتشبسوت فتح المناجم فى طورسينا ، وقد عثر هناك على بعض الفخار الملون الذى يحمل اسمها واسم ابن أخيها تحوتمس .

ويعتبر عصر حتشبسوت بصفة عامة عصر سلام وبناء وانشاء وتعمير وقد قالت يوما ما متفاخرة « لقد بلغت حدود مملكتى الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستنقعات آسيا . فصار الآسيويون فى قبضتى ، أما حدودى الغربية فوصلت الى جبال مانو أى مغرب الشمس وذاع صيتى بين البدو وقد أحضر الى مر بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة أحضرت الى قصرى كتلة واحدة .. لقد أحضرت الى أجود الخيرات .. من أرز وعرعر وخشب مرو وأخشاب الأراضى المقدسة الجميلة جميعها . لقد أحضرت لى جزية (تحنو) الليبيين من عاج ، علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكثاعم وقد حكمت سبعة عشر عاما ولم يعرف كيف ماتت ، وهل كان موتها طبيعيا ، أم نتيجة مؤامرة ، ولكن الأمر المحقق أن حزبها اختفى فجأة ، وحطم تحوتمس الثالث اسمها واسم سنموت ، ولم يعد يذكر لها اسم بعد موتها ــ وفى مدونة الملوك فى مقبرة سيتى الأول ورمسيس الثانى لا يوجد لها ذكر » .

١٤٩٠ ق.م ــ حكم تحوتمس الثالث :

وقد حدث خلط من بعض المؤرخين (بريستيد) ، فتصوره أخا لحتشبسوت وزوجا لها ، وتصوروه قد حكم معها ، ثم أقصته عن الحكم ، ثم عاد بعد موتها ، ولكن الحقائق التى اكتشفت أخيرا ، قد أكدت أنه ابن زوجها تحوتمس الثانى من احدى جواريه ، وقد اعتلى العرش صبيا بزواجه من ابنة حتشبسوت الكبرى التى كانت تدعى نفرو رع . وقد حالت حتشبسوت بينه وبين ممارسة سلطاته ، فلما ماتت انفرد بالسلطان غير منازع ، فأنكر عهدها وجعل تاريخ حكمه من وراء موت أبيه مباشرة أى حوالى ١٥٠٤ ق.م .

وفى السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس والسنة الثانية من انفراده بالسلطة .

١٤٦٨ ق.م :

ولم يكد يصبح حاكم البلاد ، حتى اضطربت أحوال البلاد الآسيوية ، فكون الآسيويون حلفا تحت زعامة أمير قادش ، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر على أعدائه فى معركة « مجدو » الخالدة ، التى تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة . مبتدئا بذلك هذه السلسلة من المعارك التى بلغت سبع عشرة حملة ، استولى فى بعضها على الساحل الفنيقى كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر فى ذلك التاريخ

البعيد ، وأعظم هذه الحملات تلك التى قام بها فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتى بلغ فيها الفرات ودونت وقائع تلك الحملة على جدران معبد الكرنك وعلى لوح (جبل بركل) فهابته الملوك والأمراء والدول فى هذه الأنحاء ، وراحوا يخطبون وده بالهدايا والجزية .

وقد اتبع تحوتمس سياسة حكيمة ، فلم يمس عقـائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية فى مواعيد مقررة ، وعمل على أن يتعلم أنجالهم بمصر ليغرس فى قلوبهم حب مصر وليعودوا الى بلادهم وكلهم عطف ومحبة على البلد الذى علمهم (وليكونوا من ناحية أخرى أشبه بالرهائن) .

وقد صاغ كهان آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون الظافر ، وفيها تلخيص لكل معـاركه وحروبه وفى هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده تحوتمس الثالث « الى الى لتحظنى بنورى ، أى بنى ونصيرى ــ رزقتك القوة والنصر على أمم الأرض جميعا ــ وبسطت سلطانك ورهبتك على الناس ، يروعهم بأسك فى الأرض من أدناها لأقصاها . وحشدت لك أمراء الأرض فجعلتهم فى قبضة يمينك ــ لقد قيدتهم جميعا من أجلك ــ صفدت لك الألوف وعشرات الألوف من عصـاة الجنوب ، ومئات الألوف من أهل الشمال ــ وطرحت أعداءك تحت قدميك لتهلك منهم العصاة والثائرين . فدان لك أهل المشرق والمغرب فى طول البلاد وعرضها ــ تضرب فيها مغتبط القلب حيث تشاء ، ودون أن تجد فى ربوعها من يعصيك ــ ثم سقتك عليهم واعتبرتك الفرات قويا ظافرا بتأييـد من عندى ــ يسمعون صيحتك فيلوذون بالكهوف والمخابىء ، على حين كنت أسلب أنوفهم نسيم الحياة ، والقى فى قلوبهم الرعب من بأسك ــ وجعلت على جبينك ناشرا (أى حية) يأكلهم ، ويحرق بناره أهل المستنقعات ، ثم تأتى على الخوارج من آسيا فيما يبقى وما يذر ، وهيأت لك النصر تتغلغل به فى الأرض ، جاعلا كل من يشرق عليه نورى من رعيتك وعبيدك ــ لم يبق تحت السماء من يعصيك ــ يجيئونك بأمرى مصطفين مقنعى رؤوسهم ــ يحملون اليك ما فى بلادهم من رزق ــ وأتيت اليك بالخوارج صاغرين تلتاع نفوسهم وترتعش أبدانهم » .

« وأتيتك مؤيدا لتسحق أمراء فينيقيا فجعلتهم تحت قدميك ، ثم ألقيت عليك من نورى ما جعلهم يرونك فى صورتى » .

« وأتيتك لتسحق الشرق ، ثم سقتك فى الأرض المقدسة فأريتهم اياك شهابا رصـــدا » .

« وأتيتك لتسحق الغرب ، وجعلت أهل كريت وآسيا الصغرى يرون فيك فحلا ظافرا فتيا حديد القرنين ، شديد النطاح لا يغلبه غالب » .

وأتيتك لتسحق أهل المستنقعات والأخوار ، فبات أصحاب « النهرين » يهتزون أمامك رعبا وفرقا ، وأريتهم اياك فى صورة تمساح يملأ الماء رعبا فلا يدنو منه أحد .

وأتيتك لترهب أهل الجزائر فى قلب اليم فروعتهم صيحتك فى ساحة الوغى ، وأريتهم اياك كالظافر (حورس) يصول فوق ظهر غريمه (ست) .

وأتيتك لتهلك الليبيين ، فصرعتهم قوتك ، وأريتهم اياك فى صورة سبع ضار ، فملأ الأودية بأحداث صرعاهم وأتيتك لتسحق من فى أقصى الأرض ، وجعلت ما تحت الشمس فى يمينك وأريت الدنيا اياك فى صورة صقر ينقض عليها فيأخذ منها ما يشاء .

وأتيتك لتسحق النوبة ، وجعلت بقاعها فى يمينك حتى « شط » وأريتهم اياك فى صورة أخويك اللذين ألفت بينهما ضمانا لنصرك (حورس وست) .

ويختتم الشاعر تلك القصيدة الرائعة بحديث يبارك فيه آمون ولده فرعون ، ويدعو له بالنصر ، ويمجد ما شاد من عمائر وآثار وما قدم له من خير يفوق ما قدم كل السلف من آبائه .

وقد حفظ لنا تاريخ هذه الفترة مخلفات وأسماء مائة من كبار الموظفين ، الذين ملأوا حوائط قبورهم بأنباء نشاطهم فى مختلف الميادين .

ولكنا لا نستطيع الا أن نختص بالذكر واحدا منهم وهو تحوتى الذى كان يعمل مشرفا على البلدان الشمالية ، والذى حفظ لنا التاريخ قصته ، ولعلها كانت مصدر الوحى والالهام لكل ما جاء على غرارها من قصص فتح طروادة أو قصة الزباء أو القصة الأحدث عهدا قصة على بابا والأربعين حرامى .

فعندما استعصت مدينة يافا الحصينة على جيوش تحوتمس ، عمد تحوتى الى مائتين من رجال الجيش المصرى فخبأهم فى الغرائر وأمر بهم فحملوا الى المدينة ، يتقدمهم سائس خيل أمير المدينة برسالة الى زوجته ، فلم تكد تفتح ابواب المدينة لهم حتى خرجوا من الغرائر وقبضوا على رجالها وهكذا تم الاستيلاء على يافا بهذه الحيلة (مصر الخالدة — وموكب الشمس) .

وكان تحوتمس الثالث قائدا حربيا ممتازا ، لم يكلف أحدا من رجاله القيام بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، كما فعل حين ترجل على قدميه فى ممر (عرونا) .

وكان اداريا ممتازا فقد وصفه وزيره رخمى رع أنه كالصقر الذى يرى مالا يبصره البشر العادى ، ولم يكن نهازا للفرص فعامل أعداءه باللين والمحبة مع الحيطة وقربهم اليه ووثق فيهم بعد أن ادوا له يمين الطاعة .

وهو أول من فكر فى أن يأخذ أولادهم الى مصر ، ليتعلموا فى مصر وينشأوا نشأة مصرية — حتى اذا ما عادوا الى بلادهم وحكموها لم ينسوا ذلك .

واتصفت حملاته بلون آخر ، فالى جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ فى ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها الى مصر كالدجاج والريحان (مصر الخالدة) .

واحتفل تحوتمس الثالث بعيده الثلاثين (عيد سد) أكثر من مرة ، فأقيمت الاحتفالات التى لم تشهد لها طيبة مثيلا من قبل ، وأقام تحوتمس المسلات التذكارية لهذه الأعياد الخالدة فشاد اثنتين منها فى معبد الكرنك واثنتين فى مدينة الشمس وكأن القدر شاء أن يخلد تحوتمس الثالث كما لم يخلد انسان من قبله أو من بعده كملك عظيم ظافر ، فتوزعت مسلاته الأربع فى أرجاء المعمورة تختال بها بلاد العالم العظمى ، وتقف فى أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحوتمس .

تقف احدى مسلاته فى مدينة القسطنطينية وتقف الثانية فى مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد على لحكومة انجلترا فى مدينة لندن على شاطىء التيمس . كما أهدى الخديوى اسماعيل المسلة الرابعة الى حكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم فى حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك .

ومات تحوتمس الثالث بعد أن حكم أربعا وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عاما .

١٤٣٦ ق.م :

تولى ملك مصر « امنحتب الثانى » ابن تحوتمس الثالث من زوجته مرية رع حتشبسوت ابنة حتشبسوت . وقد ولد فى منف ونشأ فيها وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره على ما سجل ذلك اللوح الكبير الذى كشف عنه بالقرب من أبو الهول وقد حدثنا القائد (آمونمحب) كيف اعتلى ذلك الأمير عرش مصر فى صبيحة اليوم الذى مات فيه أبوه العظيم ، وحدثنا كبير وزراء أبيه « رخموع » كيف ركب الفلك على متن النيل لمقابلة العاهل الجديد الذى جاء فى السفن من شمال الوادى .

وقد صور لنا حائط مقبرته مظاهر العظمة التى أحيط بها ركبه ، وكيف قدم المليكه باقة من الزهر المقدس ابتهاجا للقائه ، ثم وصف لنا بالصور التفصيلية عودته فى ركاب فرعون الى طيبة ، وخروج الشعب لاستقباله .

وتقول لنا اللوحة التى كشف عنها عند أبو الهول ، انه كان عندما ولى العرش رفيع القوام ، قوى الذراع ، يجيد صناعة الحرب ، وليس بين جنود الأرض من يدانيه فى شدة بأسه وقوة يمينه وليس فيهم من يقوى على شد قوسه ، وهو بعد ذلك عداء لا يسبقه سابق ، وهو يحسن التجديف ان ركب الشراع وكان راميا بارعا ، وفارسا أحب الخيل منذ نعومة أظفاره فقد عهد اليه أبوه بالاسطبل الملكى فى منف وجعله قيما عليه ولم يكد يلى الملك ، حتى اندلعت الفتنة فى امارات آسيا فامتنعوا عن تقديم الجزية .

فأسرع الملك الى الولايات الثائرة وأخمد الفتنة ، بعد أن لقن الثائرين درسا قاسيا ، فسجلت الآثار مظاهر تنكيله بالثائرين وغنى عن البيان ان الرجل فى ذلك لم يتجاوز المألوف فى ذلك العصر .

وقد انمحت هذه الشدة فى اطفاء نيران الفتنة لبضع سنوات ولكنها لم تلبث ان اندلعت من جديد ، فعاد فرعون لهم مرتين مرة فى عامه السابع وثانية فى عامه التاسع ، ونكل بالمتمردين من جديد . وقد عثر فى عام ١٩٤٢ (١) على سجل كامل لمعارك امنحتب الثانى ، بكل تفصيلات هذه المعارك وما أظهره فيها الملك من بطولة ، وأحرزه من نصر .

وفى جبانة الشيخ عبد القرنة قبر لعظيم من عظماء عصره صور صاحبه ، امنحتب الثانى جالسا فوق عرشه وسجل عند أقدام العرش ، أسماء شعوب الامبراطورية التى دانت لسلطانه ومن بينها واحات الصحراء الليبية وبلاد كوش وبلاد الساحل الفينيقى ، ونهرين وسوريا وبلاد مالوص (كليكيا الحالية) ، وقد أمر فرعون باقامة لوحين من حجر ، سجل عليهما حدود امبراطوريته نصب الأول عند « أقصى حدوده فى نهرين ، والثانى عند أقصى حدوده الجنوبية » حول « كاروى » الى الجنوب من جبل بركل عند منحنى النيل بجهة أبو حمد ـ أما فيما بعد ذلك الاقليم فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط وقد ذكر مانيتون أن امنوفيس الثانى (امنحتب الثانى) توفى بعد أن ظل على عرش البلاد خمسة وعشرين عاما وهو تقدير يقرب من الحقيقة .

ولما مات دفن فى قبره المشهور فى صخور وادى الملوك وهو يعد من أجمل ما نحت من قبور ، وقد جعل سقفه على هيئة السماء ملونا بلونها ، ثم زين بما يمثل النجوم تلمع فيها بلونها الذهبى الرائق .

ولا يزال امنحتب الثانى ثاويا فى قبره ، الذى عثر فيه على قوسه الشهيرة التى فاخر بها أمراء الفرسان فى مصر وغير مصر .

ولعل أظهر ما يميز « أمنحوتب الثانى » عن سائر الفراعنة ، هو ولعه الشديد بالرياضة البدنية بكافة أشكالها وتشجيع كل من يبرز فيها .

وقد سار فى أعمال البناء والتعمير مسلك والده العظيم فأقام المنشآت الكثيرة وخاصة فى الكرنك . وله فى مختلف أقاليم مصر آثار تدل على أنه اهتم بالبناء والتعمير .

وأهم الموظفين الذين عاشوا فى حياته « قن آمون » وهو أخ « لأمنحتب الثانى » فى الرضاعة ، وقد جعله قيما على قصوره وعهد اليه بادارة أملاكه ثم رقاه فجعله الملك عينا له فى الوجه القبلى وما فى الوجه البحرى .

وقد ترك الرجل مقبرة فى جبانة « شيخ عبد القرنة » تمثل الحياة فى هذا العصر بتفصيل دقيق رائع .

---

(١) عثر على اللوحة فى ميت رهينة الدكتور احمد بدوى ونشر نصوصها وعلق عليها .

١٤١٣ ق.م :

تربع على العرش « تحوتمس » الرابع وهو احد أبناء أمنحتب الثانى الذين كان عددهم يتراوح بين خمسة وسبعة على اختلاف بين المؤرخين ، فتشير بعض الدلائل الى أن تحوتمس الرابع لم يكن هو صاحب الحق فى وراثة العرش ، فقد احتـاج الى ان يصطنع شأن من سـبقه من الملوك الذين رأوا أن يقووا حقهم فى العرش ، قصـة نقشت على لوح من الجرانيت عثر عليه بين ذراعى أبو الهول وفحوى هذه القصـة أن تحوتمس الرابع خرج ذات يوم عندما كان لا يزال أميرا للصيد ، فاشتد به الهجير والقيظ فآوى الى الظل فى جـدران أبو الهول ليستريح ، فأخـذته سنة من النوم ، فى ظل الاله العظيم (حور أم أخت) وهو اسم أبو الهول فى الدولة الحديثـة ، فرأى فى المنام ربه الذى ناداه قائلا :

« يابنى تحتمس اننى والدك (حور أم أخت رع أتوم) اننى سـأعطيك ملكى على الارض على الأحيـاء وستضع التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش الاله « جب » وطلب منه ازاحة الرمال التى غطته . ولما استيقظ ابن الملك من قيلولته وضع هذا الكلام فى قلبه .

ويرى كثير من المؤرخين أن لو كان تحوتمس صاحب الحق فى العرش لما فكر فى هذه القصة ، ولما رأى نفسه مضطرا الى بعث عبادة رع ، مما تحيط عليه كهنة آمون ، فلا بد ان كهنة آمون كانوا ضالعين مع غيره من اخوته الأحق منه بالعرش فلجأ هو الى كهنة رع الذين اصطنعوا له هذه القصة .

والحق أن ايام تحوتمس الرابع ، قد شهدت ، عودة الحيوية الى عبادة الشمس ، التى ستزدهر فيما بعد حتى تصل الى ذروتها على يد اخناتون .

وفى مبدأ حكم تحوتمس الرابع ، شبت فى آسيا ثورة استدعت ذهابه ، وقد كان مجرد شخوصه كافيا لاخضـاع الأمراء الثائرين ، وقد لقب نفسـه « فاتح سوريا » وكانت جزية هذه البلاد ترسل له كل سنة وتسلم الى رئيس المالية وفى هذه الفترة كانت حيثا ونعنى بهـا دولة الحيثيين قد بدأت تصبح قوة ذات خطر تهدد سـلطان مصر فى سـوريا وفلسطين ، فوجـد تحوتمس الرابع من مصلحته أن يحـالف ملك ميتانى ، وليس أقوى من المصاهرة على ربط الأواصر بين الملوك فى ذلك العهد ، فتزوج تحوتمس الرابع أخت ملك ميتـانى ، مخالفا بذلك سنة السلف ، فقد كانت شريعـة الملك تحتم عليهم أن يتزوجوا بأقرب النساء ، من ذوى الأرحام ليشقوا بذلك طريقهم الى العرش ، حتى كانوا يتزوجون من أخواتهم كما رأينا . وعقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة مع بابل . وفى السنة الثامنة من حكمه وصلت اليه أنبـاء بحدوث ثورة فى النوبة فسار اليها على جيشه مارا بالمعـابد العظيمة محييا الهتها حتى بلغ الشـلال الأول ثم زحف على بلاد الواوات ، وهزم الجيوش التى تصـدت له ، وغنم الكثير من الغنائم والأسرى . ولشدة حبه لجده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسـلة التى تركها بمدخل الكرنك الجنوبى ودون عليها أعمال جده ، وهى أكبر مسلة باقية

للآن وهى الموجودة فى روما ، ومات « تحوتمس الرابع » ولم يتجاوز سنه ستة وعشرين عاما ولم يزد حكمه عن تسعة أعوام وبضع شهور على ما يقول مانيتون وقد كان قبره أول حلقة من سلسلة قبور الفراعنة التى كشفت فى العصر الحديث ، وقد وجد منهوبا كبقية قبور الملوك التى نهبت فى زمن الرعامسة . ولكن جثته قد عثر عليها ، وتبين من فحصها انها لشاب صغير لا يتجاوز عمره ٢٨ سنة .

١٤٠٥ ق.م ــ « امنحتب الثالث » :

وصلت البلاد فى عهده الى أعلى درجات الحضارة ، ولكنه لطول المدة التى حكمها وقدرها ٣٦ سنة ابتدأ دبيب الضعف يسرى اليها شيئا فشيئا وأصبح للملكة « تى » زوجة الملك نفوذ كبير . وقد أمكنه أن يخضع عصيانا بالنوبة ، وقد حفظ له الود كل أمراء آسيا .

أمنوفيس الثالث (١٤١١ ق.م ــ ١٣٧٥ ق.م) :

حفظ سلامة الامبراطورية فى آسيا بالطرق الدبلوماسية وتحفظ لنا خطابات تل العمارنة ــ المكتوبة بالأشورية على لوحات مسمارية ــ كثيرا من المراسلات الدولية أيام حكمه وحكم ابنه ــ ويمتاز حكم أمنوفيس الثالث بأنه عصر رخاء عظيم وتقدم ثقافى .

حكم امنحوتب (أمنوفيس) الثالث ابن تحوتمس الرابع (١) كما سجل ذلك بنفسه على آثار معبده الخالد الذى أقامه « معبد الأقصر » حيث تسجل الآثار قصة أشبه بقصة حتشبسوت عندما أدعت أن آمون هو وادع نطفتها فى رحم أمها .

فكذلك تروى قصة امنحتب الثالث ، فقد تمثل آمون على صورة تحوتمس الرابع ثم غشى زوجته « مدتمويا » فحملت منه بامنحتب الثالث .

وكان الملك ولوعا بالنساء منذ كان وليا للعهد ، فلما ولى الملك ازداد غرامه

---

(١) تشكك الدكتور أحمد بدوى فى تاريخه « موكب الشمس » وتابعه الدكتور عبد الحميد زايد فى أن يكون أمنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع ورجحوا أن يكون أحد أبناء أمنحتب الثانى واستبدا فى رأيهما على أن الكشف الجديد على مومياء تحوتمس الرابع قد جعل البعض يقدر عمره بست وعشرين سنة ، ومن هنا فقد استبعد أن يكون أمنحتب الثالث ، الذى يقطع الآثار فانه تزوج فى العام الثانى لحكمه ابنة لتحوتمس الرابع . والحق أن الادلة التى ساقاها فى كتابيهما الجليلين لم تقنعنى على متابعتهما ولا يمكنى دحض أثر مكتوب ومسجل فى عصره ، بمجرد استنتاجات تبنى كلها على رأى طبيب معاصر من أن عمر تحوتمس الرابع عندما مات كان ٢٦ سنة . فالاقرب الى الاحتمال ، أن يكون الطبيب والاطباء المعاصرون قد أخطأوا تقدير السن . خصوصا وأن المعروف أن أمنحتب الثالث مات عن سن لا يتجاوز الخمسين . مع أنه حكم ستا وثلاثين سنة ويعنى ذلك أنه ولى الحكم وعمره ١٤ سنة فلو أن الخطأ فى تشخيص عمر تحوتمس الرابع لا يزيد عن عامين أو ثلاثة لما كانت هناك أى صعوبة فى أن يكون أمنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع . وهكذا تسقط هذه القرينة على دحض نسبه الى تحوتمس الرابع .

بهن ، وقد تزوج بملكة مجهولة الأصل تدعى « تى » وقد أمر امنحتب الثالث بصنع جعل حجرى كبير لينقش عليه تاريخ هذا القران ، حيث ذكر اسمى والدى هذه الزوجة بما يفهم منه انهما مجردان من كل صلة بالبيت المالك . وعلى الرغم من أن امنحتب الثالث قد تزوج بعد ذلك كثيرا وأسرف فى الزواج ، فقد ظلت الملكة « تى » صاحبة المكان الأول . واظهر امنحتب مقدرة عظيمة فى أدارة شئون الامبراطورية فلم يتجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية على القيام بثورة ولكن بلاد النوبة قامت بثورة فى العام الرابع من حكمه فزحف بجيشه على الثوار وهزمهم ، ثم سار مع النيل حتى توغل الى نقطة بعيدة جدا لا يعرف مداها الآن .

ووصل الأمر الى حد أن تنافست بابل وأشور وميتانى وقبرص لاكتساب محبة مصر . ويعتبر ذلك أول مظهر سياسى دولى عام فى تاريخ الممالك المعروفة حتى الآن — وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر ، وترجع معظم معلوماتنا عن المداولات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى المجموعة الرائعة من الرسائل التى وجدت فى تل العمارنة وهى هذه الخطابات التى تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر وبلغ عدد هذه الرسائل ٣٠٠ رسالة وكل منها عبارة عن قالب من الطين منقوش عليه بالخط المسمارى البابلى ، وقد تم اكتشاف هذه الرسائل عام ١٨٨٨ م بتل العمارنة التى ستصبح كما سوف نرى عاصمة للبلاد أيام اخناتون (١) . أتاحت له أيام السلام فى حياته وكثرة ما أفاء الله عليه من الرزق الذى كان يتدفق على خزائن القصر أن يطلق يده فى أعمال التعمير والانشاء .

الآثـــار :

فبنى على ضفة النيل اليسرى جنوب دار الكرنك دار الأقصر الذى يعتبر أجمل وأبدع الآثار المصرية على الاطلاق ، والذى أريد به أن يكون مسكنا خاصا لآمون ، حيث كان الكرنك هو داره الرسمى — ثم أنشأ بين هذه الدار وبين الكرنك طريق الكباش ، حيث زين جانبا الطريق بتماثيل أبو الهول غير أن رأسه جعلت رأس كبش لا رأس انسان . وأقام فى أوله مسلتين عظيمتين وشيد فرعون لنفسه بعد ذلك قصرا رائعا عن يمين النيل فى المكان المعروف باسم مدينة حابو . وقد ذهبت آثار هذا القصر ولكن التاريخ حفظ لنا وصفه بالتفصيل ، وكيف كانت حوائطه وجدرانه مزدانة بأجمل الرسوم والصور والحق بالقصر بركة أريد بها تلطيف جو القصر وكان طولها ٣٧٠٠ ذراعا وعرضها ٧٠٠ ذراع وقد فرح بها فرعون فرحا عظيما حتى لقد خلد قصة انشائها على كثير من الجعارين التذكارية .

وله بعد ذلك آثار فى منف وفى بلاد النوبة (صوليب) حيث أقام معبدا لأبيه وربه « آمون » — كما عثر له فى سيناء على لوحين يؤرخ أحدهما عامه السادس والثلاثين ،

---

(١) كانت فلاحة مصرية هى صاحبة هذا الكشف الذى زود العالم بتاريخ تفصيلى عن هذه الفترة ولكن العلماء فى ذلك الوقت لم يقدروه قدره فلم تكن أسرار اللغة المسمارية قد كشفت بعد .

وكيف انه بعث واحــدا من ابرز رجــاله لاستخراج الفيروز ــ كما عثر له فى خرائب منف على آنية تحمل اسم ذلك الفرعون .

وامتدت شهرته الى بحر ايجه ، فوجد المنقبون بين خرائبها طائفة من آثار صغيرة تحمل اسمه واسم زوجته الأولى « تى » منها ما وجد فى قبرص وما وجد فى رودس .
وقد احتفل بعيده الثلاثين ثلاث مرات ، فى السنة الثلاثين وفى الرابعة والثلاثين وفى السادسة والثلاثين .

وبلغت هذه الأعياد مبلغا من العظمة والبهجة لم تعرفه من قبل حيث كان الفرعون يستقبل الأشراف والكبراء ، فيوزع عليهم العطايا من الذهب والملابس الثمينة ، ثم يفتح لهم ابواب القصر ليتناولوا الطعام على المآدب الملكية المترفة ، ثم يخرجون الى بحيرة فرعون ليحظوا بشرف مشاهدة الزورقين المقدسين .

ومن أشهر بناته « نيفرتيتى » ، ثم ساة آمون الذى يزعم بعض المؤرخين أن اباها قد تزوجها وانجب منهــا توت عنخ آمون ولكن آخرين يشكون فى ذلك (عبد الحميد زايد وأحمد بدوى) .

وكان لاسراف أمنوفيس الثالث فى حيــاة اللهو والعربدة أثره عليه فشــاب قبل الأوان وادركه الضعف ، وذوى ولما بلغ الخمسين من عمره نجــده فى بعض صــوره وقد هده المرض ذاهلا عن أحداث الدنيا وما يجرى فيها .

ويمكن تشبيه عصره ، بعصر الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا أو عصر الرشــيد والمعتصم فى العهد الاسلامى أو خمارويه أو اسماعيل .

وقد ازدهرت الفنون فى عصره فبلغت من الرقى مبلغــا لم تعرفه (شــواطىء) مصر من عهد الأهرام ، وانقشعت عن سماء البلاد سحب الحرب التى تغشــتها من قيام هذه الأسرة .

ويعتبره بريستيد آخر أباطرة مصر العظــام ، حيث وصلت الدولة فى عهده ، الى اعظم درجات الرقى والحضارة ومات بعد أن حكم ستا وثلاثين سنة .

١٣٦٧ ق.م :

تولى **اخناتون** ابن امنحتب الثالث عرش مصر وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وتزوج من أختــه نفرتيتى والتى يحتمل أنهــا كانت من أم أخرى ، وان كان ليس من المقطوع به انها أخته (ف . لولين جريفث : تاريخ العالم ، المجلد الثانى) وقد كان مقدرا له أن تصل عقيــدة التوحيد على يديه ذروتهــا بحيث يعتبره البعض من الأنبيــاء والرسل ، على أن فضل اخناتون فى اصلاحــه الدينى لا يبدو فى توحيــده الألوهية بقدر ما كان فى تغييره صفات هذه الألوهية وتحويل الاله من اله محلى اقليمى

ومولى غاضب منتقم الى اله عالمى محب عطوف جميل يحب الجمال ، ويشمل بيره بنى البشر جميعا . وهناك رأى يقول ، أن فكرة توحيد الألوهية فى اله الشمس هى فكرة آسيوية ، وفدت الى مصر مع زوجة امنحتب الثالث وحاشيتها من النساء والرجال الأسيويين ، الذين بدأوا يغشون البلاط المصرى منذ أيام تحوتمس الرابع ، وزاد أمرهم فشوا فى عهد امنحتب الثالث ، الذى طال واستفاض . ولكن فكرة التوحيد لم تكن بعيدة عن اذهان المصريين وخاصة رجال الدين منهم ، بل انها كانت فى تطور مستمر منذ توحدت البلاد .. كما أن عبـادة اله الشمس سواء فى صورة حوريس ، أو رع هى من أوسع العبادات انتشارا وأقدمها فى حياة المصريين كما رأينا ... بل ان آمون نفسه لم يأخـذ قوته وسلطانه الا بعد أن اعتبر صورة أخرى من صور رع فأصبح يطلق عليه اسم آمون رع . وكذلك سائر الآلهة كسبك الذى أصبح سبك رع والحق ان اتجاه الوجدان البشرى والعقلى نحو توحيد الألوهية هو احدى الظواهر الانسانية التى تفرض نفسها على الانسان فرضا .

فقديما عنـدما كان لكل قبيلة استقلالها ، فقد كان لهـا معبودها الخاص بها . وذلك طبيعى ومفهوم فقد كانت كل قبيلة تعتبر نفسها هى الجنس الانسانى فى مجموعه والأرض التى تعيش عليها هى الدنيا بطولها وعرضها ولكن مع اتساع معارف البشر واختلاطهم ببعضهم واكتشافهم أراضى جديدة ومعبودات جديدة فقد بدأت عمليـة تزويج المعبودات الى بعضها ونسبة بعضها الى البعض الآخر باعتبارها أبنـاء وآباء ثم ارتقى العقل البشرى فراح يرى فى المعبودات المختلفـة صورا متفرقة لحقيقـة واحدة . وقد كان كهنة كل معبود اذا واتاهم السلطان يرتفعون بالههم فوق باقى الآلهة ويجعلون منه الاله الواحد المسيطر على الكون .

فهؤلاء كهنة منف عندما كانت منف مستقر السلطان جعلوا من بتاح خالق الكون وقوته المحركة وعقله المدبر يقول للشىء كن فيكون . « بتاح العظيم » (فؤاد ولسان المعبودات) .

« بتـاح المعبود الذى يبدأ منـه الحب والمنطق فكل ما يصـدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والأمر هو نتيجة ارادة هذا المعبود بتاح » .

وهكذا جعلوا « بتاح » هو خالق الكون وارادته . وكهنة عين شمس كلما واتتهم الفرصة جعلوا « رع » هو اله الآلهة خالق الكون الذى أورث أبناءه ، ملوك الفراعنـة حكم الأرض ، فما جاء به « اخناتون » من توحيد الألوهية بالنسبة للبشرية كان هو النتيجة الطبيعية لتحول مصر الى امبراطورية تشرق الشمس على كل شعوبها ويمتد سلطانها شمالا وجنوبا على شعوب ومعبودات متفرقة فأصبح لا مناص من أن يكون معبود مصر هو رب كل هذه الشعوب والكائنـات خاصة وقد رآه الجميع بأبصارهم يبزغ فى السماء . والجديد بالنسبة لاخناتون هو أنه لم يستعمل الاسم المألوف لاله الشمس وهو « رع » وانمـا استعمل الاسم الذى كان يدل على قرص الشمس وهو

« آتون » ليكون رمزا على الألوهية المطلقــة فلم يعد المعبود آتون هو قرص الشمس المادى ولكنه حرارة الشمس ثم أصبح شــــيئا فوق ذلك كله انه سيد آتون وأصبح يصور على الآثار فى شكل قرص الشمس تمتــد منه الأشــعة وفى نهايتها أيدى ترمز لعناية الله بخلقه ويمد يده اليهم . على أن ثورة أخناتون فى العقيدة الدينية لا تبدأ عند هذا الحد بقدر ما تبدأ من محاربته للمعبودات القديمة خاصة آمون باعتباره كان أشدها نفوذا حيث راح يحطم تماثيله ونصبه ويمحو اسمه حيث استطاع الى ذلك سبيلا حتى لو اضطر الى محو اسمه والى محو اسم أبيه نفسه امنحتب الثالث وتغيير اسمه هو من أمنحتب الرابع الى اخناتون (أى التابع لآتون) ولو أن اخناتون اكتفى بالدعوة الى الهه الجديد معتبرا اياه صورة من صور آمون كما هو صورة من صور رع وأوزوريس الى حد ما ، لما أثار على نفسه كل هذا العداء الذى انتهى بتحطيمه وتحطيم دعواه . ولذلك فلا عجب أن بدأ كهنة آمون يناصبونه العداء ويجهرون بهذا العداء وكانوا قد بلغوا من القوة والنفوذ بحيث لا يقوى الفرعون الجديد على سحقهم وان استطاع أن لا يأبه بمعارضتهم ولذلك فقد غادر طيبة فى العام السادس من حكمه بعد أن أصبحت غير صالحة للاقامة بها ، وضرب نحو الشمال بحثا عن مكان لم يظله آتون أو اله آخر من قبل فعثر على هذا المكان فى بقعة من اقليم الاشمونين تقع على الضفة الشرقية للنيل فيما يعرف الآن بتل العمارنة « محافظة المنيا » وبدأ فى انشاء مدينته الجديدة التى أطلق عليها اسم (اخت آتون) أى سماء آتون . وجعل ما يحيط بها حرما مقدسا ، يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبعة عشر ميلا ، وأحاط هذا الحرم بأحجار لتحدده وقد عثرنا على أحد هذه الأحجار وقد نقش عليها « رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا هذا قسمى الأزلى ، وهذا شاهدى الأبدى . هــذا الحجر يعين حدود الأرض ... لقد شيدت أخت آتون لتكون سكنا لوالدى وأظهرت حدود أخت آتون الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية ... » .

لقد صنع الاله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها ضريحه الذى قدم عليــه القرابين من أجله (برستيد) . وعهد اخناتون الى المهندس بك باحضار الأحجار من اقليم الشلال لبناء معابد اخناتون الثلاثة ، وقصرا للملك وقصورا للأمراء حول هذه المعابد .

وقد وصف أحد الأمراء مدينة أخت آتون بقوله :

« أخت آتون بلدة جميلة جدا فهى ســيدة المدن فى الاحتفــالات وافرة الثروة وفى وسطها الهدايا للمعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح كيف لا وهى مدينة بديعة حتى ليخيل الى ناظرها أنها الجنة كثيرة الأهالى . اذا أشرق عليهــا آتون أغدق عليها أشعته محتضنا بأشعته ابنه المحبوب سليل آتون ، واقف الأقاليم على الذى أجلسه على العرش ومرجع الأراضى لخالقها » .

وتتجلى روعة الانقلاب فى تصور المعبود الجديد ، فى الكيفية التى أقام بها معبد آتون ، فبدلا من هذه المعابد التى أقيمت لآمون والتى يغشــاها الظــلام والظلال

والغموض .. لتخلع قلوب العابدين من الروع والخشية ، بدلا من دماء الأضاحى التى تذبح لآمون .. فقد أقام معبدا لالهه الجديد مشرقا مشعا يبعث الدفء فى الأجساد والقلوب والأرواح .

ولقد دمر الهيكل بعد وفاة اخناتون وعودة الملوك من بعده الى عبادة آمون ، ولكن صورة الهيكل ظلت مصورة ومحفورة على الجدران ، فكانت أروقته كلها مكشوفة لتتخللها أشعة الشمس ، لتفيض على العابدين والمصلين وتحيط الأشجار بالأروقة لتقى بظلالها من وهج الشمس الساطعة وبهرة أضوائها .

وكانت القرابين فى الأغلب والأعم من الكعك والخضر والزهور والرياحين ، وكانت مجامر البخور تعطر المكان بالعطر المقدس ، بينما تتدفق أنغام الموسيقى والتراتيل الشجية فى حنان .

وكانت الصلوات تقام عند الشروق وعند الغروب .

وقد حفظت لنا مقبرة أى ترتيلة اخناتون الكبرى لآتون والتى يقارنها علماء أوربا المسيحيون بمزامير داود ، ويرون أن الأخيرة مأخوذة من هذه الترتيلة (برستيد) :

« بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدىء الحياة ، اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك .

ماذلك الا لأنك جميل عظيم ، تضىء فى السموات العليا ، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك . أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال بها بأشعتك أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار اذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كآتون أضاءت الأرض ، اذا ما بزغت أشعتك اضىء الظلام وشمل الفرح قطرى مصر كيف لا وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعتهم اليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها . والأشجار والنباتات جميعها يانعة ، والعصافير تخفق فوق المياه ناثرة أجنحتها ابتهالا اليك ، والأغنام ترقص على أرجلها . والطيور تحلق فى الجو اذا ما أشرقت عليها .

خالق الانســان :

أنت خالق الجنين فى أمه ، أنت خالق نطفة الانسان . أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه ، وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى .. كيف لا وأنت المربى فى الرحم . أنت معطى نفس الحياة كل مخلوقاتك .

خالق الحيــوان :

أنت الذى تهب الحياة للفرخ فى البيضة .. فاذا أتممت خلقه ثقب بيضتــه وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه .

الخلق عموما :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها — أنت الاله الأحد لا شريك لك فى الملك . خلقت الأرض بارادتك . ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها .

أنت الذى أحللت كل انسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة .

لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك . ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى فنيل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنيل الذى يأتى مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة أشعتك تغذى الجنان . فاذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .

فالشتاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة أنت الذى رفعت السماء عالية لتنظر ماخلقت فى وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا متلئلئا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت .

جمـال الضــوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك امامها . . كيف لا وأنت أكثر من النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك :

أنت فى قلبى ، لا يعرفك سوى ابنك اخناتون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك . العالم كله فى قبضتك كما خلقته .

اذا ما أشرقت عليه حيى واذا ما أفلت مات . أنت الوجود وسبب الحياة للانسان . أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب .

لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش فى الحق سيد الأرضين نفر — خبرو — رع وان رع (ابن رع) العائش فى الحق سيد التيجان اخناتون طال أجله . وأيضا للزوجة الملكية العظيمة خليلته سيدة القطرين نفر — نفرو — آتون (نفرتيتى) العائشة اليانعة الى الأبد » .

وكان اخناتون يتمسك فى الدرجة الأولى بضرورة اتباع الحق وكان لقبه الابن الملك العائش فى الحق .

ولا شك أن مصريى ذلك الزمان قد اعتبروا اخناتون مجدفا وملحدا ومنحرفا

واسان حالهم يردد قول كفار قريش « أجعل الآلهة الها واحدا ؟.. ان هذا لشيء عجاب » .

وكان يصدمهم كما صدم كفار قريش كذلك ، انه لم يقف عند حد الدعوة لاله ، بل تحدى باقى الآلهة وقرر أن يحطم أصنامهم ويمحو أسماءهم وكان يفزعهم أكثر وأكثر وهم الذين كانوا سكرى بعظمة الامبراطورية والذين كانوا يعتبرون أنفسهم هم وحدهم الناس وغيرهم ليسوا من الناس الا فى الدرجة الثانية أغضبهم وأحنقهم أن يسوى بينهم وبين النوبيين وبين السوريين بل أن يذكر أسماء هؤلاء قبل ذكر المصريين وان الله يرعى الجميع على السواء ويجعل كل انسان مكانه ويعطيه الرزق ويقرر مصيره . على ان ما يروعنا نحن ، فى العصر الحديث من هذه الأنشودة انها لم تنسب الى آتون أى وصف من أوصاف الغضب والنقمة والتعذيب فضلا عن الدعوة الى الحرب وقتال المخالفين ولم تنسب اليه الا آيات الرحمة رحمته على عباده وحنانه وبره بهم .

وهذا الذى يجعل اخناتون فى نظرنا هو نبى الدعوة الى الحب والسلام وشجب العنف بين بنى البشر ويضاعف من قيمة هذه الدعوة ويظهر مدى ايمان اخناتون العميق بها ، انه دعا اليها وتمسك بها رغم انه كان ملك امبراطورية يجلس على عرش دولة لا تقوم الا على السلطان والقمع والردع وتجييش الجيوش ولم يغير موقفه عندما بدأ منافسو مصر فى ذلك الزمن من أمثال الحيثيين الذين ازدهر ملكهم فى هذه الحقبة ، يمدون ابصارهم الى دويلات آسيا ويسعون الى فرض سلطانهم على هذه الدويلات .

ولم يكن اخناتون يحرص على وصف نفسه بوصف يعلو وصفه بالحق وانه عاش فى الحق ، ويدعو دائما لاحترام الحق .

وعندما عمد بعض الأمراء يعلنون استقلالهم ويغيرون على جيرانهم مستغلين فرصة غياب ابن امنحتب الثالث عن الظهور فى آسيا . كل ذلك لم يخرج اخناتون عن الخط الذى رسمه لنفسه : وهو أن يكون داعية سلام وهداية للبشر .

وتسجل لنا رسائل تل العمارنة الصرخات والاستغاثات التى بعث بها أمراء آسيا الموالون لفرعون مصر ، يحذرونه وينذرونه من عاقبة المصير اذا لم يبادر بارسال جيوشه ، واذا لم يعالج الأمور .
فهذه احدى رسائل تل العمارنة تقول على لسان أعيان مدينة (تونب) بعلبك

« الى ملك مصر سيدنا . من أهالى تونب (بعلبك) خدمك لعلك تكون بصحة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك سيدى . مدينة تونب تتساءل الآن قائلة : لم يجرؤ أحد على سلب تونب فى عهد تحوتمس الثالث دون أن يسلبه ذلك الملك ، الا يعلم سيدنا ملك مصر أن معبودات مصر لا تزال تتوثب ويمكن لجلالتك أن تتأكد صدق ذلك من كبار قومك . ولكنا أوشكنا أن ننفصل من مملكة سيدنا ملك مصر »

اذا ما تأخر وصول الجنود والسجلات من مصر . ان ازيرو ((أحد أمراء دويلات آسيا) سيعاملنا كما عامل مدينة تى وحينئذ يعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الأسى لما يأتيه ((ازيرو)) .

ان هذا الأخير سيرفع يده فى المستقبل ليقاتل قوات جلالة سيدنا . اذا دخل ازيرو بلدة صوميرو (بطران) يفعل بنا ما يشاء . ونحن فى بلاد جلالة الملك سيدنا حينئذ يندم جلالة الملك على ذلك كثيرا .

ان تونب (بعلبك) تبكى ياسيدى بكاء مرا . ولا تعتب لها ، لقد ثابرنا على ارسال الخطابات لسيدنا ملك مصر مدة عشرين سنة فلم تصل الينا منه كلمة واحدة . ولم يظهرنا التاريخ على رد اخناتون على هذه الرسائل .. لكن الذى نعرفه أن سوريا ولبنان ، سرعان ما سقطتا فى يد الحيثيين .

وهاجمت قبائل الخابيرو مدن فلسطين الجنوبية وأرسل الوالى المصرى ببيت المقدس الحصن المنيع آخر صرخة لاخناتون لانقاذ آخر ما بقى لمصر من ولايات فى آسيا .

((ستضيع جميع أرض جلالتك التى ثارت على . أما اقليم شيرى الواصل الى جنتى ــ كرمل فقد شق عصا الطاعة على وكذلك أمراؤه . لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، أما الآن فقد احتل بدو الخابيرو بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال يطيع فالكل عصاة ... ليحترس الملك على قطائعه وبلاده وليرسل المدد ... لأنه اذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى .. واذا تعسر ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة الملك ضابطا يلازمنى للحضور أنا واخواتى كى نموت مع سيدنا الملك)) .

فلا عجب وأجزاء الدولة تنفصل عن آسيا ، ان يزداد مقت الشعب الذى لم يفهم فى أى وقت هذه الدعوى الجديدة التى جاء بها اخناتون والذى خالف بها كل تقليد ومألوف ومعروف .. وكانت هذه فرصة كهنة آمون ، لكى يؤججوا نيران الثورة ضد اخناتون وضد الهه فاجتمعت عناصر السخط الوطنية والدينية ، ضد اخناتون ، فاندلعت نيران الثورة ضد اخناتون ، فلم يلبث أن عزل بعد حكم دام سبعة عشر عاما أى عام ١٣٥٠ ق.م. ولم يلبث أن مات : ولا يعرف كيف مات . فقد عبث بجثته على ما يبدو اذ لم يعثر لها على أثر ، فقد وجدت بعض التوابيت التى قيل انها لاخناتون أو خصصت له ... ولم تكن جثته فيها على كل حال .

وقد استمر كره الناس له بعد موته لعدة أجيال حاولوا فيها أن يطمسوا كل ذكر له ، وكل أثر مكتوب . ولقبوه أحيانا ((بمجرم أخت آتون)) فقد حملوه ضياع الامبراطورية المصرية فى آسيا ، التى تعب أسلافه ملوك الأسرة الثامنة عشرة طوال مائتى عام لتثبيت قواعدها وتوسيع رقعتها .

ولكن الحقائق التاريخية كما تكشفت عنها رسائل تل العمارنة ، تثبت أن امنحتب

الثالث وليس اخناتون هو المسئول عن تفكك هذه الامبراطورية فقد حكم ستة وثلاثين عاما لم يذهب مرة واحدة الى سوريا أو يظهر فى أرض فلسطين وفنيقيا ...

وقد بدأت الفتن ، وبدأت مناوشات الحيثيين فى عهده فلم يبذل جهدا لمعالجة الموقف .. ولا يمكن أن نعتذر لامنحتب الثالث بأنه كان صاحب دين وعقيدة تدعو للسلام ...

وقد أعاد ملوك الأسرة التاسعة عشرة كما سنرى نفوذ مصر فى آسيا ، ولكن فتوحاتهم لا تلبث الا أن تتبدد من جديد ولكن دعوة اخناتون ، هى وحدها التى كان مقدرا لها أن تبعث من جديد فى عصرنا الحديث .. فقد شاء القدر أن تكون المقبرة الفرعونية الوحيدة التى سلمت من يد أسرته لتصل الى أيدينا كاملة هى مقبرة صهر اخناتون وزوج ابنته « توت عنخ آمون » لتهتز الدنيا كلها بروعة ما فيها من آثار وتنشر من جديد صفحة اخناتون وتعاليمه ، ليجد ملايين المعجبين والمقدرين للملك النبى .

الثورة الفنيـة :

على أن الشيء المتفق عليه : ان ايمان اخناتون المطلق بالحق ، وتحرى الحقيقة دائما ، فقد أحدث ثورة فى الفن ، حيث خرج فيها على أصوله التقليدية القديمة المعترف بها . وهو ألا يصور فرعون الا فى صورة متناهية فى القوة والصحة والشباب، وأن لا يظهر معه الا من يليق بقداسته أما فنانو « اخناتون » : فقد صدعوا بأوامر اخناتون وتعليماته ، أن يكون فنهم طبق الأصل من الحقيقة .

ولذلك فقد صوروا لنا اخناتون فى بساطة وبعيدا عن كل كلفة محبا لأولاده وزوجه حتى ليظهرون معه فى كل موقف وفى كل حفلة ، فى المعبد وخارج المعبد وعلى شرفات القصر .

ووصل الأمر فى تحرى الفنان للحقيقة ، حتى صور فرعون نفسه فى صورة تبدو معها بطنه وكأنها منتفخة حتى قال بعض الباحثين انه كان مريضا بالاستسقاء .. كما رسمت ملامح وجهه ورأسه بطريقة فيها الكثير من المبالغة بحيث ظهر دميما جدا .

فلا عجب اذا رأينا لأول مرة الحيوانات مرسومة بحالتها الطبيعية فالكلب عاو ، والطير محلق فى الجو والثور الوحشى عائم فى المستنقعات .

ومن آثار فنانى هذا العهد الخالدة ، تمثال نفرتيتى زوجته الموجود الآن بمتحف برلين ، والذى يعتبر أجمل قطعة من النحت فى العالم على الاطلاق .

بين موسى واخناتون :

وقد قامت محاولات للربط بين حركة اخناتون ودعوته للتوحيد ، وبين رسالة موسى عليه السلام ، فقد تلت دعوة موسى للتوحيد حركة اخناتون ومن أشهر من

خاض هذا الموضوع واكده وتحمس له « فرويد » العالم المشهور وعنده أن موسى ولد فى مصر وتربى فيها ونشأ فى كنف الوحدانية التى أعلن أمرها فى زمان اخناتون وان موسى قد تأثر بها فى دعوته . والمسلم الذى يتلقى دينه عن القرآن الكريم ، الذى يقول ان موسى عليه السلام قد دعا الى عبادة الاله الواحد المنزه ، لا يرى بأسا فى أن تكون ثمة صلة بين دعوة اخناتون للتوحيد ودعوة موسى عليه السلام ، فالتوحيد هو دين الفطرة ، وهو الذى ترتد اليه النفوس كلما ضعفت .

ولكن المطالع للعهد القديم والذى يصور يهوه اله اليهود كما دعا اليه موسى لا يمكن الا أن يجد فارقا كبيرا بين اله اليهود وبين آتون كما دعا اليه اخناتون ، فحبت آتون كما رأينا ، اله بنى الانسان جميعا عطوف شفوق ، يحب السلام ، ويكره الحرب ويسوى بين الناس . ويهوه اله اليهود ، هو اله خاص باليهود قد ميزهم على سائر العالمين ، وهو رب الجنود الذى يحب القتل والقتال وسفك الدماء ، وهو الاله العاجز الضعيف الذى يخطىء ويندم والذى يؤنبه موسى من حين لآخر .

ولذلك فقد ارتد بنو اسرائيل أكثر من مرة حتى فى حياة موسى نفسه الى عبادة اربابهم القديمة كعبادة العجل . وظلوا طول حياتهم على ما يروى عنهم العهد القديم . . يرتدون الى عبادة الأصنام وآلهة الشعوب المجاورة .

١٣٥٠ ق . م :

تربع **سمنخ كارع** على العرش وهو زوج ابنة اخناتون « مرية آتون — حبيبة آتون) وهو أخ لتوت عنخ آمون الذى سيلى الحكم بعده ، وكلاهما أخوان لاخناتون من أبيه امنحتب الثالث . ولكن البعض يشك فى ذلك ، ويعتبرهما من أبناء اخناتون نفسه . « الدكتور احمد بدوى — موكب الشمس) .

ويدل اسم سمنخ كارع ، على أنه لم يلذ بآتون فلم يلحق باسمه ، ولذلك فلا عجب اذا كان أول أعماله على العرش أن عاد أدراجه الى طيبة .

على انه لم يلبث أن مات بعد سنوات لم تزد على الثلاث .

١٣٤٧ ق . م :

توت عنخ آتون ، والذى لم يلبث أن غير اسمه الى توت عنخ آمون ، وهو أخ سمنخ كارع الأصغر ، وهو مثله قد تزوج باحدى بنات اخناتون ونفرتيتى (عنحس — ان — با آتون) .

وقد كان يوم أن رفع على العرش صبيا ، وكان الى جواره قطبان من أقطاب السياسة والحرب . . فأما أولهما فهو الكاهن آى ، الذى رفعه اخناتون مكانا عليا . .

ثم ظل متربصا ليلعب دوره ، حتى اذا مات اخناتون تولى قيادة سفينة الأسرة التى أوشكت أن تغرق بمساعدة القطب الآخر القائد حور محب والذى كان اخناتون قد سلمه قيادة الجيش لما اضطربت الأمور .

وبدأت الأمور تستقر فى عهد الملك الشاب ، وخاصة بعد أن استقر به المقام فى طيبة « محا من اسمه اسم « آتون » فأصبح يعرف باسم توت عنخ آمون .

وقد عثر على لوح كبير فى الكرنك يصور الملك وهو يقدم قربانا للاله آمون والاله توت .

وبدأ دور حور محب القائد العسكرى فى توطيد اركان الدولة .. فقام على رأس جيش اصطدم به فى سوريا مع الحيثيين وقد خرج كل من الطرفين يدعى النصر لنفسه ... ولكن نجاح حور محب الأكبر كان فى اخماد فتنة الأمراء الثائرين ، واعادتهم الى الولاء لعرش مصر وهكذا استقرت الأمور فى عهد الملك الشاب بينما كان محور محب يوطد أركان الدولة بقوة السلاح فى الخارج ، كان « آى » يوطد بالانشاء والتعمير فى الداخل فى اصلاح ما تهدم من دور العبادة أيام اخناتون فأصلح معابد آمون فى طيبة ومعابد بتاح فى منف ، وغيرها من دور العبادة ، وأجرى عليها الخير والأرزاق .

ولم يلبث الملك الشاب أن مات فى ريعان الصبا بعلة ذات الرئة على ما يقول الأطباء الذين كشفوا على مومياه بعد اكتشافها بعد حكم لم يطل أكثر من ثمان سنوات ، ومات وعمره ثمان عشرة سنة ولم يكن قد أتم لنفسه بناء قبر ، فدفن فى قبر كان آى قد انشأه لنفسه ، ولذلك فهو أصغر قبر دفن فيه أحد الملوك ، وقد كان فى الأصل حجرة واحدة ثم قسم عند الدفن الى حجرتين ، جعلت احداهما مدفنا ، بينما كدست فى الثانية بقية ما حمل مع رفات الملك من زاد وأثاثات جنائزية حشرت فى الحجرة الضيقة حشرا وعلى خلاف المعهود نرى على جدران المقبرة رسما يمثل تشييع جنازة فرعون لمقره الأخير .

كما نرى صورة آى يتقدم ركب الجنازة ويقوم ببعض الطقوس الجنائزية الخاصة بسلفه ، ليسجل لنفسه حقه فى تولى العرش . على أساس أن توت عنخ آمون كان آخر سلالة أسرته .

وقد قدر لاسم توت عنخ آمون فى العشرينات من القرن العشرين أن يدوى فى سمع الدنيا كلها ، عندما اكتشف أمريكى يدعى كارتر يعمل لحساب انجليزى يدعى اللورد كارنرفون فى عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ أمون ، وعثر فيه لأول مرة فى التاريخ على الأثاث الجنائزى الذى لم يمس والذى بهر العالمين ولا يزال يبهرهم حتى الآن ، بالقدر الكبير من الذهب الذى يحلى الأثاث ومركبة الفرعون ، وتابوته .

وخاصة القناع الذهبى الذى يحجب رأسه ووجهه والذى يأخذ بألباب بنى البشر أجمعين ، بعد أن أصبح يطاف عليهم به ، ليس فقط من ناحية معدن الذهب المصنوع

منه كبقية تحف توت عنخ آمون ولكن من حيث ألوانه والدقة الفنية ، التى تخيل معها للرائى كما لو كان القناع صورة لانسان حى .

وغمرت العالم يوم اكتشاف قبر توت عنخ آمون موجة من الحماس له وللفن الفرعونى ، فاتشحت الفنون التشكيلية كلها بالصفة الفرعونية ، ونسجت الأقمشة بوحى من ألوان آثار توت عنخ آمون وأطلق عليها اسمه ، وأصبح اسمه يتردد فى كل مصنع ومكان باعثا معه تاريخ حميه العظيم اخناتون .. ولا زال توت عنخ آمون يهز الناس هزا كلما شاهدوا آثاره المنعدمة المثال ، والتى لا تزال تعتبر أعظم كشف عرفته الدنيا فى عالم الآثار حتى اليوم .

١٣٣٩ ق . م ــ ولى العرش ((آى)) :

وهو على النقيض من سلفه ، فاذا كان توت عنخ آمون قد مات فى صباه ، فقد ولى هذا العرش وهو فى خريف العمر أو أرذله . ويرجح الكثير من المؤرخين ، أنه عمل طويلا وفى صبر ودأب للوصول الى هذا العرش . وقد صادفناه على الآثار باعتباره زوجا لمرضعة اخناتون المدعوة تى وقد قربه اليه اخناتون وعهد اليه بأكبر الوظائف وقد بلغ فى الجيش أعلى رتبة وهو قائد فرقة الفرسان فلما مات اخناتون وقف الى جانب سمنخ كارع يناصره فرفعه الى العرش ، ولما مات سمنخ كارع ، أجلس اخاه توت عنخ آمون من بعده وكان هو المدبر لانتقال توت عنخ آمون الى طيبة كما رأينا .

فلما أن مات « توت عنخ آمون » دون أن يخلف عقبا ، ولى آى الملك ونراه فى كل الآثار مع زوجه تى .

وحكم أربع سنوات ولا نعرف له خبرا عن هذه الفترة الا أنه زار منف فى عامه الثالث ، ولا نعرف مصيره بعد ذلك .

وقد كان القبر الذى أنشأه لنفسه فى أخت آتون ، هو الذى نقلنا عنه انشودة اخناتون لآتون .

١٣٣٥ ق . م ــ الميلاد :

تولى ((**حور محب**)) عرش الفراعنة ولأول مرة نرى أنفسنا أمام تاريخ مفصل متصل لواحد من أبناء الشعب استطاع بجده واجتهاده أن يخرج من صفوف الشعب ليرقى السلم خطوة خطوة حتى يصل الى أوج المجد فيصبح فرعونا ، بل وفرعونا مرموقا ، قضى على الفوضى التى أوشكت أن تغمر البلاد بعد الفتنة التى عمت البلاد فى أخريات عهد اخناتون وخلفائه .

والفراعنة بطبيعة الحال لم يخرجوا فى أغلب الاحوال عن كونهم سلالة اشخاص ممتازين وأبطال خرجوا من صفوف هـذا الشعب كما رأينا ، ولكن كل واحد منهم لا يكاد يؤسس أسرة جديدة حتى يصبح الحكم ارثا لأولادهم من بعدهم ، الذين يعتبرون أسرة حاكمة يجرى فى عروقهم الدم الملكى وأصحاب الحق الشرعى .

ولكن حور محب ينفرد فان تاريخه معروف ومبسوط ومسجل من البداية حتى النهاية ، فهو قد ولد فى عهد امنحتب الثالث مابين عامى ١٤١١ ق.م — ١٣٧٥ق.م. فى زمن كانت فيه العسكرية هى سبيل الرقى والتقدم ، فالتحق به حور محب ، ولكن شاءت الظروف أن تكون الفترة الذى التحق فيها بالجيش ، كانت هى الفترة التى عم فيها السلام البلاد . على أن حور محب فيما يبدو لم يتصل بالجيش الا بعد ان كان قد تعلم وثقف نفسه ، اذ نراه يفخر بانسابه الى رب المعرفة « تحوت » ويعلن اغتباطه بما أوتى من معرفة وكفاية .

وقد ظل حور محب ايام امنحتب الثالث يعمل فى الجيش الذى كان مقره مدينة منف ، حتى وصل الى وظيفة ما يساوى منصب « مدير الفرقة » . وركن اخناتون الى حور محب مطمئنا الى علم الرجل وكفاءته فترك له أمر الجيش يدبره ، راضيا عنه بأن يكف أذى الجيش عنه ليتفرغ هو الى دعوته الدينية وقام حور محب بما عهد اليه خير قيام فلا هو تورط فى مجاراة اخناتون فى دعوته ، ولا هو فى ذات الوقت حرض عليه أو أخل بولائه نحوه .

وبفضل هذه السياسة الرشيدة ظل حور محب هو رجل الدولة الأول ، فاستطاع أن يدبر الأمر لخلفاء اخناتون فيلوا العرش واحدا بعد آخر ، وقد حفظوا له ذلك ، فأفاض عليه توت عنخ آمون من مظاهر التكريم ما لم يحظ به موظف فى الدولة من قبله حتى يسمح له أن يقيم لنفسه تمثالا فى معبد « توحوت » يمثله جالسا ناشرا بين يديه قرطاسا من أوراق البردى وقد وضع محبرته على ركبته وقـد أخذ فى الكتابة ، ويحمل التمثال ألقابه ، فهو الذى « يحمل المروحة على يمين فرعون » وهو « أمير قواد الجيش » وهو ولى عهد فرعون .

أما قاعدة التمثال فقد ملئت بالنصوص التى يضرع فيها حور محب الى تحوت ليشهد له عند الآلهة أنه كان مستقيما فلم يعمل مكروها ، ثم يذكر « اننى قمت بتصحيح قوانين القصر وجرى ذلك بتدبيرى ، ولم يكن هناك أحد غاب عنى ، كذلك كنت مرشدا لكل فرد حريصا على أن يعرف كل انسان ما هو عليه . ومع ذلك لم أنس مايجب على . وكنت أرفع آرائى للملك وأنبهه الى كل ما خفى ولم أترك شيئا من آراء فرعون ، وكنت أصدر تعاليمى الى مجلس البلاط مؤيدة بآراء الملك » .

وتصل عظمة شخصية حور محب الى ذروتها فى أعقاب موت « تو تعنخ آمون » ، فقد كان هو الرجل الأول فى الدولة بلا منازع ، وكان الجيش لا يعرف سيدا غيره ، وكان كهنة آمون أصحاب النفوذ الأعلى فى البلاد ، يؤثرونه على أى انسان آخر حيث لم يكن من شيعة اخناتون ، وكان مخلصا لآمون ، واذ لم يكن لتوت عنخ آمون من

وارث لعرشه ، وكان حور محب هو ولى العهد كما رأينا ، فقد كان ذلك كله يؤهله لأن يكون فرعون مصر غير منازع ، ولكنه آثر أن يترك هذا المنصب لآى الرجل الشيخ كما رأينا حتى استوفى آى مدته القصيرة ، فلم يعد فى مصر كلها الا رجل واحد ليؤول له الملك عن جدارة واستحقاق .

وهكذا عندما جاءت ساعته ركب الى طيبة على رأس كتيبة من رجال جيشه فاستقبله الشعب فى طريقه اليها استقبالا رائعا وبلغ المدينة فى يوم عيد آمون . وأذاع على الشعب من أهل طيبة أن أباه ورب اقليمه « حورس » قد جاء به الى رب طيبة ليتوجه ملكا على الوادى ، وتهلل آمون وهو يستقبل حورس ضيفه الكريم وفى ركابه ولده العظيم « حور محب » الذى جاء ليتقبل الملك والتاج والعرش .

ولما تمت مراسيم التتويج ، غادر حور محب طيبة الى مدينته التى عاش فيها طول حياته ، الى منف ، ليستعد منها لتجهيز الجيوش لاعادة الأمن والسلام الى بلاد آسيا . بينما أخذت الحكومة تعمل على تطهير البلاد من آثار اخناتون وخلفائه الثلاثة فمحت أسماءهم من آثار البلاد الرسمية وحل محلها اسم حور محب ، بل لقد ذهبت الحكومة الى أبعد من ذلك فأنكرت أيام حكمهم وجعلوا عهد حور محب يبدأ فى أعقاب حكم اخناتون .

وأصلحت دور العبادة التى خربها اخناتون وأعيدت لها أوقافها وأموالها .

وليس لدينا ما يؤكد ذهابه فعلا الى سوريا أو فلسطين ، وكل ما بقى من آثار ورسوم تمثل حور محب يقود ثلاثة صفوف من الأسرى يقدمها الى ثالوث طيبة (آمون وموت وخنسو) وتثبيت أسماء بلاد من بينها خينا كما يرجح أنهم جماعة من الحيثيين ، وانما شك فى أنه ذهب الى هناك .

ولكن الأمر المؤكد أنه ذهب الى جنوب الوادى على رأس جيش ضرب به الثوار وحارب العصاة .

كما أنه استرد كل ما كان لمصر من نفوذ وحقوق فى بلاد بونت (الصومال) وفى رسوم الكرنك ما يشير الى ذلك .

أما عن أعماله العمرانية فقد وضع اللبنات الأولى لردهة الأعمدة الكبرى بالكرنك والتى أتمها بعد ذلك رمسيس الثانى ، وكذلك بدأ البوابة التاسعة والعاشرة بالكرنك . ومن أجل ذلك هدم مبانى اخناتون التى اعترضت البوابة التاسعة . والظاهر أن جزءا من طريق الكباش الذى يبدأ من الكرنك الى الأقصر من عمله .

على أن حور محب لم يستحق التخليد باعتباره من أعظم ملوك هذه البلاد ، بحيث ظل محبوبا وممجدا على مدى التاريخ ، الا بمقدار ما عمله من أجل سعادة هذا الشعب ورفاهيته بالقضاء على الفساد والرشوة ، والضرب على أيدى الموظفين الذين يستبدون بأفراد الشعب ، واعلاء سلطان القانون ولن تجد فى تاريخ مصر القديم ، من صاغ القانون بكل هذا الوضوح والصرامة فى محاربة الفساد .. وليس سوى حمورابى فى أرض بابل من سبقه الى مثل هذا التنظيم القانونى الرائع المحكم .

ولم يكد حور محب يتولى الملك حتى دعا كاتبه الخاص وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها فى كل ما ظهر له قبل ولايته من نقص فى الأحكام وفساد فى الادارة .

وقد وقعت هذه المواد فى تسعة أقسام :

اضطهاد الموظفين الماليين والاداريين للفقراء ، وهـددهم بالعقوبات الصارمة . حتى لقد ذكر أن أحد الصيارفة اضطهد فقيرا متجاوزا فى معاملته حدود القانون فحكم عليه بجدع الأنف ، والنفى الى مدينة تاروا ، وحسبنا أن نطالع هـذا النص القانونى لندرك عمق هذه الثورة الاصلاحية لحماية الشعب :

كل شرطى علم عنه أنه دخل المسـاكن لأجل سرقة الجلود يحكم عليه ابتـداء من هـذا اليـوم بمائة جلدة ويجرح فى خمسـة مواضـع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .

« كل موظف أو كاهن يقال عنه أنه عين فى القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجنى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى أى أن جزاءه الموت ارادة جلالتى بفـرض تحسين القانون المصرى .

وثمة مواد تنص بعقاب كل من تسول له نفسه من موظفى الحكومة فى تسـخير الرقيق لمصلحته الشخصية .

وعقاب كل من يستولى بغير وجه حق على كتان أو خضر أو حيوانات .

ولكى يبطل الملك الرشوة بين القضاة والمواطنين ، زاد مرتباتهم وأعفاهم من دفع الضرائب ، حتى لا يكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة .

ونظم مرفق العدالة التى كانت مفقودة فى البلاط فانشأ مجالس قضائية فى كل البلاد لتفصل فى الخصومات التى تحدث بين الناس وأوصى القضاة بالتزام العدل ثم وضع على رأسهم واختار وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد اليهما بمهمة القضاء العالى والاشراف على باقى القضاة ، جاعلا مركز أحدهما بمدينة طيبة والثانى بعين شمس أو منف ثم وصفهما بقوله :

« ان هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملكى وقانون المحكمة ، لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلى والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين » . ثم حذرهما من أخذ الرشوة قائلا :

« لا تأخذا الرشـوة من أحد والا فكيف يملنكما أن تحكما بالعـدل اذا كنتما أنفسكما جناة على القانون » .

وفى القانون ما يشـير الى البر بالعبيد والجـوارى والحض على معاملتهم بالحسنى .

وكل هذه المعلومات وما هو أكثر تفصيلا منها قد نقشها حور محب على شاهد حجرى عظيم يبلغ طوله ستة عشر قدما وعرضه عشرة أقدام نصبه أمام الصرح الذى شيده بالكرنك من أحجار معبد آتون وقد ذكر جلالته ملاحظة على الأثر هذه :

لقد سنت جلالتى هذا القانون لضمان رفاهية أهل مصر ، وختم نقوش الاثر مخاطبا قومه :

أستمعوا لأوامرى التى سننتها لأول مرة فى التاريخ لاحكم بها جميع الاراضى نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد .

وهكذا لم تذهب دعوة اخناتون الى عبادة الله الحق هباء .. فهذا هو حور محب على الرغم من أنه ساعد على محو دعوة اخناتون وآثاره ، الا أنه هو نفسه قد تحول الى أعظم مصلح انسانى عرفته هذه البلاد ، خفق قلبه بروح العدل ، وحب الشعب وسيادة القانون . وهى الغاية النهائية لأى دين من الأديان .

وقد مات حور محب بعد أن وصل الى سن الشيخوخة وقد فهم من سجلات احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ، ما يشير الى السنة التاسعة والخمسين من حكم حور محب وهذا تاريخ مبالغ فيه ، الا اذا أدمجنا فيه حكم اخناتون وخلفائه ، والرأى الراجح أنه حكم مدة تتراوح بين ٢٥ و ٣٠ سنة .

وقد عاش حـور محب الجـزء الأكبر من حياته فى مدينة منف فقد بنى لنفسه مقبرة فى جبانتها ، ولكن الأقدار جعلت منه ملكا على عرش مصر ، فأصبح مكانه بين أقرانه من الملوك السابقين فى صخور طيبة .

ولكن اللصوص اعتدوا على قبره فنبشوه كما فعلوا مع بقية الملوك ، فلم يعثر على جثمانه ، ولكن تابوته المصنوع من صخر الجرانيت الأحمر لا زال فى مكانه .

الأسرة التاسعة عشرة

١٣٠٨ ق ٠ م ـ بدء الأسرة التاسعة عشرة :

يعتبر بعض المؤرخين « حور محب » هو ختام الأسرة الثامنة عشرة ، ويقول عنه مانيتون ان حور محب هو الذى أصلح أحوال المملكة المصرية التى ساءت فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة . وهو من ناحيته لم يحاول أن يكون لنفسه أسرة لتحكم البلاد من بعده تاركا العرش لمن يستطيع من أفراد الشعب أن يواصل حركة الاصلاح التى بدأها .

وكان رمسيس تلميذه الأول ووفيه الأمين فجعله وليا للعهد ومنحه من الالقاب ما يؤيد ذلك . وجعله وزيرا له .

واذ كان الناس قد الفوا فى هذه الفترة حكم العسكريين فقد تقبلوا حكم خلفه رمسيس الأول الذى كان قائد الجيش بقبول حسن .

ولم يكن رمسيس كسلفه ممن يجرى الدم الملكى فى عروقهم ، فوالده سيتى كان أحد قواد الجيش ، فأدخل ابنه فى سلك الجندية ، وراح يترقى فى سلمها حتى أصبح قائد فرقة الفرسان وهو ذات المنصب الذى وصل اليه حور محب . حتى اذا مات حور محب ، ولى رمسيس الأول الملك ، واذ كان شيخا فلم يدم حكمه طويلا ويقول مانيتون أنه حكم سنة واحدة وأربعة شهور .. ولكن هذه الفترة القصيرة ، كانت كافية لكى يجعل من ولده الأكبر سيتى قائدا لفرقة الرماة ، ثم قائد فيلق الفرسان ثم وليا للعهد وكبيرا لوزرائه ، مخالفا بذلك سنة من سبقوه . ولذلك فلم يكد رمسيس الأول يموت حتى ولى ابنه سيتى الأول عرش مصر ، مبتدئا بذلك عهد الأسرة التاسعة عشرة المجيد .

١٣٠٩ ق ٠ م :

تربع **سيتى الأول** على العرش .. واذ كانت سنه وقتئذ أربعين سنة وهى سن الرجولة والحيوية والعزم ، فقد استهل عهده بما حالت شيخوخة أبيه وقصر

مدة حكمه دون القيام به ، وهو اعادة سلطان مصر على سوريا وفلسطين ، واقرار الأمن بها . وصد عادية المعتدين عليها .

واذ كان حور محب قد أعاد تنظيم البلاد فى الداخل ، وأعلى بها حكم القانون وسيادته ، مما أعاد للشعب حيويته فى ظل الاستقرار ، فقد كان طبيعيا أن تكون الخطوة الثانية نشر هذا الأمن والرخاء فى سائر أنحاء الدولة شمالا وجنوبا . ولذلك فقد قاد « سيتى » جيشه فى السنة الأولى من حكمه وزحف به على آسيا مبتدئا من بلدة تاروا (موقع القنطرة حاليا) ومتبعا طريق سيناء ، الذى يبدو انه أصلحه ابان ولايته للعهد فى زمن أبيه ، تمهيدا لتحقيق هذا الفرض ، ولذلك فقد مر الطريق الممهد ، وتوقف عند قلاعه وحصونه التى رممها على طول الطريق حتى بلغ جنوبى فلسطين الذى كان معروفا فى ذلك الوقت باسم نجب(١) ، فاصطدم أول ما اصطدم ببدو تلك المنطقة الذين عرفوا باسم الشاسو أو الشوسى فبدد شملهم ، ثم بلغ حدود كنعان (وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على غربى فلسطين وسوريا) واستولى على سهل مجدو وعبر نهر الأردن ونصب هناك حجرا ذكر فيه انتصاراته التى أحرزها فى حوران ، ثم زحف غربا حتى بلغ جنوب لبنان ، فاستولى على ما فيه من مدن ومواقع ، وبدأ امراء هذه المناطق وحكامها يفدون عليه معلنين خضوعهم له ومقدمين له كل الذى يطلبه من خدمات حتى كلفهم بأن يقطعوا أشجار الأرز ليقدموا اليه الخشب الذى طلبه .

وكان سيتى هو أول فرعون مصرى يرونه منذ خمسين سنة . وقدم له ملك قبرص هدايا جزيلة جريا على عادة حكام تلك الجزيرة نحو حكام مصر .

وأصبح ساحل فلسطين آمنا والطريق البحرى بين مصر وفلسطين ، مفتوحا آمنا .

ولم يكد سيتى يعود الى مصر ويقابل باحتفالات النصر التى نراها مسجلة بكل عظمتها على جدران الكرنك حتى شرع يعد حملة جديدة لضرب الليبيين القاطنين غرب مصب النيل والذين كانوا قد استولوا على غرب الدلتا فاستطاع أن يكسر شوكتهم ، وأن يعيد سلطان القانون والنظام ثم عاد من جديد الى آسيا ليواجه جيوش هذه الدولة الصاعدة دولة الحيثيين والتى بدأت تهدد شمال سوريا ومن المحقق أنه استولى فى هذه الحملة على مدينة قادش وخاض بينه وبينهم معركة لم تكن فاصلة ، وان كانت كافية للمحافظة على هيبة ملوك مصر فى هذه الارجاء ، ورأى سيتى برجاحة عقله أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحيثيين المدعو متيللا ، كانت أشبه بهدنة منها الى معاهدة صداقة حقيقية .

وعاد سيتى الى مصر ليستأنف حملة البناء والانشاء والتعمير واصلاح المعابد التى بدأها « حور محب » ، والتى لم يستطع والده أن يسهم فيها . بحيث توجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من بلاد النوبة جنوبا الى بسطة بالدلتا شمالا ، نقوش

---

(١) صحراء نقب فى الوقت الحاضر .

تشير الى الاصلاحات التى قام بها سيتى الاول بهذه الاماكن المقدسة .. وتعتبر مقبرة سيتى فى وادى الملوك أكبر وأفخر مقبرة أقيمت لملك ، حيث نشاهد فى جوف الجبل حجرات وطرقا متشعبة تأخذ فى الانحدار بما يزيد على ٤٧٠ قدما ومن عماراته القاعة ذات العمد العظمى التى أسسها رمسيس الاول أمام صرح أمنحتب الثالث بمعبد الكرنك وقد فاقت هذه القاعة فى العظم قاعة أمنحتب الثالث ذات العمد التى لم يتم بناؤها فى معبد الاقصر .

كما شيد معبدا جميلا بالعرابة المدفونة لمعبودات مصر العظمى (أوزوريس — ايزيس — جوريس) ونقش على جدران معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الأقدمين ابتداء من مينا الى عهده ، ولا تزال هذه القائمة معتبرة من أهم المستندات التاريخية التى نستمد منها معلوماتنا عن تواريخ هؤلاء الملوك وقد تلف صرحا هذا المعبد ، ومع ذلك فان البقية التى لا تزال باقية منه تعتبر من انفس الآثار التى ابدعتها أيدى المصريين المهرة .

وكان لا بد لسيتى للقيام بهذه الأعمال الضخمة من مورد للمال .. فاستأنف استخراج الذهب من مناجمه فى جبل زيدا على ساحل البحر الأحمر ، واذ كان الطريق المؤدى اليها وعرا وقفرا ، فأمر بتجديد معالمه وحفر الآبار لسقيا السائرين فيه ، حتى لنجد نقوشا تقول لنا :

« أيتها المعبودات الساكنات هذه البئر ، امنحن سيتى العمر الأزلى لأنه شق لنا الطريق لنسير فيه بعد ما كان مهجورا ، فأصبحنا نسير سالمين ونصل أحياء ، واضحى الطريق الصعب سهلا جميلا » .

ولما تم مشروع المناجم أوقف سيتى ايراد هذا المشروع على معبد العرابة المدفونة .

وقد حافظت الفنون الجميلة فى عهد سيتى على درجتها التى حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال . ويعتبر معظم الأثريين أن قاعة الكرنك العظمى التى أنشئت فى هذا العهد ، من اعظم الآثار المصرية بناء وضخامة وروعة .

وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سيتى من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة على أن أجمل الرسوم البارزة المصنوعة فى عهد سيتى فهى التى بمعبد العرابة حيث يجتمع الذوق والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة .

ومن الوثائق الهامة التى عثر عليها من عهد سيتى الأول ورقة من البردى محفوظة بمتحف تورين عليها أقدم مصور جغرافى فى العالم . فقد صورت بعض مناطق تعدين الذهب ، فرسمت الجبال وطرق الوصول الى المناجم ومناطق التعدين والمبانى التى تأوى اليها العمال .

ومات سيتى قبل أن يحتفل بمرور ثلاثين سنة على توليته ولاية عهد مصر ،

فلم يتمكن من اقامة المسلتين اللتين عملهما لذكرى هذا الحادث . ولكن من المحقق أنه حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ودفن فى تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخم ــ وقد حفظت الأقدار جثة هذا الملك حتى يومنا هذا اذ عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى ، حيث تبدو على وجهه كل ملامح العظمة والأبهة والجلال .

١٢٩٠ ق٠م :

اعتلى العرش رمسيس الثانى ابن سيتى الأول بعد وفاة أخيه الأكبر ولى العهد فى حياة أبيه . وقد ذكر رمسيس انه شارك أباه سيتى فى الحكم فى أخريات حياته ، ولكن بعض المؤرخين وعلى رأسهم بريستيد (١) يرفضون هذه المشاركة ويرون أنها من مزاعم رمسيس الثانى . ولكنا لا نستطيع أن نهدر ما سجل على الآثار وما يقوله رمسيس ، لاعتراضات وتكهنات ففى معبد سيتى الأول الذى أتمه رمسيس نرى هذه العبارات منقوشة ومسجلة .

« عظمنى سيد العالم نفسه (سيتى الأول) عندما كنت طفلا الى أن أصبحت حاكما . منحنى الأرض حينما كنت فى البيضة . سجد عظماء الأرض أمامى . بعد ذلك وليت لأننى الابن الأكبر ولأصبح أميرا ووارثا على عرش جب (اله الارض) وكتبت تقريرا عن حالة الأرض ، وكنت قائدا للمشاة ولمركبات الحرب . ولما ظهر والدى فى عظمة أمام الناس كنت طفلا فى حجره ، قال شيئا عنى : فوجده ملكا حتى يمكننى أن أرى جماله حين أكون على قيد الحياة : ثم نادى رئيس الحجاب ليعقد التيجان على مفرقى . قال ذلك فيما يخصنى حينما كان على الأرض حيا » .

وأن يكون رمسيس قد شارك أباه فى الحكم ، أو لم يشاركه مسألة ثانوية جدا بجانب الحقيقة الكبرى التى تتصل برمسيس وهو انه أشهر الفراعنة على الاطلاق ، والذى يعتبر اسمه علما على مصر القديمة تكملة للأهرام وأبو الهول ، وقد تسمى باسمه ، فراعنة من بعده .

وكان أول من أدرك أن عاصمة الملك السياسية يجب أن تنقل من طيبة الى شمال الدلتا ، ليمكن لفرعون مصر أن يخف لحماية أراضى الدولة فى آسيا . وهكذا أصبحت طيبة مركزا دينيا لا يؤمها فرعون الا وقت الاحتفالات الكبرى . بينما أقام رمسيس فى مدينة تانيس ، حيث أقيم بها معبد شامخ نصب على صرحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من حجر واحد ويزيد ارتفاعه على تسعين قدما ، وتبلغ زنته ٩٠٠ طن ــ وقد اعتنى كثيرا بوادى طميلات وهو فى طريق القناة التى كانت توصل النيل بالبحيرات المرة فالبحر الأحمر ، باعتباره الطريق العام بين مصر وآسيا ، فشيد فى منتصفه مدينة بينوم ومعناها معبد آتون ــ وأنشأ مدينة بر رمسيس (التى ورد ذكرها فى التوراة) (أى بيت رمسيس) ويظن البعض أنها هى ليست مدينة تانيس

---

(١) ناقش الدكتور احمد بدوى اعتراضات بريستيد وردها ومال الى القول بالمشاركة ..

وقد أصبحت بر رمسيس هى مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بهـا المكاتبات الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها .

ويقال ان رمسيس سخر بنى أسرائيل فى بنايتها على ما تقول التوراة .

وقد اختـار بعض المؤرخين أن يغضوا من شأن عظمته بالقيـاس الى غيره من الفراعنة الذين سبقوه ، كما اتهموه بأنه كان محبا للعظمة والدعاية لنفسه ، وأن حقيقته العسكرية والعمرانية تقل كثيرا عما ادعاه لنفسه . ولكن الحقـائق التى تثبت على مر العصور لا يمكن أن تزعزعها التحليلات والمدونات .. ان اسم رمسيس يدوى الآن فى سمع الدنيا كما لم يدو اسم فرعون آخر الا أن يكون توت عنخ آمون يوم اكتشاف مقبرته ... أما لماذا يدوى اسم رمسيس فبسبب تكاتف العالم المتحضر كله لانقاذ معبديه اللذين أنشأهما فى أبو سنبل من الغرق باعتبـارهما من تراث الانسانية ... وباعتبارهما أفخر وأروع الآثار المصرية .. وتكاتف العلم والتكنولوجيا لنقل معبدى أبو سنبل من مستقرهما فى بلاد النوبة التى سـتغمر بالميـاه ، ليعـاد تركيبهما فوق هضبة عالية ، تعلو على بحيرة ناصر ، وسيظل المئات والألوف يتوافدون كل عام الى موطن أبو سنبل الجديد ، ليشهدوا معجزة رمسيس فى انشـائهما ، ومعجزة العلم الحديث فى نقلهما .

وليس معبدا أبو سنبل اللذان تكاتفت البشرية لانقاذهما الا بعض ما بنى رمسيس وانشأ من عشرات المعابد . بل ان تمثالا من تماثيله العملاقة ، هو الذى يزين أحـد ميادين القاهرة حيث لم يستطع أى فرعون آخر أن يحظى بهذا السبق وليس هذا التمثال الجبار الا واحدا من مئات التماثيل والذى يبلغ زنة احداها ألف طن . ناهيك بالمسلات التى نعدها بالعشرات ، والتى تملأ بدورها عواصم العالم الحديث .

وقد أتم القاعة الكبرى ذات العمد العظمى بالكرنك التى بدأ بهـا ابوه والتى وصفناها بأنها أعظم عمارات العالم قديما وحديثا .

وبنى لنفسه معبدا فى طيبة أشتهر باسم (الرمسيوم) كما أنشأ حوشا عظيما وصرحا شامخا بمعبد الأقصر .

ولا يزال اسم رمسيس الثـانى منقوشا على جميع معـابد مصر العظيمة فوق الحجرات والأحواش والعمد والصروح الى يومنا هذا ، ويقولون أنه كتب اسـمه على كثير من آثار سلفه ونحلها لنفسه زورا وبهتانا فى راى البعض ومع ذلك فان بريستيد الذى نسب اليه هذه التهمة ، لا يتمالك نفسه من القول « ومع ذلك فقد شـيد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا وملأ معابده بتماثيله وبالمسلات الشـامخة المنقوشة وغير ذلك من الأحجار والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هى اضخم التماثيل المصرية » .

حروب رمسيس :

ما أن ولى رمسيس الحكم واشتغل به ، حتى أراد أن يؤكد النجاح الذى احرزه

والده فى شمال سوريا ، وان يضاعف فيه . فقاد رمسيس فى السنة الرابعة من حكمه، وحدات جيشه وسار بها على شاطىء فلسطين الى الشمال حتى نهر الكلب على بعد قريب من بيروت ، حيث أقام لوحا تذكاريا . وقام بالاستيلاء على الموانى ليؤمن المواصلات عن طريق البحر بين مصر والشام متبعا فى ذلك خطة تحتمس الثالث .

الحملة الثانية :

على أن حملة رمسيس الكبرى ، التى لا يكاد يخلو معبد من ذكر تفاصيلها ، هى معركته فى العام الخامس من حكمه مع الحيثيين حول مدينة قادش ، فنراها منقوشة بكل تفاصيلها فى معبد الكرنك وفى معبد الأقصر وفى الرمسيوم . وكأن التاريخ يأبى الا ان يسجل هذا الحادث بما لم يسبقه اليه حادث سابق ، فحفظ لنا قصيدة نسبت خطأ الى ناسخها فى عصر متأخر وهو بنتاور .

وهكذا أصبح لدينا تفاصيل معركة رمسيس الحربية حول قادش كما لو كانت مسجلة بأقلام مراسلين حربيين من العصر الحديث . فقد قسم رمسيس جيشه الى أربعة أقسام أطلق عليها أسماء الآلهة الأربعة لمدن مصر الكبرى (آمون — رع — سوتخ — بتاح) وقد استطاع الحيثيون أن يخدعوه اذ دسوا عليه من أنبأه بمعلومات خاطئة عن مركز الجيوش الحيثية . . فأسرع بكتيبته الخاصة ليلحق بهم ، فانفصل عن بقية جيوشه الأربعة ، وأحاط به الحيثيون ، وقد أبدى رمسيس فى هذه اللحظة فيما يبدو شجاعة خارقة فلم يطر قلبه شعاعا ، ولا انهارت قواه ، بل مضى يحارب فى قوة وصلابة ، وفدائية حتى لحقت به جيوشه المتخلفة فأنقذته من الموت المحقق . . ولقد جسم رمسيس فى وصف هول هذا الموقف ، وما فعله فيه ، ولندع رمسيس يتكلم :

« فتقدم جلالته مسرعا ودخل فى صفوف الحيثيين ، وكان وحده وحيدا ولم يكن أحد معه . وتقدم جلالته ليبصره فوجد انهم أحاطوه من الجانب الخارجى بـ ٢٥٠٠ مركبة حربية وكذلك كل أبطال عظماء الحيثيين . وكان يوجد ثلاثة رجال على زوج من الخيول بينما لم يكن معى قائد ولا خادم للعربة ولا جندى من الجيش ولا حامل درع . وقد فر مشاتى ومركباتى أمامهم ولم يقف أحد منهم ثابتا ليقاتلهم » .

ويمضى رمسيس بعد ذلك يناجى ربه ووالده آمون . ويتضرع اليه ان لا يتخلى عنه ، ويعدد ما قدمه رمسيس من خيرات لآمون وما شاده له من معابد . وانه ما خطا خطوة ولا تحرك حركة الا لاعلاء شأنه ، وهو لا يخوض هذه الحرب الا لتقديس اسمه . وتمضى الملحمة فى سردها فتقول أن آمون هتف به :

« الى الأمام يامرى آمون رمسيس اننى معك ، اننى أكثر نفعا من مائة ألف رجل مجتمعين معا فى مكان واحد » . وعندما سمع رمسيس ربه يناديه هدات نفسه وأحس بقدرته على الجهاد اذ يقول لنا :

فوجدت عقلى ثابتا وقلبى مبتهجا وكان النجاح نصيب كل ما فعلته لانى كنت

مثل مونت عندما أشد قوسى بيمينى وعندما كنت أحارب بيدى اليسرى لأننى كنت مثل الاله بعل . وقد وجدت الـ ٢٥٠٠ عربة التى أحاطت بى كومة أمام خيلى واضحى أعدائى عاجزين ، سقطت قلوبهم فى جوفهم خوفا منى ، وشلت اذرعهم فلم يستطيعوا الرمى ، ولم يحركوا رمحا والقيت بهم الى الماء فسقطوا كالتماسيح ، بعد أن وقعوا على وجوههم وذبحت منهم من أردت .

ولما أقبل جنود فرعون أخذ يعنفهم لأنهم انفضوا من حوله فى ساعة العسرة والضيق ، « لم يقف رجل واحد منكم ليمد يده لى وأنا أحارب » .

« لقد حاربت وحدى ملايين البشر لا أملك غير فرسى هذين والجاعل علقهما بين يدى وتحت عينى عندما أعود الى طيبة ، وسأظل أذكر منا سائق عجلتى لأنه بقى الى جانبى مع خدام قصرى » .

استؤنف القتال فى الأيام التالية بعد ان تكاملت جيوش فرعون ، وكبدت الحيثيين خسائر فادحة ..

ولذلك فان الأثر التاريخى يقول لنا أن الحيثيين بعثوا بخطاب الى رمسيس يعجبون فيه من قوته التى فاقت كل قوة ويطلبون منه وضع حد لهذه الحرب الضروس التى لا يفيد منها أحد .

على أن المطالع لتفاصيل هذه الموقعة ، سرعان ما يدرك وقائع المعركة الحقيقية وأسباب الهزيمة ، ثم أسباب النصر فقد كان رمسيس على رأس فرقة آمون عندما انقض الحيثيون على فرقة رع على غير توقع ، فاستولى الفزع على جنودها ، فأقبلوا على رمسيس شراذم ممزقة مذعورة ، وكان لذلك تأثيره على فرقة رمسيس نفسها ، اذ فرت بدورها مذعورة تاركة رمسيس فى عدد قليل من اتباعه المخلصين ، ولو أن الجيش الحيثى تابع انقضاضه على الفارين لاستطاع أن يفنى الجيش المصرى وأن يقبض على رمسيس نفسه ... ولكن جنود الحيثيين شغلوا بنهب الغنائم والاسلاب التى راوها فى معسكر المصريين الفارين ... وفى هذه الأثناء كانت فرقة بتاح قد وصلت ، فاستطاعت أن تنقض على الحيثيين المشغولين بالنهب وأن تبطش بهم ...

وهكذا استطاع رمسيس أن يعيد تنظيم صفوفه وأن يواصل معركته .

ثورة فلسطين :

على أن حرب قادش لم تضع نهاية للحروب فى آسيا فقد رأينا رمسيس يعود ثانية ليخمد ثورة فلسطين ، قامت بتحريض من الحيثيين فى العام الثامن من حكمه ، حيث راح يستولى على مدن فلسطين الساحلية والداخلية واحدة بعد اخرى .

على أن مواتلى ملك خيتينا لم يلبث أن مات وخلفه أخوه خاتوسيل وكان من المشهود لهم بالحنكة السياسية .

واذ كانت مملكة أشور قد كشفت عن قوتها العسكرية واستولت تحت قيادة

شـالمنصر على دولة ميتانى ، فقد أدرك أن بلاده ستكون محل هجوم من مملكة أشور فآثر أن يضع حدا للحرب على مصر ، وأن يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع ملكها .

وقد أبرمت المعاهدة بالفعل ، وكتبت على لوح من الفضة وقد انتهت الينا المعاهدة بكل موادها ونصوصها من مصدريها المصرى والحيثى ، وهى تشتمل على ثمانى عشرة مادة وهى أكثر ما تكون شبها بأى معاهدة حديثة تعقد بين دولتين « لحفظ السلام والأخاء واستتباب السكينة بين الطرفين المتعاقدين » .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة على جدر معبدين .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيـان حـدود المملكتين الحيثية والمصرية بآسيا ، ويبدو أنها كانت محددة بمعاهدة سابقة .

وتعتبر هذه المعاهدة خاتمة الحروب بالفعل بين الدولتين وبدء عهد السـلام ، فلم تقع حروب بين الدولتين بعدها أبدا .

وقد عاش رمسيس بعـدها ستا وأربعين سنة لم يقع فيها ما يعكر السـلام ولم تجسر دولة على الاعتداء على حقوق مصر .

وقد زار ملك الحيثيين مصر بعد ابرامها بثلاثة عشر عاما ليحضر الاحتفال بزواج ابنته الكبرى برمسيس ، وقد استدعى مقدم ملك الحيثيين الى مصر اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكى سارت فى مقدمته كريمة ملك الحيثيين متبوعة بالهـدايا الجزيلة ثم جلالة خيتا سار نفسه ثم ملك كرد واختلط يومئـذ حرس الحيثيين بالجنود المصريين بعد ما كانوا ألد أعداء .

ونشاهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد أبو سنبل .

وقد أغرم رمسيس بالفتاة الحيثية ورفع مكانتها حتى أصبحت تلقب بالزوجة الملكية العظيمة .

ولم تكن الأميرة الحيثية هى وحدها زوجة رمسيس ، بل سبقتها زوجتان وهما (نفرتارى) التى تزوجها فى السنة الأولى من حكمه « وأيزيس نفر » ، بالاضافة الى عدد لا نعرفه من النسـاء الأخريات اللواتى تزوجهن خلال حكمه الطويل الذى أربى على ٦٧ عاما ، واذ كان هذا شأن رمسيس فلا عجب اذا علمنا أنه أنجب ثلاثة وثلاثين ولدا واثنتين وثلاثين بنتا ـ (برستيد) يضاعف هـذا العدد ـ فلا عجب اذا كان رمسيس قد أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفـاده نحو أربعمائة سنة ، حتى أصبح اسم رمسيس مرادفا لألقاب الامارة وعلو الشأن ، وأن ظل الناس يتحدثون عن رمسيس فى حكاياتهم لألف سنة تالية . وليس هنـاك ما يصـور الحياة فى أيام رمسيس ، ومدى ما وصلت اليه البلاد من مجالى الحضارة ومظاهرها ، وتشـابك العالم القديم ، واتساع نطاق التبادل التجارى والفنى والثقافى بين أرجائه ، من أن ننقل لك ما قاله بريستيد وصفا لها :

« ان مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وخيتا وآشور وبابل والنهرين . وكان فى حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة والسياط والسوارى ذات الرؤوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الواردة من مملكة الحيثيين . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا كما أضحى لمعبد سيتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد الشرقية . وما أكثر الأثاث الآسيوى الجميل الذى اشتملت عليه قصور أعيان مصر ، ويلاحظ أن هذه المصنوعات الآسيوية أثرت كثيرا فى الصناعة المصرية فاكسبتها رونقا آسيويا . وكثر بالقطر العبيد الآسيويون من شاميين وغيرهم . وغصت البلاد بالتجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم مثل بعل واشتارته . ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجيا ضمن المعبودات المصرية .

وعظم الاختلاط الدموى بين المصريين والآسيويين فى هذه العصور وقد كان فى بدايته أيام الأسرة الثامنة عشرة فاقترن أهالى تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الآسيوى مقام عظيم بالقصر الملكى والحكومة المصرية .

وقد ازدهر الأدب كما لم يزدهر من قبل ، وقد أشرنا الى قصيدة بنتاؤور ، والى جوار هذه القصة التاريخية ، عشرات من القصص الأخرى التى حكت لنا الكثير من أحداث التاريخ المصرى كقصة النزاع بين الهكسوس وملكهم أبوفيس وأمير طيبة الذى انتهى باجلاء الهكسوس عن مصر ، وقصة تحوتى القائد المصرى أيام تحوتمس والذى فتح مدينة باتا عن طريق اخفاء الجند فى زلع .

وثمة قصص أخرى تناولت أمور الفلاحين وتعرف واحدة منها بقصة الأخوين ، تتلخص فى أن أخوين عاشا معا فى كوخ بأحد الحدائق وكان أكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت أما الأصغر فكان عائشا معه كابن له ، فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . وعندئذ أرادت أن تكيد له فوشت فى حقه عند أخيه فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب ، وفى مساء اليوم عاد الأخ الأصغر بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى الحيوانات الأمر وأسرت الى راعيها بما يضمر له أخوه الكبير ، فلما علم ذلك فر هاربا خوفا من القتل ... والناظر الى هذه القصة يرى فيها طرفا من قصة يوسف عليه السلام (١) .

وكثرت روايات الحب والغرام عند أهل هذا العصر كما عثر على كثير من القصائد الدينية والأغانى والدعوات ووجدت كذلك عدة خطابات لكتاب وموظفين ، وعدة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس وعدة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا .

---

(١) ذكرنا أن يوسف كان فى عهد الهكسوس ، وليس هناك ما يمنع أن تكون محنته قد اشتهرت واستفاضت فصاغ بعض الادباء هذه القصة مستلهما اياها .

وقد مات رمسيس الثانى بعد أن حكم سبعا وستين سنة وكان عمره عند وفاته ٩٢ سنة .

وتظهر مومياؤه علامات العز والبذخ وقريبة الشبه بتمثال صباه المحفوظ بدار المتحف بتورين .

وقد سمى عشرة من الفراعنة بعده أنفسهم باسم رمسيس .

١٢٢٤ ق٠م :

تولى **مرنبتاح** ابن رمسيس الملك ، وقد اشتهر باسم منفتاح فى كتبنا القديمة . وهو الابن الثالث عشر ذلك أن طول عمر الملك قد جعل أبناءه الكبار يموتون فى حياته ، وقد كان كهلا عندما ولى الملك ، فى وقت كانت الظروف والأحوال العامة تتطلب ملكا فى شرخ الشباب ، ليعالج الأزمات التى خلفها حكم رمسيس الطويل ، فقد أقعده الهرم عن مواصلة النهضة العسكرية التى بدأها ، كما أرهق مالية البلاد ، هذه المنشآت العامة التى ملأ بها الوادى .

ولذلك فقد جوبه ابنه مرنبتاح بمجرد توليه الملك بانتشار الفوضى والمنازعات المستمرة على حدود المملكة المصرية ، وظهر عنصر جديد على مسرح التاريخ ، وهو عنصر شعب جزر البحر الأبيض المتوسط ، الذى تحالف مع الليبيين ، وشرعوا فى الضغط على حدود الامبراطورية المصرية من الغرب حتى وصلوا الى غرب الدلتا .

وبدأ مرنبتاح بمواجهة الموقف على الحدود الشرقية فسافر على رأس حملة فى السنة الثالثة من حكمه ، وبطش بالثوار بطشة عنيفة ، ويبدو ان احدى البلاد فى جنوب فلسطين وهى « جازر » قد قاومته طويلا فلم يلبث أن انتصر عليها وفتحها ، فقد وجدناه يصف نفسه على الآثار بأنه حاصر « جازر » وقد سجل مرنبتاح نصره فى هذه المعركة وغيرها على حجر كبير فأشار الى حروبه فى فلسطين بقوله :

أما عقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدينة بانوام .

لقد أبيدت اسرائيل واستؤصلت ، واصبحت فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر .

وتعتبر هذه أول اشارة فى الآثار المصرية الى اسرائيل والرأى الذى يتردد بين علماء التاريخ المصرى والآثار أن هذه الاشارة الى اسرائيل ترجح أن يكون مرنبتاح هو فرعون موسى الذى خرج بنو اسرائيل فى أيامه .

ويقول كتاب العهد القديم ، ان فرعون موسى قد غرق فى البحر أثناء مطاردته لاسرائيل ، ولذلك فقد وجد بعض المؤرخين فى العثور على جثة مرنبتاح ما يدحض هذه الرواية ولكن القرآن الكريم ذكر حقيقة « فاليوم ننجيك ببدنك » . وعندما انتهى مرنبتاح من اخماد الثورة فى فلسطين . . عاد ليواجه الليبيين الذين كان ساعدهم قد

اشتد وأمروا عليهم ملكا (مريبى) وأجبروا بدو التحنو (بدو الصحراء الغربيــة) على الانضمام اليهم كما تحالفوا مع سكان جزر البحر الأبيض (صقلية وسردينيا) .
وشرعوا يزحفون على مصر فى العام الخامس من حكم مرنبتاح ولكنه تصدى لهم وهزمهم هزيمة منكرة وترك مريى جميع أفراد أسرته وأثاث منزله فى أيدى المصريين الذين غنموه وتسجل الآثار أن عدد القتلى والأسرى قد ناهز عشرات الألوف .

وقد غمر مصر فرح شديد ، سجلوه فى أنشودة وصلت الينا مسجلة على الآثار .

« شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد مصر أصوات السرور وأصبح الكل يتحدثون بنصر مرنبتاح على التحنو قائلين : ما أحب هذا الملك المنتصر وما أعظمه بين المعبودات وما أسعد هذا القائد الحاكم ، اجلس مسرورا ولكنهم فروا بعيدا حيثما أردت فلا خوف الآن فى قلوب الخلق » .

وتمضى الانشودة بعد ذلك تسجل انتصارات مرنبتاح على الملوك والأمراء .

وعلى الرغم من ذلك . فقــد كانت صفحة الامبراطورية المصرية التى جاوزت حدودها ، غازية فاتحة ، قد وصلت الى نهايتها وارتدت مصر مدافعة بعد أن كانت مهاجمة .

آثار مرنبتاح :

ولم تدع الحروب التىخاضهامرنبتاح ، فرصة له لاقامة ما اعتاده ســابقوه من منشآت ومعابد خاصة له . فسطا على آثار من سبقه ولم يعف من ذلك آثار أبيه نفسه .. ووصل الأمر به الى حد هدم معبد امنحتب الثالث فى السهل الغربى لطيبة وحطم جداره وكسر تماثيله ليستعمل من أجزائها أحجارا لبنائه الجديد .

ومن هــذه الأحجار الجرانينية التى اقتلعهــا وأعاد استعمالها شاهد جرانيتى يزيد طوله على عشرة أقدام مكتوب عليه مبانى العمارات التى شيدها أمنحتب الثالث ، فأمر مرنبتاح بوضع هذا الحجر فى عمارته الجديدة على أن تدار نقوش امنحتب الى الحائط ، وينقش على الوجه الآخر انشودة الانتصار على الليبيين التى مر ذكرها ، والتى تعتبر ذات قيمة عظيمة ... لاحتوائها كما قدمنا على أول ذكر لاسرائيل .

وتوفى مرنبتاح بعد أن حكم عشر سنوات عام ١٢١٥ ق . م ودفن بطيبة بالوادى الذى دفن فيه أجداده وقد عثر على جثته فيمن عثر على جثثه من الفراعنة ، فظهر بذلك خطأ الرأى القائل بفرقه بالبحر الأحمر على ما يقول بنو اسرائيل .

١٢١٤ ق . م — ١٢٠٠ ق . م :

قام حول ولاية العرش عقب موت مرنبتاح نزاع دام عدة ســنوات حكم فيهــا

حكام ثلاثة دفنوا فى وادى الملوك ، بلغ اثنان منهم العرش عن طريق غير مشروع فلما جاء الثالث محا اسميهما من أكثر ما تركا من آثار .

وأولهما هو ((**امنمس**)) أو ((آمون موسى)) ويبدو أنه كان مغتصبا للحكم ولذلك فلم يدم حكمه طويلا ، وخرب قبره فى وادى الملوك تخريبا منظما .

ثم ظهر على مسرح النضال شخصية أخرى هى ((**مرنبتاح سبتاح**)) والمعروف أنه ذهب الى بلاد النوبة فى السنة الأولى من حكمه لقمع ثورة هناك .. وعين مندوبا ساميا لبلاد النوبة ثم اقترن بالأميرة تاوسرت التى يغلب أنها من أصل فرعونى عريق ، وبهذا تمكن من الحكم ستة أعوام .

ثم خلفه حاكم ثالث هو **سيتى الثانى** ، وقد اعتبره القوم الشخص الوحيد صاحب الحق الشرعى فى العرش ويبدو أنه كان قويا ناجحا نوعا ما فى بادىء الأمر فقد شيد معبدا صغيرا بالكرنك وآخر بالأشمونين (هرمبوليس) .

ولكن أمراء البلاد وحكامها بدأوا ينازعونه السلطان ، ويظهرون الاستقلال فى أعمالهم وادارتهم لأقاليمهم ولما لم يكن سيتى الثانى قوى الشكيمة فقد سقط من الحكم .

ولكن مسقطيه عجزوا عن أن يستولوا على الحكم ، فشبت فى البلاد حرب أهلية جزأت القطر وانقسم تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة فعم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة .

وقد سجلت لنا الآثار الباقية وصفا دقيقا لهذه الفترة فى تاريخ مصر :

((لقد قعد كل انسان مكانه ، اذ لم يبق هناك حاكم يرد الحق الى نصابه عدة سنوات ، وسقطت مصر فى يد أمرائها وحكام مدنها — وصار الجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا)) (برستيد ص ٣٢٩) وتسجل الآثار اسم قائد سورى يظن أنه اغتصب الملك فترة من الزمان وساس القطر بالقسوة والجبروت . وقد ورد ذكره على لسان رمسيس الثالث اذ يقول :

((**ثم جاء بعد ذلك عصر خلو من السنين وظهر بين الناس سورى يقال له ((ارسو)) استطاع أن يضع نفسه فى مكان الرئاسة وأجبر البلاد كلها على تأدية الخراج اليه واستعان بقبيلته على نهب أرزاق الناس وكان ينظر هو وشيعته الى الأرباب كما** ينظرون الى الناس ، فلم يفكروا فى شىء من خير أو أضحية يتقربون بها الى أرباب **الوادى**)) .

١٢٠٠ ق.م :

كان من الطبيعى أن يخرج المجتمع من أبنائه من يرد اليه الأمن والنظام والوحدة **واحترام الدين وشعائره ،فظهر حاكم يقال له ((ست نخت)) انتهت بظهوره فترة الظلام من تاريخ هذا العصر وهى فترة التنازع على العرش يرجح أنه من سلالة**

سيتى الأول ورمسيس الثانى ، فنجح فى الاســتيلاء على العرش الفرعونى ، واعادة الوحدة الى البلاد فى ظله .

ولم يدم حكم ست نخت طويلا ، فالآثار لا تتحدث الا عن السنة الأولى من حكمه ويبدو أنه أشرك معه فى الحكم ابنه الذى أطلق عليه اسم رمسيس تيمنا باسم الفرعون العظيم وقد اعتبره مانيتون « رمسيس الثالث » مؤسس الأسرة العشرين ، ولكن من الحق أن ينسب تأسيس الأسرة الى أبيه ، فهو الأصل الذى انحدر منه رمسيس وهو الذى وضع حدا للفوضى التى سادت البلاد ، وسلمها لابنه من بعده موحدة ، خالية من الغاصبين والثائرين من الداخل والمعتدين من الخارج .

الأســــرة العشـرون

١٢٠٠ ق ٠ م :

بدأ حكم الأسرة العشرين فى رأى مانيتون الذى استمر حكمها مدة أربت على قرن من الزمان .. حكم فيهــا **رمسيس الثالث** وحده ٣٢ عاما تعتبر آخر عهــد مصر فى هذه الفترة من تاريخها من الفراعنة العظام : حيث تشير مخلفات ملكه فيما بقى له من عمائر كبرى ، الى درجة عظيمة من الأبهــة والعــز واتساع السلطان ، وما أفاء على البلاد من الأمن والطمأنينة والرخاء .

على أن ذلك لم يتحقق الا بعد معــارك ضارية قادها أول ما قادها ضد الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر الأبيض الذين لم تكن هزيمة مرنبتاح لهم صادة لهم عن معاودة الهجوم مرة ثانية وثالثة ، فى السنتين الخامسة والثالثة عشرة من حــكم رمسيس الثالث وقد تصدى لهم فى كلتا الغزوتين وهزمهم هزيمة منكرة وساق منهم عشرات الألوف من الأسرى ، الذين فكر فى أن يتخذ منهم جيشا تحت امرة الضباط المصريين ، وسنرى فيما بعد أن هذه الجيوش المرتزقة سوف تستولى على العرش .

وخاض رمسيس الثالث ما يمكن اعتباره أول معركة بحرية فاصلة فى تاريخ مصر القديمة اذ أنقذتها من الوقوع بين هذه الشعوب الجديدة التى عرفت فى هذه الفترة بشعوب البحر الأبيض والذين استطاعوا أن يستولوا على مدن الحيثيين شــمالى سوريا ، وأن يستولوا على ساحل فينيقيا وجزيرة قبرص ثم طمعوا بعــد ذلك فى الاستيلاء على مصر .

وقد تصدى لهم رمسيس الثالث فى البر والبحر ، فهزمهم فى البر هزيمة منكرة ، كما تصدى لهم بأسطوله من البحر ، فأغرق وأسر كل وحدا تالعدو البحرية ، كما قتل العدد الأكبر من جنود الأعداء وأسر الباقى حيا منهم .. وقد سجلت لنا جدران معبد مدينة « حابو » هذه المعركة البحرية الواسعة النطاق .

وكانت هذه الانتصارات المدوية فى دنيا الحرب كفيلة أن تجعل « رمسيس » يهنأ بالحكم فى جلال ومهابة بقية سنى حياته ، وأن يستأنف عمليــة البناء والانشاء التى كانت مظهر عظمة القوم فأنشأ معبد مدينة حابو الذى يعتبر آخر المبانى الشامخة التى شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والأهمية . وقد بناه ليكون معبدا

لآمون رب طيبة ، ولكي يكون معبده الجنائزى ، وقد حاول أن يبنى فى عمارته معبد الرمسيوم ولم يكن معبد مدينة « حابو » هو البناء الوحيد الذى أقامه بل انه أنشأ معبدا صغيرا لآمون فى الكرنك ، ويعتبر رغم صغره أكمل بنـاء وصل الينا فى الوقت الحاضر ، وبنى الكثير من الهياكل الصغيرة فى منف وعين شمس وباقى جهات القطر .

وقد حدثنا رمسيس الثـالث عن حى جميل شـيده لآمون بالدلتا ووصف بأنه كان محلى بالحدائق العظيمة والمماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة غير الطريق المقدس الذى أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر .

ومن جديد بعث بالأسطول الى بلاد الصومال لاحضار البخور والعطور الى معابد الوادى — وقد عادت هذه الأساطيل وعليها أمراء كثيرون من البـلاد جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون .

وتمتاز السنوات العشرون من حياة رمسيس الثالث بتوطيد أركان السلام فتراه يقول لنا وهو يفتخر بالسلام :

« لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبى أو غيره . لقد جعلت مشاتى ورجال عجلاتى الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى ، وصار جنودى السردينيون والكحاكيون يسكنون مدنهم نائمين على ظهورهم بلا وجل ، ولم يعد يبدو عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس وأسلحة هـذه القوات مكدسـة فى مخازنهم . أما هم فكانوا مزودين بالمأكولات والمشروبات وقلوبهم طافحة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عائشين معهم فلم ينظروا خلفهـم لأن قلوبهم كانت مطمئنة ، ولأننى كنت أحميهم وأدافع عن أعضائهم . لقد أحييت سكان الأراضى كلها ، أجانب ووطنيين ذكورا واناثا . لقد فرجت هم البائس وأرجعت له الأمل والحياة ونجيته من ظالمه القوى . لذلك صار كل انسان آمنا ببلده ، وكل شخص فى المحاكم أنلته حقه كاملا . لقد أصلحت الأراضى التالفة وساد الأنس أثناء حكمى » (برستيد ٣٢٧) .

ولدينا من أيام رمسيس الثالث أكبر بردية من التاريخ المصرى القديم يبلغ طولها ١٣٠ قدما وهو يحوى مائة وتسـعة عشر نهرا من الكتـابة طول كل نهر اثنتا عشر بوصة تقريبا ويعرف الدرج باسم قرطاس هريس وهو موجود بالمتحف البريطانى . وقد حوى هذا الدرج تفاصيل الهيئات والأوقاف التى أوقفها رمسيس الثالث على معابد آمون وغيره من الآلهة .. ولقد أصبح باستطاعتنا أن نأخذ صورة عن عدد سكان مصر وأراضيها الزراعية فى ذلك الوقت .. ومدى ما أصبح كهنة آمون يسيطرون عليه من أموال وبالتالى من نفوذ فقد كان يقوم على خدمة المعابد حوالى مائة الف وسـبعة آلاف عبـد ، أى ما ينـاهز ١/٥ أهالى القطـر المصرى . أما الأراضى الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ٢/٤ مليون فدان أو ١/٧ الأراضى المصرية المزروعة وكان عدد الأغنام والبهائم الموقوفة على المعابد يبلغ ١/٢ مليون وعدد السفن ٨٨ ما بين صغيرة وكبيرة والمصانع ٥٣ مصنعا تستهلك المواد الخام الواردة الى المعـابد لتعمل منها المصنوعات .

أما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ ١٦٩ مدينــة فى ســوريا وكوش ومصر .

فاذا علمنا أن تعداد مصر فى ذلك الوقت كان حوالى ٥ أو ٦ مليون نسمة والأرض المزروعة لا تتجاوز عشرة آلاف ميل مربع اســتطعنا أن ندرك كيف أن الجزء الأكبر من ثروة البلاد قد آل الى المعابد وأصبح تحت سلطان الكهنة ... فلا عجب اذا كانوا سيطمحون بعد قليل الى الملك والسيادة ، ويسهمون بذلك فى تفتيت الوحــدة المصرية .

فقد كان من أثر نفوذهم ، أن حاول رمسيس الثالث أن يتخذ جيوشه وجنوده من الأجانب المرتزقة ويقلل من اعتماده على الوطنيين الذين كانوا يخضعون لنفوذ الكهنة بالدرجة الأولى .

وثمة عنصر ثالث تتسم به الفترة الأخيرة من حياة رمسيس الثالث ، وذلك هو اغراقه فى الشهوات والملذات الجنسية فقد كان قصره يغص بالعشرات والمئات من الزوجات والجوارى حيث تمثله الآثار تحيط به حشود من النسوة لا أسماء لهن .

ويبدو أن هذه العوامل كلها ، من ازدياد تطلع كهنة آمون الى الملك ، ووجــود الجنود والثوار المرتزقة ... وكثرة النساء المتطلعات الى تمليك أولادهن .. قــد انتهى الى قيام مؤامرة فى البــلاط الملكى على حياة رمسيس الثالث ... حيث يسجل التاريخ اكتشاف مؤامرة دبرتها احدى حريم الملك لقتل رمسيس الثــالث بواسطة السحر ولتجعل ابنها « نبتا ورع » ملكا بدلا من ابن ضرتها الذى كان معينا وليا للعهد وقتئذ .

ويسجل لنا التاريخ موقفا رائعا من هذه المواقف التى تحبها الشعوب من ملوكها وقادتها ، وهو أن يتمسكوا بالعدالة وحكم القانون ، فنراه يقول لهؤلاء القضاة الذين عينهم للتحقيق فى هذه المؤامرة والكشف عن المتآمرين والحكم عليهم :

« أنا آمر القضاة قائلا أما من خصوص الكلام الذى يدور على ألسنة الناس فلا علم لى به ، فاذهبوا وافحصوا الأمر ، فاذا حققتم وتبينتم المتهمين فأمروهم أن ينتحروا بأيديهم بدون أخطارى . ووقعوا العقاب على كل من يستحق بدون استشارتى أيضا ، احترسوا من عقــاب البرىء . ها أنا ذا أكرر لكم أن كل شخص ارتكب أو اشــترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الأبد ، لأننى ضمن الملوك العادلين أمام آمون رع ملك العبودات وأمام أزوريس حاكم الأزلية » . ولدينا سجلات مفصلة لتحقيق هذه الجريمة الكبرى وملابساتها وفى هذا الوقت حل ميعــاد الاحتفــال بمرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فأقيمت الزينات والأفراح عشرين يوما جريا على عادة جلالته ، ومات بعد ذلك بعشرين عاما حوالى عام ١١٦٧ ق.م . قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله .

ويرى بعض المؤرخين (أحمــد بدوى) أن وصية الملك السابقة الذكر للقضــاة ،

تمت وهو على فراش الموت أثر اصابته اصابة قاتلة نتيجة للمؤامرة . ويقول بعض آخر انها من كتابة أبنه رمسيس الرابع الذى خلفه وانه نقل هذه الوصية عن لسان ابيه الى القضاة .

وشيعت جنازة رمسيس الثالث فى طيبة وأودع فى قبره فى وادى الملوك .

١١٦٧ ق.م :

تربع **رمسيس الرابع** على عرش والده رمسيس الثالث وكانت عوامل الضعف والانحلال التى غشيت مصر فى أواخر عهد أبيه ، قد ازدادت قوة واستفحالا فلم يكن لرمسيس الرابع من عمل سوى ارضاء المعبودات أو بالأحرى ارضاء كهنة آمون ، بل ان هـذا السجل الكبير الذى أشرنا اليـه فيما سبق باسم بردية هاريس والذى حوى أوقاف المعـابد أيام رمسيس الثالث هو من كتـابة رمسيس الرابع أراد أن يتقرب به الى الآلهة بتعداد أعمال أبيه .

ولا يحفظ له التاريخ الا أنه توجه شخصيا فى العام الثانى من حكمه الى محاجر وادى الحمامات مع بعثة كبيرة للبحث عن أحجار لتشييد معبده ثم أرسل تجريدة أخرى بعد ذلك بسنوات للغرض نفسـه وكانت التجريدة مؤلفة من تسـعة آلاف ، وقد هلك منها عدد كبير ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجرة الخلفية لمعبد خونسو بطيبـة وكذلك القاعات الصغيرة ذات العمـد التى بدأ والده بناءها قبل ذلك بمدة يسيرة . ولم يدم حكمه أكثر من ست سنوات .

١١٦١ ق.م :

تولى سبعة يحملون اسم رمسيس من الخامس حتى الثانى عشر وتولى رمسيس **الخامس** بعد رمسيس الرابع (على الأرجح) وتوفى بعد حكم قصير فتبعه **رمسيس السادس** الذى يغلب على الظن أنه حفيد رمسيس الثالث من ابن آخر وقد اغتصب الملك من رمسيس الخامس ، ولكنه بدوره لم يعش طويلا فتبعه **رمسيس سابع وثامن** ولسنا نعلم من أمرهم شـيئا الا أنهم حفروا قبورا لهم بوادى الملوك بطيبة حتى جاء **رمسيس التاسع** ، بدأ نجم أمنحتب أو أمنوفيس رئيس كهنة آمون يرتفع عاليـا ، بحيث راح ينفق على اصلاح بعض آثار الفراعنة ، مما زاد فى نفوذه ، وتسـجل لنـا الآثار رمسيس التاسع وهو يقدم لأمنوفيس رئيس الكهنة فى حفل ملكى رائع هدايا وأعطيات .. وراح يخاطبه بحديث لا يصدر الا من خادم الى سـيده .. وقد رسم رئيس الكهنة صورته على جدران الكرنك بحجم كبير كالملك الذى ينعم عليه بالهدايا وهو أول رسم من نوعه فى تاريخ مصر فقد جرت العادة على أن ترسم صور من عدا الملك أصغر حجما .

وقد بلغ ضعف الحكومة فى هذه الفترة الى حد أن تجرأ اللصوص فراحوا يسرقون المقابر الملكية ، وقد قبض على اللصوص وحوكموا ولكن يتضح من المحاكمة أن المحققين لم يكونوا نزيهين ، مما زاد فى جراءة اللصوص فانتهبوا قبرى سيتى الأول ورمسيس الثانى . بحيث لم تمض عشرون سنة حتى كانت جميع المقابر الملكية بطيبة ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة ولم يعثر على جثة واحدة نجت من هذه الجرائم الا جثة أمنحتب الثانى التى وجدت فى تابوتها رغم نهب قبرها .

ولم تصل الينا معلومات عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر سالفة الذكر . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل أخباره كلية .

ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش الفرعونى وحصل فى البلاد انقلاب حكومى اذ استقل بالوجه البحرى أحد أعيان تانيس المدعو (نسوبا نبدد) المعروف عند اليونانيين باسم بسمنديس . فلم يستطع رمسيس الثانى عشر أن يقضى على ثورته ، فانسحب الى طيبة مكتفيا بالاحتفاظ بالوجه القبلى ، واذ كان نفوذ الكهنة بطيبة قويا ، فقد أصبح الحكم مشتركا بين فرعون ورئيس كهنته ، فتعاونا على توطيد سلطانهما على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

ولدينا قصة من هذا العهد لمن يسمى وينامون وهى تقطع بمدى ما وصل اليه النفوذ المصرى من اضمحلال فى فينيقيا وفى قبرص ، حيث رفضوا أن يزودوه بما جاء فى طلبه من خشب لبنان لصنع سفينة آمون بناء على طلب حريحور رئيس كهنة آمون الا اذا دفع الثمن ، ورفضوا أن يعترفوا بأى ولاء لفرعون مصر ، وقد تعرض وينامون فى عودته الى النهب والسلب أكثر من مرة . كما تظهر القصة انقسام مصر فى هذه الفترة الى دولتين .

كما يوجد لدينا على باب معبد خونسو ما يشير الى انتهاء حكم رمسيس الحادى عشر باستيلاء حريحور رئيس كهنة آمون على الحكم وبدئه بذلك أسرة جديدة . فبعد أن كان حريحور رئيس كهنة آمون هو قائد جيوش الوجه القبلى والبحرى . وأنه مدير مخازن غلال الوجه القبلى والبحرى — وواليا على كوش ورئيسا للخزانة ومشرفا على عمارات المعبودات بحيث لم يبق عليه بعد أن وضع يده على كل الأمور الادارية والدينية الا أن يلبس تاج مصر ، وهو ما حدث بالفعل فى احد ىالحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم أيده آمون فى ذلك فأصبح هذا القرار أمرا واقعا .

الأسرة الحادية والعشرون

١٠٩٠ – ٩٤٥ ق.م :

فى هذا العصر انقسمت البلاد الى قسمين يحكم احدهما (طيبة) كهنة آمون العظام باسم الاله آمون وقد أسسها الملك حريحور الذى كان رئيسا لكهنة آمون وضم اليه وظيفة قائد الجنود ورئيس المالية ونائب فرعون بالنوبة فسيطر على عواطف الشعب الدينية وكان رجلا طموحا عصاميا ، وقد قام بالقضاء على الفوضى التى انتشرت لضعف الرعامسة ، وقضى على الأجانب الذين كانوا يجتاحون البلاد وتولى الحكم فى الوجه القبلى تاركا الوجه البحرى للملك سمندس الذى أنشأ أسرة مالكة فى تانيس وجعلها عاصمة لملكه وهكذا عادت مصر سيرتها الأولى من التقسيم قبل عهد مينا فصارت مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

وقد حكم فى طيبة « حريحور » لمدة خمس سنوات ، وحكم الكهنة من خلفائه باسم آمون الذى أصبح الحاكم المباشر لحكم مصر عن طريق الوحى الذى كان الكهنة يدعون أنه يوحى به من خلال تماثيله التى تحرك رأسها باشارات مختلفة .

ولا عجب وقد انقسمت البلاد أن تعمها الفوضى ، وأن تفقد سلطانها على البلاد الأخرى .

وكان من أهم أعمال أسرة الكهنة فى طيبة جمع مومياوات ملوك الأسرة الحديثة خوفا من حالة النهب والسلب التى عمت المقابر الملكية ، فأودعوها فى مخبأ لا يعرفه اللصوص ، بعد أن جددوا أكفانها وكتبوا ما فعلوه على الأكفان . وقد ظلت هذه المومياوات فى مخبئها ، حتى كشف عنها فى الدير البحرى .

وكان لهذا الكشف أعظم أثر فى المساعدة على ترتيب الملوك وتاريخهم من عهد الدولة الحديثة حتى الأسرة الواحدة والعشرين .

أما أسرة سمندس فى الوجه البحرى فقد أخذت تتصاهر مع أسرة الكهنة فى طيبة وأصبح الاتصال بينهم وطيدا بطريق المصاهرة .

واستمرت الأمور هكذا ، حتى زاد تعداد الجنود المرتزقة الليبية ممن استوطنوا مصر واخذ يعظم شأنهم شيئا فشيئا ، حتى قامت حروب داخلية انتهت بزوال الأسرة الحادية والعشرين مما سهل تسنم الحكم على الأسرة الليبية الأصل والتى كانت تسكن اهناس .

وبالنسبة للأسرة الواحدة والعشرين جرى تطور فى فن التحنيط ليجعل مظهر المومياء يفيض بالحيوية وحسن الشكل وقد دفعهم الى ذلك ما رآوه فى المومياوات القديمة من منظر مخيب للآمال (راجع مصر القديمة الجزء التاسع) .

الأسرة الثانية والعشرون

٩٤٥ ق.م :

تسعة ملوك وخمسة أو أكثر على التعاقب من سلالة الشواش رؤساء الليبيين منهم شيشنق الأول ـ اسركن الأول ـ تاكلوت الأول ـ اسركون الثانى وآخرين يحملون أسماء مماثلة ليبية .

مركز الحكومة بتانيس وبوباسطة ـ سيطرة الأسرة على طيبة ٨٢٠ ق.م ـ ثم انقسمت المملكة بعد ذلك ثانية .

اقامت الجيوش الليبية المرتزقة طويلا فى مصر نتيجة استخدامهم فى الجيش . وقد استقر رؤساؤهم فى المدن الكبرى وأحرزوا كثيرا من الثروة والقوة ، بينما كان الحكام المحليون يضعفون بالتدريج أكثر وأكثر .

وحكام الأسرة الثانية والعشرين كما يتضح من أسمائهم يمتون الى الجيش الليبى .

٩٥٠ ـ ٩٢٩ ق.م :

ويعتبر **شيشنق الأول** هو مؤسس الاسرة ٩٤٥ ق.م ويقول مانيتون ان عاصمة ملكهم هى بوباسطة بينما يتحدث عنهم مؤرخو اليونان كفراعنة تانيس ـ « وهو الأرجح » . قد جعل مقره مدينة بوباسطة فى الدلتا ، وزوج ابنه الى ابنة آخر ملوك الأسرة التانيسية ـ كما بسط نفوذه على طيبة بأن عين ابنه الآخر كاهنا أعظم لآمون .

وبينما تظهر الآثار التاريخية أن سليمان قد تعامل مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين على قدم المساواة باعتباره ندا ... فقد أعاد شيشنق سيادة مصر على فلسطين .

ويبدو أن حملته التى أرسلها فى العام الخامس من حكم راحوبيم (ابن سليمان) قد أخضعت دولتى اسرائيل ويهوذا كما يستدل على ذلك من قائمة المدن التى ساد عليها المنقوشة على جدران الكرنك . وكان الأمر فى حاجة الى يد قوية لقمع مختلف الرؤساء الليبيين فقد بدأت الانقسامات تظهر فى أنحاء المملكة .

استمرت الأسرة الثانية والعشرون عدة أجيال ، ولكن كان هناك أكثر من ملك يتنافس على السلطة ، ويبدو أن ملوك الأسرة الثالثة والعشرين حكموا فى ذات الوقت الذى كان ملوك الأسرة الثانية والعشرين يحكمون .

وكان هؤلاء الملوك لا يفرضون سلطانهم على أمراء الأقاليم وحكامها الذين كانوا ينفقون موارد الدولة على المنازعات والحروب فيما بينهم .

وكان شيشنق حاكما قويا شجاعا ، لم يكد يستتب له أمر الملك حتى نهض فى قوة وعزم ، لاعادة وحـدة البـلاد ، واسترجاع مجدها وعزها ونشر الرفاهية بين أرجائها .

ولكن كان يحول دون ذلك ... أن باقى الرؤساء الليبيين ممن يسمون (الشواش) بدأوا بدورهم يطمحون الى الملك كما فعل « شيشنق » الذى حكم ٢١ سنة وقد عين ابنه « أوبوت » كاهنا أكبر على طيبة مما أحنق الكهنة وجعلهم يلجأون الى نباتا .

وراح يبسط نفوذه على فلسطين ، وبعد أن كانت سيادة ملك مصر اسمية بحتة حولها الى سيادة فعلية ، حتى أن برستيد يرى أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصرى ، وأنه تزوج بابنة فرعون ، فأوسع الأقاليم تحت اشرافه .

٩٢٦ ق٠م :

ولما انقسمت مملكة اليهود بعد موت سليمان أيام رحبعام قرر « شيشنق » أن يضع فلسطين تحت سلطانه فتوجه فى العام الخامس لحكم رحبعام الى فلسطين وغزاها .

وكانت الجيوش المصرية قد مضى عليها أكثر من ٢٧٠ سنة لم تطأ هذه البقاع ... على أن آخـر ما وصـلت اليه جيوش شيشنق المصرية شاطىء الجليل (جنـوب فلسطين) (١) وعاد شيشنق بعد غزوته بغنائم عظيمة فجدد عهد فراعنة مصر الأقدمين ونقش على جدران الكرنك بطيبة الجزية التى تقاضاها من فلسطين والنوبة بالقرب من نقوش حكام مصر العظام .

وعين شيشنق حاكما ليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى حاكم آخر فى الاشراف على غرب الوجه البحرى وطرق مواصلاته مع الواحات .

وشرع شيشنق يشيد العمارات الشامخة كما فعل فراعنة مصر من قبله ، فاختط

---

(١) جاء فى كتاب الملوك الاول الاصحاح ١٤ ـ الآية ٢٥ : وفى السنة الخامسة للملك رحبعام أن شيشنق ملك مصر صعد الى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شىء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان .

وفى أخبار الايام الثانى الاصحاح ١٢ سطر ٢ ـ ٤

وفى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر على أورشليم لانهم خانوا الرب بألفى ومائتى مركبة وستين ألف فارس ، ولم يكن عدوا للشعب الذى جاء معه من مصر ٠ وأخذ المدن المحصنة التى ليهوذا ٠

تل بسطة مقره ووسع الكرنك بطيبة بواسطة ابنه (أوبوت) الذى عينه رئيسا لكهنة آمون بطيبة .. فأنشأ أكبر صروح الكرنك مساحة وحجما ـ اذ يبلغ طول الحوش ٣١٤ قدما وعرضه ٣٦٩ قدما أما الصرح العام فى وجه هـذا الحوش فيبلغ سمكه ٣٦ قدما وارتفاعه ١٥٠ قدما وتبلغ طول واجهتـه ٣٥٧ قدما .. وهو أكبر صرح وأوسع فناء فى معابد مصر كلها ..

وقد أراد شيشنق أن يحتفل ببناء هذا الصرح بمناسبة مرور ثلاثين سنة على حكمه ولكنا لا نعرف اذا كان حقق ذلك أم لا .

وقد خلف لنا شيشنق فيما خلف من آثار قائمة بأسماء البلاد التى فتحها والتى يتجاوز عددها ١٥٠ بلدا ، ولوحة بالكرنك دون بها تقريرا هاما عن حملته فى آسيا كما عثرنا له على لوحة فى واحة الداخلة ، تعتبر وثيقة فذة من تاريخ مصر فى هذه الفترة تبحث الأحوال الطبيعية والادارية والطوبوغرافية لهذا الاقليم كما عثرنا على لوحة أخرى وجدت فى أهناسيا المدينة وهى تتضمن الضرائب التصـاعدية وكيفيـة توزيعهـا وذلك الى عديد من الآثار التى تراها فى كتب التـاريخ بنصوصها وشروحها المستفيضة (مصر القديمة الجزء التاسع) .

٩٢٤ ق٠م :

مات شيشنق الاول بعد أن حكم ٢٢ سنة وتولى بعده ابنه **اسركون الأول** زوج ابنة الملك بسبب خنو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ولذلك فقد كان اعتلاؤه العرش طبقا للقوانين والعادات المرعية وكانت المملكة التى انتقلت اليه عن أبيه ، وطيدة الأركان واسعة غنية حتى استطاع أن يتبرع فى العام الثالث من حكمه جريا على سنة فراعنة مصر بما يزيد على ٤٨٧ ألف رطل من الفضة و ٩٣ ألف رطل من الذهب ، ولعل هذا يكشف عن مدى ما كانت عليه البلاد حينئذ من الاستقرار والغنى والثروة . وحكم ٣٦ سنة ثم مات .

٨٨٨ ق٠م :

مات أوسركون بتل بسطة فورثه فى الملك ابنه « **تاكلوت الأول** » فدخل فى نزاع مع اخيه رئيس الكهنة فى طيبة مما ترتب عليه انتشار الفوضى فى البلاد ثم توفى بعد قليل فتبعه « **اسركون الثانى** » .

٨٦٥ ق٠م :

ويقول مانيتون انه حكم ١٥ سنة ولكننا وجدنا بعض الآثار من عهـده تشير الى السـنة السادسة والثـلاثين من حكمه وحفظ لنـا التاريخ اسمى زوجتيه

« ماعت كا رع » والتى انجبت له ابنه شيشنق الذى اصبح رئيسا للجيش والكاهن الأول لآمون ، اما زوجته الثـانية « تاشد خنشو » فهى التى انجبت تاكيلوت الذى تولى الملك بعد أبيه الى عدد آخر من الأبناء واوا منصب رئيس الكهنة بعد شيشنق ويظهر من الآثار الباقية من عهده أن حالة البـلاد عادت الى الاضطراب وعاد نفوذ الكهنة وسلطانهم الى الظهور فى طيبة كما بدأ رؤساء الليبيين (الشواش) يستبدون فى مقاطعاتهم بسير الأمور ويتضح ذلك من النقوش التى وجدت بتنيس حيث يدعو الملك قائلا : « اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها . ولا تجعل قلب أخ يكبر ويعظم على قلب أخيه » .

وقد أشرك أوسركون الثانى ابنه شيشنق الثانى فى الحكم ولكنه لم يعش طويلا ، وقد اكتشفت مقبرته مع مقبرة بسوسنس الأول — وقـد وجدت مومياؤه سليمة والوجه مغطى بوجه مستعار من الذهب غاية فى الروعة والبهاء ووجدت معه خواتم وقلائد وأساور . فأشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات ومات الملك اسركون الثانى بعد أن حكم ٢٥ سنة ويقول مانيتون انه حكم ١٣ سنة ولكنا عثرنا على آثار تتحدث عن السنة الخامسة والعشرين من حكمه .

٨٣٥ ق.م :

وانفرد **تاكلوت الثانى** بحكم البـلاد بعد وفاة أبيـه وعين ابنه أوسركون كاهنـا فى طيبة .

واخذ شأن الأسرة الثانية والعشرين يضمحل ... وتبدو أحوال مصر فى هذه الفترة مشوشة مضطربة ... فنرى أسماء ثلاثة ملوك ليبية من هذه الأسرة وقد انقسمت البلاد فى عهدهم وسعى كل أمير للاستقلال باقليمه .

٨١٨ ق.م :

وتولى « **شيشنق الثالث** » وقد وجدنا على الآثار ما يدل على السنة التاسعة والثلاثين من حكمه وان كان مانيتون قد جعل حكم الثلاثة الملوك الذين خلفوا تاكيلوت الثانى ٤١ سنة والمؤرخون يرون انه حكم ٢٥ سنة وآخر سنة عرفت على الآثار هى السنة السابعة والثلاثون وقد عاصر فيما يبـدو شيشنق الرابع آخر ملوك هـذه الأسرة الثانية والعشرين حكمى فرعونين من الأسرة الثالثة والعشرين وهما أوسركون وتاكيلوت الثالث كما تدل على ذلك الآثار التى كشفت فى الكرنك .

وقد عثر له على بقايا معبد فى تانيس ، ويعتبر بعض النقوش على صخور هذا المعبد مما يمكن مقارنته بأحسن نقوش فى أزهى عصور التاريخ المصرى من حيث دقة الصنع وجمال النقش .

الأسرة الثالثة والعشرون

٨٤٥ ق.م :

وتقام الأسرة الثالثة والعشرون التى اعتبر مانيتون أن مؤسسها هو « **بدبست** » الذى انتزع الحكم من ملوك تل بسطة ويقول مانيتون أن هذه الأسرة حكمت من تانيس ولكن اسم بدبست يشير على ما يقول المؤرخون الى تل بسطة ـ وقد بسط بدبست سلطانه على طيبة وظل حاكما للبلاد مدة ٢٧ سنة وهناك اشارات تدل على أن ملكا يدعى « أوبوت » قد خلفه لمدة قصيرة جدا .

وتولى الملك بعد بدبست الملك **أوسركون الثالث** وذكر مانيتون أنه حكم تسع سنوات ورواية أخرى عنه تقول انه حكم سبع سنوات ولدينا اشارة فى الآثار تدل على السنة السادسة من حكمه .

وقد حدث فى عهده فيضان فى معبد الأقصر فأصبحت كل معابد طيبة كالمستنقعات وقد وجدت نقوش تدل على أنه جدد وأصلح بعض معابد الأسرة الثامنة عشرة .

وساءت الأحوال فى داخلية القطر وانقسمت البلاد الى عدة امارات مستقلة من الوجه البحرى شمالا الى الأشمونين جنوبا ... وقد عرفنا من أسماء هذه الفترة ثمانية عشر أميرا .

٧٣٤ ق.م :

اقتربت جنود آشور نجلات بليسر الثالث من حدود مصر بعد أن غزت فلسطين وهددت حدود مصر وكان انقسام الأمراء فى مصر حائلا دون تدبر هـذا الخطر وعمل شيء لدرئه .

الأسرة الرابعة والعشرون

٧٢١ ق.م :

كان المصريون يحكمون النوبة على ما رأينا مدة تزيد على ١٨٠٠ سنة . أما القسم بين الشلال الأول والثانى فكان تحت الادارة المصرية المباشرة مدة تزيد على الف سنة .

ومنذ الأسرة الحادية والعشرين أصبح رؤساء الكهنة فى طيبة هم حكام النوبة ، فلما كان الفراعنة يضغطون على الكهنة أو يعزلونهم ، كانوا يفرون الى بلاد النوبة ، ويقيمون بها ، وسرعان ما اصبحت بلاد النوبة صورة طبق الأصل من امارة آمون الطبيعية ، وفى القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت فى أفق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصمتها مدينة نباتا الواقعة أسفل الشلال الرابع (١) . وكان آمون معبود هذه المملكة الرسمى شديد التدخل فى شئون حكومتها بدرجة فاقت تدخله فى مصر فكان يعزل الملوك ويولى غيرهم .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا ولا يعرف شيئا عن حكمه ولا مدى نفوذه شمالا ، ولكن ابن هذا الملك المدعى « بعنخى » تولى الملك حوالى ٧٤١ ق.م. وأخذ يستعمر مصر ولكن الثابت أنه فى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ ق.م استولى بعنخى على صعيد مصر حتى مدينة اهناس جنوب الفيوم .

وفى هذا الوقت كانت سلطة أوسركون الثالث المستوطن بتل بسطة منحصرة فى امارته ومحاطة بأعداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم « تفنخت » أمير صا الحجر غربى الدلتا . الذى استطاع فى وقت من الأوقات أن يحكم الدلتا كلها مؤسسا بذلك فى بعض الأقوال الأسرة الرابعة والعشرين وان كان البعض يعزون انشاء الأسرة الى ابنه .

ولكن « بعنخى » استطاع أن يزحف بجيوشه نحو الدلتا .. وان يهزم القوات التى تعرضت له ، حتى اعترف له « أسركن الثالث » بسيادة النوبة على مصر .

---

(١) بالقرب من مروى فى الوقت الحاضر .

ولكن بعنخى لم يكد يأفل راجعا الى نباتا عاصمة ملكه ، حتى تمرد عليه تفنخت امير صا الحجر وأنشأ أسرة ملكية جديدة وأحل لنفسه الألقاب الفرعونية .

٧١٨ ق.م :

توفى تفنخت وتولى ابنـه **بوكوريس** الملك مؤسس الأسرة الرابعـة والعشرين الصاوية . وان كان البعض يعزون تأسيس الأسرة الى أبيه تفنخت .

وليس لدينا من الآثار المصرية ما يفيدنا عن حكم الملك بوكوريس الا لوح حجرى وجد بالسرابيوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكمه ، أقيم وقت الاحتفال بدفن ثور لأبيس بتلك المقبرة وقد أخبرنا مانيتون أن بوكوريس كان مشرعا كبيرا وذكر ديودور أنه من بين الستة الكبار فى مصر .

وقد جاء فى رواية يونانية لا شـك فى صحتها أن بوكوريس كان عادلا مجتهدا فى تنقيح القـانون سـاهرا على الحق بكل قواه . وكانت خاتمـة بوكوريس على ما يقوله مانيتون مفزعة اذ حرقه « شباكا » والمؤرخـون لايستطيعون التثبت من هذه الرواية .

الأسرة الخامسة والعشرون

٧١٢ ق.م :

أسس « شباكا » الأسرة الخامسة والعشرين .. « وشباكا » هو أخ بعنخى الذى اقترن بابنته فأصبح بذلك صاحب الحق الشرعى فى الملك ، فأعاد فيما يبدو غزو مصر وليس لدينا أى أخبار تاريخية تثبت هذا الغزو ، وان كان مانيتون يقول فى تاريخه أن شباكا أحرق بوكوريس حيا وبسط سلطانه على الوجه البحرى فاجتمع له حكم مصر بأكملها .

على أن دولة أشور فى هذه الفترة كان قد علا نجمها واستطاع تجلت بليسر الثالث ملكها أن يخضع سوريا وفلسطين لحكمه .

ورأى شباكا أن ليس بقدرته مواجهة جيوش أشور فاكتفى بأن أرسل الى سوريا وفلسطين من يوقد النار ضد أشور ويعد ولاة سوريا بالمساعدة اذاهم ثاروا على ملك أشور . وقد استجابت البلاد الفلسطينية الى نداء شباكا الذى أرسل طهراقه ابن بعنخى على رأس جيش ليقف الى جوارهم ضد جيوش أشور ولكن المعركة التى دارت انتهت بهزيمة المصريين وأعقب هزيمتهم حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . ولكن أشور لم تجن ثمار نصرها ، اذ انسحبت من جديد لنينوى لظروف طارئة(١) .

وقد حكم شباكا مصر كفرعون مصرى فأظهر عطفه ومساعدته لطائفة الكهنة ، كما سار على نهجهم فى تعمير المعابد المتداعية وترميمها ، وقد وجدت نقوش دينية قديمة على جدار معبد بتاح مرممة من ذلك العهد ، وهى تعتبر أهم القطع الادبية المعروفة .

وقد ارجع أخته امنارديس الى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بعد أن طردها أوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته وشيد معبدا بالكرنك .

وقد حكمت امنارديس فى طيبة حكما مستقلا . أما شباكا فقد حكم اثنتى عشرة سنة تقريبا ، ويرجح أنه حكم أطول من ذلك فى بلاد النوبة .

---

(١) تحققت نبوءة أشعيا النبى بنجاة بيت المقدس فى هذه الحقبة .

٧٠٠ – ٦٨٩ ق.م :

توفى شباكا وخلفه على ما يقول مانيتون ابنه **شاباتاكا** وقد سماه مانيتون فى تاريخه « سبيكوس » وحكم شاباتاكا فى هدوء وسكينة لأن أقاليم آسيا بقيت ساكنة لا تتحرك ضد أشور ولم نعثر على اسم شاباتاكا على الآثار المصرية آلا نادرا .

وانما يستدل من الحوادث التالية أنه كان ضعيفا لم يستطع أن يستعيد القوة الى السلطة المركزية ليهيء مصر لمواجهة الغزو الاشورى الذى كان يبدو وشيكا بعد أن وصلت جيوش آشور المنتصرة أكثر من مرة على حدود مصر ولا يرجعها عنها الا ظروف خاصة بها .

وبعد اثنتى عشرة سنة من الحكم مات شباتاكا : تاركا حكم البلاد ومشكلة مواجهة الآشوريين الى خلفه الملك طهراقه بن بعنخى .

٦٨٨ ق.م – تربع طهراقه على عرش مصر :

فيقول لنا مانيتون أن طهراقه بن بعنخى قاد جيشا جرارا من أثيوبيا وقتل شباتاكا ثم اغتصب العرش الفرعونى ولا تسجل لنا الآثار المصرية الى ما يشير لمثل هذا الانقلاب وكل ما وجد على آثار تنيس أن الملك طهراقه طلب من أمه أن تحضر الى مصر من نباتا بعد ما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسليم مركزها السامى بمصر كالأم الملكية .

وقد استمر طهراقه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة شيد فيها بضع عمارات صغيرة بتنيس ومنف وأخرى أكبر حجما فى طيبة .

٦٧٣ ق.م :

دارت المعركة على حدود مصر بين جيوش أشور التى قدمت الى مصر لغزوها وبين الجيوش المصرية بزعامة طهراقه فاستطاعت أن تهزم الجيوش الاشورية كما سجل ذلك على الآثار .

٦٧٠ ق.م :

استأنف اسرحدون ملك أشور هجومه على مصر معتمدا على بدو الصحراء الذين دلوه على الطريق الى مصر عبر الصحراء وأمدوه بجمالهم تحمل مياه الشرب خلال الطريق والتقى بجنود طهراقه مرة أخرى الذى لم يكن مستعدا لهذا الكفاح فانتهت المعركة هذه المرة بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين – وعلى أثر ذلك تقهقر

طهراقه نحو منف لكن (آسرحدون) تعقبه واستولى على منف وسلبها كل ثمين بها . ففر طهراقه جنوبا تاركا الوجه البحرى فى يد آشور حدون الذى نظمه وضمه الى أملاكه وقد ذكر آشور حدون أسماء عشرين أميرا مصريا قال عنهم أنهم أتوا اليه وحلفوا له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم شريطة أن يعطوا أموالهم له وقد جاء من بين هـذه الاسماء اسم الامير بننخـاو تفنخت وقـد وصـف بأنه أمير صا الحجر ومنف .

ويمكن أن نعتبر حكم الأشوريين للوجه البحرى ، حكما أجنبيا على خلاف الحكم السابق عليه سواء أكان حكما ليبيا أم أثيوبيا ... فالحكام الليبيون والاثيوبيون حكموا كحكام مصريين وقد كانوا يدينون بآلهة مصر ، ويتثقفون بثقافتها .

ويعتبرون أنفسهم استمرارا لحضارتها . أما الأشوريون فحكمـوا الدلتا دون مراعاة شفقة أو عطف نحو المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم وحاولوا أن يحكموا مصر من خارجها .

ولذلك فلم يكد آشـورحدون يغادر مصر ، حتى اتصـل أمراء الوجه البحرى بطهراقه الذى جاء الى الوجه البحرى مستأنفا حكمه كملك مصرى .

ولكن آشور بانيبال الذى ولى الملك بعـد وفاة أبيه أستطاع أن يرسل جيشا جديدا الى مصر هزم طهراقه مرة أخرى عند منف ، ففر من جديد الى طيبة ، حيث ظل حاكما فعليا على الوجه القبلى وخاصة بعـد أن عين أخته « شب تويت » بدل الأميرة امنديريس ، رئيسة لكهنة آمون .

ويعزى الى طهراقه انه شيد أو اصلح معبدين عظيمين بنباتا عاصمة أثيوبيا .
وأشرك طهراقه معه فى الملك بعـد خمس وعشرين سنة من حكمه ابن شـباكا « بدى تانوت آمون » فعينه حاكما على صعيد مصر بينما استقر هو فى نباتا متعبا ، ولم يلبث أن مات بعد عام واحد من اشراكه تانوت آمون معه فى الملك .

٦٦٣ ق.م :

تربع **تانوت آمون** على عرش نباتا وصعيد مصر ، وحاول أن يستعيد سلطانه على الوجه البحرى ، ونجح بالفعل فى هزيمة الحامية الاشورية واستولى على منف وقد سقط فى هذه المعركة نخاو أميرها وفر ابنه ابساماتيك الى سوريا .

٦٦١ ق.م :

جاءت جيوش أشور الى مصر واستطاعت أن تهزم من جديد تانوت آمون الذى فر الى طيبة فتعقبه الاشوريون واستولوا على عاصمة القطر هذه المرة وسلبوا ما بها

من نفائس وكان من بين ما استولوا عليه مسلتين فضـيتين زنة كل واحدة منهمـا ٢٥٠٠ تالنت (التالنت يقرب من ٧٥ رطلا) كانتا منصوبتين على مدخل احد المعابد ونقلوهما الى نينوى .

ومنذ ذلك الوقت اخذت طيبة تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثـال فى الفنى والجاه .

وكان رجوع تانوت آمون الى نباتا نهاية الحكم الأثيوبى فى مصر (١) .

---

(١) انطوى ملوك أثيوبيا بعد هذا الحادث على أنفسهم فى مدينتهم نيـاتا وبذلك انقطعت صلتهم بالتدريج مع حضارة الشمال ولم يلبثوا أن امتنعوا عن اللغة المصرية والخط المصرى واستعملوا خطا لم تحل رموزه للان ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت اركان المملكة الاثيوبية وقد انتقل هـذا الاسم فى القرن الرابع بعد الميلاد الى مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منابع النيل الازرق .

الأسرة السادسة والعشرون

٦٥٤ ق.م :

ذكرنا فى حوادث عام ٦٦٣ ق.م وفاة نخاو أمير صا الحجر فى معركة ضد طهراقا ، وفر ابنه ابساماتيك الى سوريا ، وعاد الأشوريون الى مصر كما رأينا وأعادوا تنصيب ابساماتيك أميرا تابعا لهم على منف وصا الحجر ولكنه ظل يتحين الفرصة للتحرر من الأشوريين والاستقلال بمصر وهكذا قدر له أن يكون رأسا للأسرة السادسة والعشرين ابتداء من سنة ٦٦٣ ق.م ولكن استقلاله بمصر لم يتحقق بالفعل الا عام ٦٥٤ ق.م . اذ انتهز فرصة اشتباك أشور فى حرب دامية مع شقيقتها بابل فى هذا التاريخ والسنوات اللاحقة ، فطرد الحامية الأشورية حتى مدينة أسدود فى فلسطين وظل محاصرا لها وان كان لم يستطع أن ينتزع المدينة الا بعد ٢٩ سنة فى قول هيرودوت ، وأخضع أمراء الوجه البحرى لسلطانه ودخل طيبة بغير مقاومة وعين أخته نيتقريس بدل « شب نويت » سيدة كهنة طيبة وأعلن نفسه فرعونا على مصر كلها . وبدأت البلاد على يديه تدخل فى فترة من أزهى فترات تاريخها منذ عدة قرون ، اعتبرها كثير من المؤرخين بمثابة حركة بعث لمجد مصر القديم وعلومها وحضارتها .

واذ كان لليبيين المستوطنين فى مصر قوة ونفوذ عسكرى كما رأينا فقد جعل ابساماتيك اعتماده من الناحية العسكرية على الجنود المرتزقة من الاغريق الذين كانوا قد بدأوا يتوافدون بكثرة على مصر فى هذه الأيام ، ليكونوا نواة له فى مواجهة الليبيين ، وهكذا نجح فى توطيد الأمن والنظام من جديد فى مصر واعادة السلطة المركزية الى قوتها .

وقد حافظ على ولائه للأشوريين ، فأرسل الى نجدتهم قوة عسكرية لمعاونتهم على صد هجوم البابليين والميديين عليهم .

ولكن ذلك لم يحل دون سقوط نينوى عاصمة الأشوريين أخيرا عام ٦١٢ ق.م .

وبهذا انحلت نهائيا قوة أشور العسكرية وان كان قد ظهر على الأفق هذه القوة الجديدة التى نجحت فى تحطيم قوة أشور الرهيبة ، وهى قوة الميديين والبابليين التى سينبثق منها قوة الفرس فيما بعد .

على أية حال ، لقد هيأ سقوط أشور لمصر فرصة الاستقلال بشئونها نهائيـا ، وتطورها فى حركة البعث والاصلاح التى بدأها ابسماتيك .

وقد توفى ابسماتيك عام ٦٠٩ ق.م بعد أن حكم ٥٤ سنة كما جاء مبينا فى احد ألواح العجل أبيس ، استعادت مصر خلالها مكانتها ودورها فى التاريخ كمعقل للحضارة الانسانية كما تتمثل فى مجتمع يسوده الأمن والرخاء والازدهار التجـارى ، والتفوق الفنى ، ومهيأ بذلك الطريق لابنه نخاو أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل التقـدم والعرفان .

٦٠٩ ق.م :

تولى **نخاو** ابن ابسماتيك عرش مصر بعده فشرع فى حفر القناة التى تؤدى الى بحر « اروترى » (أى الأحمر) .

وسبقه الى حفرها كثير من فراعنة مصر ، ولكن هيرودوت يقـول لنـا انه توقف عن اتمامها ، وأن دارا الفارسى هو الذى أتمها من بعده ، كما يقول لنا هيرودوت أيضا أن نخاو أرسل بعثة للطواف حول القارة الافريقية ، وقد استغرقت الرحـلة ثلاث سنوات ونجحت لأن هيرودوت يقول ان البحارة زعموا انهم رأوا الشمس تشرق من جهة يدهم اليمنى ، وقد أبى هيرودوت أن يصدق الرسالة ولكن نعلم الآن صدقها ــ وقد كان بحارة السفن من الفينيقيين .

واذ كانت السكينة تخيم على ربوع البلاد وكانت تنعم بالرخاء وكان جيشـــها المؤلف من اليونانيين قويا كما كان أسطولها كذلك ، فقد قرر « نخاو » أن يحقق آمال أبيه فى استعادة سلطان مصر على الامارات الآسيوية يشجعه على ذلك انشغال أشور فى هذه الفترة بنفسها .

فقد قام بحملة على جنوب فلسطين فى العام الأول من حكمه وأحرز انتصارا فى سهول مجدو حيث أحرزت الجيوش المصرية أمجادها فى هذا السهل لأول مرة منذ ٩٠٠ سنة سابقة . وهزم بوشيا ملك يهوذا هزيمة منكرة قتل فيها وعين ابنه الياكيم محله بعد أن غير اسمه الى « يهوياقيم » ، وفرض الجزية على أورشليم ثم انطلق نخاو بجيوشه شمالا ليقضى على أشور ولكن جيوش أشور لم تتعرض له فى زحفه الذى اقترب فيه من نهر الفرات . ورأى نخاو أن الشقة قد بعدت بينه وبين مصر ، فعاد أدراجه قبل أن يهاجم نينوى ، وهكذا استطاع نخاو بحملة واحدة أن يعيد لمصر كل هيبتها فى هذه القطاع وأن يسترد سلطانها .

ولكن ذلك لم يستمر الا لمدة يسيرة ، فقد استطاع نابوبلاصر ملك بابل أن يقضى على أشور نهائيا فاعتبر أملاكها ميراثا له ، فأرسل ابنه نبوخذ ناصر للاستيلاء على سوريا فخرج نخاو على رأس جيش كبير لمواجهته ، والتحم الجيشان عند قرقميش

فانهزم الجيش المصرى وتقهقر نخاو الى مصر يلاحقه « نبوخد ناصر » ، ولكن نبوخد ناصر اضطر للعودة الى بابل لوفاة أبيه عام ٦٠٥ ق.م .

ولكن سوريا وفلسطين أصبحتا تحت سلطان بابل واستؤنف الصراع بين القوتين مرة ثانية فأضرم نخاو نار العصيان فى سورية وفلسطين ضد نبوخد ناصر وكان على ملك أورشليم يهوياقيم الذى كان قد رفعه الى العرش .

فقاوم هذا الملك بنوخد ناصر ، ولكن هذا الأخير انتصر عليه وقاده أسيرا الى بابل وعين ملكا جديدا أسماه صدقيا ليكون تابعا له .

٦٠١ ق.م :

ولكن نبوخدناصر لم يستطع أن يخترق حدود مصر ... اذ تقول لنا الأخبار البابلية ذاتها أنه عاد الى بلاده بعد أن فقد الكثير من رجاله وذلك فى عام ٦٠١ ق.م .

وقد أتاح ذلك الفرصة لنخاو لكى يعكف من جديد على تقوية الجبهة الداخلية بالاصلاح والتطهير ، وتدعيم قوات الجيش والأسطول ، فبنى بمساعدة الكورنثيين أسطولا لحماية شواطىء مصر فى البحرين الأبيض والأحمر .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة مات نخاو تاركا الحكم لابنه ابسامتيك الثانى .

٥٩٥ ـ ٥٨٩ ق.م ـ ابسامتيك الثانى :

مضت مصر فى ظل ابسامتيك الثانى رغم شبح الحرب الذى كان يهددها ، فى أعمال البناء والانشاء ... واستأنف ابسامتيك الثانى أعمال الفراعنة العظام عندما يعمدون الى ترميم المعابد واصلاحها ليثبتوا اخلاصهم وبنوتهم للآلهة فأعاد بناء معبد نيت فى سايس وأقام فى بهوه أهرامات ومسلات ليثبت احترامه للآلهة .

ولما كانت نبتوكريس ابنه ابسامتيك الأول التى عينت زوجة الهية لآمون قد كبرت وهرمت اذ بلغت الثمانين من عمرها مما كان لذلك أثره على توقف ريح الاصلاح والرعاية لمعابد طيبة فقد طلب منها أن تتخلى عن منصبها لابنته .

وتسجل لوحة من المرمر فى متحف القاهرة وصولها الى طيبة وقد كانت آخر الزوجات الالهيات وكان مقدرا لها أن تظل شاغلة لهذه الوظيفة حتى أيام قمبيز بعد ٦٨ سنة من هذا التاريخ .

وقد سجل التاريخ فيما سجل لابسامتيك الثانى ـ رحلة ودية قام بها الى مدينة ببلوس (جبيل) فى فينيقيا ، حيث ذهب اليها مصحوبا بحاشية كبيرة وبعدد من الكهان ، ولكنه عاد منها عندما سمع بتحرك قوى عدوانية جديدة من اثيوبيا .

وأوفد جيشا استطاع أن يحمل القوات الزاحفة من الجنوب على الفرار والعودة الى نباتا .

ووصلت العلاقات بين الاغريق ومصر فى هــذه الفترة الى الذروة فقد روى لنــا هيرودوت أنهم أرسلوا الى ابسماتيك وفدا يستفتيه فى خير طريقة نزيهة يديرون بها الألعاب الأولمبية .

على أن مدة حكمه لم تطل لأكثر من ست سنوات فترك الحكم من بعــده لابنه « ابريس »

٥٨٩ — ٥٧٠ ق.م — حكم « ابريس » :

ويقول عنه هيرودوت أنه كان بعد جده الثانى ابسامتيك أسعد الملوك السابقين اذ حكم خمسا وعشرين سنة ســير أثناءها جيشا الى صيدا ، وحارب ملك صــور بحرا ، مما يدلنا على حيوية الجيش والأسطول المصرى فى هذه الفترة ، واغلب الظن أنه سير هذه الحملات البرية والبحرية ، ليلتف حول حيش نبوخذناصر الذى كان يحاصر أورشليم ، وتفاصيل ما انتهت اليه الحملة غامضة .. ولكن من المحقق أنها لم تؤد الأغراض المقصودة منها .

فقد سقطت أورشليم فى خاتمة المطاف وقتل ملكها صدفيا وضرب الهيكل بعد ان نهب وحرقت المدينة ..

وكان من أثر ذلك أن هاجر العديد من اليهود ، فأقاموا فى تانيس ومنف ، وبصفة خاصة فى مدينة الفنتين فى جنوب مصر حيث تكونت لهم جالية ضخمة .

وتعتبر هذه الفترة قمة مجد مصر فى عصرها الهــادى فلم يعــد شــبح الحرب يهددها .

ولذلك فقد عمد ابريس على أن يخلد ذكراه باشادة المبانى ، فأقام المســلات والمعابد والقصور ، مما ينطق بما وصلت اليه البلاد فى عهده من استقرار وازدهار . على أن كثرة الاعتماد على الجنود المرتزقة من الاغريق وكثرة الوافدين من الأجانب الذين بدأوا يزاحمون المصريين فى مراكزهم وأرزاقهم . قــد أحفظت المصريين عــلى ابريس .

وتصورت بعض فرق الجنود المصرية أنه قد جربهم فى معــركة فاشلة فى ليبيــا ليتخلص منهم ، فثاروا عليه .. فبعث اليهم ابريس القائد امازيس ليهدىء الأفكار ، ولكن امازيس لم يلبث أن انضم هو نفسه للثوار ونودى به ملكا والتف حوله المصريون مؤلفين جيشا وطنيا ..

فساق ابريس جيشا من اليونانيين المحترفين بلغ عدده على ما يقــول هيرودوت ثلاثين ألفا ليحاربوا المصريين .

واشـتبك الطرفان عند مدينة ممفيس ، ويقول هيرودوت انه رغم استبسال الأجانب فى القتال فانهم هزموا لأن عددهم كان يقل عن خصومهم .

وقد قبض امازيس على ابريس ، وعامله على ما يقول هيرودوت فى بادىء الأمر معاملة طيبة ، ولكن المصريين احتجوا وطلبوا تسليمه اليهم لاعدامه ففعل ذلك .

ولكن المؤرخين الحديثين يشكون فى هذا الجزء الأخير من رواية هيرودوت ويرون نهاية ابريس على غير هذا الوجه

٥٧٠ ــ ٥٢٦ ق٠م ــ امازيس على عرش مصر :

ولست أجد ما أكرم به هيرودوت باعتباره أول من ترك لنا كتابا مفصـلا نعرفه متداولا عن تاريخ مصر القديمة الا أن أنقل عنـه مباشرة فقـرات مما قاله فى تاريخ أمازيس .

هذا التاريخ الذى لم يعد يفصله عنه الا أقل من قرن واحد من الزمان .

وهكذا لما هزم أبريس وقضى عليه صار أمازيس ملكا وهـو من مقاطعة نسايس (صا الحجر) وكان أصله من مدينـة سيون (تسمى اليوم الضفة) وقد احتقره المصريون أول الأمر ولم يقـدره على الاطلاق ، لأنه كان فيما مضى من العـامة ولم يكن من أسرة ذائعـة الصيت ــ ولكن أمازيس استطاع بعـد ذلك أن يخدمهم بفضل حكمته ولينه .

وفى مدينة سايس شـيد هذا الملك رواقا رائعا لآلهتها بز به كل من شيدوا من أسلافه من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره المستعملة ونوعها . وأقام ايضا الشوامخ من التماثيل وتماثيل كباش بالغة الطول .

وأحضر حجارة أخرى للترميم هائلة الحجم جلب بعضها من مقاطع الأحجار التى فى ممفيس وبعضها الآخر ــ وهو ذو ضخامة منقطعة النظير ــ من مدينة اليفانتين وهى على مسافة أبحـار عشرين يوما من سايس على أن أكثر ما أثار فى نفسى أبلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتى : أمر باحضار محراب شيد من صخرة واحدة من اليفانتين واستغرق احضاره ثلاث سنوات وكلف عشرين ألف رجل بنقله وكلهم كانوا من الملاحين ــ وطول هذا المحراب من الخارج احدى وعشرون ذراعا وعرضه اربعة عشر ذراعا وارتفاعه ثمانية اذرع .

واقام أمازيس كذلك فى سائر المعابد العظيمة أعمالا تستحق المشاهدة لضخامتها وبخاصة التمثال الشامخ الملقى على ظهره فى ممفيس وطول هـذا التمثـال خمسـة وسبعون قدما .

ويقال ان مصر كانت تحت حكم امازيس على درجة عظيمة جدا من الازدهار . وذلك نتيجة لما جاء به النيل على الأركى من طمى ، وما جادت به الأرض على الناس

من خير . وكان بمصر على الجملة فى ذلك العهد الف مدينة آهلة بالسكان كما كان امازيسر هو واضع القانون الذى يفرض على كل مصرى أن يبين سنويا موارد عيشه لحاكم الولاية ومن لا يفعل ذلك ، ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة كان عقابه الموت. ولقد نقل صولون الأثينى هذا القانون عن المصريين ووضعه للاثينيين وهؤلاء يطبقونه للآن اذ لم يوجه اليه أى طعن .

وكان امازيس محبا لليونانيين وعبر لهم عن عاطفته تلك بأن وهب للذين جاءوا الى مصر مدينة نوقراطيس ليسكنوها ، أما الذين لم يرغبوا فى استيطانها وكانوا يفدون للسياحة وحسب فقد أعطاهم أراضى ليقيموا عليها هياكل ومعابد لآلهتهم .

وقد أرسل أمازيس الهدايا أيضا الى بلاد اليونان ثم راح هيرودوت يعدد الهدايا وختم الكتاب الثانى عن تاريخ مصر بقوله فى الحديث عن « امازيس » .

وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها دفع الجزية وقد ظل امازيس على عرش مصر ٤٤ سنة وطول هـذه المدة كاف فى الدلالة على أن عصره كان عصر نهضة وتقدم وسلام بل أن البعض يشبه عصر امازيس بأنه مثيل لعصر امنحتب الثالث (امونوفيس الذى عاشه المصريون قبل عصر امازيس بثمانية قرون) .

ولكن قوى جديدة كانت قد ظهرت فى ذلك الوقت فى الشرق وكان مقـدرا لها ان ترث ملك كل من سبقها فى الشرق الأوسط ابتداء من المصريين وانتهاء بالاشوريين والبابليين والحيثيين والكلدانيين والعبرانيين ، وتلك هى قوة فارس تحت زعامة ملكها قورش ومن بعده قمبيز .

٥٢٦ – ٥٢٥ ق.م :

ابسامتيك الثالث والذى كان مقدرا له أن يكون دخول جيش لقمبيز الى مصر فى أيامه .

لقد استطاع كورش بعـد أن استولى على مدينـة بابل عام ٥٣٩ ق.م . أن يكون سيد آسيا الغربية غير منازع ثم عاش بعد ذلك عشر سنوات ليموت فى سـنة ٥٢٩ ق.م . فى ظروف غامضة على ما يروى لنـا هيرودوت فتـولى حكم فارس من بعده ابنه « قمبيز » الذى وجه نشاطه لفتح مصر .. ولم يقف امازيس مكتوف اليدين ضد الخطر الفارسى ، فقد احتل قبرص كما رأينا ودخل فى محالفة عسكرية مع ملك ليديا وطاغية سامدس ، ولكن قمبيز لم يلبث أن سحق ملك ليديا ، وانحاز اليه طاغية سامدس ، فلم يبق أمامه الا مصر ... فساق جيوشه التى كانت تتألف فى جزئها الأكبر من الاغريق المرتزقة ، وسرعان ما خان فانيس الاغريق ابساماتيك الثالث، فانحاز الى جانب قمبيز ودله على الطريق الى مصر وهو الذى طالما اجتازته الجيوش المصرية نحو جنوب فلسطين وسوريا .

وزحفت الجيوش الفارسية نحو تخوم مصر الشرقية ، حيث دارت معركة حربية فى بلدة بلوزيوم (الفرما) وتراجع الجيش الى مدينة منف فضرب الحصار عليها وفى أثناء الحصار أرسل أهل برقة وفدا الى قمبيز يعلن خضوعهم له ففت ذلك فى عضد المدافعين عن المدينة ، فلم تلبث المدينة أن سلمت واستولى عليها قمبيز وسقط فى يده ابسامتيك الثالث ، ويقال ان قمبيز عامله فى بادىء الأمر معاملة طيبة ، ولكنه اتهم بعد ذلك بتأليب المصريين على الحكم الفارسى ، فقتله قمبيز .

وسار قمبيز بعد ذلك فى النيل على متن السفن فوصل الى طيبة واحتلها ، ومن هناك عبر الصحراء حتى وصل الى الواحة الخارجية ولكنه لم يستطع الاستيلاء على واحة آمون بل وهلك معظم جيشه فى الصحراء ويعزو هيرودوت الى قمبيز أنه كان جبارا قاسيا ملحدا وأنه أصيب بالجنون ، فقام بقتل العجل أبيس ولكن بعض علماء الآثار الذين كشفوا عن توابيت العجل ابيس ، يدحضون هذه الرواية .. اذ يرون موميات بعض هذه العجول ، وقد حنطت وكرمت بأمر قمبيز نفسه (زايد ص ٩٣٨) ولدينا تمثال لأحد كبار موظفى ذلك العصر وهو (ودجا حورس نبت) فيقول لنا صاحبه أنه قد اتبع قمبيز بديانة مصر وجعله يبنى معبد سايس ومكث فى مصر ثلاث سنوات . ولكن رواية هيرودوت التى تلقاها من الكهنة المصريين هى الاقرب الى الصحة لقرب العهد من الحادث .

٥٢٥ ق٠م :

وهكذا قامت فى مصر أسرة حاكمة فارسية هى **الأسرة السابعة والعشرون** ، ولأول مرة فى التاريخ تحكم مصر من خارج حدودها .

٥٢٢ ق٠م :

غادر قمبيز مصر عائدا نحو فارس بعد أن خلف عليها واليا من قبله هو « ارياندس » فأقام بلاطه فى مدينة منف ، ولكن قمبيز مات فى أثناء عودته .

٥١٨ ق٠م :

وصل « دار الأول » الى مصر وكان قد استطاع ان يستولى على الحكم فى فارس، واذ كانت نقمة الشعب المصرى كبيرة جدا على الحكم الأجنبى ، وما لاقوه على يد قمبيز وواليه على مصر ارياندس ، فقد عمل دارا على استرضاء الشعب المصرى فقتل هذا الوالى لمآخذ آخذه عليها .

ولما صادف حضوره وفاة العجل أبيس ، فقد أصدر دارا أمره بمنح جائزة كبيرة لكل من يكتشف عجل أبيس جديد ، وبذلك استمال الناس اليه .

على أن من أعظم الأعمال التى تدل على حكمته وبراعته السياسية والادارية انه جعل اهتمامه بالعدل وسيادة القانون فقد أصدر فى بلاده تشريعا على غرار تشريع حمورابى فتراه يقول فى ديباجة التشريع :

« تحت رعاية اهدر فردا (اله النور الفارسى) اننى أحب الحق واكره ما ليس بحق . فلن يحدث أن يسىء عبد لأى مواطن . وكذلك لن يسىء مواطن لعبد . اننى أحب الحق وأكره كل من يقر الكذب . اننى لا أغضب وأكظم غضبى واننى لا أثق فى كل من يتحدث ضد العدالة » .

وأراد أن تنعم مصر بدورها فى ظل حكم القانون والعدالة فكتب لواليه على مصر يقول له :

« دعهم يحضروا الى حكماء الرجال من بين المحاربين والكهنة وكتاب مصر الذين اجتمعوا فى دور العبادة ودعهم يكتبوا الشرائع الأولى لمصر حتى العام الرابع والأربعين لحكم الفرعون أمازيس ، دعهم يحضروا لى هنا شريعة فرعون وشرائع المعبد والناس» .
وأمر دارا باعادة بناء معبد للآلهة آمون فى الواحة الخارجة حيث ترى رسوم دارا على جدران هذا المعبد بملابس فرعون وهو يقدم القرابين للآلهة المصرية .

واهتم داريوس باعادة فتح القناة التى توصل البحر الأحمر بالنيل والتى شقها من قبله نيخاو الثانى قبل أن يتوقف فى الطريق وتقول لنا النصوص المسمارية التى عثر عليها على لسان دارا .

« اننى (دارا) الفارسى استوليت على مصر من بارسيا (فارس) وقد أمرت بأن تحفر هذه القناة من نهر النيل الذى يجرى فى مصر الى البحر الذى يصل فارس . وقد حفرت تلك القناة كما أمرت . ومرت السفن من مصر عبر هذه القناة الى فارس بمقتضى رغبتى » .

وقد حدثتنا اللوحة عن كيفية شق القناة وكيفية تنفيذها ولم يقف اهتمام دارا على شئون مصر الاقتصادية والعمرانية والدينية بل امتد الى شئونها العلمية فلدينا وثيقة تدل على اهتمامه بعلم الطب ورعاية مدرسة الطب فيباهى المشرف على هذا المعبد « لقد جعلتهم مشرفين عن كل رجل متعلم ، حتى يتعلموا كل المهن وأمر جلالته ان يعطى لهم كل شىء حسن ويتـــدربوا على كل مهنهم . وقد قدمت لهم كل شىء مفيدا وكل الأدوات التى أشير اليها فى الكتابات ، كما كان العمل يجرى من قبل ، وقد فعل جلالته ذلك لأنه يعرف فضل هذا العلم لانقاذ الرجل المريض . وكذلك ليعمل على خلود اسم كل الآلهة ، ومعابدهم وقرابينهم والاحتفال بأعيادهم الى الأبد » واذ استقر الأمن والنظام بمصر ، فسرعان ما عادت الى الازدهار فى كل ميادين حياتها .

فلا عجب وهذه خطة دارا وأسلوب حكمه فى مصر ، ان يتوجه الكهنة فرعونا على مصر .

٤٩٠ ق.م :

أنزل الاغريق هزيمة فادحة بجيوش دارا فى موقعة ماراتون جعلته ينشغل بتجهيز حملة انتقامية لمدة ثلاث سنوات .

واذ كان المصريون لم يألفوا ارسال الجزية الى حاكم أجنبى خارج بلادهم ، فقد بدأوا سلسلة من الثورات المحدودة على الحكم الفارسى .

٤٨٦ ق.م :

وفاة دارا بعد أن قد بلغ من العمر ٦٤ سنة حكم منها ٣٦ عاما ، وتولى بعده ابنه اكسركسيس وانتهز المصريون هذه الفرصة ، فاندلع بركان الثورة ، وامتد لهيبها الى يهود بيت المقدس .

٤٨٤ ق.م :

ولكن جيوش اكسركسيس استطاعت أن تخمد ثورة اليهود وأن تعيد مصر الى حظيرة الحكم الفارسى بعد أشهر من ثورتها وعمد الفرس فى هذه المرحلة الى ضروب من العنف وعومل الوطنيون بقسوة .

وبدأوا يعتمدون على اليهود الذين أصبحت لهم جالية كبيرة فى مصر وخاصة فى بلدة الفينتين حيث عثرنا على مجموعة من وثائق أوراق البردى التى تسجل منازعاتهم العقارية والمالية ، وهى مكتوبة باللغة الارامية وقد أنشأوا لأنفسهم منظمات عسكرية كان يرأسها ضباط من الفرس .

٤٦٥ ق.م :

اغتيال اكسركسيس — وتولى الملك من بعده ابنه الثانى ارتاكسركيس وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة بعد أن قضى على أخيه الأكبر .

٤٦٠ ق.م :

قام اماروس ابن ابسماتيك من سلالة أسرة سايس بثورة ضد الحكم الفارسى واستنجد بأثينا التى بعثت اليه بعض السفن : فاستطاع الثوار أن يقضوا على الوالى الفارسى أخمنيس ، وأن يستولوا على ممفيس عاصمة الملك .

ولكن فارس أرسلت واليا جديدا ومعه قوات كبيرة ومراكب فينيقية فحارب الثوار واستطاع أن يقبض على اماروس وان يرسله الى سوسه عاصمة ملك فارس فأعدم هو ومعاونوه وقد صور ارتاكسركسيس على خاتم اسطوانى يذبح الثوار ويظهر مرتديا التاج المصرى المزدوج بينما ينتظر قادة اليونان مصيرهم ، ومع ذلك فقد سلم أمير مصرى هو أميرتى وظل يحتفظ باستقلال الدلتا حتى عام ٤٤٩ ق.م. وقد ذكر اسمه على معابد طيبة والخارجة ، مما يرجح انه أصبح سيدا على الجانب الأكبر من مصر ان لم يكن كلها .

وفى هذه الفترة زار مصر عدد من أعلام اليونانيين وعلى رأسهم اناكسا جوراس الطبيب ومعلم بركليس ثم هيرودوت الذى تجول فى مصر وقيد ما رأى وما سمع والذى اتفق على تسميته أبو التاريخ .

٤٢٤ ق.م :

ارتقى دارا الثانى عرش الفرس وقامت ثورة فى مصر ضد الاسرائيليين المقيمين فى الفنتين بلغت ذروتها عام ٤١٠ ق.م. حيث قام المصريون بهدم معبد اليهود فى الفنتين هدما تاما وكسروا حجارته وحرقوا أبوابه وسقفه وأخذوا أثاثه الذهبى والفضى غنيمة لهم وذلك انتقاما من اليهود الذين كانوا يحالفون الفرس .

الأسرة الثامنة والعشرون

٤٠٤ ق.م :

نهاية الأسرة السابعة والعشرين الفارسية بوفاة دارا الثانى ، واستقلال الأمير الوطنى بمصر عن الحكم الفارسى مؤسسا بذلك الأسرة الثامنة والعشرين . على أن مانيتون لا يزيد حكم **امرتى** على أكثر من ست سنوات تنتهى عام ٣٩٩ ق.م. وكالعادة لا يتعدى هذا التقدير الصواب ، فقد وجدنا فى وثائق الفنتين الارامية واحدة مؤرخة بالسنة الخامسة من حكمه .

الأسرة التاسعة والعشرون

٣٩٩ ق٠م :

قامت على يد مؤسسها القائد المصرى **نفريتس** الذى لا يعرف مدى علاقته بالملك السابق والذى لا يعرف كيف انتهى حكمه كذلك .

على ان السياسة العامة لكليهما واضحة محققة وهى مدافعة الفرس عن استقلال مصر ، والتحالف مع الاغريق أعداء الفرس لصيانة هذا الاستقلال .

ولكن المنازعات بين عائلات الأمراء وحكام الأقاليم حالت دون أن تصل حركة التحرير الى ذروتها فيستقر ملوك مصر الوطنيين الجدد .

وكيفما كان الأمر فالتاريخ يسجل لنا ان نفرتيس قد أرسل عونا ومددا لاسبرطة فى حربها ضد الفرس فبعث اليها بمائة سفينة عليها ٨٠٠ر٠٠٠ مكيال من القمح والذخيرة ، ولكن هذه المعونة لم تصل الى غايتها ، اذ اعترضها كوندى (اليونانى) قائد الاسطول الفارسى عند رودس .

وفى خلال الحرب التى وقعت بعد ذلك بين فارس واسبرطة تقدمت الجيوش المصرية الى الحدود السورية واحتلت مراكز دفاعية ولكن ملك اسبرطة اضطر أن ينسحب بجنوده لحلول فصل الشتاء فانسحبت القوات المصرية كذلك .

وعكف نفرتيس على العناية بمصالح مصر : حيث سكتت الآثار عن الاشارة اليه بعد ذلك .

٣٩٢ ق٠م :

تولى اخوريس (هكر) وقد قال عنه مانيتون انه حكم اثنى عشر عاما . وقد وجد ان لا فائدة من التحالف مع اسبرطة فعقد حلفا جديدا مع اثينا يحدثنا عنه ارسطوفانيس فى روايته (بلوتس) كما تحالف مع ملك قبرص .

وقد استطاع ان يصد هجوما شنه الفرس على مصر .

وامتد سلطان أخوريس التجارى وربما السياسى أيضا على فلسطين وجنوبى فنيقية ، فقد وجدت له نصوص فى معبد اشمون شمالى صيدا ومائدة من الجرانيت .

٣٨٠ ق٠م :

ولى بسماتيس بعد خوريس ولم يحكم سوى عام واحد وقد عثر على بردية تورد قائمة تجعل بسماتيس قبل أخوريس مما جعل بعض المؤرخين الحديثين يضعونه قبل أخوريس .

مع أن اسم أخوريس قد ورد فى آثار الكرنك فوق بسماتيس على أن السنوات الأخيرة من حكم أخوريس شابتها الثورة وبالتالى الغموض .

ونحن نعرف أن نفرتيس الثانى الذى ورد اسمه فى قائمة البردى لم يحكم سوى أربعة شهور ، ثم خلفه نخت نب نف (نقطانب الأول) الذى ألف الأسرة الثلاثين السمنودية على ما يقول مانيتون .

الأســرة الثلاثـون

٣٧٨ ـ ٣٦٠ حكم نقطانب الأول :

وكان عليه بمجرد أن ولى الحكم أن يواجه غزوة جديدة شنها الفرس على مصر فقد عزم ارتاخشات (ارتكساركيسيس) أن ينتقم من مصر ، فانتهز فرصة سحب اثينا لمرتزقة الاغريق الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة هكر ورئيسهم خابرياس فاعدت فارس جيشا جبارا قوامه ٢٠٠,٠٠٠ الف و ٢٠ الف من مرتزقة الاغريق ، وبعد جهود طويلة تمكن الجيش من التوغل فى الدلتا . ولكن نقطانب جمع قواه للدفاع عن مصر ، وساعده ارتفاع النهر على مطاردة العدو وطرده .

وهكذا احرز نقطانب نصرا مجيدا ... منح مصر ثلاثين عاما من السلم والازدهار ، فتقدمت فيها التجارة الخارجية وبدات المعابد من فيلة الى سمنود وهى التى تمثل الترمومتر الحســاس لما تنعم به البــلد من رخاء ، وتحصل على نصيب وافـر من الخـيرات .

بل ان أول عمل قام به نقطانب كان ان اوقف على معبــد (نيت) الضرائب التى فرضها على نقراطيس وقدرها ١٠ ٪ من قيمــة كل ما يرد اليها من تجارة او تنتجه من مصنوعات .

ويرى نشاط نقطانب ووزيره حورسا ايزيس كاهن بهبيت على كثير من المعــابد المصرية . واستأنفت البعثات ــ لقطع الأحجار ــ ارتيادها لمراكز الانتاج .

واقام فى السنة السادسة عشرة ســورا بناحية قفط وبوابة كبيرة . وشيد من اجل الاله (من) صاحب قفط مقصورة ووسع وأضاف وبنى كثيرا من المعابد الصغيرة التى مازالت تؤكد صدق الفنان المصرى .

وبدا السياح اليونانيون فى عهده يترددون على مصر ، ولعل اعظمهم هو افلاطون وكريسبوس الطبيب ويودوكسوس الفلكى الذى مكث عدة شــهور يدرس على أيدى كهنة المعابد المصرية .

ويروى أن افلاطون قدم الى الملك عن طريق خطاب من اجيلادس الاسبرطى وانه احضر معه حمولة زيت ــ بدل المال ــ لتغطيــة نفقات الطريق ــ وأن يوريبدس كان يصحبه وانه مرض وان الكهنة كانوا يعالجونه بماء البحر (١) .

(١) مصر والشرق الادنى القـديم : الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم .

وقرب نهاية حكمه (حوالى عام ٣٦٦ ق.م) نرى جدجر (تيدس) يشترك معه فى العرش وكان من الذين يميلون الى اليونان وكان يقربهم اليه .

وقد حالف ملك اسبرطة كما حالف ملك أثينا ويذكر بلوتارك ان هذا الحلف تم فى عام ٣٦١ ق.م .

ومات نقطائب عام ٣٦٣ ق.م . ودفن فى ممفيس فى تابوت من حجر البرشـيا الأخضر وهو من أجمل الصناعات فى هذه الأسرة .

٣٦١ ـ ٣٥٩ ق.م :

تولى **جدحر (تيدس)** حكم مصر والأمن والسلام يرفرفان عليها ، ولكنـه كان طموحا فعقد حلفا مع بعض الاسيويين ضد فارس فحشد جيشا لم يسبق تكوينـه منذ أيام الدولة الحديثة ، يتألف من ثمانين ألف جنـدى مصرى وليبى وعشرة آلاف أثينى والف اسبرطى وأسطول مؤلف من ثلثمائة ألف سـفينة ذوات الثلاثة صفوف من المجاديف وترأس الملك هذا الجيش ، وسار به نحو سوريا لمواجهة الفرس ... واسـتطاع أن يحرز بعض الانتصارات ، ولاح على الأفق أن مصر توشـك أن تسترد سلطانها على امبراطوريتها العتيدة فى الشرق ، ولكن نائب الملك فى مصر ، الذى لم يكن الا اخا شقيقا لجدحر ، استغل سخط المصريين فى هذه الفترة لما فرضه عليهم جدحر من ضرائب لاعداد هذا الجيش ، فأرسل يستقدم ابنه (نخت حرحب) نقطائب الذى كان يعمل قائدا فى جيش جدحر ليكون ملـكا على مصر ، فعاد ومعـه قسم كبير من الجيش وفى نفس الوقت استدعت أثينا خبرياس ليعين بها قائدا فوجد جدحر نفسه وحيدا فى خاتمة المطاف ... فلجأ الى عدوه ملك فارس الذى أرسله ملكا موال له على مصر ، ولكنه مات فى الطريق .

٣٥٩ ـ ٣٤١ ق.م ـ نخت حرحب ـ نقطائب الثانى :

كان من الطبيعى وهذه هى الظروف التى عاد فيها نقطائب الثانى الى مصر ليولى الحكم فيها ، أن يواجه بثورات وفتن من جراء هذا الصنيع الذى وقع منه ومن أبيه فى خذلان ملك مصر فقد قام سندس ، أحد أمراء سمنود باعتباره وريث ملوك الأسرة التاسعة والعشرين بمحاولة لانتزاع السلطة لنفسه وسجل لنا التاريخ أن نقطائب قد حوصر حصارا شديدا فى احدى المدن ولم ينج الا بمهارة اجسيلاسى الاغريقى الذى تبعه بقواته الى مصر فاستطاع نقطائب أن يخمد الثورة ولكنه لم يكد يفرغ من الثورة الداخلية ، حتى واجهته محاولة (ارتاخساشا الثالث) (أوخوس) لغزو مصر ، ولكن نقطائب استطاع أن يهزم جيوش أوخوس ويردها على أعقابهـا وكان من نتيجة ذلك ان ثارت فينيقيا على حكم ملك فارس ، فشغل بها (أوخوس) عن مصر ... وهكذا

استطاع نقطائب أن يتفرغ بعد ذلك لتنظيم الحياة فى مصر ... فحظيت البلاد خلال ثلاثة عشر عاما ابان الفترة من ٣٥٧ — ٣٤٤ ق.م بفترة جديدة من ازدهار سجلتها آثار المعابد التى بدأت المنح تنهال عليها .

ولكن ملك فارس (ارتاخشاتا الثالث) الملقب ب (أوخوس) لم يكف عن العمل والتدبير للقضاء على قوة مصر واحتلالها ادراكا منه ، ان لا سلام لامبراطوريته أو طمأنينة الا باحتلال مصر ، ولذلك فقد جهـز جيشا من أكثر من ٣٠٠ الف مقاتل يعاضدهم فى البحر أسطول مؤلف من ٣٠٠ سفينة من ذوات الثلاثة صفوف حيث لم يكن جيش نقطائب يتجاوز ١٠٠٫٠٠٠ رجل منهم ٦٠٫٠٠٠ مصرى و ٢٠٫٠٠٠ اغريقى و ٢٠٫٠٠٠ ليبى وهوجمت مصر بحرا وبرا ..

ولم يستطع نقطائب المقاومة طويلا .. ففر الى الوجه القبلى وليس الى اثيوبيا كما يروى ديودورس حيث استطاع أن يظل ملكا مدة عامين آخرين ، حيث نجد آثارا له فى ادفو فى السنة الثامنة عشرة من حكمه .

ولكن الفرس استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا الى الوجه القبلى وأن يستكملوا احتلال مصر . وأن تشهد مصر مأساة انتقام الفرس منها .

فيروى لنا ديودور الصـقلى فى تاريخه عن هـذه الحقبـة « بعـد ما استولى أرتاكسر كسيس على مصر ودمر حوائط أهم المدن ونهب المقاصير : وجمع كميات كبيرة من الذهب ، وحمل السجلات المكتوبة فى المعـابد القديمـة وقد أعادها فيما بعد الى الكهنة المصريين نظير دفع غرامة كبيرة . وبعد ذلك كافأ كبار اليونانيين الذين رافقوه فى الحملة كل على حسب رغبته فسرحهم الى بلادهم الأصلية . واقام واليا على مصر شرابا وعاد ومعه جيشه الى بابل وفى ركابه أغراض كبيرة وغنائم واكتسب شهرة فى عصره لنجاحه .

ولكن مصر شأنها دائما لم تستكن للحكم الظالم الطاغى فقـد وجدنا فى منطقـة حفائر تونا الجبل قبرا يسجل لنا ما كان يجرى فى مصر فى هذه الفترة : لقد قضيت سبع سنوات مشرفا على أعمال الاله تحوت . ولو أن ملكا من بلاد أجنبية كان يتمتع بالسلطة فى مصر .. وكانت هناك معارك فى مصر الوسطى وكان الجنوب مضطربا ، والشمال فى ثورة وينتقل الناس من مكان الى مكان فى ذعر ..

لكنى فعلت كل خير فى معبده (أى تحوت) حينما حكم الأجانب مصر ولم تتم أعمال فى المعبد منذ اتى الاجانب وغزوا مصر .

٣٣٨ ق.م :

دس الخصى باخوس السم لأوخس ملك فارس فمات وعين مكانه ولده الصغير ارسس .

الذى ظل على العرش سنوات ثلاث ولكن باخوس سرعان ما الحقه بأبيه اذ دس له السم فقتله .

٣٣٨ ق.م :

قهر فايب ملك مقدونيا جيوش الاغريق المتحالفة فى موقعة خايروديننا وألف الحلف الهيلينى من الدويلات الاغريقية وجعل مركزه مدينة كورنثينه .

٣٣٦ ق.م :

مات فليب ملك مقدونيا وخلفه على العرش ابنه الاسكندر الشاب وهو فى العشرين من عمره وبعد أن تقدمت الاغريق بولائها له شاعت اشاعة موته فثارت ولكنه استطاع أن يخضعها من جديد وأثبت عبقريته العسكرية والقيادية وبعد ان أخضع المدن الاغريقية الثائرة عبر الهلسبونت عام ٣٣٤ ق.م ليحارب الفرس الذين كان عليهم أن يحشدوا مليون مقاتل حيث لم تكن جيوشه تزيد على ثلاثين الفا من المشاة وخمسة آلاف من العربات .

٣٣٤ ق.م :

ولى الملك دارا الثالث . الذى أذاق باخوس الكاس الذى سقاها للملكين السابقين من قبله فدس له السم وقتله بعد أن تحكم فى مصير مصر والشرق أمدا طويلا وكان مقدرا لدارا الثالث هذا الذى لم يحكم سوى عام واحد أن يكو ن خاتمة الامبراطورية الفارسية على يديه فقد حاول أن يجهز جيشا ضخما لاحتلال اليونان . ولكن الهزائم انهالت عليه تحت ضربات الاسكندر المقدونى الذى أطل على العالم فى هذه المرحلة وكانت الهزيمة الكبرى فى موقعة سوس عام ٣٣٣ ..

ولم يلبث بعدها دارا الثالث أن ذبح على يد انتهازى من أتباعه .

واذ يقف مانيتون فى تاريخه عند الأسرة الثلاثين ، فان بعض المؤرخين القدامى قد حاولوا أن يجعلوا من حكم الفرس فى هذه المرحلة الأخيرة ٣٤١ ــ ٣٣٣ ق.م والتى لم تتجاوز ثمان سنوات : أسرة تضم الأسرات السابقة وجعلوا ترتيبها الحادية والثلاثين .

ولكن حكم الفرس لمصر خلال هذه الفترة على قصرها ، لم يكن مستقرا ، ولم يعترف به المصريون ، وكان عبارة عن ثورة متصلة . بل لقد وصلت الى أيدينا وثيقة تدل على أن شخصية مصرية فى هذه الفترة قد انتحلت لنفسها عرش مصر ، وذلك

هو خاباش وقد ظهر فى الجنوب فى ٥ نوفمبر سنة ٣٣٧ ق.م وارخ فى السنة الأولى من حكمه (١٤ يناير عام ٣٣٦) ق.م عقد زواج أحد صفار كهنة آمون فى غرب طيبة .

وقد قام خاباش بزيارة الدلتا ليدفع عنها غارة الاسيويين ويسود الغموض حياة هذه الشخصية والدور الذى قامت به فى البلاد .

ولكنها دليل جديد يضاف الى الأدلة التى لا تجعل من حكم الفرس فى مصر فى هذه الفترة القصيرة يرقى الى مستوى أن يكون من أسرة حاكمة .. ومن المحقق أن يصير الحكم الفارسى وكان فى طريقه الى الزوال المؤكد باعتباره حكما أجنبيا .

مراجع القسم الخاص
مصر الفرعونية

موسوعة تاريخ العالم ـ وليم لانجر — الدكتور محمد مصطفى زيادة

هيرودوت يتحدث عن مصر — الدكتور محمد صقر خفاجه ـ قدم لها وشرحها د . أحمد بدوى

قصة الحضارة — ول دورانت

مصر — الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم

مصر — اتيين دربوتون ـ جال فانديه ـ تعريب عباس بيومى

مصر الخالدة — الدكتور عبد الحميد زايد

مصر القديمة — هنرى بريستيد ـ ترجمة حسن كمال

مصر القديمة — تأليف سليم حسن

موكب الشمس — الدكتور أحمد بدوى

الحضارة القديمة — احمد كمال

حضارة مصر القديمة وأثرها — عبد العزيز صالح

تاريخ الشرق العربى القديم — محمد عبد القادر محمد

آثار العالم القديم — الدكتور أحمد فخرى

الفصل السادس

مصر في عهد اسكندر وخلفائه البطالسة

حكم الاسكندر فى مصر

٣٣٢ ق.م :

وصل الاسكندر على حدود مصر تتوجه هالة من انتصاراته الرائعة على جيوش فارسية تفوق جيوشه عددا وعدة وسحقه لدارا الثالث فى موقعة اسوس والتى كانت جيوش الفرس تبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ مقاتل .

واستيلائه على كل من سوريا وفنيقيا ، وخاصة صور وصيدا وبذلك وقعت قواعد الأسطول الفارسى فى شرق البحر الأبيض فى يده .

استولى على مدينة بلوزيون (الفرما) واذ كان المصريون يرون فيه حليفا لهم فى ثورتهم وقتالهم ضد الفرس فقد استقبلوه استقبال الصديق ، مما جعل الوالى الفارسى يستسلم بدون مقاومة .

٣٣١ ق . م:

وصل الاسكندر الى مدينة منف ، حيث أظهر احترامه وولاءه للديانة المصرية ، فقدم القرابين فى معبد الاله بتاح والعجل المقدس أبيس . ورسم نفسه فرعونا فى معبد بتاح طبقا للطقوس الدينية المصرية .

سار الاسكندر بعد ذلك فى فرع النيل الجنوبى حتى وصل الى شاطىء البحر حيث أنشأ مدينة الاسكندرية عند القرية المصرية القديمة راكوتيس وهى التى كان مقدرا لها أن تصبح خلال القرون الثلاثة التالية هى عروس البحر الأبيض وأعظم حواضره الثقافية على الاطلاق .

وأبى الاسكندر الا أن يدمج نفسه فى الديانة المصرية واذا كان آمون فى سيوه يعتبر الها عالميا يحج اليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الاغريق ليسألونه بصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الصحراء من الاسكندرية حيث وصل الى معبد آمون فى واحة سيوة فى رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله فى خاتمة المطاف احدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له ... وفى معبد آمون نودى بالاسكندر ابنا لآمون . مؤكدا بذلك قصة امه أوليمباس من أنه ابن زيوس اله اليونان .

وقد حرص الاسكندر ما عاش بعــد ذلك على أن يحمل ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التى سكها بقرنى الكبش المقدس آمون ، ولعل ذلك كان هو مصدر تسميته « بذى القرنين » ــ كما لم يلبث أن طالب اليونانيين بتأليهه باعتباره ابن زيوس .

وعاد الاسكندر الى منف وعكف على تنظيم ادارة البلاد قبل أن يبارحها لمتابعة الحرب ضد دارا الثالث فجعلها شبه مستقلة استقلالا داخليا .

وعين حاكمين لمصر أحدهما مصرى والثانى اغريقى كما عين ثالثا للصحراء الغربية ورابعا للصحراء الشرقية وعهد الى الأخير الذى كان يدعى كليومنيس باتمام انشاء مدينة الاسكندرية وعهد اليه بمهمة وزير المالية وجبى الضرائب وسنرى كيف سيثرى ثراء فاحشا .

وبارح الاسكندر مصر فى ربيع ٣٣١ ق.م قاصدا بابل ليواجه الجيش الفارسى مرة أخرى ويحرز عليه انتصارا حاسما ومات دارا عام ٣٣٠ ق.م وهكذا استولى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية كلها ، وأصبح ســيد أواسط آسيا حتى الهند التى اجتاحها حتى نهر السند بعد أن اخترق جبال الهيملايا وأعلن أنه سيواصل زحفه حتى نهر الكنج لولا أن رفض جنوده التقدم .

٣٢٣ ق.م :

مات الاسكندر فى بابل على أثر انخراطه فى شرب الخمر بصورة غير طبيعية ليبدد همومه وأحزانه ويخفف هموم الملك وهو فى شرخ الشباب حيث لم يتجاوز سنه الثالثة والثلاثين ، وقد ملأ عليه حياته أن يجعل من العالم كله أمة واحدة وأن يخرج الحضارات والثقافات والنظم : وقد ضرب بنفسه القدوة لقواده وجنوده ومواطنيه فتزوج ستاتيزا ابنة دارا وأقام فرحا لم يشهد له التاريخ مثيلا حيث تزوج ثمانون من قواده وعشرة آلاف من جنوده بزوجات فارسيات بعد أن دفع لكل جندى مهره وسدد عنه ديونه تشجيعا للاقدام على هذه الخطوة ، ولبس الاسكندر الملابس الفارســية واستعمل الأساليب الفارسية الادارية التى وجدها أرقى من الأساليب الاغريقية . واذا كانت حياة الاسكندر القصــيرة لم تمكنه من تحقيق حلمه ، ولكنــه يعتبر بحق مؤسس الحضارة الهلينية التى سادت دول شرق البحر الأبيض المتوسط والتى تجلت فى الحضارة السلوفية وحضارة برجيوم حيث فرضت الفلسفة الاغريقية بالتجــارب والروحانيات الشرقية واختلط الاغريق بالفرس بشعوب منطقة شرق البحر الأبيض.

وحيث سادت لغة عالمية مشتركة وارتفع مركز المرأة الى ذروة لم تصلها من قبل ، وانتشر التعليم العــام وازدهر الاقتصاد لتوسيع التبادل التجارى ، ولقد بلغ عدد المدن التى انشأها الاسكندر فى زحفه الحضارى القاهر نحو الشرق خمسا وعشرين مدينة ، ولكن واحدة منها . . واحدة فقط هى التى كان مقدرا لها أن تخلد اسمه وان تخلد حضارته الفلسفية وهى مدينة الاسكندرية .

حكم البطالسة

٣٢٢ ق.م :

قرر قواد الاسكندر فى مؤتمر بابل بعد موته الفجائى تولية أخيه غير الشقيق (فليب ارهيداليوس) ملكا على أن يشاركه الملك ابن الاسكندر من زوجته الفارسية روكسانا والذى كان لا يزال جنينا فى بطنها فى الشهر السادس تحت وصاية قائد الجيش بريديكاس . وبهذا الوضع أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ولو أنها لم تكن سوى وحدة فى المظهر وذلك أن قواده قسموا ولايات الامبراطورية وعين لكل ولاية من ولايات الامبراطورية واليا يحكمها باسم ملكى مقدونيا تحت أشراف بريديكاس .

واختار بطليموس بن لاجوس – أحد كبار قواد الاسكندر – مصر ، وقد نسجت القصص الخرافية حول أصل بطليموس بعد أن أسس دولة البطالسة فى مصر ، ولكن المعروف أنه سليل لاجوس وارسنيوى – من احدى الأسر الاغريقية النبيلة ، وانه تربى فى قصر فليب الثانى (والد الاسكندر) ونشأت بينه وبين الاسكندر صداقة كبيرة ، وكان كغيره من قواد الاغريق الذى يعتزون أشد الاعتزاز بأصولهم ولا يرضون بغير معاملة الند للند ، ولذلك فلا عجب أن استمرت المنازعات بين هؤلاء القواد وبعضهم خلال السنوات القادمة . وقد اختار بطليموس لاجوس – أحد كبار قواد الاسكندر – مصر ، وهى التى كان يرنو اليها منذ دخلها مع الاسكندر وأحاط بما هى عليه من غنى وحضارة يجعلها قاعدة لدولة عظمى ترث امبراطورية الاسكندر كما كشف عن ذلك فى مذكراته المستفيضة التى كتبها فى شيخوخته ، وكان أول عمل أقدم عليه بمجرد ولايته مصر أن استمع الى شكاوى المصريين من سوء تصرفات كليومنيس الذى كان قد أصبح صاحب الامر والنهى فى مصر منذ بارحها الاسكندر ، وكيف اغتنى من أعمال النهب والسلب ، فأصدر بطليموس حكمه باعدام كليومنيس وصادر أمواله وراح يستغلها فى تأليف القلوب من حوله وتأليف جيش وأسطول بحرى يحققان أغراضه ومطامعه .

وفى أواخر هذا العام قام بطليموس بحركته الثانية البارعة التى تكشف عن خططه للمستقبل ، فقد نجح فى احضار جثمان الاسكندر رئيسه ليدفن فى مصر ، بدعوى أن الاسكندر المقدونى رئيسه أوصى بذلك قبل موته باعتباره ابن آمون .

ودفن الاسكندر فى مدينة منف ، ريثما أعد له بطليموس مقبرة تليق بمقامه فى مدينة الاسكندرية .

ولا تزال هذه المقبرة مجهولة حتى الآن لم يكشف عنها رغم العديد من المحاولات .

واذا كان هدف بطليموس منذ اللحظة الأولى انشاء دولة قوية غنية فى مصر تستطيع أن تكون مستقلة ويكون قادرا على الدفاع عنها ، فقد وضع خططه لانشاء أسطول بحرى ضخم ، واذا كانت الأخشاب اللازمة لذلك غير موجودة فى مصر ، وقوة الأسطول تعتمد على مقدار ما له من قواعد ، فقد شرع يعمل على ضم سوريا وقبرص وضم بعض الأقاليم فى آسيا الصغرى .

وبدأ بطلميوس بعد ذلك يمد نشاطه الى البلاد المحيطة بمصر فاستولى على ليبيا (فوريتنيا) وراح يعمل حثيثا للفوز بالسيادة على بحر ايجه .

٣١٩ ق.م :

شرع بطليموس فى غزو فينيقيا وفلسطين وجنوب سوريا مما أصبح يطلق عليه اسم « جنوب سوريا » واستولى فيما استولى عليه على أورشليم بيت المقدس مركز اليهودية .

وقد جعله ذلك يصطدم اصطداما مباشرا مع بريديكاس فدخل فى سلسلة من المحالفات والمعارك سقط خلالها بريديكاس قتيلا بيد أتباعه وعلى رأسهم سلوتس ، وبدأ بطليموس يتغير .

وانخرط بطليموس فى المعارك التى دارت بين حلفاء الاسكندر وحكام الولايات الاغريقية المختلفة وخاصة ضد انتوجونوسس الذى حاول أن يستعيد امبراطورية الاسكندر .

وتاريخ حظ بطليموس بين المد والجزر ، واضطر فى أحد المرات أن يجلو عن جنوب سوريا وفينيقيا وأن ينسحب داخل مصر (٣١٥ ق.م) .

وتارة يعود للظهور بمظهر السيد فى شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليستولى على قبرص (٣١٣ ق.م) ويساعد رودس ويحتضن المدن المتحالفة للاستقلال عن مقدونية نفسها حيث يرفعونه الى مصاف الآلهة ويعبدونه باسم الاله المنقذ (سوتر) ويوشك أن يتزوج كليوباترا أخت الاسكندر ، لولا أن منافسيه من قادة الاغريق قتلوها ليحولوا دون ذلك . ثم يسترد ليبيا التى كانت قد ضاعت منه ليفقد قبرص من جديد ويفقد نفوذه البحرى بالتالى فى شرق البحر الأبيض (٣٠٦) .

٣٠٥ ق.م :

أعلن انتوجونوس وابنه ديمتريوس أنهما ملكين فانتهز بطليموس هذه الفرصة للخطوة التى كان يرنو اليها منذ أمد بعيد فأعلن نفسه ملكا على مصر واستطاع أن يصمد

غزو دبره ضد مصر انتجونوس بعد أن كانت امبراطورية الاسكندر قد انحلت وأعلن كل وال استقلاله بما يحكم بحيث أصبح فيهـا خمس شـخصيات عظيمة وهى كاساندروس فى مقدونيا ، وليسيما خوس فى تراقيا وآسيا الصغرى وسلوتس فى بابل وانتيجونوس وابنه ديمتريوس (فاتح المدن) يرأس عصبة كورنته ويسيطر على قبرص وكثير من المدن الاغريقية فى بلاد الاغريق وآسيا الصغرى .

٣٠٠ ق.م :

الف اقليدس الذى انشأ مدرسة للهندسة فى الاسكندرية كتابه الشهير العناصر الذى لخص فيه أعمال فيثاغورس وكل من سبقه من علماء الرياضة وأضاف الى ذلك كله الرياضيات اليها .

٢٩٠ ق.م :

واخيرا بطليموس فى مصر .

٢٨٥ ق.م :

لم يكد ديمتريوس ابن انتيجونوس الذى كان قـد مات من قبل بعـد أن طحنته المعارك مع سلوتس ، حتى انتهز بطليموس هذه الفرصة واستعاد سيادته على شرق البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على موانى فينيقيا وصيدا وحور وكاوتوس ، وكذلك أسطول ديمتريوس واستولى على جوف سوريا للمرة الرابعة ، حيث كان حلفاؤه قد جعلوها من نصيب سلوتس الأمر الذى سيجعل هذا الأمر مسار نزاع بين مصر وسوريا طوال المائة سنة التالية.

وفى هذه السنة أشرك بطليموس معه فى الملك ابنه من زوجته المحبوبة برينيكى ، وذلك ليحول بين ابنه الأكبر من زوجته يوريديكى المعروف باسم (بطليموس الصاعقة) من ولاية الحكم .

ولذلك فولى هذا الأخير الى ليسماخوس ثم الى سلوتس للحصول على عـون يمكنه من الحصول على ارثه .

٢٨٣ ق.م :

مات بطليموس الأول وكان قد بلغ من العمر ٨٤ سنة ـ وكان ككل مؤسسى الدول يتسم بالتعقل والحكمة والحذر ، فوق كونه جنديا محاربا فخلف لابنه من بعده دولة

متكاملة مستقرة بعد خمسين سنة من حروب متصلة . وقد كان لشخصيته المحببة أثر فى هروع الاغريق لخدمته . . كما أنه لم يهمل لحظة واحدة شأن الشعب المصرى . ولقد كان رجل علم وأدب ولذلك فقد وضع أساس مكتبة الاسكندرية التى ستكون موضع عزها وفخارها وكتب بنفسه تاريخا لمعارك الاسكندر ، ويتصف بالاستقامة والأمانة .

٢٨٢ ق.م :

إنفرد بعرش مصر **بطليموس الثانى** (فيلاديفوس) (المحب لأخته) وعلى الرغم من أنه اشتهر بهذا اللقب فيلاديفوس فالرأى على أن هـذا اللقب وصفت به أخته وزوجته ارسينوى بعد وفاتها .

وانتشرت فى أيامه التجارة وكثر وفود الأجانب على مصر ولا سيما اليونانيين باعتبارهم من جنس الأسرة المالكة وأصبحت اللغة اليونانية هى لغة البلاط وان ظلت اللغة المصرية القديمة هى لغة الأمة وظلت الاوامر الملكية تصدر بها مشفوعة باليونانية .

وتشبه ملامحه ملامح أبيه ولكنه لم ينعم بمواهب أبيه الحربية ولم يشغف بالقتال، حتى أنه لم ير على رأس جيشه اطلاقا ، ومع ذلك فقد خلد اسمه بأكثر من خلود اسم أبيه لثقافته الواسعة وشغفه وولعه بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى مما جعله يحول النواة التى وضعها أبيه للمكتبة الى عمل عظيم وان كان استغراقه فى الشهوات والملذات الدنيوية لا يقل وضوحا فى حياته عن هذه الناحية .

والى جوار شخصه تقوم شخصية أخته ارسنيوى والتى تزوجته بعد أن كان قد سبق الزواج لها مرتين من قبل وذلك لتحقق طموحها وسيطرتها حتى استطاعت بالفعل فترة حياتها أن تحكم الامبراطورية وصرفت شئونها الحربية ، وقد كان زواج الأخ من أختـه الشقيقة يعتبر فسقا فى نظر الاغريق ، ولكن بطليموس أخذ بسنة الفراعنة من قبله .

وفى نفس الوقت كان أخوه غير الشقيق بطليموس الصاعقة قد أصبح ملكا على مقدونيا بعد أن قتل سلوتس أعظم خلفاء الاسكندر . وأسرع بمد يد الصداقة والتحالف لأخيه بطليموس فيلاديفوس ضـد عدويهما المشتركين ـ انطيوخس ملك سلونيا وانتيمونوس المطالب بعرش مكدونيا ولكنه لم يلبث أن جرح ومات عام ٢٧٩ فى غزوة القتال ضد مكدونيا .

وقد ادى ذلك كله الى جعل مصر أقوى دولة فى العالم الهلينى تليها دولة السلوفيين التى ولى عرشها أنطيوخوس ابن سلوتس وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) والدولة الثالثة مقدونيا وكانت تعتبر نفسها سيدة المدن الاغريقية فى شبه جزيرة اليونان .

على أن لا بطليموس الأول ولا ابنه من بعـده ، فكرا كما فعل غيرهما من خلفاء الاسـكندر فى اعادة تكوين امبراطورية الاسـكندر وقصرا همهما على الحفاظ على استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول فى العالم الهلينى وكانت أفضل وسيلة لذلك هو احراز السيطرة على بحر ايجه ـ ولاستكمال هذه السيطرة حاول فيلادلفوس الاستيلاء على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بالاضافة الى استيلائهم على موانى فينيقية وصور وصيدا وغيرها وكان طبيعيا ألا يسلم السلوقيون للبطالسة بهذا الحق الذى يحرمهم من موارد ضخمة وانشاء أسطول كبير والاحتفاظ به فى موانيهم السورية ويتيح للبطالسة أن يسدوا فى وجوههم الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط .

كما لم يكن فى وسع ملوك مقدونيا أن يسلموا سيطرة البطالسة بحر ايجه لأن ذلك يؤدى الى سيطرة مصر على بلاد الاغريق .

وهكذا نشبت الحرب بين هاتين الدولتين ومصر .

٢٨٠ ق.م :

بدأ النضال العنيف بين انطيوخوس الأول وفيلادلفوس بنشـوب حرب غامضة سميت (الحرب الكارية) فقد أحرزت مصر من ورائها فتوحات فى كاريا ودمشق لأن فيلادلفوس استولى على دمشق وشاطىء فينيقيا الشـمالى حتى أرادوس ، ولانشغال كل منهما بخطر يهدده عقد صلح بين الطرفين عام ٣٧٩ ولكن لم يكن الا صلحا مؤقتا ، فقد كان كل من الطرفين يستغل انشغال الآخر لكى يهاجمه .. ولذلك فقد استرد انطيوخوس دمشق فيما يطلق عليه اسم الحرب السورية الأولى عام ٢٧٥ ويقال ان هزيمة بطليموس فى سوريا هى التى حدث به الى زواج أختهارسينوى لمواجهة المجهود الحربى وان كان البعض يرون ان الزواج تم من قبل ذلك .

وكان انطيوخوس قد حالف ماجاس والى مصر على توزمانية فزوجه ابنته فأسرع ماجاس باعلان استقلاله والزحف على مصر ، وأن يصل بجيوشه الى الاسكندرية ولكن ارسينوى استطاعت أن تنقذ الاسكندرية بأساليبها ودسائسها فى جيش ماجاس .

٢٧٦ ق.م :

وجه فيلادلفوس حملة الى أثيوبيا على ما يقول ديودورس لتوطيد حدود مصر الجنوبية وما بين أعالى النيل .

٢٧٣ ق . م :

عقد فيلادلفوس معاهدة تجارية مع هذه القوة النامية التى بدأت تظهر فى غرب البحر الأبيض وهى قوة روما .

٢٧٢ ق٠م :

اضطر انطيوخوس الى عقد صلح جديد مع مصر بعد ان عادت حيويتها فاستولت على كل شواطىء فينيقيا وردته على أعقابه داخل سوريا وأصبحت مصر بموجب هذا الصلح تشمل نصف كليكليا الغربى وساحل بامنيليا الشرقى وأغلب ليديا وعدة أماكن فى كاريا وايونيا ــ وفى بحر ايجه كان فيلادلفوس يملك ساموترافيا واينانوس الى جانب ساموس التى أصبحت قاعدة الاسطول البطلمى فى بحر ايجه .

ولم يبق فى قبضة انطيوخوس فى سوريا سوى دمشق وعلى حدود مصر الغربية دان له ماجاس بالطاعة .

٢٧٠ ق٠م :

ماتت ارسينوى الثانية وبالأحرى صعدت الى السماء والتى عزى اليها رسميا كل هذه الانتصارات الباهرة .

وقد توفيت دون أن تنجب ابنا من فيلادلفوس ويذكر مصــدر قديم آخر أنها تبنت أولاد فيلادلفوس من زوجته السابقة وأن أكبرهم سنا كان بطليموس الثالث .

٢٦٢ ق٠م :

توفى انطيوخوس وخلفه ابنه الأصغر انطيوخوس الثانى الذى سرعان ما أشعل نيران الحرب من جديد مع فيلادلفوس يطلق عليه اسم الحرب السورية الثانية مع أن غرب آسيا الصغرى كان مسرحها الرئيسى . وفى هذه الحرب خسر فيلادلفوس سيادته على بحر ايجه وخسر ممتلكاته فى قراقياتانية واستولى انطيوخوس على كل فينيقيا شمال صيدا .

٢٥٥ ق٠م :

ثم دمج قورنيتائية الى الدولة المصرية عن طريق زواج برنيكى ابنة ماجاس الذى كان قد مات ، من ولى عهد مصر بطليموس الثالث (يورخيس) .

٢٥٣ ق٠م :

توصل فيلادلفوس الى كسب انطيوخس الى جانبه بالمصاهرة حيث زوجه بابنته (برينيكى) وأصدقه مهرا أصبح مضرب الأمثال بحيث أصبح يطلق على برينيكى لقب

(مرنفوروس) اى صاحبة الصداق العظيم ـ والرأى الراجح ان هذا الصداق كان هو ارجاع كيلكيا الغربية وبافيليا لانطيوخوس فى مقابل تنازل السلوقيين عن المطالبة بجوف سوريا .

٢٥٠ ق.م :

بعد أن اطمأن فيلادلفوس على حدوده الشرقية والغربية استطاع أن يثأر لنفسه من جوناتاس وأن يستعيد سيادته على بحر ايجه .

وهكذا تابع فيلادلفوس سياسة أبيه فعمل على تدعيم حدود مصر الغربية والشرقية والجنوبية ودعم سياسة مصر فى بحر ايجه وعنى بالتجارة الجنوبية ووجه اهتماما الى التجارة الشرقية ويستدل على ذلك من حملته على البنط وتوطيد سلطان مصر فى فلسطين وشرق الأردن وفينيقيا ومن الاستيلاء على أجزاء من ايونيا .

وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التى انفقتها مصر على مجهود مصر الحربى فى سبيل سياستها الخارجية فان الخزائن الملكية بقيت مكتظة بالأموال .

وليس أدل على الغنى الوافر الذى وصلت اليه البلاد من ان بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر الى أن يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم . اما بطليموس الثانى فقد انفق فى احد حفلات تتويجه ما قيمته ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ ريال امريكى .

وقد أعاد تطهير القناة الموصلة للنيل بالبحر الأحمر التى كان نخاو قد اصلحها وكذلك دارا الثالث .

وقد استقدم فيلادلفوس الى بلاطه مشهورى السفراء والعلماء والنقاد والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفية والفنانين واستضافهم عنده وزين مدينة الاسكندرية بالمبانى الفخمة على الطراز اليونانى ، حتى أصبحت الاسكندرية فى أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية وازدهرت آدابها ازدهارا لم تر مثله ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخون الذين جاءوا بعده ينسبون اليه انشاءها وكان رئيس المكتبة (المعهد) فى عهده يعتبر من الناحية الرسمية كاهنا دينيا لأنه كان مخصصا لآلهات الفن بوصفها معبودات بحق .

وكان يعيش فى المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين وكتاب وعلماء فى الطبيعة واطباء ، وكانوا يتقاضون مرتبات من الخزانة العامة ، ولم تكن مهمتهم أن يعلموا الطلاب بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات واجراء التجارب ولما تضاعف عدد الطلاب فى المتحف فى العصور التالية قام أعضاؤه بالقاء المحاضرات .

وتعتبر هذه المكتبة وهذا المعهد والجامعة هو أول مؤسسة فى التاريخ اقامتها دولة

للعمل على تقدم الآداب والعلوم — والاجماع على أن ذلك ذروة ما استفادته الحضارة الانسانية من حكم البطالسة ومدينة الاسكندرية .

وفى عهد بطليموس فيلادلفوس كتب مؤرخنا الخالد مانيتون تاريخ مصر الذى رأينا مدى اعتماد المؤرخين على تقسيماته وفى عهده أيضا تمت على أرجح الآراء ترجمة التوراة اليونانية هذه الترجمة المشهورة بالسبعينية وهو الذى أوعز لمانيتون بوضع تاريخ مصر — وشيد منارة الاسكندرية لتهدى بها السفن .

وشيد هيكل انس الوجود .

٢٤٦ ق.م :

مات بطليموس فيلادلفوس بعد أن حكم ٣٩ سنة وارتقى العرش ابنه **بطليموس** الثالث — وقد أشاد الشعراء بوداعة الملك الجديد وهى صفة يؤيدها لقبه الالهى يورجتيس أى الخير .

وقد كان ملكا مثقفا مثل أبيه ، فكان تلميذا للشاعر لبولوتيوس الرودسى وصديق العالم الفذ اراتوستيس ، وقد أصلح التقويم الذى اقتبسه يوليوس قيصر فيما بعد ؛ وهذا الاصلاح ينطوى على اضافة يوم كل أربعة أعوام الى العام المصرى الذى كان يتألف من ٣٦٥ يوما .

على انه لم يكد يعتلى العرش حتى كان مقدرا له ان ينخرط فى الحرب السورية الثالثة ، والتى جعلته يستعيد فى ذاكرة المصريين فتوح تحوتمس الثالث من قبل ، فقد وصل بجيوشه حتى تخوم الهند ، وسقطت فى يده بابل وايران .

وكان سبب هذه الحرب السورية الثالثة ان انطيوخوس الثانى الذى كان قد تزوج بيرنيكى المصرية ، كان قد مات ، وقيل أن زوجته الأولى هى التى دست له السم بعد أن حملته على اعلان ابنها منه خلفا له على العرش وبالفعل نودى عليه ملكا لسلوكيا باسم سلوتس الثانى .

وكان طبيعيا أن تتمسك بيرنيكى التى كانت تقيم فى انطاكية بالعرش لحساب ابنها فنادت به ملكا واستنجدت بأخيها الذى هب لنجدتها بالفعل ، وسرعان ما وجدنا جيوش بطليموس فى مدينة سلوقية على نهر الدجلة عام ٢٤٥ ق.م. وأوفد الرسل الى حكام كل الولايات الشرقية يطالبهم بالطاعة فأذعنوا وعين حاكما على هذه الولايات التى كانت تقع عند تخوم الهند . وأخضع الجزيرة والعراق وتوغل فى فارس حتى وصل الى همذان وبلخ واسترد معبودات المصريين التى كان قمبيز قد أخذها معه .

وقد عبرت برتيس زوجة بطليموس الشابة عن شكرها لانتصاراته المذهلة فقد وهبت خصلة من شعرها للآلهة : وتغنى الشعراء بهذه القصة ؛ ورفع الفلكيون عقيرتهم بها الى السماء فسموا احدى المجموعات النجمية باسم كومانسسيز أى شعر

برنيس (دورانت ٦٣) . ولكن هذه الحملة المظفرة لم تجد اخته أو ابنها قتيلا فقد أغتيلت فى هذه المدة هى وابنها .

كما إن أحداثا طرأت فى مصر جعلت بطليموس يسرع بالعودة الى مصر . مما مكن سلوتس الثانى أن يسترد بعض ما فقد ، ويدخل فى مخالفات مع القوى الاغريقية المعاصرة ليعاودوا الهجوم على مصر بحرا ، ولكن أساطيل مصر استطاعت أن تحبط هذا الهجوم خلال عامى ٢٤٣ ، ٢٤٢ ق.م .

٢٤١ ق.م :

عقد سلوقس الثانى مع بطليموس صلحا ، جعل مركز مصر على شواطىء بحر ايجه الشمالية والشرقية أقوى من مركزها عام ٢٧٢ ق.م .

ويعتبر ذلك ذروة ما كانت عليه من قوة عسكرية فى ظل حكم البطالسة .

ونعمت مصر بعد ذلك بعشرين سنة من السلم ، فلم يحاول بطليموس الثالث ، أن يتداخل فى المنازعات والحركات التى قامت بين سلوتس الثانى وأخوته ، أو فى الحركات التى قامت لاستعادة مقدونيا سلطانها على بلاد الاغريق ... وكل ما بذله بطليموس من نشاط كان من خلال المناورات السياسية والمعاونات المالية .

ولم يغيره انحلال الدولة السلوقية الكبيرة أن يعاود احتلالها ، قانعا بتأمين حدود مصر ، وسيادتها على شرق البحر الأبيض وبحر ايجه مما يجعل امبراطورية البطالسة أقرب الى أن تكون امبراطورية بحرية منها أن تكون برية ، وقد حرص البطالسة الثلاثة حتى ذلك التاريخ على أن يحتفظوا بقوريناتيه وجنوب سوريا وقبرص كأجنحة وخطوط دفاعية أمامية عن مصر لسلامتها ، وتدعيم نشاطها التجارى والاقتصادى .

٢٢١ ق.م :

خلف **بطليموس** الرابع وقد اخذ لنفسه لقب (فيلوباتر) أى المحب لأبيه فى يوم بين الخامس والسادس والعشرين من فبراير من هذا العام وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره لاهيا عابثا انحدرت مصر على يديه من ذروة القوة التى كانت قد وصلت اليها .

فقد بدأ حياته بسلسلة من الجرائم التى قتلت فيها أم الملك وأخيه وعمه على يد وزيره سوسيبيوس الذى أوغر صدر بطليموس ضد هذه الشخصيات الثورية ليخلو له الجو وينفرد بالسلطان وقد ساعده على ذلك انخراط بطليموس الرابع فى العبث والمجون واللهو اذ أحاط نفسه بمجموعة من الأفاقين حثالة الاسكندرية وقد اطلق اسكندريو ذلك العهد على هذه المجموعة « اخوان الأنس » وكان أظهر ما فى هذه

الجماعة الماجنة التى لم تلبث ان جعلت من بطليموس العوبة فى يدها نديمه اجاتوكيس واخته التى اصبحت محظية بطليموس والمسماه (اجاكوكليا) .

وكرد فعل لما كان يعيش فيه بطليموس من لهو وعبث ، تعلق فى نفس الوقت ببعض أسرار العبادات الغامضة ، حتى اصبح الناس ورجال بلاطه يدعونه باسم الاله ديونيسوس اله الخمر عند الاغريق .

كما اشتهر بتعلقه بالآداب فكتب قصة شعرية تدعى أودنيس .

٢١٧ ق.م :

التاريخ الذى يعتبر بمثابة نقطة التحول فى حكم البطالسة فى مصر ايام بطليموس الرابع ، حيث ظهر الشعب المصرى لأول مرة كقوة حربيـة قادرة على الاصطدام بجيوش الاغريق المحترفة والانتصار عليها .. فى معركة رفح وما ترتب على ذلك من انقلاب فى موقف المصريين من الأسرة الحاكمة .

وقد بدأت الأمور التى انتهت بهـذه الذروة ، عقب تولى بطليموس الرابع ... حيث وصل الى علم انطيوخس الثالث (الكبير) ما آلت اليه أمور الدولة المصرية على يد الملك الطائش من ضعف ووهن ...

فشن ما يسمى بالحرب السورية الرابعة .

وكان طبيعيا أن ينتهز انطيوخوس الثالث ملك سلوقيا ، تدهور موقف العرش فى مصر وما يتبعه ذلك من انحلال قوات الدولة ... فاستأنف غزوه من جديد لمنطقة حوف سوريا عام ٢١٩ ق.م ، واستطاع بالفعل أن يستولى على هذه المنطقة وموانيها صور وعكا وأربعين سفينة حربية ومعدات هائلة ، وكان باسـتطاعة انطيوخوس أن يجتاح مصر ، ولكن سوسبيوس وزير بطليموس استطاع أن يوقفه بحجة التفاوض ، فى الوقت الذى كان يجهز فيه جيشا اعتمد على المصريين لأول مرة بحيث كانوا يؤلفون الجزء الأكبر من قوة الجيش ، وحدث الاصطدام عندما تخطى انطيوخوس رفح فوجد الجيش البطلمى الجديد على بعد تسعة كيلو مترات جنوبى هذه المدينة .

وكان جيش انطيوخوس يتألف من ٦٢٫٠٠٠ راجل و ٦٠٠٠ فارس و ١٠٢ من الفيلة الهندية القوية ، وكان قلب جيشه (الفالافكس) يتألف من ٢٠٫٠٠٠ جندى مقدونى واغريقى يؤيدهم ١٠٫٠٠٠ جندى من حملة الدروع المختارين ينتمون الى مختلف الجنسيات وذلك فى الوقت الذى كان الجيش البطلمى يتألف من ٥٠٫٠٠٠ راجل و ٥٠٠٠ فارس و ٧٣ فيلا افريقيا وكان قلب الجيش (الفالافكس) الذى حقق النصر يتألف من ٢٠٫٠٠٠ مصرى و ٥٠٠٠ فارس اغريقى .

وعندما التقى قلبا الجيشين انهزم قلب انطيوخوس الذى كان يتألف من خيرة جنود العصر الذين ملأتهم الانتصارات السابقة زهوا وقوة وثقة بالنفس .

ويقول لنا الكهنة المصريون الذين اجتمعوا فى منف بعد عودة فيلوباتر منتصرا ، ان انطيوخوس لقى على يد المصريين هزيمة فادحة فر بعدها هاربا فى هلع شديد الى حد انه ألقى عن نفسه شارات الملك بينما فاز بطليموس بغنائم وفيرة .

وكان باستطاعة بطليموس أن يستثمر هذه الهزيمة المروعة فيلاحق خصمه ، ولكنه اكتفى بهذا النصر الساحق غير المتوقع فقد كان الاغريق يشكون فى قدرة المصريين على الثبات فضلا عن الانتصار ... ولذلك فلم يكن انطيوخوس يعرض الصلح على فيلوباتر على أن يعين له جوف سوريا ، حتى بادر فيلوباتر بقبول العرض.

ويقول لنا بوليبيوس المؤرخ القديم الذى روى لنا هذه الأحداث ان معركة رفح لم تكن انتصارا باهرا لفيلوباتر ووزيره سوسيبيوس الذى كان يقود الجنود المصريين فحسب ، بل انها كانت انتصارا رائعا للمصريين الذين كان البطالسة يعاملونهم حتى هذه المعركة معاملة المغلوبين على أمرهم .

٢٠٩ ق.م :

أنجبت ارسينوى الثالثة أخت بطليموس الرابع والتى كان قد تزوجها عقب معركة رفح وليا للعهد أشرك مع أبيه فى الملك وهو لايزال فى المهد (٦ يونيو عام ٢٠٨ ق.م.) ولكن ذلك لم يكن له كبير الأثر فى انقاذ زوجها من قوى الشر التى تحيط به ممثلة فى الحاشية البغيضة السالف الاشارة اليها .

٢٠٣ ق.م :

انتصار روما الساحق على قرطاجنة فى معركة زاما وسيادتها بالتالى على غرب البحر الأبيض المتوسط واتجاهها نحو شرق البحر لتأكيد سلطانها فيه .

٢٠٣ ق.م :

فى ٢٨ نوفمبر من هذا العام دعا اجانوكلس وسوسيبيوس رجال الحرس الملكى وأفراد الحاشية وضباط المشاة والفرسان وأعلنا وفاة الملك والملكة وناديا بالطفل الصغير بطليموس الخامس (ايفانس الطاهر) ملكا وكان سنه لا يتجاوز خمس سنوات .

أوصياء الملك الجديد :

والقول على أن بطليموس الرابع مات قبل ذلك التاريخ بمدة كبيرة يحددها البعض

بعام كامل ... حيث وقع خلاف بين ارسينوى الثالثة الملكة الزوجة والأم وبين هذه العصابة المحيطة بالملك على من يتولى الوصاية ... وقد قتلت العصابة أرسينوى ، ثم أعلنت هذا الذى أعلنته . وقد غضب أهالى الاسكندرية لهذه المؤامرة أشد الغضب ، فبدأت مراجل الثورة ضد هذه العصبة ولم يلبث سسبيوس الوزير أن مات فانفرد اجانوكلس بالوصاية .

٢٠٣/٢٠٢ ق٠م :

انتهز فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وانطيوخوس الثالث تدهور الأحوال فى مصر ليعقدا فيما بينهما اتفاقا لتقسيم ممتلكات مصر الخارجية بينهما ، ولم يلبث أن شرع كل منهما فى الاستيلاء على ما هو من حصته ولكن فيليب تجاوز الاتفاق ، مما أحنق عليه انطيوخوس وعاد الخلاف بينهما ...

٢٠٢ ق٠م :

تأججت نار الثورة فى مصر ، ضد اجاتوكليس وعائلته ... واستغل تلبولمدس قائد بلزيون هذه الثورة فانضم الى الثوار وتحدثنا كتب التاريخ بأدق تفاصيل هذه الثورة حتى ليروى بوليبوس ، كيف أخذت المقاومة أول ما ظهرت بنشر الأقاويل فى المقاصف والأماكن العامة على سبيل التعريض فى بادىء الأمر ثم الحملات الصريحة على مزخرف الجدران وعازفة القيثارة ومصففة الشعر : وذلك الخليع الذى كان فى شبابه يعير نفسه لكل طالب بعد الشراب . وانتهت الثورة الجارفة بعد انتزاع الملك من يد الوصى عليه بجر أجانوكايس وأخته أجاتوكليا وأمهما وأقاربهما وخدمهما فى الشوارع وتسليمهم الى الجماهير الغاضبة المتعطشة لدمائهم فقطعت اجسادهم اربا وهجمت الجماهير على بيت قاتل ارسينوى وقتلته هو وابنه وجرت زوجته عارية الى الميدان لكبير حيث ذبحت ، وعين تليولوس وصيا على الملك ، ولكنه لم يلبث بدوره أن عزل وسط سخط الجماهير وخلفه فى منصبه ارشيونيس بينما أسندت قيادة الجيوش الى سكوباس .

٢٠٠ ق٠م :

بعد انتهاء الحرب اليونية الثانية ، أرسل الرومان الى ملك مصر (بطليموس ابيفانس) سفارة من ثلاثة أعضاء ليعلنوا له نبأ هزيمة هانبيال وليشكروه على ولائه الذى لم يتزعزع فى الوقت العصيب الذى تخلى فيه عن الرومان أوثق حلفائهم ، راجين منه أن يظل على ولائه القديم للشعب الرومانى اذا ما حدث أن أعلن الرومان الحرب على فيليب الخامس ملك مقدونيا مدفوعين بالاساءات التى لحقتهم على يديه .

١٩٨ ق.م :

بعد سلسلة من المعارك فى جوف سوريا فيما يسمى بالحرب السورية الخامسة تأرجح فيها جيش مصر تحت قيادة سكوباس بين الانتصار على أنطيوخوس والانهزام أمامه ... استولى انطيوخوس على كل جوف سوريا ـ فى الوقت الذى كان يستولى على آخر مواقع مصر فى بحر ايجه وشرق البحر الأبيض المتوسط (بحيث لم يبق لمصر من أملاكها فى البحر سوى جزيرة قبرص) .

١٩٧ ق.م :

رأى أيستومتس الوصى على ملك مصر ، أنه من الحكمة أن ينهى الوصاية على الملك الذى كان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وذلك بعد أن أعدم سكوباس قائد الجيش الذى دبر مؤامرة لقلب الحكومة هو وأفراد أسرته وأعوانه .

وفى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٧ ق.م. على ما سجل لنا حجر رشيد المشهور الذى كان مفتاح حل رموز اللغة الهيروغليفية ففيه سجل الكهنة حفل تتويج الملك وفقا للتقاليد المصرية القديمة .

١٩٥ ق.م :

عقد أنطيوخوس الكبير صلحا مع مصر ، ليتقوى أمام عدوته الجديدة « روما » التى كانت قد بدأت تمد ببصرها صوب الشرق ، وتلعب دورا رئيسيا فى أحداثه ، بالايقاع بين فيليب وأنطيوخوس حينا ومحاربة فيليب وقهره حينا آخر لتتفرغ لأنطيوخوس الذى كانت توجه له الانذارات .

وكان من نتائج الصلح بين أنطيوخوس ومصر ، أن تزوج بطليموس الخامس « كليوبترا » ابنة أنطيوخوس على أن تكون هدية عرسها لبطليموس هى « جوف سوريا » وقد جرى الخلاف فيما بعد حول طبيعة الهدية وهل هى ملكية الاقليم أم مجرد دخله .

١٨٩ ق.م :

انهزام أنطيوخوس الثالث أمام روما فى معركة ماجاخسيا التى ترتب عليها رسوخ قدم روما فى بلاد الاغريق وفى آسيا الصغرى وزيادة سلطانها ونفوذها فى السياسة المصرية .

١٨٧ ق٠م :

مات أنطيوخوس الكبير وخلفه على العرش ابنــه الضعيف سلوتس الرابع فقرر بطليموس الخامس أن يسترد جوف سوريا ، ولما كان يعرف أن روما لن توافق على مثل هذا العمل ، فقد قرر أن ينهج سياسة مستقلة عن روما ودخل فى مفاوضات مع العصبة الآخية الاغريقية عامى ١٨٥ ــ ١٨٣ ق.م. لتحقيق هذا المشروع .

ولكن لم يلبث أن مات قبل أن يحقق أمنيته .

١٨٠ ق٠م :

مات بطليموس الخامس وهو لا يزال شابا غضــا ، ويقول لنا بوليبيوس انه كان بارعا فى ركوب الخيل ماهرا فى الصيد واستخدام الأسلحة ... وقد كان لقسوته ضد المصريين وغدره بزعماء الثورة منهم بعد أن أمنهم ... أكبر الأثر فى اضعاف الدولة من الداخل وايقاع الفتن والشقاق بين أفراد الأسرة الحاكمة ، الأمر الذى تسبب فى ضياع ممتلكات مصر الخارجية .

بطليموس السادس فيلوماتر (المحب لأمه) .

وللمرة الثــانية فى خلال أربعــة قرون ارتقى عرش مصر جيــل صغير فقد ترك بطليموس الخامس وراءه ولديه بينما كان أكبرهم بطليموس السادس ــ فيلومتور . وكان عمره سبع سنوات فتولت الوصاية عليه أمه كليوباترا الأولى ابنة انطيوخوس ولذلك فقد استمرت علاقات مصر مع سوريا ودية خلال مدة وصايتها .

١٧٦ ق٠م :

ماتت كليوباترا مخلفة بطليموس السادس لرجال الحاشية فوقع تحت وصــاية مربيه الخصى بولايوس والعبد السورى لنايوس .

وقد ساير هذان الوصيان الحزب الذى ينادى بضرورة استرداد سوريا لاعادة الانتعاش الاقتصادى الى مصر ــ وبدأت المناورات السياسية مع أحد أحزاب اليهود فى مملكة يهوديا .

١٧٤/١٧٥ ق٠م :

احتفل ببلوغ بطليموس السادس سن الرشد (الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره) وتزوج من أخته كليوبترا الثانية ، واحتفل بتنصيبه فرعونا فى منف .

١٧١ ق.م :

استغل أنطيوخوس الرابع فرصة انشغال روما فى الحرب المقدونية الثانية لكى يشن الحرب السورية السادسة على مصر ، واستطاع أن ينجح فيما فشل فيه من قبله بريدكاس وأنطيوخوس الكبير فهزم الجيش البلطمى عند تل كاسيون واستولى على بلوزيون وتقدم الى منف ، وهنا نصح الوصيان على بطليموس السادس أن يأخذ كنوزه ويهجر مملكته ويفر الى ساموترافيا ، مما جعل الاسكندريين يغضبون على بطليموس والأوصياء عليه حتى يقال انهما قتلا هذين الأخيرين ..

ويقول بعض المؤرخين ان بطليموس قبض عليه أثناء فراره ، وأعيد الى بلزيون ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقولون انه انما استدعى من ساموترافيا ليعقد معاهدة صلح مع خاله أنطيوخوس ، فرضت عليه بقبول حمايته .

وقد رفض الاسكندريون هذا الوضع فنادوا بأخ فيلومنور الأصغر ملكا وهو الذى عرف فيما بعد باسم بطليموس الثامن بورجيتس الثانى .

ومن منف زحف أنطيوخوس على الاسكندرية بحجة أنه يؤيد حقوق الملك الشرعى فيلومنور .

على أن أنطيوخوس لم يلبث أن عاد الى سوريا تاركا حاميته فى بلوزيون ، وبطليموس فيلومنور فى منف وبطليموس الصغير فى الاسكندرية ، معتمدا على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية .

١٧٠ ق.م :

لم يكد ينسحب حتى اتفق فيلومنور وبطليموس الصغير وأختهما كليوبترا الثانية على أن يحكموا مصر بالاشتراك .

١٦٨ ق.م :

غزا أنطيوخوس الرابع مصر ثانية بعد أن زالت الأسباب التى أدت الى انسحابه منها ، وبعد أن خاب أمله فى وقوع الخلاف بين الأخوين . وسقطت قبرص لأول مرة فى يد أسطول أنطيوخوس ، وأرسل انذاره الى بطليموس يطلب منه الاعتراف بملكيته لقبرص ، وأن ينزل له عن مدينة بلوزيون والاقليم المجاور لفرع النيل البليوزى ، وحدد مهلة للاستجابة الى طلبه .. ورفض بطليموس هذه المطالب وبعث يستنجد بروما بعد انتصارها فى الحرب المقدونية ، فأسل السناتو (مجلس الشيوخ) بعثة سياسية على رأسها جايوس يوبليوس ، لتملى ارادتها على أنطيوخوس ، فطلبت منه الانسحاب من مصر وقبرص .

ويصف المؤرخ الرومانى ليفيوس المشهد الكبير بين أنطيوخوس والسفير الرومانى .

وبعد أن عبر أنطيوخوس النهر (الفرع الكانوبى) عند اليوسيسيس (النزهة) وهو مكان يبعد عن الاسكندرية أربعة أميال — اعترض طريق السفراء الرومان فلما اقتربوا منه حياهم الملك ومد يده لمصافحة يوبليوس غير أن يوبليوس سلمه لوحا مدونا عليه قرار السناتو ، وأمره أن يقرأه قبل أى شىء آخر ، فلما فرغ الملك من قراءته قال انه سوف يدعو أصحابه ليستشيرهم فيما ينبغى عمله . وعندئذ رسم يوبليوس بما جبل عليه من قسوة فى الطبع بعصاه التى كان يحملها فى يده ، دائرة حول الملك قائلا أعطنى ردا أبلغه للسناتو قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة . وذهل الملك من لهجة الأمر العنيفة وتردد لحظة قصيرة قال بعدها : سأفعل ما يقرره السناتو . عندئذ فقط مد يوبليوس يده مصافحا الملك كما يمدها الى حليف وصديق . ولعل هذه القصة تظهر لنا كيف أصبحت روما مرهوبة الجانب ، صاحبة الأمر والنهى فى بلاد الشرق الأوسط .

وقد استجاب أنطيوخوس لكلا المطلبين وبعث الى روما على ما يحدثنا ليفيوس المؤرخ الرومانى ، يبلغها فى ذلة أنه أطاع أوامر سفرائها كما لو كانت صادرة من الآلهة — على عكس بطليموس السادس الذى أوفد بعثة ليشكر روما دون أن يجيب لطلبها الذى طلبته منه وهو أن يسلم اليها عدوها بوليا رانوس الرودسى الذى كان ملتجئا الى مصر مكتفيا باعادته الى وطنه .

١٦٥ ق.م :

أشعل ديونسيوس المصرى ثورة عارمة ضد بطليموس متهما اياه بأنه يحاول قتل أخيه الصغير ..

وجمع حوله العناصر المصرية فى الجيش ، واضطر بطليموس أن يلاحقه فى أنحاء البلاد ، وأن يلقى الكثير من العناء والتضحيات قبل أن ينجح فى اخماد الثورة .

١٦٤ ق.م :

انتهت فترة الحكم المشترك فاندمج بطليموس الصغير فى أن يثير الاسكندريين ضد أخيه الكبير ، فاضطره الى الفرار من مصر : حيث اتجه صوب روما ، والتى انتهزت هذه الفرصة لتحكم بسط يدها وسلطانها ونفوذها على مصر فنصح له السناتو بأن يتوجه للاقامة فى قبرص ، ريثما يرسلون بعثة الى مصر لدراسة الموضوع.

١٦٣ ق.م :

اكتشف الاسكندريون خطأهم فى مظاهرة بطليموس الصغير اذ وجدوه سفاكا

سحبا للدماء طاغية بعكس أخيه الكبير الذى كان يتمتع بأخلاق كريمة لم ينعم بمثلها أحد من أفراد أسرة البطالمة على ما يقـول المؤرخ المعاصر يوليبيوس ــ ولذلك فقد استدعوا فيلومنور من قبرص ليتولى العرش فلبى النداء وعاد الى الاسكندرية .

ولكن البعثة الرومانية التى جاءت بناء على طلبه .. ساءها هذا الانتصار ، فقررت أن تبـدأ خطوتها الأولى فى تقسيم الدولة المصرية بين الأخوين فعقدت اتفـاقاً يأخذ بمقتضاه بطليموس الصغير فوربناتيه ، ويحتفظ بطليموس فيلومنور بمصر وقبرص.

وقد ارتضى بطليموس فيلومنور هذا الاتفاق واستقل هو وزوجته بحكم مصر حتى مات ، وبدأ عهده الجديد باصدار قرار عفو عن كل الجرائم التى ارتكبت منذ تولى العرش حتى هذا التاريخ .

١٦٠ ق.م :

أنشأ اليهود فى مدينة ليونتوبوليس معبدا ينافسون به معبد أورشليم العظيم .

١٥٤ ق.م :

لم يرض بطليموس الصغير عن هذا الاتفاق من اللحظة التى تم فيها ، وما فتىء يستصرخ روما أن تساعده على احتلال قبرص وضمها الى مملكته ويتهم أخاه بأنه يدبر المؤامرات له .. وهذا مدى ارتباطه بروما ، بالاضافة الى رغبتها فى استمرار النزاع بين الأخوين بل وذهب الى أبعد من ذلك لكسب ود روما اذ أوصى لها بدولته بعد موته عن غير وارث .. فكان من الطبيعى أن يلقى آذانا صاغية فى روما التى كان يهمها اضعاف مصر ، فأشارت على بطليموس السادس أن ينزل له عن قبرص ، ولكنه رفض ، فشجعت بطليموس الصغير على غزو قبرص وطالبت حلفاءها فى شرق البحر الأبيض بمساعدته ، ولكن بطليموس السادس استطاع أن يهزمه ويدحره ووقع فى يده أسيراً ، ولكنه عفا عنه وسمح له أن يعود الى مملكته فى ثوريتانية .. ووعده بتزويجه من ابنته .

١٥٢ ق.م :

اشترك فيلومنور فى حلف ضد ديمتريوس الأول ملك سلوفيا للانتقام لنفسه من الاهانات التى تلقاها فى بداية حكمه ، واذ كان يعرف أن روما لن تسمح له باستعادة امتــلاك جوف سوريا فقد اكتفى بتأليب اليهود ضـــد ديمتريوس .. كما أيد ادعاء شخص يدعى بالاس فى عرش سوريا واتخذ اسم الاسكندر ، ولقى ديمتريوس حتفه فى ميدان القتال فى صيف ١٥٠ على يد جيش بطلمى .

١٥٠ ق.م :

أصبح بالاس ملكا على سوريا وبابل وتزوج بالاس من ابنــة فيلومتور المسماة كليوبترا (ثيا) .

ولكن الحوادث أثبتت أن بالاس لم يكن بالرجل الجدير بالملك فكرهه شــعبه ، وتحداه ديمتريوس الثانى ابن ديمتريوس الأول .

١٤٧ ق.م :

دخل بطليموس فيلومتور بجيشه الى بلاد سوريا وفلسطين لمساعدة بالاس زوج ابنته فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث أن انحاز الى ديمتريوس الثانى .

وقد استقبلته مدن فلسطين اليهودية ومدن فينقيا استقبالا رائعــا حتى لقــد عرضت عليه أنطاكية العرش ، ولكن فيلومتور أدرك أن ذلك يزج به فى صراع مع روما التى كانت تقف له بالمرصــاد ولذلك فقد أقنع الأهالى بقبول ديمتريوس الثــانى ملكا عليهم وزاد على ذلك أن زوجه ابنته كليوبترا ثيا وذلك مقابل النزول عن جوف سوريا لمصر .

١٤٦ ق.م :

انتهاء الحرب اليونانية الثالثــة بتدمير قرطاجنــة وابادتهــا على يد سكيبيو ايماليانوس .

١٤٥ ق.م :

نجح بالاس فى اعداد جيش جديد زحف به على شمال سوريا فتصــدى له فيلومتور على ضفاف نهر أونيو باراس حيث هزمه نهائيا ولقى حتفه ، ولكن فيلومتور بدوره أصيب بجرح قاتل ، أسلم الروح على أثره بعد أربعة أيام .

وقد كتب يوليبيوس عن فيلومتور يقول : انه كان أكثر كافة الملوك الذين عاشوا قبله وداعة وطيبة ، واليك دليلا بينا : فهو لم يقض بموت أحد من أصدقائه بسبب أى تهمة وجهت اليه . واعتقد تماما أنه لم يمت بأمر منه أى اسكندرى .

وقد اعتبر ديمتريوس أن نزوله لمصر عن جوف سوريا كأن لم يكن ... وانتهز فرصة موته وطالب جيوش بطليموس اما أن تنضم اليه أو أن تنسحب الى مصر .

اغسطس ١٤٥ ق٠م : بطليموس السابع : ثيوس فيلوماتور :

كان بطليموس السادس (فيلوماتور) قد أنجب من زوجته كليوبترا الثانيـة ولدين أكبرهما يوباتور وقد أشركه معه فى الحكم عام ١٥٢ ولكنه لم يلبث أن مات بعد عامين . فبقى ابنه الأصغر ثيوس فيلوماتور تحت وصاية أمه كليوبترا الثانية .

سبتمبر ١٤٥ ق٠م :

ارتقاء بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر ، اذ لم يكد يسمع عن موت فيلوماتور حتى عرفت أطماعه وزحف بجيشه صوب الاسكندرية ، وأرسل الى روما يذكرها بأنه رجلها الذى يجب أن تعتمد عليه . ووجدت روما مصلحتها المحققة فى أن يكون هو وليس ابن فليوماتور ملكا على مصر ، فسوف يكون مدينا بعرشـه لمسـاعدتها بعكس الآخر .

وأقنع الرومان كليوبترا الثانية أن تتزوجه وبهذا تصبح شريكة له واذ وجدت أن لا سبيل أمامها غير ذلك ، خاصة وقد ناهضها فريق كبير من سكان الاسكندرية لعطفها على اليهود ، فقد انصاعت للنصيحة وارتقى بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر واتخذ اللقب الالهى الذى كان يحمله بطليموس الثالث فأصبح يطلق عليه اسم يورجنس الثانى .. الذى بدأ حكمه الدموى بذبح ابن أخيه ثيوس فيلوماتور ويؤكد يوسبتوس المؤرخ انه ذبحه فى حضن أمه ليلة الزفاف . وعلى أية حال فلم يكن قتل ثيوس فيلوماتور الا أول حلقة من سلسلة المآسى التى خضبت حكم يورجنس الثانى المخيف بالدماء .

فقد اطلق لنفسه العنان فى قتل كل من يتشكك فى اخلاصهم له .. وقسا على علماء الاسكندرية وفنانيها فقد كانوا يعطفون على فيلوماتور مما جعلهم يفرون الى أنحاء العالم الاغريقى فبعثوا نهضة فى كل الأماكن التى فروا اليها .

ونال اليهود الذين كانوا محل عطف فيلوماتور حظهم من اضطهاده .

١٤٤ ق٠م :

رسم يورجيتس الثانى فى منف فرعونا وكان يسمى فبسكون أى البطين لترهل جسده وافراطه فى سمنته ، وأنجبت له كليوباترا الثانية ابنا سمى ممفيتس .

١٤٢ ق٠م :

ورغبة فى أن يحد يورجيتس من أطماع زوجته كليوباترا الثانية ، تزوج ابنتها

كليوباترا الثالثة التى لم تكن تقل عن أمها طموحا وقسوة ـ وتذكر الوثائق التاريخية من ذلك العهد فى ديباجتها عبارة : الملك والأخت والملكة الزوجة .

١٤٠ ق.م :

وصول وفد رومانى على رأسه سكيبو الذى دمر قرطاجنة فاستقبله يورجيتس بحفاوة بالغة ، ومشى مع الوفد من الميناء الى القصر الملكى وهو يلهث لفرط بدانته ـ وتقول القصة ان سكيبو أسر فى أذن بتلمانوس العسقلونى الذى كان يصاحبه فى الوفد ـ أن مواطنى الاسكندرية مدينون لنا بشىء واحد وهو أنهم شاهدوا ملكهم يسير على قدميه وقد سافر سكيبو فى النيل حتى وصل الى ممفيس وشاهد فى الطريق الحقول الخصبة والقرى الآهلة بالسكان .

١٣١/١٣٠ ق.م :

اندلع لهيب الثورة الذى كان متوقعا منذ أمد بعيد نتيجة تصرفات يورجيتس الدموية وحنق كليوبترا الثانية وسخط الاسكندريين عليه لتبعيته لروما وقد أراد أن يخمد الثورة بعمل يلقى الرعب فى القلوب فحاصر الجيمنازيوم وكان غاصا بالسكان وأشعلوا النار فى المبنى وقتلوا كل من حاول الفرار ، ولكن ذلك أدى الى استفحال نار الثورة فقرر الاسكندريون حرق القصر الملكى وأشعلوا النيران فيه : ولكنه كان قد تمكن من الفرار الى قبرص مع كليوبترا الثالثة وأولاده منها وكذلك ممفيس ابنه من كليوبترا الثانية ، التى انفردت بالحكم على العرش وتحدثنا المصادر التاريخية المعاصرة أن يورجيتس قتل ابنه فى ثورة غضبه وقطعه اربا وأرسل اشلاءه الى أمه كليوبترا الثانية هدية فى يوم عيد ميلادها .

١٢٧ ق.م :

سقوط الاسكندرية من جديد فى يد يورجيتس الذى كان قد عاد الى مصر بعد أن أعقبت مغادرته لها ثورات وفتن قامت فى أنحاء البلاد ، حيث كان الاغريق واليهود وجانب من الجيش يؤيد كليوبترا الثانية بينما كان باقى الجيش وفريق كبير من الشعب المصرى يؤيد يورجيتس ، ذلك أن يورجيتس بكل وحشيته ودمويته بالنسبة الاغريق واليهود وسكان الاسكندرية ، فقد كان يحسن معاملة المصريين . وعندما دخل يورجيتس الاسكندرية كانت كليوبترا الثانية قد لحقت بزوج ابنتها ديمتريوس الثانى الذى كان قد تصالح مع زوجته كليوبترا ثيا واستأنفا الحكم سويا .

وكان ديمتريوس قد خف فى بادىء الأمر عام ١٢٨ لنجدة كليوبترا الثانية ظنا

منه أن الفرصة قد حانت لتحقيق الاطماع التى راودت أنطيوخوس الثالث والرابع . غير أنه لم يستطع التقـدم وراء بليزيون حيث وجد يورجيتس فى انتظاره : وقد استغل يورجيتس كراهية الجيش لديمتريوس وعمل على تأليب جيشه ورعيته عليه ولذلك فقد رفض الجيش الاشتباك مما اضطره للانسحاب .

فما كان من كليوبترا الا أن ولت الى سوريا حاملة معها كنوز الدولة معـللة نفسها بتكوين جيش يساعدها على استعادة عرشها .

((بطليموس الثامن)) يورجيتس الثانى ـ أصدر قرار عام ١١٨ ق٠م :

جاء فيـه قيـام الخزانة الملكية بدفع نفقات دفن العجول المقدسـة وتأمين حق المعابد التى تتمتع بهـذا الحق فى حماية اللاجئين . وحظر حرمان المعابد من هـذا الحق والاعتداء وبلغ ما يملكه معبد ادفو فى عهده من الأراضى ما يبلغ ١٤ ميلا مربعا .

١٢٤ ق٠م :

تصالح يورجيتس مع كليوبترا الثانية ؛ وذلك لاسترداد الكنوز التى هربت بها ، ولأنه كان لا يزال لها أنصار كثيرون يصطدمون مع أنصاره .

١١٨ ق٠م :

أصدر يورجيتس وكليوباترا الثانية قرارا بالعفو العام عن كل ما وقع من جرائم خلال الفترة الماضية . والاعتراف للجميع بحقهم فى الاحتفاظ بما كانوا يملكونه آنذاك وهكذا اعترف كل من بطليموس وكليوباترا بما كان الآخر قد منحه لأنصاره ليطمئن الناس جميعا على ممتلكاتهم وتهدأ نفوسهم ويخلدوا جميعا الى السكينة .

١١٦ ق٠م :

فى ٢٨ يونيو من هذا العام مات يورجيتس فى الخامسة والستين بعد أن خلع عليه جنونه الدموى أسوأ سمعة لصقت بأى ملك من ملوك البطالمة ، على الرغم من محاولاته التى بذلها فى شيخوخته للتصالح مع أهل الاسكندرية والاغداق على العلماء والأدباء والفنانين ، ويرى استرابون أن يورجيتس تحمل نفقات بعثـة خرجت لاستكشاف الهند تحت اشراف الجغرافى يودكسوس .

وقد أخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز

باب المندب ، اجتازت هذا البوغاز ووصلت الى حضرموت فى جنوب بلاد العرب وبلاد بونت على شاطىء الصومال حيث كانت تستجلب العطور .

كما أبحر بودكسوس فى رفقة بحار هندى الى الهنـد ـ وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق.م وبمساعدة روما لمصر على حسـاب سوريا وفلسطين ـ واستكشاف هينالوس طرق الاسـتفادة من الرياح الموسمية عام ١٠٠ ق.م .

وكان يضمر حقدا دفينا لليهود لأنهم شدوا أزر أخيه بطليموس السادس ضده ونشطت الرسائل المعادية لليهود .

أخذت ثورة المصريين فى الوجه البحرى شكل الاضراب العام وفى القبلى الحرب .

أصدر قرار العفو فى ١٤٥ ق.م . ثم فى عام ١٤٠ ، ١٣٩ ـ ثم عام ١١٨ ق.م .

وقد حرص يورجيتس قبل وفاته على ارضـاء زوجته كليوباترا الثـالثة على حساب أمها فأوصى لها بالعرش من بعده ومن تختاره شريكا لها من بين ابنيها منه كما أوصى بمملكة قوريتانية لابنه غير الشرعى ايبون ، ولكن الاسكندريين فيما يبدو لم ينفذوا هذه الوصية ليحتفظوا بوحدة الدولة وجعلوا منه نائبا للملك . ويبدو أن أول ما فعلته كليوباترا الثالثة هو التخلص من أمها كليوباترا الثانية بطريقة ما ، فقد اختفى ذكرها من الوثائق الادارية بعد عام ١١٦ ، ولم يعد يسمع عنها شىء .

١١٦ ق.م :

ارتقى بطليموس التاسع ـ سـوثر الثـانى (لانيروس) ابن يورجيتس الأكبر العرش على الرغم من معارضة أمه كليوباترا الثالثة لذلك حيث كانت تفضل اخاه الأصغر (الاسكندر) ولكن الاسكندريين أرغموها على تولية الأكبر ، فحكم الى جوارها باسم بطليموس التاسع واتخذ اللقب الالهى سوثر الثانى ـ وأطلق الأهالى عليه اسم (لاثيروس) ومعناه حمص .

وأقامت كليوباترا ابنها الثانى (الاسكندر) نائبا للملك فى قبرص .

١١٥ ق.م :

طاق بطليموس التاسع أخته كليوباترا الرابعة التى كان يحبها حبا جما وذلك تلبية لارادة امه التى لم يستطع أن يقاومها وتزوج بنـاء على طلب امه كذلك أختـه الصغرى كليوباترا الخامسة (سيلمى أى القمر) .

فنقمت كليوباترا الرابعة على أمها هذا العمل ، وحاولت أن تكيد لها وتثأر لنفسها،

فهاجرت الى قبرص ، وبعد ذلك الى سوريا ، حيث كانت تعرض يدها وأموالها على من يمكنها من العودة الى الاشتراك فى حكم مصر ، ولكن ذلك انتهى بمصرعها ، ولكن هذه الخلافات الدموية كانت تفرى فى جسد الدولتين السلوقية والمصرية وتعجل ساعة وقوعهما فى يد روما لقمة سائغة .

١٠٧ ق.م :

دبرت كليوباترا الثالثة خطة لحمل الشعب السكندرى على خلع ابنها بطليموس التاسع وقد نجحت الخطة بحيث اضطر للهرب بحرا للنجاة بنفسه تاركا وراءه زوجه وابنيه ، وقد استقر بعد حين فى جزيرة قبرص .

وكانت كليوباترا قد استدعت ابنها الاسكندر بطليموس العاشر وأشركته معها فى الحكم وقد أسرع الرومان فاعترفوا بالملك الجديد ، فقد كان يسرهم أن تسرى الخلافات فى دولة البطالسة . كما أسرع باعلان ابيون استقلاله فى قوريتانية ولكى يؤمن هذا الاستقلال ويفوز بتأمين روما أوصى بقوريتانية لروما بعد موته .

١٠٤ ق.م :

استغاثت مدينة عكا ببطليموس التاسع الذى كان يقيم فى قبرص لانقاذها من حصار يافايوس اسكندر ملك اليهود ، حيث كانت مملكة يهودية قد استردت قوتها بتحالفها مع دولة الرومان ، ووسعت رقعتها على حساب جاراتها ، وبلغ الأمر بأن نادى بانايوس اسكندر بنفسه ملكا ، وراح يعمل على استعادة مجد اليهود كما بلغوه ايام داود .

وقد رأى بطليموس التاسع فى هذه الاستغاثة فرصة لأن يعود الى الأراضى أيام داود .

وقد دارت بينه وبين ملك اليهود معارك على الأرض السورية انتصر فيها على اليهود وناصرته مدينة غزة التى كانت خصما لليهود ولكل من يحالفهم ، وأسرعت أمه كليوباترا الثالثة بجيوشها وأساطيلها لتواجهه وتحبط مساعيه فوقفت الى جوار ملك اليهود .

وانتهت هذه الحروب والمعارك التى لم يستفد منها سوى اليهود بعودة بطليموس التاسع الى قبرص وعودة أمه الى الاسكندرية .

١٠١ ق.م :

وفاة كليوباترا الثالثة كوكى ، وانفرد الاسكندر الأول بملك مصر اسما وفعلا ، وقيل أن وفاة كليوباترا لم تكن طبيعية وان ابنها هو الذى قضى عليها .

واذ انفرد بطليموس العاشر بالملك فقــد انخرط فى شهواته ، قيل أنه كان بدينا منتفخا من الشحم كأبيه الى حد أنه كان يعجز عن المشى الا اذا سنده خادم من كل جانب ويقول المؤرخون المعاصرون ولكنه كان اذا شرب حتى ثمل أظهر رشاقة فائقة فى أداء الرقصات الخليعة .

٨٩ ق.م :

كان طبيعيا أن يؤدى انفصال كوريناتيه عن مصر وسوء الأحوال الداخلية ، الى أنفجار الشعب السكندرى ، وأسرع الجيش بالانضمام الى الشعب ففر بطليموس العاشر الى سوريا ولمــا حاول أن يسترد الاسكندرية بمساعدة جيش من المرتزقة طردوه مرة ثانية .. وانتهى الأمر بهلاكه فى معركة بحرية .

٨٨ ق.م :

خلا الجو بوفاة بطليموس العاشر لبطليموس التاسع الذى استدعاه الاسكندريون من قبرص ليتولى حكم مصر ..

واذ كانت التقاليد تحتم وجود زوجين على العرش وكان بطليموس التاسع قد بلغ من العمر ٥٤ سنة فقد استدعى ابنته براتيكى الثــالثة التى كانت زوجة بطليموس العاشر وأشركها معه فى الملك وعرفا ســويا باسم الالهين فيلادلفوى فيلومشورس سوثرس .

وكان المصريون فى داخل البلاد قد ضاقوا بهذه المنازعات التى لا تنقطع بين أفراد الأسرة الحاكمة .. وما يؤدى اليه ذلك من ضياع مصالح الشعب .. فقامت فى الوجه القبلى ثورة عارمة تزعمتها مدينة طيبة استمرت ثلاث سنوات : ولكنها انتهت بتخريب طيبة عام ٨٥ ق.م

واذ كانت روما فى هذه الفترة مشتركة فى بعض الحروب فى آسيا الصغرى ، وتمردت عليها أثينا ومدن الاغريق وكانت الفتن قد ثارت فى روما نفسها ضد نبلائها الذين يقودون جيوشها فى الخارج وعلى رأسهم صلا ، فقد آثر بطليموس التاسع أن يقف على الحياد من هذه الأحداث .. فى الوقت الذى ساعد الاثينيين فيه على اعادة بناء مدينتهم التى خربها صلا حتى لقد أقاموا له ولابنته برنيكى الثالثة تمثالين عند مدخل الأورين اعترافا بجميلهما .

٨١ ق.م :

مات بطليموس التاسع عن اثنتين وستين سنة تقريبا .. تاركا وراءه على العرش ابنته برنيكى الثالثة ، باعتبارها الوارثة الوحيدة للعرش ، وقد رضى بها الاسكندريون ملكة حتى لا يثيروا الخلافات الأسرية ولأنهم كانوا يحبونها من ناحية أخرى .

ولكن بطليموس التاسع كان قد أنجب ولدين من كليوبترا سلينى .. وكانت كليوبترا الثالثة قد أرسلتهما الى كوش حوالى ١٠٣ ق.م. محافظة على سلامتهما كما أرسلت ابنا لبطليموس العاشر .

وقد فر هذا الأخير وانضم الى صلا القائد الرومانى الذى أخذه معه الى روما ، فلما أن مات بطليموس التاسع ، وكان صلا قد أصبح فى ذلك الوقت ديكتاتور روما وسيد العالم الرومانى ــ رأى أن ليس هناك ما يخدم مصالح روما أكثر من أن يقيم على عرش مصر صنيعة له ــ فأرسله الى الاسكندرية بأوامر منه أن يكون ملكا .

فنودى به ملكا باسم بطليموس الحادى عشر اسكندر الثانى وتزوج برنيكى الثالثة ابنة عمه . وكانت زوجة أبيه فيما مضى .

ويبدو أن برنيكى لم تعبأ بهذا التعيين لاعتقادها انها ستستطيع السيطرة على زوجها الصغير واستبقاء كل السلطة الفعلية فى قبضتها ولكن بطليموس الحادى عشر كان مصمما فيما يبدو على أن يكون اسما وفعلا ولذلك فقد قتل زوجته فى اليوم التاسع عشر من زواجه منها .

فأهاجت هذه الجريمة الاسكندريين الذين انقضوا عليه فى القصر وجروه منه وقتلوه فى الجيمنازيوم .. وهكذا لم يدم حكمه أكثر من تسعة عشر يوما .

بطليموس الثانى عشر (الزمار) :

وقد أسرع الاسكندريون لاستدعاء ولدى بطليموس التاسع اللذين كانا فى سوريا، وجعلوا من أكبرهما ملكا على مصر وأصغرهما ملكا على قبرص . وقد اتخذ ملك مصر الجديد بطليموس الثانى عشر لقب فيلاباتور فيلادلفوس ــ لكنه لم يلبث أن أضاف الى ذلك لقب « ثيوس ديونسيسيوس » .

ولكن أكثر القابه شيوعا كان هو لقب أوليتس أى « الزمار » حيث كان يهوى عزف الناى واذ كان ارتقاء هذا الملك الجديد قد تم بارادة الشعب الاسكندرى وبغير استشارة روما فقد رفضت الاعتراف بالملك الجديد ، وزعمت أن بطليموس الحادى عشر كان قد أوصى بمصر لروما ، ولا تفسير لذلك الا أن يكون صلا قد أرغمه قبل ارساله الى مصر على كتابة هذه الوصية . ولكن انهماك روما فى خلافاتها الداخلية وحروبها المتعددة من ناحية ، ومبادرة بطليموس الزمار لرشوة نبلاء روما وأعضاء مجلس

شيوخها .. أبقاه على العرش على أنه أصبح فى روما منذ ذلك الوقت ما يعرف « بالمسألة المصرية » والتى اختلفت حولها الأطراف ما بين داع الى ضمها الى ممتلكات روما ، وما بين معارض لذلك لمجرد النكاية فى الحزب الآخر لاضعافه .

وقد أتم بناء وزخرفة معبد ادفو ــ وهو من أروع ما أنتجه فن العمارة المصرية فى عهد البطالسة .

وقد قامت ثورة فى عهد سوتر الثانى .

٧٤ ق.م :

.. ضمت روما قوريتانية الى مملكاتها فحولتها الى ولاية رومانية بناء على الوصية التى أوصاها بطليموس آبيون عام ٩٦ ق.م. مما زاد فى ازعاج بطليموس الزمار ، وجعله يضاعف فى خضوعه لروما وتزلفه لها ، ورشوته لكبار رجالها ، حتى لا تنفذ الوصية المقول بأن بطليموس الحادى عشر تركها لها .

٦٥ ق.م :

قدم الحزب المناوىء لبومبى وعلى رأسه كراسوس ويوليوس قيصر ، لمجلس الشيوخ الرومانى مشروعا لضم مصر للامبراطورية وتكليف يوليوس قيصر بالقيام بهذه المهمة ، بحجة تنفيذ وصية بطليموس الحادى عشر ولأن مصر كانت أغنى دولة فى البحر الأبيض المتوسط ، وان قمح مصر الفائض عنها سوف يتدفق على أسواق الامبراطورية الرومانية ــ ولكن هذا المشروع رفض بفضل معارضة شيشرون صديق بومبى ــ ومعارضة النبلاء حتى لا تذهب خيرات مصر الى خصومهم من رجال حزب الشعب .

وتوالت المشروعات السافرة والمقنعة لضم مصر ولكن أنصار بومبى استطاعوا أن يحبطوها .

٦٤ ق.م :

نجاح بومبى لتحويل سوريا الى ولاية رومانية .

٦٣ ق.م :

نجاح بومبى فى ضم فلسطين وتحويلها الى ولاية رومانية واذ كان الفزع قد استبد

ببطليموس الثانى عشر فقد أمطر بومبى وجيشه بالهدايا ودعاه لزيارة مصر . وقد قبل بومبى الهدايا ولكنه رفض الدعوة – وعاد الى روما ليدخل فى تحالف مع خصميه القديمين كراسوس وقيصر ، مؤلفين بذلك ما يعرف فى التاريخ باسم « الحكومة الثلاثية الأولى » .

٦٠ ق.م :

زار ديودورس الصقلى المؤرخ مصر فى هذا العام ، ووصف لنا كيف كان المصريون من شدة فزعهم من روما يستقبلون أى وافد من ايطاليا بحفاوة بالغة . وخرجوا مدفوعين بالخوف على الا يهيئوا للرومان سببا للشكوى منهم أو اشهار الحرب عليهم .

ويروى حادثا يقول انه رآه بعينه وذلك أنه عندما قتل أحد الرومان قطا تدفقت الجماهير الفقيرة على بيته ولم يستطع الموظفون الذين أرسلهم الملك للمطالبة بالرجل ولا شعور بالخوف العام من روما أن ينقذه من العقاب مع أن ما فعله كان عن غير قصد .

٥٩ ق.م :

فقد نجح بطليموس الثانى عشر من ابتياع تأييد يوليوس قيصر – الذى عين قنصلا عاما وكان فى مسيس الحاجة الى النقود – بمبلغ كبير قدره ٦٠٠٠ تالنت أى ما يعادل ١٫٣٢٠٫٠٠٠ جنيه تقريبا .

وصدر قانون خاص بملك الاسكندرية اعترف فيه ببطليموس الزمار ملكا – وفى الوقت نفسه صديقا وحليفا للشعب الرومانى جزاء لما قدمه من الخدمات للجيش الرومانى فى آسيا .

وتنفيذا لهذا القانون عقدت معاهدة تحالف مع مصر ووضعت نسخة منها فى سجلات الكابتول .

٥٨ ق.م :

ضمت روما جزيرة قبرص وصادرت أملاك التاج بها لصالح الخزانة الرومانية . وقد انتحر ملك قبرص بتناول السم رافضا أن ينفذ هذا القانون طواعية واختيارا . وقد كانت هذه عملية سطو سافرة لم تعوزها كما هى العادة الحجج فقد اتهم ملك قبرص بأنه كان يعادى روما ، كما أثيرت من جديد مسألة الوصية التى أوصاها

بطليموس الحادى عشر ... ولكن كانت روما باعترافها ببطليموس الثـانى عشر ملكا وفىعلى مصر وحليفا ، قد أبطلتها .

وهكذا لم يبق لدولة البطالسة سوى مصر فقط .

وغضب الاسكندريون لضياع قبرص وطالبوا بطليموس اما أن يعمل على استرداد قبرص أو أن يقطع علاقته بالرومان ، واذ بلغت ثائرة الاسكندريين الى الحد الذى ينذر بالخطر فقد فر بطليموس الزمار نجاة بنفسه حيث ذهب الى روما يستعديها على شعبه ، حيث استقبله بومبى .

وعلى الفور أقام الاسكندريون ابنته برنيكى الثالثة مكان أبيها على العرش .

٥٦ ق.م :

تزوجت برنيكى الثالثة ارخلاوس أحد أمراء سوريا ، ليكون شريكا لها فى العرش ويدافع عن مصر ضد الأخطار التى أصبحت تتهددها .

٥٥ ق.م :

لجأ بطليموس (الزمار) الى حاكم سوريا الرومانى ليساعده على استرداد عرشه بعد أن فشل فى حمل مجلس الشيوخ الرومانى على اعادته بالقوة .

وقد استطاعت جيوش جابينوس حاكم سوريا التى كان بطليموس على رأسها أن تدخل الاسكندرية .

وفى هذا الجيش الرومانى ظهر ماركوس انطيوس لأول مرة على الأرض المصرية التى سيلعب عليها دورا كبيرا فى المستقبل ، وكان قائد الفرسان .

ولم يكن لبطليموس بعد عودته من هم الا أن ينتقم من ابنته وأنصارها باعدامهم وهو ما أقدم عليه بالفعل ، وامتصاص دم رعاياه للوفاء بدينه للمرابين الرومان الذين أقرضوه الأموال اللازمة لاستعادة عرشه ، ولدفع الرشوة التى وعد بها حاكم سوريا . حتى لقد عين رابيروس المرابى الرومانى وزيرا للمالية لكى يحصل الديون : ورشوة جابينوس ... الأمر الذى جعله يعتصر الشعب اعتصارا — الأمر الذى أنذر باندلاع الثورة ، مما اضطر بطليموس الى القبض عليه وعماله وسجنه وذلك لتهدئة غضب الجماهير وحماية له من ناحية أخرى .. وهرب رابيريوس ، خاويا خالى الوفاض ، بعد أن أوشك أن يهلك اكثر من مرة . وقد اتضح ذلك كله من المحاكمات التى تعرض لها هو وجانينوس حاكم سوريا فيما بعد فى روما ، لاتهامهما بالخيانة العظمى والرشوة .

٥١ ق.م

مات بطليموس الزمار مكروها من شعبه محتقرا من الرومان .

ويحدثنا استرابون بأن كل البطالسة الذين أتوا بعد بطليموس الثالث كانوا ملوكا عابثين أفسدتهم الرذائل ، وان أسوأهم جميعا كان رابعهم بورجيتس الثانى وبطليموس الزمار ، وان الأخير أضاف الى عبثه وفجوره ولعا شديدا بلعب المزمار وانه كان فخورا بمواهبه الموسيقية الى حد أنه كان لا يخجل من الاشتراك فى المسابقات الموسيقية التى كان يقيمها فى قصره .

حكم كليوباترا السابعة وبطليموس الثالث والرابع عشر

لم يمت بطليموس الزمار الا بعد أن كان قد أنجب ابنتين هما كليوبترا وراسينوس وولدين وهما بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر ، وكان قد أوصى أن يلى العرش ابنه الأكبر البالغ من العمر عشر سنوات ، على أن يتزوج أخته كليوبترا البالغة من العمر ثمانية عشر عاما ويشركها معه فى الحكم . ولما كان بطليموس الزمار يعرف كراهية الاسكندريين فقد عهد الى الشعب الرومانى بالاشراف على تنفيذ وصيته ، وأرسل نسخة من الوصية الى روما وأودع الثانية الاسكندرية .

وقد نفذ الاسكندريون الوصية حتى لا يدعوا مجالا لروما للتدخل ، وهكذا بدأت كليوبترا السابعة حكمها والتى كان مقدرا لها أن تخلد من دون سمياتها عبر التاريخ على الرغم من أن نهاية الحكم البطلمى وتحول مصر الى ولاية رومانية كان على يدها .

والقول على انها لم تكن فاتنة من حيث الجمال ، ولكن هناك اجماعا على جاذبيتها الشديدة وقدرتها على اثارة حب الرجال ، وكانت مثقفة ثقافة عالية مع الاحاطة بعديد من اللغات ــ وللمصريين كانت تبدو كأنها ايزيس عاطفة عليهم ــ ولم تكن تتحرج أو تتأثم عن فعل شىء ، ولكنها كانت قادرة على أن تثير فى من تختاره صديقا لها ، أعمق مشاعر الولاء لها ــ واذ كانت تملك طاقة كبيرة وشجاعة وجاذبية وذكاء ، فقد كرست حياتها لتحقيق هدفين ــ تثبيت دعائم مكانتها ومكانة أسرتها فى مصر وان تشارك فى السلطة المركزية لروما . وقد كان هذا الهدف الأخير الذى يملأ قلب أعدائهـا من الرومان بالحقد .

٤٩ ق.م :

ثار النزاع فى روما بين قيصر وجيوشه من ناحية وبومبى ومجلس الشيوخ من ناحية أخرى ، فاضطر بومبى الى الجلاء عن ايطاليا والانسحاب الى الشرق ، وأرسل ابنه خنايوس الى كليوبترا يطلب منها المعونة . فأمدته كليوبترا بخمسين أو ستين

سفينة ومددا من القمح وقوة قوامها خمسمائة رجل من حامية جانبيوس التى كان قد تركها بالاسكندرية وقد أوغر ذلك صدر الشعب السكندرى ضد كليوبترا فاجبرها على الفرار من مملكتها ، ولكنها اذ كانت تحمل فى عروقها دم كل الملكات المقدونيات اللواتى سبقتها من حيث الطموح وقوة الارادة ، وزادت على كل الملكات اللواتى سبقتها تعلمها اللغة المصرية بل والعامى منها ، ولغات البدو والعبرانية .. فقد ذهبت الى حدود مصر الشرقية وراحت تجند من الاعراب جيشا راحت تزحف به على مصر ، فجمع أوصياء الملك قوة وأسرعوا شرقا ومعهم الملك الصغير لصد كليوبترا ، فتواجه الجيشان عند رأس كاسيون شرقى بلوزيون .

٤٨ ق.م :

هزم بومبى فى موقعة فارسلوس أمام جيوش قيصر ، ففقد ثقته بنفسه ولاذ بالفرار والتجأ الى معسكر الملك بطليموس الصغير ، فذبحه أنصار الملك ليتقربوا بهذه الفعلة الى يوليوس قيصر ، الذى وصل بعد وقوعها ونزل فى الاسكندرية فى قوة صغيرة لا تزيد عن ٨٠٠ فارس و ٣٢٠٠ من المشاة ، وسار فى طرقاتها تحفة شارات الحكم الرومانى بوصفه قنصلا واتخذ من قصر البطالمة مسكنا له . وقد دل هذا التصرف على أنه اعتبر مصر ولاية رومانية والاسكندرية مدينة مقهورة ، فأحنق ذلك الشعب الاسكندرى وغلت مراجل غضبه ، فاعتكف يوليوس قيصر فى القصر وما يحيط به ، ليأمن غائلة الشعب . وأرسل يستدعى كليوبترا وبطليموس المتنازعين ليمثلا أمامه ويحكم بينهما طبقا للوصية التى تركها أبوهما بطليموس الزمار .

وكان على كليوبترا لكى تمثل أمامه بدون أن تقع فى يد خصومها أن تتسلل متخفية ، فهربها بعض أنصارها الى داخل القصر ملفوفة فى سجادة . ولم تكد كليوبترا تنجلى أمام يوليوس قيصر حتى ملكت عليه لبه وأسرته بغرامها . وحاول قيصر ان ينفذ نص الوصية وهو أن تحكم كليوبترا بالاشتراك مع بطليموس الصغير ، ولكن الصبى ما كاد يرى أخته حتى استولت عليه عاصفة من الغضب والقى بتاجه وجرى فى الشوارع يصرخ من الخيانة ، مؤلبا الشعب على روما وقيصر وأخته ، وأعد أوصياؤه العدة لمحاربة يوليوس قيصر . فزحفوا بالجيش الذى كان معدا ومجهزا فى بلوزيون وزحفوا به على الاسكندرية ، وحاصروا يوليوس قيصر وجيشه فى الحى الملكى ، فأرسل يوليوس قيصر يطلب النجدات من أرجاء الامبراطورية بينما صمد للحصار الذى فرض عليه .

ولما كان للاسكندريين فى الميناء ٧٢ سفينة وفى الأحواض ٣٨ سفينة أخرى ، فقد قرر يوليوس قيصر احراقها حتى لا ينتفع بها المحاصرون له ، فامتد اللهب الى المكتبة الكبرى على أرجح الآراء فاتى على هذا التراث الانسانى الذى لم يسبق له مثيل فى دنيا المعرفة والتحضر .

وليس هناك ما يصور الموقف ادق تصوير من ان ننقل بعض فقرات من كتـاب حرب الاسكندرية :

« واذ كانت الاسكندرية مدينة غزيرة الانتاج وافرة الثراء ، فقـد أخذت تجهز معدات من جميع الأنواع ، وكان سكانها أنفسهم على أكبر قدر من الذكاء وسـعة الحيلة . وعندما رأوا ما صنعناه من معدات صنعوا مثلها بمهارة فائقة حتى بدا كأن رجالنا اقتبسوها منهم ، كما ابتكروا بأنفسهم أشياء كثيرة . ولم يتمكنوا من مهاجمة تحصيناتنا فى نفس الوقت الذى كانوا يدافعون فيه عن مراكزهم . وقد أخذ زعماؤهم يسوقون مثل هذه الحجج فى المجالس والاجتماعات الشعبية : ان الشعب الرومانى قد وطن نفسه تدريجيا على اغتصاب هذه المملكة . فقـد حضر أولوس جابينيوس بجيشه الى مصر منذ سنوات قليلة مضت . كما التجأ اليها بومبى بعد فراره . وها هو ذا قيصر جاء مع قواته ، ولم يحمله موت بومبى على العدول عن البقاء بينكم . فاذا لم تطردوه فستصبح مصر ولاية بعد ان كانت مملكة . ولا بد أن يتم جلاؤه بسرعة لأنه معزول بفضل العواصف فى مثل هذا الفصل من السنة ، فلا يستطيع أن يتلقى امدادات من وراء البحر » .

٤٧ ق.م :

٢٧ مارس : احرز يوليوس قيصر النصر على بطليموس بعد أن وصلت اليـه النجدات من الشرق برا ومن البحر . وقتل بطليموس الثالث عشر فى المعركة .

ومضى قيصر فى تنفيذ وصية بطليموس الزمار فأقام كليوبترا ملكة على مصر وأشرك معها فى الحكم أخاها الأصغر بطليموس الرابع عشر .

وأمضى مع كليوباترا ثلاثة أشهر أخرى .. ولم يغادر مصر مبحرا الى سوريا ليقصد منها آسيا الصغرى الا فى المدة بين ١٥ ابريل و ٥ مايو من السنة . وقد اعتبرت كليوبترا نفسها زوجة شرعية ليوليوس قيصر وأطلقت على ابنها منه الذى أنجبته فى شهر يونيو من نفس العام اسم قيصر وان كان الاســـكندريون أطلقوا عليه اسم قيصرون .

٤٦ ق.م :

وصلت كليوباترا الى روما لتحقيق مشروع زواجها رسميا واعتراف يوليوس قيصر بابنه منها ، وقد أسكنها قيصر وابنها وأخاها وحاشيتها فى قصره عبر نهر التيبر ، وقد شهدت مع قيصر الاحتفالات الراقصة التى أقيمت بمناسبة انتصاراته الضخمة ، وقد أقام لها قيصر تمثالا من الذهب فى معبد فينوس التى كانت تعتبر أم

الرومان جميعا مما دل على انه يؤلهها تمهيدا لزواجه منها ، كما نقل انطونيوس الى مجلس الشيوخ نبأ اعتراف قيصر بأبوته لقيصرون .

وهكذا عاشت كليوباترا فى روما باعتبارها سيدة روما المقبلة ، وعلى هذا الأساس كان نبلاء الرومان يكرهونها ، وفى ذات الوقت يتزلفون اليها ، فى الوقت الذى كانت تتعالى عليهم بل لقد حدثنا شيشرون انها عاملته بطريقة مسيئة .

٤٤ ق.م :

فى منتصف مارس من هذه السنة قتل يوليوس قيصر نتيجة المؤامرة الشهيرة التى دبرها له أحرار الرومان من أعضاء مجلس الشيوخ وعلى رأسهم بروتوس وكاسيوس ، خوفا منهم من أن يعلن يوليوس قيصر نفسه ملكا عليهم ، وكراهيتهم لحكم الفرد البطل وانفراده بالسلطة .

وكان طبيعيا وقد انهارت آمال كليوباترا وخططها بمصرع قيصر ان تفر عائدة الى مصر .

ورغبة منها فى تثبيت مركزها فى مواجهة روما .. أشركت معها ابنها قيصرون فى الحكم . ويرينا معبد دندرة كليوباترا فى صورة الآلهة حتحور ومعها ابنها قيصرون فى شكل فرعون .

٤٣ ق.م :

تألفت الحكومة الثلاثية الثانية من اكتافيوس ابن بنت اخت قيصر الذى أوصى يوليوس قيصر بأن يكون وريثه ، ومن انطونيوس الذى اضطلع ببعث الاقتصاص من قتلة قيصر ، فألقى تأبينه التاريخى المشهور لقيصر والذى قلب فيه عواطف جماهير روما ضد قتلة قيصر ، أما ثالث الحكومة فكان يدعى ليبدوس حاكم ولايتى الغال وأسبانيا وتم الاتفاق على أن تدوم هذه الحكومة حتى شهر يناير سنة ٣٧ ق.م.

وكان من بين أعمال هذه الحكومة الاعتراف رسميا بديانة ايزيس المصرية ، والتى كانت روما تتأرجح حيالها بين التشجيع والحظر منذ عام ١٨٦ ق.م.

وقد وقفت كليوباترا بحذق عجيب على الحياد خلال الصراع الذى نشب على السلطة عقب وفاة قيصر ، فلم تنحز كما كان متوقعا الى أنصار قيصر وآثرت أن تنتظر نتيجة المعركة فدل ذلك على أنها كانت تفكر بعقلها لا بعاطفتها ، وتعمل طبقا لمصالح استقلال مصر .

٤٢ ق.م :

انتصر اكتافيوس وانطونيوس نهائيا فى معركة لحيلى الحاسمة على قتلة قيصر . وعهد الى انطونيوس بتنظيم شئون الشرق ، بينما عاد اكتافيوس الى ايطاليا ليوزع الأراضى بين جنوده القدماء .

ووصل انطونيوس الى افسيس ، وبدأ يستدعى حكام الشرق الذين حامت حولهم الشبهات فى خلال الصراع الذى تلا مقتل قيصر ، وكانت كليوباترا ممن تلقت طلب الاستدعاء فلم تلبه فى بادىء الأمر ، وتركته طويلا فى انتظارها .. فلم يلبث أن ارسل لها رفيق مجونه ليستحثها على لقاء انطونيوس فى كيليكيا ، فرأت كليوباترا أن تشرع فى خطتها الجديدة ، وهى أن تستولى على لب سيد روما الجديد كما سلبت لب سيدها السابق .

فاستقلت مركبا مقدمها من الذهب ، وقلاعها من القماش الارجوانى اللون ومجاديفها من الفضة ووسط العطور العبقة والموسيقى الشجية ، وبين غوان تمثل آلهة الحب وعرائس البحر ، وصلت الى طرسوس ، ودعت انطونيوس الى مقابلتها على هذا المركب ولم تذهب اليه ..

وقد أخذ ذلك المنظر بلب انطونيوس، فوقع أسير غرام كليوباترا ، وأصبح مصيره منذ هذه اللحظة بل مصير روما كلها رهنا بمشيئة الملكة المصرية وكان أول ما فعله أن جاء مع الملكة الى مصر ، حيث قصت كتب الأدب والتاريخ حياة كليوباترا وانطونيوس فى هذه الفترة ، فى كثير من الخيال ، والمبالغات المسرفة ، حتى ليعزون الى كليوباترا انها كانت تذيب اللآلىء الغالية فى الخل لتشرب وتسقى انطونيوس ، ويدحض الدكتور ابراهيم نصحى هذه الخرافات بحجة بسيطة ناصعة وهى أن الخل لا يذيب اللؤلؤ .

٤٠ ق.م :

غادر انطونيوس مصر ليواجه مشاكل الامبراطورية . وقد كاد يقع الاصطدام بينه وبين اكتافيوس ، ولكن مساعى التوفيق نجحت بين الرجلين اللذين اصبحا سيدى الدولة الرومانية وبمقتضى الصلح الذى تم بين الرجلين أعطى الشرق لانطونيوس على أن تنتهى منطقته عند شاطىء البانيا ، وكان الغرب من نصيب اكتافيوس. بينما احتفظ ليبدوس بشمال افريقيا وتأكيدا لأواصر الاتفاق تزوج انطونيوس اكتافيا أخت اكتافيوس . واتخذ من أثينا مقرا لحكمه .. وهكذا بدا كما لو كانت كليوباترا قد اختفت نهائيا من صورة حياته ، فى الوقت الذى كانت فيه قد أنجبت منه توأمين فى هذه الفترة سميا اسكندر هليوس (أى الشمس) وكليوباترا سبلنى أى القمر .

٣٧ ق.م :

وصل انطونيوس الى انطاكية بعد أن أعاد زوجته اكتافيا الى ايطاليا لتضع طفلها وأرسل يستدعى كليوباترا الى جانبه ، ولم تكد تصل اليه حتى تزوجها فى الحال واعترف بابنيه منها ، وأصبحت كليوباترا فى نظر الجميع شرق بحر الادرياتى هى زوجة أنطونيوس الشرعية وان رفض الرومان اعتبارها كذلك لعدم تطليق انطونيوس لاوكتافيا .

وقد طلبت كليوباترا هدية زواجها من انطونيوس أن يعيد لها امبراطورية البطالمة . وقد حقق لها انطونيوس كل امنيتها فرد لها كل سوريا الوسطى وكليكيا وقبرص وجزيرة كريت والجانب الأكبر من شواطىء فلسطين وفينيقيا ولم يمنع عنها الا مملكة هرود (اليهودية) كما رد اليها قوريتانية التى كانت قد ضمت الى روما من قبل .

٣٦ ق.م :

انجبت كليوباترا لانطونيوس ولدا جديدا أطلقت عليه اسم بطليموس فيلادلفوس تخليدا لذكرى استعادة امبراطورية هذا الملك .

٣٥ ق.م :

شن انطونيوس حملة خائبة على بارثيا ، انتهت بما يشبه النكبة ، حيث اضطر الى انسحاب مشئوم كلفه خسائر فادحة ، ويصور لنا بلوتارك الذى روى تاريخ هذه الأحداث ، صورة مؤثرة لموقف اكتافيا من انطونيوس فى هذه المحنة لا نعرف مداها من الدقة . ولكننا نثبتها هنا لجمال الصورة من ناحية ، ولما سيكون لها من تأثير على سير الحوادث فيما بعد .

فعندما علمت اكتافيا أن انطونيوس فى حاجة الى مساعدة برحت ايطاليا ومعها مقادير كبيرة من المال والملابس وغير ذلك من حاجة الجيش وألفى جندى من الجنود المختارين .

ولكنها عندما وصلت الى أثينا وجدت رسالة من انطونيوس يأمرها بعدم الشخوص اليه . فأطاعت زوجها كأى زوجة فاضلة وأنفذت اليه مبعوثا ليسأله عن الجهة التى يريد أن ترسل اليها ما أعدته من امدادات . وقد أثار هذا المسلك غضب اكتافيوس فأمر أخته بأن تترك بيت انطونيوس لكنها رفضت وظلت فى بيت زوجها ترعى أولاده ، سواء كانوا منها أو من زوجته الأولى فولفيا .

٣٤ ق.م :

غزا انطونيوس ارمينيا واخضعها فأصبحت ولاية رومانية وخطب ابنة ملك ميديا لابنه اسكندر هليوس الذى اعتزم أن يمنحه ارمينيا .

وقد احتفل انطونيوس بانتصاره فى الاسكندرية على خلاف ما جرى عليه العرف بألا يحتفل القواد الرومان بانتصاراتهم الا فى روما . وقد دل ذلك على أنه ينوى نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى الاسكندرية ويقول بعض المؤرخين ان ذلك لم يكن يطيب لكليوباترا التى كانت تتوق الى حكم الامبراطورية الرومانية من عاصمتها الأصلية ، حيث اشتهر عنها انها كلما أرادت تأكيد أمر من الأمور أن تقول : انها متأكدة من هذا الشيء أو ذاك تأكدها من انها سوف تصدر الأحكام يوما فى الكابتول .

وخطا انطونيوس خطوة كبيرة نحو تحقيق أحلام كليوباترا ، عندما دعا الشعب السكندرى والقواد والجنود الى اجتماع حاشد فى الجيمنازيوم .

وقد أقيم على منصته عرشان مرتفعان جلس عليهما انطونيوس وكليوباترا ، وعلى مستوى أدنى جلس على عروش أخرى قيصرون فاسكندر هليوس فبطليموس فيلادلفوس فكليوباترا سيلنى ـ وكانت كليوباترا فى زى الآلهة ايزيس واسكندر هليوس فى زى الملوك الآخيين وفيلادلفوس فى الزى المقدونى وخاطب انطونيوس الحاضرين بأن كليوباترا كانت زوجة قيصر وان قيصرون ابن قيصر الشرعى . ثم نادى بكليوباترا ملكة الملوك وقيصرون ملك الملوك على أن يحكما سويا مصر وقبرص وتمتد سيادتهما على ممالك أبناء كليوباترا الآخرين ونادى باسكندر هليوس ملكا على ارمينيا وميديا وبارثيا (بالرغم من أنه لم يكن قد فتحهما بعد) وببطليموس فيلادلفوس ملكا على ممتلكات مصر فى سوريا وفينيقيا وكليكيا . ولكليوباترا سيلنى على قوريناتية .

وبدأت الأحداث كلها تتجه صوب قرب وقوع اشتباك بين انطونيوس واكتافيوس.

٣٢/٣٣ ق.م :

قضى انطونيوس وكليوباترا الشتاء فى مدينة افيسوس حيث كانا يجمعان جيوشهما وأساطيلهما للاصطدام بقوات اكتافيوس . وفى هذه الفترة اهدى انطونيوس الى كليوباترا مكتبة برجام (٢٠٠٫٠٠٠ مجلد) تعويضا لها عن الكتب التى ذهبت طعمة للنيران أثناء حرب الاسكندرية .

٣٢ ق.م :

قرر انطونيوس نهائيا اعلان الحرب على اكتافيوس وطلق اكتافيا .

وفى هذه الفترة خطا اكتافيوس الخطوة الأخيرة لتأليب الشعب الرومانى على

انطونيوس اذ استولى على وصيته التى كانت مودعة طبقا للتقاليد الرومانية عند الكاهنات العذارى ، وبموجب هذه الوصية كان يؤكد هذا الذى أعلنه فى مصر من تولية أبناء كليوباترا على ممالك الشرق ويوصى بأن يدفن فى الاسكندرية حتى لو مات فى روما .

فاعتبره الرومان انه أصبح أسير امرأة أجنبية يرغب فى جعلها ملكة عليهم ، فراحوا يوجهون الى كليوباترا كل الموبقات والمثالب .

وأسرعت الولايات الرومانية تظهر تصميمها على الحرب واعلن اكتافيوس حرمان انطونيوس سلطانه وحقه فى تولى منصب القنصلين ، ثم أعلن الحرب على كليوباترا لا على انطونيوس .

٣١ ق.م – موقعة اكتيوم :

وفى كتب التاريخ التفصيل الدقيق لسير الحرب البرية بين اكتافيوس وانطونيوس وكليوباترا على شواطىء بحر الادرياتيك ولكن المعركة التى حسمت النزاع هى المعركة البحرية الشهيرة اكتيوم. وقد دار الخلاف بين المؤرخين والباحثين عن موقف كليوباترا من هذه المعركة ، وعما اذا كانت قد خانت انطونيوس كما زعم البعض فانسحبت بأساطيلها الى مصر ، أم أن الانسحاب كان خطة متفقا عليها بين انطونيوس وكليوباترا .

ويلخص الدكتور ابراهيم نصحى رواية بلوتارك عن الموقف فى هذه المعركة فى النقاط الثلاث الآتية :

١ – ان اكتافيوس كان متفوقا فى البحر بينما كان انطونيوس متفوقا فى البر ، لكن انصياعه لكليوباترا جعله يقرر خوض المعركة الفاصلة بحرا .

٢ – ان كليوباترا غدرت بأنطونيوس ، اذ أنها حرضته على خوض معركة بحرية وبدلا من أن تساعده على كسبها أعدت نفسها للهرب .

٣ – ان انطونيوس لم يكن له أمل فى النصر بدليل انه أمر سفنه بحمل اشرعتها معها .

وبعد مناقشة مستفيضة لكل الأقوال يبنى مؤرخنا لهذه الفترة من تاريخ مصر الدكتور ابراهيم نصحى أن المعركة التى جرت فى اكتيوم كانت لتغطية الانسحاب الى مصر بحرا .

وقد عاد انطونيوس الى مصر فى حالة انهيار تام على عكس كليوباترا التى كانت فى أوج نشاطها ، وكان عقلها يعمل بسرعة ويدبر فى خطط جديدة لقهر اكتافيوس ، حتى وصل بها الأمر الى حد التفكير فى الذهاب الى أسبانيا واحتلالها ، أو تكوين دولة على شاطىء الهند ولذلك قررت نقل أسطولها برا من البحر المتوسط الى البحر الأحمر .

٣٠ ق.م :

اقتربت النتيجة المحتومة حيث وصلت طلائع فرسان اكتافيوس الى ضـواحي الاسكندرية فشن عليها انطونيوس هجوما ناجحا جعلها تتبدد ، ولكنه لما حاول اعادة حشد جيوشه فى اليوم التالى انفضوا عنه وتركوه وحيدا ، فاضطر أن يعود الى المدينة ، حيث تسربت اليه اشاعة مقتل كليوباترا حيث لم يكن يبقى انطونيوس على قيد الحياة الا حبه لكليوباترا ، فطلب من تابعه أروس أن يرديه قتيلا ولكن التـابع الأمين فضل الانتحار على قتل سيده ، ثم لحقه انطونيوس الذى انتحر ببقر بطنه ولكنه قبل أن يسلم الروح جاءته رسالة من كليوباترا انها لا تزال حية ، فنقل اليها فى مقبرتها التى كانت قد جمعت فيها كنوزها وآوت اليها ، فشقت ثيابها وندبته وبكته بكاء مرا ومات فى أحضانها كما كان يشتهى .

اول اغسطس سنة ٣٠ ق.م ــ انتحار كليوباترا :

دخل اكتافيوس مدينة الاسكندرية بغير مقاومة وأصدر أمره الى بروكليوس بأن يأخذ كليوباترا على قيد الحياة . وقد أصرت كليوباترا على أن لا تسلم نفسها الا اذا قبل اكتافيوس اعطاء العرش لأحد أبنائها . ولم تلبث كليوباترا بعد مقابلة خاصة تمت بينها وبين اكتافيوس بعد أن استيقنت أن اكتافيوس يأبى الا أن يقودها ذليلة الى روما لتسير فى موكب نصره ، أن لجأت الى الانتحار ، وجعلت انتحارها بصورة تتناسب مع دورها الملكى فى التاريخ باعتبارها ملكة مصر . فقد ارتدت ثيابها الملكية ووضعت الصل الذى كان المصريون يعتبرونه خادم اله الشمس ويضعونه رافع الرأس فى تاج ملوك مصر ، فلدغها لدغة قاتلة . وهكذا انتهت صفحة سليلة البطالسة والتى كانت من دونهم جميعا تعتبر ملكة مصر ، وأرادت أن تحقق لمصر من خلال شخصها حلم الأولين والآخرين وهو أن تكون سيدة العالمين (١) .

ولم يتملك الرومان فى كل تاريخهم الخوف الا من شخصين أحدهما رجل والثانى امرأة .. فأما الرجل فهانيبال وأما المرأة فكليوباترا ، يكشف عن ذلك تلك الملاحم من الشعر التى راحت تهيل كل السباب واللعنـات على كليوباترا وتندد بأحلامهـا التى ساورتها من أن تحكم روما والعالم . ولذلك فقد اعتبر اكتافيوس انسانا مقدسا يوم دخل الاسكندرية اذ خلص روما من أشد المخاطر ، وقرر السناتو اعتبار ذلك اليوم عيدا وطنيا وبداية للتقويم المحلى . وخلع على قيصر لقب اغسطس وسمى الشهر باسمه ، ولم يلبث أن أصبح الها تقام له المعابد . وحقق اكتافيوس ما أباه الرومان على يوليوس قيصر ، اذ وضع حدا للجمهورية الرومانية وبدأ عهد الامبراطورية .

---

(١) لعل عظمة شوقى الشاعر لم تصل الى ذروة مثلما ماوصلتها فى مسرحيته الشعرية عن كليوبترا حيث حلل شخصية الملكة المفترى عليها ودافع عنها ، وقد كنا نظن فى شبابنا أنه بالغ فى هذه الصورة فاذا به يستقى التاريخ فى كل بيت من الشعر .

نظرة عامة على عهد البطالسة :

واذ تطوى صفحة البطالسة لتبدأ صفحة جديدة من تاريخ مصر وهى مصر تحت حكم الرومان ، فيحسن بنا أن نذكر بعض ملاحظات عامة . .

يعتبر حكم البطالسة من الناحية الداخلية ، صورة دقيقـة لما يعتبر فى العصر الحديث اشتراكية الدولة ، فقد كانت وسائل الانتاج الكبرى وعلى رأسها الزراعـة والتجارة الخارجية مملوكة لبطليموس اى الدولة ، والصناعات الرئيسـية احتكارا للدولة كذلك .

فتألفت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين يؤيدها حراس مسلحون تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة ، وكان الموظفون يعينون لكل زارع تقريبا قطعة الأرض التى ينبغى أن يزرعها والمحصولات التى يجب أن ينتجها ـ وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم ، واقامة المبانى العامة ـ والصيد ـ وشق قنوات الرى ـ وانشـاء الطرق ـ وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ويدون الكتبة مقدارها وتدرس فى أجران الملك ويحملها الفلاحون أنفسهم الى مخازن الملك وكان يستثنى من هذا النظام بطبيعة الحال بعض الحالات : فقد كان البطالمة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود مكافأة لهم على ما قدموا من خدمات ـ ولكن الأراضى المستأجرة كانت مقصورة فى العـادة على المساحات التى يوافق صاحبها أن يخصصهـا للكروم أو البساتين أو أشجار الزيتون .

وقد تحسنت وسائل الزراعة ـ فاستبدل بالشادوف الساقية ـ وهى عجلة كبيرة ـ وكذلك مضخة تسيوس ولولب اركميدز .

وأمكن بفضل تركيز الادارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السـخرة اقامـة المنشئات العامة للتحكم فى فيضان النيل وانشاء الطرق وشق قنوات الرى وتشييد المبـانى .

الأراضى :

نقش هيروغليفى على جدران معبد ادفو يروى كيف أن الأراضى المنزرعة فى كل أنحاء مصر من الفنتين حتى البحر أهداها الاله حورس الى ابنه الملك حورس الحى بطليموس ومعها وثائق الملكية وقد سجلت بخط الاله تحوت .

الفلاحون يدعون مزارعى الملك ـ ولم يكونوا موالى ولا عبيد .

القيت على مزارعى القرية مسئولية الانجازات المطلوبة من أراضيها مسئوليـة جماعيـة .

الاقطاعات عسكرية ـ الحكومة تقدم البذور ـ كانت هناك أملاك خاصة (ملاك الأراضى) اراضى المعابد تزرع :

— الحبوب الغـذائية .
— الحبوب الزيتيـة .
— الكتـــان .
— الكروم والفواكه .
— الأشــجار .

وكانت صناعة الزيوت احتكارا الدولة .

« محظور لأى سبب ان يملك أحد مطاحن أو معـاصر أو اية أداة تستخـدم فى استخراج الزيت والا فرض عليه أن يدفع للخزانة العامة ٥ تالنت وللملتزم خمسـة أضعاف الخسارة » .

الدين :

لم يكن فرعون المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاتصال بالآلهة ، بل كان ايضا الاله الوحيد الذى يتمتع بالاتصال ببنى الانسان ، فاذا لم يكن على عرش مصر فرعون فان الديانة المصرية كانت تفقد الحلقة الأساسية فى الاتصال بين الناس والآلهة .

يقول ارسطو : اذا وجد فى دولة شخص يسمو على المواطنين الآخرين فى الفضيلة والمقدرة السياسية ، فانه لا يجب اطلاقا اعتباره فردا فى الدولة لأنه لا يتصف اذا اعتبر مساويا لغيره ، على حين انه يسمو على غيره فى الفضيلة والمقدرة السياسية . ان فعل هذا الرجل يجب اعتباره الها من البشر » .

اله الاسكندر :

فقد أنشأ بطليموس الأول عبادة الاسكندر .

وكانت عبادة البطالمة عبادة محلية فى مدينة بطليموس باعتباره مؤسس المدينة .

الاســكندرية :

على بعد أربعين ميلا من نقراطيس (ايتاى البارود) وعلى مسافة بضعة أميـال غربى فرع النيل الجنوبى ــ تقع على الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر عن بحيرة مريوط ، وقربها من جزيرة فاروس ، فيمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يمكن توفير مرفأين يستخدم أيهما تبعا لهبوب الريح .

وكانت تقوم قرية راالويتس .

كان يحيط بالاسكندرية منذ تأسيسها أسوار تبلغ طولها ١٥ كيلو حصنت باقامة أبراج عليها فى مسافات .

كانت تتبع من الناحية الشمالية الشرقية مجرى الشاطىء .

يحدثنا سترابون ان المدافن كانت تبلغ ٣٠ سنادا والاسناد هو ١٨٥ر٩ مترا فى الطول وسبعة أو ثمانية فى العرض .

والمهندس الذى استخدمه الاسكندر يدعى دينوكرانس .

وشوارعها تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال الى الجنوب . ومن الشرق الى الغرب .

وكانت مقسمة الى اربعة أحياء ــ ابعدها نحو الغرب حى راكوتس وسكانه من المصريين ــ والحى الشمالى الشرقى حى اليهود والجنوبى الشرقى أو البركيوم يحتوى على القصر الملكى والمتحف والمكتبة ومقابر البطالسة وضريح الاسكندر ودار الصناعة البحرية وأهم الهياكل اليونانية وكثير من الحدائق الفسيحة وكان لاحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ثمانية أقدام مربعة وكانت حديقة اخرى تحتوى على مجموعة الحيوانات الملكية وكان فى وسط المدينة مبانى الادارات والمخازن الحكومية والمحكمة ومدرسة الألعاب الرياضية والف حانوت وسوق .

وكان خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى وميدان للسباق ومدرج ومقبرة عظيمة .

وكان سكان الاسكندرية خليطا من أجناس مختلفة وكانت عدتهم تتراوح بين اربعمائة الف وخمسمائة الف من المقدونيين واليونانيين والمصريين واليهود والفرس وأهل الأناضول والعرب والزنوج .

ويصف هروداس : ان الاسكندرية هى بنت افروديتى ــ وان الانسان ليجد فيها كل شيء : ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ومعادن ثمينة وشبان ظرفاء .

ومبنى ملكيا طيبا ومجمعا للعلوم وخمرا لذيذة ونساء حسانا .

وكان نحو خمس سكان الاسكندرية من اليهود وقد كانت مصر من القرن السابع للميلاد موطنا للعبرانيين ثم قدموا اليها فى أعقاب الفتح الفارسى ــ وحضهم الاسكندر على الهجرة اليها وعرض عليهم كما يقول يوسنوس أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بآلاف الأسرى اليهود الذين اطلق خلفه سراحهم .

وفى القرن الميلادى الأول بلغ عدد اليهود بمصر مليونا .

الفصل السابع

مصر تحت حكم الرومان

٣٠ ق.م:

بدخول اكتافيوس وجيوشه المنتصرة الاسكندرية ، وانتحار مارك انطونى وكليوباترا ، دخلت مصر رسميا تحت حكم الرومان .

وقد منع اكتافيوس جنوده من نهب المدينة او تخريبها : وألقى على مواطنيها خطابا باللغة اليونانية اعلن فيه صفحه عنهم .

وعندما احضروا اليه تابوت الاسكندر من قبره رثاه بما يستحقه من تبجيل بأن وضع عليه تاجا من الذهب ونثر فوقه الزهور . ولكنه رفض أن يزور قبر البطالسة باعتبارهم قوم أصبحوا فى عالم الفناء : وتأكيدا لهذا المعنى فقد اعدم قيصرون ليزيح آخر انسان يمكن ان ينافسه . اما أولاد انطونيوس من كليوباترا ، فقد بعث بهم الى أخته اكتافيا (بناء على طلبها كما أتصور) لكى تقوم على تربيتهم كأولادها منه .

احتلال مصر الدائم :

واذ كان اكتافيوس بالتجارب الخاصة : قد عرف خطر مصر وغناها وثروتها .. وكان قمحها هو الذى تعيش عليه روما منذ أمد طويل ، وكان من يحول دون وصول هذا القمح اليها يؤثر على قدرها .

فقد أحكم اكتافيوس تأمين السيطرة على مصر : فترك بها ثلاث فرق ، جعل مقر أولها مدينة الاسكندرية نفسها ، فى ذات الموقع الذى يعرف باسمه حتى اليوم (كامب شيزار) .

والرأى على أنه كان ينتوى أن يجعل من هذا الموقع الجديد مدينة ينتقل اليها مركز الحكم .. ولكن هذه المحاولة حبطت وكانت نيقوليوليس لاتزيد عن أن تكون معسكرا للحامية الرومانية . واذا كانت منف هى عاصمة مصر السفلى المدينة المقدسة صاحبة النفوذ .. فقد وضع الى جوارها عند بابليون (مصر القديمة) قوة عسكرية أخرى .

وكذلك وضـع قوة ثالثـة ، عند طيبـة عاصمة الجنـوب ، ومنبع الثـورات والسخط الدائم على حكام الشمال وخاصة الأجانب منهم كما وزع كتائبه فى طول البلاد وعرضها وعلى حدودها الشرقية والجنوبية .

واذ انتهى اكتافيوس ، من تثبيت سلطانه بقوة السلاح على البلاد .

فقد انتقل بثاقب فكره ، وبما عرف به الرومان من قدرة على احسان الادارة .. الى تهيئة الوسائل لجعل مصر تدر على روما أكبر قدر من الثروة ، وذلك عن طريق تحسين وسائل الزراعة : بتكليف الحامية الرومانية بشق الترع وتطهير القنوات ، واصلاح أراضى جديدة ، وبناء الصهاريج على الطرق الصحراوية بين موانى البحـر الأحمر وداخل الوادى ..

ولمـا كانت المدن الاغريقية الثلاث (الاسكندرية ونقراطيس وبابليون) هى وحدها التى كانت تتمتع بمجالس بلدية خاصة بها ، فقد عمم اكتافيوس هذا النظام على كل عواصم الأقاليم ، مما أحفظ عليه سكان الاسكندرية من الاغريق . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك فألغى مجلس شيوخ مدينة الاسكندرية (السناتو) فى بعض الآراء ورفض أن يعيد للمدينة انشاء مجلس شوراها الذى كان قائما بها منذ تأسيسها ولم يلغ الا فى فترة الاضطراب آخر حكم البطالسة ، فلم يستجب لهم أغسطس . وذلك فى الوقت الذى أقر فيه لليهود امتيازاتهم القديمة ، حيث كانت طائفتهم تتمتع بشبه استقلال فيرأسهم رئيس ومجلس من المسنين أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ ، واذ كان اليهود ممن ساعدوا الرومان فى غزو مصر فقد طالبوا بحقوق المواطنين فى المدينة – حاملا قلوب الاسكندريين حقدا عليه .

كما وضع الأسس لتنشيط التجارة والصناعة .. على الأسس التى كانت جارية ايام حكم البطالسة فى فترة ازدهارها .

بحيث يقول المؤرخون ، ان مصر فى طلائع القرن الأول من الحكم الرومانى ، قد وصلت الى ذروة ازدهارها الاقتصادى ، كما ظلت الاسكندرية تقوم بدورها التقليدى فى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، فتكون الرائدة الشرعية ، وان كان اسم مدينة روما قد علا عليها بطبيعة الحال ..

علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية :

وقد دار جدل طويل بين المؤرخين ، ويبدو أنه سيظل مستمرا ، حول علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية ، فالبعض يرى انها لم تتحول الى ولاية رومانية كبقية الولايات الرومانية ، وانها ظلت ملكا خاصا لقيصر الذى راح يديرها باعتباره خليفة للفراعنـة والبطالسة ، عن طريق حاكم يختاره بنفسه من طبقة الفرسان وليس بمعرفة السناتو .

كما يستدلون على انفرادها باحكام خاصة من دون الولايات الأخرى ، بحظر زيارتها على أى كبير من كبراء روما الا باذن خاص من القيصر . والشعور الذى خرجنا به من مطالعتنا لكل ما قيل بهذا الصدد ، أن مصر والاسكندرية قد ضمتا للامبراطورية الرومانية كأى ولاية أخرى ، ولكن نظرا لتاريخها العريق وخطورة موقعها ودقة ظروفها واعتماد روما على ثروتها ، فقد وضعت لها هذه الأحكام الخاصة ليكون لاكتافيوس سلطة استثنائية فيها .

عصر الامبراطورية الرومانية :

بدأ بعودة اكتافيوس الى روما بعد استيلائه على مصر وابعاده الخطر الذى كان يؤرق الرومان ، ما يسمى بعصر الامبراطورية الرومانية حيث انتهت الجمهورية الرومانية .

ولكن اكتافيوس كان من الحصافة والكياسة ، والتجربة ما جعله يبدو وكأنه باعث الجمهورية ، والرجل الخاضع لمجلس الشيوخ ، حتى لقد كان المجلس يحدد انتخابه قنصلا لمدة عام واحد يتجدد بل وجاءت فترات لم يرشح نفسه لمنصب القنصلية ، مكتفيا بلقب جديد خلع عليه وهو منصب « المواطن الأول » أو زعيم مجلس الشيوخ ، ولكنه ظل فى حقيقته مركز القوة الحقيقية ، والسلطة برئاسته الفعلية للجيش ، وتوليه ادارة أغنى الولايات فى الغرب والشرق .

٢٩ ق.م :

كشف اكتافيوس عن عزمه بوضع حد للحروب فى ارجاء الامبراطورية ، وتوطيد دعائم السلام ، وذلك باغلاقه هيكل جانوس « اله الحرب » اشارة الى أن اله الحرب قد نال كفايته الى حين .

٢٩ ق.م :

كان اكتافيوس قد عين صديقه كورنيلوس جاللوس واليا على مصر مكافأة على خدماته وعهد اليه بتنفيذ السياسة الادارية والمالية والاقتصادية التى وضعها ، لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة من مصر ومواردها لصالح روما .

ويبدو أن موظفيه وجباة ضرائبه ، أو النظم الجديدة التى وضعها قد أثارت عليه مدينة طيبة وبالتالى مصر العليا كلها .

ويبدو أن هذه الثورة كانت من القوة أو العنف الى الحد الذى لم تفلح معه قوة الجيش الرومانى المرابط عند طيبة لقمعها مما اضطر كونيلوس نفسه الى أن يرأس بنفسه حملة قوية لاخمادها ، وترك لنا حجرا من الجرانيت فى معبد أنس الوجود يقول لنا فيه بافتخار :

« أنه الفارس الرومانى واول والى على الاسكندرية ومصر بعد اندحار ملوكها على يد قيصر بن الاله وكيف قمع ثورة طيبة بعد معارك حامية واخضع طيبة مصدر الذعر لجميع الملوك وقاد الجيش مستوليا على المدن الثائرة الى ما وراء شلال النيل واستمع الى سفراء ملك الاثيوبيين عند فيلاى وقبل ذلك الملك أن يكون تحت الحماية وعينه حاكما على اقليم أثيوبيا .

وقد قدم هذا المنصب هدية للآلهة الثوبية وللنيل الذى أعانه .

٢٦ ق.م :

اسكر هذا الانتصار فيما يبدو كورنيلوس ؟ فراح يسجله على الأهرام ويقيم لنفسه تماثيل فى أرجاء الوادى فكان من الطبيعى أن يثير ذلك مخاوف اكتافيوس الذى كان السناتو قد خلع عليه لقب اغسطس فى العام الأسبق ، فعزله من ولاية مصر ، بل وحاكمه وجرده من حقوق المواطن .. فانتهى به الأمر الى الانتحار .

٢٦ ق.م :

عين اغسطس قيصر ايليوس جاللوس واليا على الاسكندرية ومصر خلفا لكورنيلوس وقد عهد اليه أغسطس بمهمة السيطرة على البحر الأحمر والنفوذ الى المحيط الهندى باحتلال اليمن ، وقد الف لذلك جيشا ترى فيه لأول مرة وحدة يهودية من ٥٠٠ جندى ارسل بها هيرود ملك اليهود لتحارب لحساب الرومان . وقد استطاع فى بادىء الأمر ان يستولى على اليمن وان يصل فيما تقول بعض الروايات الى مدينة كارب عاصمة سبأ .

ولكنه لم يلبث أن هزم وانسحب مسجلا بذلك فشل الحملة ، ولكن الحوادث التالية كشفت عن نجاحها فى اشعار المنطقة بقوة الوجود الرومانى فبدأت التجارة الشرقية الخاصة بالعطور والتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب التى كانت تأخذ طريقها عبر جزيرة العرب ، تتحول الى الموانى المصرية على البحر الأحمر ، ومنها عبر الصحراء الى النيل فالاسكندرية فروما .

٢٤ ق.م :

كان النوبيون قد انتهزوا فرصة غياب الجيش الرومانى عن مصر ثم عودته فاشلا فأغاروا تحت قيادة ملكتهم كنهراكى على الحاميات الرومانية فهزموها واحتلوا جزيرتى فيلة والفانتين ومدن أسوان ثم نهبوها وحملوا تماثيل أغسطس واسروا بعض الأهالى .

فلما أن ولى مصر جايوس نيروثيوس حكم مصر بعد عزل ايليوس جاللوس .. كان همه الأول هو تأديب النوبيين ، فانتصر عليهم فى كل المعارك التى تصـدوا لحربه فيها وتابع سيره جنوبا حتى وصل الى مدينة نباتا فاستولى عليها ، ثم رأى أن من المصلحة ان لا يتوغل أكثر من ذلك ، فترك حامية صغيرة وقفل راجعا .

٢٢ ق٠م :

اضطر تيرونيوس لأن يعود للحرب فى بلاد النوبة . وفى هذه المرة أقام عديدا من الاستحكامات والقلاع العسكرية التى لا تزال آثارها قائمة حتى اليوم (الدكة ـ كلابشة)

وكفت ملكة النوبيين عن القتال وجنحت للسلم وطلبت الصلح فعقد الصلح معها على أساس اعفائهم من دفع جزية للرومان .

١٣ ق٠م :

ولى حكم مصر روبريوس برباروس .

(استقرار الأحوال فى مصر)

وانقضت فترة طويلة لا تسجل لنا الآثار شيئا خاصا عن علاقات مصر بالامبراطورية لمدة طويلة مما يدل على استتباب الأحوال ، وان الاصلاحات الادارية والاقتصادية قد آتت ثمرتها ويرى اسم اكتافيوس ورسمه على كثير من الآثار والمبانى التى كان قد بدىء بانشائها قبل حكمه ثم استمر العمل فيها سواء فى الاسكندرية أو فى مصر العليا ويرى اسمه كفرعون فى معبد فيلة ، كما يرى متعبدا كفرعون لايزيس فى معبد طنطرا (دندرة) كما نرى صوره فى معبد « تالمس » وهو يقدم القرابين .

٧ ق٠م :

ولى حكم مصر توراثيوس .

٤ ق٠م :

ولد عيسى بن مريم عليه السلام (يسوع المسيح) فى بيت لحم ، والمؤرخون على أن هذا التاريخ السابق بأربع سنوات عن تاريخ الميلاد المعمول به ، هو الزمن الحقيقى الذى ولد فيه المسيح ، فالأناجيل تشير الى انه ولد فى عهد هيرودس الكبير ، الذى

مات حول هذا التاريخ بعد أن بعث زعماء ملكه الى أغسطس مع هدية ثمينة اشعارا بتبعيته لروما .

مقدم عيسى الى مصر :

وقد هربت السيدة مريم بولدها على ما يروى انجيل متى الى مصر .

« فرأى ملاك الرب ليوسف فى الحلم قائلا قم فخذ الصبى وأمه واهرب الى مصر وكن هناك حتى أقول لك فان هيرودوس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه . فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف الى مصر . وكان هناك الى وفاة هيرودوس ليتم القول من الرب للنبى القائل « من مصر وعدت ابنى » .

وهناك أقاويل عن خط سير العائلة المقدسة عند زيارتها مصر « وأين أقامت ، وقد اكتفى المؤرخ القبطى الكبير مرقص باشا سميكة بذكر بعض اشارات كما وردت فى المصادر التاريخية فى كتابه القيم دليل المتحف القبطى وأهم الكنائس والأديرة فقال عن كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة أن هناك شبه اجماع ان هذه الكنيسة شيدت فى نفس المكان الذى أقامت به العائلة المقدسة لما هربت الى مصر من وجههيرودوس .

وقال عند ذكره لدير المحرق : فى المسمر الذى وضعه الأنبا نادمنليس البطريرك الثالث والعشرين أن العائلة المقدسة أقامت لما لجأت الى مصر هربا من الملك هيرودوس وجاء فى كتاب المقريزى : تزعم النصارى ان المسيح عليه السلام أقام بدير المحرق مع والدته ستة شهور وأيام .

ولكن فى كتاب تاريخ الأمة القبطية تفصيل واف لخط سير العائلة المقدسة .

فقد جاءت العائلة الى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها جهة الفرما ومنها الى مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) واتجهوا غربا فعبروا فرع النيل الشرقى عند سمنود ، وظلوا سائرين غربا الى فرعه الغربى فعبروه ومروا بوادى النطرون — ومن هناك ساروا الى الوجه القبلى فنزلوا بمدينة الاشمونين — ثم مضوا الى القوصية فالى قرية ميزة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق وبعد أن أقاموا به بضعة أشهر على الأكثر ظهر ملاك الرب ليوسف فى الحلم وقال قم وخذ الصبى وأمه وعد الى اليهودية لأن هيرودوس الذى كان يطلب نفس الصبى قد مات ، فقاموا وانحدروا شمالا حتى جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حى لليهود — ونزلوا فى الموضع الذىبه كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة السرجة وغادروها الى عين شمس وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال ان موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ومن هناك انطلقوا الى فلسطين عن طريق مديرية الشرقية فالصحراء .

١٤ م :

توفى اكتافيوس أغسطس قيصر فى التاسع عشر من الشهر الذى سمى باسمه وهو اغسطس ، بعد أن بلغ من العمر ستا وسبعين سنة ، حكم فيها ما يقرب من نصف قرن .

ويطلق على عصره العصر الذهبى حيث وصلت فيه الامبراطورية الرومانية الى أوسع ما وصلت اليه بعد أن اتم فتح أسبانيا وتسلم الادارة فى بلاد غالة ، وهكذا امتدت الامبراطورية من المحيط الأطلسى غربا والصحراء الكبرى جنوبا ونهر الفرات والبحر الأسود شرقا ، ونهر الدانوب والألب شمالا .

وقد فرض فى هذه الرقعة الكبيرة والتى شملت حوض البحر الأبيض بأكمله ما يطلق عليه السلام الأغسطسى والذى بقى من بعده مائة عام .

وقد خلع السناتور على اكتافيوس لقب اغسطس عام ٢٧ ق.م معبرا عن احساس شبه وفاء بالجميل لقاء الأعمال التى انجزها ولم يلبث اسمه أن أضيف الى أسماء الآلهة فى الترانيم الرسمية التى تنشد فى روما ولكن عبادته انتشرت فى أنحاء العالم الرومانى وبخاصة فى بلاد الاغريق .

ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قرارا أن تعبده روما باعتباره احد آلهتها الرسميين وقد اتسمت الأربعين سنة الأخيرة من حياته بالبساطة فى المعيشة التى تكاد تصل الى حد التقشف والاعتدال والتواضع الحقيقى الذى لا يشوبه زهو .

وازدهرت الآداب ونشر من الكتب فى عهده ما لم ينشر مثله فى اى عهد من العهود وازدهر الشعر حتى لقد قيل انه أصبح هواية كل انسان فى روما سواء فيلسوفا أو ابله .

وكانت الاعلانات تلصق على الحائط معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها وأعظم آثار النثر كانت فى تاريخ تينس لفيوس الذى ترك لنا تاريخا مفصلا لروما وخاصة للمدة من ٢٣ ق.م حتى ١٧ م .

والى هذا العهد ترجع الياذة فرجيل التى احتوت على ملحمة تأسيس روما ، ومعارك اكتافيوس . كما قال هوراس أعظم اشعاره ، واوفيد .

وكان آخر ما نطق به أغسطس قيصر عند وفاته هى هذه العبارة التى اعتاد الممثلون الرومانيون أن يقولوها فى ختام كل رواية .

« والآن وقد اتقنت دورى فصفقوا بأيديكم واخرجوا من المسرح بتصفيقكم » .

ثم عانق زوجته وقال لها تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا ــ الوداع .

١٤ م ــ تبريوس قيصر :

ولى عرش روما تبريوس ، وقد كان أغسطس قيصر قد تبناه عام ٤ ميلادية ،

واشركه معه قبل وفاته فى الحكم باعتباره قنصلا ، فلما مات قيصر كان يتمتع بسلطات واسعة النطاق : فتظاهر كسلفه اغسطس بأنه راغب فى اعادة الجمهورية ولكن السناتو أدرك استحالة هذه الخطوة ، فقد كانت أسس الامبراطورية فى صورتها الجديدة قد توطدت ولذلك فقد منحه السناتو سلطات وألقاب اغسطس .

وقد استهل عهده باظهار الحزم فى معاقبة موظفى الدولة الذين يسيئون استغلال سلطتهم فى معاملة الرعية . ويحفظ لنا التاريخ أيضا نصا يعزوه البعض الى تيبريوس ، وفيه يقرع واليه على مصر لارساله مبلغا أكبر من المقدرة للجزية سنويا ، وجاء فى هذا النص : انما أرسلت الى مصر لتجز صوفها لا لتسلخ جلدها .

١٦ م :

ولى حكم مصر فيتراسيوس يوليو .

١٩ م :

زار جرمانيكوس ولى العهد مصر ، وكان تيبريوس قد بعث به الى ولايات آسيا الصغرى لتفقد أحوالها . وكان جرمانيكوس شابا كريما لطيفا محبوبا من الجماهير الرومانية لشجاعته فى المعارك الحربية . فلما جاء مصر تعلق به شعب مصر ، لحسن سيرته وكياسته فى معاملته للشعب ، وليس هناك ما ينقل الينا قبسا من حالة مصر وأوضاعها فى هذه الفترة من أن ننقل ما قاله تاسيتوس عن هذه الزيارة :

« ذهب جرمانيكوس الى مصر للتعرف على تاريخها القديم غير أنه تذرع بحجة الاهتمام بالولاية ، وقد خفض الأسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع اشياء كثيرة محببة الى قلب الجمهور فكان يمشى بدون حرس ، وانتعل صندلا وارتدى زيا كزى الاغريق وقد انتقد تيبريوس ارتداءه الزى الاغريقى كما انتقد مسلكه انتقادا هينا ، ولكنه وبخه توبيخا لاذعا لأنه دخل الاسكندرية دون ارادة الامبراطور متخطيا قواعد اغسطس : ذلك أن أغسطس من بين الأسرار الخاصة بتوطيد سلطانه قد عزل مصر ، مانعا أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان اللامعين من دخولها الا باذن مخافة أن يصيب ايطاليا بمجاعة أى شخص قد يمثل تلك الولاية بحامية بسيطة .

نجد أن جرمانيكوس الذى لم يكن قد بلغه بعد ، أن رحلته هذه كانت موضع هجوم ، صعد فى النيل الى مصر العليا بادئا من كانوب ، وبعد أن زار الآثار العظيمة فى طيبة القديمة وكانت لا تزال باقية على الصروح الضخمة كتابات مصرية تشرح قصة البذخ الغابر ، غير أن عجائب أخرى استرعت كذلك انتباه جرمانيكوس وعلى الأخص تمثال ممنون الحجرى الذى يرجع نغما موسيقيا عندما تمسه أشعة الشمس ، والأهرام التى شادوها ملوك متنافسون بثرائهم ، فى ضخامة الجبال وسط رمال متناثرة من اليسير اجتيازها ، والبحيرة التى حفرت فى الأرض لتخزن ماء فيضان النيل .

وبعدئذ قد وصل الى الفانتين واسوان وهما حصنا الدفاع قديما عن حدود الامبراطورية التى امتدت الى البحر الأحمر .

وثمة وثيقة أخرى عن هذه الزيارة ترجمها لنا الدكتور عبد اللطيف احمد على الذى ترجم لنا الفصـــل السابق وهى منشور أذاعه جرماثيكوس على شعب مصر ، يكشف عن مدى التزامه القانون فى معاملاته ورغبته فى احسان معاملة الشعب .

« جرماثيكوس قيصرين أغسطس حفيد أغسطس المؤله نائب القنصل يعلن : بلغنى أنه بمناسبة زيارتى قد أكره الناس على تقديم مراكب ودواب وأن منـــازل الضيفان قد أخذت بالقوة للاقامة وأن وسائل الارهاب قد استعملت مع الأفراد لذلك رأيت من الضرورى أن أعلن أننى لا أريد أن يستولى احد على مركب أو دابة الا بأمر بابيوس صديقى وأمينى ، ولا أن تغتصب منازل للضيافة ، فان تكن هناك حاجة فان بابيوس نفسه سيوزع منازل الضيافة بالعدل والقسطاس وبالنسبة لما يلزمنا من المراكب أو الدواب فانى آمر بدفع الأجور وفقا للجدول الذى قدمته وانى لأرغب فى احضـــار المخالفين الى أمينى الذى سيتولى هو بنفســـه دفع الظلم عن الأفراد أو يبلغنى الأمر ، وأحظر على من يلتقون بالدواب أثناء مرورها فى المدينة من اغتصابها بالقوة لأن ذلك من أعمال اللصوصية الفاضحة .

فلا عجب وهذا مسلك جرماثيكوس ، أن يتعلق به الشعب المصرى تعلقا شديدا ، بحيث راحوا يخلعون عليه أعظم الألقاب والنعوت التى لا تضفى الا على الامبراطور ، مما جعل جرماثيكوس نفسه يعتب على المصريين ذلك ، وينذرهم أنهم اذا استمروا على ذلك فلن يظهر بينهم .

على أن حيـــاة جرماثيكوس انتهت بمجرد عودته الى سوريا ، وقيـــل انه مات بالسم ، واتهم بقتـــله بيزو والى سوريا الذى لم يلبث أن انتحر عندما وجهت اليه التهمة ، وقيل ان ذلك تم بموافقة تبريوس ولكن لا دليل على ذلك .

٢١ م :

ولى حكم مصر جالريوس .

٢٦ م :

بدأ ظهور المسيح فى منطقة الجليل مبشرا وداعيا الى سبيل الله .

٣٠ م :

أمر بونيوس بيلاطس حاكم يهودية (جواريا) على ما تقول الأناجيل بصلب المسيح

بتهمة اثارة الفتنة ، بناء على طلب اليهود (١) .

٣٢ م :

عين اقيليوس فلاكوس واليا على مصر فاستهل نشاطه بالتجول فى أنحاء مصر ، فوصل فى جولته الى طيبة فراعه كثرة الأسلحة التى وجدها فى حوزة الأهالى .

٣٤ م :

أصدر فلاكوس منشورا يحظر فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو احرازها وهدد المخالفين بعقوبة الموت ، كما أمر بفض النوادى والجمعيات الاغريقية .

٣٧ م :

مات تبريوس ، وسجل له التاريخ أروع الصفحات فى مستهل حكمه او التسع سنوات الأولى حتى ليصفه ممسنى بأنه « أقدر حاكم شهدته الامبراطورية » ، أما المؤرخ ناستس الذى كان من المعادين لتبيريوس فقد اعترف له بأن : ترشيحاته للمناصب العامة كانت تصدر عن حكمة وأن من كان يرشحهم من القناصل البريتوريتى كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم ، وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيـــدين عن تدخل الامبراطور . وكانت القوانين ، اذا استثنى منها ، ما تختص باغتصاب الملك تجرى فى مجراها الطبيعى ، وكانت أعمال الايرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى فى غير عنف أو قسوة وساد النظام بين عبيده . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب تفصل فى: كل نزاع يقع بين الامبراطور وأفراد الشعب ، وكان القانون هو وحده الفيصل فى هذا النزاع .

وقد انطوى على نفسه فى أخريات حياته وآوى الى جزيرة كابرى واعتقد الناس باطلا انه يرتكب هناك أخبث الرذائل والحقيقة ، حيث كان يدير منها الامبراطورية فى حكمة وحزم ، وكان يبلغ رغباته الى مجلس الشيوخ : فكان مجلس الشيوخ يلبيها فى غير معارضة ، وهكذا تدعمت دعائم السلطة الامبراطورية اذ انه كان رجلا صارم الخلق يرعى الضمير الى أبعد حد فى شئون الامبراطورية .

---

(١) ويقول يوسانيوس القيصرى الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع فى كتابة تاريخ الكنيسة ان بلاطس أرسل تقريرا بما حدث عقب صلب المسيح وقيامه من الموت الى ثيبريوس ، الذى اعتبر المسيح الها ، وطلب من السناتو اعتباره الها رسميا ، ولكن السناتو رفض ذلك ، وليس هناك فى وثائق التاريخ الأخرى ما يشير الى وقوع مثل ذلك .

ولكن تآمر أوفى أعوانه عليه وهو سجانوس الذى تولى قيادة الحرس الامبراطورى جعله ينقلب فى أخريات حياته الى سوط نقمة ، فلم يكتف باعدام سجانوس ، بل أعدم كل عائلته بما فيهم ابنـة صغيرة طاهرة كانت تتساءل فى براءة لماذا قبضوا عليها واذ كان محرما اعدام عذراء فقد طلب من الجلاد أن يفض بكارتها قبل اعدامها . وقتل كل من حامت حولهم ظلال من الشك ، مما جعل الكثيرون ينتحرون تخلصا من عقابه . وظللت أخريات حياته سحابة سوداء شملت حتى خاتمة حياته نفسها حيث يقال انه قد خنق ، وتنفس الرومان الصعداء عندما مات واندفعوا يهتفون فى الشوارع تيبريوس الى نهر التبر .

ولكن ذكراه ظلت طيبة فى الاسكندرية والتى كانت أقامت معبدا باسمه على أعلى مكان بالمدينة وكان محاطا بالأعمـدة وبه مكتبة ، وكانت الحـدائق تحيط به كما نقش المصريون صوره ورسومه كفرعون يعبد ايزيس وحورس على معبد فيلا وفى معبد طنطرا (دندرة) .

ويحدثنا فيلو فيلسوف اليهود فى مصر انهم بلغوا فى هذه الفترة ما يجاوز المليون ، حيث كان ثلث هذا العدد يقيم فى الاسكندرية وحدها .

ومن الولاة الرومانيين الذين حكموا مصر خلال حكم تبريوس دون أن تعرف تاريخ ولايتهم بالضبط .

اميليوس مركتوس جايوس قيصر ـ كالجولا وسيرس سترابو :

٣٨ م :

اعتلى جاريوس قيصر الشهير بكاليجولا العرش فى ١٨ مارس وهو الابن الذى بقى على قيد الحياة من أولاد جرماتيكوس الأمير المحبوب ، ولعل هذه الصلة التى تربط بين أبيه ومصر هى التى جعلته يبادر بمجرد ولايته للعرش أن يعيد فتح معبد ايزيس فى ساحة مارس (وكان قد أغلق) ثم أصدر قرارا بالاعتراف بديانة ايزيس رسميا .

٣٨ م :

وفد على مصر فى أول اغسطس أجرينـا اليهودى حفيد هيرود الكبير ، وكان كاليجولا قد عينه ملكا على دولة يهودية صغيرة مجاورة لمملكة جلاديا اقتطعها من ولاية سوريا الرومانية .

وقد انتهز اليهود فرصة مروره بمصر لكى يحتفلوا به احتفالا شعبيا ضخما يكشف عن قوتهم . فأثار ذلك مخاوف أهالى الاسكندرية ، واستثار كوامن أحقادهم ضد

اليهود ، فنظموا مظاهرات مضادة ساخرة ضد الملك اليهودى .. وكأنهم خشوا من مغبة تورطهم فى الهزء من صنيعة الامبراطور ، أو كأنهم رأوا من عدم تحرش الوالى بهم مشاركة لهم فى أفكارهم ، فاقتحموا معابد اليهود لتنفيذ أمر كاليجولا باقامة تماثيله فى كل المعابد ، فلما قاوم اليهود الذين كانوا يوحدون الله ويرفضون اقامة الأوثان فى معابدهم ، اتهمهم الشعب السكندرى بعدم الولاء للامبراطور وأصدر فلاكوس الوالى الرومانى منشورا أعلن فيه أن اليهود أجانب ودخلاء وسحب منهم الامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها بحكم العرف ابان اقامتهم فى الاسكندرية ، ولم يبق الا الحقوق القانونية لأمثالهم ممن لا يتمتعون بحق المواطن .

وكان هذا المنشور كاف لالهاب عواطف جماهير الشعب السكندرى ضد اليهود الذين كانوا قد تجاوزوا الحى المخصص لهم ، وانتشروا فى الأحياء الأخرى من المدينة فردوا الى حيهم الأصيل ، ونهبت بيوتهم ومتاجرهم خارج هذا الحى ، وقتل كل من حاول أن يتصدى لهم . ثم أبلغ الحاكم أن اليهود يخفون اسلحة على خلاف الأوامر الصادرة منه بعدم احراز الأسلحة ، فقبض على ثمان وثلاثين من كبار شيوخهم وزعمائهم وجلدهم علنا امعانا فى الزراية بهم .

وكان طبيعيا أن يشكو اليهود الى الامبراطور وان يكون حامل شكواهم هو صديقه الملك اجريبا ، فأحدثت الشكاة أثرها ، وأرسل الامبراطور من قبض على فلاكوس وسيق الى المحاكمة فى روما ... واذ سيق للمحاكمة فقد انهالت عليه التهم لا من اليهود فحسب ، بل ومن سكان الاسكندرية الاغريق ، الذين لم ينسوا له فضله لجمعياتهم ونواديهم الأدبية . فكان أن أدين فلاكوس وصودرت أمواله ثم أعدم بعد ذلك . وتغنى اليهود بهذا الحادث باعتباره نصرا الهيا لهم .

٣٩ م :

ولى حكم مصر فتراسيوس يوليو .

٤٠ م :

أوفد اليهود سفارة جديدة الى روما وكان رئيسها فخر اليهود والاسكندرية فى هذا العصر ونعنى به فيلون الفيلسوف اليهودى ، وأوفد أهل الاسكندرية بدورهم سفارة مضادة ، ترد على مطالب اليهود وشكاويهم وكان يرأسهم علم آخر من أعلام الاسكندرية وهو ابيون اللغوى .

ولم يكد اليهود يتقدمون بمطالبهم لكاليجولا وهى حقهم فى حرية العبادة وفقا للشريعة الموسوية ، وأن يحصلوا على حق المواطن لمدينة الاسكندرية ، فأجابهم كاليجولا الذى كان قد تسلطت عليه فكرة الوهيته انهم كفرة ملحدون ، لانهم رفضوا أن يعبدوه فى معابدهم ، وأعرض عنهم منذرا اياهم بشر وخيم .

خرج فيلون من هذه المقابلة حزينا كئيبا وهو يقول : ان يكن الامبراطور ضـــدنا فان الله معنا .

ولم ينقذ اليهود من نقمة كاليجولا الا موته العاجل .

وفيلون هذا الذى رأس الوفد اليهودى هو آية على أن الاسكندرية ظلت بعـد الاحتلال الرومانى هى عاصمة البحر الأبيض العلمية ، والدور الذى قامت به فى مزج الحضارات والديانات والتمهيد لانبعاث التعاليم المسيحية . وليس هناك من يرمز لهذا الدور بخير من فيلون فهو يهودى من أبناء الاسكندرية ، افتتن بالفلسفة الاغريقية وجعل هدف حياته الأكبر أن يوفق بين الكتاب المقـدس والفلسفة اليونانية وخاصـة أفلاطون . وكان الله فى كتابات فيلون هو الكائن الجوهرى فى العالم وهو غير مجسد أزلى سرمدى فى وســع العقل أن يدرك وجوده . ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما لأن كل صفة تعنى التحديد .

والذين يتصورونه فى صورة بشرية انما يفعلون ذلك ليقربوه من خيال البشر .

وكان يقول ان أول ما ولد الله ولد العقل الالهى أو كلمة Logos فالكلمة هى ابن الله من الحكمة العذراء ، وكان يقول أن الله عن طريق الكلمة قد كشف عن نفسه للانسان .

وكان فيلون معاصرا للمسيح كما نرى ، ومع ذلك فلا يلوح من كتاباته أنه سمع عنه ، ومع ذلك فقد كان مقـدرا له وهو اليهودى الذى لم يسمع بالمسيح أن يسهم أكبر مساهمة فى تكوين اللاهوت المسيحى حيث أخذت أفكاره طريقها فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا الذى يقول لنا :

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » أو بالأحرى هذا هو ما يقول به الكثيرون من دارسى اللاهوت المسيحى .

٤١ م :

فى الرابع والعشرين من ينـاير من هذه الســنة قتل أحد ضـباط الحرس الامبراطورى تنفيذا لمؤامرة مدبرة من كاليجولا .

ولما ذاع خبر مقتله فى روما تردد أهلها فى تصديق الخبر وظنوه احدى حيـل الامبراطور لمعرفة من يتهيج بموته .

وكأن المتآمرون أرادوا أن لا يدعو الناس فى شك من أمر مقتله .. فقتلوا كذلك زوجته الأخيرة ، وحطموا رأس ابنته .

ويقف المؤرخون حيارى ازاء ما ينسب الى كاليجولا من معاصريه الرومان ، ومن صنوف الجرائم والحماقات والدناءات التى ارتكبها ، ولا يجدون تفسيرا لها الا انه

كان مجنونا ، ويبدأ البحث فى جنونه أكان أصيلا فيه أم أنه عرض له بعد ذلك . ذلك أنه بدأ بداية تنم عن حسن ادراك للأمور ، فقد وزع أموالا طائلة على الشعب ، وأظهر الخضوع والتواضع لأعضاء مجلس الشيوخ . ولكنه لم يلبث أن طلب منهم أن يقبلوا قدميه تعظيما وتبجيلا ، وأن يشكروه فوق ذلك لسماحه لهم بفعل ذلك . وغلا فطلب من الرومان أن يجعلوا منه الها لهم . ولما كان هذا التقليد تقليدا مصريا ، فقد أصبح شديد الاعجاب بمصر ودينها وتقاليدها ، حتى لقد فكر أن ينقل عاصمة الامبراطورية الى الاسكندرية واندفع مع شهواته الجنسية الى الحد الذى لم يقف فيه عند حد ، فأرغم أخته دروزولا على الطلاق من زوجها وراح يعاشرها معاشرة الأزواج ، وبينما كان يحضر حفلة زفاف فى أحد المرات فانتزع العروس من عريسها ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام .. واندفع بعد ذلك فى اقتناص كل صنوف النساء .. فلا يسمع على امرأة جميلة الا ويدعوها لنفسه ، وما كان لها أن ترفض وما كان لزوجها الا أن يطيع .

واذ كان قد بدد كل ما فى خزائن الامبراطورية من تراث ، فقد فكر فى طريقة لجمع المال ، وهى توجيه تهمة الخيانة العظمى للكبراء والأغنياء ليتسنى له اعدامهم ومصادرة أموالهم .

وحدث مرة أن قل ما يلزم من اللحم لاطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الألعاب ، فأمر أن يقدم جميع الصلع من المساجين ليكونوا طعاما لهذه الوحوش .

وعندما دبرت مؤامرة بعد ثلاث سنوات لاغتياله ، اكتشف كاليجولا المؤامرة ، ففرض على روما عهدا من الارهاب زاده وحشية حبه الجنونى للأذى ، فكان يأمر الجلادين أن يقتلوا الضحايا ببطء بائخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون . وأمر جدته أنطونيا على أن تقتل نفسها ، وأمر أن يكون رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى (ممن تآمروا عليه فيما نعتقد) وأن يحبسوا فى أقفاص حديدية ، ثم تنشر أجسامهم ويلقوا بعد ذلك للحيوانات الضارية .

أما أحاديث اسرافه وفجوره وعبثه مع الراقصين والمغنين فحديث طويل عريض لا يكاد يصدق . وليس ذلك الا مجرد عينات مما فعل هذا الامبراطور حرصنا كل الحرص على تخفيفها لتكون أقرب الى الأذهان .

وكان عمره عندما قتل لا يتجاوز التاسعة والعشرين .

وترى صورة كاليجولا كفرعون مصرى على جدران معبد طنطرا كما يرى اسمه على المبانى والمنشئات التى استمر العمل فيها ابان عهده .

٤١ م : الامبراطور كلوديوس قيصر

تصور قتلة كاليجولا وقد كانوا ممن يدينون بالمبادىء الجمهورية ، أن الوقت قد

حان لخلع الحكم الاستبدادى والعودة الى النظام الجمهورى الديمقراطى ، ناسين أن هذه الجمهورية كانت قد انتهت الى غير رجعة ، وان القوة العسكرية الباطشة قوة الحرس الامبراطورى لا قوة السناتو هى التى أصبحت مصدر السلطان .

ويحدثنا التاريخ حديثا عجبا .. فعندما انقض الحرس الامبراطورى عقب المؤامرة لقتل كل من يلوذ بكاليجولا ، عثروا على شيخ يبلغ من العمر الخمسين وقد اشتهر طول حياته بالبلاهة ، وكان يرتجف فى مخبئه فزعا فى أحد أركان القصر ، فلما أمسك به الجند توسل اليهم أن يبقوا على حياته ولا يقتلوه فهو لم يفعل شيئا . فاذا بهم يفاجئوه بقولهم « كن أنت امبراطورا لنا » واقتيد الرجل الشيخ الأبله مذهولا مذعورا لا يكاد يصدق الا أنهم سيمثلون به ، اقتيد الى ثكنة الحرس الامبراطورى ، حيث كرروا على سمعه ما عرضوه عليه ، فما كان من الرجل الا أن وقف يخطب فيهم واعدا كل واحد منهم اذا جعلوه امبراطورا بمنحة مالية ضخمة (١٥ الف سسترس) .

وهكذا وضع الأساس لهذا التقليد الذى لن يلبث أن يصبح لدى الحرس الامبراطورى قانونا يشترى به الأباطرة العرش .

ولم يكن هذا الشيخ الأبله الذى وجد نفسه امبراطورا على غير انتظار سوى كلوديوس أخ جرمانيكوس وعم كاليجولا . وقد كانت مفاجأة للجميع أن برهن كلوديوس بمجرد توليه على العرش ليس فقط بعلمه وذكائه فحسب بل بقوة ارادته وأخلاقه القوية ــ فقد بادر باطلاق سراح من سجنوا بمقتضى قانون الخيانة العظمى ، وأعاد جميع المنفيين الى أوطانهم ورد الأموال المصادرة الى أصحابها والغى الضرائب التى فرضها كاليجولا . ولكنه فى نفس الوقت أمر باعدام قتلة كاليجولا ، فليس هناك ما هو أخطر من التغاضى عن قتلة الأباطرة وحرم عادة السجود للامبراطور ولعله لا يكشف عن قدرة كلوديوس التى أدار بها الأمور بمجرد اعتلائه العرش ، من تتبع آثاره ونشاطه فى مصر .

٤١ م ــ ولى حكم مصر امليوس ركتوس :

بعث كلوديوس بمجرد توليه الامبراطورية بمنشورين لاحسان معاملة اليهود ، وقد تلاهما بنفسه فى الاسكندرية ، الملك أجريبا ، وكان أول المنشورين يعيد ليهود الاسكندرية كل الحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل عصر كاليجولا . أما المنشور الثانى فكان يمنح هذه الحقوق لكل الجاليات اليهودية فى سائر أنحاء الامبراطورية وكان طبيعيا أن يملأ بالزهو بالانتصار يهود الاسكندرية فتجمهروا مسلحين مطالبين بتنفيذ حقوقهم . متحرشين بأهل الاسكندرية فوقع الاصطدام بين الطرفين ، وكان اليهود هم البادئون هذه المرة ، وأسرع الوالى المزود بتعليمات الامبراطور بقمع الفتنة بكل شدة فهدأت الأحوال .

رسالة كلوديوس الى اهل الاسكندرية :

وقد حفظ لنا التاريخ رسالة من كلوديوس وجهها الى اهل الاسكندرية وكانوا قد ارسلوا اليه يهود واغريق كل من جانبه وفدا يهنىء ويدافع عن نفسه ويتقدم بمطالب .

وهى رسالة حية تنبض بالحياة ونظرنا اليوم على مكانة الاسكندرية لدى الأباطرة وكيف كانوا يناقشون سكانها ويدرسون مطالبهم وشكاواهم :

« من تبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الامبراطور الكاهن الأعظم حامل السلطة التريبونية المرشح قنصلا الى مدينة الاسكندرية سلاما » .

ثم يقول انه تلقى من السفراء قرار الاسكندرية بتكريمه ويعقب على ذلك قائلا :

« انهم أوضحوا لى ما يكنون من شعور طيب نحونا وهذا شعور ادخرته لكم فى نفسى ــ كما تعلمون جيدا ــ منذ زمن طويل فأنتم بطبيعتكم تجلون الأباطرة كما أعلم من أدلة كثيرة ولا سيما اهتمامكم الشديد بأسرتى وهو اهتمام متبادل ، ولعل أعظم شــاهد عليه ــ ولأذكر أقــرب مثل ضــاربا صفحــا من الأمثلة الأخــرى ــ هو أخى جرمانيكوس قيصر الذى خاطبكم بلغة واضحة صريحة » .

وتنقسم بعد ذلك رسالة كلوديوس الى ثلاثة أقسام يتناول القسم الأول مناقشة اقتراحات الاسكندرية لتكريمه كجعل يوم ميلاده عيدا رسميا ، واقامة بعض التماثيل له ، وغير ذلك ... وقد قبل هذا النوع من الاقتراحات . ولكنه رفض اقامة المعابد باسمه لأن ذلك امتياز خاص بالآلهة ويجب أن يظل وقفا عليهم .

ويتناول القسم الثانى مناقشة مطالب الاسكندرية التى تقدموا بها ، وهو يوافق بعضها فى ارتياح ، كقصر تعيين والى مصر لمدة ثلاث سنوات فقط .

« لأن حكامهم سوف يسلكون أثناء فترة توليهم مناصبهم مسلكا حذرا خشــية أن يتعرضوا للحساب على اساءة استعمال السلطة » . حتى اذا وصل كلوديوس الى المطلب الخاص باقامة مجلس للشورى قال فى الرد عليه ما يلى :

« أما عن مجلس الشيوخ فليس فى وسعى أن أقول ما هو التقليد الذى درجتم عليه فى عهد الملوك الأقدمين ، ولكنكم تعلمون جيدا أنه لم يكن لديكم مجلس فى عهد من سبقونى من الأباطرة وحيث أن هذا مقترح جديد يثار للمرة الأولى ولا يتضح اذا ما كان سيعود بالفــائدة على المدينــة وحكومتى فقد كتبت الى ايمليوس ركتوسى (الوالى) أن يبحث الموضوع ويخبرنى عما اذا كان من الضرورى انشاءه أصلا وكيف ستكون طريقة انشائه اذا تبين أنه ضرورى .

أما القسم الثالث من أقسام الرسالة ، فخاص بالموضوع الذى قام بين اليهود والاغريق من سكان الاسكندرية :

« أما عن الفريق المسئول عن الشغب والنزاع — وان شئتم الصدق — عن الحرب مع اليهود ، فعلى الرغم من ان سفراءكم ولا سيما ديوتسيوس بن شيمون قد دافعوا عن قضيتكم دفاعا مجيدا عندما ووجهوا (بخصومكم) الا أننى لم اشأ أن أقوم بتحقيق دقيق مختزنا فى صدرى سخطا دفينا على من يبداون (العدوان) من جديد وانبئكم بصراحة أنه اذا لم تكفوا عن تبادل العداوة المستحكمة القاتلة ، فسوف أضطر الى أن اظهر لكم كيف يصير العاهل الشفوق عندما يتملكه غضب هو محق فيه . ولهذا فاننى من ناحية أناشد الاسكندريين مره أخرى أن يبدو روح التسامح والود لليهود الذين يعيشون فى المدينة نفسها منذ زمن طويل : وألا ينتهكوا شعائر عبادتهم الدينية ، بل أن يدعوهم يمارسون عاداتهم التى مارسوها أيام أغسطس المؤلة والتى أقررتها انا كذلك ، بعد أن سمعت أقوال الطرفين .

ومن ناحية أخرى فانى آمر اليهود صراحة ألا يضيعوا جهدهم فى السعى وراء (حقوق) أكثر مما حصلوا عليه من قبل ، وألا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كأنهم يعيشون فى مدينتين ، فذلك أمر لم يحدث من قبل ، وألا يقحموا أنفسهم فى مباريات معاهد التربية أو منظمات الشباب ، بل ينتفعوا بما فى حوزتهم من (امتيازات) ويتمتعوا بمدينة ليست مدينتهم بوفرة من الخيرات الجمة . وعليهم ألا يستقدموا أو يستدعوا يهودا ممن يفدون الى المدينه من سوريا ، أو من مصر عن طريق النهر مثيرين فى نفسى مزيدا من الريبة . ولئن لم يمتثلوا لأنتقم منهم بكل الوسائل بوصفهم قوما ينشرون الوباء الشامل فى أنحاء المعمورة . فان كف كل عن هذه الأعمال ورضى أن يعيش فى تسامح وود مع الآخر فسوف أولى من جانبى اهتماما للمدينة التى تربطنا بها صداقة تقليدية قديمة » . على أن كلوديوس وان لم يمنح الاسكندرية مجلس شوراها ، فقد أظهر اهتمامه وعطفه عليها بشتى الوسائل فبنى بها مدرسة سماها باسمه وأمر أن يقرأ فيها تاريخه الذى وضعه عن ايطاليا وقرطاجنة وأعاد لها حق ضرب النقود الذى كان قد أنكر عليها فضربت النقود فى السنة الأولى من حكمه ، ثم سنى ملكه بعد ذلك مما أفاد المؤرخين فائدة عظمى .

وسن قانونا لحفظ حقوق الشعب من التعدى والظلم ، وأمر واليه أن ينشره فى طول البلاد وعرضها ، ولكن الوالى لم يقم قضاة فى داخل البلاد للحكم بموجبه فلم يظهر له أثر فعلى .

٤٧ م — ولى حكم مصر جوليوس برستوموس .

٤٨ م — « فرجيلوس كابيتو » .

٥٢ م — تجددت الفتنة من جديد فى الاسكندرية بين اليهود والخليط من سكان الاسكندرية . ولم تصلنا أخبار الفتنة فى هذه المرة من كتب المؤرخين ، ولكن من هذه البرديات التى تؤلف مجموعة من الوثائق أطلق عليها العلماء اسم « أعمال الاسكندريين » وهى كتابات من نوع الأدب الشعبى ستظل تقابلنا حتى عام ٢٠٠ م عندما أعطيت الاسكندرية حق تأسيس مجلسها الخاص بالشورى . ولا يستطيع

التاريخ أن يتجاهل هذه الوثائق التى تفيض كلها بالهجوم على اليهود من ناحية وعلى الرومان من ناحية أخرى ، بل لعلها لا تهاجم اليهود الا كسبيل للهجوم على الرومان ، والهاب روح العداوة ضد الحكم الأجنبى . فتحدثنا هذه البردية التى نحن بصددها والتى تسمى « أعمـال اسيدوروس » كيف أن سفراء الاسكندرية وعلى رأسهم اسيدوروس : قد مثلوا فى حضرة الامبراطور كلوديوس أول مايو عام ٥٣ ليشتكوا له من الملك اجريبا اليهودى ... ولكن كلوديوس كما يبدو فى هذه الوثيقة قد انحاز الى جانب اليهود وملكهم ... حتى لقد أصدر حكمه باعدام اسيدوروس وزميل له يدعى لاميون .

ويوجه كلوديوس الحديث لاسيدوروس متسائلا :

كلوديوس : أحق يا اسيدوروس انك ابن راقصة .

اسيدوروس : إنا لست عبدا ولست ابن راقصة ، وانما أنا مدير معهد التربية بمدينة الاسكندرية الشهيرة .

وأما أنت فابن منبوذ غير شرعى لسالومى اليهودية وعندئذ يقول لاميون لزميله اسيدوروس ليس بيدنا حيلة سوى الاذعان لحاكم مجنون .

ازدهار حياة مصر الاقتصادية :

وفى هذه الفترة من التاريخ اكتشف الملاحون العاملون من مصر طريق البحر الى الهند ، فأدى ذلك الى اتساع التجارة اتساعا عظيما .

ويحدثنا بللينى الأكبر عن الأرباح الضخمة التى بدأت تدرها هذه التجارة التى أصبحت مصر معبرا لها . كما يحدثنا عن ازدهار الصناعة فى مصر ولا سيما صناعة المنسوجات والأصباغ والورق بصفة خاصة الذى أصبحت تصنع منه أنواع متعددة تسد حاجة عالم البحر الأبيض كله .

٥٤ م ـ ولى حكم مصر لوسيوس .

٥٤ م وفاة كلوديوس : دست أجريبنا زوجة كلوديوس لزوجها السم فى طعامه فأردته قتيلا ، بعد أن ضمنت تأييد الحرس الامبراطورى لها ولتولى ابنها نيرون العرش . ولم يكن مصرع كلوديوس بهذا الأسلوب الا مظهر فشله فى حياته الخاصة والزوجية .. فحيث اعتبر من أنجح الأباطرة فى الشئون العامة : فعاقب الموظفين الذين أساءوا استخدام السلطة وسعى لرفع شأن الولايات الرومانية كلها لتصل الى مكانة ايطاليا نفسها لتؤلف معها مجموعة متساوية من الأمم الرومانية .

وحقق ما سعى يوليوس قيصر لتحقيقه وهو احتلال الجزر البريطانية (عام ٤٣ م) وذهب اليها بنفسه . حيث حقق ذلك كله ... عجز أن يسيطر على سياسة بيته ، فتزوج أربع مرات كانت كل زيجة منها ذات طابع غريب ...

وذهبت واحدة منهن فى التاريخ علما على أقصى ما يمكن أن تصل اليه امرأة متزوجة من الاباحية والتحلل من كل المعانى والقيم ونعنى بها « مسالينا » ، والتى يقول لنا عنها مؤرخو الرومان مايتردد الانسان لتصديقه .. لا من ناحية ارتكابها اياه بالفعل ، ولكن من ناحية موافقة الامبراطور عليه ، حيث كانت تستعين به على اقناع من يتردد فى مبادلتها العشق ، فمن استعصى بعد ذلك لفقت له تهمة الخيانة العظمى وقضى عليـــه .

وقد وصل بها الأمر الى حد أن تقصد المواخير العامة وتستقبل كل من يدخلها وتأخذ ما يقدمون لها من أجور .

ونحن مضطرون أن نصدق مدى ما وصل اليه استهتارها الذى لم يسمع بمثله لأنه كان السبب الذى أدى الى موتها .

فقد انتهزت فرصة غياب الامبراطور ، وتزوجت رسميا من شاب وسيم يدعى كيوس سليوس ، وأبت الا أن يتم الزواج فى حفل رسمى وان تجرى فيه كل المراسيم والطقوس المعتادة .

وأبلغ نارسيس (سكرتير المراسلات الامبراطورية) سيده بما حدث ، فخف الى روما وأصدر أمره بذبح سليوس وجميع عشاق مسالينا . أما هى فقد بعث اليها لتدافع عن نفسها وكانت فى حديقتها الخاصة التى أعدتها لملذاتها الخاصة ، وخشى نارسيس على نفسه أن يصفح الامبراطور عنها بعد كل ذلك فتنقلب الدائرة عليـــه ، فأرسل لها بعض الجند فقتلوها .

وأبى كلوديوس الذى كان قد بلغ من العمر السابعة والخمسين الا أن يتزوج للمرة الرابعة ، وكانت زوجته هذه المرة ابنة أخيه اجريبنا التى أوقعته فى حبالها وكان قد سبق لها الزواج ، حيث رزقت بابنها نيرون ، الذى جعلت نصب عينيها أن ترفعه على العرش ، وأن تجعل منه اسكندرا آخرا ونجحت فى خطوتها الأولى عندما تزوجها خالها الامبراطور وعلى الرغم من أن كلوديوس كان له ابنا ، فقد نجحت فى حمله على تبنى نيرون ، وجعله وريثا له على العرش دون ابنه صاحب الحق .

وجاءت بسنكا الفيلسوف الكبير ليكون مربيا لنـيرون كما كان أرســطو مربيا للاسكندر .

وعندما تصورت أن كلوديوس يحاول التخلص من وعده وتعيين ابنه الأصيل وليا لعهده أسرعت فدست السم لكلوديوس ... وهكذا وجد نيرون نفسه على عرش روما بفضل دسائس أمه ومؤامراتها وشخصيتها العجيبة المسيطرة .

وقد أنشأ كلوديوس بهو الأعمدة فى المعبد الكبير بطنطرا وشيد الأعمدة الرائعة فى فيلا وترى صورة كلوديوس كفرعون مصرى يتعبد للآلهة على جدران معبد فيلا كما يرد ذكر اسمه فى المبانى والمنشآت التى استمر العمل فى اقامتها فى عهده .

حكم نيرون :

٥٤ م — اعتلى نيرون الذى كان عمره سبعة عشر عاما عرش روما . وبدأ حكمه بدءا موفقا جدا بفضل توجيهات أستاذه سنكا وقائد حرسه الامبراطورى بوروس ، ودامت هذه البداية الرائعة خمس سنوات يقول عنها تراجان أنها خير السـنين فى تاريخ الحكومة الامبراطورية .

مصر :

ولقد استقبلت مصر والاسكندرية القيصر الجديد كما هو شأنها دائما مع فراعنتها وملوكها ، بالتحية والاكرام واقامة الأعياد والاحتفالات . وتصفه لنا البردية التى ورد فيها اعلان جلوسه على العرش : أنه روح العالم الطيب والامبراطور المرتقب من الدنيا ومناط أملها ومصدر كل البركات ، وأنه يتعين على الجميع أن يرتدوا الأكاليل وينحروا الثيران لجميع الآلهة عرفانا بالجميل .

ويوصف فى بعض مسكوكات الاسكندرية بأنه : « منقذ المعمورة » .

٥٦ م — وقد عين كلوديوس بالبيلوس واليا على مصر والذى بذل عناية كبيرة باصلاح الأحوال الاقتصادية فى مصر والعمل على ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة .. مما يجعل المؤرخ جرافتون ملن يرى أن ثناء المصريين على نيرون لم يكن مجرد الأقوال التقليدية المألوفة .

٥٩ م — ولى حكم مصر جوليوس فسينيوس .

٦٠ م — حوكم شاول اليهـودى الذى كان قد تحـول الى أكبر دعاة التبشـير بالمسيحية وأصبح اسمه بولس امام فيلكس حاكم جواديا ، فطلب بولس الذى كان على معرفة بالقانون الرومانى ، أنه يريد أن يحاكم أمام الامبراطور ، فأجيب الى طلبه وأرسل الى روما ليحاكم بها .

وهكذا خطت المسيحية خطوتها الكبرى على يد بولس لتنتقل من ديانة يهـودية الى ديانة عالمية .

٦١ م — قامت بعثة بناء على أمر نيرون وبتوجيهات من سنكا الذى كان مغرما بالجغرافية والعلوم ، لاستكشاف منابع النيل ، فقوبلت البعثة بالترحاب فى كل مكان حلت به ، ووصلت الى مروى العاصمة الجنوبية للنوبيين ، ثم وصلت الى مستنقعات النيل الأبيض ، وجمعت معلومات قيمة عن تضاريس الأرض وحيوانات هـذه المناطق النائية ورسمت خريطة لها .

ويقول بعض المؤرخين ان هذه البعثة انما كانت تمهيدا للقيام بغزو عسكرى لبلاد النوبة ، ولكن هذا ليس الا افتراض .

٦١ (١) م — فى هذه السنة بدأ مرقص الرسول التبشير بالمسيحية فى الاسكندرية وكان قد قدم اليها من المدن الخمسه (ليبيا) فاخذ يسير فى شوارع المدينة مأخوذا بجمالها حزينا على ما مر بها من شرور ، وبدأ كما لو كانت المدينة العظيمة قد سحرته فأنسته الجوع والتعب وعند المساء انقطع سير حذائه فوقف عند اول اسكاف صادفه وطلب منه أن يصلح له حذاءه ، وبينما كان الاسكاف يباشر عمله اذ دخل المخراز فى يده فرفعها فى ألم وهو يهتف « الله الواحد » وفى الحال تفل الرسول على الأرض وصنع من التفل طينا ومسح به الجرح فأبراه .

ثم سأل الاسكاف ان كان يعرف الله الواحد الذى يناديه فقال له : « اننى أسمع عنه سمعا ولكنى لا أعرفه » وعندئذ أخذ مرقص يروى له كيف ولد المسيح وكيف علم وكيف افتدى الناس بأن ارتضى أن يعلق على الصليب ثم دفن وقام من الأموات وصعد الى السماء « وتفتح قلب الاسكاف لهذه البشرى المجيدة وابتهج بها ، فاصطحب معه مرقصا الى البيت . حيث اصطبغ بالصبغة المقدسة هو واهل بيته ، فكان بذلك الاسكاف واسمه ايناتوس (جانيا) هو وآل بيته أول المؤمنين(٢) » .

٦٤ م — اعتزم مرقص الرسول ان يبارح الاسكندرية ، فرسم ايناتوس (حنانيا) بابا للاسكندرية . فهو أول بابا للاسكندرية بعد مرقص أو ثانى بابا للاسكندرية واليه ينسب انشاء أول كنيسة فى الاسكندرية وهى على ما يعتقد بعض أقباط مصر فى نفس البقعة التى توجد بها الكنيسة القبطية الحالية بالاسكندرية بشارع الأقباط .

وتاريخ الكنيسة القبطية يعزو الى مرقص أيضا انشاء مدرسة لاهوتية فى الاسكندرية ، لتقف فى مواجهة المدارس الفلسفية أو اليهودية التى كانت تملأ الاسكندرية ومرة أخرى ليس باستطاعة المؤرخ المحقق أن ينفى هذا الخبر ... فمدرسة الاسكندرية اللاهوت ستصبح بعد قليل احدى حقائق العالم المسيحى .

٦٤ م — فى الثامن عشر من شهر يوليو من هذا العام شبت النار فى المضمار الأكبر بروما وانتشرت انتشارا سريعا ،وظلت النار مشتعلة طوال تسعة أيام بلياليها التهمت فيها ما يقرب من ثلثى مدينة روما .

وعلى الرغم من أن نيرون كان بعيدا عن روما ساعة اندلاع الحريق ، فقد امتلأت روما بالشائعات أنه هو صاحب الحريق ومدبره لكى يغنى أحد أناشيده على ضوء اللهب .

---

(١) اعتمدنا فى هذا التاريخ وعلى كل سنى البابوات على التاريخ القبطى المعتمد من الكنيسة القبطية المصرية ، والذى يتأخر عن التقويم الميلادى الغربى بثمانى سنوات .

(٢) هذا هو الرأى المعمول به فى كيف بدأت الدعوة المسيحية فى مصر ، وهى رواية الكنيسة ، وليس هناك ما يناهضها أو يدعو لعدم الاخذ بها ولكن الاستقراء يدل على أن الاتصال بين يهود مصر ويهود أورشليم كان لا ينقطع ، ولا يمكن أن يكون يهود مصر الذين حضر الكثيرون منهم عيد الفصح الذى حوكم فيه المسيح ، لم يشهدوا مأساته ولم يتأثروا بها ويعتنقون الدين الجديد مع اخوانهم فى مصر فلا بد أن تكون المسيحية دخلت الى مصر بصورة ما خلال الثلاثين عاما السابقة على مقدم بولس .

ووجد نيرون أن خير طريقة للدفاع عن نفسه هو أن يلصق التهمة بغيره ، فوجد في المسيحيين كبش الفداء ، فصب عليهم جام غضبه ولننقل لك ما قاله تاستيوس في تاريخه عما حل بالمسيحيين وهي على ما يقول المؤرخون المحققون أول اشارة وردت للمسيحية في كتب التاريخ المعاصرة لحياة المسيح وما تلاها :

ألصق نيرون التهمة بطائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة[1] ويسمون غالبا بالكريستيانى (المسيحيين) والاسم مشتق من كريستوس وهو اسم رجل عذبه بنتيوس بيلات المشرف على الشئون المالية في عهد تبريوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت الى الشيعة التي أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة الى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى نشاطها وانتشرت انتشارا سريعا قويا في بلاد اليهود وفي مدينة روما نفسها » .

ويمضى تاستيوس في سرد ما حدث من اضطهاد للمسيحيين فيقول :

واستخدمت في اعدام المسيحيين أفانين من القسوة المتناهية ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف الى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب . وسمر غيرهم في الصلبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيهم النيران ليكون مشاعل في الليل . وفي آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعا رأفة ورحمة ورقت القلوب أسى على المسيحية .

٦٦ م — عين نيرون تيبريوس يوليوس الاسكندر واليا على مصر .

اجتمع أهل الاسكندرية في المدرج الكبير ليبحثوا في شأن ارسال سفارة الى روما تعبر للامبراطور عن ولائهم له بمناسبة اندلاع ثورة اليهود ضد الحكم الروماني في أورشليم ، فاندس بعض اليهود وسط المجتمعين فلما كشف أمرهم هم المجتمعون بالبطش بهم باعتبارهم جواسيس عليهم وفكر البعض في حرقهم أحياء . فثار يهود الاسكندرية ، وهاجموا المجتمعين في المدرج ورجموهم بالحجارة ، بل وفكروا في أن يضرموا النار في الملعب ليحرقوا كل من به .

ولكن تبريوس يوليوس الاسكندر والى الاسكندرية في هذا الوقت وهو اليهودي الأصل وارتد الى الوثنية ، أوضح لليهود مغبة أعمالهم ، ولكن المتطرفين منهم لم يستمعوا اليه ، ومضوا في اشتباكاتهم المسلحة . فاستعان الوالى بالجيش المرابط بالمدينة ، كما تصادف وصول جيش من روما في طريقه الى أورشليم لاخماد الثورة بها فأحاط باليهود وحوصروا في حيهم الخاص بهم ، ولكنهم استماتوا في الدفاع عن أنفسهم على أنهم لم يلبثوا أن غلبوا في نهاية الأمر على أمرهم ولا سبيل للتحقق مما قاله يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي زعم أن عدد قتلى اليهود في هذه الملحمة ناهز الخمسين ألف .

(١) غني عن البيان أن تاستيوس لم يكن مسيحيا .

٦٧ م ـ تعيين فاسبسيان للقضاء على ثورة اليهود .

٦٨ م ـ موت نيرون : انتحر نيرون بطعنة خنجر شريرا طريدا ، بعد أن أحيط به ، اذ أعلن فتدكس حاكم غالة (فرنسا) الثورة عليه ، ولم يلبث الجيش الرومانى فى اسبانيا أن استجاب لهذه الثورة ونادى بقائده المسن (جاليا) امبراطورا .

وانضم الحرس الامبراطورى فى روما الى المناداة بجليا امبراطورا .

وأسرع السناتو فأعلن أن نيرون عدو للشعب وقضى باعدامه وفق الطرق القديمة .

ووجد نيرون نفسه فجأة وقد هجره كل من حوله ففر هاربا مذعورا متخفيا فى ملابس زرية وعندما وصل الجنود للقبض عليه وضع حدا لحياته بالانتحار وهو يردد « أى فنان يقتلون » .

ولعل تهمة حرق روما التى ألصقها به معاصروه هى أخف ما ارتكب من آثام اذا صح ما ادعاه أو نسب اليه من أنه أراد ان يعيد بناء روما لتكون جديرة بمركزها كعاصمة للدنيا .

ولكن الذى يصمه به التاريخ فى الدرجة الأولى ، هو أن قتله أمه اجريبنا التى فوق كونها كأى أم قد حملته وأرضعته فقد كرست حياتها من أجل أن تجعله ملك الدنيا حتى أوصلته بالفعل الى ما وصل اليه ، ومع ذلك فقد قرر استجابة لنزوة محظيته « يوبيا » أن يقتلها ففكر فى السم وفشل ، فشرع فى قتلها اغراقا ولكنها نجت أو سحبت ، فلم يبق الا أن تقتل بالسيوف فأرسل رجاله يطاردونها ، فلما لحقوا بها خلعت ثيابها وتبدت أمامهم عارية وقالت لهم « ادفعوا سيوفكم فى رحمى » اشارة الى أنه هو الذى أنجب هذا الولد ، واحتاج قتلها الى عدة طعنات ، ولما رأى نيرون جثتها العارية لم يزد عن قوله : لم كن أعرف أن لى أما بمثل هذا الجمال .

وكان جزاء نيرون على هذه الفعلة ، أن صفق له السناتو وهلل ، وقرر توجيه الشكر والحمد للآلهة التى كلأت نيرون بالرعاية وأنجته من السوء وألحق نيرون بأمه زوجته أكتافيا التى قطعت رأسها وألقيت بين أحضان يوبيا عشيقة نيرون تحقيقا لرغبتها .

ومرة أخرى قدم مجلس السناتو الشكر والدعاء للآلهة لحفظها الامبراطور ونجاته من كل سوء ونستطيع أن نتصور ما الذى حل برجالات روما عندما اكتشف نيرون احدى المؤامرات عليه ، فقد كان جوابه هو التوسع فيما اكتشفه كاليجولا من قبله وهو اخضاع روما لجو من الارهاب الوحشى ، وتوجيه تهمة الخيانة العظمى لا للمتآمرين أو من أشتبه فى تآمرهم ، ولكن لكل من يكون مرغوبا فى قتله لمصادرة أمواله ، لسد عجز الخزانة التى كان نيرون قد بعثرها .

حتى سنكا استاذه ورائده ، لم يكد يظهر اعتراضه على بعض أعمال نيرون ، حتى طلب منه الاعتزال فى بيته ، ثم لم يلبث أن صدر له الأمر بأن يقتل نفسه ففعل ، غير آسف فيما يبدو على مفارقة حياة تحول فيها تلميذه الى شيطان مريد . ولعل روما فى كل تاريخها لا تجد فيلسوفا يفوق سنكا من حيث تمثيله للفلسفة الرواقية .

وتفوق نيرون على سلفه كاليجولا فى حماقاته ومباذله حيث كان يتخفى ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات والمواخير فى صحبة رفاق السوء الذين قد يحلو لهم أن يسطوا على الحوانيت ويسيئون الى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلونهم مما معهم من نقود ويضربونهم بل ويقتلونهم .

وعندما ماتت بوبيا زوجة نيرون التى قتل من أجلها أمه وزوجته (عام ٦٥ م) عثر على شاب يدعى اسبورس عظيم الشبه بها ، فأمر بخصيه وتزوجه فى احتفال رسمى (استعمله فى كل شىء كما تستعمل النساء) .

والناحية التى تحير الباحثين النفسيين فى حياة نيرون هو أن هذا الانسان الذى انحرف بهذه الصورة العجيبة كان فى طيات نفسه الرغبة القوية فى أن يكون فنانا ، حتى لم يكن يستخفه شىء من الطرب الا أن يغنى على شعره أو صوته ، وحتى ليحمله حب الفن على أن يغنى ويمثل فى المسارح العامة التى تزدحم بالجماهير (حتى لينكسر بعضها من شدة الزحام) لترى امبراطورها وهو يركع على المسرح فى ختام المسرحية كعادة الممثلين ليطلب من النظارة أن تصفق له .

ولما أحس أن الرومانيين لا يقدرون فنه كما ينبغى رحل الى بلاد اليونان عام ٦٦ فاليونانيون هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية تقدر فنه واستغلت بلاد اليونان فرصتها الذهبية فصفقوا للامبراطور ، بل ومنحوه كل ما عندهم من كل فرع من فروع البطولات الرياضية وسباق العربات التى اشترك فيها كما منحوه جوائز الغناء والعزف والتمثيل . ورد الامبراطور التحية بأحسن منها فأعلن أن بلاد اليونان أصبحت حرة فلم يعد عليها أن تدفع جزية لروما .

وليس ذلك الا اشارات لما تضمنته كتب التاريخ الرومانية لحياة هذا الامبراطور الذى أصبح حرق روما رمزا عليه ورمزا على منتهى ما يمكن أن يؤدى اليه حكم الفرد الطاغى .

ولعل أعجب ما فى الأمر أن يهبط رجالات الرومان الى المستوى الذى يجعلهم يرضون بمثل هذا الحكم وهم الذين قتلوا من قبل أعظم رجالهم وهو يوليوس قيصر خوفا من أن يعلن نفسه ملكا .

يريد أن يكسب قوته فى مصر :

بقى أن مصر والاسكندرية كانت آخر ما تعلق به أمل نيرون عندما أحيط به ،

فقد رجا أن يسمح له بالذهاب ليكون واليا على مصر ، أو يترك ليتكسب فى الاسكندرية بعرق جبينه على مسارحها ودور الغناء بها .

وكان فى بلاطه رجال من الذين يمثلون العلم المصرى والدين المصرى من امثـال خيريمون النقراطيسى مربى القصر ، وبالبيللوس عالم النجم الفذ .

وكانت بوبيا زوجته صاحبة التأثير الكبير عليه تشبه بايزيس ربة مصر ، وأوصت (فيما يبدو) بأن تحفظ جثتها بعد موتها تأثرا بالعقائد المصرية ونفذت وصيتها .

وترى صور نيرون كفرعون مصرى فى معبد طنطرا ويذكر اسمه على كثير من المنشآت التى استمر العمل فى تشييدها أبان حكمه ، ولكن معبد كلابشى قد انشىء بأكمله فى عهده .

أربعـة أباطرة فى عام :

٦٨ ـــ ٦٩ م ـــ كان الاعتراف بجلبا امبراطورا للرومان فى يونيو ٦٨ م تسليما من السناتو بأن الأباطرة يمكن أن يعينوا بعد الآن فى أماكن أخرى غير روما ، بعد أن كان قد سلم بحق الحرس الامبراطورى فى تعيين الامبراطور .

ولما كان جلبا الامبراطور الجديد شيخا وقائدا جليلا ممن كانوا لا يزالون يحتفظون بالروح الرومانية الأصيلة ، فقد أحنق عليه الحرس الامبراطورى منذ اللحظة الأولى بعدم اعطائه المنحة التى شرعها كلوديوس لأفراد الحرس .

وعندما حاول أن يفرض على روما حياة التقشف والعودة الى بساطتها الأولى ، ألب عليه عناصر الفساد التى كانت تفص بها روما وحولهم الى أعداء الداء .

وعندما أصدر أمره بوجوب أن يرد كل من أعطاه نيرون مالا تسعة أعشار ما أخذه .. كان يضم لقائمة أعدائه أعدادا غفيرة من أقوى رجال روما وأغناهم .

فلا عجب اذا كان باستطاعة من يدعى أوتو والذى كان رفيق فسق لنيرون والذى أخذ منه نيرون زوجته بوبيا ، أن يحظى بتأييد الحرس الامبراطورى وأن يحمله على قتل جاليا ويدعو خليفته الذى كان قد عينه ليكون قيصرا من بعده .

فى مصر :

وعلى الرغم من قصر المدة التى حكم فيها جلبا فاننا نرى معبدا صغيرا فى مدينة حابو قد كرس له ونرى صورته كفرعون كما نرى اسمه على المبانى التى استمر العمل فيها فى أيامه .

ولم يكد جلبا يقتل وينادى الحرس الامبراطورى بأوتو امبراطورا حتى بادر السناتو باعتماد هذا الاختيار وتكريمه .

ومما يؤثر عن أوتو أنه كان من عباد ايزيس المتفانين فى عبادتها ، وهو ما يدل على مدى انتشار هذه العبادة فى روما ووصولها الى كبار رجالاتها . على أن أوتو لم يهنأ طويلا بالامبراطورية ، فان جيش الرامين الذى رفض من البداية الاعتراف بجلبا امبراطورا ونادى بقائده أولوس فيتليوس امبراطورا ، رفض الاعتراف بأوتو وزحف على روما ، حيث قابلته جيوش أوتو ، ولكن الدائرة دارت على أوتو وجيشه ، فأقدم أوتو على الانتحار ، ويقال ان هذا الانتحار هو العمل الوحيد الطيب فى حياته ولم تتجاوز مدة حكمه خمسة وتسعين يوما . وبالرغم من ذلك نجد صورته بدوره كفرعون نفسه فى مدينة حابو بطيبة .

ومرة أخرى بادر السناتو باعتماد اختيار الامبراطور الجديد أولوس فيتليوس ، مع توجيه الشكر لجيش الرامين لاختياره هذا الامبراطور العظيم .

ويقول لنا تأسنس ان هذا الامبراطور العظيم قد جمع فى حكمه القصير كل الحماقات والمفاسد التى شهدتها روما ابان حكم كاليجولا ونيرون .

وزاد عليهم بأن جعل الحكم وليمة مستمرة من الطعام التى ينفق عليها كل يوم عشرات الملايين من السشراس وأن يتخلل هذه الولائم كل المساخر والمهازل ومظاهر الاباحية والانحلال الذى يلطخ تاريخ روما فى هذه الفترة . على أن هذا الحكم الفاسد لم يعمر طويلا بدوره ، فقد رفضت الفرق الرومانية فى الدانوب الاعتراف بهامبراطورا ، وزحفت نحو روما ، وعلى رأسها قائدها انطونيوس . وتقابلت الجيوش الزاحفة وجيوش فيتليوس عند مدينة كزمونا فى أكتوبر عام ٦٩ م ويقال أن الدماء جرت فى هذه المعركة كما لم تجر فى أى معركة سابقة فى التاريخ كله ، على الرغم من أن فيتليوس نفسه كان راغبا عن الحرب وطلب من مناصريه أن يلقوا السلاح ، ولكن جيشه أصر على المقاومة فى داخل روما نفسها ، بينما وقف الشعب يشهد الجيوش المتقاتلة كما لو كان يشهد تمثيلية مسرحية فيقول لنا ناستس الذى كان معاصرا لهذه الأحداث ، ان الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة كأن منظر القتل واراقة الدماء لم يكن الا منظرا يعرض عليهم لتسليتهم ، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل ، وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن . وكان الجمهور يتسلى بالبحث عن الجنود المختبئين وتسليمهم الى غرمائهم ليذبحوهم .

وقبض على فيتليوس وطيف به فى المدينة وحول رقبته طوق معقود ، والقيت عليه الأقذار وعذب تعذيبا بطيئا وأخيرا قتل فى ديسمبر عام ٦٩ م . وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة ثم القيت فى نهر التيبر .

لعله الوحيد بين الأباطرة الثلاث الذين بدأوا بجلبا وانتهوا به ، من لا يرى اسمه فى مصر فضلا عن صورته ذلك أن انطونيوس قائد الجيوش التى دخلت روما وقتلت الامبراطور لم يكن يعمل لحسابه وانما كان يعمل لحساب هذا القائد الرومانى الذى يسطع نجمه فى الشرق ونودى به فى مصر امبراطورا ونعنى به فاسبسيان ، والمناداة بالامبراطور الجديد من مصر هى التى حالت دون الاعتراف بفيتليوس .

الاسكندرية تنادى بالامبراطور الجديد :

كان طبيعيا وهذا مدى وقوع الشقاق فى أرجاء الامبراطورية الرومانية ، أن تسهم مصر والاسكندرية بصفة خاصـــة فى هذه المعمعة وأن يقـــدر لها دون غيرها نجاح من ايدت واختارت .

كان فاسبسيان على رأس الحملة التى بعث بها نيرون الى بيت المقـــدس لاخماد ثورة اليهود ، فلما أن مات نيرون ، ونادى كل جيش بقائده امبراطورا ، رشحت الفرق الرومانية المقيمة فى مصر فاسبسيان ليكون امبراطورا ويقال ان والى مصر يومئذ تيبريوس يوليوس الاسكندر ، وهو من عرفنا نشأته المصرية وتدرجه فى مراتب السلطة حتى اصبح واليا هو الذى أوعز الى الجيوش المرابطة فى مصر بهذه الخطوة .

وكان طبيعيا أن يبادر جيش فلسطين العامل تحت امرة فاسبسيان بتأييد هذا الترشيح فنادى بفاسبسيان امبراطورا وتبعتها الفرق السورية .

وتشبث فاسبسيان بفرصـــته ، فزحف على مصر ليتخذ منها مركزا لمبـــاشرة سلطانه ، وليحول دون وصـــول قمحها الى روما اذا توقف منافســـوه فى روما عن الاعتراف بسلطانه .

ووجدت الاسكندرية فى تقدم فاسبسيان اليها فرصتها لتعلن تمردها على روما ، ولتشفى غليلها من المدينة التى سلبتها عزتها السياســـية ومجدها ، فاستقبلت فاسبسيان بكل حماسة وتعالت هتافات أبنائها على اختـــلاف جنسياتهم بحيـــاة الامبراطور ، وأضفت عليه ما اعتادت أن تضيفه على حكامها من صفة الالوهية .

بل ان كتب التاريخ لتحدثنا عن أن فاسبسيان بدأ يمارس العجائب فى الاسكندرية فقد تقدم له ضرير وآخر عاجز اليد وزعما أن سيرابيس أوحى اليهما أن يلتمسا الشفاء على يدى فاسبسيان بمجرد أن يلمسهما : وتقول الرواية أن فسبسيان استشار الاطباء قبل الاقدام على لمس الرجلين فأشاروا عليه أنه لن يخسر شيئا اذا لم يشفيا ولكن الرجلين شفيا بالفعل بمجرد لمسة فاسبسيان لهما .

فاسرت هذه المعجزة قلب فاسبسيان فزار معبد سيرابيس مقـــدما فـــروض الاحترام ، فحدثت له عجيبة جديدة زادت الاحترام والتقديس عمقا فى نفسه .

وتلقى فاسبسيان وهو فى الاسكندرية نبأ الاعتراف به امبراطورا فى روما فأعلن سياسته الجديدة . التى تقوم على اصلاح ما أفسده نيرون والغاء ما أصدره أو بعثه من قوانين وخاصة ما يتصل منها بموضوع الخيانة العظمى .

واسرع بشحن كميات مضاعفة من القمح لروما وكانت فى أشد الحاجة اليه .

وسرعان ما أحست الاسكندرية ، أن اعادة بناء روما سيتم على حسابها اذ أن فاسبسيان جد فى تحصيل الضرائب المتأخرة ، بل وفرض عليهم ضرائب جديدة فلجأ

الاسكندريون الى سلاحهم التقليدى سلاح النكتة والتشـــهير فلقبوا فاسبسيان بتاجر السمك فاستشاط فاسبسيان غضبا واخضع أهل الاسكندرية لضريبة الرؤوس التى كانوا معفون عنها امتهانا لهم .. ولكن تيتوس ابنه توســط لأهل الاسكندرية عنده واعفاهم منها .

وبالرغم من اعفاء أهل الاسكندرية من هــذه الضريبة فقد تعالت أصوات الجماهير الغاضبة .

اننا نصفح عنه ـ أى فاسبسيان ـ فهو لا يعرف كيف يتصرف القياصرة .

٧٠ م ـ عهد فاسبسيان الى ابنه تيتوس بقيادة الحملة ضد اليهود بينما توجه هو بعد انقضاء الشتاء ليباشر سلطانه فى روما .

وقد توجه تيتوس الى أورشليم مصطحبا معــه والى مصر بتريوس يوليــوس الاسكندر بعد أن اتخذ منه منصب رئيس أركان الحرب .

ومصطحبا معه كذلك أحد اليهود الذين ساهموا فى الثــورة اليهودية ، حتى وقع فى أسر أبيه ، فاسبسيان وهو جوسفوس اليهودى الذى قدر له أن يكون من أعظم المؤرخين ، والذى ندين له بصفة خاصة لحفظه قوائم مانتون الخالدة فى تاريخ مصر وقد حاول تيتوس لدى وصوله الى أورشليم ، أن يجرى مع اليهود صلحا فيلقوا السلاح ويعفو عنهم ، ولكنهم أصروا بعناد غريب على أن يحاربوه ، فأقام الحصار على أورشليم ، فلم يهن ذلك من عزمهم وصبروا على مكاره الحصار ستة شهور وان كانوا قد انقسموا الى فريقين فى الداخل يحارب كل منهم الآخر ويصف لنا جوسفوس ما حل بهم فى هذه الفترة من أهوال ما نوفر على القارىء أذى سماعه وحسبنا أن ننقل صوورة واحدة تغنى عن ما عداها فقد طهت احدى السيدات اليهوديات طفلهــا وأكلت جزءا منه ولمــا دخل عليها أهلها يبحثون عن قوت قدمت لهم ما بقى من جسد الطفل ففروا هاربين مذعورين .

وعنــدما نجح تيتوس فى اختراق أســوار المــدينة قاتله من بقى فيها من الأحياء قتالا مريرا فى كل خطوة وفى كل شارع وعطفة وفى كل بيت ... ولم يخمد مقاومتهم الا أن شــب حريق فى الهيكل أحالهالى رماد ففت ذلك فى عضـــدهم واستسلموا لمصيرهم .

تيتوس فى مصر :

عاد تيتوس الى مصر منتصرا ، فأقيمت له أعيــاد النصر فى مصر كمــا لو كان فى روما .

وأحب تيتوس المصريين فلم يتودد كسابقيه من الاباطرة الى الاغريق من سكان الاسكندرية ، بل لقد تقرب الى المصريين أنفسهم فحضر اختيار عجل أبيس الجديد ،

وحرص على ان يلبس التاج التقليدى الذى يلبسه فرعون فى مثل هذه المناسبة ، مما جعل الوشاة يسعون بينه وبين ابيه بالوقيعة زاعمين انه يتطلع الى العرش قبل الأوان .

٧١ م — على الرغم من أن يهود الاسكندرية لم يسهموا فى ثورة أورشليم وعلى الرغم من انهم أصموا آذانهم عن كل نداء لمساعدة اخوانهم الذين فروا بعد سقوط أورشليم ، بل وقبضوا على بعض من حاولوا تحريضهم على الثورة وتسليمهم للسلطات فان الامبراطور فاسبسيان أصدر أمره بأن يدفع اليهود جميعا ذكورا واناثا على اختلاف أعمارهم ضريبة سنوية مقدارها ديناران لمعبد الاله جوبيتر فى روما ، وهى ضريبة النصف شاقل التى كان الذكور البالغون من اليهود يدفعونها لمعبد أورشليم .

٧١ م — ولى حكم مصر يوليوس لوبوس .

٧٣ م — صدر أمر الحكومة الرومانية باغلاق معبد (أونياس) فى لينثوبوليس والذى كان يهود مصر يتوجهون اليه بالعبادة بدلا من أورشليم ، وذلك ارتيابا من الحكومة الرومانية ، ان هذا المعبد قد أصبح مركز نشاط الحركة اليهودية وصادرت أملاكه ، وذلك لتحول دون انتقال نفوذ المعبد الكبير بعد زواله اليه .

٧٩ م — وفاة ڤاسبسيان :

مات ڤسبسيان فى الرابع والعشرين من شهر يونيو من هذا العام وقد نيف على التاسعة والستين ، وكان موته طبيعيا على خلاف كل من سبقه من الأباطرة باستثناء اغسطس قيصر . ولا عجب فى ذلك فلأول مرة فى تاريخ روما الامبراطورية تهنأ بعشر سنوات من حكم القانون والعدالة والأمن والنظام .

ويمثل ڤاسبسيان فضائل الشعوب ، وقد عاش طول عمره وهو لا يحاول ان يخفى أصله المتواضع ، وهكذا عرف عرش روما لأول مرة فضائل الطبقة الوسطى فكان يزدرى الترف والبطالة . ويأكل طعام الفلاحين ويصوم يوما فى كل شهر ، وأعلن حربا شعواء على التبذير والاتلاف ، حتى لقد وصفوه بالبخل وجاءه فى أحد الأيام رجل رومانى كان قد رشحه لمنصب من المناصب فكان رائحة العطر الثمين تفوح منه ، فقال ڤاسبسيان كنت أوثر لو كنت تفوح منك رائحة الثوم وعدل عن تعيينه . ولم يحجب نفسه عن الناس فكان بابه مفتوحا لهم ، وكان يتحدث اليهم حديث الرجل الذى لا يترفع عنهم ، ويسمح لكل انسان أن يوجه الى سلوكه وخلقه ما يشاء من النقد : وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفى عن المتآمرين ، وبلغ من حلمه وسعة صدره ان المؤرخين لم يجدوا ما يؤاخذونه عليه باعتباره خروجا على

هذا المنهاج سوى اعدامه احد اعضاء مجلس السناتو الذين اشتدوا فى الهجوم عليه ومعارضته ، وقتله ثائرا آخر هو وزوجته ويضيفون انه ظل يندم على هاتين الفعلتين طول حياته وقد أراد أن يطعم مجلس الشيوخ الذى كان قد تعفن كما رأينا فجاء الى روما بألف أسرة من الأسر الممتازة فى ايطاليا والولايات القريبة وسجل أسماءها فى سجلات طبقتى الاشراف والفرسان ـ وملأ ما كان فى مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة الفاضلة .

ومن حسناته التى يسجلها له التاريخ انه أنشأ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فأمر بأن تختار طائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية ، ليقوموا بتعليمها للطلاب على نفقة الدولة ، وعلى أن يعطوا معاشا بعد خدمة عشرين سنة . وجعل رئاستهم الى كونتليان الشهير الذى أنشأ مدرسة للخطابة كان من بين تلاميذها تاستس وبلنى الأصغر .

وقد كتب كتاب بلنى الكبير « التاريخ الطبيعى » فى عهده واهدى الى ابنه تيثوس .

كما انه أعاد بناء الهياكل التى دمرت وبدأ أشهر المبانى الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم .

على أن استلام ڤاسبسيان خزينة الدولة عند توليه فى حالة تشبه الافلاس .. وما دمرته الحرب الأهلية جعله يشتد فى جبى الضرائب من الرومان ومن الولايات ، وذلك فى الوقت الذى قبض فيه يده عن السفه الذى اشتهر به من قبله من الأباطرة .. فجعل الناس يصفونه بالبخل ويندون به ... وهكذا لحق أهل روما أهل الاسكندرية من قبل فى السخرية به من هذه الناحية .

ومن آثار عهد ڤاسبسيان فى مصر اكماله معبد لاتوبوليس ويقع غربى منف وهو من أبدع بنايات مصر القديمة ، حيث زاد عليه رواقا قائما على أربعة صفوف من العمد المحلاة بتيجان على شكل الزهور .

كما يرى اسم ڤاسبسيان محفورا فوق الباب الكبير لمعبد دندرة .

وقد مات وهو يحاول أن يتندر على نفسه اذ يقول :

« وا أسفاه أظن انى صائر لأن أكون الها » ووقف على قدميه وهو يكاد يلفظ انفاسه الأخيرة واعانه بعض اتباعه على الوقوف وهو يقول : ان الامبراطور يجب أن يموت واقفا .

ويظهر اسم ڤاسبسيان على المعابد المصرية كفرعون فى معبد كراتش ومعبد آمون رع فى الواحة الداخلة .

٧٩ م – تيتوس فافيوس ڤاسبسيان :

اعتلى تيتوس عرش الامبراطورية بعد وفاة ابيه وقد عرفته مصر متوددا الى شعبها بمختلف طبقاته . محترما لدينها وتقاليدها ، وقد كان هذا شأنه فى ايطاليا كذلك ؛ حتى انه وصف بأنه « محبوب بنى الانسان وقرة اعينهم واكثر النـاس طيبة » .

ويقول عنه ديون كاسيوس : انه لم يقتل أحدا أثناء حكمه .

وذهب الى حد أن أمر بجلد الوشاة والمخبرين ونفيهم من البلاد .

وآلى على نفسه انه يؤثر ان يقتل من ان يكون سببا فى قتل أى انسان : ولما نمى اليه ان اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه أرسل اليهما يحذرهما . وكانت سياسته تقوم على معاملة شعوب الولايات لا كعبيد لروما وانما شركاء لها ولكنه لم يعش طويلا لتحقيق هذه السياسة . وقد شاب عصره القصير وقوع كوارث طبيعيـة هزت الامبراطورية ، كثوران بركان فيزوف ثورته التى فاجأت مدينة بومبى فدمرتها عن آخرها ودفنت أهلها تحت الحمم .

واندلاع حريق فى روما عام (٨٠) دام ثلاثة أيام دمر فيها مرة اخرى هياكل جوبيتر وبوتو ومنرفا .

ثم تفشى فى السنة الثالثة طاعونا لم تشهد وباء أشد فتكا منه فى تاريخها .

فكانت هذه الكوارث فرصة لاظهار ما انطوى عليه تيتوس من عطف وبر بمواطنيه اذ كان يخف دائما بنفسه الى موطن الكارثة ، ويسعف المنكوبين ويمدهم بالأدوية والأغذية ويدبر لهم المساكن المؤمنة ريثما ينشىء لهم مساكن جديدة .

واعتبر عيب تيتوس الوحيد هو كرمه الحاتمى .. وأوثر عنه القول، بأن اليوم الذى لا يسعد فيه انسانا ما بهبة يقدمها له هو يوم اضاعه من حياته . وقد اتم أعظم مبانى روما الخالدة والذى بدأ بها أبوه وهو معبد « الكولسيوم » .

وكان طبيعيا وهذا مسلكه أن يترك الخزينة عند موته فارغة وهى التى تركها أبوه من قبله تغص بالأموال ، وقد تلطف به القدر فجعله يموت سريعا قبل أن تفسده السلطة فلم يحكم سوى عامين .

وقد حزنت عليه روما كلها كما لم تحزن على أى امبراطور من قبله ... وليس الا اخوه الذى ولى العرش من بعده والذى كان يناصبه العداء أحيانا فى حياته من انفرد بالسرور والابتهاج .

ويوجد رسم له كفرعون فى معبد لاتوبوليس .

٨١ م – الامبراطور دومتيان :

اعتلى العرش دومتيانوس عقب وفاة أخيه تيتوس ومما يذكر فى تاريخه أنه ابان

المعــركة العنيفة التى دارت فى روما بين الجيوش الموالية لأبيه وجيوش فيتليوس ، احتمى بمعبد ايزيس وقضى الليل مختبئا فى بيت حارس المعبد ، ولما طلع النهار تنكر فى زى أحد أشياع ايزيس ثم عبر التيبر مع خليط من كهنتها دون ان يكتشف أحد أمره .

واذا كان لايزيس وعبادتها مكانة فى عهد أبيه لهذا السبب : فلا عجب اذا أصبح دومتيان هو حامى ايزيس وراعيها . على ان الديانة المصرية لم تكن حبيبة الى قلب الامبراطور الجديد ، لمجرد العرفان بالجميل ، بل لأنه كصاحبيه من قبله كاليجولا ونيرون ، كان يرى فيها الأساس لألوهيته .

٨٢ م — ولى حكم مصر مستيتوس افريكانوس .

٨٥ م — اعاد بناء معبد ايزيس فى ساحة مارس وكان الحريق الذى شب فى عهد أخيه عام ٨٠ م قد دمره وأقام أمام المعبد مسلة منقوش عليها باللغة الهيروغليفية المقدسة .

٨٦ م — ولى حكم مصر سيتيموس فيجاتوس .

٨٦ م — أرسل دومتيان الى الاسكندرية عددا من الكتبة لينسخوا المحفوظات فى مكتبة الاسكندرية لتزويد مكاتب روما بها .

وهذا ما يجعل البعض يستندون الى هذا العمل للقول بأن حريق يوليوس قيصر لم يأت على مكتبة الاسكندرية الكبرى ، ولكن هذا الرأى يمكن أن يرد عليه بأن مكتبة الاسكندرية قد عادت الى الازدهار بالمائتى ألف كتاب التى أهداها انطونيوس لكليوباترا على سبيل التعويض .

٨٦ م — مات انيانيوس بطريرك الاسكندرية بعـد أن لبث فى منصبه اثنين وعشرين سنة ، وهو ما يؤكد أن المسيحية لم تضطهد فى مصر بأى صورة من الصور فى القرن المسيحى الأول .

وخلفه ميلوس (اميليوس) ثانى بطريرك بعد مرقص الرسول .

٨٧ م — ضربت النقود فى الاسكندرية وهى تحمل لأول مرة صورة الآلهة المحليين للمدن المصرية القديمة .

٨٨ م — شيد لوكليوس وهو أحد مواطنى بلدة بنتنفيوم بجنوب ايطاليا معبدا لايزيس احتفالا بنجاة الامبراطور وعودته بعد نجاحه فى ايقاف الغزوة التى شنها الداشيون عبر الدانوب .

ونصب امام المعبد مسلتين تحملان نقوشا هيروغليفية تصف ايزيس بأنها سيدة بنتنفيوم ، ويستدل من ذلك على أن دومتيان قد أسبغ على عبـادة ايزيس صفة رسمية .

وقد انتشرت عبادة ايزيس على هذه الصورة فى عهد دومتيان ، بحيث أصبحت معابدها مكدسة بصورها المهــداة لها ممن أنجتهم من الخطر فوق انتشــارها الذريع فى أرجاء الامبراطورية قبل ذلك ، هو الذى جعل الشاعر الرومانى (جوفينال) وهو الشاعر الهجاء الحاد اللسان يحدد قلمه لتشويه سمعة ايزيس ووصف معابدها بأنها أماكن للفسق اذ تتزين النساء ويهرعن الى لقاء عشاقهن فى الحدائق أو (عند محاريب ايزيس القوادة) وينتقل من مهاجمة ايزيس الى التنــديد والسخرية بالمصريين وعقائدهم فى تقديس الحيوانات وعبادتها ، وكيف تقوم أقسى المعارك بين بلدتين قد تبعد كل منهما عن الأخرى عشرات الكيلومترات ، لأن هذه تقــدس هــذا الحيوان ، والأخرى لا تقدسه .

والحق ان تقديس الحيوانات وعبادتها فى مصر ... كان قد بدأ يأخذ صورة متدهورة ، كانت تذهل جميع المراقبين من غير المصريين ، وقد حاروا فى تفسيرها ومن ناحيتنا فنحن نعللها بان الزمان كان قد بدأ يظلل ديانة سماويه روحية وهى الديانة المسيحية ، فكان لا بد أن تتدهور العقائد القديمة ، ليظهر بطلانها ازاء الحقيقة الجديدة .

٩٠ م — ولى حكم مصر ميتوس روفوس .

٩٥ م — ولى حكم مصر ترونيوس سيكوندس .

٩٦ م — قتل دومتين بمؤامرة دبرت له من اخصائه والمقربين اليه على رأسهم زوجته دومينيا ، وهكذا عاد من جديد لسنة الأباطرة قبل أبيه وأخيه وهى ان ينجو عن العرش بالموت .

ذلك ان دومتيان الذى يعترف له الجميع بأنه بدأ حكمه بداية طيبة ، بحيث واصل سياسة أبيه وأخيه من قبله فى حسن الادارة واحترام سيادة القانون والضرب على يد المختلسين والمرتشين ، ومراقبة الموظفين وحسن اختيارهم .

والغاء الضرائب المتأخرة على رعاياه منذ أكثر من خمس سنوات .

وتشجيعه للآداب والفنون ، حيث بلغ النحت الغلافى الملون الى ذروة مجيدة .

وحبه للبنــاء والانشاء والتعمير ، فأضاف أجنحة جــديدة للكولسيوم . وأتم حمامات أخيه تيتوس وبدأ انشاء حمامات جديدة وهى التى أقامها وكان متزمتا فى قواعد الأخلاق والسلوك فحرم نشر المطاعن القــديمة ونفذ القــوانين اليوليوشــية الخاصة بالزنا وأمر بضرب عنق عذراء مسيحية حكم عليها بالزنا ونص على اعادة الخطباء ، ولم يكن يطيق رؤية الدم المسفوك .

كل ذلك قد تبدل رأسا على عقب كما حدث من قبل بالنسبة لنيرون أو كاليجولا، بمجرد أن اكتشف مؤامرة على قتله ، فنراه وقد تحول الى طاغيــة مستبد لا حــد لاستبداده .

فنراه ينفى الفلاسفة من روما عام ٨٩ ويحظر عليهم الاقامة فى ايطاليا كلها بعد ذلك ، كما شمل قرار الابعاد المنجمين كذلك عقابا لهم على تنبؤهم بموت الامبراطور .

ولم يلبث أن اعتبر نفسها الها ، وطلب من الموظفين الا يذكروه فى وثائقهم الا بلقب سيدنا والهنا .. وأنشأ طائفة من الكهنة ليشرفوا على عبادته وعبادة أبيه وأخيه المؤلهين .

وعندما رفض بعض المسيحيين فى عام ٩٣ أن يقربوا القرابين بين يدى تمثاله أصدر أمره باعدامهم واستبد به الذعر الى حد الأخذ بالوشايات والتشجيع عليها واعدام كل من يحلو له اعدامه ، وكان يتخذ من السناتو أداة لتنفيذ أغراضه ، حيث كان السناتو يوجه آيات الشكر للآلهة لنجاة الامبراطور كلما قضى باعدام نفر من الأبرياء ولم تكد زوجته تحس أن شكوكه قد حامت حولها ، حتى جمعت حولها أقرب المقربين اليه والذين كانوا بدورهم باتوا لا يأمنون على أنفسهم ... فكانت المؤامرة التى انهالوا فيها عليه فى حجرة نومه بعشرات من الضربات قبل أن يسلم الروح .

وأسرع السناتو الذى كان حتى آخر لحظة يهتف باسمه الى اصدار قرار بمحو اسمه من جميع النقوش العامة والغاء جميع التنظيمات التى أجراها ، واعتبار الأسرة الثلاثية قد انتهت بمقتله .

ويرى رسم دومتيان كفرعون فى معبد لاتوبوليس وقد أنشىء فى عهده جسر على النيل عند مدينة كوبتوس .

ويقول تاسنس أنه بموت دومتيان قد انتهى عصر الأباطرة العشر الطغاة الذى فسدت فيه الأخلاق بما ضربته روما من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وحيث أفنت الحروب الأهلية خير الرجال وأشدهم وأقواهم ، ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء .

وبعد أن كان السناتو (مجلس الشيوخ) هو صاحب السلطة المبنية على القانون ، أصبحت فرق الجيش هى مصدر السلطات بكل ما يتبع ذلك من اهدار الكفاءة والاقتدار ، والاعلاء من شأن الرمح والسنان .

وسقط حكم القانون ليسود حكم طغيان الأفراد وحقا لقد شيد فى هذا العصر صروحا ضخمة من المبانى التى أنفق عليها من خراج الولايات ولكن النفوس ضعفت وذلت بعد ارهاب ذوى المواهب والابتكار ، فماتت روح الابداع والابتكار .

ويقول لنا ول دورانت : اذا كان الكثير من الأباطرة قد انحطوا الى الدرك الأسفل فما ذلك الا لارتفاعهم فوق القانون واذا كانوا قد هبطوا حتى أصبحوا دون شأن الرجل فما ذلك الا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون .

العصر الفضى :

وقد جرى المؤرخون على وصف عهد أغسطس بالعصر الذهبى للامبراطورية الرومانية ... وبالعصر الفضى للعهد الذى يبدأ بوفاته حتى ختام القرن .

نيرفا (ماركوس كوكايوس) :

٩٦ م — استغل السناتو حادث مقتل دومتيان لكي يستعيد سلطانه المفقود ، وكان تعيين أحد أعضاء المجلس امبراطورا من الأمور التي اتفق عليها المتآمرون .

فنادي بماركوس كوكايوس امبراطورا وكان هذا أول وآخر عمل جرىء قام به السناتو منذ زمن طويل ، وهو العنصر الجمهوري في النظام الامبراطوري لاثبات وجوده .

وكانت الأسر الارستقراطية القديمة قد انهكها ما تعرضت له من اضطهاد وتناقص عددي مستمر ، وحلت محلها أسر نبيلة جديدة تكونت في مدن ايطاليا وفي الولايات نتيجة التنظيم الذي ادخله الأباطرة على طبقة السناتو .

٩٧ م — تبنى الامبراطور نرفا القائد العسكري الناجح تراجان ليكون خليفة له وبهذا حلت الأزمة التي أثارها الحرس الامبراطوري الذي كان قد غضب لمقتل دومتيان ، وغضب بالأكثر لتعيين الامبراطور الجديد بدون الرجوع اليه . وعندما طلب الامبراطور في شجاعة من الحرس أن يقتلوه أبى ذلك الحرس ولكنهم ظلوا محاصرين له ، حتى أمكن التوصل الى هذا الحل .

ويقول المؤرخون ان أعظم ما قدمه نيرفا لروما من خدمات هو اختياره لتراجان .

٩٨ م — مات نيرفا في ٢٥ يناير من هذه السنة .

ونجد صورته في مصر كفرعون في معبد لاتوبولس .

تراجـــان :

٩٨ م — تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش روما في المانيا ، وهو أول من تربع على عرش روما من أهل الولايات فقد ولد في أسبانيا وان كان أبوه ايطاليا وكان رضاء روما بهذا الاختيار وعدم الاحتجاج عليه حادثا خطيرا مؤذنا بتطور جديد في التاريخ الروماني .

٩٨ م — ولى حكم مصر بومبيوس بلانتا .

٩٩ م — وصل تراجان الى روما بعد انقضاء أكثر من عام على وفاة نرفا ، وعندما وصل اليها كان في الثانية والأربعين من عمره طويل القامة ممتلىء الجسم مهيب الطلعة ، وكانت شهرته كجندي وقائد من الطراز الأول وشجاعته قد سبقته ، وكيف كان يسير مع جنوده على قدميه ، ويصبر على أشد المكاره والآلام .

وقد استقبله السناتو مرحبا والقى بلنى الأصغر خطاب الترحيب فكان من أقواله التي خلدها التاريخ أن من أراد أن يكون زعيما يجب الا يكون سيد الدولة بل خادمها الأول ، ومندوب الشعب الذي ينفذ ارادته . ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعا ، يجب أن نختاره جميعا .

وقد قبل تراجان هذه المبادىء أساسا لحكمه واتخذ من بلنى الأصغر صديقا ، ووفى للشعب بعهوده .. فكان حكمه حكم القانون فى أروع مجاليه .. حتى لينسب جوستنيان الى تراجان أنه صاحب القول المدوى فى سمع الزمن ، والذى يمثل ذروة الحضارة والمدنية .

« لأن يفلت مائة مجرم من العقاب ، خير من أن يحكم على برىء واحد » .

وسرعان ما انعكس مسلك تراجان فى مصر ، فسادتها فترة ذهبية من الحكم الخير والادارة الحسنة .

٩٩ م — ولى بطريركية الاسكندرية كردونوس بعد وفاة ميليوس .

١٠٣ م — عين فيتبوس مكسيموس واليا على مصر فأساء السيرة واستغل نفوذه، فشكاه أهل الاسكندرية الى تراجان فأجرى محاكمة له على ما وجه اليه من تهم . وقد وصلت الينا احدى وثائق البردى التى تتحدث عن هذه المحاكمة ، والتى تشير الى متهم يدعى مكسيموس وكان يتقلد فى مصر أرفع مناصبها ، وجرى خلاف حول حقيقة البرديه ، أهى محضر رسمى لمحاكمة حقيقيه جرت أمام الامبراطور ومجلسه الامبراطورى .. أم هى نموذج آخر من « أعمال الاسكندريين » التى كان أهل الاسكندرية يعبرون فيها عن بغضهم ومقتهم للحكم الرومانى . وعندنا أنه سواء كانت الوثيقة محضرا رسميا أو عملا أدبيا فهى تظهرنا على مدى نظرة الاسكندريين لما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من وقار وسلوك وقدوة حسنة ، وهى تكشف لنا عن ايمانهم بمحاسبة حكامهم ، وسماع تراجان صوت رعاياه ضد نوابه .

وهناك بعد ذلك حقيقة مادية مؤكدة تبينها الآثار المصرية وهى العثور على اسم هذا الوالى جايوس تتوس مكسيموس مطموسا ، وهو الاجراء الذى كان يوقع على من توجه اليهم تهمة الخيانة العظمى .

والتهم الموجهة الى مكسيموس فى البردية التاريخية هى الابتزاز والربا واستغلال النفوذ لتعيين مدير معهد التربية فى الاسكندرية ، وافساد شاب ثرى يدعى ثيون .

وكانت التهمة الرئيسية التى حوكم بها مكسيموس فى روما هى تهمة الابتزاز ، ولكن المتكلم بلسان الاسكندرية قد ركز اهتمامه على مسلك الوالى الخلقى وتهمة افساد الغلام . واليك بعضا مما جاء فى الوثيقة :

« ولهذا سأضيف يا مولاى نقطة أخرى أعتقد أنها ستثير دهشتك فترتاب فى صحتها حتى تقرأ المستندات ، لقد كان يحكم على بعض الناس بدفع فوائد عن ديون لم يتسلموها فما هو رده على ذلك ؟».

لقد كنتم غائبين فلم تحاطوا علما بالرسائل التى كتبت لجلالتكم بشأن هذه الموضوعات . ولكن هذه الرسائل سوف تثبت بطريقة قاطعة مدى صرامة مكسيموس ونشاطه فى هذا الصدد .

والمستند الأخير يدمغه بتهمة الشغف بالغلام وهيامه به ماذا أقول ؟ لقد أعتاد شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاما أن يتناول معك العشاء فى كل يوم ، وكلما كان كل فرد من هؤلاء الحاضرين يحظى بشرف المشاركة فى مادبتك فانت لم تكن تغدق مثل هذا الشرف على أحد بسهولة بعد أن ارتقيت منصبا ملكيا — كل واحد منهم رأى الغلام فى حفل الشراب تارة برفقة والده وتارة وحده ، ورأى كذلك النظرات الوقحة . وما كان يتبادله هذان العاشقان الخشنان بصورة شائنه ، وفضلا عن ذلك فقد كان هذا الغلام يقدم التحية (للوالى) يوميا ويشهد هؤلاء الرجال يامولاى بروحك الحارسة انهم بينما كانوا يقفون عند باب قصره انتظارا لتحيته تحية الصباح قد رأوا الغلام خارجا من غرفة نومه ، وقد ظهرت عليه علامات اتصاله بهذا الرجل . وما ان ألف الغلام الوسيم الثرى (هذا) السلوك المشين حتى ازداد رقاعة ووقاحة فكان يخرج مع يوتيخوس الحاجب ويتعلق بيديه أمام الجميع ويضحك ضحكا عاليا فى غير كلفة وسط جموع القادمين للتحية . ولم يكن ساذجا لأنه كان يقوم بعرض ما كان يفعله أمام المدنيين (للوالى) ، لماذا اذن لم تحاول أن تقفه عند حده بما عهد بك من صرامة وقسوة بالغة . لقد أمرت بمصادرة أملاك رجل وأملاك زوجته وأصدقائه لأنه تقدم اليك بالشكر فى ثياب رثة . وقضيت باعدام رجل لأنه جاس على المسرح دون أن يرتدى ملابس بيضاء وأما هذا الغلام الوسيم الامرد الوجه ، فكنت تستبقيه كل يوم فى قصرك الرسمى ولم تكن ترسله الى المدرس أو ممارسة التدريبات اللائقة بالشباب . وكم كنت تحاسب والده — بحق — حسابا عسيرا لو انه لم يعمل على ارساله للمدرسة . وها أنت تجوب جميع أنحاء مصر فى صحبة هذا الغلام .أو لم يتبعك الغلام ذو السبعة عشر ربيعا حتى الى المحكمة أثناء انعقاد مجلسك الرسمى ؟ نعم وكان برفقتك بامكسيموس فى كل من ممفيس وبلوزيون وحيثما كنت . أما نحن الآخرين فكنا جميعا نعزف عن أماكن جولاتك التفتيشية وعن مجالسك القضائية » .

وليس هناك ما يكشف عن أخلاق تراجان والمستوى الرفيع الذى كان يحاسب به ولاته ، من سماعه قبل هذه المرافعة الطويلة حول علاقة وال بشاب ... وقد رأينا كيف أن نيرون قد تزوج شابا فى حفلة رسمية .. وكان اللواط احدى خصائص رجالات روما فى هذه الفترة .

اهتمام تراجان بمصر :

وقد بلغ اهتمام تراجان بمصر ، وحرصه على انصاف أهلها ورفاهيتهم ... انه فعل الأمر الذى ما كان يمكن أن يطوف بأذهان الرومان ولو على سبيل الخيال .. فحيث كانت روما تعيش على قمح مصر ، فقد عكس تراجان الآية .. فعندما انخفض فيضان النيل فى احدى السنوات ، فلم تنتج مصر القمح اللازم لاطعام أهلها ، أرسل تراجان الى مصر أسطولا محملا بالقمح الذى كان مخزونا فى روما للتفريج من حالة المصريين .

١٠٥ م — ولى حكم مصر مينيوس ايتالوس .

١٠٨ م - ولى حكم مصر ساليشسيوس سيميوس .

تراجان والمسيحيون :

١١٠ م - بعث بلنى الصغير وكان واليا على احدى الولايات الرومانية فى آسـيا الصغرى (بثنيا) يستفتى تراجان عما يفعـله بالمسيحيين الذين كان عددهم يتكاثر باستمرار وكان الوشاة يشون بالمسيحيين باعتبـارهم عصاة ومتمردين فيسـاقون الى التحقيق والمحاكمة ، فقرر بلنى أن يستشير الامبراطور بشأنهم ، وراح يصفهم له بأنهم قوم كل ما يمكن أن ينسب اليهم أنهم يستيقظون فى يوم معلوم قبل الفجـر ويرتلون بعض التراتيل للمسيح باعتباره الها وانهم أخذوا على أنفسهم العهد ألا يقدموا على أى أمر شرير وأن يمتنعوا عن السرقة والنهب والزنا وأن لا ينكثوا بعهد أو يغتالوا امانة أودعت عندهم وغير ذلك من الجرائم الخلقية .

وقد رد تراجان على بلنى طالبا منه : أن لا يبحث عن المسيحيين ولكن اذا ارشد عنهم وحوكموا وأدينوا فيجب أن يعاقبوا واذا حدث أن أنكر أى مسيحى مسيحيته وأدى الصلوات للاله فيجب أن يقبل منهم ذلك أيا كانت الظروف السابقة على ذلك .

ولا يجب أن تسمع بحال الاتهامات والشكاوى المجهولة لأن قبول هذه الاتهامات يشكل سابقة خطرة وسيئة لا تتفق مع روح عصرنا وتقاليـده والرأى على أن هـذه الرسالة من بلنى ورد تراجان عليها هى أول اشارة تتصل بالمسيحية تصل الينا عن مصادر غير مسيحية (١) .

١١٢ م - مات كردونوس بطريرك الاسكندرية فكانت مدة رياسته عشر سـنوات وتسعة أشهر ، وظلت الدعوة المسيحية فى عهده توالى انتشارها المنظم فى طول البلاد وعرضها .. كما كانت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية تتهيأ للتألق .

وقد خلفه بمريموس على كرسى الاسكندرية .

١١٥ م - ولى حكم مصر روتليوس لوبوس .

١١٥ م - انتهز اليهود فرصة انشغال تراجان فى حملة حربية ضد بارتيا ، والتى نجح فى مراحلها الأولى فاستولى على ارمنيا ، ثم استولى على المدائن عاصمة البارتيين أنفسهم ، ولكن مركزه لم يلبث أن تحرج عندما هب البارثيون لمقاومته من جديد فى قوة وعزم . فاضرم اليهود نار الثورة ضد الرومانيين ومما يدل على أن هذه الثورة كانت عملا مدبرا منظما انها لم تشتعل فى فلسطين لقرب جيش الامبراطور منها ولكنها اشتعلت فى الأماكن البعيدة فبدأت أول ما بدأت فى قورينائية (برقة) ومنها الى مصر وقبرص .

---

(١) الاشارة الى المسيحيين التى وردت فيما مضى عما وقع عليهم من اضطهاد فى عهد نيرون قد رواها تاستس الذى كتب تاريخه بعد هذا التاريخ بخمس سنوات .

١١٦ م ـ نصب اليهود في برقة ملكا عليهم يدعى لوكواس ، وحولوا ثورتهم الى حرب فانقضوا على مواطنى بلدة قورينى عاصمة الولاية ونكلوا بأهلها تنكيلا فظيعا حتى أوشكت المدينة أن تقفر بعد أن هلك منهم ٢٢٠٠٠٠ على ما يقول بعض المؤرخين وهدم اليهود معابد وتماثيل الآلهة اليونانية وهدموا معبد ايزيس ودمروا حمامات المدينة وانديتها ومسارحها وطرقاتها وأروقتها ، وقد أمدتنا الآثار بما يكشف عن اتساع مدى هذا التخريب .. وذلك من خلال الجهود التى بذلها هادريان خليفة تراجان لازالة آثاره .

وزحف اليهود من برقة الى مصر فى شتاء عام ١١٦ م تحت قيادة ملكهم لوكواس ، وانسحبت أمامهم الحامية الرومانية وتحصنت بالاسكندرية ، فلم يقو الجيش اليهودى على اقتحامها فانساب فى أنحاء القطر حيث انضم اليهم مواطنوهم من اليهود فعاثوا فى أقسام عديدة من الدلتا ومصر الوسطى فسادا . ولدينا من الوثائق ما يدل على ان المصريين فى كل مكان تكتلوا لدفع الغارات اليهودية على بلادهم ... وان لم يعدم اليهود ان يجدوا بعض المصريين الثائرين ... الذين وجدوا فى ثورة اليهود تنفيسا عن حنقهم وحقدهم على الرومان حتى أن بعض البلاد فى مصر ظل يحتفل بذكرى الانتصار على اليهود حتى عام ٢٠٢ م أى بعد خمسة وثمانين عاما من وقوعها .

١١٧ م ـ ارسل الامبراطور تراجان جيشا الى مصر لقمع فتنة اليهود تحت رئاسة ماركيوس توربر ـ وقد تمكن أخيرا من اخماد الفتنة قبل اغسطس من هذا العام بعد أن تركت جرحا لا يندمل فى نفوس سكان مصر .

١١٧ م ـ أعفى والى مصر رونيليوس لوپوس بعد فشله فى مصر وأرسل الامبراطور واليا جديدا وهو ماركوس فوربر على رأس جيش ضخم لاستئصال شأفة عصابات اليهود التى انتشرت فى أنحاء مصر .

ومات الامبراطور فى التاسع من شهر يوليو من هذا العام عن أربعة وستين عاما أمضى منها فى الحكم تسعة عشر عاما بعد أن تبنى وهو على فراش الموت ربيبه وابن عمه هادريان .

ولما كان تراجان كما قدمنا رجلا عسكريا من الدرجة الأولى فقد خالف سنة من سبقه من الأباطرة واستأنف سياسة الفتح ، فغزا فى مستهل حكمه اقليم راشيا (رومانيا الحالية) وخلد ذكر هذا الفتح بالأثر الفريد من نوعه وهو عمود تراجان ، الذى صور عليه كما لو كان سيناريو سينمائيا أحداث هذه الملحمة ابتداء من عبور جنود تراجان لنهر الدانوب حتى استسلام ملك راشيا والرأى على أن هذه الصور التى نقشت حول عمود تراجان هى أعلى ما وصلت اليه واقعية الفن الغلافى ، وفن النحت بصفة عامة فى القديم(١) .

---

(١) وقد بلغ من روعة هذا العمود ونقوشه التسجيلية أن نابليون قد حاكاه بعد سبعة عشر قرنا فأقام عمود فاندوم فى باريس من حديد المدافع التى غنمها ورسم على جدرانه تفاصيل معاركه على غرار عمود تراجان .

ولقد ذكرنا من قبل بمناسبة ثورة اليهود انشغاله فى حرب بارثيا ، فقد زحف عليها عام ١١٣ م وقرر أن يصفى وجودها نهائيا . فاستولى على ارمنيا وبلاد النهرين ووصل الى شاطىء المحيط الهندى فكان أول وآخر من يقف أمام هذا البحر من قواد الرومان . .

ولكن الشيخوخة والمرض الذى أصابه حالا بينه وبين مواصلة الزحف . . فاكتفى بالوقوف على شاطىء البحر الأحمر معلنا أسفه أن تحول شيخوخته بينه وبين أن يواصل الزحف الى السند كما فعل الاسكندر .

ولكنه أصدر امره بانشاء اسطول فى البحر الأحمر ليحمى التجارة التى بدات تزدهر بين مصر والهند وبلاد الشرق .

ولم يفتأ تراجان ابان حكمه يولى هذه التجارة اهتمامه ، حتى لقد اشار باعادة تشغيل الترعة التى تمتد من النيل الى البحر الأحمر لتربط بينه وبين البحر الأبيض من خلال النيل . والتى اعتنى بها بطليموس من قبل ومن قبله دارا ولقد أصبحت هذه الترعة مقياسا يقاس به مدى ازدهار مصر .

وتعتبر النقود التى صكت فى العام الحادى عشر من حكم تراجان من أجمل ما صك من نقود ، بعد أن اصبحت تنقش بالرموز المصرية ، وفاقت كميتها كل النقود التى ضربت من قبلها .

ويعزى بناء حصن بابليون الى أيام تراجان ، حيث أصبح يمثل أهم نقط الدفاع عند رأس الدلتا . وهناك معبد كامل لتراجان فى فيللا — كما لا تزال بوابة معبد طنطارة تحمل اسمه وله صور كثيرة كفرعون منقوشة على جدران المعابد فى لاتوبوليس وطنطرة وفيللا .

١١٧ م — اعتلى هادريان العرش فى ١١ أغسطس من هذا العام وهو من أصل اسبانى ومن نفس المدينة التى ولد فيها تراجان ، وهو ابن اخت لتراجان . وكانت مواهب هادريان كما يعددها المؤرخون القدماء مما يتعذر على التصديق، الا ان تؤخذ على سبيل الأوصاف والنعوت التى تهال على الملوك غير ان الذى لا شك فيه انها تستند كلها الى اساس كشفت عنه تصرفات الامبراطور الجديد .

فهم يقولون عنه أنه كان متفوقا وبارعا فى المهارات الجسدية كلها تفوقه وبراعته فى المهارات العقلية فحيث كان قوى الجسد ، بارعا فى حمل السلاح واستعماله راكبا أو مترجلا جسورا مقداما ، استطاع فى رحلات الصيد أن يقتل بنفسه بعض الدببة الوحشية والأسود . . وحيث كان يعتبر خبيرا فى النظام العسكرى .

فقد كان من الناحية العسكرية والعقلية يجيد اللغتين اللاتينية واليونانية ، ويكتب نثرا أدبيا جميلا ، كما كان يقرض الشعر . وكان واحدا من أحسن خطباء عصره وكان يحذق العلوم الرياضية والطبيعية ويحيط بقوانين روما وفلسفة العصر ، قوى الذاكرة

حتى ليذكر أسماء جميع جنوده مهما طال غيابهم عنه ويجيد الرسم والتصوير بما يضعه فى صف الأساتذة . وكان يغنى فيطرب السامعين .

فلا عجب وهذه صفاته انه لايكاد يلى العرش ، حتى لا يتخذ من روما مقرا متجمدا للحكم ... بل راح يجول فى أنحاء الامبراطورية ، محاولا توحيدها ماديا ونفسيا فى اطار واحد ، واصفا مهمة الامبراطور انها بمثابة الشمس توزع ضوءها وحرارتها على أرجاء الكون كله . ولذلك فلا عجب اذا رأينا آثاره فى مصر ناطقة بذلك .

١١٨ م ــ عين هادريان « راميوس مرتيالس » واليا على مصر وكلفه باصلاح ما افسدته ثورة اليهود التى اضرت بمصر ضررا بليغا ، واعادة تخطيط مدينة الاسكندرية وبخاصة حى اليهود الذى تهدم فى الثورة وقد اصدر الوالى منشورا خاصا بتنظيم سكن اليهود بالاسكندرية ، ولا يعرف اذا كان هذا التنظيم يقضى بتوزيع سكن اليهود على سائر أنحاء المدينة للحيلولة دون تكتلهم للحد من خطورتهم ، أم ان هذا التنظيم قضى باستمرار الوضع القديم وهو اقامتهم فى أحياء خاصة بهم لتسهل مراقبتهم ، ولكن البرديات التى عثرنا عليها تدل على أن سكان الاسكندرية تخوفوا من عواقب هذا التنظيم الجديد ، ورفعوا بذلك شكاوى الى الامبراطور ، ولكن الوالى حبسها وحال دون وصولها الى الامبراطور ، فهاجت الاسكندرية وسلط الاسكندريون السنتهم « كما هى عادتهم » على الامبراطور فراحوا يهجونه بأراجيز ماجنة ، فأصدر الوالى راميوس أمرا بالقبض على ستين مواطنا والزج بهم فى السجن هم وعبيدهم ممن اشتركوا فى اثارة الشغب . فحدث هجوم من الجماهير على السجن لاخراج المقبوض عليهم ، فأصيب البعض وقتل البعض الآخر ، وتدلنا احدى البرديات ان محاكمة جرت فى روما لزعيمين من زعماء الاسكندرية وهما باولوس وانطونيوس ، وقد جاء على لسان انطونيوس العبارات التالية :

مولاى قيصر أقسم بملاكك الحارس ان باولوس يقول الصدق كما يقوله رجل لن يبقى على قيد الحياة يوما آخر . فقد أرسلنا اليك رسائل كثيرة ، عندما لاقينا اضطهادا شديدا ، وقلنا فى شكاوينا أن الوالى قد أمر اليهود الملحدين أن ينقلوا مساكنهم الى مكان يستطيعون منه مهاجمة مدينتنا ذات الاسم الميمون وتخريبها دون عناء . واذا كنت لم تتلق بيديك الكريمتين أى رسالة من هذا القبيل ، فان ذلك يفسر سبب كلماتك الجليلة . انه من الواضح أن ذلك العمل قد ارتكب ضدك حتى لا يكون لديك دليل على ما أصابنا من ويلات » .

ولقد أعدم باولوس على ما تقول الوثيقة فواجه الموت فى شجاعة وادرج الاسكندريون أسمه فى سجل الشهداء الذين جادوا بأرواحهم دفاعا عن قضية الاسكندرية ضد افتراءات اليهود واستبداد الرومان .

١٢١ م ــ ولى حكم مصر اتيريوس نبوس .

١٢٤ م ــ توفى بطريرك الاسكندرية بريموس بعد أن ظل على كرسى مرقص الرسول أثنى عشر عاما وخلفه يسطس .

١٢٦ م — ولى حكم مصر فلاقيوس تيتيانوس .

هادريان فى مصر :

١٣٠ م — وصل هادريان الى الاسكندرية فى مارس أو أبريل من هذا العام وكانت الاسكندرية بالنسبة له تمثل كل ما كان حبيبا الى نفسه كملك وكانسان مثقف محب للفنون .

وقد استقبلته الاسكندرية باحتفالاتها التى كانت تعامل فيها الملوك كآلهة .

ورأى هادريان عن كثب أعظم مدن امبراطوريته بعد روما والتى كان عدد سكانها يتجاوز الثمانمائة الف ، والتى كانت لا تزال أعظم مدن الامبراطورية على الاطلاق من حيث كونها مجتمعا عالميا انصهرت فيه كل الأجناس التى تتألف منهـا الامبراطورية كما انصهرت فيه كل المعارف الانسانية والفلسفات والعقائد ابتداء من عبادة الحيوانات التى اصبحت تبدو مضحكة سخيفة نتيجة تطور العصر ، وعبادة سيرابيس هـذا المزيج من الاله المصرى والاغريقى ، وعبادة ايزيس التى امتلأت بها أرجاء الامبراطورية ، وعبادة يهوه اله اليهود الغريب الذى يتعصبون له تعصبا يؤثرون معه الفناء على أن يسجدوا لاله غيره .

واخيرا شهد هذه العقيدة الجديدة التى بدأ اتباعها يتكاثرون فى كل مكان تكاثرا سريعا ، وكان لها فى الاسكندرية مدرسة لاهوتية تحاول أن تتصدى لمدارس الفلسفة القديمة التى كانت لاتزال قوية شامخة حول المكتبة والمتحف وما بهما من علماء أعلام يؤثرون على الفكر العالمى .

وأشبع هادريان هوايته فى المساجلات العلمية والرياضية والفلسفية واللغوية مع الاعلام الذين كانت تغص بهم الاسكندرية ، سواء منهم الأساتذة الزائرون من أمثـال ديونسيوس أستاذ الفلسفة فى امستس ويوليمون الخطيب المتجول ، أو من الأساتذة المقيمين أمثال ابيان المؤرخ وأبولوتيوس المنطقى .

وأسبغ الامبراطور عطفه على المكتبة والمتحف فوضعهما تحت رعايته المباشرة ، وضم علماء جددا الى هيئة علمائها .

وقد أخذ هادريان بازدهار الاسكندرية الصناعى والتجارى حتى لينسب اليـه قـوله :

« انها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ولا يوجد بها عاطل عن العمل فالبعض يعمل فى صناعة الزجاج وآخرون يعملون فى صناعة الورق وكثيرون يعملون اما فى صناعات النسيج أو فى أى حرفة أو صناعة أخرى : حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله حتى من فقـدوا أيديهم لا يقضـون حياتهم عاطلين هناك الجميع يعبدون الها واحدا هو المـال ، هذا الاله الذى يعبده المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى فى الواقع » .

ويشك المؤرخون فى ان يكون هذا القول قد صدر عن هادريان ، ولكن ذلك لا يقلل من أهميته من حيث أنه يصور لنا الاسكندرية بعد قرن ونصف من الحكم الرومانى ، وهى صورة تكاد تنطبق على أعظم حواضر العالم الغربى فى الوقت الحاضر .

ومن الاسكندرية واصل هادريان رحلته فى ارجاء مصر متجها نحو مصر العليا ومصطحبا معه زوجته(١) ومصطحبا فى نفس الوقت خليله وحبيبه الفتى « انتيئوس » وكان الامبراطور قد التقى بهذا الفتى اليونانى فى ولاية بثنيا قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، فأخذ بجمال الشاب ذى الوجه المستدير والعينين النجلاوين والشعر الملتوى فاتخذ منه خادما خاصا له ، وشغف به حبا ، وقد تقول البعض عن العلاقة باعتبارها علاقة آثمة بينما قال البعض انه يحبه حب الوالد لابنه . وشاء القدر أن يضع خاتمة مفجعة لهذا الحب ، فبينما كان الامبراطور يواصل رحلته فى النيل ، اذ قال له فلكيو مصر فى بعض أحاديثهم معه أن حياته ستطول شريطة أن يضحى للآلهة بأعز ما يملك فما كان من الشاب الا ان قذف بنفسه فى النيل ليكون فداء للامبراطور وهكذا غرق انتيئوس .

ويقول لنا اسبارتياس الذى قص علينا هذه الحكاية ان هذا الحادث قد أحزن ملك العالم وجعله يبكى كما تبكى النساء .

وبصرف النظر عن السبب الذى من أجله مات انتيئوس غرقا ، فقد قرر هادريان أن يجعل من الشهيد الها وطلب من سكان الامبراطورية أن يؤلهوه : وكان الاثيتيون أول من استجاب لهذا الطلب .

أما فى مصر فقد أمر الامبراطور أن يبنى حول ضريح انتيئوس هيكلا ومدينة هى مدينة انتيئوبوليس وقضى بأن تكون المدينة مركزا تمتزج فيه الثقافة اليونانية التى كان يحبها ، وثقافة مصر العريقة ، ولذلك فقد رفع الحظر الذى كان موضوعا على سكان المدن الاغريقية منذ أيام البطالسة وهو أن لا يتزاوجوا مع المصريين ، فأصبحت تنفرد بهذه الميزة الى جوار ميزات المدن الاغريقية الأخرى ، كانشاء مجلس بلدى خاص بها ، وأعفائها من بعض الضرائب .

ولكى يهيىء للمدينة سبيل الازدهار الاقتصادى مد طريقا بينها وبين مدينة برنيقة احدى موانى البحر الأحمر وزود الطريق بمحطات للمياه والحراسة ، وهكذا ربط المدينة الجديدة بعجلة الاقتصاد المصرى المزدهر الذى كان يعتمد على تجارة الشرق المارة عبر مصر عن هذا الطريق وأمثاله .

وعاد هادريان الى الاسكندرية بعد ختام رحلته فى مصر العليا ... ليصل الى علمه أن المدينة تمارس هوايتها المفضلة وهى أن تسلقه سرا بألسنة حداد بسيل من النكت والقصص والحكايات .

---

(١) يتحدث اسكندر صيفى فى كتابه المنارة التاريخية عن زيارتين لهادريان لمصر لا زيارة واحدة ، ولكن المراجع الأخرى تتحدث عن زيارة واحدة وهو ما اخترناه .

وتسجل النقود التى ضربت فى الاسكندرية زيارة هادريان لمصر حيث يرى على بعضها صورة مركب تدفعه الهواء .

وثمة نقود أخرى عليهـا صورة انتينوس حبيبه المؤله الذى مات . ونقود أخرى صكت بمناسبة تجـديد انتخـابه لعشر سنوات ، ونقـود عليها صـورة ايزيس أو سيرابيس ، ونقود تحمل أحيانا صور الثالوث سيرابيس ايزيس حوريس .

ثورة اليهود فى أورشليم وتشريدهم النهائى :

١٣٢ م ــ شبت الثورة فى مدينة أورشليم من جديد ، وكان هادريان ابان زيارته لفلسطين قد هاله خراب المدينة فقرر أن يعيد بناءها على أن يجعل منها تحفة للفن والمعمار الاغريقى الرومانى وأن يطلق عليها اسما رومانيا .

وكان ذلك كله يمكن أن يتم بغير احتجاج من اليهود ... ولكن الشىء الذى دفعهم الى الثورة ، هو قراره أن يقيم على انقاض هيكلهم القديم ، معبدا للاله جوبيتر . وتزعم الثورة الكاهن العـازر والمتعصب سيمون ــ وقد أخمدت الجيوش الرومانية الثورة بعنفها المعتاد . ورؤى أن تخلى دولة اليهود (جواريا) من اليهود اخلاء تاما ، بحيث جعلت عقوبة الاعدام لمن يحاول من اليهود الاقتراب من أورشليم .

وهكذا تمت عملية تشريد اليهود النهائية فتفرقوا فى البلاد والامصار ، ولم تقم لهم بعدها قائمة(١) .

١٣٤ م ــ ولى حكم مصر برتونيوس مامرتينوس .

١٣٥ م ــ خلف أومانيوس الذى ظل بطريركا على كرسى الاسكندرية المسيحى احد عشر عاما الا قليلا .

وفاة هادريان :

١٣٨ م ــ مات هادريان بعد ان حكم واحدا وعشرين عاما بعد ان بلغ من العمر نيفا وستين عاما حكم منها واحدا وعشرين عاما . والمؤرخون يعتبرون حكمه ازهى صفحات الامبراطورية الرومانية ككل . فلم يحدث أن وصل عالم البحر الأبيض المتوسط فى يوم من الأيام الى مثل ما وصل فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة . ولم يعتل عرش روما من قبله أو بعده حاكم عمل على رفاهية شعوب الامبراطورية كما عمل . لقد كانت نظرية اغسطس ان الولايات توابع لايطاليا لتفيد منها مالا وثراء ولتحقيق ذلك فيجب أن تحكم حكما صالحا لتدر أكبر قدر من الخير على ايطاليا .

---

(١) لا تزال محاولة اليهود الحديثة للتجمع فى اسرائيل ، مجرد محاولة غير مستقرة وسط بحر من الكراهية والغضب والحقد . وعلى أية حال فان مدينة أورشليم القديمة لا تزال بعيـدة عن متناول أيديهم ولا يزال المسجد الاقصى كالطود الشامخ مكان هيكلهم .

اما فى عهد هادريان فقد حقق ما كان كلوديوس يحلم به وهو أن لا تكون مهمة روما مجرد جابية ضرائب لايطاليا . بل الحاكمة المسئولة عن دولة ، يتمتع كل جزء من اجزائها بقدر متساو من عناية الحكومة .

وقد رأى هادريان تحقق ذلك قبل موته ، حيث جمع شتات الدولة ووحدها ، وبر بوعده من انه سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص . ونعم حتى العبيد بهذا الحب الشامل لرعاياه ، اذ اصدر من القوانين ما حسن به ظروفهم ، فلم يعد بقدرة السيد أن يقتل عبده ، كما أبطل التقليد المتبع من قتل كل عبيد الرجل اذا وجد مقتولا .

ولا يوجد ركن من أركان الامبراطورية لم يترك فيه آثار مبانيه ومنشآته ابتداء من انجلترا وسورها الكبير لتفصل بين مدن بريطانيا حتى ضريحه الرائع الذى أنشأه ليدفن فيه والذى تحولت بقاياه الى قلعة القديس انجيليو فى سوريا الى مدينته التى انشأها فى مصر والتى اشرنا اليها .

وفى مصر نرى على الآثار صورته كفرعون على أكثر من معبد فى فيلا وانتنيوبوليس ولاقوبوليس ، كما نرى اسم زوجته سبينا .

وقد تأثر الفن المصرى فى عهده تأثرا ملحوظا يتجلى فى هذه الصورة التى كانت ترسم على اكفان الموتى بالشمع والتى كانت تصور ملامح الميت بدقة مدهشة على الطريقة الهيلينية .

الامبراطور تيتوس اوريليوس انطونيوس (بيوس) :

١٣٨ م — تولى عرش روما تيتوس أوريليوس انطونيوس (بيوس) وكان هادريان قد عهد اليه ابان حكمه بعديد من الوظائف العالية ثم انتهى بتبنيه وعهد اليه بتولى العرش من بعده لما انسه فيه من الكفاءة ، شريطة أن يتبنى بدوره ماركوس أوريليوس ولوسيوس .

وقد أطلق عليه مجلس الشيوخ (السناتو) لقب بيوس أى التقى لأنه اعتبره ممثلا للفضائل الرومانية ، ووصفه بأنه أفضل الزعماء وكان أول عمل قام به بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الخاصة الكبيرة الى خزانة الدولة . والغى المتأخر من الضرائب على المواطنين وزاد على ذلك أن نفحهم بهبات وفيرة ، ووفر لهم ما كان ينقصهم من الزيت والقمح والنبيذ فأمر بأن تشترى هذه السلع وتوزع على الناس بالمجان .

وكان على عكس هادريان الذى حكم الامبراطورية من خارج روما ، ذلك انه لم يبرح روما طول حكمه ، مكتفيا بأن يعين فى الولايات رجالا من ذوى الكفايات والشرف الموثوق بهم . وكان محبا للسلام ، ضنينا بأرواح المواطنين وقد اثر عنه قوله انه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل الف عدو .

فلم يسع الى توسيع رقعة الامبراطورية مكتفيا بالوقوف عند حدودها التى

ابلغها اليها هادريان فنعمت الامبراطورية فى ظله بالسلام الذى لم تتذوق مثله منـذ أمد بعيد . ويقول لنا ابيان المؤرخ انه شاهد فى روما بعينى رأسه مندوبى الدول الأجنبية الذين وفدوا الى روما يرجون عبثا وضع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى يستمتعوا بمزاياه .

١٣٩ م – ولى حكم مصر افديوس هليودوروس .

١٤٨ م – ولى حكم مصر نيرونيوس اوتورانوس .

١٤٩ م – خلف مريانوس على بطريركية الاسكندرية المسيحية أومانيوس الذى ظل بطريركا لمسيحى مصر أحد عشر عاما وبضعة شهور .

١٥٠ م – ولى حكم مصر موفانيوس فيلكس .

وليس هناك ما يصور كيف كانت مصر بعامة والاسكندرية بخاصة هى موطن العلم من بزوغ شمس اكبر علماء الفلك حتى بداية العصر الحديث وهو كلوديوس بطليموس وكان مولده فى بلدة بطليموتس التى أنشأها البطالسة فى مصر العليا ولكنه عاش معظم حياته فى الاسكندرية وظل يرصد فيها الأجرام السماوية فى المدة من عام ١٢٧ م حتى عام ١٥١ م وأهم ما يذكره به العالم ، هو قلبه لنظرية ارستراخوس الصحيحة من أن الأرض هى التى تدور حول الشمس آخذا بالرأى العكسى الذى يقـول بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض ، وقـد دون علمه فى كتابه الخـالد المعروف باسم « النظام الرياضى » وكان العرب اذا تحدثوا عنه نعتوه باسم العظيم اليونانى « المجسطى » اى الأعظم وهو الاسم الذى يعرف به الكتاب فى التاريخ . وظل لهذا الكتاب السيطرة على السـماء حتى قلب كوبرنيكس النظرية وأعادها الى وضعها الصحيح من أن الأرض وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض .

وعجيب أن يكون لنظرية تعرف اليوم خطأها ، كل هذه القوة والثبات وهذا هو ما يظهر مدى عظمة بطليموس الفلكى وقوة فكره وذلك انه قد اسـتطاع أن يفسر كل الظواهر الفلكية الاساسية بدقة رياضية وأن يحسب الخسوف والكسوف لا فى عصره بل فى العصور السابقة عليه كتلك التى عرفتها بابل ومصر خلال الثمانمائة سـنة قبل زمانه بحيث أصبح من الممكن تحديد زمان ملوك بابل والفرس واليهودية تحديدا قاطعا دقيقا .

وتقوم نظريته على أن الكون كروى الشكل يدور مرة فى كل يوم حول الأرض الكروية الثابتة (١) .

وبلغ من دقته أنه قدر البعد بين القمر والأرض بما يقرب من تقديرنا الحالى .

---

(١) يقول سير هربرت سبنسر جونس فى كتاب الفلك العام) يمكن تفسير حركة النجوم اليوميـة اما بفرض ان الكرة السماوية كلها تدور حول الارض او بفرض أن الارض نفسها هى التى تدور بينما تبقى الكرة السماوية ثابتة .

ولم يقف علم بطليموس على الفلك ، بل لقد لخص فى كتابه الموجز الجغرافى جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض . وقد استطاع ان يصور على خرائطه جسما كرويا على مسطح مستو .

والرأى على أنه عـالم رياضى أكثر منـه فلكى أو جغرافى . وقد وصف كتـابه « البصريات » وهو بحث فى الضوء وانكساره بأنه أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ القـديم .

كما نقل عنه كتاب فى (الأنغـام) يعتبر أحسن ما لدينـا من آراء الأقدمين حول هذا الفن ، فن الغناء .

هيرون :

ويجرنا الحديث عن بطليموس الفلكى ، وما يرمز اليـه من تفوق اسكندرية فى العلوم ، الى ذكر عالم آخر كان يمكن أن يبدأ الثورة الصناعية التى عرفها العـالم فى القرن التاسع عشر قبل ذلك بثمانية عشر قرنا ، ذلك أنه اكتشف قوة البخار .

وقد اختلفت الآراء حول الزمن الذى عاش فيه هذا العالم فى الاسكندرية فمن قائل أن ذلك كان فى القرن الأول قبل الميـلاد ، فان آخرين يتأخرون به الى القرن الثالث بعد الميلاد ، وتقول دوائر المعارف البريطانية انه لا يمكن الا أن يكون قد عاش فى الاسكندرية خلال القرن الأول لأنه يتحدث فى أحد كتبه عن خسوف قمرى شوهد فى الاسكندرية عام ٦٢ ميلادية .

وقد اخترنا ان نذكره الى جوار بطليموس فكلاهما من نتاج الاسكندرية ، وكلاهما يرمزان لتطورها وتفوقها العلمى .

وقد وضع هيرون فى كتابه « الحيل » أسس وقواعد العجلة ومحورها والرافعة ، والبكرة ، والاسفين ، واللولب .

وفى كتابه « الهوائيات » درس ضغط الهواء فى سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والألاعيب .

وتدرج من الألعاب المسلية باستخدام قوى الطبيعة الى صـنع مضخة رافعـة وأخرى لاطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات .

كما شرح الساعات المائية والأرغن المائى . وصنع طائرا آليا يغرد وتمثالا آليـا ينفخ فى بوق .

على أن أعظم ما توصل اليه هو تسخيره قوة البخار كطاقة محركة ، حيث صنع أول آلة بخارية فى التاريخ كان البخار الناشىء عنها يستخدم لوقف كرة فى الهواء ومنعها من السقوط ، ولم يكن ما فعله جيمس وات بعد ذلك بثمانية عشر قرنا الا أن استخدم هذه القوة البخارية فى تحريك رافعة .

وقد بقى لدينا حتى الآن كثير من كتب هيرون مترجمة الى العربية .

الطب والجراحة :

واذا كان بطليموس وهيرون يمثلان ذروة العلم والاختراع فى الاسكندرية ، فان ذلك يجرنا الى الحديث عن شهرتها فى هذه الفترة عن علم وفن آخرين وهما الطب والجراحة ، حيث كان يقال حتى عدة قرون تالية « حسب الطبيب تنويها ببراعتـه ان يقال انه تعلم فى الاسكندرية » وليس ذلك فى الحقيقة الا استمرارا لتفوق مصر فى الطب والتشريح من اقدم العصور بحيث عرفت التخصص فى الطب ، فكان عندها أطباء للعيون وآخرون للعظام .

يقول ول دورانت الذى ننقل عنه :

« لم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى فى اسكندرية اقل رقيا منها فى اى مكان آخر فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات وقد كتبت واحدة منهن « مترودورا » رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية حتى اليوم » .

ويزدان تاريخ الطب فى هـذا العصر بأسـماء عظيمة منها مرنيس Marinus الاسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة وانتبليس أعظم الرمديين فى عصره ، وكان أعظم أطباء ذلك العصر الذى لا يمكن الا أنه كان دقيق الصـلة بالاسكندرية وقطن بها فقد تلقى فيها العلم فى شبابه .

وجالينوس الشهير الذى لا يفوقه شهرة سوى بقراط ، الذى أربت مؤلفاته على خمسمائة كتاب بقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة تشمل جميع فروع الطب وعددا من مباحث الفلسفة .

١٥٣ م ـ اندلعت ثورة فى الاسكندرية لا يعـرف سببها ولكننا نعرف أن الوالى الرومانى قد خسر حياته فيها ، كما دفعت الاسكندرية ثمنا غاليا لثورتها .

ولكن يبدو ان الامبراطور (الطيب) قد أراد ان يظهر عطفه على المدينة بعد ذلك او ان يصالحها فأقام بها عدة منشآت (١) كمدرج لسباق الخيل ، وبابين للمدينة احدهما يواجه البحر وسمى « الشمس » .

والباب الآخر يواجه بحيرة مريوط واطلق عليـه اسم « القمر » وشق طريقـا يخترق المدينة بالعرض .

ويقول اسكندر صيفى مؤلف كتاب المنارة التاريخية ان الامبراطور انطونيوس أمر بمساحة الطرق العسكرية بالملكة وسموا ذلك « الدليل الأنطونينى » .

---

(١) ربما كانت هذه المنشآت قد أقيمت قبل الثورة .

فكانت طرق مصر العسكرية ستا أولها من بلاد النوبة حتى حضن بابليون على طول حافة النيل الشرقية ، وثانيهما من منف الى هليوبوليس وحى اليهود وقليمسون حيث ترعة تراجان نحو البحر الأحمر .

والثالث من منف الى مدينة بلوزيون (الفرما) والرابع من الصحراء الى البحر الأحمر عن طريق سيرابيون والخامس من فلسطين حتى الاسكندرية على شاطىء البحر المتوسط .

وسادسها من مدينة قبطوس (قفط) على النيل حتى برانيقة من البحر الأحمر .
وقد حدثنا اريان المؤرخ عن المسافات والأبعاد بين مدن البحر الأحمر وعدد سكانها واهمية تجارة مصر الداخلية والخارجية بها .

١٥٤ م — ولى حكم مصر سميرونيوس ليبرالس ويبدو ان الأحوال الزراعية واعمال السخرة بدات تسوء فى عهده لثقل الضرائب ، فهجر كثير من المزارعين قراهم وأراضيهم ، فأصدر الوالى منشورا وجهه الى هؤلاء الذين هجروا قراهم دعاهم فيه الى العودة الى قراهم واراضيهم وواعدا اياهم بالنزول عن الضرائب المتأخرة وتخفيف القائم منها .

١٥٥ م — خلف كاديانوس على بطريركية اسكندرية المسيحية ماريانوس الذى ظل بطريركا لمدة تسع سنوات .

١٥٩ م — ولى حكم مصر فولسيوس ميسانوس .

١٦١ م — مات انطونينوس خاتما بذلك حياته الصالحة بعد أن كان قد بلغ من العمر اربعا وسبعين سنة حكم فيها ٢٣ سنة .

وكما كان خير أعمال الامبراطورين السابقين عليه تراجان وهادريان هو نجاحهما فى اختيار خلفهما ، فقد وفق بدوره فى اختيار خلفه وهو ابنه بالتبنى ماركوس أوريليوس الذى دعاه وهو على فراش الموت وعهد اليه بالعناية بشئون الدولة ثم أدار وجهه كما لو كان يريد النوم وأسلم الروح .

الامبراطور ماركوس أوريليوس :

١٦١ م — اعتلى ماركوس أوريليوس عرش روما وكان وفيا للعهد منفذا رغبة هادريان وأشرك معه على قدم المساواة لوسيوس فيروسا ، مبتدئا بذلك التقليد الذى سيكون له أكبر الأثر فى تقسيم الامبراطورية .

على أن هذا الخطر لم يلح خلال حكم ماركوس أوربليوس الذى كان يؤلف ختام سلسلة الأباطرة الطيبين ، ذلك ان التاريخ كان يشهد بتولى ماركوس أوربليوس العرش تحقق ما حلم به أفلاطون فى جمهوريته الفاضلة وهو أن يلى العرش فيلسوف

ويؤكد لنا ماركوس أوريليوس نفسه أن ليس باستطاعة الحاكم الفيلسوف أن يغير وجه الدنيـا نحو حيـاة أفضل ... وكل الذى يستطيعه أن يبـذل أقصى جهده لتحقيق أكبر نصيب من الخير للمواطنين .

لبس ماركوس أوريليوس رداء الفلسفة **السروانية** منذ الثانية عشرة من عمره ، وأخذ ينام على فراش من القش رافضا رجاء أمه أن ينام على الفراش الوثير . وحشد لتعليمه رهط من مختلف الفلاسفة والعلماء فى شتى فروع المعرفة كالمنطق والفلسفة واللغـة والبيان والخطابة والقـانون والرياضيات وكان ماركوس أوريليوس يحمد لأخيه عنـدما كبر أنه تعلم منه « أن فكرة الدولة هى التى يكون فيها قانون واحد لجميع المواطنين ويتمتع سكانها بحقوق متكافئة وحرية الكلام ، والحكومة الصالحة هى التى تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شىء سواها » .

وكان يشكر لأستاذه مكسيموس أنه هو الذى علمه : « أن يحكم نفسه والا يسمح لشخص أن يضلله وأن يكون بشوشا فى كل الظروف ، وأن يجمع **قدرا متكافئا** من اللطف والكرامة وأن يؤدى ما عليه من الواجبات فى غير تذمر » .

ومع ذلك فان هذا الملك الفيلسوف لم يتردد عن خلع رداء الفلســفة وارتداء لباس الجندى ليواجه الغارات البربرية التى بدأت تتوالى على حدود الامبراطورية استهانة بشأنها وقاد الجيش بنفسه ووضع أحسن الخطط ، وانتصر فى أكثر من معركة وأدهش المنهزمين بعد ذلك بلينه ورحمته .

ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ، كان مدركا أن كل الانتصارات التى حصل عليها تحمل طابعا مؤقتا ، فقد بدأ الداء ينخر فى عظام هذه الامبراطورية المترامية .

فى مصر :

١٦٢ م — ولى حكم مصر انتيوس سيراكوز .

١٦٥ م — ولى حكم مصر دومنيوس أونوراتوس .

١٦٦ م — ولى حكم مصر فلافيوس تيتيانوس .

١٦٧ م — ولى حكم مصر باسويوس روفوس .

١٦٩ م — ولى كرسى البطريركية المسيحية انمرينيوس خلفا لكاديانوس الذى جلس على كرسى مرقص الرسول أربعة عشر عاما .

ثورة فى مصر :

١٧٢ م — اندلعت نيران الثورة ضد الحكم الرومانى ولم تكن الثورة هذه المرة فى الاسكندرية بل اندلعت من صميم الريف المصرى ومن أراضى شمال الدلتا بالذات .

فقد انتهز المصريون فرصة ارسال الحاميات الرومانية للحرب فى منطقة الدانوب ـ فانفجرت عوامل السخط والغضب تحت زعامة كاهن مصرى يدعى أيزيدور ، وبلغت الثورة من القوة بحيث هزمت القوات الرومانية الموجودة داخل البلاد ، وكادت مدينة الاسكندرية نفسها أن تسقط فى يد الثوار .

وعندما أرسلت روما جيشا لاخماد الثورة تحت قيادة « افيديوس كاسيوس » لم يقو على مواجهة قوات الثائرين فى معركة مفتوحة فعمد الى المناورات وايقاع الفتنة بين صفوف الثوار حتى انقسموا الى جماعات فسهل عليه بعد ذلك القضاء على هذه الأقسام المتفرقة .

على أن هذه الثورة لم تخمد الا بعد أن أوحت للقائد المنتصر كما سوف ترى ان ينادى بنفسه امبراطورا من مصر .

أفيديوس كاسيوس امبراطورا :

١٧٥ م ـ ولى حكم مصر جايوس كالفسيوس ستاتيانوس فلم يلبث أن انضم الى افيديوس كاسيوس الذى أعلن نفسه امبراطورا ، عندما وصلت اليه أنباء كاذبة عن موت الامبراطور ماركوس اوريليوس .

وأسرعت مدينة الاسكندرية التى كانت لا تتوق الى شيء أكثر من أن تكيد روما وأن تسعيد سلطانها ومجدها السياسى ، فأيدت الامبراطور الجديد الذى اسرع نحو سوريا ليحصل على تأييد جيشها وشعبها له ، تاركا فى مصر ابنه ميكيانوس نائبا عنه .

ولم يتأخر جيش سوريا ولا سوريا عن المناداة به امبراطورا .

ويحفظ لنا التاريخ موقف ماركوس أوريليوس غير العادى فى مواجهة هذه الثورة عليه والذى يكاد يرتفع الى مرتبة التصوف ، فقد أعلن بين جنوده بمجرد بلوغ الأنباء اليه أنه على استعداد أن يواجه افيديوس أمام مجلس الشيوخ وأمامهم وأن يسلم اليه الامبراطورية بدون اراقة دماء . اذا كان الشعب يرى الخير فى ذلك .

ومضى ماركوس يقول فى خطابه :

« ان أفيديوس لن يرضى بهذا الاحتكام وهو الذى أثبت عدم وفائه وخيانته للمحسن اليه وأخشى ما أخشاه يارفاقى الجنود وانى أقولها مخلصا ، أن يضع أفيديوس حدا لحياته أو أن يضع أحد الجنود حدا لهذه الحياة تصورا منه أنه يخدمنى بذلك ، فيحرمنى من رغبتى الشديدة فى أن اثبت قدرتى على العفو عن أشنع الجرائم وأشدها خطرا وان أجعل من أفيديوس صديقا لى رغم ابائه وتمنعه لكى أثبت للعالم أن خطر أعنف الحروب الأهلية يمكن أن يصل الى نهاية سعيدة موفقة بغير حاجة الى اراقة الدماء » .

ولكن الجنود الرومانيين كانوا اقل فلسفة من أوريليوس ولم يحققوا له امانيه اذ وضــع أحد الضــباط حدا لحياة أفيديوس كما اغتــال جنود آخرون ابنه فى الاسكندرية وهكذا لم تدم هذه الثورة غير ثلاثة أشهر ولم يرق فيها غير دم مشعليها وهم أفيديوس وابنه . واظهر ماركوس أوريليوس اسفه عندما حملت اليــه رأس أفيديوس ، وطلب ان تدفن باحترام وشرف .

ماركوس أوريليوس فى مصر :

١٧٦ م ـــ وقد خف ماركوس أوريليوس الى مصر بعد انتهاء هذه الزوبعة ، واذا كان مقتل أوفيديوس قد حرمه كما كان يجب من اظهار قدرته على العفو فقد شمل هذا العفو كل من اشترك فى الثورة ، حتى الذين كانوا من رؤسائها ومدبريها كوالى مصر وافراد اسرة افيديوس والذين يقضى القانون والتقاليد باعدامهم فقد اكتفى ماركوس أوريليوس بعزل الوالى ونفيه وحرمان أولاد أفيديوس من نصف ميراث أبيهم ونفيهم .. على أنه لم يلبث فيما بعد أن سمح لهم بالعودة الى بلادهم وراح ماركوس أوريليوس بعد ذلك يتجول فى مدينة الاسكندرية كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء والفلاسفة ويستمع اليهم ويساجلهم ويحاورهم . وتمثاله الذى أقيم له فى المدينة يمثله لابسا الجبة الرومانية وليس الملابس الملوكية كأسلافه .

١٧٧ م ـــ ولى حكم مصر باكتوموس ماخيوس .

١٧٧ م ـــ أشرك ماركوس أوريليوس ابنه كوموروس معه فى الامبراطورية فمنح لقب امبراطور ثم لقب باغسطس وأصبح شريكا لأبيه على قدم المساواة معبدا بذلك الطريق ليكون امبراطورا من بعده ومخالفا هذا التقليد الحكيم الذى اتبع خلال العهود السابقة ، وهو أن يتم اختيار الامبراطور عن تبنى الأصلح والأكفا ، لا عن طريق الوراثة .

موت ماركوس أوريليوس :

١٨٠ م ـــ مات ماركوس أوريليوس وقد بلغ من العمر تسعا وخمسين سنة وبعد حكم استمر تسعة عشر عاما .

وقد ذهب ماركوس أوريليوس الامبراطور كمــا ذهب وسيظل يذهب غيره من الملوك الصالحين أو الطالحين ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ظل خالدا فى مبادئه وتعاليمه وكتبه التى ما تزال تقرأ حتى الآن وتسمع ويستفاد بها .

فتراه حينما يدلل على وجود الله يقول :

« ان الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض والرابطة التى بينها رابطة مقدسة

وفى الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة اله واحد يسرى فى كل شيء ، مادة واحدة وقانون واحد وحقيقة واحدة . هل يمكن أن يكون فيك أنت (نظام واضح) ويكون الكون كله اضطرابا وفوضى . . » .

ويزيد آراءه وضوحا فى وحدة الوجود .

« فكما أن تبـدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المجال لأجسام أخرى فكذلك تتبدل الأرواح التى تنتقل الى الهواء وتتبدد وتتوزع فى عقل العالم الأصلى وتخلى مكانها لأرواح جديدة ، لقد وجدت أنت بوصـفك جزءا من كل ، وسوف تفنى فى ذلك الذى أخرجك وهذا هو ما تريده الطبيعة ، فاجتز هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصـل هادئا الى الطبيعة واختم رحلتك وأنت راض وليكن مثلك كمثل حبـة الزيتون تسقط حين تنضج وتبـارك الطبيعة التى أخرجتها وتثنى على الشجرة التى حملتها » .

ويصل ماركوس أوريليوس من الصـفاء والشفافية بحيث يبشر بتعاليم أقرب ما تكون من تعاليم المسيح فى موعظة الجبل اسمع اليه وهو يقول :

هل الشر الذى أصابك يمنعك أن تكون عادلا كريما معتـدلا ، حصيف الرأى متواضعا حرا :

ولنفترض أن الناس لعنوك أو قتلوك أو فرقوك اربا فماذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يظل طاهـرا حكيما متزنا عادلا ؟ واذا وقف الانسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه فان النبع لا يكف عن ارسال الماء النظيف واذا دسته أو رميت فيه الأقذار فسرعان ما يقذف بها النبع الى خارجه حتى لا يتدنس بها مرة أخرى . ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق المبدأ القائل : ان ما حدث لم يكن شقاء حل بك وأن الصبر عليه صبر الكرام هو السعادة بعينها .

ألا ما أقل الأشياء التى اذا حصل عليها الانسان استطاع أن يحيا حيـاة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب » .

هذه الأقوال الرائعة التى يقولها ماركوس أوريليوس تكشف لنا كيف أن الحاكم مهما بلغ من الصفاء والتسامح لا يمكن أن يباشر سلطانه ضد آرائه وافكاره . فالتاريخ ينسب اليه أنه اصدر أمرا باضطهاد المسيحيين . وقد لا يكون هو مصدر هذه الأوامر فى الحقيقة ، وانما أحد شريكيه .

ولكن المحقق أن المسيحيين تعرضوا فى حكمه لاضطهادات شديدة نتيجة لما اتهموا به من اثارة القلاقل ، واذاعة نبوءات مزعجة وعدم الولاء للدولة والامتناع عن قسم يمين الولاء للامبراطور واحراق البخور حول تماثيـله ، وأهم من ذلك كله رفض الخدمة فى الجيش .

وقد ضربت النقود باسمه فى الاسكندرية وعليها صورة النيل العظيم وفى السنة الحادية عشرة من حكمه ضربت النقود وعليها صورة ايزيس تقبض على شراع تدفعه الريح لجهة المنارة اشارة لقدوم الامبراطور الى الاسكندرية .

وترى صورة ماركوس أوريليوس كفرعون مصرى على جدران معبد لاتوبوليس وقد أصلح عدد كبير من المعابد فى زمنه وتم بناء أحد معابد فيلا فى عهده كذلك .

كومودوس امبراطورا :

١٨٠ م ـ انفرد كومودوس بن ماركوس أوريليوس بالعرش بعد وفاة أبيه وكان عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة ، واستهل حكمه بنقض كل ما عاش أبوه يعمل عليه ويدعو اليه وهو سياسة اللين والعفو والتسامح فقد أثار الأحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة أفيديوس كاسيوس الذين كان ابوه قد عفا عنهم ، وقضى عليهم جميعا ، كما انتقم من أهل الاسكندرية فحاكم زعماءهم وقتل الكثيرين منهم ، كما تدل على ذلك احدى وثائق البردى التى وصلت الينا مسجلة مثلا متأخرا من مجموعة أعمال الشهداء المدنيين أو أعمال السكندريين وتتضمن هذه البردية أجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن أفيديوس كاسيوس) وابيانوس رئيس جمنـازيوم الاسكندرية . ومن الحوار الذى دار بين ابيانوس والامبراطور نرى مدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الاسكندرية ومصر بعامة تجاه الحكم الرومانى واليك بعض من هذه النصوص :

الامبراطور مخاطبا ابيانوس : الا تعرف الى من تتحدث الآن ؟

ابيانوس : أجل .. ابيانوس يتحدث الى طاغية .

الامبراطور : بل الى ملك .

ابيانوس : لا تقل أنت هـذا . كان يحق لوالدك ماركوس أوريليوس أن يكون امبراطورا ولتعلم أنه كان أولا فيلسوفا وثانيا زاهدا وثالثا ملكا خيراً أما أنت فعلى عكس هذه الصفات طاغية وشرير وفاسد الأخلاق .

فأمر قيصر ان يساق ابيانوس الى الاعدام .

وليس هنـاك ما يدل على عظم الأثر الطيب الذى خلفـه ماركوس أوريليوس أن تراه يثنى عليه بهذه الصورة فى عمل من هذه الأعمال الاسكندرية .

علو شأن مدرسة الاسكندرية المسيحية :

١٨١ م ـ جلس بوليـانوس على كرسى البطريركية فى الاسكندرية ، خلفـا لاغريبيوس الذى ظل على كرسى الاسكندرية عشر سنوات .

وباقتراب القرن الثانى الميلادى من ختامه كانت المسيحية قد تأصلت فى مصر واتسع نطاق معتنقيها ، يدل على ذلك تكريس كثير من المطارنة لرئاسة الكنائس التى بدأت تنتشر فى أنحاء البلاد ، ويتجلى بالأكثر فى ارتفاع صيت مدرسة الاسكندرية الذى ذكرنا من قبل أن التاريخ الكنسى يعزو انشاءها الى مرقص الرسول ، وبدأت تأخذ أهميتها وخطورتها عندما يسهم فيها أثيناجوارس الذى كان فيلسوفا وثنيا ذائع الصيت ثم تحول الى مسيحى عميق الايمان فأبى على نفسه أن يوصل الى قلوب الآخرين ما أصبح يغمر قلبه من نور وايمان .

ونجد فى كتاب يوسابيوس القيصرى(١) أول تنويه بأهمية مدرسة الاسكندرية .

ونحو هذا الوقت (أى وقت بايون يوليانوس) عهد الى بنتيونوس — وهو شخص بارز جدا بسبب علمه — ادارة مدرسة المؤمنين فى الاسكندرية . اذ كانت قد أنشئت بها منذ الأزمنة القديمة مدرسة للتعاليم المقدسة ولا زالت حتى يومنا هذا « القرن الرابع » وكان يديرها كما وصل الى علمنا رجال فى غاية المقدرة والغيرة نحو الالهيات . وقبل أن يبرز من بينهم فى ذلك الوقت بنتنيوس لأنه تهذب بفلسفة الرواقيين . وقد أظهر غيرة شديدة نحو الحكمة الالهية حتى أنه عين سفيرا يمثل المسيح للأمم التى فى الشرق ووصل حتى بلاد الهند .

وبعد أعمال مجيدة كثيرة رأس بنتنيوس أخيرا مدرسة الاسكندرية ، وفسر كنوز التعاليم الالهية شفويا وكتابيا .

١٨١ م — ولى حكم مصر فلافيوس برسكيوس .

١٨٣ م — ولى حكم مصر مينيوس فلافانيوس وكان الانتاج الزراعى فى مصر قد بدأ يتدهور منذ قامت بثورتها التى دلت على سوء الأحوال . فلم تعد مصر هى المورد الأول لتوريد الغلال الى روما كما كان الشأن فى القرن الأول . .

ووصل الأمر الى حد أن أنشأ كومودوس أسطولا لنقل القمح من شمال افريقيا كما يدل نقصان حجم العملة ووزنها والتى سكت فى هذه الفترة على تدهور الأحوال الاقتصادية بصفة عامة .

١٩١ م — ولى بطريركية الاسكندرية ديمتريوس الأول خلفا ليوليانوس الذى جلس على كرسى مرقص الرسول عشر سنوات وشهرا ، وقد تم اختيار ديمتريوس لاعتلاء السدة المرقصية على ما يقول التاريخ الكنسى بطريقة عجيبة فقد رأى الأنبا يوليانوس ابان نومه ملاكا وسمعه يقول له :

---

(١) كان أسقفا لمدينة قيصرية ويعد من أقدر المؤرخين وأقدمهم بالنسبة للمسيحية ولد عام ٢٦٤م ومات عام ٣٤٠م .

« أن الذى سيأتيك غدا بعنقود من العنب سيخلفك » . وفى اليوم التـالى دخل ديتمريوس (الكرام) زارع العنب يحمل عنقودا من العنب هو باكورة كرمه وقد جاء ليقدمه لباباه المريض فلما رآه يوليانوس قال للمحيطين به هذا هو باباكم من بعدى وقص عليهم الحلم الذى رآه ، فلما أن توفى يوليانوس اتفقت كلمة الاكليروس والشعب على انتخاب ديمتريوس راعيا أعلى لهم وهكذا أصـبح الكرام الخليفـة الثانى عشر للقديس مرقص .

وسرعان ما نهض البابا الجديد ليكون جديرا بالمنصب الذى وصل اليه فدأب على تحصيل العلوم الدينية والمدنية واستطاع بقوة ارادته وايمانه ان يستكمل فى وقت قصير ما فاته عبر السنين التى مرت به .

وباعتلاء ديمتريوس كرسى البابوية ، بدأ سلطان المسيحية الروحى والعلمى فى مصر يزداد علوا ، وكان من أوائل أعمال ديمتريوس أن انتدب بانتنيوس رئيس مدرسة الاسكندرية للسفر الى الهند ليبشر أهلها بانجيل المسيح ، واستجاب بانتينيوس لهذا التقدير ، فعهد بادارة المدرسة الى تلميذه (كلمنفيس) وتوجه الى الهند فوجد أن توما الرسول قد سبقه اليها وبشر بالانجيل هناك ... ووجد لديهم نسـخة من انجيل متى بخط البشير نفسه .

قتل كومودوس :

١٩٣ م — قتل كومودوس خنقا بعد أن ظل منفردا بالحكم بعد أبيه ثلاثة عشر عاما ولعل هذه النهاية غير الطبيعية التى انتهى اليها على خلاف كل الأباطرة التى سبقته ابتداء من ثرفا تكشف عن الحماة التى كان قد تردى فيها على خلاف أبيه والأباطرة السابقين اليـه . فقـد عاد الى الأذهان تصرفات كاليجولا — ونيرون وحمـاقاتها وجرائمهما .

وكان يقضى أكثر أوقاته سكيرا معربدا مقامرا ومبعثرا أموال الدولة .

وكان فى حـريمه ثلثمائة امرأة وثلثمـائة غلام ويقـول لنا ناستس الذى يروى تاريخه أنه كان يحلو له فى بعض الأحيان أن يكون امرأة فيلبس فى الاحتفالات العامة ثياب النساء . وتروى عنـه قصص يتردد الانسان فى قبولها لما تنطوى عليـه من نشوة مفرطة . كان يرغم بعض النسـاء اللواتى نذرن أنفسهن لخـدمة ايزيس أن يضربن صدروهن بثمر البلوط حتى يمتن . وأنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهرواة هرقل التى كان يمسكها بيده . وأنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه واحدا بعد واحد .

وعندما اكتشف مؤامرة قتله زاد جنونه واسرافه فى ارتكاب الجرائم فقتـل عمته لوسيلا وعددا كبيرا من ذوى المقامات العالية لمجرد أن حامت الشبهة حولهم .. ويقولون أنه لم يبق على قيد الحياة أحدا من ذوى الكفاية على عهد أبيه ماركوس أوريليوس .

ولم يكن حكم كومودوس الا نذيرا بما ستنتهى اليه الامبراطورية من تفكك وضعف .. بعد أن أصبحت الاغلبية العظمى من سكان روما من العبيد . وبعد أن زال الايمان نهائيا بحكم القانون والديمقراطية ، ليحل حكم السيف والقوة . وبعد أن تهاوت العقائد الوثنية القديمة وفقدت الايمان بها ، وتحولت الى صور واشكال اقرب الى الهزل منها الى الجد — وبعد أن تحولت الفلسفة الرواقية التى كانت تقوم على المجاهدة الى الاستسلام .

ولم يكن أثر المسيحية فى دفع الامبراطورية نحو الضعف والتفكك بأقل من أى من هذه العوامل .

١٩٣ م — الامبراطور برتينياكس :

حاول مجلس الشيوخ ان يستعيد سلطاته فى تعيين الأباطرة فاختار للعرش فى أوائل يناير من هذه السنة عضوا من أجـل اعضائه وأجـدرهم بالاحترام وهـو بريتينياكس وقد حاول أن يكون جديرا بمنصبه وان يصلح ما أفسده كومودوس ، ولكن الحرس الامبراطورى الذى لم يشأ أن يفقد سلطانه فى تعيين الأباطرة اقتحم القصر وقتل الامبراطور وحملوا رأسه الى معسكرهم على طرف رمح وأعلن الثوار أنهم سيضعون التاج على رأس الرومانى الذى يمنحهم اكبر عطاء .

وراح سماسرة الحرس يتنقلون من غنى الى آخر ، فلما ان وعد جليانوس كل جندى بـ ٦٢٥٠ دراخمة أعلن الحراس اختياره امبراطورا .

وغضبت الفيالق والحاميات فى الخارج من استهتار الحرس الامبراطورى بالاتجار بالمنصب الامبراطورى فأعلنت كل منها رئيسها امبراطورا وزحفت جيوش المقاطعات على روما .

ولم يلبث لوسيوس سبتميوس سفيرس (ساويريس) قائد جيوش ولاية نيوفيا أن تفوق على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته وما قدمه من رشاوى وقطع على نفسه عهدا أن يهب كل جندى ٦٢٠٠٠ دراخمة اذا جلس على العرش ، فاستطاع أن يصل الى روما وأن يضم اليه الجيوش التى أرسلت لصده ، بل استطاع ان يضم الحرس الامبراطورى واعدا اياهم بالعفو والعطاء ان هم سلموا اليه قوادهم . وهكذا قطع رأس الامبراطور جليانوس .

وهكذا عاد الى الأذهان عام ٦٨ م وهو العام الذى توالى فيه على الحكم ثلاثة أباطرة .

وقد حاصر سبتميوس مجلس الشيوخ وطلب منه أن يؤيده لارتقـاء العرش ، فلما أجيب الى طلبه أعدم عشرات من أعضـائه وصادر كثيرا من مزارع الأشراف حتى قيل انه قد آل اليه نصف أملاك شبه الجزيرة .

الأحوال فى مصر :

كان الوالى على مصر فى هذا العام (١٩٣ م) مانتنيوس سابينيوس .

وسجلت الآثار المصرية حكم برلمتيناكس القصير وقد استطعنا أن ندرك من هذه الآثار المدى الزمنى الذى كانت الأخبار تستغرقه للوصول من روما الى مصر فحيث أعلن بريتيناكس امبراطورا فى ١٥ يناير فان والى مصر لم يذع البيان ويصدر أمره باجراء الاحتفالات المعتادة فى مثل هذه المناسبة الا فى ٦ مارس وكانت الاحتفالات تستغرق خمسة عشر يوما .

وقتل بريتيناكس فى ٢٨ مارس ولكن حتى ١٩ مايو كانت هذه الحقيقة لا تزال مجهولة فى الفيوم حيث عثر على وثيقة فى هذا التاريخ تشير الى كونه لا يزال هو الامبراطور .

ولم يكد خبر مقتله يصل الى مصر وان جليانوس ارتقى العــرش حتى أعلنت الاسكندرية (فيما بعد) رفضها لهذا الأمبراطور فلم تسك نقودا باسمه ولا يرى اسمه فى أى وثيقة من الوثائق فضلا عن جدران المعابد . ذلك أن المصريين وقد رأوا تدهور الحكم فى روما الى هذا المدى حتى أصبح العرش سلعة تباع فى المزاد حتى قرروا أن يتقدموا بمرشح لارتقاء العرش فنادوا ــ بسيشيوس نيجر (الأسود) وهو الجنرال الرومانى فى سوريا ، والذى عمل قبل ذلك فى مصر فى منطقة أسوان للدفاع ضد غارات البدو ، فأبدى من الحنكة والقدرة على كبح جماح جنوده من أن تنهب حاجات الأهالى أو تتعرض لهم بسوء ، فحببه ذلك الى قلوب الشعب ومما يؤثر عنه أنه عندما طلب منه جنوده أن يزودهم بالخمر قال لهم : ان ماء النيل يكفيهم .

وهكذا نودى (بنيجر) امبراطورا فى مصر وسوريا وضربت النقــود باسمه فى الاسكندرية ، وبدأوا يؤرخون باسمه عند تدوين الوثائق .

وكان رد فعل سفيروس (ساويرس) لهذا التمرد أن أسرع لتأمين حاجات روما من القمح من بلدان شمال افريقيا ، مظهرا بذلك أن الوقت الذى كان من يحكم فيه مصر يحكم روما بسبب القمح قد انتهى .

١٩٤ م ــ التقت جيوش نيجر وسفيروس عند مداخل كليكيا وكان مصير هذا اللقاء مقدرا من قبل فحيث جلس نيجر فى سوريا مطمئنا الى سلطانه،كان سفيروس شعلة من النشاط والعمل فراح يعنى بالجيوش وينظم صفوفها ويجهزها والغلبة دائما للعامل المجد . وانهزمت جيوش نيجر وقتل ، وبذلك استقرت الأمور لسفيروس وانفرد بحكم روما .

وأوفد فى هذه السنة فيما يبدو البيوس برمبيانوس ليكون واليا عليها .

اضطهاد المسيحيين :

ويذكر (تاريخ الكنيسة) أن اضطهادا وقع للمسيحيين فى هذا العام وكان ثقله فى مدينة الاسكندرية بالذات ، وقد كان من شهداء هذا الاضطهاد والذى خلد التاريخ ذكراه ليونيداس والد اوريجانوس الكبير الذى سيكون له شأن أعظم فى تاريخ الكنيسة بعامة وكنيسة مصر بخاصة ، حيث كان مجرد ذكر اسمه يثير فى النفوس الاخلاص فى أسمى صوره ، كما يثير فى النفوس الحقد والكراهية فى أحط صورهما وقد كان استشهاد ليونيداس هو نقطة الانطلاق فى حياة أوريجانوس الذى سنعود أكثر من مرة للتحدث عنه .

وقد اقتحم والى الاسكندرية فى هذا الاضطهاد كنيسة القديس مرقص فى الاسكندرية وسلب ما فيها من ذخائر ومقدسات وآنية ، ثم قبض على الأب ديمتريوس ونفاه الى بلدة أوسيم حيث ظل منفيا بها حتى انتهى الاضطهاد .

١٩٦ م — جاء الامبراطور سفيروس الى مصر ليكسب ود أهلها باصلاح أحوالهم واعادة مافسد من الادارة فكان أول مافعله أن حقق للاسكندرية مطلبها العزيز وهو أن يكون لها مجلسها التشريعى بل ومنح نفس هذا الحق لكل عواصم المديريات (القومات) والمدن الدينية (المتروبوليس) ويعتبر المؤرخون أن ذلك هو أول توحيد لنظم مصر الادارية مع سائر أنظمة الامبراطورية ، وقام سافيروس بالرحلة التى اعتاد أن يقوم بها أباطرة الرومان اذا زاروا مصر ، وهى أن يبحروا فى النيل صاعدين حتى طيبة وما وراءها ليشهدوا معابدها الخالدة ويقال ان سفيروس أصلح رأس أحد تمثالى ممنون فتسبب هذا الاصلاح فى ايقاف النغمات الموسيقية التى كانت تنبعث منه . وقد كانت هذه النغمات مبعث دهشة كل من كان يزور هذين التمثالين .

١٩٧ م — ولى حكم مصر ايمليوس ساتورنيوس .

٢٠١ م — ولى حكم مصر ماسيوس ليتوس كما يذكر البعض اسم اكيلا باعتباره والى مصر فى هذا التاريخ .

٢٠٣ — ولد فى لتويوليس فى مصر العليا أفلاطونين وكان مصريا ذا اسم رومانى وتربية يونانية وهو الذى سيكون مقدرا له بعث الفلسفة الافلاطونية تحت اسم الافلاطونية الجديدة والتى أحدثت أكبر أثر فى الديانة المسيحية .

٢٠٣ م — خلف اوريجانوس كليمنتص فى رئاسة مدرسة الاسكندرية المسيحية وأوريجانوس هو ابن ليونيداس الذى استشهد دفاعا عن العقيدة المسيحية عام ١٩٤ وقد أراد اوريجانوس عندما قبض على أبيه وكان عمره يبلغ السابعة عشرة أن يشاركه

فى السجن والاستشهاد ، ولكن أمه حالت بينه وبين فعل ذلك بأن اخفت جميع ملابسه فلم يستطع الخروج ، فأخذ يرسل الى أبيه فى السجن رسائل مشجعة على احتمال مصيره وقد جاء فى احدى هذه الرسائل .

« احذر أن ترجع عن ارادتك من أجلنا » .

ولم يلبث ليونيداس كما أشرنا من قبل أن أعدم وصودرت أموال الأسرة ، فوقع عبء كفالة الأسرة على أوريجانوس الشاب ، وقد كان لاستشهاد من استشهد فى هذه الفترة دفاعا عن العقيدة المسيحية أثر بعيد الغور فى نفس أوريجانوس ، فعمد الى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم وقلل من ساعات النوم ، وافترش الأرض ، ومشى حافيا وعرض نفسه للبرد والعرى ، وأخيرا عمد الى خصى نفسه اطاعة لاحدى آيات انجيل متى بعد أن تزمت فى تفسيرها أشد التزمت .

ولم يكد ديمتريوس يوليه المدرسة اللاهوتية ، حتى بزغ نجمه وطبقت شهرته الآفاق وهرع الكثير من الطلاب المسيحيين والوثنيين ينهلون من علمه وبلاغته وايمانه . وان الانسان فى عصرنا الحديث ليعجب وقد جاء وقت على العابد المسيحى كان يعتبر فيه طلب العلم وبخاصة الفلسفة كفرا وتجديفا ، كيف أن اوريجانوس فى هذا العهد المبكر جعل من برنامج الدراسة علوم النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وجعل تلقى هذه العلوم كلها مجرد تمهيد لدراسة الفلسفة ، ومقدمة فى خاتمة المطاف لدراسة الأسفار الالهية .

وهكذا أصبحت مدرسة اللاهوت الاسكندرانية بوتقة الحياة الثقافيةفىالاسكندرية وبعد أن كانت المسيحية رغم كل الجهود التى بذلها من قبله اكلمنضوس وتنثوس ، ومن الجهال والعوام تحولت بفضل جهود أوريجانوس بعزيمته الى طلبة الفلاسفة والمثقفين .

٢١١ م — مات الامبراطور سفيروس بعد أن بلغ من العمر خمسا وستين سنة سلخ فيها من الحكم ثمانى عشرة سنة أمضاها فى حروب متصلة سريعة وحشية قضى فيها على كل منافسيه وغزا بارثيا واستولى على طشقونة وضم بلاد النهرين الى الامبراطورية ، وانتصر على الاسكتلنديين فى بريطانيا فى عدة مواقع ، ولما جاءه الموت كانت كلمته :

« لقد نلت كل شىء ولكن ما نلته كان لا قيمة له » .

وقد عاب سفيروس على ماركوس أوريليوس أنه سلم الامبراطورية الى ابنه كومودوس ، ومع ذلك فقد فعل هو مثل فعلته وأسلمها الى ولديه كراكلا وجيتا وزودهما بهذه النصيحة الساخرة :

« اغدقا المال على جنودكما ثم لا يهمكما شىء بعد ذلك » .

ويرى رسم سفيروس بملابس فرعون مصر فى معبد لاتوبوليس ، كما ترى رسوم له مع زوجته .

الامبراطور كراكلا :

ارتقى كراكلا عرش الامبراطورية وقد سمى بهذا الاسم نسبة الى العباءة الغالية الثمن التى كان يرتديها أكبر أبناء سفيروس وبمجرد اعتلائه العرش أمر بقتل (جيتا) أخيه الصغير وشريكه فى الحكم . ويقال ان القتلة عندما دهموه وهو فى حجرة والدته هرع الى ذراعيها لتحميه ولكنها لم تستطع حمايته فذبح وهو فى حضنها وتخضبت ثيابها بدمه .

ويقال ان كراكلا أعدم عشرين الفا ممن احتجوا على قتل أخيه ، ولما تذمر الجيش على أثر مقتل جيتا ، أسكت الجيش بأن نفحه منحة مالية تعـادل ما ادخره أبوه سفيروس من أموال .

وعين أمه (جوليا دمنه) التى لم تستطع أن تظهر حزنها على ابنها الذى ذبح فى حجرها أمينة سر الامبراطورية لشئون العرائض والرسائل فكانت تشاركه أو تحل محله فى استقبال رجال الدولة وذوى المكانة ، فهمس المتقولون بأنها تستمد سلطانها عليه من مضاجعته لها ، وكان أهل الاسكندرية كعـادتهم من أغنى السـاخرين به فشبهوه وأمه بأوديب الذى تزوج أمه جوكستا ، واعلنوا نقمتهم عليه لذبحه أخيـه على هذه الصورة .

منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان الامبراطورية :

على أن كراكلا يذهب فى التاريخ علما على انه هو الامبراطور الذى منـح حق (المواطن الرومانى) لجميع سكان الامبراطورية الأحرار .

ويقول بعض المؤرخين فى تعليل هـذه الخطوة انه أقدم عليها لحاجتـه لفرض ضريبة التركات على جميع سكان الامبراطورية وهذه الضريبة لا تجبى الا من المواطنين الرومانيين .

وأحسب أن هذا تعليل غير مستساغ . فلم يكن هناك ما يحول دون أن يعمم كراكلا سريان هذا القانون على جميع سكان الامبراطورية بغـير حاجة الى منحهـم حـق المواطنة . كما يقول البعض أن حقوق المواطنة كانت قد أصبحت من الضآلة فلم يحدث منحها لسائر سـكان الامبراطورية فـرق ، ولكن هذا الفـارق مهما كان قدره من الضآلة .. هو الذى سيضع بعد قليل على عرش روما اباطرة من كل جنس ومن كل قطر .. أباطرة ربما لم يذهب أحدهم الى روما طول حياته .

كما ثار جدل بين بعض المؤرخين عما اذا كان حق المواطنين قد شمل المصريين فيمن شمل ...

فيقول البعض أن المصريين (من دون سـائر عباد الله) قد استثنوا من هـذا القرار .

ويقول الدكتور مصطفى العبادى ان الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كراكلا فى مصر كان عاما وشاملا للمصريين جميعا سواء أهل المدن أو الريف .

٢١٥ م – ولى حكم مصر سبتيميوس هراكلتيوس .

كراكلا فى مصر :

وزار الامبراطور كراكلا مصر فى هذه السنة ويبدو أنه جاءها راغبا فى الانتقام منها لما روجته حوله من أقاويل حول علاقته بأمه وتنديدها بمسلكه فى مقتل اخيه .

وقد استقبلته الاسكندرية كما هى عادتها بكل حفاوة وتكريم بالفين عنان السماء ورد كراكلا التحية بمثلها حتى قيل أنه قدم ضحيته بمعبد سيرابيس ، وزار ضريح الاسكندر وخلع عليه غطاءه الملوكى وزناره المحلى بالجواهر وخواتمه الثمينة .

ولكن هذا التصرف فيما يبدو زاد فى لهيب سخرية الاسكندريين ، فقد رأوا فى هذه الأعمال ما يعزن القول أن كراكلا يحاول التشبه بالاسكندر .

وبدأ كراكلا انتقامه الرهيب ، فدعا شباب الاسكندرية ورجالها الى خارج المدينة ليؤلف من القادرين منهم فرقة جديدة فى الجيش الرومانى .

فتسابق الرجال القادرون والشباب المتحمس للالتحاق بالفرقة المطلوبة ... وعندما تجمعوا خارج الأسوار أحاطهم الجنود الرومان ، وتظاهر كراكلا بأنه يفتش عليهم ، وبعد أن خرج من صفوفهم أصدر أمره للجيش المحيط بهم بافنائهم وجرت مذبحة وحشية لم يسمع التاريخ بمثلها على هذه الصورة ... ولم تقف عند حد ذبح المتجمعين خارج الأسوار ، بل امتدت بعد ذلك الى داخل المدينة نفسها .

واصدر كراكلا أمره بعد ذلك بالغاء حق سكان الاسكندرية فى المسابقات الرياضية وأمر ببناء سور يشطر مدينة الاسكندرية شطرين وقد كانت الجيوش الرومانية حتى ذلك التاريخ تقيم خارج الأسوار فى مدينة نيقوبوليس (الرمل حاليا) فأصدر أمره بنقل المعسكرات الى داخل المدينة .

ويرى بعض المؤرخين أن كركلا لم يقـدم على تحطيم الاسكندرية بهـذه الصورة العنيفة الا لخوفه من أن تقوم بثورة ابان اشتغاله بالحرب التى كان مقدما عليها فى بارثيا .

٢١٦ م – ولى حكم مصر فالريوس داتوس وفى هذه السنة اذن الأنبا ديمتريوس

بابا الاسكندرية لاوريجانوس رئيس المدرسة اللاهوتية ان يذهب الى آسيا الصغرى كى يعلم أهلها ، فذهب اليها وقام بالمهمة خير قيام ، وفى طريق عودته مر بفلسطين فبهر بعلمه ونبوغه وتقواه أسقفى قيصرية وأورشليم فرسماه قسا .

ويقول لنا يوسابوس القيصرى فى تاريخ الكنيسة ان ديتمريوس (غلبه الضعف البشرى) اذ رأى اوريجانوس يعلو نجمه ويعلو ويزداد شهرة .

واغضبه أن يرسمه أسقفا أورشليم وقيصرية قسا مع أن ذلك من صميم عمله واختصاصه : فأصدر قرار حرمان على أوريجانوس واصفا اياه بأنه طائش مستندا فى ذلك الى هذا الحادث القديم الذى أقدم عليه من خصيانه لنفسه .

على أن قرار الحرمان هذا كان سببا فى أن تعلو شهرة أوريجانوس أكثر وأكثر وأن يعرف من لم يكن يعرف مدى تقواه وعلمه الغزير وحكمته . بل لقــد كان هذا الحرمان سببا فى خير الكنيسة والمسيحيين ذلك أن أوريجانوس أنشأ مدرسة لاهوتية جديدة فى قيصرية ، تخرج منها عدد كبير من فحول آباء الكنيسة المسيحية .

٢١٧ م — انتصر كراكلا فى حربه ضد البارثيين ولكن جنوده قتلوه عشية انتصاره ولم يزد حكمه عن خمس سنوات .

وترى رسومه ورسوم أخيه جيتا على جدران معبد لاتوبوليس . كما توجد له بعض التماثيل فى المتحف المصرى (١) .

٢١٧ م — الامبراطور مقرنيوس :

أعلن مقرنيوس قائد الحرس الامبراطورى نفسه امبراطورا على أثر موت كراكلا حتى قيل أنه كان هو الآمر بقتله .

وقد بدأ حكمه بالعمل على استجلاب ود المصريين فبعث اليهم لأول مرة فى تاريخ العلاقات الرومانية المصرية بأحد أعضاء مجلس الشيوخ (ماريوس سكوندس) ليكون مساعدا للوالى الجديد بازيليانوس مبطلا بذلك التقليد المتبع منذ عهد أغسطس وهو ابعاد مصر عن نفوذ أعضاء الشيوخ .

على أن حكم مقرنيوس لم يدم طويلا فقــد استطاعت بعض الأميرات السوريات النابهات أن يجزلن العطاء لجنود الجيش الرومانى ليحملنهم على تولية ابن احداهن وكان صبيا يقيم فى مدينة حمص ويشغل منصب كاهن اله المدينة .

وقد زعمت كبرى هذه الأميرات أن بناتها كن يغشين بلاط كراكلا وانه اتصل باحداهن وانجب منها هذا الصبى .

---

(١) والذين يزورون مدينة روما فى العصر الحديث يستوقفهم اسم كراكلا منذ أقام موســوليني مسرحا ضخما فى أطلال حمامات كراكلا التى كان قد أقامهـا للشعب .

واذ كانت الأميرة اجزلت العطاء لرجال الجيش فقد نودى بالصبى «الاجابالدس» امبراطورا .

ولكن أهل الاسكندرية رفضوا الاعتراف بابن عدوهم كراكلا امبراطورا ، وانحازوا الى جانب مقرنيوس .

ولكن مقرنيوس لم يلبث أن قتل وأيدت الجيوش الرومانية فى مصر اختيار الامبراطور الجديد ... ولكن أهل الاسكندرية وعلى رأسهم الوالى بازيليانوس وماريوس سيكوندس مضوا فى مقاومتهم للامبراطور الجديد وقتلوا السعاة الذين جاءوا من سوريا يحملون النبأ .

ووقع الاشتباك بين الجيش الرومانى وأهل الاسكندرية ، ولكن الغلبة كانت فى النهاية للجيش وقتل ماريوس سيكوندس وفر بازيليانوس الى روما .

٢١٨ م — الامبراطور الاجابالدس :

اشتق هذا اللقب من اسم اله حمص الذى كان كاهنا له ، ولكى يكسب الاجابالدس حكمه صفة شرعية ، سمى نفسه ماركوس اوريليوس انطونينوس .

على أن الصبى لم يكد يصل الى روما ويتربع على عرشها حتى أسلم نفسه لشهواته وملذاته ، التى بلغ فيها الحد الذى وصف معه بالجنون .

وذلك فى الوقت الذى تولت فيه السلطة الحقيقية فى روما امه (جوليا مايزا) .

٢٢٢ م — قتل الحرس الامبراطورى الاجابالدس وامه وجروا جثتيهما فى شوارع المدينة ثم ألقوهما فى نهر (التيبر) ونادوا بالاسكندر ابن خالة الاجابالدس امبراطورا بعد أن وعدتهم أمه باجزال العطاء لهم ، بل وأعطت مقدما ، وكانت أم الاجابالدس هى التى اقنعت ابنها أن يتبنى ابن خالته الاسكندر ويعلنه خليفة له من بعده ، فكان ان حفرت قبرها بيدها .

الامبراطور سفيروس الاسكندر :

كان الامبراطور الجديد فى الرابعة عشرة من عمره ولذلك فقد تألف مجلس وصاية من أعضاء مجلس الشيوخ تحت سلطان أم الامبراطور الجديد ليباشر مهام الحكم . وهكذا حملت نساء سوريا الى روما تقليدا جديدا لم يسبق للمراة الرومانية ان زاولته من قبل وهو أن تضطلع بالحكم بطريق رسمية وان تشاطر الرجال السيادة والنفوذ .

وكانت أم الامبراطور قد عنيت عناية كبيرة باعداد ابنها عقليا وجسديا وخلقيا ، فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم : ويقتصد فى الطعام ولا يأكل

الا أبسط الأطعمة . وكان شابا وسيما قوى الجسم طويلا ماهرا فى جميع الألعاب الرياضية وفنون الحرب ودرس الآداب اليونانية واللاتينية .

وقد اظهر احتراما عظيما لمجلس الشيوخ .

وكان رحيما دمث الأخلاق يعود المرضى فى منازلهم ، ويستمع الى أى مواطن حسن السمعة ويبادر بالعفو عن معارضيه ولم يسفك قط دماء مدنى طول حكمه .

ولما كانت الامبراطورية فى أيامه تشهد انتشار المسيحية فى الوقت الذى كانت الوثنية لاتزال دين الدولة الرسمى ، فقد هبت العقائد القديمة تدافع عن نفسها فيما يشبه صحوة الموت .

فراى سفيروس الاسكندر أن يعظم كل الأديان التى تدعو الى الخير فأقام فى معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح تماثيل لجوبيتر واورفيوس وابراهيم (أب اليهود) وهذا الاله الجديد الذى يسميه أتباعه المسيح ، وكثيرا ما كان يردد هذه القاعدة الذهبية التى تتضمنها كل الأديان الخيرة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

وقد أدى ذلك الى أن يتندر به أهل الاسكندرية وانطاكية « رئيس الكنيسة » .

وكانت أمه تؤثر المسيحيين على غيرهم من الرعايا حتى قيل انها بسطت حمايتها على أوريجانوس واستدعته الى روما ليشرح لها أصول دينه .

٢٢٤ م — مات أحد أباء الكنيسة المصرية الخالدين وهو الأنبا ديمتريوس بعد أن بلغ من العمر الخامسة بعد المائة وقاد الكنيسة طوال اثنتين وثلاثين سنة وسبعة شهور .

وقد عرف أنه عند توليه عام ١٩١ قد انكب على اغتراف العلوم ليكون جديرا بمنصبه الرفيع . وقد وصل فى علمه الى حد انه وضع الحساب المعروف بالابقطى وهو الحساب الخاص بتحديد يوم قيامة المسيح والذى لا يزال معمولا به حتى الآن فى الكنائس الشرقية وقد استند فى وضعه على حساب بطليموس الفلكى صاحب المجسطى . وهو أول بابا رسم أساقفة لجهات القطر المصرى ، وعقد مجمعا بالاسكندرية حاكم فيه العلامة اوريجانوس .

بطريركية ياروكلاس :

وخلف ديمتريوس على كرسى الكرازة المرقصية الأنبا ياروكلاس . وكان ياروكلاس أحد تلاميذ أوريجانوس وكان مشغوفا بالعلم جادا فى تحصيله الى حد استرعى اهتمام أوريجانوس ، فجعله يتولى التعليم فى الصفوف الأولى من المدرسة .

ولم يحصل ياروكلاس على تقدير أوريجانوس فحسب بل حصل على تقدير

ديمتريوس فرسمه قسا ، وعندما تخلى أوريجانوس عن المدرسة بعد أن غضب عليه ديمتريوس ، خلفه على رأس المدرسة ياروكلاس بناء على تكليف من ديمتريوس ، فأظهر تفوقا كبيرا اذ انه فوق علمه الواسع كان خطيبا بليغا يؤثر على السامعين ، فجمع القلوب حوله .

ولذلك فلم يكد الأنبا ديمتريوس يختم حياته حتى أجمع الاكليروس والشعب فى اتفاق روحى على انتخاب ياروكلاس خليفة له وفى عهده كانت المسيحية قد بدأت تعم مصر كلها بحيث رأى نفسه مضطرا لرسامة عشرين أسقفا جديدا لمدن البلاد وصار هو أكبرهم فلقبوه بالبابا أى الأب الأكبر (١) ، وكان أول عمل له بمجرد توليه مهام عمله أن أعلن رفع الحرم الذى كان ديمتريوس قد أوقعه على أستاذه القديم أوريجانوس ، وكتب اليه يدعوه الى العودة الى الاسكندرية ليواصل جهاده من أجل العقيدة ، ولكن أوريجانوس رد عليه بأن مدرسة الاسكندرية أصبحت ثابتة الدعائم ولم تعد فى حاجة اليه قدر احتياج مدرسته الجديدة فى قيصرية فاقتنع ياروكلاس بهذا الرأى وعين لرئاسة المدرسة خلفا له أيونسيوس .

٢٢٨ م — ولد الأنبا بولا الذى سيكون مقدرا له فى تاريخ المسيحية أن يكون منشىء الرهبنة حيث كان أول من انخلع عن أمواله وأسرته وهرب الى الصحراء بعيدا عن الناس وكل مظاهر الاجتماع .

٢٢٨/٢٢٩ م — من المحتمل على ما يقول الدكتور مصطفى العبادى أن يكون الامبراطور سفيروس اسكندر زار مصر فى هذا التاريخ وحاول التخفيف عن الأهالى بالتنازل عن بعض الضرائب ولكن المصادر الأخرى وأهمها (ملن) لم تشر الى هذه الزيارة .

وما يذكره « ملن » بمناسبة هذا الامبراطور أن مصر كانت قد بدأت تتدهور اقتصاديا وماديا حتى أنه لم يعد يخشى من أن تتخذ قاعدة للقيام بثورة ضد روما ، ويستدل على ذلك بأنه عندما قام رئيس الحرس الامبراطورى ابيجانوس بثورة على الامبراطور وفشلت الثورة فان الامبراطور عفا عنه وبعثه واليا على مصر ، مما يدل على أنها أصبحت آخر مكان يمكن لثائر أن يقوم بعمل منه (٢) .

على أنه اذا صح ما يقوله ملن من أن مصر كانت قد بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية والمادية كقوة فاعلة فى الامبراطورية الرومانية فان ذلك لا يصدق على مكانتها العلمية

---

(١) لا نوافق ايريس حبيب المصرى على أن يارو كلاس أول من سمى بابا ويقول أن بطاركة الاسكندرية قد سموا بهذا الاسم منذ اثيانوس أول بابا .

(٢) يذكر ملن أن أبا خاموس قد أعدم بعد قليل من الزمن مما يدل على أن ارساله الى مصر كان لتهدئة الخواطر ثم اعدامه بعد ذلك ..

والروحية فى ذلك العهد حيث كانت الفلسفة تصل الى ذروتها على يد آخر أعلامها من الوثنيين وهو افلاطونين .

كما كانت الفلسفة المسيحية تصل الى ذروتها كذلك على يد أوريجانوس .

وقد كان افلاطونين صديقا لاوريجانوس وزميلا له فى دراسته حيث تلقى الاثنان دروسهما على يد أستاذ واحد وهو أمتيوس سكاس ، وهو مسيحى ارتد الى الوثنية وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والافلاطونية ، وهو ما سيفعله تلميذه أوريجانوس .

٢٣٥ م ٢٣٨ م — قتلت الجنود الرومانية سفيرس الاسكندر وكان الجنود يحنقون على سفيرس اسكندر انه عمل جاهدا طوال حكمه على اضعاف سيطرة الجيش على الحكم ، وأعاد الهيبة الى مجلس الشيوخ والاشراف ، فانتهز الجنود فرصة محاولاته الصلح مع قبائل الراين لكى يقتلوه هو وأمه وأصدقاءه .

وبموت سفيرس الاسكندر انحدرت الامبراطورية الرومانية الى نصف قرن من الفوضى والفتن وعدم الاستقرار . حيث كان يجتمع فى وقت واحد ثلاثة أو أكثر أو أقل يدعى كل منهم أنه هو الامبراطور يؤيده فرق من الجيش فى احدى الولايات أو ينادى به السناتو ، ثم تلتقى الجيوش ويذبح بعضها بعضا ، أو يغتال الجنود امبراطورهم لشراء رضاء الامبراطور الآخر وهكذا .

الامبراطور مكسمنيس :

وكان أول من نودى به امبراطورا هو رئيس فرق الجيش فى أرض الراين ويدعى مكسمنيس ، وهو من حيث الأصل فلاح من تراقيا ، وكان ضخم البنية بصورة غير عادية حتى يقولون أنه كان يلبس سوار زوجته كخاتم فى أحد أصابعه ، وكان جاهلا تعوزه الثقافة ، ولذلك فلم يعترف به مجلس الشيوخ .

ونصب من ناحيته كلوديوس ماكسيموس وبالينوس امبراطورين .

وفى نفس الوقت نادت الفرق الافريقية بنائب القنصل ماركوس انطونينس جورديانوس الأول وهو شيخ فى الثمانين من عمره ولذلك فقد أشرك معه ابنه جورديانوس الثانى . ودارت المعارك بين القوى المتناحرة ، وكان أن قتل جورديانوس الأول وابنه ، ولكن جماهير الشعب فى روما أكرهت مجلس الشيوخ على اشراك جوديان الثالث حفيد جورديان الأول مع بويتوس وبالينوس .

وقتل الجند الامبراطور ماكسمينس فى يونيو ٢٣٨ وفى نفس الوقت قتل رجال الحرس الامبراطورى يونيوس وبالنيوس فانفرد جودريان الثالث على العرش .

فى مصر :

وقفت الاسكندرية ومصر من هذه الأحداث موقفا سلبيا فلم تشترك فى هذه

المباريات الشطرنجية وكانت تنتقل فى غير منافسة الى حكم أى من الأباطرة المدعين ـ فنرى فى مصر قيصرين باسم جورديانوس الأول والثانى كما نرى نقودا مضروبة باسم ماكسمنيس ولكن لا يرى لهم ذكر على جدران المعابد أما بالنسبة لبالينوس بونيثيوس فلا أثر لهما البتة ـ وقد وردت اشـارة عابرة فى احدى البرديات الى جورديان الثالث .

موت ياروكلاس بابا مصر :

٢٤١ م ـ مات ياروكلاس بابا مصر بعد أن جلس على كرسى الكرازة المرقصية ستة عشر عاما وشهرا واحدا .

وقد شهد فى عصره اضطهادا ـ وقع على المسيحيين فى عهد الامبراطور مكسمينس الذى اكتشف مؤامرة تستهدف قتله وأوهمه المقربون اليه من رجال البلاط أنها من تدبير المسيحيين فصدق هذه الوشاية وأثار اضطهادا مروعا ضد المسيحيين .

وقد اضطر ياروكلاس تحت الحاح رعاياه الى الاختبـاء حتى مات ماكسمينس وقد كان هذا الاضطهاد هو الذى حدا باوريجانوس الى تأليف مؤلفه عن الاستشهاد على ما يقول تلميذه يوسيفوس القيصرى .

ولقـد اجتذبت شخصية ياركولاس بوداعتها وغزارة علمها كثيرا من الأجانب الاعلام ومن بينهم افريكانوس مؤلف تاريخ العالم ابتداء من التكوين حتى عام ٢٢١ م والذى عرفنا من خلاله مؤلف مانيتون .

ومن مآثر ياروكلاس التى تحفظها له الكنيسة أنه قبل توبة التائبين من المسيحيين الذين جحدوا مسيحيتهم تحت وطأة الاضطهاد ، وبغير حاجة الى تعميد جديد ، ولكن شريطة أن يعلنوا توبتهم جهارا طالبين بتوسلات جمة .

الأنبا ديونسيوس :

وخلف ياروكلاس على كرسى الكرازة المرقصية الأنبـا ديونسيوس ، وهو أحد أبناء الاسكندرية وكان عمله الأول الطب ، ثم حدث أن اعتنق المسيحية وتتلمذ على أوريجانوس وانعقدت بينهما أواصر الصداقة ، ثم رسم شماسا وكاهنا ، وعين بعد ذلك ضمن معلمى المدرسة فى الاسكندرية عندما كان رئيسها صديقه ياروكلاس .

ولما اعتذر أوريجانوس عن العودة لرئاسة المدرسـة أصبح ديونسيوس رئيسا عليها .

واستهل ديونسيوس عمله بمجرد اعتلائه السـدة المرقصية بأن أرسـل الى أوريجانوس يخبره رفع الحرم عنه ويدعوه الى العودة الى عمله فى رئاسة مدرسة الاسكندرية ولكن أوريجانوس كرر اعتذاره القديم لنفس الأسباب وهو أن مدرسة الاسكندرية أصبحت فى غنى عنه ... حيث يقوم بعمل نافع فى مدرسته الجديدة بقيصرية .

فعهد ديونسيوس بادارة المدرسة الى تينوغناست ، وعنـدما مات هذا الأخير عين الأنبا ديونسيوس بيريوس خليفة له والذى سيقدر له أن يعيش قرنا من الزمان .

أفلاطونين :

٢٤٤ م — وفى هذا العام وصل خاتم الفلاسفة الوثنيين ومن أغاظمهم أفلاطونين السكندرى الى روما ليجعل منها قاعدة ليبث تعاليمه ومبادئه الفلسفية ، فاستطاع أن يعيد الى الفلسفة سمعتها الطيبة ، وذلك بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف روما ورذائلها ،وحرم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز الا قليلا وابتعد عن كل العلاقات الجنسية وان لم يذقها وليست فلسفة افلاطونين التى سيطلق عليها اسم الأفلاطونية الجديدة الا مزيجا من فلسفة أفلاطون المثالثـة بعد أن تأثرت بعقيدة المصريين فى التثليث عندما يصل الأمر الى تصور الألوهية .

فالأصل فى الوجود هو الفكر وليس المادة والمادة لا تعرف الا عن طريق الفـكر وليس ما نسميه مادة الا مجموعة من الأفكار وهى أكثر ما تكون شيء افتراضى مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا .

والانسان مؤلف من ثالوث بشرى هو الجسم والنفس والعقل . فأما الجسـد فعضو النفس وسجنها معا . والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، وهى حين تعمل لتبلغ بالفكر الى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا .

أما بالنسبة للاله فهو ثالوث مكون من الوحدة والفكر والنفس ومن وراء الكائن المثلث يوجد الواحد ونحن لا نعرف عن هذا الواحد الا انه موجود وكل صفة موجبة نصفه بها تحديد له غير لائق به ، وكل ما نستطيع أن نصفه به هو أنه أول وواحد وخير وأنه هدف رغبتنا العليا وينشأ من هذه الوحدة العقل العالى وليست هـذه التعاليم الا حلقة من تلك السلسلة التى بدأها الفلاسفة المصريون ابتداء من ميلون اليهودى ، وواصلها أفلاطونين واريجانوس والتى سيكون مقدرا لها أن تكون هى التى تصوغ المسيحية فى النهاية .

٢٤٤ م — قتل جورديانوس الثالث على يد قائد حرسـه الامبراطورى فيلب العربى الذى جعل من نفسه فى بادىء الأمر شريكا فى الحكم لجورديانوس ، ثم قرر فى هذه السنة التخلص منه واعلان نفسه امبرطورا .

الامبراطور فيليب العربى :

وهو عربى الأصل كما يبدو من لقبه يمت الى مدينة بصرة ، وقد أسرع بمجرد مناداة الحرس به امبراطورا الى روما ليتقلد زمام الأمور ، وقدر لهذا العربى الوافد من الشرق أن يكون هو الذى يشهد الاحتفال بمرور ألف عام على انشاء مدينة روما « عام ٢٤٨ » .

٢٤٩ م ـ مقتل فيليب :

نادت بعض فرق الجيش الرومانية بقائدهم دسيوس امبراطورا ، فزحف عليه فيليب بجيشه ودارت الدائرة على فيليب فذبح .

الامبراطور ديسيوس :

تولى ديسيوس عرش روما وكان مقدرا لهذا الامبراطور الذى لم يعمر طويلا على العرش أن يكون هو أول من أصدر قرارا عاما باضطهاد المسيحيين (١) .

٢٥٠ م ـ وفى هذه السنة ولد فى مدينة قمن العروس الأنبا انسطونى واذا كان الأنبا بولا هو أول من اعتزل مدينة الناس وعاش وحيـدا فى الصحراء فان الأنبـا انطونى هو المؤسس الرسمى لنظام الرهبنة والأديرة الذى انتشر من مصر الى سائر العالم المسيحى .

محنة المسيحيين :

يذكر ملن فى تاريخه أن الوالى الرومانى فى هذه السنة على مصر كان هو ابيوس سببينوس لكن تاريخ الكنيسة الذى يتحدث عن محنة المسيحيين التى بدأت فى هذا العام قد جرت على يد اميليانوس الوالى وكان الأمر الذى أصدره دبسيوس يقضى بأن يطلب من كل فرد من الأهالى أن يعلن تمسكه بعقيدته فى آلهته القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها . وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختيار ومن يرفض القيـام به يكون جزاؤه الموت وقد عثر على نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التى ترجع الى هذا التاريخ ٢٤٩ ــ ٢٥١ م .

القبض على ديوتسيوس وتخليصه :

وقد كان ديوتسيوس بابا المسيحيين فى مصر هو أول من قبض عليه بطبيعة الحال ليؤدى هذا الامتحان ويعلن جحود المسيحية ويذبح للأوثان والآلهة القديمة ، ولكن بعض مسيحى الاسكندرية استطاعوا أن يخطفوه من يد الحراس ويهـربون به الى الصحراء .

وقد راح من مخبئه يوجه الرسائل الى أبنائه المسيحيين يثبت أقدامهم ويشد أزرهم .

وقـد ترك لنـا عدة رسـائل بعث بهـا الى أساقفة المشرق بعث لنا فيهـا أنواع الاضطهادات والمذابح التى حلت بالمسيحيين الذين أبوا الا التمسك بعقيـدتهم ــ وكيف ضعف الكثيرون خـوف الموت فجحدوا المسـيح ــ وكيف فـر البعض الى الصحراء نجاة بأنفسهم .

---

(١) كانت الاضطهادات السـابقة التى مرت بالمسيحيين اضطهادات محلية لم تأخذ شكل العمومية .

الأنبا بولا :

وكان الأنبا بولا الذى بلغ العشرين من عمره ممن هجروا المدينة فى هذه الفترة وهرعوا الى الصحراء . وقد تعددت الروايات فى سبب هذه الهجرة فمن قائل ان زوج شقيقته طمع فيه ووشى به الى الوالى فجعلته هذه الخسة يعاف البشر ويقرر أن يعتزل الخليقة ليعبد الخلاق الرحيم (قصة الكنيسة القبطية) .

ومن قائل بل انه زهد فى الدنيا عندما وجد أحد الأثرياء ميتا وقد بدأ ورثتـه يتنازعون الميراث ولما يوارى فى لحده بعد (تاريخ الأقباط) .

ثم تتفق الروايتان أنه عندما هجر المدينة وتوغل فى الصحراء وجد كهفا تقـوم الى جواره نخلتان وعين ماء فآوى الى هذا المكان الذى هيأه له الله وظل يعيش وحيدا تسعين عاما حتى اكتشفة الأنبا انسطونى .

تعذيب أوريجانوس :

وممن نالهم الاضطهاد فى أيام ديسيوس العلامة أوريجانوس حيث كبل بالحديد ووضع الطوق الحديدى فى عنقه ومدت قدماه فى المقسطرة أياما كثيرة وصبر على ذلك كله ولم ينج من الموت الا أن القـاضى المكلف باصـدار الحكم عليـه بذل جهده لانقاذ حياته .

موت الامبراطور ديسيوس :

٢٥١ م ــ لقى الامبراطور ديسيوس حتفه أثر مؤامرة دبرت ضده .

ونجد رسما لديسيوس على معبد لاتابوليس . وبموت ديسيوس بدأ فى تاريخ روما ما أطلق عليه على سبيل المجاز عهد الطغاة الثلاثين ، قياسا على هذه الفترة فى تاريخ الاغريق المسماة بهذا الاسم فقد كثر التطاحن بين أدعياء العرش وانقسم ولاء الجنـود ، واشـتد ضعف السـلطة المركزية فى روما وأعلنت الكثير من الولايات استقلالها .

٢٥١ م ــ الامبراطور جالوس :

ومن أبرز من تولوا عرش روما فى هذه الفترة جالوس بعد أن قتل ابن ديسيوس وترد اشارة لحكمه فى بعض البرديات المصرية . وفى عهد هذا الامبراطور بدأ الوباء الذى سيفتك فى روما وأوربا لمدة خمسة عشر عاما .

الامبراطور فاليريانوس :

٢٥٣ م ــ ولى العرش فاليريانوس بعد أن قتل الجنود جالوس ، وكان فاليريانوس قائد القرى الألمانية التى نادت به امبراطورا ، ولما كان فاليريانوس كبيرا فى السـن (٦٠ سنة) فقد أشرك معه فى الحكم ابنه جالينوس .

وكانت غارات القبائل المتبربرة قد بدأت تترى على الامبراطورية . بينما كانت جيوش الفرس تهاجمها من الناحية الشرقية ، بعد أن سقطت هيبة الجيوش الرومانية التى ظلت ترهب البشرية ثلاثة قرون .

وقد عهـد فاليريانوس الى ابنـه جالينوس بالاشراف على القسم الغربى من الامبراطورية فاشتبك فى معارك طاحنة مع قبائل المتبربرين من الفرنجة والقـوط والجرمان الذين وصلوا فى بعض الأحيان الى حدود مدينة روما نفسها .

واختص فاليريانوس نفسه بادارة القسم الشرقى من الامبراطورية والدفاع عنه .

مصادقة المسيحيين ثم معاداتهم :

ولقد استهل فاليريانوس عهده بمصادقة المسيحيين حتى ليقول عنه دنسيوس بابا الاسكندرية على ما نقله عنه يوساليوس القيصرى انه كان لطيفا نحو رجال الله محبا لهم اذ لم يعاملهم أحد من الأباطرة قبله بهذا اللطف وهذه الرقة .

وكان بيته بأكمله مليئا بالأشخاص الأتقياء وكأنه كنيسة لله .

ولكنه لم يلبث أن انقلب على المسيحيين وراح يضطهدهم فعانى دنسيوس بابا الاسكندرية من هذا الاضطهاد الشيء الكثير .

٢٥٤ م ــ وفاة أوريجانوس :

مات أوريجانوس فخر الكنيسة المصرية بعد أن بلغ التاسعة والستين من عمره والاجماع على أن كتابه « المبادىء الأولى » هو أول عرض فلسفى منظم للعقيـدة المسيحية . وفى كتابه « الشذرات » أخذ على عاتقه أن يتبنى جميع العقائد المسيحية بالرجوع الى كتابات الفلاسفة الوثنيين واستعان بالطرق الرمزية الاستعمارية التى استطاع بها الفلاسفة الوثيون أن يوفقوا بين أقوال هوميروس وبين ما يفعله العقل المنطقى ، كما وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة المنطقية . ومن أقوال أوريجانوس « ان وراء المعنى الحرفى لعبادات الكتاب المقدس طبقتين من المعانى أكثر منه عمقـا هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى ــ لا تصل اليهما الا الأقلية المتعلمة المتعمقة » .

وكان يرى أن النصوص الواردة فى الكتب المقدسة قد اخترعت لتوضح بعض الحقائق الروحية ويقول : متسائلا .. أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الأول واليوم الثانى واليوم الثالث « من أيام التكوين » وأن المساء والصباح قد كانت كلهـا بغير شمس أو قمر أو نجوم ، وأى انسان تصل به البلاهة الى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض وغرس فيها شجرة الحياة حتى اذا ما ذاق انسان ثمرتها نال الحياة ..

والله عند اوريجانوس ليس هو « يهوه (١) » بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء وليس المسيح هو الانسان الآدمى الذى يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الأب وجعله خاضعا له .

والنفس عند أوريجانوس كما هى عند أفلاطونين تنتقل فى مراحل وتجسيدات متوالية تدخل الجسم : والحق أنه من الصعب جدا أن يفرق الانسان بين آراء أفلاطونين واوريجانوس الفلسفية ، ولا عجب فى ذلك فكلاهما تلقيا هذه الفلسفة فى مدرسة واحدة هى مدرسة امونباس سكاس .

واذا كانت هذه الشذرات التى نقلناها من آراء أوريجانوس تبدو جريئة حتى بمنطق القرن العشرين فلا عجب اذا روعت الأنبا ديمتريوس فعقد له مجمعا ليحاكم وليحكم على آرائه وأصدر قرارا بحرمانه .

وسيظل أوريجانوس هدفا للاضطهاد وحتى بعد موته بقرون ، فطعن البابا اتسنسيوس فى آرائه التجديفية عام ٤٠٠ ومجمع القسطنطينية عام ٥٥٣ سيصدر ضده قرار حرمان .

ومع ذلك كله فهى حقيقة لا يختلف فيها اثنان انه لم يأت عالم مسيحى واحد طوال الأجيال اللاحقة عليه لم يغترف من بحر علمه .

ولم يستطع حتى ألد أعدائه أن لا يخشع أمام حياة الزهد والورع التى عاشها وصنوف الاضطهاد التى تحملها فى صبر ، وكيف عاش خمسين سنة فى جهاد متصل من اجل العقيدة المسيحية والبذل فى اعلانها بالعقل والجسد والروح .

وقد نسب اليه القدماء أن مؤلفاته جاوزت الستة آلاف . وأنه كان أشهر انسان فى العالم المسيحى على الاطلاق . وأن تلامذته هم أعلام العالم المسيحى فى القرنين الثالث والرابع .

وبموت أوريجانوس ، كانت هذه السلسلة التى بدأها مكليمنتص وباردخلاس تصل الى ذروتها .

٢٦٠ م ــ موت فاليريان :

مات فاليريان امبراطور الرومان أسيرا لدى سابور كسرى فارس وهو أول امبراطور رومانى تجرع هذا الهوان ، وقيل ان سابور قد عامله بفظاظة وقسوة لاذلاله فكان يضع قدميه على ظهره كلما أراد أن يمتطى حصانه .

وليس لفاليريان أى نقوش أو رسوم على المعابد المصرية وان كان ذكره يرد أحيانا فى بعض أوراق البردى التى تؤرخ لحكمه .

(١) الاسم الذى يطلقه « اليهود » على الله « رب الجنود » .

انفراد جالينوس بالحكم :

استمر جالينوس بن فاليريان يحكم منفردا وسط الفتن والاضطرابات والغارات المستمرة من قبائل الفرنجة والقوط والجرمان التى راحت تعيث فى الولايات الرومانية فسادا بينما كانت الهزيمة العسكرية تعكس التدهور الاقتصادى والاجتماعى الذى تردت فيه الامبراطورية بسائر أجزائها .

٢٦٢ م ــ مصر تنادى بالحاكم الرومانى امبراطورا :

لم يكن من الطبيعى أن لا تأخذ مصر بنصيبها من هذه الأحداث التى كان لا يكاد يمضى فيها عام دون المناداة هنا أو هناك بامبراطور جديد فاعترفت بادىء ذى بدء بالامبراطور الذى نادت به سوريا وهو مقرنييوس وابنه فلما أن قتلا ــ أعلن شعب الاسكندرية الحاكم الرومانى ايليانوس امبراطورا فاستجاب لهم وارتدى الطيلسان الامبراطورى .

وقد اظهر حزما فائقا فى سياسة البلاد وأراح منطقة طيبة من غارات البدو ومنع الخراج عن روما .

على أن جاليوس أرسل « تيودوسوس » أحد قواده الى مصر وتمكن من هزيمة ايليانوس وألقى عليه القبض وسيق الى روما حيث قتل فيها خنقا .. بينما عادت مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

وقد عانت الاسكندرية الكثير من خلال هذه الأحداث فقد دمرت فيها أحياء بأكملها كما مات من سكانها العدد الكبير ، حتى قيل انها فقدت نحو ثلثى سكانها .

٢٦٢ م ــ وفاة ديوتسيوس :

توفى ديوتسيوس بابا الاسكندرية وهو الذى يلقبه أوسابيوس مؤرخ الكنيسة المسيحية بأنه : « أسقف الاسكندرية العظيم » .

ويسميه أثناسيوس « معلم الارثذوكسية » .

وهو أول بابا جمع البابوية الى رئاسة المدرسة اللاهوتية اذ لا يعرف لها رئيس فى عهده .

وقد رعى شعبه تسعة عشر عاما وتسعة أشهر سجن فيها ونفى أكثر من مرة فى عهد ديسياس وفاليريان فكان المكان الذى ينفى اليه يتحول الى مركز اشعاع جديد للمسيحية . ووصل نفوذه الى حد أن كهنة روما عندما اختلفوا حول من ينصبونه أسقفا على روما ، أرسل اليه الطرفان المتنازعان يحكمونه فيما شجر بينهم من خلاف فأفتى بما يجب أن يجرى عليه العمل لحفظ وحدة الكنيسة وقد كانت وحدة الكنيسة هى محور نشاطه الدائم ، بحيث عالج كل المشاكل التى عرضت عليه بفرض المحافظة على هذه الوحدة فأفتى بقبول الساقطين (الذين جحدوا المسيح تحت العذاب أو خوفا منه) واعادة تعميد المهرطقين .

وتصدى لكل بدعة جديدة فى الكنيسة حرصا على هذه الوحدة ، وكان آخر ما تصدى له من بدع من وجهة نظر المسيحية المصرية هو ما قال به بولس الساموساطى وقد كان بطريركا على الكرسى الانطاكى الذى يلى فى الشهرة كرسى الاسكندرية .

وكان يقول ان ابن الله لم يكن من الأزل ، بل ولد انسانا حلت فيـه حكمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . وأن هذه الحكمة الالهية هى التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب . وقد فارقته حين أمسكه اليهود ليصلبوه وسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوع ، قيل ان المسيح هو الله ولكن ذلك مجـاز لا حقيقة .

ثم قال : انه يوجد اله واحد هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب . وان كلمته وحكمته ليست اقنوما بل انها الكيان الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى .

ومن أجل مناقشة هذا المبدأ دعى مجمع القساوسة للانعقاد فى مدينة انطاكية ولكن الشيخوخة حالت بين ديونسيوس وبين الذهاب بنفسه فاكتفى بارسال رسالة الى المجمع كانت هى السند الذى اعتمد عليه المجمع لتجريد الساموساطى من درجة الكهنة .

ولديونسيوس عدة رسائل شهيرة ، وأن القارىء الحديث المثقف ليستمع وهو يطالع الحجج التى ساقها ديونسيوس لنفى نسبة سفر الرؤيا فى الكتاب المقدس الى يوحنا الرسول ، كما أوردها يوسليوس على لسان ديونسيوس ، حيث يراه يستعمل أساليب التمحيص العلمى كما نستعمله فى الوقت الحاضر .

الأنبا ماكسيموس :

وخلف ديونسيوس الانبا ماكسيموس وهـو قس مشـهود له بأنه تحمـل الاضطهاد ، الذى شنه الامبراطور دسيوس على المسيحيين ، بصبر عجيب وبهدوء ورضا ، فذكر الشعب والاكليروس له هذا الاحتمال ، وانتخباه ليكون الخليفة الخامس عشر للقديس مرقص .

والأنبا ماكسيموس هو بدوره أحد تلامذة أوريجانوس ، وقد برع فى الفلسفةبراعته فى العلوم المسيحية . حتى أنه كان من حقه أن يرتدى ثوب الفلسفة فجمع لأول مرة فى تاريخ البطاركة المصريين ، بين الفلسفتين المسيحية والوثنية .

وكان من حسن طالعه أن استتب السلام بين المسيحيين فى أيامه فخمدت ريح الاضطهاد .

٢٦٤ م ـ ظهور دولة تدمر :

بدأت دولة تدمر فى الظهور على مسرح الشرق العربى باعتبـارها قوة عسـكرية وسياسية تؤثر على كل ما يجاورها . ففى هـذه السنة منح جالنيوس بموافقـة

السناتو ادوناثوس (اذينة كما يسميه العرب) أمير تدمر وقائد قوات الشرق ، لقب قيصر واغسطس وكل ألقاب الشرف متخذا منه شريكا له فى الامبراطورية بعد ما حققه من انتصارات بجهوده الذاتية ، اذ استطاع أن يؤلف بجهوده الذاتية جيشا من العرب والبدو المحيطين به ، وأن يهزم جيشا فارسيا أغار على سوريا ، بل واستطاع أن يتعقب جيش سابور حتى نهر الدجلة ، بل قيل انه عبر النهر ، وهكذا أصيب سابور على يده بهزيمة منكرة ، فحمل ذلك جالنيوس على أن يعينه قائدا عاما لقوات الشرق ولما اندمج فى دحر قوات أحد من أعلنوا أنفسهم أباطرة وهو مقرنيوس ومن بعده بألستا ، كافأه جالنيوس باشراكه معه فى الحكم كما قدمنا .

وامارة تدمر التى تزعمها أدوناثوس تقع فى الصحراء التى تفصل بين سوريا ودولة بابل ، وكان محور نشاطها طوال القرون الثلاثة الأولى من حياة الامبراطور ، نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى . وكثيرا ما تعاون تجار تدمر مع الاسكندرية فى التجارة الشرقية ، يشهد على ذلك عدد من النقوش ، التى تثبت وجود تجار تدمر فى مدينة قفط بصعيد مصر .

وكانت امارة تدمر قد دخلت تحت سلطان روما منذ عصر مبكر أيام ثيبريوس ، ولكنها عوملت معاملة ودية . وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلى ، واستطاعت أن تستفيد كثيرا من النشاط التجارى فى الامبراطورية الذى كانت تتزعمه الاسكندرية .

ووصل الأمر بها فى عهد أميرها أدبناقوس الى القيام بهذا الدور الذى فصلناه فلما أن مات ادبناقوس خلفه ابنه « وهب اللات » ولكن أمه زنوبيا (الزباء كما يسميها العرب) ، سيطرت على ولدها وعلى الدولة معا وأصبحت هى مصدر السلطات .

٢٦٧ م ــ ملكة الشرق زنوبيا :

أعلنت زنوبيا استقلال مملكة تدمر تحت سلطان ابنها الرسمى وسلطانها الفعلى وأطلقت على نفسها لقب ملكة الشرق ، ولبست تاجا على مفرقها ، وبسطت نفوذها على كل الولايات التى تحيط بها ، ورنت بعينها الى مصر معلنة عن نفسها أنها سلالة كليوباترا وأنها وريثة هذه الملكة الفذة .

ويصف المؤرخون المعاصرون زنوبيا بأنها كانت سمراء هيفاء ذات أسنان لؤلؤية ، وعيون نجلاء وكان صوتها قويا وموسيقيا فى نفس الوقت ، وكانت تجيد التكلم باليونانية والسريانية والمصرية ، وتفهم اللاتينية ، وكانت محبة للدراسات الأدبية والعلمية . وتحب فى نفس الوقت الرياضة العنيفة فكانت تصحب زوجها فى رحلات صيد الأسود والنمور وغيرها من الحيوانات الضارية . ويعزو الكثيرون نجاح زوجها فى معاركه الحربية الى خططها ومشورتها . والى جوار هذه المواهب العالية ، كانت تتمتع بعفاف نادر على من كان فى مثل مركزها .

٢٦٨ م - موت جالنيوس :

قتل الامبراطور جالنيوس فى احدى المعارك فى اقليم اللريا ، وقد ورد اسمه فى بعض الروايات المصرية ، كما جاء فى بعض النقوش الاغريقية .

الامبراطور كلوديوس الثاني :

نادى قتلة جالنيوس بقائد أحد الجيوش الرومانية وهو كلوديوس الثانى ليكون امبراطورا ، ويبدو أنهم أحسنوا الاختيار ليكون شفيعا لهم عند قتل جالنيوس . ذلك أنهبتولى هذا الامبراطور العرش انتهت فترة الفوضى التى أغرقت الامبراطورية فى خضم من الفتن والحروب والثورات ، وبدأت هذه السلسلة من الأباطرة الليريين الذين أعادوا الاستقرار الى الامبراطورية .

٢٦٩ م - زنوبيا فى مصر :

استجابت الملكة زنوبيا لدعوة قائد مصرى يدعى تيموجنيس للتعاون معه لتحرير البلاد من الرومان فأرسلت جيشا من سبعين ألف مقاتل تحت قيادة زابدة - وقد تم النصر لهذا الجيش بمساعدة تيموجنيس على الجيوش الرومانية ، ولكن لم يكد الجيش التدمرى ينسحب تاركا وراءه حامية قليلة العدد حتى عاد القائد الرومانى للهجوم ودحر الحامية التدمرية فعاد زابدة ليتعاون مع تيموجنيس ، وقد استطاع القائد الرومانى فى بادىء الأمر أن يهزم الجيش الجديد ، ولكنه عندما حاول أن يقطع خط الرجعة على الجيش المنهزم عند بابليون ، ظهرت كفاءة تيموجنيس وتفوقه فى معرفة الأرض ، فحصل على انتصار باهر على الجيوش الرومانية ، جعل القائد الرومانى ينتحر .

وقد ظل سلطان روما طوال مدة حكم كلوديوس الثانى لا يتجاوز أسوار مدينة الاسكندرية .

وقد تحالف عرب تدمر مع عرب مصر وقبائل البدو (البليمى) باعتبارهم من أصل واحد وحكموا صعيد مصر ثم الدلتا وجزءا من الاسكندرية .

٢٧٠ م - الامبراطور أوريليانوس :

ولى العرش أوريليانوس بعد أن مات كلوديوس بالطاعون ، واذ كان أوريليانوس هو مساعده ومواطنه فقد نادت به الفرق البلقانية امبراطورا ويقال ان كلوديوس هو الذى رشحه قبل موته .

وأوريليانوس يحمل فى التاريخ الرومانى لقب « منظم الدنيا » ذلك أنه استطاع أن يخمد كل الثورات ، ويرد كل الحملات والغارات التى كانت تهدد روما ، وانشأ حول روما سورا ليحميها من غارات المتبربرين وقد رأى بثاقب بفكره ، ليستطيع التفرغ لرد عادية القبائل المتبربرة من قوط وفرنجة وغيرهم ، أن يتفاهم مع زنوبيا فى الشرق . فجعل ابنها شريكا له فى الحكم وصدرت العملة فى الاسكندرية تحمل صورة الامبراطورين أوريليانوس على أحد وجهى العملة ووهب اللات على الوجه الآخر .

٢٧٠ م ـ موت أفلاطونين :

وفى هذه السنة مات أفلاطونين آخر فلاسفة الوثنيين العظام والمسيحى بغير مسيح ـ والذى قبلت المسيحية كل سطر من سطوره تقريبا . والمطالع لكتب القديس أوغسطس يراه كثيرا ما يردد فى نشوة سفحات من هذا الصوفى الجليل .

وقد كان أفلاطونين كما قدمنا زميلا وصديقا لاوريجانوس ، وقد حدث ان حضر أوريجانوس فى روما احدى محاضرات أفلاطونين فاحمر وجه أفلاطونين وختم محاضرته بقوله : « ان تحمس المحاضر يزول حين يحس أن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه » .

وقد قام تلميذه الفيلسوف برفيرى بترتيب رسائله الأربع والخمسين « الانباءوات » فى تسع مجموعات .

ميلاد اريوس :

على أن أفلاطونين لم يمت الا وكان أريوس يولد ، وهو المسيحى الذى سيكون مقدرا له أن يلعب أكبر دور فى حياة المسيحية فى القرن الرابع ، متأثرا بالفلسفة الاغريقية كما يمثلها أفلاطونين والفلسفة المسيحية كما يمثلها أوريجانوس .

٢٧٠ م ـ تنسك الانبا انطونى :

فى هذه السنة على ما يقول تاريخ الكنيسة القبطية بدأ الأنبا أنطونى تزهده ونسكه ، فقد صادف أن دخل الكنيسة والقارىء يتلو قول السيد المسيح ان اردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل مالك ووزعه على الفقراء ثم اتبعنى ، فأحس بأن هذا الأمر موجه اليه فغادر الى بيته ثم وزع أمواله .. وذهب الى خارج المدينة مبتدئا هذه الحياة من النسك والرهبانية التى سيكون مقدرا لها أن تطبع العالم المسيحى فى العصور الوسطى كلها .

٢٧١ م — قررت زنوبيا أن تعلن استقلالها نهائيا عن روما فقررت اسـقاط اسم الامبراطور أوريليانوس وصكت العمـلة فى الاسكندرية وهى تحمل صورتى زنوبيا وابنها وهب اللات .

فكان أن نشب الحرب بين أوريليانوس وبين زنوبيـا . وقد استطاع بروديوس أن يستولى على الاسـكندرية ، ولكن بقية مصر ظلت خارج سلطان الرومان تحت قيـادة زعيم مصرى يدعى فيرموس كان يعمل بالتعـاون مع القبائل العربيـة المصرية وبقايا الجيش التدمرى .. فاسـتطاع أن يظل مسـيطرا على مصر العليـا ويهدد الاسكندرية .

٢٧٢ م — انتصر أوريليانوس على الملكة زنوبيا بعد سلسلة من المعارك ووقعت فى يده أسيرة ، وأعفى مدينة تدمر وسكانها من التدمير ، ولكنه لم يكد يتجـه صوب روما مصطحبا معه أسيرته زنوبيا حتى عادت تدمر للثـورة وقتلت الحامية الرومانية التى تركها خلفه ، فعاد أوريليانوس من جـديد الى تدمر وفى هـذه المرة انتقم منهـا شر انتقام بحيث دمرها عن آخرها وأعادها من جديد لتكون احدى قرى الصحراء وهى التى كانت أحدى عواصم الشرق . ولم يكد الامبراطور يفرغ من اخمـاد ثورة تدمر نهائيا حتى كان فيرموس فى مصر قد استطاع أن يشعل نار الثـورة فى الاسـكندرية نفسها .

وأسرع أوريليانوس الى مصر بجيوشه ، وضيق الخناق على الثوار فى الاسكندرية حتى حاصرهم فى حى البروخيون ، ولم يسلم سكان الحى الا بعـد أن دمر الحى الذى كان يضم أهم مبانى المدينة تدميرا .

وعاد أوريليانوس الى روما فى موكب نصر لم تشهده روما منذ أجيـال ، وتجرعت زنوبيا المصير الذى فزعت منه كليوبترا من قبل وآثرت الانتحار ، فسارت فى موكب نصر مقيدة بالسلاسل الذهبية .

بروبوس فى مصر :

وبينما كان أوريليانوس يحتفل بانتصاره فى روما ، كان واليه على مصر القائد بروبوس يمضى فى اخضاع مصر العليا لسلطان روما ، واستطاع أن ينتصر على قبائل البدو (البليمى) على أن بروبوس لم يكن مجرد قائد عسكرى ، بل كان فى نفس الوقت اداريا حازما ، وقد راعه سوء الأحوال فى مصر حيث ردمت الترع وانهدمت القناطر وخربت المعابد فأمر جنود الجيش باصلاح ذلك كله . وراحوا يعملون فى تطهير الترع ، واصلاح ما فسد من المرافق العامة .

٢٧٤ م — وفاة الأنبا مكسيموس :

مات الانبا مكسيموس بعد أن جلس على كرسى الكرازة المرقسية اثنى عشر عاما وسبعة أشهر . ومما يؤسف له أن مؤلفات الانبا مكسيموس لم يبق منها سوى بعض

الشذرات . على أن ما اشتهر به من قداسة ومداومة على التعليم ، جعلت شعبه يجله مدى الحياة وبعد مماته .

وقد عم السلام المسيحيين فى أيامه فلم يعانوا اضطهادا فزاد عددهم وتضاعف .

الأنبا ثيئوناس :

وانتخب الشعب والاكليروس خليفة له الأنبا ثيئوناس . وقد كان مقدرا لهذا البابا الجديد أن يكون هو البانى لثانى كنيسة فى الاسكندرية بعد الكنيسة المرقسية ولم يكن المسيحيون — على تزايد عددهم — قد استطاعوا أن يبنوا كنيسة بعد أن شادوا الكنيسة المرقسية وذلك بسبب الاضطهادات . فكانوا خلال هذه المدة التى تناهز الفترتين يجتمعون فى بيوتهم الخاصة او فى المقابر وكان الغرض الذى يهدفون اليه من اجتماعهم حول المقابر هو أن يعلنوا للوثنيين أن الصلة بينهم وبين من انتقلوا الى عالم الروح باقية لم تنقطع — فلما أن مرت اثنتا عشرة سنة لم يقع خلالها اضطهاد استطاع الأنبا ثيئوناس أن يبنى الكنيسة وأن يطلق عليها اسم السيدة العذراء . وكانت الصلاة فى كنيسة العذراء كغيرها من الكنائس تتم حتى ذلك الوقت باللغة اليونانية الى أن افترق القبط عن اليونانيين وصاروا يصلون باللغة المصرية .

٢٧٥ م — موت الامبراطور أوريليانوس :

قتل بعض الضباط الامبراطور أوريليانوس وهو يعد العدة لغزو الفرس .

وعلى الرغم من أن أوريليانوس جاء الى مصر وقضى على حركة الانفصال وما قام به من كوارث ، فلا نجد له اى ذكر على الآثار ، وليس سوى أسمه يرد من حين لآخر فى بعض البرديات .

وقد أبى أوريليانوس الا أن يؤكد مركز مدينة الاسكندرية الاقتصادى الممتاز ، فقد أصدر أمره بحظر صك النقود فى سائر الولايات الرومانية وذلك لاصلاح العملة ، ولكنه استثنى من هذا القرار مدينة الاسكندرية ، عاصمة الامبراطورية الرومانية التجارية .

الامبراطور تاستبتوس :

فوض القواد الحربيون لمجلس الشيوخ أن يختار الامبراطور الجديد ، فانتخب السناتو أحد أعضائه وهو كاوديوس تاستبتوس البالغ من العمر الخامسة والسبعين . على أن الجنود لم يلبثوا أن قتلوه بعد ستة أشهر ، ولما حاول أخوه فلوريانوس أن يكون امبراطورا من بعده قتله الجند كذلك .

٢٧٦ م ــ مصر تنادى ببرويوس امبراطورا :

نادت فرق الجيش الرومانى المصرية ببريوس والى مصر امبـراطورا وتابعتها فرق سـوريا ، ثم فرق ايطاليا ، فذهب برويوس الى روما حيث نادى به مجلس الشيوخ امبراطورا .

وقام بسلسلة من المعارك ضد هجمات الجرمان القوط والدندال .

وراح يطبق الأسلوب الذى بدأه فى مصر وهو أن يكلف الجنود أثناء توقف المعارك بتجفيف المستنقعات وغرس الكروم وغير ذلك من الأشغال العامة .

٢٨٩ م ــ استعادت قبائل بدو البليمى سيطرتها على مصر العليا واحتلت مدينتى قفط وبطليموس فقدم برويوس الى مصر : وحارب قبائل البليمى ودحرهم ونكل بهم ، ثم عاد الى روما فى موكب نصر كبير باعتباره قد قام بعمل عظيم .

٢٨٠ م ــ عهـد برويوس بولاية مصر الى القـائد ساثورثينوس الذى دخل الاسكندرية بجيش كبير فما كاد الشعب الاسـكندرى يراه حتى خلع عليـه لقب أغسطس باعتباره امبراطورا ، فأنكر ساثورثينوس ذلك عليهم ، وغادر الاسكندرية الى فلسطين ، ومع ذلك فقد ظل فى خوف من أن يحاسبه بروبوس على هذه الفعلة ، فانتهى بأن أعان نفسه امبراطورا بالفعل . وارتدى طيلسان الأباطرة ، ولكن جنوده لم يلبثوا أن خذلوه وقبض عليه وقتل .

٢٨٢ ــ مقتل الامبراطور بروبوس :

قتل الجند الامبراطور بروبوس ــ ويرد اسمه فى بعض البرديات المصرية .

٢٨٤/٢٨٢ ــ فترة من الفوضى :

انقضى العامان التاليان على مقتـل بروبوس فيما يشـبه الفوضى : حيث تولى الامبراطورية أوريليـوس كاروس الذى كان قائدا للحرس الامبراطورى فى عهـد أوريليانوس ثم لم يلبث أن قتل ، وقتل ابنه نوميرانوس من بعده شريكه فى الملك ، ثم حاول ابنه الثانى كارينوس أن يحتفظ بالغرب أمام دقلديانوس الضابط الذى اختاره جيش الشرق امبراطورا ، ولكن رجال جيشه قتلوه .

وقد أشار اسكندر صيفى فى كتابه الى أنه توجد بعض النقود التى ضربت فى الاسكندرية باسم كاروس وولديه نوميرانوس وكارينوس من بعده .

ولا يحتاج الأمر الى كبير عناء لكى ندرك كيف أن أحوال مصر الاقتصادية كانت

قد بلغت من التدهور حدا من السوء غير المتصور ، بعد هذه الثورات المتلاحقة التى اشتعلت فى الاسكندرية وما ترتب عليها من خراب ودمار . وقد أدت الاضطرابات والفوضى الى تدهور النظام الادارى . . فى الوقت الذى تضاعفت فيه الضرائب ، حتى اضطر الكثيرون الى الهرب من مزارعهم وقراهم ليحيوا حياة التسول والتشرد ، ولدينا بردية من الفيوم تشير الى أن سدس الأرض الخاضعة للضرائب قد أصبح بورا .

٢٨٤ م – الامبراطور دقلديانوس :

نصب أوريليوس فاليروس دقلديانوس امبراطورا فى شهر نوفمبر من هذه السنة ، وهو سليل أسرة الليرية رقيقة الحال ولكنه استطاع بجده ونشاطه أن يرقى سلم الرتب العسكرية حتى أصبح قائدا لحرس القصر . وكان أكثر دراية بالشئون الادارية منه بالشئون الحربية .

وقد اعتبره معاصروه كما يعتبره المؤرخون حتى الآن ثالث ثلاثة من أعظم أباطرة الرومان . فقد استطاع أن يخرج بالامبراطورية من بحر الفوضى الذى غرقت فيه ، وأن يوقفها من جديد على قدميها ، وأن يمد فى عمرها ثلاثة قرون أخرى وذلك باعادة تنظيم الامبراطورية اداريا وسياسيا وعسكريا ، بل واقتصاديا ، حتى ليعتبر أنه أول من طبق فى روما اشتراكية الدولة فأحيا نظم الاقتصاد الحر الذى سارت عليه حتى عهده .

٢٨٥ م – وفاة الأنبا ثيئوناس :

عندما دنت ساعة الأنبا ثيئوناس بعد أن ظل راعيا لشعبه تسع سنوات وتسعة شهور التف حوله بعض أخصائه باكين . وقائلين له « هل تتركنا يتامى يا أبانا المبجل » فابتسم فى دعة وأشار بيده الى قسيس كان حاضرا وقال لهم « هذا أبوكم الذى يرعاكم من بعدى » .

فلما أن مات الأنبا ثيئوناس أختار الشعب والاكليروس القسيس الذى أوصى عليه وهو بطرس ليكون الخليفة السابع عشر للقديس مرقص .

الأنبا بطرس الشهيد :

ولد الأنبا بطرس من أبوين تقيين بعد رؤيا رأتها أمه فى النوم ، وجاء ميلاده مصداقا لهذه الرؤية التى بشرتها بأنه سيكون أبا لشعب عظيم وقد أسمته بطرس تيمنا باسم بطرس الرسول الذى جاءها فى الرؤيا .

ولما بلغ من العمر اثنى عشر عاما رسم شماسا ثم قسيسا واشتهر بتعمقه فى العلوم اللاهوتية والدينية مما أهله لأن يعين مديرا لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأن ينال

لقب « المعلم البارع فى الدين المسيحى » وينسب اليه تاريخ الكنيسة القدرة على اجراءات الآيات والعجائب .

وفى عهد أبوته ، بدأ آريوس الذى سيقدر له أن يلعب دورا كبيرا فى القرن الرابع ، نشاطه وتعاليمه .

تقسيم الامبراطورية الرباعى :

٢٨٦ م — شرع دقلديانوس فى وضع الخطط لاعادة تنظيم الامبراطورية الرومانية والنهوض بها فرأى أن يقتسم السلطة مع شريك آخر ليتفرغ كل منهما للدفاع عن أحد أقسام الامبراطورية ، فاختار أحد القواد الممتازين وهو ماكسيميانوس ليشاركه أعباء الملك وكان رجلا خشنا غير مثقف ولكنه كان قائدا بارعا . وحمل دقلديانوس لقب (جوفيوس) نسبة الى جوبتير معلنا بذلك قداسته والوهيته ، بينما حمل شريكه لقبا أكثر تواضعا وهو هرقل — وجعل دقلديانوس مقر اقامته فى مدينة تبقوميديا فاتخذ منها قاعدة لحكمه وأعد بها بلاطا على الطريقة الشرقية ، بينما أقام ماكسيميانوس فى مدينة ميلان ليكون بقدرته الدفاع عن الحدود الشمالية .

وهكذا بدأت مدينة روما تتضاءل أهميتها من الناحية الفعلية بعد أن انتقل مركز الحكم منها ، وان ظلت بها كل مظاهرها القديمة .

وكان لهذه الخطوة أعظم الأثر فى رفع نفوذ أسقف روما المسيحى ، وسيظل هذا النفوذ يتضاعف ويتزايد حتى يكون هو الوارث الحقيقى لسلطان الأباطرة .

٢٩٠ م — ولد الأنبا باخوم من أبوين وثنيين والذى سيكون مقدرا له أن يضع نظام الأديرة فى العالم المسيحى .

٢٩٣ م — مضى دقلديانوس خطوة جديدة فى اقتسام الحكم ، فاختار مساعدا له فى الحكم وخليفة له من بعده يسمى جاليريوس ومنحه لقب قيصر وزوجه ابنته ، وعهد اليه بحكم ولايات الدانوب ، كما اختار ماكسيميانوس من يدعى قسطنطيوس ليكون قيصرا وخليفة له من بعده ورغبة فى تدعيم الصلة بين الرجلين فقد طلب دقلديانوس من قسطنطيوس أن يطلق امرأته (المسيحية) هيلانه ليتزوج من ابنة ماكسيميانوس وتعهد دقلديانوس وماكسيميانوس أن يعتزلا الحكم بعد عشرين سنة ليخلفهما من بعدهما خليفتيهما وقد أراد دقلديانوس بهذا الترتيب أن يسد الطريق على حروب الوراثة ، وأن يوزع السلطة فى الامبراطورية فى أربع مراكز على رأس كل منها قيصر ، لتكون على استعداد وتأهب لملاقاة الأخطار الناشئة عن الثورات الداخلية ، أو الغزوات التى تشنها القبائل المتبربرة .

وكان كل قانون يصدره أى من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعا ويطبق فى سائر أرجاء الامبراطورية بغير حاجة الى مصادقة مجلس الشيوخ كما كان الحكام هم الذين يتولون تعيين جميع موظفى الدولة .

وقسمت الامبراطورية تقسيما جديدا الى ست وتسعين ولاية .

٢٩٥ م – مصر تعلن امبراطورا جديدا :

وكان لا بد لمصر أن تأخذ بنصيب فى هذه الترتيبات والتنظيمات وتتابع خطتها فى تحريض كل من تستطيع للخروج على سلطان روما فاعترفت بأحد الضباط الرومانيين المدعو « اخيليوس » امبراطورا . ويبدو أن هذه الحركة بلغت من القوة الى الدرجة التى اضطرت دقلديانوس أن يجيء بنفسه على رأس جيش لاخماد هذه الحركة ، ومما يدل على قوة الثورة أن الاسكندرية لم تستسلم بمجرد ظهور الامبراطور وجيوشه حول أسوارها ، مما اضطره الى محاصرتها ثمانية أشهر ، على أنه استطاع فى خاتمة المطاف أن يقتحم أسوارها وقبض على اخيليوس ودمر الجزء الأكبر من المدينة ويبدو أن المدينة التعسة التى عانت الكثير خلال هذه الحركات والثورات ، قد حركت عطف دقلديانوس عليها ، فأصدر أمره بالعفو عن سكانها ، وزاد على ذلك أن أمر بتوزيع بعض القمح المخصص لروما على أهلها .

فى الوقت الذى حال بين جنوده وبين نهب المدينة أو المساس بسكانها .

وقد كان لهذا التصرف الرحيم أعمق الأثر فى نفس شعب الاسكندرية فأقاموا له هذا العمود الشهير باسم عمود بومبى والذى أقيم بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته مالا يزال مقروءا حتى الآن « الى الامبراطور العظيم راحم الاسكندرية دقلديانوس المنصور » .

وقد حرص دقلديانوس بعد القضاء على الثورة أن يعيد تنظيم مصر بالطريقة التى اتبعها فى سائر الولايات فأعاد تقسيمها الى ثلاث ولايات . وفصل بين السلطة المدنية والعسكرية ، واصلح نظام الضرائب ليساير النظام الذى وضع للتطبيق فى الامبراطورية كلها .

ابطال حق الاسكندرية فى صك النقود :

على أن دقلديانوس أساء الى الاسكندرية أعظم اساءة بأن الغى حقها التقليدى فى صك النقود المصرية مستبدلا ذلك بالنقود الرومانية .

وهكذا وضع خاتمة لهذا الكتاب التاريخى الرائع الذى كانت النقود المصرية المضروبة فى الاسكندرية تؤلف صفحاته والذى جمعه العالم سويفا فى كتابه المسمى « نومى أجبتى امبراطورى » اى أسماء اباطرة مصر « اسكندر صيفى » .

٢٩٨ م – بدء اضطهاد المسيحيين :

أمضى دقلديانوس التسعة عشر عاما الأولى من حكمه متسامحا مع المسيحيين فلم يعرض لهم بسوء ، ولكن فكرة توطيد دعائم الامبراطورية وتوحيد نظمها بدأت تسيطر على كل تفكيره ، واذ كان قد جعل من نفسه ملكا شرقيا كالبطالسة أو الفراعنة

الذين كانوا يعتبرون آلهة ، فقد رأى أن فى توحيد العبادة فى الامبراطورية لشخصه باعتباره ممثل جوبيتر على الأرض مما يزيد فى تدعيم بناء الامبراطورية وكان مساعده وخليفته جاليروس يرى أن لا توجد عقبة لتنفيذ هذا البرنامج واجتماع شعوب الامبراطورية على عبادة آلهتها القديمة وتقديس الامبراطور سوى الديانة المسيحية ، فراح يزين لدقلديانوس البطش بالمسيحيين . ولم يشأ دقلديانوس فى بادىء الأمر أن يبالغ فى خططه وأصدر فى هذه السنة مرسوما يقضى بتطهير الادارة والجيش من المسيحيين . وكان ذلك هو أول خطوات الاضطهاد .

٣٠٢ م — كان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر فى هذه السنة بومبيوس .

٣٠٣ م — كان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر فى فبراير من هذه السنة كولكيانوس .

الاضطهاد العام للمسيحيين :

٣٠٣ م — أصدر دقلديانوس أمرا عاما باضطهاد المسيحيين ، وكانت المراسيم الأولى تقضى بهدم الكنائس المسيحية وحرق الكتب المقدسة وطرد ذوى المناصب الرفيعة من المسيحيين وحظر تحرير العبيد من المسيحيين اذا أصروا على الاعتراف بمسيحيتهم .

وقد حدث عقب صدور هذه القرارات فى مدينة نقوميديا حيث كان دقلديانوس وجلريوس يقيمان أن تقدم احد المسيحيين وكان ذا حيثية الى هذا الاعلان الامبراطورى ، فمزقه فى ازدراء وتحد ووصل علم ذلك الى دقلديانوس فاستشاط غضبا (١) لهذا التحدى وحدث أن اشتعلت النار فى قصره مرتين واتهم جلريوس المسيحيين بتدبير ذلك ، فأصدر دقلديانوس ثلاثة مراسيم جديدة بالاضافة الى المرسوم الأول ، وتقضى هذه المراسيم بسجن الأساقفة ثم تعذيبهم واعدام المسيحيين اذا رفضوا انكار مسيحيتهم .

وهكذا بدأت هذه الصفحة السوداء فى تاريخ دقلديانوس وان الانسان ليعجب كيف ينزلق حاكم فى مثل حنكته وبصيرته التى جعلته قادرا على ايقاف تدهور الامبراطورية ، الى الحد الذى يتصدى معه قتل المئات والألوف بعد اخضاعهم للتعذيب للعدول عن عقيدتهم .

---

(١) لم يذكر يوسابيوس القيصر اسم الرجل الذى قام بهذا العمل ولم يزد فى وصف ما قام به عن أنه مزق الاعلان الامبراطورى ولكن تاريخ الاقباط للاستاذ زكى شنودة ذكر أن الذى قام بهذا العمل هو القديس مارى جرجس المشهور وأنه كان يدعى فى الاصل جاورجيوس ، وقد بلغ رتبة قائد بجيش دقلديانوس — وأنه لم يقف عند حد تمزيق اعلان الامبراطور بل ذهب اليه بنفسه وأعلنه فى تحد أنه مسيحى ، فأمر دقلديانوس باعدامه . ويقال أن جسده نقل الى مصر على عهد الانبا غبريال البابا الثامن والستين .

ومارى جرجس هو القديس المكرم لدى كثير من الطوائف المسيحية وخاصة لدى الانجليز الدين يطلقون عايه اسم القديس جورج .

عصر الشـــهداء :

وقد لقيت مصر المسيحية من اضطهاد دقلديانوس وشركائه ما يعادل كل ما تحمله المسيحيون فى أرجاء الامبراطورية ، بحيث يقول ترتليانوس : « لو أن شهداء العــالم كله وضعوا فى كفة ميزان وشهداء مصر فى الكفة الأخرى لرجحت كفة المصريين » ولذلك فلا عجب اذا كانت الكنيسة القبطية تتخذ من هذا الحادث مبــدأ لتاريخها فالتاريخ القبطى يبدأ بعصر الشهداء فنحن الآن فى السنة القبطية ١٦٨٧ ش وهى المقابلة لعام ١٩٧١ حيث أن الكنيسة القبطية تبدأ عصر الشهداء منذ ولى دقلديانوس الحكم أى عام ٢٨٤ .

ويخصص لنـا يوسابيوس القيصر عشرات من الصفحات فى وصف صـنوف الاضطهاد التى حلت بالمسيحيين فى مصر .. فالبعض منهم ألقوا فى النيران بعد كشط اجسادهم وجلدهم جلدا قاسيا ، والبعض تعرضوا لأنواع من التعذيب تقشعر الأبدان من مجرد سماعها ، والبعض أغرقوا فى البحر والبعض قدموا رؤوسهم بشجاعة لمن قطعوها ، والبعض ماتوا تحت أيدى معذبيهم . وآخرون هلكوا جوعا ، أو صلبوا بالطريقة المضادة لصلب المجرمين أو بطريقة بشعة حيث كانوا يسمرون على الصليب ورءوسهم منكسة الى أسفل ويتركون أحياء حتى يهلكوا جوعا .

أما المسيحيون فى طيبة فمن المستحيل وصف ما حل بهم ، لقد كانت أجسادهم تكشط كشطا بالمحار بدل المناجل ، وكانت النساء يوثقن من احدى القدمين ويرفعن فى الجو بماكينات خاصــة فتتعرى أجسادهن أمام المشاهدين ، وكان البعض من الشهداء يوثق بفروع الأشجار وتقرب الفروع الى بعضها بآلات خاصــة ثم تترك الفروع لتعود الى وضعها الأصلى فتتمزق الأعضاء . ويمضى يوسابيوس على هذه الوتيرة يحدثنا فى اسهاب عن مختلف الطرق التى عذب ومات بها المئات والألوف . ويبالغ البعض فى تعداد من استشهدوا تحت التعذيب والاضطهاد فى العالم المسيحى فيقدرونهم بمليون .. بينما يهبط البعض بهم الى ١٥٠٠ (دورانت) ولا شك أن الحقيقة بين هذين الرقمين .

مارمينا العجائبى :

وقد حفظ تاريخ الشهداء عشرات ومئات من الذين لاقوا الموت والعذاب من أجل المسيح مستبشرين مهللين ، ومن العبث أن نثبت أقاصيص هذا الحشد ومع ذلك فلا مناص من ذكر رجل وامرأة ممن استشهدوا فى هذه المحنة ليكونوا رمزا للمئات والألوف أمثالهم .

وأول هذين المثلين هو مارمينا العجـــائبى ولد من أبوين مسيحيين وكان أبوه حاكما لمريوط ، ولكنه لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى كان قد فقد ابويه . فلما بلغ أشــده انتخبه الشعب ليخلف أباه فى الحكم . فلما أن أعلن دقلديانوس مراسيمه ، أعلن مارمينا على رؤوس الأشهاد ايمانه المسيحى ، فحاول الوالى الرومانى

أن يستميله بالوعد والوعيد ولكنه أصر على موقفه فأمر الوالى بقطع رأسه ودفنه المؤمنون فى مكان عزلته بالصحراء .

وقد أطلق عليه تاريخ الكنيسة بالعجائبى اذ نسبوا اليه أن كل من اتصل بالبقعة التى كان مدفونا فيها قد شفى ، وأن ابنه الامبراطور زينون (القرن الرابع) قد شفيت من مرض عضال بعد زيارتها لمارمينا فاصدر الامبراطور أمره بناء كتدرائية فوق قبره كانت عند انشائها من أجمل كنائس العالم ، وقامت حولها مدينة كبيرة ازدهرت بمن وفد اليها من الحجاج .

القديسة دميانة :

ومن ناحية أخرى فان القديسة دميانة هى خير رمز للسيدات اللواتى استشهدن فى هذه المذبحة . وقد ولدت هذه القديسة من أبوين مسيحيين وكان ابوها مرقص واليا على البرلس . ولما بلغت من العمر الخامسة عشرة أراد أبواها أن يزوجاها ولكنها أعلنت رغبتها فى أن تحيا حياة البتولة فأقاما لها قصرا فى جهة الزعفران لتنفرد فيه بالعبادة ، فلحق بها فى عزلتها أربعون من العذارى اللواتى وهبن أنفسهن للرب .

فلما ان بدأت محنة المسيحيين على أيام دقلديانوس بادر أبوها باعتباره واليا فأنكر مسيحيته فتركت دميانة عزلتها وذهبت الى أبيها وقالت له « كان الأهون على أن أسمع خبر انتقالك الى دار الخلود من أن أسمع أنك أنكرت ديننا » فألهبت هذه الكلمات قلب أبيها مرقص وذهب على الفور وقابل الامبراطور دقلديانوس وجهر بندمه على ما ارتكب من اثم فأمر بقطع رأسه . ولم يلبث دقلديانوس أن وقف على السر الذى حفز مرقص على أن يتصرف بهذا الأسلوب ، فارسل الى دميانة ومن معها فريقا من الجند وأمرهم بأن يحملوا دميانة ومن معها على انكار المسيح والا تقطع رؤوسهن . وعبثا حاول الجنود أن يثنوا دميانة ورفيقاتها ولذلك فقد اعملت السيوف فى قطع رقابهن .. وقالت دميانة قبل قطع رأسها : انني أعترف بالسيد المسيح وعلى اسمه أموت وبه أحيا حياة الأبد . ولا تزال كنيسة الشهيدة دميانة قائمة حتى الآن بالبرارى جهة بلقاس يتجدد بناؤها كلما تقادم العهد بها .

استشهاد الأنبا بطرس :

وكان على رأس الذين استشهدوا فى هذه المحنة الأنبا بطرس بابا الاسكندرية والذى أطلق عليه اسم خاتم الشهداء . لأن دمه فيما يبدو قد كفر عن سائر شعبه اذ لم يكد يستشهد حتى توقف ريح الاضطهاد والعلامة مرقص سميكة يجعل استشهاده عام ٢٩٥ م وتتابعه على ذلك الأستاذة ايزيس حبيب فى كتابها تاريخ الكنيسة مع أن المتفق عليه أن مراسيم اضطهاد المسيحيين قد صدرت عام ٣٠٣ م ومن المتفق عليه كذلك أن الأنبا بطرس هو آخر المستشهدين واذن فلا بد ان يكون استشهاده بعد هذا التاريخ (١) .

---

(١) جعل الاستاذ زكى شنودة تاريخ استشهاد الانبا بطرس عام ٣١٢ .

ويصف تاريخ الكنيسة الساعات الأخيرة للشهيد بطرس بأنه عندما قبض عليه وسيق الى السجن تجمهر الشعب حول السجن يريد ان يفتدى راعيه المحبوب وخاف الأنبا بطرس على شعبه فاتفق مع الجنود على أن يمهلوه حتى يهدىء من ثائرة الشعب المتجمهر . ثم خطب فى الشعب وحثه على أن يعود أدراجه فى سكينة وسلام . فرضخ الجميع لحكم غبطته وتفرقوا الى بيوتهم وأعمالهم . وعندئذ أعطى البابا السكندرى العلامة للجند فجاءوا وأخرجوه من السجن وساقوه الى مكان الاستشهاد ووجهه يسطع بنور سماوى فذهل الجنود ولم يجسر اى منهم على ان يرفع يده عليه . فأخرج الضابط المسئول خمسا وعشرين قطعة من الذهب وقال هذا الذهب لمن يجرؤ على قطع رأس هذا الشيخ . فتجاسر احدالجند وضرب عنق الأنبا بطرس بالسيف فقطع رأسه ، ثم تركوه ملقى حيث هو ومضوا فلم يلبث أن انتشر فى المدينة خبر استشهاد البابا الجليل فتجمع المؤمنون باكين ورفعوا الجسد واخذوه الى الكنيسة المرقصية حيث ألبسوه ثياب التقديس وأجلسوه على كرسى القديس مرقص الذى لم يجلس عليه قط فى حياته تواضعا منه .

وكان دمه آخر دم يسفك ولهذا السبب لقبته الكنيسة بخاتم الشهداء .

وقد جلس على السدة المرقصية كما تقول جداول الكنيسة عشر سنوات وأحد عشر شهراً باعتباره تولى عام ٢٨٥ واستشهد عام ٢٩٥ ولكن لا بد ان تكون مدة بابويته أطول من ذلك بالنظر الى ما قدمنا من أنه مات فى المحنة التى لم تبـــدأ الا عام ٣٠٣ .

الأنبا أرشيلاوس :

ولقد اختار الشعب والأكليروس بعد استشهاد بطرس الأنبا أرشيلاوس خليفة له . وكان أرشيلاوس كسلفه كاهنا فمديرا لمدرسة الاسكندرية ، اشتهر بقداسته وعلمه الغزير ومعرفته بالعلوم المتعلقة بما وراء المادة ، الا أنه لم يجلس على السدة المرقصية غير ستة شهور ثم توفاه الله بعدها .

الأنبا الكسندروس :

اختار الشعب والاكليروس للخلافة المرقصية قسيسا متقـدما فى السن وهو الكسندروس .

وفى عهده بدأ الصراع العقائدى بين أريوس والكنيسة الأرثوذكسية يأخذ مظهره العنيف الذى شطر المسيحيين والمفكرين فى القرن الرابع مما كاد أن يهدد المسيحية لولا أنها كانت قد ثبتت اقدامها نهائيا واعتبرت دين الدولة الرسمى .

٣٠٥ م ــ تنازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش :

تنـــازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش فى احتفالين مهيبين اقيما فى

نقوميديا وميلان واصبح جاليريوس وقسطنطينوس بعـد هذا التنازل امبراطورين الأول فى الشرق والثانى فى الغرب .

وهكذا طويت صفحة دقلديانوس بهذا الأسلوب الذى لم يسبقه أو يلحقه مثيل من نوعه ــ فلم يكن سنه قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولم يفكر أحد فى خلعه واعتزل بارادته فى قصره الكبير وضياعه الشاسعة فى سبالاتا حيث عاش ثمانية أعوام أخرى من عمره متفرغا لمزرعته .. وقد قدر له أن يشهد اخفـاق حملة اضطهاده المسيحية وانهيار الحكومة الرباعية التى أنشأها خلال الحرب الأهليـة التى أعقبت تنـازله ، وقد ألح عليـه مكسيمان أن يستولى على السلطة من جديد ويقضى على الشقاق والحروب ، فرد عليه ردا غريبا حفظه لنا التاريخ اذ قال له : لو أنك رأيت الكرنب الجيد الذى أصبحت أزرعه فى مزرعتى لمـا طلبت منى أن أضحى بهذه المتعة جريا وراء السلطة » .

ذلك هو دقلديانوس الذى يقف أمامه التاريخ حائرا فحيث يلعنه المسيحيون وتعتبره الكنيسة عدو المسيح أو صورة من صور الشيطان ، ويقولون عنه بأنه عمى فى أخريات حياته ، وأن امرأة مسيحية راحت ترعاه تطبيقا لقول الانجليل « أحبوا أعداءكم » فان معاصريه من غير المسيحيين يلقبونه « أب العصر الذهبى » والمؤرخون المحدثون يعتبرونه أحد شوامخ الامبراطورية الرومانية .

الامبراطوران جاليريوس وقسطنطنيوس :

وبتنازل دقلديانوس ومكسيميانوس عن العرش أصبح جاليريوس وقسطنطنيوس امبراطورين .

٣٠٦ م ــ هرب قسطنطين ابن قسطنطنيوس من زوجته هيلانة المسيحية ، من قبضة جاليريوس الذى كان يستبقيه عنده كرهينة ، ولحق بأبيه فى بريطانيا ، فلما أن مات والده نادى به الجند امبراطورا ، فى الوقت الذى نادى فيه الحرس الامبراطورى فى روما بمن يسمى مكسنيوس امبراطورا .

ومن الصعب أن نستعرض تفاصيل المعارك التى دارت فى هذه الفترة حول مختلف الأباطرة الذين نادت بهم جنودهم ، وفرقهم ، والذين بلغ عددهم فى بعض السنوات ست من الأباطرة الذين كان يلقب كل واحد منهم بأغسطس .

وحسبنا أن نذكر قسطنطين والذى لن يلبث أن يلقب بالأكبر ، والذى سيعتبره المسيحيون بعد قليل قديسا لأنه لم يرفع الاضطهاد عن المسيحيين فحسب ، بل أصبح حاميها وراعيها . ثم اعتنقها رسميا .

استطاع قسطنطين أن يشق طريقه وأن يتغلب على منافسيه فى الملك واحدا بعد آخر بالتعاون مع ليسثيوس الذى كان قد أصـبح امبراطورا فى الشرق بعـد وفاة جاليريوس .

وكان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر هو ساتريوس اريانوس .

اعتناق قسطنطين المسيحية :

٣١٢ م ـ أما الحادث الذى ادى الى اعتناق قسطنطين المسيحية ، أو بالأحرى انحيازه الى جانبها ، فقد رواه لنا قسطنطين بنفسه على ما سجله فى تاريخه يوسابيوس . وهو انه ابان حربه ضد ماكسثيوس الامبراطور الذى نادى به الحرس الامبراطورى فى روما وصل فى زحفه على أبواب روما فى ٢٨ أكتوبر عام ٣١٢ ولم يعد يفصله عنها سوى جسر ملنيا على نهر التيبر فرأى فى السماء قبل المعركة صليبا من النور كتب عليه عبارة « انتصر بهذه العلامة » .

فأصدر امره لجنوده أن يرسموا الصليب على أذرعتهم وأن يجعلوه شعارا لهم . وانتصر قسطنطين وهزم خصمه وقتله ودخل روما وحيته المدينة وأصبح سيد القسم الغربى بلا منازع .

٣١٣ م ـ رأى قسطنطين أن يوفى لاله المسيحيين الذى نصره فأصدر « مرسوم ميلان » الذى رد للمسيحيين املاكهم التى صودرت ، وأعلن التسامح الدينى مع كل الأديان .

وبهذا انتهت فترة العذاب والاضطهاد الذى حاق بالمسيحيين طوال عشر سنوات حيث قد أعلن دقلديانوس مرسومه الأل بالاضطهاد قام ٣٣٠ م .

٣١٨ م ـ بدا حركة اريوس :

فى هذا العام تقدم كاهن مصرى الى الانبا الاكسندروس بآراء عن المسيح اعتبرت غريبة جدا فى ذلك الوقت ويصف مؤرخ كاثوليكى آريوس بقوله : كان آيوس طويل القامة ، نحيل الجسد ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، وكان معروفا بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه ـ وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة . وكانت طريقته فى الحديث ظريفة وخطبه مقنعة ، وكانت العذارى اللاتى تنذرن أنفسهن للدين ، وهن كثيرات فى الاسكندرية يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين (دورانت جزء ٣ مجلد ٣ ص ٣٩٢) .

اما تعاليم آريوس فتقوم على أن الأب أقدم من الابن لأن الأب خلق الابن من العدم ، فلا يمكن أن يكون الابن مساو للأب فى الجوهر لأنه ادنى منه فى الطبيعة والمنزلة ويمضى آريوس فى بيان عقيدته فيقول : انه يؤمن باله واحد متعال يفوق حد التصور منطو على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شيء له نهاية ، وهو فريد لا شبيه له أزلى لا بداية له ـ لا يموت ـ صالح وهو وحده سبحانه منفرد بهذه الصفات . والأب قد خلق الابن خلقا ، فالابن اذن غير أزلى وهو مخلوق مثل باقى المخلوقات ولا يمتاز عنها الا بكونه خلق قبلها ، وهو ليس مساو للأب فى

الجوهر ، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل اى مخلوق ، وهو كأى مخلوق ايضـا قادر على عمل الخير والشر ، وهو معرض للخطأ ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء .

وعندما جاء ملء الزمان اتخـذ ابن الله صورة انسان وعلم الحقيقة وهو بهـذا الوصف لا يستحق أن يعبد بل أن يحترم ويعترف بجميله (١) .

وغنى عن البيان أن هذه الآراء التى تقـدم بها كاهن مسيحى قد صدمت الأنبـا الكسندروس صدمة عنيفة ، ذلك انها تهدم الكنيسة المسيحية من أساسها ، فالكنيسة المسيحية تقوم أول ما تقوم على تأليه المسيح ، وعلى القول بأن الله ذات مثلث الاقانيم تتمثل فى الآب والابن وروح القدس ، وهو التثليث الضارب الجـذور فى أرض مصر على شتى الصور والأشـكال ، وكان أشـهرها واعمهـا ثالوث أوزوريس وايزيس وحوريس والذى انتشر فى حوض البحـر الأبيض كله فى صـورة ثالوث سـيرابيس وايزيس وحوريس .

فالقول بعـدم الوهية المسيح هو هدم لهذه العقيـدة الراسخة الثابتـة من ان الألوهية تتعدد شخوصها واقانيمها .

غير أن مدينة الاسكندرية وقد كانت مركز الفلسفة اليونانية ، ومستقر الثقافة والفكر العالميين ، فقد رحبت بآراء آريوس ، فسرت فيها بكل سرعة ، حتى لقد أخذت شكل الأغانى والأناشيد التى كان يترنم بها أتباع آريوس .

ولم يقف سريان المبادىء الاريوسية على عامة الشعب والمثقفين ، بل تعدتهم الى رجال الدين انفسهم ، ولذلك فقـد دعا الأنبـا الكسندروس مجلسا من الأساقفـة المصريين حكموا بتجريد آريوس من منصب الكهنوت ، فكان هـذا الاضطهاد للفكرة وقودا جديدا لانتشارها وازدياد العطف على آريوس والتحمس لمبادئه .. وهكذا بدأ هذا الصراع العقـائدى ، الذى لن يلبث أن يخفى فى طياته صراعا سياسـيا ، ليطبع القرنين الرابع والخامس الميلاديين .

٣٢٣ م — وكان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر فى هذه السنة هو سابينيانوس .

باخوم يؤسس الديرية الجماعية :

وفى هذه السنة بدأ الأنبا باخوم حياة الأديرة الجماعية على ما يرويه لنا يلاديوس الذى زار مصر .

وقد ولد باخوم عام ٢٩٠ كما ذكرنا من قبل واعتنق المسيحية أثنـاء وجوده فى الجيش وكان عمره عشرين سنة فلما أن سرح من الجيش اتخذ لنفسه حياة النسك والرهبنة ، التى بدأها الأنبا بولا ووسع نطاقها الأنبا انطونيوس .

(١) تاريخ الاقباط زكى شنوده — لا بد أن القارىء المسلم يلحظ مدى ما فى هذه التعاليم من انطباق على نظرة الإسلام للمسيح .

ولكن باخوم خطا خطوة وراء ذلك وهو تحويل الرهبنة والنسك الى حياة جماعية منظمة تخضع لارشاد وتوجيه ، وتسير على قواعد محددة . وأول دير أنشأه باخوم كان بالقرب من دندرة .

٣٢٤ م ــ قسطنطين يوحد الامبراطورية تحت قيادته :

وفى هذه الأثناء كان قسطنطين قد نجح نهائيــــا فى توحيـــد الامبراطورية تحت سلطانه بعد أن هزم لسيشيوس شريكه فى الحكم وامبراطور الشرق .

وكان انتصاره بمثابة نجدة جديدة للمسيحيين ، فقد كان لسيشيوس قد بدأ صب صواعق غضبه فوق رؤوسهم لمناصرتهم لقسطنطين . وأصدر قسطنطين أوامره باعادة المسيحيين المنفيين الى أوطانهم وبيوتهم ، ورد كل ما يمكن أن يكون قد أخـــذ من ممتلكاتهم . وأعاد لهم كل الحقوق ، والامتيازات الكاملة لأى مواطن رومانى .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان لا يزال باعتبــاره السيد الأعلى للامبراطورية والكاهن الأعظم للديانات القديمة يقدر واجبه كملك مسئول عن رعاياه على اختلاف عقائدهم ، فقد أعلن أنه من حق أى مواطن أن يعتنق الدين الذى يريد ،وأعلن هو عن نفسه أنه قد اعتنق المسيحية ودعا رعاياه لاعتناقها .

وتدور أبحاث طويلة مسهبة حول اعتناق قسطنطين للمسيحية وهل كان ذلك عن اقتناع حقيقى أو عن سياسة وكياسة ، بعد أن أصبح المسيحيون يؤلفون العنصر الوحيـــد القوى المتماسك فى الدولة ، واحسب أن مثل هذه التساؤلات جد عقيمـــة فالحقائق الراسخة تسجل انه حـــول المسيحية من دين مضطهـــد الى أن يكون دين الدولة ، بل ان العقيدة المسيحية كما يدين بها المسيحيون اليوم ، هى من وضع المجمع الذى دعا اليه وترأســـه .

٣٢٥ م ــ مجمع نيقيه :

أما هذا المجمع الذى دعا اليه قسطنطين وترأسه ليضع دســـتور الايمان ويعنى به مجمع نيقيه ، فان قصته تبدأ عنـــدما رفع كل من آريوس والأنبـــا الكسندروس أمر الخـــلاف الناشب بينهمـــا حول المسيح الى الامبراطور قسطنطين ليقول فيـــه كلمتـــه :

وتصور قسطنطين بادىء ذى بدء انه من الميسور أن يعـــالج هذا الموضوع الذى بدأ له تافهـــا ، لو أنه زجر كل من الطرفين وأنبـــه وطالبـــه أن يشتغل بما هو أهم وأجدى . فبعث برسالة الى كل منهما حيث خاطب كل منهما باسمه المجرد . وجاء فى خطـــابه :

« منذ آل الى حكم الامبراطورية بأسرها أصبح أمامى هدفان : أولهما ان نعاون

الجميع على معرفة الاله الحق ، وثانيهما ان أضمد الجروح التى سببتها الاضطهادات ولبلوغ هذين الهدفين ، وجب أن يكون السلام حليفى . وهذا ما دفعنى الى أن أخمد كل اضطراب قام فى افريقيا . وكنت أعتمد فى جهادى على أساقفة الشرق الذى بزغ منه نور المسيحية . واذا بهذا الشرق يمسى مسرحا للخصام . وبعد انعام النظر فيما هو قائم من خلاف فى الاسكندرية خرجت بنتيجة واحدة هى أنى أرى فى ما اتيته يا الكسندروس انك خضت مع كهنتك فى موضوع تافه لا أرى له داعيا . وأما أنت يا أريوس فقد اذعت ما جال فى خاطرك من أمور سخيفة كان يجب كتمانها ولم يكن ثمت حاجة الى اثارة هذا المشكل أمام الجماهير لأنهـا مسائل لا يثيرها الا من ليس لديهم عمل يشغلون به أنفسهم ولا يرجى منها الا أن تزيد عقول الناس حـدة . تلك أعمال خليقة بالأطفال عديمى التجربة لا برجال الدين أو العقلاء من الناس . وكنت اود ان أزور مدينتكما ، ولكنى امتنع عن ذلك مادام الخلاف قائما بينكما ، فاعقـدا صلحا يسرنى ويثلج فؤادى ويفتح لى أبواب مدينتكما (**قصة الكنيسة ــ دورانت**) .

وخاب أمل قسطنطين فى حسم النزاع بهذه الرسـالة فالخلاف كان أعمق غورا مما تصور ، وانتشر فى أرجاء الامبراطورية ، وشغل الأذهان ، وبلبل الأفكار ، فرأى قسطنطين أن يحسم ذلك كله ، فأصـدر أمره بدعوة أول مجلس عالى من أساقفـة الكنائس فى مدينة نيقيه ، فاجتمع ٣١٨ أسقفا يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة .

وجاء معظم الأساقفة من الولايات الشرقية ، لان الولايات الغربية تجاهلت هـذا الجدل ، واكتفى البـابا سلفستر الأول (أسقف روما) بارسال بعض القساوسـة ليمثـلوه . وقد أصدر المجمع بعـد مداولات ومناقشات ما اعتبر منذ ذلك التاريخ دستور الايمان ، وقد قام بصياغته الأنبا الكسندروس بابا الاسكندرية وشماسـه ومساعده وصاحب القدح المعـلى فى هذا المجمع وهو اثناسيوس بعد أن ضم اليهما أسقف قيسارية ، وهذا هو نص دستور الايمان :

« بالحقيقة نؤمن باله واحد الله الاب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى » .

« نؤمن برب واحد يسوع والمسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء ، هذا الذى من أجلنـا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السـماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وصلب وقام من الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين أبيه وسيأتى ايضا فى مجده ليدين الأحياء والموتى ، وليس لملكه انقضاء » .

« نعم نؤمن بالروح القدس » .

وقد ذيل هذا الدستور بالحرم الآتى نصه :

« أن جميع الذين يقولون عن الابن انه جاء عليه حين من الدهر لم يكن موجودا ، أو انه لم يكن له أثر في الوجود قبل أن يولد ، أو أنه ولد من العدم ، أو انه من غير جوهر الأب ، أو أنه مخلوق ومعرض للتحول والتبدل فالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة تعلن وقوعهم تحت طائلة الحرم » .

وقد وقع جميع الأساقفة الذين حضروا المجمع هذا الدستور ماعدا ثلاثة رفضوا توقيعه في بادىء الأمر ثم لم يلبثوا أن وقعوا خوفا من غضب الامبراطور . وقرر المجمع أيضا أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة في يوم واحد يحدده كل عام أسقف الاسكندرية على أساس قاعدة فلكية ويذيعه أسقف روما (1) .

كما بحث المجمع في عدة قضايا أخرى خاصة بموضوع زواج الكهنة ، وقبول المرتدين من حظيرة الكنيسة من جديد .

وجاء في أحد قراراته (القانون السادس) : لتحفظ السنن القديمة التي في مصر وليبيا ونبتابوليس أن أسقف الاسكندرية له الرياسة عليها كلها — وقد أيد ذلك مجمع القسطنطينية الثاني الذي عقد سنة ٣٦١ .

نفي أريوس وحرق كتبه :

وعقب انفضاض المؤتمر اصدر قسطنطين أمرا بنفي أريوس من الاسكندرية وحرق جميع الكتب التي تضمنت آراءه وعقائده ، واعدام كل من يخفي منها كتابا .

٣٢٦ م — وفاة الأنبا الكسندروس :

وكانما كان الأنبا الكسندروس على موعد مع القدر ليغادر الحياة بعد أن يحقق نصره على أريوس بعد أن أقام على السدة المرقصية اثنين وعشرين عاما وعشرة أشهر .

ولكنه لم يدع الكنيسة المصرية بغير راع من بعده فقد رشح للخلافة من بعده اثناسيوس رئيس الشمامسة والمتصدي بالجدل العلمي والمنطقي لآريوس .

الأنبا اثناسيوس (الرسولي) :

وبتربع الأنبا اثناسيوس على كرسي مرقص الرسول كانت الكنيسة المصرية تجد بطلها الأعظم ، الذي لقب بالرسولي ، باعتباره أحد حواريي المسيح ، فقد قدر له أن يقف في وجه الأباطرة فينهزمون وينتصر .

والأنبا اثناسيوس قدمته أمه الى الأنبا الكسندروس عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ليكرس حياته لخدمة المسيح ففرح به الكسندروس وقربه من نفسه وشجعه

---

(1) جاء في كتاب المنارة التاريخية ان عيد الفصح الذي يقيمه اليهود ليلة تمام القمر الربيعي . قد أصبح يقام يوم الاحد الذي يتلو تمام هذا القمر .

على اغتراف العلم على فطاحل علماء الاسكندرية ، فتعلم القواعد النحوية والمنطق والخطابة والبلاغة ، وشعر هوميروس والفلسفة اليونانية والقانون الرومانى كما عنى باستيعاب تعاليم مدرسة عين شمس المصرية القديمة ، والتعاليم التى الفها أكليمنضس وأوريجانوس وتوج ذلك بأن غاص فى بحار الاسفار الالهية ثم ذهب الى الصحراء ، حيث قضى فى صحبته الأنبا انطونى ما يقرب من ثلاث سنوات تشبع فى أثنائها بكل ما لقنه اياه ذلك القديس من حكمة وقداسة .

وعندما عاد الى الاسكندرية منحه البابا رتبة الشماس . وعندما بدأت تعاليم أريوس تنتشر فى الاسكندرية لم يوافق ذلك هوى اثناسيوس ، أو عقيدته ، فتصدى لدحض هذه التعاليم بكل ما أوتى من ذكاء وعلم وقدرة على الجدل ، وقد كان هو الذى تولى الرد على أريوس فى مجمع نيقيه وقد سجل التاريخ الجدل الذى قام بينهما .

وعندما مات الكسندروس ، كان اثناسيوس يعيش مع أستاذه الروحى الأنبا انطونى فى الصحراء ، فاجمع الشعب فى غيابه على تنصيبه بطريركا ، فذهب مندوبوهم اليه فى عزلته بالصحراء فاقتادوه الى الاسكندرية وساروا به الى الكنيسة المرقصية فدخلوها واغلقوا الأبواب وقالوا للأساقفة الذين اجتمعوا ، لن تخرجوا من هنا حتى تضعوا عليه السيد ، فاشترك جميع الأساقفة الذين كانوا موجودين فى الاسكندرية وكان عددهم (٥٠) فى تنصيبه بابا للاسكندرية وسط التهليل والتعظيم .

٣٣٠ م ـ اتخاذ القسطنطينية عاصمة للامبراطورية :

أعلن قسطنطين مدينته الجديدة التى انشأها على البوسفور واطلق عليها اسم روما الجديدة ، عاصمة للامبراطورية وكان قد اختار أطلال مدينة بيزنطة القديمة ، لتكون نواة لمدينته الجديدة ، التى عقد عزمه على جعلها من الضخامة والعظمة بحيث يكشف نورها كل المدن التى اشتهرت من قبلها ، فحشد لها كل الامكانيات والطاقات الفنية لتخطيطها ثم تشييد قصورها ، ومبانيها العامة وتنظيم ساحاتها وطرقاتها ، حتى اذا فرغ من بنائها ، ضم كل ما فى الامبراطورية من علماء وفنانين ، مبتدئا بذلك هذا العصر الجديد الذى عرف فى التاريخ باسم العصر البيزنطى والذى يتألف من مزيج من حياة وتقاليد وعلوم ومعارف وصنائع وتراث مصر والاغريق والشرق بصفة عامة مع الرومان واللاتين .

وقد أراد قسطنطين أن يزين مدينته الجديدة بأروع الآثار المصرية ممثلا فى مسلتها فنقل واحدة منها ، ثم جلب مسلة أخرى من هليوبوليس للاسكندرية لينقلها الى العاصمة أيضا ، ولكنه توفى قبل أن يفعل ، فنقلها ابنه فيما بعد الى روما .

كما نقل قسطنطين من مصر مقياس النيل ووضعه بأحد الكنائس كشىء مقدس .

واستحضر الامبراطور من الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل مكتوبة على الرق ، لاستعمال كنائس القسطنطينية .

تلكم هى المدينة التى أطلق عليها فيما بعد اسم مؤسسها فأصبحت تدعى القسطنطينية ، والتى كان مقدرا لها ان تقرب نهاية سقوط روما فى يد المتبربرين ، وأن تلقى ظلا على مدينة الاسكندرية عاصمة الامبراطورية الرومانية التجارية والاقتصادية .. وأن يبدأ الصراع والتنافس بين المدينتين .

٣٣٥ م ــ مجمع صور :

كان النصر الذى أحرزته الكنيسة المصرية فى مجمع نيقية مصدر قلق للامبراطور قسطنطين ، الذى كانت مسيحيته الجديدة لا تقلل من تشبثه بالسلطان المطلق . ولذلك فلم يكد أريوس يقدم له التماسا يعلن فيه التوبة حتى تقبله بقبول حسن ، وبعث الى اثناسيوس يطلب منه اعادة اريوس الى حظيرة الكنيسة ، وكانت مفاجأة الامبراطور قسطنطين عظيمة ، عندما رفض اثناسيوس تلبية أمر الامبراطور ورد عليه قائلا : ان من يحرمه مجمع مسكونى لا يحله من الحرم الا مجمع مسكونى آخر ، لأن من يملك سلطان العقد هو وحده الذى يملك سلطان الحل » .

وثارت ثائرة قسطنطين على اثناسيوس وانتهز أعداؤه هذه الفرصة ليدسوا له عند الامبراطور ، ويصوروا هذا الخلاف العقائدى على انه فى حقيقته تمود على السلطة .

واراد قسطنطين أن يحسم القضية فدعا الى عقد مجمع جديد فى صور لمحاكمة اثناسيوس نفسه ، حيث كيلت له التهم ليس فقط بالنسبة لموقفه من اريوس والامبراطور ، بل ولاستخدامه القوة فى معاملة اتباع الأساقفة الذين يخالفونه فى الرأى . وفرضه الضرائب التى هى من حق الامبراطور وحده ، بل وتدخله فى تعطيل ابحار القمح المصرى الذى كان يرسل الى القسطنطينية كل عام .

ووصلت التهم الى حد القول انه كان ينتوى تزعم ثورة ضد الامبراطور فى مصر يقودها شخص يدعى فيلدمنيوس ، وان كانت قد قضى عليها فى المهد .

وبناء على هذه الاتهامات (التى يعتبرها تاريخ الكنيسة المصرية ملفقة كلها) قرر مجمع صور عزل اثناسيوس من منصبه ، واصدر الامبراطور بناء على ذلك أمره بنفى اثناسيوس من مصر ، ليقيم فى بلاد الغال (فرنسا) .

٣٣٦ م ــ وفاة اريوس :

واذ خلا الجو بعزل اثناسيوس ونفيه ، فقد طلب الامبراطور من اسقف القسطنطينية ان يقبل أريوس من جديد فى العشاء الربانى .

ويقول لنا سقراط المؤرخ الكنسى :

كان ذلك يوم السبت ، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع في اليوم الذي يليه ، ولكن القصاص الالهي عاجله فأحبط عمله الاجرامي الجرىء ، وذلك انه عندما خرج من القصر واقترب من العمود السماقي المقام فيسوق القسطنطينية ،تملكه الرعب واصيب باسهال شديد خرجت فيه أمعاؤه من بطنه واعقبه نزيف حاد ونزلت أمعاؤه الدقاق ، ومما زاد الطين بلة ، ان طحاله وكبده قد انفصلا من حدة النزيف ومات لساعته .

وغنى عن البيان أن في هذا التصوير كثير من المبالغة والخلط . ولكن الذى لاجدال فيه ان مصادفة موته عشية اليوم الذى كان سيشهد انتصاره قد هز خصومه وأتباعه على السواء ، فاعتبره الأولون آية ربانية على زيفه وضلاله .. وتوقف الآخيرون ليسائلوا أنفسهم عن تفسير هذه المصادفة الكئيبة .

ولكن هذا الحادث فيما يبدو لم يغير من عقيدة قسطنطين ، ذلك انه عندما اراد ان يعمد في العام التالى لوفاة أريوس ، تلقى مراسيم العماد على يد واحد من اتباع أريوس وهو يوسيبوس أسقف نوفوميديا .

٣٣٧ م ــ وفاة قسطنطين :

وأخيرا مات قسطنطين بعد أن احتفل بمرور ثلاثين عاما على حكمه ، ولما غشيه مرض الموت استدعى الأسقف يوسيبيوس ليجرى له مراسيم التعميد القدسي رجاء أن يطهره مما كان يضغط على ضميره من احساس بالاثم والخطيئة ، فهذا الملك العظيم الذى أمد الدولة الرومانية بحياة جديدة من خلال اعتناق المسيحية ، قدر له في أخريات حياته أن يقتل ابنه كرسيس الذى رزقه من زوجته الأولى ، تحت تأثير زوجته الثانية « فادستا » التى اتهمت كرسيس بأنه راودها عن نفسها ، ولم يلبث قسطنطين بعد قتل ولده ان اكتشف براءته وكذب فادستا التى ضبطت متورطة في علاقات آثمة ، فقتلها قسطنطين بدورها .

كما سجل له التاريخ اعدام الكثيرين لغير علة مفهومة . وينسب له المؤرخون انه كان أول من قسم الامبراطورية بين أولاده ضاربا بذلك أكبر معول في هدم وحدتها .

ولكن الحقيقة المؤكدة أن قسطنطين قد وهب الامبراطورية الهرمة مائة وخمسين عاما جديدة ، وربط بينها وبين دين فتى ونظام قوى ومبادىء أخلاقية جديدة . وقد اعتبرته الكنيسة الغربية أعظم الأباطرة على الاطلاق ، ولكن الكنيسة المصرية لا تخفى امتعاضها من السنوات الأخيرة من حكمه ؛ حيث جنح الى ممالأة الاريوسية ضد العقيدة الأرثوذكسية كما يقررها دستور الايمان الذى وضعته الاسكندرية في مجمع نيقية ، وحسبه انه نفى اثناسيوس بطل الاسكندرية .

حكم ابناء قسطنطين :

كان لقسطنطين ابناء ثلاثة ، وهم قسطنطين الثانى ، وقسطنطيوس ، وقسطانز فحمل كل منهم لقب أغسطس باعتباره امبراطورا ، وتولى الأول حكم ايطاليا والغال ، وتولى الثانى (قسطنطيوس) حكم الشرق ، وبينما اختص قسطانز باللريا وجزء من افريقيــا .

عودة اثناسيوس الى الاسكندرية :

كان أول عمل من أعمال السلطة التى باشرها قسطنطين الثانى الذى تولى حكم روما والغــال ، أن أعاد اثناســيوس الى الاســـكندرية معــززا مكرما ، ذلك ان قسطنطين الثانى كان على خلاف أبيه يدين بمذهب اثناسيوس .

واستقبلت الاسكندرية بطلها العائد استقبال الغزاة الفاتحين ، وكان ممن وفدوا على الاسكندرية لاستقباله رهبــان الصحــارى كلهم يتقــدمهم القــديس انطــونى ابو الرهبانية .

ولكن أتبــاع أريوس الذين كان يظاهرهم قسطنطيوس امبراطور الشرق اذ كان يدين بالاريوسية ، لم يعترفوا بهزيمتهم ، ووقفوا يترصدون لاثناسيوس ويكيدون له ويدبرون .

٣٣٨ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو انطونيوس تيودوروس.

٣٤٠ م ــ نشبت الحرب بين أبناء قسطنطين ، فقتل قسطنطين الثانى ، فانتهز قسطنطيوس هذه الفرصة ، لكى يتخلص من اثناسيوس بطريريك الاسكندرية الذى كان قد بلغ من النفوذ والسلطان الحد الذى أصبح الامبراطور يراه خطرا عليه ، فعقد مجمعا فى انطاكية اجتمع فيه تسعون أسقفا ، وجهوا اللوم الى اثناسيوس وانتخبوا للاسكندرية بطريركا جــديدا وهو غريغوروس البكادوكى ، وقرر المجمع فوق ذلك الغاء ما جاء فى دستور الايمان الذى تقرر فى مجمع نيقيه ، من ان المسيح « اله من اله ، جوهر واحد مع الأب » الى النص بأنه : بكر المخلوقات وصورة جوهر الأب .

وقد رفض المصريون هذا التغيير ، واعتبروه كفرا وخروجا على الدين .

ولكن ذلك لم يثن الامبراطور عن المضى فيما عقــد العزم عليه فوجــه البطريرك الجديد الى الاسكندرية مع قوة من الجيش مزودة بأوامر للقبض على اثناسيوس . ولكن اثناسيوس استطاع أن لا يقع فى قبضة الجنــد ، وقصد الى روما ملتجئــا الى اســقفها .

وتعتبر حياة اثناسيوس فى روما فترة من أخصب الفترات فى حياته ، اذ انه وضع كتابا عن حياة أستاذه « أنطونيوس » « حياة القديس انطونيوس » وقد كان هــذا الكتاب الذى ترجم الى اللاتينية ، هو الذى نشر الرهبنة فى أوربا .

اما فى مصر فقد تحدى حزبه القوى غريغوريوس الذى فرض على مصر بدلا من اثناسيوس ، وقد بلغ من ثورة هذا الحزب انه حرق الكنيسة المرقصية بالاسكندرية حتى يحـول بين الأسقف الاريوسى وبين مزاولة عمـله . وراح يطـرد الاريوسـيين ويتعقبهم فى كل كنائس مصر وأديرتها .

٣٤٦ م – موت الأنبا باخوم :

مات الأنبـا باخوم فى هذا العام ، وتقف دائرة المعارف البريطانية موقف المتردد فى الجزم بأن وفاته كانت فى هذه السنة . ويصف البعض الأنبا باخوم بأنه كان أميـا وذلك لعدم معرفته اللغة اليونانية ، والحقيقة انه كان مصريا صميما فلم يكن يعرف غير اللغة المصرية . وكان الأنبا باخوم هو منظم الرهبنة الجماعية وحيـاة الأديرة ، واول من وضع لها قوانين لا يزال معمولا بها حتى الآن ، وكانت هى الأسـاس الذى قامت عليه الحياة الديريه فى أوربا ، والقول على ان نظم الرهبنة التى وضعها القديس بندكت مقتبسة بطريق مباشر من أنظمة الأنبـا باخوم ، ذلك ان راهبا مصريا وهـو ديونسيوس الصغير قد ترجم سيرة باخوم وقوانينه الى اللغـة اللاتينية فكانت هى الوحى والالهام لكل الأديرة البندكتية ، بل والفرانسسكية والدومينكانية التى تأسست فى عصر متأخر فى القرن الثالث عشر .

وتبدأ قوانين باخوم بتحديد الشروط التى يجب توافرها لقبول طالب الرهبنة اذ يجب عليه أن يثبت فى الدرجـة الأولى انه غير هارب من العـدالة أو المسئولية ، ويجب عليه بعد ذلك قضاء ثلاث سنوات تحت التمرين ، يتعلم فى خـلالها القـراءة والكتابة ان كان يجهلها ، فان أثبت خلال هذه الفترة أهليته للترهب ، قبل فى الرهبنة. كما تحدد هذه القوانين كل ما يتصل بملابس الراهب وطعامه وساعات نومه والعمل اليدوى الذى يتعين عليه أن يقوم به ، والتعلم والعبادة وأخيرا العقوبات والجزاءات التى تحل به عند ارتكابه المخالفات .

والقاعدة الأساسية التى قام عليها النظـام كله هى ذات القاعدة العسكرية وهى الطاعة التامة لمن هم أكبر وأقدم .

ولقد استطاع الرهبان فى مصر فى ظل هذه الأنظمة أن يقوموا بعمل كبير ، فكانوا هم الذين تولوا ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية الى اللغة المصرية (القبطية) مما سيمكن الكنيسة المصرية من الاستقلال بعد حين عن الكنيسـة البيزنطية ، ليس فقط فى عقيدتها ، بل فى لغتها .

وقد بلغ عدد الرهبـان عند وفاة الأنبـا باخوم خمسة آلاف راهب موزعين على تسعة أديرة للرجال ودير للنسـاء .

٣٤٦ م ــ عودة اثناسيوس الى كرسى البطريركية :

وفى هذه السنة ايضـا مات البطريرك الملكى غريغوروس ، وبذلك خـلا كرسى البطريركية ، ورأى الامبراطور قسطنطيوس انه من الحكمة ومن مصلحة الدولة أن يعيد أثناسيوس الى كرسيه بعد أن اشترط عليه أن لا يتعرض للاريوسيين .

٣٥٠ م ــ قتل قسطانز ثانى ابناء قسطنطين على يد احد المتطلعين الى العرش .

٣٥٣ م ــ استطاع قسطنطيوس أن يقضى على قاتل اخيه ويصبح بذلك لأول مرة بعد وفاة أبيـه هو الحاكم الفرد للامبراطورية الرومانيـة التى توحـدت فى ظله من جـديد .

٣٥٤ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر هو لونجينيانوس .

٣٥٦ م ــ اختفاء اثناسيوس : ضاق الامبراطور قسطنطيوس ذرعا من جـديد باثناسيوس الذى كان لا يستجيب لمطالبه ولا يؤدى رغباته ، فبعث اليه بقوة عسكرية للقبض عليه ، ولكن الأنبا اثناسيوس تمكن من الاختفاء فى الاسكندرية وسط رعاياه ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت للعثور عليه حيث تفانى المخلصون فى حمايته .

٣٥٦ م ــ وفاة الأنبا انطونى :

وفى هذه السـنة ، والبعض يجعلهـا السنة السابقة عليها ، مات الأنبا انطـونى متجاوزا المائة عام . والاجماع على أن الأنبا انطونيوس هو مؤسس نظام الرهبانيـة فى العالم ، فقد كانت الرسالة التى كتبهـا عنه اثناسيوس ابان مدة نفيه فى مدينـة « تورين » حياة القديس « انطونيوس » هى التى بذرت تعاليم الرهبانية فى أوربا .

وقد كان يتنقل ، منذ آلى على نفسه أن يحيا حياة الرهبنة والنسك ، فى أرجاء الصحراء حتى استقر به المقـام على جبل القلزم القريب من شـاطىء البحر . وقد عرف مكانه المعجبون به ، فحذوا حذوه فى تعبـده ونسكه فبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء ، قبل موته بأتباعه الروحيين .

وقد غادر الصحراء أكثر من مرة وقصد الى الاسكندرية فى مناسبات مختلفة ، كان أولها عندما حل الاضطهاد والتعذيب بالمسيحيين أيام دقلديانوس ومكسيميانوس. وعلى الرغم من انه كان يصاحب المسيحيين المحكوم عليهم بالاعدام ويواسيهم ، ويحضر محاكمتهم ليثبت ايمانهم ، فان سيف الجلاد ، لأمر ما ، لم يصل اليه .

ولما خفت ريح الاضطهـاد عاد من جديد الى الصـحراء ، ولم يلبث أن عاد الى الاسكندرية من جديد ليساعد تلميذه اثناسيوس فى محاربة الاريوسية .

وهكذا عاش ٨٥ سنة من حياته ما بين ترهب ونسك وجهاد .

ولم يضع الأنبا انطونيوس نظاما للأديرة والرهبانية الجماعية فقد كان هذا هو عمل الأنبا باخوم كما قدمنا . ولكن الأنبا انطونى هو واضع نظام الرهبنة بصفة عامة .

وهو لم يطالب الراهب الا بالصلاة والتقشف والعمل اليـدوى . وقد حـدد الساعات التى تقام فيها الصلوات والاسفار التى ترتل فيها . وقصد بالتقشف العفاف التام . أما العمل اليدوى فهو عنده ضرورة لأن الناسك لايليق به أن يكون متعطلا ولا أن يعيش عالة على غيره بل يجب أن يعيش من عمل يديه وبعرق جبينه .

وقد وضع زيا خاصا بالنسك متخذا اياه من زى كهنة الفراعنة ، فكان يلبس ثوبا من الكتان أبيض وهو الزى الذى انتشر بين رهبان العالم .

ويقال ان المنية عندما أدركته استدعى تلميذين من بين خاصة اخصائه ، وأحدهما هو الأنبا مكارى (مقار) الذى سيصبح خليفة له ، وطلب منهما أن يحفرا له قبرا يخفيانه عن الناس جميعا ؛ تجنبـا لتلك العـادة المتخلفـة عن الوثنيـة وهى زيارة القبور (١) .

ولكن أمنية الأنبا انطونى لم تتحقق فعلى مقربة من البحر الأحمر يقوم دير الأنبا انطونيوس فى أيامنا هذه على نفس البقعة التى مات فيها .

حيـاة الرهبنـة :

ولم يمت الأنبا انطونى الا وكانت هذه الروح العجيبة من الزهد والنسك قد عمت أرجاء مصر ، بحيث أصبحت نظاما كاملا بعد أن نظمها الأنبا باخوم كما أشرنا من قبل ، وتحولت مدن بأكملها فى الصحارى الى مناطق للزهد والرهبنة .

ونشأت بين النساك منافسة قوية فى بطولة النسك فكان مكاريوس الاسكندرى لايكاد يسمع عن عمل من أعمال الزهد الا وحاول أن يأتى بأعظم منه ، فاذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير ، امتنع هو عن اكله سبع سنين ، واذا عاقب أحدهم نفسه بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو يبذل جهد المستميت لكى يظل متيقظا عشرين ليلة متتابعة . وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفا طوال هذا الصوم ليلا ونهارا لايذوق الطعام الا مرة واحدة فى الأسبوع ، ولم يكن طعامه أكثر من بعض أوراق الكرنب ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اختص بها وهى صناعة السلال .

وكان الراهب سيرابيون يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول اليها الا عدد قليل من الحجاج . ولما بلغ جيروم (القديس الغربى) وبولا الى صومعته هذه وجدا رجلا لايكاد يزيد جسمه عن بضعة عظام وليس عليه الا خرقة تستر حقويه

(١) عجيب هذا التقابل بين المؤمنين من مختلف الاديان ، فان كراهية الانبا انطونى لزيارة القبور وعبادة الاموات هى التى تجدها بين كثير من علمـاء المسلمين والمتهم .

ويغطى الشعر وجهه وكتفيه ، وكان فراشه لوح خشب وبعض أوراق الشجر ، وقد كان سيرابيون هذا أحد اشراف روما .

وكان من الرهبان من تخصصوا فى الصمت ، وظلوا عددا من السنين لاتنفرج شفاههم عن كلمة ، وغيرهم ألزموا انفسهم بأنواع من الجهد والمشقة لاتخطر على بال .

فلا عجب ان جاء الحجاج من جميع انحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق فى الفترة التالية ، فأحدهم المسمى رونينوس القادم من مدينة تريستا يقول لنا انه تجشم السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد مدينة أوخيرونيوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة ومنهم يكون العالم باللغات اليونانية.

وتطايرت الاقاويل والاقاصيص عما يأتى به هؤلاء الرهبان من أعمال وعجائب فيطردون الشياطين باللمس ، ويروضون الأفاعى بنظرة ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . ويقول القديس جيروم واصفا أحوال الرهبان فى مصر ان الكثيرين منهم كانوا يحتقرون العلوم الدينية ويرونها غرورا وباطلا ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الايمان ، وقد ابت العذراء سليبان ان تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان فى أحد الأديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها . ولكن الرهبان انسوا الى الماء حوالى أواخر القرن الرابع فسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط . واخذ يحن الى هذه الأيام التى لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوههم .

ولا عجب اذا كان هذا هو التيار الذى بدأ يغمر التفكير المسيحى ، ان بدأت ريح العلم تخفت فى مصر ، وان ظلت المراكز الوثنية تواصل علومها ودراستها القديمة من فلسفة وعلوم وآداب .

ومن مصر سرت هذه الروح الى سوريا ، فأصبحت صحراؤها بدورها تغص بالنساك الذين يشد بعضهم نفسه بالسلاسل . ووصل الأمر بواحد من النساك يدعى سمعان العامودى أن يبنى لنفسه عمودا ارتفاعه ستين قدما ومحيطه فيما لايتجاوز ثلاثة اقدام وعاش فوقه ثلاثين سنة .

٣٥٧ م — كان الحاكم الرومانى على مصر برناسيوس وقد تجلى عجزه المطلق فى فشله فى العثور على اثناسيوس الذى كان وهو فى مخبئه لا يكف عن محاربة التوحيد الاريوسى ، الذى اوشك فى هذه الفترة أن يتغلب على التثليث .

وقد ساد الاسكندرية فى هذه الفترة حكم الحديد والنار ، وفرض الآريوسيون على السدة المرقصية أسقفا من كيدوكيا اسمه جورج (جرجس) ولكن أهل الاسكندرية قابلوه باحتقار وقاطعوه رافضين أن يدخلوا كنيسة يكون هو فيها . فرد على موقفهم باتباع سياسة العنف والشدة مستعينا بالسلطات العسكرية فنفى ١٦ أسقفا ، وفر من وجهه ثلاثون آخرون ، وبدأ فترة من الارهاب الحاد دامت ثمانية عشر شهرا .

وفى عيد العنصرة اتفقت كلمة المسيحيين فى الاسكندرية على أن يصلوا فى الخلاء حتى لايذهبوا الى الكنيسة ، فاذا بقوة من الجيش مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى تحيط بهم وراحت تعمل فيهم السيوف باندفاع جنونى ، لم يتوقف الا بعد أن سئمت نفوس الجند من رؤية الدم المتفجر والجثث والاشلاء .

ولم يكن ذلك الا نموذجا لما حاق بالمسيحيين على يد اخوانهم المسيحيين ، مما يتضاءل الى جواره كل ما أوقعه الوثنيون من اضطهاد بالمسيحيين .

واذ كان هذا مدى التصميم لدى السلطات على استئصال شأفة كل من لا يدين بالاريوسية ، فلا عجب اذا رأينا أن أساقفة الكنيسة الغربية والشرقية (تقريبا) يعلنون واحدا اثر الآخر انصياعهم لتقاليد اريوس . بحيث بدأ على الأفق كما لو كانت تعاليم اريوس الداعية الى التوحيد قد انتصرت فى خاتمة المطاف ، وان لم يبق يدين بالتثليث سوى اثناسيوس المختفى ، واتباعه من أبناء مصر الذين كانت فكرة التثليث عميقة الجذور بينهم .

٣٥٧ م — كان الحاكم الرومانى فى شهر يوليو من هذه السنة هو بومبونيوس مترودوراس .

٣٦٠ م — كان الحاكم الرومانى ارتيبيميوس .

٣٦١ م — موت الامبراطور قسطنطيوس .

فى نوفمبر من هذه السنة مات الامبراطور قسطنطيوس ، فحال موته دون وقوع حرب أهلية بينه وبين ابن عمه جوليانوس الذى كان قسطنطيوس قد عينه قيصرا على القسم الغربى من الامبراطورية ، فنادى به جنود الغال امبراطورا ، فكان وقوع الاصطدام محققا بين الرجلين لولا أن عاجل الموت قسطنطيوس .

وقد مات قسطنطيوس فى سن الخامسة والأربعين بعد أن حكم أربعة وعشرين عاما .

الامبراطور جوليانوس الوثنى المرتد :

أعلن جوليانوس بمجرد ارتقائه العرش ارتداده عن المسيحية وعودته الى عبادة الآلهة التقليدية ، فكان ذلك بمثابة آخر خفقة فى السراج للوثنيين كدين مسيطر فى الامبراطورية ولم يكن هذا الارتداد يمثل صراعا عقائديا ، بقدر ما كان يمثل صراعا سياسيا بين القسم الغربى للامبراطورية والقسم الشرقى ، فقد كان القسم الشرقى من الامبراطورية قد أصبح بفضل قسطنطين وأولاده مسيحيا ، بينما ظلت الوثنية منتشرة فى أرجاء ايطاليا وفرنسا ، فلا عجب اذ جنح جوليانوس نحو الوثنية استرضاء للعناصر التى تدعم سلطانه .

والمؤرخون الحديثون يعنون عناية فائقة بجوليانوس ويسهبون بالحديث عنه باعتباره آخر ظل لروما الوثنية القديمة .

ويقولون عنه انه كان يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط وكان يعيش عيشة الرهبان ، ويلبس كما يلبسون ، وينام على القش فى حجرة غير مدفأة ، بل ولا يسمح بتدفئة اى حجرة فى قصره « حتى يعتاد البرد » .

وقد أكبر الشعب فى بادىء الأمر فضائله وزهده وانهماكه فى العمل ، وكانوا يشبهونه بتيراجان فى حسن قيادته العسكرية وبأنطونيوس بيوس فى تقواه وصلاحه وبماركوس أورليوس فى الجمع بين الملك والفلسفة .

وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ فما كان منه الا أن حكم على نفسه بغرامة قدرها عشرة أرطال من الذهب وأعلن انه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الامبراطورية وتقاليدها .

وقد ملك عليه حب الفلسفة كل تفكيره ، وكان مولعا بالكتب ، وكتب فى ذلك يقول : من الناس من هو مولع بالخيل ومنهم من هو مولع بالطير او الوحوش البرية ، أما أنا فقد كنت منذ نعومة اظفارى مولعا أشد الولع باقتناء الكتب .

وقد كتب مقالا يوضح به أسباب ارتداده عن المسيحية بعنوان « ضد أهل الجليل » وقد ظلت هذه الرسائل وعديد غيرها من كتاباته موضع اهتمام الشباب والمفكرين لأجيال حتى اضطر أحد بابوات اسكندرية أن يرد عليها بعد أكثر من نصف قرن ليقلل من أثرها فى نفوس القارئين .

وكان مما جاء فى هذه الرسالة : أن الأناجيل يناقض بعضها بعضا ، وان أهم ما تتفق فيه هو انها ابعد ما تكون عن العقل ، فانجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الأناجيل الثلاثة الأخرى(1) فى روايتها وفيما تحويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التى جاءت فى سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة « فاذا لم تكن كل قصة من هذه القصص الواردة فى سفر التكوين ، اسطورة لا أكثر واذا لم يكن لها كما أعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهى مليئة بالتجديف فى حق الله ؛ ذلك انها تمثله أول ما تمثله جاهلا بأن (حواء) التى خلقها لتكون عونا لآدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله ثانيا الها حقودا حسودا الى أقصى حدود الحقد والحسد ، وذلك بما تعزوه اليه من أنه يأبى على الانسان أن يعرف الخير والشر ، وانه يخشى أن يصبح الانسان مخلدا اذا طعم من شجرة الحياة ويخص جوليانوس فى رسالته فيقول موجها القول للمسيحيين :

ولم يكون الهكم غيورا حسودا الى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء ، ولماذا يغضب الاله العظيم هذا الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والآدميين ؟

الا توازنوا بين سلوكه وسلوك ليكرغ نفسه والرومان ازاء من يخرجون على القانون . يضاف الى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما

(1) لا تزال هذه القصة تشغل الكثيرين من الباحثين فى اللاهوت المسيحى .

تقرها وتتطلبها الوثنية . ولم لا تقبلون الشريعة التى نزلها الله على اليهود ؟ يقولون ان الشريعة الأولى كانت مقصودة على زمان ومكان معينين ، ولكن فى وسعى ان انقل اليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف (؟؟) لا العشرات فقط من الفقرات التى تقول ان الشريعة نزلت ليعمل بها فى جميع الأزمان (دورانت ــ ١١ ــ ١٢) .

ولقد أطلنا عمدا فى النقل ليعلم من يتصور أن العصر الحديث ينفرد بجحد الأديان وانتقادها ... بحجة ارتقاء العقل البشر هو قول غير صحيح ، فالقضية قديمة قدم الانسان ، على أن جوليانوس الذى هاجم المسيحية هـذا الهجوم قد عاش بشهادة الجميع حياة مسيحية لم يكن ينقصها سوى العقيدة ، وهو مدين فى حياته الفاضلة وسلوكه غير العادى الى المبادىء والأخلاق المسيحية التى لقنها فى طفولته وشبابه المبكر .

حرمان المسيحيين من الامتيازات :

على أننا لا يجب أن نفهم من ارتداد جوليانوس عن المسيحية انه أصـدر أمرا باضطهاد أتباعها .. أو طالبهم بالعدول عنها ، كما فعل الاباطرة الذين اضطهـدوا المسيحيين من قبل ، لقد كان ذلك فى زمن مضى وأصبح المسيحيون هم أقوى جماعة متماسكة فى الدولة .

ولذلك فان ما فعله جوليانوس يكاد لا يخرج عن نطاق ما تتخذه الدول العلمانية من اجراءات فقد منع ما كانت الدولة تقدمه للكنيسة من اعانات ، وحرم المسيحيين من أن يشغلوا كراسى البلاغة والفلسفة والآداب فى الجامعات ، ووضع حدا لاعفاء رجال الدين من الضرائب وغيرها ، كما حرم الوصية بالمـال للكنائس ، وحرم المنـاصب الحكومية على المسيحيين وأمر الجماعات المسيحية فى كل ولاية أن يعوضوا الهياكل الوثنية التى دمروها أو نهبوها ، تعويضا كاملا .

أما من حيث ممارسة العبادة ، فقد ترك للمسيحيين حقهم الكامل فى ممارستها ، بل وفى الوعظ والتبشير بها . وذهب الى أبعد من ذلك ، فأعاد الأساقفة المتمسكين بدينهم والذين سبق لقسطنطيوس أن نفاهم .

ظهـور اثناسيوس :

ولذلك فقد انتهز اثناسيوس هذه الفرصة ، ليظهر من مخبئه ليباشر قيادته الروحية والمادية على أبنائه من اتباع الكنيسة ولكن جوليانوس غضب على هـذا التصرف ، حيث لم يستأذنه اثناسيوس فيه ، ولذلك فقد ارسل الى والى مصر يطلب منه ابعاد اثناسيوس عن كرسيه والا حل به العقاب ، فلم يكن أمام اثناسيوس الا أن يعاود الاختفاء من وجه السلطة .

٣٦٢ م — كان الحـاكم الرومانى على مصر فى ديســمبر من هـذه الســنة « اكديسيوس » .

وفى هذه السنة وقعت فتنة شديدة فى مدينة الاسكندرية قام بها العامة من الوثنيين الذين كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج (جرجس) الأسقف الاريوسى الذى اغتصب كرسى اثناسيوس .

وكان قد أثار حفيظتهم بأن نظم موكبا عاما سخر فيه من الطقوس الوثنية ، فانتهز وثنيو الاسكندرية فرصة ارتداد الامبراطور عن المسيحيـة لكم يصـفوا حسابهم مع الأسقف الاريوسى ، فهاجموه وقبضوا عليه ، واذ لم يتحرك جمهـرة المسيحيين للدفاع عنه ، فقد قتله المتمردون وفرقوا جسده ، كما هاجموا الكثير من المسيحيين وقتلوا أو جرحوا منهم الكثيرين .

وقد أراد جوليانوس أن يعاقب من احدثوا الشغب ولكن مستشاريه اقنعوه بأن يكتفى بارسال خطاب احتجاج شديد الى أهل الاسكندرية .

٣٦٣ م — وفاة الامبراطور جوليانوس :

قتل الامبراطور جوليانوس ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين أثناء حربه فى بلاد فارس (وقيل ان الذى قتله كان مسيحيا) وقد اعتبر كثير من المسيحيين ان قاتله كان شهيدا .

الامبراطور جوفيان :

اختار الجيش على الفور بمجرد مصرع جوليانوس قائد الحرس الامبراطورى المدعو جوفيان .

وقد بادر أثر توليه بعقد صلح مع فارس بأن رد اليها أربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين سنة .

وكانت توليته اعادة لاعتبار المسيحية الارثوذكسية فقد أعلن تمسكه بالمسيحية على المذهب النيقى ، كما يدعو له اثناسيوس .

عودة اثناسيوس الى كرسيه :

ولذلك فقد ظهر اثناسيوس مرة اخرى من مخبئه ، واعتلى الكرسى — الرسولى وسط تهليل الشعب وتمجيده ، والتسبيح بقوة الله القدير الذى أعاد لهم قطبهم الروحى فائزا منصورا .

٣٦٤ م ـ موت الامبراطور جوفيان :

على أن جوفيان لم يحكم سوى سبعة شهور ، ثم لم يلبث أن توفى فى ١٧ فبراير سنة ٣٦٤ .

الامبراطور فالنتبان وابنه فالنس :

وعلى اثر وفاته اختارت القوات المسلحة فلافيوس فالنتيانوس ، وهو كما يصفه التاريخ جندى فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية . يذكر بفياسيسيان . وقد بادر بتعيين أخيه الأصغر فالنرا امبراطورا على الشرق مستبقيا لنفسه امبراطورية الغرب .

الامبراطور فالنس وامناسيوس :

كن الامبراطور فالنس يدين بالمذهب الاريوسى ، ولذلك فلم يكد يتربع على عرش الشرق ، حتى رفع الاريوسيون فى الاسكندرية رءوسهم من جديد ، وبدأ التحرش والاصطدام باثناسيوس ، الذى كان فى هذه الفترة يتجول فى أرجاء مصر كما لو كان أحد ملوكها الفراعنة ، حيث كان يستقبل فى كل مكان بالترحاب والتأييد والتمجيد ... واذ واصل رحلته فى النيل ، فقد كانت جموع الشعب تخرج لاستقباله بالصلبان والتراتيل والأهازيج ... وكان الرهبان والراهبات يتركن الاديرة ، لكى يصطفوا لتحيته واستقباله ونيل البركة منه ...

ولذلك فقد عجز الحاكم الرومانى أن يمتد بيد سوء الى أثناسيوس ، بل ان فالنس رأى من حسن السياسة ولتهدئة الخواطر أن يعلن انه لن يتعرض لاثناسيوس، وهكذا عاد ـ اثناسيوس الى الاسكندرية ليستقر من جديد على كرسيه بقوة الشعب المصرى . حيث كان مقدرا له أن يمضى ما بقى له من العمر فى ذروة السلطان الروحى والمادى ، بعد أن تكسرت على صلابة ارادته كل صنوف الارهاب والمقاومة والاضطهاد .

٣٦٥ م ـ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة تاتيانوس .

٣٦٩ م ـ كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو بوبليوس .

المسيحية فى الحبشة :

٣٧٠ م ـ أوفد اثناسيوس فى هذه السنة القديس افرونيوس للتبشير بالانجيل فى بلاد الحبشة .. ومنذ ذلك الوقت والكنيسة الحبشية تابعة للكرسى المرقسى

يرسم لها أساقفة مصرين بناء على طلب ملوكها (١) وقد تغير هذا التقليد فى العصر الحديث جدا — وقد بدأ التحول برسامة أساقفة أحباش ، ثم أصبح الأساقفة الأحباش يديرون كنيستهم .

٣٧١ م — وفاة القديس أثناسيوس الرسولى :

طويت فى هذه السنة صفحة علم من أكبر أعلام المسيحية فى الشرق والغرب معا ، بعد أن أمضى فى رئاسة الكهنوت ستا وأربعين سنة وهو لم يقدر لبطريرك من قبله أو بعده — وفى خلال هذه الفترة عاصر ستة عشر امبراطورا تحدى الأكثرين منهم فنفى من منصبه خمس مرات ، كان لايلبث فى كل مرة أن يعود أكثر قوة . والمسيحيون الشرقيون بصفة خاصة يعتبرونه صاحب الفضل الأكبر فى تدعيم الحقيقتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما المسيحية وهما :

١ — لاهوت المسيح المتحد بناسوته اتحادا لايتطرق اليه مزج ولا خلط ولا تغيير .
٢ — وحدة الثالوث المقدس (٢) .

واعترافا بفضله منحته الكنيسة لقبا لم ينله سواه فى العالم بأسره وهذا اللقب هو : ثالث عشر الرسل الأطهار ، ومن أجل ذلك كان يلقب بالرسولى .

الأنبا بطرس الثانى :

وقد أسرع الشعب والاكليروس بانتخاب تلميذ اثناسيوس وهو الانبا بطرس ليكون الخليفة الحادى والعشرين لمرقس الرسول .

ولم تكد أنباء هذا الاختيار تصل الى الامبراطور فالنس حتى استشاط غضبا ، وأحس انه لو جنح لمشيئة الشعب المصرى فى هذا الاختيار فسوف يفقد آخر ظل له من النفوذ .

فأرسل الى واليه فى مصر يأمره بخلع الانبا بطرس الثانى ونفيه وتنصيب لوسيوس الاريوسى أسقفا مكانه .

وتعزيزا لهذا الأمر الامبراطورى أصدر فالنس أمره بأن ترافق لوسيوس قوة عسكرية ، وهكذا دخل لوسيوس ليقلد كرسيه فى الاسكندرية تحت حماية الحراب الرومانية .

وكانت الأوامر المعطاة لهذه القوة العسكرية أن تقبض على بطرس الثانى ، ولكنه استطاع كأستاذه أن يختفى فى الوقت المناسب وينجو من يد السلطة .

وعندما وصل نبأ ذلك الى الامبراطور ، زاد فى غضبه وأصدر أمره بنفى كل الأساقفة المصريين الذين يرفضون التعاون مع لوسيوس الاريوسى .

---

(١) ص ١٤٧ دليل المتحف القبطى .
(٢) قصة الكنيسة القبطية .

كما أصدر أمره بالغاء الامتيازات التى كانت مقررة للرهبان منذ أيام قسطنطين وهو اعفاؤهم من الخدمة العسكرية ، ولما كانت الرهبانية قد انتشرت فى مصر ، انتشارا واسعا كما قدمنا ، فقد كان معنى تنفيذ القانون الجديد ، أن تجند مدن بأسرها ولذلك فقد قاوم الرهبان هذا القانون ، وفضل الكثيرون منهم أن يموتوا فى سبيل عدم الاذعان له من أن يصبحوا جندا فى جيش الامبراطور .

وهكذا عاشت الاسكندرية ومصر كلها ، فترة من أحلك فتراتها وبدأ اليأس يتسرب الى النفوس ، حيث خيل للكثيرين أن الاريوسيين ستنتصر فى النهاية .

وكان يضاعف فى تعقيد المشكلة ، انه بصيرورة المسيحية هى الدين الرسمى للدولة ، فقد بدأت تتكون ارستقراطية مسيحية تشايع الدولة من التجار والأغنياء ، فبدأت الوحدة التى كانت راسخة أيام اضطهاد المسيحية تتصدع وتتحلل فى ظل تمتع المسيحيين بالنفوذ والسلطان .

٣٧٤ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو ايليو بالاديوس .

٣٧٥ م — موت الامبراطور فالنتيانوس :

مات الامبراطور فالنتيانوس بعد أن كان قد أشرك معه فى الحكم ابنه جراتيانوس فأصبح امبراطورا للغرب بعد وفاة أبيه حيث ظل فالنس امبراطورا للشرق .

٣٧٥ م — كان الحاكم الرومانى ، هو تاتيانوس .

٣٧٦ م — كان الحاكم الرومانى هو هادريانوس .

٣٧٨ م — موت الامبراطور فالنس :

قتل الامبراطور فالنس فى معركة هادريانوبولس (ادرنه) عندما حاول أن يتصدى للقوط الغربيين الذين عبروا نهر الدانوب وراحوا يعيثون فى بلاد البلقان نهبا وفسادا .

الامبراطور جراتيانوس :

وبموت فالنس انفرد جراتيانوس بحكم الامبراطورية ، وقد كان مسيحيا متحمسا للعقيدة الارثذوكسية كما يصورها مجمع نيقيه ولذلك فقد أعلن « أن العقيدة النيقيه فريضة واجبة على جميع الشعوب الخاضعة لنا » .

وقد قدر جراتيانوس انه لن يكون باستطاعته حكم الامبراطورية بقسميها بنفسه ولذلك فقد اختار ثيودسيوس ليكون امبراطورا للشرق .

الامبراطور ثيودسيوس :

كان أول عمل قام به ثيودسـيوس فى الشرق هو تنفيذ هـذا الذى دعا اليـه جراتيانوس من الزام كل رعايا الامبراطورية باعتناق المسيحية النيقيه على مذهب اثناسيوس .

عودة الأنبا بطرس الثانى :

وكان من آثار هذا التطور الجديد أن عاد الأنبا بطرس الثانى الى كرسيه ، مثبتا بذلك أن بابا الاسكندرية أصبح أحد محاور السلطان الروحى فى أرجاء الامبراطورية .

٣٧٨ م ـ وفاة الأنبا بطرس الثانى :

على أن أيام الأنبا بطرس الثانى لم تطل بعد هذا النصر ، فقد توفى ولم يزد توليه لكرسى الكرازة المرقسية على خمس سنوات وتسعة شهور أمضى الجزء الأكبر منها فى المتاعب .

الأنبا تيموتيثوس :

وقع اختيـار الشعب والاكليروس بعد وفاة الانبـا بطرس الثانى على الانبـا تيموتيثوس وهو تلميذ آخر من تلامذة اثناسيوس الكبير وكان يقوم بدور السكرتير الخاص لاثناسيوس فى بعض رحلاته وجولاته ، كما كان أحد معلمى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية .

٣٨٠ م ـ كان الحاكم الرومانى هو يوليانوس .

٣٨١ م ـ مجمع القسطنطينية :

كان ثيودسيوس امبراطور الشرق يدين كما قدمنا بمبدأ اثناسيوس فعمل جاهدا منذ اعتلى السلطة على أن يعمم عقيدة نيقيه فى الكنائس ، فعهد الى تيموتيثوس بابا الاسكندرية بنسخ قوانين نيقيه العشرين وتوزيعها على كنائس العالم شرقا وغربا .

وفى هذه الفترة طلع مقدوثيوس أسقف القسطنطينية على العالم المسيحى برأى جديد فحواه ان روح القدس ليس باله ولكنه مخلوق .

ولم يلبث النزاع أن استجد من جديد حول ألوهية روح القدس ، كما دار من قبل حول ألوهية المسيح .

واستطارت الفتنة بين صفوف رجال الاكليروس ، فنصح البعض للامبراطور ان

يحسم هذه القضية بدعوة مؤتمر عالمى (مسكونى) للأساقفة كما فعل قسطنطين من قبل .

فوجه الدعوة الى عقد مؤتمر فى القسطنطينية ، ولبى الدعوة مائة وخمسون أسقفا من أساقفة الشرق .

واستقر رأى المجتمعين على أن يضيفوا الى دستور الايمان كما تقرر فى مجمع نيقيه العبارات التالية :

« نؤمن بروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الآب المسجود له والممجد مع الآب والابن ، الناطق فى الانبياء » .

نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية وتعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيام الموتى وحياة الدهر الآتى . وبعد أن فرغ المجمع من تقرير العقيدة ، انتقل لتقسيم الأسقفيات الى درجات ، فقرر أن يكون لكنيسة القسطنطينية مكان الشرف الثانى بعد روما باعتبارها روما الجديدة وعاصمة الامبراطورية فاحتج على ذلك تيموتيئوس بطريرك الاسكندرية قائلا : لقد علمنا مخلصنا بأن من أراد أن يكون عظيما فليكن للجميع عبدا فالأولوية الروحية يجب أن تكون لمن يمتاز من الأساقفة بالجهاد فى الروحيات وقد تفانى أساقفة الاسكندرية فى خدمة الايمان الارثوذكسى . وكانت آخر الخدمات التى أدوها فى هذا السبيل تدعيمهم البنيان المتصدع فى كنيسة القسطنطينية نفسها .

ولكن المجتمعين أغفلوا هذا الاحتجاج لاعتبارات سياسية فما كان من الأنبا تيموتيئوس الا أن انسحب هو وأساقفته من المجمع عائدين الى الاسكندرية .

٣٨١ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة باسيانوس .

٣٨٢ م ــ كان الحاكم الرومانى هو بالاديوس .

٣٨٣ م ــ قتل الامبراطور جراتيانوس :

نادت الفرق البريطانية بما خيوس ماكسيموس الذى استولى على بلاد الغال امبراطورا ، فقتل الامبراطور جراتيانوس .

واذ كان ثيودسيوس مشغولا بالأخطار المحدقة به من الشرق : فقد اعترف بماكسيموس امبراطورا على الغرب ، شريطة أن يتخلى عن حكم ايطاليا لابن جراتيانوس « فالنتيان الثانى » .

٣٨٣ م ــ كان الحاكم الرومانى علىمصر فى هذه السنة هيبانيوس ثم انطونيوس.
٣٨٤ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو فلورنتيوس .

وفاة الانبا تيموثيتوس :

وفى هذه السنة توفى الأنبا تيموثيتوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية ست سنوات وخمسة شهور .

الانبــا تيوفيلس :

واختار الشعب والاكليروس للسدة المرقسية الأنبــا تيثوفيليس ، وقد كان من تلامذة اثناسيوس وواحد من القائمين بأعمــال سكرتاريته وكان متعمقا فى العلوم الفلسفية والرياضية وقد رسمه الأنبا اثناسيوس قسا وضمه الى سكرتيريته فظل يعمل فى خدمة المذبح طوال جزء من بابوية اثناسيوس وبطرس الثانى وتيموثيتوس .

وقد استطاع خلال هذه السنوات أن يكتسب قلوب المؤمنين ، فلما ان خلا الكرسى الرسولى وقع الاختيار عليه .

ويعزى اليه انه أقنع الامبراطور ثيودسيوس بتحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية .

وقد راقت الفكرة للامبراطور وأصدر أمره على الفور بتنفيذها . وكان أول هيكل استولى عليه البابا السكندرى لتحويله الى كنيسة هو هيكل باكوس اله الخمر ، فنزع منه التماثيل وراح يعرضها وسط الازدراء والسخرية فى شوارع الاسكندرية فأهاج هذا التصرف الوثنيين رغم قلة عددهم ، فتجمهروا وأحاطوا بمعبد سيرابيس للدفاع عنه . واذ كان المعبد أشبه ما يكون بالقلعة حيث كان مبنيا فوق هضــبة ويرقى اليه بمائة درجة ، فقد استعان تيوفيلس فى الهجوم عليه بالجيش الرومانى « فجرى الاصطدام بينــه وبين الوثنيين الذين اضــطروا فى النهــاية الى الاحتماء بالمعبد الكبير .

فصدرت الأوامر بتحطيم المعبد فوق رءوس المقيمين به ، فجرت الدماء انهارا ، واشتعلت النار فى قسم من المعبد فأتت على مكتبته التى كانت تضم ٧٠٠ الف كتاب.

وهكذا تحول المضطهدون بالأمس الى مضطهدين لمخالفيهم فى الرأى . وتنقسم الآراء بطبيعة الحال حول هذا الحادث ، ما بين محبذ ومحايد ومستنكر ، فأما صاحب كتاب قصة الكنيسة المصرية فيلقى المسئولية على الوثنيين وانهم هم الذين بدأوا بالعدوان ، ونفى عن الأنبا ثيوفيلس تهمة التحريض على حرق معبد سيرابيس فضلا عن تدمير ما فيه من كتب ، ويسوق على ذلك كثيرا من أقوال المؤرخين الذين يدحضون هذه التهمة .

أما صاحب المنارة التاريخية فيقول لنا :

« وعند انتهاب معبد سيرابيس تشتت السبعمائة ألف كتاب التى كانت فيه لأن المؤرخ الأسبانى أورسيوس الذى زار الاسكندرية فى العهد التالى لم يجد أثرا لهذه الكتب ، ولم يجد سوى الخزانات الخاوية » .

ثم يمضى فى تعليقه على هذا الحادث قائلا :

« وهنا يجرنا الانصاف أن نقول بأن كل اضطهاد دينى هو ممقوت ، سواء أكان واقعا من وثنيين أو مسيحيين ، لا سيما وهو ينصب فى الأغلب على أحرار الناس أكثر من سواهم ، فالذين اضطهدهم أسقف الاسكندرية كانوا من علماء ذلك الزمان وأحدهم هو أوليميوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلا وديعا حليما عاقلا لا عيب فيه كأفضل شهداء المسيحيين ، بل أن الفرق بين الاضطهادين بعيد جدا ، لان الوثنى كان يضطهد عن سياسته واقتصادياته ، أما المسيحى فهو يضطهد غلوا فى دين أساسه الرحمة والوداعة ، لا يحب بسط اليد بالأذى ولا التطاول باللسان وقول الهجو » .

وقد زاد هذا الحادث الجديد فى تدهور مركز الاسكندرية الثقافى فوق تدهوره المستمر ، فقد هجرها كثير ممن كانوا بها من رجال العلم والفلسفة والذين كانوا يشرفون على مدارسها ، باعتبارها مركزا للفلسفة اليونانية .

واذ لا يوجد حد يقف عنده التعصب للرأى اذا أخذ سبيل العنف ، فسرعان ما وجدنا تيوفيليس يختلف مع رهبان وادى النطرون ممن كانوا يعجبون بأوريجانوس ، فأصدر قرارا يعتبر فيه الأوريجانية ، بدعة مسيحية ، فاحتكم الرهبان الى أسقف القسطنطينية وهو يوحنا فم الذهب الذى كتب للأنبا تيوفيليس يسترضيه على الرهبان وأوريجانوس فلم يزد ذلك تيوفيليس الا غضبا على يوحنا فم الذهب نفسه .

٣٨٥ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو يولينوس .

٣٨٦ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة فلورنتيوس .

٣٨٨ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ارتريوس .

٣٩٠ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة الكسندر .

٣٩١ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ايفاجريوس .

٣٩٢ م — كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة بوتاميوس .

ثم هياتيوس ، ثم بوتاميوس ثانية .

٣٩٤ م — الغاء الوثنية بصفة نهائية :

بعد سلسلة من الأحداث فى أوربا ، طرد فيها ماكسيموس فالنتيان الثانى من ايطاليا ، فالتجأ هذا الأخير الى ثيودسيوس الذى استطاع أن يعيده الى عرشه بعد

أن قبض على ماكسيموس وقتله ، ولكن فالنتيان الثانى مالبث أن قتل على يد اريوجاست أحد قواده الذى نادى بمن يدعى ايوجنيوس امبراطور ، ولكن ثيودسيوس استطاع أن يهزم الاثنين وأن يقتلهما ، فأصبح بذلك هو الامبراطور الأوحد للشرق والغرب ، فزاد ذلك فى حماسته للديانة المسيحية فحمل مجلس الشيوخ الرومانى على أن يصدر تشريعا بالغاء الوثنية فى جميع صورها وأشكالها فى أرجاء الامبراطورية شرقها وغربها ، ووضع العقوبات الصارمة لكل من يعبد الها غير المسيح ، أو لمن يرتد عن دين المسيح أو يلحد فيه .

ومن هنا سجل له التاريخ أنه هو وليس قسطنطين من جعل المسيحية دينا رسميا للدولة لا تسمح ببقاء دين آخر الى جوارها .

٣٩٥ م — وفاة الامبراطور ثيودسيوس :

وفى ١٧ يناير من هذه السنة توفى الامبراطور ثيودسيوس بعد أن حكم سبعة عشر عاما توحدت فيها الامبراطورية لآخر مرة فى ظل امبراطور قوى .

ولكنه كقسطنطين من قبله لم يمت الا بعد أن قسم المملكة بين ولديه اركاديوس وهونوريوس .

الامبراطور اركا ديوس :

كان عمر اركاديوس عندما أصبح امبراطورا للشرق ثمانى عشرة سنة ، وكانت هذه الامبراطورية تبدأ من حوض الدانوب الأدنى حتى تخوم فارس وتشتمل على تراقيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر أما أخوه هونوريوس فقد تولى حكم المغرب .

٣٩٥ م — كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو شارموزيانوس .

ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد الأنبا تيوفيلوس ، الذى كان عدوا للاريوسيين مذهبا وللاغريق سياسة ... ولذلك فقد كان المصريون ينظرون اليه نظرتهم لا الى زعيم روحى بل الى قائد ورئيس سياسى .

وشاءت الظروف أن تعمل على تدعيم سلطانه أكثر وأكثر ، فوقع خلاف بين يوحنا فم الذهب أسقف القسطنطينية والامبراطور اركاديوس لمهاجمة يوحنا لزوجة الامبراطور (أودكسيا) فأصبح تيوفيلوس هو القاضى الذى رأس مجمعا من الأساقفة المصريين ليحكم بحرمان يوحنا فم الذهب وطرده من منصبه وعاد تيفيلوس الى الاسكندرية ، فازداد ضراوة فى محاربة مخالفيه لا من الوثنيين بل من المسيحيين ، وكان الخلاف معه فى الرأى لا يؤدى الى الكفر والالحاد فحسب ، بل واعتبار المخالف ثائرا على سلطة الامبراطور نفسه .

ويقول لنا المؤرخ الانجليزى « ملن » امتد تاريخ مصر منذ هذه اللحظة حتى خمسين سنة قادمة ، لا يخرج عن تاريخ بطارقة الاسكندرية ، والخلافات بين الأساقفة وأتباعهم ، بحيث أصبحت الحياة وكأنها لم تعد شيئا الا مناقشة اللاهوت .

وقد وصف أحد الأساقفة الذين زاروا القسطنطينية فى هذه الفترة ما يمكن أن يصدق على مدينة الاسكندرية لذلك قال : ان جميع عمال هذه المدينة وعبيدها يشتغلون باللاهوت فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين الابن والاله الأب واذا ذهبت لشراء رغيف أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دولة الاله الأب واذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شىء (أوربا العصور الوسطى ص ٥٦) .

ويقول « ملن » ان تيفيلوس اصطحب كتيبة من الجند وحطم زوايا الرهبان فى وادى النطرون لمخالفتهم اياه فى الرأى ، وكان ذلك مظهر جمع السلطة الدينية الى السلطة الزمنية ، والذى لن يلبث أن يصل الى ذروته العليا على يد بابوات روما ..

٣٩٦ م ـ كان الحاكم الرومانى على مصر فى شهر فبراير من هذه السنة جيناديوس .

أما فى شهر مارس فنرى أسما جديدا وهو ريميجيوس .

٣٩٧ م ـ كان الحاكم الرومانى ارشيلاوس .

٣٩٨ م ـ وفاة ديدموس الضرير :

فى هذه السنة مات كآخر اعلام مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وهو ديديموس الضرير ، والذى كان قد أصيب فى طفولته بمرض أفقده البصر فجعله هذا الحادث يطلب من الله أن يمنحه قريحة وقادة وبصيرة وفهما ، فاستجاب الله لدعائه ، اذ استطاع رغم عجزه أن يصبح من أكبر المتضلعين فى النحو والبلاغة والشعر والفلسفة والرياضة والموسيقى .

وقد عهد اليه اثناسيوس برئاسة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فلم يكن يكتفى بالقاء المحاضرات فيها ، بل صرف همه نحو التأليف ولا يزال بعض ما كتبه باقيا حتى الآن .

وكان ديدموس والأنبا انطونى أبو الرهبان صديقين حميمين جمعت بينهما المحبة الخالصة .. وكلما وفد الناسك الى الاسكندرية كان يحل ضيفا عند ديديموس .

ومما يذكر له بالفخر أنه ابتكر وسيلة لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة سبق بها بريل بخمسة عشر قرنا . حيث كانت الكلمات والحروف تحفر على خشب ليتمكن الكفيف من مطالعتها باللمس ، ولكن شاءت الظروف الا يتطور هذا الاختراع ويجمد

عند هذا الحد ثم يعفى عليه النسيان حتى يبعث من جديد فى العصر الحديث ويعود فضله الى بريل .

وقد ظل ديديموس يدير مدرسة الاسكندرية اللاهوتية زهاء نصف قرن ، فعاصر البابا اثناسيوس وبطرس الثانى وتيموثيس .

٤٠٨ م — وفاة الامبراطور اركاديوس :

مات الامبراطور اركاديوس ، وفى عهده وعهد هذه الفترة من حياة أخيه هونوريوس ، ظهر القوط والوندال والجرمان كقوى عاملة فى جسم الامبراطورية وذات قول فى تعزيز مصيرها وخاصة فى قسمها الغربى . وكانت هذه القبائل المختلفة التى توصف بالبربرية ، تؤثر على حياة الامبراطورية فى الطرفين الأول والثانى بهجماتها على أطراف الامبراطورية ... أما فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس فقد كانت هذه القبائل بأعدادها الوفيرة قد أصبحت هى الجيوش الرومانية نفسها ، بعد أن أسكنهم الأباطرة مختلف الولايات فى اليونان وايطاليا واتخذوا منهم قوادا لجيوشهم ، ووزراء لحكوماتهم .

الامبراطور ثيودسيوس الثانى :

ولى عرش الشرق ثيودسيوس الثانى ابن اركاديوس ولم يكن سنه يتجاوز سبع سنوات ، وكانت أخته بوليكريا تكبره بعامين فأشرفت على تربيته ، ولن تلبث أن تصبح وصية عليه بمجرد بلوغها سن السادسة عشرة بحيث سيقدر لها أن تكون هى التى تصرف شئون الامبراطورية خلال ثلاث وثلاثين سنة .

٤١٢ م — وفاة الأنبا تيوفيلس :

توفى الأنبا تيوفيلس بابا الكرازة المرقسية الثالث والعشرين ، بعد أن ظل على كرسيه سبعا وعشرين سنة وشهرين ، بلغ فيها قمة السلطان الروحى والزمنى .

وهو احدى الشخصيات التى تثير الجدل فى تاريخ الكنيسة المصرية ، فحيث يصفه البعض بأنه فرعون متجبر جعل من كلماته الدستور الذى يجب أن ينحنى أمامها الشعب مباشرة ، بينما يمتدحه البعض ويثنون على حسن ادارته وسرعة ادراكه للحقائق (قصة الكنيسة القبطية) .

الأنبا كيرلس :

وقع اختيار الشعب والاكليروس على الأنبا كيرلس ابن شقيقة الأنبا تيوفيليس وكان قد تعهده بعناية خاصة ، وعاش فترة فى بعض الأديرة ، حيث استغرق فى الدراسة وتحصيل كل صنوف العلوم .

على أن اختياره لم يتم بيسر وسهولة كاختيار بين سبعة من البابوات ذلك أنه بتعاظم خطورة صاحب هذا المنصب فى النفوذ والسلطان ، فقد بدأت القوة الحاكمة تتدخل فى اختياره . فيقول لنا « ملن » ان ايوندانتيوس قائد القوات الرومانية فى مصر بذل جهدا كبيرا فى انجاح مرشح له يمثل المذهب الاريوسى ، وعمت الاسكندرية المجادلات والمشاحنات بل والمضاربات ، ولكن ارادة الشعب والكنيسة المصرية هى التى انتصرت فى نهاية الأمر باختيار كيرلس الذى لم يكن يقل بغضا للآريوسية عن سلفه ، ولذلك فلم يكد يتبوأ كرسى الكرازة حتى بدأ يقوم بدور عميق الأثر فى حياة الكنيسة المصرية والشرقية بعامة ، لا يقل عن دور اثناسيوس وان كان امتدادا وتكميلا له .

٤١٠ م ــ أول هوان لمدينة روما :

تعرضت مدينة روما لأول هوان فى تاريخها ، اذ احتلها الريك ملك القوط الغربيين واستباحها جنوده لمدة ثلاثة أيام يقتلون ويذبحون وينهبون ويدمرون ، وقد وجد الوثنيون فى هذه الكارثة التى حاقت بالمدينة آية على غضب الآلهة التى انصرف عنها الرومان الى المسيحية .

على أن الريك الذى كان قد سيطر على ايطاليا كلها لم يلبث أن انسحب من روما ، ثم مات بعد ذلك .. ولكن بعد أن كشف لكل الشعوب المتبربرة عن ضعف روما وهوانها ــ مما سوف يعجل بسقوطها نهائيا فى يد المتبربرين ، أو بالأحرى ما اعتاد الرومان أن يصفوهم بهذا الوصف .

٤١٤ م ــ تولت يوليكا ريا أخت الامبراطور ثيودسيوس الثانى الوصاية عليه .

٤١٥ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة أورستوس .

تجدد اضطهاد اليهود :

وفى هذه السنة تجدد اضطهاد اليهود : فمنذ ولى الأنبا كيرلس البطريركية زاد من تشدده فى نصرة المسيحية الأرثوذكسية ومقاومة كل ما يخالفها بالقوة والعنف .

وقد كان اليهود الذين ازيلوا من الاسكندرية أيام تراجان ، أى منذ ثلاثة قرون سابقة ، قد عادوا فى هذه الفترة للتجمع والتكاثر والازدهار ، بحيث اصبحوا هم القوة السائدة فى دنيا المال والاقتصاد والتجارة .

ولا يعرف كيف بدأت الفتنة ضد اليهود ولا ما هو السبب المباشر لاشتعالها ، والمهم أن الذى قام بالفتنة هم عامة الشعب فى المدن ، والرهبان الوافدون من الصحراء الغربية ، فانتهب العامة أموال اليهود وممتلكاتهم وأجلوهم عن بيوتهم واضطرب حبل الأمن فى المدينة حتى عمتها الفوضى وعبثا حاول أورستس الحاكم الرومانى أن يعيد

الأمن والنظام ، فقد كانت قواته أضعف من التغلب على الشعب الهائج . بل لقد وقع هو نفسه فريسة للاعتداء اذ قذفه البعض بقطعة من الحجر أوجعته .

وكان كيرلس هو سيد الموقف الوحيد .

مصرع الفيلسوفة هيباتيا :

وسكر الرهبان وعامة الشعب بهذا النصر ، فقرروا أن يقتلعوا من مدينة الاسكندرية ما تصوروه آخر معالم الفلسفة اليونانية التى كانت تتمثل فى هذا الوقت فى الفيلسوفة هيباتيا ابنة العالم تيون وزوجة الفيلسوف ايذادور والتى كانت تعتبر من أئمة المدرسة الافلاطونية وتمثل ذروة الجمال والوداعة والرقة النسائية فتربص لها البعض أثناء مرورها فى عجلتها بأحد شوارع المدينة ، وانقضوا عليها وجروها على الأرض حتى كنيسة قيصر ، وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها اربا وحملوها خارج المدينة حيث أحرقوها فى أحد الأفران .

٤٢٥ م ــ الامبراطور فالنتيانوس الثالث :

تولى فالنتيانوس الثالث أمبراطورية الغرب بعد موت هونوريوس ومصرع يوحنا مغتصب العرش على يد جيش ثيودسيوس الثانى .

٤٢٨ م ــ النسطورية وتصدى كيرلس لها :

فى هذه السنة استمر النزاع من جديد بين الكنائس الأرثوذكسية والاريوسية بعد أن اتخذا اتجاها وشكلا جديدين .

فما دامت ألوهية المسيح لم تعد ميدانا للجدال فليدر البحث حول ألوهية أمه .

والعقيدة الأرثوذكسية تقرر أنه ما دام المسيح الها فان مريم العذراء هى أم الاله ، فجاء نسطوريوس ليناقش هذه القضية بحيث انتهى الى نظرية جديدة .

وملخص هذه النظرية أنه لما كان الله تعالى لا يمكن أن يموت أو يتألم فلابد أنه كان للمسيح اقنومان متباينان : ذات الهية تعلو على الآلام الانسانية ، وذات انسانية عرضة للآلام والموت ، ومن ثم كانت الذات المتألمة هى الذات الانسانية وحدها منفصلة عن الذات الالهية ، تعريفا على ذلك مضى نسطوريوس يقول :

أن مريم لم تكن أم الطبيعة الالهية فى المسيح بل هى أم طبيعته البشرية وانه خير من تسميتها أم اله أن تسمى أم المسيح .

وقد تبلور هذا الفكر فيما اشتهر بأنه القول بالطبقتين للمسيح الطبقة الالهية والطبقة الانسانية ، وذلك فى مواجهة القول بالطبقة الواحدة الالهية .

وقد كان الأنبا كيرلس هو حامل لواء هذا القول الأخير والمدافع عنــه بكل قوة وعنف وصرامة فراح يدبج الرسائل ويبعث بها الى رؤساء المجامع فى الشرق والغرب ويعقد المجامع ويخاطب الامبراطور ، بل والامبراطورة والأميرة بوليكاريا ، مما جعل الامبراطور ثيودسيوس الثانى يغضب لذلك ويتهم كيرلس بأنه يعمل على اثارة أعضاء أسرته بعضهم ضد البعض الآخر .

٤٣١ م - مجمع افسس :

لم يستطع الامبراطور بكل تهديداته أو ضغطه أن يوقف كيرلس عن نشاطه فى مهاجمة القائلين بأن مريم ليست أم الاله وقد رأينا فيما سبق أن عبادة ايزيس كانت احدى الديانات التى أخذت صورة عالمية ، وكانت صورتها وهى تحمل الابن الاله (حوريس) هى التعـويذة والتميمـة التى يلوذ بها الملايين من العبـــاد فى أرجاء الامبراطورية .. لذلك فقد رئى عقد مجمع مسكونى جديد من الأساقفة فى مدينة افسس وكان المحرض للامبراطور لدعوة هذا المجمع هو نسطوريوس نفسه ، تصورا منه أن المجمع سيدين كيرلس ويأخذ وجهة نظر نسطوريوس .

ولم يكد كيرلس يتلقى الدعوة حتى شد رحاله الى افسس مصطحبا معه خمسين أسقفا وعشرات من رجال الكهنوت كان من بينهم الناسك الأنبـــا شنودة . وكان كيرلس يحمل تفويضا من كنائس افريقيا التى عاقتها عوائق التهديد بغزو أجنبى عن المشاركة فى المؤتمر ، أن يمثلها ويتكلم باسمها كما تلقى تفويضـا من كنيسة روما وهكذا أصبح يمثل ثلاث كنائس ، فعهد اليه برئاسة المجمع الذى احتشد فيه قرابة مائتين من الأساقفة .

ولم ينتظر كيرلس حضور أساقفة أنطاكية الذين تأخروا فى الوصول الى افسيس وأسرع بعقد المجمع الذى أصدر قرارا بسحب بدعة نسطوريوس وعزله من كرسى القسطنطينية وحرمانه من الدين المسيحى جملة .

وقد حاول الامبراطور ثيودسيوس الثانى عندما وصله النبأ أن يتشيع لاسقف عاصمة بلاده نسطوريوس فاســتمع لأقوال خصـوم كيرلس الذين كادوا له عنــد الامبراطور واتهموه بالتآمر فأصدر أمره بسجنه فى مدينة افسس . ولكنه لم يلبث أن انصاع لاجماع الكنيسة فوافق على عزل نسطوريوس ثم نفاه بعد ذلك الى صحراء ليبيا ، فى الوقت الذى أطلق فيه سراح كيرلس فعاد الى الاسكندرية وقد بلغ ذروة النجاح والنفوذ .

٤٢٥ م - كان الحاكم الرومانى فى يناير من هذه السنة كليوبانز .

٤٣٨ م - أصدر ثيودسيوس الثانى ، أو بالأحرى صدرت باسمه وفى عهده دون أن يكون له مشاركة فعلية ، ويقول بعض المؤرخين بل ربما دون أن يطالعها : أول

مجموعة للقوانين الرومانية منذ جلس قسطنطين على العرش ، لتطبق على الشرق والغرب معا ، فأصبحت هنـاك لأول مرة فى العـالم الرومانى شريعة موحدة تنظم المجتمع الرومانى كله ، وقد ظلت هـذه المجموعة نافذة المفعول ، حتى أصـدر جوستنيان مجموعته الأعظم والأوسع والأشمل .

٤٤٢ م ـ وفاة الأنبا كيرلس الكبير :

توفى الأنبا كيرلس الكبير بعد أن ظل متربعا على كرسى الكرازة المرقسية واحدا وثلاثين عاما وثمانية شهور تتمتع فيها بمكانة عالية لم يحظ بها بطريركا من قبله ، حتى اصبح يلقب بفرعون .

وفى عهده اصـبح لبطريرك الاسكندرية من السلطة المباشرة على اساقفة مصر والمدن الخمس ما جعل من البطريركية المرقسية اكبر وحدة كنسية فى الشرق واصبح لبابا الاسكندرية ما لبابا روما من السلطة فى رسامة معاونيه من القسس والأساقفة .

ولم يعد نفوذ الكنيسة المصرية وقفا على سلطتها الروحية ، بل ان قوتها المادية بدات تتجلى فى ضخامة ثروتها التى اصبحت تتألف مما تمده بها الحكومة من هبات ومنح ، وما ينهال عليها من تبرعات وهبات ووصايا ، والتى تقدر بمليون دينار فى العام الواحد .

ولا تزال آثار الأنبا كيرلس الكبير باقيـة حتى اليوم تتردد بين ارجاء الكنيسة المصرية ، فيما يسمى « بالقداس الكيرلسى » حيث تؤديه الكنائس فى أعيادها الكبرى .

الأنبا ديسقورس :

واختار الشعب والاكليروس الأنبـا ديسقورس ليخلف الأنبـا كيرلس ولم يكن يختلف كثيرا عن سلفه الكبير فى شخصيته وسلوكه وسياسته ولذلك فقد استؤنف الصراع من جديد بينه وبين اسقف القسطنطينية الجـديد (فلافيانوس) والذى ابتعث المبـادىء النسطورية من جديد ؛ بمناسبة منـاداة احد رؤساء الأديرة فى القسطنطينية ويدعى اوفيكس بمذهب الطبيعة الواحدة ، اذ انكر عليه فلافيانوس هذا القول وعقد مجمعا محليا من الأساقفة فأصدروا قرارا بانكار بدعة القول بالطبيعة الواحدة وحرم اوفيكس القائل بها من الكنيسة المسيحية وكان طبيعيا أن يلتجىء اوفيكس الى بابا الاسكندرية وبابا روما متظلما من هذا القرار بحرمانه .

واستطاع ديسقورس أن يقنع الامبراطور بعقد مجمع جديد فى مدينة افسس لحسم هذه القضية .

٤٤٩ م ـ مجمع افسس الثانى :

انعقد المجمع فى مدينة افسس وتولى رئاسته ديسقورس وأصدر قراره بتبرئة أوفيكس وهوجم فلافيانوس هجوما عنيفا ، حتى قيل ان الرجل لم يستطع احتمال ما وجه أليه فلم يلبث أن قضى نحبه مغموما .

وكان من قرارات المجمع الأخرى ، لعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح .
ويبدو أن ديسقورس قد حرص هو والأساقفة الشرقيون أن يقللوا من شأن بابا روما ليو الأول ، فأغفلوا عامدين تلاوة رسالة بعث بها الى المجمع يحدد بها الصيغة الرسمية التى يجب أن يكون عليها حل القضايا محل البحث والجدل .

فلا عجب اذا غضب البابا ليو على مجمع افسس الثانى ولم يقف عند حد عدم الاعتراف بقراراته ، بل لقد وصفه بأنه « مجمع اللصوص » .

ولقد جعل هذا الموقف من بابا روما يؤكد الحقيقة التى كان يحس بها الجميع وهو أن الصراع فى حقيقته بين الاسكندرية والقسطنطينية وروما لم يكن نزاعا عقائديا بقدر ما هو نزاع على السلطة السياسية .

فمن ناحيـة كان هم ديسقورس كأسـلافه تدعيم أولوية كنيسة الاسكندرية وسلطان بطريركها على العالم المسيحى ، فى الوقت الذى كان أسقف القسطنطينية باعتبارها عاصمة الدولة الجديدة ويتابعه على هـذا الامبراطور يرى أن ذلك هو من حقه .

ثم تدخل بابا روما فى هذا النزاع لا لمصلحة العقيدة هذه المرة ولكن لتعويض سلطان كنيسة الاسكندرية التى بدت كأنهـا هى وحدها التى تملك تحديد العقيدة المسيحية .

٤٥٠ م ـ موت الامبراطور ثيودسيوس الثانى :

مات ثيودسيوس بعد ان حكم من الناحية الرسمية اثنين واربعين سنة ، وان كان الحاكم الحقيقى خلال هذه المدة هو أخته بوليكاريا على أن التاريخ يحفظ لها حسن التصرف والادارة والكياسة ، فقد كانت هذه الفترة التى حكمت فيها مباشرة باسم ثيودسيوس ، ثم ما تلا ذلك من مباشرة ثيودسيوس الحكم بمعاونتها هى فترة هدوء واستقرار لم تنعم به الامبراطورية منذ أمد بعيد ، وذلك فى الوقت الذى كان القسم الغربى من الامبراطورية تمزقه الاضطرابات والفتن والحروب والغارات .

الامبراطور ماركيانوس :

رفعت بوليكاريا على العرش خلفا لأخيها زوجها ماركيانوس .

٤٥١ م ـ مجمع خليقدونية :

لم يكن باستطاعة كنيسة روما والقسطنطينية ان يسكتا على ما وصل اليه نفوذ بابا الاسكندرية بعد مجمع افسس وخاصة بعد أن نجح ديسقورس فى تنصيب مرشح له بطريركا على كنيسة القسطنطينية نفسها ، اذ أنه أصبح هو المسيطر الأوحد (بموافقة الامبراطور) على الكنيسة الشرقية .

ومن هنا بدأت المساعى لحمل الامبراطور على دعوة مجمع جديد فى مدينة خليقدونية التى تقع بالقرب من القسطنطينية ، ليحسم وبطريقة نهائية كل المسائل التنظيمية والعقائدية المتعلقة بالكنيسة المسيحية فوافق الامبراطور على عقد هذا المجمع ، الذى احتشد له عدد من الأساقفة لم يسبق له مثيل فى اى مجمع سابق اذ بلغ عددهم ٦٣٢ أسقفا .

وكانت قرارات هذا المجمع الجديد تكاد تكون معروفة قبل اجراء أى مناقشة ، وهو انكار قرارات مجمع افسس ، وقبول رسالة بابا روما المعروفة باسم Tome والتى رفض تلاوتها مجمع افسس واعتبارها متفقة مع العقيدة السليمة الأرثوذكسية التى تقضى بوجود المسيح فى طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام أو انفصال .

أما ديسقورس نفسه فقد جرت محاكمته وتقرر عزله لا لالحاده وهرطقته بل لأن سلوكه كان يخالف القوانين الكنسية فقد اتهموه بسوء السلوك الشخصى وانه اغتصب من أقارب سلفه أملاكا أضافها الى أملاك الكنيسة ، وانه يتصرف على اعتبار أنه الوالى الحقيقى للاسكندرية . وتتجلى قوة شكيمة ديسقورس واعتداده بنفسه وبالرسالة القومية التى يمثلها ، فى رفض باباء لما عرضه عليه الامبراطور من ابقائه فى منصبه شريطة أن يستجيب لقرارات المؤتمر ويخضع للامبراطور وآثر النفى على قبول ما عرضه عليه ، فنفى الى احدى مدن آسيا الصغرى وظل بها الى ان مات عام ٤٥٤ م .

مختتما بذلك عهد بطاركة الاسكندرية الفحول الذين كانت لهم الكلمة العليا فى حياة المسيحية وتعزيز عقائدها .

انفصال الكنيسة المصرية عن الشرقية :

وتعتبر قرارات مجمع خليقدونية ذات اهمية سياسية فى تاريخ روما البيزنطية ، ففى الوقت الذى اعتبرت فيه قرارات هذا المجمع أساس العقيدة المسيحية نهائيا ، فان مصر والشام قد رفضتا الأخذ بها وازدادت تشبثا بمذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتى) وفشلت كل الجهود التى بذلت خلال القرون المتعاقبة لرأب هذا الصدع .

اللغة القبطية :

وكان من أول مظاهر هذا الانفصال وما ساعد على تعميقه ابطال الكنيسة المصرية

استعمال اللغـة اليونانية بصفة نهائية فى طقوس الكنيسة ، واحلت محلها اللغـة المصرية القديمة التى أصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باللغة القبطية ، وهى ليست سوى اللغـة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية بعد أن اضيفت اليها سـبعة حروف تخلو منها اللغة اليونانية .

وغنى عن البيان أن استعمال اللغـة القبطية فى طقوس الكنيسة لم يكن ممكن التحقيق الا بفضـل رهبان الأديرة وخاصـة رهبان دير أبى مقـار الذين توفروا على ترجمة اشـعار العهد القديم والعهد الجديد الى اللغـة القبطية البحرية منـذ عهد مبكر .

البطريرك بروتيروس :

أسرع الامبراطور بعـد عزل ديسقورس بتعيين خلف له ، واجتهد أن يحسن الاختيار ، فرشح بروتيروس وهو أحد كهنة الاسكندرية وكان وثيق الصلة بديسقورس حتى لقد عهد اليه بتولى امر الكنيسة اثناء غيابه فى مجمع خليقدونية .

وبادرت طبقة الارستقراطية المسيحية الجديدة فى الاسكندرية فايدت الاختيار واعلن الحاكم الرومانى تأييده ، فأصدر الامبراطور أمره بتعيين بروتيروس بطريركا على الاسكندرية .

ولكن هـذه الاجراءات كلهـا لم يكن لها سوى أثر عكسى على شعب مدينـة الاسكندرية الذى كان يعكس ارادة مصر كلهـا فى التمسك ببطريركها ولذلك فقد هاجمت جموع الشعب موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين ، وتراجع الجند أمام غضبة الشعب واعتصموا بالسرابيوم فأشعل الشعب النار بالمبنى العتيد ، واحتاج الأمر الى ارسـال مزيد من فرق الجيش لاعادة الأمن والنظام وتثبيت البطريرك الجديد فى كرسيه .

فى الوقت الذى اصدرت فيه الحكومة بعض الأوامر على سبيل العقاب للشعب فأوقفت الألعاب العامة وأغلقت الحمامات ، وحرمت المدينة من الانتفاع بهبات القمح المخزون .

ولكن هـذه الاجراءات الجديدة لم تزد النـار الا اشتعالا ولم يكن باستطاعة البطريرك الملكى أن يتحرك الا فى ظل الحراس .

وقد اتخذ المصريون من معارضتهم لمجمع خليقدونية ومن تمسكهم بعقيدة كيرلس وديسقورس رمزا للمقاومة الوطنية .

وسيكون لهذه المقاومة اكبر الأثر لتيسير مهمة الفتح الفارسى لمصر ثم الفتـح الاسلامى ثانيا فى القرن التالى .

٤٥٣ م ــ كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة فلورس .

٤٥٧ م - الامبراطور ليو :

مات الامبراطور مرقيــان مخلفا على العرش الامبراطور ليـــو الأول وهو أول امبراطور بيزنطى قام بتتويجه أسقف القسطنطينية وسط الشعائر الدينية .

٤٥٨ م - الانبا تيموتاوس ومقتل بروتيروس :

انتهز الشعب السكندرى فرصة غياب قائد الجيوش البيزنطية ديونسيوس فى الوجه القبلى لمواجهة الحملات التى عادت قبائل البليمى والنوبة تشنها على جنوب مصر ، لكى يســقطوا بروتيروس عن كرسى الأسقفية وينصــبوا بدلا منه الراهب تيموتاوس العروسى اليعقوبى مؤكدين بذلك حق الشعب فى اختيار بطريركه ووصلت هذه الأخبار الى القائد البيزنطى فهرول مسرعا الى الاسكندرية ، ولكن الشعب الذى تسامع بقرب عودته أراد أن يضعه أمام الأمر الواقع فقتل بروتيروس وعلق جثته .

وكان طبيعيا أن يشتد غضب الامبراطور لهــذا الذى حدث تحديا لسلطانه ، فاستشار أساقفته فيما يجب عمله ، فأشاروا عليه جميعا بضرورة عدم الاعتراف بمختار الشعب ، وأن لا مناص من التمسك بالعقيدة الخليقدونية . فأصــدر أمره بعزل البابا الذى اختاره الشعب ، وعين بطريركا من قبله شاءت الصدف أن يكون اسمه تيموتاوس كذلك فأصبح يلقب بالملكى تعريفا له عن تيموتاوس اليعقوبى ولم يعترف الشعب بطبيعة الحــال بالبطريرك الملكى وظل متمسكا ببطريركه وهكذا بدا ازدواج البطارقة فى الاسكندرية احدها ملكى يرضى عنه الامبراطور ولا يعترف به الشعب ، والثانى يختاره الشعب ولا يعترف به الامبراطور .

وأصبح من الأقوال التى تؤثر عن السكندريين (المونوفيزيين) فى هــذه الفترة أن يقولوا للبطريرك الملكى : اننا نحبك غير اننا لا نريدك أسقفا علينا .

٤٧٤ م - الامبراطور ليو الثانى وزينون :

ارتقى عرش الامبراطورية عقب وفاة ليو حفيده ليو الثانى ولما كان صغيرا فقد أشرك معه فى الحكم والده زينون ، فلما مات ليو فى نفس الســنة أصــبح زينون هو الامبراطور .

٤٧٥ م - تمردت بعض فرق الجيش ضد حكم زينون وبايعت بازيل زوج اخت ليو الأول ليكون امبراطورا فاستطاع أن يستولى على القسطنطينية بدون قتال وان ينفى الامبراطور زينون ويعلن نفسه امبراطورا .

وقد كان من حسن حظ مصر وكنيستها أن بازيل كان يدين بالمذهب المصرى

اى وحدة الطبيعة الذى بدأ يعرف من ذلك الوقت بالمذهب اليعقوبى ولذلك فقد أصدر أمره بالغاء قرارات مجمع خليقدونية وأعاد تيماتاوس العروسى اليعقوبى لكرسى الاسكندرية فدخلها دخول الفاتحين . وأعاد لمدينة افسس مقامها البطريركى الذى كان مجمع خليقدونية قد حرمها منه مؤكدا بذلك سلطانه الروحى على كنائس الشرق ولكن من سوء حظ الكنيسة المصرية أن ذلك لم يدم لفترة طويلة ، فقد استطاع زينون المخلوع ، أن يحشد من القوى ما قدره على التغلب على بازيل وقتله خلال عامين .

٤٧٦ م ــ نهاية الامبراطورية الرومانية :

فى ٤ سبتمبر من هذا العـــام خلع أوردكر زعيم القبائل المتبربرة ، رومولوس اغسطس آخر اباطرة الغرب ، وقد اعترف زينون باحتلال أوردكر لروما واسقاطه لامبراطورها ، بل وخلع عليه لقب البطريق وهو لقب الشرف للقادة المتبربرين وقد اصطلح المؤرخون على اعتبار هذا التاريخ نهاية الامبراطورية الرومانية .

٤٨٠ م ــ وفاة الأنبا تيموتاوس :

توفى الأنبا تيموتاوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية اثنتين وعشرين سنة واحد عشر شهرا ، ومات قبل أن يمكن لزينون الذى كان قد عاد الى العرش أن يخلعه . وبموته انفتحت من جديد مشكلة كرسى الاسكندرية ومن يتولاه فقـد اختار الشعب والاكليروس بطرس فيجوس ليكون بطريركا ولكن الامبراطور زينون لم يعترف به وأعاد الى الكرسى تيوتاوس الملكى ليكون طوع يديه ومنفذا لسياسته فى مصر .

واستعمل الشعب حقه فى الاعتراض فبعث الى الامبراطور بكاهن مصرى يدعى حنا ليستعطف الامبراطور ويحمله على الموافقة على مختار الشعب بطرس فيجوس .

ولما كان الامبراطور يرغب فى تهدئة الجو والمصالحة فقد وعد الرسول خيرا ، وطلب من الشعب المصرى مهلة لتحقيق رغباته .

وحدث فى هــذه الفترة أن مات البطريرك الملكى تيموتاوس فاختــار الشعب والاكليروس الكاهن يوحنــا ليكون هو البطريرك ، واراد الامبراطور أن لا يتصدى لراى الشعب فى الوقت الذى يعمل فيه على استرضائه فى نفس الوقت فأقام على الكرسى بطرس فيجوس الذى سبق للشعب أن اختاره بطريركا .

واتفق الامبراطور مع بطرس أن يجرى العمل طبقا لقرارات مجمع نيقيا وترك الخصام والعداوة بشأن قرارات مجمع خليقدونية .

٤٨٢ م — سياسة الوفاق الدينى :

راى الامبراطور زينون أن من الحكمة أن يضع حدا للخلافات الدينية بين كنائس الشرق المختلفة ، وساعده على ذلك سقوط روما فى يد أوردكر ومن بعـده فى يد تيودوريك فخرجت بذلك من دائرة السياسة البيزنطية ، فأصـدر فى هذا العـام ما يعرف بمشروع الاتحاد Honotikon وقد جاء فى ديباجة هذه الوثيقة أن سعادة الامبراطورية انما تتوقف على توحيد الصلوات والطقوس عند رجال الدين والرهبان والعلمانيين . ولضمان الحصول على الوحدة المطلوبة فى الكنيسة والدولة ، فقد اتخذت الوثيقة العقيدة النيقية من اعتبار المسيح الها وانسانا فى شخص واحد أساسا لها وصرفت النظر عن التحدث عن طبيعتى المسيح وأنكرت كل قول بخلاف ذلك سواء فى مجمع خليقدونية أو غيره من المجامع وادانت نسطوريوس وأربنى .

وقد وضعت هذه الوثيقة بحيث يقرها المعتدلون من المونوفيزيين والخليقدونيين وبالنسبة لمصر بالذات فقد تم الاتفاق على حق المصريين فى اختيار أسقفهم دون تدخل الامبراطور ، وقد اعتبر المصريون هذا الاتفاق نصرا لهم اذ انتزعوا استقلال كنيستهم وتأيدت عقيدتهم .

ولذلك فقد أنكر الأنبا بطرس على الرهبان المتمسكين بقرار مجمع خليقدونية واضطهد بعضهم ، فاعتبر الامبراطور ذلك منه نقضا للعهد والاتفاق فأرسل اليه من ينصحه فلم ينتصح فبعث اليه بالقائد أرسنيوس فقبض عليه وقاده للقسطنطينية ليحاكم .

٤٨٩ م — وفاة الأنبا بطرس :

توفى الأنبا بطرس بعـد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية ثمانى سـنوات وثلاثة أشهر .

الأنبـا أثناسيوس :

وقد وفق الشعب والاكليروس فى اختيار خليفة له فى شخص الأنبا أثناسيوس (الثانى) الذى يوصف بالوداعة والذى استطاع أن يضـمد جراح الكنيسة بحلمه وأراح الامبراطور زينـون لأول مرة من أخبـار المنازعات والخـلافات العقـائدية والمذهبية .

٤٩١ م — الامبراطور انسطاسيوس الأول :

توفى الامبراطور زينون فارتقى العرش انسطاسيوس الأول الذى تزوج بأرملة زينون وقد وصف بأنه كان رجلا قديرا شجاعا ، محبا للخير دعم مالية الدولة بادارته

الاقتصادية الحكيمة وخفض الضرائب ، والغى صراع الآدميين مع الوحوش فى الحفلات والألعاب وانشأ حول القسطنطينية أسوارها الشهيرة التى جعلتها أمنع من عقاب الجو ، والتى كانت تمتد أربعين ميلا من بحر مرمرة الى البحر الأسود وكان لها الفضل فى الابقاء عليها قرابة عشرة قرون ، وكان من الحكمة بحيث أوقف العداء للحزب المنوفيزى .

٤٩٦ م ــ وفاة الأنبا اثناسيوس :

توفى الأنبا اثناسيوس بعد أن أقام على الكرسى الرسولى ستة أعوام وعشرة أشهر خلت من المنازعات ، واعتبر المصريون فيهـا أن عقيدتهم (المونوفوزنية) هى التى سادت أخيرا وانتصرت .

الأنبـا يوحنـا :

وارتقى السدة المرقسية الأنبا يوحنا بناء على اختيار الشعب والاكليروس .

٥٠١ م ــ غارة الفرس على مصر :

أغار الفرس على سوريا ثم تقدموا الى مصر فاستطاعوا أن يجوسوا خلال الدلتا ، ولكنهم وقفوا عند أسوار الاسكندرية التى استعصت عليهم ويبدو أن القائد الفارسى خشى على نفسه مما نسميه استطالة خطوطه وابتعاده عن قاعدته بغير أمل فى وصول نجدات ، فاضطر للانسحاب .

وقد كان لحصاره الطويل أثر فى مدينة الاسكندرية اذ أصابها بمجاعة شديدة .

وقد عنى انسطاسيوس بمساعدة الاسكندرية ، وانعاشها وترميم مبانيها العامة وكانت منارة الاسكندرية الشهيرة قد أهملت خلال القرون السابقة حتى كادت أن تخرب ، فأمر بترميمها واعادة العناية بها .

وكان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة ايوستانيوس .

٥٠٥ م ــ وفاة الأنبا يوحنا :

توفى الأنبا يوحنـا بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية ثمان سـنوات وسبعة اشهر .

الأنبا يوحنا (الثانى) :

وخلفه بابا بنفس الاسم وقد أقر الامبراطور اختيار الشعب والاكليروس ، مما جعل المصريين يتصورون أن الامبراطور يدين بمذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزنية) .

٥١٢ م ـ نصب سويروس بطريركا على انطاكية وكان يدين بمذهب المصريين فى وحدة الطبيعة فعارضت القسطنطينية فى اختياره فالتجأ الى الاسكندرية ويقول لنا الأستاذ اسكندر صيفى فى كتابه « المنارة التاريخية » أنه عندما وصل الى مصر ليقيم فيها لم يستطع ان يصادق على مذهب المصريين فى جملته فقد كان المذهب المصرى فى هذه الفترة يقول بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء فيما بعد فى القرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك (ص ١٨٩) .

٥١٦ ـ وفاة الأنبا يوحنا :

توفى الأنبا يوحنا الثانى بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية أحد عشر عاما .

الأنبا ديسقورس :

وارتقى السدة المرقسية الأنبا ديسقورس وقد جاء فى كتاب المنارة التاريخية أن الشعب قاوم ارتقاءه بدعوى أن رسامته لم تجر على السنن الرسولية مما اضطر حاكم الاسكندرية الى أن يحرسه بقواته العسكرية حتى أجلسه على كرسيه فى كنيسة مار مرقص .

٥١٨ ـ وفاة الامبراطور انسطاسيوس :

مات الامبراطور انسطاسيوس وقد تجاوز الثمانين من عمره بعد أن حكم حكما رشيدا طوال سبع وعشرين سنة ، ساد فيها الهدوء أرجاء الامبراطورية البيزنطية ، وازدهرت اقتصاديات بيزنطة حتى لقد ترك خزانة مكدسة بالذهب بلغ فى تقدير البعض ٣٢٠٫٠٠٠ (١) رطل ، وهو الذى سيمكن جوستنيان من القيام بحروبه .

الامبراطور جستين الأول :

اغتصب الملك جستين الأول الذى كان قائدا للحرس الامبراطورى ، فاستعان فى الحكم بابن أخيه المحنك جوستنيان . وكان أول ما واجهه هو تهديد فارس المستمر للامبراطورية وكان انسطاسيوس قد اجتهد أن يحرك عرب حمير من اليهود اصحاب تجارة الهند والحبشة مع مصر ضد فارس .

---

(١) القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الابيض ص ٢٧ .

فلما أن ارتقى جوستين العرش ، سار فى هذا الطريق فبعث بسفارة جديدة الى الحارث ملك الحميريين من اليهود ، فاستقبل السفارة استقبالا حسنا ووعد بمهاجمة الفرس وابقاء طريق تجارة الهند والحبشة مع مصر مفتوحا .

٥١٩ م ـ وفاة الأنبا ديسقورس :

فى مطلع هذه السنة أو آخر السنة السابقة توفى الأنبا ديسقورس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية عامين وأربعة أشهر .

الأنبـا تيموتاوس :

وخلفه على كرسى الكرازة المرقسية الأنبا تيموتاوس .

٥٢٧ م ـ الامبراطور جوستنيان :

مات الامبراطور جوستين الأول فى نفس العـام الذى أشرف فيـه ابن اخيـه جوستنيان رسميا على الحكم ، فلما أن مات جوســتين ، أصـبح جوستنيان هو الامبراطور وكان عمره خمسة وأربعين سنة .

وجوستنيان سليل أبوين مزارعين من أصل اليرى واذا كان جوستنيان يذكر فى التـاريخ باعتباره رجلا قويا حازما طموحا ، فان التـاريخ يكاد يعزو كثيرا من الفضل فيما أحرزه من نجاح الى زوجته تيودورة التى لم تكن تقل عنه قوة وطموحا ان لم تزد .

ويقول لنا بروكبيوس ـ أهم مصدر لنا عن تاريخ جوستنيان ـ أن تيودورة كانت فى الأصـل تعمل مدربة دببة فى السيرك قبـل أن يتزوجها جوستنيان ثم اشتغلت ممثلة ثم انحدرت بعد ذلك الى أن تكون مومسا ، وقصدت الى مدينة الاسكندرية لفتـرة من الزمن ، ثم عادت الى القسطنطينية حيث تعـرف بها جوستنيان ، ثم أصبحت زوجته .

أما جوستنيان من ناحيتـه فقد كان متقشفا فى طعامه وشرابه تقشف الزهاد فكان لا يأكل الا قليلا ويعيش معظم أيامه على الخضر ، بل انه كان كثيرا ما يصوم حتى لتخور قواه .

وبالرغم من صيامه كان لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ المبكر وتصريف شئون الدولة حتى ساعة متأخرة ، وقد بذل جهده ليكون موسيقيا ومهندسا معماريا وشاعرا ومشرعا ، وفقيها فى الدين وفيلسوفا وامبراطورا يجيد شئون الامبراطورية .

وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه .. وبالرغم من أن بروكبيوس مؤرخه الذى يمقته أشد المقت يصفه بأنه « رجل ظالم » فقد كان أسهل منالا من أى انسان آخر وكان أحقر الناس فى الدولة ، ومن لا شأن لهم على الاطلاق يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا اليه ليتحدثوا معه (١) .

على أنه قد عمل على أن تصبح حفلات البلاط ومراسيمه غاية فى الأبهة والفخامة حتى لقد فاقت ما كان يجرى أيام دقديانوس وقسطنطين . وكان يطلب الى من يمثلون فى حضرته أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الارجوانى أو أصابع قدميه من فوق حذائه ... وحرص على أن يتوجه بطريرك القسطنطينية وأن يتقلد قلادة من اللؤلؤ .

٥٣٢ م ــ فتنة الزرق والخضر (٢) :

ومن أكبر الحوادث التى واجهت جوستنيان فى مطلع حكمه هذه الفتنة التى قامت فى هذه السنة بين الخضر والزرق وهما الحزبان الكبيران اللذان كان ينقسم اليهما سكان بيزنطة حسب لون الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق . وقد امتد هذا الانقسام الى أرجاء الامبراطورية وخاصة فى مدينة الاسكندرية ، حيث لم تكن المعارك العنيفة تنقطع بين أتباع هذين الحزبين .

وقد عمد جوستنيان الى ايقاف تيار المنازعات بين الحزبين فاتحد الحزبان ضد جوستنيان . وأشعلوا نيران الثورة فى القسطنطينية ، وقتلوا عددا من رجال الشرطة ، وأطلقوا سراح المسجونين ، وتمادى الثوار عندما وجدوا جوستنيان لا يتحرك لقمعهم ، فانتخبوا امبراطورا آخر ليكون بديلا من جوستنيان .

وأوشك جوستنيان على الانهيار ، وفكر فى الهرب وهنا يبدأ دور زوجته الخطير فى حياته ، فقد كانت هى التى قوت عزيمته ، وحالت بينه وبين الهرب ، وأصرت على وجوب المقاومة ، واستطاعت أن تقنع بلزاريوس قائد جيوش جوستنيان ، بأن يتولى قمع الثورة ... فصدع بأمرها ، وقمع الثورة فى قسوة بالغة ، حتى ليقال ان عدد من ذبحوا اربى على ثلاثين ألفا .

٥٣٣ م ــ مدونة جوستنيان :

كان جوستنيان قد أصدر أمره عام ٥٢٨ م لفقهاء دولته أن ينظموا قوانين الدولة

---

(١) دورانت .

(٢) لم أستطع أن أتمالك نفسى وأنا أسجل هذا العنوان ، من أن اشير الى هذه المقابلة العجيبة بين هذا العنوان ، وبين ما كان يحدث فى مصر بعد هذا التاريخ بأربعة عشر قرنا ... حيث كانت تقع مصادمات بين شباب مصر الفتاة (ذوى الاقمصة الخضراء) وشباب الوفد (ذوى الاقمصة الزرقاء) .

ويجمعوها ويصلحوها ، فأصدرت اللجنة الجزء الأول من عملها بعد عام واحد من تشكيلها ، فصدر عام (٥٢٩) تحت اسم « القانون الدستورى » .
واعلن الامبراطور فى هذه السنة الغاء كل ما سبق هذا القانون الدستورى من تشريعات .

ثم انتقل أعضاء اللجنة الى القسم الثانى من مهمتهم ، وهو أن يضموا فى مجموعة واحده آراء فقهاء القانون الرومانى ، فى تفسير مواد القانون المختلفه بحيث يصبح لها قوة القانون ، ويتحتم على القضاة اتباعها . وفى عام ٥٣٣ نشرت هذه المجموعة تحت اسم (مجموعة القوانين والمبادىء المدنية) ، والتى ظلت منذ صدورها حتى عصرنا الحديث تعتبر أكبر مصادر التشريع الاوروبى بصفه عامة ، وهى التى اشتهرت فى التاريخ باسم « مدونه جوستنيان » ولعله ليس هناك ما يدل على عظمة هذه المدونة من أن نعرف أنها تشتمل فيما تشتمل على انه « لا يجوز القبض على أى انسان الا بأمر أحد كبار القضاة شريطة أن يحدد فى قرار القبض موعد المحاكمة تحديدا دقيقا دقيقا لا تجوز مخالفته بأى حال من الأحوال » .

واحسب أنه لا يزال كثير من المجتمعات التى توصف بالمدنية والرقى فى عصرنا الحاضر تفتقر الى مثل هذه الضمانة الكبرى لحرية الانسان وكرامته .

ولقد استعرض دورانت فى كتابه الكثير من احكام هذا القانون واثنى عليها ، ومع ذلك فلم يتمالك نفسه أن يمد بصره الى ما بعد أيام جوستنيان وكتب أن الشرقيين قد لاقوا أشد العذاب فى ظل هذا القانون مما جعلهم « يفتحون صدورهم للمسلمين ، وكانوا أكثر رخاء فى ظل القرآن منهم فى ظل هذا القانون » (١) .

٥٣٦ م ـ وفاة الأنبا تيموتاوس :

توفى الأنبا تيموتاوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية سبعة عشر عاما وأربعة شهور ، ترعرعت فيها وازدهرت المونوفيزية لأن الخليقدونين كانوا لا يزالون أقلية ضئيلة .

على أن المذهب المونوفيزى نفسه لم يلبث أن أصابه الانشقاق لظهور عديد من النحل وفروض حول جسد المسيح بعد صلبه وهل يتطرق اليه الفساد كبقية الأجساد أو لا يتطرق .

كما وجدت نحلة أخرى تتساءل عما اذا كان المسيح بحكم طبيعته البشرية يحيط بكل الأمور أم يجهل شيئا منها ، وهكذا ساد الاضطراب صفوف المذهب المونوفيزى. وقد انتهزت الامبراطورة تيودورة فرصة وفاة الأنبا تيموتاوس لكى تتدخل فى اختيار خليفته ، وقد كانت هى نفسها تدين بالمذهب المونوفيزى . فوقع اختيارها على

(١) ص ٣٢١ جزء ٢ ١

الشماس ثيودسيوس ليكون بطريركا على الاسكندرية وقد كان من المونوفيزئيين المعتدلين ، واشتهر بميله الى المسالمة .

الأنبا ثيودسيوس :

ارتقى الأنبا ثيودسيوس السدة المرقسية ، ولكن سكان الاسكندرية وقفوا فى وجهه واعتبروه صنيعة الحكومة البيزنطية ، كما اتهموه بالالحاد لأنه لم يكن يدين برايهم القائل بعدم فساد جسد المسيح وطلبوا أن يكون البابا عليهم هو جايتينوس رئيس الشمامسة وزعيم الحزب القائل بعدم فساد جسد المسيح ، ولم يلبثوا ان هاجموا ثيودسيوس الذى لم يكن قد مضى على توليته منصبه أكثر من يومين ، وكادوا يتوصلون الى قتله لولا أن نجا منهم بنفسه . وأقام الشعب جاتينوس بطريركا .

ولكن الامبراطورة تيودوره ، أعادت ثيودسيوس الى الاسكندرية مصحوبا بقوة من الجيش تحت قيادة نارسيس لتثبيته على كرسيه ، والقبض على جاتينوس .

فاندلعت نيران الثورة فى الاسكندرية ، وسالت الدماء وسقط المئات والألوف من الضحايا ، واشترك النساء فى الفتنة على ما يقول المؤرخون المعاصرون فكن يلقين من فوق أسطح المنازل كل ما يصل الى أيديهن من القذائف على جند نارسيس ، الذى كان كلما اشتد فى اجراءات القمع كلما ازدادت الفتن اشتعالا والشعب صلابة وتماسكا ، فلم يجد نارسيس امامه الا أن يحرق جانبا من المدينة للقضاء على الفتنة .

فالجأ السكندريون الى المقاومة السلبية بعد المقاومة الايجابية فقاطعوا الكنائس بحيث لم يعد يرتادها الا الموظفون . . .

واذا كان الأنبا ثيودوسيوس رجلا صادقا أمينا ، فقد رأى أن يستجيب لارادة الشعب ، وأن يتخلى عن منصبه ، وأن يعود الى القسطنطينية .

وكان جوستنيان قد استقر عزمه فى هذه الفترة على توحيد العقيدة الدينية فى أرجاء الامبراطورية على أساس مقررات مجمع خليقدونيا ، ووضع حدا لسياسة التسامح التى سار عليها حتى ذلك الوقت ، وتصور أنه يستطيع أن يعتمد فى تنفيذ خطته الجديدة على ثيودسيوس باعتباره موتورا من المصريين ولكن ثيودسيوس رفض فى اصرار أن يكون أداة لتنفيذ السياسة الجديدة ، سياسة التنكيل والارغام .

فغضب عليه جوستنيان واعتبره كافرا وملحدا وقرر عزله عن بطريركية الاسكندرية ، ثم أصدر أمره باعتقاله فى قلعة دير كوس . وقد كان هذا الموقف من جانب ثيودسيوس كفيلا بالهاب عواطف المصريين وأن يحملهم على الالتفاف حوله واعتباره زعيمهم الشرعى الذى لا يدينون لغيره بالولاء .

بولس البطريرك الملكى :

اختار جوستنيان أحد رؤساء الأديرة القريبة من الاسكندرية وقد تصادف وجوده فى القسطنطينية فى ذلك الوقت ليكون بطريكا على الاسكندرية . وزوده بسلطات مطلقة استثنائية بما فى ذلك عزل رجال الدين وتعيين غيرهم ممن يدينون بالمذهب الخليقدونى ، بل خوله الحق فى أن يكون له يد فى تعيين الدونات أى حكام أقسام مصر المختلفة .

وقد استقبل السكندريون الأسقف الجديد أسوأ استقبال واعتبروه دخيلا عليهم وخائنا لقضيتهم ولقبوه باسم يهوذا اشارة الى ارتداده عن المذهب المونوفيزى .

ولكن بولس رد على الاسكندريين فى عنف مستخدما ما زود به من سلطات فأمر باغلاق الكنائس المونوفيزية ، ثم سلمها بعد ذلك الى الخليقدونيين ، ومضى فى اضطهاده لمعارضيه فى الرأى الى حد لم يبلغه الحكام الوثنيون فى اضطهاد المسيحيين ، حتى قيل أنه كان يلقى بالمصريين فى الحمامات ليكونوا وقودا لتسخين مياهها .

على أن ذلك كله لم يوهن من عزائم المسيحيين المصريين من أتباع المذهب المونوفيزى ، والذين مضوا فى سياستهم السلبية وتمسكوا أكثر وأكثر بزعيمهم الروحى الأنبا ثيودسيوس .

٥٣٨ م ــ اعادة تنظيم مصر :

كان للموقف الجديد الذى وقفه جوستنيان من العقيدة الدينية المصرية ، أسوأ الأثر على العلاقات بين مصر وبيزنطة ، فاشتدت كراهية الناس للادارة الامبراطورية فوق كراهيتهم القديمة التى كان سببها انتشار الفساد والرشوة بين رجال الادارة .

وبدأت أحوال البلاد الاقتصادية تضطرب ، فارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا وعزت ضروريات الحياة . . . وبدأ مرجل السخط يغلى مهددا بالانفجار .

وهنا قرر جوستنيان أن يتدخل لاصلاح الادارة المصرية اصلاحا أساسيا ، ليعيد النظام والاستقرار والازدهار الذى فقدته البلاد ، فأصدر قانونه المشهور الخاص باعادة تنظيم الأحوال فى مصر ، والذى اشتهر باسم القانون رقم ١٣ .

وقد أفاض الدكتور السيد الباز العرينى فى مؤلفه مصر البيزنطية فى تفاصيل هذا القانون ونواحيه الادارية والمالية والقضائية والعسكرية .

وقد أعاد هذا القانون تقسيم مصر الى خمس دونيات تستقل بعضها عن بعض فى الناحية الادارية يرأس كل منها حاكم (دون) يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، على أن يبقى من اختصاص دون الاسكندرية (الارجسنال) تلقى القمح الخاص ببيزنطة وارساله اليها .

واعاد القانون تنظيم السلطة القضائية ، ونظام الشرطة كما أعاد تنظيم الضرائب وخاصة ضريبة القمح التى أصبحت عماد حياة بيزنطة كما كانت من قبل عماد حياة روما ، واعاد تنظيم اختصاصات مجالس المدن ، واختصاصات كل موظف من موظفى الادارة .

وبلغ من شمول هذا القانون ... أن تعرض لأجور شحن القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية فزاد فى فئاتها .

وغنى عن البيان أن الهدف الأول من اجراء هذه التنظيمات لم يكن خيرا للمواطنين وانما هو نفس الهدف الذى حدا بأغسطس هادريان من قبل الى وضع مثل هذه الخطط ، وهو تنظيم البلاد لضمان حسن الجباية ، واستدرار أكبر قدر من الضرائب .

ولكن روح الاستقلال التى تجلت فى موقف الكنيسة المصرية سرعان ما احبطت مقاصد الامبراطور ... ووقع الاصطدام بين ما وضعه جوستنيان من نظم وما كان سائدا فى مصر من تقاليد ، ووصل الصدام الى ذروته حول القضية الدينية .

٥٣٩ م ــ الحاكم والأسقف :

كانت الامبراطورة تيودوره ، قد نجحت فى حمل الامبراطور على عزل بولس وتعيين خلف له اسمه زوبل ، غير أنه كسلفه لم يستطع أن يتولى كرسيه الا فى حماية الجند .

وقرر جوستنيان فيما يبدو ، أن يمضى فى الشدة مع المصريين الى آخر مداها فأرسل الى مصر بطريركا ملكيا جديدا ضم الى سلطته الدينية سلطة الحاكم العسكرية ، وطلب منه أن يتخذ كل الوسائل لصرف المصريين عن مذهب الوحدة والأخذ بالمبادىء الخليقدونية وكان هذا البطريرك يدعى ابوليناروس . ووصل رجل الدين الى الاسكندرية ، بملابس قائد الجند ، حتى اذا بلغ الكنيسة خلع ثوب الجند وارتدى لباس الأسقف ، ثم راح يوجه الحديث الى أهل الاسكندرية المجتمعين بالعبارات التالية : « يا أهل الاسكندرية ، يا أيها الأشرار .. ان رجعتم الى الايمان وتخليتم عن البدعة اليعقوبية كان ذلك خيرا لكم ، وان لم ترجعوا عما أنتم فيه ، فسوف يبعث اليكم الامبراطور من يهدر دماءكم ويستحيى نساءكم وييتم أبناءكم » وكان طبيعيا أن يرد عليه الاسكندريون هذه التحية بمثلها فخضبوه بالتراب والحجارة ، ولكن الرجل كان معدا عدته ومدبرا كيده ، فقد أعطى اشارة للجنود المتربصين فانقضوا على المحتشدين فى الكنيسة وراحت تذبح وتقتل ، حتى تغطت أرض الكنيسة بالدماء والجثث وانتقلت المذابح من الكنيسة الى خارجها فى أرجاء المدينة ، وتسرف بعض الروايات فى عدد الذين قتلوا فتجعلهم مائتى الف ... ولكن ساويرس الأشمونى يقول لنا بعبارة عامة : أن ما حدث وقتذاك لم يكن له مثيل حتى فى زمن الوثنيين .

وربما يكون أبولناريوس الحاكم ، قد نجح فى ترويع المصريين الموحدين ولكن البطريرك والزعيم الروحى قد فشل فلم يكن لكل ما عمله سوى اثر واحد ، وهو ازدياد المصريين تمسكا بمبدئهم ، واصرارا على زعامة بطريركهم المنتصر ثيودسيوس.

٥٤٠ م — الحرب الفارسية الكبرى :

كانت الحرب بين الفرس والرومان ، منذ جاء الرومان الى الشرق لا تكاد تهدأ الا لتشتعل من جديد ... وقد انهمك جوستنيان فى السنوات الخمس الأولى فى حرب طاحنة مع الفرس ، ولكنه اذ كان يرنو ببصره نحو الغرب ، واعادة توحيد الامبراطورية الرومانية ، وبسط سيادته على البحر الأبيض المتوسط ، فقد حمل قائده بلزاريوس على عقد صلح مع الفرس ، على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية .

واستطاع جوستنيان فى ظل هذا الصلح ، أن ينشىء قوة بحرية وسيادة فى البحر الأبيض المتوسط مكنته من اعادة شمال أفريقيا ، وايطاليا وجزر البحر الأبيض واسبانيا الى سلطانه .

ولكن كسرى الأول ملك فارس ، لم يلبث أن شن الحرب من جديد على بيزنطة ، هذه الحرب التى توصف بالكبرى والتى ستظل محتدمة الاوار بين الدولتين لمدة قرن من الزمان ، والتى لم يضع لها حدا ... الا قيام الدولة الاسلامية التى ستحطم جيوش الدولتين معا .

امتداد الحرب الى البحر الأحمر :

وقد كان المظهر الجديد للحرب بين فارس وبيزنطة فى هذه الحقبة من التاريخ ، هو هذا الصراع فى جنوب البحر الأحمر بين دولة اكسيوم (الحبشة) التى ترتبط ببيزنطة من ناحية ، وبين العرب فى بلاد اليمن الذين يرتبطون بالفرس من ناحية أخرى ..

وقد كان الرباط الذى يجمع بين كل من الطرفين ... هو المنافسة حول تجارة الشرق ، وهل تأخذ طريق جزيرة العرب فبلاد فارس ، أم طريق الحبشة فالبحر الأحمر فمصر لتأخذ طريقها الى بيزنطة .

وسيظل هذا العراك ممتدا حتى مولد النبى العربى عام ٥٧٠ م ، عندما يتوجه جيش حبشى تحت زعامة ابرهه الى مكة عازما أن يهدم الكعبة ، فصدته عنها ارادة السماء .

وقد ظهر أثر الحرب بين الفرس والروم فى مياه البحر الأحمر على أرض مصر ، اذ أن جوستنيان حول الأديرة الكبيرة المنتشرة عبر صحراء مصر الشرقية ، الى حصون عسكرية لتحمى الطرق المؤدية من مصر عبر سينا الى سوريا ، بل وانشئت

سلسلة أخرى من الأديرة حشدت بالرهبان والجنود فى آن واحد لتكون قلاع دفاع ضد الجيوش التى قد تحدثها نفسها بغزو مصر عن هذا الطريق .

٥٤٨ م ــ موت الامبراطورة تيودوره :

ماتت الامبراطورة تيودوره فكانت وفاتها أكبر ضربة حلت بالامبراطور حطمت شجاعته وصفاء ذهنه وقوة بدنه على ما يقول مؤرخوه . واذ كان قد بلغ من العمر عند وفاتها خمسا وسبعين سنة ، فقد ترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع ، وانهمك فى المباحث الدينية .

٥٥٣ م ــ مجمع القسطنطينية الثانى :

كانت تيودوره قد استطاعت أن تقنع جوستنيان قبل وفاتها بضمه للمذهب اليعقوبى (المونوفيزنى) وقد ظلت هذه النزعة تقوى عنده حتى قرر أن يضعها موضع التنفيذ ، فدعا الى عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية عام ٥٥٣ فلم يحضره أحد من أساقفة الغرب ، وعرض جوستنيان عدة مبادىء على المجمع فوافق عليها المجتمعون ، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها ، فعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية من جديد .

ووصل الأمر بجوستنيان فى أخريات حياته الى نقيض كل ما حارب عليه طول حياته من معتقدات دينية اذ أعلن أن جسد المسيح غير قابل للدنس كما أعلن أن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض فى يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لشىء من مساوئه وقد كان ذلك اقرارا من جوستنيان بما يؤمن به المصريون من وحدة الطبيعة . وقد حذره رجال الدين فى القسطنطينية ، من أنه اذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها الى أبد الآبدين » .

ولكن جوستنيان مات قبل أن يرجع أو يتوب عما طلب منه أن يتوب عنه .

٥٦٥ م ــ موت جوستنيان :

وأخيرا مات جوستنيان ، بعد أن تصور معاصروه أنه لن يموت أبدا وبعد أن وصل بأمجاده الى حد قالوا فيه أن الدنيا لن تسعه ففى دنيا الحرب والسياسة فقد تضاعفت رقعة الامبراطورية فى عهده ضعفين .

وأعاد سلطان بيزنطة على كل البحر الأبيض المتوسط بشواطئه وكل ما فيه من جزر وما يقع عليه من بلاد مستخدما فى ذلك الأساطيل البحرية التى غيرت من طبيعة

سلطان بيزنطة فأصبح يعتمد على القـوة البحرية فأكثر من اعتماده على الجيوش البرية الجرارة ، وهو ما أتاح للاسكندرية أن تواصل لعب دورها الرئيسى فى البحر الأبيض كأعظم مدينة فيه .

وتشهد مدونته القانونية بمقدار ما وصلت اليه القسطنطينية من ازدهار فقهى .

كما تشهد كنيسة أياصوفيا (جامع أياصوفيا) بما وصـل اليه الفن البيزنطى من تألق ، وما استطاعت القسطنطينية أن تبلغ من عظمة جعلتها أكبر مدن العـالم المعروف يومئذ بلا جدال .

الامبراطور جوستين الثانى :

تولى العـرش جوستين الثانى ابن أخت جوستنيان بمسـاعدة طبريوس قائد الحرس . وقد اشتهر جوستين الثانى بأنه حاكم شديد الحذر حاول تركيز اهتمامه فى معالجة ما أصاب الامبراطورية من ازمة اقتصادية بعد أن ترك جوستنيان خزائنها خاوية على عروشها نتيجـة حروبه المستمرة ، وعطاياه الباذخة لشراء كل القوى المحيطة بامبراطوريته .

٥٦٧ م ـ وفاة الأنبا ثيودسيوس :

توفى الأنبـا ثيودسيوس فى منفاه بعد أن أقام من الناحية الروحية على كرسى الكرازة المرقسية واحدا وثلاثين عاما وأربعة أشهر . وان كان البطريرك الفعلى هو أبوليناريوس الملكى الذى لم يلبث أن مات قبل وفاة جوستنيان ، وتعين مكانه بطريكا ملكيا (يوحنا) فلم يحصل على رضاء أى من الحزبين المصرى المونوفيزى أو البيزنطى الملكى فقد اتهمه الآخرون بالمانويه .

على أنه لم يلبث بدوره أن مات وخلا الكرسى البطريركى .

الأنبا بطرس الرابع :

واختار المصريون « الأقباط » أبا روحيا لهم عقب وفاة ثيودسيوس الانبا بطرس الرابع ليكون زعيما لكنيستهم « المونوفيزية » وقد كان بطرس الرابع شماسا رافق ثيودسيوس فى منفاه وكان من أقرب المقربين له .

وكان بعض الأساقفة المصريين قد اختاروا راهبا مصريا اشتهر بالزهد يسمى تيودور ، ولكن شعب الاسكندرية اعترض على هذا الاختيار الذى تم سرا ولم تجر استشارتهم فيه فتنازل تيودور عن اختياره حتى لا يثير النزاع والشقاق .

واذا كان جوستين الثانى قد قرر أن يصالح المصريين ، فقد سمح لبطرس الرابع أن يعود للاقامة فى الاسكندرية بعـد أن كان البطاركة المصريون يقيمون فى دير يبعد

تسعة أميال من الاسكندرية ، وقد اعتبرت هذه العودة بمثابة انتصار جديد للكنيسة « المونوفيزية » ، وقد عمل بطرس من جانبه على تدعيم هذا الانتصار فرسم ستة وستين أسقفا دفعة واحدة .

٥٧٠ م – مولد محمد بن عبد الله

فى هذه السنة ولد فى مكة التى تقع فى أقفر جزء من صحراء جزيرة العرب محمد بن عبد الله ، الذى سيكون مقدرا له أن يقوض سلطان كسرى والروم معا ، وأن يفرض سلطانه الروحى على شعوب الشرق الأوسط وشمال افريقيا منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد عاصر مولده أهم حادث فى جزيرة العرب دحر جزيرة العرب ... حيث امتد الصراع بين الفرس والروم الى قلب الجزيرة العربية .. فقد قصد جيش حبشى بقيادة أبرهة لتخريب بيت الله الحرام فى مكة ... وكان الجيش الحبشى المسيحى الضالع مع الروم يستعمل فى مقدمته فيلا ، فسموا أصحاب الفيل (١) . ومحمد (عليه الصلاة والسلام) هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن كنانة بن النضر بن عبد مناف ، بن عدنان ينتهى نسبه الى اسماعيل نبى الله الذى رزقه سيدنا ابراهيم الخليل من هاجر المصرية التى أهداها اليه فرعون مصر عند زيارة ابراهيم الخليل لها فأنجبت له اسماعيل فنفست عليها سارة التى كانت عقيما لا تنجب فطلبت من ابراهيم أن يغرب هاجر وولدها . فسار بها حتى جاء الى هذا الموقع حيث بنيت مكة وتركها فى هذا المكان (٢) وانصرف عنهما .

فقدر لهاجر أن لا تموت جوعا أو ظمأ هى وابنها اذ تفجرت عين زمزم وجاءت قبائل من العرب فسكنت باذنها الى جوار الماء ... وهكذا شب اسماعيل واستعرب فكان أبا للعرب المستعربة أجداد محمد .

فاذا كان تاريخ مصر بعد سنوات قليلة من الآن سيرتبط أشد الارتباط بالاسلام فليس ذلك الا جنى لثمرات ما زرعت مصر من قبل .

وقد أشار الرسول صلوات الله عليه الى هذه العلاقة التى تربطه بمصر اذ قال لأصحابه فى أحد الأيام على سبيل التنبؤ الذى صدق :

« ستفتحون مصر من بعدى ، فأوصيكم بأهلها خيرا ، فان لكم بها رحما وذمة » وفى رواية : ونسبا .

---

(١) يشير القرآن الكريم الى هذا الحادث بقوله : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . وقد روى عن رسول الله قوله : ولدت فى عام الفيل .

(٢) ارجع الى تفصيل هذه القصة كما وردت فى البخارى ، وفى كتاب مناسك الحج للمؤلف .

ومولد اسماعيل من هاجر المصرية هو الرحم الذى يربط العرب المستعربة وعلى راسهم سيدنا محمد بمصر ... اما الذمة أو النسب والصهر فسيرد علينا تفصيله فيما بعد .

٥٧١ م ــ وفاة الأنبا بطرس الرابع :

توفى الأنبا بطرس البطريرك القبطى ، اذ لم تطل مدة اقامته على الكرسى الرسولى سوى عامين أثنين . كان البطريرك الملكى فى اثنائهما هو يوحنا الثانى .

الأنبا دميانوس :

وجلس على الكرسى الرسولى روحيا الأنبا داميانوس الذى اختاره الشعب والاكليروس المصريين ليكون البابا الخامس والثلاثين على كرسى الكرازة المرقسية .

وقد حاول الأنبا دميانوس أن يعالج الضعف الذى طرأ على الكنيسة المونوفيزية ، حيث انقسمت على نفسها انقساما خطيرا وتفرع المونوفيزيون الى مالا يقل عن عشرين نحلة فكان دميانوس يكثر من التردد على مدينة الاسكندرية ويطيل مدد اقامته بها ويعقد المجامع الدينية ويعظ فى الكنائس .

وقد هيأ له هذه الحرية سياسة التسامح الجديدة التى سلكها البطاركة الملكيون فى هذه الفترة وخاصة الأسقف ايلوج (٥٨١ــ٦٠٨) الذى اشتهر بالتبحر فى اللاهوت وقوة بيانه وحسن منطقه ، فجعله ذلك يتسامح مع داميانوس الذى استغل من ناحيته هذه الفرصة فعمل على اعادة الحيوية الى الكنيسة « المونوفيزية » .

٥٧٧ م ــ النوبيون يعودون للهجوم على مصر :

كان من بين الأوامر التى أصدرهاجوستنيان لقائده نارسيس عندما بعث به الى مصر عام ٥٧٣ م أن يضع حدا للوثنية فى جنوب مصر وذلك بتدمير معبد فيلة آخر معقل لعبادة ايزيس . وقد كان هذا المعبد هو قبلة النوبيين المقدسة وكذلك قبائل البليمى .

وقد كانت هذه الرابطة الروحية هى التى تبقى قبائل البليمى والنوبيين فى حالة هدوء وسكينة ... فلما أن دمر معبد ايزيس تجددت غارات النوبيين وقبائل البليمى على جنوب مصر .. بحيث نرى أن ثيودسيوس حاكم طيبة يرى نفسه مضطرا لاعادة تحصين جزيرة فيلة ، التى كانت قد أصبحت فى هذه الفترة أسقفية كما تحول معبد ايزيس الى كنيسة .

٥٨٧ م – الامبراطور تبريوس :

مات جوستين الثانى بعد أن كان قد أصيب بلوثة من الجنون ، فخلفه على العرش تبريوس قائد الحرس الامبراطورى الذى رفع جوستين على العرش ، والذى كان قد أصبح الحاكم الفعلى للبلاد من عام ٥٧٤ م .

سوء الأحوال فى مصر :

يقول لنا ملن فى كتابه « مصر تحت الحكم الرومانى » أن مصر فى هذه المرحلة كانت تندفع نحو حالة من الفوضى ، فأصبحت الحكومة فى جانب والشعب فى جانب آخر ، وكل من الطرفين يفعل ما يحلو له ، بينما وقفت حكومة القسطنطينية مترددة عاجزة عن حسم الأمور ، فبعد أن أصدرت أمرها بالقبض على قائد الجيوش فى مصر ايستوماخوس ، واقتيد الى القسطنطينية ليحاكم بتهمة سوء التصرف ، ولكنه لم يكد يصل مقبوضا عليه حتى صدر أمر بالعفو عنه ، وكلف بالعودة الى مصر ليواجه هجوما جديدا من النوبيين على جنوب مصر ، فلم تكن التحصينات التى أقيمت فى جزيرة فيلة بقادرة على رد هجماتهم .

وعاد ايستوماخوس ، حيث سجل لنا التاريخ انه خاض معارك ضد النوبيين والموريتانيين وانتصر عليهم .

٥٨٢ م – موت الامبراطور تبريوس وولاية الامبراطور « موريس » :

مات الامبراطور تبريوس وخلفه زوج ابنته الامبراطور موريس .

تدهور الأحوال فى مصر :

ويمضى ملن فى كتابه فيحدثنا عن استمرار تدهور الأحوال فى مصر فى هذه المرحلة كما تكشف عن ذلك بعض الوثائق التى عثر عليها . فتحدثنا بعض هذه الوثائق عن نهب بعض الرجال قريتين من قرى الدلتا وهما قريتا كيثوبوليس وبوسيريس « بدون اذن حاكم الاقليم » ...

وعندما هددهم حاكم الاسكندرية بالعقاب ، حشدوا قوة اضافية من الرجال واستولوا على القمح الذى كان يرسل من الريف الى الاسكندرية فأحدث ذلك مجاعة بها .

وتصرفت الحكومة بترددها المعهود فعزلت حنا حاكم الاسكندرية ولكنه لم يكد يصل الى القسطنطينية ويشرح موقفه حتى أعيد الى منصبه .

فلم يكن لهذا التصرف من أثر الا زيادة اشتعال الفتنة فى الأقاليم المصرية ، بحيث احتاج الأمر الى ارسال جيش لاخمادها .

كما وقع تمرد آخر فى بلدة بانابوليس تحت قيـادة من يدعى آزاريوس ولكنه كان أقل خطرا .

٥٨٩ ــ المرحلة الأخيرة من الحرب الفارسية :

كان كسرى الأول قد مات عام ٥٧٦ وخلفه ابنه كسرى الثانى فنشبت ضـده ثورة عسكرية فى هـذه السنة (٥٨٩) ادت الى خلعه عن العرش ، فهرب الى القسطنطينية مستنجدا بعدو الفرس التقليدى امبراطور بيزنطة ، فاستقبله الامبراطور موريس استقبالا حسنا ، وانتهز هذه الفرصة ليبسط سلطانه على بلاد الفرس من خلال مساعدته لكسرى ، فأمده بجيش بيزنطى كبير استطاع بواسطته أن يسترد عرشه ، ومضى موريس فى تنفيذ خطته فزوج كسرى بابنته واتخذ منه ولدا له .

٦٠٢ م ــ الامبراطور فوكاس :

تمرد أحد قادة الجند ويدعى فوكاس ضد الامبراطور موريس ، وقد كان فوكاس هذا جنـديا جلفا غليظ القلب مشوه الخلقة مجردا من كل قدرة وكفاية ، سـوى استخدام القوة الوحشية بحيث لم يكتف باعدام الامبراطور موريس ليستولى على منصبه بل أعدم جميع أبنائه وكل من يمت اليه بصلة أو أيده أو ناصره .

وقد أشعل هذا الحادث نيران الحرب من جديد بين الفرس والروم التى كانت قد خبت أيام موريس .

والحق أن كسرى منذ زمن طويل عقب عودته الى عرشه ، لم يكن ينظر بعين الرضا للعلاقة التى أصبحت تربطه بامبراطور بيزنطـة ، ولم يكن يحول دون قطع العـلاقات سوى احساسه بالدين الذى يداينـه به الامبراطور موريس ، وصـلة المصاهرة التى تربطهما ... فلما أن قتل فوكاس موريس ، استغل كسرى الثانى هذه الفرصة ، فأعلن غضبه لهذا الحادث وأصدر أمره لجيوشه فزحفت على البلاد البيزنطية فاستولت على أرض الجزيرة وسوريا وأوغلت فى الأناضول حتى مدينة خليقدونيا .

٦٠٦ ــ وفاة الأنبا داميانوس :

توفى الأنبا داميانوس بعـد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية أبا لأقباط مصر خمسا وثلاثين سنة وأحد عشر شهرا .

وكان البطريرك الملكي خلال الجزء الأكبر منها هو (أيلوج) .

الأنبا انسطاسيوس :

واختار الشعب والاكليروس القبطى الأنبـا انسطاسيوس ليكون بطريركا وأبا وزعيما روحيا لهم .

أما القسطنطينية ، فقد ارسلت بطريركا ملكيا جديدا وهو تيودوروس .

٦١٠ م — ظهور هرقل :

دبرت مؤامرة لخلع فوكاس ونقـله من القسطنطينية . فأسرع هرقل حاكم افريقية لتأييدها وكان ابن هذا الحاكم يدعى بنفس الاسم « هرقل » وكان أكثر شبابا وقوة من أبيه فأخذ على عاتقه الحرب ضد فوكاس وخلعه .

مصر بين فوكاس وهرقل :

تحولت مصر الى ميدان للصراع بين فوكاس وهرقل الشاب فقد ارسـل هذا الأخير القائد بوناكيس ليستولى على مصر ، تقديرا منه أن الاستيلاء على مصر يفقد بيزنطة مصـدر قمحها . وقد استطاع بوناكيس أن يهزم الجيش الموالى لفوكاس خارج مدينة الاسكندرية .

بينما فتح الاسكندريون مدينتهم لاستقبال بوناكيس فى حماس منقطع النظير ، اذ تضامن الشعب مع رجال الكنيسة فى تأييد هذه الثورة الجديدة على بيزنطة ، ليستعيدوا سلطان كنيستهم « المونوفيزية » واستقلالها عن بيزنطة .

ولكن فوكاس أرسل من ناحيته جيشا جديدا تحت قيـادة بونوسوس ، الذى استطاع أن يهزم بوناكيس بل وان يقتله .

واغارت فلول جيش بوناكيس المنهزمة الى مدينة الاسكندرية التى اغلقت ابوابها فى وجه جند القسطنطينية .

وارسل هرقل الابن مددا الى الاسكندرية تحت قيـادة نيكيتياس ، الذى أعاد تنظيم فلول الجيش الذى انحاز الى الاسكندرية وخرج لملاقاة بونوسوس فانتصر عليه واجبره على الفرار الى القسطنطينية ، تاركا مصر اخيرا تحت سلطان نيكيتياس ليحكمها باسم هرقل .

٦١٠ م — الامبراطور هرقل الأول :

فى الوقت الذى كان فيه نيكتياس يتجه بجيشه شرقا نحو الاسكندرية كان هرقل يستقل أسطولا بحريا ويبحر به نحو سالونيكا تمهيـدا للهجوم على القسطنطينية نفسها .

وفى هذا العـام تمكن من اقتحام القسطنطينية بعـد أن ثارت الجماهير داخل المدينة ضد فوكاس ، ونادوا بهرقل امبراطورا على بيزنطة .

ويعتبر هرقل مؤسس بيت امبراطورى جديد ، وفى عهده كما سترى اخذت بيزنطة صورة جديدة أقرب ما تكون الى اليونان منها الى الرومان واللاتين ، واذا كان هرقل قد بدأ حكمه بأسطول بحرى فكأنه كان يكشف عن حجب الغيب ، وان لن يبقى على بيزنطة بعد ذلك فى الوجود الا قوتها البحرية ... ونشاطها التجارى .

انتهى الجزء الأول
ويليه الجزء الثانى

فهرس

موسوعة تاريخ مصر
الجزء الأول

شـــكر

نظرا للمرض الذى طرأ على الأستاذ احمد حسين ، فلم يســتطع أن يشرف بنفســه على التجارب النهائية ، فقد طلب منا أن نشكر باسمه الأستاذ احمد عزت الذى قام بهذه المهمة من الناحيــة التاريخية ، وهيئة التصحيح بدار مطابع الشعب

الشعبْ
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

أحمد حسين

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الثانى

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بعثة محمد رسول الله

٦١٠ م —

وفى نفس هذه السنة ، حيث كان يجرى هذا التبدل فى عرش بيزنطة ويرتقى العرش هرقل الأول .

كان حدث انسانى خطير يتم فى خفاء لم يتجاوز من علموا به فى وقته بضـعة أشخاص يعدون على اليد الواحدة ، ولم يكن هذا الحدث سوى بعثة محمد بن عبد الله ليكون رسولا نبيا ... وكان محمد بن عبد الله الذى ولد عام الفيل « ٥٧٠ م » قد بلغ من العمر أربعين سنة ولم يكن قد اشتهر فى هذا العمر الطويل بغير صـفة واحدة وهى الأمانة فأطلق عليه أهله وعشيرته لقب الأمين ، وكان قد ولى تجارة خديجة سيدة قريش ، فسافر على رأس قوافلها الى الشام . فأنست فيه ما حببه الى قلبها فعرضت عليه الزواج منه ... فاستجاب الى العرض ... وكفى بهذا الزواج مؤونة الكدح فى طلب الرزق واحس بالعزوف عن الاختلاط بالناس ، والرغبة فى الخلوة فأصبح من عاداته أن (يتحنث) أى يعتكف على رأس جبل من جبال مكة يدعى غار حراء شهرا فى كل سنة ، وبينما كان يخلو بنفسه فى الغار جريا على عادته فى هذا الشهر من كل عام . اذ سمع صوتا يقول له « اقرأ » ففزع محمد بن عبد الله من هذا الصوت الذى لايرى صاحبه . ورد عليه بأنه لايستطيع القراءة ولكن الصوت « غطه » فى صدره وكرر عليه الأمر بالقراءة ...

وكرر محمد بن عبد الله الاعتذار عن القراءة لجهله بها ...

فانطلق الصوت يقول له :

— اقرأ باسم ربك الذى خلق .

— خلق الانسان من علق .

— اقرأ وربك الأكرم .

— الذى علم بالقلم .

— علم الانسان مالم يعلم .

ولم يكن هذا الصوت الا وحيا من رب العالمين ... ولم يكن هذا اللقاء الا لقاء بين الأرض والسماء ، ليكون محمد بن عبد الله ، هو محمد رسول الله الى بنى البشر كافة ، رسول رحمة ومحبة‌واخوة وانسانية تقوم على أساس من توحيد الألوهية ، ومحاربة كل عبادة لغير الله الواحد الأحد ، والتقاء البشر فى ظل هذا التوحيد على اختلاف أجناسهم والوانهم وقومياتهم ، اخوة يتحابون ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتصدون لحرب الاثم والعدوان .

٦١١ م — انتصار الفرس على الروم :

لو صح ما ادعاه كسرى الثانى من أن زحفه على أراضى بيزنطة كان غضبة لصاحبه وحاميه وراعيه الامبراطور موريس ، لوجب أن تتوقف جيوشه بعد أن اقتص من قاتل صهره ، ولكن العلاقات بين الدول لا تقوم على العواطف أو العلاقات الشخصية ... وانما تتم لعديد من العوامل المحركة لمصير الانسانية ، ولذلك فان سقوط فوكاس وارتقاء هرقل عرش بيزنطة لم يزد جيوش الفرس الزاحفة الا نشاطا فى زحفها ... فسقطت كبريات المدن السورية واحدة بعد أخرى فى قبضة الفرس ، ابتداء من انطاكية عاصمة الأقاليم حتى حمص وقيصرية .

٦١٣ م — سقطت دمشق فى يد الفرس .

٦١٤ م — سقطت مدينة بيت المقدس فى يد الفرس ونهب الفرس كل ما كان بها من ذخائر ومقدسات ... بما فى ذلك صليب الصلبوت « وهو قطعة من خشب الصليب الذى صلب عليه المسيح » .. وكان موضوعا فى صندوق محلى بالذهب والبرونز واليواقيت . وأعمل جنده سيوفهم فى رقاب المسيحيين من سكان المدينة ...

ويقول درانت أن ٢٦ الف يهودى انضموا الى جيشه ليعاونوهم فى الفتك بالمسيحيين حتى قيل ان عدد من مات فى هذه المذبحة قد بلغ ٩٠٫٠٠٠ قتيل .

٦١٦ م — وفاة الأنبا انستاسيوس :

توفى الأنبا انستاسيوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية روحيا اثنى عشر عاما .

الأنبا ان روتيكوس :

واختار الشعب والاكليروس المصرى المتمسك بعقيدته المونوفيزنية الأنبا ان روتيكوس ليكون بطريركا لكنيستهم .

يوحنا الرحوم :

ولكن البطريرك الملكى الذى كان صاحب السلطة الفعلية فى الكنيسة كان هـو الأسقف يوحنا الرحوم أو « المتصدق » والذى استطاع أن يظفر بحب المصريين على خلافهم معه لفرط رحمته وتسامحه وانفاقه على البؤساء والفقراء والمعوزين .

ويتخذ المؤرخون الحديثون من سـيرة يوحنا الرحوم الدليل على مدى ما كانت عليه الاسكندرية فى هذه الفترة من التاريخ من غنى وثروة ، وانها كانت لا تزال اعظم المدن التجارية على الاطلاق ...

ويستنتجون ذلك من ثروة الكنيسة كما تنطق بها أعمال يوحنا الرحوم . الذى وجد بالقصر البطريركى حين اعتلائه مبلغ ٨٠٠٠ رطل من الذهب وكان له أسطول مكون من ثلاث عشرة سفينة تجارية كبيرة تنقل التجارة بين الاسكندرية وشواطىء بحر الادرياتى وانشغل هذا البطريق بين عامى « ٥٩٦ — ٦٠٣ » بسلسلة طويلة من المفاوضات مع جريجورى الأكبر للحصول على أخشاب تصلح لبناء السفن من ايطاليا وبلغت ثروته حدا كبيرا جدا فعندما استغاثت به مدينة القدس بعد استيلاء الفرس عليها أرسل لها الف قطعة ذهبية ، والف جوال من القمح وألف كيل من البقول الجافة والف رطل من الحديد والف رطل من السمك المقدد وألف دن من النبيذ والف صانع من المصريين ، وذلك معاونة منه على اعادة بناء المدينة .

ويمضى ارشيبالد . ر . لويس الذى ننقل عنه هذه العبارات ليقول لنا :

« ولعل مصر هى اكثر بلاد الامبراطورية رخاء ، ولا سيما مدينة الاسكندرية العظيمة ، التى تلت فى المكانة مدينة القسطنطينية مباشرة حينذاك » والتى كانت أعظم مدن البحر المتوسط على الاطلاق . وليس ببعيد أن تكون قد فاقت فى أهميتها كمركز تجارى اهمية القسطنطينية ذاتها وصـارت الاسكندرية محط رحال تجارة الشرق ، التى اشتملت على التوابل والحرير القادمين عبر طريق البحر الأحمر . وصدرت هذه البضـائع منها الى عالم البحر المتوسط ، واذن أصبحت لمصر تجارة واسعة فى ذلك البحر وذهب قمحها الى القسطنطينية وأقلعت منها السفن محملة بالحبوب وفاخر الصناعات الى ايطاليا لتبادل بذلك على الخشب ، وأوفدت تجارها الى أسبانيا ومرسيليا وغيرهما من مدن جنوب فرنسا ، كما اتجرت على نطاق واسع مع شمال افريقيا ويحتمل كذلك أن تكون سفنها الكبيرة قد اجتازت أعمـدة هرقل « جبل طارق » وقامت بتجارة واسعة النطاق فى مادة القصدير مع بريطانيا البعيدة المدى واذا صح هذا فانه يفسر أصل وجود العناصر الشرقية والاغريقية فى الصور الايرلندية والكنائس السكتلندية كما يفسر ما تدهش له من معرفة علماء الايرلنديين للغة اليونانية (١) .

---

(١) ص ٦٥ — القوى البحرية التجارية — ترجمة احمد محمد عيسى .

٦١٩ م ــ سقوط مصر فى يد الفرس :

كان من أثر زحف الجيوش الفارسية على سوريا وفلسطين وتساقط عواصمها ومدنها الواحدة أثر الأخرى ... أن لجأ الى مصر عشرات الألوف من المهاجرين من هذه المدن والمناطق يلاحقهم الفرس بزحفهم ، حتى وصل المهاجرون الى شرق الدلتا ... والفرس فى أعقابهم ... فهرع اللاجئون الى الأسكندرية التى أصبحت تغص بعشرات الألوف من اللاجئين .

ومرة أخــرى تطالعنا شخصية البطريرك الملكى . يوحنا الرحوم ومدى الثروة التى كانت تتمتع بها الكنيسة المصرية فى أيامه ...

فقد أخذ على عاتقه عملية اطعام هذه الجيوش الجرارة من اللاجئين . على أن العملية لم تلبث ان اصبحت مستحيلة ازاء تزايد عدد اللاجئين المستمر ، وشراستهم المتصاعدة .

وشاء سوء الحظ ان تقحط مصر فى هذه السنة ، فعزت الاقوات... ولم يستطع يوحنا الرحوم مواجهــة الموقف المتدهور فغادر مدينة الاسكندرية ، ناجيــا بنفسه ومصطحبا معه نبكيتاس حاكم مصر وقائد الجيوش ، وقصدا جزيرة قبرص ، حيث لم يلبث يوحنا الرحوم أن مات (٦١٧ م) .

أما الاسكندرية التى خلفاها وراءهما . فقد فتحت أبوابها لجيش الفرس عن طريق الخيانة كما يقول بتلر (ص ٦٦) على أن المحقق ان الشعب السكندرى وخاصة المنوفيزنى منه قابل الفرس بالترحاب ، أملا منه أن يتيح له هذا القبول فى السلطة الحاكمــة ، تدعيم الكنيسة المونوفيزنية وانتصار بطريركهم اندردنيكوس الذى اقام فى الاسكندرية طوال مدة ولايته .

على أن بتلر ينفى بشدة فى كتابه « فتح مصر » أن أقباط مصر قد رحبوا بالغزو الفارسى الوثنى .

غلبت الروم :

وقد كان هذا النصر المؤزر الذى أحرزه الفرس (الوثنيون) على الروم المسيحيين من اهل الكتاب هو الذى جعل مشركى قريش من أعداء الرسالة المحمدية يشمتون بالمسلمين ، فنزل القرآن الكريم بسورة الروم التى تنبأت بانتصار الروم بعــد هزيمتهم :

« الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . » .

وهكذا نرى اصداء الأحداث العالمية تتردد فى آيات القرآن ... ومن دلائل اعجاز القرآن وصدق رسول الله ... ان هذه النبوءة التى بدت ساعة الافصاح عنها وكأنها

تتحدث عن امر مستحيل .. هى التى تحققت بالفعل فى المدة المحددة والتى لا تخرج عن نطاق (بضع سنوات) .

٦٢٢ م ـ هرقل يستأنف الحرب ضد الفرس :

بدأ هرقل حربه ضد الفرس يوم الفصح من عام ٦٢٢ عندما نزل بسفنه من جديد فى موقع بين حدود الشام وقليقيا فى الأناضول ، بعد أن ترك وراءه القسطنطينية وابنه فى « أيدى الله وأمه العذراء والبطريرك » .

٦٢٢ م ـ ١ هجرية :

هجرة رسول الله :

وفى الوقت الذى كان هرقل يبدأ حربه التى سيقدر لها أن تستمر ست سنوات تكلل فى ختامها بالنصر ، ليخرج منها هرقل كأقوى ما عرفت الامبراطورية الرومانية من أباطرة .

كان هذا النبى الأمى الذى ولد عام الفيل ، فلم يكد يحس بميلاده سوى أفراد أسرته ، والذى بعث يوم كان هرقل يتسلم عرش بيزنطة ، فلم يؤمن به سوى زوجته خديجة وبضع نفر من أصحابه المقربين ، كان يهاجر من مكة أخيرا نحو المدينة هـذه القرية التى تقع الى الشمال من مكة ... وذلك بعد أن ضاق وضاق المؤمنون من قبله باضطهاد ذوى قرباهم الذين عذبوهم وانتهبوهم وحاصروهم وأخرجوهم من ديارهم ، هاجر من مكة مصطحبا خليله وصفيه وخليفته من بعده « أبو بكر الصديق » الى حيث الأنصار من أهل المدينة والذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام وبايعوا الرسول واستقبله أهل المدينة بالنشيد الذى خلد على مر الزمن :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »
« وجب الشكر علينا مادعا لله داع »
« أيها المبعوث فينا .. جئت بالأمر المطاع » .

٦٢٣ م ـ وفاة الأنبا اندروتيكوس :

توفى الأنبا اندروتيكوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية سبع سنوات اقام فيها فترة الحكم الفارسى فى الاسكندرية .

الأنبا بنيامين :

واختار الشعب المصرى المونوفيزنى والاكليروس الأنبا بنيامين ، وقد وافق اختيار بنيامين لولاية الدين ، هوى فى قلوب الناس ، فقـــد كان حبيبا اليهم عزيزا على نفوسهم .

وقد ظل ذلك حظه عند الناس لم ينل منه تغير الأحوال أو تقلب الظروف .

وقد أخذ الأنبا بنيامين على عاتقه ان يعيد للدين فى نفوس القسس مكانته وهيبته فأخذهم بالشدة ، حتى لقد نفى البعض منهم لانحرافه عن جادة السلوك القويم وراح يعمل جاهدا على تدعيم وحدة الكنيسة القبطية من جديد وأن يعيد اليها طمأنينتها واستقرارها .

٦٢٤ م ــ ٣ هجرية :

غــزوة بدر :

عاش الرسول منذ مبعثه حتى هجرته ، وهو يدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، يرد على الاساءة بالاحسان ، وعلى الاضطهاد بالصبر ، وعلى التخشن فى القول والبغى بالتسامح والصفح الجميل ... فلم يزد ذلك قريشا الا مزيدا من الحقد والتآمر والرغبة فى استئصال دعوة التوحيد ... فنزل القرآن الكريم يأذن للمسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم الظلم والبغى بقوة السلاح : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » .

وهكذا التقت لأول مرة حفنة المؤمنين المجاهدين حول رسول الله الذين لم تتجاوز عدتهم ثلثمائة رجل ليس فيهم الا فارس واحد ، مع جيش المشركين الذى كان يتألف من ثلثمائة فارس مقابل هذا الفارس الواحد وبالاضافة الى سبعمائة راجل آخر من حملة القسى والحراب .

فكان النصر للمؤمنين المجاهدين ، وصرع ابطال المشركين ودهاقنتهم وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء النبى .

ويقف التاريخ ليلقى علينا أحد دروسه الخالدة ... فليست العبرة فى هــذا الوجود بالكم وان كثر .. فهذه المعركة التى تشبه ان تكون شجارا يقع فى كل يوم وفى كل ساعة بين قبائل العرب ، كانت احدى معارك التاريخ الفاصلة التى ختمت فصلا من كتاب حياة البشر وفتحت فصلا جديدا ، ولم تكن كذلك مثل هذه المعارك الطاحنة التى كانت تدور الى الشمال وقتئذ بين جحافل الفرس وجيوش الروم التى تقدر بمئات الألوف .

٦٢٧ م ــ جلاء الفرس عن مصر :

كان هرقل فى حربه ضد الفرس التى بداها منذ خمس سنوات فى آسيا الصغرى « الأناضول » وسوريا . ينتقل من نصر الى نصر .

فاضطر الفرس الى سحب جيوشهم من مصر للاستعانة بها فى حربهم ضد هرقل. وهكذا عادت جيوش الروم الى مصر فى غير معركة ، وبدون قتال ..

٦٢٧ م ـ ٦ هجرية :

رسالة النبى الى المقوقس حاكم مصر :

وفى هذه السنة تسلم المقوقس حاكم مصر وكبير القبط بها ـ على ما يقول مؤرخو المسلمين ـ رسالة من النبى صلوات الله عليه حملها اليه حاطب بن أبى بلتعة وقد جاء نص الرسالة كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم واسلم يؤتك الله اجرك مرتين (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقـولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وقد حار المؤرخون الاوربيون الذين ارخوا لهذه المرحلة من تاريخ العالم فيمن يكون هذا المقوقس ، ولقد كان بتلر على رأس من حاولوا التحقق من هذه الشخصية واستقر رأيه بعـد البحث على أن المقوقس لا يمكن الا أن يكون هو قيرس البطريرك الملكى ، والحاكم الذى سيبعث به هرقل لحكم مصر عام ٦٣٢ ، كان هو البطريرك والحاكم الذى تفاوض مع عمرو بن العاص لتسليم مصر ، والذى سلم لعمرو مدينة الاسكندرية ، ومؤرخو العرب يجمعون على أن من فعل ذلك هو المقوقس .

ومن هنا يستنتج بتلر أن لا بد أن يكون مؤرخو العرب قد أطلقوا هذا الاسم على ذات الوالى والحاكم الذى تسلم رسالة الرسول عام ٦٢٧ م . وكيفما كان الأمر ، وكيفما كان اسم الشخص الذى تسلم رسالة الرسول ، أو طبيعة وظيفته فى مصر ، فان لدينا الحقيقة المادية القاطعة التى تدل على أن من تسلم رسالة الرسول فى مصر قد أكرم وفادة مبعوث رسول الله ، ووعد بأنه سيبحث فى الأمر ، وزاد على ذلك أنه بعث بهدية عظيمة لرسول الله ، وكان يمكن أن يكون ذلك كله مجرد أخبار تروى ، لولا أن الهدية شملت فيما شملت (١) ارسال جاريتين مصريتين ، هما مارية القبطية ، وأختها شيرين وقد أعتقهما الرسول بمجـرد وصولهما اليه وتزوج الرسول مارية القبطية بعد أن أشهرت اسلامها بينما تزوج حسان بن ثابت بأختها شيرين . وأنجبت مارية القبطية لرسول الله ابنه ابراهيم الذى كان ريحان حياته فى هذه السن المتأخرة ، بحيث حزن على موته حزنا لم يعهده المسلمون عليه من قبل .

---

(١) كان من بين الهدية مبلغ من المال وبغلة سماها النبى (دلدل) وحمار وتقول بعض الاثار التى لم يذكرها المؤرخون ان من بين الهدية كان هنـاك طبيب معالج فرده رسول الله بقوله لقد اغنانا الله من الطبيب ذلك أننا قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع .

٦٢٩ م – انهزام كسرى ومصرعه :

واصل هرقل انتصاراته على الفرس ، ودحر جيوشهم فاضطر كسرى الى الفرار مهانا ذليلا ، فقبض عليه خلفه شيرويه والذى يقول البعض انه أنبه وعذبه عذابا شديدا ثم قتله (١) .

وعقد شيرويه الصلح مع هرقل على أن يتخلى الفرس عن كل البلاد التى لاتزال فى أيديهم من أملاك الروم ، وان يدفع جزية للروم ، وكان من أهم شروط الصلح اعادة صليب الصلبوت المقدس – ويقول المؤرخون أن ملك الفرس وخلفاءه لم يمسوا هذا الصليب أو الصندوق الموضوع فيه بسوء ولذلك فقد عاد كما كان .

الاحتفال بعودة الصليب :

وجرى احتفال من الاحتفالات الخالدة فى التاريخ بعودة الصليب الى مكانه فى كنيسة القيامة فى أورشليم ، حيث ضجت السموات والأرض على ما يقول مسيحيو هذا الزمان بالبشرى لانتصار الصليب ، واعتبر هرقل أعظم شخصية عرفها التاريخ ، وأن له من هرقل الاغريق الذى كان نصف اله شبها ، ولا بد أن تكون روح القدس قد حلت به .

رسالة النبى لهرقل :

يقول لنا بتلر وقد تسلم هرقل – وهو فى أوج مجده ، وقد بلغت احتفالاته الذروة – رسالة من النبى محمد يدعوه فيها الى الاسلام (٢) .

ونحن نرجح أن تكون الرسالة قد وصلته قبل ذلك عام ٦٢٧ مع بقية الرسائل ، فهذا ما يؤكده مؤرخو المسلمين ولا يوجد دليل على عكسه . بل ويؤيده أن التاريخ الاسلامى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن هذه الرسالة وانها وصلت لهرقل ابان وجوده فى القسطنطينية فى عاصمة بلاده ، وأنه دعا من كان موجودا من العرب يومئذ وعلى رأسهم أبو سفيان لسؤالهم عن النبى وما يعرفونه عنه .

واغلب الظن أن بتلر أراد أن يشير الى هذا الموقف الدرامى وهو المقابلة عند وصول رسالة الرسول الى هرقل وهو فى ذروة مجده .

على أن هذه المقابلة الدرامية متحققة على كل حال وستظل تتحقق فى كل عام بل وفى كل يوم وفى كل ساعة ، كما يشهد على ذلك الحادث التالى :

---

(١) جاء فى كتب السيرة المحمدية ان كسرى الثانى كان واحدا ممن بعث اليهم الرسول – برسائله داعيا للاسلام ، فمزق كسرى الرسالة وقتل مبعوث الرسول .. فلما بلغ الخبر الى سيدنا محمد . قال : مزق خطابى فليمزق الله ملكه وهكذا كان .

(٢) أثبت كتاب السيرة نص الرسالة .

٦٢٩ م ــ غــزوة مؤتة :

فى هذه السنة هاجمت سرية ضخمة من المسلمين يراسها زيد بن حارثة عند قرية مؤته بالقرب من نهر الأردن احد جيوش الروم ، فقتل زيد بن حارثة ، وقتل من ولى القيادة من بعده .

وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ان حمل الراية خالد بن الوليد ، فاستطاع أن يثبت اقدام الجيش الاسلامى ، وأن ينجو به من كارثة محققة ، لينسحب به بعد ذلك فى امن وسلام .

ولا شك أن جيوش الروم ، وهرقل من قبلهم ، لم يشغل ذهنه كثيرا بهذا الحادث ولم يعاق عليه كبير أهمية واعتبره مجرد غارة من غارات البدو والعرب ، من هذه الغارات المألوفة التى لا خطر منها .

ولم يطف لجيوش الروم فى خيال ، ولا فى راس قائدها هرقل المظفر ... ان هذا العربى الذى يدعى خالد بن الوليد سيكون هو الذى يسحق جيوش الروم بعد بضع سنوات فى معركة من أكبر معارك التاريخ وهى اليرموك ناسفا بذلك كل انتصارات هرقل التى اذهلت الدنيا فى ذلك التاريخ .

٦٣٠ ــ ٨ هجرية ــ فتح مكة :

دخل محمد رسول الله مكة فاتحا منتصرا بعد ثمانى سنوات من خروجه منها ، عاد اليها على رأس جيش من المسلمين بلغ عدته عشرة آلاف مقاتل كاملى العــدد والعدة وهو حشد لم تسمع به جزيرة العرب من قبل . وكان ذلك نهاية هذا الشوط من المعارك والغزوات كبدر وأحد والخندق وخيبر ... بحيث أن أهل مكة لم يكن أمامهم غير الاستسلام على الرغم من تصورهم سوء الجزاء الذى سيلقونه على يد الرسول ، لمـا اضطهدوا وقتلوا من أصحابه ومحاولتهم المستمرة لتدميره ، ولذلك فقد كانت مفاجأتهم عظيمة عندما أصدر الرسول عفوا عاما عنهم وقال اهم حكمته المدوية فى سمع التاريخ .

« اذهبوا فانتم الطلقاء ــ اليوم أقول لكم كما قال يوسف لاخوته » .

بل واذهلهم فوق ذلك كله ... عندما رد مفاتيح الكعبة الى أصحابها من أهل قريش .

متمثلا بقول القرآن « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها » .

وهكذا دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا ونزلت سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح • ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا • فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا • » .

٦٣١ م — ولاية قيرس على مصر :

تصور هرقل أن واجبه المقدس هو ان يوحد العقيدة المسيحية بعد ان نجح فى انقاذ الامبراطورية المسيحية . فوضع بالاتفاق مع بعض رجال الكنيسة صيغة جديدة للتوفيق بين المذهب الخليقدونى والمونوفيزنى ، وذلك بأن يكف الناس عن الخوض فى الكلام عن طبيعة المسيح ، وما اذا كان لها طبيعة واحدة أو طبيعتان ، على أن يؤمنوا بأن له ارادة واحدة وقضاء واحدا .

واختار مطران مدينة فاسيس بالقوقاز ، وكان يدعى قيرس ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والملكى ، أو الخليقدونى ، والمونوفيزنى فى مصر .

ولم يكد الأنبا بنيامين بطريرك مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى عهد اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع فى مدينة الاسكندرية للقساوسة والرعية وألقى فيهم خطابا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم الحقة حتى يوافيهم الموت وكتب الى الأساقفة يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ، ريثما يرفع الله عنهم غضبه ونقمته ، وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمغادرة الاسكندرية ، متوجها نحو الجنوب ... نحو الصعيد .

عهد جديد من الاضطهاد فى مصر :

ووصل قيرس الى الاسكندرية ، وحاول فى بادىء الأمر أن يشرح للناس فى رفق وكياسة حقيقة المذهب الجديد مذهب وحدة الارادة (المونوتليتى) وانه لا يختلف عن جوهر المونوفيزنى ، ولكنه لم يلق من عامة الشعب اذنا صاغية ، فعقد فى الاسكندرية مجمعا من الاساقفة والقساوسة الملكيين الذين أسرعوا الى اقرار النحلة الجديدة ، ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا .

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع فى حملة من الاضطهاد استمرت على رقاب العباد عشر سنوات ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعذيب والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون فى تاريخهم الطويل ، ويسوقون الأمثلة على ذلك أولها ما أصاب منياس شقيق الأنبا بنيامين « حيث سلطت نيران المشاعل على جسده فاخذ يحترق — حتى سال دهنه من جبينه الى الأرض — ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة بها رمل ، وتوغلوا به فى البحر واخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بما اقره مجمع خليقدونيا ، فلما أن اصر على الرفض رموا به فى البحر فمات غرقا » .

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص .

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماقة من جانب قيرس هى التى مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر ، فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى سلط عليهم قيرس ، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه ... فلما جاء المسلمون الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمحررين من رسل السماء .

٦٣٢ م — ١١ هجرية : وفاة رسول الله :

وفى هذه السنة فى يوم الاثنين ليلة الثانى عشر من ربيع الأول توفى محمد رسول الله صلوات الله عليه ، بعد أن أدى الأمانة وأتم الرسالة ، ونصح الأمة ولا يتسع هذا الكتاب المخصص لتاريخ مصر ، أن يفيض فى التعريف بدين الاسلام ويغنينا عن ذلك ان جمهور قراء هذا الكتاب من المسلمين الذين يعرفون تفاصيل دينهم ... ومع ذلك وجريا على سنتنا حتى الآن فى ايجاز المبادىء الأساسية للمعتقدات والأديان التى تعاقبت على مصر .

من المعروف والمشهور أن قواعد الاسلام خمس :

١ — شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

٢ — الصــــلاة .

٣ — الــــزكاة .

٤ — صوم رمضان .

٥ — حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا .

ولكن الذى يغيب عن أفهام الكثيرين حتى بين المسلمين المتعبدين أن هذه التقاليد والعبادات ليست مقصودة فى ذاتها ، وانما هى وسائل لتربية النفس لخير الجماعة الانسانية فى مجموعها ، فالله غنى عن العالمين ، وسواء آمنوا به أو لم يؤمنوا ، عبدوا أو لم يعبدوا فلن يضيره ذلك فى قليل أو كثير ... وانما العبادة وسائر التعــاليم انما كانت لخير العالمين ، فالرسول صلوات الله عليه يقول ... « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وهو يصف نفسه بأنه رحمة مهداة ويقول القرآن الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

فتوحيد ألاله هنا على سبيل المثال ، لايعنى سوى تحرر البشر من طغيان بنى الانسان ، فليس ثمة سوى اله واحد وجميــع النــاس عبيــد له ... فلا كهــان ولا قساوسة ، ولا وسطاء ، ولا طقوس ، أو هياكل ، فالله فى كل مكان أقرب لكل انسان من حبل الوريد — حسبه أن يدعوه ليجده سميعا مجيبا ، ويتفرع من هــذا المبدأ الأساسى بقية تعاليم الاسلام ، من مساواة بين المسلمين وحرية وأخاء ..

والصلاة ليست سوى تربية نفسية ليظل ضمير الانسان حيا ، عاكفا على أداء الواجب ومحاسبة النفس والسير على الجادة ... وهى بعد ذلك تزويد للانسان بسلاح يستعين به وقت الشدة وخلال الأزمات حيث لا يتصور نفسه وحيدا ضائعا فى الوجود وأن يدعو الله فيجده أقرب اليه من حبل الوريد .

والصوم لون آخر من الوان التربية تعويد النفس على احتمال المشاق والصــبر على المكاره ، ومن أجل تحقيق مثل أعلى .. وهو فوق ذلك تنبيه للانسان أن يقــدر معنى الجوع والظمأ ...

وأن يعمل على ألا يكون على ظهر الأرض جائع أو ظمآن . وذلك من خلال المبدأ الرابع « الزكاة » : فالزكاة هى طريق الاسلام ليقضى على الجوع والحرمان على ظهر الأرض ، فليس لانسان أن يستأثر بملك شىء من الأشياء الا أن يدفع منه جزءا للمحتاجين والمحرومين ، لا على سبيل المن والاحسان ، ولكن على سبيل أداء الواجب وتوفية الحقوق . . . فمال الغنى ليس من كسب يده ، وانما هو من صنع الجماعة كلها .

ويتكامل التهذيب الاسلامى وتربيته الاجتماعية والنفسية لخير الجماعة فى منسك الحج . حيث يتوافد المسلمون من كل فج عميق من اربعة أرجاء المعمورة ، ليحتشدوا حول بيت الله الحرام فى مكة ليتعارفوا فيما بينهم ، ولتتجلى وثاق وحدتهم فى اجتماع واحد ، حاشدا مرة فى كل عام ، لأقوياء المسلمين من كل لون ومن كل جنس ومن كل مدينة ، ومن كل طبقة ، ليذوبوا جميعا فى بوتقة واحدة هى بوتقة الايمان باله عادل رحيم يطلب منهم أن يتحابوا وأن يتعاونوا وأن يرحم بعضهم بعضا ويصل نسك الحج الى ذروته وهو يطلب من جميع الحجاج أن يخلعوا ملابسهم الا من قطعة قماش غير مخيطة تلتف حول جسدهم ، وأن يقفوا عاريى الرءوس . . وهكذا لا يعرف فيهم الملك او الامبراطور ، من أصغر الناس . .

فالكل ابناء الله . . . والكل عبيد الله . . . فلا استعلاء ، أو استكبار ولا استغلال ، ولا استعباد .

ذلكم هو روح الاسلام .

جزع المسلمين لوفاة الرسول :

وقد جزع المسلمون لوفاة رسول الله ، وحق لهم أن يجزعوا ، وليس هناك ما يصور هول ما أصيبوا به من موقف عمر بن الخطاب ، وهو من هو ، رجاحة عقل ، وقوة شكيمة ،وبعدنظر فقد أنكر أن يكون محمدا قد مات كما يموت سائر البشر وجرد سيفه وأعلن أنه سيقطع به رقبة كل من يكرر هذه القولة المفزعة ، ولم يكن سوى أبى بكر الصديق حبيب رسول الله وصفيه وخليله ، من تمالك رشده فى هذا الموقف العصيب وخرج على المسلمين الذين كاد الحزن يذهب بصوابهم وقال لهم قولته الخالدة : على مر الزمن : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، وتلا عليهم من القرآن : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

وهنا فقط زالت الغشاوة عن عين عمر وقلبه . . . وادرك من لم يكن قد ادرك ان رسول الله قد لحق بالرفيق الأعلى . فعمدوا الى اختيار خليفة له ليلى أمورهم .

خلافة أبى بكر الصديق :

وعلى الرغم من أن رسول الله . . . قد أشار اكثر من اشارة لرغبته فى ان يكون ابو بكر الصديق خليفته ، فقد آثر أن يدع الأمر لاختيار المسلمين من بعده ، لكى يكون

امرهم شورى بينهم ، وليضع القاعدة الأساسية من قواعد الاسلام فى الحكم ان لاحاكم الا ما اختاره الناس اختيارا حرا . فهو وحده الذى له عليهم حق السمع والطاعة .

ولذلك فقد اوشك المسلمون أن يفترقوا فيمن يولون واجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ليولوا احد كبرائهم خليفة لرسول الله ... لولا أن أدركهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فما كان ليلى الخلافة سوى واحد من قريش ممن قاموا مع رسول الله منذ اليوم الأول ... ورشح لهم عمر بن الخطاب ... ولكن عمر طلب من أبى بكر ان يبسط يده ليبايعه ، فلما أن بايع عمر ابا بكر تنبه الناس الى انه أحق المسلمين بالخلافة فأسرعوا جميعا لمبايعته .

وبايع الناس فى اليوم التالى ابا بكر فى المسجد بيعة عامة ...

فالقى خطبة موجزة تعتبر بحق والى الأبد دستور العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو هى العقد الاجتماعى قبل أن تعرفه أوروبا بأكثر من الف سنة والذى قال بوجوده الفلاسفة فى القرن الثامن عشر — واليك ما قال :

« أيها الناس أنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان اسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله — لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع فاحشة فى قوم قط الا عمهم الله بالبلاء ، اطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم : قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » .

ارتداد العرب :

وفوجىء أبو بكر الصديق أو بالأحرى فوجىء المسلمون جميعا بارتداد عرب الجزيرة عن الاسلام وتوقفهم عن أداء الزكاة التى ترمز لوحدة الدول العربية الواحدة ، والاعتراف بالقائد الواحد ، وامتلأت الجزيرة بأنبياء كذبة وادعياء النبوة من أمثال مسيلمة وطليحة وسجاح ، ولاذت كل قبيلة بنبيها المدعى لتعلن عن سلطانها واستقلالها عن قريش ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولم يتصوروا أن بقدرتهم أن يواجهوا العرب مجتمعين ، فأشاروا بالمهادنة والملاينة وكان على رأس الداعين الى ذلك عمر بن الخطاب .

ولكن رجلا واحدا امتلأ قلبه بالايمان الذى يزحزح الجبال — ذلك الرجل هو أبو بكر الصديق ، فقد أصر على أن لا سلام ولا مهادنة مع العرب المرتدين ، فاما الاذعان لما كانوا عليه أيام الرسول واما الحرب والقتال ... وأمعن أبو بكر الصديق فى الاعراب عن ايمانه العميق بالله وبرسالة محمد ، فاوفد الجيش الوحيد الذى كان يوجد بالمدينة ساعتئذ ، الى حدود شبه الجزيرة لمناوشة الروم . وانتصر ايمان أبى بكر ، وسحقت حركات الردة وقتل أدعياء النبوة ... وعادت من جديد جزيرة العرب موحدة تحت راية الاسلام ، ورأى أبو بكر الصديق بوحى من ايمانه وعلى هدى من بصيرته أن يوجه جموع العرب الى الآفاق ... لتواجه الروم والفرس ، وتدعوها الى الدين الجديد ، بعد أن رسخ الايمان به فى أعمق أعماق من كانوا يكفرون به ويتحدونه .

٦٣٣ م ـ ١٢ هجرية :

قام خالد بن الوليد بأول غارة على الامبراطورية الفارسية فاستولى على مدينـة الحيرة عاصمة المناذرة الدولة العربية التابعة للفرس .

٦٣٤ م ـ ١٣ هجرية :

بعد الانتصار ضـد أول جيوش الفرس ، اندفع خالد بن الوليد بنـاء على طلب الخليفة أبى بكر الى الشام ليواجه الجيوش البيزنطية فى سوريا وفلسطين فحصـل على أول انتصار ساحق على الروم فى موقعة أجنادين .

وفاة أبى بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب :

وفى اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة توفى أبو بكر الصديق بعد أن مكث فى خلافته عامين وثلاثة أشهر وتسعة أيام ، تعتبر فى طبيعتها استمرارا لحياة الرسول صلوات الله عليه ، وتثبيتا للرسالة وتدعيما لها .

ومات عن ثلاث وستين سنة على أصح الروايات ..

وقد استشار المسلمين قبل وفاته فيمن يخلفه بعده فأجمـع الكل على ولاية عمر بن الخطاب فأوصى به خليفة من بعده ولذلك فقد انتقلت الخلافة اليه بطريقـة آليـة .

٦٣٦ م ـ ١٥ هجرية : موقعة اليرموك :

كانت ولاية عمر للخلافة بمثابة قوة دافعة للجيوش الاسلامية التى مضت فى حربها ضد جيوش الفرس والروم فى آن واحد .

وكانت اعظم واقعة فى بلاد الشام بين المسلمين والروم هى واقعة اليرموك ، والتى ولى قيادتها « خالد بن الوليـد » على الرغم من عزل عمر بن الخطاب له وتوليـة أبى عبيدة . ويعتبر المؤرخون الأوربيون أن انتصار المسلمين فى معركة اليرموك على قلةعددهم على جيش الروم المنظم المدرب المحترف ، والذى كان يقوده تيودور شقيق الامبراطور هرقل والذى يعتبر مفخرة القواد البيزنطيين لبلائه فى الحرب ضد فارس ... يعتبرون انتصار العرب فى هذه المعركة لغزا استعصى عندهم على التفسير العـلمى .

وبانهزام الروم فى موقعة اليرموك ، استولى المسلمون على دمشق وحمص وسقطت حلب وانطاكية ... وقد شهد سكان هذه البلاد شيئا لا عهد لهم به من قبل ، فقد أقرهم المسلمون على دينهم .. وتركوا لهم انظمتهم وكنائسهم وأموالهم ... واكتفوا

منهم بالجزية التى لم تكن تزيد عن دينارين على كل راس ... وهو لا يكاد يؤلف جزءا صغيرا من الضرائب التى اعتادت بيزنطة والرومان من قبلهم أو الفرس من بعدهم أن يبهظوهم بها فكان لهذه المعـاملة المثالية أثر كبير فى اعتناق الكثيرين لدين الاسلام ومصادقة من لم يسلم للمسلمين ، مما كان له أكبر الأثر فى استمرار الفتوح .

٦٣٧ م – ١٦ هجرية : معركة القادسية :

انتصر سعد بن أبى وقاص على رأس جيش المسلمين فى واقعة القادسية التى حشد لها الفرس زهرة جيوشهم المدربة الباسلة ، والتى كانت تفوق فى العدد أضعاف المسلمين ، وكانت مزودة بالأسلحة التى لا عهد للعرب بها من قبل وخاصة بالفيلة ... وكان يقود الجيش الفارسى رستم كبير وزراء كسرى يزدجرد والذى أثبت كفاءته المنقطعة النظير .

وبانتصار المسلمين فى القادسية ، تهاوت مدن فارس الكبرى واهمها المدائن عاصمة فارس ، واستولى المسلمون على ايوان كسرى وكنوزه وذخائره .

٦٣٨ م – ١٧ هجرية :

استسلمت مدينة « أورشليم » (القدس) للمسلمين واشترط اسقفها منقرنيوس أن لايسلمها الا لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين نفسه ، فقصدها عمر بن الخطاب قاطعا الرحلة من المدينة الى بيت المقدس ، فى غير حاشية أو رفاق ، وليس يصحبه سوى تابع له فراح عمر يركب بعض الطريق بينما يمشى تابعه ، ثم ينزل ليركب تابعه .. حتى وصل فى لباسه البسيط المتواضع الى بيت المقدس ، فكانت هذه القداسة أفعل فى نفوس المسيحيين ، من الجيوش الاسلامية الظافرة ... وتناقلت الدنيـا أحاديث هذا الأمر العجيب .

الفصل الثامن

مصر الإسلامية

٦٣٩ م ـ ١٨ هجرية :

عمرو بن العاص يقترح على الخليفة فتح مصر :

فى هذه السنة شرع عمرو بن العاص يقنع عمر بن الخطاب الذى كان لا يزال موجودا بالشام أن يفتح مصر ، وراح يبين له المزايا التى ستعود من فتح مصر ، فى حرمان الروم من مواردها الوفيرة واستقرار المسلمين بها . ومضى يهون له من شأن هذا الفتح وانه لن يحتاج الى جيش كبير ، فقد سبق أن زار مصر ويعرف مسالكها وأحوالها وظروفها ، فأذن له عمر بن الخطاب على مضض ، فقد كان شديد الحرص على دماء المسلمين ، وعلى أن لايشتت قواهم شرقا وغربا فى الفتوحات ، وكانت جيوش المسلمين فى هذا الوقت القصير قد بدأت تضرب فى أنحاء فارس بعد أن استولت على كل بلاد النهرين وسوريا وفلسطين .

وسار عمرو بن العاص بجيشه المحدود الذى أجمع المؤرخون على أن عدته لم تربو على أربعة آلاف مسلحين بالسيوف والرماح والقسى ولا زيادة .

وثمة خلاف على الوقت الذى بدأت فيه الحملة على مصر ، فمن قائل أنها تمت فى السنة السادسة عشرة من الهجرة على ما روى الطبرى نقلا عن سغب ولكنه لم ـ يأخذ بهذا الرأى وأثبت تاريخ فتح مصر فى السنة العشرين من الهجرة .

٦٤٠ م ـ ٢٠ هجرية : فتح مصر :

حدث خلط كثير بين المؤرخين العرب فى كل ما يتعلق بفتح مصر وقد نشأ ذلك عن الخلط بين مصر البلد التى كانت تنصرف الى مدينة منف وحصن بابليون وبين مصر كلها كاقليم ... وكذلك بالنسبة لدخول المسلمين الاسكندرية صلحا ، ثم عودتهم اليها حربا .

ونحن نثبت هنا أرجح الآراء التى اتفقت عليها الأغلبية :

تقدم عمرو بن العاص بجيشه الى مصر ، حتى اذا وصل الى رفح أول الحدود المصرية لحق به رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة ، ولما كان عمرو بن العاص

يعرف بثاقب ذكائه مقدار تردد عمر بن الخطاب فى الاذن له بفتح مصر ، فقد غلب على خاطره أن يكون فى هذه أمر يصرفه عن غزو مصر ، ولذلك فقد تقاعس عن مقابلة رسول الخليفة واستلام الرسالة ومضى بجيشه نحو الأمام حتى وصل مدينة العريش وأصبح بذلك يوغل فى أرض مصر ، وهنا فقط استدعى الرسول وفض الرسالة ، فاذا بها تصدق حدسه وتخمينه ، وتشهد له بحسن البراعة والتقدير وأن الفضل فى فتح مصر وادخالها الى العالم الاسلامى يدين بالدرجة الأولى الى عمرو بن العاص ، فقد كانت رسالة الخليفة تقول له انه اذا تسلم الرسالة وهو لا يزال خارج حدود مصر فعليه أن يعود ادراجه ، ولا يمضى لهدفه .. أما اذا كان قد تجاوز الحدود المصرية بالفعل فقد أصبح لزاما عليه أن يمضى على بركة الله .

وأخبر عمرو بن العاص من حوله بمضمون الرسـالة وهو يخفى من غير شـك ابتسامة الاحساس بالنصر ... فأصبح لزاما طبقـا لأمر الخليفـة أن يمضوا نحو الأمام .

سقوط مدينة الفرما :

وكانت أول مقاومة قابلها المسلمون حول مدينة الفرما حيث كانت توجد بهـا حامية بيزنطية ، وبعد حصار ومناوشات استمرت شهرا سقطت المدينة فى يد المسلمين وانسحب منها الروم ، فكان ذلك أول الفتح ، فضاعف من عزائم المسلمين وقوى ايمانهم فى الوقت الذى أوهن من عزائم الروم وفت فى عضدهم . وكانت انتصارات المسلمين المذهلة على جيوش الروم والفرس ، قد بدأت تجعل الشعوب تؤمن بأن قوة المسلمين لا تغلب ... كما ان حسن معاملتهم للشعوب التى ذاقت الأمرين فى ظل الفرس والروم ، والعدل والأمانة التى اشتهرت بها هذه الطلائع الاسلامية قد فتحت لهم القلوب وأزاحت من طريقهم اقـوى العقبـات ... وهى كراهيـة الشـعوب ومعاداتها ..

سقوط مدينة بلبيس :

ولذلك فقد أعقب سقوط الفرما ، سقوط مدينة بلبيس ، بعد حصار ومناوشات استمرت شهرا آخر ، وانسحبت حامية المدينة بما انضم اليها من حامية الفرما المنسحبة الى حصن بابليون أقوى حصون مصر ومفتاحها فى الشرق .

معركة هليوبوليس :

وصل المسلمون الى حيث كان يقوم حصن بابليون (مصر القديمة) ـ فى الوقت الحاضر فوجدوه أمنع من عقاب الجو ، ولم يكن لدى جيش عمرو آلات الحصار ، ولذلك فقد رأى عمرو انه لا محل للتفكير فى الاستيلاء على الحصن عنوة ، وقد كان بداخله أضعاف أضعاف جنده من جنود الروم ، ولذلك فقد أرسل الى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ، ثم خلف حصن بابليون وراءه وراح يهاجم بجيشه الخفيف السريع حول مصر الوسطى ، فوصل الى الفيوم ودارت له معركة حامية الوطيس عند مدينة البهنسا خسر فيها بعض رجاله ولكن النصر كان حليفه فى ختامها ...

على انه لم يستول على الفيوم اذ وصلته الانباء ان مدد الخليفة قد وصل فعاد ادراجه للاتصال بالمدد . ولم يكن المدد الذى وصله سوى أربعة آلاف . وعلى أثرها اربعة آلاف اخرى على رأس كل منها صحابى جليل قومه عمر بن الخطاب بألف رجل وهؤلاء الأربعة القادة هم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ــ أو خارجة بن حذافة .

وهكذا تكامل لعمرو بن العاص جيش من اثنى عشر ألف مقاتل وصفها عمر ابن الخطاب بأنها لا تغلب عن قلة .

ولعل تيودور قائد الروم فى حصن بابليون قد تصور ان هذا الذى وصل من طلائع المسلمين هو أول المدد الذى لن يلبث أن يتزايد ويتضاعف .. فرأى أن يضرب ضربته قبل ان يستكمل المسلمون اهبتهم ، خاصة وقد كانوا بعددهم الضئيل لا يصلون الى ربع القوات التى كانت تحت امرته . فغادر الحصن الذى كان يلوذ به على رأس جيشه ليشتبك بجيش المسلمين عند هليوبوليس « مصر الجديدة فى الوقت الحاضر » وتكررت الأعجوبة التى اذهلت المعاصرين ولا تزال تذهل الباحثين حتى اليوم ، فهذا العدد المحدود من المسلمين ، قد تفوق تفوقا ساحقا على جيوش الروم المدربة المجهزة المحاربة فاذا بها تتمزق شر ممزق ، فيموت من يموت ، ويغرق فى النيل من يغرق . ويهــرب من يهــرب ... ويلوذ بحصن بابليــون من يلوذ ولكن كان من المحقــق أن الأمر قد قضى وان مصر قد سقطت ، كما سقطت الشام والعــراق من قبل ، ولكن بأيسر سبيل هذه المرة وبأقل جهد .

واسرع عمرو بن العاص فاستولى على قرية أم دنان « الازبكية حاليا » متخذا منها قاعدة على النيل يتحرك منها الى أى جزء من أجزاء مصر .

مفاوضات قيرس مع عمرو بن العاص :

من المحقق أن هوى قيرس حاكم مصر وبطريركها الملكى ــ كان مع المسلمين عندما دخلوا البلاد ــ كان شديد الرغبة فى التصالح معهم .

ولذلك فقد دخل عقب موقعة هليوبوليس فى مفاوضات مع عمرو بن العاص ــ انتهت الى اعداد مشروع معاهدة حفظ لنا الطبرى نصها لحسن الحظ :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الأمان على انفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لايدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينقص ، ولا يساكنهم النوب (النوبة) وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين الف الف وعليهم ماجنى لصوتهم (لصوصهم) فاذا أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة ، وان نقص نهرهم عن ثمانية ، رفع عنهم بقدر ذلك ..

« ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ قامتــه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم اثلاثا ، فى كل ثلث جبايته ثلث ما عليهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يبعثوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد وابناه وكتب وردان » .

وقد يكون قد وقع خطأ من النســاخ فى الرقم الوارد فى مقدار الجزية بهــذه المعاهدة ولكن هذا الخطأ الذى يمكن أن يوصف (بالمطبعى) لا يمكن أن يؤثر على سلامة المعاهدة فى مجموعها . فهى نموذج لما جرى عليه العمل فى الأقطار الأخرى ، ودستور المسلمين فى هذه الفترة .

وقد علق قيرس شرط ابرام المعاهدة نهائيا على موافقة هرقل امبراطور الروم ، والى أن تتم هذه الموافقة ، فعلى الجيوش أن تلزم مواقعها ولا يدور بين الطرفين قتال .

ولم يكد مشروع هذه المعاهدة الذى يمثل فى حقيقته تسليم مصر للمسلمين يصل الى هرقل ، حتى غضب وحنق على قيرس وأرســل يستدعيه الى القسطنطينية . حيث عنفه وعزله عن ولاية مصر ونفاه ، وارسل الى رجاله فى مصر ان يمضوا فى مقاومتهم للغزو الاسلامى .

٦٤١ م – ٢١ هجرية / انتصار المسلمين فى معركة نهاوند :

فى هذه الفترة انتصر المسلمون انتصارا ساحقا فى معركة نهاوند ، وبهذا انتهت الحرب مع فارس نهائيا ، اذ تساقطت أقاليمها كالرى وهمذان واذربيجان وجرجان وخراسان .

٦٤١ م – موت هرقل وسقوط حصن بابليون :

فى مارس من هذه السنة وصل نبأ موت هرقل امبراطور الروم الى المسلمين المحيطين بحصن بابليون ، فارتفعت من صفوف الجيش اصوات التكبير والتهليل ، فلما ان سأل المحاصرون فى الحصن عن علة التكبير وعلموا بنبأ موت هرقل فت ذلك فى عضدهم وكسر شوكتهم على ما يقول مؤرخو العرب ، فوهنت قوتهم وانهار عزمهم فى الوقت الذى تقوى فيه المسلمون حتى ان الزبير بن العوام تسور جدار الحصن من زاويته الجنوبية الشرقية شاهرا سيفه وكبر فرددت جموع المسلمين المحتشدين

أسفل الحصن التكبير وراءه ، فتصور من بالحصن ان المسلمين قد اقتحموا الحصن بالفعل ، فأرسلوا الى عمرو بن العاص يفاوضونه فى التسليم على ما سبق الاتفاق عليه وأجابهم الى ما طلبوا وفى يوم الاثنين ١٩ ابريل سنة ٦٤١ فى عيد الفصح غادر البيزنطيون حصن بابليون مسلمين الى عمرو بن العاص وجيش المسلمين ، ويلطم كثير من المؤرخين خدودهم ، ويرفعون أصواتهم بالاحتجاج والحسرة ، وعلى رأسهم بتلر ، كيف يسلم الروم هذا الحصن الذى ما كان باستطاعة العرب أن يأخذوه عنوة أبدا .

٦٤٢ م ــ ٢٢ هجرية : فتح مدينة الاسكندرية :

سارت الجيوش الاسلامية بعد فتح حصن بابليون نحو الاسكندرية فتصدت لها بعض الجيوش الرومانية ، فى بعض المواقع ، ولكن الهزيمة كانت تدور عليهم فى خاتمة المطاف وأخيرا وصلت جيوش المسلمين الى مشارف مدينة الاسكندرية ، ويعبر بتلر عن حسرته لسقوط الاسكندرية وهو يصور بعين الخيال ما كانت عليه المدينة الخالدة من عظمة بالقياس الى هؤلاء الاعراب الشعث الوجوه النحيلى الأجسام القليلى العدد وهم يتجولون وسط الحدائق وبساتين الكروم والأديرة الكثيرة بأرباضها فيقول فى وصف المدينة : لقد كانت الاسكندرية حتى ذلك الوقت تعتبر أجمل مدن العالم وأبهاها . فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعادلها اللهم الا روما وقرطاجنة القديمتين .

فما سرحت العين الا لتقع على أسوار وحصون لا نظير لها بقيت بعد ذلك قرونا وهى مثار اعجاب من رآها من أهل الاسفار وكانت تشرف وراء هذه الأسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها اسطوانى وبعضها مربع تقوم فوق قواعدها ، ومن تماثيل ومطابد وقصور تتلألأ وتتألق ، فاذا ماتياسرت رأيت دون ذلك معبد السيرابيوم وقد أناق بسقفه المذهب والقلعة التى كان يشرف عليها عمود دقلديانوس ، فاذا ماتيامنت بدت لك الكنيسة العظمى كنيسة القديس مرقس ، تليها العمد المربعة التى سميت مسلات كليوباترا والتى كانت قد عمرت نيفا والفى عام وفيما بين يمينك ويسارك يرتفع بناء المنارة الرائع (فاروس) والذى كان يعده الناس أحد العجائب السبع وحق لهم أن يفعلوا .

وكان من الممكن ان يقف المسلمون على أبواب الاسكندرية الى ماشاء الله دون أن يستطيعوا لها فتحا ... فقد كانت مفتوحة الى البحر الذى لا يوجد للمسلمين فيه اى سفينة فأصبح يستحيل حصارها ، وكان ماؤها موفورا وثروتها لا حد لها وكانت أسوارها لا يمكن اقتحامها ، بل لم يستطع المسلمون الاقتراب منها ، فقد انهالت عليهم قذائف المنجنيق ، وكانت المدينة تغص بعشرات الألوف من الجند ومرة أخرى يظهر قيرس فى الميدان ليسلم الاسكندرية للمسلمين فبعد وفاة هرقل ، تولى الحكم من بعده قسطنطين ابنه ، فاستدعى قيرس من منفاه ليستشيره فى أحوال مصر ، وسبيل الدفاع عنها ، على أن قسطنطين لا يلبث أن يموت ليلى العرش بعده أخوه

هرقلوناس الذى شـاركه فسكانز فى الحكم ، فاتفقا على أن يبعـدا قيرس الى مصر ليعقد صلحا مع المسلمين بعد أن بين لهم استحالة الدفاع عن مصر .

وفى نوفمبر سنة ٦٤١ م أبرم قيرس معاهدة جديدة على غرار معاهدة بابليون على أن يسمح لجيش بيزنطة أن يغادر الاسكندرية وان يحمل جنوده أمتعتهم وأموالهم وكذلك كل من يرغب فى مغادرة الاسكندرية من رعاياها .

وان يتعهد المسلمون أن لايتعرضوا للكنائس .

وتم الاتفاق على أن يتم الجلاء بعد أحد عشر شهرا .

وفى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ انسحب الروم حسب الاتفاق ودخل المسلمون مهللين مكبرين الى مدينة الاسكندرية فى هدوء وسلام .

وكان قيرس قد مات خلال هذه الفترة من الهدنة :

عمرو بن العاص يكتب للخليفة :

وأرسل عمرو بن العاص يبشر عمر بن الخطاب بالفتح ويقول له « ان الله فتح علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، واربعمائة ملهى واثنى عشر ألف بائع خضر ، وأربعين ألفا من اليهـود أهل الذمة وقد يكون فى هذه الأرقام بعض المبالغة كما هى العادة . . .

ولكن الأمر المجمع عليه أن الاسكندرية حتى ذلك الوقت كانت أعظم مدن العالم التجارية بصفة عامة وليس يفوقها أو بالأحرى يضاهيها من حيث العمران فى هـذه الفترة سوى القسطنطينية وربما روما .

هل حرق المسلمون مكتبة الاسكندرية :

وقد نسب بعض مؤرخى المسلمين « المتأخرين » الى جيش المسلمين الفـاتح للاسكندرية أنه أحرق مكتبة الاسكندرية .

وقد رأينا فيما مر بنا من أحداث أن هذه المكتبة قد احترقت من قبل . وليس لكتاب بتلر من حسنة سوى أنه جهد نفسه فى هذه الناحية لاثبات زيف هذه الفرية وبطلانها وكيف انها لم ترد فى أى من مصادر التاريخ الاسلامى أو البيزنطى أو القبطى التى كتبت فى القرون التى أعقبت الفتح . وان جميع الذين زاروا الاسكندرية قبل الفتح الاسلامى لم يشيروا الى وجود مكتبة بها .

انشـاء مدينة الفسطاط :

وكشف المسلمون عن طبيعتهم الصحراوية فلم يتخذوا من الاسكندرية عاصمة للبلاد ، ويرجع ذلك الى عبقرية عمر بن الخطاب ، الذى أصر على أن يحافظ جيش المسلمين على تقشفه وطهارته فأشار فى كل قطر دخلوا اليه الى انشاء مدينة جديدة يوافق جوها مزاج العرب وتقع على حافة الصحراء ، وعلى هذا الأسـاس انشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط بالقـرب من حصن بابليون اما سبب تسـميتها

بالفسطاط ، فيرجع الى أن المسلمين عندما حلوا خيامهم من حول حصن بابليون ، ليستأنفوا زحفهم نحو الاسكندرية اكتشفوا ان حمامة ، قد عششت فى خيمة عمرو بن العاص وأفرخت ، فقال عمرو بن العاص انها نزلت فى حماية المسلمين ، فطلب منهم أن يبقوا الفسطاط على حاله اكراما لها . فلما ان رجع الجيش من الاسكندرية تساءلوا أين ينزلون فقال البعض عند الفسطاط فكان ذلك هو اسم المدينة الجديدة .

لم ترق هذه القصة التى أجمع عليها مؤرخو العرب الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه ــ تاريخ مصر الاسلامية ــ ولذلك فهو يناقشها مناقشة عقلية يستبعد بها أن تعشش حمامة على فسطاط عمرو بن العاص . وهو يرجح برأى مؤرخى الفرنجة من ان كلمة فسطاط قد أخذت عن الكلمة الاغريقية Fossatum اى المدينة ــ وان كان يرى أن الفسطاط كلمة عربية الأصل بمعنى المدينة والذى فات الدكتور الشيال ان وجود كلمة الفسطاط فى المعاجم العربية بمعنى ــ المدينة لا يمنع أن تكون منقولة عن اليونانية ، كما فاته أن يفسر لنا ، اذا كانت كلمة الفسطاط تعنى أى مدينة فلماذا اختصت مدينة الفسطاط التى أنشأها عمرو بهذا الاسم دون أى مدينة أخرى أنشأها العرب ، حتى ليقولون على ما فعل هو نفسه :

« سميت البصرة فسطاطا على التشبيه بفسطاط مصر » .

المسجد الجامع : أو مسجد عمرو بن العاص :

وكان أول مبنى أقيم فى المدينة هو المسجد الجامع جريا على عادة المسلمين فى هذه الفترة ، فخط مسجد عمرو الذى لايزال باقيا حتى الآن وكانت مساحته يوم أن انشأه عمرو بن العاص لا تتعدى خمسين ذراعا فى ثلاثين ، ولم يلبث هذا المسجد أن تحول الى مركز اسلامى علمى ، فيه محدثون من الصحابة ومن التابعين وتابعى التابعين ، والاجماع على أن أستاذ المعهد الأول هو الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ، الذى يشهد له الكل بالتفقه فى الدين ، وينسب اليه انه من أول ــ أو لعله الوحيد الذى كتب أحاديث رسول الله .

ترعة أمير المؤمنين :

وليس هناك ما يكشف عن عبقرية عمرو بن العاص وكأنه قد ولد مفطورا على الادارة والقيادة ، من انه عكف أول ما أستتب له الأمر على تطهير هذه القناة التى كانت مقياسا دائما على مدى رقى مصر أو تدهور أحوالها ، فكانت هذه القناة تطهر وتستعمل كلما صلحت الأحوال فى مصر ، وتردم كلما تدهورت الأحوال ، ونعنى بها هذه القناة الموصلة من النيل الى البحر الأحمر ، والتى كانت سبيل التجارة بين الشرق والغرب عبر النيل ، وقد كان آخر من طهرها واستعملها هو تراجان ولذلك أطلق اسمه عليها ، أما هذه المرة فقد أطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين ، ذلك أنها اصبحت الطريق الرئيسى لحمل الغلال وسائر الأقوات من مصر الى المدينة .

الأنبا بنيامين يتبوأ كرسيه فى الاسكندرية :

بادر عمرو بن العاص باشعار اقباط مصر بروح التسامح الاسلامى ، واحترامه لمختلف العقائد فأصدر كتاب أمان للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط هذا نصه :

« أينما كان بطريق الأقباط بنيامين نعده بالحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته » .

ولم يكن بنيامين يطمع فى أكثر من ذلك لكى يظهر من مخبئه ويدخل الى الاسكندرية دخول الظافرين حيث احتفل به الشعب احتفالا رائعا بعد غيبة ثلاثة عشر عاما .

وقد كان لهذه السياسة التى انتهجها عمرو بن العاص بوحى من تقاليد الاسلام اثرها المباشر فى نفسية المصريين ، اذ بدأوا يدخلون فى دين الاسلام وعندما تيقنوا ان الدخول فى الاسلام يعفيهم حقا وصدقا من دفع الجزية ويرتفع بهم الى مرتبة الحاكمين ... تدفقوا باعداد غزيرة ...

بحيث لن يمضى كبير وقت ، حتى لا يبقى على دين المسيحية سوى الرهبان فى اديرتهم ورجال الدين بصفة عامة ، والأغنياء والقادرون على حماية أنفسهم ورعاية مصالحهم .

الشعب المصرى عند الفتح :

واذ نوشك الآن ان ندع مصر المسيحية لنشرع فى تاريخ مصر الاسلامية نرى ان نثبت وصف المقريزى لشعب مصر عند الفتح الاسلامى .

« اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأجناسهم مختلفة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل ، من غيره وكلهم يعاقبه فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكيين أهل الدولة — من العداوة ما يمنع زواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضا » (١) .

٦٤٣ م — ٢٣ هجرية :

وهى أرجح التواريخ فى رأى بتلر لفتح ليبيا ولكن أمين باشا سامى يجعل هذه الواقعة فى السنة السابقة ومن رأينا أن فتح ليبيا أعقب فتح الاسكندرية .

(١) المقريزى — الخطط — ج ٤ ص ٢٩٣

وقد وصلت جيوش عمرو الى برقة فى غير كبير مشقة ، وسلمت المدينة صلحا على أن تدفع للمسلمين ثلاثة عشر الف دينار جزية معلومة كل سنة ، ثم سار الجيش بعدها الى طرابلس وكانت أمنع حصونا ، وأعز جندا ، ولكنه لم يحل دون اقتحام عمرو للمدينة والاستيلاء عليها ، وهكذا دخلت ليبيا كلها تحت ولاية عمرو بن العاص فى ظل الحكم الاسلامى .

٦٤٤ م — ٢٣ هجرية : استشهاد عمر بن الخطاب :

فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من عام ٢٣ هجرية ، اغتال أبو لؤلؤة فيروز المجوسى عبد المغيرة بن شعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو قائم يصلى فى المسجد وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وكان عمره يوم وفاته **نيفا وستين سنة على أرجح الآراء .**

ودفن الى جوار صاحبيه محمد رسول الله وابى بكر باذن خاص من السيدة عائشة . وسيرة عمر وحكايات عمر وزهد عمر وعدالة عمر وحزم عمر وتقشف عمر ، قد كتبت فيها وسنظل نكتب مئات الألوف من الصفحات ، فهو عصر الاسلام فى ذروته ، فى حقيقته وجوهره ، فى نقائه وطهارته ، ولذلك فمن العبث أن نشوه ذلك بالاشارة الى بعض هذه الجوانب ، فهى أشهر من أن تعرف .

ولو حاولنا أن نقف عند حد وصفه بانه كان أول من فعل كذا وكيت لاحتاج الأمر بدوره الى صفحات وصفحات ولذلك فنكتفى ببعض العبارات التقليدية التى لا يخلو منها كتاب مهما كان مختصرا .

فعمر بن الخطاب أول من نقل الدعوة الاسلامية من السر الى العلن ولذلك أطلق عليه اسم الفاروق وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين ، وأول من سن للمسلمين العمل بالتاريخ الهجرى ، وأول من وضع الخراج بدلا من نزع الأرض من تحت يد المنتفعين بها وأول من مصر الامصار فأمر بانشاء البصرة والفسطاط وأشار بطرق تخطيطهما ، وأول من استقضى القضاة ، ودون الدواوين ، بحيث كان يوزع على كل مسلم ابتداء من الطفل المولود حتى كبار الشيوخ قدرا من المال يكفى لاعاشته وبالجملة فهو مرسى قواعد الدولة الاسلامية بحق وواضع دستور الحكم بها ، استنادا على روح الاسلام والقرآن وسنة الرسول .

خلافة عثمان بن عفان :

وقد عهد عمر بن الخطاب بعد استشارة أولى الرأى الى ستة من كبار الصحابة ليتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده ، وهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف فانتهى الأمر بهم الى اختيار عثمان بن عفان ، فأصبح بذلك ثالث الخلفاء الراشدين .

٦٤٥ م ــ ٢٥ هجرية : عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر :

وكان من أول ما فعله عثمان بن عفان ، ان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعهد بولايتها الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وهو أخ لعثمان بن عفان من امه وكان ذلك فاتحة التصرفات التى أخذت على عثمان بن عفان من أنه يعزل الولاة الصالحين لحساب أفراد عائلته ، والاجماع على أن حكم عمرو بن العاص كان آية فى العدل والاصلاح ، وكان آخر ما جباه من الجزية فى مصر اثنى عشر ألف ألف دينار ، ولما كانت الجزية كما ذكرنا من قبل هى دينارين على الفرد القادر البالغ من العمر اثنى عشر عاما حتى الستين ، وهؤلاء يؤلفون عادة ثلث السكان فان ذلك يدل على ان عدد سكان مصر فى هذه الفترة كان يبلغ ثمانية عشر مليونا .

عودة الروم الى الاسكندرية :

وكان الروم استغلوا فرصة ابعاد عمرو بن العاص عن مصر فأرسلوا اسطولا وصل مدينة الاسكندرية . فلم ير عثمان بن عفان الا أن يعيد عمرو الى مصر على راس الجيش ، فاستطاع عمرو بن العاص هذه المرة أن يقتحم أسوار المدينة عنوة ، ولذلك فقد نكل بالجيوش الرومانية التى نكثت بعهدها معــه ، اذ كان أحد بنود الاتفــاق أن لا يعودوا لغزو مصر ...

وفى هذه المرة هدم عمرو اسوار مدينة الاسكندرية الشرقية وسواها بالأرض حتى لا تعود للوقوف فى وجهه مرة ثانية .

اتخاذ الأساطيل الاسلامية :

وقد أثبت هذا الحادث فى غير خفاء ، أن لا معدى للمسلمين من اتخاذ الأساطيل فى البحر ، بعد أن خرجت دولتهم من الصحراء ، وأصبحت على ساحل البحر ، وكان عمر بن الخطاب شديد الخوف على المسلمين من ركوب البحر حيث لم يكن لهم عهد به من قبل ولذلك فقد رفض ما أشار به عليه معاوية بن ابى سفيان من ضرورة اتخاذ الأساطيل فى البحر . ولكن عثمان بن عفان صرح لمعاوية بانشاء أسطول فى البحر الأبيض .

٦٤٨ م ــ ٢٧ هجرية : فتح افريقية :

فتح عبد الله بن سعد أمير مصر افريقية « قرطاجنة القديمة » بعد معركة ضارية ، ودارت مع من يسميه مؤرخو المسلمين جرجير ملك البربر « وهو جريجورى بطريق

افريقية » وكان قد استقل بها عن بيزنطة ، وكان جيشه يزيد على مائة ألف ويجعله بعضهم مائتى الف ، فكانت النصرة لجيوش المسلمين وفتح الطريق أمام المسلمين غربا حتى المحيط .

٦٤٩ م ــ ٢٨ هجرية : فتح قبرص :

تمكن معاوية بن ابى سفيان والى الشام من فتح جزيرة قبرص مستخدما لأول مرة سفنا صنعت فى الاسكندرية ومرافىء الشام فكانت هذه هى أول غزوة يشنها المسلمون بحرا .

٦٥١ م ــ ٣١ هـ . موت كسرى يزدجرد :

وأخيرا مات كسرى يزدجرد ، قتله آخر من بقى حوله من أتباع وبهذا انتهت الأسرة الساسانية التى رفعت من شأن الفرس كأعظم ما تحقق لهم فى يوم من الأيام ...

وبموت يزدجرد طويت صفحة فارس عابدة النار لتبدأ فارس الاسلامية صاحبة الصفحات المشرقة فى تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ..

٦٥٢ م ــ ٣١ هجرية : فتح بلاد النوبة :

غزا أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح بلاد النوبة حتى وصل الى دنقلا فطلب النوبيون الصلح فعقد لهم معاهدة على غرار المعاهدات التى اعتاد المسلمون أن يبرموها مع أهل الذمة ... غير أن الجزية التى كان عليهم أن يدفعوها هى تقديم عدد من العبيد سنويا .

٦٥٥ م ــ ٣٤ هجرية : غزوة ذات الصوارى البحرية :

اعد قسطانز الثانى امبراطور بيزنطة اسطولا كبيرا يتراوح عدد سفنه ما بين ٧٠٠ الى الف سفينة وذلك بقصد اعادة فتح مدينة الاسكندرية مرة اخرى .

غير أن امير مصر عبد الله بن أبى السرح كان قد أدرك بدوره أهمية الأسطول البحرى ، وصنع له الاسكندريون ، أسطولا يتألف من مائتى سفينة زودت بالبحارة السكندريين المتمرسين على القتال وبالرغم من ضآلة هذا العدد بالنسبة لحجم الأسطول البيزنطى ، وكون المسلمين قريبى عهد بركوب البحر ، فقد تصدى عبد الله ابن أبى السرح بأسطوله الوليد ، للأسطول البيزنطى ، واقتربت السفن من بعضها وجرت معركة التحام بين المسلمين والبيزنطيين انتهت بما نسميه الكارثة بالنسبة

للبيزنطيين بحيث نجا الامبراطور قسطانز من الموت بشق النفس حيث هرب على ظهر احدى السفن السريعة .

وقد اخذت هذه المعركة فى التاريخ اسم معركة ذات الصوارى اشارة لكثرة صوارى السفن التى كانت محتشدة فيها .

والرأى على أن هذه أضخم معركة بحرية شهدها البحر الأبيض بعد موقعة اكتيوم .

وليس هناك ما يدل على مدى ما حققته هذه المعركة من أثر ، ان بيزنطة كفت بعدها عن كل نشاط بحرى ضد البلاد الاسلامية . ومن عجب أن المسلمين بدورهم لم يحرزوا فيما بعد معركة مماثلة من حيث الأهمية .

٦٥٥ م – ٣٥ هجرية : ثورة المسلمين فى مصر على عثمان بن عفان :

خرج عبد الله بن ابى السرح أمير مصر متوجها الى المدينة للتشاور فيما يبدو مع سيدنا عثمان بن عفان فى هذه الأحداث التى بدأت تصدع العالم الاسلامى ، فقد ارتفعت الأصوات من كل جانب تتهم عثمان بن عفان بخروجه عن العدالة ومحاباة ذوى قرباه من الأمويين الذين كانوا آخر من دخل الاسلام ، وتاريخهم كله حرب على رسول الله ، وذلك كله فضلا عن انحرافه عن طريق صاحبيه من قبله أبو بكر وعمر بن الخطاب .

وقد بدأ النقد والملاحظات على تصرف عثمان بن عفان فى المدينة أولا ، من صحابة رسول الله واقطابهم ، وعلى رأسهم على بن أبى طالب ، وطلحة والزبير ، والسيدة عائشة أم المؤمنين ... باعتبارهم الأمناء على دين الله ودستور الحكم الاسلامى ، وتسربت أقوالهم وانتقاداتهم الى الأقطار ، فارتفعت موجة النقد ضد تصرفات عثمان بن عفان .

وحدث أن أسلم يهودى من صنعاء ويدعى عبد الله بن سبأ وقيل انه لم يرد من اسلامه الا تخريب الدعوة الاسلامية من داخلها وسواء صح ذلك ، فان نشاطه قد أدى الى ذلك فقد راح يتنقل فى حواضر العالم الاسلامى مندداً بتصرفات عثمان فى تولية اقاربه وعزل الأكفاء من الصحابة وراح يحمل على الطبقة الجديدة من الأغنياء ويغلو فى تقديس شخصية على بن ابى طالب باعتباره هو وحده الذى يمثل روح الاسلام وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حل به فى البصرة والكوفة والشام ، فوصل الى مصر أخيرا . فصادفت دعوته لخلع عثمان هوى فى النفوس فقد كان المصريون مسلمين واقباط على خلاف مع عثمان بن عفان لخلعه عمرو بن العاص عن إمارة مصر ، وهو الذى لم يشهد المصريون مثل ما شهدوه فى عهده من أمان لدينهم وأموالهم .

وكان المسلمون المقيمون فى مصر ، ينقمون على عبد الله بن ابى السرح الذى عينه عثمان اميرا على مصر ، لانه ارتد عن الاسلام أيام الرسول صلوات الله عليه حتى لقد اهدر دمه ولم ينقذه الا عثمان يوم الفتح .

ونقم المصريون عليه اشتداده فى تحصيل الضرائب ، فحيث اقتصرت جباية عمرو بن العاص طول سنى امارته على ١٢ مليون دينار . كان ينفق الجزء الأكبر منها على اصلاح أحوال مصر ... فقد رفع عبد الله بن أبى السرح الجباية الى ١٤ مليون دينار ، دون أن يخصص ما كان عمرو بن العاص يخصصه لاصلاح شئون البلاد . وذلك كله بالاضافة الى أن عبد الله بن ابى السرح كان مشغولا أكثر أيامه بالغزو والفتح فلم يخصص لشئون البلاد ماتحتاجه من عناية ورعاية .

لكل هذه الأسباب ، اشتعلت نيران الفتنة فى مصر ضد عثمان وأميره على مصر .. فاستدعى عثمان : عبد الله بن أبى السرح ، أو لعل عبد الله بن أبى السرح رأى هو أن يقصد الخليفة ليتباحث معه فى هذه الأزمة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى وتوجه الى المدينة .

محمد بن أبى حذيفة يستولى على امارة مصر :

ولم يكد عبد الله بن ابى السرح يغادر مصر . حتى استغل الفرصة محمــــد ابن ابى حذيفة ، وهو أحد زعماء الجند الاسلامى فى مصر من القرشيين فجمع حشدا من الجنود والساخطين ، وهاجم عقبة بن عامر وهزمه واخرجه من مدينة الفسطاط ودعا الناس الى خلع عثمان بن عفان من الخلافة .

ووصل الخبر الى عبد الله بن ابى السرح وهو فى الطريق نحو المدينة ، فكر راجعا الى مصر ، ولكن رجال محمد بن ابى حذيفة تصدوا له وحالوا بينه وبين الدخول الى مصر وقاتلوه . فانسحب الى فلسطين . حيث لا يعرف ما الذى انتهى اليه أمره وان كان الرأى على أنه لم يلبث أن قتل فى مدينــــة الرملة . وانحازت شيعة عثمان وعلى رأسهم معاوية بن خريج وخارجة بن حذافة ويسر بن ارطاة ومسلم بن مخلد الى مدينة خربتا .

مصرع خليفة المسلمين عثمان بن عفان :

فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة من هذا العام « ٣٥ هجرية » قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بعد حصار دام حول بيته أربعين يوما ، وقام به جيش من ستمائة مقاتل وفد من مصر بعد أمور وحوادث وقعت بينهم وبين الخليفة وجماعات اخــرى وفدت من البصرة والكوفة اجمعت كلهــا على خلع عثمان ، وكان يتزعم الثائرين محمد بن ابى بكر الصديق . ووقف كبار رجال الصحابة بالمدينة وعلى رأسهم سيدنا على بن ابى طالب من هذا الحصار موقفا سلبيا ، وان كانوا قد ارسلوا اولادهم ليدافعوا عن عثمان ويحولوا دون دخول الثائرين اليه .

وقد خشى الثائرون من طول الحصار ، ان يصل اليهم جيش من الشام قبل ان معاوية سيبعث به ، فرأوا ان يحسموا الموقف بقتل عثمان الذى رفض بكبرياء واصرار أن يتنازل عن الخلافة ، واذ كان اقتحام مدخل البيت متعذرا ، فقد تسوروا سطح البيت من البيوت المجاورة ، ونفذوا الى داخل حجرات عثمان ، ولم يحمه انه جلس يتلو فى كتاب الله ... فقد انقض عليه بعض الوافدين من مصر كما يقول المؤرخون . فضربوه ، وطعنوه ، ولم يلبثوا أن قتلوه بالسيف ... بينما وقفت الى جواره زوجته نائلة تدفع عنه باستماتة ، فقطعت أصابعها وسالت دماؤها الى جوار دم زوجها الشهيد عثمان بن عفان على المصحف .

وهكذا تمت هذه المأساة او الكارثة فى حياة الأمة الاسلامية فكانت بدء أحداث مفجعة اغرقت الأمة الاسلامية خلال خمس سنوات فى طوفان من الدم ...

ولولا قوة الدين الاسلامى وعمق ما ينطوى عليه من حق وصدق لكفت هذه الفتنة للقضاء عليه ، ولكنه خرج منها كما خرج من كل فتنة لحقت به ، وهو أشد قوة وحيوية ونضارة .

ولا يتسع المجال هنا لبحث الظروف والأسباب التى أدت الى هذه الفتنة ، ومحاولة توزيع اللوم على هذا الجانب او ذاك ، فلذلك كتبه المتخصصة لمن اراد المزيد من البحث .

أما الآن فحسبنا أن نقرر أن عثمان بن عفان كان من اول خمسة سبقوا الى الاسلام ، وانه تزوج رقية ابنة رسول الله فلما توفيت زوجه الرسول أختها أم كلثوم ومن هنا كان يسمى بذى النورين وفى أيامه اتسعت فتوحات المسلمين فوق اتساعها ، وركبوا البحر بعد ان كان عمر بن الخطاب يحظره عليهم . وهو صاحب الفضل الأول فى نسخ القرآن وتوزيعه على الامصار محققا بذلك معجزة القرآن من قيامه بنص واحد عبر ثلاثة عشر قرنا والى ما يمتد من الزمان .

وكان يوم قتل شيخا نيف على الثمانين ، وكانت مدة خلافته اثنى عشر عاما الا أياما .

خلافة على بن أبى طالب :

اقبل الثائرون الوافدون من مصر والبصرة والكوفة عقب مقتل عثمان بمبايعة على بن أبى طالب ، ولكنه رفض بيعتهم على أساس أن ذلك ليس لهم وانما للصحابة ممن حضروا بدرا ، وانفة منه أن يلى الخلافة بعد هذا الحدث المروع . فاختبأ عن أعين الناس فى بعض المنازل ولكنهم عرفوا مكانه فطرقوا الباب وولجوه عليه . وجاءوا هذه المرة بطلحة والزبير ، وقالوا له : ان هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ، ولم يزالوا به حتى أجاب شريطة أن يتم ذلك فى المسجد . فبايعه عامة المسلمين ، وتخلف البعض عن بيعته ، وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من ذى الحجة وكان على بن ابى طالب يرى نفسه أحق من يلى الخلافة ليس بعد مقتل عثمان بل وقبل توليه بل ورنا ببصره

اليها عقب وفاة رسول الله ، فهو زوج السيدة فاطمة بنت رسول الله ، ووالد السبطين الحسن والحسين قرة عين رسول الله ... ولكنه قبل ذلك كان ربيب رسول الله الذى تعهده بالرعاية منذ صباه المبكر ، وكان لهذا أول من أسلم من الصبيان ... وكان هو الذى افتدى رسول الله بنفسه ليلة الهجرة ، وآوى الى فراش الرسول ليوهم المشركين المتربصين لقتل الرسول انه لايزال نائما على فراشه معرضا بذلك نفسه للقتل .

وكان هو فارس المسلمين غير منازع والذى تحقق النصر فى أكثر من غزوة على يديه أو بسبب شدة قتاله .

وهو بعد ذلك وقبل ذلك كله مستودع العلم الاسلامى وامامه ، وهو المستشار والمرجع لأبى بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان .

فلا يعتبر توليه الخلافة بعد هذا الظرف العصيب ، انتهازية ووصولا الى ما ليس من حقه أو هو به غير جدير ...

ولكن شاءت المقادير ، أن لا تصل اليه الخلافة الا وقد حفت بها المكاره .

على يعزل كل ولاة عثمان :

وكان أول ما فعله سيدنا على بمجرد تسلمه الخلافة ان عزل جميع ولاة عثمان على الأمصار ، وذلك على عكس المشورة التى وجهت اليه وهو ان يبقيهم على أعمالهم حتى تتم البيعة له ، ثم يعزلهم بعد ذلك .

وقد رفض معاوية بن ابى سفيان ، قرار عزله واعلن توليه المطالبة بدم عثمان . واذ كان معاوية قد استقر على امارة الشام أيام عمر بن الخطاب ، وطوال أيام عثمان ... فقد كان سلطانه قد تدعم فيها ، ولم يعد أهل الشام يعرفون لهم قائدا غيره ... وكان ذلك أول الفرقة والتصدع بين صفوف المسلمين .

٦٥٦ م ــ ٣٦ هجرية : واقعة الجمل :

ولم يلبث الخلاف ان اخذ صورة القتال الدموى ؛ ذلك ان الزبير بن العوام وطلحة وقد كانا أول من بايع سيدنا عليا ، أعلنا انهما قد بايعا مكرهين ، وخرجا من المدينة قاصدين مكة ، حيث التقيا فيها بعائشة أم المؤمنين التى روعها مقتل عثمان على الرغم من انها كانت تؤلب عليه ... وقرر الثلاثة ومن انضم اليهم ان يطالبوا بالاقتصاص من قتلة عثمان ، وساروا نحو العراق لهذا الفرض ، واخرجوا والى البصرة واعتدوا عليه فقصد اليهم على بن ابى طالب ، وعبثا حاول اقناع القوم بالكف عن الخلاف والشقاق ودارت بين الجانبين موقعة رهيبة اشتهرت فى التاريخ باسم موقعة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة أم المؤمنين والذى كان كالعلم

للجيش فاستمر القتال حوله الى أن عقر الجمل وخر الى الأرض . وكانت الغلبة فى النهاية لعلى بن أبى طالب وأعاد السيدة عائشة الى المدينة معززة مكرمة بعد أن عاتبها على ما وقع منها .

ولكنه كان انتصارا مؤلما ، فقد مات فى الموقعة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهما من المبشرين بالجنة وقتل من المسلمين والصحابة مالم يقتلوا من قبل فى معركة من المعارك ... ولكن هذه المرة بأيدى اخوانهم واصحابهم فى الدين .

٦٥٧ م ــ ٣٧ هجرية : امارة قيس بن سعد بن عبادة على مصر :

لم يقر على بن أبى طالب محمد بن أبى حذيفة الذى كان قد غصب امارة مصر كما رأينا ، فأرسل قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر وذلك فى مستهل ربيع الأول من هذه السنة .

ولم يكد قيس يصل الى الفسطاط حتى صعد على المنبر فى الجامع الكبير وتلا على المصلين كتاب أمير المؤمنين الى مسلمى مصر ، وهو خطاب بصدد أحداث ذلك الزمان ولذلك نثبته بنصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ــ من عبد الله على بن ابى طالب أمير المؤمنين . الى من بلغه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين سلام الله عليكم ، اما بعد فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، واصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقد توفى رسول الله ، واستخلف بعده خليفتان صالحان عملا بالكتاب والسنة واحسنا السيرة ثم توفاهما الله تعالى ، ثم ولى بعدهما وال أحدث أحداثا فوجدت عليه الأمة مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه وغيروه ، ثم جاءونى وبايعونى ، ولله على العمل بكتابه وسنة رسوله ، والنصح للرعية ما بقيت والله المستعان .

وقد بعثت اليكم بقيس بن سعد بن عبادة أميرا فوازروه وعاشروه وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالاحسان الى محسنكم ، والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه ، وارجو صلاحه ونصيحته ، وأسأل الله لنا ولكم عملا صالحا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة .

والسلام عليكم » .

يقول تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة :

وبعد أن تلا قيس الخطاب قال : أيها الناس قد جاء الحق وزهق الباطل ، مابايعنا الا من هو خير من نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان نحن لم نعمل بها فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس وبايعوا ــ واستقامت أحوال مصر .

معاوية يوقع بين على وقيس :

واذ كان معاوية يعلم خطر مصر فى تدعيمها لجانب سيدنا على ، واذ كان يعلم من ناحية اخرى قوة مراس قيس بن سعد وانه كفيل بتحويل مصر الى قاعدة قوية لمؤازرة على فقد استعمل دهاءه للايقاع بين على وقيس فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معــه ، فنجحت خططه وأساليبه وعزل سيدنا على قيسا ابن سعد من مصر ، فلم تدم امارته الا أربعة أشهر وخمسة أيام .

امارة محمد بن أبى بكر الصديق :

جرى الخلاف فيمن ولى مصر بعد انصراف قيس بن سعد عنها ، فقيل هو محمد ابن أبى بكر الصديق ، وقيل بل هو الاشترالنخعى وجاءت ولاية محمد بن أبى بكر بعده ويرجح تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، ان يكون محمد بن أبى بكر قد ولى الأمور فى مصر على وجه منالوجوه عقب انصراف قيس بن سعد عنها ، فلما لم يحسن التصرف نظرا لحداثة سنه استبدله على بن ابى طالب بالاشترالنخعى عقب فراغه من موقعة صفين .

واقعــة صــفين :

فى شهر ذى الحجة من هذه السنة ، كانت موقعة صفين وهى التى تقابلت فيها جيوش الشام وعلى رأسها معاوية مطالبة بدم عثمان ، بجيوش العراق وعلى راسها على بن أبى طالب وذلك عند بلدة صفين على شاطىء نهر الفرات الغربى يقدرها البعض بالأسابيع ويقدرها البعض بالأشهر وقد تحاجز الفريقان عن بعضهما فترة طويلة دارت خلالها المفاوضات ، فلما انتهت المفاوضات الى غير نتيجة بدأ الصراع العنيف لبضعة ايام متتالية ، بل لقد تواصل القتال بالليل فيما سمى ليلة الهرير . وأوشكت الدائرة فى ختامها ان تدور على جيش الشام فأشار عمرو بن العاص على معاوية وقد كان نصيره فى هذه المعركة ، ان يلجأ الى خديعة جيش على وذلك برفع المصاحف بدعوى الاحتكام الى كتاب الله وحقن دماء المسلمين . وقد أدرك على بن أبى طالب ما فى هذا العمل من خدعة ومحاولة لشق صفوف جنده ، فأبى الا المضى فى المعركة حتى نهايتها المظفرة ، ولكن الخدعة الذكية أحدثت أثرها وسط أصحاب على وقد كان أكثرهم من رجال الدين والتقوى فقالوا كيف يدعوننا لكتاب الله ونأبى عليهم . فقال على لهم كلمته المشهورة :

« انما هى كلمة حق أريد بها باطل » ولكن الأغلبية من رجاله أصروا على ايقاف القتال وبقبول التحكيم بالنزول على ما يقضى به القرآن .

وتم الاتفاق على أن يختار كل من الطرفين حكما يمثله ... ومرة أخرى فرض اصحاب على عليه أن يختار ممثلا له فى التحكيم أبا موسى الأشعرى وكان قد أبدى خلافا مع سيدنا على ، وذلك فى الوقت الذى اختار فيه معاوية عمرو بن العاص .

وتم الاتفاق فى شهر صفر على ان يجتمع الحكمان فى دومة الجندل فى شهر رمضان من هذا العام ٣٧ هجرية .

وكان مجرد هذا الاتفاق على التحكيم ان قامت هدنة بين على ومعاوية وجيوش كل منهما ، وتم الاعتراف من الناحية الواقعية البحتة بقيام سلطتين ، أولاهما يمثلها سيدنا على فى العراق ، والثانية يمثلها معاوية فى الشام .

وقد اعتبر البعض مجرد قيام هذه الحالة ورضـــاء على بها اخلالا بالدين وحكم القرآن فأعلنوا تمردهم على سيدنا على وأطلق عليهم اسم الخوارج ، وهم الذين سيشقون الأمة الاسلامية عبر القرون التالية .

قرار التحكيم وعزل على :

واجتمع الحكمان كما تم الاتفاق فى دومة الجندل وجازت على أبى موسى الأشعرى هذه الخدعة المشهورة التى خدعه بها عمرو بن العاص ، عندما اتفق معه على ان يخلع كل منهما صاحبه ويدع للمسلمين اختيار من يريدون ، ثم قدم عمرو بن العاص أبا موسى ليعلن للناس ما اتفقا عليه ، فأعلن أبو موسى خلع على ومعاوية ، وتلاه عمرو بن العاص فوافق على خلع على واقر معاوية ، فثار عليه أبو موسى معلنا انه قد خدعه ، ولم ينفع عليا بعد ذلك رفض نتيجة التحكيم فقد استشرت فتنة الخوارج من أصحابه بحيث كان مضطرا لمحاربتهم قبل ان يمضى لحرب معاوية .

امارة الاشتر النخعى على مصر :

أرسل على بن أبى طالب الاشتر النخعى احد رجاله الأقوياء ليلى امارة مصر بعد انصرافه من موقعة صفين ، وقد أدرك معاوية من جديد مغبة وصول الاشتر النخعى الى مصر فيقولون انه طلب من البعض أن يخلصوه من الاشتر فى مقابل مكافأة معلومة ، فدس له هذا البعض سما فى شراب من عسل قدمه له ، فمات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها .

ويذكر عن عمرو بن العاص وكان يجالس معاوية عند وصول نبأ موت الاشتر بهذا الأسلوب قوله : ان لله جنودا من عسل .

٦٥٨ م ـ ٣٨ هجرية امارة عمرو بن العاص الثانية على مصر :

دخل عمرو بن العاص فى شهر ربيع الأول من هذه السنة على راس جيش من ستة آلاف مقاتل لانتزاع مصر من سلطان محمد بن أبى بكر الصديق حيث كان يحكمها باسم على . ولم يستطع محمد بن أبى بكر أن يتصدى لهذه الجيوش القوية وفر هاربا .

وعاد عمرو بن العاص الى الفسطاط ... وهى المدينة التى انشأها ونزل فى دار الامارة التى بناها . وقد كانت امارة مصر هى الثمن الذى اشترطه عمرو بن العاص على معاوية ليقف الى جواره فى صراعه ضد على . فلما ان انتهى التحكيم الى ما انتهى اليه على ما قدمنا ،وفى معاوية لعمرو بن العاص فسيره على رأس جيش الى مصر فدخل مصر على الصورة السابقة ..

ولم يلبث معاوية بن خريج أحد كبار الأمويين ان عثر على محمد بن أبى بكر الهارب فقتله شر قتلة ثم وضعه فى جلد حمار وحرقه ، وذلك كله بدعوى انه كان ممن شارك فى قتل سيدنا عثمان .

اختصاصات أمير مصر :

واذ عاد عمرو بن العاص الى امارة مصر على أن يكون حاكمها المطلق المتصرف فى كل شئونها ، فمن الخير أن نحدد اختصاصات الامارة وكيف انها ستجتمع لبعض الولاة كما هو الشأن بالنسبة لعمرو بن العاص هذه المرة ، وكيف توزع أحيانا على اكثر من شخص .

أما هذه الاختصاصات فتتلخص على ما حددها الماوردى فى سبع مواد :

١ — النظر فى تدبير الجيوش ، وترتيب النواحى وتقدير الأرزاق .

٢ — النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ — جباية الخراج وقبض الصدقات وتعيين العمال فيهما ، وتوزيع المستحق منها على مستحقيه .

٤ — حماية الدين والذب عن الحريم .

٥ — اقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين .

٦ — الامامة فى الجمع والجماعات ، ويقوم بها بنفسه أو يستخلف عليها .

٧ — تسيير الحجاج .

فاذا كان هذا الاقليم ثغرا متاخما للعدو اقترن بهذه المعالم مهمة ثامنة وهى جهاد من عليه من الأعداء .

وقد كانت هذه الاختصاصات كلها فى ولاية عمرو بن العاص الأولى فى السنوات الأولى من فتح مصر باعتباره صاحب الفضل فيه ومنفذه ، على أن عمر بن الخطاب لم يلبث ان فصل عملية الخراج عن اختصاصات عمرو بن العاص وعهد بها الى عبد الله بن أبى السرح ، ثم لم يلبث أن عين قاضيا للحكم بين الناس ، وهو اجراء سيلجأ اليه فيما بعد الخلفاء فيعينون القضاة بأمر منهم .

وقد كانت كل هذه الاختصاصات فيما عدا ما يختص منها بجمع الخراج يقع فى سلطان الأمير الذى يلى مصر على الصلاة : على أساس ان الحكم الاسلامى حكم

دينى ، ومن يلى الصلاة فهو امير المسلمين ولذلك فسوف يصادفنا من الآن ان هذا الوالى أو ذلك ولى على الصلاة والخراج معا ، أو على أحدهما دون الآخر .

٦٦٠ م ــ ٤٠ هجرية : مقتل سيدنا على بن أبى طالب :

أشرنا الى هذا النفر الذين خرجوا على سيدنا على بن أبى طالب لقبوله التحكيم ، واعتبروا ذلك كفرا والحادا فى دين الله وطلبوا من سيدنا على أن يتوب ويستغفر والا حاربوه وقاتلوه .

وبدأوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون من الجرائم ما يقشعر لسماعه الأبدان باسم الدين والتمسك بأحكام القرآن . فجرت لهم معارك مع سيدنا على هزمهم فيها هزيمة منكرة عند النهروان ودحرهم وأوقع بهم مقتلة عظيمة .

فاتفق ثلاثة نفر منهم على أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة ليخلصوا المسلمين منهم .

وفشل من تصديا لقتل معاوية وعمرو بن العاص فى تحقيق هدفهم ... ولكن عبد الرحمن بن ملجم الذى أخذ على عاتقه قتل سيدنا على بن أبى طالب ، نجح فى مهمته اذ تربص له فى المسجد عند صلاة الفجر وطعنه فى المحراب بخنجر مسموم أعده لذلك وقيل بسيف .

ولم يلبث سيدنا على أن مات متأثرا بجراحه .

وكانت وفاته ليلة الأحد فى التاسع عشر من رمضان واختلف فى عمره ساعة وفاته فمن قائل أن عمره كان ثلاثة وستين عاما بينما يقول البعض بل كان ثمانية وخمسين عاما فقط .

وقد حكم على بن أبى طالب أربع سنوات وتسعة أشهر أمضاها كلها فى مشاق وآلام وأحزان وصراع ، وليس هناك ما يعكس آلام سيدنا على سوى مطالعة كتاب نهج البلاغة الذى يعتبر احدى ذخائر المكتبة العربية الاسلامية فى كل عصورها .

وعلى بن أبى طالب أشهر من أن يتحدث عنه ، وهو الذى انفرد بتعظيمه جانب كبير من المسلمين الشيعة ، حتى ليغلو بعضهم فيجعله فوق البشر ، والمعتدل منهم لا يعترف بامامة غير امامته : ولا يفهم قيام مجتمع اسلامى لا يكون على راسه أحد من ذرية على اماما .

ولقد لخص سعد بن ابى وقاص مكانة على فى الاسلام فى حديث جاء فى الصحيحين عندما سأله معاوية بن أبى سفيان ، لماذا يرفض سب أبى تراب (يكنى به عن سيدنا على) فرد عليه بقوله : ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لان تكون لى واحدة منهن احب الى من حمر النعم . سمعت رسول الله يقول له : اما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى . وسمعته يقول يوم خيبر « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، قال فتطاولت لها ، قال ادعونى عليا فأتى به وهو أرمد (أى مصاب برمد فى عينيه) فتفل فى عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية « .. فقل تعالوا ندعو ابناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ثم قال « اللهم هؤلاء أهلى » .

وبموت سيدنا على انتهى عهد الاسلام الأول ، عهد الخلفاء الراشدين ، ليبدأ عهد الملكية الاسلامية .

٦٦١ م ـ ٤١ هـ : خلافة معاوية بن أبى سفيان :

لم يكد علي بن ابى طالب يقتل حتى أقبل اهل الكوفة على ابنه الحسن فبايعوه ولكن الحسن كان لا يحب المضى فى القتال ويرغب فى اعادة الوحدة الى صفوف المسلمين .

وعلى الرغم من انه اجتمع له من المقاتلة ما لم يجتمع لأبيه ... فقد آثر أن يصطلح مع معاوية على أمور شرطها بنفسه فأجابه معاوية الى ما طلب ، فتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة وبايعه . وطلب من جنوده أن تبايع لمعاوية .

وهكذا تم الأمر لمعاوية ، وعادت الوحدة الى الجماعة ، ولذلك أطلق المؤرخون على عام ٤١ عام الجماعة .

٦٦٢ م ـ ٤٢ هجرية : وفاة الأنبا بنيامين :

فى الثالث من شهر يناير من هذا العام طويت حياة الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين لتسع وثلاثين سنة ، شهد فيها انسحاب الروم ودخول الفرس الى مصر ثم انسحابهم منها وعودة الروم ، ومقدم المسلمين وانسحاب الروم .

وبموته كانت آخر صفحة فى كتاب بطاركة مصر المسيحية الذين مثلوا شخصية مصر التى اسهمت فى ارساء قواعد الديانة المسيحية .

حيث بدأت شخصية مصر الاسلامية فى مسرح الأحداث السياسية والحضارية تحل بالتدريج محل مصر المسيحية .

٦٦٣ م — ٤٣ هجرية : وفاة عمرو بن العاص :

فى يوم عيد الفطر من هذه السنة مات عمرو بن العاص فاتح مصر وبرقة .

وكان عمره عندما مات قد اشرف على المائة وكانت امارته الثانية على مصر قرابة خمس سنوات ، ويتلجلج دائما فى النفس موقف عمرو بن العاص من سيدنا على ابن أبى طالب . وخدعته التى قام بها فى عملية التحكيم ، وهى التى ظلت تؤرق مضجعه حتى لحظة وفاته على ما يقول المؤرخون ولكن الحقيقة التى لا تجحد انه أحد بناة هذه الدولة الاسلامية العتيدة ، وواحد من هؤلاء الذين يذهلون المؤرخين والباحثين على مر العصور والدهور ، كيف استطاع رجل بدوى مثله لا عهد له من قبل بالحكم أو الادارة ، أن يصبح حاكما مثاليا لمصر حتى ليقترن اسمه بأسماء أعظم من حكموها من الملوك بشقه ترعة امير المؤمنين ، ولكنها معجزة الاسلام التى لا تتمثل فى عمرو فحسب ، بل فى مئات من الحكام والقادة العسكريين الذين بهروا الدنيا كلها ولا يزالون يبهرونها بحنكتهم وحكمتهم وبراعتهم وشجاعتهم ، وقدرتهم الفائقة على حكم شعوب تخالفهم فى العقيدة واللغة ، ثم ينجحون .

امارة عتبة بن ابى سفيان :

ولى معاوية أخاه لأبيه عتبة بن أبى سفيان امارة مصر على الصلاة ، بينما يقول الطبرى فى أحداث عام ٤٣ أن معاوية ولى عبد الله بن عمرو بن العاص بعد موت أبيه فوليها فيما زعم له الواقدى نحوا من سنتين .

وقد حسم المقريزى هذه القضية بقوله ان عمرو بن العاص استخلف ابنه عبد الله قبل وفاته فولى صلاة مصر ، قبل أن يولى عليها معاوية أخاه عتبة ، وقد قصد عتبة بعد ذلك الى الاسكندرية ليقيم بها مرابطا واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى .

٦٦٤ م — ٤٤ هجرية : امارة عقبة بن عامر الجهنى :

مات عتبة بن أبى سفيان بعد ان لم تدم ولايته سوى ستة اشهر ، واقر معاوية عقبـة بن عامر على امارة مصر ؛ صلاتها ، وخراجها ، وكان عقبـة أحـد صحـابة رسول الله وكان ممن شهد الفتح مع عمرو بن العاص وكان قارئا فقيها وشاعرا .

٦٦٧ م — ٤٧ هجرية : عقبة بن عامر يغزو رودس :

كان اهتمام معاوية بن ابى سفيان الأول موجها نحو سيادة المسلمين على البحر اتقاء لهجمات القسطنطينية وتمهيدا لغزو القسطنطينية نفسها فعهد الى عقبة بن عامر الجهنى ان يحتل جزيرة رودس بأسطول مصرى فأقدم عقبة على تحقيق المهمة التى نيطت به وخرج بأسطوله قاصدا صوب رودس ناشرا على السفن رايات المسلمين ، وقيل انه أول من فعل ذلك .

امارة مسلمة بن مخلد :

بعث معاوية بن ابى سفيان مسلمة بن مخلد ليكون اميرا على مصر ، ولكنه طلب منه أن يخفى نبأ توليه حتى يبارح عقبة بن عامر مصر بأسطوله .

وقد جمع معاوية لمسلمة بن مخلد صلاة مصر وخراجها .

والراى على أن مسلمة بن مخلد من الصحابة فقد كان له من العمر عند وفاة الرسول عشر سنوات وقيل أربع عشرة سنة .

٦٧٠ م ــ ٥٠ هجرية : محاولة غزو القسطنطينية :

حرض مسلمة بن مخلد معاوية على غزو القسطنطينية ولا بد انه هيأ لمعاوية الاسطول اللازم لهذه الغزوة ، فقد كانت مصر فى هذه الفترة القاعدة الرئيسية للاسطول الاسلامى وقرر معاوية أن يكون غزو القسطنطينية من البر والبحر معا ووضع الحملة تحت قيادة ابنه يزيد ، الذى لم يخف سريعا لتولى القيادة .

واستطاعت الجيوش البرية أن تتوغل فى آسيا الصغرى حتى وصلت الى مشارف القسطنطينية فى الوقت الذى حاصرت الأساطيل المدينة نفسها ، وقد دام الحصار الذى فرض على المدينة ست سنوات ، وهو أخطر حصار تعرضت له ، ولم ينجها منه الا توفيق البيزنطيين الى اكتشاف سلاح رهيب فى هذه الفترة وهو ما اشتهر باسم النار الاغريقية حيث كان يتعذر اطفاؤها فكان هذا السلاح المفاجىء حاسما فى تدمير السفن الاسلامية ، وفشل الغزوة بعد كل الجهود المضنية التى بذلت : واضطر معاوية فيما بعد الى ابرام معاهدة صلح مع بيزنطة مدتها ثلاثون سنة .

وفاة الحسن بن على بن ابى طالب :

وفى هذه السنة (٥٠ هـ) فى شهر ربيع الأول توفى الحسن بن على بن ابى طالب وينسب البعض الى يزيد بن معاوية انه تسبب فى موته .

٦٧٣ م ــ ٥٣ هجرية : الروم يهاجمون مصر :

حاول البيزنطيون فى هذه السنة ــ وكان حصار المسلمين على القسطنطينية بالبر والبحر لا يزال مستمرا على أشده ــ ان يخففوا الضغط على مدينتهم ، فأغاروا على مصر ونزلوا فى مدينة البرلس ، ولكن مسلمة بن مخلد تصدى لهم واجلاهم عن البلاد وقد مات فى هذه الواقعة وردان كاتب عمرو بن العاص .

٦٧٧ م ــ ٥٨ هجرية : انشاء مدينة القيروان :

كان مسلمة بن مخلد قد بعث عقبة بن نافع لاعادة فتح افريقية التى كانت قد انتقضت على الحكم الاسلامى ، فأعاد فتحها وأسس مدينة القيروان .

وفاة عائشة أم المؤمنين :

وفى هذه السنة توفيت السيدة عائشة أم المؤمنين ابنة أبى بكر الصديق واحب زوجات رسول الله اليه وتلميذته . وقد روى عنها الكثيرون من أعـلام الصـحابة الأحاديث التى اتخذت أساسا للتشريع الاسلامى ، ولقد رأينا كيف بلغ بها الأمر أن فرضت زعامتها على كبار الصحابة عندما خرجت تطالب بدم عثمان بن عفان ووصل الأمر بها الى حد قيادة الجيش فى موقعة الجمل مما يدل على قوة شخصيتها . وهى تعتبر على رأس الداعين الى الاجتهـاد فى استنباط الأحكام للاسـلام كما تضمنها القرآن باستعمال العقل والمنطق على هدى المبادىء الأساسية .

٦٨٠ م — ٦٠ هجرية : وفاة معاوية بن ابى سفيان :

مات معاوية بن ابى سفيان بعد ان ولى الخلافة عشرين سنة ، سبقتها ولاية الشام لمدة عشرين سنة أخرى .

وكانت سنه عند وفاته سبعا وسبعين سنة .

وابوه سفيان بن حرب الذى تولى حرب رسول الله وظل على شركه حتى كان فتح مكة فدخل الاسلام مكرها . وقيل ان معاوية قد أسلم قبل فتح مكة وأن كان قد أبقى اسلامه فى الخفاء خوفا من أبيه ، وينسب الى معاوية انه كتب لرسول الله فى اخريات حياته .

وهو ينطوى على خـلال مؤسسى الأسرات الحاكمـة فى كل زمان ومكان عنـدما لا يتحرجون من شىء لبلوغ غرضهم ، وهم فى نفس الوقت منطوون على مهارات وقدرات فائقة وسعة صدر وحكمة ودهاء واستعداد للبطش من ناحية اخرى .

ولا يتردد مسلم واحد فى الانحياز بعواطفه الى جوار على بن ابى طالب فى احقيته بالخلافة من معاوية ولا يتردد الانسان فى الحكم على معاوية انه ظلم سـيدنا عليـا بتحميله دم عثمان .

ومع ذلك فان معاوية سيذهب فى تاريخ الدولة الاسلامية باعتباره أحد عمدها والمساهمين فى تأسيسها ... فقد أعاد اليها الوحدة والاستقرار فى خلافته ، حيث استأنفت الفتوحات الاسلامية طريقها فى البحر والبر شرقا وغربا ... فأما فى الشرق فقد تعدت بلاد الهند وافغانستان الى ما وراء نهر جيحون .

وفى الغرب وصل عقبة بن نافع الى ساحل المحيط الأطلسى بعد ان أسس مدينة القيروان .

وبلغ عدد سفن الأسطول الاسلامى فى أيامه ١٧٠٠ سفينة .

سقطة معاوية فى ولاية يزيد :

على أن سقطة معاوية الكبرى التى لا تحتمل دفاعا من أى نوع كان . هى فرض ولاية العهد من بعده لابنه يزيد الذى كان يعرف عدم صلاحيته لهذا المنصب من كافة النواحى فقد كان كل همه الصيد والشراب والمجون ... فدل ذلك على أنه قد حكم هواه فى نهايته كما فعل ملوك الفرس والرومان من قبله وكان معنى ذلك ، انه حول منصب الخليفة الذى كان يمثل أروع ما ينطوى عليه عالم الاسلام ، من دين وورع وتقوى وصلاح وعدل ، وكفاءة ، الى منصب وراثى قد يتولاه البله أو المجانين أو المفسدون فى أكثر الأحوال .

خلافة يزيد بن معاوية :

ولى يزيد الخلافة بعد موت معاوية ، وامتنع عن بيعته الحسين بن على ، وعبد الله ابن الزبير ، وفرا الى مكة فكان ذلك اشارة لما سيكون منهما فى المستقبل .

٦٨١ م - ٦١ هجرية : مقتل الحسين بن على :

لم يكد يزيد يلى الخلافة حتى أرسل أهل الكوفة الى الحسين بن على يطلبون منه أن يفد عليهم ليبايعوه على الخلافة بدلا من يزيد باعتباره أحق من يلى خلافة المسلمين . فسار اليهم الحسين بن على فى آل بيته وكان عددهم لا يتجاوز ثمانين ما بين رجال ونساء وأطفال .

فبعث عبيد الله بن زياد جيشا ليحول بين الحسين وبين الوصول الى الكوفة .

وحديث الحسين بن على وما أصيب به من نكبة عند مدينة كربلاء ، يدمى القلوب وهو ذروة ما يمكن أن يصل اليه الايمان العميق بالله وحب الاستشهاد فى سبيل الحق من ناحية الحسين وصحبه ، وذروة ما يمكن أن يصل اليه الفجور والتجبر والعنف والقسوة فى مجابهة الحق من جانب الجيش الذى تصدى له . وقد انتهى الأمر بمصرع الحسين وحمل رأسه الى عبيد الله بن زياد ، أمير العراق فوصل الأمر به الى حد انه راح ينكت بقضيب فى يده بين ثنايا الحسين متهكما ساخرا .

وحملت الرأس الى يزيد بن معاوية ونساء بيت الحسين ومن بينهن السيدة زينب باعتبارهن سبايا .

وقد هلع المسلمون فى ذلك الزمان لهذا الحادث وقد كان الحسين هو الذى مكن لعبد الله بن الزبير للدعـوة لنفسه وهو بصفة عامة نقطة البـدء لتقويض عرش بنى أمية ، وبدء العمل على اسقاطه ونقل الخلافة الى البيت العلوى فالعباسى وخاصـة فى بلاد العراق وفارس .

ولا تزال الشيعة تحتفل حتى أيامنا هذه بذكرى استشهاد الحسين بن على فى كربلاء فى شهر المحرم .

وستبقى قصة الحسين مصدر وحى والهام للمجاهدين فى سبيل الله والحق فى كل زمان ومكان .

٦٨٢ م ــ ٦٢ هجرية : وفاة مسلمة بن مخلد امير مصر :

مات مسلمة بن مخلد امير مصر فى هذه السنة بعد ان ظل اميرا بها خمس عشرة سنة واربعة اشهر ، وهو القائد المظفر فى البر والبحر .

وقد أعاد بناء مسجد عمرو بن العاص بصورة أكمل وزاد فى مساحته ، وبنى له منارة على غرار منارة الاسكندرية الشهيرة ، فكان بذلك أول من ابتدع نظام المآذن فى المساجد الاسلامية التى تعتبر تخليدا لمنارة الاسكندرية ، حيث كانت تقوم على قاعدة مربعة واخرى مثمنة ، وثالثة مستديرة يعلوها بيت المصباح ، والناظر لمنارة اى مسجد سيرى فيها هذا التنسيق .

وتخليد مسلمة بن مخلد لمنارة الاسكندرية يكشف عن حبه للبحر بعامة والاسكندرية بخاصة ولذلك فقد أقام فيها أخريات حياته ومات بها .

امارة سعيد بن يزيد على مصر :

بعث يزيد بن معاوية بسعيد بن يزيد الأزدى أميرا على مصر وقد كان شابا من أهل فلسطين وقد ازور عنه المسلمون فى مصر منذ قدومه وظلوا متربصين به ، فلم يكد عبد الله بن الزبير يعلن خلعه ليزيد بن معاوية ويدعو لنفسه بالخلافة ، حتى كان المسلمون المصريون أسرع الناس استجابة له .

٦٨٣ م ــ ٦٣ هـ : خلافة عبد الله بن الزبير :

استغل عبد الله بن الزبير حالة السخط العامة التى شملت العالم الاسلامى لمصرع الحسين بن على ، فدعا الى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته على الخلافة فاستجاب له أهل الحجاز ومصر والعراق ، ولكن يزيد سير لحرب عبد الله بن الزبير جيشا تحت قيادة مسلمة بن عقبة ، فجرت بينهما بالمدينة موقعة اشتهرت فى التاريخ باسم موقعة الحرة ، وأحرى بها أن تسمى مذبحة الحرة حيث استشهد بها ألوف من المسلمين من بينهم أعلام المهاجرين والأنصار ، واستبيحت حرمة المدينة لثلاثة أيام ، أسرف فيها مسلمة وجيشه فى النهب والسلب والعدوان .

وقد خربت المدينة بعد هذه الواقعة وفقدت رونقها وان ظلت أحد المراكز العلمية وتابع مسلمة بن عقبة : عبد الله بن الزبير الى مكة ولكنه مات فى الطريق . بعد أن أوصى بقيادة الجيش بعده للحصين بن نمير ، والذى لم يتهيب حرمة مكة فحاصرها وقذف الكعبة بالمنجنيق فاحترقت ، وكان ذلك فى الثالث من ربيع الأول عام ٦٤ هجرية .

٦٨٤ م — ٦٤ هـ : موت يزيد بن معاوية :

مات يزيد بن معاوية بعد ان ولى الخلافة ثلاث سنوات وسبعة اشهر ، اغرق فيها الأمة الاسلامية بالمآسى والكوارث والدماء ، ولا يرتفع صوت واحد يقول كلمة خير فى يزيد الذى كان سكيرا عربيدا قليل الدين ، وليس هناك ما هو أبلغ فى تصوير مدى منزلته فى النفوس من أن عمر بن عبد العزيز قد أنزل عقوبة القذف على احد جلسائه لمجرد تسميته يزيد بن معاوية بأنه أمير المؤمنين .

خلافة مروان بن الحكم :

ولى الخلافة بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثانى) بعهد منه ولكن معاوية بن يزيد كان على خلاف أبيه تقيا ورعا ، وكان من ناحية أخرى ضعيفا ولذلك فقد تنازل عن الخلافة ودعا بنى أمية لاختيار من يولونه خليفة عليهم .

واستقر الراى على خلافة مروان بن الحكم شيخ الأمويين فبويع خليفة ، وبذلك انتقل الحكم من أسرة معاوية الى أسرة مروان وان كانت الأموية تجمعهما .

امارة عبد الرحمن بن جحدم على مصر :

بايع المصريون عبد الله بن الزبير كما قدمنا بمجرد دعوته الى نفسه ، وبعثوا اليه أن يوفد اليهم أميرا من لدنه ، فأوفد اليهم عبد الرحمن بن جحدم على رأس جماعة من الخوارج الذين ساندوا قضية عبد الله بن الزبير ، ولم يكادوا يصلون الى مصر حتى تسابق أهل مصر من المسلمين لتأييدهم ونزل عبد الرحمن بن جحدم ببيت الامارة فى الفسطاط وجعل عباس بن سعيد المرادى على شرطة مصر وقضاتها .

مروان بن الحكم يزحف على مصر :

ما كان لمروان بن الحكم أن تتحقق له الخلافة اذا بقيت مصر فى يد خصمه عبد الله بن الزبير ، ولذلك فقد كان أول ما فعله بمجرد أن ولى الخلافة أن زحف من الشام الى مصر على رأس جيشه ، مصطحبا معه ابنه عبد العزيز ليجعله أميرا على مصر .

وقد استطاع مروان بن الحكم أن يهزم عبد الرحمن بن جحدم وان يستقر له الأمر فى مصر فى ١٠ جمادى الأول سنة ٦٥ هجرية .

موت عبد الله بن عمرو بن العاص :

وفى النصف من جمادى الثانية من هذه السنة مات عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل وواحد من اثنين كان يكتب أحاديث الرسول فى صحيفة أطلق عليها اسم الصادقة .

وهو مؤسس المدرسة الاسلامية فى مصر ، والجاعل من الفسطاط احد مراكز العلم الاسلامى التى يحج اليها .

٦٨٤ م — ٦٥ هجرية : امارة عبد العزيز بن مروان :

ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخراجها وامده بموسى بن نصير ليكون بمثابة وزير له .

وكان أول ما فعله عبد العزيز بن مروان ان بنى فى مدينة الفسطاط دارا عظيمة ليسكن بها أطلق عليها أسم دار الذهب وذلك لقبتها المذهبة التى كانت اذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر ان يحدق فيها .

وكانت تعرف بالمدينة لفنها وعظمتها .

وفاة مروان بن الحكم :

لم يكد مروان بن الحكم يستتب له الأمر فى مصر والشام ، ويوجه همته نحو العراق الذى كان يحكمه مصعب بن الزبير باسم أخيه عبد الله ، وينجح بالفعل فى هزيمة مصعب ، حتى واتته منيته . وقيل أن زوجته أم خالد « أرملة يزيد » هى التى قتلته خنقا بوضع الوسادة على وجهه .

وكانت سنه عندما مات احدى وسبعين سنة وقيل احدى وثمانين سنة ، ويقول الطبرى انه لم يحكم سوى عشرة اشهر بينما يطيل البعض الآخر هذه المدة الى ستة عشر شهرا .

ومروان بن الحكم هو ابن عم عثمان بن عفان وهو أحد أسباب الفتنة التى أودت بحياة عثمان اذ جعله كاتبه وأمين سره ، فزيف على عثمان هذا الخطاب الخاص بأهل مصر والذى كان السبب المباشر فى كارثة عثمان .

خلافة عبد الملك بن مروان :

ولى الخلافة بعد مروان بن الحكم ابنه عبد الملك بعهد من أبيه على أن يكون الخليفة من بعده أخاه عبد العزيز .

وقد اقر عبد الملك امارة أخيه على مصر ، واستوى فى مقر الخلافة فى دمشق ، ولكن العراق والحجاز كانا لا يزالان فى سلطان عبد الله بن الزبير .

٦٨٩ م — ٧٠ هجرية : الطاعون فى مصر :

انفجر وباء الطاعون فى مصر « الفسطاط » فغادرها عبد العزيز بن مروان ولاذ بدير يقع على شاطىء النيل بموقع مدينة حلوان « الحالية » فأعجبه المكان فاشتراه

من اصحابه الرهبان بعشرة آلاف دينار واتخذه مسكنا له ، واقام بحلوان الأعوان والحراس ، وبنى بها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرومها .

وقيل ان ابنه عمر بن عبد العزيز قد ولد فى مدينة حلوان ولكن الدكتور مصطفى الوكيل يستبعد هذا القول فى مؤلفه (عمر بن عبد العزيز) على أساس أن عمر بن عبد العزيز قد ولد بين عامى ٦١ ، ٦٣ هـ حيث لم يكن أبوه قد وفد الى مصر بعد .

٦٩١ م ـ ٧٢ هـ : بناء قبة الصخرة فى القدس :

كان عبد الملك بن مروان قد نجح فى هزيمة مصعب بن الزبير فى العراق ودخل الى الكوفة حيث بويع من أهلها فى العام السابق (٧١ هجرية) فلم يبق لعبد الله ابن الزبير سوى الحجاز .

وأراد عبد الملك أن يجعل فى فلسطين حرما مقدسا يحج اليه الناس فبنى قبة الصخرة فى القدس والجامع الأقصى ، وكان المسلمون يطوفون حول الصخرة كما يطوفون من حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم .

عبد العزيز بن مروان يعرف فى مصر :

وكان عبد العزيز بن مروان من ناحيته يعرف فى مصر اى يقف بالناس فى المسجد الجامع يوم عرفة كما يقف الحجاج . وذلك لنفس الغرض الذى يسعى له أخوه وهو صرف المسلمين عن الحج ، حيث كان عبد الله بن الزبير مسيطرا على الحجاز .

٦٩٢ م ـ ٧٣ هجرية : مقتل عبد الله بن الزبير :

ندب عبد الملك بن مروان لحرب عبد الله بن الزبير رجلا عرف بالصلابة والقسوة وهو الحجاج بن يوسف الثقفى والذى يعتبر بحق صاحب الفضل فى تثبيت العرش لعبد الملك وأولاده من بعده .

وقد حاصر الحجاج مكة كما فعل الحصين بن النمير من قبل ، وقذف الكعبة بالمنجنيق وكان عبد الله بن الزبير قد أعاد بناءها بعد احتراقها . وظل يضيق الخناق على عبد الله بن الزبير حتى لم يبق معه أحد من أنصاره . وقصة عبد الله بن الزبير وامه اسماء بنت أبى بكر عندما ذهب يشكو اليها ما انتهى اليه أمره احدى درر التاريخ الاسلامى ، فقد دفعته للاستشهاد فى سبيل الله ، على أن لا يسلم نفسه أو يهادن ما يعتبره باطلا ، فكان أن قتل وعلقت جثته .

٦٩٣ م ـ ٧٤ هـ : امارة الحجاج بن يوسف على الحجاز :

ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف اميرا على الحجاز بعد انتصاره على عبد الله ابن الزبير فوطد به حكم بنى أمية باستخدام كل ضروب القسوة والتنكيل لا يعفى منها صحابة رسول الله أنفسهم حتى طلب منه عبد الملك أن لا يتعرض لعبد الله بن عمر ولا أنس بن مالك .

وقد اعاد الحجاج بناء الكعبة على قواعدها الأولى كما كانت أيام الرسول ، بعد أن كان عبد الله بن الزبير قد أدخل فى بنائها حجر اسماعيل .

٦٩٤ م ـ ٧٥ هجرية : ضرب الدنانير العربية :

اقدم عبد الملك بن مروان على ما يمكن أن يعتبر بتعبيراتنا الحديثة ثورة اقتصادية فى دنيا المال والتجارة فقد كان العرب منذ أقدم عصورهم يتعاملون بالدراهم الفارسية الفضية والدنانير البيزنطية ، وكانت الدنانير البيزنطية هى العملة الذهبية المعترف بها فى ذلك الزمان . . . وقد ظل الحال على ذلك حتى بعد ظهور الاسلام ومقام الدولة الاسلامية الى أيام عبد الملك الذى أصدر امره بصك الدنانير الاسلامية فلا يكون بهـا صورة امبراطور بيزنطة أو علامة الصليب

وان يكتب على الدنانير باللغة العربية كلمات التوحيد .

وحظر عبد الملك التعامل فى الدولة الاسلامية بغير هذه الدنانير .

وقد اعتبر جوستنيان الثانى امبراطور بيزنطة ، هذا الاجراء عدوانا على سلطانه وحقوقه فأعلن الحرب على عبد الملك ، ولكنه فشل فى حربه وهزم ، فاستقر التعامل بالدرهم والدينار الاسلاميين منذ ذلك التاريخ .

٦٩٩ م ـ ٨٠ هـ ـ أسطول مصرى يغزو قبرص :

خرج عبد الواحد بن أبى الكنود من الاسكندرية على رأس أسطول مصرى غزا سفن الروم التى تعرضت له ووصل الى جزيرة قبرص .

٧٠٣ م ٨٤ هـ : موسى بن نصير يلى امرة المغرب :

ولى عبد العزيز بن مروان بموافقة الخليفة عبد الملك موسى بن نصير امرة المغرب الذى كانت قد ساءت أحواله واضطربت نتيجة لثورات البربر بتحريض من الروم حتى لقد قتلوا عقبة بن نافع وسقطت القيروان فى أيديهم ولم يعدها الا جيش جديد بعث به عبد العزيز بن مروان من مصر بقيادة حسن بن النعمانى الذى استرد القيروان

وقرطاجنة ولم تلبث الثورات أن تجددت بقيادة امرأة أطلق عليها اسم الكاهنة ولم ينجح حسان بن النعمان فى قمعها الا بعد لأى .

فكان اختيار عبد العزيز لموسى بن نصير من أعظم الخدمات التى قدمت للاسلام ، فان موسى بن نصير لم يكد يصل الى مدينة القيروان حتى بدأ صفحة جديدة للاسلام ليس فقط فى شمال افريقيا بل فى حياة الاسلام كله ، اذ أن نشاطه سينتهى الى فتح الأندلس .

وقد سير موسى بن نصير الجيوش تحت قيادة أولاده الأربعة لتضرب القوات المتمردة فى كل مكان فى آن واحد .

ثم عكف على سلاح البحرية يقويه باعتباره الأساس لتطهير البحر من البيزنطيين فأقام دارا كبرى لصناعة السفن فى مدينة قرطاجنة وتونس ، وأمده عبد العزيز بن مروان بصناع السفن من مصر .

وكان كمال توفيق ، موسى بن نصير ودليل فراسته أن استعان بأحد أبناء البلاد من البربر وهو طارق بن زياد ، فعينه أميرا على مدينة طنجة فى مواجهة الشاطىء الأوربى .

٧٠٤ ـ ٨٥ هجرية : وفاة عبد العزيز بن مروان :

مات فى هذه السنة عبد العزيز بن مروان بالطاعون وليس يعرف اذا كان هـذا هو نفس الطاعون الذى حمله على سكن حلوان ، أم انه طاعون جديد انتشر فى البلاد . وقد حل موته مشكلة لأخيه عبد الملك الذى كان قد أراد منه التنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد بن عبد الملك فرفض عبد العزيز ذلك :

وكانت مدة امارته على مصر ٢١ سنة وهى أطول مدة حكمها فيها أمير . وكان يتمتع فيها بشبه استقلال مطلق .

امارة عبد الله بن عبد الملك على مصر :

ولى عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك أميرا على مصر صلاتها وخراجها عقب وفاة عبد العزيز بن مروان وكان عمره عندما وليها تسعا وعشرين سنة فلم يلبث أن ظهر نزقه وطيشه اذ استعمل الشدة مع الناس ، واتصفت أعماله بالجور ، واختلس من أموال الخراج وارتشى ، وتعرض للاقباط بالاضطهاد فحظر عليهم لبس البرانس العربية : ويقول لين بول انه فرض على الرهبان أن يرتدوا اشارات معينة والا عرضوا أديرتهم لشتى صنوف الجزاءات .

.... تعريب الدواوين :

وفى هذه السنة أقدم عبد الملك بعد مروان على خطوة من خطواته الاصلاحية الكبرى فأصدر أمره بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تكتب بها الدواوين .

ونفذ ابنه عبد الله هذه التعليمات فى مصر ، حيث كانت الدواوين تكتب حتى هذا التاريخ باللغة القبطية فبدىء فى كتابتها باللغة العربية .

٧٠٥ م — ٨٦ هجرية : وفاة عبد الملك بن مروان :

مات عبد الملك بن مروان يوم الخميس للنصف من شهر شوال والأقوال فى عمره عند وفاته تتراوح بين ٥٨ و ٦٣ سنة . حكم منها احدى وعشرين سنة .

وليس يعيب عبد الملك بن مروان سوى ولاته القساة الغلاظ الطغاة ، وحسبه أن يكون الحجاج احد رجاله الذى حكم باسمه .

ومع ذلك فان المؤرخ يقف أمامه باعتباره من أعظم ملوك الاسلام الذين اعادوا للدولة وحدتها وجددوا شبابها وثبتوا أقدام الاسلام نهائيا فى شمال افريقيا وابرزوا شخصيتها الاسلامية بصك الدنانير وتعريب الدواوين الى العربية .

خلافة الوليد بن عبد الملك :

ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك اذ لم يكد يفرغ من دفن أبيه حتى صعد الى منبر المسجد ودعا الى بيعته فلم يختلف عليه احد .

٧٠٨ م — ٩٠ هجرية : امارة قرة بن شريك على مصر :

قاسى المصريون كما قدمنا ايام امارة عبد الله بن عبد الملك وحدث ان شرقت الأرض بسبب تخلف الفيضان عن القدر المعتاد فعلت الأفواه وغلت الأسعار الى مالا عهد للمصريين به من قبل . فضجوا بالشكوى الى الوليد بن عبد الملك ، فعزل اخاه ، وولى قرة بن شريك على الصلاة والخراج . ومن سوء حظ المصريين ان قرة بن شريك لم يكن بأحسن حال من سلفه فقد كان بدوره سيء التدبير ظالما غشوما فاسقا ، مفرقا فى الشهوات والملذات .

توسيع مسجد عمرو :

كان الوليد محبا للبناء والانشاء والتعمير ولذلك فلم يكد يلى الخلافة ، حتى شرع فى بناء الجامع الأموى فى دمشق . وكان أصله كنيسة ، ثم اصبح نصفه مسجدا ، وظل النصف الآخر على حاله كنيسة : فاشترى الوليد الكنيسة بأضعاف ثمنها ، ولم يقبل المسيحيون الا كارهين .

وفى نفس الوقت أصدر أمره لعمر بن عبد العزيز الذى كان قد ولاه على المدينة المنورة أن يضاعف فى مساحة مسجد الرسول ليكون مائتى ذراع فى مثلها وان يقوم القبلة .

وارسل الى واليه على مصر قرة بن شريك يطلب منه توسيع الجامع العتيق الذى انشأه عمرو بن العاص . يقول تفرى بردى أن قرة كان اذا انصرف العمال الذين يعملون فى بناء المسجد بالليل يدعو بالخمور والزمور والطبول ويظل يعربد فى المسجد طول الليل ويقول لنا الليل ولهم النهار .

٧١١ م ــ ٩٢ هجرية : فتح الأندلس :

اثمرت سياسة موسى بن نصير وحسن ادارته لشمال افريقيا وسيادته على غرب البحر الأبيض المتوسط بأسطوله الذى مكنه من الاستيلاء على جزيرة سردينية ثم جزيرتى مينورقة وميورقة . فاستطاع قائده طارق بن زياد ان يعبر مضيق هرقل الذى سمى منذ ذلك التاريخ باسم طارق فأصبح يعرف بمضيق طارق ، ودارت معركة فاصلة بينــه وبين ملك القوط الغربيين رودريك ، الذى يســميه العرب « لذريق » فكان النصر لطارق بن زياد وبدأت بذلك عملية فتح الأندلس الذى سيكون بمثابة واجهة الحضارة الاسلامية فى قلب أوربا الغربية .

٧١٢ م ــ ٩٣ هجرية : مولد الليث بن سعد :

ولد فى هذه السنة بمصر الليث بن سعد الذى سيقدر له ان يحمل راية العلم فى القرن الثانى وهى التى رفعها عبد الله بن عمرو بن العاص فى القرن الأول .

٧١٤ م ــ ٩٦هجرية : وفاة قرة بن شريك والحجاج بن يوسف :

مات فى هذه السنة قرة بن شريك أمير مصر فتنفس المصريون الصعداء لخلاصهم منه . ومن عجب انه مات فى نفس السنة الحجاج بن يوسف فتنفس المسلمون فى مشارق الدنيا ومغاربها الصعداء . وسيظل اسم الحجاج يدوى فى التاريخ الاسلامى كله كرمز على اقصى ما يصل اليه طغيان الحاكم ، وستظل قلوب المسلمين تنفر منه الى أبد الآبدين .

وقد وصف الدكتور على ابراهيم حسن الحجاج فى كتابه فى تاريخ مصر الاسلامية بأنه كان قبيح الوجه قميئا دقيق الساقين . أعور معروق الأصداغ ، وهى صورة تثير القشعريرة فى النفس .

ومع ذلك فان المؤرخين الغربيين يكيلون له الثنــاء والمديح فيقول لنــا عنــه ولدورانت : انه جفف المستنقعات وأصلح الأراضى واعــدها للزراعة ، وأعاد فتح ماطمر من قنوات الرى وأصلحها . وكان هو الذى قمع فتنة الخوارج التى كادت تعصف بالدولة الاسلامية وذلك عن طريق قائده المهلب بن ابى صفرة وقد استؤنفت

الفتوح فى الشرق بقواده ثم لم يقنع بذلك فأحدث انقلابا كبيرا فى طريقة الكتابة باستعماله حركات الاعراب والتنقيط .

امارة عبد الملك بن رفاعة على مصر :

ولى الوليد على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت المصرى ، وجعل له الصلاة دون الخراج . فكان على النقيض من سابقه اذ حسنت سيرته واشتهر بالعفاف والتقوى والعدل فى الرعية . وكان تقيا أمينا فاضلا ، حتى أن فقيه مصر الليث بن سعد قد روى عنه ، وكان من بين ما رواه ما يعتبر بحق دستورا للحكام وهو : « اذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت الأمانة من الطاق » .

وكان على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى .

٧١٥ م — ٩٦ هجرية : وفاة الوليد بن عبد الملك :

مات الوليد بن عبد الملك فى يوم السبت النصف من جمادى الآخرة من عام ٩٦ هجرية وتتراوح الأقوال فى عمره عند وفاته ما بين اثنين واربعين سنة وست واربعين ، أما مدة خلافته فتسع سنوات . وثمانية أشهر ، وكان له تسعة عشر ابنا .

ويعتبر عهده ذروة ما وصلت اليه الدولة الأموية من استقرار وازدهار ومجد عسكرى وعمرانى ولمع فى عصره ثلاثة من قواد المسلمين الاعلام فكان قتيبة بن مسلم الباهلى قائد الحجاج يواصل فتوحه فى الشرق حتى استولى على كفابل وكشفر على حدود الصين وذلك فى الوقت الذى كان محمد بن قاسم بن محمد الثقفى صهر الحجاج يغزو الهند حتى يصل الى نهر السند .

وفى الغرب كان من شأن موسى بن نصير ومولاه طارق ما ذكرناه ، من فتح الأندلس واستيلائهما على طليطلة عاصمة البلاد وما وجداه بها من كنوز وفى نفس الوقت بنى وانشأ المساجد الكبرى التى لا تزال مفخرة العالم الاسلامى حتى اليوم ، وانشأ المستشفيات للمرضى والملاجىء للعجزة ، وساق المياه الى مكة والمدينة .

ومع ذلك فان المؤرخين المسلمين يأخذون عليه اقراره الحجاج على طغيانه فى العراق ، وعلى قرة بن شريك فى مصر ، مما يدل على أن المسلمين لا يعدلون بالعدل شيئا آخر .

خلافة سليمان بن عبد الملك :

ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد أخيه الوليد بناء على العهد الذى كان ابوه قد ابرمه .

اقرار عبد الملك بن رفاعة على امارة مصر :

وقد أقر سليمان بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعة على امارة مصر كما أقر أسامة ابن زيد التنوخي على خراجها .

بناء مقياس الروضة :

استصدر أسامة بن زيد عامل الخراج اذنا من الخليفة بالغاء مقياس النيل فى حلوان وهو الذى كان عبد العزيز بن مروان قد أنشأه ، وكذلك بالغاء كافة مقاييس النيل : على أن ينشىء مقياسا جديدا يحل محلها فى جزيرة الروضة فأذن له . ولا يزال هذا المقياس موجودا حتى الآن باعتباره من أجمل الآثار الاسلامية .

عملة اسامة بن زيد :

ولا يزال بين ايدينا من آثار أسامة بن زيد الأوزان الزجاجية التى كانت النقود المصرية تصك على أساسها .

٧١٦ م ــ ٩٧ هجرية :

ولد فى هذه السنة وقيل فى التى قبلها عبد الله بن لهيعة أحد الثلاثة الذين بدأوا حياة العلم الاسلامى المسجل فى مصر .

٧١٨ م ــ ٩٩ هجرية : وفاة سليمان بن عبد الملك :

فى العشرين من صفر فى هذه السنة مات سليمان بن عبد الملك ، ولم تطل مدة خلافته لأكثر من سنتين وسبعة أشهر .. أو ثمانية على اختلافات يسيرة وقد أزال مظالم الحجاج وأطلق من فى السجون وانصف المظلومين ، وحاول أن يفتح مدينة القسطنطينية بجيش برى وضعه تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وأسطول بحرى مؤلف من ١٨٠٠ سفينة فاخفق ومن جديد فتكت النار الاغريقية بوحدات الاسطول فاضطر لرفع الحصار عن المدينة .

على أن أعظم أعمال سليمان بن عبد الملك هو استخلافه ابن عمه عمر بن عبد العزيز مقدما اياه على أخويه يزيد وهشام وذلك تقديرا منه لدينه وتقواه وورعه .

خلافة عمر بن عبد العزيز :

ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذى وصف بانه خامس الخلفاء الراشدين ، اذ تبرأ من كل مظالم بنى أمية وعمل على انصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه معيدا بذلك سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب .

وكان آية حكمه الجديد ورغبته عن سفك الدماء ان بعث يستدعى الجيش المحاصر للقسطنطينية .

عزل أسامة بن زيد عن خراج مصر :

كما كان من أول ما قام به من أعمال وحتى قبل ان يدفن سليمان بن عبد الملك هو عزله أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما كان يبلغه عنه من استنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأموية ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاء له على ما اقترفت يداه . وأصدر الخليفة أمره بأن يوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن أهلها .

امارة أيوب بن شرحبيل على مصر :

أقر عمر بن عبد العزيز فى أول خلافته عبد الملك بن رفاعة على الصلاة ، ثم لم يلبث أن عزله وولى أيوب بن شرحبيل وكان رجلا صالحا وزع اختصاصاته الادارية على بضع نفر من الرجال الصالحين . فجعل الفتوى الى جعفر بن ابى ربيعة ويزيد ابن أبى حبيب (أستاذ ابن لهيعة والليث) وعبد الله بن أبى جعفر . وجعل على الشرطة الحسين بن يزيد الرعينى ، وزاد فى عطاء الناس ، ونفذ أوامر أمير المؤمنين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأغلقت حانات الخمر وكسرت دنانها .

وقد كان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته ، أن دخل كثير من أقباط مصر فى الاسلام ، مما أثر على حصيلة الجزية والخراج ، فكتب ايوب بن شرحبيل يقترح على عمر بن عبد العزيز ان تؤخذ الجزية من الأقباط حتى فى حالة اسلامهم خوفا من أن تنقطع موارد الدولة .

فرد عليه عمر بن عبد العزيز رده المشهور :

« قبح الله رأيك ، ان الله قد بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا ، ضع الجزية عمن اسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » .

ومضى عمر بن عبد العزيز فى رغبته فى حمل الأقباط على اعتناق الاسلام ، فقيل انه أصدر أمره أن لا يلى وظائف الدولة الا مسلما فأدى ذلك الى اسلام كثير من القبط الموظفين .

٧١٩ م — ١٠٠ هجرية : بدء دعوة بنى العباس :

وكان طبيعيا فى ظل هذا الامام العادل الرحيم ان تبدأ الدعوى الى بنى العباس فى مضاعفة نشاطها ، فوجه محمد بن على بن عبد الله بن عباس رسالة فى هذه السنة الى العراق وخراسان تدعو الى خلع بنى أمية وتوجيه الخلافة الى الهاشميين من آل بيت النبى واختيار اثنى عشر نقيبا ليحملوا لواء الدعوة .

٧١٩ م ــ ١٠١ هجرية : وفاة امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

فى الخامس والعشرين من شهر رجب من هذه السنة توفى امير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز وهو لما يتم الأربعين سنة من عمره بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين وخمسة شهور مرت على شعوب الدولة الاسلامية كما لو كانت حلما جميلا .

وكان أيراد عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة اربعين الف دينار أما ايراده بعد أن أصبح خليفة فلم يكد يتجاوز مائتى دينار . ولعل هذه المقارنة تغنى عن كل حديث آخر .

وحكم عمر بن عبد العزيز مدحضة للوهم والادعاء بأن اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتغير ظروفها ، لم يعد يسمح بطراز حكم الخلفاء الراشدين . فسيظل ورع الحاكم وزهده وتقشفه وعدله أولا وقبل كل شىء هو أعظم ما يهفو له البشر فى كل زمان ومكان وفى ظل أى نظام .

خلافة يزيد بن عبد الملك :

ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وهو ثالث أبناء عبد الملك بن مروان ولم تكن سنه عندما ولى الخلافة تزيد عن تسع وعشرين سنة . وقد حاول فى مطلع حكمه أن يتابع عمر بن عبد العزيز على سيرته . ولكن جاريته حبانه التى كان مغرما بها الى حد الوله قد فتنته وأقعدته عن تحقيق عزمه ، فعاد الى الانهماك فى الملذات . بل ونقض ما كان عمر بن عبد العزيز قد سنه من رفع الجزية عمن اسلم .

امارة بشر بن صفوان على مصر :

مات أيوب بن شرحبيل امير مصر ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان فدخلها فى السابع عشر من شهر رمضان .

وفى أيامه اغارت الروم على مدينة تنيس ثم جلت عنها .

٧٢١ م ــ ١٠٢ هجرية : امارة حنظلة بن صفوان :

ولى الخليفة يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان اميرا على افريقيا فخرج اليها من مصر واستخلف أخاه حنظلة بن صفوان ، فأقره يزيد على امرة مصر .

٧٢٢ م ــ ١٠٣ هجرية : تحطيم الأصنام والتماثيل فى مصر :

خرج حنظلة بن صفوان الى الاسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم التجيبى . ولم يلبث أن ورده كتاب من الخليفة يزيد بن عبد الملك يأمره بكسر الأصنام والتماثيل فعمل جهده لتنفيذ هذا الأمر .

وقد ادى تنفيذ هذا الأمر الى نشوب أول تمرد بين اقباط مصر ضـــد الحكم الاسلامى ويقول لين بول فى حديثه عن هذه الثورة ، وعن تجددها انه ترتب على اعتقال البطريرك المصرى ان زحف جيش من النوبيين بلغت عدته مائة الف مقـاتل غضبا لاعتقال البطريرك ولم يحملهم على العدول عن غزو مصر الا البطريرك نفسه بعد أن أفرج عنه .

المسلمون يغزون جنوب فرنسا :

وفى هذه السنة اجتاز مسلمو الأندلس جبال البرانس الفاصلة بين أســبانيا وفرنسا واستولوا على مدينة ناربون فى جنوب فرنسا .

٧٢٣ م — ١٠٥ هجرية : خلافة هشام بن عبد الملك :

مات يزيد بن عبد الملك بعد أن ولى الحكم أربع سنوات وشهرا وكان عمره يوم وفاته ٣٣ سنة على الأرجح وقصة غرامه بجاريته حبانة هى أظهر ما يميز حياته .

وقد ولى الخلافة من بعده أخوه هشام بن عبد الملك وكانت ســنه يومئــذ ٣٤ سنة .

امارة محمد بن عبد الملك على مصر :

لم يكد هشام يتولى الخلافة ، حتى صرف حنظلة بن صفوان عن ولاية مصر ، وولى عليها اخاه محمد بن عبد الملك . وكان ناسكا كثير العبادة حسن السيرة جوادا كريما لا يحب السلطان ، ولم يكد يصل الى مصر حتى وقع بها وباء ، فأقام محمــد ابن عبد الملك فى الصعيد .. ثم لم يلبث أن انصرف عن مصر بعد شهر من وصوله اليها .

امارة الحر بن يوسف على مصر :

وولى هشام بعد انصراف اخيه عن مصر — الحر بن يوسف أميرا على الصــلاة فقط وولى عبيــد الله الحبحاب على الخراج . ولا تزال الأوزان الزجاجية لدراهم ودنانير الحبحاب وما كان عليها من كتابة باقية حتى الآن .

ثورة لأقباط مصر :

وفى عهد الحر بن يوسف ، وبسبب سياسة عبد الله بن الحبحاب المالية قام الاقباط على ما يروى الكندى بثورة على زيادة ضريبة الأرض ، فقد كتب ابن الحبحاب للخليفة هشام يقترح زيادة ضريبة الأرض قيراطا على كل دينــار فانتفضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وتمى ، وقربيط ، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى ، فبعث

اليهم الحر بن يوسف بأهل الدواوين (اى الجند من العرب) فاخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين (تاريخ مصر الاسلامية ص ٨٨) .

هجرة قبيلة قيس الى مصر :

وقد سعى عبد الله بن الحبحاب عامل الخراج لكى يمكن لنفسه فى مصر ، فكتب الى هشام يطلب منه تهجير بعض قبائل قيس الى مصر ، فأجابه هشام الى طلبه ، فوفد الى مصر أربعمائة عائلة من بطون قيس المختلفة فنزلت بالحوف الشرقى حول مدينة بلبيس ثم توافدت جموع أخرى منهم بلغ عددها ألف وخمسمائة عائلة .

وسرعان ما سوف تتحول هذه الوافدة الى بذرة خلاف وفتنة فلا تكاد تمضى فترة من الزمان ، حتى يكون للقيسيين من أهل الحوف الشرقى ملحمة من النهب والسلب او خلق الفتن والاضطراب .

٧١٦ م ــ ١٠٨ هجرية : امارة حفص بن الوليد على مصر :

وقع الخلاف بين الحر بن يوسف وبين عبيد الله بن الحبحاب ؛ لتزايد سلطانه وغلبته على شئون البلاد ، ولكن هشام بن عبد الملك انحاز الى جانب عبد الله بن الحبحاب وعزل الحر بن يوسف ، وولى على صلاة مصر بدلا عنه حفص بن الوليد . وكان حفص بن الوليد هو القائم على شرطة مصر : كما ولى مصر باستخلاف الحر بن يوسف . على أن الخلاف سرعان ما نشب بين حفص بن الوليد وبين عبـد الله بن الحبحاب فعزل هشام بن عبد الملك حفص بن الوليد .

٧٢٧ م ــ ١٠٩ هجرية : ولاية عبد الملك بن رفاعة الثانية على مصر :

ولى هشام بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعة أميرا على مصر ، على الصلاة ، وقد كان ولى امرة مصر من قبل عقب وفاة قرة بن شريك ، فأحسن السيرة ولكنه كان مريضا هذه المرة فأناب عنه أخاه الوليد بن رفاعة للصلاة بالناس ، ولم يلبث ان مات ، فأقر الخليفة أخاه الوليد بن رفاعة على ولاية مصر .

امارة الوليد بن رفاعة على مصر :

ولى الوليد بن رفاعة الصلاة ، وجعل على شرطته عبد الله بن ابى سمير الفهمى ، وكان على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب صاحب النفوذ الكبير فسعى الوليد ابن رفاعة عند الخليفة هشام على ما يقول تغـرى بردى فأخـرجه هشام من مصر واستعمله على افريقيا . ومن هنا طالت امارة الوليد بن رفاعة على مصر ، على خلاف كل من سبقه من الأمراء .

٧٢٨ م — ١١٠ هجرية : وفاة جرير والفرزدق :

مات فى هذه السنة بالشام شاعرا الاسلام الكبيران جرير والفرزدق ، ومن عجب ان الرجلين قد عاشا فى تنافس طول حياتهما ... ثم ابى عليهما القدر الا ان يموتا فى سنة واحدة .

٧٣٢ م — ١١٤ هجرية : عبد الملك بن الحبحاب على امارة المغرب :

عين الخليفة هشام عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج اميرا على المغرب . فانتقل من مصر الى عمله الجديد ، وكان أول ما قام به من عمل ان سعى لاحتلال جزيرة صقلية المواجهة للشاطىء الافريقى فدارت له معركة بحرية مع الروم انتصر فيها عليهم ، وظل يواصل غزواته فى البر والبحر بنجاح .

٧٣٥ م — ١١٧ هجرية : امارة عبد الرحمن بن خالد على مصر :

مات الوليد بن رفاعة بعد أن ظل أميرا على مصر ثمانى سنوات وأربعة أشهر وبضعة عشر يوما وكان قد استخلف قبل موته على الصلاة عبد الرحمن بن خالد الذى ولى له الشرطة عدة سنوات ، فلما مات الوليد أقر هشام امرة عبد الرحمن ابن خالد على صلاة مصر .

على انه لم يلبث ان عزله ، وقيل أن سبب عزله هو فشله فى الحيلولة دون نزول الروم فى أحد بلاد الساحل المصرى ، حيث قتلوا ونهبوا واسروا ، قبل ان يتصدى لهم عبد الرحمن بن خالد ويطردهم من البلاد .

وقيل ان السبب الحقيقى لعزله عن مصر ، هو ان دعاة بنى العباس الذين قوى شانهم فى خراسان ارسلوا اليه يدعونه الى بنى العباس . فاكرم وفادة الرسل ووعدهم خيرا .

٧٣٧ م — ١١٩ هجرية : امارة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر :

عزل هشام عبد الرحمن بن خالد ، وولى حنظلة بن صفوان الذى سبق ان ولى امرة مصر فقدمها فى الخامس من محرم من هذه السنة اميرا على الصلاة وجعل على الشرطة عياض بن خترمة .

٧٣٨ م ــ ١٢٠ هجرية : ثورة الأقباط فى الصعيد :

ذكر المقريزى ان الأقباط فى الصعيد قاموا بانتفاضة فحاربهم حنظلة واسكن الفتنة ، ولم يذكر لذلك سببا .

٧٤١ م ــ ١٢٤ هجرية : امارة صفى بن الوليد :

ولى هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان أميرا على افريقيا ، فاستخلف على الصلاة صفى بن الوليد فأقر الخليفة هشام هذه الامارة ، ولم يلبث أن ضم اليه ولاية الخراج كذلك .

موقعة تور بواتيبنيه فى فرنسا :

فى هذه السنة دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين فى فرنسا وبين الفرنجة ، وكان على رأس جيش المسلمين عبد الرحمن الغافقى ، وعلى رأس الافرنج شارل مارتل واستمرت المعركة ثمانية أيام كاد النصر يتم فيها للعرب ، ولكن الدائرة لم تلبث أن دارت عليهم فانهزموا وقضى بذلك على آخر محاولاتهم ــ محاولات المسلمين فى الأندلس لفتح فرنسا ــ ولذلك يعتبر المؤرخون الأوربيون هذه الموقعة احدى مواقع التاريخ الحاسمة .

٧٤٢ م ــ ١٢٥ هجرية : وفاة هشام بن عبد الملك :

فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة مات هشام ابن عبد الملك وكان عمره يوم مات بضعا وخمسين سنة وقيل تجاوز الستين ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر ، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وكان هشام بن عبد الملك على ما يقول : « ابن كثير » فى كتابه البداية والنهاية حازم الرأى ، جامعا للأموال بخيلا فى صرفها ، وكان ذكيا مدبرا له بصر بالأمور جليلها وحقيرها وكان فيه حلم واناة .

وهو آخر ملوك بنى أمية العظام وبموته اقتربت نهاية الأسرة .

خلافة الوليد بن يزيد :

ولى الخلافة بعد موت هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد ، وكان فاسقا فاجرا تروى عنه اقاصيص من ضروب المبالغة والتهويل ، ولكنها تدل على نوع الحياة التى اشتهر بها ، فمن ذلك أنه كان يسبح فى بركة من الخمر ويعب منها وهو يسبح ، وتمزيق المصحف الشريف عن طريق التصويب عليه بالنشاب وذلك على سبيل

التحدى ، حتى روى عنه فى ذلك شعر ، وقيل أكثر من ذلك مما يستبعده تغرى بردى بعد أن يرويه وهو اعتداؤه على عفاف ابنته ، أما الطبرى فيقول لنا انه كره تسجيل ما نسب اليه ولذلك فقد أجمع آل بيته على وجوب التخلص منه فقتلوه وأخذوا رأسه فلم تزد مدة خلافته على سنة وثلاثة شهور ، واختلفوا فى سنه يوم مات ما بين ست وثلاثين سنة وست وأربعين .

٧٤٣ م — ١٢٦ هجرية : خلافة يزيد بن الوليد :

ولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد اشتهر باسم يزيد الناقص لأنه انقص الأعطيات التى كان الوليد قد قررها من قبله للجند ، وقيل ان سبب التسمية غير ذلك على أن أيامه لم تطل اذ مات فى شهر ذى الحجة من نفس السنة التى ولى فيها فلم تزد مدة خلافته عن ستة شهور .

٧٤٤ م — ١٢٧ هجرية : خلافة مروان بن محمد :

حاول ابراهيم بن الوليد أن يلى الخلافة بعد موت اخيه يزيد ، ولكن مروان ابن محمد الذى كان أميرا على اذربيجان وارمنية عندما بلغه نبأ موت يزيد جمع رؤساء جنده وانفق عليهم الأموال فبايعوه بالخلافة ، ولكن باقى رجال الأسرة الاموية رفضوا أن يبايعوه ، فسار بجيشه نحو الشام وانتصر فى المعارك التى اشتعلت فيها ضد مخالفيه واستقر فى دمشق خليفة .

ولكن بنى العباس انتهزوا فرصة هذا التفكك والتصدع الذى أصاب الأسرة الأموية فجدوا بدعوتهم وأعلنوا الحرب فى خراسان تحت قيادة أبى مسلم الخراسانى لاسقاط الاسرة الاموية ومبايعة الاسرة العباسية .

امارة حسان بن عتاهية على مصر :

كان صفى بن الوليد هو الأمير على مصر ابان خلافة الوليد (الثانى) ، وخلفه يزيد ، فلما ان ولى الخلافة مروان بن محمد استعفاه حفص فاعفاه وولى حسان ابن عتاهية .

فلما استقر حسان بن عتاهية على امرة مصر واسقط الأعطيات التى كان حفص ابن الوليد قد فرضها للناس والجند ، فثار عليه الجند وقاتلوه وتنادوا بخلع مروان ابن محمد من الخلافة ، وبيعة الخليفة من بنى العباس وحاصروا حسان بن عتاهية فى داره وطلبوا منه أن يغادر مصر ، وكذلك فعلوا بعيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج ، وكان حسان بن عتاهية قد سجن حفصا وأولاده فأخرجوهم من السجن ونادوا به أميرا عليهم . واضطر حسان بن عتاهية لمغادرة مصر حيث لم تزد مدة امارته على بضعة عشر يوما .

ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر :

اقام رؤساء الجند حفص بن الوليد اميرا على مصر كرها عنه شهرى رجب وشعبان . وقدم الى مصر حنظلة بن صفوان من افريقية بعد أن اخرجه أهلها فنزل بالجيزة . فقدم عليه كتاب الخليفة مروان بن محمد بامارته على مصر ولكن المصريين رفضوا تنفيذ هذا الأمر ، ومنعوا حنظلة من الدخول الى الفسطاط واخرجوه الى الحوف الشرقى ، وتم أمر حفص على الامارة بقية السنة وسكت مروان ابن محمد عنه .

٧٤٥ م ـ ١٢٨ هجرية : امارة حوثرة بن سهيل على مصر :

بعث مروان بن محمد بحوثرة بن سهيل ليكون أميرا على مصر وزوده بجيش من سبعة آلاف مقاتل ، ولم يشأ حفص بن الوليد أن يسمح لأتباعه بمقاومته وسلم نفسه لحوثرة فقتله وقتل الكثير ممن أيدوه .

٧٤٧ م ـ ١٣٠ هجرية : استيلاء أبى مسلم الخراسانى على خراسان :

استولى أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة على مدينة مرو عاصمة خراسان فاعتبر صاحب السلطان فى خراسان ، ولم يلبث أن وطد سلطانه بالفعل بالاستيلاء على أكثر مدنها .

٧٤٨ م ـ ١٣١ هـ : امارة المغيرة بن عبد الله على مصر :

بعث مروان بن محمد الى حوثرة امير مصر ان يبادر بنجدة نائبه بن هبيرة على العراق لمواجهة زحف ابى مسلم الخراسانى ، فسار حوثرة على رأس جيش من مصر ، وولى مروان بن محمد المغيرة بن عبد الله اميرا على الصلاة فقدمها فى شهر رجب عام ١٣١ هـ وجعل على الشرطة ابنه عبد الله ، وكان لينا محببا للناس وخرج الى الاسكندرية واستخلف على الفسطاط أبا الجراح الحرشى ، ولم يلبث أن مات فكانت مدة ولايته عشرة أشهر .

٧٤٩ م ـ ١٣٢ هجرية : امارة عبد الملك بن مروان على مصر :

ولى مروان بن محمد بعد موت المغيرة عبد الملك بن مروان بن موسى على الصلاة والخراج فجعل أخاه معاوية على الشرطة . وامر باتخاذ المنابر فى جوامع البلاد كلها

ولم يكن فى الجوامع المنتشرة فى البلاد منابر وانما كان ولاة البلاد يتكئون على عصيهم الى جانب القبلة .

٧٤٩ م — ١٣٢ هجرية : قيام الدولة العباسية :

فى الثالث من شهر ربيع الأول من هذه السنة استولى أبو مسلم الخراسانى على نيسابور وخطب رسميا لعبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس وهو عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

وقرر مروان بن محمد أن يخوض المعركة الفاصلة بينه وبين العباسيين ، فسار على رأس جيش من مائة الف من جيوش الشام ، ولكن الخلاف بين هذه الجيوش كان قائما وعهد عبد الله السفاح الى عمه عبد الله بن على بمحاربة مروان وتم اللقاء على نهر الزاب حيث دارت الدائرة على مروان ، ففر الى مصر بعد أن لم يصبح له نصير فى بلاد الشام .

وصول مروان بن محمد الى مصر :

وصل مروان بن محمد الى مصر بعد هزيمته فى العراق والشام : وقد عقد العزم على أن يتخذ من مصر ومن جيوشه بها ومن مساعدة ولاته فى شمال افريقيا مركزا للمقاومة والوثوب بعد ذلك على العباسيين ولكنه لم يكد يصل الى مصر حتى كان نبأ هزيمته واندحاره قد سبقه اليها ، فانحاز اغلب ما بمصر من جند الى العباسيين ولبسوا السواد شعارهم .

كما انتهز الأقباط فى مدينة رشيد وما حولها هذه الفرصة ليعلنوا الثورة على الحكم الاسلامى ، على ان مروان استطاع ان يقمع هذه الحركات والفتن كلها ، ولكن العباسيين لم يمهلوه اذ بعثوا خلف مروان بجيش يطارده ، وكان على رأسه صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، ودارت آخر معركة بين مروان وبين العباسيين عند بلدة بوصير ابلى فيها ما وسعه الجهد حتى خر قتيلا واخذ قاتلوه راسه وبعثوا بها جريا على عادة ذلك الزمان الى الشام .

انتهاء دولة بنى أمية :

وهكذا مات مروان بن محمد بعد حكم دام ست سنوات وخمسة اشهر وبضعة عشر يوما أمضاها كلها فى حروب متصلة طاحنة ، حتى قيل أن ذلك هو سبب تسميته بالحمار لفرط ما عانى فى حياته من متاعب وما كابده من مشاق .

وقد اصدر عبد الله السفاح امره بعد موت مروان بقتل امراء البيت الأموى حيثما وجـدوا ، واينما كانوا هم وكل من يلوذ بهم أو أقاربهم فنفذ ذلك الأمـر بدقة وصرامة بحيث لم ينج من بنى أمية سوى أمير واحـد وهو عبد الرحمن الأموى الذى هرب الى الأندلس ليؤلف بها أسرة حاكمة أموية .

ويعـزو كثير من المؤرخـين سبب سـقوط الدولة الأمـوية الى ما ارتكبه بعض خلفائهم المتأخرين من ضروب الفسق والاستهتار والى ما وقع بين هؤلاء الخلفاء المتأخرين من تعصب قبلى أثار النزاع القديم بين القبائل المضرية واليمنية .

ولكن الذى لاجدال فيه أن السبب الرئيسى فى زوال الدولة الأموية هو تفريقها بين العرب والموالى من المسلمين وهى تفرقة يأباها وتنكرها روح الاسلام وتعاليمه .. فلما ان أخذ العباسيون جانب الموالى ، كان النصر حليفهم .

وكانت مدة خلافة الأمويين تسعين سنة .

الفصل التاسع

مصر في عهد الخلفاء العبّاسيين

٧٥٠ م – ١٣٣ هجرية : امارة صالح بن على العباسى على مصر :

ولى الخليفة عبد الله السفاح امارة مصر لصالح بن على ، صلاتها وخراجها ، فعمل على تثبيت دعائم الحكم الجديد فى مصر فأمر للناس باعطياتهم وقسم الصدقات على الأيتام والمساكين وابناء السبيل ، وزاد فى المسجد زيادة كبيرة وجعل على شرطته ابنه هانى الكندى .

ثم ورد عليه كتاب السفاح يؤمره على فلسطين ويطلب منه أن يستخلف على مصر فاستخلف أبا عون عبد الملك على الصلاة والخراج معا ، وغادر مصر الى فلسطين .

امارة أبى عون الأولى على مصر :

كان ابو عون عبد الملك بن يزيد من اهل جرجان من رجال دولة بنى العباس وقد قدم الى مصر فى معية صالح بن على باعتباره أحد كبار القواد .

انشاء مدينة العسكر :

وقد نزل صالح بن على وأبو عون على رأس الجنود فى الصحراء الواقعة شمال الفسطاط عند جبل يشكر (جامع ابن طولون حاليا) وكانت هذه النقطة تسمى فى صدر الاسلام بالحمراء القصوى . فملأ الجنود الفضاء ، فأمرهم ابو عون أن يبنوا لهم دورا فبنوا . وكان ذلك هو منشأ مدينة العسكر ، التى لن تلبث أن تعمر لتصبح مقاما لأمراء مصر فى عهد بنى العباسى ، وقد بنيت بها فيما بعد دار للامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر .

وسرعان ما اتسعت المدينة واتصل العمران بينها وبين مدينة الفسطاط .

٧٥٢ م – ١٣٥ هجرية : وفاة رابعة العدوية :

فى هذه السنة توفيت بمدينـــة البصرة رابعة العـــدوية الزاهدة العابدة ، والتى بلغ من ورعها وتقواها وزهدها ان سفيان الثورى أحد الأئمـــة الفقهـــاء كان يتأدب معها هو ورفاق له .

٧٥٣ م – ١٣٦ هجرية : خلافة أبى جعفر المنصور :

عهد عبد الله السفاح عند موته بالخلافة الى أخيه جعفر المنصور وكانت سنه عندما ولى الخلافة تجاوز الأربعين وهو يعد المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى كمال قوتها وقد ساد فى عهده نظام الادارة المركزية . فقد ركز جميع السلطات فى يده ، ولم يسمح طوال حكمه بظهور طبقة من الولاة والحكام من أمثال عمرو بن العاص أو الحجاج بن يوسف أو زياد بن امية .

امارة صالح بن على الثانية على مصر :

كان عبد الله السفاح قبل موته قد ضم امارة مصر الى صالح بن على فوق امارته لفلسطين . فقدم الى مصر فى الخامس من ربيع الثانى من هذه السنة (١٣٦ هـ) وجعل على شرطة الفسطاط عكرمة بن عبد الله وجعل على شرطة العسكر يزيد بن هانى الكنـــدى . وولى أبا عون المعزول عن امرة مصر جيوش المغرب وبعث به كطليعـــة له الى افريقية والتى لم تكن أمورها قد استتبت لبنى العبـــاس ، فوصل أبو عون الى برقة فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، أقر عمه على امارة مصر ، ولكنه طلب منه أن يوقف حملة أبى عون الى افريقيا لحاجته اليه فى فلسطين .

٧٥٤ م – ١٣٧ هجرية : مقتل ابى مسلم الخراسانى :

فى هذه السنة قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى صاحب الفضل الأكبر فى قيام الدولة العباسية ، وذلك لتخوف المنصور من قوة نفوذه ، من أن تحدثه نفسه بالاستقلال بخراسان ، وخاصة بعد أن رفض أبو مسلم امارة مصر التى عينه أبو جعفر المنصور أميرا عليها .

فاحتال عليه حتى استقدمه آمنا الى مدينة الانبار التى اتخذها العباسيون مقرا لهم وأعد له كمينا من الجنـــد ، واتفق معهم اذا سمعوه يصفق أن ينقضوا على ابى مسلم ويقتلوه . وهكذا غدر بأبى مسلم وقتل شر قتلة ولا جدال أن الانســـان يأبى أن يكون ذلك مصير الرجل الذى رفع قاتله الى العرش ، ولكن أبا مسلم من

ناحيته لم يتردد فى قتل عشرات الألوف على ما روى التاريخ بكل وسائل القتل تثبيتا لدعوته ، وتدعيما لسلطانه .

بل لقد كان عونا للمنصور على الغدر بابى مسلمة الخلال وزير العباسيين الأول ثم ابن عم المنصور عبد الله بن على .

ومثل هذا الطراز من الحياة والسلوك لا يمكن الا ان ينتهى بصاحبه كما انتهى أمر أبو مسلم ، وهو أن يشرب من الكأس التى طالما أسقاها للآخرين . كأس الغدر والفيلة والظلم .

امارة ابى عون الثانية على مصر :

استدعى ابو جعفر المنصور عمه صالح بن على ليستعين به على غزو الروم ، فاستخلف صالح أبا عون على مصر صلاتها وخراجها ومضى الى فلسطين فأقر ابو جعفر امارة أبى عون .

٧٥٥ م ــ ١٣٨ هجرية : عبد الرحمن الداخلى يتملك الأندلس :

وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى الأندلس وملكها ، وسمى عبد الرحمن الداخلى ووصف بأنه صقر قريش ، ومنذ ذلك الوقت استقلت نهائيا عن العباسيين .

٧٥٧ م ــ ١٤٠ هجرية : بناء مدينة بغداد :

وفى هذه السنة على ارجح الآراء شرع المنصور فى بناء مدينة بغداد ، وقد ذكر الذهبى وتابعه أمين باشا سامى على أن الشروع فى بنائها كان عام ١٤٥ م ، ولكنا نرجح التاريخ الذى أخذ به تغرى بردى ، ذلك انه ما دام من المتفق عليه أن المنصور قد سكن بغداد عام ١٤٦ هـ فليس من المعقول أن يكون عام واحد كافيا لجعل المدينة صالحة للسكنى بحيث ينتقل اليها المنصور .

بل ان هذا العام لا يكاد يكفى لبناء قصر المنصور وقبته الخضراء الشهيرة التى كان ارتفاعها يبلغ ثمانين ذراعا .

وقد بنيت مدينة بغداد لأول مرة فى التاريخ على شكل دائرة قطرها ميلان وكان يحيط بها سوران مبنيان بالحجر الضخم وكان لها اربعة أبواب ، بين الباب والآخر مائتا ذراع وكان الجامع والقصر هما أول مابنى بها .

٧٥٨ م – ١٤١ هجرية : امارة موسى بن كعب على مصر :

عزل جعفر المنصور ابا عون عن امارته على مصر واستدعاه اليه فى فلسطين ، وولى على امرتها وصلاتها وخراجها موسى بن كعب احد نقباء بنى العباس فدخلهـا فى شهر ربيع الثانى وجعـــل على شرطته عكرمة بن عبد الله وباشر حـكم مصر « بحرمة وافرة » على ما يقول تغرى بردى .

امارة محمد الأشعث :

على ان جعفر المنصور لم يلبث أن عزل موسى بن كعب قبل ان يتم السنة فى الامارة وولى بدلا منه محمد بن الأشعث على الصلاة والخراج ، ثم نزع منه الخراج وعهد به الى نوفل بن الفرات .

٧٦٠ م – ١٤٣ هجرية : امارة حميد بن قحطبة على مصر :

عزل المنصور محمد بن الاشعث وولى على امارة مصر حميد بن قحطبة على صلاتها وخراجها . وارســله المنصور على رأس جيش من عشرين الفـا ليعيــد غزو افريقيا ثم بعث اليه بمدد آخر ، وطلب منه أن يمضى لانفاذ ما طلبه منه ، فسار بالجيش حتى مدينة برقة واستولى عليها ، وعاد الى مصر .

عهد التدوين :

وفى هذه السنة شرع علماء المسلمين فى تدوين الكتب فى مختلف العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير . ففى مكة صنف ابن جريج تصانيفه وفى البصرة صنف سعيد بن أبى عروبة وحماد بن مسلمة ، وفى الكوفة صنف أبو حنيفة فى الفقــه والرأى ، وصنف الاذراعى بالشام وصنف مالك الموطأ بالمدينة ، وصنف ابن اسحق فى المغــازى ، وصنف معمر فى اليمن وصنف شعبان النــدرى كتاب الجامع ، ثم بعد ذلك صنف هشام كتبه وفى مصر صنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيفة .. الخ .

وكثر تبويب العلم وتدوينه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، أما قبل هذا العصر فكان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويرددون العلم عن صحف صحيحة ولكنها غير مرتبة .

وبعد أن بدأ عصر التدوين ، سهل تناول العلم .

٧٦١ م ـ ١٤٤ هـ : امارة يزيد بن حاتم على مصر :

عزل ابو جعفر المنصور قحطبة عن امارة مصر وولى بدلا عنه يزيد بن حاتم فقدمها فى النصف من ذى القعدة فاقر على شرطتها عبد الله بن عبد الرحمن وعلى الخراج معاوية بن مروان ، وعلى القضاء أبا خزيمة ابراهيم بن يزيد .

وكان يزيد بن حاتم ممدوحا شجاعا وتوجد فى مجموعة الآثار الأوزانه الزجاجية لنقوده وما نقش عليها من كلمات .

٧٦٣ م ـ ١٤٦ هجرية : اتخاذ بغداد عاصمة الخلافة العباسية :

انتقل ابو جعفر المنصور فى هذه السنة من الانبار الى بغداد جاعلا منهـا عاصمة الدولة العباسية وتوافد عليها الخطباء والشعراء والعلماء من أرجاء المملكة مبتدئين بذلك عصر بغداد الذهبى حيث تتمثل الحضارة الاسلامية فى أزهى صورها .

٧٦٥ م ـ ١٤٨ هجرية : استتباب الملك لأبى جعفر المنصور :

فى هذه السـنة استتب الملك لأبى جعفـر المنصور ولم يبق خارجا عن سـلطانه الا الأندلس فعظمت هيبته فى النفوس ودانت له الأمصار .

٧٦٧ م ـ ١٥٠ هجرية : قيام الأقباط بفتنة فى مدينة سخا :

تعددت انتفاضات الأقباط فى مدينة سمنود ولكنها انتفاضات قليلة الأهمية ويقضى عليها فى يسر وسهولة ، ولكن فى هذه السنة قام الأقباط فى مدينة سخا بأكبر حركة تمرد من نوعها حيث انضمت اليهم البلاد المجاورة واستطاعوا أن يدحروا كل القوات التى بعث بها يزيد بن حاتم لقمعهم .

ومن رأى لين بول أن هذه الانتفاضات كانت فى طبيعتها من تدبير العرب المسلمين الذين بدأوا يسكنون فى المدن الريفية والقرى فكانوا يستثيرون أهل البلاد .

وفاة الامام ابى حنيفة النعمان :

وفى هذه السنة مات ابو حنيفة النعمان صاحب المذهب الاسلامى الشهير .

ولا نحسب اننا فى حاجة للحديث عن مكانة او شخصية أبى حنيفة النعمان . فهناك مئات المجلدات التى افردت لذلك . على أن أبا حنيفة سيبقى حتى فى عصرنا الحديث

بمقاييسه الحديثة فوق ذروة لا يطاوله فيها انسان آخر اذ كان صاحب مذهب الاجتهاد فى الشريعة بالرأى . فهيأ بذلك للفقه الاسلامى نضارة لا تبلى على مر الزمن.

٧٦٩ م – ١٥٢ هجرية : امارة عبد الله بن عبد الرحمن على مصر :

عزل المنصور يزيد بن حاتم وولى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية على الصلاة يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثانى ، ولم يول أحدا على الشرطة ، وباشر ذلك بنفسه ، حيث كان قد ولاها من قبل لأكثر من أمير ، وولى الخراج محمد بن سعيد .

٧٧١ م – ١٥٤ هجرية : تعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا فى مصر :

أصدر الخليفة لأول مرة فى تاريخ الحكم الاســلامى أمره بتعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا فى مصر فقد كان تعيين القضاة قبل ذلك من اختصاص أمير مصر .

وابن لهيعة ممن حملوا لواء علم الحديث فى مصر فكان يدونه ويتحرى عن اسناده ، ويرحل فى طلبه . وقد نقل عنه الكندى الكثير من أخبار الفتــح العربى لمصر . وهو تلميذ يزيد بن حبيب ، اما زميله فى التلمذة فهو الليث بن سعد ، وعلى يد هؤلاء الثلاثة أمكن تدوين تاريخ مصر الاسلامى .

٧٧٢ م – ١٥٥ هجرية : امارة محمد بن عبد الرحمن بن معاوية على مصر :

مات عبد الله بن عبد الرحمن أمير مصر ، وكان قد استخلف قبل موته أخاه محمد بن عبد الرحمن على الصلاة ، فأقر جعفر المنصور هذا الاختيار وقد جعل على شرطته العباس بن عبد الرحمن وسار فى الناس سيرة مشكورة .

وفى أيامه خرجت عساكر مصر تحت قيادة يزيد بن حاتم لاقرار الأمن والنظـام فى افريقيا ، فقام محمد بن عبد الرحمن بأمر هذه التجهيزات العسكرية ، فوصلت هذه الجيوش الى القيروان واحتلتها ، واصلحت سائر احوال المغرب .

ومات محمد بن عبد الرحمن فى شوال من هذه السنة .

امارة موسى بن على على مصر :

استخلف محمد بن عبد الرحمن قبل وفاته موسى بن على الصلاة فأقره أبو جعفر المنصور عليها فجعل على شرطته أبا الصهباء محمد بن حسان الكلبى .

يقول تغرى بردى عن حكم موسى بن على :

وقد خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى بعسكر فقاتلوا القبط وهزمهم ، فقتل قادتهم وعفا عن سوادهم ، ثم راح يمهد أمور مصر فأحسن تمهيدها ، وكان فيه رفق بالرعية وتواضع وكان يتوجه الى المسجد ماشيا وصاحب شرطتــه بين يديه يحمل الحربة ، وكان اذا قام صاحب الشرطة الحــــدود بين يديه يقول له :

ارحم اهل البــلاد .

وكان يحدث الحديث فيكتب عنه الناس .

٧٧٥ م ــ ١٥٨ هجرية : وفاة الخليفة جعفر المنصور :

وفى ذى الحجة من هذه السنة مات أبو جعفر المنصور عن بضع وستين عاما على خلاف فى عدد السنين فوق الستين .

وقد حكم منها اثنين وعشرين سنة . ويروى عنه حاجبه الربيع بن يونس قوله :

الخلفاء الراشدون أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والملوك بعدهم أربعة معاوية وعبد الملك وهشام وأنا .

كما يصف جلده على العمل بقوله : كان يصلى الفجر ثم يجلس وينظر فى مصالح الرعية الى أن يصلى الظهر ، ثم يعود الى ذلك الى أن يصلى العصر ثم يعود الى أن يصلى المغرب ، فيقرأ ما بين المغرب والعشاء ثم يصلى العشاء ويجلس مع سماره الى ثلث الليل الأول فينام الثلث الأوسط ثم يتنبه الى أن يصلى الفجر وهكذا .

وقيل على ما روى الطبرى أن ولاة البريد فى الآفاق كانوا يكتبون له فى كل يوم عن سعر القمح والحبوب والآدم وبسعر كل مأكول . ويكاد ما يقضى به القــاضى فى نواحيهم وما يعمل به الوالى وبما يرد الى بيت المال وكل حدث وكانوا اذا وصلوا المغرب يكتبون اليه بما كان فى كل ليلة . فكان يطالع كل ما يكتبون ويراجع كل أمر .

ويستعلم ويستفسر عن سبب هذا أو ذاك .

وقد مات وفى بيت المال على ما يقول صاحبــه الربيع مائة ألف ألف درهم .

والحكايات عن بخله وبخاصة فى عطايا الشعراء كثيرة ومستفيضة ، وقد لقب بالدوانيقى لمحاسبته عماله وتابعيه على الدانق .

ويأخذ عليه الكثيرون غدره بأبى مسلم الخراسانى الا ان هذه اذا كانت تغفر له باعتبارها من مصالح الدولة العليا . فان مالم يقبل منه هو تحالفه مع ملك الفرنجة ضد عبد الرحمن الداخل . فكان ذلك أول الوهن فى الصف الاسلامى والذى انتهى بازالة حكم الاسلام من الاندلس .

خلافة محمد المهدى :

ولى الخلافة محمد المهدى بن جعفر المنصور بعهد من ابيه وكان أول ما فعله أن فتح الخزائن وفرق ما بها من الأموال على الجند والناس واطلق من فى الحبوس واعتق جاريته الخيزران وتزوجها وهى التى أنجبت له ولديه الهادى والرشيد .

٧٧٧ م — ١٦١ هـ : امرة عيسى بن لقمان على مصر :

عزل الخليفة المهدى موسى بن على عن امارة مصر وولاها لعيسى بن لقمان على الصلاة والخراج فجعل على شرطته الحارث بن الحارث المجمحى ، وسكن مدينة العسكر . على أن امارته لم تطل أو لم تدم أكثر من اربعة شهور .

٧٧٨ م — ١٦٢ هـ : امارة واضح المنصورى على مصر :

عزل المهدى عيسى بن لقمان ، وولى بدلا عنه واضح بن عبد الله المنصورى ، وجمع له الصلاة والخراج ، وقد جعل على شرطته موسى بن زريق ولكنه كان شديدا فى حكمه ، فاشتكى منه أهل مصر فعزله المهدى ، فلم تزد مدة ولايته على ثلاثة شهور على انه بقى عاملا على بريد مصر .

امارة منصور بن يزيد :

ولى المهدى على امارة مصر ابن خاله منصور بن يزيد فجعل على شرطته هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن على ان المهدى لم يبقه سوى شهرين ونصف الشهر ثم عزله وولى يحيى بن داود .

امارة يحيى بن داود :

ولى مصر يحيى بن داود الشهير بابن ممدود الامير ابو صالح الخرشى وجعل على شرطته عسامة بن عمرو .

وكان أبو صالح المذكور تركيا اشتهر بشدة البأس وقوة الجنان مع المعرفة والتدبير ، وقد هاله عندما قدم الى مصر ان وجد سبلها مخيفة لا يأمن السائر فيها على نفسه لكثرة المفسدين وقطاع الطرق . فأخذ على نفسه قمع المفسدين وابادتهم ، حتى قتل منهم جماعة كثيرة فعظمت حرمته وتزايدت هيبته فى قلوب الناس . حتى

تجاوز الحد ، فمنع الناس من غلق الدروب والابواب أو غلق الحوانيت ، امعانا فى الأمان واستحالة السرقات وكان ينادى بمصر ويقول من ضاع له شيء فعلى اداؤه . فلم يحدث ان فقد انسان أيا من حوائجه .

قال صاحب اليقين : وهو احد من مهد الديار المصرية وأباد اهل الحوف من قيس ويمنى وغيرهم من قطاع الطرق ، وكان من أجل امراء مصر لولا شدة كانت فيه .

٧٨١ م ــ ١٦٤ هـ : امارة سالم بن سواده على مصر :

عزل الخليفة المهدى يحيى بن داود وولى سالم بن سواده التميمى اميرا على مصر . فجعل على شرطته الأخضر بن مروان ، وولى أبو قطيفه اسماعيل بن ابراهيم على الخراج .

هارون الرشيد يغزو الروم :

وفى هذه السنة غزا هارون الرشيد ابن المهدى بلاد الروم حتى وصل الى خليج القسطنطينية ، واضطرت ملكة الروم أن تتصالح معه على أن تدفع للمسلمين جزية قدرها سبعون ألف دينار لمدة ثلاث سنوات .

٧٨٢ م ــ ١٦٥ هـ : امارة ابراهيم بن صالح على مصر :

عزل الخليفة المهدى سالم بن سواده ، وولى على مصر ابن عمه ابراهيم بن صالح ، على الصلاة والخراج فدخل مصر يوم ١١ المحرم وجعل على شرطته عسامة بن عمرو .

ثورة امير اموى بالصعيد :

وفى ولاية ابراهيم بن صالح اعلن فى الصعيد أحد احفاد عبد العزيز بن مروان واسمه دحية خلعه للمهدى من الخلافة ودعا الى فتنة وقد اهمل ابراهيم بن صالح شانه ، فاستفحل امره وغلب على بعض مدن الصعيد .

٧٨٤ م ــ ١٦٧ هـ : موت بشار بن برد :

توفى فى هذه السنة بشار بن برد الضرير الشاعر المشهور وقد ولد اعمى جاحظ العينين ، وكان ضخما عظيم الخلقة والوجه مجدرا طويلا ، وكان يرمى بالزندقة .

وهو صاحب البيت المشهور فى وصف الحرب والذى فاق به المبصرين :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن اشعاره الخالدة التى تجرى مجرى الأمثلة :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

٧٨٤ م ـ ١٦٧ هـ : امارة موسى بن مصعب على مصر :

عزل المهدى ابن عمه ابراهيم بن صالح عن امارة مصر لفشله فى معالجة فتنة دحية الأموى وولى على مصر موسى بن مصعب فدخلها فى ٧ ذى الحجة وجعل على شرطته عسامة بن عمرو . وراح يتشدد فى جمع الخراج ، وضاعف فى قدره ، ولقى الناس منه شدة وعنفا ، وساءت سيرته وارتشى فى الأحكام .

وفرض الضرائب على اهل السوق والدواب ، فكرهه الجند وكرهته الرعية ، ولذلك انتهزوا فرصة تصديه لحرب عرب الحوف فانهزموا عنه وخلوا بينه وبين محاربيه فسقط قتيلا ، ولم يجد انسانا واحدا فى مصر يحرك من اجله أصبعا .

٧٨٥ م ـ ١٦٨ هـ : امارة عسامة بن عمرو على مصر :

كان موسى بن مصعب قبل توجهه لحرب دحية قد استخلف على الصلاة عسامة ابن عمرو ، فأقره المهدى عليها .

٧٨٦ م ـ ١٦٩ هـ : وفاة الخليفة محمد المهدى :

توفى امير المؤمنين محمد المهدى ثالث الخلفاء من بنى العباس وكان عمره حين مات اثنتين وأربعين سنة حكم منها نيف وعشر سنوات .

وكان الخليفة المهدى محبوبا من الشعب ومن العلماء والشعراء لكثرة ما اجزل للجميع من العطايا ، وقد كثر فى عهده البناء والتعمير والانشاء ، فوسع فى المسجد النبوى توسعة كبيرة ، وكسا الكعبة وبنى محطات ومنازل على جوانب الطريق التى سلكها الحجاج واقام أحواضا لخزن المياه ليشربوا منها . ونظم البريد من بغداد الى مكة لأول مرة وهو أول من جعل طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل لهم من بيوتهم .

وقد بدأ فى عصره ظاهرة سماع الخليفة العباسى للغناء ، ومن الخليفة سرى التقليد الى بقية الكبراء ، وبدأ تاريخ الدولة العباسية يتسم بسمة الأبهة والترف .

خلافة موسى الهادى :

اعتلى الهادى عرش الخلافة بعهد من ابيه على ان خلافته لم تستمر اكثر من سنة .

امارة الفضل بن صالح على مصر :

كان المهدى قبل وفاته قد ولى على مصر الفضل بن صالح بن على الأمير العباسى وبعث معه بالجيوش للقضاء على فتنة دحية الأموى ، وولاه على الصلاة والخراج

وجعل على شرطته عسامة بن عمرو الذى كان اميرا قبله ولم يكد يصل الى مصر ، حتى توفى المهدى فأمره الهادى على امارته .

وقد استطاع ان يقضى على فتنة دحية وان يقبض عليه ويقتله فكان الفضل يتفاخر بهذا النجاح ويرى نفسه أحق الناس بالاستمرار فى امرة مصر ، وأنشأ جامعا كبيرا فى مدينة العسكر . فكان ذلك مما أدى الى عزله خوفا من أن يطمع فى الاستقلال بمصر . وفى مجموعة الآثار توجد الأوراق والقوالب الزجاجية لنقود الفضل بن صالح التى صكها .

امارة على بن سليمان على مصر :

ولى الهادى بعد عزل الفضل بن صالح ... على بن سليمان على صلاة مصر وخراجها فجعل على شرطته عبد الرحمن بن موسى اللخمى ، ثم لم يلبث ان عزله وولى على الشرطة الحسين بن يزيد الكندى .

وكان على بن موسى عادلا وفيه رفق بالرعية .. وكان آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

٧٨٧ م ــ ١٧٠ هـ : وفاة الخليفة موسى الهادى :

مات الخليفة موسى الهادى وكانت سنه يوم وفاته خمسا وثلاثين سنة اما حكمه فلم يزد على سنة واحدة وشهرين .. وكان موته بسبب قرحة اصابته وقيل أن أمه الخيزران هى التى سعت الى موته عندما تحداها ومنع تدخلها فى الشئون العامة حتى لقد هددها بأنه سيضرب عنق اى أمير يقف ببابها ودعاها الى الاشتغال بمغزلها او تلاوة المصحف .. ويستبعد الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه هذه الواقعة على اساس من حنان الأم ، مع أن التاريخ حافل كما رأينا بعشرات الأمهات اللواتى ضحين بأولادهن من اجل النفوذ والسلطان .

على ان الدكتور على ابراهيم حسن يعود لتقبل الرواية على اساس ان الهادى فكر فى حرمان اخيه الرشيد من ولاية العهد ، واذا كانت الخيزران تحب الرشيد فقد تكون بالفعل سعت الى موته .

خلافة هارون الرشيد :

ارتقى هارون الرشيد عرش الخلافة وهو الابن الثانى للمهدى وكان عمره يوم وليها خمسا وثلاثين سنة وهو ألمع الشخصيات فى الدولة العباسية وأكثرهم شهرة فى الغرب لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود وقد أصبحت بغداد فى ايامه حاضرة الدنيا الأولى وتحولت الى كعبة رجال العلم والأدب ومركز للتجارة العالمية .

٧٨٨ م – ١٧١ هـ : امارة موسى بن عيسى على مصر :

ولى هارون الرشيد امارة مصر لموسى بن عيسى احد امراء بنى العباس وذلك بعد أن عزل على بن سليمان .. أما سبب عزل على بن سليمان فهو تعلق مسلمى مصر به لكثرة ما تصدق به ، ولتحمسه للدين مما جعله يهدم الكنائس التى أحدثها الأقباط فى مصر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وتجمع حوله من يزينون له صلاحيته للخلافة ، ووشى به عند الرشيد فعزله .

وقد جعل موسى بن عيسى على الشرطة أخاه اسماعيل ثم عزله وولى عسامة ابن عمرو وكان موسى بن عيسى جوادا كريما وكان رفيقا بالرعية محسنا اليها .

ولم يقف بره كسلفه عند حد المسلمين بل شمل الأقباط ايضا ولذلك فقد اذن لهم أن يعيدوا بناء الكنائس التى هدمها سلفه وقد اذن بذلك بناء على مشورة الليث ابن سعد امام مصر وحجتها وعبد الله بن لهيعة قاضيها ، على أساس أن هذه الكنائس قد بنيت فى الاسلام وفى زمن الصحابة والتابعين فلم يعد يجوز هدمها .

٧٨٨ م – ١٧٢ هـ : امارة مسلمة بن يحيى على مصر :

صرف الرشيد موسى بن عيسى عن امارة مصر خوفا كما يبدو من تطلعه للاستقلال بها وولى مسلمة بن يحيى بن قرة البجلى الخراسانى ، على الصلاة ، فجعل على شرطته ابنه عبد الرحمن ، وكان عمرو بن غيلان على الخراج .

٧٨٩ م – ١٧٣هـ : امارة محمد بن زهير الأزدى :

عمت الفتن فى أيام مسلمة بن يحيى فى أرجاء مصر فعزله هارون الرشيد وولى محمد بن زهير الأزدى على الصلاة والخراج ، فاستعمل على الخراج عمرو بن غيلان وجعل على شرطته حنك بن العلاء ثم استبدله بحبيب بن ابان العجلى .

وقد اشتد عمرو بن غيلان على الناس وأهل الخراج فنفرت منه القلوب وثار عليه الجند وحاصروه فى داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير فغضب هارون الرشيد لذلك عندما بلغه الخبر وعزل محمد بن زهير .

٧٩٠ م – ١٧٤ هـ : امارة داود بن يزيد على مصر :

هو داود بن يزيد بن حاتم ولاه هارون الرشيد بعد عزل محمد بن زهير على الصلاة وولى ابراهيم بن صالح بن على العباسى على الخراج .

وفاة عبد الله بن لهيعة :

وفى هذه السنة مات عبد الله بن لهيعة الامام الحافظ عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها .

٧٩١ م ـ ١٧٥ هـ : امارة موسى بن عيسى الثانية :

عزل هارون الرشيد داود بن يزيد واعاد الى امارة مصر موسى بن عيسى وجمع له صلاة مصر وخراجها .

وفاة الليث بن سعد :

وفى هذه السنة مات فقيه مصر الليث بن سعد الذى استطاع بعلمه ان يصبح كبير الديار المصرية ورئيسها ، فكان القاضى والنائب تحت امره ومشورته حتى قال احد الشعراء يحرض جعفر المنصور عليه :

أمير المؤمنين تلاف مصرا　　فان أميرها ليث بن سعد

ولكن ورع الليث بن سعد وعلمه حماه من هذه الوشايات وكان الشافعى يقول عنه : الليث أفقه من مالك الا أن اصحابه لم يقوموا به .

وقد جرت بين الليث بن سعد والامام مالك مراسلات مسجلة فى كتب الفقه تشهد بعلو كعبه وتدينه .

٧٩٢ م ـ ١٧٦ هـ : امارة ابراهيم بن صالح الثانية :

طمع موسى بن عيسى أمير مصر فى الاستقلال بها فعزله الرشيد وولى بدلا عنه ابراهيم بن صالح الذى ولى على الصلاة قبل مقدمه الى مصر ، عسامة بن عمرو ، وولى نصر بن كلثوم على الخراج ثم ارسل روح بن روح بن زبياع على الصلاة والخراج حتى قدم بنفسه فى منتصف شهر جمادى الأول وكان على شرطته خالد بن يزيد وكان ابراهيم بن صالح من وجوه بنى العباس ، وكان خيرا ، دينا ، ممدوحا ، ولكن أيامه لم تطل فقد توفى فى شعبان .

بيعة الرشيد لولديه الأمين والمأمون :

فى هذه السنة عقد الرشيد البيعة من بعده لابنه محمد الأمين ثم لعبد الله المأمون ، وكتب كتابا بهذا العهد علقه فى الكعبة . وكان المأمون اسن من الأمين بشهر واحد ، ولكن الأمين كانت أمه زبيدة وهى هاشمية ، أما المأمون فأمه أم ولد فارسية وقد أقام هارون المأمون حاكما على الشرق .

وقد جدد هارون هذه البيعة فيما بعد اكثر من مرة بعد ان ضم اليها ابنه الثالث القاسم ليكون خليفة بعد الاثنين .

امارة عبد الله بن المسيب :

ولى الرشيد عبد الله بن المسيب امارة مصر بعد وفاة ابراهيم بن صالح ، فقدم مصر فى ١٩ رمضان فى هذه السنة ، ونزل بالمعسكر وجعل على شرطته ابا المكيس .

٧٩٣ م — ١٧٧ هـ : امارة اسحق بن سليمان :

عزل الرشيد عبد الله بن المسيب ، وولى على مصر اسحق بن سليمان الهاشمى العباسى وجمع له الصلاة والخراج ، فجعل على شرطته مسلم بن بكار العقيلى .

وقد زاد اسحق بن سليمان فى الضرائب المفروضة على المزارعين زيادة فاحشة فكرهته الناس وخرج عليه جماعة أهل الحوف من قيس وقضاعة فحاربهم ، ولكنهم استطاعوا ان يقتلوا عددا كبيرا من حاشيته وجنده ، فكتب يعلم الرشيد بما حدث فعزله .

٧٩٤ م — ١٧٨ هـ : امارة هرثمة بن ايمن :

ولى الرشيد هرثمة بن أيمن على مصر صلاتها وخراجها ، واوفد معه جيشا كبيرا لاقرار الأمن بها ، ولكى يتوجه بعد ذلك الى شمال افريقيا .

امارة عبد الملك بن صالح :

بعد ان انصرف هرثمة وجيوشه عن مصر قاصدا افريقيا ولى الرشيد على صلاة مصر وخراجها عبد الملك بن صالح ، فلم يقدم الى مصر واستخلف نيابة عنه عبد الله ابن المسيب الذى جعل على شرطته عمار بن مسلم .

٧٩٥ م — ١٧٩ هـ : امارة عبد الله بن المهدى :

ولى الرشيد اخا له لابيه وهو عبد الله بن المهدى فعهد اليه بصلاة مصر وخراجها فاستخلف عليها داود بن حباش وارسله اليها ثم لحق به فى شعبان من هذه السنة وجعل على شرطته معاوية بن صدر . ثم عمار بن مسلم .

وفاة الامام مالك بن أنس :

توفى بالمدينة المنورة الامام مالك بن انس شيخ الاسلام وامام دار الهجرة ومؤلف الموطأ وهو اول جمع منظم للأحاديث النبوية وصاحب المذهب المشهور .

قال الشافعى فى وصفه اذا ذكر العلماء فمالك هو النجم ، وما فى الارض كتاب اكثر صوابا من الموطأ .

وكان مالك عظيم الجلال كبير الوقار غزير العلم متشددا فى دينه .

وكان رجلا طوالا جسيما عظيم الهامة اشقر اصلع عظيم اللحية عريضها (١) .

امارة موسى بن عيسى الثالثة :

عزل الرشيد اخاه عبد الله وولى موسى بن عيسى على الصلاة فقط فاستخلف ابنه يحيى ثم قدم مصر فى شهر ذى القعدة ، على أن الرشيد لم يلبث أن صرفه عن مصر واعاد اخاه عبد الله بن المهدى للمرة الثانية .

٧٩٦ م ـ ١٨٠ هـ : امارة عبد الله بن المهدى الثانية :

ولاه الرشيد على الصلاة ، فاستخلف داود بن حبشى على الصلاة الى أن قدم بنفسه الى مصر فى ٤ شعبان من هذه السنة .

هدم منارة الاسكندرية :

فى هذه السنة وقع زلزال عظيم فى مدينة الاسكندرية سقط بسببها راس منارة الاسكندرية الشهيرة فكان ذلك اول تصدع أصابها بعد اكثر من الف سنة على انشائها .

وفاة سيبويه امام النحو :

وفى هذه السنة توفى ببلاد فارس(٢) ، أبو بشر عمر بن عثمان البصرى امام النحاة المشهور على اثر مناقشة دارت فى بغداد بينه وبين الكسائى ، وهو مؤلف كتاب النحو الذى لم يسبقه او يلحقه كتاب فى النحو ، ومن عجب أن يكون أعظم مؤلف فى النحو فارسيا وأن يحقق هذا النبوغ فى سن الثانية والثلاثين ، والذين يطيلون لا يتجاوزون به الاربعين .

٧٩٨ م ـ ١٨٢ هـ : امارة اسماعيل بن صالح :

عزل الرشيد اخاه عبد الله بن المهدى للمرة الثانية بعد ولاية لم تزد على سنة وثلاثة اشهر ، وولى اميرا عباسيا آخر وهو اسماعيل بن صالح على صلاة مصر فاستخلف عون بن وهب الخزاعى حتى حضر بنفسه فى ٢٥ رمضان وجعل على شرطته سليمان بن الصمة ثم صرفه بيزيد بن عبد العزيز الغسانى وأخذ فى اصلاح امر الديار المصرية وكان فصيحا عاقلا أديبا شجاعا .

---

(١) اقرأ كتاب الامام مالك لابى زهرة وللشيخ أمين الخولى .

(٢) أعلام الثقافة العربية ـ سيبويه ص ١٦ .

٧٩٩ م – ١٨٣ هـ : امارة اسماعيل بن عيسى :

عزل الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسى الهاشمى على الصلاة ، فقدم مصر فى ١٦ جمادى الثانى على أنه لم يمكث بها الا ثلاثة شهور ثم عزله الرشيد .

امارة الليث بن فضل على مصر :

ولاه الرشيد بعد عزل اسماعيل بن عيسى على الصلاة والخراج ، فقدم مصر فى الخامس من شوال وجعل على شرطته اخاه على بن الفضل .

٨٠٢ م – ١٨٦ هـ : ثورة أهل الحوف على الليث :

ثار أهل الحوف على الليث بن الفضل وتعذر عليه جمع الخراج فطلب من الرشيد ان يبعث اليه جيشا لتحصيل الخراج ولكن محفوظ بن سليمان تعهد للرشيد انه قادر على جمع الخراج بغير حاجة الى جيش ، فأرسله عاملا على الخراج ، فتمكن بالفعل من جمع الخراج بغير حاجة لاستعمال العنف فكان سببا فى عزل الليث بن الفضل .

٨٠٣ م – ١٨٧ هـ : امارة احمد بن اسماعيل :

هو احمد بن اسماعيل الهاشمى العباسى ولاه الرشيد على صلاة مصر بعد عزل الليث بن الفضل ، فقدمها فى ٢٥ جمادى الثانى وجعل على شرطته معاوية بن حرد .

نكبة البرامكة :

وفى هذه السنة نكب الرشيد البرامكة ، نكبتهم المشهورة بعد ان ترك ليحيى ابن خالد البرمكى واولاده شئون الحل والعقد فى الدولة ، وجعل من جعفر البرمكى خلا له وصديقا لا يستطيع مفارقته لحظة ، حتى اذا بلغ نفوذ البرامكة الأوج اصدر الرشيد امره بقتل جعفر البرمكى وسجن ابنه يحيى وأخاه الفضل وايداع باقى الأسرة السجون ، ومصادرة اموالهم ، واضطهاد كل من يشيد بذكرهم .

وقد قيلت اقاصيص كثيرة فى اسباب هذه النكبة ، ولكن من المحقق انه نفس السبب الذى ادى الى مصرع ابى مسلم الخراسانى وهو خشية الحاكم على نفوذه من الضياع من اعوانه الأقوياء .

٨٠٥ م – ١٨٨ هـ : امارة عبد الله بن محمد :

عزل الرشيد احمد بن اسماعيل ، وولى امارة مصر على الصلاة الأمير العباسى

الهاشمى عبد الله بن محمد فقــدم مصر يوم السبت ١٥ شوال وجعل على شرطتــه احمد بن موسى العذرى ثم عزله وولى محمد بن عسامة .

٨٠٦ م – ١٩٠ هـ : امارة الحسين بن جميل :

عزل الرشيد عبد الله بن محمد العباسى وولى الحسين بن جميل مولى أبى جعفر المنصور ، أميرا على مصر فولاه الصلاة فقدم اليها يوم الخميس ١٠ رمضان وسكن المعسكر وجعل على شرطته كاملا الضــائى ثم معاوية بن حرد ، ثم جمع له الرشيد بين الصلاة والخراج ، فلما ولى الخراج تشدد فيه فخرج عليه أهل الحوف بالشرق ، وامتنعوا عن اداء الخراج ، فارسل اليهم الرشيد جيشا ردهم الى الطاعة وادوا ما عليهم من الخراج .

مقدم الشاعر الحسن بن هانى (أبو نواس) الى مصر :

قدم الى مصر الحسن بن هانى (أبو نواس) شــاعر العباســيين أمــلا فى نوال الخصيب ، وديوان أبى نواس ملىء بالقصائد حول هذا المعنى .

أنت الخصيب وهذه مصر فتــدفقا فكلاكما بحــر

وذكر السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبى نواس ومصاحبته وكتابة شعره .

٨٠٨ م – ١٩٢ هـ : امارة مالك بن دلهم :

عزل الرشيد الحسين بن جميل وولى مالك بن دلهم بن عيسى أميرا على مصر صلاتها وخراجها فقدمها يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول وجعل على شرطته محمــد ابن توبه بن آدم .

٨٠٩ م – ١٩٣ هـ : وفاة الخليفة هارون الرشيد :

توفى هارون الرشيد عن خمس وأربعين سنة حكم فيها ثلاثة وعشرين ســنة وشهرين . وهو أشهر خلفاء المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لكثرة ورود اسمه فى الادب الشعبى كما هو ممثل فى حكايات ألف ليلة وليلة ونوادر أبى نواس .

واذا كان عصر عبد الملك بن مروان يعتبر عصرا عربيا فان عصر الرشــيد كان عصرا فارسيا من حيث نظــام الحكم ومديريه وصفة الحياة الاجتماعية التى أصبح محببــا فيها كل ما هو فارسى ، أما أمراء الجيش وقواده جميعا فقــد كانوا من الفرس ..

وحسبنا أن نشير الى ماوصل اليه البرامكة قبل نكبتهم .. وقد اتصف هارون الرشيد بالكرم والجود فكان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، وكان يغدق العطايا والأموال على الناس فى المواسم . وعلى الرغم من ذلك فقد ترك وراءه خزائنه عامرة بالمال يقدر ما فيها ب ٤٨ مليون دولار على ما يقول ول دورانت .. وليس وراء ذلك دليل على ما وصلت اليه الدولة فى عهده من غنى واستقرار وازدهار .

وقد امتلأ بلاط الرشيد فى بغداد بالعلماء والشعراء والأدباء والمغنيين واقطاب الموسيقى ، من امثال ابى العتاهية وأبى نواس والعباس بن الأحنف والاصمعى والكسائى والواقدى .. يتوج هؤلاء ابو يوسف صاحب كتاب الخراج ، كما اشتهر من رجال الغناء ابراهيم الموصلى واسحق الموصلى .

الرشيد وشارلمان :

الرشيد هو اشهر ملوك الاسلام فى تاريخ اوربا فى العصور الوسطى للعلاقات الودية التى نشأت بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة وباعث الامبراطورية الرومانية المسيحية .

ومما يؤسف له أن هذه العلاقات الودية كانت على حساب العداء المشترك للدولة الأموية فى الأندلس .

وقد أفاضت المصادر الافرنجية فى وصف الهدايا التى كان الرشيد يبعث بها الى شارلمان ، وكيف كانت تبهر الأفرنج حتى ليعدوها من صنع الجان كما هو الشأن فى موضوع الساعة المائية الدقاقة . ولم يقل تاثير الفيل الذى أهداه الرشيد لشارلمان عن أثر الساعة .

خلافة محمد الأمين :

ولى محمد الأمين الخلافة بعهد من ابيه هارون الرشيد ، غير انه لم يكد يليها حتى أقدم على فعل ما فعله خلفاء بنى أمية من قبله عندما كانوا يخلعون أخواتهم من ولاية العهد لحساب أبنائهم .. ولذلك فقد خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى من بعده .

فشب الخلاف بين المأمون الذى كان يقيم فى خراسان ويحكم فى الشرق ويمثل العنصر الفارسى الذى بدأ يطغى على الدولة الاسلامية وبين الأمين الذى كان يقيم فى بغداد وتلوذ به العناصر العربية التى تحاول ان تتشبث بسابق نفوذها وسيادتها.

امارة الحسن بن البحباح على مصر :

كان الأمير على مصر عند وفاة هارون الرشيد هو الحسن بن البحباح وكان قد وليها بعد عزل مالك بن دلهم « وقد ورد اسمه بهذا الضبط (البحباح) فى كتاب أمين باشا سامى وفى النجوم الزاهرة ، ولكن فى كتاب المقريزى وفى الكندى الحسن ابن التختاخ وهو ما اختاره لين بول » .

وقد ولى صلاة مصر وخراجها .. فلم يكد يصل الى مصر حتى جاء الخبر ينعى هارون الرشيد واستخلاف الأمين فثار الجند على الحسن وقاتلوه فقاتلهم وجرت بين الاثنين مقتلة عظيمة .

٨١٠ م ــ ١٩٤ هـ : امارة حاتم بن هرثمة :

عزل الأمين الحسن بن البحباح وولى على امارة مصر حاتم بن هرثمة صلاتها وخراجها فجعل على شرطته ابنه ثم عزله بغيره بعد ذلك واستقر على أمرة مصر ومهد امورها وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهواء .

ميلاد البخـــارى :

وفى هذه السنة ولد ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخـارى امام جامعى الاحاديث النبوية .

١٩٥ هـ ــ امارة جابر بن الأشعب على مصر :

عزل الأمين حاتم بن هرثمـة وولى عليهـا جابر بن الأشعب وجمع له الصـــلاة والخراج فقدم مصر يوم الاثنين ٢٥ جمادى الثانى واستخلف على الصـــلاة يحيى ابن يزيد المرادى .

معركة الرى بين الأمين والمأمون :

وقعت معـركة الرى بين الأمين والمأمون وكان على جيش الأمين عيسى بن ماهان فى عسكر كثيف ، وعلى عسكر المأمون طاهر بن الحسين فى اقل من أربعة آلاف .

فتمت الغلبة لطاهر بن الحسين ، وبعث للمأمون يقول له :

كتابى الى امير المؤمنين وراس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى وجنده تحت امرتى والسلام .

ثورة السرى بن الحكم على والى الأمين فى مصر :

احدثت هذه الهزيمـة الساحقة أثرها فى مصر فوثب السرى بن الحـكم ومعـه جماعة من المصريين منادين بخلع الأمين ومبايعة المأمون ، ولما حاول جابر أن يتصدى لهذه الحركة ، قاتله السرى بن الحكم وهزمه وأخرجه من مصر . وعقد بيعة الناس للمأمون .

١٩٦ هـ ـ امارة عباد بن محمد :

ولى المأمون على امارة مصر عباد بن محمد بن حباب البلخى وكان عباد يعمل قبل ذلك وكيلا على ضياع هرثمـة فى مصر . فلما ان ولى الامارة جعل على شرطتـه هبيرة بن هاشم بن حديج .

وكتب الأمين من ناحيته الى ربيعة بن قيس رئيس قيس الحوف بمصر بولاية مصر ، فقام أهل الحوف بخلع المأمون ومبايعة الأمين من جديد ، وساروا لمحاربة عباد واصحابه فانتصروا عليه ، وبعثوا به الى الأمين فأعدمه .

١٩٧ هـ ـ وفاة ورش شيخ القراء فى مصر :

مات فى هذه السنة أبو سعيد امام القراء وهو على احدى الروايات عثمان بن سعيد بن عدى بن غزوان بن داود بن سابق (القبطى المصرى) وشيخه نافع وهو الذى لقبه ورشا لشدة بياضه وانتهت اليه رياسة القراء بالديار المصرية .

٨١٣ م ـ ١٩٨ هـ : وفاة الخليفة محمد الأمين :

قتل الخليفة محمدالأمين فى مدينة بغداد بعد حصار عنيف للمدينة قام به قائد المأمون طاهر بن الحسين من ناحية وهرثمة بن عيسى من ناحية اخرى ولقد لاقت بغداد شدائد واهوالا من جراء هذا الحصار ووقف الشعب الى جانب محمد الأمين الذى باع كل ما فى خزائنه من الأمتعة ليصرف على الجند ، وحول كل ما كان فى قصره من ذهب الى دنانير ، حتى اذا اسقط فى يده ، واصبح صفر اليدين من كل شىء ، نصح له الناصحون أن يتنازل عن الخلافة لأخيه ويسلم نفسه لهرثمة ولكن رجال طاهر بن الحسين أبوا الا أن يقتلوه ويبعثوا برأسه الى المأمون الذى حزن أشد الحزن لمقتل أخيه على هذه الصورة .

والصراع بين الأمين والمأمون هو آخر محاولة من العناصر العربية للاحتفاظ بمواضع السلطة والنفوذ ، ضد سلطان الفرس وبقية الأجناس الاسلامية الزاحفة ومن سوء حظ العناصر العربية ان ممثلها وهو الأمين كان أخا صيد ولهو وموسيقى وشراب ، حتى لقد ظل وسط الأزمات والمحن لا يكف عن ممارسة الوان مجونه وعبثه ، حتى اعتبر مجنونا ، وكان سنه عندما قتل فى بعض الآراء عشرين سنة ، ولكن الطبرى يرجح أن يكون عمره ثمانى وعشرين سنة .

خلافة عبد الله المأمون :

وعلى النقيض من الأمين كان المأمون ، جادا وقورا شغوفا بالعلم منذ صـباه متعمقا فى دراسة الفلسفة حتى لقد اعتبر من أساطين العلماء فى عصره ، بأكثر مما يعد فى دهاة السياسة .

وأم المأمون فارسية وقد ولد عام ١٧٠ هـ قبل الأمين بشهر ، وقد ولاه الرشيد ابان حياته خراسان فأقام بها فأصبح اكثر ميلا للفرس منه للعرب ، حتى لقد فوض كل أمره الى الفضل بن سهل الفارسي وعهد اليه برئاسة القلم والسيف مطلقا عليه اسم ذو الرئاستين .

ولم يشأ عند توليه الخلافة ان ينتقل من خراسان الى بغداد عاصمة الملك فظل في مرو ، تاركا للحسن بن سهل ادارة شئون الدولة .

امارة عبد المطلب بن عبد الله على مصر :

ولى المأمون عبد المطلب بن عبد الله بعد عزل عباد بن محمد على صلاة مصر وخراجها ، فقدم الى مصر من مكة فى النصف من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وجعل على الشرطة هبيرة بن هاشم ، ثم راح يبدل ويغير فى رؤساء شرطته لكثرة ما وقع فى عهده من اضطرابات وفتن ، مما جعل المأمون يبادر بعزله قبل أن يتم سنة .

امارة العباس بن موسى على مصر :

ولى المأمون الأمير العباسي الهاشمى العباس بن موسى على الصلاة والخراج . نقدم ابنه عبد الله امامه فى ٢٨ شوال من هذه السنة .

وعندما وصل عبد الله الى مصر سجن المطلب أمير مصر المعزول وشدد النكير على أهل مصر فابغضوه وتآمروا مع الجند واخرجوا المطلب من سجنه ونصبوه اميرا على مصر ، فأقر المأمون تصرف الجند . ولعل ذلك هو الذى شجعهم على قتل عبد الله بن العباس . كما توفى العباس نفسه وفى رأى تغرى بردى انه لم يدخل مصر اطلاقا ولم يحكمها وانما الذى دخلها وحكمها هو ابنه .

مقدم الامام الشافعى الى مصر :

وقد قدم الى مصر فى هذه السنة فى معية عبد الله بن العباس محمد بن ادريس الامام الشافعى ، فكان قدومه نقطة تحول فى تاريخ مصر الاسلامى ، فبعد أن كان يتنازع أهلها من المسلمين المذهبان المالكى والحنفى ، جاء المذهب الشافعى ليعلو على المذهبين الآخرين ، ويصبح فى خاتمة المطاف هو مذهب الأغلبية الساحقة من مسلمى مصر .

٨١٤ م — ١٩٩ هـ — امارة المطلب بن عبد الله الثانية :

ولى المطلب امارة مصر بعد اخراج الجند والأهالى له من السجن كما قدمنا ، فاصطنع الرفق بالرعية وأجزل لهم العطاء واحسن الى الكافة ، فالتفت حوله القلوب ، واستفحل أمره وقويت شوكته ... ولعل هذا هو الذى جعل المأمون يسكت عنه الى حين .

دنانير المأمون مضروبة فى الفسطاط :

وفى مجموعة النقود الاسلامية توجد دنانير مضروبة فى الفسطاط هذا العام باسم المأمون . (لين بول) .

٨١٥ م ـــ ٢٠٠ هـ : امارة السرى بن الحكم :

عزل المأمون المطلب بن عبد الله عن ولاية مصر وولى عليها السرى بن الحكم بن يوسف ، على الصلاة والخراج ، فجعل على شرطته محمد بن عساقة ، ولكن الجند لم يلبثوا أن ثاروا عليه ، فعزله المأمون عن الامارة .

٨١٦ م ـــ ٢٠١ هـ : امارة سليمان بن غالب على مصر :

ولى المأمون سليمان بن غالب على صلاة مصر وخراجها فجعل على شرطته اباذكر بن جناده فشدد على المصريين فعزله سليمان واستبدله بالعباس بن لهيعة .

على ان الجند لم يلبثوا ان ثاروا على سليمان بن غالب وقاتلوه ، مما أدى بالمأمون الى عزله عن امارة مصر ، واعاد السرى بن الحكم الذى كان فى السجن .

امارة السرى بن الحكم الثانية :

ولى المأمون السرى بن الحكم امارة مصر وبعث اليه فيما يبدو بخلعة فأخرج من السجن ، وسار الى المعسكر فى موكب حافل وجعل على شرطته محمد بن عساقة ثم راح يستبدل رئيس شرطته بآخر كلما شكا الناس منه ... يقول تغرى بردى : وكان السرى اميرا جليلا معظما فى الدولة .

وقد ظل هذه المرة فى امارته حتى مات .

المامون يعهد بولاية العهد الى على الرضى :

اقدم المأمون على الخطوة التى كانت تراوده منـــذ أمد طويل ، وهو أن يعيـــد الخلافة الى احفـــاد على بن أبى طالب . فقد كان يؤمن بأنهم ظلموا وانهم أحق بالملك من بنى العباس . فعزل اخاه القاسم من ولاية العهد وجعلها الى على الرضى بن موسى ابن كاظم بن جعفر الصادق العلوى ، باعتباره أتقى وأورع العلويين والعباسيين معا .. ولكن بنى العباس تمردوا على هذا القرار وثارت ثورتهم فى بغداد ، فخلعوا المامون .

وبايعوا ابراهيم بن المهـــدى خليفـــة ، فاندلعت نيران الحرب الداخليـــة من جديد .

٨١٨ م – ٢٠٣ هـ : وفاة على الرضى ووصول المأمون الى بغداد :

مات على بن موسى الرضى العلوى الذى جعله المأمون ولى عهده فكان ذلك حلا للأزمة التى تعقدت بين المأمون وبين أسرة بنى العباس ، اذ بعث المأمون الى العباسيين فى بغداد يعلمهم بنبأ هذه الوفاة وانه عدل عن نقل الخلافة الى العلويين ، ولكن البغداديين ردوا عليه ردا خشنا واعلنوا تمسكهم بابراهيم المهدى فسار المأمون على رأس جيشه قاصـدا بغـداد ، فلم يتصد لقتاله أحـد ... ولم يكد يصل الى بغداد حتى اختفى ابراهيم المهدى وكرر المأمون اعلان عزمه على اقرار الأمور ببنى العباس . وعدل عن لبس الملابس الخضراء شعار العلويين ، الى السواد شعار بنى العباس .

٨١٩ م – ٢٠٤ هـ : وفاة الامام الشافعى فى مصر :

مات الامام الشافعى .. وكان قد نزل ضيفا بمجرد وصوله الى مصر عند أسرة من أكرم الأسر واغناها وأعلمها فى الفسطاط وهى أسرة بنى عبد الحكم .. وقد قدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى ، فأحبه المصريون لعروبته وقرشيته وعلمـه وفصاحته .

وكون الشافعى لنفسـه حلقة فى المسجد الجامع (عمرو بن العـاص) واقام فى مصر منذ عام ١٩٨ حتى هذه السنة فكثر تابعوه وتلامذته ... وبلغ نشاط الشافعى فى مصر الأوج اذ ألف كتاب الام الذى يعتبر بحق أساس علم أصول الفقه .

وكان الشافعى على ما يصف بن حجر يجلس فى حلقته اذا صلى الصبح فيحتويه أهل القرآن فيسألونه ، فاذا طلعت قاموا وجاء أهل الحديث يسألونه عن معانيه وتفسيره فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة فاذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب نصف النهار فينصرف الى منزله .

وقد شرح مذهب الشافعى من بعده تلميذاه المزنى والبويطى .

وقد كتب الكثير وقيل الأكثر فى مناقب الشافعى كصاحبيه من قبله ابى حنيفـة ومالك ، ولعل من أبسط ما قيل فيه : لو جمعت امة لوسعهم عقل الشافعى .

٨٢٠ م – ٢٠٥ هـ : امارة محمد بن السرى على مصر :

ولى المأمون محمد بن السرى بن الحكم امرة مصر بعد وفاة ابيه ، وفى أيامه خرج الجروى عن الطاعة وغلب على مصر السفلى فجهز له محمد العساكر وخرج لقتاله ولكن الموت عاجله .

٨٢١ م — ٢٠٦ هـ : امارة عبيد الله بن السرى على مصر :

ولى المأمون عبيد الله بن السرى على صلاة مصر وخراجهـا بعد وفاة أخيه محمد ابن السرى ، فجعل على شرطته محمد بن عقبة ، وبدأ ولايته بالحرب ضد الجروى الخارجى .

واذ كانت ولاية مصر قد تعاقبت فى بيت السرى كما رأينا ، واصبحت له مكانة فى نفوس المصريين ، فقد حدثت عبيد الله نفسه بالخروج على المأمون والاستقلال بمصر ، فبدأ يعد العدة ويحشد الجنود ، استعدادا لاعلانه خلع المأمون ، لولا ان تسرب خبره الى المأمون فأرسل عبد الله بن طاهر بجيش كبير لخلع عبيـد الله بن السرى . ودارت المعارك بينهما ، انتهت بهزيمة عبيد الله الذى استسلم لعبد الله ابن طاهر .

٨٢٣ م — ٢٠٨ هـ : وفاة السيدة نفيسة :

فى هذه السنة توفيت السيدة نفيسة صاحبة الضريح المشهور باسمها فى قرافة القـاهرة ، وهى ابنـة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وقد وفدت السيدة نفيسة مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق من المدينة الى مصر عام ١٩٣ هـ فلم تلبث ان ذاعت شهرتها وتقواها وورعها وعلمها وأدبها .

ويتحدث تغرى بردى عنها بقوله : وهى صاحبة الكرامات والبرهان ومد ذكرها شرقا وغربا .

٨٢٦ م — ٢١١ هـ : امارة عبد الله بن طاهر على مصر :

هو عبد الله بن طاهر بن الحسن أمير خراسان ثم أمير مصر ولاه المأمون عليها بعد عزل عبيد الله بن السرى .

وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعا مقداما يعدل بين الرعية وكان فوق ذلك جواد كريما بارعا فى الأدب ويقرض الشعر مما حببه الى قلوب الرعية .. وقيل انه خلف فى بيت المال فى خراسان وهى موطن ولايته الرئيسى اربعين الف الف درهم سوى ما فى بيت مال العامة وقد جعل على الشرطة ابان ولايته لمصر معاذ بن عزيز ثم عبد ربه .

وجعل على القضاء عيسى بن المنكدر وأجرى له أربعة آلاف درهم كل شهر .

وقد استطاع فى مدة ولايته أن يرتب أحوال البلاد وان ينظمها وان يمهد طرقها وسبلها وأمنهـا وقد زاد فى مسجد عمرو بن العاص زيادة كبيرة وكان التاريخ يأبى الا أن يجعل لهـذا الحاكم أثرا يتنـاقل عبر الأجيـال فهو الذي زرع بمصر البطيخ

العبدلى وقد استنبته من نوعين مختلفين ، وهى الكلمة التى يرددها العامة باسم (العبد اللاوى) .

استيلاء المسلمين على جزيرة كريت :

كان قد نزل بالاسكندرية قبيل مقدم عبد الله بن طاهر اليها طائفة من المغاربة الذين أبعدوا من الأندلس لثورتهم فى وجه الحكم بن هشام وكانت عدتهم تزيد على بضعة ألوف ، فاستولوا على مدينة الاسكندرية . فلما قدم عبد الله بن طاهر الى مصر توجه الى حربهم ، فدارت بينه وبينهم مفاوضات أن يمدهم بالمال والسلاح والسفن ويرحلوا الى جزيرة كريت البيزنطية فيستولوا عليها فجهزهم عبد الله بن طاهر بما طلبوا وخرج من الاسكندرية أسطول حربى بهذا الحشد من المجاهدين فهزموا الاسطول البيزنطى واستولوا على جزيرة كريت بالفعل ، فكان ذلك أول دخول للاسلام فى الجزيرة ويقول ارشيبالد لويس انهم ظلوا فى جزيرة كريت لمدة قرن ونصف كانوا فيه مثار الفزع للعرش البيزنطى .

٨٢٧ م ـ ٢١٣ هـ : امارة عيسى بن يزيد على مصر :

بعد أن أقر عبد الله بن طاهر الأمور فى مصر ، استخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى ، على صلاتها وخراجها فاقره المأمون وظل أميرا على مصر نيابة عن عبد الله ابن طاهر ، حتى صرف المأمون عبد الله عن امرة مصر وجعلها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد فلما ان وليها المعتصم أقر عيسى بن يزيد على الصلاة فقط وجعل على خراج مصر صالح بن شيرزاده ، فزاد صالح فى الخراج واشتد وظلم وعسف ، فانتفض عليه اهل الحوف واجتمعوا وعسكروا وأجمعوا على قتاله .

فساند عيسى بن يزيد ولكنه انهزم وقتل الكثير من جنده ، فعظم ذلك على المعتصم وعزل عيسى بن يزيد وولى مكانه عمير بن الوليد التميمى .

وفاة ابن هشام كاتب السيرة النبوية :

وفى هذه السنة مات بمصر صاحب السيرة النبوية محمد بن عبد الملك بن هشام ، كاتب ابن اسحق ، ويرى تأثير مصر عليه فى كتابه اذ يروى أحيانا عن ابن لهيعة عالم مصر وقاضيها .

٨٢٩ م ـ ٢١٤ هـ : امارة عمير بن الوليد على مصر :

ولى المعتصم عمير بن الوليد على الصلاة فجعل على شرطته ابنه محمد ولكن القيسية واليمنية من أهل الحوف خرجوا عليه كما خرجوا على من سبقه فسار نحوهم بجنوده ودارت بينه وبينهم معارك سقط فيها صريعا .

امارة عيسى بن يزيد الجلودى على مصر ثانية :

اعاد المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى الى ولاية الصلاة ، ولكن القيسية واليمنية من أهل الحوف ، كان أمرهم قد استشرى وازدادوا ضراوة بما انضم اليهم من قطاع الطرق ، وما احرزوه من انتصارات فى معاركهم السابقة . فخرج عيسى بن يزيد على رأس جيش لمقاتلتهم ، والتقى بهم عند المطرية (عين شمس) فانتهت المعركة بهزيمة عيسى بن يزيد وقتل الكثير من عسكره واضطر الى النجاة بنفسه والاحتماء بالفسطاط .

المعتصم فى مصر :

عندما وصل نبأ هذه الهزيمة الى المأمون طلب من أخيه المعتصم أن يسافر الى مصر ليباشر امارته بها ... فقدم المعتصم من بغداد فى أربعة آلاف من جنوده الأتراك وهاجم الحوف فى طريقه الى الفسطاط فهزمهم هزيمة ساحقة ووضع فى رقابهم السيف حتى أوشك أن يفنيهم .

ثم دخل الفسطاط وفى خدمته عيسى الجلودى وجميع أعيان مصر وسكن المعسكر وأصلح أحوال مصر وولى عليها عبد ربه بن جبلة بعد أن عزل عيسى بن يزيد ، ثم بارح مصر الى الشام .

المسلمون يفتحون صقلية :

وفى هذه السنة استولى المسلمون من افريقيا على جزيرة صقلية وخاضوا معارك برية داخل الجزيرة انتهت بالاستيلاء عليها واستقروا فى عاصمتها بلرم (٨٣١ م) وسرعان ما أصبحت أعظم قاعدة بحرية اسلامية .. وبهذا انطوت صفحة بيزنطة من هذه الجزيرة ونجح مسلمو شمال أفريقيا فى السيطرة على البحر الأبيض وهو ما عجز عن تحقيقه الأمويون .

٨٣٠ م — ٢١٥ هـ : امارة عبد ربه بن جبلة على مصر :

ولاه المعتصم نيابة عنه على الصلاة ، فسكن المعسكر على عادة الأمراء وجعل على شرطته ابنه وعلى المظالم اسحق بن اسماعيل . ولم يلبث أهل الحوف من القيسية واليمنية ان عادوا للشغب ، فسار اليهم واستطاع أن يقمع حركتهم .

ويقول أمين باشا سامى (نقلا عن درر التيجان) ان الغلاء اشتد فى عهده بمصر وأعمالها حتى أصبحت ويبة القمح تباع بدينار ذهب وحصل للناس ما يطول شرحه من سوء الحال وأمور تقشعر من سماعها الأبدان .

ولكنى لم أجد اشارة الى ذلك فى خطط المقريزى ... أو النجوم الزاهرة .

٨٣١ م ـ ٢١٦ هـ ـ امارة عيسى بن منصور :

عزل المعتصم عبد ربه بن جبلة وولى على مصر عيسى بن منصور على الصلاة فقط فجعل على شرطته ابا المغيث يونس بن ابراهيم ولا بد أن يكون قد أساء السيرة فقد ثار فى عهده الأقباط ثورة عارمة .

ثورة سكان الوجه البحرى :

انتفض عرب الوجه البحرى وانضم اليهم الأقباط فشدوا جموعا كبيرة زحفوا بها على العاصمة فتجهز لهم عيسى بما معه من قوات ، ولكنه انهزم فتقهقر بمن معه ، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر (أى العسكر) وأخرجوا منها عيسى بن منصور على أقبح وجه لسوء سيره ، واخرجوا معه كذلك متولى خراج مصر وكانت هذه أعنف حركة قامت فى البلاد منذ الفتح الاسلامى ، وقد استمرت قرابة ثمانية أشهر ، ويرى الدكتور الشيال فى اتساع هذه الحركة ، نمو شخصية مصر الاسلامية وتطلعها الى الاستقلال .

٢١٧ هـ ـ قدوم المأمون الى مصر :

قرر المأمون أن يفد بنفسه الى مصر ليبحث أسباب هذه الفتن المتوالية ويضع حدا لها ، فوصل الى مصر فى ٥ محرم من هذه السنة وأوقعت عساكره تحت قيادة قائدها الشركسى افشين بالمتمردين من العرب أهل الحوف وأقباط الوجه البحرى .

وقد اجمع المؤرخون على أن المأمون قسا على الأقباط الثائرين حتى لقد قتل الكثير من رجالهم وسبى النساء والأطفال .

وسجل التاريخ غضب المأمون على واليه بمصر والالفاظ التى عنفه بها اذ قال له : ان هذا الحدث العظيم لم يكن الا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد والاجماع منعقد على أن هذا الحادث كان آخر مظهر لبقايا مصر المسيحية ، فمنذ ذلك التاريخ وقد أصبحت الأغلبية فى مصر اسلامية وذلك لدخول الكثير من الأقباط فى دين الاسلام ، ويقول المقريزى ومن بقى منهم على دينه كف عن المحاربة وعمد : الى المكاتب واستعمال الحيلة ، وعملوا كتابا للخراج فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة .

وهناك قول عن أن المأمون قد حاول فتح الاهرام : ولكن أحد من الكتاب لم يرو هذه القصة .

وقد ذكرها أمين باشا سامى فى حوادث عام ١٩٩ هـ ، وليس أدل على وهن هذه القصة من أن المأمون فى هذا التاريخ كان لا يزال فى خراسان لم يفكر فى المجىء الى بغداد نفسها وليس الى مصر .

امارة كيدر على مصر :

هو نصر بن عبد الله وكلمة كيدر شهرة غلبت عليه ولاه المأمون على الصلاة فجعل على شرطته ابن سنيديار ثم بعث المأمون برجل من العجم يسمى بسطام ليكون واليا على الشرطة ، ولكن كيدر لم يلبث أن عزله لسوء سيرته ولرشوة ارتشاها ، وضربه بالسوط فى صحن الجامع وولى ابنه المظفر بدلا منه .

٨٣٣ م — ٢١٨ هـ : دعوة المأمون الى القول بخلق القرآن :

ارتكب المأمون العظيم زلته الكبرى فى هذه السنة عندما حاول أن يحمل رجال الدين والفقهاء والقضاة بقوة السلطان على أن يقولوا بخلق القرآن وما بقيت القضية فى دائرة الرأى والخلاف الفكرى ، فقد كانت مظهرا على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية من تطور فكرى على يد علماء المعتزلة ، حيث نادوا بسلطان العقل وخضوع الدين لأحكام العقل .

اما عندما انزلق المأمون الى فكرة فرض الفكرة بقوة السلطان ، فهنا بدأ الزلل والشطط والذى ذكر بحماقات أباطرة القسطنطينية عندما راحوا يفرضون عقائد ونظريات دينية ، وان كان المأمون لم يصل الى حد القتل والتعذيب مكتفيا بالتهديد والعزل عن ولاية المناصب .

أحمد بن حنبل :

وقد كان الامام أحمد بن حنبل أحد الذين طلب منهم امير بغداد بناء على طلب المأمون أن يقر بأن القرآن مخلوق فوقف احمد بن حنبل عند القول بأن « القرآن كلام الله » لايزيد على ذلك أو ينقص وان الخوض فى ذلك بدعة . فلما ابلغ المأمون ذلك ، طلب أن يرسل‌به اليه مقبوضا عليه الى مدينة طرسوس للبحث فى امره ، ولكن قدر للخليفة المأمون أن يموت قبل أن يواجه أحمد بن حنبل .

موت الخليفة عبد الله المأمون :

فى الثامن عشر من رجب من هذه السنة مات الخليفة المأمون وكانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وكانت سنه عندما مات ثمانى وأربعين سنة ، وقد وصف وليم لانجر فى موسوعة تاريخ العالم عصر المأمون على الوجه التالى :

المأمون العظيم . لعل عصره أزهى عصر فى تاريخ الخلافة حظيت فيه الفنون والعلوم بفيض من سخائه وكرمه . جرى فى زمنه اقامة مرصدين أحدهما قرب دمشق والآخر قرب بغداد . وأنشأ قرب مرصد بغداد دارا للعلم زودها بمكتبة زاخرة . وجدت فى عهده ترجمة كتب الآدب والعلوم والفلسفة اليونانية والسريانية

والفارسية والسنسكريتية واشتهر المأمون بأخذه بالحرية الدينية . فتوطدت دعائم مذهب المعتزلة الذين قالوا بالارادة الحرة للانسان وان كل أعمال الله بالنسبة للانسان تتسم بالعدل والحكمة « انتهى كلام لانجر » .

وعندما نذكر الترجمة ونقل العلوم فى عهد المأمون فمن حق حنين بن اسحق وبختيشوع والحجاج بن مصر وثابت بن قره والكندى أن يشار الى أسمائهم .

وعندما يذكر المعتزلة فلا مناص من ذكر ابن الهزيل وابن سيار والجاحظ الذى يقف الانسان حتى اليوم مأخوذا أمام مؤلفاته واسلوبه الجياش الملىء بالحكمة والعاطفة معا . ويأتى على رأس الكل المأمون نفسه والذى يحفظ له تاريخ العلم فضله فى قياس محيط الكرة الأرضية عندما أصدر أمره الى علماء دولته لتحقيق هذه المهمة فقسموا محيط الكرة الأرضية الى ٣٦٥ درجة وقدروا الدرجة ب ٧٦ ميلا وثلثى الميل ، وانتهوا الى أن محيط الكرة الأرضية هو ٢٠٤٠٠ ميلا وهو مايقرب من تقديرنا الحالى .

حفلة زفاف المأمون :

وقد بقى لنكمل صورة عهد المأمون وما وصل اليه من بذخ وغنى ما رواه المسعودى فى مروج الذهب من أن المأمون عندما تزوج بابنة وزيره الحسن بن سهل انفق الحسن على حفلة زفافها ما يقدر بخمسين مليون درهم ، وقيل ان من بين ما فعل انه نثر على الهاشميين والقواد بنادق من المسك (كرات صغيرة) وفى كل بندقية رقعة بأسماء بعض الضياع أو الجوارى والدواب ، وكان كل من يقع من نصيبه شىء من ذلك أصبح ذلك ملكا خالصا له .

خلافة المعتصم بالله :

ولى الخلافة أمير المؤمنين ابو اسحاق محمد المعتصم بالله وهو الابن الثالث للخليفة الرشيد . بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون فى الثامن عشر من شهر رجب من هذه السنة (٢١٨ هـ) وكانت سنه يوم بويع ثمانى وثلاثين سنة . وقد رفض الجند أن يقدموا له الطاعة فى بادىء الأمر ، مفضلين عليه العباس بن المأمون ، ولكن العباس أسرع الى مبايعة عمه بالخلافة احتراما لوصية أبيه فحذا الجيش حذوه بعد ذلك .

مشكلة خلق القرآن :

وسار المعتصم على سياسة أخيه فى حمل الناس على القول بخلق القرآن وزاد عليه الحاق الأذى بكل من لا يقول بهذا القول . وكان أحمد بن حنبل أول من تعرض للأذى وقد وضعت الكتب التى تعرضت لسيرة ابن حنبل تفاصيل مالاقى من محن فى هذه الأيام ، وكان مصدر الخلود الذى حظى به أحمد بن حنبل ، هو صبره على هذه المحن وصموده لها ..

اصطناع الترك :

وقد اختط المعتصم سياسة جديدة ، كان لها اكبر الأثر فيما أصاب الدولة العباسية من انحلال فيما بعد ، فقد قرر ان يجعل اعتماده فى الجيش وفى حرسه الخاص على الأتراك بدلا من الفرس أو العرب . وربما كان مرجع ذلك الى أن امه تركية . فشرع فى استجلاب الرقيق التركى وكان يجاء به من بلاد ما وراء النهر (سيحون وجيحون) واتخذ منهم أجنادا وحراسا ، وبدأوا يشتهرون بجمال المنظر وحسن الهندام والشجاعة فضلا عن التمسك بأهداب الاسلام وسرعان ما أصبح منهم قواد الجند وولاة الاقاليم . ولم يقف المعتصم عند حد الاستعانة بالأتراك .. لقد تجاوز ذلك الى اضطهاد العرب وخلعهم من اعمالهم مما أثار الفتنة فى صفوف جيشه وولاته ، فكان ذلك أول التصدع الذى أصاب الدولة العباسية والتى ظل يتزايد حتى انتهى سلطانها كما سنرى .

٨٣٤ م — ٢١٩ هـ : امارة المظفر بن كيدر على مصر :

ولى امارة مصر المظفر بن كيدر بعد وفاة أبيه باستخلاف منه .. وكان أبوه قد تلقى كغيره من الولاة الأمر باسقاط العرب من الديوان وقطع العطاء عنهم ، فخرج عليه يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من عرب لخم وجذام .. ولكن كيدر مات قبل أن يقع بينهما الاصطدام .

فلم يكد المظفر يباشر عمله ، حتى تصدى لحرب ابن الوزير فانتصر عليه بعد معركة حامية الوطيس .

امارة موسى بن العباس على مصر :

سن المعتصم تقليدا جديدا ، بأن جعل الولاية على قطر من الأقطار نوعا من الانعام ، فانعم بامارة مصر على أحد كبار قواده أبو جعفر اشناس ، على أن يظل الى جواره ينتدب من ناحيته من يدير مصر باسمه .

فأقر الوالى الجديد المظفر بن كيدر على امارة مصر لانشغاله بقتال ابن الوزير حتى اذا فرغت الحرب بعد اربعة شهور بانتصاره على ابن الوزير كما رأينا ، عزله من الامارة ، وولى موسى بن العباس على صلاة مصر وخراجها ، وذلك فى شهر رمضان من هذه السنة .

٨٣٥ م — ٢٢٠ هـ : بناء مدينة سر من راى :

تذمر سكان بغداد من هذه الجائحة الجديدة التى تمثلت فى مماليك المعتصم من الأتراك وبدأ هؤلاء الجند من الأتراك يزعجون سكان بغداد ، فشكا الناس الى المعتصم، وهددوه بأنه اذا لم يكف الذى جنده عنهم فانهم سيحاربونه ويخلعونه .

فبنى المعتصم مدينة سر من راى لتكون مستقرا جديدا له ولاجناده حتى اذا كمل بناؤها انتقل اليها ، فأصبحت سر من راى وليست بغداد هى العاصمة الرسمية وان ظلت بغداد بطبيعة الحال هى المدينة الأولى فى الدولة الاسلامية .

٨٣٩ م ــ ٢٢٤ هـ : امارة مالك بن كيدر على مصر :

عزل اشناس موسى بن العباس عن امرة مصر وعهد بالامارة على الصلاة الى مالك بن كيدر فوفد الى مصر فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى من هذه السنة . ويصف أبو المحاسن مالك بن كيدر بأنه كان أميرا عاقلا .. وقورا مدبرا ، ولى الجليل من الأعمال فأدارها بنجاح ، وكان من اكابر القواد والأمراء .

٨٤١ م ــ ٢٢٦ هـ : امارة على بن يحيى الأرمنى على مصر :

عزل اشناس التركى مالك بن كيدر عن امرة مصر وولى عليها أبو الحسن على بن يحيى الأرمنى فوصل الى مصر فى السابع من شهر ربيع الثانى من هذه السنة فجعل همه الاول اصلاح أحوال الديار المصرية .

وكان على امرة الخراج أبو الوليد بن خاله التختان وعلى القضاء محمد بن الليث الخوارزمى .

٨٤٢ ــ ٢٢٧ هـ : وفاة الخليفة المعتصم :

توفى الخليفة المعتصم فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ربيع الأول وكان عمره عند وفاته ثمانى وأربعين سنة تربع فيها على عرش الخلافة ثمانى سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام . ولما كان ترتيبه من خلفاء بنى العباس هو الثامن فقد أطلقوا عليه وصف الثمانى ويعددون الكثير من المصادفات التى ملأت حياته برقم ثمانية .

ويقول عنه أبو المحاسن أنه كان عاريا عن كل علم .. يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة ولكنه مع ذلك كان فصيحا اذا تكلم ، مهيبا عالى الهمة شجاعا مقداما ، حتى قيل انه كان أهيب خلفاء بنى العباس .

وقد غلبت عليه صفة الجندية لكثرة ما خاض من معارك وحروب انتصر فيها كلها بنفسه ، أو بوساطة قواده .

وقد كان نصره الأكبر عندما استجاب لاستغاثة المرأة المسلمة التى صاحت « وامعتصماه » فآلى على نفسه أن ينتقم لها ، فكانت معركة أمورية التى ضرب فيها

هذه المدينة الرومية وروع الروم .. وهى المعركة التى خلدها أبو تمام الشـاعر فى قصيدته المشهورة .

السيف أصـــدق انباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

واستطاع ان يقضى على حركة الخرمية وأن يقتل زعيمهم بابك الخرمى الذى اراد أن يفـرق فارس فى الاباحيـة وعلى حركة فريار الذى أريد بهـا اعادة فارس الى المجوسية .

وقضى على قائد جيوشه الكبير الأفشين الذى تولى قمع الحركات السابقة ، عندما حدثته نفسه بالخروج على الدولة وهكذا أبقى على الدولة العباسية وحدتها وتماسكها وسيادة الخليفة الاسمية والفعلية على كل أرجائها .

وان كان فى نفس الوقت هو واضع البذرة لانفراط عقدها .. فقد مات مخلفا وراءه ثمانيـة عشر الف مملوك من الأتراك سرعان ما تحولوا الى نكبـة على الخلافة والخلفاء .

خلافة الواثق :

وبعـد وفاة المعتصم بويع بالخلافة لابنـه أبى جعفر هارون الواثق بالله وذلك فى ١٩ ربيع الأول وأمه أم ولد رومية .. وكان ملكا مهيبا جليلا كريما اديبا يقرض الشعر ، وكان مولعا بالغناء والجوارى .

٨٤٣ م — ٢٢٩ هـ : امارة عيسى بن منصور الثانية على مصر :

ابتدع الواثق بدعة جديدة فعهد بالسلطة كلها الى اشناس التركى الذى ولى على مصر عيسى بن منصور على الصلاة والخراج معا .

ولكن اشناس لم يلبث أن توفى ، فعهد الخليفة الواثق بأمرة مصر الى ايتاخ التركى الذى أقر عيسى بن منصور على امرة مصر . وقد عهد عيسى بن منصور الى ابنـــه بولاية الشرطة .

وكان عيسى بن منصور على ما ذكر معاصروه اميرا جليلا ذا معارف وتدبير وانه مهد أمور مصر .

٨٤٥ م — ٢٣١ هـ : تجدد محنة القول بخلق القرآن :

شاءت ارادة الواثق أن يبعث محنة القول بخلق القرآن بعد أن كانت قد سكتت ، فكتب من جديد للولاة على الأمصار يطلب منهم امتحان العلماء والقضاة وموظفى الدولة فى موضوع خلق القرآن وعزل كل من لا يقول بهذا القول .. ووصل الأمر الى حد انه

عند افتكاك الأسرى المسلمين مع الروم ، فكان من لا يقول بخلق القرآن يبقى فى الأسر ولا تدفع فديته .. وغنى عن البيان كما يقول أبو المحاسن أن الجميع قد اعترفوا بخلق القرآن لكى ينفكوا من الأسر .

٨٤٦ م ــ ٢٣٢ هـ : موت الخليفة الواثق :

مات الخليفة الواثق فى الرابع والعشرين من ذى الحجة بعـــد حكم دام خمس سنوات ونصف ، وكانت سنه عند وفاته ستا وثلاثين سنة على أرجح الأقوال وقد طلب منه وهو فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لابنه ولكنه رفض .

ويعتبر عهد الواثق هو نهاية الصدر الأول من الحكم العباسى حيث بدأ من بعده العصر الثانى عصر الاضمحلال السياسى وتمزق أوصـــال الدولة واستقلال مختلف ولاياتها ، وغلبة قواد الترك على خلفاء بنى العباس .

خلافة المتوكل على الله :

بويع بعـد موت الواثق لأخيـه المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن الخليفة المعتصم . وكان عمره عندما ولى الخـلافة يتراوح على حسب مختلف الأقوال بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين .

ولما كان المتوكل قد استهل حكمه بوقف بدعة التحدث عن خلق القرآن ، فقد اغرقه المؤرخون القدامى بالثناء ، فيقول أبو المحاسن ويتابعه على قوله أمين باشا سامى : كانت به كل الخصال الحسنة ، وقد افتتح خلافته باظهار السنة ورفع محنة خلق القرآن عن المسلمين .

ولكن الدكتور على ابراهيم حسن ، وصفه بأنه كان مدمنا على شرب الخمر تعلق بحب جاريته فأعتقها وتزوجها وأطلق عليها من فرط جمالها وحسنها اسم « قبيحة » على سبيل التضاد فى التسمية (ص ٤١٦) وهى التى أنجبت له ابنه أبو عبد الله المعتز

٨٤٧ م ــ ٢٣٣ هـ : امارة هرثمة بن نصر على مصر :

عزل الخليفة المتوكل على الله ، عيسى بن منصور عن امارة مصر بعد أخذ البيعة من المصريين .

فولى الأمير ايتاخ التركى الذى كان هو الأمير الرسمى على مصر ، هرثمة بن نصر على الصلاة فقدم الى مصر يوم الأربعاء السادس من شهر رجب من هذه السنة وجعل على شرطته أبا قتيبة .

وفى أيام هرثمة ورد عليه كتاب الخليفة المتوكل يأمره بترك الجدال فى القرآن واتباع السنة ، وعدم القول بخلق القرآن .

٨٤٨ – ٢٣٤ : امارة حاتم بن هرثمة على مصر :

استخلف هرثمة بن نصر عندما حضرته الوفاة ابنه حاتم على الصلاة ، فأقره الأمير ايتاخ على هذه الامرة ، فجعل على شرطته محمد بن سويد .

وعلى الرغم من ان حاتم بن هرثمة ، اقبل على تدبير شئون مصر فى معرفة ودراية ، وكان جليلا نبيلا ، فيبدو انه لم يحسن تدبير أموره مع ايتاخ التركى ولذلك فقد صرفه عن الامارة .

امارة على بن يحيى الثانية على مصر :

أعاد الأمير ايتاخ التركى على بن يحيى على امرة الصلاة فى مصر بعد عزل حاتم ابن هرثمة ، فسكن المعسكر جريا على عادة أمراء بنى العباس وجعل على شرطته معاوية بن نعيم .

ولم يلبث أن جاءه النبأ بالقبض على ايتاخ التركى وقتله ، وصدر اليه أمر الخليفة بالتحفظ على أموال ايتاخ واسقاط الدعاء له على المنابر .

٨٤٩ م – ٢٣٥ هـ : امارة اسحق بن يحيى على مصر :

قسم المتوكل سلطان الدولة بين أولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد فوقعت مصر من نصيب المنتصر ، فعزل على بن يحيى وولى نيابة عنه على صلاة مصر وخراجها اسحق بن يحيى بن معاذ .

فجعل على شرطته الهياجى ، وعلى المظالم عيسى بن لهيعة الحضرمى . وكان اسحق على ما يقول أبو المحاسن من اجل الأمراء جوادا كريما عاقلا سيوسا ممدوحا ، وكان فيه رفق بالرعية وعدل وانصاف . ومن ذلك أن المتوكل غضب على الشيعة لاتخاذهم من قبر سيدنا على بن أبى طالب مزارا يحجون اليه ، فبالغ فى حربهم واضطهادهم وأمر بطردهم من سائر الولايات وكتب بذلك الى اسحق بن يحيى فراح ينفذ الأمر فى رفق وفى غير افحاش بالنسبة للعلويين ، فلم يعجب المتوكل وعزله عن امرة مصر .

٨٥٠ م – ٢٣٦ هـ : امارة عبد الواحد بن يحيى :

ولى المنتصر امارة مصر بعد عزل اسحق بن يحيى « عبد الواحد بن يحيى بن منصور » على صلاة مصر وخراجها ، فقدم اليها فى الحادى والعشرين من شهر ذى القعدة . فجعل على شرطته محمد بن سليمان البجلى .

ولكن المنتصر لم يلبث أن عزله عن الخراج وأبقاه على الصلاة فقط .

٨٥٢ م ــ ٢٣٨ هـ : امارة عنبسة بن اسحاق على مصر :

ولى المنتصر امرة مصر عنبسة بن اسحاق بعـد أن عزل عبد الواحد فقدم مصر فى الخامس من ربيع الثانى من هذه السنة . وكانت امرته على الصلاة ــ أما الخراج فكان لأحمد بن خالد الصريقينى وجعـل عنبسـة على شرطته أبا أحمد محمد بن عبد الله القمى .

وكان عنبسة على مذهب الخوارج ، فأمر عماله بمجرد وصوله أن يردوا المظالم ، وان ينصفوا الناس غاية الانصاف وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والاحسان اليهم ما لم يسمع فى زمانه . وكان يتوجه ماشيا الى المسجد الجامع بدار الامارة بالمعسكر .

ونحن نعجب ان يصف ابو المحاسن وامين باشا سامى رجلا هذا سلوكه فى الحكمة بانه على مذهب الخوارج ، مع ان تاريخ الخوارج على الضد من هذه المكارم .

غارة الروم على دمياط :

وفى أيامه نزل الروم على ثغـر دميـاط فى ثلثمائة مركب فاسـتولوا عليها ونهبوا واحرقوا وسبوا .

وكانت دمياط لسوء الحظ خالية من الجند عندما دهمها الروم فقد كان الأمير عنبسة قد استدعاهم فى عيد الأضحى ليشهدوا احتفالا اقامه . ولكن أهالى دميـاط أخرجوا من الجند مقدما يدعى أبو جعفر بن الأكشف وقلدوه زعامتهم ، وتصـدوا لحرب الروم فدحروهم وأجلوهم عن البلد ، فانصرف الروم عن المدينة مهزومين ، وقد حاولوا ان يغيروا على مدينة تنيس فلم يقدروا عليها فانسحبوا الى بلادهم .

وعندما وصل عنبسة وجيشه الى دمياط لم يجد ما يفعله الا أن يعمل على اصلاح شأن دمياط وازالة آثار ما أصابها قدر استطاعته .

٨٥٥ م ــ ٢٤١ هـ : أهالى النوبة يعلنون العصيان :

امتنع أهالى النـوبة عن دفع الجزية التى اعتـادوا أداءها منـذ أيام عبد الله بن ابى السرح ، والمؤلفة من العبيد والجوارى والحيوانات الوحشية وأشياء أخرى .

فعهد الخليفة المتوكل الى محمد بن عبـد الله القمى بتولى الشرطة وبحـرب أهل الصعيد الأعلى أو البجة كما اطلق عليهم الطبرى ، فاستطاع القمى ان يؤدى المهمة وان يقمع الفتنة ويرد سكان النوبة الى طاعة الخليفة .

وفاة الامام أحمد بن حنبل :

وفى هذه السنة توفى الامام الجليل صاحب المذهب المشهور ، أحمد بن حنبل ، وهو كأصحابه الثلاثة الآخرين أصحاب المذاهب المشهورة الحنفية والمالكية والشافعية قد كتبت فى مناقبه المجلدات الكثيرة من أتباع مذاهبهم ، ولكن أحمد بن حنبل ينفرد من بين اصحابه بعنف المحنة التى تعرض لها وثبت .

ولقد زاد من ورعه أن المتوكل حاول بعد أن رفع عنه المحنة ، وأفرج عنه من السجن ان يتآلف قلبه بالمال والهدايا والعطايا ، فكان يعتذر عن قبول ذلك تحرزا لدينه .

وقد الف احمد بن حنبل المسند فى احاديث الرسول وقد بلغ من ضخامة هذا العمل ، أن اعتبره بعض معاصريه وتابعهم بعض اهل العلم ، أنه من أئمة الحديث لا الفقه .

وكانت سن احمد بن حنبل عندما مات سبعا وسبعين سنة .

٨٥٦ م ـ ٢٤٢ هـ : امارة يزيد بن عبد الله على مصر :

عزل المنتصر عن امرة مصر عنبسة بن اسحق وولى على صلاتها يزيد بن عبد الله فوفد اليها فى ٢٠ رجب من هذه السنة .

ويقول عنه أبو المحاسن انه :

اقام الحرمة ومهد أمور الديار المصرية ، ومنع النداء على الجنائز وأبطل الرهان الذى كان لسباق الخيل ، ثم تتبع الروافض وأبادهم ، ثم التفت الى العلويين فجرت عليهم منه شدة وأخرجهم من مصر .

وفى هذه السنة زلزلت الأرض فى مصر .

٨٥٩ م ـ ٢٤٥ هـ : غارة للروم على دمياط :

عادت الروم للاغارة على دمياط ، ويدل تكرار هذه الغارات ، على غلبة الأسطول البيزنطى فى هذه الفترة على شرق البحر الأبيض .

على أن هذه الغارة الجديدة كسابقتها لم تزد على النهب والسلب والفرار .

زلازل :

ولأمر ما تكرر وقوع الزلزال فى شدة وعنف عبر مصر كلها ، ولكن يبدو أن مركزه كان فى مدينة بلبيس فقد قتل فيها عدد كبير بسببه .

٨٦١ م ـ ٢٤٧ هـ : بناء مقياس الروضة :

تهدم مقياس الروضة الذى اقامه أسامة بن زيد عام سبع وتسعين ، فأعيد بناؤه وترميمه أيام يزيد بن عبد الملك وفى عهد خلافة المتوكل وظل هو المقياس المعتمد للنيل لعدة قرون تالية .

وفاة الخليفة المتوكل :

فى الخامس من شوال من هذه السنة قتل الخليفة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر بن المعتصم . وكان الذين قتلوه هم مماليكه الاتراك بتحريض من ابنه المنتصر .

وكان المتوكل قد طلب من ابنه المنتصر أن يتنازل عن ولاية العهد لأخيه المعتز ، فأبى المنتصر أن يفعل ذلك ، فعمد أبوه الى اساءة معاملته وتحقيره على رؤوس الاشهاد مما أحفظ قلبه عليه فدبر مقتله .

وكانت خلافة المتوكل اربعة عشر عاما وعشرة اشهر وأيام وكانت سنه يوم قتل حوالى اربعين سنة .

وبقتله بهذا الاسلوب ، تدهورت هيبة الخلافة وما فتئت بعد ذلك تتدهور حتى أصبح الخلفاء ألعوبة فى يد الجند .

ام المتوكل :

وتقترن أيام حكم المتوكل ، باسم والدته التى كان يطلق عليها اسم السيدة واشتهرت بقوة شخصيتها وكثرة صدقاتها .

خلافة المنتصر بالله محمد :

ولى الخلافة بعد مصرع المتوكل ابنه محمد واطلق عليه اسم المنتصر بالله .. ويبدو أن شبح الجريمة التى اقدم عليها بالتحريض على قتل والده قد جثمت على ضميره فأرقته ، فلم يهنأ بالحياة ، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد ستة اشهر فقط من خلافته بما وصف بأنه ذبحة فى الحلق .. وذكر الدكتور على ابراهيم حسن أن مماليكه الاتراك قد تآمروا عليه بالاتفاق مع طبيبه بن طيغور فدس له السم فمات مسموما .

ولم تزد سنه عند موته على خمس وعشرين سنة .

٨٦٢ م – ٢٤٨ هـ : خلافة المستعين بالله :

لم يشأ قادة الجند ورجال الحاشية الأتراك ان يولوا عليهم احد ابناء المتوكل حتى لا يطالبهم بدم أبيه وهو يرجح القول بأنه مات مقتولا ، فاختاروا للخلافة احد ابناء المعتصم وهو ابو العباس احمد واطلقوا عليه اسم المستعين بالله وكانت سنه يوم بويع ثمانى وعشرين سنة .

وكان أول ما فعله هو ان فرق ما كان فى بيت المال من أموال على الجنود والقواد وكان يقدر بألف ألف دينار . ولكن ذلك لم يشفع عندما أراد أن يباشر السلطة ، فقد انقلبوا عليه ، ثم قتلوه بعد ذلك .

٨٦٦ م — ٢٥٢ هـ : خلافة المعتز بالله الزبير :

كان السبب فى مقتل المستعين بالله ، انه خشى على نفسه من سلطان الترك فحاول أن يحد من سلطانهم فأمر بقتـل باغر التركى الذى قتل المتوكل ، فاضطرب امراء الاتراك لذلك وبادروا بخلع المستعين بالله ، وسعوا الى المعتز بن المتوكل وكان محبوسا فى حجرة صغيرة هو وأخوه ابراهيم ، فأخرجوه من سجنه وبايعوه بالخلافة ، فهرب المستعين بالله ودارت بينهم وبينه معارك انتهت بهزيمته والقبض عليه ثم قتله .

وكان سن المعتز بالله عندما ولى الخلافة عشرين سنة فكان بذلك اصغر من ولى الخلافة حتى ذلك التاريخ .

٨٦٧ م — ٢٥٣ هـ : امارة مزاحم بن خاقان التركى على مصر :

عزل الخليفة المعتز يزيد بن عبد الله عن امرة مصر بعـد أن وليها لعشر سنوات وثمانية أشهر وهى أطول مدة حكمها والى على مصر أيام الدولة العباسية التى كانت تكثر من تغيير الولاة ، وكأنها كانت ارتباطا بما ستؤول اليه مصر بعد قليل على يد أحمد بن طولون عندما استقل تماما عن الدولة العباسية الا من رباط اسمى .

وولى الخليفـة على امرة مصر مزاحم بن خاقان التركى واقتصرت امرته على الصلاة فقط ، وجعل على شرطته ارخوز . وقد كثرت الاضطرابات فى عهد مزاحم بن خاقان فى مختلف أرجاء البلاد ، فكان عليه أن يخوض معارك ضد أهل الحوف ، ثم فى البحيرة ثم فى الفيوم وقد سقط فى هذه المعارك كثير من الضحايا .

وشغل مزاحم بعد ذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأوعز الى ارخوز رئيس شرطته أنه يمنع النساء من الخروج من بيوتهن للتوجه الى الحمامات أو المقـابر . ونهى عن شق الثياب على الميت وتشويه الوجه والصياح والندب .. وغير ذلك من الأمور الخاصة باحسان الصلاة فشق ذلك كثيرا على الناس ، لولا أن عاجله المرض، فاستخلف ابنه مزاحم على امرة مصر ، ثم ادركته الوفاة .

٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ : امرة أحمد بن مزاحم على مصر :

أقر الخليفة المعتز امرة أحمد بن مزاحم على مصر .. وقد جعل على شرطته ارخوز كما كان الشأن فى أيام ابيه .

امرة ارخوز بن اولوغ على مصر :

لما أن حضرت الوفاة أحمد بن مزاحم ، استخلف ارخوز بن أولوغ طرخان التركى صاحب الشرطة على امرة مصر ، فأقر الخليفة المعتز هذا الاختيار وولاه على صلاة مصر وخراجها كما كانت لمزاحم وابيه من قبل ودام على امرة مصر الى أن صرف عنها بالأمير أحمد بن طولون فى شهر رمضان من هذه السنة فكانت ولايته على مصر خمسة أشهر ونصف .

الفصل العاشر

الدولة الطولونية

٨٦٨ م ـ ٢٥٤ هـ : امارة أحمد بن طولون على مصر :

ولى امرة مصر أحد القادة الأتراك وهو الأمير باكباك ، فأناب عنه على صـــلاة مصر ابن زوجته أحمد بن طولون فوصل الى مصر يوم الأربعاء ٢٣ رمضان من هذه السنة .

وكانت سن أحمد بن طولون التركى عندما جاء الى مصر أربعا وثلاثين سنة . وكان أبوه طولون أحد موالى نوح بن أسد عامل بخارى وخراســان ، فأهداه نوح الى الخليفة المأمون فرباه المأمون حتى أصبح من جملة الأمراء .. وولد له ابنه أحمد فى مدينة سرمن راى سنة ٢٢٠ هـ وكانت أم أحمد جارية تدعى قاسم .

وقد نشأ أحمد بن طولون نشأة علمية دينية فقد حفظ القرآن وأتقنه وكان يرتله فى صوت جميل وذلك بالاضافة الى بقية علوم الدين الأخرى التى نهل منها الكثير وتفقه على مذهب الامام أبى حنيفة .

ولما مات طولون فوض الخليفة المتوكل لأحمد كل ما كان لأبيه ، وراح يتدرج فى شتى الوظائف الى أن ولى امرة الثغور ، ثم امرة دمشق وأخيرا ديار مصر .

وليس هناك ما يكشف عن شخصية أحمد بن طولون وما تحلى به من كريم الصفات التى أهلته للدور الذى لعبه فى حياة مصر والدولة العباسية ، من أن قواد الأتراك عندما خلعوا المستعين بالله وأبعدوه الى واسط ، بعثوا معه أحمد بن طولون ليكون مرافقا له خلال منفاه ، فأحسن صحبة الخليفة ، ولم يضيق عليه وأطلق له حرية الحركة والتنقل .

وعندما قرر قواد الأتراك قتل المستعين كتبوا لأحمد بن طولون أن يقتل المستعين وأن يولوه مكافأة على ذلك امرة مدينة واسط ، فرفض ابن طولون هذا العرض وكتب اليهم يقول : لا رآنى الله قتلت خليفة بايعت له أبدا .. فبعث الأتراك من ناحيتهم سعيد الحاجب فكان هو الذى تولى قتل المستعين .

٨٦٩ م ـ ٢٥٥ هـ : قتل الخليفة المعتز :

طالب الجنود الاتراك الخليفة المعتز ببعض رواتبهم المتأخرة وكانت لا تزيد عن خمسين الف دينار ، فطلب هذا المبلغ من امه قبيحة فادعت انها لا تملك هذا القدر ، واختفت من قصرها .

فما كان من الجند الا أن طلبوا من الخليفة المعتز أن يخلع نفسه بحجة عدم صلاحيته ، فأجابهم الى ما طلبوه منه ، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين تعذيبه بعد ذلك ثم قتله .. ومن عجب أن قادة الترك قبضوا بعد حين على أمه وصادروا أموالها ، فبلغ عدة ما صادروه ثلاثة ملايين دينار ، وهى التى أبت أن تشترى حيـــاة ابنها بخمسين ألف دينار تقدمها له .. فدل ذلك على أن تسميتها بقبيحة كان رمزا لما انطوت عليه نفسيتها من قبح .

وكانت خلافة المعتز فى قول الطبرى اربع سنوات وستة اشهر وثلاثة وعشرين يوما . وكانت سنه يوم قتله أربعا وعشرين سنة .

وفاة الجاحظ اعظم كتاب العربية :

وفى هذا العام على ما يقول ابن كثير فى البداية والنهاية مات الجاحظ المتكلم المعتزلى ويمضى فى وصفه قائلا :

« وكان شنيع المنظر سيء المخبر رديء الاعتقاد ينسب الى البدع والضلالات » على انه لا يلبث أن يزيد على ذلك « وكان بارعا فاضلا قد أتقن علوما كثيرة وصنف كتبا جمة تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه . ومن اجل كتبه كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين » .

واشهد أن الجاحظ هو من بين كتاب العرب الاقدمين الذى اخذ يلبى قوة اسلوبه فى الكتابة ، ووضوح عبارته وحرارتها وتدفقها حتى لكأنه كان فحلا من كتـــاب العصر الحديث .

خلافة المهتدى بالله محمد :

فى الثانى من شـــعبان من هـــذه السنة بعد وفاة المعتز بويع عبد الله ابن الخليفة الواثق ولقب بالمهتدى وكان المهتدى من أحسن خلفاء بنى العباس سيرة وورعا وأكثرهم تقوى وعبادة .. واتخذ من شخصية عمر بن عبد العزيز اماما ونبراسا وكان يقول انى لأستحيى أن يكون فى بنى أمية مثله ثم لا يكون من بنى العباس .. فكان يجلس لســـماع مظالم الرعية وشكاويها ، ويحكم بالعدل والقسطاس المستقيم .

على أن العهد كان قد تغير واصبحت السيادة الحقيقية للجنود الاتراك فبدأوا يتآمرون عليه ، فلما أن قبض على كبيرهم باكباك وقتـــله انقض عليـــه جنود الترك وحاربوه وحاربهم بمن وقف الى جواره من اجناس الجند الاخرى .. ولكن الدائرة لم تلبث ان دارت عليه فقبضوا عليه وحملوه على خلع نفسه ثم قتلوه بعد ذلك ، وكان قتله فى الثالث عشر من شهر رجب ، وكانت سنه يوم قتله أربعين سنة .

٨٧٠ م ـ ٢٥٦ هـ : خلافة المعتمد على الله :

فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر رجب بويع للمعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة .. ولم يلبث اخوه الموفق أن غلبه على أمره فسلب منه السلطان الفعلى على الدولة بحيث لم يبق للخليفة سوى الاسم فقط .

وقد كان هذا الخلاف بين الأخوين هو الذى استغله أحمد بن طولون ليزيد من استقلاله وسلطانه فى ادارة شئون مصر والشام ، وذلك بأن وقف فى وجه أوامر الموفق بدعوى أنه يدافع عن حقوق الخليفة الشرعى .

المسلمون يستولون على جزيرة مالطة :

استطاعت بحرية الأغالبة ملوك افريقيا (تونس والقيروان) أن يستولوا على جزيرة مالطة وبهذا تأكدت سيادة البحرية الاسلامية على المضايق الواقعة بين صقلية والشاطىء الافريقى .

وفاة الامام البخارى :

وفى ليلة عيد الفطر من هذه السنة مات فى قرية بالقرب من مدينة سمرقند الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى صاحب الصحيح من أحاديث رسول الله ، وهو أشهر من أن يعرف وحسبه أن كتابه الجامع للأحاديث قد أجمع علماء الأمة الاسلامية على أنه أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

٨٧٣ م ـ ٢٥٨ هـ : أحمد بن طولون يوطد سلطانه فى مصر :

فى الوقت الذى كان فيه الخلفاء يتهاوون واحدا اثر الآخر عن عرش الخلافة كان احمد بن طولون يوطد حكمه فى مصر ، وكانت الحوادث كلها تعمل على تدعيم حكمه ، فاذا كان باكباك الذى ولاه امرة مصر قد قتل ، فان امير مصر ياركوج التركى الذى حل محله كان والد زوجة أحمد بن طولون فلا عجب اذا هو أطلق يد أحمد بن طولون اكثر مما كان عليه ، وضم اليه بعض المناطق التى كانت لا تزال خارجة عن سلطانه كمدينة الاسكندرية ، فأسرع لاستلامها وان كان لفرط حكمته قد ابقى واليها القديم ليحكمها باسمه ونيابة عنه .. وعكف على دور صناعة السفن فأعادها الى سـابق نشاطها وزودها بكل ما يمكنها من بناء عدد كبير من السفن لتكون اسطولا لأحمد بن طولون يعتمد عليه فيما اعتزمه لنفسه من الدفاع عن سلطانه فى مصر .

وقد ظل أحمد بن طولون حياته معنيا بالأسطول وتدعيمه حتى بلغ عدد وحدات هذا الأسطول عند وفاة أحمد بن طولون على ما روى الكيكوى كاتب سيرته ، مائة مركب كبيرة ومائة مركب حربية سوى الصلابيات والحمائم والقاربات والصنادل .

ولاية الخراج والثغور :

وحدث ان أرسل اليـه الخليفة المعتمد يستحثه على جمع الأموال المقررة على

مصر ، فرد عليه احمد بن طولون معتذرا عن عدم قدرته على تنفيذ هذا الامر لان ولاية الخراج كانت بيد احمد بن المدبر صاحب السطوة والنفوذ فى مصر منذ أمد بعيد فما كان من الخليفة المعتمد الا أن ولى أحمد بن طولون على خراج مصر ، وزاد على ذلك فولاه على ثغور الشام . وهكذا تكاملت بين يدى احمـد بن طولون عنـاصر السـلطة والموارد المالية ، فشرع يعمل على تحقيق ما كان يدور فى نفسـه من آمال عريضـة فى الاستقلال بشئون مصر ، وذلك لا يكون الا بانشاء جيش قوى يدين له شخصيا بالولاء .

بنـاء الجيش :

وكان أحمد بن طولون قد استطاع منذ وفد الى مصر ان يرفع من هيبته فى البلاد بما أظهر من شجاعة وعزم ومضاء فى القضاء على الفتن التى أشعل نارها من يسمى بغا الصغير والذى دعا الى نفسه باعتباره من نسل العلويين أو تلك التى نشبت فى الصعيد وقتل رؤوس الفتنة . ولكن فرصته الكبرى لانشاء الجيش قد واتته عندما استنجد به الخليفة المعتمد ضد عامله على فلسطين ، والذى توقف عن بيعة الخليفة واستولى على خراج مصر وهو فى طريقه الى بغداد .

فطلب أحمد بن طولون من الخليفة أن يأذن له فى تكوين جيش للقيام بهـذه المهمة فلم يقف الخليفة عند حد الاذن له ، بل وأصـدر أوامره الى عامل الخراج أحمـد بن المدبر قبل عزله بأن يضع الأموال اللازمة تحت تصرف أحمد بن طولون . وشرع أحمد بن طولون فى تكوين جيشه ولكنه لم يجعله وقفا على جنس واحـد . بل ألفـه من السودانيين والعرب الى جوار الأتراك بل وألفه من المصريين انفسهم .

بناء مدينة القطائع :

وكان لا بد لكى تظهر شخصية احمد بن طولون ، أن يؤسس لنفسه دار حكم جديدة ، بل مدينة جديدة غير الفسطاط والعسكر ، لتكون تعبيرا عن العهد الجديد .

فاختار المنطقة التى تقع عند سفح جبل المقطم ، حيث يوجد ميدان صـلاح الدين فى الوقت الحاضر (بالقلعة) وأنشأ قصرا والحق به حديقة بلغ من ضخامتها واتساع رقعتها ان أطلق عليها اسم الميدان .. ولم يلبث هذا القصر ان أصبح نواة لما عرف فى التاريخ باسم مدينة القطائع والتى كانت تشغل المسافة بين قلعة الجبل الى موقع جامع ابن طولون الحالى ، كما كانت تمتد من أول الرملة الى الموضع الذى يعرف الآن بزين العابدين وقد أطلق عليها اسم القطائع ، نظرا لاسم الحارات والسكك التى أعطيت لمختلف أجناس الجند ليقيموا ويبنوا فيها .

فثمة قطيعة للسودان وأخرى للروم وهكذا ، ولم تلبث القطائع ان غصت بالمبانى الجديدة وعمرت بالسكك والأزقة ، وامتلأت بالمساجد والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع ، ولم تلبث عمارتها أن امتدت حتى اتصلت بالفسطاط .

الدينار الطولونى :

كان أحمد بن طولون ككل مؤسسى الدول الذين مروا علينا يعرف أن لا سبيل لبناء دولة قوية الا بالاعتماد على مالية وفيرة وهو ما لا يتحقق الا بالاقتصاد القوى الذى

لا يعنى شيئا سوى وفرة الانتاج . ولا ازدهار للانتاج الا فى ظل الأمن والثقة والعدل .

فأما الأمن وتوطيده فقد كان عمله الأول منذ جاء الى مصر .. وأما الثقـة فهى التى سعى الى تحقيقها بمجرد أن جمع ازمة السلطة فى يده فأصدر أمره بصك دينار طولونى جديد ، كان يمتـاز بثقل وزنه وخلوه من الغش والنقـص ، فاستعاد الثقة بعملة البلاد .

ثم عمد الى الضرائب الباهظـة التى كان احمـد بن المدبر قد أثقل بها عاتق المصريين ، مما أثار سخطهم وشجع على اندلاع الفتن التى واجهته بمجرد حضوره ، فاصدر امره بالغاء هذه الضرائب فتنفست البلاد الصعداء .

ثم انتقل بعد ذلك الى مختلف ميادين الانتـاج ليزيل العوائق ويشجع على الازدهار والنمو .

فى الزراعة :

فأما فى الزراعة فقد راح يعمر من جديد قرى مصر ويصلح جسورها وقناطرها ويحفر خلجانها ويطهر ترعهـا فأحدث ذلك أثره المتـوقع فى تحسين الرى وزيادة الانتاج بالتالى .

وعمـد من ناحية الى زراعة كل الأراضى البور والتى لم يكن لهـا صاحب وذلك لحسابه وعلى نفقته فكان من أثر هذه الاصلاحات المتعددة فى دنيـا الزراعة ، أن عم الرخاء وكثر محصول القمح ، حتى أن كتب التاريخ تتحدث كلها عن هذا الرخاء ، وكيف وصل سعر العشرة أرادب من القمح بدينار .

فى الصناعة :

وازدهرت الصناعة فى مصر على أثر ازدهار الزراعة فعـادت صناعة النسـيج التى اشتهرت بها مصر منذ أقـدم العصور الى سابق مجدها ، واشتهرت من جديد مدن تنيس والاسكندرية والبهنسا واشمونين ودميـاط بالأنسجة الفـاخرة التى تنتجها مصانع الدولة من ناحية والمصانع الخاصة من ناحية أخرى ، وعادت صناعة الزجاج والخزف والأخشاب الى نشاطها ورواجها كما أن انشاء الجيش الكبير قد استدعى قيام مصانع الأسلحة .

كما عادت للظهور صناعات الترف والتى ستتجلى آثارها فى جهـاز قطر الندى فيما بعد .

التجـــارة :

واذا كانت البحرية الاسلامية قد أصبحت مسيطرة على جنوب البحر الأبيض ، فقد انتقلت التجارة بين الشرق والغرب الى يد تجار المسلمين من المغاربة وأهل الذمة من اليهود ، وكان طبيعيا أن تصبح مصر كما كانت فى عصورها القديمة هى المعبر لهذه التجارة الآتية من الشرق وابن خروادبة على ما نقلت عنـه الدكتورة سيدة اسـماعيل

كاشف يعطينا صورة صادقة لذلك النشاط التجارى العظيم الذى شهدته مصر فى العصر الطولونى — خصوصا ذلك النشاط الذى يقوم به الوسطاء اليهود الرهدانية ، الذين يتقنون كل لغات الأرض — العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاسبانية . وكان هؤلاء يبحرون من غرب أوربا ومعهم الخدم والجوارى والغلمان والديباج والخمر والفراء والسمور والسيوف ، حتى اذا نزلوا عند الفرما نقلت متاجرهم بالقوافل حتى مدينة القلزم ، ثم استقلوا السفن فى البحر مارين بموانى بلاد العرب ، ومنتهين الى أسواق الهند والصين ، ثم يعودون من أسواق الصين بالمسك والعود والكافور والتوابل سالكين نفس الطريق فيرسون عند القلزم (السويس) ومنها الى الفرما . ثم ينتقلون بالسفن الى القسطنطينية او الى اسواق غرب اوربا .

وهكذا تضافر الازدهار الزراعى والصناعى والتجارى لاعادة بناء الرخاء المصرى ، وتمكين أحمد بن طولون من انشاء الدولة التى يرجوها لنفسه .

٨٧٥ م — ٢٦١ هـ : وفاة الامام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح :

فى هذه السنة مات الامام مسلم ابو الحسن القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح الذى يلى صحيح البخارى عند أكثر العلماء ، ولكن بعض العلماء وخاصة من المغاربة يقدمون صحيح مسلم على صحيح البخارى ، ونحسب أن هذه الاشارة تغنى عن الكثير فى الاشادة بمسلم او التعريف به .

٨٧٧ م — ٢٦٤ هـ : بناء مسجد ابن طولون :

فى هذه السنة اتم ابن طولون مسجده الكبير الذى قل ان يوجد له نظير فى اتساعه فى أرجاء العالم الاسلامى كله (باستثناء الحرم المكى وخاصة بعد التوسيعات الحديثة) وهو منفرد بين مساجد الدنيا كلها فى انه لم يستعمل الأعمدة الرخامية والجرانيتية فى بنائه ، وانما استعمل الآجر فى بناء أعمدة وأكتاف تحمل فوق رؤوسها العقود التى ترفع سقف المسجد . وقيل ان السبب فى ذلك أن المهندس الذى صممه وأشرف على تنفيذه وهو سعيد بن كاتب الطرغانى ، وكان قبطيا خشى أن يهدم ابن طولون كنائس مصر ليستخلص منها الأعمدة اللازمة لبناء هذا المسجد ، فابتكر هذا الأسلوب الفريد لاقامة الجامع بغير حاجة الى الاعمدة التقليدية . وقد قبل ابن طولون الاقتراح وعهد الى المهندس القبطى باقامة المسجد فجاء على هذا النحو الفريد فى الضخامة والمساحة ، والمئذنة التى تدور سلالمها حولها من الخارج على خلاف المألوف فى كل المآذن التى انشئت فى مصر من قبل أو بعد .

ولم يستطع المعاصرون لأحمد بن طولون ان يدركوا كيف استطاع ان يدبر الأموال اللازمة لبناء هذا الصرح الضخم فقالوا انه عثر على كنز به مليون دينار ، ولو قالوا

لنا انه عثر على بعض الكنوز الفرعونية أو الرومانية ، لما كان فى الخبر كبير غرابة ، اما ان يكون الذى حصل عليه هو دنانير ذهبية فهذا هو الذى يجعل الأمر محل شك . على أن الذى أثبته المؤرخون هــو انه انفق على بنــاء الجامع مائة الف دينــار ، وأنه نفح المهندس القبطى بجائزة قدرها عشرة آلاف دينار مكافأة له على عمله العظيم .

مؤسسة اجتماعية وثقافية :

ولم يكن جامع ابن طولون كما اراده له صاحبه ومنشئه مجرد مكان للعبادة ، وانما ليكون فوق ذلك دار علم وبر وعلاج فى آن واحــد ، فقد رتب له جمــاعة من العلمــاء والفقهاء واجرى عليهم الرواتب ، لالقــاء الدروس فى شتى فروع العلم فى المسجد . وكان للعاملين فى المسجد راتب يومى من الطعام والخبز والحلوى والفاكهة .

وكان يصرف على المسجد من الرواتب للعاملين فيه والصدقات للمترددين عليه كل يوم ألفا ومائتى دينار على ما روى ابن اياس .

البيمارستان :

كما الحق بالمسجد بيمارستانا (مستشفى) لمعالجة المرضى وايواء العاجزين ، وشرط أن لا يعالج به جندى او مملوك حتى يكون خالصا لعامة الشعب .

وقد حفظ التاريخ لنا اسم كبير اطباء هذا البيمارستان وهو سعيد بن توفيل القبطى ، كما كان من أشهر اطبائه الحسن بن زيرك .

ولا يزال المسجد قائما حتى اليوم فى شموخ ينطق بما وصلت اليه مصر فى عهد انشائه من استقرار سياسى واجتماعى واقتصادى (١) .

٨٧٨ م — ٢٦٥ هـ : ابن طولون يتوجه الى الشام :

كان الأمير ماجور التركى أمير الشام يقف سدا منيعا فى وجه ما يطمح اليه ابن طولون من توسيع رقعــة سلطانه فلم يكد يموت حتى أسرع ابن طولون زاحفــا الى الشام بجيوشه غير آبه لابن ماجور الذى عينه الخليفة مكان أبيه على ما يقول ستانلى لين بول ، وان كان من رأى الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف انه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد أن حصل من الخليفة على موافقة بتوليته امارة الشام .

وكيفما كان الأمر ، فقــد وصــل ابن طولون بجيوشه الى الشام فتلقاه الجميــع بالترحاب بما فى ذلك ابن ماجور الوالى السابق الذى أقره ابن طولون على امرة بلده الرملة ، كما دخل الى دمشق فتلقاه ولاتها بالطاعة والخضوع ، وواصل تقدمه عبر بلاد الشام شمالا حتى وصل الى طرسوس ، وليس الا سيما الطويل فى مدينة انطاكية

(١) من عجب أن يكون مسجد ابن طولون هو أحد مراكز ثورة الشعب عام ١٩١٩ .

من حاول ان يقاومه ، ولكن ابن طولون تغلب عليه وصرعه واستولى على المدينة فى سبتمبر من هذه السنة ، ثم استولى على ثغرى المصيصة وأضنه .

وأصبح سلطان ابن طولون يمتد من الفرات غربا والحدود والثغور المتاخمة لبيزنطة شمالا ومدينة أسوان فى الجنوب وبرقة فى الغرب .

وقد كان باستطاعة أحمد بن طولون أن يواصل فى حملته هذه زحفه الموفق نحو الشرق فيدخل الى بغداد ويضع الخليفة تحت رعايته ، أو ان يحمله معه الى مصر ، وربما كان هذا فى عزمه بالفعل لولا أنه فوجىء باعلان ابنه العباس ، الذى خلفه وراءه فى مصر ، الثورة والتمرد عليه فاضطر الى أن يعود أدراجه الى مصر .

٨٧٩ م ـ ٢٦٥ هـ : ثورة العباس على ابيه ابن طولون :

انتهز العباس بن أحمد بن طولون فرصة استخلافه على مصر وغياب ابيه ، فاعلن خلعه لطاعته والتفت حوله بعض عناصر الجيش والحاشية .

ولكن أحمد بن طولون كر راجعا صوب مصر فخارت اعصاب العباس ، وقرر الفرار بمن معه من أنصار وجنود بلغت عدتهم عشرة آلاف جندى سودانى وثمانمائة فارسى ، الى الاسكندرية وبرقة ليكون لنفسه ملكا فى هذا الجانب ، ولم يدع مصر الا بعد أن أخذ معه كل ما فى بيت المال من اموال ، وما فى مخازن الحرب من أسلحة . على أنه ما كان لمثل هذه الحركة الغادرة أن تنجح ، ولذلك فقد انهزم العباس ومن معه فى خاتمة المطاف . . وجىء به ومن معه من القواد أسرى ، فقتل ابن طولون الكثير من القواد الذين ثبت أنهم حرضوا ابنه عليه . أما العباس نفسه فقد قال بعض المؤرخين أنه جلد مائة سوط ولكن الأمر المحقق انه زج به الى السجن .

٨٨١ م ـ ٢٦٨ هـ : النزاع بين ابن طولون والأمير الموفق :

كان أخو الخليفة الأمير ابو احمد الموفق والذى كان يحكم الجزء الشرقى من الدولة العباسية ، ولكنه خول لنفسه سلطة حكم القسم الغربى كذلك ، جامعا فى يده سلطة الخليفة الفعلية ، ينظر الى استقرار احمد بن طولون فى مصر وتزايد سلطانه بعين الازدراء بل والسخط ، وكان من المحقق أن الأمر لابد صائر بينهما نحو الاصطدام . وبدأ الصدام الفعلى عندما أرسل الموفق يطالب احمد بن طولون بارسال أموال الخراج ليستعين بها فى حربه ضد ثورة صاحب الزنج فبعث اليه احمد ابن طولون بمليون ومائتى الف دينار فاستقل الموفق هذا المبلغ وبعث اليه بكتاب اظهر له فيه الجفاء ، فاستاء منه احمد بن طولون وبعث الى الموفق برد حفظته كتب التاريخ وهو من أروع الوثائق التى تكشف عن شخصية احمد بن طولون وحرصه على كرامته واستقلاله ، حتى ليشتد على الموفق ، ويهدده من طرف خفى ، فى الوقت

الذى يظهر فيه الطاعة والامتثال . فما كان من الموفق الا أن استصدر أمرا من الخليفة بعزل أحمد بن طولون وتولية غيره من الأمراء ، ولكن أحدا من هؤلاء الأمراء لم يجرؤ على الاقتراب من مصر فباءت هذه المحاولة الجديدة بالفشل، فجمد النزاع مؤقتا .

ولكن ما يفل يد الموفق عن متابعة الهجوم على أحمد بن طولون هو اشتغاله بثورة الزنوج التى كانت لا تزال مشتعلة الأوار .

على أن النزاع لم يلبث أن تجدد عندما تمردعلى أحمد بن طولون عامله على الرقة وشمال سوريا (حلب وقنسرين وديار مضر وحمص) فانضم الى الموفق وسلم اليه مليون دينار كانت تحت يده .

وخطا احمد بن طولون خطوة جديدة تأكيدا لاستقلاله وسلطانه ، فجعل من نفسه مدافعا عن حقوق الخلافة بالسيف وقوة السلاح ، فأعلن على الملأ أن الموفق يسىء معاملة أخيه الشرعى ويستبد بالملك دونه وكتب الى الخليفة يستقدمه اليه ، وهذا الخطاب وثيقة اخرى تكشف عن سياسة أحمد بن طولون ورغبته فى تحويل الخلافة الى مصر لتكون تحت سلطانه واليك بعض ما جاء فى هذا الخطاب .

« قد منعنى الطعام والشراب خوفى على أمير المؤمنين ــ اطال الله بقاءه . من مكر يلحقه . وقد اجتمع عندى مائة الف عنان مؤلفة قلوبهم ، ومجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم . وانا أرى سيدى أمير المؤمنين ــ أدام الله عزه بالنصر والتمكين ــ الانحداب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يكن ما يخافه فى كل لحظة منه اليه » .

وقد رحب الخليفة بهذه الدعوة واستجاب لها ، وتوجه بالفعل نحو الرقة متظاهرا بالصيد ليقابل احمد بن طولون الذى كان قد سار على رأس جيشه الى الشام ، ولكن اخاه الموفق علم بما اعتزمه الخليفة المعتمد فأرسل الى ابن كنداج أمير الموصل يأمره برد الخليفة الى سامرا ، ونفذ ابن كنداج الأمر حتى لقد قبض على الخليفة ومن معه واعادهم مقبوضا عليهم .

ابن طولون يخلع الموفق :

ورد ابن طولون على هذا الاجراء العنيف ضد الخليفة باجراء لا يقل عنفا ، فعقد مؤتمرا من الفقهاء والقضاة فى دمشق واستصدر من المجتمعين قرارا بخلع الموفق من ولاية العهد لانه نقض البيعة بعدوانه على الخليفة وبعث بهذا القرار الى كل المدن والعواصم التابعة له ليتلى على المنابر كما أمر باسقاط اسمه من الخطب ومحو اسمه من الطرز .

بكار بن قتيبه قاضي مصر :

وسجل التاريخ لقاضى مصر بكار بن قتيبة شجاعته الأدبية فى هذا الموقف التاريخى فعلى الرغم من انه كان من أقرب المقربين الى ابن طولون وكان يجرى عليه الف دينار شـهريا على ما يقول ابن خلكان ، فقد كان هو الوحيد الذى رفض أن ينصـاع الى ابن طولون فى خلع الموفق على أساس انه لم يشهد الوقائع المنسوبة الى الموفق ، كما انه لا يرى من حقوق ابن طولون استصدار مثل هذا القرار .

ولم يثنه الزج به فى السجن عن رأيه .

الموفق يامر بلعن ابن طولون :

وقد رد الموفق على قرار خلعه ، بأن أمر عماله وولاته بلعن احمد بن طولون على المنابر وكانت صيغة اللعنة : « اللهم العنه لعنا يفل من حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لا تصلح عمل المعسكرين » .

صلح الموفق مع ابن طولون :

ولكن هذه الاجراءات لم تجد الموفق شيئا فى زعزعة مركز ابن طولون داخل مصر وان أثرت عليه فى بعض الأطراف ، فهزم له جيش فى مكة .. ورأى الموفق أن من حسن السياسة أن يساير ابن طولون ، فبـدأ باطلاق سراح الخليفـة المعتمـد الذى كان مسجونا ، ووسط بعض من يكاتب ابن طولون للتقريب بينهما . واذا كان ابن طولون من ناحيته لا يحرص على شيء حرصه على الوفاق ، فقد التقت رغبـة الطرفين فى التصالح . وهكذا خرج ابن طولون من هذا الصراع منتصرا فى تأكيد سلطانه الفعلى وان ظل يعترف بالتبعية الروحية للخلافة ، وهو ما لم يكن يفكر فى انكاره اى انسان فى ذلك الوقت مهما عظم سلطانه .

٨٨٣ م — ٢٦٩ هـ : ابن طولون ينتصر على الروم :

وبلغت قوة ابن طولون ذروتها ، عنـدما انتصر عامله على مدينة طرسوس على جيوش الروم انتصارا باهرا حتى لقد قيل أن عدد قتلى الروم بلغ ستين الفا ، وبلغت غنائم الذهب والفضة والأحجار الثمينة قـدرا لا يقوم . وذلك كله بالاضـافة الى خمسة عشر الف حصان ، وقد ذكر هذا الانتصار الساحق بمعارك الاسلام الكبرى فى صدر الاسلام . على ان بعض حركات التمرد التى قادها يازمان الخادم حملت ابن طولون على أن يذهب بنفسه لقمع هذا التمرد واعادة سلطانه على مدينة طرسوس وثغور الشام ، واذ كان الوقت شتاء والبرد قارصا فقد مرض ابن طولون ، وان لم يقعده المرض عن متابعة المعركة حتى كسر شوكة المتمردين ، بل وأرهب المتربصين .

٨٨٤ م – ٢٧٠ هـ : وفاة احمد بن طولون :

عاد احمد بن طولون الى مصر مريضا ، وعجز كبار الأطباء وعلى رأسهم الحسن ابن زيرك عن علاجه ويقص علينا صاحب السيرة الطولونية عن هذه الفترة من حياة مصر – فيقول :

فاضطربت أحوال مصر بسبب مرضه وخرج الناس عن بكرة ابيهم الى الصحراء ، وفعلوا مثل ما يفعلون فى صلاة الاستسقاء ، فكان المسلمون يسيرون حفاة الأقدام وعلى رؤوسهم المصاحف ، والنصارى على رؤوسهم الأناجيل واليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح وخرج سائر العلماء والصلحاء يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء ، ولكن اذا كان لكل أجل كتاب ، فقد وافى الأجل فى يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة من هذه السنة . ولم يمت احمد بن طولون الا بعد أن اكد استقلاله بشئون مصر ، فأمر أن يبايع ابنه ابو الحسن خمارويه بالملك من بعده .

وكانت سن احمد بن طولون عند موته خمسين سنة لمن قال ان مولده كان عام ٢٢٠ هـ وكانت مدة امارته على مصر منها ست عشرة سنة ، ولكن ابن اياس يجعل هذه المدة اثنتى عشرة سنة فقط .

واذا كانت الأرقام هى خير ما يفصح عن الدلالات ، فان كتب التاريخ تسجل ارقاما لبعض ما خلف ابن طولون وراءه من ثروات ، تكشف عن مدى ما وصل اليه من غنى . فيقول ابن وصيف شاه وغيره أن أحمد بن طولون ترك وراءه :

١٠,٠٠٠,٠٠٠	دينار
٧,٠٠٠	مملوك ابيض وقدرهم البعض الآخر بعشرة آلاف
٢٤,٠٠٠	من الارقاء السود الذين كانوا يؤلفون حرسه الخاص
٧,٠٠٠	فرس
٢,٧٠٠	جمل وقدرها البعض الآخر بعشرة آلاف
٦,٠٠٠	بغل وحمار
١,٠٠٠	سفينة بحرية وحربية وشوالى

وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق وما لا يحصى من التحف والفرش .

وبلغ خراج مصر فى ايامه اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار مع وجود الرخاء وانخفاض أسعار الغلال وعدم التجائه للقسوة فى جمع الضرائب .

ويستوقفنا هذا الرقم الأخير المقدر للخراج وقدره أربعة ملايين من الدينارات ، باعتباره مظهرا على ازدهار مصر أيام ابن طولون بالنسبة الى ما سبقها من أحوال طوال القرن الماضى .

ومع ذلك فان الانسان لا يملك نفسه من المقارنة بين هذا المبلغ وما كان عمرو ابن العاص يجمعه من خراج والذى قدر باثنى عشر مليون دينار .

ويلخص لنا ابن اياس حكم ابن طولون وشخصيته فى العبارات التالية :

وكان الأمير احمد ملكا عادلا فى الرعية كريما سخيا منقادا الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء وكان يصلى على من يموت فى البلد فقيرا كان أو غنيا بنفسه ، ويحضر دفنهم ويحب فعل الخير — كثير البر والصدقات . وكان له اشتغال بالعلم وطلب الحديث . وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ، حكم فى أيام ولايته من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب ، وعم العدل منه سائر الجهات ، حتى خيروه على خلفاء بغداد وكانت أفعاله جميلة . وعلى عادة هؤلاء المؤرخين القدماء الذين يرصون العبارات المتناقضة أحيانا دون محاولة لتمحيصها فانه بعد هذا الثناء العريض على ابن طولون ، يضيف قائلا :

« ولكنه كان سفاكا للدماء شديد الغضب ، سيء الخلق قيل مات فى حبسه ثمانية عشر الف انسان » .

ويستعمل أبو المحاسن نفس هذه العبارة فى كتابه النجوم الزاهرة ، ويصحح المشرفون على طبع الكتاب هذه العبارة بما يخفف من وطأتها فيقولون أن صحتها انه « مات وفى حبسه ثمانية عشر الف انسان » .

امارة خمارويه على مصر والشام :

فى العاشر من ذى القعدة من هذه السنة ، ولى امرة مصر والشام وبرقة الابن الثانى لأحمد بن طولون وهو أبو الحسن خمارويه بناء على بيعة ابيه له ، وبدون انتظار لاذن الخليفة . ويقول ستانلى لين بول ان سن خمارويه عندما ولى الحكم عشرين سنة ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة يجعل مولده عام ٢٥٥ هـ ويكون معنى ذلك ان عمره كان خمس عشرة سنة فقط عند امارته ، وكيفما كان الأمر فقد ولى الحكم وهو شاب صغير .

واذا كان أخوه أبو العباس قد تمرد من قبل على ابيه فلا عجب اذا رفض مبايعة خمارويه على الرغم من انه كان لا يزال فى السجن . ولذلك فقد اسرع خمارويه بالتخلص منه فأمر بقتله .

٨٨٥ م — ٢٧٢ هـ : تثبيت سلطان خمارويه على الشام :

انتهز الامير ابو احمد الموفق فرصة وفاة احمد بن طولون ، لكى يستعيد سلطان الخلافة او بالأحرى سلطانه على مصر والشام وبرقة ، خاصة وأنه كان قد فرغ نهائيا من أمر الزنج واستقامت له الأمور .

فأعلن أن ولاية خمارويه على مصر ومن قبلها ولاية أبيه نفسه غير شرعية ، وأن الوالى الشرعى هو اسحق بن كنداج الذى عين من قبل اميرا على مصر ولم يستطع ان يدخلها . وجعل الموفق اسحق بن كنــداج على رأس جيش للاستيلاء على الشام ومصر وسار معه حليفه محمد بن أبى الساج .

كما أرسل الموفق ابنه أبو العباس على رأس جيش آخر لاحتلال الشام كذلك .

فلما علم خمارويه بمسير هذه القوات الى الشام ألف جيشا بقيادة كاتب أبيه عبد الله احمد الواسطى وعززه بأسطول قوى من البحر ، ولكن الواسطى على ما يقول المقريزى سرعان ما خان سيده وانضـم الى الموفق ، وعلى ذلك فقـد سقطت الرقة وقنسرين وبقية مدن الشام الكبرى فى يد قواته المختلفة .

فسار خمارويه على رأس جيش جديد الى الشام لمحاربة القوى المتألبة عليه . واذ كانت هذه فيما يبدو أول مرة يشهد فيها قتالا ، فقد انهزم هزيمة منكرة وفر يصحبه الجزء الاكبر من جيشه الى مصر . على أن أحـد قواده وكان يدعى سعد الأيسر ويسميه البعض سعد الأعسر لم يعلم بنبأ هزيمة خمارويه وانقض من ناحيته على جيش الموفق المنتصر والذى كان مشتغلا بجمع الاسلاب ، فهزمه واضطره للفرار ، ودخل سعد الأيسر الى دمشق وبعث بالنبأ لخمارويه .

وكان لهذا الحادث فعل السحر فى شخصية خمارويه فقد أعاد اليه رباطة جأشه ووجدناه يعود الى الشام من جديد على رأس جيشه ، ويخوض سلسلة من المعارك الناجحة فى بسالة وشجاعة فهـزم الجيوش المتحالفة تحت قيادة ابن كنداج وراح يتعقب الجيوش المندحرة حتى جاوز حدود الشام ودخل العراق ، ووصلت طلائع جيوشه الى مدينة سر من رأى نفسها .

وقد كان هذا نصرا مؤزرا على جيوش الموفق التى كانت قد فرغت لتوها من حروب الزنج بالانتصار الرائع ، فأذهل هذا النجاح الذى أحرزه خمارويه معاصريه من الأعداء قبل الأصدقاء ، وكان أول من استسلم لسلطانه ابن كنداج نفسه فرضى ان يعمل تحت امرة خمارويه وأن يدعو له على المنابر .

٨٨٦ م ــ ٢٧٣ هـ : خمارويه امير على مصر والشام ثلاثين سنة :

ومن جديد لم ير الموفق من سبيل الا التصالح مع خمارويه ، وكانت هذه رغبــة الخليفة المعتمد . وعلى ذلك فقد تم الصلح على أساس الاعتراف لخمارويه وأولاده من بعده بامارة مصر والشام لمدة ثلاثين عاما مقابل أن يدفع مائتى ألف دينــار ســنويا عن المدة السابقة وثلاثمائة ألف دينار سنويا عن مقبل الايام .

٨٨٨ م ــ ٢٧٥ هـ : خمارويه يصبح اميرا على الموصل :

شجع خمارويه ما احرزه من نجاح عسكرى لكى يمد سلطانه الى بلاد الموصل ، فاستولى بجيوشه على مدينة البرقة ، واسرع الخليفة المعتمد بالاعتراف بامارته على الموصل فدعا له على منابرها ، وعين خمـارويه أميرا من قبلـه على الموصـل أحد خصومه القدماء ابن أبى ساج ، الذى لم يلبث أن تمرد على خمارويه وجدد محاولة الاستيلاء على الشام ، فما كان من خمارويه الا أن سار من جديد على رأس جيش لتأديب ابن أبى ساج . وفى معـركة طاحنة بالقرب من دمشق ، اثبت خمارويه من جديد قدرته العسكرية ، فانتصر انتصارا ساحقا على جيوش ابن أبى ساج ، فراح يطارده حتى وصل الى نهر دجلة فى بعض الروايات وفى روايات أخرى نهر الفرات . وهناك بنى لنفسه على ما تقول مختلف الروايات عرشا جلس عليه ليشهد احتفالات النصر ، مما يذكرنا بفعل بعض الفراعنة من قبل .

٨٩٠ م ــ ٢٧٧ هـ : الدعاء لخمارويه فى مدينة طرسوس :

احدث هذا النصر العسكرى الباهر أثره فى يازمان الخادم حاكم مدينة طرسوس الذى أعلن التمرد فى ختام عهد ابن طولون ، أن يعلن ولاءه لخمارويه وراح يدعـو له على منابر طرسوس وأرسل اليه خمسين ألف دينار تمثل الخراج المستحق عليه . واذ كان يازمان يمثل قـوة الاسلام التى تواجه الروم فقد وجد فى خمارويه القـوة الحقيقية التى تستطيع ان تدعمه فى قتاله ضد الروم . ولم يخيب خمارويه ظنه فقد راح يمده بالمال والرجال والأساطيل لمواصلة الحرب ضد الروم ــ فاستطاعت الجيوش الاسـلامية أن تتوغل من جديد فى بلاد الروم ، كما لم تفعـل منذ سنوات وسنوات .

٨٩١ م ــ ٢٧٨ هـ : ظهور القرامطة :

فى هذه السنة بدأ ظهور احدى الحركات الهدامة فى تاريخ الدولة الاسلامية والتى اشتهرت باسم القرامطة نسبة الى قرمط بن الاشعث ، وهم وان أظهروا الاسلام الا أنهم فى حقيقتهم ، على ما يقول مؤرخو الاسلام القدامى ، احدى فرق الزنادقة والملاحدة من الفرس الذين يدينون بدين زرداشت وكانوا يبيحون المحرمات . وكانت المنطقة التى بدأوا منها نشاطهم هى منطقة هجر والبحرين ، ولكنهم لم يلبثوا أن أغاروا على مكة والشام ، وكونوا أحد العوامل التى تؤدى الى سقوط الدولة الطولونية.

٨٩٢ م ــ ٢٧٩ هـ : وفاة الخليفة المعتمد :

فى ليلة الاثنين التاســع عشر من شهر رجب مات الخليفة المعتمد على الله أبو العباس احمد بن المتوكل ، وكانت سنه يوم وفاته خمسين سنة حكم منها ثلاث وعشرين سنة ، وان كان حكما كما رأينا اسميا ، ذلك انه كان أخا لهو وانهماك فى الملذات ، فولى أخاه الموفق أمور الحكم فلم يلبث أن استبد بها . وكانت وفاة المعتمد فجاة حتى قيل انه قتل بالسم وقيل انه خنق .

خلافة المعتضد بن الموفق :

كان أبو احمد الموفق اخو المعتمد قد مات قبل أخيه وكان الخليفة المعتمد قد جعل ولاية العهد لابن اخيه المعتضد بعد ان خلع ابنه منها ، وفوض للمعتضد كل ما كان لأبيه من الأمر والنهى .

تثبيت خمارويه فى حكم مصر والشام وبرقة :

استهل المعتضد سلطانه بأن جدد عهد خمارويه على امرة مصر والشام وبرقة لمدة ثلاثين عاما له ولأولاده من بعــده وأن يكون له كل الســلطان من صــلاة وخراج وقضاء وسائر الأعمــال . ولا جدال فى أن الهــدايا التى بعث بها خمارويه للخليفة الجديد ، والعروض المالية التى عرضها عليه كانت هى الحافز لتجديد هذا العهد .

وكان على رأس عروض خمارويه للخليفة أن يزوج ابنته قطر الندى من ولى عهد الخليفة ، فقبل الخليفة العرض على ان يكون الزواج لنفسه بدلا من ابنــه . وكان معنى هذا الزواج أن خمارويه قد أصبح ندا للخليفة ، وصهرا له .

٨٩٥ مـ ٢٨٢ هـ : زفاف قطر الندى :

فى الثامن من محرم من هذه السنة وصلت قطر الندى ابنة خمارويه الى بغداد لتزف الى الخليفة المعتضد فى صحبة أبى عبد الله الجصاص . وقصة زواج قطر الندى بالخليفة المعتضد وما انفق على جهازها أشبه ما يكون بالأساطير لكثرة ما حوت من مبالغات ولكن من المحقق أن الخليفة قد اشترط فى جهاز قطر الندى شروطا محددة ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن المعتضد قصد الى افقــار خمــارويه بالذات تمهيدا للقضاء عليه .

ومما يقال عن هذا الجهاز انه كان يحتوى على مائة هون من الذهب وبالغ الذهبى فقال بل ألف هون وكان من بين الجهاز دكة (مقعد) يتألف من أربع قطع من الذهب وعليه قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق به حبة من جوهر لا يعرف له قيمة .

وكان من بين ملابسها الداخلية الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار .

ويقول المقريزى انه لم يبق تحفة من كل لون الا جعلت فى جهاز ابنة خمارويه .

ويلخص البعض أمر المهر فى هـذا الزواج وما انفق على الجهاز فى أن المهر كان مليون درهم ونفقات الجهاز مليون دينار ، ولم يكتف خمارويه بذلك بل أعطى ابنته مائة الف دينار لتشترى من العراق ما قد تحتاج اليه مما يتعـذر وجوده فى البلاد المصرية(1) .

قصور على الطريق :

ولم يقف الانفاق على هذا العرس عند حد الجهاز ، بل ان خمارويه قد انشأ على طول الطريق من مصر الى بغداد قصرا على رأس كل مرحلة سيتوقف عندها ركب ابنته ، حتى اذا نزلت الى القصر وجدت فيه كل ما اعتادت ان تجده فى قصر ابيها من وسائل الترف .

حفلة الزفاف :

ولقد أقيم لقطر الندى عند وصولها الى بغداد حفلة زفاف تتناسب وما احاطها بها أبوها من دوى ، فكانت حفلة على ما يقـول المؤرخون لم تشهد لها بغـداد مثيـلا من قبل .

وقد فرح الخليفة بعروسه فرحا منقطع النظير واحبها حبا شديدا لجمال صورتها ووفرة أدبها . وان كان سنها عندما دخل بها لم يكن يزيد على اثنتى عشرة سنة .

احلام خمارويه :

ولا شك ان خمارويه كان يخطط بهذا الزواج لمشروعات سياسية واسعة المدى ولكن سر هذه المشروعات قد طوى فى نفسه فلن يلبث أن يموت .

٨٩٤ م ــ ٢٨١ هـ : خمارويه يستانف الجهاد ويغزو الروم :

وليس أدل على طمـوح مشروعات خمارويه أنه لم يكـد يسـمع نبأ استشـهاد يازمان الخادم فى أحد معاركه مع الروم ، حتى ارسل بدلا عنه طغج بن جف ، وكلفه بمواصلة غزو الروم فى عقر ديارهم ، فتـوجه الى طرسوس وقصـد منها الى مدينة طرابزون ، فى الوقت الذى سير فيه خمارويه أسطوله البحرى ليشد ازر الجيش المهاجم . فاستطاع طغج بن جف أن يفتح مدينة ملورية ، وقد كان لهذه الانتصارات أثرها على الروم اذ حملتهم على طلب الصلح ، ولكن كان مقدرا لخمارويه أن لا يعيش حتى يرى ثمرة جهاده .

(1) السيوطى : « حسن المحاضرة » . محمد جمال سرور : « الدولة الفاطمية فى مصر » .

٨٩٥م - ٢٨٢ هـ : مصرع خمارويه :

ذبح خمارويه على فراشه فى قصره الذى انشأه فى دمشق بسفح جبل قاسيون وذلك فى منتصف شهر ذى الحجة من هذه السنة ، وقيل بل فى الثالث من ذى الحجة ، أما سبب ذبحه فقد ترددت فيه شتى الأقاويل ، وأظهر الروايات أن بعض خدمه أولع بجارية له فهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع عشيقها على قتله فتعاون مع بقية الخدم على فعلته .

وكان الأمير طغج بن جف مع خمارويه (١) فى هذه الليلة ، فلما بلغه الخبر قبض على خدم القصر وكانوا نيفا وعشرين فذبحهم وصلبهم وحمل خمارويه فى تابوت الى مصر . فكان لدخوله يوم عظيم اذ استقبله الجوارى والغلمان بالصراخ والنحيب وشقوا عليه الثياب ، على ما يروى المعاصرون . وكانت مدة ملكه على مصر والشام اثنتى عشرة سنة وأيام .

من صفات واعمال خمارويه :

وكان خمارويه على الرغم من صغر سنه كما يصفه المؤرخون طويل القامة اذا ركب جوادا بدا كما لو كان قطعة جبل ، وكان مهيبا ذا سطوة محبا للصيد فكان يخرج لصيد السباع واتخذ لها فى حديقة قصره حظائر خاصة ، ولم تكن الحديقة قاصرة على السباع ، بل ضمت شتى صنوف الحيوانات والطيور . وانواع النباتات النادرة التى استجلبت من شتى بقاع الأرض .

ولن تكمل صورة حياة خمارويه ، وما هيأ له المجتمع المصرى من اسباب الترف ، الا اذا نقلنا بعضا مما أفاض فيه المؤرخون فى وصف قصر خمارويه وحديقته وبركة الزئبق الخالدة .

بستان خمارويه :

يقول ابو المحاسن :

لما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت ابيه اقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة ، واخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كله بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم وانواع الورود ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء

---

(١) هو والد الامير محمد بن طغج الذى سيشتهر باسم الاخشيد .

بتدبير معين ، فكان الماء يخرج من تضاعيف قائم النخل على شكل عيون ، فينحدر الى مساق معمولة ، ويفيض الماء منها الى مجار تسقى سائر البستان ، وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع على صورة نقوش معمـولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئـلا تشـكل قراءتها على القارىء .

وكان له فى هذا البستان مجلس سماه دار الذهب ، اذ طليت حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف ، صور بارزة من خشب معمول على صورته (أى صورة خمارويه) ، وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق(١) ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانها الأقراط الثقال .. ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

بركة الزئبق :

وجعل بين يدى هذا القصر فسقية ملأها زئبقـا وكان طولها خمسـون ذراعا وعرضها كذلك . وملئت بالزئبق وقد أنفق على ذلك أموالا عظيمة . وكان الأطباء هم الذين أشاروا عليه بعملها حتى يتغلب على الأرق الذى كان يصيبه فكان ينـام على حشية تملأ بالهواء وتوضع على الزئبق فتظل تتأرجح وهو فوقها فى هوادة ولين حتى يدركه النوم .

وكان لبركة الزئبق فى الليالى المقمرة منظر عجيب وقد ظل الناس يستخرجون الزئبق كلما حفروا فى الأرض بعد خراب هذه البركة بزمن طويل .

قمة الازدهار :

وهكذا يعتبر عهـد خمارويه ذروة ما وصلت اليه الدولة الطولونية من القـوة والسيادة فى شتى الميادين ، سواء ميادين الفتح والغزو ، أو اتساع رقعـة الحكم والنفوذ ، أو فرط الغنى والاسراف ومظاهر الترف .

وحسبه أنه فاق أباه فى علاقته بالخليفـة ، فحيث كان أبوه ينظر للخليفة نظرة التقديس ، فقد نظر خمارويه الى الخليفة نظرته الى زوج ابنته .

غير أن خمارويه لم يلحق أباه فى التقوى والورع والاهتمام بالعلم والأدب ، ولا شك أن نقطة الضعف فى سيرته هى حياته الشخصية التى أدت الى نهايته المفجعة .

امارة أبو العساكر جيش :

فى السابع عشر من ذى القعدة من هذه السنة حكم مصر أبو العساكر جيش بن خمارويه ولم يكن عمره يوم ولى الحكم أكثر من أربعة عشر عاما ، فأقام بدمشق أياما

---

(١) استوحى خمارويه هذا اللون من الرسوم التسجيلية من آثار الملوك الفراعنة ممن سبقوه فى حكم مصر .

ثم عاد الى مصر ، واقبل على الشراب واللهو ومخالطة بعض من وصفهم المؤرخون القدامى « بالعامة والأوباش من يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ويعانون الصراع » (١) ، فحسنوا له قتل عمه فقبض عليه وأودعه السجن ، فكان طبيعيا أن ينقم عليه الناس فانفض كبار القواد من حوله ، وهاجر بعضهم الى بغداد أما قواد الشام فقد خلعوا طاعته .

٨٩٦ م ــ ٢٨٣ هـ : مصرع ابى العساكر جيش :

طالب الساخطون من رجال الجيش الطولونى أبا العساكر باعتزال الحكم ليولوا عمه نصرا بدلا منه فما كان من أبى العساكر الا أن دخل السجن حيث كان يوجد عمه نصر وأمر بقطع رقبته ، وبقتل عم آخر كان له وقذف برأسيهما الى المتمردين ، قائلا لهم هذا هو أميركم .

فاهاج هذا الصنيع الجند فهجموا على ابى العساكر وقتلوه وقتلوا أمه معه ونهبوا داره وأحرقوها .

وقد تعددت الروايات فى كيفية خلعه وموته ولكنها كلها تدور حول هذه الوقائع . وكانت مدة حكمه قرابة ستة شهور .

امارة هارون بن خمارويه :

فى العاشر من جمادى الثانى ولى حكم مصر هارون بن خمارويه بعد مقتل اخيه ، وقد بايعه الجند بالرغم من انه كان أصغر من أخيه ، وفى غير مقابل ، اى بدون ان يقبضوا الرواتب المعلومة عند كل تولية امير جديد ، ويعلق ابو المحاسن على ذلك انه من الغرائب وقد بايعه الجنود جماعات جماعات لم يتخلف منهم أحد ، وعينوا من بينهم ابا جعفر بن أبى ليكون وزيرا له ومدبرا لأموره . وقد أشرك أبو جعفر ثلاثة من زملائه القواد فأصبح الحكم شركة بينهم .

وقد حاول ربيعة بن احمد بن طولون عم هارون أن يخلع بيعته وأن ينادى بنفسه اميرا على مصر وشجعه على ذلك فريق من الناس ، ولكن رجال الجيش كانوا يؤثرون صبيا صغيرا فى الحكم ليظل النفوذ والسلطان بأيديهم ولذلك فقد تصدوا لربيعة ، وتغلبوا عليه وقيل انهم قتلوه ضربا بالسياط .

٨٩٩ م ــ ٢٨٦ هـ : تثبيت هارون بن خمارويه فى امارة مصر :

طلب هارون بن خمارويه من الخليفة المعتضد أن يجدد له الولاية على مصروالشام

---

(١) من الواضح أن المقصود بهذا التعبير هم من نسميهم فى العصر الحديث الرباعين « حملة الحديد » والمصارعين .

فى مقابل أن يدفع للمعتضد ٤٥٠ الف دينار كل عام ، فأجابه الخليفة الى طلبه ، وبعث اليه تقليداً بذلك .

ومجرد التقدم بهذا العرض يدل على تدهور الأحوال فى مصر ، وفقدانها استقلالها ، فقد كانت الثلاثون عاما التى تم الاشتراط عليها أيام خمارويه لم تنته بعد .

ويظهر تدهور الأحوال بالأكثر فى أن حكم هارون بن خمارويه على الشام لم يكن الا اسما فقط ، فان طغج بن جف حاكم الشام بدأ يحكمه حكما مستقلا كل الاستقلال عن مصر ، حيث يتجه فى التماس التوجيه صوب بغداد لا القطائع .

٩٠٢ م — ٢٨٩ هـ : وفاة الخليفة المعتضد :

فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى مات الخليفة المعتضد عن سبع واربعين سنة . وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأيام . وقد وصف المعتضد بأنه كان شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت حتى قيل انه كان يتقدم على الأسد وحده . وتعتبر أيامه بمثابة صحوة فى خلافة بنى العباس فقد استعاد الخليفة نفوذه وسلطانه الفعلى فراح يباشر السلطات الادارية والعسكرية بنفسه ، ولم يمنعه من تقويض آخر ظل لاستقلال الطولونيين الا محافظته على العهد الذى قطعه على نفسه لخمارويه ، وحرصه على ارضاء زوجته قطر الندى التى ماتت قبل موته بفترة قصيرة .

خلافة المكتفى بالله :

فى جمادى من هذه السنة ولى الخلافة أبو محمد على المكتفى بالله ابن المعتضد بعهد من أبيه . وكانت سنه يوم ولى الخلافة احدى وثلاثين سنة . وكان يضرب بحسنه المثل فى زمانه ، اذ كان على ما يقول معاصروه معتدل القامة وردى اللون أسود الشعر حسن اللحية جميل الصورة ، وامه أم ولد تسمى خاضع .

٩٠٣ م — ٢٩٠ هـ : القرامطة يحاصرون دمشق :

كان خطر القرامطة الذين أشرنا الى مبدأ ظهورهم قد استشرى فى عهد زعيمهم الجديد أبو سعيد القرمطى الذى ضم اليه الأعراب المحيطين بالبحرين ، وراح يقتل سكان القرى المجاورة ، ممن لا يؤمنون بايمانه ولا يخضعون لطاعته ، ولكى يعطى لدعوته قوة ادعى لنفسه نسبا علويا وانه حقيق بالخلافة . ولكى يحيط نفسه بجماهير من الناس ، نزع منزعا اجتماعيا واقتصاديا أقرب ما يكون الى صورة المذاهب الفوضوية الحديثة التى تدعو الى شيوع الأموال والنساء .

وفى هذه السنة قصد سعيد القرمطى بجيشه الى بلاد الشام ، فروع سكانه . واستولى على بعض مدنه ، ولم يستطع طغج بن جف أمير الشام أن يرد عاديتهم بل لقد وصلوا الى حد محاصرته فى دمشق نفسها . فأرسل طغج بن جف أمير الشـام يستعين بهارون بن خمارويه فاستجمع هارون بن خمارويه أو بالأحرى قواده آخر ما عنـدهم من موارد وقوى وبعثوا اليه بجيش على رأسـه بدر الحمامى لقتـال القرامطة ، ولكن القرامطة تغلبوا على هذا الجيش ودحروه .

الخليفة المكتفى يتولى حرب القرامطة :

كان طبيعيا وقد فشل الطولونيون فى صد القرامطة عن الشـام ، أن يسقطهم الخليفة من حسابه وأن يعتمد على جيوشه ، فعهـد الى محمد بن سليمان الكاتب ان يتصدى لحرب القرامطة ، وأن يتولى امرة الشام وكل ما كان بيد الطولونيين من أعمال .

وانتصر محمد بن سليمان انتصارا رائعا على القرامطة وساق عددا كبيرا من اسراهم الى بغداد حيث قتلوا فيها .

وقد شجع هذا النصر الخليفة المكتفى فعهـد الى محمـد بن سـليمان أن يمضى الى مصر ليكون أميرا عليها وأن يسقط الطولونيين . ولم يكن محمد بن سليمان هذا الا احد رجال احمد بن طولون .

٩٠٥ م ـــ ٢٩٢ هـ : سقوط الدولة الطولونية :

تضافرت الظروف كلها لانهاء الدولة الطولونية ، فهذا العجز عن رد غارة القرامطة عن الشام ، وما أدى اليه الخلاف بين أبناء الأسرة الواحدة من انفضاض قواد الجند من حولهم والتجائهم الى بغداد للتعاون معها . فقد أبى هارون بن خمارويه الا ان يعجل بالنهاية عندما توقف عن دفع ما تعهد بدفعه سنويا لدار الخلافة وهو ٤٥٠٫٠٠٠ دينار ـــ فكان هذا القرار بعزل هارون بن خمارويه عن امرة مصر وتولية محمد بن سليمان عليها ، وتكليفه بالزحف بجيشه الى مصر .

وقد بعث محمد بن سليمان بانذار الى هارون يطلب منه التنازل عن الامارة ، والذهاب الى بغداد ليضع نفسه تحت تصرف الخليفة .

ولكن هارون بن خمارويه ، أو بالأحرى حاشيته وبطانته من القواد والجند وأفراد الاسرة ، قرروا الدفاع عن حقهم ، فجمع هارون ما لديه من قوات برية وسار بهم حتى بلدة العباسة على أطراف الحدود الشرقية استعدادا لمواجهة طليعة جيوش الخليفة الزاحفة والتى كانت قد تخطت مدينـة الفرما . وفى ذات الوقت أبحـر الأسطول الطولونى فى النيل تحت قيادة وصيف القطرميز ، ليواجه اسطول الخلافة البحرى الذى كان يرأسه دميان البحرى .

وجرى الصدام البحرى قبل البرى ، فقد التقى الاسطولان عند مدينـة تنيس فانهزم الأسطول المصرى وسقطت المدينـة . وحاول الاسطول المصرى أن يقف مرة أخرى عند دمياط ولكنه انهزم مرة أخرى ، واسـتولى أسطول الخـلافة على مراكب المصريين وأسر من فيها من الرجال والمقاتلة ، كما سقطت مدينـة دميـاط فى أيديهم . وزحف الاسطول العباسى حتى وصل مقابل الجيزة وجزيرة الروضة ، ولكنها وقفت عاجزة عن أن تفعل شيئا فى انتظار مقدم الجيش البرى .

مصرع هارون بن خمارويه :

واذا كان القدر قد قرر مصير الدولة الطولونية ، فقد كانت هذه اللحظة الخطيرة هى التى اختارها شـيبان بن أحمد بن طولون ، ليسـتولى على الملك من ابن أخيـه هارون ، فتآمر مع بعض خدم هارون فأدخلوه عليه وهو يغط فى نومه فى خيمته وسط جيشه الذى أعده لملاقاة جيش الخليفة ، فذبحه شيبان فى فراشه .

ونادى بنفسه ملكا على مصر ، وانسحب بالجيش من العباسـة متراجعا نحـو الفسطاط والعسكر والقطائع ليعد وسائل المقاومة .

وكانت مدة حكم هارون بن خمارويه ثمانى سنوات وثمانية اشهر وأيام .

امارة شيبان بن احمد بن طولون :

عجل هذا الاجراء الذى أقدم عليه شيبان بنهاية الدولة الطولونية ، فقد انحـاز القواد الطولونيون بعد مصرع هارون الى جيش محمد بن سليمان الزاحف فزاده قوة على قوة . كما انضم اليه الحسين بن احمد المازراتى العارف بأحوال البلاد المالية . وما هى الا أيام قليلة حتى كان جيش محمد بن سليمان يضرب الحصار على الفسطاط والقطائع من البر والبحر .

ولأمر ما قررت الجيـوش الطـولونية البـاقية أن لا تستسلم وأن تدافع حتى النهاية ، ولكن الخور دب الى نفس شيبان ومن بقى معه من آل بيته وخاصته فبعث الى محمد بن سليمان يعلن استعداده لتسليم نفسه مقابل المحافظة على حياته وحياة من معه ، فأجابه ابن سليمان الى طلبه . فخرج شيبان سرا وسلم نفسه ومن معـه منهيا بذلك حكمه الذى بدأه بالجريمة والذى لم يدم سوى بضعة أيام ، وكانت جيوشه لا تعرف بما حدث ، وظلت على تعبئتها للقتال . وعندما عرف الخبر ، فان الفرسـان بادروا بالتسليم ، ولكن الجيوش البرية من المشاه وكثرتهم الغالبة من السودانيين ، أبوا الا ان يثبتوا ويواصلوا الحرب والقتال ، ولكن ما الذى تستطيع ان تفعله جنود لا قائد لهم . ولذلك فسرعان ما انكسروا . وبدأت الفرسان تقبض عليهم ويقودونهم بين يدى محمد بن سليمان لكى يذبحوا كما تذبح الشاة .

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط من غير أن يمنعه مانع أو يعترضه معترض فى يوم الخميس آخر صفر .

خراب القطائع ونهاية الدولة الطولونية :

وبدأ محمد بن سليمان صفحة من أسود صفحات التاريخ الاسلامى فى مصر ، اذ يقول لنا أبو المحاسن « ان جيش محمد بن سليمان هجم على دور الناس فنهبوها ، وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم ، وفتكوا فى الرعية وافتضوا الأبكار وأسروا المماليك بل والأحرار من النساء والرجال ، وفعلوا فى مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم . ثم تعدوا الى أرباب الدولة فأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرها وفعلوا فى المصريين ما لا يفعلونه فى الكفرة .

واصدر محمد بن سليمان احكامه فى الكثيرين من اهل مصر بضرب أعناقهم وقطع أيديهم وأرجلهم وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال .

وامر فى خاتمة المطاف بحرق القطائع التى كانت حول الميدان ، ولم يعف الا الجامع وهكذا تحولت هذه المدينة المزدهرة الى خراب ويباب كأن لم تكن بالامس ، وزالت دولة بنى طولون وكأن لم تكن » .

ويرثى أبو المحاسن الدولة الطولونية فيصفها بأنها كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام .

كما رثاها عشرات الشعراء الذين تفص كتب التاريخ بمختارات من أشعارهم . وقد استمرت الأسرة الطولونية ٣٧ سنة وأربعة شهور واستعادت فيها مصر أهميتها القديمة ووصلت عاصمتها الى درجة من الازدهار والثروة والترف لم تعرفها منذ الفتح الاسلامى .

مؤرخو الدولة الطولونية :

وكان طبيعيا وقد كان عصر الدولة الطولونية هو عصر ازدهار ان يخلد لنا بعض مؤرخيها المعاصرين ذكراها . وعلى رأس هؤلاء أبو جعفر احمد بن يوسف الشهير باسم ابن الداية ، والذى قربه اليه أحمد بن طولون وخمارويه من بعده ، فأشبه أن يكون المؤرخ الرسمى للدولة . وقد بقى من كتبه لحسن الحظ « سيرة أحمد بن طولون » وكتاب المكافأة . والمطالع لهذين الكتابين يدرك أن ابن الداية لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل كان عالما دارسا للهندسة والفلك ، وكان فوق ذلك ذا نظر ثاقب يغوص فى صميم المجتمع المصرى ويعرض لجوانبه بعين الناقد الفاحص . كما يكشف كتاباه عن شيوع فلسفة أفلاطون والمعارف الاغريقية بين المثقفين فى عصره .

أما المؤرخ الثانى فهو أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى المشهور باسم « اكيكوى » وقد حفظ لنا بين مؤلفاته « سيرة أحمد بن طولون » وهو اكثر الكتب تفصيلا عن هذه الحقبة من تاريخ مصر . وهو يلقى ضوءا على صناعة الطب ، فيحدثنا كيف كان للأطباء أزياؤهم الخاصة وكان لكل طبيب أعوانه ومساعدوه من الشاكرية

ومهمتهم دق العقاقير وعجن الأدوية ونفخ النار . وكانت للأطباء وسائلهم في الفحص والعلاج فيجسون النبض أو يفحصون الفضلات . وكانوا يحـددون للمريض أنواع الأطعمة التى يأكلها ، وكان بعضهم يمارس علم النفس فى علاج مرضاه(١) .

مصر اسلامية لحماً ودماً :

واذا كانت مصر قد اعتبرت جزءاً من الدولة الاسلامية منذ الفتح . واذا كانت الصبغة الاسلامية قد بدأت تنفذ اليها بالتدريج كما رأينا ، فان الاتفاق على أن العهد الطولونى لم يكد يظل البلاد حتى كانت أغلبية سكان مصر قد أصبحت تدين بالاسلام ، بكل ما ترتب على ذلك من تغير فى العلاقات الاجتماعية وخاصة ما اتصل منهـا بالروابط العائلية .

المسيحية المحترمة :

على أن تحول مصر الى مجتمع اسلامى ، لم يعن ان الأقلية المسيحية قد شقيت فى ظل هذا المجتمع ، فقد ظل المسيحيون يشكلون جانبا محترما من المجتمع ، وليس أدل على ذلك من ان الدولة ظلت تشترك على أوسع نطاق فى الإحتفـالات والاعيـاد المسيحية . كيوم احد الشعانين وخميس العهد — ويوم الفطاس — وعيد الشهداء .

وبدأ الأقباط من ناحيتهم يتحدثون اللغة العربية ، وبدأت معاملاتهم تجرى بها ولدينا من هذا العصر عقود زواج تمت بين الأقباط باللغة العربية(٢) .

٩٠٥ م — ٢٩٢ هـ : انتفاضة طولونية :

لم يكد محمد بن سليمان يغادر مصر ويبعث الخليفة المكتفى بأبى موسى عيسى بن محمد النوشرى ليكون اميرا على مصر ، حتى انفصل عن جيش محمد بن سليمان أثناء عودته الى العراق قائد سابق فى الجيش الطولونى يسمى محمد بن على الخلنجى ، وعزم على احياء الدولة الطولونية ، فيمم شطر مدينة الرملة فى فلسطين وهزم واليها وأمر بالدعوة على منابرها للخليفة ومن بعده ، لابراهيم بن خمارويه بوصـفه أميرا للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم بن خمارويه ، وسرعان ما لقيت دعوته ترحيبا وحماسة وخاصة فى مصر فقد عز على أهل البلاد أن يعودوا من جديد ليحكموا من خارج الحدود لحساب ولاة وأمراء لم يطأوا أرض مصر .. وكان يضاعف فى مرارتهم ضـد الحكم العباسى ، ما ارتكبه محمد بن سليمان من فظائع وما صبه على أهل مصر من ويلات .

ولذلك فقد تسارع الكثيرون الى تأييد دعوة الخلنجى ، مما جعله يزحف بمن التف حوله نحو مصر . وعندما تصدى له عيسى بن النوشرى بجيشه عند غزة دارت

(١) كتاب الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ص ٢٣ .
(٢) كتاب الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ص ١٠٤ .

الدائرة على عيسى ، وانهزم عيسى وجيشه هزيمة منكرة عندما حاول من جديد أن يتصدى لجيش الخلنجي الزاحف والذى استولى على مدينتى الفرما والعريش ، وجلا عيسى النوشرى عن الفسطاط تحت ضغط أهلها فيما يبـدو فدخلهـا محمد الخلنجي فى السادس والعشرين من ذى القعدة وسط الترحيب والأفراح .

ولكن قلة الأموال فى يد الخلنجي جعلته يتشدد فى جمعها من الأعيان والقادرين ، مما أحفظهم عليه ــ ويقول أبو المحاسن بصدد حركة الخلنجي : وأمر محمد هـذا من أعجب العجائب ، فقد أراد أن يأخذ بثأر بنى طولون والانتصار لهم على ما وقع من محمد بن سليمان فوقع منه أضعاف ما وقع من محمد بن سليمان . ولذلك فعندما بعث الخليفة المكتفى بجيش جديد جمعت عساكره من العراق وسوريا وفلسطين ، فقد انفضت عساكر الخلنجي عنه اذ ايقنوا بقرب هزيمته . وانتهى امره بأن قبض عليه . بعد أن دام ما وصف بأنه عصيان وتمرد سبعة أشهر واثنين وعشرين يوما .

٩٠٥ م ــ ٢٩٣ هـ : امارة عيسى النوشرى الثانية على مصر :

فى الخامس من رجب عاد عيسى النوشرى الذى كان طوال المدة السابقة مرابطا فى الصعيد ، ببعض جنوده وبصحبته الحسين المزدرانى ، فدخل الفسطاط مبتـدئا بذلك امارته الثانية على الصـلاة ، والمازردانى على الخراج ، وكانت أحوال مصر خلال هذه المدة قد ساءت وتدهورت نتيجة ما أصابها على يد محمد بن سليمان من حـرق لمدينة القطائع وقتل وتشريد ، وما أعقب ذلك من حركة الخلنجي .

٩٠٧ م ــ ٢٩٥ هـ : وفاة الخليفة المكتفى :

فى شهر ذى القعدة من هذه السنة مات الخليفة المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد ، وكانت سنه عندما مات احدى وثلاثين سنة ، حكم منها ست سـنوات ونصف . وقد خلف وراءه فى بيت المال خمسة عشر مليون دينار ، وهذا الرقم ان دل على شىء فانما يدل على أنه تابع الصحوة التى بدأت فى عهد أبيه .

الخليفة جعفر المقتدر :

بويع بالخلافة بعد موت المكتفى أخوه جعفر المقتـدر ولم تكن سـنه يوم بويع بالخلافة تزيد على ثلاثة عشر عاما فكان بذلك أصغر من ولى الخلافة منذ تأسست.

٩٠٩ م ــ ٢٩٦ هـ : عزل الخليفة المقتدر وعودته ثانية :

لم يرض بعض القواد عن صغر سن الخليفة ، وما ظهر على الفور من تسلط أمه على شئون الحكم فقر قرارهم على خلعه وتولية عبد الله بن المعتز شاعر بنى العباس

المشهور ، فوافقهم على ذلك شريطة أن يتم الأمر بغير انقلاب أو سفك دماء وعن رضا واجتماع حكمة ، فأجابوه الى شرطه وبايعوه .

ولكن نونا الخادم أحد القادة ، لم يوافق على خلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز ولذلك فقد قبض عليه هو ومن ساعده على تولى الخلافة وقتله فى نفس اليوم ، فكانت مدة خلافته على ما يقول الطبرى يوما بل نصف يوم ، وهى اقصر مدة حكمها خليفة أو ملك ــ وأعيد الخليفة المقتدر لمباشرة سلطانه الاسمى .

٩١٠ م ــ ٢٩٧ هـ : امارة تكين بن عبد الله على مصر :

مات فى هذه السنة عيسى النوشرى أمير مصر فولى الخليفة المقتدر تكين بن عبد الله الحربى على الصلاة فى مصر ، فدخلها فى الثانى من ذى الحجة من هذه السنة .

وكانت مهمته الأولى بمجرد وصوله الى مصر أن يعمل على اتقاء هــذا الخطر الجديد الذى بدأ يهدد مصر من الغرب ، ونعنى به خطر الفاطميين .

ظهور الدولة الفاطمية :

خرج عبيد الله المهدى الفاطمى متخفيا من بلاد الشام ، مضمرا فى نفسه أن يدعو لنفسه وأن يخلع حكم العباسيين ، فوفد الى مصر فى بادىء الأمر واستقر بها يدعــو لنفسه فوصل نبأه الى الخليفة العباسى ، فبعث الى أمير مصر أن يقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع أن ينجو بنفسه ، وسار الى برقة وشمال افريقيا حيث كان عبد الله الشيعى يدعو له ويمهد الطريق لقيام حكم شيعى . وقد استطاع عبد الله الشيعى أن يقهر آخر ملوك الأغالبة فى القيروان وأن يستولى عليها عام ٢٩٦ هـ . وجاء عبيد الله المهدى من سلجماسه من المغرب الأقصى ونزل فى القــيروان ، ونادى بنفسه خليفة للمسلمين وتلقب بالمهدى وهكذا قامت الخلافة الفاطمية .

ولم يكد عبيد الله المهدى يستقر فى القيروان حتى شرع يضع الخطط لغزو مصر . ورأى تكين أمير مصر أن يبادر المهدى فبعث اليه من برقة التى كانت تابعة لمصر بجيش تحت قيادة أبو اليمن لمحاربته والقضاء عليه ، ولكن حباسة بن يوسف قائد المهدى هزم أبا اليمن واستولى على برقة وبذلك أصبح على حدود مصر .

٩١٤ م ــ ٣٠٢ هـ : هجوم الفاطميين الأول على مصر :

واصل حباسة بن يوسف الزحف على مصر بجيشه الذى انتصر به ، فوصــل الى مدينة الاسكندرية على رأس مائة ألف مقاتل . فبعث تكين بجيش جديد ليحارب الجيش الزاحف .. ولكن الجيوش الفاطمية انتصرت مرة أخرى ، فدخلت جيوش المهدى الى مدينة الاسكندرية فى الأول من محرم من هذه السنة .

ووصل مدد من الخليفة المقتدر الى تكين ، فســار على رأس الجيش وحارب حباسة بن يوسف فهزمه وأجلاه عن الاسكندرية وبرقة كلها . وعاد حباسة ومن بقى من عساكره مهزوما فى أسوأ حال الى المهدى ، فقتله المهدى عقابا على هزيمته .

٩١٥ م ــ ٣٠٣ هـ : امارة ذكا الرومى على مصر :

كان مؤنس الخادم قد وفد على مصر على سبيل النجدة لتكين ، ولكنه لم يكد يصل الى مصر ، حتى كان تكين قد أحرز نصره المؤزر على الفاطميين ، ولم يعد فى حاجة لعون مؤنس الخادم . ويبدو أن نوشا الخادم نفس على تكين ما حصل عليه من نصر ، أو كأنه تخوف من أن يثير هذا النصر فى نفس تكين الأطماع ، فاقترح على الخليفــة عزل تكين عن امرة مصر ، فأجابه الى طلبه وعزل تكيـن ـوعين بدلا منه ذكا الرومى ، فوصل الى مصر فى الثانى من شهر صفر من هذه السنة أميرا على الصلاة . أما الوالى على الخراج فقد ظل هو أبو الحسين بن أحمد المازرانى المعــروف بأبى زنبور وهو الذى نكث بيعته للطولونيين وانضم الى محمد بن سليمان . وكان أهم ما عنى به ذكا هو الكشف عن عيون الفاطميين فى مصر ومن يكاتبونهم من ســكانها ، فقبض على الكثير منهم ، وفعل بآخرين بأن قطع أيديهم وأرجلهم باعتبارهم مفســدين فى الأرض .

كما عنى باعادة تحصين مدينة الاسكندرية ، بعــد أن أظهرت التجربة الســابقة سهولة استيلاء الفاطميين عليها .

بناء مدينة المهدية :

على أن الفاطميين أنفسهم كانوا يزدادون قوة وســلطانا ، وانتقلت اليهم السيادة على جزيرة صقلية وسائر الجزر التى تفصلها عن الساحل الافريقى ، ولذلك فقد اقدموا وهم مطمئنون على بنــاء عاصمة ملكهم المهــدية على شاطىء البحــر مباشرة والتى أصبحت تحميها أساطيلهم .

وفاة الامام النسائى صاحب السنن :

ومات فى هذه السنة الامام عبد الرحمن النسائى صاحب السنن والذى تعــد سننه داخل كتب الحديث الخمسة صاحبة الاعتبار والتى تبدأ بالبخارى كما قدمنا ويظهر أن النسائى أقام بمصر مدة طويلة حتى أصبح ينسب اليها فالدارقطنى على ما روى ابن كثير فى البداية والنهاية يقــول عنه إنه أفقه مشايخ مصر فى عصره . وقد بارح مصر عام ٣٠٢ هـ وأقام بالرملة فى فلسطين حيث مات بها ، ولكنه دفن فى بيت المقدس (ابن كثير) .

٩١٩ م – ٣٠٧ هـ : امارة تكين الثانية على مصر :

مات ذكا الرومى أمير مصر بعـد أن كانت العلاقات قد ساءت بينه وبين الرعية فقد أوثر عنه أنه يسب الصحابة ، ويسب السلطان ، وعاود الفاطميون غارتهم على مصر اذ بعث الخليفـة عبيد الله المهدى بجيش جديد تحت قيادة ابنه أبى القاسم لاحتلال مصر ، فنجح الجيش فعلا فى احتلال الاسكندرية اذ دخلها فى الثامن من شهر صفر من هذه السنة ، فأصيب الناس بالهلع ، ولكن الخليفة أعاد تكين أميرا على مصر ، فاطمأنت الخواطر .

ودارت معركة طاحنـة بين تكين وقـواته وبين جيش الفاطميين تحت قيـادة أبى القاسم ، فانتصر تكين ، ولكن فلـول الفاطميين لاذت بالصـعيد وتمكنت من احتلال الفيوم .

٩٢١ م – ٣٠٩ هـ : امارة أبو قابوس محمود على مصر :

أوفدالخليفة مؤنس الخـادم على رأس جيش الى مصر لمحـاربة الفاطميين ، واستطاع تكين بهذا المدد الجديد ، أن ينجح فى طرد فلول الفاطميين بعـد عديد من المعـارك من الأراضى المصرية ، وانسـحب أبو القاسم محمـد بن المهـدى بعسـاكره من برقة .

وعلى الرغم من هذا النجاح ، فقد عاود مؤنس الخادم عدم اطمئنانه لتكين ، أو غيرته منه ، فعزله للمرة الثانية عن امرة مصر وعين عليها أبا قابوس محمود فى يوم الأحد العاشر من ربيع الأول .

فاستاء المصريون من هذا التصرف ، وحذر قواد الجند مؤنس الخادم من مغبة هذا الأمر ، فأسرع الى عزل قابوس من الامارة واعاد لهـا تكين ، فلم تزد امارة أبو قابوس عن ثلاثة أيام .

امارة تكين الثالثة على مصر :

عاد تكين للامارة للمرة الثالثة ، ولكن مؤنس الخادم لم يعده الا على مضض ، ولكى يكسب وقتا يدبر فيه عملية اخراج تكين من مصر كلها – ولذلك فلم يكد يحكم تدبيره بالاتفاق مع قادة الجند ، حتى عزل تكين للمرة الثالثة ولم يكن مضى على امرته الجديدة سوى أربعة أيام ، وبعث به صحبة أربعة آلاف جندى الى بغداد ، وكتب الى الخليفة يبلغه بما اتخذه من اجراءات ، ولم يكن الخليفة يملك الا الموافقة فبعث الى مصر أميرا جديدا هو هلال بن بدر .

امارة هلال بن بدر على مصر :

ولى الخليفة المقتدر الأمير أبو الحسن هلال بن بدر على مصر ، فدخلها فى يوم الاثنين السادس من ربيع الثانى من هذه السنة ، وكانت امرته على الصـلاة ، وجعـل

على شرطته ابن طاهر . وقد حمل هلال بن بدر معه كتابا من الخليفة الى مؤنس الخادم يدعوه فيها الى العودة الى بغداد ، فغادر مصر بعد أيام من وصول ابن بدر .

٩٢٢ م ــ ٣١٠ هـ : وفاة أبي جرير الطبري :

مات في هذه السنة العالم المشهور صاحب التاريخ الخالد ، والتفسير الجامع محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ، وكانت سنه يوم مات ستا وثمانين سنة .

وقد وصفه أبو المحاسن أنه كان أحد أئمة العلم ، يحكم بقوله ويرجع الى رأيه ، وكان متفننا في علوم كثيرة ، وكان واحد عصره ، قال عنه أبو بكر الخطيب : جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظا لكتاب الله ، بصيرا بالمعاني ، فقيها في أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ، بصيرا بأيام الناس وأخبارهم ــ له الكتاب المشهور في تاريخ الامم وكتاب التفسير وله في الأصول والفروع كتب كثيرة .

ذلك ما قاله عنه الأقدمون ، ومن ناحيتي فطالما اعتبرت الطبري آية من آيات الشموخ الانساني ، وحسب الانسان فقط أن ينظر الى تاريخه ليسائل نفسه كيف وجد من الوقت والقدرة ليخطه بيمينه ، فكيف والكتاب هو بعض ما ألف .. هو ليس مجرد كتابة ، وانما هو موسوعة علم التاريخ في عصره .

٩٢٣ م ٣١١ هـ : امارة احمد بن كيلغ الأولى على مصر :

لم تستقر الاحوال في مصر خلال امارة هلال بن بدر . فقد كان المصريون فيما يبدو يتعلقون بتكين .. وبدأوا يأنفون من تبديل الولاة وتغييرهم بهذه السرعة فأعلن فريق منهم التمرد على هلال بن بدر ، وانضم اليهم فريق من الجند وأجمعوا على قتاله ، فدارت رحى معارك في أرجاء البلاد بين خصومه ومؤازريه ، وكانت هذه المعارك على حساب أهل البلاد ، اذ كثر النهب والسلب من هذا الجانب وذاك ، ونشأ الفساد وقطع الطريق ، فضج المصريون بالشكوى من هلال بن بدر ، وانصاع الخليفة الى شكاتهم فعزله وبعث اليهم بأحمد بن كيلغ اميرا على الصلاة . ومحمد بن الحسين المازرائي عاملا على الخراج .

ولكن احمد بن كيلغ لم يكن بأوفر حظا من سابقه ، فقد ثار الجند في وجهه ، واضطر الى الهرب من الفسطاط والاقامة في مدينة فاقوس ، وظل مقيما بها حتى عزل من امرته هذه المرة .

ولم يجد الخليفة المقتدر بدا في خاتمة المطاف من أن يعيد الى مصر الرجل الوحيد الذي يرضى به المصريون والذي نشأت الفتن بسبب عزله وهو الأمير تكين .

٩٢٤ م – ٣١٢ هـ : امارة تكين الرابعة على مصر :

وصل تكين الى مصر يوم عاشوراء من هذه السنة ولم تلبث أن ظهرت مقدرته ومهارته فى ادارة دفة الأمور ، فبدأت احوال البلاد تستقر من جديد ، ويعود اليها الأمن والنظام . وتدل سلسلة التغييرات التى أجراها تكين فى متولى الشرطة ، على مدى حساسيته من ناحية الادارة ووضع الرجل الصالح فى المكان الصالح ، حيث لم يتردد فى عزل ابنه فراتكين بعد أن كان قد ولاه هذا المنصب عندما وجده غير قادر على شغله كما عزل من قبله ومن بعده كل من لم يجده صالحا .

٩٢٩ م – ٣١٧ هـ : خلع الخليفة المقتدر للمرة الثانية وعودته للخلافة :

انقلب مؤنس الخادم على سيده المقتدر فى الخامس عشر من المحرم من هذه السنة فخلعه من الخلافة ، وجيء بمحمد بن الخليفة المعتضد فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالقاهر . ووقع النهب فى دار الخلافة ، واختبأ المقتدر عند أمه . على أن الخليفة الجديد عجز عن تدبير الأموال اللازمة للجند فى مثل هذه الظروف ، فثاروا عليه وخلعوه ولم يحكم سوى ثلاثة أيام ، وأعادوا المقتدر للمرة الثالثة ،وليس هذا بأغرب على ما يقول أبو المحاسن من خلعه فى المرة الأولى عندما عزل نصف نهار .

فتنة أبو طاهر القرمطى فى مكة :

وفى ذى الحجة من هذه السنة وقع هذا الحادث المؤسف فى تاريخ الدولة الاسلامية ، وكم فيها من الحوادث المؤسفة ، عندما قصد أبو طاهر القرمطى الى مكة فى موسم الحج فقتل الحجاج فى يوم الدينونة وملأ بجثثهم مكة وساحة الحرم المكى نفسه ، وقتل ابن محارب أمير مكة ، وعرى الكعبة من أستارها كما قلع باب الكعبة ، وزاد على ذلك كله فاقتلع الحجر الأسود من مكانه وسلبه ، وطرح القتلى فى بئر زمزم ليردمها بالجثث – وعاد بعد أن خضب أرض البلد الحرام فى الشهر الحرام بدماء المسلمين ، الى مقر حكمه فى هجر مصطحبا معه الحجر الأسود ،حيث ظل فى منفاه ، الى أن رد الى مكانه فى خلافة المطيع كما سيأتى .

ويعتبر هذا الاعتداء هو منتهى ما وصل اليه أبو طاهر من سلطان لم ينله أبوه أو جده من قبل .

ولقد جرت بينه وبين عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى المراسلات ، فبدأ أبو طاهر يدعو لعبيد الله ليضفى على نفسه وعلى أعماله صفة شرعية .

٩٣٢ م – ٣٢٠ هـ : مصرع الخليفة المقتدر :

كان لابد للصراع بين مؤنس الخادم وبين الخليفة المقتدر أن ينتهى بموت أحدهما ، ولكن الغلبة كانت لمؤنس الخادم ، اذ تغلب على الخليفة فى المعركة التى

دارت بينهما فى بغداد وقتل الخليفة وقطعت رأسه وحملت على رمح للتشهير بها .

وكانت سنه يوم قتل ثمانية وثلاثين سنة وشهرا وأياما حكم منها خمسا وعشرين سنة ، وان لم يكن له فى أكثرها من الحكم سوى الاسم اذ كان أغلب التصرف هو لمؤنس الخادم كما رأينا .

ويوصف عهد المقتدر فى التاريخ بأنه العهد الذى غلبت عليه النساء . فقد كانت امه « شغب » صاحبة سلطان وصل الى حد أن عينت احدى قهرماناتها للجلوس للناس مجلس القضاء لتنظر فى المظالم وتقضى فيها . وكان دخلها من أملاكها على ما يقول ابن كثير مليون دينار فى العام ، فكانت تتصدق بالجزء الأكبر منه — ويصفها بأنها كانت فى غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة .

وتفيض كتب التاريخ الأوربية بالاشارة الى المقتدر والى مدينة بغداد فى عصره وما كانت عليه من عظمة وغنى وازدهار اقتصادى وعلمى — ذلك أن سفارة بيزنطة وفدت الى بغداد فى عهد المقتدر فاستقبلت استقبالا حافلا ، حرص فيه الخليفة على التأثير فى البيزنطيين باظهارهم على مدى قوة المسلمين وغناهم ، فكان هذا الاستقبال الذى تسهب عشرات من صفحات الكتب الأوربية فى وصفه .

الخليفة القاهر بالله :

بويع محمد بن المعتضد بالخلافة بعد مصرع المقتدر فى الثامن والعشرين من شوال وهو ابن خمس وثلاثين سنة . ولم يكن عليه يوم أحضر للبيعة الا قميصان ورداء ، فطلب أن يلبس من الثياب التى تناسب الجلوس للعامة وسيف ومنطقة — فلم يوجد عنده ما يصلح لذلك ، فنزع بعض الحاضرين ملابسه ليرتديها الخليفة .

٩٣٣ م — ٣٢١ هـ : امارة محمد بن طغج الأولى على مصر :

مات تكين فى ربيع الأول من هذه السنة بعد أن ظل أميرا على مصر هذه المرة تسع سنوات وأربعة أشهر . ولابد أن يكون المصريون قد حزنوا عليه ، فقد كان على ما يصفه معاصروه أميرا شجاعا على دراية بالحرب وفى نفس الوقت صاحب سياسة وكياسة ورفق بالرعية . وقد عهد قبل موته بامارة الصلاة لابنه محمد بن تكين . ولما مات تكين حمل فى تابوت الى بيت المقدس فدفن فيه . وكان العامل على الخراج فى هذه الفترة أبو بكر محمد بن على المزرانى ، وكان قد بلغ من السلطة والنفوذ الى الحد الذى جعله يقوم على ادارة البلاد كلها تقريبا ، فشغب عليه الجند وأحرقوا داره ودور أهله ، ولكن أبو بكر كان قد بلغ من قوة السلطان ما جعله بالرغم من ذلك يطلب من محمد بن تكين أن يبارح مصر ، وأن ينصاع محمد بن تكين لطلبه فينسحب الى دمشق .

وعين الخليفة فى هذه الأثناء على امرة مصر محمد بن طغج بن جف ، فورد الخبر بذلك الى مصر فى السابع من رمضان من هذه السنة فدعى له على منابرها ، ولكن اضطراب الاحوال فى مصر لم يتح له فرصة دخولها ، فعزل بعد اثنين وثلاثين يوما .

امارة محمد بن كيفلغ الثانية على مصر :

أعاد الخليفة القاهر أحمد بن كيفلغ على امرة الصلاة فى مصر ، فوصل رسوله بهذا الأمر فى التاسع من شهر شوال واستخلف أبا الفتح بن عيسى النوشرى على مصر نيابة عنه ولكن الجند شغبوا عليه فى طلب أرزاقهم واشتدوا فى طلبهم على المازرانى صاحب خراج مصر فاستتر منهم ، فأحرقوا داره للمرة الثانية ودور أهله ، ووقعت فى البلد فتنة عظيمة ومعارك قتل فيها جماعة كثيرة من المصريين .

٩٣٤ م — ٣٢٢ هـ : محمد بن تكين يحاول الاستيلاء على السلطة :

انتهز محمد بن تكين فرصة هذه الأحداث الجارية فى البلاد لكى يكون أميرا على مصر ، فوفد عليها من فلسطين فى الثالث عشر من جمادى الأولى ، ولكن المازرانى صاحب خراج مصر والذى كان مختفيا ، سرعان ما ظهر وتصدى لمحمد بن تكين منكرا عليه امرته غير الشرعية على مصر فانقسم المصريون الى حزبين ، حزب يدعو لمحمد بن تكين ، وحزب يدعو لأحمد بن كيفلغ ، واستمرالقتال بين الحزبين حتى وصل الى مصر أحمد بن كيفلغ فى الثالث من شهر رجب ، فقوى الحزب المناصر له ، وانفض الكثيرون من حول محمد بن تكين . وفى هذا الوقت جاء الخبر بخلع الخليفة القاهر ومبايعة أبو العباس الراضى ، فعاد محمد بن تكين للظهور وأعلن أن الخليفة الراضى قد ولاه مصر ، فنشب القتال من جديد بينه وبين أحمد بن كيفلغ ودارت الدائرة على محمد بن تكين ، فقبض عليه ، وجىء به الى أحمد بن كيفلغ الذى نفاه الى الصعيد .

خلع الخليفة القاهر بالله :

فى الثالث من جمادى الأولى من هذه السنة ، خلع الخليفة القاهر بالله بعد أن سملت عيناه حتى سالتا على خديه ، وكان السبب فى خلعه وسمل عينيه هو خوف قادة الجند منه ، فعلى قصر المدة التى ولى فيها الخلافة ، فقد قتل الكثيرين ممن رفعوه الى العرش وعلى رأسهم مؤنس الخادم الذى كان قد شارف التسعين عند قتله . فخافه كل من حوله ، وراح الوزير ابن مقلة يحرض الكافة على التخلص منه . فكان أن هاجمه الجند وقبضوا عليه وفعلوا به ما أشرنا اليه .

يقول الصولى : كان القاهر أحمق سفاكا للدماء محبا للمال قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة مدمنا على شرب الخمر فاذا شربها تغيرت أحواله وذهب عقله .

خلافة الراضى بن المقتدر :

بويع بالخلافة بعد خلع القاهر ابن أخيه الراضى بالله أبو اسحق محمد بن الخليفة المقتدر . وقد استدعى فور توليه الخلافة ابن مقلة فولاه الوزارة ، ثم ولى الراضى ابنيه على المشرق والمغرب ، على أن يكون ابن مقلة وزيرها فعظم شأنه حتى استقل بتدبير الدولة .

وفاة الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى :

وفى هذه السنة مات مؤسس الدولة الفاطمية ابو محمد عبيد الله المهدى ـ فقام بأمر الخلافة من بعده ولده أبو القاسم ولقب بالخليفة القائم بأمر الله .

وقد اختلف فى نسب المهدى ، نتيجة للعداء بين السنة والشيعة ، وبين العباسيين والفاطميين ، فالعباسيون ومن كتبوا لهم يصفونه بالتزوير والادعاء ، حتى ليجعلوا أباه يهوديا كان يشتغل بحرفة الصباغة . أما دعاة الفاطميين فهو عندهم عبيد الله بن الحسين بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب .

انقسام الشيعة :

وقد كانت الشيعة على اتفاق فيمن يلى الخلافة من أبناء على بن أبى طالب جيلا بعد جيل ، فكان الحسن ثم الحسين ، ثم على زين العابدين ثم محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق .

وبوفاة جعفر الصادق انقسمت الشيعة الى فرق كثيرة ولكن كان أهمها واكبرها فرقتين :

فرقة جعلت الامامة فى ابنه موسى الكاظمى ثم فى الأئمة من بنيه الى الامام الثانى عشر الحسن العسكرى وهذه الفرقة تعرف بالامامية الاثنى عشر ومعظم أتباعها الآن فى ايران والعراق . والفرقة الثانية جعلت الامامة بعد وفاة جعفر الصادق فى ابنه اسماعيل ثم فى ابنه محمد بن اسماعيل ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد الحبيب ، والى هذا الأخير ينسب عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية ، ولذلك سموا بالاسماعيلية نسبة الى رأس فرعهم اسماعيل بن جعفر الصادق .

الفصل الحادى عشر

الدولـة الإخشيدية

٩٣٥ م ـ ٣٢٣ هـ : امارة محمد بن طفج الثانية على مصر :

دخل محمد بن طفج الى مصر فى الرابع والعشرين من رمضـــان من هذه الســـنة ليكون أميرا على مصر . ولم يكن أمر توليه الامارة هينا ، أو عملا روتينيا ، فقـــد تصدى له محمد أبو بكر المازرانى الذى كان حاكما فعليا على مصر من خلال تواليه أمر الخراج ، وحرض محمد بن كيغلغ على أن يحول بين محمد بن طفج ودخول مصر . وهــذا العمل يكشف عن مدى نمــو الروح الاســتقلالية فى أمراء مصر ، وضــعف الخلافة .

وقد سار احمد بن كيغلغ بجيشه حتى وصل مدينة الفرما ولكن محمد بن طفج استطاع أن يهزم هذا الجيش ويحمله على التراجع ، فى الوقت الذى كان محمد بن طفج قد سير أسطولا بحريا فى نهر النيل كما فعل محمد بن سليمان من قبل فوصل الى الفسطاط . وهكذا وصل محمد بن طفج بجيشه البرى والبحرى معا الى الفسطاط . فاستسلم أحمــد بن كيغلغ واعتــذر عن موقفــه بحجــة أن الجنــود غلبته على أمره . واختفى أبو بكر محمــد بن المازرانى صــاحب الخــراج من وجه محمــد بن طفج فى الوقت الذى اظهر فيه ابنه الحسن بن محمد المازرانى خضوعه لمحمد بن طفج، وهذا العمل يكشف عما وصلت اليه أسرة المازرانيين سواء فى مصر أو بغداد نفسها من دهاء ومكر ليظلوا مشاركين فى الاحداث مهما تغيرت الظروف والاحوال .

محمد بن طفج يوطد دعائم حكمه :

كان دخول محمد بن طفج بهذا الأسلوب على رأس جيش برى وبحرى ، ايذانا بأنه يدخلها دخول الفاتح ، لا الامير التابع فشرع منذ اللحظة الاولى يعمل على توطيد سلطانه مستخدما حسن السياسة والتدبير ، وكان له من قدرته الحربية وشخصيته القوية ، ما غرس مهابته فى قلوب المحيطين به ، مما جعله يصبح الحاكم الفرد والمرجع النهائى فى كل ما يتصل بمصر .

٩٣٦ م — ٣٢٤ هـ : غارة جديدة للفاطميين على مصر :

لجأ فريق ممن هربوا من مصر عقب انتصار محمد بن طغج الى الخليفة الفاطمى وزينوا له فتح مصر ، فبعث معهم بجيش لفتحها فوصل الجيش الى الاسكندرية ، ولكن محمد بن طغج بادر بارسال جيش تحت قيادة اخيه الحسن بن طغج لصدهم . وقد تلاقى الجيشان عند قرية من قرى البحيرة فدارت الدائرة على الفاطميين ، وفرت فلولهم عائدة الى برقة .

وغير الخليفة الفاطمى من أسلوبه مع الاخشيد بعد أن رأى شدة بأسه ويقظته ، فاصطنع معه سياسة الود والصداقة ، فكتب اليه يحسن له الانسلاخ من الخليفة العباسى والدعوة له .

وقابل محمد بن طغج هذا العرض بما فى طبعه من دهاء ، فهو وان ظل شديد الرغبة فى أن لا يقطع علاقاته مع بغداد ، فقد كان حريصا كذلك على مداراة هذه القوة الفاطمية الصاعدة . ولذلك فقد رد على الود بود مثله حتى لقد عرض على الخليفة الفاطمى أن يزوج ولى عهده من ابنته .

٩٣٨م — ٣٢٧هـ : لقب الأخشيد :

كان لانتصار محمد طغج على الفاطميين وردهم عن مصر دويا بالغا فى بغداد ، وقد كان له فيها حليفا ونصيرا وصهرا وهو الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات . فرأى الخليفة تحت تحريضه ان يعترف لمحمد بن طغج بمركزه الممتاز الذى احرزه ، فأرسل الخليفة الراضى مع ابنه الفرات الى محمد بن طغج بالخلع السنية اظهارا لفضله ، مع الاذن له بأن يتسمى باسم الأخشيد وهو لقب باللغة الفرغانية التى ينتسب اليها أجداد ابن طغج وتعنى كلمة الملك كما تعنى كلمة كسرى فى الفارسية وقيصر فى الرومية وفرعون فى المصرية .

منشأ الأسرة الأخشيدية :

كان جف التركى جد محمد الأخشيد ممن استجلب للمعتصم من المماليك الأتراك ، فجعله من بين قواده ، ولما مات جف اتصل ابنه طغج بالأمير أحمد بن طولون فكان من أكابر قواده ، وقد ولاه امرة الشام . فلما قتل خمارويه سار طغج الى الخليفة المكتفى ، فأكرمه فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث أن انقلب عليه فأودعه السجن هو وابنه محمد ، فلما مات طفج خرج محمد من السجن فاتصل عمله بتكين القائد التركى ووفد معه الى مصر وولى له بعض الأعمال ، وأبلى الى جواره بلاء حسنا فى مدافعة الفاطميين عن البلاد ، وظل يتدرج فى المناصب حتى أصبح أميرا على الشام ثم اضيفت له امرة مصر .

بناء جيش مصرى :

ولما كان الأخشيد قد اتخذ من ابن طولون الذى كان معجبا به نبراسا ، فانه احتذى خطاه فى تكوين جيش يكون ولاؤه له ، ويبالغ المؤرخون فيجعلون عدة هذا الجيش أربعمائة ألف مقاتل . وهو رقم يدل على أية حال على أن الأخشيد قد بنى لنفسه جيشا قويا كبير العدد والعدة .

ومضى الأخشيد بعد ذلك يحيط نفسه بمظاهر الملك فى مجلسه وملبسه ومركبه وموكبه .

وبنى لنفسه قصرا سرعان ما أصبح بلاطا كبلاط الخليفة يغص بالكبراء والشعراء والعلماء والأدباء والأطباء .

٩٣٩ م ــ ٣٢٨ هـ : اصطدام الأخشيد بابن رائق أمير الأمراء :

كان الخليفة الراضى قد رفع محمد بن رائق الى مرتبة أمير الأمراء ، فتطلع ابن رائق الى وضع يده على دمشق التى كانت فى سلطان الأخشيد ، فوقع الصدام بين الرجلين وجرت بينهما معارك لم تكن حاسمة . وقد قتل فى أحد هذه المعارك الحسين بن طفج أخ الأخشيد فانتهز ابن رائق هذه الفرصة لكى يحسن علاقاته مع الأخشيد فكفن الحسين بن طفج وجهزه أحسن جهاز وبعثه مع ابنه الى الأخشيد معبرا له عن عظيم أسفه لمصرع أخيه ، ويعرض عليه دم ابنه ليكون فداء للأمير المقتول ، فرد الأخشيد على هذه التحية بأحسن منها ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين . وانتهت بتقسيم الشام بين ابن رائق والأخشيد ، فيكون لابن رائق القسم الشمالى ويحتفظ الأخشيد بالجزء الجنوبى بما فى ذلك دمشق على أن يدفع الأخشيد مائة وأربعين ألف دينار سنويا لابن رائق . ولتوطيد دعائم هذا الصلح ارتبط الطرفان برباط المصاهرة فتزوج مزاحم بن محمد بن رائق من فاطمة بنت الأخشيد .

٩٤١ م ــ ٣٢٩ هـ : وفاة الخليفة الراضى :

فى الخامس عشر من ربيع الأول توفى الخليفة الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر حكم منها ست سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وكان أسمر رقيق السمرة أسود الشعر قصير القامة نحيف الجسم . وكان فصيحا بليغا جوادا ممدوحا . وقد اعتبر آخر الخلفاء الذين انفردوا بتدبير الجيوش والأموال . وآخر من خطب من الخلفاء على المنابر يوم الجمعة وآخر خليفة له شعر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء وكانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته ومخازنه ومطابخه وخدمه وأصحابه وأموره كلها تجرى على ترتيب المتقدمين من الخلفاء .

خلافة المتقى بالله :

لما أن مات الراضى جمع الأمير بجكم أمير الأمراء القضاة والأعيان فى داره وتشاوروا فيمن يولون عليهم ، فاتفق رأيهم على المتقى ، فأحضروه فى دار الخلافة وارادوا مبايعته فصلى ركعتين صلاة الاستخارة وهو على الأرض ثم صعد على الكرسى بعد الصلاة وبايعه النـاس يوم الأربعاء ٢٠ ربيع الأول وكان المتقى كلقبه كثير الصيام والتعبد . وقال بمجرد أن ولى الخلافة : « لا اريد جليسا ولا مسامرا حسبى المصحف نديما ، فانقطع عنه الجلساء والسمار والشعراء والوزراء والتفوا على الأمير بجكم .

٩٤٢ م — ٣٣٠ هـ : احتلال الأخشيد للشام :

انتهز الأخشيد قتل محمد بن رائق أمير الأمراء وتولى بجكم أميرا للأمراء ، لكى يسترد الشام فزحف عليه بجيوشه فلم يعترضه معترض وأسرع ولاة المدن باظهار الطاعة له وهو ما يدل على مدى ما كان الأخشيد قد وصل اليه من القوة .

٩٤٣ م — ٣٣١ هـ : مبايعة أبى القاسم أتوجور وليا على عهد مصر :

ومضى الأخشيد فى ممارسة مظاهر الاستقلال الفعلى وان ظل كابن طولون من قبله متمسكا بالرباط الرسمى مع الخلافة فى بغداد ، فدعا الى ولاية العهد لابنه أبو القاسم أتوجور من بعده على مصر والشام بدون أن يرجع فى ذلك الى الخليفة .

٩٤٤ م — ٣٣٢ هـ : الأخشيد والخليفة يلتقيان على نهر الفرات :

كان الخليفة المتقى قد عين توزون التركى أميرا للأمراء فى بغداد بعد بجكم الذى كان قد مات عام ٣٣٠ م ، فلم تلبث العلاقات ان ساءت بين المتقى وتوزون ، فبعث المتقى بالله يستنجد بالأخشيد ويعلمه انه سائر للالتقاء معه فى مدينة الرقة ، فخرج الاخشيد على رأس جيش لملاقاة الخليفة . وقد التقى الرجلان على نهر الفرات ، ولكن الأخشيد الحذر اوعز الى الخليفة ان يكون هو الذى يعبر النهر اليه . ولم يكد الخليفة يقدم على هذه الخطوة ، حتى حرص الأخشيد من ناحيته على اظهار منتهى الخضوع للخليفة ، فى الوقت الذى غمره فيه بالأموال والهدايا النفيسة من الجواهر والطيب والمنسوجات والدواب ، مما سر خاطر الخليفة ، وجعله يقرر استمرار ولاية

الاخشيد على مصر لمدة ثلاثين عاما . مع اعطائه الحق فى استخلاف ابنه أتوجور . ولم يكن ذلك فى الواقع الا اعترافا من الخليفة بالأمر الواقع .

ويذكرنا ذلك بالعهد الذى منح لخمارويه بمثل هذه المدة .

وطلب الأخشيد من المتقى ان يسير معه الى مصر ليحظى بالأمان والسلام والنفوذ ، ولكن المتقى بالله لأمر ما رفض هذا العرض ، مع انه كان هو الساعى اليه وفضل ان يعود الى بغداد ، ولعله قد تصور انه بهذا اللقاء الحافل مع الأخشيد قد عزز جانبه فى الصراع بينه وبين توزون .

المسعودى فى مصر :

وفى هذه السنة وصل الى مصر الشيخ الجغرافى والمؤرخ العلامة أبو الحسن المسعودى مؤلف كتاب مروج الذهب . وقد ظل مقيما فى مصر لعدة سنوات ، وعلى الرغم من انه شغف أثناء مقامه فى مصر بالأهرامات وآثارات مصر فلم يخل كتابه من لمحات تصور لنا حياة مصر فى هذه الفترة ومن ذلك وصفه احد احتفالات عيد الغطاس حيث يقول :

« ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة احدى عشرة تمضى من طوبة وستة من كانون الثانى . وقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والأخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها وقد امر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط الف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر بالنيل فى تلك الليلة مئات آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون ، ويحضرون كل ما يمكنهم احضاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والطرف والقصف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء من الداء .

٩٤٤ م ــ ٣٣٣ هـ : خلع الخليفة المتقى بالله :

عاد المتقى الى بغداد ، وكان قبل عودته اليها قد كتب الى توزون التركى مستأمنا منه فامنه وجدد له المواثيق والعهود بالطاعة والخضوع . يقول المسعودى : فلما وصل الخليفة المتقى الى مشارف بغداد استقبله توزون مترجلا وقبل الأرض بين يديه ، فأمره المتقى بالركوب فلم يفعل ومشى بين يديه الى المخيم الذى ضرب له . على أن الخليفة لم يكد يترجل عن فرسه حتى قبض عليه توزون (واكحله) أى سمل عينيه .

وادخل المتقى الى بغداد مخلوعا من الخلافة مسمول العينين . وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة اشهر وقيل بل عشرة اشهر .

وعندما سمع القاهر بالله المخلوع من قبل والذى كان أول من سملت عيناه وكان لا يزال عائشا بما جرى على المتقى قال : صرنا اثنين ونحتاج الى ثالث يعرض فى ذلك بالمستكفى الذى بويع الخلافة .

خلافة المستكفى بالله :

استدعى توزون التركى عبد الله بن الخليفة المستكفى بالله وبايعه بالخلافة واطلق عليه لقب المستكفى بالله وكان عمر المستكفى يوم بويع واحدا وأربعين سنة ، وقد جىء بالمتقى بين يديه فبايعه وسلمه البردة والقضيب . وكان من أول أعمال المستكفى اقرار الأخشيد على أمرة مصر تسليما بالأمر الواقع .

٩٤٥ م — ٣٣٤ هـ : الحرب بين الأخشيد وسيف الدولة :

كان بنو حمدان أمراء الموصل قد بدأوا يرنون بأبصارهم الى امتلاك الشام ، فأرسل ناصر الدولة الحمدانى اخاه سيف الدولة الحمدانى الى الشام لامتلاكه .

وقد استطاع سيف الدولة ان يستولى بالفعل على مدينة حلب وقنسرين وحمص وانطاكية وبقية الثغور الشامية وأقام الدعوة للمستكفى الخليفة وأخيه ناصر الدولة الحمدانى ثم لنفسه من بعدهما .

فكتب الأخشيد الى المستكفى شاكيا سيف الدولة ، ولكن الخليفة لم يفعل شيئا وقيل انه قال لهما ان الشام لمن يستطيع ان يأخذها منهما بحد سيفه ، وعلى هذا الأساس وقع الصدام بين الأخشيد وسيف الدولة ، فكان النصر فى المرحلة الأولى لسيف الدولة الذى استطاع ان يدخل دمشق فسار الأخشيد بنفسه على رأس جيشه ، فاستطاع أن يخرج سيف الدولة من دمشق ثم من حمص وقنسرين . وعند هذه المدينة الأخيرة نشبت بين الطرفين موقعة كبيرة ولكنها لم تكن حاسمة . وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين ، فأخذ الأخشيد كعادته جانب اللين والتسامح فتم الاتفاق على أن يكون لسيف الدولة حلب وانطاكية وحمص وما والاها ، وأن يكون باقى الشام بما فيها دمشق فى سلطان الأخشيد ، على أن يدفع مبلغا سنويا لسيف الدولة .

وتدعيما للصلح لجأ الأخشيد الى أسلوبه المفضل أسلوب المصاهرة فزوج فاطمة ابنة أخيه عبيد الله بن طغج لسيف الدولة .

وفى راى الدكتور حسن احمد محمود ان الاخشيد ، رضى بهذا الصلح ورحب به ليجعل من الحمدانيين قوة حاضرة بينه وبين البيزنطيين (١) .

القبض على الخليفة المستكفى بالله وخلعه وظهور دولة بنى بويه :

فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة خلع معز الدولة بن بويه الديلمى الذى كان الخليفة قد جعله أمير الأمراء ولقبه بمعز الدولة ولقب أخاه أبا الحسن بعماد الدولة وأخاه الثالث بركن الدولة ، وأمر بكتابة القابهم على الدراهم والدنانير . وكان ذلك هو مبدأ ظهور دولة بنى بويه الديلمية فى بغداد بعد ظهورها .

ورأى المعز ان يؤكد سلطانه الجديد بخلع المستكفى وتنصيب خليفة من صنعه.

خلافة المطيع لله :

أحضر معز الدولة بن بويه : أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذى كان مختفيا من وجه المستكفى فبايعه بالخلافة واطلق عليه لقب المطيع لله . وبايعه الأمراء والأعيان والعامة وكان أمر الخلافة قد وصل الى الحضيض فلم يعد للخليفة أمر أو نهى أو وزير . وأصبح أمر الدولة كلها يرجع الى معز الدولة . وسمح للخليفة بأن يكون له كاتب ينظر فى شئون اقطاعه الخاص .

وفاة الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله :

وفى هذه السنة توفى بالمهدية فى المغرب الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم بن محمد بن عبد الله المهدى وولى الخلافة بعده المنصور اسماعيل .

وفاة الأخشيد محمد بن طغج أمير مصر :

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة ، مات الأخشيد . فى مدينة دمشق بعد مرض ألم به ، وكانت سنه يوم مات ستا وستين سنة ومدة حكمه على مصر والشام احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومان ونقل من دمشق ودفن فى بيت المقدس .

شخصية الأخشيد واعماله :

وشخصية الاخشيد ككل الشخصيات القوية تجمع المتناقضات فبينما يصفه البعض بالشجاعة ، يصفه بعض آخر بالافراط فى الجبن . وحيث كان متصفا بالهدوء والاتزان ، فان الغضب كان يستبد به أحيانا فيثور ثورة لا حد لها .

ولكن الذى اتفق عليه هو وصفه بالبخل ولذلك لم يكن محبوبا من الرعية . وقد استن سنة جمع الأموال عن طريقة مصادرة اموال الأثرياء وكبار الموظفين ، وأن كان

---

(١) قارن ذلك بحرص أحمد بن طولون ومن بعده خمارويه على مجاهدة البيزنطيين بالفعل .

حريصا فى ذات الوقت على ان لا يعذب من يصادر امواله . وكثيرا ما كان يعطف عليهم بعد ذلك ويقربهم اليه .

وكان الأخشيد بصفة عامة ميكيافيليا لا يسمح لعقبة من أى نوع أن تقف فى سبيل وصوله الى أطماعه وكان يعرف باللين ويتراجع اذا لزم الأمر حتى لا ينكسر وتضيع مهابته وكان شديد الاعجاب بابن طولون ، حريصا على التشبه به فى بلاطه ومواكبه ، وقد قرب اليه الكثيرين من الطولونيين وجعل أكثر صلاته فى جامع بن طولون .

وكان قصره يغص بالجوارى والفتيات ، وكانت بعضهن تشترك فى الشئون العامة. أما بلاطه فكان مجمعا للعلماء والأدباء .

وكان تقيا يحب الصالحين ويركب اليهم ويتبرك بحديثهم وقد امر فى وقت من الأوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من كان بها .

وقد امتد سلطان الأخشيد الى الحجاز واليمن اذ خطب له هناك حسبما اشار الأخشيد الى ذلك فى خطابه الى امبراطور بيزنطة عام ٣٢٥ وان كان هذا السلطان اسميا على الأرجح .

النقود الأخشيدية :

وتشهد النقود المضروبة على عهد الأخشيد بتطور العلاقات بين مصر فى عهده وبين الخلافة . فالدنانير المضروبة باسم الراضى فى سنة ٣٢٣ — ٣٢٨ هـ وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقى (٣٢٩) تشهد بأن الأخشيد يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسى ، أو على الأقل يتظاهر بذلك فقد كان اسم الخليفة هو وحده الذى ينقش على السكة اما ابتداء من عام ٣٢٩ فان اسم الأخشيد كان ينقش على النقود مع اسم الخليفة . بل لقد وصل الينا دينار من سنة ٣٢٩ هـ وليس عليه الا اسم محمد بن طفج وحده (١) .

وقد تكون نفسه حدثته بقطع الصلة مع خلافة بغداد فى هذه السنة ثم عدل عن هذه الفكرة .

ولا جدال فى رأينا أن الذى جعل الاخشيد يتمسك بروابطه مع خلفاء بغداد . هو ظهور قوة الفاطميين فى الغرب وطمعهم فى امتلاك مصر . ولابد أن الاخشيد كان يؤثر أن تكون علاقته مع خليفة ضعيف مغلوب على أمره ، من أن تكون مع هذه الدولة الجديدة القوية الطموحة .

ويقول الدكتور حسن احمد محمود أن المراجع التاريخية لا تتحدث اطلاقا عن مقدار الخراج الذى كان يحمل من مصر الى بغداد (ص ١٥٨) ومع ذلك فان المقريزى قد ذكر فى خططه ان خراج مصر فى عهد الاخشيد كان مليونى دينار (ص ١٦٠ خطط جزء ١) .

---

(١) الطولونيون — ص ١٥٢ .

امارة ابو القاسم أنوجور :

فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة ولى أمرة مصر بعهد من ابيه ابو القاسم انوجور بن الاخشيد وأنوجور معناها باللغة العربية محمود . ولما كانت سن أنوجور عندما ولى الامارة خمسة عشر عاما فان عمه الحسن بن طغج طمع فى أن يكون هو الأمير لا ابن أخيه الصغير ، ولكن أبا بكر محمد بن على المازرانى صاحب النفوذ الكبير فى البلاط اخذ جانب الأمير الصغير ، فانتهى الأمر بانصياع الأمير الحسن بن طغج لرأى الجماعة فبايع لابن أخيه وسار فى ركابه عند ذهابه للصلاة أول مرة فى الجامع العتيق (عمرو بن العاص) .

وصاية كافور الاخشيدى على أنوجور :

وكان للأخشيد عبد خصى حبشى الأصل ، أنس اليه ورباه لما لاحظه عليه من فطنة واخلاص ، فجعل منه فى نهاية الأمر مربيا لولديه أنوجور وعلى ويبدو انه خاف من أخيه الحسن اذا جعله وصيا على ابنيه ، فجعل الوصاية لكافور .

ولكن كافور سرعان ما جمع خيوط السلطة كلها فى يده وكف عنها أنوجور مخصصا له أربعمائة الف دينار فى كل عام لينفق منها ويلهو ويمرح متصرفا هو بعد ذلك فى باقى مالية الدولة .

الخليفة المطيع يقر أنوجور على امرته :

وقد اقر الخليفة المطيع لله ، أنوجور فى ولايته على مصر والشام وكل ما كان لأبيه من اعمال بما فى ذلك امرة الحرمين .

٩٤٨ م — ٣٣٦ هـ : انوجور يحارب سيف الدولة :

انتهز سيف الدولة مغادرة كافور الاخشيدى الشام الى مصر ليتولى مهام الدولة لكى يستولى على دمشق ويبسط سلطانه عليها .

ولكن انوجور ، أو بالاحرى كافور سار على رأس الجيش الأخشيدى من مصر واشتبك مع جيش سيف الدولة فى مدينة الرملة ، فانتهز سيف الدولة وانسحب الى الشام فطاردته الجيوش المصرية ، فتركها الى حلب والجنود المصرية فى أثره فتركها الى مدينة الرقة فى الموصل ، حيث بدات مفاوضات الصلح بين الطرفين لعودة الحال الى ما كانت عليه أيام الاخشيد فيختص سيف الدولة بحلب وما والاها حتى مدينة حمص . على أن تكون دمشق وما بقى من الشام تحت امرة مصر ، على أن يبطل ما كانت مصر تدفعه كل عام من أموال لسيف الدولة .

وتظهر هذه المعاهدة ذكاء الدبلوماسية الكافورية الاخشيدية فعلى الرغم من أن جيوش مصر قد انتصرت انتصارا باهرا على سيف الدولة ، فقد رئى أن المصلحة تستوجب عودة سيف الدولة الى حلب لاقرار السلام بين مصر والحمدانيين من ناحية ، ولتظل دولة سيف الدولة حاجزا بين مصر وبين الروم . وقد ساد السلام بالفعل بين الحمدانيين والاخشيديين منذ هذا التاريخ ٣٣٦ هـ .

ثورة غلبون :

انتهز والى منطقة الأشمونين المعروف باسم غلبون فرصة وجود الجيوش الاخشيدية فى الشام لمحاربة الحمدانيين ، فأعلن التمرد واستولى على السلطة فى دائرة عمله وما يجاورها . وعندما بعثت اليه الحكومة بجيش لمحاربته استطاع أن يضلل الجيش فلا يقابله ، وسار من طريق آخر فوصل بقواته الى الفسطاط واستولى عليها وراح يدير أمور الدولة منها .

على أن انوجور لم يكد يعود من الشام حتى أخمدت هذه الحركة وقبض على غلبون واعدم .

٩٤٩ م ـ ٣٣٧ هـ : ولاية أبو المظفر الحسن بن طغج على دمشق :

فى هذه السنة عين انوجور عمه أبا المظفر الحسن بن طغج أميرا على الشام . ولابد أن كافور أشار على انوجور بهذه الخطوة ، استرضاء للحسن من ناحية وابعادا له عن مركز السلطة فى مصر من ناحية أخرى .

٩٥١ م ـ ٣٣٩ هـ : رد الحجر الأسود الى الكعبة :

فى هذه السنة رد الحجر الأسود الى مكانه من الكعبة بعد أن دفع فيه للقرامطة خمسين الف دينار ، وهكذا عاد الحجر الأسود بعد غربته اثنين وعشرين سنة ، وهو حادث فريد فى حياة الكعبة .

وفاة أبو نصر الفارابى :

وفى هذه السنة مات بدمشق كبير الفلاسفة من المسلمين أبو نصر الفارابى التركى الفيلسوف ، والذى قيل انه اذا كان أرسطو هو المعلم الأول فان الفارابى هو المعلم الثانى . وقد كانت كتبه هى التى تعلم منها ابن سينا . وقد كان من أعلم الناس بالموسيقى وألف فيها . وحكى عنه أنه كان اذا عزف ان شاء أبكى السامعين أو أضحكهم أو انامهم .

٩٥٢ م — ٣٤١ هـ : الدعوة لكافور على المنابر :

قوى شأن كافور الذى كان قد أصبح يطلق عليه اسم الأستاذ فأصدر أمره أن يدعى له يوم الجمعة على المنابر بعد الدعاء للخليفة وأنوجور باعتباره مدير الدولة .

٩٥٣ م — ٣٤١ هـ : وفاة الخليفة الفاطمى الثالث :

فى آخر شوال من هذه السنة توفى المنصور أبو طاهر اسماعيل ابن القائم بأمر الله — فخلفه ابنه وولى عهده أبو تميم سعد الملقب بالمعز لدين الله والذى سيكون على يديه دخول الفاطميين الى مصر .

٩٥٤ م — ٣٤٢ هـ : وفاة الأمير الحسن بن طفج :

مات فى هذه السنة الأمير حسن بن طفج الاخشيد أمير الشام ودفن بالقدس ، وقد كان أميرا شجاعا مقداما جليلا . وبوفاته صفى الجو نهائيا لكافور ليزداد استئثارا بالسلطة مما أدى الى قيام النزاع بينه وبين أنوجور .

٩٥٤ م — ٣٤٣ هـ : النزاع بين أنوجور وكافور :

بلغ أنوجور فى هذه السنة سن الرشد فطمح الى أن يستولى على السلطة الفعلية ، وراحت بطانته تحرضه على الخلاف مع كافور الذى استولى على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وكان أنوجور معه مقهورا مغلوبا على أمره . فدبر أنوجور أن يسير الى بلدة الرملة فى فلسطين ، ثم يعلن خلع كافور وراح يتظاهر بالتفرغ للهو والصيد لينفذ خطته . ولكن أم أنوجور التى كانت تعرف قدرة كافور وأن ابنها ليس ندا له ابلغت الأمر الى كافور ، وتدخلت للصلح بينهما وقد تم الصلح بينهما على أن تستمر الأحوال على ما هى عليه . ولكن هذا الخلاف قد ترك أثره فى صفوف الجند الذين انقسموا الى طائفتين الكافوريون ويناصرون كافور وأغلبهم من السودان والأخشيديون ويناصرون أنوجور .

٩٥٥ م — ٣٤٤ هـ : غارة ملك النوبة على أسوان :

أغار ملك النوبة فى شهر ذى الحجة من هذه السنة على مدينة أسوان وقتل جمعا

من سكانها فخرج اليــه الجيش وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن فاســتطاع أن يهزم النوبيين وأن يرسل أسراهم الى الفســطاط فضربت أعنــاقهم . ومضى الجيش بعد ذلك فى مطاردة النوبيين فافتتح مدينــة بريم وعاد الى مصر فى منتصف جمادى الأولى من السنة التالية ومعه كثير من الأسرى .

٩٥٦ م ـ ٣٤٥ هـ : وفاة أبو بكر محمد المازرانى :

توفى فى هذه السنة أبو بكر محمد المازرانى فى الثامنة والثمانين من عمره فانطوت بذلك صفحة المازرانيين الذين احتكروا ادارة شئون مصر المالية سبعين سنة وكانوا فى أكثر من مرة حكام مصر الفعليين وقد بلغ من شأن هذه الأسرة أن خصهم ابن زولاق المؤرخ العصرى بكتاب خاص .

وكانت لهم الضياع الواسعة ، ويتخذون الحجاب تشبهــا بالأمراء وكانوا يجرون الأرزاق على المحتاجين الذين قدر عددهم بستين ألفا .

وكثيرا ما صادر الأخشيد أموالهم ، وحرق العامة والجنــد دورهم ولكنهم كانوا ينهضون من جديد الى سابق مكانتهم وثروتهم .

وفــاة المســعودى :

وفى هذه السنة مات كذلك العلامة ابو الحسن المسعودى صاحب مروج الذهب ، وكتاب ذخائر العــلوم ، وكتــاب المقالات فى أصول الديانات . وهو أحد من يعتز بهم التاريخ الاســلامى .

٩٥٧ م ـ ٣٤٦ هـ : المتنبى فى مصر :

وليس هناك ما يكشف عما وصل اليه كافور الاخشيدى من قوة ونفوذ فى هــذه السنوات ، أكثر من التجاء المتنبى اليــه عندما خرج من حلب مغاضبا لسيف الدولة فكانت أولى قصائده لدى مقدمه الى مصر .

فواصد كافــــور توارك غــــيره	ومن ورد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنــــا انســــان عين زمانه	وخلت بياضــــا خلفها ومآقيـــــا

وقد أقام المتنبى مدة طويلة فى بلاط كافور وهو يغرقه بالهــدايا والاعطيات وقد أفرد له دارا كبيرة ليقيم فيها بالفسطاط ولكن المتنبى كان يريد ما هو أكثر من ذلك وهو ان يوليه كافور بعض الولايات كما يقطع بذلك البيت التالى :

اذا لم تنـط بى ضـيعة او ولاية فجودك يكسونى وشـغلك يسلب

فلما طال المدى بالمتنبى دون أن ينال مبتغاه اظهر نفـاد صبره فى قصيدته التى جـاء فيهـا :

وفى النفس حاجات وفيك فطـانة سـكوتى بيان عندها وخطـاب
وما أنا بالبـاغى على الحب رشـوة ضعيف هـوى يبغى عليـه ثواب
وما شـئت الا أن ادل عـواذلى على أن رأيى فى هـواك صـواب
واعـلم قومـا خالفونى فشرقـوا وغربت أنى قد ظفـرت وخـابوا

على أن الوقت الذى أخفق فيه المتنبى عن تحقيق امنيته لم يلبث أن جاء فغادر مصر خائب الأمل ، فقال قصيدته التى مطلعها :

عيـد بأية حـال عـدت يا عيـد بأمر مضى أم لأمر فيك تجـديد

وأسرع فى هجو كافور فأفحش وكان من قوله :

فـلا تـرج الخير عنـد امرىء مـرت يد النخـاس فى راسـه

٩٦٠ م – ٣٤٩ هـ : وفاة أبو القاسم انوجور :

فى يوم السبت سابع أو ثامن من ذى القعدة مات أبو القاسم انوجور بعد أن حكم اسميا اربع عشرة سنة وعشرة أيام . وكان عمره يوم وفاته خمسا وعشرين سنة على التقـريب .

والمؤرخون على اتفاق انه لا يمكن الحكم على ابى القاسم انوجور فى فترة حكمه ، فلم تكن لديه فرصة لاظهار شخصيته فقد كان الحل والعقد كله بيد كافور . على أن هذه الحقيقة كافية للحكم عليه بضعف الشخصية ، والا فقد كان باستطاعته وخاصـة بعد أن بلغ سن الرشد . أن يوقف كافور عند حده ، وقيل أن وفاته لم تكن طبيعية وان كافور دس له السم للتخلص منه .

وقد نقل جثمانه الى بيت المقدس ليدفن الى جوار ابيه .

٩٦٠ م – ٣٤٩ هـ : امارة على بن الأخشيد :

فى يوم السبت عشرين من ذى القعدة من هذه السنة اقام كافور الاخشيدى ابن سيده على بن الاخشيد على ملك مصر بالاتفـاق مع رجال الحاشية والجند . واقر الخليفـة المطيع ذلك . وكانت سنه يوم جلس على الامارة ثلاثا وأربعين سـنة اذ كان ميلاده كما يقول أبو المحاسن عام ٣٠٦ هـ فان سنه يكون يوم ولى ثلاثا وأربعين سنة ، ويتابعه على هذا القول أمين سامى .

وكيف يتفق هذا مع تولية انورجور قبله والذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة عشرة ، فلابد ان يكون فى تاريخ الميلاد خطأ من ناحيـة ما ، ويقـول لين بول ويتابعه الدكتور حسن أن سنه يوم ولى الحكم كانت ثلاثا وعشرين سنة . وهو غير مقبـول باعتباره أصغر من أخيه الذى مات وعنده خمس وعشرون سنة ولذلك قال لين بول ويتابعه الدكتور حسن . يقـولون أن سنه يوم ولى كانت ثلاثا وعشرين وهو القول الأصح ، ولابد أن يكون حكاية ولادته عام ٤٠٦ خطأ . وقد جمع له الخليفة كل ما كان لابيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين . على أن حظه من الامارة كان كأخيه من قبله لا يعدو مجرد التسمية . فقد كان كافور هو المتولى تدبير المملكة والمتصرف فيها ، وقد زادت قوته بعد موت أنوجور . على أنه قد ترك لعلى الاخشيد هذه الاربعمائة الف دينار التى كان يدفعها سنويا لأخيه من قبله .

وفاة صاحب الأندلس الناصر لدين الله ــ أمير المؤمنين :

وفى هذه السـنة مات أمير المؤمنين النـاصر لدين الله عبد الرحمن الأموى ، ملك الأندلس والذى وصلت الحضارة الاسلامية على يديه فى الأندلس ذروتهـا ، بحيث أصبحت قرطبة ومدينة الزهراء التى بنـاها أعظم مراكز الحضارة فى أوربا والتى لم تلبث أن تنساب منها أشعة لتضىء ظلمات عصور أوربا الوسطى .

وقد حكم خمسين سنة وستة اشهر وكان له من العمر يوم توفى ثلاث وسبعون سـنة .

وقد تلقب بأمـير المؤمنين بعد بدئه بثلاث وعشرين سنة بعد أن رأى الخليفـة الفاطمى ان يطلق على نفسه هذا اللقب . وهكذا أصبح فى العالم الاسلامى ثلاثة أمراء للمؤمنين الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى والخليفة الأندلسى .

اما قبل ذلك فقد كانت امارة المؤمنين لواحد فقط فى كل العالم الاسلامى .

٩٦١ م ــ ٣٥٠ هـ : وفاة الأمير فاتك الأخشيدى :

توفى الأمير فاتك الاخشيدى المجنون أبو شجاع الذى كان يمثل المنافس الوحيد لكافور وكان يعمل له الف حساب . وقد كان رفيقا لكافور ، فلما صار كافور مدير مملكة أولاد الاخشيد ، انف فاتك من المقـام بمصر كيلا يكون كافور أعلى منه مرتبة فانتقل الى اقطاعية بالفيوم واقام بها ، يمثل الاقطاع فى أعلى مظاهره وهو الأمير المتحكم على الأرض والنـاس فى اقطاعه . وكان كافور يداريه بحسن السياسة والكياسة ، ويجزل له العطاء ليأمن جانبه وعندما وفد المتنبى الى مصر ، وصله فاتك بالاعطيات ، فطلب المتنبى من كافور أن يأذن له بمدح فاتك فأذن له فمدحه بقصيدته التى استهلها بقوله :

لا خيل عندك تهديهـا ولا مال   فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وفاة الكندى (مؤلف الولاة والقضاة) :

ومات فى هذه السنة ابو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى يمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الاسلامى الأول . وقد ألف فى الخطط وقد اعتمد المقريزى عليه فى كتابه الشهير ، على أن معظم كتب الكندى قد فقدت ولكن من حسن الحظ أن وصل الينا أحسنها وأهمها على الاطلاق وهو كتاب « الولاة والقضاة » والذى يؤرخ فيه لولاة مصر وقضاتها من أيام عمرو بن العاص الى أنوجور بن الاخشيد .

سقوط جزيرة كريت فى أيدى الروم :

وفى هذه السنة نجح البيزنطيون نتيجة تفوقهم الساحق فى الأسطول أن يستولوا على جزيرة كريت ، وعلى معقلها الحصين فى مدينة كندية .

٩٦٢ م ــ ٣٥١ هـ : سوء العلاقة بين كافور والأخشيد :

فى هذه السنة حاول على الاخشيد فيما يبدو أن يقاوم سلطان كافور ، خاصة وقد بدأت أحوال مصر المعاشية تسوء وتضطرب لنقصان فيضان النيل مما سبب غلاء الأسعار وارتفاع شكوى الرعايا . ولكن ضعف شخصية على الاخشيد وقلة انصاره جعلت الغلبة لكافور ، بحيث اصدر أمره بمنع اجتماع الناس بعلى بن الاخشيد ولم يسمح له الا بأن ينكب على ملذاته وشهواته ، وان كان يعدل عنها من حين لآخر ليتفرغ للعبادة وتلاوة القرآن .

٩٦٢ م ــ ٣٥٢ هـ : غارات القرامطة على الشام والنوبيون على الصعيد :

وتحالف مع القحط والغلاء الذى بدأ يسود مصر هجوم القرامطة على بلاد الشام حتى لقد استولوا على قافلة الحجاج وكانت تتألف من عشرين الف جمل .

كما أغار ملك النوبة على الصعيد حتى وصل الى مدينة اخميم ونهب وسلب واحرق .

وتوج هذه الأحداث زلزال عرم خرب ١٧٠٠ بيت فى مدينة الفسطاط وحدها .

كما واصل البيزانطيون هجومهم البحرى فاستولوا على جزيرة قبرص بعد أن قضوا على آخر ظل للأسطول المصرى (١) .

---

(١)القوى البحرية والتجارية ص ٢٩٦ .

فلا عجب اذا صرخ الناس بالشكوى ، ويبدو ان ذلك هو الذى جعل صوت على الاخشيد يرتفع كما أشرنا ولكن كافور كان مسيطرا على البلاد سيطرة كاملة ، فلا نسمع عن قيام فتنة أو اضطراب فى أى جزء من أجزاء البلاد وهو ما يثير دهشة لين بول .

٩٦٥ م ـ ٣٥٤ هـ : وفاة المتنبى :

وفى هذه السنة قتل المتنبى نجم الشعر العربى الاسلامى ممثلا فى شخص المتنبى وهو أشهر من أن يعرف فمئات الكتب قد ألفت عليه (١) ، ويقول عنه أبو المحاسن أنه ولد سنة ثلاث وثلثمائة وأكثر المقام بالبادية لاقتباس اللفظ ونظر فى فنون الأدب وتعاطى قول الشعر فى صغره حتى بلغ الغاية ، وفاق أهل زمانه ، وسار شعره فى الدنيا ومدح سيف الدولة بن حمدان وكافور الاخشيد . وأشعاره تسرى مسرى الحكم والأمثال منذ شدا بها كقوله :

أنا الغريق فما خوفى من البلل ـ وقوله : وربما صحت الأجسام بالعلل

ومن أشعاره :

واذا كانت النفوس كبارا	تعبت فى مرادها الأجسام
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدوا له ما من صداقته بد
واذا غامرت فى شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير	كطعم الموت فى أمر عظيم

وله فى الوصف والتشبيب :

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها	فى ليلة فارت ليالى أربعا
واستقبلت قمر الزمان بوجهها	فأرتنى القمرين فى وقت معا

ويقول يفتخر بنفسه وشعره :

ما نال أهل الجاهلية كلهم	شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
واذا أتتك مذمتى من ناقص	فهى الشهادة لى بأنى كامل

٩٦٦ م ـ ٣٥٥ هـ : وفاة على الاخشيد :

فى الحادى عشر من شهر المحرم مات على الاخشيد وقيل أن كافور دس له السم كما فعل بأخيه من قبل . ومما لاشك فيه أن المؤرخ حتى بعد هذا الزمن الطويل من وفاة ولدى الاخشيد لا يسعه الا ان يقف طويلا متشككا أمام هذه الظاهرة التى جعلت ولدى الاخشيد كلاهما يموتان فى شرخ الشباب .

وقد حمل جثمانه من مصر الى بيت المقدس حيث دفن الى جوار أبيه وأخيه .

(١) اقرأ مع المتنبى لطه حسين .

امارة كافور الاخشيد على مصر :

وفى السادس والعشرين من شهر المحرم أى بعد خمسة عشر يوما فقط (١) ورد الى مصر كتاب الخليفة المطيع بتولية كافور الأخشيد امرة مصر والشام والحرمين على الصلاة والخراج والحرب وكل ما كان للاخشيد من قبل . وهكذا تحقق لكافور العبد الخصى الحبشى ما ظل طول حياته يعمل لتحقيقه ، مما يقطع بقوة الارادة الانسانيه التى تستطيع دائما أن تحقق له ما يبدو من المستحيلات .

فقد تجمعت من الأسباب الطبيعية والخلقية والاجتماعية ما يجعل تسنم كافور أى منصب من المناصب مهما كان صغيرا وتافهـا من الأمور المستعصية ، فكيف به يصبح ملكا على مصر فالمؤرخون يقولون عنه :

كان كافور عبدا اسود خصيا قبيح الشكل بطيئا ، معتل البدن ، قبيح القدمين ، مثقوب الشفة السفلى . جلب الى مصر من الحبشة وسط صفقة من العبيد وبيع لتاجر من تجار الزيت واشتراه سيده أبو بكر محمد الاخشيد بثمانية عشر دينارا .

من هذه البداية المتواضعة المسرفة فى التواضع بالنسبة لأى انسان بدأ كافور ارتقاء السلم ، ولابد أنه قد أظهر من الخضوع والاخلاص والذكاء لسيده ما لفت اليه نظره ، حتى انه بدأ يعلمه ويربيه . ولابد أن ملكة الحفظ والفهم كانت قوية عنده الى درجة جعلته يتفوق فيما يلقن من علوم ، حتى ليصبح بعد حين مربيا لاولاد الأخشيد ومعلما . حتى ليطلق عليه اسم الأستاذ بينما كانت مواهبه العسكرية فيما يبدو لا تقل عن مواهبه العقلية اذ تراه بعد قليل فى مقدمة قواد الجيش .

وتصل ثقة سيده به الى الحد الذى يجعله وصيا على أولاده بعد موته .

وليس هناك ما يكشف عن مواهب كافور الأخشيد من استطاعته وقد وصل الى مركز السلطة أن يستديم ذلك بضعا وعشرين سنة ، وسط مجتمع عسكرى تركى وشعب عربى وخلافة عباسية فى الشرق وفاطمية فى الغرب .

ويكشف لنا المتنبى عن قدرة كافور السياسية عندما يقول لنا ان بحسب الانسان أن يتأمل كافور فى بعض جلساته ليكون استاذا فى السياسة والكياسة .

اذا منعت عنك السياسة نفسها فقف وقفة امامه تتعلم

وحيث اشتهر سيده الأخشيد بالبخل فقد اشتهر كافور بالكرم والجود وحسن معاملة الناس مما تحفل به كتب التاريخ .

---

(١) يدل ذلك الوقت القصير فى وصول خبر موت الاخشيد الى بغداد وورود كتاب الخليفة الى الفسطاط بتأمير كافور ، على سرعة المواصلات بين الفسطاط وبغداد وانتظام عملية البريد بحيث لا يحتاج الامر لغير أقل من أسبوع .

٩٦٧ م ـ ٣٥٦ هـ : وفاة أبو الفرج الاصبهانى صاحب الأغانى :

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى الحجة من هذه السنة مات العلامة ابو الفرج الاصبهانى مؤلف كتاب الأغانى الذى يعتبر أول موسوعة للأدب والشعر والأغانى والأساطير والقصص والخرافات العربية ، ولا يزال حتى اليوم هو المرجع المحيط لكل ما يتصل بحياة المسلمين وخاصة أمراؤهم وشعراؤهم وأدباؤهم وجواريهم الخاصة . ولا جدال انه يحوى الكثير من الدش والخلط ولكنه يبقى احدى وثائق تاريخ المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وما سبقه .

وفاة سيف الدولة الحمدانى :

كما مات فى هذه السنة فى حلب سيف الدولة الحمدانى . وامراء بنو حمدان يمثلون صفحة زاهية من صفحات التاريخ العربى الاسلامى ، فى فترة بدأ التصدع السياسى يصيب الخلافة الاسلامية . وكان بلاطه يضم الشعراء والنحاة والفلاسفة والأطباء . وحسبه ان لمعت فيه أسماء المتنبى وأبو فراس والفارابى فيلسوف المسلمين الأول وصاحب الموسيقى .

٩٦٨ م ـ ٣٥٧ هـ : وفاة كافور الأخشيد :

فى يوم الثلاثاء عشرين من جمادى الأولى مات أبو المسك كافور الأخشيد وكان عمره يوم مات بضعا وستين سنة كان حاكم مصر والشام الفعلى منها اثنتين وعشرين سنة ، ومنها سنتان وأربعة أشهر كان فيها الحاكم الفعلى والرسمى معا . وقد خطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثغور مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما وحمل تابوته الى القدس ليدفن الى جوار سيده وأبناء سيده . أما ابن أياس فيقول انه دفن بالقرافة الصغرى بمصر .

بلاط كافور وحبه للعلم والأدب :

يقول الذهبى : وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم . وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية وكان له نظر فى العربية والأدب والعلم . وكان قويا شديد الساعد لا يكاد أحد يمد قوسه له شهرة فى القتال أشار اليها الشعراء فى مدائحهم حتى لقد فخر الفاطميون فيما بعد باحتفاظهم بسيفه فى خزائنهم .

وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ويتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول اللهم لا تسلط على مخلوقا . وكان عظيم الحرمة وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف بحيث زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد . وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد الفعل داهيته .

وكان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه . وفى نفس الوقت يدين بالطاعة لبنى العباس ، ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وبقى لاكمال صورة الحياة فى عهد كافور أن نضيف ما قاله شمس الدين الذهبى من أن راتب مطبخه كان على الوجه التالى :

ألفا رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل من لحم الضأن ومائة طير أوز وخمسمائة طير دجاج وألف طائر حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار وخمسون خروفا رميسا ومائة جدى سمين .

أما الحلوى فقد كان له خمسمائة صحن فى كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبق فاكهة وألف كور تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة أنواع من القيولات وعشرة أفراد من النقل وكان يحضر على سماطه الخاص والعام .

وكان يوجد فى بلاطه ألف وسبعون من الغلمان الترك والفان من الغلمان الروم ، وغلمان آخرون من السود .

وخلف فى خزائنه بعد وفاته ما قيمته مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة . وكان يرسل كل عام المال والطعام والثياب الى الحجاز لتوزع على الاشراف من سلالة رسول الله فى موسم الحج .

تولى احمد بن على الاخشيد على مصر :

اجمع قواد الجند ورجال البلاط على تولية احمد بن الاخشيد اميرا على مصر قبل أن يدفن كافور . واتفق على أن يكون الحسن بن عبيد الله بن طغج ابن عم أبيه والذى كان أميرا على الرملة ، ولى العهد من بعده ، وأن يكون أبو الفضل جعفر بن الفرات وزيرا له وان يشترك معهما فى تدبر أمور الدولة شمول الاخشيدى مدير العسكر .

٩٦٩ م ـ ٣٥٨ هـ : دخول الفاطميين الى مصر :

لم تدم هذه الترتيبات من تولية أحمد بن الاخشيد الا بضعة أسابيع ريثما يصل خبر موت كافور الى الخليفة الفاطمى ، وبعد الجنود لدخول مصر ، فقد رأينا كيف أن استيلاء الفاطميين على مصر كان أحد أهدافهم الثانية ــ بعد أن أسسوا ملكهم فى شمال افريقيا ، وانهم فشلوا فى تحقيق ذلك أكثر من مرة . . . فلم يكد كافور يموت ، حتى كان كل شيء مهيأ لتحقيق حلمهم ، وقيل ان يعقوب بن كلس الوزير اليهودى المصرى الذى أسلم هرب من مصر بعد أن أساء اليه الفضل جعفر بن الفرات والتجأ الى بلاط المعز لدين الله الفاطمى وحسن له احتلال مصر .

ويقول ابن اياس : لما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وطمع أهل القرى فى الجند ، وامتنعوا عن دفع الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى ــ وكان ببلاد المغرب ــ بأن يحضر الى الديار المصرية

ويتسلم المدينة ويتولى عليها . وفى شهر شعبان من هذه السنة على اختلاف طفيف فى اليوم وصـــل جوهـــر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية واستولى على مصر فانتهت بذلك الدولة الاخشيدية وكانت مدة حكمها أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

وبانتهـــاء الدولة الاخشـــيدية وابتـــداء الـــدولة الفاطميـــة فان تبعيـــة مصر للدولة العباســـية التى استمرت خمســـا وعشرين ومائتى ســـنة والتبعيـــة للدولة الاسلامية بعامة حيث تنقل مركز الحكم فيها بين ثلاث عواصم المدينة فدمشق فبغداد والتى استمرت تسعا وثلاثين وثلثمائة ســـنة . تكون قد انتهت . لتبدأ مصر صفحة جديدة فى ظل الحكم الفـــاطمى تتحـــول فيه مصر الى مركز الدائرة ومحور الحيـــاة الاسلامية النشيطة .

الفصل الثاني عشر

الدولة الفاطمية

٩٦٩ م ـ ٣٥٨ هـ : امارة جوهر القائد الرومى (الصقلى) المعزى على مصر :

٣٥٨ هـ فى يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، بدأ سير حملة جوهر الصقلى من المهدية عاصمة الدولة الفاطمية للاستيلاء على مصر ، وكان سيده المعز لدين الله الفاطمى قد أعد الأهبة لهذه الحملة منذ سنوات طويلة ، فعبد الطرق التى ستجتازها فى شمال افريقيا ، وحفر الآبار ليتمكن الجيش الزاحف من الحصول على الماء اللازم له ، وكانت عدة الجيش الذى سار مع جوهر يبلغ المائة ألف ، أغلبهم من قبيلة كتامة البربرية وقد وصل جوهر بالجيش الى الاسكندرية دون أن يعترضه معترض ، بل ودخل المدينة نفسها فى سلام ، وقد نجح جوهر فى ان يعصم جنوده من الاعتداء على أحد من السكان أو نهب شىء من متاعه ، باعتباره قد جاء صديقا ومخلصا ، لا فاتحا أو غازيا ، ثم نزل بجيوشه فى طريقه الى القاهرة عند قرية تروجه وأرسل الى أهل مصر يعلمهم بقدومه ، وانه ما جاء الى مصر الا للاصلاح وعمل ما فيه خير المسلمين . فجرت مفاوضات بينه وبين المصريين انتهت الى وثيقة فذة لم يسبق مثلها فى التاريخ يجب اعتبارها أول دستور مفصل للحكم وعقد بين الحاكم والمحكومين على التزام وجوه الاصلاح واجراء العدل ، واليك فقرة مما جاء فى هذا العهد التاريخى :

« ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام ، وكر الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهاليكم ونعمكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى انكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم ، فضلا عن ضعيفكم وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل اليكم خيره .

ولكم اسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى صلوات الله عليها باثباتها ، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وان أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد . وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ـ ولا أوقعها الا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم » .

عدم التعرض لمذهب المصريين :

« وبالنسبة لأمور التمستم ذكرها فى كتاب امانكم ، فاذكرها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعـــة وهى اقامتكم على مذاهبكم ، وان تتركوا على ما كنتم فيه من اداء الفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وقيامكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحـــابة رضى الله عنهم والتابعون بعدهم . وفقهـــاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم فى سنته » (نظم الحكم ص ٣٩٦) .

رفض الاخشيديين للعهد :

واذا كان الشعب المصرى ، قد وجد فى هذه الوثيقة ما يرضيه فى الحكم الجديد ، فان رجال الأسرة الاخشيدية ، اختلفوا فى قبوله ، ولم تلبث أن اجتمعت كلمتهم على وجوب قتال جوهر .

وجرى القتال بين الاخشيديين والفاطميين فى الجيزة فى الحادى عشر من شعبان من هذه الســـنة ، ولكن الدائرة دارت على الاخشـــيديين فأرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فلم يتردد جوهر فى تأمينهم وحضر رسوله ومعه رايات الأمان فطاف فى مدينة الفسطاط ومنع النهب فسكن الناس وفتحت الأسواق ، ودخل جوهر من الغد الى الفسطاط فى طبوله وبنوده ، ونزل بالمناخ (١) وهو موضع القاهرة اليوم وكان مكان القـــاهرة قبل تأسيسها صحراء مغطـــاة بالرمل يمر بها الناس أثنـــاء مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، ولم يكن بها عند نزول جوهر ســـوى بستان الاخشـــيد المعروف بالبستان الكافورى ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام ، وبناء يعرف بقصر الشوك ، وبات المصريون فى أمان ، فلمـــا أصبحوا وحضروا لتهنئة جوهـــر اذا بهم يفاجأون بأنه حفر أساس القصر الكبير الذى سينزل فيه الأئمة الفاطميون بالليل .

انشاء مدينة القاهرة :

ولم يكن أساس القصر الذى بدأ جوهر بوضعه عشية وصوله الا الخطوة الأولى نحو تأسيس مدينـــة القاهرة التى أريد بها أن تكون بمثابة حصن للجيش الجـــديد الوافد ، وبناء مقر جديد لسكنى الخليفة الفاطمى . ولذلك فبعد ان خطط أساس القصر الشرقى الكبير لنزول المعز لدين الله حتى شرع فى تخطيط الأحياء لنزول فرق الجيش المختلفة التى كانت معه ، وأحاط القصر والأحياء الجديدة بسور كبير للدفاع عنها . وقد أطلق على هذه المدينة فى بادىء الأمر اسم المدينة المنصورية ، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى جاء المعز لدين الله فسماها القاهرة . وهناك قصة طريفة تدور حول السبب فى تسمية المدينة بالقاهرة ، والدكتور جمال الدين الشيال لا يرضى عن هذه

(١) كانت كلمة المناخ لا تزال اسما على الشارع المتفرع من ميدان الاوبرا والمسمى اليوم بشارع ثروت .

القصة ويعتبرها أسطورة ، وعندنا أن التاريخ لا يعد تاريخا اذا خلا من الأساطير ، فهى جزء لا يتجزأ منه لأنها تمثل اعتقادات الناس فى أمر من الأمور ، وليس فى القصة التى تروى عن سبب تسمية القاهرة بهذا الاسم شيء يخرج عن المألوف أو ينكره العقل . وفحوى هذه القصة أن جوهر لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ووصلوا بينها بحبال علقت فيها الأجراس ، ليرمى البناءون ما فى أيديهم من اللبن والحجارة ساعة أن تدق الأجراس فحدث أن غرابا وقف على خشبة من هذه الخشبات فتحركت الأجراس فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس فصاح المنجمون .. لا .. لا .. القاهر فى الطالع (والقاهر هو المريخ) ولم يتفاءلوا بهذا الطالع ، ولكن المعز عندما سمع هذه القصة عند حضوره الى مصر فهم منها ما لم يفهموه ، واطلق على المدينة الجديدة اسم القاهرة .

وكانت القاهرة وقت انشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر . ومن الجنوب بموقع باب زويلة ، ومن الشرق بما يعرف فى أيامنا بالدراسة ومن الغرب بباب سعادة وما يليه حتى النيل .

وكان لها عند انشائها اربعة أبواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح ، وبابان فى الناحية القبلية هما بابا زويلة . ويقدر على مبارك فى كتابه الخطط ان كل جانب من جوانب القاهرة عند أول تأسيسها لم يكن يزيد على ألف ومائتى متر وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فدانا يشغل منها القصر خمس هذه المساحة اى سبعين فدانا وبستان كافور يشغل عشر المساحة ٣٤ فدانا والميدان المعد لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا اما الباقى وقدره قرابة مائتى فدان فقد خصص لنزول فرق الجيش المختلفة .

وقد تضمن كتاب الخطط للمقريزى تفصيل أسماء الحارات والدروب التى كانت تتكون منها القاهرة يوم تأسيسها .

اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية :

استطاع جوهر أن يكسب قلوب سواد الشعب المصرى ليس فقط بأسلوب اللين الذى اتبعه فى تصرفاته ، بل باسعاف الناس من ضيق المجاعة التى أضرت بهم فى أخريات عهد الحكم الاخشيدى ، وذلك عن طريق السفن التى جاء بها من المغرب محملة بالقمح والتى أغرق بها السوق بمجرد وصوله ، فلما لم تفلح هذه الحركة فى تخفيض الأسعار ، كلف جوهر المحتسبين أن يضربوا بشدة على أيدى التجار ، فظهرت الأقوات المخبأة ، وبدأت الأحوال العامة فى التحسن .

ولم يضع جوهر وقتا فى اصلاح شئون ما اضطرب من أحوال البلاد وخاصة فى الناحية العمرانية ، فأصلح ما فسد من جسور النيل وطهر قنواته واعاد بناء قناطره ، واعاد فى الدرجة الأولى تطهير ترعة أمير المؤمنين التى تربط النيل بالبحر الأحمر ، لاعادة سير التجارة بها .

وعمد الى اصلاح العملة بسك نفود جديدة باسم الخليفة المعز لدين الله .

ثم منع لبس السواد باعتباره شعار العباسيين وأحل محله لبس البياض شعار الفاطميين واصبح نص الدعاء الذى يتلى على المنابر : اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمـة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وصلى الله على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله . وهكذا مهد الطريق لتحقيق حلم خلفاء الفاطميين وهو تحويل مركز الخلافة الى مصر باعتبارها قلب العـالم الاسلامى الخفـاق لموقعها من ناحية ، ولثروتها من ناحية أخرى .

الدعاء للمعز فى مكة والمدينة :

ولما كان المعز لدين الله قد اتبع قبل وصول جيشه الى مصر سياسة ناجحة مع ولاة الحرمين ، حيث كان يغدق عليهم الأموال ويواليهم بالهدايا ، فلم تكد جيوشه تصل الى مصر ويستقر جوهر بها حتى بادر حسن بن جعفر الحسنى شريف الحرمين بالدعاء للمعز فى مكة والمدينة .

الدعاء للمعز فى حلب :

كما سارع الأمير الحمدانى فى حلب بالاعتراف بسلطان المعز عليه ، فدعا له فى المساجد بدلا من الخليفة العباسى .

٩٧٠ م ــ ٣٥٩ هـ : فتح دمشق :

على انه اذا كانت امارة حلب تحقيقـا لمصالحها قـد رات ان تعترف بالخـلافة الفاطمية ، فان فلسطين وسوريا الجنوبية بما فيها دمشق ، ظلت ترفض الاعتراف بالحكم الفاطمى فى مصر ، ذلك أن الأمير عليها كان هو الحسن بن عبيد الله الاخشيدى والذى اتخذ من مدينة الرملة معقلا يقاوم فيه زحف الفاطميين على الشام .

ولكن جوهر الصقلى ، ارسل احد كبار معاونيه وقادة الجيش وهو الأمير جعفر ابن الفلاح على رأس قوة لفتح الشام . وقد استطاع جعفر بن الفلاح بالفعل أن يهزم الحسن الاخشيد وأن يقبض عليه هو ومن بقى على قيد الحياة من أسرته ، وبعث بهم الى جوهر القائد الذى أرسلهم بدوره الى المعز لدين الله ، حيث ساد الغموض الطريقة التى انتهت بها حياتهم .

٩٧١ م ــ ٣٦٠ هـ : استيلاء القرامطة على دمشق :

كان القرامطة قد فرضوا على الاخشيديين دفع ثلثمائة الف دينار سنويا مقابل بقائهم فى دمشق ، فلما أن استولى جعفر بن الفلاح على دمشق ، منع عنهم ارسال

ما اعتادوا أن يأخذوه ، فأغضبهم ذلك ، ولم يحل اتفــاق القرامطة مع الفاطميين فى المذهب كما كانوا يدعون ، أن يشنوا الحرب على جعفر بن الفلاح وجيشه ، فسقط جعفر قتيلا وانهزم الجيش ، واستولى القرامطة على دمشق ، ووضعوا على رأسها أحــد رجالهم . ولكن القرمطى لم يكد يرجع الى هجــر حتى ثاروا عليــه وطردوه من دمشق شر طردة .

القرامطة يدخلون الى مصر :

عاد القرامطة بقــوة أكبر فأعادوا احتلال دمشق ، ثم قرروا أن يهاجموا مصر نفســها ، فوصلوا الى عين شمس فى أكتوبر من هذه السنة الميــلادية ٩٧١ وضربوا الحصــار على القاهرة ، حيث كان جوهر يتربص بهم داخلهــا ، وواصــل القرامطة الحصار على القاهرة شهرين ، وفى النهاية استطاعوا أن يقتحموا خندقها وسورها ، فاذا بجوهر المتربص بهم والذى كان قد أعد الشعب للقتال ، يهزمهم شر هزيمة ، ففر القرامطة مذعورين ، ولم ينجهم من خطر الابادة الا حلول الليل ، وهكذا تحولت المغامرة القرمطية التى كادت تنهى الحكم الفاطمى فى مصر ، الى نصر كبير ثبت أركانه نهائيا ، اذ استقرت بهذا النصر أحوال البلاد الداخلية نهائيا ، وقطع دابر الفتنة .

٩٧٢ م ــ ٣٦١ هـ : بناء الجامع الأزهر :

فى رمضان من هذه السنة أكمل جوهر بناء الجامع الأزهر ليكون مقرا للشعائر على المذهب الشيعى الفاطمى ، حتى لا يتعرض للمصريين فى المساجد القائمة بتغيير فى الشعائر .

وقد أقيمت فى السابع عشر من رمضان أول صلاة ، وكان يطلق على الجامع فى بادىء الأمر اسم جامع القاهرة ثم أصبح يطلق عليه اسم الأزهر لازدهار العلوم به كما يرى البعض ، أو نسبة الى فاطمة الزهراء فى قول آخر وهو ما نرجحه ، ثم غلب اسم الجامع الأزهر فى خاتمة المطــاف . وكان الجامع الأزهــر عند انشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة .

٩٧٣ م ــ ٣٦٢ هـ : وصول المعز لدين الله الفاطمى الى مصر :

فى شعبان من هذه السنة (مايو) وصــل المعــز لدين الله الفــاطمى الى مدينة الاسكندرية ، منتقلا الى مصر نهائيا ومتخذا منها عاصمة لملكه ولذلك فلم تأت جيوشه وكل أقاربه الأحياء فحسب ، بل لقد جاء برفات آبائه وأجداده الموتى .

كما حمل معــه كل ما كان يملك من أموال وذخائر وتحف وكنوز مما أوفى على ما يقولون خمسمائة بعير . وما اعتبر النواة لكنوز الفاطميين الشهيرة التى استرعت

الانتباه وشغلت أذهان من عاصروا الدولة الفاطمية ، وستظل تشغل المفكرين والكتاب والمؤرخين ما بقى فكر وكتابة وتاريخ . وقد استقبل جمهور الناس من الأعيان والعامة المعز لدين الله فى الاسكندرية أحسن استقبال ، ولم يضع المعز وقتا للحصول على محبة الشعب الذى وفد عليه ، فقد قام فى الناس خطيبا عند منارة الاسكندرية الشهيرة ، وألقى خطابا يقول عنه المؤرخون انه أبكى السامعين ، وقد أكد من جديد ما جاء فى وثيقة جوهر من قبل من أنه لم يدخل الى مصر طمعا فى مال أو جريا وراء زيادة فى الملك ، وانما كل الذى يهدف اليه هو اقامة الحق والعدل والجهاد فى سبيل الله وان يختم حياته بالأعمال الصالحة ، طبقا لما أمر به الله وحب رسول الله ... ومضى يعظ السامعين . ولم يفته بعد ذلك أن خلع على الكثيرين ، وأحسن الى الأكثر عددا ثم سار المعز بجيوشه وكنوزه قاصدا القاهرة ، فوصل فى ٥ رمضان (١٣ يونيو) الى الجيزة ، وعندما حل المعز بالقصر الكبير الذى بناه له جوهر ، خر ساجدا لله ، ثم نهض وصلى ركعتين ، فاقتدى به كل من حضر .

نسب المعز :

ولقد اشرنا من قبل الى ما اثير من جدل حول نسب الفاطميين وكيف لم يجد العباسيون ما يحاربون به الفاطميين الا أن يطعنوا فى نسبهم ، ويعتبرونهم مدعين . ولقد ظلت مسألة النسب هذه تثور فى وجه الفاطميين مذ اسسوا ملكهم فى شمال افريقيا ، وازدادت القضية الحاحا بعد أن استقروا فى مصر . فيحدثنا ابن خلكان ، ان المعز لما قرب من البلد وخرج الناس للقائه ، اجتمع به بعض الاشراف فسأله واحد منهم ، الى من ينتسب مولانا ، فقال له المعز سنعقد لكم مجلسا ونسرد عليكم نسبنا ، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم ثم قال : هل بقى من رؤسائكم احد ، فقالوا لم يبق معتبر لم يحضر ، فسل المعز عندئذ سيفه وقال هذا نسبى ، ثم نثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : وهذا حسبى ، فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا (١) .

ويعلق أبو المحاسن على هذه القصة فيقول : وفى نسب المعز أقوال كثيرة أضربت عن ذكرها خوف الاطالة ، والظاهر انه ليس بشريف وانه مدع والله أعلم ونحن نشك فى هذه القصة والتى نعتبرها من تقولات العباسيين وأهل السنة على المعز ، ولو انهم قالوا أن المعز ذكر نسبه المدعى ثم عزز ذلك بالوعد والوعيد لاستقامت القصة بعض الشيء ، اما أن يبدأ المعز حياته فى مصر بانكار أن يكون له نسب أو حسب الا السيف والمال ، فهذا ما لا يقبله المنطق بسهولة .

ورحم الله المقريزى الذى تصدى لمناقشة قضية نسب الفاطميين فى تمحيص علمى وخلص من بحثه الى النتيجة التالية :

وهذه الاقوال ، ان انصفت تبين لك انها موضوعة ، فان بنى على بن أبى طالب

---

(١) انبنى على هذه القصة الحكمة الشائعة : سيف المعز وذهبه .

رضى الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفرة العدد وجلالة القدر عند الشيعة ، فما الذى يحمل الشيعة على أن يعرضوا عنهم ويدعوا لابن مجوسى أو ابن يهودى ، فهذا مما لا يفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف ، وانما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباس عند ما عجزوا عن مقاومتهم ، فلاذوا بتنفير الكافة عنهم باشـاعة الطعن فى نسبهم ، حتى اشتهر ذلك فى بغـداد ، وشـهد الشاهدون على السماع ، فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ورددوه حسب ما تلقوه من غير تدبر الحق من وراء ذلك .

مواكب الفاطميين فى مصر :

وبدخول المعـز لدين الله القاهرة واقامته بها ، بدأت دنيـا المواكب والاحتفالات الدينية التى تميز بها العصر الفاطمى ، حيث كان الخليفة يشق مدينة القـاهرة فى ذهابه الى الجامع الأزهر ، أو الى أبعـد من ذلك فى مسجد عمرو بن العاص ، وهو مسبوق ومحاط بفرق جيشه ، وأمراء دولته وكبار الموظفين ، على تفصيل وترتيب سجلته كتب التاريخ بكل دقة (١) .

وفاة ابن هانى الشاعر الأندلسى :

وفى هذه السنة مات الشاعر الأندلسى محمد بن هانى الذى استصحبه المعز من بلاد القيروان الى مصر ، وكان يمثل على ما يقول أبو المحاسن فى بلاد المغرب ما مثله المتنبى فى المشرق .

وقد خلف لنا عديدا من القصائد التى تصف حملة جوهر على مصر ودخول المعز ، وقد ألف عديدا من القصائد فى مدح المعز لدين الله وبلغ فى مدائحه له الى الحد الذى وصمه عند الكثيرين بالكفر والالحاد وخاصة فى بيته المشهور :

ما شئت لا ما شاءت الأقـدار فاحكم فأنت الواحـد القهـار

٩٧٤ م — ٣٦٣ هـ : تجدد الخطر القرمطى على مصر :

كان أول ما واجهه المعز بمجرد وصوله الى مصر هو تجدد خطر القرامطة الذين لم يكتفوا هذه المرة بسيطرتهم على الشام ، بل قرروا أن يجددوا غزو مصر نفسها ، وأن يصفوا حسابهم مع الفاطميين . وقد أراد القرمطى أن يسبغ على غزوه لمصر صفة شرعية ، فطلب من الخليفـة العباسى (المطيع) أن يوليـه مصر والشـام ليقضى على المعز ويعيـد مصر الى طاعته ، ولكن الخليفة العباسى على ما يقول المؤرخون رفض هذا الطلب ، فليس عنده القرمطى بخير من الفاطمى ، ولكن القرمطى وجد التشجيع عند البويهى اذ زوده بالمـال ، فسار القرمطى الى الشام ناشرا الرايات السود شعار

(١) ارجع الى كتاب الخطط للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابى المحاسن وصبح الاعشى للقلقشندى .

العباسيين وهو يعلن أن الخليفة ولاه الشام ومصر ، ودخل دمشق مرة أخرى واعاد الخطبة فيها للخليفة العباسى ولعن المعز على المنابر .

ثم واصل زحفه نحو مصر ، فاجتاز الحدود بغير مقاومة حتى وصل الى مشتول ، وحصلت بينه وبين المعز مناوشات تقهقر المعز على أثرها وانحاز الى القاهرة .

يقول أبو المحاسن ، وظل المعز محصورا بالقاهرة الى أن أرضى القرمطى بمال وخدعه وعاد الى الشام فمات بالرملة فى شهر رجب وأراح المسلمين وصفا الوقت للمعز . ولكن لين بول يقول غير ذلك : ان المعز لم ينجح فى أبعاد خطر القرامطة الا بعد أن اشترى شيخ قبيلة بنى طى حليف القرامطة فدفع له مائة الف دينار ، صنعت خصيصا له فانسحب بقواته ، فضعف مركز حسن رئيس القرامطة وفر هاربا ونهب معسكره وقتل الف وخمسمائة من رجاله ، وأرسل المعز جيشا قوامه عشرة آلاف جندى لمطاردة القرامطة الى الشام ، حيث كان الخلاف قد دب بين صفوفهم وراح بعضهم يوقع بالبعض الآخر ، حتى وصل الأمر الى أن وضع أحد قادتهم هو وابنه فى قفص وارسلوا الى القاهرة .

وهكذا فشلت محاولة القرامطة الثانية لغزو مصر والسيطرة على الشام . وبهذا استتب الأمر نهائيا للمعز لدين الله ، وللفاطميين بصفة عامة .

اول تدريس فى الأزهر :

فى صفر من هذه السنة ، جلس على بن النعمان القاضى بالأزهر وأملى مختصر ابيه فى الفقه عن أهل البيت وكان جمعا عظيما ، واثبت أسماء الحاضرين . فكانت هذه أول حلقة للتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بنى النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعى .

٩٧٦ م — ٣٦٥ هـ : وفاة المعز لدين الله :

فى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول من هذه السنة ، توفى المعز لدين الله الفاطمى ، وله من العمر ست وأربعون سنة ، حكم منها ثلاثا وعشرين سنة وبضعة شهور .

أما مدة حكمه فى مصر فكانت ثلاث سنوات .

واذا كان حكم الخلفاء الفاطميين فى المغرب الذين سبقوا المعز قد اتصف بالخشونة والقسوة وضروب من البربرية ، فبمقدم المعز الى مصر ، دخل الحكم الفاطمى فى مرحلة جديدة . ذلك أن المعز قد ولد سياسيا بالفطرة ، قادرا على استغلال فرص النجاح التى تهيأ له . وكان الى جوار ذلك قادرا على التعلم والتثقف ، بحيث لم يكن يكتب اللغة العربية ويتذوق الأدب فحسب ؛ بل كان ينظم الشعر ، وكان فوق ذلك يتقن اللغة البربرية لغة قبائل المغرب وكان يدرس اللغة الاغريقية ، بل وقيل أنه توفر على دراسة اللغة السلافية ليتفاهم مع عبيده من شرق أوربا .

والى جوار قدرة المعز كسياسى ، وتفوقه الفكرى والعلمى ، فقد اضاف فضيلة الكرم مع حب شديد للعدالة ، فلا عجب وهذا شأنه أن يمتد سلطانه الرسمى والفعلى على رقعة الأرض من الشام والحجاز حتى المحيط الأطلسى ، وتذكر كتب التاريخ أن جوهر القائد قبل وصوله الى مصر كان قد نجح فى ازالة كل عقبة فى طريق سلطان المعز الى المحيط ، حتى لقد اصطاد له سمكا ووضعه فى أوعية مليئة بالماء ليظل حيا حتى يصل به الى المعز .

وكانت جزيرة صقلية تحت حكمه المباشر ، وتحقق له كما رأينا عن طريق السياسة والكياسة والدعاية ، ما لم يتحقق لغيره بقوة الجيوش اذ دخل مصر ، ودعى له على منابر الحجاز بغير حاجة الى استعمال العنف أو القوة .

وقد تضمنت كتب التاريخ من سيرة المعز ، ونصائحه (١) لقواده ودعوته اياهم للتعلم والتثقف والتقشف والقصد فى ارضاء الشهوات والاقتصار على الزواج بامرأة واحدة ، والتسامح والبعد عن التعصب ، مالا نظن انه قد سبق اليه ، وما يضعه فى صف أعظم الملوك والحكام وقادة الدول والشعوب .

خلافة العزيز نزار على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المعز ابنه نزار أبو منصور والذى لقب بالعزيز بالله ، وكانت سنه يوم ولى الخلافة اثنتان وعشرون سنة .

ويلخص أبو المحاسن عهد العزيز بالله فى العبارات الشاملة التالية : وملك مصر وخطب له بالشام والمغرب والحجاز وحسنت ايامه وكان العزيز كريما شجاعا سيوسا وفيه رفق بالرعية ، ثم ينقل عن المسبحى المؤرخ المعاصر قوله فى وصف شخصيته : وكان أسمر أصهب (٢) الشعر أعين أشهل بعيد مابين المنكبين ، حسن الخلق ، قريبا من الناس ، لايحب سفك الدماء ، وكان يهوى الصيد ، وكان أديبا فاضلا .

وفى ايامه بنى قصر البحر بالقاهرة (والذى أطلق عليه اسم القصر الغربى مقابل القصر الشرقى) ولم يكن لهذا القصر الذى بناه العزيز مثال فى الشرق أو فى الغرب .

عهد الوزراء من المسيحيين واليهود :

وقد اتسم طابع حكم العزيز بالله منذ اليوم الأول بالاعتماد الكلى فى ادارة البلاد على الوزراء من اليهود أو المسيحيين والذين أسلموا أو الذين ظلوا على دينهم . وقد كان التسامح الدينى بصفة عامة هو شعار الحكم الفاطمى منذ جاء الى مصر ، ليس فقط مع المسلمين من أهل السنة الذين تركت لهم مساجدهم وشعائر مذاهبهم التى ألفوها ، بل مع أهل الذمة من اليهود والمسيحيين على أن هذا التسامح أخذ طابعا غير مألوف فى هذه الأزمان عندما أخذ العزيز جانب أهل الذمة ويفسر لين بول ذلك

(١) راجع الخطبة بكمالها فى خطط المقريزى .

(٢) اى أحمره .

الى تأثره بزوجته المسيحية من أصل روسى ، واستدل على وجهة نظره بأن العزيز عين اخوى هذه السيدة بطريركيين ملكانيين أحدهما فى الاسكندرية والثانى فى بيت المقـدس .

كما استطاع بطريرك الأقبـاط أن يحصل منه على اذن باعادة بنـاء كنيسة أبى سيفين خارج مدينة الفسطاط وبتشجيع من العزيز دخل ساويرس أسقف الاشمونين فى مناقشة حول العقائد مع قاضى القضاة أبى نعمان الشهير الذى يعتبر أحد دعائم الحكم الفاطمى .

٩٧٧ م ــ ٣٦٦ هـ : تولية يعقوب بن كلس الوزارة :

وقد بدأ العزيز هذه السلطة من الوزراء ، بتولية يعقوب بن كلس الوزارة فى هذه السنة ، على أن يعقوب وان كان يهودىالأصل ولكنه دخل فىالاسلام ، ولكنا سنرى ، كيف أن العــزيز لن يلبث بعـد موت ابن كلس أن يعين مكانه عيسى بن نسطوروس المسيحى فى الوقت الذى كان يقوم فيه على مالية الشام منشة اليهودى ومن المحقق أن العزيز لم يعتمد على هؤلاء المعاونين الا لمـا أظهروه من كفـاءة فنية فى أعمالهم ، وقدرة على ادارة الأعمال وجمع الأموال ، وربما كان العزيز فى اتخاذه هذا الطراز من الوزراء بعيد النظر ، فلم يحدث أن واحدا من هؤلاء حدثته نفسه أن يستبد بالسلطان كما فعل الوزراء من بعد عندما أصبحوا يختارون من طبقة قادة الجيش وكبرائه .

على أية حال ، فقد أحفظ اعتماد العزيز على أهل الذمة الناس فى عهده ، وقد كان الدين يؤلف محـور حياتهم ، ولذلك فان كتب التاريخ تحفظ لنا أن امرأة كتبت اليه تقول :

بالذى أعز اليهود بمنشة والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك هلا نظرت فى أمرى .

فكان لهذا التقريع أثره فى نفس العزيز ، حتى لقد قبض على اليهودى والنصرانى ، وصادر أموالهما . وان كان قد أعاد ابن نسطورس الى الوزارة فيما بعد .

٩٨٠ م ــ ٣٦٩ هـ : الوزير يعقوب بن كلس يدرس فى الأزهر :

على أن عهد الوزراء من غير المسلمين قد جاء فى أخريات عهد العزيز ؛ أما فى هذه الفترة الأولى فقد كان الوزير لا يزال مسلما وان كان من أصل يهودى ولم يكن يعقوب ابن كلس مجرد مسلم ، بل كان متفقها فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية ولذلك فقد شرع فى رمضان من هذه السنة فى القاء دروسه فى الأزهر فكان يحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة . . . كما هو الشأن بالنسبة لابن نعمان .

٩٨٣ م / ٣٧٢ هـ نفوذ العزيز يصل الى داخل بغداد :

وبلغ نفوذ العزيز ، الى بغداد نفسها ، حيث استنجد به عضد الدولة البويهى صاحب السلطان على فارس والعراق ، ليعاونه على حرب الروم ، ويثبت أبو المحاسن رد العزيز على عضد الدولة وجواب عضد الدولة على هذا الرد .

حيث سجل فيه اعترافه بفضل أهل البيت ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة ، وانه فى طاعته يخاطبه بالحضرة الشريفة .

ويبدى أبو المحاسن دهشته من أن يكتب عضد الدولة مثل هذا الخطاب للعزيز ، خصوصا وانه لا يمكن أن يكون قد كتبه الا بعد « أن قراه فى حضرة الخليفة الطائع ، وارسله بعلمه . وهذا من أعجب العجب » .

ومع انه ليس هناك ما يدعو لهـذا العجب ، فالبويهيون كما هو معروف كانوا شيعة . وكان الخليفة العباسى معهم لا سلطان له . وقد كان الموقف موقف استعانة بجيوش مصر لدفع خطر الروم على العراق .

٩٨٥ م / ٣٧٥ هـ كتاب المهلبى فى الطرق والمسالك :

فى هذه السنة الف المهلبى كتابا فى الطرق والمسالك أهداه للعزيز ، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا حيث كان علماء الجغرافيا لايعرفون من اخبـــار السودان الا قليلا (حضارة الاسلام فى القرن الرابع) .

٩٨٦ م / ٣٧٦ هـ وفاة المستنصر صاحب الأندلس :

فى هذه السنة مات الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الاندلسى ولقبه المستنصر ، وكان العزيز بالله على ما يقول بعض المؤرخين قد مد بعينيه صوب الأندلس ، فأرسل كتابا الى المستنصر يهدده فيه ويسبه ويهجوه ، فبعث المستنصر الى العزيز برد بليغ استهله على ما يقول ابن اياس بأبيات من الشعر جاء فيها :

السنا بنى مـــروان كيف تقلبت	بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
اذا ولد المـــولود منـــا تهللت	له الأرض واهتزت اليه المنـــابر

ثم قال العزيز : وبعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك والسلام . يعرض بذلك بنسب الفاطميين . يقول ابن اياس فأسكت العزيز ولم يعد لها .

٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ ــ العزيز يدعى له فى جامع القسطنطينية :

دارت رحى المعـــارك بين جيوش العزيز فى شمال ســوريا وبين جيوش الروم ،

وكانت جيوش العـزيز تحت قيـادة متجوتكين ، وقد انتصر متجوتكين على جيوش الروم . ثم قرر العزيز ان يعد العدة على أوسع نطاق لغزو الروم ، فشرع يجهز مراكب الأسطول ويهيىءالجيوش للغزو ، ويبدو انأخبار هذا الاستعداد قدوصلت الىمسامع الروم ، وأفزعهم الحديث عن الشواني (المراكب الحربية الكبيرة) ذات القلاع والأبراج التى توشك أن تهاجم القسطنطينية فى البحـر ، حيث تغزوهم الجيوش من البر ، فأرسـلوا وفدا الى العـزيز يلتمس الصلح ، وحمل الوفد معه الكثير من الهـدايا والنفائس . وقد قبل العزيز ابرام هدنة لمدة سبع سنوات يسود فيها السـلام بين البلدين ، على أن لا يبقى الروم فى دولتهم أسيرا مسلما واحدا وأن يقسموا على ذلك . وان يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة . وأن يحصل الروم للعزيز فى كل سنة قدرا معينا من أمتعة الروم وقد استجاب الروم الى هذه الشروط كلها ، وهكذا تم الصلح بين العزيز والروم .

٩٨٨ م / ٣٧٨ هـ ــ اتخاذ الأزهر مدرسة للعلم :

ذكرنا فيما سبق أن القاضي النعمـان ، والوزير يعقوب بن كلس ، قد اتخـذا من الأزهر مكانا لالقاء دروسهما فى الفقه الشيعى ، ولكن فى هذه السنة اسـتأذن الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز ، فى أن يحول الأزهر الى معهـد للدراسة المنظمة : فجرى تعيين خمس وثلاثين فقيها أجريت عليهم الأرزاق الشهرية ، وبنى لهم مسكن خصص لهم بجوار الجامع الأزهر (١) ، وعهد اليهم بالدرس والقراءة فى أوقات منظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكانت هذه هى النواة التى ستزدهر طوال الحكم الفاطمى ، فيزيد طلابه وأساتذته ، وتكثر أروقته وحلقات التعليم فيه فتنمو به الدراسة وتزدهر بحيث تجتذب الطلاب والعلماء من الخارج ، وهكذا بعثت فى العهد الاسلامى ، ما اشتهرت به مصر فى عهـد البطالسـة والرومان من علم يتمثل فى جامعـة الاسكندرية . ومن سبقه ذلك من شهرتها فى العلم ممثلا فى جامعة عين شمس .

٩٩٠ م / ٣٨٠ هـ ــ وفاة يعقوب بن كلس :

توفى أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس رجل الدولة الأول فى حكم العزيز ، وقد كان فى الأصل يهوديا من اهل بغداد ثم انتقل الى الرملة فى فلسطين وعمل سمسـارا فانكسر عليه مال فهرب الى مصر ، وتاجر لكافور الاخشيدى ، فرأى منه فطنة فقال : لو أسلم لصلح للوزارة . فأسلم . وكان الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات يحسده ويعاديه ، فلما مات كافور قبض على يعقوب بن كلس فلم يزل يتوسل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه . فلما خرج من الاعتقال فر الى بلاد المغرب ولجأ الى المعز لدين الله

(١) ظل هذا هو النظام المعمول به حتى عصرنا الحاضر « نظام الاروقة » .

الفاطمى . وكان ممن عملوا على خدمته لانجــاح مشروع فتح مصر ، وظل يترقى فى المناصب الى أن أصبح وزيرا للعزيز فاستقامت أمور العزيز بتدبيره . ويذكر لين بول أن العزيز غضب عليـــه أكثر من مرة وأودعه السجن ، ولكنـــه كان لا يلبث أن يحس بالفراغ فى غيابه فيفرج عنه ويعيده أكثرة قوة ونفوذا .

ولما أشرف على الموت عاده العزيز وحزن من أجله حزنا شديدا وقال له : وددت انك تباع فأشتريك بملكى أو تفتدى فأفديك بولدى فهل من حاجة توصى بها . فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينيه ثم أوصى العزيز بوصايا ومات . فصلى عليه العزيز وألحده فى قبره بيديه فى قبة كان العزيز قد بناها لنفسه وأغلق الدواوين عدة أيام حدادا عليه .

يقول أبو المحاسن : وقيل انه حسن اسلامه وقرا القــرآن والنحو وكان يجمع العلماء والفضلاء ، وقيل انه كفن وحنط بما قيمته عشرة آلاف دينار ورثاه عند موته مائة شاعر .

وقد وجد فى تركته من الجواهر ما قيمته ٤٠٠ر٠٠٠ دينار ومن الملبوس والركوب ما قيمته ٥٠٠ر٠٠٠ دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام . وسكنه بالمنطقة التى عرفت باسم الوزيرية ، حيث لم يكن يقيم بها سواه ومماليكه وحاشيته .

٩٩١ م / ٣٨١ هـ ــ الشروع فى بناء مسجد الحاكم :

فى هذه السنة شرع العزيز فى بناء الجامع الذى سيتمه ابنه الحــاكم من بعـــده فيطلق عليه اسمه ، والذى سيكون دارا للعلم والحكمة ويرمز لرقى العلوم فى عهــد الفاطميين .

وفاة جوهر القائد :

فى العشرين من ذى القعدة من هــذه الســـنة مات جوهر الصــقلى مؤسس حكم الفاطميين فى مصر ومنشىء القــاهرة والجامع الأزهر . وقد فقد سلطانه الفعلى بعد وصول المعز لدين الله الفاطمى الى مصر ، وان ظل محاطا بأعلى درجات التكريم فكان يعد أميرا للأمراء ، وظل ذلك حاله أيام العزيز ، وان كانت سلطة الوزارة والتدبير قد أصبحت ليعقوب بن كلس .

وينتهز المؤرخون القدامى ذكر وفاة جوهر لكى يسرفوا فى ذكر مدى ما خلف من أموال والتى يدرك المطالع لأول وهلة أن لابد أن قد اعتورها خطأ فى الاملاء أو فى النقل فهم يقولون انه خلف من الذهب العين ستمائة الف الف دينار ولابد أن تكون هنا الف زائدة ، فلو خلف ستمائة الف دينــار فقط الى جوار ما ترك فان هذا يكون شـــيئا جسيما ــ كما يقولون انه خلف من الدراهم أربعة آلاف الف درهم ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق ومن القصب الزمرد الف قصبة ومن الثيــاب والديبــاج

سبعون الف قطعة . ووجد عنده دواة من الذهب طولهـــا ذراع وهى مرصعة بالدر والياقوت تقوم ما بها من الجواهر بائنى عشر الف دينار . ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمـامة ذات لون خاص ، ووجد عنـــده من الملاعق الذهب والفضة ثلاثة آلاف ملعقة ، ووجد عنـــده عشرة آلاف زبدية صينى وبللور وفضة ... الى ان يقولوا وهـذا كله خارج عن البغـال والجمال والخيل والعبيـد والجوارى والفرش والأملاك والضياع وغير ذلك .

ولقد نقلنا هذه الرواية بهذا التفصيل ، لأنها تصور مدى البـــذخ والغنى الذى كان عليه الأمراء والكبراء فى العصر الفاطمى .

٩٩٥ م ـ تخريب دار صناعة السفن :

فى هذه السنة وقع حادث غريب فى مصر اذ شب حـريق فى دار الصـــناعة التى كانت تبنى مراكب الأسطول على ضفاف النيل عنـد المقس ، وقد عزى حـرق دار الصناعة الى مؤامرات بيزنطة فقبض على مائة من التجار اليونانيين واعدموا .

يقول ارشيبالد . ر . لويس فى كتابه القوى البحرية والتجارية : وليس هناك ما ينطق بتفوق الفاطميين وقدرتهم البحرية من هذه الحقيقة الهامة وهى أنهم انزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط منذ الحريق سفنا من خير انواع السفن وظهر فى الميـــاه الشرقية للبحر المتوسط اسطول جديد اقوى من كل ما ســـبقه ترفرف عليـه راية خلافة القاهرة .

لن يلبث أن يهزم الاسطول البيزنطى بعد ثلاث سنوات . اى (٩٩٨ م) .

٩٩٦ م / ٣٨٦ هـ ـ وفاة العزيز بالله :

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة طويت صفحة العزيز أبو منصور نزار بن المعز خامس الخلفـاء الفاطميين ، وكانت سنه يوم مات اثنتـان وأربعون سنة وثمانية اشهر حكم منها احدى وعشرين سنة .

ويروى لنـا المختار المسبحى المؤرخ المعـاصر أن الحـاكم ابن العزيز قال له : استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسم وعليه الخرق والضماد (أى انه كان فى الحمام) فاسـتدعانى وقبلنى وضمنى اليـه وقال : والهفى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه ، ثم قال امض يا سيدى فالعب فأنا فى عافية ، قال الحـاكم فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب الى ان نقل الله تعـالى العزيز اليـه . وأبو المحاسن الذى نقلنا عنه القصة السابقة يعتبر العزيز أحسن الخلفاء الفاطميين بالنسبة لأبيه المعز ولابنه الحاكم . واذا صح تفضيل العزيز على ابنه الحاكم ، فلسنا نعرف علام يفضله أبو المحاسن على أبيه المعز ، الا أن يكون من حيث طول مدة الحكم واتساع

رقعـــة سطانه فوق رقعـــة سلطان ابيـــه حيث دعى له على منابر اليمن ، وفى جامع القسطنطينية على ما ذكرنا ، فوق ما دعى فيه لأبيه من الحرمين حتى الأطلس .

على أن المتفق عليه أن عهده كان عهد بناء وانشاء وتعمير فبنيت فى عهده المساجد ، ودور الصناعة لانشاء الاسطول الذى وصل فى عهده الى الذروة ، كما وصل ما بدأه أبوه من العنـــاية باصلاح الريف المصرى ليدر الخيرات فازدهرت الزراعة والصنـــاعة فى عهده .

وكان العزيز أول من خصص المرتبات الشهرية للموظفين والاتباع ، وخصص لكل منهم ملابس خاصة به .

اعتماد العزيز على الاتراك :

على أن العزيز بدأ هذه الخطوة ، التى ستكون بعد حين الصخرة التى يفقد فيها الفاطميون سلطانهم الفعلى ولا يبقى لهم سوى الاســـم ، ثم تنتهى بزوال دولتهم من أساسها ، وتلك هى الاعتماد على الجند والقواد من الأتراك ، بدلا من قبائل كتامه التى قامت على أكتافهما الدولة . ولا شك أن العزيز قد قصد بذلك كسر شوكة القبائل ، واحداث توازن فى القوى العسكرية .

صور من الحياة فى عهد العزيز :

ولعله ليس هناك ما يصور لنا طبيعة الحيـــاة فى ذلك الزمان ، من أن نشير الى ما يسمى دار الفطرة التى أنشأها العزيز ، وهى مطبخ ضخم لصنع الحلوى طوال شهر رمضان لتوزع على الناس على قدر مراتبهم الكبير والصغير والقوى والضعيف وكان التوزيع يبدأ من أول رجب حتى آخر رمضان . وقد تضمنت كتب التاريـــخ تفاصيل المواد الأولية التى كانت تستهلك فى هذا المصنع الضخم لعمل الحلوى .

ولم يكن هذا المصنع الا نموذجا لـــا كان الخليفة الفاطمى يوزعه على الناس من الأطعمة والحلوى والاكسية والنقود فى شتى المناسبات .

خزائن القصر :

وقد حفظ لنا المقريزى وصفا مفصلا لما كان يحتوى عليه قصر الخليفة من خزائن كان بعضها فى الحقيقة أشبه ما يكون بالمصانع ، ويضيق بنا المجال عن تعداد هذه الخزائن ومحتويات كل منها ، وحسبنا أن نذكر أسماءها ليرجع الى المراجع من يريد الاستزادة من تفصيل ما كان يوجد بكل منها .

فقد كانت هناك :

- خزانة الكسوة .
- خزانة الجوهر والطيب والطرائف .
- خزائن السلاح .

- خزائن الفرش والأمتعة .
- خزانة السروج .
- خزانة الشراب .
- خزانة الطعام .
- خزانة الخيام .
- خزانة البنود والاعلام .

خزانة الكتب :

على أن مايعنينا من هذه الخزائن كلها ، هو خزانة الكتب فقد اقترنت باسم العزيز كثيرا . حيث يحدثنا المسبحى أن كتاب العين للخليل بن أحمد ذكر فى حضرة العزيز فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من الكتاب احداها بخط الخليل بن احمد نفسه . وحمل اليه رجل نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزينة ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى أحداها بخطه وهكذا ما ذكر الا وكان فى خزائنه عدة كتب .

وكان يوجد بالقصر أربعون خزانة وكان فى احدى الخزانات ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة .

مجالس العلم والأدب فى الفسطاط :

واذا كان الخلفاء الفاطميون قد عنوا بتدريس مذهبهم فى الأزهر ، وجعل القاهرة هى مركز العلم ، فان الفسطاط التى تمثل قلب الشعب الخفاق ، كانت بدورها فى أوج نشاطها العلمى والأدبى ، وقد حفظ لنا المقدسى الذى زار مصر فى هذه الحقبة من اخريات القرن الرابع ، صورة لما كان عليه النشاط العلمى والأدبى فى الفسطاط بجامع عمرو حيث يقول :

« وبين العشاءين (١) جامعهم يغص بحلقات الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة . وحلقة مع جماعة من المقاوسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين :

ودوروا وجوهكم الى المجلس ، فنظر فاذا نحن بين مجلسين ، وعددنا فيه مائة وعشرة مجالس وعلى هذا جميع المساجد فاذا صلوا العشاء أقام البعض الى ثلث .. ولا نرى أجمل من مجالس القراء به (٢) .

شعر فى وصف مصر :

وكتاب الخطط للمقريزى يحوى اشعارا ممتعة فى وصف مصر فى هذه الفترة ، تشير الى مباهج العصر .

ومناطق اللهو والنزهة ، لابراهيم بن القاسم الملقب بالرشيد عند ما غادر مصر عام ٣٨٦ هـ .

(١) العشاءين : المغرب والعشاء .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية — جمال الشيال — ص ١٢٧ .

٩٩٦ م – ٣٨٦ هـ خلافة الحاكم بأمر الله :

فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رمضان ولى أبو على منصور ابن العزيز بالله الملقب بالحاكم . وكان أبوه قد عهد اليه بالخلافة من بعده قبل موته بثلاث سنوات (عام ٣٨٣ هـ) وجعل من الأمير أبو الفتوح بن برجوان قائد الجيوش التركية وصيا عليه ومدبرا لأموره . وكانت سنه يوم ولى الخلافة احدى عشرة سنة ونصف . والحاكم بأمر الله هو ذلك الحاكم الذى أصبح يضرب به المثل فى طول العالم الاسلامى وعرضه فى التحكم والاستبداد والشذوذ الذى يؤدى اليه الحكم المطلق والسلطان غير المقيد . فقد راح الحاكم يتأرجح بين أقسى ضروب الظلم وأرحب صور العدل ، بحيث أصبحت حياته صورة فذة من التناقض الذى ينبعث من انقسام الشخصية التى كشف عنها العلم الحديث (١) .

يقول صاحب مرآة الزمان على ما نقله عنه أبو المحاسن :

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام ، وجبن واحجام ومحبة للعلم ، وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح وقتل الصلحاء . وكان الغالب عليه السخاء ، ومع ذلك فقد يبخل بما لم يبخل به أحد قط . واقام يلبس الصوف سبع سنين (أى متصوف) وامتنع عن دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس (فى ضوء) الشمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة . وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى . وكتب على الجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص رضى الله عنهم فى سنة ٣٩٥ م ؛ وأمر بقتل الكلاب وبيع القفاع ثم نهى عن ذلك . ورفع الضرائب عن البلاد وعما يباع فيها . ونهى عن النجوم وكان ينظر فيها . ونفى المنجمين وكان يرصدها ، ويخدم زحل وطالعه المريخ ولذلك كان يسفك الدماء ، وبنى جامع القاهرة (وهو الجامع الذى شرع فيه أبوه) وجامع راشدة على النيل ومساجد كثيرة ، ونقل اليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة ، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ، وقطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يبق فى امارته كرما . وأراق خمسة آلاف جرة من العسل فى البحر مخافة أن تصنع نبيذا . ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر الا يركبوا مع المؤمنين فى سفينة والا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ولا يدخلوا مع المسلمين حماما ، وجعل لهم حمامات على حدة ، ولم يبق فى ولايته ديرا ولا كنيسة الا هدمها . وأبطل الصلاة عليه فى الخطب والمكاتبات ، وجعل مكان الصلاة عليه : السلام على أمير المؤمنين ثم رجع عن ذلك وأسلم فى أيامه خلق كثير من أهل الذمة خوفا منه ، ثم ارتدوا وعادوا الى دينهم وأعاد الكنائس على حالها » .

---

(١) لعل قصة دكتور جيكل ومستر هايد ، هى خير تقريب لشخصية الحاكم الى الاذهان .

وقد اخترنا لك هذا التلخيص ليصور حياة الحاكم ، وليس ادل على صدقها من انها ذكرت حسناته الى جوار سيئاته مما يدل على أن المؤرخين قد رصدوا أعماله بدقة . .

على أن تفسير أمر الحاكم يهون اذا تذكرنا انه كان صبيا صغيرا عندما تقلد الحكم ، وقد أبى بعد حين الا أن يباشر السلطة بنفسه ، فزاولها شابا فى عنفوان الشباب ونحن نعلم ماذا تفعل المراهقة فى الشباب حتى لتصل بهم الى حد الجنون . وسمة الشباب بصفة عامة عدم الاستقرار على حال .

٩٩٧ م / ٣٨٧ هـ عزل ابن نسطورس من الوزارة وتولية ابن عمار :

أشرنا من قبل الى تضرر المسلمين من وزارة ابن نسطورس المسيحى ولذلك فلم تكد الأمور تستقر للحاكم ، حتى تقدم الكتاميون وهم عصب الخلافة الى الحاكم وطلبوا منه عزل الوزير ابن نسطورس ، وتولية زعيم الكتاميين أبو محمد الحسن بن عمار ، فاجابهم الحاكم الى ماطلبوا وتقلد ابن عمار الدولة بعد أن اطلق عليه لأول مرة اسم أمين الدولة . وكان هذا أول تلقيب للوزراء ، وستظل هذه الألقاب تتصاعد كما سنرى الى أن يلقب الوزير بالملك .

وكان طبيعيا أن لا يرضى برجوان الوصى على هذا التصرف فراح يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار ، وانتهى الأمر بأن ضيق الأتراك على ابن عمار فلم يسعه الا أن يهرب مع جماعة من اتباعه . وهكذا خلا الجو لبرجوان فانفرد بالسلطة .

وفاة الحسن بن زولاق المؤرخ المصرى :

وفى أواخر ذى القعدة من هذه السنة توفى الحسن بن زولاق ، وهو ابو محمد المصرى الحافظ الذى صنف كتابا فى قضاة مصر ذيل به كتاب الكندى ووصل به الى عام ٣٨٦ هـ وهى أيام محمد بن النعمان قاضى الفاطميين .

وقد عاصر بن زولاق الدولة الأخشيدية ، وأدرك صدرا من الدولة الفاطمية . والف عددا كبيرا من الكتب فى هذا الفن منها سيرة الأخشيد وسيرة كافور وسيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وسيرة الماذرائيين وزراء الاخشيديين كما الف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سيبويه المصرى ـ وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الأخشيدى وجرت له مساجلات مع المتنبى عند زيارته لمصر . وهذا الكتاب الاخير هو وحده الذى وصل الينا وقد فقدت كتبه الأخرى . ولكن المؤرخين اللاحقين عليه وخاصة المقريزى قد نقلوا عنها الكثير .

١٠٠٠ م / ٣٩٠ هـ مقتل الامير برجوان الوصى :

لم يعجب الحاكم تصرف برجوان فى طرد ابن عمار والاستئثار بالسلطة ، حتى

لقد اصبح الحاكم محجورا عليـــه . وقد كان رغم صغر ســـنه تواقا الى ممارســـة السلطة . وقد زاد فى حنقه على برجوان أن هذا الأخير قد منعه من الاتصال المباشر برجال الدولة . ولذلك فقد كاد له الحاكم بأمر الله ودبر له من قام بقتله ورفع الى الوزارة حسين بن جوهر الصقلى ، ولقبه بقائد القوات .

وتصول كتب التاريخ القديمة وتجول فيما خلفه برجوان وراءه من ثروة يقولون عنها انها فاقت ما خلفه جوهر الصقلى نفسه .

الحاكم يزاول مظاهر السلطة :

ولم يكد الحاكم يتخلص من برجوان ، حتى بدأ يشرف بنفسه على حكم البـــلاد وادارتها ، فكون مجلسا يضم كبار الموظفين لبحث شـــئون الحـــكم كما حرص على التجول ليلا فى المدينة للوقوف على أحوال الناس ، ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية أمر الناس بتعليق مصابيح على جميع الحوانيت والمحـــال المختلفـــة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط . فترتب على ذلك تغيير كبير فى نظام الحيـــاة المصرية ، حيث اصبحت الأعمال والمعاملات تجرى ليـــلا .. فكان ذلك اول ما اعتبر من شـــذوذ الحاكم ..

وبدأ المصريون يطلقون عليه نكاتهم التقليـــدية والتى أخـــذت طريقهـــا الى بطون كتب التاريخ .

١٠٠٥ م ٣٩٥ هـ ـ انقلاب الحاكم ضد الذميين :

انقضت السنوات العشر الأولى من حكم الحاكم ، فى سياسة التسامح التى اتبعها ابوه وجده من قبله مع أهل الذمة من سكان البـــلاد ، حيث كانوا يتمتعون بحريتهم الدينيـــة ويشاركون فى الحيـــاة العامة بكل سبيل ، فلما كانت هذه السنة ، انقلب الحاكم على أهل الذمة فحتم على اليهود أن يحملوا فى أعنـــاقهم قرامى الخشب على صورة العجل حيث تزن القرمة خمسة أرطال مصرية وأن يلبسوا العمـــائم السود ، وأن يعلق النصارى الصلبان فى أعناقهم على أن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة ارطال مصرية . ولا يكتروا بهيمة مســـلم ، وأن يدخلوا الحمام بالصـــلبان . وامر النصارى بعدم الاحتفال بعيد النيروز على شواطىء النيل لابطال ما كان يقترن بها من ملاهى باذخة .

ثم زاد على ذلك فأصدر أمره بهـــدم جميع الكنـــائس والأديرة فى القطر المصرى ومصادرة الأوقاف المرصودة عليها وضمها الى الديوان .

وقد ادت هذه السياسة الى دخول الكثيرين من أهل الذمة الى الاســـلام ، كما هاجر البعض الآخر الى دولة الروم والحبشة والنوبة ، بعد أن يسر لهم الحاكم هذه الهجرة وأباح لهم حمل أموالهم .

اضطهاد المسلمين :

ولم يكن اضطهاد الحاكم لأهل الذمة منبعثا من تعصب دينى ، بقدر ما كان منبعثا من امتهانه للانسانية فى مجموعها ، وليس أدل على ذلك من انه فى هذه السنة نفسها اصدر امره بسب الصحابة وان تنقش الفاظ السب على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب ــ كما أصدر أمره بتعميم المذهب الشيعى والغاء المذهب السنى وما يترتب على ذلك من حظر صلاة الضحى والتراويح فى رمضان واضافة حى على خير العمل فى الأذان وغير ذلك . مخالفا نص العهد الذى قطعه جوهر للمصريين ، وسار عليه العمل فى أيام المعز والعزيز وهو أن لا يتعرض للمصريين فى مذهبهم . وفى هذه السنة ايضا على ما يقول المقريزى كان حظر الحاكم على المصريين اكل الملوخية والجرجير وذبح الأبقار السليمة ومنع بيع الفقاع ــ ولايباع شىء من السمك بغير قشر .

١٠٠٧ م ــ ٣٩٧ هـ : ثورة ابى ركوة والقضاء عليها :

كان طبيعيا وقد بدأت تصرفات الحاكم تثير الاضطراب ، أن ينتهز أعداء الخلافة الفاطمية الفرصة لمحاولة تقويض سلطانها . وكانت ثمة خلافتان تقومان على شرق الخلافة الفاطمية وغربها . فأما أولاهما فهى الخلافة العباسية فى بغداد ، والثانية هى الخلافة الأموية فى الأندلس .. وكانت الخلافة الفاطمية شجا فى حلق الخلافة الأندلسية ، حيث كانت تحتل الشاطىء الافريقى المقابل . فحركت الخلافة الأموية احد رجالها فى برقه والصحراء الغربية وكان يدعى ابو ركوة فادعى الانتساب الى بنى امية ، ونادى بالخروج على الحاكم وحربه فانضمت اليه قبائل الكتامية المغربية ، التى أوترها الحاكم بطرد زعيمها ابن عمار . واستطاع ابو ركوة بجيشه وحلفائه أن يستولى على برقه وأن يهاجم حدود مصر الغربية ، فأرسل الحاكم جيشا لمقاتلته ، ولكن هذا الجيش قد اندحر ، ولما أرسل اليه جيش ثان ، هزم بدوره .

ولكن الحاكم وفق أخيرا الى قائد لجيوشه وهو الفضل بن صالح فاستطاع أن يهزم أبا ركوة وأن يوقع مذبحة فى جنوده وقبض على أبى ركوة نفسه وسيق الى القاهرة ، حيث شهر به ثم أعدم وصلب جسده للعبرة .

١٠٠٨ م ــ ٣٩٨ هـ : هدم كنيسة القيامة :

ذكرنا من قبل أن الحاكم اصدر أمره بهدم جميع الكنائس والأديره فى مصر ... وفى هذه السنة ذهب الى ابعد من ذلك فأصدر أمره بهدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، غير ملق بالا لقداستها عند مسيحى الدنيا كلهم ، وأباح للعامة نهب ما فيها من أموال وذخائر نفيسة وأمتعة .

ويقول الدكتور سرور أن هـذا الحـادث يعتبر بمثابة البذرة الأولى لايقـاد نار الحرب الصليبية التى لن يلبث ان يدعو لها بابا روما .

ومن عجب أن وزير الحاكم الذى أشرف بنفسه على تنفيذ هذا التصرف الخطير كان مسيحيا وهو ابن عبدون . وقد دفع جزاء ذلك ، أن قتله الحاكم فى العام التالى ، وكان الحاكم قد اعتاد على أن يقتل وزراءه أحسنوا أم أساءوا ، أصابوا أم أخطـأوا .

١٠١٠ م ــ ٤٠٠ هـ : الحاكم يعالج أخطاءه ويكفر عنها :

وانتابت الحاكم موجـة صحو فيما يبدو ، واحس بموجـة السخط التى عمت البلاد ، فراح يلغى كل ما أصدره من أوامر صدمت مشـاعر النـاس ، فأوقف سب الصحابة الذى كان قد أمر به ، وأمر بمحو النقوش والكتابات الخاصة بسب أبو بكر وعمر وعثمان . وأعاد التصريح بصلاة الضحى والتراويح وغير الأذان وجعل مكان حى على خير العمل ــ الصلاة خير من النوم (التى لا تزال يؤذن بها حتى الآن) .

وركب بنفسه الى جامع عمرو بن العاص وصلى به الضحى واظهر الميل الى مذهب الامام مالك ــ واهدى المسجد العتيق الكثير من الهدايا النقدية والعينية من التحف والثريات التى تصفها لنا كتب التاريخ بدقة .

وفعل ما هو أكثر من ذلك فأظهر التقشف والنسك ، وحيث كان أبوه وجـده لا يسيرون الا فى مواكب ترتج لها القاهرة ، فقد أصبح لا يركب سوى الحمار ويسير فى غير صخب أو حاشية ، ومنع من أن يخاطب بمولانا ، أو أن يقبل الأرض بين يديه .

وقرر دفع الرواتب لمن يأوى الى المساجد من الفقراء والغرباء وابنـاء السبيل واجرى لهم الأرزاق .

وفعل مالم يفعله أحد من قبـله ، حيث راح يحمل الطيب والبخـور والشموع بنفسه الى المساجد .

ومضت سنوات وهو على هذا المسلك الحميد .

انشاء دار الحكمة :

على أن أعظم ما قام به الحاكم فى هذه الفترة المشرقة من حيـاته هو انشـاء دار الحكمة أو دار العلم ، اذ جهزها بالفرش اللازم ثم نقل اليها أمهات الكتب العظيمة واختار لها شيخين من كبار علماء أهل السنة يعرف أحدهما بأبى بكر الانطاكى وترك لهما اختيار باقى الفقهاء والمحدثين بالمعهد الذى لم يقف التـدريس فيه عنـد حد تدريس الفقه والشريعة ، بل تجاوزه الى تدريس علوم اللغة والأدب والشعر والفلك والطب ، بحيث أشبه المعهد أن يكون جامعة عصرية بكل ما تحويه الجامعات الحديثة من عـلوم .

١٠١١ م – ٤٠١ هـ : الدعاء للحاكم فى مساجد الموصل والأنبار والمدائن :

استطاع الحاكم عن طريق المكاتبات والهدايا والاعطيات أن يمد نفوذه فى الشرق الى ما وراء الحرمين ، والشام ، اذ حمل أمير الموصل معتمد الدولة مزواش بن مقلد أن يدعو له فى صلاة الجمعة على منابر الموصل وتوابعها كالأنبار والمدائن ، وأن يثنى عليه وعلى آله المكرمين الثناء الجم .

ولقد حفظت لنا كتب المشارفة ، نص أول خطبة ألقيت بهذه المناسبة .

وقد انزعج القادر الخليفة العباسى لهذا الانقلاب ، وأصدر أمره باعداد الجيوش لمحاربة معتمد الدولة ، ولكن هذا الأخير لم يكد يسمع بذلك حتى اعتذر عن فعلتـه واوقف الخطابة للحاكم وأعادها للخليفة العباسى .

١٠١١ م – ٤٠٢ هـ : طعن العباسيين فى نسب الفاطميين :

كان طبيعيا أن يثير هذا الحادث ثائرة الخليفة العباسى ضد الحاكم ، واذ كان أضعف من أن يسير اليه جيشا يردعه فقد لجأ الى سلاح الدعاية ، فجمع عددا من علماء بغداد وقضاتها وعلى راسهم الشريف الرضى (١) ، وأخوه المرتضى ومن الفقهاء أبو حامد الاسفرابينى وأبو عبد الله البيضاوى وكتبوا محضرا طعنوا فيه فى النسب الفاطمى وأعلنوا فيه أن الحاكم وأسلافه : أدعياء خوارج لأنسب لهم فى أولاد على بن ابى طالب ، وانما هم كفار فسقة فجار ، ملحدون زنادقة ، معطلون للاسلام جاحدون ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون ، وقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وأحلوا الخمر ، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية .

وليس هناك ما يظهر زيف هذه الدعاوى ، الا ما مر بنا من سيرة المعز وابنـه العزيز من أهل مصر حيث ازدهر بها الاسلام ، أما ما وقع فيه الحاكم من انحرافات ، فهى أخطاء شخصية قد تردى فى مثلهـا كثير من الحكام فى مختلف العصور على ما مر بنا .

١٠١٣ م – ٤٠٤ هـ : الحاكم يعتق الارقاء ويحرر العبيد :

وانتابت الحاكم صحوة من صحواته المحيرة فاذا به يصدر أمرا بعتق كل ما كان يملكه من الرقيق بالقاهرة ومصر فى سائر أرجاء الدولة ، وأن يصبح كل عبيده وامائه احرارا ، على أن يصبح ملكا خاصا كل ما كان تحت أيديهم من امـوال وهم فى حـالة الرق .

---

(١) جامع كتاب نهج البلاغة والشاعر المشهور .

الحاكم يغير نظام الوراثة الاسماعيلى ويعين ولى عهده :

وفى هذه السنة اقدم الحاكم على اجراء من شأنه أن يقوض نظام الوراثة كما هو فى العقيدة الاسماعيلية . فالمذهب الاسماعيلى يقوم على أن الخلافة ، أو كما يعبرون عنها بالأمانة لا يمكن أن تكون الا فى نسل على بن أبى طالب ، وأن تنتقل هـذه الأمانة دائما من الأب الى الابن ، ذلك أن للامامـة عنـدهم صفات وعلوم تنتقل بالوراثة كما تنتقل باقى الصفات الأخرى الخلقية .. وبدلا من أن يعهد الحاكم بالخلافة من بعده الى ابنه على ، اذا به يتجاوزه الى تعيين ابن عمه عبد الرحيم بن الياس وليا للعهد ، وامر ان يخطب له على المساجد ، وأن يضرب اسمه على النقود وينقش على البنـود والطراز ، كما امر أن ينوب عنه فى الخطبة والصلاة والنظر فى المظالم وأن يسـايره فى المواكب . وقـد أحدث هذا التصرف فى البيت الحاكم بلبلة ، لن تبث أن تؤدى الى مصرع الحاكم كما سوف نرى .

١٠١٤ م ــ ٤٠٥ هـ : منع النساء من الخروج فى مصر :

كانت هذه هى السنة التى أقدم فيها الحاكم على أحد تصرفاته الشاذة فأصـدر امره على ما يروى ابن كثير بمنع النساء من الخروج من منازلهن ، أو أن يطلعن على أسطح المنازل ، أو ينظرن من النوافذ ، ومنع صانعى الأحذية من صنع الأحذية لهن ، ومنعهن من الخروج الى الحمامات ، وقتل بعض النساء لمخالفتهن هذه الأوامر ، وهدم بعض الحمامات على من فيها من النسـاء . وجهز ما يمكن اعتباره أول جهاز للمخابرات فى العـالم الاسلامى فأعد حشدا من النساء العجـائز وكلفهن بالاستعلام عن أحوال النساء من منهن تعشق ومن هم عشاقهن وأن يبلغنه بأسماء هؤلاء وهؤلاء . ليوقع بهم . وراح بنفسه يكثر من الدوران ليل نهـار بحثـا وراء ذلك ، وأغرق عددا من الرجال والنساء والصبيان ممن اطلع على فسقهم .. وضاق الحال واشـتد على النساء والفساق ولم يتمكن أحد منهن ان يصل الى أحد الا نادرا ، ويبدى ابن كثير ارتياحه لهذا التصرف من الحاكم .

وقد استغل الحاكم جهاز مخابراته الذى راح يطلعه على ما يجرى فى البيوت وما يقع من أحداث .. لكى يتظاهر أمام رجال دولتـه بأنه يعـرف الغيب ويطلـع على الأسرار .

١٠١٤ م ــ ٤٠٥ هـ : ثورة الجماهير على الحاكم :

كان طبيعيا أن ترتفع موجة السخط ضد الحاكم ، وراحت جماهير المصريين تعبر عنها بأسلوب المصريين التقليدى ، وهو السخرية والتنكيت ، وارسـال الرقاع التى تختم بالدعاء عليه والسب له ولأسلافه اليه . ثم وصل الأمر بهم الى حد أن اصطنعوا تمثالا من الورق على هيئة امراة ، ونصبوها فى أحد الطرق التى اعتاد الحاكم ان يمـر

منها ، ووضعوا فى يدها الممدودة رقعة ورق باعتبارها ظلامة ترفعها للحاكم . وبالفعل اقترب منها الحاكم أثناء جولاته واخذ من يدها العريضة ، فلما شرع فى مطالعتهـــا ، استعظم ما جاء فيها ولابد انه كان سبا ولعنا ، فطلب ممن حـوله أن يتقصوا شــأن المراة ، فاذا بهم يكتشفون انها ورق ، وأنها صنعت للسخرية من الحاكم .

وكانت هذه مناسبة ليتجلى جنون الحاكم فى أعنف صوره اذ عاد على التو الى القاهرة ، واســـتدعى القواد وعرفاء الجيش الى قصره وأمرهم أن يســـيروا الى الفسطاط ، وأن يقتلوا من ظفروا به من اهلها ، وينهبوا ما شاءوا أن ينهبوا من اموال ســكانها .

وهب الشعب يدافع عن نفسه بقوة السلاح ، وخف الأتراك والكتاميون الى نجدة الشعب ووقفوا الى جواره . ودارت الحرب بين الشعب وحلفائه وجنود الحاكم ثلاثة أيام دمر فيها عن طريق الحـريق ما يقـرب من ثلث الفســطاط .. ولكن قــوى الشعب بدات تتغلب على جنود الحاكم ، وأوشــكت الدائرة أن تدور عليهم ، فأسرع الحاكم الى الفسطاط ووقف بين المتنــازعين ليفرق بينهم ، وهو يقسم أنه برىء مما فعــله عبيــده .

١٠١٨ م — ٤٠٩ هـ : الجهر بتأليه الحاكم :

كان قد وفد الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفـرس واعتنقـــوا المذهب الفاطمى ، ولكنهم تطرفوا فى معتقداتهم ، وخرجوا على تعاليم المعتدلين من الاسماعيلية وكان على رأس هؤلاء الدعاة تأثيرا فى أخريات عصر الحاكم — حمزة بن على الزوزونى وحسن بن حيدرة المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل البخارى الدرزى .

وقد بدأ هؤلاء الثلاثة يبشرون بالدعوة لتأليه الحاكم سرا ، ثم لم يلبث حمزة بن على الزوزونى أن جهر بتأليه الحاكم ، وتابعه الأخـرم الذى جهر بالدعوة فى جامـع عمرو بن العاص نفسـه ، فما كان من جماهير الشعب المسنين الا أن تعقبوه وقتلوه . ولكن محمـد بن اسماعيل الدرزى حل محله ، ووضع رسالة فى تأليه الحاكم رفعها اليه ، مبينا بها أدلة مذهبه وأصوله ، وكان ممن يقولون بالتناسخ ففرح الحاكم بهذه الرسالة ، وقرب الدرزى اليه وأجزل له العطاء ، وعهـد اليه بالاشراف على شئون الدولة ، بحيث اصبح الوزراء والقواد أصحاب الحاجات يقفون على بابه حيث لم يكن يقضى عمل الا على يديه .

وتمادى الدرزى فأعلن دعوته فى الجامع الأزهر .

ومن جديد أهاج هذا التصرف المصريين من أهل السنة ، بل ومعتدلى المذهب الشيعى ، فراحوا يتعقبونه لقتله كما قتلوا صاحبه من قبل ، ولكن الدرزى لجأ الى قصر الحاكم فذهبت الجموع وعلى رأسها فرق من الجيش واحاطت بقصر الحاكم وراحت تطالب بتسليمه . ونفى الحاكم للجند والشعب أن يكون الدرزى فى قصره ،

وراح يدبر لتهريب الدرزى من مصر ، على أن يذهب الى الشـــام وينشر دعوته بين الجبال ، وزوده بالأموال اللازمة . وقـــد نجح الدرزى بالفعل فى الوصـــول الى بلاد الشام واستطاع أن يجمع حوله العديد من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون منذ هذا التاريخ باسم الطائفة الدرزية .

١٠٢٠ م / ٤١١ هـ : الحاكم ينتقم من الشعب :

على أن الحاكم أبى الا أن يأخذ بثأره من جماهير الشعب التى احاطت بقصره غاضبة مهددة ، فقد أطلق جنوده من السودانيين على أهل الفسطاط من جديد ، لكى ينهبوا ويقتلوا ويخربوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويعيد الحرية الدينية لأهل الذمة :

وكأنه اراد ان يقيم شيئا من التوازن فى سياسته حتى يضم اليه بعض عناصر الشعب ، فقد أطلق فى هذه الفترة نفسها حرية ممارسة الشعائر الدينية للنصـــارى واليهود ورد ما أخذ منهم من أوقاف الكنائس والأديرة ، وسمح للمسيحيين أن يجددوا بناء كنائسهم وأديرتهم . وذلك كله فى مرسوم ، أحتفظ بنصه يحيى بن ســـعيد الانطاكى فى تاريخه .

ست الملك أخت الحاكم تنقذ البلاد منه :

ورات ست الملك أخت الحاكم ، أن تضع حدا لتصرفات الحـــاكم المجنونة والتى شقيت منها البلاد والعباد بقتله . وقد فصل المؤرخون الكيفية التى انتهت بها حياة الحاكم وقد استعرض أبو المحاسن هذه الأقوال ، وقد اخترنا منها قول ابن الصابىء لوضوحها وتكاملها ، يقول :

لـــا بدت من الحاكم هذه الأمور الشنيعة ، استوحش منه الناس ــ وكانت له اخت يقال لها ست الملك من أعقل الناس واحزمهن ، فكانت تنهاه وتقول له يا أخى : احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك ، فكان يسمعها غليظ القول ويتهددها بالقتل وبعث اليها يقول : رفع الى أصحاب الأخبار انك تدخلين الرجال اليك وتمكنينهم من نفسك ، وعمل على انفاذ القوابل لاستبرائها ، فعلمت أنها هالكة معه .

فاتفقت مع سيف الدولة بن رواش شيخ كتامة على قتله . وكان قتل الحـــاكم من أيسر الأمور ، ذلك أنه دأب على أن يذهب الى المقطم كل ليلة (١) راكبا حمـــارا غير مصطحب كبير حرس . ولذلك فقد تربص به نفر من العبيد الذين أعدهم ابن رواش ، وقتلوا الحاكم ، وحملوا جثته لسيدهم .

فلما طال غياب الحاكم عن العودة ، بحث عنه أرباب الدولة فوجدوا حماره مقتولا ،

---

(١) كان الحاكم قد انشأ فوق جبل المقطم مرصدا لرصد النجوم .

ووجدوا آثار اقدام فتتبعوها حتى وصلوا الى بركة حلوان فوجدوا فيها ثيابه وبها اثر ضرب السكاكين فتيقنوا من قتله .

وتمضى القصة بعد ذلك ، فتحدثنا عن دهاء ست الملك وكيف استطاعت ان تتخلص بعد ذلك من ابن رواش وكل من كانت له يد فى قتل الحاكم ، حتى يظل سرها مدفونا.

وبهذا انطوت صفحة هذا الحاكم العجيب الذى جمع المتناقضات والذى يعتبر صبر المصريين على احكامه الشاذة احـــدى خصائصهم التى امتازوا بها وهى قوة الاحتمال والصبر .

ويقول الدكتور سرور أن يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى بدأ فى كتابة تاريخـه سنة ٤٠٥ هـ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئا عن صلة أخته بهذا الحادث وأن المقريزى قال ان اتهام ست الملك بقتل أخيها جاء من كلام مشارفة المؤرخين ، وزاد على ذلك فروى رواية تتلخص فى أن رجلا من أحد بلاد الصعيد ظهر عام ٤١٥ هـ ، أى بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى انه قتل الحاكم ، وكون سعيد الانطاكى لم يذكر شيئا عن علاقة ست الملك بمقتل الحاكم ، فتفسير ذلك واضح من القصـة نفسها وهو أن الأمر قد تم سرا ، وأن ست الملك قد أحكمت خطتها فقضت على كل من اشتركوا فيها . ومثل هذه الأمور بطبيعتها لا تعرف وتشاع الا بعد مدة طويلة ، حيث تتسرب الحقائق بالتدريج . وأما القول بأن انسانا ما ادعى بأنه قاتل الحاكم ، فهذا ليس بشىء .

وانما الذى يقطع بأن نهاية الحاكم قد تمت على الصورة التى تواترت بها أقوال المؤرخين كما قدمناها ، هو الدور الكبير الذى لعبته ست الملك بعد مقتل الحاكم ، وهى تنزع من ولاية العهد عبد الرحيم بن الياس ، وتحمل القواد والجند على مبايعة ابن الحاكم ، وتوليها الوصاية عليه وتدبير ملكه . فليس هناك ما يفسر اضطلاعها بهذا الدور الخطير ، الا أن تكون هى التى وضعت حدا لحياة الحاكم ، فأصبح من حقهـا وفى قدرتها تنظيم الحكم من بعده .

وكانت وفاة الحـاكم فى يوم الاثنين ليلة السـابع والعشرين وكان عمره يوم قتل ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر حكم منها خمسا وعشرين سنة .

يقول الذهبى على ما نقله عنه ابن إياس : ولمـا قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لابد ان يظهر فى آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وانه هو المهدى لا محالة . ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم .

أما ستانلى لين بول فيقول لنا : وحتى اليوم يعبـد الدروز فى لبنان « الحكمة الالهية » كما تمثلت فى شخصية الحاكم الشاذة غير الجديرة بالاعتبار ، ويعتقدون انه فى يوم من الأيام سيعود فى جلال ليظهر الحقيقة ويحكم بالعدل .

عبد الرحمن بن يونس :

ولن يكمل تاريخ عصر الحاكم دون أن نشير الى شخصيتين ترمزان الى انه وسط حياة الحاكم العاصفة ، فقد شجع بعض العلماء وعلى رأس هؤلاء عبد الرحمن بن يونس أعظم فلكى ظهر فى تاريخ مصر الاسلامية . وقد كان العزيز هو أول من قدر شأنه فبنى له مرصدا خاصا جنوب الفسطاط ليقوم فيه برصـد الكواكب واجراء بحوثه . وقد سجل عبد الرحمن بن يونس بحوثه فيما اشتهر باسم الزيج الحـاكى والذى بدأه فى عهد العزيز وأتمه فى عهد الحاكم . ويقول الأستاذ حافظ قدرى طوقان ان ابن يونس قد سبق غاليليو بستة قرون فى اختراع بندول الساعة .

الحسن بن الهيثم :

كما وفد على مصر فى عهد الحاكم (الحسن بن الهيثم) المهندس والعالم الاسلامى الرياضى الكبير . وقد نقل عنه مرة قوله : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . ووصل الى علم الحاكم هذا القول ، وكان يغـرم بهذا اللون من الأبحاث العلمية فأرسل للحسن بن الهيثم مالا ورغبه فى الحضور الى مصر . وعند وصوله خرج الحاكم بنفسه للقائه خارج القاهرة وزوده بما طلب من مال وعمال ومساعدين . وتنقل ابن الهيثم فى مصر حتى وصل الى جنادل أسوان (١) .

ولا نعرف ماذا فعـل ابن الهيثم بعد ذلك أو قال ، ويبدو انه لم يوفق لتنفيـذ مشروعه فخشى بأس الحاكم ، فتظاهر ابن الهيثم بانه أصيب بالجنـون . فحجز فى منزله وظل على ذلك الى أن قتل الحاكم فاظهر العقل ثانية وخرج من داره .

١٠٢٠ م ــ ٤١١ هـ : خلافة الظاهر لاعزاز دين الله :

قدمنا القول ان ست الملك تجاهلت ولى العهد الذى كانت ولايته تعتبر خروجا على المذهب الاسماعيلى واستطاعت أن تجمع القـواد والأمراء حول تولية أبى الحسن على بن الحاكم ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وكانت سنه يوم ولى الخلافة ست عشرة سنة وثمانية اشهر . واختلف فى يوم توليته فقيل انه ولى فى السابع والعشرين من شوال وقيل بل كانت توليته يوم النحر ، لأن رجال الحاشية وقواد الجنـد ظلوا يترقبون ظهور الحاكم فترة من الزمان حتى تحقق لهم موته .

وقد امتد سلطان الظاهر على المنطقة من الفرات حتى المحيط الأطلسى ، وضربت باسمه الدنانير التى لا يزال بعضها موجودا حتى الآن فى مدن مصر والاسـكندرية والمنصورة والمهدية وزويلة وفلسطين وعكا وصقلية .

---

(١) مجرد توقف ابن الهيثم عند أسوان ، يدل على انه أدرك بحاسته الفنية ان مشروعات النيـل يجب أن تكون عندها .

ست الملك تحسن تدبير الملك :

وقد قامت عمة الظاهر ست الملك بتدبير المملكة احسن تدبير فبذلت العطاء للجند وساست الناس أحسن سياسة . ووجهت الظاهر الى الغاء كل ماكان الحاكم قد أصدره من أوامر وقيود وإجراءات شاذة . وأصدر أمانا لاهل الذمة أعلن فيه حريتهم فى عقائدهم وشعائرهم وانه لا اكراه فى الدين ، وأن من احب منهم ان يدخل الاسلام اختيارا وهداية من الله فليفعل مقبولا مبرورا ، ومن آثر البقاء على دينه فله ذمته . وأعاد للأقباط احتفالاتهم الدينية وخاصة الاحتفال الكبير بليلة الغطاس التى كان المعز قد أمر بابطالها لما كان يجرى فيها من منكرات . وقيل أن الظاهر قد سمح بعودتها ليتفرج على ما كان يجرى فيها .

١٠٢٣ م ـ ٤١٤ هـ : الظاهر يبرأ من دعوة الالوهية :

كان قد وقع فى موسم الحج لعام ٤١٣ هـ حادث كان له صدى عميق فى العالم الاسلامى ، حيث اعتدى رجل من أتباع الحاكم من أهل البصرة ـ وكان فى ركب الحجاج المصريين ـ على الحجر الأسود بأن ضربه بدبوس ثلاث ضربات متواليات فتطايرت منه بعض الشظايا وهو يقول آلى متى نعبد هذا الحجر واضاف على ما يقول ابن كثير :

ولا محمد ولا على يمنعنى مما افعله ، فأنى أهدم اليوم هذا البيت . فتكاثر الناس عليه وقتلوه وقتلوا كل من كان ضالعا معه من الحجاج المصريين . وكادت ان تقع فتنة كبيرة لولا أن تدخل العقلاء واستطاعوا تهدئتها فى الوقت المناسب .

وعندما وصلت هذه الاخبار الى الظاهر ، أصدر بيانا تبرأ فيه من هذا الحادث ، وانتهز الفرصة ليندد بالذين غالوا فى تأليه على بن أبى طالب ، ووصفهم بأن شأنهم فى ذلك شأن النصارى الذين ألهوا المسيح ثم قال : ونجمت من هؤلاء الكفرة فرق سخيفة العقول ، ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، تغلو فينا غلوا كبيرا وقالوا فى أجدادنا وآبائنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الاشنع وحبهم المستفظع ، الى ما لا يليق بنا ذكره ، وانا نتبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الكفرة الفجرة .

ثم يمضى البيان معددا الاجراءات التى اتخذت للضرب على أيدى هذا النفر وتشريدهم .

١٠٢٤ م ـ ٤١٥ هـ : وفاة ست الملك :

ماتت الأميرة الجليلة ست الملك بعد أن ساست الدولة أحسن سياسة ، ووطدت أركان الحكم لابن اخيها . وقد ذكر ابن اياس أنها خلفت وراءها ، كبقية أميرات البيت الفاطمى موجودات عظيمة من المال والجواهر والقماش والتحف مما لا يحصى لكثرته. وكان من بين ما تركته أربعة آلاف جارية بيضاء وسوداء ومولدات وغير ذلك .

تولى على بن أحمد الجرجرائى الوزارة :

استوزر الظاهر بعد وفاة عمته نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى ، وكان الحاكم بأمر الله قد قطع يدى هذا الوزير من المرفقين ، ولذلك فقد كان يكتب عنه العلامة القاضى أبو عبد الله القضاعى .

وقد ندد بعض الشعراء بالجرجرائى بقوله :

أمن الأمـــانة والتقى   قطعت يداك من المرافق

١٠٢٦ م — ٤١٧ هـ : وقوع مجاعة فى مصر :

يقول ستانلى لين بول ، أن النيل قد قصر فى هذه السنة عن ان يبلغ ارتفـاعه المعتاد لرخاء البلاد ، فقلت الارزاق وعزت الاقوات ، وارتفعت بالتالى الاسعار ، ولم يستطع عامة الشعب ان يحصلوا على اقواتهم الا ببيع مالديهم من اثاث ، ولكنهم لم يجدوا مشترين ، فحاق بهم المرض ومات الكثيرون منهم . بينما تحول الاقوياء الى قاطعى طريق ينهبون كل ما تمتد اليه أيديهم ، ولم يعفوا حتى قوافل الحجـــاج . واجتمعت الجماهير حول قصر الظاهر وهم يصيحون « الجوع الجوع يا أمير المؤمنين ، لقد جرى مالم يقع فى عهد أبيك وجدك » .

ومن ناحية أخرى لم يقبض الجنود مرتباتهم فتحولوا الى جماعات وعصابات تنهب المواطنين ، فهب المواطنون وتسلحوا للدفاع عن انفسهم . واذن لهم الحاكم فى قتل الجنود المعتدين .

ووقف الوزير الجرجرائى عاجزا ، فحبس نفسه فى بيته . ولم ينقذ الموقف الا ان الحول كان قد حال وعاد النيل بسخائه ، فاختفت المجاعة وباختفائها عاد الأمن الى الاستتباب .

المحافظة على الثروة الحيوانية :

وكان يمكن أثنـاء القحط السابق أن تفنى الثروة الحيوانية من البلاد ، لولا ان الظاهر أصدر أمرا بمنع ذبح البقر الخالى من العيوب والصالح للحرث وكان مما جاء فى هذا الأمر الذى قرىء على الناس ليعملوا به :

« ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الانعام ، وعمل منها منافع للناس ، فوجب أن نحمى البقر المخصوصة بعمارة الارض ، المذللة لمصالح الخلق ، فان ذبحها غاية فى الفساد واضرار للعباد والبلاد » .

١٠٢٧ م — ٤١٨ هـ : معاهدة مع بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة :

وفى هذه السنة مضى الظاهر فى اصلاح ما افسده أبوه ، فأبرم معاهدة مع امبراطور

بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس . فى مقابل ان يدعى للظاهر فى جميع المساجد القائمة فى املاك الدولة البيزنطية وخاصة فى مسجد القسطنطينية .

١٠٢٩ م ـــ ٤٢٠ هـ: ثورة صالح بن مرداس فى الشام :

خرج أسد الدولة صالح بن مرداس وحسان بن الفرج بن الجراح فى الشام على سلطان الظاهر ، وجمعا الجموع واستوليا على مدن الشام وانتهيا الى مدينة غزة فجهز الظاهر لحربهما جيشا وضعه تحت امرة أمير الجيوش التركى المعروف بالوزيرى فانتصر عليهما ودخل دمشق ، وبعث الى الظاهر يهنئه بالنصر مع رأس ابن مرداس ، ويصف له الملحمة التى خاضها .

١٠٣٦ م ـــ ٤٢٧ هـ : وفاة الظاهر :

فى يوم الاحد النصف من شعبان توفى الظاهر وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة ، وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة شهور .

يقول أبو المحاسن وكان الظاهر جوادا ممدحا سمحا حليما محببا للرعية ، ولا بأس به بالنسبة لآبائه وهو الذى بنى قصر اللؤلؤة عند باب القنطرة وهو من القصور المعدودة فى القاهرة .

ويزيد المقريزى على قول أبى المحاسن أن الظاهر كان شغوفا باللهو محبا للغناء فتأنق الناس فى ايامه فى مصر واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما . وقد علم مماليكه انواع العلوم وسائر فنون الحرب . واتخذ خزانة البنود واقام فيها ثلاثة آلاف صانع وراسل الملوك واستكثر من شراء الجواهر وكانت مملكته بافريقيا ومصر والشام والحجاز .

خلافة المستنصر بالله :

بويع للخلافة بعد موت الظاهر ابنه أبو تميم معد الملقب بالمستنصر . وكانت سنه لا تتجاوز سبع سنوات وسبعة أشهر ، وكان مقدرا لهذا الخليفة الذى ولى الحكم بهذا الصغر أن يكون هو أطول من حكم من الملوك فى تاريخ الاسلام كله ، حيث جلس ستين سنة .

واذا كان النصف الثانى من حكمه الطويل ، قد شابته الفوضى بسبب القحط الذى عم البلاد سنوات متوالية واستبداد الوزراء بالأمر ، فان النصف الأول من حكمه الطـويل يمثل ذروة ما وصل اليه الحكم الفاطمى من الغنى والسلطان وانتشار النفوذ .

وكانت أم المستنصر جارية سوداء مملوكة لابى سعد التسترى اليهودى ، قبل أن تؤول الى الخليفة الظاهر ، فلما أن أصبح ابنها خليفة ، استعانت بسيدها القديم ابى سعد التسترى فاتخذت منه وزيرا لها يساعدها على مزاولة السلطان الذى هيأه لها صغر سن ابنها . كما استعانت من ناحية أخرى ببنى جنسها من عساكر السودان فاستكثرت منهم واعتزت بهم ، وتقوت بعصبتهم لها . على أن نفوذها الحقيقى فى ادارة الدولة لم يبدأ الا بعد وفاة الوزير الجرجرائى ابو القاسم على بن أحمد .

١٠٣٧ م ــ ٤٢٨ هـ : وفاة عالم الاسلام وفيلسوفه ابن سينا :

فى هذه السنة مات عالم الاسلام وفيلسوفه وطبيبه الحسن بن عبد الله بن سينا الملقب بالرئيس ، يقول ابن كثير كان بارعا فى الطب فى زمانه ، وأبوه من أهل بلخ وانتقل الى بخارى واشتغل بها مفسرا للقرآن واتقنه وهو ابن عشر سنين ، وأتقن الحساب والجبر والمقابلة واقليدس والمجسطى ثم اشتغل على أبى عبد الله الناتلى الحكيم أى الطبيب ، فبرع فيه وفاق أهل زمانه فى ذلك وتردد الناس اليه واشتغلوا عليه وهو ابن ست عشرة سنة وعالج بعض الملوك السامانية وهو الأمير نوح بن نصر ، فمنحه جائزة سنية ، وحكمه فى خزانة كتبه .. وهكذا بدأ فيض علمه ــ قال ابن خلكان : له نحو من مائة مصنف منها القانون والشفا والنجاة والاشارات .

وقد نقلت كتبه الى اللغة اللاتينية ، تقول دائرة المعارف البريطانية أن كتب ابن سينا ظلت تدرس فى الجامعات الأوربية عدة قرون وقد ترجم كتابه القانون (فى الطب) لأول مرة فى القرن الثانى عشر وكان مترجمه هو جيرار وقد طبعت هذه الترجمة خمس عشرة مرة قبل عام ١٥٠٠ م ثم أعيدت ترجمة الكتاب عام ١٥٢٧ م وتتابعت بعد ذلك الطبعات من هذه الترجمة الجديدة .

ولقد قدر لى شخصيا ان اطالع كتاب القانون فى الطب فاشهد لقد بهرنى وارانى الفارق بين طبيب اليوم وطبيب الأمس . فطبيب اليوم لا يستطيع أن يشخص مرضا الا بعد سلسلة من التحليلات والرسوم تقوم بها الآلات .. أما الطبيب ابن سينا ومن سار على مدرسته فكان عليه هو أن يعرف من خلال جس النبض ، وجس الحرارة ، ومتابعة الأنفاس ورؤية البول وباقى الفضلات ، أن يشخص المرض .. وأن الانسان ليذهل عندما يرى كيف يقسم ابن سينا النبض على سبيل المثال الى عشرات من الحالات .

وسيظل ابن سينا واحدا من العمالقة الذين أثروا فى تكوين العلم الأوربى الحديث.

١٠٤٤ م ــ ٤٣٦ هـ : وزارة الفلاحى :

ولى الوزارة بعد موت الجرجرائى تاج الرئاسة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وقد كان يهوديا وأسلم . وقد تم ترشيحه للوزارة بناء على اقتراح أبى سعد التسترى

اليهودى وزير أم المستنصر . ولكن الفلاحى لم يحفظ الجميل لصاحب النعمة عليه بل ضاق بسلطانه ومحاولته التسلط على الحكم من خلاله ، فتخلص منه جريا على قاعدة هذا الزمان بأن حرض عليه جنود الأتراك فقتلوه .

١٠٤٨ م - ٤٤٠ هـ : مقتل الفلاحى :

وغضبت أم المستنصر لقتل وزيرها وسيدها القديم وراحت تدبر للانتقام من قاتله .. واذا كان جنود الاتراك هم الذين قتلوا التسترى ، فان جنودها السودانيين يستطيعون أن يقتلوا الفلاحى وقد تم لها ما أرادت .. وهكذا وقف الجنود السودانيون فى مواجهة الجنود الأتراك ، كل ينحاز الى الجانب الذى يراه يزيد فى سلطته .

ومضت أم المستنصر فى خطتها من الاستكثار من جند السودان .

١٠٤٩ م - ٤٤١ هـ : رحلة ناصر خسرو الى مصر :

استقر الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى مصر وتعلق قلبه بحبها كما لم يتعلق بأى من البلاد التى زارها فى الشرق أو الغرب . وقد وجد ناصر خسرو مصر فى هذه الفترة فى رخاء لا مثيل له فى كل البلاد التى زارها حتى لقد تصور أن مرجع ذلك لابد وأن يكون هو أخذها بالمذهب الاسماعيلى ، ولذلك فقد اعتنق المذهب الاسماعيلى ابان وجوده فى مصر ، ولابد أن علاقته بالخليفة المستنصر كانت على أتم ما يرام .

واهمية ناصر خسرو بالنسبة لنا ، انه ترك لنا وصفا شائقا لأحوال مصر فى هذه الفترة ابتداء من مدينة تنيس فى أقصى الشمال حتى مدينة أسوان فى أقصى الجنوب ولا يكاد وصف ريف مصر فى هذه الأيام البعيدة يختلف كثيرا عن حالة القرى حتى فى عصرنا الحديث .. ولكن ما ذكره عن القاهرة وقصورها والفسطاط وتجارتها وموكب الخليفة جدير أن يشار اليه لاعطاء صورة حية عن هذا العصر الفاطمى وقد بلغ ذروته .

« ويوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان كلها ملك للسلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير فى الشهر . وكان فيها من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره وهى كلها ملك للسلطان . وقد روى لى أن بالقاهرة والفسطاط عشرين الف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة .

قصر السلطان :

أما قصر السلطان نفسه فقد كان وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها . وكان يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسان وخمسمائة حارس من الرجالة ، وكانت أسواره عالية ، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة

بينما يبدو من خارجها كالجبل . وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها . وقيل لى أن عدد من يقيمون بالقصر ٣٠ الفا من بينهم ١٢ الف خادم .

وللقصر عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا لكى يصل الى قصره الآخر .

أبواب القاهرة :

وللقاهرة خمسة أبواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وباب القنطرة وباب الخليج . وليس للمدينة سور محصن (يبدو أن السور الذى بناه جوهر كان قد تهدم) ولكن ابنيتها كانت اعلى من الأسوار المحصنة وفى كل منها خمس او ست طبقات فكأنها القلاع الضخمة . وكانت البيوت فى المدينة مبنية بناء نظيفا محكما ، وكانت مفصولة عن بعضها بالحدائق التى ترويها مياه الآبار .

وأيام اقامتى بالقاهرة كان أجر المنزل العادى ذى الأربع طبقات أحد عشر دينارا بالشهر . والمنزل الذى أقمت به كانت فيه ثلاث طبقات مأهولة ، فطلب منى صاحبه خمسة دنانير فى الشهر أجرة الطابق الرابع .

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقاؤون على جمال يبلغ عددها ٥٢ ألفا ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول .

وانتقل ناصر خسرو الى الفسطاط .

الفسطاط :

فى الفسطاط بيوت من اربعة عشر دورا وبعضها من سبع طبقات ، وقد سمعت ممن يوثق به ، أن ثمة رجلا أنشأ حديقة على سطح بيت ذى سبعة أدوار . وفى مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصا ، وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء بها المصابيح باستمرار لأنها مسقوفة فلا يصل اليها ضوء الشمس .

الأسواق والحركة التجارية والأعياد :

ويسهب ناصر خسرو فى وصف الحركة التجارية الواسعة النطاق فى الفسطاط ، ومدى الازدحام بها ، وبهجة الأعياد فيها ويعلق على ذلك كله بقوله : لو وصفت هذه الأعياد لما صدقنى كثير من الناس ولرمونى بالمبالغة والاغراق .

فان حوانيت القصارين (الملابس) والصياغ والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلى والبضائع والأقمشة من الحرير والقصب لدرجة أن لا يجد فيها المشترى محلا يجلس فيه .

البيع باسعار محددة :

ومما لفت نظرى أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة وان الذى يغش كانوا يركبونه جملا ويضعون فى يده جرسا عليه أن يدقه بنفسه ويطوفون به البلد ، وهو يصيح بأعلى صوته : لقد كذبت وها أنذا ألقى عقابى ، جزى الله الكاذبين .

ركوب الحمير :

وكان التجار يركبون الحمير التى توجد فى كل مكان لتأجيرها وكان عدد الحمير فى الفسطاط يبلغ خمسين الفا .

الصـــناعة :

وتحدث ناصر خسرو عن صناعة القيشانى ، وصناعة الزجاج وصناعة الزيوت والنسيج .

حفلة قطع الخليج :

وقد شاهد ناصر خسرو الخليفــة المستنصر فى أحــد مواكبه وهو يركب لحفلة قطع الخليج فقال لنا عنه : انه شاب صغير لطيف المحيا حليق الذقن يرتدى فى بساطة قفطانا أبيض وعمامة وعلى رأسه مظلة مرصعة بالجواهر الثمينة واللآلىء يحملها كبار الموظفــين ويتبعه ٣٠٠ جنــدى من الفرس الديلم مترجلين وهم مسلحون بالبلط ، والخصيان على الجانبين يطلقون البخور من مجامر فى أيديهم .

وكان القاضى يسير وراء الخليفة هو وحشد من الأطباء وكبار الموظفين .

وبعــد ذلك تجىء فرق الجيش وأولهـــا كتامة البربرية وعــددهم عشرون الف جندى . ثم جيش قبيلة باتله وهم مغاربة استوطنوا مصر قبل قدوم المعز وعددهم خمسة عشر الفا .

وتأتى بعد ذلك المصامدة وهم جنود السودان وعددهم عشرون الفا . ثم المشارقة وهم جنود الترك والفرس وعددهم عشرة آلاف ولهم هيئة فخمة .

ثم يأتى بعد ذلك عبيد الشراء وهم الرقيق المشترى فى الســـوق ويقدر عددهم بثلاثين الفا .

ويذكر ناصر خسرو فرقا أخرى يقــدر عــددها بعشرات الألوف ، ولا شك أن الذى كان يمر فى الموكب هو قطاعات من هــذه الفرق وليست كلها ، كمــا يحدث فى العصر الحديث ، وان هذه الأرقام انما تتحدث عن مجموع قوة الجيش بفرقه المتعددة.

السفراء والزوار الأجانب :

ويضيف ناصر خسرو أنه كان يسير فى موكب الخليفــة أمراء وضيوف وزوار من المغرب واليمن والنوبة والحبشة ــ ومن الروم ومن سلافونيا وجورجيا ومن التتار الذين جاءوا من التركستان وأولاد ملك دلهى .

يخشى أن لا يصدقه أحد :

ويختم ناصر خسرو وصفه لمــا شاهده فى مصر من ثروات وأموال غزيرة ، انه يخشى أن لا يصدقه أحد من بلاد العجم اذا هو حاول وصفها .

١٠٥٠ م – ٤٤٢ هـ : وزارة البازورى :

فى هذه السنة تقلد الوزارة قاضى القضاة ابو محمد البازورى ، ولقب بسيد الوزراء خطير الملك وهكذا بدات القاب الوزراء تتفاقم ، وان ظلت الظاهرة التى تسودها انها وقف على اهل القلم لا السيف . وانها وزارات تنفيذ ، حيث كان مرجع السلطة كلها هو الخليفة .

وقد اشتهر البازورى بأنه كان يأخذ بمذهب الشورى فيشاور ثقاته وأصفياءه فى شتى الأمور .

الدعوة للمستنصر فى اليمن :

وفى هذه السنة (على خلاف بين المؤرخين) دعا على بن محمد المصيلحى فى اليمن للخليفة المستنصر وبعث اليه بالأموال والهدايا الثمينة ، فبعث له المستنصر بالرايات وعقد له الولاية على اليمن ، فطوى البلاد طيا وفتح الحصون والتهائم ، ولم تخرج سنة ٤٥٥ حتى كان قد فتح مكة نفسها .

١٠٥١ م – ٤٤٣ هـ : المعز بن باديس الصنهاجى يستقل بالمغرب :

على أن هذا النجاح فى المشرق ، قابله تدهور فى المغرب حيث رغب المعز بن باديس الصنهاجى فى الاستقلال عن مصر . فقطع الخطبة عن المستنصر ودعا للقائم بأمر الله العباسى واعتنق المذهب السنى .

وقد ارسل المستنصر قبائل بنى هلال لمحاربة المعز بن باديس ، فاحتلت برقة وطرابلس ، واستقرت بها منتصرة على ابن باديس فى أكثر من معركة ، ولكنه ظل صامدا فى مدينة المهدية سادا بذلك الطريق على الفاطميين والوصول الى الغرب ، متيحا بذلك الفرصة لسقوط جزيرة صقلية بعد حين .

١٠٥٢ م – ٤٤٤ هـ : بغداد تعود الى حرب الدعاية والتشهير :

ومرة أخرى لم تجد بغداد ما ترد به على اعتراف اليمن بسلطة الخليفة الفاطمى الروحية ، الا أن تعود للتشهير بنسب الفاطميين ، فجمع الخليفة القضاة والفقهاء والأشراف ، وكتبوا محضرا أنكروا فيه نسبة الفاطميين الى على بن ابى طالب ، وبعثوا بهذا المحضر الى الآفاق .

١٠٥٤ م – ٤٤٧ هـ : قصور فيضان النيل :

قصر النيل فى هذه السنة لرابع مرة عن بلوغ الغاية ، فلا عجب اذا اكفهر جو مصر وانتشرت بها المجاعة ويبدو أن هذا الجفاف والقحط كان عاما فى منطقة الشرق

الاوسط ، اذ يقول لنا أبو المحاسن ، عم الوباء مصر وبغداد والشام والدنيا كلها ، وكان الناس يأكلون الميتة وبلغ سعر الرمانة والسفرجلة دينارا وكذا الخيار وانقطع ماء النيل بمصر وكان يموت بها كل يوم عشرة آلاف .

على أن ذلك لم يكن الا ارهاصا لما ستعانيه مصر بعد قليل مما سيطلق عليه اسم الشدة العظمى .

١٠٥٧ م ــ ٤٤٩ هـ : وفاة أبو العلاء المعرى :

فى يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول ، مات الشاعر الكفيف المشهور صاحب اللزوميات أبو العلاء المعرى فى بلدته المعرة فى شمال الشام . ولم يثر شاعر عربى ما أثاره أبو العلاء من الجدل ، فثمة قوم يغلون فى حبه واعزازه حتى ليجعلون منه شاعر العربية الأكبر والأوحد (١) .

وهناك من لا يرون فى المعرى الا كافرا زنديقا ، ويقولون انه حاول فى كتابه « الفصول والغايات » أن يتحدى القرآن ومعارضته بالسور والآيات .

وينقل ابن كثير بعض أشعاره تدليلا على كفره ، ننقل منها بدورنا :

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل	وترزق مجنونا وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرىء	رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

أو قوله :

فلا تحسب مقال الرسل حقا	ولكن قول زور سطروه
فكان الناس فى عيش رغيد	فجاءوا بالمحال فكدروه

على أن أعداء أبى العلاء ومحبيه ، يتفقون على زهده وتقشفه وكيف عاش خمسا واربعين سنة لا يأكل اللبن أو البيض ولا يتقوت الا بالنبات . كما يجمعون على ذكائه المفرط . ولأبى العلاء مكانة خاصة عند الأوربيين وقد كتبت بعض الرسائل فى أن دانتى ــ فى كتابه الشهير « الجحيم » ــ انما تأثر برسالة الغفران التى ألفها أبو العلاء (٢) .

ولا جدال عندنا فى أن أبا العلاء يرمز لما كان المجتمع الاسلامى قد وصل اليه من تطور وتعقيد ، بعد امتزاج الحضارات الاغريقية والمسيحية والهندية واليهودية وغيرها فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

---

(١) كان على رأس هؤلاء من اخواننا المعاصرين الاستاذ كامل الكيلانى ، ويعتبر الدكتور طه حسين ــ لظروفه الخاصة ــ أول من أثار الاهتمام فى العصر الحديث بأبى العلاء المعرى .

(٢) عبدالرحمن بدوى ــ دور العرب فى تكوين الفكر الاوربى (المستشرق الاسبانى أسين بلاثيوس) .

١٠٥٨ م ــ ٤٥٠ هـ : الخطبة للمستنصر فى بغداد والعراق :

دخل ارسلان التركى المشهور باسم البساسيرى بغداد فى يوم الأحد الثامن من ذى القعدة وهو يحمل الرايات البيض المصرية وعلى رأسه اعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين ، فاستولى على بغداد وأذن للصلاة بحى على خير العمل وخطب فى المساجد على المنابر للخليفة المستنصر وضرب السكة الذهب والفضة باسمه .

وهكذا تكللت ثورة البساسيرى التى كان قد أعلنها على الخليفة العباسى وسلاطين آل بويه منذ عام سابق الى ذروتها .

ويجمع المؤرخون على أن البساسيرى سار فى حكمه مسيرة حسنة أرضى بهـا الشيعيين والسنة .

وقد أرسل البساسيرى الى الخليفة المستنصر ثياب الخليفة العباسى القـائم وعمامته وغير ذلك من الأموال والتحف . فارتجت مصر لهـذا الحـدث ، وأقيمت الاحتفالات العامة فى أرجاء البلاد احتفالا بهذا النصر .

وقد غنت للمستنصر احدى جواريه بمناسبة هذا النصر فقالت له :

يا بنى العبـاس صـدوا	مـلك الأمـر معـد
ملـككم كان معـارا	والعـوارى تسـترد

فطرب المستنصر لهذا الشعر والغناء ، حتى لقد وهبها أرضـا بمصر على سبيل الجائزة ، كانت هذه الأرض تعرف حتى زمن أبى المحاسن بأرض الطبالة ، وكانت على ما يقول بالقرب من بركة الرطلى .

وقد واصل البساسيرى انتصاراته ، فخطب باسم المستنصر فى الموصل والبصرة وواسط وغيرها من بلاد العراق .

ولكن المستنصر الذى فرح بالنصر فى بادىء الامر ، وقف منه بعد ذلك موقفا يحير المؤرخين ، فقد قبض يده عن البساسيرى ولم يمده بالجيوش أو الأموال .

طغرلبك السلجوقى يقضى على البساسيرى :

استغاث الخليفة العباسى بالسلطان طغرلبك التركى السلجوقى الذى كان قد ملك على بلاد فارس وايران ، مبتدئا بذلك عهد السلاجقة المزدهر . فخف طغرلبك الى نجدة الخليفة ودخل بغداد ولم يستطع البساسيرى مقاومته فقضى عليه ، وبذلك انتهى هذا الانتصار الفاطمى الذى لم يزد على عشرة شهور .

وقد أعاد طغرلبك السلجوقى الخليفـة العباسى الى العرش والى ما كان عليه مجردا من كل سلطة فعلية ، وان كان السلاجقة على خلاف البويهيين احاطوا شخص الخليفة بكثير من التكريم .

مقتل البازورى الوزير المصرى :

وفى هذه السنة قبض على الوزير وقاضى القضاة البازورى وقتل بمدينة تنيس بعد أن كان قد استقر فى الوزارة لمدة ثمانى سنوات ، قام فيها بالكثير من الاصلاحات لتحسين أحوال البلاد الاقتصادية .

وكان محبا للعلم والفنون ، على أن لين بول يتهمه بأنه لم يكن محبا للنصارى وأنه اضطهدهم وحبس البطريرك وكثيرا من القساوسة وفرض عليهم مبلغا كبيرا من المال. وباختفاء شخصية البازورى لم يستقر منصب الوزارة لأحد ، وبدأ عديد من الأشخاص يتداولون المنصب ويعفون منه ثم يعودون اليه ، بعد أن رئى أن لا لزوم لقتلهم .

١٠٦٣ ــ ٤٥٧ هـ : بدء الشدة الكبرى فى مصر :

بدأ انخفاض النيل هذه السنة انخفاضا شديدا على خلاف المعتاد ، وظل انخفاضه يتوالى طوال سبع سنوات ذكرت المصريين بما ذكره القرآن عن السبع السنوات العجاف أيام يوسف الصديق . فقد تضافر القحط مع اختلال الامن الذى نشأ من عراك أجناس الجيش المختلفة .

فقد أجلى نصر بن حمدان رئيس الجيش بمساعدة العناصر التركية ، الجنود السودانية الذين كان عددهم قد بلغ الخمسين ألفا وطردهم من القاهرة والفسطاط فالتجأوا الى الصعيد وراحوا يعيثون فيه فسادا ويمنعون وصول الغلات الى مصر .

ولم تكد العناصر العسكرية تتخلص من السودانيين حتى استبد ناصر الدولة بن حمدان بالأمر ، واستخدم سلطانه الجديد فى سلب الخزانة العامة ، واغداقها على الجنود الأتراك ، فارتفعت مرتباتهم من ٢٨ ألف دينار فى الشهر الى أربعمائة ألف دينار فى الشهر .

واستطال ابن حمدان على بقية زملائه ، فحرضوا الخليفة على عزله واستطاع الخليفة المستنصر بالفعل فى حركة شجاعة أن يطرد ابن حمدان من القاهرة ، فانسحب الى الاسكندرية ، حيث تزوج من عرب لواته وعقد معهم معاهدة ، فأصبح له جيش من اربعين ألف مقاتل ، سيطر بهم على الوجه البحرى ، ومنعوا بدورهم الأرزاق والغلات عن الوصول الى القاهرة والفسطاط ، وهكذا أحكم عليها الحصار من الشمال والجنوب .

١٠٧٠ م ــ ٤٦٢ هـ : ذروة الشدة :

واتفق مع قيام هذا الحصار ، أن مضى القحط بصفة عامة يفترس البلاد ، فكانت هذه المجاعة المخيفة التى عمت سكان القاهرة والفسطاط .

يقول أبو المحاسن : وقد جلا عن مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد ، والجوع الذى لم يعهد مثله فى الدنيا . فمات أكثر أهل مصر وأكل بعضهم بعضا وظهر على بعض الطباخين أنه ذبح عـدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها ، وأكلت الدواب بأسرها ، بحيث لم يبق للخليفة المستنصر سوى ثلاث أفراس بعدأن كانت عشرة آلاف . وبيع الكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة دنانير .

ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصرين على بغلته وليس معه الا غلام واحد ، فجاء ثلاثة وأخـذوا البغلة منه ولم يقدر الغـلام على منعهم لفرط جوعه ، فذبحوا البغـلة وأكلوها . فقبض عليهم وصلبـوا فأصبح النـاس لم يروا الا عظامهم اذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم .

وباع رجل داره وكان قد اشتراها بتسعمائة دينار فى مقابل عشرين رطلا من الدقيق ، وبيعت البيضة بدينار واردب القمح بمائة دينار فى بدء الأزمة ثم عدم القمح جملة وكان السودانيون يقفون فى الازمة يخطفون النساء بالكلاليب ويشرحون لحومهن ويأكلونها .

وغير ذلك من حكايات وقصص لا تخلو من المبالغات كما هى العادة ، ولكنها تدل على مدى الشدة التى لم تشهد مصر مثيلا لها من قبل .

كنوز الفاطميين تنهب وتباع :

وكان من آثار هذه الشدة ان نهب القواد ورؤساء الجند كنوز الفاطميين التى كانت مودعة بالقصر ، كما باع الخليفة ما بقى منها ليستطيع أن يبقى على حيـاته وسلطانه .

وقد سجل لنا المقريزى وابن ميسر محتويات القصر التى نهبت أو بيعت — وفى عصرنا الحديث نشر الدكتور زكى حسن مجلدا فخما أطلق عليه اسم كنوز الفاطميين مما يضيق المجال عن نشر ملخص له وحسبنا ان نذكر أن من بين ماقيل ان احـد الدلالين الذين اشرفوا على بيع هذه التحف ذكر أن مابيع خلال اسـبوعين بأبخس الاثمان ، اذ تقاضاه القواد والجنود كبعض مستحقاتهم كان يساوى ٣٠ مليون دينار من التحف والجواهر والذخائر والملابس .

تبدد المكتبة :

ولكن كارثة العلم تتجلى فيما صارت اليه مكتبة القصر التى كانت مجلداتها تزيد على مائة الف ، حيث عملت من جلودها أحذية فى بعض الأحيان ، وذهب اكثرها طعمة للنيران للتدفئة .

قطع الخطبة عن المستنصر فى الحجاز :

وكان طبيعيا وهذا مدى ما كانت تعانيه مصر من مجاعة أن تعجـز عن ارسـال ما اعتادت ارساله كل عام من أموال وارزاق الى مكة والمدينة ، ولذلك فقد أسقطت الخطبة عن المستنصر ودعى للخليفة العباسى بدلا عنه .

١٠٧١ م – ٤٦٣ هـ : استيلاء النورمان على صقلية :

وبدأت الشدة الطاحنة التى ألمت بالخليفـة الفاطمى يظهر أثرها فى سائر أرجاء الدولة ... فقطعت الخطبة للمستنصر فى شمال افريقيا كله ، واذا كانت هذه البلاد لم يخسرها الاسلام ، اذ استبدلت اسم الخليفة الفاطمى بالخليفة العباسى . فان جزيرة صقلية خرجت نهائيا عن الدولة الاســلامية باستيلاء النورمان عليها فى هذه السنة .

ويقول أبو المحاسن ان سبب استيلاء النورمان على صقليـة أن المستنصر بعث يطالب الوالى على الجزيرة بالمال المستحق عليه وكان عاجزا عما طلب منه فبعث الى الافرنج وفتح لهم باب البلد فدخلوه وقتلوا الوالى وملكوا الجزيرة .

ومنذ ذلك التاريخ اصبحت جزيرة صقلية دولة نصرانية . ولكنه لم يحدث فيها ما حـدث فى الأندلس حيث أبيد المسلمون أو حملوا على مغادرة البـلاد . فقد ظل المسلمون يعيشون فى ظل حكامهم الجدد والاجماع على أن جزيرة صقلية كانت احد المعابر الهامة التى انتقلت منها الحضارة الاسلامية العربية الى أوربا .

ولقد مر الرحالة بين جبير بصقلية سنة ٥٨٠ هـ أى بعد ست وتسعين سنة من انتهاء الحكم الاســلامى الفاطمى من صقلية فتحدث عن اعتمـاد الأمير النورمندى (غليام) جيوم على العناصر فقال : انه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين وانه كثير الثقة بهم . وساكن اليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، وله الأطباء والمنجمون منهم وهو شديد الحرص عليهم » .

وسنرى فيما هو آت كيف أن ملوكهم ظلوا يحسنون اللغة العربية (١) .

انتصار السلاجقة على الروم فى معركة ملاذكرد :

وبينما كان ملك الفاطميين يتهاوى على هذه الصورة ، كانت قوة الأتراك السلاجقة السنيين ، تتصاعد حتى وصلت ذروتها فى هذه السنة بانتصار السلجوقيين انتصارا ساحقا على البيزنطيين فيما يسميه مؤرخو العرب معركة الزهدة ويسميه الأوربيون وقعة ملاذكرد أو مانزيكرت .

وكان رومانوس امبراطور الروم قد زحف بجيش قوامه اكثر من مائة ألف مقاتل صوب أرمينيا لاحتلالها ، فتصدى له السلطان ألب ارسلان بن طغرلبك ، ولم يكن جيشه يزيد على عشرين الفـا ومع ذلك فقـد انتصر على الجيش البيزنطى ، ووقع رومانوس نفســه اسيرا ، ولكن ألب ارسلان أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة وعامله باحترام وتوقير ولكنه لم يكد يرجع الى القسطنطينية حتى وجد مواطنيه قد خلعوه ثم لم يلبث أن قتل .

---

(١) ارجع الى كتاب العرب والحضارة – دكتور على حسن الخربوطلى .

وقد فتح النصر الذى احرزه السلاجقة فى موقعة ملاذكرد طريق آسيا الصغرى لهم ، فاجتاحتها جيوشهم حتى وصلت الى بحر مرمرة ، والفوا فى آسيا الصغرى (الاناضــول) دولة اســلامية جديدة جعــلوا عاصمتها مدينة قونية . واصبحت القسطنطينية مرة اخــرى تحت رحمتهم مما اضطــر الامبراطور البيزنطى أن يدفع لهم الجزية .

ولكنه من ناحية اخرى ، ارسل يستغيث ببابا روما جريجورى السابع ، ليساعده فى ايقاف هذه الموجة الجديدة من الزحف الاسلامى . ولن يلبث المد الأوربى أن يجىء فى صورة الحروب الصليبية بعد حين .

١٠٧٣ م ــ ٤٦٥ هـ : ناصر الدولة يدخل القاهرة والفسطاط :

لم يجــد المستنصر ومن معــه سبيلا لوضع حد للمجاعة التى أوشكت أن تفنى سكان القاهرة والفسطاط الا أن يتصالح مع ناصر الدولة نصر بن حمدان الذى كان يسيطر على الوجه البحرى . وليس هناك ما يصور مدى ما كان المستنصر قد وصل اليه من البؤس ، من أن جنود ناصر الدولة عندما دخلوا الى قصر الخليفة وجدوه يجلس فى قصره الخاوى على عروشه على حصيرة وحوله ثلاث جوارى . وكانت احدى السيدات المحسنات ترسل له رغيفين كل يوم ليعيش عليهما .

زوال الشدة :

على أن فيضــان النيل عاد فى هذه السنة الى سابق عهــده ومع الفيضان جاء الخصب والثمار والرخاء .. فانتهت تلقائيا المجاعة التى أوشكت أن تفنى الشعب المصرى .

قتل ناصر الدولة :

على ان النجاح الذى احرزه ناصر الدولة لم يدم طويلا .. فقد خشى زملاؤه من قادة الأتراك على أنفسهم ، خاصة وانه كان يراسل الخليفة العباسى للاستيلاء على مصر ، وقيل أنه دعا له على المنابر فى مساجد الاسكندرية والوجه البحرى . ولذلك فقد دبرت له مؤامرة قتل فيها .

١٠٧٤ م ــ ٤٦٦ هـ : تولية بدر الجمالى وزارة مصر :

لم يكن لمقتل ناصر الدولة بن حمدان ، وانتقال السلطة الى قاتله الدكز التركى اى أثر فى تحسن الأحوال العامة أو أحوال المستنصر الخاصة .

فرأى المستنصر أن يلجأ الى الرجل الذى كان قد اظهر شجاعة وبراعة فى التدبير فى بلاد الشام وهو الأمير بدر الجمــالى والى عكا ، فأرسل اليه يستدعيه الى مصر

ليستعين به فى أعمال الوزارة ، فلبى بدر الجمالى الدعوة وجاء الى مصر على ظهر أسطول فى زمن الشتاء على خلاف نصيحة رجاله ، ووصل الى الاسكندرية ، فكان مجرد وصوله بهذا الأسلوب مظهرا على قوته وصلابته .

وزراء التفويض :

وكان أمر تعيين بدر الجمالى فى الوزارة ، يتضمن صيغة لم يسبق لها مثيل ، حيث فوض اليه المستنصر كل سلطانه ليباشره نيابة عنه فيقول له بعد أن خلع عليه لقب أمير الجيوش :

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومدمرا لأهل العناد » .

وبدأ العهد الجديد من الوزراء الذين اصبحوا هم مستودع السلطان ، ولم يبق معهم للخليفة سوى الاسم (١) .

الاستكثار من الجنود الأرمن :

وقد جاء بدر الجمالى الى مصر وفى معيته عدد كبير من جنود الأرمن ، ومنهم من كان لا يزال على نصرانيته . وبدأ بدر الجمالى يستكثر من الأرمن ، ليكونوا سندا له ضد جيوش الترك والسودان والمغاربة . وهكذا دخل الميدان عنصر جديد ليزيد من وهن الدولة ، ولكن شخصية بدر الجمالى قد حجبت ذلك ما بقى حيا .. بل ان عهده سرعان ما يتحول الى عهد ازدهار .

اعادة الأمن والنظام :

كان هم بدر الجمالى بطبيعة الحال هو اقرار الأمن والنظام فى الدرجة الاولى ، ولذا فقد بدأ بالضرب بشدة على قبائل لواته المغربية التى كانت تسيطر على الاسكندرية والوجه البحرى . ثم توجه الى الصعيد ليستخلصه من يد السودانيين واحلافهم الأعراب .. وأعاد سلطان الخليفة وأقر الأمن حتى أسوان .

أما فى القاهرة فقد قتل كل من يتصور أنه عقبة فى سبيل الاستقرار مبتدئا بالدكز التركى وغيره من رءوس الفتنة .

وكان مظهر نجاحه الأول ، هو استطاعته أن يسترد الكثير من منهوبات القصر .

تحسن احوال الفلاحين :

ومع عودة فيضان النيل واستتباب الأمن ، عاد الرخاء الى بلاد الريف فأحس الفلاحون فى ظل قيادة بدر الجمالى العادلة الحازمة المصلحة ، بما افتقدوه خلال

---

(١) يشبه ذلك مع الفارق ما يجرى فى المجتمعات الملكية الديمقراطية ، حيث يملك الملك ولا يحكم ، ويكون الحكم الفعلى بيد رئيس الوزراء المختار من الشعب .

عشرات السنين السابقة ، فأقبلوا على أعمالهم بجد وتفاؤل وأمل ، وسرعان ما أظهرت هذه البلاد احدى خصائصها .. اذ تغلبت على الأزمة التى أوشكت أن تطحنها ... وظهر اثر ذلك فى ايرادات الدولة ، فحيث لم يكن دخل مصر يزيد على ٢ مليون دينار فى العـام .. فاذا عم الرخاء كان الايراد ...ر٨٠٠ر٢ دينار على الأكثر فقـد وصل الايراد بطريقة عادية الى ...ر١٠٠ر٣ دينار .

١٠٨٧ م ـ ٤٨٠ هـ : بناء سور القاهرة :

ليس هناك ما يكشف عن تحسن الأحوال الاقتصادية فى أى من العصور الماضية ، أكثر من أن تتـابع منشآته ولذلك فباستطاعتنا بعد تسعة قرون أن ندرك أن بدر الجمالى استطاع أن ينقذ مصر من الفوضى والفقر والمجـاعة ، وأن يردها من جديد الى الازدهار ، من خلال المبانى التى أنشئت فى عهـده .. فمسجد العطارين القائم الآن بالاسكندرية هو من بنائه وانشائه (١) . ولم يكن ذلك الا البداية .. ففى هذه السنة التى نتحدث عنها أعاد بدر الجمالى بناء أسوار القاهرة وهدم أبواب النصر والفتوح وزويلة وأعاد انشاءها على الصورة الرائعة التى لا تزال توجد عليها حتى الآن كتحفة من أعظم التحف الاسلامية . ويشير لين بول الى أن بعض المهندسين البيزنطيين هم الذين صمموا هذه الأبواب ولذلك فان الطراز البيزنطى يتجلى فيها ، ولكننا لم نعثر على ذلك القول فى مصادرنا العربية .

١٠٩٠ م ـ ٤٨٢ هـ : جيوش مصر تستعيد ثغور الشام من السلاجقة :

كان للشدة العظمى التى انتابت مصر من ناحية ، وازدياد قوة السلاجقة النامية من ناحية أخـرى ، أثره على زعزعة سلطان الفاطميين فى الشـام وفلسطين . وكان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة فى بغداد قد أرسل جيوشه عام ٤٦٢ هـ فتمكنت من فتح مدينتى الرملة وبيت المقدس . ولكنها عجزت عن فتح دمشق فى ذلك الوقت ، على أن الجيوش السلجوقية لم تلبث أن عادت لها عام ٤٦٧ هـ فنجحت فى الاستيلاء عليها ، وحذفت الدعاء للمستنصر من مساجدها واعادت اسـم الخليـفة العبـاسى المهتدى . وحاولت جيوش السلاجقة ان تتجه صوب مصر نفسها ، ولكن بدر الجمالى استطاع أن يوقف زحفها وأن يردها على اعقابها .

ولم يكد بدر الجمالى يوطد الأمور داخل مصر على الصورة التى رأينـاها ، حتى بدأ يمد بصره الى الشام ، لاستعادة سلطان مصر على ثغورها ، لحاجة الأسطول اليها من ناحية ، ولتفوق مصر على السلاجقة بقوة الأسطول .

(١) يرى الدكتور جمال الشيال أن بدر الجمالى لم ينشىء هذا المسجدوانماجدده ويستند فى ذلك الى اللوحة التذكارية الموجودة على جدران المسجد حيث تشير الى أنه كان خرابا فعمره .

وبالفعل استطاع أن يستولى على موانى صور وصيدا وعكا وبعلبك وأعيدت الخطبة للمستنصر فى هذه البلاد .

١٠٩٤ م – ٤٨٧ هـ : وفاة بدر الجمالى :

فى ربيع الثانى أو جمادى الأولى على ما يقول المقريزى ، وفى شهر ذى القعدة من هذه السنة على ما يقول أمين سامى مات أمير الجيوش بدر الجمالى ، والأرجح هو ما يقوله المقريزى ، لأنه من المتفق عليه أن المستنصر مات فى نفس السنة ، وأنه قد انقضت شهور بين الرجلين وكانت سن الجمالى عند موته تناهز الثمانين .

وقد سمى بالجمالى لأنه كان مملوكا أرمنيا للامير جمال الدولة بن عمار ، ثم أخذ يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت فى بلاد الشام ، حتى ولى أمارة دمشق من قبل المستنصر عام ٤٥٦ هـ وأخذ يحارب الأتراك فى تلك البلاد ، وأثبت أنه من أقوى قواد الفاطميين ثم تقلد نيابة عكا عام ٤٦٠هـ حتى استدعاه منها المستنصر كما ذكرنا .

ويقول عنه المقريزى : انه حكم مصر حكم الملوك خلال احدى وعشرين سنة ولم يكن للمستنصر معه أمر ، واستبد بالأمور فضبطها احسن ضبط ، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة ، وقد عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها باتلاف المفسدين من أهلها .

وكانت له محاسن منها انه اباح الأرض للمزارعين ثلاث سنوات حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا فى أيامه ، ومنها حضور التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها أيام الشدة ومنها وفرة كرمه . وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر .

وقد بايع قبل موته لابنه أبو القاسم ليكون مدبرا للمملكة وأطلق عليه لقب الافضل شاهنشاه ، ولم يكن باستطاعة المستنصر الا أن يقر هذا التعيين ففوض اليه كل ما كان لأبيه من سلطان .

موت الخليفة المستنصر :

فى يوم الخميس أول أيام عيد الفطر من هذه السنة مات الخليفة المستنصر ، وعلى الرغم من انه حكم ستين سنة وهو ما لم يسبقه اليه ملك فى الاسلام (١) ، فان سنه عند وفاته لم يتجاوز سبعا وستين سنة الا بضعة شهور ، فقد ولى الخلافة طفلا كما قدمنا .

---

(١) راجع حكم رمسيس .

والمؤرخون يقسمون حكمه الى فترتين : الثلاثين سنة الأولى من حكمه وقد بلغت فيها الدولة الفاطمية ذروة نفوذها السياسى . أما نصفها الثانى فقد كان عهد تدهور النفوذ الفاطمى فى كل مكان كما رأينا . الا انه من المحقق أن أحوال مصر الداخلية ، وخاصة بعد أيام الشدة العظمى قد تحسنت تحسنا كبيرا على يد بدر الجمالى كما رأينا كذلك .

خلافة المستعلى بالله :

فى الثامن عشر من ذى الحجة بويع بالخلافة لابن المستنصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم ولقب بالمستعلى بالله . وكانت سنه يوم ولى الخلافة أربت على العشرين سنة وقد ادت تولية المستعلى الخلافة الى احداث أول وأكبر انشقاق فى صفوف الاسماعيليين . ذلك أن احمد لم يكن هو أكبر أبناء المستنصر ، وانما كان الابن الأكبر هو نزار . وكان المستنصر قد نص على خلافة نزار من بعده ، وهو الشرط الأساسى للخلافة عند الاسماعيلية ولكن الأفضل شاهنشاه رأى أن يخرق هذه القاعدة ، وأن يختار بنفسه الخليفة من أبناء المستنصر ليكون ذلك أكثر ضمانا لسلطانه ، واستطاع أن يحمل كبار القواد والأمراء على مبايعة المستعلى .

طائفة النزارية :

لم يرتض نزار صاحب الحق الشرعى بهذا الاجراء ، وفر هاربا الى الاسكندرية يحيط به من يشايعه من الأمراء والقواد ونودى بنزار فى الاسكندرية خليفة . ودارت المعارك بين مؤيديه وجيوش الأفضل ، وانتهت المعارك بانتصار الأفضل ، ولكن أنصار نزار لم يعترفوا بذلك ، وانقسمت الاسماعيلية منذ ذلك الحادث الى مستعلية ونزارية . ولن يلبث أن يصبح على راس الاسماعيلية النزارية حسن الصباح الفقيه والداعية الاسماعيلى الشهير ، والذى سيؤسس للنزارية ملكا فى قلعة ألموت ثم فى الشام ، وسيظل أتباعه شجا فى حلق الدولة الفاطمية حتى نهايتها ثم فى حياة صلاح الدين والدولة الأيوبية من بعدها .

١٠٩٥ م – ٤٨٩ هـ : استعادة المصريين للقدس :

لم يكد السلطان ملكشاه الذى وصل فى عهده السلجوقيون وعلى يديه الى ذروة قوتهم ، يموت حتى اختلف أبناؤه الأربعة ، وقسموا عليهم الدولة ثم راحوا يتقاتلون فيما بينهم على السلطان ، فأدى ذلك الى ما يؤدى اليه دائما وهو انهيار ملكهم فى منطقة النزاع وما حولها وقد كانت هذه المنطقة هى الشام الأمر الذى مهد لانتصار الصليبيين كما سنرى . وقد استغل الفاطميون من ناحيتهم تدهور مركز السلاجقة فى بلاد الشام وفلسطين فاستطاعوا أن يستردوا مدينة القدس ويعيدوها الى سلطانهم ولكن ذلك تم بعد فوات الأوان ، اذ كانت موجة المد الصليبى بدأت تغمر العالم الاسلامى .

قيام الحروب الصليبية (1)

١٠٩٦ م — ٤٩٠ هـ :

استقر بيت المقدس فى أيدى المسلمين قرابة خمسة قرون ، نعم فيها المسيحيون بالأمن والاستقرار والتسامح ، وعندما آل حكم الشام الى الفاطميين وهم على ما ذكرناه من التسامح الدينى ، ازداد ازدهار المسيحيين فى بيت المقدس ، باستثناء الفترة المؤقتة الشاذة لخلافة الحاكم ، وقد رأينا كيف أعيد بناء كنيسة القيامة كخير مما كانت .

ثم جاءت موجة السلجوقيين العاتية فأوشكت أن تجتز الامبراطورية البيزنطية من أساسها فاستغاث اليكسى الامبراطور البيزنطى ببابا روما اربان الثانى الذى وجد فى هذه الاستغاثة فرصته لبسط سيادته الروحية على الكنيسة الشرقية ، وعلى أوربا كلها . وقد تصادف أن كان من المقرر فى هذه الفترة عقد مجمع كليرمونت الدينى ، فذهب اليه اربان الثانى وقد كان من أصل فرنسى ، وراح يخطب فى المجتمعين بحماسة الهبت السامعين ، وأشاد بأمجاد فرنسا الحربية ، وشنع على المسلمين الذين وصفهم بأنهم كفار ، وبحث تخليص بيت المقدس من أيديهم ، وأشار اشارات صريحة الى فرص الربح والنجاح المادى فى تكوين الامارات والممالك . فهتف الحاضرون « هذا ما أراده الله » وقد أصبحت هذه الصيحة هى شعار الصليبيين . وقام اربان الثانى بعد خطبته فوزع الصلبان على الحاضرين .

حملة بطرس الناسك الصليبية :

وعلى الرغم من أن اشعال الحروب الصليبية يجب أن يعزى الى البابا اربان الثانى ، فان الرجل الذى ذهب فى التاريخ باعتباره موقد نارها الحقيقى هو بطرس الناسك ، وهو راهب مسيحى كان قد عاد لتوه من حج بيت المقدس ابان هذه الحركة التى قامت فى فرنسا تدعو المسيحيين الى الحج الى بيت المقدس .

وقد ساء بطرس الناسك ما وجده فى بيت المقدس من خشونة السلجوقيين ضد

---

(1) نشر الدكتور عمر كمال توفيق أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية آداب جامعة الاسكندرية كتابا جعل موضوعه مقدمات العدوان الصليبى وهو موضوع رسالته . والمطالع للكتاب لا يرى فيه الا محاولة من أحد اباطرة بيزنطة وهو يوحنا تزيمسكس ، أن يسترد بعض أملاك بيزنطة من الدول الاسلامية . وهو ما لاعلاقة له بالحروب الصليبية التى وصفت بهـذا الاسم ، والتى تؤلف زحف غرب أوربا لاول مرة فى التاريخ على بلاد الشرق .

الحجاج . فراح عند عودته يندب حظ المسيحيين فى الشرق من اضطهاد المسلمين الذين اطلق عليهم اسم الكفار ، وراح يدعو لاستخلاص بيت المقدس من الكفار .

وهكذا توافقت دعوة البابا الرسمية للامراء والفرسان مع دعوة بطرس لابناء الشعب ، وكان الشعب أسرع استجابة لقائده فرسم الناس على صدورهم الصليب وساروا خلف بطرس الناسك سيرا على الأقدام لتخليص بيت المقدس من الكفار .

وكان عدد الزاحفين يتزايد أثناء سيرهم عبر أوربا الشرقية حتى أربى عددهم على عشرين ألفا ، ساروا فى غير نظام أو تدريب ، أو تموين . فسرعان ما انقلب امرهم الى فوضى ، اذ راحوا يقتلون اليهود وينهبون القرى فتصدت الشعوب لحماية نفسها منهم ، فأفنت عددا كبيرا منهم . ولما وصلت هذه الجموع فى خاتمة المطاف الى القسطنطينية ، خاف منهم الامبراطور البيزنطى على شعبه ودولته ، فأسرع بنقلهم بحرا الى الاناضول حيث كانت تقوم الدولة السلجوقية . فما كان من الب ارسلان سلطان قونية الا أن فاجأ هذه الجموع غير المدربة ولا المستعدة على حين غرة . فأوشك أن يبيدهم عن بكرة أبيهم ، ولم يكن حظ الذين فروا أحسن حالا فقد غرق الكثيرون منهم فى البحر .

ونجا بطرس الناسك بما يشبه الأعجوبة حيث التقطته سفينة بعث بها اليكسى من الشاطىء ، وهكذا طويت أول صفحات الحروب الصليبية بهذا الفشل الذريع .

جيوش الامراء والفرسان الصليبية :

على أن الحملة الشعبية اذا كان قد قضى عليها بهذا الاسلوب ، فان حظ الحملة العسكرية التى تألفت من الأمراء والفرسان بناء على دعوة البابا اربان الثانى لم يكن كذلك . وكان قوام هذه الحملة العسكرية خمسة جيوش أولها من اللورين فى فرنسا تحت قيادة جودفرى دى بولون وأخيه بلدوين ، والثانى من بلجيكا تحت قيادة الأمير فلاندر ، وجيش ثالث رأسه ريمون دى سانت جيل وجيش رابع من الطليان والنورمان تحت قيادة بوهمند ، وجيش خامس من وسط وغرب فرنسا بقيادة روبير أمير نورمانديا . وكان يرأس هذه الجيوش الخمسة من الناحية الروحية نائب البابا أدى مار دى مونتل ، على أنه بحكمته وشخصيته سرعان ما تحول الى رأس الحملة المفكر .

وقد تجمعت هذه الجيوش الخمسة خلال الاشهر الاخيرة من عامى ١٠٩٦ ميلادية ومطلع سنة ١٠٩٧ حول القسطنطينية وأوجس منهم امبراطور بيزنطة خيفة ، بالرغم انه كان هو الذى استغاث بهم . وطلب منهم أن يقسموا له يمين الولاء وأن يتعهدوا بتسليم المقاطعات التى سيستولون عليها من السلاجقة اليه .

وقد كان تخوف الامبراطور فى محله .. فقد كانت الافكار التى تراود رءوس الأمراء ، غير تلك التى تراود الامبراطور .. ومع ذلك فنظرا لحاجتهم الى مساعدة الامبراطور ، فقد اقسم له البعض اليمين الذى طلبه منهم فى تردد ، بينما امتنع البعض الآخر .

وكانت مدينة نيقيه أول ما استولوا عليه .

١٠٩٧ م ــ ٤٩١ هـ : الاستيلاء على مدينة انطاكية :

كان أول نصر أحرزه الصليبيون هو استيلاؤهم على مدينة انطاكية .. ولم يكن استيلاؤهم عليها أمرا سهلا فقد ظلوا على حصارها ثمانية أشهر ، وهى صـــامدة لا تستسلم ، ولولا الخلافات بين أمراء السلاجقة وبينهم وبين الفاطميين فى مصر ، لأمكن الاطباق على الصليبيين الذين كانوا مختلفين فيما بينهم . ولكن هذه النجدة لم تصل فى الوقت المناسب .

وفى هذه الاثناء كان احد سكان المدينة ويدعى فيروز ، وقد كان ارمنيا مسيحيا ثم أسلم وكان يتولى حراسة احد الابراج : فاتصل بأحد الامراء الصليبيين واتفق معه على أن يمكنه من الدخول من احد النوافذ الى البرج الذى يقوم بحراسته . ودخل الصليبيون فى نفر قليل الى داخل البرج ، وصاحوا صيحتهم المألوفة : هذا ما أراده الله ..

ولكى يتم قضاء الله ، دب الفزع والهلع فى قلب أمير المدينة ، وتصور أن المدينـة كلها قد احتلت بالصليبيين . مع أنه كان من ايسر الأمور أن يحاصر هذه القلة التى نفذت الى البرج ويبيدهم ، فاذا به يخرج هالعا من المدينة ، مقوضا بذلك نظام الدفاع عنها .. ففتحت أبواب المدينة ودخلها الصليبيون ، ويقول مؤرخو الحملة الصليبية من الافرنج انهم قتلوا من النساء والأطفال فى انطاكية ما لا يدركه حصر .

امراء المسلمين يحاصرون انطاكية :

كان طبيعيا أن يحدث سقوط انطاكيه رد فعل فى صفوف امراء المسلمين من آل ساجوق وغيرهم ، فقد أنهوا خلافاتهم وأسرعوا بجيوشهم الى مدينة انطاكية وتحول الصليبيون الذين كانوا يحاصرون المدينة الى محاصرين فيها . وقد اشتد الحصار على الصليبيين حتى ساءت أحوالهم وأوشكوا على الاستسلام : لولا أن عاد اليهم الايمان والحماسة بخدعة قام بها أحد الرهبان ، اذ أوهمهم أن المسيح قد زاره فى المنام ودله على مكان الرمح الذى طعن به وانه متى صار الى أيديهم فسوف ينصرون به . وكان الراهب قبل أن يفشى حلمه (المزعوم) قد خبأ رمحا قديما فى مكان معين ، وهو الذى زعم ان المسيح حدده له فى الرؤيا .. فلما أن عثروا على الرمح بالفعل ، ثارت حميتهم ، وجاش ايمانهم ، فخرجوا من المدينة ، وباغتوا الجيوش المحاصرة والتى كانت اكثر عددا وأقوى عدة فهزموهم شر هزيمة .

١٠٩٩ ــ ٤٩٢ هـ : الاستيلاء على بيت المقدس :

سار الصليبيون بعد هذا النصر الاخير من انطاكيه قاصدين الاستيلاء على بيت المقدس وقد اشتد عزمهم بما فتحوه من مدن أثناء زحفهم . وقد اتخذ الصليبيون فى زحفهم طريق الساحل ليكونوا على صلة مستمرة بأساطيلهم . ويقول المؤرخون العرب أن عدد الجيوش الصليبية كان ألف الف مقاتل منهم خمسمائة الف فارس

ومن المحقق أن هذه الأرقام قد ذكرت لتبرير الهزيمة التى حاقت بالمسلمين ، فالمصادر الافرنجية تحدد جيوش الصليبيين الوافدين من أوربا بثلاثين الفا : ولا شك أن هذا العدد قد تزايد بما أضافه اليه البيزنطيون ، ولكن من المحقق أن العدد كان محددا لايتجاوز المائة الف بحال .

وكانت مدينة القدس فى هذه الفترة فى حوزة الفاطميين بعد ان استولوا عليها عام ٤٨٩ هـ ــ ١٠٩٥ م كما قدمنا ولكن بعض المؤرخين يجعل استرداد الفاطميين للمدينة عام ١٠٩٨ م أى بعد بدء الحروب الصليبية .

واستمر حصار القدس اربعين يوما لم تصل فيها النجدات من مصر ولا من بغداد ، فسقطت المدينة فى خاتمة المطاف ، ولا جدال أن الخلاف بين العباسيين والفاطميين ، او بالأحرى بين السنيين والشيعة ، كان من أكبر العناصر التى ادت الى سقوط المدينة المقدسة .

فظائع الصليبيين :

وبينما يوجز المؤرخون المسلمون فيما حل بسكان المدينة فى العبارات التالية :

وهرب الناس الى الصخرة والأقصى واجتمعوا بهما ، فهجموا عليهم وقتلوا فى الحرم مائة الف وسبوا مثلهم ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال مالا يحصى .

وهذه العبارة بنصها كثيرا ما تتكرر عند ذكر سقوط مدن اخرى .

ولذلك فان مراجع الصليبيين فى هذه الناحية هى التى تصور لنا طرفا مما حدث .

يقول فنك برنتانو المؤرخ الفرنسى فى كتابه « الحروب الصليبية » : « حين سقطت المدينة أخذ المسلمون يفرون من الشوارع الضيقة ، ولجأت طائفة كبيرة منهم الى هيكل سليمان وهو المكان الذى اتفقوا فيه مع طنكرد (أحد قواد الصليبيين) أن يلجأوا اليه ، فوعدهم بالدفاع عنهم وسلمهم رايته ليركزوها هناك دلالة على حمايته لهم . وغص المكان بألوف اللاجئين حتى ضاق بهم فصعد الكثيرون منهم على السطح . وحين احتل الصليبيون المدينة انقضوا على المسلمين وأخذوا يذبحونهم ذبح الشاء غير ملقين بالا الى راية طنكرد ، فسالت الدماء فى المعبد وملأته حتى بلغت ما يوازى ارتفاع اليد . وقد ذبح أيضا المسلمون الملتجئون الى السطح ثم رموا الى أسفل البناء ، فكانت جماجمهم تنفلق وعظامهم تنكسر .

ولجأ المسلمون الى جامع عمر بن الخطاب رجالا ونساء وأطفالا وهم بحالة جزع وفزع من الدماء التى ملأت المسجد وارتفعت حتى ركبتى الفارس الصليبى على ما أكده الكثير من الصليبيين . وبقطع النظر عن استثناءات نادرة ، فان المدينة نظفت

من سكانها المسلمين رجالها ونساءها وأطفالهـا وكانت الشوارع تعج بجماجم الموتى وأذرعهم وأرجلهم المقطعة ، وكان الصليبيون يتفننون فى تعذيب وامانة هؤلاء المساكين.

وبعد الانتهاء من قتل المسلمين واحراقهم ونهب بيوتهم تنبه القوم الى انهم جاءوا لاداء واجب دينى فهرعوا الى كنيسة القيامة واخذوا يتعبدون وعيونهم تفيض بالدمع فرحا واستبشارا بما كسبت أيديهم لاعلاء كلمة الفادى المخلص يسوع المسيح اله الحب والرحمة ورمز السلام » (١) .

الأفضل شاهنشاه يصل بعد فوات الوقت :

وكما وصل امراء السلاجقة بعد فوات الوقت لانقاذ انطاكية ، فقد وصل الأفضل شاهنشاه بجيشه المؤلف من عشرين ألف مقاتل بعد سقوط القدس . وكان طبيعيا أن يتصـدى له الصليبيون الذين كانوا سكرى بنشوة النصر ، وان يهزموا جيشه عند مدينة عسقلان وينفتح بذلك لهم الطريق للاستيلاء على مدن الساحل ، ولكن مدينة عكا استطاعت أن تقاوم هجماتهم .. فانصرفوا عنها وعادوا الى بيت المقـدس لتنظيم ملكهم .

دولة الصليبيين الاقطاعية فى الشرق :

انتخب جود فرى دى بولون ملكا واتخذ لنفسه لقب حامى القبر المقدس . وألف الامراء الصليبيون حكومة ملكية اقطاعية وليست دينية يهيمن عليها البابا . يقول وليم لانجر صاحب موسوعة تاريخ العالم : كانت مملكة بيت المقدس اقطاعية بكل ما لهذا اللفظ من معنى ، فقد كان الملك سيدا اقطاعيا لا ملكا ، فى الوقت الذى سيطر كبـار الاقطاعيين على المملكة سيطرة تامة . وأسس بلدوين فى مدينة الرها كونتية تعتبر من الناحية التاريخية أولى الممالك الصليبية تأسيسا . وأسس بوهمند امارة فى انطاكيه ، وأسس ريموند دى تولوز (كونتية طرابلس) فيما بعد ، وأصبحت هذه الاقطاعيات تابعة لمملكة بيت المقدس .

١١٠١ م ـ ٤٩٥ هـ : وفاة الخليفة المستعلى بالله :

فى يوم الثلاثاء تاسع صفر من هذه السنة مات المستعلى بالله وكان عمره يوم وفاته سبعا وعشرين سنة حكم منها سبع سنوات وشهرين وأياما .

يقول ابو المحاسن الذى لا يخفى كراهيته للفاطميين وتسميتهم بالروافض : وكان المستعلى بالله حسن الطريقة فى الرعية جميل السيرة ملازما للقصر كعادة أبيه مكتفيا بوزيره الأفضل شاهنشاه فى كل ما يريد ، ومع تقاعده عن الجهـاد وتهاونه فى أخـذ البلاد ، متغاليا فى الرفض والتشيع وكان يقع منه الامور الشنيعة فى مأتم عاشوراء

---

(١) ارجع الى كتاب الحروب الصليبية للاستاذ وفيق التميمى ـ وتاريخ الانسانية للمؤلف .

حيث يبالغ فى النوح والمأتم ويأمر الناس بلبس المسوح وغلق الحوانيت واللطم والبكاء زيادة عما كان يفعل آباؤه .

خلافة الآمر بأحكام الله على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المستعلى ابنه منصور أبو على وكان عمره يوم ولى الخلافة خمس سنوات ولقب بالآمر بأحكام الله . وزاد بذلك سلطان الافضل شاهنشاه حيث لم يكن الخليفة الا غلاما .

١١٠٣ م ـ ٤٩٧ هـ : سقوط عكا فى يد الصليبيين :

جدد الصليبيون محاولتهم لافتتاح عكا فهاجموها برا وبحرا بأسطول مؤلف من تسعين مركبا ، وهكذا حاصروها من جميع الجهات ، ولم يخف الأسطول أو الجيش الفاطمى لنجدتها فسقطت فى شهر رمضان واستولى عليها الصليبيون .

وحاول الصليبيون فى هذه السنة أن يستولوا على آخر مدينة كبرى على الساحل فى شمال الشام وهى مدينة طرابلس ولكن المدينة لم تصمد لحصارهم فحسب ، بل خرج جنود المدينة وعلى رأسهم فخر الدين محمد بن عمار ، فشتت شمل الجيوش المحاصرة وانتصر عليهم فابتعدوا عن المدينة .

١١٠٩ م ـ ٥٠٣ هـ : سقوط مدينة طرابلس :

على أن الصليبيين ظلوا فى حرب متصلة مع مدينة طرابلس ، هذه الحرب التى استغرقت عشر سنوات . وقرروا فى نهاية الأمر أن يطبقوا عليها بكل قوتهم .

ومرة أخرى لعب الخلاف بين بغداد والقاهرة دوره فى وقوع المأساة . فقد لجأ امير المدينة ابن عمار الى بغداد ليستنجد بها فأرسل الفاطميون الى المدينة حاكما من قبلهم ، لم يستطيعوا اغاثته بالأسطول والمدد فى الوقت المناسب . فانتهى الأمر بسقوط طرابلس يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة . وفعل الصليبيون بالمدينة ما اعتادوا فعله من قتل الرجال وسبى النساء والأطفال ، ونهب الأموال ، ثم استولوا على مدينة جبلة بعد طرابلس بعشرة ايام ، ثم استولوا على مدينة بيروت ، ووصل الأسطول الفاطمى بعد فوات الوقت . فالتجأ الى مدينة صيدا وافرغ حمولته . فمكن المدينة من مقاومة الصليبيين فى بسالة . فظل ذلك هو الموقع الوحيد فى الشمال (١) ، كما ظلت عسقلون فى الجنوب .

١١١٢ م ـ ٥٠٥ هـ : وفاة الغزالى :

فى هذه السنة مات أحد أعلام الاسلام فى زمنه وفى كل زمان وهو الامام أبو حامد الغزالى مؤلف كتاب الاحياء وعشرات الكتب .

---

(١) ذكر أمين سامى أن مدينة صيدا قد سقطت فى يد الصليبيين عام ٥٠٤ هـ ولكن المراجع الاخرى لم تذكر ذلك .

يقول ابن كثير : برع فى علوم كثيرة وله مصنفات منتشرة فى فنون متعددة ، فكان من أذكياء العالم فى كل ما يتكلم فيـــه . وساد فى شبيبته حتى انه درس بالنظامية ببغداد ولم يكن سنه يتجاوز أربعا وثلاثين سنة فحضر عنده رءوس العلماء فعجبوا من فصاحته واطلاعه ، ثم خرج عن الدنيا بالكلية واقبل على العبادة واعمال الآخرة ، وكان يرتزق من النسخ ورحل الى الشـــام فأقام بدمشق وبيت المقــدس مدة حيث صنف كتابه « احياء علوم الدين » .

والامام الغزالى ككل الأعلام تفترق حوله الآراء . . فحيث يعتبره الكثيرون حجة الاسلام يجرحه الكثيرون بسبب ما ورد فى كتابه الاحياء من أحاديث غير صحيحة . وتبقى الحقيقة من أنه من أكبر فحول العالم الاسلامى . وفى مكتبتى مجلدات ضخمة من البحوث حول الامام الغــزالى بمناسبة مهرجانه ، أو حول الكتب التى الفها ، والأثر الذى أحدثه لا فى العالم الاسلامى فحسب بل فى العالم الأوربى نفسه (١) .

وممن حمل على الغزالى من زاويته الخاصة الأستاذ رفيق التميمى فى كتابه الحروب الصليبية حيث يقول : انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهـــاره فى اعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث أهل أوربا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الغزالى وهو المدعو بحجة الاسلام غارقا فى خلوته منكبا على أوراده الصوفية لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد والدفاع عن بلاد الاسلام المقدسة . والأنكى من هذا كله والأدهى والأمر أن حجة الاسلام سكت سكوتا مطبقا عن هذه الحرب الطاحنة التى شنها الغرب على الشرق ولم يذكر عنها شيئا فى كتبه (٢) .

١١١٥ م ــ ٥٠٩ هـ : الوزير الأفضل يصالح بلدوين ملك الصليبيين :

عندما أدرك الأفضل شاهنشاه مدبر المملكة المصرية أنه عاجز عن مناواة بلدوين ملك القدس والذى يسميه مؤرخو العرب بردويل ، أبرم معه عقد صلح ، يعتبر أول اتصال سياسى بين مصر والصليبيين واعتراف بهم وذلك على أثر مهاجمة بلدوين لقافلة من قوافل الحجاج .

١١١٧ م ــ ٥١١ هـ : بلدوين يحاول مهاجمة مصر :

على أن هذا الصلح لم يكن الا مؤقتا ريثما يستعد بلدوين لغزو مصر ، ولذلك فلم يمض عامان حتى قصـــد مصر فى جيش كبير فدخل مدينـــة الفـرما وأحرق مساجدها ، وليس الا المرض ما حال بينه وبين مواصلة السير ، ولم يلبث أن مات ، فما كان من أصحابه ــ على ما يقــول أبو المحاسن ــ الا أن شقوا بطنه لكى يصبروه

(١) اقرأ لعبد الرحمن بدوى « دور العرب فى تكوين الفكر الاوربى » .
(٢) لم يتسع لنا البحث لتمحيص هذه النقطة فنتركها للمختصين .

(اى يحنطوه) ورموا احشاءه فى السبخة الموجودة هناك ، فأصبح يطلق عليها اسم سبخة بردويل (١) واعتاد الناس أن يرجموها الى أيام أبى المحاسن .

وهكذا نجت مصر من اول غارة مباشرة عليها .

١١٢١ م ـ ٥١٥ هـ : مقتل الأفضل شاهنشاه :

فى الثالث والعشرين من شهر رمضان قتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بناء على ايعاز من الآمر بأحكام الله الذى كان قد بلغ أشده فى هذه الفترة . وكان الأفضل يضيق على الآمر فى حياته الخاصة ويحول بينه وبين الانكباب على شهواته وملذاته . ولا جدال فى أن الهزائم التى منيت بها مصر فى الشام وفلسطين ، قد ساعدت على اضعاف مركز الأفضل ، فوقع الخلاف بين الرجلين وراح كل منهما يعمل على الخلاص من الآخر . وقيل ان الأفضل حاول ان يقتل الآمر بالسم ولكنه فشل ، ونجحت مؤامرة الآمر على الأفضل ، اذ تربص له نفر من المتآمرين ، وانتهزوا فرصة ركوبه فى غير موكب فوثبوا عليه وقتلوه .

ويقول أبو المحاسن ان الأفضل خلف من الأموال والنقود والقماش والمواشى ، ما يستحى من ذكره لكثرته .

وكانت سنه يوم قتل سبعا وخمسين سنة ، ومدة وزارته ٢٨ سنة ونصفا .

وهناك اجماع على أنه بالرغم من حدوث كارثة الصليبيين فى أيامه ، وسقوط فلسطين بأيديهم ، فان مصر قد نعمت فى مدة وزارته بالأمن والاستقرار . وحسن الادارة ، وانه كان حاكما عادلا حسن السيرة ، وقد بنى وانشأ وعمر عدة عمائر منها الفرج والسبع وجوه وعدة مناظر بالروضة وبظاهر مصر واليه تنسب قيسرية أمير الجيوش (مرجوش) .

تعيين المأمون البطائحى وزيرا :

فوض الآمر بالله شئون الوزارة بعد مقتل الأفضل ، أبا عبد الله بن فاتك البطائحى ولقب بالمأمون . وزادت الألقاب والصفات التى أصبح يوصف بها درجات فهو : « السيد الأجل تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع أمير الجيوش ، ناصر الامام وسيف الاسلام كافل قضاة الدين هادى دعاة المؤمنين نظام الوجود خالصة أمير المؤمنين أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه لخدمة أمير المؤمنين وعضده بسموه ثقة الدنيا والدين ادام قدرته وأعلى كلمته » .

ولكن ذلك كله لم يجد نفعا فى أن يجعل من البطائحى وزيرا مرموقا ، فقد كان على الضد من سلفه .. فأساء التدبير وظلم .

مسجد ابى بكر الطرطوشى :

وفى أيامه الف أبو بكر الطرطوشى كتاب سراج الملوك وأهداه للمأمون فأكرمه وخلع عليه . وعرض الطرطوشى على المأمون عزمه على بناء مسجد فى الاسكندرية بظاهر

(١) تقع هذه السبخة شرق بور سعيد ، وهى تعرف اليوم باسم بحيرة بردويل .

الثغر على البحر ، فرأى المأمون ان تكون نفقات هذا المسجد من مال ديوانه . وقد ذكر المقريزى هذا الحادث فى كتابه اتعاظ الخلفاء على ما نقله عنه الدكتور جمـال الشيال ، وجعل تاريخها عام ٥١٠ هـ مع أن المأمون لم يصبح وزيرا الا فى عام ٥١٥ هـ كما رأينا .

وعلى اية حال فان الدكتور الشيال يقول لنا ان هذا المسجد من المساجد التى زالت وعفت آثارها .

مسجد المؤتمن أخى المأمون البطائحى :

وفى سنة ٥١١ هـ على ما يقول المقريزى ايضا ، بنى المؤتمن اخو الوزير المأمون البطائحى مسجدا آخر عندما عين واليا على الاسكندرية والأعمال البحرية .

١١٢٤ م ـ ٥١٨ هـ : سقوط مدينة صور :

فى هذه السنة سلم أهل مدينـة صور مدينتهم بالأمان للصليبيين ، بعد أن عجز الصليبيون عن أخذها عنوة خلال ما يقرب من ربع قرن ، وقد جلا عن المدينـة من أراد الجلاء عنها ، وبقى من اختار البقاء تحت حكم الصليبيين . وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى ما وصـل اليه أمراء المسلمين فى ذلك الزمان ـ وبخاصـة حكام مصر ـ من ضعف وهوان .

١١٢٥ م ـ ٥١٩ هـ : مقتل الوزير المأمون البطائحى :

فى هذه السنة قتل الآمر بأحكام الله وزيره أبا عبد الله بن البطائحى ، هو وأخوته وصلبهم واستولى على كل أموالهم ، كما استولى على أموال الأفضل من قبلهم .

١١٣٠ م ـ ٥٢٤ هـ : النزارية يقتلون الآمر باحكام الله :

فى يوم الثلاثاء ثالث ذى القعدة ، قصد الخليفة الآمر جزيرة الروضة وكان قـد أقام بها قصرا لملذاته واسكن به عشيقة له أخـذت بلبه ، فانقض عليه جمـاعة من الاسماعيليين النزارية وهو يعبر الجسر المؤدى الى الروضة ، وضربوه بسيوفهم ، ولكن حرس الآمر تكاثروا عليهم وقتلوهم ، وعاد الآمر مثخنا بالجروح ، ولكنه لم يلبث أن مات متأثرا بجراحه .

ويجمع المؤرخون على ان الآمر بأحكام الله كان قبيح السيرة ظلم الناس واخذ اموالهم ، وسفك الدماء وارتكب المحظورات واستحسن القبائح ، ولذلك فقد ابتهج الناس بقتله . ويندد به أبو المحاسن لتقاعده عن الجهاد حتى استولى الصليبيون

(الفرنجة) على غالب السواحل والحصون فى أيامه . وكانت سنه يوم قتل خمسا وثلاثين سنة . حكم منها ثلاثين سنة .

خلافة الحافظ لدين الله على مصر :

بويع بالخلافة من الخاصة بعد وفاة الآمر بأحكام الله : الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد . أما لماذا كانت بيعته من الناحيــة الشكلية ، فذلك انه ليس ابنــا للآمر بأحكام الله وانما هو ابن عمه ، وقد أشرنا من قبل أن الامامة لا تكون الا لابن الامام من صلبه وأن يعهد اليه على سبيل التخصيص . وقد حال دون ذلك وفاة الآمر دون أن يترك وراءه عقبــا ، وانما ترك احــدى نسائه حاملا ، ومن هنا اختار قواد الجيش عبد المجيد ابن عم الآمر ليلى السلطة من الناحية الشكلية ريثما يجيء المولود فان كان ذكرا ، أصبح هو الخليفة ، وكان عبد المجيد ابن عمه كفيلا له . كما عين قادة الجيش الأمير ابو على أحمد بن الأفضل شاهنشاه ليكون أميرا للجيوش ووزيرا .

والرأى الغالب بين المؤرخين ، أن المولود الذى جاء كان أنثى ومن هنا استمر الحافظ خليفة شكلا وعملا .

على أن ابن ميسر مؤلف كتاب تاريخ مصر قال ان الآمر قبل وفاته بشهور كان قد ولد له ابن سماه الطيب واحتفل بمولده احتفــالا علنيا ، وأعلنه وليــا لعهده وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن . والمقريزى على هذا الرأى ، ويتابعهما عليه الدكتور جمال الشيال .

وزارة أمير الجيوش أحمد بن الأفضل :

لم يكد احمد بن الأفضل يستقر يوم الخميس السادس عشر من ذى القعدة فى منصب الوزارة ، حتى كان أول ما قام به من عمل أن أحاط بالحــافظ وسجنــه فى احدى خزانات القصر فيما بين الايوان وباب العين ، ثم استولى على جميع ما فى القصر من أموال وذخائر بدعوى انها اموال أبيه .

ولم يكن الوزير أبو على اســماعيلى المذهب ، وقال عنــه أبو المحـــاسن وبعض المؤرخين انه كان سنيا كأبيه ، اما المقريزى فيقول عنه انه كان اماميا متشــددا (الفرع الآخر من الشيعة) فالتفت عليه الامامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الامامى .

واذا كان الخــلاف يدور حول مذهبــه فان الاتفاق قد تم على تصرفه ، وهو اسقاطه أسماء خلفاء بنى عبيد الفاطميين والدعاء لهم من الخطبة ، وأسقط بصــفة خاصة اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى ينتسب اليه الاسماعيلية ، وجعــل الخطبة والدعاء للمهدى المنتظر ، وصك النقود باسم المهدى المنتظر ونقش عليهــا « الله الصمد ــ الامام محمد » ، كما أبطل من الأذان « حى على خير العمل » . وأمر بأن يدعى له على المنابر باعتباره « ناصر الحق وهادى العصاة الى اتباع الحق ، مولى الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم » .

١١٣١ م ـ ٥٢٥ هـ : تعيين أربعة قضاة فى مصر :

عين الوزير فى هذه السنة لأول مرة فى تاريخ البـلاد أربعة قضاة رئيسيين جعل اثنين منهم من الشـيعة احدهما امامى والآخـر اسماعيلى ، والاثنين الآخـرين من السنيين أحدهما شافعى والآخر مالكى وترك لكل منهم اصدار الأحكام وفق مذهبه .

١١٣٢ م ـ ٥٢٦ هـ : مقتل الوزير أحمد بن الأفضل :

ثارت الطبقة الحاكمة من الاسماعيلية على أمير الجيوش أحمد بن الأفضل فكمنوا له فى العشرين من المحرم من هذه السنة . فى ملعب الكرة الذى اعتاد أن يذهب اليه ويلعب بالكرة . وحمل عليه احد مماليك الحافظ فطعنه بالخنجر وقتله ثم قطعوا رأسه .

واسرعوا باخراج الحافظ من خزانة القصر حيث كان أشبه بالسجين وجددوا بيعته .

الحافظ يعلن نفسه خليفة :

اعتبر الحافظ يوم نجاته من سجنه وتوليه السلطة ، عيدا اطلق عليه اسم عيد النصر وصار يعمل به فى كل سنة . والنصر لم يكن له فحسب بل للدولة الاسماعيلية كلها ، فلو ظل أحمد بن الأفضل طويلا لقضى عليها .

على أن المشكلة الشرعية المذهبية كانت لا تزال قائمة بالنسبة له وهو أنه ليس ابنا للامام السابق ولذلك فقد ظل رجال الدولة وشيوخ المذهب يعاملونه على أنه كفيل للطفل المختفى .

يقول المقريزى : فاجتمع الناس واخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لم يذكر اسمه . وقـد عثر على عملة ضربت فى الاسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ كتب عليهـا : ابو الميمون عبد المجيد ولى عهد المسلمين .

على أن الدكتور محمد جمال الدين سرور ، يعود فينقل لنا روايته المفصلة عن ابن ميسر وهو أن الحافظ أمعن فى البحث عن ولد الآمر فلما اهتدى الى محل اقامته ـ بعد شهرين من عودته وليا للعهـد ـ أسرع الى القبض عليه وقتله ثم أعلن نفسه خليفة ، وقرىء سجل بامامته فى ٣ ربيع الآخر من هذه السنة . وأمر الحافظ أن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صل على الذى شيدت به الدين بعد ان رام الأعداء دثوره ، وأقررت به الاسـلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر بباطن البصيرة ، مولانا وسيدنا وامام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة الى يوم الدين .

انقسام الاسماعيلية الى حافظية وطيبية :

وكيفما كان الأمر وهل كان للطيب وجود حقيقى ام لا ، فان الاسماعيلية انقسمت من جديد الى اسماعيليين حافظية واسماعيليين طيبية .. وقد وجد الأخيرون فى اليمن ، بل وفى الهند نفسها .

وزارة الأمير يانس الأرمنى :

كان على رأس المتآمرين لقتل احمد بن الأفضل ، الأمير يانس الأرمنى ولذلك فقد رفع الى منصب الوزارة ، ولكن مدته فى الوزارة لم تطل اذ أنه مات بعد تسعة اشهر وقيل انه قتل بالسم .

الحافظ يباشر السلطة بنفسه :

وعلى أثر تخلص الحافظ من يانس الأرمنى ، قرر أن يباشر اعمال الدولة بنفسه فلا يفوض امرها الى وزير ، واتخذ من ابنه وولى عهده سليمان معاونا له لمباشرة الأعمال التى اعتاد الوزراء أن يقوموا بها . الا أن سليمان ولى العهد لم يلبث أن مات بعد شهرين من تعيينه وليا للعهد . وكان الحافظ لا يرتاح لابنه الثانى الحسن ولذلك فقد تجاوزه أبوه فى ولاية العهد وقلدها لابنه الأصغر منه والمسمى حيدرة . فأغضب هذا التصرف الحسن بن الحافظ وشرع يتآمر على ابيه علنا ويجمع حوله بعض أمراء الجيش وقواده لخلع ابيه ، وانقسم الجيش تبعا لهذه الفتنة ، فكانت هذه الواقعة كما يقول المقريزى « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها . وقد حاول الحافظ ان يخمد الفتنة باسترضاء ابنه فكتب سجلا بتوليته للعهد وارسله اليه فقرىء على الناس ، ولكن ذلك لم يزد الحسن الا جرأة على ابيه وافسادا له » .

على أن هذه الثورة انتهت بالاخفاق ، ولجأ الحسن الى قصر أبيه الذى كان على استعداد أن يسامحه ، لولا أن الجيش أحاط بقصر الخليفة وطلب منه تسليم الحسن لقتله وهددوه ان لم يفعل أن يقتلوه هو نفسه .

وتقول القصة ان الحافظ خرج من هذا الحرج ، بأن حمل أحد الأطباء على دس السم لابنه ، وهكذا مات الحسن ولم يطمئن الجنود الى موته الا بعد أن أرسلوا مندوبين من قبلهم للتأكد من هذه الحقيقة .

وقد رج هذا الحادث الدولة رجا فأسرع بتصدعها .

١١٣٤ م ـ ٥٢٩ هـ : وزارة بهرام الأرمنى :

ما كان للفتن اذا اشتعلت الا أن تظل مشتعلة ، ولذلك فقد استطاع بهرام الأرمنى والى الغربية أن يأتى بجنوده فى جمادى الثانى من هذه السنة وأن يحاصر بها القاهرة ويطلب من الحافظ أن ينصبه وزيرا للدولة . ولم يستطع الحافظ الا أن يرضخ للطلب ، فعين بهرام وزيرا على الرغم من أنه كان نصرانيا وظل على نصرانيته .

وتعصب بهرام لبنى جنسه ووفق بين الارمن والمسيحيين فحشدهم فى جميع المناصب الرئيسية حتى بلغ عدد الأرمن فى جيشه ٣٠ الفا . وأكثر من بناء الكنائس والأديرة ، حتى صار لكل أمير من الأرمن كنيسة خاصة به .

وجأر الناس بالشكوى فاستغاثوا بمن حل محله فى ولاية الغربية وهو رضوان ابن ولخشى فاستجاب للدعوة وجاء بجنوده وانضم اليه الجند المسلمون فى جيش بهرام ، ونجا بهرام بجلده ففر من القاهرة ، ويقول لنا لين بول نقلا عن أبى صالح أن بهرام قد اختفى فى أحد الأديرة وأصبح راهبا .

رضوان يتولى الوزارة ويلقب بالملك :

دخل رضوان القاهرة وتولى الوزارة ، وزاد فى القابه نغمة جديدة وهى التسمى بالملك ، فأصبح يلقب بالسيد الأجل والملك الأفضل . وأصبحت تسمية الوزير بالملك سنة من بعده .

ولجأ رضوان الى اضطهاد الأرمن والمسيحيين من ناحية ، كما لجأ الى النكاية بالخليفة الحافظ من ناحية أخرى ، حتى هم بخلعه بدعوى أنه ليس اماما وانما هو كفيل عن امام لم يوجد .

وتحول الخلاف بين الرجلين الى معارك ، امتدت لبضع سنوات بين مد وجزر لصالح الحافظ تارة ولصالح رضوان تارة أخرى . وانتهى الأمر بمقتل رضوان .

١١٣٩ م ــ ٥٣٢ هـ : ميلاد صلاح الدين :

ووسط هذه الفتن والخلافات ، والظلام الذى ران على العالم الاسلامى فى هذه الفترة بسيطرة الصليبيين على بيت المقدس وفلسطين . ولد الرجل الذى سيكون مقدرا له أن يسترد بيت المقدس من الصليبيين ، وأن يعيد الأمن والنظام الى مصر ويوحد بينها وبين بلاد الشام . ذلكم هو يوسف صلاح الدين بن نجم الدين أيوب . وكان مولده فى قلعة تكريت من أعمال الموصل .

١١٤٤ م ــ ٥٣٩ هـ : عماد الدين زنكى يستولى على مدينة الرها :

لم يكن مولد هذا الطفل يوسف صلاح الدين ، الا رصيدا لمواصلة موجة المد التى بدأ العالم الاسلامى يجيش بها ، ففى هذه السنة سنة ٥٣٩ هـ كان الأتابك عماد الدين زنكى أمير الموصل يقوض أول دولة صليبية انشأها الصليبيون فى الشرق الاسلامى وهى دولة الرها وذلك بالاستيلاء على هذه المدينة المحصنة بعد عديد من المعارك التى شنها على الأفرنج وانتصر فيها كلها .

وعلى خلاف ما فعله الصليبيون بالمدن الاسلامية التى احتلوها فان عماد الدين زنكى كتب الى النصارى أمانا وأحسن اليهم .

١١٤٧ م – ٥٤٢ هـ – الحملة الصليبية الثانية :

احدث سقوط مدينة الرها وامارتها بيد عماد الدين زنكى ، وما أعقب ذلك من ضغطه بشدة على امارة انطاكية ، ان استحوذ على الصليبيين الذعر والهلع ، فأمطروا البابا وسائر ملوك أوربا بسيل من الاستغاثات يطلبون النجدات بأسرع ما يمكن .

وأراد البابا يوجين الثالث أن يجعل من نفسه اربان الثانى ، فراح يضرم من جديد نار الدعاية فى أرجاء أوربا للقضاء على الاسلام والمسلمين . وكأن التاريخ يعيد نفسه فحيث اعتمد اربان الثانى على بطرس الناسك ليكون لسانا متحركا يلهب الجماهير . فقد وجد يوجين الثالث فى شخص برنار الراهب ما يؤدى دور بطرس الناسك وقد استجاب للدعوة هذه المرة كونراد الثالث امبراطور الدولة الغربية ولويس السابع ملك فرنسا .

وعلى الرغم من اجماع المؤرخين على أن هذه الحملة كانت أكثر نظاما واحسن قيادة من الحملة الأولى ، حيث كانت كلها تتألف من البارونات الفرسان ، فقد أخفقت اخفاقا ذريعا وذلك بسبب الخلافات التى دبت بين الملكين من ناحية ، وبينهما وبين امبراطور بيزنطة من ناحية أخرى . ولذلك فقد استطاعت جيوش السلاجقة ان تفنى الكثير من قوة هذه الجيوش أثناء اجتيازها الأناضول .

١١٤٨ م – ٥٤٣ هـ – محاولة استيلاء الصليبيين على دمشق :

لخصت الجيوش التى وصلت الى فلسطين مهمتها فى الاستيلاء على مدينة دمشق ، على الرغم من أن مجير الدين أمير دمشق كان فى تحالف مع الصليبيين ، ضد القوتين الاسلاميتين فى المنطقة ، بغداد فى الشرق ، والقاهرة فى الجنوب . فكانت هذه على ما يقول المؤرخون الأوربيون أكبر غلطة ارتكبتها الحملة الصليبية الثانية . وعبثا حاول مجير الدين أن يذكر الصليبيين بأنه حليفهم ، وأن قضاءهم عليه فيه اضعاف لمركزهم ، فلما أصموا آذانهم .. التجأ الى هذا النجم الصاعد فى سماء المنطقة وهو نور الدين زنكى .

من هو نور الدين زنكى :

قدمنا ان امير الموصل وحلب عماد الدين زنكى ، وهو الذى اخذ على عاتقه محاربة الصليبيين وراح ينتصر عليهم وينتزع حصونهم ومواقعهم الواحد تلو الآخر . ثم شاءت سخرية التاريخ أن يقتل هذا القائد الذى تعلقت به آمال المسلمين فى حادث غامض على يد بعض غلمانه ، ولم يستطع التاريخ أن يستجلى غوامض هذا الحادث .

غير أن عماد الدين زنكى لم يفارق الحياة الا وكان قد ترك للدنيا ابنا له يدعى نور الدين وعلى الرغم من أنه ترك ابناء آخرين ، فان نور الدين هو الذى ورث عزم أبيه فى محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . وشاءت الأقدار أن يكون أكثر من أبيه

صلاحية للمضى فى هذا الطريق ، فحيث لم يعرف عن ابيه الا انه عسكرى جسور قوى الشكيمة فان ابنه نور الدين كان يضم الى ذلك ورعا وتقى وزهدا وكانت نفسه تفيض بالاحساس بالعدل ، والاحسان الى النـاس ولذلك ، فقد واصـل الانتصار على الصليبيين فى عديد من المعارك ، التى جعلت شهرته تطبق الآفاق . فلما أن أسقط فى يد مجير الدين .. استنجد بنور الدين زنكى .. ولم يكن نور الدين ينتظر الا هذه الفرصة الذهبية فشرع فى الزحف بجيوشه على دمشق فلم يكد الصليبيون يسمعون بزحفه ، حتى أسرعوا بالانسحاب رافعين الحصار عن المدينة .. ولم يجد الصليبيون الذين جاءوا من أوربا الغربية ما يفعلونه بعد ذلك فعادوا أدراجهم (بخفى حنين) على ما يقول لين بول . أما وليم لانجر فيلخص الحملة الصليبية الثانية بأنها لم تفعل شيئا يذكر ، وشنعت سمعتها فى أرجاء أوربا .

١١٤٩ م ــ ٥٤٤ هـ ــ وفاة الحافظ لدين الله :

مات الحافظ لدين الله فى جمادى الثانى من هذه السنة بعد أن مرض وكانت سنه يوم مات خمسا وسبعين سنة ومدة حكمه تسع عشرة سنة ولم يكن سلطانه يوم وفاته يتجاوز أسوار قصره . وبموته أندلعت من جديد نيران الفتن بين مختلف فرق الجيش الأرمنية والسودانية والتركية .. حتى أصبحت شوارع القاهرة غير آمنة ، وعاش من فيها فى رعب وفزع مما يحل بأرواحهم وأموالهم فى أى لحظة .

خلافة الظافر بأمر الله :

وفى نفس الشهر بويع لابن الحافظ أبو منصور اسماعيل ولقب بالظـافر بأمر الله ، وكان عمره سبع عشرة سـنة وأشـهر وكانت أمه جارية (أم ولد) تدعى ست الوفاء وقيل ست المنى ــ وكان الوزير الذى تولى تدبير المملكة هو الأمير نجم الدين ابن مصال المغربى ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش .

١١٥٠ م ــ ٥٤٥ هـ ــ تولى ابن سلار الوزارة :

لم يرض ابن سلار والى الاسكندرية والبحيرة عن تولى نجم الدين بن مصـال الوزارة . وتابعه على عدم رضائه ربيبه (١) عباس بن باديس الصنهاجى والى الغربية فلما ترامى الى سمع ابن مصال نبأ اتفاق الرجلين عليه ، وأحس بأن الخليفة الظافر يقف منه موقفا سلبيا ، آثر أن يغـادر القاهرة ، ولما يمض عليه فى الوزارة شـهران وترك المنصب شاغرا وقصد الى الصعيد .

فوصل ابن سلار الى القاهرة ودخلها وتقلد وزارتها وتلقب باسم العادل ، وبعث بربيبه عباس الصنهاجى على رأس جيش لمحـاربة ابن مصال فى الصعيـد فظفر به وقتله ، وهكذا استقر الأمر لابن سلار فى الوزارة وتدبير الملك .

---

(١) كان ابن سلار قد تزوج أم عباس فأصبح بذلك ربيبا له .

١١٥١ م — ٥٤٦ هـ — انشاء مدرسة للشافعية فى الاسكندرية :

كانت أحدى الظواهر التى تدل على قرب تداعى الدولة الشيعية ، اتجاه الوزراء من حين لآخر الى المذهب السنى وتعزيزه . فقد أنشأ ابن سلار فى هذه السنة وقد كان سنيا مدرسة للمذهب الشافعى فى الاسكندرية ، وعهـد بادارتها الى الحـافظ السلفى الفقيه الشافعى تمهيدا لاعادة المذهب السنى الى مصر .

١١٥٣ م — ٥٤٨ هـ — مقتل ابن سلار وتولى عباس الصنهاجى الوزارة :

فى السادس من المحـرم قتل ابن سـلار ، وكان قاتله هو نصر ابن ربيبه عباس الصنهاجى وذلك بايعاز من الخليفة الظافر الذى ضاق بسلطان ابن سلار والذى بدأ يوجهه لاعادة المذهب السنى .

وتولى الوزارة والد نصر عباس الصنهاجى ولقب بالمظفر والأفضل أمير الجيوش.

سقوط مدينة عسقلان :

قدمنا أن مدينة عسقلان ظلت هى الموقع الأمامى الوحيد فى فلسطين بيد مصر . وكان طبيعيا وهذا مدى الاحداث التى كانت تجرى فى مصر ، أن يسقط هذا الحصن فى خاتمة المطاف بيد الصليبيين ، وان يكون سكان المدينة هم الذين يسلمونها بالامان للصليبيين بعد أن يئسوا من نجدة مصر لهم أو نجدة بقية امراء المسلمين . ذلك ان نور الدين زنكى وهو الأمير الوحيد الذى كان مستعدا لنجدتهم ، وتوجه بالفعل اليهم قد حال بينه وبين الوصول اليهم خلاف مجير الدين صاحب دمشق عليه التى رغم ماتعرضت له من الصليبيين ، فقد ظل صاحبها مجير الدين يخشى على نفسه من نور الدين ويستقل بشئونه عنه ويحبط ما استطاع من توسعاته وانتصاراته .

وعلى ذلك فقد دخل الصليبيون الى مدينة عسقلان واستولوا على كل ما كان بها من ذخائر وحولوا مسجدها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس .

فرنجة من صقلية ينهبون مدينة تنيس :

وكان طبيعيا وقد سقطت عسقلان ، أن يتجـرأ الصليبيون على مصر نفسها . فجاءت مراكب حربية من جزيرة صقلية محملة بالأفرنج فنهبوا مدينـــة تنيس وخربوها .

١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ — مقتل الخليفة الظافر :

فى ليلة الخميس آخر المحرم من السنة الهجرية قتل الخليفـة الظافر على يد صاحبه وخدنه وخليـله نصر بن عباس الذى كان أداته فى قتل ابن سـلار . وكانت العلاقة بين الخليفة الظافر ونصر بن عباس قد وصلت الى حد أن أصبح الظافر مستقلا

بها عن اى علاقة اخرى ، فانتشرت الاشاعات والاقاويل عن هذه العلاقة التى اشبهت أن تكون زواجا . وخاف عباس أبو نصر على نفسه من ابنه أن يقتله بتحريض الخليفة كما قتل ابن سلار ، فراح يحرض ابنه على قتل الظافر حتى يبرىء نفسه من الشبهات التى ثارت حوله ، وانصاع نصر لتحريض أبيه فتربص بالظافر عند حضوره اليه كعادته كل ليلة ولم يكن معه الا خادمان ، فقتله وقتل أحد الخادمين بينما فر الآخر ، وألقى بجثتيهما فى بئر وسد عليهما .

وكانت سن الظافر عند قتله واحدا وعشرين عاما وتسعة أشهر أمضى منها فى الخلافة اربع سنوات وثمانية أشهر أمضاها كلها فى اللهو واللعب .

وان كان الأمر لم يخل من انشـــائه كعـــادة هذا الزمان على ما يقول أبو المحاسن الجامع الظافرى المعروف بجامع الفاكهيين .

الوزير عباس يتهم أخوى الظافر بقتله :

ذهب الوزير عباس الى دار الخلافة صبيحة مقتل الظافر ووجه الى أخــوى الخليفة يوسف وجبريل تهمة قتل الظافر ، وقتلهما على الفور ظلما وعدوانا لتغطية جريمة ابنه ثم استحضر ابن الظافر وكان طفلا لا يتجاوز عمره خمس سنوات وكان يدعى عيسى ونادى به خليفة مكان أبيه واطلق عليه اسم الفائز بنصر الله .

استيلاء نور الدين على دمشق :

على أنه فى الوقت الذى كان فيه ملك الفاطميين يتهاوى فى الداخل والخارج ، كانت موجة المد فى نقاهة العالم الاسلامى كما أصبح يمثلها نور الدين زنكى تواصـــل ارتفاعها ، ففى ابريل من السنة الميلادية ١١٥٤ كان نور الدين يستولى على مدينة دمشق بناء على طلب اهلها ، الذين ضاقوا بأميرهم مجير الدين حليف الافرنج ، والعقبة فى سبيل تجميع المسلمين . . فكاتبوا نور الدين ليقدم الى المدينة ووعدوه أن يسلموها اليه . وعلى الرغم من أن مجير الدين قد تحصن فى القلعة ، فقد انتهى الامر باستيلاء نور الدين على دمشق ، ولم يشـــأ أن يعامل مجـــير الدين فى عنف بما جنت يداه . . بل أكرمه وعينه واليا على أحدى البلاد فى سلطانه ، على أنه لم يلبث أن آثر الالتجاء الى خليفة بغداد .

وبدخول دمشق فى سلطان نور الدين انفتح الطريق نحو فلسطين ومصر لادخالهما فى نطاق التجمع ضد الصليبيين .

خلافة الفائز بنصر الله على مصر :

ذكرنا من قبل أن عباس قد ولى أبا القاسم عيسى بن الظافر الذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة خليفة على مصر ولقبه بالفـــائز بنصر الله . ويقول الحافظ الذهبى أنه بعد أن قتل عباس الوزير اخوى الظافر ، دخل الى الحريم وجاء بالطفل الصغير وحمله على كتفه ووقف فى صحن الدار متظاهرا بالحزن والكآبة وأمر أن يدخل الامراء

فقال لهم هذا ولد مولاكم وقد قتل عماه مولاكم ، وقد قتلناهما كما ترون وأشار الى جثتى القتيلين ، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل ، فقالوا كلهم سمعنا واطعنا وضجوا ضجة واحدة بذلك ففزع الطفل ومال على كتف عباس من شدة الفزع ، وسموه الفائز ثم سيروه الى أمه وقد أختل عقله من تلك الضجة فيما قيل . فصار يتحرك فى بعض الأوقات ويصاب بالصرع ، وقال آخرون بل كان اختلال عقله نتيجة رؤيته المقتولين غارقين فى الدماء .

ويضيف أبو المحاسن معلقا : وعلى كل الاقوال اختل عقل الفائز .

هرب عباس الصنهاجى وابنه نصر :

ثارت الجماهير الغاضبة على عباس الصنهاجى وما ارتكبه من جرائم بشعة حتى قيل أن النساء رحن يقذفن عليه الاحجار من البيوت ، فانفض الكثير من الاتباع من حوله . ومن ناحية أخرى فقد كاتب سكان القصر من النســاء والجوارى طلائع بن زريك الأرمنى وكان واليا على منية بن خصيب وأرســلوا اليه شعورهم اشــارة الى استصراخهم به . فلبى طلائع بن زريك هذا الاستنجاد وتحرك بما معـــه من قوات عسكرية طلبا لثأر الخليفة الظافر . وهكذا وجد عباس نفســه معزولا عن الجماهير وغالبية الجند ، فجمع كل ما قدر عليه من أموال وسار بجميع أفراد عائلتــه قاصدا الشـــام .

مقتل عباس وابنه :

يقول أبو المحاسن أن أخت الظافر التى آلت على نفسها أن تثأر لأخيها كاتبت الصليبيين الذين كانوا يحتلون عسقلان وأرشــدتهم الى مسير عباس وما يحمل من اموال ، وحرضتهم على قتله مقابل مكافأة كبيرة حددتها لهم فوق ما سيغنمونه من امواله . واستطاع الصليبيون بالفعل أن يقبضوا على عباس ومن معه وأن يقتلوه ويغنموا كل ثروته . وأرسلوا ابنه نصر فى قفص من حــديد لأخت الظافر ليتقاضوا ما وعدتهم به .

ويحدثنا المؤرخون بعد ذلك عن تفاصيل الميتة البشعة التى قتــل بها نصر بن عباس ..

الملك الصالح طلائع بن زريك فى الوزارة :

دخل الملك الصالح طلائع بن زريك القاهرة وهو يرتدى السواد حدادا على من ماتوا ، فكان ذلك ارهاصا بما أصبح وشيك الوقوع من العودة الى السواد شــعار العباسيين .

وكان أول مافعله بعد أن استقر فى قصر الوزارة ان قصد الى بيت نصر الدين الذى قتل فيه الخليفة واخرج جثته وشيعت فى جنازة اشترك فيها الشعب كله ثم راح بعد ذلك يتعقب المجرمين ويقتص من القواد والجند الذين روعوا القاهرة خـلال السنوات السابقة باذلا جهده لاعادة حكم القانون واستتباب الأمن والنظام .

١١٥٨ م / ٥٥٣ هـ ـ ابن زريك والصليبيين :

على أن أعظم ما يسجل لابن زريك ، هو أن جيوشه تحت قيادة ضرغام استطاعت أن تحرز أول انتصارات للجيوش المصرية على الصليبيين بالقرب من غزة .

وأسرع ابن زريك عقب هذا النصر فدخل فى مراسلات مع نور الدين يطلب منه توحيد حدود الدولتين للقيام بعمل مشترك ضد الصليبيين .

وقد سجل لنا اسامة بن منقذ هذه الرسائل التى تم تبادلها على يديه اذ كان يتردد على الملكين .

غير أن نورالدين الذى كان يتصرف بحذر من ناحية ، وكان من ناحية أخرى يكره الشيعة ، جعل رده على ابن زريك فى عبارات غامضة مطاطة لا يقطع فيها ولا يوصل . ولكن بن زريك لم يكف عن مواصلة مســاعيه حتى لقد أوفد ســفارة الى نور الدين فى دمشق وحملها الكثير من الهدايا والتحف ، وعرض على نور الدين سبعين ألف جنيه لتمويل الحملة المشتركة ضد الصليبيين .

١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ ـ وفاة الخليفة الفائز :

فى الحادى والعشرين من شهر المحرم . مات الخليفة الفائز على ما يقول ابن خلكان اما أبو المحاسن فيجعل هذه الوفاة فى رجب وكانت مدة حكمه الاسمية ست سنوات وستة أشهر وأيام ، وعمره يوم وفاته احدى عشرة سنة وشهور . ومات دون أن يكون له ولى عهد متفق عليه .

خلافة القاصد لدين الله :

فى الثامن من رجب بويع بالخـــلافة أبو محمد ولقب بالقاصـــد وهو ابن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ بالله الذى قتله عباس الصنهاجى بتهمة قتل أخيه الظافر .

وكانت سنه يوم بويع له احدى عشرة سنة وشهور وكان الملك الصالح بن زريك هو الذى اختاره واليا يناب الخلافة وبايعه فتابعه بقية الناس .

وقد عمد ابن زريك الى تزويج ابنته من القاصد أملا فى أن يرزق منها بولد : لتجتمع الخلافة والملك لبنى زريك .

ويقول ابن كثير انه جهز ابنته بجهاز عظيم يجل عن الوصف وقد عمرت ابنة الملك الصالح بعد وفاة زوجها العاضد ورات زوال دولة الفاطميين .

١١٦١ م / ٥٥٦ هـ ـ وفاة الملك الصالح طلائع بن زريك :

فى يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ، قتل الملك الصالح طلائع بن زريك بمؤامرة دبرت له فى القصر .

وقد اشتهر الملك الصالح بأنه كان أديبا محبا للادباء وكان يعقد مجالس الادب وقد قصده أهل العلم من سائر البلاد فلم يخيب رجاء قاصد منهم .

وكان هو نفسه يقرض الشعر الجيد الذى يتناقله الناس .

وان كان بعض المؤرخين يقولون ان أشعار ابن زريك هى من شعر ابن الزبير القاضى المهذب .

وقد انشأ الجامع المنسوب اليه والمشهور باسم جامع الصالح ليكون مقرا لراس الحسين الشهيد الذى نقلت فى أيامه من عسقلان خوفا عليها من الصليبيين . ولكن الخليفة اعترض على ذلك وبنى المشهد الحالى المعروف .

وقد استعرض الجيش فى أيامه فكانت عدة عساكر القاهرة خمسين الفا من مختلف الاجناس . وكان يحمل فى كل عام لأهل الحرمين سائر مايحتاجونه من المؤونة والكسوة وغيرها حتى كان يحمل لهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد وآلات النساء . وكانت أخر كلماته قبل موته ابداء الأسف على أنه لم يستعد بيت المقدس ويطهره من الفرنجة .

ثم نصح ابنه أن لا يتعرض لشارو حاكم الصعيد العربى بالعزل وعليه أن يبقيه فى منصبه .

وكان ابن زريك شأن وزراء هذا الزمان قد استبد بالأمور كلها ، ثم أصيب على — ما يقول البعض — بالشره فى جمع الأموال ، حتى وصل به الأمر الى بيع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعرا محددا ، كما كانت مدة الولاية لا تزيد على ستة شهور ، مما أثار الناس عليه .

١١٦٣ م — ٥٥٨ هـ : تولى العادل زريك الوزارة ثم شاور :

تولى زريك بن الصالح الوزارة بعد مقتل أبيه ولقب بمجد الاسلام ، وسار على سيرة أبيه فى الاستئثار بالسلطة ، فلم يعجب ذلك الخليفة العاضد فعمد الى التخلص **من العادل باثارة أطماع شاور حاكم الصعيد بتولى الوزارة اذا هو خلصه من** العادل زريك .

يقول أبو المحاسن فتحرك شاور بن مجيد السعدى من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم الى القاهرة لمحاربة زريك ، **فانهزم زريك ودخل** شاور القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بنى زريك وقد نجح الوزير زريك **فى الاختفاء فى بادىء الأمر ولكن شاور لم يلبث أن ظفر به وقتله .**

ضرغام يسقط شاور :

ولى العاضد شاور الوزارة ، ولكنه لم يلبث بعد قليل أن احس بالندم ، فاذا كان زريك وأبوه من قبله يضيقان عليه ، فعلى الأقل فقد كانا يحسنان تدبير المملكة .

اما شاور ففوق اساءته للرعية ، واساءته التدبير ، فقد راح يعامل الخليفة اسوا معاملة واقبحها .

ولذلك فقد حرض احد قواد الجيش وهو ضرغام ضد شاور فجمع ضرغام قوة من الجيش واستطاع أن يخرج بها شاور من القاهرة . على أن ضرغام بدوره لم يلبث أن اساء السيرة وراح يقتل الكثيرين من الأمراء لتخلو له البلاد .

١١٦٤ م ــ ٥٥٩ هـ ــ شاور يحرض نور الدين على فتح مصر :

لجأ شاور بعد هربه من مصر الى نور الدين زنكى فى الشام واستنجد به وراح يهون له فتح مصر على أن يتولى شاور حكمها نيابة عنه ، وأن يقدم ثلث خراجها .

ولما كانت خطة نور الدين تقوم على توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الصليبيين ، وكان اخشى ما يخشاه من ناحية أخرى أن يؤدى التدهور المستمر فى أحوال مصر الداخلية الى سقوطها فى يد الصليبيين ، فقد استجاب لنداء شاور وأرسل معه جيشا رأسه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذى جاء فى معيته ، وكان ذلك أول دخول لصلاح الدين الى مصر .

شخصية صلاح الدين :

وهناك عديد من الكتب القديمة والحديثة التى كتبت فى شخصية صلاح الدين ، وهى لا تقدم لنا الكثير عنه فى أيامه الأولى وشبابه ، الا أنه تمرس فى عمليات القتال فى المعارك التى خاضها فى الجيش النورى ، كما تمرس بأعمال الادارة عندما تولى ادارة الشحنة فى دمشق .

على أن الخط الحقيقى لشخصية صلاح الدين يبدو منذ حضر الى مصر مع عمه اسد الدين شيركوه ، حيث يقول المؤرخون أن شخصيته كانت فى ذلك الوقت قد نضجت وشجاعته قد اشتهرت ، بحيث كان اسد الدين شيركوه لا يبرم أمرا الا بعد استشارة صلاح الدين رغم حداثة سنه .

مقتل ضرغام وعودة شاور الى الوزارة :

خرج ضرغام على رأس جيش لمقابلة اسد الدين شيركوه ، ولكن الدائرة دارت عليه وسقط قتيلا فى المعركة ، وهكذا عاد شيركوه لتولى منصب الوزارة .

شاور ينكث بالعهد مع نور الدين :

ولكن شاور لم يكد يتربع فى دست الوزارة ، ويجمع رجاله القدامى حوله ، حتى رأى أن من صالحه أن يكون مع الخليفة العاضد المغلوب على أمره من أن يكون تابعا لنور الدين القوى ، ولذلك فقد اصطلح مع العاضد . وقلب ظهر المجن لأسد الدين شيركوه فبعث اليه يطلب منه مغادرة مصر الى الشام بعد أن تمت مهمته .

واستبان صلاح الدين من شاور عين الغدر فأشار على عمه بالانسحاب بجيشهم الى مدينة بلبيس ، فأصاخ شيركوه لهذه النصيحة ، ولم يكادوا يتجاوزون الى بلبيس حتى ظهر غدر شاور الذى كان قد راسل الصليبيين فى هذه الاثناء ، وطلب منهـم الحضور الى مصر لمقاومة جيش نور الدين .

وأسرع الصليبيون لانتهاز الفرصة ، وجاء جيشهم الى مصر وانضم الى جيش شاور ، وحاصر الجيشان جيش أسد الدين شيركوه . الذى قاوم الحصار ببسالة ولم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا رغم طول الحصار الذى استمر ثلاثة اشهر . وخف نور الدين الى مساعدة جيشه فى مصر بالهجوم على الامارات الصليبية ، فخـاف الصليبيون على بلادهم وقرروا الانسحاب من مصر فدخلوا فى مفاوضات مع أسد الدين شـــيركوه ، لكى يجـــلو جيش نور الدين كما يجـــلو جيش الصليبيين من مصر فى آن واحد .

وقد تحقق هذا الاتفاق ، ولكن بعد أن كان الطـرفان نور الدين من ناحيـة والصليبيون من ناحية أخرى قد أدركا مدى ما أصبحت عليه مصر من عجز للدفاع عن نفسها . ومدى ما يفيده المسيطر عليها من القوة .

١١٦٧ م ـ ٥٦٢ هـ ـ الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين :

استبد شاور بالخليفة العاضد بعد أن خيل اليه أن الأمور قد استقرت له ، وراح يسرف فى قتل من يتصور أنه يمكن أن يقاوم سلطانه ، فاستنجد الخليفة العاضـد هذه المرة بنور الدين ليخلصه من شاور . وكان نور الدين ينكر على شاور غـدره السابق ونكثه العهد وادخاله الصليبيين الى مصر ، ولذلك فقد لبى نداء العاضد وبعث بجيش جديد الى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه على أن عدة هذا الجيش لم تكن تتجاوز الألفين .. ومرة أخرى دخـل صـلاح الدين الى مصر فى معية عمه أسد الدين شيركوه .

شاور يستنجد بالصليبيين :

وأسرع شاور يستنجد بالصليبيين فأوفدوا له قوة تزيد أضعافا مضاعفة على جيش نور الدين وبينما كان جيش أسد الدين يقف قبالة الجيزة على الضفة الغربية للنيل . كان الصليبيون قد وصلوا فى مواجهته الى الضفة الشرقية ولم يستطع أى من الطرفين أن يعبر النيل ليواجه الآخر .

ولم يلبث شيركوه ان انحدر الى الصعيد .. وكذلك الصليبيون .

وعند بلدة البابين على بعد عشرة أميال جنوبي المنيا الحالية فى ١٨ ابريل من هذه السنة الميلادية ، جرت احدى المواقع الفاصلة التى أظهرت مواهب صلاح الدين وشجاعته وحسن تدبير عمه لتكتيك المعارك (١) .

فعلى الرغم من ضآلة جيش شيركوه بالنسبة للجيشين المتحالفين (الصليبى والشاورى) فقد انتصر شيركوه وعاد الصليبيون الى القاهرة مهزومين .

اتجه شيركوه بعد انتصاره شمالا حتى وصل مدينة الاسكندرية فدخل برضاء أهلها وعين صلاح الدين واليا عليها . وعاد أدراجه الى الصعيد ليوطد سلطانه هناك وأسرع الصليبيون يهاجمون الاسكندرية برا وبحرا .

ولاقى صلاح الدين الأمرين فى هذه الحرب التى عاناها من الصليبيين ، حتى ليذكرها فيما بعد كسبب يجعله يكره العودة الى مصر .

ومن جديد دارت المفاوضات بين شيركوه والصليبيين على أن يجلو الطرفان عن مصر ، وكان ذلك أعظم ما يمكن لشيركوه أن يحققه بجيشه الصغير ، ولذلك فقد قبل الاتفاق وأسرع بتنفيذه .

أما الصليبيون فقد تلكأوا فى التنفيذ الا بعد أن يبرموا مع شاور معاهدة كان من اهم شروطها أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (أى قوة بوليس) صليبية . وأن تكون أبواب القاهرة بيد فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها وعلى أن تدفع مصر للصليبيين مائة الف دينار سنويا .

وكان معنى هذه الاتفاقية هى بلغة العصر الحديث اعلان الصليبيين الحماية على مصر ضد نور الدين .

وصف لقصر الخليفة الفاطمى :

وقد كان ابرام هذه المعاهدة ، ورغبة الصليبيين فى التأكد من موافقة الخليفة العاضد عليها . فرصة لكى يحفظ لنا التاريخ وصف المراسم التى كانت تتبع عند مقابلة السفراء الأجانب للخليفة ، والأثر الذى كانت تتركه فخامة القصر وحدائقه فى نفس الأوربيين .

يقول غليوم رئيس اساقفة صور الذى ينقل عنه هذا الوصف :

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نضيرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة .

---

(١) انظر كتاب التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين .

ووجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقد قادوا الفرنج فى ممرات طويلة ، وضيقة وأقبية حالكة الظلام لا يستطيع الانسان أن يتبين منها شيئا . وربما كان المقصود من ذلك بعث الهيبة الى قلوبهم ، وزيادة التأثير فيهم ، فلما خرجوا الى الفور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة ، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام ، ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به اروقة ذات أعمدة وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجابا بها . وهنا استأذن فى الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الافرنجيين فى أقبية جديدة أشد جمالا وابداعا ، ثم الى حديقة لطيفة غناء ، لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها ، زاد فيها من أنواع الحيوانات ، ما يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ، فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات .

وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى وساروا فى بقاع كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجابا .

وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة ، وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك ، وكانت أقبيته تفيض بالمحاربين المسلمين مقلدين اسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز .

وادخل المبعوثون فى قاعة واسعة ، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان ، وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة ، ولم تكن فى هذه القاعة أحد . ولكن شاور خر راكعا كعادته فور دخوله ، ثم نهض واقفا ، ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ثم خر ساجدا مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت فجأة الحبال وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة ، وظهر الخليفة الطفل « القاصد » لأعين الفرنج المبعوثين ، وكان على وجه هذا الأمير حجاب يخفيه تماما ، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة[1] .

---

(1) « كنوز الفاطميين زكى محمد حسن ... »

١١٦٩ م – ٥٦٤ هـ : الصليبيون يجددون المحاولة للاستيلاء على مصر :

كانت كل الدلائل تدل على أن الصليبيين قد اعتزموا احتلال مصر ، ولابد أن جنودهم الذين خلفوهم وراءهم فى مصر ، وحراس أبواب القاهرة ، لم يكن لهم عمل الا تحقيق هذا الاستيلاء .

ولذلك فقد اعد أملريك (أمورى) ملك القدس حملة كبيرة فى هـذه السـنة للاستيلاء على مصر ..

واستطاع أن يجتاز الحدود وأن يقترب من القاهرة دون أن يجـد مقاومة من اى نوع كان ..

وعاد شاور الى لعبته القديمة وهى الاستغاثة بنور الدين ، وكان العاضد هو الذى قام بهذه الاستغاثة ، ولكى يزيد فى تأثيرها ، فقد أرسل شعور نسائه الى نور الدين مع تعهد بالنزول عن ثلث دخل البلاد المصرية . وعلى ان يقيم أسد الدين شيركوه هو وجيشه فى مصر على سبيل الدوام وأن تكون مرتبات هذا الجيش خارج ثلث الخراج الذى خصص لنور الدين .

شاور يحرق مدينة الفسطاط :

وريثما تصل هذه الاستغاثة الى نور الدين ، لم يجد شاور ما يعطل به زحف الصليبيين الا أن يحرق الجسور القائمة على النيل ، ويحرق مدينة الفسطاط حتى لا ينتفع الصليبيون بما فيها من أقوات وأرزاق وأموال فأمر أهل المدينة باخلائهـا على عجل ، فحملوا اقصى ما يمكن أن يحملوه من طعام ومتاع ، ثم أشعل شـاور النيران فى هـذه المدينة العظيمة ، وليس أدل على عظمتها من أن النار ظلت مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما دون أن تأتى عليها .. ولا تزال آثار هذه الحرائق ظاهرة حتى عصرنا الحديث فى الخرائب الباقية من الفسطاط (١) .

ويصف المقريزى الناس عندما أمرهم شاور باخلاء المـدينة وقد هاجوا وماجوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى أخيه . اشتد بهم أمر النقلة الى القاهرة ، حتى بلغ كراء الدابة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا ، ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها وعلى طرقاتها مطروحين بنسائهم وأطفالهم فى انتظار ما سيفعله العدو معهم بعد أن علموا بمسلكه مع بلبيس وأهلها . ثم فرق شاور على المدينة عشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار لاحراقها وخرج العبيد ورجال الأسـطول الى منازلها فنهبوها وأمعنوا فى طلب الخبايا » .

---

(١) يذكر هذا التفكير العجيب باقدام الروس على حرق مدينة موسكو لتعجيز نابليون عن احتـلال بلادهم ولكن شتان بين الموقفين .

نور الدين ينجد مصر بشيركوه وصلاح الدين :

أسرع نور الدين الى انجاد مصر ، وبعث جيشا هذه المرة من خاصة حرسه التركمانى وكان عدده يناهز الستة آلاف ، وجعل أسد الدين شيركوه قائدا للجيش، وضم اليه هذه المرة عددا كبيرا من الأمراء ، ويجمع المؤرخون نقلا عن صلاح الدين أنه كره هذه المرة السير الى مصر ، لولا أن ألح عليه عمه وأمره نور الدين بحزم أن يسير مع عمه .

ولم يكد جيش نور الدين يدخل البلاد حتى آثر الصليبيون أن ينسحبوا من مصر بغير قتال . ونزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة فى السابع من ربيع الثانى من هذه السنة (٨ يناير) .

مقتل شاور :

استقبل العاضد وأمراء الدولة وجماهير الشعب ، جيش نور الدين وأسد الدين شيركوه ، استقبال المنقذين بالفرح والترحاب والتهليل والتكبير ، وخلع الخليفة العاضد على شيركوه وأحاطه بكل مظاهر التكريم ، فتخوف شاور من عواقب ذلك على نفسه فراح يتراسل من جديد مع الصليبيين واقترح عليهم أن يكون مجيئهم هذه المرة بحرا عن طريق دمياط .

وتسرب نبأ هذه الخيانة الجديدة الى رجال شاور ، فهاجوا عليه وكان أشد المهتاجين ابنه الذى هدده . وانتهى الأمر بأن قبض صلاح الدين على شاور عندما جاء لزيارة شيركوه .. وعندما أعلموا الخليفة العاضد بالقبض عليه أرسل يطالب شيركوه برأسه ، وهكذا أسدل الستار على حياة هذا الرجل العاصفة .

أسد الدين شيركوه يصبح وزيرا :

فرح الخليفة العاضد بمقتل شاور ، وأرسل على الفور منشورا لتولية أسد الدين شيركوه الوزارة كان مما جاء فيه :

هذا عهد لم يعهد الى وزير بمثله ، فتقلد ما أراك الله أهلا بحمله وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة ، والزم حق الامامة تجد الى الفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .

ولقب أسد الدين شيركوه بالملك المنصور .

على أنه لم يمض سوى شهرين فقط على تولى أسد الدين شيركوه الوزارة حتى أدركته المنية ليحقق الله قدره فى بزوغ نجم صلاح الدين ، فقد أوصى أسد الدين شيركوه بالوزارة من بعده الى ابن أخيه صلاح الدين .

وكانت وفاة أسد الدين شيركوه فى يوم السبت ١٢ جمادى الثانى ..

الملك الناصر صلاح الدين يلي وزارة مصر :

أقر العاضد وصية أسد الدين شيركوه فى تولية صلاح الدين الوزارة ، فقد تصور أن فى هذا التعيين فائدة له . ذلك أن صلاح الدين كان أضعف من فى الجيش الشامى من أمراء ، وقدر أن بقية الأمراء ستختلف مع صلاح الدين فيكون هو المرجع ولقد كان هذا ما جعل صلاح الدين نفسه يتخوف من عاقبة توليه الوزارة ، فكره توليها لولا أن العاضد ألح عليه . وهكذا كان صلاح الدين يساق الى قدره الموعود وهو كاره ، فقد كره أن يدخل مصر هذه المرة ، حتى ضغط عليه ، وكره أن يلى الوزارة حتى ضغط عليه .

وتقلد يوسف صلاح الدين الوزارة فى العشرين من جمادى الثانى من هذه السنة ولقب بالملك الناصر .

وقد صح ما توقعه اذ أزور عنه أمراء الجند الذين جاءوا معه من الشام ، بما فى ذلك بعض أقاربه الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر سنا وأقدم خدمة وأولى منه بالوزارة .

وبدأت مهارة صلاح الدين تتجلى فى معالجة القلوب ، فقد راح يستميل كل أمير على حدة ، ويحسن فى المعاملة ويتواضع للجميع ، حتى ظفر برضاء الاغلبية من قواد الجند . .

ولكن اقلية رفضت التعاون معه ، فعادت الى نور الدين ، حيث بدأت تدس عنده لصلاح الدين .

وكانت الخطبة فى مصر للخليفة العاضد ومن بعده للملك نور الدين ثم للملك الناصر صلاح الدين .

يقول معاصرو صلاح الدين : « وقوى شأنه ، وزادت محبة الناس له . . » .

رجال القصر يتآمرون :

كان صلاح الدين يمثل نور الدين فى مصر ، وكان نور الدين ملكا سنيا ضد المذهب الشيعى ، ولا بد أن طموح صلاح الدين جعله يشرع فى جمع مقاليد السلطة كلها فى يده . ومن هنا فكان الاصطدام بينه وبين القصر الفاطمى لابد واقع . ولكنه من ناحيته سار بحذر ودهاء فلم يتعرض للخليفة أو لشئون القصر ورجاله ، ولكن رجال الخليفة كانوا هم البادئين فى اشعال نار الاصطدام ، فقد بدأ أحد كبار رجال القصر وهو نجاح مقدم جند السودانيين وكان يطلق عليه اسم مؤتمن الخلافة ، شرع يراسل الصليبيين للاستعانة بهم ضد صلاح الدين . ولكن رسول مؤتمن الخلافة الى اموري ملك الصليبيين وقع فى يد صلاح الدين فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة، ولم يلبث أن بعث اليه من اغتاله .

معركة السودانيين :

وكان مقتل مؤتمن الخلافة بمثابة المفجر للاصطدام المحتم ، فقد ثار الجنود

السودانيون وكان عددهم يناجز الخمسين الف جندى ضد صلاح الدين وجنوده من الأتراك والأكراد .

وقامت معركة طاحنة فى منطقة ما بين القصرين .. ابلى صلاح الدين واخوه توران شاه بلاء عظيما . وكان الخليفة العاضد يشجع السودانيين . فأصدر صلاح الدين امره باحراق المكان الذى كان يجلس فيه .. فخاف على نفسه ، وأعلن انكاره لفعل السودانيين .. فكان لهذا الفعل أثره فى انخذالهم .. وأشعلت النيران فى حيهم ، فجلا السودانيون عن القاهرة ولاذوا بالصعيد كما فعلوا من قبل .

وهكذا فقد الخليفة العاضد آخر سند كان يستند اليه فى مقاومة سلطان صلاح الدين ، الذى أصبح بعد هذا النصر أقوى قوة فى البلاد .

١١٦٩ م — ٥٦٥ هـ : الصليبيون وبيزنطة يحاولون غزو مصر :

على أن صلاح الدين لم يكد يفرغ من هذا الخطر الداخلى حتى كان يجابه خطرا خارجيا اشد عنفا ، فقد كان الصليبيون قد تحالفوا مع البيزنطيين ليمدوهم بأسطول قوى يفتحون به مصر ، وقد استطاعت هذه القوة الغازية أن تنزل الى أرض مصر عند مدينة دمياط يوم الجمعة ٣ صفر من هذه السنة (اكتوبر) وأن تحاصرها حصارا شديدا وكان صلاح الدين يبعث الى المدينة قبل وصول الحملة وبعد وصولها بالامدادات ، ولكنه ظل مرابطا بنفسه فى مدينة القاهرة خوفا من أن يعود السودانيون لاحتلالها . فأرسل يستنجد بنور الدين ويبين له خطورة استيلاء الصليبيين والبيزنطيين على مصر ، ولم يكن نور الدين فى حاجة الى من يظهر له هذا الخطر ، ولذلك فقد أسرع لنجدة صلاح الدين بارسال الجنود اليه من ناحية وبالهجوم على حصون الصليبيين فى فلسطين من ناحية ثانية ..

ووقف العاضد الى جوار صلاح الدين يمده بالاموال ، مما جعل صلاح الدين يثنى عليه .

وحاربت الطبيعة الجيوش الغازية .. اذ هطلت الامطار تباعا حتى أغرقت معسكر الصليبيين .

وأخيرا وبعد حصار دام خمسة وخمسين يوما انسحب الصليبيون والبيزنطيون بعد أن فقدوا ثلثمائة مركب أغرقتها العواصف البحرية ، ويقول ابن الاثير فى وصف هذه الحملة انها كالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين(١) .

صلاح الدين يوطد سلطانه :

كان انجاح صلاح الدين فى دفع الغزو الصليبى عن مصر أعظم أثر فى توطيد

(١) انظر سعداوى : التاريخ الحربى المصرى .

سلطانه نهائيا فى مصر ، ولذلك فقد أرسل الى نور الدين يطلب منه أن يبعث اليه بأبيه وآل بيته ، ولم يتردد نور الدين فى ارسالهم اليه بعد أن شرط عليهم طاعته والقيام فى أمره ومساعدته ، فوصلوا فى جمادى الثانى من هذه السنة ، فازداد صلاح الدين بهم قوة ، وأسند اليهم المناصب الهامة ، وأقطع أخوته الأراضى ، وجعل أباه قيما على بيت المال .

٥٦٦ هـ ــ انشاء مدرسة شافعية فى الفسطاط :

وكان أول مظهر لشعور صلاح الدين بسلطانه فى مصر أن أقدم فى هذه السنة على انشاء مدرسته الناصرية فى مدينة الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى تمهيدا بذلك لتقويض المذهب الشيعى .

١١٧٢ م ــ ٥٦٧ هـ ــ قطع الخطبة عن العاضد ووفاته :

كتب نور الدين فى أول هذه السنة الهجرية الى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة عن العاضد وبنى عبيد وأن يخطب لبنى العباس .

وهنا يتجلى حرص صلاح الدين فقد خشى أن تكون هذه الخطوة سابقة لأوانها وأن تؤلب عليه المصريين وتثير فتنة ، فكتب الى نور الدين يلح فى ارجاء الاقدام على هذه الخطوة ، وأحس نور الدين فى هذا التصرف من جانب صلاح الدين ببذور الرغبة فى الاستقلال ، ولذلك فقد اشتد عليه فى القول وألزمه بوجوب تنفيذ أمره .

وحدث أن مرض العاضد فجمع صلاح الدين الأمراء والكبراء واستشارهم فى أمر قطع الخطبة عن العاضد والدعاء لبنى العباس . فمنهم من وافق ومنهم من عارض فأعاد صلاح الدين الكتابة الى نور الدين ، الذى عاد أشد حزما والزاما ، بحيث لم يبق أمام صلاح الدين الا أن ينفذ الأمر أو يصبح متمردا على سيده ، واذ كان صلاح الدين لم يزل يتردد فى تحديد موقفه من نور الدين ، فقد انصاع الى تنفيذ الامر ، وخطب لبنى العباس فى أول المحرم .

واخفى أهل العاضد النبأ عنه ، وقيل بل ان النبأ بلغه وأرسل العاضد الى صلاح الدين ليوصيه فخاف صلاح الدين أن يكون فى الامر خدعة وأمر يدبر له ، فلم يلب النداء .

ولكن العاضد لم يلبث أن مات بالفعل فى يوم الاثنين العاشر من المحرم .

وقد حزن عليه كل من كان فى مصر من الشيعة ، فقد كانوا يدركون أن المذهب الشيعى قد قضى عليه بوفاته وكذلك الحكم الفاطمى من أساسه .

وكانت سن العاضد عند موته احدى وعشرين سنة حكم منها عشر سنوات ونيفا .

انتهاء الدولة الفاطمية :

وبموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية التى حكمت مصر مائتين وثمانى سنوات ولكن مدة الحكم الفاطمى فى مجموعه تناهز ٢٨٠ سنة .

ويشيع المؤرخون من أهل السنة الدولة الفاطمية فرحين مهللين ، وهم يصمونها بأسوأ الوصمات ، فيقول ابن كثير :

انهم كانوا أجبر الخلفاء وأظلمهم ، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر أهل الفساد ، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد ، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس ، ونابلس وعجلون والغور وبلاد غـزة وعسقلان والكرك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وانطاكية » .

وأما أن الحكام فى العصر الفاطمى الأخـير يتحملون مسئوليتهم عن انتصـار الصليبيين فى أيامهم والاستيلاء على ما استولوا عليه من بلاد العـرب والمسلمين ، فمسئولية لا يستطيع أى انسان أيا كان مذهبه وفكره أن يحلهم منها . ولعل ذلك ما يفسر البغض الذى اعتاد المؤرخون فى العهد الثانى أن يظهروه نحو الفاطميين ، ولكن من التجنى أن يخص الفاطميون بالمسئولية عن الهزيمة فى الحروب الصليبية ، فقـد كان الشام فى هذه الفترة قد أصبح فى حكم السلاجقة الذين كانوا يقفون للفاطميين بالمرصاد ، ولقـد كان السلاجقة هم الذين أحـدثوا الظروف التى أدت الى الحروب الصليبية .

حتى اذا بدأت الغارة ، كان الخلاف قد دب بينهم الى الحد الذى أدى الى ما حدث .

أما ما وصف به ابن كثير أحوال مصر والشام فى عهد الفاطميين من حيث الفساد وانتشار البدع والفتن .. الى آخر ما قاله .. فقد كانت الأحوال فى بغداد والعراق أشد سوءا .

عناية الفاطميين بالعلم والفن :

وأيا ما يقال عن العهد الفاطمى فى مصر ، فانه يتسم بثلاث سمات لا يجحدها أكثر الناس تعصبا ضد الفاطميين .

فأما السمة الأولى فهى عناية الفاطميين الكبيرة بالعلم طوال عهدهم . فهذا ابن كثير نفسه الذى يقول فى الفاطميين ما يقول : ووجد للفاطميين خزانة كتب ليس لها فى مدائن الاسلام نظير ، تشتمل على ألفى ألف مجلد .

ونحن من ناحيتنا نرى فى هذا الرقم مبالغة ، وربما كان أدق منه ما قاله العماد الكاتب من أن عدد الكتب كان مائة وعشرين ألف مجلد . وقد تجمع هذا العـدد بعد فناء المكتبة الأولى الكبيرة فى حـكم المستنصر أيام الشدة العظمى .

الاحتفالات والمهرجانات الشعبية :

وثمـة طابع ثان للحياة الفاطميـة ، وهو كثرة الاحتفالات الدينية والمهرجانات الشـعبية ، وربما كانت هـذه الاحتفالات بعض ما يأخـذه البعض على الفاطميين ويعتبرونه من نوع البدع والمنكرات ..

ولكن الذى لا شك فيه أن هـذه الاحتفالات والمهرجانات كانت فرصـة للشعب لا ليفرح ويلهو ويتسلى فحسب ، بل ولينال الكثير من بر الخليفة والأمراء مما كانوا يفيضونه على الشعب فى هذه المناسبات .

فقد كانت الموائد « الأسمطة » تمد على أوسع نطاق . وكانت هذه الاحتفالات تقام فى أبهة عظيمة ويشارك فيها الخليفة بموكبه ، وكانت تقام فى عيد الفطر وعيـد الأضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبى صلوات الله عليه ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد السيدة فاطمـة الزهراء ويوم عاشوراء وذلك الى مواسم أخرى كليـلة أول رجب ، وليلة نصفه وليـلة أول شعبان ونصفه ، وكانت هذه الليلة الأخيرة تعرف باسم ليالى الوقود ، وكانت تضـاء فيها جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبـدو القاهرة فى حلل بديعة من الأنوار ، ويخرج الناس الى الأزهر الذى تضاء جرانبه بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة .

وكان شهر رمضـان من أهم المواسم الدينيـة التى عنى الفاطميون باحيائهـا ، فيحتفل بأول رمضان بخروج الخليفة فى موكبه الرائع وكذلك فى الجمع الثلاث الأخيرة الى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص .

ولقد أشرنا من قبل الى الاحتفال بوفاء النيل .

وفى كل هذه الاحتفالات كان الخليفة الفاطمى :

ــ يوزع الكساوى والنقود على المقربين والمحتاجين .

ــ ويمد أسمطة ضخمة يبلغ طولها ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع وتقدم فيها كل صنوف الفطائر والحلوى الشهية وتفتح أبواب القصر على مصاريعها ليهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى .

ــ وكان الخليفة يوزع طوال سير موكبه نقودا على الطريق الذى كان يجتازه .

الازدهار الاقتصادى :

وباستثناء السنوات التى كان النيل فيها يقصر عن بلوغ الغاية من الفيضان لسنوات متتالية ، فان المؤرخين يجمعون على أن مصر كانت فى حالة ازدهار اقتصادى بالنسبة لكل ما حولها من البلاد .

وقد اعتنى الفاطميون بالزراعة فى مصر باعتبارها أهم مصادر الثروة ، كما فعل كل الملوك المصلحين من قبلهم .

ولا تزال قناطر أبو المنجا ارثا خالدا لهذا الخليج الذى أشرف على حفره أبو المنجا متولى ديوان جهات الدلتا فى عهد وزارة الأفضل بدر الجمالى ، حيث كان الخليج يخرج من النيل ليروى الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط .

وقد انفرد الفاطميون بمعاملة الفلاحين معاملة تنطوى على الرعاية فلم ينزعوا طوال مدة حكمهم أرضا من أصحابها .

كما ازدهرت فى أيامهم مرة أخرى الصناعات التى اشتهرت بها مصر من أقدم العصور وهى صناعة النسيج بأنواعه الكتانية والصوفية والحريرية وتفوقت صناعة الزجاج والخزف ، ولا تزال المشكاة الزجاجية المصنوعة فى مصر من ذلك العهد أعظم التحف التى تعتز بها متاحف الدنيا كلها .

وبلغ من انتشار صناعة الخزف أن البقالين كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق .

واتسع شأن التجارة الخارجية فى عهد الفاطميين مع البلاد الآسيوية والأوروبية وقامت بين مصر والمدن الايطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية .

وعلى الرغم من المنازعات العسكرية والسياسية بين مصر وبيزنطة فان العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع بلبيس ودمياط .

على أن عظمة الحركة التجارية التى بلغتها مصر مع الأوربيين فى هذه الفترة لا تتجلى فى أمر مثل تجليها فى سماح الحكومة الفاطمية للاوربيين بانشاء الفنادق الخاصة بهم ، فكان لكل جالية أجنبية فى الاسكندرية فندق يقيم فيه التجار ويحفظون بضائعهم .

كما أقيمت للتجار القادمين من العراق والشام الوكالات التى لا تزال آثارها قائمة حتى الآن .

وذلك بالاضافة الى الأبنية التى اطلق عليها اسم القياسر جمع قيسارية وهى مجموعة من المبانى العامة وبها حوانيت .. ومصانع ومخازن ومساكن .

الفصل الثالث عشر

الدولـة الأيوبيّـة

١١٧٢ م – ٥٦٧ هـ : عودة الخلافة العباسية الاسمية الى مصر :

انتهت الدولة الفاطمية بوفاة العاضد رسميا وعمليا ، اذ أعيدت الخطبة للخليفة العباسى المستضىء بالله الذى بعث الى صلاح الدين بخلعة الوزارة ، باعتباره أحد أتباع السلطان نور الدين .

وقد استولى صلاح الدين على قصر الخليفة الفاطمى ، ومرة أخرى تتهيأ الفرصة للمؤرخين ليحدثونا عن كنوز الفاطميين ، والتى ظل يبيع فيها عشر سنوات كاملة ، بعد أن أرسل جزءا كبيرا منها الى متبوعه السلطان نور الدين ، وأرسل جزءا آخر الى الخليفة العباسى ، ثم وزع الجزء الأكبر على الأمراء والجنود والأتباع غير مبق لنفسه منها شيئا . وقد ظل هذا دأب صلاح الدين طوال حياته : أن يوزع كل ما يصل الى يديه على أمرائه وجنوده ورعاياه غير مستبق لنفسه شيئا .

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

وقد تحدث ابن الأثير المؤرخ المعاصر والشديد التعلق بنور الدين عن قيام وحشة فى هذه الفترة بين السلطان نور الدين وصلاح الدين ، ولا يرضى المرحوم جمال الدين الشيال عن هذا القول ، ويعزوه الى كراهية ابن الأثير لصلاح الدين ، ويروح يفند الأدلة التى ساقها ابن الأثير على قيام هذه الوحشة .

وعنـــدنا أن قيـــام الوحشة – أو فلنسمها البرود فى العلاقات – بين صلاح الدين والسلطان نور الدين فى هذه المرحلة هى أمر طبيعى جدا . فلقد علا نجم صلاح الدين وأصبحت كل تصرفاته تتجه نحو توطيد سلطانه الشخصى فى مصر وتأكيد استقلاله ، وغنى عن البيان أن السلطان نور الدين لا يمكن أن يكون سعيدا بذلك وعندنا أنه لم يحل دون اصطدام الرجلين ، الا فرط حذر كل منهما من أن ينتفع العدو المشترك بأى خلاف يقع بينهما ، ولذلك فقد دارى كل من الرجلين الآخر ما وسعه الجهد ، فاكتفى نور الدين من صـــلاح الدين بمظاهر الخضوع الشـــكلى الذى كان يبديه له صلاح الدين ، واعتذاراته عن الاجراءات التى لم تعجب نور الدين . كما أن صلاح الدين من ناحيته لم ير سببا يدعوه لمخاصمة نور الدين سيده القديم وسلطانه ، ما دام أنه مطلق التصرف بالفعل فى مصر يعمل فيها كل ما يريد فى توطيد سلطانه .

١١٧٣ م – ٥٦٨ هـ – توران شاه أخو صلاح الدين يفتح النوبة :

تجمع السودانيون الذين فروا من مصر بعد ثورة مؤتمن الخلافة فى جنوب الصعيد وزحفوا شمالا ، لاستعادة سلطانهم ، والانتقام لأنفسهم من صلاح الدين واعادة الدولة الفاطمية ، فعهد صلاح الدين الى أخيه شمس الدولة توران شاه بمحاربتهم وجهزه بجيش كبير ، وزحف به على بلاد النوبة نفسها وفتح قلعة بريم بعد ثلاثة أيام من حصاره لها وغنم جميع ما كان فيها . وبهذا الانتصار أمن صلاح الدين حدوده الجنوبية بعد تأمينه حدوده الشمالية .

على أن توران شاه قدم تقريرا لصلاح الدين عن بلاد النوبة يحيطه بفقر هذه المنطقة وانها لا تستحق كبير عناء .

موت نجم الدين أيوب :

وفى هذه السنة مات نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأكبر أمراء السلطان نور الدين وصاحب الحظوة لديه .

وقد ذكر مؤرخو صلاح الدين انه عرض على أبيه عندما وفد عليه فى مصر أن ينزل له عن سلطان مصر ، فقال له أبوه :

انت أولى .

ولقد مات نجم الدين ايوب أثناء اشتغال صلاح الدين بالحملة التى شنها على حصن الكرك الصليبى المنيع ، فحزن صلاح الدين لوفاة أبيه وعدم تمكنه من حضور جنازته .

وقد حاول بعض المؤرخين أن يردوا نسب نجم الدين أيوب الى العرب وليس الأكراد ، ولكن صلاح الدين أنكر هذا القول عندما ذكر أمامه .

١١٧٤ م – ٥٦٩ هـ : فتح بلاد اليمن :

كان اليمنيون شيعة على مذهب الفاطميين ، ولم يكفوا عن محاولتهم لاعادة ملك الفاطميين ، وخشى صلاح أن يهاجموا مصر من الجنوب بمساعدة النوبيين ، فاستأذن السلطان نور الدين فى أن يبعث بجيوشه الى اليمن للاستيلاء عليها فأذن له : وهو ما يدحض قول القائلين بأن صلاح الدين فكر فى الاستيلاء على اليمن لتكون ملجأ له اذا فكر نور الدين فى عزله عن مصر ومرة أخرى استعان صلاح الدين بأخيه الكبير توران شاه ليقوم بهذا العمل ، فكرر نجاحه فى بلاد النوبة اذ فتح مدينة زبيد حيث كان يقيم بهذا عبد النبى بن مهدى رجل الفاطميين وحاكم اليمن وأن يفتح صنعاء وبقية مدن اليمن فى أقصر مدة .

وان يعيد الخطبة على المنابر للخليفة العبـاسي المستضىء . وهكذا اقام الحكم الأيوبى فى اليمن وقد دام أكثر من خمسين سنة .

اخفاق المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين :

انتهزت العناصر التى خسرت بزوال الدولة الفاطمية ، فرصة انشغال الجزء الأكبر من قوات صلاح الدين فى اليمن ، لكى تقوم بحركة لانهاء حكم صلاح الدين . بل لقد قيل ان مشروع فتح اليمن كان من تخطيط وتدبير رؤسـاء هذه الحركة ، اذ كانوا الذين خوفوا صلاح الدين مما يجرى فى اليمن ، وأوعزوا اليه وحرضوه على ارسال هذه الحملة اليه ، لكى يخلو لهم الجو فى مصر ويضربوا ضربتهم .

واتصل المتآمرون بالصليبيين فى بيت المقدس والافرنج فى صقلية لكى يزحفوا على مصر بجيوشهم وأساطيلهم فى الوقت الذى يقومون فيه بثورتهم ، كما اتصلوا من ناحية اخرى بالاسماعيلية الحشيشية فى الشام ، ليشتركوا بفدائييهم فى الحركة للقضاء على صلاح الدين .

ولعب القدر دوره لانقاذ صلاح الدين من هذه المؤامرة المحكمة فتسرب خبرها قبل الشروع فيها اليه ، فقبض على قادة المؤامرة وكان رئيسهم الشاعر عمارة اليمنى ، واستفتى العلماء فيما يكون عليه جزاؤهم فأفتوه بالقتل فقتلهم .

وهكذا قضى على القسم الداخلى من المؤامرة .

وعندما وصل الى علم الصليبيين فى بيت المقدس ، نبأ القبض على المتـآمرين وفشل المؤامرة ، توقفوا عن القيام بدورهم فى الخطة .

وليس سوى افرنج صقلية الذين لم يسمعوا بما حدث وقاموا بدورهم المرسوم فى الخطة فوصلوا الى الاسكندرية فى شهر يوليو من هذه السنة فى أسطول ضخم ، ونزلوا بالفعـل على البر خارج أسـوار الاسكندرية وشرعوا يهاجمـونها ، ولكن الاسكندرية وقفت فى وجههم وردتهم عن الأسوار مدحورين ، وانتظر الافرنج اندلاع الثورة الموعودة أو مقدم صليبيى بيت المقدس ، فلم يتحقق شىء من ذلك ووصلت الأنباء بأن صلاح الدين فى طريقه الى الاسكندرية على رأس جيش عظيم ، فارتفعت معنوية المحاصرين داخل الأسوار فى الوقت الذى ضعفت فيه معنوية الافرنج فآثروا الانسحاب الى سفنهم بعد ان تكبدوا خسائر فادحة فى الرجال والعتاد والسفن ، وهكذا نجا صلاح الدين من أعظم خطر تعرض له فى مطلع حكمه الجديد كسلطان لمصر .

وفاة السلطان نور الدين زنكى :

فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال من هذه السنة ، توفى السلطان العـادل نور الدين زنكى عن ثمانية وخمسين عاما .

وتمتلىء صفحات التاريخ بالحديث عن عظمة السلطان نور الدين وفضـائله ، وتقواه ، وشجاعته ، وكرمه ، بحيث يقول أبو الفدا المؤرخ : ان كتابه المختصر لا يحتمل ذكر فضائله ، وهذا الكتاب المختصر الذى لا يتسع لذكر فضائل نور الدين مؤلف من الف صفحة .

أما ابن الأثير الذى كان مخلصا ومحبا للبيت الزنكى فهو يقول لنا :

انه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين تحريا للعدل والانصاف ثم يخصص صفحات كثيرة لذكر وقائع عن عدله وأخرى عن زهده ، وشجاعته وعلمه ، ومبانيه ، وأهمها المارستان ، الذى بدمشق وليس له فى البلاد نظير ومن شرطه أنه وقف على الفقراء والمساكين ، ولا يمنع عنه الأغنياء اذا عز وجود الأدوية الا فيه .

وأبو المحاسن الذى الف كتابه فى اثنى عشر مجلدا يقول : ان المجال يضيق عن ذكر فضائله وأحواله وهى أشهر من أن تذكر .

وقد رأينا أن نختار مما يروى عنه بعض ما يذكرنا بعمر بن الخطاب فليس الا هو فى كل تاريخ الاسلام من كان يتصرف بهذا الأسلوب وحسب نور الدين أن يقرن اسمه الى عمر بن الخطاب .

فقد كان نور الدين على ما أثبته أمين باشا سامى لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا من خالص ملكه الذى اشتراه من سهمه من الغنيمة ، فشكت زوجته ذات مرة من الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له وكانت تدر عشرين دينارا فى السنة ، فلما استقلتها زوجته قال لها : ليس الا هذا ، وجميع ما فى يدى أنا فيـه خازن المسلمين ، ولا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك .

وهكذا تلألأ هذا الحكم من جديد فى سماء الاسـلام ليعيد اليه بهـاءه ومجده الروحى ، وليس صلاح الدين فى الحق الواقع الا نبت من غرس نور الدين ، واستمرار لعمله ومنهاجه .

وقد أكرم الله المسلمين للأمر الذى يريده ، فجعل وفاة نور الدين فى نفس السنة التى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان قد قرر فيها أن يدخل مصر ، وهو لو قد فعل لاصطدم حتما مع صلاح الدين وربما تغير التاريخ الذى نعرف .

١١٧٥ م ــ ٥٦٠ هـ : صلاح الدين يستولى على دمشق :

بموت نور الدين انهار آخر السدود والقيود التى كانت تحول بين صلاح الدين وبين تدفق نشاطه نحو الشمال .. نحو بلاد الشام .

وكان أمراء البيت النورى قد ولوا عقب وفاة نور الدين ، ابنه الملك الصـالح

وكان صبيا صغيرا لا قدرة له على مباشرة الحكم . فأصبح العوبة فى يد من حوله من الأقارب والقواد .

فأسرع صلاح الدين واعلن انه احق الجميع أن يكون وصيا على الملك الصغير وأن يكون مدبر آمور مملكته المسئول عن رعايته وحمايته وتربيته معا . فلما أن نقل الأمراء الملك الصغير الى حلب ليكون تحت سلطانهم ، انتهز صلاح الدين هذه الفرصة لكى يزحف على الشام فدخل دمشق فى أمن وسلام فى ربيع الثانى من هذه السنة بعد أن سلمها اليه نائبها شمس الدين بن مقدم واستولى على قلعتها ، فاجتمع اليه الناس فرحين مستبشرين ، فأحسن اليهم ، ورفع عنهم الضرائب والمكوس التى قررت عليهم بعد وفاة نور الدين .

ومن دمشق توجه قاصدا مدينة حلب فاستولى فى أثناء سيره اليها على مدينة حمص « دون قلعتها » وكان ذلك فى جمادى الأولى .

ثم تسلم مدينة حماة من صاحبها عز الدين بن جبريل ، وطلب منه صلاح الدين ان يكون له سفيرا لدى الحلبيين . ولكن الحلبيين رفضوا التفاهم مع صلاح الدين وأبوا الا ان يحاربوه ، فزحف عليها فى آخر جمادى الثانية .

وانزعج الأمراء النوريون من صلاح الدين فحشدوا جيوشهم لمقاومته فأرسل سيف الدين غازى صاحب الموصل جيشا الى ابن عمه الملك الصالح واتجهوا صوب صلاح الدين للاصطدام به ، ومرة أخرى حاول صلاح الدين أن يتفادى الحرب والقتال وطلب أن يفاوضوه فرفضوا وأصروا على القتال رغبة منهم فى أن يتخلصوا منه نهائيا .

ودارت رحى القتال عند قرون حماة فى التاسع عشر من رمضان ، فدارت الدائرة على جيش الحلبيين والموصليين وانتصر صلاح الدين ولكنه لم يشأ أن يتعقب الفارين وطلب التصالح فأجيب اليه هذه المرة ، على أساس أن يترك حلب وما حولها للملك الصالح اسماعيل ، على أن تكون المنطقة جنوب حلب ملكا لصلاح الدين فأصبحت المعرة وكفر طاب ، وماردين فضلا عن حماة وحمص ودمشق وأعمالها فى سلطان صلاح الدين .

الخليفة العباسى يولى صلاح الدين مصر والشام :

واسرع الخليفة العباسى باقرار صلاح الدين سلطانا على مصر والشام فبعث اليه بالتقليد والتشريفات المعتادة والخلع والأعلام السود .

١١٧٦ م ـ ٥٧٢ هـ : عودة صلاح الدين لحصار حلب :

لم يكن رضاء أمراء البيت النورى بالاتفاق السابق الا رضاء مؤقتا ريثما يعدوا أمرهم للتخلص من صلاح الدين ، فدخلوا فى مراسلات مع الصليبيين فى بيت المقدس

ليكونوا عونا لهم على صلاح الدين كما اتصلوا بالاسماعيليين ودبروا معهم اغتيـال صلاح الدين .

فلما ترامى ذلك الى علم صلاح الدين عاد بجيشه الى الشام للاستيلاء على حلب . وبدأ لاضعاف المدينة يستولى على الحصون والقلاع المحيطة بها . وفى هذه الفترة قام الاسماعيلية بتنفيذ مؤامرتهم فانتفض بعض فدائييهم على صلاح الدين لقتله ، وكان من الممكن أن يصرع صلاح الدين فى هذا الحادث لولا أن حمته الدروع التى كان يلبسها ، فلم يصب الا بخدش .. وقتـل الفدائيون . ولم يتحـرك الصليبيون لانجاد حلفائهم فسعى الحلبيون للصلح مع صلاح الدين عن تجديد الصلح السـابق وهو ان تظل حلب وأعمالها بيد الملك الصالح اسماعيل وما عدا ذلك من بلاد الشام ومصر فتظل بيد صلاح الدين . واستجاب صلاح الدين للصلح توفيرا للجهود .

واستناب على دمشق والشام أخاه توران شاه الذى كان قد عاد من اليمن بعـد انتصاره بها .

صلاح الدين يتزوج أرملة نور الدين :

رأى صلاح الدين ان يتقرب الى أسرة نور الدين ، وأن يزيد فى مكانته الأدبية فتزوج أرملة السلطان نور الدين السيدة خاتون عصمة الدين .

صلاح الدين يقتص من الحشاشين :

وقبل أن يعود صلاح الدين الى مصر ، رأى أن ينتزع من جنبه شوكة الاسماعيلية وأن يقتص منهم لمحاولتهم المتكررة قتله . فاتجه بجيشه الى حصونهم وقلاعهم ، فهدم الكثير من هذه القلاع وقتل الكثيرين منهم ، حتى أوشك أن يجهز عليهم لولا أن وسط الاسماعيليون خال صلاح الدين الأمير شهاب الدين فشفع لهم وتعهـد عنهم بحسن السير والسلوك .

انشاءات صلاح الدين الكبرى فى مصر :

عاد صلاح الدين الى القاهرة بعد أن استتب سلطانه على سوريا . وبدأ يضع الخطط لتحقيق حلمه الكبير وهو اجلاء الصليبيين عن الشرق . وأدرك أن ذلك لن يتحقق الا بقوة القاعدة لهذا الجهاد وهى مصر ، ولا قوة للقاعدة الا باحكام شئونها العسكرية والاقتصادية ، وهو ما أخذ صلاح الدين على نفسه تحقيقه فى مصر .

سور القاهرة :

كان من اهم ما عنى به صلاح الدين مذ وطأت اقدامه أرض مصر ، أن يحيط القاهرة الفاطمية والفسطاط القديمة بسور واحد حصين فعهد ببنائه الى رجله الأكبر بهاء الدين قراقوش الخصي فشرع فى هذا العمل منذ عام ٥٦٦ هـ . فلما رجع صلاح الدين من الشام هذه المرة استحثه لاتمام هذا العمل ففرغ منه فى هذه السنة ، وكان السور مبنيا كله من الحجارة . وكان شماله يبدأ عند قلعة المقس المطلة على النيل ، ويظل يطوف بالقاهرة والفسطاط حتى ينتهى عند النيل أيضا جنوب الفسطاط . ويقول المؤرخون ان محيط السور كان ٢٩٣٠٢ ذراع .

قلعة الجبل :

ومن ناحية أخرى رأى صلاح الدين على ضوء تجاربه فى الشام والموصل أن يزود القاهرة بقلعة تكون سكنا للحكام ، وملجأ للشعب فى ساعة الضرورة وتقوم بالدفاع عن العاصمة ضد الغزو الأجنبى كما هو الشأن فى قلاع حلب ودمشق والموصل .

فأصدر أمره بالشروع فى انشاء قلعة الجبل فى موقعها الحالى فوق جبل المقطم وقد كان يوجد محلها ما أطلق عليه قبة الهواء . وجعلت تصمد أسوارها أمام القذائف المعروفة فى ذلك الوقت بحيث يقوى الموجودون فيها على مقاومة الحصار .

ولما كان الماء هو أهم ما يحتـاجه المحاصرون فقد حفر فى أساس القلعـة بئرا لامدادها بالماء ، ولا يزال هـذا البئر موجودا حتى الآن ويسميه العامة بئر سـيدنا يوسف ، وهو فى حقيقته بئر يوسف صلاح الدين .

الاهتمام بالاسكندرية ودمياط والأسطول :

وسارع صلاح الدين الى مدينة الاسكندرية ودميـاط ، يقوى دفاعهما ويرمم أسوارهما وقلاعهما ويحشد فيهما الجنود .

ولما كان الأسطول المصرى قد تهدم وضرب ، فقد نفخ فيه الحيـاة من جديد ، وانشأ ديوانا اسمه ديوان الأسطول ووضع تحت يد القائم على الديوان كل الامكانيات اللازمة لاعادة انشاء الأسطول . واعداده للغزو والقتال .

الاصلاحات المدنية ـ المدرسة الناصرية :

فى الوقت الذى كانت الهمة تبـذل لتقوية دفاع مصر وجيشها وأسطولها كان

العمل كذلك يجرى على قدم وساق على اعادة البلاد الى المذهب السنى . ولما كانت العقائد لا تغير بالمراسيم والقوانين وانما بالعلم والاقناع فقد قرر صلاح الدين اقامة مدرسة جديدة ضخمة لتدريس المذهب الشافعي الذى كان صلاح الدين يدين به ، وقد سميت بالمدرسة الناصرية . ورتب صلاح الدين للمدرسة شيخا لتدريس الفقه وجعل فيها مساعدين للأستاذ الكبير وعددا من طلبة العلم يتوفرون على تحصيله ورتب للجميع الرواتب الشهرية وأوقف على المدرسة الأوقاف الكثيرة للانفاق عليها .

ويقول المؤرخون انه بانشاء هذه المدرسة حدث تطور جديد فى نظام التعليم ، فالى ما قبل هذه المدرسة كان التعليم يجرى فى المساجد ، أما اقامة المدارس خصيصا لتدريس الفقه والعلوم الشرعية ، فنظام بدأ على يد صلاح الدين .

وهـذا القول يخالف الواقع فقـد مر بنا أن الحاكم قد أنشأ دار الحكمـة التى كانت جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من جامعة فى عصرنا الحديث بحيث لم يقتصر التدريس فيها على العلوم الفقهية والدينية بعامة وانما تتناول الى جوار ذلك علوم الطب والفلك والرياضيات .

البيمارستان :

وأمر صـلاح الدين باتخاذ دار فى القصر الفاطمى لتكون بيمارستانا (١) للمرضى أى مستشفى .

العناية بالرى والزراعة :

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بتحسين أحوال البلاد من حيث الرى والزراعة بأقل من اهتمامه بالمناشط الأخرى ، فعهد الى رجل الدولة الأول القاضى الفاضل والعلماء والكتاب بالاشراف على تطهير الترع القديمة وتقوية الجسور وانشاء القناطر واصلاح النظام الضرائبى بما يشجع الفلاحين على العمل والانتاج .

حتى اذا تصور صلاح الدين انه أحسن تنظيم الأمور .. بدأ يخطو نحو هدفه الأعظم وهو محاربة الصليبيين والقضاء عليهم ..

١١٧٧ م ـ ٥٧٣ هـ : اصطدام صلاح الدين بالصليبيين وهزيمته فى الرملة :

خرج صـلاح الدين بجيش مصر قاصـدا الساحل الصليبى وكان كله بيـد الصليبيين ، وبدأ حربه بمدينة عسقلان فحارب وانتصر وتفرق أفراد الجيش من حوله يجمعون الأسلاب والغنائم ، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة وانقضوا بجموعهم

(١) كلمة فارسية مؤلفة من : بيمار ومعناها مريض ، ستان ومعناها مكان .

على صلاح الدين وكان مع قلة من الرجال ، فأوشكوا أن يقضوا عليه ومن معه ولم ينج منهم الا بأعجوبة ، ثم انقضوا على أفراد الجيش المبعثرين فكادوا أن يفنوهم .

وكانت هذه أقسى هزيمة لقيها صلاح الدين فى حياته كلها .

يقول ابن الأثير انه طالع كتابا بخط صلاح الدين يقول فيه لأخيه توران شاه امير دمشق يصف له هذه الواقعة بقوله :

« لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الا الله لأمر يريده سبحانه وتعالى » .

١١٧٩ م - ٥٧٥ هـ : صلاح الدين يسترد قوته ويهزم الصليبيين :

على أن صلاح الدين لم يستكن للهزيمة ، بل سرعان ما استعاد قوته ونظم صفوفه، وقصد الى بلاد الشام واتخذ من دمشق قاعدة قرب الصليبيين الذين طمعوا فيه فزحفوا اليه بجموعهم حول حصن قوى أطلقوا عليه اسم « مخاضة الأحزان » ولقيهم صلاح الدين بجيشه فى مرج عيون ، فانتصر عليهم انتصارا حاسما وأسر عددا كبيرا من أمرائهم وقادة جندهم ، ثم فتح حصن الأحزان نفسه وأسر كل من كان فيه من المقاتلين ، ثم حرقه وعفى على آثاره وهكذا استعاد صلاح الدين هيبته ، ومسح آثار هزيمة الرملة .

ومضى يعد لخطوته الثانية ، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يعود الى مصر ليكمل استعداده للمرحلة الثانية .

١١٨١ م - ٥٧٧ هـ : صلاح الدين فى الاسكندرية :

نرى صلاح الدين فى هذه السنة وقد عاد الى مدينتى دمياط والاسكندرية ليشرف على ما تم انجازه من تحصين أسوارهما ، ومدى ما بلغه الأسطول من قوة وفاعلية ، فقد كان صلاح الدين يدرك أنه لا يكاد يصطدم بالصليبيين على أوسع نطاق ، حتى تكون الاسكندرية ودمياط هدفا للعدوان .

صلاح الدين يتلقى دروسا فى الفقه :

وينتهز صلاح الدين فرصة اقامته فى مدينة الاسكندرية ، لكى يستزيد من العلم فى الفقه فيقول لنا العماد الكاتب الذى كان مصاحبا لصلاح الدين :

وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) الى الاسكندرية عن طريق البحيرة ، وخيم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها ، وأمر بالاهتمام والاتمام ثم قال لنا :

نغتنم حياة الشيخ الامام أبى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضى الله عنه — بروايته عن الطرطوشى — فى العشر الأخيرة من شوال ، وتم له ولأولاده ولنا به السمع » .

ولا تفوت هذه المناسبة القاضى الفاضل ، فبعث الى صلاح الدين مهنئا بهـذا العمل الجليل .

وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين :

وفى هذه الأثناء كان الملك الصـالح بن نور الدين قد مات ، فانفتحت بموته المنافسة على ملك حلب بين أمراء الأسرة النورية وبعضهم من ناحية ، وبينهم وبين صلاح الدين من ناحية أخرى .

وكان الأمر قد استقر بين أسرة نور الدين أن يكون حكم الموصل والجزيرة بيد الأمير عز الدين مسعود وأن تعطى حلب لعماد الدين .

ورأى صلاح الدين أن يضع حدا لهذا الصراع على السلطة لما فيه من ضرر على القضية العامة ، فقرر الاستيلاء على حلب والموصل .

١١٨٣ م — ٥٧٩ هـ : استيلاء صلاح الدين على حلب والموصل :

توجه صلاح الدين من دمشق الى مدينة الموصل ، واذ كانت المدينة من احصن المدن ، فقد رأى أن يبدأ بالاستيلاء على القـلاع المحيطة بها لاضعافها فاستولى على سنجار وآمد وتل خالد وعينتاب ثم استولى على مدينة حلب بالاتفـاق مع صاحبها عماد الدين زنكى فى مقـابل أن يعطيه سنجار ويكون تابعا له فيها . ومضى فى قتاله ولكنه لم يستطع الاستيلاء على مدينة الموصل هذه المرة .

اسطول صليبى يحاول غزو الحجاز :

استغل البرنس ارناط صاحب حصن الكرك فرصة انشغال صلاح الدين بحصار مدينة الموصل لكى يضرب المسلمين ضربة لم يفكر فيها صليبى من قبل وهى الاستيلاء على مكة والمدينة وتخريب قبر الرسول .

ونجح القسم الأول من خطته التى وضعها لتحقيق هذا الهدف ، اذ استولى على مدينة ايلة (١) على خليج العقبة ، ومنها أرسل اسطوله الذى اعده لهذا الغرض للاستيلاء على مكة والمدينة .

(١) هى ايلات الاسرائيلية .

وسار هذا الأسطول الصليبى بمحاذاة الشاطىء المصرى للبحر الأحمر وفاجأ المسلمين مفاجأة شديدة ، فلم يسبق لهم أن توقعوا أساطيل معادية فى هذا الجزء من البحر ، ولذلك نجح الصليبيون فى تخريب وتدمير ما قصدوا تدميره ومن ذلك ميناء عيذاب المصرى واستولوا على كل ما وجدوه فى طريقهم من سفن الحجاج . ثم تحولوا الى الشاطىء الشرقى للبحر شـاطىء الحجاز فأغاروا على ميناء رابغ واغرقوا احدى سفن الحجاج فى مياهها .

حسام الدين لؤلؤ يسحق الصليبيين :

وكانت مصر فى هذا الوقت تحت ادارة الملك العادل سيف الدين أخى صلاح الدين فانتدب الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصرى ، فاستعاد حسام الدين مدينة ايلة ، ثم وصـل بالأسطول المصرى الى ثغـر الحوراء بالقرب من ينبع حيث كان الأسطول الصليبى مرابطا ، فحطمه عن آخره وقبض على كل من كان فيه من بحارة ومقاتلة فقتلهم عن بكرة ابيهم ، وقيل انه بعث ببعض هؤلاء المعتدين ليذبحوا فى منى ارهابا للصليبيين وعقابا لهم على هذا التفكير الأثيم .

وكان من شأن هذا الحادث ، أن شحذ صلاح الدين عزيمته لانقاذ العـــالم الاسلامى من خطر الصليبيين المعلق على رؤوسهم ..

وآلى على نفســه أن ينتقم من البرنس ارناط لهـذه الفعلة الأثيمة وأن يقتـله بنفسه اذا أمكنه الله منه ، وقد بر بقسمه كما سوف ترى .

١١٨٣ م ـ ٥٧٨ هـ : رحلة ابن جبير الى مصر :

وصل ابن جبير الى الاسكندرية قادما من غرناطة فى أول ذى الحجة وترك لنـا صورة حية من حياة مصر فى هذه الفترة الدقيقة من حياتها فيقول :

أول ما شاهدناه فى الاسكندرية طلوع أمناء من قبل السلطان (صلاح الدين) الى المراكب لتقييد جميع ما جلب فيها فاستحضر جميـع من كان فى المركب من المسلمين واحدا واحدا وكتب أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسأل كل واحـد عما لديه من سلع ليؤدى زكاة ذلك ، واستدعى أحدنا أحمد بن حسان ليسأل عن انباء المغرب وعما تحتويه المركب من سلع ، فطيف به على عدد من أهل الديوان وحاشية السلطان ، وفى كل مرة يستفهم منه ويقيد قوله ثم يخلى سـبيله . وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم . وحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان ثم استدعوا واحدا واحدا وأحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل . واختلط بعضهم ببعض وادخلت الأيدى الى أوساطهم بحثـا

عما عسى ان يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . ثم أطلقوا بعد موقف الذل والخزى العظيم ، وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، اذ لو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لأزال ذلك » .

ونحسب ان ادق « ريبورتاج » تحقيق صحفى فى العصر الحديث لن يصور لنا مضايقات الكشف عن جوازات السفر وتفتيش حوائج المسافرين فى الجمرك بأبلغ من هذا الذى سجله ابن جبير فى القرن السادس الهجرى .

وغنى عن البيان أن ما تعرض له هؤلاء القادمون على مصر كان بسبب مجيئهم على احدى مراكب الافرنج وقد كانوا فى حالة حرب مع مصر ، وكان لا بد من الحذر من الجواسيس والمؤامرات .

ثم يصف لنا ابن جبير أحوال الاسكندرية فيقول :

ومن الغريب من أحوال هذا البلد أن الناس تتصرف فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم . وهو من أكثر بلاد الله مساجد ، حتى ليقول البعض أن بها اثنى عشر الف مسجد ، والمقل يجعلها ثمانية آلاف . وبالجملة فهى كثيرة جدا تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد ولكل منها ائمة مرتبين من قبل السلطان يتقاضى الامام منهم خمسة دنانير فى الشهر .

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة الى سلطانه ، المدارس المقامة لأهل الطلبة والتعبد . . فيفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى امر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء أحوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم ، ومن أعظم الأعمال فى هذه الناحية أيضا أن عين السلطان لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان مهما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا أمينا من قبله فقد ينتهى الى الف خبزة او ازيد بحسب القلة والكثرة .

وعلى هذا الغرار يمضى ابن جبير فى رحلته ، يصف لنا مدينة القاهرة والفسطاط وما استوقفه منها ، والطريق من قوص الى عيذاب مما لا يتسع المجال الا لمجرد الاشارة اليه .

العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى الأرض المحتلة :

على أننا لا نستطيع الا أن ننقل عن ابن جبير صورة أخرى حية عن نوع الحياة

التى كان يحياها سكان البلاد الذين وقعوا تحت حكم الصليبيين ، وكيف كانت تسير الحياة اليومية ونوع العلاقات بين المسلمين والصليبيين فيقول :

ومن أعجب ما يحدث ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقى الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا ذلك فى جمادى الأولى (٥٧٩) عندما خرج صلاح الدين يجمع عساكره لمنازلة حصن الكرك وهو من أكبر حصون النصارى ، والمعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم وهو عظيم الاتساع متصل العمارة حتى ليشمل أربعمائة قرية ، فنازله السلطان صلاح الدين وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى لا يمتنع أحد منهم بغير حق ، وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها فى بلادهم . وتجار النصارى يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم الاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية والدنيا لمن غلب .

هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار .. فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما أو حربا . وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه .

١١٨٥ م — ٥٨١ هـ — دخول الموصل فى سلطان صلاح الدين :

اعاد صلاح الدين فى هذه السنة الحصار على مدينة الموصل للاستيلاء عليها وضاق عز الدين مسعود صاحب الموصل بهذا الحصار فعرض على صلاح الدين ان يبايعه ويصبح تابعا له ويدعو له على المنابر ويضرب السكة باسمه ، وينزل لصلاح الدين عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة ، وان يكون تحت أمره هو وجنوده ، اذا ندبه لقتال الصليبيين .

وقيل ان صلاح الدين قد رفض هذا الصلح فى بادىء الامر بناء على مشورة قواده ، الذين ابوا الا ان يكون التسليم بدون قيد أو شرط ، ولكن صلاح الدين لم يكن يرى فى هذه الحروب الداخلية الا سبيلا لجمع الكلمة لمواجهة المهمة المقدسة ، وقبل الصلح وابرمه .

توحيد الجبهة الاسلامية :

وهكذا تحقق على يدى صلاح الدين ، ما سعى الى تحقيقه عماد الدين زنكى وابنه نور الدين من بعد ، وهو توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة قوى العدوان الصليبية .

مرض صلاح الدين :

لم يكد صلح الموصل يحقق وحدة الدولة الاسلامية تحت لواء صلاح الدين ، حتى أصيب بمرض أوشك ان يودى بحياته ، ويقول المؤرخون الذين كانوا يحيطون بصلاح الدين فى هذه الفترة انه نذر الى الله ، لئن شفاه الله من مرضه ، أن يجعل كل همه قتال الافرنج ولا يقاتل مسلما أبدا وأن يجعل مهمته المقدسة هى فتح بيت المقدس ولو صرف فى سبيل ذلك جميع ما يملكه من أموال وذخائر .

واستجاب الله الدعاء فبرىء صلاح الدين من مرضه ، وأصبح عليه أن يفى بنذره .

١١٨٧ م ـ ٥٨٣ هـ : البرنس ارناط ينقض الهدنة ويشعل نار الحرب :

كان يحول دون انقضاض صلاح الدين على الصليبيين ، ابرامه هدنة بينه وبينهم مدتها اربع سنوات ، وكان صلاح الدين ممن يحترمون العهود والمواثيق .

وشاء القدر أن يهيىء لصلاح الدين فرصته ، دون أن يكون هو الناكث بالعهد فقد تحرك البرنس ارناط صاحب مشروع غزو مكة والمدينة ، تحرك فى حماقة تجعل كل مؤرخى الصليبيين ينددون به ويحملون عليه ، اذ كان هو مشعل نار الحرب التى انتهت بهزيمة الصليبيين الساحقة .

فقد انقض ارناط على قافلة تجارية مسلمة كانت فى طريقها من مصر الى الشام (١) . وقد رأينا كيف أشاد ابن جبير بحالة الأمن التى كان يتمتع بها التجار حتى فى أثناء الحرب ، فكيف وقد كانت هناك هدنة بين المسلمين والصليبيين .

لم يأبه ارناط لذلك كله ، واستولى على القافلة وكل من فيها وراح يقول لضحاياه الذى اختار أن يقتلهم : أين محمدكم .. أين رسولكم ، دعوه يأتى لنصركم .

وغضب صلاح الدين لهذه الفعلة ، وكانت كافية لكى تحله من عهده مع الصليبيين ، ولكنه لم يشأ أن يتسرع الا بعد ان ينذر ويقدر فكتب الى ارناط يعنفه على هذا التصرف ، ويطلب منه الافراج عن الأسرى ، ورد الأموال المنهوبة ، وتعويض القتلى ولكن ارناط أصم اذنيه عن سماع صوت العقل ومضى فى تحديه فلم يبق سبيل غير الحرب .

---

(١) قال بعض مؤرخى الصليبيين ، ان أخت صلاح الدين كانت فى هذه القافلة ، ولكن هذه الواقعة لم يشر اليها أى من معاصرى صلاح الدين وملازميه .

موقعة حطين :

جمع صلاح الدين جيوشه من مختلف اطراف المملكة وزحف بهم فى أوائل هذه السنة نحو مدينة طبرية ليستولى عليها ليضطر الصليبيين للمجىء للدفاع عنها ، فيستدرجهم بذلك الى المكان الذى اختاره للدخول معهم عليه فى المعركة ، والاجماع منعقد بين مؤرخى الصليبيين على اطراء قدرة صلاح الدين ومهارته العسكرية فى اختيار مكان موقعة حطين ونجاحه فى استدراج الصليبيين اليها .

واستولى صلاح الدين على مدينة طبرية « دون قلعتها » كما تقضى خطته وبدأ يحصن الموقع الذى اختاره لتدور الموقعة فيه فجعل طبرية الى ظهره ، ثم اتجه نحـو الغرب فأفسد كل مياه الآبار فى هـذه المنطقة ، حتى يعـانى الصليبيون الظمأ اذا فكروا فى الانتقال اليه .

وكان الصليبيون عندما سمعوا بحشد صلاح الدين لجيوشه ، قد حشـدوا قواتهم بدورهم عند مدينة صفوريه تحت قيادة ارناط صاحب الكرك وجى ملك بيت المقدس وريموند صاحب طرابلس .

وقد حملوا معهم صليب الصلبوت المقدس ليكون عدتهم وسـلاحهم فى المعركة الفاصلة التى قرروا أن يخوضوها مع صلاح الدين .

وعندما وصل اليهم نبأ استيلاء صلاح الدين على طبرية ، انقسموا الى رأيين فكان رأى البعض ان يظلوا حيث هم فى صفورية حتى يكون صلاح الدين هو البادىء بالهجوم عليهم فيقطع المسافة بين طبرية وصفوريه وهى صحراء جرداء فتصل قواته منهوكة متعبة ، ولكن ارناط المتحمس ، وفرسان الداوية والاسبتارية أبوا الا ان يكونوا هم المهاجمين ، وأن يباغتوا صـلاح الدين عنـد طبرية ، قبـل أن يستكمل استعداده وتصل اليه الامدادات التى كانت تترى عليه .

وبدأت الجيوش الصليبية مسيرتها من صفوريه قاطعة ستة عشر ميلا وكان الوقت صيفا (شهر يوليو) وقد عز الماء لدى الصليبيين ، فلما وصلوا الى تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد انهكهم ونال الظمأ منهم فأسرعوا الى الآبار الموجودة فى غرب المنطقة فوجدوها كلها مخربة ولا ماء فيها فحاولوا الاقتراب من بحيرة طبرية بالليل فصدتهم الجيوش الاسلامية .

وبدأت المعركة صبيحة اليوم التالى ٢٥ ربيع الثانى (٥ يوليو) وقد بلغ الجهد بالصليبيين مبلغه اذ اجتمع عليهم الانهـاك والظمأ والقلق وأحرق صـلاح الدين الحشائش الجافة التى تحيط بمعسكرهم فأحاطت بهم النيران وزادت من خطورة موقفهم ، فانحازوا الى تل حطين ، ولكن جيوش صلاح الدين لاحقتهم عند التـل فأوقعت بهم مذبحة عظيمة ، بحيث لم ينج منهم أحد الا بالوقوع فى الأسر ، بحيث يقول ابن الأثير ان من كان يرى القتلى كان يتصور أنه لم يكن هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى يتصور انه لم يكن هناك قتلى .

ووقع كل رؤساء الصليبيين وقادتهم فى الأسر ، لم ينج منهم سوى ريموند ملك طرابلس ، والذى هيأ له المسلمون فى بادىء المعركة فرصة الخروج من الحصار فأسرع الى مدينتــه تاركا أصــحابه وزملاءه يصــلون حر المعــركة ، وممــا يرمز لهزيمة الصليبيين الساحقة ، ســقوط صليب الصــلبوت فى أيدى المسلمين وكان ممن وقعوا فى الأسر الملك جى صاحب بيت المقدس ، وارناط صاحب الكرك ، وجىء بالرجلين أمام صــلاح الدين ، فراح صــلاح الدين يذكر ارناط بأفعــاله الأثيمــة ، وسخريته بمحمد وقال له ها أنذا أنتصر وأنذره انه قد أقسم اذا أمكنه الله منه ان يقتله بيده ..

وها هى الفرصة جاءت ، ولكنه يستطيع ان ينجو بنفسه اذا هو آمن برسالة محمد ، ولكن ارناط رد عليه فى صلف وتعال ، فقتله صلاح بيده .

ويقول المؤرخون المعاصرون ان الملك جى ارتعدت فرائصه وظن أن دوره قادم ، ولكن صلاح الدين هدأ روعه ، وأفهمه أن ارناط قد تجاوز كل عهد وحد ، أما هو فليس له عند صلاح الدين الا كل اكرام .

الاستيلاء على مدن الساحل :

وأسرع صلاح الدين يستغل هذا الانتصار الساحق الذى حصل عليه قبل ان يفيق الصليبيون من الضربة المذهلة ، فأسرع الى مدن الساحل ليستولى عليها قبل أن تخف اليها الامدادات ، فاستولى على عكا فى شهر جمادى الأول وبقية مدن الساحل من يافا جنوبا حتى بيروت شمالا، وكان من شدة حرص صلاح الدين على الاستيلاء على المدن فى سرعة أنه كان يجيب من فيها الى شرطهم الوحيــد للتسليم ويسمح لهم بالتــوجه الى مدينــة صــور ، وهكذا تجمع الصليبيون الناجون من معركة حطين ، والذين جلوا عن المدن الصليبية الأخرى ، فتكون منهم جيش كبير بحيث لم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليها عندما اقترب منها ، وآثر أن لا يضيع الوقت أمامها ، فتركها واتجه جنوبا فاستولى على مدينة عسقلان . وهنا يقف ابن الأثير ليندد بصلاح الدين وتركه لمدينة صور ، وسماحه للصليبيين بالتجمع فيها بدلا من ابادتهم ، فلم تلبث صــور أن تصــبح رأس الجسر الذى يثب منه الصليبيون من جديد .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من مدن الساحل ما عدا صور ، انتقل للداخل فراح يستولى على قلاع الداوية والاسبتالرية . وقد ساعد صلاح الدين فى الاســتيلاء على هذه المدن وهذه القلاع ، انه كان يستولى عليها بغير قتال فى مقابل الافراج عن ملوك الصليبيين ورؤسائهم من الاسر ، وكان صلاح الدين يأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعودوا لحربه فيقسمون بأغلظ الايمان ، ولكنهم لا يكادون يعودون الى الحرية ، حتى يسرعوا الى مدينة صور متأهبين للحرب والقتال من جديد ضد صلاح الدين .

استعادة بيت المقدس :

وفى أواخر جمادى الثانى من هذه السنة « ٥٨٣ هـ » اتجه صلاح الدين بجيوشه نحو هدفه الأكبر وهو بيت المقدس . بعد أن قطع على المدينة طريق النجدات التى تأتى من مدن الساحل أو من وراء البحار ، ولاتقاء هذا الخطر الأخير أصدر صلاح الدين أوامره لقائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ أن يتولى حراسة الشواطىء ومنع أية سفن من الاقتراب منه .

ولم يحتج حصار القدس واضطرار المدافعين عنها للتسليم كبير وقت فقد كانت معنوياتهم فى الحضيض ، ويئسوا من وصول أى نجدات لانقاذهم فتم الاتفاق بينهم وبين صلاح الدين على تسليم المدينة بالشروط التالية :

— أن يدفع الفرنج عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امرأة وديناربن عن كل طفل فى خلال أربعين يوما ، فمن دفعها خرج آمنا بنفسه وماله ، ويتجه فى سلام وأمان الى مدينة صور . أما من يبقى فى المدينة بعد ذلك فانه يؤسر .

— يستثنى من هذا الشرط مسيحيو البلاد الأصليون ، فلهم حق البقاء كرعايا للدولة . وفى ليلة الاسراء والمعراج السابع والعشرين من شهر رجب وكان يوم جمعة دخل صلاح الدين وجيشه الى بيت المقدس وهم يتلون آيات القرآن « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

واكرم صلاح الدين رجال الدين ، حتى لقد سمح للبطريرك أن يخرج من المدينة مصطحبا معه كل أموال الكنيسة وذخائرها ، فلما حاول الحراس أن يمنعوه ، أبى صلاح الدين الا أن ينفذ شرطه ، وخرج البطريرك بهذه الكنوز دون أن يدفع الا عشرة دنانير كأى صليبى آخر فقير .

وكذلك فعل بالنسبة لملكة القدس فسمح لها أن تصحب كل أموالها بالرغم من أن زوجها الذى كان قد لحق بصور نكث بعهده وراح يؤلب على صلاح الدين .

بل ان زوجة ارناط نفسها قد عوملت هذه المعاملة السمحة .

ولقد كان هذا الأسلوب الذى اتبعه صلاح الدين ، مثار سخط معاصريه الذين كانوا يريدون أن يكيلوا للصليبيين بالكيل الذى كالوه للمسلمين عندما فتحوا بيت المقدس ، ونسوا أن صلاح الدين كان بهذه الروح العظيمة يطلع الصليبيين على روح الحضارة الاسلامية ، هادما بذلك كل المزاعم التى كانوا يشيعونها ضد المسلمين لتأليب الأوربيين عليهم ...

وصلاح الدين كان يتأسى فى ذلك ، بسيدنا محمد صلوات الله عليه عند فتحه مكة التى عذبته وأشقته ، عندما عفا عن أهلها وقال لهم كلمته الخالدة :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

ولندع الآن رانسمان أحد مؤرخي الحروب الصليبية من الانجليز يصف لنا هذا الموقف :

« كان المنتصرون معقولين وانسانيين ، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينـة منذ ثمانية وثمانين عاما فى دماء ضحاياهم نجد فى هذه المرة أنه ما من بناء نهب ، وما من انسان أصابه أذى .

وتنفيذا لأوامر صلاح الدين ، انبث الحراس يخفرون الطرق والأبواب ويمنعون اى اعتداء قد يصيب المسيحيين .

وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين انفسهن الى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن ويسألنه فى استرحام ، أين يستطعن الذهاب بعد قتل أزواجهن أو آبائهن أو وقوعهم فى الاسر ، فأطلق صلاح الدين كل من كان من أزواجهن فى الأسر ، أما الأرامل واليتامى فقد منحهن منحا تتناسب مع مكانتهن من أمواله : لقد كان عفوه ولطفه يتباين تباينا واضحا مع أفعال المسيحيين الغزاة فى الحملة الصليبية الأولى .

وأعاد صلاح الدين الى مدينة القدس طابعها الاسلامى وأصدر أوامره بترميم ما تصـدع من مؤسساتها الاسـلامية ، وخاصة بيت المقدس ، وحمل الى المسجد العظيم محرابا كان السلطان نور الدين قد أعده ليضعه بنفسه فى المسجد الأقصى ، وانشأ بالمدينة المدارس الدينية ، كما أنشأ بها بيمارستانا لعلاج المرضى .

حتى اذا فرغ مما يجب عمـله لاحياء المـدينة المقدسـة كأحد مراكز الاشعاع الاسلامى ، عاد يستأنف تحرير البلاد من بقايا الصليبيين .

تطهير عدد من البلاد :

استولى صلاح الدين بمجـرد استئنافه لنشاطه العسكرى على مدن جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وحصن كوكب ، وحصن الكرك العتيد ، وكل ما جاوره من قلاع ، كما استولى على قلعة صفد بحيث لم يبق للصليبيين سوى موقع واحد هو مدينة صور وكان من الممكن أن يسقط بدوره ان عاجلا أو آجلا لولا ان أوروبا الغربية (الصليبية) جاءت تخف لنجدة صليبيى الشرق .

١١٩١ م ــ ٥٨٧ هـ : الحملة الصليبية الثالثة :

أحدث سقوط بيت المقدس دويا فى أوربا المسيحية وتحمس القوم حماسا شديدا لضرورة استرداد بيت المقدس بأى ثمن ، وفرض ملوك أوروبا على رعاياهم ضريبة اشتهرت باسم ضريبة صلاح الدين ، أى لتجهيز حملة ضد صلاح الدين .

وتألفت الحملة فى نهـاية الأمر ، على أن المؤرخين يقررون أن عاملا سـياسيا قد اشترك فى تأليفها فوق العامل الدينى ، اذ وجد فيها كل ملوك أوربا فرصة لتحقيق أهداف سياسية خاصة .

وقد اشترك فى هذه الحملة الصليبية الثالثة ، ثلاثة من أعظم ملوك أوربا فى هذه الفترة وهم : فردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .وقد انفرد كل من هؤلاء الملوك الثلاثة بالعمل ، مما أضعف فاعلية هذه الحملة على قوتها وضخامتها وخطرها على الاسلام .

ـــ فردريك بربروسا ، امبراطور الدولة الرومانية المسيحية وتسميه المراجع العربية « ملك الالمان » وقد اشترك فى الحرب بصفته امبراطورا وزعيما تقليديا للعالم المسيحى فى الحرب :

وقد تحرك الامبراطور فردريك بربروسا على راس جيش ضخم منظم احسن تنظيم ومسلح أقوى تسليح ، والمراجع الأوربية تقدر قوة هذا الجيش بمائة الف مقاتل ، ولكن المراجع العربية ، تقدر هذا الجيش بمليون ، والتقدير الأول هو الأصح بطبيعة الحال وليست كثرة العدد التى تنسبها المراجع العربية للجيش الالمانى ، الا احدى صور الفزع والهلع الذى استولى على المسلمين فى ذلك الوقت عندما تسامعوا بزحف هذا الجيش .

بل ان امبراطور بيزنطة كان أشد وجلا من المسلمين أنفسهم من جراء هذا الجيش حتى لقد وجد من مصلحته أن يحالف صلاح الدين ضده فكتب له يتبرأ من أن يكون ضالعا مع هذا الجيش ، واكد انه سوف يحول بينه وبين المرور داخل بلاده .

واظهارا للود والتحالف بين الطرفين ، اتفق على أن يسلم صلاح الدين كنيسـة القيامة فى بيت المقدس لرجال الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، فى مقابل أن يصبح لصلاح الدين حق الاشراف على الجالية الاسـلامية فى القسطنطينية وعلى جامعهـا ولذلك فقد بادر بارسال خطيب ومؤذن للمسجد فكان دخولهما القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام .

فشل حملة بربروسا :

على أن المقادير شاءت أن يخذل فردريك بربروسا فلا يصل الى أرض المعركة اذ مات وهو يحاول عبور أحد انهار آسيا الوسطى ، فادى موته الى تبدد جيشه فلم يصل منه الى أرض فلسطين الا أعداد لا يؤبه بها ...

وهكذا تولى الله عن المسلمين تصفية هذا الجيش الضخم الذى توجسوا منه .. بحيث لم يكن سوى صلاح الدين الذى احتفظ بهدوئه ويقينه ابان هذه الأزمة .

جيش فيلب اغسطس :

أما باقى ملوك أوربا الذين اشتركوا فى هـذه الحملة فهم فيلب اغسطس ملك

فرنسا ، وكانت المنافسة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا فى ذروتها ، بعد أن زاد فى حدتها تلاقيهما فى جزيرة صقلية ، مما حدا بملك فرنسا أن يسبق ريتشارد الى الشرق فوصل الى مدينة عكا فى مرحلة حاسمة قلبت ميزان الحوادث والحرب .

كان الصليبيون كما ذكرنا قد انحازوا جميعا وتجمعوا فى مدينة صور ، وعندما وصل اليهم جى ملك القدس بعد أن أطلق سراحه قادهم الى استرداد مدينة عكا ولكن المدينة الحصينة وقفت فى وجههم وجاء صلاح الدين ففرض حصارا على الجيش الصليبى المحاصر للمدينة فأصبح الصيلبيون محصورين بين نارين نار المدافعين عن المدينة من الداخل ، وجيش صلاح الدين من الخارج .

واستمر الوضع على هذا الحال طوال عامين ، أوشك فيهما الصليبيون على التداعى والانهيار ، فجاء مقدم لويس اغسطس بمثابة نجدة جديدة قوت من عزائمهم وشدت أزرهم .

ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا :

وتسميه الكتب العربية الانكثير أو الانكثار ، أو الانكلتير . وقد أدت منافسته لفيليب أغسطس لأن يتخلف عنه ، ثم سار فى أسطول انجليزى بحرى قاصدا مدينة عكا فى فصل الربيع من هذه السنة وقد استولى فى الطريق اليها على جزيرة قبرص ، ولم يلبث أن باعها لملك القدس السابق جى دى لوزنيان ، فأصبحت مركز دولة القدس الصليبية وظلت منذ ذلك التاريخ تلعب دورا فى الحروب الصليبية حتى بعد أن انتهت فى فلسطين والشام .

سقوط مدينة عكا من جديد بيد الصليبيين :

فى السابع عشر من جمادى الثانية من هذه السنة « ١٢ يوليو سنة ١١٩١ » سقطت مدينة عكا بيد الصليبيين ، بعد أن وصل اليها ريتشارد بأسطوله الضخم الذى أحكم الحصار على المدينة من ناحية البحر فى وجه الأسطول الاسلامى .

وتفيض كتب التاريخ بتفصيل ملحمة القتال التى دارت حول مدينة عكا خلال حصارها الطويل ، وكيف أبدى الطرفان من ضروب الشجاعة والفدائية ما لم يسمع بمثله .

وكان من بين هذه المواقف البطولية ، أن ارسل صلاح الدين فى احد المرات ستمائة وخمسين رجلا على احدى المراكب ليكونوا امدادا للمقاتلين فى المدينة مع كمية ضخمة من الأسلحة والذخائر والمؤن ، فأحاطت بهم مراكب الأسطول الانجليزى فلما أيقن القوم أنه لم يعد أمامهم مناص من التسليم آثروا ، أن يثقبوا سفينتهم وأن يغرقوها بكل ما فيها ومن فيها ، وهكذا ذهب الى قاع البحر هذا العدد الكبير من الشهداء حتى لا يقعوا فى يد العدو وليحرموه مما فى السفينة من أسلحة ومؤن .

كما احتفظ التاريخ بأسماء أبطال من الشعب مثل « عيسى العوام » والذى كان يخترق حصار الأساطيل الانجليزية وينفذ الى المدينة المحاصرة ويخرج منها حاملا منها واليها الرسائل والأنباء .

واستسلمت المدينة فى خاتمة المطاف بعد أن عجز صلاح الدين عن فك الحصار عنها وخاصة بعد وصول جيوش فرنسا وانجلترا .

١١٩٢ م — ٥٨٨ هـ : صلح الرملة :

استمرت الحرب بعد سقوط عكا قاسية عنيفة ، وكانت سجالا بين الطرفين ينتصر الصليبيون فيها حينا وصلاح الدين حينا آخر ، ولم يلبث الخلاف بين فيليب أغسطس وريتشارد أن أحدث أثره فى تفكيك الجبهة الصليبية فانسحب فيليب أغسطس الى فرنسا معتبرا انه انهى مهمته بالاستيلاء على عكا .

وبقى ريتشارد قلب الأسد زعيما للقوى الصليبية المحاربة . وتغص أنباء هذه الفترة بأحاديث المفاوضات والمناورات والملاحظات بين صلاح الدين وريكاردوس ، حيث كانا يتهاديان ويسأل كل منهما عن صحة الآخر ، حتى ليبعث صلاح الدين بطبيب لعلاج ريكاردوس كما أرسل له فواكه على سبيل الهدية .

على أن قمة الدبلوماسية فى هذه المرحلة لا تتجلى فى أمر قدر ما اقترحه ريتشارد لتسوية النزاع بطريقة سلمية ، وملخص هذا الاقتراح أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين الأميرة جوانا أخت ريتشارد وأرملة ملك صقلية ، على أن يقوم الزوجان بحكم دولة فلسطين بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية .

ومن عجب أن هذا الاقتراح الجرىء قد حظى بموافقة العادل وصلاح الدين نفسه وكان يمكن أن يتحقق لولا أن الأميرة جوانا رفضت تحت ضغط وارهاب رجال الدين الذين خوفوها بعذاب جهنم وبئس المصير اذا هى تزوجت بمسلم كافر .

ولعل مجرد صدور هذا الاقتراح من ملك انجلترا ، يدل على الشوط الكبير الذى قطعه التقارب بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى وان الفضل فى ذلك انما يرجع فى الدرجة الأولى لشخصية صلاح الدين وروحه السمحة التى عامل بها أعداءه .

وكانت هذه المحاولات الدبلوماسية والمفاوضات والمناورات تتخلل الجهود المستمرة التى يبذلها الطرفان فى المعارك التى لم تتوقف ، استطاع صلاح الدين خلالها ان يستولى على مدينة يافا بعد حروب لم تدم سوى ثلاثة أيام مما اذهل الصليبيين على انهم لم يلبثوا أن استردوها .

وفى معركة عند مدينة أرسوف كاد صلاح الدين نفسه أن يهلك حيث تفرق عنه اغلبية جيشه وبقى فى قلة من أصحابه فأدى ثباته الى عودة الجيش وانتصاره .

كما اضطر صلاح الدين لتخريب أسوار عسقلان وتدمير المدن حتى لا تقع فى يد الصليبيين كما قلت من ناحية أخرى كل المحـاولات التى بذلها ريتشارد للاستيلاء على بيت المقدس .

وطالت غيبة ريتشارد عن بلاده ، ووصلته الأنبـــاء من انجلترا عن تآمر أخيه عليه ، فأرسل الى صلاح الدين يحثه على وجوب التوصل الى صلح وكانت الجيوش الاسلامية من ناحيتها قد تعبت من استمرار القتال بلا انقطاع ، وهكذا تلاقت ارادة الطرفين فى الصلح وعلى ذلك تم عقد صلح الرملة فى يوم الثلاثاء ٢١ شعبان من هذه السنة ٥٨٨ هـ ـ ٢١ سبتمبر سنة ١١٩٢ على الشروط الآتية :

ـــ يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا الى يافا .

ـــ يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس .

ـــ تكون عسقلان بعد تخريبها وما يليها جنوبا بيد صلاح الدين .

الموقف بعد صلح الرملة :

يلخص لين بول الموقف بعد صلح الرملة على الوجه التالى :

لقد استمرت الحرب المقدسة خمس سنوات ، وقبل المعركة الحاسمة فى حطين « يوليو سنة ١١٨٧ » لم تكن هناك بوصة واحدة من أرض فلسطين غرب نهر الأردن فى يد المسلمين ، أما بعد صلح الرملة فكل فلسطين أصبحت اسلامية ما عدا شريط ضيق على الســاحل من صــور الى يافا ، ولاسترداد هذا الشريط الساحلى قامت اوروبا كلها تحمل السلاح ، وسقط مئات الألوف من الصليبيين والنتيجة لا تساوى الثمن الذى دفع منها .

أما صلاح الدين فقد خرج من الناحية الأخرى وقد تأكد سلطانه الذى لم يتزعزع وكانت الامبراطورية التى يتربع فوقها والمؤلفة من أمراء واتباع ورعايا من الأكــراد والتركمان والسوريين ، والعرب والمصريين ، الذين اندمجوا كلهم فى جيوشه يقفون خلفه ويدعمونه فى اخلاص ووفاء ويترقبون أصغر اشارة منه لكى يندفعوا لتنفيذها .

وعندما انتهت الحرب كان صلاح الدين يحكم بغير منازع من جبال كردستان حتى الصحراء الليبية ، ووراء هذه الحدود كان ملوك جورجيا وكاثوليك أرمنيا ، وسلطان قونيا ، وحتى امبراطور بيزنطة شديدى الحرص على محالفته .

لقد عاش حتى رأى انتصاراته وحلم حياته وهو طرد الصليبيين من المدينة المقدسة واعادة الوحدة الى الاسلام .

١١٩٣ م — ٥٨٩ هـ : نهاية بطل :

فى يوم الاربعاء السابع والعشرين من شهر صفر (٤ مارس) بعد صلاة الصبح لفظ صلاح الدين أنفاسه الأخيرة .

يقول ابن شداد : وكان يوم موته يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين « رضى الله عنهم » وغشى القلعة والدنيا كلها وحشة لا يعلمها الا الله تعالى . ولقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وكنت اتوهم ان هذا على ضرب من التجوز والترخص حتى ذلك اليوم ، فقد علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قيل الفداء لفديناه بأنفسنا .

ويمضى ابن شداد ليقول :

وقد مات صلاح الدين ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهما ناصرية ، ودرهما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية مزروعة .

وصية صلاح الدين لابنه :

ولست أحسب ان هناك ما يصور لنا شخصية صلاح الدين وداخلية نفسه ودستوره فى الحكم ، وأعجب من ذلك كله كراهيته للعنف وهو الرجل الذى عاش طول عمره فى الجهاد والحرب من وصيته لابنه كما سجلها ابن شداد :

« أوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتعلق بها فان الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد ، وحذار ما بينك وبين الناس ، فانه لا يغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك اليه فانه كريم » .

حلمه وعفوه :

ولا محل للحديث عن تدينه وصومه وصلاته وورعه وتقواه فحياته كلها حديث عن ذلك وانما الذى يقف الانسان أمامه مذهولا مدى ما يصور به المصورون حلمه وعفوه فيقول لنا معاصروه ان الناس كانت تتزاحم عليه فى بعض المناسبات لتعرض عليه شكاتها فكانوا يدوسون على أطراف ثيابه ، والمرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم دون أن يتأثر من ذلك .

ووصل الأمر الى حد أن أحد رجاله داس على يده وهو يقدم له عريضة ويطلب منه أن يوقع له عليها فيرد صلاح الدين عليه بقوله :

وكيف أستطيع أن أوقع لك وانت تدوس على يدى .

ملك العالم الاسلامى لا يستطيع ان يحج :

وبقى لكى تكمل صورة صلاح الدين أن نذكر هذه الواقعة التاريخية المحققة وهى ان الجهاد شـغل صلاح الدين طول حياته عن أن يحج فلما ان عقد صلح الرملة بدأ يتجهز لكى يحقق حلمه فى الحج ، ولكن خزانته كانت فارغة من المال اللازم لكى يحج بما يليق بمثله وما يتوقعه الناس من احساناته فى هذه المناسـبة ، فأرجأ ذلك الى العام التالى ، ولكن لم يكن هناك عام تال فقد حم القضاء .

وبعـــد :

فان الحديث عن صلاح الدين ذا سـعة ، وما قاله خصومه الذين حاربهم من الصليبيين فى فضائله ومزاياه يفوق ما قاله المسلمون . ذلك أن الرجل العظيم تحاك حوله الأقاصيص والأساطير .

ولقد كتبت عن سيرة صلاح الدين عشرات من الكتب ليس أقلها كتاب أخى الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل فليرجع اليها من اراد المزيد أما الآن فحسبنا أن نسـجل ما عنـدنا من أن صـلاح الدين مات عن سـبع وخمسين سـنة ، ملك مصر فيهـا أربعا وعشرين سنة ، وملك الشام مع مصر تسعة عشر عاما .

وخلف سـبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة وكان أكبر أولاده الذكور الملك الأفضل نور الدين والذى يليه العزيز عثمان والقائد الظاهر .

١١٩٣ م ـ ٥٨٩ هـ ـ الموقف بعد صلاح الدين :

مات صلاح الدين فى مدينة دمشق ودفن بها وكان ابنه الأكبر الأفضل نور الدين ملكا على دمشق ، وهو الذى أشرف على تجهيز جنازة والده ، وجلس يتقبل العزاء فى أبيه وحوله كبار أمراء الدولة . .

على أن أخاه الثانى الملك العزيز عثمان ، كان يتربع على عرش مصر نيابة عن أبيه ، ومن حوله جمهور العسكر الصلاحية والأسدية والأكراد ، وفى حلب وما يحيط بها الملك الظاهر غياث الدين الابن الثالث لصلاح الدين .

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية أخو صلاح الدين الملك العادل سيف الدين .

وباقى أجزاء الدولة ولايات صغيرة أو ممالك كما كانت تسمى يحكمها أفراد من مختلف فروع الأسرة ، وكان أهمها مملكة حمص وكان يليها أفراد من أسرة أسد الدين شيركوه ، ومملكة حماة ويليها أفراد من أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه .

وكان أشد ما يهدد العالم الاسلامى أن تقع الفرقة بين أفراد الأسرة الواحدة ، وتضيع مع الخلافات مصالح الدولة .

وكتب التاريخ تتحدث كثيرا عن حكمة القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى مصر ، وعن اخلاصه وافتدائه ، وليس هناك ما يكشف عن شخصية القاضى الفاضل وانه كان نعم المستشار لصلاح الدين ، من أنه عندما مات صلاح الدين بعث الى ابنه الملك العزيز عثمان فى مصر خطابا صور له هول الفاجعة التى ألمت بالمسلمين بوفاة صلاح الدين .. ثم ختم خطابه بالعبارة الثمينة التالية :

« وأما لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم » .

دب الخلاف بين أولاد صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين عمهم العادل ، وأوشكت الدولة الاسلامية الموحدة ان تتمزق وتتفرق ، ولم يحل دون وقوع الكارثة الا أن هيبة صلاح الدين بعد موته وعظمة شخصيته ظلت تفرض نوعا من التوجيه على أمرائه ورجاله وأبنائه .

فقد كان من حسن المقادير أن عقد صلح الرملة قبل وفاته مباشرة وانصرف ريتشارد قلب الأسد عائدا الى بلاده انجلترا ، فوقع أسيرا فى الطريق ، وكان الصليبيون الذين ظلوا فى الشريط الساحلى من الضعف والهوان ، بحيث لم يكن باستطاعتهم أن يستفيدوا من الاضطراب الذى ساد الموقف بعد موت صلاح الدين واختلاف أبنائه ..

ومن حسن المقادير أيضا ، ان كان هناك الملك العادل أخو صلاح الدين ، حيث تدخل لانقاذ الموقف ، عندما بدأت الأحوال تبلغ اشد درجات السوء وتهدد بانحلال الدولة .

وسوف نرى كيف توصل العادل الى ذلك من خلال الدهاء والصبر واستعمال الحيل والمناورات السياسية ، وأقصى ما يمكن أن توصل اليه الدبلوماسية .

سلطنة العزيز عثمان على مصر :

كان العزيز عثمان سلطانا على مصر فى حياة أبيه بالنيابة ، فلم يكد صلاح الدين ينعى ، حتى بادر أمراء مصر وقضاتها وأعيان الدولة بمبايعة العزيز عثمان خلفا لأبيه .

وكان عمره وقتذاك اثنين وعشرين عاما .

وكان هناك اجماع على ان مصر هى الدولة الأم ولذلك فقد اعتزت سائر الاطراف بهذه السلطنة على الأقل من الناحية الشكلية وأصدرت دمشق عملة فى هذه السنة ٥٨٩ هـ وعليها اسم العزيز عثمان كسلطان للدولة كلها .

على أن الملك الافضل كان يعتبر نفسه الملك الفعلى لدمشق والشام .

وقد حدث بمجرد المناداة بالعزيز عثمان سلطانا على مصر أن اغار الصليبيون على بلدة جبلة واحتلوها .

فخرج العزيز عثمان بجيشه من مصر بحجة التصدى لحرب الصليبيين ، ولكن هدفه الحقيقى كان هو الاستيلاء على دمشق وضمها الى ملكه وتعيين نائب عليها من طرفه . وحاصر العزيز عثمان دمشق بجيشه بالفعل وكاد الاصطدام يقع بين العزيز عثمان واخيه الأفضل الذى استغاث بعمه وبقية اخوته ..

ونجح الملك العادل فى الصلح بين الأخوين .

وأعاد العزيز عثمان بجيشه الى مصر ، بعد أن زوجه ابنته .

يقول ابو الفدا فى تاريخه : واقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الاغانى والأوتار ليلا ونهاراً .

١١٩٥ م ــ ٥٩١ هـ ــ الملك العادل يصبح وزيرا للعزيز فى مصر :

لم يتم الصلح بين الأخوين الا على دخل ، فقد كانت حاشـية كل من الأخوين تحرضه على اخيه تحقيقا لمآربها ، وبذلك فقد زحف العزيز عثمان مرة أخرى على دمشق فى هذه السنة بجيوشه ، ومرة اخرى استنجد الملك الأفضل بعمه ، ومرة اخرى تدخل الملك العادل بمناوراته ، فاستطاع أن يوقع الفرقة فى جيش العـزيز عثمان ، فانخذلت عنه الفرق الأسدية (نسبة الى أسد الدين شيركوه) فاضطـر العزيز عثمان أن يعود منخذلا الى مصر .

فسار وراءه الملك الأفضل بجيشه حتى وصل الى مصر واستطاع أن يستولى على مدينة بلبيس . ولكن العادل اقنع الملك الأفضل ان يصطلح مع أخيه واقترح أن يتم الصلح على يدى القاضى الفاضل الذى كان قد اعتزل الحياة العامة لعدم رضائه عن الخلافات التى وقعت بين أبناء صلاح الدين .

وخرج القاضى الفاضل من عزلته واستطاع أن يتوصل الى حل يحقن به الدماء ويرأب الصدع ، وهو أن يعود الملك الأفضل بجيشه الى دمشق ملكا عليها وأن يكون ملك مصر للعزيز عثمان على أن يدير شئونه الملك العادل باعتباره وزيرا للعزيز عثمان .

وهكذا سار الملك العادل خطوة جديدة نحو تحقيق أهدافه .

١١٩٦ م ــ ٥٩٢ هـ ــ استيلاء الملك العزيز على دمشق :

بعـد أن أصبح مرد الأمور كلها الى الملك العادل ، فقد بدأ يحرض العزيز عثمان على أخيه الأفضل ، لما تواتر عنه من تهاونه فى شئون الدولة واقباله على اللهـو تاركا الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير الذى أساء السيرة فى الناس .

ولم يكن للملك الأفضل قبل بمقاومة العزيز عثمان بعد ان اصبح العادل يشد ازره ، ففتحت لهما أبواب دمشق فى يوم الأربعاء ٢٦ رجب ا وسلم العزيز عثمان دمشق لعمه الملك العادل ليكون نائباً للسلطان عليها وعاد هو الى مصر فى الرابع والعشرين من شعبان .

١١٩٨ م — ٥٩٤ هـ — الملك العادل يعيد فتح يافا :

حاول الصليبيون أن يستغلوا عوامل الخلاف بين خلفاء صلاح الدين فجاءت جموع منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت .

ولكن الملك العادل تصدى لحربهم ، وواتته النجدات من مصر فهجم على مدينة يافا فاستطاع ان ينتزعها من يد الصليبيين وأن يستولى عليها وكان هـذا هـو ثالث فتح لمدينة يافا .

ورد الصليبيون بالهجـوم على مدينة نيفين بعد ان توافرت لديهم النجـدات ، فسار العزيز عثمان من مصر على رأس جيشه لنجدة عمه ، فلما أن علم الصليبيون بمقدمه انسحبوا خائبين الى قاعدتهم مدينة صور ، فترك العزيز عثمان قيادة الجيش الى عمه ، وفوض اليه أمر الصلح والقتال مع الافرنج ، وعاد هـو الى مصر . حيث استقبله الشعب بالاحتفالات والمهرجانات .

وآثر الصليبيون الصلح على الحرب فعقدوا هدنة لمدة ثلاث سنوات عاد على أثرها الملك العادل الى دمشق ، وقد ازداد سلطانا وعزة .

١١٩٩ م — ٥٩٥ هـ — وفاة السلطان العزيز عثمان :

فى السابع والعشرين من المحرم ، مات العزيز عثمان ، وكان عمره يوم مات سبعا وعشرين سنة وأشهرا ، ومدة ملكه ست سنوات الا شهرا . وقد انفرد ابن اياس من بين المؤرخين بالحملة على العزيز عثمان ومدة حكمه . فقال عنه انه : أعاد المكوس الذى كان أبوه قد أبطلها وزاد فى شناعتها ، وجاهر بالمعاصى وأقام الضرائب الثقيلة على الحشيش والمسكرات ، ووقع فى أيامه غلاء بسبب توقف النيل . واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى .

ولكن سائر المؤرخين يقولون عكس ذلك ، فهذا ابن واصل يقـول عنـه ، كان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان اليهم ، فكان الرعية يحبونه محبة شديدة ، وفجعوا بموته فجيعة عظيمة ، وعندما هزمه عمه وأخـوه الفاضـل ، وأشرف ملكه على الزوال بذلت له الرعية أموالها ليذب عن نفسه فامتنع مع شدة حاجته الى المال .

ويكرر هذا القول أبو المحاسن ، ويقرر أن أمور مصر استقامت فى أيامه وعدل فى الرعية وعف عن أموالها .

وقال مثل ذلك ابن خلكان .

تولى المنصور محمد بن العزيز عثمان ملك مصر :

اتفقت كلمــة الأمراء بموافقة القاضى الفاضل على اعمــال وصية العزيز عثمان بتولية ابنه محمــد عرش مصر ، على الرغم من أن سنه لم تكد تزيد على تسع سنين الا بضعة أشهر ،ولقب بالملك المنصور .

كما تم الاتفاق على أن يكون عمه الملك الأفضل مدبرا للملك (اتابك) وكان يقيم فى مدينة صرخد فبعثوا اليه فوصل الى مصر وتولى ادارة المملكة .

وكان الملك العادل فى ذلك الوقت يحاصر مدينة ماردين . فاقترح الملك الظاهر اخ الملك الأفضل وكان يحكم مدينة حلب كما قدمنا ، ان ينتهز فرصـــة غياب الملك العادل عن دمشق ويزحف عليها ويستولى عليها ووعده بالمساعدة .

واستجاب الأفضـــل الى تحريض أخيه الظاهر فقصد دمشق بالجيش المصرى ولكن العادل كان أسرع منه للوصول الى دمشق فدخلها قبل وصول الأفضل واغلق أبوابها فلم يبق أمام الأفضل الا ان يحاصرها ، ثم خف الملك الكامل ابن الملك العادل لنجدة ابيه واستطاع العادل أن يوقع بين الأخوين (الافضل والظاهر) ففشل الحصار وانسحب الافضل الى مصر .

ولكن الملك العادل وقد تقوى بجيوش ابنه ، أسرع فى أعقاب الملك الافضل الــذى تفرقت عنه الجيوش بمجرد مقدم عمه . وتم الاتفاق على أن يدخـــل الملك العـــادل الى مصر ، وأن ينسحب منها الأفضل فى مقابل أن يلى حكم بعض البلاد فى شمال الشام (ميانارفيه وسمسياط) وفى الحادى والعشرين من ربيع الآخر ، دخل الملك العـــادل الى القاهرة اتابكا ومدبرا لشئون الملك الصغير على مصر والشام .

وفاة القاضى الفاضل :

وفى ذات الليلة التى كان العادل يدخل فيها الى القاهرة ، كانت جنـــازة القاضى الفاضل تسير به نحو لحده .. وكان ذلك استجابة لدعاء دعا به الى الله أن لا يدعه تحت رحمة العادل ، فقد كان العادل قد أضمر به شرا عندما اقترح أن يكون الافضل هو مدبر شئون الملك المنصور .

والقاضى الفاضل هو أبو على محيى الدين عبد الرحيم من مواليد مدينة عسقلان عام ٥٢٩ هـ أرسله أبواه الى ديوان الانشاء بالقاهرة فى أواخر العهد الفاطمى فاشتغل بالأدب وحفظ القرآن ، ووصل بنبوغه الى حـــد أن أصبح متولى ديوان الجيش الفاطمى على عهد الخليفة العاضد ، ثم نقل الى ديوان المكاتبات فلما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة الفاطمية واحتاج الى كاتب أرسل اليه القاضى الفاضل . وعندما

تولى صلاح الدين الملك عهد اليه بديوان الانشاء فأخلص فى تعليم صلاح الدين اسرار الحكمة وقواعد الادارة ، وقدم اليه أجل الخدمات . فاتخذ منه صلاح الدين وزيرا له وناصحا ومستشارا ، فأخلص العمل واصدقه .

وتعتبر كتاباته التى تملأ مئات المجلدات (على ماقيل) أو بالأحرى مابقى منها من اكبر مصادر تاريخ هذه الفترة من حياة مصر والشرق العربى .

خلع المنصور وتسلطن العادل :

خطا الملك العادل خطوته الأخيرة التى عمل لها جاهدا منذ وفاة اخيه صلاح الدين وهو أن يكون هو وريثه ، فجمع الأمراء والقضاة والفقهاء وقال لهم انه : قبيح به ان يكون اتابكا لصبى صغير مع شيخوخته وتقدمه والملك ليس بالارث ، وانما هــو لمــن غلب .

ولقد كان يجب ان يكون هو السلطان بعد وفاة أخيه صلاح الدين، ولكنه ترك ذلك اكراما لأخيه ورعاية لحقه . فأما وقد حصل ماحصل من خلافات تهدد بخروج الملك كلية من أسرة صلاح الدين فلم يبق الا ان يقوم هو بالحكم وينهض بأعبائه .

فأقره المجتمعون على قوله .. وفى الحادى والعشرين من شوال من هذه السنة قطع العادل الخطبة عن المنصور بن العزيز ، خالعا اياه من الملك الذى لم يدم الا سنة وتسعة أشهر وداعيا لنفسه .

١٢٠٠ م ــ ٥٩٧ هـ ــ مجاعة وقحط فى مصر :

على أن الاقدار عبست فى وجه الســلطان العادل ، فقد استهل انفــراده بالحكم بفترة من المجاعة والقحط وتحالف معها الزلزال الذى أصاب البــلاد فانتهى ذلك الى كارثة مخيفــة يفيض المؤرخون على عادتهم فى وصف أهوالها فيقول لنــا المقريزى أن العادل وحده كفن فى مدة يسيرة مائتين وعشرين الفا من الموتى .

عبد اللطيف البغدادى :

واذ كان عبد اللطيف البغدادى الرحالة الثقة قد عاش فى مصر فى هذه الفترة فقد رأينا أن ننقل بعض ماقاله لتصوير نوع ماكانت تتعرض له البلاد فى هذه الحقبة من التاريخ ، اذ تخلف النيل عن الفيضان بعض ســنوات متعاقبة ، فكادت البلاد تخرب ليس فقط نتيجة من يموتون بل نتيجة من يهاجرون منها بالجملة ويدعونها خرابا .. يقول عبد اللطيف البغدادى :

« كانت القرية تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنه (اى خراب) وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . أما مصر فخــلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وماتاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون اصلا ، بعــد

ما كان كل قصر منها قدر مدينة مزدحمة بالناس . وحتى الرباع والمساكن والدكاكين التى فى سرة القاهرة أصبح أكثرها خاليا وخرابا . وان ربعا فى أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت بمن يحرس الموقع .

ولا يفوت عبد اللطيف البغدادى أن يحدثنا عن الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الخالدة وهى أن مصائب قوم عند قوم فوائد فيقول :

وبما يقص به العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجـددين سعدوا فى دنياهم فى هذه السنة ، فمنهم من أثرى بسبب متجره فى القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت أحواله لغير سبب معروف ، فتبـارى من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته بسط .

من حوادث الجوع :

ثم يروح عبد اللطيف البغدادى يصور لنا بعض الحـوادث المتكررة التى رآها بعينى رأسه :

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظهر معها (طفل) صغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره . فعاد تعجبى أشد وماذلك الا لكثرة تكراره على احاسيسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لايستحق أن يتعجب منه .

اختلال الأمن :

وأما القتل والفتك فى النـواحى فكثير فاش فى كل فج ، ولا سيما طريق الفيـوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيـوم ناس فى مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم واقتسموا أسلابهم .

وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذى خصه دون رفاقه ستة آلاف دينار .

جثث الموتى فى الطرقات :

أما عن موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لايحيط بعلمه الا الله سبحانه وتعـالى . والذى شاهدناه بمصر (أى الفسطاط) والقاهرة ، أن الماشى أين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت ـ ويرفع من القاهرة خاصـة الى الميضأة كل يوم مابين مائة الى خمسمائة .

وأما مصر (الفسطاط) فليس لموتاها عدد ، ويرمون ولا يوارون . وفى الآخر عجز عن رميهم فبقوا فى الأسواق بين البيوت والدكاكين . بحيث قد يوجد الميت . والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وهذه الصورة التى يرسمها لنا عبد اللطيف البغدادى على بشاعتها تتسم بالدقة ، كما يبـدو من سياقها ، أما غيره من المؤرخين فيعممون الكلام ويرسلونه ارسـالا ، ويسردون من الوقائع مايقف الانسان امامه حائرا لا يعرف كيف تستمر الحياة بعد هذا الذى يقولونه ، من أن الرجل كان يذبح ولده الصغير وأمه تساعده فى طبخه وشيه.

أو أن الرجل كان يدعو اعز الناس لديه ثم يذبحه ويأكله ، وأن ذلك ــ كان عاما وشائعا .

وفاة بهاء الدين قراقوش :

وفى هذه السنة توفى بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدى الخادم الخصى وهو الذى بنى قلعة الجبـــل والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التى عند الاهـرام وغير ذلك .

وكان صلاح الدين يثق به ويعول عليه ، ولمـا فتح عكا سلمها اليه ، ثم لما استولوا عليها واخذوه أسيرا فاداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقيل ستين الف دينار .

يقول ابن خلكان : والناس ينسبون اليه أحكاما عجيبة ، ابان توليه نيابة مصر عن صلاح الدين ، حتى أن أسعد بن محاتى الكاتب الشاعر الف عليه كتابا لطيفا سماه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » وفيه أشياء يستبعد وقوعها منه ، والظاهر أنهـا موضوعة ، فان صلاح الدين كان يعتمد فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه .

وفاة العماد الكاتب :

كما مات فى هذه السنة بمدينة دمشق عماد الدين الكاتب محمـــد بن عبد الله ابن حامد الأصفهانى الذى كتب لنور الدين ومن بعـده لصلاح الدين ولازمه فى السلم والحرب وحضر معه معركة حطين واستعرض الأسرى واحدا واحدا ، وكتب البشارة بالفتح الى سائر الجهات .

وقد لزم داره بدمشق بعد وفاة صلاح الدين وعكف على التأليف .. فالف خمسة مؤلفات تاريخية أشهرها « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وخصصه لسيرة صلاح الدين منذ عام ٥٨٣ هـ حتى انتهى به فى عام ٥٨٩ هـ عند وفاته كما الف كتابا فى الأدب أسماه خريدة العصر صور فيها أعمال صلاح الدين وحروبه تصويرا أدبيا رائعا .

١٢٠١ م ــ ٥٩٨ هـ ــ خروج العادل الى الشام لحرب ابناء صلاح الدين :

لم يرض ابنا صلاح الدين ، الملكان الافضل والظاهر استئثار عمهما العـادل بملك مصر والشام ، فاتفقا على أن يخلعاه عن ملك الشام بالاستيلاء على دمشق فقصـدا المدينة وحاصراها ، وأوشكا ان يستوليا عليها ، ولكن العادل استطاع كما هو دابه ،

أن يوقع من جديد بين الأخوين ، فارتدا عنها قبل وصول الملك العـادل نفسه الى دمشق ، وعاد الملك الأفضل الى صرخد ، بينما عاد الملك الظاهر الى دولته فى حلب .

ومع ذلك فقد قصد السلطان العادل الى دمشق فدخلها واستقر بها ثم توجه نحو حلب لحرب الملك الظاهر بها ، حتى اذا وصل الى حماه ، تدخل الوسطاء فعقد الصلح بين السلطان العادل وابنى صلاح الدين .

غارات الصليبيين :

ولكن هذه المنازعات شجعت الصليبيين على شن سلسلة من الهجمـات على القواعد الاسلامية فى الشام ومصر ، فأغار أسطول صليبى على مصر ودخل فرع النيل برشيد حتى وصل الى مدينة فوه فنهبوها وقتلوا من قدروا عليه من سكانها ، وظلوا مرابطين فى المدينة خمسة أيام ، حتى اذا ـ سمعوا باقتراب الجيش منهم انسحبوا من المدينة .

وفعلوا مثل ذلك بأكثر من بلد من بلاد الشام وفلسطين ، فجنح السلطان العادل الى مصالحتهم وعقد هدنة معهم ، وتمت الهدنة بالفعل (٦٠١ هـ) على أسـاس أن ينزل العادل للصليبيين عن مدينة يافا التى فتحها ونصف مدينتى اللد والرملة .

وبعد أن أبرم العادل هذا الاتفاق عاد الى مصر .

١٢٠٤ م ـ ٦٠١ هـ ـ الحرب الصليبية الرابعة :

انتهت الحرب الصليبية الثالثة كما رأينا بصلح الرملة الذى اعتبره المؤرخون الأوربيون انتصارا ساحقا لصلاح الدين وفشلا ذريعا للحملة الصليبية الثالثة ، ولذلك فقد عمل البابا انوسنت الثالث على أن يشعل نار حرب صليبية رابعـة ، ليستعيد سيطرة البابا على الحركة الصليبية أملا منه فى توحيـد الكنيستين البيزنطيـة (الأرثوذكسية) واللاتينية (الكاثوليكية) ولكن أنوسنت الثالث لم يلق أذنا صاغيـة هذه المرة من الملوك فقد كان لدى كل منهم ما يشغله ، فالنزاع بين فيليب الثانى ملك فرنسا ، وحنا الثانى ملك انجلترا ، كان يستنفد كل جهـودهما .. وكانت الحالة السياسية فى المانيـا شـديدة الاضطراب . وملوك اسبانيا المسيحيين كانوا فى شغل بحربهم مع مسلمى الأندلس .

وهكذا لم يستجب للبابا سوى الاقطاعية الفرنسية ممثلة فى بعض الأمراء .

مفاوضات مع البندقية وانحراف الحملة :

وكانت تجارب الحملات الصليبية السابقة قد دلت الأوربيين على أن مصر هى العقبة فى سبيل استيلائهم على بيت المقدس ، فأصبح هدفهم الأول هو الاستيلاء على مصر ، ولمـا كان الوصول الى مصر لايتم الا بحرا ، فقد دخل قادة هـذه الحملة فى

مفاوضات مع جمهورية البندقية لتقدم مساعدتها البحرية مقابل ٨٥ الف مارك ذهبى ، فضلا عن النزول لها عن نصف الغنائم المنتظرة .

ولكن قادة الحملة عجزوا عن تقديم المبلغ الذى تعهدوا به ، فرضيت أن تقوم بتعهدها فى نقل الحملة الى مصر ، اذا استولت على مدينة زارا الخارجة عليها والتى أصبحت تحت حماية ملك المجر . فاستجاب قادة الصليبيين لهذا الطلب واستولوا على مدينة زارا وخربوها .

وقد أهاج هذا العمل الشائن غضب البابا أنوسنت الثالث فأصدر قرار حرمان على الحملة الصليبية الرابعة مخرجا اياها من رحمة الكنيسة .

استيلاء الحملة على القسطنطينية :

تصادف أن قام نزاع فى هذه الفترة بين أفراد الأسرة الحاكمة على عرش بيزنطة ووصل أحد الأفراد المتنازعين على العرش الى البندقية بحثا عن أى قوة ترفعه الى العرش ، فاستغل دوج البندقية (داندولو) هذه الفرصة وقد كان بينه وبين بيزنطة منافسات تجارية وسياسية عنيفة ، فأقنع قادة الحملة الصليبية أن يغيروا وجهتهم للاستيلاء على القسطنطينية بدلا من مصر .

واستطاعت الحملة الصليبية الرابعة بالفعل أن تستولى على القسطنطينية وهو أول ــ استيلاء عليها فى التاريخ ، وارتكبوا من الفظائع وأعمال التخريب والتدمير والنهب والقتل ، ما تغص به كتب التاريخ .

وانشأ الصليبيون امبراطورية لاتينية فى الشرق ، حلت محل الامبراطورية البيزنطية ، واستمرت قرابة خمسين عاما (١٢٠٤ ــ ١٢٦١ م) وكان بلدوين دى فلاندرز هو أول امبراطور لهذه الدولة . وحل بطريرك لاتينى من البندقية محل البطريرك البيزنطى وانتهى بذلك الانفصال الكنسى من الناحية النظرية ، ولكن البيزنطيين أفسدوا جميع المحاولات للتوحيد بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية .

وكان للبندقية ثلاثة أثمان القسطنطينية ، فضلا عن مدن ادرنة وغاليبولى وجزيرة كريت والجزر الأيونية كلها .

وقد روعت هذه الحوادث أوربا كلها ، وانزعج البابا انوسنت الذى كان السبب فى قيامة هذه الحملة الصليبية الرابعة ، فاذا بها تنحرف هذا الانحراف العجيب ، وتصبح نقمة على المسيحيين وليس على المسلمين .

وقد اهتز مركز البابوية وتلطخت سمعة الحركة الصليبية كلها .

وكان لذلك كله الأثر الاكبر ، فى النجاح الذى لن يلبث أن يحرزه الاتراك فى زحفهم غربا .

هل كان للعادل أثر فى هذا التحول ؟

ويقول بعض المؤرخين ان سياسة العـادل كان لها دور فى تحويل هـذه الحملة الرابعة عن مصر والشام ، فقد ارسل خلال هذه المدة سفارة الى البندقية تحمل بعض الهدايا ووعد بأن تمنح القاهرة البندقية مزايا استثنائية اذا بذل الدوج نفوذه لابعاد الحملة عن مصر . وشك مؤرخون آخرون فى هـذه الرواية ، ولكن الدكتور الشـيال يرجح صحتها . خاصة وأن العادل يعقد بالفعل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) معاهدة مع البندقية يمنحها فيها كثيرا من المزايا التجارية فى الاسكندرية مقابل التعهد بمنع أى حملة صليبية من التوجه الى مصر .

١٢٠٧ م ـ ٦٠٤ هـ ـ الملك العادل يعيد الوحدة الصلاحية :

فى هذه السنة بعث الخليفة العباسى التقليد بولاية مصر والشام والموصل وخلاط للسـلطان العـادل ، وخـوطب السـلطان العـادل بشاهنشاه ملك الملوك خليـل امير المؤمنين .

وقد أقيمت بهذه المناسبة احتفالات لم يسبق لها مثيل فى دمشق ، وصفها لنـا بتفصيل ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب .

اتمام بناء قلعة الجبل واستقرار الكامل بها :

وفى هذه السنة أتم الملك الكامل ابن السلطان العادل والذى كان يتولى حكم مصر نيابة عن ابيه ، بناء قلعة الجبل التى بدىء بانشائها فى عهد صلاح الدين وانشأ بها مقرا لاقامته وتحول اليها من دار الوزارة بالقاهرة ، فكان أول من سكنها من ملوك مصر .

١٢١٢ م ـ ٦٠٩ هـ ـ حملة الأطفال الصليبيين :

يقف المؤرخ اى مؤرخ مبهوتا أمام هـذا الحادث العجيب فى حيـاة أوربا والذى يعكس ويصور مدى ما كانت عليه ، من جهل وتعصب وايمان بالخرافات ، فقد ادعى فى فرنسا صبى من الرعاة يدعى استيفن الفندومى ، أن المسيح أمره بقيادة حملة من الأطفال لانقاذ بيت المقدس فاستجاب له الأطفال والصبيان الذين فروا من أمهاتهـم وآبائهم ، وتجمع حـوله ثلاثون ألف طفل خليط من الأولاد والبنـات اللواتى لبسن لباس الأولاد وكان عمر الاكثرين منهم فى الثانية عشرة أو ما يقرب منها .

ووصل هذا الحشد الى مرسيليا فى طلب سفن توصلهم الى الشرق فغرر بهـم التجار وأصحاب السفن من أهل مارسيليا وحملوهم الى الثغور الاسلامية وخاصـة الاسكندرية حيث بيعوا فيها بيع الرقيق .

أما الأحسن حظا من هؤلاء فقد غرقت بهم السفن واستقروا فى أعماق البحر حيث أقيم نصب لتخليد ذكراهم فى احدى الجزر الغربية من الشاطىء الفرنسى .

ويقال انه بينما كان ذلك يجرى فى فرنسا ، فان حركة مماثلة تماما قامت فى المانيا حيث حشد صبى آخر يدعى نيقولا الكولدنى جيشا من الأطفال ووصل بهم الى الشواطىء الايطالية ، ولكن هؤلاء كانوا أسعد حظا من زملائهم الفرنسيين ، فقد طردهم الايطاليون وأعادوهم الى بلادهم وأسرهم .

١٢١٧ م — ٦١٤ هـ — الحملة الصليبية الخامسة :

دعا البابا انوسنت الثالث الى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة فى المجمع البابوى الرابع ، وذلك لابقاء الفكرة الصليبية حية ، فاستجابت لندائه جموع كثيرة تحت قيادة ملك المجر ، وعند مرورهم بجزيرة قبرص ، اصطحبوا معهم ملكها الذى كان يعتبر نفسه ملكا للقدس ونزلوا على مدينة عكا ، ومن هناك زحفوا بقيادة ملكى المجر وأورشليم على بلاد الشام .

فأسرع الملك العادل الى الشام لمواجهتهم ، ولكنه آثر التريث كما هو دأبه ريثما تصل اليه نجدات ملوكه وأمرائه ، ولذلك فقد بدأ خطته بالانسحاب من أمام الصليبيين الذين لم يجدوا أمامهم أى مقاومة ، فانساحوا فى بلاد الشام يقتلون وينهبون ويسرقون ويسبون ..

فزع المسلمون وراحوا يستغيثون بالعادل ، فكان يسكن روعهم بقوله : ان الخلاف سيقع قريبا فى جيش الصليبيين ، وليس هـذا الجيش سوى سحابة ستنقشع بأقل ريح تهب عليها .

وصدقت تقديرات الملك العادل جزئيا ، فعندما حل فصل الشتاء تضرر الصليبيون ، ولم ينته الشتاء الا وكان القسم الاكبر من جيشهم حيث كان ملك المجر قد يئس من الوصول الى نصر حاسم فعاد الى بلاده بعد أن أقام فى فلسطين ثلاثة اشهر ، أما ملك قبرص لوزينا فقد مرض ولم يلبث أن مات .

وهكذا كان يمكن أن يؤدى ذلك الى انتهاء الحملة الصليبية الخامسة دون ان تحقق أشياء ولكن الجيوش ما فتئت تنهال من وراء البحار حتى تجمع للصليبيين فى عكا جيش ضخم جديد سرعان ما سوف يتجه اتجاها جديدا .

١٢١٨ م — ٦١٥ هـ — تحول الحملة الصليبية الى مصر :

يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب ، شارحا هذا الاتجاه الجديد للحروب الصليبية :

لما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشاورة فيما يبدءون بقصده فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا وقالوا : ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويه برجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر أولا ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد .

واستقر الرأى على أن يكون الاستيلاء على مصر هو هدف الحملة ، فركبوا البحر وقصدوا بحمولهم الديار المصرية فوصلوها فى شهر صفر من هذه السنة ونزلوا على الضفة الغربية للنيل وكانت تسمى (ضيرة دمياط) فأصبح بينهم وبين مدينة دمياط نهر النيل . وكان يقوم على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غليظ كان يمد على النيل فيمنع المراكب الواصلة من البحر الأبيض للدخول الى الديار المصرية .

ويقول المؤرخون المسلمون أن عدة من نزل من الصليبيين الى شاطىء النيل الغربى سبعون ألف فارس وأربعمائة ألف راجل .

وعندما وصل نبأ نزول الصليبيين مقابل دمياط الى الملك الكامل نائب السلطان، أسرع بجيشه من القاهرة متجها نحو الشمال ، فى الوقت الذى أرسل فيه الأساطيل الى دمياط ، ونزل ببلدة العادلية قرب دمياط وعسكر بها . وذلك فى الوقت الذى بدأ أبوه مده بالنجدات والامدادات من عسكر الشام فبدأت تصله بالتتابع .

وبعد حرب دامت أربعة أشهر استطاع الصليبيون أن يستولوا على البرج الخامس لمدخل النيل ، فاستطاعوا بعد ذلك أن يدخلوا أسطولهم من البحر الى النيل ، وعلى الرغم من عظم هذا النصر العسكرى باستيلائهم على البرج . فقد ظلت مدينة دمياط مستعصية يحميها جيشها من الداخل ، وجيش الملك الكامل من الخارج .

وقد عالج الملك الكامل سقوط البرج ونزع السلسلة ، باغراق عدة سفن فى مجرى النيل لتحول دون نفوذ الأسطول الصليبى الى داخل البلاد .

وفاة الملك العادل فى الشام :

حزن السلطان العادل حزنا شديدا عندما سمع بسقوط البرج فى يد الصليبيين وادى به الحزن الى المرض ، ولم يلبث أن أدركته المنيـة فى السابع من جمادى الثانى من هذه السنة فى بلدة عالقين .

وكان عمر العادل يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وكان الحاكم الأوحد لكل مملكة صلاح الدين من برقة الى مصر الى بلاد النوبة واليمن حتى الموصل شمالا لمدة تسع عشرة سنة .

وكان الملك العادل قد قسم البلاد قبل وفاته بين أولاده ، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية ، والملك المعظم عيسى البلاد الشامية ، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية ، والملك الأوحد مدينة خلاط وقد توفى فى حياة والده .

ويعتبر حكم العادل استمرارا لحكم صلاح الدين وسياسته ، فقد كان العادل زميل صلاح الدين طوال حياته وناصحه ومستشاره .

تولى السلطان الكامل ملك مصر وسقوط دمياط :

بويع السلطان الكامل بالملك على مصر بعد وفاة ابيــه ولكن عماد الدين احمد بن المشطوب احد رؤســاء الجند اراد ان يستغل الموقف الدقيق الذى تجتــازه البــلاد ليستأثر بالنفوذ . فتآمر مع بعض زملائه القواد وامراء الجند على خلع الكامل وتولية اخيه الملك الفائز ابراهيم . وعلم الكامل بنبأ المؤامرة ، فخشى على نفسه وهجــر معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوبا الى اشموم طناح .

فلما أصبح الجند وجدوا انفسهم بغير سلطان ، فتفرقوا منهزمين تاركين اثقالهم وخيامهم وأسلحتهم وأموالهم .

١٢١٩ م — ٦١٦ هـ — سقوط دمياط :

انفتح الطريق امام الصليبيين ليعبروا الى الشاطىء الشرقى دون ان تصــادفهم أى مقاومة ، فتم ذلك فى يوم الثلاثاء السادس من ذى القعدة ، ووقعت فى أيديهم هذه الغنيمة التى لم يكونوا يحلمون بها ، وهى معسكر الجيش المصرى بأكمله وبكل ثروته وقد كان شيئا يجل عن الوصف على ما يقول المؤرخون المعاصرون .

ثم شرعوا يحاصرون دمياط .

ولكن أهل المدينة وحماتها استبسلوا فى الدفاع عنها بحيث ظلوا يقاومون الحصار طوال ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . دون ان يستطيع الكامل ان يمــد يدا لانقاذهم ، فقد كان الصليبيون قد أنشأوا حول جيشهم المحاصر الخنادق والحصون التى تحول دون الاقتراب منهم ، وكان البحر مفتوحا أمامهم ترد منه عليهم الامدادات والتموين .

وانتشرت المجاعة داخل دمياط ، حتى غصت شوارعها بالموتى ولم يبق أمامهــم الا التسليم على أن يتعهد الصليبيون بحماية أرواحهم .

وفى الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة دخل الصليبيون المدينة فنكثوا بالعهد الذى قطعوه على انفسهم بحماية الأرواح ، ووضعوا السيف فيمن وجدوه فى المدينة ، وباتوا ليلتهم الاولى يفجرون فى مسجد المدينة بالنساء ويغتصبون الفتيات ، واخــذوا المنبر والمصاحف ورءوس القتلى وبعثوا بهــا الى بلادهم ، وحــولوا الجامع الى كنيسة .

السلطان الكامل يعيد بناء قواته :

لم يتقدم الصليبيون الى داخلية البــلاد عقب استيلائهم على دميــاط ، فقــد تريثوا ريثما تصلهم نجدات جديدة ، وبالفعل وصل اليهم جيش المانى .

حتى اذا استكملوا عدتهم بداوا فى زحفهم ، وقد تضاعفت روحهم المعنوية بما أحرزوه من نصر فى دمياط .

وكان هذا التلكؤ الذى وقع فيه الصليبيون هو فرصة الكامل لكى يقضى على المؤامرة التى دبرت له ، ولكى يعيد تنظيم جيشه وكان قد اتخذ له موقعا قرب مدينة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير) وأمر بانشاء الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذا الموقع الذى تحول الى مدينة ، لن تلبث أن يطلق عليها اسم المنصورة ، لما أحرزه عندها الكامل من نصر .

وكان اخوة الكامل ملوك الشام ، قد تمكنوا من الوصول بجيوشهم لانجاده ، حتى بلغ عدة فرسانه أربعين الفا ، مما قوى معنوية المسلمين ، وزاد فى حماسة أفراد الشعب الذين لم يدخروا وسعا فى تقديم العون والخدمات لهذا الجيش .

مفاوضات الكامل من أجل الصلح :

وبدأ الكامل سلسلة من المفاوضات مع الصليبيين فى مقابل الجلاء عن مصر ، فعرض عليهم أن يعيد لهم البلاد التى فتحها صلاح الدين وهى القدس وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع بلاد الساحل ولم يستثن سوى حصنى الكرك والشوبك . فانقسم الصليبيون ازاء هذا العرض ، فالملك يوحنا دى برايانا ملك القدس رأى أن يقبل هذا العرض ، ولكن وكيل البابا عارض فى قبوله وكان يؤيده فرسان المعبد (الداوية) والاسبتالية وكان لكل مصلحته فى الرفض والقبول .

فملك القدس سيعود الى عاصمة ملكه . أما مندوب البابا يؤيده العناصر الايطالية فقد كانوا يطمعون فى ثروة مصر وتجارتها ، وأما فرسان الداوية والاسبتالية فكانوا لا يرغبون النزول عن قلعتى الكرك والشوبك ومن هنا فقد رفضوا العرض .

ورضى أخيرا السلطان الكامل ان ينزل لهم عن الكرك والشوبك ، فأبى الصليبيون الا أن يدفع لهم فوق ذلك ثلثمائة الف دينار كتعويض عن تخريب أسوار القدس ، حيث كان الملك المعظم اخو السلطان الكامل قد خربها فى هذه الفترة خوفا من أن تقع فى يد الصليبيين .

وعند هذه النقطة تعثرت المفاوضات .

ولن نستطيع أن نفهم عروض الكامل السخية الا فى ضوء الظروف التى كانت تحيط به فى ذلك الوقت . فقد كان الشقاق بينه وبين بقية أفراد البيت الأيوبى قد بلغ ذروته وأصبح كل ما يهم السلطان الكامل سلامة أراضى مصر .

ولكن الدكتور نظير سعداوى فى كتابه القيم : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، يحاول أن يعطى تفسيرا لتصرف الكامل فى هذا الموقف وفى مواقفه المقبلة كلها ، وهو تقدير السلطان الكامل للخطر المغولى الذى سنتحدث عنه والذى أصبح يهدد الكيان الاسلامى بأكثر مما يهدده الصليبيون .

انتصار المنصورة :

لم يبق أمام الكامل الا الحرب والقتال ، فاستغل تفوق المصريين فى معرفة طبيعة بلادهم ، وأرسل أسطولا من السفن المصرية تحت قيادة بدر الدين حسون ، عن طريق بحر المحلة وهو احد فروع النيل الذى كان يخرج منه قرب مدينة بنهـــا ليتصل به ثانية شمال المنصورة ، فوصلت هذه السفن الى النيل شـــمال موقع الصليبيين ، وترصدت لسفن الصليبيين التى ترد عليهم بالمئونة واستطاعت أن تنتصر عليها وتغرق بعضها وتأسر بعضها ، بينما ارتد الباقى الى دمياط من حيث جاءوا ، وهكذا ضاق الخناق على الصليبيين .

ومن ناحية أخرى أطلق المصريون ماء النيل وكان فى أيام الفيضان فغمرت الاراضى المحيطة بمعسكر الصليبيين ، بحيث لم يبق ما يصلهم بدمياط سوى شريط ضيق من الأرض .. وحاصر المصريون هذا الشريط من الأرض فحالوا بين الصليبيين وبين الارتداد الى دمياط .. وانهالت عليهم السهام وناوشهم الاعراب وسكان البـلاد ، فى الوقت الذى قلت فيه أقواتهم ، وهكذا تحرج موقفهم وانقلب راسا على عقب .

١٢٢١ م — ٦١٨ هـ — عقد الصلح وانسحاب الصليبيين من دمياط :

وبعد أن كان الصليبيون يرفضون عروض الصلح ، بدأوا هم الذين يقـدمون العروض ، فعرضوا أن ينسحبوا من مصر كلها ومن دمياط فى غير مقابل وأن تعقـد بين الطرفين هدنة لمدة ثمانى سنوات .

واختلفت الآراء فى معسكر الســلطان الكامل ، فكان من رأى البعض أن لا صـلح معهم بعد أن أصبحت ابادتهم مسألة زمن . واذا كان ولابد من عقد الصلح فيجب أن ينزلوا عن الشريط الساحلى الذى لا زال بأيديهم فى أرض فلسطين .

ولكن خوف السلطان الكامل ، من أن تصل الى الصليبيين نجدات جديدة فتغير الموقف ، جعله يبادر بقبول هذا العرض .

وانسحب الصليبيون من دمياط فى التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ — التاسع من سبتمبر ١٢٢١ م . وتسلمها الســلطان الكامل الذى دخل الى دميــاط فى يوم مشــهود وحوله اخوانه الملوك وقواده وعســاكره ، والشعب يصيح بالتهليل والتكبير .. وتبارى الشعراء فى ازجاء الثناء على الكامل واخوته .

وأرسلت البشائر الى أنحاء العالم الاسلامى باسترجاع دمياط .

وكانت مدة نزول الصليبيين على دميــاط حتى انسحابهم منها ثلاث ســنوات وأربعة اشهر وتسعة عشر يوما .

ظهور التتار وجنكيزخان :

وفى الوقت الذى أصيب فيه المسلمون بهذه الكارثة كانت الأنباء ترد من الشرق البعيد بوفود خطـر أكثر وحشـية وعنفـا ، وان بدا فى ذلك الوقت أنه لا يزال فى بلاد بعيدة .

يقول ابن الأثير فى حوادث هذه السنة (٦١٧ هـ) :

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استفظاعا لها كارها لذكرها ، فانا أقدم رجلا وأؤخر اخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

ان قوما خرجوا من اطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركسـتان مثل كاشغر وبلاد سايجون ، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهمـا فيملكونها ويفعلون بأهلها ما سوف نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارمينية فيخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم الا الشريد القادر ، وذلك كله فى أقل من سنة وهو ما لم يسمع بمثله .

ولم يلبث أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهـو خائف يتوقعهـم ويترقب وصولهم اليه ، ثم انهم لايحتاجون الى مزة ومددا يأتيهم فان معهم الأغنـام والبقـر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحمها .

وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل من عروق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون لشىء من خارجها .

ولقد حكى عنهم حكايات يكاد يسمعها السامع فيكذب بها وذلك من الخوف الذى القاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس ، حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه الجمع الكثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا واحـدا لا يتجاسر أحد أن يمد يده الى هذا الفارس .

ولقد بلغنى أن انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع راسك على الأرض ولا تبرح مكانك ، فوضع رأسـه على الأرض ومضى التترى فاحضر سيفا قتله به .

ونحن نعرف اليـوم أن هؤلاء الأقـوام هم المغـول الذين استطاعوا تحت قيـادة جنكيزخان ، أن يستولوا على الصين شرقا ، ثم يزحفوا غربا ليسـتولوا على كل هـذه البلاد التى عـددها ابن الأثير .. وكان أعظم الملوك الاسـلاميين الذين يواجهونهم هو الملك محمد خوارزم شـاه الذى قوض ملك السلاجقة فى المشرق وأقام دولة تركيـة

خوارزمية محلهم فى بلاد فارس وخراســان ، فهزموه هزيمة شـنعاء واستولوا على بلاده .

وهكذا يعتبر عام ٦١٧ هـ من أسوأ الأعوام التى مرت على مسلمى ذلك الزمان ، فحيث الصليبيون يهددون مصر فى الغرب وقد استولوا على دميـاط ، كان المغول قد بداوا يطحنونهم من الشرق .

١٢٢٥ م — ٦٢٢ هـ — انشاء المدرسة الكاملية :

أصبح من حق الكامل ، وقد انتصر على الخطر الصليبى أن يفـرغ لشـئون مصر الداخلية ، وكان من أكبر ماتصف به الكامل هو شغفه بالعلم والعلماء ، وعلم هذا الزمان كان هو فى الدرجة الأولى علوم الدين ، ولذلك فقد أنشأ مدرسة لتكون خاصة بعلم الحديث : فبنى لها دارا عظيمة أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ومن بعدهم على فقهاء الشافعية .

١٢٢٧ م — ٦٢٤ هـ — وقوع الخلاف بين الكامل والظاهر :

فى هذه السنة تفاقم النزاع بين الملك الكامل وأخيـه الملك الظـاهر ملك دمشق ، فقطع الظاهر الخطبة عن أخيه الكامل ، واتصل بالسلطان جلال الدين بن الملك محمـد خوارزم شاه الذى خلف أباه على بلاد فارس وخراسان بعد موته ، وكان قد استعاد هذا الملك من التتار بعد عودة جنكيزخان الى بلاد الصين وطلب الملك الظاهر من جلال الدين أن يكون حليفا له ضد أخيه الكامل اذا حاول أن يتعرض له فى مقابل أن يخطب له على المنابر ويدعو له .

فاتصل السلطان الكامل من ناحيته بالامبراطور فردريك الثانى امبراطور المانيـا وايطاليا وصقلية عارضا عليـه نوعا من التحالف والتعـاون ، وترددت السفارات بين سلطان مصر وامبراطور ألمانيا وهما يتبادلان الهدايا .

وأوشك الاصطدام أن يقع بين الكامل والظاهر ، بكل ما يستتبع ذلك من تصـدع فى الجبهة الاسلامية ، لولا أن عاجلت المنية الملك الظاهر فتولى من بعده ابنه الملك الناصر داود ، فتم الاتفاق بينه وبين عمه على تسـوية حالت دون وقوع الصـدام فى أحـرج الأوقات .

١٢٢٧ م — ٦٢٤ هـ — وفاة جنكيزخان :

وفى هذه السنة توفى الملك جنكيزخان طاغية التتـار وملكهم الأول ، بعد أن خرب البلاد والعباد ، ولم يكن للتتار ذكر من قبله ومن عجب أن جنكيزخان لم يكن مجـرد

سفاح ، بقدر ما كان رجل دولة ، فقد كان هو الذى وضع دستور الحكم للمغول والذى اطلق عليه اسم الياساق ، وهو باللغة المغولية سى يسا ، والتى تحولت الى كلمة سياسية .

١٢٢٨ م — ٦٢٥ هـ — الحرب الصليبية السادسة :

لم يكن للبابوات عمل فى هذه الحقبة من التاريخ الا ازكاء روح الحرب الصليبية كلما خبت ، فلا تكاد احدى الحملات تبوء بالفشل ، حتى يتربص البابوات بعض الوقت ريثما ينسى الملوك والشعوب حديث فشلها ويدعون الى القيام بحملة جديدة .

ولكن كان من المحقق أن روح الحماس الدينى الطاغى الذى صاحب قيام الحرب الصليبية قد انتهى ، وحل محلها جشع مادى استعمارى ، يدل على ذلك تحول الحملات الصليبية عن بيت المقدس الى مصر ، وقد أشرنا من قبل الى أن الملك المعظم أخ الملك الكامل قد خرب أسوار مدينة القدس ، فأصبحت مدينة مفتوحة ، ومع ذلك فلم يتقدم جيش صليبى لاحتلالها .

وبدأ البابا يستحث فردريك الثانى امبراطور ألمانيا على أن يقوم بحملة صليبية جديدة يسترد بها بيت المقدس ، وخاصة بعد أن أصبح فردريك وارثا للملكة ايزابيلا التى كانت تعتبر الملكة الاسمية لمملكة القدس .

ومع شديد رغبة فردريك الثانى من أن يسترد بيت المقدس لما فى ذلك من تدعيم لسلطانه وهيبته ، فان السفارات التى كان يبعث بها السلطان الكامل اليه ، قد جعلته يؤثر أن يحصل بالدبلوماسية على ما لم تحصل عليه الحملات الصليبية السابقة بالقوة فتقاعس عن تجهيز حملة عسكرية مما أحنق البابا عليه فأصدر ضده قرار حرمان ومن عجب أن فردريك الثانى قد استطاع أن يسترد للصليبيين بيت المقدس دون أن تراق نقطة دم واحدة .

الكامل وفردريك :

ولن نستطيع أن ندرك كيف تم ذلك الا اذا استحضرنا شخصية هذين الرجلين الكامل وفردريك الثانى وكيف كان كل منهما يمثل شخصية الحاكم الادارى — المثقف الذى يعنى بالاصلاح ونشر العلم . وانشاء المدارس والمعاهد ويؤمن بحرية الفكر والتسامح الدينى بأكثر من ايمانه بالحرب .

ويقول لنا كانتوروفتر مؤرخ فردريك الثانى واصفا السلطان الكامل ، كان الملك الكامل صورة شرقية من الامبراطور ، ان لم يكن أقرب الى الصحة أن نقول ان الامبراطور فردريك كان صورة غربية من السلطان الكامل .

وكان الامبراطور فردريك باعتباره ملكا لجزيرة صقلية ، أصبح امينا على تراث الجزيرة الاسلامى الذى احتفظ به ملوك النورمان .

وكان كأسلافه يجيد اللغة العربية ، ويكرم علمــاء المسلمين ، وكانت لديه فرق اسلامية أنشأ لأفرادها جامعا يؤدون فيه صلواتهم . ضاربا بذلك مثلا أعلى فى التسامح ولكن ذلك كله كان ســابقا لأوانه فى أوربا التى كانت غارقة حتى أذناها فى التعصب الدينى .

ولكن هذه الأخبار التى كان ينقلها سفراء الكامل بعد عودتهم من سفاراتهم لدى فردريك الثانى ، كان لها أثرها فى نفس السلطان الكامل ، حتى لقد عرض عليه على يد الأمير فخر الدين ، وهو يفاوضه ليكسب صداقته ويحقن الدماء ويتخذ منه حليفــا يعاونه فى منازعاته ضد أخيه أن يعطيه بيت المقدس صلحا على أن يظل المسجد الأقصى بيد المسلمين تقوم به الشعائر الاسلامية .

وجاء فردريك الثانى الى مدينــة عكا فيمــا أطلق عليــه اسم الحمــلة الصليبية السادسة ، ولكن فردريك الثانى لم يصطحب معه سوى ستمائة فارس ، مما يدل على أن الأمر قد سوى بينه وبين السلطان الكامل بالفعل . وتم توقيع معاهدة بين الرجلين على الشروط التالية :

— يسلم بيت المقدس للامبراطور باعتبارها قد آلت اليه بحكم الوراثة باعتباره ملك بيت المقدس ، شريطة أن لا يقيم الصليبيون بها حصونا أو قلاعا وأن تكون مدينـــة منزوعة السلاح ، وتبقى منطقة المسجد الأقصى بيد المسلمين يمارسون شعائرهم الدينية بالمسجد شريطة أن لا يحملوا سلاحا .

— يأخذ الامبراطور مدن بيت لحم والناصرة وطريق الحج من بيت المقدس حتى يافا على الساحل .

— يطلق السلطان الكامل من بيده من اسرى المسيحيين .

— يتعهد فردريك الثانى بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتى لو كانوا مسيحيين صليبيين .

— يضمن الامبراطور عدم وصول امدادات صليبية الى الامارتين الصليبيتين الأخريين انطاكية وطرابلس .

— تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات .

١٢٢٩ م — ٦٢٦ هـ — دخول فردريك الى القدس :

فى الثامن من ربيع الأول من هذه السنة نودى فى مدينة القدس بخروج المسلمين من المدينة (ما عدا منطقة المسجد الاقصى) وتسليمها للافرنج . يقــول المقــريزى فى الخطط : فكان أمرا مهولا من شدة البكاء والصريخ ، وخرجــوا بأجمعهم فساروا الى مخيم الكامل واذنوا على بابه فى غير موعد الأذان ، فزجرهم الكامل واشتد عليهم .

وعظم الأمر على المسلمين وكثر الانكار على الكامل وشنعت المقالة فيه .

وكانت هذه فرصة الملك الناصر ملك داود للتشنيع على عمه فاستغل الحادث اكبر استغلال ، وحرض المؤرخ الشهير والواعظ الكبير الشيخ سبط بن الجوزى على استنكار تصرف الكامل ، فخطب فى المسجد الأموى فى فضائل بيت المقدس وراح يعدد ما حل بالمسلمين من المصائب بسبب تسليم المدينة المقدسة للصليبيين ، فارتفع بكاء الناس وعلا الضجيج .

ولم يكن الحال فى الجانب الآخر ، جانب فردريك والعالم المسيحى بأحسن حالا من موقف الكامل — فقد غضب البابا على فردريك الثانى بسبب هذه المعاهدة ، وأصدر قرار حرمان على مدينة القدس نفسها حتى لا يصل اليها مسيحى . ولذلك فعندما دخلها فردريك الثانى لم يجد قسيسا واحدا يقبل أن يتوجه ملكا على بيت المقدس ، فاضطر أن يضع التاج بنفسه على رأسه .

وكان المؤنسون الوحيدون للملك فردريك هم سفراء المسلمين الذين عينهم الملك الكامل لمصاحبة فردريك فى المدينة والسهر على راحته .

وتفيض كتب التاريخ فى تفاصيل هذه الراحة والتى وصلت الى حد أن طلب من المسلمين فى بيت المقدس أن لا يؤذنوا للصلوات حتى لا يعكروا مزاج الامبراطور ، فلما علم الامبراطور بذلك أظهر أسفه ، وقال انه كان من أكبر امانيه أن يسمع اذان المسلمين فى المسجد الأقصى .

دفاع عن الكامل :

ومرة اخرى وجد الكامل من يدافع عن تصرفه بسبب الخطر المغولى فقد اتجهت الدبلوماسية الصليبية كلها ، وتلخصت جهود بابا روما فى عمل اتصال مع المغول لوضع خطة موحدة للهجوم على العالم الاسلامى وسحقه من المغول من الشرق والصليبيين من الغرب .. فأفسد السلطان الكامل هذه السياسة بتصالحه مع الصليبيين .

الملك الكامل يستولى على دمشق :

هيأت المعاهدة مع الصليبيين ، لكى يتفرغ لتصفية الخلافات الداخلية على السلطان فزحف على دمشق وكان أخوه الملك الأشرف يحاصرها ، فاستولى عليها وسلمها الى اخيه الملك الاشرف ليكون نائبه عليها وأخرج منها ابن اخيه الملك الناصر ، وأعطاه حصون الكرك والشوبك والقلعاء والسلط والأغوار على سبيل التعويض ، على أن هذه الحروب بين افراد الأسرة ، لم تنقطع طوال سنوات حكم الكامل ، فكان يبارح مصر من حين لآخر ليخوض حربا هنا أو هناك ، ضد هذا الأمير ، أو للاستيلاء على هذا الحصن الذى تمرد عليه .

١٢٣٠ م — ٦٢٨ هـ — معاودة التتار الهجوم ووفاة السلطان جلال الدين :

استأنف التتار فى هذه السنة زحفهم غربا للاستيلاء على دول المسلمين ، وكان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه الذى تصدى لمقاومتهم قد اضطربت أحواله ، وبدلا من أن يتحالف مع خليفة بغداد وسلطان مصر ، كان ينتهز فرصة سكوت التتار عنه ويغير على أرض الخليفة العباسى ، فينهب ويقتل ويسلب ، وقد اصطدم حول مدينة خلاط بالملك الأشرف أخ السلطان الكامل ، فلما استأنف المغول هجومهم الساحق ، عجز جلال الدين عن مواجهتهم وفر وحيدا الى احدى القرى الكردية ، فقتل بها وحيدا طريدا شريدا .

وهكذا لم يبق ما يحول بين المغول وبين الهجوم على العراق .

١٢٣١ م — ٦٢٩ هـ — الكامل يتوجه الى الموصل لمحاربة التتار :

لم يكد التتار يستولون على كل بلاد فارس بعد مصرع جلال الدين بن خوارزم شاه الا وبدأوا يطوقون الموصل والجزيرة ووهران فقتلوا وسلبوا ، فخرج السلطان الكامل من مصر لحربهم ، وانضم اليه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق وتداعى اليه ملوك الايوبيين وأمراؤهم ، وقصدوا الى ديار بكر ، ولكن التتار كانوا قد تراجعوا الى بلادهم قبل وصول السلطان الكامل ، وهكذا تأخر هذا الصدام الحتمى بين قوة التتار الزاحفة ، والقوة الوحيدة التى لا تزال قادرة على التصدى لهم ، قوة مصر .

على أن السلطان الكامل انتهز فرصة وجوده فى هذه النواحى ، فانتزع مدينة آمد وما حولها من صاحبها الملك مسعود لاساءته السيرة فى حكمه ، ومنحه اقطاعا فى مصر تعويضا له .

وجعل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ملكا على آمد وما حولها ليقف فى وجه التتار اذا حدثتهم أنفسهم بالهجوم مرة ثانية .

١٢٣٤ م ٦٣٢ هـ — وفاة القاضى بهاء الدين بن شداد :

مات فى صفر من هذه السنة مؤلف أحد مراجعنا الرئيسية لتاريخ صلاح الدين ، وهو القاضى بهاء الدين بن شداد وكان قد بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة ، أى أنه عاش بعد موت صلاح الدين أربعين سنة ، وترجع أهمية كتبه كمصدر أساسى لتاريخ صلاح الدين أنه كان قاضى عسكر صلاح الدين ، فصحبه بهذه الصفة فى كل معاركه .

١٢٣٧ م – ٦٣٥ هـ – وفاة الكامل فى دمشق :

فى الحادى والعشرين من شهر رجب من هذه السنة مات الملك الكامل فى مدينة دمشق ، وكان قد خرج اليها بعد وفاة أخيه الملك الأشرف ليسلمها لمن يشاء من الامراء فتعرض له عمه الصالح اسماعيل ، ولكنه سرعان ما هزم ، وتسلم السلطان الكامل المدينة ، ولكنه لم يكد يستقر بها حتى مرض ثم لم يلبث أن مات ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . ملك مصر منها أربعين سنة ، منها عشرين سنة فى حياة أبيه ، وعشرين سنة بعد وفاة أبيه ، فأشبه ذلك على ما يقول ابو الفدا موقف معاوية بن أبى سفيان من حكم الشام ، حيث كان نائبا عليها عشرين سنة ، ثم خليفة عشرين سنة أخرى .

يقول ابن خلكان : واتسعت مملكة السلطان الكامل ، وقد حكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة انه لما وصل الخطيب الى الدعاء للسلطان الكامل قال : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل ابو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين .

ويقول عنه المقريزى : كان ملكا مهابا حازما سديد الرأى حسن التدبير عفيفا عن الدماء . وكان يباشر أمور مملكته بنفسه من غير اعتماد على وزير أو غيره ، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين بن شكر أحدا ، وانما كان يندب من يختاره لتدبير الأشغال وقد عمرت أرض مصر على أيامه عمارة جيدة ، وكان يخرج من زكاة الاموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ويعين مصرف ذلك لمستحقيه ويعزز منه معالم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم يجتمعون عنده للمناظرة .

ومن أعماله انه اقام على كل الطرق خفراء لحفظ المسافرين .

البهاء زهير :

وفى عهد السلطان الكامل نبغ فى مصر الشاعر الكبير البهاء زهير والذى لا يلبث أن يصبح من اكبر رجالات الدولة فى عهد ابن الصالح نجم الدين أيوب .

سلطنة الملك العادل ابو بكر على مصر :

لما مات السلطان الكامل بدمشق كان ابنه العادل نائبا على مصر فاتفق الإمراء على تولية العادل أبى بكر ليكون سلطانا على مصر وأقاموا الجواد يونس ابن عمه ، نائبا عن السلطنة فى دمشق . على أن يبقى اخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق كما هو .

وكان عمر العادل لا يتجاوز يوم ولى السلطنة ثمانية عشر عاما فى الوقت الذى كان فيه اخوه الصالح نجم الدين أيوب يكبره فى العمر ، فلما وصل اليه النبأ لم يرض به ، وسعى لأن يكون هو السلطان .

١٢٣٩ م – ٦٣٧ هـ – سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر :

لم يستطع الملك الصالح أيوب أن يحقق ارادته فى أن يكون سلطان مصر عندما أعلن رغبته فى ذلك ، بل لقد تنكب به حظه ، حتى أوشك أن يفقد حياته ، ثم اعتقله الملك الناصر داود فى حصن الكرك .. ولكن المقادير لم تلبث أن هيأت له السبيل لتحقيق هدفه ، فدخل الى مصر يوم الاثنين ٢٥ من ذى الحجة ، وخلع أخاه العادل واعتقله وحمل بقية الأمراء وقادة الجند على مبايعته سلطانا ، وهكذا لم تزد مدة سلطنة أخيه على عام واحد وشهرين وبضعة أيام .

١٢٤٠ م – ٦٣٨ هـ – انشاء قلعة الروضة ونظام المماليك :

بوصول السلطان الصالح نجم الدين ايوب الى الحكم فى مصر ، كان الخلاف والتنافس بين أمراء الأسرة الأيوبية قد وصل ذروته ، وبدأ يعمل عمله فى انحلال هذه الأسرة . ولذلك فقد فكر الصالح نجم الدين أيوب أن يتخذ لنفسه جندا من نوع جديد عليهم ويكونوا محل ثقته ، ليحلوا محل الاكراد والعناصر التى قامت عليها الدولة الأيوبية .

فأقدم على شراء المماليك من الترك وبعض القبائل المغولية ، ممن كانوا يسمون فى ذلك الوقت (الخطائية) نسبة الى مملكة الخطا .

واتخذ من هؤلاء المماليك جندا وأمراء بعد عتقهم . وابتنى لهم قلعة خاصة بهم فى جزيرة الروضة . وكانت جزيرة الروضة قبل ذلك بستانا ومنتزها للملوك ، فحولها الى دار حكم وأقام بها بعد أن انتقل من قلعة الجبل .

وسرعان ما تحولت قلعة الروضة – على ما يقول المقريزى – الى مدينة صغيرة أقيمت فيها الدور والقصور ، وكان يحيط بها ستون برجا .

وكانت عدة المماليك الذين بدأ بهم الصالح جيشه الخاص ، ألف مملوك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية ، وذلك بسبب أنهم أصبحوا يسكنون فى جزيرة وسط النيل ، ولكن الدكتور جمال الدين الشيال يعترض على أن يكون هذا هو الأصل فى التسمية ، وعنده انهم انما سموا كذلك لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر ، ولكن الرأى الأول هو الأشهر والمتعارف عليه ، وفى أمور التاريخ يصبح الأشهر هو المعول عليه .

وكان الصالح نجم الدين يشترى الأرقاء المجلوبين من وراء النهر (سيجون وجيحون) من العناصر التركية ، ويتعهدون بالتربية الدينية والعسكرية من نعومة أظافرهم فمن يبدى منهم استعدادا ونباهة يحرره سيده ويعهد اليه بوظيفة من

وظائف الحاشية ، وكلما أبدى استعدادا للتقدم والتطور ، رفع سيده مكانته الى مقدم عشرة اى أن يتبعه عشرة جنود ثم مقدم مائة اى يكون فى خدمته مائة جندى ، وفى هذه الحالة يقود مثل هذا الأمير الف جندى فى حالة الحرب .

وهذا الأمير الجديد ، يشرع بدوره فى تكوين أتباعه الخاصين به فيشترى الرقيق من ماله ، ويتبع معهم نفس الأسلوب الذى اتبع معه .

واصبح قدر اى أمير من أمراء المماليك يقاس بقوته وشجاعته الشخصية ومدى ما يملكه من أتباع يحرسونه بعناية ويذودون عنه .

وبدأت قوة هؤلاء المماليك ، من انهم يتربون من صغرهم ، وهم لا يعرفون ولاء الا لأسيادهم وزملائهم ، ولا عمـل لهم الا التدريب على الحـرب وحمل السـلاح والقتل والفتك .

ولن يلبثوا وهذا شأنهم أن يتحولوا الى القـوة الحاكمة الحقيقية فى البلاد كما حدث دائما فى التاريخ على ما فصلناه فيما سبق وآخر ما مر بنا من ذلك فى العهـد العباسى عندما شرع المعتصم فى تكوين جيش منهم .

الأيوبيون فى الشام يخرجون عن الطاعة ويستعينون بالصليبيين :

رفض أمراء الأيوبية فى الشام أن يكون للصالح نجم الدين أيوب سلطان عليهم . وكان على دمشق الملك الصالح ، فاتفق مع الناصر داود صاحب الكرك أن يكونوا حلفا ضد نجم الدين ، واتصلوا بالصليبيين وتحالفوا معهم ضد الصالح أيوب ، فى مقابل أن ينزلوا للصليبيين عن مدينتى العسقلان وطبرية ، فاستولى عليهما الصليبيون ، واعادوا تعمير قلعتيهما كما سلموا اليهم كذلك منطقـة المسجد الأقصى ، التى كان مقررا بموجب المعاهدة مع الكامل أن تظل للمسلمين .

ويحدثنا ابن واصل ، انه مر بالقـدس فى ذلك الوقت متوجها الى مصر فرأى القساوسة وقد وضعوا على الصخرة زجاجات الخمر على سبيل القربان .. وقد علا نجم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء فى هذه الفترة ، حيث أنكر على ملك دمشق الصالح اسماعيل تحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين فقبض عليه واعتقل ولكن ذلك لم يجعله يغير موقفه .

١٢٤٤ م ـ ٦٤٢ هـ : الصالح نجم الدين يدحر الصليبيين ويسترد بيت المقدس :

تصدى السلطان الصالح أيوب لهذا الحلف غير المقدس بين الأمراء من آل أيوب والصليبيين .

وكان السلطان الصالح منذ اقامته فى الشرق فى مدينة آمد وحصن كيفا ، قد استمال قلوب الجنود الخوارزمية الذين فروا من وجه التتار بعد مقتل ملكهم جلال

الدين الخوارزمى ، وحبب اليهم ان يعملوا معه ولحسابه ، وظلت هذه الصلة قائمة بينه وبينهم بعد وصوله الى عرش مصر ، فما ان خرج أمراء الشام عن طاعته ، وتحالفوا مع الصليبيين ارسل الصالح أيوب الى جيش الخوارزمية أن يزحفوا على الشام فى الوقت الذى بعث من مصر بقوة يرأسها ركن الدين بيبرس البندقدارى (وهو غير الظاهر بيبرس) .

وكان الصليبيون من ناحيتهم قد تجمعوا تحت زعامة ملك النافار ودوق برجندى وكونت سيمون دى منتفرات ، يشد أزرهم أمير دمشق وأمير حمص .

معركة غزة او حطين الصغرى :

وعند مدينة غزة تم اللقاء بين القوى الصليبية ومحالفيها من أمراء المسلمين وبين جيش الصالح أيوب ، فهزم الصليبيون ومحالفوهم من أمراء المسلمين هزيمة منكرة ، وأذا كان الأمراء من الصليبيين وحلفائهم المسلمين نجوا بأنفسهم ، فان الجنود الصليبيين قد وقعوا جميعا قتلى أو أسرى بحيث أطلق على هذه المعركة اسم حطين الصغرى .. وقد استولى جيش الملك الصالح أيوب على اثرها على مدينة غزة والساحل ، ومدينة القدس وأرسلت البشارة بالفتح فى الخامس عشر من جمادى الأول (٦٤٢ هـ) فأمر بتزيين القاهرة وقلعتى الجبل والروضة ، وبالغ المصريون فى الزينة .

ثم جاءت رؤوس القتلى وجماعات الأسرى لتزيد الى بهجة الاحتفال .

١٢٤٥ م — ٦٤٣ هـ : استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق :

ولم يكن من الطبيعى ان تبقى دمشق بعد الذى حدث من تعاون الصالح اسماعيل مع الصليبيين وهزيمته معهم ، تحت سلطانه فقد دخلت عساكر الملك الصالح أيوب تحت قيادة معين الدين بن الشيخ وتسلمها من يد الصالح اسماعيل الذى كان محصورا بها مع الأمير ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص . بعد أن تم الاتفاق على أن يسلما بدل بلديهما بلادا أخرى .

القضاء على الخوارزمية :

تصور الخوارزمية بعد أن أسهموا فى الحصول على النصر ضد الصليبيين والأمراء الخوارج والاستيلاء على دمشق ، أن أراضى الدولة ستقسم عليهم ، فلما لم يتحقق ذلك ، أعلنوا ثورتهم وتمردهم على الصالح أيوب ، وأعلنوا عزمهم على الاستيلاء على البلاد لحسابهم .

فأدى هذا الخطر الى عودة التعاون والاتحاد بين أمراء البيت الأيوبى فوقفوا صفا واحدا ضد الخوارزمية واستطاعوا أن يدحروهم وأن يبددوا شملهم ، فقتل منهم من قتل وفر الى الشرق من فر ليعمل فى خدمة التتار ، بينما تفرق عدد منهم على شكل أفراد ، توزعوا فى أنحاء البلاد وعاشوا مع الناس وذابوا فيهم .

١٢٤٨ م ـ ٦٤٦ هـ ـ الحملة الصليبية السابعة :

أحدث سقوط مدينة القدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين رد فعل فى أوروبا ، لا يقل عن رد فعل سقوطها المرة الأولى بيد صلاح الدين ومن جديد دعا البابا انوسنت الرابع الى حرب صليبية جديدة .

وجمع مجلسا روحيا فى مدينـة ليون عام ١٢٤٥ م تقـرر فيه ان يؤلف لويس التاسع ملك فرنسا ، حملة سابعة لتخليص القدس .

الملك القديس :

وقد كان الملك لويس التاسع مخلصا لدينه متقشفا متواضعا ، يخالط الفقراء ويعطف عليهم ، وكان محبوبا من رعيته وسائر المسيحيين .

وعندما شرع فى تجهيز الحمـلة الجـديدة ، أقام مهرجانا دينيـا كبيرا فى دير سان دنيس ، اشترك فيه الألوف من الفرســان والعـامة ورجال الدين وفى هذا المهرجان تسلم لويس علم الدير المقـدس ، ثم ارتدى ملابس الحجاج السـوداء ، فاقتدى به سائر فرسان الحملة ومشاتها .

وأبحر لويس التاسع من مياه فرنسا على رأس أسطول ضخـم يقولون ان عدة سفنه بلغت ١٨٠٠ سـفينة تحمـل ثمانين الف مقـاتل ومعهـم عدتهم ومؤونتهم وخيولهم .

مصر هدف الحملة :

وكانت مصر هذه المرة هى هدف الحملة ، بعد أن زاد اقتناع أوروبا الصليبية أن لا سـبيل للاستيلاء على بيت المقـدس الا بعـد هزيمة مصر أولا أو هكذا كانوا يقولون ، ولكن الحقيقة ، أن الأطماع المادية هى التى أصبحت تسير الحملات الصليبية لا المبـادىء الروحية ، فقـد أصبح غنى مصر وثروتها هو المطمع وليس فلسطين الفقيرة ، بما فيها القدس . ووصلت الحملة فى هذه السنة الى جزيرة قبرص قاعدة الهجوم على مصر لتمضية أشهر الشتاء بها .

فكان ذلك على ما يقول المؤرخون أول أخطاء هذه الحملة ، فلو أنها بادرت الى دمياط لاتيح لها أن تفاجىء الجيش المصرى قبل ان يستعد ، ولكن الحوادث ستكشف أن مصر لم تستفد من هذا التأخير .

لويس التاسع يدعو التتار للتعاون على القضاء على المسلمين :

استغل لويس التاسع اقامته فى جزيرة قبرص لكى يدخل فى مفاوضات مع المغول فى الشرق لكى يهاجموا المسلمين من الشرق فى نفس الوقت الذى سيهاجمهم فيه الصليبيون من الغرب ، وقد تضمن كتاب الدكتور نظير سعداوى « الحرب والسلام

زمن العدوان الصليبى » تفاصيل السفارات المختلفة التى تبودلت بين لويس التاسع والتتار ، ولكن ارادة الله شاءت أن لا تصل هذه المباحثات الى اتفاق .

الصالح ايوب يعود الى مصر من الشام :

تلقى السلطان الصالح نجم الدين أيوب نبأ توجه الحملة الصليبية الجديدة قبل وصولها ، اذ أنبأه بها الامبراطور فردريك الثانى طبقـا للمعاهدة المبرمة بينه وبين السلطان الكامل والد الصالح أيوب وكان السلطان الصالح نجم الدين فى الشام عندما تلقى هذا الخبر ، وكان مريضا بمرض خطير يعوقه عن ركوب فرسه . فأمر ان يحمل فى محفه وعاد مسرعا الى مصر ، ونزل عند قرية اشموم طناح .

وبدأ يتخذ الاستعدادات العسكرية لملاقاة الصليبيين ، فأصدر أوامره أن تشحن دمياط بالأسلحة والجنود ومواد التموين التى تمكنها من الصبر على حصار طويل . كما ارسل قائد الجيش الأمير فخر الدين على رأس جيش كبير ليعسكر على الشاطىء الغربى للنيل ليحول بين الصليبيين وبين النزول الى البر .

١٢٤٩ م — ٦٤٧ هـ — وصول الفرنسيين الى مصر واستيلائهم على دمياط :

على الرغم من استعداد المصريين الكامل لملاقاة الصليبيين فقد نزل الصليبيون الى البر ، وأن كانوا نزلوا فى مكان يقع الى الغرب من موقع الجيش المصرى . ثم وقعت بعض المناوشات بين طلائع الجيشين ، دون أن يقع اصطدام على نطاق واسع . وحدث أن الأمير فخر الدين على ما تقول بعض الروايات أطلق الحمام الزاجل الى السـلطان الصـالح نجـم الدين ليبلغه بنزول الصليبيين الى البر وحـدوث بعض المناوشات ، ولكنه لم يتلق ردا على رسائله ، ولما كان فخر الدين يعلم بمرض السلطان فقد تصور أن لا بد أن يكون السلطان قد مات . ولذلك فقد انتظر حتى وافى الليل ، فانسحب بجيشه من الشاطىء الغـربى الى الشاطىء الشرقى ، وأعمته اللهفة على اتمـام الانسحاب فلم يدمر الجسر الواصل بين شاطئى النيل ، فتركه قائما وأسرع يغذ السير جنوبا تاركا دمياط وراءه .

وكان لهذا الانسحاب غير المتوقع أثره النفسى فى حامية دمياط نفسها فتخلوا عن الدفاع عن المدينة وتركوا مواقعهم ، وأسرعوا بدورهم يفرون فلم يبق أمام الأهالى وقد رأوا تخلى الجيش عنهم الا ان يفروا بدورهم مذعورين هالعين ، تاركين بيوتهم وأموالهم وأسلحتهم ومدينتهم .

وفوجىء الصليبيون عندما أصبح الصبـاح بالطريق المفتوح أمامهم الى دمياط وتصوروا أن فى الأمر خـدعة ، فتريثوا بضع ساعات ، حتى استبان لهم حقيقـة الموقف ، فعبروا الجسر المقام على النيل ، ودخلوا الى دمياط المفتوحة الأبواب ، وأذهلهم ما عثروا عليه فى المدينة من ثروات وأسلحة واغذية ، وكل ما يحتاجون اليه

لفتح مصر ، واعتبروا أن ذلك كله نصر من الله وتوفيق اذ سلمهم المدينة التى أشقت اسلافهم ستة عشر شهراً ، فى يوم واحد وبدون أن يضربوا ضربة واحدة .

ونستطيع أن نتصور غضب السلطان الصالح أيوب على فخر الدين قائد جيشه وعلى قواد حامية دمياط الذين تخلوا عن واجبهم المقدس فى الدفاع عن المدينة ، حتى قيل أنه شنق خمسين من هؤلاء القادة ولم ينقذ فخر الدين من هذا المصير الا قوة نفوذه وحروجة الموقف وحاجة الصالح اليه .

لويس التاسع يفقد فرصته :

ومرة أخرى يقول المؤرخون ان لويس التاسع قد فقد فرصته الذهبية فى الحصول على النصر ، فلو أنه بمجرد سقوط دمياط تابع زحفه لاستغل الحالة السيئة التى سادت الجيش المصرى وهو يتراجع بغير انتظام والسلطان يشنق قادته ، والشعب فى حالة فزع لسقوط دمياط .

ولكن مفاجأة الاستيلاء على دمياط بهذه السهولة اذهلت الصليبيين انفسهم وشغلتهم عن كل شىء الا التمتع بالكنز الذى حصلوا عليه فى سهولة ، فضلا عن أن الريح كانت قد فصلت سبعمائة سفينة من اسطول لويس التاسع ، فلم تصل مع بقية الأسطول وقرر لويس أن لا يتقدم حتى تصل هذه السفن ، فلما أن وصلت متأخرة بضعة شهور بدأ من جديد الزحف .

والأجماع بين المؤرخين ، على أن الفرنسيين لم يستفيدوا شيئا من حملتهم الصليبية السابقة والتى فشلت فشلا ذريعا ، وذلك فى الوقت الذى كان المصريون قد تعلموا منها كل شىء ، ففى الوقت الذى كرر فيه الفرنسيون كل اخطائهم الماضية ، كان المصريون يستغلون العوامل التى أدت الى انتصارهم فى المرة السابقة . ولذلك فلم يكد لويس التاسع يبدأ فى زحفه ، حتى تراجع السلطان الصالح بجيشه الى مدينة المنصورة ، حيث جرت الموقعة الأولى التى انتهت بالنصر .

موت الصالح نجم الدين أيوب :

فى ليلة الاثنين وكانت ليلة النصف من شهر شعبان من هذه السنة ٦٤٧ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ م) مات السلطان نجم الدين أيوب .

وكان موته فى هذه الظروف يؤلب ضربة ساحقة للمصريين والمسلمين وقد رأينا كيف سقطت دمياط بدون قتال لمجرد الوهم بأنه مات ، فكيف وقد مات حقا ، ولكن هنا حدثت معجزة من معجزات التاريخ . ولم تكن هذه المعجزة الا شجرة الدر زوجة الصالح أيوب ، والتى قررت بحكمتها عدم اعلان وفاة السلطان على الجيش والبلاد فى حالة المعركة ولما كانت هى الوحيدة التى تمت الوفاة بحضرتها ، فقد تكتمت الخبر ولم تعلنه ، وامرت بأن يحمل فى محفة سرا ، ويوضع فى احدى السفن فتسير به الى قلعة الروضة . وعهدت الى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش ، وكان كل الذى أصبح يملك عليه حياته هو أن يكفر عن خطئه الذى ادى الى ضياع دمياط .

ورتبت الأطباء بحيث يدخلون كالعادة الى حجرة السلطان وكأنهم يعودونه ، كما كانت الأوامر الرسمية تدخل الى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بتوقيع السلطان وعلامته ، وكانت شجرة الدر قد حذقت تقليد الخط والعلامة وان كانت هناك روايات اخرى تقول أن الذى كان يقلد الخط هو خادم يسمى سهيل .

وارسلت شجرة الدر رسلها الى الملك المعظم توران شاه ابن السلطان نجم الدين أيوب ، وكان مقيما فى حصن كيفا (بالموصل) تستدعيه الى مصر ليجلس على عرش ابيه ويقود المعركة .

بهذا الأسلوب الحكيم الملهم ، حالت شجرة الدر دون تدهور الموقف وحفظت للجيش وقيادته سلامته ووحدته وتماسكه وروحه المعنوية بوجود سلطانه على راسه .

وكان عمر السلطان الصالح نجم الدين عندما مات اربعا واربعين سنة وكانت مدة سلطنته على مصر تسع سنين وسبعة اشهر وعشرين يوما . ولم يكن له عقب يخلفه سوى ابنه توران شاه .

ويصور المؤرخون صورة قاتمة للملك الصالح من حيث بطشه وجبروته وان معظم الناس لم يحزن عند سماع نبأ موته .

ويعلق ابو المحاسن على اقوال المؤرخين بهذا الصدد بالعبارات التالية التى نوافق عليها .

وعندى انه من أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم رأيا وتدبيرا ومهابة وشجاعة وسؤددا بعد صلاح الدين ولو لم يكن من محاسنه الا تجلده على مقابلة العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة المذكورة وموته على الجهاد والذب عن المسلمين ــ الله يرحمه ــ ما كان أصبره وأغزر مروءته .

رثاء البهاء زهير :

وكان من حظ الصالح أيوب أن يحفظ لنا تاريخ الأدب مرثية البهاء زهير الرائعة له والتى جاء فيها .

ولقد سعيت الى العلا بعزيمة ... فقضى لسعيى انه لا يحقق
وسريت فى ليل كان نجومه ... من فرط غيرتها الى تحدق
حتى وصلت سرادق الملك الذى ... تقف الملوك ببابه تسترزق
ووقفت من ملك الزمان بموقف ... الفيت قلب الدهر فيه يخفق
فاليك يانجم السماء فاننى ... قد لاح نجم الدين لى متألق
الصالح الملك الذى لزمانه ... حسن يتيه به الزمان ورونق
ملك تحدث عن أبيه وجده ... نسب لعمرى فى العلا لا يلحق
سجدت له حتى العيون مهابة ... أو ماتراها حين يقبل تطرق

كوبرى الملك الصالح :

ولا يزال سكان القاهرة حتى فى عصرنا الحديث يعبرون جسر الملك الصالح الذى كان هو أول من أنشأه ليربط جزيرة الروضة بالفسطاط آية على أن الرجال الكبار لابد وأن يظل اسمهم يتردد عبر السنين والقرون ويجرى على كل الألسنة .

١٢٥٠ م / ٦٤٨ هـ ـ هزيمة الصليبيين الساحقة :

تسرب نبأ وفاة الملك الصالح الى الصليبيين فوجدوا فى ذلك فرصتهم لاستئناف زحفهم نحو الجنوب ، ناسين أن جيش المماليك وجموع الشعب قد أصبحت تقف لهم بالمرصاد . فراحوا ـ يناوشونهم ويتخطفونهم .

وكان الجيش المصرى فى هذه الحقبة من التاريخ قد أصبح يحذق استعمال النار الاغريقية التى طالما صلى بحرها والتى رأينا كيف كان لها الفضل فى دحر الأساطيل الاسلامية .

وبدأ الصليبيون يتجرعون حر هذه النار ولهيبها .

وقد ترك لنا مؤرخ فرنسى وهو أحد الأمراء الصليبيين الذى كان يصاحب الملك لويس باعتباره أمير بلاطه وكبير أمنائه وهو جوانفيل ، وصفا لأثر هذه النار فى صفوف الفرنسيين ، وكأنه يصف غارة جوية فى عصرنا الحديث فيقول :

وكانت النار ترسل فى انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأنه فى وضح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليـلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات وكان الملك القديس ، كلما سمع أن النار الأغريقية قد صوبت نحونا ، انتصب واقفـا على سريره ورفع يديه الى السماء وبدأ فى الصـلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول : أيها الآله الطيب أحفظ لى شعبى .

وقد خاض الفرنسيون بعض المعارك التى انتصروا فيها ، والتى قتلوا فى احداها قائد الجيش الأمير فخر الدين ، وكان حتفهم فى هذا النصر اذ أن القائد الفرنسى المنتصر وهو الكونت أرتوا قد هزه النصر فاندفع الى مدينة المنصـورة قبل أن يدركه باقى الجيش ، وسار داخل شوارعها حتى وصل الى مقر الملك ، حيث كان المملوك ركن الدين بيبرس (الظاهر) يقف لحراسته فاستطاع أن يصد هجمة الفرنسيين وأن يتحول من الدفاع الى الهجوم فيطاردهم فى شوارع المدينة التى كان الأهالى قد سـدوها فى وجههم بالمتاريس فاشتبك فرسان المماليك مع فرسان الفرنسيين ، بينما كان أهالى المدينة يلقون من النوافذ والاسطحة الحجارة على الفرنسيين ، فلم ينته النهـار الا وفرقة الفرسان التى اقتحمت المدينة قد أبيدت عن بكرة أبيها بما فى ذلك قائدها نفسه الكونت أرتوا .

فكان لهـذه الهزيمة الساحقة اثرها البعيـد المدى فى نفس الملك لويس التاسع وجيش الصليبيين .

توران شاه يشرف على المعركة :

وفى هذه الأثناء كان توران شاه قد وصل الى مصر واستقر فى قصر الملك بالمنصورة يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذى القعدة .

وأشرف على توجيه المعركة ، فأعاد خطة جده الكامل فى ــ انزال أسطول مصرى شمال مواقع الفرنسيين لتقطع عليهم الامدادات وخط الرجعة .. واستطاع هـذا الأسطول ان يستولى على مراكب الصليبيين التى جاءت تحمل لهم المؤونة والمدد ، وكان عددها ٥٢ مركبا سقطت كلها فى يد المسلمين ، فأسقط فى يد الفرنسيين ، وقرروا التراجع الى دمياط حتى لا يضر بهم الحصار .

ولكن الجيش المتراجع لم يكد يصل الى مدينة فارسكور حتى لحقت به الجيوش المصرية وأحاطت به وأوقعت بالجيش الصليبى هزيمة لم يسبق لها مثيل ، حتى قيل ان عـدد من مات من فرسـان الجيش عشرة آلاف ، وان عـدد من أسر من باقى الجيش مائة الف . وقد يكون الرقم الأخير فيه شىء من المبالغة ولكن أهم من ذلك كله أن الملك لويس نفسه ومعه كل أمرائه وقواده وقساوسته قد وقعوا جميعا فى ذل الأسر وسيقوا الى مدينة المنصورة ، حيث أودع الملك لويس سجينا فى دار ابن لقمان التى لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، ووكل بحراسته الطواشى صبيح .

وقد حفظ لنا التاريخ وصفا دقيقا لوقائع هذا الحـدث العظيم اذ كتب الملك المعظم توران شاه لنائب السلطنة على دمشق جمال الدين بن يغمور رسالة يعلن فيها بشارة النصر ويصف ما حدث .

« الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عنـد الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وان تعدو نعمة الله لاتحصوها .

فبشر المجلس السامى الجمالى ، بل فبشر الاسـلام كافة بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين : فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاء ، والأهل والأولاد فنودوا « ولا تيأسوا من روح الله » الآية . ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة تم الله على الاسلام بركتها فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال وفرقنا السـلاح ، وجمعنا العربان المطوعة واجتمع خلق لا يحصيهم الا الله تعالى ، فجاء من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحيق . ولما رأى العدو ذلك ارسل يطلب الصلح على ماوقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل ابى بكر فأبينا ، ولما كان الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دميـاط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ، ويدخل عليهم الخزى والذل والويل ، فلما أصبحنا نهار الأربعـاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى بنفسه فى

اللجج ، وأما عن الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيون الى المينـة وطلب « ملكهم » الآمان فأمناه ، واخذناه واكرمناه ، وتسلمنا دمياط (١) بعونه وقوته وجلاله وعظمته » .

وقد خلد التاريخ قصيدة جمال الدين بن مطروح والتى أنشدها بمناسبة هـذا النصر وهى وأن كانت لا تعتبر من عيون الشعر الا أنها أصبحت تؤلف أحدى الوثائق التاريخية (٢) .

قـــل للفرنسيس اذاجئتـــه	مقـــال صدق عن قؤول نصيح
أجـــرك الله على ما جـــرى	من قبـل عبـاد يسـوع المسيح
اتيت مصـــر تبغى ملـــكا	تحسب ان الزمر ياطبـل ريح
فســـاقك الحى الى ادهـــم	ضاق به عندنا طريك المســـيح
وكل أصحـــابك أودعتهـــم	بحسن تدبيرك بطـن الضريـــح
خمســـون ألفـــا لا ترى منهم	الا قتيـــلا أو اسيرا أو جريـح
وفقـــك الله لأمثالهـــا	لعـــلى عيسى منـكم يستريـــح
ان كان بابـــكم بذاراضيـــا	فـــرب تحسن أثر من يصيح
وقل لهـــم أن ظهـروا عـودة	لأخذ ثأر أو لعقـــد صحيـــح
دار ابن لقمـــان على حالهـــا	والقيـــد باق والطواشى صبيح

مقتل الملك المعظم توران شاه :

ادار هذا النصر الكبير عقل توران شاه ، ففقد توازنه ، وبدلا من أن يحفظ لشجرة الدر جميلها اذ انقذت الموقف وحافظت له على العرش ، راح يهددها ويطالبها بما لديها من أموال أبيه ويتوعدها بأشر أنواع العقوبات .

وبدلا من أن يكرم مماليك أبيـه ، وعلى رأسـهم ركن الدين بيبرس الذين كان لبسالتهم أعظم الأثر فى تحويل معركة المنصورة من هزيمة الى نصر ، اذ به يهـددهم ويتوعدهم لغير سبب ، وكان اذا شرب وسكر راح يقطع بسيفه الشموع المضيئة من حـوله وهو يقول هكذا سوف أفعل بمماليك أبى ويروح يسمى أسماءهم وكان يفعل ذلك تحت تحريض حاشيته التى جاء بهـا معـه من حصن كيفا والتى كانت تعمـل بدورها على الاستئثار بالسلطة فى ظله وقد بادر فقلدهم أكبر الوظائف .

فأدى ذلك كله الى تآمر شجرة الدر والمماليك عليه ، فهجموا عليـه فى التاسـع والعشرين من شهر المحرم من هذه السنة (٦٤٨ هـ) وضربوه بسيوفهم وكان الضارب له بيبرس البندقدارى فلم تقتله الضربات وان كانت قطعت أصابعه ، وهرب منهم

(١) لسنا نعرف اذا كان هذا مزيدا من توران شاه ، أم من كاتب الرسالة فان دمياط لم يتم تسليمها الا بعد وفاة توران شاه .

(٢) اعتاد المؤلف فى شبابه ، كلما وقف ليخطب متحدثا عن تاريخ مصر وأمجادها أن يكرر هذه الابيات : حتى لقد حفظها عشرات الالوف من الشباب .

والتجا الى برج اقيم فى فارسكور ليحتفل فيه بالنصر ، فاضرموا فيه النار ، ففر بنفسه من البرج الى ماء النيل فطاردوه حتى غـرق ، ويقول المقـريزى .. وهكذا قتـلوه سيفا وحرقا وغرقا .

ولم تزد مدة حكمه على ثلاثة شهور .

وبقتل توران شاه على هذا الأسلوب ، كان طابع الدولة الجديدة التى لن تلبث أن تقـوم ونعنى بها دولة المماليك البحـرية يتقـرر ويتحـدد ، وهو أسلوب الفتك بالسلاطين ، واتخاذ الغدر وعمليات القتل كأساس ونظام متبع للوصول الى الملك ، وبعد الوصول اليه للاحتفاظ بالسلطان .

شجرة الدر تنقذ الموقف :

وكان يمكن أن يتحول مقتل توران شاه فى الظروف التى كانت تجتازها البلاد الى كارثة فلم يكن هناك وريث للعرش متفق عليه ، وكان يمكن أن يقع الخلاف بين امراء المماليك فيمن يكون جديرا بالسلطنة ، فتقع حرب أهلية يستفيد منها فلول الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يلوذون بمدينـة دميـاط ، وهنا برزت من جـديد شخصية شجرة الدر لانقاذ الموقف فقد كان لها فيما يبدو من التأثير والمهابة بين المماليك الى الحد الذى جعلهم يقدمون على خطوة لا سابقة لها فى الاسلام وهو أن يرفعوا الى مرتبة السلطنة امرأة تكون لها الولاية العامة على المسلمين جميعا رجالا ونساء ، وان كانوا قد اتفقوا فى نفس الوقت أن يكون عز الدين أيبك التركمانى مدبرا للمملكة معها .

سلطنة الملكة شجرة الدر ام خليل على مصر :

يقول عنها ابو المحاسن : هى الملكة شجرة الدر بنت عبـد الله جارية السـلطان الصالح نجم الدين الذى اعتقها وتزوجها فانجبت له ولدا اسمه خليل ، وهى من أصل تركى ، وكان الصالح يحبها حبا شديدا ، وكانت فى صحبته وهو ببلاد المشرق فى حياة أبيه ، ثم سارت معه لـما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وقاست معه الاهوال والمحن ، ثم قدمت معه مصر لـما تسلطن ، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفى صغيرا .

وكان اليها لفرط عظمتها غالب تدبير الديار المصرية فى حياة سيدها الملك الصالح وفى مرضه وبعد موته وهى تدبر الأمور على أكمل وجه . ويضيف الصفدى فى أوصافها أنها كانت بديعة الجمال .

وهكذا بويعت شجرة الدر وخطب لها على المنابر ، وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة : واللهم احفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمة صاحبة السلطان الملك الصالح . ونقش اسمها على النقود ، وكانت صيغة النقش على النقود : المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل .

وقد استهلت سلطانها بمكافأة أمراء المماليك البحرية فخلعت عليهم الخلع السنية ووزعت عليهم الأموال الوفيرة ، وهكذا استقر بها الحال واستطاعت أن تخطو الخطوة العظيمة التالية .

استعادة دمياط واجلاء الفرنسيين عن مصر :

واستطاع هذا الاجراء السريع بتولية شجرة الدر أن يمكن المصريين من جنى ثمار النصر الذى أحرزته الجيوش المصرية على الصليبيين فقد استعيدت دمياط بعد أن ظلت فى أيدى الافرنج احد عشر شهرا وتسعة أيام .

واطلق سراح ملك فرنسا بعد أن دفع الدية التى تم الاتفاق عليها والتى تتأرجح قيمتها فى كتب التاريخ بين أربعمائة الف دينار ومائة الف دينار والراجح أنها تقرب من الرقم الأخير وهو ما يساوى بالعملة الفرنسية وقتئذ العشرة ملايين فرنك .

ويرى ستانلى لين بول فى تأريخه ، أنه ما كان باسـطاعة الفرنسيين أن يجلوا فى سلام عن دمياط ، الا بفضل حكمة شجرة الدر وحسن تصرفها فقد كان أمراء المماليك وقد سكروا بخمر النصر يرغبون فى عدم الأخذ بالاتفاق الذى جرى بين توران شاه وبين الفرنسيين ، ويميلون الى ابادة الفرنسيين عن بكرة أبيهم حتى لا تحدثهم انفسهم بالعودة الى مصر ولكن شجرة الدر هى التى قدرت عواقب ذلك الوخيمة وتمسكت بوجوب تنفيذ المعاهدة ، واطلاق سراح لويس التاسع بمجرد دفع زوجته الفـدية عنه .. وقد أقسم لويس التاسع قبل اطلاق سراحه وأعطى على نفسه العهد والميثاق أن لايتصدى لحرب مصر مرة اخرى أو يؤلب عليها .

لويس التاسع يعمل على استرداد القدس ويفاوض التتار :

ولكن لويس جريا على عادة الصليبيين فى هذه الفترة لم يكونوا يأخذون مواثيقهم مع المسلمين (الكفرة) مأخذ الجد . ولذلك فانه لم يكد يطلق سراحه ويعود الى عكا ويشهد النزاع بين الأمراء الأيوبيين والحكام الجدد فى مصر ، حتى بدأ يحاول الاستفادة من هذا النزاع باسترداد بيت المقدس .

واستأنف مفاوضاته القديمة مع المغول للهجوم على العالم الاسلامى وهو لا يلبث أن يتحقق .

تخلى الملكة شجرة الدر عن السلطنة :

أدركت شجرة الدر بحكمتها أن روح العصر لاتتقبل ان تلى امراة السلطنة وان وقوع الاختيار عليها لم يكن الا لانقاذ الموقف .

ويحدثنا ابن أياس أن الخليفة العباسى عندما بلغه نبأ سلطنة شجرة الدر أرسل الى أمراء مصر يقول لهم : اعلمونا ان كان مابقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة حتى نرسل لكم من يصـلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم انه قال : لا افلح قوم ولوا أمرهم امراة ، وانكر عليهم اشد الأنكار وهددهم وأمرهم بالرجوع عن ذلك .

ولكن هذه الرواية لم يوردها المقريزى ولا أبو المحاسن بهذا التفصيل وان كانت مراجع أخرى تشير الى انكار الخليفة على المصريين سلطنة شجرة الدر .

كيفما كان الأمر فقد خلعت شجرة الدر نفسها لصالح عز الدين ايبك بعد أن تزوجها وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر ربيع الثانى على ما يذكر المقريزى . فكانت مدة ملكها ثمانين يوما ، ولكنها ثمانون يوما حاسمة فى تاريخ مصر .

وبتولى عز الدين أيبك زوج شجرة الدر السلطنة انتهى حكم الدولة الأيوبية من مصر بعد أن استمر حكمها احدى وثمانين سنة ، ويصر المؤرخون على انها انتهت بمقتل توران شاه على أساس انه آخر سلالة هذه الأسرة فى مصر ولكن الحق انه يجب اعتبار سلطنة شجرة الدر ، استمرارا للحكم الأيوبى ، فقد رشحها للسلطنة كونها زوجة الصالح أيوب .

ومن الحق أن يقال أن حكم الدولة الأيوبية قد ظل فى الشام لعدة سنوات أخرى . لم يلبثوا أن قدموا الى العرش أحد أبناء الأسرة الأيوبية ولذلك فلم يبعد عن الحق كثيرا من يقولون أن دولة المماليك تبدأ بدايتها الحقيقية مع سلطنة الظاهر بيبرس .

على أن التقليد التاريخى أن دولة المماليك البحرية ، قد قامت بسلطنة عز الدين أيبك على مصر .

تقدير الدولة الأيوبية :

ولن نجد ونحن نودع الدولة الأيوبية تقديرا لدورها فى تاريخ مصر أدق من هذا الذى قدرها به ستانلى لين بول حيث يقول :

كانت مصر ابان حكم الدولة الأيوبية مزدهرة من الناحية الاقتصادية بصفة عامة وملوكهم الثلاثة الأول الذين شمل حكمهم ٥٩ سنة ، كانوا أذكياء اداريين أكفاء ، فقد قدروا قيمة الثروة الزراعية للبلاد ، واهمية استتباب الأمن والنظام وسيادة العدالة ، ومن هنا لم نسمع طوال تاريخ الدولة الأيوبية عن ثورة قام بها الشعب ضد الحكام .

وأما عن علو الثقافة ورفاهية الحكام الثلاثة العادل والكامل والصالح نجم الدين فلدينا عنها شهادة المعاصرين من أمثال ابن خلكان وابن الأثير والبهاء زهير ، وان مجتمعا يضم أمثال هؤلاء ويجمعهم هم وعبد اللطيف البغدادى فى القاهرة ، لمجتمع يتحدث عن مدى رقيه بنفسه .

الاتصال باروبا تجاريا وسياسيا :

ولقد كشف الملوك الايوبيون عن روح واقعية عملية ، ففتحوا مصر للتجـــارة الاوربية ، فترى السلطان العادل عام ١٢٠٨ م يمنح تجار البندقية تسهيلات خاصــة لتجارتهم عبر مصر كلها ، وسمح لهم ببناء الأسواق والفنادق الخاصة فى الاسكندرية كما منح تجار بيزا امتيازات مماثلة وأرسلوا قنصــلا لهم الى الاسكندرية . وقد تجددت هذه الامتيازات عام ١٢١٩ م .

وكانت الضرائب التى تجبى على التجار غير المسلمين تبلغ عشر قيمتها . أما عن علاقة السلاطين الايوبيين برعاياهم المسيحين فقد كانت علاقات طيبة ، وظلت تتحسن مع مرور الزمن ، حتى أن الكنيسة المصرية تعتبر السلطان الكامل اكرم واعدل حاكم عاش فى ظله المسيحيون فى مصر . وبلغ من اعجابهم به الى حد تصور امكان تحويله الى الدين المسيحى . وعلى الجملة يجب اعتبار حكم الأيوبيين فى مصر ، سواء من ناحية اتساع الرقعة التى شملتها سيادة الدولة ، او من ناحية الازدهار الداخلى ، والقدرة على مواجهة الغزو ، كأعلى ما وصل اليه المستوى فى أى عصر من عصور الدولة قبل ذلك .

الفصل الرابع عشر

دولة مماليك الأتراك البحرية

١٢٥٠ م ـ ٦٤٨ هـ : تولية الملك المعز عز الدين ايبك :

فى يوم السبت التاسع عشر من ربيع الثانى من هذه السنة تربع عز الدين ايبك بالملك واطلق عليه اسم المعز .

وقد وقع اختيار المماليك عليه فى بادىء الأمر ليكون مدبرا لشئون المملكة مع شجرة الدر ، وليكون سلطانا بعد ذلك ، لانه كان يعتبر اقل الأمراء خطرا على غيره من الأمراء ، وكان يعتبر من اوسطهم شأنا ، وعرف عنه لين العريكة وسعة الصدر وسداد الرأى والتدين فكان يلازم الصلاة ولا يشرب الخمر .

وبعد أن تولى السلطنة خطب له على المنابر كما هو التقليد المتبع وضربت السكة باسمه ، وقد زاد من مكانته واعانه فى تدبير شئون المملكة زواجه من شجرة الدر أرملة سيده وسلطانة مصر .

قيام المعارضة فى وجه عز الدين ايبك :

على أن المعارضة التى قامت فى وجه شجرة الدر باعتبارها امراة سرعان ماقامت فى وجه عز الدين أيبك باعتباره مملوكا سابقا ، أو بحسب تعبير ذلك الزمان ، (ممن مسهم الرق) وكان امراء البيت الأيوبى لا يزالون بكل قوتهم فى الشـام . وماكانوا ليسكتوا على زوال ملكهم ، والعدوان ظلما على توران شاه ، وسلطنة واحد من مماليكهم السابقين . ولذلك فقد وحدوا كلمتهم وقرروا الهجوم على مصر لاستئصال شأفة المماليك ، واعادة مصر الى سلطان الايوبيين .

وكان لهذه العناصر مجتمعة رد فعل فى صفوف المماليك البحرية انفسهم فرأوا من الأصلح بالنسبة لهم أن يشركوا فى الحكم أحد سـلالة الأيوبيين ، على ان يكون لا حول له ولا طول ، فوقع اختيارهم على حفيد للسلطان الكامل وكان صبيا صغيرا لا يتجاوز عمـره ست سنوات فى بعض أقوال (المقريزى) وعشر فى أقوال (أخرى) واطلقوا عليه اسم الملك الأشرف موسى .

واصبح الحكم للسلطانين معا فكانت صيغة الأوامر والمراسيم تجرى على الوجه التالى :

رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الاشرفى والملكى المعزى .

واستمر الحال على هذا المنوال بعض الوقت ، وعز الدين ايبك هو المستولى على التدبير وليس الأشرف معه سوى صورة .

وقد اراد عز الدين ايبك من ناحية أخرى ان يظهر أمام الشعب مدى ولائه للأسرة الأيوبية فنقل جثمان سيده السابق الملك الصالح أيوب من مدفنه المؤقت الذى كان قد دفن فيه خفية فى قلعة الروضة ، الى مدفن خصص له بين القصرين ، وانتهز هذه الفرصة فأقام جنازة كبيرة .

١٢٥١ م ـ ٦٤٩ هـ : انتصار المماليك على الأيوبيين :

اذا كان لهذه المناورات التى قام بها المماليك فى مصر لتدعيم شرعية حكمهم ازاء الشعب المصرى من أثر فان ذلك لم يكن له أثر لدى الأمراء الأيوبيين فى الشام ، وتولى الملك الناصر صاحب حلب تجميع قوى الأيوبيين ، فبدأ بالاستيلاء على دمشق ، وبذلك وحد الشام تحت زعامته وزحف بعد ذلك على مصر . ولم يفته أن يقوى جبهته بالتحالف مع الصليبيين فوعدهم أن هم ساعدوه ضد مماليك مصر أن يسلمهم بيت المقدس .

ولكن خوف الصليبيين على العدد الكبير من أسراهم الذين كانوا لا يزالون فى يد المماليك جعلهم يقفون على الحياد .

مضى الملك الناصر فى زحفه على مصر فاستولى على مدينة غزة . ثم اجتاز الحدود المصرية واشتبك مع المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية ، فدارت الدائرة فى بادىء الأمر على المماليك حتى نهب معسكرهم ووصلت الاخبار الى القاهرة انهم هزموا ، ولما كان هوى المصريين مع الأيوبيين فقد أقيمت الاحتفالات والزينات للملك الناصر الايوبى باعتباره سلطان مصر والشام .

ولكن المعركة لم تكن قد انتهت عندما فر قسم من المماليك ، وظل ميزانها يتأرجح ، وانحازت طائفة كبيرة من المماليك التى كانت تحارب فى جيش الملك الناصر الى جيش عز الدين ايبك باعتبارهم من جنس واحد ، فهزم الناصر وفر ناجيا بنفسه نحو حلب ، بينما وقع فى يد عز الدين ايبك عدد كبير من قادة البيت الأيوبى وملوكهم .

وعاد عز الدين ايبك الى القاهرة ، بعد أن ثبت هذا النصر الحاسم حكمه وسلطانه على ديار مصر .

وكان أن عزل الملك الصبى الأشرف الايوبى وانفرد بالسلطان .

١٢٥٢ م ـ ٦٥١ هـ : الخليفة العباسى يتوسط فى الصلح :

دفع الخطر المغولى الذى أصبح بعد أن احتل التتار ديار بكر من ناحية ، والخطر الصليبى المتربص من ناحية أخرى بالخليفة العباسى الى أن يتدخل بين مماليك مصر

والايوبيين فى الشام ويتوسط فى عقد صلح بينهم وتم الصلح بالفعل على اساس ان يكون للسلطان المعز عز الدين ايبك ملك مصر والجزء الجنوبى من فلسطين بما فى ذلك غزة والقدس وبلاد الساحل ، وان تكون الاجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة فى يد اصحابها من الأيوبيين وأن يطلق سراح من وقع فى الأسر من رجال الملك الناصر والبيت الأيوبى .

ويعتبر هذا الاتفاق الذى تم باسم الخليفة العباسى ، انتصارا سياسيا للمماليك وبدءا رسميا لقيام دولتهم فى مصر فقد أسبغ الصفة الشرعية على حكمهم .

ثورة الاعراب فى مصر :

على أن اعتراف الخليفة بشرعية الحكم على مصر ، لم يكن كافيا لاقنــاع سكان مصر أو على الأقل فريق منهم بهذه الشرعية ، فقد أرسلت القبائل العربية التى كانت تسكن مصر منذ الفتح العربى فى الصعيد وفى مديريات الوجه البحرى وخاصــة فى الشرقية والبحــيرة ، الصيحة فى طول البــلاد وعرضهــا أن مصر للعــرب وليست للترك . ووجد الاعراب زعيما لهم فى شخص حصن الدين تعلب ، الذى استطاع أن يحشد حشود العرب حوله حتى تجمع له جيش من اثنى عشر الف فارس .

فأرسل الملك المعز الأمير فارس الدين اقطاى على راس جيش لاخضاع هــذه الثورة ، فانتصر على حصن الدين بالقرب من ديروط . ثم تتبع المعز أيبك القبــائل العربية فى مديريات الوجه البحرى فانزل بهم الهزائم الكثيرة .

وأرسل حصن الدين يطلب الأمان من المعز فأمنه وطلب منه الحضور اليه ليعطيه امارات واقطاعات . فلما وصل الى المعز وكان مقيما فى بلبيس قبض عليه وعلى كل من كان معه وكانت عدتهم على ما يقول المقريزى الفين وستمائة فارس .. فشنقوا جميعا على طول الطريق من بلبيس الى القاهرة باستثناء حصن الدين الذى ارسل الى الاسكندرية ليسجن بها ، يقول المقريزى ثم فرض المعز الضرائب الثقيــلة على العرب ، وعوملوا بالعسف والقهر فذلوا وقلوا على ما هو عليه الحال فى وقتنا (القرن الخامس عشر الميلادى) .

١٢٥٤ م – ٦٥٢ هـ : مصرع الفارس اقطاى :

نجح المعز ايبك فى التغلب على الايوبيين والقضاء على ثورة الاعراب ولكن هذا النجاح فى كلتا الحالتين قد نسب الى الفارس اقطاى ، باعتباره صاحب الدور الأكبر فى كلا الانتصارين .

وصل الفارس اقطاى الى أعلى درجات العظمة والتف حوله المــماليك البحرية وحدثته نفسه بالملك ، وكان من خشداشيته (أى زملائه) اقطاب المماليك من أمثال بيبرس البندقدارى ، وسنقر الأشقر وسيف الدين قلاوون . واذا كان أى سطر من سطور تقاليد المماليك أن يثب للحكم كل من يقدر عليه فان السطر الثانى ، كان أن

يقتل الملك كل من يتصور انه قد يصبح منافسا له ، حتى ولو لم يكن قد وقع منه ما يؤاخذ عليه .

وعلى ذلك فقد قرر السلطان أيبك ان يتخلص من اقطاى ، فأرسل اليه يستدعيه الى القلعة بحجة أنه يريد استشارته فى أمر من الأمور ، فلما وصل أقطاى الى القلعة امر ايبك بغلق أبوابها فى وجه مماليك أقطاى للحيلولة دون صعودهم معه ، ثم أصدر امره بالقبض على أقطاى وقتله . وتسامع المماليك البحرية بقتل زعيمهم فاجتمع سبعمائة من أصحابه وحاصروا القلعة ، تصوراً منهم أنه مقبوض عليه داخلها ، فما كان من المعز ايبك الا أن ألقى عليهم رأسه ، فلما تحقق المماليك البحرية من مصرعه اسقط فى ايديهم ، وضعفت معنوياتهم وخـافوا على انفسهم ، فخرجوا من مصر هاربين وقصدوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب واتجه بعضهم الى الملك المغيث صاحب الكرك ، والتجأ بعضهم الى الخليفة العباسى فى بغداد ، أو الى الملك علاء الدين ملك السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . على أن السلطان المعز أيبك لم يعد آمنا على سلطانه بعد مقتل اقطاى ، اذ انقسم المماليك وقام حزب قوى منهم معارض له فى مصر والشام ففكر فى أن يدعم سلطانه بالتحالف مع أمير من أمراء المسلمين عن طريق المصاهرة ، فاتصل بالأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، باعتباره أقوى شخصية فى الشرق الأوسط وقتذاك ، وطلب منه يد ابنته للزواج .

١٢٥٧ م ــ ٦٥٥ هـ : مقتل السلطان المعز عز الدين ايبك :

لم يقدر السلطان المعز وهو يفكر فى زواج ابنة صاحب الموصل لتدعيم سلطانه فى مصر والشام ما تحدثه هذه الحركة من رد فعل عند شجرة الدر .

لقد خلعت شجرة الدر نفسها من السلطنة لحساب عز الدين أيبك زوجها ، واذ كانت بطبيعتها امرأة قوية فقد اعتبرت تصرف عز الدين أيبك جحودا وكنودا وادركت من ناحية أخرى انه اذا تزوج ابنة صاحب الموصل فلابد أن يتخلص منها ولا سبيل الى ذلك الا بالقتل فقررت أن تكون هى البادئة .

وكان السلطان المعز على خلاف مع شجرة الدر لاستبدادها بأمور المملكة ومنعها اياه من الاجتماع بأم ابنه ، والزمته بطلاقها ، ولذلك فقد هجرها واقام بمناظر اللوق اياما ، فلما أحكمت شجرة الدر كيدها بعثت اليه تسترضيه وتحلف له أن تكون طوع أمره ، وانخدع المعز وطلع الى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء رابع عشر من ربيع الأول حتى اذا دخل الحمام ليلا كان فى انتظاره خمسة من المماليك ، فشرعوا فى خنقـه فاستغاث بشجرة الدر فرق له قلب شجرة الدر وطلبت منهم أن يطلقوه ، فأغلظ لها كبير القتلة (محسن الجوجرى) وقال لها متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك . ثم قتلوه .

وكان عز الدين أيبك فى الستين من عمره يوم قتل ، وكانت مدة سلطنته سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما ... يقول عنه المقريزى : كان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا وشنق عالما من النـــاس بغير ذنب ليوقع فى القلوب مهابته ، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده .

ولكن أبا المحاسن يقــول عنــه : كان شــجاعا عاقـــلا سيوسا كثير البـــذل للأموال ، أطلق فى مدة سلطنته من الأموال والخيول ما لا يحصى حتى رضى النـــاس بسلطان مسه الرق . وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك الى أن مات ، وكانوا يسمعونه ما يكره ، حتى فى وجهــه اذا ركب ومر بالطلعات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وكان الملك المعــز عفيفا طاهر الذيل ، بعيــدا عن الظــلم والعسف كثير المداراة لخشداشيته والاحتمال لتجنيهم عليه وشر أخلاقهم .

ولا سبيل للتوفيق بين هاتين الصورتين المتضاربتين ، الا ان نقول ان واحــدة منهما من وجهة نظر طبقة الحاكمين ، والثانية من وجهة نظر المحكومين .

وقد بنى المعز المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافا .

سلطنة الملك المنصور نور الدين :

فى يوم الخميس سادس عشر من ربيع الاول ، بويع بالسلطنة على مصر على ابن عز الدين أيبك وكان غلاما لا يتجاوز عمره خمســـة عشر عاما (المقريزى) .. وابن اياس يجعل ســـنه أحد عشر عاما .. وقد لقب بالمنصور وجعــل الأمير قطز نائبـــا للسلطان واتابكا للعسكر .

وستظل المماليك طول حكمهم لا يؤمنون بنظام الوراثة ، ومع ذلك فسنرى أن كل سلطان كان يأخذ العهد لابنه من بعـــده ويجيبه الأمراء الى ذلك حتى اذا مات السلطان رفعوا ابنه بالفعل على العرش تحقيقا لميثاقهم ، ولكن الى المدة التى يصفى فيها الأمراء الحساب فيما بينهم ويتفقوا على من يكون سلطانا عليهم ، فيعزلون الصبى الصغير ويولونه مكانه وينفى الصبى الصغير الى دمياط أو الاسكندرية وأحيانا الى خارج مصر كلها ، الى أراضى الدولة البيزنطية مثلا .

مقتل شجرة الدر :

كان من الطبيعى وقد أصبح ابن المعز سلطانا ، ان يبدأ عمله بالاقتصاص من قتلة ابيه وعلى رأسهم شجرة الدر ، وقد اســـتطاع أن يقبض على القتلة بســـهولة وأن يقتلهم ، ولكن شجرة الدر ظلت بعيدة عن متناول يده ، فقد تصدى لحمايتها طائفة من المماليك الصالحية ، فاكتفى المنصور بنقــلها من دار الســـلطنة الى بعض أبراج القلعة ، حتى اذا استتب له الأمر قبض عليها وأسلمها الى أمه التى أسلمتها بدورها الى جواريها (على ما يقول المقريزى) فقتلنها ضربا بالقباقيب ، ثم رمينها من فوق

أسوار القلعة ، حيث وجدت مقتولة فى الحادى عشر من ربيع الثانى وليس عليهـا بالقرب من مشهد السيدة نفيسة حيث لا تزال موجودة حتى الآن .

ويقول أبو المحاسن عنها : وكانت خيرة دينة رئيسة عظيمـة فى النفوس ، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها (١) .

ولا نستطيع ان نحبس حزننا لمقتل شجرة الدر على هذه الصـورة وهى التى انقذت مصر بلا مراء من الخطر الصليبى ، ولكنها كانت البادئة كما رأينا فحرضت على قتل توران شاه ، ثم قتلت زوجها . وسيظل هذا الشعور المزدوج يلازمنا حتى نهاية العصر المملوكى ، فالاعجاب بالأعمال العظيمة ، يسير جنبا الى جنب مع استنكار أعمال الغدر والقتل والفتك .

تجدد المعارك بين مصر والشام :

واستهل السلطان الجديد عهده بسلسلة من المعـارك وقعت على حدود مصر الشمالية وعند مدينة غزة ، ذلك أن المماليك البحرية الذين فروا الى الشام عقب مقتل الفارس اقطاى وعلى رأسهم الظاهر بيبرس وقلاوون ، كانوا قد التجأوا الى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، ولم يلبث أن خاف منهم على نفسه ، فتركوه الى الملك المغيث صاحب الكرك ، فاستولوا على مدينة غزة لحسابه ، وراحوا يحرضونه على الاستيلاء على مصر . فاستجاب لهم وزحف بجيشه يؤازره المماليك البحرية الذين لجأوا اليه ، فتصدى لهم الجيش المصرى تحت قيادة قطز (٢) عند مدينة الصالحية فهزمهم هزيمة منكرة وفر الملك المغيث الى الكرك ومعه بيبرس البندقدارى ، بعـد أن نهب معسكره وقتل زهرة فرسانه .

١٢٥٨ م ــ ٦٥٦ هـ : سقوط بغداد بيد التتار :

فى العاشر من المحرم من هذه السنة وقعت الواقعة التى كان يمكن أن تكون خاتمة المطاف للاسلام . وهى سقوط بغداد فى يد هولاكو حفيد جنكيزخان .

وكان سقوط بغداد هو ختام هذه المرحلة من الزحف المغولى الجارف الذى بدأ عام ٦١٧ هـ كما أشرنا الى ذلك . والذى توقف ذاتيا بوفاة جنكيزخان ، حتى اذا قسمت الدولة من بعده وأصبحت بلاد فارس وخراسـان احدى الدول المغوليـة الثلاث التى تجزأت اليهـا الدولة الكبيرة ، استـأنفت صراعها للسـيطرة على كل ما يحيط بها .

---

(١) ظل اسم شجرة الدر يتكرر فى مصر كل عام بمناسبة احتفالات المحمل .. فقد كان يقال لنا ان هذا الهودج الذى يتألف منه المحمل ، خاص بشجرة الدر .

(٢) أى أنه فى المواجهة بين جيش فيه قطز وآخر فيه بيبرس انتصر جيش قطز .

وكتب التاريخ الاسلامية ، غاصة بالتفاصيل التى أدت مباشرة الى كارثة سقوط بغداد ، وكيف كان الخلاف فى بغداد بين أهل السنة وأهل الشيعة (وأهل السنة يسمونهم الرافضة) هو الحلقة الأولى من سلسلة الحوادث التى انتهت بدخول المغول بغداد ، فقد غضب الوزير العباسى مؤيد الدين بن العلقمى لما أصاب الرافضة ، وكان هو نفسه رافضيا فدخل فى مراسلات مع هولاكو واطمعه فى الاستيلاء على بغداد ، بينما راح من ناحية اخرى يثبط عزم الخليفة العباسى المستعصم عن الاستكثار من الجند ، وحثه على تسريح الجزء الأكبر من الجيش القائم فعلا ، بدعوى أنه بتوجيه بعض ما ينفق على الجيش ، لاستجلاب رضاء هولاكو خير وأجدى ، ولذلك فقد كان زحف هولاكو على بغداد هينا ، ولم تجر سوى معارك ضئيلة للدفاع عن المدينة الخالدة . فلما احدق هولاكو ببغداد اقنع مؤيد الدين بن العلقمى الخليفة أن يستسلم لهولاكو ، بل وأوهمه أن هولاكو قد قبل أن يصهر اليه ويزوجه ابنته . وذهب الخليفة فى أبهى حلله وحوله أمراؤه وقواده وكبار رجال دولته فقبض عليهم هولاكو ، كما راح يقبض على الطوائف التى بدأت ترد اليه لحضور الزفاف ، وقتل الجميع (١) ، ثم اجتاز بجيشه بعد ذلك الى المدينة وأباحها هولاكو لجنوده أربعين يوما ، فراحوا ينهبون ويسلبون ويقتلون ويحرقون . ويقدر المعتدلون عدد من مات فى هذه الكارثة بثمانمائة الف بينما يصل بهم البعض الى الف الف وثمانمائة الف . على أن أعظم ما منيت به الحضارة الاسلامية بل الانسانية فى هذه الواقعة ، هو اتلاف مئات الألوف من الكتب التى هى خلاصة التراث الانسانى حيث جعل منها جسرا فى نهر الدجلة . وبعد أن احترق من المدينة ما احترق وقتل من قتل ، أمر هولاكو جنوده بالكف عن القتل وأن ينصرف كل الى عمله .

يقول ابن كثير : ولما نودى فى بغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى اذ نشروا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ اخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

وانصرف هولاكو بعد ذلك عن مدينة بغداد وما حولها بعد أن فسد الهواء المحيط بها ، وأسلمها الى مؤيد الدين بن العلقمى الذى عينه حاكما عليها (٢) .

---

(١) تأخر قتل الخليفة بعض الوقت ، والرواية الراجحة فى قتله انه وضع فى غرارة وظل يرفس حتى مات وذلك حتى لا يراق دمه .

(٢) من أسخف ما قيل دفاعا من بعض مؤرخى الشيعة عن مؤيد الدين العلقمى أن تسليم هولاكو بغداد بعد قتل أكثر أهلها وكبرائها لمؤيد الدين العلقمى هو الدليل على انه لم يكن خائنا ، ولم يتصل بهولاكو من قبل والا لما وثق به وسلمه المدينة (انظر كتاب المغول فى التاريخ) وما جاء فيه من دفاع ابن طباطبا عن مؤيد الدين ، والذى دحضه ورد عليه مؤلف الكتاب بالحجج الدامغة الدكتور فؤاد الرصافى .

استأنف هولاكو زحفه فى بلاد الموصل فاستولى على قلاعها بعد حروب مريرة وحصار دام حول بعض المواقع (مينافارقين) عامين كاملين أظهر فيها سكان المدينـــة من البسالة ما لا يوصف ثم انتهى أمرهم بالاستسلام فأبيدوا عن بكرة أبيهم .. وانطلق المغول بعد ذلك كالأعصار حتى وصلوا مشارف الشام .

وسقطت فى أيديهم مدينة حلب ، فأرسل الملك الناصر صاحب الشام يستنجد بسلطان مصر ، بعد أن خابت مساعيه فى التفاهم مع المغول على أن يكون حليفهم فى فتح مصر . وخشيت دمشق أن يكون مصيرها مصير حلب فاستسلمت للتتار بعد أن خرج منها الملك الناصر قاصدا مصر .

وشاء القدر أن يهيىء للاسلام بطلا ينقذ آخر قلاعه وهى مصر ، وكان هذا البطل هو سيف الدين قطز عبد الله المعزى أحـــد مماليك المعز أيبك ، والذى كان فى ذلك الوقت قد أصبح نائب السلطان ومدبر المملكة .

وشاءت المقادير أن يكون قطز هو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزماه شاه وأبوه ابن عم السلطان جلال الدين . وكان قد أسر فى حرب التتار ، ثم انجاه الله من أيديهم بالبيع فتقلبت به الأمور الى أن وصل ما وصل .

فلم تكد أنباء ما حدث فى بغداد تصل الى مسامعه ، حتى نهض للأمر فى عزيمـــة جبارة ، بدأت تتجلى فى كل تصرفاته وكان أول هذه التصرفات ، أن خلع الملك منصور لصغر سنه وعدم جدارته : ففى هذا الوقت العصيب لابد ان يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس وينصب للجهاد وليس صبيا صغيرا لا يحسن التدبير .

ولما غضب لعزل المنصور مماليك أبيه ، قال لهم : انى ما قصدت الا ان نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنـــا وكسرنا العدو فالأمر لكم تقيمون فى السلطنة من شئتم .

وكانت خطوته الثانية تعبئة البلاد لمواجهة الخطر المغولى واعداد الجيش بالسلاح والعتاد والمؤونة فكان لابد من جمع الأموال اللازمة لذلك فعقـــد مؤتمرا لذلك من العلماء ليجيزوا له فرض الضرائب على الشعب . وهنا عادت شخصية عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء للظهور ، حيث أفتى فتواه الخالدة :

اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله ، وجاز للســـلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تحضيره العسكر لدفع العدو ولكن بشرط الا يبقى فى بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهب والفضة الكبابيش الزركش واسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ويساوى فى ذلك بين العامة وقت القتال ــ أما أخذ أموال التجار والرعية ــ مع وجود ما فى بيت المال من السلاح والقماش ــ فلا يجوز لأنه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق .

وكانت هذه الفتوى تعنى تجريد المماليك الحاكمين من معظم ثرواتهم التى تتدفق عليهم من بيت المال ، فكادوا يبطشون بعز الدين عبد السلام ، لولا أن حماه قطز الذى فعل بما أشار رغم معارضة امراء المماليك .

١٢٦٠ م ـ ٦٥٨ هـ : هولاكو ينذر قطز :

ولم يكد قطز يشرع فى تجهيزاته لملاقاة التتار ، حتى بعث اليه هولاكو سفارة من بعض أمراء المغول يطلب منه الانقياد لطاعته وينذره ويحذره من سوء العاقبة والمصير ، ولن تجد اروع من هذا الخطاب ما يصور مدى ما كان المغول قد وصلوا اليه من جبروت وطغيان وولع بسفك الدماء :

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السما يعلم الملك قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا وسائر أمراء دولته واهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، انا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريقة تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعدونا كالرمال . فقد أنصفناكم اذ راسلناكم وايقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى .

فلم يكن لقطز من رد على هذه الرسالة الا أن قتل سفراء التتار وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، محددا بذلك القضية فاما انتصار على التتار واما فناء .

موقعة عين جالوت :

وبدأت الارهاصات تكشف عن طبيعة المعركة القادمة وتثبت من عزائم المماليك المصريين ، فقد مات خان المغول الأعظم مانجوخان ، فعاد هولاكو بجمهرة جيشه الى الشرق ليكون على مقربة من الأحداث .

ولم يخلف فى الشام من جيوش المغول سوى عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة قائد جيشه الأول كتبغا .

ومن ناحية أخرى ، فان المماليك البحرية الذين كانوا فى الشام وعلى راسهم بيبرس وقلاوون ، قد حز فى قلوبهم ما أصاب العالم الاسلامى على يد المغول ، فكتبوا

لقطز يطلبون منه أن يعفو عنهم ليقفوا معه صفا واحدا لقتال التتار فاستجاب لهم قطز وجاءوا الى مصر فكان لقدمهم أثر كبير فى رفع الروح المعنوية فى الجيش .

فلم تكد الأخبار تصل قطز بزحف كتبغا نحو مصر واستيلاء طلائعه على غزة ، حتى قرر قطز أن يخرج بالجيش المصرى لمواجهتهم فلما تردد بعض الأمراء فى الخروج ، واقترحوا الانتظار حتى يقدم التتار ... هددهم قطز أن يسـير وحده ومن يريد لمحاربة التتار ، فاضطروا للانصياع لأمره .

وعين قطز بيبرس البندقدارى على رأس مقدمة الجيش فأسرع الى مدينة غزة ، وكانت عساكر التتار الموجودين بها قـد ارسلوا الى أميرهم كتبغـا يطلبون منه أن يوافيهم بالنجدات ليستأنفوا الزحف على مصر ولكن بيبرس عاجلهم قبل وصـول النجدات بالهجوم عليهم ، فأنزل بهم هزيمة وطاردهم حتى نهر العاص ، فكانت هذه أول هزيمة تلحق بالتتار الذين كان الرعب منهم يحمل جيوشا بأكملها على الاستسلام فكان ذلك أول الفتح فقويت عزائم المسلمين ، وامتلأوا بالأمل فى هزيمة التتار .

ووصل قطز على رأس بقية الجيش ، وصحب بيبرس وسارا معا بحذاء الساحل الصليبى بعد أن نجح فى حمل الصليبيين على الوقوف على الحياد ، ثم اتجهوا شرقا عبر الجليل الى الأردن لاسترداد دمشق من المغول .

وفى هذه الأثناء كان كتبغا كبير التتار قد علم بهزيمـة رجاله عنـد غزة فأسرع بالحضور وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب . وهكذا التقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت بين بيسان ونابلس فى أوائل سبتمبر .

وتتضمن كتب التاريخ تفاصيل سـير المعركة وكيف تقلبت بين المد والجزر ، والذى يهمنا هنا أن نسجله أن بطل هذا اليوم كان هو قطز بلا مراء ، فقد حدث أن فر المماليك من حوله أثناء سير المعركة فثبت فى مكانه ، بل وخلع خوذته وقذف بهـا على الأرض وصاح صيحته الخالدة « واسلاماه » وانقض على التتار بنفسه ، فكان لفعلته أكبر الأثر فى اعادة الثقة الى المماليك الذين عادوا واستأنفوا القتال ... وكرر قطز هذا الموقف مرة ثانية ، عندما أوشكت المماليك على الفرار مرة أخرى .

وهكذا حتى تم النصر النهائى ووقع كتبغا فى الأسر ولم يلبث أن قتل ، وفرت جنود التتار لأول مرة فى تاريخ حياتهم مذعورين ومن ورائهم فرسان المماليك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس (١) فطاردهم وقتل منهم وأسر . بينما كان قطـز ، ينزل عن حصانه ويمرغ وجهه على الارض شكرا لله ، ولم يدرك مكان المعركة الا بعد أن صلى ركعتين لله .

---

(١) كان الظاهر بيبرس بعد أن أصبح سلطانا شديدالاحتفال بموقعة عين جالوت معتبرا نفسه صاحب الدور الأكبر فيها ، حتى لقد أقام بعـد سلطنته نصبا فى مكان المعركة ، لعله أول وآخر نصب من نوعه فى تاريخ الدولة الاسلامية .

نتائج معركة عين جالوت :

ولسنا فى حاجة للوقوف طويلا امام تحليل النتائج التى ادت اليها معركة عين جالوت بالنسبة للاسلام بل بالنسبة للحضارة الانسانية كلها ، فالمؤرخون الأوربيون يعترفون بأن هذه المعركة لم تنقذ العالم الاسلامى وحده ، بل لقد انقذت العـــالم المسيحى كذلك ، لانه لم يكن فى أوربا المسيحية كلها وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو انهم انتصروا على المماليك واستولوا على مصر . (المغول فى التاريخ) .

نتائج المعركة بالنسبة للمماليك :

على أن أحد النتائج المباشرة لموقعة عين جالوت ، هى تثبيت حكم المماليك بصفة نهائية ، لا على مصر فحسب ، بل على مصر والشام . فقد وصل قطز الى مدينـــة دمشق ، وسط الاحتفالات التى لم تشهد مثلها فى ظل تاريخها ، وفى دمشق جاء حكام المدن الشامية من الأيوبيين مستسلمين لقطز وطائعين ، فامنهم واعاد كل منهم الى مركزه على أن يكون تابعا له .

أما الملك الناصر صاحب الشام ، فكان قد عاد الى ضلاله القـــديم ، فبعد أن استغاث بسلطان مصر وغادر دمشق عند زحف التتار عليها ، متوجها الى مصر ، فقد عاد ادراجه ، واستسلم لهولاكو الذى اصطحبه معه ، فلما أن وصلت اليه انباء هزيمة جيشه على يد قطز لم يجد مايفتأ به غضبه الا أن يقتل الملك الناصر .

وهكذا خسر الملك الناصر يوسف الدين والدنيا لشديد حرصه على الملك ، فى الوقت الذى كان المماليك فيه قد اصبحوا فى نظر العالم الاسلامى كله حماته ومنقذيه.

مصرع قطز :

على أن هذا النصر الذى لا يزال قلب الانسانية يخفق لذكراه ، سرعان ما شابته شائبة مكدرة ، اذ بينما كان قطز يتهيأ للعودة الى مصر ، وقد سبقته البشائر اليها فأقيمت الاحتفالات والزينات فى انتظار مقدمه ، لتجزيه عما فعل لمصر والاسلام ، كان بيبرس البندقدارى يدبر لقتله فى الطريق ، فعندما وصل الجيش الى الصالحية ، أظهر السلطان قطز رغبته فى الصيد فصحبه المتآمرون وعلى رأسهم بيبرس ، فلما فرغ السلطان من الصيد ، تقدم اليه بيبرس متظاهرا بتقبيل يده شـكرا على منحه اياه جارية تترية كان قد اعجب بها بيبرس ، فلما أمسك بيده كانت هذه هى اشارة للمتآمرين فانقضوا عليه واعملوا فيه سيوفهم حتى أجهزوا عليه .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مرددا قول الدكتور محمد جمال الدين سرور ، وكلاهما الف عن الظاهر بيبرس كتابا . ان السبب فى فعلة بيبرس ، هو رفض قطز اعطاء نيابة حلب لبيبرس وانه بذلك : قد تنكر لجميل بيبرس ، وعدم اعطائه نيابة حلب لبيبرس قد أظهـر قصر نظر قطز لأن المكانة التى احرزها فى ذلك الوقت كانت أعظم من ان يتجاهلها انسان ، ولو كان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب

وبذلك يامن منافسته له فى مصر . ونحن من ناحيتنا لا نرى فى هذه الجريمة النكراء مايقبل عدلا ولا حرفا ولا شفعا ولا وترا ، وانه شىء يجل عن الوصف ، أن يقتل رجل من أعظم الرجال غداة انقاذه لمصر والعالم الاسلامى والانسانية من خطر داهم ، لغير سبب جناه ، فقد رأينا أن بيبرس كان عاصيا وخاض المعارك ضد جيوش مصر ، حتى اذا طلب العفو من قطز عفا عنه واتاح له فرصة الجهاد فى سبيل الله . والوقائع التى رويناها عن مصرع قطز تثبت أنه كان قد جعل من بيبرس محل ثقة حتى صحبه معه فى رحلة صيد ، وتثبت أنه منح بيبرس الجارية التى يريدها ، حتى أن بيبرس تقدم له تحت ستار الرغبة فى شكره .

ويذهب الأستاذ الكبير على أحمد باكثير فى روايته التاريخية الفذة « واسلاماه » الى أن قطز كان منتويا أن يستخلف بيبرس سلطانا على مصر من بعده وهـذا سبب اصطحابه له .

ولا جدال فى أن بيبرس قد لعب بعد هذا الحادث فى تاريخ مصر والشام والاسلام دورا عظيما جديرا بكل تقـدير واعظام ، ولكن هذا لا يمنع أن المقاييس الخلقية كلها تنكر هذا الذى أقدم عليه بيبرس والذى لا يفسر الا على ضوء نوع الحياة التى كان المماليك يحيونها ، والتى جعلت كلا منهم على استعداد أن يقتل أو يقتل فى أى لحظة باعتباره مجرد آلة للفتك .

وكان مقتل قطز فى يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فلم تزد مدة حكمه كسلطان على سنة الا يوم . ولكنها كانت سنة بمئات السنين ، فقد كانت سنة فاصلة بين قدر وقدر .

سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى :

ينتمى بيبرس الى العائلة التركية وقيل انه من قبيلة القيجاق فى جنوب روسيا ، وقد اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار أحد مماليك الملك الصالح أيوب ابان اعتقاله فى دمشق ، واشتراه بثمن بخس ، وعندما أفرج عن الأمير علاء رجع الى مصر وفى صحبته بيبرس الذى انتسب كما هى العـادة الى سيده فأصبح اسمه بيبرس البندقدارى ، ثم آلت ملكيته الى الملك الصالح أيوب ، فأعجب بذكائه وهمته فأعتقه وأصبح عنده من المقربين ، وقد مر بنا فعله بابنه توران شاه عندما اشترك فى قتـله ، وكيف سارت حياته بعد ذلك حتى انتهى الى قتل قطز ، يقول المؤرخون انه بعد أن قتل المتآمرون قطز فى الصيد عادوا الى بقية الجيش وكان قد شاع نبأ مقتل قطز ، فسأل أمير الأمراء المتآمرين :

ـ من الذى قتل السلطان قطز ؟

قال بيبرس :

ـ انا قتلته .

فقال الأمير :

ـ يا خوند اجلس فى مرتبة السلطان مكانه .

وهكذا أصبح بيبرس سلطانا ، ولقب فى بادىء الأمر بالملك الناصر ثم استبدل ذلك بالملك الظاهر .

ودخل الظاهر بيبرس الى القاهرة وسط الزينات والمهرجانات التى اقيمت استعدادا لاستقبال قطز ، فراح المنادى ينادى الناس :

ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس .

١٢٦١ م ـ ٦٥٩ هـ : نقل الخلافة العباسية الى مصر :

يعتبر الكثيرون الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر ، فهو واضع الأنظمة التى جرى عليها العمل من بعده ٢٥٠ سنة . ونحن لا نوافق على هذا الرأى ، فالحكم المملوكى كان قد قام وتأصلت اسسه وقواعده ، فاعترف به الخليفة العباسى فأخذ الصبغة الشرعية ثم جاءت موقعة عين جالوت فكرست الحكم من الناحية الواقعية والفعلية .

وحقيقة الأمر أن الظاهر بيبرس طالت ايام حكمه ، فوضحت معالم الحكم المملوكى فى أحسن صورها .

وكان من أحكم ما أقدم عليه الظاهر بيبرس وما يشهد له بأنه رجل دولة ، فوق كونه فارسا مغوارا ، أنه انتهز فرصة تقوض الخلافة العباسية فى بغداد لكى يحييها فى مصر ، ولقد مر بنا محاولات ابن طولون والأخشيد من بعده لنقل الخلافة العباسية الى مصر فلم يهيأ لهما ذلك ، فقد كانت بغداد لا تزال بكل ثقلها ووزنها وما ترمز اليه من عظمة وسؤدد فلما دالت دولة بغداد أصبح الطريق معبدا لهذه الخطوة . فلم يكد يصل الى مصر شخص يدعى أبو القاسم أحمد وبصحبته جماعة من العربان وطواشى بغداد يشهدون بنسبه وانه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، حتى انتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة الذهبية ، فجمع مجلسا من العلماء والفقهاء والقضاة ، وبايعوا الامام أحمد خليفة على المسلمين واطلقوا عليه لقب المستنصر بالله . ولم يكد المستنصر يصبح من الناحية الرسمية خليفة حتى قلده بدوره حكم : الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفرانية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا وثمدا . وفوض اليه أمر جندها ورعاياها ، بعد ان أصبح بالمكارم فردا . وقد اورد المقريزى نص هذا التقليد فى كتابه السلوك وهو أشبه ما يكون بدستور مثالى لما يجب أن يكون الحاكم فى زمن السلم والحرب .

ويتهم البعض الظاهر بيبرس أنه بعد أن حصل على اعادة الخلافة العباسية فى مصر على عادته ، فقد رأى أن يتخلص من الخليفة نفسه حتى لا يتحول الى خطر عليه فأرسله الى بغداد مع بعض العسكر لاسترداد ملكه فكان فى ذلك نهايته حيث

قتله التتار ، ويقولون ان الظاهر بيبرس كان يعرف أن مثل هذه المهمة الجبارة لا ينهض بها الخليفة بهذا العدد القليل من الجند ، ولو كان جادا فى هذه القضية ، لسار معه بنفسه بكل جيشه .

ولكن يرد على ذلك باحتمال ان يكون الخليفة العباسى الجديد هو الذى طلب من الظاهر بيبرس أن يقوم بهذه الحملة ، فلم يكن باستطاعة بيبرس الا أن يجيبه الى طلبه .

الخليفة الحاكم بأمر الله :

استحضر الظاهر بيبرس فى العام التالى اميرا عباسيا جديدا ، وجعل منه خليفة بدلا من الخليفة الراحل ، ولقب باسم الحاكم بأمر الله . ويبدو أن الظاهر بيبرس فى خلال هذه المدة ، كان قد راجع نفسه فيما يجب أن يكون عليه دور هذا الخليفة ، فحظر عليه ان يظهر فى المناسبات العامة ، وحظر عليه أن يقابله أحد الا باذن من السلطان فأصبح محجورا عليه فى خلافة وصفها المقريزى بأنها : لا أمر فيها ولا نهى وحسبه أن يقال له امير المؤمنين .

واصبح المستفيد الوحيد من اعادة الخلافة العباسية هم سلاطين المماليك ، اذ اصبح لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الاسلامى . باعتبارهم حماة الخلافة المستمتعون ببيعتها .

واصبحت القاهرة هى البلد الوحيد الذى يتطلع اليه العالم الاسلامى كله ويدين له بالولاء . حقا لقد كانت القاهرة مقر خلافة فاطمية كما تعرف ، ولكن كان ينازع هذه الخلافة العباسيون فى الشرق ، والأمويون فى الغرب ، أما فى هذه الفترة من تاريخ العالم الاسلامى فلم يعد باقيا فيها الا خلافة واحدة يستظل العالم الاسلامى كله بلوائها وهى خلافة عباسية فى مدينة القاهرة .

وسرعان ما نهضت القاهرة الى مستوى المكانة التى رفعتها اليها الأحداث . فلم تلبث أن تكون هى حامية التراث الاسلامى ومنقذته من التبدد والضياع ، بما سيؤلف فيها من موسوعات فى شتى فروع المعرفة ، هى سبيلنا فى الأيام الحاضرة للاحاطة بالتراث الحضارى الاسلامى .

١٢٦٥ م ــ ٦٦٣ هـ : بناء المدرسة الظاهرية ببين القصرين :

تم انشاء المدرسة الظاهرية فى هذه السنة . وفى يوم الأحد الثالث عشر من صفر بدأ التدريس فيها . وقد خصص لها المدرسون فى مختلف فروع العلوم الدينية ووقف عليها خزانة كتب ، وبنى الى جانبها مكتب لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخبز فى كل يوم وكسوة الفصلين .

١٢٦٥ م — ٦٦٣ هـ : تعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة :

فى هذه السنة أوقف ما كان العمل جاريا عليه من تخصيص القضـاء بالمذهب الشافعى ، وأقام نظام القضاة الأربعة بحيث كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى قاض مستقل يحكم على حسب فتوى مذهبه .

١٢٦٧ م — ٦٦٥ هـ : ابطال المنكرات فى مصر :

وفى هذه السنة أبطل الظاهر بيبرس ضمان الحشيشة وأمر باحراقها واخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور فأراقها ، ومنع الحانات من الخواطىء وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، والجهات الشامية .

وقد وصف لنا الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب طيف الخيال حالة مصر فى هذه السنة : لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية ، فى الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الأنعام عهدها ، واعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة وأرباب اللهو والخلانة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان، جيش الشيطان ، وتولى والى القاهرة اهراق الخمور ، واحراق الحشيش .

وشاعت بذلك الأخبـــار ، ووقع الانكار واختفى المسطول فى الدار وقد آذى الخلانة غاية الأذية . وقد دعانى بعض أصدقائى الى محله واعتذر الى عن تقصيره فى الاكرام ، اذ لم يأتنى بمدام . وقال قد غلب على ظنى ان أبا مرة (ابليس) قد مات ، وعد من الرفات فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت فى هذا المعنى .

وقال ابن اياس الذى اورد هذه الرواية بقصيدة ضافية الذيول ينعون فيها ابطال الخمر والملاهى وسائر المنكرات .

جهاد بيبرس ضد الصليبيين :

أمضى الظاهر بيبرس السنوات العشر التالية لاستقراره فى الحكم فى جهاد مستمر ضد التتار من ناحية وضد الصليبيين من ناحية أخرى ، حيث اتخذ هذا الجهاد الأخير فى بادىء الأمر صورة الغارات المتفرقة ثم تحولت الى معارك واسعة النطاق تنتهى بالاستيلاء على حصون وقلاع ومواقع هامة . ولكنه لم يتوصل الى ذلك ، الا بعد ان كان عليه أن يسوى حسابه مع التتار أولا .

ومن حسن حظ العالم الاسلامى أن احدى فرق المغول التى استقرت فى الفجاج (وادى المغول) والتى كان يطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » قد اعتنقت تعاليم الاسلام ، وأصبحت على خلاف مع تتار ايران الذين يهددون العالم الاسلامى .

وتبادل زعيمها « بركة خان » الرسائل والسفارات الودية مع الظاهر بيبرس ، حتى بلغ عدد هـذه السفارات تسعا فى عهـد حكم الظاهر بيبرس وحده ، وظلت

مستمرة بعد ذلك مع خلفاء الظاهر . وقد كان لاسلام القبيلة الذهبية ، ولوقوف زعيمها بركة خان الى جوار المسلمين أثر فى تخفيف الضغط الى حد ما ، عن العالم الاسلامى . بل ان لين بول يذهب الى حد القول انها هى السبب فى انقاذ الاسلام من الفناء .

وكان انكسار حدة الخطر المغولى ، هو الذى مكن الظاهر بيبرس أن يتفرغ لجهاد الصليبيين .

ولكنه قبل أن يقدم على حرب الصليبيين ، رأى ان يتابع سياسة الأيوبيين فى عزل صليبى فلسطين عن العالم المسيحى الخارجى ليسهل عليه الانقضاض عليهم . ولذلك فقد دخل فى مفاوضات انتهت الى معاهدات واتفاقات مع امبراطور بيزنطة بعد أن نجح هذا الأخير فى طرد الحاكم اللاتينى البندقى من القسطنطينية . كما أبرم معاهدة مع منفرد امبراطور الدولة الرومانية الغربية وقد سجل لنا ابن واصل (مؤلف مفرج الكروب) الذى قام بالسفارة بين الظاهر وبين منفرد ، تفاصيل بعثته ومهمته وما وجده فى صقلية وجنوب ايطاليا من مدن اسلامية .

حتى اذا اطمأن الظاهر بيبرس الى سلامة موقفه السياسى والعسكرى بدأ غزواته الموفقة ضد الصليبيين فى فلسطين فراحت معاقلهم تتساقط واحدة بعد أخرى طوال السنوات الماضية ــ قلعة قيسارية (٥ مارس سنة ١٢٦٥) مدينة ارشوف (٢٦ ابريل سنة ١٢٦٥) واستسلمت له قلعة صفد (٢٣ يونية سنة ١٢٦٦) وسقطت مدينة يافا فى يده (فبراير سنة ١٢٦٨) .

١٢٦٨ م ــ ٦٦٦ هـ : سقوط دولة انطاكية الصليبية :

فى ٥ رمضان (٢٠ مايو) توج الظاهر بيبرس انتصاراته ضد الصليبيين بالاستيلاء على مدينة انطاكية مركز احدى دويلات الصليبيين القوية فأحدث سقوطها دويا فى العالم الاسلامى والمسيحى معا ، فقد كانت انطاكية هى ثانى دولة صليبية انشئت فى الشرق بعد دولة الرها ، وكانت تعتبر أكبر حصن للصليبيين فى الشرق ، فهى مدينة قوية محصنة عجزت بيزنطة بكل قوتها أن تستولى عليها .

ولم يبق بعد سقوط انطاكية ، سوى مملكة طرابلس فى الشمال وعكا وصور فى الجنوب ، وقد عادت كلها فطلبت عقد الصلح مع الظاهر بيبرس ، فأجابهم الى هذا الصلح . ويقال ان الظاهر بيبرس دخل الى طرابلس متخفيا باعتباره أحد أعضاء وفد المفاوضات ليعرف مداخل المدينة ومخارجها تمهيدا لفتحها فى الوقت المناسب .

١٢٧٠ م ــ ٦٦٨ هـ : الحملة الصليبية الثامنة :

اهتزت أوربا كما هو دأبها لسقوط انطاكية ، وارتعد البابا اربان الرابع فدعا

لويس التاسع ملك فرنسا بعد ان أصبح يطلق عليه اسم الملك القديس ، ليعد حملة صليبية جديدة على أن اربان لم يلبث أن توفى وخلفه البابا كلمنت الرابع فكتب الى ملوك أوربا يهيب بهم ويستحثهم لانقاذ الدولة الصليبية فى الشرق ، فلم يستجب له سوى لويس التاسع ملك فرنسا ، ورغبة من البابا فى تشجيع لويس على تدبير الحملة فقد أطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما يشاء ، فشرع لويس التاسع فى تجهيز الحملة الصليبية الثامنة وكأنه يريد أن يثأر لما منى به من فشل فى المرة السابقة ووصل نبأ الاستعداد لهذه الحملة الى الظاهر بيبرس فترك الشام الى مصر ليتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهتها .

تحول الحملة الصليبية عن وجهتها :

رفضت البندقية أن تنقل جيوش هذه الحملة الى مصر او الشام حرصا على اتفاقاتها التجارية وعلاقاتها الودية مع مصر . فاستعان لويس التاسع بسفن جمهورية جنوا التى بدأت تنافس البندقية ، وعندما وصلت الحملة الى جزيرة صقلية ، استطاع شارل دانجو اخو لويس التاسع والذى كان قد أصبح ملكا على الجزيرة ، أن يقنع لويس التاسع بأن يتجه بالحملة صوب تونس للاستيلاء عليها أولا بدلا من مصر أو بيت المقدس مصورا له أن عملية الاستيلاء على تونس ستكون هينة لينة ذلك أن هوى سلطان تونس (على ما زعم) مع المسيحيين وسيفتح للحملة ذراعيه . وأن الاستيلاء على تونس هو خير طريق للاستيلاء على مصر من طريق شمال افريقيا .

واستمع لويس التاسع لهذا التوجيه ، فقصد بجيشه المؤلف من ستين الف مقاتل الى تونس ، وانتهت الحملة بالاخفاق الذريع فقد قاومتهم تونس وانتشر الطاعون بين أفراد الحملة ، ومات لويس التاسع نفسه ضحية للطاعون ، دون أن تكتحل عيناه برؤية ذهب تونس الموعود فضلا عن الوصول الى وادى النيل ، وحاول شارل أن يواصل الحرب ولكنه اخفق بدوره عن أن يحقق نصرا ، فدخل فى مفاوضات مع المستنصر الحفصى سلطان تونس ، مبديا الاستعداد للانسحاب بالحملة من تونس مقابل دفع مبلغ من المال على سبيل التعويض عما أنفق فى الحملة . واشترى سلطان تونس السلام بدفع هذا المبلغ . وانسحبت فلول الفرنسيين من تونس تجر أذيال الهزيمة والاخفاق . وكان ذلك هو آخر العهد بالحملات الصليبية الأوربية ، فقد كانت الريح بدأت تهب فى اتجاه مغاير .

١٢٧٣ م – ٦٧٢ هـ : تصفية خطر الاسماعيلية (الحشاشين) :

وتنفس الظاهر بيبرس الصعداء ، ورأى ان يستعد للجولة الأخيرة لتصفية الصليبيين فى فلسطين ، ولكنه رأى قبل أن يقدم على خطوته الأخيرة ، أن يخلص المجتمع الاسلامى من احدى البؤر التى كانت تهدده دائما بكثير من المخاطر والأضرار ، وتلك هى الطائفة الاسماعيلية ، التى طالما أرقت بفدائييها أبطال العالم الاسلامى ، والتى أوشكت يوما ما أن تفجع المسلمين باغتيال صلاح الدين ، وكان خطرهم المميت

يتجلى اكثر ما يتجلى فى تحالفهم مع الصليبيين ضد المسلمين فى كل الغزوات التى قام بها الصليبيون .

وكان نجم الاسماعيلية فى أفول ، بعد أن قضى عليهم جنكيز خان فى بلاد فارس ، ومع ذلك فقد ظل لهم عـــدد من القلاع القوية فى بلاد الشام . مثل مصياف والعليقة والقدموس والخوابى والكهف والرصافة وغيرها .

وقرر الظاهر بيبرس ان يستولى على هذه القلاع كلها ، بالسلم والمفاوضة حينا وبالقوة حينا آخر ، حتى استولى على هذه القلاع كلها ، وسير الاسماعيلية الى مصر ، حيث أقطعهم بعض الاقطاعيـــات ، فلم يلبثوا أن زال خطرهم وذابوا فى شعب مصر المسالم .

١٢٧٢ م ــ ٦٧١ هـ : هزيمة التتار على نهر الفرات :

فى الخامس من جمادى من هذه السنة وصلت الأخبار الى الظاهر بيبرس وكان مقيما فى دمشق ، أن التتار يحاصرون مدينة البيرة ويرابطون على شاطىء الفرات ليحولوا دون وصول النجدات اليها . فسار اليهم الظاهر فى جيشه واستطاع أن يهزم التتار وأن يجليهم عن شاطىء النهـــر بعد أن عداه سباحة مع فرسانه وارتد التتار عن مدينة البيرة مخلفين وراءهم معسكرهم وأثقالهم وأزوادهم ، ودخل الظاهر الى مدينة ألبيرة فائزا منتصرا .

١٢٧٥ م ــ ٦٧٤ هـ : فتح بلاد النوبة والسودان :

انتهز داود ملك النوبة المسيحى فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد الصليبيين والاسماعيليين فى الشام ، لكى يخرج على الظاهر بيبرس ويشن الغارات على مدينة أسوان ، وميناء عيذاب ونهب ما فى البلدتين واحراقهما ، فبعث اليـــه الظاهر بجيش هزمه هزيمة منكرة وطارده داخل بلاده واستولى على كل بلاد النوبة حتى مدينة دنقلا ووضع على العرش النوبى شكنده الذى اخذ على نفســـه أغلظ المواثيق أن يكون تابعا مخلصا أمينا لسلطان مصر . وأن يؤدى كل عام من العبيـــد والحيوانات والأموال ما جرى الاتفاق على تقديمه منذ أقدم العصور .

١٢٧٦ م ــ ٦٧٥ هـ : انتصار الظاهر على التتار :

قرر بيبرس أن ينزل ضربة قاضيـــة بالتتار الذين ما انفكوا منـــذ ولى السلطان يهاجمون أطراف مملكته ويستولون على بعض المدن الشمالية فلا يكاد يسرع اليهم حتى يتقهقروا متخلين عنها . ورأى الظاهر أن يضربهم فى معقلهم الجديد بآســـيا

الصغرى ، فقد كانوا قد استقروا بها بعد ان اخضعوا سلاجقة الأتراك لسلطانهم ، واصبح معيد الدين برواناه السلطان السلجوقى يحكم باسمهم تحت رقابة جيش مغولى كبير يرابط فى بلاده . فزحف الظاهر بيبرس فى هذه السنة بجيشه الذى اصبح يتألف من أحد عشر الفا من المماليك المختارين المدربين . وعند مدينة ابلستن تم اللقاء بين التتار وجيش بيبرس ١١ ذى القعدة (١٦ ابريل) ودارت معركة من اعنف المعارك ، انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم ، وبلغ عدة من جندل على أرض المعركة منهم سبعة آلاف قتيل ، أضاف اليهم الظاهر بيبرس الأسرى اذ أصدر أمره بقتلهم جميعا .

وقد قرر لابقا ملك التتار ان يمر بأرض المعركة فلم يتمالك نفسه على ما يقول لنا مؤرخ المغول رشيد الدين الهمزانى ، من البكاء حزنا على رجاله .

اما الظاهر فقد دخل مدينة (قيسارية) قيصرية عاصمة الأتراك السلاجقة طوال المائتى سنة السابقة ، وجلس على عرش السلاجقة يتلقى ولاء الشعب وقد أقيمت الصلوات باسمه فى المساجد ، وضربت السكة باسمه ، ووفدت اليه أمراء الأطراف والنواحى يقدمون خضوعهم وتبارى الشعراء فى تخليد هذا الانتصار الرائع بقصائدهم التى لا تزال تحفظها كتب التاريخ .

١٢٧٧ م ــ ٦٧٦ هـ : وفاة الظاهر بيبرس :

فى يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم مات الظاهر بيبرس فى مدينة دمشق بعد مرض استغرق أسبوعين .

وهكذا طويت صفحة بطل آخر من أكبر أبطال المسلمين ، واذا كان يشين بطولته من وجهة نظرنا عدوانه على قطز وغدره به ، فقد عاش بقية حياته بعد ذلك يحاول التكفير عن هذه الفعلة فقد كان شديد الحرص على أن يعوض المسلمين خسارتهم بفقدان قطز . فانتصر أكثر من مرة على التتــار ، وشرع فى تقويض بنيان الدولة الصليبية .

عهد بناء وانشاء وتعمير :

وعلى الرغم من أن الصفــة الغالبة على عهــد الظاهر بيبرس ، هى انتصاراته العسكرية ، فان منشآته المدنية والعمرانية كفيلة وحدها بأن تجعله على رأس من حكموا مصر . وتخصص كتب التاريخ صفحات عديدة لتعداد هذه المنشآت وحسبنا أن نشير اليها ليدرك الباحث مدى اتساع نطاقها .

قنــاطر :

انشأ قنــاطر شبرامنت بالجيزة وعمر جسر القليوبيــة والقنــاطر على بحر

ابى المنجا ــ وقنطرة السباع ، وقنطرة مينا السيرج ــ وقنطرتين عند القصير على بحر ابراس بسبعة أبواب لكل قنطرة .

وانشأ فى الجسر الذى سلك فيه الى دمياط ست عشرة قنطرة وبنى على خليج الاسكندرية قنطرة عظيمة بعقد واحد .

الترع :

وانشأ من الترع والخلجان كما كانت تسمى : خليج اسكندرية الذى أعاده الى سابق فاعليته ، وحفر بحر أشموم وترعة الصلاح وخور منجا والمحارى والكافورى وابو الفضل ، وبحر الصمصام بالقليوبية وبحر سردوس .

المدارس والجوامع والقصور :

انشأ المدرسة الصالحية ، وعمر الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج الحسينية (والذى لا يزال قائما « بالظاهر ») وانشأ دار الذهب بقلعة الجبل . ودورا وقصورا بظاهر القلعة . والبرج الكبير بقلعة الجبل .

كما جدد الجامع الأنور والجامع الأزهر واعاد اليه الخطبة بعد أن كان خرابا منذ بدات الدولة الأيوبية . وبنى جامع العافية بالحسينية وانفق عليه اكثر من الف ألف درهم .

وانشأ قريبا منه زاوية الشيخ فضل . وعمر بالمقياس القبة وانشأ بها عدة جوامع وعدة قلاع .

فى الاسكندرية ودمياط :

وعمر سور الاسكندرية ، وجدد المنائر التى بها وعمر منارا بثغر رشيد وردم فم بحر دمياط حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج .

الاسطول :

وعمر الشوانى (أى الأسطول) واعاده الى سابق قوته بعد ان كان الاسطول قد بلغ نهاية ضعفه أيام الصالح أيوب فجدده بيبرس حتى أصبح لدى مصر ما يزيد على أربعين سفينة حربية كبيرة مما كانت تسمى (الشوانى) وأضعاف هذا العدد من الجرار ويعدو الطرائد ونحوها وكان ينزل بنفسه الى دار الصناعة بجزيرة الروضة ويشرف بنفسه على بناء السفن .

ولم يقلل من اهتمامه بالأسطول ، الاخفاق الذى منى به الأسطول عند محاولته فتح قبرص بسبب الريح التى أطاحت به ، فقد أعاد بناء الأسطول واعاده الى اكبر من قوته الضائعة .

فى بلاد الشام :

وبنى بالبلاد الحجازية والشامية ما لا يمكن حصره من القلاع والعمائر والمساجد.

يقول ابو المحاسن : وبالجملة فقد بنى فى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن مثله أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب ، من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات .

واضع نظم دولة المماليك :

وكان هو واضع درجات الوظائف الكبرى ـ كأمير السلاح وأمير المجلس وراس نوبة والحاجب والخازندار وأمير آخور والسراخور والجمدار . وحدد لكل هـذه الوظائف اختصاصها الذى ظل متبعا من بعده خلال قرنين من الزمان .

وهو الذى نظم البريد بحيث اصبح يمثل فى عصره ذروة ما وصل اليه البريد فى كل تاريخ الدولة الاسلامية على ما يقرره الدكتور نظير سعداوى .

وحيث وصل نظام استخدام الحمام الزاجل الى ما يقرب من أسرع بريد فى وقتنا الحاضر . وحلت الاشارات الضوئية باشـعال النيران ، محل اللاسلكى فى عصرنا الحديث . فلا يكاد التتار يهاجمون حدود الدولة فى الموصل ، حتى ينتقل الخبر فى ساعات الى مصر .

العلماء الاعلام :

ويزين عصر بيبرس عدد كبير من الرجال الأعلام فى كل علم وفن ومجال . وعلى رأس الجميع الشيخ عز الدين عبد السلام الملقب بسلطان العلمـاء والذى اشرنا الى بعض مواقفه .

والقاضى ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيـان الذى عينه الظاهر بيبرس قاضيا لدمشق والذى ترك لنا مرجعا يعتبر من كنوز التاريخ . والمؤرخ جمـال الدين بن واصل .

وغص عصره بالشعراء واهمهم شرف الدين البوصيرى صاحب المسجد المشهور فى الاسكندرية ومؤلف قصيدة البردة فى مدح الرسول .

اشتداد تيار الصوفية :

ويزدان عصره بأسماء أقطاب التصوف الذين لا يزال الناس يبجلونهم حتى الوقت الحاضر من أمثال أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى والسيد احمد البدوى وابراهيم الدسوقى .

والقول على أن تيار التصوف فى هذه الفترة ، هو رد فعل ما حاق بالمسلمين من تدمير بغداد فى الشرق ، وتصدع الدولة الأندلسية فى الغرب ، مما جعل ريح الزهد والتقشف والعودة الى الله تتملك كثيرا من النفوس الحساسة .

بيبرس الأسطورة :

وبعــد فقد استطاع الظاهر بيبرس ان يستولى على عقــول معاصريه بحياته وسلوكه ومعاركه وأسلوبه فى الحكم ، وظهوره فى كل مكان فى أرجاء دولتــه حيث لا يتوقعون ظهوره ، فحيث يظن أنه فى مصر اذا به فى بلاد الحجاز يحج فى خشوع ، ويترك آثاره المعمارية قائمة حتى اليوم ، وحيث يظن انه فى قلعة الجبل ، اذا به يعيش فى احدى القرى على صورة درويش يستطلع أحوال الشعب .

وهكذا ظلت الأساطير تنسج حوله ، فتلقف ذلك اديب مصرى مجهول الف لنا « سيرة الظاهر بيبرس » فكانت ملحمة للبطولة وظلت قرونا يتغنى بها الشــعراء والقصاص فى المقاهى ومجالس السمر فتثير الحماسة والنخوة فى نفوس السامعين .

١٢٧٧ م ــ ٦٧٦ هـ : سلطنة الملك سعيد محمد بن الملك الظاهر :

فى يوم الجمعة ٢٧ صفر من هذه السنة بويع بالسلطنة محمد بن الملك الظاهر المدعو بركة خان وكان ابوه الظاهر قد أسماه بركة خان تيمنا باسم جده بركة خان زعيم مغول القبيلة الذهبية والذى تزوج الظاهر بيبرس ابنته فأنجب منها السلطان محمد المذكور . وقد لقب بالملك السعيد ناصر الدين .

وكان أبوه قد جعله ولى العهــد من بعده عام ٦٦٢ هـ وزوجه ابنة كبير الأمراء سيف الدين قلاوون ليضمن ولاءه له من بعد ، حيث كان يدرك ضيق المماليك به .

واذا كان القــول على أن الظاهــر بيبرس هو واضـــع أسس النظــام المملوكى فباستطاعتنا ان نجد فى وصيته لأبنه ، المبدأ الذى ســـار عليه كل سلاطين المماليك من بعده حيث قال له :

انك صبى وهؤلاء الأمراء الأكابر سيظلون ينظرون اليك باعتبارك صبى ، فأيما أمير بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت من ذلك فاضرب عنقه فورا ، لا تعتقله ولا تستشر احدا فى هذا ، وافعل به ما أمرتك والا ضاعت مصلحتك .

ولم يجد السلطان الجديد نفعا من توصية أبيه له ، ولا زواجه من ابنة سيف الدين قلاوون ، فلم تكن له صفات أبيه وانما كان شابا حدثا محبا للهو واقعا تحت تأثير أمه المغولية من ناحية ، وحاشيته العابثة من ناحية اخرى . وقد حرضته حاشيته على كبار الأمراء فعزل بعضهم وحبس الآخر ، فتآمر المماليك عليه وقرروا خلعه .

١٢٧٩ م ــ ٦٧٨ هـ : خلع السلطان الملك السعيد :

كان الرجل الذى تصور الظاهر بيبرس وهو سيف الدين قلاوون ان يكون هو

سند ابنه من بعده ، هو العامل على خلعه ، ولا عجب فى ذلك ، فقلاوون كان أحد بناة حكم المماليك البحرية ، شهد الوقائع كلها الى جوار الظاهر بيبرس ، ولم يكن يرى لاحد من ميزة عليه .

ولذلك فقد تزعم القرار بخلع السلطان سعيد ، فتم خلعه فى اليوم السابع عشر من ربيع الثانى من هذه السنة .

ورعاية لكونه زوج ابنة قلاوون ، فقد ملكوه حصن الكرك وسار اليه مع زوجته ابنة قلاوون .

تولية السلطان الملك العادل سلامش على مصر :

عرض الأمراء كما هى عادتهم السلطنة على قلاوون باعتباره اقواهم واقدمهم والساعى على خلع السلطان السابق ، ولكن حنكة قلاوون ودربته رأت أن لا يتعجل الأمر ، فقد كان يحس بعض المعارضـــة الخفية فى صفوف الأمراء ، ولذلك فقد قال لهم :

أنا ما خلعت الملك السعيد طمعا فى السلطة ، والأولى ان لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر . ورشح لهم بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس الصغير الذى لم يكن عمـره يتجاوز سبع سنوات ليكون سلطانا ، على أن يكون هو مدبر المملكة أو بلغـة ذلك العصر (اتابكا) فتم ذلك فى نفس اليوم الذى خلع فيه أخوه واطلق عليه اسم العادل وعلى الوجه الآخر اسم قلاوون ، وخطب للاثنين معا على المنابر .

سلطنة منصور سيف الدين قلاوون على مصر :

لم تكد تمضى ثلاثة أشهر على تولية السلطان الجديد ، حتى كان قلاوون قد دبر اموره هو الى جـــوار تدبير أمور المملكة ، فتخلص من بعض الأمراء الذين يخشى معارضتهم لسلطنته ، ووضع أهل ثقته فى المراكز الحساسة . حتى اذا اطمأن الى عمله جمع الأمراء واعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل صـغير فى السلطنة . فالمملكة لا تقوم الا على أكتاف رجل كامل فوافقوه على رايه وعزل سلامش وابعد الى الكرك ليكون مع أخيه بركة . وعين الابن الثالث للظاهر بيبرس واسمه خضر نائبا على حصن الشوبك .

١٢٨٠ م ـ ٦٧٩ هـ : ثورة سنقر الاشقر بالشام :

لم يعجب هذا التصرف أحد اقطاب المماليك البحرية وهو سنقر الأشقر ، وكان قلاوون قد بعث به نائبا للسلطان على الشام ، فأعلن استقلاله بملك الشام ، وتلقب بالملك الكامل وحمل القضاة والأمراء والعامة على الاعتراف به ، وانضمت اليه قبائل البدو الشامية .

فبعث اليه قلاوون بجيش على راسه الأمير علم الدين سنجر ، فاستطاع ان يهزم جيش سنقر الأشــقر فى مكان قريب من دمشق بعد ان خذلتــه بعض فرقه وانحازت الى علم الدين . ولكن سنقر الأشقر لم يستسلم واستطاع مع فريق من انصاره أن ينحاز الى بعض المواقع فى شمال الشام وأن يتحصن بها ، وبعث برسله الى مغول فارس يحرضهم على غزو الشام وانه سيكون عونا لهم .

١٢٨١ م ــ ٦٨٠ هـ : هزيمة التتار فى موقعة حمص :

لم يكن التتار يترقبون خيرا من هذه الفرصة لكى يحققوا ما عجزوا حتى ذلك الوقت عن تحقيقه وهو احتلال الشام تمهيدا لاحتلال مصر . وكانوا قبل هذا التمرد الذى قام به سنقر الأشقر ، قد أغاروا على مدينة حلب ونهبوها ، ولكنهم عادوا الى بلادهم خوفا من تكتل جيش المماليك عليهم . أما هذه المرة فقد عقدوا العزم على خوض معركة حاسمة فجاءوا بقوة كبيرة .

وتسامع قلاوون بمقدمهم فخرج من مصر حاشدا كل ما استطاع حشده من قوى . وعنــدما وصل الى أرض الشام ، أدرك سنقر الأشقر أن لا قبل له بمعاداة قلاوون ، أو لعل ضميره قد استيقظ ثانية على استقدامه للتتار ، فاتصل بقلاوون طالبا منه العفو والصلح فمنحه اياه على الفور .

وفى يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب ، تم اللقاء بين جيوش التتار تحت قيادة منكوتمر بن هولاكو على رأس جيش يتراوح عدده ما بين ستين وثمانين الفا .

وجيش مصر يزيد على خمسين الفا ، وعلى ذلك فقد كانت معركة حمص تفوق معركة عين جالوت من حيث كثرة عدد الجند الذى اشترك فيها من الطرفين .

وبعد أن تقلب سير المعركة بين انتصار التتار فى أولها على الجناح الأيسر للجيش المصرى ، فان بقية الجيش (الجناح الأيمن) استطاعت أن تتغلب على التتار وأن توقع بهم هزيمة منكرة ، فر على أثرها التتار وفرسان المماليك تتعقبهم قتلا واسرا ، حتى وصلت فلول المنهزمنين من التتار الى نهر الفرات ففرق فيه عدد كبير منهم .

وقد أصيب منكوتمر نفسه فى المعركة ، ولكنه نجا بنفسه ليموت فى العام الثانى متأثرا باصابته وما أصابه فى المعركة .

وهكذا كانت موقعة حمص تتويجا لمعركتى عين جالوت وابلستن وهى باتفــاق المؤرخين أعظم هزيمة منى بها التتار .

وقد اعقبها ما يشبه الهــدنة المسلحة التى دامت سبعة عشر عاما لم يجــرؤ فى خلالها مغول ايران على العدوان على حدود الدولة الاسلامية المصرية .

ومن حسن حظ الاســلام والبشرية ، أن دين الاســلام لن يلبث ان يأخذ طريقه

الى قلوب سلاطين التتار ، ولذلك فعندما يستأنفون هجومهم على الدولة الاسلامية لن يكونوا خطرا ماحقا عليه ولن يكرروا أساليبهم البربرية التى كانت دستورهم .

١٢٨٤ م — ٦٨٣ هـ : بناء القبة والمسجد والبيمارستان :

وفى هذه السنة اتم قلاوون مؤسسته الاجتماعية العظمى المثلثة الأغراض وهى المدرسة والقبة والبيمارستان والتى غلب عليها اسم البيمارستان (المستشفى) وقد قيل فى سبب بنائها على ما روى ابن اياس ان الملك المنصور امر ممااليكه ذات يوم أن يضعوا السيف فى العـوام لأمر أوجب تغير خاطره عليهم . فلما راق خاطر السلطان ندم على فعلته بالناس وبنى هذا البيمارستان وفعل من أنواع الخير ما لم يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس ، لعل الحسنات يذهبن السيئات .

ولكنا لا نميل لهذا الرأى ، لما اشتهر به قلاوون من حبه للعدل وكراهيته لسفك الدماء ، واذا كانت يد المماليك مبسوطة على بعضها فقلما كانوا يتعرضون لعـامة الشعب ظلما وعدوانا .

ولذلك فنحن نرجح الرواية الأخرى التى ذكرها المقريزى من أن سبب بنائها ، هو أن قلاوون مرض فى حياة الظاهر بيبرس وكان بدمشق فعالجه الأطباء بأدوية اخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد فشفى . ثم زار البيمارستان فلما رآه اعجبه ونذر أن أتاه الله الملك أن يبنى مارستانا مماثلا ، فلما تسلطن حقق نذره . ولا جدال أن انتصاره الساحق على التتار ، قد قوى عزمه على المضى فى انشـائه واتمامه على أحسن وجه .

القبـــة :

أما القبة فقد بناها قلاوون لتكون جامعا ومسجدا ومدفنا له بعد موته ، وقرر لها خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا — ورتب لها اماما دائما لاقامة الصـلوات كما جعل بها رئيسا للمؤذنين يؤذنون فوق منارة (مئذنة) ليس فى مصر اجـل منها . ورتب بهذه القبـــة درسا لتفسير القـرآن وعين له مدرسا ومعيدين وثلاثين طالبا .

كما كان يدرس بها الحديث النبوى . وأنشأ فى القبة خزانة كتب عامرة .

المدرســـة :

أما المدرسة فقد انشئت على نهج المدارس التى أصبح انشاؤها مألوفا فى مصر ، لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وعين لها اماما وامينا ، ومعلمين لتدريس المذاهب الأربعة والحق بها ملجأ للأيتام .

البيمارستان :

على أنه لا القبة ولا المدرسة ، هى التى خلدت منشآت قلاوون العمرانية بقـدر

ما خلدها بيمارستانه الذى لا يزال يعمل حتى الآن بعد انقضاء خمسمائة عام على انشائه ، وهو اذا كان اليوم قد اقتصر على علاج العيون ، فقد كان عند انشائه أحد اعاجيب العصر ، كما قرر ذلك ابن بطوطة عندما زار مصر بعد انشائه بسنوات .

ويصف لنا المقريزى بتفصيل دقيق نظـام البيمارستان ، فيأخذنا العجب لهذا الوصف الذى ينطبق على أرقى المؤسسات العلاجية فى عصرنا الحديث حيث يقول :

وقد رتب فيه الأطباء والعقاقير وسائر ما يحتاج اليه من به لعلاج أى مرض من الأمراض .

وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المعالم (أى المرتبات) ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض . وافرد لكل طائفــة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين المارستان الأربعــة للمرضى بالحميات ونحوها . وأفرد قاعة للرمد وقاعة للجرحى وقاعة للاسهال وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين منقسم الى قسمين . قسم للرجال وقسم للنساء . وجعل الماء يجرى فى كل هذه الأماكن .

وافرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال وغيرها . ومواضع لتخزن فيــه الحواصل (أى المؤونة) وجعل مكانا تفرق فيــه الأشربة والأدوية (العيادة الخارجية) ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء ــ لالقــاء دروس الطب .

وكان القــائم بعمارة وانشــاء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين سنجر الشجاعى .

ويضيف لين بول فى أوصاف المستشفى وطرق العلاج به :

ان الموسيقى كانت تعزف للمرضى الذين لا يستطيعون النــوم وتوج ذلك كله بتخصيص مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس الطب (على مثال كلية الطب الملحقة بالقصر العينى) .

وكان المشرف على بناء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين الشجاعى .

مؤسسة للملوك وعامة الشعب :

وبعد أن أوقف المنصور قلاوون على هذا المستشفى الأوقاف الجليلة التى تكفى لنفقــاته السنوية والتى قدرت بألف ألف درهم خصص هــذا العمل العظيم : عــلى من هو مثله (أى سـلطان) فمن دونه ، وجعله وقفــا عــلى الملك والمملوك والجندى والأمير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، الذكور والاناث .

ونحسب ان ليس فى الدنيا كلها من مشرقها الى مغربها قبل أيام قلاوون أو بعده

فى عصرنا الحديث ، ان كرست مؤسسة لكل البشر على السواء الكبير والصغير الحر والعبد الذكر والأنثى الملك والجندى كما هو شأن هذه المؤسسة .

١٢٨٥ م – ٦٨٤ هـ : سقوط حصن المرقب الصليبى :

لم يكد قلاوون يخلص من الخطر المغولى بانتصاره الحاسم فى معركة حمص ، حتى تفرغ لمواصلة ما بدأه الظاهر بيبرس من تصفية الدويلات الصليبية والتى كان لا يزال باقيا منها :

— مملكة طرابلس فى الشمال .

— مملكة القدس المستقرة فى عكا .

وكان الى جوار هذين المركزين عدد من القلاع والمواقع المتناثرة هنا وهناك ، تقيم فى بعضها فرسان الاسبتارية ، ويقيم فى بعضها الآخر فرسان الداوية .

فبدأ عملياته الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على هـذه المراكز والحصون المتفرقة ، فتوجه الى أقواها واحصنها وهو حصن المرقب والذى لم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليه ، فضرب عليه الحصار ثمانية وثلاثين يوما ، استسلم بعدها حماة الحصن ، فتسلمه قلاوون فى يوم الجمعة التاسع عشر من ربيـع الأول من هذه السنة .

١٢٨٩ م – ٦٨٨ هـ : سقوط مملكة طرابلس :

وكان سقوط حصن المرقب مقـدمة لعملية اوسـع نطاقا وهى الاستيلاء على طرابلس . فلم يكد قلاوون يتلقى خطابا من نائبه بالشام يعلمه فيه أن افرنج طرابلس قد نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين . حتى خرج قلاوون بجيشه من مصر على رأس جيشه من منتصف المحرم قاصدا الشام للاستيلاء على طرابلس .

وفى يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الثانى (ابريل) سقطت المدينة الحصينة العظيمة فى يد قلاوون بعد حصار دام أربعة وثلاثين يوما .

وزفت البشائر على الآفاق بهذا النصر العظيم ، وزينت المـدن واحتفل الناس فى أرجاء العالم الاسلامى وتبارى الشعراء فى تخليد هذا العمل العظيم .

١٢٩٠ م – ٦٨٩ هـ : خرق صليبيى عكا الهندنة :

ولم يبق بعد سقوط دولة طرابلس الصليبية الا دولة عكا .

ولسنا ندرى مدى الصحة فيما يقوله مؤرخو المسلمين من أن عكا بعد طرابلس

كانت هى البادئة بخرق الهدنة . فان العقل يستبعد بعد ان وصل الصليبيون الى ما وصلوا اليه من ضعف ، وانشغال أوربا عنهم ، وبعد أن رأوا قوة قلاوون ، أن يكونوا هم الذين يخرقون الهدنة .

وأغلب الظن أن خرق الهدنة كان يتخذ علة للهجوم عليها والفراغ منها .

ومع ذلك فان للقدر احكامه ، وليس هنـاك ما يمنع بالفعل ان يجعل الطيش يستهوى عقول بعض المغامرين تعجيلا لنهايتهم ، فينقضون الهدنة ويعتدون على بعض تجار المسلمين . كيفما كان الأمر ، فقد خرج قلاوون بجيشه الى ظاهر القـاهرة فى أواخر شوال من هذه السنة ، استعدادا للسير نحو مدينة عكا والاستيلاء عليها ، ولكن المرض حل به فأقعده عن السير .

وفاة السلطان المنصور قلاوون :

فى ليلة السبت السادس من ذى القعـدة توفى السلطان الملك المنصور قلاوون وكان عمره يوم وفاته سبعين سنة ومدة سلطنته على مصر احدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما ، وهو من هذا الرعيل الأول من المماليك البحرية الصالحية الأتراك أمثال قطز وبيبرس الذين أسهموا فى قيام دولة المماليك ولذلك فقد سـار على نهجهم ، واتبع أسلوبهم . سواء فى شئون السياسة أو فى الحرب ، أو فى البناء والتعمير الداخلى .

مؤسس المماليك البرجية :

وكما يعتبر الصالح نجم الدين ايوب هو مؤسس المماليك البحرية فان المنصور قلاوون هو مؤسس المماليك البرجية الذين ينتمون الى الجنس الشركسى : اما سبب تسميتهم البرجية ، فلأنه بنى لهم أبراجا فى القلعـة وأنزلهم بها ، وكان عـدة من اقاموا بهذه الأبراج على ايامه ثلاثة آلاف وسبعمائة .

ووضع لهم النظام الذى من شأنه أن يجعل منهم قوة فعالة ، فكانوا يستوردون من موطنهم وهم صغار السن ، ثم يتعهدونهم بالتربية الدينية والعسكرية ، ولا يسمح لهم بالنزول من القلعة الى المدينة .

ثم يتدرجون بعد ذلك حسب ما يظهرونه من نجابة واستعداد للترقى كما كان متبعا بالنسبة للمماليك البحرية .

ولن يلبث المماليك البرجية ان يصبحوا هم القوة الحاكمة . وينشئوا لأنفسهم دولة فى مصر تعرف باسمهم .

سلطنة الملك الأشرف خليل على مصر :

على الرغم من أن قلاوون لم يشأ أن يوقع على المرسوم القاضى بتعيين ابنه الأشرف خليل سلطانا من بعده لعدم رضائه على سلوكه بعد أن جربه فى نيابة السلطنة ، فقد

كان له من قوة الشخصية ، والشهرة بين الأمراء ، ما جعلهم يبايعونه عندما جلس على اريكة الملك ولم يتخلف واحد منهم . وكان ذلك فى يوم الاثنين الثامن من ذى القعدة .

١٢٩٠ م ـ ٦٩٠ هـ : سقوط مدينة عكا الصليبية :

مضى الأشرف خليل فى تنفيذ عزم والده الذى مات قبل انجازه وهو تصفية آخر مراكز الصليبيين فى فلسطين فخرج بالجيوش التى كان أبوه قد أعدها من مصر وكتب لنوابه فى الشام أن يوافوه بجيوشهم حول مدينة عكا .

وفى الثالث عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة بدىء فى حصار مدينة عكا ونصبت حولها المنجنيقات التى بلغ عددها ٩٢ منجنيقا وكان من بينها ما يسمى بمنجنيقات أفرنجية ، ومنجنيقات شيطانية وهى التى تقذف بالحجارة لتهديم الأسوار ، كما تقذف بالنيران .

واستنجد أهل عكا بصاحب قبرص الذى كان يعتبر ملكا لهم فخف لنجدتهم ، ولكنه بعد أن وصل الى المدينة رأى من أحوالها وانقسام أهلها ما دله على أن نهاية المدينة أصبحت محتومة ، فلم يلبث أن انسحب عائدا الى جزيرته .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى (١٨ مايو) سقطت المدينة وان ظلت أربعة أبراج داخل المدينة تجمعت فيها فرسان الاسبتارية والداوية ، تقاوم وترفض الاستسلام ، ولكنها سقطت فى النهاية بعد أن مات أو جرح أكثر من فيها .

وقد سجل لين بول فى كتابه القيم تفصيلا رائعا للحظات الأخيرة من حياة الصليبيين فى عكا .

تساقط بقايا المراكز الصليبية :

وبعد سقوط عكا ، تساقطت آخر الحصون والمراكز الصليبية فى صور التى لو سقطت منذ مائة عام بيد صلاح الدين لتغير تاريخ المنطقة ، ثم سقطت على أثرها صيدا وبيروت وعنليت والطرسوس ولم يبق شبر واحد على أرض ما نسميه اليوم فلسطين أو لبنان فى حكم الصليبيين .

وارتجت دمشق والقاهرة وجميع مدن العالم الاسلامى بالافراح والزينات لانتهاء عهد الصليبيين فى الشرق ، وعودة الأرض الى أصحابها .

خمود الروح الصليبية :

ولم يثر استئصال شأفة الحكم الصليبى فى الشرق ما اعتاد أن يثيره من قبل فى أوربا ، ولم يصل جندى واحد من أى بلد من البلاد التى اعتادت أن ترسل الحملات على سبيل النجدة . ذلك أن ريح تغير عميق كانت توشك أن تهب على

أوربا ، حيث تخلع رداء ظلمات العصــور الوسطى ، لتدخل فى نور نهضتها العظيمة التى لا تزال مستمرة حتى الآن ، وان كان السلطان السياسى والعلمى قد تحول عنها الى امريكا والاجمــاع بين المؤرخين منعقد على أن احتــكاك الغرب الأدنى بالشرق الاسلامى هو أحد أسباب هذه النهضة .

يقول احد المؤرخين الاوربيين : لقد جاء الصليبيون الى الشرق مخلفين وراءهم أوربا التى كانت مؤلفة وقتذاك من قرى صغيرة تغص بالزرايب ومرابط الخنازير والفضلات المتعفنة وروائح الناس الذين ورثوا معاطفهم وقبعاتهم عن أجدادهم ، الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون ، حتى لقد غشى يوما ما على ملك فرنسا عندما كان ينظر من نافذة قصره من شدة نتن رائحة الخنازير التى كانت ترعى فى شوارع باريس وكانت الأوبئة والطواعين والجدرى تفرى الناس فريا .

وعاد الصليبيون من الشرق بعــد أن راوا شمسه وحضارته وجمــال مدنه ، وتسامح أهله ، ناقلين معهم طائفة جديدة من المواد الغــذائية والفواكه التى زرعوها ولا تزال حتى الآن تحمل أسماءها العربية : وعادوا يلبسون العباءات الفضفاضة من الحرير والقطن المصنوعة فى الشرق (١) .

وليس هناك ما يؤكد الصلة بين نهضة أوربا الحديثة واتصالها بالشرق الاسلامى ، اكثر من أنها بدأت فى ايطاليا والمانيا وقد رأينا كيف كانت صقلية دولة اســلامية ، وكيف كان امبراطور ألمانيا يتكلم العربية ويحيط نفسه بعلماء المسلمين .

١٢٩٣ م ــ ٦٩٣ هـ : مقتل السلطان الأشرف خليل :

يخيل الينا أن احدى سنن الحكم المملوكى وتقاليده هى قتل الملك غداة انتصاره ، رأينا ذلك بالنسبة لتوران شاه ، وقطز ، ولم يلبث أن لحق بهم الأشرف خليل . اذ انقض عليه الأمراء أثناء وجوده فى رحلة الصيد بمديرية البحيرة عند كوم شروجه (أبو المطامير حاليا) فقتلوه وكان ذلك فى يوم السبت الثانى عشر من المحرم .

وكان على رأس قاتليه نائب السلطان بيدرا الذى قال مدافعا عن نفسه عنــدما أحيط به بعد ذلك :

« ان رجلا كخليل يشرب الخمر فى شهر رمضــان ، والذى غرق فى الشذوذ الجنسى ، والذى حول عبيده الى نبلاء ونكل بأمراء أبيه فقطع رقاب بعضهم بالسيف ، والقى بالبعض الآخر فى الحبوس ، لا يصلح أن يكون حاكما للمسلمين » .

ولكن الذهبى المؤرخ المعاصر يرسم له فى تاريخه صورة اكثر انصافا مع وصفه بأوصاف سلاطين المماليك المعتادة ، فيقول :

ولو طالت أيامه أو حياته لأخذ العراق وغيرها (من المغول) فانه كان بطلا شجاعا مقداما مهيبا عالى الهمة يملأ العين ويرجف القلب ، رأيته مرات ، وكان ضخما سمينا

(١) قصة الجنس البشرى .

كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية ، على وجهه رونق الحسن وهيبة السلطنة وكان مخوف السطوة شـديد الوطأة ، قوى البطش ، تخافه الملوك فى أمصـارها والوحوش فى آجامها . اباد جماعة من كبار الدولة . وكان منهمكا فى اللذات ، لا يعبأ بالتحرز لنفسه لفرط شجاعته ولا أحسبه بلغ الثلاثين ، ولعل الله عز وجل قد عفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده واذلاله فى الكفار . انتهى وكانت مدة حكمه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وسنه يوم مات ثلاثون سنة .

الأمير بيدرا يعين سلطانا :

وقع اختيار المتآمرين الذين قتلوا الأشرف خليل على كبير المتآمرين نائب السلطنة الامير بيدرا ليكون سلطانا وأسرعوا فلقبوه بالأوحد . ولكن أمراء الأشرف الذين كانوا بالقاهرة وعلى رأسهم كتبغا وسنجر الشجاعى ، لم يعترفوا بسلطنة بيدرا ، واصطدم الفريقان فى موقعة ، فانهزم فريق بيدرا وقتلوه هو نفسه .

وبموته فتحت مشكلة اختيار السلطان الجديد ، ولم يستطع احد الأمراء أن يتغلب على الآخرين ، فاستقر رأيهم على ان يسلطنوا الابن الأصغر لقلاوون .

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون :

كان عمر محمد بن قلاوون عندما أجلس على العرش تسع سنوات وكان جلوسه على كرسى السلطنة يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم ، وتعين الأمير زين الدين كتبغا ليكون نائبـا للسلطان بالديار المصرية ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا ومدبرا للمملكة واتابكا للعسكر .

وسرعان ما دب النزاع بين الرجلين الكبيرين وقامت المعارك الحربية بينهما ، وانتهى الأمر بمقتل سنجر الشجاعى ، وانفرد كتبغا بالسلطنة الفعلية . فأقدم على الخطوة الاخيرة للوصول الى السلطنة .

١٢٩٥ م ــ ٦٩٤ هـ : خلع الناصر وسلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا :

فى الثانى عشر من المحرم من هذه السنة استدعى كتبغا الخليفة العباسى والأمراء والقضاة واتفق معهم على عزل السلطان فالبلاد لا يحكمها صبى صغير .

فوافقوه على رأيه ، وخلع السلطان الناصر ، ونقل من قصر الحكم هو وامه الى بعض القاعات بالقلعة .

وتولى الملك كتبغا السلطنة ولقب بالملك العادل .

وينفرد من بين سلسلة المماليك البحرية بأن أصله من التتار وقد سبى فى معركة حمص ، فأخـذه الملك المنصـور قلاوون وأدبه ثم أعتقـه ورقاه حتى صـار من اكابر قواده .

وكان أول عمل قام به كتبغا بعد أن صار سلطانا ، هو تعيين صاحبه القديم الأمير حسام الدين لاجين المنصورى نائبا للسلطنة . وكان حسام الدين لاجين أحد الذين اشتركوا فى قتل السلطان خليل ولكن كتبغا بسط عليه حمايته وظل يواليه برعايته حتى جعله نائبا له على السلطنة ، وقد قيل أن لاجين كان هو الذى حرض كتبغا للحصول على السلطنة ، فلما تم له الأمر كافأه بنيابة السلطنة .

١٢٩٦ م ــ ٦٩٥ هـ : تفشى القحط والمجاعة فى البلاد :

واجه كتبغا فى مطلع حكمه عدة مشاكل أثارت عليه الرأى العام المصرى ، ودفعت امراء المماليك للتآمر عليه .

أما المشكلة الأولى فهى قدوم عشرة آلاف مغولى الى الشام معلنين رغبتهم فى اعتناق الاسلام ، فبادر كتبغا بالترحيب بهم ليتخذ منهم درعا له وحصنا ، ووصل الى القاهرة مندوبون عنهم كانوا لا يزالون على وثنيتهم فكانوا يتجاهرون بالافطار فى رمضان . وخاف جمهرة المماليك الذين لم يكونوا من أصل مغولى على أنفسهم من هذه الواقعة الجديدة . ولكن الذى اهم الشعب المصرى وأحنقه على كتبغا ، هو قصور النيل عن الفيضان الطبيعى فقحطت الأرض وانتشرت المجاعة وغلت الأسعار فأصبح ثمن اردب القمح ١٦٠ درهما بدلا من خمسة وعشرين ، وكذلك اردب الفول . وبلغ ثمن رطل الخبز درهما ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وكل سبع حبات من البيض بدرهم .

وفشا الموت فى القاهرة ، وأحصى من مات بها ودون اسمه فى ديوان المواريث بسبعة عشر ألفا وخمسمائة . وهذا سوى ما لم يرد اسمه فى ديوان المواريث من الغرباء والفقراء .

وحاول كتبغا مواجهة الأزمة قدر طاقته ، فاستورد القمح من الشام وفرق الفقراء على المماليك ليعولوهم .

ولكن ذلك كله لم يخفف نقمة الشعب على كتبغا ، واعتبر حكمه شؤما ، وراح يندد بغدر كتبغا وعزله ابن سيده الناصر قلاوون .

١٢٩٧ م ــ ٦٩٦ هـ : خلع السلطان العادل كتبغا :

استغل لاجين نائب السلطنة وصديق كتبغا فرصة المصاعب التى قامت فى وجه كتبغا ، وتزايد السخط عليه لكى يتآمر مع بعض الأمراء على خلعه . فانتهزوا فرصة وجوده فى الشام وهجموا على خيمة كتبغا أثناء عودتهم فى الطريق الى مصر وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع عشر من المحرم . فقتلوا بعض أتباعه ولكن كتبغا تمكن من الفرار والعودة الى دمشق حيث لجأ الى قلعتها واحتمى بها .

واتفق الأمراء على خلعه وتولية لاجين بدلا منه سلطانا على مصر بعد أن اشترطوا عليه أن يكون كواحد منهم ولا ينفرد برأى دونهم ولا يبسط أيدى مماليكه ولا يقدمهم عليهم . وحلفوه على ذلك فحلف لهم اغلظ الايمان .

سلطنة الملك المنصور لاجين على مصر :

فى يوم الجمعة العاشر من شهر صفر من هذه السنة تمت مبايعة لاجين رسميا بالسلطنة . وقد كان لاجين أحد مماليك قلاوون اشتراه ورباه ثم أعتقه ، فلما تسلطن جعله نائبا بقلعة دمشق ثم زوجه احدى بناته .

وكاد أن يهلك أيام الأشرف خليل ويقتل مع من قتل من امراء ووصل الأمر الى حد وضع الوتر بالفعل حول رقبته لخنقه ولكن الوتر قطع ، وتشفع فيه الأمراء فأبقى عليه الأشرف خليل حيا . فلم ينس لاجين للأشرف ذلك الموقف ، ولذلك فقد سعى الى قتله وكان من بين المتآمرين على قتله وكان يمكن ان يهلك لولا أن حمــاه كتبغا كما قدمنا .

تحول كتبغا الى قلعة صرخد :

كان على لاجين أن يحل مشكلة كتبغا المتحصن فى قلعة دمشق فكتب له يؤمنه على نفسه ، ويطلب منه أن يخرج من قلعة دمشق ويتوجه الى قلعة صرخد ليكون نائبا للسلطان عليها بعد أن يقسم على أن لا يكاتب أحدا أو يشاور أحدا ، فضلا عن أن يتآمر على السلطان فقبل كتبغا هذه الشروط ، وخرج من قلعة دمشق وتوجه الى صرخد حيث عاش بها بقية حياته مغمورا منسيا لا يأبه به احد ولا يحاول هو أن يذكر أحدا بنفسه . وهو ما جعل أبو المحاسن يعتبر أمره غريبا شاذا .

وكانت مدة سلطنة كتبغا سنتين وسبعة عشر يوما .

ارسال الناصر قلاوون الى الكرك :

وامعانا فى اجراءات الأمن أخرج الملك السابق قلاوون وأمه من القلعة وارسل ليقيم فى قلعة الكرك ، بعد أن أقسم له السلطان لاجين انه يحكم لحسابه ، وانه لا يكاد يكبر فى الحكم حتى ينزل له عن السلطان .

تحسن الأحوال العامة :

كان من حسن حظ لاجين ، أن النيـــل عاد الى وفائه ، فكثر الخير ورخصت الأسعار حتى أصبح ثمن اردب القمــح عشرين درهما بدلا من (١٨٠) أما اردب الشعير فبعشرة دراهم ورطل اللحــم بدرهم وربع . وأصــدر لاجين أمره بمسامحة الفلاحين وسائر الرعايا بما عليهم من بواقى الخراج التى عجزوا عن دفعها .

وكان حسام الدين يحيا أثناء نيابته فى دمشق حياة كلها لهو وانصراف الى شرب الخمر والبحث عن الملذات حتى لقد بعث قلاوون اليه يهدده ، فلما ان ولى السلطنة ،

تاب عن ذلك كله واقبل على العبادة ، وقرب اليه العلماء ، وبذل كل ما يستطيع من جهد لارضاء الشعب وحرص على أن يسود العدل بين الناس .

وتقرب الى عامة الشعب فكان يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم واصدر كثيرا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى .

وقام باصلاح جامع طولون اصلاحا عظيما ، وكان قد نذر ابان اختفائه به بعد مقتل السلطان خليل اذا أنجاه الله أن يصلحه .

وقرر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والطب وغير ذلك . يقول أبو المحاسن :

ولولا الأوقاف التى أوقفها لاجين على مسجد طولون لتخرب .

١٢٩٨ م – ٦٩٧ هـ : عمل الروك الحسامى :

وفى هذه السنة راك السلطان البلاد المصرية ، أى أعاد مسح أرضها الزراعى لتقدير الخراج المستحق عليها (وهو ما يسمى فى عصرنا الحاضر بعملية فك الزمام) وذلك هو الروك الحسامى .

وتكشف لنا هذه العملية عن ظروف الملكية الزراعية فى مصر فى هذه الفترة ، فقد كانت الأرض تعتبر مملوكة لبيت المال ، وقد قسمت ايراداتها الى أربعة وعشرين قيراطا منها اربعة قراريط للسلطان ، و ١٠ قراريط للأمراء و ١٠ قراريط للجند .

وكان الأمراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الجنود فلا يصل منها اليهم شيئا ، ويصير هذه الاقطاعات الى دواوين الأمراء فتحتمى بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصبح كلها مأكلة للأمراء وأعوانهم وتتحول الى مضرة بأهل البلاد التى تجاورها .

ورأى السلطان لاجين أن يبطل ذلك ويعيد تنظيم البلاد ، فاصدر أوامره للمباشرين بعملية اعادة مسح الأراضى المصرية وعلى راسهم التاج الطويل وهو قبطى أسلم أن يجعل نصيب الأمراء والجند معا عشرة قراريط (بدلا من عشرين) ثم زادهم قيراطا فأصبح أحد عشر قيراطا . على أن تكون الثلاثة عشر قيراطا الباقية من نصيب السلطان يوجهها للخدمة العامة .

وغنى عن البيان أن مثل هذا العمل من شأنه أن يحنق عليه الأمراء فيعملون على قتله .

١٢٩٩ م – ٦٩٨ هـ : مقتل السلطان لاجين :

فى يوم الخميس العاشر من ربيع الثانى ، قتل السلطان المنصور لاجين وهو جالس يلعب الشطرنج مع بعض خواصه ومن بينهم قاضى القضاة وامام الصلاة .

وكان قاتله هو كبير المماليك البرجية الذى كان أقرب الناس اليه .

وقد احتج أمراء المماليك عليه ، بأنه خالف الشرط الذى اشترطوه عليه وهو أن لا يقدم أحدا من مماليكه عليهم ، حيث جعل منكوتمر هو المتحكم فى كل الأمور والذى عامل بقية الأمراء فى غطرسة واستعلاء . وأوشك لاجين أن يجعل منه ولى عهده من بعده على أن الذى عجل بقتله من غير شك ، هو حرمانه الأمراء والجنود من نصف ما كانوا يحصلون عليه من موارد الدولة كما قدمنا .

وكان عمر لاجين يوم مات ثلاثا وسبعين سنة ، ومدة حكمه سنتين وثلاثة شهور .

ويجمع المؤرخون وعلى راسهم ابو المحاسن انه كان فيه كل الخصال الحسنة ، لولا توليته مملوكه منكوتمر الأمور ومحبته له فقد كانت السبب فى هلاكه . وقد الحق المتآمرون منكوتمر بأستاذه فقتلوه فى نفس الليلة .

ابن دقيق العيد ــ قاضى القضاة :

وعلى ذكر منكوتمر وغلبته على الامور فان تاريخ هذه الحقبة يسجل لنا موقفا لقاضى القضاة ابن دقيق العيد ، يكشف عن سلطان رجال الدين ، وخوف السلاطين منهم . فقد حدث ان اختلف منكوتمر مع قاضى القضاة الذى رفض أن يأخذ بشهادته فى قضية ميراث الا أن يأتى الى مجلسه ويشهد معه شاهد آخر .

ولما حاول منكوتمر أن يضغط على قاضى القضاة ــ قال لمن معه من القضاة : اشهدكم اننى عزلت نفسى باسم الله قولوا له يولى غيرى ثم انصرف الى داره واغلق بابه عليه .

وبالرغم من حب السلطان لمنكوتمر فقد أنكر عليه موقفه وبعث الى القاضى يعتذر ويرجوه الحضور الى القلعة ، وابن دقيق يأبى ويعتذر واخيرا ذهب الى السلطان الذى تلقاه بما يليق به من الاحترام ، وراح يرجوه ان يعدل عن استقالته ، حتى قبل . ولما هم ابن دقيق بالانصراف قال له السلطان :

يا سيدى هذا ولدك منكوتمر . خاطرك معه ، ادع له . فنظر اليه القاضى وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : منكوتمر لا يخشى منه شىء وظل يكررها ثلاث مرات . ثم قام متجها الى منزله .

وتمضى كتب التاريخ فى تفصيلات هذا المشهد فتقول ان ابن دقيق كان قد فرش تحته قبل أن يجلس منديله الذى كان صنعه باليد من الكتان وذلك مخافة أن يجلس فوق الحرير فلما انصرف من حضرة السلطان ناسيا وراءه منديله ، اخذه السلطان ليتبرك به ، وفرقه الأمراء بعد ذلك قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركته .

السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون :

فى يوم الاثنين سادس جمادى الأول من هذه السنة ، بايع الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء ــ السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطانا على مصر بعد

مقتل لاجين ، وعجز الامراء على الاتفاق على من يتولى الملك منهم ، فرأوا أن أسلم حل هو اعادة السلطان الناصر الى الملك ، فاستدعوه من قلعة الكرك حيث كان عمره قد بلغ الرابعة عشرة .

وجعل نائب السلطنة على ديار مصر سيف الدين سلار . وعين ركنى الدين بيبرس الجاشنكير استدارا أى متولى شئون أطعمة القصر وأشربته . فأصبح هذان الأميران هما أصحاب السلطان والنفوذ ، وبدأ الصراع بينهما على الانفراد بالسلطة .

١٣٠٠ م ـ ٦٩٩ هـ : غازان ملك التتار يغزو الشام :

كان السلطان لاجين قبل مصرعه قد اخلف ثانية على الشام الأمير قبجق المنصور فلجأ الى فازان أو غازان ملك تتار ايران ، والذى كان قد اعتنق الاسلام وراح يحسن له فتح الشام . فاستجاب للتحريض وزحف بجيوشه على الشام .

ووصل الخبر الى مصر فصار السلطان على رأس جيشه لملاقاة التتار .

وفى يوم الاربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة تم اللقــاء بين الجيوش المغولية والجيوش المصرية .

وكانت عدة المماليك على ما يقول المقريزى فى كتاب السلوك بضعة وعشرين ألف فارس والتتار فى مائة ألف ، وربما كان فى هذا الرقم الأخير مبالغة .

وقد بدأت المعركة بانتصار الجيش المصرى ، حتى أوشك فازان أن يفر ، لولا أن تنبه حليفه المملوكى قبجق ، فلم تلبث الدائرة أن دارت على الجيش المملوكى ، فهــزموا هزيمــة منكرة وولوا الأدبار ولولا أن غازان توقف عن متابعتهم لكانت الكارثة أفدح .

وتسلم غازان مدينة دمشق بالأمان ، فسار اليها ودخلها ، ولكن قلعة المدينــة رفضت التسليم ، بل رفضت أن تصغى لأى حديث عن التسليم . ومن المحقق أن اسلام غازان قد وقى مدينة دمشق مما كان يصحب غارات التتار من قتل وفتك وحرق ونهب .

وخطب لغازان على منابر يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الثانى على منابر دمشق حيث وصف بأنه : مولانا السلطان الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيــا والدين محمود غازان .

على أن رفض قلعة دمشق التسليم ومقاومتها الحصار المفروض عليها تحت قيادة أرجواش الذى ظل على ولائه للسلطان الناصر ، قد أحنق المغول ، فبــدأوا ينهبون القرى المحيطة بدمشق ويفرضون عليها الاتاوات العظيمة التى بلغت ثلاثة ملايين وستمائة دينار فى بعض الروايات ودرهم فى روايات أخرى (السلوك) .

وقد لعب شيخ الاسلام ابن تيمية دورا فى هذه الأزمة فقـام بمقابلة السلطان مرتين وطلب منـه أن يكف يد جنوده عن النهب والسلب . وقد تقبـل السلطان وساطته ، ولكنه أفهم أن لا بد من الاجتهاد فى جمع المال المطلوب .

ورأى غازان بعد ذلك أن يعود الى بلاده فأقر الأمير قبجق نائب الشـام السابق حاكما عليها من قبله كما عين بعض أمراء المماليك نوابا عنه على حمص وحماة وحلب . وانسحب بجيشـه من الشام مخلفا وراءه حامية صغيرة .

عودة الخطبة للناصر فى دمشق :

لم يكد غازان ينسحب من المدينة ، حتى استطاع أراجواش الذى رفض تسليم قلعة دمشق أن يعيد سيطرته على المدينة ، وأعاد الخطبة الى السلطان الناصر .

ولم يشأ الأمير قبجق أن يقـاوم ذلك ، وآثر أن يعود لحظيرة السلطان قلاوون ، فجاء الى مصر تائبا معتذرا ، فقبل منه السلطان ، وعفا عنه .

١٣٠٢ م ـ ٧٠١ هـ : تمرد العربان وقمع التمرد :

هزت الصدمة التى منى بها الجيش فى معركته مع التتار المشاعر فى مصر ، وكان احد ردود الفعل لهذه الهزيمة المنكرة ، أن استخف العربان فى الصـعيد بالولاة ، وخرجوا عن الطاعة ومنعوا الخراج ، وأخرجوا من فى السجون . وبدأوا يفرضون الضرائب على التجار وارباب المعاش من اقصى جنوب مصر حتى مدينة اسـيوط ومنفلوط . فسير اليهم الملك الناصر قلاوون أربعة جيوش مختلفة تحت رئاسة كبار قواده ، سلار وبيبرس وغيرهما بعد أن اذاعوا أن هذه الجيوش متوجهة نحو الشام ، لتباغت الأعراب وتأخذهم على غرة وأحاطت بهم من كل جانب ، حتى أهلكوهم عن آخرهم على ما يقول المقريزى .

وساقوا خيولهم ومواشيهم واغنامهم الى مصر .

١٣٠٣ م ـ ٧٠٢ هـ : المفاوضات بين قلاوون وغازان :

لم ييأس قلاوون عقب هزيمته الأولى من التتار رغم صغر سنه ، بل انه شرع فدعا والى مصر عقب هذه الهزيمة ، أن يعيد تنظيم جيشه ويستعد لجولة جديدة مع التتار ، ولم يؤخره عنها الا وصول الأخبار بانسحاب غازان من دمشق والشام ، وقد رأينا كيف عاد سلطان الناصر قلاوون الى دمشق بمجرد انسحاب غازان . وكذلك تم الأمر بالنسبة لجميع أمراء الشام الذين أنابهم غازان على مختلف مدن الشام ، فقد استجابوا جميعا الى دعوة الناصر قلاوون الى عودتهم الى طاعته .

فلما وصلت هذه الأنباء لغازان ، رأى ان يدخل فى مفاوضات للصلح بينه وبين قلاوون ، ليتعاونا سويا باعتبارهما ملكين اسلاميين لما فيه خير المسلمين من نشر العدل وتوحيد الأمن وتشجيع التبادل التجارى بين الاقليمين .

فبعث برسالة الى قلاوون اثبتتها كتب التاريخ ، وضمنها بأن طلب من قلاوون ان يبعث له بهدية لتكون عربونا على العودة : لنعلم بارسالها قد حصل منكم اجابتنا للصلح بحسن نية ، ونهدى اليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه اليكم والسلام الطيب عليكم ان شاء الله تعالى .

ولم يطمئن السلطان الناصر الى صدق طوية غازان ، ولم ير فى الخطاب وفى طلب الصلح الا مراوغة لكى يثبط من عزيمة قلاوون فى الاستعداد للحرب . ولذلك فقد رد عليه مناقشا ما جاء فى خطابه ومفندا بعض ما قيل عن أسباب انتصار غازان وهزيمة قلاوون . وطلب فى نهاية الخطاب أن يبعث غازان الى مصر رجلا من خواص دولته : اذا قطع بأمر وقفتم عنده ، أو فصل حكما انتهيتم اليه أو جزم أمرا عولتم عليه . وهو ما يسمى بلغة عصرنا مندوب مفوض مخول بكل السلطات . وذلك للتفاوض فى موضوع الصلح .

اما بخصوص الهدية التى طلبها غازان فان : الديار المصرية لا تبخل بها عليـــه ومقداره عندنا أجل مقدار وجميع ما يهدى اليه دون قدره . وانما الواجب أن يهدى أولا من يستهدى ، لتقابل هديته بأضعافها ويتحقق صدق نيته واخلاص سريرته .

انتصار قلاوون على التتار :

على ان هذه المفاوضات لم تسفر عن شىء ، ولذلك فقد زحف غازان من جديد بجيشه على الشام ووصل الى مشارف نهر الفرات ، وبعث بكبير جيشه فظلوشاه على راس جيش مؤلف من ثمانين ألفا ليعيد سلطان غازان على الشام ، وكتب الى أمراء الشام يدعوهم الى طاعته .

وفى يوم السبت الثانى من رمضان عام ٧٠٢ هـ ٢٠ ابريل سنة ١٣٠٢ تم اللقاء بين جيوش المغول تحت قيادة فظلوشاه والجيش المصرى تحت قيادة الناصر قلاوون عند بلدة شقجب بمرج الصفر . واستمرت المعركة طوال يوم السبت ، ثم استؤنفت فى اليوم الثانى (الأحد) دون التوصل الى نتيجة حاسمة ، واستمر القتال لثالث يوم (الاثنين) وفى هذا اليوم تم انتصار الجيش المصرى الساحق على التتار الذين فروا منهزمين ، والسيف يعمل فى أقفيتهم بحسب تعبير ذلك الزمان ، فقد تعقبتهم فرسان المماليك قتلا وأسرا . وانهارت معنويات التتار فاذا بهم يلقون بأسلحتهم ويستسلمون للقتل ، فراح الجنود المصريون يقتلونهم فى غير مدافعة .

ويقول المؤرخون فى تصوير مدى الهزيمة : حتى ان أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا عدة غنائم . وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها . بحيث أن فظلوشاه لم يعبر الفرات الا فى قليل من أصحابه .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة الى غازان ، اغتم غما عظيما ، وقيل انه خرج من انفه دم كثير حتى أشرف على الموت ، ولم يلبث أن مات حسرة وكمدا فى العام التالى .

دور ابن تيمية فى هذا النصر :

وكتب التاريخ طافحة بذكر الدور الكبير الذى قام به شيخ الاسلام ابن تيمية لتحقيق هذا النصر ، فقد كان على رأس السفارة التى أوفدها اهل الشام الى السلطان قلاوون يستحثونه على اعداد العدة والخروج بالجيش لملاقاة التتار ، حتى قيل انه اشتد على السلطان . وقد سار مع الجيش عند خروجه من مصر ، وقيل انه حارب بنفسه خلال المعركة . وعلى أية حال فالمحقق أنه كان يلهب مشاعر الجند بمواعظه وترديد آيات الجهاد (ابن تيمية من اعلام الحرب) .

احتفالات النصر فى القاهرة :

وقد استعدت القاهرة لعودة الناصر قلاوون بالزينات والاحتفالات كما لم يحدث فى تاريخ حياتها ، فقد تفاخر الناس فى الزينة ونصبوا القلاع (أى أقواس النصر) وأخرج الناس ما عندهم من حلى وجواهر ولآلىء وانواع الحرير فتزينوا بها ، واقيمت أحواض ملئت بالسكر والليمون (١) ليشرب منها العساكر والناس . وفرشت الأرض بالحرير تحت أقدام السلطان ومن معه .

على أن زينة هذه الاحتفالات الكبرى حسب روح العصر على ما تقول كتب التاريخ كان هو منظر الألف وستمائة أسير وهم يسيرون مقيدى الأيدى وقد علق فى رقبة كل واحد منهم رأس واحد من قتلاهم . وذلك بالاضافة الى الف رأس أخرى كانت مرفوعة فوق الحراب .

١٣٠٤ م – ٧٠٣ هـ : افتتاح المدرسة الناصرية :

وفى هذه السنة أتم الناصر المدرسة الناصرية بين القصرين وأوقف عليها الأوقاف ورتب بها المدرسين للمذاهب الأربعة .

١٣٠٨ م – ٧٠٨ هـ : اعتزال السلطان الناصر الملك للمرة الثانية :

استحق السلطان الناصر قلاوون ، بعد انتصاره الباهر على التتار أن يزاول بنفسه دور السلطان ، ولكن الأميرين المتسلطين على شئون الدولة سلار وبيبرس حالا بينه وبين ذلك وضاعفا فى اجراءات التشدد عليه . وضيقا عليه فى النفقة ، حتى بلغ الأمر بهما الى أن حالا بينه وبين ما يشتهيه من أصناف الطعام .

(١) لا يزال يوجد بفم الخليج حارة تسمى حارة السكر والليمون اشارة الى هذا الحادث

وحاول قلاوون أن يتخلص منهما على عادة سلاطين المماليـك فى التخلص من الأمراء الأقوياء ، فدبر لهما مؤامرة لقتلهما ، ولكن من سوء حظه أن المؤامرة انكشفت وتحرز الأميران على نفسيهما ، وحاصرا السلطان فى القلعة ، وكان يمكن أن يتغلبا عليه ويقتلانه لولا أن تدخل عنصر لا عهد للمماليك به من قبل حال دون تنفيذ ارادتهما وهذا العنصر هو الشعب المصرى .

وقوف الشعب المصرى الى جوار الناصر قلاوون :

تغص كتب التاريخ بتفاصيل غضبة الشعب المصرى ضد سلار وبيبرس ووقوفه الى جوار الناصر قلاوون ، فأجمعت جموع العامة كما تسميهم كتب التاريخ وراحوا يهتفون يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون بن قلاوون . فحاول الأمراء فى بادىء الأمر أن يرهبوا العامة بالضرب والايذاء ، فلم يزد ذلك الجماهير الا غضبا ، وقويت الحركة الى الحد الذى رأى فيه الأمراء أنه من الصالح أن يحاسنوا الجماهير .. وصالحوا السلطان واعلنوا للجماهير أنه قد رضى عنهم .. ولكن ذلك كله لم يكن كافيا لتهدئة مشاعر الجماهير ، فطلب الأمراء من السلطان أن يشق القاهرة فى موكب ليراه الناس ويطمئنوا وبهذا فقط هدأت الفتنة .

على أن السلطان الناصر ظل متخوفا على نفسه مما قد يفعله به الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير . ولذلك فقد أعلن أنه ينتوى الحج ، وغادر مصر فى الخامس عشر من رمضان بدعوى انه مسافر للحجاز ، حتى اذا وصل الى حصن الكرك فى العاشر من شوال ، التجأ اليه وأمر بأن يخرج منه أميره وأعلن أنه سيقيم بالحصن ولن يحج ، وانه نزل عن السلطة للأميرين سلار وبيبرس .

وكانت مدة سلطنة الناصر الثانية عشر سنين وأيام .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء فى مصر أسقط فى أيديهم ، وبدأ النزاع يشتد بين سلار وبيبرس حول من يتقلد منهم السلطة . وكانت المماليك البرجية تؤيد بيبرس ، أما باقى الأمراء فيؤيدون سلار ، وهكذا أوشك الأمر أن يصل الى فتنة فى صفوف المماليك لو ولى سلار السلطنة ، فحسم القضية بأن ترك لصاحبه بيبرس الجاشنكير السلطنة .

سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير على مصر :

فى يوم السبت الثالث والعشرين من شوال من هذه السـنة ، بويع بيبرس الجاشنكير سلطانا على مصر ولقب بالملك المظفر .

واصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية وهو جركسى الأصل ، ومن هنا يعتبره البعض أول المماليك البرجية الذين حكموا مصر ، لولا أن سلطانه لم يدم ورجع الحكم الى الناصر قلاوون ، وقد تدرج فى الطريق المألوف ، فقد أعتقه سيده المنصور قلاوون ثم جعله أميرا ، وفى عهـد ابنه الأشرف خليل أصبح من كبار الأمراء ، فلما

تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون أول مرة جعله استدارا أى مشرفا على قصر السلطان وما يحتاجه من نفقة ومطالب ، وقد حاول سلار أن يستعفى من منصبه كنائب للسلطان ، ولكن الملك المظفر رفض استعفاءه واصر على أن يبقى فى منصبه نائبا للسلطان .

وبعث الى الناصر قلاوون ليقره على آمرة الكرك .

وبعث الى أمراء الشام يقر كل منهم فى منصبه ويطلب منهم البيعة له .

وقد توقف الأمراء عن اجابتــه للبيعة فى بادىء الأمر ، ولم يبــادر بها الا نائب السلطان فى دمشق ، ثم لم يلبث باقى أمراء حمص وحماة وحلب أن اجابوه الى البيعة ريثما ينظموا صفوفهم للانقضاض عليه .

١٣٠٩ م ــ ٧٠٩ هـ : وصول الناصر قلاوون الى دمشق :

شاء سوء طالع بيبرس ، أن يقصر النيــل عن الوفاء فى هذه السنة ، فشحت الأقوات ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، ومرة أخرى ظهر الشعب المصرى على مسرح الحوادث ، اذ راح العامة يتظاهرون فى الشوارع وهم يهتفون :

سلطاننا ركين (أى ركن الدين بيبرس) :

وتاتينا دقين (يقصدون سلار وكانت لحيته خفيفة لا تزيد عن شعرات) تجينا الماء منين ؟

تجيبوا لنا الأعرج ــ (يقصدون الناصر قلاوون وكان به عرج خفيف) يجينا الماء يدحرج .

واصطنع المظفر بيبرس الشدة مع الشعب فأصدر أوامره بالقبض على عدد كبير من العامة وأنزل بهم العقوبة الصارمة حتى لقد قطع ألسنة الكثير على ما يقــول ابن اياس .

ومن ناحية أخرى استعمل الخشونة مع الملك الناصر قلاوون فبعث يطالبــه بالأموال التى أخذها ، ويهدده اذا لم يبادر بارسالها .

فكتب الناصر الى أمراء الشام يشكو اليهم ، وكانوا على اتصال به فالتفوا حوله كما خرج اليه من مصر كثير من الأمراء الذين انقلبوا على المظفر . فاجتمع حول الناصر قوة كبيرة من الأمراء والجند ، فسار بهم الى دمشق ، فدخلها فى أمان بعد أن أخرج منها نائب السلطنة « الأمير الأقرم » .

ودعى له على المنابر يوم الجمعة ٢٢ شعبان باعتباره سلطان مصر والشام .

خلع السلطان المظفر بيبرس :

كان لهذه الانباء تأثير قوى فى مصر ، فقد زادت أحوالها سوءا واضطرابا وعمتها الفوضى ، وسقطت هيبة بيبرس ، وشرع العامة يسبونه ، وعبثا حاول السلطان أن يردعهم بالقوة ، فلم يكن ذلك يزيد الموقف الا سوءا . فجمع المظفر الأمراء واستشارهم فيما عليه أن يفعله ، فأشاروا عليه بالتنازل عن العرش ، وأن يكتب للسلطان طالبا منه العفو فصدع بمشورتهم ، وبعث الى الناصر بخطاب يطلب منه العفو وقد جاء فى آخره :

فان سجنتنى عددت ذلك خلوة . وان نفيتنى عددت ذلك سياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة .

ثم أشهد الخليفة والقضاة الأربعة انه خلع نفسه ، وأسقط اسمه فى اليوم التالى من قلعة الجبل ، كما خطب فى الجوامع باسم السلطان الناصر يوم الجمعة ١٩ رمضان وكانت مدة سلطنة المظفر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العامة يشيعون بيبرس باللعنات :

وخرج بيبرس من مصر فى مماليكه البالغ عدتهم سبعمائة ، فكأنما نودى فى الناس انه خرج هاربا فاجتمع القوم وراحوا يتابعونه بالصياح حتى خرجوا عن الحد ورماه بعضهم بالحجارة فشق ذلك على مماليكه وهموا بوضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفر من ذلك ، وأمر أن ينثر المال عليهم لينشغلوا بجمعه عنه ، فأخرج كل المماليك حفنة من الذهب فلم يلتفت العامة الى ذلك وواصلوا العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون فأشهر المماليك سيوفهم ورجعوا الى العامة فانهزموا منهم .

وقصد بيبرس الى مدينة اطفيح فى الصعيد .

سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة على مصر :

فى يوم الخميس الثانى من شوال ، بدأ الناصر قلاوون فى ممارسة سلطته للمرة الثالثة بعد أن وصل الى القاهرة ، وطلع الى قلعة الجبل ، ثم جلس على العرش فى هذا اليوم ، وكان صبيحة وصوله . وكان قد بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وقد حنكته التجارب وقرر أن يباشر السلطنة بنفسه .

وكان أول ما فعله أن عفا عن الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ، بعد أن بكتهم وعاتبهم على موقفهم منه وتحريضهم ضده .

ثم أصدر أمانا لبيبرس ، فلما جىء به اليه راح يؤنبه على ما فعله معه ويذكره بمنعه الطعام الذى تشتهيه نفسه عنه .

ثم أمر بقتله فى الخامس عشر من ذى القعدة .

وكان سلار قد استعفى من نيابة السلطنة وانعم عليه الملك بقلعة الشوبك وبعد فترة من الزمن استدعاه اليه وسجنه ثم قتله . وكان سلار من التتار ، وقد أحصيت ثروته بعد قتله فكانت شيئا يجل عن الوصف ، وقد افرد ابن اياس صفحات عديدة لتسجيل جرد هذه الثروة وما كان يوجد منها يوما بعد يوم .

وليس هناك ما يصور حالة ما كان عليه المماليك ، وكيف كان كل امير منهم اشبه بملك اكثر من أن نسجل بعض مفردات هذه الثروة .

ففى يوم الأحد عثر له على مائتى الف دينار ذهب و ٤٧١ الف دينار فضة .

وفى يوم الاثنين وجد له خمسة وخمسون الف دينار ذهب ومن الفضة الف الف درهم .

وفى يوم الثلاثاء : وجد له خمسة واربعون الف دينار ذهب ومن الفضة ثلثمائة وثلاثين ألف درهم .

وفى يوم الأربعاء : وجد له من الذهب الف الف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة الف درهم .

أما الملابس والجواهر واطباق الفضة فكانت بالقناطير .

ووجد عنده من الخيول ثلثمائة رأس ، ومن البغال مائة وعشرين قطارا ومن الجمال مائة وعشرون .

وذلك كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى .

ووجد عنده من الأغنام والأبقار ما لا يحصى .

ووجد عنده من الغلال ثلثمائة الف أردب فى الشون .

١٣١١ م ــ ٧١١ هـ ــ سلطان الناصر يمتد الى تونس :

فى هذه السنة لجأ الى مصر صاحب تونس ابو زكريا اللحيانى ــ أحد ملوك الحفصيين ــ وطلب من الناصر أن يساعده على استرجاع عرشه على ان يكون نائبا له فبعث معه بعض مماليكه وعساكره ، فاسترد أبو زكريا عرشه ، وخطب للناصر قلاوون فى مساجد تونس التى كانت تسمى فى ذلك الوقت اترنبيا .

وفاة ابن منظور مؤلف لسان العرب :

وفى هذه السنة مات مؤلف أعظم موسوعة لغوية وهو لسان العرب . ذلكم الكتاب الخالد ، والذى جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهى التهذيب للأزهرى ــ والصحيح للجوهرى ــ وحواش بن برى على الصحيح ــ والمحكم لابن سيدة ــ

والمخصص له كذلك والنهـاية لابن الأثير ، وبلغت مواد اللغـة فى هذا المعجم ثمانية الف مادة .

ولسان العرب هو نموذج لما وصفت به هذه الفترة الثقافية من حيـاة العرب والمسلمين من انها كانت فترة الموسوعات ، حيث خشى على العلم الاسلامى من الضياع بعد أن حل ببغداد ما حل ، فأخذ التأليف صورة الموسوعات ، لجمع أكبر قدر ممكن من المعارف والثقافات .

١٣١٥ م ـ ٧١٥ هـ ـ الروك الناصرى :

اعاد الناصر مسح بلاد القطر المصرى لاعادة توزيع حاصل خراجه على بيت المال والأمراء والأجناد بصورة أكثر عدلا .

وانتهز هذه الفرصة لكى يخفض اقطاع الجندى فأصبح يتراوح من ثلاثة آلاف درهم الى عشرة آلاف بعـد أن كان أكثر من ذلك ، وكذلك اقطـاع الأمير ، فأصبح يتراوح بين عشرة آلاف درهم الى أربعين ألف درهم ، وكان فى الأصل أكثر من ذلك بكثير .

ابطال العديد من المكوس ((الضرائب)) :

وكانت هناك كثير من الضرائب « المكوس » تجبى لحساب الجنود وكانت تسبب للناس كثيرا من المتاعب والأضرار ، وتزيد فى غلاء الأسـعار فأبطلها . ومن ذلك على سبيل المثال ، مكس الغلال حين كان يؤخذ على كل أردب درهمين ونصف ، فلمـا الغى هذا المكس رخص سعر الغلال بهذا القدر ، وكانت هناك ضريبة تؤخذ على الملح فالغاها . والغى نصف ما كان السماسرة يتقاضونه عند التوسط فى البيع والشراء ، حيث كانوا يتقاضون درهمين عن كل مائة درهم فجعلها درهما واحدا .

والغى ما كان يؤخذ من ضريبة على طرح الفراريج (اى الدجاج) .

وما كان يؤخذ على المعاصر . وما كان يؤخذ من المساجين ، حيث كان كل سجين يدفع ضريبة عن سجنه كل يوم .

كما ألغى الضرائب التى كانت تؤخذ من البغايا وبيوت الفواحش .

فكان لذلك كله أثره فى تحسين حالة الشعب الذى قابل هذه الاجراءات بالفرح والابتهاج .

١٣٢٣ م ـ ٧٢٣ هـ ـ بناء الخانقاه فى سرياقوس :

فى هذه السنة انشأ السلطان خانقاه سرياقوس بناء على اشارة تلقاها من رسول

الله صلوات الله عليه على حد قوله ، اذ زاره فى المنام وطلب منه اقامتها لتكون بيتا للمتصوفة ــ فأنشأ هذه الخانقاة أو الزاوية أو الرباط ــ « وكلها بمعنى واحــد » لتقيم فيها مائة من المتصوفة ، وعين الخانقاة شيخا ليشرف على المقيمين بها .

ولا تعجب هذه الحركة ابن اياس ، فيسمى المتصوفة : جماعة من الافاقية « أى الافاقين » الذين لا حرمة لهم .

وسرعان ما أصبحت منطقة الخانقاة مدينــة عامرة ، اذ أقيمت بهــا البساتين والقصور للأمراء ، وهى لا تزال باقية حتى اليوم وان كان اللفظ قد تحور الى الخانكا.

واقامة هذه الخانقاة هى بداية التطور الكبير للحركة الصوفية فى مصر .

عصر بناء وانشاء :

على أن هذه الخانقاة ، ليست الا رمزا لما يمكن أن يوصف به عهد الناصر قلاوون من أنه اعظم عهد شهدته البلاد من حيث الانشاء والبناء والتعمير .

ففى عهده وبأمره انشئت دور الأمراء بالقلعة ، وأنشىء القصر الكبير الابلق الذى تكلف وحده نصف مليون درهم ، والذى سمى بالابلق لأن واجهته بنيت بالأحجــار الصفراء والسوداء على التوالى ، كما بنى الى جواره قصرين ، وعمر الايوان الكبير وعقد قبة عظيمة وشحها من الداخل بالقيشانى ومن الخارج بالرصاص .

وقد انشأ ميدانا تحت قلعة الجبــل وأجرى فيه الميــاه ، وغرس فيه النخل والأشجار وكان يلعب فيه بالكرة مع الأمراء وأولاد الملوك كل ثلاثاء .

وحفر الخليج الناصرى ، خارج القاهرة حتى أوصله الى سرياقوس .

وانشأ فيه عدة قناطر ــ وانشأ على جانبى هذا الخليج عدة بساتين وأعاد حفر خليج الاسكندرية من النيل عند مدينة فوة حتى الاسكندرية بعد أن كانت الرمال قد طمرته وتعطلت به الملاحة ، فنشطت مدينة الاسكندرية وزاد عمرانها وازدهرت تجارتها .

وانشأ عشرات من القناطر التى تذكر باسمها فى كتب التاريخ .

وكان للملك الناصر عناية كبيرة ببلاد الجيزة حتى انه عمل على كل بلد جسرا وقنطرة ، وكانت قبل ذلك نظرا لارتفاعهــا كثيرا لا تصــل اليها الميــاه فأقام جسر أم دينار بارتفاع ١٢ قصبة فعمرت بلاد الجيزة بسبب ذلك .

واستجد فى أيام الملك الناصر عدة أراض بالشرقية ونواحى فوة وكانت قبل ذلك خرابا . وانشأ سد شبين فزاد بسببه خراج الشرقية ، وعمل جسرا خارج القاهرة رد به النيل عن منية السيرج فعمر بذلك عدة بساتين .

واحكم عامة أراضى مصر قبليها وبحريها بالترع والجسور ، حتى أتقن أمرها فزاد فى أيامه خراج مصر زيادة هائلة .

٣٣ مسجدا :

وبلغ عدد المساجد التى بنيت فى ايامه بمعرفة أمراء دولته اكثر من ٣٣ مسجدا لا يزال اكثرها باقيا حتى الآن يمثل ذروة ما وصل اليه الفن فى هذه الحقبة من تاريخ مصر .

١٣٢٥ م ــ ٧٢٥ هـ ــ نفوذ مصر السياسى :

اجتمع فى مصر هذا العام على ما يقول المقريزى فى كتاب السلوك رسل صاحب اليمن ــ ورسل صاحب استنبول أى « بيزنطة » ورسل ملك سيس « ملكة ارمنيا » ورسل ابى سعيد خان مغول ايران الذين اسلموا ــ ورسل ماردين ــ ورسل ابن فرمان « وهى دولة صغيرة ، قامت فى جنوب شرق آسيا الصغرى على أنقاض دولة سلاجقة الروم » .

ورسل ملك النوبة .

وكل هؤلاء كانوا يبذلون الطاعة للناصر قلاوون .

وقد أكد احياء الخلافة العباسية فى مصر ، زعامتها على كل الدول الاسلامية فقد أرسل السلطان محمد بن طغلق أحد ملوك الهند الى الخليفة العباسى فى القاهرة يطلب منه أن يصدر له تقليدا بتوليه السلطان على بلاده كما أرسل الى الناصر قلاوون يطلب منه ان يتحالف على مهاجمة مغول ايران .

مع غرب افريقيا :

وقامت لأول مرة علاقات ود وصداقة بين مصر والدول الاسلامية التى بدأت تتكون فى غرب افريقيا ، كدولة الكانم ، والبورنو ، والتكرور ، وقدم ملك التكرور منسى موسى بمصر فى طريقه لأداء الحج فقوبل بكل ترحاب .

السفارات المسيحية :

كما وصلت الى القاهرة سفارات من البابا ومن ملك فرنسا وملك أرجونة (اسبانيا) وامبراطور القسطنطينية وامبراطور الحبشة ، وكلهم يخطبون وده ويرجونه ان يحسن معاملة رعاياه من المسيحيين .

وهذا ما كان يفعله السلطان قلاوون بصفة عامة .

وهكذا اصبح البلاط المصرى فى هذه الفترة مركز تطلع جميع دول العالم .

وليس هناك ما يقاس به ازدهار أى مجتمع أدق من مدى توفر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها .

ولذلك فان المؤرخين القدامى يعنون جد العناية بهذه الناحية فسجلوا لنا قائمة الأسعار فى عهد الناصر قلاوون ، ونحن ننقلها عنهم لتكون مرجعا للمقارنة لما سيكون عليه الحال بعد ذلك فثمن الأردب من القمح الصعيدى أصبح ثمانية دراهم .

وأردب الفول أو الشعير اربعة دراهم ، وبلغ ثمن الخبز العلامة العال « أى افخر أنواع الخبز » ٢٠ رطلا بدرهم .

ولكى يدلل المؤرخون المعاصرون على مدى ما وصلت اليه الاسعار من رخص وتوفر الأقوات فى أيدى الناس الا أن يقولوا : ورفض صعاليك الناس اعمال الكنس وسائر الأعمال الحقيرة لاستغنائهم .

ابن بطوطة فى مصر :

وفى هذه السنة وصل ابن بطوطة أعظم رحالة المسلمين الى مصر فدخل مدينة الاسكندرية فى أول جمادى الأولى « أبريل سنة ١٣٢٦ » .

ويقول عن مدينة الاسكندرية انها من أعظم ما شاهده فى العالم من موانى وكانت منارة الاسكندرية لا تزال قائمة فى هذه الزيارة الا انها كانت مهدمة فى احد جوانبها ـ وسيعود اليها عام ٧٥٠ ليقول لنا انها تخربت وأصبح لا يمكن دخولها والصعود اليها ـ ثم يصف لنا ابن بطوطة طريقه من الاسكندرية حتى ميناء عيذاب على البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد ـ ويصور لنا عمران مصر وما كانت عليه من رخاء فيقول ومن هذه المدينة « سمنود » ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منظمة متصلة ـ بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما اراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى أسوان .

ويصف لنا الكثير من أحوال مصر الاجتماعية ـ ويشيد بعدل السلطان الناصر والذى كان يجلس يومين كل أسبوع يتلقى بنفسه الشكايات من الناس ويستمع لما يريدون أن يسمعوه اياه من المظالم .

ويحدثنا عن انتشار الطريقة الشاذلية وغيرها من الطرق المنتشرة فى مصر .

ويقول عن مدينة القاهرة :

هى أم البلاد ، قرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد ، وهى كثيرة العمارة ، متباهية بالحسن والنضارة . يستطيع الضعيف والقادر أن يعيش

فيها ، ومجمع الصادر والوارد مصريين وعربا وغيرهم . وانك لتجد فيها العلماء الكبار والجهلة الكبار ، والجد والهزل ، والحليم والسفيه ، والشريف والمشروف ، والنبيل والوضيع تموج كالبحر بساكنيها — ويقال ان فيها اثنى عشر ألف سقاء وان فيها ثلاثين ألف مكارى « أى حمار » ، بتشديد الميم .

وان السفن التى تسير فى النيل ٣٦ ألفا — أما عن سكان القاهرة فهم أهل طرب وسرور ولهو يخرجون كثيرا الى منازهها وبساتينها .

ويحدثنا عن حفلة سفر المحمل وعن تزيين القاهرة بمناسبته .

وفاة السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية :

وفى هذه السنة مات السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية عن سبعين سنة وولى عرش هذه الدولة الاسلامية الوليدة ابنه اروخان .

١٣٢٧ م — ٧٢٨ هـ — وفاة الامام ابن تيمية :

فى ليلة الاثنين والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة مات شيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى فى سجنه بقلعة دمشق وكان سجنه هذا هو أحد مظاهر جهاده واجتهاده فى الدين ، فقد نقم عليه علماء عصره الفقهاء — اجتهاده فى احكام الدين — فقد زعم الكل أن باب الاجتهاد قد أغلق ، كما نقم عليه أقطاب الصوفية — من الناحية الأخرى — انكاره لمذاهبهم على أساس أن لا دين يعتبر عمل الا على أساس من الشريعة .

وحسده الأمراء على ما وصل اليه من نفوذ وسلطان روحى بين الجماهير سواء فى مصر — أو فى الشام ونقم عليه السلطان — انه اجترأ على تحديه وعدم اطاعة أمره فقد حظر عليه أن يفتى بما انتهى اليه اجتهاده ، فأفتى .

وقد أثنى الكثيرون من معاصرى ابن تيمية على علمه وفقهه واجتهاده ، ولكن اذا كان أعظم الشهادة ما جاء على لسان الخصم — فقد اخترنا ما قاله عنه القاضى كمال الدين بن الزملكانى (وكان خصما له) فقال :

اجتمعت فيه شروط الاجتهاد وعلى وجهها ثم جرت له محن فى مسألة الطلاق ثلاث ، وشد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين ، وحبب للناس القيام عليه . وحبس مرة فى القاهرة والاسكندرية ، ودمشق ، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق وحصل له فى بعضها تعظيم من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم أطلق وتوجه الى دمشق وأقام بها الى أن ورد مرسوم شريف فى سنة ستة وعشرين وسبعمائة ، بأن يجعل فى قلعة دمشق فى قاعة ، فجعل فى قاعة حسنة وأقام بها مشغولا بالتصنيف والكتابة ، ثم بعد ذلك منع من الكتابة وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلما ولا ورقة » .

والحق أن ابن تيمية بشخصيته المتعددة الأبعاد ، سواء فى ناحية التقوى والورع ، أو الجهاد ، والكفاح ضد التتار ، أو بعمله الواسع وفقهه واجتهاده ، وأخيرا بتلميذه الكبير ابن القيم يعتبر بحق أحد مجددى شباب الاسلام العلمى ومن أعادوا الى الفقه الاسلامى نضارته .

١٣٣٢ م — ٧٣٢ هـ — الناصر يحج ويعمل بابا للكعبة :

كانت مكة والمدينة يقعان فى سلطان المماليك لا نتيجة الفتح أو الغزو ولكن نتيجة ارتباط الحجاز بمصر واعتمادها عليها قد أصبحت مركزا للسلطة والقوة ، فأصبح سلطان مصر هو فى نفس الوقت حامى الحرمين ، فكان يخطب له على منابرها ، وقد كان الظاهر بيبرس هو أول من حج واهتم بعمارة الحرم ولا تزال آثار سلاطين المماليك مسجلة ومنقوشة على منشئات الكعبة .

وكان الناصر قلاوون من أكثر المماليك احتفالا بالحرم المكى ومنسك الحج . فحج أكثر من مرة وقد سجل لنا الملك أبو الفدا صاحب حماة تفاصيل هذا الحج اذ كان مصاحبا لقلاوون — وفى هذه السنة ٧٣٢ هـ أهدى قلاوون للكعبة بابا جديدا من خشب السنط الأحمر المغلف بالفضة التى كانت تزيد على ثلاثين الف درهم فرأى أن يسافر بنفسه ليوضع الباب الجديد فى حضوره .

وفاة الملك المؤيد أبو الفدا المؤرخ :

وفى هذه السنة مات الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا ، صاحب حماة ، سليل الأسرة الأيوبية ، وقد أنعم عليه الملك الناصر بامارة حماة عام ٧٢٠ هـ وكان قد ولد عام ٦٧٢ وحفظ القرآن وبرع فى الفقه والأصول العربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح .

وقد خلده تاريخه المشهور « المختصر فى أخبار البشر » وقد لخص فيه تاريخ الكامل لابن الأثير ، ثم واصل تسجيل ما استجد بعد ذلك من الحوادث ، ويبلغ تاريخه ذروة أهميته فى الفترة التى عاش فيها والتى أربت على نصف قرن . فهو مصدر من الدرجة الأولى لهذه الفترة ، وقد ظل يكتب التاريخ حتى هذه السنة ، حيث أكمله مؤرخ آخر حتى أيامه هو مبتدئا بقوله : وفى هذه السنة مات السلطان المؤيد صاحب هذا الكتاب .

١٣٣٨ م — ٧٣٨ هـ : نفى الخليفة العباسى الى الصعيد :

كان الخليفة العباسى قد أصبح مجرد منصب رمزى لا حول له ولا طول ، وكان الخلفاء العباسيون قد راضوا أنفسهم على أن يقنعوا بالعيش الهنى فى رغد ، ملبين كل ما يطلبه منهم السلاطين . ولكن الخليفة المستكفى تجاوز حده عندما رفعت اليه

ظلامة ضد قلاوون ، فأشر على العريضة بوجوب حضور محمد بن قلاوون الى مجلس العرش ، أو أن يوكل عنه وكيلا ، فغضب قلاوون لذلك واصدر أمره بنفيه هو وعائلته الى قوص .

فعهد الخليفة المستكفى الى ابنه أحمد بالخلافة على يد قاضى قوص واستشهد بأربعين رجلا من العدول .

ولكن الملك الناصر لم يصدق على هذا التفويض وجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك . فتمسك القضاة الأربعة بحكم قاضى قوص ووجوب ولاية أحمد ابن المستكفى للخلافة ، ولكن السلطان قلاوون رفض ذلك وانفض المجلس بدون الوصول الى نتيجة .

وولى قلاوون بعد ذلك ابراهيم أخ المستكفى خليفة ولقب بالواثق بالله فكان العامة يلقبون الخليفة الجديد المستعطى بالله لقذارة نفسه وسوء تدبيره .

وهكذا انحدرت الخلافة الى أحط دركاتها ، ولكن هذا الموقف يصور لنا كيف أن القضاة الأربعة قد خالفوا السلطان ولم يخشوا بأسه ، كما أن السلطان من ناحيته لم يغضب عليهم لتمسكهم بأحكام الشرع .

١٣٤١ م ـ ٧٤١ هـ : وفاة السلطان الملك الناصر قلاوون :

فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة مات الناصر قلاوون . وكان عمره يوم وفاته سبعا وخمسين سنة وأحد عشر شهرا وأيام . حكم فيها ثلاث مرات ـ على ما مر بنا ـ وكانت مدة حكمه الأخيرة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما وهى مدة لم تتهيأ لأحد من سلاطين المماليك قبله أو بعده ولا نحسب بعد ما استعرضناه من وقائع حياته ، اننا فى حاجة للوقوف طويلا امام شخصيته والدور العظيم الذى قام به فى حياة مصر والاسلام فى هذه الفترة .

وحسبنا ان نشير الى بعض اللمسات اللازمة لاكمال صورة شخصيته :

ففى أحد المرات عندما علم أن الأمراء يتلاعبون بأسعار القمح مما ادى الى ارتفاع سعره اشتد غضبه عليهم ، حتى لقد انتهر قوصون زوج ابنته وأفزعه عندما علم باشتراكه فى هذا التلاعب .

فلم يلبث أن رخص القمح وهبطت أسعاره .

وقد اشتهر بحبه لاقتناء المماليك ، وشاع فى أقطار الدنيا احسانه الى مماليكه ، فكان المغول يبيعون أولادهم للتجار ليحملوهم الى مصر ليحصلوا على السعادة . ودفع ثمنا لبعض المماليك أربعين ألف درهم .

كما شغف بحب الخيل واقتناء الجيد منها وخاصة الجياد العربية حتى لقد دفع فى فرس اسمها بنت الكرماء مائتى ألف درهم .

وعندما مات كان فى اصطبلاته اربعة آلاف وثمانمائة فرس .

يقول عنه ابو المحاسن : وكان رحمة الله عليه فى غاية الحشمة والرياسة وسياسة الامور ، فلم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش فى شدة غضبه ولا فى انبساطه . وكان مفرط الذكاء يعرف جميع مماليك آبائه واولادهم بأسمائهم .

وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء وكان فى الجود والكرم . غاية لا تدرك ، وهب فى يوم واحد ما يزيد على مائة الف دينار ذهب .

سلالة قلاوون على العرش :

وفى خلال الاحدى والأربعين سنة التالية تبوأ كرسى السلطنة اثنا عشر سلطانا كلهم من سلالته ، ثمانية من أبنائه واثنان من حفدته واثنان من أبناء حفدته ، وهكذا استطاعت قوة شخصية قلاوون وأثره الكبير أن ينشىء أسرة حاكمة وأن يوطد فكرة الملك بالوراثة فى صفوف المماليك رغم عدم اعترافهم به .

١٣٤١ م — ٧٤١ هـ : سلطنة الملك المنصور سيف الدين ابو بكر :

فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة أى فى يوم وفاة قلاوون جلس على تخت الملك بالايوان من قلعة الجبل سيف الدين أبو بكر ابن الناصر قلاوون بعهد من أبيه . وكان عمره يوم ولى السلطنة عشرين سنة واطلق عليه اسم الملك المنصور .

واتفق الأمراء على أن يكون مدبر المملكة ورأس الشورى هو الأمير قوصون الناصرى .

١٣٤٢ م — ٧٤٢ هـ : خلع السلطان منصور أبو بكر :

فى يوم السبت ١٩ صفر من هذه السنة خلع السلطان منصور ثم قتل بعد ذلك فلم يكن تولية الأمراء لسيف الدين ابو بكر الا تنفيذا للعهد الذى قطعوه على انفسهم لأبيه ولكن الأمراء ما كانوا ليهدأوا عن السعى للحصول على السلطة ، ولما كان السلطان المنصور كبيرا الى الحد الذى لا يستطيع قوصون معه أن ينفرد بالسلطة ويمكن أن يكون خطرا عليه وعلى الأمراء فقد جمع قوصون الأمراء ولما ينقض ثلاثة اشهر على تنصيب السلطان منصور وقال لهم :

« ان السلطان يريد أن يقتلكم ولا يبقى على احد منكم » ، فالتف الأمراء حول قوصون ، والقوا القبض على السلطان وابعدوه الى قوص واصدر قوصون امره الى متولى قوص بقتله فنفذ الأمر .

سلطنة الملك الأشرف علاء الدين كجك :

فى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر صـفر اجلس على العرش السلطان الأشرف علاء الدين الابن الأصغر للسلطان الملك الناصر باتفاق الأمراء على اختياره بعد خلع أخيه ولم يكن عمره وقتئذ سوى خمس سنوات .

وهكذا اصبح قوصون نائب السلطان والحاكم الفعلى معا .

١٣٤٢ م ــ ٧٤٣ هـ : قتل الأمير قوصون :

غضب الشعب لما حل بالسلطان منصور ابن السلطان الناصر ، فراحوا يعبرون عن سخطهم بملاحقة مماليك قوصون بالسب فقبض على الكثيرين من أفراد الشعب وقتلوا وصلبوا فزاد ذلك من حقد الجماهير على قوصون .

وكان للناصر قلاوون ابن كبير يقيم فى حصن الكرك ، وهو شهاب الدين أحمد ، فاستغل حنق أمراء الشام على فعلة قوصون ، وغضب الشعب المصرى ، لكى يعلن حقـه فى تولى السلطنة ، فلم يكد هذا النبـأ يعلن ، حتى انفض الأمراء من حول قوصون ، وحاصروه فى القلعة ، وأباحوا للعامة نهب بيته وأمواله ، ونهبوها ، ولم يسع قوصون الا أن يستسلم فقبض عليه وارسل الى الاسكندرية ليسجن بها . حيث قتل بعد ذلك .

خلع السلطان الأشرف :

وخلع أمراء المماليك السلطان الأشرف بعد أن دامت سلطته الاسمية خمسة شهور وعشرة أيام ، تمهيدا لمبايعة أخيه .

سلطنة الناصر شهاب الدين :

فى يوم الاثنين العاشر من شوال ، بويع شهاب الدين احمد بعد أن وصـل الى مصر وصعـد الى القلعـة ، وتمت مبايعته بمعرفة الخليفـة والقضـاة الأربعـة ، ولقب بالناصر .

ولم يفعل فى مستهل حكمه الا أنه انتقم من قتلة أخيه ، ثم قرر أن يعود للاقامة فى حصن الكرك ولما يمض عليه شهر واحد فى مصر ، وعندما اعتزم السفر الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية فأخذ منها كل ما قدر على أخذه من الأموال والتحف والذخائر الثمينة ، والوف الأغنام والأبقار التى كانت لأبيه وساق ذلك كله معه وسار الى حصن الكرك ، وأعلن أن مقامه سيكون به .

١٣٤٢ م ــ ٧٤٣ هـ : خلع السلطان الناصر شهاب الدين :

استاء الأمراء من استقرار السلطان الناصر شهاب الدين فى قلعة الكرك فاجتمعوا وتداولوا فيما بينهم وقالوا : ان احوال المملكة ضائعة والسلطان لا يتلفت الى شيء فأرسلوا يكاتبونه فى الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم يحضر ولوا غيره .

ولكن السلطان لم يأبه بأمرائه وكتب لهم يقول « اننى أقيم فى الموضـــع الذى اشتهى ، واى وقت أردت حضرت اليكم » . .

فاستقر راى الأمراء على خلعه ، فخلعوه فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر المحرم . فكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر وأيام .

سلطنة الصالح عماد الدين اسماعيل :

فى يوم الخميس الثـانى والعشرين من محرم جلس على تخت الملك والسلطان الملك الصالح عماد الدين بن الملك الناصر قلاوون بعد أن خلع اخيه بإتفاق الأمراء على ذلك .

وبعــد أن اخــذوا عليه العهــد والميثــاق الا يقبض على أحــد منهم بغير ذنب ولا يؤذى احدا .

١٣٤٤ م ــ ٧٤٥ هـ : قتل الملك الناصر أحمد :

لم يكد الملك الصالح يلى السلطنة حتى شرع يناهض اخاه فى الكرك ويطالبــه بما استولى عليه من أموال ، فلم يجبه أخوه الى شيء من ذلك ، وأعلن تمسكه بسلطانه الكامل وعدم الاعتراف بخلعه . فبدأت الجيوش تخرج من مصر وتحاصر قلعة الكرك ، ودارت المعارك دون أن تصل الى نتيجة ، واستمر الحال على هــذا المنوال اكثر من سنتين .

ولكن الحصار قد اضر فى نهاية الأمر بالملك الناصر ، وخاصة بعد أن انفق آخر ما كان متجمعا لديه من أموال ، فانتهى أمره بالاستسلام الى الجيش المصرى فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر صفر . فقبض عليه ثم قتل .

١٣٤٥ م ــ ٧٤٦ هـ : موت السلطان الصالح اسماعيل :

فى ليلة الخميس الرابع من ربيع الثانى مات السلطان الصالح اسماعيل وكان عمره يوم موته عشرين سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وشهرا وثمانية عشر يوما .

سلطنة الملك الكامل شعبان :

فى يوم الخميس الرابع من ربيع الثانى فى نفس اليوم الذى مات فيه السلطان

الصالح بويع بالملك الابن الخامس للناصر قلاوون وهو السلطان الكامل سيف الدين شعبان .

١٣٤٦ م ـ ٧٤٧ هـ : قتل السلطان الكامل :

لم يكد السلطان الكامل يجلس على العرش حتى أقبل على حياة اللهو والمجون وأشاعها فى البلاد كلها واهمل شئون الدولة ، فنفر منه الرأى العام فاجتمع الأمراء الموجودون فى دمشق ، وعرضوا على نائب السلطان على دمشق أن يكتب له محذرا ومنذرا فكتب يقول :

انى أحد الأوصياء عليك . وكان مما قاله لى أبوك ولغيرى من الأمراء فى وصيته اذا اقمتم احدا من أولادى ولم ترضوا عن سيرته فجروا برجله واخرجوه واقيموا احدا غيره .

وانت أفسدت المملكة واقصيت الأمراء والأجناد . وقتلت أخاك ، وقبضت على أكابر أمراء السلطان ، وانشغلت عن الملك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر .

وذكروا له أمورا فاحشة عملها .

فلما وصل هذا الخطاب الى مصر اعتبره السلطان الكامل انه بمثابة تمرد من نائب الشام ، وقرر أن يبعث اليه بالجيش لتأديبه .

وقبض على أخويه حاجى وحسين وأعد العدة لقتلهما . فلما تسامع الأمراء بذلك انفضوا من حوله ، وحاصروا القلعة ثم قبضوا عليه وافرجوا عن أخويه ، واجلسوا أحدهما وهو « حاجى » على العرش وقتلوا السلطان الكامل فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة . فكانت مدة سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما .

سلطنة الملك المظفر حاجى :

فى يوم الاثنين أول جمادى الثانى اجلس على العرش الابن السادس للناصر قلاوون وهو الملك المظفر زين الدين حاجى ، وقد ولد على ما يقول ابن اياس عام ٦٣٢ هـ عندما كان أبوه يحج ولذلك أطلق عليه حاجى .

ولم يكد يلى الملك حتى اقبل على اللهو واللعب ، وشغل نفسه بلعب الحمام مع « الأوباش » على ما يقول معاصروه . فى الوقت الذى قتل فيه عددا كبيرا من الأمراء وهدد بقتل غيرهم عندما انكروا عليه الاختلاط بالأوباش واللعب بالحمام .

فبادر الأمراء بالتآمر عليه لقتله .

١٣٤٧ م ـ ٧٤٨ هـ : مقتل السلطان المظفر حاجى :

ففى يوم الأحد ثانى عشر من رمضان ، أحاط الأمراء بالسلطان المظفر حاجى بعد

ان خاض معهم معركة فاشلة ، فقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة سلطنته على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر واربعة أيام .

١٣٤٧ م – ٧٤٨ هـ : سلطنة الملك الناصر حسن الأولى على مصر :

فى يوم الثلاثاء رابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة بويع بالملك سابع أولاد الملك النـاصر ابو المحاسن حسن بعد مقتـل أخيه حاجى ، وكان عمره يوم بويع احدى عشرة سنة على ما يقـول أبو المحاسن ، وثلاث عشرة سنة على ما يقول ابن اياس .

ولقب بالملك الناصر . .

وتم الاتفاق بين الأمراء على ان يتولى تسعة منهم على راسهم شيخون العمرى مهمة التشاور فيما بينهم لتدبير أمور المملكة حسب ما يتفقون عليه .

١٣٤٨ م – ٧٤٩ هـ : وباء الموت الأصفر الذى غمر العالم ووصوله الى مصر :

وصل الى مصر فى هذه السنة وباء الطاعون الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى واطلق عليه اسم الموت الأصفر .

وقد بدأ الوباء فى أواسط آسيا ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ومنها انتقل الى جنـوا عن طريق مراكب البحر ثم سرى فى سائر أنحاء أوروبا ووصـل الى انجلترا عام ١٣٤٨ فقضى على نصف سكانها .

يقول ابن اياس انه كان يخرج من القاهرة فى كل يوم ما يزيد على عشرين الف جنازة . وقد بلغ عدد من ماتوا فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة الف .

ولم يزرع من أراضى مصر فى هذه السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم وجود من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت الربعة من القمح بمائتى درهم وكادت مصر تخرب فى هذه السنة .

يقول ابو المحاسن نقلا عمن عاشوا بعد هذا الوباء :

فما أن أهل ذو القعدة الا والقاهرة خالية مقفرة لا يوجد بشوارعها مار بحيث يمر الانسان من باب زويلة الى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لاشتغال الناس بالموتى . وعلت الاتربة على الطرقات ، وتنكرت وجوه الناس وامتلأت الأماكن بالصياح فلا تجد بيتا الا وفيه صيحة ولا تمر بشارع الا وترى فيه عدة أموات .

وصلى فى يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات فى جامع الحاكم ، فصفت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة الى باب الجامع ، ووقف الامام على العتبـة والناس خارج الجامع .

وخلت ازقة كبيرة وحارات عديدة من الناس وبقيت الأزقة والدروب المتعددة خالية .

واشتد الأمر فلم يعد هناك مجال لعمل التوابيت والصلاة على المتوفى فحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب وحفرت الحفائر والقى فيها الموتى فكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون .

وكانت صفة الموت بالطاعون ، أن يبصق الانسان دما ، ثم يصيح ويموت .

١٣٥٠ م — ٧٥١ هـ : ترشيد السلطان حسن :

اضطربت أحوال البلاد من جراء ما وقع فيها من فناء ، وضاعف فى شدة الأمور قصور فيضان النيل ، فزاد البلاء بالناس ، فاستغل السلطان هذه الفرصة ، ليتمرد على الحجر الذى فرضه عليه الأمراء ، والذى بلغ الى حد تحديد مصروفه اليومى بمائة درهم لا يجوز له أن يتجاوزها .

فجمع السلطان القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وطلب أن يعتبر رشيدا فأجيب الى طلبه ، واصبح بيده الحل والعقد ، فأصدر أمره بالقبض على عدد من الأمراء .

١٣٥١ م — ٧٥٢ هـ : خلع السلطان حسن :

لم يرض الأمراء عن هذه الخطوة التى أقدم عليها السلطان حسن ولذلك فقد تآمروا عليه وقرروا خلعه . فتم لهم ذلك فى يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ، وقبضوا عليه وسجنوه فى أحد الأمكنة داخل دور الحريم .

سلطنة الملك الصالح صلاح الدين :

فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة تسلطن صلاح الدين الابن الثامن من أبناء الناصر قلاوون باتفاق الأمراء بعد خلع أخيه السلطان حسن ، ولقبوه بالملك الصالح . وزينت القاهرة وسائر بيوت الأمراء حسب ما هو متبع وكان المتصرف فى شئون الدولة الأمير شيخون العمرى والأمير صرغتمش والأمير طاز .

١٣٥٢ م — ٧٥٣ هـ : قيام الفتنة فى الشام وقمعها :

اعلن أمير حلب يلبغا أردس ، عصيانه على سلطنة القاهرة ونادى بنفسه سلطانا على الشام وزحف على مدينة دمشق وفرض عليها الحصار ، فخرج السلطان والأمراء من القاهرة ، قاصدا الشام ، فلم يكد أمير حلب المتمرد يسمع بقرب وصول السلطان

حتى رفع الحصار عن دمشق وانسحب عائدا الى حلب ولكن جيوش السلطان التى كانت قد وصلت لاحقته فى فراره فلم يعد أمامه الا أن يفر من البلاد كلها .

وعاد السلطان الى القاهرة فى أواخر شوال ، فكان دخوله الى القاهرة يوما مشهودا لم يتفق لأحد من أخواته ، فزينت له الشوارع ، وحمل على رأسه القبة والطيرا وهى « شعائر السلطنة » وفرشت له شقق الحرير من باب النصر الى القلعة وهو فى غاية العز والنصرة والأمراء مشاة بين يديه يلعبون قدامه بالغواشى والذهب ، وينثرون عليه الذهب والفضة والناس تضج له بالدعاء .

١٣٥٤ م – ٧٥٥ هـ : خلع الملك الصالح واعادة السلطان حسن :

وفى يوم الاثنين الثانى من شوال من هذه السنة ، اتفق الأمراء على خلع الملك الصالح صلاح الدين لغير سبب واضح الا الرغبة فى التبديل لمجرد التبديل . فقبض عليه وحبس فى بعض دور القلعة وكان عمره يوم خلعه واحد وعشرين عاما .

ثم تشاوروا فيما بينهم عمن يكون سلطانا ، فانتهى رأيهم الى اعادة السلطان حسن الى العرش .

عودة السلطان حسن الى الملك :

فى نفس اليوم الذى خلع فيه السلطان الصالح أخرج السلطان حسن من محبسه بالقلعة وأجلس على العرش وأقيمت الاحتفالات المعتادة بهذه المناسبات .

وكان القائم على أمر الخلع والتولية هما الأميران شيخون العمرى وصرغتمش . وقد تعين شيخون أتابكا للعسكر .

١٣٥٥ م – ٧٥٦ هـ : جامع وخانقاه شيخون :

أتم الأمير شيخون فى هذه السنة ، بناء مؤسسته الدينية العلمية الصوفية المؤلفة من جامعه المشهور وخانقاه ، ولا يزال الجامع والخانقاه قائمين حتى اليوم بشارع الصليبة ، وتقام الشعائر الدينية فى المسجد ، أما الخانقاه فتعتبر أكمل خوانق القاهرة حتى لا تزال بها مساكن الطلبة فى دورين تشرف بشكلها المدرسى الجميل على صحن الجامع وان كانت شاغرة اليوم .

أما على عهد منشئها فقد كانت تغص بطلبتها من الصوفية الذين قرر لهم الخبز والطعام كل يوم والحلل العجيبة مرة كل شهر .

١٣٥٨ م ـ ٧٥٩ هـ : افتتاح مدرسة ومسجد السلطان حسن :

فى هذه السنة تم بناء المدرسة التى شرع السلطان حسن فى انشائها منذ ثلاث سنوات سـابقة ، والتى تعرف اليوم باسـم السلطان حسن ، والتى تواجه جامع الرفاعى بمنطقة القلعة .

وتعتبر مدرسة السلطان حسن فخر العمارة الاسلامية وأجمل ما بنى فى مصر منذ دخلها الاسلام حتى الآن . ويقرر هذه الحقيقة كل المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الأثر . وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين .

وكان يصرف على هـذه المدرسة ابان بنـائها عشرون ألف درهم فى كل يوم أو ما يعادل الف مثقال من الذهب .

وفى هذه المدرسة عجائب من فن البنـاء ، منها ان ذرع ايوانها الكبير ٦٥ ذراعا فى مثلها ومن عجائب بنائها كذلك القبة العظيمة ، التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب مثلها وفيها المنبر الرخام الذى لا نظير له فى الدنيا ، ومنها البوابة العظيمة . وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض . وهذه المدرسة تستعمل على اربع مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة يختص بها ..

يقول امين باشا سامى :

وبالجملة فهذا الجامع انشىء فى أكبر قالب واحسن هنـدام واضخم شـكل فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يماثله ..

ومن ناحيتى انا ، فلقد طالما بهرنى مبنى مسجد السلطان حسن بأكثر مما بهرنى بناء الأهرام نفسه ، ولطالما وقفت أمامه مبهوتا ازاء شموخ جدرانه الضاربة فى الفضاء قبل أن تعرف الدنيا ناطحات السحاب .

ولطالما اخذت رفاقى واصحابى لزيارة هذا المسجد العتيد ، ورحت أحاضرهم عنه ، واضعا أيديهم على مغزى امكان المجتمـع أن يقيم مثل هذا البنـاء ، الذى يكشف عن وفرة من كان به من الفنـانين والمهندسين والبنـائين ومختلف أنواع الحرفيين .

وفوق ذلك كله المديرون والمنظمون .

وفاة السلطان اورخان غازى العثمانى :

وفى هذه السنة ٧٦١ مات السلطان أورخان غازى بعد أن بلغ من العمر ٨١ سنة حكم منها ٣٥ سنة ، وسع فيها رقعة الدولة العثمانية .

وتسلطن من بعده ابنه مراد خان الغازى .

١٣٦١ م – ٧٦٢ هـ : مقتل السلطان حسن :

حرص السلطان حسن أن يكون هو صاحب الملك الحقيقى فتخلص من كبار امراء أبيه شيخون وصرغتمش ، وانشأ لنفسه جيشا خاصا من المماليك الذين اشتراهم ودربهم ورقاهم الى أعلى المراتب .

وجعل الاميريلبغا العمرى رئيسا لهم .

فكان خلعه على يد الاميريلبغا الذى اشتبك مع سيده فى معركة ، فانهزم السلطان حسن ، وفر هاربا ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، وجىء به الى يلبغا فلم يمهله وارداه قتيلا .

وكان عمر السلطان حسن يوم مقتله ثلاثين سنة . ومدة ملكه فى سلطنته الثانية ست سنين وسبعة اشهر .

ومرة اخرى يعجب الانسان ، كيف استطاع فى هذه المدة القصيرة والظروف المضطربة التى كانت طابع الحياة المملوكية فى ذلك الوقت ، ان ينشىء هذا المبنى الذى لا مثيل له فى العالم الاسلامى .

الحق أن هذا ان دل على شيء ، فعلى حيوية هذا الشعب وقدرته فى كل زمان ومكان أن يعبر عن طاقاته الفنية وابداعاته الانشائية متى أتيحت له الفرصة .

سلطنة الملك المنصور محمد على مصر :

فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هـــذه السنة ، بويع السلطان ، الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفر حاجى ابن السلطان الناصر قلاوون ، فهو أول أحفاد الناصر ممن جلسوا على العرش .

وكان لا زال باقيا من ابناء الناصر قلاوون ابنه حسين ، ولكن يلبغا العمرى آثر أن يولى سلطانا صغيرا ليكون أقدر على التحكم فيه .

وكان عمره على ما يقول أبو المحاسن أربعة عشر عاما ، وهو الراى الذى اخترناه ، من بين الأقوال الأخرى المتعددة .

وعين الامير يلبغا العمرى مديرا للمملكة فتزوج زوجة استاذه السلطان حسن الذى قتله .

١٣٦٢ م – ٧٦٤ هـ – خلع السلطان الملك منصور محمد :

فى يوم الثلاثاء : خامس عشر شعبان من هذه السنة ، اتفق الأمراء وعلى رأسهم يلبغا العمرى وطيبغا الطويل على خلع الملك المنصور محمد لما بلغهم عنه على ما يقول

ابو المحاسن من انه كان يدخل الى نساء الأمراء ويمزح معهن وكان يعمـل مكاريا للجوارى ويركبهن الحمار ويجرى وراء الحمار بالحوش السلطانى ، وانه كان يأخذ زنبيلا به كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك على سبيل المجانة . وانه كان يفسق فى حريم الناس ويخل بالصلوات ويجلس على كرسى الملك جنبا وأشياء غير ذلك فاتفق الأمراء على خلعه فخلعوه وقد عاش بعد ذلك خاملا غارقا فى السكر واللهو الى أيام السلطان برقوق (١) .

وكانت مدة سلطنة الملك منصور سنتين وثلاثة اشهر وستة ايام .

سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر :

فى نفس اليوم الذى خلع فيه الملك منصور ، اجلس على تخت الملك السلطان الملك الاشرف أبو المفـاخر « على ما يلقبه بعض المؤرخين وأبو المعالى على ما يلقبه البعض الآخر » زين الدين شعبان ابن الملك حسين ابن السلطان الناصر قلاوون .

وكان عمر الأشرف يوم توليه عشر سنوات .

واستقر الاتابك يلبغا العمرى مديرا للمملكة ، ومعه خشدانه « اى زميله » طيبغا الطويل أميرا على السلاح .

١٣٦٥ م ــ ٧٦٧ هـ : ملك قبرص ينهب الاسكندرية :

كان سقوط عكا على يد الأشرف خليل عام ١٢٩١ م هو آخر العهـد بالصليبيين على ارض فلسطين ، ولكن بقايا الصليبيين الذين جلوا عن فلسطين والشام التجأوا جميعا الى جزيرتى قبرص ورودس ، وسرعان ما تحولت هاتان الجزيرتان الى قلعة صليبية تعمل بالليل والنهار على استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين .

وقد استغل بطرس لورنيان ملك قبرص ، اضطراب الأحوال فى مصر ، وعدم استقرار سلاطينها فحاول أن يهيب بأوروبا لتشن حربا صليبية جديدة على مصر ، ولكن الجذوة الدينية ، كانت قد انتهت نهائيا فى أوروبا ، ومع ذلك فقد أمدوا ملك قبرص ببعض العون الذى جعله يتجرأ على مهاجمة اسكندرية بسبعين مركبا من المراكب الحربية المشحونة بالمقاتلين .

وبدلا من أن يتربص بهم والى المدينة داخل أسوار مدينته الحصينة ريثما يصل

---

(١) حرصنا على اثبات خلع الملك المنصور كما كتبها أبو المحاسن تغرى بردى لانهـا أعظم شهادة لهذا المؤرخ الفقيه الامين ، وتجرده وحيائه بالنسبة لـما يكتب ، ذلك أن أبا المحاسن يقول لنا فى تاريخه ان اباه تزوج ابنة هذا الملك أيام السلطان برقوق . وكانت هذه الصلة جديرة بأن تجعل أبا المحاسن يغفل ذكر هذه التفصيلات المشينة عن رجل صاهره أبوه ، ولكن روح المؤرخ غلبت عليه فكتب كل ما نقل اليه عن الرجل .

الخبر الى القاهرة ويأتيه منها المدد ، استخف بالجيش المهاجم ، وخاض معهم معركة خارج أسوار المدينة فدارت عليه الدائرة وفر مذعورا ومن معه متجها نحو دمنهور لا القاهرة مخلفا وراءه المدينة مفتوحة الأبواب خالية من اى دفاع فدخلها القبرصيون وانبثوا فى شوارعها ينهبون متاجرها وبيوتها ومساجدها وكنائسها ويقتلون من يعترضهم ويخربون ويحرقون مالا يقدرون على سرقته ، وظلوا على هذا الحال ثلاثة أيام وهم ينقلون الى سفنهم كل ما وصل الى أيديهم .

حتى اذا وصل الى سمع القبرصيين تحرك السلطان الأشرف شعبان من القاهرة ، أسرعوا الى سفنهم لائذين بالفرار بغنيمتهم ، تاركين وراءهم الاسكندرية قاعا صفصافا .

ويصف النويرى سلوك بطرس لورنيان ملك قبرص انه جاء الى المدينة لصا وخرج منها لصا .

وغنى عن البيان أن هذه الهزيمة العسكرية ونهب مدينة الاسكندرية على هذه الصورة هى حصيلة سوء الأحوال التى انتهت اليها البلاد والسلاطين العوبة فى يد الأمراء يعينون من يشاءون ويعزلون من يشاءون ويقيلون من يشاءون ، لا لمصلحة عامة ولكن لتحقيق أغراض شخصية .

وقد سجل ديوان الشعر المصرى هذه النكبة التى حلت بمدينة الاسكندرية على لسان الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجلة ، حيث يقول فى قصيدة طويلة :

الا فى سبيل الله ما حل بالثغر ... على فرقة الاسلام من عصبة الكفر
أتاها من الافرنج سبعون مركبا ... وضاقت بها العربان فى البر والبحر

١٣٦٦ م — ٧٦٨ هـ : مقتل يلبغا العمرى :

وقع الاصطدام المألوف بين الملك الأشرف شعبان وبين صاحب السلطة الحقيقى يلبغا العمرى ، وكانت مماليك يلبغا هى التى حرضت السلطان عليه والزمته بمحاربته بسبب الشدة التى كان يعاملهم بها يلبغا .

فحاول يلبغا ان يسلطن ملكا جديدا وهو « انوك » اخو السلطان الأشرف ولكنه خاب فى مسعاه .

وغلب على أمره وقبض عليه مماليكه وضربوه وشهروا به وقطعوا راسه ، وهكذا شرب من نفس الكأس التى أشربها لسيده من قبله .

١٣٧٢ – ٧٧٤ هـ : وفاة الحافظ ابن كثير :

فى يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من هذه السنة مات الشيخ الامام الحافظ المؤرخ عماد الدين بن كثير القرشى الشافعى صاحب التاريخ الشهير « البداية والنهاية » وصاحب التفسير الجليل للقرآن ..

قال عنه القاضى العينى : كان قدوة العلماء ، والحفاظ وعمرة أهل المعانى والالفاظ وسمع وجمع وصنف دروسا ، وحدث ، وألف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير .

وبالنسبة لى انا ، فان كتابيه العظيمين البداية والنهاية ، وتفسير القرآن ، يؤلفان اعظم ذخيرة فى مكتبتى بعد أن أصبحت كثير الاعتماد عليهما سواء فى كتابة التاريخ أو فى تفسير القرآن :

١٣٧٣ م – ٧٧٥ هـ : اضطراب فيضان النيل واشتداد الغلاء :

اضطرب فيضان النيل فى هذه السنة ، وشح ماؤه فأمر السلطان الناس بالخروج الى الصحراء ليصلوا صلاة الاستسقاء فى يوم الخميس الثانى من ربيع الثانى ، فاجتمع فى الصحراء الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال وطائفة اليهود ، وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة العباسى المتوكل والقضاة الأربعة والسلطان .

ولكن النيل هبط فى هذه الليلة هبوطا جديدا .

فبدأ الغلاء يشتد فى مصر ، حتى بلغ ثمن اردب القمح مائة وعشرين درهما وأردب الشعير ثمانين درهما ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز أربعة دراهم ، وبلغ ثمن رطل اللحم الضانى درهمين ونصف ، وبلغ ثمن رادية الماء خمسة دراهم .

ومات فى تلك السنة اكثر الدواب من قلة العلف ...

فلما اشتد الأمر وجهدت البلاد رسم السلطان أن يجمع الفقراء ويوزعون على الأمراء وأعيان التجار ، ورسم السلطان أن يعطى لكل فقير رغيفين وما يشاكل ذلك من الطعام .

واستمر الحال على ذلك سنة بغير أن يتراجع السعر أو ينحط حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخالة والذرة .

١٣٧٦ م – ٧٧٨ هـ : مقتل الملك الأشرف :

فى ليلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة من هذه السنة قتل الملك الأشرف شعبان خنقا اذ وثب عليه بعض أمرائه أثناء ذهابه الى الحج فقتلوه وكان عمره يوم مات أربعا وعشرين سنة ، ومدة حكمه فى مصر أربعة عشر عاما .

يقول ابن اياس ، وكان الملك الأشرف شعبان من محاسن الزمن فى العدل والحلم ، وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ويحب أهل العلم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين .

وكان محسنا لاقاربه وابناء عمه بخلاف من يقدمه من بنى قلاوون ..

وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن ..

وساس الناس فى أيامه احسن سياسة ..

وكانت الناس عنه راضية حتى مات ..

وقد فتحت فى عهده مدينة سيس « عاصمة دولة الأرمن » ومدينة سينجار ومدينة دوركى .

وانشأ مدرسة فى راس الصوة .

وأبطل ضمان المغانى وهو المال الذى كان يجىء من المغنيين والمغنيات ..

ويضيف أبو المحاسن :

ومع وقوع الغلاء فى أيامه فلم يختل شىء من أحوال مصر لحسن تدبيره – ونفقت فى أيامه البضائع الكاسدة من الفنون ، وقصده اربابها من كل الأقطار وهو لا يكل من الاحسان اليهم . فلما كلمه بعض خواصه قال رحمة الله لئلا تموت الفنون فى دولتى وايامى .

سلطنة الملك المنصور على ابن الملك الأشرف :

فى يوم الخميس ثامن ذى القعدة من هذه السنة بعد مقتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام ، جددت البيعة للملك منصور على بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة والامراء ..

وكان أبوه قد أنابه على العرش قبل سفره الى الحجاز فانتهز الامراء المقيمون فى القاهرة هذه الفرصة لكى يخلعوا أباه ويجعلوه سلطانا ، فى الوقت الذى كان الأمراء الذين صحبوا السلطان الى الحجاز يتواثبون عليه كما قدمنا فيفر منهم عائدا الى القاهرة فقبض عليه المماليك الذين خلعوه وقتلوه .

ولما كان الخليفة والقضاة الأربعة فى صحبة الملك عند ذهابه للحج فقد جددت البيعة لابنه بعد عودتهم .

وكان عمر السلطان منصور سبع سنوات .

١٣٨٠ م / ٧٨٢ هـ ــ بزوغ نجم برقوق :

لم يكد السلطان الطفل يتولى الملك ، حتى بدات الرواية التى لاتنتهى ، رواية اقتتال المماليك حول السلطنة ، وعدوان بعضهم على بعض وتآمرهم مما يسأم الانسان لمتابعته فى كتب التاريخ التى تورده بتفاصيل شيقة .. وقد انتهت موجة المؤامرات ، وعمليات القتل والخنق والسجن والابعاد بظهور نجم جديد على المسرح كان مقدر له ان يغلق صفحة من تاريخ مصر لتبدأ صفحة جديدة .

وتلكم الشخصية هى سيف الدين برقوق الجركسى :

وكان ظهور نجمه وغلبته على باقى الامراء والمتطلعين للرئاسة يعنى انتصار المماليك البرجية نهائيا ، على من اصطلح بتسميتهم المماليك البحرية .

والمماليك البرجية هم الذين أنشأ لهم المنصور قلاوون الابراج ليقيموا فيها بالقلعة وأطلق عليهم اسم مماليك الطباق وهم من أصل شركسى ، حيث كانوا يضمون الى الطباق بالقلعة فيرتبه الطواشى أو الاغا المقدم عليه عند الفقيه ليربيه بالآداب والحشمة والحرمة « ثم يدرب على أعمال الفروسية كالرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل ثم يدرج بعد ذلك فى الجامكية والرواتب من (٣) الى (٧) دنانير فى الشهر .

وقد وصل برقوق بحيث أصبح اتابكا للعسكر ومديرا للمملكة بعد سلسلة من المعارك الصغيرة والكبيرة مع اعدائه ومنافسيه ثم مع اصدقائه ومعاونيه .

وكان أول مافعله بعد ان استجمع فى يده السلطة ان استدعى من بلاده الشركس والده (آنص) واخوته ، فجاءوا الى مصر لينعموا بعز ابنهم الذى تركهم رقيقا ، وسمعوا عنه أمير الأمراء فى مصر . وقد استقبل والد برقوق باحتفال عظيم .

١٣٨١ م / ٧٨٣ هـ ــ موت السلطان الملك المنصور على :

فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر صفر مات السلطان الملك المنصور على بعد مرض الزمه الفراش وكان عمره يوم مات اثنى عشر عاما ، تسلطن منها خمس سنوات وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

وقد كان لايعدو صورة الى جوار برقوق .

فيقول أبو المحاسن : ولم يستطع برقوق رغم ماكان عليه من العظمة ان يتسلطن فاخرج أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن أخيه .

سلطنة الملك الصالح زين الدين حاجى :

فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر اجلس على تخت الملك الصالح زين الدين أمير حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان .

وكان عمره تسع سنوات . وكان مدير شئون الدولة واتابك العسكر هو برقوق . وبقية الأمراء يركبون فى خدمته وينزلون عنده ويأكلون على سماطه .

١٣٨٢ م — ٧٨٤ هـ : خلع السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى :

فى التاسع عشر من شهر رمضان ، من هذه السنة خلع الملك الصالح زين . وكان برقوق قد دبر أموره للوثوب الى آخر قمة السلطة ، بارضاء بعض الأمراء ، والتخلص من بعضهم الآخـر ، وابعاد بعض ثالث الى الشــام . فلما اطمأن الى سيطرته على الموقف . استدعى المتوكل الخليفة العباسى والقضاة — الأربعة وسائر الامراء . فلما اجتمعوا قام كاتب السر القاضى بدر الدين فى وسط المجلس وقال : يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة ، ان الأحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد ، وغامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة والوقت قد ضاق ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير يجتمع فيه الهمة ويسكن الاضطراب .

فاقترح القضاة والخليفة سلطنة الاتابك برقوق . وهكذا خلع الملك الصالح زين الدين حاجى وتسلطن الأتابك برقوق .

وأدخل الملك الصالح الى دور الحريم عند اخوته .

وكانت مدة سلطنته بعد أخيه سنة وسبعة اشهر وأياما .

وبخلع زين الدين حاجى آخر سلالة قلاوون ، يعتبر المؤرخون أن دولة المماليك البحرية قد انتهت لتبدأ دولة المماليك البرية أو المماليك الجراكسة نسبة الى أصلهم الجركسى ..

ولكن الحق أن لا فارق على الاطلاق فى الدولتين ، فهما متداخلتان وقــد ظلت الأنظمة هى الأنظمةوالأساليب هى الاساليب ، ولم يتغير شىء قل أو كثر ، ولعل الاصح أن يقال أن سلسلة السلاطين الاسمية التى انحدرت من سلالة قلاوون ، والتى ظلت فى الحكم رغم ضعفهم وهوانهم ، قد انتهت بسلطنة برقوق وأصبحت الكلمة الأخيرة فى كل ما يتعلق بشئون الحكم الى مماليك القلعة يعيشون فى أبراجها بغير تدخل من غيرهم . فانعدم بذلك آخر ظل لمبدأ الوراثة فى ولاية الملك .

وأصبحت حقيقة السلطان انه كبير الأمراء أو الأول بين الامراء .

الفصل الخامس عشر

دولة المماليك الشراكسة

٧٨٤ : ٩٢٤ هـ - ١٣٨٢ : ١٥١٧ م

سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر :

فى يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان الموافق السادس من نوفمبر سنة ١٣٨٢ ، جلس الملك برقوق على تخت الملك بعد أن بايعه الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ولقب بالملك الظاهر .

وقيل أن اسمه الأصلى كان الطنبكا فغيره أستاذه يلبغا لما اشتراه وسماه برقوقا على ماقرر المقريزى ، ولكن أبا المحاسن لايوافق على هذا الرأى ويدحضه بعدة حجج أوردها ، ويقول أن اسم برقوق هو اسمه منذ ولادته ..

وكان يلبغا قد اشتراه من الخواجة عثمان بن مسافر ، ولم يلبث يلبغا أن أعتقه كما هى العادة ، ووهبه ما اعتادوا ايهابه للمملوك المعتق من قماش وخيل ومال ليستعين به على حياته الجديدة ، ثم راح يتدرج فى الوظائف ، حتى أصبح أميرا على عشرة ، وانخرط بعد ذلك شأن المماليك فى المؤامرات والمناورات التى انتهت به الى سلطنة مصر ..

مقدم ابن خلدون الى مصر :

وقد عاصر جلوس برقوق على عرش مصر ، حدث مر فى وقته غير ملحوظ ، وربما لم يعلق عليه أحد من الأهمية ، ما يعلقه على سقوط ملك وتولية ملك جديد ، ومع ذلك فان التاريخ يحتفل اليوم بهذا الحدث ، بأكثر من احتفاله بتولية برقوق ، أو كل ما وقع فى مصر فى هذه اللحظة من أحداث محلية .

اما هذا الحادث فهو مقدم عبد الرحمن بن خلدون الى مصر ، حيث وصل الى الاسكندرية فى أول أيام عيد الفطر من هذه السنة ٧٨٤ هـ وكان السبب الذى أظهره لتعليل قدومه الى مصر هو رغبته فى اداء فريضة الحج : ولكن السبب الحقيقى ، هو سوء الاحوال فى البلاد المغربية ، وقد اقام فى الاسكندرية شهرا يهىء العدة فيه للحج ، أو يتظاهر بذلك ، فلم تتح له فرصة السفر الى مكة ووصل الى القاهرة ليستقر فيها بدلا من ذلك .

القاهرة كما يصفها ابن خلدون :

يقول ابن خلدون فى كتابه التعريف ، وهو ترجمة حياته الذاتية فانتقلت الى القاهرة أول ذى القعدة : فرأيت الدنيا وشبان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصر والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من غلمانه . قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء تسقيهم النهال والعلل سيحة ، ويجنى اليهم الثمرات والخيرات فجة ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة .

وأسواقها تزخر بالنعم ... وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران، واتساع الاحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا واصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى ، مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له كيف القاهرة ، فقال من لم يرها لم يعرف عز الاسلام . وسألت شيخنا أبا العباس بن ادريس كبير العلماء ببجاته فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب .. اشارة الى كثرة اممه وأمنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب ابو القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان ، متصرف من السفارة عنه الى ملوك مصر ، ونادبته رسالته النبوية الى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة وسأله عن القاهرة فقال : أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار : ان الذى يتخيله الانسان فانما يراه دون الصورة التى يتخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

واذا كنا أطلنا فى النقل عن ابن خلدون ، ممثلة وهو فى رأى بعض العلماء الغربيين أعظم العقول التى أنجبتها العرب ، بل التى أنجبتها الانسانية كلها فى هذه الفترة ، جدير بأن ينقل عنه ما يصور مكانة مصر وسمعتها وغناها وثروتها وحضارتها فى هذه الفترة من التاريخ .

ثم يقول ابن خلدون عن حفاوة القاهرة وعلمائها به .

فلما دخلتها أقمت أياما ، وانهال على طلبة العلم بها ، يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذرا ، فجلست للتدريس فى الجامع الأزهر .

وهكذا اندمج ابن خلدون منذ وصوله الى مصر فى نسيج حياتها — وسيظل علما من أعلامها — يدرس ويتولى رئاسة القضاء الحنفى ، ويعيد كتابة مقدمته الخالدة ، التى تعتبر بحق أعظم كتاب ظهر فى العربية منذ عصره حتى الآن (على الأقل) .

١٣٨٣م / ٧٨٥هـ ــ خلع الخليفة المتوكل :

كان من غير الطبيعى أن يمر حادث تولى برقوق السلطنة دون ان يحدث رد فعل شديد من الاستنكار والاعتراض فى أكثر من جهة . وقد جاء أول رد فعل من الجهة التى ظلت حتى الآن سلبية لا تتدخل فى موضوع السلطة ، ونعنى بها الخليفة العباسى فقد اتصل المتوكل ، الذى يبدو أنه كان شــديد الطموح ، ببعض أمراء المماليك ، ليقنعهم أنه باعتباره الخليفة هو الأحق بالسلطنة من برقوق .. ووصل نبأ المؤامرة الى برقوق ، فأسرع الى الخليفة المتوكل والأمراء الذين تآمر معهم ، وهم بأن يقتل الخليفة ، ولكن القضاة الأربعة رفضوا ان يفتوه بجواز قتل الخليفة ، فاكتفى بخلعه وسجنه فى أحد أبراج القلعة ، وولى الخلافة بدلا منه عم المتوكل عمر بن ابراهيم ولقبه بالواثق بالله .

١٣٨٦م / ٧٨٨هـ ــ افتتاح مدرسة برقوق :

انشأ برقوق مدرسة بين القصرين ، وافتتحها فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى ، وملأ فسقية المدرسة على جارى العــادة بالماء والسكر ووزعه على الناس .

وعين الشيخ علاء الدين السيرانى شيخا للمدرسة ، وخلع على الأمير جركس الخليلى الذى شاد العمارة ، والمهندسين والمرخمين والنجارين والدهانين والبنائين لكل واحد منهم خلعة ووزع أشرفين (دينارين) على كل واحد من الفعلة (العمال) الذين اشتغلوا فى بناء المدرسة ولا تزال هذه المدرسة قائمة بشارع المعز لدين الله (شارع النحاسين) وتسمى جامع السلطان برقوق ، وهو من أبدع مساجد القاهرة .

١٣٨٩م / ٧٩٠هـ ــ بزوغ نجم تيمورلنك :

فى هذه السنة ، ارتفع نجم تيمورلنك ملك التتار والذى كان نجمه قد بزغ منذ سنوات مضت . وتيمورلنك ينحدر من سلالة أحد وزراء المغول وقد ولد فى مدينة سمرقند ، ولما شب عن الطوق التحق بخــدمة حاكم سمرقند ، واســتطاع بقوته الشخصية ، أن يخضع سمرقند لسلطانه ، ثم بدأ يضم ما حولها من المدن والمقاطعات ، فضم خوارزم وحراه وسستان (سنة ٧٨٥ هـ) ثم ضم شمال فارس بعــد ذلك بسنة ، ثم اذربيجان وجورجيا (٧٨٨ ــ ٧٩١ هـ) وبلاد طغتمش خان ، حاكم القبيلة الذهبية فى حوض نهر الفولجا ، حتى اذا فر من بلاد ايران تحرك نحو العراق وأطراف الامبراطورية المصرية المملوكية .

وكانت أخبار زحف تيمورلنك وانتصاراته تترى على السلطان برقوق فى حينها .

اول اصطدام بين تيمورلنك وبرقوق :

وفى هذه السنة وقع أول احتكاك بين تيمورلنك وبين السلطان برقوق ، فقد تقدمت طلائع جيشه الى بلد ملطية الخاضعة لحكم مصر — ووصل الى القاضى برهان الدين صاحب مدينة سيواس بآسيا الصغرى ، كتابا من تيمورلنك شديد اللهجة يطلب منه فيه أن يخطب باسمه على المنابر ، وأن يضرب السكة باسمه فأرسل القاضى برهان الدين يستنجد بالسلطان برقوق عام ٧٨٩ هـ فأرسل اليه بجريدة فى نفس السنة توجهت الى حلب ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنبغا الجوبانى نائب الشام ، فقابلت فى زحفها بعض فلول جيش تيمورلنك . وكان الأمير قره يوسف أمير الشاه السوداء التركمانية قد استطاع أن يهزم احدى فرق جيش تيمورلنك التى كان يقودها ابنه ، وأسرع أبرع قواده وهو اكلاميش فأرسله الى برقوق .

قدمت البشائر احتفالا بهذا النصر ، واصدر برقوق امره بعودة العسكر فوصلت الى مصر فى هذه السنة .

١٣٨٩ م / ٧٩١ هـ — تمرد يلبغا الناصرى أمير حلب :

لم ينعم برقوق طويلا بهذا النصر على جيوش تيمورلنك اذ انقلب عليه اكبر امراء دولته ، وهو الأمير يلبغا الناصرى أمير حلب . وكان يلبغا الناصرى غير راض منذ اللحظة الأولى عن تولى برقوق السلطة ، فقد كان يلبغا الناصرى من كبار الأمراء عند ما كان برقوق لا يزال فى أول درجات السلم .

وكان قد حدث أن وفد يلبغا الناصرى الى مصر عقب تولى السلطان برقوق السلطة ليهنئه تبعا للعادة المرعية ، فما كان من برقوق الا أن اعتقله وسجنه خوفا منه ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه واعاده الى نيابة حلب ولذلك فلم يكد يلبغا الناصرى يعود الى مقر امارته ، حتى أعلن التمرد والعصيان وتسارع امراء المماليك بالشام فانحازوا اليه .

وانتصر يلبغا الناصرى على الحملة التى بعث بها برقوق من مصر لمحاربته وترتب على ذلك أن دخل مدينة دمشق واستولى عليها ، وتسلم قلعتها بغير قتال .

خلع برقوق :

كان لهزيمة برقوق فى الشام ، أثرها فى مصر ، اذ هاج الشعب وماج ضد برقوق ، وعبثا حاول برقوق أن يرضى الشعب برفع المكوس عنه ، فقد بدأ الأمراء ينفضون عنه ويلحقون بغريمه ، وبدأت العامة ترجم مماليكه .

فلما أيقن برقوق انه مغلوب على أمره ، أرسل الى يلبغا الناصرى يطلب أمانا لحياته فى مقابل النزول عن السلطة ، كما أرسل اليه شعائر السلطنة بالفعل . وكان

رد يلبغا الناصرى : ان الملك الظاهر اخونا وخشداشنا ، ولكن يجب عليه أن يختص فى هذه الآونة بمكان ما ، حتى تخمد الفتنة وندبر له امرا يكون فيه نجاته . وصدع برقوق بالنصيحة ، فهرب من القلعة فى جنح الليل فى ليلة الاثنين الخامس من جمادى الآخرة من هذه السنة .

سلطنة الملك الصالح (المنصور) حاجى الثانية :

لم يستطع يلبغا الناصرى أن يلى السلطنة لخلاف الأمراء على التولية فاستقر الرأى على اعادة الملك الصالح بحجة أن برقوق قد خلعه ظلما وتعسفا لغير سبب ، فجىء به من عند أهله وبايعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، فبايعوه بالسلطة ، واجروا له الاحتفالات المعتادة وغيروا لقبه من الصالح الى المنصور وعين يلبغا الناصرى اتابكا للعسكر فقبض على زمام السلطة وباشر سلطاته ، كما أصبحت العادة بالقبض على عشرات من الأمراء والمقدمين وعزل بعضهم وتعيين الانصار ومن هم محل الثقة .

ثم جرى البحث عن السلطان برقوق ، ووعد كل من يعثر عليه بالترقية الى درجة اعلى أن كان مملوكا ، وبألف دينار ان كان عاميا .

وكان ذلك كافيا للعثور على السلطان برقوق ، واختلفت الآراء بشأن مصيره ، فقال البعض بوجوب اعدامه ، ولكن يلبغا الناصرى وجد من مصلحته (فيما يبدو) أن يبقى على حياته ، على أن يرسل الى حصن الكرك تحت الترسيم (أى معتقلا) حتى يفصل فى أمره .

فارسل برقوق الى حصن الكرك فى ليلة الخميس الثانى والعشرين من جمادى الثانى .

حرب بين يلبغا ومنطاش :

استبد يلبغا كما هو المتوقع بالسلطان وحجر على السلطان حاجى واحتكر لنفسه أجود الاقطاعيات ، غير معط لصاحبه وحليفه ، الأمير تمربغا الأفضلى الشهير بمنطاش ، الا أقل من القليل . وكان الاتفاق عندما قاما بحركتهما فى الشام قد أقسما اليمين أن يكون الاثنان كرجل واحد . فلما أن استأثر يلبغا بالسلطة بدأ منطاش يدبر المكائد للايقاع به ، واستغل غضب الشعب من ناحية ، ومماليك برقوق الذين كانوا لا يزالون مختفين عن الأنظار من ناحية أخرى ، لكى يقوم بحركة ضد يلبغا ، فاحتل سطح مسجد السلطان حسن على حين غرة ، واخذ يرمى على القلعة ، وتكاثر أعوانه ، وراح يتقرب الى العوام فوزع عليهم الذهب وكان يقول لهم : انا واحد منكم ، وانتم اخواننا وأصحابنا فبذلوا أنفسهم فى خدمته .

وتقابل يلبغا الناصرى بمن معه من أمراء ، ومنطاش ومن معه فى معركة مفتوحة فدارت الدائرة على يلبغا وفر هاربا .

منطاش يصبح اتابكا :

وفى يوم الخميس تاسع عشر من شعبان ، صعد منطاش الى القلعة وأعلم السلطان الملك المنصور انه فى خدمته .

فعينه السلطان اتابكا للعساكر بدلا من يلبغا . فكان أول عمل قام به هو القبض على يلبغا الناصرى ، وايداعه سجن الاسكندرية . على أن منطاش لم ينعم بانتصاره ، فقد دهم مصر وباء الطاعون . وسقط المئات والألوف ضحايا له ، فى الوقت الذى ظلت القاهرة مسرحا للفتن بين أمراء المماليك . فهيأ ذلك لعودة السلطان برقوق للسلطان .

استشهاد السلطان مراد خان :

وفى هذه السنة فى الخامس عشر من شعبان قتل السلطان مراد خان الغازى أثناء حربه مع الصرب ، بعد أن كان قد ضم أكثر منطقة البلقان فى شرق أوروبا تحت سلطانه وكان عمره يوم استشهاده ٦٥ سنة ومدة حكمه ٣١ سنة وقد تسلطن من بعده السلطان يلدرم بايزيد خان .

١٣٨٩ م / ٧٩٢ هـ ـ سلطنة برقوق الثانية على مصر :

كان وقوع الخلاف بين يلبغا ومنطاش ، وهما اللذان كانا السبب فى خلع برقوق، ذريعة لأهل حصن برقوق ليخرجوه من سجنه ويلتفوا حوله منادين به سلطانا . ولم يكد النبأ يذاع فى الشام حتى توافد اليه عدد من النواب والأمراء ومن مماليكه . وكان على رأس الذين انضموا اليه نائب حلب ، فاشتد أمره وقوى ساعده .

وخرج الاتابكى منطاش من القاهرة على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة برقوق واصطحب معه السلطان والقضاة والخليفة وعند قرية شتحب دارت معركة عسكرية طاحنة ، لعلها أكبر المعارك التى خاضها برقوق طوال حياته ، وثبت فيها ثباتا غير عادى ، فكانت له الغلبة على جيوش منطاش .

وقبض على السلطان حاجى والخليفة والقضاة الأربعة ولكن برقوق استقبلهم بقبول حسن وأحسن اليهم وخاصة السلطان .

وعاد برقوق الى مصر فى الثالث عشر من شهر صفر من هذه السنة فاستقبلته الجماهير استقبالا حافلا .

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، خلع الخليفة والقضاة الأربعة السلطان حاجى ، وبايعوا السلطان برقوق ، وسط رضاء عام شامل من المماليك والشعب فى ذات الوقت .

وقد اصطنع برقوق الحكمة والكياسة فى تهدئة الموقف ، فافرج عن يلبغا الناصرى ، وزاد على ذلك أن جعله نائبا على دمشق ، وبعث به على رأس جيش من المماليك ليحارب عدوه منطاش ، الذى كان لا يزال متسلطا على الشام .

وسار يلبغا الى دمشق واستقر بها ، دون أن ينال من منطاش منالا . وقيل أن يلبغا الناصرى ، كان يتعمد الابقاء على منطاش ليظل ورقة يلعب بها فى دنيا السلطان الأمر الذى جعل برقوق يتحايل فيما بعد على القبض على يلبغا الناصرى واعدامه ، ويلوم ابو المحاسن السلطان برقوق على هذه الفعلة ، على أساس أن يلبغا الناصرى كان هو الذى حقن دماء برقوق فى وجه الأغلبية التى كانت تريد اعدامه .

١٣٩٢م / ٧٩٥هـ ـ قتل منطاش :

ظل الأمير منطاش ثائرا على السلطان برقوق فى الشام وينقض من حين لآخر على هذه المدينة أو تلك فيستولى عليها أو ينهبها ثم ينسحب منها الى غيرها ، وقد تنكسر عساكره فى بعض المواقع ولكنه كان يعود للانقضاض من جديد .

وقد كان ذلك يسبب ضيقا وقلقا شديدين لبرقوق ، حتى لقد قيل انه مرض بسبب ذلك . على أن الامير نعير بن جبار أمير آل فضل من أعراب الشام ، والذى كان الامير منطاش متزوجا احدى بناته ، خانه واسلمه لنائب حلب لحساب السلطان فى مقابل ثمن معلوم ـ وقتل منطاش وعلقت رأسه على باب زويلة . وهكذا هدأ بال برقوق من هذه الناحية .

تيمورلنك يغزو العراق ويهدد الشام :

ولكن بال برقوق لم يكد يهدأ من ناحية تمرد أقوى أمرائه ، حتى جاءته الأخبار من بغداد بانها سقطت بيد تيمورلنك خان المغول ، وفر صاحبها الخان أحمد بن ادريس من وجه تيمورلنك والتجأ الى مصر ، فاستقبله السلطان برقوق أحسن استقبال ووعده بالنصر .

٧٩٦/١٣٩٤هـ ـ برقوق يزحف الى الشام لمحاربة تيمورلنك :

فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الثانى ، وصل برقوق على رأس جيش ضخم اعده لحرب تيمورلنك ، الى مدينة دمشق ، وكان بصحبته أحمد بن أدريس صاحب بغداد . وبمجرد وصول برقوق الى دمشق ، جاءت السفارات من الملوك المجاورين تترى وكلها تضع نفسها تحت امرته لمحاربة تيمورلنك ـ وكان أهم هؤلاء السفراء مبعوث بايزيد سلطان الدولة العثمانية ، التى أخذت على عاتقها حمل راية الجهاد عن الاسلام واستئناف فتوحاته فى شرق أوروبا .

وكان بايزيد يعرض محالفته ضد تيمورلنك فاستقبل برقوق مبعوث بايزيد استقبالا حسنا ، وأرسل الى بايزيد ردا مطمئنا .

على أن الأخبار سرعان ما جاءت تنبىء بأن تيمورلنك قد عاد ادراجه منسحبا من البلاد التى فتحها بعد أن سمع بسير برقوق اليه .

وهكذا اعاد السلطان برقوق الخان احمد بن ادريس الى قاعدة ملكه فى بغداد بعهد من لدنه ، وعاد برقوق الى القاهرة متوجا بأكاليل الفاز وان كان لم يلق العدو .

١٣٩٩م / ٨٠١هـ - وفاة السلطان برقوق :

وفى ليلة الجمعة خامس عشر من شوال من هذه السنة توفى الملك الظاهر برقوق ابن انص . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والشامية الى أن مات على فراشه ست عشرة سنة وأربعة اشهر وسبعة وعشرين يوما وذلك على مرتين ، وكان عمره يوم مات ثلاثا وستين سنة .

ولعل الامبراطورية المصرية المملوكة قد وصلت الى أوج اتساع رقعتها فى عهده ، فقد خطب باسمه فى أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من المماليك فخطب باسمه فى مدينة تبريز (اذربيجان) وفى الموصل وفى ماردين وسنجار وضربت السكة باسمه فى هذه الأماكن . وقد رأينا كيف أن ملك بغداد أصبح يحكم باسمه وبعهد منه .

وقد خلف خزائن الدولة بعده عامرة كما لم يسبق له مثيل فكان بها الف الف وأربعمائة ألف دينار من الذهب - ومن الثياب وأنواع الفرو والفلال والسكر والأعسال ما يبلغ قيمته مثل هذا القدر - وخلف من الخيول ستة آلاف فرس ، ومثلها من الجمال والبغال . وبلغت عدة مماليكه التى اشتراها خمسة آلاف .

يقول أبو المحاسن عن السلطان برقوق - وكان كثير الصدقات والمعروف . حبس الأوقاف على فقراء مكة والحجاج . وكان يذبح فى طول أيام امارته وسلطنته كل يوم من أيام رمضان خمسا وعشرين بقرة يتصدق بها ، بعد أن تطبخ ومعها آلاف من ارغفة الخبز النقى تفرق على أهل الجوامع والربط وأهل السجون لكل انسان رطل لحم مطبوخ وثلاثة أرغفة وذلك بخلاف ماكان يأمر بتوزيعه على الزوايا من اللحم ، حيث كان يخص كل زاوية خمسين رطلا من لحم الضأن بخلاف الأرغفة .

وكان يفرق فى كل سنة فى أهل العلم والصلاح مائتى الف درهم وثمانية آلاف أردب قمح . ويبعث فى كل سنة الى الحجاز ثلاثة آلاف أردب قمح لتوزع على فقراء الحرمين .

ولما عمت موجة من الغلاء فى مصر على أيامه كان يوزع يوميا ثمانية آلاف رغيف فلم يمت فيها أحد من الجوع .

سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الأولى على مصر :

وفى يوم الجمعة غداة وفاة السلطان برقوق بايع الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام البلقينى وتلاهم الامراء ، فرج ابن السلطان برقوق ولم يكن عمره يزيد على عشر سنوات ، وقيل اثنتى عشرة سنة ولقب بالناصر .

وتولى أتابكية العسكر الأمير أيتمش البيجاسي وصحب عملية السلطنة الهزة المعتادة فى مثل هذه الظروف من قبض واعتقال وقتــل وخنق وعزل لبعض امراء المماليك من ناحية ، وافراج وترقية وتولية لبعض الأمراء من ناحية أخرى كما بدأت المؤامرات والفتن حول السلطنة والاضرار بها .

١٤٠٠ م / ٨٠٢ هـ ــ ترشيد السلطان الملك الناصر فرج :

فى يوم الخميس السادس من شهر ربيع الأول ، طلب الملك الناصر فرج من الامراء والقضاة أن يعلنوا بلوغه سن الرشد فأقروا له بذلك . وقد كان المحرض على هذه الخطوة مماليك الطباق الساكنين فى القلعة وعلى راسهم الامير يشبك الخازندار .

وقد غضب الأمير أيتمش لهذه الخطوة التى تحد من سلطانه ، فأعلن عدم موافقته عليها : واستعرت المعارك بين مماليك الطباق وعلى رأسهم يشبك من ناحية ، وأتابك العسكر الأمير ايتمش من ناحية أخرى ، ولكن الدائرة دارت على الأمير ايتمش ومن معه ففروا هاربين الى الشام ، واستبيحت بيوتهم فى القاهرة فنهبها العامة .

تمرد فى الشام واخماده :

وصل الامراء الهاربون من القاهرة الى الشـــــام ، فأحسن استقبالهم تنم أمير الشام ، واستقر رايهم على خلع السلطان فرج ، وزحفوا بجيشهم على مصر لهــذا الغرض .

ولكن السلطان فرج ــ أو بالأحرى قواده وامراؤه ــ بادروا لمقــابلة هذا الجيش الزاحف على ارض فلسطين .

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب دارت معركة طاحنة بين الطرفين فى مكان بين غزة والرملة ، فكان النصر لجيوش السلطان وانهزم تنم ومن معه من الامراء ، وقبض على تنم وقتل ، ودخل السلطان فرج الى دمشق وسط الاحتفالات المعتادة ، ومن دمشق عاد فرج الى القاهرة ، لتتجدد له الاحتفالات .

١٤٠١ م / ٨٠٣ هـ ــ نكبة حلب ودمشق على يد تيمور لنك :

عاود تيمور لنك زحفه على راس التتار على بلاد الشام وفى يوم السبت الحادى

عشر من ربيع الأول ، وصلت جيوشه الى مدينة حلب ، فهزم الجيش الذى تصدى لحربه واستولى على المدينة عنوة ، فنكل بأهلها تنكيلا فاق ما فعله هولاكو من قبل .
فابن اياس يقول لنا أن تيمورلنك بنى من رءوس القتلى عشرة مآذن ، محيط كل مئذنة نحو عشرين ذراعا وارتفاعها مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة الى الخارج تسفو عليها الرياح ، وتركوا أجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش وكان عدد من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب نحو عشرين الف انسان وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك .

وبعد حلب استولى تيمورلنك على مدينة حماه ، وفعل بأهلها مثل الذى فعله بأهل حلب .

فلما وصلت هذه الأنباء الى مصر ، خرج السلطان فرج بجيشه الى الشـــام لمحاربة تيمورلنك ، فوصل الى دمشق فى يوم الخميس السادس من جمادى الأولى .

ودارت بعض المعارك المحدودة بين جيش السلطان فرج وطلائع جيش تيمورلنك فكانت سجالا ، وبدات مفاوضات الصلح تجرى بين تيمورلنك وبين السلطان ولكن عقارب الفتن دبت الى صفوف الجيش المملوكى ، فانسحب بعض الامراء فى طريقهم الى القاهرة لاقامة سلطان غير فرج ، فلما سمع فرج بالنبأ اسرع نحو القاهرة تاركا جيشه ودمشق وسوريا كلها تحت رحمة تيمورلنك .

ابن خلدون وتيمورلنك :

ولما كان ابن خلدون قد خرج من القاهرة فى رفقة السلطان كغيره من العلماء والقضاة ، وكان يقيم فى دمشق ، فهو يصور لنا فى كتابه التعريف ما جرى فى لقاء تم بينه وبين تيمورلنك قبل تسليم دمشق له ، وكيف تم الاتفاق على طلب الامان من تيمورلنك ، فلما أعطاهم الإمان انقسمت الآراء وأصر فريق على عدم تسليم المدينة والمضى فى المقاومة حتى النهاية فخاف ابن خلدون على نفسه أن يعتبر هو المحرض على هذا الموقف لأنه لم يكن فى الوفد الذى ذهب لملاقاة تيمورلنك .. ولذلك فقـد عمل على أن يغادر المدينة ، فأدلى بالحبال من أسوارها . وفر الى مخيم تيمورلنك الذى لمـا عرف بأمره اذن له بالدخول عليه . ويقول ابن خلدون : ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه فيوجهها الى عصب المغول الجالسين أمام خيمته حلقا حلقا .. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، واوميت ايماءة الخضوع ، فرفع رأسه ومد يده الى فقبلتها ، وأشار بالجلوس حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا .

ويسجل لنا ابن خلدون فى أمانة ما دار بينه وبين تيمورلنك من حديث يفيض بالخضوع والاستكانة والخوف من بطش الطاغية ، واملا فى أن يعهد له بعمـل من الاعمال ، فقد قال لنا انه راح يثنى على تيمورلنك ، ويقول انه قد مضى عليه ثلاث

وأربعون سنة يتمنى لقاء تيمورلنك ، فلما سأله تيمورلنك عن سبب ذلك ، اجابه : لأنك سلطان العالم وملك الدنيا ، وما اعتقد انه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف ، فاننى من أهل العلم .

وقد كلف تيمورلنك ابن خلدون ، أن يكتب له عن بلاد المغرب كلها اقاصيها وأدانيها ، وجبالها وأنهارها وقراها وامصارها ، حتى كأنه يشاهدها فقلت يحصل ذلك بسعادتك .

وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ما طلب من ذلك وأوعيت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر اثنى عشر من الكراريس (عبد الرحمن بن خلدون) .

تيمورلنك يحرق دمشق :

والحق ان هذا الحديث والحوار والجو الذى يصوره لنا ابن خلدون فى مقابلته مع تيمورلنك ، يتناقض كل التناقض مع الصورة المفزعة التى حوتها كتب التاريخ عما فعله تيمورلنك بعد ذلك فى مدينة دمشق والتى دخلها بعد أن اعطى اهلها الامان فى الثامن عشر من شهر رجب فراح جنوده ينهبون من اهلها ماينهبون ، وراح هو يفرض على أهلها من صنوف الغرامات المرهقة ما يعجزون عن تسديده فاذا سددوه بعد مشقة ، طالبهم بأضعاف ماقدموا .

وفى يوم الخميس أول شعبان اصدر امره باحراق المدينة فتحولت على مايقول ابن اياس : الى اطلال بالية ورسوم خالية قد خوت على عروشها واقفرت من زخرفها ونقوشها ــ لاترى بها دابة تدب ، ولا حيوانا يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور فى الثرى قد تعفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبا .

وكان تيمورلنك قبل ان يفعل بالمدينة هذه الفعلة : قد جمع كل عمال دمشق الفنيين وأسطواتها ، وبعث بهم الى مدينة سمرقند .

وكانت مدة اقامة تيمورلنك فى دمشق وماحولها ثمانين يوما ، كأنه أراد أن يتوج فظائعه فى بلاد الشام ، فأمر يوم رحل عن المدينة جنوده على مايقول ابن اياس أن يجمعوا له اطفال المدينة الذين أسر أهلهم فكان عدتهم عشرة آلاف طفل مابين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين ، فوقف تيمورلنك ينظر اليهم ساعة ثم قال للعسكر : سوقوا عليهم بالخيل ، فساقوا عليهم بالخيل فماتوا اجمعين .

ولا جدال فى أن الهول الذى عانته مدن الشام من حملة تيمورلنك قد فتح المجال لمثل هذه الصور ، التى قد يكون فيها شىء من المبالغة لأن أخذ هذه الصورة بمدلولها يعنى ان سكان دمشق قد أبيدوا عن بكرة أبيهم لعدة أجيال ، واحرقت المدينة ، مع أن الثابت أن تيمورلنك لايكاد يغادر المدينة ، حتى تعود الحياة فيها الى سابق عهدها. ولكنها تعطينا صورة عن مدى الرعب الذى كانت تنشره غارات التتار .

تيمورلنك يتوجه لحرب بايزيد :

كان المفروض أن يتابع تيمورلنك زحفه على مصر بعد ان كسر جيشها فى الشام ، ولكن تيمورلنك ماكان ليقدم على هذه الخطوة مخلفا وراءه هــذه القوة العسكرية الكبرى ، قوة بايزيد السلطان العثمانى ، فرأى أن يصفى حسابه أولا مع هذه القوة الضاربة . ولكنه قبل أن يتوجه لمحاربة بايزيد ، رأى أن يتقى شر السلطان فرج حتى لايباغته اثناء قتاله مع بايزيد . فأرسل الى السلطان فرج يعتذر له عن هذا الذى وقع منه ويعزوه الى سلطان القضاء والقدر كما بعث له بعض الهدايا فيما بعــد ومن بينها فيل على ظهره صندوق خشبى يجلس فيه نحو عشرة أنفس ، وأفرج عن كل الأسرى من المماليك الذين كانوا فى حوزته . وكل ذلك ليحول دون تحالف مصر مع الدولة العثمانية . وقد وقع السلطان فرج ومن معه فى هذه الخدعة خـــلال السنوات التالية ، فخلوا بين تيمورلنك وبين حربه مع بايزيد ، واكتفى السلطان فرج بأرسال نوابه من جديد للبلاد الشامية ليحكموها باسمه .

١٤٠٢ م / ٨٠٤ هـ ــ تيمورلنك ينكل بالسلطان بايزيد :

فى هذه السنة تم اللقاء المنتظر بين جيوش تيمورلنك وجيش السلطان بايزيد حول مدينة انقرة ، فكانت الهزيمة على جيش بايزيد ، ووقع فى أسر تيمورلنك ، الذى بالغ فى تعذيبه واهانته حتى لقد وضعه داخل قفص حديدى وراح يستعرضه فى كل مكان ذهب اليه وظل فى هذا العذاب والمهانة حتى مات فى العام التالى (٨٠٥) وفتح تيمورلنك بغداد مرة اخرى فى طريق عودته الى بلاده .

١٤٠٥ م / ٨٠٧ هـ ــ وفاة تيمورلنك :

وفى السابع عشر من شعبان الموافق التاسع عشر من فبراير مات تيمورلنك ببلاد التركستان عن واحد وسبعين سنة بعد أن خضب أرض الشرق بالدماء ..

١٤٠٦ م / ٨٠٨ هـ ــ اختفاء السلطان فرج :

ضاق السلطان فرج بالمؤامرات من حوله ومايدبره الامراء من محاولات مستمرة لخلعه وقتله ، فتسلل من القلعة وهو متنكر فى هيئة لا يعرفها احد وسار على قدميه مبتعدا عنها واختفى فى مكان حيث لا يعرف أحد ماذا حل به . وكان ذلك فى يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الاول من هذه السنة .

سلطنة الملك المنصور عز الدين :

عندما بلغ الامراء نبأ اختفاء السلطان فرج ، تشاوروا فيما بينهم فيمن يولوه سلطانا ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه عبد العزيز فطلبوه من دور الحريم وسلطنوه

فى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول ، وكان عمره يوم ولى السلطنة لا يزيد عن عشر سنوات .

وتولى اتابكية العسكر الأمير بيبرس واصبح هو صاحب الحل والعقد .

فأهاج ذلك غضب الامراء الآخرين وخاصة الأمير يشبك الخازندار فتعصبوا لعودة السلطان فرج ، الذى لم يلبث أن ظهر من مخبئه عندما وصلت اليه هـذه الاخبار ، فاستعاد ملكه ، واعاد اخاه عز الدين الى حيث كان فى دور الحريم . فكانت مدة سلطنة عز الدين شهرين وعشرة أيام .

عودة السلطان الناصر فرج للسلطنة :

كان تجديد البيعة للسلطان الناصر فرج يوم الخميس الرابع من جمادى الثانية حيث بايعه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الامراء .

وفاة ابن خلدون :

فى السادس والعشرين من رمضان من هـذه السنة توفى العلامة عبد الرحمن ابن خلدون فجأة عن ست وسبعين سنة ، عاش الأربع والعشرين سنة الأخيرة منها فى مصر . فأحبه من أحبه وتتلمذ على يده من تتلمذ وكان على رأس هؤلاء مؤرخنا الكبير تقى الدين المقريزى وابو المحاسن تغرى بردى . كما كرهه من كرهه واختلف معه من اختلف من أصحاب المذاهب الاخرى . ولكن الذين كرهوه كالذين أحبوه قد اجمعوا على تقدمه بالعلم الغزير .

وابن خلدون اعظم من أن يعرف فى سطور او صفحات وحسبه أنه مؤلف المقدمة التى اقر العلماء من جميع الأجناس فى وقتنا الحاضر : انها من أعظم ما ألف فى كل زمان ومكان .

وبالنسـبة لى شخصـيا ، فطالما وقفت أمامها محتارا ، فما من باب من أبواب العلم أو المعرفة ، الا وتعرضت له بأقوال وآراء تعتبر سابقة ورائدة فى ميدانهـا ، بحيث يمكن اعتباره منشىء علم الاقتصاد الحديث ، وعلم الاجتماع الحديث ، وعلم التاريخ الحديث .

شهادة ابن خلدون للعلوم فى القاهرة :

وحسب ابن خلدون عظمة ، اننا نأخذ من اقواله العلمية .. ما يفسر لنا سر هذه الظاهرة التى تعيا على التفسير وهى كثرة ما انشىء فى مصر من مدارس وجوامع ومؤسسات اجتماعية فى هذه الفترة من حياتها ، وما شهدته من نهضة علمية لم يسبق لها مثيل من قبل فى العهد الاسلامى ، كما لم يلحقها حتى الآن شبيه ـ فيقول لنا ابن خلدون :

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، كمـا

ان عمرانها مستمر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم واكد ذلك فيها وحفظه ، ما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين من دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا.

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتحلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق او الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، واوقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شرطا لولدهم ينظر عليها ، أو نصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والافعال ، فكثرت الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراياتهم فيها . وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها اسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء .

ولما درست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة ، بل والعلم الى مصر والقاهرة ، فلم تزل اسواقه تابعة لهذا العهد . وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين فى وصفها واشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم ان يحكم اشكال تلك الحروف على هذه الأوضاع وقد لقنها حسنا وخرق فيها دربة وكتابة وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون .

ويمضى ابن خلدون على هذه الوتيرة من التحليل وربط الأسباب بالمسببات فيدرس سبب تمكن الحضارة فى مصر وان ذلك راجع الى تاريخها القديم .

١٤١٢ م ــ ٨١٥ هـ ــ اعدام الملك الناصر فرج :

أمضى السلطان الناصر فرج ، السنوات التى عاد فيها الى الحكم من جديد ، فى سكر وعربدة وسفك لدماء المماليك الذين عانى منهم الأمرين ، حتى قيل انه كان يسكر الى منتصف الليل ثم يخرج الى حوش القلعة ، فيستعرض المماليك الذين بالسجون فيختار منهم كل ليلة من يذبحه بيده .

وكان يذبح فى الليلة الواحدة عشرين مملوكا ، وقيل ان عدة من ذبحهم من مماليك أبيه ألفين (١) ، وذلك لشدة بغضه لهم لكثرة ما تآمروا عليه وحاولوا الغدر به .

وقد ادى ذلك الى هياج المماليك ، واندلعت الفتنة من بلاد الشام ، فخرج على السلطان الأمير نوروز الحافظى والأمير شيخ المحمودى .

وكان على السلطان فرج أن يذهب على رأس جيش من مماليكه الساخطين لاطفاء هذه الفتنة . ولم يكد يتم اللقاء بين الجيشين فى يوم الثلاثاء خامس عشر من

(١) لعل هذه الواقعة خير ما يظهرنا على طبيعة الحياة فى مصر طوال حكم المماليك ، فحيث تجرى هذه المذابح بين أفراد الطبقة الحاكمة وجندها المسلح ، فان الحياة تجرى فى أنحاء البلاد فى سبيلها المادى الطبيعى .

المحرم عند اللجون ، حتى انفض عن السلطان فرج أكثر عسكره وانضموا الى خصومه ، فدارت عليه الدائرة ، وفر هاربا ، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه وقتل . وكان عمره يوم قتل ستا وعشرين سنة .

سلطنة الخليفة المستعين بالله :

حار الأمراء المماليك فيمن يولونه السلطنة ، لعدم اتفاقهم على واحد منهم يكون سلطانا ، فخرجوا من مأزقهم بحل هو الأول من نوعه منذ نقلت الخلافة العباسية الى مصر ، وهو تولية الخليفة العباسى نفسه السلطنة الاسمية ، على أن يكون الحل والعقد فى مصر بين الأمير شيخ وفى الشام من غزة حتى الفرات بين الحافظ وقد اشترط الخليفة لنفسه أنه اذا عزل من السلطنة عاد الى الخلافة .

وعلى ذلك ففى يوم الاثنين سابع عشر من المحرم من هذه السنة تمت سلطنة الخليفة العباسى أبو الفضل بن المتوكل ، وكانت مبايعته فى مدينة دمشق ثم دخل على رأس موكبه الى القاهرة وسط احتفالات ارتجت لها البلاد .

خلع الخليفة العباسى من السلطنة :

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فإن هى الا بضعة أشهر أو على وجه التحديد فى يوم الاثنين أول شعبان ، حتى كان الأمير شيخ قد قرر عزل الخليفة من السلطنة ، فجمع القضاة الأربعة والأمراء فى هذا اليوم وقرروا أن الفساد قد عم فى الأرض وأن لابد من سلطان تركى له سطوة لقمع أهل الفساد واصلاح البلاد على يديه .

سلطنة الملك المؤيد ابو النصر شيخ :

وهكذا خلع الخليفة العباسى وعاد الى قواعده سالما ، وبويع بالسلطنة على عرش مصر شيخ المحمودى الظاهرى ، ولقب بالسلطان الملك المؤيد أبو النصر .

١٤١٤ م ـ ٨١٧ هـ ـ عصيان نوروز ومصرعه :

عندما بلغت أخبار عزل الخليفة العباسى من السلطنة الى الشام ، اعتبر نوروز أن ذلك اخلالا بالعهد والميثاق الذى ارتبط به مع الأمير شيخ فأعلن التمرد والعصيان وظل يخطب على منابر الشام باسم الخليفة العباسى فارتحل السلطان المؤيد الى الشام على رأس جيشه ، والتقى به نوروز الحافظ ، ولكن الدائرة دارت عليه ، فانهزم جيشه وقبض عليه وأعدم ، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى من هذه السنة .

ولكن السلطان المؤيد لم يكد يرجع الى القاهرة حتى عاود نواب الشام التمرد ، فخرج المؤيد على رأس جيش جديد لقمع حركتهم ، فانتصر عليهم مرة أخرى ، وعاد الى القاهرة فائزا منتصرا وقد صفا له الجو على ما يقول ابن اياس .

١٤١٦ م ـ ٨١٩ هـ ـ تفشى الطاعون فى مصر :

على ان الطاعون تفشى فى مصر هذه السنة ، وفتك بالناس شر فتك على ما تجمع كتب التاريخ .

١٤١٩ م ـ ٨٢٢ هـ ـ الطاعون والغلاء :

ظل الطاعون يستشرى ويتنقل طوال السنوات الثلاث الماضية حتى اذا كانت هذه السنة ، عاد الى الانتشار الذريع ، وتحالف معه الغلاء لعدم وفاء النيل ، مما جعل السلطان المؤيد يخرج بالناس والعلماء والأطفال والبهائم للاستسقاء ، كما جرت العادة ، وتواضع لله وأظهر الزهد وصلى على الرمل بغير سجادة ، ووزع على الفقراء ثلاثين الف رغيف ، وذبح بيده أغناما وابقارا . ولكن ذلك كله لم يجد فتيلا ، فشرقت البلاد وقحطت وظلت كذلك لمدة عام كامل .

جامع المؤيد :

وعلى الرغم من هذا الضيق الذى الم بالبلاد فى هذه السنة ، فقد كمل فيها بناء جامع المؤيد الذى أقامه مكان السجن الذى اشتهر باسم « خزانة شمايل » وفاء لنذر كان قد نذره ، ذلك ان السلطان المؤيد كان قد سجن بهذا السجن أيام السلطان الناصر فرج وقاسى به شدائد كثيرة ، فنذر الى الله ان انجاه الله من هذه الشدة وافرج عنه ، وصار فى يوم من الأيام سلطانا أن يهدم هذا السجن ويجعله مسجدا . فلما تحقق له ذلك ، وفى بالنذر ، وأقام هذا المسجد الذى يعتبر تحفة معمارية من تحف هذا العصر ، وقد اقيم لافتتاح الجامع الحفلة المعهودة حيث مائت فسقية الجامع بالماء والسكر والليمون ووزعت على الجمهور ، كما وزعت العطايا على كل من اسهم فى بناء المسجد .

ثم رتب فى المسجد بعد ذلك دروس الشافعية والمالكية والحنابلة وكان ذلك بحضور السلطان .

١٤٢١ م ـ ٨٢٤ هـ ـ وفاة السلطان المؤيد :

فى يوم الاثنين التاسع من المحرم ، مات السلطان شيخ المؤيد وله من العمر خمس وستون سنة .

يقول ابن اياس وكانت دولته ثابتة القواعد وصار الذئب والغنم يمشيان فى صعيد واحد ، مشيرا بذلك الى توطيده أمن الدولة فى مصر والشام وقطع دابر الفتن خلال السنوات الثمانى والشهور الخمسة التى تسلطن فيها .

ويقول عنه انه رغم اقدامه فى الحروب ، وحنكته ودربته فى الادارة والمكايد والحيل ، فقد كان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات وكان يقرب ارباب الفنون الذين راحوا يتبارون فى أيامه فى خدمة فنونهم التماسا للزلفى عنده فقد كان يحسن الفهم ويحسن المعرفة . وكان يغنى وينظم الشعر .

ويندد به المقريزى من ناحية اخرى لسفكه الدماء وقتله عددا كبيرا من النواب والأمراء فى غير رحمة .

سلطنة الملك المظفر ابو السعادات :

فى يوم الاثنين التاسع من المحرم بويع بالسلطنة ابن السلطان المؤيد الذى كان طفلا لا يتجاوز عمره سنة وثمانية أشهر ، وقد جىء به الى سريرالملك وهو فى حجر مرضعته ، وكان ذلك بتدبير من الامير ططر الذى تولى الاتابكية وراح يدير شئون المملكة ، وتزوج والدة السلطان (خوند سعادات) ارملة السلطان المؤيد ، وبذلك ازداد نفوذه وسلطانه .

خلع الملك المظفر احمد من السلطنة :

وثار أمراء الشام عندما بلغهم الخبر ، فأعلنوا التمرد والعصيان ، فخرج لهم الاتابكى ططر لمحاربتهم ، واصطحب معه السلطان احمد ومرضعته وزوجته ... وانتصر ططر على الأمراء الثائرين ، فقويت شوكته بذلك ورأى ان يخلع السلطان الطفل وينادى بنفسه سلطانا .

سلطنة الملك الظاهر ططر :

وهكذا فى يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان خلع الخليفة والقضاة الاربعة السلطان الطفل ، وبايعوا الأمير ططر سيف الدين ابو سعيد سلطانا ولقبوه الظاهر .

فكان أول ما فعله ان طلق زوجته خوند سعادات أم الملك المظفر احمد خوفا على نفسه منها ثم أرسل الطفل المخاوع ومرضعته ودادته الى السجن بثغر الاسكندرية ، حيث ظل مقيما به الى أن مات فيما بعد عام ٨٣٣ هـ .

موت الظاهرططر :

لم ينعم السلطان ططر طويلا بالحكم اذ لم يلبث ان مات فى يوم الاحد رابع ذى الحجة من تلك السنة ، اى أن مدة سلطنته لم تزد على ثلاثة اشهر وأيام ، ولما كان عمره لا يتجاوز خمسا وخمسين سنة ، فقد قيل ان خوند سعادات أم الملك هى التى دست له السم ، وهى التى طلقها خوفا من أن يقع له ذلك .

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد :

بويع بالسلطنة يوم وفاة ططر ابنه محمد الذى لم يكن يتجاوز عمره يوم مبايعته احدى عشرة سنة ، ولقب بالصالح ناصر الدين .

وتولى اتابكية العسكر وتدبير شئون المملكة جانى بك الصدفى ، فلم يرض عن ذلك الأمير برسباى الدقماقى الداودار ، فوثب على الأمير جانى الصدفى ، وقبض عليه وبعث به سجينا الى ثغر الاسكندرية وأمسك هو بزمام الأمور .

١٤٢٢ م / ٨٢٥ هـ ــ سلطنة الملك الأشرف برسباى :

فى يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثانى ، خلع برسباى السلطان الصالح ناصر الدين ابن ططر ، وبايعه الخليفة والقضـــاة الأربعة والأمراء سلطانا على مصر ولقب بالملك الاشرف .

وبرسباى الذى سيقدر له أن يكون من ألمع سلاطين المماليك الجراكسة قد جاء به بعض تجار الرقيق من بلاد الجركس ، فاشتراه احد الأمراء ، ثم آلت ملكيته الى السلطان برقوق ، الذى أعتقه ووهبه مالا وقماشا وخيلا ليبدأ حياته الحربية وجعله من خدمه الخصوصيين ، أو بحسب الترتيب الذى كان معمولا به ، جمدارا فى صكيا . فلما تسلطن الملك المؤيد جعله أمير عشرة ، ثم أمير طلبخانه ، ثم رقى الى أمير مائة ومقدم الف وتقلبت به الأحداث الى أن جعله السلطان ططر داودارا ، فكان منه بعد ذلك الذى مر بنا .

١٤٢٤ م / ٨٢٨ هـ ــ الاسطول المصرى يغزو قبرص :

كان الصليبيون كما رأينا قد انحازوا الى جزيرة قبرص ، ورودس التى اتخذها فرسان الاسبتارية قاعدة لهم ، بعد أن أجلوا عن الأرض الاسلامية . وكان القبرصيون فى الآونة الاخيرة قد نشطوا نشاطا غير عادى فتوالت غاراتهم على الساحل الشامى ، وعلى السفن القاصدة الى مصر ، فأهاج ذلك ذكرى غارة القبرصيين على مدينـــة الاسكندرية عام ٧٦٧هـ ، فقرر السلطان برسباى أن يضرب القبرصيين ضربة رادعة فأصدر أمره بانشـــاء أسطول بحرى فى ترسانات مصر فى بولاق ودمياط فتم صـــنع هذا الاسطول فى هذه السنة فبعث به بعد أن شحنه بالبحارة والمقاتلة الى جزيرة قبرص فهاجم مدينة ليماسول العاصمة وعاد محملا بالغنائم والأسرى .

الحملة الثانية على قبرص :

شجع برسباى النجاح الذى حققته الحملة البحرية الأولى فأرسل حملة اكبر

تألفت من اربعين سفينة ، نجحت فى الاستيلاء على مدينة فماجوستا واستسلمت لها حامية المدينة المؤلفة من جنود جنويه (أى من جمهورية جنوا) ثم قصدت القوة الى مدينة لارناكا وحطمت جيشا بقيادة أخى الملك حانوس (جيمس) ثم خضعت ليماسول بعد مقاومة يسيرة ثم يافوس جنوب غربى الجزيرة ، وفشلت كل محاولات الاسطول القبرصى لمقاومة المماليك . وعاد قائد الاسطول المصرى جيرباش ومعه الف أسير بيعوا فى أسواق القاهرة .

١٤٢٦ م / ٨٢٩ هـ ـ الاستيلاء على قبرص :

استقر عزم السلطان برسباى ، بعد أن ظهر له من ضعف قبرص ما ظهر ان يستولى عليها جملة . وكان حنا الثالث امبراطور بيزنطة قد حاول التوسط بين ملك قبرص وبرسباى ، ولكن برسباى رفض وساطته وجهز اسطولا ضخما مؤلفا من ١٨٠ سفينة محملة بالمقاتلة الذين كان أقلهم من المماليك وأكثرهم من المتطوعين والعرب والبدو .

وفى ٢ يوليو من السنة الميلادية ١٤٢٦ ، سقطت مدينة ليماسول بيد الجيش المصرى الذى تحرك منها صوب الشمال تحت حماية الاسطول ، فاستولى على لارناكا . ثم وقعت معركة حامية الوطيس بين ملك الجزيرة جانوس والجيش المصرى عند شيركتيوم ، فانهزم الجيش القبرصى ، ووقع الملك جانوس نفسه أسيرا . ثم سقطت نيقوسيا عاصمة الجزيرة وبذلك تم اخضاع الجزيرة لسلطان مصر الاشرف برسباى.

يقول ابن اياس عن حوادث عام ٨٢٩ هـ : وفى هذه السنة تم فتح مدينة (جزيرة) قبرص واسر ملكها وجىء به الى القاهرة أسيرا فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وزينت المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير (سلاسل) وملكهم راكب وعليه آلة الحرب .

أما لين بول فيصف هذا الحادث فى تاريخه بقوله :

وكان تاج قبرص والاعلام الملكية من بين ما عرض على الجماهير فى موكب النصر ـ اما الملك جيمس نفسه فقد حمل الى القلعة وادخل الى حضرة السلطان الذى كان يحيط به أمراؤه وحاشيته وسفراء السلطان ـ العثمانى ودولة التركمان ، وممثلو القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس .

وقبل ملك قبرص المقيد بالسلاسل الأرض بين يدى برسباى ثم اغمى عليه ولما ضغط عليه فى طلب الفدية التى قدرت بمائتى الف دينار ، كان رد الملك ، اننى لا املك شيئا الا حياتى فليتصرف فيها السلطان كما يشاء فلما هدد بالموت لم يظهر أى جزع . ولكن قنصل البندقية وبعض التجار الاوربيين ، تدخلوا وتعهدوا بدفع مائة الف دينار فى الحال على أن يدفع الملك جيمس بعد عودته الى قبرص مثلها ، وان يكون تابعا لمصر ويدفع جزية سنوية تتراوح بين خمسة الى ثمانية آلاف روكيه .

وهذا النصر البحري الذى أحرزه برسباى والذى انتهى بضم قبرص الى السيادة المصرية ، هو آية انفراط عقد الدول الأوربية المسيحية وانشغال كل منها بنفسها واهتمامها بمصالحها الخاصة .

عمارة المدرسة الاشرفية :

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان وهى المدرسة الاشرفية التى عند سوق الوراقين ، وقد أمر السلطان أن تعلق خوذه ملك الأفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكارا له .

يقول ابن اياس (المتوفى عام ٩٣٠) ان هذه الخوذة ظلت معلقة على باب المدرسة حتى أيامه ، أى بعد مائة سنة .

١٤٢٨ م ـ ٨٣١ هـ : عمارة مدرسة سرياقوس :

وفى هذه السنة ابتدأ السلطان عمارة مدرسته التى فى خانقاه سرياقوس وقد تناهى فى رخامها وزخرفتها ثم أقام فيها الخطبة ، وكان أول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم الحمدى الواعظ ـ ولم يحدث من قبل أن أقيمت الخطبة فى الخانقاه .

١٤٣٠ م ـ ٨٣٣ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

فى هذه السنة تفشى الطاعون فى مصر ، وكان مخالفا لبقية الطواعين ، فقد جرت العادة أن يقع الطاعون فى فصل الربيع ، أما هذه المرة فقد وقع فى وسط الشتاء .

وقد مات فيه على ما يقول ابن اياس ما لا يحصى عدده من الناس حتى قيل انه مات فى يوم واحد أربعة وعشرون ألفا .

وكان ممن ماتوا بالطاعون الخليفة العباسى المستعين بالله أبو الفضل العباسى .

ويقول الحافظ بن حجر الذى كان متوليا القضاء الشافعى فى هذه الفترة والذى يعتبر علما من أكبر الأعلام .

« لما كثر الطاعون بمصر ، اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص .

١٤٣١ م ـ ٨٣٤ هـ : اتصالات شاه رخ ابن تيمورلنك ببرسباى :

كان شاه رخ ابن تيمورلنك قد وطد ملكه فى بلاد ما بين النهرين (سيحون وجيحون) وبلاد فارس كلها وكان الاسلام قد انتشر فى صفوف المغول وأصبح هو

الدين الحاكم .. فأرسل فى هذه السنة سفيرا الى برسباى يطلب منه ارسال بعض المؤلفات لعلمــاء مصر المعاصرين . كشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وتاريخ المقريزى ، ويطلب كذلك السماح له بكسوة الكعبة . ولكن السلطان برسباى رفض هذا الطلب ، بل ولم يرسل المخطوطات المطلوبة .

ولما كان شاه رخ من أكبر هواة جمع المخطوطات ، فانه لم ييأس لهذا الرفض ، وظلت سفاراته تتوالى على القــاهرة ، حاملة الهدايا ، ومجــددة طلب السماح له بكسوة الكعبة ، ليبر بيمين كان قد اقسمها وهو ان يكسو الكعبة .

ولكن برسباى ظل على رفضــه هذا الطلب ، بحجة ان كسوة الكعبة ، هى من حقوق سلطان مصر ، وان فى مصر من الأوقاف المرصودة على كسوة الكعبة ما يجعلها فى غنى عن تقبل اى كسوة اخرى .

١٤٣٣ م ــ ٨٣٦ هـ : برسباى يقود حملة تاديبية ضد دولة التركمان :

كانت دولة التركمــان التى أنشــأها تيمورلنك تتألف من دولتين متنافستين أولاهما مؤلفة من قبيلة الشاه البيضاء وزعيمها عثمان قرايلوك التركمانى ويسميه ابن اياس قراملك .

وقد بدأ هذا الزعيم يستخف بسلطنة مصر ويغير على بعض ممتلكاتها ثم رأى أن يستفز برسباى ، فبعث اليه بهدية رمزية مؤلفة من مرآة وخروف وخلعــة ، كناية عن أن السلطان وأمراءه نعاج والمــرآة فانهم مثل النساء والخلعة باعتبــار أن برسباى نائب لقرايلوك . وقد أهان برسباى السفراء الذين حملوا له هذه الهدايا وطلب منهم أن يبلغوا ملكهم أن يقابله على نهر الفرات .

وفى شهر مارس من هذه السنة خرج برسباى من القــاهرة على رأس جيشه وبصحبته الخليفة المعتضد والمؤرخ أبو المحاسن و (تغرى بردى) والقضاة الأربعة ، ووصل الى نهر الفــرات وحاصر قلعة آمد أشــد الحصــار ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وساءت الأحوال بين جنوده ولذلك فقد رضى بعقد صلح مع عثمان قرايلوك على أن يكون تابعا لسلطان مصر ، فيخطب لبرسباى على المنــابر وتضرب السكة باسمه .

على أن برسباى لم يكد يرجع الى مصر : حتى عاد عثمان قرايلوك الى التمرد .

على أن نيران القتال لم تلبث أن اشتعلت بين عثمان قرايلوك وبين زعيم دولة التركمان الثانية وهى الشاه السوداء ، وانتهت الحرب بهزيمة عثمان قرايلوك ، حيث قطع زعيم الشاه السوداء المنتصر رأسه وبعث بها الى برسباى ، الذى احتفل بوصول رأس غريمه اليه احتفالات ضخمة .

١٤٣٥ م / ٨٣٩ هـ : الأزمة بين شاه رخ وبرسباى :

تجددت الازمة بين شاه رخ سلطان المشرق وبين برسباى عندما ارسل يجدد طلبه لكسوة الكعبة ويندد بعلماء مصر وقضاتها الذين أفتوا انه يستطيع أن يبر بيمينه لو انه انفق قيمة الكسوة على الفقراء والمساكين فى مكة ، واتهمهم بأنهم غير نزيهين وانهم يفتون بما يوافق هوى السلطان حرصا على مصالحهم الدنيوية .

ووصلت الازمة الى حد خيف معه أن يهاجم شاه رخ بلاد الشام مكررا ما فعله أبوه من قبل ، خاصة وان شاه رخ كان يرسل السفارات والهدايا الى السلطان العثمانى والى امير الشاه البيضاء التركمانى ، والى امراء الفادر وقرمان ، مما دل على انه يؤلف حلفا يمهد به للهجوم على برسباى .

كل ذلك جعل برسباى يعلن انه سيجهز جيشا لمواجهة شاه رخ . وطلب من القضاة ان يوافقوه على جمع الأموال اللازمة للحملة من الشعب ، فرفض القضاة الموافقة على ذلك ، وانتقدوا اسرافه ، وكان مما قالوه : لا يجوز للسلطان أن يفرض الأموال على المسلمين وزوجته تلبس فى يوم ختان ابنها ثوبا يساوى ثلاثين ألف دينار (مصر فى عهد الجراكسة) .

وعاد شاه رخ فأرسل الى برسباى رسالة رابعة وكان شاه رخ يطالب برسباى هذه المرة بأن يقيم الخطبة باسمه ويضرب السكة باسمه كذلك ، على اساس ان برسباى تابع له .

وكان رد برسباى على هذه الرسالة ، ان امر باهانة السفير الذى حملها ، وهكذا تأزمت الأمور ، ووصل التوتر الى اعلى مداه ، واصبح هجوم شاه رخ على أرض الدولة متوقعا فى اى لحظة .

١٤٣٧ م ــ ٨٤١ هـ : عودة الطاعون الى مصر :

فى هذه السنة عاود الطاعون مصر للمرة الثانية فى حياة برسباى وان كان بدرجة اخف من الطاعون السابق ، ومع ذلك فقد مات بسببه عدد كبير .

وفاة السلطان الملك الأشرف برسباى :

فى يوم السبت الثالث عشر من ذى الحجة دفن الملك الأشرف برسباى وكان عمره خمسا وسبعين سنة ، حكم منها ستة عشر عاما وثمانية أشهر وخمسة أيام .

يقول ابن اياس : فكثر عليه الحزن والأسف من الناس فان مصر كانت هادئة فى ايامه من الفتن والحروب .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جميلا مبجلا فى موكبه وكان منقادا للشريعة ويحب اهل العلم ويقربهم .

وكانت النقود التى سكها احسن النقود ، وكانت من الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفية البرسيبية فانها من خالص الذهب .

احتكاره تجارة الهند :

واذا كان اخضاع قبرص للسيادة المصرية هو ما تم فى عهد برسباى يميزه عن بقية عصور المماليك الجراكسة ، فان ثمة مميزا آخر لعصره ، وهو احتكاره لبعض أصناف التجارة ، وخاصة تجارة الهند التى ازدهرت من جديد فى عصره . ومن عجب ان ازدهارها لم يكن سوى آخر خفقة فى سراج هذه التجارة فلن يلبث ان تكتشف امريكا ، وتكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتتحول تجارة الهند نهائيا عن مصر ، مما سيسارع الى افقارها فى أخريات العهد المملوكى وطوال العهد العثمانى .

المقريزى وابن حجر والعينى :

وقد تألق فى عهد برسباى ثلاثة من أعلام مصر ، وأعلام العرب والمسلمين فى كل زمان ومكان وهم المقريزى الشهير صاحب التآليف التاريخية الخالدة وثانيهما الحافظ بن حجر شارح البخارى وقد رأينا كيف أن شاه رخ بن تيمورلنك قد بعث الى مصر ليحصل على كتبهما .

أما ثالثهما وهو بدر العينى ، فقد كان لى شخصيا حظ مصاحبته الدائمة قبل زميليه ، حيث تقوم فى مكتبتى منذ أمد بعيد سبع مجلدات ضخمة فى شرح صحيح البخارى ، تؤلف بالنسبة لى مرجعا اساسيا فى كل ما يتصل بأحاديث رسول الله .

وقد رأينا كيف أن وجود عالم واحد فى عصر من العصور قد يزينه ويرفع من شأنه فكيف بعلماء ثلاثة .

سلطنة الملك العزيز ابو المحاسن :

بويع بالسلطنة فى يوم وفاة الأشرف برسباى ، اى فى يوم السبت الثالث عشر من ذى الحجة ، الملك العزيز ابو المحاسن جمال الدين يوسف دقماق ، ابن الملك الأشرف برسباى ، وكان عمره يوم سلطنته اربعة عشر عاما ولقب بالعزيز .

وتولى أتابكية العسكر جقمق العلائى ، فأصبح كما هى العادة صاحب الحل والعقد والمتصرف فى كل الشئون .

١٤٣٩ م – ٨٤٢ هـ : خلع السلطان العزيز :

لم يكد جقمق الاتابك ينجح فى القضاء على حركة قام بها الأمراء ضد الملك

العـزيز ، حتى رأى هو أن يخطو هذه الخطوة التى أصبحت تقليدية . فاستدعى الخليفة والقضـاة الأربعة وطلب منهم خلع السلطان العزيز فخلعوه فى يوم الاربعاء التاسـع عشر من ربيع الأول من هذه السـنة ، فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشـهر وخمسة أيام . على أن جقمق لم يقتل السلطان العزيز أو يسجنه واكتفى بادخاله دار الحريم ليسكن بها .

سلطنة الملك الظاهر جقمق :

وبويع بالسلطنة فى نفس اليوم جقمق ولقب بالملك الظاهر . وهو كسائر ملوك المماليك ــ جاب من بلاد الجركس فاشتراه السلطان برقوق وأصبح من جملة المماليك السلطانية ، ثم اعتق ، وعينه خاصكيا ثم سـاقيا وفى دولة الناصر فرج أصبح أمير عشرة وفى عهد الملك المؤيد شيخ صار أمير طلبخانة ، وفى دولة ططر أصبح أمير مائة ومقـدم الف ، ثم عين صاحب الحجاب فى دولة الأشرف برسـباى ، ثم عهـد اليه بمنصب أمير آخور (أى المشرف على الاسطبلات السلطانية) ثم أمير سلاح ثم اتابك العسكر ، فسلطانا كما رأينا .

وقد عين قرقماش اتابكا للعسكر .

الفتن ضد السلطان الجديد :

استهل جقمق عهده كأى سلطان من سلاطين المماليك ، بالعزل والسجن والقتل لمن يتخوف منهم ، والترقيـة والتعيين فى المناصب الرئيسـية لمن يطمئن اليهم . وسرعان ما تكون هذه الحركات هى مصدر فتن ومتاعب .

وكان أول ما واجهه جقمق هو فرار السلطان العزيز المخلوع واختفـائه لدى بعض انصـاره ، مما دل على أن له حزبا قويا يساعده على استعادة السـلطة ولكن جقمق استطاع ان يقبض على العزيز وأن يرسله مقبوضا عليه الى الاسكندرية .

ولم يكد جقمق يفرغ من هذه الحـركة ، حتى نما الى علمه ان الأمير قرقماش الاتابك قـد دبر أن يقبض عليه أثناء لعبهما معا بالكرة ، فاحتاط السلطان لذلك ، وفشلت خطة قرقماش فقام الصراع العلنى بين الرجلين ودارت بينهما المعارك التى انتهت بانتصار جقمق ، وارسال قرقماش مقبوضا عليه الى سجن اسكندرية حيث أعدم بعد ذلك .

١٤٤٠ م ــ ٨٤٣ هـ : تمرد نائب الشام اينال الجكمى :

وفى الشام أعلن الأمير اينال الجكمى خروجه عن طاعة جقمق وانضم الى نائب حلب ، ولكن جقمق استطاع أن يرسل جيشا الى الشام هزم الخارجين عليه وقبض عليهم وقطع رؤوسهم .

جقمق يحاول غزو رودس :

كانت انتصارات برسباى على جزيرة قبرص وضمها الى السيادة المصرية لا تزال أصداؤها تتجاوب فى ارجاء البلاد ، وكانت جزيرة رودس لا تزال تمثل شوكة فى البحار وتمثل خطرا دائما على الدولة المصرية ، فقد كان فرسان الاسبتارية قد جعلوا منها قاعدتهم الحصينة ، وزادت أهميتها بعد سقوط قبرص فضاعف من نشاطها .

وفكر جقمق فى أن يلحق بسلفه برسباى ، وليس كالانتصارات العسكرية ما يوطد أركان أى سلطان فى الحكم .

لذلك فقد أعد فى ميناء بولاق أسطولا بحريا يتألف من خمس عشرة سفينة من السفن المعروفة باسم الغراب عهد الى الأميرين تغرى بردى السلحدار ويونس المحمودى أمير خور بغزو جزيرة رودس وحشد ما يزيد على الف مقاتل فى هذا الأسطول .

ولكن خبر هذه الحملة تسرب الى رودس ، فلم يكد الاسطول يصل الى مياه الجزيرة حتى وجد أسطول الجزيرة بأكمله فى انتظاره ، فأوقع بهذه التجريدة خسارة جسيمة فعادت على أثرها الى مصر دون أن تحقق شيئا نافعا .

١٤٤٣ م ــ ٨٤٦ هـ : ثورة العبيد السود :

تجمع الأرقاء السود فى القاهرة فى هذه السنة ، وعبروا الى منطقة الجيزة واعلنوا التمرد والعصيان وولوا عليهم سلطانا ووزيرا وأميرا كبيرا وداويدارا وصار سلطانهم يركب وعلى راسه علم اصفر يحيط به خمسمائة من اتباعه فبعث اليهم السلطان جقمق جيشا من أمرائه ومماليكه فأوقعوا بهم وامسكوا بجماعة منهم ، وفر الباقون .

فاستقر راى السلطان على أن يتخلص نهائيا من الأرقاء السود فاعلن أن كل من يملك رقيقا أسود يسلمه الى السلطان ويأخذ فى مقابله أثنى عشر دينارا وهكذا جمع الأرقاء السود ، ثم سيقوا الى الدولة العثمانية حيث بيعوا بها .

وفاة تقى الدين المقريزى :

وفى هذه السنة مات شيخ المؤرخين المصريين من عصره حتى اليوم وكان عمره يوم مات ثمان وسبعين سنة شمسية .

وقد ولد أحمد بن على المقريزى بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ومات عام ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) .

وقد كان حنفى المذهب ثم تحول الى المذهب الشافعى والتحق بديوان الانشاء بالقلعة ثم عمل قاضيا شافعيا ، فاماما لجامع الحاكم فمدرسا لعلم الحديث بالمدرسة

المؤيدية ، واختاره السلطان برقوق ليكون محتسب القاهرة والوجه البحرى ، ثم انتقل الى دمشق وقام بها بتدريس الحديث الشريف ، ثم عين قاضيا بدمشق .

وسئم المقريزى وظائف الحكومة على اختلافها ، فرجع الى القاهرة ، واستقر فى حارة برجوان التى ولد فيها ، واشتغل بالتدريس والتأليف وخاصة فى هذا العلم الذى أحبه من كل قلبــه وهو التاريخ . وكان أول كتبه هو أعظم كتبه على الاطلاق وهو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والذى قال فى مقدمته .

« وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب اترابى ومجمع ناسى ومغشى عشيرتى وموطن خاصتى » .

وكتاب الخطط هو كتاب شامل لجغرافية مصر وتاريخها منذ خلق الله الدنيا حتى أيام المقريزى .

ثم رأى المقريزى أن يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا كاملا منذ الفتح العربى الى العصر الذى عاش فيــه ، فقسم هــذه الفترة الى ثلاثة أقســـام عصر التبعية للخلافة الاسلامية ، وخصه بكتاب عقد جواهر الاسقاط فى أخبار مدينة الفسطاط .

عصر الخلفاء الفاطميين وخصه بكتاب الفاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا .

عصر بنى أيوب والمماليك وخصه بكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . وللمقريزى بعد ذلك عشرات المؤلفات التى لم تصل الينا ، ومن أهمها كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمــة » وقد نحا فيه نحو أستاذه ابن خلدون من حيث النظرة الشاملة للتاريخ . والاجتماع والاقتصاد ، وقد انتهى به بحثه فى هذا الكتاب الى أن أسباب ما ينزل بالناس من المجاعات والأوبئة هو سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة واغفالهم النظر فى مصالح الجمهور .

١٤٤٣ م ــ ٨٤٧ هـ : اخفاق حملة بحرية ثانية على رودس :

غادرت دمياط فى اغسطس من هذه السنة الميلادية حمــلة بحرية ثانية بقيادة الأمير اينال العلائى لمحاربة رودس ، فقصدت أولا الى سواحل الشام حيث انضمت اليها قوات شامية ، واحتشد الأسطول بعد ذلك فى ميناء ليماسول بجزيرة قبرص ، حيث مونها ملكها بما هى فى حاجة اليه ، ولكن قيــام ريح عاصفــة حال دون وصول هذا الأسطول الى رودس فعاد الى الاسكندرية ورشيد .

١٤٤٤ م ــ ٨٤٨ هـ : حملة ثالثة ضد رودس :

لم ييأس السلطان جقمق لفشــل حملتيه الســـابقتين وزاد تصميمه على غزو جزيرة رودس ، فأعد أسطولا أضخم من كل ما سبق أن أعــدته مصر ، حيث كان

ما يقرب من ثمانية عشر الفا من المتطوعين المصريين والسوريين بالاضافة الى الف مملوك ، وجعل الامارة على القوات البرية للامير اينال العلائى وامرة البحر للأمير تمرباى .

وكان فى الحملة عدد كبير من الوعاظ والعلماء .

ووصلت الحملة الى جزيرة رودس فى جمادى الأولى من هذه السنة الهجرية (اغسطس) وحاصرت مدينة رودس ، واشتد القتال ، واستمر الحصار العنيف اربعين يوما ، ولكن المدافعين عن المدينة تلقوا مدداً من فرنسا واسبانيا ، فاستطاعوا أن يرفعوا الحصار عن المدينة ، وأن يهاجموا الجيش المصرى فقتلوا عددا من المماليك وهرعت بقية الجند الى السفن ، وعادت ادراجها الى مصر ، فى الوقت الذى كان جقمق قد ارسل لهم المدد .

ومع أن الجيش المصرى لم يوفق فى مهمته ، فان حكام رودس طلبوا الدخول فى مفاوضات الصلح مع مصر للتوصل الى اقرار السلام ، فقد رأوا أن جقمق لن يكف عنهم .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الدولة العثمانية قد بدأت تهدد جزر شرق البحر الأبيض . وكانت هذه القوة التى تنمو بسرعة فائقة هى التى أصبحت تقض مضاجع أهل رودس ، فكان ان سعوا الى الصلح مع مصر على شروط رضاها .

شاه رخ يكسو الكعبة بموافقة جقمق :

كان شاه رخ ملك ما وراء النهر وبلاد فارس ، لا يفتأ يطالب بتحقيق رغبته فى كسوة الكعبة ، وهى الرغبة التى رفضها برسباى اكثر من مرة فلم يكد السلطان جقمق يتولى السلطنة حتى جدد طلبه وبعث الى مصر وفدا من لدنه وزوده بالثمين من الهدايا مع ابداء الرغبة فى كسوة الكعبة فاعتذر جقمق كسلفه عن اجابة هذه الرغبة ، ولكن انهزام الجيش المصرى فى حملة رودس جعل جقمق يكف عن عناده ، ويسعى لعدم توريط مصر فى حرب جديدة مع شاه رخ فأجابه الى طلبه ، وشرط أن تكون كسوة شاه رخ من الداخل اى تحت كسوة السلطان . فقبل شاه رخ هذا الشرط وبعث بكسوته الى القاهرة لترسل مع كسوة السلطان ، وكان من بين مرافقى هذه الكسوة أرملة تيمورلنك .

وهكذا بر شاه رخ بقسمه فى نهاية الأمر ، فوضعت كسوته فوق الكعبة وكأنه كان لا يعيش الا لتحقيق هذا النذر اذ لم يلبث أن مات فى العام التالى .

١٤٤٩ م — ٨٥٣ هـ : الطاعون والغلاء :

توقف النيل عن الوفاء فى هذه السنة ، ولم تجد صلاة الاستسقاء فشرقت

البــلاد وعزت الاقوات ، وارتفعت الأسعار بحيث أصبح ثمن اردب القمــح خمسة دنانير أشرفية ثم زاد الى سبعة . وغلا سعر كل شيء حتى روايا الماء . وشرقت غالب البساتين وماتت الأشجار والبهــائم فلما حدث ذلك خاف الأمراء أن ينهب العــامة غلالهم فحولوها من الشون الى بيوتهم تحت حراسة مماليكهم فضاعف ذلك فى غلاء الأسعار حتى أصبح سعر رطل الخبز نصف فضــة . فأدى ذلك الى اشتعال ثورة الشعب فرجمت الجماهير وكيل بيت المال ، والمحتسب . وفى أعقاب الغلاء والقحط ، جاء تابعهما الطاعون ، فبدأ يفرى فى الناس فريا حتى قيل أنه كان يموت سبعة عشر الفا كل يوم .

١٤٥٠ م ـ ٨٥٤ هـ : وفاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى :

وفى هذه الســنة مات شيخ الاســلام قاضى القضـــاة شــهاب الدين بن حجر العسقلانى الشافعى ، فكانت له جنازة مشهورة ، وتبارى الشعراء فى رثائه مما تغص به كتب التاريخ .

وقد كان ابن حجر هو أول من تصدى من علماء المسلمين لشرح صحيح البخارى ، مما جعل شاه رخ كما قدمنا يرسل الى مصر وفدا فى طلب هذا الكتاب .

١٤٥٣ م ـ ٨٥٧ هـ : السلطان محمد الفاتح يفتح القسطنطينية :

فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الثانية من هذه السنة تم الفتح العظيم الذى ما فتىء المسلمون يسعون لتحقيقه فباءت كل جهــودهم بالفشــل منذ أيام معاوية ابن أبى سفيان ، وهو فتح مدينة القسطنطينية التى كانت تعتبر قاعدة المسيحين الكبرى . . فتم هذا العمل العظيم على يد السلطان محمد الذى أطلق عليه منذ هذا الحدث لقب الفاتح . وقد نقل السلطان محمد الفاتح عاصمة الدولة العثمانية الى القسطنطينية وأطلق عليها اسم اسلام بول أى مدينة الاسلام ، وهى التى حرفت الى استنبول .

وبصيرورة القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية ، بدأت هـــذه الدولة صفحة جديدة فى تاريخ حياتها . فالى ما قبل هذه الخطوة كان سلاطين آل عثمان يقصرون جهادهم على غزو الأقطار المسيحية فى شرق أوروبا من صرب وبلغار ويونان .

أما بعــد فتح القسطنطينية ، فقــد بدأت ابصـــارها ترنو الى توحيد العــالم الاســلامى تحت لوائهم ، وان كانت هــذه الرغبـــة لم تتحقق الا بعــد أكثر من نصف قرن .

وقد كان لسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين اثر فى أوروبا ، جعــل شعوبها

يعتبرون انفسهم فى حرب مقدسة ضد الدولة العثمانية ظلت طوال اربعة قرون ، ولم تهدأ الا بعد أن صفيت الدولة العثمانية بالفعل .

وفاة السلطان الملك المظفر جقمق :

فى ليلة الثلاثاء الرابع من شهر صفر من هذه السنة ، مات السلطان المظفر جقمق عن احدى وثمانين سنة ، حكم منها أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما .

يقول عنه ابن اياس : وكان ملكا عظيما جليلا دينـا خيرا متواضعا يحب فعـل الخير . وكان عنده لين جانب يحب العلمـاء وينقاد للشريعة ، ويقـوم للعلماء اذا دخلوا عليه . وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد .

ولكن ابن اياس يأخذ عليه انه سجن قاضى القضاة ، وسجن جماعة من العلماء ، وأنه غضب فى وقت ما على النصـارى فهدم جانبـا من كنائسهم وحجـر عليهم أن يبيعوا النبيذ .

ولك أن تتصور هذه السماحة الدينيـة التى لن تجدها الا فى صفوف المسلمين حيث ينعى عالم دينى وهو ابن اياس على السـلطان اضطهاده للمسيحيين ومنعـه اياهم من أن يبيعوا النبيذ الذى هو حلال فى شريعتهم .

ويجمل ابن اياس القول فى السلطان جقمق فيقول : وبالجمـلة كانت محاسنه اكثر من مسـاوئه ، وكان خيـار ملوك الترك من الجراكسـة بالنسـبة الى غيره من الملوك .

سلطنة الملك المنصور أبو السعادات :

فى الحادى والعشرين من المحـرم بويع بالسلطنة الملك المنصـور ابو السعادات فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر جقمق العـلائى . وكانت سنه يوم بويع تسع عشرة سنة وتولى اتابكية العسكر الأمير اينال العلائى .

خلع المنصور ابو السعادات :

لم تكن تولية المنصور ابو السعادات ، الا ريثما يتفق أمراء المماليك فيما بينهم على تولية واحـد منهم ، ولذلك فلم يمض شـهر وبعض شـهر حتى اجتمع امراء المماليك حول الاتابكى اينال العلائى وأرغموه على أن يتولى السلطنة . وحاصر اينال السلطان المنصور فى القلعة ، وقطع عنه الماء والطعام ، ولم تلبث المماليك أن تفرقت من حول السلطان ، فاستولى اينال على القلعة ، وخلع الملك المنصور عثمان وبعث به سجينا الى الاسكندرية ، وكانت مدة سلطنته ثلاثا واربعين يوما .

سلطنة الملك الاشرف اينال :

بويع بالسلطنة بعـد خلع المنصـور فى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ولقب بالملك الاشرف .

وأصل الملك الأشرف جركسى الجنسية جلبه الخواجه علاء الدين على فاشتراه الظاهر برقوق ، وأعتقه ابنــه فرج من بعده ، ثم سار فى سلم الترقى على النظــام المألوف ، وتولى فى عهد برسباى ادارة بعض المــدن فى الشام ، ثم جاء الى القاهرة وانعــم عليه بامرة مائة وتقــدمة الف وفى عام ٨٤٩ عين اتابكا للعسكر ، وكان ذلك سبيله الى السلطنة . ولم يكد يســتهل سلطنته حتى واجهته الفتن المعهــودة من الأمراء ، فقد استقل الجميع نفقــة البيعــة التى أنفقها عليهم ، وطالبوا بالمزيد . فاعتذر بضيق ذات اليد ، ووعد باجزال العطاء لهم عند ميسرة .

الاحتفال بفتح مدينة القسطنطينية :

وقبيل آخر هذا العام ، وفد من السلطان محمد الفاتح ، قاض (سفير)لابلاغ سلطان مصر بطريقة رســمية نبأ فتح مدينة القسطنطينية ، قدمت له البشائر فى القلعة ، واستقبل أعظم استقبال ، ونودى فى القاهرة بالزينة لعدة أيام .

وعين السلطان اينال وفــدا من لدنه للسفر الى القسطنطينية لتهنئة السلطان الفاتح رسميا باسمه واسم مصر .

ولعل ذلك يكشف عن مدى حسن العلاقات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية فى ذلك الوقت .

١٤٥٤ م ــ ٨٩٥ هـ : فتنة المماليك ضد السلطان :

قام مماليك السلطان الذين يعيشون فى الطباق بالقلعة وهم الذين كانوا يسمون بالجلبان ، بفتنة ، فراحوا يهجمون على محلات التجار وينهبونها . ثم امتد هجومهم الى مخازن وشون الأمراء أنفسهم .

وفى شهر رجب من هذه السنة تطورت الفتنة الى ثورة عامة ضد السلطان اينال تزعمها من يدعى شبك بن مهدى ــ وانحاز اليه الخليفة العباسى حمزة رغم تحذير السلطان له ــ ولكن اينال استطاع أن يقضى على الثورة وأن يقبض على الخليفة .

وقد حاول الخليفة أن يتحدى السلطان ، فأعلن فى حضرة الأمراء والقضاة أنه خلع نفسه من الخلافة وخلع السلطان اينال من السلطنة . ولكن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى أفتى بأنه وقد خلع نفسه أبتداء ، لم يملك السلطــة لخلع السلطان لزوال صفته .

وسجن الخليفة العباسى بعد أن خلع نفسه ، وعين اخوه أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله ، ولقب بالمستنجد بالله .

١٤٥٦ م ــ ٨٦١ هـ : ارسال حملات لمحاربة التركمان :

هاجمت دويلة التركمان التى كانت خاضعة لسيادة مصر ، أطراف الدولة العثمانية واستولت على مدينة طرطوس فى آسيا الصغرى ، فخشى السلطان اينال من أن تؤدى هذه الحركة الى اساءة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية ، فأرسل الى دويلة التركمان حملة تأديبية بقيادة الأمير خشقدم ، فأتمت مأموريتها بنجاح .

١٤٥٧ م ــ ٨٦٢ هـ : اصلاح النظام النقدى :

تصاعدت فى هذه السنة الشكوى من سوء النقود المتداولة وبلغت ذروتها اذ كثر فيها الغش والتدليس .

فأصدر السلطان فى ربيع الأول من هذه السنة مرسوما بتسعير الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلثمائة والفضة الجديدة على أساس أن كل أشرفى (دينار ذهبى) بخمسة وعشرين نصفا عددية من خالص الفضة .

وأبطل سائر المعاملات من الفضة المغشوشة ، والتى كان الدينار قد وصل منها الى اربعمائة وستين درهما .

فخسر الناس ثلث أموالهم من هذه الحركة ، ولكن انصلح أمر العملة بعد فسادها .

يقول ابن اياس ففرحت طائفة بهذا الاصلاح واغتمت طائفة .

١٤٥٨ م ــ ٨٦٣ هـ : مصر تبعث بأسطول الى قبرص :

وفى هذه السنة وقع خلاف بين (جيمس) ابن ملك قبرص وبين اخته شارلوت على العرش ، فبعث جيمس يستنجد بمصر ، فى الوقت الذى لجأت فيه شارلوت الى رودس ، فبعث اينال بنجدة للملك جيمس ، فانتصر على أخته وانصارها بفضل المعونة المصرية ... وكانت هذه الحركة مظهرا لمباشرة مصر سلطانها على قبرص .

١٤٥٩ م ــ ٨٦٤ هـ : انتشار الطاعون :

وتفشى هذا الوباء الذى أصبح من سمات هذه الفترة من تاريخ مصر والعالم ونعنى به الطاعون ــ وقد بدأ تفشيه هذه المرة فى الشام ومن الشام امتد الى مصر ــ ويبدو أن الوباء هذه المرة كان شديدا الى الحد الذى هلك به ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، وظل يعمل طوال خمسة شهور ، قبل أن يتوقف فجأة ، كما بدأ فجأة .

١٤٦٠ م — ٨٦٥ هـ : موت السلطان اينال :

فى يوم الخامس والعشرين من جمادى الأول ، مات الملك الأشرف اينال ، وكان عمره يوم مات احدى وثمانين سنة ، حكم منها ثمانى سنوات وشهرين وستة أيام .

ثار عليه المماليك فيها سبع مرات .

وكان اينـــال قد عين ابنه أتابكا للعسكر ، فلما اشتد عليه المرض خلع نفســـه وعهد بالسلطنة الى ابنه .

يقول ابن اياس عنه : كان طويل القامة اسمر اللون ، عربى الوجه ، ضعيف العوارض ، وكان يعرف بابنال الأجرود وكان ملكا هينا قليل الأذى ولولا جور مماليكه فى حق الناس لكان خير ملوك الجراكسة .

سلطنة الملك المؤيد احمد أبو الفتح العلائى الناصرى :

بويع بالسلطنة فى عهد أبيه كما قدمنا ، ولقب بالملك المؤيد وكان عمره يوم بويع بالسلطنة ثمان وثلاثين سنة .

وقد تولى اتابكية العسكر خشقدم الناصرى .

خلع الملك المؤيد :

وعلى الرغم من أن الســـلطان الجـــديد ، كان كفؤا للسلطنة ، وكان كأبيه قليل الأذى محبا للناس .. فان المماليك الجلبان الذين استمرأوا الحصول على نفقـــة بيعة كلما ولى سلطان جديد كرروا فعلتهم عندما أجبروا الاتابك اينال على مخاصمة السلطان وتولى السلطنة ، فقد حرضوا خشقدم الاتابك على خلع السلطان ، والتسلطن بدلا عنه .

سلطنة الملك الظاهر ابو سعيد :

وفى يوم السبت ١٧ رمضان تم خلع الملك المؤيد أحمد ومبايعة الاتابكى خشقدم بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء . وكانت مدة الملك أحمد فى السلطنة لا تزيد على أربعة أشهر وثلاثة أيام .

أما خشقدم فقد لقب بالملك الظاهر .

وقد عرف خشقدم بالناصرى نسبة الى التاجر الذى جلبه الى مصر وهو الخواجة ناصر الدين ، وكان الذى اشتراه هو الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه وعينه جمـــدارا فى صكيا . وفى عهد الملك الظاهر جقمق انعم عليه بامارة عشرة وفى سنة ٨٥٠ هـ ترقى الى رتبة أمير مائة وتقدمة الف بمدينة دمشق . ثم حضر الى مصر فعين أمير سلاح فى دولة اينال فاتابكيا فى عهد ابنه فسلطانا كما رأينا .

خشقدم يقضى على الفتنة ضده :

وجرت حركات القبض والاعتقال والعزل ، والترقية ووقعت الفتن المعتادة ، وأراد المماليك أن يكرروا لعبتهم فيعينوا الأتابك الجديد جرباش سلطانا ولكن الحركة فشلت وظل خشقدم سلطانا . ولكى يحتفظ بهذا السلطان راح يقتـل من أمراء المماليك كل من يتصور انه يهدده فى ملكه ، كما فعل بالأمير مانى نائب جدة ، لمجرد أن كثرت أمواله ، وبرزت شخصيته ، وبهر الناس بكرمه ومنشئاته الخيرية وفوق ذلك فصيح لسانه العربى ، فكان ذاك سببا لقتله بأمر خشقدم .

١٤٦٧ م – ٨٧٢ هـ : وفاة خشقدم :

وقع خشقدم فريسة المرض الذى استمر اربعين يوما ، مات فى نهايتها وكان موته يوم السبت العاشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره يوم وفاته خمسا وسبعين سنة ، ومدة سلطنته بالديار المصرية ست سنوات وخمسة أشهر وعشرين يوما .

وكانت مماليكه السلطانية التى تحمل اسمه يوم مات أربعة آلاف مملوك .

سلطنة الملك الظاهر بلباى المؤيدى :

وبويع فى نفس اليوم الذى مات فيه خشقدم اى يوم السبت العاشر من ربيع الأول اتابك العسكر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى .

وقد أطلق عليه اسم بلباى المجنون ، وقد غلب عليه منـذ ولى السلطنة داوداره الأمير خيربك ، فلم يكن بلباى يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا بأمره واشارته ، فكان اذا سئل عن شىء يقول : ايش كنت أنا قل له – اى قل لخيربك – فاطلقت عليه العامة السلطان « قل له » .

خلع الملك الظاهر بلباى :

فى يوم السبت السابع من جمادى الأول خلع السلطان بلباى بعد حكم لم يكمل شهرين وقبض عليه وأرسل الى سجن الاسكندرية .

سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد :

وبويع فى ذات اليوم أتابك العسكر تمربغا الظاهرى ولقب بالملك الظاهر أبوسعيد ، ولكن ملكه لم يدم بدوره أكثر من شهرين . فقد اتفق خيربك مع أمراء المماليك على توليته بدلا من السلطان ، وقبض على السلطان بالفعل فى يوم ٦ رجب من هـذه السنة ، وجلس على سرير الملك ولقب نفسه بالملك الظاهر – ولكن لم يصبح الصباح

حتى كان الامير قايتباى قد اقنع باقى الأمراء على أحقيته بالسلطنة ، واستولى على القلعة وقبض على الأمير خيربك وأفرج عن السلطان الأسبق تمربغا . وسمح له أن يسافر الى دمياط .

ولا يعد خيربك من سلاطين المماليك ، حيث لم يكمل حكمه الا بضع ساعات من الليل .

سلطنة الملك الأشرف قايتباى :

فى نفس اليوم الذى كان خيربك يخلع الظاهر تمربغا اى فى يوم الاثنين السادس من رجب ، بايع الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء الاتابكى قايتباى بالسلطنة ، رغم معارضته التى وصلت الى حد البكاء ، فأصر الامراء والجند على توليته فانذرهم انه لن يدفع لهم ما اعتادوا من نفقات البيعة فأجابوه الى هذا الشرط .

وهكذا وصل قايتباى الذى سيقدر له أن يكون المع المماليك الجراكسة الى كرسى السلطنة .

وليس فى حياته قبل وصوله الى السلطنة ما يخالف حياة بقية السلاطين الجراكسة فقد جلبه الى مصر الخواجه محمود واشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين دينارا ، ثم راح يتدرج بعد أن أعتق هذا التدرج المألوف ... الى أن صار اتابكيا .

خروج شاه سوار على سلطة مصر :

واجه قايتباى بمجرد جلوسه على عرش مصر ، فتنة شنها الأمير شاه سوار أحد امراء دولة التركمان التابعة لمصر ، فقد طرد أخاه الامير التابع لمصر ، والتف حوله التركمان ، واستغل العثمانيون هذه الفتنة لأول مرة ، ليتدخلوا فى شئون دولة تابعة لمصر ، فأيدوا شاه سوار ، الذى اشتد ساعده بهذا التأييد فأعلن استقلاله وضرب السكة (النقود) باسمه ، ثم قويت مطامعه فشرع يهاجم اطراف الدولة المملوكية .

شاه سوار يهزم الحملة المصرية :

تعجل قايتباى الحوادث على ما يقول ابن اياس ، فأسرع بارسال حملة لاخضاع شاه سوار واعادة اميرها المخلوع ، ولكن شاه سوار تمكن من هزيمة هذه الحملة واسر قائدها الأتابكى قلقشير نفسه ، كما قتل كثيرا من الأمراء المقدمين فى هذه الحملة ، وكان طبيعيا أن يشجعه هذا النصر على مزيد من التهجم والعدوان فاستولى على مدينة عينتاب ، وشرع يهدد مدينة حلب نفسها .

١٤٧٢ م — ٨٧٧ هـ : الأمير يشبك الدوادار يهزم شاه سوار :

ظل شاه سوار يهزم التجريدات التى يبعث بها قايتباى اليه ، ويخلط الشدة

باللين ، فيتظاهر بالخضوع للسلطان أحيانا ، ليستأنف اعتداءاته من جديد .

وأخيرا رأى قايتباى أن يحسم هذه الفضيحة ، فألف جيشا كبيرا وضع على رأسه أقدر أمرائه وهو الأمير يشبك الدوادار ، وخوله سلطة مطلقة حيثما حل وأينما سار .

فاستطاع الأمير يشبك أخيرا أن يهزم شاه سوار وان يسترد منه المدن التى استولى عليها وهى ادنه وطرسوس وعينتاب وهرب شاه سوار وأهله واحتمى بقلعة زمنوطو الحصينة . ولكن رجاله بدأوا ينفرون عنه ، فأظهر الخضوع والاستعداد لأن يكون تابعا للسلطان كما كان ، وان يقدم كل عام ما اعتاد أن يقدمه من مال للسلطان وانتهى به الأمر الى أن يسلم نفسه فجىء به أسيرا الى القاهرة يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

وكان يوم وصوله من الأيام التى ارتجت لها القاهرة . « فقد زينت احتفالا بهذا النصر زينة حافلة ، وبلغ أجر البيوت على الشارع الذى كان مقدرا أن يسير فيه شاه سوار ، أربع أشرفيات ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، وذلك للفرجة على شاه سوار ، الذى قتل العباد ويتم الأطفال ونهب الأموال » .

وشنق شاه سوار وأخوته على باب زويلة ..

وهكذا انتهت فتنة شاه سوار التى كلفت الدولة ما كلفت من أموال ورجال وجهود طوال خمس سنوات .

حسن الطويل ملك العراقيين يهدد الدولة :

لم تكد متاعب قايتباى تنتهى من شاه سوار ، حتى جاء خطر جديد بمن يسمى فى كتب التاريخ العربية حسن بك الطويل ، وكان قد ملك العراقيين وراح يتودد الى قايتباى فى بادىء الأمر ، ولكن لما ان منيت جيوش مصر بالهزيمة ازاء شاه سوار فى بادىء الأمر ، بدأ يتنكر لمصر ويستخف بها ، فشرع يغير على أطراف الدولة . ثم راح يحرض شاه بضاع الذى ولته مصر على دولة شاه سوار أن ينحاز اليه ويتبعه ، ولكن شاه بضاع أرسل ما وصله من رسائل الى قايتباى ، الذى انتدب الأمير يشبك الدوادار مرة أخرى لحرب حسن الطويل .

فغزا يشبك بجيشه عبر بلاد الشام حتى وصل الى نهر الفرات حيث تقابل مع جيش حسن الطويل عند مدينة « البيرة » فانتصر عليه وتراجع حسن الطويل الى ما وراء نهر الفرات . وشرع يراسل دول الغرب وخاصة البندقية ، ليعاونوه فى حربه ضد سلطان مصر عن طريق الغارة البحرية على مصر ، ثم زاد على ذلك عرضه محاربة الدولة العثمانية فى ذات الوقت اذا ساعدته دول الغرب .

وعندما وصلت هذه الأنباء الى السلطان محمد الفاتح أرسل الى قايتباى يعرض استعداده للتعاون مع مصر للقضاء على حسن الطويل .

ولم تسفر جهود حسن الطويل مع دول الغرب الى اى نتيجة ، وادرك انه أصبح وحيدا فى الميدان ضد أكبر قوتين فى الشرق وهما مصر والدولة العثمانية فأرسل الى قايتباى يتقرب اليه ويعتذر عما وقع منه ، ويطلب منه العفو . . . فأجابه قايتباى الى ذلك .

١٤٧٥ م — ٨٨٠ هـ : انشاء منطقة الأزبكية :

فى هذه السنة شرع الأتابكى الأمير ازبك فى تعمير المنطقة التى سميت فيما بعد بالأزبكية نسبة اليه ، وكان قد بدأ بتعمير مناخ (١) لجماله فى هذه المنطقة فلم تلبث أن حسنت فى عينه « فبنى عدة قاعات جليلة ثم دورا ومقعدا ومبيتات وحواصل وغير ذلك . ثم أحضر أبقارا ومحاريث ، وجرف الكيمان « التلال » التى كانت هناك ومهدها ثم حفر بها بركة الأزبكية .

وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، ثم بنى حول البركة رصيفا .

وقيل أنه صرف على ذلك أكثر من مائتى الف دينار .

واقتدى بقية الأمراء ووجهاء الناس بالأتابكى ، فأنشأوا القصور الفاخرة والبيوت العامرة حول البركة ، وظلت عماراتها فى ازدياد ، بعد ان احبها الناس ورغبوا فى سكناها .

وقد انشأ بها الأمير ازبك جامعا كبيرا ، وانشأ حول الجامع الربوع والحمامات والقياصر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع وهكذا أصبحت الأزبكية مدينة عامرة .

وكان عند فتح سد هذه البركة تجتمع عنده الأمراء المقدمون بالقصر وتأتى الناس للفرجة أفواجا ، ويكون لها يوم مشهود . وكان يصنع فى كل سنة وقدة هائلة لم يسمع بمثلها ، وينفق بها فى تلك الليلة أموالا جمة بسبب الفرجة ويضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة وتكون ليلة حافلة (٢) .

---

(١) ظلت هــذه المنطقة حتى الثلاثينات تدعى باسم شارع المناخ اشارة الى هذا التاريخ الى ان ابدل هذا الاسم باسم عبد الخالق ثروت . وليس هناك ما هو أقبح من العدوان على الاسماء التاريخية التى تذكر بصفحات من تاريخ البلاد الى اسماء أشخاص ، اذا أريد تكريمهم فيجب أن تطبق أسماؤهم على شوارع أو منشئات جديدة .

(٢) أطلنا فى النقل عن أبى اياس فى وصفه لمنطقة الازبكية ، وقد ظلت الازبكية تتمتع — بشهرتها — كمنطقة للسرور والمباهج والمتعة حتى مطلع القرن العشرين — أما اليوم فلم يبق منها الا هذه الاشلاء من حديقة الازبكية .

١٤٧٦ م ــ ٨٨١ هـ : تفشي الطاعون :

تفشى الطاعون فى هذه السنة بالقاهرة ، وهو الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ووصل الطاعون الى ذروته فى شهر ذى القعدة ، فمات به عدد كبير من الأمراء وأعيان البلاد وكبرائها بما فى ذلك ابن الخليفة العباسى ، وبطريرك النصارى اليعاقبة . أما أفراد الشعب الفقــراء ، فقد كان الطاعون يفرى بهم فريا الى أن توقف من تلقاء نفسه .

١٤٧٧ م ــ ٨٨٢ هـ : انشاء حصن قايتباى :

كان قايتباى ككل ملك كبير عاكفا على الانشاء والتعمير ، وقد شملت عنايته ارجاء دولته كلها ، وحظيت منه الاسكندرية بنصيب كبير من الاهتمام بتحصينها ضد الغارات المحتملة ، فاقام حصنه المشهور الذى لا يزال باقيا حتى الآن كأثر خالد لهذا العهد من قوة المبانى وعظمة الانشاء ، وفن المعمار وذروته ــ وقد اقامها على أساس منارة الاسكندرية الشهيرة ــ التى كانت فى ذلك الوقت قد تخربت وقد أقام قايتباى فى الاسكندرية بمناسبة الانتهاء من بناء حصنه عدة أسابيع ، زار فيها المدن المحيطة بالاسكندرية وأصلح شئونها .

رحلة قايتباى الى الشام ووصوله الى نهر الفرات :

وفاجأ قايتباى أمراءه فى مصر والشام برحلة خاطفة الى الشام لم يصحب معه فيها سوى أربعين نفرا من الجند ، وذلك ليفتش أحوال القطر الشامى ، ووصل فى تجواله حتى مدينة حلب ، ثم وصل الى نهر الفرات وأقام عليه بضعة أيام . التجأ اليه خلالها محمد اعزلو ابن حسن الطويل ليعيش فى بلاطه .

وعاد قايتباى من هذه الرحلة الفذة فى تاريخ سلاطين المماليك بعد أن أمضى فيها أربعة أشهر .

١٤٧٨ م ــ ٨٨٣ هـ : وفاة حسن الطويل :

وفى شعبان من هذه السنة جاءت الأخبار بموت حسن الطويل ملك العراقيين وهكذا تخلص قايتباى من عدو طالما ارقه .

١٤٧٩ م ــ ٨٨٤ هـ : قايتباى يحج :

فى هذه السنة حج قايتباى ، وتصدق بألوف الدنانير على فقراء مكة واظهر

الخضوع والتواضع ، ثم قصد بعد الحج الى المدينة المنورة فانفق فيها من الأموال مثل ما انفق فى مكة .

ولا تزال آثاره فى حرم مكة والمدينة باقية حتى الآن .

وعندما عاد الى مصر كتب الى الأمراء أن لا يخرج أحد الى ملاقاته ..

١٤٨٠ م ــ ٨٨٥ هـ : مصرع الأمير يشبك الدوادار :

ارسل قايتباى الأمير يشبك الدوادار على رأس جيش لاخماد فتنة فى الشــام قام بها سيف أمير آل فضل الذى قتل نائب حماة واعلن العصيان . ولم يكد الأمير يشبك يصل الى حماة وحلب على رأس جيشه حتى راح سيف يفر من أمامه ، حتى انتهى به المطاف خارج حدود الدولة فى مدينة الرها ، ولكن الأمير يشبك ابى الا أن يتبعه ، فعبر هو وجنوده نهر الفرات وضرب الحصار على مدينة الرها .

وكانت تابعة ليعقوب بن حسن الطويل . وحاول أميرها بانبدر أن يفاوض يشبك على أساس ان يسلمه سيف شريطة أن يرفع الحصار عن المدينة ، ولكن يشبك أصر على فرض ارادته بالعنف ، فانتهى الأمر الى أن دارت الدائرة عليه ، وفر عنه أكثر عساكره : ووقع هو وعدة من أمراء جيشه أسرى .

« وقطع بانبدر رأسه » .

وكانت هذه لطمة شديدة أصابت قايتباى وقرر أن يخرج بنفسه آنفا لهجــوم محتمل قد يقوم به يعقوب بن حسن الطويل بعــد هــذا الانتصــار الذى لم يكن قد علم به .

ورأى أن يبعث بالأمر الى يزبك الأتابكى ، ليستقر فى حلب ويستعد للدفاع عنها ريثما يتم استعداده .

١٤٨١ م ــ ٨٨٦ هـ : وفاة السلطان محمد الفاتح :

فى الرابع من ربيع الأول من هذه السنة مات السلطان محمد الفاتح خان أعظم سلاطين آل عثمان لفتحه مدينة القسطنطينية وكان عمره يوم وفاته لا يتجاوز الثلاثة والخمسين سنة حكم منها واحــدا وثلاثين ســنة فتح خلالهــا اثنتى عشرة مملكة ومائتى مدينة وسلطنتين عظيمتين .

وولى السلطنة من بعده بايزيد الثانى .

وصول جم اخو السلطان بايزيد الى مصر :

وفى شعبان من هذه السنة وصل الى القاهرة الامير جم بن عثمان اخو السلطان العثمانى بايزيد لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباى ، واحاطه بعناية كبيرة نكاية فى أخيـه ، فكانت هذه الحركة سببا لافســاد العــلاقات بين مصر والدولة العثمانية .

قايتباى يجدد الحرم النبوى :

وفى رمضان من هذه السنة ، أصدر قايتباى أمره بتجديد بناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة ، واعاد بناء القبة الشريفة والمآذن ، منفقا فى ذلك مائة الف دينار بحيث أصبح المسجد النبوى تحفة معمارية .

١٤٨٢ م ــ ٨٨٧ هـ : هزيمة جم بن عثمان على يد اخيه :

لم يكن التجاء جم بن عثمان الى مصر ، الا ليستعين بقايتباى ضد اخيه ، وعلى الرغم من أن قايتباى بالغ فى كرمه فلم يدر فى خاطره أن يعـاونه بجيش ضد أخيه ، فلما يئس جم من هذه الناحية فكر فى مغادرة مصر ، وعبثا حاول قايتباى أن يثنيه عن حرب أخيه بالحيلولة بينه وبين مغادرة مصر ، حتى لقد قيل أن الأمير يزبك قد اشتد على الأمير جم لمنعه ولكن الامير اصر على مغادرة مصر ، فغادرها على كره من قايتباى على ما يقول ابن اياس ، فتوجه الى بلاد قرمان . فأرسل اليه بايزيد جيشا هزمه وأجبره على الفرار ، فركب سفينة فى البحر الأبيض ، فلم يلبث أن وقع فى أسر بعض الافرنج وأمضى ما بقى بعد ذلك من حياته فى ذل الأسر ، والاتجار به بين شتى الدول ، لاستخدامه فى مناوراتها السياسية ضد الدولة العثمانية ..

١٤٨٤ م ــ ٨٨٩ هـ : اصطدام الجيوش العثمانية بالجيوش المصرية :

لم يغفر السلطان بايزيد لقايتباى ايواء جم ، وتمكينه بعد ذلك من اشــهار السلاح فى وجهه ، ولم يصدق بايزيد الا أن قايتباى هو الذى ســهل لجم عملية الخروج من مصر لمحاربته .

ولذلك فقد انتهز فرصة تمرد على دولات أخى شاه سوار زعيم الشاه البيضاء على الدولة المصرية ، حتى أمده بالتشجيع والسلاح والجند العثمانى ، فتصدى لهم نائب حلب ، فدارت عليه الدائرة وقتل ، ولكن الأمراء المصريين استأنفوا المعركة فانهزم عسكر على دولات وحلفاؤه من العثمانيين .

وكانت هذه أول معركة مباشرة تدور بين جنود الدولة العثمانية والجنود المصرية والتى ظلت مستمرة حتى انتهت باحتلال العثمانيين لمصر كما سنرى .

وقد حاول قايتباى ، ان يصلح ما بينه وبين بايزيد ، فعمل على خطب وده ، وبعث اليه سفيرا عرف بالمهارة الدبلوماسية ، كما أرسل اليه تقليــدا من الخليفة العباسى يوليه كل ما تحت يده من بلاد ، وما قد يفتحه بعد ذلك ولكن هذه المحاولة كانت بغير جدوى .

وكان لا بد من اصطدام جديد حاسم يقع بين جيوش الدولتين .

١٤٨٦ م ــ ٨٩١ هـ : هزيمة العثمانيين أمام الجيش المصرى :

وقع الاصطدام المتوقع فى شهر صفر من هذه السنة حيث التقى جيش مصرى ضخم تحت قيادة الأمير يزبك اتابك العســكر المصرى ، مع جيش عثمانى فى أقصى الشمال فهزم الجيش العثمانى هزيمة ساحقة ، حتى قيل ان عدة من قتــل من العثمانيين يربو على اربعين ألفا ، وقبض على قائد الجيش العثمانى أحمد بن هرسك ، واستولى على الأعلام العثمانية واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير ، واقيمت الزينات وسارت المواكب التى استعرضت فيها الأعلام العثمانية وبعض رءوس القــادة التى ارسلت على سبيل البشارة .

وأخيرا سار الموكب الكبير عندما وصل الأتابكى يزبك ، وهو يقود أمامه الأسرى من أمراء الجيش العثمانى وسلاسل الحديد فى أعناقهم وعلى راسهم قائد الجيش العام أحمد بن هرسك .

١٤٨٦ م ــ ٨٩٢ هـ : استغاثة أمير غرناطة بقايتباى :

وبينما كان سلطان الاسلام قائما فى مصر يذود عن هذه الرقعة من العالم العربى والاسلامى ضد الافرنج ، وكان العثمانيون لا يزالون يقدمون حدود الاسلام فى أوربا نحو المغرب سنة بعد أخرى . وكانت آخر قلاع الاسلام فى الأندلس ممثلة فى دولة بنى الأحمر فى مدينة غرناطة فى النزع الاخير فأرسل أمير غرناطة استغاثة لقايتباى طالبا منه أن يمده بجنود لترفع الحصار عن غرناطة ، ولكن الشقة بين مصر والأندلس كانت جد بعيدة فحاول قايتباى ان يساعده باستعمال الضغط ضد مسيحى الشرق ، وبناء كنيسة القيامة . فهــدد اذا لم يرفع ملك اشبليه الحصار عن غرناطة فسوف يهدم الكنيسة ، ولكن ذلك التهديد كان بغير اثر .

١٤٨٧ م — ٨٩٢ هـ : انتصار الأمير يزبك الثانى على العثمانيين :

لم يكن النصر الذى أحرزته الجيوش المصرية على الجيوش العثمـانية حاسـما ولذلك فهم لم يتوقفوا عن معاودة الهجوم على حدود الشام الشمالية واستولوا على بعض القلاع المصرية ، كما أرسل بايزيد اسطولا فى البحر الأبيض ليحول دون وصول الجيش المصرى الى شمال الشام .

ولكن قايتباى تمكن من ارسال جيش ضخم انفق على تجهيزه ألف ألف دينـار وهو ما لم يسمع بمثله من قبل وجعل على راسه الأمير يزبك .

وفى الثامن من رمضان من هذه السنة ، دارت معركة كبيرة بين عسـكر مصر وعسكر أبن عثمان ، وانتهت بانتصار الجيش المصرى على الجيش العثمانى والأسطول العثمانى انتصارا حاسما .

ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد ، وازينت واقيمت بها احتفالات لم تشهد البلاد لها مثيلا من قبل طوال سبعة أيام .

وعندما وصل الأمير يزبك الى القاهرة ، سار فى موكب نصره عدد كبير من الجند العثمانيين الذين انحازوا الى جانب الجيش المصرى وآثروا أن يحضروا مختارين الى مصر ، فتألفت منهم كتيبة خاصـة بهم أطلق عليها منـذ ذلك الوقت الفرقة « العثمانية » .

١٤٨٨ م — ٨٩٤ هـ : قايتباى يخلع نفسه من السلطة :

ارهقت هذه الحملات المستمرة وما كان قايتباى يتكبده فى سبيل تجهيزها من مشقات ومعاناة ، وضغط على الشعب لتحصيل الأموال اللازمة لها ، أعصابه . وكان يضاعف فى ارهاقه فتن المماليك التى لم تكن تنتهى ، فلا يكادون يتهيـأون للخروج فى حملة الا ويطالبون بالمال ، وعندما يعودون منها منتصرين يطالبون بالمال الأكثر ، ويستغلون كل ما يعطى لهم ويهددون بالثورة والتمرد .

وكان قايتباى قد اصبح شيخا اثقلت السنون كاهله ، ولذلك فقد فاجأ الأمراء والمماليك بأن جمع الخليفة والقضاة والأمراء فى يوم السبت الرابع من ربيع الثانى من هذه السنة ثم قال لهم :

ان هؤلاء المماليك يرومون منى نفقة ، وقد نفد جميع ما كان فى الخزائن من المال على التجاريد ولم يبق فيها شىء من المال .

ثم أقسم بالله أنه أنفق على التجـاريد من حين ولى السـلطنة الى ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار .

ثم التفت صوب الأمراء وقال لهم : اختاروا من تسلطنونه غيرى واشهدوا أيها القضاة اننى خلعت نفسى .

ولكن القضاة والامراء رفضوا هـذه الاستقالة ، وخشى المتمردون من عواقب تمردهم وانتهى الأمر بمصالحة السلطان ورضـاء المماليك ببعض المال الذى كانوا يطالبون به .

وجدد الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء مبـايعة السلطان للاستقرار فى السلطنة .

١٤٩٠ م ــ ٨٩٦ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

وتفشى الطاعون فى مصر فى هذه السنة ابتداء من شهر جمادى الأولى . وهو أول طاعون يقع فى مصر منذ عام ٨٨١ هـ أى انه انقضى على مصر ستة عشر عاما نظيفة من الطاعون ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ويقول ابن اياس لتعليل سبب انتشار هذه الطواعين انه كان قد كثر بمصر : الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا أخذوا بالفناء » . .

١٤٩٢ م ــ ٨٩٨ هـ : عقد الصلح بين قايتباى وبايزيد :

استقر الرأى بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد على عقد صلح بين الملكين على أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التى استولى عليها الى مصر اشارة الى ردها الى ملكية مصر ، على أن يطلق قايتباى من عنده من الأسرى العثمانيين .

وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين .

اكتشاف امريكا :

وفى هذه السنة وصل كريستوف كولمبس الى ما تصور أنه الهند وذلك عن طريق السير اليها بالاتجاه فى المحيط الأطلسى غربا مثبتا بذلك كروية الأرض ومهيئا السبيل لاكتشاف هاتين القارتين اللتين سيطلق عليهما فيما بعد اسم ملاح من ملاحيه وهو امرجو ونعنى بهما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، أو ما أصبح يطلق عليه اسم العالم الجديد ، والذى لن يلبث ان ينقل مركز الثقل فى الحضارة والنشاط الانسانى ، من الشرق الأوسط الى غرب أوربا .

سقوط مدينة غرناطة فى الأندلس :

وفى يناير من هذه السنة الميلادية « ١٤٩٢ » صفيت آخر جيوب المقـــاومة الاسلامية فى مدينة غرناطة . فسقطت بأيدى الأسبانيين وهكذا طويت صفحة الاسلام فى اسبانيا والتى استمرت ثمانمائة سنة .

وقد صحب سقوط غرناطة قتل كل من لم يتنصر من المسلمين او يغادر البلاد نهائيا فجلت آخر بقايا المسلمين من شبه الجزيرة كما أجلى اليهود الذين عاشوا عصرهم الذهبى فى ظل الدولة الاســلامية حتى أن عدة من هاجر من اسبانيا بعـد سقوط دولة الاسلام بها ١٦٠ ألف يهودى .

١٤٩٥ م ــ ٩٠٠ هـ : استقالة الأمير يزبك من الأتابكية :

قام نزاع حاد بين مماليك السلطان الجلبان ، وبين الأمراء وعلى رأسهم الأمير يزبك وقد تعرضت حياة الأمير يزبك للخطر لولا حماية السلطان له .

فطلب الأمير يزبك من السلطان اعفاءه من الأتابكية والسماح له بأن يسافر الى مكة ليجاور بها فأذن له قايتباى .

١٤٩٦ م ــ ٩٠١ هـ : الاعتداء على السلطان :

وكان طبيعيا ، وقد وصل طغيان المماليك الجلبان الى حد الاطاحة بأعظم من شهدت مصر من الامراء ونعنى به الأمير يزبك ، ان يتطاولوا بعد ذلك على السلطان نفسه ولذلك فقد رموا مجلسه ببعض النشاب الذى كان يمكن أن يقتله لو لم يتصادف غيابه عن المجلس فى هذا اليوم . وقد ثقل هذا الحادث على السلطان ، فأمرضـه واشتعلت الحمى فى جسده ..

موت السلطان قايتباى :

فى يوم الأحد ســابع عشر من ذى القعدة توفى السلطان الملك الأشرف قايتبـاى المحمودى الظاهرى وكان عمره يوم مات ستا وثمانين سنة ومدة سلطنته على مصر والشام والحرمين تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يوما .

يقول ابن اياس : وقد عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى أن صار سلطانا ، وما نفى قط ولا سجن ولا تقيد وكان عليه سكينة ووقار . كفؤا للسلطنة وافر العقل سديد الرأى . عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأمور فى مكانها ، ولم يكن عجولا فى الأمور . وكان تقيا لم يشرب الخمر قط ، ولا الأشياء المخدرة ، وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله اذكار واوراد جليلة

تتلى حتى الآن فى الجوامع ، وكان معظم العلماء عارفا بمقام الناس ، وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف .

عماراته ومنشئاته :

وقايتباى ثالث ثلاثة ، بالغوا فى البناء والانشاء والتعمير ، وأولهم الظاهر بيبرس وثانيهم قلاوون ، وثالثهم قايتباى ، وقد لخص أمين باشا سامى هذه المنشآت على الوجه التالى :

وقد أنشأ فى حكمه من المبانى الفاخرة أشياء كثيرة منها مدرسة بثغر دميـــاط ومدرسة بثغر الاسكندرية والبرج العظيم الذى أنشأه مكان الفنار القديم والبرج الذى بثغر رشيد وأما ما أنشأه بمصر فهو الجامع الذى بالصحراء مكان تربته وجامع بالروضة وجامع براس الكبش وجامع بباب الخزن عند الشيخ سلطان شاه والسبيل والمكتب اللذان بقرب تحت الربع وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدد عمارة قبة الامام الشافعى ، وانشأ مدرسة بالخانقاة ، وانشأ غير ذلك عدة زوايا واسـبلة ومدارس وجوامع وصهاريج وربوع فى مواضع متفرقة وجعل لها أوقافا ، وجدد عمارة قناطر ابو النجا والقناطر التى بشبرامنت وأنشأ هناك رصيفا وحصل بتمامه فى أيام النيل للمسافرين وجدد عمارة قنطرة باب البحر والميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية ، وجدد مقام سيدى احمد البدوى ، وأنشأ عدة ربوع بالخشابين والجامع الازهر وانشأ اماكن كثيرة حصل منها النفع العام للمسلمين .

ولم يذكر امين سامى فى هذا التلخيص ، ما أنشأه قايتباى فى مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وغيرها من مدارس وجوامع وسبل .

رخص الأسعار فى سنة وفاته :

وكأن السنة التى مات فيها قايتباى ارادت أن تخلد عصره الذهبى فقد بلغت الأسعار حدا من الرخص لم يسبق له مثيـــل ، فكان كل خمسة أرادب من القمح بدينـــــار .

سلطنة الملك الناصر أبو السعادات :

بويع بالسلطنة يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة ، بعد خلع ابيه قايتباى الذى كان يحتضر فى هذا اليوم ، ولقب بالناصر وكنى بأبى السعادات ، وكان عمره يوم ولى السلطنة أربع عشرة سنة وعدة أشهر .

يقول ابن اياس : ولو كان قايتباى واعيا لما يجرى حوله لما قبل بسلطنته فلم يكن هذا قصده .

وفى اليوم التالى لتولى الناصر ابو السعادات السلطنة توفى قايتباى ودفن يوم الاثنين فى احتفال مهيب .

وتعين الأمير قنصوه أتابكا للعسكر .

١٤٩٧ م - ٩٠٢ هـ : خلع الناصر ابو السعادات :

قام الأتابكى قنصوه بالفتنة المعتادة ليخلع السلطان الصبى ، ويجلس هو على اريكة الملك . فجمع الخليفة والقضاة الأربعة فى يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأولى على باب السلسلة وطلب منهم خلع السلطان الناصر أبو السعادات ، ومبايعته على السلطنة فأجابوه الى ما طلب وبويع قنصوه بالسلطنة وتلقب بالأشرف أبى النصر .

عودة السلطان الأشرف ابو السعادات :

ولكن مماليك السلطان المقيمين فى القلعة ، تعصبوا للسلطان وحاربوا عنه ، وجرت المعارك حامية الوطيس : انتهت بهزيمة قنصوه وفر هاربا نحو الشام .

وفى يوم السبت أول جمادى الثانى طلع الخليفة الى القلعة وفى معيته القضاة الأربعة ، واعادوا بيعة السلطان وبلوغه رشده وحقه الكامل فى التصرف فى كل شئون المملكة .

وطالب المماليك بتغيير لقب السلطان من الناصر الى الأشرف .

ولم تلبث الأخبار أن جاءت من الشام ، بانتصار الأمير اقبردى الداودار على قنصوه ووصلت رأسه المقطوعة ورءوس من معه من الأمراء وطيف بها فى شوارع القاهرة .

سوء سلوك السلطان الأشرف :

وكان أثر هذا الانتصار على السلطان الأشرف سيئا اذ انه انكب على شهواته وملذاته ، حتى وصل الأمر به الى أن امتنع عن مقابلة الخليفة والقضاة والأمراء ، عندما طلعوا الى القلعة ليهنئوه بعيد الفطر وذلك لانهماكه فى العاب الطيش .

وأصبح من الاعيبه التى فتن بها ، أن تعلم كيف يعدم بيديه بعض المنكودين من المحابيس ، وكيف يقطع أيديهم وآذانهم والسنتهم . وكان لذلك أثره السيىء فى نفوس أمراء المماليك ، فأعلن اقبردى الداودار عدم رضائه عن تصرفات السلطان وآثر أن تكون السلطنة بيده ، فقام صراع بين حزب السلطان من المماليك وبين اقبردى الداودار ، وانتهى الصراع بغلبة السلطان وهزيمة اقبردى الداودار ونهب دوره ودور من سانده من الأمراء ولكن اقبردى نجح فى الهرب الى الشام .

١٤٩٨ م - ٩٠٣ هـ : عودة الأمير يزبك للأتابكية :

ورأى أمراء المماليك ان يعيدوا الى الأتابكية الأمير يزبك الذى كان مقيما فى مكة عساه أن يتمكن من اصلاح الأحوال .

فوصل الى مصر فى ربيع الاول من هذه السنة .

البرتغاليون يكتشفون طريق رأس الرجاء الصالح :

فى رمضان من هذه السنة الموافق شهر ابريل ، توصل فاسكودى جاما على رأس مركب برتغالى لأول مرة من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، دائرا بذلك حول افريقيا وواصلا الى الهند عن طريق بحرى متصل من غرب أوربا اليها ، مبتدئا بذلك ما يعتبر انقلابا فى التجارة العالمية ، والتفاف الصليبيين حول العالم الاسلامى لطعنه من الخلف ، ولم يلبث الشرق الاسلامى وخاصة مصر أن أحس بآثار هذا الانقلاب فى طرق التجارة .

١٤٩٩ م ـ ٩٠٤ هـ : قتل السلطان الأشرف أبى السعادات :

تزايدت شرور السلطان الاشرف ، وبدأ يصدر مراسيم جنونية اشبه بما كان يصدره الحاكم بأمر الله وتفشى الطاعون فى مصر ، وهكذا تحالفت شرور السلطان وفتن المماليك وضراوة الوباء على الشعب .

فقرر بعض المماليك ان يتخلصوا من السلطان فكمنوا له يوم الاربعاء خامس عشر من ربيع الأول وكان مقيما فى البر الغربى للنيل عند الطالبية ، يلهو ويعربد ويسكر بين جوقات المغنين ، وأصحاب ملاعيب خيـــال الظل ، وظفر به المتآمرون وقتـــلوه شر قتلة .

وكان سنه يوم قتل سبعة عشر عاما ، حكم فيها سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما وكانت أيامه كلها فتن وشرور وحروب مستمرة .

سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد قنصوه :

هو الملك الظاهر أبو ســعيد قنصوه بن قنصوه الأشرفى وهو جركسى الأصـــل . وقد اعتقه السلطان قايتباى عندما اكتشف انه شقيق لجاريته أم ولده « محمد الذى اصبح سلطانا » .

وفى عهد السلطان محمد جعله خازندارا كبيرا واصبح ينادى بخال السلطان فلما ان قتل السلطان تشاور الأمراء فيمن يولونه السلطنة ، فعرضوها على الأمير يزبك ، فأبى بشدة بل وحلف بالطلاق ثلاثا أن لا يلى السلطنة ، وطلب ان يعود الى مكة . فتحول الأمراء عنه الى قنصوه خال السلطان ، وتمت البيعــة له فى ذات اليوم الذى قتل فيه السلطان السابق أى يوم الاربعاء الخامس عشر من ربيع الأول ولقب بالملك الظاهر أبى سعيد .

وفاة الأمير يزبك :

وفى يوم الأربعاء عشرين رمضان ، مات الاتابك الامير يزبك بن ططح عن خمس وثمانين سنة ، ولعل تاريخ المماليك لم يرزق بشخصية مثل شخصيــة الأمير يزبك

الذى تعفف عن السلطنة مع أنه كان كفؤا لها ، بل لعله لو ولى السلطنة لكان اعظم من عرفهم تاريخ المماليك سواء فى دنيا الحرب والقتال ، أو دنيا الانشاء والتعمير ، وليس أدل على أن شخصية الرجل العظيم تبقى أبدا ، من أنه ظل طوال قرابة أربعة قرون ونصف واسمه لا يفتأ يتردد على الألسنة ، وهى تتحدث قديما عن بركة الأزبكية ثم عن حى الأزبكية ، وحديقة الأزبكية ، وهى تتحدث اليوم عن سور الأزبكية حيث تعرض الكتب والمعارف .

١٥٠٠ م ـ ٩٠٥ هـ : خلع السلطان الظاهر :

تمرد الأمير طومان باى الداودار على السلطان ، وظاهره جان بلاط **الاتابكى فتمت** لهم الغلبة على السلطان الذى اختفى نجاة بنفسه من الموت ، **فخلع من السلطنة فى** آخر ذى القعدة بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما كانت خير فى مجموعها بالنسبة لحكم من سبقه .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط :

فى يوم الاثنين الثانى من ذى الحجة بويع بالسلطنة **الاتابكى جان بلاط وأصله** كبقية السلاطين مملوكا شركسيا ، اشتراه أحد الأمراء وقدمه لقايتباى **فأعتقه** وصار يتدرج فى المناصب حتى أصبح أتابكا .

وكانت مبايعته بسعى طومان باى على كره من الأمراء والعسكر لجفوته وغلاظته .

١٥٠١ م ـ ٩٠٦ هـ : خلع السلطان جان بلاط وتولية طوماى باى :

ولم تمض بضعة شهور على تولية جان بلاط ، حتى كان طومان **باى يحقق ما خططه** لنفسه من تولية السلطة فانتهز فرصة خروجه على راس **جيش الى بلاد الشام** للقضاء على فتنة اثارها نائب الشام قصرده واتفق **مع هذا الأخير ان يتولى** طومان باى السلطنة ، فنودى به سلطانا على مصر والشام **بدون مبايعة من الخليفة** والقضاة الأربعة ولقب بالملك العادل ابى النصر ، وعين قصرده **نائب الشام اتابكيا ،** وقنصوه الغورى داودارا كبيرا واستادارا وزيرا ، ثم زحف على رأس الجيش الذى خرج به من مصر وقد تضاعفت قوته بمن انضم اليه من امراء وأجناد الشام ، **فدخل** القاهرة فى يوم السبت ١١ جمادى الآخرة ، وحاصر القلعة ، **وبعد معارك بينه وبين** أنصار جان بلاط ملك القلعة وقبض على جان بلاط .

وذلك فى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الثانى ، وتم بذلك خلع جان بلاط بعد أن حكم ستة أشهر وثمانية عشر يوما .

سلطنة الملك العادل طومان باى :

عندما تخلص طومان باى من جان بلاط بالقبض عليه واعتقاله استدعى الخليفة

العباسى أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة فقرروا بطريقة شرعية خلع الاشرف جان بلاط ومبايعة طومان باى على السلطنة .

وعين طومان باى حليفه قصروه نائب الشام اتابكيا .

قتل قصروه :

على انه لم تمض بضعة أيام على تولى طومان باى السلطنة وصديقه وحليفه الأتابكية وبينما جلس الاثنان للمسامرة فى القلعة اذ قال طومان باى لقصروه :

قلبى خايف منك يا أمير كثير . وبعد ان صلى معه العشاء أصدر أمره بالقبض عليه . وبعد أيام قليلة كان قد تخلص منه بالخنق ، فنفرت القلوب من طومان باى لهذه الفعلة .

ولم يلبث أن تابعها باصدار امره بقتل السلطان المخلوع جان بلاط والذى كان قد سيق الى سجن الاسكندرية فقتل خنقا .

خلع السلطان العادل طومان باى :

وادت هذه الأعمال الغادرة ، وان كانت ليست جديدة على نظام الحكم المملوكى الى تألب الأمراء على طومان باى ، فأعلنوا عليه الحرب ، وانفض من حوله امراؤه واجناده .

فنزل من القلعة فى ليلة عيد الفطر ، واختفى عن الأنظار وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

١٥٠١ م — ٩٠٦ هـ : سلطنة الملك الأشرف قنصوه الغورى :

فى أول شوال من هذه السنة بويع بالسلطنة الملك الأشرف ابو النصر قنصوه الغورى . بعد أن تردد وتمنع ، حتى لقد سيق اليها سوقا . ولأول مرة فى تاريخ المماليك راح الأمراء يتهربون من هذا المنصب . الذى انتهى بأصحابه فى السنوات الأخيرة الى الذبح او الخنق وقد استقر رأى الأمراء على تولية الغورى باعتباره لين العريكة سهل الارادة فى اى وقت عندما يستقرون على رأى . وسرعان ما سوف تظهر الحوادث خطأ تقديرهم ، فقد اثبت الغورى انه أحد سلاطين المماليك العظام ، وان جاءت نهاية الدولة على يده .

ولا جديد فى تاريخ الغورى يختلف عن أى ممن سبقه من السلاطين ، فهو احد المماليك الجراكسة الذين جلبوا من بلاد الجركس ليباعوا فى مصر فاشتراه السلطان قايتباى وأسكنه كبقية زملائه فى الطباق بالقلعة ، ثم لما انس منه نجابة وتفوقا ، أعتقه ، ومنحه المنحة المألوفة فى مثل هذه الأحوال من مال وقماش وخيل ، وجعله من جملة مماليكه الجمدارية الذين يعاونونه على لبس ملابسه ، ثم رقاه الى المماليك

الخاصكية ، ثم جعله كاشفا للوجه القبلى ، فامير عشرة ، وفى زمن السلطان محمد بن قايتباى رقى الى امير مائة ومقدم الف ، وكان ممن سافروا فى صحبة الأمير طومان باى لما خرج لمحاربة قصروه نائب الشام .

ولما تسلطن طومان باى ، عينه فى المناصب التى كان يحتلهـا وهى الداودارية الكبرى والوزارة والاستدارية .

وكان الذى تحمس لتعيينه بعد اختفاء العادل طومان باى هو أمير السلاح قيت الرجبى والأمير مصرباى . فدعى الخليفة المستمسك بالله يعقوب . والقضاة الأربعة فخلعوا العادل وأبرموا البيعة لقنصوه الغورى فى يوم الاثنين أول شوال ولقبوه بالملك الأشرف ، وكان عمره يوم تسـلطن قـد جاوز الستين عاما وتعـين قيت الرجبى اتابكا للعسكر .

مصرع طومان باى :

وكان أول شاغل للغورى بعد توليه السلطة ، هو العثور على طومان باى المختفى والتخلص منه ، وقد تحقق له ذلك فقبض على طومان باى واعدم .

١٥٠٢ م ـ ٩٠٧هـ : فتنة المماليك بسبب نفقة البيعة :

واجه الغورى منذ تقلد زمام السلطة ، مشكلة المماليك وميلهم المستمر للفتنة ، خاصة بعد أن عجز عن أن يدفع ما اعتادوا أن يتقاضوه لدى ولاية أى سلطان جديد مما كان يطلق عليه اسم نفقة البيعة ، فقد اعتذر لهم الغورى فى الأيام الأولى ، واعتذر لهم بخلو الخزانة من الأموال ، واستمهلهم بعض الوقت ، فلما مضت الشهور دون أن يحصلوا عليها ، نزلوا الى الشوارع وهاجموا البيوت والمتاجر ونهبوا ما فيهـا ولم تتوقف الفتنة الا بعد أن وعدهم الغورى من جديد وعدا محددا أن يفى لهم بالنفقة فى وقت قريب .

فرض ضريبة ظالمة على التجار والملاك :

واتجه رأى الغورى وعصبة من المماليك أن يستولى على أوقاف الجوامع والمدارس لتعينه على أداء هذه النفقة ولكن قضـاة الشريعة ، وقفوا فى وجهه وقفة حازمة ، موضحين له أن الاستيلاء على الأوقاف اهدار للشريعة لا يمكن أن يفتوا به ، فغضب الغورى على القضاة ، ولكن ذلك لم يجعلهم يغيروا موقفهم .

واخيرا رأى عـدم المساس بأعيـان الوقف على أن يؤخذ منها ريع سـنة كاملة معجلا ، وعلى أن يؤخذ من أملاك القاهرة وغيرها أجرة عشرة شهور كاملة معجلة .

واذا كان المماليك الجلبان يضغطون فى المطالبة بنفقتهم ، والسلطان يضغط على الأمراء لتحصيل ما تم الاتفاق عليه ، فقد لجأ الأمراء الى الشدة والتعسف لتحصيل المبلغ المطـلوب فاستاءت جمـاهير الشـعب لهذا الاجحاف وتجلى ذلك فى أن بعض

الجوامع أغلقت أبوابها ، وتوقف الناس عن صلاة الجمعة وأخيرا انتهى الأمر فى الثامن من شهر المحرم من هذه السنة الى صورة من صور الانفجار الشــعبى ، اذ رجمت الجماهير الاتابكى قيت الرجبى أثناء سيره فى موكبه فأصيب هو ومن معه من الامراء. ولم تهدأ الخواطر الا بعد أن خفض المطلوب من عشرة أشهر الى سبعة أشهر فقط .

خروج الجازانى ابن أمير مكة عن الطاعة :

خرج الجازانى ابن أمير مكة عن طاعة ســلطان مصر ، وشرع يهــاجم الحجاج ويعتدى على الرجال والنساء . وينهب ما ينهب ويقتل ما يقتل ، ولم يلبث أن اشتد ساعده بمن انضم اليه من قبائل الأعراب ، ثم يحيى بن سبع أمير ينبع ، فهجم على مدينة مكة واستولى عليها ونهب سكانها .

فأرسل الغورى فى هــذه السنة حملة من ستمائة مقاتل وعلى رأسهم الأتابكى قيت الرجبى ، فاستطاعوا أن يهزموا الجازانى الذى فر هاربا ، ثم لم يلبث أن سقط فى الأسر فقتل وقطعت رأسه وأرسلت الى مصر ، ولكن حليفه يحيى بن سبع ظل على تمرده ، واستمر يقطع على الحجاج طريقهم وينهب قوافلهم .

١٥٠٥ م ــ ٩١٠ هـ : انشاء البستان العظيم وقبة الغورى :

منذ ولى الغورى السلطنة ، وعلى الرغم من المشاغل والفتن التى جوبه بها منذ يومه الأول ، فقد أبدى اهتماما شديدا بالبناء والتعمير ، فكان أول ما قام به من أعمال فى هذا الصدد ان أمر باعادة تخطيط ميدان القلعة فارتفع بناء الأسوار المحيطة به ؛ وغطى أرضه بطمى كثيف ، وأنشأ فى الجهة الغربية من الميدان قصرا وبحيرة جلبت اليها المياه بواسطة السواقى والقناطر المعلقة من النيل وأنشأ بستانا عظيما حمل اليه من الشام أنواعا عدة من الزهور والرياحين ومختلف الثمار .

ولما كانت عادة السلاطين أن يستعملوا لجلوسهم اذا جلسوا مجلس القضاة دكة خشبية فقد رفع هذه الدكة الخشبية واتخذ لجلوسه مقعدا مبنيا ، فلم تتفاءل الناس بهذه الخطوة على ما يقول ابن اياس .

وصارت مواكب الغورى ومجالسه واحتفالاته واستقبالاته تتم فى هذا الميدان .

ونقل اهتمامه بعد ذلك الى قصور القلعة ومبانيها ، فجود بناءها وزخــرف قاعته اليسرية وقاعة العواميد ، ولجأ فى سبيل تزيين هذه القاعات أجمل زينــة الى اغتصاب ما كان فى بيوت الأمراء من رخام تفنن الصناع فى نقشه .

وكان قد أصدر أمره ببناء مدرسة وجامع بالشرابشية ثم أنشأ لنفسه مدفنا وقد كان فوقه قبة ، لا تزال قائمة حتى اليــوم تحمل اسمه باعتبارها أحــد معالم القاهرة ، بل لا يزال شارع الغورية المحيط بهذه القبة يذكر بالأثر الكبير الذى أحدثه باقامة هذه المنشئات .

وفى هذه السنة افتتح الغورى مدرسته وجامعه وقبته ، بعد أن حمل الى المدرسة المصحف العثمانى وبعض الآثار النبوية التى كانت موزعة على بعض المساجد .

تفشى الطاعون واظهار السلطان للعدل :

وفى شوال من هذه السنة ، ازداد تفشى الطاعون الذى كان قد بدأ من شهر رمضان ، وبلغت ضحاياه أربعة آلاف جنازة فى اليوم الواحد ، فأظهر السلطان الغورى ميلا الى العدل والورع تقربا الى الله ليرفع الوباء ، فنادى بابطال بعض الضرائب ، ودعا الناس الى الاقلاع عن المعاصى والذنوب .

يقول ابن اياس :

ولكن الطاعون لم يكد يرتفع حتى أعاد الغورى الضرائب والمكوس بأسوأ مما كانت عليه .

١٥٠٥ م — ٩١١ هـ : الغورى يدفع المخاطر عن دولته :

كان الغورى بطبيعته ممن يميلون الى السلام ، ويفضلون حياة البناء والانشاء والتعمير ، ولكنه فى ذلك الوقت كان يقدر واجبه فى الذود عن حياض الدولة ، فتراه فى هذه السنة ، يجهز تجاريد لجهات مختلفة من الدولة .

احداها للحجاز للقضاء على فتنة يحيى بن سبع التى كانت لا تزال مستمرة — تهدد الحجاج ، وحملة ثانية الى بلاد الشام . القضاء على فتنة أهاجها العرب .

على أن الحملة الثالثة هى التى تكشف عن بصيرة الغورى وادراكه الخطر الجديد الزاحف على دولته والعالم الاسلامى ، وهو خطر البرتغاليين الذين وصلت سفنهم الى ساحل ملبار الهندى ، وبدأوا يهددون التجارة الهندية والشرقية المارة عبر مصر ولذلك فقد جهز السلطان الغورى أسطولا بحريا لطرد المراكب البرتغالية من مياه المحيط الهندى والخليج العربى وكان بصحبة الاسطول المصرى عدد كبير من البنائين والنجارين والصناع من مختلف الحرف ، ليقوموا بانشاء التحصينات اللازمة فى الاماكن والموانى التى أصبحت مهددة ، وجعل على رأس هذه الحملة الأمير حسين الكردى وقد قصدت هذه الحملة مدينة جدة أول ما قصدت ، وشرع الامير حسين فى تحصينها ، وبناء سور يحيط بها .

توقف المحمل عن السفر الى الحجاز :

وفى هذه السنة على ما يقول ابن اياس ، أصدر السلطان أمره بعدم سفر المحمل على جارى العادة ، وعدم سفر الحجاج الى بيت الله الحرام ، نظرا لفتنة يحيى بن سبع الذى كان يقطع الطريق ويقتل الحجاج وينهبهم .

وقد كان منع المحمل من السفر وايقاف الحج حدثا لم تشهد البلاد مثيلا له من قبل فى كل تاريخ المماليك ، الذى كان يعتبر سفر المحمل كل عام وما يصحب ذلك من احتفالات عند الذهاب وعند الاياب من أهم معالم دولتها ، وآية عزها ، ومظهر مجد سلطانها .

على ان الغورى قرر وضع حد لفتنة يحيى بن سبع ، فأرسل جيشا استطاع أن يهزم المتمردين ، وأن يبدد شملهم ، ويفتك بالأكثرية منهم ، بحيث استتب الامن من جديد وأعيد فتح طريق الحج ، وان كان يحيى بن سبع نفسه ظل حيا .

وفاة العلامة جلال الدين السيوطى :

وفى يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى ، خبا نور الحافظ العلامة جلال الدين السيوطى خاتمة العلماء الأفذاذ الذين انجبتهم مصر فى هذه الحقبة من تاريخها .

يقول عنه ابن اياس :

وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، وكان كثير الاطلاع نادرة فى عصره بقية السلف ، وعمدة الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة تأليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل ، وكان عمره يوم وفاته اثنتين وستين سنة واشهر .

١٥٠٧ م — ٩١٣ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد الدولة المصرية :

تفاقم فى هذه السنة هذا الخطر الجديد الوافد من بلاد فارس ، فقد كان من يدعى الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح اخيرا فى تأسيس دولة بلاد فارس وهى الدولة الصفوية نسبة الى جده صفى الدين .

وكان الشاه اسماعيل شيعيا متطرفا سيطر على بلاد فارس ثم بدات أطماعه تتسع ففكر فى الاغارة على الدولتين السنيتين المجاورتين لفارس ، وهما الدولة المصرية المملوكية ، والدولة العثمانية فى آسيا الصغرى .

وفى هذه السنة زحفت جيوش الشاه اسماعيل على مدينة ملطية احدى النيابات المصرية ، فلم تكد الأخبار تصل الى الغورى حتى أسرع الى اعداد جيش لمواجهة الصفوى ، ولكن على دولات أمير التركمان التابع لمصر ، تصدى لجيش اسماعيل الصفوى فهزمه هزيمة منكرة وارتد جيشه مدحورا ... وأرسل على دولات بعض رءوس القتلى الى القاهرة مع أنباء النصر .

ولم يلبث اسماعيل الصفوى بعد قليل ان بعث الى مصر بقاص من لدنه يعتذر عما وقع من جنوده ويؤكد للسلطان الغورى أن ما حدث كان بغير علمه ، فتقبل الغورى هذا الاعتذار واكرم وفادة سفير الصفوى وأعاده الى بلاده معززا مكرما .

١٥٠٨ م – ٩١٤ هـ : هزيمة مدينة العقبة :

أصدر السلطان أمره فى هذه السنة الى خايربك المعمار أن يتوجه الى مدينة العقبة « عقبة ايلة » وأن يصطحب معه جماعة من البنائين والمهندسين ، لبناء مستودع للماء وفندق عظيم لنزول الحجاج وراحتهم ، وأن ينشىء مخازن لايداع الودائع ورصيفا لرسو السفن ، وأن يقيم بروجا وقلاعا للدفاع عن المدينة ، كما أمر باصلاح طريق العقبة الذاهب الى المدينة واقامة بروج وحفر الآبار على طول الطريق ليشرب منها الحجاج .

انتصار حسين الكردى على البرتغاليين :

وفى هذه السنة وقعت أول واقعة بحرية بين أسطول مصر وأسطول البرتغال فى المحيط الهندى ، فكان النصر حليف أسطول مصر ، وغنم حسين الكردى من البرتغاليين غنائم كثيرة ، وتزينت القاهرة لانباء هذا النصر ، وظلت الموسيقات « الكوسات » تدق ثلاثة أيام متوالية .

وبعث الامير حسين الكردى يطلب عسكرا جديدا وسفنا حربية ليواصل حربه ضد البرتغاليين ، فلم يتأخر الغورى عن ارسال المدد المذكور ، واستعرض فى النيل ست من السفن الحربية التى كان يطلق عليها اسم « اغرته » ليبعث بها الى الكردى فكان يوم عرضها كما يقول ابن اياس من الأيام التى ارتجت لها القاهرة .

١٥٠٩ م – ٩١٥ هـ : هزيمة الأسطول المصرى :

على أن البرتغاليين فيما يبدو استفادوا من الدرس الذى تلقوه فى هزيمتهم الأولى ، فعادوا بأسطول أضخم وأكبر تحت قيادة من يدعى فرنسسكو والميدا ، وتربصوا بالأسطول المصرى فهزموه هزيمة منكرة ، وقتلوا الكثير ممن كان فى مراكب الأسطول من جند وبحارة وغنموا غالبية السفن ولكن الامير حسين الكردى استطاع أن ينجو بنفسه على احدى السفن .

ويمكن أن تعتبر هذه المعركة البحرية احدى المعارك الفاصلة بين الشرق والغرب فى بحار الشرق . فمنذ هذا التاريخ بدأت غلبة البرتغاليين فالانجليز والفرنسيين والهولانديين من بعدهم على بحار الشرق ثم الشرق نفسه .

ابن اياس المؤرخ والغورى :

ويحدثنا ابن اياس المؤرخ المعاصر للغورى بواقعة جرت بينه وبين الغورى فى هذه السنة ، حيث كان قد حرمه من اقطاعه ، بناء على بعض الدسائس والوشايات ، فوقف ابن اياس فى طريق الغورى وقدم له عريضة تظلم فيها مما حل به فانصفه الغورى ورد له اقطاعه ، وجبر بخاطره حتى نظم فى مدحه قصيدة طويلة اثبتها فى تاريخه ، كسائر القصائد التى نظمها فى سائر المناسبات فى عصر الغورى .

روعة بستان الغورى :

ويصف لنا ابن اياس فى حوادث هـذه السنة مدى ما وصـل اليـه ازدهار بستان الغورى الذى أنشاه فى ميدان القلعة ، مما نقـله بنصه اذ يصور لنا جانبا من حياة الغورى .

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت الوانا من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسن وغير ذلك من الأزهار العربية ولقد عاينت به وردا أبيض زكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام .

وكان السلطان له دكة مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعدا مخملا ويجلس عليه ، تظله فروع الياسمين ، وتقف حوله المماليك والحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ومعلق فى الأشجار أقفاص بها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وجحل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة يجلس على البحيرة التى طولها اربعون ذراعا وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه أحد من الأمراء الا من يختاره .

١٥١٠ م ـ ٩١٦ هـ : فتنة المماليك الجلبان :

عاد المماليك الجلبان المقيمون فى القلعة الى تمردهم فى مطلع هذا العام ، ورشقوا المارين فى الطرقات بالحجارة وطالبوا السلطان بأن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار .

وامتنع السلطان عن اجابتهم الى مطلبهم وهدد بخلع نفسه ، ولكن هذا التهديد أحدث أثرا عكسيا ، فقد زادت ثورة المماليك الجلبان ، ونزلوا من الطباق فى القلعة الى الشوارع ونهبوا الدكاكين الكائنة فى سوق جامع ابن طولون ، ثم دكاكين الصليبية، ثم تحت الربع حتى كادت مصر تخرب على ما يقول ابن اياس فى هذا اليوم .

واستمر الحال على هذه الصـفة من النهب والسلب ، وقد ملت الجماهير فى اليوم التالى . وفى اليوم الثالث من ايام هذه الفتنة قصد المماليك الى دولات أمير السلاح وارادوا أن يسلطنوه بدلا من الغورى ، ولكنه فر منهم ولجأ الى السلطان فى القلعة .

ثم بلغ المماليك أن الأمراء قد تجمعوا لينقضوا عليهم ويمسكوا بهم . فدب الفشل الى صفوفهم ، وتسللوا عائدين الى الطباق فى القلعة .

وقد قدر ما نهب من الدكاكين بخمسمائة وتسعين دكانا وقدرت قيمة ما نهب بعشرين الف دينار ذهبت على أصحابها هدرا دون أن يجدوا لهم منصفا .

ملوك الهند يستغيثون بالغورى :

وفى صفر من هذه السنة تلقى الغورى رسالة من ملوك الهند يحذرونه من أطماع البرتغال فى امتلاك شواطىء الهند بعد أن احتلوا منطقة جوا وجعلوها قلعة لهم (١) . ويطلبون منه المبادرة بارسال جيش وأسطول لردع البرتغاليين ، ولكن الأحداث كانت تتوالى فى سرعة حالت بين الغورى وبين عمل شىء لاتقاء هذا الخطر .

اسماعيل الصفوى يتآمر مع الفرنج ضد مصر :

وكان أخطر ما توافد على الغورى من أخبار ، ما ذكره نائب مدينة البيرة (على الفرات) من انه قبض على جماعة من طرف اسماعيل الصفوى شاه العجم ، ومعهم كتب الى بعض ملوك الفرنج يطلب منهم فيها أن يتحالفوا معه على سلطان مصر . فيتجهون لغزوه بحرا فى الوقت الذى يشن عليه هجوما من البر ، وقد أرسل النائب المقبوض عليهم الى الغورى .

وكان قد سبق ذلك غارة بعض السفن على سفن مصرية ونهب ما كان فيها واسر رجالها الأمر الذى جعل الغورى يأمر باغلاق كنيسة القيامة كرد على هذه الغارة ، فلما أن وصل الى سمعه هذه المؤامرة الجديدة غضب الغورى لذلك أشد الغضب ، وأصدر امره بالقبض على قناصل الافرنج فى الاسكندرية وطرابلس ، وهددهم بالشنق وأسلمهم للتحقيق والاعتقال ... وقد حاول قنصل فرنسا أن يترضى الغورى بأن وعد بالسعى لرد السفن المنهوبة واطلاق سراح من كانوا فيها من الأسرى .

١٥١١ م – ٩١٧ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد ويندد بالغورى :

على أن هذه الأخبار عندما وصلت الى مسامع اسماعيل الصفوى لم يزده ذلك الا امعانا فى التحرش والتحدى فأرسل الى مصر وفدا يحمل رأس ازبك ملك التتار اشعارا بما وصل اليه من القوة ، وتهديدا من طرف خفى أن يكون ذلك مصير الغورى .

ويقول المؤرخون انه بعث مع هذه الرأس ببيتين من الشعر – يعرض فيهما بما أشتهر عن الغورى بولعه بالزهور وغرس البساتين :

السيف والخنجر ريحاننا	أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا	وكأسنا جمجمة الرأس

وقد اورد ابن اياس فى تاريخه عشرات الأبيات التى نظمها شعراء مصر فى الرد على الصفوى ولكن الغورى لم يستحسن من كل ما قيل الا بيتين لصفى الدين الحلى :

ولى فرس للخير بالخير ملجم	ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوم	ومن رام تعويجى فانى معوج

---

(١) ظل البرتغاليون يتشبثون بهذا الموقع حتى بعد استقلال الهند وزوال الاستعمار .

السلطان سليم يخلع والده بايزيد :

وفى هذه السنة ، اشتجر خلاف بين السلطان بايزيد وابنه سليم الذى جمع من حوله جيشا ضخما لقتال أبيه ، فانتهى الأمر بنزول السلطان بايزيد عن العرش ، وتربع ابنه السلطان سليم عليه .

١٥١٢ م : البندقية ترسل بعثا للغورى :

وصل الى مصر فى هذه السنة بعث من البندقية وقد تعددت الوفود والبعوث الأجنبية الى بلاط الغورى فى هذه السنة حتى ليحصى منها ابن اياس أربع عشرة سفارة أجنبية ، واليك ما قاله ابن اياس وصفا للاحتفال باستقبال وفد البندقية ، وهو كثير الشبه بما لا يزال يتبع حتى الآن فى استقبال السفراء الأجانب .

« وأركب السلطان فى ذلك اليوم وزين باب الزردخانة بالملبوس والسلاح ثم طلع القاضى وصحبته تقدمه حافلة « أى هدية » نحوا من مائة جمل يحملون أوانى بلور وجوخا ومخملا وأثواب مخمل تماسيح وشفق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة فيطلع القاضى وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيول والباقى مشاة ، فكانوا نحوا من خمسين انسانا من جماعة القاضى الذين جاءوا بصحبته وكان القاضى رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار . وكان لابسا خلعة حبر ذهب على حرير أصفر . فطلعوا الى القلعة وأشاعوا أن قاضى ملك الفرنج قد جاء يسعى عند السلطان فى فتح كنيسة القيامة التى بالقدس الشريف » .

الغورى يجرب مدافع هذا العصر :

ومما يشهد للغورى أنه كان مقدرا للمخاطر التى اصبحت تحيق ببلاده سواء من ناحية الصليبيين الذين يتمثلون فى البرتغاليين الذين التفوا حول مصر وقطعوا وصول التجارة الشرقية اليها ، أو من ناحية الشمال الشرقى من ناحية اسماعيل الصفوى أو الشمال ، من ناحية الدولة العثمانية ، أو من الافرنج عن طريق البحر ، انه ما فتىء يشيد السفن الحربية الكبيرة من شوانى واغربة ، ويستعرضها بعد تمام صفها وتجهيزها بالسلاح والمقاتلة .

وكان آخر ما أمر به الغورى من استعدادات حربية ، صنع مكاحل ثقيلة ومتوسطة وخفيفة ، والمكحلة أقرب الأشياء الى المدافع فى العصر الحديث ، ولكنها كانت تقذف بقطع الأحجار أو البارود أو النار المشتعلة ، وكانت تصنع من النحاس أو الحديد ، فأقام الغورى لذلك مسبكا ضخما خلف ميدان القلعة ، وحشد الصناع المختصين الذين بذلوا فى صنع هذه المكاحل جهدا جبارا حتى تمكنوا من عمل سبعين مكحلة زنة بعضها يصل الى ستمائة قنطار ، وطولها يبلغ عشرة أذرع ، وقد جربت هذه المكاحل

فى حضرة الغورى فى منطقة الريدانية خارج القاهرة فلم يخطىء منها سوى واحدة أو اثنتين وكان مقياس النجاح أن تقذف بأحجارها مسافة معينة .

موت السلطان بايزيد وتولى السلطان سليم العرش :

وفى يوم الجمعة الثانى من جمادى الأولى ، مات السلطان العثمانى بايزيد بعد ان حكم مملكته بنو عثمان ثلاثا وثلاثين سنة واصل فيها فتوحات أبيه محمد الفاتح . وبوفاة بايزيد تدعم مركز السلطان سليم الذى كان قد خلع أباه من قبل كما رأينا .

على أن اخوة السلطان سليم وأولاد اخوته لم يتقبلوا سيادته عليهم الا بعد خصام ونزاع وصل الى امتشاق السلاح فيما بينهم ، ولكن السلطان سليم قهرهم جميعا وقتل اخاه أحمد وأولاد اخوته الخمسة . كما قتل اخاه كركور ولم ينج من القتل الا ابنان للأمير أحمد التجأ أحدهما الى الشاه اسماعيل الصفوى والثانى الى مصر فاستقبله السلطان الغورى وأكرمه اكراما زائدا عن الحد ، مما احفظ عليه السلطان سليم ، وأدى ذلك الى سوء العلاقات بين السلطانين .

١٥١٣ م ــ ٩١٩ هـ : عودة الطاعون للانتشار :

اجتاح وباء الطاعون مصر فى هذه السنة ومات به العديد من الأمراء والكبراء وكان ممن مات به أميران من أمراء بنى عثمان كانوا قد التجأوا اليها فرارا من وجه السلطان سليم كما أصيب الغورى بمرض فى عينيه ، واستطارت الاشاعة بين الناس أنه فقد عينيه .

وجاءت الأخبار من بلاد الحجاز أن البرتغاليين قد استولوا على كمران وأنهم يحاصرون سواكن .

وكثرت الاشاعات أن الأمراء يتآمرون على خلع السلطان ، فلجأ الى أسلوبه المعتاد فخلع نفسه وانسحب الى المسجد الذى بناه .

لا ظلم اليوم :

ولجأ الغورى على ما يقول ابن أياس الى ما اعتاده كلما ضاق به الأمر ، واشتدت من حوله الأزمات وهو اجراء العدل ورفع المظالم ، فنودى بالغاء الضرائب التى كان قد فرضها ــ وطالما اشتكى الناس منها ، وخاصة ضريبة الجامفة والمشاهرة ، وما فرضه من مكوس أخرى على القمح والبطيخ .

وأفرج عن المسجونين من الأمراء وغيرهم ، ووعد الأمراء وجنـد المماليك بأنه سيوزع عليهم أموالا . ونودى فى القاهرة ، أن كل من قهر أو ظلم فعليه بالأعتاب الشريفة ولا ظلم اليوم .

وراح يوزع ألوف الدنانير على المحتاجين والمحاربين ، وحدد تسعيرة للحاجات حتى يخفف من وطأة الغلاء .

فارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

حادث خلقى يشغل القاهرة :

وكان مما نادى به الغورى بين الناس أن يكفوا عن المعاصى ويقلعوا عن المنكرات وشاء القدر أن تقع فى هذا الجو احدى الجرائم الخلقية التى رجت البلاد رجا وأحدثت ازمة فى الحكم ، وقد كان يمكن أن تمر دون أن يحس بها أحد فى غير دائرتها لولا هذا الظرف العصيب الذى كانت تمر به البلاد .

أما هذه الجريمة الخلقية فتتصل بأحد القضاة الشافعيين الذى قبض عليه متلبسا بجريمة زنا مع زوجة أحد قضاة الحنفية ، وقد قبض على الأثيمين متلبسين بالجريمة واعترفا بجرمهما المشهود . فصدر الحكم برجمهما ، ولكن أحد قضاة الشافعية اصدر فتوى مؤداها انه لو عدل المذنبان عن اعترافهما فلا يعود من الجائز رجمهما .

وكان المذنبان قد عدلا فعلا عن اعترافهما .

واقر القضاة الأربعة هذه الفتوة على اساس ان ذلك هو حكم الشرع (١) . وغضب الغورى وتصور أن القضاة الاربعة يتلاعبون بالأحكام الشرعية ، وقال للقضاة انه سيأمر برجم المذنبين بما له من حق السلطان ، فأجابه القضاة : بأنه لو فعل ذلك لوجبت عليه الدية لقتله من لا يستحق القتل .. فزاد ذلك من غضب الغورى وعزل القضاة الأربعة من مناصبهم .

وهكذا آثر القضاة احتمال غضب الغورى وعزلهم ، على أن يحرفوا فى شريعة الله لارضائه .

وظلت مصر لأول مرة فى تاريخها منذ بدء العصر الاسلامى بغير قضاة للشرع بضعة أيام ، شنق الغورى خلالها المذنبين على باب زويلة فى حبل واحد . وعين السلطان اربعة قضاة جدد .

يقول ابن اياس ، ولما ارتفع الطاعون ، وسكنت فتنة الجند والأمراء ، وشفى السلطان الغورى ، فأعاد مرة أخرى الضرائب التى سبق ان رفعها .

١٥١٤ م — ٩٢٠ هـ : الغورى يستعرض قواته البحرية فى السويس :

فى هذه السنة سافر الغورى الى مدينة السويس بعد ان زادت اهميتها فى الآونة الأخيرة ، وقد اصبحت ميناء حربيا ، وترسانة لصنع السفن الحربية وشهد عملية انزال عشرين مركبا حربيا « غرابا » فى البحر وهى مجهزة بكامل الأسلحة والاعتدة والمكاحل . وقيل ان السلطان أنفق على انشائها أربعمائة الف دينار ، وكان المشرف على بناء هذا الأسطول البرنس سليمان العثمانى ، وقد جهز الأسطول للسفر الى

(١) وهذا هو حكم الشرع بالفعل .

بحار الهند ، وايقاف القرصنة البرتغالية واقتلاعهم من المناطق التى احتلوها سواء فى الهند او الجزر المحيطة بعدن .

وكان طبيعيا أن يهيىء الغورى مدينة السويس للدور الجديد الذى بدات تلعبه ، فأصدر أمره بانشاء فندق بها ودكاكين ودور لشتى الأغراض ، وحفر العديد من الآبار واقام عليها السواقى لتوفير الماء اللازم للمدينة .

يحاول اعادة تحصين الاسكندرية وأحيائها :

وفى نفس العام قصد الغورى الى مدينة الاسكندرية ، لمعرفة ما يجب عمله من ترميم أبراجها وقلاعها وتهيئة سبل الدفاع عنها ، وانعاش المدينة بصفة عامة .

وقد صور لنا ابن اياس : حالة مدينة الاسكندرية فى هذه الفترة وكيف أوشكت ان تتحول الى مدينة مهجورة فيقول :

لم يكن بالمدينة احد من اعيان التجار سواء من المسلمين او من الفرنج وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض « اى جباة الضرائب » فانهم صاروا يأخذون من التجار عشرة أمثال ما كان يؤخذ قبلا وهو العشر .

فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر فتلاشى امر المدينة وآل امرها الى الخراب ، حتى قل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الاكل .. ووجد بها بعض دكاكين مفتوحة . والبقية خراب لم تفتح .

ولا يفوت ابن اياس أن يقارن الاسكندرية فى هذه الفترة بما كانت عليه فى سابق الزمان من ازدهار وعمران وغنى مما مر بنا ذكره فى هذا التاريخ .

والذى لم يعرفه ابن اياس فى ايامه ، وأصبحنا نحن نعرفه الآن تمام المعرفة ، ان هذا الخراب الذى ألم بالاسكندرية ، كان نتيجة تحول تجارة الشرق عن مصر بعد ان أصبحت تطوف حول راس الرجاء الصالح ، وأن الاستعمار البرتغالى والأسبانى والأوربى الغربى قد بدأ نشاطه فى التضييق بالتدريج على الشرق .

السلطان سليم يسحق جيش اسماعيل الصفوى :

وفى السادس من رجب من هذه السنة ، اندلعت نيران الحرب بين السلطان سليم وبين الشاه اسماعيل الصفوى ، ولو كان الغورى رجل حرب لأدرك أن مصير مصر سيتقرر فى هذه المعركة ، وكان عليه أن لا يقف منها موقفا سلبيا ، ولكنه كان كما قدمنا يؤثر السلام وان كان مستعدا للدفاع عن حدود بلاده وانتهت المعركة بانتصار السلطان سليم انتصارا حاسما على جيش الشاه اسماعيل ، بحيث استولت جنوده على مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية . وقد كادت الدائرة تدور على السلطان سليم فى أول المعركة ، ولكن سلاح المدفعية العثمانية الجديد وبنادق الرصاص التى كان يتسلح بها اثنا عشر الفا من جنود السلطان سليم . كان هو العنصر الحاسم ... كما سيظل هو العنصر الحاسم فى كل معارك العثمانيين المقبلة وانتصارهم فيها .

السلطان سليم يبلغ الغورى بانتصاره :

وقد أرسل السلطان سليم الى الغورى مبعوثا رسميا من لدنه يحمل له هذه الأخبار ، ولم يفت الغورى مدلول هذا النصر العظيم على اسماعيل الصفوى ولذلك فلم يأمر بدق الكوسات « الموسيقى » كما جرت العادة فى أمثال هذه المناسبات ولا أمر بتعليق الزينات . فقد أدرك بحسه أن المعركة التالية ستكون مع مصر .

فتنة المماليك الجلبان :

لم يكن لهذا الخطر الداهم على مصر أى أثر فى سلوك المماليك الجلبان الذين قاموا فى هذه السنة بأخطر فتنهم على الاطلاق ، وتحدوا السلطان الغورى مواجهة فقالوا له :

هذا ما كان طريق الملك الأشرف قايتباى ، وانت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة اشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل والجامكيا التى تعطيها لنا ما تكفينا لكراء بيت واسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا . والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد ، والأنسمة « المشروبات » صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك من اللحم ولا من الأنسمة ونحن جياع عرايا .

يقول ابن اياس الذى ننقل عنه هذه الصورة البحتة :

فسكت السلطان ساعة ثم قال : لكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعيرا مغربلا واجعل الأنسمة كل جرة بنصف فضة فارتفعت الأصوات له بالدعاء وانصرفوا من بين يديه شاكرين وخمدت تلك الفتنة قليلا ..

ولكن الفتنة لم تختف فى الظاهر ، الا لتظهر بعد ذلك فى أدق الأوقات ونعنى بها فى ساحة المعركة وفى مواجهة العدو ، حيث سينخذلون عن سلطانهم فى أحرج اللحظات المصيرية .

١٥١٦ م — ٩٢٢ هـ : خروج السلطان لمواجهة جيوش السلطان سليم :

أمضى السلطان الغورى طوال عام ٩٢١ هـ وهو يجهز للحرب التى كان متوقعا بقرب وقوعها بينه وبين السلطان سليم .

ولم تعوز السلطان سليم المكائد لاستثارة الغورى ودفعه الى الحرب فقد هاجم دولة التركمان التابعة لمصر وقتل حاكمها على دولات وقطع راسه ورءوس أولاده وبعث بها الى الغورى .

وأهان سفراء الغورى اليه وعذبهم ونكل بهم .

فانتهى ذلك كله الى تصميم الغورى على ان يخرج على راس جيشه لملاقاة السلطان سليم . فخرج من القاهرة فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الثانى بعد ان تقدمته طلائع جيشه الى الريدانية ، ومنها من سبق الى بلاد الشام .

ويخصص ابن اياس عشرات من الصفحات من كتابه الذى يؤلف الوثيقة الوحيدة عن هذه الفترة ، ليصف لنا أدق تفاصيل هذا الجيش ، وما فيه من أسلحة ، وخيول واعلام ، ونظام الأمراء وسيرهم ومعدات كل واحد منهم .

ولأمر فى مكنون علم القدر ، أخرج الغورى معه كل كنوزه وكنوز من سبقه من السلاطين والتى تجمعت فى خزائن بيت المال عبر السنين ، بحيث احتاج الى خمسين جملا لحملها .

وقد اودع الغورى هذه الكنوز عندما وصل الى حلب فى قلعة المدينة لكى لا تقع بعد ذلك غنيمة باردة فى يد السلطان سليم .

معركة مرج دابق :

وفى الخامس عشر من شهر رجب ، تلاقى الجيشان العثمانى والمصرى فى المكان الذى حدده السلطان سليم لهذا اللقاء وهو مرج دابق فقد قال لسفراء الغورى الذين ذهبوا للتفاوض معه فى شأن الصلح بعد أن انتهرهم وطردهم « قولوا لأستاذكم يلاقينا على مرج دابق » .

وقد أوشك أمراء المماليك ان يوقعوا الهزيمة فى مراحل المعركة الأولى بالعثمانيين حيث هجموا عليهم هجمة صادقة عصفت بالجيش العثمانى وأوشك أن يولى الادبار ، لولا هذا السلاح الجديد ، سلاح المدفعية من ناحية ، وغدر الخيانة الذى حسم الموقعة لصالح العثمانيين ، فقد كان جماعة من الأمراء المصريين قد لجأوا قبل المعركة الى السلطان سليم ، وكانوا هم الذين هونوا له أمر القتال مع السلطان الغورى .. وكان خايربك نائب حلب والذى كان يقف على رأس ميسرة الجيش المصرى من الضالعين فى الخيانة مع السلطان سليم ..

فقد انسحب بجيشه متظاهرا بالهزيمة فى الوقت الذى دبت فيه فتنة بين مماليك الجلبان .. والمماليك القرانصة فزعم الآخرون أن الغورى أصدر الأمر لمماليكه الجلبان أن يدعو القرانصة ينفردون بمواجهة العدو حتى يبادوا عن آخرهم .

وعبثا راح السلطان ينادى المنهزمين : يا اغوات هذا وقت المروءة .. هذا وقت النجدة ، ولكن هيهات هيهات .

وفجأة وجد الغورى نفسه وحيدا على ارض المعركة الا من بعض المشايخ الذين قد جمعهم حوله ، فراح يستحثهم على الدعاء لله ، ولكن ساعة الدعاء لله كانت قد ولت مع الجنود الفارين .

فلندع ابن اياس يصف لنا لحظات الغورى الأخيرة فى المعركة :

« ولما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطانى « العلم » فأنزله وطواه واخفاه ، ثم تقدم الى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه فى الحال خلط فالج « أى شلل » أبطل شقه وأرخى حنكه فطلب ماء فآتوه بماء فى طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وأدار رأس فرسه ليهرب فمشى خطوتين ، وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر ولا يعرف بعد ذلك ماذا حل بجسد الغورى ، فكأن الأرض قد ابتلعته فى الحال وفى ذلك عبرة لمن اعتبر .

ابن اياس والغورى :

ويتحدث ابن اياس عن نهاية حكم الغورى المفجعة فيقول :

وقد مات وله من العمر نحو ثمان وسبعين سنة حكم منها خمس عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما .

وكان الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك ومرت على الناس وكل يوم فيها كأنه ألف سنة مما يعدون . وقد قلت فى هذا المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى   مذ تناهى ظلمه فى القاهرة
زال عنه ملكه فى ساعة   خسر الدنيا اذن والآخرة

وابن اياس فى هذا يمثل الروح المصرية عبر آلاف السنين فصفحات كتابه تفيض بقصائد المدح والثناء على الغورى طوال أيام حياته ووصفه بالعدل والورع والتقوى ، وانه لم يسبقه من الملوك سابق وها هو ذا يحكم عليه بأنه قد خسر الدنيا والآخرة . ولا لوم فى ذلك ولا تثريب . فكل الثناء السابق ، وكل قصائد المديح ، وكل الدعوات الحارة التى كان يرسلها الشعب من أجل حاكمه ، لم تكن صادقة ولا هى خارجة من القلب وانما هى اتقاء لطغيان الحاكم الفرد المستبد وابعاد لأذاه وشروره . فاذا زال الطاغية وأمن الناس شروره قالوا رأيهم فيه بصراحة وصدق ، فى الوقت الذى يداورون فيه الطاغية الجديد بالمدح والثناء ، دفعا لشره واتقاء لأذاه .

ولا لوم ولا تثريب فالناس تريد أن تحيا وان تحافظ على بقائها . على أننا يجب ان نذكر لابن اياس من باب الانصاف .. أنه سجل للغورى حسناته كما سجل سيئاته ، ولكنك لا تكاد تقرأ الحسنات حتى يخيل اليك أن الغورى كان هو الحسن كله ، ثم لا تكاد تقرأ صفحة السيئات ، حتى لتتصور الغورى الشر كله ، ويخلص ابن اياس من ذلك بذكر عبارة طالما ترددت عن كثير من السلاطين :

« وقد كان ملكا مهيبا جليلا ، مبجلا ، فى المواكب ، تملأ العيون منه ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية ، لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة » .

نحن والغورى :

اما نحن وبعد انقضاء قرابة اربعة قرون ونصف ، وقد بعدت المسافة وأثر السيئات والمظالم قد انتهى ولم يعد يحس ، وليس الا الأعمال النافعة والطيبة ، هى التى تذكرنا بالغورى . مصداقا للحديث الشريف « اذكروا محاسن موتاكم » فلسنا نفرق بين الغورى وبين أعظم من حكم مصر من السلاطين المماليك ، وحسبه وهو الشيخ الذى أشرف على الثمانين قد خرج على رأس جيشه للدفاع عن حدود دولته فى أقصى الشمال ، ولم يفته وهو ذاهب على رأس جيشه للذود عن الحدود الشمالية أن يبعث بالأسطول نحو بحار الجنوب لقتال البرتغاليين ، وقد أبلى هذا الأسطول بلاء حسنا ومرة أخرى هزم الأساطيل البرتغالية ولكن وفاة الغورى وما تلى ذلك من تطورات ، عفا على آثار هذا الانتصار .

وقد ثبت فى المعركة كأعظم ما يكون الثبات ، وكان من الممكن أن ينتصر لولا الخيانة فى صفوفه ، وكأى ملك عظيم مات فى أرض المعركة ، حتى لا يعيش لحظة واحدة فى ظل الذل والهوان .

ولقد راينا الرجل وهو يمضى طوال مدة حكمه ، متجولا فى البلاد فتارة فى الفيوم واخرى فى السويس وثالثة فى الاسكندرية بانيا منشئا معمرا مصلحا .

اما الصعوبات المالية التى تعرض لها ، فنحن نعرف الآن سببها وهو انقطاع تجارة المشرق .

سلطنة الأشرف ابو النصر طومان باى :

فى الرابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة ، استقر راى امراء المماليك فى القاهرة على سلطنة طومان باى وكان السلطان الغورى قد خلفه وراءه نائبا عنـه فى حكم البلاد أثناء غيابه .

ولما كان الخليفة وثلاثة من رؤساء القضاة الأربعة ، قد اصبحوا فى ركاب السلطان سليم بعد أن انضموا اليـه عقب الهزيمة الساحقة فى مرج دابق ، فقد تولى بيعة طومان باى أمير المؤمنين يعقوب والد الخليفة بعـد أن اظهر توكيلا كان ابنـه قد اعطاه له .

وكان القدر وهو بصدد طى صفحة حكم السلاطين المماليك فى مصر ، قد شاء ان يختم كتابهم بصفحة هى من أزهى الصفحات ، فلعله لم يتول عرش مصر من يصـل الى مكانة طومان باى لا فى شجاعته الخارقة واقدامه ، وذكائه وحيويته ، بل ومن حيث حبه للناس وتقديسه للعدل وحكم الشريعة اى القانون ، ويصفه ابن اياس فى فترة نيابته عن الغورى بأنه كان محبا للعوام لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متجبر ولا متكبر .

وسنرى الآن كيف كانت صفاته على العكس من ذلك تماما بالنسـبة لخصومه المحاربين فكان قوى الشكيمة لا يلين ، فى الوقت الذى زاد فيه حبه للعدل والانصاف بالنسبة للرعايا .

طومان باى يعد مصر للمقاومة :

كان الطريق قد انفتح أمام السلطان بعد هزيمة الغورى فى مرج دابق وخيانة خاير بك نائب حلب ، فقد تسلم المدينة وقلعتها بكل ما فيها من ذخائر بغير قتال ، وكذلك استولى على دمشق ، ووصلت طلائع جيوشه الى غزة ، وارسل الى طومان باى خطابا شديد اللهجة يأمره فيه بأن يعلن خضوعه له ويضرب السكة باسمه ويخطب له فى صلاة الجمعة .

ولكن السلطان طومان باى رفض هذا الانذار وقرر المقاومة . وكان عليه أن يبدأ بتنظيم المقاومة من تحت الصفر ، فقد كانت الخزينة خاوية على عروشها ، وقد رفض الاقتراح الذى عرض عليه ليجمع ما يلزمه من النفقات من الرعايا وقال : انه لا يحب ان يلقى الله وفى صفحته النقطة السوداء . ولكنه آثر ان يشمر هو وبقية المماليك عن ساعد الجد ، وأن يحاربوا عن اعراضهم وكرامتهم ونسائهم واطفالهم . وكان يقول لكل من يطالبه بالنفقة ، لطالما اخذتم الأموال والنفقات وأنتم لا تعملون شيئا ، وقد جاء الوقت لتؤدوا الواجب مرة أخرى ..

ويعجب ابن اياس للهمة غير المعهودة التى بذلها طومان باى فى هذه الفترة الصغيرة لاعداد مصر للحرب . فقد كان من رأى طومان باى أن يخرج لملاقاة الجيوش العثمانية فى فلسطين بعد أن هراها البرد ، وتشتت قواها ، ولكن أمراء المماليك أصروا على أن تكون الحرب قريبا من القاهرة ، فرفضوا حتى ملاقاة العدو فى الصالحية أو فى بلبيس .

ولذلك فقد اعد طومان باى خطا حصينا عند الريدانية ، يذكرنا بخطوط التحصينات الحديثة ، وضع فى القاهرة انواعا من الأسلحة لم يكن لمصر سابق عهد بها ، من ذلك مائة عجلة تجرها أبقار ، وتحمل رماة يرمون بندق الرصاص ، وجمالا تزيد عدتها على مائتى جمل تحمل فوق ظهرها مكاحل ورماة يرمون بالرصاص ، وطوارق خشب تسير بها الرماة بالنشاب .

كما نجح طومان باى نتيجة عدله وحبه للناس فى استثارة حماس أفراد الشعب ليحاربوا الى جوار المماليك .

ولكن ذلك كله كان بغير جدوى ، فقد كان القدر قد قال حكمته فى انتهاء دولة المماليك ، ولذلك فقد لعبت الخيانة مرة اخرى ، فالاعراب وبعض امراء المماليك قد دلوا الجيش العثمانى على طرق توصلهم الى القاهرة بغير حاجة للمرور على هذه الخطوط المحصنة التى أقامها طومان باى ، فالتفوا حولها .

وفى يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة دارت معركة رهيبة تفوق معركة مرج دابق من حيث الشدة ، وأبلى فيها طومان باى بلاء منقطع النظير ، فقد خاض فى قلب الجيش العثمانى هادفا الى قتل السلطان سليم نفسه ، وقتل من كان يظن أنه السلطان سليم ولم يكن سوى سنان باشا كبير وزراء السلطان . ولكن مدافع

العثمانيين وبنادق الرصاص ، كانت لها الغلبة في خاتمة المطاف ، فانهزم الجيش المصرى ، وانسحب طومان باى .

١٥١٧ م - ٩٢٤ هـ : السلطان سليم يدخل القاهرة :

وفى يوم الاثنين ثالث المحرم ، دخل السلطان سليم شاه الى القاهرة من باب النصر . وكان موكبه موكبا حافلا ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان يسير أمامه فى موكبه الخليفة والقضاة الأربعة .

طومان باى يهاجم من جديد :

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بالنسبة لطومان باى الذى لم يلبث أن هاجم السلطان سليم فى داخل معسكره الذى أقامه على ساحل بولاق ، حيث دارت معركة رهيبة انفرط فيها عقد الجيش العثمانى ، وعاد السلطان طومان باى الى القاهرة ، حيث خطب باسمه فى المساجد فى يوم الجمعة .

طومان باى يهاجم من الصعيد :

ولكن عوامل التفتت أحدثت أثرها ، فاذا قوات طومان باى الجديدة تنحل وتتفرق من حوله ، فانسحب الى الصعيد ، حيث استطاع أن يؤلف قوة جديدة ، أخافت السلطان سليم حتى أنه عرض الأمان والصلح على طومان باى ان يقبل أن يكون نائبا له فى حكم مصر وان يضرب السكة ويخطب باسمه فى المساجد وفى مقابل ذلك ينسحب السلطان سليم بجيشه .

ولكن الخيانة من ناحية ، وبعض أمراء المماليك تحالفوا على افساد هذا الاتفاق اذ قتلوا رسل السلطان سليم الى طومان باى . وعلى ذلك لم يبق سوى السيف ليكون حكما .

وحكم السيف فى معركة جديدة كانت كأعنف ما دار من معـارك بالقرب من الجيزة . ورغم بسالة طومان باى فقد خسرها مرة ثانية .

القبض على طومان باى وشنقه :

لم ييأس طومان باى رغم هـذه الهزائم المتكررة ، وظل يرسم الخطط لمواصـلة المقاومة ، وكان آخر ما هداه اليه تفكيره أن يلجأ الى شـيخ العرب حسن بن مرعى زعيم قبائل البحيرة والذى كان يرتبط معه برباط الأخوة والصداقة .

وعلى الرغم من ان حسن بن مرعى عاهده على الوفاء والاخلاص .. فقد ارسل سرا الى السلطان سليم يعلمه بوجود طومان باى عنده ، فأرسل السلطان سليم اربعمائة من الجند الذين اعتقلوا طومان باى على غرة .

وتجمع كتب التاريخ على ان السلطان سليم اخذ بشجاعة طومان باى وعزته وكرامته وهو يصاوله فى الحديث فقال له : والله ماكان قصدى اذيتك ونويت الرجوع من حلب ، ولو اطعتنى من الأول وجعلت السكة باسمى ماجئت لك ولا دست ارضك فأجاب طومان باى : ان الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، هل لو ارسلت لك انا خطابا وامرتك أن تكون تحت أمرى هل كنت ترضى بذلك ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان . وليس أضر عليك من هذين الشيطانين الخائنين (وأشار الى خاير بك والغزالى) ، فانهما لو كان بهما خير لكان لنا .

وكاد السلطان يقتنع بالابقاء على حياة طومان باى . ولكن الخائنين خاير بك والغزالى اقنعا السلطان سليم ، أن وجود طومان‌باى على ظهر الحياة من شأنه ان يضيع كل تعبه وسفره وهلاك زهرة عساكره وامواله ، فانه لايكاد يغادر أرض مصر حتى يخرج طومان باى ولو كان تحت الأرض ، ليفسد عساكر السلطان عليه ، فاذا أراد السلطان أن تطيعه الدول وأن تمهد له البلاد فعليه أن يعجل بهلاك طومان‌باى .

ونزل السلطان سليم عند مشورة الخائنين وقضى باعدام طومان باى .

وفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول الموافق ٢٣ ابريل ، أخرج طومان باى من سجنه فى انبابه واقتيد الى حيث يعدم عند باب زويله فكان رافع الرأس يسلم على الناس طوال الطريق ، حتى اذا وصل الى حيث يشنق ، طلب طومان باى من الجمهور المحيط به أن يقرأوا الفاتحة على روحه ثلاث مرات ، وقرأ هو بنفسه الفاتحة ، حتى اذا فرغ منها التفت الى الجلاد وقال له : شوف شغلك .

وكأن الأقدار أبت حتى آخر لحظة أن لا تزهق هذه الروح القوية فى يسر وبساطة، فاذا بالحبل ينقطع مرتين ، ولم يمت طومان باى الا فى المرة الثالثة .

وظلت جثته معلقة بعد ذلك على باب زويله ثلاثة أيام .

يقول ابن اياس : فلما أن شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل كريم الخلق سنه نحو اربع واربعين سنة وكان بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وكسرهم ثلاث مرات ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة . وقد ابطل لما تسلطن من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولما طلب منه ان يفرض الضرائب على الناس ليملأ الخزائن ، وصف ذلك بالظلم ورفض أن يمس أموال الرعية .

انتهاء دولة المماليك :

وبموت طومان‌باى ، استقرت الأمور فى مصر للسلطان سليم شاه وانتهت دولتا المماليك البحرية والجركسية ، بعد أن حكمت الأولى ١٣٦ سنة و ٤ شهور وعشرين

يوما ، والثانية ١٣٨ سنة و ٣ شهور و ١١ يوما فكانت مدة حكمهم جميعا ٢٧٤ سنة و ٨ اشهر .

ويقول امين باشا سامى وهو يغلق كتاب المماليك : ومن راجع مدة سلطنتهم على الديار المصرية يجد أنهم أنشأوا بها عمائر شتى من قناطر وجسور ومدارس كثيرة بها مكتبات فيها كتب قيمة ومساجد وجوامع وأوقفوا عليها الضياع وغيرها مما يقوم بسيرها سيرا حسنا . وهى فى متانة بنائها كالاهرام وأنفع كجامع السلطان حسن وجامع قلاوون وغيرهما . وترقت العمارات واتقنت فى عصرهم النقوش والزخارف العربية اتقانا فائقا ، حتى أن الفاتيكان فى روما دعا مهرة هؤلاء الصناع لعمل أعمال الزخارف وغيرها ، وهى باقية حتى الآن فى مثلث الجمـالون الكبير مع ماكتبوه من الكتابات باللغة العربية وبالجملة فقد سعدت البلاد فى مدتهم وترقت أدبيا وماديا كما ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فى عدة مواضع .

وقد اورد أمين باشا سامى بعد ذلك قائمة مفصلة بعـــدد الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق التى أنشأوها فى القاهرة وشتى بلاد القطر .

ولست اعرف لمـاذا نسى أمين باشا سامى وهو يحاول أن يلخص آثار المماليك الشاهقة ، دين الاسلام والمسلمين لهم بانقاذ الاســلام من خطر المغول الســاحق ، وتطهيرهم ارض فلسطين من الصليبيين .

انتهى الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث
وهو يتضمن الحــكم العثمــــانى
والتاريخ الحــديث ابتداء
بحملة نابليون

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

أحمد حسين

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الثالث

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١

رقم الايداع
١٩٧٣/٤٢٦٦

الفصل السادس عشر

الحكم العثماني في مصر

٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م - ١٢٠٣ هـ - ١٧٨٩ م

السلطان سليم يرث سلطان المماليك فى الحجاز :

لم يحتج السلطان سليم الى ارسال قوات لاحتلال الحجاز فضلا عن محاربته ، فبمجرد تغلبه على المماليك ، أرسل اليه شريف مكة يعلن ولاءه للسلطان ، كما بعث اليه بمفاتيح الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، واصفا اياه بحامى الحرمين ، وهكذا تأكدت ولاية السلطان سليم على العالم الاسلامى ، فحامى الحرمين أو خادمهما يعتبر هو اعلى سلطة روحية فى الاسلام .

اعادة تنظيم الادارة فى مصر :

واذ كان السلطان سليم يتهيأ لمغادرة مصر والعودة الى قاعدة ملكه رأى أن يضع لمصر نظاما اداريا ، يكفل دوام تبعيتها للعثمانيين وضمان عدم خروج ولاتها عن الطاعة ، وذلك بتقسيم السلطة فيها الى ثلاث قوى يقف كل منها للآخر بالمرصاد .

وهذه القوى الثلاث هى :

اولا — **قوة الباشا الحاكم** ، وواجبه ابلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة والشعب ومراقبة تنفيذها .

ثانيا — **قوة الجيش (الوجاقات)** وقد عين للاقامة فى القاهرة والمراكز الرئيسية من من القطر المصرى ستة آلاف فارس ، وستة آلاف جندى من المشاة مقسمين الى ست وجاقات اى ست فرق وهى :

١ — وجاق المتصرفة — وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى .

٢ — وجاق الجاويشية — وهو مؤلف من صف ضباط جيش السلطان سليم وعهد اليه جباية الخراج .

٣ — وجاق الهجانة .

٤ — وجاق التفقجية اى حملة البنادق .

٥ — وجاق الانكشارية ، وهو أهم الوجاقات فالانكشارية كانوا هم القوة المحاربة الأولى فى الجيش العثمانى ومهمتهم الرئيسية المحافظة على البلاد .

٦ — وجاق الغرب :

وكان على راس كل وجاق من هذه الوجاقات ضابط يلقب بالاغا يساعده الكخيا (اى النائب) والباش اختيار والدفتردار والخازندار والروزنامجى ، ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا أو الديوان الذى لا يقضى الباشا أمرا الا بمصادقتهم — ولهم أن يوقفوه عن اتخاذ اى اجراء وأن يستأنفوا قراراته الى ديوان السلطان باستنبول ولهم أيضا أن يطلبوا عزله اذا اشتبهوا فى تصرفاته ومقاصده .

ثالثا — **قوة المماليك :**

رأينا أن السلطان سليم منذ فتح الشام وقد كان على استعداد أن يقر طومان باى على راس مصر فى مقابل اعترافه بتبعيته وسيادة العثمانيين على مصر . ولذلك فلا عجب اذ أبقى السلطان سليم على قوة المماليك فى مصر من بقايا الدولتين السابقتين ، بل لقد رأى فى وجودهم الى جوار القوتين السابقتين ، ما يحفظ التوازن بين الباشا والوجاقات . فأصدر أمره بايقاف عملية القتل فى المماليك بعد أن بلغ عدد من قتل منهم عشرة آلاف ، ونودى عليهم بالأمان ودعوا للظهور للاضطلاع بدورهم فى الحياة الجديدة ، حيث عهد اليهم بادارة مصر لحساب الحكم العثمانى ، فقسمت مصر الى أربع وعشرين وحدة ادارية ، أطلق على الكبيرة منها اسم سنجقية ، وعلى الأصغر اسم كاشفية — على أن يكون السناجق والكشاف من المماليك ، وجعل مهمتهم جمع أموال الخراج ، والمحافظة على الأمن . ومنح السنجق رتبة بك .

تولية خاير بك (باشا) على مصر :

ولم ير السلطان سليم من يوله مصر ، أنفع من خاير بك نائب حلب السابق والذى كان ساعده ومعينه على فتح مصر ، فمنحه رتبة الباشا وجعله أول وال على مصر .

كما وضع على راس القوة العسكرية قائد عثمانى هو خير الدين .

وأمر السلطان سليم بابطال النقود القديمة ، وضرب نقودا جديدة تحمل اسمه ، ولكنها كانت أخف من القديمة بمقدار الثلث ، فخسر الناس فى ذلك ثلث أموالهم .

ترحيل الأعيان والزعماء الى اسطنبول كرهائن :

وأصدر السلطان أمره بترحيل طوائف من أعيان الناس ، ما بين قضاة ونواب قضاة وأكابر من المسلمين والمسيحيين واليهود والتجار والوراقين ، الى اسطنبول ليقيموا بها اقامة اجبارية ، فيكونوا أشبه بالرهائن من ناحية ، ولكى يألفوا الحياة العثمانية فى عاصمة الدولة .

تهجير أرباب الصناعات والحرف الى أسطنبول :

وكان من بين الذى قضى السلطان سليم بتسفيرهم الى اسطنبول ، عدد كبير من ارباب الصنائع المهندسين والبنائين والنجارين والمرخمين والمبلطين ، وطائفة من الفعلة ، وقيل فى تعليل هذه الهجرة الاجبارية لأصحاب الحرف ، أن السلطان سليم

اراد ان ينشئوا له مدرسة فى اسلامبول مثل مدرسة الغورى . وأيا كان الغرض من جمعهم وتسفيرهم ، فقد ترتب على هذه العملية تعطل خمسين صناعة فى مصر على ما يقول ابن اياس .

نقل الخليفة العباسى واسرته الى اسلامبول :

على أن أهم من كل ما سبق ، هو اصدار السلطان سليم أمره الى المتوكل الخليفة العباسى بالانتقال معه الى اسلامبول هو وأسرته . وقد أثار هذه النقل فكرة تنازل المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم ، وأوشكت هذه المسألة أن تكون احد المسلمات التاريخية . ولكن المباحث التاريخية الحديثة قد دحضت هذه المسلمة ، فكل كتب التاريخ المعاصرة للفتح العثمانى سواء من الجانب العربى (ابن اياس) أو من الجانب العثمانى والتى كانت تؤرخ لهذا الحادث يوما بعد يوم لم تشر اليه ، ولم يذكر على النقود التى ضربت فى ذلك الوقت فى مصر اسم السلطان سليم باعتباره خليفة . وقد كان اللقب الذى فرح به السلطان سليم ، وخطب به على المساجد ، وصفه بأنه خادم الحرمين ، وليس هذا اللقب من ألقاب الخليفة .

وتذكر الأبحاث فى هذه الناحية العديد من الحجج (١) التى تدل على أن مسألة التنازل عن الخلافة ظهرت فى العهود المتأخرة ، عندما ضعف شأن الدولة العثمانية من الناحية العسكرية ، فرأت أن توطد سلطانها من الناحية الروحية .

وكيفما كان الأمر فان الخلافة العباسية قد انتهت كما سنرى مع وفاة المتوكل ــ وأصبح سلطان تركيا هو أعلى شخصية فى العالم الاسلامى كله لا تعلوها شخصية أخرى من الناحية الروحية أو المادية أى انه أصبح خليفة بقوة السلاح والواقع .

السلطان سليم يغادر مصر :

وفى يوم الخميس الثالث عشر من شهر شعبان ، خرج السلطان سليم على رأس جيشه تاركا مصر ، متوجها لحرب الشاه اسماعيل الصفوى ــ خرج محملا بما غنمه من مصر والذى احتاج لحمله الى الف جمل ، حملت كلها بالذهب والفضة والتحف والأسلحة والصينى والنحاس المكفت والتى وصلت الى حد اقتلاع الأعمدة الرخامية ، والزخارف ، والنقوش ، وكل ما له قيمة فنية فى قصور أمراء المماليك وأعيان الناس .

ويندد ابن اياس بالسلطان سليم ، ويستهجن كل تصرفاته ابان اقامته فى القاهرة ، ويفارق بينه وبين ما كان عليه سلاطين مصر من عادات ومكرمات ، فهبط به الى الحضيض بالقياس الى أعمالهم وتصرفاتهم كاشفا بذلك عن لوعته واحساسه بالجرح العميق وقوميته المصرية الأصيلة :

« لقد صارت مصر نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحائز ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين

(١) الدكتور طرخان .

حيث قال : اليس لى ملك مصر . وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا . ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل ابطالها ، ويتم أطفالها ، واسر رجالها ، وبدد احوالها ، واظهر أهوالها ، فلا حول ولا قوة الا بالله » .

١٥٢٠ م — ٩٢٦ هـ — وفاة السلطان سليم :

فى يوم الخميس التاسع من شوال ، مات السلطان سليم وعمره يتراوح عند المؤرخين بين سبع وأربعين وواحد وخمسين سنة ، وكانت مدة حكمه تسع سنوات الا شهرا . وقد تم على يديه هذا التحول فى حياة الدولة العثمانية ، حيث حولها من دولة أوربية بلقانية حيث تقع معظم املاكها ، ويتألف زهرة جيشها (الانكشارية) من ابناء البلقان ، كما يتولى القادة مناصبهما الكبرى كذلك ، الى دولة أوربية أسيوية افريقية احتوت العالم العربى الاسلامى فى المشرق .

وللمؤرخين أبحاث مستفيضة فى تفسير هذا التحول ، وبعضهم يعزوه الى أن الفتوحات العثمانية فى أوربا كانت قد وصلت الى اقصى ما يمكن ان تصل اليه ، حيث بدات تواجه قوى أوربا العظمى ممثلة فى النمسا ، فلم يبق الا أن تتجه صوب الشرق ومن قائل ، بل لقد دفعها الى ذلك تطور الأحداث فى الشرق وتهديد اسماعيل الصفوى للعالم الاسلامى السنى .

وهناك من يقول ، بل دفعها الى ذلك ضرورة مواجهة الخطر البرتغالى على تجارة الشرق ، بعد أن نجحت فى الالتفاف حول العالم الاسلامى وليس ما يمنع تداخل هذه الأسباب كلها ، بالاضافة الى غيرها من الأسباب .

والمهم أن السلطان سليم بفتحه مصر والشام ومد سلطانه الى الحرمين ، قد خطا بالدولة العثمانية أن تصبح امبراطورية اسلامية ، بعد أن كانت أشبه بامبراطورية بيزنطية .

تولى السلطان سليمان القانونى عرش الدولة :

وفى يوم الأحد الثانى عشر من شوال أى بعد ثلاثة أيام من وفاة السلطان سليم ، جلس ابنه سليمان على سرير الملك ، وكان عمره ثمان وعشرين سنة ، والذى كان مقدرا له أن يحكم خمسين سنة تبلغ فيها الدولة العثمانية أوج ما يمكن أن تصل اليه دولة من العظمة ، والذى سيلقبه الأوربيون بسليمان العظيم ، أما رعايا دولته فيطلقون عليه اسم القانونى ، لكثرة ما وضع من أنظمة قانونية توخى من ورائها تحقيق العدل من خلال سيادة القانون .

اهتمام السلطان سليمان بشئون مصر :

ويستوقف الانسان اهتمام السلطان سليمان بشئون مصر منذ اللحظة الأولى التى ولى فيها السلطة . فقد بادر باطلاق سراح الخليفة المتوكل ، وكان ابوه قد نفاه

خارج اسطنبول واعتقله ، فأعاده الى اسطنبول ورتب له نفقة شهرية ، ثم أعاده الى مصر كما سمح لكل المصريين الذين فرض عليهم أبوه الاقامة الاجبارية فى اسطنبول أن يعودوا الى مصر .

ثم اعاد بحث تنظيمات مصر الادارية ، فرأى أن يوجد عملا للمماليك فى مصر ، فأنشأ وجاقا سابعا أضافه الى الوجاقات الستة ، على أن يكون أفراده من المماليك ، وبهذا أصبحت عدة الجنود فى مصر عشرين ألفا .

وظل وجاق الانكشارية هو أهم الوجاقات السبعة ، وقائده هو المقدم والرئيس على سائر قواد الوجاقات الأخرى .

كما أعاد تنظيم الديوان الكبير وانشأ الى جواره ديوانا آخر دائما ، فأما الديوان الكبير الذى كان يتألف من قادة الوجاقات الستة فقـد اضيف اليهم قادة الوجاق السابع المملوكى ، يضاف اليهم أمير الحج والقاضى الأكبر ، والمفتيون الأربعة ، والأئمة الأربعة ورؤساء المشايخ والاشراف .

واصبح من حق هذا الديوان اصدار كل القرارات التى لا يتعلق صدورها بالباب العـالى ، ولا يملك الباشا الوالى الا ان يصـدق على هذه القرارات . على أن هذا الديوان لم يكن ينعقد الا بدعوة من الباشا ويمكن أن يوصف هذا الديوان بأنه مجلس شورى ، وان كانت تغلب عليه الصفة العسكرية .

الديوان الصغير الدائم :

أو الديوان فقط ويتألف من كتخدا الباشا (نائبـه) والدفتردار والروزنامجى ومندوب من كل وجاق .

وكان على هذا الديوان أن ينعقد يوميا للنظر فى الحوادث الجارية .

الموظفون الكبار :

كما حددت وظائف الدولة الكبرى على الوجه التالى :

- الكخيا (الكتخدا) أو نائب الباشا .
- الدفتردار وهو القائم بحفظ الدفاتر وضبط السجلات ولا ينفذ أمر بيع عقار الا بعد توقيعه اشارة الى تسجيله فى دفاتره .
- الروزنامجى : وظيفته ادارة الخراج وضبط حساباته (أى ضرائب الأطيان) .
- أمير الحج : وهو يحمل الصدقات والهدايا التى ترسل من السلطان سنويا الى مكة والمدينة ، وعليه حمـاية قافلة الحج ذهابا وايابا . ولم يلبث شاغل هذا المنصب أن أصبح الرجل الثانى فى الدولة كما سنرى .
- أمير الخزانة (الخازندار) : يحمل الأموال والحاصلات المقـرر ارسالها سنويا الى اسطنبول عن طريق البر وهو المكلف بحمايتها وتوصيلها سالمة .

والقباطنة الثلاثة : وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط والاسكندرية .

وكان تعيين الكتخدا وقباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية يصدر رأسا من السلطان ، ويستدعون الى اسطنبول فى آخر كل سنة الا اذا صدر مرسوم جديد باستمرارهم فى وظائفهم لعام جديد .

أما باقى السناجق والبكوات وأصحاب الوظائف الكبرى الأخرى فيكون تعيينهم بمعرفة الديوان ، ويصدق على هذا التعيين الباشا ، ويثبتهم الباب العالى .

التنظيم الاقتصادى :

انتقل السلطان سليمان بعد ذلك الى اعادة تنظيم مصر الاقتصـــادى . فثبت القاعدة التى كان معمولا بها من ان السلطان هو المالك لجميع أراضى مصر من الناحية القانونية ، ولكنه ادخل على ذلك تغييرا اساسيا من الناحية الفعلية .

وقد بدأ بأن اعاد مسح الأراضى المصرية من جديد ، ثم قسمت الأراضى على شكل اقطاعات وزعت على أشخاص أطلق عليهم اسم الملتزمين ، وقضى السلطان سليمان انه بعد اقطاع الأرض للملتزم لا يجوز نزعها منه ، ما دام يؤدى ما عليه من الالتزام ، كما أنها تورث من بعده لورثته ، فأشبهت بذلك أن تكون ملكا حقيقيا .

وكان الملتزمون يعهدون بزراعة الأرض الى الفلاحين فكان كل فلاح يختص بقطعة من الأرض ، لا تنزع منـــه ، ويورثها من بعـــده لورثته ما دام قائمـــا على دفـــع المطلوب منه .

وكان الفـــلاح اذا مات بغير وريث ، عادت أرضـــه الى الملتزم يعهد بزرعها الى من يشاء .

وكذلك الشأن بالنسبة للملتزم الذى يموت عن غير وريث ، اذ تعود أرضه الى السلطان يعطيها لمن يشاء من الملتزمين الجدد . وكان على الفلاحين والملتزمين خراج يدفعونه اما نقدا واما عينا ، ومن يتأخر عن دفع المستحق عليه تؤخذ الأرض منه .

وتحدد خراج مصر على ما يقول ابن اياس بألف ألف دينار وثلثمائة الف دينار ، وستمائة الف أردب ، نصفها من القمح ونصفها الآخر من الحبوب الأخرى .

نظام جديد للمقاييس والموازين :

والغى السلطان سليمان القانونى الموازين والمكاييل والمقاييس التى كان معمولا بها فى مصر ، واستبدلها بأخرى جديدة لتعميم النظام المتبع فى الدولة كلها .

انقلاب فى النظام القضائى :

وأحدث السلطان سليمان ما يمكن اعتبـــاره ثورة فى دنيـــا القضاء اذ الغى نظام القضـــاة الأربعة ، واستبدله بقاض واحد يبعث به من اسطنبول أطلق عليه اسم « قاضى عسكر » .

كما أحدث أنظمة لا عهد للبلاد بها ، فى طريقة توثيقه عقود الزواج فأثارت استنكار الناس وسخطهم .

١٥٢١ م ــ ٩٢٧ هـ ــ تمرد جان بردى الغزالى نائب الشام :

كان الأمير جان بردى الغــزالى ثانى اثنين خانا السلطان الغــورى كما قدمنا ، وهيأ للسلطان سليم سبل احتلال مصر والشام . وقد كافأه السلطان سليم بتوليته على الشام كما كافأ صاحبه خاير بك بالولاية على مصر . فلما أن مات السلطان سيلم ، طمع الغزالى فى السلطنة تصورا منه بضعف السلطان سليمان فأعلن نفسه سلطانا على الشام ، وراح يراسل خاير بك ليحرضه على الانضمــام اليه ، ولكن خاير بك بعث برسله الى اسطنبول . فأرسل السلطان سليمان جيشا أخمــد الحركة وقبض على الغزالى وقطع رأسه .

السلطان سليمان يستولى على مدينة بلغراد :

وفى هذه السنة ، وصلت فتوحات السلطان سليمان الى مدينة بلغراد وكانت قلعة الشعوب السلافية . وقد دخل السلطان سليمان نفسه الى المدينة وحول أحد كنائسها الى مسجد ليصلى فيه الجمعة . وبسقوط بلغراد التى كانت تعتبر الحصن المنيع الذى يحول دون تقــدم العثمانيين الى ما وراء نهر الدانوب ، انفتح الطريق أمامهم الى قلب أوربا .

وقد تزينت مصر التى أصبحت جزءا من الامبراطورية الاسلامية واحتفلت احتفالا رائعا بهذا النصر .

١٥٢٢ م ــ ٩٢٨ هـ ــ وفاة خاير بك والى مصر :

فى يوم الأربعاء سابع عشر من ذى القعدة ، مات خاير بك والى مصر والذى كان يطلق عليه اسم ملك الأمراء . فكانت مدة ولايته خمس سنوات وثلاثة أشهر .

ويقول عنه ابن اياس أنه فوق خيانته للغــورى ، فقد كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته عدد كبير بشتى الأشكال .

وكان يقتل لأوهى الأسباب ، حتى لقد قتل بعض من سرق الخيار من بستانه .

وقد أحصى ما كان فى خزانته بعــد موته فكان عدته ٦٠٠ر٠٠٠ دينــار ذهب ، بخلاف ما كان فى بيت المــال من الأموال ، وخلف من الخيول والبغال والحمير عددا كبيرا وكميات كبيرة من الغلال والأغنام والأبقار .

وليس ذلك الغنى الا بقايا ما كانت مصر لا تزال عليه من ازدهار وغنى .. فلن تلبث مصر أن تتدهور حتى ليصبح واليها عاجزا عن سداد بضع الوف من الدنانير لدفع مرتبات الجند .

يقول ابن اياس : وبالرغم مما كان لدى خاير بك من أموال فقد كان شحيحا لا يميل الى الفقهاء والى طلبة العــلم ، ويصادر الأغنياء ولا يعطى الممــاليك مرتباتهم بدعوى عدم وجود المال .

وقد شيعه الناس الى مقبرته باللعنات ، ولهجت الألسنة بذمه ، حتى لقد قالوا عنه انه كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما أتاه من الشرور فى حياته .

تعيين الوزير الأعظم مصطفى باشا نائبا على مصر :

وفى يوم الأربعاء ٢٣ ذى الحجة من هذه السنة ــ وصل الى ساحل بولاق وزير السلطان سليمان الأعظم وزوج أخته ابنة السلطان سليم ليكون نائبا على مصر ، فدل ذلك على اهتمام السلطان سليمان بمصر وتقديره لأهميتها وخطورتها .

وكان الديوان بعد وفاة خاير بك قد ولى السلطة لسنان باشا . فاجتمع الديوان فى الخميس ٢٤ ذى الحجة حيث قرىء مرسوم السلطان بتولية مصطفى باشا . وقد بدىء المرسوم بالآية الكريمة : « الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » فكان ذلك على ما يقول ابن اياس براعة فى الاستهلال . ثم راح المرسوم يثنى على مصطفى باشا ويصفه بأنه وزير الوزراء وامير الأمراء ثم يمضى المرسوم فى التوصية بالرعية قاطبــة ، والمماليك الجراكسة ويدعو الى النظر فى أحوال الرعية بما فيه اصلاح احوالهم .. ويلفت النظر الى اصلاح العملة التى ارتفعت شــكاوى الناس بسببها .

١٥٢٣ م ــ ٩٢٩ هـ ــ استيلاء السلطان سليمان على جزيرة رودس :

كانت جزيرة رودس التى تضم آخر بقايا الفرسان الصليبيين ، تؤلف شوكة فى جانب الأساطيل العثمانية ، شأنها فى ذلك شأن الأساطيل المصرية من قبل ، فقرر السلطان سليمان الاستيلاء عليها ، فوجه اليها أسطولا ضخما فرض الحصار على الجزيرة ما يقرب من العام ، ولم تجرؤ أساطيل الدول الأوربية على انجاد المحصورين فى الجزيرة ، فلم تلبث أن سقطت بيد العثمانيين فى السابع من شهر صفر . وسمح للصليبيين الذين كانوا يحكمون الجزيرة باسم فرسان القديس يوحنا ، أن ينسحبوا الى جزيرة مالطة ، حيث ظلوا بها الى أن انتزع الجزيرة منهم نابليون .

١٥٢٤ م ــ ٩٣٠ هـ ــ احمد باشا والى مصر يعلن الاستقلال :

عزل السلطان سليمان أحمد باشا الذى كان يتولى منصب الصدر الأعظم وعينه واليا على مصر بدلا من مصطفى باشا .

فاستبد الغضب بأحمد باشا ، وقرر أن ينتقم لنفسه باعلان استقلاله عن الدولة بمجرد استقراره فى مصر .

ولم تكن هذه الروح خافية على من تولى الصدارة العظمى بدلا عنه وهو ابراهيم باشا ، ولذلك فقد أرسل الى مصر أوامر الى أمرائها ، أن يقتلوا أحمد باشا ، ولكن هذه الرسائل وقعت فى يد أحمد باشا ولم تصــل الى المرســل اليهم ، فقتل هو الأمراء الذين كانت موجهة اليهم هذه الرسائل ، وأعلن التمرد والعصيان .

وطلب من الخليفة المتوكل الذى كان قد عاد الى مصر ، أن يبايعه سلطانا على مصر ، فأجابه الخليفة الى طلبه ، وخطب له فى المساجد وأصـدر أمره بأن تضرب النقود باسمه .

ولكن النظام الذى وضعه السلطان سليم أثبت فعاليته فى هذه الأزمة ، فقد تصدت القوى الأخرى لاحباط خطط الوالى وجرت بينهما المواقع التى انتهت بفشله والقبض عليه وقتله .

١٥٢٦ م — ٩٣٢ هـ — معركة موهاكز الشهيرة واستيلاء السلطان سليمان على المجر :

انتصر السلطان فى أغسطس من هذه السنة الميلادية على الملك لويس المجـرى فى موقعة سوهاكز الشهيرة ، حيث قتل الملك لويس ، وعشرون ألفا من جنوده واستولى السلطان سليمان على مدينة بودا عاصمة المجر .

١٥٢٧ م — ٩٣٣ هـ — ولاية سليمان باشا الخادم على مصر :

أصدر السلطان ابراهيم باشا الصدر الأعظم الى مصر عقب فتنة احمد باشا ، وذلك لكى يعيد الأمن الى نصابه ، ويعيد تنظيم شئون مصر بما يقر العدل فى رحابها ، ويقمع فتن الاعراب التى تكاثرت . وقد اضطلع ابراهيم باشا بما جعل الالسنة تلهج بالثناء عليه ، ولكن السلطان لم يلبث أن استدعاه الى اسطنبول ، وأن يعين من يختاره ليكون واليا على مصر ، فعين ابراهيم باشا ، سـليمان باشا الخـادم (الخصى) فاستطاع أن يحوز ثقة السلطان سليمان بحيث أبقاه واليا على مصر لمدة تسع سنوات وقد بدا فى عهده استعمال القهوة .

١٥٣٤ م — ٩٤١ هـ — السلطان سليمان يستولى على تبريز ويدخل بغداد :

انتهز شاه ايران طهماسب الصفوى فرصة انشغال سليمان القـانونى بحروبه فى أوربا ضد شارلكان امبراطور اسبانيا وفرديناند امبراطور النمسا من ناحية أخرى، لكى يدخل فى محالفة مع شارلكان ضـد سليمان القانونى فلم يكد السلطان سليمان يعقد صلحا مع النمسا ، حتى قرر أن يعاقب طهماسب ، فسـار بجيوشه شرقا ، وسحق جيوش طهماسب الصفوى التى تعرضت له ، ثم دخل مدينة تبريز عاصمة الصفويين ، واستولى على العراق .

ودخل مدينة بغداد ، بعد أن تركها جنود الشاه ، فى احتفال رهيب وأقام السلطان سليمان أربعة شهور فى بغداد نظم فيها شئون البلاد .

١٥٣٥ م — ٩٤٢ هـ — بدأ نظام الامتيازات الأجنبية التى شقيت به مصر :

فى هذه السنة أبرم فرانسوا الأول معاهدة تحالف مع السلطان سليمان القانونى، ضد أسرة الهاسبورج التى كانت تحكم النمسا وأسبانيا .

وبموجب هذه المعاهدة وضع الأساس الأول لهذا النظام البغيض الذى لم يلبث أن تشقى منه مصر ، وهو نظام الامتيازات الأجنبية ، حيث خول للفرنسيين المقيمين

فى الدولة العثمانية بعامة ومصر بخاصة ، أن يتحاكموا الى قناصلهم وليس أمام القضاء المحلى ، وأن يكونوا معفيين من الضرائب التى تقرر على المواطنين المحليين .

وقد كان منح هذه الامتيازات ضربا من ضروب التسامح الذى جاء نتيجة الافراط فى القوة والاعتداد بالنفس .. ولكنه لن يلبث عندما ضعفت الدولة ، ان يتحول الى غل فى عنقها ، وسبيلا للتدخل فى شئونها خاصة وان الدول الاوربية بدأت تطالب لنفسها واحدة بعد أخرى بنفس الحقوق والامتيازات .

ولم يستفد السلطان سليمان من محالفته لفرنسا شيئا ، فقد كان شعور الفرنسيين فى كراهية العثمانيين جارفا باعتبارهم من الكفرة ، ولذلك فلم يستطع فرنسوا الاول أن يقدم شيئا لحليفه .

١٥٣٨ م — ٩٤٥ هـ — العصبة المقدسة ضد العثمانيين :

فى هذه السنة تألف حلف مقدس من شارل الخامس امبراطور أسبانيا ، ومن البندقية ، والبابا ضد العثمانيين ولكن قوة الدولة العثمانية ، وسيادتها فى البحر الابيض المتوسط ، بفضل خير الدين بربروسا بطل البحار الاسطورى جعل هذا الحلف ينتهى الى الاخفاق ، وخسرت البندقية آخر مراكزها فى بلاد المورة التى أصبحت كلها تحت حكم العثمانيين .

سليمان باشا الخادم يستولى على عدن :

وفى هذه السنة عاد سليمان الخادم بعد حروبه البحرية التى انتهت بالاخفاق عند سواحل الهند . والتى أمضى فيها عامين وكان قد قام بها بناء على تعليمات من السلطان سليمان .

ولما كانت الدولة العثمانية لم تغفل مذ آل أليها حكم مصر وأصبحت مسئولة عن البلاد المقدسة عن المخاطر التى اصبحت تهدد هذا القسم من العالم الاسلامى نتيجة زحف البرتغال البحرى على البحر الاحمر والخليج العربى ، ولذلك فقد عهد السلطان سليمان الى والى مصر سليمان باشا الخادم أن يجهز فى ميناء السويس أسطولا بحريا للاستيلاء على اليمن وعدن باعتبارهما مفتاح البحر الأحمر لاتخاذهما قاعدة لغزو الساحل الهندى وطرد البرتغاليين منه .

وقد أبحر سليمان الخادم بأسطوله الى عدن ، فسلمها اليه صاحبها عامر بن داود بدون حرب ، ليكون حليفا له ضد أئمة اليمن الزيديين ، ولكن سليمان الخادم أطلق جنوده على أهالى مدينة عدن فنهبوهم وساموهم العذاب ، كما أصدر أمره بشنق عامر بن داود الذى عاونه على أحتلال المدينة ، وكان قد أمنه على نفسه ، وكانت هذه حماقة كبرى ، جعلت القلوب فى هذه المنطقة تنفر من الحكم العثمانى ، وجعل الحرب لا تنقطع بين الأئمة الزيديين فى اليمن وبين محاولة العثمانيين فرض سلطانهم على اليمن ، وقد ظل هذا النزاع بمثابة الجرح الدامى الذى لا يكف عن النزيف فى الدولة العثمانية . وكان هو السبيل لنجاح البرتغاليين أولا والانجليز ثانيا فى هذه المناطق .

وقد أبحر سليمان الخادم بعد استيلائه على عدن نحو ساحل الهند الغربى حيث كان البرتغاليون قد أقاموا على امتداده عدة قلاع واستولى على ميناء ديو وما يجاوره من بلاد .

واستطاع سليمان الخادم ، أن يهزم البرتغاليين فى البر والبحر وأن يستولى على عدد من سفنهم ، وقلاعهم ولكنه فشل فى الاستيلاء على مدينة ديو الحصينة ، وكان من أسباب فشله تخوف ملوك الهند من خيانته كما فعل بصاحب عدن .

وهو وان كان قد فشل فى مهمته الأساسية وهى اجلاء البرتغاليين من الهند ، الا انه أدخل اليمن وعدن تحت السيادة العثمانية .

ولاية داود باشا الخصى على مصر :

أعقب سليمان باشا الخادم ، داود باشا الخصى على ولاية مصر فى مطلع هـذه السنة (٩٤٥) وقد أجمعت كتب التاريخ على أن داود باشا كان رجلا مستقيما كريم الأخلاق محبا للعلماء آخذا بناصرهم كلفا بالمطالعة وبنوع خاص المؤلفات العربية ، فجمع منها عددا وافرا ، واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب فاجتمعت له مكتبة جميلة . وكان الأهالى فى مدة حكمه فى أمن ورخاء .

وقد مد داود باشا الحكم العثمانى الى بلاد النوبة ، وأوفد اليها حاكما من لدنه ، اقام القلاع على ضفتى النيل ، ليثبت الحكم العثمانى .

١٥٤٣ م ــ ٩٥٠ هـ ــ وفاة الخليفة المتوكل آخر العباسيين فى مصر :

فى شعبان من هذه السنة مات الخليفة المتوكل بطاعون كان منتشرا فى مصر وكان أبوه الخليفة يعقوب قد سبقه بالوفاة ، وبموت الخليفة المتوكل ، لم يخلفه عباسى آخر ، وبذلك طويت صفحة العباسيين نهائيا .

١٥٤٩ م ــ ٩٥٦ هـ ــ وفاة داود باشا والى مصر :

مات داود باشا فى هذه السنة ودفن بضريح الامام الليث . وكان من أعماله تعمير مقام السيدة . وقد أحس الشعب لأول مرة خلال حكمه الذى دام أكثر من أحد عشر سنة بالراحة والطمأنينة . ويروى عنه أن الشيخ أحمد بن عبد الحق شيخ الجامع الأزهر ، اعترض عليه باعتباره رقيقا وأحكامه باطلة ، ولما رفع الأمر الى الباب العالى ارسل ورقة عتقه الى داود باشا مع الشكر لشيخ الاسلام الذى قام بواجبه فى الحرص على أحكام الدين .

١٥٥٢ م ــ ٩٥٩ هـ ارسال أسطول بحرى من مصر الى عدن والهند :

ثار سكان عدن بمعاونة الزيديين والبرتغاليين على الحاكم العثمانى فأجلوه عن عدن ، فاضطرت الدولة العثمانية ، لاعادة سلطانها الى عدن ، فكلف والى مصر باعداد حملة بحرية لأداء هذه المهمة ، فأبحر من مدينة السويس أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة ما بين أغربة وشوالى وغلايين تحت قيادة « بيرى ريس » فاستطاع أن يسترد

عدن وأن يستولى على مسقط ، وأن يضرب حصارا على مدينة هرمز قلعة البرتغاليين فى مدخل الخليج العربى . ولكنه لم يكد يسمع بقرب وصول أسطول برتغالى لمحاربته حتى أسرع يرفع الحصار والعودة الى مصر محملا بالغنائم التى اغتنمها . فاعتبره السلطان سليمان خائنا وأصدر أمرا باعدامه .

١٥٥٣ م — ٩٦٠ هـ — أسطول بحرى جديد يقلع من مصر :

أصدر السلطان سليمان أمره بتجهيز أسطول جديد لاتمام المهمة التى قصر فى ادائها « بيرى ريس » وكان على رأس الاسطول البحرى الشهير والفلكى الخبير « سيد على » .

ويقول الدكتور محمد انيس فى كتابه الشرق العربى أن سيد على هاجم الأساطيل البرتغالية فكانت الهزيمة من نصيبه .

ويمضى معلقا على هذا الحادث ويبدو أن العثمانيين قد تخلوا بعد سنة ١٥٥٤ عن سياسة شن الحرب ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وضد ايران فى الخليج العربى ، وتحددت أهمية اليمن لدى العثمانيين بعد هذه السنة فى الدفاع فقط عن البحر الأحمر .

أما سرهنك باشا فيقول فى كتابه « حقائق الاخبار » أن سيد على انتصر على اسطول برتغالى تفوق سفنه ثلاثة امثال سفن سيد على ولكن الأقدار حرمته من ثمرة هذا النصر اذ أغرقت الكثير من سفنه بعد ذلك ، حيث نجا هو وحفنة من بحارته وقد ألف عن هذا الحادث كتابا اسماه « مرآة الممالك » ويمضى اسماعيل سرهنك معلقا فيقول : وقد ترتب على هذه المعارك أن اصبحت الأساطيل العثمانية تتردد على بلاد الهند دون أن تلقى كثير مقاومة من البرتغاليين .

وهما تعليقان متناقضان كما ترى .

١٥٥٤ م — ٩٦١ هـ — ولاية محمد باشا الشهير بدقادن زاده على مصر :

بعد أن تعاقب على مصر واليان مصطفى باشا صفصاف (٩٥٦) ثم على باشا (٩٥٦ — ٩٦١) تولى باشوية مصر محمد باشا الشهير بدقادن باشا زاده فأراد أن يظهر الغيرة فى جباية الأموال ، وبدلا من تحصيل ٨٠٠ الف بندقى (وحدة العملة الذهبية) وهى مقدار مخصصات الباب العالى ، حصل محمد باشا ١ر٢٠٠ر٠٠٠ بندقى ليحظى برضا السلطان ولكن السلطان سليمان رفض أن يقبل فى الخزينة أكثر من المقرر على مصر ، وأمر باستعمال الـ ٤٠٠ر٠٠٠ بندقى الزائدة فى تحسين الحالة فى مصر بانشاء القناطر والجسور والترع والمنشئات العامة .

وكان طبيعيا أن ترتفع الشكاوى من مثل هذا الوالى ، وأن ينتشر الغلاء فى عهده، فضجت منه الجماهير ، وشكوا الى الباب العالى ، واستجاب الباب العالى لشكواهم ، فعزل دقادن زاده من منصبه واستدعى الى اسطنبول ، وحوكم فثبتت ادانته فحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم .

١٥٥٥ م – ٩٦٢ هـ – السلطان سليمان يبرم معاهدة للسلام مع العجم :

لم تكن الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية فى ايران ، تهـدأ الا لتشتعل من جديد . وكان شاه ايران ينتهز دائما انشغال العثمانيين فى حروبهم فى أوروبا ، لكى ينقض من جديد على حدود الدولة العثمانية ، ويستعيد العراق . فبعث السلطان سليمان فى هذه السنة بجيش وضع على رأسه الصدر الأعظم رستم باشا ، ثم ذهب بنفسه وراس الجيش ، فأتم احتلال القسم الغربى من بلاد الفرس كله دون أن تصادفه أى مقاومة . واستعاد مدينة بغداد فى ٨ رجب من هذه السنة .

ثم وافق على عقد معاهدة مع شاه ايران ، يعترف فيها هذا الأخير بحق الدولة العثمانية فيما فتحته من بلاد فى العراق وأرض الجزيرة كما اعترف السلطان من ناحيته بحق الشيعة من الأعاجم بحج بيت الله الحرام ، ومزاولتهم مذهبهم دون أن يتعرض لهم أحد .

١٥٦٦ م – ٩٧٣ هـ – تعاقب الولاة على مصر :

تعاقب على مصر بعد دقادن زاده أربع ولاة – اسكندر باشا (٩٦٣ – ٩٦٦ هـ) وعلى باشا الخادم (٩٦٦ – ٩٦٧ هـ) وكان من أهل الصلاح منزها عن الرشوة عادلا فى أحكامه لم يترك عند وفاته سوى سبعة دنانير .. ثم مصطفى شاهين باشا (٩٦٧ – ٩٧١ هـ) وكان على النقيض من سلفه جعل الرشوة شعاره والظلم دثاره على ما يقول أمين باشا سامى فى تقويمه .. ثم تلاه على باشا الصوفى الخادم (٩٧١ – ٩٧٣ هـ) فأساء بدوره السيرة وأرهق الرعايا .

وفى شوال من هذه السنة (٩٧٣ هـ) تولى من يدعى محمود باشا فكان أقبح سيرة من كل من سبقه ، فقد حتم على الأهالى مذ وصل الى الاسكندرية أن يستقبلوه بالهدايا العظيمة ، وعندما وصل الى القاهرة ، قابله الأمير محمد بن عمر متولى الصعيد فى سفينة محملة بالعديد من الهدايا بالاضافة الى خمسين ألف دينار قدمها له ، فأخذ الباشا الهدية ثم أمر بخنقه ، كما أمر بخنق القاضى يوسف العبادى لأنه لم يأت لمقابلته ولم يهده شيئا .

وكان طبيعيا ان تنتهى حياة مثل هذا الطاغية بالقتل كما سنأتى :

١٥٦٧ م – ٩٧٤ هـ – وفاة السلطان سليمان القانونى :

فى العشرين من صفر من هذه السنة الموافق ٥ سبتمبر من السنة الميلادية توفى السلطان سليمان القانونى ، وهو فى حومة الوغى كما كان طول حياته ، فقد كانت الحرب فى بلاد المجر قد تجددت ، فسار على رأس جيشه وضرب الحصار على احدى مدن المجر المشهورة فأدركته الوفاة . وكان عمره يوم مات ستا وسبعين سنة حكم منها ثمانية وأربعين سنة بلغت فيه الدولة أوجها فاتسعت رقعة فتوحاتها برا .. وبلغت جيوش الدولة ثلثمائة ألف جندى .. وفى البحر كان أسطولها ، سيد الأساطيل فى البحر الأبيض اذ بلغت عدة سفنه الحربية ثلاثمائة سفينة وهو ما لم يكن فى حوزة

أى من دول أوروبا ، فلا عجب اذا انزوى أمامه أسطول البندقية ، واحتمى به الفرنسيون ضد أسطول عدوهم شارل الخامس .. وذلك بفضل خير الدين بربروسا، الذى هزم كل التحالفات البحرية التى انعقدت ضد الدولة وضم اليها اقليمى تونس والجزائر .

بذور الضعف :

واذا كانت الامبراطورية العثمانية قد امتدت فى نهاية عهد السلطان سليمان من الدانوب حتى الخليج العربى ، ومن أراضى الاستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر .. فهناك قول على أن السلطان سليمان هو واضع الأسس التى أدت الى تدهور الدولة وضعفها بعد ذلك .

فهو الذى استن سنة ترك مسئولية الحكم للوزراء الذين كانوا فى أغلب الاحوال من عناصر غير اسلامية اعتنقت الاسلام أو تظاهرت باعتناقه من غير عقيدة وايمان ، فكان لهم أسوأ الأثر فى تسيير دفة الدولة ، ولكنا لا نسلم بهذا الرأى ، فقد جاءت ظروف كان فيها هؤلاء الوزراء هم الذين حموا الدولة من الانهيار .

كما بدأ سنة امكان سير الجيوش دون أن يكون السلطان على رأسها ، مما جعل خلفاءه يتقاعسون عن أداء هذا الواجب ولما كان الانكشارية قد اعتادوا أن لا يحاربوا الا اذا كان السلطان على رأسهم ، فقد أدى غياب السلطان الى تدهور حميتهم العسكرية .

كما كان هو الذى أباح للانكشارية حق الزواج ، فكان بذلك بدء انهيار هذا النظام الصارم الذى قامت على أساسه الانكشارية والذى كان هو سر قوتها .

النقطة السوداء فى حياة سليمان القانونى :

ونحن الذين جرينا فى تاريخنا على استنكار جرائم القتل والعنف والغدر ، فلسنا نستطيع أن نعلق صفحة سليمان القانونى المشرفة دون أن نشير الى هذا الحادث الذى يعتبر وصمة فى جبين هذا الملك .. وذلك هو قتله ابنه الأكبر مصطفى ظلما وعدوانا تحت تحريض زوجته الروسية روكسلانا لتزيحه من طريق ابنها سليم ، فقتله بدون تحقيق أو تثبت ، بزعم أنه كان يتآمر عليه .

كما قتل ابنه الآخر بيازيد وأولاده الخمسة ، تحت تأثير دسائس مماثلة من رجال البلاط .

تولى السلطان سليم خان الثانى العرش :

فى التاسع من ربيع الأول من هذه السنة تولى سليم الثانى ابن روكسلانا الروسية الملك بعد أبيه . وكان سنه اذ ذاك خمسة وأربعين سنة ولم يكن السلطان الجديد كفئا لمواجهة أعباء هذه الامبراطورية الضخمة ولكن وزيره الأول صقلى باشا محمد كان على دراية عسكرية وسياسية وادارية مكنته من أن يظل محتفظا للدولة بمكانتها الرفيعة التى وصلت اليها .

١٥٦٨ م ـ ٩٧٥ هـ ـ مصرع والى مصر محمود باشا :

فى يوم الأربعاء آخر جمادى الأول من هذه السنة قتل والى مصر محمود باشا بينما كان مارا فى موكبه المعتاد بين البساتين ، ولم يعرف من الذى قتله ، واتهم بقتله فلاحان مظلومان وجدا بالقرب من الحادث .

وقد دفع محمود باشا حياته ثمن مسلكه الدموى ، حيث كان لا يسير الا مصحوبا بجلاده (الشوباصى) ولم يكن يكلفه قتل أحد الا مجرد اشارة لهذا الجلاد لكى ينفذ أمره فى لمح البصر .

ولاية سنان باشا على مصر :

وكان مقدرا لمصر أن يخلف أسوأ الولاة العثمانيين بها ، وال عثمانى من أعظم من ولوا مصر ، وذلكم هو سنان باشا الذى سيصل عن طريق ولايته مصر الى منصب الصدر الاعظم .

١٥٦٩ م ـ ٩٧٦ هـ ـ سنان باشا يعيد فتح اليمن :

اضطرت الدولة العثمانية للمرة الثالثة أن تعيد فتح اليمن من اليزيديين فكلفت سنان باشا بهذه المهمة ، فغادر مصر على رأس حملة لاعادة فتح اليمن ، بعـــد أن استخلف على مصر اسكندر باشا الشركسى .

وقد نجح سنان باشا فى مهمته فى اليمن ، واستطاع أن يدخل صنعاء لاول مرة ، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية ، وقد ظل فى اليمن ينظم شـئونه ويقر الأمن فى نصابه لمدة عامين وبضعة شهور .

١٥٧١ م ـ ٩٧٩ هـ ـ عودة سنان باشا الى ولاية مصر :

أعيد سنان باشا بعد نجاحه فى اليمن الى ولاية مصر فى أول صفر من هذه السنة الهجرية .. فخط فى تاريخ الولاة العثمانيين فى مصر أزهى صفحة ، اذ أعاد ترعة الاسكندرية التى كانت قد ردمت فحرمت الاسكندرية معين الحياة .. وبنى وعمر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات واختص بولاق باهتمامه فشق فيها شارعا وأنشأ وكالات للتجار ، وشيد جامعا لا يزال قائما فى بولاق مشهورا باسمه ، وهو من خير ما أنتج العهد العثمانى .

ويصف أمين باشا سامى عهد سنان باشا بقوله ان الرخاء شمل مصر فى أيامه حتى وصل سعر الاردب القمح عشرة انصاف وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضى .

فتح جزيرة قبرص :

وفى العاشر من ربيع الأول من هذه السنة ، تم فتح جزيرة قبرص وكانت البندقية قد انتهزت فرصة زوال سلطان المماليك فاحتلتها وحولتها الى قلعة حصينة ، ولكن

اساطيل الدولة العثمانية هزمت اسطول البندقية واستولت على الجزيرة ، فتمت لها بذلك السيادة المطلقة على شرق البحر الأبيض المتوسط .

هزيمة الأسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو البحرية :

ولكن دول البحر الأبيض البحرية ، قررت أن تتصدى للبحرية العثمانية فألفت حلفا بحريا من البندقية وأسبانيا ومالطة وتوج البابا الحلف .

وكان خير الدين بربروسا بطل البحرية العثمانية قد مات منذ زمن بعيد وشاء سوء الحظ أن يكون على رأس الأسطول قائد لا دراية له بحروب البحر .

وفى السابع من أكتوبر من هذه السنة الميلادية تم اللقاء بين الأساطيل المتحالفة والأسطول العثمانى عند ليبانتو ، فسحق الأسطول العثمانى اذ غرق منه ثمانون سفينة ، واستولى أسطول العصبة المقدسة على مائة وثلاثين سفينة ، ولم ينج الا أربعين سفينة لاذت بالفرار بعد أن أبلت بلاء حسنا اذ كان على رأسها قائد يجيد الحرب البحرية .

ويعتبر المؤخون الأوربيون معركة ليبانتو من المعارك البحرية الفاصلة وانها من أهم المعارك بعد معركة اكتيوم .

وقد عمت الفرحة أرجاء أوروبا لهذا الانتصار الكبير ، كما عمت الأحزان أرجاء الدولة العثمانية ومن بينها مصر .. ولكن صقللى باشا الصدر الأعظم رجل الدولة العثمانية العظيم فاجأ أوروبا والعالم كله باعاده انشاء الأسطول العثمانى فى خلال سنة واحدة ، مما عد من قبيل المعجزات الصناعية والعسكرية . بحيث رأت البندقية نفسها مضطرة فى العام التالى أن تتصالح مع الدولة العثمانية فى مقابل تنازلها نهائيا عن جزيرة قبرص .

١٥٧٤ م ــ ٩٨٢ هـ ــ الاستيلاء على تونس :

لم يقف الأسطول العثمانى الجديد عند حد احتلال قبرص ، بل استطاع أن يستولى على تونس نهائيا ، ويقضى على قوة الأسبانيين التى كانت تضع تونس تحت حمايتها وأنشأت بها قلعة من أحصن القلاع اشتهرت باسم حلق الوادى .

وكان على رأس الأسطول والقوة المقاتلة التى هزمت الأسبان واستولت على قلعة حلق الوادى وبالتالى تونس كلها ، سنان باشا ، الذى أعلن ضم تونس الى الدولة العثمانية ، فأصبحت طرابلس وتونس والجزائر تحت السيادة العثمانية .

وفاة السلطان سليم خان الثانى :

فى السابع من شعبان من هذه السنة ، مات السلطان سليم شاه بعد أن حكم ثمانى سنوات وخمسة أشهر وكان عمره يوم مات اثنين وخمسين سنة .

وباستثناء الهزيمة التى منيت بها البحرية العثمانية فى موقعة ليبانتو فقد اتسعت رقعة الدولة فى أيامه وظلت محافظة على المكانة العالية التى وصلت اليها ، وذلك بفضل وزيره الأول صقللى باشا .

انشاء أول مستعمرة يهودية فى فلسطين :

وينسب اليه وليم لانجر فى موسوعة تاريخ العالم ، أنه صاحب الفضل على اليهود فى انشاء أول مستعمرة يهودية لهم حول بحيرة طبرية فى فلسطين ، اذ استطاع أن يقنع ولده السلطان سليمان أن يمنح صديقه دون يوسف ناسى اليهودى الأسبانى هذه المقاطعة ليجمع فيها اليهود المشردين من ايطاليا .

جلوس السلطان مراد خان الثالث على العرش :

فى الثامن من رمضان من هذه السنة جلس على العرش مراد خان الثالث ابن السلطان سليم وكان عمره عشرين سنة . وكان فاتحة سلطنته أن أصدر أمرا بعدم شرب الخمر الذى شاع استعماله أيام ابيه ولكن الانكشارية اضطرته فيما بعد على اباحته بشرط عدم الافراط فيه .

تعيين مسيح باشا الخادم واليا على مصر :

كان قد خلف سنان باشا عقب انصرافه عن ولاية مصر ، حسين باشا الذى كان محبا للعلماء والفقهاء غير سفاك للدماء ، حتى لقد عيب عليه أن كثرة حلمه أدت الى تكاثر اللصوص .

فلما أن ولى مراد الثالث ، بعث الى مصر بمسيح باشا الخادم ــ وكان عادلا مهيبا ــ يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق ، يقتل منهم من يظفر به ، فانتظمت الأحوال فى أيامه وخافه الحكام والولاة وبطلت الرشوة .

١٥٧٨ م ــ ٩٨٦ هـ ــ ضم المغرب الى السيادة العثمانية :

استنجد سلطان المغرب بالعثمانيين ، ضد البرتغاليين الذين أعانوا أحد المتطلعين الى عرش المغرب على اغتصابه ، فاستجابت الدولة العثمانية ، وأرسلت جيشها وبحريتها ، ودارت الحرب مع جيش البرتغال وأسطولها فكانت الغلبة للعثمانيين وأعيد السلطان الى عرشه تحت السيادة العثمانية ، وبذلك انتظم شمال أفريقيا كله تحت السيادة العثمانية .

مقتل الصدر الأعظم صقللى محمد باشا :

ولكن الدولة العثمانية رزئت فى هذه السنة بخسارة رجل من أعظم رجالاتها وهو صقللى محمد باشا الصدر الأعظم ، اذ تآمر عليه حريم السلطان وسلطوا عليه من اغتاله ... ويقول عنه المؤرخون العثمانيون انه : بموت صقللى محمد انهدم ركن عظيم من الدولة فان الصدور الذين توالوا بعد ذلك على الحكم وعددهم عشرة فى احدى عشرة سنة لم يكن لهم من عمل ، الا المشاحنات والمؤامرات والدسائس التى عادت على الدولة بأوخم العواقب .

وقد بلغ من مكانة صقللي باشا في التاريخ العثماني ، أنهم جعلوا حادث مقتله من الوقائع التاريخية التي يؤرخ بها في حياة الدولة العثمانية بحيث يجعلونه حدا فاصلا بين ما كانت عليه الدولة من قوة ومنعة وما راحت تتدهور اليه بعد وفاته .

١٥٨٧ م — ٩٩٥ هـ — توالي الولاة على مصر :

في الثاني والعشرين من جمادي الثاني من هذه السنة انتهت ولاية مصر الى أويس باشا أو (عويس باشا) بعد ثلاثة ولاة — تعاقبوا على مصر بعد مسيح باشا الخادم الذي نقل الى استنبول ولم يلبث أن تولى منصب الصدر الأعظم .

وهؤلاء الثلاثة هم حسن باشا الخادم الذي لم يكن له هم الا جمع الأموال فكرهته البلاد ، حتى أنه غادر البلاد خفية عندما عزل من منصبه مخافة انتقام الشعب منه .

وخلفه ابراهيم باشا أحد ندماء السلطان الذي بعث به الى مصر ليحقق في أعمال سلفه ، فرفع تقريرا للسلطان بالمظالم التي ارتكبها حسن باشا ضد الأهالي والأموال التي اختلسها من الدولة فصدر الأمر بمحاكمة حسن باشا الخادم وصدر الحكم باعدامه وأعدم . واستقال ابراهيم باشا من منصبه وعاد الى اسطنبول محملا بالكنوز التي استولى عليها من مقتنيات حسن باشا الخادم .

وكان من بينها عرش من الذهب الخالص مرصع بالأحجار الكريمة ، سرعان ما أصبح هو العرش الذي يجلس عليه سلاطين آل عثمان عند تتويجهم .

وقد عهد ابراهيم باشا قبل مبارحته مصر الى سنان باشا الدفتردار بالولاية على مصر ، ولكنه أساء السيرة ولم يحسن السياسة فاشتكاه الناس الى الباب العالي ، فاستجاب للشكوى وبعث بأويس باشا .

١٥٨٨ م — ٩٩٦ هـ — معركة الأرمادا البحرية الكبرى :

في هذه السنة وقعت احدى المعارك البحرية الحاسمة في التاريخ الحديث ، اذ انتهت سيطرة أسبانيا على البحار ، التي لم يكن ينازعها هذه السيادة سوى البرتغال ، ليفسح الطريق لثلاث دول جديدة وهي هولندا وانجلترا وفرنسا .

أما هذه المعركة فهي معركة الأرمادا ، حيث استطاع أسطول انجليزي صغير ، أن يقهر أعظم أسطول حشد في التاريخ لغزو انجلترا وهو الأسطول الأسباني الذي سمي الأرمادا لضخامته ، والذي تحطم عن بكرته . وقد كان لهذه المعركة أثر مباشر في ميزان القوى البحرية في البحر الأبيض المتوسط ، اذ عادت أساطيل الدولة العثمانية لسيادة البحر الأبيض دون منافس خطر ، وان كانت هذه البحرية قد بدات تتدهور لارتباك أحوال الدولة .

١٥٩٠ م — ٩٩٨ هـ — الدولة العثمانية تمد حدودها الى القوقاز وبحر قزوين :

في هذه السنة عقد صلح جديد بين العثمانيين والفرس عقب هذه الحروب التي لم تنقطع منذ عام ١٥٧٧ وبموجب هذا الصلح حصل العثمانيون على جورجيا واذربيجان وشروان ، ومدوا بذلك حدودهم الى القوقاز وبحر قزوين .

١٥٩١ م – ٩٩٩ هـ – استقالة أويس باشا من ولاية مصر :

فى هذه السنة استقال أويس باشا من ولاية مصر بعد أن غلبه الجنود على أمره ، فقد فكر أن يفرض على الجنود النظم العسكرية الحديثـــة فعصوه وهجموا عليــه وأهانوه ونهبوا بيته . وذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية ، وخربوا بيت قاضى العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ، ثم عمدوا الى نهب الحوانيت ، فسرت موجة من الذعر والفزع بين الجماهير ، وتحول الأمر الى فتنة عامة ، وحاول الدفتردار تهدئة غضب الجند ، فأرسل بتعليمات الى القضاة ، أن لا تخالفوا للعســاكر أمرا ، فلم يزدهم ذلك الا عتوا وفجورا ، حتى لقد قبضوا على أولاد الباشا الوالى رهينة ، وقد اختلف فى نهاية أويس باشا ، فمن قائل أنه مات حزنا ، ومن قائل أنه قتل ومن قائل أنه استقال (١) .

تعيين حافظ أحمد باشا الخادم واليا على مصر :

فى السادس من شـــهر رجب من هــذه السنة تولى حافظ أحمــد باشا الملقب بالخادم ولاة مصر ، وكان من قبل واليا فى قبرص وكان على جانب عظيم من حب العلم وطالبيه ، حاذقا مدبرا فى أمور الأحكام وكان رفيقــا بالأهالى ، كثير الحسنات على الحجاج والفقراء ، وقد جدد كثيرا من العمارات ، وانشــــأ فى بولاق وكالتين وعدة قيسريات وبيوت وخصص ريع دخلهـــا لعمل الخير . وظل حاكمــا لمصر مدة أربع ســنوات .

١٥٩٥ م – ١٠٠٣ هـ – موت السلطان مراد خان الثالث :

فى الثامن من جمادى الأولى من هذه السنة توفى مراد خان الثالث عن خمسين سنة .. وكانت مدة سلطنته احدى وعشرين سنة تقريبا .

وهو وان حافظ على رقعة الدولة العثمانيـــة ، فان المؤرخين يجمعون على أن انحدار الدولة العثمانية عن القمة الشاهقة التى كانت قد وصلت اليها يبدأ من حكم هذا السلطان وخاصة بعــد اختفاء صقللى باشا من المسرح . ويلخص وليم لانجر فى كتابه موسوعة تاريخ العــالم وجهة نظر المؤرخين الأوروبيين فى بدء انحدار الدولة العثمانية وأسبابه فيقول : ويعتبر عام ١٥٨٥ بداية انحلال الامبراطورية العثمانية بسبب ضعف السلاطين وتخليهم عن شئون الحكم للوزراء – وانتشار الفساد ونفوذ الحريم وظهر نظام (اليهود واليونان وغيرهما) والانحلال الذى لا مفر منه فى الجهاز العسكرى وخاصة بين الجنــد الانكشارية حيث سمح السلاطين لرعيتهم من الأتراك بالالتحاق بهــا .

وبعــد أن صارت الامبراطورية متاخمة لأطراف الدول الأوروبيــة القوية فان فتوحاتها غدت مستعصية ، كما قلت الاقطاعات العسكرية العثمانيــة وكان لابد من ترضية الجند دائما بالهدايا والمنح .

---

(١) انظر تاريخ أمين سامى تقويم النيل – وتاريخ مرعى وجورجى زيدان

وكانت الجند الانكشارية فى الأصل حرسا خاصا ، ولكنها بدأت تعين السلاطين وتخلعهم . كما صار معظم أولئك السلاطين العوبة فى ايديهم .

وقد بدأ هذا العهـــد يتصف بزيادة الضرائب فى الامبراطورية وضـآلة الدخل الحكومى . وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الهولنديون والانجليز والفرنسيون تجـارة زاهرة فى الشرق .

تولى السلطان محمد خان الثالث العرش :

فى العاشر من جمادى الأول من هذه السنة بويع بالسلطنة محمد خان الثالث ابن مراد خان من محظيته الفينيسية المسماه صفية ، وكان عمره يوم جلس على العرش تسعا وعشرين سنة . وكان أول عمل قام به أن أمر بقتل جميع اخواته الذكور وكانوا تسعة عشر أميرا ، وأمر باغراق عشر جوار لأبيه كانت حبالى ، وذلك كله للحيـلولة دون وقوع منازعات حول العرش .

السلطان ينتصر فى معركة كرستس على النمساويين :

وقد أحرز السلطان (١٠٠٥ هـ ــ ١٥٩٦ م) نصرا عسكريا من الطراز الأول على جيش مكسمليان ملك النمسا وسيجسمون ملك ترانسلفانيـا فى معركة كرستس ، حيث خسر النمساويون والترنسلفانيون مائة الف قتيل وكان ممكن أن تسقط مدينة فينا نفسها لولا دخول فصل الشتاء . وقد أعادت هذه المعركة الى الأذهان ، معركة موهاكز ، ولكنها رغم ضخامتها من الناحيـة العسكرية ، التى أعادت الهيبـــة الى الجيوش العثمانية لم يكن لها أثر حاسم ، فلم تلبث أن استؤنفت الحرب بين العثمانيين والنمساويين .

١٦٠٢ م ــ ١٠١٠ هـ ــ توالى الولاة العثمانيين على مصر :

توالى الولاة على مصر حسب النظــام المألوف ــ فأرسل الى مصر محمد نورلى باشا (١٠٠٣ ــ ١٠٠٤ هـ) وكان أميا ساذجا ولكنه كان كريما حليما ــ ثم أعقبـه محمد باشا الشريف (١٠٠٤ ــ ١٠٠٦ هـ) ــ وكان من اجل أعمــاله انه أعاد ترميم الجامع الازهر ، وجعل فيه توزيعا يوميا من العدس المطبوخ على الطلبة الفقراء ، كما اصلح بناء المشهد الحسينى . وقد حاول أن يمنع العساكر من أخذ الضريبـة التى فرضوها على الأهالى (الطلبة) فتمردوا ضده وهموا بقتله واضطر لأن يحتمى منهم بالقلعة وقتلوا بعض كبار الأمراء وعلقوا رؤوسهم على باب زويله ، ونهبـوا بيوتهم واثخنوا فى الناس قتلا ونهبا .

فلما وصلت هذه الأنباء الى الباب العــالى ، عزل من منصبه وارسل بدلا عنه خضر باشا (١٠٠٦ ــ ١٠١٠ هـ) وكان من الولاة الجشعين الذين يميلون الى جمع المال بكل الوســائل ، فأغضب الأهالى منذ وصوله الى القــاهرة ، اذ أمر بقطع جميع الاعطيات التى كانت توزع على العلماء والفقراء من القمح . وانضم الجند الى الأهالى عندما قطع عنهم بعض أعطياتهم ، فثاروا وأخذوا قاضى العسكر وزحفوا على الديوان

فقتلوا نائب الباشا (الكخيا) وبعض الأمراء ، واضطر الوالى الى التسليم بمطالب الجند والأهالى فخمدت الثورة ولكن الأمر جاء من الباب العالى باقالته وتولية على باشا ياوز السلحدار المعروف بالنمر (١٠١٠ — ١٠١٢ هـ) وكان شجاعا حازما صارما ، عندما كثرت لديه الشكاوى من كشاف الأقاليم أمر بقتل بعضهم فهابه الحكام والكشاف . وشدد فى مطاردة اللصوص ، ونفى ذوى المفاسد .

ووقع فى أيامه الطاعون ، وكثرت ضحاياه ، فخاف الوالى على نفسه وترك القاهرة وولى عليها بيرى بك الذى لم يلبث أن مات ، فانتخب السناجق الأمير عثمان بك ليحل محله ثم طلب على ياوز من السلطان أن يقيله من ولاية مصر فأقاله وسافر الى اسطنبول حيث أصبح صدرا أعظم .

بدء شرب الدخان :

وفى مدة ولايته بدأت عادة شرب الدخان لأول مرة فى مصر .

١٦٠٣ م — ١٠١٢ هـ — وفاة السلطان محمد خان الثالث :

فى الثانى عشر من شهر رجب الموافق السادس عشر من ديسمبر من السنة الميلادية ، مات السلطان محمد خان وكان عمره لا يزيد عن ٣٧ سنة ومدة حكمه تسع سنوات . فجلس على العرش ابنه من بعده .

تولى السلطان أحمد خان الأول العرش :

فى نفس اليوم الذى مات فيه السلطان بويع بالملك ابنه أحمد خان ولم يكن عمره يتجاوز الرابعة عشرة ، ولم يحدث أن ولى عرش العثمانيين سلطان فى هذا السن ، فلا عجب اذا بدأت الدولة تهتز ، وتناوشتها الحروب من الشرق والغرب ، وعجزت الدولة عن مواجهة الأخطار المحدقة بها .

انتصار العجم على الدولة :

فأما بلاد العجم فقد استأنفت نهضتها تحت زعامة الشاه عباس الكبير الذى سعى لاعادة بلاده الى سابق مجدها ، فنقض المعاهدات بينه وبين الدولة العثمانية ، واسترد مدينة تبريز وبعض المناطق الأخرى وظل يواصل ضغطه وزحفه .

وفى الغرب عادت النمسا لمقاومة الدولة العثمانية فى بلاد المجر وتضغط عليها .

١٦٠٤ م — ١٠١٣ هـ — تولية ابراهيم باشا على مصر ثم قتله :

فى هذه السنة تولى على مصر الوزير الحاج ابراهيم باشا ، ، وكان مستبدا برأيه لا ينقاد الى نصح ناصح ولا اشارة مشير .

وقيل انه راح يتجسس على الجند فى مجالس لهوهم ، واعتزم أن يقطع عنهم بعض أعطياتهم . فثار عليه الجند وانتهى الأمر بقطع رأسه ورأس أمير اللواء محمد خسرو باشا وعلقوهما على باب زويله .

تولية الوزير محمد الكورجى الخادم :

غضب الباب العالى لمقتل ابراهيم باشا فأرسل واليا على مصر محمد باشا الكورجى الملقب بالخادم ، مزودا بالأوامر بمعاقبة رؤوس الفتنة التى انتهت بقتل الوالى ، وقد أظهر الحزم فى تنفيذ هذه المهمة حتى بلغ عدة من قتلهم مائتين مما جعل الجند يعودون الى النظام والطاعة ويسود الأمن .

١٦٠٥ م ـ ١٠١٤ هـ ـ تولى حسن باشا الدفتردار على مصر :

فى آخر صفر من هذه السنة تولى حسن باشا الدفتردار ولاية مصر . وكان قبل مجيئه الى مصر واليا على بلاد اليمن حيث ظل فى هذا المنصب خمسا وعشرين سنة ، جمع خلالها أموالا طائلة . وقد شمل الأزهر فى مصر بعنايته ، وأصدر أمره بتبليط صحن الجامع . وكانت أخلاقه مرضية حببت فيه أهل مصر ، ولكنه كان متراخيا فى أعماله الادارية فتطرق الخلل الى ادارة مصر .

١٦٠٨ م ـ ١٠١٧ هـ ـ ولاية محمد باشا معمر على مصر :

ثار الجنود على محمد باشا معمر الذى ولى مصر فى العام السابق بعد انقضاء ولاية حسن باشا الدفتردار ، وكان حاكما اداريا حازما ، يعرف أن سلامة الدولة فى راحة مواطنيها ، ولذلك فقد رأى أن يرفع المظالم الضرائبيـــة التى استشرت باسم الكشوفية والقبالة والطلبة .

فتمرد جنود ثلاثة من الوجاقات السبعة واعترضوا على هذا الالغاء ، وبلغ الأمر بهم الى حد أن عينوا لأنفسهم سلطانا عليهم وقسموا مصر على أفراد منهم ، فتصدى محمد باشا لحربهم بباقى الوجاقات وساعده الأهالى ، فقضى على الفتن وقبض على المحرضين وقادة الفتنة فأعدمهم .

وقد حوت كتب التاريخ عن هذه الفترة ، قصائد حيا بها أدباء هذا العصر محمد باشا بنجاحه فى اخماد هذه الفتنة ، منها قول بعضهم : بشرى لمولانا الوزير محمد .. فهو الذى بذوى المفاسد يفتك وعلى البغاة انتصار دائم ... تاريخه جمع الخوارج أهلكوا وبعد أن استتب الأمن ، شرع فى اصلاح الادارة المالية ، فأبطل من النفقات كل ما لم يكن ضروريا ، وكان يتنازل عن الأرض التى لا تقوى على تأدية الضريبـــة الى الحائزين لها ، ويساعدهم على احيائها وأقام فى السنوات الأربع التى قضاها فى مصر كثيرا من المنشآت للصالح العام الشىء الكثير فى مصر والحجاز وغزة وبيت المقدس .

حتى اذا غادر مصر ، ودعه شعبها بالحفاوة والاكرام والدعاء له والأسف لفراقه ، ما لم يحظ به وال تركى من قبله .

١٦١١ م ـ ١٠٢٠ هـ ـ ولاية محمد باشا الصدفى على مصر :

فى جمادى الأول من هذه السنة تولى مصر محمد باشا الصـــدفى الذى اشتهر بالعفة وعدم قبول الرشوة وكان محبا للعلماء وفى زمنه سادت مصر موجة من الرخاء

سجلها المؤرخون فى كتبهم – اذ بيع أردب القمح بخمسة وعشرين نصفا فلوسا نحاسا والفول كل أردب بخمسه عشر نصفا والعدس والبسلة كل أردب بثمانية عشر نصفا والأرز بستة وتسعين نصفا – والجبن الطرى كل قنطار بثلاثين نصفا – والسكر كل قنطار بمائة وستين نصفا أما اللحوم والأسماك فلكثرتها بيعت بأرخص الأثمان .

وكل سبع وعشرين نصفا من الفلوس النحاس تعادل نصف فضة ومعنى ذلك أن أردب القمح كان ثمنه لا يتجاوز نصف فضة .

١٦١٣ م – ١٠٢٢ هـ – تمرد حملة كانت ذاهبة الى اليمن فى مصر :

وفى هذه السنة تمرد جنود حملة كانت مرسلة الى اليمن ، فلما وصلت الى مصر ، أعلنت تشبثها بالبقاء فى مصر ورفضوا أوامر الباشا لهم بالسفر الى اليمن – ورابطوا فى بعض أحياء القاهرة واقاموا حولهم المتاريس ، وأشهروا المدافع والسلاح فحاصرهم محمد باشا بكل ما لديه من جيوش مصرية ، فلما أيقن الجنود بالهزيمة استسلموا ، وأظهروا طاعة الأوامر ، وسافروا الى اليمن بعد أن اعطيت لهم بعض النقود .

١٦١٥ م – ١٠٢٤ هـ – ولاية أحمد باشا الدفتردار على مصر :

وكان القدر قد شاء أن تنعم مصر بسلسلة من الولاة الصالحين فقد كان احمد باشا الدفتردار ممن نعمت مصر فى ظلهم بالأمن والرخاء والعدل – فقد حدث أن ارتفعت الأسعار وعم الغلاء ، حتى بلغ سعر أردب القمح تسعين نصفا (بدلا من ٢٥ نصفا) فاتخذ من الاجراءات ما جعل سعر الأردب يهبط الى قرش واحد (١) .

وعندما طلبت منه الدولة العلية أن يرسل الفا من جنود مصر لينضموا الى الجيش الذاهب لمحاربة الفرس ، سارت هذه التجريدة على أتم نظام ومروا بمختلف مديريات القطر فلم يشعر الأهالى بمرورهم ، وهو حدث لم يسبق له مثيل ، حيث كان مرور مائة جندى فقط فى الريف يملأها بالفزع لكثرة ما ينهب ويسلب ويعتدى .

١٦١٧ م – ١٠٢٦ هـ – وفاة السلطان احمد خان :

فى الثالث والعشرين من ذى العقدة توفى السلطان احمد ولم يتجاوز عمره ٢٨ سنة حكم منها اربع عشرة سنة .

معاهدات مع فرنسا وانجلترا وهولندا وبولونيا :

ويعتبر عهد السلطان احمد هو عهد نشاط العلاقات الدولية السياسية مع دول أوروبا الحديثة التى سيقدر لها أن تسود المجتمع الدولى فى القرون الثلاثة التالية

(١) يقول جورجى زيدان أن القرش يساوى أربعة فرنكات وكان الفرنك يساوى أربعة قروش بعملتنا الحاضرة .

وهى انجلترا وفرنسا وهولندا فقد جددت فرنسا معاهدة صداقتها وامتيازاتها مع الباب العالى كما أبرمت انجلترا وهولندا معاهدتين مماثلتين لمعاهدة فرنسا ، حصلتا بموجبهما على حق سفنها من التجول فى ارجاء المياه الاقليمية للدولة ودخول موانيها رافعة اعلامها ، واحتكام رعاياهما الى قناصل الدولتين .

بدء استعمال التدخين :

وفى زمن هذا السلطان أبيح استعمال التدخين وكانت دولة هولندا أو الفلمنك كما كانت تسمى فى هذه الفترة ، هى التى ادخلت عادة التدخين الى البلاد الاسلامية ، وكان التدخين قد وفد الى أوروبا بعد اكتشاف امريكا ــ وقد قوبل التدخين فى بادىء الأمر بالاعتراض ، وأصدر مفتى السلطنة الفتاوى بانكاره ولكن الجنود سخطوا على هذه الفتاوى واشترك معهم بعض كبار موظفى القصر السلطانى ، فانتهى الأمر الى اباحته .

تولية السلطان مصطفى خان الأول :

خالف السلطان احمد التقليد الذى اتبعه السلاطين من قبله ، وهو قتل أخوتهم منعا للتنافس والتشاحن ، ولذلك فقد أبقى على حياة أخيه مصطفى ، كما لم يعهد الملك لابنه من بعده ، وانمى أوصى بالملك لأخيه مصطفى .

ولكنه لم يلبث فى السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، ثم تعاون المفتى وموظفو السراى الانكشاريةعلى خلعه ، وتولية ابن السلطان احمد وذلك للاستفادة بالهبات والأموال التى تعطى عند تولية سلطان جديد .

١٦١٨ م ــ ١٠٢٧ هـ ــ تولية السلطان عثمان خان الثانى :

بويع عثمان الثانى ابن السلطان احمد بالسلطنة وكانت سنه لا تزيد على أربعة عشر عاما .

وعلى الرغم من صغر سنه ، فقد حاول أن يسترجع للعثمانيين هيبتهم فى أوروبا ، فقرر ضم مملكة بولندا الى دولته ليكون حدا فاصلا بينه وبين دولة روسيا التى بدأت تتكون على حدود الدولة العثمانية ولكن العساكر الانكشارية تخاذلوا عنه وسط المعركة ، فاضطر لعقد صلح مع بولندا ولكنه اضمر الشر للجنود الانكشارية ، وقرر أن يضع حدا لهذا النظام الذى بدأ يتدهور ... وبعد أن كان هو سر قوة الدولة الدولة العثمانية ، تحول الى سر ضعفها وبعد أن كان سند السلاطين أصبح هو المتحكم فيهم .

١٦٢٢ م ــ ١٠٣١ هـ ــ مقتل السطان عثمان خان الثانى :

مضى السلطان عثمان فى تنفيذ خطته فى كسر شوكة الانكشارية وذلك باعداد جيوش جديدة تقف فى وجهها ، فأصدر أمره بتأليف قوات عسكرية فى ولايات آسيا وان يجرى تدريبها على أحدث أساليب القتال ... فلما نمى هذا الخبر الى

الانكشارية ، ثارت ثائرتهم على السلطان ، وهاجموه فى عقر حريمه وقادوه معتقلا الى احدى قلاعهم : ثم لم يلبثوا أن قتلوه ليتخلصوا منه نهائيا مبتدئين بذلك هـذه اللعبة الخطرة لعبة تعيين السلاطين وخلعهم وقتلهم بناء على رغبتهم وارادتهم .

اعادة السلطان مصطفى خان الى العرش ثم عزله :

رفعت الانكشارية الى العرش السلطان مصطفى الذى سبق عزله ـ وغرقت الدولة فى بحر من الفوضى ، اذ اضطرب حبل الأمن فى اسطنبول عاصمة الدولة وقامت الفتن فى أرجاء الدولة فأعلنت بعض الولايات استقلالها ، وسيرت ولايات أخرى الجيوش ضد الانكشارية اقتصاصا للسلطان المقتول وظلت الفوضى ضاربة أطنابها لمدة ثمانية شهور ، احس الجميع خلالها ، بأن الفوضى ليست فى صالح احد ، فرأوا أن يضعوا حدا لها .. فاختاروا للوزارة رجلا كفئا أشار عليهم بخلع السلطان وتولية سلطان جديد ، فخلع السلطان مصطفى للمرة الثانية ولم يلبث بعد قليل أن مات .

١٦٢٣ م ـ ١٠٣٢ هـ ـ تولية السلطان مراد الرابع :

نودى بالسلطان الغازى مراد خان ابن السلطان احمد الأول فى الخامس عشر من ذى القعدة من هذه السنة .

وكان عمره أربعة عشر عاما ، وقد اختاره الانكشارية حتى لا يكون عقبة فى سبيل أطماعهم ، وما حققوه من سلطان ونفوذ بعزل السلاطين وتوليتهم وقتلهم .

استيلاء العجم على مدينة بغداد :

انتهز الشاه عباس ملك العجم ، فرصة اختلال الأوضـاع فى الدولة العثمانية وانشغالها باضطراباتها الداخلية ، لكى يستعيد المناطق والبلاد التى استولى عليها العثمانيون ، فدخلت جيوشه الى العراق واحتلت مدينة بغداد وأزالت منها الحكم العثمانى .

تعاقب الولاة على مصر :

تعاقب على مصر منذ ولاية أحمد باشا الدفتردار (١٠٢٧ هـ) حتى بدء سلطنة مراد خان وهى فترة لا تزيد على خمس سنوات ستة ولاة وهم مصطفى باشا المنكلى (١٠٢٧ هـ) وجعفر باشا (١٠٨٢ هـ) وفى أيامه أصيبت مصر بوباء الطاعون الذى استمر ثلاثة اشهر ثم مصطفى باشا الحميدى (١٠٢٨ ـ ١٠٢٩ هـ) وتكرر وقوع الطاعون فى أيامه وفتك بالمصريين فتكا ذريعا حتى لقد قيل ان عدة من مات به بلغ ٦٣٥ر٠٠٠ نفس ثم حسين باشا ارناؤوط (١٠٢٩ ـ ١٠٣١ هـ) ثم محمد باشـا البستنجى (١٠٣١ هـ) .

وليس هناك معالم مميزة فى تاريخ هؤلاء الولاة ، سوى ما أشرنا اليه من انتشار الطاعون من عام الآخر ، وارتفاع الأسعار اذا شح ماء النيل وتأخر الفيضان ، أو اذا زاد وارتفع بحيث تأخرت زراعة الأرض ، ثم تعود الأسعار لاعتدالها اذا انصلح ماء النيل وهكذا .

١٦٢٣ م ــ ١٠٣٢ هـ ــ ولاية مصطفى باشا قرة :

فى السابع من رمضان من هذه السنة ولى مصر مصطفى باشا قرة الذى جعل همه الأول ارضاء الجند ، فكان يجمع الأموال بكل الوسائل مهما كان فى ذلك من ظلم للرعية ويعطيها للجنود ، فجاء الأمر بعزله من اسطنبول وتولية على باشا الششنجى ، ولكن الجند تعصبوا له وتمسكوا بضرورة استمرار مصطفى باشا فى ولاية مصر واجبروا علماء القاهرة وقضاتها وأعيانها على ارسال عريضة الى السلطان بهذا المعنى . ومنعوا على باشا الششنجى الذى كان قد وصل الى مدينة الاسكندرية من البقاء فى الاسكندرية . وانتهى الأمر باستجابة الباب العالى لطلب الجنود والعلماء باستمرار مصطفى باشا فى ولاية مصر ، فأرسل فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى من عام ١٠٣٣ هـ بولاية مصطفى باشا على مصر ، وارسل خلعة الولاية المعتادة وكانت هذه سابقة جديدة تكشف عما وصلت اليه السلطة المركزية العثمانية من ضعف ، جعلها تسمح بتغيير النظام الذى وضعه السلطان سليم ، من حفظ التوازن بين القوى ، والسماح لقوة الجند فى مصر أن تكون صاحبة الحق فى الاعتراض على الوالى وتعيين من تختار .

١٦٢٦ م ــ ١٠٣٥ هـ ــ خلع مصطفى باشا الوالى واعدامه :

لم تسكت الدولة العثمانية على ولاية مصطفى باشا الا على مضض ولم تكن مدة ولاية مصطفى باشا الجديدة الا صورة مبتكرة من الظلم والاستبداد فقد اتخذه الجنود اداة لتحقيق أغراضهم ، وتضاعف فى أيامه انتشار طاعون مدمر فانتهز مصطفى باشا هذه الفرصة ليجعل من نفسه وريثا ، لكل من مات من الأغنياء ، فارتفعت الشكاوى منه من كل مكان وتدهور موقفه فى الشعب حيث لم يستطع الجند هذه المرة أن يقفوا الى جواره ، فانتهزت الدولة هذه الفرصة لكى تخلع مصطفى باشا من ولاية مصر ، واستقدمته الى اسطنبول وحاسبته على الأموال التى اختلسها ولم يلبث أن صدر أمر باعدامه .

ولاية بيرم باشا على مصر :

فى التاسع عشر من شعبان ، ولى على مصر بيرم باشا وكان قد جاء للتفتيش على اعمال مصطفى باشا .

وكان حاكما فاضلا محبا للعلم والعلماء والمشروعات المفيدة التى تدر المال ، فراح ينشط التجارة بأنواعها .

وكان حازما استطاع أن يكبح جماح الجند فلم يدع لهم سبيلا للتمرد فهدأت احوال مصر فى أيامه .

وحكم مصر ثلاث سنوات ، استدعى فى نهايتها الى اسطنبول ليتولى الوزارة .

١٦٢٩ م ــ ١٠٣٨ هـ : ولاية الوزير محمد باشا طيانه سى على مصر :

فى التاسع من المحرم من هذه السنة ولى محمد باشا مصر ، فساس الأمدر بدراية وحكمة .

وقد حدث فى أيامه أن تجددت الثورة فى اليمن على الحكم العثمانى ، فعرض محمد باشا على الباب العالى أن يوفد من مصر جيشا لاخماد الثورة ، فأجابه السلطان الى طلبه : فبعث من مصر بجيش وضع على رأسه قنسو بك أمير الحج ، وقد استطاع ان يؤدى المهمة التى انتدب اليها .

ومن أعمال محمد باشا كذلك التى رفعت من شأنه كحاكم قادر ، أن سيلا عرما هدم بناء الكعبة فى شعبان من عام (١٠٣٩ هـ) فلم يبق قائما سوى الجدار الأيمن ، فما كان من محمد باشا الا أن بعث من مصر بنــاء على أمر السلطان ، بالعمال والمهندسين والأدوات والمهمات التى أعادت بناء الكعبة خيرا مما كان .

وكوفىء محمد باشا باستدعائه الى اسطنبول ليتقلد الوزارة .

١٦٣١ م ــ ١٠٤٠ هـ ــ ولاية موسى باشا السلحدار ثم عزله بمعرفة الأمراء والعلماء :

فى الثامن من ربيع الاول ــ ولى على مصر موسى باشا السلحدار ، وكان على النقيض من سلفه ، فظلم واستبد واختلس .

وكانت الدولة العلية قد كلفته باعداد حملة من مصر لتشترك فى الحرب ضــد العجم ، ففرض الضرائب على البلاد لتجهيز هذه الحملة ، ثم رأى أن يختلسها لنفسه وكلف قبطاس بك قائد الحملة أن يكتب للسلطان ليعلمه بعجز ماليــة مصر عن ارسال هذه الحملة فما كان من أهل الحل والعقد فى مصر عندما ترامت اليهم هذه الأخبار ، أن اجتمعوا فى جامع السلطان حسن . وكان أهل الحل والعقد يتمثلون فى هذه الفترة فى العلماء والقضاة والسناجق وأمراء المماليك وزعماء الوجاقات . واستقر رأيهم على عزل موسى باشا واقامة حسن بك حتى يرد من اسطنبول من يخلفه . وكتبوا الى السلطان عريضتين بهذا المعنى ، كانت احداهما باللغــة التركية وقد وقع عليها السناجق والأغوات ــ وكبار الضباط ، والثانية بالعربية وقد وقع عليها القضــاة والمشايخ والعلماء .

١٦٣٢ م ــ ١٠٤١ هـ ــ الباب العالى يستجيب ويعين واليا جديدا :

واستجاب الباب العالى لارادة المصريين للمرة الثانية ، مؤكدا بذلك التقليــد الجديد ، وهو حق المصريين فى عزل الوالى اذا أساء السيرة .

وبعث الى مصر بخليل باشا البستنجى الذى كان حاكما صالحا ، استهل عهده بايفاد حملة الى الحجاز لقمع فتنة كانت قد قامت بها فأدت الحملة مهمتها وأعادت الأمن والنظام الى مكة والمدينة .

وغمرت البلاد فى عهده موجة من الرخاء ، فنزلت اسعار القمح من ثمانية قروش للاردب الى قرشين .

١٦٣٣ م ــ ١٠٤٢ هـ ــ ولاية الوزير بكيرجى أحمد باشا على مصر :

فى الثانى والعشرين من رمضان من هذه السنة ولى على مصر بكيرجى أحمد باشا ــ ولم يكد يتولى السلطة حتى جاءته الأوامر من الباب العالى بأن يرسل الى سوريا حملة مصرية لتعاون الحملة التى أرسلتها الدولة لاخماد ثورة دروز لبنان .

كما طلبت الدولة بعد ذلك ارسال حملة من الفى جندى آخرين للاشتراك فى الحرب ضد العجم .

فلما اعتذر الوالى بعدم وجود المال الكافى لتمويل هذه الحملة ، أرسل اليه السلطان ١٢ الف قنطار من النحاس ليسكها نقودا يوزعها على الأهالى فى مقابل ثلثمائة ألف محبوب ذهب (١) .

فنفذ الوالى هذا الأمر وجمع من الأهالى مبالغ طائلة ، وحدث أن استدعى الى اسطنبول فتوقف عن دفع المقابل لما أخذه من الأموال ، فرفع الأهالى المصريين شكاواهم الى السلطان متظلمين ، فحكم عليه بالاعدام وأعدم .

١٦٣٧ م ــ ١٠٤٧ هـ ــ مصر تسهم فى استرداد بغداد :

ولى مصر بعد احمد باشا وال آخر هو حسين باشا الدالى وكان ظالما محبا لسفك الدماء ، يغتال حقوق الناس بالباطل فعزل من منصبه .. ثم خلفه الوزير محمد باشا جوان قابجى سلطان زاده .

وفى أيام ولايته جاءت الأوامر من الباب العالى بايفاد حملة من ١٥٠٠ جندى مصرى للمعاونة فى استرداد مدينة بغداد التى سافر السلطان على رأس الجيش لاستعادتها فجهزت الحملة ووضع على اسها أمير الحج قنسوة بك .

١٦٣٨ م ــ ١٠٤٨ هـ ــ استيلاء السلطان مراد على بغداد :

سار السلطان مراد على رأس جيوشه التى تجمعت تحت قيادته الى مدينة بغداد وذلك فى الثامن عشر من شعبان من هذه السنة ، واستطاع أن يهزم كل الجيوش الأعجمية التى تصدت له .. ثم حاصر مدينة بغداد وحطم أسوارها المنيعة ثم دخلها .. وظل العراق منذ هذا التاريخ تحت السيادة العثمانية .

وعاد السلطان مراد الى عاصمة ملكه مجددا عهد الانتصارات التى كانت البلاد قد أوشكت أن تنساها .

---

(١) المحبوب عملة استعملت فى ذلك الوقت وكانت تساوى ٤٥ قرشا .

١٦٣٩ م — ١٠٤٩ هـ — عقد الصلح بين العثمانيين والعجم :

فى الحادى والعشرين من جمادى الأول من هذه السنة تم الصلح نهائيـا بين الدولة العثمانية والعجم ، بما ظن أنه قطع أسباب العداوة بين الدولتين .

موت السلطان مراد الرابع :

وفى السادس عشر من شوال من هذه السنة ، مات السلطان مراد وكان عمره يوم مات احـدى وثلاثين سنة حكم منها ست عشرة سنة واحد عشر شهرا . وقد كان على صغر سنه على جانب عظيم من الاقتدار والحكمة استطاع أن يقبض على زمام الادارة ، فقمع العصاة والمفسدين ، واستأصل الطغاة من الانكشارية .

وقد لقب السلطان مراد الرابع بأنه المؤسس للدولة ، لأنه أحياها بعد السقوط ، وبعثها بعد الموت ، وعاد الى الفتوحات وأصلح مالية الدولة .

تولى السلطان ابراهيم خان الأول :

مات السلطان مراد خان الرابع بغير وريث من آل عثمان سوى الأمير ابراهيم ابن السلطان أحمد وكان عمره يومئذ ٢٥ سنة فبويع بالسلطنة .

١٦٤٥ م — ١٠٥٥ هـ — غزوة جزيرة كريت :

لم يكن باقيا فى شرق البحر الأبيض من جزر بيد البندقية سوى جزيرة كريت ذات الموقع الهام .. وكانت الدولة العثمانية فى شغل عن احتلالها فلما عادت القوة والحيوية للدولة ابان حكم السلطان مراد فكرت فى احتلال هذه الجزيرة وأعدت لها العدة ، فعاجلته الوفاة .. فلما أن ولى السلطان ابراهيم — وجه الأسطول لغزو الجزيرة واحتلالها .

وفى التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة نجح الجيش والأسطول العثمانيين فى الاستيلاء على الجزء الأكبر من الجزيرة ، بعد أن هزم أسطول البندقية الذى حاول أن يدافع عن الجزيرة .

ولكن الأسطول البندقى ظل يواصل المقاومة ، ومد المدافعين عن الجزيرة بالمدد والعون .. ولذلك فقد ظلت قلعة كنديا صامدة فى وجه العثمانيين فلم تسقط .

١٦٤٧ م — ١٠٥٧ هـ — انقسام المماليك فى مصر الى أحزاب متنازعة حول السلطة :

عندما بدات قضية العثمانيين تتخاذل فى حكم مصر ، وأصبح فى قدرة القـوى المحلية أن تعزل وال ، وأن تولى غيره ، بدأ نفوذ قادة المماليك يقوى ويشتد فقـد كانوا هم العنصر الدائم ، فى الوقت الذى كان فيه الولاة فى تغير دائم ، ومع ازدياد نفوذهم وأطماعهم فى حكم مصر انقسموا الى أحزاب يكيد بعضهم للبعض الآخر .

وكان قد ولى حكم مصر من الولاة العثمانيين ، مذ غادرها محمد باشا جوان قابجى ، الوزير مصطفى باشـا البستنجى (١٠٥٠ — ١٠٥٢ هـ) ثم تلاه الوزير

منصور باشا ، وعلى الرغم من أنه كان شديد الرغبة فى اشاعة العدل بين الناس والتخفيف عليهم . حتى ألغى عددا من الضرائب المختلفة تناهز الأربعين ، فقد شاء الحظ العاثر أن يسلط على مصر طاعونا ، بلغ من شدته انه أهلك جميع السكان فى ٢٣٠ بلدة وقد قدر البعض عدد من ماتوا بالطاعون ٩٦٠ر٠٠٠ نسمة .

وقام ضده رؤساء الجند والسناجق والكشاف فعزلوه وجاء الأمر بتثبيت عزله ، وخلفه الوزير أيوب باشا (١٠٥٤ هـ — ١٠٥٦ هـ) .

وفى عهده انحطت الأسعار نتيجة وفاء النيل عامين متوالين حتى بيع الاردب من القمح بأربعة وعشرين نصفا ، وبقية الحبوب (بدون الدون) وبقية الأغذية بيعت بربع ثمنها .

ثم ولى حكم مصر حيدر أغا زاده محمد باشا (١٠٥٦ — ١٠٥٧ هـ) وهنا بلغ الخلاف بين أحزاب المماليك ذروته ، فثمة حزب يراسه على بك ، ورضوان بك من ناحية وحزب آخر على رأسه قنسوة بك وماضى بك .

ونجح حزب على بك فى الايقاع بقنسوة بك وماضى بك فصدر الأمر من الباب العالى باعدامهما فأعدما .

ثم خلف حيدر أغا زاده مصطفى باشا سنارى ، فلم يحكم سوى سنة واحدة

ثم تلاه محمد باشا شريف ، فولى مصر فى الثالث والعشرين من شهر ذى القعدة من هذه السنة (١٠٥٧ هـ) .

١٦٤٨ م — ١٠٥٨ هـ — عزل السلطان ابراهيم خان الأول وقتله :

فى الثانى عشر من شهر رجب من هذه السنة ، حاول السلطان أن يفتك برؤساء الانكشارية الذين توالت فتنتهم وثوراتهم ، واستبدوا بشئون الادارة وزاد طغيانهم ، ولكن الانكشارية كانوا أسرع منه فخلعوه فى هذا اليوم ، وبايعوا ابنه محمد الرابع ، ثم قرروا اعدام السلطان المخلوع فخنقوه ، وكان عمره يوم مات أربعا وثلاثين سنة حكم منها ثمان سنوات وتسعة شهور .

جلوس السلطان محمد خان الرابع على العرش :

لم يكن عمر السلطان محمد عندما أجلس على العرش أكثر من سبع سنوات ، ولذلك فقد كان الحكم الفعلى فى يد القواد الذين خلعوا السلطان ابراهيم وقتلوه ، فأدى ذلك الى انحلال النظام والضبط والربط فى الدولة . فرفع الجنود العثمانيون الحصار الذى كان مفروضا على قلعة كنديا فى جزيرة كريت مما أخر احتلال الجزيرة .

واضطربت أحوال الدولة الى الحد الذى تمكن فيه البنادقة من احتلال بعض الجزر فى مدخل الدردنيل وفرضت حصارا على المراكب المحملة بالغلال والأقوات القادمة الى اسطنبول من مصر وغيرها .

١٦٥٦ م – ١٠٦٧ هـ : تولى محمد كوبريللى منصب الصدر الأعظم :

وكان من الممكن أن تنحل الدولة العثمانية منذ هذا العصر المبكر لولا أن قيضت المقادير للدولة صدرا أعظم من نوع صقللى باشا وهو محمد باشا كوبريللى أحد رجالات الدولة العظام ، فتولى منصب الصدارة ، واستطاع فى مدى خمس سنوات ، أن يعيد للدولة الأمن والنظام وأن يجدد شبابها .

فقد قام بسلسلة من الاجراءات التى أعاد بها تنظيـــم الدولة ، ومن أهمها وفى مقدمتها كسر شوكة الانكشارية عن طريق أخذهم بالشدة والصرامة وقتل القـــادة غير الأكفاء . وتطهير البـــلاط .. ثم جمع كل الأموال اللازمة للانفاق على الجيش والأسطول والخدمات .. وعلى ذلك فقد استطاع أن يهزم أسطول البندقية ، وأن يطردهم من الجزائر التى احتلوها فى مدخل الدردنيل رافعا بذلك الحصار . وفى البر أحرز العديد من الانتصارات العسكرية ووقف موقفا حازما ضد فرنسا التى كانت تتآمر سرا ضد الدولة وتساعد جزيرة كريت .

١٦٦٠ م – ١٠٧١ هـ – تدهور سلطان ولاة مصر وازدياد نفوذ المماليك :

تعاقب الولاة على حكم مصر مذ تركها محمد باشا شريف وقد تضاءل نفـــوذهم بازدياد نفوذ على بك ورضوان بك – وقد حاول أحمد باشا الطرطونجى (١٠٥٩ – ١٠٦٠ هـ) أن يوقع بينهما ليحطم جبهتهما فلم يصــــح له ذلك : وعزل ثم أعقبـــه عبد الرحمن باشا الطويشى (١٠٦٠ – ١٠٦٢ هـ) الذى أصبح بمجرد توليته سجينا فى القلعة لا حول له ولا طول .

وتلاه خاصكى محمد باشا (١٠٦٢ – ١٠٦٦ هـ) الذى استطاع بقوة شخصيته أن يعيد المهابة الى الوالى العثمانى ، من خلال الحكم الصالح الذى يستميل الشعب من ناحية ، ويشعر المحكومين بالعدل . ثم خلفه الداماد مصطفى باشا (صبح زادة) (١٠٦٦ – ١٠٦٧ هـ) وفى مدته تعاظم نفوذ السناجق من المماليك – وانتهى الأمر الى عزله ثم خلفه محمد باشا (١٠٦٧ – ١٠٧٠ هـ) وقد حاول أن يبذل جهـــدا فى ردع سلطان المماليك المتزايد ، ولكن حظه لم يكن بأسعد من حظ سابقه ، فقد جاء الأمر من الباب العالى بحبسه وسجنه ، ثم صدر الأمر بعد ذلك باعدامه وخلفـــه مصطفى باشا (١٠٧٠ – ١٠٧١ هـ) ليخلفه بعد ذلك ابراهيم باشا الدفتردار ، وفى عهده قامت المنازعات مرة أخرى بين أحزاب المماليك .

١٦٦١ م – ١٠٧٢ هـ : وفاة محمد كوبريللى الصدر الأعظم وتولى الصدارة أبنه أحمد :

فى هذه السنة توفى الصدر الأعظم محمد كوبريللى بعد أن اعاد للدولة احترامها ومهابتها ، وقد طلب منه السلطان محمد الرابع أن يدله على من يخلفه بعد وفاته فأوصى بتولية ابنه أحمد الذى أثبت أنه خير خلف لأعظم سلف .

انتصارات أحمد كوبريللى :

استطاع أحمد كوبريللى بمجرد تولية الصدارة أن يهزم النمسا هزيمة منكرة رجت أوروبا من جديد رجا ، وأعادت الى الذاكرة انتصارات سليمان القانونى المدوية ، بعد أن احتل قلعة نوهزل .

واستطاعت جيوش الدولة وأساطيلها أن تتم فتح قلعة كنديا فى كريت وأن تعقد الدولة مع البندقية معاهدة تنازلت بموجبها نهائيا عن جزيرة كريت باستثناء ثلاث قرى احتفظت بها (١٠٨٠ هـ) .

١٦٧٦ م — ١٠٨٧ هـ — خضوع أوكرانيا لسيادة الدولة العثمانية :

كانت دولة بولندا قد أغارت على ولاية أوكرانيا عام ١٠٨٣ هـ فاستنجد حاكمها بالعثمانيين فأنجده السلطان وسار بنفسه على رأس جيشه ، وانتصر على البولانديين الذين تعهدوا بدفع جزية سنوية قدرها ٢٢٠ الف بندقى ذهب ، والاعتراف بسيادة الدولة العثمانية على اقليم الأوكرين .

وظلت الحرب تتجدد ، والجيوش العثمانية تنتصر — حتى انتهى الأمر بعقد معاهدة زورافنا ، التى اعترف فيها بحق الدولة العثمانية فى معظم أوكرانيا ، وبذلك أصبح العثمانيون وجها لوجه أمام هذه القوة الجديدة قوة روسيا النامية .

وفاة كوبريللى أحمد باشا :

وفى الرابع والعشرين من رمضان من هذه السنة (١٠٨٧ هـ) مات أحمد كوبريللى عن احدى وأربعين سنة ، شغل منها منصب الصدارة العظمى خمسة عشر عاما ، سار فيها على خطة أبيه فى الصلاح والنزاهة والاستقامة والشجاعة والاخلاص فأنقذ الدولة العثمانية وأعاد اليها شبابها .

١٦٨٢ م — ١٠٩٤ هـ — المماليك يعملون على استعادة سلطانهم :

توالى الولاة على مصر منذ انتهت ولاية الدفتردار ابراهيم باشا . فوليها عمر باشا السلاح دار (١٠٧٤ — ١٠٧٧ هـ) وابراهيم باشا الصوفى (١٠٧٧ — ١٠٧٩ هـ) ثم قره قاش على باشا (١٠٧٩ — ١٠٨٠ هـ) وفى مدة ولايته قدمت مصر مساعدات قيمة للدولة العثمانية فى حروبها ، بارسال الميرة والذخيرة والرجال .

ثم ولى مصر الكتخدا ابراهيم باشا (١٠٨٠ — ١٠٨٤ هـ) ثم حسين باشا (١٠٨٤ — ١٠٨٦ هـ) ثم أحمد باشا الدفتردار (١٠٨٦ — ١٠٨٧ هـ) ثم عبد الرحمن باشا (١٠٨٧ — ١٠٩١ هـ) ثم عثمان باشا (١٠٩١ — ١٠٩٤ هـ) ثم تولى حمزة باشا .

وكان انشغال الدولة العثمانية فى حروبها الطاحنة فى أوروبا قد بدأ يحدث أثره فى مصر بقوة .. اذ بدأ أمراء المماليك يطمعون فى اعادة حكومة المماليك فأكثروا من

شهر السلاح فى وجه الولاة ، الذين لم يعودوا يملكون حولا او طولا — فالوجاقات التى كانت ترابط فى مصر كانت قد أصبحت مصرية ، تتألف من جنود ولدوا فى مصر وارتبطت مصالحهم بمصالح أمراء مصر من المماليك ، فأصبحوا أطوع لهم ، من الولاة العثمانيين .

وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه المماليك يستكثرون من جديد من شراء المماليك ، خالقين منهم قوة وعزوة لا يسهل قمعها وخاصة عند اتحاد المماليك ، وهو ما بدأ يحدث من حين الآخر .

١٦٨٤ م — ١٠٩٥ هـ — العثمانيون يحاصرون مدينة فينا :

استطاعت الجيوش العثمانية فى هذه السنة تحت قيادة مصطفى باشا الصدر الأعظم أن تهزم الجيش النمساوى ، وأن تتعقبه فى تراجعه حتى مدينة فيينا وتفرض عليها الحصار ، بل وتستولى على قلاعها الخارجية وتهدم أسوارها بالمدافع وألغام البارود .

حلف مقدس صليبى للقضاء على الدولة العثمانية :

وقد أثار نجاح العثمانيين الجديد موجة فزع فى أوروبا وأهاب البابا بمسيحى أوروبا أن يتحدوا للقضاء على المسلمين الذين يهددون أوروبا ولكن أوروبا الغربية كانت فى شغل شاغل عن نداءات البابا ، وعن مشاكل أوروبا والمسيحية ، فقد كانت بحار الدنيا قد انفتحت امامها تكتشف وتحتل وتستعمر فى الأمريكتين وفى المحيط الهندى والهادى .

ولكن الدول الشرقية التى كان يهددها الغزو العثمانى تهديدا مباشرا هى التى استجابت لندائه — فاجتمع الألمان والبولنديون والروس والبنادقة والمالطيون وتوسكانيا تحت زعامة النمسا ، وألفوا حلفا مقدسا للقضاء على الدولة العثمانية .

١٦٨٧ م — ١٠٩٩ هـ — عزل السلطان محمد الرابع :

نجحت الجيوش الأوروبية المتحالفة فى ايقاع الهزائم بالجيش العثمانى فى مختلف الميادين . فهاجت ثائرة الجيش فى اسطنبول واستقر الرأى على خلع السلطان بعد أن حكم اربعين سنة ، وبقى فى العزلة حتى مات عام ١١٠٤ هـ .

تولية السلطان سليمان خان الثانى :

بويع بالسلطنة سليم خان الثانى ابن السلطان ابراهيم الأول وكان عمره يوم ولى السلطنة ٤٧ سنة .

وقد عين فى منصب الصدر الأعظم كوبريللى مصطفى باشا ابن كوبريللى محمد باشا الكبير . وكان الرجل العظيم قد أودع سره فى أولاده ، فان مصطفى باشا بدوره قد استطاع أن يوقف الهزائم العسكرية التى منى بها الجيش العثمانى ، وان يعيد للدولة كل ما كانت فقدته من أملاك فى أوروبا .

عبد الرحمن الجبرتى يبدأ تاريخه العظيم واحزاب المماليك :

وفى هذه السنة ١٠٩٩ هـ يبدأ مؤرخنا المصرى العظيم عبد الرحمن الجبرتى تاريخه القيم ، ويستهله بما يشير الى نمو الاحزاب المملوكية وانقسامها الى مماليك قاسمية وأخرى فقارية ، ويحاول الجبرتى أن يرجع بهذا الانقسام الى أيام السلطان سليم والذى أراد بهذه الفرقة أن يوقع بين المماليك الى الأبد على قاعدة فرق تسد ، ولكن الجبرتى يورد رواية أخرى عن منشأ هذين الحزبين وان الحزب القاسمى انما يستمد أسمه من قاسم بك عيواظ الدفتردار ، والى ذى الفقار بك رئيس الفقارية وأن منشأ هذين الحزبين كان فى عام ١٠٥٠ هـ وهذه هى الرواية التى ترجمها وأيا كان منشأ هذا النزاع بين المماليك القاسمية والفقارية فان تاريخ مصر طوال القرن الثانى عشر الهجرى وخاصة فى نصفه الأول ، هو حديث متكرر ممل عن المعارك بين مماليك هذين الحزبين .

١٦٩١ م ــ ١١٠٢ هـ ــ موت السلطان سليمان خان الثانى :

فى السادس والعشرين من رمضان من هذه السنة توفى السلطان سليمان الثانى غير مخلف عقبا وكان عمره يوم مات خمسين سنة حكم منها ثلاث سنوات وشهور فتولى السلطنة من بعده أخوه أحمد .

تولية السلطان احمد خان الثانى :

تولى السلطان أحمد خان الثانى ابن السلطان ابراهيم وكان عمره يوم ولى الحكم قرابة خمسين سنة .

١٦٩٥ م ــ ١١٠٦ هـ ــ تعاقب الولاه على مصر :

تعاقب على مصر الولاه عقب انتهاء ولاية حمزة باشا (١٠٩٨ هـ) فوليها كتخدا حسن باشا (١٠٩٩ هـ) ثم الداماد حسن باشا (١٠٩٩ هـ) ثم أحمد باشا كتخدا (١١٠١ ــ ١١٠٢ هـ) ثم على باشا خاذندار (١١٠٢ ــ ١١٠٦ هـ) والحكام الحقيقيون لمصر هم المماليك والجند .

وفاة السلطان احمد خان الثانى :

فى الثانى والعشرين من جمادى الثانى من هذه السنة ، مات السلطان أحمد خان الثانى بعد أن حكم أربع سنوات وثمانية أشهر .

تولى السلطان مصطفى خان الثانى العرش :

جلس على العرش فى نفس اليوم الذى مات فيه احمد خان السلطان مصطفى خان ابن السطان محمد الرابع وكان عمره يوم ولى السلطنة اثنين وثلاثين سنة .

وقد كان ملكا شجاعا ، عاد الى سنة سلاطين آل عثمان القدامى وهو تولى قيادة الجيوش بنفسه ، فاستطاع أن يحقق انتصارات باهرة فى أكثر من معركة ، أعادت الى الجيش العثمانى هيبته وكرامته ، ولكنها لم تستطع أن تحقق للدولة كبير نفع ، وذلك أن التحالف القوى بين النمسا وبولندا والبندقية والروسيا تحت زعامة بطرس الأكبر ، ضيعت على الدولة أى أمل فى الكسب من جراء هذه الانتصارات .

١٦٩٩ م ـ ١١١٠ هـ : معاهدة كارلوفتز ونشوء المسألة الشرقية :

انتهت الحروب التى لم تنقطع بين دول الحلف المقدس والدولة العثمانية بابرام معاهدة كارلوفتز فى الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة (٢٦ يناير) وبموجب هذه المعاهدة تنازلت الدولة العلية عن المجر وترنسلفانيا للنمسا وعن مدينة آزاق وميناءها لروسيا : وبذلك أصبحت روسيا تطل على البحر الأسود ، وتنازلت عن أوكرانيا لبولندا ـ كما تنازلت للبندقية عن اقليم دلماسيا على بحر الادرياتيك .

وقد اعتبرت معاهدة كارلوفتز بدأ لما أطلق عليه خلال القرنين التاليين المسألة الشرقية ، حيث عملت دول أوروبا على تصفية الدولة العثمانية وتوزيع أملاكها ولم يحل دون تحقيق هذا الهدف ، الا اختلاف الدول الأوروبية فيما بينها والتنافس الذى بدأ يشتد فيما بينها حول الاسلاب والغنائم ، وخوف كل منها من الأخرى .

١٧٠٣ م ـ ١١١٥ هـ ـ عزل السلطان مصطفى خان الثانى :

فى الثانى من ربيع الثانى من هذه السنة ، نجح الانكشارية فى عزل السلطان مصطفى الثانى ، بعد أن نقموا عليه تعيينه بعض الوزراء الذين حاولوا أن يتصدوا لمحاربة الفساد وقمع الفتن والضرب على يد الانكشارية العابثين . ولم يلبث أن مات بعد شهور قليلة من عزله وعمره أربعين سنة .

تولية السلطان أحمد خان الثالث :

بويع بالسلطنة يوم خلع مصطفى خان الثانى أخوه السلطان أحمد خان الثالث ، ابن السلطان محمد خان الرابع وكان عمره يوم ولى الملك اثنين وثلاثين سنة ، وقد وزع عند تعيينه أموالا طائلة على الانكشارية ، حتى ملك ناصية الأمور ، ثم أقتص منهم بشدة وبطش برؤوس الفتنة ، وأمسك بزمام ادارة الدولة .

ميلاد محمد بن عبد الوهاب :

وفى هذه السنة ولد فى العينيه أحدى قرى بادية نجد محمد بن عبد الوهاب الذى سيقدر له أن يقوم بدعوة دينية اصلاحية تؤثر على مجريات الأمور فى العالم الاسلامى كله .

انتصار الجيوش العثمانية على بطرس الأكبر :

حاول بطرس الأكبر مؤسس دولة الروس أن يقوم بدور المناضل من أجل مسيحيى دول البلقان ، وسعى جهده لاثارة الفتن ضد الدولة العثمانية فى سائر أرجائها وزحف

بجيوشه على أرض الدولة ، فتصدت له الجيوش العثمانية على نهر بروث وأوقعت به هزيمة منكرة ، كان يمكن أن تؤدى الى انهيار الدولة الروسية الوليدة لولا أن كاترين زوجة بطرس (فيما بعد) وكانت تصاحبه استطاعت أن تقنع القائد العثمانى بعد أن غمرته بالمجوهرات الثمينة أن يعقد صلحا ، تعيد روسيا بمقتضاه للدولة العلية مدينة ازاق وان تتعهد بأن لا تقترب من شواطىء البحر الاسود فضلا عن أن تكون لها سفن فيه .

١٧١١ م – ١١٢٣ هـ – تعاقب الولاه على مصر :

تعاقب الولاة على مصر ، منذ انتهت ولاية على باشا الخازندار (١١٠٦ هـ) وليس فى تاريخهم أى حادث مميز فولى اسماعيل باشا (١١٠٦ – ١١٠٩ هـ) وقد عزله الجند وولوا مصطفى بك قائمقاما على مصر الى أن حضر حسين باشا البشناقى (١١٠٩ – ١١١١ هـ) .

ثم قره محمد باشا (١١١١ هـ – ١١١٦ هـ) .

ويذكر عنه الجبرتى انه أقام عديدا من المنشآت الخيرية .

ثم سليمان باشا (١١١٦ هـ) ثم محمد رامى باشا (١١١٦ – ١١١٨ هـ) وقد بلغ الغلاء فى عهده بسبب عدم وفاء النيل حتى بلغ ثمن سعر الاردب ٢٤ نصف والبيضة كل ثلاث بيضات بنصف .. ثم ولى مسلم على باشا (١١١٨ – ١١١٩ هـ) .

ثم الداماد حسن باشا للمرة الثانية (١١١٩ – ١١٢١ هـ) .

ثم ابراهيم باشا قبودان (١١٢١ – ١١٢٢ هـ) ثم خليل باشا الكوسج .

حرب بين القاسمية والفقارية :

وفى ولاية هذا الوالى ، حدثت حرب طاحنة بين المماليك القاسمية والفقارية لم يسبق لها مثيل من حيث شدتها وكان زعيم الحزب القاسمى أيوب بك شيخ البلد ، وزعيم الحزب الفقارى قيطاس بك .. وقد وصل الأمر فى بعض مراحل الحرب الى حد تركيب المدافع على مسجد السلطان حسن لضرب القلعة التى راحت ترد على المدافع بالمثل .

ويفرد الجبرتى صفحات طويلة لتفاصيل هذه الحرب يوما بعد يوم وسنة – بعد أخرى .

واعظ تركى فى القاهرة ، يسبق ابن عبد الوهاب فى دعوته :

وسجل لنا الجبرتى فى حوادث رمضان من هذه السنة (١١٢٣ هـ) حادثا من الدرجة الأولى من الأهمية لحركة الاصلاح الدينى التى سيضطلع بها فيما بعد محمد بن عبد الوهاب . وليس هناك ما يمنع أن يكون محمد بن عبد الوهاب قد تلقاها عن نفس هذا المصدر أو ما يماثله .

يقول الجبرتى : وفيه جلس رجل رومى يعظ الناس بجامع المؤيد فكثر عليه الجمع ، ثم انتقل من الوعظ وذكر ما يفعله أهل مصر فى أضرحة الأولياء وايقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم ، وفعل ذلك كفر يجب على الناس تركه وعلى ولاة الأمور السعى فى ابطال ذلك وذكر أيضا قول الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ .. وانه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء والتكايا ويجب هدم ذلك .

وهذه الدعوة بألفاظها وعباراتها وأهدافها هى بذاتها ما دعا اليه محمد بن عبد الوهاب والذى لم يكن عمره فى ذلك الوقت يتجاوز ثمان سنوات . ويتابع الجبرتى فى يومياته مصير هذه الحركة وانتشارها ، وتعصب الجماهير لها ، ثم خيف أن تتحول الى فتنة فأبعد الرجل من مصر وقضى على الحركة . لتظهر بعد ذلك اشد قوة وعنفا فى بلاد نجد على يد محمد بن عبد الوهاب .

١٧١٥ م — ١١٢٧ هـ : الدولة العثمانية تسترد بلاد المورة وتكمل احتلال كريت :

فى هذه السنة استطاعت الدولة العثمانية أن تسترد شبه جزيرة المورة (اليونان) من البنادقة ، بل وان تستولى على كل الجزر التى كانت ملحقة بها ، والتى لم يستطع العثمانيون الاستيلاء عليها من قبل . كما استولت على المواقع الثلاثة فى جزيرة كريت التى كان البنادقة يحتفظون بها ، وبهذا كمل افتتاح جزيرة كريت .

١٧٢٤ م — ١١٣٦ هـ — تقسيم بلاد العجم بين العثمانيين والروس :

فى هذه السنة ظهرت روسيا على مسرح بلاد العالم الاسلامى فقد كانت الدولة الصفوية قد أصيبت بالضعف والانحطاط .

وجنح آخر ملوكها الشاه حسين الصفوى الى الجور والظلم فى حق أهل السنة — الخاضعين له ، فاستغاثت القبائل السنية النازلة فى جهة القوقاز وشروان بالخلافة العثمانية فدخلت الجيوش العثمانية الى بلاد العجم واحتلت قسمها الغربى فأسرع بطرس الأكبر واجتاز الحدود الفاصلة بينه وبين دولة العجم .

وكاد الاصطدام يقع بين الجيوش الروسية والعثمانية ، فتم الاتفاق على عقد معاهدة بين البلدين تقتسمان بموجبها ماتم احتلاله من أراضى بلاد العجم ، على أساس احتفاظ كل منهما بما احتلته جيوشه .

١٧٢٨ م — ١١٤١ هـ — انتشار الفتن فى مصر بين المماليك الفقارية والقاسمية :

اذا كانت مصر قد شهدت أعظم الفتن بين القاسمية والفقارية فى ولاية خليل باشا كوسج مما انتهى الى عزله وتعيين أحد أمراء المماليك وهو قنصوة بك قائمقاما الى أن يجىء الوالى الجديد .

ومضت الحياة فى مصر ، صورة متكررة من هذا الصراع بين القاسمية والقفارية ، والولاة من العثمانيين يفدون الى مصر ، لا ليحكموا أو ينفعوا ، ولكن ليحاولوا أن يثروا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا فى خلال المدة القصيرة التى — سيقضونها فى مصر .

وقد ولى مصر عام ١١٢٦ هـ عبدى باشا — وفى مدة ولايته ورد من أسطنبول مرسوم يطلب تجهيز ثلاثة آلاف عسكرى للمساهمة فى حروب الدولة . وعزل عبدى باشا فى رجب ١١٢٩ هـ وخلفه على باشا الأزميرلى (١١٢٩ — ١١٣٢ هـ) وقد اشتهر بأسم مسلم على باشا . وخضع هذا الوالى خضوعا تاما لاسماعيل بك ابن ايواظ شيخ البلد بحيث خيف أن تحدثه نفسه باعلان الاستقلال وادعاء السلطنة ، بعد أن أصبح الأمراء وكبار الوجاقات والدفتردار وكتخدا الحاشـــية كلهم من اتباعه ومماليكه ومماليك أبيه .

فأرسلت الدولة العثمانية وال جديد وهو رجب باشا وزودته بتعليمات أن يقتل مسلم على باشا ، فصدع بالأمر وسلخ رأسه وأرسلها الى الباب العالى .

وحاول رجب باشا بعد ذلك أن يتصدى لاسماعيل بك وان يدبر لقتـله ولكن اسماعيل بك كان حذرا واستطاع أن يفسد تدبير رجب باشا . فجمع الامراء حوله ونجح فى عزل رجب باشا بمعرفة الامراء والجند .

وخلف محمد باشا النيشانجى (١١٣٣ — ١١٣٨ هـ) وقد عمد الى خطة جديدة لاضعاف المماليك ، فسلط اسماعيل بك زعيم الفقـــارية على خصومهم القاسمية واستصدر من الباب العالى عفوا عن اسماعيل بك ابن ايواظ وسلم اتباعه جميع المناصب الرئيسية .

مقتل اسماعيل بك ابن ايواظ :

على أن الحزب المعارض للفقارية نجحوا فى ضم صفوفهم وخلعوا محمــد باشا النيشانجى كما نجحوا فى قتل أسماعيل بك ابن ايواظ باغتياله بمعرفة ذى الفقار تابع شركس بك وكان ذلك ايذانا بتفاقم الفتنة من جديد بين القاسمية الفقــارية ، تابع شركس بك وكان ذلك ايذانا بتفاقم الفتنة من جديد بين القاسمية والفقــارية الولاة العثمانيون العوبة فى يد هذا الحزب أو ذاك فيتمسك أحدهم بوال ويخلعه الحزب الاخر ويتمسك بآخر .

وعلى ذلك فقد ولى على مصر من يسمى على المره لى باشا ولكن الفقارية أصروا على اعادة محمد باشا النيشنجى للولاية فغادر على باشا مصر ، وأعيد محمد باشـــا النيشانجى (١١٣٨ — ١١٤٠ هـ) لكى يخلع من جديد بعد أن قوى الحزب القاسمى ويرسل الباب العالى أبو بكر باشا ليكون واليا على مصر (١١٤٠ — ١١٤١ هـ) .

وتزداد ضراوة الحزب القاسمى فيقتلون ذا الفقار بك زعيم الفقارية ، فتثور ثائرة المماليك الفقارية ويقتلون كل من يجدونه فى طريقهم من القاسمية .

وتشتد الفتنـــة بين الحزبين ، وتستمر حتى يعزل هذا الوالى ليخلفه وال جديد هو كيورلى زادة عبد الله ، وهنا تستقر الأمور اذ كان كيورلى زادة عبد الله باشا من

الرجال الصالحين الأفاضل الذين لا يسعون فى ايقاد الفتن وكان رجلا متدينا منقادا للشريعة ولذلك فقد أصـــدر أمره بابطال المنـكرات والخمامير ومواقف الخواطىء (أى أماكن البغاء) والبوظ (محل شرب البوظة) وجعل لوالي القاهرة والمقدمين الذين كانوا يتكسبون من ضرائب هذه المنكرات راتبا يتقاضونه ، وكتب بذلك حجة شرعية لعن فيها كل من يتسبب فى رجوع ذلك .

١٧٣٠ م ــ ١١٤٣ هـ ــ خلع السلطان أحمد :

حاول الشاه طهماسب شاه الفرس أن يسترد الأراضى التى احتلتهـــا الدولة العثمانية . فبعث اليها يطلب منها الانسحاب ، فلما لم تجبه هاجم بجيوشه حــدود الدولة العثمانية وأراضيها . فجنح السلطان أحمد الى السلم فثارت ثائرة الانكشارية ، وطلبوا أن يسلم اليهم الصدر الأعظم وأمير البحر والمفتى الذى أفتى بجواز ذلك فسلم اليهم السلطان الصدر الأعظم وأمير البحر فقتلهما الانكشارية .. وتمادوا فى ثورتهم فنادوا باسقاط السلطان أحمد الثالث نفسه فلم يكن يسعه الا التنازل عن الملك فى الخامس عشر من ربيع الأول من هذه السنة (٢٨ سبتمبر) .

وكانت مدة حكمه ٢٧ سنة وأحد عشر شهرا ، استطاع فى خلالها أن يسترجع للدولة قوتها باسترداد آزرف من الروس والمورة من البنادقة .

ادخال المطبعة الى الدولة :

وقد يفوق كل أمجاده العسكرية نجاحه فى ادخال الطباعة لأول مرة فى الدولة العثمانية ، بعد أن كانت قد انتشرت فى أوروبا ، وكانت أحد الأسباب فى نهضتها الحديثة اذ وسعت نطاق العلم والمعرفة .

ومن الطريف أن من أول ما طبع بالمطبعة العثمانية من كتب القـــاموس العربى اللغوى الصحاح للجوهرى .

السلطان محمود خان الأول :

جلس على العرش محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى خان الثانى وكان عمره يوم ولى الحكم ٣٥ سنة ، وفى عهده انتصرت الدولة على الروس النمساويين وغسل عار معاهدة كارلوفتز .

١٧٣٥ م ــ ١١٥٢ هـ ــ معاهدة بلغراد :

فى الرابع والعشرين من شهر جمادى الثانى من هذه السنة الموافق ١٨ سبتمبر وقعت معاهدة بلغراد بين الدولة العثمانية ودولة النمسا وروسيا بعد أن كان الجيش العثمانى قد نجح فى هزيمة جيوش الدولتين .

وبموجب هذه المعاهدة أرجعت النمسا مدينة بلغراد وكل أراضى الدولة التى كانت قد استولت عليها بموجب المعاهدات السابقة .

وأما روسيا فقد تعهدت بدورها برد كل ما استولت عليه من أراضى للدولة وأن لا يكون لها مراكب حربية أو تجارية فى البحر الأسود أو بحر أزوف .

١٧٤٦ م — ١١٥٩ هـ — ابرام معاهدة صلح جديدة مع نادر شاه :

كانت بلاد العجم قد أبرزت من صفوفها زعيما جديدا بعد زوال الأسرة الصفوية (١١٠١ — ١١٠٢ هـ) ثم علي علي باشا خانذدار (١١٠٢ — ١١٠٦ هـ) .

وذلك هو نادر شاه الذى استطاع أن يسترد الكثير من الأراضي التى سبق للدولة العثمانية احتلالها من بلاد العجم . ولكن الدولة العثمانية بعد أن فرغت من حروبها فى أوروبا بالانتصار السابق ، حشدت جيوشها للهجوم على بلاد العجم . فأسرع نادر شاه وعرض الصلح على الباب العالى على أساس تجديد المعاهدة بين الدولتين التى سبق ابرامها مع السلطان مراد خان الرابع .

١١٦٧ م — مولد الجبرتى :

فى هذه السنة ولد مؤرخ مصر العظيم عبد الرحمن الجبرتى .

١٧٥٤ م — ١١٦٨ هـ — انتهاء السلطة فى مصر الى ابراهيم بك ورضوان بك :

لم تنجح الدولة العثمانية فى خطتها الرامية الى اضعاف سلطة المماليك عن طريق تأليبهم على بعضهم ، فبدأت تزود ولاتها بأوامر مشددة للعمل على ابادتهم أو بالأحرى ابادة زعمائهم .. ولكن الولاه — عجزوا عن تحقيق هذا الهدف فقد كانت الوجاقات العثمانية التى انقطع تغييرها وتبديلها . قد أصبحت وجاقات مصرية أكثر منها تركية فقد تزوج أفرادها فى مصر ، والتحق بصفوفها تجار وصناع وفنيون من مصر لينالوا حمايتها ، ولم يلبث أن أصبح رؤساء هذه الوجاقات من المماليك انفسهم . وهكذا تحولت الوجاقات كلها وعلى رأسها وجاق الأنكشارية ، الى قوة مصرية تنسق تصرفاتها بما يحقق مصالحها التى أصبحت تنسجم مع الأمراء المصريين ، وليس مع الباب العالى وعلى ذلك فقد تعاقب الولاة على مصر منذ عزل عنها كبورلى زادة عبد الله باشا عام ١١٤٦ هـ فوليها السلاح دار محمد باشا عام ١١٤٦ هـ ثم عين عثمان الحلبى (١١٤٦ — ١١٤٧ هـ) ثم أبو بكر باشا مرة ثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ هـ) ثم مصطفى باشا (١١٤٩ — ١١٥٢ هـ) ثم سليمان الشامى باشا الشهير بابن العظم (١١٥٢ — ١١٥٣) ثم على الحكيم باشا زادة (١١٥٣ — ١١٥٤) ثم عين يحيى باشا (١١٥٤ — ١١٥٦ هـ) ثم محمد سعيد البدكشى باشا (١١٥٦ — ١١٥٧ هـ) ثم محمد راغب باشا (١١٥٧ — ١١٦١ هـ) وراغب باشا هو أحد كبار رجالات الترك . وقد كان هو الذى تولى تحرير معاهدة بلغراد .

وقد استطاع هذا الوالى أن يبيد رؤساء بعض بيوت المماليك ، ولما عزم على ابادة من بقى منهم — تحالفوا عليه ، ووقعت بينهم وبينه عدة وقائع انتهت الى هربه — وغادر مصر ، ليصبح بعد قليل صدرا أعظم فى اسطنبول ، ثم خلفه أحمد المعروف بكور وزير باشا) ١١٦١ — ١١٦٣ هـ (وقد سبق له أن تولى منصب الصدر الأعظم . ويحدثنا عبد الرحمن الجبرتى — ان والده كان على صلة علمية بهذا الباشا حيث

كان لكليهما اهتمام بالفلك والرياضيات والعلوم العصرية ، وفى عهده كانت كل محاولة الدولة العثمانية فى ابادة المماليك أو اضعاف سلطانهم قد انتهت بالفشل الذريع . وانتهت رئاسة المماليك لكبيرين منهما أصبحا الحاكمين الفعليين لمصر ، وهما ابراهيم جاويش بك وصفوان كتخدا بك . وقد نجحا فى اعادة كل أحزاب المماليك الأخرى التى كانت تعارض سلطانهما فانفردا بالقوة .

وقد بلغ من عظمة شأن ابراهيم بك كخيا انه أصبح يملك الفى مملوك يصدعون بأمره ، ولم يكن فى مصر كلها قوة تستطيع بمفردها أن تقف فى وجه هذه القوة .

وكان أحد هؤلاء المماليك يدعى على ، أظهر فروسية ابان اصطحاب ابراهيم له فى الحجاز ، اذ تصدى بمفرده لجمع من اللصوص ونكل بهم ، حتى لقد اطلق عليه اسم الجنى ولن يلبث بعد قليل أن سمى بعلى بك الكبير .

الجبرتى يتحسر على هذه الفترة :

وقد أشار الجبرتى فى تاريخه الى هذه الفترة التى تنتهى بعام ١١٦٨ هـ بما ينم عن تحسره عليها ، وكيف انه أدرك نهايتها (ولد عام ١١٦٧ هـ) حيث كانت مصر : بمحاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولاعدائها قاهرة يعيش رغدا بهـا الفقير وتتسع للجليل والخفير ويفصل لنا الجبرتى أسعار ــ الحاجيات بما يدل على التنـاهى فى الرخص ، ويصف أحوال امراء المماليك وكبار البيوتات من حيث اكرامهم للضيفان ، وحربهم على الضعفاء . وبرهم بالفقراء ، وتوزيعهم الأطعمة والكساوى والأموال فى شتى الأعياد والمناسبات .

وهى صورة زاهية مشرقة ، من قبيل تطلع كل جيل الى الأيام السابقة باعتبارها تفوق الأيام اللاحقة .

وفاة السلطان محمود الأول :

وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر صفر من هذه السنة ١١٦٨ هـ ــ توفى السلطان محمود الأول ، مأسوفا عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل ، وحرصه على اقامة المساواة بين مختلف رعاياه ، دون النظر الى جنس أو دين وكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة .. وقد اشتهر بميله لنشر العلوم والمعارف ، حتى لقد أنشأ باسطنبول أربع دور للكتب الحقها بالجوامع الأربع الكبرى أيا صوفيا ومحمد الفاتح والوالدة وغلطة سراى ، ورتب بكل هذه المكتبات دروسا عمومية .

السلطان عثمان الثالث :

بويع بالسلطنة عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثانى وكان عمره يوم ولى السلطنة ٥٨ سنة ، ولذلك فقد كان بحكم سنه ميالا للسلم ولم يدم حكمه اكثر من ثلاث سنوات .

وقد شغلت أوروبا عنه ، وعن محاربة الدولة العثمانية بابتداء حرب السنوات السبع الشهيرة .

١٧٥٧ م — ١١٧١ هـ — وفاة السلطان عثمان خان الثالث :

فى السادس عشر من شهر صفر من هذه السنة مات السلطان عثمان خان الثالث، بعد أن حكم ثلاث سنين وأحد عشر شهرا .

تولية السلطان مصطفى خان الثالث :

جلس السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد الثالث على العرش عقب وفاة السلطان عثمان ، وكان عمره اثنان وأربعون سنة ، وكان ميالا للاصلاح محبا لتقدم بلاده .

وقد قلد محمد راغب باشا منصب الصدر الأعظم فكان من فحول رجال الدولة العثمانية ، التى قاد سفينتها فى وسط بحر من الأعاصير والزعازع .

فقد وجهت الدولة الروسية كل همها لاستلاب ما يمكن استلابه من أراضى الدولة العثمانية ، واشاعة الاضطراب والفتن وحركات التمرد والانفصال فى أرجاء الدولة . وكانت تحكم روسيا فى هذه الفترة كاترين الثانية أو كاترين الكبرى كما يلقبونها ، فانتصرت جيوشها وأساطيلها فى البر والبحر على جيوش وأساطيل الدولة العثمانية، لتعود الدولة العثمانية فتنتصر وظل النصر يتأرجح بين هذا الجانب أو ذاك .. مما أدى الى انهاك الدولة العثمانية واضعافها ، ولولا تناصر الدول الأوروبية فيما بينها ، وخوف دول أوروبا وخاصة النمسا من تفوق روسيا عليها لانفرط عقد الولايات العثمانية فى أوربا الشرقية والبلقان .

١٧٦٧ م — ١١٨١ هـ — بزوغ نجم على بك الكبير فى مصر :

كان من أثر انشغال الدولة العثمانية بالحروب ضد روسيا التى انهكتها أن ذبل آخر ما كان لها من نفوذ فى مصر ، مما هيأ السبيل لبزوغ نجم على بك الكبير .

وكان الولاه قدتعاقبوا على مصر ، مذ غادرها أحمد باشا (١١٦٣ هـ) — فوليها الشريف عبد الله باشا (١١٦٣ — ١١٦٦ هـ) ثم خلفه محمد أمين باشا (١١٦٦ هـ) ثم بلطه جى مصطفى باشا (١١٦٦ — ١١٦٩ هـ) ثم على حكيم باشا زاده (المرة الثانية) ثم محمد سعيد باشا (١١٧١ هـ) ثم وليها الصدر الأعظم مصطفى باشا (١١٧١ — ١١٧٤ هـ) ثم أحمد كامل باشا (١١٧٤ — ١١٧٥ هـ) ثم بكير باشا (١١٧٥) ثم حسن باشا (١١٧٦ — ١١٧٨ هـ) ثم حمزة باشا (١١٧٩ — ١١٨١ هـ) ثم محمد قم باشا — ولعل تعاقب تسعة ولاه فى هذه الفترة القصيرة ، يدل على مدى ما انتاب الحكم العثمانى فى مصر من تدهور .

وقد حاول هذا الوالى الأخير — محمد راقم باشا ، ان يقوم بحركة من هذه الحركات التى تدبر ضد سلطان المماليك ، فوشى به كتخداه الى على بك ، الذى جمع المماليك واحاط بالقلعة وطلب من الوالى أن ينزل منها ، فاستجاب له .

وفى يوم الأحد أول شعبان من هذه السنة ، تقلد على بك الكبير قائمقامية مصر بدلا من الباشا ، وأرسل الهدايا الى الباب العالى والمكاتبات بتفصيل ما حدث ويطلب اقراره على ما حدث ، ورفع بعض الظلامات .

ومرة اخرى يظهر اسم والد الجبرتى ، فقد لجأ اليه على بك الكبير ليكتب رسالة الى الباب العالى تأييدا لعلى بك الكبير . وهكذا ظهر على بك الكبير على المسرح المصرى كصاحب السلطان الأكبر .

من هو على بك :

يقول لنا مؤرخ أوروبى عاصر على بك ولازمه ، ان على بك قد ولد عام ١٧٢٨ م من بلاد ابازة (اباظة) من أعمال القوقاز العثمانى — وكان يدعى يوسف وأبوه أحد قساوسة الكنيسة اليونانية ، فأخذ يسعى لتنشئة ابنه تنشئة دينية ليشغل منصبا فى الكنيسة ، ولكن المقادير شاءت أن يقع فى أسر أحد تجار الرقيق الذى جاء به الى الاسكندرية عام ١٧٤٣ م فباعه الى ابراهيم كتخدا احد زعيمى مصر ، الذى رباه تربية المماليك المألوفة ، فأظهر النبوغ والتفوق فى الدين الاسلامى وفى الفروسية فأعتقه أستاذه ابراهيم كتخدا عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره وأرخى لحيتـــه ، ثم ولاه سنجقا باسم على ميراللو فازظاغلى وفى عام ١١٧٣ هـ رشحه عبد الرحمن كتخدا ، أعظم أمراء المماليك جاها ومالا ونفوذا ، باعتباره ابن أستاذ ابراهيم الكخيا سيد كل المماليك شيخا للبلد . ثم وقف وراءه يسانده ويؤيده لتصفية كل المماليك الأقوياء الذين ينافسونه .

ولكن خصوم على بك تغلبوا عليه عام ١١٧٩ هـ ونفوه الى الشام أولا ، ثم الى أسيوط ثانيا ، لكى يعود فيدخل القاهرة على رأس مماليكه وأنصـــاره ، ليعود الى مشيخة البلد ورئاستها أكثر قوة مما كان فى المرة الأولى ، بحيث استطاع هذه المرة على ما يقول الجبرتى : أن يقتل المتمردين عليه ، وأن يقطع المعاندين ، وأن يبدد شمل المنافقين .

انتصار على بك على منافسيه فى طنطا :

وفى النصف الأول من المحرم من هـــذه الســنة (١١٨٢ هـ) أحرز محمـــد أبو الذهب تابع على بك الكبير انتصارا ساحقا على خصوم على بك الكبير الذين عادوا بعد ابعادهم الى الشام أو الصعيد وحشدوا قواتهم عند طنطا ولكن محمـــد بك أبو الدهب هزمهم ، وقبض عليهم وقطع رؤوسهم .

ويصف لنا الجبرتى ، صورة تملأ النفس اشمئزازا من موكب النصر ، ولكنهـا عادة هذه الأيام وتقاليدها فيقول لنا :

وفى يوم الجمعة السابع عشر من المحرم رجع محمد بك أبو الذهب وصالح بك والتجريده ، ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم الرؤوس محملة فى صوان من الفضة والخدم يقولون « صلوا على محمد » .

وعدة الرؤوس ستة وهى رأس : حسين بك ، وخليل بك السكران ، وحسن بك شبكة ، وحمزة بك ، واسماعيل بك أبى مدفع وسليمان اغا الوالى .

١٧٦٩ م – ١١٨٣ هـ – على بك الكبير يعزل الوالى الجديد :

كان الباب العالى ، قد أرسل الى مصر عقب عزل محمد باشا راقم (١١٨٢ هـ) واليا جديدا وهو ديويدار محمد أورقللى باشا . فلما نجح على بك فى القضاء على منافسيه رأى أن يتخلص نهائيا من مظهر سلطان البـاب العـالى ممثلا فى شخص الوالى – فاستصدر امرا من الديوان بعزل الوالى فأجابه الى طلبه وعزل أورقللى باشـا .

كيفية عزل الولاه الأتراك :

وقد ترك لنا الرحالة الفرنسى سافارى المعاصر – صورة طريفة لكيفية عزل الوالى التركى فى هذا الزمان .. فكان اذا صدر القرار من الديوان بعزل الوالى ، أنفذ اليه رسولا يلبس رداء أسود يسمى (الاوده باشى) فيحمل قرار العزل ويذهب الى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى ، فيدحل عليه ويطاطىء رأسه احتراما له ، ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا الباشا ، أنزل يا باشا ، ثم يخرج من المجلس فلا يكاد الباشا الوالى يسمع هذه العبارة حتى يعرف انه أصبح معزولا ، فيسرع فى حزم أمتعته والتوجه الى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربع وعشرين ساعة على أن ينتظر ما يأتى من تعليمات من أسطنبول .

وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المعزول بسوء ، ولكن يحدث احيانا اذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حسابا شديدا عما دخل الى حوزته مدة ولايته من أموال وهدايا .

وكثيرا ما كانوا يقتسمون ما جمعه من أموال قبل عزله . وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان (قائمقاما) يتولى منصب الولاية حتى يصل الباشا الجديد .

تعيين على بك الكبير قائمقاما على مصر :

وقد عين الديوان على بك الكبير قائمقاما على مصر بعد عزل أورقللى باشا الى أن يصل الى مصر باشا جديد .. ولكن على بك الكبير كان قد اعتزم أن لا يسمح لوالى تركى جديد أن يدخل الى القاهرة ويقول المؤرخ التركى جودت ان الدولة العلية لم ترسل من ناحيتها الى مصر اى وال فى السنوات الأربع التالية لانشغالها بالحـرب ضد روسيا .

وسواء منع على بك الكبير دخول الولاه الى مصر ، أو ان الباب العالى لم يرسل من قبله ولاة الى مصر .. فالنتيجـة أن على بك الكبير ، قوض آخر مظهر للسلطة العثمانية فى مصر ، وهو وجود وال من قبلها .

١٧٦٩ م — ١١٨٣ هـ — انتصار على بك على شيخ العرب همام :

اذا كان على بك ، فى سبيل انفراده بالسلطة ، قد نجح فى تصفية منافسيه من المماليك ، كما نجح فى اقصاء الوالى العثمانى ، فقد ظلت فى مصر شخصـــية عظيمة ترمز لقوة طالمـا لعبت أخطر الأدوار فى حياة مصر ، وهــذه القوة هى قوة الاعراب وزعيمهم شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى .

ولقد صادفنا حـديث الاعراب وفتن الاعراب ، منذ استقر فى مصر الحـــكم الاسلامى ، ولكنه لم يحدث فى كل تاريخها ، أن ارتفع شيخ قبيلة الى مدى ما وصل اليه شيخ العرب همام ، والذى وصل الى مرتبة سلطان مستقل فى صعيد مصر بقوة شخصيته ، وكرمه وعدله ، واهتمامه براحة الأهالى وأمنهم على اختلاف أديانهم ، بحيث أصبح السلطة الوحيدة المستقرة فى صعيد مصر ، والتى أحس الناس فى ظلها بالطمأنينة والرخاء .. وكان بكوات المماليك الذين يفرون من بطش على بك ، يلجأون الى شيخ العرب همام ، فيجيرهم وينزلون فى حماه ، فاحنق ذلك على بك الكبير عليه .. ولم يكد يفرغ من كسر شوكة الاعراب فى الوجه البحرى ، حتى وجه حملة تحت رئاسة محمد بك أبو الذهب تابعه الأمين ، للقضـــاء على زعامة شيخ العرب همام ابن يوسف ، بل وعرب الهوارة كلهم .

وانتصر أبو الذهب شأنه فى كل المعارك التى خاضها على همام وجيشه ومن انضم اليهم من أمراء المماليك — ولم يلبث أن مات شيخ العرب همام حزنا وكمدا .

ولاول مرة توحدت السلطة فى يد انسان واحد فى مصر وذلكم هو على بك الكبير ، الذى كانت مطامعه تزداد يوما بعد آخر ، فاستكثر من شراء المماليك لانفاذ خططه حتى تكامل عنده ستة آلاف مملوك ، يدينون له بالطاعة .

منع ارسال الجزية الى اسطنبول :

ولا بد ان هذه هى الفترة التى توقف فيها على بك الكبير عن ارسال ما اعتادت مصر أن ترسله من جزية للباب العالى سنويا ، فليس يعرف بالضبط متى قطع هذه الجزية ، وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد ، اشارة عابرة ذكرها الجبرتى بمناسبة ترجمته لوفاة أحد بكوات المماليك عام ١٢١٧ حيث قال ، ومات فى هــذه السنة قاسم بك سيف مملوك عثمان بك أبى سيف الذى سافر بالجزية ومات بالروم وذلك عام ١١٨٠ هـ وهى آخر جزية رأيناها سافرت الى اسطنبول على الوضـــع القديم .

١٧٧٠ م — ١١٨٤ هـ — سلطان على بك يمتد الى الحرمين :

هيأت الظروف لعلى بك الكبير أن يمتد سلطانه الى الحرمين ، اذ قام نزاع بين أشراف مكة ، فلجأ اليه الشريف عبد الله بن حسن ليعاونه ضد مغتصب الشرافة منه ، فبعث على بك الى الحجاز بجيش تحت قيادة محمد أبو الذهب ، فتم له النصر ،

وأجلس على كرسى شرافة مكة الشريف عبد الله بن حسين ــ الذى لم يجد ما يعبر به عن اعترافه بالجميل لعلى بك الكبير الا أن أطلق عليه لقب « سلطان مصر » وخاقان البحرين ، ولعلها المناسبة الوحيدة التى ذكر فيها إسم على بك الكبير مقترنا بسلطنة مصر . واذ وصل على بك الكبير الى هذه المكانة فقد بدأت الدول الأوروبية الجديدة تتطلع اليه وتتعامل معه وتحاول الاستفادة من نفوذه الجديد .

على بك يرنو الى احياء تجارة مصر مع الهند :

يقول الأستاذ محمد رفعت رمضان فى كتابه الممتع على بك الكبير :

لم تكن الأطماع السياسية هى وحدها الغاية من السيطرة على بلاد الحجاز والحرمين الشريفين وميناء جده ، وانما كان يرمى من وراء ذلك كله الى مشروع اقتصادى خطير ، شجعه عليه التاجر البندقى كارلوروستى ــ وهو ان يؤمن من الشواطىء الشرقية للبحر الأحمر ، لتصبح ممرا آمنا فى قبضته ، لتجارة الشرق فى طريقها الى مصر ، ثم يجعل من جدة الميناء التجارى ذات الشهرة الواسعة حينئذ ، مستودعا وسطا لتجارة الهند والشرق الأقصى ــ ليعيد الى مصر الثروة التى فقدتها من تحول تجارة الشرق الى طريق الرجاء الصالح .

على بك يفرض الضرائب الباهظة على الشعب :

وكان لا بد مع اتساع أطماع على بك ، وطموح مشروعاته واستنادها الى الحرب والمعارك ، أن يحتاج الى المال الكثير ، ففرض الضرائب على قرى مصر فوق ما كانت تدفعه من خراج ، فخص كل قرية مائة ريال ، وثلاث ريالات اطلق عليها اسم حق الطريق ــ وطلب من النصارى ١٠٠٫٠٠٠ ريال ومن الأقباط ٤٠٫٠٠٠ ريال .

وكان طبيعيا أن تتصاعد صرخات الجماهير وشكاواها ولكن ذلك كان بدون جدوى فقد جبيت الضرائب فى أسرع وقت .

١٧٧١ م ــ ١١٨٥ هـ ــ سوء الأحوال فى الشام وحملة على بك الكبير عليه :

اذا كانت أحوال مصر ، فى ظل القرن الثامن عشر قد تدهورت وبلغت الحضيض فان ذلك كله لم يكن يقاس ، بما عاناه الشام فى هذه الحقبة ، فطبيعة المصريين السهلة وانسجام غالبيتهم العظمى ، وغنى البلاد الطبيعى ، قد هون الحياة بعض الشىء ، أما فى الشام ، حيث تتعدد الملل والنحل والأجناس وحيث يعتبر الاقليم بطبيعته مزرعة للفتن ، فقد كانت أحوال الشام جحيما لا يوصف .. يقول الأستاذ محمد كرد على صاحب خطط الشام تعليقا على أحوال السكان تحت حكم العثمانيين فى هذه الفترة ، العبارات التالية : ان ابن الشام لم يكن يهتم كثيرا اذا بلغت جيوش الدولة العثمانية أواسط أوروبا فى فتوحها ، أو فتحت فينا أو بودابست ، ولا يهتم أيضا اذا كثرت الخيرات فى العاصمة بما ينفق فيها من أموال المغانم والمغارم . ما دامت الجباية فى بلاده مختلة ، منهكة لقواه وما دام الولاة يسعون لأن يأخذوا المكوس من

الخانات ومن المسكرات .. وما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة ، دع الصغيرة يتوصل اليها بطريقة دنيئة على سبيل الضمان والايجاز . وما دام الأمن مختلا وأهل البادية ولصوص الاعراب على عادتهم فى السلب والنهب ومن المتعذر أن ينتصف المظلوم من الظالم ، وأن تعمل الدولة فى باب العمران ، جزء مما قامت بتخريبه .

ضاهر العمر :

وسط هذا الجو الرهيب الذى كان يسود الشام بزغ نجم ضاهر العمر الذى اختاره أهل طبرية وصفد حاكما عليهم ، لعـدل أبيه من قبـله ولحنكته وثقافتـه ولشخصيته الفذة وحيويته العجيبة التى ظلت تلازمه حتى بلغ الثمانين من عمره .

وقد استطاع ضاهر العمر أن يمد نفوذه وسلطانه على ما يحيط به من مناطق صيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وعكا مما أصـبح يطلق عليه فيما بعـد اسم فلسطين — واتخذ من مدينة عكا مركزا لشياخته .

ضاهر العمر يستنجد بعلى بك الكبير :

وعلى الرغم من أن ضاهر العمر ، لم يفكر فى خلع سلطان الدولة العثمانية وكان يظهر الولاء ، ويبعث اليها بالأموال ، فلم تسكت عنه لحظة واحدة خوفا من سطوته ، فدبرت له المؤامرات وسيرت عليه الجيوش واذا كانت الصداقة قد ربطت بين ضاهر العمر وبين على بك الكبير أيام نفيه فى بلاد الشام ، فقد استنجد به وكان ذلك هو أقصى ما يتمناه على بك الكبير ، الذى كان يعرف أن الشام كان جزء من مصر طوال حكم المماليك .

على بك الكبير يتصل بالروس وبالبندقية :

على أن على بك الكبير ، قبل أن يمضى فى مغامرته بالاستيلاء على الشام ، وهو يعلم أن مثل هذه الخطوة ستؤدى الى مواجهة مباشرة مع جيوش الدولة العثمانية ومواردها ، فقد رأى أن يمهد لذلك بالتحالف مع أعدائها ليكونوا عونا له عليها .

وكان الروس فى هذه الفترة فى حربهم مع الدولة العثمانية قد نجحوا فى ارسـال أسطول بحرى من بحر البلطيق ودار حول غرب أوروبا حتى دخل الى البحر الأبيض المتوسط وفرض الحصار على الدولة ، فاتصل على بك الكبير مع الكونت أورلوف ، قائد الأسطول الروسى ، وعرض عليه عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسـيا ، وطلب منه أن يمده بمدافع للحصار ومهندسين ، فرد عليه الكونت أورلوف ، مهنئا ومشجعا على حركتـه الاستقلالية ، ووعده بارسال طلبـه فى الحال بعرضه على القيصرة ، كما وعده بارسال ما طلب من مهمات وخبراء .. فكان لهـذه الاتصالات اثرها فى تشجيع على بك الكبير فى الاقدام على مغامرته التالية .

أبو الدهب يدخل دمشق :

لم يكد محمد أبو الدهب يعود بحملته الظافرة من الحجاز حتى سيره على بك

الكبير على رأس جيش ضخم يتألف من اكثر من اربعين الف جندى ، ليزحف به على الشام ومعاقله . وقد نجح أبو الدهب نجاحا منقطع النظير فى حملته الجديدة فاستولى على غزة والرملة ونابلس ، وسلمت اليه بيت المقدس بسـلام ، ثم حاصر يافا فاستسلمت له بعد شهرين ثم اتجه الى عكا وعسكر فى ضواحيها فى انتظار مقـدم ضاهر العمر للانضمام اليه ، ولكن هذا الأخير بعث على رأس الجيش ابنيه نيـابة عنه ، مما أحنق عليه محمد أبو الذهب . وسار الجيشان الحليفان فاحتلا مدينة صيدا ، ولم يبق سوى مدينة دمشق لاحكام السيطرة على سوريا الوسطى .

وكان أبو الذهب كلما احتل مدينة يولى عليها حاكما من قبله يحكمها باسـم على بك الكبير ، ويترك بها حامية من جنوده تشرف على الأمن والنظام .

وتقابل الجيشان الحليفان المصرى والشامى ، مع الجيش العثمانى الذى كان مؤلفا من أكثر من ألف مقاتل ، تحت قيادة أربعة من الباشوات وكان اللقاء فى جنوب دمشق ، فدارت الدائرة على الجيش العثمانى ، وفر الباشوات الأربعة .

وفتحت دمشق أبوابها فى أمن وسلام لمحمد أبو الذهب . فدخلها فى السادس من يونيو من هذه السنة (١٧٧١ م) دون أن تراق قطرة دم واحدة ، وانسحبت حامية المدينة الى القلعة ، ولكنها لم تلبث أن استسلمت بدورها بعد ثلاثة أيام .. ودخل محمد بك أبو الذهب ممثل على بك الكبير الى دار الوزارة فى دمشق ، وجلس حيث كان يجلس ممثل السلطان العثمانى ، وأتت الوفود من سائر الأرجاء تزف التهانى .

نقطة الانقلاب فى تاريخ على بك الكبير :

وتعتبر ليلة العاشر من يونيو ١٧٧١ ربيع الأول ١١٨٥ ذروة ما وصل اليـه على بك الكبير من نجاح وسلطان ــ وقد كتب قنصل فرنسا فى تقرير له لدولته يقول : أن على بك فى يونيو سنة ١٧٧١ كان فى مركز يسمح له بأن يعلن نفسه سلطانا على مصر وسوريا .

وكما يعتبر هذا التاريخ ذروة نجاح على بك الكبير ، فهو يعتبر فى نفس الوقت بدء أفول نجمه ، وذلك أن رجله الكبير محمد بك أبو الذهب لم يلبث أن انقلب عليه .

محمد أبو الذهب يجلو عن سوريا ويعود الى مصر :

أما لـماذا اعتبر هذا اليوم بالذات (١٠ يونيو) هو نقطة الانقلاب ، فذلك لأن محمد أبو الذهب قرر فى هذا اليوم لسبب بدأ فى ذلك الوقت مجهولا أن ينسحب بجيشه المنتصر من الشام بأسرع مما يصل خبره الى مصر . وقد فوجىء العالم كله بهذا الانسحاب فيقول قنصل فرنسا : لقد أثارت هذه الحادثة دهشة الجميـع ، ولست اتمالك نفسى من العجب عن التفكير فى هـذا الارتداد المفاجىء ، بعـد كل هذه التكاليف والجهود التى بذلها على بك الكبير لتحقيق مشروعاته الواسعة وبعد أن كانت جميع البلاد قد دخلت فى طاعته .

والذى لم يعرفه قنصل فرنسا فى ذلك الوقت ، أن على بك لم يكن هو الآمر بهذا الانسحاب وانه كاد ان يجن من فرط الغيظ والقهر لهذا الحادث الذى أقدم عليه أبو الذهب .

وقد أظهرت الحوادث التالية ، سر ما أغلق على المعاصرين فهمه فى وقتها ، فمن المحقق أن العثمانيين قد اتصلوا بمحمد أبو الدهب ، ومنوه ووعدوه بأن يبوءوه منصب أستاذه فيجعلونه شيخا للبلد . ولقد لعب زميله فى هذه الحملة اسماعيل بك ، كما لعب العثمانيون على وتر الاخلاص للدين فعلى بك : قد سلك على غير مسلك الاستقامة اذ ترك الطريقة الاسلامية ، واتبع كاترين امبراطورة الروس ، مع أن الروس أعداء الدولة العلية ، ويجب على كل متدين أن يحاربهم فى كل وقت وآن .

وقد صادف ذلك كله هوى فى نفس أبو الدهب الذى كان الطموح يستبد به منذ امد بعيد . فهو لم يطلق عليه اسم أبو الدهب الا لأنه لم يكن يجود الا بالذهب حتى استطارت شهرته بهذا الاسم .

وتاريخ المماليك صورة متصلة الحلقات ، من انقلاب كل مملوك على أستاذه متى وجد فى ذلك سبيله للتقدم خطوة للامام .

وليس من العجيب أن يتطلع محمد أبو الذهب أن يكون هو شيخ البلد بدلا من على بك الكبير ، بل العجيب أن لا يتطلع الى هذا المنصب وهو الذى عبد له السبيل بانتصاراته المتوالية فى الداخل والخارج .

١٧٧٢ م ــ ١١٨٦ هـ ــ فرار على بك الكبير الى الشام :

أصطدم الرجلان على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب بمجرد عودة الأخير الى القاهرة ، وانتهت الغلبة لمحمد أبو الذهب .

ورأى على بك الكبير أن لا أمل له الا فى الهرب الى الشام لاستجماع قواه واعادة تنظيم صفوفه للدخول فى جولة ثانية مع محمد أبو الذهب .

وفى الخامس والعشرين من المحرم (١٢ ابريل) غادر على بك الكبير مصر قاصدا الشام مصطحبا معه سبعة آلاف رجل من الخيالة والمشاة ، وحاملا معه ثروته البالغة (٨٠٠٫٠٠٠) محبوب ومجوهراته التى كانت تقدر بثمانية مليون دوقة ، وأسرع يغذ السير حتى لا يلحقه محمد أبو الذهب .

وفى صباح الخميس السادس والعشرين من المحرم (١٣ ابريل) دخل أبو الذهب الى القاهرة ــ وتولى زمام السلطة بها ، وارسل الى الباب العالى ، يبشره بما وفق اليه ، من اعادة مصر الى حظيرة السلطان .

١٧٧٣ م ــ ١١٨٧ هـ ــ هزيمة على بك الكبير فى الصالحية ووفاته :

قصد على بك الكبير فلسطين ، واجتمع مع صديقه وحليفه ضاهر العمر فى عكا ، فاستطاعا بتعاونهما أن يهزما جيشا عثمانيا أرسل للقضاء عليهما تحت قيادة عثمان

باشا والى دمشق . وفرضا بعد ذلك حصارا على مدينة يافا دام ثمانية أشهر ، سقطت المدينة فى أيديهما على أثرها .

وكان على بك الكبير خلال هذه الفترة على اتصال دائم بقائد الاسطول الروسى ، الذى مافتىء يمنيه ويعده بقرب وصول النجدات ، ولكن هذه الوعود كلها لم تتمخض عن شيء يزيد عن ثلاثة مدافع وبضع ضباط وعدد من البنادق .

وارتفعت معنوية على بك الكبير ، ورأى أن يهاجم مصر بغير حاجة الى انتظار المدد الموعود من الروس ، وعلى خلاف نصيحة صاحبه ضاهر العمر .

وقيل أن محمد أبو الذهب هو الذى استدرجه الى مصر بأن أوعز لبعض رجاله أن يكتبوا لعلى بك الكبير يئنون من حكم محمد أبو الذهب ويعدون على بك الكبير أنه لا يكاد يصل الى مصر حتى يكونوا معه قلبا واحدا ضد الخائن محمد أبو الذهب .

وقدم على بك الكبير الى مصر ... وقابله محمد أبو الذهب وتم اللقاء عند الصالحية ، وانتهت المعركة لصالح محمد أبو الذهب وأصيب على بك الكبير بجرح ، فاحتاط به رجال أبى الذهب وحملوه الى سيدهم . الذى تلقى على بك الكبير بكل اكرام .

وقبل يده وحمله من تحت أبطه حتى أجلسه بصيوانه .. ثم نقل على بك الكبير الى بيته على بركة الأزبكية ، وعهد الى الأطباء بخدمته ولكنه مات بعد أيام قليلة من وصوله ... أكان موته بسبب جروحه ، أم مات غما وكمدا وقد انهارت أحلامه الكبيرة ، أم مات مسموما كما يقول البعض ... النتيجة أنه مات فى الخامس عشرين من صفر من هذه السنة الهجرية ... وطويت صفحة هذه المحاولة الأولى لاعادة مصر الى مسرح الحياة الدولية كقوة مستقلة تعتمد على ذاتها ، وتؤثر فى الأحداث الجارية من حولها .

لقد أشبه أن يكون مقدمة وتجربة لما سيقع بعد ذلك من محمد على .

وهؤلاء الذين يبدأون تاريخ مصر الحديث ، وما بدأت تقوم به من دور فى الحياة الدولية ، يجب أن يرجعوا الى الوراء قليلا ليبدأوا هذه الفترة بهذه السنوات الحافلة من نشاط على بك الكبير .

فلأول مرة تلفت مصر انظار الدول الأوروبية الحديثة ، وتدخل فى المعترك الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، فيرى مندوبو البندقية والدولة الفرنسية والانجليزية والروسية ، يدخلون فى علاقات مختلفة مع هذه القوة الجديدة .

وقد ظلت هذه العلاقات تنمو حتى أخذت صورتها المتفجرة فى حملة نابليون على مصر .

هل أعلن على بك الكبير استقلال مصر :

ولا يستطيع المؤرخ أن يدع التساؤل الذى يفرض نفسه دائما على الباحثين وهو هل أعلن على بك الكبير استقلاله عن الدولة العثمانية . والحق أن الاستقلال بصورته

التى نشأت فى القرن التاسع عشر هو شيء جديد فى حياة الأمم ، ولكن الذى لا شك فيه أن على بك الكبير اراد أن يعيد سيرة سلاطين المماليك العظام من أمثال بيبرس وقلاوون وبرقوق . والجبرتى يقول عنه انه كان دائم الاطلاع على كتب الأخبار والتواريخ وسير الملوك المصريين .

وقد ناقش الأستاذ محمد رفعت رضوان فى كتابه عن على بك الكبير هذه القضية ووفاها من البحث ، وانتهى الى أن على بك الكبير قد وقع دائما منشوراته وبياناته بأنه قائمقام السلطة العثمانية فى مصر ، والنقود التى ظل يضربها فى جميع سنوات سلطانه ظلت تحمل اسم سلطان بنى عثمان وان كانت حملت اسمه كذلك فى السنوات المتأخرة . بل لقد وصل به الأمر (على ما روى الجبرتى) الى حد معاقبته أحد خطباء المساجد لأنه دعا على المنبر باعتباره سلطانا .

وعندنا أن المسألة كانت عند على بك الكبير مسألة زمن ، وان الوقت لو أسعفه ، لأزال آخر سلطان للدولة العثمانية ، وأوقف السكة والخطابة على المنابر باسم سلطانها ، ولعله كان بصدد الأقدام على ذلك بالفعل ، لولا هذا الانقلاب الذى فاجأه به محمد أبو الذهب فقلب خططه رأسا على عقب .

وتبقى حقيقة مؤكدة ، وهى ان على بك الكبير تصرف ، تصرف الحاكم المستقل ، بل الحاكم الثائر المتمرد على الدولة ... اذ اتصل بأعدائها وخصومها الذين كانوا يضيقون الخناق عليها لارهاقها وهم الروس .

ولعل هذه الواقعة الأخيرة ، هى التى تنهض دفاعا عن محمد أبو الذهب فى وجه من يتهمونه بالخيانة لسيده ، فقد اعتبر محمد أبو الذهب فى ذلك الوقت منقذا ، حال دون تصدع اركان الدولة الاسلامية التى كانت روسيا القيصرية تهددها بأشد الأخطار .

رحالة فرنسى يصف عواطف الشعب المصرى حيال على بك الكبير :

وقد سجل لنا فولنى الرحالة الفرنسى مشاعر الشعب المصرى حيال على بك الكبير وحركته ، فى صفحة من أروع ما يطالع الانسان من صفحات ... حيث تطل من سطورها روح الثورة الفرنسية التى بدأت تدق على الأبواب ... حيث بدأ الحديث يتردد عن هذا الشيء الجديد الذى يسمى الشعب ، حيث لم يكن ثمة حديث الا عن الحكام والملوك والأمراء يقول فولنى الذى زار مصر بعد عشر سنوات من وفاة على بك الكبير .

« ولا يسعنى أن أمضى دون أن أؤكد ملاحظة سمعتها فى القاهرة من التجار الأوروبيين الذين عاشوا فى عصر على بك ووقفوا على خاتمته فانهم بعد أن أثنوا على حسن ادارته ، وحماسته فى اقامة العدل ومآثره على الفرنجه ، ذكروا ما أثار دهشتى بقولهم ، أن الشعب لم يكن يأسى لفقده ، بل أن أفراد الشعب كانوا لا يزالون يرددون شكواهم من مظالمه .

وعندما بحثت حقيقة هذا الأمر ، لم يبق عندى ما يستدعى عجبا أو يثير دهشة ، فان الشعب فى مصر كما هو فى اى بلد آخر انما يكون رأيه فى حاكمه حسب ما تمليه عليه مصالحه الذاتية ، ويقدر جهد الحاكم فى تمهيد سبل الحيـــاة لأفراد الشعب بقدر حبهم له وثناءهم عليه حتى اذا شعروا بأعباء الحيـــاة تثقل كواهلهم نظروا الى حكامهم بين السخط وأرجعوا تلك العقبات الى سياسة الحكام الخرقاء .

ونحن لا يمكننا أن نعتبر أساس ذلك التقدير أهوجا أو غير عادل ، فمن العبث أن يتعلل الانسان بأن شرف الدولة ، ومجد الأمة وتشجيع التجارة وترقية الفنون كانت تستدعى منه هذا العمل أو ذلك ، لأن مرافق الحياة هى التى كان يجب أن تشغل اهتمامه قبل كل شيء . فماذا كان يفيد المصريين أن يغزو على بك الكبير الصعيد ، أو أن تدخل جيوشه مكة والشام ، ان لم تؤد هذه الفتوحات الى خير يصلح حالهم . وعندما يفتقد الشعب الخبز ، يحق له عدم الاعتراف بحكامه أو الرضاء عن حكمه .

ولذلك فلم تعد هذه الأعمال (التى قام بها على بك الكببير) حسنات بل انقلبت الى مساوىء لأنها اثقلت كواهلهم بالتكاليف فى فقد كلفت حملة الحجاز وحدها ٢٦ مليونا من الفرنكات ، كما أن تموين الجيوش بغلال مصر مضافا الى احتـــكار بعض التجار من محاسبيه لها ، أحدثت مجاعة طاحنة فى عامى ١٧٧٠ ، ١٧٧١ .

ويمضى هذا الكاتب الفرنسى العظيم فى تحليله فيقول :

« كيف يحق لنا أن نعتبر هياج الخواطر ضد على بك الكبير ضلالا عنـدما كان سكان القاهرة وفلاحو الريف يموتون جوعا ؟ أكانوا على غير حق عندما سخطوا على تجارة الهنـــد لأن أرباحها تركزت فى أيدى فئة قليـــلة . وعندما صرف على بك ٢٢٥,٠٠٠ جنيه ثمنا لحلية مقبض خنجره ، ألم يكن من حق الشعب أن يبغض تحفه ونفائسه ، ثم فيض انعاماته من مال الشعب التى كانت بطانته تسميها فضـيلة ألم يكن من حق الشعب أن يعتبرها رذيلة . أكان فضـلا لهـذا الرجل أن يسرف فيما لا يفيد ، وهل كان عدلا منه أن يشبع رغبـاته الخاصة ويسدد ديونه على حســاب الأمـة (١) .

١٧٧٤ م ـ ١١٨٧ هـ ـ وفاة السلطان مصطفى الثالث :

وفى الثامن من ذى القعدة من هذه السنة ، توفى السلطان مصطفى الثالث بعـد حكم دام ستة عشر عاما وثمانية شهور ، مضت كلها وجيوشه فى شغل عن كل شيء الا مواجهة الروس .

تولية السلطان عبد الحميد خان الأول :

بويع بالسلطنة عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد الثالث وكان عمره يوم بويع خمسين سنة ، ولم يوزع على الجنود الانعامات المعتادة فى مثل هذه الظروف وذلك لنضوب الخزانة التى استنزفتها الحرب مع روسيا .

(١) محمد رفعت رمضان ـ على بك الكبير .

١٧٧٤ م ـ ١١٨٨ هـ ـ معاهدة كينارجى مع الروس :

انتهت الحرب المستمرة بين الروس والعثمانيين بهزيمة الجيش التركى فابرمت معاهدة كينارجى وبموجبهـــا اعتبر التتـــار بالقرم مستقلين على شرط اعترافهم بالسلطان العثمانى كخليفة لهم ... وهذه أول مرة يستخدم العثمانيون الخـــلافة باعتبارها رابطة دينية روحية .

وأعيدت الافلاق والبغدان (رومانيا الحاليـــة) لتركيا شريطة أن يجرى الحـكم فيها على سياسة اللين .

وحصلت روســـيا فى مقابل ذلك على حصـــون كنبرن وكيرش فى القـــرم ، مع الاعتراف بحقها فى الملاحة بالبحر الأسود بل وفى المياه العثمانية كلها وحقها فى بسط حمايتها على المسيحيين الارثوذكس فى الدولة .

وصرح للروس ببناء كنيسة كبيرة فى اسطنبول . وهكذا تحقق للروس ما كانوا يطمعون فيه منذ قامت دولتهم وهو ان يعتبروا ورثة الدولة البيزنطية ورعاة الكنيسة الشرقية .. وكانت هذه المبادىء هى التى صارت فيما بعد الأساس الذى بنت عليه روسيا تدخلها فى شئون الدولة العثمانية .

ولم تكن معاهدة كينارجى فى طبيعتها الا حلقة من حلقات الصراع الذى لم ولن يكف بين الدولة العثمانية ودولة الروس الزاحفة .

محمد بك أبو الذهب فى مصر :

لم يترتب على اختفاء على بك الكبير من مسرح مصر ، أى أثر بالنسبة لســلطان الدولة العثمانية على مصر ، الا فى ارسالها خليل باشا ليكون واليا على مصر ، ولكنه وصل الى مصر ليكون سجينا فى القلعة ، فما كان لمحمد أبو الذهب الذى وصل الى السلطان فى مصر بقوة سلاحه أن يرضى بغير ذلك .

يقول لنـــا الجبرتى عن حوادث عام ١١٨٨ : استهلت هذه الســـنة ووالى مصر محجوز عليه ليس له من الولاية الا الاسم والتوقيع على الأوراق . أما تصريف الأمور فبيد الأمير الكبير محمد أبو الذهب ويساعده فى ادارة مصر كل من الأميرين ابراهيم بك ومراد بك ، وليس للوالى أمر فى مصر معهم وانتهت أيام هـــذه السنة والحال فى هدوء وسكون وأمن والأحكام فى الجملة مرضية والأسعار رخيصة .

انجلترا تظهر على مسرح الحوادث :

وفى ذلك الوقت كانت أمام البرتغال كقوة بحرية مسيطرة على المحيط الهنـــدى قد انتهت على يد الانجليز والفرنسيين ، ولم تلبث المنافسة بين انجلترا وفرنسا على السيطرة على تجارة الهند ، وبحار الهند ، قد انتهت بدورها لصالح انجلترا ، حيث كانت شركة الهند الشرقية قد أنشبت أظافرها فى القارة الهندية ، وبدأت تحتل على شواطئها فى الشرق والغرب مناطق تحولها الى قلاع . وكان طبيعيا أن توجه التفاتها الى المنطقة الاسلامية التى كانت عبر التاريخ الممر الطبيعى لتجارة الشرق المتجهـــة

نحو أوروبا ، وبدأت أساطيلها تنفذ الى الخليج العربى بعد أن طردت البرتغال من مواقعهم به ولكن شمال البحر الأحمر ظل مغلقا فى وجوههم فقد كانت الدولة العثمانية تحظر على السفن الأوروبية أن تتخطى ميناء جدة على أساس أن مياه البحر فى هذه المنطقة جزء من الأراضى المقدسة . حتى اذا كان على بك الكبير بدأوا معه فى المفاوضات لدخول السفن والمتاجر الانجليزية الى مصر ... ولكن الاتفاق لم يتم توقيعه الا مع خليفته محمد أبو الذهب ، وكان وارن هاستنجز بصفته حاكم البنغال هو الطرف الانجليزى فى هذه المعاهدة .. وبموجبها تعهد محمد أبو الذهب بفتح ميناء السويس للسفن والمتاجر الانجليزية .

وهكذا بدأت مصر تدخل فى دائرة المصالح الانجليزية والخطط الانجليزية .

١٧٧٥ م — ١١٨٩ هـ — أبو الذهب يهاجم ضاهر العمر فى الشام :

لم ينس محمد أبو الذهب انه فاتح بلاد الشام ، وأنه لم ينسحب منها ، الا تحقيقا لخطته فى القضاء على .. على بك الكبير والحلول محله . فأما وقد حل محله وأصبح هو السيد فقد رنا ببصره من جديد للاستيلاء على الشام ، لا على سبيل الثورة والتمرد على الدولة العثمانية ، ولكن بأذنها واقرارها فقد كان ضاهر العمر ولا يزال هناك يمثل صورة الحاكم المستقل الذى لم تستطع الدولة أن تقتلعه من سلطانه .

وخرج محمد أبو الذهب من مصر فى المحرم من هذه السنة ، وهزم ضاهر العمر وجيوشه واستولى على فلسطين ويافا وعكا ، وأرسل الى الباب العالى يطلب أن يولى على مصر والشام ، وأصحب طلبه بالهدايا والاعطيات والأموال الوفيرة ، فأجيب الى طلبه وأرسل اليه السلطان بالتقاليد والخلع المعتادة .

ولعب القدر لعبته المفضلة ، وهو أن يبرهن فى كل وقت وآن ، أنه صاحب الكلمة

ففى نفس اليوم الذى دخل فيه محمد أبو الذهب فائزا منتصرا وجاءه التقليد من الباب العالى بالولاية على مصر والشام ، كان هو اليوم الذى وافاه فيه الأجل ، حتى لقد قال معاصروه أنه مات من شدة الفرح وقد حمل الى مصر ليدفن فى مسجده ومدرسته فى مواجهة الأزهر .

١٧٧٦ م — ١١٩٠ هـ — وفاة الأمير عبد الرحمن كتخدا مجدد الجامع الأزهر :

مات فى هذه السنة الأمير الكبير عبد الرحمن كتخدا الذى كان المماليك يعتبرونه كبيرهم فهو ابن حسن جاويش القازدوغلى أستاذ سليمان جاويش أستاذ ابراهيم كتخدا مولى جميع الأمراء المصريين الذين كانوا موجودين فى مصر فى ذلك الوقت . وقد كانت له اليد الطولى فى تدعيم نفوذ على بك الكبير ، فلما استتب الأمر لعلى بك نفاه من مصر الى مكة . وعاد الى مصر بعد وفاة على بك الكبير ، وقد استولى عليه

العى والهرم وكرب الغربة ، فدخل الى بيته مريضا بضعة أيام مات بعدها ... ويقول عنه الجبرتى انه لم يخلف بعده مثله .

ونحن ما كنا لنشير اليه فى هذا الكتاب الا لمآثره الكثيرة ومنشئاته وأوقافه التى تجعله نجم المماليك فى كل العصر العثمانى .

فقد بلغ عدة المساجد التى أنشأها أو جددها ثمانية عشر مسجدا بخلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر .

ومبنى الجامع الأزهر بصورته الحالية مدين لعبد الرحمن كتخدا الذى ضاعف مساحته طولا وعرضا ، وبنى به محرابا جديدا ومنبرا وأنشأ له بابا عظيما وعمر مسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة .. ورتب للعميان الفقراء الأكسية الصوفية والمعونات للنساء الفقيرات .. وغير ذلك كثيرا مما فصله الجبرتى .

١٧٨٣ م — ١١٩٧ هـ — استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن انجلترا :

فى هذه السنة الميلادية فى الثالث من سبتمبر على وجه التحديد ، وقع الانجليز فى باريس معاهدة استقلال الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه السنة . وهذا الحادث التاريخى الذى ربما لم يسمع به المصريون فى حينه ولكنه كان ايذانا بتطور جديد فى شئون العالم وأن بذور قوة جديدة قد غرست فى أرض الأحداث ، لن تلبث بعد أقل من قرنين أن تكون أغنى وأقوى قوة على ظهر الأرض .

١٧٨٥ م — ١١٩٩ هـ — مراد بك يعقد معاهدة تجارية مع فرنسا :

فى العاشر من يناير من هذه السنة الميلادية ، استطاعت فرنسا أن تلحق بانجلترا فى نشاطها الاقتصادى فى مصر ، فأبرمت مع مراد بك الذى كان يتولى السلطة فى مصر مع شريكه ابراهيم ، معاهدة خول للتجار الفرنسيين والسفن الفرنسية بمقتضاها امتيازات وتسهيلات جمركية فى الموانى المصرية ، تفوق تلك التى حصل عليها الانجليز بموجب معاهدتهم مع محمد أبو الذهب .

انجلترا تعين قنصلا عاما فى مصر :

فأسرعت انجلترا لاعادة التوازن ، بأن أوفدت الى مصر لأول مرة قنصلا عاما موفدا من وزارة الخارجية البريطانية ليقيم فى مصر .

ولما كانت هذه الاجراءات السياسية من الدرجة الأولى ، تتم بدون الرجوع الى الباب العالى ، فقد أحنق ذلك الدولة العثمانية ، وقررت أن توفد الى مصر قوة عسكرية لتعيد اليها النفوذ والسلطان .

١٧٨٦ م — ١٢٠٠ هـ — الدولة العثمانية توفد أسطولا وجيشا الى مصر :

كان الولاة العثمانيون الذين توافدوا على مصر عقب موت على بك الكبير لا يعدوا أن يكونوا سجناء لدى المماليك فى القلعة . هكذا كان شأن الولاه خليل باشا

(١٨٨٨ هـ) ومصطفى النـــابلسى باشا (١١٨٨ هـ ــ ١١٨٩ هـ) وابراهيم باشـــا (١١٨٩ ــ ١١٩٠ هـ) ومحمـــد عزت باشا الكبير (١١٩٠ ــ ١١٩٢ هـ) ورائف اسماعيل باشا (١١٩٢ ــ ١١٩٥ هـ) وابراهيم باشا (١١٩٣ هـ) واسماعيل باشـــا مرة ثانيـــة (١١٩٣ ــ ١١٩٥ هـ) ثم محمـــد ملك باشا المعروف بيكن (١١٩٥ ــ ١١٩٦ هـ) ثم الشريف على باشا (١١٩٦ ــ ١١٩٧ هـ) ثم محمد السلاح دار باشا (١١٩٧ ــ ١١٩٨ هـ) ثم الشريف محمد يكن باشا .

واذا كان هؤلاء الولاة بغير حول أو طول .. فقـد انفرد بحـكم مصر ابراهيم بك ومراد بك ، ولم يكن هناك ما يجمع بين هذين الرجلين سوى حرصهما على استدامة نفوذهما ، ولذلك فقد كانا يتحاربان ويتصالحـان ، ويخرج أحدهمـــا الى الصعيد مغاضبا هو ومماليكه لكى يسعى الآخر لمصالحته وارجاعه ، ليعود الآخر الى المغاضبة فى الصعيد وهكذا .

والشعب بين الرجلين ومماليكه يطحن بين شقى الرحى . ولم تكد الفرصة تتاح للدولة العثمانية أن تتنفس من حربيها مع الروسيا ، حتى قررت أن تتصدى لاعادة سلطانها الى مصر وابادة المماليك بصفة نهائية ، فأرسلت الى الاسكندرية أســطولا وجيشا تحت قيادة حسن باشا قبطـــان . وقد أعلن عن مهمتـــه بمجرد نزوله فى الاسكندرية ، وهى أنه قد جاء ليقتص من الخائنين ابراهيم بك ومراد بك ، ورفع الظلم عن العباد واصلاح الأحوال .

هرب ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد وتعيين اسماعيل بك شيخا للبلد :

هرب ابراهيم بك ومراد بك من وجه حسن قبطان باشا الذى دخل القـاهرة فى الخامس من شوال من هذه السنة وأمر على الفور مصادرة أموال الأمراء الهاربين ، وعين اسماعيل بك شيخا للبلد ليكون اداة فى يد العثمانيين .

١٧٨٩ م ــ ١٢٠٣ هـ ــ وفاة السلطان عبد الحميد الأول :

فى الثانى عشر من رجب من هذه السنة مات السلطان عبد الحميد الأول بالغا من العمر ٦٦ سنة ومدة حكمه خمسة عشر عاما وثمانية شهور .

تولى السلطان سليم خان الثالث العرش :

فى نفس اليوم الذى مات فيه عبد الحميد تولى العرش السلطان سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى ، وكان عمره يوم ولى الحكم ثمانية وعشرين عاما ، وجو السياسة مكفهر ، وقد عادت رحى الحرب لتشتعل من جديد بين الدولة العثمانية وبين الدولة الروسية ، بعد أن اتفقت مع النمسا لهزيمة الدولة العثمانية نهائيا واخراجهـا من أوروبا واذا كان هذا الهدف لم يتحقق للدولتين فلم يكن ذلك لقوة فى الدولة العثمانية ولكن لتطور فى أوروبا باندلاع نيران الثورة الفرنسية وانشغال النمسا بها .

طاعون اسماعيل بك وموته :

فى هذه السنة انتشر فى مصر طاعون فتاك ، قتل الكثير من الخلائق بما فيهم الأمراء والكشاف والسناجق والعلماء ، حتى لقد مات به اسماعيل بك شيخ البلد نفسه ، كما مات من خلفه ، وكذلك من ولى بعدهما . وقد حدث خلال هذا الطاعون أن اصبح من المألوف أن ينتقل الميراث ثلاث مرات فى جمعة واحدة ، وقد استمر يضرب بحرانه فى البلاد خمسة أشهر كاملة .. وقد أطلق المصريون على الطاعون اسم طاعون اسماعيل بك باعتباره اندلع فى ايامه واهلكه .

دخول ابراهيم بك ومراد بك الى القاهرة :

وعندما سمع ابراهيم بك ومراد بك ، بوفاة اسماعيل بك ، وانه لم يعد فى القاهرة من يقوى على صدهما .. دخلاها فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، وانسحب من وجههما بقية أمراء المماليك الذين كانوا يقيمون فى القاهرة .

ولكن من مساخر القدر ، أن الوافدين الجدد ، وجدوا بيوت من مات من الأمراء خاوية على عروشها من الرجال ، عامرة بالنساء والجوارى الذين ظللن على قيد الحياة ، فاختار كل أمير ما أحب من البيوت التى مات أصحابها أو فروا ، وتزوج من النساء من شاء ، وتسرى بالجوارى .

الدولة العثمانية تعترف بالأمر الواقع :

وكتب محمد عزت باشا الوالى العثمانى ، يحيط الدولة بما تم وأنه لم يكن من المستطاع صد ابراهيم بك ومراد بك عن العودة الى القاهرة ، وانه يحسن بالدولة أن تعترف بالأمر الواقع وأن تصدر عفوا عنهما ــ واستجاب السلطان لهذا الاقتراح ، وصدر المرسوم بالعفو والاذن لابراهيم بك ومراد بك بالدخول الى القاهرة ولكن الرجلين كانا قد دخلا بالفعل كما رأينا وباشرا سلطانهما ولا سلطان الا بفرض الضرائب على الناس وتحصيلها ، وممارسة صنوف من الظلم والطغيان .

بزوغ نجم السيد عمر مكرم :

وفى هذه الفترة التى سبقت دخول ابراهيم بك ومراد بك الى مصر فقد ظهر على مسرح الحياة المصرية لأول مرة مصرى من صميم الريف المصرى ، وهو السيد عمر مكرم الذى ولد فى أسيوط (انظر فريد أبو حديد) وتلقى العلوم الإسلامية فى الأزهر ومن خيرة علماء هذه الفترة .

اذ كان هو الرسول الذى أوفداه للتفاوض مع أمراء القاهرة والحاكم العثمانى للسماح بدخول القاهرة فى أمان .

فلما أن دخل ابراهيم بك ومراد بك الى القاهرة ، حفظا له هذا الجميل وعيناه نقيبا للسادة الأشراف .

وعلى أن أصالة معدنه ، وايمانه هذا الايمان الجديد بحق الشعب فى أن يكون صاحب السلطة ، جعله يكون على راس الذين تصدوا لابراهيم بك ومراد بك كما سنرى .

١٧٩١ م — ١٢٠٥ هـ : وفاة الزبيدى مؤلف تاج العروس :

فى هذه السنة ، مات أبو الفيض السيد محمد الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى الحنفى ، وكان قد وصل الى مصر عام ١١٦٧ ويسكن بخان الصاغة ، وحضر على كثير من مشايخ مصر وتلقى عنهم وأجازوه وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه — وقد خلد بشرح القاموس المحيط للفيروزابادى فأتم هذا الشرح فى أربعة عشر مجلدا — وسماه تاج العروس — وقد أتمه فى عام ١١٨١ هـ وهى السنة التى بدأ فيها على بك الكبير محاولته للاستئثار بسلطان مصر ، وقد شغل عن هذه الموسوعة الكبرى بحروبه المتصلة ، ولكن خلفه محمد أبو الدهب قدرها فقد اشتراها ودفع فيها مائة ألف درهم ، وذلك ليضعها فى مكتبه مدرسته وجامعة .

وهكذا قدر للعصر المملوكى فى آخر مراحله أن ينجب عالما ، يذكر الى جوار العلماء الموسوعيين الذين انجبتهم مصر فى عصر المماليك المزدهر .

١٧٩٢ م — ١٢٠٦ هـ — الثورة الفرنسية تبلغ ذروتها(١) :

١٧٩٥ م — ١٢٠٩ هـ — ثورة شعبية للجماهير ضد مظالم المماليك :

اثرت انباء ما حدث فى فرنسا من قومة الجماهير لأول مرة ترفع رسها ، وتمسك عنان السلطة بيدها ؟ نشك فى ذلك ، وان كنا لا نستبعده ، والأرجح فى رأينا أن الحركات الاجتماعية ، كالظواهر الطبيعية ، قد تقوم بطريقة تلقائية فى أكثر من مكان . ويبدو أن المناخ الانسانى قد سرى اليه ، هذا المعنى الجديد الخاص بسلطان الشعب ، حيث لم تكن البشرية تعرف الا سلطان الملوك والحكام والأمراء .

بدأ ذلك بثورة الشعب الأمريكى على انجلترا ، ثم ثورة الشعب الفرنسى على حكامه .

وفى هذه السنة نشهد حركة مماثلة فى مصر ، وان كانت لم تتطور كتطور هاتين الثورتين الأخريين ، لسبب تداعى الأحداث كما سنرى .

بدأت هذه الحركة بشكوى تلقاها الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر من اهالى بلبيس ، يتظلمون من عسف محمد بك الألفى وتكليفهم بما لا يطيقون . فحمل الشيخ الشرقاوى شكوى الفلاحين الى حاكمى مصر الفعليين ابراهيم بك ومراد بك ،

---

(١) فى الحادى والعشرين من سبتمبر من هذه السنة (١٧٩٢) وصلت الثورة الفرنسية الى ذروتها ، حيث وضع المؤتمر الوطنى دستورا جديدا ألغى به الملكية ولم يلبث بعد ذلك بقليل أن حكم على الملك (لويس السادس عشر) بالاعدام ونفذ حكم الاعدام فى مطلع العام الجديد وأعلن الجمهورية .

فلم يحرك ساكنا . فما كان من الشيخ الشرقاوى الا ان جمع المشايخ فى الأزهر وتداولوا فى الأمر ، فقرروا أن يحملوا الأمراء على الاصغاء الى صوتهم والنزول عند مطالبهم . فدعوا جماهير التجار الى الاضراب العام بغلق المتاجر والحوانيت،واعتصموا هم من ناحيتهم بالجامع الأزهر ، واستجابت الجماهير لندائهم — واحتشدت الألوف حول الأزهر ساخطة هائجة مائجة . واستمر هذا الحشد حول الأزهر طوال الليل ، وفى اليوم التالى ، سارت هذه الجموع فى مظاهرة كاملة حتى وصلت الى بيت الشيخ السادات وهو مجاور لقصر ابراهيم بك ، فهالته رؤية هذه الجموع الغاضبة ، فأرسل مندوبه يسأل عن أسباب التظاهر والاضراب ، فقال الناطق باسم الشعب — نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فقال ممثل المماليك : لا يمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ضاقت علينا المعايش والنفقات .

فقال الناطق باسم العلماء : ليس لهذا عذر عند الله ولا عند الناس . وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير لا يكون أميرا الا بالاعطاء لا بالأخذ .

وحاول الأمراء أن يستخفوا فى بادىء الأمر بهذه الغضبة الشعبية ولكنهم خافوا من عواقب ذلك ، فاجتمعوا بممثلى الشعب فى حضرة القاضى وهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى ، وتم الاتفاق على أن ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما قد تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه عليهم العلماء — من رفع المظالم المحدثة ، والغاء كل الضرائب من نوع الكشوفيات — والتفاريد والمكوس — وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس ، وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة، ويدفعوا لأصحاب الحقوق المتأخرة سبعمائة وخمسين كيسا وأن يرسلوا غلال الحرمين والأموال الموقوفة عليهما ، ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق .

وقد كتب هذا التعهد وفى حضرة القاضى كما قدمنا (وفرمن) عليها الباشا الوالى أى صدق عليها ، وختم عليها ابراهيم بك ومراد بك ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه حشود من العامة وهم ينادون : حسب ما رسم سادتنا العلماء فان جميع المظالم والمكوس والحوادث بطالة من المملكة المصرية .

يقول الجبرتى تعليقا على هذا الحدث : وفرح الناس وظنوا صحته ، وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ، ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة .

ولكننا نحن الذين نرصد الحوادث وتطوراتها بعد وقوعها بعديد من السنين — نستطيع أن نعتبر هذا الحادث ، هو نقطة الابتداء لهذه الانتفاضة الجبارة التى سيشهدها التاريخ للشعب المصرى فى مقاومته العجيبة لنابليون ، ثم توليته محمد على بعد ذلك . فقد كان السيد عمر مكرم هو رمز هذه الارادة الشعبية الجديدة . وكان عمر مكرم على رأس هذه الحركة الأولى ، ولابد أنه وعاها وقدر أبعادها .. فعاد بعد ذلك لتحريكها بكل قوتها كما سنرى .

* * *

الفصل السابع عشر

الاحتلال الفرنسي لمصر

١٧٩٨ - ١٨٠١ م - ٢١٣ - ١٢١٦ هـ

١٧٩٨ م — ١٢١٣ هـ — الصدمة التى أيقظت الشرق العربى :

وصف الجبرتى هذه السنة بعبارات أصبحت خالدة فما من مؤرخ أو كاتب أو أديب يتعرض لهذه الحقبة من حياة مصر ، الا ويرى فى عبارات الجبرتى ، رنينا وجرسا وعبقا تاريخيا ووصفا دقيقا لفترة من أخصب فترات تاريخ مصر فينقلها بنصها . يقول الجبرتى عن هذه السنة ١٢١٣ هـ : ((وهى أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب ، وما كان ربك مهلك القرى وأهلها مصلحون .

فرنسا ومصر :

كانت فرنسا على ما مر بنا ، على رأس الحروب الصيليبية ، وكانت هى التى وجهت الحرب الصليبية ضد مصر ، وغزتها مرتين بقصد احتلالها ، واذا كانت مصر قد استطاعت فى هذه الفترة أن تصد العدوان الصليبى وأن تصفيه وتطهــــر مصر والشرق منه . فلم يوقف تكرر الغزوات ، الا التطورات الجغرافية المذهلة التى ترتبت على اكتشاف الأمريكتين ، والطواف حول رأس الرجاء الصالح ثم الطواف حـــول الأرض كلها ، فقد تحول النشاط الأوربى هذا الى العالم الجديد الذى انفتح أمامهم ، وبدأ نشاط التجار ، وحروب القراصنة وأصبح سيد الدنيا من يسيطر على البحار ، فقامت الامبراطورية الأسبانية والبرتغالية لتنزلهما عن عرشهما انجلترا وفرنسا وهولندا .

فلما أن كانت الغلبة لانجلترا على فرنسا ، وأجلتها عن أمريكا الشمالية ، ثم عن شواطىء الهند ، راحت فرنسا تتلفت صوب البحر الأبيض والدول الواقعــة على شواطئه ، كميدان لنشاطها التجارى والاقتصادى والعسكرى اذا لزم الأمر .. ولكن الدولة العثمانية كانت هناك كأقوى ما تكون الدولة ، بحيث اضطرت فرنسا نفسها لمحالفتها كما رأينا .. فلما أن بدأ الضعف يطرأ على الدولة العثمانية ، وانشغلت فى حروبها مع روسيا ، بدأت فرنسا تتطلع من جديد صوب الشرق العربى ، وصوب مصر بصفة خاصة فنراها موضوعا لمطامعها فى عهد لويس الرابع عشر والخامس عشر ، بل والسادس عشر . وفى عام ١٧٩٣ بعد اعدام الملك لويس السادس عشر ، عينت

فرنسا قنصلا لها فى مصر المسيو شارل مجالون وهو من كبار التجار الذين كانوا يدعون لاحتلال مصر .

وكان اندلاع الثورة الفرنسية ، سببا فى اشتعال نيران الحرب بين فرنسا من ناحية ، وبين اكثر من دولة أوربية وعلى رأسها النمسا وانجلترا من الناحية الثانية ، ولكن القدر هيأ لفرنسا ، قائدها العبقرى نابليون برنابرت ، فاستطاع بضربة مذهلة فى ايطاليا ، أن يهزم النمسا ، وأن يحملها على طلب الصلح ، وتم بالفعل عقد صلح كامبيو فورميو، وكان طبيعيا أن يسكر هذا النصر المذهل ذاك النجم المتألق نابليون بونابرت ، فطارت أحلامه وآماله على أجنحة الخيال . واتخذ من الاسكندر الأكبر نموذجا له ، ومثال ، واذ حاك الاسكندر عظمته فى الشرق ، فقد رنا نابليون ببصره نحـو الشرق كذلك ، واستقر عند مصر مفتاح الشرق ، فلو أنه استطاع أن يفتح مصر ، لاتخذ منها قاعدة لفتح الشرق كله ، وملكت عليه الفكرة شغاف نفسه . ولكن كان عليه أن يقنع بهـا حكام فرنسا الجدد من زعماء الثورة ، وقد كانوا فى شغل شاغل عن الفتوحات، بما يقيمونه من نظام جديد فى فرنسا ، سيقدر له أن يهز أوربا كلها والعالم ، ويختم صفحة فى حياة الشعوب الأوربية ويبدأ صفحة جديدة .

ولكن عبقرية نابليون جعلته يجد الذريعة لاقناع الكافة بضرورة احتلال مصر . فقد كانت انجلترا لا تزال معلنة الحرب على فرنسا ، وانجلترا هى التى جردت فرنسا من تجارتها فى الهند والشرق ، وأساطيل انجلترا تطرد الأساطيل الفرنسية كلما قابلتها فى البحار ، ولا سبيل لقهر انجلترا الا باحتلال مصر ، ولا سبيل لتجـريد انجلترا من كل انتصاراتها التى أحرزتها على فرنسا الا باحتلال مصر ، ولندع نابليون بنفسه يتكلم فى مذكرته التى أرسلها الى حكومة الثورة وهو لا يزال فى ميلان بايطاليا فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧ :

« ان المواقع التى نحتلها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، تجعل لنا السيادة على هذا البحر . والآن يجب علينا أن نرقب تطويرات السلطنة العثمانية التى أخذت تنهار دعائمها من كل جانب ، فعلينا اما أن نؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من أسلابها ، ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها فى الاوقيانوس الأعظم فاذا كانت تنازعنا طريق رأس الرجاء الصالح فى مفاوضات « ليل » فلنتجاوز عنه ، ولنحتل مصر فسيكون لنا فيها الطريق المفضى الى الهند ، ويسهل علينا أن ننشىء بها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ، واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فلنهاجمها فى مصر .

ابحار الحملة الفرنسية الى مصر :

وتضافر عديد من العوامل لكى تستجيب حكومة الثورة لتحريض نابليون على احتلال مصر لعل أهمها : كان خوفها من هذا القائد الذى افتتن به الشعب الفـرنسى بعد انتصاراته المذهلة فى فرنسا . وجرى الاعداد للحملة الموجهة لاحتلال مصر فى تكتم شديد ، وقد عين نابليون قائدا لما سمى جيش غزو انجلترا . وعندما دعى الجنود والقواد الفرنسيون لركوب المراكب البحرية ، لم يكونوا يعرفون الا أنهم ذاهبـون لغزو انجلترا ، وقد كان النجاح فى هذا التكتم هو السر فى نجاح وصول الحمـلة

الفرنسية الى مصر ، فقد كان الاسطول الانجليزى يقف بالمرصاد مستعدا للغزو حول الجزر البريطانية نفسها .

وفى التاسع عشر من شهر مايو ١٧٩٨ اقلعت الحملة الفرنسية من ميناء طولون وكانت تتألف من حوالى ٣٥ ألف جندى غالبيتهم العظمى من المشاة (٢٤ الف) وأربعة آلاف خيالة (سوارى) وثلاثة آلاف من المدفعية (الطوبجية) مجهزين وقد نقل هذا العدد ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول حربى فرنسى مؤلف من ٥٥ سفينة . وكان نابليون فوق السفينة المسماة أوريان اى المشرق ، والتى يسميها الجبرتى فى تاريخه (نصف الدنيا) على أن أعظم ما كانت تصحبه هذه الحملة والذى جعل لها مكانا ممتازا فى تاريخ الانسانية والعلم والحضارة أنها كانت تصطحب معها نخبة من خلاصة علماء فرنسا فى مختلف فروع العلم والفنون يناهز عددها ١٤٦ عالما وأديبا وفنانا من بينهم مونج العالم الرياضى الشهير وبورتلييه العالم الكيمائى .

وفى التاسع من شهر يونيو قد احتلت الحملة فى طريقها الى مصر جزيرة مالطة منتزعة اياها من فرسان مالطة آخر فلول الصليبيين .

الأسطول الانجليزى يسبق الحملة الى الاسكندرية :

وكانت انباء هذه الحملة قد وصلت الى انجلترا ، ولكنها كانت تظنها ستوجه ضد الجزر البريطانية نفسها ، ومع ذلك فقد عهدت الى نلسون القيادة لجزء من الاسطول الانجليزى ، وكلفته بمراقبة الحملة ، ولو قدر لنلسون أن يقابل الحملة الفرنسية ، فربما تغير وجه التاريخ ، ولكن الأقدار شاءت أن لا يغير على الأسطول الفرنسى قبل وصوله الى الاسكندرية ، بل ان نلسون وصل بأسطوله الى الاسكندرية فى ٢٢ يونيو قبل وصول الحملة الفرنسية وقد أرسل نلسون الى السيد محمد كريم الذى كان يتولى شئون الاسكندرية يسأله عما اذا كان الأسطول الفرنسى قد شوهد بالقرب من هذه النواحى ، فلما أجيب بالنفى ، طلب أن يسمح له بالمرابطة فى المياه المصرية ، فى انتظار مقدم الأسطول الفرنسى الذى لا قبل للمصريين بمواجهته ، وأن يسمح للأسطول الانجليزى بالتموين بالماء والزاد فى مقابل دفع الثمن .

ولكن السيد محمد كريم ، انتهر فى كبرياء وصلف رسل الاسطول الانجليزى وطلب منهم ان يسرعوا بالابتعاد عن المياه المصرية والا أطلق عليهم المدافع فان مصر : أرض السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها من سبيل ، فاذهبوا عنها .

ولم تكن هذه المدافع التى هدد محمد كريم باطلاقها الا أربعة مدافع قديمة عفى عليها الزمان . ولعله ليس هناك ما يكشف عن الانعزال والجهل بأحوال الدنيا وما تطورت اليه أكثر من هذه العبارة ، من أن مصر أرض السلطان . لقد كان السيد محمد كريم لا يزال يعيش فى الوهم القديم ، من ان مجرد ذكر اسم السلطان من شأنه أن يخلع القلوب من الرعب . ولم يرتعب الاسطول الانجليزى ، ولكنه انسحب مع ذلك صدوعا بالأمر لكى يصل الأسطول الفرنسى بعد ثلاثة ايام أول يوليو ١٧٩٨ م ولا يصده عن أرض مصر انها بلاد السلطان .

حالة مدينة الاسكندرية :

ولم تكن الاسكندرية عندما جاءها نابليون بحملته ، هى هذه الاسكندرية التى عرفناها فيما سبق ، فقد كانت قد انحدرت بحيث لم تعد تزيد عن قرية صغيرة لا يزيد سكانها عن ثمانية آلاف ، بيوتها أشبه بمبانى القرى ، ومعظم سكانها فقراء فقد كان انقطاع المياه عنها أكثر أيام السنة ، بسبب ردم ترعة المياه العذبة التى كانت توصل ماء النيل اليها ، خلال أيام الحكم العثمانى قد قضت عليها ، ولم يكن للمدينة أو قلعتها أى قيمة من الناحية العسكرية .

وكان ما بها من العساكر الانكشارية (بالاسم فقط) لا يزيدون على خمسمائة .

احتلال الاسكندرية :

على الرغم من سوء أحوال المدينة كما ذكرنا ، فان السيد محمد كريم وسكان المدينة قرروا بمجرد أن رأوا الأسطول الفرنسى وسمعوا أن الجيش الفرنسى قد نزل فى منطقة العجمى أن يدافعوا عن مدينتهم ، فوقفوا على الأسوار ببنادقهم وأسلحتهم وردوا على الجيش الزاحف وبالقوة المسلحة ، بحيث استطاعوا أن يصيبوا بعض كبار القواد بجروح مثل كليبر ومنويل حتى أن نابليون نفسه كاد بعد أن دخل المدينة أن يقتل برصاصة صوبت اليه من أحد المنازل — وأربى عدد القتلى على أربعين والجرحى على ثمانين ولكن الأسلحة الحديثة التى جاء بها نابليون والتى كانت شيئا يفوق أحلام من فى مصر ، حسمت قصة احتلال الاسكندرية ، فى بضع ساعات . ودخلت الجيوش الفرنسية الى الاسكندرية فى الثامن عشر من المحرم (٢ يوليو) .

نابليون ومحمد كريم :

وقد أراد نابليون وهو يشرع فى مغامرته البعيدة الآفاق ، أن يعلن عن تسامحه وكرمه وانه طراز جديد من القادة العسكريين فقال لمحمد كريم عندما مثل فى حضرته :

« لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسرى ، ولكن بما أن الشجاعة حليفة الشرف ، فهأنذا أعيد اليك سيفك ، على أمل أن تكون مساعدا أمينا للجمهورية الفرنساوية ، كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها » .

وزاد نابليون على ذلك أن أعاد محمد كريم الى منصبه حاكما على مدينة الاسكندرية .

تنظيمات نابليون فى الاسكندرية :

واذا كانت الاسكندرية أول مدينة يحتلها نابليون من مصر ، فقد اراد أن تتسامع مصر كلها بخطته وأسلوبه ومنهاجه فأصدر الأمر التالى لقواده :

يريد القائد العام أن يترك للأهالى الحرية التامة فى تأدية واجباتها الدينية فى المساجد كما كانوا يفعلون من قبل ، ويشدد كذلك فى أن لا يدخل أى فرنسى جندى

او غير جندى فى المساجد ولا أن يحتشدوا على ابوابها ، وعليكم ايها القــواد أن تصدروا الأوامر لكل ضابط فرقة بتلاوة هــذه الأوامر على الجنــود ، وأن يقــرأ عليهم ايضا الأمر الخاص بتجنب النهب والتعدى ، ولكم أن تعاقبوا كل مخــالف لهذه الأوامر بالقتل رميا بالرصاص ، ومن المهم جــدا أن يدفع الجنـــود ثمنا لكل ما يبتاعونه من المدينة وأن لا يسب الترك (أى الأهالى) ولا يتعرض لهم اذ يجب علينا أن نكون معهم على صفاء وأن لا نحارب الا المماليك . وترك نابليون أمر القضاء فى يد القضاة المسلمين ، ثم شكل ديوانا من سبعة من كبار الاسكندرية ، كان من اعضائه السيد محمد كريم والشيخ محمد المسيرى كبير علماء الاسكندرية وفوض الى هذا الديوان النظر فيما تحتاجه المدينــة وأمرهم أن يجتمعوا كل يوم مرة ليتلقوا الشكاوى ويتقاضى الناس أمامهم .

وصك ما حمله معه من سبائك الذهب والفضة ، نقودا من نوع النقود المتداولة فى البلاد . كما انشأ كورنتينة .

نابليون يذيع منشورا على أهالى مصر :

بدأ نابليون بعد ذلك الاستعداد لخطوته الثانية وهى فتــح القـــاهرة فوزع منشورا فى طول البلاد وعرضها مطبونا باللغة العربية على آلة الطباعة التى أحضرها معه ، ويمكن اعتبار هذا المنشور وثيقة من أطرف وثائق التاريخ المصرى ، فلأول مرة يجىء فاتح أجنبى ، يحدث المصريين عن عراقة تاريخهم وعن عظمــة بلادهم ، وسماحة دينهم ، وأنه قد جاء ليرفع ظلم المماليك عنهم الذين اختصوا بخـيرات البلاد من دون أهلها واعتبروا أنفسهم أصحابها .

« ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحــدهم ، ويختصوا بكل شىء أحسن ما فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة . أن كانت الأراضى المصرية التزاما للمماليك ، فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن الله رب العالمين رءوف وعادل وحليم . ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهل مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتســاب المراتب العاليــة ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الأمور وبذلك ينصلح حال الأمة كلها » .

ومضى المنشور يضرب على هذه الوتيرة ، ويؤكد احترام نابليــون للاســـلام والمسلمين ، حتى لقد بدأ المنشور بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى الملك ، وان الفرنساويين حلفاء السلطان العثمانى وأصدقاؤه ، وأنهم ما جاءوا الى مصر الا للاقتصاص من المماليك الخارجين على طاعة السلطان والذين يعذبون الناس ، مع أنهم أرقاء مجلوبون من بلاد (الاباظة والجراكسة) يفســـدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد مثله فى الكرة الأرضية كلها .

وختم منشوره بالتعليمات التى يجب على أهل القرى المختلفة أن يتبعوها أثناء زحف الجيش الفرنسى على القاهرة ، واعدا المسالمين بحسن المعاملة ، ومتـــوعدا القرى التى تحارب الجيش بالحرق بالنار .

وختم المنشور بأنه يجب على المشايخ والأئمة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من اهل البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا ـ كذلك تقام الصلوات فى الجوامع على العادة ، وعلى المصريين جميعا أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة المماليك ، قائلين بصوت عال ، أدام الله اجلال سلطان العثمانيين ، أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى . لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية .

نابليون والاسلام والعثمانيين :

وقد ظلت هذه النغمة السائدة فى منشور نابليون الأول ، من تمسكه بسلطان العثمانيين على مصر ، وترديده أحكام الاسلام والاشادة به ، هى النغمة السائدة فى كل ما أذاع نابليون من بيانات ، وقام به من اجراءات طوال اقامته فى مصر ، مما أفسح المجال للقول بأنه أعلن اسلامه . فقد ورد فى بعض المنشورات تنديدا بالديانة المسيحية وزعمها ان الله ثالث ثلاثة .

ولعل نابليون فى ذلك كان يترسم خط الاسكندرية المقدونى الذى بويع فى مصر ابنا لآمون . وكان يساعده من ناحية أخرى ان الثورة الفرنسية كانت قد اسقطت الديانة المسيحية كدين للدولة ، وأصبح يستوى لديها أى دين من الأديان .

المماليك وأنباء الحملة :

لم يكن لوصول الحملة الفرنسية الى مصر ، واستيلائها بالفعل على الاسكندرية كبير اثر فى نفوس المماليك ، فقد كانوا كالسيد محمد كريم من قبلهم جاهلين بما حدث فى الدنيا من تطورات وعلوم حديثة ، انتهت باختراع أسلحة فتاكة لا عهد للمماليك بها من قبل .

يقول الجبرتى : أما الأمراء فلم يهتموا بشىء من ذلك ، ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم انه اذا جاء جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم .

وأرسل مراد بك للقنصل الفرنسى روستى وأخذ يستفسره عن الغرض من غزوة الفرنسيين وأخذ يسب الفرنسيس ونسبهم بالمكارين (الحمارة) . وقال للقنصل : اعطهم قليلا من المال ودعهم يذهبون لانى لا أريد أن أوذيهم .

على انه كان على مراد بك فى خاتمة المطاف أن يشمر عن ساعد الجد وأن يتهيأ للحرب . فأسرع مراد بك بقوة بحرية وبرية سارت فى النيل لمواجهة الفرنسيين . فى الوقت الذى كان فيه نابليون قد شرع فى زحف مزدوج بحرى وبرى ، تقابلا عند الرحمانية وواصلا السير ، حتى التقوا بالمماليك عند شبراخيت .

معركة شبراخيت :

فى الثالث عشر من يوليو التاسع والعشرين من المحرم دارت أول موقعة بين قوى الحملة البحرية والبرية التى زحف بها نابليون على القاهرة ، وكانت القوة البحرية تنحدر فى النيل من مدينة رشيد التى احتلها نابليون ، والتقت بها القوة البرية الزاحفة

عند الرحمانية ، ثم سارت القوتان جنبا الى جنب ، ولكن القوة البحرية تقدمت بالجيش وانفصلت عنه ، فكادت تلقى حتفها عند شبراخيت ، اذ تصدت لها قوة الاسطول الذى بعث به المماليك وكان على رأسها خليل الكريدلى ، وكانت جموع الأهالى من الفلاحين تهاجم الاسطول الفرنسى من الشاطئين مؤازرة للاسطول المملوكى ، الذى استطاع ان يغرق خمس سفن فرنسية كما استولى الأهالى على سفينتين . ولكن الأسلحة الحديثة التى كان الفرنسيون مزودين بها ودقة تصويب مدافعها . مكنهم من اصابة احدى سفن الاسطول المصرى التى كانت محملة بالبارود والذخائر فنسفتها ونسفت معها سفينة قائد الاسطول خليل الكريدلى فغرق هو والذين كانوا معه .

يقول الجبرتى : فلما عاين مراد بك ما حدث داخله الرعب وولى منهزما وترك الأثقال والمدافع وبقية عسكره .

ولكن الصحيح كما تذكر المراجع الفرنسية أن مراد بك الذى لم تكن قوته تزيد عن اثنى عشر الف مقاتل من بينها ثلاثة آلاف فارس مملوكى فقط ، والباقى خليط من العرب والفلاحين المسلحين بالبنادق والعصى فى مواجهة عشرين ألفا من الفرنسيين ، لم يأل جهدا فى محاربة الفرنسيين حتى بلغ عدة من مات أو جرح من الفرنسيين عدد يتراوح بين الثلاثمائة والربعمائة . ولكنه فوجىء بعاملين لم يسبق له تصورهما :

الأول: هو هذه المدافع الفرنسية المتحركة التى لا تقذف أحجارا أو جللا وانما تقذف قنابل بارودية شديدة الفتك تحصد الجنود والفرسان حصدا .

الثانى: هذا الأسلوب الجديد من التنظيم العسكرى الذى يعتمد على المشاه ، ونظام المربعات الذى ابتكره نابليون والذى لم يدوخ به المماليك فحسب ، بل دوخ به كل جيوش أوربا القديمة .

فلا لوم ولا تثريب على مراد بك اذا هو فر من وجه هذا الهول ، وآية شجاعته انه عاد بعد أن عاين ما عاين ليتصدى للفرنسين مرة أخرى عند مشارف القاهرة .

معركة امبابة أو الأهرام :

ارتد مراد بك بعد موقعة شبراخيت فوصل الى القاهرة عند منطقة امبابة (١) ، واستطاع فى خمسة أيام ان ينشىء خطا حصينا يستند الى النيل فى يمينيه ومتربص خلفه عشرون ألفا من الجنود العثمانية ، مع أربعين مدفعا من الطراز القديم الثابت ووقف هو فى القلب مع عشرة آلاف فارس مملوكى ، بينما كان جناحه الأيسر مؤلف من بضع آلاف أخرى من العرب وقد قدر الفرنسيون القوات المصرية بخمسين ألفا .

وتم اللقاء فى الحادى والعشرين من شهر يوليو . وعلى الرغم من أن عدد الجيش الفرنسى لم يكن يزيد على عشرين ألفا ، فان عبقرية نابليون من ناحية ، وسلاح المدفعية الحديث المتحرك من ناحية أخرى . كان كفيلا بتحديد نهاية هذا اليوم .

فقد أدرك نابليون بنظرة واحدة ان لاقيمة لهذه المدافع الثابتة والمتاريس .. اذا هو ابتعد عنها فأصدر أمره للجيش بالابتعاد عنها .

(١) يجمع المؤرخون الاوربيون على خطأ مراد بك فى ملاقاة الفرنسيين على الضفة الغربية .

ومرة اخرى ابلى مراد بك ومن معه من فرسان المماليك بلاء جعل نابليون يشيد بهم فى مذكراته ، فحاول أن يهاجم الجيش الفرنسى قبل أن يكمل مناوراته ، فهجموا على الجيش الفرنسى هجمة أحرجته وهددته بالخطر ، ولكن المدفعية الحديثة أنقذت الموقف ، اذ حصدت المئات والألوف منهم .. واضطر مراد بك أن ينجو بما بقى لديه من فرسان لايتجاوز عددهم ثلاثة آلاف وقصد الى قصره بالجيزة ليأخذ منه ماخف حمله وغلا ثمنه ويواصل فراره الى الصعيد .

فى الوقت الذى عم فيه الفزع الألوف من الانكشارية ففروا لا يلوون على شىء دون أن يشتركوا فى قتال ومنهم من ألقى بنفسه فى النيل فغرق من غرق .

ويقول الفرنسيون انهم خسروا فى هذه المعركة ٣٠٠ ما بين قتيل وجريح فى الوقت الذى خسر فيه المماليك حوالى سبعة آلاف ما بين قتيل وغريق ، بالاضافة الى ثلاثة آلاف من الفلاحين والاعراب .

وقد أطلق نابليون على معركة امبابة اسم معركة الأهرام ، حيث استحث جنوده على القتال قبيل المعركة بقوله : أيها الجنود ان اربعين قرنا تطل عليكم من قمة هذه الاهرامات .

ابراهيم بك يخلى القاهرة بدون قتال :

وبينما كانت معركة امبابة بين مراد بك والفرنسيين تجرى على الضفة الغربية للنيل ، كان ابراهيم بك شيخ البلد يرقب المعركة على الشاطىء الشرقى للنيل عند بولاق خلف الاستحكامات التى أقيمت على شاطىء النيل من بولاق جنوبا حتى آخر شبرا شمالا . ولم يكن ابراهيم بك يقف مع الألف من مماليكه وحدهم ، بل كان كل رجال القاهرة القادرين على حمل السلاح أو القيام بعمل نافع ، قد احتشدوا للمقاومة ، وذلك بفضل السيد عمر مكرم الذى صعد الى القلعة وأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة « البيرق النبوى » فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق فكان ذلك حافزا لجميع أفراد الشعب واعدادهم للقتال ، حتى خلت القاهرة من سكانها اذ احتشد الجميع فى بولاق .

وكان لرؤية المعركة على الضفة الغربية ، أسوأ الأثر فى نفوس المماليك فاستولى الرعب على قواد ابراهيم بك ومماليكه ، فأسرع منسحبا الى بيته ليحمل أمواله ومتاعه ويفر بنفسه ناجيا مصطحبا معه كل من رفض وجدانه أن يتعاون مع الفرنسيين ، وعلى رأس هؤلاء الوالى التركى أبو بكر باشا والسيد عمر مكرم (١) وكبير التجار السيد محمد المحروقى .

---

(١) ينتقد الدكتور مؤلف سيرة السيد عمر مكرم هذا المسلك من جانب السيد عمر ، ويرى أنه كان يتعين عليه أن يظل على رأس الشعب ولكننا لا نقره على هذا الرأى ، فلم يكن معروفا فى ذلك الوقت ما الذى سيفعله نابليون .

الرعب يسود مدينة القـاهرة :

كان طبيعيا واهل القاهرة يرون قادتهم وزعمائهم سواء العسكر منهم أو الشعبى يبارحون القاهرة فزعا وهلعا ، أن تسرى اليهم هذه الموجة من الرعب .. خاصـة وقد سرت بينهم اشاعة أن نابليون سيحرق مدينة القاهرة ، وعزز هذه الاشاعة ، أن مراد بك وهو ينسحب الى الصعيد لم يستطع أن يجر احدى سفنه الكبيرة فى النيل لقلة المياه فأصدر أمره بحرقها فظن أهل القاهرة ان ذلك هو بداية الحريق ، فخرجوا من القاهرة هائمين على وجوههم ، ولندع الجبرتى يصور لنا هذه اللحظات :

وخرج الجميع لايدرون اى جهة يسلكون ، وأى طـريق يذهبون ، واى محـل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون ، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه ، وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها . ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات واطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصبحها واخذ كل انسان ما قدر على حمله من مال ومتاع . فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة ، تلقفهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه مايستر به عورته أو يسد جوعه ، فكان ما أخذته العرب شيئا يفوق الحصر ، بحيث ان الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها بلا شك . واكتشف القاهريون ان ما توجسوا منه لم يقع ، فلم تحرق القاهرة وعلى العكس من ذلك ، قابل نابليون من قابله من الشـيوخ بالسياسـة والترحاب وطلب منهم أن يؤمنوا الشعب .

دخول نابليون القـاهرة :

فى يوم الثلاثاء العاشر من شهر صفر الموافق ٢٤ يوليو من هـذه السنة دخل نابليون مدينة القاهرة ، ونزل فى منزل محمد بك الألفى الواقع على بركة الازبكية ، وكان قد زينه وجمله وأنفق على تأثيثه مبلغا ضخما كأنه كان يعده لهذه المناسبة .

ولم يصحب دخول الفرنسيين الى القاهرة ، ما كان يتوقعه القاهريون من جيوش معادية ، فحيث كانت الجيوش الصديقة اذا حلت مارست هوايتها فى النهب والسلب فان العسكر الفرنسية راحت تطوف فى الشوارع غير حاملة سـلاحا ، وهى تتودد للأهالى ، فاذا اشترى أحدهم سلعة دفع ثمنها مضاعفا ، فشجع ذلك بقية التجار ، فأظهروا ما كانوا قد أخفوه وتهافتوا حول أفراد الجيش الفرنسى يبيعونهم بأضـعاف الثمن المقدر لأى سلعة .

والحق أن الفرنسيين كانوا قد غنموا من أموال المماليك التى خلفوها وراءهم فى معركة امبابة ما يجل عن الوصف .

وكان من أول ما أقاموه فى مصر من منشئات بدت موضع الغرابة والدهشة انشائهم المطاعم العامة ، وقد وصفها لنا الجبرتى بدقته المعهودة فقال :

وفتحوا بيوتا لصنع الأطعمة والأشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على أبوابها علامات يعرفونها بينهم ، فاذا مرت طائفة تريد الأكل بهذا المكان دخلوه . وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علاقة ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل . وفي تلك المجالس موائد من خشب عليها الطعام وحولها الكراسى فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانيهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم .

تنظيمات نابليون الادارية والسياسية واصلاحاته الاجتماعية والصحية :

لم يضيع نابليون ساعة واحدة لادخال مشاريعه الاصلاحية ، وربما كانت هـذه اللهفة والعجلة هي التى أخرت هذه الاصلاحات ، اذ لم يكن لدى المصريين مجـرد الفرصة للتأمل فيها وادراك ما تنطوى عليه من خير .

تأليف الديوان :

فقد أسرع بتأليف ديوان لمدينة القاهرة فى السادس والعشرين من يوليو من تسعة من المشايخ يختارون أمينا للسر فيكون عاشرهم ، وجعل مهمة هذا الديوان حكم مدينة القاهرة وتعيين رؤساء الموظفين بما في ذلك تعيين اثنين لرئاسة البوليس ، ولجنة لدفن الموتى .

وقد تألف هذا الديوان من المشايخ السادات والشرقاوى والصـاوى والبكرى والفيومى والعرسى وموسى السرسى والسيد عمر مكرم ومحمد الأمير .

وكان عليهم أن يجتمعوا فى كل يوم .

ثم أصدر نابليون فى اليوم التالى أمره بتشكيل ديوان مماثل لكل مديرية يتألف من سبعة أعضاء تكون مهمتهم السهر على مصالح المديرية والفصل فى الشكاوى التى ترفع لهم . ومنع التعدى من قرية على أخرى .

ثم شكل ديوانا عاما لمصر كلها يتألف من ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية .

وكتب نابليون فى قرار تشكيل هذا الديوان ، ان الهدف منه تعويد أعيان المصريين نظم المجالس الشورية والحكم فقولوا لهم اننى دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرئهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية .

وقد اجتمع هذا الديوان بالفعل وانتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا له وألقى فيه ما جرت به العادة من خطاب للعرش أو رسالة رئيس الدولة . وقد كان ذلك كله شيئا جديدا لا على المصريين فحسب بل وعلى كل شعوب المنطقة الذين لم يألفوا هذه النظم المستحدثة وعلى الرغم مما كانت تنطوى عليه من خير ، فقد كان سوء الظن بنابليون وجيشه يحدث أثرا عكسيا لكل هذه التصرفات . . خاصة عندما بدأ نابليون يشرع فى جباية الضرائب اللازمة لتسيير الشئون العامة كما سنرى .

أول اغسطس ١٧٩٨ : معركة أبى قير البحرية :

وبينما كان نابليون يعمل على ادخال النظم والأساليب الجديدة فى الحكم والادارة . كان القدر يعد له ضربة تدفن كل آماله فى رمال مصر .

فقد عاد الاسطول الانجليزى ، أو بالأحرى عاد نلسون الى الاسكندرية ليعلم أن الاسطول الفرنسى قد نجح بالفعل فى الوصول الى مصر واحتلالها ، فقرر أن يهاجم الاسطول الفرنسى الذى كان مرابطا فى ميناء أبى قير ليحطمه ، وبدلا من أن يخرج الاسطول الفرنسى الى عرض البحر لملاقاة الاسطول الانجليزى ، ولتكون له حرية المناورة ، ظل مرابطا فى الميناء . وكانت سفن نلسون لا تزيد عن خمس عشرة سفينة كبيرة فى الوقت الذى كانت عدة السفن الفرنسية الكبيرة سبع عشرة ، بالاضافة الى عدد آخر من السفن المتوسطة والصغيرة الحجم . وحيث كانت مدافع نلسون لاتزيد عن ١٠٥٠ مدفعا فان مدافع الفرنسيين كانت ١١٨٠ مدفعا ، وحيث كان بحارة نلسون وقوته المقاتلة تتألف من ٨٢٤٠ مقاتلا فقد كان البحارة المقاتلون من الفرنسيين ٨٩٠٠ .

ولكن شخصية نلسون الاسطورية التى وطدت سيادة انجلترا على البحار طوال القرن التاسع عشر ، جعلته يقدم على مغامرة جريئة اذ ادخل بعض سفنه بين سفن الاسطول الفرنسى والشاطىء حيث كان الأميرال الفرنسى يتصور استحالة ذلك لقلة الماء وهكذا حصرت سفن الاسطول الفرنسى بين مراكب الاسطول الانجليزى .. وانتهت المعركة بتحطيم الاسطول الفرنسى بما فى ذلك سفينة أمير البحر (نصف الدنيا) ففرق معها وكذلك جميع أركان حربه . ولم ينج من سفن الاسطول سوى أربع سفن أما الباقى فقد غرق أو أسر ، وازداد الاسطول الانجليزى قوة على قوة بما أسر من سفن .

آثار موقعة أبى قير البحرية :

تعتبر موقعة أبى قير من المعارك الحاسمة فى تاريخ البحرية وفى التاريخ بصفة عامة ، فقد قررت مصير الحملة الفرنسية بل قررت مصير الحرب بين انجلترا وفرنسا فى مقبل الاعوام .. حيث انتهت بغلبة انجلترا على فرنسا بسبب انهيار قوة فرنسا البحرية . على أن أثرها المباشر كان تحويل الحملة الفرنسية الى أسد حبيس فى قفص .

فقد انقطع كل أمل فى مدد جنود من فرنسا ، وفرض الحصار على مدينتى رشيد والاسكندرية ، وأصبح كل الساحل المصرى على البحر الأبيض تحت رحمة الاسطول الانجليزى يستطيع أن ينزل الجنود فى أى منطقة منه يشاء .

أثر المعركة على العثمانيين :

كانت الدولة العثمانية مشغولة فى أزماتها العسكرية التى لا تنتهى من الروسيا والنمسا ، ولذلك فقد ترددت حتى بعداحتلال الفرنسيين لمصر ، أن تعتبر ذلك سببا لاعلان الحرب على فرنسا على الرغم من تحريض الانجليز المستمر لهم للاقدام على

هذه الخطوة ، فلما أن حطم الانجليز الأسطول الفرنسى ، شجع ذلك العثمانيين على التحالف مع الانجليز للقضاء على الفرنسيين فى مصر .

فلم يمض شهر واحد على وقوع المعركة حتى أعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا (٢٠ سبتمبر) وشرعت فى تجهيز حملة برية وبحرية لمحاربة الفرنسيين فى مصر .

أثر المعركة الأكبر على الشعب المصرى :

على أن الأثر الأكبر الذى عانى منه نابليون بطريقة مباشرة ، هو أثر هذه الهزيمة الساحقة فى الشعب المصرى ، فلم تكد أنباؤها تصل اليه بكل أبعادها ، حتى أدرك بفريزته استحالة وصول المدد الى الجيش الفرنسى الذى احتل بلاده ، ولذلك فقد تجرأ عليه ، وزالت هيبة الفرنسيين ، وراح المصريون يقاومونهم مقاومة لم يسبق لها مثيل فى كل تاريخهم خلال قرون . وكان يغذى هذه المقاومة ويزكيها ، وجود المماليك ، ونداءات زعماء مصر والعثمانيين من الخارج الى الشعب المصرى يدعونهم الى مقاومة الفرنسيين الكفرة ، ويعلنون أنهم قادمون فى الطريق .

نابليون ينشغل بمعركة الصالحية فلا يعلم بالكارثة :

وقد قدر لنابليون أن لا يعلم بوقوع الكارثة فى حينها ، فقد كان خارج القاهرة منشغلا بالحرب ضد ابراهيم بك وقد تركنا الأحداث العسكرية بهرب مراد بك نحو الصعيد وهرب ابراهيم بك نحو الشرقية ، وكان احتلال القاهرة لا يعنى شيئا اذا بقيت هاتان القوتان بالمرصاد للفرنسيين . ولذلك فقد بعث نابليون بالجنرال ديزيه لمطاردة مراد بك فى الصعيد ، تاركا ابراهيم بك بعض الوقت ريثما ينظم شئون القاهرة ، ولكن الحوادث تطورت بحيث حتمت على نابليون أن يضرب بسرعة على طريقته والا ساءت العاقبة .. ذلك أن صالح بك أمير الحج ، عاد فى هذه الفترة من الحج مصحوبا بالفرسان الذين اعتادوا أن يسافروا كل عام لتأمين الحجاج . فانحاز بفرسانه الى ابراهيم بك فاشتد ساعده وبدأ يهاجم طلائع الفرنسيين فى الخانكة . فقرر نابليون أن يخرج على رأس جيشه للفراغ منه .

وعاد ابراهيم للانسحاب أمام زحف نابليون فأخلى مدينة بلبيس .

وفى العاشر من أغسطس عند الصالحية لاحظ أن الجيش الفرنسى المهاجم لأول مرة لا يتألف من الفرسان ولم تكن المدفعية قد وصلت بعد ، فتم الاشتباك بين الجيشين ورجحت كفة المماليك ، ولكن الأنباء وصلت الى ابراهيم بك أن الأعراب قد شرعوا ينهبون أمواله وأمتعته فأسرع بالانسحاب من المعركة لانقاذ أمواله وأمتعته ومعسكره ولم يلبث أن خرج فارا من حدود مصر ، وهكذا عاد نابليون منتصرا من هذه المعركة ليتلقى نبأ كارثة الأسطول الفرنسى فى أبى قير .

نابليون بعد موقعة أبى قير ومنشئاته فى مصر :

استقبل نابليون نبأ كارثة أبى قير بما عهد فيه من شجاعة ورباطة جأش ، فلم يزد تعليقه على النبأ أن قال : لقد أصبح علينا أن نقوم بأعمال أعظم .

وقد وجه الحديث الى ضباطه بعد عودتهم من الصالحية يوم ١٤ أغسطس فكان مما قاله : ها نحن أولاء مضطرون أن نعمل العظائم ونعملها ، وأن نؤسس فى هذه البلاد دولة كبيرة وسنؤسسها ، ان البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولا سلطان لنا على هذه البحار ، ولكن ليس ثمة فاصل يفصلنا عن آسيا وافريقيا — وعندنا من الرجال العدد الوافر ولا ينقصنا الميرة والذخيرة ، واذا احتجنا الى المزيد منها فان شامبى وكونتى كفيلان بصنعها .

وبعد أن كان نابليون يمنى نفسه لعودة سريعة الى فرنسا بعد الفراغ من احتلال مصر . . بدأ يرتب نفسه على اقامة أطول ، واذا كان من اللحظة الأولى قد جهد نفسه لاستمالة الشعب المصرى ، فقد ضاعف جهده فى هذه الناحية .

سياسة الحفلات :

عمد نابليون ليحول انظار الشعب المصرى عن كارثة أبى قير ، الى سياسة الاغراق فى الحفلات العامة ، فأقام احتفالا فوق العادة بمهرجان وفاء النيل ، ولكن الأهالى على ما يقول الجبرتى قاطعوا الاحتفال فانتهز فرصة المولد النبوى لكى يقيم احتفالا كبيرا ، ولما حاول المشايخ أن يعتذروا بضيق ذات اليد قدم اليهم النفقات اللازمة ، وحضر بنفسه الاحتفال وأبدى من مظاهر التكريم ما أذهل معاصريه من الفرنسيين اذ حضر حفلات الذكر الطويلة حتى نهايتها .

وانتهز فرصة عيد الجمهورية الفرنسية فى ٢٢ سبتمبر لكى يقيم احتفالا من أورع ما شهدته البلاد ، فأقام أقواس النصر على نسق جديد ، والألعاب النارية ، واستعراض الجيوش .

. ثم أقام احتفالا عاما لتنصيب أمير جديد للحج وهو مصطفى كتخدا بك نائب الوالى التركى — وأبلغ نبأ هذا التعيين رسميا الى الدول الاسلامية والى شريف مكة .

محاولة تطيير بالون :

وكأن نابليون أبى الا أن يشده المصريين ويذهلهم ، فأصدر أوامره بتطيير بعض البالونات التى تحمل الرجال ، وكان ذلك لا يزال فى مراحل التجارب الأولى فى فرنسا ولكن المحاولة الأولى أخفقت ، فأعيدت التجربة فنجحت نجاحا جزئيا ، ولم تحمل البالونات فى كلتا المرتين أحدا ، ولم تترك التجربتان أثرا عميقا على الجبرتى الذى سخر منهما .

المجمع العلمى :

على ان اعظم الأعمال التى قام بها نابليون فى هذه الفترة ، هو انشائه للمجمع العلمى المصرى من العلماء الفرنسيين الذين اصطحبهم معه . وقد كان حدثا فذا من جانب نابليون القائد العسكرى أن يصطحب معه حشدا من العلماء ، وهو قد فعل ذلك بعبقريته الفذة التى كانت تقدر قيمة العلم ، وكأنه كان يكشف من ناحية أخرى عن ظاهر الغيب وأن الظروف ستقضى عليه بأن يحصر فى مصر ، ويتعين عليه أن يدبر احواله بموارد مصر المحلية ولا غنى له فى هذه الحالة عن العلم الحديث .

فكان أن أصدر أمره فى ٢٢ اغسطس لانشاء المعهـــد العلمى المصرى (١) وجعل الغرض منــه :

١ – تقدم ونشر العلوم والمعارف فى الديار المصرية .

٢ – بحث ودراسة المباحث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر .

٣ – استشارته فى المسائل المختلفة التى ترى الحكومة عرضها عليه .

وقد انقسم المعهد الى فروع وشعب ، حسب الانســان أن يذكر أسماءها لكى يعرف كيف أن الحضارة الأوربية الحديثة قد نقلت الى مصر دفعة واحدة فى هـذا المعهد : الرياضة – الهندسة – الفلك – الميكانيـــكا – الكيميـا – طبقات الأرض – المعادن – النباتات – حياة الحيوان – الطب والجراحه – الصيدلة – الاقتصـــاد السياسى – الآثار القديمة– هندسة المعمـار – التصوير – الرسم – هندســـة الرى والطرق والجسور – الهندســـة الجغرافية – الهندســـة البحرية والميكانيكية – النقش – الحفر – الأدب – الموسيقى – الطباعة العربيـــة والفرنسية – طلبــة من مدرسة الهندسة العالية .

وقد كانت أبواب هذا المجمع مفتوحة أمام المصريين ، واستحثهم الفرنسيون على ارتياد أقسامه والانتفاع بها .

وكان من زاروه وشهدوه ، وتأثروا منه بعمق مؤرخنا الجبرتى وكذلك صاحبه الشيخ حسن العطار – صاحب الفضل فى ايفاد رفاعه رافع الطهطاوى الى أوربا فيما بعد ، ليكون هو ناقل هذه العلوم الى مصر وقد الحق بهذا المعهـــد مكتبة عموميـــة ومتحف للعلوم .

وقد ترك لنا الجبرتى وصفا ممتعا يدل على ذكاء والمعية لكل ما شاهد ورأى ، وطالع وأفرد لذلك صفحات طوال فى تاريخه أثنى فيهـــا على الفرنسيين وعلومهم جد الثنـــاء .

ولقد كان من آثار هذا المعهد الخالدة ، مجموعة أبحاثه عن كل ما يتصل بتاريخ مصر وجغرافيتها وجيولوجيتها وثروتها واقتصادياتها ، وامكانياتها – مما يعتبر أعظم دائرة معارف وضعت لمصر حتى تاريخ كتابته وذلك هو كتاب « وصف مصر » الذى سجل بالصور كل ما كانت عليه أحوال مصر فى هذا العهد .

مشروع شق قناة السويس :

كما كان من أجل أعمال هذا المعهد العلمية ، هو شروعهم فى دراسة امكان توصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض بقناة مباشرة ، وذهب نابليون بنفسه مع نفر من العلماء الى مدينة السويس لارتيادها .. ولكن هؤلاء العلماء ارتكبوا خطأ علميـــا كما يحدث

---

(١) لا يزال هذا المعهد قائما بذاته بنفس هذا الاسم حتى الآن فى مصر ، ولكنه بطبيعـــة الحال لم يتطور التطور اللائق باسمه .

دائما من حين لآخر تسبب عنه تأخير شق هذه القناة ، وهو اعتقـادهم أن مستوى البحر الأحمر أعلى من مستوى البحر الأبيض (١) مما يهدد بالغرق .

وقد كانت هذه الدراسات هى الأساس لحفر قناة السويس فيما بعد .

انشاء المصانع الحديثة :

واذا كان على نابليون أن يستغنى بمنتجات مصر محليا ، فقد أصلح دارا لصناعة (الترسانة) التى أنشأها مراد بك فى الجيزة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية . كما أنشأ مصنعا للبارود ومصنعا للجوخ وثالث لصنع القبعات ، ورابع لصنع البيرة وخامس لدبغ الجلود ــ ومصنعا ميكانيكا ، وآخر للتجـــارة وقد زار الجبرتى هذه المصانع ونقل لنا صورة تفصيلية دقيقة عنها ، حيث كانت الآلات الحديثة تدخل لأول مرة فى مصر ويراها المصريون .

الطباعة والصحف :

وأسس نابليون ما أطلق عليه « اسم المطبعة الأهلية » وفى هذه المطبعة كانت تطبع المنشورات بالعربية ، كما تطبع جريدتين فرنسيتين باللغة الفرنسية .

وهكذا رأى المصريون لأول مرة المطبعة ــ وعرفوا الصحافة ، وان كانت لغتهـا الفرنسية جعلت المصريين لا يستفيدون بها .

وسيحاول الجنرال مينو فيما بعد أن يصـدر جريدة عربيـة ، ولكن الحوادث عاجلته قبل اتمام مشروعه .

التدابير الصحية :

واذا كان الخوف من انتشار الطاعون يؤرق نابليون وجيشه فقد عنى منذ وطأت قدماه أرض الاسكندرية بانشاء المحاجر والمعـازل الصحية (كورنتينات) ورشـيد ودمياط ، وعند وصوله الى القاهرة أقام محجرا صحيا فى بولاق وأنشأ مستشفيات عسـكرية ، وشرع فى انشـاء مستشفيات للأهالى ، ولكن الحـوادث أعجلتـه عن تنفيذ ذلك .

ولكن العمل الذى أحنق المصريين عليه ، هو ذهابه فى موضوع التدابير الصحية الى حد الأمر بوجوب نشر المفروشات على أسطح المنازل لتهويتها وتعريضها لأشـعة الشمس .. خصوصا بعد أن كلف بعض المشرفين من الرجال والنساء للطواف على المنازل والتثبت من تنفيذ هذا الأمر .. اذ اعتبر ذلك تدخلا فى أخص شئون الناس الداخلية .. مما أحنق عليه الشعب .

انشاء الشوارع الحديثة :

عمد نابليون الى انشاء شوارع جديدة عريضة تحفها الأشجار من الجانبين وقد راع نابليون بمجرد وصوله الى القاهرة ، ما كانت عليه شوارعها وأزقتها وحواريهـا

(١) نحن نعلم اليوم الحقيقة العلميـة التى تقرر أن مستوى مياه البحار كلها واحد .

من قذارة وظلام حتى فى وضح النهار اذا كان أكثرها مسقوفا ، فأصدر نابليون أوامره برفع أسقف الشوارع والحارات ليدخل اليها الضوء ، وأصدر أمره بوجوب كنس الشوارع واضاءتها بالليل . وذهب الى أبعد من ذلك فأمر بازالة الأبواب التى كانت تغلق على الحارات كل ليلة ، فكان هذا من الأعمـال التى هيجت ضـده الخواطر اذ استطارت الاشاعات ، أن نزع هذه الأبواب هو تمهيد لكى يذبح نابليون أولاد المصريين ونساءهم أثناء اجتماعهم فى صلاة الجمعة بالمساجد .

ثورة القاهرة ضد نابليون وأسبابها :

على أن ذلك الذى قام به نابليون وكان يتصوره من الاصلاح ، كان فى نظر الشعب عدوانا على تقاليده وعاداته . وكان يصـدم الشعب المتدين المحافظ هذه الحيـاة الأوربية الجديدة التى تبيح اختلاط الرجال بالنساء فى كل المجالات وسريان العدوى الى النساء المصريات فيقول لنا الجبرتى فى تعداد أسباب حنق المصريين على الفرنسيين :

ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشـمة والحياء ، وهو انه لمـا حضر الفرنسيس الى مصر — ومع البعض منهم نساؤهم — كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسـات الفستانات والمنـاديل الحرير الملونة وعلى مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ، وملاعبة المكارية وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن .

هدم بعض البيوت والمساجد لدواعى الامن :

واذا كان على نابليون أن يحصن القـاهرة ، فقد استدعى ذلك فى بعض الأحيان اخراج كثير من أصحاب البيوت من منازل معينة لهدمها ، بل وهدم كثير من المبـانى والآثار ، وبعض المساجد لينشئوا قلاعهم فوق المقطم أو فى جزيرة الروضة أو حول المدينة .

اعدام السيد محمد كريم والتعرض لنفيسه هانم :

وقد ارتكب نابليون خطأين احنقا عليه الصدور ، بأكثر مما كانت عليه .

أما الخطأ الأول فهو اعدامه السيد محمد كريم فى السادس من سبتمبر سـنة ١٧٩٨ لما نسب اليه من انه خان الثقـة التى أودعت فيه ، فراسل مراد بك محرضا اياه على مقاومة نابليون ، وكان نابليون قد سمح أن يفتدى نفسه من الموت اذا دفع ثلاثين الف ريال ، فلما عجز عن الدفع أعدم . ولم يكن اعدام السيد محمد كريم هو الحادث الوحيد الذى يدل على جنوح الفرنسيين الى العنف فقد بدأت الأنباء تتوالى من الأقاليم عما يفعله الفرنسيون من فظائع وحشية لقمع الحركات ضدهم . ويتجلى هذا التطور فى منهاج نابليون فى رسالة بعث بها الى الجنرال مينو يقول فيها :

« ان الترك (يقصد الأهالى) لا يمكن اخضاعهم الا بالقسوة وفى كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة فى القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الارهاب ـ تلك التهمة التى تسبقنا الى آذان الناس . أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التى تؤدى الى اخضاع هؤلاء القوم ـ واخضاعهم معناه تخويفهم .

وكان نابليون عندما دخل القاهرة قد صرح لنساء المماليك اللواتى كن يهمن على وجوهن خوفا ورعبا بعد فرار أزواجهن أن يعدن الى بيوتهن فى مقابل أن يقدمن ما يعرفن من أموال أزواجهن ويصالحن عن أنفسهن بمبلغ من المال . وقد استدعى تنفيذ هذا الأمر أن يدخل الفرنسيون الى مناطق الحريم للتفتيش عن أموال المماليك . وكان ممن أزعجهم الفرنسيون فى هذا الميدان السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك وكان لها شهرة كبيرة بين جماهير الشعب ، لتدينها واحساناتها العميقة وخبراتها وسعيها الدائم الى رفع المظالم وحماية الضعفاء .

فكان لهذا الحادث أثره كذلك فى ازدياد السخط على الفرنسيين .

جمع الخيول والأبقار والجمال والثيران والسلاح :

واضطرت دواعى الامن كذلك من ناحية اخرى ، وضرورة تجهيز الجيش بأسباب المواصلات .. أن يصدر أمر بجمع الخيول والأبقار والجمال والثيران والسلاح ، ومن يرغب فى المحافظة على ما عنده من هذه الحيوانات أن يصالح عليها بمبلغ يدفعه من المال .

القروض الاجبارية والضرائب :

على أن هذه المظالم مهما تعددت فهى ليست شيئا جديدا على الشعب المصرى الذى عانى الأمرين من مختلف صنوف الحكام . ولا جدال أن اختلاف الدين بين المصريين والفرنسيين كان عاملا حاسما فى ايجاد هوة بين المصريين والفرنسيين لم يستطع نابليون أن يسدها بمحاولاته ذكر العبارات الاسلامية ومع ذلك فان الثورة ما كانت لتقوم لولا سببها المباشر وهو تكاثر الضرائب والقروض الاجبارية التى شرع نابليون فى فرضها على القاهريين منذ اليوم الأول لدخوله القاهرة حيث فرض على التجار المسلمين والمسيحيين والأجانب على سبيل الفرض الاجبارى خمسمائة الف ريال . وكان بعض هذه الضرائب يبدو غريبا بالنسبة للمصريين وان كان مألوفا فى أوربا تفرض ضريبة على التركات كمطالبة الملاك العقاريين بتسجيل عقاراتهم فى مقابل دفع رسوم لهذا التسجيل الاجبارى . وقد كان تحصيل الضرائب والفروض الاجبارية التى وصلت الى ملايين الفرنكات يسير باعتدال ورفق فلما أن وقعت كارثة الأسطول الفرنسى فى أبى قير ، واحتاج نابليون الى مزيد من الأموال ففرض ضريبة جديدة على المنازل ، كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير أو النقطة التى طفح بها الكأس ، فثارت القاهرة فى وجه نابليون .

وقائع الثـورة :

وقد سجل لنا الجبرتى من ناحيته وقائع ثورة القاهرة ، كما سجلها الفرنسيون المعاصرون وسجلتها التقارير التى بعث بها نابليون الى حكومته واذا كانت الثورة لم تدم سوى يومين ، فانها كانت حاسمة فى ادخال اليأس على قلب نابليون من امكان ان يخطب ود الشعب المصرى .

وقد بدأت حوادث الثورة باحتشاد الجماهير فى عدة أحياء من القاهرة صـباح الأحد الحادى والعشرين من أكتوبر ، وكان الاحتشاد الأكبر حول الجامع الأزهر كما هى العادة . وكان أفراد الشعب يحملون السلاح وينادون بالثورة . ووصل نبأ هـذه التجمعات الى الجنرال ديبوى قومندان القاهرة ، فاستخف بخطورة الموقف ، وأسرع مندسا بين الجماهير ليعمل على تخويفهم وتفريقهم ، فقذف عليه البعض حربة نفذت الى رقبته كما قتل بعض ممن كانوا معه .

فكانت هذه بمثابة اشارة البدء ، فانقض المصريون على كل من صـادفوه من الفرنسيين فقتلوه ، حتى بلغ عدد من قتل من الفرنسيين مائتى قتيل . وعبثا حاول نابليون أن يتصل بالمشايخ والعلماء أو أعضاء الديوان طوال اليوم .

فأصدر أمره فى اليوم الثانى بتركيب المدافع فوق جبل المقطم ، وصب قنابلها على مناطق الثورة وخاصة حى الأزهر وجامع الأزهر نفسه . وبلغ من شدة الضرب أن عدد من ماتوا تحت أنقاض المنازل والبيوت المخربة ثلاثة أو أربعة آلاف قتيل .

واذ كان استمرار الثورة لا يعنى سوى مزيد من الدمار بدون أمل فى تلقى نجدة من هنا أو هناك . . فقد سعى الشيوخ فى طلب العفو من نابليون . وقد أجابهم نابليون الى منح العفو ، ولكن بعد أن دخل فرسانه الأزهر ، وقبضوا على كل من كان فيه ، ثم ظلت الخيول مرابطة داخل الأزهر . . بينما بدأت أحكام الاعدام تصدر بالجملة على كل من يشتبه أنه كان من المحرضين على الثورة . وكان من بين الذين أعدموا ثلاثة عشر من مشايخ الأزهر — وأبطل نابليون الديوان عقابا للمصريين .

واتسعت الهوة بين نابليون وبين الشعب المصرى ، خاصة وقد لجأ الى كثير من الأعمال التى وصفها قواده فى مذكراتهم بالوحشية وذلك عقابا للمصريين على ثورتهم واذا كان قد استطاع أن يقضى على مقاومة القاهرة ، فان صدى ثورتها انتقل الى الأرياف ، لكى تتضاعف النقمة على الفرنسيين وتشتد المقاومة لهم عنفا وضراوة .

حركة المقاومة ضد الفرنسيين فى ارجاء البلاد :

يسجل كتاب عبد الرحمن الرافعى . بأكمل تفصيل أنباء مقاومة الشعب المصرى سواء فى الصعيد أو فى مختلف بلاد الوجه البحرى ، مما يجب أن يعود اليه كل راغب فى التفصيل . وكان ما يدهش الفرنسيين ويذهلهم انهم كانوا لا يكادون يقهرون مراد بك فى الصعيد فى أكبر المعارك كمعركة سدمنت فى الفيوم ، الا ويهاجمهم الشعب على أثرها مرة وثانية وثالثة ، دون أن يعبأوا بالخسائر الفادحة التى يوقعهم بها الجيش .

ومن العبث أن يقال ان الفرنسيين وان وصلوا فى زحفهم حتى أسوان قد فتحوا الصعيد ، فقد كانوا لا يكادون يفرغون من القضاء على المقاومة فى احدى البلاد أو القرى ثم يتركونها لغيرها ، لكى تندلع نيران الثورة فيها من جديد فيعودون اليها لتأديبها ، فتثور من خلفوها وراءهم .. وهكذا ظل ديزيه غارقا فى خضم الثورة فى الصعيد فكتب لنابليون يقول له بعد عام كامل من حربه فى الصعيد : « اننا نسير بلا انقطاع ، وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم وأحذيتهم ، ولم يستطع الآن أن يجمع الا النذر اليسير من أموال الميرى على الرغم من الجهود التى بذلناها ، وان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم . وان علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب القادمون من القصير والمماليك والأهالى . فليس من السهل اخضاع هذه البلاد » .

وكان الموقف فى الوجه البحرى لا يقل سوءا بالنسبة للفرنسيين فكانت المقاومة على أشدها فى المحلة الكبرى وفى طنطا والمنصورة وقرية كفر عشما ، وفى المنزلة ، حيث لعب حسن طوبار الكبير دورا خالدا فى حياة المقاومة الشعبية للغزو الفرنسى وهكذا تحولت مصر الى شعلة من النار ، وكان على الفرنسيين أن يحتلوا أرضها شبرا شبرا بعد تخضيبها بالدماء .

١٧٩٩ م ــ ١٢١٤ هـ : نابليون يغزو فلسطين :

وبدأت البيانات والمنشورات تشرى على القاهرة من أحمد باشا الجزار والى عكا ومن ابراهيم بك منذرة بزحف الجيوش العثمانية على مصر ، فرأى نابليون جريا على عادته فى مهاجمة اعدائه بسرعة قبل التهيؤ لحربه أن يبادر بضرب التجمعات العثمانية فى الشام ، وأن يكون هو البادىء باحتلاله . فأما أن ينتهى به ذلك الى اقناع الدولة العثمانية بالصلح معه والكف عن اعداد الجيوش لحربه ، وأما أن يجتاحها ويصل من هذا الطريق الى أوروبا .

وقد بدأ زحفه على فلسطين فى الخامس من رمضان من هذه السنة (١٠ فبراير سنة ١٧٩٩) فسقطت فى يده مدينة العريش ، وهى وان كانت مدينة مصرية الا أن أحمد بك الجزار والى عكا كان قد احتلها برجاله . ثم استولى على مدينة خان يونس وغزة .

مذبحة يافا واعادة عمر مكرم الى مصر :

واحتاج الى ثلاثة أيام قبل أن يستولى على مدينة يافا وكانت حامية المدينة من العثمانيين وعددها ثلاثة آلاف جندى (على اختلاف فى الروايات بين زيادة وخفض) قد استسلمت . فلم يعرف نابليون ماذا يفعل بهذا العدد الكبير من الأسرى ، فلا هو قادر على اطعامهم ، أو حراستهم ، ولا هو قادر على اطلاق سراحهم فيعودوا الى حربه . فأصدر أمره باعدامهم ، وقد سميت هذه الفعلة باسم مذبحة يافا ، وتعتبر لطخة عار فى تاريخ نابليون . وقد كلفته هذه الفعلة هزيمة حملته على سوريا ، لأن المدافعين عن عكا بعد ذلك استبسلوا فى المقاومة حتى لا يكون مصيرهم مصير حامية يافا ، كما أن الطاعون استشرى فى المنطقة مما أفزع جنود نابليون .

اعادة السيد عمر مكرم الى مصر :

وكان ممن وجده نابليون فى مدينة يافا السيد عمر مكرم مع عدد من الزعماء المصريين الذين غادروها من قبل ، فعفا نابليون عن السيد عمر مكرم ، وأعاده هو ومن معه من المصريين على ظهر بعض المراكب الى مصر ، حيث انزل فى مدينة دمياط ، وبقى بها حتى عاد نابليون الى مصر .

حصار عكا :

مضى نابليون فى انتصاراته ، فاستولى على مدينتى اللد والرملة وحيفا ، وكان باستطاعته أن يمضى للاستيلاء على بقية بلاد الشام ، ولكن وجود مدينة عكا كالشوكة فى جانبه ، حالت بينه وبين هذا التقدم . وكان الأسطول الانجليزى تحت رئاسة سيدنى سميث يساند المدينة المحاصرة من البحر ، ويمونها بالزاد والعتاد ، فزاد ذلك من مقاومة حامية المدينة وقدرتها على الثبات ، ويحول بين الفرنسيين وبين الاطباق على المدينة من سائر جهاتها .

موقعة تل طابور :

نابليون يهزم جيشا عثمانيا جاء لمحاربته :

وفى هذه الأثناء وصل جيش عثمانى لمحاربة نابليون ، وتم اللقاء بين هذا الجيش ونابليون جنوب مدينة عكا فى السادس عشر من ابريل . ولكن نابليون انتصر على هذا الجيش انتصارا حاسما ، ولكنه لم يستطيع أن يمضى فى مطاردته بسبب استعصاء مدينة عكا عليه .

ووصلت اليه الاخبار من فرنسا أن النمسا قد نقضت الصلح مع فرنسا ، واستبطأ سقوط مدينة عكا ، وفشت الأمراض والتعب والكلل فى صفوف جنوده وبدأ الطاعون يهددها .. فقرر نابليون أن يرفع الحصار عن عكا وأن ينسحب سريعا الى مصر .

العودة الى القاهرة :

فى يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة ١٤ يونيو سنة ١٧٩٩ دخل نابليون الى القاهرة ، وسط أعلام النصر ، وكانت أنباء فتوحاته وغزواته قد سبقته الى القاهرة طوال الشهور الماضية وكان يرسل بلاغاته للديوان الذى أعاد تكوينه ، ومع ذلك فان الشعب المصرى الذكى لم يفته مغزى مقاومة عكا لحصاره ، فانها بددت أحلامه .

موقعة أبى قير البرية :

فى ١٤ يوليو أنزل الاسطول الانجليزى جيشا أرسله العثمانيون لمحاربة نابليون عند مدينة أبى قير وتريث فى انتظار وصول نجدات المماليك اليه بفرسانهم فاستولى الجيش على المدينة وقلعتها . فلما وصلت أنباء ذلك الى نابليون كتم الاخبار عن المصريين وبذل من الهمة والنشاط ما ملأ كل من يحيط به من الاعجاب . فقد طلب من

جيوشه فى أنحاء البلاد أن تتجمع كلها عند الرحمانية وضرب لها موعدا . وخرج من القاهرة على جناح السرعة الى الرحمانية حيث تكاملت له جيوشه ، فزحف بها الى أبى قير ، فوصل أبو قير فى الخامس والعشرين من يوليو ، وهزم الجيش العثمانى هزيمة منكرة ، فقتل الكثيرين منهم ، كما قذف الاكثرون بأنفسهم الى البحر ليصلوا الى الأسطول الانجليزى ، وأسر نابليون قائد الحملة العثمانى مصطفى باشا .

محمد على ينجو من الموت :

وكان من بين جنود هذه الحملة ، الذين أشرفوا على الغرق جندى عادى يدعى محمد على جىء به على رأس قوة صغيرة من بلدة قولة . وكان من بين الذين انجاهم بحارة الاسطول الانجليزى من الغرق ، فقد كان القدر يعد له أن يلعب أخطر الأدوار فى حياة مصر الحديثة .

نابليون يغادر مصر سرا :

منذ فشل نابليون فى حملته فى سوريا ، وقد بدأت تلح عليه فكرة العودة الى فرنسا ، وقد وصلت اليه بضعة رسائل من أخوته يناشدونه العودة لانقاذ فرنسا التى بدأت أحوالها تسوء وتتدهور .

وقد أوصل اليه قائد الأسطول الانجليزى سدنى سميث صحفا انجليزية وفرنسية تسجل الكوارث التى بدأت تحل على فرنسا ، وضعف حكومة الديركتوار التى كانت قد بعثت تستنجد به ولكن رسالته اليه لم تصل اذ صادرها الانجليز .

واستقر عزم نابليون على ضرورة العودة الى فرنسا ، وتولية كليبر رئاسة الحملة فى مصر بدلا عنه .

وكانت عودة نابليون الى فرنسا مع وجود الأسطول الانجليزى فى مياه مصر ، مخاطرة كبرى ، ولكن حياة نابليون ليست سوى سلسلة من المغامرات التى كان يعتمد فيها على جده وحظه .

وكل الذى فعـــله نابليون أن أحاط عزمه بستار كثيف من التكتم والسرعة فى التنفيذ ، حتى أنه لم يتمكن من ابلاغ عزمه الى كليبر مباشرة ، فكتب تعليماته اليه وعهد بها الى من يسلمها اليه ولم يفت نابليون أن يوجه رسالة من رسالاته الشهيرة التى اعتاد أن يوجهها للشعب المصرى من خلال الديوان ، فهو قد سافر الى فرنسا فى الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول (١٢١٤) ولم يغب بها أكثر من ثلاثة أشهر يعود بعدها بأسطول كبير وجيش عرمرم ليمهد ملك مصر ويقطع دابر المفسدين . وانه ولى على رئاسة مصر والفرنسيين بها الجنرال كليبر سارى عسكر دمياط . ثم امتطى ظهر احدى السفن التى كانت باقية لديه لم تحطم ، وسارت الى جوارها سفينة ثانية ، وفى نفس الليل بدأت الشقيقتان رحلتهما للعودة الى فرنسا . وشتان ما بين رحـلة المجىء الى مصر ورحلة العودة .

ونجح نابليون فى الافلات من الاسطول الانجليزى وفى التاسع من اكتوبر سنة ١٧٩٩ وصل الى فرنسا ــ ليبدأ هذه الصفحة التى لا مثيل لها فى تاريخ أوربا .

مصر بعد رحيل نابليون :

لخص كليبر حالة مصر عندما استلم قيادتها فى العبارات التالية : أن مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى يشملها لا تعتبر الا مذعنة لحكم القوة . والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا الا أعداء ملكه وماله . وقلبه متجه دائما الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه .

وقال السيد بوسليج الذى كان متوليا شئون مصر المالية يحلل تحليلا دقيقا موقف الشعب المصرى من الحملة الفرنسية بعد عامين من استقرارها فى مصر :

« ان الشعب المصرى بالرغم من كوارثه العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعبا وديعا ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا ، مع اننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل به بلاد محتلة ، أن اختلاف العادات ، وأهم منه اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين ، كل ذلك من العقبات التى لا يمكن تذليلها والتى تحول دون ايجاد صلات الود بيننا وبين المصريين . أنهم يمقتون المماليك ، ويرهبون نير الآستانة ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون عليه الا بأمل التخلص منه .

١٨٠٠ م ــ ١٢١٤ هـ : معاهدة العريش :

اذا كان نابليون قد قضى على الجيش الذى بعثت به الدولة العثمانية من جزيرة رودس بمساعدة الاسطول الانجليزى . فقد كان الجيش الرئيسى الذى تعده للزحف على مصر يتجمع فى بلاد الشام تحت قيادة يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم .

ولما كان الجنرال كليبر يدرك الموقف الميئوس منه الذى يقفه الجيش الفرنسى فى مصر ، فقد قرر التفاوض مع يوسف ضيا باشا لتنظيم اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، شريطة الابقاء على شرفها العسكرى فتسافر بكل أسلحتها وأعلامها . وقد كللت المفاوضات بالنجاح بالفعل ، وأمكن التوصل الى اتفاقية تنظيم جلاء الفرنسيين عن مصر ، وتحدد المراحل والأزمنة لتحقيق هذا الجلاء . . وقد اطلق على هذا الاتفاق ــ معاهدة العريش التى تم توقيعها فى الثانى والعشرين من شهر شعبان الموافق الرابع والعشرين من يناير .

وقد أرسل كليبر هذه المعاهدة الى الديوان لعرضها عليه .

موقعة عين شمس :

بادر كليبر بتنفيذ ماتم الاتفاق عليه فى معاهدة العريش ، فجلت القوات الفرنسية عن الأماكن البعيدة فى الأزمنة المحددة لها فى المعاهدة ، واستولى العثمانيون على البلاد التى جلت عنها الجيوش الفرنسية فدخلوا الى الصالحية والسويس وعسكر الصدر

الأعظم فى بلبيس — بل أن جزءا من الجيش العثمانى دخل الى مدنة القاهرة نفسها — وعين الاتراك واليا على الصعيد . ولكن كليبر فوجىء باخطار من قائد الأسطـول البريطانى يعلنه فيه أن اللورد كيث القائد الأعلى للاسطـول الانجليزى قد رفض التصديق على معاهدة العريش . وأن ليس أمام الفرنسيين الا أن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب ولا سبيل لعودتهم الى فرنسا .

وهاج كليبر وماج ، وقرر أن يبطش بالعثمانيين ، فعاد جيشه لاحتلال القلاع التى كان قد أخلاها .

وفى العشرين من مارس الموافق الثالث والعشرين من شوال باغت كليبر الجيش العثمانى الذى كان مرابطا على مشارف القاهرة فى المطرية وعين شمس . وعلى الرغم من أن فصيلة من فرسان الجيش برئاسة نصوح باشا استطاعت فى بادىء القتال أن تنفذ الى مدينة القاهرة — ولم يلبث الجيش العثمانى أن هـزم وارتد الى الخانكة فبلبيس فالصالحية فسوريا والجيش الفرنسى يتعقبه ، فكانت هزيمة ساحقة للجيش العثمانى مرة أخرى على الرغم من أن الجيش العثمانى كان أربعة أمثال القوة الفرنسية التى هاجمته .

ثورة القاهرة الثانية :

لم يعرف الشعب فى القاهرة نتيجة معركة عين شمس فى دورها الأول الا أن الدائرة دارت على الفرنسيين وساعد على ذلك دخول هذا الفريق من الجيش العثمانى برئاسة نصوح باشا مصحوبا بعدد من المماليك . ولم يكن القاهريون ينتظرون الا هذا لكى يشرعوا فى ثورتهم العاتية ضد الفرنسيين لتصفية الحساب معهم فى نفس اليوم الذى كانت تدور فيه رحى الحرب فى عين شمس .

فتجمع الشعب وحمل السلاح ، وأقام المتاريس حول الأزهر قلعة المقـاومة الشعبية والأحياء المحيطة به ، وشرع يهاجم المواقع الفرنسية فى الأزبكية .

وثورة القاهرة الثانية تختلف عن ثورتها الأولى ، فاذا كانت الثورة الأولى لم تستغرق سوى يومين آثنين فان ثورتها الثانية قـد دامت سبعة وثلاثين يوما ، وهى تعتبر بحق نموذج لحرب الشعب الجماعية فى المدن والتى كانت تعتبر شيئا جديدا . واذا كانت الثورة الأولى قد قامت والسيد عمر مكرم زعيم الشعب مبعد عن مصر ، فقد قامت الثورة الثانية ، وهو فى مصر ، فالتفت حوله القلوب وأصبح رمزا لمقاومة الشعب التى لا تقهر . ووقائع الثورة يمكن أن تملأ بنفسها مجلدا كاملا ، ولقد لخص كليبر فى تقريره لحكومة الثورة فى عبارات قليلة : لقد استخرج الاعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض —وانشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية . هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى اليها وانى لم أكن اتصورها بهذه الدرجة من الخطورة .

ويذهل الانسان كيف احتملت جماهير شعب القاهرة بصبر ما انصب عليها من ويلات طوال شهر كامل . فقد كانت القلاع الفرنسية تصب نارا حامية من مدافعها على المدينة الثائرة ، وكانت الجيوش الفرنسية تفرض الحصار حول المدينة فلا تصل اليها الأقوات من الشمال أو الجنوب .

بل أن كليبر عقد صلحا فى هذه الفترة مع مراد بك على أن يكون حاكما للصعيد فى مقابل أن يدفع الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر . فبعث مراد بك يطلب من الشعب المصرى الاخلاد الى السكينة والرضاء بحكم الفرنسيين . ولكن الشعب وقف صامدا فى وجه هذه الحرب النفسية والاقتصادية والدموية .

فقرر كليبر أن يلجأ الى السلاح الأخير الذى لا يكلفه شيئا وتخسر القاهرة فيــه كل شىء ، وهو أن يشرع فى حرق المدينة . واذ كان حى بولاق قد قام بدور كبير فى هذه الثورة ، لمع فيه اسم زعيم شعبى وهو الحاج مصطفى البشتيلى ، فقد كان هو نقطة البداية التى اختارها كليبر للقضاء على الثورة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ابريل . فانصبت المدفعية على المتاريس التى أقامها الثوار ففتحوا بها ثغرة نفذت منها الجنود الفرنسيون ، لا لتحارب ولكن لتضرم النــار فى البيوت والمخــازن والمحــال التجارية .

وقد وصف فرنسى معاصر ماحل ببولاق فقال : فجعلنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم فجرت الدماء أنهارا فى الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها لاقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفا للخرات ــ ولقد مضت ثمانية أيام والنار تلتهم فيها ولا تزال تشتعل فيهــا (المسيو جالان أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون) .

ولم يكتف كليبر بما حل ببولاق بل فرض على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال وعلى متاجرها ٣٠٠ ألف ريال تحصل بضائع .

اخماد الثورة :

وفى الحادى والعشرين من ابريل تم الاتفاق بين الثوار فى بقية القاهرة وبين كليبر ، ووقع عليه ناصف باشا عن الاتراك ، وعثمان افندى عن مراد بك وابراهيم بك عن المماليك ، وقد تعهد هؤلاء الثلاثة أن يجلو الاتراك والمماليك عن المدينة خلال ثلاثة أيام ، وأن يواصلوا الجلاء ، حتى حدود سوريا ــ فى مقابل أن يعلن كليبر العفو العام عن السكان . وجلا الاتراك والمماليك ، وجلا معهم زعماء الثورة من أبناء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم والسيد محمد المحروقى وعادت الجيوش الفرنسية لاحتلال القاهرة ، وفرض كليبر على السكان غرامة حربية قدرها اثنا عشر مليونا من الفرنكات وعشرون ألف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرون ألف طبنجة .

١٨٠٠ م ــ ١٢١٥ هـ : مقتل كليبر :

كان من غير الطبيعى أن يخمد كليبر ثورة القاهرة بكل هذه الوحشية والجبروت دون أن يدفع ثمن ذلك ، وقد تقاضى منه الثمن شاب حلبى ، جاء من سوريا خصيصا

لقتله تقربا لله . وأنزل القـــدر عقابه على كليبر على يد سليمان الحلبى يوم السبت الحادى والعشرين من المحرم . وقد تربص سليمان فى حديقة قصر كليبر ، ثم طعنه بخنجر أعده لذلك عدة طعنات ــ ولمـا حاول كبير المهندسين الذى كان يصاحب كليبر أن يدفع عنه طعنه سليمان الحلبى بدوره ، وان كانت الطعنات لم تصب منه مقتلا .

محاكمة سليمان الحلبى :

ولقد حوكم سليمان الحلبى بالطريقة الجديدة التى جاءت بها الثورة فى أسـلوب التحقيق والمحاكمات وتسجيل كل ما يدور فيها بذمة ولا يكتم الجبرتى اعجابه بهذا الأسلوب فيقول عن محاضر التحقيق والمحاكمة : وهى تتضمن خبر الواقعـــة وكيفية الحكومة (الحكم) لمـا فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفـة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم (أى عظيمهم وقائدهم) رجل أفاقى أهوج فغدره وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجـدوا معـه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ، ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم ، وسألوهم على انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم فيهم بما اقتضاه التحكيم . وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط ، حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص ، كما فهم جميع ذلك من فحوى السطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر العثمانية الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس ، وتجاربهم على هدم البنية الاسلامية .

ومرة أخرى نرى مظاهر الحضارة الأوربية تبهر هذا العقل الذكى اللماح عقل الجبرتى .

والحق ان الانسان ليعجب لضبط النفس الذى مارسه الفرنسيون عقب مقتل كليبر ، واجراء مثل هذا التحقيق والمحاكمة القانونية والتى وصلت الى حد اطلاق سراح الرجل الذى آوى سليمان الحلبى ليلة وصوله الى مصر . وان كان تنفيـــذ الحكم قد شاب هذه القانونية الحديثة والعدالة ــ فقد حكموا بأن تحرق يد سليمان الحلبى التى طعن بها كليبر وأن يقتل بعد ذلك على الخازوق ، وان يعدم الثلاثة الذين علموا بتدبيره ولم يخطروا السلطات فاعتبروا شركاء له وكان عذر الفرنسيين فى ذلك ، ان التنفيذ يجب أن يكون على حسب العـوائد السـارية ، وقد جرت العـادة بمثل هذا الذى حكموا به .

تولى جاك منو رئاسة الجيش الفرنسى :

ولى الجنرال جاك منو قيادة الجيش الفرنسى عقب مصرع كليبر باعتباره أقدم القواد وليس أكفأهم ، ولذلك فقد بدأ الخصام بينه وبين بقية قواد الحملة منذ اليوم الأول لتوليه القيادة .

وجاك منو شخصيته عجيبة ، وهو سياسى أكثر منه قائد حربى ، وكان من أسرة نبيلة فى فرنسا ، وانتخب عضوا فى الجمعية الوطنية ، ولكنه انحاز الى جانب الثورة ، وأدرك من وقت مبكر نبوغ نابليون . فاتصل به وصادقه ولذلك فقد أصطحبه معه فى حملة مصر ، وقد عينه حاكما لمدينة رشيد واختار أن يتزوج احدى بنات أعيانها المسلمين ، فكان لزاما عليه أن يعلن اسلامه ، فلم يتردد فى ذلك ، وأعلن اسلامه وتسمى بعبد الله منو ــ وقد عثر فى محكمة رشيد على وثيقة زواجه وهى مؤرخة بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢١٥ وقد تظاهر الجنرال منو بالشعائر الاسلامية ، حتى أنه كان يؤدى صلاة التراويح ..

وكتب الى نابليون ينبئه بذلك وأن هذه الطريقة حببته الى الأهالى .

وكان منو منذ اليوم الأول للحملة الفرنسية من أشد المتحمسين للاستقرار فى مصر وتحويلها الى مستعمرة فرنسية ، وقد كان ذلك على خلاف رأى بقية القواد العسكريين ولذلك فقد بدأ مباشرة سلطته باقصـــاء المعارضين لآرائه والاكثر كفاءة عسكرية منه .

اجراءات عبد الله منو لحكم البلاد :

بدأ جاك (عبد الله منو) سلطانه باجراءات تدل على تنفيذ ما اعتزمه للاستقرار فى البلاد ، فأعاد الديوان الذى كان قد ألغى بعد معاهدة العريش وقد جعـله ديوانا واحدا مؤلفا من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين وهم المشايخ عبد الله الشرقاوى والمهدى والفيومى والامير والصاوى والشيخ عبد الرحمن الجبرتى وموسى السرسى .

وشرع منو فى تحرير دفاتر للزواج .

ووضع نظاما لمساحة الأطيان الزراعية .

وأنشأ حديقة للنباتات فى القاهرة .

وشرع فى اصدار جريدة يومية باللغة العربية باسم « التنبيه » وأسند رئاسة تحريرها الى الشيخ اسماعيل الخشاب ولكن الأمر لم ينفذ والجريدة لم تصدر .

كما أنشأ مسرحا دائما وصفه لنا الجبرتى كعادته .

فرض الضرائب :

ولكن ذلك كله لم يكن ليقدمه خطوة واحدة عند المصريين ، بعـد أن بدأ حكمه بمضاعفة الضرائب والمبالغ التى كان كليبر قد فرضها على القاهرة .

وكان مما يزيد فى ثقل هذه الضرائب والغرامات والفروض . ان البـلاد كانت قد أوشكت أن تصل الى هاوية الافلاس ، بعد حالة الدمار التى أصابت القاهـرة وحريق بولاق ، وبعد تلاشى تجارة مصر الخارجية تماما نتيجة الحصار الذى فرضه عليها الأسطول الانجليزى ــ وكاثر من الثورات والاضطرابات التى لم تنقطع من الريف سواء فى الوجه البحرى أو القبلى ، شهرا واحدا .

وكان هناك عزاء واحد لجماهير الشعب ، هو أن ساعة الخلاص قد دنت ، فقد كان العثمانيون قد استأنفوا جهودهم لاجلاء الفرنسيين عن مصر بمساعدة الانجليز مساعدة مباشرة .

وفاة مراد بك :

فى الرابع من ذى الحجة مات بمدينة سوهاج مراد بك حاكم الصعيد وحليفهم فى المرحلة الأخيرة من حكمهم الذى حفظ للفرنسيين الأمن فى هذه الجهة من الآونة الأخيرة ، وقد حزن عليه الفرنسيون ولذلك فعبثا أن تعتبر مقاومة مراد بك للفرنسيين عملا من أعمال الوطنية أو الغيرة على الدين ، وانما هو دفاع مالك عن ملكه ، ولذلك فلم ير حرجا وقد استتب الأمر للفرنسيين أن يكون تابعا يدفع الجزية لهم ، ما داموا يسمحون له بحكم الصعيد وجنى ثمراته وقد أبنه الجبرتى بقوله : انه كان من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم لعل الهم يزول بزواله .

اعادة بناء جامع عمرو بن العاص :

على أن لمراد بك أثرا يخلده حتى الآن ويفرض نفسه علينا فرضا ، فقد كان جامع عمرو بن العاص ، عندما أحترقت الفسطاط خرابا ـ فأعاد مراد بك بناءه وبعثه والزائر لهذا الجامع العتيق ، يرى اللوحة التذكارية التى تسجل لمراد بك هذا العمل (الوحيد) النافع فى كل حياته .

١٨٠١ م ـ ١٢١٦ هـ ـ نزول الجيش الانجليزى الى ارض مصر :

فى الثامن من شهر مارس من هذه السنة الميلادية أنزل الانجليز قوة تتألف من ستة آلاف جندى عند شاطىء أبو قير اصطدموا مع الفرنسيين ، وعلى الرغم من خسائرهم ، فقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم وأن يجبروا الفرنسيين على التقهقر غربا فى اتجاه اسكندرية . وفى الثالث عشر من مارس دارت موقعة ثانية عند سيدى جابر ، انتصر فيها الانجليز مرة أخرى بفضل تفوق عددهم الساحق بالنسبة للفرنسيين .

معركة كانوب :

وقرر جاك منو أن يهاجم الانجليز ، فسار ببعض الجيش الفرنسى ، تاركا بعضه الآخر فى مصر ـ ودارت معركة طاحنة عند باب الاسكندرية الذى كان يطلق عليه اسم كانوب (شرق باب رشيد) وكان الجيش الفرنسى أقل عدد وتسليحا ، فانتهى الأمر بهزيمته ولكن بعد أن كبد الانجليز ١٥٠٠ قتيل منهم قائد الجيش الجنرال ايركرومبى نفسه ، وجرح بعض قوادهم ومنهم السير سدنى سميث قائد الأسطول ـ وانسحب الجيش الفرنسى الى الاسكندرية حيث فرض الانجليز الحصار عليها بأن قطع سد أبى قير فأحاطت مياه البحر بالاسكندرية ، وقد خلف ابركرومبى فى قيادة الجيش السير هيتشنسون .

جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر :

وكان لا بد أن تجيء النتيجة المحتـومة ، عنـدما انفتح الطريق أمام الجيش الانجليزى نحو القاهرة بعد موقعة كانوب . فى الوقت الذى وصل أسطول عثمانى يحمل جيشا عثمانيا نزل فى رشيد بعد احتـلال الانجليز لها ، وسار الجيش حتى وصل الى مدينة السرجانية فالتقى مع جيش الانجليز وانسحبت القوات الفرنسية المدافعة عنها الى القاهرة .

زحف جيش عثمانى من سوريا :

وبينما كان هذا الجيش المشترك من الانجليز والعثمانيين يمضى فى زحفه ــ كان جيش عثمانى آخر تحت قيادة يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم ، قد بدأ زحفه من ناحية سوريا فاحتل العريش والصالحية وبلبيس والفرنسيون يتراجعون أمامه ، ولم تجد مقاومة الفرنسيين الباسلة فى ١٩ مايو عند بلدة الزوامل ، واضـطر الفرنسيون للتراجع منهزمين الى القاهرة ــ ولم يكن عثمان بك الطنبورجى خليفـة مراد بك فى امارة الصعيد بالاتفاق مع الفرنسيين يرى كفة الأتراك وقد رجحت ، فقد قلب ظهر المجنى للجنرال بليار ، واتصل بابراهيم بك الذى كان يسير فى معيه الصدر الأعظم .

وهكذا أحيط الجنرال بليار ، فتراسل مع القائد الانجليزى طالبا الصلح عـلى الاتفاق القديم الذى أبرم فى اتفاقية العريش ، وهو أن يكون سفر العسكرالفرنسى ، بكامل اسلحتهم على مراكب انجليزية ويتم توصيلهم الى فرنسا .

بعد أن يسلموا مصر للدولة العثمانية ويمثلها حسين قبطان باشا . وهكذا سافر جيش الجنرال بليار من أبى قير على السفن البريطانية قاصدين فرنسا ، وكان عدة من رحلوا معه ثلاثة عشر ألف جندى .

وقد أبى الجنرال منو فى بادىء الأمر ، أن ينفذ هذا الصلح ودارت المعـارك الحربية مرة أخرى بينه وبين الانجليز ولكنه انتهى بعقد معاهدة مماثلة .

وفى الرابع عشر من سبتمبر بدأ رحيل آخر من بقى من الفرنسيين عن الاسكندرية، وكان عددهم أكثر قليلا من عشرة آلاف .

اى أن عدد من رحل عن مصر كان فى المجموع ثلاثة وعشرين الفا ــ ولا بد انه كان فى هذا العدد عناصر كثيرة غير فرنسية ، خافت أن تبقى فى البلاد بعـد تعاونها المطلق ، ومن هؤلاء الجنرال يعقوب القبطى الذى تعاون مع الفرنسيين تعاونا مطلقا ، وألف فرقة عسكرية .

وتحدد وضع مصر السياسى فى صلح أميان الذى عقد بين فرنسا وانجلترا عام ١٨٠٢ والذى أعيدت مصر بمقتضاه الى الدولة العثمانية وفرض على الانجليز أن يجلو عنها .

وأسدل الستار :

وأسدل الستار على الحملة الفرنسية التى استغرقت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، واشبهت أن تكون اعصارا أو زلزالا ، أو ثورة بركانية ، مزقت الجمود والهمود الذى كان قد ران على العالم الاسلامى ، واشعرته أن الدنيا قد تغيرت وظهرت فيها عدالة جديدة ، وحياة جديدة ، وعلوم جديدة وصناعات جديدة، ونظم حكم جديدة ، وبالجملة حضارة جديدة . وكان مستحيلا أن تكون هذه الصدمة على قصرها وسرعتها عقيمة أو تغير نتائج ، فان تاريخ مصر كلها قد صنع فى المائة سنة التالية بمحاولة مصر اللحاق بركب الانسانية الزاحفة .

حجر رشـــيد :

وليس هناك ما يرمز لعظمة الأثر الروحى والعلمى الذى خلفته الحملة الفرنسية فى مصر ، من اشتغال علمائها بكشف الآثار المصرية التى كانت قد أصبحت نسيا منسيا من أهل البلاد ، وانتهى هذا النشاط بعثور الضابط الفرنسى بورشار على حجر رشيد فنقله الانجليز وأودعوه المتحف البريطانى ـ حتى اذا كان عام ١٨٢٠ تمكن العالم الفرنسى شمبليون من فك طلاسمه ، فعرفت اللغة الهيروغليفية لأول مرة، فبعث تاريخ مصر القديم ، وتحول الى كتاب مفتوح لكل من يريد أن يقرأ .. وهكذا دبت فى مصر روح جديدة ، من حب العلم والمعرفة والتقدم ، ما فتئت تتزايد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .. سنة بعد أخرى ويوما بعد آخر وساعة بعد ساعة .

أول ميزانية حديثة لمصر :

وقد قدمت لنا الحملة الفرنسية أول ميزانية عصرية يمكن لأى انسان أن يتخذها قاعدة للمقارنة بين ما كانت عليه مصر يومئذ وما آلت عليه بعد ذلك . وجملة الايرادات فى هذه الميزانية عن سنة ١٢١٣ هـ ، ١٧٩٨ م قدرت بـ ١١٦٦٥١ر٧٢٧ ميده أو نصف فضة وهذا القدر مساوى بالفرنكات الفرنسية ٤ر١١٤ر٦٩٩ فرنكا على أساس أن كل ٢٨ نصف يعادل فرنك وهو ما يساوى ١٥٨ ألف جنيه تقريبا ـ أما جملة المصروفات فقد قدرت بـ ١٠٩ر١٥١ر٧٢٧ نصف فضة أى بنقص قدره ٧٥٠ ألف نصف فضة أى عشرة آلاف جنيه تقريبا ،وهو القدر الذى كان يرسل كل سنة الى اسطنبول على سبيل الجزية ، وثلث مصروفات الميزانية كان ينفق على العلماء والتعليم ووقفيات ورجال الدين والجوامع والحج أما باقى الميزانية فانفق على مرتبات كبار الموظفين والجنود وترميم القلاع بالقاهرة وفى انحاء بلاد القطر .

عدد سـكان مصر :

كما قدمت لنا الجمعية العلمية الفرنسية أول احصاء تقريبى لعدد سكان مصر عام ١٨٠٠ م وقد قدر هذا العدد بـ ٢ر٤٦٠ر٢٠٠ نسمة وهو رقم يكشف بذاته عن مدى التدهور الذى كانت مصر قد وصلت اليه فى نهاية العهد العثمانى وما أحدثته بها الأوبئة والمعارك الطاحنة الداخلية .

وسيظل هذا الرقم هو الأساس لقياس نمو السكان فى مصر حتى عصرنا الحديث

الفصل الثامن عشر

مرحلة الفوضى
التى انبثق منها محمد على
بإرادة الشعب

١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م - ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م

صورة حالكة السواد :

تعتبر الفترة التى تلت جلاء الفرنسيين عن مصر ، الى ان استتب الأمر لمحمد على بتوليته من قبل السلطان أسوأ فترة مر بها الشعب المصرى منذ عدة قرون ، سواء فى ذلك أهل الريف أو أهل المدن ، حيث تعددت القوى المتصارعة على الانفراد بحكم مصر وحلب الشعب المصرى .

وكان الشعب بمختلف طوائفه يدفع تكاليف هذا الصراع من أمنه ومن ماله ومن دمه ومن عرضه ، فكل طائفة من الطوائف المتصارعة تحتل هذا الجزء أو ذاك من أرض البلاد وتفرض على سكانه الضرائب والعلوفات ، وتعذب وتضرب وتقتل وتنهب ، لتنهزم أمام قوة أخرى ، تحل محلها فيما كانت ترتكبه من آثام ، لتجىء قوة ثالثة ، لتطردها بعد قليل القوة الأولى وهكذا دواليك .

وغرقت البلاد فى هذه المأساة أربع سنوات كاملة ، يطالع الانسان تفاصيل ما وقع فيها شهرا بعد شهر بل ويوما اثر يوم وساعة بعد أخرى ، فى تاريخ الجبرتى فتصاب نفس المطالع بالغثيان ، لحديث الدم والبغى والطغيان ، ويناله السأم لتشابه الوقائع وتكرار القصة . ويستبد بالانسان العجب ، كيف لم تخرب مصر نهائيا ويباد شعبها عن آخره ،وسط هذه الفوضى والفتن والويلات . .

ولن يلتقط المطالع انفاسه الا بعد أن يستتب الأمر لمحمد على ، لا لأن الظلم قد رفع عن الشعب ، بل لقد تضاعف هذا الظلم من حيث تعدد الضرائب ، وتضاعف قدرها ، ولكنه على كل حال أصبح ظلما منظما . ولنعرض الآن لهذه القوة المتصارعة .

الأتراك العثمانيون :

عاد الأتراك العثمانيون لاحتلال البلاد بجيوشهم ، وقد أبوا ان يعودوا الى الوضع القديم السابق على الحملة الفرنسية ، حيث لم يكن للدولة العثمانية سوى سلطان شكلى على مصر ، وقرروا أن يكون حكمهم لها حكما مباشرا ، ولم يكن لذلك من سبيل الا بابادة المماليك وكانت هذه هى الأوامر المعطاة لكبار رجالهم الذين وفدوا على مصر سواء يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم الذى أصبح يرابط فى القاهرة ، أو حسين باشا قبطان قومندان الأسطول العثمانى الذى كان يرابط بخليج ابى قير فى الاسكندرية .

المماليك :

والمماليك من ناحيتهم كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحاب مصر وملاكها ، وأنهم وقد عادوا اليها ، فليس للعثمانيين فيها الا الاسم وأن يتلقوا ما اعتادوا أن يتلقوه من جزية سنوية ، على أن يكون حكم مصر المباشر ومغانمها بيد المماليك انفسهم .

وكان المماليك قد أصبحوا يتألفون من فرقتين أحداهما وعلى رأسها ابراهيم بك الكبير قد عادت الى مصر مع قوات يوسف ضيا الزاحفة .

أما الفرقة الثانية فكانوا قد تحالفوا مع الانجليز ووضعوا انفسهم تحت خدمة الجنرال هتشنش ، وظلوا مرابطين فى الاسكندرية بالقرب من قواته .

الانجليـــز :

والى جوار هاتين السلطتين التقليديتين ، وجدت على ارض مصر فى هذه الفترة قوة عسكرية ثالثة ، هى قوة الانجليز التى كانت ترابط بأسطولها وبعض قواتها فى الاسكندرية . والبعض الآخر فى القاهرة . وكانت لهم اليـــد الطولى فى اجـــلاء الفرنسيين عن مصر .

وكانت انجلترا مذ احتل نابليون مصر ، قد بدات تضع فى دائرة أطماعها ، بعد ان تبينت خطرها على امبراطوريتها وقرروا ان يكونوا أصحاب النفوذ الفعلى فى مصر ، ورأوا فى المماليك واعادتهم الى سابق سلطانهم السبيل الى تحقيق ذلك .

الشعب المصرى :

وقد اتفقت هذه القوى الثلاث المتصارعة على النفوذ ، على اغفال هذه القـوة التى ظهرت على مسرح الحياة السياسية لأول مرة ، ونعنى بها قوة الشعب ، التى كانت قد بدأت فى النمو قبل الحملة الفرنسية كما رأينا ، ثم أذكت هذه القوة المقاومة للفرنسيين ابان الحملة . فلم يحسب العثمانيون ولا الانجليز فضـــلا عن المماليك أى حساب لهذه القوة الجديدة .

وليس الا محمد على :

وليس الا رجل واحد ، رجل واحد فقط هو الذى ادرك حقيقة هـــذه القـــوة الوليدة ، وأن مصانعتها ، والتقرب اليها والتزلف لها يمكن أن يكون السبيل لتحقيق أطماعه وأحلامه فى حكم هذه البلاد .

محمـــد على :

ولم يكن هذا الرجل سوى محمد على الجندى الألبانى الذى وفد الى مصر مع من وفد من جنود الدولة العثمانية ، حتى أصـــبح رئيسا للفرقة الألبانية فى مصر والبـــالغ عددها اربعـــة آلاف جنـــدى ، ومن ثم فقد قرر أن يلعب لعبته ويقوم بمغامرته .

وقد ولد محمد على فى سنة ١٧٦٩ (١) على ما كان يصرح به بمدينة قوله من ثغور مقدونيا حيث ولد الاسكندر المقدونى وبطليموس الأول . وكان أبوه ابراهيم أغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطريق ببلده . وكان له سبعة عشر ولدا لم يعش

(١) يشك بعض المؤرخين فى هذا التاريخ ، ويرون انه افتعل افتعالا ليكون ميلاد محمد على فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون وولنجتونى وكثيرون من العظماء .

منهم سوى محمد على ومات عنه وهو صغير السن ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت فأصبح يتيم الأبوين فى سن الرابعة عشرة ، تكفله عمه طوسون ، ومات بدوره .

ووجد محمد على فى (الشوربجى) حاكم قوله الذى كان صديقا لوالده ، حاميا ومعينا فأدرجه فى سلك الجندية فأبدى بها شجاعة ودراية وحسن نظر ، فقربه الحاكم وزوجه بامرأة غنيـة كانت بمثابة طالع السـعد له ، وأنجبت له ابراهيم وطوسون واسماعيل (أسماء أبيه وعمه وراعيه) وبنتين .

فلمـا أن قررت الدولة العثمانية أرسـال جيش الى مصر لانتزاعهـا من يد الفرنسيين ، كان محمد على هو نائب رئيس الكتيبة التى أرسلت من الألبانيين من قوله وعددها ٣٠٠ ، وكان رئيس الكتيبة هو ابن حاكم قوله نفسه الذى لم يكد يصل الى مصر حتى قرر أن يعـود الى بلده فأصـبح محمد على هو رئيس الكتيبة (بكباشيا) .

واذ قدمنا بطل المسرحية الآتية ، فلنتتبع فصولها وحوادثها .

العثمانيون يتآمرون على المماليك :

بدأ الفصل الأول من الصراع ، بأن اتفق قبطان باشا فى الاسكندرية ويوسف ضيا باشا فى القاهرة ، على تحديد يوم لاستئصال المماليك ، فدعى كل من الرجلين أمراءهم للاجتماع به . ثم شرع فى الفتك بهم أو اعتقالهم .

وهاج الانجليز وماجوا ، وهددوا اذا لم يفرج عن المماليك المعتقلين فورا ويعتذر ويعوض من قتل منهم فانهم سيحاربون العثمانيين ، فاضطر العثمانيون الى الافراج عمن كانوا اعتقلوا .

١٢١٦ هـ ـ ١٨٠٢ م ـ تولى محمد خسرو باشا على مصر :

نجح قبطان باشا فى حمل الباب العالى على تعيين كتخداه محمد خسرو باشـا واليا على مصر فصدر الأمر بتوليته فى الثالث عشر من رمضان الموافق ١٧ ينـاير ، ووصل الى مصر فى الوقت الذى كان فيه يوسف ضيا الصدر الأعظم ينسحب منها بكتلة الجيش العثمانى تاركا لمحمد خسرو باشا مهمة ابادة المماليك وتثبيت سلطة الباب العالى فى مصر .

وكان من أول الأعمال التى قام بها خسرو أن رقى البكباشى محمد على الى رتبة سارى ششمه أو لواء فى لغتنا الحاضرة أى رئيس فرقة .

جلاء الانجليز عن مصر :

فى مارس ١٨٠٢ م تم توقيع صلح أميان بين انجلترا وفرنسا وكان أحد شروط المعاهدة يقضى بجلاء الانجليز عن مصر فقد كان نابليون لا يطيق بقاء الانجليز فى مصر يوما واحدا . وعلى الرغم من أن الانجليز قبلوا مبدأ الجلاء ، ولكنهم راحوا يتلكأون فى تنفيـذه ، فى الوقت الذى راحوا يستخدمون جيشهم فى مصر لتهيئة السـبيل

لاستعادة المماليك قوتهم ، ولكن ذلك الأمل لم يتحقق على الرغم من انقضاء عام كامل فقد كان محمد خسرو يوجه الحملات ضد المماليك . وعلى الرغم من أن المماليك كانوا ينتصرون فى هذه الحملات ، ولكن انقسام صفوفهم قد حال دون استثمارها ، ولذلك فقد اضطر الانجليز للجلاء أخيرا عن مصر تحت الحاح نابليون والدولة العثمانية ، وضغط الحوادث الدولية ، وكان ممن انسحب معهم محمد بك الألفى أحد كبار أمراء المماليك ، ليدبر معهم الخطط والوسائل التى يستطيع بها المماليك حكم مصر بمساعدة انجلترا عند تحسن الظروف .

محمد على يكيد لخسرو باشا ويخلعه :

أدرك محمد خسرو أنه أخطأ فى ترقية محمد على بعد أن أحس بأطماعه ، وحاول أن يكيد له ولكن محمد على كان يقظا فلم يتمكن من انفاذ عزمه . وأخيرا قرر خسرو أن يرسل محمد على الى الصعيد لمقابلة المماليك ولكى يتخلص منه ، وبدأ محمد على سلسلة مؤامراته ومناوراته العديدة لتسلق سلالم السلطة ، فاتفق مع رئيسه طاهر باشا كبير الأرناؤوط أن يخلعا خسرو باشا ، فأوعزا الى جنودهما أن يطالبوا برواتبهم المتأخرة . ولما لم يكن بقدرة خسرو باشا تنفيذ ذلك فقد أعلن الجند تمردهم ، فضربهم خسرو باشا بالمدافع من القلعة ، ولكن الجنود الألبانيين استطاعوا أن يقتحموا القلعة وأن يمتلكوها وأن يحرقوا بيت خسرو باشا فى الأزبكية ، فى الوقت الذى هرب خسرو باشا ناجيا بنفسه مع بعض حرسه وخلصائه وقصد الى مدينة دمياط ليتحصن بها ، ولم يفته أن يفرض الضرائب على الفلاحين أثناء هربه طوال الطريق الى دمياط ، وأن ينهب كل ما يصل الى يديه .

١٨٠٣ م — ١٢١٨ هـ — تعيين طاهر باشا قائمقاما على مصر :

فى الرابع عشر من المحرم ركب المشايخ والقاضى لبيت طاهر باشا رئيس فرقة الأرناؤط وألبسوه خلعة ليكون قائماما على مصر الى أن يصدر السلطان أمرا بتعيين من يراه واليا على مصر . ولكنه لم يكد يباشر سلطانه حتى وجد نفسه فى مركز سلفه ، فقد طالبه الجنود بدفع مرتباتهم المتأخرة ، واذ كان عاجزا عن ذلك فقد بدأ الصراع بينه وبين الجند . واستغل الانكشارية هذه الفرصة لكى يثأروا لخلع خسرو باشا ، فأوفدوا الى طاهر باشا ضابطين لم يلبثا أن قتلاه وقطعا رأسه ، وأسرع الانكشارية بعد مقتل طاهر باشا بتولية أحمد باشا والى المدينة المنورة الذى كان فى مصر فى طريقه الى مقر ولايته .

محمد على تحالف مع المماليك :

ووجد محمد على فى هذا التعيين ما يحبط خططه فى اقتلاع النفوذ العثمانى فى مصر عن غير طريقه وطريق جنوده الأرناؤوط ولذلك فقد اعترض على هذا التعيين الذى لا سند له . واتصل بالمماليك وبخاصة مع زعيمهم عثمان البرديسى ، وتآخى معه وتعاهد ، حتى لقد قيل انهما مزجا دمهما ببعضهما تأكيدا للاخوة والوفاء ، وعلى ذلك فقد استطاع المماليك بمساعدته أن يوجها انذارا لأحمد باشا أن يغادر القاهرة ،

فأسرع بمغادرتهـا . ودخل المماليك وعلى راسهم ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى الى القاهرة وتسلموا زمام السـلطة ، وكسروا شكيمه الانكشـارية . واسفر محمد على عن وجهه لأول مرة باعتباره القوة المحركة للأحداث . فى الوقت الذى شرع فيه يتودد الى مشايخ البلاد وعلمائهـا ، ويجالسهم ويصـلى وراءهم ، ويظهر العطف والرعاية على متاعب الشعب وآلامـه . واذا كان السيد عمر مكرم هو زعيم الشعب غير منازع ، فقـد أظهر له الاكبار والاجلال وأكثر من التحدث معه عن العـدل ، وحق الشعب فى اسماع صوته فى مختلف شـئونه . ولم يفت محمد على أن يوثق صلاته كذلك مع كبار أعيان البلاد وعلى راسهم السيد احمد المحروقى كبير التجار .

محمد على يتعقب خسرو باشا :

لم يقنع محمد على بانسحاب خسرو باشا الى مدينـة دميـاط اذ كان يباشر دسائسه ومؤامراته من هذا الموقع ، فحرض عثمان البرديسى على محاربته ، وتوجه معه بعساكره من الأرناؤرط وقد استطاع البرديسى أن يتغلب على خسرو باشا وأن يقبض عليه ويحمله سجينا الى القلعة حيث ظل بها أسير الاعتقال .

١٨٠٤ م ــ ١٢١٨ هـ ــ ايفاد على الجزايرلى باشا واليا على مصر ومصرعه :

عندما وصل الى الباب العالى نبأ ما حل بخسرو باشا وعودة المماليك الى القاهرة بعث الى مصر بوال جـديد وهو على باشا الجزايرلى ، وصحبه بفرقة من الجنـد ، لمواجهة المماليك واعادة سلطان الباب العالى على مصر .

ولم يعرف الباب العـالى انه لم يعد يواجه فى مصر المماليك ، وانما محمـد على بجنـوده الأربعة آلاف من الأرناؤوط والذين أصبحوا أطوع له من بنـانه . ولذلك فقد استطاع المماليك بتدبير محمد على ، أن يستدرجوا على الجزايرلى باشا الى القاهرة ، وأن يعتقلوه فى الطريق اليها بعد أن يفصلوه عن جنوده ، وأن ينفوه الى الشـام فى حراسة بعض المماليك ، الذين انقضوا عليه فى الطريق وذبحوه ، وكان معنى ذبحه ذبح السلطان العثمانى الوليد فى مصر .

محمد على يوقع بين البرديسى والألفى :

واذ فرغ محمد على من السلطان العثمانى ، وكان الانجليز قد جلوا عن مصر ، فلم يبق ما يحول بينه وبين تولى السـلطة الا المماليك ، فاتجه نحوهم وقرر تصفية قوتهم . واذ كان الحظ يهيىء له السبيل ، فقد عاد فى هذا الوقت محمد بك الألفى من انجلترا ليضع الأساس لاستعادة حكم البلاد بمساعدتها ، ونجح محمد على فى تأجيج نيران العداوة والبغضاء بين البرديسى وبين الألفى ، فارسل البرديسى جيشا وأرسل محمد على جيشا للقبض على محمد بك الألفى .. ونجحت الحملتـان فى الاستيلاء على مراكب الألفى المحملة بالتحف والآلات الحديثة التى جاء بها من انجلترا ، ولكن محمد الألفى نفسه نجح فى الهرب والالتجاء الى الصعيد ، حيث اجتمع اليـه

مماليكه وأنصاره ، وانقسم المماليك الى فرقتين يتربص كل منهما بالآخر ، وظل هذا الانقسام حتى أودى بالمماليك جملة فى خاتمة المطاف .

محمد على يجلى المماليك عن القاهرة :

واذ اطمأن محمد على الى انقســـام المماليك ، فقد قرر أن يبطش بالبرديسى ، وكان الطريق قد أصبح سهلا وميسورا فقد حرك الجند للمطالبة برواتبهم المتأخرة ، ونصح من ناحيته لصاحبه وصديقه البرديسى أن يدفع هذه الرواتب والا فلن يكون بقدرته مســاعدته بشيء ، واضطر البرديسى الى فرض ضريبة باهظة على التجـار وسكان القاهرة ، واستعمل رجاله القســوة فى تحصيلها حتى لقد مات البعض من الضرب تحت التعذيب ، واذ كان شعب القاهرة قد مرن على المظاهرات والاحتجاجات فقد ســارت المظاهرات وهى تهتف : « ايش تاخد من تفليسى يابرديسى » وتجمعت الألوف من أبناء الشعب حول الأزهر وعلمائه ، واقفل التجار محلاتهم ودكاكينهم ، فى الوقت الذى أرسل محمد على جنـوده لينبثوا وسط الشعب معلنين تبراهم من هذه الضرائب واستفظاعهم لشأنها . كما اجتمع محمد على مع المشايخ معلنا استنكاره لهذه الضرائب ، ولاسلوب المماليك فى الحكم ، معلنا تضامنه مع الشعب ، وقاطعا على نفسه العهد أن يعمل لتخليص الشعب من طغيان المماليك . فتعلقت القلوب بهذا القائد التركى الذى يؤيد الشعب فى رفع الظلم واقرار العدل بقوة السلاح .

واذ اطمأن محمد على الى تأييد الشعب وعزله عن المماليك ، فقد باغت البرديسى وابراهيم بك بالهجوم على قصريهما فى فجر الثانى من مارس .

واسقط فى يد البرديسى وابراهيم بك ، فأسرعا بالهرب وهم فى هول من المباغته حتى اذا ذهب عنهم الروع ، توجهوا نحو الصعيد ليعيدوا تنظيم صفوفهم ، ويقتصوا من محمد على .

تعيين خسرو باشا واليا على مصر :

كان محمد على يلعب أوراقه فى هذه الفترة من حياته بمهارة عجيبة ، فهو وقد أصبح الحاكم المطلق فى القاهرة ، لم يشأ أن يثب الى السلطة من الناحية الرسمية ، فقد كان لا يريد ان يبدو فى نظر الباب العالى المتمرد على السلطة ، وان كل تصرفاته السابقة كان هدفه النهائى منها تحطيم المماليك واذ توصل الى ذلك فلم يبق الا أن يعيد للباب العالى سلطانه على مصر ، ولذلك فقد اخرج محمد خسرو باشا من معتقله ونصبه واليا على مصر ، وأذهل العلمـاء والشعب بهذا التصرف ، اذ بدا أنه رجل لا يطمع ، لجر ثقتهم لنفسه فازدادت القلوب تعلقا به .

ولكن الجنود الألبان رفضوا الابقاء على خسرو باشا واليا خوفا مما قد يفعلـه بهم ، ولذلك فقد اجبروه بعد ثلاثة أيام فقط من ولايته الى مغادرتها ، بل الى مغادرة مصر كلها . فعاد الى اسطنبول ، ليظل طول عمره بعد ذلك يحقد على محمد على حتى واتته الفرصة للتنفيس عن هذا الحقد .

تعيين أحمد خورشيد باشا واليا على مصر :

ومرة أخرى خلا منصب الوالى على مصر ، ومرة اخرى اظهر محمد على التعفف عن المنصب وأشار على العلماء ورؤساء الجند بتولية أحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية فحضر الى القاهرة ، وتسلم منصبه الجديد فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ .

١٨٠٥ م – ١٢٢٠ هـ – خورشيد يصطدم بمحمد على :

جعل خورشيد باشا همه الأول منذ أصبح واليا على مصر أن يزيح عن طريقه هذه القوة التى أصبحت تحرك الحوادث فى مصر ممثلة فى شخص محمد على ، فأوعز الى الباب العالى أن تصدر فرمانا بدعوة الارناؤوط الالبانيين ورؤسائهم الى بلادهم . ووصل المرسوم بالفعل ، وتظاهر محمد على بالطاعة واخذ فى عمل الترتيبات لتنفيذ المرسوم ، فى الوقت الذى جعل الجند يفهمون من تنفيذ المرسوم ضياع حقوقهم فى المرتبات المتأخرة ، فى الوقت الذى تحزبت فيه الجماهير وعلى رأسها العلماء والمشايخ والسيد عمر مكرم بصفة خاصة ضد تنفيذ هذا المرسوم ، وأغلقت الأسواق والمتاجر وكادت تقع بالبلد فتنة ، لولا أن سارع محمد على باعلانه العزم على بقائه فى مصر ارضاء للرأى العام ولتهدئة ثائرة الجند .

وهكذا فشلت هذه المناورة الأولى من مناورات خورشيد باشا .

استجلاب جيش من الدلاة :

عمد خورشيد باشا بعد ذلك الى تكليف محمد على للسفر الى الوجه القبلى لمحاربة المماليك ، فى الوقت الذى بعث فيه الى الباب العالى طالبا منهم أن يسعفوه بجيش من الدلاة (أى المجانين) ويتألف هذا الجيش من عنصر كردى اشتهر بالتهور والبسالة فوصفوا بهذا الاسم .

وكان هذا الجيش الذى أراد خورشيد باشا ان يحتمى به هو الذى عجل بنهايته ، فلم يكد الدلاة يدخلون الى القاهرة ، حتى تصرفوا فيها تصرف الغزاة الفاتحين ، فاستولوا على ما شاءوا من البيوت ليقيموا فيها ، وطردوا منها أصحابها ، ثم عمدوا الى أبواب هذه البيوت ونوافذها ينزعونها ويتخذون منها وقودا لنيرانهم ، كما استولوا على كل ما وجدوه فى هذه البيوت من مال ومتاع ، ثم شرعوا يعتدون على الأعراض ، لا أعراض النساء فحسب ، بل والذكور أيضا . واستغاث الشعب بالوالى ، وكان أضعف من أن يفعل شيئا لكبح جماح هؤلاء المجانين .

فانفجرت الثورة فى أنحاء القاهرة فى يوم الخميس أول صفر (سنة ١٢٢٠) ٢ مايو ، واحتشدت جموع الشعب فى الأزهر ، وتوقف الشيوخ عن القاء الدروس ، ونودى باغلاق المتاجر . وطالب الشعب بجلاء الدلاة عن القاهرة وأعطوا الوالى مهلة ثلاثة أيام . وعندما أرسل كتخداه للتفاهم مع الشيوخ والعلماء رجمه الصبيان بالحجارة .

محمد على يعين واليا على جـدة :

كانت هذه فرصة محمد على لكى يضرب ضربته الجديدة ، فلم يكد يسمع نبـأ وصول الدلاة الى مصر حتى عرف الهدف من وصولهم وأسرع الى القاهرة ، ونجح مع الدلاة أنفسهم فلم يحولوا بينه وبين الدخول الى القاهرة ، كما أمرهم بذلك خورشيد باشا . وراح محمد على كعاداته يتصل بالسيد عمر مكرم وبالعلمـاء وقادة الشعب يؤيدهم ويزكيهم فى غضبتهم . وفى هذه الأثناء ورد مرسوم من الباب العالى بتعيين محمد على واليا على جده مع الأمر بمغـادرة مصر فورا الى مقر ولايتـه وكان هذا المرسوم هو أحد مناورات خورشيد باشا لاقصاء محمد على عن مصر .

وتظاهر محمد على كعادته بالانصياع والطاعة ، حتى لبس خلعة الولاية وأصبح بذلك حاصلا على رتبة الباشا ، واقيم بمناسبة توليته احتفال كبير سار فيه وحوله جنوده والشعب يحييه وهو ينثر الذهب من حـوله ، فزاد ذلك فى رفعتـه وجلال قدره . ولم يكن فى عزمه تنفيذ هذا الفرمان .

اندلاع الثـورة :

لم يستطع خورشيد باشا أن يجلى الدلاة عن القاهرة فى الأجل المضروب ، وأعلن الدلاة من ناحيتهم أنهم لن يجلوا الا اذا قبضوا مرتباتهم ، وراحوا يهجمون على القرى ويملكون كل ما فيها حتى النساء والأطفـال ويبيعونهم فيما بينهم ورد الشعب على ذلك باعلان الثورة الشاملة ليس فقط على خورشيد باشا أو الدلانية ، بل على الحكم العثمانى كله ، وذلك فقد تحولت صياحتهم الى مثل القول : « يارب يا متجلى أهلك العثمللى » .

وفى يوم الأحد الثانى عشر من شـهر صفر الموافق الثانى عشر من مايو اجتمـع زعماء الشعب فى دار المحكمة بينما أحاط بها الجماهير ، وطلبوا من القاضى أن يرسل لاسـتدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع فأرسـل يستدعيهم فحضروا على عجل فتقدم ممثلو الشعب بواحد وعشرين مطلبا كان من أهمها :

١ ـ عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة ووجوب جلائها الى الجيزة .

٢ ـ عدم السماح لأى جندى أن يدخل القاهرة حاملا سلاحه معه .

٣ ـ الامتناع عن فرض أى ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان .

٤ ـ فك الحصار ، الذى فرضه المماليك على القاهرة واعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبـلى .

وقد أطلق الفرنسيون والانجليز المعاصرون لهذا الحادث على هذه المطالب بأنها « وثيقة الحقوق » .

وقد رفض خورشيد باشا الاستجابة لهذه المطالب ، واذ كان يعرف أن السيد عمر مكرم هو روح هذه الثورة الشعبية وموجهها فقد عمل على قتله فأرسل اليـه

يستدعيه بحجة التشاور معه ، ولكن عمر مكرم فطن لما يحاك له وامتنع عن الذهاب لمقابلتـــه .

الشعب يعزل خورشيد باشا :

وفى اليوم التالى (الاثنين ١٣ صفر / ١٣ مايو) عادت الجماهير الى احتشادها بأقوى من اليوم السابق حول المحكمة ، واتفقت كلمة نواب الشعب على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على ، وكان السيد عمر مكرم هو روح هذا القرار وصاحبه .

وحمل الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم لمحمد على فتساءل محمد على :

— ومن تريدونه واليـــا . ؟

— لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير .

وتظـــاهر محمد على بأنه يقبـــل ما يعرض عليـــه مضطرا ومكرها تحت ضغط الشعب . وأسرع الشرقاوى وعمر مكرم فألبساه خلعة الولاية .

خورشيد باشا يرفض قرار الشعب :

واستنكر خورشيد باشا أن يعزله (الفلاحون) وهو الذى قد عين بأمر السلطان ، واعتصم بالقلعة وقد أحاط به جنود الانكشارية ، وطائفة من الأرناؤوط الذين كانوا ينفسون على محمد على ما وصل اليه من سلطان . وأرسل يستدعى جيشا كان قد أرسله الى الصعيد برئاســة على باشا السلحدار ، كما أرسل الى المماليك يتفاوض معهم أن يهبوا لانقاذه والتعاون معه على القضاء على محمد على .

ولم يكن لمحمد على والشعب من رد على ذلك كله الا انهم فرضوا الحصـــار على خورشيد باشا ومن معه فى القلعة للحيلولة دون وصول الأقوات اليهم . وتجلت همة عمر مكرم فى تعبئة الشعب لحمل الســـلاح ، واقامة الاستحكامات ، والســـهر خلف المتـــاريس .

عمر مكرم يؤسس نظرية الحكم الاسلامى :

وقد حاول خورشيد باشا أن يخذل الناس من حول محمد على باستخدام سلاح الدين ، فبعث بمندوب من لدنه يدعى عمر بك يناقش القضية على اســـاس فتولى عمر مكرم الرد عليه :

عمر بك : كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .

عمـــر مكرم : ألا فلتعلم أن أولى الأمر هم العلمـــاء وحمـــلة الشريعة والســـلطان العادل . وهذا الحاكم الذى أرســـلكم ما هو الا رجل ظالم خارج على قانون البـــلاد وشريعتها فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء الســـيرة ولم يرض النـــاس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البـــلاد منذ الأزمان القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان نفسه أو الخليفة اذا سار فى الناس سيرة الجـــور والظلم كان لهم عزله وخلعه .

عمر بك : وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج والكفرة .

عمر مكرم : اننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق وثرتم على القانون — وقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم .

عمر بك : ان هذا القاضى كافر .

عمر مكرم : اذا كان قاضيكم كافر فكيف بكم وحاشاه الله من ذلك ، انه رجل شرع لا يحيل عن الحق .

السلطان يعزل خورشيد ويقر تولية محمد على :

وفى التاسع من يوليو سنة ١٨٠٥ عزل الباب العالى خورشيد باشا وولى محمد على اعترافا منه بالأمر الواقع « حيث قد رضيه العلماء والرعية » وذلك ابتداء من عشرين ربيع أول ١٢٢٠ — ١٨ مايو ١٨٠٥ م ولكن خورشيد باشا ابى أن ينصاع لهذا الخطاب الذى حمله أحد الأغوات من اسطنبول والذى بعث اليه المشايخ والعلماء بصورته وكان جوابه : أنا متولى بخطوط شريفة ، واوامر منيعة ، ولا أنعزل بورقة مثل هذه .

وظل على تحديه مرابطا بالقلعة ، والشعب من ناحيته يفرض الحصار عليه . وكان على رأس قوات الشعب المحاصره حجاج الخضرى وابن شمعه شيخ الجزارين الذين أبلوا بلاء سجله لهم التاريخ .

تحرج موقف محمد على :

وقد جاءت لحظة تحرج فيها مركز محمد على وبدا الموقف كما لو كان يوشك أن يتداعى ، عندما انقلب الجند المؤيد لمحمد على على الشعب ووقع بينهم الاصطدام ، وانتهى الأمر بانسحاب الجيش من عملية الحصار .. ثم تفاقم الأمر سوءا بحصول الخلاف بين صفوف زعماء الشعب نفسه حيث قرر الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وطائفة من المشايخ أن لا دخل للشعب بحمل السلاح وعزل الولاة وتعيينهم ، وأنه ما دام الباب العالى قد عين محمد على ، فان مهمته هو تنفيذ ذلك بوسائله .. على أن ذروة الأزمة كانت عندما وصل محمد بك الألفى بجيوشه الى مدينة القاهرة ، ولو انه دخلها لانقلب الميزان ضد محمد على ، ولكن السيد عمر مكرم انقذ الموقف باقناعه محمد بك الألفى بأن هذه الحركة التى يقوم بها الشعب فى صالح المماليك ، لانه اذا تم اقصاء الوالى التركى ، فقد انفتح الباب امام المماليك . وانخدع محمد بك الألفى بهذا القول ، وترك دخول القاهرة ومضى نحو الشمال ، بينما استأنف القاهريون حصارهم حول القلعة .

الدولة العثمانية تؤكد خلع خورشيد باشا :

ورأت الدولة العثمانية أخيرا أن تحسم الموقف الذى طال وتعقد . وكان المهم الذى أصبح يشغلها هو استشراء الدعوة الوهابية فى جزيرة العرب التى خلعت سلطان العثمانيين واستولت على مكة والمدينة ، كما أفزع الباب العالى من ناحية

أخرى أن يؤدى استمرار هذا النزاع الى عودة المماليك الى احتلال القاهرة ، فأرسلت قائد اسطولها قبطان باشا وخولته سلطة واسعة لانهاء الموقف بأى ثمن ــ فبعث قبطان باشا سلحداره الى خورشيد باشا يأمره بالنزول فورا من القلعة والسفر الى الاسكندرية . واقرار محمد على على ولاية مصر على أن يعد جيشا يسافر الى الحجاز فورا لمحاربة الوهابيين .

وفى الحادى عشر من أغسطس غادر أحمد خورشيد باشا القاهرة عن طريق بولاق الى اسطنبول ، مخليا الطريق نهائيا أمام محمد على الذى ارتفع الى ذروة السلطة بارادة الشعب المصرى . وفى ذلك يقول دروفتى قنصل فرنسا فى مصر الذى كان يراقب هذه الحوادث : « لقد ذكرتنى بأيام الثورة الفرنسية المجيدة » .

محمد على يوقع بالمماليك :

لم يكد محمد على يتنفس الصعداء بجلاء خورشيد عن مصر واستيلائه على القلعة حتى كان عليه أن يواجه المماليك الذين كانوا يحاصرون القاهرة منذ أمد بعيد ويستعدون لاقتحامها منتهزين فرصة الاحتفال بوفاء النيل فى العشرين من جمادى الأول ١٦ أغسطس ، ولكن هذا التدبير وصل الى مسامع محمد على ، بل هناك من يقول أنه هو الذى أدخل هذه الفكرة الى أذهان المماليك ليوقع بهم ، فدس عليهم من يعدهم بترك أبواب المدينة مفتوحة ، فى الوقت الذى كسر فيه محمد على السد فى الليل بدون احتفال ووقف بجنوده يترصد مجىء المماليك . ووقع المماليك فى الفخ ، اذ دخلوا فى صباح اليوم المعين الى القاهرة تتقدمهم طبولهم وزمورهم ، وتزيد عدتهم على الألف مملوك وتشعبوا الى فرقتين وقصدوا أول ما قصدوا بيت السيد عمر مكرم ، فلم يجدوه به أو لعله كان قد امتنع عن لقائهم ، ثم توجهوا الى بيت الشرقاوى ثم لحق بهم عمر مكرم ، الذى خوفهم من عاقبة ما فعلوا وطلب منهم العودة من حيث أتوا ، وفى الوقت الذى عادت فيه هذه الفرقة أدراجها ، ونجت بذلك ، كانت فرقة أخرى ، قد أحيط بها فى شوارع المدينة وقد انهال عليهم الرصاص من كل جانب ، فهرب عدد منهم متفرقين فى الأزقة وتسلقوا الأسوار ، بينما انحاز الفريق الأكبر الى جامع برقوق ، فحوصروا بالمسجد وقبض عليهم ثم قطعت رؤوس خمسين منهم ، كما سيق خمسون آخرون مكشوفى الراس حفاة الأقدام موثوقى الأيدى وهم يضربون ويصفعون على أقفيتهم ، وسيقوا الى محمد على .. الذى اصدر أمره بقطع رؤوسهم .

يقول الجبرتى : ولم يتفق للأمراء المصرية أقبح ولا اشنع من هذه الحادثة ، وربط الله على قلوبهم واعمى أبصارهم وغل أيديهم .وتنفس محمد على الصعداء .

١٨٠٦ م ــ ١٢٢١ هـ ــ الباب العالى يعزل محمد على باشا :

لم يكف الانجليز عن تحريض الباب العالى ضد محمد على وكان قنصلهم مسيت فى مصر يمثل التآمر المستمر ، وقد كللت جهود الانجليز بالنجاح فصدر قرار جديد من الباب العالى بنقل محمد على من ولاية مصر الى ولاية سلانيك ، وتعيين موسى

باشا واليا لمصر ، على أن يعود النظام القديم الى مصر فيتولى المماليك ادارتها وجباية أموالها ، وأن يكون محمد الألفى هو شيخ البلد والذى تعهد ان يقدم على الفور ألف وخمسمائة كيس كعربون (٧٥٠ الف قرش) لهذه الصفقة .

ووصل الى مصر أسطول عثمانى برئاسة صالح باشا قبطان وفى معيته بعض رجال الانجليز للاشراف على تنفيذ هذه الترتيبات .

ولم تكد مراكب الأسطول ترسو فى الاسكندرية ، حتى جرى الاتصال بمحمد الألفى الذى زحف بجيشه الى مدينة دمنهور وقرر الاستيلاء عليها لتكون قاعدة لاتصاله بالعثمانيين والانجليز ، والزحف منها على القاهرة لاكراه محمد على على الاستسلام .

وتلقى محمد على هذه الأوامر الجديدة ، بأسلوبه المعتاد ، وهو التظاهر بالرضاء والانصياع والعمل من وراء ستار لاحباط الكيد الجديد عن طريق الجند الذين اصبحوا طوع اليه من بنانه ، وعن طريق الشعب الذى كان يرى فى ولايته واستمرارها مظهر ارادته . ولذلك فقد كتب العلماء وعلى رأسهم عمر مكرم عريضة لقبطان باشا يتنصلون فيه من كفالة المماليك التى جعلها الباب العالى شرطا لاعادة المماليك الى السلطة ، وفى الوقت الذى تجاهر فيه الجنود باستعدادهم للحرب ، وهنا فقط كشف محمد على على عزمه على عدم تنفيذ الأمر الصادر له .

الألفى يحاصر دمنهور :

واذ عرف الألفى أن لا مناص من القوة لاكراه محمد على ، فقد قرر الاستيلاء على مدينة دمنهور حسب برنامجه الموضوع لتكون قاعدة للحرب ، فاذا به يفاجأ بالمدينة ستقضى عليه وترفض التسليم ، ففرض عليها الحصار ، ولكن المدينة ومن فيها من المدافعين ، وقفت فى وجه الحصار صامدة ، يزكى مقاومتها السيد عمر مكرم الذى كان يعتبر زعيما للمدينة .

موقعة النخيلة :

وخشى محمد على من سقوط دمنهور فى يد الألفى ، فبعث بجيش لرفع الحصار عنها ، ولم يكد الألفى يتسامع بقرب وصول هذا الجيش اليه حتى رفع الحصار عن المدينة وأسرع لمواجهته . وتمت المواجهة عند بلدة النخيلة ، وانتصر الألفى على الجيش الذى بعث به اليه محمد على ، وتصور بهذا الانتصار أنه قد ربح القضية نهائيا ، وقد أثبت للعثمانيين والانجليز قوته وضعف محمد على . ولكنه فوجىء للمرة الثانية ، بمدينة دمنهور تأبى الاستسلام حتى بعد انتصاره على جيش محمد على وترفض أن تفتح له أبوابها ، فعاد الى حصارها .

على أن انقضاء الوقت دون أن يتمكن الألفى من الاستيلاء على مدينة دمنهور ، ودون أن ينجح المماليك فى توحيد صفوفهم والزحف من الصعيد لاحتلال القاهرة ، بل ودون نجاحهم فى تقديم المبلغ المقرر تقديمه وهو الألف وخمسمائة كيس ، كل ذلك بدأ يضعف قضيتهم ، فى الوقت الذى كان فيه محمد على من ناحيته يعمل

على رشو صالح باشا قبطان ، ويواصل ارسال مبعوثين الى الباب العالى لرشـو رجاله ، وواعدا اذا أقره الباب العالى على ولاية مصر أن يضاعف الجزية السنوية فتصبح اربعة آلاف كيس على أن يقدم ابنه ابراهيم رهينة لتنفيذ هذا العهد .

ونجح محمد عـلى وفشل الألفى والمماليك وفشلت مؤامرة انجلترا وأرسل الباب العالى تعليمات جديدة الى صالح باشا قبطان يخوله حرية التصرف . وتصرف صالح باشا قبطان بما فيه مصلحته بعد أن قبض الكثير من محمـد على ــ وأقلع بالأسطول فى الخامس من شعبان سنة ١٢٢١ الموافق ١٨ اكتوبر ١٨٠٦ عائدا الى اسطنبول مصطحبا معه موسى باشا الوالى الذى لم يتول السلطة يوما واحـدا . ومصطحبا معه كذلك ابراهيم بك ابن محمد على كرهينة على تنفيذ العهد .

موت البرديسى والألفى :

كان نجاح محمد على فى اجتياز اكبر أزمة لحقته حتى الآن ، بمساعدة الشعب المصرى مرة أخرى ، ايذانا بتدهور سلطة المماليك وارتفاع هيبة محمد على . واذ عجز الألفى عن احتلال دمنهور ، وطال الحصـــار بصورة غير متوقعة وحل على المحاصرين فصل الشتاء ، وطلب المماليك من الألفى أن يعودوا الى الصعيد فى الوقت الذى هدده الاعراب الذين كانوا يؤلفون الجـزء الأكبر من جيشـه بالانفضـاض من حوله . فاضطر للانسحاب بجيشه نحو الصعيد ، ومر فى أثناء انسحابه على مدينة القاهرة ، حيث وقف محمد على يراقبه فى انسحابه وقد اذهله نظام جيشه وما به من معدات ، وعبثا حاول أن يحرض جيشه المحيط به على الانقضاض على الألفى . وكان ذلك آخر العهد به ، وآخر العهد بمنافسـه الآخـر عثمان البرديسى . ففى الثامن من رمضان من هذه السنة (١٩ نوفمبر) مات عثمان البرديسى ودفنه أتباعه فى الصعيد وأمروا عليهم شاهين الدادى الذى كان خصما لدودا للألفى . وفى التاسع عشر من ذى القعدة لحق الألفى بالبرديسى .

ويعلق الجبرتى على ذلك بقوله : وقد عد موت الألفى من تمام سعد محمد على باشا الدنيوى حيث أنه قال فى مجلس خاصته « الآن ملكت مصر » .

ولم يضيع محمد على وقتا ، ورأى أن يضرب المماليك وهم يترنحون تحت تأثير ذهاب زعيميهما ، فخرج بنفسه على رأس جيش كبير لمطاردة المماليك فى الصعيد ، ولكنه كعادته جعل سلاحه الأكبر استعمال السياسة والدهاء للتفريق بين صفوفهم ، بدعوة البعض منهم للتصالح واعطائهم كل ما يطمعون اليه من مديريات الصعيد . وقد احتل فى زحفه مدينة المنيا ، ثم وصل الى مدينة أسيوط فاحتلها وفى أسيوط وصلته اتعس انباء كان يمكن أن تصل اليه ، الا وهو وصول حملة انجليزية الى مصر واحتلالها مدينة الاسكندرية .

١٨٠٧ م ــ ١٢٢٢ هـ ــ حملة فريزر الانجليزية على مصر :

كان انسحاب قبطان باشا فى العام السابق وتثبيت محمد على فى ولاية مصر ضربة لخطط الانجليز ، ولكنهم كدأبهم لا يرجعون عن انفاذ خططهم المرسومة وهى ضرورة

السيطرة على مصر حتى لا تقع مرة ثانية فى أيدى الفرنسيين . أو أيدى غيرهم من اعداء الانجليز . فلم تكد التطورات السياسية والحربية فى أوربا تؤدى الى قطع العلاقات بين انجلترا والباب العالى حتى وجدوا ان ذلك السبب الأوقات لتنفيذ خطتهم التى رسموها منذ سنوات مع الألفى ، وهو ارسال حملة انجليزية الى الاسكندرية تكون اشارة للمماليك لكى يثوروا ويتولوا مقاليد الحكم فى البلاد. ووصلت الحملة الانجليزية فى أوائل شهر مارس ١٨٠٧ ولم تكد القوة التى قررت انجلترا ايفادها لاحتلال الاسكندرية لا تتجاوز ستة آلاف جندى من المشاة ، وهو رقم صغير جدا قاطع الدلالة فى أنهم كانوا يعتمدون فى الدرجة الأولى على انضمام المماليك اليهم وهم فرسان الوغى .

وكان من سوء حظ الانجليز أن الحملة لم تصل الا بعد ان مات الألفى حليف الانجليز الأكبر ، ولكن علم الانجليز بهذه الحقيقة لم يحملهم على التراجع عن انفاذ الخطة الموضوعة ، فقد كان ميسيت قنصلهم فى مصر يؤكد لهم أن الحملة لا تكاد تصل الى مصر ، حتى تهب مصر كلها مماليكا وشعبا وجنودا للثورة ضد محمد على والانضمام الى الانجليز .

استيلاء الانجليز على الاسكندرية :

وقد تحققت تقديرات القنصل ميسيت فى احتلال مدينة الاسكندرية ، فقد سلما والى المدينة التركى أمين أغا بدون قتال الى الانجليز بالاتفاق مع القنصل الذى كان قد رشاه ، وسلم نفسه أسير حرب ، كما قابل الشعب الاحتلال الانجليزى بهدوء ، فقد رضى به زعيم المدينة الشعبى الشيخ محمد المسيرى . وهكذا دخل الانجليز الى الاسكندرية فى ليلة ٢١ مارس دون ان تطلق رصاصة واحدة . وكانت الاشاعات قد روجت فى القاهرة على ما ذكره الجبرتى ان المدينة قد قاومت ، ولكن الجبرتى عاد بعد ذلك الى تسجيل الحقيقة التى روتها المصادر الانجليزية من أنه لم يقع قتال من أى نوع كان .

الارتباك والذعر فى القاهرة :

وصلت انباء احتلال الانجليز لمدينة الاسكندرية ، ومحمد على غائب فى الصعيد . وللانجليز فى مصر رصيد كبير من الهيبة ، فأسطولهم سيد البحار الذى حطم الاسطول الفرنسى فى أبى قير فى ساعات ، وجيشهم هو الذى أجلى الجيش الفرنسى عن مصر ، فلا عجب اذا ارتج على الشعب المصرى عند سماعه الأنباء الأولى ، وهذا يفسر فترة البرود والتخوف والحذر ، التى يصفها قنصل فرنسا دروفيتى الذى وصل الى القاهرة بمجرد احتلال الانجليز للاسكندرية ، ويؤيد أقواله ، سكوت الجبرتى عن أى حديث عن اجراءات المقاومة الشعبية . على أن هذه الصورة سرعان ما انقلبت رأسا على عقب ، بمجرد أن تسامع القاهريون بهزيمة الانجليز فى رشيد ، ووصول بعض رؤوسهم المقطوعة واسراهم .

هزيمة الانجليز فى رشيد :

لم يكن فى خطط الانجليز احتلال اى جزء من القطر المصرى خلاف مدينة الاسكندرية ولكن ميسيت القنصل الانجليزى صاحب التخطيط لاحتلال الانجليز لمصر ، أقنع الجنرال فريزر قائد الحملة الانجليزية ، بوجوب الاستيلاء على مدينة رشيد لتأمين تموين مدينة الاسكندرية ولسهولة الاتصال بالمماليك عن طريق الدلتا .

وقد استجاب فريزر لمشورة ميسيت فقد كانت التعليمات المعطاة له أن يستمع لنصائحه ، وأرسل ألف وخمسمائة جندى وعلى رأسهم الجنرال ويكوب لاحتلال رشيد .

وقد انتهت هذه الحملة بكارثة ، فقد دخل الانجليز المدينة بدون مقاومة حتى اذا احتوتهم شوارعها ، انهال عليهم الرصاص من كل جانب فقتل منهم الكثيرون وكان من بين الذين قتلوا الجنرال ويكوب نفسه ، وأسرع نائب الحملة فأصدر أمره بالانسحاب على عجل من المدينة ، بعد أن فقد الانجليز ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحا ووقع فى الأسر ١٢٠ أسيرا .

اندلاع روح المقاومة :

وكان لهذا الانتصار فعل السحر فى نفوس المصريين حكاما ومحكومين ، فقد اندلعت روح المقاومة ضد الانجليز ، وسقط حاجز الخوف والتردد ، وحل محله الايمان بالمقاومة حتى النصر .

فيقول لنا الجبرتى وفى يوم ٢٦ محرم (وهو يوم وصول أسرى الانجليز وقتلاهم الى القاهرة) نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد ضد الانجليز . حتى مجاورى الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك القاء الدروس .

بينما يقول المسيو مانجان الفرنسى الذى كان معاصرا لهذه الحوادث فى القاهرة :
« وكان السيد عمر مكرم يذهب صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير الى حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات ، وكثيرا ما يبقى هناك النهار كله فى خيمة أعدت له . وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة فى نفوس الناس جميعا ، وقد بذل كل انسان ما فى وسعه لاقامة الاستحكامات » .

ولم يقف نشاط السيد عمر مكرم عند حدود القاهرة ، بل بعث لنائبه على رشيد وفى دمنهور وفى كل البلاد المواجهة للانجليز يدعوهم للجهاد والاستعداد وبذل النفس والنفيس من أجل دحر الانجليز . وشرع يجهز المتطوعين فى القاهرة لارسالهم الى رشيد التى كانت الأخبار قد جاءت بعودة الانجليز لحربها .

محمد على يعود الى القاهرة :

فوجىء محمد على بنبأ وصول الحملة الانجليزية واحتلالها لمدينة الاسكندرية وهو فى الصعيد كما قدمنا ، ولا بد أن يكون قلبه قد انخلع لهذه الأنباء ، فهو كان كبقية

المصريين والعثمانيين ، يقدر قوة الانجليز فى ذلك الوقت أكثر من قدرها ، ولكن الذى لا شــك فيه أن الروع لم يلبث أن ذهب عنه حتى قبل أن يسمع بهزيمة الانجليز فى رشيد ، وبدأ يخطط لمعركته المقبلة ضــد الانجليز ، فبدأ بايقاف الحرب فى الصعيد ضد المماليك ، وأرسل اليهم المشايخ وقاضى العسكر للتغاوض معهم على الصلح على اساس أن يترك لهم حكم الصعيد فى نظير دفع خراجه ، وأن يتضامنوا معه ضــد الانجليز ومن عجب أن المماليك استجابوا لهذا الصلح فى الظاهر تصورا منهم انهم لن يخسروا منه شــيئا ، بل سيكون بقدرتهم أن يزحفوا نحــو الشــمال ويحتلوا بلاد الصعيد تطبيقا للصلح ، على أن تظل اتصالاتهم بالانجليز جارية ، واستعدادهم للقضاء على محمد على بمساعدة الانجليز مستمرة جاعلين نقطة البدء وقوع مدينة رشيد بأيدى الانجليز الذين كانوا قد عادوا لحصارها . وكانت الفــائدة الوحيدة من هذا الصلح لمحمد على ، هو انه استطاع أن يعود الى القاهرة لمواجهة هذا الخطر الماحق .

هزيمة الانجليز فى معركة الحماد :

عاد محمد على الى القاهرة ليسمع انباء انتصار المصريين فى رشيد على الانجليز ، فقويت روحه المعنوية وازداد عزمه على النضال وشرع فى اعداد حملة أولى لمحاربة الانجليز .

وكان الانجليز قد عادوا لحصار مدينة رشيد ، ليرفعوا عن انفسهم العار الذى لحقهم فى هزيمتهم الأولى ، ولكن الدرس الأول جعلهم لا يغامرون باقتحام المدينة ، ففرضوا عليها حصارا وراحوا يقذفونها بمدافعهم ليل نهار ليجبروها على الاستسلام.

وعلى الرغم من أن القوة الانجليزية الجديدة كانت تقدر بأربعة آلاف مقاتل وعلى راسهم الجنرال ستيوارت ، فلم تستطع أن تحكم الحصــار على المدينة ، ولم تؤثر قنابل الانجليز فى معنويات السكان وتحملهم على الاستسلام .

وكان أمل الانجليز قد تجدد هذه المرة فى أن تأتى المماليك لنجدتهم ، ولكن اثنى عشر يوما انقضت منذ فرضوا حصارهم على رشيد دون أن يظهر للمماليك أثر ، وبدلا من المماليك ظهر جيش محمد على المؤلف من أربعة آلاف مقاتل ، أمام بلدة الحماد حيث كان الجنرال ستيوارت قد احتلها بجزء من قوته تقدر بثمانمائة جندى . وقد ابيدت هذه القوة عن آخرها ما بين أسير وقتيل (٤١٦ قتيل و ٤٠٠ جريح) وقد حدثت هذه الكارثة ، فى الوقت الذى كانت فيه بقية الجيش الانجليزى المحاصرة لرشيد قد قررت الانسحاب بمجرد يأسها من وصول المماليك لنجدتها وعلمها بقدوم هذه القوة المحاربة ، ولم تكد القوة تشرع فى الانسحاب حتى لاحقهم أهل رشيــد يناوشونهم ويهددون عملية الانســـحاب . بحيث لم ينجح الانجليز فى العود الى الاسكندرية الا بشق الأنفس .

وكانت هذه الهزيمة الثانية اعنف من الهزيمة الأولى وأسقط فى يد الجنرال فريزر الذى كان قد خسر فى محاولة احتلال رشيد ثلث قوته المحدودة ، وأصبحت البقية لا تكفى بنفسها لاستمرار احتلال الاسكندرية ، والشعب الذى قيل عنه أن الحملة

لا تكاد تضع قدمها فى مصر ، حتى يهب لملاقاتها ، قد تصدى لمقاومتها بكل هذا العنف فى مدينة رشيد .. والمماليك الذين قيل له أنهم القوة الوحيدة الحقيقية فى البلاد ، وانهم سيكونون مددا للحملة قد خذلوها هذا الخذلان المبين .

ولذلك فلا عجب اذا أرسل الجنرال فريزر يطلب من بلاده نجدات جديدة تصله على عجل ليدفع عن بقية ما لديه من جند فى الاسكندرية أصبحوا هم انفسهم مهددين بالابادة .

انجلترا تقرر الانسحاب :

ولكن انجلترا لم تكن فى حالة تسمح لها بفتح جبهة حرب كبيرة فى مصر ، فقد كان الموقف العسكرى فى أوروبا قد تطور تحت تأثير انتصارات نابليون الذى أصبح سيد القارة الأوربية ، بحيث تحرج مركز انجلترا فى جزيرة صقلية ، وأصبحت فى حاجة لجنودها القليلة فى الاسكندرية لتعزيز حامية صقلية ولذلك فقد قررت الانسحاب من مصر ، وأرسلت تعاليمها للجنرال فريزر أن يتفاوض مع محمد على على شروط الجلاء عن مصر ، وكانت هذه المفاوضات قد بدأت بالفعل . وقد تم الاتفاق على أن يجلو الانجليز عن الاسكندرية ويسلموها لمحمد على فى مقابل استرداد أسراهم واصدر عفو عام عن أهل مدينة الاسكندرية وعدم محاسبتهم على التعاون مع الانجليز ، وابقاء مندوب للانجليز فى الاسكندرية بعد جلائهم لتسوية حالة الاسرى الذين كانوا قد وقعوا فى رق بعض الأفراد ، بشرائهم منهم وتسفيرهم الى انجلترا .

وقد تم توقيع معاهدة الجلاء فى معسكر محمد على بمدينة دمنهور فى الحادى عشر من رجب الموافق ٢٤ سبتمبر ١٨٠٧ م وتمت عملية الجلاء بالفعل فى التاسع عشر من سبتمبر أى بعد خمسة أيام من توقيع المعاهدة .

مفاوضات محمد على مع الانجليز حول الاستقلال :

وقد أظهر هذا الحادث ، حادث محاولة احتلال الانجليز لمصر ثم فشلهم وجلائهم عنها . مدى ما ينطوى عليه محمد على من دهاء وبعد نظر ، فلم يفش بصره هذا الانتصار على انجلترا فيجعله يهون من أمرها ، بل لقد انتهز هذه الفرصة لكى يحسن علاقاته مع الانجليز ، فأحسن معاملة أسراهم الى الحد الذى جعل ألسنتهم تلهج بالمدح والثناء ، وعرض على الجنرال فريزر استعداده لتقديم خدماته لانجلترا واسطولها فى البحر الأبيض وتجارتها اذا هى ساعدته على تحقيق أمله فى الاستقلال بمصر داخليا ، على نمط ايالات طرابلس وتونس والجزائر حيث كان يحكم كل من هذه الأقطار الثلاثة حاكم مستقل (داى أو باى) ينتقل الحكم من بعده الى ورثته ، فى مقابل الاعتراف بالسيادة للعثمانيين ودفع جزية سنوية .. واذا كان محمد على الذى كان منتصرا على انجلترا فى هذه الفترة ، لم يجد فى نفسه غضاضة فى أن يبدو سمحا وكريما مع الانجليز ، فان الانجليز وبخاصة الجنرال فريزر ، لم يكن فى حالة تسمح له بالذهاب الى هذا المدى مع محمد على ، وقد كانت مرارة الهزيمة فى

حلوقهم . فلم يعقدوا معه هذه المحالفة المنشودة . بل ازدادت مخاوفهم من هـذا الرجل الذى يزداد قوة يوما بعد يوم تقف حائلا فى وجه مطامعهم .

تدعم مركز محمد على :

كان من أبسط نتائج انتصار محمد على ، على الانجليز ، هو أنه دخل الى مدينة الاسكندرية لأول مرة فى حياته ، فقد كانت الإسكندرية حتى ذلك الوقت منفصلة فى حكمها عن باقى مصر وكان الباب العالى يعين لها واليا من طرفه ، فأصبحت بعـد جلاء الانجليز منها ودخول جند محمد على اليها داخلة فى سلطانه .

ولكن الأثر الأكبر لهذا الانتصار ، هو ما احدثه من دوى دولى فى أوربا ، اذ لفت الأنظار بقوة الى مصر وحاكمها الذى اســــتطاع أن يحبط محاولة من انجلترا لاحتلالها وكان الباب العالى على رأس الذين التهبوا حماسة بهـذا الانتصار على الانجليز . ولذلك فقد سارع السلطان بتهنئة محمد على وارسل الخلع الثمينـة اليه تعبيرا عن رضائه وحفاوته ، وزاد على ذلك للتعبير عن هذا الرضا ، بأن بعث ابراهيم بك ابن محمد على الى أبيه وهو الذى كان رهينة فى يده . ونستطيع أن نتصور حسرة المماليك الذين أضاعوا للمرة الثانية فرصتهم الذهبية فى التخلص من محمد على . والحق ان المماليك ككل طبقة تخلفت عن عصرها ، كانت تسرع نحو حفر قبرها بيدها عن طريق الانقسامات والخلافات والانكباب على الشهوات والملذات .

١٨٠٨ م ــ ١٢٢٣ هـ ــ جلوس السلطان محمود الثانى على العرش :

بينما كانت الأحداث فى مصر تتوالى ، بما ايمكن لمحمد على من الاستقرار فى مصر، وازدياد سلطانه ، وتدعيم بنيانه ، كانت الأحداث فى تركيا تعمل على تقويض أركانها وتفكيك أوصال امبراطوريتها . وكان السلطان سليم الثالث قد حاول اعادة القوة العسكرية للدولة العثمانية بانشاء جيش حديث يستخدم النظم الحديثة والأسلحة الأوربية الحديثة التى مكنت لروسيا وبقية جيوش أوربا من الانتصار على الجنود العثمانيين ولكن جنود الانكشارية غضبوا لهذه المحاولة ، واستصدروا أمرا من المفتى بتكفير هذا العمل ، باعتباره تشبها بالكفار وخلع السلطان سليم الثالث بناء على هذه الفتوى فى الحادى والعشرين من ربيع الثانى ١٢٢٢ (٢٨ يونيو سنة ١٨٠٧) .

وقتل الانكشارية كل من تصوروا أنه عاون السلطان على المضى فى انفاذ مشروعه وبايعوا السلطان مصطفى خان الرابع ابن السلطان عبد الحميد الأول ، سلطانا على الدولة العثمانية .

ولكن بعض القادة العثمانيين وجيوشهم تعصبت للسلطان سليم وزحفت عـلى اسطنبول لتعيده الى العرش ، فأسرع السلطان مصطفى وأمر بقتل السلطان سليم الثالث ليضعف من قوة الثوار ضده ، ولكن هذا العمل ضاعف فى هياجهم ، فعزلوه ثم قتلوه ، ورفعوا الى العرش أخاه محمود خان الثانى . والذى كان مقـدرا له أن يحاول بعث القوة فى أوصال الدولة العثمانية ، عن طريق القضاء على الانكشارية ،

والأخذ بالنظم الجديدة العصرية ، ومحاربة الحركات الاستقلالية في الدولة بكل شدة وعنف ، وضرب بعضها ببعض كلما أمكنه ذلك ، مما أدى في نهاية الأمر الى الاضرار بهذه الحركات التي كانت تؤلف نهضة وبعث في العالم الاسلامي ، والاضرار بالدولة العثمانية نفسها في خاتمة المطاف كما سنرى .

١٨٠٩ م ـ ١٢٢٤ هـ ـ محمد على يتنكر للشعب وقادته :

تم انتخاب محمد على لولاية مصر بتأييد الشعب وعلمائه وقادته وعلى رأسهم عمر مكرم كما رأينا ، ولم يكن تزلفه للعلماء واظهاره العطف على الشعب ، الا نوعا من الدهاء ، فهو كأى تركى حاكم في هذه الفترة لم يكن يعرف للشعب حقا ، بل ان كلمة الشعب بمعناها العصرى لم يكن لها وجود في قاموس اللغة العربية آنذاك ، وانما هم رعايا السلطان ، أو الخليفة أو الحاكم أيا كان . ولذلك فلا عجب وقد توطد مركز محمد على في حكم مصر ، ان بدأ يضيق بهذه المشاورة التي التزم بها في مطلع حكمه مع السيد عمر مكرم وبقية الشيوخ والعلماء . وكان قد بدأ مناوراته لاضعاف جبهة العلماء وفصلهم عن الشعب ، بأن أغدق عليهم العطايا والهبات من حصص التزام المماليك الذين قتلهم وزاد على ذلك فأعفاهم من الضرائب ، فأصبحوا بعض ورثة المماليك فيما كانوا عليه من عز وغنى وأمر ونهى وسلطان .

ولم يفت هذا التطور الخطير وما يؤدى اليه من اضعاف جبهة الشعب ، عين الجبرتى فقال في تاريخه العظيم مصورا كبار المشايخ من أمثال الشرقاوى والسادات والأمير !

وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء ، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان . وأجروا الحبس والتعزير والضرب وصار ديدنهم واجتماعاتهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات ، زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وخطوط النفس على الأشياء الواهنة .

رجل واحد من بين قادة الشعب وعلمائه ، لم يقع في اخطبوط محمد على وذلكم هو السيد عمر مكرم ، الذى ادرك انحراف محمد على ، وجنوحه المتزايد الى الاستبداد بالأمور ولما لم يكن بوسعه بمفرده التصدى لموجة محمد على العاتية فقد آثر الانسحاب والانطواء على نفسه ، ولكن الحوادث لم تلبث أن جذبته الى حلبة الصراع فيما يمكن أن يوصف بآخر محاولة للقيادة الشعبية في التمسك بحقها انها صاحبة الولاية على الحاكم .

محمد على يفرض ضريبة على الأراضى الموقوفة :

اما هذا الحادث الذى ادى الى المواجهة بين محمد على والسيد عمر مكرم فهو اقدام محمد على على فرض ضريبة على الاراضى الموقوفة وهى المعروفة باسم الرزق

الاحباسية المرصدة على المساجد والسبل والخيرات . وكذلك فرض ضريبـــة على الأوسية التى كانت ملكا خاصا للملتزمين ، والتى كانت معفاة من الضريبة أصلا .

وكان فرض هذه الضرائب الجديدة ، يصيب أول ما يصيب المشايخ والعلمـــاء باعتبارهم من بين كبار الملاك وجمهور المنتفعين بالأوقاف والمستحقين لها .

ولذلك فقد شجعوا موجـة التذمر العام ، وعمدوا الى الأسـلوب المألوف الذى اثبت فيما مضى فاعليته ، وهو ايقاف الدروس والاحتشاد بالجامع الأزهر ، وعندما أقدم العلماء والمشايخ على ذلك ، متناسين مؤقتـــا ما كان بينهم من خلافات ... ذكروا صاحبهم القديم صاحب السلطان والنفوذ على جماهير العامة وهو السيد عمر مكرم ، فبعثوا اليه يستقدمونه من بيتـه ويقلدونه زعامة الحركة . ولم يتردد عمر مكرم فى الاضطلاع بمسئوليته بعد أن أخذ العهد والميثاق على بقية المشايخ . أن يقفوا صفا واحـدا وأن لا يسمحوا لمنـاورات محمد على ان تفرق بينهم فأقسم الكل على ذلك ، ثم دبجوا عريضة ضمنوها اعتراضاتهم على هذه الضرائب الجـديدة ووقعوا عليهـا جميعـا .

ويخصص الجبرتى الصفحات الطويلة لتقصى تطورات هذه الأزمة يوما بعد يوم وساعة بعد أخرى ، وكيف استطاع محمد على بدهائه ان يمزق وحدة العلماء ، وأن يستدرجهم واحدا بعد آخر الى جانبه ، بالتظاهر انه سامع لهم ومطيع ، وبانقاص بعض الضرائب الى النصف ، وبانـــكار ان يكون قد فكـر فى فرض بعض الضرائب الأخرى ، وذلك بالاضافة الى التلويح لكل منهم على حدة بأنه موضع ثقتـه ومحـل رعايته ... ونجح محمد على فى خطته ، اذ انفض العلماء والمشايخ من حول السيد عمر مكرم فظهر بينهم بمظهر المعـاند والمستمرىء . ولكن السيد عمر مكرم صمد فى موقفه لا يتراجع ولا يكل أو يهن ، رافضا كل دعوة لمقابلة محمد على والاجتماع به مرددا انه :

لا يطلع اليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجهـا الا اذا أبطل هذه الأحدوثات وكان يقول : ان الناس يفهموننى معه ويزعمون انه لا يتجارى على شىء يفعله الا باتفـاقى معه ويكفى ما مضى ومهما تقادم يتزايد فى الظلم والجور .

واستخدم محمد على آخر سهم فى جعبتـــه وهو أن يسكت عمر مكرم بالمال ، فأرسل اليه يعلن استعداده أن يدفع له ثلثمائة كيس دفعة واحدة ، ويدفع له بعد ذلك ثلاثين كيسا كل شهر ما بقى حيا . ولكن عمر مكرم أعرض بأنفة عن هذا العرض وأصر على موقفه .

وعندما مضى عمر مكرم بعد ذلك فى تحـــديه لمحمد على فرفض أن يوقع على عريضة كانت مرسلة للباب العالى تتضمن كشف الحساب ووصف ما جاء فى العريضة بأنــه :

« كذب لا أصل له ، وان وجد من يحاسبه على ما أخـذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر » .

لم يطق محمد على السكوت على عمر مكرم وقرر ان يقصيه عن مناصبه وينفيه من القاهرة ، ولكنه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد ان قام بمناورة ليحرج فيها عمر مكرم امام الراى العام فنزل فى صباح يوم الاربعاء ٢٧ جمادى الثانى سنة ١٢٢٤ (١٩ أغسطس سنة ١٨٠٩) الى بيت ابنه ابراهيم فى الأزبكية ، وطلب القاضى والمشايخ وبعث فى طلب السيد عمر مكرم « للاحتكام الى القضاء » ولكن السيد عمر مكرم الذى يبدو انه كان مقتنعا انه يخوض معركة خاسرة ، رفض تلبية هذا الطلب واعتذر بمرضه ، فاستغل محمد على هذا الامتناع عن الاحتكام الى القضاء ، وأثبت عليه فى حضرة القاضى والمشايخ العصيان . وأصدر أمره تبعا لذلك بعزله عن نقابة الاشراف ، وعهد بها الى السيد محمد السادات الذى كان يتطاول اليها منذ أمر بعيد ، كما قضى بنفى عمر مكرم الى دمياط .

وحزنت مصر كلها على ما يقول الجبرتى لنفى عمر مكرم وخرجت لوداعه ، ولكنها لم تحرك يدا لنصرته فقد كان محمد على قد أصبح الحاكم المرهوب المطاع ، وكان بقية قادة الشعب من العلماء والمشايخ قد انقلبوا ضد عمر مكرم ، ولم يقفوا عند حد توزيع مناصبه ونظارات أوقافه عليهم ، بل لقد راحوا يدبجون العرائض تشنيعا عليه وقدحا فى حقه .

غافلين عن انهم اذ يهدمون عمر مكرم ، فانما يهدمون أنفسهم أو بالأحرى يهدمون زعامتهم الشعبية ، ولكن هذه الزعامة كانت قد ولت منذ زمن بعيد ، ولن يلبث محمد على أن ينكل بكل منهم على حدة .

عمر مكرم فى ميزان النقد :

ولقد أنصف عمر مكرم فى الآونة الأخيرة ، وصدر أكثر من كتاب لتخليد ذكراه ، واقيمت المساجد باسمه باعتباره زعيما شعبيا من صميم الشعب المصرى . ولكن الذين اشادوا به لم يستطيعوا أن يحبسوا انفسهم عن توجيه بعض الانتقادات اليه كتخليه عن الشعب عقب دخول الفرنسيين الى مصر ووصف موقفه الأخير بالعناد اكثر مما ينبغى .

ونحن من ناحيتنا مع اجلالنا للسيد عمر مكرم ، نلاحظ عليه انه لم يقدر مدى التطور العالمى فى مفهوم الحكم والدولة الجديدة وحاجتها الى مزيد من الضرائب للاضطلاع بمسئولياتها التى بدات تتشعب بطريقة منظمة .

ولكن أيا كانت الملاحظات والانتقادات ، فاننا لا نستطيع الا أن نخالف جملة وتفصيلا ، بل ونكر قول الدكتور محمد فؤاد شكرى عن السيد عمر مكرم من انه كان : نهازا للفرص ، يقيس سعيه فى خدمة اى عهد من العهود التى مرت به بمقدار النفع الذى يجنيه منه ، فهو صديق حميم للبكوات المماليك طالما بقيت السلطة فى أيديهم ، وهو لا يحجم عن الانفضاض من حولهم اذا تراءى له أن بوسعه أن يفيد من

أصحاب السلطان الجدد وهو لا يثبت على كل حال فى أوقات الملمات والشدة الا اذا تحتم عليه الثبات والصمود » (١) .

الحق أن هذه أحكام سريعة متلاحقة جائرة لا تثبت على النقد والمناقشة على ضوء الحقائق الثابتة . فليس هناك ما يعيب عمر مكرم أن يكون صديقا للمماليك فى شبابه ، وأن يكون رسولهم الى السلطات فى القاهرة . حتى اذا انكشف له من أمرهم ما انكشف بعد أن أصبح أحد قادة الشعب ، فقد انحاز الى جانب الشعب مؤثرا المصلحة العامة على الخاصة ، وهذه آية استقامته وليست آية انتهازيته . وعندما دخل الفرنسيون الى مصر رفض أن يتعاون معهم وغادر مصر كلها ، حتى لا يكون مضطرا الى مسايرتهم . وحتى بعد أن وقع فى يد نابليون فى مدينة يافا وأعاده الى مصر ، فلم يتعاون معهم ، وعندما واتته الفرصة قاد الثورة ضد الفرنسيين ثم غادر القاهرة بعد حبوط الثورة . وعندما وقف الى جوار محمد على ويوليه على مصر فقد كان يخاطر بنفسه من أجل تقرير مبدأ حق الشعب فى حكم نفسه . وعندما انحرف محمد على ، وقف له عمر مكرم هذه الوقفة التى رأيناها والتى يتهمه البعض فيها بأنه أسرف فى عناده فليس هناك ما هو أظلم وأبعد عن الحق أن يوصف رجل هذا تاريخه بأنه كان انتهازيا ، يقيس الأمور بما يعود عليه من النفع . الحق ان العالم الاسلامى الذى بدأ فى هذه الفترة من تاريخه يجيش بعوامل الحياة الكريمة والرغبة فى النهوض ، فأخرج من صفوفه صفوفا متعددة من القادة والزعماء ، قد قدم فى شخص عمر مكرم صورة باهرة للقيادة الشعبية التى تؤمن بحق جموع الشعب فى تقرير مصيرها .

وليس يعيب عمر مكرم أن كان سابقا لأوانه ، حيث كان العالم القديم (فيما عدا فرنسا وانجلترا) لا يزال جاهلا قوة الشعوب متنكرا لحقوقها فى حكم نفسها بنفسها وتقرير مصيرها .

١٨١١ م — ١٢٢٦ هـ — محمد على والمماليك :

لم يفتأ السلطان محمود منذ ولى العرش وهو يصدر أوامره لمحمد على أن يجرد حملة لارسالها الى الأراضى المقدسة ليستردها من الوهابيين ، حتى اذا استقر عزم محمد على على ارسال الحملة للأسباب التى سنشرحها فيما بعد ، واجهته مشكلة المماليك المزمنة ، فلم يكن يتصور كيف يجرد نفسه من قوته العسكرية بارسالها الى جزيرة العرب ، فى الوقت الذى يرابط فيه حوله الفان وخمسمائة من المماليك الذين يتربصون به الدوائر .

حقا لقد كان محمد على خلال السنوات الأخيرة قادرا ، أن يقلم أظافرهم وأن يهزمهم هزيمة منكرة عند البهنسا واللاهون وأجبر كبيرهم ابراهيم بك على الانسحاب

(١) مصر فى مطلع القرن التاسع عشر الجزء الثالث ص ١١٩٧ .

الى أسوان فى آخر الصعيد منهوكة قواهم منحلة عزائمهم . واستأمن الكثيرون منهم فرضوا أن يخضعوا له وينزلوا على حكمه وجاءوا الى القاهرة ، حيث اغدق عليهم . ولكن هل يأمن محمد على جانبهم بعد أن تخلو البلاد من جيشها ، أليس تاريخهم معه سلسلة من الغدر والخيانة ، فلا يكاد يعفو عنهم حتى ينقلبوا عليه اذا أتيحت لهم الفرصة . لا أن محمد على لا يمكن ان يأمن جانبهم أبدا ، واذا كان ارسال جيشه الى جزيرة العرب قد أصبح ضرورة لازمة .. فان القضاء النهائى على المماليك يجب أن يسبق ارسال هذا الجيش .

مذبحة المماليك :

ورسم محمد على خطته لقتل المماليك جملة بمهارته المعتادة وحدد لذلك يوم الجمعة السادس من المحرم (أول مارس) حيث يجرى الاحتفال بتقليد ابنه احمد طوسون خلعة القيادة على الجيش المسافر الى الأراضى المقدسة لحرب الوهابيين ، ودعى الأمراء والبكوات والكشاف من المماليك فيمن دعوا ، فاعتبروا ذلك علامة الرضا من محمد على ، ولم يتسرب الى رؤوسهم ذرة من الشك انه من المستطاع الاضرار بهم وهم وسط هذا الحشد العظيم فارتدوا أثمن ما عندهم من ملابس وامتطوا خير ما لديهم من الجياد وذهبوا صبيحة ذلك اليوم فيمن ذهب الى القاعة قبل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا .

وتلقى محمد على المماليك بالبشر والترحاب وشربوا القهوة فى حضرته ، ثم دعاهم الى السير فى موكب ابنه ، فلبوا الدعوة شاكرين . واخذ المماليك مكانهم فى الموكب الذى كانت مقدمته المؤلفة من جنود الانكشارية قد بدات السير — ولم يكد ركب المماليك يدخل الى الطريق الصخرى المنحدر والمؤدى الى باب الغرب حتى أغلق الباب فى وجوههم وفوجئوا بالرصاص ينطلق فى وجوههم من الحراس الذين كانوا محتشدين حول الباب ، وروعت المفاجأة المماليك الذين كانوا محصورين فوق جيادهم فى هذا الطريق الصخرى الضيق الذى لا يسمح لهم بالمناورة ، ولم يكونوا على علم بما حدث أو بيت لهم ... فحاولوا الرجوع القهقرى فاذا الرصاص ينهال عليهم من كل جانب من خلف ومن قدام ، ومن عل ، فقد كانت احدى فرق الجنود الالبان قد تسلقت الصخور المشرفة على الطريق وراحت تفتك بالمماليك ، ونعفى القارىء من التفاصيل الدامية الممعنة فى الوحشية والقسوة التى صاحبت هذه المجزرة التى ذبح فيها كل من دعى الى القلعة والتى لم ينج منها سوى مملوك واحد فقط وهو أمين بك الذى خلده التاريخ كرمز على مدى شمول هذه المذبحة الرهيبة .

وعندما سرى نبأ هذه المذبحة الى خارج القلعة ، أسرع الجنود الى تعميمها فى سائر أرجاء القاهرة ، فهجموا على بيوت المماليك ونهبوا ما فيها من أموال وأمتعة وذبحوا من عثروا عليه من المماليك فيها ، وامتدت عمليات النهب من بيوت المماليك الى البيوت المحيطة بهم ، واستمرت هذه الفتنة الرهيبة طول اليوم والليل ، ولو لم ينزل محمد على بنفسه وأولاده وكبار رجاله فى صبيحة اليوم التالى ليعيد الامن

والنظام ويصدر امره بقتل بعض النهابين ، لما علم الا الله ما اذا كان يصيب القاهرة من الأضرار على ما يقول الجبرتى .

وقد صدرت الأوامر للكشاف فى انحاء البلاد أن يقتلوا المماليك حيثما وجدوهم ، فنفذ هذا الأمر بكل دقة ، بحيث بلغ عدة من قتل من المماليك فى هذه المذبحة الرهيبة نحو الف من أمراء وكشاف وأجناد ومماليك .

الراى فى مذبحة القلعة :

ونحن اليوم لا نستطيع الا أن نستنكر كل أعمال العنف فضلا عن اشتمالها على الغدر والخيانة اذا كان ضحيتها انسان واحد ، فكيف عندما تصبح جماعة بهذه الصورة المنكرة . وليس يقلل من بشاعة هذه الجريمة ان سجل المماليك انفسهم سجل حافل بكل صنوف العنف والغدر والخيانة للصديق قبل العدو ، ولكن ذلك لا ينهض دفاعا عن محمد على ، لأنه فى هذه الحالة لا يعدو أن يكون واحدا منهم ومن طرازهم . ولذلك فان اقرب المقربين من الفرنسيين الى محمد على والذين اعجبوا به وتصدوا للدفاع عنه لم يستطيعوا أن يكتموا اعتراضهم على مسلكه فالمسيو مانجان صديق محمد على يستهل دفاعه عن هذا الحادث بقوله : اننى أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك أما المسيو جومار الذى اختاره محمد على ليكون مديرا لأول بعثة مدرسية مصرية فى فرنسا فيقول : لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية .

النظام الديمقراطى وحكم القانون :

والحق ان ليس هناك ما يمكن أن يقال لفهم مذبحة المماليك الا انها كانت شيئا يتفق مع روح العصر ، فنظام المذابح لعديد من الأغراض كان مألوفا فى طول أوربا وعرضها : ومذبحة سانت بارتملى حيث ذبح الكاثوليك البروتستانت فى فرنسا أشهر من أن تعرف . بل ان المذابح التى جرت باسم الثورة الفرنسية كانت مما يندى له جبين البشرية ، وقد رأينا كيف قتل نابليون بهرم بارد أربعة آلاف أسير استسلموا له طواعية ، ولن يلبث السلطان محمود الثانى ، أن يقلد محمد على فيجرى مذبحة مماثلة ليقضى بها على جنود الانكشارية .

ولقد هنأ الباب العالى محمد على على هذه المذبحة التى كان يتمناها منذ أن تعين ، واعلنت سفراء انجلترا أن محمد على كان ينفذ أوامرها . بل أن دروفنى قنصل فرنسا فى مصر ذكر لحكومته أن الانجليز يتباهون بأنهم هم الذين أوعزوا لمحمد على بابادة المماليك ، وان محمد على نجح فيما فشل نابليون فى تحقيقة .

فالمذابح فى مطلع القرن التاسع عشر كانت مما تسيغه روح العصر ، وليس الا ما هب على العالم بعد ذلك . من نظم ديمقراطية ودعوة الى سيادة القانون ، وتقديس لحقوق الانسان هذه الحقوق التى قدستها جميع الأديان ، وخاصة الاسلام ، ما جعل الضمير العالمى ينكر أمثال هذه المجازر .

والحق أنه لا بديل من سيادة القانون ، الا التردى فى هاوية أمثـــال هـــذه المذبحة .

الزعيم محمد فريد ومذبحة المماليك :

وقد أدهشنى أن أجد قولا انفرد به الزعيم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى الشهير ، حيث قال فى كتابه تاريخ الدولة العلية معلقا على هذه المذبحة : ولو لم يكن لمحمد على باشا من الأيادى البيضاء على مصر سوى تخليصها من شر المماليك لكفى ذلك لتخليد ذكره وتمجيد اسمه (ص ٢٠٤) .

وهو قول ما نظن أن محمد على نفسه يذهب اليه ، فلا يمكن أن يعد مذبحة المماليك من أمجاده فضلا عن أن تكون رأس هذه الأمجاد .

الأثر المباشر لمذبحة المماليك :

كان لمذبحة المماليك أثر مباشر فى حياة محمد على فقد استطاع أن يوفد وهو مطمئن هذه الحملة التى طال ارتقابها لمحاربة الوهابيين .

كما خلص له حكم الصعيد الذى طالمـــا استبد المماليك بحكمه وخلصت له موارده التى كان فى أمس الحاجة اليها .

وانسحبت شراذم المماليك الباقية الى بلاد النوبة واستقرت فى دنقلة ، حيث لن يلبث ابراهيم بك الكبير أن يموت بها شريدا طريدا .

١٨١٣ م ــ ١٢٢٨ هـ ــ استيلاء طوسون على الحجاز :

فى يوم الثلاثاء ٧ صفر من هذه السنة (٩ فبراير) وردت البشائر على ما يقول الجبرتى من البلاد الحجازية باستيلاء العســـاكر على جدة ومكة من غير حرب ، فضربت المدافع احتفالا بهذا النصر ، ونودى فى صبح ذلك بزينة المدينة ومصر وبولاق فزينت خمسة أيام أولها الأربعاء وآخرها الأحد .

وبذلك النبأ كانت المرحلة الأولى من الحرب الوهابية التى بدأت بعد مذبحة القلعة عام ١٨١١ قد كللت بالنجاح .

الحركة الوهابية :

والوهابيون ينتسبون الى محمد بن عبد الوهاب الذى ولد كما أشرنا من قبـــل فى عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) فى مدينة العينية وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضى البلدة قد نشأ ابنه محمد وقرأ القرآن على يده وحج الى بيت الله الحرام وهو فى سن الشباب ، ثم عاد الى بلده واشتغل بدراســـة الفقه على مذهب الامام أحمـــد ابن حنبل ، وكان حاد الفهم شديد الذكاء سريع الادراك والحفظ قوى الرغبـــة فى العلم وادرك على الفور ما تردت فيه البادية فى أيامه من همجيـــة وردة عن دين الاســـلام وبدأت نفسه تجيش بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هـــذا الحال ، واعادة الاسلام الى منابعه الأولى وبساطته وفطرته متأثرا فى ذلك بالامام ابن تيمية .

فدعا الى التوحيد الاسلامى فى نصاعته وصرامته ، فقوله لا اله الا الله نفى واثبات (فلا اله) تنفى جميع المعبودات و (الا الله) تثبت العبادة لله وحده لا شريك له . وانتهى بأن الف كتابا فى التوحيد ، ورأى ضرورة تخليص الدين مما شابه من البدع وطرح كل ما لم يرد فى الكتاب والسنة من الأحكام والتعاليم . وأصبح من أخص خصائص التعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير وشرب الدخان والتنباك ، وتحريم اقامة المزارات والقباب فوق القبور واعتبروا ذلك كله من مظاهر الشرك ودعوا الى هدم القباب .

وقد وجد محمد بن عبد الوهاب فى أمين الدرعية محمد بن سعود حليفا وضع سيفه وسلطانه لنصرة المبادىء الوهابية وأصبحت الدرعية مركز هذه الدعوة ، ودعينت القبائل المجاورة الى الأخذ بالمبادىء الوهابية ، أو الحرب . ومات الأمير محمد عام (١٦٥ م) وخلفه ابنه عبد العزيز بن سعود ، وكان أشد حماسة للدعوة من أبيه ، فازدادت الدعوى انتشارا فى عهده حتى جاوزت بلاد نجد الى أطراف العراق وانحاء الحجاز ، فى سنة ١٢٠٦ هـ (١٩٢ م) مات محمد بن عبد الوهاب ، بعد أن قويت دعوته .

وفى عام (١٨٠١ م) زحفت جيش عبد العزيز الى العراق واستولوا على مدينة كربلاء ونهبوا المدينة وامعنوا فى أهلها تقتيلا باعتبارهم مشركين ، وهدموا مسجد الحسن بن على رضى الله عنه واخذوا ما فيه من النفائس والجواهر فكان لهذه الأعمال الوحشية ضجة فى العالم الاسلامى وارتفعت الصيحات من كل جانب بضرورة وضع حد لهذا الانحراف . وقتل أحد الشيعة عبد العزيز وهو قائم يصلى فى جامع الدرعية . وخلفه ابنه سعود فى الامارة ، والذى وصلت فتوحاته الى حدود مسقط والى شواطىء الخليج العربى ، ولم يلبث أن فتح الحجاز ودخل مكة بعد أن جلا عنها الشريف غانم وجنوده الى جده (محرم ١٢١٨ هـ — ١٨٠٣ م) .

واستولى الوهابيون على المدينة بعد فتح مكة بسنتين ونهبوا نفائس الحرم النبوى وما فيه من الجواهر .

وامتدت دعوى الوهابيين الى عسير واليمن ، وتعطلت مراسم الحج السنوية ، واضطربت الدولة العثمانية وسقطت هيبتها فى العالم الاسلامى بعد أن ظهر ضعفها وعجزها عن تأمين الحرمين وتوقف منسك الحج .

ولم يكن أمام سلطان تركيا الا محمد على والى مصر فراح يستصرخه تارة ويهدده بالعزل تارة أخرى ، ان لم يبعث بحملة لاسترداد الحجاز وظل محمد على يصم أذنيه عن سماع النداء فقد كان مشغولا بتثبيت أقدامه فى مصر كما رأينا وكان يمكن أن يظل محمد على زاهدا فى أن يخوض حربا خارج مصر لحساب الدولة العثمانية ولا يفيد منها شيئا ، لولا أن العثمانيين بدأوا يلوحون لمحمد على أنه اذا نجح فى حربه ضد الوهابيين فانهم سيحققون له أمله المنشود فى جعل مصر وراثية فى أسرته ، ولم يكن هناك ما يشغل بال محمد على أعظم من ذلك وبدأ من ناحية أخرى يفكر فيما

سيحققه من مجد لنفسه فى العالم الاسلامى اذا ما ملك الحجاز وأمن طرقه وسبله ، واعاد سير قوافل الحجاز الى الحرمين وهو الأمر الذى عجزت عنه الدولة العثمانيـــة بكل حولها وطولها .

انشاء اسطول لنقل الحملة :

ولذلك فقد شرع محمد على بعد لارسال الحملة الى الحجاز بما فى ذلك انشاء أسطول بحرى فى البحر الأحمر لنقل الحمـــلة رتأمين طرق المواصـــلات بين مصر والحجاز . ولمـــا كانت مدينة السويس لا توجد بها ترسانة بحرية ، فقد شرع ينشىء هذه السفن فى ترسانة بولاق ، على أن تنقل مفككة على ظهور الجمال الى السويس ، حيث يعاد تركيبها وانزالها الى البحر ، وقد اعتبر ذلك آية عزيمة محمـــــد على وقوة ارادته .

وأبحرت الحملة الى مدينة ينبع فى سبتمبر عام ١٨١١ ، ولحق بهـــا طوســــــون وفرسانه برا فى شهر أكتوبر . وبدأت الحرب بين الجيش المصرى تحت قيـــادة طوسون باشا وبين الوهابيين وتأرجحت بين المد والجزر والانتصارات والهزائم ، ولاقت الجيوش المصرية الأمرين ، ولكن الجيش نجح أخيرا فى الاستيلاء على المدينة المنورة وقتل من بها من الوهابيين وكان ذلك أول نصر يحرزه طوسون فى الحجاز .

ثم عاد طوسون بعـــد احتلال المدينة الى ميناء ينبع وأقلع منها الى مدينـــة جدة فاستولى عليها واستقبله بها الشريف غالب ، الذى عاون طوسون فى احتلال مكة كذلك .

ومن مكة سار طوسون الى الطائف فاحتلها فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣ .

سفر محمد على الى الحجاز :

على أن الحرب فى الحجاز لم تلبث أن تطورت تطورا سيئا اذ هزم الجيش المصرى فى معركة ترنه ، واخليت الحناكية وانتشرت الأمراض فى الجيش المصرى وتحرج مركز الجيش المصرى بحملته ، فاتخذ طوسون موقف الدفاع ، وبعث يطلب النجدة من أبيه ، فقرر أن يسافر بنفسه الى الحجاز ليشرف على سير المعـــارك فكان لوصـــوله أثرا طيبا فى رفع معنوية الجيش ، وقد أدى محمد على فريضة الحج فى هذه السنة . وبدأ الموقف العسكرى يعود الىالتحسن ، وقد تابع نجم محمد على فى صعوده ، اذ لم يلبث بعد وصوله الى الحجاز أن مات سعود الكبير قائد الوهابيين المظفر وخلفه ابنه عبد الله الذى لم يكن فى مثل قدرته .

١٨١٤ م — ١٢٢٩ هـ الغـــاء نظام الالتزام :

احتاجت الحرب فى جزيرة العرب الى مزيد من الجند والسلاح والمـــال ، فبعث محمد على الى نائبه على مصر (لاظ أوغلى) يطلب جندا ومالا ، واذ لم يكن هناك ثمة مورد للمال ، فقد فكر فى أن يلغى نظام الالتزام وأن يحل هو محل الملتزمين ويصبح

هو المسالك الوحيد لكل ارض مصر ، فأرسل الى كتخداه فى مصر بهذا القرار الذى كان يعمل على تنفيذه منذ مذبحة المماليك .

ويصور لنا الجبرتى مدى السخط الذى تفشى بين طبقة الملتزمين وشماتة الفلاحين بهم وكيف كانوا اذا دعوا للعمل بالأجرة يقول الحرفوش (الفلاح) : روح انظر مجدى انا مشغول فى شغلى ، أنتم ايش بقالكم فى البلاد ، قد انقضت أيامكم ، احنا صرنا فلاحين الباشا .

١٨١٥ م : محمد على يعود الى مصر بعد انتصاره :

انتصر محمد على على الوهابين فى يناير من هذه السنة انتصـــارا حاسما فى موقعة بسل حيث قتل منهم ستمائة وتشتت البـاقون ، ثم تابع المصريون زحفهم الظافر فاحتلوا سرنة ومواقع أخرى ، فى الوقت الذى زحف فيه طوسون من شمال المدينة فاحتل كثيرا من المواقع . وفوجىء طوسون بالأمير عبد الله ابن سعود يعرض عليه الصلح والطاعة والى أن يتم الصلح فقد تم الاتفاقو على قيام الهدنة بين الطرفين

وكان قرار محمد على أن يعود الى مصر التى طال غيابه عنها وخاصة بعـد أن بلغه نبأ مؤامرة دبرت فى غيابه لخلعه ، وعودة الحرب الى أوربا بعد أن هرب نابليون من منفاه فى جزيرة البـا .

فعاد الى مصر ودخلها فى الخامس عشر من رجب (٢٣ يونيه سنة ١٨١٥) .

١٨١٥ م ــ ١٢٣١ هـ : محمد على يحاول تصفية الجيش القديم :

توفر محمد على بمجرد عودته من الحجاز على تنفيــذ مشروعه الذى طال تفكيره فيه ، وهو اعادة بناء الجيش على النظم الأوبية واستخدام الأساليب العسكرية الحديثة التى شاهد بثاقت فكره فاعليتها فى الحملة الفرنسية وتفوق هـذه النظم والأساليب فى سائر الميادين على الجيوش العثمانية .

ولكنه لم يكد يعلن رغبته هذه للجنود ورؤسائهم ، حتى ساد التذمر صفوفهم ، واستغل رؤساء الجند هذه الفرصة لكى يتآمروا على محمد على والانقضاض عليه فى بيته بالأزبكية لقتله ولكن خبر المؤامرة تسرب الى محمد على فى الوقت المناسب ، فهرب الى القلعة ، وعندما قصد المتمردون الى بيته بالأزبكية تصدت لهم القوات التى كانت مستعدة لاستقبالهم ، فتحول الجنود الثائرون الى شوارع المدينــة ينهبون المتاجر ويعتدون على الآمنين .

واصطنع محمد على الصبر والاناة فى مواجهة هذه الفتنة . فأرجأ تنفيذ مشروعه ثم عمل على ابتمالة عواطف جماهير الشعب الى جانبه بأن أعلن عن دفعــه تعويض لكل من أصابه الجند بأضرار ودفع بالفعل التعويضات ، وكان ذلك شيئا جـديدا لا عهد للناس به من قبل فلهج الشعب بالثناء على محمد على والسخط على الجنود .

وبعد ذلك عمل محمد على على ارسال العدد الأكبر منهم الى جزيرة العرب للاشتراك فى الحرب الوهابية ثم عمل على تشتيت الجنود عن القاهرة وابعادهم الى الثغور البعيدة كدمياط ورشيد ولكى لا يرتاب الجنود فى الفرض المقصود من ابعادهم فقد كلف أبناءه بالسفر على رأسهم الى هذه البلاد ، وبنى لهم لأول مرة الثكنات لكى يقيموا فيها .

١٨١٦ م ـ ١٢٣١ هـ ـ وفاة طوسون باشا ابن محمد على :

فى التاسع والعشرين من سبتمبر من هذه السنة مات طوسون ابن محمد على ، وكان قد عاد الى مصر بعد عودة أبيه اليها ، وبعد ان أعد مشروع صلح مع عبد الله ابن سعود ، تحتل بمقتضاه الجيوش المصرية مدينة الدرعة ، وأن يرد عبد الله ابن سعود كل ما أخذه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر ، وأن يكون رهن أوامر طوسون باشا . وان يؤمن سبل الحج ويكون خاضعا لحاكم المدينة ولكن محمد على لم يوافق على هذا الصلح . وظل طوسون مقيما فى مصر وأرسله والده على رأس بعض هذه الجيوش التى أبعدها عن القاهرة فاتخذ معسكره فى برنبال الواقعة بالبر الشرقى تجاه رشيد وهناك وافته منيته ، ولم يكن عمره يوم مات سوى عشرين عاما .

انشاء اول مدرسة للهندسة فى مصر :

ذكر الجبرتى فى حوادث هذه السنة كيف انشئت أول مدرسة للهندسة فى مصر على النظام الحديث فقال : اتفق ان شخصا من أبناء البلد يسمى حسين شلبى عجوه، ابتكر فكرة صورة دائرة وهى التى يدقون بها الأرز ، وعمل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة ، بحيث ان الآلة المعتادة كانت تدور بأربعة ثيران ، أما هذه فيديرها ثوران فقط ، وقدم ذلك المثال الى الباشا فأعجبه وأنعم عليه بدراهم ، وأمره بالمسير الى دمياط ويبنى بها دائرة ويهندسها برأيه ومعرفته وأعطاه مرسوما بما يحتاج من الأخشاب والحديد والمصروفات ففعل وصح قوله ، ثم فعل مثلها فى رشيد وراج أمره بسبب ذلك .

فلما رأى الباشا هذه النكتة قال ان فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ، وأمر ببناء مكتب بحوش السراية ، ورتب فيه حملة من أولاد البلد ومماليك الباشا ، وجعل معلمهم حسن أفندى الموصلى يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة ، وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المحصولات . وذلك بمساعدة شخص رومى يقال له روح أفندى وأشخاصا من الافرنج وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الانجليز ، يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة .

واستمروا على هذا الاجتماع بهذا المكتب وسموه مهندسخانة فى كل يوم من الصباح الى بعد الظهيرة ثم ينزلون الى بيوتهم .

١٨١٧ م ـ ١٢٣٣ هـ ميزانية مصر :

بدات مصر تعرف نظام الميزانية بمعناها الحديث ، فقد أورد لنا أمين باشا سامى فى تقويم الليل نص هذه الميزانية . وكانت جملة الايرادات فى ميزانية مصر هـذه السنة ١٣٤ر٢٠٥٠ر١ جنيها أما المصروفات فكانت ١٤٩ر٣٥٥ جنيهـا بفـائض قدره ٩٨٤ر١٤٨ر١ .

١٨١٨ م ـ ١٢٣٤ هـ انتصار ابراهيم باشا فى الحرب ضد الوهابيين :

استأنف محمد على الحرب ضد الوهابيين ، فقد كان يأبى الا أن يستأصل شأفة زعمائهم وأن يستسلموا له بدون قيد أو شرط .

وقد استطاع ابراهيم باشا أن ينجح فيما لم ينجح فيه أخوة اذ نفذ الى صميم نجد ، وحاصر الرس وعنيزة والخبراء واستولى عليها كلها ثم سقطت فى يده بلدة الشقراء ذات الموقع الهام (٢٢ يناير سنة ١٨١٨) .

ثم فرض الحصار على مدينة الدرعية ، وضيق عليها الخناق طوال ستة اشهر ، مما اضطر عبد الله بن سعود الى طلب الصلح فى التاسع من سبتمبر على أسـاس أن يتسلم ابراهيم باشا مدينة الدرعية عاصمة الوهابيين شريطة أن لا ينالهم بأى ضرر فى مقابل أن يسلم عبد الله ابن سعود نفسه الى ابراهيم ليذهب الى مصر ، ومنها الى اسطنبول حسبما أمر السلطان . وتم الاتفاق ـ وارتجت مصر بأنبـاء هذا النصر ، واحتفلت وزينت لهذه المناسبة سبعة أيام .

اعدام عبد الله بن سعود :

وصل عبد الله بن سعود الى مصر يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨ فأحسن محمد على استقباله وأكرمه غاية الاكرام ، ثم بعث به الى اسطنبول التى لم تكن معه كريمة .. اذ أصدر السلطان أمرا باعدامه .

محمد على يسيطر على شبه جزيرة العرب :

كافأ السلطان محمود محمد على على حربه المظفرة فى شـبه جزيرة العرب التى ردت للدولة العثمانية كرامتها بأن عينه واليا على مكة والمدينة ، كما عين ابنه ابراهيم واليا على جدة .

ولكن لا ابراهيم أو محمد على كان يتلقيان الأوامر من الباب العالى الا فى الحدود التى تخدم مصالحهما . فان ابراهيم لم يلبث أن نقض عهده بخصـوص الدرعية ، فقرر أن يدمرها حتى لا يعود الوهابيون للتحصن بها .

وفى نفس الوقت أصدر محمد على الأوامر لجيوشه باحتلال المواقع الهامة فى طول شبه الجزيرة وعرضها . فوصلت هـذه الجيوش الى الخليج العربى (الفارسى)

لتصدم من جديد بالنفوذ الانجليزى الذى كان قد بدأ يتسرب الى هذا الخليج ويتسلط عليه ويرفض ان يسلبه محمد على منطقة نفوذه الجديدة .

عمر مكرم يهنىء محمد على :

ولعل محمد على لم يسعد وسط الاحتفالات التى أقيمت لهذا النصر وما حصل عليه من مكانة رفيعة فى أرجاء العالم الاسلامى ، قدر ما سعد بالتهنئة التى وصلته من السيد عمر مكرم يشيد فيها بما أحرزه من نصر للاسلام والمسلمين وليس هنـاك ما يكشف عن مدى فرحة محمد على واعتزازه بهذه التهنئة من هذا الخطاب الذى بعث به محمد على الى السيد عمر مكرم ردا على تهنئته والذى حفظ لنـا الجبرتى نصه ، وان لم يذكر لنا نص رسالة عمر مكرم ، واليك نص رسالة محمد على :

الى مظهر الشمائل سنيها ، حميد الشئون وسميها سـلالة بيت المجد الأكرم والدنا السيد عمر مكرم .

اما بعد فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف تهنئة بما أنعم الله علينـا ، وفرحا بمواهب تأييده لدينا ، فكان ذلك مزيداً فى السرور ومستديما لحمد الشكور ومجلبة لثنائكم واعلانا نبيل منا كم جزيتم حسن الثناء مع كمال الوفاء ، ونيل المنى . هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن فى الحج الى البيت الحرام وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام للرغبة فى ذلك والترجى لما هنالك . وقد أذناكم فى هذا المرام تقربا لذى الجلال والاكرام ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام فلا تدعو الابتهال ولا الدعاء لنا بالقال والحال كما هو الظن فى الظاهرين والمأمول من الأصفياء المقبولين والواصل لكم جوابا منا الى كتخدانا ولكم الاجلال والاحترام مع جزيل الشكر والثناء » .

وهكذا خاطب محمد على السيد عمر مكرم باعتباره والدا له . ولعله أراد فى ذلك ان يكفر عن خطيئته نحوه وكان محمد على قبل ذلك قد وافق على انتقال السيد عمر مكرم من دمياط الى طنطـا ، وقد عاد السيد عمر مكرم بنـاء على هذا الخطاب الى القاهرة ، واقبلت عليه جموع المهنئين حتى ازدحمت بهم داره مرة أخرى . مما جعل عمر مكرم يلتزم جانب الحيطة فيعتكف عن مقابلة الناس . ولم تسـاعد عمر مكرم صحته على تحقيق رغبته فى الحج . فظل ملازما بيته .

١٨٢٠ م ــ ١٢٣٨ هـ ــ انشاء الجيش المصرى الحديث :

اذا كان محمد على قد ارجأ تنفيذ ما انعقد عليه عزمه من اعادة تنظيم الجيش على اسس حديثة ، فقد فعل ذلك تحت ضغط الظروف كما رأينا ، وقد حدث فى هـذه السنة ، ان عرض عليه كولونيل فرنسى سـابق من جيش نابليون ، وهو الكولونيل سيف (١) مشروع انشاء جيش مصرى على أحدث النظم الأوربية ، يكون ولاؤه لمحمد على مباشرة وليس للسلطان . ولما كان محمد على قد اسـتفاد من تجربته القديمة ،

---

(١) هو الذى اعتنق الاسلام فيما بعد واشتهر باسم سليمان باشا الفرنساوى .

فقد رأى أن لا يفرض النظام الجديد على الجيش القائم ، بل يحاول أن يبنى الجيش الجديد ، من عناصر شابة ، وأن يتم ذلك بعيداً عن القاهرة ليكون بعيداً عن أعين الرقباء ، فوقع الاختيار على مدينة اسوان لتكون مقر المدرسة الجديدة . وقدم محمد على للكولونيل سيف خمسمائة من المماليك الشبان ليكونوا نواة لضباط الجيش الجديد وحدد للدراسة مدة أربع سنوات .

وقد لاقى الكولونيل سيف الأمرين فى تدريب هذه العناصر المتمردة ، ولم يستطع التأثير عليهم الا بعد أن اثبت قدرته وتفوقه عليهم جميعا وشجاعته النادرة وأعلن اسلامه وسمى باسم سليمان ، فانصاعوا له وأطاعوه بل وأحبوه ، وكانوا عصبته فى كل المعارك الناجحة التى خاضها الى جانب ابراهيم باشا باعتباره أركان حربه .

وانتقل تفكير محمد على من الضباط الى الجنود ، ومرة أخرى لم يشأ أن يكونوا من الأتراك أو الارناؤوط وهم الذين أشقوه ، بفتنهم ومؤامراتهم فلم يبق أمامه الا أن يجند جيشه الجديد من المصريين ولكنه خاف أن يؤدى تجنيدهم على نطاق واسع الى الأضرار بالزراعة والصناعة لحرمانها من الأيدى العاملة فاتجه عزمه على اتخاذ هذا الجند الجديد من السودان الأمر الذى جعله يقرر فتح السودان ولكن أمله فى السودانيين لن يلبث ان يخيب كما سنرى ، فلا يبقى أمامه الا أن يجند الفلاحين ، والذين كان يقدر لهم أن يهزوا العالم بانتصاراتهم العسكرية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

فتح السودان :

استقر عزم محمد على على فتح السودان ليتخذ من رجاله جندا كثيفا عصريا ، يستغنى به عن جيشه الألبانى القديم الذى بدأ يعود بعد فتح الجزيرة العربية ، حاملا معه كل مشاكله المألوفة ، من عدوان على الجماهير ، واستعداد مستمر للتمرد والعصيان ، والتآمر فى كل وقت وآن ، وكانت فكرة فتح السودان تراود محمد على منذ أن انتهت الحرب الوهابية فقد كان المماليك الذين انسحبوا اليه ، قد بدأوا يتجمعون ويشاغبون محمد على ويهددونه من حين لآخر نحو الشمال .

وكان لابد من ناحية أخرى من شغل الارناؤوط بحروب تبعدهم عن مصر .

كما أدخل فى روع محمد على أن بالسودان كميات كبيرة من الذهب يستطيع أن يتقوى بها .

وقد ألمح الجبرتى الى كل هذه الأسباب فى حديثه عن حوادث محرم ١٢٣٥ هـ (١٨١٩ م) فقال :

وفى ٢٧ حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل فى سرحته الى الشلال ، وكان الناس يقولوا على ذهابه الى قبلى أقاويل :

منها انه يريد التجريد على بواقى المصريين (المماليك) المنقطعين بدنقلة ، فانهم استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها انه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول اليها .

ومنها أنهم قالوا أنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد . وان ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدلة ومقدار ما يصرف عليه حتى يستخرج صافيه » .

ولا يحتاج الأمر الى عديد من الأسباب لتبرير فتح السودان .. فقد مر بنا منذ أقدم العصور ، ان بلاد النوبة كانت امتدادا للوجه القبلى ، وان هجرة الحضارة من الشمال نحو الجنوب كانت عملية لم تنقطع أبدا على مر العصور .

وما دامت مصر هى هبة النيل ، ولا حياة لها بغير النيل فكل ما سعى لتوحيد وادى النيل هو عمل غريزى طبيعى تحتمه ضرورة البقاء .

وقد اشار الى هـذا المعنى ابراهيم باشا فوزى فى كتابه « السـودان بين يدى غوردون ولكشنر » بقوله : « قضى ساكن الجنان محمد على محيـى الديار المصرية لبانتين من فتح السودان ، بل تخلص من ورطتين كبيرتين ، فقد علمت من شيخ ذى منصب معاصر لمحمد على أن دولة أوربية كبيرة (انجلترا) كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الخبر أكبر اهتمام ، واستشار كثيرا من المهندسين الأوربيين الذين جاء بهم من بلادهم الى القطر ، فأقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد مغبتة ، حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة الى السودان » .

وقائع الحملة :

وقد سير محمد على جيشين لفتح السودان ، جعل أحدهما تحت رئاسـة ابنه اسماعيل وكان يتألف من ٥٤٠٠ مقاتل مجهزين بأربعة وعشرين مدفعـا . والجيش الثانى برئاسة صهره محمد بك الدفتردار ويتألف من ٤٠٠٠ جندى مزودين بعشرة مدافع ، وعهد الى هذا الجيش الأخير بفتح كردفان . ولم يلق الجيشان كبير مقاومة ، لا من المماليك ولا من سكان البلاد وفيما خلا معركة واحدة عند كورتى (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠) حيث تصدى الشانقين للحملة ففتكت بهم الأسلحة الحديثة فتكا ذريعا ، فلم يدر قتال بالمعنى الحقيقى . وكانت كل الصعوبات التى لعبتها الحملة المصرية هى مشقات الطريق ووعورته ... وطول المسافات التى تبلغ آلاف الكيلومترات ، وتفشى الأمراض فى صفوفهم .

مصرع اسماعيل :

وقد كان من أبرز وقائع حملة السودان ، هذه المؤامرة التى برها ملك شـندى لاسماعيل ، حيث دعاه ليحتفل به فى مقره ، ثم أشعل النـار فى اسماعيل ومن معه فحرقوا عن بكرة أبيهم .

وعندما بلغ الخبر الى الدفتردار الذى كان قد فرغ من فتح كردفان ، اقسم ان ينتقم لمصرع اسماعيل انتقاما وحشيا وقد بر بقسمه بحيث أصبح مضرب الأمثـال على القسوة والبطش وسفك الدماء .

وانتهت حرب السودان بضمه الى مصر ، فأصبح جزءا عضويا منها ، وعين له محمد على حكمدارا خوله سلطة مطلقة ، وقسم السودان الى مديريات على نظام المديريات المصرية وجعلها سعبة وهى : دنقلة وبربر وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى. وانشئت مدينة الخرطوم عند ملتقى النهرين الأبيض والأزرق وجعلت عاصمة للسودان .

ولم يعثر محمد على على الذهب فى السودان ، كما لم يتحقق له انشاء ما كان يتصوره من جيش سوانى . وكان الأثر المباشر لفتح السودان ، هو استتباب الامن على طول وادى النيل فانتعشت التجارة وازدهرت الزراعة والصناعة ، وتهيأ السبيل لاكتشاف منابع النيل ، وهو المطلب الأولى الذى طالما هفا اليه المصريون منذ الوف السنين .

١٨٢١ م - ١٢٣٧ هـ - انشاء مطبعة بولاق :

وفى هذه السنة تم انشاء المطبعة الأميرية فى بولاق وهى التى لا تزال قائمة حتى الآن ، وقد جهزت المطبعة لأول مرة بكل ما يلزمها من الحروف والمكابس والآلات ، وأعدت لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها وطبع الكتب العلمية فى الطب والرياضيات والآداب والتاريخ والعلوم الفقهية وغيرها . وقد تولى ادارتها نقولا مسابكى الذى بعث به محمد على للتخصص فى هذا العمل .

١٨٢٢ م - ١٢٣٧ هـ - ميزانية مصر :

بلغت الايرادات فى هذه السنة حسبما هو وارد بالميزانية ٤٩٩ر١٨٨١ر١ جنيها والمصروفات ١٢٢ر٢٦٦ جنيها بفائض قدره ٣٧٦ر٦١٥ر١ جنيها .

وبمقارنة هذه الميزانية بالميزانية السابقة (١٢٣٣ هـ) يتضح منها انه فى الوقت الذى زادت فيه الايرادات ، فقد نقصت المصروفات وزاد بالتالى الفائض .

١٨٢٤ م - ١٢٣٧ هـ - استيلاء محمد على على جزيرة كريت :

فى هذه السنة عهد السلطان محمود لمحمد على باخماد الثورة فى جزيرة كريت ، وكانت الثورة قد شبت بها تضامنا مع الثورة التى شبت فى بلاد اليونان طلبا للاستقلال . وكانت ريح القومية التى أشعلتها الثورة الفرنسية قد هبت على شرق اوربا ، ودول البلقان ، واذ كانت هذه الدول خاضعة لحكم الدولة العثمانية التى ترغب دول أوربا الكبرى فى تقويضها فقد التقت كلها حول تأييد ثورة اليونان ، وراحت تمدها بالعون الأدبى والمادى وخاصة بالسلاح . وقد اظهر اليونانيون تفوقا فى البحر على الأسطول العثمانى ، وأعلنت جزيرة كريت انضمامها الى الثورة باليونان وكذلك جزيرة قبرص ، فلم يجد السلطان مناصا من الاستعانة بمحمد على ، ليضرب عصفورين بحجر واحد ، وهو أن يضعف محمد على ويرهق موارده المالية والعسكرية ويعرقل

خططه فى البناء والانشاء والتعمير من ناحية ، ولكى يستعين بالقوات المصرية النـامية فى اخماد ثورة اليونان من ناحية اخرى وقد استجاب محمد على الى أمر السلطان . واعد حملة من ٥٠٠٠ جندى من النظـام الجديد بقيـادة حسن باشا ، وأقلع بهم الأسطول المصرى من الاسكندرية الى جزيرة كريت ، وقد أبلى المصريون بلاء حسنا وقاتلوا الثوار قتالاً شديدا ، فاستطاعوا أن ينقذوا الحاميات التركية المحصورة فى القلاع ، وأن يقروا الامن والنظام فى ارجاء الجزيرة ــ كما نجح الجنود المصريون فى اخماد الثورة فى جزيرة قبرص .

١٨٢٤ م ــ ١٢٣٩ هـ ــ السلطان يعهد لمحمد على بالولاية على بلاد المورة :

انتشرت الثورة فى بلاد اليونان ، وبخاصة فى شبه جزيرة المورة ، بعـد ان أعلن اليونانيون استقلالهم بصفة رسمية ، وضيق الثوار الخناق على الحاميات التركية التى حصرت فى بعض المدن . ومرة اخرى لم يجـد السلطان محمود سـبيلا الا أن يلتجىء الى محمد لانقاذ الدولة من هـذه الورطة فأصـدر له فرمانا يوليه على بلاد المورة ، ويطلب منه تجريد جيشه لاخمـاد الثورة فى اليونان ، وانزلق محمـد على واستجاب الى هذا النداء .

وقد قيل ان محمد على استشار أعضاء أسرته وكبـار رجال حكومته فاستقر الرأى على تلبية دعوة الباب العالى . ونحن نعلم ماذا تساوى هذه الاستشارات التى يعقدها حاكم مطلق كمحمد على فهى ليست الأرجع الصدى لما يدور فى ذهنه ، وهى ليست الا تأييدا لأطماعه وطموحه .

لقد قيل فى معرض الدفاع عن اقدام محمد على على هذه الخطوة انه لو فرض لعزله السلطان ، وهى علة واهنة ، فقد رأينا كيف فشل السلطان أكثر من مرة فى عزل محمد على وهو لا يزال ضـعيفا ، فكيف كان يقوى على عزله وقد وصـل الى ذروة القوة . .

ولم يكن يعوز محمد على لو أراد الامتناع عن الاشتراك فى هذه المغامرة ، الحجج والمعاذير .

ولذلك فلا تفسير لاقدام محمد على على المساهمة فى اخماد ثورة اليونان الا اتساع اطماعه وانها أصبحت بغير حدود .

وقد أعد محمد على جيشا بريا من الجيش النظامى الجديد متألف من ١٧ الف مقاتل من المشاة وأربع بلوكات مدفعيـة وسبعمائة من الفرسـان وجهزهم بالمدافع والبنادق والذخائر وجعل على رأس الجيش ابراهيم باشا .

وقد اقلع الأسطول المصرى من ميناء الاسكندرية فى شهر يوليو سـنة ١٨٢٤ ، وكانت العمارة البحرية تتألف من ١٤٦ سفينة نقل تحميها ٥١ سفينة حربية ، وقد

وصف مؤرخ يونانى شاهد ابحار الحملة انها تشبه الارمادا « ولم ير الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكان الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه » (١) .

آخر ما سجله الجبرتى :

وقد كانت اشارة الجبرتى لمقدمات هذه الحملة واستعداد محمد على لها هو آخر ما دونه الجبرتى فى تاريخه حيث يقول فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢٣٦ (اغسطس ١٨٢١) .

وفى منتصفه سافر الباشا الى الاسكندرية لداعى حركة الاروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ، ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر ، وقطعهم الطريق على المسافرين ، واستئصالهم بالذبح والقتل ، وشاع ذلك بالنواحى وانقطعت السبل فنزل الباشا الى الاسكندرية وشرع فى تسهيل مراكب المساعدة للدوناتمة السلطانية وستأتى نتيجة هذا الحادث .

ولكن القدر حال بين الجبرتى وبين ذكر هذه النتيجة .

١٨٢٥ م — ١٢٤٠ هـ — وداعا يا جبرتى :

وفى هذه السنة على أرجح الآراء مات مؤرخنا العتيد عبد الرحمن الجبرتى ، ويقول الأستاذ محمود الشرقاوى ان كثيرا من المؤرخين تقول بأن وفاة الجبرتى كانت فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٣٧ ولا شك أن الذى دفعهم الى هذا القول ، هو انتهاء كتابه فى آخر عام ١٢٣٦ ، ولكنا نرجح القول الذى أثبته جورجى زيدان من أن وفاة الجبرتى كانت عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) وأيا كانت السنة التى مات فيها الجبرتى ، فالمحقق أن حياته المعنوية والروحية التى تشرق على الدنيا من خلال كتابه تنتهى بنهاية عام ١٢٣٦ هـ .

ولكنا نرجح القول الذى أثبته جورجى زيدان من أن وفاة الجبرتى كانت عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) .

ولا يملك المطالع لكتاب الجبرتى نفسه عن الحزن والأسى عندما يأتى الى نهايته ويرى نفسه مضطرا لانهاء هذه الصحبة مع الجبرتى ، لأنك لا تستطيع الا أن تصادق الجبرتى وأنت تطالع كتابه وأنت تحس بنفسه الزكية وعقله الالمعى وملكته العلمية، ودقته التاريخية .

ومن حسن الحظ ان الجبرتى لا يسلمنا بعد نهاية كتابه الى الفراغ فقد كانت الطباعة قد وصلت الى مصر ، ولن تلبث جريدة الوقائع المصرية أن تصدر ، وترك لنا محمد على دقائق عصره بما يفيض عن حاجة أى باحث وتعيبه اذا حاول الاحاطة بها

(١) دريو تاريخ اليونان السياسى — نقلا عن كتاب الرافعى .

راى الجبرتى فى نظام الحكم :

ولا نستطيع ونحن نكتب تاريخ مصر الحديث ، الا ان ننحنى تقديرا لهذا المصرى الذى تعلق بالعدل والعلم ونفر من الظلم والجهل ، واتخذ من ذلك نبراسا يهديه فى الحكم على تصرفات الحكام مدحها أو ذمها .

ونشهد للجبرتى انه نقم على الظلم والجهل فى كافة أشكالها أيا كان صاحبها عدوا أو صديقا ، وأشاد بالعدل والعلم أيا كان مصدرهما عدوا أو صديقا . فعلى الرغم من صـــــداقته للالفى فلم يتردد فى نعت تصرفاته بما هى أهل له من الظلم والاستبداد والحماقة ، وهو اذ يتوجع للملتزمين عندما يلغى محمـد على حقوق التزامهم ، لا يفوته ان يندد بهم ويفزعهم لمـا كانوا يذيقونه للفلاحين من ويلات ، ولذلك فلا عجب ، أن نراه ينقم على محمد على الاستبداده وانفراده بالسلطة المطلقة ، بحيث لم ير فى كل أعمال محمد على الا نهبا وسلبا وطغيانا . وقد اعتبر الجبرتى نموذجا للمعارضة الصامتة لمحمد على ،حيث قتل عمر مكرم المعارضة الناطقة .

الجبرتى ومشروعات محمد على العمرانية :

غير أن الجبرتى المحب للعدل والانصاف ، لم يتمالك نفسه رغم كراهيته الشديدة لمحمد على أن يثنى على أعماله العمرانية والانشائية التى بدأت تغمر البلاد ، أحيانا بطريق التصريح المباشر ، وفى أكثر الأحيان عن طريق عرض هذه الأعمال بما يشعر بالاكبار لها والاجلال .

فعندما أعاد محمد على تعمير مدينة الاسكندرية وأعاد بناء السد الذى يقيهـا غوائل مياه البحر التى حاصرتها واتلفت الأراضى المحيطة بها ، قال الجبرتى فى غير تحفظ :

وقد كان ذلك من محاسن محمد على باشا وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هــذا الزمان فلو وفقه الله شيئا من العدالة على ما فيه من العزم والرياســة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان اعجوبة زمانه وفريد أوانه .

الوادى الكبير :

ولم يخف الجبرتى فى اعجابه ، باقدام محمد على على تعمير منطقة الوادى بشرقية بلبيس ، حيث حول عشرات الالوف من الأفدنة من أرض صحراوية الى أرض زراعية وقد ظل يتابع هذا المشروع العمرانى العظيم حتى قال فى حوادث جمادى الأولى عام ١٢٣٢ هـ : وقد تعمر هذا الوادى بالسواقى والأشجار والسكان من جميع الأجناس، وانشأ دنيا جديدة متسعة لم يكن لها وجود قبل ذلك ، بل كانت تربة خربة وفضاء واسعا .

ترعة المحمودية :

واهتم الجبرتى اهتماما خاصا بمشروع محمد على فى اعادة حفر ترعةالاسكندرية التى كانت تحمل اليها المساء العذب ، والتى كانت قد طمرت خلال عصور التخلف

والظلام مما أدى الى تحويل الاسكندرية الى قرية فلما أعاد محمد على حفر هـذه الترعة مطلقا عليها اسم المحمودية تابع الجبرتى هـــذا العمل العظيم مسجلا كل جزئياته شهرا بعد شهر وعاما بعد آخر ، دون أن يفوته تسجيل المظالم التى عاناها الفلاحون الذين سخروا لحفر هذه الترعة ، والذين مات الكثيرون منهم أثناء الحفر جوعا وارهاقا .

المصانع التى انشأها محمد على :

ويسجل الجبرتى ويشير الى عشرات المصانع التى انشأها محمد على ســواء للأغراض الحربية أو المدنية . فمن مصـــانع لعمل البـــارود (كالذى يجلب من بلاد الانجليز) الى مصنع لسبك المدافع ، الى ترسانة بولاق ، وعشرات المصـــانع التى انشئت للغزل والنسيج ، فى بولاق والسبتية والخرنفش ، وعلى طول البلاد وعرضها ، للقطن والحرير والكتان .

وكذلك يحدثنا عن مصانع الصـــابون والكتان ومعامل الســكر ومدابغ الجود ، وعمل الشمع .

ولا يفوت الجبرتى الصادق الأمين الا أن يندد وهو يستعرض هذه الصـــناعات بمحمد على لالتجائه الى الاحتكار وقطع ارزاق المشتغلين فى هذه الحرف .

النهضة التجارية وانشاء الأساطيل :

ولا يفوت الجبرتى أن يسجل كذلك طلائع النشاط التجارى والبحرى الذى بدأت مصر تشهده ، فقد انشأ الباشا السفن ببحر الروم (الأبيض) والقلزم (السويس) واقام له وكلاء بســائر الأساكل (الموانىء الأجنبية) حتى ببلاد فرنســا والانجليز ومالطة وازمير وتونس والنابلطان والونديك والبنادقة واليمن والهند . وأعطى اناسا جمدا عظيمة من المال يسافرون بها ، ويجلبون البضائع وجعل لهم الثلث فى الربح نظير سفرهم وخدمتهم ، فمن ذلك انه أعطى للرئيس حسن المحروقى خمسمائة الف فراسة يسافر بها الى الهند ويشترى البضائع الهندية ويأتى بها الى مصر ولشخص نصرانى ايضا ستمائة الف فراسة ، وكذلك لمن يذهب الى بيروت وبلاد الشام لمشترى القز والحرير وغير ذلك .

زراعة القطن :

ولقد غاب عن ذهن الجبرتى ، وهو يعـدد اصـــلاحات محمد على ومشروعاته الانتاجية ، الانقلاب الذى طرأ على زراعة القطن منذ عام ١٨٢٠ ، حيث عمم زرع نوع ممتـــاز منه طويل التيلة وهو قطن (سى ايلاند) الأمريكى ولم تلبث زراعة القطن أن ازدهرت فى مصر ، وأصبح أساس اقتصادها حتى الآن .

١٨٢٦ م — ١٢٤٢ هـ — ايفاد اول بعثة تعليمية عامة الى اوربا :

منذاستتبت الأمور لمحمد على فى مصر ، وقد وجه عنايته الى ارسال بعض المصريين لخدمة بعض الصناعات والعلوم الأجنبية ، ولكنه فى هذه السنة اوفد اول بعثة تعليمية عامة الى باريس « لادخال المعارف والصناعات والفنون الحديثة وخبرة علمائها ورجال الحرب بها » وكان عدد افراد هذه البعثة اربعين طالبا ثم الحق بهم اربعة طلاب آخرين . وعهد الى المسيو جومار بالاشراف عليها فى باريس ، وقد كان من طلاب هذا البعث الأول محمد مظهر (باشا) الذى سيكمل بناء القناطر الخيرية ، وحسن باشا الاسكندرانى الذى سيدير ترسانة الاسكندرية العظيمة ، ثم يرأس الأسطول المصرى فى حرب القرم .

على أن ألمع شخصيات هذه البعثة هو رفاعة رافع الطهطاوى رائد النهضة العلمية الحديثة ، ومن الطريف انه لم يكن موفدا ليحذق علما من العلوم ، وانما كان اماما للبعثة ، فاذا به يكون قطبها ومحورها من حيث نقل المعارف الأوربية الى مصر فى جملتها .

١٨٢٧ م — ١٢٤٣ هـ — انشاء مدرسة الطب :

فى هذه السنة انشئت مدرسة الطب بناء على اقتراح تقدم به الدكتور كلوت بك الفرنسى على أن يلحق بمستشفى ابو زعبل التى كانت تضم ٧٢٠ سريرا . وقد اختير للمدرسة مائة طالب وقد رتب لكل طالب مائة قرش شهرى خلاف الطعام من الأزهر لتبدأ بهم المدرسة وجىء من أوربا بطائفة من الأساتذة لتدريس التشريح والجراحة والأمراض الباطنية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعى والطبيعة والكيمياء وقد الحق بالمدرسة ، مدرسة أخرى خاصة للصيدلة ، الحقت بها حديقة لزرع كل ما ينبت بالأرض من عقاقير ونباتات طبية . كما الحق بالمدرسة ، مدرسة خاصة بالقابلات والولادة .

١٨٢٧ م — ١٢٤٢ هـ — معركة نفارين وتحطيم الاسطول المصرى :

نجح ابراهيم باشا فى بلاد المورة الجبلية نجاحا منقطع النظير أذهل أوربا ، فحيث ظلت الدولة العثمانية اربع سنوات وهى عاجزة عن القضاء على الثورة اليونانية ، استطاع ابراهيم باشا فى مدة قصيرة ، أن يستولى على مراكز الثوار الحصينة ويقاتلهم الواحد اثر الآخر ، وكان أعظمها ميناء نفارين (مايو سنة ١٨٢٥) ثم كلاماتا . وفى يونيو (١٨٢٥ م) استولى على تريبولتنزا عاصمة المورة الواقعة فى قلب المورة بحيث لم يبق من شبه الجزيرة الا بلدة واحدة وهى مدينة (نوبلى) عاصمة الحكومة الثورية . وبينما هو يتأهب لحصارها ، اذ استغاث به رشيد باشا قائد الجيوش التركية الذى كان يحاصر مدينة ميسولونجى فى منطقة تراقيا طوال عام

باكمله دون ان ان ينال منها منالا ، فبعث اليه السلطان محمود يقول له اما ميسولونجى واما رأسك . .

فخف ابراهيم باشا لنجدة القائد التركى بعد أن عهد لسليمان باشا الفرنساوى اركان حربه بقيادة القوات المصرية فى المورة وعبر خليج كورنته بأسطوله وعشرة آلاف جندى حتى وصل الى المدينة ، وأحاط بها من البر والبحر ، ووقفت المدينة فى وجه ابراهيم باشا وجيشه وقفة مجيدة ، ولكن ابراهيم باشا ، الذى لم يهزم فى أى معركة خاضها ، تغلب على المدافعين عن المدينة ، الذين عندما أسقط فى يدهم جمعوا ما بقى من نساء واطفال وشيوخ فى مخزن للذخيرة ونسفوه بمن فيه فماتوا جميعا تحت الأنقاض رافضين الاستسلام . ولم يبق من مدينة ميسولونجى الا الأنقاض والدمار واشلاء القتلى .

وقد كان ذلك الحادث كفيلا بالهاب غضب أوربا كلها التى كانت تقف الى جانب الثوار بكل وجدانها ، وقررت روسيا أن تتدخل فورا لانقاذ الثورة اليونانية ، وخافت انجلترا من أن تنفرد روسيا بالعمل فاتفقت معها على أن يعملا متعاونين ، ولم تشأ فرنسا أن تظل خارج نطاق مساعى الدولتين فضمت جهودها الى جهودهما وفى يونيو سنة ١٨٢٧ تم الاتفاق بين الدول الثلاث (روسيا وانجلترا وفرنسا) على وجوب استقلال بلاد اليونان تحت السيادة العثمانية ، على أن تعقد فورا هدنة بين الباب العالى واليونانيين للنظر فى هذه التسوية وطريقة تنفيذها . والحق بالاتفاق بندا سريا مؤداه اذا لم تستجب تركيا لنداء الدول الثلاث خلال شهر ، تتدخل الدول تدخلا مباشرا بأساطيلها لفرض ارادتها .

وكان محمد على الذى يجهل ما اتفقت عليه الدول ، قد استجاب الى نداء ابنه فبعث اليه نجدات جديدة ، وبالاسطول المصرى الحديث الذى انضم اليه الاسطول العثمانى ورابط الأسطولان فى ميناء نفارين .

ولم يستجب الباب العالى لتدخل الدول الثلاث ورفض بعناد أى محاولة للتفاهم، فما كان من الحلفاء الا أن نفذوا ما اتفقوا عليه فاقتحمت أساطيل الدول الثلاث ميناء نفارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وعلى الرغم من أن قطع الاسطولين المصرى والتركى كانت أكثر عددا (٦٢ قطعة) وقطع الحلفاء (٢٧) ولكن عدد البوارج من بين هذه القطع لم تكن تزيد على ثلاث ، حيث كانت بوارج الحلفاء عشر ، ولذلك فقد كانت النتيجة المحتومة لمثل هذه المواجهة هى تدمير الاسطولين المصرى والتركى باكملهما .

اختلاف موقف تركيا ومصر :

واهاج هذا العمل الغادر ثائرة السلطان محمود ، فلم تكن الدول الثلاث فى حالة حرب مع الباب العالى ، ولذلك فلم يكن لما حدث فى موقعة نفارين من أثر عليه الا أن مضى فى عناده ، ورفض الاستجابة الى مطالب الدول ، واصر على المضى فى اخماد الثورة اليونانية حتى النهاية ، فى الوقت الذى طالب فيه الدول المعتدية بدفع تعويض

ضخم عن تدمير الاسطول . ولكن محمد على أفاق من سكرته ، فهاهو الاسطول الذى شقى واشقى البلاد معه لتكوينه قد زال من الوجود بضربة واحدة فى بضع ساعات .

واذا كان ابراهيم باشا قد كلل رأسه ورأس أبيه بالغار من حيث الانتصار على شعب أوربى ، عجز العثمانيون عن كسر شوكته خلال سنوات ، فقد تم ذلك بثمن باهظ ، فمن بين اثنين وأربعين الفا بعثت بهم مصر الى حرب اليونان ، لم يكن باقيا من هذا العدد سوى اثنى عشر الفا .

والآن وقد تدخلت الدول العظمى ، فلم يكن من صالح محمد على أن يقف فى وجهها يوما واحدا . وهى القادرة على تحطيمه ، ولذلك فقد أسرع للتفاوض مع الدول للخروج من هذا المأزق .

١٨٢٨ م ــ جلاء الجيش المصرى عن المورة :

توصل محمد على الى اتفاق مع الدول الثلاث ، أن يسحب الجيش المصرى من بلاد اليونان ، فى مقابل أن ترجع الدول المتحالفة اليه ما استولت عليه من سفن الاسطول ، وأن تطلق ما فى يدها من الأسرى ، على أن يطلق محمد على بدوره أسرى اليونانيين . وقد قابل ابراهيم باشا هذا الاتفاق الذى عقده أبوه بالكثير من السخط ، ان تكون هذه هى نتيجة الانتصارات المدوية التى رجت أوربا والتضحيات القاسية التى تكبدتها مصر وجيشها . وكان باستطاعة ابراهيم باشا أن يرفض هذا الاتفاق ، فهو من الناحية الرسمية كان هو الذى اصبح واليا للمورة وقائدا للجيش والاسطول وكان السلطان محمود يرفض هذا الاتفاق ويستنكره . ولكن ولاء ابراهيم باشا كان لأبيه فى الدرجة الأولى .

ولذلك فقد أسرع بتنفيذ أمر أبيه وأصدر أمره للجيش بالجلاء عن المدن اليونانية، والانسحاب نحو الثغور .

وفى أكتوبر من هذه السنة (١٨٢٨) أقلعت السفن المصرية ببقايا الحملة المصرية فى بلاد اليونان واصبحت مصر فى حالة سلام مع دول أوربا .

معاهدة أدرنة واستقلال اليونان :

لم يكن بوسع السلطان بعد انسحاب الجيش المصرى أن يواجه الثوار اليونانيين فضلا عن قوات الدول العظمى ، واندحرت القوات العثمانية امام الجيش الروسى الزاحف ، فاضطر السلطان الى عقد معاهدة ادرنة (سبتمبر ١٨٢٩) التى اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال اليونان تحت السيادة العثمانية ، ولكن بقية الدول لم تلبث أن تدخلت لجعل استقلال اليونان استقلالا تاما مطلقا حتى تسد الذريعة ضد تدخل الروس فى شئون اليونان .

وهكذا أسدل الستار على هذه الملحمة الرهيبة بين الأتراك واليونانيين باستقلال اليونان .

نتائج الحملة بالنسبة لمصر :

١ - يمكن ان تعتبر حملة محمد على فى بلاد المورة بالنسبة للمصريين فى وقتها خسارة فادحة من الناحية المادية ، ناحية الأرواح والأموال والجهود ولكنها من الناحية المعنوية كشفت عن معدن الشعب المصرى ، فهو لا يكاد تتهيأ له القيادة الصالحة القادرة حتى يقوم بأجل الأعمال وأروعها بما فى ذلك خوض المعارك العسكرية فى شجاعة وفدائية . فقد ادهش أوربا كلها ما بذله الجيش المصرى من جهود ومشقات وما أقدم عليه من تضحيات وسط جبال شبه جزيرة المورة الوعرة التى أعجزت الفاتحين منذ أقدم العصور ، وقدرته على الانتصار على جيوش الثوار اليونانيين الذى كانوا فى ذروة الايمان بحقهم فى الحرية والاستقلال ، والذين كانوا مزودين بأحسن أسلحة القتال تظاهرهم أوربا كلها ، وكان يضاعف فى اظهار دور الجندى المصرى انه نجح حيث فشل الجندى العثمانى ، وهو الذى كان يعتبر أعظم محارب فى أوربا طوال القرون السابقة .

٢ - ظفر محمد على من هذه المغامرة باعتراف الدول به كحاكم مستقل لمصر ، فقد دخلوا معه فى مفاوضات على سبيل الاستقلال بعيدا عن السلطان العثمانى ، وانتهت هذه المفاوضات باتفاقية وقعها بوغوص بك نيابة عن محمد على باعتباره وزير خارجيته ، وهكذا ظفرت مصر بأول وثيقة سياسية فى العصر الحديث تكشف عن استقلالها وهو ما كان محمد على يعمل جاهدا للوصول اليه .

٣ - امتد سلطان محمد على الى جزيرة كريت حيث عينه السلطان واليا عليها ، ولكن سكان الجزيرة لم يكفوا عن الثورة والتمرد ، مما جعل الجزيرة غرما اكثر منها مغنما .

٤ - كانت حرب المورة هى السبب المباشر لحدوث الاصطدام المرتقب منذ أمد بعيد بين الباب العالى ومحمد على اذ لن يلبث محمد على أن يحاول الاستيلاء على الشام فتتصدى له تركيا بجيوشها ، فتقع الحرب بين الدولتين .

محمد على يعكف على الاصلاحات الداخلية :

وقد عمد محمد على منذ بدات تسفر حملة المورة على نهايتها غير المفقة الى التوفير على الاصلاحات الداخلية فى مصر ، واعادة ترتيب شئونها ، والمضى قدما بنقل مظاهر الحضارة الأوربية ، لما فى ذلك من أثر فى نهوض البلاد .

جريدة الوقائع المصرية :

فنراه فى هذه السنة ١٨٢٨ م - ١٢٤٤ هـ يصدر جريدة الوقائع المصرية باللغتين التركية والعربية ، مبتدئا بذلك تاريخ الصحافة المصرية ، وقد صدر العدد الأول منها فى يوم الثلاث ٢٥ جمادى الأول سنة ١٢٤٤ وجاء فى افتتاحيتها ما يلى :

الحمد لله بارىء الأمم والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . أما بعد فان تحرير الأمور الواقعة من اجتماع جيش بنى آدم المندبجين فى صحيفة هذا العالم ومن

أبتلافهم وحركاتهم وشئونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم التى حصلت من احتياج بعضهم بعضا ، هى نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والايقان واظهار الغيرة العمومية وسبب مقال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان . وهذا واضح لدى أولى الألباب ، ومن حيث أن الأمور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى أنواع الصنائع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير .

وتنتهى الافتتاحية بقولها :

ولذلك فقد صدر أمر ولى النعم الشريف بطبع الأمور المذكورة وانتشارها عموما بالله وقد سمت واشتهرت بالوقائع المصرية وبالله حسن النية (١) .

١٨٢٩ م — ١٢٤٥ هـ — انشاء مجلس الشورى :

ذكرت الوقائع المصرية نبأ انعقاد مجلس الشورى الذى أمر محمد على بتشكيله لأول مرة فى عصر يوم ٣ ربيع الأول من هذه السنة (٢ سبتمبر) فى قصر ابراهيم باشا (القصر العالى بجاردن سيتى) وتحت رئاسته . ونشرت الوقائع أسماء أعضاء هذا المجلس البالغ عددهم ١٥٦ عضوا منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الأقاليم و ٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى . وعلى الرغم من أن جميع الأعضاء قد اختيروا بالتعيين وليس بالانتخاب فانه من الممكن اعتبار مجلس المشورة ، نواة المجالس النيابية فى مصر الا اذا اعتبرنا الديوان الكبير الذى أنشأه نابليون هو هذه النواة .

ولقد أصدر مجلس المشورة قرارا بانشاء معهد لتخريج الكتبة اللازمين لادارة مصالح الحكومة فى أنحاء البلاد .

كما نجد فى قراراته اختيار مائة غلام من كل قسم من اقسام القاهرة وبولاق ومصر الجديدة وعددها عشرة فتكون الجملة هى ألف غلام ، لتشغيلهم بالأجرة فى فابريقات الحكومة . وقرار آخر يجمع الصالحين من المتسولين (الشحاذين) للالتحاق بهذه الفابريقات على أن ترتب لهم أثناء التدريب أرزاقا يومية ، وبعد تعلمهم الصنعة ترتب الأجور اليومية المناسبة .

وقرار ثالث بتشديد العقاب على الموظفين ومشايخ البلاد اذا ما اختلسوا الأموال العامة أو ارتشوا .

وقد جاء فى ديباجة لائحة مجلس المشورة تعريف له :

مجلس المشورة هم الذوات المشهود لهم بالفكر الثاقب والرأى الصائب ، المعدودون أهلا لتدبير المصالح بالاعتدال والاستقامة الخالون من البغض والعداوة ، العارون عن لباس الغرض النفسانى — الثابتون فى الجلوس بمحل واحد كعضو واحد

---

(١) راجع صورة العدد المذكور فى تقويم النيل لامين سامى باشا .

الذين يتذاكرون فى المصالح التى ترد الى المجلس من غير اكراه ولا استثقال ، ويصرفون ذهنهم ويبذلون وجودهم بثبات واستعداد النظر فى الأمور .

ارسال البعثة العلمية الثالثة :

وفى هذه السنة أرسلت بعثة علمية ثالثة تغلب عليها الصفة الصناعية ولذلك فلم يقتصر ارسالها على فرنسا ، بل أرسل جزء منها الى انجلترا لتعلم الصناعات التى اشتهرت بها انجلترا كما ارسل بعضها الآخر الى النمسا لنفس الغرض .

وكان عدد افراد هذه البعثة ٢٤ طالبا ، تخصص معظمهم فى الهندسة والرياضيات .

انشاء مدرسة الزراعة :

نشرت الوقائع الصادرة فى ١٢ من ذى القعدة قرارا بانشاء مدرسة الزراعة : لتحصيل فن الفلاحة وعلم الزراعة .

وبلغ عدد طلبتها ١٢٠ طالبا وقرر للممتازين ١٥٠ قرشا وللأوسط مائة قرش والأدنى ٨٠ قرشا ويعطى لكل منهم فى كل سنة ٣٣٠ قرشا بدل كسوة وتصرف لهم الأغذية من مطبخ محمد على .

عدة ما أنشىء من شجر :

بلغ عدة ما غرس فى هذه السنة (١٢٤٥ هـ) من مختلف انواع أشجار الأخشاب والعنب والزيتون والفاكهة ٢٣١ر٠٥ر٢ شجرة وكان قد غرس فى العام السابق ٢٨٧ر٩٥٠ر١ شجرة واستمر غرس الأشجار بهذا المعدل سنويا .

انشاء الترسانة البحرية الكبرى فى الاسكندرية :

على أن أضخم ما قام به محمد على من أعمال والتى كشفت عن عزيمته التى لا تلين . هو شروعه فى اعادة بناء الأسطول المصرى الذى حطم فى نفارين ، ولكنه رأى هذه المرة أن لا يبنى قطع الأسطول كما اعتاد من قبل فى طولون أو جنوا ولكن فى مصر وفى الاسكندرية بالذات باعثا بذلك مجدها الذى اندثر فى انشاء الأساطيل الحربية والتجارية .

وقد ساعدته فرنسا على انشاء هذه الترسانة بأن أعارته مهندسا بحريا يدعى المسيو دى سيزيرى وقد اشتهر بالكفاءة فى ثغر طولون ، وكان قد تولى من قبل انشاء سفينتين حربيتين لمصر فى مرسيليا .

وقد حضر سيزيرى الى مصر وشرع فى انشاء ترسانة بحرية على أحدث طراز عرفته أوربا ، وكان الرجل الثانى الى جواره مصرى نابغة يدعى الحاج عمر استطاع قبل مقدم سيزيرى أن ينزل الى البحر سفنا حربية على النظام الحديث ، على الرغم من انه لم يدرس الهندسة دراسة منظمة كمهندسى أوربا . وقد ذهل سيزيرى لهذه القدرة . وقد أثنت عليه جريدة الوقائع فى عددها الصادر فى ٢٧ شعبان بمناسبة

انزال هذه السفينة الحربية . ولم تلبث هذه الترسانة أن اصبحت واحدة من أعظم الترسانات فى البحر الأبيض المتوسط ، بما أنزلتــه فى غضون السنوات التاليــة من بوارج وطرادات ومدمرات .

وكان انزال القطع البحرية الجديدة ، يتم فى حفلات عامــة يحضرها محمد على وابنه ابراهيم وتتسامع بها دول أوربا عن طريقة قناصلها الذين كانوا يحضرون هــذه الاحتفـــالات .

مدرســة البحرية :

وقد أنشىء الى جوار الترسانة لمدرســـة بحرية لتخريج الضـــباط اللازمين للأسطول ، وكان يدرس فيها خبراء فرنسيون .

وكان خريجو هذه المدرسة ، يرسلون الى فرنسا وانجلترا للاستزادة من الفنون الحربيــة البحــرية .

توسيع ميناء الاسكندرية :

واستتبع هذا النشاط البحرى ، توسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها ، وسمح للسفن الأوربيــة بالدخول الى المينــاء الغربية فكثر ورود الســفن اليها ، وبدات الاسكندرية تعود لبعض سابق ازدهارها شيئا فشيئا .

محمد علي يرنو ببصره الى الجزائر :

وفى هذه الفترة كان النزاع بين الجزائر وفرنسا قد استطار وأصبح يهدد بالحرب وذلك بسبب ضرب حسين باشا داى الجزائر قنصل فرنسا (بروحتــه) فى حفــل عام ، ثم رفضه الاعتذار عن هذا الحادث وتقديم أى ترضية لفرنسا .

ولما كانت فرنسا ترنو منذ أمد بعيد لاحتلال الجزائر . ولكنها كانت لا تزال تتردد وتتهيب الأقدام على هذه المغامرة التى كانت بعض طوائف الشعب الفرنسى تعارض فيها كما كانت انجلترا لا توافق عليها ، فقد دخلت فى مفاوضات مع محمد على ليقوم باحتلال الجزائر ، هل بدأت المفاوضات باقتراح من محمد على ، أم من فرنســا على محمد على ؟ مسألة لا تزال غير مقررة وانما الثابت على ما يقول جبرائيل انكيرى فى مؤلفه بالفرنسية عن ابراهيم باشا : ان القنصل الفرنسى دورفيتر قدم مذكرة للبرنس دى بولنباك وزير خارجية فرنسا ، يعرض فيها استعداد محمد على أن يحتل الجزائر بأسطوله وجيشه تحت قيادة ابراهيم باشا على أن تظل خاضعة للسيادة العثمانيــة وتقديم الجزية لها ، فى مقابل أن تقدم له فرنسا أربع بوارج حربية وعشرون مليون فرنك . على سبيل التعويض والمساعدة وقال دروفيتى فى تعليقه على نجــاح هذا الاقتراح أن من شأنه راحة كل الأطراف المعنية ، فسيحصل محمد على على الممتلكات الجديدة فضلا عن الأربع بوارج ، وسيتسلم الباب العالى جزية مماثلة لما تدفعه مصر ، وفرنسا تنتهى أزمتها مع الجزائر ، وأوربا تتحرر نهائيا من خطر القرصنة فى البحر الأبيض المتوسط الذى كانت الجزائر مصدره .

ويمضى جبرائيل انكيرى فيقول ان مجلس الوزراء الفرنسى برئاسة الملك شارل العاشر قد وافق على جوهر الاقتراح . ولكنه أنقص المبلغ المطلوب الى عشرة ملايين فرنك ، ورفض تسليم محمد على الأربع بوارج التى طلبها ، فقد كان يعنى تزود محمد على بهذه البوارج - بالاضافة الى ماعنده وما كان قد شرع فى انتاجه - جعله قوة بحرية خطرة على فرنسا ، وعرضت فرنسا بدلا من ذلك ، أن يتولى الأسطول الفرنسى مساعدة الجيش المصرى . ولكن محمد على وابنه ابراهيم رفضا هذا الاقتراح الفرنسى ، قائلين ان هذه مسألة يجب أن تسوى بين المسلمين وبعضهم دون اشتراك سلطة اجنبية ، واصر على ضرورة الحصول على البوارج الأربع وعلى الملايين العشرين من الفرنكات .

وتسامعت انجلترا بنبأ هذه المفاوضات ، فوجهت انذارا حاسما لمحمد على أنها لا يمكن أن تسمح بتدخله فى مشكلة الجزائر . وأنها ستقاوم بالقوة كل عمل من هذا القبيل وقد كان ذلك كافيا لأن يقطع محمد على المفاوضات مع مندوب فرنسا نهائيا فى العاشر من ابريل سنة ١٨٣٠ .

وقامت فرنسا بتنفيذ مشروعها باحتلال الجزائر ، فاحتلت مدينة الجزائر فى ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدات حربها مع شعب الجزائر لاستكمال احتلال البلاد .

١٨٣١ م - ١٢٤٦ هـ - حرب الشام ودوافعها :

لم يكن تفكير محمد على فى احتلال الجزائر الا صورة لما كان يعتمل فى نفسه من طموح لا حد له لتأسيس مملكة مترامية الأطراف تحل محل الدولة العثمانية الواهية المريضة . وكان يقوى هذا الطموح فى نفسه الانتصارات العسكرية التى حصل عليها فى الحرب الوهابية ، وفتح السودان وحرب المورة بجيشه الجديد الذى أثبت الفاعلية والتفوق .

فلما انتهت مغامرة الجزائر التى شغلت تفكيره بعض الوقت اتجه الاتجاه الطبيعى الذى اتجهه كل حاكم مصرى على شىء من القوة ، وهو اعتبار بلاد الشام جزء مكملا لأمن مصر وسلامتها وتكاملها الاقتصادى .

كلوت بك يلخص مبررات فتح الشام :

وقد عبر كلوت بك عن وجهة نظر محمد على بهذا الصدد حيث قال :

ان ضم سوريا الى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا فمنذ تقرر فى الأذهان ان انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل تفيد المدنية عامة ، وجب الاعتراف بأنه لا يمكن ادراك هذه الغاية الا بضم سوريا الى مصر ، وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصا عن طريق برزخ السويس ، فاذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة ، وغزوة الفرنسيين ، نجد أن سائر الغزوات جاءت عن طريق سوريا كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الاسكندر

والفتح الاسلامى وغزوتى الأيوبيين والأتراك ، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان الى بقاء مصر مستقلة الا باعطائهـــا الحدود السورية لأن حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس .

محمد على يطالب السلطان بولاية الشام :

على أنه من الحق أن يقال ان محمد على كان يرنو ببصره لولاية الشام منذ عصر مبكر ، وقد طلب من السلطان أثناء الحرب الوهابية أن يمنحه ولاية الشـــام ليكون أقدر على تسيير الحرب ولم يكن يفتأ يطالب من حين لآخر بهذه الولاية ، ولعلها كانت هى الطعم الذى جعل محمد على يلبى دعوة الســـلطان له للاشتراك فى حرب المورة ، فقد وعده السلطان بولاية الشام اذا هو نجح فى اخماد ثورة اليونان ، فلما أن انتهت ثورة اليونان بما انتهت اليه ، وانسحب محمد على بدون اذن من الســـلطان ، فقد وجد السلطان نفسه فى حل من انجاز وعده ، واكتفى بتولية محمد على جزيرة كريت (١٢٤٦ هـ) ، مع اظهار تبرمه وسخطه من مسلك محمد على مما جعل العلاقات بين الباب العالى ومصر متوترة .

تهيؤ الظروف لفتح الشام :

ووجد محمد على أن الظروف كلها أصبحت مناسبة لاستيلائه على الشام ، فقد كانت الدولة العثمانية منهوكة القوى على أثر الحروب التى خاضتها ضد روسيا ، وكان السلطان محمود قد أجهز على الانكشارية بالمذبحة الكبرى التى شنها ضدهم بنار المدافع (١٦ يونيو سنة ١٨٢٦) فحصدهم حصداً وهدم الثكنات فوق رؤوسهم ولم تكن الفرصة قد أتيحت له لانشاء جيش نظامى جديد يمكن أن يقف فى وجه جيش محمد على وكان أهل الشام فى ذروة التذمر من الحكم العثمانى ، الذى أضر بالبـــلاد وجعلهم بوتقة للفتن والخلافات ، وعنوانا على التـــأخر والتخلف . وكان محمد على قد وطد أواصر الصداقة مع أكبر زعيم فى بلاد الشام وهو الأمير بشير الشهابى حاكم جبل لبنان وزعيم الطائفة المارونية والدرزية والذى كان فى هذه الفترة يؤلف أكبر قاعدة للاستقرار فى كل بلاد الشـــام .

وعلى ذلك فقد رأى محمد على أن يبادر لتنفيذ مشروعه .

نزاع محمد على مع عبد الله باشا الجزار :

ولم يكن يعوز محمد على خلق المبرر للبدء فى حملته ، فقد كانت العـــلاقات منذ أمد طويل بدأت تسوء بين محمد على وعبد الله باشا الجزار والى عكا .

وكانت العلاقة بين الرجلين حسنة جدا ، الى درجة أن وقف محمد على الى جوار عبد الله الجزار عندما حاولت الدولة العثمانية أن تعزله ، وسدد عنه للباب العـــالى اثنا عشر ألف كيس ليبقى فى منصبه ، فلما حاول محمد على أن يستردها منه رفض أن يدفعهـــا ، وكانت اجراءات محمد على التعسفيـــة فى فرض السخرة على الأهالى لتنفيـــذ مشروعاته ، والضرائب التى أصبح يبهظ بها كاهل الفلاحين ، فضـــلا عن تجنيدهم فى الجيش اجباريا ، كل ذلك قد جعل الكثير من الفلاحين يهاجرون من مصر

الى الشام ، حتى بلغ عددهم ستة آلاف فخاف محمد على من تفاقم هذه الهجرة فطلب من عبد الله الجزار ، أن يعيدهم الى مصر ، فرفض عبد الله الجزار هذا الطلب فى جفاف قائلا ان المصريين كباقى العثمانيين أحرار فى اختيار البلد الذى يقيمون فيه ، فغضب محمد على لهذا الرد وأعلن فى حنق أنه سيسترد هؤلاء الفلاحين بعد أن يزيد عددهم واحدا (قاصدا بذلك عبد الله الجزار بنفسه) .

ومن ثم شرع يجهز الحملة للاستيلاء على الشام .

الكوليرا تؤخر سير الحملة :

وقد دهمت مصر فى صيف هذه السنة ١٨٣١ م وباء الكوليرا واستشرى فى البلاد لمدة أربعة وثلاثين يوما بحيث قتل به مالا يقل عن ١٥٠ الف نسمة ، وامتد الوباء الى الجنود فبلغ عدة من ماتوا خمسة آلاف . على أن الوباء لم يلبث أن انتهى فاستأنف محمد على اعداد الحملة النهائى .

سير الحملة :

فى التاسع عشر من اكتوبر بدأ الجيش البرى بحركته من معسكر الخانكة قاصدا العريش ففلسطين تحت قيادة يكن باشا وكان يتألف من ثلاثين الف مقاتل مجهزين بأربعين مدفعا من مدافع الميدان .

وفى نفس الوقت كان الأسطول الجديد الذى تم صنعه فى ترسانة الاسكندرية والمؤلف من ستة عشرة سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل ، قد أقلع قاصدا الساحل الفلسطينى وعلى ظهره ابراهيم باشا قائد الحملة ورئيس أركانه سليمان باشا الفرنساوى .

وقد تم الاستيلاء على مدن غزة ويافا وحيفا برا وبحرا بدون اطلاق رصاصة واحدة ، وقابل الشعب السورى الجيش المصرى بالترحاب والتأييد ، ووجد فيه مخلصا من عسف الأتراك وظلمهم ، واتخذ ابراهيم باشا مدينة حيفا قاعدة لأسطوله وعملياته الحربية ضد عكا .

وكان عبد الله باشا الجزار قد زاد فى تحصينات مدينة عكا وهى التى عجز نابليون عن فتحها ، وتحطمت آماله تحت أسوارها ولكن ابراهيم باشا كان يتفوق على نابليون بميزة الأسطول ، فحيث لم يكن لدى نابليون ما يحكم به الحصار على عكا من البحر ، وحيث كانت قطع الأسطول الانجليزى تصده بمدافعها عن المدينة . كان الأسطول المصرى ، يحكم الحصار على المدينة بحرا ، ويصليها نارا حامية من البحر فى الوقت الذى فرض عليها الحصار من البر .

١٨٣٢ م ـ ١٢٤٧ هـ ـ انتصار ابراهيم باشا فى معركة الزراعة :

سير الباب العالى جيشا مؤلفا من عشرين ألفا برئاسة عثمان باشا والى طرابلس وطلب منه رفع الحصار عن مدينة عكا فزحف الجيش العثمانى وضم اليه كل من لقيه فى طريقه من جموع الأكراد .

وتوجه ابراهيم باشا لمقابلة الجيش الزاحف ، وفى سهل الزراعة جنوب مدينـة حمص تم اللقـاء بين الجيش المصرى والجيش العثمانى فى ١٤ ابريل فدارت الدائرة على الجيش العثمانى ، حيث مات كثير من جنوده وغرق الكثيرون منهم فى نهر العاص وتمزق شمل البقية . وقد غضب السلطان محمود لهذه الهزيمة فأعلن فى أوائل مايو عصـيان محمد على وانه كافر مرتد ، ولكن ذلك لم يكن له أدنى تأثير على سـير الحـوادث .

فتح عـكا :

وفى السابع والعشرين من مايو سقطت مدينة عكا بعد حصارها الذى دام ستة اشهر ، وكانت خسـائر الجيش المصرى على ما يقول عبد الرحمن الرافعى بالغة اذ ناهزت أربعة آلاف قتيل ولكن جريدة الوقائع العدد ٣٩١ قد ذكر أن عدد القتلى لم يزيدوا على ٥١٢ قتيل والجرحى ١٤٢٩ جريح وكيفما كان الأمر ، فان سقوط عكا التى استعصيت على نابليون ، كان له دوى فى الشرق والغرب ولفت الأنظـار الى عبقرية ابراهيم باشا العسـكرية وأركان حربه سليمان باشا الفرنسـاوى ، فبدأ الأوربيون يطلقون عليه اسم نابليون الشرق . وقد نشرت جريدة الوقائع فى عددها رقم ٣٩١ الصادرة فى ١١ محرم ١٢٤٨ هـ وصفا مفصلا لكيفية الاستيلاء على مدينة عكا على لسان ابراهيم باشا ، وآخر بانشاء يكن باشا .

الاستيلاء على دمشق :

وبسقوط عكا أصبح الشام الأوسط مفتوحا أمام الجيش المصرى ولذلك فقـد سلمت دمشق فى ١٦ يونيو فى هدوء ونظـام ، وقد أبقى ابراهيم باشا الجيش خارج المدينة فى نظام لم يكن مألوفا حتى ذلك الوقت فى دنيا الحروب . وأقام ابراهيم باشا فى دمشق ثمانية عشر يوما ، لتنظيم شـئونها وقد حضر فى أثنائهـا صلاة الجمعة بالمسجد الأموى . وقد رتب ادارة المدينة بحيث تكون فى يد السوريين فعين أحمد بك اليوسف أحد أعيان المدينة متسلما عليها .

وأنشأ ديوانا من عشرين من أعيان المدينة سماه « ديوان المشورة » وعهد اليـه بالاشراف على ادارة المدينة .

واقعـة حمص :

وفى ٨ يوليو وقعت معركة حمص ، وكان الباب العـالى قد بعث بجيش جديد برئاسة السير عسكر حسين باشا قاهر الانكشارية والذى كان يعتبر من أكفاء قواد تركيا ، وقد وهب السلطان له ولاية مصر وكريت اذا هو هزم الجيش المصرى . ولكن ابراهيم باشا وأركان حربه سليمان باشا والجندى المصرى أظهروا التفوق على القادة والجنود الأتراك فهزم العثمانيون هزيمة ساحقة ، اذ قتل منهم ٢٥٠٠ جندى وجرح الفان وأسر ثلاثة آلاف وتبدد شمل بقية الجيش ، واسـتولى الجيش المصرى على عشرين مدفعا ، وذلك فى الوقت الذى لم تزد فيه خسائر الجيش المصرى على ١٠٢

قتيل و ١٦٢ جريح وختم البلاغ العسكرى الصادر عن هذه الموقعة والمنشور بالوقائع المصرية عدد (٢٠ صفر ١٢٤٨) بقوله :

ولولا أن الانهزام كان عند غروب الشمس حيث لم يبق وقت للمحاربة لما كان بقى من هؤلاء القوم المتزينين بزى النصارى احد البتة . وقال أفندينا رئيس العسكر (ابراهيم باشا) انه فى مدة حياته لم ير مثل انهزامهم .

فتح شمال الشام :

فتح الانتصار فى موقعة حمص الطريق لاحتلال شمال سوريا حتى جبال طوروس ورحبت مدن حماة وحلب بالجيش المصرى وتوافد على ابراهيم باشا وهو فى مدينة حلب ، ممثلون من مدن أورفا وديار بكر يعلنون خضوع المدنيين لحكم محمد على .

ولما كان الجيش العثمانى المنسحب قد تحصن فى مضيق بيلان الجبل الوعر والذى يقع جنوب الاسكندرية ، فقد أسرع ابراهيم باشا يتعقب الجيش المنهزم قبل ان يثبت أقدامه .

واقعة بيلان :

فى ٣٠ يوليو ، جرت واقعة بيلان ، وعلى الرغم من أن الجيش العثمانى كان قد تحصن فى المواقع الجبلية الغير قابلة للاقتحام ، فقد استطاع ابراهيم باشا بمناوارته العسكرية أن يدهم الجيش التركى ، وأن يخوض معه معركة رهيبة استغرقت ثلاث ساعات وانتهت مرة أخرى بهزيمة الجيش العثمانى ، وفقد ٢٥٠٠ من رجاله ما بين قتيل وجريح بالاضافة الى ٢٠٠٠ أسير و ٢٥ مدفعا .

على ما جاء فى كتاب عبد الرحمن الرافعى . ولكن الأرقام التى أوردها أمين باشا سامى فى تقويم النيل نقلا عن ملخص الوقائع المصرية تزيد عن ذلك كثيرا جدا .

زحف الجيش المصرى فى الأناضول :

استولى الجيش المصرى عقب موقعة بيلان على الاسكندرونة وأسروا عددا جديدا من الجيش المنهزم (١٩٠٠ مقاتل) . واستولى الجيش على مدن أنطاكية واللاذقية ثم نفذ الى بلاد الأناضول ، حيث احتل مدينة (ادنة) ومدن أورفا وعينتاب ومرعش وقنصرية .

معركة قونية :

لم تنكسر عزيمة السلطان بهذه الهزائم المتكررة ولذلك فقد ألف جيشا جديدا عهد بقيادته الى الصدر الأعظم محمد باشا رشيد أعظم من بقى من قواد الاتراك ، وبلغت عدة الجيش الجديدة ثلاثة وخمسين ألف مقاتل .

وفى العشرين من ديسمبر عند مدينة قونية تم اللقاء بين الجيشين وبدأت المعركة عند الظهر وانتهت بعد غروب الشمس بساعتين فكانت مدتها سبع ساعات ، وانتهت بهزيمة ساحقة للجيش العثمانى تفوق كل هزائمه السابقة ، اذ سقط الصدر الأعظم

رشيد باشا نفسه أسيرا بيد الجيش المصرى . وخسر الأتراك ثلاثة آلاف قتيل ، ووقع فى الأسر خمسة آلاف أسير منهم عدد كبير من الضباط ، وغنم المصريون ٤٦ مدفعا .

وبعد هذه المعركة لم يبق لدى السلطان محمود جيش ليدافع به عن اسطنبول عاصمة ملكه ، فانفتح الطريق أمام ابراهيم باشا اليها ، وبدات جموع الشعب التركى ، ترحب بابراهيم باشا فى حماسة وتدعوه الى مدنها لاقرار الأمن والنظام الذى اشتهر به .

فزع الدول الأوربية :

افزعت هذه الانتصارات الساحقة التى أحرزها ابراهيم باشا والجيش المصرى الدول الأوربية التى كانت تتربص الدوائر بالدولة العثمانية لاقتسام غنائمها . فقد كان زحف ابراهيم باشا يعنى قرب دخوله اسطنبول ، وبالتالى سقوط الدولة العثمانية المريضة ، وحلول دولة شابة ، تقف حجرة عثرة فى سبيل المطامع الأوربية فى تركة الرجل المريض .

ولذلك فقد أعادت الدول فتح المسألة الشرقية بعد أن أصبح يطلق عليها فى هذه الفترة اسم المسألة المصرية وانبرت دول روسيا وانجلترا وفرنسا ، تعمل كل منها على صيانة مصالحها ، وكان خوف كل دولة مما قد تنفرد به الدولة الأخرى من المكاسب والمغانم بجعلها تسعى جاهدة للضغط على محمد على من ناحية وعلى الباب العالى من ناحية ثانية لتسوية النزاع لوضع حد له .

وتعرض محمد على بصفة خاصة الى ضغط شديد من فرنسا وانجلترا اللتان كانتا تخشيان تدخل روسيا .

ولم يرضخ محمد على فى بادىء الأمر .. وواصل ابراهيم باشا زحفه فاحتل مدينة كوناهية وبذلك لم يبق ما يفصله عن اسطنبول سوى خمسين فرسخا .

وقام الحكم المصرى فى مدينة ازمير بغير حاجة لاحتلالها .. وأصبح انهيار الحكم العثمانى مسألة أيام .

السلطان محمود يستنجد بروسيا :

ولم يجد السلطان محمود ما يفعله الا أن يستنجد بأعدائه الروس الذين أسرعوا بالاستجابة للنداء وأنزلوا على الساحل الأوربى لتركيا خمسة عشر الف لحماية مدينة اسطنبول فاضطربت انجلترا وفرنسا لهذا العمل أشد الاضطراب ، وضغطوا على الباب العالى للاتفاق مع محمد على ، فى الوقت الذى كانوا يضغطون فيه على محمد على لايقاف ابنه ابراهيم عن الزحف خطوة واحدة نحو الأمام .

١٨٣٣ م — ١٢٤٨ هـ — ابرام اتفاقية كوناهية :

نجحت انجلترا وفرنسا فى خاتمة المطاف فى التوصل الى اتفاق بين السلطان ومحمد على وهو المشهور باسم اتفاق كوناهية (٨ ابريل سنة ١٨٣٣) وبموجب

هذا الاتفاق تثبت محمد على فى ولاية مصر وكريت واسناد ولاية سورية بكل أقسامها اليه وتجديد ولاية ابراهيم باشا على جدة مع مشيخة الحرم المكى أى اسناد أدارة الحجاز الى عهدته وتخويله ادارة اقليم أدنة . وذلك فى مقابل أن يخلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول التى كان يحتلها .

وهكذا أصبحت حدود سلطان محمد على أو بالأحرى دولة مصر الجديدة تنتهى عند جبال طوروس شمالا ، والخرطوم جنوبا والخليج العربى (الفارسى) شرقا .

معاهدة هنكاراسكلهسى :

لم يقبل السلطان محمود باتفاقية كوناهية الا مكرها وتحت ضغط انجلترا وفرنسا وخوفا من سقوط عرشه ، ولذلك فقد أسرع بمجرد الانتهاء من عقدها ، بعقد اتفاقية سرية مع روسيا عرفت باسم معاهدة هنكاراسكلهسى وهى معاهدة دفاعية هجومية التزمت فيها الدولتان أن تدافع كل منهما ضد اى خطر يتهددها من الخارج وتعهدت تركيا أن تأذن للأساطيل الروسية بالمرور من البحر الأسود الى البحر الأبيض فى الوقت الذى تسد فيه تركيا البواغيز فى وجه سفن الدول الأخرى الحربية ، وهو ما كانت الروس يسعون للحصول عليه منذ أمد بعيد ، وخاضوا فى سبيله الحروب المتوالية فجاء السلطان محمود يعطيهم اياه ، بغير مقابل الا أن يحموه من محمد على .

خطط ابراهيم باشا وآماله فى دولة عربية :

وليس هناك ما يصور لنا الجو العاصف الذى كان يسود الأحداث فى هذه الفترة وما كان يدور فى نفس محمد على وابراهيم وموقف الدول الأوربية منهما ومن بعضهما البعض من أن نثبت الحديث الذى دار بين البارون « بوا الكونت » مندوب فرنسا الذى بعث به الى محمد على وابراهيم لحملهما على ايقاف الزحف على اسطنبول وقبول الصلح الذى انتهى باتفاقية كوناهية .

ابراهيم باشا : انه ليؤلمنى أن الدول منعتنى من متابعة الزحف .

بوا الكونت : على العكس انى أظن أنه قد آن الأوان الذى يحق فيه للدول أن تفكر فى وقف سموكم عن الزحف ، فانه لم يكن أمامكم الا بضع خطوات لتصل الجنود المصرية الى اسكدار وهناك تشب الثورة فى اسطنبول .

ابراهيم باشا : لقد كنت شديد الرغبة فى دخول اسطنبول على رأس جيشى .

بوا الكونت : وماذا تقصدون سموكم من الذهاب الى اسطنبول وماذا كنتم صانعين بها ؟

ابراهيم باشا : ماكنت أدخلها للهدم بل للاصلاح ، ولكى أقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء بدل الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الامبراطورية .

بوا الكونت : ان سموكم يؤيد بحديثه المخاوف التى ألمحت اليها فى كلامى . فان ما كنتم تنوون احداثه هو ما كنا نعمل على منعه لا لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو

سموكم أو نحو أبيكم ، ولكن لأن الانقلاب الذى كنتم عازمين على احداثه فى الاستانة يفضى الى مشاكل قد تشعل نار الحروب فى أوربا بأسرها .

ابراهيم باشا : انك واهم فيما تظن فان هذا الانقلاب كان سيحدث دون أى مقاومة فان السكان على جانبى البسفور والدردنيل يطلبوننى لاحداث الانقلاب الذى كان سيتم فى هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه ، تقولون انكم تبغون الدفاع عن كيان تركيا وجعلها قوية ، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية تقوم على أنقاض هذه السلطنة المفككة التى تحاولون عبثا تأييدها والتى ستنحل يوما بين أيديكم وتسبب لكم وقتئذ مشاكل لا عدد لها .

اننى أبحث كثيرا وأتساءل لماذا تحقد الدول الأوربية كل هذا الحقد على الأمم الاسلامية ؟

بوا الكونت : اننى لم أفهم كلام سموكم .

ابراهيم باشا : انك تقول الآن ان وصول جيشى الى اسكدار كان سيحدث ثورة فى اسطنبول وانى أوافقكم وأرى رأيكم .

ولكن أليس هذا دليلا على أن الأمة الاسلامية لا تريد حكم السلطان محمود ، فبأى حق ترغمون هذه الأمة على ما لا تريده وهل يحق لكم معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها ؟ عجبا لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم ، تنـادون أن لكل أمة الحق فى اختيار ولى أمرها ونظام الحكم الذى تبتغيه ، بل انكم ساعدتم اليونانيين فى ثورتهم فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق .

بوا الكونت : ان سموكم يخطىء فى تقدير المبدأ الذى أملى على الدول الأوربيـة سياستها فى المسألة الشرقية فانها لا تنظر الى هذه المسألة فى ذاتها ، بل تنظر اليها من ناحية تأثيرها فى مراكز الدول فاذا رأت مثلا كما فى الحالة التى نحن بصـددها أن ثورة أهليـة تفضى الى تزلزل التوازن الداخلى واحداث حـرب عامة ، كان من الطبيعى أن تعمل كل دولة ما تراه حائلا دون وقوع هذه الكارثة .

ابراهيم باشا : هراء ان أسباب الخصام بين الدول الأوربية لا تنتهى .

الولد وأبيه أو ابراهيم ومحمد على :

وقد أجرى بوا الكونت موازنة بين محمد على وابراهيم بعد أن قابل واختلط بكل منهما ، فقال عن ابراهيم انه لم تكن تتوفر عنـده القدرة على تأسيس الممالك مثلما كانت تتوفر عند أبيه ، ولكن عنده من المواهب ما يكفل المحافظة على كيانها وبقائها .

وأن من أسباب قوة الدولة المصرية هو الارتباط المتين بين محمد على وابنه ابراهيم الذى قد حافظ على عظيم احترامه واجلاله لأبيه ولم يداخله أى زهو أو خيلاء ولم تتغير علاقته بأبيه بعد كل الانتصارات العظيمة التى نالها ، لدرجة أنه لم يكن يسمح لنفسه أن يشرب الدخان فى حضرته ، واذا بعد عنه فانه لا يفتأ يهدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل .

وكان محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق اما ابراهيم فانه اقرب الى المبادىء الحرة وقد خالف اباه فى مسألتين جوهريتين :

الأولى : انه لم يكن يوافق على نظام الاحتكار الذى اتبعه محمد على فى مصر وسوريا بالرغم من أنه نفذ أوامر ابيه فى هذا الصدد .

الثانية : انه كان يجاهر برأيه فى احياء القومية العربية ، على خلاف أبيه وبطانته التى كانت متشبعة بالفكرة التركية وكانت فكرة ابراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التى أسسها هو وأبيه دولة عربية يكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة وهى الأمة المصرية ، وأن يعيد الى القومية العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .

ولقد قال لمن سأله أبان حصار عكا .. الى أى مدى سيستمر زحف جيوشه فأجاب الى حيث أظل أكلم الناس ويكلموننى بالعربية .

عدد الجيش المصرى :

وليس هناك ما يكمل صورة ما وصلت اليه مصر فى ذلك الوقت من قوة عسكرية لا تتناسب مع ضآلة سكانها ، من أن نثبت عدد أفراد الجيش المصرى عقب معاهدة كوناهية .

كان الجيش يتألف من ٢٢ آلاى من المشاة وعددهم :

٧٠ الف جندى و ٣ آلايات من الطوبجية (٦٣٥٧) جندى و ١٣ آلاى من الفرسان و ٧٩٦٢ جندى ، وفرقة هندسية (٣٩٤٢ جندى) وفرسان غير نظاميين ٣٤٣٥ جندى وبدو محاربين ٥٣٧٠ جندى ، طلبة المدارس الحربية ٣٤٨٨ جندى الرايف ورجال الشرطة ٦٧٩٩٨ فيكون المجموع ١٦٨ر٨٨٩ جندى .

١٨٣٤ م — ١٢٤٩ هـ — ميزانية مصر :

واذا كانت الميزانية بدورها تكشف عن مدى ما وصلت اليه البلاد ، فقد كانت ميزانية عام ١٢٤٩ الهجرى على الوجه التالى :

الايرادات : ٢ر٤٢١ر٠٦٧ جنيه حيث كانت عام ١٢٣٧ هـ ١ر٨٨١ر٤٩٩ جنيها .

والمصروفات : ١ر٩٢٧ر٠٧٩ جنيها حيث لم يزد فى الميزانية السابقة عن ١٢٢ر٢٦٦ جنيها ، وهذا يكشف عن مدى ما أصبح ينفق على الجيش .

رأسمالية الدولة :

وتكشف الميزانية عن احتكار محمد على لكل الصناعات أو ما يسمى فى عصرنا الحديث برأسمالية الدولة فترى الميزانية تتضمن فى أحد بنود ايراداتها .

١٢ مليون فرنك : قيمة الأرباح على البضائع التالية :

القطن والنيلة ، والأفيون والسكر ، والنبيذ والأرز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبذر الكتان ، والسمسم وبذر الخص والقرطم والحرير والزعفران وخام البارود والجير والجبس والأحجار والقطرون والصودا وملح النشادر .

٠٠٠ر٥٠٠ر١ فرنك : أرباح منسوجات القلوع .

٠٠٠ر٢٠٠ر١ فرنك : أرباح فابريقة منسوجات الحرير .

٠٠٠ر٨٧٥ فرنك : أرباح الجلود الخام والمدبوغة .

٠٠ر١٠٠ فرنك : بيع الحصر .

* * *

١٨٣٦ م ــ ١٢٥٢ هـ انشاء الكتبخانة ، ومدرسة الألسن :

فى هذه السنة أصدر محمد على أمره بانشاء الكتبخانة (دار الكتب) كما انشئت مدرسة الألسن بناء على اقتراح من رفاعة رافع الطهطاوى الذى أحس بحاجة مصر الى طبقة من العلماء الأكفاء فى الآداب العربية وآداب اللغات الأجنبية ، ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأفرنجية وخاصة الفرنسية وليكونوا على صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية وينهضوا بالأداة الحكومية فى المناصب التى تعهد اليهم .

فاستجاب محمد على لهذا الاقتراح وانشئت مدرسة الألسن وجعل مقرها فى سراى الألفى بالأزبكية ، وقد عرفت حين انشائها بمدرسة الترجمة ثم عرفت بمدرسة الألسن وعهد بنظارتها الى رفاعة الطهطاوى ، فاختار للمدرسة خمسين طالبا من مدارس الأرياف والأزهر ، ثم زاد عددهم حتى صار ١٥٠ ، لم يلبثوا أن أصبحوا نجوم المجتمع المصرى من العلماء والشعراء والأدباء فى نهضتها الحديثة وكانت المدرسة عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الايطالية والانجليزية وعلوم التاريخ والجغرافيا والشريعة الاسلامية والشرائع الأجنبية فأشبهت كليتى الآداب والحقوق فى الوقت الحاضر .

الفلاح ولى نعم الجميع :

أصدر محمد على أمرا الى مفتش عموم الفابريقات فى آخر جمادى الثانية من هذه السنة يقول فيه :

الم أقل لكم مرارا أن أولياء نعمتى اثنان : أحدهما السلطان محمود ــ والآخر الفلاح ، وأن قصدى من هذه الحكاية عدم النظر الى الفلاح بعين العداوة وازالة ذلك من الوجود ، لأن أخذنا وعطاءنا ونيلنا هذا الشرف هو من وجوههم أى بسببهم فعلا ولكون الفلاح ولى نعم الجميع ألم يجب النظر الى ما فيه من أصول رفاهيته وزيادة

يوميات أولئك الشغالين ، فيلزم بوصوله إما عمل صورة مستحسنة لصرف أجرهم ليكون ذلك موجبا لرفاهيتهم وتشيقهم للمصلحة اذ بذلك تعود بالمنفعة عليها ، ويسر الجميع ويستوجب حضورهم للاشغال بانشراح قلبى وبعد تقرير ما يلزم لما ذكر تعرض الكيفية لصرفه .

انشاء ديوان المدارس :

وفى غرة ذى الحجة من هذه السنة أسس ديوان المدارس وأسندت ادارته للسيد اللواء مصطفى مختار بك أحد رجال البعثة الثانية وكان من بين أعضائه كلوت بك ورفاعة بك ، وقد قرر المجلس نظام التعليم الابتدائى . ووجوب انشاء ٥٠ مدرسة ابتدائية منها أربعة فى القاهرة وواحدة بالاسكندرية والباقى فى أنحاء القطر لنشر التعليم بين طبقات الأمة ، على أن يكون عدد تلاميذ مدارس القاهرة ٢٠٠ تلميذ ومدارس الأقاليم مائة .

١٨٣٨ م - ١٢٥٤ هـ - صدور القانون الأساسى وانشاء الدواوين :

فى هذه السنة وضع محمد على قانونا أساسيا يعرف بقانون السياستنامة ، احاط فيه بنظام الحكومة واختصاص كل مصلحة من مصالحها وقد حصر السلطة فى سبعة دواوين ، تعتبر النواة التى قامت عليها الوزارات فيما بعد وهذه الدواوين هى:

١ - الديوان الخديوى وينظر فى شئون الحكومة الداخلية العامة وله سلطة قضائية أو يحكم فى جرائم القتل والسرقات أما الدعاوى الشرعية فتختص بها المحاكم الشرعية .

٢ - ديوان الايرادات : ويختص بحساب المديريات وجزيرة كريت والحجاز والسودان .

٣ - ديوان الجهادية : ويختص بنظر كل ما يتصل بالجيش والمصانع الحربية .

٤ - ديوان البحر : ويختص بكل ما يتعلق بالأسطول .

٥ - ديوان المدارس : ويختص بأمور المدارس الابتدائية والتجهيزية والعالية والكتبخانات ومخازن الآلات والأدوات ومطبعة بولاق وادارة الوقائع .

٦ - ديوان الأمور الافرنكية ، والتجارة المصرية : واليه يرجع النظر فى العلاقات الخارجية وتجارة الحكومة .

٧ - ديوان الفابريقات : واليه يرجع النظر فى ادارة جميع الفابريقات .

محمد على يحاول اعلان استقلال مصر :

كان محمد على كما رأينا يحاول الاستقلال بمصر ليتولى أريكتها ولكن الظروف كانت تحول بينه وبين نفاذ هذا العزم ، وكان دائم التأرجح بين أن يظل فى نطاق الدولة العثمانية على أن يكون هو وارثها ، ومجدد شبابها وبين أن يستقل عنها ، ولكن

تفاقم الأمور فى الشام ، وتحريض الدولة العثمانية للعرب على الثورة فى وجه محمد على ، وامدادهم بالمال والسلاح ووصول جيشه الى ذروة القوة اذ بلغت فى ذلك الوقت ٢٣٥ الف جندى منها ١٣٠ ألف جندى نظامى ما بين مشاة وفرسان ومدفعية وبلغت قطع الأسطول ٣٢ وحدة منها ١١ بارجة كبيرة و ٧ فرقاطات و ٥ سفن الكورفت و ٩ من طراز الابريق وعليها ١٦ ألف رجل محارب .

ولذلك فقد قرر نهائيا أن يخطو الخطوة التى طال تصميمه عليها وهى قطع العقدة التى تربطه بتركيا واعلان الاستقلال ، وقطع العقدة التى تربطه بالدولة العثمانية ، فاستدعى فى هذه السنة قناصل الدول واعلن عزمه على الاستقلال أسوة ببلاد اليونان ، ولكن الدول كلها وعلى رأسها فرنسا نفسها وقفت فى وجهه وحذرته من مغبة الاقدام على هذا العمل ، ولما كان محمد على قد أصبح شوكة فى حلق الانجليز ومطامعها التوسعية فى الشرق الأوسط ، حتى لقد أقدمت على احتلال مدينة عدن .

وأجبرت أمير البحرين عن التخلى عن محالفة محمد على ومنع المصريين من دخولها .

ولذلك فلا عجب اذا رأيناها وقد علمت بعزم محمد على على الاستقلال تقف فى وجهه وتحذره .. الأمر الذى جعل محمد على يغضب ورأى أن يشغل نفسه بالسفر الى السودان وتنظيم شئونه .

محمد على فى السودان :

وفى أكتوبر من هذه السنة سافر محمد على الى السودان ليبحث عن مناجم الذهب وغيره من المعادن ولذلك فقد صحب معه طائفة من المهندسين والباحثين الجيولوجيين الفرنسيين ولكن البحث له يفض الى نتيجة .

وزاد فى تعمير مدينة الخرطوم ـ وأصدر أمره بالغاء تجارة الرق لما رآه من فظاعة النخاسين وما يرتكبونه من قسوة فى جلب الأنفار وترحيلهم الى مختلف الأمصار ، وانفذ رسلا يعلنون هذا الأمر فى جميع البلاد .

البعثات لاكتشاف منابع النيل :

ولعل أعظم الآثار لزيارة محمد على للسودان ، فوق اقرار الأمن ، وتدعيم انشاء المدن « الخرطوم ـ كسلا » كان فتح الطريق لاكتشاف منابع النيل ، والوصول الى خط الاستواء ، فقد تحولت الخرطوم الى قاعدة لمحاولات السير جنوبا لاكتشاف منابع النيل وشجع محمد على العلماء الأجانب ، وهيأ لهم من المساعدات ما يمكنهم من محاولات اكتشاف منابع النيل . بل انه عهد الى البكباشى سليم بك قبطان المصرى أحد ضباط البحرية بالقيام بهذا العمل وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب ، فشرع فى هذه السلسلة من الحملات التى تعتبر بحق أول كشف لقلب افريقيا فى العصر الحديث .

وفى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩ عاد محمد على الى مصر بعد أن قضى فى السودان خمسة أشهر .

ويقص المؤلف العظيم تقويم النيل بأوامر محمد على التى اصدرها لتنظيم ادارة السودان وتعميره .

وعاد محمد على الى مصر ليواجه الحروب التى أشعلتها تركيا ، لتثأر منه لكرامتها ، وتسترد منه بلاد الشام ومصر لو استطاعت الى هذا سبيلا .

١٨٣٩ م ــ ١٢٥٥ ــ حرب الشام الثانية :

لم يكن صلح كوتاهية الذى تم بين محمد على والباب العالى فى حقيقته سوى هدنة مسلحة ، على الأقل من جانب الباب العالى ريثما يعد نفسه ويعيد تنظيم جيشه وقواته للانقضاض على محمد على ، وقد كان السلطان محمود شخصية تمثل العناد فى أعلى صورها ، وقد رأينا كيف انه لم يتردد فى وضع نفسه تحت حماية روسيا عدوة الباب العالى اللدود بابرامه معاهدة هنكاراسلاسى . ولذلك فقد مضى غداة توقيع هذه الاتفاقية يعد للمعركة التالية فأنشأ على حدود سوريا معسكرا حشد فيه الجنود تحت قيادة حافظ باشا وراحوا يتدربون على الأنظمة الحديثة والأسلحة الحديثة تحت رعاية واشراف ضباط من الألمان ليستعيدوا فتح سوريا .

ومن ناحية أخرى ، فقد راح مندوبو الباب العالى يجوسون خلال الشعب السورى بطوائفه المختلفة ويحرضونه على الثورة على حكم محمد على وابنه ابراهيم وفى بادىء الأمر لم تلق هذه التحريضات اذنا واعية ولكنها لم تلبث أن أثمرت وأفرخت ، عندما بدأ محمد على يطبق أساليبه الاستبدادية على الشعب السورى .

ابراهيم باشا والقومية العربية :

ذكرنا من قبل ، كيف كان ابراهيم باشا ، على ما يقول البارون البوا الكونت يجاهر علنا باحياء القومية العربية واعطاء العرب حقوقهم واسناد المناصب اليهم سواء فى الادارة أو فى الجيش وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى ادارة الشئون المالية ويعودهم سلطة الحكم .

وقد اتبع ابراهيم باشا القول بالعمل فنراه يصدر فى ١٥ صفر ١٢٤٨ هـ أمرا بتشكيل ديوان دمشق من ٢٢ شخصا ما بين مسلمين ومسيحيين ويذكر به دستور الحكم الذى يرغب فى أن يحكم الشام على أساسه فيقول :

الله بالنسبة للحديث القائل بأن كل راع مسئول عن رعيته وجب علينا النظر فى أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه التى لا تحصل الا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الأحكام فيهم بالحق وقد استحسنا تشكيل مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأى من الأعيان والأكابر والتجار والوجوه للنظر فى القضايا والمشورة فيها ــ ويكون ذلك تعبير ميل بلا غرض ولا نفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف لكبير ولا لصديق ولا لوجيه وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجلس فيكون قد خالف أمره وبذلك يكون قد أوقع نفسه تحت الملامة وقد صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم :

وقد عم ابراهيم باشا انشاء هذه الدواوين فى كل مدينة وأبطل سلطان الأمراء الاقطاعيين وضرب على يد الأشقياء وقطاع الطرق وبسط رواق الأمن على البلاد ونظم طرق الجباية وعامل الأهلين بالعدل والمساواة من غير تفريق بين الطبقات والمذاهب والأديان ، ويجمع المؤرخون السوريون ، على أن أعظم ظاهرة لحكم ابراهيم باشا فى الشام هو عدم التفرقة بين المسلمين والمسيحيين .

نشاط الزراعة والتجارة :

وشهدت سوريا فى السنوات الأولى لحكم ابراهيم ، نشاطا غير عادى فى الزراعة والتجارة ، ليس فقط نتيجة استتباب الأمن ، وتنظيم الاتصال بمصر والحجاز ولكن بسبب مشروعات ابراهيم باشا الذى عمم فى البلاد تربية دود القز وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض ، وغرس أشجار الزيتون وازدهرت صناعة العنب .

يقول المسيو لويس بلان المؤرخ الفرنسى فى كتابه تاريخ عشر سنوات :

« اذا أردت أن تعرف ما أفادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتسست بأشجار الزيتون وضواحى بيروت التى كثر فيها الكروم والنشاط الذى انبعث فى دمشق وحلب ، صحيح أن محمد على أظهر عنفا وقسوة فى حكم سورية ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد قد نالت سوريا النظام والعمران » .

محمد على يدفع السوريين الى الثورة :

وتدخل محمد على بروحه الاستبدادية ، ليفرض من النظم ما فرضه من قبل فى مصر متجاهلا انه أمضى فى مصر ربع قرن قبل أن يصبح سلطانه مطلقا وأن شعب مصر الموحد المتجانس العاكف على الزراعة والانتاج والعلم غير الشعب السورى ، الذى يتألف من عدد من الأجناس والأديان والمذاهب ، والذى يعيش البعض منه فى معاقل الجبال ، والجميع مدججون بالسلاح ولم تكن الاجراءات التى فرضها محمد على على الشعب السورى أقل من :

— احتكار الحرير فى سوريا .

— فرض ضريبة الرءوس على جميع الرجال على اختلاف مذاهبهم .

— تجنيد الأهالى اجباريا فى الجيش .

— نزع السلاح من أيدى الأهالى جميعا وبدون استثناء .

وقد كان من الممكن أن يصبر الناس على نزع صنع الحرير من أيديهم واحتكار محمد على ، وكان يمكن أن يسكتوا ولو على مضض على الطريقة الجديدة التى لاعهد لهم بها . اما أن يجردهم من السلاح الذى أصبح جزءا من كيانهم — وأن يجند أبناءهم ويأخذهم الى بلادبعيدة حيث لا يرونهم بعد ذلك ، هنا وقامت القيامة .

وكان يساعد على تأجيج الثورة الدولة العثمانية التى كانت ترسل المهيجين والدعاة ، يعلنون عصيان محمد على وثورته على السلطان وأن ساعة تأديبه قريبة .

والتهبت البلاد السورية كلها بروح السخط ، ولم يبق على الولاء لمحمد على وابنه ابراهيم الا الأمير بشير الشهابى حاكم لبنان ، فقد استثناهم محمد على من أوامره لحسن العلاقات مع الأمير شهاب .

وبدأت الثورة أول ما بدأت فى مدن يافا ثم نابلس من منطقة فلسطين تحت زعامة الشيخ قاسم حاكم نابلس واستشرت الثورة بحيث احتاج الأمر الى أن يشرف ابراهيم باشا بنفسه على اخمادها ، بل وجاء محمد على بشخصه للاشراف على اجراءات القمع ، واستخدام دهائه فى تمزيق وحدة الثائرين ، واستمالة القبائل المختلفة ، وكان لذلك أثره فى تمكين ابراهيم من القضاء على الثورة فى منطقته ولكن محمد على لم يكد يرجع الى مصر ، حتى اشتعلت الثورة مرة ثانية اشد عنفا من من سابقتها ، وكان الثائرون هذه المرة هم الدروز فى حوران « نوفمبر ١٨٣٧ » وقد احتاج الأمر الى معارك متصلة دامت أكثر من تسعة أشهر . قبل أن يتمكن ابراهيم باشا من اخماد هذه الثورة ، وبعد أن تكبد الجيش المصرى من الخسائر الفادحة ، لم يتعرض لبعض منه فى كل المعارك التى خاضها مع الجيش العثمانى وحسبك أن تفهم أن الجيش قد فقد فى معركة واحدة من معاركه مع الدروز أربعة آلاف ما بين قتيل وجريح .

ولم يكد ابراهيم باشا ينجح نهائيا فى تهدئة الأحوال ، حتى كانت تركيا تشعل نار الحرب ضده وتعيد تأليب الشعب على محمد على وابراهيم ، وفى هذه المرة كانت انجلترا أكبر معين لها على تأجيج نيران الثورة .

١٨٣٩ م — واقعة نزيب :

فى الرابع والعشرين من هذه السنة وقعت معركة نزيب (١) بين الجيش العثمانى والجيش المصرى .

وكان السلطان عندما تصور انه استكمل استعداداته الحربية ، وتم اعداد الجيش العثمانى وتدريبه على يد أعظم العسكريين فى أوربا وهم القواد الألمان وعلى رأسهم فون مولتكة بطل حرب السبعين . وعندما اطمأن الى أن الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا من ناحية ، وروسيا من ناحية أخرى ، لا يمكن أن تسمح لمحمد على أن يجنى ثمار أى نصر ان يحرزه عليها اصدار أمره للجيش العثمانى بعبور نهر الساجور وكان هو الحد الفاصل بين الحدود المصرية والتركية . وكانت قوة الجيش التركى النظامى تبلغ أربعين ألف جندى تساندها قوة مماثلة من الجنود غير

(١) جرت عادة بعض المؤرخين المصريين على تسمية هذه الموقعة باسم موقعة نصبين ولكن المرحوم أمين سعيد يقول لنا انه زار هذه المنطقة فوجد أن مدينة نصيبين بعيدة كل البعد عن النهر الذى دارت الى جواره المعركة كما أن هناك بالفعل قرية اسمها نزيب ..

النظاميين ، ووصل الجيش التركي في زحفه حتى قرية تريب واتخذ منها قلعة حصينة بما أقام حول مواقعه من استحكامات .

ولم يؤخذ ابراهيم باشا على غرة بالزحف العثماني ، فقد كانت المعركة متوقعة منذ أمد بعيد ، وقد أمده أبوه ، بالنجدات اللازمة ، فلما استوثق ابراهيم من استعداداته تقدم لملاقاة الجيش العثماني .

ويسجل التاريخ أدق تفاصيل التحركات العسكرية وأدوار معركة تريب ، وكيف كشفت مرة أخرى عن تفوق ابراهيم باشا في المناورات الحربية ، والتي جعلته يهاجم الجيش العثماني من الخلف ليتفادى ما أنشأه العثمانيون من استحكامات .

وقد انتهت الموقعة بهزيمة ساحقة للعثمانيين فاقت كل هزائمهم السابقة فقد خسروا أربعة آلاف قتيل وجريح ، ووقع في الأسر اثنى عشر ألف أسير ، واستولى المصريون على ٢٠ ألف بندقية و ٤٤ مدفعا ثم ٣٣ مدفعا في اليوم التالي ، كما وقعت خزينة الجيش نفسها وبها ستة ملايين فرنك ، ولعل ذلك يكشف عن مدى هول الهزيمة .

ولم تكن خسائر الجيش المصري هينة فقد بلغت أربعة آلاف ما بين قتيل وجريح ولكن هذا الثمن دفع في مقابل النصر .

وانفتح الطريق مرة أخرى نحو اسطنبول ، حيث لم تعد ثمة قوة يمكن أن توقف زحف الجيش المصري الظافر .

وفاة السلطان محمود :

وكأن الأقدار شاءت أن توفر على السلطان محمود تجرع نبأ هذه الكارثة فعاجلته المنية في أول يوليو ١٨٣٩ .

وخلفه من بعده السلطان عبد المجيد وكان عمره لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره . وكان أول ما قام به من عمل أن قلد خسرو باشا عدو محمد على اللدود منصب الصدر الأعظم .

الاسطول العثماني يلجأ الى محمد على :

وكان القبطان أحمد باشا فوزى قائد الاسطول العثماني ممن يخشون على أنفسهم مغبة تقلد خسرو باشا منصب الصدارة ، فأبحر بالأسطول بكل قطعة الى ميناء الاسكندرية ووضعه تحت تصرف محمد على باعتباره باعث رجل الدولة العثمانية ومناط الرجاء .

وكان الاسطول مؤلفا من تسع بوارج كبيرة واحدى عشرة سفينة من نوع الفرقاطة وخمس من نوع الكورفت وعلى ظهرها ١٦١٠٧ ملاح وآلايان من الجنود عددهم ٥٠٠٠ مقاتل وعندما اقترب الاسطول العثماني من مياه الاسكندرية انضم اليه الاسطول المصري مؤلفين معا خمسين سفينة حربية تحمل ثلاثين ألف مقاتل وثلاثة آلاف مدفع .

وقد استقبل محمد على قائد الاسطول العثمانى بكل احترام وتبجيل .

وهاجت انجلترا :

وهاجت انجلترا لهذه التطورات ، التى تهدد خططها ، وتخل فى رأيها بالتوازن الدولى .

واستغلت مطامع الدول واعيد فتح باب المسألة الشرقية على مصراعيه ، فأرسلت الدول الخمس انجلترا وروسيا والنمسا وفرنسا وبروسيا مذكرة سلموها للحكومة التركية يوم ٧ يوليو ١٨٣٩ أى بعد شهر واحد ويومين من معركة تريب وهذا نصها :

« ان سفراء الدول الموقعين على هذه المذكرة يتشرفون بأن يبلغوا الباب العالى انهم تلقوا من حكوماتهم هذا الصباح بأن الاتفاق على المسألة الشرقية قائم بينها ، ولذلك فهم يطلبون منه أن يوقف اتخاذ أى قرار نهائى دون مساعدتها لما قد يكون لها من الفوائد التى يرونها » .

وقابل محمد على هذا التدخل باستنكار شديد ، ولكن لم يكن لاستنكاره أى أثر خصوصا بعد أن رحبت تركيا بتدخل كل الدول باعتبار أن ذلك هو أملها الوحيد فى دفع الخطر الذى أصبح يهددها به محمد على والاذلال التى توشك أن تعرض له من تابعها .

١٨٤٠ م ـ ١٢٥٦ هـ ـ معاهدة لندرة :

فى الخامس من يوليو ١٨٤٠ نجحت انجلترا بواسطة وزير خارجيتها بالمرستون من ابرام معاهدة لندن بعد توقيعها من ممثلى روسيا والنمسا وبروسيا وانجلترا وموافقة الباب العالى عليها ، فى غيبة فرنسا وقد تم الاتفاق فيها وفى البروتوكولات الملحقة بها على ما يلى :

اولا : يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ـ ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سوريا المعروفة بولاية عكا « فلسطين » بما فى فيها عكا ذاتها وقلعتها شريطة أن يقبل العرض خلال عشرة أيام ، وأن يشفع قبوله باخلاء جزيرة كريت وبلاد العرب وأقليم أدنه وسائر البلاد العثمانية عدا عكا وأن يعيد الى تركيا أسطولها .

ثانيا : اذا لم يقبل هذا القرار فى مدة عشرة أيام يحرم الحكم على ولاية عكا ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثى لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وارجاع الأسطول العثمانى فاذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان فى حل من حرمانه ولاية مصر .

ثالثا : يدفع محمد على باشا جزية سنوية للباب العالى تتبع فى نسبتها البلاد التى تعهد اليه بادارتها .

رابعـا : تسرى فى مصر وفى ولاية عكا المعاهدات التى أبرمتهـا السلطة العثمانيـة وقوانينها الأساسية ، ويتولى محمد على وخلفاؤه جبـاية الضرائب باسم السلطان على أن يؤدوا الجزية ، ويتولون الانفـاق على الادارة العسكرية والمدنية فى البلاد التى يحكمونها .

خامسا : تعد قوات مصر البرية والبحرية جزء من قوات السلطة العثمانية ومعـدة لخدمتهـا .

سادسا : يتكفل الحلفاء فى حالة رفض محمد على باشا لتلك الشروط أن يلجأوا الى وسائل القوة لتنفيذها وتتعهد انجلترا والنمسـا فى خلال ذلك أن تتخـذ باسم الحلفاء بناء على طلب السـلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وسـوريا ومنع وصول المواد من أحدهمـا للأخرى وتعضيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع الى الحكم العثمانى وامدادهم بكل ما لديهم من المساعدات .

سابعا : واذا لم يذعن محمد على للشروط المتقـدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الاستانة فيتعهد الحلفاء بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الاستانة والبواغيز بمأمن من كل اعتداء .

محمد على يرفض معاهدة لندرة :

ورفض محمد على فى كبرياء واستعلاء ما أملته عليه الدول ، تحرضه وتشد أزره فرنسا ، التى أحست بأن اللطمة موجهـة اليهـا قبل توجيهها الى محمد على ، فقد تجاهلتها الدول الأربع وتحدت مؤازرتها وبدأت تستعد للحرب فعلا .

فلا عجب اذا رفض محمد على تدخل الدول الأوربية فيما اعتبره أمرا من أخص الأمور الداخلية للدولة العثمانية .

وكان لا يستطيع أن يتصور كيف يعرض عليه وهو المنتصر شروط صلح مهينـة تجرده من انتصاراته التى حصل عليها بالدم والعرق والجهد والمال .

وكان من بين ما قاله لقنصل انجلترا :

« اذا كانت الدول المتحالفة تريد أن تكرهنى بالقوة على الاذعان فلتتفضل بالمجىء فانى على استعداد لمقابلتها ، انى لا أهاجم أحدا ، ولكنى مستعد للدفاع عن البلاد حتى آخر نسمة من حياتى » .

وقال محمد على لمن حوله : ان الانجليز يتهددونى بالنزول الى بحر مصر فليجربوا ولينفذوا وعيدهم فسيرون اننا على استعداد لملاقاتهم وان الأجنة فى بطون أمهـاتهم ستشترك فى قتالهم .

هزيمة محمد على وانسحابه من سوريا والبلاد العربية :

والحق انه كان باستطاعة محمد على بما لديه من جيوش وأساطيل أن يقف فى وجه العاصفة التى تحاول الاطاحة ، لولا أن الضربة القاضية التى أعجزته عن مواصلة التحدى ، جاءت من أضعف نقط حكمه جاءت من الداخل ، وليس من الخارج .

ثورة الشعب السورى :

ولم تكن هذه الضربة سوى ثورة الشعب السورى ، الذى عاد بمختلف طوائفه يحمل السلاح ضد حكم محمد على ، السلاح الذى أمدته به هذه المرة لا تركيا فحسب بل انجلترا نفسها ، التى نزل سفيرها فى أسطنبول يونسبى الى الميدان وأرسل مبعوثين لاثارة الشعب السورى .

حتى الشعب اللبنانى الذى طالما وقف وراء زعيمه الأمير بشير الشهابى خرج على زعيمه واصبح على رأس الثورة ولا عجب فى ذلك ، فقد أصر محمد على على تنفيذ أوامره حتى على الشعب اللبنانى الذى وقف الى جواره فأمر بتجريده من السلاح وهكذا قام الموارنه والقيصرية والدروز والمسلمون قومة رجل واحد ، وجاءت أساطيل انجلترا تؤيد الثورة ، وتهاوت الموانى بيروت وحيفا وصور وصيدا ، بل ان عكا نفسها سقطت ، وتبعها تسليم يافا ونابلس ، وفى هذه الأثناء كانت قد انقضت المهلة الأولى والثانية التى منحتها الدول الى محمد على لتنفيذ الانسحاب واعلن السلطان خلع محمد على عن كل مناصبه فى سوريا ومصر .

واصدر محمد على أمره الى ابراهيم باشا باخلاء سوريا والعودة بجيشه الى مصر ، وقد تحول هذا الانسحاب الى ما يشبه الهزيمة فقد ترصد الشعب السورى كله للمنسحبين ، ولولا عزم ابراهيم وأركان حربه سليمان الفرنساوى لتحولت هزيمة الانسحاب الى كارثة .

١٨٤١ م ـ ١٢٥٧ هـ ـ فرمانات تركية تحدد وضع مصر :

أدرك محمد على بعد فوات الوقت ان لا قبل له بتحدى دول أوربا العظمى وخاصة بعد أن تخلت عنه فرنسا : اذ تغيرت الوزارة التى اوشكت أن تصل الى مدى اعلان الحرب الى جواره .

ومن الناحية الأخرى فقد ادرك الانجليز أنه لن يكون باستطاعة الباب العالى أن يرسل جيشا الى مصر لمحاربة محمد على ، وأن أساطيلهم اذا استطاعت أن تضرب موانى مصر ، فلن تستطيع غزوها ، ولذلك فقد عدلوا سياستهم ودخلوا فى مفاوضات جديدة مع محمد على للتوصل الى حل سلمى ينهى الموقف . ثم اشاروا على الباب العالى بما يحسن به عمله .

وعلى ذلك فقد صدر فى فبراير سنة ١٨٤١ فرمان بجعل مصر بحدودها القديمة وراثية فى أسرة محمد على على أن تكون مصر جزء من الدولة العثمانية ، تسرى فيها قوانين الدولة ، والمعاهدات التى تبرمها ، وأن يجرى فيها كل شىء باسم السلطان ، وأن تدفع جزيه سنوية يحددها السلطان .

كما صدر فرمان يولى محمد على بلاد النوبة ودارفور مدة حياته .

فرمانا ابريل ويونيه :

ولكن محمد على تشكى من هذه التنظيمـات ، وقد تدخلت الدول مـرة أخرى لتعديل بعض أحكامها ، فأصبح حق الوراثة للأكبر سنا من أولاد محمد على وأحفاده الذكور ، وحددت الجزية بربع ايرادات مصر ، ثم حددت فى فرمان « يونيه ١٨٤١ م » بثمانين ألف كيس أى ٤٠٠ ألف جنيه ..

وأصبح من القيود على حق مصر أن لا يزيد جيشها على ثمانية عشر ألفا فى زمن السلم ، وأن لا تبنى سفنا حربية الا باذنها .

ولكن محمد على لم يلق باله الى هذه الشروط الأخيرة فمن الناحية النظرية كان لا يعتبر نفسه مقيدا بأحكام بمعاهدة لندرة وقد خلت من كل هذه التفاصيل والقيود ومن الناحية العملية ، لم يكن بقدرة الباب العالى أن ينفذ هـذه الشروط والقيود الاجبارية .

مركز مصر الدولى :

هيأت معاهدة لندرة لمحمد على رغم كل ما أحاطها من السـيئات المركز الدولى الذى يطمع فيه والحكم الوراثى فى أسرته ، فقد أصبح وضع مصر السياسى منذ ذلك التاريخ أنها تتمتع باستقلال داخلى فى ظل السيادة العثمانية تحت حكم أسرة محمـد على ، بضمانة الدول الأوربيـة .

وقد ظل هذا هو الوضع الذى يحكم مركز مصر السياسى حتى قيـام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

الفترة الأخيرة من حكم محمد على :

يمكن القول ان خيبـة أمل محمد على فى تحقيق مغامراته العسـكرية قد عادت بالخير على الشعب المصرى لأول مرة ، فقـد سحب الجيش المصرى من شبه جزيرة العرب حيث ظل يرابط بها عشرين سنة ، لم تهدأ فيهـا الثورات الا لتشتعل من جديد حيث كان يسيل الدم المصرى .

واذا كانت معاهدة لندرة قد حددت الجيش المصرى بثمانية عشر الفا ، فان محمد على لم يتقيد بهذا القيد ، ولكنه من ناحية اخرى ، لم يجد مصلحة لمصر فى أن يكون بها جيش كبير واسطول لا عمل له الا ان يخدم مشروعات الدولة العثمانيـة .ولذلك فقد بدأ يضيق من نطاق الجيش والأسطول ويهبط بعدده الكبير وأدى ذلك بطبيعـة الحال الى الكف عن ارهاق الشعب .

الانصراف الى الاصلاح الداخلى :

واذا لم يبق لمحمد على الا مصر والسودان ميدانا لنشاطه واطمأن الى أن حكمهما باق فى عقبه وذريته ، واذا كان قد بلغ من الكبر عتيا ، فان الفترة الأخيرة من حكمه تتسم بطابعين .

الأول : الانصراف الى الاصلاح الداخلى لمختلف شـئون مصر ومناشـط الشعب المختلفة .

الثانى : لمحات انسانية ، املتها التجارب والرغبـــة فى التودد الى الشعب الذى وقف يؤازره فى كل المواقف الماضية ، لما فى ذلك من الفوائد التى تعود على الانتـــاج وازدهار الأحوال الاقتصادية .

اشراك العمال فى الأرباح :

ومن هذه اللمسات الانسانية التى أملتها التجارب ، صدور قرار من محمد على فى ٣ رجب من هذه السنة ١٢٥٧ بالسماح بصرف ٥٠٪ من أرباح المشغولات المتنوعة للاسطوات حتى يترتب على ذلك التنافس ، فى ابداع جميع المنسوجات (١) .

١٨٤٢ م ــ ٢٥٨ هـ الأبعاديات وتدعيم الملكية الفردية فى الأرض الزراعية :

وقد ادرك محمد على ان يلزم الحافز الفردى فى الزراعة لزومه فى الصناعة ، اذا اراد مزيدا من اصلاح الأرض ومضاعفة للانتاج ، فتراه يصدر فى الخامس من المحرم من هذه السنة قرارا جاء فيه :

لا يخفى أن ارتقاء وعمارية ورفاهية كافة الملل والعمال حاصل بواسطة الفلاحة والتجارة ، وانه نظرا لقابلية أراضى القطر المصرى للفلاحة سبق وجارى اعطـاء أطيان يعبر عنها بأبعادية من الأطيان الخالية لمن يؤمل فيهم قدرة أو تشوق فى زراعتها واصلاحها بأمل زيادة عمارية القطر وارتقاء ثروة أرباب الوظائف والأعيان والأهالى واعطاء سندات دالة على أن ينتفعوا بها لحين انقراض النسل والذرية ، وبعـدها تكون وقفا مستمرا من قبلنا لجهات معينة ، وبسبب هذا القيد غير جارى الاهتمام من ارباب الأطيان فى تصليحها لعدم تخويلهم التصرف الشرعى فيها ، وانه قد تلاحظ لازدياد العمارية وترقى ثروة القطر ، وانه بالاستفتاء قد خرج حضرة المفتى بجواز ذلك ، وبناء على ما ذكر فان الأطيان التى تعطى من الآن فصاعدا لأى شخص يكون له حق التصرف الشرعى فى البيع والشراء والهبة والايقـــاف وغير ذلك من ســائر التصرفات الشرعية . وتحرير واعطاء سندات بذلك ، وكذلك كافة الســـندات السابقة التى أعطيت لأصحاب الأطيان من قبل واعطاء سندات جديدة بهذا النص لتكون الحكومة غير مانعة لأرباب الأطيــان من التصرف فيها واتخاذ ذلك دستورا للعمل .

انشـــاء بنك الدولة :

وفى الخامس والعشرين من ذى الحجة من السنة الهجرية ، صدر أمر باللائحة الخاصة بانشاء بنك فى الاسكندرية برأس مال قدره ٧٠٠,٠٠٠ ريال تدفع منهـا الحكومة ٤٠٠,٠٠٠ ريال ويدفع بعض الأجانب باقى المبلغ على أن تكون مهمة البنك : فتح اعتمادات وقبول التحاويل والسندات ذات القيمة والنقود وتسعير المسكوكات .

---

(١) تقويم النيل ــ أمين باشا سامى ، الجزء الثانى .

ميزانية الحكومة :

وبلغت ايرادات الحكومة فى ميزانية هذه السنة ١٢٥٨ هـ ٢ر٩٢٦ر٦٢٥ جنيها والمصروفات ٢ر١٧٦ر٨٨٦٠ جنيها بفائض قدره ٧٤٩٧٦٥ جنيها .

ازدهار مدينة الاسكندرية :

وليس هناك ما يكشف عما وصلت اليه مدينة الاسكندرية من بعث فى مركزها التجارى أكثر من انها صدرت هذا العام (١٨٤٢ م) من منتجات مصر ما يساوى ١ر٨٠٦ر٨٨٠ جنيها واستوردت بما يساوى ٢ر٤٧٠ر٩٢٠ جنيها .

وذلك بعد أن كانت قرية صغيرة عند مقدم الحملة الفرنسية .

محاولات استكشاف منابع النيل :

وفى هذه السنة ، انتهت حملة سليم قبطان الثالثة فى محاولاته المتكررة لاكتشاف منابع النيل ، حيث وصل للمرة الثانية الى جزيرة جونكر فى مجرى النيل الأبيض الواقعة على خط عرض ٥ شمال خط الاستواء والتى تقع فى مقابل مدينة كرسكو التى لن تلبث أن تكون عاصمة لمديرية خط الاستواء .

١٨٤٤ م : ارسال أعظم بعثة الى فرنسا :

فى هذه السنة ارسلت البعثة الخامسة الى فرنســـا والتى تعتبر بحق أعظم البعثات شأنا اذ كانت تضم بعض أنجال محمد على وأحفاده ولذلك فقد أطلق عليها على باشا مبارك اسم « بعثة الأنجال » . وكانت تتألف من ٨٢ عضوا تخصص الأمراء فيها فى الفنون الحربية ، وتخصص بعض أفراد البعثة فى الطب والطبيعيات ومختلف فروع العلم .

وكان على باشا مبارك الذى لقب بأبى التعليم فى مصر ، أحد أعضاء هذه البعثة ، وقد قال لنا ان راتبه الشهرى كان كبقية رفاقه مائتين وخمسين قرشا وكان يعطى نصفها لأهله فى مصر ، ويعيش بالنصف الباقى فى باريس .

١٨٤٥ م ــ ١٢٦١ هـ تعبيد الطريق بين مصر والسويس :

كانت مصر قد أصبحت الطريق الطبيعى لتوصيل البريد وبعض البضائع من الهند الى أوربا ولذلك فقد ضاعف محمد على اهتمامه بتعبيد الطريق من مصر الى السويس لتسهيل سير العربات ، وفتح اعتماد لذلك بمبلغ ٣٧٨ر٥٢٨ قرشا .

محصول القطن .

وبلغ محصول القطن فى هذه السنة ٣٤٤ر١٥٥ قنطارا ومتوسط السعر ٦ ريالات للقنطار .

١٨٤٦ م – ١٢٦٢ هـ انشاء مصنع للالبان :

فى السادس والعشرين من رمضان ، صدر أمر بانشاء معمل للالبان بشبرا وتعين الاوربادى المحضر لهذه الغاية ومساعدته بالمواشى الكافية حتى يسهل عمله .

وضع الحجر الأساسى للقناطر الخيرية :

فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى من هذه السنة أقيم احتفال ضخم تم فيه وضع الحجر الأساسى للقناطر الخيرية أعظم سد أقيم على النيل فى ذلك الوقت ، وكانت تعتبر من أكبر أعمال الرى فى العالم كله ، وقد كان العمل قد بدأ فيها من قبل ليستأنف من جديد .

وقد أريد بانشائها تحويل رى الحياض فى الوجه البحرى الى رى مستديم «صيفى » ليكون ذلك ملائما لزراعة القطن الذى أصبح عماد ثروة البلاد وقد بدىء بدراسة المشروع بواسطة كبير المهندسين لينيان دى ملفون «لينيان باشا » سنة ١٨٣٤ ولكن العمل لم يبدأ الا فى هذه السنة بموجب تصميمات جديدة وضعها واصل بك . على أن تحفر ثلاث ترع كبرى « رياحات » لتغذية الدلتا وهى المعروفة برياح المنوفية ورياح البحيرة والرياح التوفيقى .

١٨٤٧ م – ١٢٦٣ هـ ادخال البنج الى مصر واستعماله :

ذكرت الوقائع المصرية أنه بتاريخ أول رجب من هذه السنة وصل من أمريكا أول دفعة من البنج واستعمله كلوت بك فى عمليات خاصة بالسرطان ، كما استعمل فى بتر ساق أحد المرضى فلم يحسوا بأى الم .

ارسال بعثات من الأزهر لدراسة الحقوق فى فرنسا :

وذكرت الوقائع فى عدد ٢٤ شوال انه قد أوفد الى باريس خمسة أشخاص من اذكياء طلبة الجامع الأزهر ، ماهرين فى فن الكتابة يتراوح عمرهم بين ٢٠ وثلاثين سنة وذلك ليحصلوا علم الوكالة فى أمر الدعاوى من ديار أوربا .

انشاء شركة ملاحة نيلية تجارية :

نشرت الوقائع المصرية فى عدد ذى القعدة نبأ انشاء شركة ملاحة نيلية تسير سفنا تجارية فى النيل وترعة المحمودية .

عمل دراسات لمشروع قناة السويس :

وذكرت الوقائع المصرية حضور مهندسين من أوربا لعمل أبحاث للتحقق من ارتفاع سطحى بحر السويس والبحر الأبيض ، تمهيدا لانشاء قناة توصل بين البحرين الأبيض والأحمر – وقد اصطحب المهندسون الأوربيون سبعة من المهندسين المصريين وبدىء فى عمل ميزانية لارتفاع الأرض الواقعة بين البحرين .

انشاء مصنع لصهر الحديد فى أسوان :

وفى الثانى من ذى الحجة من هذه السنة ، صدر أمر لمدير كوردفان بالسودان انه قد تعين المأمورون والعمال اللازمون لتشغيل معدن الحديد الذى استكشف بجهة كردفان ، فيلزم بمجرد وصولهم الشروع فى تأسيس الأفران اللازمة لاستخراج المعدن المذكور وطلب المهمات اللازمة ان دعت الحالة .

أرسال البعثة التاسعة الى انجلترا :

وفى هذه السنة اختير ٢٥ طالبا من مدرسة المهندسخانة المتفوقين وبعث بهم الى انجلترا للتخصص فى الميكانيكا . .

محمد على يطلب من كبار الموظفين ان يردوه الى الصواب :

وقد نشرت الوقائع المصرية فى عددها نبأ اجتماع من المديرين وكبار الموظفين على هيئة مجلس شورة حسب المعتاد ، وقد دعوا الى تناول العشاء على مائدة محمد على، ثم جمعهم وألقى فيهم حديثا طويلا تحدث فيه عن بلوغه سن الثمانين حيث لم تعد له أطماع الا مصلحة الوطن واسعاد المواطنين .

ومما يستوقف النظر فى هذا الحديث قول محمد على لكبار الموظفين والمديرين :

اذا كنت أمر أحدكم شفاها أو تحريرا بقولى له اجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاها أو تحريرا بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة ، وأنا مرخص لكم فى ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة » .

وطلب منهم أن لا يخافوا فى سبيل تحرى المصلحة العامة من أحد حتى ولو كانوا أولاده .

وختم تحذيره الطويل بتحذير كل من لا يسلك هذا السبيل فقال على ما نشرته جريدة الوقائع :

ولتعلموا انكم اذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن وصاعدا ولم ترحبوا عن طرق المداراة والمماشاة ولم تقولوا الحق فى كل شىء ولم تجتهدوا فى طريق الاستواء ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة ، فلا بد لى من أن اغتاظ منكم جميعا ، ولما كنت موقنا بتقدم هذا الوطن العزيز على أى صورة كانت وملتزما فريضته على صرت مجبورا على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطرارا مع حرقة كبدى وسيل الدموع من عينى .

ابراهيم باشا يسافر الى أوربا :

وفى هذه السنة قام ابراهيم باشا فى رحلة الى أوربا فاستقبل استقبالا حافلا فى ايطاليا ، وفى باريس وفى انجلترا ، باعتباره القائد العسكرى الذى لم ينهزم فى أى معركة حربية خاضها ، وأحيط بمظاهر الاكبار والاجلال من الملوك والشعوب على السواء .

١٨٤٨ م – ١٢٦٤ هـ انزال اول سفينة حربية تجارية من صنع مصر :

نشرت الوقائع المصرية فى العدد ١٠٢ الصادر فى الثانى من ربيع الأول ، انه فى الثامن من صفر انزلت السفينة الحربية التجارية التى تم انشاؤها فى ترسانة الاسكندرية بحضور العلماء والعظماء والأمراء والحكام وقناصل الدول المتحابة ووجوه البلدة ، وطول بطاريتها ٢١٠ قدم انجليزى وعرضها ٣٩ ١/٢ قدما وارتفاعها ٣٠ قدما انجليزية وتحتوى على ٣٦ مدفعا وحمولتها ١٤٧٢ طنا وقوتها ٥٥٠ حصانا .

عدد سكان مصر :

وفى هذه السنة صدرت نتيجة الاحصاء الذى تم فى مصر لأول مرة بطريقة علمية لسكان القطر المصرى وبلغ عدد السكان ٤٫٤٧٦٫٤٤٠ .

ادارة مصر بصفة مؤقتة :

نشرت الوقائع المصرية فى العدد رقم ١١٣ الصادر فى الخامس من جمادى الثانى أنه نظرا لمرض محمد على فقد تشكل مجلس فوق العادة ، تحت رئاسة ابراهيم باشا لتيسير دفة اعمال الحكومة .

تولية ابراهيم باشا على مصر :

اجتمع الديوان فى الرابع والعشرين من شوال بحضور العلماء والمشايخ واشراف البلد ومن لزم حضوره من الذوات بديوان الغورى حيث قرىء على رءوس الاشهاد الفرمان القاضى بتعيين ابراهيم باشا واليا على مصر .

انشاء ديوان للترجمة تحت رئاسة رفاعة رافع الطهطاوى :

فى هذه السنة نفذ رفاعة الطهطاوى مشروعه الكبير بترجمة ونقل المعارف والحضارة الأوربية الى مصر فاقترح على ابراهيم باشا انشاء ديوان للترجمة ، وعين رفاعة رافع الطهطاوى ناظرا على قلم الترجمة العربى فى هذا الديوان ، مبتدئا بذلك عمله الخالد باحياء العلوم والمعارف فى مصر .

وفاة ابراهيم باشا وولاية عباس الأول :

فى الرابع عشر من ذى الحجة من هذه السنة « ١٥ نوفمبر سنة ١٨٤٨ » مات ابراهيم باشا وعمره لم يتجاوز الستين سنة .

ولم تزد مدة حكمه عن سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما لم تتسع لكى تتجلى شخصية ابراهيم التقدمية المتحررة بالنسبة لأبيه .

ولذلك فقد ظل تاريخ ابراهيم هو تاريخ مصر العسكرى فى هذه الفترة .

وقد دعى الأمير عباس الأول ابن أخيه طوسون لكى يلى السلطة طبقا للنظام الذى أصبح موضوعا باعتباره اكبر سلالة محمد على .

وكان عباس باشا قد خشى على نفسه من بطش عمه ابراهيم باشا لخلافهما فى الراى والمزاج فرحل الى الحجاز ، ولم يعد منه الا بعد وفاة عمه .

فى الثالث عشر من رمضان « ٣ اغسطس » مات محمد على بسراى راس التين عن ثمانين سنة ميلادية . حكم منها اربعة واربعين سنة .

وهى مدة لم يسبقه اليها فى تاريخ حكام مصر على ما مر بنا خلال ستة آلاف سنة الا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة .

وبقى أن نضع محمد على فى الميزان ..

محمد عبده : ومحمد على :

لا تحسب أن أحدا حمل على محمد على من قبل أو من بعد ، مثل حملة الشيخ محمد عبده عليه ، ولما كان الشيخ محمد عبده مصريا صميما ، وزعيما من زعماء الاصلاح والنهضة (١) .

فأقواله فى محمد على جديرة بأن تسجل . يقول محمد عبده :

ــ ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ولكنه استطاع أن يمت . اتخذ من الامن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة .

ــ رفع الأسافل واعلاهم فى البلاد والقرى ، حتى انحط الكرام وساد اللئام .

ــ اجتمع على سكان البلاد المصرية فى عهده ذلان :

ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة .

وذل سامهم الأجنبى اياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة .

ــ قالوا انه اطلع على نجم العلم فى سماء البلاد ــ نعم عنى بالطب **لأجل الجيش** ، والكشف على المجنى عليهم فى بعض الأحيان عندما يراد ايقاع الظلم عليهم ، وعنى بالهندسة لأجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل اقطاعه الكبير .

ــ هل فكر يوما فى اصلاح اللغة عربية أو تركية . هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين .

أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة .

ــ أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا بها ، فهل أطاق لهم الحرية ، وأن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لهم ارادة فيما تصنع .

ــ هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ــ أين هى وأين الذين نبغوا من طلابها ، فان وجد أحد نافع فهل هو من المصريين .

---

(١) من مقال نشر فى مجلة المنار سنة ١٩٠٢ .

— ترجمت كتب كثيرة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والآداب ولكن هذه الكتب أودعت المخازن يوم طبعت واغلقت عليها الأبواب الى آخر عهد اسماعيل .

— حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات ، ولذلك كانوا يهربون من امتلاك الأطيان ، كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر .

— يقولون انه انشأ المعامل والمصانع ، لكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة .

— يقولون انه انشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ودوخ الملوك وانشأ أسطولا تثقل به ظهور البحار ، وتفخر به مصر على ســائر الأمصار ، فهل علم المصريين حب التجنيد وانشأ فيهم الرغبة والفتح والغلب ، وحبب اليهم الخدمة فى الجنــدية وعلمهم الافتخار بها .

لا بل علمهم الهرب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين انهم سينالون الموت .

هل شعر مصرى بعظمة اسطوله او بقوة جيشه وهل خطر ببــال احد منهم أن يضيف الى ذلك قوله هذا جيشى واسطولى . أو جيش بلدى أو أسطوله .

كلام لم يكن شيء من ذلك ، فقد كان المصرى بعــد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه فهى قوة خصمه ، كذلك كان يعدها كل عثمانى فى مصر أو فى غير مصر .

ويختم محمد عبده مقاله الحماسى المتدفق الطويل الذى كتبه بغرض سياسى من غير شك وهو خصومته مع الخديوى عباس الثانى وتسلحه بمؤازرة الانجليز له :

ولا أظن أن أحدا يرتاب — بعد عرض تاريخ محمد على — على بصيرته ان هذا الرجل كان تاجرا زارعا ، وجنديا باسلا ، ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما وكل ما تراه فيها الآن من حياة ، فهو من أثر غيره .

واجب الانصــاف :

ونحن اذ ننضم الى محمد عبده فى تنديده بالاستبداد ، وحبه للشعب المصرى ، وايمانه بحكم القانون وسيادة الديموقراطية .

و هذه العناصر كلها تشجب عصر محمد على ، فمما لا شك فيه أن محمد على كان حاكما مطلقا مستبدا لا يخضع لقانون سوى محض ارادته ومشيئته وأنه نظر الى مصر وشعبها نظرته الى ضيعة خاصة قــد ملكها وكان كل همه أن يورثها من بعــده الى اسرته . وأنه كان ينظر لعنصره التركى باعتباره عنصرا سيدا ولكن واجب الانصاف يقتضينا أن نقرر ، أن محمد على فى ذلك لم يكن وحيد عصره فى الحكام ، وانما كان ابن عصره ، فى العالم بعامة وفى مصر بخاصة ، فقبل سنوات قليلة من قيام محمد على فى مصر كانت فرنسا بل وكل أوربا تحكم بهذه المقاييس ، وكان نظام الاقطاع يجعل الأرض ومن عليها من البشر ملكا للملك أو الأمير أو للفارس .

فعندما نتحدث عن عصر محمد على ، فيجب أن نستحضر فى اذهاننا أنه لم تكن فى مصر من قبله نظم ديمقراطية فألغاها ، وكانت بها محاكم وعدالة فحولها الى ظلم

ولم يكن فى مصر نظام فأحاله الى فوضى ، ولم تكن الأرض الزراعية مملوكة للفلاحين فانتزعها منهم ، فقد كانت الأرض ملكا للسلطان يوزعها على الأمراء والملتزمين .

ولم يكن لمصر جيش من ابناء البلاد فجعله محمد على وقفا على الاتراك .

لقد واصل محمد على اسس الحكم التى جرى عليها العمل فى مصر خلال أجيال وقرون . ويبقى له انه على ما يقول محمد عبده نفسه فى معرض التنديد به .

— انه أنشأ جيشا : انه بنى أسطولا : انه فتح مدارس : انه ارسل بعثات : انه ترجم كتب ، انه شق ترعا : انه أنشأ مصانع : انه ضم السودان الى مصر : انه خاض معارك رفعت اسم مصر .

ولسنا نشك لحظة أو نمارى فى انه فعل ذلك كله ارضاء لطموحه الشخصى ، واستجابة لرغبته فى أن يكون ملكا عظيما ، ويجعل من اسرته أسرة حاكمة .

ولكن من التجنى أن نقول ان مصر لم تستفد من هذا الذى فعل .

واذا كنا نعترف راغمين ان الحملة الفرنسية التى سيرها نابليون الى مصر وهى فى جوهرها غزو أجنبى كانت احدى دعائم النهضة فى مصر الحديثة ، اذا أيقظت الشرق الاسلامى من غفلته وجعلته يدرك أن الدنيا تغيرت وانه أصبح فى الدنيا علوم ومعارف ونهضات جبارة .

فمن باب أولى ، يجب أن نعتبر فترة حكم محمد على ، هى البدء الفعلى لتاريخ مصر الحديث ، حيث خرجت مصر من عزلتها التى فرضتها عليها قرون من الحكم العثمانى ، لتتفاعل من جديد مع التيارات العالمية ، وأثبتت موقعها واثبت شعبها مرة أخرى قدرته العجيبة على التجدد والانطلاق ، والاضطلاع بدور رئيسى وحساس فى حياة البشر .

عبد الرحمن الرافعى ومحمد على :

ويعجبنا عبد الرحمن الرافعى فى انصافه للشعب المصرى وتاريخ مصر ومحمد على ، فهو بعد أن فرغ من كتابه الضخم الذى عدد مشروعات محمد على وفتوحات محمد على وانتصارات محمد على — علق على ذلك بقوله :

« على أن الواجب اثباتا الحقيقة من جميع نواحيها ، أن الشعب لم يتحرر من الشقاء فى عصر محمد على فقد وقع عليه ارهاق ومظالم كثيرة ، ويحق لنا من هـذه الناحية أن نقول ان أعمال الاصلاح التى تمت فى عصر محمد على لم ينتفع بها الجيل الذى عاش فى ذلك العصر ، بل انتفعت بها الأجيال التى توالت من بعده .

ومضى يقول : ولكنا اذا تكلمنا عن المظالم التى ارهقت الشعب فى عهده فمن الحق أن تقول انها أخف وطأة من المظالم التى كانت تقع فى عصر المماليك .

وبعد أن راح الرافعى يعدد صور ما كان الشعب يعانيه أيام المماليك ختم تعليقه بقوله :

« المقارنة تظهر لنا فضل محمد على ومبلغ المزايا التى عادت على مصر من عبقريته وجهوده ومواهبه .

تجربة المؤلف مع تاريخ محمد على :

واذا كنت أجنح الى انصاف محمد على ، على الرغم من اننى عدو الاستبداد والحكم المطلق ، واكره كل من يستغل الشعب المصرى ، فما ذلك الا لأننا عندما بدانا كفاحنا السياسى فى الثلاثينات وكان الاحتلال الانجليزى قد نجح فى تحطيم ثقة الشعب بنفسه فلم نجد ما نملأ به قلوب الشباب بخاصة والمصريين بعامة ، ثقة بقدرتهم على النهوض ومقاومة الاحتلال الانجليزى والتفوق على الأجانب ، الا أن نستعيد ما استطاعت مصر أن تحققه أيام محمد على وكيف سبقت الكثير من دول أوربا وآسيا فى النهوض والأخذ بأسباب الحضارة العلمية الحديثة ، وكيف أثبت الفلاح المصرى فى ميدان القتال مثل ما فى ميدان العلم ، استعداده للتفوق والامتياز ، وانه لم يعرقل سير هذه النهضة وتطورها الطبيعى ، وتخلصها مما يشوبها سوى تربص أوربا بالعالم الاسلامى كله ، والشرقى ، واختصاص مصر فى الدرجة الأولى بأطماعه ومناوراته ومؤامراته باعتبارها ، واسطة العقد ، وملتقى الطرق .

خلفاء محمد على :

قدمنا أن عباس الأول قد ولى أريكة الحكم فى مصر فى حياة محمد علي وكانت ولايته يوم الأربعاء العاشر من المحرم من هذه السنة « ١٢٦٥ هـ » وقد أقيم لذلك احتفال كبير بالقلعة حيث تلى الفرمان التركى القاضى بذلك وكان ذلك أول تطبيق عملى لما انتهى عليه الاتفاق فى معاهدة لندرة ، وما صدر من فرمانات تركية تنفيذا لها ، وهو أن تكون مصر وراثية فى أسرة محمد على ، على أن يليها الأكبر سنا من أفراد هذه الأسرة .

ولما كان عباس باشا الأكبر الأول هو اكبر أفراد الأسرة « ٣٦ سنة » فقد عهد اليه بالحكم ، على الرغم من وجود محمد سعيد بن محمد على .

وعباس الأول هو ابن طوسون ابن محمد على . وقد اهتم جده بتربيته اهتماما بالغا ، ونشأه نشأة عسكرية ، فرافق عمه ابراهيم باشا فى حملته على سوريا ، واشترك فى العمليات العسكرية وعندما بلغ من العمر ٢١ سنة عينه محمد على مديرا لمديرية الغربية عام ١٢٤٨ هـ .

حيث بدرت منه بوادر قسوة ، عنفه عليها محمد على تعنيفا شديدا . فقد عثرنا فى رسائل محمد على على خطاب موجه الى محمود افندى كاشف وكيل مديرية الغربية محرر فى ٢١ جمادى الأول سنة ١٢٥٠ وقد جاء فيه :

« علمنا أن عباس باشا قد قتل أحد الرعايا لغير ذنب . مع انه سبق التأكيد عليه بعدم الغدر بالأهالى ، وانه « أى محمد على » تأثر من ذلك لأنه من المعلوم أن المشار

اليه هو جنده ووارث ملكه من بعده ، فاذا كانت أفعاله حال شبوبيته التى بسببها تشمئز وتنفر منه الرعية ، فكيف يمكنه الحكم عندما يتولى سند الحكومة ، ويأمر محمد على وكيل مديرية الغربية أن يكرر هذه العبارات على أسماع عباس باشا . والا فليتحقق الاثنان « عباس والكاشف » بمحوهما وازالتهما .

سياسة انكماش وتجمد :

ويصف المؤرخون فترة حكم عباس بالرجعية وقد يكون من الأدق أن توصف بأنها سياسة انكماش وتجمد اقتضاها رد الفعل الذى نشأ من وقوف الدول الكبرى فى وجه مصر وحرمانها من انتصاراتها ، مما جعل لا محل لوجود جيش كبير ، وأسطول يثقلان كاهل مصر بغير حاجة أو ضرورة لبقائهما بكل هذا الاتساع .

تسريح المجندين الجدد :

وكذلك تراه يصدر ارادة لناظر الجهادية فى السادس من المحرم « ١٢٦٥ » يقول فيها :

كان أهالى مصر القاهرة من قديم الزمان محترفين بالصنائع والتجارة مهتمين بتعليم المهن والفنون الجميلة وكان الناس منهمكين فى ادخال أولادهم فى مثل هذه المدارس والفابريقات ليردهم متعلمين نشطين . ولكن عمنا المرحوم ابراهيم باشا انفاذا لبعض آرائه الخصوصية ، صار ينتخب من شبان القاهرة رجالا للعسكرية ، فلذلك بادت الصناعة ، وبارت التجارة ، ووقف التقدم المدنى ، وحرمت الأهالى من كثير من احتياجاتها المدنية ، وهو أمر مخالف للرقى والعمران والتقدم الفنى والصناعى .

فبناء عليه :

أمرنا أن يخلى سبيل جميع الرجال المأخوذين للعسكرية من أهالى مصر القاهرة البالغ عددهم أربعمائة نفر وكسور ، وقد حررنا لكم لاتباعه .

ولم يكن هذا الأمر فى حقيقته الا ارتدادا لعهد المماليك حيث كانوا لا يرون المصريين أهلا لحمل السلاح ولذلك فقد جعل غالبية الجيش المصرى من الأتراك وأحاط نفسه بحاشية تركية بحتة وجيش من الخدم والأتباع والموصفيين من الأتراك .

انشاء مجلس خصوصى للاشتراك فى ادارة الدولة :

فى الثامن من ربيع الثانى ، صدرت لائحة بانشاء مجلس خصوصى لنظر كل الأمور الجسيمة المتعلقة بالمصالح الخارجية واما الأمور الثانوية الصغيرة فتنظر فى مجلس الاحكام المصرية .

واذا عرض لمجلس الأحكام المصرية لائحة تخص المنافع والمصالح العمومية ينظر

فيها المجلس ويتخذ قرارا فيها . فاذا ووجه بمسألة معقدة غير قابلة للحل فيجتمع المجلسان مجلس الأحكام المصرية والمجلس المخصــوص تحت اسم مجلس عمومى ويفصل فى الأمر المعروض ، واذا حصــل اختلاف فى الرأى يؤخـذ عددها ويعمل بالأكثرية .

واذا لزم ترتيب جديد أو لائحة جديدة وتم تقريرها فى مجلس الأحكام المصرية تعرض على المجلس المخصوص للتصديق عليها .

كما فوض للمجلس المخصوص بعزل وتنصيب كافة ارباب المصالح فى كل الجهات .

ونصت المادة التاسعة من هذه اللائحة على أن أعضاء المجلس ليسوا فقط مكلفين بالدفاع عن الحقوق الأميرية ، بل مكلفون أيضا بصــيانة حقوق الأهالى وحمايتهم فيجب أن يتخذوا العدل والرأفة نبراسا فى كل أحكامهم .

وقد خص عباس باشا نفسه برئاسة المجلس وتألفت عضوية المجلس من عشرة اعضاء كان من بينهم مفتى الحنفية وشيخ الجــامع الازهر ، والشيخ الســادات أو الشيخ البكرى (بالمناوبة) .

اباحة تمليك بعض الأراضى للفلاحين :

وفى الثانى والعشرين من ربيع الثانى ، أصدر عباس باشا ارادة لكتخداى مصر يطلق فيها اراض مصر للتمليك وهذا نصها :

كان ولى نعمتنا والدنا الكبير « يقصد محمد على » قد اتخذ جميع أراضى الحكومة تحت ارادته باعتقاد أن هذا يكون باعثا لرفاهية الأهالى من جهة ، ويوافق مصلحة الحكومة من الجهة الأخرى ، ولكن تحقق أخيرا أن الخلق تضرروا وانزعجوا من هذا القرار ..

لذلك قررنا أن نحفظ الجفالك والتفاتيش الخاصة لأفراد أسرتنا فقط وان تترك الاراضى الأميرية الباقية حرة وابطال تقاسيطها الديوانية ، ورأينا من المناسب تسهيل الدفع ، أو تعطى للمتعهدين ، وقد حررنا هذا لكم للمبادرة بتنفيذه .

ابطال فابريقات المنسوجات القطنية :

وفى ٢١ جمادى الأول ــ صدر أمر باغلاق وابطال جميع فابريقات نسيج القطن فى مديريات الوجه القبلى ابتداء من بنى سويف ، لانها تحصل على حاجتها من القطن من الوجه البحرى ، مما يضاعف التكاليف ويجعل انتاجها غير اقتصادى .

انشــاء حى العباسية :

اعجب عباس باشا بمنطقة الريدانية خارج القاهرة حيث كان موكب الحج والمحمل يبدأ رحلته الى بلاد الحجاز فانشأ له قصرا ضخما بهذه المنطقة ، وطلب من الامراء

والكبراء أن يقيموا لهم قصورا وبيوتا فى المنطقة لتعميرها . وهددهم اذا هم لم يفعلوا ذلك . وبذلك نشأ هذا الحى الجديد بالقاهرة وقد أطلق عليه اسم (العباسية) نسبة اليه .

وفاة محمـــد على :

وفى الثالث عشر من رمضان من هذه السنة مات محمد على على ما قدمنا . ودفن فى المسجد الذى شرع فى اقامته فى القلعة .

انقاص قطع الأسطول :

وفى الخامس عشر من ذى القعدة ارسل عباس باشا أمرا الى عمه محمد باشا سعيد قائد الأسطول يطلب منه ابطال وتعطيل بعض سفن الأسطول ، وتكسير البعض الآخر ، وتسريح البحارة الطاعنين فى السن وأصحاب العـــاهات وتوزيع البحارة الصالحين على السفن التجارية ليظلوا مستعدين للعمل عند الحاجة .

ويقول المؤرخون انه فعل ذلك نكاية فى عمه محمد سعيد باشا الذى لم يكن يحبه .

وعندنا أن العنصر الأساسى هو عزوفه عن اثقال ميزانية مصر باسطول ضخم لا عمل له ولم يحدث ان استفادت منه مصر ، وهو فى أوج قوته .

١٨٥٠ م — ١٢٦٦ هـ الغـاء المدارس :

يصف لنا على باشا مبارك الجزء التاسع من الخطط التوفيقية قصـــة الغـاء المدارس فى مطلع حكم عباس باشا فيقول :

فى أواخر عام ١٢٦٦ كان قد عرض من لامير بك ناظر المهندسخانة لسمو عباس باشا الأول الخديوى ترتيب للمدارس الملكية والرصدخانة مبلغ يقدر بعشرين ألف كيس « أى مائة ألف جنيه » فاستعظمه وأحاله علينا نحن اليوزباشية حال عودتنا من فرنسا للنظر فيه بشرط أن لا نفشيه فتـداولنا فى ذلك فيما بيننا ولم تتفق آراؤنا وخفت فوات الوقت قبل اتمام العمل فشرعت وحدى فى عمله وبدون انتظار لرأى أحد . فعملت لجميع المدارس مصروفا قدره « ٥٠٠٠ جنيه » وجعلت ذلك احتياجات القطر لا غير ، فان جميع المدارس تكون فى محل واحد وتحت ادارة ناظر واحد . وأسقطت الرصدخانة بالمرة من الترتيب لعدم وجود من يقوم بها حق القيام اذ ذاك من أبناء الوطن مع احتياجها لكثرة المصروف .

وقد اعتمد هذا الترتيب بعد اقراره ، ورقيت أنا اليوزباشى على باشا مبارك الى رتبة الاميرالاى . وعينت من ذلك الوقت ناظرا لمدرسة المهندسخانة وترتب عـلى تنفيذ الترتيب الجديد الاكتفاء بمدرسة المفروزة « بالعباسية » والغاء باقى المدارس

هذا ما قاله على باشا مبارك وهو يترجم لحياته ، مسجلا على نفسه أنه وقد أصبح ابو التعليم فيما بعد ، قد بدأ صلته بالتعليم بتحقيق رغبة عباس باشا فى الغاء المدارس وقصرها على مدرسة واحدة ، وكان عزاء مصر بطبيعة الحال عن غلق مدارسها ، ان جامعتها الكبرى وهى الأزهر كانت على العهد بها فى أداء وظيفتها ، وكان خريجوها المنتشرون فى ارجاء البلاد ، يواصلون عملهم فى تحفيظ القرآن والكتابة ومبادىء الحساب .

١٨٥١ م ـ ١٢٦٧ هـ الغاء مدرسة الألسن ونفى رفاعة بك الى السودان :

الغيت مدرسة الألسن فى رجب من هذه السنة مثلما الغى من المدارس بعد أن تولى نظارتها رفاعة بك رافع الطهطاوى خمسة عشر عاما ، وضع فيها أسس النهضة العلمية فى مصر .

وقد أراد عباس باشا أن يبعد رفاعة رافع الطهطاوى عن مصر فعهد اليه بانشاء مدرسة ابتدائية فى مدينة الخرطوم بالسودان وأرسل معه نفرا من كبار مدرسى مدرسة المهندسخانة كبيومى افندى الشهير بمؤلفاته فى علم الجبر وحساب المثلثات وغيره من كبار الأساتذة الذين اضطلعوا بالتعليم العالى فى مصر .

ويقرر عبد الرحمن الرافعى سبب ابعاد رفاعة رافع الطهطاوى من مصر لتخوف عباس باشا من روحه ومبادئه الحرة ، كما سجلها فى كتابه تخليص الابريز فى رحلة باريز ـ حيث اشاد بمبادىء الثورة الفرنسية والحكم الدستورى .

الشروع فى انشاء سكة حديد مصر اسكندرية :

يوصف عباس باشا الأول ، بأنه كان عدوا للاجانب : ان سياسته الانكماشية الرجعية ترجع الى رغبته فى التخلص من الأجانب ، ولكن ذلك ان صدق بالنسبة للفرنسيين ، فهو لايصدق بالنسبة للانجليز ، الذين نجحوا فى أيامه فى ترجيح مشروعاتهم الخاص بجعل مصر مركز مرور للتجارة الشرقية . والهندية بخاصة ، وتسهيل ارتباط انجلترا بمستعمراتها فى الهند على مشروع الفرنسيين الخاص بحفر قناة السويس . فأقنعوا عباس باشا فى بادىء الأمر برصف الطريق من السويس الى القاهرة ، ليكون صالحا لسير العربات ثم حسنوا له بعد ذلك انشاء خط للسكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة لنقل الأشخاص والمتاجر بسرعة .

وقد أصدر عباس باشا فى العشرين من ذى القعدة أمرا الى كتخداه بعمل اللازم لانشاء ثلاث مكاتب فى الاسكندرية والثانى فى مصر والثالث بمنتصف الطريق ، حيث أنه قد قرر بعون الله تعالى انشاء سكة حديد من مصر الى الاسكندرية ومباشرة العمل فيها .

وكان قد تم الاتفاق مع المهندس الانجليزى استيفنسون مخترع السكة الحديد

على أن يرسل من طرفه المهندسين اللازمين لمد الخط الحديدى بين مصر واسكندرية مقابل خمسين الف من الجنيهات .

وقد تم انجاز القسم الأول من الخط من الاسكندرية حتى كفر الزيات قبل نهاية حكم عباس باشا .

وهكذا قدر للرجل الذى أغلق المدارس ، أن يكون أول من ادخل السكةالحديد الى افريقيا ، بل الى الدولة العثمانية كلها .

اتمام عملية القناطر الخيرية :

وفى هذه السنة تم انشاء القناطر الخيرية ، التى كان قد شرع فى انشائها عام ١٢٦٣ هـ

مريت باشا يبدأ الكشف عن آثار مصر :

وفى هذه السنة أيضا بزغ نجم مريت باشا عالم الآثار الفرنسى حيث وفق الى كشفه العظيم فى منطقة سقارة وعثوره على مدافن عجول أبيس التى القت ضوءا كثيرا على تاريخ مصر القديمة .

وكان هذا الكشف ، بالاضافة الى اخلاص مريت باشا وتفانيه ، نقطة البدء لانشاء متحف الآثار المصرى العظيم .

١٨٥٣ م – ١٢٦٩ هـ ارسال جيش مصر لحرب القرم :

فى العشرين من شوال من هذه السنة اقلعت من الاسكندرية عمارة بحرية ، تتألف من ثلاث مراكب حربية (بكل واحدة منها مائة مدفع واربع سفن حربية أصغر من حجم الفرقاطة بكل واحدة منها ستون مدفعا ، وثلاث سفن أخرى مجهز كل منها بأربعة عشر مدفعا ، وباخرتين بكل منها اثنى عشر مدفعا ، ومجموعها اثنى عشر سفينة حربية مجهزة بستمائة وست مدافع ، وعليها جيش من عشرين ألف مقاتل ما بين مدفعية وخيالة ومشاه ، وذلك تلبية لطلب الحكومة العثمانية ، التى كانت قد اشتبكت فى حرب جديدة مع روسيا فيما اشتهر باسم حرب القرم ، وقد وقفت انجلترا وفرنسا بجيوشهما الى جوار الدولة العثمانية ضد روسيا .

وقد اشاد كتاب الانجليز والفرنسيين بموقف الجنود المصريين حيث كانوا يرابطون فى سلستريا ، وكان الروس لا ينفكون عن مهاجمة هذا الموقع ، ولكن الجيش المصرى استطاع أن يصمد لكل هذه الهجمات حتى تحطمت .

وقد بنى المصريون بهذه المنطقة حصنا عرف باسم « طابية العرب » .

١٨٥٤ م — ١٢٧٠ هـ افتتاح مدارس اوربية وامريكية :

واذا كان التعليم الحديث قد انكمش فى عهد عباس الأول .. فقد دخل البلاد فى صورة جديدة ، على يد الارساليات الأجنبية التى تقوم بالتبشير ، وتمهيد الطريق للنفوذ الأجنبى .

فقد وصل المرسلون الامريكيون ، وفتحوا بالأزبكية مدرسة فى هذه السنة لتعليم البنين .

وانشأت جمعية الفرير الفرنسية مدرسة سانت فام بشارع الرملى وسان جوزى بشارع الموسكى كلتاهما للبنين .

مقتل عباس باشا الأول :

فى الثامن عشر من شوال من هذه السـنة « ١٤ يوليو » — قتل عبـاس باشا فى قصره الذى انشأه بمدينة بنها ، وقد اختلفت الآراء فى أسباب القتل وهل كان مجرد مؤامرة من مؤامرات القصور والحرملك ، أم كان لأسباب سياسية فقام بتدبيره بقية أمراء اسرة محمد على **الذين غاضبوا عباس باشا** وسافروا للاقامة فى اسطنبول .

وكيفما كان الأمر فقد قتل عباس ، وأسدل الستار على هـذه الشخصية التى أهون ما وصفت به انها شاذة حيث كان يسىء الظن بكل الناس ، وبأفراد أسرته بصفة خاصة ، حتى راح يبنى لنفسه القصور المنعزلة .

ولكن ذلك لم يحميه من النهـاية فمـات مقتولا ، وهـو فى مطلع سن الرجولة « ٤١ سنة » .

وكان عباس باشا قد سعى لتغيير نظام الوراثة ليلى العرش من بعده ابنه الهامى بدلا من عمه محمد سعيد ، وقد ساعد على تقوية هذه الرغبة زواج الهامى باشا من ابنة السلطان عبد المجيد نفسه ولكن المنية عاجلته قبل تحقيق هذا الهدف .

وقد حاول بعض انصار الهامى باشا « الذى كان غائبا » أن ينادوا به واليـا ، ولكن هذه الحركة . احبطت ونودى بسعيد باشا حاكما لمصر .

امين باشا سامى يثنى على عباس :

وعلى الرغم من أن كل المؤرخين المصريين ، يندون بحكم عباس ويتهمونه بالرجعية والتعصب وضيق الأفق .

فان أمين باشا سامى يذكره بالخير فيقول عنه :

« انه سار سيرة جده محمـد على فى الاعتمـاد على موارد مصر الداخلية وعدم الالتجاء الى القروض ، ووقوفه فى وجه انشاء قناة السويس ، فى الوقت الذى راح

يهيء فيه مصر لتكون معبرا للتجارة الشرقية ، كما كانت دائما فى القديم مستخدما لذلك أحدث وسائل العمران كشق الطرق من السويس الى القاهرة وانشاء السكة الحديد من القاهرة الى الاسكندرية .

ومحمد رفعت بك :

ويقول المؤرخ الأستاذ محمد رفعت « بك » واذا كان عهد عباس فى جملته رجعيا قليل الاصلاح فلا يحق لنا الاندفاع وراء الأجانب لا سيما الفرنسيين منهم فى الاساءة الى سمعته اذ أن هؤلاء الأجانب انما أبغضوه لأنه عارض نفوذهم وخفض عدد الموظفين منهم ، ولم يفتح لهم الأبواب لاستثمار مرافق البلاد . والى جانب تعبيد الطرق بين القاهرة والسويس ، والشروع فى مد الخط الحديدى من مصر الى اسكندرية ، واتمام نحو نصفه فان حكم عباس الأول يمتاز باستقرار الامن وتخفيف الضرائب عن الفلاح وتحسين حاله بعض الشيء ، وبالموازنة بين ايرادات البلاد ومصروفاتها وعدم ارهاقها بالاستدانة من الأجانب .

حالة مصر والجيش عند موت عباس باشا :

وقد بلغ محصول القطن فى السنة التى مات فيها عباس باشا ٤٧٧ر٩٠٥ قنطارا ومتوسط السعر ١٧٠ قرشا وبلغت ايرادات الحكومة ٢ر٢٠٠ر٠٠٠ جنيها ومصروفاتها ٢ر٨١٧ر٠٠٠ جنيهـا . أما عدد أفراد الجيش فكان ١٢٧ر١٦٤ جنـديا فى مقـابل ٢١٧ر٥٨٣ جندى أيام محمد على . وقطع الأسطول لا تزيد عن ٣٤ قطعة مقابل ٦٨ قطعة حربية أيام محمد على عليها ٩٥٠ مدفعا و ٣٤٥٠ بحارا و ١٠٤ ضابطا مقابل ١٤ر٨٤٠ بحارا فى عهد محمد على .

ولاية محمد باشا سعيد على مصر :

فى العشرين من شوال من هذه السنة « ١٢٧٠ هـ ــ ١٨٥٤ م » صـدر الفرمان الشاهانى بتولية محمد سعيد بن محمد على على عرش مصر وكان عمره يوم ولى ٣٢ سنة ميلادية « ٣٤ هـ » فقد ولد فى الاسكندرية عام ١٨٢٢ م ــ ١٢٣٧ هـ فهو ابن محمد على الذى ولد له فى مصر ، فلم يكن بمحض الصدفة أن انفرد من أولاد محمـد على بحبه للمصريين .

وقد اعتنى محمد على بتربيته اعتناء فائقا ، بلغ الى حد التشديد عليه فى مأكله ومشربه فضلا عن سلوكه وتعلمه فقد كتب اليه فى ٢٦ من ربيع الأول عام ١٢٥١ هـ يقول : ــ

قد وصل الى علمى نبأ عدم التفاتك للدروس وميلك للراحة والرقاد وميلك لمصاحبة القبودانات القديمة الذين لا يدرون شيئا من الآداب ، وترك مجالسة من يكتسب منهم مسلك الانسانية ، وقد سبق ونبهنا عليك بدوام الانتباه للمدرس ، والسـير بالمشى

والحركة لعدم حصول السمن « البدانة » والواجب عليك الائتلاف بمن لهم معرفة بالأصول الجديدة العارفين بالحاكم ، والوقت والاهتمام فى تعلم الأصول منهم حتى لا يقال ان محمد على سيء الخلق ، وأن هـذا السـير ليس سير الآدميين ، فلا تغير نشأتك الأصلية كما سبق النصح لك ، وتعظيم كبرائك ، والتزام التواضع مصداقا للحكم والأحاديث وتسعى فيما يكون له علو شأنك ويمنه تعالى سأحضر الى الاسكندرية لامتحانك أمام أحد المدرسين ، فاذا ظهر عدم الالتفات للمدرس وعدم ازالتك ثقـل جسمك ، فرحمة بحالك اجرى تأديبك . فبناء عليه يلزم ان تترك تلك الأدوار والسير على مقتضى هذا ، مع الدوام على الحركة واتعاب جسمك ، وعدم الاجتماع على عادمى الأدب ، والاقتداء بفارس أفندى المدرس بالتطبع بأخلاقه ، لاتصافه بحسنها ، وعدم تناول الطعام معه بالنسبة لاستنكافه استعمال الشوكة والسكين لأنه صوفى فيلزم الاصغاء لهذه النصائح وترك ما أنت عليه ، والميل والرغبة الى التواضع لتكون مقبولا عند والدك وعند الناس فضلا عن علو شأنك .

وليس هناك ما يكشف عن شخصية محمد على اكثر من هذا الخطاب الذى يوجهه لابنه ، كما أنه ليس هناك مفتاح لشخصية محمد سعيد من هذه العيوب التى يسجلها عليه أبوه والتى كانت سبب ما افادته البلاد وما عانته منه على السواء .

كراهية محمد سعيد للأتراك وحبه للمصريين :

كان سعيد على النقيض من ابن أخيه عباس ينقم على الأتراك والشراكسة اشـد النقمة حتى لقـد روى عنه قوله ذات مرة : أود أن اعرف ما هى العروق والشرايين التركية والشركسية فى لأفتحها وبذلك أتخلص من آخر نقطة من هذا الدم المقوت ، وعلى ذلك فقد استهل حكمه بالاستغناء عن كل بطانة عباس التركية واتخذ له حاشية من المصريين .

وقد أحب سعيد المصريين . واتسمت أيام حكمه بطابع هذا الحب ، وقد سجل عرابى باشا فى مذكراته « كشف الستار عن سر الأسرار » ان سعيد باشا القى خطبة فى مأدبة أقامها بقصر النيل قال فيها مخاطبا الحاضرين :

« أيها الاخوان انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التـاريخ ، فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمـة كثيرة كالهكسوس ، والأشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان ، واليونان والرومان هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطمين من العرب والترك والأكراد ، والشركس ، وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هـذا القرن فى زمن بونابرت . وحيث انى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى هذا الشعب واهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

ويقول عرابى معلقاعلى هذه الخطبة فى مذكراته : وعلى ذلك يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية » .

عودة رفاعة رافع الطهطاوى من منفاه :

ويقص علينا رفاعة رافع الطهطاوى قصة عجيبة هى آية من آيات الجلاء البصرى والتخاطر عن بعد فقد قال لأصحابه فى الخرطوم بغير مناسبة « مات عباس باشا » ولم يكن خبر موته قد وصل الى السودان ، حتى لقد خاف أصحابه على رفاعة بك من هذه الصيحة ، ولكن الأخبار لم تلبث أن جاءت بموت عباس باشا وصدور أمر سعيد باشا بعودة رفاعة بك وزملائه الى مصر .

حب سعيد باشا للاوربيين :

على أن سعيد باشا اذا كان قد كره الأتراك والشراكسة واحب المصريين ، فقد احب الأوربيين والفرنسيين بصفة خاصة ، حبا فاق حبه للمصريين ، وقد شاءت الظروف أن تكون اقامة سعيد باشا طوال فترة حكم أبيه فى الاسكندرية ، وان يكون نائب القنصل الفرنسى فى الاسكندرية هو ماثيمودى لسبس ، وكان محمد سعيد يجد فى بيت نائب القنصل من الأطعمة الدسمة « المكرونة » ما حرمها أبوه عليه ، وهكذا توطدت الصلة بين فردنان دى لسبس ابن القنصل وبين محمد سعيد .

وكأن الأقدار تأبى الا أن تهىء الأمور لفردينان دى لسبس ، فقد عاد القنصل الفرنسى الى باريس ، وسافر محمد سعيد الى باريس وكذلك ليزداد علما وتهذيبا ، فتجددت صلاته بأسرة دى لسبس وأصبح فردينان من احب الناس اليه ، وكان فردينان دى لسبس قد هام بفكرة شق قناة السويس ، فعرضها على عباس باشا فرفضها . فلم يكد يسمع بنبأ تولية محمد سعيد عرش مصر حتى أرسل يهنئه ، فما كان من سعيد باشا الا أن بعث اليه يستقدمه ويستضيفه .

دى لسبس فى مصر :

ووصل دى لسبس الى الاسكندرية فاستقبله سعيد باشا بحفاوة بالغة ، واصطحبه معه فى رحلته من اسكندرية الى مصر عن طريق الصحراء ، وراح دلسبس يتحين الفرصة لمفاتحة سعيد باشا بمشروعه . ولم تلبث أن جاءته الفرصة ، عندما قفز بجواده قفزة طرب لها مرافقى سعيد باشا ، وكانت هذه هى اللحظة التى فاتح فيها دلسبس سعيد باشا بمشروع قناة السويس ، فلم يتردد سعيد باشا فى منح صديقه الامتياز العظيم الذى كان يحلم به . ولم يستطع دلسبس نفسه أن يكتم استخفافه بالطريقة التى حصل بها على الامتياز فقال لنا فى مذكراته :

« جمع سعيد باشا قواده وجنده وشاورهم فى الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم

للرجل العالم المثقف ، انحازوا الى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع بادروا الى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه وكانت النتيجة أن منحنى الباشا هذا الامتياز العظيم .

وذكر عن سعيد باشا انه قال له بعد أن منحه الامتياز :

« أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع وانما هى مسألة شعور وليس من عادتى أن أقلد الناس فى ما يتبعون ويعملون » .

ولعله كان يعنى بهذه الفقرة الأخيرة انه لم يساير جده وابن اخيه اللذين رفضا السماح بالمشروع .

صديقنا فردينان دى لسبس :

وقد حوى صدر وثيقة فتح الامتياز ما ينطق بالأثر الشخصى الذى كان لفردينان دى لسبس على سعيد ، اذ جاء فى مقدمتها :

« لما كان صديقنا المسيو فردينان دى لسبس قد وجه نظرنا للفائدة التى سوف تعود على مصر من وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بترعة مائية تستطيع السفن الكبيرة اجتيازها ، ولما كان حضرته قد أعلمنا انه فى الامكان انشاء شركة مالية لهذا الغرض يكون أعضاؤها رجالا ماليين من جميع الأمم فقد نظرنا الى الاقتراح الذى عرضه علينا صديقنا بعين العطف وخولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لخرق برزخ السويس واستغلال الترعة طبقا لما هو موضح فى المواد التالية :

وتكررت الاشارة الى الصداقة بين سعيد باشا وبين فردينان دى لسبس فى مرسوم الامتياز بتأسيس شركة لشق قناة السويس الذى صدر فى ٣٠ نوفمبر ولمدة ٩٩ سنة حيث جاء فيه :

الى صديقى المخلص الكريم المحتد الرفيع المقام المسيو فردينان دى لسبس وهكذا استهل سعيد باشا حكمه بحدث لا فى تاريخ مصر بل فى تاريخ البشرية كلها وهو العمل على توصيل البحرين الأبيض والأحمر بقناة مباشرة .

خطوات المشروع الأولى :

وقد عرض سعيد باشا مشروع دى لسبس على المهندسين الفرنسيين اللذين كانا يعملا فى خدمة الحكومة المصرية وهما لينيان بك وموجل بك . وطلب منهما أن يرافقا دى لسبس الى برزخ السويس لدراسة المشروع وتطبيقه على الأرض فقاما بهذه المهمة ورفعا تقريرا الى سعيد باشا برأيهما فى المشروع ، وهو أن تنشأ قناة مستقيمة فى اضيق نقطة فى البرزخ بين موقع بيلوزة .... « بورسعيد » على البحر الابيض والسويس على البحر الأحمر . واستطاع دلسبس وقد حصل على الامتياز أن يجمع

من الماليين بعض الأموال اللازمة للصرف على النفقات الأولى للمشروع على شـكل حصص تأسيس قيمة الحصة « ٥٠٠٠ فرنك » أى ٢٠٠ جنيه مصرى على أن تحول هذه الحصص الى أسهم عند تكوين الشركة نهائيا . وهو ما احتاج الى سنتين لاتمامه.

تطهير ترعة المحمودية وتسيير السفن التجارية بالنيل :

وكان من المنطقى ، وسعيد يشغل نفسه بتسهيل المواصلات بالنسبة للعالم أن يبذل جهده لتسهيل وسائل المواصلات المحلية داخل مصر . فمهد الكثير من الطرق الزراعية ، وبنى الجسور والقناطر ، وزاد فى طول السـكك الحـديدية باكمال خط اسكندرية القاهرة ــ وعمل على تسهيل الملاحة النيلية بالمراكب البخارية الحديثة ، فتألفت شركة أجنبية للاضطلاع بهذا العمل منحت امتيازا لمدة خمسة عشر عاما وسميت الشركة المصرية للملاحة التجارية .

على أن عمله الأكبر فى هذه الناحية ، كان اصداره الأمر بتطهير ترعة المحمودية التى كانت قد أوشكت فى أيام عباس أن تطمر من جديد ، حتى لقد اعتبر تطهيرها كما لو كان حفرا من جديد ، فعادت الحياة على شاطئها بالازدهار واطمأنت الاسـكندرية الى مائها العذب .

١٨٥٥ م ــ ١٢٧١ هـ ــ الشروع فى انشاء القلعة السعيدية :

فى صباح الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الثانى ، وضع سعيد باشا أساس القلعة السعيدية ، التى أراد بها أن تكون حصنا ودرعا لمدينة القاهرة لمن يفكر فى غزوها عن طريق النيل .

وقد حضر ضـيوف الاحتفال الكبير ، الذى اقيم لهذا الغرض لأول مرة فى حياة البلاد بقطارات السكة الحديد والسفن مجانا .

تنظيم القضـاء :

وفى هذه السنة قام محمد سعيد باشا باصلاح النظام القضائى فى الاسكندرية فقد كان قاضيها يعين طبقا للتقاليد القديمة بمعرفة الباب العالى ، بعد أن يدفع المرشح لهذا المنصب مبلغا مقررا من المال ثمنا لهذا المنصب ، وكان القاضى يعمل على استرداد ما دفع مضاعفا واستغلال قضائه ليكون مصدر ايراد .

فاشترى سعيد باشا هذا الحق من الباب العالى ، لعدد من السنين ليكون بقدرته تنظيم القضاء فى الاسكندرية ليتحول الى مرفق عام لخدمة الرعايا لا لاستغلالهم .

موقف سعيد من التعليم :

على الرغم من اخلاق سعيد باشا الرضية بالنسبة للشعب المصرى على خلاف سلفه فانه كان أكثر رجعية من عباس باشا بالنسبة للتعليم حتى لأوشك أن يجهز

عليه ، فقد الغى ديوان المدارس ، وانتهز فرصة ارسال على باشا مبارك ناظر مدرسة المهندسخانة الى حرب القرم لكى يلغى مدرسة المهندسخانة ، كما أغلق مدرسة الطب نفسها ، ولكنه لم يلبث بعد حين أن أعاد فتح المهندسخانة وجعل مقرها فى القناطر الخيرية ، وسماها المدرسة الحربية ، وأعاد مدرسة الطب وأنشأ مدرسة آركان حرب وعين رفاعة بك ناظرا لها .

انشاء كلية الأقباط :

ولكن طوائف الشعب المختلفة التى كانت قد بدأت تتذوق نعمة التعليم بالطرق الحديثة ، أسرعت تعالج الموقف ، وكانت البطريركية القبطية الارثوذكسية سباقة فى هذا الميدان ، فأنشأت فى هذه السنة الكلية القبطية فى حارة النصارى ، ولقد حفزها على ذلك من غير شك مدارس الارساليات الأجنبية التى بدأت تتكاثر فى مصر .

وكان ذلك بدأ تطور جديد ، فبعد أن كان الطلاب يساقون الى التعليم بالاكراه ، بدأت الهيئات الشعبية تنشىء المدارس .

١٨٥٦ م — ١٢٧٢ هـ — منح شركة قناة السويس امتيازها :

فى الخامس من يناير من هذه السنة « ٢٦ ربيع الآخر » وكان فردينان دى لسبس قد نجح فى تأليف شركة قناة السويس بصفة رسمية نهائيا ، جدد سعيد باشا الامتياز الذى سبق أن منحه لفردينان دى لسبس بعد أن عدلت أحكامه وصيغت بما يزيد فى امتيازات الشركة ، ويلغى أو ينقص بعض الحقوق التى تضمنها الامتياز السابق لحساب مصر أو بالأحرى لحساب واليها .

وهناك اجماع بين كل من كتب عن تاريخ هذا الامتياز سواء فى الشرق أو الغرب أو بين الفرنسيين أنفسهم ، على أن شروط هذا الامتياز كانت فادحة لا ترضى بها حكومة رشيدة ، تحرص على مصالح رعاياها ، وقد قيل أن سعيد باشا قد أهدى البشرية قناة السويس ، ولكن ذلك قد تم على حساب الشعب المصرى البائس .

فبموجب هذا الامتياز الأخير :

— تنازلت الحكومة للشركة مجانا عن جميع الأراضى المطلوبة لانشاء القناة المالحة وترعة المياه العذبة ، والأولى بطول القنال وعرض ٢ كيلو متر . أما بالنسبة للترعة العذبة ، فقد خول للشركة استصلاح ما تشاء من الأراضى على جانبى الترعة لحسابها مع اعفاء هذه الأراضى من كل ضريبة ، بل خولت الشركة حق تقاضى أجور عن المياه العذبة التى قد ينتفع بها أحد المزارعين لزراعة أرضه وخول للشركة استغلال مناجم الحكومة ومحاجرها بدون اى أجر ، وأن تعفى كل واردات الشركة من أى ضريبة .

— اشترط أن يكون أربعة أخماس العمال من المصريين وتعهدت الحكومة بأن تبذل

مساعيها للشركة وأن تكلف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر ومصالح الحكومة أن يمدوا الشركة بمساعدتهم .

وقد فسرت الشركة هذا النص فيما بعد على انه التزام من جانب الحكومة أن تسخر أربعة اخماس العدد الذى تطلبه الشركة من العمال والفلاحين لاجراء أعمال الحفر والانشاء .

— خولت الشركة بعد انشاء القناة أن تفرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الثغور والترع التابعة لها على شرط أن لا تزيد النهاية العظمى عن عشر فرنكات ذهب عن كل طن وكل شخص من المسافرين .

— تحصل الحكومة المصرية فى مقابل الامتياز والأراضى التى منحت للشركة على ١٥٪ من صافى الأرباح السنوية .

— حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة الى الحكومة المصرية(١) .

* * *

سعيد باشا لا ينتظر موافقة تركيا :

وعلى الرغم من أن سعيد باشا اشترط فى عقد الامتياز موافقة الدولة العثمانية عليه ، فيبدو أن ذلك كان مجرد اجراء شكلى ذلك أن سعيد أصدر أمره فى الثالث والعشرين من جمادى الأول الى الخزينة المصرية جاء فيه :

انه بمنته تعالى سيصير البدء والشروع فى عملية ترعة السويس ، وحيث أن الاهتمام فى تنجيز وتأدية لوازمها بمجرد طلبها فى الوقت والحال من أقصى مرغوبنا ، فقد صدرت أوامرنا لجهة الاقتضاء ، عن ما ذكر وأصدرنا أمرنا هذا اليكم لتعلموا ذلك . وبحال ورود مكاتبة اليكم بطلب أى شىء للزوم تلك العملية سواء كانت من ديوان محافظة مصر أو من المهندسين المأمورين باشغال الترعة المذكورة . تبذلوا كمال الهمة فى تأديته بوقته وساعته بدون تأخير كما هو مطلوبنا .

١٨٥٦ م — ١٢٧٢ هـ — مؤتمر باريس وانتهاء حرب القرم :

فى الثلاثين من مارس من هذه السنة وقعت معاهدة باريس التى تؤلف أحد مراحل المسألة الشرقية ، وقد وقفت فيه انجلترا وفرنسا هذه المرة الى جوار تركيا ، حتى استطاعت أن تنتصر على روسيا بعد سقوط مدينة سباستبول .

وكان من الأثر المباشر لانتهاء الحرب على مصر ، هو عودة الجيوش المصرية التى اسهمت فيها .

---

(١) فتحت القناة للملاحة فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ وكان مؤدى ذلك أن ينتهى امتياز الشركة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ .

وقد استشهد فيمن استشهد فى هذه الحرب القائد العام للجيش سليم بك فتحى وذلك أثناء المعارك المجيدة التى قادها الجيش دفاعا عن أيباتوريا .

ولما قتل سليم باشا فتحى جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا النكلى والاميرالاى على بك مبارك « باشا » أركان حرب له .

كما استشهد فى هذه الحرب أيضا الأميرال حسن باشـا الاسـكندرانى قائد الاسطول المصرى الذى غرقت سفينته بكل من كان عليها نتيجة اعصار تعرضت له وكان عدد طاقم السفينة ١٩٢٠ ضابطا وبحارا .

وقد اشادت جريدة المونتيور الفرنسية على الجند المصريين فى هـذه الحرب بقولها : اثبت المصريون انهم خير الجنود الذين دافعوا عن ابياتوريا ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب ، واحتملوا وحدهم العبء فى الدفاع عن سلستريا .

وقال مسيو مربو فى كتابه مصر الحديثة عن حرب القرم :

ان كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى واتباعه اياه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء ، كل هذه المزايا قامت عليها البنيات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وابياتوريا فى حرب القرم الأخيرة .

الارسالية الأمريكية تفتح مدرسة للبنات :

وفى هذه السنة شهدت مصر لأول مرة فتح مدرسة للبنات ولكنها كانت مدرسة للارسالية الأمريكية بهدف التبشير فى الدرجة الأولى .

١٨٥٧ م ـ ١٢٧٣ هـ ـ تعيين المصريين لأول مرة فى مناصب الادارة العليا :

فى الرابع عشر من شهر صفر من هذه السنة ، أصدر محمد سعيد أمره لجميع المديريات بتعيين المصريين « أبناء العرب » فى وظائف الادارة الكبرى مآمير للمدن على أن يتبعوا وزارة الداخلية مباشرة .

وقد جاء فى هـذا الأمر :

لما كان جل ارادتنا تقتضى اجراء الأمور التى يكون بها حصول كمال رفاهية الأهالى وحسن سياستهم واستقامة اجراء جميع أمورهم على منهج العدل والانصاف ... قد سنح لخاطرنا أن أجعل الحكام من يوثق بهم باختيارهم فى الأمور المدنية من عمد أبناء العرب بنواحى المديريات مع أبناء الترك على سبيل التجربة ....

وكان حسن أفندى الشريعى من مديرية المنيا من أول من اختيروا لهذا الغرض .

انشـاء المجلس العـالى :

رأينا فيما سبق أن عباس باشا قد انشأ المجلس المخصوص ليتولى بمسـاعدة مجلس الأحكام مهمة ادارة البلاد .

وقد أعاد سعيد باشا تشكيل هذا المجلس مطلقا عليه اسم « المجلس العالى » وقد صدر الأمر بتشكيله فى غرة ربيع الأول من هذه السنة ، موجها الى اسماعيل باشا « ابن اخيه ابراهيم باشا » وقد عهد اليه برئاسة المجلس ، على أن يكون مقـره القلعة ، وجعلت مهمته : تسهيل وتشهيل رؤية وتسوية الأمور بالسرعة الممكنة على أن تكون موافقة ومطابقة لأحكام القانون ولأصول العدالة والحقانية على الوجه اللائق والاهتمام بمسألة حقوق العباد المقدسة .

انشـاء ثلاث نظـارات :

وقد أعيد تنظيم الدواوين ، فأطلق عليها اسم نظارات وانشىء ثلاث منها وهى نظارة الداخلية ، والمالية ، والحربية .

سعيد باشا والجيش :

من أعظم الاصلاحات التى قام بها سعيد باشا فى الجيش انه حوله فى نظر المصريين الى أن يكون مظهر نعمة لا نقمة وذلك بانقاص مدة التجنيد وجعلها سنة واحدة يعود بعدها المجند الى عمله فى قريته أو مصنعه ، وزاد على ذلك أن جعل التجنيد اجباريا وعاما لسائر المصريين فلم يعد يستثنى منه طائفة أبناء العمد والمشايخ ، بعد ان كان وقفا على الطبقات الفقيرة .

تجنيد محمد عرابى :

وتطبيقا لهذه القاعدة فقد جند محمد عرابى ابن شيخ بلد هرية رزنة بالقرب من مدينة الزقازيق — ولأنه كان يعرف القراءة والكتابة عين كاتبا ، ثم لم يلبث أن عين ضابطا .

ولعل ذلك ينطق بنفسه عن مدى اهتمام سعيد باشا بالجيش ورغبته فى تحويل بعض ضباطه الى مصريين .

وكثيرا ما بلغ اهتمام سعيد باشا بالجيش الذروة .

بأن راح يعتنى بشئون الجيش ، حتى ليعيش بين جنوده ، ويلبسهم أحسن الملابس ويهتم بطعامهم وشرابهم ، ويزيد فى عددهم ، وتارة ينقص من هذا العدد .

وكانت الفرمانات التركية قد نصت على أن لا يتجاوز عدد أفراد الجيش المصرى ثمانية عشر ألفا ، ولكن هذا الفرمان ظل حبرا على ورق ، ولكن سعيد باشا رأى فى هذه السنة أن يخفف عن كاهل الشعب المصرى عبء قيام جيش كبير فى زمن السـلم ،

خاصة بعد انتهاء حرب القرم ، فأصدر فى الثانى من ربيع الثانى فى هذه السنة أمرا الى اسماعيل باشا رئيس المجلس العالى بعمل الترتيبات اللازمة لانزال عدد الجيش العامل الى ثمانية عشر ألف جندى .

على أن هذا الأمر لم يوضع موضع التنفيذ فظلت قوة الجيش على حالها .

انشاء القومبانية المجيدية :

وفى هذه السنة انشئت شركة مختلطة من الأجانب والمصريين سميت « القومبانية المجيدية » نسبة للسلطان عبد المجيد وكانت مهمتها تسيير البواخر التجارية فى البحر الأبيض ، وفى البحر الأحمر لتعمل بين السويس وسواكن ومصوع واليمن وتنقل الحجاج ذهابا وايابا .

سفر سعيد الى السودان :

فى السادس عشر من يناير « ١٨٥٧ » وصل سعيد باشا الى مدينة الخرطوم فى زيارة للسودان ، تاركا على رأس حكومة مصر اسماعيل باشا ابن أخيه ورئيس المجلس الأعلى وقد التقى فى السودان بأعيان القطر الذين قدموا له عرائض يشكون من فداحة الضرائب ومظالم الحكام الأتراك ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لأحوالهم ، حتى لقد ساورته فكرة اخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن اخلاء السودان يؤدى الى تفاقم الأحوال أو تعمه الفوضى .

وبادر سعيد الى الاستجابة الى ضروب الاصلاح ، فأصدر أمرا باعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من الضرائب — كما أصدر أمرا بتخفيض الضرائب ذاتها ، ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها ، وعزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم وأطلق سراح المعتقلين — ورسم بالغاء السخرة ، وشدد على مديرى الأقاليم السودانية أن يحسنوا معاملة الأهلين .

وانشأ محطات فى صحراء « كرسكو » لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، كما نظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وانشأ نقطة عسكرية عند نهر السوباط لمنع تجارة الرقيق ، ومطاردة النخاسين « تجار الرقيق » وان ظلت تجارة الرقيق سائدة رائجة .

١٨٥٨ م — ١٢٧٤ هـ — صدور اللائحة السعيدية — وبتمليك الفلاحين الأرض :

منذ ولى سعيد عرش مصر ، وقد سعى جهده للتخفيف عن الفلاح ، فأسقط عنه الضرائب المتأخرة ، والتى كانت تبلغ فى تقدير بعض المعاصرين ٨٠٠,٠٠٠ جنيه .

كما الغى ضريبة الدخولية التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر مما تتبادله المدن والقرى فى داخل البلاد وكانت مصدر ارهاق وأعنات للأهلين اذ كانت تبلغ ١٢٪

من قيمة الحاصلات ، مما كان يرفع الأسعار ، ويضعف حركة المعاملات فجاء الغاؤها بمثابة حركة تحرير للأهالى ، وتنشيط للتجارة الداخلية .

ولكنه فى هذه السنة توج أعماله فى هذا الميدان باصدار اللائحة السعيدية ، او قانون الأراضى . وبموجب هذا القانون وزعت الأراضى على الفلاحين الذين يقومون بزراعتها ليتصرفوا فى ملكيتها وزراعتها حسب ما يشتهون ، فأصبح لهم حق رهنها وبيعها .

وكان ذلك ثورة اصلاحية كاملة فى حياة الفلاح ، اذ هيأت له ولأول مرة فى تاريخه منذ عدة قرون ، أن يجنى ثمرة عمله وكده ، وأن يزرع ما يشاء ويختار ويتصرف فى محصوله كما يشاء ويختار فى مقابل دفع الضريبة المعتادة .

تغطية الاكتتاب فى شركة قناة السويس :

فى هذه السنة نجح فردينان دى لسبس فى ايقاف معارضة الباب العالى على الامتياز الممنوح له بانشاء شركة قناة السويس ، وقد ساعد دلسبس على اقناع الباب العالى للموافقة على المشروع ، تحول جانب كبير من الرأى العام الانجليزى نفسه لصالح المشروع . فقد كانت الثورة الهندية الكبرى ضد الانجليز قد اشتعلت ، وأحس الانجليز بأهمية الوصول السريع الى الهند . فنهيأ جو صالح للمشروع فى انجلترا نفسها وبالتالى فى تركيا وأسرع دى لسبس فى الخامس من نوفمبر فطرح أسهم الشركة للاكتتاب العام فى باريس وغيرها من عواصم أوربا فغطيت الأسهم عدة مرات ، وتألفت الشركة نهائيا فى ديسمبر من هذه السنة .

وقد جعل رأس مال الشركة ٢٠٠ مليون فرنك « ٨ مليون جنيه » موزعة على ٤٠٠ ألف سهم قيمة السهم خمسمائة فرنك « ٢٠ جنيه » ، وقد اكتتب سعيد باشا بما يقرب من نصف الأسهم ١٧٧٫٦٤٢ ودفع جزء من ثمنها وقسط الباقى على عدة سنوات .

وعندنا أن هذا الاجراء بالاضافة الى ما اشترط فى عقد الامتياز من حصول حكومة مصر على ١٥ ٪ من صافى الأرباح ، كان من شأنه أن يجعل مصر تربح من انشاء القناة وتزيد فى دخلها ومواردها زيادة كبرى ، فهو لم يكن يمنح فرديناى دى لسبس امتيازا لا تفيد مصر من ورائه شيئا ، بل لعله دار فى خلده انه يسخر العلم والجهد الأوربى فى افادة مصر .

ولذلك فان واجب الانصاف يقتضينا أن لا نحمل سعيد باشا أخطاء من لحقوه عندما باعوا هذه الأسهم بثمن بخس ، كما باعوا حصة مصر فى الأرباح ، بحيث خرجت مصر فى نهاية الأمر بعد كل جهودها وتصميماتها صفر اليدين من دخل القناة .

جعل اللغة العربية هى لغة المعاملات بالحكومة :

فى الرابع من ذى الحجة من هذه السنة أصدر سعيد باشا أمراً بجعل اللغة العربية هى لغة العمل فى الدواوين بعد أن كان العمل يجرى باللغتين التركية والعربية وكان مما جاء فى هذا القرار :

ومن المعلوم أن معظم أشغال هذه الديار ومصالحها انما تتم باللغة الغربية فاقتضت ارادتنا ان كافة المخاطبات التى تجرى فيما يتعلق بالحسابات أو القضايا أو ادارة المصالح تكون بالعربية سواء كان ما بين المديريات والداووين وبعضها أو ما يلزم عرضه علينا .

انشاء سكة حديد القاهرة السويس :

وفى هذه السنة افتتح الخط الحديدى بين السويس ومصر فأصبح القادم من الهند قاصدا أوربا يستطيع مواصلة السفر من السويس الى الاسكندرية فى يوم واحد .

انشاء شركة المياه المصرية باسكندرية :

وقد انشئت فى هذه السنة بمدينة الاسكندرية أول شركة لتوزيع المياه بالطريقة الأوربية الحديثة بواسطة الانابيب وبعد تكرير المياه وتنظيفها بالنظام الآلى الحديث ، وقد منح الامتياز للمهندس الفرنسى كورديه .

١٨٥٩ م ــ ١٢٧٥ هـ ــ البدء فى حفر قناة السويس :

فى الخامس والعشرين من هذه السنة ، توجه دلسبس بصحبته أعضاء مجلس ادارة الشركة الى شاطىء البحر الأبيض ، فى الموقع الذى أصبح فيما بعد مدينة بور سعيد واقيم احتفال كبير ضرب فيه دلسبس وسعيد أرادا بهذا الاجراء أن العمال يعملون فى حفر الأرض ، ويبدو أن دلسبس وسعيد أرادا بهذا الاجراء أن يضعفا تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع فلم يكن التصديق الرسمى على الامتياز قد صدر بعد .

ايقاف العمل :

وقد غضبت الحكومة الانجليزية ، التى كانت لا تزال غير راضية عن المشروع لقيام الفرنسيين به ، فسعت لدى تركيا لايقاف العمل ، بل لقد وصل الأمر بها الى حد أن تطلب من تركيا خلع سعيد باشا فى الوقت الذى أرسلت فيه أسطولها الى ثغر الاسكندرية فى يونيو من هذه السنة .

ولقد كان من شأن ذلك كله أن يخيف سعيد باشا وأن يحمله على ايقاف المشروع

فعهد الى شريف باشا وزير خارجيته أن يرسل الى المسيو دى لسبس كتابا يطلب منه فيه ايقاف العمل . بل لقد أصدر أمره المبـــاشر فى الحادى والعشرين من ذى الحجة الى محافظ دمياط لايقاف العمل وقد جاء فى الأمر المذكور :

« بمجرد وصول أمرى اليك يجب أن تقوم بسرعة وتذهب الى المحل الذى فيه العمل الموجود فيه عمال وشغالة المسيو دى لسبس ، وأن تسحب جميع الشـغالة من أولاد العرب المصريين الجنسية وتعيدهم الى دميـاط وأن تبلغنى تاريخ عودتكم وعدد العمال الذين سحبتهم من العمل .

١٨٦٠ م ــ ١٢٧٧ هـ ــ رحلة سعيد باشا للحجاز :

فى الحادى عشر من شهر رجب من هذه السنة توجه سعيد باشا الى مدينـــة السويس مصطحبا حاشية ضخمة وألفى جندى ما بين فرسان ومدفعية ومشاة من مدينة السويس قصد الى ميناء الوجه أحد ثغور الحجاز ثم ســـار على رأس هذه الحملة العسكرية الى المدينة المنورة فى غير موسم الحج فوصلها فى أول شعبان ، وزار قبر الرسول صلوات الله عليه ثم غادر المدينة فى السادس من الشهر وسار نحو ميناء ينبع حيث استقل البـاخرة نجد الى مدينـة السويس فوصل اليها فى ١٧ شـوال « ٢٨ فبراير » .

وقيل أن هدف سعيد باشا من هذه الرحلة كان هدفا سياسيا وهو الاعتذار عن تلبية طلب الباب العالى له بالحضور الى أعتابه لمساءلته عن تصرفه فى منح امتيـاز شق قناة السويس لشركة فرنسية دون الحصول على اذنه مسبقا .

القائمقام محمد عرابى :

وترتبط هذه الرحلة بتاريخ محمد عرابى الذى سيكون قائد الثورة العرابية فقد اصطحبه معه سعيد باشا باعتباره ياورا له فكان لذلك أعمق الأثر فى نفس عرابى ، اذ هيأ له الفرصة من ناحيته لادراك حب سعيد باشا للمصريين ورغبته فى أن يراهم فى أعلى المناصب ، مما سيكون سببا لامتلائه بالثورة عندما أقصى من منصبه فى الجيش فى العهد التالى ، وقامت سياســة الخديو الجديد على السياسة القديمـة سياسة احتقار المصريين وتقويم الأتراك .

استئناف العمل فى قناة السويس :

على أن هذه الأزمة بين سعيد باشا والباب العالى حول قناة السويس ، سرعان ما حلت بتغير الأحوال السياسية فى أوربا ، واســتطاعة نابليون الثالث أن يؤثر على الباب العالى لمصلحة المشروع .

واستؤنف فيه العمل .. وكان سعيد باشا أشد حماسة منه فى أى وقت مضى للمشروع ، بحيث خصص له خمســة وعشرين ألف عامل يعملون بصفة دائمـــة فى

المشروع ويقول لنا دلسبس : انه خفض عدد الجيش المصرى خصيصا ليتمكن من مد المشروع بالعمال اللازمين .

الغاء الضرائب على المصنوعات :

وفى هذه السنة صدر قرار بالغـاء رسم الدمغة السنوى الذى كان مقررا على المصنوعات والأعمـال الداخلية مثل اللب والحلفـة والخوص والحصير والصفيح الأبيض والأصفر والحديد والخشب وسائر الأشـياء الصغيرة الذى يبلغ ٣٣٨٠٦٠ قرشـا .

انقاص عدد الجيش :

وفى هذه السنة انقص عدد المشـاة من رجال الجيش من ٦٢٠٢٣ الى ١٥٦٦٩ والضباط من ١٨١٧ الى ٧٥٢ وقوة الخيالة من ٨٠٦٢ الى ٢٦٠٨ وضباطها من ٢٨٨ الى ٥٢ والمدفعية من ٧٧٧٩ الى ٣٠٠٠ وضباطها من ٤٥٦ الى ١٢١ وأركان الحرب من ٤٣ الى ١٤ والأطباء من ١٢٢ الى ٥٨ والصيادلة من ٤٣ الى ١٤ .

والباشى يوزق من ٤٧٢٩ الى ١٣٢٥ والكتبة من ٩٠ الى ٣٦ .

١٨٦١ م — ١٢٧٨ هـ — تولى السلطان عبد العزيز عرش تركيا :

وفى هذه السنة مات السلطان عبد المجيد سلطان تركيا وتولى السلطنـة بعده السلطان عبد العزيز .

١٨٦١ م — ١٢٧٨ هـ — سعيد باشا يبدأ سياسة القروض الأجنبية :

فى الخامس عشر من ذى القعدة من هذه السنة تلقى اسماعيل باشا قائمقام مصر خطابا من سعيد باشا الذى كان قد سافر الى أوربا انتجاعا للراحة والصحة يعلمـه فيه أنه قد عقد قرضا بمبلغ ٢٠ مليون فرنك من بنك ساكس ماتيكس بواسـطة الخواجة أويتهايم على أساس شروط القرض السابق البالغ مقـداره اربعين مليون فرنك الذى عقد مع ذات البنك المذكور .

وهكذا بدات الصفحة الأولى من كتاب القروض الأجنبية الذى سيجر مصر الى الكوارث والنكبات وقد قيل أن الدافع لسعيد باشا على هذا القرض هو رغبته فى دفع الأقساط المستحقة عليه من ثمن أسهم قنـاة السويس . وقيل بل أريد به اعادة تسليح الجيش المصرى ، حيث كان سعيد باشا قد نوى اعادة تكبيره وتسليحه .

وقد بلغ مقدار هذا الدين ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ بفـائدة ربوية قدرها ٧٪ وكان المبلغ الحقيقى الذى قبضـه سعيد باشـا هو ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيـه أى بتنقيص قـدره ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه . وكان عليه أن يسدد الدين فى مدة ثلاثين سنة . وكانت قيمةالقسط

الســـنوى لهـذا الدين من راس مال وفوائد هو ٢٦٤٫٠٠٠ جنيــه اى ان مجموع الأقساط يصل فى النهاية الى ٧٫٩٢٠٫٠٠٠ جنيه وتلك هى مأساة هذه الديون .

الديون الســــائرة :

واذا كان هذا الدين هو أول دين يعقد فى أوربا حيث بدأت الرأسمالية الأوربيــة تبلغ ذروة الجشع عن طريق اصدار ســـندات على الخزانة المصرية تعطى للمرابيين المحليين من الأجانب ، أو المقاولين . ولم يكن لاصدار هذه السندات أى ضابط أو رابط ، وقد وصل ما استدانه سعيد باشا بهذه الصورة حوالى ثمانية ملايين جنيه . ولذلك فان كتب التاريخ تختلف فى مقدار الديون التى خلفها سعيد باشا من بعده ، فالبعض يقتصر على الدين الأجنبى الســـابق الذكر ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ جنيــه والبعض يضيف اليه هذه الديون السائرة فيصبح مقدار الدين بحسابهم .

١١٫١٦٠٫٠٠٠ جنيه .

١٨٦٣ م ــ ١٢٧٩ هـ ــ سعيد يطلب أن لا يستقبل باحتفالات :

ويستوقف المؤرخ تصرف غير عادى بمناسبة عودته من أوربا ، فقد ارسل لنائبه فى مصر اسماعيل باشا الأمر العالى التالى : ــ

نظرا للأخبار الواردة لطرفى من محافظ الاسكندرية من أن هنـــاك استعدادات جارية تتعلق باقامة زينة واحتفالات عند عودتى ، فنحيطكم علما انى لا أريد أن يتحمل اى شخص مصاريف زائدة ولا أرغب فى أن الأهالى والمستخــدمين يكلفون انفسهم مصاريف للتزلف التى ، حتى لدرجة اننى لا ارى حاجة لاطلاق مدفع عند وصــولى بعون الله ولا لترك المستخدمين والمأمورين اعمالهم ومصالحهم والسفر الى الاسكندرية الاحتفال باستقبالى ، فبناء عليه يجب على كل ديوان أو مصلحة أن يبقى مواظبا على اعماله واشغاله .

اما ذاتكم الشريفة اذا تفضلتم بالحضور لاســـتقبالى فأكون ممنونا ومحظوظا جدا . فعندما نحيط ذاتكم الفخمة علما بذلك تفضلوا باصدار أوامركم وتنبيهاتكم العلية باجراء مقتضاه .

سعيد ينزل عن المطبعة الأميرية لأحد الموظفين :

وفى الثالث عشر من ربيع الثانى ، صدر أمر عالى لنظارة المالية بالنزول عن المطبعة الأميرية الى عبد الرحمن رشدى بك مدير الوابورات الميرية بالبحر الأحمر على سبيل الانعام بكل ما فيهــا من أدوات وآلات ، على أن يجرى تشــغيل سائر ما كان جارى تشغيله بها ، وما يستجد من قوانين عسكرية ودفاتر وخلافه لزوم المصالح الأميرية ويبدو أن سعيد باشا كان متأثرا فى هذا التصرف مثل بقية تصرفاته بالروح العارمة التى بدأت تسود أوربا وهو عدم تدخل الدولة فى أى ضرب من ضروب الانتاج وترك مختلف الأعمال الانتاجية للأفراد يتولونها على مسئولياتهم ويفرغون فيها نشاطهم .

التنازل عن الوقائع المصرية :

وتطبيقا لذلك لم يلبث أن تنازل لعبد الرحمن بك رشدى عن جريدة الوقائع المصرية ، فأصدرها لحسابه كجريدة شبه رسمية .

ارسال تجريده الى حرب المكسيك :

وكان آخر عمل غير عادي ختم به سعيد باشا حيلته العامة هو استجابته لنداء نابليون الثالث ، الذى طلب منه أن يساعده فى حربه ضد المكسيك ، حيث اراد أن يبسط نفوذه عليها .

وأمد سعيد باشا نابليون الثالث بحملة من الجنود السودانيــــة عددها ١٢٠٠ مقاتل يقودها البكباشى خيرة الله محمد السودانى والصاغ محمد أفندى الماسى .

وأبحرت الدفعة الأولى من هذه القوة فى السادس من رجب من هذه السنة .

صمويل بيكر واكتشاف منابع النيل :

وكان من نتيجة استتباب الأمن فى السودان فى ظل الحكومة المصرية ، أن تشجع الأوربيون على ارتياده والقيام برحلات فى قلب افريقيا لاكتشاف منابع النيل . وكان من هؤلاء المستكشفين السير صمويل بيكر الذى صعد فى النيل جنوبا من مدينـــة الخرطوم ، حتى وصل الى مدينة عندكرو التى وصلت اليها حملات سليم بك قبطان فى عهد محمد على ، فأخذ يتأهب لمتابعة السير جنوبا ، فالتقى به الرحالتان ، جرانت ، واسبيك قادمين من الجنوب وأخبراه بأنهما اكتشـــفا بحيرة فيكتوريا وانهما علما بوجود بحيرة أخرى ولكنهما لم يصلا اليها ، فتابع صمويل بيكر سيره فى النيل حتى انتهى به الأمر الى اكتشاف هذه البحيرة فأطلق عليهـــا اسم بحيرة البرت ، وهكذا سميت البحيرتان من منابع النيل باسم الملكة فيكتوريا وزوجها البرت .

وفاة سعيد باشا :

وفى السابع والعشرين من شهر رجب أى بعد ثلاثة أسابيع فقط من ارســـاله الحملة المصرية الى المكسيك ، ادركت المنية محمد باشا سعيد وقد بلغ من العمر ٤٢ سنة حكم منها ثمانى سنوات وتسعة اشهر وستة ايام .

احوال مصر فى أخريات عهد سعيد بالأرقام :

وليس هناك مدى ما يكشف عن مدى تغير الحياة فى مدة حكم سعيد باشا ودخول مصر فى نسيج الحياة الدولية الاقتصادى والعمرانى من أن أســعار القطن تضاعفت بسبب قيام الحرب الأهلية فى أمريكا ، حتى ارتفعت قيمة الصـــادرات المصرية على ما جاء فى كتاب محمد رفعت ٤ر٤٥٤ر٠٠٠ جنيه بعد أن كانت نصف هذا القدر .

ووفد على مصر فى السنة الأخيرة من حكم سعيد باشا ٤٣٣٢٣ سائحا وهو أمر لم يكن لمصر عهد به من قبل .

سعيد باشا فى الميزان :

وقد حملت الجمهرة الكبرى من المؤرخين المصريين ، حتى فى عهد الملكية وحتى من كان منهم المديح لمحمد على ، على سعيد باشا باعتباره الرجل الذى منح امتيـاز قناة السويس فى خفة ورعونة ، وانه الرجل الذى فتح باب الاقتراض من أوربا الأمر الذى عبد الطريق للتدخل الأجنبى فى شئون مصر هذا التدخل الذى انتهى باحتلال الانجليزى لمصر .

وعندنا أن تحميل أى انسان النتائج البعيدة وغير المباشرة لاعماله والتى قد تتسلسل الى ما لا نهاية وهو ضرب من ضروب التعسف ، فان يقترض سعيد باشا ثلاثة ملايين جنيه بفائدة قدرها ٧٪ فيعتبر مسئولا عن اندفاع اسماعيل باشا الذى اقترض أكثر من مائة مليون جنيه بفـائدة وصلت أحيـانا الى ٢٦٪ أمرا غير مقبول .

ومن المسلم به اقتصاديا أن مبدأ القرض متى كان لمشروعات انتاجية فلا غبار عليه ، وقد كان سعيد يؤمل فى دخل من قناة السويس بعد فتحها يعوض فى عامين أو ثلاثة هذا القرض . أما الذين يحملون سعيد وزر الاحتلال الانجليزى لمصر كأثر من آثار افتتاح قناة السويس فهؤلاء ينسون أن نابليون قد غزا مصر ولم تكـن قناة السويس قد شقت بعد ، وأن الانجليز بعد جلاء الفرنسيين قد عادوا لاحتلال مصر تأمينا لمصالحهم ، فلا صلة بين شق القناة ومشروعات أوربا الاستعمارية التى كانت قد بدأت تزحف على الشرق الاسلامى سواء بقناة السويس أم بغيرها .

وقد قيل كلام كثير عن الخفة والرعونة التى منح بها سعيد باشا الامتياز لشق القناة ، ومرة أخرى ينسى القائلون بذلك روح العصر الذى منح فيه الامتياز ، وأنه كان عصر الانقلابات والمغامرات العلمية والجغرافية والثورة الصناعية والتجـارية ولا شك أن الطموح قد تملك سعيد باشا وهو يمنح هذا الامتياز أن يكون فى التاريخ الرجل الذى تم فى عهـده معجزة العصر الحـديث وهو وصـل البحرين الأبيض والأحمر .

أما عن التضحيات التى بذلت فى شق القناة ، فقد كان فى تقـدير سعيد باشا وتخطيطه انها عائدة الى مصر يدل على ذلك مساهمته بمـا يقرب من نصف اسـهم الشركة ، علاوة على نصيب مصر من صافى الأرباح وقدره ١٥٪ .

ولا عجب أن يحمل سعيد كما ذكرنا من قبل أوزار الذين فرطوا من بعده فى هذه الحقوق فباعوا الأسهم ثم باعوا حصة مصر بعد حين مضت السنون بعد ذلك ومصر لا تجنى من قناة السويس سوى الحسرة .

ولقد كان تأميم شركة القناة عام ١٩٥٦ هو المناسبة التى تجلت فيها الحقيقة ان شركة قناة السويس هي بالنسبة لعقد امتيازها ليست سوى شركة مصرية ، لادولية كما زعمت الشركة نفسها من حقوق بعد ذلك ومن هنا فقد كانت عملية التأميم سليمة من الناحية القانونية البحتة .

وعندما بدأت مصر تنعم بقرابة مائة مليون جنيه سنويا من العملة الصعبة من عائدات قناة السويس ، احست بعظمة المشروع كمصدر للدخل والعزة القومية .

فحق أن لا تستمطر اللعنات على سعيد باشا باعتباره الآمر بحفر القناة .

ولماذا العطف على سعيد :

اما لماذا استحق سعيد منا هذه المحاولة للدفاع عنه ، فليس ذلك الا أنه انفرد من بين أسرة محمد على بالرحمة على الفلاح المصرى ، فهو الذى أعفاه من كل الضرائب المتأخرة وهو الذى الغى عنه الضرائب المرهقة ، فلم تكن ضريبة الفدان تزيد عن أربعين قرشا وهو الذى ملكه الأرض التى حرم من ملكيتها خلال عديد من القرون ، وهو الذى حول الجندية للفلاح من عبودية ورق دائم ، الى نظام ديمقراطى يتساوى فيه الجميع بالتجنيد لمدة عام واحد ، وأخيرا هو الذى فتح باب الترقى أمام المصرى ليصل الى مكانه الطبيعى فى ادارة بلاده سواء فى الجيش أو فى الادارة .

واذا كان قد أهمل التعليم ، وقسى فى تسخير الفلاحين .. فى حفر قناة السويس فهذا هو ما يجب ان تحصر فيه عيوبه وتناقضه .

الفصل التاسع عشر

عهد الخديوى اسماعيل.. أو عهد المتناقضات

تولية اسماعيل باشا :

فى السابع والعشرين من شهر رجب (١٨ يناير ١٨٦٣) تولى حكم مصر اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا وكان عمره يوم ولايته اثنين وثلاثين سنة وقد تربى فى بداية أمره فى المدرسة المخصوصة التى انشأها محمد على فى القصر العينى لتربية الأمراء ، حيث كانوا يتلقون مبادىء العلوم واللغات العربيــة والتركية والفارسية .

واعتراه فى سن الرابعة عشرة من عمره مرض فى عينيه أرسل بسببه الى فينـا للعلاج فأمضى بها سنتين ، ثم ارسله جده بعد ذلك الى باريس ليتعلم بها ، حيث اتقن اللغة الفرنسية وعاد الى مصر بعد ان اتم علومه المدرسية وكان أبوه ابراهيم باشا قد تسلم مقاليد الحكم ، ولكن ما عتم أن مات وولى الحكم عباس باشا الأول ، فدب النزاع بين عباس واسماعيل كبقية الأمراء فسافر الى اسطنبول وأقام بها ، حيث عينه السلطان عبدالعزيز عضوا بمجلس الأحكام ومنحه لقب باشا . ولم يعد الى مصر الا بعد وفاة عباس وولاية سعيد والذى كان معه على علاقات حسنة ، حتى لقد عينه نائبا عنه كلما سافر الى خارج مصر .

وقد اشتهر اسماعيل باشا فى هذه الفترة من حياته بأنه مثال للمزارع الادارى الناجح الذى أخذ بأحدث الأساليب العلمية لزيادة الانتاج فى أرضه ومضاعفة دخله.

ولم يكن اسماعيل باشا بحكم سنه هو الوارث الشرعى لسعيد فقد كان أخوه احمد رافت يحجبه باعتباره أكبر سنا ، ولكن أخاه مات غرقا عام ١٨٥٨ عنـد كفر الزيات حيث كانت القطارات القادمة من الاسكندرية تنتقل عبر النيل فى احـدى السفن ونتيجة لهذا الحادث أصبح اسماعيل باشا هو الوارث الشرعى .

وعند وفاة سعيد باشا سافر الى اسطنبول لتسلم الفرمان القاضى بتوليته مصر، فقوبل هناك بحفاوة ، وقد انتهز فرصة زيارته لاسطنبول فدعا السلطان عبد العزيز لزيارة مصر فوعد بتلبية الدعوة .

اسماعيل يبدأ بداية طيبة :

لم يكد اسماعيل يرجع من اسطنبول وقد أصبح واليا على مصر حتى ألقى فى حفل عام ضم جميع قناصل الدول وكبار الجاليات الأجنبية قال فيه :

« انى قد عزمت عزما اكيدا على بذل ما أوتيت به من همة وقوة لتحسين حالة هذا القطر وزيادة رخائه ، وبما أن النظام والاقتصاد فى المالية هو أساس كل حكومة صالحة ، فانى سأجعلها رائد كل أعمالى ، ولكى أقدم دليلا محسوسا على هذه الرغبة الخالصة قد وطنت النفس على ترك طريق أسلافى وعلى تخصيص مرتب سـنوى لى لن أتجاوزه مطلقا وبذلك استطيع أن أخصص جميع ايرادات القطر لتحسين شئونه الزراعية ، وسأعمل على ابطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها

وآمل أن تؤدى حرية التجـارة الى نشر الرفاهيـة والرخاء بين جميـع طبقـات الشعب .

وقيل انه استنكر فى هذه الخطبة سياسة الاقتراض ووعد بالابتعاد عنها .

ومن عجب أن اسماعيل انتهى الى مخالفة كل هذا الذى وعد به بل وتطرف فى مخالفته .

اسماعيل يحاول تعديل شروط امتياز قناة السويس :

واذا كانت الصيحة فى العالم المتمدن فى ذلك الوقت وخاصة فى انجلترا ضد الرق وفروعه ، وكانت انجلترا تعبر عن سخطها على مشروع قناة السويس بالتنديد بما يلقاه المصريون العاملون فيها على سبيل السخرة ، فقد انتهز اسماعيل هذه الفرصة للظهور بمظهر الأمير المتحرر التقدمى ، فأعلن اعتراضه على الشروط المجحفة لامتياز قناة السويس وما انتهت اليه من التزام الحكومة المصرية ان تقدم لها عشرين الف عامل بصفة دائمة وكان معنى ذلك تعطيل أربعة آلاف عامل آخرين ، نصفهم يستعد للذهاب والنصف الآخر فى حالة اياب وكانوا يقضون عدة أسابيع فى حالة الاعياء اذا عجز عن استئناف العمل ــ فضلا عن المآسى التى كانت تجرى فى موقع العمل ، حيث كان العمال النساء يسقطون صرعى بالمئـات والألوف ، مما أفض ضمير العـالم المتمدين فى ذلك الوقت .

ورغبة من اسماعيل لتعديل هذا الشرط وغيره من شروط عقد الامتياز فقد أوفد الرجل الذى اختاره ليكون وزير خارجيته والذى سيلعب دورا مشئوما ونعنى به نوبار باشا(١) ، الى اسطنبول أولا ليحصل على موافقة الباب العالى ، ثم الى باريس ثانيا ليحصل على موافقة الشركة على تعديل شروط الامتياز على الوجه التالى :

١ ــ انقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم الى ستة آلاف فقط .

٢ ــ زيادة أجور العمال بجعلها فرنكين لكل عامل ، لكى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من جهد للعمل فى حفر القناة .

٣ ــ الغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى وايقاف أعمال الشركة فى حفر ترعة المـاء العذبة على أن تقوم الحكومة المصرية باتمام انشاء هذه الترعة لحسابها ، على أن تعوض الشركة النفقات التى بذلتها فى الجزء الذى انشأته منها .

تحكيم نابليون الثالث :

وقد أسرع الباب العالى تحت تحريض انجلترا فأيد اسماعيل باشا فى هـذه المطالب ، فى الوقت الذى عارضت فيه الشركة ، وأثار دلسبس الرأى العام الفرنسى ورفع قضية على نوبار مبعوث اسماعيل باشا ، يتهمه بالقذف فى حق الشركة .

(١) كان نوبار باشا أرمنيا تجنس بالجنسـية العثمانية ، وقد كان وسـيطا بين اسماعيل وبين المرابين ، وبهذه الصفة حصل على الحظوة عنده .

وكان لدى اسماعيل باشا من السلطة والتأييد الشرعى من الباب العالى والتأمين السياسى والعسكرى من انجلترا ، ما يجعله قادرا على انفاذ ما يريد ولكن اسماعيل كان مفتونا بنابليون الثالث ، فارتضى أن يكون حكما بينه وبين الشركة ، فكانت هذه أول الحماقات التى ارتكبها اسماعيل ، اذ جعل خصمه حكما ، لان نابليون الثالث ما كان ليخذل شركة فرنسية كانت تسعى لتحويل مصر الى مستعمرة فرنسية لينصف عليها اسماعيل باشا .

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر :

فى الرابع عشر من هذه السنة ، لبى السلطان عبد العزيز خان دعوة اسماعيل باشا لزيارة مصر ، فنزل فى مدينة الاسكندرية وركب السكة الحديد لاول مرة فى حياته وجاء الى القاهره ، وقد أحاطه اسماعيل باشا منذ وطأ قدماه أرض مصر بالحفاوة اللائقة بمقامه ولا يزال فى مدينة القاهرة من آثار هذه الزيارة شارع عبد العزيز المؤدى الى العتبة الخضراء .

وقد كان اسماعيل باشا يرنو كجده محمد على لتحقيق أكبر قدر من الاستقلال عن تركيا ، ولكن حيث اعتمد محمد على على قوة الجيش والسلاح ، فقد آثر اسماعيل أن يعتمد على سلاح المال والرشوة .

وقد انتهز فرصة وجود السلطان عبد العزيز فى مصر ، ليشرع فى تنفيذ خطته فقدم للسلطان وحاشيته والصدر الأعظم من الهدايا والتحف ما احتاج الى سفينة خاصة لنقله .

وكان نصيب الصدر الأعظم وحده من الرشوة ستين الفا من الجنيهات .

وكان ذلك بداية الطريق الطويل الذى قطعه اسماعيل فى السفه والاسراف والتبذير والانفاق بغير حساب ، بزعم أنه يزيد من استقلال مصر وسلطانها .

افتتاح الانتكخانة ((المتحف المصرى)) :

فى الثامن عشر من أكتوبر من هذه السنة افتتح اسماعيل باشا فى بولاق دار العاديات المصرية التى عمل على انشائها مريت باشا أيام سعيد وكان اسماعيل باشا من أكبر مشجعيه على المضى فى عمله الكبير فازدهر التنقيب على الآثار ، ومضت الانتكخانة تنمو يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام .

١٨٦٤ م — ١٢٨١ هـ — أثر حركة التحرير الأمريكية على اقتصاديات مصر :

فى هذه السنة وصل الازدهار الاقتصادى فى مصر الذى سببه اشتعال حرب التحرير الأمريكية الى ذروته .

فقد كانت ولايات أمريكا الشمالية تحت زعامة ابراهام لنكولن ، قد أعلنت الحرب على ولايات الجنوب التى رفضت تحرير العبيد وأعلنت رغبتها فى الاستقلال .

ولما كانت ولايات الجنوب هى منتجة القطن فقد امتنع وصوله لمصانع أوربا مدة عامين فاتجهت مصانع أوروبا كلها صوب مصر وقطنها فارتفعت أسعار القطن المصرى ارتفاعا خياليا بالنسبة لذلك الوقت حتى لقد وصلت صادرات مصر فى هذه السنة الى ١٤٫٤١٦٫٠٠٠ جنيه وهى لم تزد عام ١٨٦٢ على ٤٫٤٥٤٫٠٠٠ جنيه .

ولقد كان هذا النمو غير المتوقع فى صادرات مصر ، هو الذى خدع اسماعيل باشا فى قدرة مصر المالية ، فاندفع فى غير وعى وحساب لاقامة عشرات من المشروعات الطموحة فى وقت واحد ، وزاد على ذلك الاتفاق على مباذله ومظاهر غروره كالاسراف فى انشاء القصور وتأثيثها بمبالغ خيالية .

أول قروض اسماعيل :

فى الرابع والعشرين من سبتمبر من هذه السنة (١٨٦٤) استدان اسماعيل قرضه الاول من بيت فروهلنج وجوشن الانجليزى وقيمة القرض ٥٫٧٠٤٫٢٠٠ جنيه انجليزى بفائدة قدرها ٧ ٪ لمدة خمس عشرة سنة وبلغت الفائدة الحقيقية مع الاستهلاك ١٢ ٪ ورهن فى مقابل هذا القرض ضرائب الأطيان بمديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة لسداد أقساطه .

ولما كانت ميزانية هذه السنة دلت على أن الايرادات تزيد على المصروفات فان معنى ذلك ان اسماعيل باشا لم يقترض عن حاجة وانما للانفاق على ما رسمه لنفسه من زهو وافتخار ، فراح ينفق من هـذا المبلغ على انشاء العديد من القصـور التى شرع فى بنائها فى مصر كما اشترى قصرا على ضفاف البوسفور .

ولما كان قد وضع نصب عينيه أن يكون المالك للقسم الأكبر من الأراضى المصرية ليعود بالوضع الى ما كان عليه فى أيام جده عندما كان هو المالك الوحيد لكل الأراضى المصرية .. فقد بدأ ينفق أمواله فى شراء مبانى الأمراء ..

نابليون الثالث يصدر حكمه فى النزاع بين اسماعيل باشا وشركة القناة :

وفى السادس من شهر يوليو من هذه السنة أصدر نابليون الثالث حكمه المرتقب فى النزاع بين الحكومة المصرية وشركة القناة ، وهو حكم بدا من الناحية القانونية انه يأخذ بجانب مصر ، ولكنه من الناحية الفعلية عاد على الشركة بأطيب الثمرات واليك ما قضى به الحكم .

١ ــ ابطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال والزام الحكومة فى مقابل ذلك بدفع تعويض مالى للشركة مقداره ٣٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك .

٢ ــ تتنازل الشركة للحكومة المصرية عن كل حق فى ترعة المياه العذبة والزام الحكومة فى مقابل ذلك التنازل بدفع تعويض قدره ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك .

٢ – قصر الأراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع على ٢٣ الف هكتار واعادة باقى الأراضى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠ الف هكتار فى مقابل أن تدفع الحكومة تعويضا قدره ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك .

وكان معنى ذلك أن تدفع حكومة مصر ٨٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك وهو ما يعـادل ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيها مصريا لاسترداد بعض أراضيها ورفع السخرة عن أبنائها

ولما كانت الشركة فى هذه الفترة تكاد تكون فى حالة افلاس ، فقد جاء هذا الحكم لانقاذها من هاوية الافلاس .

ولقد بادر اسماعيل وسط ذهول العالم باعلانه نبأ قبول قرار التحكيم ـ كاشفا بذلك عما سبق أن خرج به من انه أشد حماسة لتنفيذ المشروع من دى لسبس نفسه .

١٨٦٥ م – ١٢٦٣ هـ – القرض الثانى ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ جنيها :

انتهت الحرب الأمريكية فى هذه السنة بانتصار الشمال الحاسم على الجنوب ، وتم توحيد الولايات المتحدة الأمريكية ، وعاد القطن الأمريكى يتدفق على أوربا . فتراجعت أسعار القطن المصرى وعادت الى مستواها القديم ، فوقع الملاك والفلاحون فى أزمة اقتصادية عرفت بأزمة ١٨٦٥ اذ لم يعرفوا كيف يوفون ديونهم ـ فتدخل اسماعيل لعلاج هذه الحالة ، بأن حصر ديون الأهلين وسددها عنهم للدائنين والمرابين على أن يستقضى هذا الدين من الأهالى خلال سبع سنوات بفائدة قدرها ٧٪ وقـد احتاجت هذه العملية الى ١٫٠٤٠٫٠٠٠ جنيه اقترضها اسماعيل من بنك الانجليز حيث حصل على ثلاثة ملايين من الجنيهات ، حسبت عليه بـ : ٣٫٣٨٧٫٠٠٠ جنيها .

ورهن فى مقابل هذا الدين ٣٦٥٫٠٠٠ فدان من أملاكه ولذلك فقد سمى هـذا القرض بدين الدائرة السنية الأول .

اسماعيل يحاول الاستعاضة عن القطن بالقصب :

وحاول اسماعيل أن يستعيض عن تراجع أسعار القطن المصرى ، بزراعة القصب لتصدير السكر ، فأقدم على مغامرته الكبرى التى كانت فيما يبدو أحد الأسباب الأصيلة التى أدت الى الارتباكات التالية :

فقد حاول أن يزرع فى أسرع وقت مئـات الألوف من أفدنة القصب الأمر الذى احتاج الى انشـاء ترعة الابراهيمية وأن يشترى كل الأراضى التى تمر بهـا . وأن ينشىء فى وقت واحد تسعة عشر مصـنعا لقصب السكر فى الفشن ومغاغة ومطـاى والمنيا وأرمنت والمطاعنة وغيرها .

وقد نجح اسماعيل فى انتاج السكر وتصديره .. حتى لقد بلغ ما صدر فى أحد الأعوام التالية مليون طن من السكر .. ولكن ذلك كله بثمن باهظ جدا .. واضعاف أضعاف تكاليفه الحقيقية .

١٨٦٦ م ـ ١٢٨٣ هـ ـ القرض الثالث ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ :

فى الخامس من يناير من هذه السنة استدان اسماعيل قرضه الثالث وقدره ثلاثة ملايين جنيه من بنك أوبنهايم مقابل رهن ايرادات السكة الحديد .

ولم يكن لهذا القرض من هدف الا أن يدفع جزءه الأكبر رشوة للباب العالى لتعديل نظام الوراثة بحيث يجعل الولاية من بعده لابنه الأكبر وليس للاكبر من أسرة محمد على بصفة عامة .

كما استدان فى هذه السنة أيضا دينين آخرين من الديون الشائرة (قصيرة الأجل) ليدفع منها ثمن أراضى أميرين كانا ينافسانه على العرش ، وكان شديد الرغبة فى التخلص من وجودهما بمصر أخوه « مصطفى فاضل » وعمه محمد عبد الحليم فألزم للأول بأن يدفع له مبلغ ٣٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه وللثانى ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه فى مقابل أراضيهما .

تعديل نظام الوراثة :

وقد ظفر اسماعيل باشا بأمنيته فى تعديل نظام الوراثة الذى حرم أخاه وعمه وجعله خليفته فى حكم مصر هو ابنه الأكبر توفيق ـ فصدر فى الثانى عشر من المحرم (٢٧ مايو) فرمان شاهانى يعدل نظام الوراثة الذى صدر تطبيقا لمعاهدة لندن . وقد ابلغت الدول الموقعة على هذه المعاهدة بالتعديل الجديد ليكون أشبه بالمعاهدة الدولية .

وقد ساعد اسماعيل للحصول على هذا التعديل فوق ما دفعه من رشوة (٣ مليون جنيه) رغبة السلطان عبد العزيز نفسه فى احداث مثل هذا التعديل فى نظام توارث العرش العثمانى . ولم تكن الثلاثة ملايين هى كل ما دفعته مصر للحصول على هذا التعديل الذى لا تفيد منه شيئا ، بل كان عليها أن تضاعف الجزية السنوية المقرر دفعها لتصبح ٧٥٠ الف جنيه سنويا بدلا من ٤٠٠ الف .

انشاء مصلحة البريد :

كان البريد فى عهد عباس وسعيد يسير على الطريقة التى كانت متبعة فى عهد محمد على ، فكان يحمل برا على يد السعاة وبحرا على ظهر السفن فى النيل .

وكان للجاليات الأوربية مكاتب للبريد بالاسكندرية والقاهرة . فاعتزم اسماعيل باشا فى هذه السنة انشاء مصلحة للبريد ، فاشترى ادارة البريد التى انشأها المسيو موتس وصارت ادارة مصرية تابعة للحكومة المصرية من يناير من هذه السنة وابقى المسيو موتس مديرا لها فصار بذلك أول مدير لمصلحة البريد بنظامها الحديث .

افتتاح مجلس شورى النواب :

ولحب اسماعيل باشا فى المظاهر ، ورغبته فى أن يبدو أمام الأجانب كحاكم شرقى متنور ، رأى أن ينشىء فى مصر مجلس شورى النواب من ٧٥ عضوا ينتخبون لمدة ثلاث سنوات بمعرفة عمد البلاد ومشايخها فى المديريات وجماعة الأعيـان فى القـاهرة والاسكندرية ودمياط . وخصص للقاهرة ثلاثة نواب وللاسكندرية نائبين ولدمياط نائب واحد .

وجعل سلطة المجلس استشارية بحتة ينظر فى المسائل التى ترى الحكومة ان تعرضها عليه ، على أن تكون قرارات المجلس بمثابة رغبات ترفع الى الخديوى .

وقد تم افتتاح هذا المجلس فى القلعة فى الخامس والعشرين من نوفمبر (١٧ رجب) حيث حضره اسماعيل باشا وألقى به خطاب عرش . أصل فيه مبادىء الديمقراطية وأرجعها الى الاسلام الذى يقوم على اساس الشورى فى الحكم واليك بعض ما جاء فى هذا الخطاب :

« لأنه من القضايا المسلم بها التى لا ينكر نفعها رمزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والراعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى » :

« وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وكان اسماعيل باشا وهو يلقى الخطاب نموذجا كاملا لنفاق الحكام المستبدين حيث يقولون بالسنتهم ما يخالفونه بأفعالهم . فلم يطف بخيال اسماعيل باشا أن يقيد سلطانه ولو قيد شعرة بقيام هذا المجلس .

نشر التعـليم :

ولقد تقدم أعضاء المجلس منذ اليوم الأول بعديد من الاقتراحات التى تدل على اضطلاعهم بمسئولياتهم فى ترقية هذا الشعب : ولو لم يكن للمجلس فى أول دوراته الا هذا الاقتراح الذى تقدم به أتربى أبو العز والذى دعا الى انشاء مدرسة فى كل مديرية ومحافظة يكون التعليم فيها بالمجان لكفاه فخرا . فقد أسرع المجلس الى الموافقة على هذا الاقتراح — وبادرت الحكومة باعلان موافقتها وان اسماعيل باشا وقف جميع الأطيان التى يتألف منها تفتيش الوادى للانفاق منها على شئون التعليم ، وقد كان هذا الاقتراح ، هو الأساس الذى قامت عليه فيما بعد لائحة تنظيم المدارس والمكاتب الأهلية بالديار المصرية التى وضعها على باشا مبارك لتعميم التعليم فى مصر فى السنة التالية . « لائحة ١٢٨٩ » .

وكيفما كان الأمر فان تاريخ الحياة الدستورية بمعناها الحديث يبدأ بهذا المجلس الصورى الذى أنشأه اسماعيل باشا والذى لن تمضى عليه عشرة أعوام ، حتى يتحول الى مجلس نيابى يصول ويجول ويسقط حكومة ويحدث ثورة .

اشتراك مصر فى حرب كريت :

فى هذه السنة قامت ثورة فى جزيرة كريت على الحكم العثمانى وعجز السلطان عبد العزيز عن اخمادها فاستنجد باسماعيل باشا الذى أرسل الى الجزيرة جيشا من خمسة آلاف مقاتل تحت قيادة الفريق شاهين باشا .

وقد حدث أن توترت العلاقات بين الباب العالى وبين اسماعيل باشا أثناء وجود هذه الحملة المصرية فى جزيرة كريت ــ فهدد اسماعيل باشا الباب العالى بسحب جنوده من الجزيرة أو أن يستحوذ على الجزيرة مما اضطر الباب العالى الى مصانعة اسماعيل باشا كما سترى .

محمود سامى البارودى :

وقد انبثقت شاعرية محمود سامى البارودى التى بعثت الشعر العربى بكل أمجاده القديمة فى لفح معارك هذه الجزيرة حيث يقول لنا :

قوم أبى الشيطان الا خسرهم	فتسللوا من طاعة السلطان
ملقوا القضاء فما يبين لناظر	غير التماع البيض والحرصان .
فالبر اكدو والسماء مرتض	والبحر أشكل والرماح دراء .
والخيل وافق على ارسانها	لطراد يوم كريهة ودهان ..
وضعوا السلام الى الصباح وأقبلوا	يتكلمون بألسن النيران ..
حتى اذا ما الصبح أشعر وارتمت	عيناى بين ربا وبين مجان ..

فاذا الجبال أسنة واذا الوهاد أثمنه ، والماء أحمر قان .....

يقول الأستاذ عبد العزيز الدسوقى : وهنا تحس قوة البارودى على خلق الصور الشعرية الجميلة بفضل خصوبته اللغوية وطاقته الشعرية الضخمة ويمضى فى تحليل هذه الأبيات وغيرها ، مرددا ما أجمع النقاد عليه من أن محمود سامى البارودى هو باعث النهضة الشعرية الجبارة فى تاريخ مصر الحديث :

عبد الله باشا فكرى :

وكان نهضة الشعر والفكر والنثر تأبيان الا أن يمضيا معا ...

فقد كتب عبد الله باشا فكرى أول رسائله التى جددت النثر فى اللغة العربية وارتفعت بمستواه ، من جزيرة كريت بالذات ، وهو يصف ما أبداه الجيش المصرى من ضروب الشجاعة والكفاءة .

١٨٦٧ م ــ ١٢٨٤ هـ ــ حصول اسماعيل باشا على لقب خديوى :

فى الخامس من صفر « ٨ يونيو » صدر فرمان شاهانى جديد بجعل لقب والى مصر خديوى بدلا من والى وكان اسماعيل باشا قد طلب من الباب العالى أن يكون

لقبه « عزيز مصر » ولما كان سلطان تركيا اسمه عبد العزيز ، فقد كره تلبية طلب اسماعيل وبحث له عن لقب آخر فوقع الاختيار على كلمة خديوى ، وهى كلمة فارسية ترتفع بالملقب بها الى مرتبة الملوك والسلاطين .

وقد اقر الفرمان فوق ذلك حق الحكومة المصرية واستقلالها فى ادارة شئونها الداخلية وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد وشئون الجاليات الأجنبية .

اسماعيل باشا فى باريس :

وقد أسرع اسماعيل باشا للانتفاع بمظاهر الاستقلال الذى حصل عليه ، فشد الرحال الى مدينة باريس ليحضر حفلة افتتاح المعرض الدولى الذى اقيم فيها باعتباره رئيس دولة مستقل . وكان اسماعيل باشا قد أقام فى هذا المعرض جناحا خاصا بمصر بعيدا عن الدولة العثمانية ليؤكد هذا الاستقلال .

وقد اتفق اسماعيل باشا أثناء وجوده فى فرنسا على صنع ثلاث بوارج حربية من الطراز الحديث . كما حصل على بضع ألوف من البنادق حديثة الطراز .

عودة التوتر بين تركيا واسماعيل باشا :

وقد أوجست تركيا خيفة من هذه الحركات التى يقوم بها اسماعيل باشا ، وقدرت انه يوشك أن يعلن استقلاله الكامل عن الدولة العثمانية فانطلقت الشائعات تتحدث عن تجهز تركيا لحرب اسماعيل ، فراح اسماعيل باشا من ناحيته يستعد للدفاع عن مصر ضد اى غزو مرتقب يقع من تركيا ، فحصن الشاطىء المصرى من الاسكندرية حتى بور سعيد ، وسلحه بمائتين من المدافع الانجليزية الضخمة من صنع شركة أرمسترونج ، ولا يزال الزائر لقلاع رشيد وأبى قير وقايتباى والمقطم وغيرها يجد هذه المدافع وهى تحمل تاريخ سنة صنعها .

القرض الرابع ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ :

وفى هذه السنة عقد اسماعيل قرضه الرابع مما يدل على ان القرض السنوى اصبح ديدنا له لا يستطيع التخلى عنه ...

ويرى عبد الرحمن الرافعى انه لابد أن يكون قد انفق هذا القرض الجديد فى الدرجة الأولى ، على الأعمال التى كانت جارية على قدم وساق لتجديد حديقة الأزبكية ، وبناء دار للتمثيل ومضمار لسباق الخيل وبناء قصور عابدين والقبة ، والزعفران والجيزة والقصر العالى وسراى مصطفى باشا برمل الاسكندرية .

ولكن واجب الانصاف يقتضينا أن نذكر أن بعض أموال هذا القرض لابد وأن تكون قد خصصت لعملية التحصين العسكرية وشراء الأسلحة الجديدة التى أشرنا اليها فيما سبق .

انشاء جريدة وادى النيل أول جريدة سياسية :

وفى هذه السنة صدر فى مدينة الاسكندرية أول جريدة سياسية وطنية الى جوار الوقائع المصرية وهى جريدة وادى النيل ومؤسسها هو الشاعر الثائر عبد الله أبو السعود أفندى أحد تلامذة رفاعة رافع الطهطاوى اذ يخرج على يديه فى مدرسة الألسن وكانت تصدر مرتين كل أسبوع .

وقد سبق صدور جريدة وادى النيل ، صدور مجلة « اليعسوب » فى سنة « ١٨٦٥ » وكانت مجلة طبية قام بتحريرها نابغة مصر فى الطب فى ذلك الوقت محمد على باشا البقلى ، ولكنها لم تعمر طويلا .

١٨٦٨ م — ١٢٨٥ هـ — القرض الخامس بمبلغ ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ : —

اقترض اسماعيل باشا فى هذه السنة من بنك أوبنهايم ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ جنيها لم يدخل منها الى خزائن الحكومة سوى ٧ر١٩٥ر٣٨٤ ومعنى ذلك أن سعر الفائدة قد ارتفع الى ٦١٪ وقد خصص لسداد هذا الدين ايرادات الجمارك وعوائد الكبارى وايراد الملح ومصائد الأسماك وكانت تدر دخلا قدره مليون جنيه فى السنة .

وقد اشترط على اسماعيل باشا أن يتوقف عن الاستدانة خمس سنوات .

وقد أنفق اسماعيل باشا نحو مليونى جنيه من هذا القرض فى اسطنبول لرشو السلطان ورجاله واقامة الحفلات والولائم لهم وتحسين العلاقات معهم .

كما أنفق جزء منه فى اتمام قصوره فى عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى باشا بالاسكندرية ، وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش ومن هذا القرض أيضا أنفق النفقات الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس .

تعيين اسماعيل باشا صديق « المفتش »وزيرا للمالية : —

وفى هذه السنة عين اسماعيل باشا صديق « المفتش » وزيرا للمالية وقد بدأ اسماعيل صديق حياته موظفا صغيرا فى الدائرة السنية ، وسرعان ما استطاع أن يحصل على عطف الخديوى باعتباره أخيه فى الرضاعة ، فما زال يرقيه حتى نال رتبة الباشوية ، ثم عينه مفتشا عاما لأقاليم القطر المصرى فلقب بالمفتش ويعتبر توليه وزارة المالية عهد النكبات فى مصر ، فقد كان يزين لاسماعيل باشا اساليب الحصول على الأموال بأخس الطرق أحيانا ، واقساها أحيانا أخرى ..

ولم يلبث أن أصبح الرجل الثانى فى الدولة بعد اسماعيل باشا .

وينسب اليه عبد الرحمن الرافعى أنه كان السبب فى استدانة الحكومة نحـو ثمانين مليونا من الجنيهات . ولكن سياسـة اسماعيل للاقتراض كانت قد بدأت وتأصلت قبل مجىء اسـماعيل المفتش فمن الحق أن يقـال انه كان أداة فى يد اسماعيل .

وقد حاكى اسماعيل المفتش مولاه فى البذخ والاسراف وبناء القصور وامتـلاك الجوارى والحظايا .

مجلس شورى النواب ينبض بالحياة :

وقد عاد مجلس شورى النواب للانعقاد فى دورته الثانية فى يوم الاثنين ١٦ مارس « ٢٢ ذى القعدة ١٢٨٤ » فألقى فيه اسماعيل باشا خطاب العرش ، أشار فيه الى المسائل التى قررها المجلس فى العام الماضى وما نفذته الحكومة منها . وبيان الأسباب التى جعلتها لا تنفذ بعضها ، ثم عرض على المجلس المشروعات التى تعتزم الحكومـة القيـام بانشـائها .

وقد تحركت نفوس النواب فى هذه الدورة لاستطلاع حقيقة الحالة المالية التى كانت أسرارها محجوبة عن الأنظار ، وكان اسماعيل صديق قد عين وزيرا للماليـة ، فزود اللجنة البرلمانية التى راحت تتقصى الحقائق ببيانات زائفة ، فتقـدم للمجلس مشروع ميزانية أربت قيمـة الايرادات على المصروفات بمبلغ ٢٫٥٨٤٫٠٠٠ جنيها ، بينما كانت مصروفات الحكومة الحقيقيـة تزيد على ايراداتهـا بعشرة ملايين من الجنيهـات .

١٨٦٩ م ـ ١٢٨٦ هـ ـ حفلات افتتاح قناة السويس :

فى الحادى عشر من شهر شعبان « ١٧ نوفمبر » تم افتتاح قناة السويس حيث جرى التقاء مياه البحرين الأبيض والأحمر عند مدينة الاسماعيلية بعد عمل دام عشر سنوات وقد بلغ طول القناة ١٦٥ كيلو مترا وانشئت مدينـة الاسماعيلية عند نقطة انتهاء العمل والتقاء ماء البحرين .

وقد أقام اسماعيل باشـا بهـذه المناسـبة حفلا عالميـا .. ارتج له العـالم فى حينه حيث تم فى التاريخ لأول مرة سيطرة الانسان على بعض مظاهر الطبيعة فوصل بين بحرين ظلا عبر مئات الألوف من السنين منفصلين وقد أراد اسماعيل باشا أن يستغل هذا الحدث العالمى الذى تم على أرض مصر ، وبجهود الشعب المصرى ، فدعا الى الاحتفال به ملوك أوروبا وأمرائهـا فلبى دعوته أمبراطور النمسـا ، وأوجينى أمبراطورة فرنسا ، وولى عهد بروسيا وعشرات من أمراء أوروبا وكبرائها . فى الوقت الذى أغفل فيه اسماعيل عمدا دعوة سلطان تركيا ، ليظهر بمظهر الحـاكم المستقل

لا التابع ، وفى سبيل التظاهر بالغنى واحاطة ضيوف مصر بكل مظـــاهر الحفـاوة والتكريم ، حتى يشيدون بعظمة اسماعيل وكرمه وسخائه ، راح ينفق على هـذه الحفلات بسعة وتبذير لم يسمع بمثلهما .

حتى بلغ ما أنفق على هذى الحفلات وملحقاتها ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه .

انشاء دار الأوبرا :

ولعل الأثر الباقى الذى لا يزال قائما منذ هذه المناسبة ويشهد بضخامة ما أنفق فيها وما بذل للاستعداد لها هو أن دار الأوبرا (١) المصرية التى لا تزال قائمة بمهماتها وأدواتهـا ومبنـاها .

وقد بنيت هذه الدار على عجل فيما لا يتجاوز خمسة اشهر وتكلف بناؤها ١٦٠ الف جنيه بحساب هذا الزمان .

وقد عهد اسماعيل باشا الى مريت باشا مدير الآثار أن يختار من الآثار الفرعونية موضوع نصه يصلح لأن يكون رواية أوبرا . فوضع مريت باشا قصة عايدة المشهورة وأرسلت الى الموسيقار الايطالى فيردى لتلحينها حتى يشهدها ضيوف مصر عنـد افتتاح قنـاة السويس .

وقد افتتحت دار الأوبرا فى ٢٩ نوفمبر ولكن فيردى لم يكن قد انتهى من تلحين اوبرا عايدة ، فمثلت فى هذا اليوم أوبرا ريجولوتو ولقد كان من سخرية القدر ، ان اوبرا عايدة كانت تمثل على الأوبرا المصرية يوم عودة جثمـــان اسماعيل باشا الى مصر عام ١٨٩٥ .

شـارع الهـرم :

ومن الأعمال الباقية التى قام بها اسماعيل باشا لمناسـبة مجىء الملوك الى مصر تعبيد طريق الهرم واعداده لسير المركبات ، وقد تم اعداد هذا الطريق فى ثلاثين يوما بحيث استطاع الملوك والأمراء ، أن يذهبوا لأول مرة الى أهرام الجيزة وهم يركبون العربات الذهبية المطهمة يجرى أمامها السواسى .

انشاء دار الآثار العربية :

وقد حاول اسماعيل باشا فى هذه السنة أن ينشىء دارا للآثار العربية ليشهدها الضيوف ، فأصدر أمره بجمع ما تفرق من هذه الآثار المصرية والعربيـة فى المساجد وغيرها ، ولكن المشروع لم يتم فى الوقت المناسب فتأخر تنفيذه .

---

(١) احترقت هذه الدار بعد كتابة هذه السطور .

النهضة المسرحيــة :

وعلى ذكر انشاء مسرح الأوبرا ، لم يكن هو المسرح الوحيد الذى انشىء فى عهــد اسماعيل باشا . بل لقد سبقه انشاء مسرح الكوميدى فى حديقة الأزبكية كما أنشىء مسرح زيزنيا فى اسكندرية ، وكانت الفرق الأجنبية تقوم بالتمثيل على هذه المسارح ولكن لم تلبث أن تألفت الفرق العربية التى قدمت مسرحيات عربية ، بحيث يبدأ تاريخ المسرح المصرى بهذه الأيام ويعتبر يعقوب صنوع فى ذلك أحــد رواد المسرح العربى ومؤسسيه .

عبده الحمولى ونهضة الموسيقى والغناء :

وقد سرت النهضة الفنية الى الغناء والموسيقى : فالى ما قبل هذا العهد كان المغنون يتبعون الأساليب والتواشيح القديمة فظهر عبده الحمولى المغنى المشــهور فألهمته عبقريته الموسيقية اصلاح هذه الأساليب وادخال روح العصر والتجديد فيها فأفاد ذلك مرحلة التطور بالموسيقى والغناء المصرية .

الباب العالى يقيد سلطة اسماعيل فى عقد القروض :

كان طبيعيا أن يغضب الباب العالى من اغفال اسماعيل باشا لدعوة سلطان تركيا لحضور احتفــالات فتح قناة الســويس ، ورأى فى ذلك محاولة لاظهار مصر بمظهر الدولة المستقلة .

ولابد أنه اغضب رجال البــاب العالى فى الدرجة الأولى بعثرة اسماعيل باشــا الأموال بمناسبة هذا الاحتفال دون أن يحصلوا على نصيبهم المعتاد .

ولذلك فقد أصدر سلطان تركيا فى التاسع والعشرين من نوفمبر « ٢٤ شعبان » فرمانا قيد فيه لأول مرة سلطان اسماعيل باشا فى عقد القروض ، وألزمه بضرورة الحصول على اذن من السلطان قبل عقد أى قرض .

١٨٧٠ م — ١٢٨٧ هـ — قرض الدائرة السنية ٧ر١٤٢ر٨٦٠ :

لم يعبأ المرابون الأوربيون بقيــود الدولة العثمانية على اسماعيل ، فقــد بدأوا يدركون أن أموالهم مضمونة بأساطيل بلادهم وجيوشها التى كانت خططها الاستعمارية التوسعية وضعت مصر فى دائرتها ، وكانت هذه القروض هى المرحلة الأولى من مراحل الاستغلال فى التدخل والاحتلال .

ولذلك فقد استطاع اسماعيل باشا أن يعقد قرضه السادس مما يسمى البنك الفرنساوى المصرى بمبلغ ٧ر١٤٢ر٨٦٠ جنيها بضمانة أطيانه الخاصة عدا ما سبق رهنها ، وكالعادة التى أصبحت متبعة لم يدخل خزينة الحكومة المصرية سوى خمسة ملايين من الجنيهــات أما باقى المبلغ وقدره ٢ر١٤٢ر٨٦٠ جنيها فقــد اعتبر عمولة وسمسرة ومتعة .

وكانت حجة اسماعيل لعقد هذا القرض حاجته لانشاء مصانع السكر وسكك الحديد الزراعية لأطيانه التى خصصها لزراعة القصب ، وقد انشئت المصانع بالفعل لتكون ما تدره من أرباح أقل من فوائد هذا الدين .

مجىء جمال الدين الأفغانى الى مصر :

وشاء القدر أن يخلق للشعب المصرى فى هذه الفترة من تاريخه لسانا لينطق به وقلبا يخفق بالاحساس بآلامه . ويستشعر الخطر الذى يوشك أن يتعرض له . فقدم الى مصر فى هذه السنة زعيم النهضة الاسلامية الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر بلا منازع ونعنى به السيد جمال الدين الأفغانى ، ومن العبث أن نلخص فى سطور حياة هذا الزعيم الثائر قبل حضوره الى مصر فيجب أن تطالع فى مصادرها .

وحسبنا أن نقول ان هذه الشخصية الأسطورية ولدت فى سعد أباد من بلاد الأفغان عام « ١٨٣٨ م — ١٢٥٤ هـ » ولم يلبث أن لعب فى شبابه دورا خطيرا فى حياة بلاده ، حيث وصل الى منصب الوزير الأول ، ولكن الاستعمار الانجليزى الجاثم على الهند ، دخل بدسائسه على الأفغان مفتاح الهند ، فاقتلع الأمير الذى استوزر جمال الدين الأفغانى ، ولم يشأ جمال الدين أن يبقى فى الأفغان بعد ذلك فهاجر منها وبدأت سياحته التى لم تنقطع فى بلاد الأرض مشرقها ومغربها من الهند الى الحجاز حيث شرع فى موسم الحج . يباشر دعوته التى لم يكف عنها يوما واحدا للنهوض بالعالم الاسلامى ، ومحاربة الاستعمار الأوربى وبخاصة الانجليزى الذى بدأ يهدد شعوب الشرق الاسلامى كلها .

ووصل جمال الدين الأفغانى الى مصر فى أواخر سنة ١٢٨٦ هـ وكانت شهرته الى مصر قد سبقته ، فتوافد طلاب الأزهر الى بيته فى خان الخليلى وشرعوا لأول مرة يسمعون محاضرات فى علوم اسلامية لا عهد لهم بها من قبل ، فى الفلسفة والرياضة والعلوم الكلامية ، معروضة ومشروحة على ضوء آخر معطيات العلم الأوربى الحديث فبدأت العيون تتفتح والقلوب تحس بدنيا جديدة من الأفكار والتطلعات .

على أن ذلك اللقاء الأول بين الأفغانى والمصريين ، لم يكن الا ارهاصا ومقدمة للقاء الأكمل بعد أن يعود من اسطنبول . . أما هذه المرة فلم يمكث بمصر سوى أربعين يوما .

انشـــاء دار الكتب :

وكأنه كان بين جمال الدين الأفغانى والنهضة الفكرية فى مصر نسب ، ففى هذه السنة بالذات ، تم انشـــاء دار الكتب بنـــاء على اقتراح من على باشا مبارك « وزير المعارف » وتأييد من اسماعيل باشا .

ويقول لنا على باشا مبارك :

« ثم ظهر لى أن أجمل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية اضاهى بها كتبخانة باريز فاستأذنت الخديوى اسماعيل فأذن » .

وقد جمع فى هذه الدار ما تفرق من الكتب فى مخازن الحكومة وجهات الأوقاف المختلفة واشتريت لها كمية كبيرة من الكتب العربية والأفرنجية .

وأهدى اسماعيل باشـا الى المكتبة ، مجموعة الكتب القيمـة التى تركها اخوه مصطفى فاضل بعد وفاته ، وهكذا تكونت نواة هذا المرفق العظيم .

مجلة روضة المدارس :

وفى هذه السنة أنشأ على باشا مبارك مجلة روضة المدارس ، وكانت وزارة المعارف هى التى تتولى اصدارها والانفاق عليها ، وكان الغرض منها احياء الآداب العربيـة ونشر المعارف الحديثة وعهد برئاستها الى رفاعة رافع الطهطاوى وحرر بهذه المجلة اعلام الأدب والعلوم فى هذا العصر من أمثال على باشا مبارك وعبد الله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ومحمود باشا الفلكى والمسيو بروكش وسيد محمود باشا الفلكى ومحمد قدرى باشا وغيرهم .

وكانت المجلة تصدر مرتين فى الشهر وفيها المباحث فى العلوم والأدب والاجتمـاع والتاريخ والفلك والرياضيات . وكانت توزع بالمجان على طلبة المدارس فعودتهم ملكة المطالعة والبحث ، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لينشروا أبحاثهم القيمة فكان من بين الطلاب الذين نشروا بها أشعارهم « الشـاب النجيب اسماعيل أفندى صبرى باشا » بعد ذلك .

١٨٧١ م ــ ١٢٨٨ هـ ــ الحرب السبعينية وأثرها على مصر :

فى هذه السـنة قامت الحرب المشـهورة فى أوربا باسم الحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا ، حيث أراد بسمارك أن يحقق الوحدة الألمانية بالحديد والنار فهزم النمسا العقبة الأولى فى سبيل هذه الوحدة ثم ثنى بعد ذلك على فرنسا . فكان لقيام هذه الحرب أثرها المباشر على مصر ، اذ اضطربت أسواق أوربا المالية وعجز اسماعيل أن يجد بغيته السنوية من الاقتراض ، وهنا بدأت أساليب اسماعيل المفتش الشيطانية لابتزاز الأموال من المصريين لصالح سيده ، فكان ما أسماه مشروع المقابلة .

دين المقـابلة :

ويتلخص مشروع المقابلة الذى أصبح بعد أن تحقق يعرف « بدين المقابلة » فى أن تصدر الحكومة المصرية قانونا تعد فيه ملاك الأراضى الزراعية انهم اذا دفعوا ضرائب ست سنوات مقبلة دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة « وهو يساوى ما على مصر من ديون » فانهم يعفون الى الأبد من نصف ضرائب الأطيـان . وتتعهد الحكومة أن لا تزيد سعر الضريبة على أطيانهم فى المستقبل ، وأن لا تطالبهم بأى سلفة مؤقتـة ولا يجوز للحكومة أن تصدر على الخزانة سندات للقروض أو أن تقترض ديونا جديدة ولو تحت ظروف قاهرة الا بعد التصديق على ذلك من مجلس شـورى النواب وأن تخصص المبالغ المتحصلة من دين المقابلة لتسـديد ديون الحكومة . وقـد انتهزت الحكومة فرصة انفضاض مجلس شورى النواب لتصدر هذا القانون .

وكانت هذه كلها وعود وعهود كاذبة يعرف اسماعيل المفتش ومن ورائه اسماعيل باشا أنه لا يمكنهما التقيد بها ولو لعام واحد ، فلا عجب اذا احجم ملاك الأراضى عن دفع مليم واحد ، ولكن الحكومة اعتبرت الموضـوع بمثابة قرض اجبـارى وراحت تحصله على سبيل الاجبـار ، ومن توقف عن الدفع من صـغار الملاك استعمل معه الكرباج وشتى وسائل الاكراه .

واستطاعت الحكومة أن تجنى بهذا الأسلوب حتى آخر السنة (١٨٧١) خمسة ملايين من الجنيهات ، ابتلعتها هاوية الاسراف كما ابتلعت ما سبقها من ديون ، وان كان الأمر لا يخلو من بعض الأمور النافعة .

مد سيادة مصر الى خط الاستواء :

ولعل من هذه الأعمال النافعة ، رفع العلم المصرى فى السادس والعشرين من مايو من هذه السنة على بلدة غندكرو بالقرب من خط الاستواء ، ايذانا بضم ما أطلق عليه مديرية خط الاستواء الى دولة مصر .

وليس يقلل من أهمية هذه الخطوة أن الذى قام بها كان انجليزيا وهو السير صمويل بيكر . فقد كان يعمل لحساب مصر بموجب عقـد ابرام بينه وبين الحكومة المصرية لمدة أربع سنوات مقابل عشرة آلاف جنيه سنويا للقيام على رأس حملة مصرية لاكتشاف منـابع النيل ، وتوطيـد أركان الامن والنظام والحضـارة فى ربوع خط الاستواء ، واليك نص قرار اسماعيل باشا بهذا الخصوص .

« نحن اسماعيل خديوى مصر قد أمرنا بما هو آت :

نظرا للحالة الهمجية السائدة بين القبائل فى حوض نهر النيل ونظرا لأن النواحى المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا امن .

ولأن الشرائع الانسانية تفرض منع النخاسة « تجارة الرقيق » والقضـاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة فى تلك النواحى ولأن تأسيس تجارة شرعية فى النواحى المشار اليها يعتبر خطوة واسعة فى سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة على خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويسـاعد على اقامة حكومة ثانية فقد أمرنا بما هو آت ..... الخ .

وكان عدد القوات المصرية التى وصلت الى مدينة غندكرو تحت رئاسة صمويل بيكر والتى احتفلت برفع العلم المصرى فى هذه الجهات تتألف من ١٢٠٠ جندى نصفهم مصرى والنصف الآخر سودانى .

وقد نقلت مهمات هذه الحملة وأسلحتها وذخائرها ، والسفن النيلية التجـارية اللازمة لاستعمالها ، مسافة تزيد على أربعة آلاف كيلومتر فوق ظهور الابل والرجال .

وللأمير السابق عمر طوسون مؤلف ضخم يتألف من ثلاثة مجلدات فى تاريخ هذه المديرية وكل ما يتصل بها ، فليرجع اليه من شاء التفصيل .

عودة جمال الدين الأفغانى الى مصر واستقراره بها :

وفى هذه السنة عاد جمال الدين الأفغانى من اسطنبول بعد أن ضاق به شيوخ الأتراك ، وانزعجوا من آرائه التحريرية والتى اعتبرت آراء ثورية ، واوعزوا الى السلطان أن يخرجه من البلاد ، فلم يكد يصل جمال الدين الأفغانى الى مصر ، وقد كان يتصور أن اقامته بها ستكون عابرة ، حتى تلقى دعوة من الخديوى اسماعيل نقلها اليه رياض باشا وزير الخديوى ، يدعوه فيها للاقامة بمصر ضيفا على الحكومة المصرية التى قررت له معاشا شهريا قدره ((ألف قرش)) .

ويقف المؤرخون والباحثون حيارى أمام هذه الظاهرة الغريبة ، ظاهرة استضافة حاكم مستبد لداع من دعاة الحرية والعلم والتطور ، وينسون أن بذور الثورة الفرنسية قد بنيت تحت رعاية الملكية الفرنسية واشرافها ففولتير وموليير عاشا فى كنف الملكية مباشرة ، وجان جاك روسو كان يرعاه الأشراف .

وتفسير ذلك أن المستبدين والطغاة فى كل زمان ومكان قد وجدوا من مقومات الترف والزينة أن يعيش فى ظلهم أعلام الكتاب والمؤلفين والمفكرين ، دون أن يطوف لهم خيال أن سيكون لهذه الأقوال الحرة التى تخرج من أفواه هؤلاء الكتاب ، يمكن أن يكون لها أدنى أثر فى تغيير الأوضاع .

يرى بعض المؤرخين أن اسماعيل باشا قد رأى فى رعايته للسيد جمال الدين الأفغانى الذى نفته عنها اسطنبول مظهرا استقلاله عن تركيا والاعلان عنه باعتباره أميرا شرقيا متحررا ، يلجأ اليه المفكرون الاحرار .

كيفما كان الأمر ، فقد استقر جمال الدين الافغانى برعاية اسماعيل باشا فى مصر ، وبدأت بذلك هذه المدرسة التى فرضت طابعها أحداث مصر الادبية والفكرية والاجتماعية والسياسية لعشرات من السنين .

ويقول عبد الرحمن الرافعى ، أن جمال الدين الافغانى هو أب الثورة العرابية .

أما نحن فنضيف على ذلك ان أثره ظل يؤثر على مجريات الأحداث المصرية حتى قيام ثورة سنة ١٩١٩ .

ما دام أن سعد زغلول نفسه زعيم هذه الثورة من تلامذة الافغانى .

١٨٧٢ م — ١٢٨٩ هـ : تحسين العلاقات بين مصر وتركيا :

لم يكن غضب تركيا لاسراف اسماعيل وتقييد سلطته فى الاقتراض ، حرصا على مصالح الشعب المصرى ، بمقدار ما كان وسيلة لابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من الخديوى اسماعيل ولذلك فلم يكد اسماعيل يسافر الى اسطنبول فى صيف هذه السنة ، ويقدم الرشاوى — والهدايا والأموال للسلطان وحاشيته ورجاله ، حتى صدر فى العاشر من سبتمبر ((٧ رجب)) فرمان بفسخ القيود التى وردت فى فرمان (١٨٦٩) ويخول لاسماعيل باشا حق الاقتراض بدون قيد أو شرط .

وكان اسماعيل فى أمس الحاجة الى هذا الفرمان الجديد ليستعين به من جـديد فى قروضه التى اعتزم القيام بها فى الأسواق الأوربيـة ، بعـد أن انتهت الحـرب السبعينية بانتصار بروسيا : وقيام دولة ألمـانيا الكبرى واستقرار الأمور فى أوربا .

انشاء مدرسة دار العلوم :

فى هذه السنة تم انشاء مدرسة دار العلوم ذلك المعهد الجليل الذى جدد شباب اللغة العربية . والذى يدأين الأجيال المتلاحقة من طلاب المدارس « بما فيهم جيلنا » باحسان النطق والكتابة باللغة العربية الصحيحة .

وقد أنشأ المدرسة على مبارك باشا . وقد قال لنا فى سبب انشائها والأسس التى قامت عليها ما يلى :

« وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم أمعنت النظر فى هذا الأمر المهم واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار الأمر بها ، وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون من الجامع الأزهر من يتعلقون فيه بعض الكتب فى العربية والفقه بعـد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه المدارس بعض الفنون المفقودة من الأزهر مثل الحساب والهنـدسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط مع فنون الأزهر من عربية وتفسير حديث وفقه على مذهب ابن حنيفة النعمان . وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات ورتب لهم الطعام فى النهار للغذاء ، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف .

أما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ، ونحو ذلك فتقرر أن يكون من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالهندسخانة والمحاسبة والادارة ، بأن يحصلوا أولا معيدين لدور المعلمين ، زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده(١) .

انشاء كوبرى قصر النيل :

فى هذه السنة تم انشاء كوترى قصر النيل ليصل الجـزيرة بمصر وقد تولت انشاؤه شركة فرنسية وتكلف ١٠٨٫٠٠٠ جنيه وقد اعتبر فى ذلك الوقت من أعظم الكبارى (٢) . كما انشأت شركة انجليزية فى نفس السنة الكوبرى الانجليزى (كوبرى الجلاء) .

وقد بلغ عدد الجسور التى أنشئت حتى هذه السنة ٤٢٦ جسرا وقنطرة ــ منها ٢٧٦ جسرا بالوجه البحرى و ١٥٠ بالوجه القبلى .

---

(١) على مبارك ــ حسين فوزى الباز .

(٢) أعيد تجديد هذا الكوبرى ، ولكن السباع القائمة على راس الكوبرى الجـديد هى من آثار الكوبرى القديم .

تجميل مدينة القاهرة :

ولم يكن انشاء هذين الجسرين الا بعض مظاهر النشاط الكبير الذى كان يبذل فى هذه الفترة لتحويل القاهرة الى عاصمة تشبه مدينة باريس حتى لقد انشىء شارع محمد على من العتبة الخضراء حتى القلعة بنظام البواكى وكذلك شارع كلوت بك حتى المحطة محاكاة لشارع ريفولى فى باريس وانشاء أحياء — جديدة كحى الاسماعيلية « وكان قبل ذلك أرضا خربه » . ميدان التحرير والشوارع المتفرعة منه . والتوفيقية وعابدين وميدان الأوبرا ، ونظم جهات الجزيرة والجيزة بعد أن أنشأ بهما قصوره العظيمة ، وانشأ حديقة النبات بالجيزة .

« حدائق الأورمان والحيوانات » .

وردم بركة الرطلى وانشأ بها الشوارع المستقيمة وادخل نظام توزيع الميـــاه الحديثة بواسطة الأنابيب الى البيوت بدلا من السقايين .

كما شرع فى اقامة التماثيل فى الميادين العامة فأقيم تمثال محمد على فى الاسكندرية وابراهيم باشا فى ميدان الأوبرا .

كما أدخل نظام الانارة بغاز الاستصباح مما ساعد على حفظ الأمن للبلاد واكسب المدينة بهجة وجمالا .

كما بنيت حمامات حلوان لمزاياها المعدنية ، وبذل جهد لتعمير المدينة وانشأ سكة حديد حلوان التى لا تزال الشريان الرئيسى لربط القاهرة بحلوان . وقد بلغ عدد سكان القاهرة فى هذا الوقت ٣٥٠ الف نسمة وامتد النشاط التعميرى الى مدينة الاسكندرية فعمرت جهة الرمل وانشأ بها اسماعيل القصور لتكون مصيفا لمصر وانشأ بها الشوارع الجديدة وأنار شوارعها بغاز الاستصباح .

وانشأ حديقة النزهة وجعلها منتزها عاما وأصلح ميناء الاسكندرية . وقد بلغ سكان المدينة فى هذه الفترة ٢١٢٫٠٠٠ نسمة .

خطوط التلغرافات :

وفى هذه السنة وصلت الشبكة التلغرافية الى عشرة أضعاف ما كانت عليه فى اخريات عهد سعيد ، فحيث لم يكن فى مصر منها سوى خطى مصر اسكندرية ومصر السويس مما لا يزيد على ٥٣٧ كيلو مترا فقد بلغت أطوال التلغراف حتى نهاية هــذه السنة ٥٥٨٢ كيلو مترا وطول أسلاكها ١١٫٩٥١ كيلو مترا .

١٨٧٣ م — ١٢٩٠ هـ : صدور فارمان شاهانى جامع لمزايا الفرمانات السابقة :

حلا للباب العالى ولحاشية السلطان أن يصدروا لاسماعيل باشا كل عام — فرمانا جديدا ليبتزوا منه الأموال .

وكانوا قد اعتادوا زيارة اسماعيل باشا السنوية محملا بالأموال والذهب وسافر اسماعيل باشا كما هى عادته ـ وصدر فى الثالث عشر من ربيع الثانى فرمان جامع لكل المزايا السابقة التى سبق أن منحت لاسماعيل باشا ، وعلى الرغم من أن هـذا الفرمان لا يُحوى جديدا ، فقد اعتبر وثيقة من أخطر الوثائق التى تحدد نظام مصر السياسى بعد فرمان ١٨٤١ وقد تضمن المبادىء التالية :

١ ـ توارث عرش مصر فى أكبر أنجال الخديوى .

٢ ـ تشمل أملاك الخديوى المصرية ـ وملحقاتها الجارى ادارتها بمعرفتها « السودان» على ما صار الحاقه بها من قائمقامتى سواكن ومصوع وملحقاتهما . .

٣ ـ حق الحكومة المصرية فى سن القوانين ، والنظم الداخلية على اختلاف أنواعها .

٤ ـ حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

٥ ـ حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان الحكومة التركية .

٦ ـ زيادة الجيش المصرى الى أى عدد يريد الخديوى .

٧ ـ حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات .

وقد نشر هذا الفرمان فى العدد ٥١٧ من الوقائع المصرية الصادرة فى ١٣ يوليـو سنة ١٨٧٣ .

القرض المشئوم ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ :

فى الوقت الذى كان فيه اسماعيل باشا يسعى للحصول على هذا الفرمان الجديد الذى يزيد فى قيمة الضمان للدائنين اذ يجعل كل قروضه من الناحية القانونية ملزمة لحكومة مصر وليست لشخصه فقط ، كان رجاله وسماسرته يسعون للحصول على أضخم قرض لم يكن اسماعيل يحلم بامكانية الحصول عليه ، بدعوى انه سيخصص لتسديد الديون السائرة التى كانت قد بلغت فى ذلك الوقت ٣٥ مليونا من الجنيهات .

وكانت شهية انجلترا قد تفتحت أكثر وأكثر للتدخل فى شئون مصر وخاصة بعد اضعفت هزيمة فرنسا أمام ألمـانيا ، مكانتها الدولية وبالتالى أخفتت صوتها فى شئون مصر .

وتلاقت خطط المستعمرين البعيدة المدى ، بالمرابين والراسماليين والنهابين ، فمكنوا اسماعيل من عقد قرضه المشئوم مع بنك أوبنهايم بمبلغ ٣٢ مليون جنيه . وهو هذا القرض الذى أجمع الكل على وصفه بالقرض المشئوم . والذى يكفى وحده لشجب عهد اسماعيل ابتداء من عقد هذا الرهن على الاقل ، كما يمثل عار الرأسمالية الأوروبية فى ذلك الوقت وحسبك أن تعلم :

ـــ انه لم يدخل الخزينة المصرية من هـذا المبلغ سـوى ٢٠٫٧٤٠٫٠٠٠ جنيـه أى بنقص أحد عشر مليونا من الجنيهات تمثل ٣٧٪ من قيمة الدين .

ـــ حتى هذه العشرين مليونا لم تدفع نقدا ـ بل اقتصر ما دفع منها نقدا على احد عشر مليونا من الجنيهات والباقى وقدره تسعة ملايين جنيه حررت بها سندات للخزانة المصرية .

— ومعنى ذلك انه من بين دين قدره ٣٢ مليون جنيه ، لم تتسلم مصر سوى احد عشر مليونا — وليس فى تاريخ أسوأ قروض المرابين مع الأشخاص فضلا عن الدول ما يصل الى هذا المستوى الذى هو بمثابة سرقة علنية .

وقد يزعم زاعم أن الدائنين كانوا يقرضون بهذا الربا الفاحش لانهم كانوا يخاطرون بأموالهم ، ولكن الدائنين كانوا يعلمون علم اليقين أن أموالهم مضمونة وفى حرز حريز فقد رهن اسماعيل لسداد فوائد هذا الدين :

— ايرادات السكك الحديدية وقد قدرت فى ذلك الوقت بـ ٧٥٠ الف جنيه فى السنة .

— الضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وقدرها مليون جنيه .

— عوائد الملح وقدرها ٢٠٠ الف جنيه .

— مليون جنيه من خزينة المقابلة .

— كل الموارد التى خصصت للقروض الشائعة التى اصبحت حرة وكان الضمان لتحقيق ذلك كله ، هو قوى الاستعمار الانجليزى الفرنسى المتحفزة للتدخل فى شئون مصر اذا هى توقفت عن سداد ديونها .

ولم ينفق هذا الدين الجديد لسداد الديون السابقة التى زعم أنه سيخصص لتسديدها — وكانت هذه الديون على ما نشرت الوقائع المصرية فى العدد رقم ٥٠١ الصادر فى أول أبريل من هذه السنة قد بلغ ٢٥ مليونا .

انشاء أول مدرسة اسلامية البنات :

وفى هذه السنة انشأت السيدة جشم آفت هانم ثالثة زوجات الخديوى اسماعيل أول مدرسة للبنات المسلمات فى السيوفية وكان بها عند افتتاحها مائتى تلميذة زدن فيما بعد الى أربعمائة تلميذة وكن يتعلمن بالمجان وينفق على مأكلهن وملبسهن ويتعلمن القراءة والكتابة والحساب والجغرافية والتاريخ والتطريز والنسيج ويحفظن القرآن . ثم تتابع انشاء المدارس للبنات وبدأت فى مصر نهضة نسائية تعتبر عائشة التيمورية احدى ثمراتها ومعالمها .

مرشد البنين والبنات :

ويجب اعتبار رفاعة رافع الطهطاوى بحق هو رائد النهضة النسائية فى مصر ، وحسبك أن تعلم انه واضع أول مؤلف لتعليم الولد والبنت على السواء وهو « المرشد الأمين للبنين والبنات » .

وان الانسان ليعجب وهذا هو مدى ماوصل اليه تعليم البنات منذ هذا العهد المبكر ، كيف أثار كتاب قاسم أمين فى مطلع القرن العشرين بشأن تعليم المرأة كل هذا الضجيج والاحتجاج .

اتمام انشاء ترعة الابراهيمية :

وفى هذه السنة أيضا تم انشاء ترعة الابراهيمية التى استمر العمل فيها ست سنوات واشتغل فى حفرها مائة الف عامل على سبيل السخرة ، حتى أمكن انجازها فى ذلك الوقت اذ بلغ طول هذه الترعة ٢٦٧ كيلو مترا ، وقد عدت فى وقتها من أكبر المجارى الصناعية للمياه العذبة .

وتأخذ ترعة الابراهيمية مسارها عند أسيوط وتنتهى عند مدينة اشمنت وتروى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف وقد أمكن بفضل هذه الترعة تحويل هذه المديريات الثلاث الى نظام الرى الصيفى ، لينشىء زراعة القطن والقصب .

ويرجع الفضل فى وضع تصميمها وانشائها الى المهندس المصرى الكبير مصطفى بهجت باشا .

وتعتبر قناطر التفسيم التى أقامها المهندسون المصريون عند ديروط من أعظم أعمال الرى الهندسية فى وقتها وبالانتهاء من انشاء هذه الترعة وترعة الاسماعيلية التى تليها فى الأهمية « ١٢٩ كيلو مترا » كانت عدة ما حفر من الترع وما أصلح منها ١١٢ ترعة .

١٨٧٤ م ــ ١٣٩١ هـ : تعيين غوردون باشا حكمدارا لمديرية خط الاستواء :

لم يكد عقد السير صمويل بيكر ينتهى فى هذه السنة ، حتى كانت انجلترا قد أوعزت لاسماعيل باشا أن يعين خلفا له الكولونيل غوردون ، وأن يزيد فى سلطاته ، فحيث كان صمويل بيكر يخضع لحكمدار السودان ، فان الكولونيل غوردون عين حاكما مستقلا بادارته لاقليم خط الاستواء .

اكتشاف شابى لونج :

وقد استطاع الضابط الأمريكى شابى لونج والذى كان موظفا فى الحكومة المصرية أن يرفع العلم المصرى على آفاق جديدة من منابع النيل ، واكتشف بحيرة جديدة وهى بحيرة « كيوجا » فأطلق عليها اسم بحيرة ابراهيم كما أطلق الانجليز اسمى بحيرتى فيكتوريا والبرت ــ ولكن الجغرافيين الأوربيين أبوا أن يستعملوا هذه التسمية الجديدة وظلوا يستعملون الاسم القديم .

فرض الحماية على أوغندا :

واستطاع شابى لونج أيضا أن يوثق صلات مصر مع « اينسى » ملك أوغندا وان يعقد معه محالفة فى هذه السنة أصبحت أوغندا بمقتضاها تحت حماية مصر .

ضم دارفور الى مصر :

وفى هذه السنة تم ضم دارفور الى مصر بجهود الزبير رحمت باشا الذى بدأ حياته باعتباره أكبر تجار الرقيق فى السودان ، ثم رأى أن يجعل ولاءه لمصر فاقترح

على اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان فتح دارفور التى كانت لا تزال تعتبر دولة مستقلة . وفى ٢٥ اكتوبر من هذه السنة استطاع الزبير بعد معركة فاصلة ، أن يدخل مدينة الفاشر عاصمة دارفور وجاء على أعقابه اسماعيل باشا أيوب ورفع العلم المصرى على عاصمة المديرية الجديدة .

وقد قدم الزبير رحمت الى مصر حيث أستقبله اسماعيل باشا وأكرمه ومنحه لقب باشا ولكنه استبقاه فى مصر خوفا من تمرده على سلطة مصر .

دين الروزنامة :

وفى هذه السنة ابتدع اسماعيل المفتش وزير المالية أسلوبا جديدا لابتزاز الأموال من الأهالى لسد نهم اسماعيل الى المال فاقترح أن يستثمر الأهالى أموالهم فى مصلحة الروزنامة بايداع مدخراتهم على أن يعطوا عليها فوائد بحساب ٩٪ .

ولجأت الحكومة الى اكراه الأهالى للاشتراك فى هذا الادخار الاجبارى ووزعت سندات بمبلغ ٣٫٣٣٧٫٠٠٠ جنيه وصل منها نقدا الى الخزينة ١٫٨٧٨٫٠٠٠ جنيه لم تدفع عنها الا فوائد السنة الأولى فقط .

١٨٧٥ م — ١٢١٢ هـ : بيع أسهم مصر فى قناة السويس :

ضاقت السبل فى هذه السنة بالخديوى اسماعيل ، ولم يعرف طريقا للاقتراض ، وأصبحت الحكومة على وشك اعلان افلاسها بتوقفها عن دفع ديونها وربما كان هذا هو الاجراء السديد الحتمى : وقد لجأت اليه تركيا فيما بعد ، ولكن اسماعيل كان يرتجف فزعا من فكرة توقفه عن الدفع لعلمه أن ذلك قد يعرض عرشه للخطر — ولذلك فقد نظر فى خزانته فوجد بها ١٧٦٫٦٠٢ سهما من أسهم شركة قناة السويس لا تزال ملكا لمصر خالية من الديون ، فلم يفكر اسماعيل باشا فى أن هذه الأسهم هى عزاء مصر عما تكلفت من جهود وتكبدت من تضحيات فى سبيل شق القناة ، أنه لم يكن يفكر الا فى نفسه ، الا فى يومه ..

فعرض اسماعيل بيع هذه الأسهم فى باريس مقابل ٩٢ مليون فرنك ، وترددت فرنسا فى الوقت الذى وصل فيه النبأ الى سماع دزرائيلى رئيس وزراء انجلترا اليهودى ، فأدرك ما فى الحصول على هذه الصفقة من فتح ذريعة لوضع اليد على شركة قناة السويس وبالتالى التدخل فى شئون مصر ، فأسرع على خلاف تقاليد انجلترا وبدون عرض هذه الصفقة على أعضاء الوزارة ، فضلا عن البرلمان وكلف بيت روتشيلد لشراء هذه الأسهم لحساب الحكومة الانجليزية وتمت الصفقة فى مقابل ٣٫٩٧٦٫٥٨٢ جنيها على وجه الدقة .

وعندنا ان هذه أشنع ما ارتكب اسماعيل من سقطات . وقد حاول بيتر كرابتس القاضى بالمحاكم المختلطة أن يدافع عن اسماعيل باشا فى كتابه « اسماعيل

المفترى عليه » بقوله ان هذه الأسهم وحتى عام ١٨٩٤ ما كانت لتدر على اسماعيل باشا قرشا واحدا فقد كانت أرباح هذه الأسهم تذهب حتى هذا التاريخ الى شركة القناة تسديدا لما حكم به نابليون الثالث . ويغفل القاضى كرابتس أن يذكر ان اسماعيل باشا كان عليه لهذا السبب ان يدفع لهذه الأسهم التى باعها فائدة سنوية قدرها ٥٪ أى ١٩٨ر٢٩٠ جنيها ويعنى ذلك أنه يعيد دفع ثمن هذه الأسهم خلال هـذه المدة فكأنه تنازل عنها بالمجان .

وكان خيرا من ذلك أن يرهن هذه الأسهم ، ولو بنصف ثمنها ، ولكن اسماعيل من أجل أن يحصل على مليون جنيه أكثر كان مستعدا للتضحية بالأسهم .

ويمضى القاضى كرابتس فى دفاعه عن اسماعيل باشا فيقول انه بعد بيع هذه الأسهم ، كان فى حوزة مصر حصتها السنوية من أرباح القناة وهى ١٥٪ ولكنهـا بيعت بعد نزول اسماعيل عن العرش ويدخل فى مقارنة بين فوائد هـذه الحصة وبيع الأسهم ، وهو ليس بدفاع ، لأن ارتكاب خطـأ أشنع لا يبرر ارتكاب الخطأ الشنيع .

وقد علق كاتب فرنسى على هذه الصفقة فى مجلة العالمين بعددها المؤرخ أول ديسمبر ١٨٧٥ فلخص الكارثة أكمل تلخيص مبينا عواقبها وما ستجره على مصر بقـوله :

« ان هذا العمل سياسى محض وهنا وجه الخطر فيـه ، فاذا لم يكن فى ذاته احتلالا لمصر فانه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال ، والآن قد أصبح لانجلترا عميل يحتاج الى من يعطيه مائة مليون فرنك لتسوية ديونه ، فهى لن تتركه وشأنه ، بل تراقب ماليته ، ثم تقرضه وتبذل المـال من جديد وستطلب منه طبعا ضمانات وتأمينـات أخرى ، وهكذا بعد أن كانت انجلترا تعارض فى انشاء القناة تحولت سـياستها لامتلاكها » .

بعثـة كيف :

ولم يحتج الأمر لمضى كبير وقت لكى تتجلى آثار هذه الصفقة المشئومة ، فقد انتهزت انجلترا فرصة التجاء اسماعيل باشا اليها لتوفد له مستشارا فى الشئون المـالية لدراسـة أحوال مصر المـالية ، لكى توفد له بعثـة من أربعة من كبـار الشخصيات الانجليزية تحت رئاسة « استفن كيف » الذى اشتهرت البعثة باسمه . فوصلت البعثة الى مصر فى ديسمبر ١٨٧٥ ، ووضعت تقريرها الذى لم يجىء على هوى اسماعيل باشا ، فطلب من الحكومة البريطانية أن يظل فى طى الكتمان .

وقد استاءت فرنسا لانفراد انجلترا بارسال هذه البعثة ، وكانت لا تزال تترنح تحت وطأة الهزيمة من حرب السبعين وشاءت أن تثبت وجودها فأوفدت الى مصر موظفا فرنسيا ، ليقدم الى اسماعيل باشا مشورته واقتراحاته فى علاج المـالية المصرية فغضبت انجلترا لذلك ، وأوعزت الى أحد نوابها فى البرلمان أن يسأل عن موعد نشر تقرير بعثة كيف ، فرد عليه رئيس الحكومة أن انجلترا على استعداد لنشر

هذا التقرير فورا ، ولكن اسماعيل باشا يعترض على ذلك ، فأحدث هذا التصريح دويا فى أوربا وأساء الى سمعة مصر وماليتها بأكثر مما تضمنه التقرير من حقائق ولذلك فقد طلب اسماعيل باشا بأن ينشر التقرير .

وقد أشارت اللجنة الى أن سوء الحالة المالية يرجع معظمه الى فداحة الشروط التى عقدت بها القروض المتوالية ، والى الاسراف فى انفاق مبالغ جسيمة معدومة النفع وفى حملات حربية قليلة الجدوى أو التهمتها أطماع الافاقين السياسيين والماليين ، وأشارت باستعمال محصلات المقابلة لالغاء الديون القصيرة الآجال ، وتحويل جميع الديون الطويلة الأجل الى دين موحد ٧٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه يسدد فى مدة خمسين سنة بفائدة ٧٪ .

وأشارت اللجنة الى سوء الحالة المالية المصرية ، واقترحت كشرط ضرورى لاصلاحها أن تخضع للمشورة الأوربية ، بأن تنشىء الحكومة المصرية مصلحة للرقابة على ماليتها يراسه شخص ذى ثقة أوعزت بأن يكون انجليزيا ، واشترطت أن يحترم الخديوى قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضا الا بموافقتها .

انشاء المحاكم المختلطة :

واذا كانت بعثة كين التى أوفدت الى مصر هذه السنة قد وضعت الأساس للتدخل الانجليزى . فقد تم فى هذه السنة أيضا وضع الأساس لتحكم الأجانب من أى جنسية فى مصر حكومة وشعبا وذلك بانشاء المحاكم المختلطة التى تحولت الى سرطان . وليست المحاكم المختلطة الا أحد تطبيقات نظام الامتيازات الأجنبية . وقد مر بنا كيف نشأت هذه الامتيازات ، باعتبارها منحة من السلطان سليمان القانونى ، منحها على سبيل التسامح لرعايا الدول المسيحية ليأتمنهم على أرواحهم، وممتلكاتهم ابان وجودهم على الدولة العثمانية ، فشملت مصر كبقية الأراضى العثمانية فلما أن ضعفت الدولة العثمانية ، تحولت الامتيازات الأجنبية لتكون سبيلا لتدخل الدول الأوربية فى شئون الدولة العثمانية .

ولقد استطاع محمد على بقوته أن يكبح جماح الدول الأجنبية ويحول بينها وبين التدخل فى شئون مصر وظلت الحكومة المصرية والادارة المصرية مرهوبة الجانب من ناحية الأجانب .. ولكن الموقف تغير فى عهد سعيد ومن بعده اسماعيل ، حيث بدأ هذان الواليان ينزلقان الى الأجانب ، ويحتميان بهما فى مواجهة سلطان تركيا ، فاستشرت سلطة قناصل الدول وأصبح لكل قنصلية محكمتها الخاصة التى يتحاكم أمامها رعاياها بل وأصبحت هى السبيل الوحيد لرفع القضايا من أهالى البلاد ضد أى أوربى . وكان معنى ذلك أن أصبحت فى مصر سبع عشرة محكمة أجنبية بعدد قناصل الدول الممتازة ، وكان كل حكم يصدر من هذه المحاكم ضد أجنبى يستأنف فى عاصمة بلاده أى فى روما أو باريس أو لندن .

وبدلا من اصلاح هذه الحالة كما فعلت تركيا ، بالغاء هذه الامتيازات القضائية واخضاع الأجانب لمحاكم البلاد ..

طلب اسماعيل باشا من وزير خارجيته نوبار باشا ، أن يفاوض الدول فى انشاء المحاكم المختلطة لتضع حدا لهذه الفوضى القضائية وعرض على الدول أن تكون أغلبية هذه المحاكم من القضاة الأجانب الذين ترشحهم بلادهم ، وسرعان ما وجدت أغلبية دول أوربا أن هذا التنظيم فى صالحهم اذ يجعل لهم صوت فى ادارة مصر ، وحكمها فتم الاتفاق على انشاء المحاكم المختلطة ، على أن تختص بالمنازعات المدنية والتجارية ، دون الفصل فى الجنايات أو الجنح التى ظلت من اختصاص المحاكم القنصلية .

وهكذا استقر هذا الاصلاح المقوت من انشاء امتياز جديد للدول الأجنبية ، دون أن يقلل من الفوضى القضائية التى كانت سائدة ، فقد كان باستطاعة أى أجنبى أن يرتكب ما شاء من الجرائم ، فيحاكم أمام قنصل بلاده الذى قلما كان يحكم عليه .

وقد وقع على اتفاقية انشاء المحاكم المختلطة كل من الولايات المتحدة والنمسا والمجر والبلجيك والدانمرك وفرنسا والمانيا وانجلترا واليونان وهولنــدا وايطاليا والبرتغال والروسيا وأسبانيا والسويد والنرويج .. وقد تم تعيين قضاة المحكمة واغلبيتهم حسبما يقضى الاتفاق من الأوربيين واستقبلهم الخديوى اسماعيــل فى حفل جامع بقصر رأس التين فى ٢٨ يونيو من هذه السنة (١٨٧٥) وخطب فيهم متمنيا أن يكون افتتاح هذه المحاكم بداية عصر جديد للمدنية ، وبقيت فرنسا مترددة حتى آخر وقت فى توقيع الاتفاقية ولكنها انتهت بالموافقة عليها فى ديسمبر من هذه السنة .

ضـــم مدينتى زيلع وبربرة :

وفى هذه السنة حصـــل اسماعيل باشا من الدولة العثمانية على قرار بضم ولايتى زيلع وبربرة من بلاد الصومال الشمالى الى سلطان مصر والمدينتان تقعان على خليج عدن .. وقد صدر فرمان السلطان القاضى بالضم فى أول يوليو من هــذه السنة مقابل زيادة فى الجزية وقدرها ١٥ الف جنيــه عثمانى « ١٣٢٦٥ » عــلى ما نشر فى الوقائع المصرية العدد ٦١٥ .

وأرسل الى الميناءين حكاما عسكريين وقوات من الجيش المصرى لاحتلالهمــا وبذلك امتد سلطان مصر من سواحل البحر الأحمر حتى ســواحل خليج عدن الشمالية .

فتح هـــرر :

وبعد دخول الجيش المصرى الى زيلع وبربرة ــ أصدر اســماعيل باشا أمره الى حامية هاتين البلدتين باحتلال سلطنة هرر الامارة الاسلامية ، باعتبارها مكملة للسودان فزحفت فرقة من الجيش المصرى بقيادة رءوف باشا فى سبتمبر من هذه السنة وقصدت مدينة هرر عاصمة الولاية ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار الذى سيصير فيما بعد اللواء محمد مختار صاحب

الكتاب القيم « التوقيعات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجيـة والقبطية » .

وقد وصلت القوة الزاحفة الى مدينة هرر واستولت عليها بدون مقاومة فى ١١ أكتوبر ١٨٧٥ ورفعت عليها العلم المصرى .

حملة الصـومال :

وفى الوقت الذى كانت حملة هرر تحقق أهدافهـا ، كان اسماعيل باشـا قد أصدر أمره بايفاد حملة اخرى عن طريق البحر تحت قيادة الاميرال ماكيلوب باشا مدير البوابى والمنائر المصرية لاحتلال بلاد الصـومال . وقد عهد بقيادة جنود البر الى الاميرالاى شايى لونج الأمريكى الذى رأيناه فيما مضى قد وصل الى منابع النيل ورفع عليها علم مصر ووضع أوغندا تحت حماية مصر .

وقد وصلت الحملة البحرية المصرية على رأس جروفون على البحر العربى ثم أبحرت جنوبا فى المحيط الهندى حتى وصلت الى مدينة قسمايو عند مصب نهر جوبا عند خط الاستواء ، ورفعت عليها العلم المصرى ، وكانت الخطة الموضوعة أن تسير الحملة بعد ذلك غربا حتى تصل الى بحيرة فيكتوريا فتغطى هذا المربع من الارض الذى يشمل حوض النيل حتى الشاطىء الافريقى ، ولكن غوردون باشا الذى كان عليه من جانبه أن يتصل بهذه الحملة ، تقاعس عن اداء دوره المرسوم تنفيذا لتعليمات تدقاها من حكومته الانجليزية ، التى لم تنظر بعين الارتياح لوصول الجيوش المصريةالى شاطىء المحيط الهندى ، مما اضطر اسماعيل باشا أن يسترجع الجنود المصريين من هذه المنطقة ، حتى لا يقع صدام بينه وبين السياسة الانجليزيه فضلا عن أنه كان قد دخل فى حرب مع الحبشه ، هذه الحرب التعسة التى عادت على مصر بأوخم العواقب .

الحرب مع الحبشـة :

لم يقتنع اسماعيل بما تملكه من أراضى شاسعة فى الصومال وهرر بل طمع فى أن يستولى على الحبشة نفسها ، وقد كانت العلاقات متوترة بين مصر والحبشة للخلاف على الحدود بين السودان والحبشة ، ولم يقدر اسماعيل وعورة بلاد الحبشة التى تهلك الجيوش الغازية .

وبدأت الحرب فى الحادى عشر من نوفمبر بقيام حملة مصرية من مصوع مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل تحت قيادة ارندروب بك ، وعند موقع جوندبت ، تصـدى لهذه القوة المحدودة جيش من الأحباش يربو عدده على ثلاثين ألف مقاتل ، فقاضى عـلى جنود الحملة عن بكرة أبيهم .

وفى الخامس عشر من نوفمبر ، سحق الأحباش قوة مصرية أخرى كانت تزحف تحت قيادة متزنجر باشا الذى زين لاسماعيل باشا هذه الحملة ، وكان متزنجر نفسه وزوجته بين القتلى .

الحملة الكبرى :

وبدلا من أن تجعل هاتين النكبتين اسماعيل باشا يثوب الى رشده ويعدل عن المضى فى هذه الحرب العقيمة ، راح يفكر فى الانتقام واستعادة كرامته ، فراح يعد جيشا كبيرا أسرع بارسال مقدمته التى تتألف من خمسة عشر ألف مقاتل وقد عقد لواؤها لراتب باشا وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدبير .

ولم يكن مصير هذا الجيش أحسن حالا من سابقيه فقد تصدى له الملك يوحنا ملك الحبشة فى جيش من أربعين ألف مقاتل ، حيث دارت معركة ضد بلدة قورع « ٧ مارس ١٨٧٦ » دارت فيها الدائرة على الجيش المصرى وكاد القائد العام نفسه والأمير حسن باشا نجل اسماعيل الذى كان يرافق الجيش يقعان فى الأسر ، وقد وقع فى الاسر ٢٥٠ أسيرا وكان من بينهم محمد بك احد كبار الموظفين بديوان الجهاديه فتمكن هذا الموظف من عقد صلح مشرف مع ملك الحبشة بمقتضاه تنسحب القوات المصرية من الحبشة على أن يرد ملك الحبشة الأسرى ويفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة وبقيت مدينة سنهيت التى قامت الحرب بسببها فى أملاك مصر ، وقد بلغت خسائر مصر من الرجال ٨٫٥٠٠ قتيل وكلفت الخزانة ثلاثة ملايين من الجنيهات فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة كما مر بنا .

على أن هذه النتائج كلها لا تقارن الى جانب انهيار هيبة مصر الحربية مما جرأ انجلترا وفرنسا على زيادة تدخلهما فى شئون مصر وهما اللتان كانتا تهابان قوة الجيش المصرى .

تاسيس الجمعية الجغرافية :

ولم تخل هذه السنة ككل سنوات حكم اسماعيل باشا من عمل نافع وسط هذه الكوارث ، وذلك هو انشاء الجمعية الجغرافية الخديوية التى تعتبر من أهم المنشئات العلمية فى مصر وكان الفرض من انشائها العناية بالأبحاث الجغرافية والعالمية وتدوينها ونشرها .

وكان أول رئيس لها العالم الالمانى جورج شوينفرت ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال ستون باشا الأميركى رئيس أركانحرب الجيش المصرى ، وكان للجمعية مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات ، أدت خدمات جليلة للعلم والجغرافيا .

١٨٧٦ م — ١٢٩٣ هـ التوقف عن الدفع :

فى أبريل من هذه السنة وصلت الضائقة المالية الى نتيجتها المحتومة وهو عدم قدرة الحكومة على دفع المطلوبات منها ، فأصدر الخديوى مرسوما فى ١٦ أبريل بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة لمدة ثلاثة شهور . فسرى الذعر بين الدائنين ثم انقلب الذعر الى سخط فى الأسواق المالية الأوربية وانقلب الجميع يبرقون ويرعدون ويهددون .

انشـــاء صندوق الدين :

ولم يقو اسماعيل باشا على مجابهة السخط ، فأسرع يعمل على تهدئة الدائنين، بأن أصدر فى شهر مايو قرارا بانشاء صندوق الدين ، وجعل مهمة الصندوق أن يقوم بتسلم المبالغ المخصصة لتسديد الديون مباشرة من المصالح المحلية ويخصص له ايرادات مديريات الغربية والمنوفيـــة والبحيرة وأســيوط وعوايد الدخوليـــة فى القاهرة والاسكندرية ، وايراد جمارك الاسكندرية وضريبة الملح ومصايد ورسوم الكبارى وعوائد الملاحة فى النيل وايراد كوبرى قصر النيل وايراد أطيـــان الدائرة السنية ، على أن يشرف على ادارة الصندوق مندوبون من الدول الدائنة .

وهكذا تألفت ثانى هيئة دولية بعد المحاكم المختلطة للتدخل فى أخص شئون مصر الداخلية .

مشروع توحيـــد الديون :

كما أصدر مرسوما بتوحيد الديون المصرية المختلفة الى دين واحد اطلق عليه اسم الدين الموحد وقدره ٩١ مليون جنيه انجليزى بفائدة قدرها ٧٪ يسدد فى ٦٥ ســنة .

انشـــاء مجلس أعلى للمالية :

ولكى يزيد فى طمأنينة الدائنين أصدر فى ١١ مايو مرسوما ثالثا بانشاء مجلس أعلى للمالية مؤلف من عشرة أعضـــاء خمســـة منهم اجانب وخمسة وطنيون . وعين السنيور شالديا أحد أعضاء مجلس الشيوخ الايطالى رئيسا لهذا المجلس .

بعثة جوشن وجوبير :

وقـــد رفضت انجلترا قبول هذه الاجـــراءات التى تمت بالاتفـــاق مع فرنسا ، ورفضت أن تعين مندوبا عنها فى صندوق الدين لتعطيل تنفيذ المشروع ، ودخلت فى مفاوضات مع فرنسا للتوصل الى اتفاق ترضى عنه الدولتـــان ويفرضـــــانه على اسماعيل باشا .

ونظرا لحاجة فرنسا لمؤازرة انجلترا فى المجـــال الدولى ، فقـــد استجابت لمطالب انجلترا واتفقت الدولتان على ارسال بعثة انجليزية فرنسية تمثل الدائنين وهى ما اشـــتهرت باسم « جوشن وجوبير » والأول انجليزى والثانى فرنسى وطلب من اسماعيل باشا قبول الترتيبات التى تم الاتفاق عليها وأول هـــــذه الترتيبات أو المطالب فرض الرقابة الأوربية على المـــالية المصرية ووضع السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة ، وابعاد وزير المالية اسماعيل باشا المفتش ومحاكمته بدعوى انه تسبب فى احداث عجز بالميزانية اضرارا بالدائنين .

مقتل اسماعيل المفتش :

خاف اسماعيل باشا من مغبة محاكمة اسماعيل باشا المفتش لما قد ينجم عن ذلك من افشاء أخص أسرار اسماعيل باشا فعمد الى التخلص منه بقتله فاستدرجه الى

قصره ، حيث قبض عليه ثم اعدم بوسيلة لا تزال مجهولة وتخلص من جثته بالقائها فى النيل .

انشاء الرقابة الثنائية على مصر :

وفى ١٨ نوفمبر صدر مرسوم بفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية ، حيث يتولى مراقبان أحدهما انجليزى والثانى فرنسى ليراقب أحدهما الايرادات العامة للحكومة ويسمى مفتش الايرادات والثانى لمراقبة المصروفات ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومى وخولت حكومتنا انجلترا وفرنسا تعيين هذين المراقبين واحد لكل منهما .

كما أجريت التعديلات التالية على مشروع توحيد الديون :

١ ـ اخراج ديون الدائرة السنية وقدرها ٨٫٨١٥٫٠٠٠ من الدين الموحد وعقد اتفاق خاص بشأنه .

٢ ـ تقسيم الدين المصرى الى قسمين ، قسم قدره ١٧ مليون جنيه انجليزى واطلق عليه اسم الدين الممتاز حدد لتسديده خمسا وستين سنة بفائدة قدرها ٥٪ .
وقسم ثان مقداره ٥٩ مليون أطلق عليه اسم الدين الموحد وجعلت فائدته ٧٪ .

٣ ـ اعادة العمل بقانون المقابلة .

٤ ـ ابقاء صندوق الدين بصفة دائمة حتى يتم استهلاك الدين العام بأكمله .

وعهد بادارة السكة الحديدية وميناء الاسكندرية الى لجنة مختلطة من خمسة مديرين اثنان منهم انجليز واثنان مصريان وفرنسى على أن تكون الرئاسة لأحد الانجليزيين .

وهكذا بدأت مرحلة التدخل الانجليزى الفرنسى فى ادارة مصر بطريقة رسمية واصبحت مصر تدار لحساب الدائنين الأوربيين لا لحساب شعبها .

تطور مجلس شورى النواب :

وكان طبيعيا أن يحدث ذلك رد فعله الطبيعى وسط نواب الأمة ـ فلم تكد ـ الحكومة تدعو المجلس الى جلسة طارئة فى طنطا بعد توقف دام مدى عامين فى محاولة للاحتماء به ، حتى ظهر المجلس بمظهر جديد وانجلت فيه روح المعارضة لمشروعات الحكومة وسياستها .

وعندما القى اسماعيل باشا خطاب العرش فى الافتتاح العادى فى ٢٣ نوفمبر فقد اضطر للاعتراف بحق المجلس فى الاشتراك فى ادارة شئون الحكومة وتصريفها ، بعد أن وجد الزحف الأجنبى قد بدأ يضيق عليه الخناق ويحد من سلطانه المطلق .

ارتقاء السلطان عبد الحميد الثانى عرش تركيا :

وفى يوم الخميس الحادى عشر من شعبان من هذه السنة تبوأ السلطان عبد الحميد خان عرش السلطنة التركية ، وكان السلطان عبد العزيز قد خلع فى جمادى

الاول من هذه السنة ثم مات منتحرا على ما قيل بعد خلعه بأربعة أيام ، وكانت مدة سلطنته قد دامت ست عشرة سنة وأربعة أشهر ، وقد بايع مدحت باشا زعيم حزب الاصلاح واعوانه مراد الخامس ليكون سلطانا ولكنه بسبب مرضه لم يمكث على العرش سوى ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثم خلع بدعوى اختلال قواه العقلية ، ورفع الى العرش السلطان عبد الحميد الثانى ، وعين مدحت باشا صدرا أعظم فأعلن الدستور لأول مرة فى حياة الدولة العثمانية ، حيث نص على حرية الفرد وحرية الضمير وحرية الصحافة وحرية التعليم والمساواة فى الضرائب وعدم قابلية القضاة للعزل ، وسلطة مجلس النواب الذى يختار بالانتخاب العام ، فى التشريع ، وفى اسقاط الحكومة .

أثر الحركة الدستورية العثمانية على مصر :

وكان لذلك كله أثره فى الرأى العام المصرى ، الذى بدأ يطالب بحقه فى اخضاع الحاكم لمشورة الشعب ، وتزويد ممثلى الأمة بالسلطة فى ادارة البلاد ، ولكن أخطبوط الاستعمار الأوربى كان قد بدأ يقف بالمرصاد لتطور الرأى العام المصرى ، والحيلولة دون أى نهضة أو يقظة .

السكك الحديدية فى مصر :

وفى هذه السنة استمر النشاط فى مد السكك الحديدية لربط الخطوط الرئيسية بالخطوط الفرعية فتم انشاء خط من سيدى جابر الى رشيد ، ومن محلة روح الى طنطا — كما شرع فى تنفيذ مشروع اسماعيل الكبير وهو ربط مصر بالسودان بخط حديدى واحد فتم انشاء ٥٧ كيلو من السكك الحديدية جنوبى مدينة وادى حلفا .

وبهذا بلغ طول ما انشىء من السكك الحديدية فى عهد اسماعيل حتى هذا التاريخ ١٠٨٥ ميلا . ولكن بعثة كيف قدرت أطوال السكك الحديدية المنشأة بـ ١٢٠٠ ميل بلغت نفقات انشائها ٠٠٠ر٢٠٠ر١٣ جنيها بواقع ١١ الف جنيه للميل الواحد .

١٨٧٧ م — ١٢٩٤ هـ — اشتراك الجيش المصرى فى حرب البلقان :

اندلعت الحرب بين روسيا وتركيا فيما يعرف بحرب البلقان ، وقد استند السلطان عبد الحميد على هذه الحرب فألغى الدستور وحكم البلاد حكما مطلقا ، فى الوقت الذى بدأ يروج فيه لدعوة « الجامعة الاسلامية » واحياء الزعامة الروحية للخلافة على جميع المسلمين .

وأرسل الى اسماعيل باشا يطلب منه ارسال جيش للاشتراك فى الحرب ، وحاول اسماعيل باشا أن يعتذر محتجا بارتباكات مصر المالية ، ولكن السلطان عبد الحميد لم يقبل أى عذر ومن ناحية أخرى فقد كان خشية اسماعيل باشا مغبة اغضاب الباب العالى فى هذه الفترة الحرجة والدول الأوربية تهدده وتتوعده ، فلجأ الى مجلس شورى النواب ، وعرض عليهم فرض ضريبة جديدة تدعى ضريبة الحرب وقدرها ١٠ ٪ من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة المطلوبة ، فاستجاب النواب لذلك .

وارسلت مصر جيشا يتألف من اثنى عشر الف مقاتل تحت قيادة الأمير حسن ثالث انجال اسماعيل باشا ، وقد اشترك المصريون فى هذا القتال الطاحن حتى وضعت الحرب أوزارها فى العام التالى .

ويجمع الكتاب المصريون المعاصرون لهذه الحقبة ان اخبار هذه الحرب التى أصبحت تصل أولا بأول عن طريق التلغراف ، والتى بدات الصحف المصرية تنشرها ، فيقبل عليها الراى العام فى اهتمام وتلهف ، وكان ظاهرة جديدة فى حياة مصر دلت على نشوء الرأى العام ووعيه وقوته .

انشاء صحيفة مصر :

وليس هناك ما يدل على قوة هذه الظاهرة من ان جمال الدين الأفغانى أوعز لأحد تلامذته وهو أديب اسحق لاصدار مجلة أسبوعية اطلق عليها اسم « مصر » لتكون لسان حال حزب جمال الدين ومتنفسا لأقلام انصاره وحوارييه . وقد كانت هذه الجريدة هى الميدان الذى راح عبد الله النديم يصول فيه بقلمه لأول مرة بعد ان نقلت فى العام التالى الى الاسكندرية .

١٨٧٨ م ـ ١٢٩٥ هـ ـ لجنة التحقيق العليا الأوربية :

اسرف الرقيبان الأجنبيان فى ابتزاز أموال الأهالى بطريق القهر والعسف ، حتى يضمنوا اداء كوبون شهر يوليو ووصل الأمر بهما الى أن يبيعا لشركة انجليزية حق تصدير عظام الموتى البالية ، واتخاذ المقابر المصرية القديمة مخازن للفوسفات ، وضاعفوا فى رسوم جمرك الاسكندرية ، وأجور السكك الحديدية وشرعوا فى الاتفاق مع أوربى لاقامة دور للقمار ومقاهى للغناء ، انتهى بهم الأمر الى أن وضعوا أيديهم على محصول الفلاحين من القطن جملة بحجة تسديد المتأخر عليهم وباعوه لشركة بريطانية بخمسة ملايين جنيه . وقد استطاعت المراقبة الثنائية أن تهنىء نفسها على استطاعتها أن تقدم للدائنين أرباحهم غير منقوصة ، ولكن الأوربيين أدركوا بدون استثناء انهم فى الطريق لذبح الأوزة التى تبيض لهم فى كل يوم بيضة ذهب .

فهذا قنصل انجلترا يقول :

« لقد استطاعت مصر فى ثمانية أشهر أن تؤدى ما يقرب من ٦ مليون جنيه ، وهذا يدل على كفاية المراقبة الجديدة ، غير انى أخشى أن تكون هذه النتائج لم تتحقق الا بما فيه هلاك الفلاحين وحملهم على بيع محصولاتهم قبل حصادها ، وجباية الضرائب قبل مواعيدها أما الموظفون الوطنيون الذى يقتضى صلاح الادارة اطراد دفع مرتباتهم ، فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحت لهم متأخرات عظيمة » .

وعلى ذلك فقد تقدمت الدول بطلب جديد وهو تأليف لجنة أوربية للتحقيق فى امور المالية المصرية ، واستجاب اسماعيل باشا لهذا الطلب الجديد ، فأصدر فى ٣٠ مارس من هذه السنة أمرا بتأليف هذه اللجنة وكان العضو الانجليزى بها هو السير

ويفوز ولسون ، وعهد برئاستها الى فرونيان دى لسبس ولكنه لم يحضرها فأصبح الرئيس الفعلى هو رفرز ولسون .

محمد شريف باشا يقاطع اللجنة :

وقد كان محمد شريف باشا وزير الحقانية والخارجية هو الوزير الوحيد الذى قاطع هذه اللجنة فرفض الحضور أمامها ، فلما أصرت على وجوب حضوره قدم استقالته من الحكومة ، فكان ذلك أول حدث من نوعه ، وبدأ الشعب المصرى يلتفت صوت شريف باشا باعتباره ممثل الوطنية الجديدة فى مصر .

وقد قدمت اللجنة تقريرا مبدئيا بنتيجة فحصها شرحت فيه حالة مصر المالية وعيوبها وقدرت الديون السائرة على الحكومة والتى لم تدخل فى تسوية ١٨٧٦ واضافت اليها عجز الميزانية فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ وقدرت ذلك كله بـ ٩ر٢٤٣ر٢٦٣ جنيها اعتبرت الخديوى اسماعيل مسئولا عنها وطلبت منه :

— أن ينزل عما بقى لديه من أطيان وعن أطيان أفراد عائلته .

— أن يحدث تغيير فى نظام الحكم وينزل عن سلطته المطلقة اخلاء لمسئوليته فى المستقبل عن العجز فى ميزانية الدولة .

اسماعيل باشا يستجيب لطلبات لجنة التحقيق :

ولم يكن أمام اسماعيل باشا الا ان يستجيب لطلبات لجنة التحقيق وقد ادلى بالبيان التالى فى حديثه مع السير ريفرز ولسون :

« فيما يتعلق بالنتائج والمقترحات التى انتهيتم اليها ، فانى أقبلها وطبيعى أن أفعل ذلك ، فانى أنا الذى رغبت فى هذا العمل لصالح بلادى ، وعلى الآن ان انفذ هذه المقترحات ، وكن على يقين بأنى عازم على ذلك عزما جديا ، **ان بلادى لم تعد فى افريقيا بل نحن الآن قطعة من أوربا** . فطبيعى أن نطرح الأغلاط الماضية ، وان نسير على نظام وفق حالتنا الاجتماعية ، وسترى عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما تظنون ، وقوامها وضع الأمور فى نصابها واحترام القانون » .

انشاء مجلس النظار :

فى الثامن والعشرين من أغسطس أصدر اسماعيل باشا أمره بانشاء مجلس النظار وتخويله مسئولية الحكم وعهد الى نوبار باشا بتأليف وزارة على هذا الأساس — وهكذا قدر لمصر أن يكون أول رئيس نظارة لها ، مسيحى أرمنى هواه ومصالحه فى الدرجة الأولى مرتبطة مع دول الاستعمار .

وقد تضمن الأمر الصادر الى نوبار باشا بتأليف الوزارة ، القواعد التى اتخذت منذ ذلك التاريخ ، أساسا الحكم فى مصر .

فقد أصبح مجلس النظار « الوزراء » هيئة مستقلة عن ولى الأمر واصبحت رئاسة المجلس لنوبار باشا وليس للخديوى — واصبح اختصاص مجلس النظار هو :

النظر فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر المصرى على أن تصدر قراراته بالأغلبية ويتعين على الخديوى التصديق عليها فتصبح ملزمة للنظار ــ واصبح كل ناظر مسئول عن ادارة نظارته كما اعتبر النظار مسئولون بالتضامن عن تصرفات كل ناظر على حدة.

واصبح من اختصاص المجلس لأول مرة تعيين وعزل كل موظفى الدولة الكبار ، وأبقى للناظر سلطة تعيين وعزل الموظفين الصغار .

الوزراء الأجانب :

وقد احتفظ نوبار باشا بنظارة الخارجية لنفسه ، وعين وزيران أوربيان هما : ريفرز ولسون الانجليزى للمالية ، ودى بليمير الفرنسى للأشغال ، وعين مصطفى باشا رياض للداخلية وراتب باشا للحربية وعلى باشا مبارك وزيرا للمعارف والأوقاف .

شريف باشا يرفض الاشتراك فى الوزارة :

وقد رفض محمد باشا شريف الاشتراك فى هذه الوزارة ، التى رأى فيها عدوانا على سيادة مصر ، وانها وزارة اوربية للأوربيين وليست للمصريين وهكذا واصل دوره فى حمل لواء المعارضة لسياسة الدول الجارية فى مصر والتى خضع لها اسماعيل باشا.

قرض جديد بمبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر٨ جنيه :

وقد فوجىء المصريون بأن أول ما قامت به الوزارة الجديدة أن عقدت قرضا جديدا من بنك روتشسيلد الانجليزى بمبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر٨ جنيــه وقــد عرف باسم قرض الدومين ، ورهنت فى مقابل هذا القرض الجديد ، الأطيان التى نزل عنها أفراد الأسرة الخديوية ومقدارها ٧٢٩ر٤٢٥ فدانا وعهد بادارتها الى لجنة دولية تسمى قومسيون الأملاك الأميرية « الدومين » وكانت مؤلفة من ثلاثة أعضاء انجليزى وفرنسى ومصرى .

ولم تكن شروط هذا القرض الجديد بأحسن حالا من قروض اسماعيل باشا ، اذ لم يدخل الخزانة المصرية من هذا القرض الجديد سوى ٥٠٠ر٩٩٢ر٥ جنيه ومعنى ذلك أن مصر خسرت ٠٠٠ر٢٩٥ر٢ عمولة وسمسرة ومصاريف ، فدل ذلك على أن عقد القروض بهذه الشروط المجحفة كان هو سمة العصر .

وقد سددت الوزارة بهذا القرض الجديد بعض أقساط الديون وفوائدها ولم تدفع مليما واحدا منه لمرتبات الموظفين المتأخرة .

فعم السخط أرجاء البلاد .... ووجد جمال الدين فرصته لتحريض الشعب على الثورة السافرة .

جمال الدين يحرض على الثورة :

كان جمال الدين الأفغانى قد أسس فى ذلك الوقت ما يعرف باسم الحزب الوطنى الحر ــ بعد أن كان عضوا فى جمعية سرية أنشئت فى الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » وكان قد أصبح رئيسا لجمعية الماسون العــربية ، وصار له أصدقاء وحواريون من أصحاب المناصب العالية من أمثال محمــود سامى البــارودى باشا وعبد الســلام

المويلحى النائب المصرى واخيه ابراهيم المويلحى كاتب الضابطية ، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره من ارباب الأقلام من مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى بك مطر والشيخ الزرقانى وابى الوفا القونى فى مصر وسليم نقاش واديب اسحق وعبد الله النديم فى الاسكندرية ووصل به الأمر الى أن أصبح يقول فى احاديثه العامة :

انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وتربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكومتكم الحيف والجور ، وينزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون واضون ، وتنزف قوام حياتكم ، بل ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر بثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضفة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون ، وحاكمكم يشق جلودكم يمضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وانهم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا الاهرام وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا احرار سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء .

وكان يوجه حديثه الى الفلاحين قائلا :

عجبت لك أيها الفلاح تشق الأرض بفأسك باحثا عن رزقك .

لماذا لا تشق بهذا الفأس صدر طاغيتك .. ؟

الأفغانى يحرض على قتل اسماعيل باشا :

وقد وصل الأمر بجمال الدين الأفغانى الى حد التحريض على خلع اسماعيل باشا واغتياله فيقول لنا الشيخ محمد عبده : كان الشيخ جمال الدين موافقا على الخلع واقترح على أنا أن أقتل اسماعيل باشا وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل ولكن كل هذا كان كلاما كنا نتهامسه فيما بيننا ، وكنت أنا موافق كل الموافقة على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة ، ولو اننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت ، فربما كان فى امكاننا أن ننظم الحركة معه لأن قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يكمننا عمله ، وكان يمنع تدخل أوربا (١) .

(١) أقوال محمد عبده لالفرد بلنت فى كتابه التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر .

١٨٧٩ م ــ ١٢٩٦ هـ مجلس شورى النواب فى الميدان :

فى ظل هذا الجو افتتح مجلس شورى النواب فى الثانى من يناير « ٩ محرم » وكانت الصحف الوطنية قد هيأت الجو للمجلس ليضطلع بدوره :

فقالت جريدة التجارة اليومية التى أصدرها أديب اسحق فى اسكندرية فى عدد ٢٣ ديسمبر ١٨٧٨ :

ان من أعضاء مجلس النواب رجال لا تأخذهم فى الحق لومة لائم وهم يعلمون واجباتهم ، وحقوق الأمة ، وما ألم بها من الآلام وبودهم لو افتدوا الاصلاح بدمائهم .

وقد تناقل النفاث خبرا آخر وهو انه سيسمح لمراسلى الجرائد بحضور جلسات هذا المجلس لاستماع المفاوضة فيه ونقلها الى الصحف ، فبشروا أهل مصر بعصر جديد يغنى به طارف المجد عن التليد .

وعندما ألقى اسماعيل باشا خطاب العرش المعتاد ، فقد انتهز النواب فرصــة الرد على خطاب العرش لكى يقولوا أقوالا جديدة ورائعة فقد قالوا :

نحن نواب الأمة ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التى هى فى نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الشكر الجزيل حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذى هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، ووهو السبب الموجه لنوال الحــرية التى هى منبع التقدم والترقى وتكرار الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جعلته مسئولا كاملا أمام الأمة تأييــدا لمجلس النواب ومتمما له ، ولذلك حينما تعلقت ارادتها الســابقة بأن ينظر الوزراء فى أمور المالية والأشغال والداخلية ، ويحث نواب الأمة ليداولوا معهم فى ذلك حفظا لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة .

وكانت آخر عبارات وردت فى هذا الرد هو الهتاف باسم الحرية يقول عبد الرحمن الرافعى تعليقا على هذا الرد :

هذا هو جواب المجلس وهو كما ترى لا يحتــاج الى تعليق أو تقريظ وهو جديرا أن تحفظه الأمة والأجيال المتعاقبة وتذكره على الدوام كصفحة مجيدة من صحائف تاريخنا القومى ، وهو برهان ناطق بوطنية أولئك النواب ومبلغ اضطلاعهم بالأمانة القومية ، حيث اصدروا القواعد الدستورية ومسئولية نواب الأمة من ادارة شئون البلاد ومسئولية الوزارة أمام النواب .

اعمــال المجلس :

وبدأ المجلس فرض نفسه على الحكومة ويطلب منها البيانات ، وتلكأ وزير المالية ريفرز ولسون فى تقديم ما طلب منه ، فوجه المجلس اللوم الى الحكومة ، ومثل نوبار باشا أمام المجلس وتصور انه يستطيع أن يترضاهم بالكلمات ثم يتهرب من أجابتهم لمــا طلبوا من عرض مالية البلاد على المجلس باعتبار ان ذلك من السياسة العليــا فازداد النواب تمسكا بوجوب عرضها عليهم .

وارتفعت أصوات المعارضة خارج المجلس ، مما جعل الحكومة تعطل جريدتى التجارة « أديب اسحق » والوطن « ميخائيل عبد السيد » لمدة خمسة عشر يوما لاثارتهما الخواطر فى كتابتهما ، فكان ذلك بمثابة وقود جديد لحركة السخط التى انتشرت بين طوائف الأمة مما أدى الى وقوع الانفجار .

ثورة الضباط :

ووقع الانفجار حيث لم يكد يدور بخلد أى من الحاكمين انه يمكن أن يقع فقد كانوا يتصورون أن الشعب المصرى بكل طوائفه جسدا هامدا يفعلون فيه ما يشاءون دون أن يخشوا رد فعل من أى نوع كان .

كان من بين ما اتخذته الوزارة الأوربية الجديدة من اجراءات لتدبير المال اللازم لسداد كوبون الدائنين أن تفصل ضباط الجيش بالجملة فأحالت الى الاستيداع ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش دفعة واحدة ، فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الضباط ينتظرون دفع رواتبهم المتأخرة والتى جاوزت عشرين شهرا .

وبلغ من استهانة الحكومة بهؤلاء الضباط انها كلفتهم أن يحضروا جميعا الى القاهرة لتسليم أسلحتهم الى ثكنات العباسية بدلا من تسليمها لوحداتهم المتفرقة فى أنحاء البلاد .

فاجتمع من هؤلاء الضباط حوالى ٦٠٠ ضابط فى يوم الثلاثاء ١٨ فبراير برئاسة البكباشى لطيف بك سليم أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية ، وقاموا بمظاهرة وساروا بجمهمهم الحاشد يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية وحوالى الفى جندى قاصدين وزارة المالية .

ووصلت المظاهرة ساعة انصراف الدواوين فلمحوا نوبار باشا رئيس الحكومة يركب عربته « فأحاطوا بالعربة ، وعندما حاول السائق بناءا على أمر نوبار باشا أن يقتحم طريقه بينهم بالقوة . أنزلوا نوبار باشا من العربة وانهالوا عليه ضربا ، وخف ريفرس ولسون الانجليزى لنجدة رئيس الوزراء فضرب بعض المتظاهرين بعصاه فهجموا عليه وشدوه من لحيته ، وقبضوا عليه وحبسوه هو ونوبار باشا ورياض باشا وزير الداخلية فى احدى غرف الوزارة واستنجد القنصل الانجليزى باسماعيل باشا ، الذى خف الى مكان الحادث . .

وتتضارب الروايات فتقول بعضها انه أمر باطلاق النار على المتظاهرين وينفى بعض أخر ان النار أطلقت .

وكيفما كان الأمر ، فان اسماعيل استطاع أن يهدىء من ثائرة الثائرين وأن يعدهم بدفع مرتباتهم ، وانه سيطرد نوبار من الوزارة .

وقد اتهم الأوربيون الخديوى اسماعيل بأنه المؤتمر بهذه المظاهرة ، ولكن من المحقق أن ظروف قيام هذه الحركة كانت طبيعية جدا لا تحتاج الى ايعاز .

سقوط وزارة نوبار باشا :

كيفما كان الأمر فقد استغل اسماعيل باشا هذا الحادث لكى يتخلص من نوبار باشا . فقد أصر أنه لا يتحمل اى مسئولية اذا لم يستقل نوبار باشا واستجاب قنصلا فرنسا وانجترا لالحاحه فقد نوبار باشا استقالته ، وأعيد تشكيل الوزارة برئاسة محمد توفيق الذى استبقى الوزيرين الأوربيين .

وقد أسرع ريفرس ولسون لتهدئة الشعور العام ، بأن اقترض من بنك روتشيلد مبلغ ٤٠٠ الف جنيه لدفع مرتبات الضباط المتأخرة .

كما أصدر المجلس العسكرى الذى شكل لمحاكمة زعماء الحركة قراره ببراءة جميع من اشتركوا فيها .

على أن الوزيرين الأوربيين خولا من الوزارة الجديدة بناء على طلب انجلترا وفرنسا حق رفض أى قرار يصدر من مجلس الوزراء على غير رغبتهما وكان معنى ذلك انهما أصبحا أصحاب الحول والطول فى ادارة البلاد .

وقد استهل ريفرس ولسون نشاطه الجديد فى وزارة المالية ، بأن أعلن ضرورة تأجيل سداد أقساط الديون وأرباحها المستحقة لعجز الحكومة عن دفعها ، وكان معنى ذلك اعلان افلاس الحكومة ، وهو ما أنشئت المراقبة الثنائية وصندوق الدين والوزارة الادارية للحيلولة دون وقوعه فكان هذا بمثابة اعلان افلاس للوزارة الأوربية

مجلس النواب يتحدى الحكومة :

وانعكس غضب الأمة فى مجلس شورى النواب ، الذى راح يطالب بضرورة مثول ريفرس ولسون أمامه لمناقشته فى مالية البلاد وفى الأسباب التى ادت به الى اعلان افلاس البلاد .

فاستقر رأى الوزراء الأوربيين على التخلص من مجلس شورى النواب بفض جلساته وصدر أمر الخديوى بفض المجلس وتوجه رياض باشا وزير الداخلية لتلاوة مرسوم انهاء المجلس فاذا به يفاجأ بالنواب يرفضون الشكر الذى حاول أن يتوجه به اليهم ، ويرفضون أن ينفضوا قبل أن يبحثوا القضايا التى قرروا بحثها ودراستها ويعتبر ذلك ثورة كاملة .

وقد صور مراسل التيمس ما حدث فى مجلس شورى النواب أبلغ تصوير عندما قارن هذا الموقف بموقف ميرابو زعيم الثورة الفرنسية ، عندما خطب رافضا قرار الحل الذى أصدره الملك لويس الرابع عشر ، ثم مضى مراسل جريدة التيمس يقول :

ولا يزال مجلس شورى النواب يعقد اجتماعاته ، وهو الآن يتشدد فى وجوب خضوع النظار الأجانب والمصريين لارادته ، وجعلهم مسئولين أمامه عن أعمالهم فالأعضاء فى الواقع ينوون تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا .

النواب يرفعون عريضة الى الخديوى :

ومضى النواب فى حركتهم ، فتقدموا فى التاسع والعشرين من شهر مارس « ٦ ربيع الآخر » بعريضة الى الخديوى ، وقع عليها جميع الأعضاء الموجودين فى القاهرة، واعترضوا على مسلك الوزارة فى امتهانها حقوق المجلس ، واحتجوا على المشروع المالى الذى أعدته الحكومة وكانت تنوى أصداره والذى تعلن فيه افلاس الحكومة المصرية ، وتعلن الغاء المقابلة واعلن النواب تصميمهم على رفض هذا المشروع وامتناعهم عن تنفيذه وطالبوا الخديوى أن يتلافى هذه الحالة التى نشأت عن امتهـان حقوق المجلس .

الحزب الوطنى :

وتصاعدت الحركة الوطنية فلم تعد قاصرة على النواب ، واجتمع أحرار البـلاد وأعيانها واقطابها فى دار السيد على البكرى نقيب الأشراف حينا وفى بيت اسماعيل باشا راغب حينا آخر ، وانتهى الأمر بوضع بيان طالبوا فيه باسم الأمة ، اقصاء الوزيرين الأوربيين ، وتأليف وزارة وطنية ، وتقرير النظام الدستورى فى البـلاد على أساس مسئولية الوزراء الكاملة أمام مجلس النواب .

وزاد نواب البلاد وأحرارها على ذلك ، فرضعوا مشروع تسوية مالية يعارضون فيه مشروع ريفرس ولسون ، بحيث يجعل البلاد قادرة بضمانتهم وكفاءتهم على الوفاء شريف زعيم الحزب الوطنى .

وقد تحررت بهذه المطالب عريضة رفعت الى الخديوى ووقع عليهـا سـتون من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستون من العلماء والهيئات الـدينية وفى مقدمتهم شيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط .

اسماعيل باشا يستجيب لمطالب الأمة :

ولسنا نستطيع ان نعرف على وجه التحقيق هل انتابت اسماعيل باشا نوبة من يقظة الضمير فأراد أن يتطهر من أدران الماضى ويعلى سلطان الأمة فى وجه الأوربيين ، أم انه شأن أى حاكم مستبد رأى فى هذه الحـركة الوطنية الجـديدة ما يعيـد اليه سلطانه المفقود الذى حرمه منه الأجانب ، أيا كان الدافع فالحقيقة الثابتة ، انه أسرع الى الاستجابة الى هذه المطالب وتأييدها ، واستدعى وكلاء الدول الأجنبية الى سراى عابدين فى ٧ ابريل واعلنهم ان ابنه محمد توفيق رئيس الوزارة قد قدم استقالته ، وانه عهد الى محمد باشا شريف بتأليف وزارة وطنية جديدة على أساس مسئوليتها الكاملة أمام مجلس النواب وعمل دستور البلاد على حسب قواعد النظم الديمقراطية المعمول بها فى أوربا .

وقد احتج قناصل الدول ، واحتج الوزراء الأوربيون ، وسـعت لجنة التحقيق الأوروبية التى كانت لا تزال تزاول عملهـا لاحراج اسماعيل باشا والحكومة الجديدة

فأصدرت تقريرها الختامى الذى أعلنت فيه افلاس الحكومة المصرية وانه يجب معالجة ماليتها على هذا الأساس وانه لا سبيل لتنفيذ الاصلاحات المالية المطلوبة الا على يد وزارة أوربية ــ وشفعوا ذلك بتقديم استقالتهم للحكومة .

شريف باشا يؤلف وزارة وطنية :

وفى الثامن من ابريل تألفت وزارة محمد باشا شريف من أقطاب الحزب الوطنى الذين أسهموا فى الحركة الدستورية وهم اسماعيل باشا راغب (للمالية) شاهين باشا (للحربية) وزكى باشا (للأشغال) وذو الفقار باشا (للحقانية) ومحمد باشا ثابت (للمعارف العمومية والأوقاف) وعمر باشا لطفى لتفتيش عموم الأقاليم البحرية والقبلية ، واحتفظ شريف باشا لنفسه مع الرئاسة بوزارة الداخلية والخارجية ، وقد قابلت الأمة تأليف الوزارة الوطنية باقامة الزينات والاحتفالات وقد حضر اسماعيل باشا بعض هذه الحفلات لاظهار تضامنه مع الأمة فى فرحتها .

استمرار مجلس النواب واعلان الدستور الجديد :

وكان أول ما قامت به الوزارة الجديدة ، وهو الغاؤها قرار الخديوى السابق بانهاء أعمال مجلس النواب واستمرار المجلس فى عمله ، وهكذا توج كفاح المجلس فى أول ثورة دستورية بالانتصار . .

وفى ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ (٢٦ جمادى) تقدم شريف باشا الى المجلس باللائحة الأساسية الجديدة (الدستور) .

وبمقتضى هذا الدستور أصبح التشريع من حق مجلس النواب ، فلا يصدر قانون الا بموافقته ، ولا تفرض ضريبة على الشعب الا بموافقته .

دستور ١٨٧٩ :

وقد نشر عبد الرحمن الرافعى فى مؤلفه الكبير عن عهد اسماعيل نص دستور ١٨٧٩ باعتباره أول دستورى مصرى وضع فى مصر على أحداث النظم الدستورية ، وهو يتألف من ٤٩ مادة وقد خول فيه النواب حق السؤال والاستجواب ، وحق اسقاط الوزارة ان لم تحز على ثقته وأسبغ على النواب الحصانة البرلمانية ، وعدم مسئوليتهم عما يقولونه فى المجلس .

وتحدد أعضاء المجلس بمائة وعشرين نائبا يمثل بعضهم شعب السودان ، وكان معنى ذلك اعتبار مصر والسودان وطنا واحدا وشعبا واحدا يحكم نفسه من خلال نوابه وممثليه .

مرسوم ٢٢ ابريل :

مضت الوزارة الوطنية رغم مقاطعة القوى الأجنبية لها ، فى أداء دورها لاصلاح مالية البلاد فأصدرت فى ٢٢ ابريل مرسوما بتسوية الديون طبقا للمقترحات الوطنية وقد جاء فى ديباجة المرسوم لأول مرة ما يدل على الوثبة الدستورية التى حققتها البلاد :

« بنـاء على المحضر والتقارير التى عرضت علينا من الامة ، وما عرضـه مجلس النظار .. أصـدرنا أمرنا بالموافقة عليه وإجـراء تسوية ديون الحكومة على الوجه التالى :

ولم تخرج التسوية عما أصبح متفقا عليه من توحيد الديون وتحـديد فائدتهـا ومدة سدادها :

دول أوربا تعترض :

ولكن دول أوربا والدائنين الذين كانوا قد اعتادوا على استغلال مصر والذين كانوا يهيئون أنفسهم لفرض سلطانهم المباشر على مصر ، ما كانوا ليسمحوا لهذه اليقظة أو هذه النهضة أن تتطور بما يعوق سير مشروعاتهم ، ولذلك فقد لجأوا الى السلاح الذى طالما هددوا به وهو السعى عند الباب العالى لخلع الخديوى .

خلع اسماعيل :

وكان من سخرية القدر ، أن الدولة التى حركت الأحداث لخلع اسماعيل لم تكن هى انجلترا وفرنسا ، فقد وقفت الدولتان فى حالة تردد خشية أن يؤدى أى تعـديل فى مجريات الأمور فى مصر الى زيادة نفوذ الدول الأخرى .

وكان بسمارك رئيس هذه الدولة الجديدة ألمانيا الموحدة التى خرجت من مؤتمر برلين (١٨٧٨) احدى دول أوربا العظمى ، ولما كان بسمارك قد بدأ يتوق لاستخدام قوته الجديدة فى الشئون الدولية وأن يجعل لألمانيا صوتا مسموعا فى العالم كله ، فقد انتهز فرصة هذه الأحداث فى مصر لكى يرسل احتجاجا على اجراءات اسماعيل باشا عن عزله الوزارة الأوربية وتأليف وزارة وطنية ، واعقبته النمسا ، فقدمت احتجاجا مماثلا ولم يلبث بسمارك أن اتصل بانجلترا وفرنسا وانذرهما أنهما اذا لم يعملا شيئا لايقاف اسماعيل باشا وحكومة مصر عند حدها فسـوف تتصرف ألمانيا على مسئوليتها .

ورأت انجلترا وفرنسا نفسيهما مضطرتين للعمل السريع ، فنصحتا لاسماعيل باشا أن يستقيل ولكنه رفض الاستماع اليهما .

ومن الناحية الوطنية تحركت العناصر الوطنية مطالبة اسماعيل باشا للتنـازل لابنه توفيق الذى الذى كانوا يأنسون فيه تحررا وميلا للحكم الدستورى ، ورفض اسماعيل أن يسمع أى كلام عن التنازل .

ولجأ الانجليز والفرنسيون الى الباب العالى - وكانت هذه فرصة الباب العالى الذهبية فقد تصور أن عزل اسماعيل باشا وتولية توفيق خديوى جديد من شأنه أن يعيد الى تركيا سلطانها المباشر على مصر .

ولذلك فقد استجابت لطلب خلع الخديوى وأرسلت فى السادس والعشرين من شهر يونيو من هذه السنة (١٨٧٩) برقية الى اسماعيل باشا تعلنه فيه بخلعهوتولية ابنه محمد توفيق باشا .

واليك نص البرقية :

« ان الصـــعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيرا فى مصر قد بلغت من خطورة الشأن جدا يؤدى استمراره الى ايجـاد المشاكل والمخـاطر لمصر والسلطنة العثمانية ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به الفرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية فقد أصدر جلالة السلطان ارادته بناء على قرار مجلس الوزراء باسناد منصب الخديوية فى مصر الى صاحب السمو توفيق باشا ، وأرسلت الادارة السنية تلغراف آخر الى سموه بتنصيبه خديويا لمصر وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة الى التخلى عن حكم مصر احتراما للفرمان السلطانى » .

اسماعيل يرحل عن مصر :

وفى يوم الاثنين ٣٠ يونيو غادر اسماعيل باشـا أرض مصر على ظهر البـاخرة المحروسة (١) . وتحوى كتب التاريخ الكثير من التفصيلات عن هذه الايام الأخيرة لحكم اسماعيل ، والأموال والمجوهرات التى أصطحبها معه عند سفره ، وكيفية وداعه لابنه ووصاياه له .

وثمة حقيقة مؤكدة وهى أن اسماعيل لم يغادر مصر الا وقد ترك حكومة وطنية ومجلس نواب ودستور يؤكد سـيادة الأمة ، وحزب وطنى وصحف حرة وزعماء ومصلحين ، مما يمكن اعتبـاره بحق العناصر التى فجرت الثورة العـرابية بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ .

وليس من المستطاع انهاء حساب حكم اسماعيل باشا الا بعد تسجيل هـذه المقارنة التى تضمنتها كتب التاريخ كلها عما كانت عليه حالة مصر قبل عهد اسماعيل وعما كانت عليه عند خروجه منها .

فى آخر عهد سـعيد	فى آخر عهد اسماعيل
السكان ٤٫٨٣٣٫٠٠٠ نسمة	٥٫٥١٨٫٠٠٠
الدين العمومى ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ (٢) جنيها	٩٨٫٥٤٠٫٠٠٠
أيرادات الدولة ٤٫٩٣٧٫٠٠٠	٨٫٥٩٢٫٠٠٠
الواردات التجارية ١٫٩٩١٫٠٠٠	٥٫٤١٠٫٠٠٠
الصادرات التجارية ٤٫٤٥٤٫٠٠٠	١٣٫٨١٠٫٠٠٠
عدد المدارس ١٨٥	٤٫٨١٧
أميال الترع ٤٤٫٠٠٠	٥٢٫٤٠٠
أميال السكة الحديدية ٢٧٥	١٫١٨٥
أميال التلغراف ٦٣٠	٥٫٨٢٠
الأفدنة المزروعة ٤٫٠٥٢٫٠٠٠	٥٫٤٣٥٫٠٠٠

(١) كانت المحروسة التى غادر مصر على ظهرها الملك فاروق آخر ملوك أسرة محمد على فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

(٢) يلاحظ ما قلناه سابقا من أن هذا الرقم غير الديون السائرة التى ترتفع بالمبلغ الى ١١ مليـــون جنيـــه .

وان الانسان ليستوقفه من هذه البيانات كيف أمكن اسماعيل باشا وسط هذا الجـو المضطرب أن يزيد رقعـة الأرض الزراعية أكثر من مليون فدان فى ست عشرة سنة ، حيث لم يستطع الانجليز طوال سبعين سنة من حكمهم بعد ذلك أن يزيدوا شيئا بكل مشروعاتهم فى رقعة الأرض الزراعية .

كما يستوقف الانســان ازدهار التعليم بكل أنواعه ، حتى ليبلغ عدد المدارس خمسا وعشرين ضعفا .

لا عطف :

وقد كنا نحب أن نقول كلمة عطف أو انصـاف للخديوى اسماعيل كما فعلنا مع سعيد باشا ، كنا نحب أن نقف أمام مشروعاته لزيادة أراضى مصر الزراعية كل هذه الزيادة وانشائه المصانع وقفة اكبار ، ولكنه يحول بيننا وبين ذلك ، ان اسماعيل كجده محمد على باشا من قبل قد فعل ذلك باعتباره يعمل فى مزرعته الشخصية ولم ينظر الى الشعب المصرى الا باعتباره قطيعا لخدمة أغراضه . فام يضرب الفلاح بالكرباج لابتزاز الأموال منه كما حدث أيام اسماعيل ولم يسخر الفلاح فى أسوأ الظروف كما حدث فى عهد اسماعيل وخاصة فى أخريات عهده وعندما كان اسماعيل يغادر البلاد لم تكن وصيته لابنه توفيق « اذا صح ما نقل لنا عنها » وصية حاكم لحاكم يخلفه فى الحكم فيطلب منه البر بالشعب والأمة .. بل كانت وصية رجل يترك ضيعة لابنـه ويطلب منه البر باخوته وأفراد أسرته حيث قال :

لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر فأوصيك باخوانك وسائر الآل برا ، واعلم انى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك على انى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك وكن أسعد من أبيك .

وحتى لو فرضـنا أن هـذه الوصية ليست صحيحة بهذا الوجه يبقى اسراف اسماعيل على شهواته وملذاته وقصوره وحفلاته وبيعه لهم قناة السويس واغراقه مصر فى الديون ليلقى ظلا كثيبا على انجازاته الأخرى .

الا اننا لا نستطيع أن نقول كلمة عطف على اسماعيل كتلك التى قلناها عن سعيد باشا ، الذى أحب مصر وأحب الشعب المصرى وبذل كل جهـده لاسـعاد الفلاح المصرى والارتقاء به .

الفصل العشرون

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى

عصر توفيق باشا

١٨٧٩ م – ١٢٩٦ هـ – توفيق يتولى أريكة مصر :

فى السادس والعشرين من شهر يونيو (٦ رجب) تقلد محمد توفيق باشا نجل اسماعيل منصب الخديوية وكان عمره يوم توليته ثمانى وعشرين سنة هجرية الا بضعة أيام . وأقيم حفل تنصيبه فى مساء هذا اليوم بالقلعة .

وقد ولد محمد توفيق أكبر أنجال اسماعيل فى سنة ١٨٥٢ وتعلم بمصر ولم يرسله والده الى الخارج لاكمال تعليمه وأبقاه بجواره ليتمرس بالأعمال ، فنشأ محدود الأفق ، ضيق الاطلاع خجولا يتهيب الأجانب بعد أن رآهم يعزلون أبيه ، وقد رأينا كيف تقلد منصب رئاسة الوزارة بعد عزل نوبار .

وقد رحب المصلحون جميعا بارتقاء توفيق منصبه واعتبروه دليلا على حسن الطالع وتطلعوا جميعا الى عصره الجديد بثقة واطمئنان باعتبارهم قد قطعوا خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم .

فقد كان على صلة بجمال الدين الأفغانى ، الذى اتصل بقناصل الدول واقترح عليهم عزل أبيه وتوليته .

ويحدثنا أحمد شفيق باشا فى مذكراته « فى نصف قرن » كيف انه تعلم فى مدرسة المبتديان هو وعشرون آخرون مع ابن محمد توفيق عندما كان وليا للعهد ، وكان يدعوهم كل أسبوع على مائدته ويسألهم عن أحوالهم الدراسية .

شريف باشا يؤلف الوزارة :

فى الثانى من شهر يوليو كلف توفيق باشا ، شريف باشا الذى كان قد قدم استقالته جريا على القاعدة المتبعة ، أن يعيد تشكيل وزارته ويصور خطاب التكليف بالوزارة ، سوء الحالة التى كانت عليها مصر فى هذا العهد ، والآمال التى تعلقت بالمستقبل وهذا نصه :

يا وزيرى العزيز

لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقة الحال علما .

ولما قضت العناية الأزلية بتوليتى أمر بلادى ، جعلت على واجبات ليس من همى الا النهوض بها بأمانة وشهامة ، على علمى بمقدار صعوبتها وجسامة المطالب المتراكمة على مع الارتباك والفترة المالية التى انزعجت منها الخواطر ، اذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل ، على انى عظيم الميل الى بلادى شديد

الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى اظهرت السرور بولايتى ، وفى أخراجها من هذه الحالة السيئة . ومع هذه العواطف بأنى عازم عزما أكيدا على بذل الجهد وصرف الهمة فى التماس أحسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانونى فى نفقات الحكومة ورعاية الأمانة والاستقامة فى الخدم العمومية واصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الادارية ، تلك هى الوسائل الأولى التى يهمنى اتخاذها لتقوى بها المملكة على استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وانجاز وعودها ووفاء عهودها ، الا أن ادراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها . ووجود الغيرة الوطنية فى قلوب مأمورى الحكومة وصدق العزيمة فى الذين يساعدوننى على ادارة الأعمال مسئولين عما يفعلون ، ويقينى أن لا أفقد هذه المساعدات ، ولا أعدم من الله الكريم عددا ، وانك ستنهض بما كلفتك به على الوجه الموافق لنيتى والغاية التى أسعى اليها ، فأقبل يا وزيرى العزيز تأييد مودتى الصادقة .

محمد توفيق

تاليف الوزارة :

وفى الثالث من شهر يوليو (١٣ رجب) تألفت الوزارة على الوجه التالى :

شريف باشا للرياسة والداخلية والخارجية .

اسماعيل أيوب للمالية .

على غالب باشا للحربية .

محمود سامى باشا البارودى للمعارف والأوقاف .

مصطفى فهمى باشا للأشغال .

مراد باشا حلمى للحقانية .

توفيق باشا والدستور :

ويبدو أن شريف باشا أقنع الخديو توفيق باشا ، أن الدستور ومساهمة نواب الأمة فى الاشراف على سير الأمور ، هو السبيل الوحيد لاخراج البلاد مما كانت فيه من مآزق . فقد جاء فى خطاب توفيق باشا الى شريف باشا وهو يعتمد تأليف الوزارة ما يلى :

ولعلمى أن الحكومة الخديوية يجب أن تكون شورية ونظارها مسئولين فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أتحول عنه فعلينا تأييد شورى النواب ، وتوسيع قوانينها ، لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين ، وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور المتعلقة بها .

ولكن أحمد شفيق باشا الذى كان موظفا فى المعية فى ذلك الوقت ، يقول لنا أن توفيق باشا ، لم يكن مخلصا للفكرة الدستورية فقد كان يؤمن بالحكم الفردى .

انقاص المخصصات الخديوية :

وكان أول عمل قامت به الحكومة الجديدة بالاتفــاق مع الخديوى ، هو تحديد المخصصات المالية للخديوى ، فبعد أن كان اسماعيل باشا يفترف من الميزانية ما يشاء حيث يشاء دون رقيب أو حسيب ــ تحددت مخصصات الخديوى بمائة ألف جنيه ، وباقى أفراد الأسرة الحاكمة بما فى ذلك مخصصات اسماعيل باشا الخديوى المخلوع بمائتى ألف جنيه .

فرمان ٧ أغسطس بتولية محمد توفيق :

كان تعيين محمد توفيق باشا ببرقية على ما سبق ذكره ، ولكن وصول الفرمان الرسمى الخاص بهذه التولية تأخر عن الصدور ، وذلك لرغبة السلطان أن ينتهز هذه الفرصة لكى يلغى فرمان ٨ يونيو سنة ١٨٧٣ وهو الفرمان الجامع الذى حقق لمصر استقلالها الذاتى ، ولكن انجلترا وفرنسا تدخلتا فى الأمر ، وهددتا باعلان استقلال مصر ، ورضخ السلطان للتهديد وصدر الفرمان السلطانى خاتمة المطاف فى ٧ أغسطس من هذه السنة (١٩ شعبان) وقد احتوى على بعض تعديلات وافقت عليها انجلترا وفرنسا لأنهما وجــدتها لا تؤثر على مصالحهما ، وأطماعهما بالنسبة لمصر . وتقضى هذه التعديلات :

١ ــ بوجوب ابلاغ نص المعاهدات التى تبرمها مصر مع الدول الأجنبية الى البــاب العالى قبل نشرها .

٢ ــ تحديد الجيش المصرى فى أيام السلم بثمانية عشر ألف جندى .

٣ ــ قيد حق الخديو فى الاستدانة ، فأصبح من المحظور عليه عقد القروض الا اذا كان الغرض منها تسوية الحالة المالية الحاضرة ، وبعد الحصول على موافقــة الدائنين .

على أن الفرمان الجديد اكد قاعدة انتقال سند خديوية مصر وملحقاتها وقائمقامتى سواكن ومصوع الى أكبر أولاد اسماعيل ومن بعده الى أكبر ابنائه ، كما تضمن النص على عدم جواز التنازل عن الامتيازات التى أعطيت لمصر ، ولا التنازل عن أى جزء من الأراضى المصرية ، أو تركها للغير وهــذا النص الأخير يدل على أن تركيــا بدأت تدرك أطماع انجلترا وفرنسا فى مصر والسودان ، وتحتاط لذلك بالحيلولة دون الخديوى ودون التنازل لأى منهما عن جزء من الدولة المصرية وأراضيها فى افريقيا .

وقد قرىء الفرمان رسميا بالقلعة فى ١٤ أغسطس .

استقالة وزارة شريف باشا :

لم يكد الخديو يطمئن الى تقلده منصبه بصدور الفرمان الرسمى حتى قلب ظهر المجن لحكومته ، فلم تكد تفاتحه بضرورة اصدار الدستور وتشكيل مجلس النواب حتى أعلن خلافه مع الحكومة مدعيا أن قنصلى انجلترا وفرنسا لم يوافقا على اصدار الدستور فلم يسع شريف باشا الا أن يقدم استقالته فى ١٨ أغسطس .

وقد تعاهد شريف باشا مع وزارته أن لا يقبلوا الاشتراك فى الوزارة الا اذا صدر الدستور . ولكن محمود سامى البارودى خرج على هذا العهد واشترك فى الوزارة . ويندد عبد الرحمن الرافعى بهذا المسلك من ناحية البارودى — ولكن الدكتور على محمد الحديدى فى كتـابه عن محمود سامى يدافع عنه ، فانه قد قبل الاشتراك فى الوزارة الجديدة ليكون ممثلا لهذه القوة الجديدة التى نشأت فى البلاد ونعنى بها قوة الوطنية المصرية كما أصبحت تتمثل فى قادة الجيش وعلى رأسهم عرابى ، وكان قد بدأ اتصاله بهذه القوة عندما كان محافظا للقاهرة .

الخديو يرأس الوزارة الجديدة :

انتهز الخديو فرصة استقالة شريف باشا لكى يلغى رياسـة مجلس الوزراء ، والنظام الذى كان قد تقرر فى مرسوم ٢٨ أغسطس سـنة ١٨٧٨ وأن يعود لتولى السلطة بنفسه ، فنشرت الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ٢٤ أغسطس من هـذه السنة ١٨٧٩ البيان التالى :

« بناء على استعفاء حضر دولتلو شريف باشا رئيس مجلس النظار ، ألغيت هذه الرئاسة وحددت الارادة السنية فى ٣٠ شعبان ١٢٩٦ (١٨ أغسطس) بأن كل ناظر يكون مسئولا عن جميع الأمور المختصة بنظارته ، ومن الآن فصاعدا ستجرى رؤية جميع المعضلات بمجلس عال ينعقد تحت رئاسة جناب الخديو » .

وقد عين محمود سامى باشا البارودى وزيرا للأشغال ، ومصطفى باشا فهمى وزيرا للخارجية وكانا عضوين فى وزارة شريف باشا المستقيلة كما قدمنا وأبقى منصب وزير الداخلية شاغرا ليقلده مصطفى رياض باشا الذى كان غائبا فى أوربا خوفا على نفسه من انتقام اسماعيل باشا منه كما فعل مع اسماعيل المفتش . وقد أبرق له الخديو طالبا منه العودة الى مصر .

نفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر :

وبدأ الخديو حكمه المطلق الجديد ، فأمر بنفى جمال الدين الأفغانى تحت تحريض رجال الحاشية وقنصلى فرنسا وانجلترا اللذين كان يخافان من جمال الدين الأفغانى على نفوذهما .

ونفذ أمر الابعاد عن مصر بطريقة غير كريمة ، حيث حمل الى السويس بغتـة ووضع على ظهر سفينة حملته الى بومباى . ثم نشرت الحكومة بيانا مطولا وصفت فيه جمال الدين أنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعين على فساد الدين والدنيا وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية .

وقد أحس جمال الدين الأفغانى بالمرارة اذ تم هذا الابعاد بموافقة محمود سامى البارودى الذى كان من أقرب تلاميذه وأحبهم الى نفسه .

اعادة الرقابة الثنائية :

فى الرابع من سبتمبر صدر مرسوم باعادة نظام الرقابة الثنائية كما تقررت فى مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ وتعيين السيد افلن بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) مفتشا على الايرادات ، والمسيو دى بلينير رقيبا على الحسابات والدين العمومى . وقد تم هذا التعيين بترشيح الدولتين الانجليزية والفرنسية .

وزارة رياض باشا :

وفى الحادى والعشرين من سبتمبر صدر مرسوم باعادة تشكيل مجلس الوزراء الى نظامه السابق وتكليف مصطفى رياض باشا بتشكيل وزارة جديدة تحت رئاسته . ولا جدال أن ذلك قد تم بناء على طلب انجلترا وفرنسا ، كما يصرح بذلك بلنت فى كتابه « الاحتلال السرى » وقد تشكلت على الوجه التالى :

مصطفى رياض باشا للرئاسة والداخلية .
عثمان رفقى باشا للجهادية والبحرية .
مصطفى فهمى باشا للخارجية .
على باشا مبارك للاشغال .
حسين باشا فخرى للحقانية .
على باشا ابراهيم للمعارف .

تعطيل الصحف وانذارها :

لم يتلق رياض باشا علما منظما ، ولكنه تقلد فى شتى الوظائف الحكومية مما جعله خبيرا فى الادارة ، وكان صارما نزاعا للحكم المطلق يرفض النظام النيابى ، فى الوقت الذى يذعن فيه للتدخل الأجنبى .

وقد استهل رياض باشا عهده الجديد بالغاء جريدتى مصر والتجارة اللتين كانتا تمثلان المعارضة ، وكان صاحبهما أديب اسحق من خاصة تلاميذ الأفغانى ، فسافر الى فرنسا حيث راح يصدر جريدة تطعن فى حكومة رياض .

وانذرت جريدة مصر الفتاة لطعنها على الحكومة لتوسيعها اختصاص الرقيبين الماليين ثم عطلتها تعطيلا نهائيا . ومنعت جريدة النحلة ، وأبو نضارة ثم أبو صفارة والقاهرة والشرق من دخول القطر المصرى وانذرت جريدة الاسكندرية ثم عطلتها شهرا وعطلت جريدة المحروسة لصاحبها الياس نقاش لمدة خمسة عشرة يوما وعطلت جريدة الريفورم الأوربية تعطيلا نهائيا .

ولعل هذا يكشف عن الدور الذى بدأت تلعبه الصحافة فى حياة مصر وانها بدأت تتولى قيادة الرأى العام .

تاسيس الحزب الوطنى :

فى الرابع من نوفمبر نشر فى مصر ما يمكن اعتباره أول بيـان سـياسى للحزب الوطنى الذى يعتبر جمال الدين الأفغانى هو مؤسسة الحقيقى . وقد انتعش فى هذه الفترة ، لمعارضة حكومة رياض باشا .

ويقول عرابى باشا فى مذكراته عن هذا الحزب أنه : تألف من لفيف من العظماء والكبراء والعلماء والنبهاء ، ويرجع تأليفه الى التذمر من تغلغل النفوذ الأوربى فى الحكومة ، فألف هؤلاء الكبراء حزبا أسموه الحزب الوطنى ، وجعلوا مركزه فى مدينة حلوان ونشروا عـدة منشورات فى الصحف الفرنسية نصحوا فيها الحكومة بمراعاة مصالح البلاد وكان من بين زعماء هذا الحزب شريف باشا واسماعيل باشا راغب ، وعمر باشا لطفى وسلطان باشا وعرابى باشا ومحمود سامى البارودى باشا ويعتبر هذا الحزب صاحب الأثر الأكبر فى ظهور الثورة العرابية .

١٨٨٠ م ــ ١٢٧٩ هـ الغاء دين المقابلة :

بدأ مصطفى رياض مشروعاته لاصـــلاح مالية البلاد بالاستجابة الى اقتراح المراقبين الأجانب وهو الغاء دين المقابلة ، والذى كان يبلغ خمســة عشر مليونا من الجنيهات ابتزها اسماعيل المفتش من الملاك فى مقابل الوعد بانقاص ضريبة الأطيان الى النصف ، وقد أريد بهذا الالغاء مضاعفة ما يجبى من ضرائب الأطيان لمصلحة الدائنين الأجانب .

بيع حصة مصر فى أرباح القناة :

فى ١٤ يناير أقدمت حكومة مصطفى رياض على اجراء خطير اذ قررت بيع حصة مصر من أرباح القناة التى كانت تخولها ١٥٪ من هذه الأرباح وذلك فى مقابل مبلغ بخس جدا لا يزيد عن سبعمائة الف جنيه . وكان كل ما قيل فى تبرير هذه الصفقة الخاسرة ، ان مصر كانت مضطرة اليها اضطرارا فقد كانت الحصة مرهونة لنقابة من المـاليين بباريس ، ولم يكن بوسع الحكومة تسديد الدين المستحق عليها وقد بلغ ما أصبحت تدره هذه الحصة من الأرباح فى العام الواحد ٨٦٩ر٠٠٠ جنيها أى أكبر من الثمن الذى دفع فى الحصة . وقد تضاعف هذا القدر بعد ذلك .

الغاء بعض الضرائب والسخرة والضرب بالكرباج :

فى ١٧ يناير صـدر مرسوم بالغـاء ثلاثين ضريبة من الضرائب التى كانت تزعج الأهالى فى الوقت الذى لا تدر فيه على الدولة ايرادا كبيرا . وكان من أهمها الضريبة التى كانت مقررة على الملح . كما أبطل استعمال الضرب بالكرباج لتحصيل الضرائب . ووزعت الأموال الأميرية على أقساط معينة تؤدى فى مواعيد محددة كما تقرر توزيع مياه الرى توزيعا عادلا بين الأهالى .

كما صدر قرار بالغاء نظام السخرة الذى كان سائدا فى ذلك العهد ، وهو تسخير الأهالى بغير أجر للقيام بالمشروعات العـامة وتسخيرهم فوق ذلك فى خدمة مصالح الخديوى وحاشيته ومصالح الأمراء والكبراء وكبار الموظفين .

ميزانية سنة ١٨٨٠ :

فى ٢٠ يناير صدر المرسوم القاضى بتقرير الميزانية حيث قدرت الايرادات بمبلغ ٨٫٥٦١٫٦٢٢ جنيها والمصروفات ٣٫٦٤١٫٥٤٤ جنيها يضم اليها مبلغ ٦٨١٫٤٨٦ جنيها قيمـة الجزية المقـررة لحكومة تركيا ــ وخصصت باقى الايرادات وقدرها ٤٫٢٣٨٫٥٩٢ جنيها لسداد فوائد الديون . وقد تحقق ذلك لأول مرة .

صدور جريدة المحروسة :

وصدرت فى هذا الشهر (يناير) لأول مرة جريدة المحروسة لصاحبها سليم نقاش وكانت تصدر خمس مرات فى الأسبوع بحجم الصحف فى وقتنا الحاضر من أربع صفحات .

امتلاك قصور اسماعيل باشا :

فى ١٦ يونيو أصدر الخديوى أمرا باعتبار القصور التى بناها اسماعيل باشا أو التى امتلكها هو أو أفراد العائلة الخديوية ملكا للحكومة المصرية والحقت بالأملاك الأميرية المعدة للمنفعة العامة .

الاصلاح القضائى :

فى ١٧ يونيو (٩ رجب) صدر ما يعتبر أول خطوة فى اصـلاح القضاء فى مصر اذ صدرت أول لائحة نظمت شئون القضاء الشرعى ، كما ألفت الوزارة لجنة لاصلاح نظام المجالس المحلية (المحاكم) .

صـدور قانون التصفية :

فى ١٧ يوليو صدر قانون التصفية ، وهو ثمرة ما انتهت اليه لجنة دولية تألفت فى ٣١ مارس من خمس دول أجنبية لبحث مالية مصر ، وتحضير قانون يحدد علاقات الحكومة والدائرة السنية مع الدائرة الخاصة بالدائنين والطريق الذى يتم بمقتضاه تصفية الديون السايرة وتحديد الايرادات التى يمكن تخصيصها لتسديد فوائد الديون . . الى آخره .

وقد انتهت اللجنة الى قرارات صيغت فى شكل قانون ، وكان أهم أحكام هذا القانون :

— تحديد نفقـات الحكومة السنوية بمبلغ ٤٫٨٩٧٫٨٨٨ ، وما يتبقى من ايرادات الدولة يخصص لسداد الدين العام .

— حددت الديون على مصر بمبلغ ٨٩٫٧٢٨٫٩٣٠ جنيهـا قسـمت الى نوعين من الديون . دين موحد جعلت فائدته ٤٪ وقسم أطلق عليه اسم الدين الممتـاز وفائدته ٥٪ .

— الغاء دين المقابلة و تعويض الذين دفعوه من الوطنيين بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه لكل سنة لمدة خمسين سنة .

— قـدرت الايرادات لسـنة ١٨٨٠ — ١٨٨١ بمبلغ ٨٫٣٦٢٫٠٠٠ جنيه خصص منها لمصروفات الحكومة ٤٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه بما فيها سـداد الجزية المستحقة لتركيا .

مزرعة لحساب الدائنين :

وقد حول هذا القانون مصر الى مرزعة تدار بانتظام لحساب الدائنين على أنه لم تخل من فوائد ، أولها أنه انقص الفائدة من ٧ ٪ الى ٤ ٪ أما الفائدة الثانية فهى أنه بلور الموقف نهائيا من الناحية المـالية ، فحـدد الديون والالتزامات وفوائدها وكيفية سدادها .

ولذلك فقد اعتبر صـدور هـذا القانون فى ذلك الوقت كمرحلة من مراحل الاستعمار والخروج من الفوضى المضنية التى كانت تفشى البلاد .

تعديل قانون القرعة العسكرية :

فى ٣١ من شهر يوليو (٢٣ شعبان) صدر مرسوم بتعديل قانون العسكرية فكان هذا التعديل هو الشرارة التى فجرت عوامل السخط فى نفوس ضباط الجيش من الوطنيين ، حيث قصر الترقى الى رتبة ضابط على خريجى المدارس الحربية ، ومنع ترقى الجنود الى رتبة الضابط . فوجد الضباط الوطنيون فى هذا التعديل محاولة أخـيرة للقضـاء على العنصر الوطنى فى الجيش وتغليب العنصر الشركسى ، وهى السياسة التعصبية التى جرى عليها عثمان رفقى باشا مذ ولى نظارة الجهادية . وقرر عرابى وأصحابه ، أن يدافعوا عن كيانهم ووجودهم ، فبدأوا ينظمون صفوفهم منشئين الحزب العسكرى الوطنى الذى جعل شعاره (مصر للمصريين) .

المهدى يبدأ دعوته فى السودان :

ومن عجيب المصادفات أنه فى نفس اللحظة التى بدأت بذرة الثورة العرابية فى مصر تشق سطح التربة ، كانت ثورة من لون آخر ولكنها تهدف لذات الهدف ، تشق طريقها نحو سطح الحوادث ، وتلك هى ثورة المهـدى . واذا كانت ثورة الشمال المضطرمة قد أخذت صورة مصر للمصريين كسبيل لاقالة عثرة المسلمين بها ، فان ثورة الجنوب اتجهت نحو الهدف مباشرة وهو بعث الاسلام وتمكين العزة للمسلمين من أبناء السودان .

ومحمد أحمد المشهور باسم المهدى ولد فى مدينة دنقلة بالسودان فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤ (٢٧ رجب ١٢٦٠) .

وقد حفظ فى صباه القرآن ومالت نفسه الى التفقه فى الدين ، ثم نزع الى التصوف والزهد ، ولكنه لم يلبث أن وجد التصوف أعظم التصوف هو فى اصلاح أحوال الناس ، وقد ساءه ما كان يسود السودان من حكم غاشم يمارس باسم مصر الاسلامية ، ووجد فى وجود بعض الأجانب « الكفار » الذين يتحكمون فى أحوال مصر، ما يؤكد تدهور أحوال المسلمين وما يهدد مصر والسودان بالضياع معا .

وكانت أولى حركات المهدى الذى كونت زعامته ، هو هجرته وأسرته من مسقط رأسه الى جزيرة أبا ، حيث أقام بها مسجدا وخلوة للتدريس بعد أن كان قد أخذ عهدا على الشيخ محمد شريف نور الدايم ، فأقبل عليه سكان الجزيرة يتتلمذون على يديه ، ويأخذون عليه العهد . وذاع صيته فى النواحى المجاورة ، وكثر أتباعه ومريدوه ، وأحس من نفسه أنه الرجل المكلف بتسديد شباب الاسلام الذى ينتظره المسلمون فأطلق على نفسه المهدى المرتقب . وفى هذا الشهر (يوليو سنة ١٨٨٠ شعبان ١٢٩٧) بدأ يسر هذه الدعوة لخاصته المقربين منه .

الشيخ محمد عبده فى جريدة الوقائع :

وفى التاسع من أكتوبر من هذه السنة صدرت الوقائع المصرية وهى الجريدة الرسمية فى صورة جديدة ، بعد أن عهد مصطفى رياض رئاسة تحريرها الى الشيخ محمد عبده ، وهكذا يدهشنا رياض باشا للمرة الثانية فقد كان هو الذى طلب من جمال الدين الأفغانى أن يستقر فى مصر ، وها هو ذا يضع تلميذ الأفغانى على رأس جريدة الحكومة الرسمية .

والمطالع لجريدة الوقائع فى هذه الحقبة وما تلاها الى نشوب الثورة العرابية تصادفه مقالات فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى ، بحيث أصبحت الناس تسعى للحصول على جريدة الوقائع ، لا أن تفرض عليهم فرضا مما يعتبر العهد الذهبى لجريدة الوقائع المصرية .

وكان محمد عبده قد نصب من نفسه مراقبا على دواوين الحكومة ، يصحح لغتها ، ويراجع أخطاءها ، وينتقد تصرفاتها المجافية للقانون أو العدل أو الاصلاح .
وقد ثار بعض الوزراء على هذه السلطة الجديدة واحتجوا لدى رئيس الوزراء على مسلك محمد عبده ، ولكن رياض باشا وقف الى جانب رجله فى الجريدة وقد استعان محمد عبده فى تحرير الجريدة ببعض مشايخ العصر ، وكان من أبرزهم الشيخ سعد زغلول الذى سيقدر له أن يصبح زعيما لثورة مصر الخالدة عام ١٩١٩ مما يؤكد أن العمل الصالح يظل ينمو ويتزايد . وكان من بين كتابها كذلك الشيخ عبد الكريم سلمان .

١٨٨١ م - ١٢٩٨ هـ واقعة قصر النيل :

فى أول فبراير من هذه السنة ، وقع الفصل الأول من فصول الثورة العرابية والذى اشتهر باسم واقعة قصر النيل .

وكان سببها المباشر هو اصدار عثمان باشا رفقى وزير الجهادية أمرا باحالة عبد العال بك حلمى اميرالاى اللواء السودانى الى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه منزلا بذلك درجته ، وكان عمـره له يتجاوز الأربعين سنة ، وعـين بدلا منه ضابطا شركسيا لا يصلح للمنصب ، اذ كان عمره قد تجاوز الخامسة والستين كما عزل احمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ، وأحل محله ضابطا شركسيا وهاج الضباط الوطنيون وقرروا أن يعبروا عن سخطهم وأغراضهم ويتقـدموا بمطالبهم . فبايعوا عرابى على أن يكون زعيما لهم يتكلم بلسانهم أقسموا له على السيف والمصحف أن يكونوا يدا واحدة خلفه .

فكتب عرابى عريضة بمطالب الضباط وقعها رؤساء الالايات الثلاثة وهم أحمـد عرابى (المصرى) وعبد العال حلمى (المصرى) وعلى فهمى (المصرى) (١) .

وقد ذكر عرابى باشا فى مذكراته أن هذه العريضة قد تضمنت المطالب التالية :

١ ـ عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبناء البلد .

٢ ـ تشكيل مجلس نواب من فقهاء الأمة تنفيذا لـما وعد به الخديو كتابة عقب ارتقائه سند الخديوية .

٣ ـ ابلاغ الجيش العامل ١٨ ألف جندى .

٤ ـ تعديل القوانين العسكرية لكى تكون محققة للعدل . والمساواة بين رجـال الجيش .

ويرى عبد الرحمن الرافعى ونحن نتابعه على رأيه ، أن جميع من كتب عن هذه الحوادث وبخاصة مستر بلنت الانجليزى وصديق عرابى ، محمد عبده ، الذى كان على رأس الجريدة الرسمية ووثيق الصلة برئيس الحكومة ، واحمد شفيق باشـا الذى كان يعمل فى سراى الخديو كل هؤلاء قد أجمعوا على أن هذه العريضة قـد اقتصرت على المطالب العسكرية التى تتلخص فى عـزل عثمان باشـا رفقى ، وازالة ما يشكو منه الضباط الوطنيون .

وقد حمل عرابى وصاحباه العريضة فى اليوم التالى (١٧ يناير) الى وزارة الداخلية ، واستدعاهم رياض باشا لمقابلته ، ويبدو أن رياض باشا كان يميل الى التحقيق فى هذه الشكاوى ، فقد وعد الضباط الثلاثة انه سينظر فى الأمر ، ولكنهم عندما حضروا لمقابلته مرة ثانية فاجأهم رياض باشا بالتقريع والزجر ولننقل الآن عن بلنت ما رواه فعلا عن عرابى باشا حيث قال لهم رياض باشا :

« ان عريضتكم مهلكة . فهى مسألة شنق . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة فماذا تضعون فى محلهـا . من الذين تطلبون أن يديروا الحكومة قال عرابى فأجبته

---

(١) ترى هذه الاضافة « المصرى » فى صورة تجمع بين الزعماء الثلاثة وقد كتب كل منهم اسمه بعـد اضافة هذا الوصف ، وهكذا ظهرت القومية المصرية بصوتها الحديثة .

قائلا : ولكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الا ثمانية أبناء ثم ابتليت بالعقم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسبعة الوزراء ، فغضب جـدا من ذلك ولكنه قال فى النهاية انه سينظر فى المسألة وهكذا تركناه .

ويبدو أن رياض باشا قد تردد فى هذا الموقف كما ان الخديو الذى كان ينقم على رياض استبداده ، وقف موقفا ذا وجهين ففى مجلس الوزراء يشير بضرورة القمع والردع ليخرج رياض باشا ، فى الوقت الذى يتصل فيه سرا بالضباط (على ما يقول شفيق باشا) ويفهمهم انه يعطف على مطالبهم .

كيفما كان الأمر فقد انتهى مجلس الوزراء فى جلسته المنعقدة يوم ٣١ يناير بتفويض وزير الحربية فى القبض على الضباط ومحاكمتهم ، وبدلا من أن يلجأ عثمان رفقى الى استخدام سلطة الدولة بصورة مشروعة تحايل على الضباط لاستدراجهم ، فأرسل اليهم مساء هذا اليوم ، بطاقات تدعوهم لحضور الى ديوان الوزارة بقصر النيل صباح اليوم التالى (أول فبراير) للمداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأمير جميلة هانم شقيقة الخديو .

فأحس عرابى وزميلاه بالمكيدة ، فاتفقوا مع اخوانهم على ما ينبغى عمله اذا هم قبض عليهم .

واعتقل الضباط الثلاثة كما كان متوقعـــا بمجرد وصولهم الى قصر النيل ، فاستنفر البكباشى محمد عبيد جنود الآلاى الأول الذى كان يرابط فى قشلاق عابدين مؤلفا الحرس الخديوى ، وسار على رأس الجند حتى وصل الى ديوان الجهــادية (فى قصر النيل) واقتحم الديوان ففر ما به من الضباط الشراكسة الذين اجتمعوا لمحاكمة عرابى وصاحبيه وكان عثمان رفقى نفسه على رأس الفارين ، وأطلق سراح الضباط الثلاثة فساروا على رأس مظاهرة عسكرية قاصدين ميدان عابدين ، ولم يكادوا يصلون اليه حتى كان لواء طره ، قد جاء بدوره تحت قيادة البكباشى خضر أفندى خضر ، ولم يتخلف عن الحضور الا لواء عرابى نفسه ، ووقف عرابى على رأس الجند خطيبا فقال :

اننا لا نطالب الا العدل والمساواة مع اخواننا الجراكسة والأتراك ، وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى . ونريد كذلك مجلسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا واخواتنا وأبنائنا من ظلم المستبدين الظالمين ، وأن تنقح القوانين العسكرية حتى تكون كافلة للمساواة فى الترقيات والمكافآت وزيادة المرتبات والماهيات التى مضى عليها ثمانون عاما ومرتب النفر العسكرى فيها لا يزيد عن ١/٤ ١٩ قرش ، وفيهم من له زوجة وأولاد ووالدة فيتضورون جوعا (١) .

ويمضى عرابى فى مذكراته قائلا : ثم كتبت الى وكيل دولة فرنسا السياسى البارون (دورنج) راجيا أن يخبر عنى جميع وكلاء الدول المتحابة ، وخصوصا قنصل جنرال

---

(١) هذا ما ذكره عرابى باشــا فى مذكراته ، ولكن عبد الرحمن الرافعى اكتفى بقوله ان عرابى اثنى على الضباط والجند واتحادهم لانقاذهم من السجن .

دولة انجلترا بأنه قد حصل خلاف بينناوبين حكومتنا ، واننا نؤمل منهم التوسط في اصلاح ذات البين .

انتصار الثورة :

ولم ينته اليوم الا وقد أجيب الضباط الى مطالبهم ، وخاصة بعد أن نصح قنصل فرنسا (دورنج) بذلك واظهر عطفه على الضباط . وهكذا عزل عثمان رفقى باشا وعين بدلا عنه محمود سامى البارودى صديق العسكريين وحليفهم ، وكان معنى ذلك أن الثورة الأولى حققت انتصارها كاملا ، فى المرحلة الأولى حيث كشفت عن قوتها ، وتحدت السلطة ، فانحنت السلطة لارادتها (١) .

محمود سامى البارودى باشا فى وزارة الحربية :

بذل محمود سامى البارودى باشا بمجرد تقلده وزارة الحربية جهدا صادقا للاستجابة لما طالب به العسكريين من امتيازات ، وكان على رأسها زيادة المرتبات ، وارجاع المفصولين من الجيش . ومن قانون لتنظيم حالات الترقى والتقاعد والمكافآت والأجازات وتسوية معاش الاستيداع .

قد أقيم احتفال رسمى ابتهاجا برفع رواتب الضباط والجند ، خطب فيه رياض باشا مهنئا الضباط وطالبا منهم التزام الطاعة لولى الأمر ، كما خطب محمود سامى البارودى ، وخطب عرابى .

ازدياد سلطة الحزب العسكرى :

كان هذا النجاح الذى أحرزه عرابى وصحبه ، باعثا على تقوية الحزب العسكرى فى الجيش ، فالتفت الأغلبية العظمى حول عرابى ، ولكن الأمر تعدى حدود الجيش الى صفوف الأمة خارج الجيش ، فقد رأى المصريون فلاحا مصريا قد وصل الى أكبر المراكز فى الجيش ، وأصبحت له القيادة والزعامة ، فأحسوا بالافتخار والزهو والتفوا حوله وأصبحوا يعلقون عليه الآمال فى رفع ما يعانون من مظالم .

المهدى يحصل على أول انتصاراته فى السودان :

فى الثانى من أغسطس أحرز المهدى أول انتصاراته العسكرية على الجيش المصرى فى السودان ، فقد كانت دعوته قد بدأت تستفيض وتستشرى ، فأرسل اليه محمد باشا رؤوف حاكم السودان يستدعيه الى الخرطوم ، فرفض الحضور ، فأرسل له حملة عسكرية من مائتى جندى وضع على رأسها ضابطان دب بينهما الخلاف منذ اللحظة الأولى . ولم يكد الجند ينزلون من الباخرة التى أقلتهم الى جزيرة آبا ، حتى انقض عليهم رجال المهدى الذين كان يتربصون بهم ، وفتكوا بالحملة

---

(١) ظهرت فاعلية جريدة المحروسة فى هذا الحادث ، فعلى الرغم من أنها تصدر فى اسكندرية فقد وافاها مندوبها فى القاهرة بالنبأ بمجرد حدوثه فنشر فى عدد أول فبراير ، ثم ذكرت الحادث مفصلا وتعيين محمود سامى البارودى فى عدد ٣ فبراير .

فتكا ذريعا . فأرسل رؤوف باشا الخبر الى مصر ، وطلب من الخديو ارسال المدد ، ولكن الخديو بعث اليه يستحثه على قمع الفتنة والقاء القبض على الداعى اليها .

عرابى يرفض ارسال جيش الى السودان :

قرر الخديو وحكومته ارسال الآلاى السودانى الى السودان لاخماد ثورة المهدى بعد أن استفحل أمرها ، ولكن عرابى وصحبه لم يروا فى هذا العمل الا محاولة لتمزيق صفوفهم ، واضعاف جبهة الجيش فرفضوا تنفيذ الأمر ، وكل أمر مماثل يرون فيه اضعافا لقوتهم .

وفى ذات الوقت راح عرابى وصاحباه يتعقبون كل من لا يكون ضالعا معهم من الضباط بالاحالة على الاستيداع أو العزل . وكانوا يحرضون الضباط فى كل وحدة عسكرية للمطالبة بعزل من يريدون عزله ، فكانت الحكومة تستجيب لطلباتهم وبذلك اصبحت سيطرتهم على الجيش كاملة .

عزل محمود سامى البارودى من وزارة الحربية :

فى الثانى والعشرين من أغسطس ، قدم محمود سامى البارودى استقالته من وزارة الحربية وتعين بدلا منه داود باشا يكن صهر الخديو وكان السبب فى استقالة محمود باشا سامى البارودى ، وقوع الخلاف بينه وبين الخديو الذى اعتبره مسئولا عن فقدان الضبط والربط فى الجيش واجترائهم عليه باعتباره أمير البلاد .

وبدأت الأزمة عندما اعتبر الخديو تصرف بعض الجنـد الذين اقتحموا سراى رأس التين فى مظاهرة عسكرية وهم يحملون جثة زميل لهم قتله بعض الأجانب ، عملا غير لائق وهو أقرب الى التمرد فأصدر أمره بمحاكمة الجند وصدرت عليهم أحكام بالغة القسوة فاحتج عليها عبد العال بك حلمى وكتب تقريرا الى وزير الحربية وذكر بعض الحوادث التى تجرى فى آلايه ، والدسائس التى لا تنقطع ، وعقـد مقارنة بين هذا الحكم وبين بعض الأحكام التى صدرت على ضباط اتهموا بالشغب والخروج عن طاعة زعماء الجيش ، فحول محمود باشا سامى هذه العريضة أو هـذا التظلم الى الخديو توفيق ، الذى رأى فى ذلك قمة الامتهان والتحدى لسلطانه وكرامته فأصر على ضرورة استقالة البارودى .. فقدم استقالته . وكان قد اتفق مع العسكريين على أن استقالته تعنى أن الحزب العسكرى سيكون فى خطر ، وقد ضاعف فى ابراز هذا الخطر تعيين صهر الخديو ناظرا لحربية ، والذى بدأ نشـاطه بالتضييق على الضـباط والتجسس عليهم واصدار الأوامر لهم بعدم الاجتماع أو التحدث فى السياسة .

فقرر العسكريون أن يضربوا ضربتهم قبل أن يضربوا .

واقعة ميدان عابدين ــ ٩ سبتمبر ١٨٨١ :

كان عرابى قد أصبح فى هذه الفترة زعيم البلاد ، ورأى الشعب فيه تحسين آماله فى رفع الظلم الذى يئن تحته منذ قرون وأجيال ، ولكى يوقف غارة الأجانب على مصر .

ووقف الى جواره كثير من الكبار والأعيان ليخلصهم من استبداد رياض واسقاط حكومته .

بل ان الخديو نفسه راح يتصل سرا بعرابى ويشجعه للتخلص من وزارة رياض باشا ، يؤكد ذلك ويقطع به ، ان قائد الالاى الأول الذى اتخذه الخديو رئيسا لحراسه وكان محل ثقته وهو على بك فهمى كان أحد زعماء هذه الحركة ، وقد كان انضمامه الى العسكريين يوم عابدين هو العنصر الذى حسم القضية .

وكان عرابى قد أرسل الى أنحاء البلاد منشورا يطلب من أعيان البلاد وكبرائها تأييده للمطالبه بالدستور ، فانهالت عليه عرائض الثقة والتأييد من كل جانب ، مفوضة اليه العمل لاسعاد البلاد وخلاصها من براثن الاستبداد ، ومعلنة تضامنها معه فى كل اجراء يقوم به لاصلاح البلاد .

ولما تسلح عرابى بكل هذه القوى ، حدد يوم الجمعة ٩ سبتمبر الساعة الرابعة ظهرا للقيام بمظاهرة عسكرية فى ميدان عابدين ، يتقدم على أثرها بمطالب الأمة الى الخديو . وكان احمد عرابى قد سجل هذه المطالب فى خطاب رسمى بعث به الى وزير الحربية وحدد له اليوم والساعة التى سيحشد فيها الجيش فى ميدان عابدين لتقديم هذه المطالب للخديو .

كما أرسل لقناصل الدول الأجنبية يطمئنهم على استتباب الامن والنظام فى هذا اليوم ، وأن هذه المظاهرة العسكرية يراد بها تسوية أمور مصر الداخلية . وقد فشل الخديو توفيق فى احباط مشروع المظاهرة ، بالرغم من انه راح يطوف بنفسه على مختلف الوحدات .

وفى الساعة المحددة من قبل تجمعت وحدات الجيش . وكان على بك فهمى قائد الحرس قد تظاهر بتنفيذ أوامر الخديو الصادرة له ، فوزع الحرس داخل السراى للدفاع عنها ، ولكن لم تكد الفرق الأخرى تظهر فى الميدان ، حتى جمع على بك فهمى لواء الحرس من داخل السراى ، ووقف به الى جانب اخوانهم فى المكان المحدد لهم .

وبلغ عدد المحتشدين من الجنود فى الميدان أربعة آلاف جندى وضابط بأسلحتهم ومدافعهم . وكان الميدان الكبير يغص بالجموع الحاشدة من الأهالى الذين جاءوا يشهدون هذه المظاهرة الرهيبة .

وحينما كانت هذه الحركات تحدث فى الميدان ، كان الفزع قد استبد بالخديو والوزراء الذين أحاطوا به . ولم يلبث قناصل الدول الأجنبية أن توافدوا الى القصر ، ونظرا لغياب المستر ادوارد ماليت قنصل انجلترا فى أجازته السنوية ، فقد حضر المستر كوكس قنصل انجلترا بالاسكندرية كما حضر كذلك السيد أوهكلن كالفن المراقب المالى ، والذى قام فى ذلك اليوم بدور المستشار الأول لتوفيق باشا ويصفه مالنت بأنه من غلاة المستعمرين وقد أشار على الخديو بأن ينزل الى ساحة عابدين لتحدث هيبته أثرها فى الجنود . ولندع أحمد عرابى يصف لنا ما حدث فى هذه المواجهة فهو أحق من ننقل عنه وقائع هذا اليوم ، خاصة وأن الجميع اتفقوا على روايتها بهذه الصورة مع اختلافات طفيفة قال :

نزل الخديو ومشى الى الميدان وحوليه المستر كوكس قنصل انجلترا فى الاسكندرية والجنرال سميث مراقب الدائرة السنية (١) ونفر من جاويشية المراسلة للخديوية حتى اذا ما توسط الساحة طلبنى فتوجهت اليه لأعرض مطالب الأمة وكنت راكبا جوادى وسيفى فى يدى ومن خلفى نحو ثلاثين ضابطا فلما دنوت منه صاح بى أن اترجل واغمد سيفك ، ففعلت ثم اقبلت عليه ، وفى هذه اللحظة اشار عليه المستر كوكس بأن يطلق غدارته على . فالتفت اليه وقال « أفلا ننظر الى من حولنا من العساكر » ثم صاح بمن خلفى من الضباط وأن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلوكاتكم فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والغضب ملأ جوارحهم . ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله :

ما هى أسباب حضورك بالجيش هنا ؟

جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة .

وما هى هذه الطلبات ؟

١ – اسقاط الوزارة المستبدة .

٢ – تأليف مجلس نواب على النسق الأوربى .

٣ – ابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية .

٤ – التصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

— ولكن كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا .

— لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم .

وكنت أرى الجنرال جولد سميث كلما سمع جملة من كلامى رجع القهقرى خطوات ثم يعود الى محله فى الدائرة المحاطة بالضباط والجاويشية . فأشار المستر كوكس على الخديو بالرجوع الى السراى زاعما انه يخشى عليه سوءا اذا زادت المخاطبة عن هذا الحد .

وبعد رجوع لخديو الى داخل السراى ، عاد المستر كوكس ومعه المستر كلفن المراقب المالى وخاطبنى بالنيابة عن الخديو كرسول من طرفه قال :

— ان طلب اسقاط الوزارة وطلب تأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش . ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك .

— اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها الا لأنهم اقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانى وأولادهم . فهم القوة التى سينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين انابونى عنهم فى طلب حقوقهم .

---

(١) لا بد أنه يقصد السيد أوكلن كالفن ولم يعرفه .

وأعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

ـــ علمت من كلامك انك ترغب فى تنفيذ اقتراحك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها .

ـــ كيف ذلك ومن الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا .

ـــ وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟

ـــ عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر ، يدافعون عن بلادهم يسمعون قولى ويلبون اشارتى .

ـــ وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب .

ـــ أقول كلمة أخرى .

ـــ وما هى ؟

ـــ لا أقولها الا عند اليأس والقنوط .

سقوط وزارة رياض :

واشير على الخديو أن يستجيب لهذه المطالب فلم تكن هناك حيلة غير ذلك لكسب الوقت وتفادى المناورة بخلع الخديو . وعلى ذلك فقد طلب من مصطفى رياض باشا أن يقدم استقالته واستدعى شريف باشا لتأليف الوزارة الجديد بنـاء على اقتراح عرابى باشا .

وزارة شريف باشا الثالثة :

فى ١٤ سبتمبر تألفت وزارة شريف باشا الثالثة ، ولم يؤلفها شريف باشا الا بعد أن تعهد له الأعيان وكبراء البلد نيابة عن قادة الجيش بأنهـم سيلتزمون الطـاعة ، ويلتزمون بالضبط والربط العسكرى ، وتشكلت الوزارة على الوجه التالى :

شريف باشا ـ للرياسة والداخلية .

محمود سامى البارودى باشا ـ للحربية والبحرية .

على حيدر باشا ـ للمالية .

اسماعيل باشا أيوب ـ للاشغال .

مصطفى فهمى باشا ـ للخارجية .

محمد زكى باشا ـ للمعارف والأوقاف .

محمد قدرى باشا ـ للحقانية .

الخديو يستنجد بالباب العالى :

لم يكن انصياع الخديو لمطالب الجيش الا لكسب الوقت كما قدمنا ولذلك فقد أبرق سرا الى الآستانة يستنجد بها يوم عابدين وهذا هو نص البرقية :

حيث أن عرابيا رأس الفساد قد استتبع أكثر العساكر المصرية فتابعوه بأى وجه كان — كما عرضت اليوم — حتى احاط وحاصر الآن بالعساكر قصر عابدين الذى أنا مقيم فيه واخذ يطالب بالحرية وتشكيل مجلس الحلة وتبديل هيئة النظار . فبالنظر الى أن اصلاح هؤلاء جاوز حد الامكان أرجو ارسال عشرين طابور من العساكر على جناح السرعة على أن يكونوا تحت قيادتى والأمر فى هذا الشأن لمن له الأمر(١) .

غير أنه بعد تأليف وزارة شريف باشا ، وانتهاء الأزمة ، عاد (بناء على نصح مستشاريه من الأجانب) فأبرق الى الباب العالى يحيطه علما بانتهاءالأزمة وتولى شريف باشا زمام الحكم ويرجو صرف النظر عن ارسال العساكر .

ثورة الشعب المصرى :

ومن حق هذه الحركة التاريخية أن يصور للأجيال الجو الذى ساد البلاد فى هذه الفترة ، ونحن ننقل هنا وصف رجلين لم يكن أحدهما من صفوف الشعب أو المتحمسين للثوار . أما أولهما فأحمد شفيق باشا الذى كان فى ذلك الوقت فى حاشية الخديو وينظر للأمور نظرة ولى الأمر . وأما الثانى فالمستر بلنت الانجليزى الذى بدأ فى هذه الفترة يتصل برجالات مصر وبخاصة عرابى من ناحية والشيخ محمد عبده من ناحية ثانية .

يقول احمد شفيق باشا فى كتابه الطريف « مذكراتى فى نصف قرن » .

« انقلبت مصر مسرحا للخطباء فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس لسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره الا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها وغيرهم . حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان اذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة ؟ أجاب فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم (خطيب الثورة) وكثيرا ما كان الخطيب يستصحب معه طلبة المدارس وبعد خطابته يقدم أحدهم الى الجمع ليخطب بجانبه فينبرى الطالب مثيرا فى الحاضرين الغيرة والحمية . وقد شاهدت عبد الله النديم مرة يقدم فتحى افندى زغلول (باشا) فيما بعد الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة .

وقدم فى مرة أخرى فى احدى الحفلات مصطفى افندى ماهر (باشا فيما بعد) فخطب فى القوم وراقتهم خطبته فقال عبد الله نديم : أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها .

وكان عرابى والبارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها فتلقى الخطب والقصائد فى مدحهم وتقديم مناقبهم .

ولا ينصرفون عنها الا بالتهليل والتكبير ، فاذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة . وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم . . وانحلت الطبقات ، واختلط الحابل بالنابل والعالى بالسافل .

---

(١) بعض وثائق تاريخية — انتقاها وأمر بطبعها وترجمتها الامير محمد على ابن توفيق عام ١٩٤٨

وقد كان عرابى يمثل فى شكل البطل المنقذ . وقد وزعت صورته فى أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسه عبد العال قابضا على سيفه والى جانبه على فهمى يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها « الدستور » .

وهكذا سرت الروح العرابية فى الأمة بأسرها ، وجعلت كل الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض . (انتهى كلام شفيق باشا) .

تصور مستر بلنت :

« كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت هذا الحادثة الشهيرة (حادث عابدين) من أسعد الأوقات التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرنى ما حظيت بمشاهدتها بعينى رأسى ، ولو أنى كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها . وعندى أنها لم تكن لها شبيه فى الأيام التى رأيتها فى مصر ، وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الأيام التى يمكن أن أراها فيها ، فجميع الأحزاب الوطنية ، وجميع سكان القاهرة ، اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وقد شاركهم الخديو فى ذلك على ما ظهر يومئذ للناس . وكان قد سر بعد انقضاء الأزمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة وقد وثق بأن شريف لابد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابى .

ثم أن شريفا وزملاءه من وجهاء الأتراك لم يكونوا أقل سرورا بعودة السيطرة اليهم ، بل أن الأتراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوربا . ونجا العسكريون من كابوس الخطر الذى طالما هددهم وارتاح المصلحون المؤمنون بالحريات التى اعتقدوا أنهم لابد حاصلون عليها . أما الذين شكوا وأساءوا الظن للنهاية فقد اعترفوا كذلك بأن النتائج قد بررت الالتجاء للقوة ، وما كان لها من نصر لم تسفك فيه نقطة دم . وتصاعدت من أنحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع بمثلها على جوانب النيل منذ مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضا فى شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ، ويبتهجون معا لعصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة ، كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل ، وكانت الصحافة قد أسرعت تنشر الأنباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة . واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما شاءوا فى الأقاليم .

وبلا وجل تدخل البوليس والجواسيس . وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات ، فالمسلمون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعا وشاطرهم السرور جماعة الأوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية . وقد اعترف القناصل الأجانب أنفسهم بأن العصر الجديد خير من العصر القديم ، وأن رياضا قد أخطأ ، وأن أعمال عرابى اذا لم تكن كلها سديدة ، فليست كلها خطأ .

أعمال وزارة شريف :

كسبت وزارة شريف ثقة معتمدى الدول واحترامهم من ناحية وراحت تعمل لاصلاح أحوال البلاد الداخلية من ناحية أخرى . وأطلق سراح المسجونين والمبتعدين الذين ثبت أن ظلما حاق بهم .

وكان من أهم ما بادر بعمله ، هو اصدار القوانين العسكرية الخمسة التى قصد بها تحسين احوال العسكريين ورفع شانهم وتقوية الجيش .

ارسال وفد عثمانى الى مصر للتحقيق :

فى الثالث من أكتوبر وردت برقية من الآستانة تفيد عزم السلطان على ارسال وفد الى مصر برئاسة على نظامى باشا للتحقيق فيما وقع بمصر من الحوادث وسبب تمرد الجيش على الخديو ، فهاجت الأفكار لوقع هذا النبأ ، سواء فى صفوف الأطراف المعنية فى مصر أو بالنسبة لدولتى انجلترا أو فرنسا فقد استنكرت الدولتان هـذا التصرف من ناحية تركيا اذ لم تستشرهما فيه ، فى الوقت الذى أصبحت الدولتان فيه تعتبران أصحاب مصلحة مباشرة فى شئون مصر . ولذلك فقد أوفدت انجلترا وفرنسا على سبيل التظاهر بارجتين حربيتين ، وأنذرا الباب العالى أن البارجتين لن ينسحبا الا بعد انسحاب الوفد العثمانى من مصر .

ومن ناحية اخرى فقد اشاروا على الخديو أن يتفق مع الوزارة للحيلولة دون مقابلة هذا الوفد لعرابى وزملائه من قادة الجيش ، وأن يقرر الخديو امام المبعوث العثمانى بأنه لا يوجد تمرد أو عصيان فى الجيش ، وان الجيش على طاعته ، وتأكيـدا لذلك فقد اتفق على أن يسافر الآلاى السودانى الى دمياط والآلاى الرابع الذى يرأسه أحمد عرابى الى رأس الوادى .

وقد استجاب عرابى لوساطة محمود سامى البارودى فى هذا الشأن ، وقـــرر الموافقة عليه مبدئيا ، شريطة صدور أمر الخديو بانتخاب النواب ، قبل السفر .

صدور الأمر باجراء انتخابات جديدة :

فى الرابع من أكتوبر (١١ ذى القعدة ١٢٩٨) رفع شريف باشا الى الخديو تقريرا باجابة مطالب الأمة لاقامة النظام الدستورى باجراء انتخابات لمجلس نواب جديد ، على أساس اللائحة القديمة لمجلس شورى النواب على أن تفرض الوزارة على المجلس المنتخب مشروع اللائحة الأساسية التى تحقق النهوض بمجلس النواب ، الى مستوى المجالس النيابية الصحيحة الكاملة السلطة ، وكان من رأى أحمد عرابى وجماعته أن يتم انتخاب المجلس الجديد ، طبقا للوائح والتنظيمات الجديدة ، ولكن الأمر انتهى الى تغليب وجهة نظر شريف باشا ، وتحدد يوم ٢٣ ديسمبر موعدا لافتتاح مجلس النواب .

سفر الآلاى السودانى وآلاى عرابى :

فى السادس من أكتوبر سافر عرابى على رأس فرقته الى رأس الوادى ، بعـد أن كان الآلاى السودانى قد سافر قبل ذلك تحت قيادة عبد العال حلمى . وقـد أحيط سفر الفرقتين باحتفالات شعبية فشقتا العاصمة يتقدمهما الموسيقات ، والجماهير على الطرقات تهلل وتصفق ، وتنثر على الجيش السائر الزهور والرياحين والحلوى . وفى محطة العاصمة وقبل سفر الجنود أقيمت احتفالات حاشدة خطب فيها عبد الله النديم وعرابى .

وقد ألقى احمد عرابى يوم سفره الخطاب التالى الذى يكشف عن شخصية عرابى وروحه ومساعيه من أجل الحرية والدستور .

سادتى واخوانى :

بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستبداد ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيى البلاد واهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ، ولكن لما رأينا أننا بتنا فى اذلال واستعباد ، ولا يستمتع فى بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة . وقد ساعدتنا العناية الالهية ، ومنحنا مولانا واميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية . وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة فى شئونها . وتعرف حقوقها كباقى الأمم المتمدينة فى العالم . ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ما تحصلت على الحرية الا بالتهور واراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم ، أو نخيف قلبا أو نضيع حقا ، أو نخدش شرفا ، وما أوصلنا الى هذه الدرجة القصوى الا الاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد فالآن ننادى بصوت واحد : فليعش الخديو واهب الحرية فليعش الجيش المصرى طالب الحرية ، فلتعش الحرية فى مصر خالدة مؤيدة .

« نحن الآن فى نعمة جليلة ، وعزة جميلة ، وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزموا الهدوء والسكينة ، ويجانب حدوث ما يكدر .

وبعد أن أعرب عن ولاء الجيش للخديو ، وشكر رئيس الوزارة وزير الحربية ختم خطابه بقوله :

وانى سائر باخوانكم الى رأس الوادى فأستودعكم الله جميعا ، واقبل اخى على بك فهمى نيابة عن الجيش كله ، وأخى محمد افندى عبيد بالنيابة عن جميع المودعين من أمتنا الشرقية المحبوبة .

وتصايحت الجماهير تطلب خطيب الثورة عبد الله النديم فألقى خطابا ناريا نشر فى مجلته التى كان يصدرها فى ذلك الوقت باسم التبكيت والتنكيت وكان العنوان التى نشرت تحته هذه الخطب « زفاف الحرية فى مصر »

وقد استقبل عرابى فى كل المحطات ، بجموع الشعب مهللة مكبرة ، فكان يلقى الخطب ويعقبه عبد الله النديم .

عودة البعثة التركية الى الآستانة :

فى الثامن عشر من أكتوبر ، عاد على باشا نظامى رئيس البعثة العثمانية الى الآستانة بعد أن أمضت البعثة فى مصر اثنى عشر يوما فقط (وصلت يوم ٦ أكتوبر الى الاسكندرية) ونجحت المناورات التى قام بها الخديو ، بعد سفر الآلايين الى

دمياط والشرقية ، فى اظهار استتباب النظام ، وعدم وجود عصيان أو تمرد . وأمضت البعثة ايامها فى مصر فى حفلات ومآدت وعلى أثر مغـادرة البعثـة مصر ، انسحبت البارجتان الانجليزية والفرنسية .

انشاء المحاكم الأهلية :

فى ١٧ نوفمبر من هذه السنة (٢٥ ذى الحجة ١٢٩٨) القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهو يتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى السائد فى مصر حتى الآن . وحسب هذه اللائحة شرفا أنها قررت القاعدة الأساسية فى استقلال القضاء بتقريرها عدم جواز عزل القضاة ، بل وعدم جواز نقلهم من محكمة الى أخرى الا برضائهم ، وبمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية بناء على طلب وزير الحقانية وبعد أخذ رأى مكحمة النقض والابرام .

كما طبقت اللائحة جوهر حقوق الانسان وهو أنه لا جريمة ولا عقوبة الا بنص . ولا عقاب الا على الأعمال اللاحقة لصدور القانون .

ويرجع الفضل فى وضع هذه اللائحة الى العلامة محمد قدري باشا وزير الحقانية فى وزارة شريف باشا .

انتصار المهدى فى موقعة راشد بجنوب السودان :

فى التاسع من ديسمبر أحرز المهـدى ثانى انتصـاراته على الجيش المصرى فى السودان ، وكان قد رحل عن جزيرة آبا عقب الموقعة الأولى ، ليقيم فى مكان أكثر تحصنا ، فخرج الى الجنوب حيث توجد مديرية فاشودة واستقر فى مقام حصين داخل اقليم يدعى « جبل قدير » وأصدر منشورا عاما يأمر فيه جميع المكلفين بالهجرة الينا لأجل الجهاد فى سبيل الله ، أو الى أقرب بلاد منكم . فهلموا للجهاد ولا تخافوا من أحد غير الله ، لأن خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان » .

وأسرع حاكم المديرية راشد بك ، فجهز حملة من ألف وربعمائة رجل للقضـاء على الرجل ، ولكن أنصار المهدى كمنوا لهذه الحملة الجديدة ، وفتكوا بهـا وقتلوا راشد بك نفسـه الذى كان على رأس الحملة فسميت المعركة باسمه .

وجزع محمد رءوف باشا حكمدار السودان مرة أخرى من هذه الهزيمة المنكرة وأرسل يطلب المدد من مصر .

ومرة أخرى أعد شريف باشا العدة لارسال الآلاى السودانى مددا للسودان ، ولكن العرابيين رفضوا من جديد تنفيذ هذا الأمر ، اذ رأوا فيه محاولة لتمـزيق صفوفهم ، وكان من رأيهم أن القوات الموجودة فى السودان كفيلة بالسـيطرة على الموقف .

نقل عرابى الى القاهرة :

فى التاسع من يناير نشرت الجريدة الرسمية للحكومة المصرية ، نبأ نقل عرابى الى القاهرة وتعيينه وكيلا لوزارة الحربية وكان سبب هـذه الخطوة أن عرابى لم

يضيع وقته فى رأس الوادى سوى باعتباره زعيم البلاد الوطنى ، فراح يتنقل فى مدن الشرقية ، فتقام له الحفلات ، حيث يقف خطيبا ، داعيا الى مبادىء الاصلاح والنهضة وجعل مصر للمصريين ، فرئى أن ينقل الى القاهرة ليكون تحت سمع الحكومةوبصرها ولم يكن لذلك من سبيل الا بترقيته الى رتبة لواء (باشا) وجعله وكيلا لوزارةالحربية وقبل عرابى المنصب شريطة أن يظل قائدا لفرقته العسكرية واعتذر على ما يقول فى مذكراته عن لقب باشا ، وجاء الى القاهرة وقد زادت هذه الترقية فى تألقه ، فأصبحت داره محط أنظار الأمة كلها ، ومقصد مختلف الطبقات لشتى الأغراض والشكاوى .

ويقول لنا بلنت فى تاريخه ، انه قابل عرابى لأول مرة فى هذه الفترة فى يوم ١٢ ديسمبر وعرض عليه صداقته فقبلها ، ومن ثم أصبح مستشارا لعرابى فى الشئون السياسية وبخاصة علاقة مصر ببريطانيا ، ونحن نتصور أن هذه الصداقة كان لهـا أثر مضلل اذ حجبت الرؤيا عن عرابى ، وجعلته يطمئن ويركن الى ما كان صـاحبه بلنت يعده به ويمنيه .

صدور ميزانية عام ١٨٨٢ :

فى الثانى والعشرين من ديسمبر صدر أمر عال بتقرير ميزانية سـنة ١٨٨٢ حيث قدرت الايرادات المخصصة للدين العمومى بمبلغ ٤ر٣٧٧ر٢٢٥ ج والمصروفات المخصصة له بمبلغ ٤ر٠٩٧ر١٠٠ ج أى بفـائض قدره ٢٨٠ر١٢٥ جنيها وهو مالم يحدث فى تاريخ البلاد منذ تردت فى نكبة الديون .

كما حددت الايرادات المخصصة للانفاق على مصالح الحكومة بمبلغ ٤ر٣٦٩ر٣٣١ جنيها والمصروفات بمبلغ ٤ر٣٦٦ر٨٦٨ جنيها .

وقد أنهى اعتماد الميزانية على هذه الصورة أزمة جديدة حادة أوشكت ان تقوم بين الجيش والحكومة ، فقد طالب الجيش بزيادة قدرها ٢٥٠ ألف جنيه فى اعتمادات وزارة الحربية لكى يكون من الممكن زيادة الجيش الى ١١ الف ، ثم تم الاتفاق على ان تقتصر الزيادة على ١٥٤ر٩٦١ جنيها تكفى لرفع عدد الجيش الى ١٥ الف .

افتتاح مجلس النواب :

فى السادس والعشرين من ديسمبر تم افتتاح مجلس النواب الجديد ، وكانت الانتخابات المؤدية له قد تمت فى حرية وبعيدة عن أى ضغط سواء من جانب الحكومة أو العرابيين ، وكان يوم افتتاحه يوما عظيما ، ومهرجانا مشهودا ارتجت له الأمة ، فقد كان انعقاد المجلس مطلبا عزيزا من مطالب الأمة حيث تقدم به ١٦٠٠ من كبراء الأمة وأعيانها ، غداة تأليف وزارة شريف باشا وقد جاء فى العريضة الخالدة ، أن المجلس الجديد « يجب أن يكون له ما لمجالس الأمم الأوربية المتمدينة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة » .

وقد ألقى الخديو خطاب العرش بنفسه ، وكان مما جاء فيه :

« أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع . وفى علم الجميـع أنى من وقت ما استلمت زمام

الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ، ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة . أما الآن فأحمد الله تعالى على ما تيسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ، ومن تخفيف أحمال الأهالى على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم » .

وغمرت البلاد المصرية من أقصاها لأدناها موجة من الفرح . فأقيمت الاحتفالات فى كل مكان ، وتقاطرت رفود الأقاليم الى العاصمة حيث أقيمت الاحتفالات والولائم فى القاهرة والاسكندرية ، واشترك فيها الوزراء والنواب والأعيان وسائر طبقات الشعب .

توفيق ومجلس النواب :

يقول احمد باشا شفيق فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن » تعليقا على افتتاح مجلس النواب : ولكن هل كان توفيق مرتاحا لوجود مجلس النواب ؟

لم أكن لأظن ذلك ، لأنه لا زال متشائما من الحالة ، وقليل الثقة بالمجلس لأن نفوذ العرابيين كان فيه كثيرا .

١٨٨٢ م — ١٢٩٩ هـ — تقديم الدستور الجديد للمجلس :

فى الثامن من يناير من هذه السنة حضر شريف باشا الى مجلس النواب يحيط به سائر وزرائه ، ليقدم الدستور الجديد الى مجلس النواب والقى خطابا تاريخيا جاء فيه :

« لما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعا كما أوضحت ذلك منذ ثلاث سنوات ، فاشتغلت مع رفقاتى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم ، وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ، ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر ، وكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا ، لكن حيث أن مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد ، والحكومة مقتنعة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن ، فقد أعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم ، وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة فى أى درجة وأى صنف كانوا ، ونصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح ، وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة ، ما لم يكن بتصديق واقرار منكم ، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقهم . والغاية بأنه لم يحجر عليكم فى شىء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم » .

تدخل انجلترا وفرنسا :

وهال انجلترا وفرنسا ان تنصلح شئون مصر الى هذا الحد وأن تستقر فيها القواعد الديمقراطية ، ورأتا فى هذه النهضة ما يعوق خططهما التى رسمت للسيطرة على مصر ، فأسرعتا تضعان العراقيل أمام المجلس الجديد ، وتفتعلان أزمة معه ، وقد دلت الوثائق التاريخية التى نشرتها وزارة الخارجية البريطانية ، على أن فرنسا تحت زعامة رئيس وزرائها الجديد جامبتا هى التى حرضت انجلترا على الوقوف موقفا مضادا حازما لحركة التحرر والنهوض المصرية ، فاستجابت انجلترا لتحريض فرنسا وقررتا تقديم مذكرة للحكومة المصرية أشبه بانذار للحيلولة دون اقرار الدستور الجديد .

وفى الثامن من يناير توجه السيد ادوارد مالت قنصل انجلترا والمسيو سنكفكس القنصل الفرنسى مجتمعين الى سراى عابدين ، وقدما المذكرة التالية :

« كلفتم غير مرة أن تنهوا الى علم الخديو وحكومته ارادة فرنسا وانجلترا وعزمهما على تأييده للتغلب على الصعوبات المختلفة التى قد تعترض انتظام الشئون العامة فى مصر .

ان الحكومتين على تمام الاتفاق فى هذا الصدد ، وأن الحوادث الأخيرة وبخاصة الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب ، قد هيأ الفرصة لتبادلهما الآراء مرة أخرى فى هذا الشأن فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بالاشتراك مع السيد ادوارد مالت الذى كلف بمثل ما كلفتم به ، بأن الحكومتين الفرنسية والانجليزية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقا لأحكام الفرمانات التى قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد فى الحال والاستقبال لاستتباب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التى تهم فرنسا وانجلترا ، والحكومتان متفقتان اتفاقا وطيدا على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ولا يخامرهما شك فى أن الجهر بعزمهما فى هذا الصدد سيكون له أثره فى اتقاء الأخطار التى يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو ، ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها ، وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة اليها ، لادارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية » .

وكان طبيعيا أن يثير تقديم هذه المذكرة خواطر الأمة المصرية حكومة وشعبا ، فهى تدخل صريح فى استقلال مصر وحقها فى ادارة شئونها ، وتحريض سافر للخديو للوقوف فى وجه شعبه ، ووجه الحركة التقدمية التى أصبحت تسود البلاد .

وقد بادرت الدولة العثمانية بالاحتجاج على هذا الاجراء كما احتج شريف باشا رئيس الحكومة وطلب الى الدولتين مذكرة ايضاحية لتفسير الأولى وتبديد الغيوم ، واعلان حسن نية الدولتين ، ولكن دولتى انجلترا وفرنسا لم يلقيا بالهما لهـذا

الاحتجاج ، ولم يصفيا لنصائح ممثليهما فى مصر الذين صوروا للدولتين الأثر السيء الذى أحدثته هذه المذكرة فى الرأى العام المصرى ذلك ان الدولتين كانتا قد تسلمتا موافقة الخديو على مذكرتيهما ، بل وشكره على ارسالها ، والحق أن هذه كانت نقطة الافتراق بغير عودة ، بين الوطنية المصرية وقوى التحرر الصاعدة ، وبين الخديو توفيق .

ولقد لخص المستر بلنت أثر هذه المذكرة فى العبارات القوية التالية :

هذه المذكرة المشؤومة التى اليها يرد كل ما وقع من المصاعب أثناء ذلك العام والتى افقدت مصر حريتها ، كما أفقدت غلادستون (رئيس وزراء انجلترا) شرفه كما أفقدت فرنسا نفوذها فى وادى النيل .

فرنسا وانجلترا يطالبان بمنع مجلس النواب من نظر الميزانية :

فى السادس والعشرين من شهر يناير ، مضت الدولتان فى تحرشهما ، فأرسلتا عن طريق قنصليهما السابقين مذكرة جديدة الى شريف باشا ، بناء على طلب المراقبين الأوربيين تطلبان فيها ، عدم تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية .

وأشعل هذا التدخل الجديد ، نار الغضب فى صفوف النواب ، وأعيان البلاد ورأوا فيه تجديدا للعدوان السافر ، وتمهيدا لاحتلال مصر بالقوة المسلحة .

على أن شريف باشا رئيس الحكومة ، أدرك خطورة الموقف ، وانه يتدهور بسرعة مما قد يؤدى الى تدخل انجلترا وفرنسا العسكرى فى مصر ، فأرسل الى مجلس النواب خطابا يقول فيه ان قنصلى انجلترا وفرنسا يريان ان لاحق للمجلس فى تقرير الميزانية ، ولكنهما مع ذلك يقبلان المفاوضة فى هذه المسألة ، واقترح على الأعضاء ، أن يوافقوا على مواد الدستور (اللائحة الأساسية) مرجئين المادة الخاصة بالميزانية ، الى أن تتم المفاوضات بين الحكومة المصرية وانجلترا وفرنسا .

ولكن مجلس النواب وقف موقفا مضادا لشريف باشا ، وأصر على أن يبدأ بنظر الميزانية واقرارها ، ولو أدى الأمر الى اسقاط الوزارة .

وهنا بدأ الافتراق بين الحزب الوطنى القديم ورجاله كما يمثلهم شريف باشا ، والحزب الوطنى العسكرى كما يمثله عرابى ، وكان لهذا الخلاف كما سنرى أثرا فى انقسام الجبهة الوطنية .

سقوط وزارة شريف باشا :

فى الرابع من فبراير سقطت وزارة شريف باشا باستعفائه بعد أن رفض متابعة النواب على اعتماد اللائحة الأساسية بما فيها مادة الميزانية ، وقد توجه مجلس النواب المؤلف من خمسة عشر نائبا والذى كلف بحسم هذه القضية ، فقابل الخديو ، وكان مما قاله النواب للخديو : اننا جازمون بمحبتكم للوطن واصلاحه ، ولهذه الغاية منحتم الأمة المصرية مجلس الشورى ، وقد نقحنا لائحة له ، غير أن دولتلو شريف باشا متوقف عن التصديق عليها ، مع انه لا داعى لتوقفه اذ ليس لها دخل بالعقود الدولية ، وطلبوا سرعة انجاز هذه المسألة فقال لهم الخديو ، واذا كانت الوزارة متوقفة ، فما

العمل ؟ فقالوا : تستعفى وتشكل وزارة أخرى تصـدق على اللائحـة ، فوعدهم الخديو خيرا .

تشكيل وزارة محمود سامى البارودى :

استجاب الخديو لمطالب النواب ، أو بالأحرى الحزب الوطنى العسكرى فقـد كان هو الذى يقف وراء موقف مجلس النواب .

وعهد بتأليف الوزارة الى الرجل الذى رشحه الحزب العسكرى وهو محمود باشا سامى البارودى وتشكلت الوزارة فى ٤ فبراير على الوجه التالى : (١)

محمود باشا سامى البارودى ــ للرئاسة والداخلية .

أحمد عرابى باشا ــ وزيرا للحربية والبحرية .

محمود باشا فهمى ــ للاشـــغال .

حسين باشا الشريعى ــ للأوقاف .

عبد الله باشا فكرى ــ للمعـــارف .

مصطفى فهمى باشا ــ للخارجية والحقانية .

على صادق باشا ــ للمالية .

وقد كان تأليف الوزارة على هذا الشكل يعتبر انتصارا حاسما للحزب العسكرى الوطنى فالثلاثة الأول هم قادة الحزب العسكرى ، وحسن الشريعى أحد أقطـاب مجلس النواب المنضمين لهذا الحزب .

فـرح البـلاد :

ونستطيع أن نتصور مدى فرحة البلاد بالوزارة الجديدة التى كانت تحمـل الطابع العميق للارادة الشعبية ، وبعد أن أصبح عرابى الزعيم الشعبى الذى كان الشعب يطلق عليه وصف « الأوحد » الوزير الأكبر فيها .

وقد اعتبر تأليف الوزارة عيدا قوميا ، وتنافس العسكريون والمدنيون فى التعبير عن مظاهر فرحتهم وتأييدهم للعهد الجديد .

اقرار الدستور الجديد لمجلس النواب :

وفى الثامن من فبراير ، اجتمع مجلس النواب ، حيث حضر الجلسة محمود باشا سامى البارودى محاطا بوزرائه ، وقدم الدستور الجديد كما أقره مجلس النواب الى المجلس بعد أن صدق عليه الخديو ، رالقى بهذه المناسبة خطابا سياسيا رائعا حول مبادىء الديمقراطية وأنظمتها ووجوب تعميقها وتأصيلها والاهتـداء بهديهـا فى

---

(١) اعتمدنا فى ذكر هذا التشكيل على ما جاء فى كتاب عبد الرحمن الرافعى الذى نقـل عن جريدة الوقائع ولكن عرابى فى مذكراته يضم الى هذه الوزارة سليمان باشا أباظة فيجعله وزيرا للحقانية بينمـا يذكر محمد رفعت فى كتابه تاريخ مصر السياسى أن اسماعيل أيوب باشا كان وزير المالية وان الانسـان لتأسف ان يرى مثل هذا الاضطراب فى وقائع قريبة العهد .

مختلف الميادين . وقد شكر النواب محمود باشا سامى البارودى على اقرار الدستور . وتوجهوا بعد انفضاض الجلسة الى الخديو ليقدموا له فروض الشكر ، فاستقبلهم بقبول حسن ، ووعدهم بالمساعدة على كل ما يعود على البلاد والرعية بالنفع ، واقيمت بمناسبة اقرار الدستور ، الاحتفالات مرة أخرى ، وكان عبد الله النديم والشيخ محمد عبده وأديب اسحق فرسان الخطابة فى هذه الاحتفالات ، وتفجرت الدعوات البناءة لاصلاح الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ، وأن الانسان ليجد فى خطب ومقالات هذه الأيام ، كل المشروعات اللازمة بالنهوض بمصر لمسايرة ركب الانسانية كالدعوة الى نشر التعليم الابتدائى فى أنحاء البلاد ، وانشاء بنك وطنى (مركزى) للدولة ، حتى مشروعات الرى الكبرى كما تتمثل فى انشاء خزان كبير للمياه فى أسوان ، دعى اليه فى هذه الحقبة ، وغير ذلك من مئات المشروعات النافعة التى تجدد شباب البلاد .

احتجاج المراقبين :

استقبلت الدوائر الانجليزية والفرنسية ، نبأ اعلان الدستور بالسخط والغضب .

واسرع المراقبان الماليان كولفن ودى بلنيير فأرسلا مذكرة الى قنصلى دولتيهما يحتجان على صدور الدستور ، وتقريره حق النواب فى اعتماد الميزانية ، مدعيين ان ذلك يجردهما من سلطتهما ، وقبول هذا الوضع من شأنه ان يصيب النفوذ الفرنسى والانجليزى فى مصر بضربة قاصمة ، وزاد المراقب الفرنسى على زميله الانجليزى فى صورة الاحتجاج اذ طلب من قنصل دولته أن يبلغ رئيس وزراء فرنسا رغبته فى الاستقالة من منصبه احتجاجا على هذا الانقلاب فى نظام الحكم .

تراجع الحكومة الفرنسية عن خطتها :

ولكن وزارة جامبتا الذى كان يدفع انجلترا للتشدد والتصلب ضد مصر ، كانت قد سقطت ، وحلت محلها وزارة فريسينيه ، وكان من رأى الوزارة الفرنسية الجديدة الا تقف موقفا معاديا من وزارة البارودى فأرسلت الى قنصلها فى مصر على ما جاء فى الكتب الرسمية التى نشرت بعد ذلك .

اتبعوا التحفظ الرسمى المقرون بالعطف نحو الوزارة الجديدة . وساعدوا بصفة خاصة على المساعى التى تبذل بحسن نية لاحترام الاتفاقات الدولية ، وأوضحوا أننا لا نقصد عرقلة تقدم النظم الداخلية المصرية ما دامت مصالحنا لا تمس .

ولقد كتب دى فريسينيه بعد ذلك فى كتابه « المسألة المصرية » عبارات جديرة بالتسجيل ، لأنها تظهر تجنى الاستعمار فى هذه اللحظة على مصر بحيث ان ما كانت كل شعوب الأرض تحمد للجهاد فى سبيله وهو الحرية والدستور والاستقلال ، اعتبر فى مصر رذيلة ومظهرا على الفوضى والتعصب الدينى ، قال دى فريسينيه :

ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع

اختصاص المجلس ، حتى ليخيل الى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقا ، وان وادى النيل لم يكن يحتوى الا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا افهاما للوطنية المصرية فى عهدهم ، كان نوابنا فى سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى أن يتهكموا فى خطبهم على الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة ، فقد كانت هنالك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ وتلك حقيقة لا تحمل جدلا غير أن الذين كانوا يفيضون على حظ مصر لم يكونوا يرون فى المصريين الا قوما مدينين، فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم الا مصلحة واحدة : هى مصلحة الدائنين الأوربيين التى يجب أن تقدم على ما عداها .

انجلترا تنفرد بالعمل :

على أن التحسن فى موقف فرنسا بالنسبة لمصر ، حقق لانجلترا ما كانت تنشده منذ أمد بعيد ، وهو أن تعمل لحسابها الخاص فى مصر ، ولكنها رأت من حسن السياسة أن تدع الأمور فى هذه الفترة تسير فى مجراها الطبيعى .

انشاء وزارة للسودان :

كانت حركة المهدى فى السودان تزداد كل يوم انتشارا وقوة فرأت الحكومة ان تتخذ بعض الاجراءات لمواجهة الموقف ، فأصدرت قرارا بعزل حكمدار السودان محمد باشا رؤوف ، وعينت بدلا منه عبد القادر باشا حلمى ، وخصصت للسودان وزارة خاصة بها ، وعينت عبد القادر حلمى باشا أول وزير لها .

وذلك فى ٢١ فبراير . وجعلت من السودان وحدة واحـــدة بما فى ذلك شرق السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر ومديرية هرر وزيلع وبربرة وناجورة .

وقد نشر الأمران فى الوقائع المصرية بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ولكن عبدالقادر باشا حلمى لم يبادر بالسفر الى السودان .. مما أدى الى زيادة تدهور الموقف هناك بالنسبة لعلاقة السودان بمصر .

انتهاء الدورة البرلمانية :

فى يوم الأحد ٢٦ مارس انتهت جلسات مجلس النواب طبقا لما كان مقررا ، وعلى الرغم من الفترة القصيرة التى اجتمع فيها مجلس النواب ، حيث لم تزد جلســاته الا قليلا عن عشرين جلسته ، ومع ذلك فان تاريخ هذا المجلس يؤلف فى هذه المرحلة صفحة من أزهى صفحات الحياة النيابية والدستورية فى مصر ، حيث تعرض النواب لكل ضروب الاصلاح الذى تحتاجه البلاد فى مختلف الميادين ، سواء فى الادارة أو المالية أو الاقتصاد أو الزراعة أو الرى (الذى وصلوا فيه الى حد اقتراح انشاء خزان أسوان بناء على اقترح تقدم به أحمد بك نائب اسنا) والاقتصاد والمواصلات ، والتعليم الابتدائى الذى طالبوا بتعميمه على سائر أبناء البلاد بناء على اقتراح تقدم به عبد السلام

المويلحى ، وتعهد كل نائب أن ينشىء فى بلدته مدرسة على نفقته ونفقة الأهالى .

وقد لمع من نواب هذا المجلس عبد السلام المويلحى ومحمود العطار واحمد محمود وأمين الشمسى وسليمان اباظة واحمد عبد الغفار وعبد المجيد البيطاش وغيرهم .

ويجمع كل من كتب عن هذه الفترة ، أن السلام والهدوء والاستقرار الذى نعمت به البلاد ، ابان انعقاد هذا المجلس كان أشبه بالأحلام التى لا يلبث النائم أن يستيقظ منها ليواجه الواقع المر .

فلم يكد المجلس ينهى دورته ويغلق أبوابه ، حتى تفجر الموقف ، وتوالت الأحداث الجسام التى لم تنته الا باحتلال مصر .

الحكم على أربعين ضابطا بالتجريد والنفى :

فى ٣٠ ابريل من هذه السنة أصدر المجلس العسكرى حكما على أربعين ضابطا على رأسهم عثمان باشا رفقى ، بالتجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ثم نفيهم الى أقاصى السودان . وكان ذلك القرار هو القنبلة التى فجرت الموقف الذى كان مشحونا بالتوتر منذ قبض على هؤلاء الضباط وشرع فى التحقيق معهم ومحاكمتهم بتهمة التآمر على اغتيال عرابى باشا (١) .

وقد بدأ التآمر فى الجيش على عرابى وصحبه ، منذ آلت اليه الأمور وأصبح الحاكم المطلق فى شئون الجيش ، فقد أسرع بمجرد توليه منصبه فاستبعد ثلثمائة ضابط تجاوزوا السن المحددة لكل رتبة ، طبقا لقانون المعاش الجديد ، وكانت الأغلبية العظمى من المحالين على المعاش من الشراكسة والأتراك . وذلك فى الوقت الذى رقى فيه كل زعماء الحركة العرابية ، وكل ضابط فى الجيش كان مواليا لهم .

فكان طبيعيا ، أن يؤدى ذلك الى تذمر البقية الباقية من الشراكسة والاتراك فى صفوف الجيش ، وان تنشأ فكرة التآمر على حياة عرابى . وسواء كانت هذه المؤامرة وهمية على ما يقول البعض ، أو أنها كانت حقيقة وكانمدبرها هو اسماعيل باشا الخديو السابق رغبة منه فى العودة الى البلاد ، أو كانت غير ذلك ، فقد أعطيت أهمية فوق ما ينبغى وظلت شغل البلاد الشاغل وفرصة للانجليز والفرنسيين للتشنيع على وحشية عرابى وحزبه بحيث خلقت أزمة حادة بين زعماء الجيش وبين الخديو ، افسحت المجال لتدخل الانجليز والفرنسيين ، مما زاد فى تعقيد الموقف .

فقد أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على المتآمرين على الوجه الذى قدمناه ، فاستعظم الخديو الحكم على هذا العدد الكبير من الضباط ، وخاصة على عثمان رفقى وزير الحربية السابق والذى كان برتبة فريق لا يجوز تجريده منها الا بأمر السلطان واصر على وجوب تخفيف الحكم ، واستعان بقنصلى انجلترا وفرنسا ، واقترحت

---

(١) نشرت جريدة الوطن أول خبر عن هذه المؤامرة فى عدد ١٣ ابريل .

الوزارة كسبيل لحل الأزمة أن يكتفى بنفيهم خارج مصر ، على أن ترفع أسماؤهم من سجلات الجيش .

تعديل الحكم :

فى التاسع من مايو أصدر الخـــديو قراره بتعديل الحكم الصادر من المحكمة العسكرية ، بالاكتفاء بنفى الضباط الأربعين خارج القطر المصرى مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم وعدم استبعادهم من سجل الجيش فقصدوا الى الآستانة حيث نزلوا فى رعاية السلطان .

وكان مما احنق الحكومة على الخديو ، انه وقع على هذا التعديل فى حضرة السير ادوارد مالت قنصل انجلترا والمسيو سنكفكس قنصل فرنسا ، لاظهار تضامنهما معه فى هذا الاجراء . وانه ضرب عرض الحائط بالحكومة .

الوزارة تقرر عقد مجلس النواب :

قررت الوزارة دعوة مجلس النواب للانعقاد للنظر فى أمر الخلاف ، الذى استطار بين الخديو والحكومة ، ولكن الخديو رفض دعوة مجلس النواب فرأت الحـكومة أن تضرب عرض الحائط بموقف الخديو ، وارسلت تدعو النواب للاجتماع فى القــاهرة واستجاب بعض النواب للدعوة ، وجاؤا الى القاهرة ، وتعددت اجتماعاتهم سواء فى بيت رئيسهم سلطان باشا ، أو فى بيت البارودى باشا رئيس الحكومة ، وقام النواب بدور الوساطة بين الحكومة وبين الخديو ، وانحاز سلطان باشا رئيس المجلس لأول مرة الى جانب الخديو ضد الحكومة ، واستطاع أن يضم الى جانبه ستة من النواب ، وكان هذا الانقسام الجديد فى صفوف الوطنين ، هو الثغرة التى نفذ منها الانجليز ليضربوا ضربتهم ، كما كشفت عن ذلك الحوادث التالية ، وكما ظهر مسجلا فى كتبهم الرسمية ، التى تضمنت احاديث سلطان باشا مع ادوارد مالت . والتى أعرب فى بعضها عن رغبة النواب فى اسقاط حكومة البارودى وعرابى .

وقد اعتبرت دعوة البارودى للنواب متخطيا الخديو ، أنها بمثابة ثورة جديدة ، وانطلقت الشائعات التى تقول بأن محمود سامى البارودى يرغب فى عزل الخديو وتولى حكم مصر ، ولا جدال أن محمود سامى البارودى ، كان باعتباره أحد رجال السيف والقلم ، عظيم الطموح ، ولقد حدثنا عرابى فى مذكراته ، أن البارودى اقترح بالفعل أكثر من مرة خلع الخديو ، والمناداة بعرابى خديويا على مصر ، وان عرابى اعتذر عن ذلك واشار الى اصالة سامى البارودى وانه ينتمى الى الملك الاشرف برسباى .

على ان الأزمة لم تلبث أن حلت بعد وساطة النواب على أساس تسليم الحكومة بالتعديل الذى أجراه الخديو ، حيث نشرت الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ١٦ مايو البلاغ التالى :

« الحمد لله قد زال الخلاف ، وانحسمت أسبابه بحسن توجيهات الحضرة

الخديوية . ومثل حضرات النظار ررئيس مجلسهم حضرة عطوفتلو محمود سامى باشا البارودى بين يدى الجناب الخديو ، ونالوا من جنابه السامى حسن الالتفات ، فلله الحمد اولا وأخيرا ، وعلى أرباب الجرائد العربية التى تطبع فى القطر المصرى أن لا تخوض فى تفاصيل المسألة خوفا من الوقوع فيما يخالف الحقيقة ويوجب تشويش الأفكار » .

وقد انذرت جريدة الطائف لصاحبها السيد عبد الله نديم لخروجها عن جادة الاعتدال خلال هذا الحادث ، ثم لم تلبث أن عطلت فى اليوم التالى ترضية للخديو .

حضور الأسطولين الانجليزى والفرنسى الى مصر :

فى يوم الجمعة ١٩ مايو بدأ توافد قطع الأسطول الانجليزى والفرنسى على ميناء الاسكندرية ، فكشفت بذلك الدولتان نهائيا عن عزمهما على التدخل المسلح فى الشئون المصرية .

وكان السير ادوارد مالت هو الذى تولى تحريض حكومته على ان تخطو هذه الخطوة ، مفهما اياها أن الجو أصبح مهيئا لتضرب انجلترا ضربتها التى طال ارتقابها . فقد كان الخديو تواقا للتخلص من وزارة البارودى وعرابى ، وكان الوطنيون من أصل تركى من أمثال شريف باشا ، قد خافوا بدورهم . وها هو سلطان باشا رئيس مجلس النواب ينحاز الى هذه الجهة ، فوجب أن لا تضيع هذه الفرصة .

وخشيت فرنسا أن تنفرد انجلترا بالعمل ، فأرسلت اسطولها الى الاسكندرية تمهيدا لتوجيه انذار من نوع جديد للحكومة المصرية .

مطالبة انجلترا وفرنسا بابعاد عرابى :

فى الخامس والعشرين من مايو ، وجهت انجلترا وفرنسا مذكرة للحكومة المصرية هى فى الحقيقة تؤلف الانذار بما استتبع تقديمها من حوادث .

وهذا هو نصها :

ان قنصلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وكذا رغبته فى تأمين سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار ، اذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر وهذه الشروط هى :

١ — ابعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا من مصر مع بقاء رتبته ومرتباته .

٢ — ارسال كل من على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى الى داخل مصر مع بقاء رتبتهما ومرتباتهما .

٣ — استقالة الوزارة الحالية .

والقنصلان يريان هــذه الشروط لمـا فيها من روح الاعتدال يمنع المصائب التى تستهدف لها مصر ، فهما باسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها ، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى حفظ الحالة الحاضرة المقررة ، وبالتالى ، أن يعيدا للخديو السلطة المختصة به ، اذ بدونها يخشى على هذه الحالة المقررة ، فيما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى فسيبذلان الجهد فى صدور عفو عمومى من الحضرة الخديوية وسيسهران على تنفيذ هذا العفو .

وعلى ذلك التوقيع سنكفكس ــ مالت .

استقالة وزارة البارودى :

فى السادس والعشرين من شهر مايو استقالت وزارة محمود سامى البارودى وهى لم تستقل الا بعد أن أدت واجبها فى الاحتجاج ضد الانجليز وخذلها الخديو .

فقد أرسلت الحكومة فى هذا اليوم ٢٦ مايو ردا على مذكرة القنصلين ما يلى :

يتشرف ناظر خارجية الجناب الخديوى بأن يعرض ما يأتى جوابا على اللائحــة التى قدمها قنصلا جنرال فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٢٥ مايو لرئيس مجلس النظار فيقول :

ان سعادة سلطان باشا صرح أمس أمام الوزارة عند انعقاد مجلسهم أن أعاد على رئيس مجلس الوزراء ذكر محادثة جرت بينه وبين قنصل جنرال فرنسا وانه لم يبدا بذكر مقترحات أو اشارات لا يعنيه أن يقدمها ولا يبديها باسمه الشخصى ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب ، فان هذا المجلس غير ملتئم الآن .

أما الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا فتتعلق بمسائل داخلية تختص بالأمور الادارية التى اعترفت الدول الكبرى دائما بأن حرية العمــل فيها من خصائص الحكومة المصرية ولا يمكن لحكومة الجناب الخديوى أن تولج فى باب المناظرات والمباحثات فى هــذه القضايا بدون التعدى على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية التى حددت مقام مصر الخصوصى وبدون نقض القوانين الشورية لهذه البلاد التى هى أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هى عليه . نعم ان حكومة الجناب الخديوى تعد نفسها سعيدة باتباع المشورات الحسنة التى يشير بهــا وكيلا فرنسا وبريطانيا العظمى ، ولكنها تتأسف لعدم امكانها فى هذه الحالة الحاضرة . أن تبادر كعادتها بتلبية المطالب المذكورة فى اللائحة المقدمة ، واذا كانت حكومتا فرنسا وانجلترا تريان أن هذه المسألة الموضحة فى لائحة وكيليهما السياسيين فى القاهرة لا تمس الادارة الداخلية ولكنها تختص بالسياسة العمومية ، وجب أن تعرض هذه المسألة على الدولة العظمى التى جعلت مصر تحت سيادتها أعنى تركيا . . » .

وغنى عن البيان أن سلطان باشا لم يتنصل مما نسب اليه الا خوفا على نفسه ،

وقد حاول أن يتوسط ليطلب من القنصلين تخفيف لهجة مذكرتهما .. على أن ذلك كله أصبح دون جدوى ، عندما أعلن الخديو قبول المذكرة التى كانت تعبر عن مطالبه هو وأمانيه .

فلم يبق أمام الوزارة الا أن تستقبل احتجاجا على الخديو نفسه مسجلة فى خطاب استقالتها على الخديو هذا القبول . وأسرع الخديو بكل سرور فقبل الاستقالة بناء على تحريض قنصلى فرنسا وانجلترا .

اتقاد جذوة الوطنية :

واذا كانت الخيانة قد وصلت الى صفوف الطبقة الحاكمة وبعض الانتهازيين من أمثال محمد سلطان ومن التف حوله من النواب ، فان بقية صفوف الشعب قد أوقد هذا الاعتداء السافر جذوة غضبها ، فبادرت الى توحيد صفوفها ، واظهار عزمها وتصميمها على المقاومة ، فاجتمع الوزراء المستقيلون بالقادة العسكريين ، واقسم الجميع على وجوب المقاومة العسكرية . وكان الذى تولى صياغة القسم والاشراف على توجيهه هو الشيخ محمد عبده الذى ظل حتى هذا الموقف فى خلاف مع رجال الحزب العسكرى . وقد حفظ لنا كتاب مصر للمصريين نص هذا القسم :

والله العظيم ، والله العظيم ، والله العظيم ، قاهر السموات والأرض ، المتسلط على القوى والقدر ، وحق مافى كتاب الله تعالى اننى وأنا فلان لا اخون وطنى ، ولا أخون نفسى ، ولا اغش أخوانى ولا احدا من أهل بلادى ، واحافظ على عرضى وعلى دينى وعلى عرض اهل بلادى ، ولا ادع أحدا أيا كان يتعدى على أحد من أهل بلادى ما دمت قادرا على منعه ، واننى أحافظ على النظام وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكننى ، وبقدر استطاعتى واذا خنت بيمينى هذا فاكون مستحقا لقطع الرقبة وشق الصدر ، واكون محروما من مزايا الانسانية والآدب .

عرابى باشا لا يتخلى عن مسئوليته :

على أنه اذا كانت الوزارة قد استقالت ، فان عرابى باشا لم يتخل عن مسئوليته فقد أرسل الى أنصاره من الضباط فى الجيش يقول لهم أنه مع استقالته من وزارة الحربية فهو لم يستقل من رئاسة الحزب الوطنى ويطلب منهم أن يأتمروا بأمره وأن يحافظوا على الأمن .

وهاجت الخواطر ، رتنادى العسكريون بعزل الخديو الذى سمح للدول الأجنبية بالتدخل فى شئون مصر . وكانت فكرة عزل الخديو قد أصبحت دعوة عامة يدعى اليها ، حتى وصل الأمر الى حد أن الشيخ عيسى شيخ الأزهر أصدر فتوى رسمية بأن الخديو لم يعد يصلح أن يكون واليا على المسلمين . ويجب خلعه .

وكان الدعاة لهذه الفكرة يرون أنها لا تخالف خطط السلطان الذى كان يميل الى تعيين حليم باشا خديويا على مصر . وان كانت فكرة أن يكون الخديو من غير

أسرة محمد على قد طافت ببعض الرؤوس كما ذكرنا من قبل بالنسبة لمحمود سامى البارودى .

اعادة عرابى الى وزارة الحربية :

وخشى قناصل الدول الأجنبية مغبة استشراء الفوضى فى مصر ، وكانوا يرون فى عرابى باشا الرجل الوحيد فى مصر القادر على حفظ الأمن ، فتوسط قناصل المانيا والنمسا وروسيا وايطاليا بين الخديو وعرابى ، فاستطاعوا أن يحملوا الخديو فى ٢٨ مايو (١١ رجب) على اصدار الأمر التالى لعرابى :

« ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية (أى الأمن) استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام احوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا . »

وبعد أن حدد مسيو فريسينيه رئيس وزراء فرنسا سياستها ولخصها فى أنها :

- المحافظة على مصالح فرنسا .
- المحافظة على استقلال مصر .
- عدم انفراد الدولتين بعمل يؤثر على استقلال مصر (١) .

وبهذا الأمر عاد عرابى باشا للسيطرة على الجيش والحكومة معا مما زاد فى تفجر الموقف ، اذ قررت انجلترا أن تمضى فى خطة تدخلها فى مصر منفردة .

المهدى يحصل على ثالث انتصاراته :

عندما عزلت الحكومة المصرية محمد باشا رؤف عن حكمدارية السودان اسندت أعماله الى نائبه جيكلر باشا النمسوى مدير مصلحة التغلرافات السودانية ريثما يصل الحاكم الجديد عبد القادر باشا حلمى . وبدلا من أن يتريث النائب الجديد فقد أعد حملة من أربعة آلاف جندى لمحاربة المهدى فى جبل قدير ، وعهد برئاستها الى يوسف بك السلالى . فلما اقتربت الحملة من جبل قدير ، انقض عليها المهدى بجموعه البالغة خمسة عشر الفا فى الليل ففتك بالحملة فتكا ذريعا ، وقتل يوسف بك السلالى نفسه فى المعركة ، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره فزاد بها قوة وذاعت سطوته فى مختلف ارجاء السودان وبخاصة فى كردفان التى أصبح بها أشد انصاره حماسة وأصبح نشيدها القومى .

هـواى هـواى أسـيـر ... للمهـدى فى قديـر

وتترنم بقولها :

بشاير الخير جاءت لينـا ... واليوم ظهـر مهدينـا

---

(١) الوطن عـدد ٣٠ مايـو .

الاستانة ترسل درويش باشا الى مصر على رأس رفد كبير :

في السابع من شهر يونيو وصل الى مصر وفد عثماني مؤلف من ٥٨ شخصا برأسه مصطفى درويش ، استجابة لنداءات توفيق باشا ، لوضع حد للموقف المتدهور في مصر ، سواء من الداخل أو الخارج .. ففي الداخل كان العرابيون يتنادون بخلع الخديو ، ومن الخارج بدأت انجلترا تحرشها بمصر فادعت أن العرابيين بدأوا يسلحون القلاع المصرية تمهيدا لضرب الأسطول الانجليزي والفرنسي مما يشكل خطرا على أسطول الدولتين ، وطالبتا بايقاف أعمال الاصلاح الجارية في القلاع .

ولم يكن باستطاعة درويش باشا أن يقوم بأى عمل في هذا الموقف المتدهور خاصة وان الباب العالي كان يعمل بوجهين فقد كان على اتصال بعرابي باشا يعده بالتشجيع والتأييد سرا ، في الوقت الذي يتظاهر أمام الدول بأنه يؤيد سلطان الخديو ومن هنا فقد زود درويش باشا بتعليمات معينة ، وزود أحد كبار رجال الوفد وهو السيد أحمد أسعد وكيل السلطان في الفراشة النبوية بتعليمات مضادة .

يقول لنا أحمد شفيق باشا في كتابه :

كانت الأوامر الصادرة لدرويش باشا :

١ ـ العمل على مصلحة الخديو .

٢ ـ العمل على حدوث مناقشات مع قناصل الدول والتظاهر بالمودة لقناصل المانيا والنمسا وايطاليا وباتباعه لنصائحهم وارشاداتهم .

٣ ـ القبض على عرابي وعلى أعوانه وارسالهم الى الاستانة اذا وجد لذلك ضرورة .

٤ ـ الوصول الى الغاء مجلس النواب .

٥ ـ تقليل نفوذ الخديو .

٦ ـ زيادة نفوذ السلطان .

٧ ـ طلب قوة عسكرية عند الضرورة .

وأما الأوامر التي كانت صادرة للسيد احمد أسعد فكانت :

١ ـ مساعدة الثوريين وجذب مودتهم .

٢ ـ العمل على احباط دسائس الأجانب المفسدة .

٣ ـ شكر الأعيان والعلماء والعظماء لما اظهروه من الولاء للخليفة .

٤ ـ ليس في نية السلطان ارسال قوة عسكرية .

٥ ـ انه لا يحرم الخديو من الامتيازات الممنوحة بمقتضى الفرمانات .

ونظرا لهذه التعليمات المتناقضة التي صدرت لدرويش باشا ولأسعد أفندي ، فان هذا الأخير حار في أمره ، وطلب من السراي الشاهانية موافاته بأوامر صريحة جلية للسير على مقتضاها ولكنه لم يظفر برد . وكان من المتناقضات في هذه الفترة

أن ينعم الباب العالى على عرابى بأرفع النياشين والأوسمة لاظهار رضاء الباب العالى عليهم فى الوقت الذى كان درويش باشا يطالبهم بالاستقالة وان يعهدوا بقيادة الجيش اليه .

وهكذا ساعدت هذه السياسة الملتوية على تعقيد الأمور واختلاطها وانهالت الكوارث التى تجلت فى :

مذبحة الاسكندرية :

فى ١١ يونيو انفجر الموقف الملتهب فى الاسكندرية ، واشتعلت النيران على صورة هذه المذبحة التى تعتبر بحق نقطة البداية لاحتلال مصر وكان عود الثقاب الذى فجر الموقف الملتهب مشاجرة وقعت بين أحد المالطيين من رعايا الانجليز ، وكان قد استأجر حمارا من أحد الوطنيين ، وفى نهاية النهار قدم له قرشا ، فاحتج الوطنى فسبه المالطى فتماسكا ، فما كان من المالطى الا أن طعن الوطنى بسكين فقتله ، وهرب الى أحد مساكن الانجليز فى الوقت الذى تجمع فيه رفاق القتيل للامساك بالقاتل الذى لم يلبث أن فر الى أحد المنازل المجاورة .. وبدأ اليونانيون والمالطيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهالى من الأبواب والنوافذ بحجة الدفاع عن النفس فسقط كثير من الأهالى ما بين قتيل وجريح ، فثارت نفوس الأهالى وبادروا بالانتقام فراحوا يقتلون من يعثرون عليه من الأجانب ، وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون النار على الأهالى .

ويذكر الأستاذ سليم النقاش فى كتابه مصر للمصريين ، ان البوليس قد لعب فى هذا اليوم دورا محزنا واليك نص عبارته :

« وكان كل من العائدين الى المدينة (من الأجانب) يلجأ الى دار الضبطية الكائنة فى الشارع المعروف باسمها توهما منه أنه اذا بلغ مركز رقابة الأرواح صار فى مأمن من هجمات أولئك الرعاع ولكن وا أسفاه ، فان ذلك المقام أصبح فى تلك الساعة مقرا للأهوال ، ومعهدا للفظائع فان نفرا من عساكر المستحفظين (البوليس) كانوا قد أثبتوا فى ساحتها ، وانتشروا على جانبيها للوقوع بالمارة ، فكانوا يقبضون على كل أجنبى لجأ الى الضبطية ويفتكون به ويقتلونه ويتركونه للرعاع يسلبون ما عليه من ثياب أو حلى ثم يشوهون وجهه تشويها ويرمون به الى البحر » .

وكان ممن قتلوا فى هذا اليوم أحد ضباط الأسطول الانجليزى وخادم خاص للاميرال كان قد نزل الى المدينة ليتنزه .

وكان من بين الجرحى فى هذا اليوم قنصل انجلترا فى الاسكندرية المستر كوكس وقد كتب لحكومته يصف لها ما حل به ويعجب كيف انه ظل على قيد الحياة ولم يمت وظلت هذه الفوضى فى الاسكندرية ولم تهدأ الا عندما نزل الجيش فى الساعة الخامسة مساء ، واستطاع أن يفرق الجماهير فى سهولة وان يعيد الأمن الى نصابه .

وقد اختلف اختلافا كبيرا فى عدد القتلى والجرحى من الجانبين فحيث يقدرهم

البعض (جون نينه) بمائتين وثمانية وثلاثين من الجانبين الوطنى والأجنبى ، فان البعض يرتفع بهم الى ثلثمائة .

والحقيقة المؤكدة أن قناصل الدول فى الثغر الفوا لجنة قدمت تقريرا جاء فيه ان عدد القتلى من الجانبين ٤٩ منهم ٣٨ من الأجانب وان عدد الجرحى ٧١ منهم ٣٦ من الأجانب و ٣٣ من الوطنيين واثنان من الأتراك .

من المسئول :

واذا كانت الروايات قد اختلفت هذا الاختلاف الكبير حول عدد القتلى والجرحى فى مسألة مادية بحتة ، فباستطاعتنا أن نتصور مدى التضارب فى الاراء التى حاولت ان تلصق التهمة بهذا الجانب أو ذاك . فقد حاول كل فريق أن يلصق التهمة بالحزب المضاد له . فقد أسرع الانجليز والخديو بتوجيه الاتهام الى عرابى باشا وحزبه العسكرى فى الوقت الذى ألقى فيه الوطنيون التهمة على الخديو ورجاله باعتبارهم ارادوا بهذا الحادث احراج مركزه واظهاره بمظهر العاجز عن حماية الأمن . ولقد قام من بين الانجليز (راندولف تشرشل) بعد أن احتلوا مصر من حاول احراج وزير خارجية انجلترا ، فأظهر أن لأعمال ممثل انجلترا فى مصر مالت وكوكس دخل فى تدبير هذه المذبحة بالاتفاق مع الخديو فقد كانا يتوقان لعمل سيتخذ ذريعة للتدخل البريطانى . واعاد الى الاذهان برقية قيل أن الخديو بعث بها الى عمر باشا لطفى قبيل المذبحة وقد جاء فيها :

لقد ضمن عرابى الأمن العام ونشر ذلك فى الجرائد ، وقد تحمل مسئولية ذلك أمام القناصل فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك أن أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وان عقول الناس فى هياج ، وان الحرب قريبة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم ، والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابيا فى ضمانه أم هل تخدمنا .

ويشك عبد الرحمن الرافعى فى هذه البرقية ، ويدفع التهمة عن عمر باشا لطفى .

ونحن نستبعد حتى لو كان الخديو متواطئا مع عمر باشا لطفى ان يسجل ذلك بالكتابة وعن طريق برقية مفتوحة .

وقد ناقش الأستاذ محمود الخفيف هذه الواقعة باستفاضة فى كتابه عرابى المفترى عليه . كما ناقشها عبد الرحمن الرافعى ، فليرجع الى الكتابين من شاء التحقيق أما نحن فقد خرجنا من كل مطالعتنا حول هذا الحادث المشئوم بالحقائق التالية :

١ ـ انجلترا هى المسئولة الأولى عن وقوع هذه الفتنة ، فقد كان وجود أساطيلها فى الاسكندرية هو الوقود الذى أدى الى اشتعال النار .

٢ ـ انه من الثابت أنها وزعت أسلحة على الانجليز المقيمين فى الثغر قبل هذا الحادث .

٣ ـ ان مشعل ثقاب الفتنة المالطى هو أحد الرعايا الانجليز بل قيل انه شقيق

خادم القنصل الانجليزى ، وما كان ليجرأ على قتل وطنى الا لعلمه بما يدبر فى الخفاء .

٤ — ان السير ادوارد مالت بعث برقيات الى وزير خارجية انجلترا يتنبأ فيها بقرب وقوع متاعب ، وانه من الخير التعجيل بها .

هذا بالنسبة للجانب الانجليزى .

وهناك حقيقة خاصة بمسئولية عمر لطفى محافظ الاسكندرية ، وهو انه وقف موقفا سلبيا فى هذا اليوم باجماع الآراء ، وانه لم يتصل بعرابى باشا منذ وقت مبكر وعندما فكر فى استدعاء الجيش ، اشترط ان ينزل بغير سلاح .

أما الخديو ورجاله فقد كانوا فى منتهى السعادة والغبطة لما حدث .. ولنا فى ذلك شهادة الشيخ الامام محمد عبده الذى قال لنا فى مذكراته :

وفى يوم الحادثة توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الأخبار ويضحكون من تعهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام ، ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم » .

عرابى هو المجنى عليه :

والحقيقة المؤكدة التى تثبت براءة عرابى باشا وحزبه من حوادث هذا اليوم .. انه من غير المعقول وقد ضمن الأمن العام للدول الاجنبية أن يتآمر على نفسه . على أن الدليل القاطع على هذه البراءة ، ان الانجليز بعد أن دخلوا مصر ، قد استبعدوا هذه التهمة عن عرابى فى محاكمتهم له .

ويبقى ان الانجليز دبروا .. ومحافظ الاسكندرية وحزب الخديو شجعوا . وكان الظرف العام مهيئا لوقوع مثل هذا الانفجار .

سفر الخديو الى الاسكندرية :

فى الثالث عشر من يونيو سافر الخديو الى الاسكندرية بحجة التصييف ورغبته فى تهدئة الأجانب ، والحقيقة الصارخة انه رغب أن يكون بالقرب من الأسطول الانجليزى ، حيث كانت الخطط والترتيبات تجرى بسرعة لتدخل انجلترا العسكرى.

ومن عجب أن يسمح عرابى باشا للخديو بأن يسافر الى الاسكندرية فى هذا الوقت العصيب ، لينضم الى أعدائه الانجليز . ولكن كان من المحقق أن عرابى باشا كان يعمل بقدر الامكان على أن لا يبدو بمظهر العاصى الثائر على الخديو ، على عكس البارودى وعبد الله النديم اللذين كانا لا يكفان فى هذه المرحلة عن الدعوة الى خلع الخديو واعلان الجمهورية ، فقد جاء فى كتاب الاحتلال السرى .. أن صابونجى وكيل المستر بلنت فى مصر بعث له خطابا بتاريخ ١٨ يونيه من هذه السنة وقد جاء فيه :

واخذ محمود سامى وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد حكومة الجمهورية لبلاد مثل مصر ، ومما قاله :

« لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا ، وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم ، ومع ذلك سنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

وبدا البارودى فى هذه المرحلة وقد بدات النذر تدل على أن انجلترا توشك أن تهاجم مصر ، يدعو الى ردم قناة السويس .

ولكن عرابى لم يتابع البارودى على كلتا المسألتين سواء اعلان الجمهورية أو ردم قناة السويس .

تاليف وزارة اسماعيل راغب باشا :

فى العشرين من يونيو تألفت وزارة جديدة برئاسة اسماعيل باشا راغب ولم يكن من المعروفين بالولاء للخديو بل لقد بلغ الأمر به على ما حدثنا به عرابى باشا فى مذكراته الى حد الاشارة على عرابى باشا بقتل الخديو ، وكذلك فان اختياره فى هذه الفترة من الأمور التى تثير الكثير من علامات الاستفهام وان كان أحمد شفيق باشا يقرر ان الوزارة عرضت على شريف باشا فرفضها وكان تشكيل الوزارة على الوجه التالى :

اسماعيل راغب باشا	للرياسة والخارجية
احمد رشيد باشا	للداخلية
عبد الرحمن رشدى باشا	للمالية
احمد عرابى باشا	للحربية والبحرية
على ابراهيم باشا	للحقانية
سليمان اباظة باشا	للمعارف
محمود باشا الفلكى	للاشغال
حسن باشا الشريعى	للأوقاف

وكان عرابى باشا هو القوة الحقيقية فى الوزارة . وكان اول عمل قامت به الوزارة الجديدة هو تشكيل لجنة مختلطة من المصريين والأجانب لتجرى تحقيقا راسع النطاق فى حوادث ١١ يونيه ومعرفة أسبابها والمسئولين عنها تمهيدا لتوقيع العقوبات الزاجرة على كل من يثبت اشتراكه فيها .

انجلترا تقاطع الوزارة :

ولكن انجلترا التى كانت قد بدات استعداداتها الحربية لارسال الجيش الى مصر وقفت من الوزارة الجديدة موقف المقاطعة ، فسحبت قنصلها ادوارد مالت فبارح الاسكندرية ، كما بارحها أيضا قنصلها فى اسكندرية المستر كوكس وأوعزت الى السير اوكلن كلفن بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء وهكذا كشفت انجلترا عن نواياها بطريقة سافرة ، وانها لا تريد تحقيق الحوادث ولا تريد استقرار الأمن ، وانما تريد تنفيذ خطتها .

مؤتمر الاستانة للنظر فى المسالة المصرية :

أحسنت فرنسا بما تتبعه انجلترا للعمل المنفرد فى مصر ، فرأت ان تقطع عليها السبيل فاقترح رئيس وزرائها فريسينيه على انجلترا عقد مؤتمر فى الاستانة يدعى اليه مندوبو الدول ويحضره وزير خارجية تركيا للنظر فى أحوال مصر على الأساسات الآتية :

١ ـ تقوية نفوذ السلطان والخديو والمحافظة على تعهدات مصر الدولية وما تفرع منها .

٢ ـ حفظ حقوق مصر التى نالتها بواسطة الفرمانات .

٣ ـ ترفيه نظام الحكم فى مصر مع الحذر والتدبير .

وقد اسرعت المانيا وروسيا وايطاليا والنمسا ، لتلبية الدعوة للاشتراك فى هذا المؤتمر ، ورأت انجلترا فى هذا المؤتمر فرصة لتغطية استعداداتها الحربية ، ولشغل المصريين عن الاستعداد للدفاع عن أنفسهم .. فاشتركت فى المؤتمر ولكنها اشترطت منذ اللحظة الأولى أن تحتفظ بحقها فى التدخل فى شئون مصر اذا دعت الضرورات لذلك .

وعلى الرغم من ان هذا المؤتمر كان منعقدا على أرض عثمانية ،للنظر فى مصير جزء من الدولة العثمانية ، فان الدولة العثمانية لم تشترك فيه ، واحتجت على انعقاده ، ولكن الدول لم تأبه كما هى العادة لاعتراضها وعقد المؤتمر بالفعل فى السفارة الايطالية .

ميثـاق النزاهـة :

فى الخامس والعشرين من يونيو استهل المؤتمر الدولى المنعقد فى الآستانة بأن أبرم المجتمعون عهدا وضعه مسيو فريسينيه رئيس وزراء فرنسا وقد أطلق عليه اسم ميثاق النزاهة ، حيث تعهد المجتمعون بأنهم لا يسعون لمصلحة خاصة فى مصر ، وهذا هو نص هذا الميثاق الذى وقعته انجلترا فى الوقت الذى كانت تعد فيه العدة لانزال ضربتها على مدينة الاسكندرية :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تتحدث عن احتلال اى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ، ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

انجلترا تدعو الدول للتدخل المسلح فى مصر :

فى السادس من يوليو عرض المؤتمر على الباب العالى ارسال قوة عثمانية الى مصر تكون مهمتها تأييد مركز الخديو على مقتضى الفرمانات .. وكانت انجلترا تعرف مقدما أن تركيا لا قدرة لها على ارسال جيش الى مصر فطلبت من فرنسا ان تشترك معها فى عمل مسلح فى مصر لتأمين سلطة الخـــديو وابعاد عرابى الى الخارج واعادة المراقبة الثنائية ، ولكن فريسينيه رفض فكرة التدخل المسلح .

وعرضت انجلترا على ايطاليا الاشتراك معها للتدخل الفعلى لاخماد الثورة فاعتذرت .

فلم يبق أمام انجلترا الا ان تضرب ضربتها منفردة : فتضع المؤتمر والعالم كله امام الأمر الواقع .

الأسطول الانجليزى يضرب مدينة الاسكندرية :

فى الحادى عشر من يوليو ، فى الساعة السابعة صباحا ، بدأ الأسطول الانجليزى يقذف بمدافعه طوابى مدينة الاسكندرية .

وقصـــة ضرب مدينـــة الاســـكندرية هى من أســـود صفحات تاريخ انجلترا الاستعمارى ، ولن يجد الانسان شبيها لمـا وقع منها الا فى قصة الذئب والحمل ، الذى كان مقررا أكل الحمل فاصطنع معه هذه المحاورة الفاشمة التى ترويهـا القصة .

فعقب وصول الأسطول الانجليزى الى الاسكندرية ، بدأ أميرال الأسطول يشكو من أن العمل يجرى فى طوابى الاسكندرية على اصلاحها وتقويتها ، وان هذا يشكل خطرا على الأسطول . ودارت بينه وبين حكومته المباحثات فيما يفعل .. واذ كانت الاستعدادات لارسال الجيوش الى مصر لا تزال تحتاج بعض الوقت .. فقد طلب من الاميرال أن يطالب بايقاف هذه الأعمال دون أن ينذر . فلما ان كمل الاستعداد ، اطلقت يد الأميرال سيمور فى التصرف .

وأرسل الاميرال سيمور الى طلبة باشا عصمت قومندان مدينة الاســكندرية البلاغ التالى فى يوم ٦ يوليو :

البارجة انفينسيل فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ .

صاحب السعادة ــ اتشرف باخباركم أنى علمت من طريق رسمى انه صار

البارحة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفاع القائمة على البحر وان بعض استعدادات حربية قد عملت فى واجهة الاسكندرية الشمالية على سبيل التحدى للاسطول تحت قيادتى ، فيجب على والحالة هذه أن أنبه عليكم بوقف هذه الأعمال ، فان لم تقف وتجددت يكون واجبا على تدمير المعدات الجارى العمل بها »

فرد طلبة باشا عصمت بالرسالة التالية :

عزيزى الاميرال الانجليزى

أتشرف بأن انبئكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليو الذى تخبروننى فيه انه اتصل بكم تركيب مدفعين وان أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر ، فردا على ذلك أؤكد لكم ان الأخبار المذكورة لا حقيقة لها ، وان هذه الأخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه .

هـــذا وانى معتمــد على عواطفكم المتشبعة بروح الانسانيــة وارجو قبول احتراماتى » .

ولم يكد نبأ هذا الانذار يذاع ، حتى علم الأجانب أن مصير الاسكندرية قــد تقرر ، خاصة وان الانجليز والفرنسيين بدأوا فى الجلاء عنها ، فسرى الفزع بين صفوف الأجانب ، واسرعوا الى البحر لمغادرة المدينة عن أى سبيل ، حتى فى المراكب الشراعية ، حتى بلغ عدد من غادر الاسكندرية فى هذه الأيام ٩٩٪ من الأجانب وقدرهم البعض بستين الفا .

وقد رفض الجنرال سيمور وساطة قناصل الدول الأجنبية ، وأصر عــلى موقفه من وجوب تجريد قلاع المدينة من أسلحتها .

انسحاب الأسطول الفرنسى :

ورأى دى فريسينيه رئيس وزراء فرنســا ، أن يحــول دون ضرب مدينــة الاســكندرية فأرسل التعليمات الى الأســطول الفرنسى بالانسحاب من مدينــة الاسكندرية تصورا منه أن الأسطول الانجليزى لن يقــدم على العمــل منفردا ، ولم يدر بخلد رئيس وزراء فرنسا ان انجلترا كانت قد أصدرت قرارها نهائيا باحتلال مصر .

الانذار الأخير :

فى العاشر من يوليو وجه الاميرال سيمور الى طلبة باشا عصمت انذاره الأخير وقد ضاعف فى طلباته فبعد أن كان يطالب بتجريد القلاع من المدافع ، طلب فى هــذا الانذار أن تسلم البطاريات المقامة به فى حصون شبه جزيرة رأس التين وعلىساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى ويشمل طوابى الفنار ، ورأس التين والاستبالية وصالح وأم قبيبة والبرج نمرة ١٥ والمكس والدخيلة والعجمى .

فاذا لم يتحقق ذلك فسوف ينفذ غدا (١١ يوليو) عند شروق الشمس العمل الذى اعرب عنه خطابه المؤرخ ٦ يوليو وهو تدمير هذه الحصون .

قطـع العـلاقات :

وعلى اثر ارسال هذا الانذار ، ارسل المستر كارترايت نائب القنصل البريطانى العام الى اسماعيل راغب باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا أعلنه فيه بقطع العـلاقات مع الحكومة المصرية .

الخديو يرفض الانذار :

عقد الخديو مجلسا عاما للنظر فى هـــذا الانذار حضره درويش باشا منـــدوب السلطان ، والشيخ أحمد اسعد عضو الوفد العثمانى ، واعضاء الوزارة ، وبعض الوزراء السابقين ومحمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب وبعض كبار الموظفين المدنيين والعسكريين .

ورأى المجتمعون أن يبذلوا جهدا أخيرا لتخفيف حدة الأزمة فأرسلوا وفدا لمقابلة الأميرال سيمور ليؤكد له أن لا خطر يهدد الاسطول ولا صحة للمزاعم القـائلة فان العمـــل جار فى تقوية الطوابى . وعرض عليه على سبيل الترضية الأدبية لشرف الاسطول ، ان تنزل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى ولكن الاميرال سيمور لم يقبل ماعرض عليه واصر على انزال جميع المدافع وزاد على ذلك فطلب من الحكومة أمرا صريحـا بتسليم حصون المكس والعجمى وباب العرب وما وراء طابيـة المكس من الأراضى ليتخذها الانجليز معسكرا لجنودهم وانه اذا لم يجب الى طلباته باشر القتـال عند طلوع شمس الغد .

فلم يبق أمام الخديو ومجلسه الا أن يرفض الانذار ، وارسل الى الاميرال سيمور الرد التالى الذى استعادت فيه مصر كرامتها ، وتصرفت كدولة تحترم نفسها :

« لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الاساطيل مجتمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا العسكرية اى عمل يسوغ مطالب الاميرال ، الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الاساطيل ونحن هنا فى وطننا وبيئتنا . فمن حقنا بل من الواجب علينا ان نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية انها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها ، الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لاتستطيع أن تسلم اى مدفع ، أو اى طابية ، دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تتم اما عن هجوم الاساطيل أو عن اطلاق المدافع ، على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لاحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب » .

١١ يوليو سنة ١٨٨٢ :

فى الساعة السابعة صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو وكان الاسطول الفرنسى قد انسحب من الميناء بناء على تعليمات حكومته بدأ الاسطول الانجليزى يقصف بمدافعه قلاع مدينة الاسكندرية . وكان يتألف من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس سفن مدفعية وسفينة للطوربيد ، وعدد مدافع الاسطول من طراز أومسترونج وعددها ٧٧ مدفعا .

وقد كان من سخرية هذه الأيام ، ان العرابيين سمحوا لهذا الاسطول الذى كان يربض فى الميناء ، والذى كان باستطاعتهم ان يعوقوه عن الحركة وأن يدمروه ، قد تركوه يخرج فى الوقت المحدد الى عرض البحر ، لكى يبدأ هدم القلاع ، وكان أسلوبه أن تتجمع اكثر من مدرعة فى مواجهة أحد الحصون حتى تدكه ، ثم تنتقل الى غيره وهكذا .

ومن العبث ان نحاول سرد أحداث هذا اليوم ، فهى كفيلة بتأليف مجلد ضخم ، وقد وصفها أكثر من شاهد عيان من الانجليز ومن المصريين ولعل أروع وصف وشهادة هو ما سجله جون نينه السويسرى المحايد الذى كان يقيم فى مدينة الاسكندرية ، ساعة الضرب ، وكان يتجول فى شوارعها ، كما وصفها من البحر صابونجى وكيل المستر بلنت ، حيث كان قد التجأ مع بقية الأجانب الى أحد السفن .

ولندع عرابى يصف لنا أحداث هذا اليوم :

« انصبت نار المدافع على القلاع والحصون والترسانة وسراى رأس التين وبالجملة على جميع أرجاء المدينة صباح الثلاثاء ١١ يوليو ولم تجاوبها مدافع القلاع الا بعد ان أطلق الاسطول نحو ٢٠ طلقه من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الاساطيل الانجليزية وقلاع الاسكندرية بعد ذلك الى منتصف النهار ، ثم أخذت نيران الاستحكامات فى التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبل الغروب .

وحيث كانت استحكامات الاسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها يبنى بالحجارة من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة .

وقد باغتنا الانجليز بالعدوان على غير استعداد منا وتأهب ، فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها .

ولم يكن بالاسكندرية من حاميات الحصون غير ٧٠٠ رجل فقط من رجال المدافع وكان مجموع العساكر البيادة الذين وجدوا فى ثغر الاسكندرية يوم قتال الانجليز اثنى عشر الفا وسبعمائة رجل .

وكانت قذائف المدافع القديمة لاتصل الى المراكب الانجليزية ، ومدافع ارمسترونج لم تكن لها مساطر تعرف بها المسافات وتحكم الاصابة بواسطتها ـ اللهم الا مسطرة واحدة كانت فى محل لتعليم بالعباسية ، استحضرت ليلا وسلمت للشهم سيف النصر بك قومندان طابية الفنار ، فكان يضرب المدافع بنفسه وينتقل من محل الى آخر

ويحكم الاصابة بواسطة المسطرة ، فكان معظم الدوارع التى تعطلت من جراء المقذوفات التى أحكم هو اطلاقها .

ولو كانت مدفع ارسمترونج كلها ذات مساطر لأمكنها تعطيل جميع الدوارع الانجليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة (١) .

وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر ، واعطائهم الماء وحمل الجرحى منهم ، وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيات .

وقد استشهد فى ذلك اليوم من رجال الطوابى وحدهم مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللوائى كن يضمدن الجرحى .

وقد أثنى الجميع على صبر العساكر وثباتهم العجيب تجاه قوة الدروع الهائلة » . أما من قتل من المدنيين من أهالى الاسكندرية فقد اربى على الألفين اما خسائر الانجليز فلم تزد عن خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا ، ومست المدرعة سلطان ٢٣ مرة ، والمدرعة سوبرب مست ١٠ مرات ، والمدرعة انفينسبل مست ١٣ مرة ، والمدرعة الكستندراست ٣٠ مرة .

اخلاء المدينة من السكان :

وقد وصف لنا الشيخ محمد عبده فى مذكراته حالة السكان المدنيين فى الاسكندرية وما أصابهم من الهلع فى بادىء الأمر واخلائهم المدنية ، وهى صورة عجيبة كأنها لوحة زيتية تشهد لمحمد عبده بالاقتدار الفنى والأدبى ، الى جوار ملكاته وقدراته الأخرى قـال :

« نحو مائة وخمسين ألفا من السكان مجردين من كل شىء أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى ، الموت والفزع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة .

كان المهاجرون يكونون خطوطا سوداء تارة عريضة ، وأخرى رقيقة ، متحركة فى كل جهة أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة .

اما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو الماء انكسر سده فاندلق يتصل بعضهم ببعض متزاحمين متراكمين ، فى حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين أمامهم أو حاملين على

---

(١) لا يملك الانسان نفسه من توجيه اللوم الى الحزب العسكرى ، الذى كانت كل النذر تدل على ان الحرب بينه وبين الاسطول الانجليزى واقعة حتما .. ثم يكون الاهمال فى عدم الاستعداد بهذه الدرجة الفورية .

ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب رثه ، حتى بعض المفروشات التى لاقيمة لها .

فى هذه الحالة ، حالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الأفق ، وأظلم الجو ، فنساء يبحثن عن أولادهن يتشاجرن مع بعضهن البعض ، يتضاربن فى اخلاط لا يمكن التعبير عنه ، عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية بعضها مقلوب بعضها بخيل ، وبعضها بغير خيل ، روائح شى اللحم ، صياح على المارة الخبز ، الخبز .

انسحاب الجيش المصرى :

وفى اليوم التالى ١٢ يوليو ، عاود سيمور الضرب ، فرفعت الاعلام البيضاء اشارة للتسليم ، ولكن الضرب لم يتوقف حتى أدرك سيمور انه أصبح مسيطر على المدينة ، وانه قادر على احتلالها ، وفى ذلك الوقت اشتعلت النيران فى المدينة فقرر الاميرال سيمور ان يعجل باحتلالها بأسرع بانزال جنوده .

وبدلا من أن يتصدى الجيش لمحاربة هذه القوات أو على الأقل يحصرها ويعوقها عن التقدم الى أبعد من مدافع الاسطول التى يمكن ان تنزل فى حمايته ، فان الجيش انسحب من المدينة ،ويقول عرابى فى مذكراته :

وقع الرعب والفزع فى قلوب العساكر ودب فيهم دبيب الفشل واستولى عليهم الخذلان فتشتت أكثرهم لهول ما رأوا من تخريب الطوابى ولما رأيت ذلك وعلمت انه لا يقدر على جمع الجيش بعد تفرقه وخذلانه الا القليل من القواد الموفقين ، حاولت أو أوفق الى جمع شتاتهم ، فخرجت بمن أمكن جمعهم فى الغروب الى جهة حجر النواتية ، وهناك ضرب النفير نوبة جمع ، فتوارد بعض المنشرين فى الفضاء .

وفى صباح ١٣ يوليو فتوجهت بمن اجتمع عندى من العساكر الى عزبة خورشيد ثم الى كفر الدوار واتخذناها مركزا حربيا ، ثم كتبت الى محطات السكك الحديد والمديريات والمحافظات بسرعة ارجاع العساكر الى كفر الدوار للمدافعة عن الوطن» .

انحياز الخديو الى الانجليز :

ولم يكن الخديو ينتظر أكثر من انسحاب عرابى والجيش من الاسكندرية لكى ينحاز نهائيا الى جانب الانجليز ، وكان الخديو بناء على تعليمات الانجليز قبل الضرب قد انتقل الى قصر المنتزه ، فلما أن توقف الضرب ، اتصل بالاميرال سيمور وأعلنه عن رغبته فى العودة الى قصر رأس التين ليكون تحت حمايته ، فأظهر الاميرال سيمور ترحيبه بذلك ، وتوجه فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٣ يوليو ، الى قصر رأس التين وبصحبته درويش باشا ومجلس الوزراء وعلى راسه اسماعيل باشا راغب وبقية رجال الحاشية ، فكان فى استقباله الأميرال سيمور وبعض الضباط ، وهكذا انقسمت البلاد منذ هذه اللحظة الى معسكرين ، معسكر الخديو ومن انضم له يؤازر

الاحتلال الانجليزى ويسانده . ومعسكر عرابى ومن خلفه السواد الأعظم من الشعب يواجه الاحتلال ويحاربه ، ولكن الانقسام كان هو العنصر الحاسم فيما انتهى اليه الموقف من هزيمة منكرة .

عرابى يعلن خيانة الخديو :

وبدأ الخديو نشاطه بأن أرسل يوم ١٧ يوليو تلغرافا الى عرابى يأمره فيه بالكف عن الاستعدادات الحربية ، ويحمله تبعة ضرب الاسكندرية ويدافع عن حسن مقاصد الانجليز ويأمره بالحضور الى سراى رأس التين لتلقى تعليماته ... وكان طبيعيا أن لايستجيب له عرابى ...

فشرع فأصدر الخديو امره بعزل عرابى باشا ، وابلغ هذا الأمر الى سائر أمراء الآلايات ...

ثم أصدر بيانا ليذاع على الأمة ، يبين به أسباب العزل ، ويهاجم عرابى ويتهمه بالجبن والتفريط فى الفاع عن البلد واليك بعض ما جاء فى هذا البيان :

بعد هدم وتخريب طوابى الاسكندرية من طرف الدونتما الانجليزية فى ظرف عشر ساعات من غير أن يتلف منهم الا خمسة أشخاص ، ومن دون أن يحصل تكسير اربعمائة مدفع ، وكسور وتلف أكثر الأنفار الطوبجية التى كانت موجودة بالطوابى حضر الباشا المومى اليه (أى عرابى) بسراى الرملة وأفاد أن الطوابى كلها تهدمت وصارت لا ينتفع بها . وفى ذلك الوقت كان أمير الدننما الانجليزية طلب اخلاء طوابى العجمى والدخيلة والمكس لاخراج عساكر طرقه ، فانعقد مجلس النظار ، وهو موجود بحضورنا ، وبحضور دولتلو درويش باشا ، فتقرر عدم تسليم الطوابى المذكورة مالم يصدر أمر من طرف مولانا السلطان وان يصير تقوية العساكر الموجودة فيها بعساكر أخرى لأجل المدافعة ان صار اخراج عساكر من اى دولة كانت وقد حرر تلغراف الى السدة السنية الشاهانية بذلك ، ثم عاد الباشا المومى اليه من الرملة الى (باب شرقى) بالاسكندرية – ولم يجر أدنى حركة عسكرية ، فأرسلنا ياورا مخصوصا اليه تأمره بارسال عساكر الى الطوابى المذكورة ، فأجاب بأنه لا يرسل عساكر أبدا ، ثم بعد برهة توجه الى كفر الدوار وأمر العساكر الموجودة بالاسكندرية بالتوجه وراءه فتوجهوا جميعا ، فصارت مدينة الاسكندرية التى هى أهم بقعة من بقاع القطر خالية من العساكر وفى غد ذلك اليوم خرجت العساكر الانجليزية الى البر ودخلوا الاسكندرية من دون أن تنطلق عليهم بندقية واحدة ، واستلموا مدينة الاسكندرية التى هى أهم بقعة من بقاع القطر ، وهذا عار عظيم وفضيحة كبرى على الجيش المصرى ، لكن لاعيب فيه للجيش وانما على القائد – وهو الباشا المومى اليه – العار الذى لا ينمحى مدى الأزمان » .

ومضى البيان بعد ذلك يعرض وجهة نظر الانجليز ، من انهم نزلوا الى الاسكندرية

لاطفاء الحرائق وحفظ الأمن بها ، وانهم لايفكرون فى احتلالها ، وانهم على استعداد لتسليمها لجنود السلطان أو جنود الخديو .

عرابى يعلن خيانة الخديو :

وكان عرابى من ناحيته ، قد بدأ العمل ضد الخديو ، فسجل على الخديو انحيازه الى جانب العدو ، فى الوقت الذى كان يجب أن يكون على رأس جيشه وشعبه لمحاربة العدو ، وأرسل عرابى باشا برقية الى يعقوب باشا سامى وكيل وزارة الحربية ، يطلب منه عقد جمعية وطنية من علماء البلاد وأمرائها وأعيانها للنظر فى شأن الخديو وعما اذا كان يجوز ما وقع منه بانحيازه الى أعداء البلاد شرعا ، وتقرير ما هو فى صالح البلاد .

وقد استجاب يعقوب باشا سامى الى تعليمات عرابى فاجتمع فى يوم الاثنين عشرة رمضان فى وزارة الداخلية مجلس عام مؤلف من مشاهير العلماء والرؤساء الروحانيون ومأمورى الحكومة الحائزين على المرتبة الثانية فما فوق وأكابر الذوات المتقاعدين وأعيان التجار — وتليت على مسامع المجتمعين البرقيات المتبادلة بين الخديو وبين عرابى باشا عن الموقف ، وأصدرت الجمعية العمومية بعد المداولة القرارات التالية :

أولا : لزوم الاستمرار فى الاستعدادات الحربية مادامت عساكر الانجليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها .

ثانيا : استدعاء الوزراء الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل قبل الحرب وبعده ليتمكن المجلس من اصدار قراره فيما بعد .

ثالثا : تعيين لجنة مركزية من ستة مندوبين من طرف المجلس الى الاسكندرية ويبلغوا حضرات النظار قرار المجلس ثم يدعونهم للحضـور الى العاصـمة للسبب المتقدم . وقد انتخب على مبارك باشا . ومحمد رءوف باشا وأحمد بك السيوفى والشيخ سعيد الشماخى بك (من أعيان التار) والشيخ على نايل ، والشيخ أحمد كيوه (من العلماء) .

وقد اضطلع الوفد بالمهمة التى ناطته به الجمعية العمومية فسافر أعضاؤه الى معسكر الجيش فى كفر الدوار ، واجتمعوا هناك بعرابى ورؤساء الجند ، ثم توجهوا الى الاسكندرية ، واجتمعوا بالخديو والنظار وأخبروهم بمهمتهم . وبقى على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى بالاسكندرية ورجع الأربعة الباقون وأخبروا المجلس ان الخديو أسير عند الانجليز ولا يمكنه الرجوع الى مصر .

الخديو يعزل عرابى :

فى ٢٠ يوليو أصدر الخديو أمرا بعزل عرابى باشا عن وزارة الحربية لمخالفته

الأوامر الصادرة له بالكف عن الاستعدادات العسكرية . ولم يقف عند ذلك الحد ، بل أذاع فى أنحاء البلاد منشورا ، ندد فيه بعرابى .

قرارات الجمعية العمومية بتثبيت عرابى فى منصبه :

فى يوم السبت ٢٢ يوليو عادت الجمعية العمومية الى الانعقاد بوزارة الداخلية بعد أن تضخم عددها اذ ناهز الخمسمائة ، وكان من بينهم ثلاثة من أمراء بيت محمد على(١) وشيخ الأزهر وقاضى القضاة ، وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود . وقد تلى الشيخ محمد عبده على المجتمعين الأوامر الصادرة من الخديو بعزل عرابى ، والمنشورات التى أصدرها عرابى ـ كما تليت فتوى من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازه الى الجيش المحارب لبلاده .

وبعد استعراض الموقف العسكرى والسياسى ـ أصدرت الجمعية العمومية قرارها بتثبيت عرابى باشا فى وظيفته ، ووجوب استمراره فى أعمال الدفاع » ، وايقاف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية كائنة ماكانت وعدم تنفيذها ، حيث أن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المستتب ، ويلزم عرض قرارنا هذا على الأعتاب الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات .

وقد نشرت الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ٣١ يوليو ، نص محضر هـذه الجلسة وأسماء الموقعين عليه .

الانجليز تحتل مدن قناة السويس :

منذ وقت مبكر دلت الدلائل على أن احتلال انجلترا لمصر ، سيكون عن طريق قناة السويس ، والزحف على القاهرة من مدينة الاسماعيلية .. اذ بادر الاميرال سيمور فاحتل مدينة بورسعيد فى ٢٢ يوليو . وفى ٢٦ يوليو اقتحمت سفينة حربية انجليزية مياه القناة وألقت مراسها عند مدينة الاسماعيلية ، وفى يوم ٢ أغسطس نزلت جنود الاسطول فاحتلت مدينة السويس . وكانت الامدادات الانجليزية التى سبق اعدادها وتدريبها لهذه المهمة تتوافد من انجلترا ، حتى وصل عدد الجيش البريطانى قبيل معركة التل الكبير ٦٠٠ر٥٠ مقاتل ، حيث لم يكن الجيش المصرى النظامى يزيد عن ١٩ ألف مقاتل موزعين بين مختلف المواقع منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار و ٣٥٠٠ بأبو قير و ٢٥٠٠ فى رشيد و ٥٠٠٠ فى دمياط .

عرابى لايستجيب لدعوة اغلاق القناة :

وعلى الرغم من توالى هذه النذر ، فقد ظل عرابى يصم أذنيه عن سماع كل تنبيه

(١) الامراء الثلاثة هم : ابراهيم باشا بن الامير احمد باشا والامير كامل باشا فاضل بن الامير مصطفى فاضل والامير احمد باشا كمال بن الامير احمد باشا .

وتحذير ، معتمدا على تأكيدات فريدناند دى لسبس ، وان الانجليز لا يمكن أن يعتدوا على حيدة القناة ، وانه اذا نزل عسكرى فلا بد أن ينزل الى جواره عسكرى فرنسى .

وظل عرابى يرابط بقوة الجيش الرئيسية عند كفر الدوار ، تاركا هذه الجبهة الشرقية مكشوفة ، يتصرف فيها الانجليز كما يشاءون .

جون بينيه صديق العرابيين يحذر :

يقول جون بينيه صديق عرابى بصدد هذه الواقعة :

ان بساطة عرابى جعلته يرتكب أغلاطا كبيرة ظهرت عواقبها فيما بعد فبمقدار ما بذل من الهمة فى الدفاع عن الاسكندرية وتحصين خطوط الدفاع فى كفر الدوار بحيث امتنعت على الانجليز ، قد أظهر منذ بدء القتال غلطة بالغة ، اذ استمع الى النصائح الكاذبة التى خدعه بها مسيو فردناند دى لسبس حين زعم ان الانجليز لا يمكن أن يتعرضوا للعمل الفرنسى ، فامتنع عرابى عن سد القناة فى الوقت المناسب واستمسك برأيه رغم ما كانت تحتمه الخطط الفنية الحربية ورغم ما ارتآه زملاؤه وما ارتأيته أنا وكررته عشر مرات ، تارة بالقول القارس وطورا بالكتابة فى وجوب سد القناة ، ورغم كل ذلك أصر عرابى على رأيه فمهد للجنرال ولزلى نصرا من أسهل ما عرف فى تاريخ المعارك .

وكان جون بينيه لا يفتأ يقول لعرابى :

ان قناة السويس هى خط الدفاع الوحيد الذى لكم فى هذه الناحية واذا لم تحتلوه فسوف يحتله العدو غدا ولن يجد صعوبة فى احتلاله ، لان الانجليز لايهمهم الشرائع ولا المعاهدات ولا يرعون الا مصلحتهم ، فاذا وصلوا الى الاسماعيلية فان ذلك يعد نهاية الحملة (جون بينيه ، عرابى باشا) .

وقد قدمنا أن البارودى ما فتىء ينذر ويحذر ، حتى اذا حم القضاء لم يجد ما ينفس به عن نفسه الا أن يقول شعرا له الدلالة التاريخية :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى	رجعتم لتصديقى وقد قضى الأمر
فلم يبق فى أيديكم غير حسرة	ولم يبق عندى غير عاقبة الصدر
فزال الذى كنتم تخافون شره	وزال الذى لم يبق من بعده شر

المعارك عند كفر الدوار :

كان عزم الانجليز قد استقر على أن يكون هجومهم على مصر من جهة الشرق (أى من جهة السويس) ــ وطبقا للفن العسكرى رأوا أن يشغلوا الجيش المصرى

المرابط عند كفر الدوار ، وأن يثبتوه بها فنشوا عليه غارات منذ مطلع شهر أغسطس وقد أحبطت هذه المحاولات كلها . وعند وصول الجنرال السير جارنت ولزلى الذى عين قائدا عاما للجيوش الانجليزية ، تحركت قوة كبيرة لاحتلال كفر الدوار يوم ٩خ أغسطس ولكن المعركة الجديدة كسابقاتها انتهت بارتداد الانجليز .

وتجددت المناوشات ايام ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ اغسطس وانتهت كلها بارتداد الجيش الانجليزى ، مما جعل الجزع يدب الى نفس الخديو توفيق ، فاذاع فى الثانى والعشرين من أغسطس منشورا جديدا الى ضباط ووحدات الجيش المصرى يأمرهم فيه باطاعة الجنرال ولزلى لأنه يعمل بتوكيل منه لاعادة النظام واستتباب الأمن لحسابه وقد جاء فى هذا المنشور :

« فمن يخضع للجنرال ولزلى فكأنه خضع لنا شخصيا ، ومن خالفه يعد عاصيا لنا ، ويعامل معاملة العاصى ، وقد أصدرنا أمرنا هذا اليكم للعمل بمقتضاه» .

وتستطيع أن تتصور مدى تأثير مثل هذا المنشور على ضعاف النفوس على أن تأثير الخديو كان محدودا ، فقد كان السلطان الشرعى فى عقيدة الناس هو السلطان وكان الاعتقاد أن السلطان يؤيد حركة عرابى باعتباره يقف فى وجه الانجليز الكفار ، ومن هنا فسوف تكون الضربة ماحقة ، عندما لا يلبث السلطان نفسه أن يعلن عصيان عرابى وخروجه عن الطاعة .

معارك الجبهة الشرقية :

فى ٢١ اغسطس وصل ولزلى الى الاسماعيلية للاشراف على الهجوم الحقيقى الذى كان قد تقرر أن يكون من هذه الناحية ، فلم تكن هناك سدود أو عراقيل فضلا عن تحصينات وتجمعات عسكرية تحول دون وصوله الى القاهرة[3] .

وكان قد مهد لهجومه فأذاع منشورا على الشعب المصرى قال فيه :

« يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية أن الدولة البريطانية لم تقصد بارسال البحرية العسكرية الى القطر المصرى الا تأييد سلطة الجناب الخديو ، فجنوودنا والقنابل الا من كان شاكى السلاح خالصا لطاعة الخديو ، أما سائر الأهالى الذين يكونون فى هدوء وسكينة ، فيعاملون بالتؤدة ، ومقتضى الشعائر الانسانية فلا يمسهم أذى بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم ، وما يلزم للجيش من زاد وغيره يؤدى بثمن ، ولذلك ندعوا الأهالى الى تقديم ما لديهم مما يحتاج اليه الجيش . ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا وينشرح صدره من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يؤدون المساعدة فى قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عصوا الخديو أمير البلاد وواليها الشرعى المعين من لدن الحضرة السلطانية .

الاسكندرية فى ١٨٨٢/٨/١٩ ــ امضاء جنرال جارنت ولزلى
قائد الجيوش الانجليزية فى الديار المصرية

وفى ٢٣ أغسطس احتل الانجليز نفيشه بعد احتلالهم الاسماعيلية .

وفى ٢٤ أغسطس سد العرابيون ترعة الاسماعيلية فى نقطـة المجفر غـربى الاسماعيلية ليمنعوا وصول المياه العذبة الى الجيش البريطانى فهاجمه الجنرال ولزلى المجفر واحتلها ، وتابع الانجليز زحفهم فاستولوا على المسخوطة بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين العرابيين ، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى (أبو شنب فضة) ووقعمحمود باشا فهمى رئيس أركان حـرب الجيش المصرى أسيراً بطريق الصدفة فى يد الجيش الانجليزى ، حتى لقد ذهب عرابى فى مذكراته الى حد القول ، بأنه انتهز فرصة وجوده بقرب الانجليز فاستسلم اليهم ، وهو ما نستبعده بدليل انه حوكم بعد ذلك وكيفما كان الأمر فقـد خسر الجيش المصرى بفقدانه العقل المدبر الذى أشرف على تحصينات كفر الدوار وجعلها تستعصى على الانجليز .

وفى يوم ٢٥ أغسطس استولى الانجليز على الحسمة ، ثم احتلوا القصاصين يوم ٢٦ أغسطس فصاروا على مسافة خمسة عشر كيلو من التل الكبير ، حيث يوجد المعسكر الرئيسى للجيش المصرى .

الخديو يؤلف وزارة جديدة برئاسة شريف باشا :

فى العشرين من أغسطس ، أقال الخديو نظارة راغب باشا والذى كان استمرار بقائها غير منطقى مع تطورات الحوادث فقد كانت هى الوزارة التى قررت مواجهة الانجليز واستدعى الخديو محمد شريف باشا الذى أسقطه العرابيون ، كما استقدم من أوربا مصطفى رياض باشا ليشترك فى الوزارة فتشكلت الوزارة على الوجـه التالى :

محمد شريف باشا ــ الرئاسة والخارجية .

مصطفى رياض باشا ــ لوزارة الداخلية .

عمر باشا لطفى ــ للحربية والبحرية .

على حيدر باشا ــ للمالية .

على باشا مبارك ــ للاشغال .

أحمد باشا خيرى ــ للمعارف .

حسين باشا طخرى ــ للحقانية .

محمد زكى باشا ــ للاوقاف .

وكان تأليف الوزارة على هذا الوجه يكتل أعداء عرابى فى جبهة واحدة(١) .

عرابى يتوجه الى الميدان الشرقى :

وهنا فقط أدرك عرابى أن الانجليز جادين فى هجومهم على القاهرة من هذا الطريق ، فانتقل الى معسكر التل الكبير ، وسار بالقطار من كفر الدوار ومعه الضباط والحرس وكان كالعادة يصحبه عبد الله النديم ، الذى أصبح يصدر جريدته من مركز القيادة ، وقدر بذكائه الألمعى قيمة الحرب النفسية فى رفع معنوية الشعب ، فكان يصف المعارك ويصور الانتصارات التى يحرزها الجيش المصرى بما يملأ القلوب حماسة ، وكانت الصحف الأخرى تنقل بياناتها عن المعارك عن جريدته .

وكانت الجماهير تحتشد على طول القطار هاتفة مكبرة ، وكان الدعاء : « الله ينصرك يا عرابى » هو صيحة الجماهير « يا مولانا يا عزيز اهلك عسكر الانجليز » « يا سيمور يا وش القملة مين قال لك تعمل دى العملة » .

وكان عرابى يقول ردا على هتافات الجماهير « أنا لها .. أنا لها » .

وهكذا وصل الى التل الكبير محاطا بالمظاهرات ، ومشاعر الحب والولاء والتفاف الأمة حوله . فأقام معسكره فى التل الكبير ، ولكنه لم يتول القيادة بل عهد بها الى على باشا فهمى الذى جاء من القاهرة على رأس الآيه الأول مددا للجيش .

واقعة القصاصين :

وقاد راشد باشا حسنى الجيش المصرى لمهاجمة الانجليز فى القصاصين يوم ٢٨ اغسطس ، وكان هجوما شديدا موفقا فاستولوا على المواقع الأمامية للانجليز ، ولكن فرسان الجيش الانجليزى عاودوا الهجوم على المصريين فأجلوهم عن مواقعهم وظل الاشتباك مستمرا حتى الليل حيث انفصل الفريقان . وقد خسر الانجليز فى هذه الموقعة ٨ قتلى أحدهم ضابط و ٢١ جريحا منهم عشرة من الضباط .

السلطان يعلن عصيان عرابى :

فى السادس من سبتمبر وقعت الضربة التى زلزلت الأرض تحت أقدام عرابى ، وحطمت معنويته ، وهيأت الوسيلة للخيانة فى صفوفه أن تفرخ وتثمر . فقد نجحت انجلترا أن تحمل السلطان على التخلى نهائيا عن عرابى ، واعلان عصيانه ، وذلك فى

---

(١) ذكر عرابى فى مذكراته أن وزارة اسماعيل راغب استقالت فى ٢٤ أغسطس ، وذكر أحمد شفيق باشا أن وزارة شريف باشا تألفت فى ٢٨ أغسطس . ولكننا استندنا الى تاريخ الرافعى ، الذى عنى بتحقيق الوقائع ، فقد نشرت وثائق تأليف الوزارة فى المونيتوروواجبسيانى (الجريدة الرسمية الفرنسية) فى يوم ٣١ أغسطس .

مقابل أن تسمح انجلترا للباب العالى أن يرسل الى مصر ثلاثة آلاف جندى عثمانى للتعاون مع الجيش البريطانى على اقرار الأمن فى مصر .

وقد جاء بيان السلطان عبد الحميد بالوقائع التالية :

أولا — أن الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكليها الشرعى بمصر هو فخامتلو محمد توفيق باشا .

ثانيا — أن أعمال عرابى كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ، ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ونال أيضا من الحضرة العلية السلطانية العفو العام .

ثالثا — أن الشرف الذى ناله اخيرا من الحضرة العلية السلطانية انما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم .

رابعا — قد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر بدون وجه حق فيكون له عرض نفسه لمسئولية عظيمة ، لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية .

خامسا بناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

سادسا: تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة .

سابعا— يتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الأعظم ، أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف الأوامر بعرض نفسه لمسئولية عظيمة .

ثامنا — أن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية .

ونحسب أن ليس من حق أحد أن يعلق على هذا الانشور ، وعن مدى التأثير الذى أحدثه فى صفوف المقاومة المصرية ، الا عرابى الرجل الذى كان المنشور موجها اليه حيث قال فى مذكراته ، بعد أن تحدث عن ذيوع الخبر فى صفوف الجيش : « تذمر بعض أمراء العساكر ، وقالوا اننا اذن عصاة على السلطان مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله . كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم باشا ، ومن منا مات عاصيا لا أجر له مثل من ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الاسلامى ، لأننا انما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية ، وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا ، وأن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور ، وانما هو دسيسةانجليزية تمكنوا من انفاذها بواسطة الرشوة . ولو

فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب علوى المسلمين خلعه لمخالفتــه لأحكام الدين .

واقعة القصاصين الثانية :

فى التاسع من سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية ، وهى من أكبر المعارك التى وقعت بين الجيش المصرى والجيش الانجليزى ، وهى وحدها كافية لانقـاذ شرف الجيش المصرى ، فقد أبلى فيه القواد والجنود بلا حسنا وكان يمكن أن تغير مجرى التاريخ ، لولا الخيانة .

فقد رتب عرابى باشا مع أركان حربه خطة الهجوم على الجيش الانجليزى المرابط فى القصاصين ، ووزعت قوات الجيش المختلفة بحيث تطبق على الجيش الانجليزى ، وعهد الى محمود سامى باشا البارودى ، أن يهجم بجيشه عند الفجر عن طريق الصالحية .

فلعبت الخيانة لعتها من طريقين ، أما أول الطريقين فهو على يوسف خنفس الذى حمل الخريطة التى رسمها عرابى للمعركة ومواقع الفرق ، الى الانجليز .. فعندما وصلت الفرق الى مواقعها وجدت الانجليز فى انتظارها ، أما الطريق الثانى فكان عن طريق الطحاوى رئيس قبائل البدو فى هذه المنطقة والذى كان عليه أن يقود محمود سامى البارودى الى مواقعها ، فتاه بها فى الصحراء .. فلم تصل فى الوقت المناسب ، وعندما وصل وجد الانجليز مستعدين له ، فتبدد جيشه فى الصحراء .

ويضيف بلنت الى هذين العاملين ، تقصـــير عرابى باشـــا نفسه فى ارســـال الامدادات الى المعركة ، فقد ظل ساكنا فى التل الكبير ومعه فريق كبير من الجيش ، ولو اشترك فى المعركة لغير ميزانها .

وعلى الرغم من هذه الظروف المعاكسة ، فقد ثبت فيها الجيش المصرى ثباتا رائعا وكاد يوقع بالانجليز ، بل كاد يأسر الدوق اوف كنوت ولى عهد انجلترا الذى كان مرافقا للقوات البريطانية على ما يقول المستر بلنت ، الذى علق على هـــذه المعركة بقوله :

« انها كانت أفضل فرصة أتيحت للمصريين لصد تقدم الانجليز وآخـرها ، ولم تكن بعيدة عن النجاح ، ولو أنها نجحت فليس يعرف ما كانوا لا يحصلون عليه من الاعتراف بهم ومصالحتهم ، وذلك لأن الرأى العام فى انجلترا كان قد تغير فعلا فى هذا الوقت بالذات ، وأخذ الناس يشعرون بالخجل من حرب تشن على الفلاحين الذين يحاربون ليخلصوا حريتهم من استبداد قديم » .

ويقول عرابى فى مذكراته : وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الأبطال الى آخر النهار ، وقد جرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة وعلى باشا فهمى برصاصة أيضا فى ساقه وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التى كانت مقذوفاتها كالمطر تنصب فى

الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الانجليز ، اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهما نادر المثال » .

وقد خسر الجيش المصرى بخروج راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى من القيادة بعد محمود باشا فهمى أعظم رجاله العسكريين اقتدارا .

معركة التل الكبير :

فى ١٣ سبتمبر أ ى بعد ثلاثة أيام فقط من معركة القصاصين ، جاءت النهاية بسرعة مذهلة ، اذ فاجأ الانجليز الجيش المصرى المرابط فى التل الكبير على غـرة ، بحيث إستيقظ الجنود وقوادهم ليجدوا الرصاص منهال عليهم من أمامهم ومن خلفهم ، فسرى فيهم الفزع وكانت الهزيمة .

ويشتد المتحاملون على عرابى وينسبون اليه أنه أمض ى الليل هو وجنوده فى حلقات الذكر مما هيأ للانجليز فرصة الانقضاض عليه .

ولسنا نرى أبلغ من الرد على هذه القضية من أن ننقل رواية أحمد باشا شفيق كما نقلت الى الخديو من المصادر الانجليزية بطبيعة الحال ، أو على الأقل من نائبه سلطان باشا الذى كان قد اتخذ مركز نشاطه مع القـوات الانجليزية . يقـول شفيق باشا :

« وتقيد التفاصيل التى وردت على السراى فى صباح اليوم التالى ، أن الانجليز علموا فى مساء ١٢ سبتمبر بواسطة عيونهم ، أن العرابيين منصرفون الى اقامة الأذكار فرأوا بعد طول الانتظار ، أن الفرصة سانحة لمداهمتهم تحت جنح الظلام فتربصوا حتى منتصف الليل ، ثم زحفوا لقتالهم بأحد عشر ألفا من البيادة وألفين من السوارى وستين مدفعا ، وكان فى مقدمة جيشهم بعض ضباط أركان حـرب من المصريين ، وكذا جماعة من عرب الهنادى .

وبدأ الزحف من القصاصين فسار الانجليز دون أن يشـعر بهم محمود باشـا سامى البارودى قائد فرقة الصالحية ، فلم يلقوا أى مقاومة من جانبه ولا من جانب مقدمة العرابيين التى يقودها على بك يوسـف خنفس وكان عرابى كلفه أن يواتيـه بالأخبار يوما فيوما عن حركات الانجليز ، فبعث اليـه فى ١٢ سبتمبر يقـول : ان السكون سائد فى معسكرات العدو ، فاغتر عرابى بذلك وأصـدر أمره الى الجيش بالتزام الراحة . فصرف الجنود ليلتهم فى الأذكار تحت اشراف الشيخ عبد الجواد الذ ى كان مشهورا بالورع والتقوى » .

ولو صح أن الجنود أمضوا الليل فى الأذكار ، لكانوا يقظين عند هجوم الانجليز عليهم والذى بدأ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، أى عند الفجر ولو كان الجنـود يذكرون طوال الليـل لأدركوا صـلاة الفجر ولكانوا متـأهبين للقاء العدو .

وصمود الجيش المصرى عند حصون كفر الدوار ، وفشل كل الهجمات التى شنها الانجليز للزحف على القاهرة من هذه الناحية .

ومعركة القصاصين الأولى والثانية ، التى خاضها الجيش المصرى مهاجما ينطق بأن عرابى وصحبه ، لم يكن سبيلهم فى الحرب هو الدروشة أو الشعوذة بل الحرب والقتال واحكام الخطط ، وان كان الذى لا شك فيه ، أن عرابى وحركته كلها قد قامت على الحماس الدينى ولا عيب فى ذلك ولا لوم ولا تثريب .

وأما الحقيقة كما سجلها رجل الخديو ، أن هزيمة التل الكبير تعود الى الخيانة أولا وأخيرا ، وليس صحيحا أن الانجليز انتهزوا فرصة اشتغال جنود عرابى بالذكر فشنوا الهجوم ، فتحريك هذا العدد الكبير من الجنود يحتاج الى خطة سابقة والى استعداد وكان من بين هذا الاستعداد خيانة على يوسف والمعلومات المضللة التى قدمها لعرابى .

ولندع الآن عرابى يصف لنا ما حدث ، بعد أن اتفقت الأقوال على صدق روايته بل انها تحمل الصدق من ذاتها ونصها وكلماتها .. يقول :

« فى يوم الاربعاء ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ ، ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت فى صلاة الفجر ، اذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة فخرجت ، واذا بى أجد ضرب النار على طول خط الاستحكامات ورأيت بطارية طوبجية سوارى على مرتفع من الأرض يبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر وهى تصب مقذوفاتها على مركزنا العومى ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ، ولم يكن هناك الا الأهالى المتطوعين من الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد وحابر بك من بندر ببا بمديرية بنى سويف وكانوا نحو ألفى نفر ، فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ودهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، فلم يجد كل ذلك نفعا ، لان الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ ، فتفرقوا فرارا ، فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد ، يخبرنى باتخاذ مركز آخر ، ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحما بالخيل والجمال والعساكر ، مشتتين مولين ظهورهم للعدو ، فذهبت الى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار ، وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو وأذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن ، ولم أغادر كلمة من شأنها تنشيط الأجسام الميتة وبث الشجاعة فى قلب كل رعديد جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل القوا بأنفسهم فى الترعة وسبحوا الى البر الغربى .

فذهبت الى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى القاهرة ، وكان معى أخى السيد صالح عرابى وخادمى محمد ابراهيم وجاويش بروجى يدعى عطية محمد فقط ، وكانت مقذوفات الطوبجية السوارى تتساقط علينا من كل صوب حتى تركنا حدود التل الكبير .

فلما وصلت الى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها ، فسألته عما دهاهم فلم يزد على قوله « انه الخذلان » وكانت على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا

ويعود عرابى بعد ذلك الى الوراء ليشرح الاسباب التى ادت الى النتيجة فيقول : فارخينا للخيل اعنتها حتى وصلنا محطة انشاص ، فوجدنا هنـاك قطارا فركبناه واسرعنا الى القاهرة لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم اليها .

أسـباب الخـذلان :

واسباب هذا الخذلان انه فى خلال تلك الايام كانت الرسائل تترى من قبل الخديو الى كبراء الضباط بالوعد والوعيد . معلنة لهم أن الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بأمر السلطان خدمة للخديو وتأييدا لسلطته ، وكانت تلك الرسائل توزع بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه من الذين كانوا مع الانجليز فى الاسماعيلية فأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى العضوين فى مجاس النواب عن مديرية المنوفية . فأثروا على قلوب مثل على بك يوسف ٣ جى اميرلاى ، واحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه ، وعبد الرحمن بك حسن ، ٢ جى آلاى سوارى ، وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية ، واستمر ذلك الى أن كانت ليلة الأربعاء ١٣ سبتمبر فاشاع على بك يوسف انه علم من الجواسيس أن الانجليز لا يخرجون هذه الليلة من مراكزهم ، ولذلك لم يفعل ما أمره به على باشا الروبى من عمل خط الاستحكام من الحجارة ، وجمع عساكره فى نقطة واحدة .

وكانت العساكر الانجليزية قد سارت من أول الليل ، وفى مقدمتها بعض ضباط اركان حرب من المصريين الذين انحازوا الى الخديو مع الانجليز وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق ، واستمروا سائرين الى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل . وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تنازل العدو القتال وتوقف سيره ، رجعت أمامه كأنها تقوده الى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكره فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم واطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والأمام » .

صـمود الجنـود المدربين :

على أن الفزع اذا كان قد أصاب الجند غير المدربين ، والأهالى المتطوعين فان بعض الجنود المدربين وقادتهم الشجعان قد استطاعوا رغم المفاجأة أن يثبتوا فى الميدان ، وأن يقاتلوا حتى الموت ، وان يذهل بعضهم الانجليز بشجاعته حتى ليترك له ولسلى سيفه تقديرا لشجاعته .

أما الذين ثبتوا وانقذوا الشرف العسكرى المصرى ، فآلايان سودانيان بقيـادة الأميرالاى محمد عبيد (بطل واقعة قصر النيل) فقد حاربوا تحت لواء قائدهم حتى استشهد واستشهد معظمهم الى جواره ، كما استبسل أيضا لواء من البيادة بقيادة أحمد بك فرج ، وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد ، وكذلك أبلغى اليوزباشى حسن أفندى رضوان قومندان الطوبجية حيث أصلى الانجليز نارا حامية بمدافعه ودقة

تسديدها ، وقد جرح فى المعركة فأمر القائد الانجليزى بالاعتناء به وأبقى له سيفه تحية له .

وفى المصادر الانجليزية والعربية أدق التفصيلات عن موقعة التل الكبير فليرجع اليها من أراد المزيد من التفصيلات .

وحقائق المدفعية أنها لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة ، وكانت خسائر الانجليز فيها ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و ٤٨ صف ضابط وجندى و ٤٠٢ جريح منهم ٢٧ من الضباط . اما خسائر الجيش فتتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ قتيل وأسر مثل هذا العدد ، ووقعت كل أسلحة الجيش ومهماته غنيمة فى يد الانجليز .

لم يكن عدد الجيش المصرى كبيرا الى الحد الذى كان يزعمه الانجليز فقد قدره الجنرال ولسلى بـ ٢٤ طابورا وثلاثة آلايات من الفرسان وستة آلاف من البدو ، وكان على باشا الروبى الذى استقدم فى اليوم السابق هو الذى تولى القيادة ــ وكان مزودا بستين الى سبعين مدفعا .

ويقول المستر بلنت أن جيش عرابى لم يكن يزيد عن عشرة آلاف جندى والباقى من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم اطلاق بندقية واحدة أما الجيش الانجليزى فكان يتألف من ١١ ألف من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان ومعه ستون مدفعا .

الحالة فى القاهرة :

وكانت القاهرة تنتظر أنباء المعركة فى قلق عظيم ، والعامة والغلمان يضجون ويصيحون بالدعاء والتكبير ، والناس جميعا فى انتظار أخبار الموقعة الفاصلة يروحون ويغدون ، وحكمدار المدينة ابراهيم بك فوزى لا يفتر لحظة عن الطواف فى الشوارع والأزقة منعا لهجوم الرعاع على المتاجر والأحياء الأوربية وخوفا مما قد يقع من الاضطرابات كما حدث عقب ضرب الاسكندرية فى طنطا والمحلة الكبرى وبنها ودمنهور .

وبينما القوم فى هذه الحالة المقلقة اذ بخبر وصول عرابى يملأ الجو ويتناقله الناس ، فيقولون أنه وصل يحمل رأس سيمور وغيره من قواد الانجليز (تاريخ مصر السياسى ــ محمد رفعت) . ولكنه كان قد عاد يجرر أذيال الهزيمة والفشل . ولا جدال فى أن عرابى باشا لو كان قد مات فى التل الكبير لكان ذلك أشرف له وأعظم ، ولوفر على مصر كلها ما تحملته بسبب مسلكه . ومع تقريرنا لهذه الحقيقة ، فاننا لا نقر عبد الرحمن الرافعى على حملته الشديدة على عرابى ، والتى تذهب الى حد القول ، أن دوافعه للهرب كانت للنجاة بجلده ، مع أن أعداء عرابى قبل أصدقائه ، قد قرروا أنه كان معتزما بعد وصوله الى القاهرة ، المضى فى الحرب والقتال ، وانه لم يؤخره عن ذلك ، الا انفضاض الضباط من حوله . فهذا هو جورجى زيدان وهو لا يمكن أن يتهم بالتحيز لعرابى يقول لنا فى كتابه « تاريخ مصر الحديث المطبوع سنة ١٨٨٩ » :

« واستقر الرای علی انشاء خط دفاعی فی ضواحی المحروسة ، فسار عرابی فی فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن أنسب المواقع لبنـــاء ذلك الخط فقال له أحد الضباط : انك بجهلك وســوء تدبيرك قد أحرقت الاسكندرية ، وتريد الآن أن تحرق مصر ، فاذا لم يكن لك فيها ما يهمك فاعلم أن لنا فيها نساء واطفـالا وأملاكا لا نسلم بضياعها تنفيذا لأغراضك ألا تدرى أنك تعرض مصر للخطر بانشـاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفا لكرات المدافع ، فنحن لا نوافقك على ذلك ، وانى اقول لك ذلك بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن جميع الضـباط الحاضرين ، فلا ترج منا مساعدة ويكفى ما قد جرى .

فانذهل عرابى وارتبك فى أمره لاسيما لما رأى الباقين مستحسنين ما قاله رفيقهم فكر راجعا على عقبيه كئيبا فاجتمع باصدقائه ودعاهم الى النظر فى الأمر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوى يعتذرون بهـا عن افعـالهم ويقدمون الخضوع له فحرروا عريضة وأرسلوها مع وفد مؤلف من بطرس غالى ومحمد باشا رءوف وعلى باشا الروبى .

ويقول أحمد شفيق باشا ، المتحدث باسم الخديو :

« وقد علمنا عند وصول هذا الوفد الى السراى ، أنه لما جاء عرابى الى القاهرة بعد فراره من التل الكبير ، عقد المجلس العرفى فى قصر النيل واخبره بانهزام الجيش ، وطلب اليه أن يبدى رأيه فى مواصلة القتال أو التسليم ، فاستقر الرأى على المقاومة ، والح الأمير أحمد كمال عليه فى ذلك ، ولكن هذا القرار كان مجاملة فقط لعرابى اذ كانوا يستشعرون منه الميل الى الاستمرار فى الدفاع . على أن عرابى ما كاد يصل الى العباسـية مع مرعشلى باشا وغيره من الضباط لاختيار المواقع الملائمة للدفاع حتى تجلت له الحقيقة وعلم أن باطن القوم غير ظاهرهم ، ولقد خاطبه خليل بك يكن أحد كبار الضباط بجفاء وقال له (وذكر شفيق باشا نفس العبارات التى أوردها جورجى زيدان من انه قالها) والتفت عرابى الى الضباط فاذا ملامحهم تنطق بمـا يدل على موافقتهم على كلام زميلهم فأيقن انهم خذلوه وعاد كئيبا يائسا .

رواية عرابى باشا :

اما عرابى باشا فيصف لنا فى مذكراته ما حدث عند رجوعه الى القـاهرة على الوجه التالى :

« فى ظهر يوم الأربعاء الموافق ٢٩ شوال ١٣ سبتمبر وصلت من التل الكبير الى القاهرة وتوجهت حالا الى ديوان الجهـادية بقصر النيل ، ودعوت المجلس العمومى للحضور ، وعقد مجلس حافل من أمراء العائلة الخديوية وأمراء العسكرية والملكيـة وأعيان القـاهرة وأخبرتهم بهزيمة الجيش المعسـكر فى راس الوادى ، ثم استشرت المجلس فيما يجب أن يعمل ، وهل يجب الاستمرار فى المدافعة أم يلزم التسليم لقضاء الله وقدره ، فأجاب الأمير ابراهيم أحمد والأمير كامل باشا فاصل بوجوب الدفاع عن الوطن الى النهاية ، ثم قام ابراهيم باشا أحمد ، وقال أن مصر غاصـة بالجند والمخازن

ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ومعدات الدفاع متوافرة ، فالواجب علينـا الدفاع ما دام فينا بقية ، فأجاب الجميع بالاستحسان ، ثم استقر الرأى على انشاء خط دفاعى فى ضواحى المحروسة ، وبناء على ذلك ذهبت الى العباسية ومعى محمود باشا المرعشلى باشمهندس الاستحكامات ومحمود باشا رجاء لواء الخيالة ، وحسن باشا مظهر لواء مأمور تشهيل ارسال الذخائر الحربية الى مركز الجيش ، وتقرر اتخـاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس يستند يمينه على الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل عند فم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا . ثم ذهبنـا جميعـا الى مركز الطوبجية وأردنا استعراض العساكر فلم نجد الا نحو الف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو أربعين نفرا من السوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الأميرالاى أحمد بك نير ، فقال الأميرالاى المذكور انه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم . فلما شاهدنا ذلك رأينا ان حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار كما حصل فى الاسكندرية ، ما دامت المقاومة لا تجدى نفعا ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية سيئة البخت ، فرجعنا الى المجلس الآنف الذكر وأخبرناه بما عن لنا .

وواضح أن عرابى وقد كتب مذكراته بعد عودته من المنفى ، وكانت نفسيته قـد تبدلت وتغيرت ، أراد أن ينسب لنفسه فكرة ايقاف المقاومة لعدم جدواها وأن فضل انقاذ القاهرة يرجع اليه .

ولذلك فالروايات المعاصرة للحادث أصبح وأثبت . على أن الروايات تجمع على أن فكرة استمرار المقاومة كانت موجودة ، ويكون من التجنى على عرابى القول بأنه فر من التل الكبير جبنا وخوفا على حياته ، فهو اذا كان قد فر تحت وطأة المفاجأة . . فلم يلبث بمجرد أن استعاد رشده أن قرر المضى فى المقاومة ، وعدم الاستمرار فيهـا لا يرجع الى ضعفه وانهيار عزيمته ، ولكن للظروف التى جعلت كل من بيدهم الأمر من الضباط والعسكريين ، يرون أن الساعة قد حانت للانحياز الى جانب الخديو .

ويكون اسرافا فى التجنى هذا الذى يقوله عبد الرحمن الرافعى :

« ولو أن عرابى لم يستشهد فى موقعـة التـل الكبير وتراجع منهـا مصرا على الاستمرار فى المقاومة لعد عمله بطولة تذكر له بالخير ، ولكنه نكس على عقبيه لا رغبة فى المدافعة والجهاد ولكن لكى ينجو بنفسه ، اذ سلم سلاحه والقى بنفسه بين احضان الانجليز ، ولو كان مجاهدا حقا لظل يجاهد حتى آخر نسمة من حياته ولم تكن هزيمة التل الكبير بمانعة له من الاستمرار فى الجهاد والاعتصام بالمقاومة لو أراد ذلك » .

وأبسط ما يقال فى الرد على ذلك ، أن عرابى عندما توقف عن القتال ثم سلم سيفه بعد ذلك للانجليز ، لم يكن يعرف ، ولم يكن أحد قد تعهد له اذا فعـل ذلك بالابقـاء على حياته .

وهذا لا يعنى اننا لا نأسف ، أن لم يستشهد عرابى فى التل الكبير ، وأن لا نأسف على الموقف غير الكريم الذى وقفه بعد ذلك فى المحاكمة ، ولا نسجل عليه الأخطاء التى ارتكبها والتى تقطع بأنه وان كان نعم الزعيم الوطنى ، ولكنه لم يكن بالقائد العسكرى.

ولكن التحامل عليه بانكار الوقائع المادية المحققة ، مما لا يتفق والتحقيق التاريخى.

دخول الانجليز الى القاهرة ونهاية العرابيين :

فى يوم الخميس ١٤ سبتمبر أى فى اليوم التالى لموقعة التل الكبير مباشرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وصل الفرسان الانجليز الى العباسية فوجدوا ثكنات الجيش بها خالية ، فاحتلوها .

وكان جون نيته صديق عرابى السويسرى قد نصحه أن يسلم نفسه للانجليز . فتوجه فى الساعة التاسعة مساء مرتديا زيه العسكرى ومتقلدا سيفه ومعه طلبة باشا ، وقصدا القائد البريطانى الذى احتل القاهرة وهو الجنرال در ورى فلما مثلا فى حضرته سلماه سيفهما وامر بهما فاعتقلا فى احدى الغرف ، ولم يكن بها كرسيا فقعدا على الأرض .

أما محمود سامى البارودى ، فقد كان من رأيه اللجوء الى الصعيد واستمرار المقاومة ، فلم يوافقه عرابى وبقية الجماعة ، وعرضت عليه فكرة التسليم فقال لمن نصحه بذلك : اننى ذاهب الى بيتى ، فاذا ارادونى فهم يعرفون اين يجدوننى .

واحتل الانجليز قلعة القاهرة حيث سلمها اليهم الخائن على يوسف خنفس ، الذى كان يتشكى عقب الاحتلال انه لم يتسلم سوى الف جنيه فقط ثمن خيانته .

واحتل الانجليز بعد ذلك ثكنات قصر النيل وقشلاق عابدين ، وسلم الجنود فى كل مكان أسلحتهم ، وهكذا احتلت العاصمة فى هدوء لم يسمع له مثيل ، ذلك ان محافظ العاصمة ابراهيم بك فوزى ، وقف فى وجه أهالى سكان باب الشعرية والحسنية الذين خرجوا يحملون الهراوات بقصد محاربة الانجليز ، واقنعهم بأنه لا جدوى من هذه الحركة سوى سفك الدماء ، وبذل كل جهده لمنع الاحتكاك بين الانجليز وبين الأهالى .

وغنى عن البيان أن موقف الخديو والسلطان واعلانهما أن هذه القوات الانجليزية تعمل باسمهما ولحسابهما ، كان له اكبر الأثر فى حمل الموظفين الى اتخاذ هذا الموقف السلبى من دخول الانجليز الى القاهرة ، وسرى ذلك الشعور من القادة الى الشعب كما هى طبيعة الأمور فى مصر .

وصول الجنرال ولزلى وسلطان باشا :

وفى يوم الجمعة ١٥ سبتمبر وصل الجنرال ولزلى وبصحبته سلطان باشا نائب الخديو ونزل بسراى عابدين وأبرق ولزلى الى وزارة الحرب الانجليزية يقول لها : انتهت الحرب ، لا ترسلوا مددا .

وأسرعت انجلترا فاعتبرت اتفاقها مع السلطان لارسال جيش من ثلاثة آلاف جندى قد أصبح غير ذى موضوع فأبلغته بذلك لقد تحقق أملها الذى ما فتئت تصبو لتحقيقه من عام ١٨٠٧ لقد احتلت مصر .

اما سلطان باشا فقد اصبح صاحب الحول والطول ، قال عنه عرابى فى مذكراته :
« انه أمر بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيــان الا من كان من الجواسيس والمنــافقين حسب ما هو مندرج فى سجلات الخديو ، فسجنوا جميعا الا على بك يوسف وأحمد عبد الغفار وعبد الرحمن حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم فى التل الكبير . وتوجه على بك يوسف الى القلعة مركز آلايه وسلم مفاتيحها الى فرق من الانجليز بأمر سلطان باشــا نائب الخديو ، وكذلك صار سجن جميع الذين بالمديريات والمحافظــات من المستخدمين والموظفين والعمد والأعيان والقضاة والمقيمين وغيرهم من عامة الناس حتى غصت بهم السجون بما يربو على ثلاثين الفا من المصريين .

الغاء الجيش المصرى :

فى التاسع عشر من سبتمبر (٦ ذى القعدة ١٢٩٩) اصدر الخديو توفيق بنــاء على طلب الانجليز أمرا بالغاء الجيش المصرى بحجة أنه شايع العصــاة . وعلى أثر صدور الأمر ، صرف الجنود الى بلادهم ، وأبقى كبار الضباط لمحاكمتهم وكان سراع الانجليز بالغاء الجيش ، ليكون ذلك تكأة لإطالة احتلالهم لمصر بحجة الدفاع عنها .

عودة الخديو الى القــاهرة :

وفى الخامس والعشرين من سبتمبر وصل الخديو الى العاصمة وفى معيته محمد باشا شريف رئيس الوزرا ، وكان فى استقباله على المحطــة الجنرال ولزلى والدوق أوف كنوت نجل الملكة فيكتوريا والسير ادوارد مالت . وركب الخديو مركبته والى يساره الدوق أوف كنوت والجنرال ولزلى والسير ادوارد مالت أمامهما ، واصطفت الجنود الانجليزية وعددها خمسة آلاف على جانبى الطريق من المحطــة حتى سراى الاسماعيلية ، تأكيدا للحقيقة من أن الخديو قد اصبح منذ هذه اللحظة يعيش فى حماية الجيش الانجليزى .

مظاهر مهينة :

ولقد شهدت مصر فى الأسابيع والشهور التــالية للاحتلال عديدا من المظــاهر المهينة ، حيث انحلت العزائم وراج سوق النفاق والدس ، وتسابق الكبراء لخطب ود الانجليز متسترين خلف ادعاء الانجليز بأنهم يعماون لتدعيم سلطة الخديو . فتقدم محمد باشا سلطان باعتباره ممثلا للنواب والأعيــان وعلى رأسهم محمــود سليمان والشواربى باهداء سيف فاخر الى الأميرال سيمور (مدمر مدينة الاسكندرية) وسيف آخر الى الجنرال ولزلى ، وثالث للجنرال درورى لو ، أول من احتل القاهرة . وكان قد سبق لهذا النفر أن بعثوا الى التيمس برسالة اعتبروا ضرب الاسكندرية بمثــابة مفتاح النصر والفوز ، وشبهوا تقدم الخيالة بسير النسور والأسود .

وفى ٣٠ سبتمبر استعرض الخديو الجيش البريطانى فى ميدان عابدين ، وفى ٣ أكتوبر أقام للضباط والقواد الانجليز حفلة تكريم ، وأنعم على ستين منهم بالنياشين المختلفة ، كما أقام رياض باشا مأدبة عشــاء ليلة ١٩ أكتوبر تكريما للجنرال ولزلى

وشكلت لجان التحقيق فى كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية أو أهان الخديو .

والدوق أوف كنوت ، وشرب نخب ملكة انجلترا والجيش البريطانى .

وكافأ الخديو محمد سلطان باشا بالنشان المجيدى من الدرجة الأولى ومنحه عشرة آلاف جنيه .

وصدر الأمر بالقبض على مئات من زعماء الحركة العرابية عسكريين ومدنيين . الخديوية ، أو أهان الخديو .

كما شكلت لجان للتحقيق عن حوادث النهب والسرقة والقتل والحرق التى حدثت فى الاسكندرية يوم ١١ يونيو والأيام التالية ليوم ١١ يوليو حتى يوم ١٦ .

اختفاء عبد الله النديم :

زعيم واحد من زعماء الثورة العرابية ، هو الذى رفض الاستسلام للمصير الذى ارتضاه بقية الزعماء ، ولعله مما يشرف الشعب المصرى أن هذا الزعيم كان ابنا من أبناء هذا الشعب ، لم يكن من حملة الشهادات أو الوظائف الكبرى ، أو الرتب العسكرية ، ولكنه عبد الله النديم خطيب الثورة ، ومشعل خدمتها ، فقد تنكر وغير زيه ، وقصد الى الريف ، حيث شرع فى عملية اختفاء من أخطر ما سجل التاريخ المصرى حيث دام تسع سنوات ، كانت الحكومة فيه تنقب عنه وتقلب الأرض وحددت ألف جنيه مكافأة لمن يقبض عليه . . ولكن ذلك ظل بغير جدوى ، وكان من يأوى اليهم يعرفون شخصيته ويتسترون عليه ، غير خائفين من المصير الذى سيحل بهم اذا قبض عليه عندهم ، وغير طامعين فى المكافأة السخية التى وعد بها من يدل عليه ، وهى أعظم شهادة لكرم عنصر هذا الشعب ووفائه لرجاله . . فلا عجب اذا انفرد عبد الله النديم، بأن ظل مخلصا للثورة العرابية ، متمسكا بمبادئها ، على خلاف بقية الزعماء الآخرين . . وسيقابلنا عبد الله النديم فى مقبل الأيام ، عندما يستأنف نشاطه من جديد .

موقف الشعب المصرى من حركة عرابى :

ولعل عبد الله النديم يجسد فى عملية اختفائه بطولة الشعب المصرى فى هذه الفترة ، فقد وقفت جموع الشعب على استعداد لتنفيذ كل ما يطلب منها ، وجادت طبقات الشعب الفقيرة بما عندها ، فلم يشك الجيش سواء فى التل الكبير او عند كفر الدوار ، من نقص فى الأقوات أو الخدمات . وعندما دخل الانجليز الى مصر وجدوا الأقوات والمهمات مكدسة فى العاصمة .

وقد نشرت جريدة الوطن فى ٢٧ يناير برقية خطابا القاه احد كبار الانجليز فى مدينة نيوكاسل أشاد فيه بوثبة الشعب المصرى ابان أزمة عرابى وقال : لقد جمع فى مصر فى ٣٠ يوما مائة الف نفر و ٨٠٠٠ حصان ٤٠٠٠ بغل ، ومهمات تكفى ضعف هذا الجيش ، ولم نر فى التاريخ سابقة تماثل هذا الحادث سوى ما فعله أهل بولندا عندما تجمعوا للذب عن أنفسهم » . وعندما تسامع أهالى العاصمة بمقدم الانجليز الى

القاهرة ، خرج القاهريون من سكان حى الحسين والدرب الأحمر وباب الشعرية ، ليناضلوا عن مدينتهم ، ولكن زعماءهم وقادتهم أفهموهم بعقم الجهاد ، والشعوب لا تتحرك بغير قادة .

الحكم على عرابى واصحابه :

فى الثالث من ديسمبر (٢٢ محرم ١٣٠٠ هـ) صدر حكم المحكمة العسكرية العليا تحت رئاسة محمد باشا رءوف ، على سبعة من زعماء العرابيين بالاعدام وتخفيف الحكم الى النفى . وقد كان صدور الحكم على هذا الوجه هو خاتمة المطاف لصراع طويل دار بين الانجليز وبين الخديو ، فقد كان الخديو ورجال حكومته لا يقنعون بأقل من اعدام عرابى باشا واصحابه . ومنذ ٢٨ سبتمبر أصدر الخديو مرسوما بتأليف لجنة للتحقيق مع عرابى باشا ، وفى نفس اليوم صدر مرسوم آخر بتشكيل المحكمة التى تتولى محاكمته . وقد شرع على الفور فى التحقيق .

وفى كتاب الاحتلال السرى للمستر بلنت تفاصيل الجهود المضنية التى بذلها ، لمحاكمة عرابى محاكمة عادلة ، والابقاء على حياته ... وقد وجد الانجليز بعد أن استتب لهم الأمر فى مصر ، أن مصلحتهم هى فى الوقوف الى جوار عرابى والابقاء على حياته ، فاستجابوا الى مساعى المستر بلنت فى أن يعهد الدفاع عنه الى أحد المحامين الانجليز المشهورين وهو المستر برودلى . كما طالبوا بأن يحضر التحقيق والمحاكمة ضابط انجليزى كبير ليضمن عدم الاساءة الى عرابى وصحبه أثناء التحقيق . وحاول الخديو أن يرفض هذه المطالب ، ولكن شفيق باشا يقول لنا ان الخديو وحكومته فوجئا ذات يوم ببرقية تصاهم من اللورد جرانفل وزير خارجية انجلترا على صورة انذار جاء فيه : « ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة وان استمرارها على الاباء يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون النتيجة مقتصرة على النظارة وحدها ، بل تتناول مركز الخديو نفسه ، واذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الانجليزية ، فلا يسعها أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الانذار » .

واستفاق الخديو على هذه اللطمة ، ولعله أدرك لأول مرة أنه قد أضاع استقلاله واستقلال بلاده ، وان ما كان يتخيله من أن الانجليز قد جاءوا ليثبتوا سلطانه ، ليس الا محض خرافات وأوهام .

واستجابت الحكومة لطلب الانجليز ، وجاء المحامون الانجليز للدفاع عن عرابى ودخل المحامون فى مفاوضات مع اللورد دوفرين السفير الانجليزى الذى أوفدته انجلترا الى مصر ليشرف على شئونها فى هذه الفترة ، وقد استطاع المستر برودلى أن يبرق الى المستر بلنت فى ٢٩ نوفمبر يقول له : أعطانا عرابى وثيقة مكتوبة ، يقرر فيها السلطة التامة لنا لكى نتفق بشأنه مع دوفرين . ودفرين يقترح اعتبار عرابى مذنبا من حيث الثورة فقط ، والنزول عما عدا ذلك من التهم . أما الحكم فسيخفف الى النفى فى مكان تتفق عليه أنت مع وزارة الخارجية » .

وهكذا اصبح الحكم على عرابى وصحبه مسألة سياسية ، تجرى عليها المفاوضات ولذلك فبعد أن تم الاتفاق ، بدأت المحاكمة ، أو بالأحرى تمثيلية المحاكمة وكان ذلك فى يوم ٣ ديسمبر ، ولم تستغرق التمثيلية سوى بضع دقائق ، وقد بدأت بأن تلا المحامى الانجليزى عن عرابى الوثيقة التالية :

« اننى اعترف بعصيانى على الحضرة الخديوية ، واقر بذلك موافقة لرأى المحامى عنى ـ أحمد عرابى المصرى » .

وخلت المحكمة على أثر ذلك للمداولة ، ثم عادت المحكمة للانعقاد ، فتلا رئيسها الحكم كما يأتى :

« بناء على اعترافك بالعصيان واقرارك بحمل السلاح ضد الحضرة الخديوية فلم يكن للمحكمة الا أن تصدر باتفاق الآراء الحكم عليك بالاعدام ، فالمحكمة قضت بقتلك» .

ولم يكد يتم الرئيس النطق بالحكم ، حتى أردف قائلا : وقد أصدر سمو الخديو امرا يقضى باستبدال الحكم المذكور بالنفى المؤبد من جميع أراضى مصر وملحقاتها ، فاذا عاد ينفذ فيه الحكم كذلك .

وقد قابل عرابى باشا الحكم بالرضا والشكر .

وحوكم زملاء عرابى الستة وهم محمود باشا سامى البارودى ويعقوب باشا سامى ، ومحمود باشا فهمى وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى وطلبة باشا عصمت وصدر عليهم نفس الحكم بالاعدام ثم التخفيف بالنفى .

وكان على باشا الروبى هو الوحيد الذى رفض الاقرار الذى يقضى بالاعتراف بالذنب ، كما رفض ان يدافع عنه محام انجليزى ، وقد صدر الحكم عليه بالنفى الى مصوع لمدة عشرين سنة ، كما حكم على السيد حسن موسى العقاد وهو من زعماء الشعب بحكم مماثل .

وحكم على أثنين بالنفى ثلاث سنوات فى سواكن ، وعلى ثلاثة وثلاثين بالنفى خارج القطر لمدد تتراوح بين خمس وثمان سنوات ، مع عزلهم من وظائفهم وعلى خمسة وستين من الموظفين بالطرد من الحكومة . وعلى عدد كبير من الضباط بالفصل من الخدمة ، وعلى كثير من الأعيان والنواب بالاقامة فى بلادهم تحت ملاحظة البوليس مع دفع تأمين مالى ، يتراوح بين الفين وأربعة آلاف من الجنيهات (١) .

نفى محمد عبده الى الشام :

وكان ممن حكم عليهم بالنفى خارج القطر لمدة ثلاث سنوات الشيخ محمد عبده ، فكان هذا النفى فرصة للشيخ محمد عبده لكى يواصل جهاده فى سبيل انهاض العرب والمسلمين ، وقد استطاع أن يكون له فى بلاد الشام خلال اقامته بها تلامذة عظام لم يلبثوا أن لعبوا دورا كبيرا فى نهضة العالم الاسلامى وعلى رأسهم أمير البيان شكيب ارسلان ، والشيخ رشيد رضا صاحب المنار .

---

(١) نشرت الوقائع المصرية فى اعدادها الصادرة ايام ١١ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ ديسمبر اسماء المبعدين والمعزولين والمحددة اقامتهم .

استقالة رياض باشا احتجاجا على تخفيف الحكم عن عرابى :

فى العاشر من ديسمبر استقال رياض باشا وزير الداخلية من منصبه احتجاجا على تخفيف الحكم عن عرابى تحت ضغط الانجليز ، ويقول شفيق باشا فى مذكراته ، أنه قدم هذه الاستقالة مذ تدخلت انجلترا بانذارها السابق الاشارة اليه ، ولكنه استمهل ، فلما صدر الحكم على هذا الوجه ، أعلنت استقالته وقد بناها على أسباب صحية .

جريدة الوطن تحتج بدورها :

ولم يكن رياض باشا وحيدا فى اعلان استيائه فقد سبقته الى ذلك بعض الصحف ، فقد نشرت جريدة الوطن فى عددها الصادر فى اليوم السابق (٩ ديسمبر) مقالا حملت فيه حملة شعواء على عرابى والانجليز معا لتدخلهم فى تخفيف الحكم ، واليك بعض ما جاء فى هذا المقال نموذجا لبعض ما كان يردده فريق من الرأى العام :

« لقد أخبرنا الكثيرون انه لو وجد فى حصون التل الكبير نحو ثلاثة آلاف نفر من العساكر المدربة المنظمة لامكنهم المقاومة والمكافحة ، مع أنه كان معه ٣٠ ألف نفر ، غير أن الله سبحانه وتعالى جعل له مصرعا من بغيه ، وهلاكا من غيه فهو لهذا السبب مطالب عن غش الجماهير وتدليسه عليهم واحتلال بلادهم . أما الحكومة الانجليزية ، فقد أصبحت لا شك راضية عنه لأنه كان السبب فى زيادة نفوذها ، فهى اذا نظرت الى حسن نتيجة عمله لا الى عمله ، فقد كانت لا تظن حصول الفوز لها بتلك السرعة الغريبة فكانت تخشى بأسه فى أول الأمر ، غير أنها وجدت أنها كانت مغرورة به ، فجبنه أكسبها تلك الغنيمة الباردة التى حسدتها عليها الدنيا ، بل وقد كانت هذه النتيجة ايضا سببا فى تأييد وزارة المستر غلادستون ، واكتساب انجلترا وجاهة فى الاستانة وفى أوربا واحياء مجدها القديم ، وزيادة شرفها الجسيم ، فلماذا اذن لا ندافع عن هذا الباغى .

نفى عرابى وصحبه الستة الى سيلان :

فى الثامن والعشرين من ديسمبر غادر عرابى وصحبه مدينة السويس فى طريقهم الى جزيرة سيلان التى اختيرت لمنفاهم ، ويشكو عرابى فى مذكراته أن الخديو نكث بالعهد الذى تعهد به للمحامى عنه ، وهو أن نحفظ لهم كل أملاكهم ويرتب لهم معاش قدره الفى جنيه فى العام لكل منهم وقد كان هذا هو الأساس الذى قبل على أساسه أن يعترف بالعصيان ، ولكنه فوجىء بالخديو يصدر قرارا فى اليوم التالى لصدور الحكم عليه بمصادرة أملاكه وأملاك زملائه .

انجلترا تكشف النقاب عن اغراضها :

وقد اتخذت انجلترا من الوقوف الى جوار عرابى ، سبيلا للافصاح عن حقيقة الأهداف التى احتلت مصر من أجلها ، فقد كانت دعواها لانزال جنودها رغبتها فى تثبيت سلطان الخديو باعتباره الحاكم الشرعى ، فلما تم لها احتلال مصر ، بدأت تعلن

عن رغبتها في اصلاح شئون مصر ، فأوعزت الى المحامين عن عرابى أن يحصلوا منه على وثيقة سياسية يفوض فيها الى انجلترا أن تتم العمل الذى بدأ به وقد بعث بهذه الوثيقة الى جريدة التيمس فى ٤ ديسمبر واليك فقرات من هذه الوثيقة كما جاءت فى مذكرات عرابى .

قال بعد أن أثنى على المحامين الانجليز وشكر الحكومة الانجليزية لموقفها منه ، وانه مطمئن الى المستقبل لانه سيكون موضع كرم الأمة الانجليزية .

« اننى أعتقد أن انجلترا لا يمكنها الآن أن تتأخر عن سائر الاصلاحات التى كنا نرغب فى اجرائها فى بلادنا ، وانه بعد مضى مدة طويلة يصير ابطال المراقبين وتخرج مصر من أيدى المتوظفين من الأجانب الذين احتلوا كل وظيفة فى مصر ، وانه يصير اصلاح حالة المجالس المحلية (اى المحاكم الأهلية) وتوحيد قوانينها ونشرها للعمل على مقتضاها ، وأن يكون للأمة مجلس نواب منها يكون له صوت معمول به ونظر فى مصالح الأمة المصرية . وأن توضع حدود لمعاملة المرابين مع الأهالى . وبالوقوف على حقيقة احتياج البلاد لتلك الاصلاحات يعلن للأمة الانجليزية أن عصيانى له موجب وسبب عظيم . اننى ابن فلاح مصرى وقد اجتهدت على قدر طاقتى فى نوال هـــذه الاصلاحات كلها للوطن العزيز الذى أنا من أبائه ومحبيه ، فلسوء البخت لم يتيسر لى الحصول على الغرض المقصود ، ولكنى أؤمل فى الأمة الانجليزية انها تتمم الأشغال التى ابتدأتها . واذا فعلت ما أؤمله منها من الاصلاح وسلمت مصر للمصريين كما هو واجب على ذمتها وشرفها تبين لجميع العالم اذ ذاك مساعى عرابى ذلك العـاصى وحقيقة مقاصده .

ان الأمة المصرية بأسرها كانت معى وصحبة لى كما أنى محب لها فأومل أنهـا لا تنسانى عندما تتمم انجلترا الاصلاحات التى كنت طالبها وأحاول الوصول اليها .

وختم عرابى مقاله أو تفويضه للأمة الانجليزية ، بالثنـــاء على رئيس الحكومة الانجليزية ووزير خارجيتها ، وجريدة التيمس وصديقه الحميم المستر بلنت .. وهكذا أغلق عرابى باشا صفحته المشرقة المزهرة كممثل للوطنية المصرية ، الى مرتم فى أحضان الانجليز ، واكبر داعية لكرمهم ومدنيتهم وحضارتهم .. وعهـد اليهم بالعمل الذى كان يصبو لتحقيقه ، وأصبح على عاتق انجلترا أن تقوم به .

الفصل الحادى والعشرون

مصر تحت حكم الإنجليز

١٨٨٣ م – ١٣٠٠ هـ – انجلترا توطد سلطانها فى مصر :

ولم تكن انجلترا فى حاجة الى تفويض من عرابى باشـا ، لتعطى لنفسها سلطة العمل على اصلاح احوال مصر ، باعتبارها احد مناطق الاحتلال البريطانى .

فى الثالث من يناير أرسل اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا ، برقيـة الى الدول العظمى وبخاصة أعضاء المؤتمر الذى كان لا يزال منعقدا من الناحيـة الشكلية فى الآستانة هذا نصها :

انه وان كانت القـوات البريطانيـة باقية فى مصر الآن لصيانة النظام العام ، فان حـكومة جلالة الملكة تنوى سحبهـا عندما تسمح بذلك حالة البلاد ، وتستطيع بوسائلها تثبيت سلطة الخديو ، والى أن يحين ذلك فان مركز حكومة جلالة الملكة بازاء سموه يقضى عليها ببذل « نصائح » للتأكد من أن النظام الذى سيوجد ، سيكون مرضيا ، ويحتوى على عوامل الاستقرار والتقدم » .

وبدأت انجلترا تقدم نصائحها لمصر .

سيطرة الانجليز على الجيش والبوليس :

فى الثامن من يناير أصدر الخديو مرسوما بتعيين السير فالنتين بيكر مفتشا عاما للبوليس وقومندانا عاما له .

وفى السادس عشر من يناير ، أصدر الخديو مرسوما بتعين السـير أفلين وود أحد قواد الحملة الانجليزية على مصر سردارا للجيش المصرى (أى قائدا عاما) ورئيسا لأركان حربه ، مع الانعام عليه برتبة فريق فصار يدعى وود باشا ، وعهد اليه باعادة تنظيم الجيش المصرى وتكوينه وقد حدد عدد الجيش الجديد بسبعة آلاف عسكرى، عين لهم خمسة وسبعين ضابطا انجليزيا .

والغيت قوانين الاصلاحات العسكرية التى صدرت ابان الثورة . كما الغيت المصانع والمؤسسات والبحرية المصرية ..

الغـاء الرقابة الثنائية :

فى الثامن عشر من يناير صدر مرسوم خديوى بالغاء المرسوم المؤرخ ١٨ نوفمبر لعام ١٨٧٦ والقاضى بانشاء الرقابة الثنائية منذ أيام اسماعيل . وقد كان هذا أحد الاصلاحات التى طالمـا تاقت اليها مصر ، ولكنها لم تكن تلغ الآن لحساب مصر ، ولكن لحساب انجلترا التى أرادت أن تتحرر من الرقابة الفرنسية ، وأن تطلق يدها فى شئون مصر .

وقد أسرعت فرنسا فاحتجت على الحكومة المصرية لهذا الالغاء ولكن الحكومة المصرية التى أصبحت مدعمة بالأسطول الانجليزى الرابض فى ميناء الاسكندرية ، لم يعد يعنيها احتجاج فرنسا .

ونصحت الحـكومة الانجليزية الحـكومة المصرية ، بتعيين السير أوكلن كلفن مستشارا ماليا للحكومة المصرية ، فاستجابت الحكومة المصرية للنصيحة وأصبح أوكلن كلفن ، صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى المـالية المصرية .

استدعاء عبد القادر باشا حلمى من السودان :

وخطت انجلترا خطوة جديدة لتقويض شخصية مصر ونفوذها فى افريقيا فبدات تخطط لانسحاب مصر من السودان وممتلكاتها الافريقية ، ولما كان عبد القادر باشا حلمى الذى تولى وزارة السودان وحكمداريته ، قد نجح خلال العام المنصرم فى تثبيت مركز مصر فى السودان ، اذ استطاع رغم قلة موارده وامكانياته المحدودة ، أن يؤمن الخرطوم ومنطقة الجزيرة وان يحصل على انتصارات على الثوار فى منطقة سنار . وأن يرسم سياسة ناجحة تقوم على عدم مهاجمة المهدى وكان المهدى قد وطد سلطانه فى غرب السودان بالاستيلاء على الأبيض عاصمة كردفان . فرأى عبد القادر باشا حلمى أن يدعه وشأنه ، حتى لا يطرح بجنوده فى مخاطر ومهاوى لا ضرورة لها ، تاركا للزمن تفتيت قوى المهدى باشاعة الفرقة بين القبائل الموالية له .

ووجد الانجليز فى خطة عبد القادر باشا حلمى ، ما يعرقل مشروعاتهم بالنسبة للسودان ، فأوعزوا الى الخديو أن يصدر مرسوما بالغاء وزارة السودان واستدعاء عبد القادر باشا حلمى الى مصر .

وانصاع الخديو الى النصيحة وصدر فى ٢٠ يناير المرسوم المطلوب .

واحتج سكان الخرطوم لهذا القرار ، وطالبوا الحكومة المصرية بابقاء عبد القادر باشا حلمى الذى أمن أرواحهم وأموالهم ، فقد أصرت الحكومة على قرارها باستدعاء عبد القادر باشا ، وتعيين علاء الدين باشا الذى كان حكمدارا لشرق السودان ، حكمدارا على عموم السودان .

تقرير اللورد دوفرين :

فى السادس من فبراير رفع اللورد دوفرين الى وزارة الخارجية البريطانية تقريره الشهير الذى كلف بوضعه عقب احتلال الانجليز لمصر . واللورد دوفرين هو سفير انجلترا فى تركيا ، وقد تتبع بهذه الصفة ادوار القضية المصرية فى مختلف ادوارها ، وكان محور مؤتمر الاستانة الذى انعقد فى الاستانة قبيل ضرب مدينة الاسكندرية ، وقاد المناورات الانجليزية ، لتعبيد الطريق أمام احتلالها لمصر . ومن هنا فقد فكرت انجلترا فيه بمجرد احتلالها لمصر ، وانتدبته للحضور الى مصر ، لدراسة أحوالها ووضع تقرير شامل ، ليحدد أسس السياسة الانجليزية فى مصر . وقد أشرف بمجرد حضوره على عمليات تصفية الجيش المصرى القديم ، ومحاكمة عرابى والانتهاء بها الى النهاية التى قدمناها ، ثم توفر على دراسة أحوال البلاد ، بالتعاون مع شريف باشا رئيس الحكومة ورجال انجلترا فى مصر ، ومختلف الموظفين الأجانب ، وانتهى من ذلك كله بوضع تقريره الشهير الذى تعرض فيه لمختلف نواحى الحياة المصرية .

فاقترح بالنسبة للجيش أن يكتفى بتأليف جيش من ستة آلاف جندى على أن يكون تحت قيادة انجليزى ، وكذلك البوليس المصرى ، واقترح أن يعين لوزارة الأشغال مستشار من المهندسين الانجليز الذين عملوا فى الهند للاستعانة به فى تنظيم الرى .

ودرس أحوال الفلاحين وديونهم والضرائب المفروضة عليهم ، ووضع بعض

الاقتراحات لصيانة أملاك صغار المزارعين بمنع البيع الجبرى وفاء للدين بالنسبة لقدر محدود من أطيانهم ، تحفظ لهم ليقوم بأودهم .

وتحدث عن القضاء وضرورة تنظيمه وادخال العنصر الأوربى الى المحاكم الأهلية واقترح تقليد وظيفة النائب العام الى محام انجليزى .

وتكلم عن التعليم وما يتبع فيه ونوه بحاجة البلاد الى مدرسة زراعية ، وأشار الى الحاجة الى مفتشين بارعين يشرفون على سير التعليم ويتولون مراقبته .

الهيئات النيابية :

على أن أهم ما جاء فى تقريره هو دعوته الى الغاء مجلس النواب ، بدعوى أن مصر ليست ناضجة لهذا النظام ، على أن يكتفى بانشاء مجلس شورى القوانين ويتألف من ٢٦ عضوا واختصاصه النظر فى القوانين واللوائح ، على أن يكون رأيه استشاريا . وأن تقوم الى جوار مجلس شورى القوانين جمعية عمومية ، تتألف من الوزراء وأعضاء مجلس الشورى و٤٦ عضوا آخرين يختارون من الأعيان ، ويكون اجتماع الجمعية العمومية مرة كل سنتين ، وتختص بتقرير الضرائب ، فلا يجوز فرض ضريبة أو رسوم او عوائد جديدة الا بعد عرضها على الجمعية العمومية وموافقتها .

وأن يقوم فى كل مديرية مجلس يكون اختصاصه النظر فى مصالح المديرية المحلية على أن تكون سلطته استشارية ، ولهذا المجلس أن يقرر رسوما فوق العادة للانفاق منها على شئون المديرية بعد تصديق الحكومة عليها .

وعلى أن يعهد لأعضاء هذا المجلس انتخاب اعضاء مجلس شورى القوانين .

ثورة المهـــدى :

وقد عزا ثورة المهدى التى كانت قد استفحلت الى سوء الادارة المصرية .

وختم تقريره بضرورة بقـــاء جيش الاحتلال الانجليزى فى مصر ، الى أن يتم اصلاح شئونها ، وتتغلب على مصاعبها .

وقد أرسل اللورد دوفرين قبل مغادرته لمصر فى ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ صورة تقريره الى شريف باشا رئيس الحكومة وأرفقه بخطـاب راح يثنى فيه على معونة شريف باشا له فى اعداد هذا التقرير ، وختم الخطاب بالعبارات التالية :

« أرى ان أختم كتابى هذا بالتنويه بما اتفقنا عليه أثناء مخاطباتنا ، وهو أن نفهم الجميع ، أن نظام الحكم الذى ستضعونه بمساعدة حكومة جلالة الملكة ، سيكون ثابتا وطيد الأركان ، ولاسيما أن اللورد جرانفيل ، أعرب غير مرة عن ثقته بالجناب الخديوى وصدق رغبته فى أن تكون الحكومة الخديوية قائمة على قواعد ثابتة ، وهذا ما يدعو الذين ألقيت اليهم مقاليد الأمر من رجال مصر ، الى الثقة بمساعدة الأمة الانجليزية برمتها لهم فى مهمتهم الوطنية . زد على ذلك أن أوربا بجملتها ، وقفت ترقب مجرى الأحوال فى مصر ، وهى راغبة أشد الرغبة فى أن تقرن مساعيكم بالنجاح التام . وهذا ما يبعث الرجاء بقرب موافقتها على ابطال اعفاء الأجانب من الرسوم والعوائد . وانى أغتنم هذه الفرصة لأعرب لدولتكم عن أجمل عواطف مودتى وصداقتى .

صدور القانون النظامى :

وفى أول مايو صدر القانون النظامى تنفيذا لتقرير دوفرين ، حيث ألغى مجلس النواب وحلت محله التنظيمات الجديدة المقترحة ، وقد نصت المادة الأولى من هذا القانون على ما يلى :

المـادة (١) : يشكل :

أولا – مجالس مديريات ، فى كل مديرية مجلس .

ثانيا – مجلس شورى القوانين .

ثالثا – جمعية عموميـة .

رابعا – مجلس شورى الحكومة .

وراحت مواد القانون الأربعة وخمسين ، تحدد اختصاصات كل من هذه المجالس بما لا يخرج عن الحدود التى رسمها اللورد دوفرين لكل منها .

وصدر قانون لتنظيم عملية الانتخاب ، حيث خول لكل مصرى بالغ من العمر عشرين سنة حق الانتخاب ، وجعل الانتخاب على درجتين فالناخبون يختـــارون مندوبين عنهم ، وهؤلاء المندوبون هم الذين ينتخبون أعضـــاء مجالس المديريات ، وينتخبون أعضاء مجلس شورى القوانين ، أعضاء الجمعية العمومية وعلى تفصيلات لا محل للاضافة فيها .

لائحة ترتيب المحاكم الأهلية :

وفى ١٤ يونية من هذه السنة صدرت لائحة جديدة لترتيب المحاكم الأهلية وهى مقتبسة من لائحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ والتى عطل قيام الثورة العرابية تنفيذها وقد صدرت فيما بعد مجموعات القوانين الحديثة للعمل بها أمام هذه المحاكم وهى مجموعة القانون المدنى وقانون التجارة وقانون المرافعات وقانونا العقوبات وتحقيق الجنايات والقانون التجارى البحرى ، وهى القوانين التى ظل معمولا بها طوال أكثر من خمسين سنة الى أن عدلت فيما بعد .

ظهور وباء الكوليرا :

وفى يونية من هذه السنة ظهر وباء الكوليرا فى مدينة دمياط ومنها انتشر الى سائر أرجاء القطر وقد أطلق عليها اسم « الهيضة » .

يقول أحمد شفيق باشا : لم تكد الثورة العرابية تضع أوزارها وينقضى عهـد الفتن والاضطرابات التى أفضت الى الاحتلال الانجليزى ، حتى منيت مصر بآفة جديدة لا تقل عن آفة الثورة ضررا بالبلاد وفتكا بالعباد .

وقد استمر الوباء حتى تم استئصاله فى آخر اغسطس من هذه السنة ، وبلغ عدة من ماتوا بهـــذا الوباء أربعون ألفا . ولولا الاحتياطات الشديدة التى اتخـذت للوقاية منه وحصر شره واجتماع القوى الفعالة على مكافحته ، لتفاقم الخطب وعظم

البلاء وبلغ عدد الضحايا أضعافا مضاعفة . وقد وفد على مصر لمكافحة هذا الوباء بعثة المانية برئاسة الدكتور كوخ مكتشف ميكروب السل ، وبعثة فرنسية برئاسة باستور العالم الكيمائى الشهير .

وقد أسهم الخديو بشخصه فى الاشراف على الاجراءات التى اتخذت للمقاومة فكان يتفقد المستشفيات والمصحات ويواسى المصابين ، ونسج حكام الأقاليم على منواله مما كان له أعظم الأثر فى تخفيف حدة النكبة .

تعيين اللورد كرومر قنصلا عاما بمصر :

فى الحادى عشر من سبتمبر وصل الى مصر السير افلين بارنج الذى اشتهر فيما بعد باسم اللورد كرومر ، وقد عينته انجلترا ليكون قنصلا عاما لها فى مصر ، بدلا من السير ادوارد مالت الذى كان قد أصبح مكروها فى مصر ، بغيضا الى كل قلب .

وجاء المستر أفلين بارنج مزودا بسلطاته الجديدة ، وهو الزام الحكومة المصرية بالاستماع الى ما يوجهه اليها من نصائح ، يتكفل جيش الاحتلال بتنفيذها بالقوة عند اللزوم .

افناء حملة هيكس فى السودان :

فى الخامس من نوفمبر (٤ محرم ١٣٠١ هـ) وقعت كارثة هكس فى السودان ، حيث قضى المهدى على جيش مؤلف من ثلاثة عشر ألف مقاتل أوفدتهم الحكومة المصرية ، اتباعا لمشورة الانجليز ، وكانوا يتألفون فى الأغلب من جيش عرابى ، وكان الانجليز سعوا قصدا للتخلص منهم ، ووضعوا على رأسهم هيكس باشا وهو ضابط بريطانى متقاعد وعلى خلاف خطة عبد القادر باشا حلمى وهو عدم مهاجمة المهدى فى كردفان البعيدة ، والاستعداد لمواجهته فى المناطق الحصينة حول الخرطوم ، سارت هذه الحملة المنكودة عبر الصحراء والقيافى التى تفصل الأبيض عاصمة كردفان التى اتخذها المهدى مقرا له ، وظلت الحملة تسير أكثر من شهر سيرا على الأقدام : وقد كادت تهلك من الظمأ ، حتى اذا وصلت الى ختـــام رحلتها وقد انهك الجنـــود من فرط الأعياء والظمأ ، انقضت عليهم جموع المهدى على حين غرة ، فلم يكن الأمر أمر معركة ، ولكنه تحول الى مذبحة ، فقتل كل أفراد الحملة بما فيهم هيكس باشا نفسه ، ولم ينج من الابادة سوى ثلثمائة جندى وضابطان اذ اختبأوا بين الأشجار ، فأخذوا أسرى .

كتب السير ونجت سردار الجيش المصرى (فيما بعد) عن هذه الواقعة يقول :

« زرت ميدان الواقعة التى قتل فيها الدراويش المرحوم الجنرال هكس باشا وأفنوا كل جيشه عام ١٨٨٣ ، ومن الغريب أن العساكر كانوا فى حالة شديدة من العطش مع وجود بركة كبيرة من المــاء على بعد ميل واحد ولكنهم لم يعلموا بها .

وارسال تلك الحملة فى أحوال كهذه يعد ضربا من الجنون وهو أكبر دليل على أن الحكومة فى ذلك الحين لم تكن عالمة بحقيقة الحال ، ولم تحسب حسابا للصعوبات التى لا بد لكل جيش عظيم من ملاقاتها فى مروره ببلاد كهذه » .

وليس لنا ما نعلق عليه على هذا القول ، الا أن الحكومة المصرية كان قد أصبح مفروضا عليها أن تتبع النصائح الانجليزية ، ولقد قدمنا أن عبد القادر باشا حلمى كان يعرف مخاطر مثل هذه الحملة وحذر منها ، ولذلك فلسنا نستبعد كما يقول عبد الرحمن الرافعى أن تكون هذه الحملة قد نفذت على هذا الوجه بالذات « لافناء بقايا جيش عرابى ، وليكون فى هلاك الحملة الذريعة التى يتمسك بها الانجليز لاخلاء السودان ، وهو ما كان قد بدأوا يدعون اليه .

افتتاح المحاكم الأهلية :

فى الحادى والثلاثين من ديسمبر ، احتفل رسميا بافتتاح المحاكم الأهلية حيث توجه القضاة ورؤساء المحاكم الى سراى عابدين ، وقدمهم حسين فخرى باشا وزير الحقانية الى الخديو ، وألقى بين يديه خطابا ، رد عليه الخديو ثم حلف رئيس وقضاة محكمة الاستئناف : والنائب العمومى (الانجليزى) اليمين بين يدى الخديو ، وبعد حلف اليمين توجه القضاة الى سراى المحكمة بباب الخلق ، حيث أعلن افتتاح محكمة الاستئناف بمصر ومحكمة مصر الابتدائية .

١٨٨٤ م — ١٣٠١ هـ — استقالة وزارة شريف باشا واخلاء السودان :

فى السابع من يناير قدم شريف باشا استقالته من الوزارة احتجاجا على طلب انجلترا من مصر الانسحاب من السودان ، مقررا انه من العبث هدم ما بذلته مصر من جهود فى السودان ، وتوصيل الحضارة الى قلب أفريقيا ، بقرار يفرض عليها من انجلترا ، وعبثا حاول أن مثل هذا الاخلاء ، يلقى السودان فى مهاوى الفوضى ، ويشجع المهدى نفسه على الهجوم على مصر ، وأنه اذا جاز أن تتخلى مصر عن المناطق التى سقطت بين المهدى فعلا ، فلا يصح لها أن تتخلى عن الخرطوم وما حولها ، حيث لم تمتد الثورة اليها ، ولا تزال الحاميات بها قادرة على الدفاع عنها .

وقد رد وزير خارجية انجلترا اللورد جرانفيل على هذه الحجج فى ٤ يناير ببرقيته المشهورة الى السير أفلن بارنج (كرومر) والتى حددت نهائيا نوع العلاقات بين حكومة مصر وانجلترا ، وقد جاء فى هذه البرقية :

« ذكرتم فى برقيتكم المؤرخة فى ٢٢ الماضى انه فى حالة اصرار حكومة صاحبة الجلالة الملكة على طلب اخلاء السودان ، فان حكومة الخديو حسب رايكم لن تنفذ هذه السياسة ، ولا أرانى فى حاجة الى أن أوضح لكم أنه من الواجب ، ما دام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها من الخطر ، ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى أن تصر على اتباع

السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة .

وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من انه اذا اقتضى الحال استبدال احد الوزراء ، فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزارة ، أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها اليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » .

شريف باشا ينقذ شرفه :

ولقد عرفنا شريف باشا حتى الآن ابا للدستور المصرى ، وجاء قبوله تشكيل الوزارة فى ظل الاحتلال ، ليلقى ظلا على هـذه الشخصية الكريمة ، فكانت هـذه المناسبة الجديدة ليستعيد شريف باشا تألقه كأعظم سياسى وطنى عرفته مصر فى هذه الحقبة ، وليس يقلل من جلال دوره انه من أصل تركى ، فقد عاشت مصر بكل أبنائها الذين خدموها باخلاص : لا تميز بين جنس وجنس وعرق وآخر .

لقد استقال شريف باشا احتجاجا على برقية اللورد جرانفيل ، ولم يجعل استقالته بسبب الصحة ، بل سجل بها اعتراضه على سياسة انجلترا وتدخلها فى شئون مصر ، واليك فقرات من هذه الاستقالة :

« ان الدولة الانجليزية تطلب اخلاء السودان ، وهذا ما لا سبيل اليه ، ولا يخفى أن هذه المقترحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ ، التى نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من جنابكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا ، لأنه لا يمكن لنـا والحالة هذه أن تدير البلاد على أصول شورية » .

وقد اشتهر عن شريف باشا فى هـذه الفترة قولته المأثورة « اذا تركنا السودان ، فان السودان لا يتركنا » .

رياض باشا يرفض تأليف الوزارة :

وقد قبل الخديو استقالة شريف باشا واستدعى رياض باشا وعرض عليه تأليف الوزارة ، فرفض تأليفها على أساس اخلاء السودان ، وقال للخديو على ما نقله لنا شفيق باشا : « انني أود لو كنت ناظرا فى نظارة شريف باشا حتى يكون لى شىء من فخر موقفه المشرف » فلم يبق أمام الخديو الا هذا السياسى المحترف نوبار باشا فاستدعاه لتأليف الوزارة فقبل تأليفها على الفور .

وزارة نوبار باشا :

فى العاشر من يناير تألفت وزارة نوبار باشا على الوجه التالى :

نوبار باشا	للرئاسة والحقانية والخارجية
محمد ثابت باشا	للداخليـــة

مصطفى فهمى باشا	للماليــة
عبد القادر حلمى باشا	للحربية والبحرية
محمود باشا الفلكى	للمعـــارف
عبد الرحمن باشا رشدى	للأشغال

وكان برنامج الوزارة يتلخص فى الدرجة الأولى بتنفيذ نصيحة انجلترا باخـــلاء السودان من خط الاستواء حتى مدينة وادى حلفا التى قرر الانجليز أن يجعلوها حدود مصر الجنوبية .

تعيين كليفورد لويد :

وانتهزت انجلترا فرصة تأليف هذه الوزارة لتقــوى قبضتها على شئون مصر الداخلية فطلبت من نوبار باشا تعيين كليفورد لويد ليكون وكيلا لوزارة الداخليـــة فأجابها الى ذلك وصدر المرسوم بتعيينه .

انجلترا تكلف غوردون باشا بعملية الاخلاء :

ولم تنتظر انجلترا ما تتخذه مصر من اجراءات لاخلاء السودان ، بل أسرعت من جانبها ، فأصدرت قرارا بتكليف غوردون باشا بتولى هذه العملية . وكان من المفارقات التى تدل على ان الانجليز فى هذه المرحلة وان افترقت آراؤهم فقد كانوا يتحـدون عند تنفيذ خطط انجلترا فقد كان غوردون باشا من أشد المعارضين فى انسحاب مصر من السودان وقد كتب قبيل تعيينه مباشرة فى العاشر من يناير مقالا فى جريدة البول مول جازيت وقد جاء فى هذا المقـال :

« ان اخلاء دارفور وكردفان فكرة يمكن قبولها ، ولكن من الواجب بأية وسيلة المحافظة على الولايات الكائنة شرقى النيل الأبيض وشمال سنار وان لا خطر البته يتهدد مصر من ناحية المهدى ، ولا يمكن تسويغ اخلاء السودان بحجة الدفاع عن مصر — أن بالخرطوم وحدها ستة آلاف جندى وضابط وان هناك حاميات ترابط فى النواحى المترامية كدارفور وبحر الغزال وخط الاستواء ، فهل فى العزم تضحية هذه القوات باخلاء السودان وكيف السبيل الى جلائها دون ان تتعرض الى المهالك — وختم مقاله بوجوب الدفاع عن الخرطوم ، وتنبأ بأن قوات المهدى لا يمكن أن تبقى طويلا ، وهى لا يمكن الا أن تتلاشى من نفسها مع الزمن ، أما اذا أخلى السودان فان هذا العمل سيكون ضربة هائلة تصيب سلامة مصر وقد تصيب سلام العالم .

تلك هى آراء الرجل الذى كلفه مجلس وزراء انجلترا بالسفر الى السودان عن طريق مصر لاخلاء السودان : بعد ان عين له مساعدا انجليزيا آخر فى مهمته وهــو الكولونيل استيورت .

معركة التيب الثانية :

وكان طبيعيا بعد أن يشيع عزم مصر على اخلاء السودان الى مضاعفة قوة المهدى ونفوذه — وبعد أن تأكد هذا السلطان فى الغرب فقد انتقل الى الشرق على يد تابعه

الأمين عثمان دقنه الذى وطد سلطان المهدى فى الشرق وهدد موانى البحر الأحمر ولما كانت خطط انجلترا تقضى بالمحافظة على هذه الموانى فقد أرسلت حملة مصرية جديدة ، وضعت على رأسها الجنرال بيكر باشا قومندان البوليس المصرى ، وكان قوام هذه الحملة ٢٣٠٠ جندى و ٩٢ ضابط .

ومرة اخرى فى الخامس من فبراير أوقع الدراويش اتباع المهدى بهذه القوة الجديدة عند مدينة طوكر ، ومزقوها شر ممزق ، وان كان قائدها الانجليزى ظل حيا ، ليبرق الى مصر مشنعا على المصريين حيث يقول :

« سرنا بالأمس فى الصباح وكان عددنا ٣٥٠٠ مقاتل متجهين جنوب طوكر فى مربع لا يهدده سوى قوة صغيرة من العدو لا تزيد على الف رجل على وجه التحديد . فلم تكد انظار العساكر المصرية تقع على العدو حتى رموا أسلحتهم وفروا هاربين ، فتمكن العدو من ذبحهم بدون أقل مقاومة وهكذا مات الف رجل ، وفقدنا كل المهمات والأسلحة » (١)

وفات حضرة القائد الهمام أن الجيش بقائده فهو المسئول عن هزيمته ، وسنرى كيف أن القادة الانجليز أنفسهم هم الذين سيكيلون المدح بعد ذلك للجند المصرى . عندما يسخرون هذا الجندى للحرب من أجل مصالحهم باستعادة السودان .

المصرى البطـل :

فى الثامن من فبراير سقطت مدينة سنكات فى أيدى الدراويش عقب هزيمة الجيش المصرى فى الموقعة السابقة التى سميت بالتيب الثانية . وكان محمد بك توفيق حاكم المدينة ، قد أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن المدينة ، حتى لقد هزم الدراويش أعظم هزيمة كيما اشتهر باسم موقعة سنكات ، والتى جرح فيها عثمان دقنه نفسه ، وقتل ابن عمه . ولكن الدراويش لم تلبث أن عادوا لحصار المدينة سنكات ، وطلبوا من حاكمها محمد بك توفيق أن يسلم فرفض التسليم ، وكان يرسل الاستغاثات الى الخرطوم ومصر فى طلب النجدة فلا يجيبه أحد ، فكتب قبيل سقوط المدينة يقول :

« ان حالة الأطفال والشيوخ جرحت فؤادى ، وأقلقت خاطرى بعد نفاذ المؤن ، ولم نبق على حمال أو جمل ، وكنا بانتظار امدادكم ايانا حتى ألان ، فلم نر منكم معينا ولا صبرا ، وقد ضقت ذرعا وفرغ معين الصبر : ومع ذلك فانى سأصبر بعد هذا الكتاب يومين اثنين فقط فاذا لم يرد منكم عضدا ، فلا بد من اتمام واجبات العسكرية بشرف ، فأطلق المدافع واهدم الاستحكامات واهجم برجالى على الاعداء نتقاتلهم ونناوشهم الحرب بكل قوانا قصد النجاة والفوز بالحياة ، فان أسعدنا الحظ فيه والا فانا نموت موت الأبطال بعد القيام بالواجبات العسكرية وشرف الجندية تخليدا لذكر مصرنا العزيزة ومحافظة على حقوقنا المقدسة .

---

(١) من كتاب انجلترا فى مصر ــ لورد ملنر

وقد نشرت جريدة الأهرام هذا الخطاب فى ١٥ فبراير ، ثم قالت تعليقا عليه :

« هذا هو الكتاب الذى بعث به توفيق بك الشجاع ولما لم يجد معينا ولا مغيثا انجز ما وعد ، ومات شهيدا عزيزا ، وهذا البطل الكريم ما كان جنديا ولا ضابطا ، بل صرف معظم عمره فى التدريس ، ومع ذلك فقد فعل أفعالا عجز عنها مشاهير الضباط وكبار القواد ، وكان فى حياته معززا مكرما ، ومات فقيرا محترما سيظل يذكر بالخير .

وصول غوردون الى الخرطوم :

فى الثامن عشر من فبراير وصل غوردون ومساعده ستيوارت الى السودان ، فاذاع بمجرد وصوله منشورا بين الأهالى قال فيه : ان السودان قد فصل عن مصر فصلا تاما ، وقد جئتكم حاكما عاما عليه ، فجعلت من محمد أحمد (المهدى) اميرا على كردفان ، والغيت الأوامر الصادرة بمنع الرقيق (١) ، وتنازلت عن المتأخر من الضرائب . وأرسل الى المهدى رسولا يحمل اليه هدية من الملابس المزركشة بالقصب والموهة بالذهب وينقل اليه كتابا سليما يسميه فيه سلطان على كردفان متيحا له الحرية التامة والاستقلال فى العمل .

فتلقى من المهدى ردا على خطابه جاء فيه بعد البسملة :

الى غوردون . أخذت خطابك الذى تسميني فيه سلطانا على كردفان فتولانى الذهول من ذلك وداخلنى مزيد الاستغراب المتولد عن زعمك انك تعطينى بلادا هى لى وأنا لها . واعلم وفقك الله ان رسالتى المهدية لا تستوقفنى فى كردفان فقط بل تقضى على بأن اذهب الى الخرطوم واحتلها ومنها اسير الى الاصقاع البعيدة والانحاء الشاسعة ، وأما هديتك المزركشة التى بعثت بها الى فهى اليك راجعة بل هى بك أولى وأليق ، فان دعوتى تأبى اتشاح مثل هذه الملبوسات . هذا هو شرح حالتى ، وأما أنت فاذا رغبت الحياة ، فاتبعنى لتنجو بنفسك واليك دلقا (لبس الدراويش) فالبسه واسلك مسلك الدراويش فتنال رضاى » .

وقد الغى غوردون عقب مطالعته هذه الرسالة قراره الأول باعلان المهدى سلطانا على كردفان ، وأرسل الى الحكومة المصرية يطلب منها ارسال الزبير باشا رحمت الزعيم السودانى الذى كان محتجزا فى مصر منذ أيام اسماعيل باشا ليكون وكيلا له ، باعتباره زعيم السودان القادر على الوقوف فى وجه المهدى والذى تنصاع له كثير من قبائل السودان . ولكن الحكومة المصرية التى كانت تعمل بايعاز من الحكومة الانجليزية ، رفضت ارسال الزبير باشا الى السودان ، بدعوى أن ذلك يقوى به تجارة الرقيق ، فى الوقت الذى كان غوردون يعلن فيه باسم انجلترا اباحة تجارة الرقيق .

---

(١) عاشت انجلترا لا تعرف الاخلاق فى سياستها ، فها هى ذى من اجل تنفيذ خطتها فى السودان تبيح تجارة الرقيق ، وهى التى كانت تزعم أنها عدوة هذه التجارة الاولى .

استقالة محمد باشا ثابت وزير الداخلية :

فى العاشر من شهر مارس استقال محمد باشا ثابت وزير الداخلية احتجـاجا على وكيل وزارة الداخلية الانجليزى ، الذى انتهى بأن الغى سلطة الوزير بل الحكومة المصرية كلها ، وراح يتصرف تصرفات حمقاء ، كان يطلق سراح مئات المجـرمين الموجودين فى السجون والمحكوم عليهم . فيعيثوا فى البلاد فسادا ويضطرب منهم الامن ، وذلك رغم احتجاج النائب العـام الانجليزى المستر ماكسويل .

وفى ذات الوقت يصدر أوامر بتعذيب طائفة اخرى من المسجونين فيخلع أظافرهم ، ويقطع أجسادهم بالسياط ، فلما وصلت أخبار هذه الفظائع الى النائب العـام الانجليزى ، ذهب للتحقيق من ذلك ، فمنع من الدخول الى السجون ، فقدم استقالته احتجاجا على ذلك ولكنها لم تقبل .

وطلب من السير أفلن بارنج قنصل انجلترا ، أن يتدخل ، فكان لامر ما يقف فى صف وكيل الداخلية .

واخيرا ضاق وزير الداخلية محمد باشا ثابت ذرعا بذلك كله ، فقدم استقالته مسببة تعلى من قدره ومكانته قال :

« لقد قبلت الانتظام فى هيئة الحكومة تحت رئاسة دولتكم على أمل أن أقوم بخدمة وطنى العزيز الذى نشأت فيه وربيت ، ولكنى بالنظر للاسباب التى أوضحتها شفاها لدولتكم ، رأيت أن آمالى قد حبطت ، وأن ليس بالامكان تحقيقها لافى الحال ولافى الاستقبال ، وفضلا عن ذلك علمت من قرائن الأحوال ، أن ليس فى وسعى المحافظة على شرف المصلحة فيما بعد ، وانى أشكر دولتكم على عضدكم ، ومساعدتكم لى فى المدة الوجيزة التى صرفتها معكم تحت رئاستكم ، وارجوكم والحالة هذه اعفائى من كل مأمورية على الاطلاق » .

وقبلت الاستقالة ، وتولى هو بنفسه وزارة الداخلية ، وظل كليفورد لويد على غطرسته واستبداده ، فاحتج نوبار باشا بدوره لدى الانجليز ، ولم تلبث أن أوعزت للرجل بالاستقالة فاستقال ، وغادر البلاد فى شهر مايو غير مأسوف عليه .

وكانت هذه فرصة الصحف الفرنسية التى تصدر فى مصر لكى تشهر بالرجل وبالسياسة والادارة الانجليزية فى مصر ، وكيف أن المجرمين أقاموا حفلات الندب والعويل ، على فقدان حاميهم .

منع دخول جريدة العروة الوثقى :

فى أول مايو (٥ رجب ١٣٠١ هـ) أصدرت حكومة نوبار قرارها بمنع دخول جريدة العروة الوثقى الى مصر حفظا للنظام والحكم بغرامة قدرها خمسة جنيهات الى خمس وعشرين جنيها لمن تضبط عنده هذه الجريدة .

وكانت جريدة العروة الوثقى ، هى صيحة مصر والعالم الاسلامى فى وجه الاحتلال البريطانى ، وقد انشأها جمال الدين الأفغانى الذى كان يقيم فى باريس بعد أن لحق به تلميذه ومساعده الشيخ محمد عبده وكان قد حكم عليه بالنفى الى سوريا ثلاث

سنوات ، فسافر منها الى باريس ، وتعاون الزعيمان على اصدار هذه المجلة باللغة العربية ، فراحت تفضح خطط الاستعمار الانجليزى ومؤامراته ومناوراته ، فضاق بها الانجليز ذرعا : فكان هذا المنع السابق الاشارة اليه .

حكومة نوبار والصحافة

والحق أن الصحافة فى هذه الفترة قد حلت محل الزعامات الفردية ، وبدأت هذه الوسيلة الجديدة تقوم بدور المرشد والموجه للرأى العام واطلاعه على الحقائق ، فقد كانت المعارضة الانجليزية فى البرلمان الانجليزى من ناحية والصحف الفرنسية من ناحية أخرى تهاجم بشدة وعنف تصرفات انجلترا فى مصر ، وكانت شركات البرق تنقل ما يقال فى البرلمان الانجليزى أو الصحف الفرنسية والأوروبية الى صحف مصر ، فتلقى الضوء على سير الأحداث .

وكان اللورد دوفرين قد قال فى تقريره انه لا يمكن اقامة حكومة صالحة الا اذا كانت هناك معارضة ، ومن هذا فقد لعبت الصحف المصرية سواء العربية او الفرنسية دور المعارضة فى هذه الفترة وكان على رأس الصحف العربية التى قامت بهذا الدور جريدة الاهرام ، والمحروسة والوطن ، فراحت الحكومة تلاحق هذه الصحف بالانذار والتعطيل ، ولكنها كانت تعود للسماح لها بالصدور بعد التعهد بالتزام الاعتدال .

وكان على رأس الصحف الفرنسية التى تصدر فى مصر ، جريدة البوسفور ، وقد اصطدمت بها الحكومة وأغلقت مطبعتها ، ولكنها اضطرت تحت ضغط فرنسا وتهديدها الى أن تعيدها للصدور ، واعتذر نوبار باشا للقنصل الفرنسى على ما وقع من الحكومة .

ولقد نشر احمد باشا شفيق فى مذكراته نموذجا لما كانت تنشره هذه الصحيفة جدير بأن نسجله هنا اذ هو ناطق بأسلوب المعارضة للاحتلال الانجليزى كما كانت تعكسه الصحافة فقد نشرت الجريدة على شكل اعلان ما يلى :

اعلان — اليون وشركاه — محل كبير لمبيع الدساتير الجديدة بأثمان رخيصة للدول الصغيرة والكبيرة ، وهو مستعد لتوريد السفراء المعتمدين الرسميين وسواهم أحسن مجموعة من أصناف قواد العصاه الذين يصلحون للثورات .

اساطيل لأجل اطلاق القنابل والتدمير .

ان هذا المحل المعروف بأقدميته وبراعة وكلائه ، يتعهد بالعناية لسعادة الشعوب بنفقات قليلة . وهو مستعد أن يعالج مسألة الاصلاحات اللازمة وشعاره الكتمان والثقة .

وفاة أديب اسحق

وعلى ذكر الصحف ففى التاسع عشر من يونيو من هذه السنة ، مات اديب اسحق مؤسس الصحافة الوطنية فى مصر وتلميذ جمال الدين الأفغانى الأول ، فكان لوفاته صدى كبير فى نفوس الناس ، وكأنه كان يرمز بوفاته للجزر الذى بدأت تعانيه مصر .

وفاة محمـد سلطان :

وفى الحادى والعشرين من اغسطس نشر خبر وفاة محمد باشا سلطان فى أوروبا وهكذا طويت هذه الشخصية المتناقضة التى لعبت دورا خطيرا فى حياة مصر فى هذه الحقبة ، فابتدأ وطنيا يؤجج نيران الوطنية ، ثم انقلب كأسوأ ما يكون الانقلاب .

ايفاد اللورد نورنبروك الى مصر :

فى التاسع من سبتمبر وصلت احدى المدرعات الانجليزية تحمل على ظهرها اللورد نورنبروك الذى أوفدته ملكة انجلترا للقيام بمهمة دراسة الأحوال المالية فى مصر وطرق اصلاحها ، وقد جاء فى مرسوم تعيينه ما يلى :

نحن فيكتوريا ـ بنعمة الله ملكة المملكة المتحدة البريطانية العظمى وايرلنـدة وامبراطورة الهند .. الخ الى ابن خالنا المؤتمن المحبوب ومستشارنا الخاص توماس جورج أوف نورنبروك الأمير القائد الحامل نجمة الهند .. انه لما كانت مصر محاطة بالمشاكل المستصعب حلها جدا ، خصوصا ما يتعلق منها بالمالية : وقد عرفتك جديرا بالصداقة والأمانة واصالة الرأى ، فقد سميناك وعيناك وثبتناك ونعينك ونثنيك معتمدنا السامى ، لتذهب الى مصر وتجمع المعلومات والملاحظات التى تقضى بلزومها

وتقدم ذلك الى حكومة جلالتنا ، مع ما يجب ابداؤه من النصـائح التى تعود على الحكومة بالفائدة ، وقد أعطيناك وخولناك بأمرنا هذا النفوذ المطلق لاجراء مأموريتك فى قلب الديار وانفضت ارادتنا أن تراجعنا بواسطة احد كاتمى أسرارنا بكل ما يمكنك الاحاطة به من أحوال البلاد وما يجب التشبث به من المطالب والتوصيات ولذلك فقد وقعنا على امرنا هذا بيدنا الملوكية .

وهكذا أصبحت الملكة فيكتوريا تصدر الأوامر لتنفذ فى مصر كأى جزء من أجزاء الامبراطورية .

وقد قام اللورد بالمأمورية الملقاة على عاتقه . وقدم تقريرا من نوع تقرير اللورد دوفرين وختمه بقوله انه لا يستطيع أن يشير على حكومة جلالة الملكة بتعيين أجل لاجلاء عساكرها عن القطر المصرى ، لأن هـذا متوقف على تقـدم الجيش المصرى وشئون البلاد الداخلية .

١٨٨٥ م ـ ١٣٠٢ هـ ـ سقوط الخرطوم ومقتل غوردن :

فى السادس والعشرين من يناير من هذه السنة ، جاءت النتيجة المحتومة للعبة انجلترا بارسال غوردون باشا الى الخرطوم بمفرده لاجلاء السودان ، فقد أحيط به من كل جانب وفرض عليه الحصار لمدة عام تقريبا ، وراحت استغاثات غوردون تترى على لندن بضرورة ارسال جيش لانقاذه هو ومن معه ، وتحرك الرأى العام الانجليزى فى خاتمة المطاف ، فاضطرت انجلترا أن توفد الى مصر السير ولزلى قائد الحملة الانجليزية وكلفته بتأليف جيش انجليزى مصرى مشترك لانقاذ غوردون . ولكن

الجيش وصل بعد فوات الوقت ، فقد اطبقت جيوش المهدى على مدينة الخرطوم خوفا من وصول النجدة لانقاذه وكان المهدى قد جاء بنفسه ليشرف على الاستيلاء على المدينة ، وقتل غوردون وقطعت رأسه ، وأسرف الدراويش فى القتل والنهب والسلب حتى بلغ عدة من قتل أربعة وعشرين ألفا ، واستبيحت النساء واسترق الأطفال .

وقد حزن المهدى على قتل غوردون فقد كان ينوى على ما قيل أن يفتدى به عرابى باشا من الأسر .

وكان لسقوط الخرطوم على هذا الوجه ومقتل غوردون دويا فى مصر وفى العالم كله وكان خير اعلان عن بركات الاحتلال البريطانى الجديد على مصر والعالم .

وفاة المهدى :

لم ينعم المهدى طويلا بثمرة هذا النصر العظيم الذى جعله سيد السودان بلا منازع ، فقد أدركته المنية وهو فى أوج سؤدده وعظمته ، فى يوم ٢٢ يونيو ، ولسنا نشك لحظة أن المهدى كان أحد انتفاضات العالم الاسلامى فى وجه هذا الاستعمار الأوروبى الزاحف على العالم الاسلامى ينتفضه من أطرافه ويطعنه فى قلبه .

وكان المصريون قد بدأوا ينظرون اليه كمخلص ومنقذ لهم من الاحتلال الانجليزى كما توجهت اليه أنظار المسلمين فى مختلف أنحاء العالم .

فالسيد جمال الدين الأفغانى كان ينظر الى ثورة السودان نظرة اكبار واجلال باعتبارها تحقيق البرنامج الذى وضعه لتحرير الشرق من الاستعمار ورفع شأن المسلمين ولذلك فقد سعى جهده الى نشر الدعاية للمهدى فى المجتمعات السياسية وعلى صفحات الصحف فى عواصم العالم الحر .

وتابعه على ذلك الشيخ محمد عبده فعندما زار لندن عام ١٨٨٤ قال ردا على سؤال وجه اليه من محرر صحيفة بول مول غازيت : لا خطر على مصر من حركة المهدى وانما الخطر من وجودكم أنتم فيها ، وانكم اذا غادرتم مصر فان المهدى لا يرغب فى مهاجمة مصر ، ولن يكون فى هجومه ادنى خطر لأنه محبوب من الشعب المصرى الذى يرى فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوروبى وسيرحبون به عند قدومه .

وقد سئل عنه عرابى فى منفاه فقال : كل من يدعو الى الخير والاصلاح فهو مهدى ولكنه ليس المهدى المنتظر ، ويكفى أن يكون على رأس حملة الانقاذ هيكس باشا الانجليزى ليحكم المهدى بكفر المصريين الذين يقاتلون اخوانهم المسلمين تحت قيادة أوروبية مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة . وقد صح توقع عرابى اذ هلكت هذه الحملة كما رأينا .

وبوفاة المهدى المبكرة أصيبت حركته بضربة قاصمة . لا لأن المهدى كان هو قائدها الملهم الذى كلل النصر جبينه ، ولا لأنه كان تقيا ورعا قادرا على بعث الايمان

فى أتباعه ، بل لأن الوفاة ، قد أجهضت الأساس الذى قامت عليه حركته وهى انه المهدى المنتظر الذى وعد رسول الله به ، وانه سيعيد للاسلام مجده ويجعل رايته تخفق على العالمين ، وانه سيملأ الدنيا عدلا بعد ان ملئت جورا .

وها هو ذا يموت ، فدل ذلك على أنه ليس المهدى المنتظر .

خلافة عبد الله التعايشى :

وقد ولى الأمر من بعده خليفته عبد الله التعايشى ، ولم تكن فيه مزايا المهدى فلم يلبث الخلاف أن دب بين أنصار المهدى ، وانتشرت فى عهده المظالم ، وتوقفت حركة التجارة ، وتفشت الأوبئة والمجاعات فكل ذلك نذيرا بانحلال دولة المهدى .

عقد القرض المضمون :

فى السابع والعشرين من يوليو أصدر الخديو مرسوما بعقد قرض جديد بمبلغ ٨٫٧٧٥٫٠٠٠ ألف بفائدة قدرها ٣ فى المائة وقد أطلق عليه اسم القرض المضمون .. وقد كان عقد هذا القرن الجديد بعد اخلاء السودان هو مظهــر الادارة الانجليزية الجــديدة ، التى جاءت لتنقــذ مصر من براثن الفـــوضى التى أدت الى القروض وتكدس الفوائد .

وقد احتاجت انجلترا فى ادارتها الجديدة لمصر الى هذا المبلغ لتدفع منه اربعــة ملايين جنيه مقدار التعويضات التى منحتها انجلترا لرعايا الدول الأجنبية عما اصابهم من الخسائر نتيجة ضرب الاسكندرية وحرقها ، وقد أرادت انجلترا بهذا التعويض السخى أن تشترى رضاء الأجانب فى مصر باحتلالها .

وكانت ميزانيات سنوات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ قد انتهت بعجز يقدر بثلاثة ملايين جنيه ، واحتاجت نفقات اجلاء السودان الى مليون جنيه كل ذلك بالاضافة الى نفقات جيش الاحتلال الذى أصبح يتعين على مصر أن تدفعها . ومن هنا قررت انجلترا أن يعقد هذا القرض الجديد لتغطية ذلك كله ، بناء على اقتراحات اللورد فورنبروك .

وتمهيدا لعقد هذا القرض دخلت انجلترا فى مفاوضات مع دول أوروبا انتهت فى ١٨ مارس من هذه السنة بتوقيع اتفاق فى لندن بين فرنسا وانجلترا والمانيــا وايطاليا والنمسا والروسيا على هذا القرض .

وفى هذا الاتفــاق قبلت الدول أن تسرى على رعاياها ضريبة الأملاك المبنيــة (العوائد) وأن تسرى عليهم ضريبة أوراق التمغة والباطنطا ، وكان الأجانب معفون من هذه الضرائب .

واشترطت الدول فى مقابل سماحها بهذا القرض ودفع رعاياها لهذه الضرائب أن تنجح انجلترا فى اصلاح المالية المصرية خلال ثلاث سنوات .

الجمعية العمومية تندد بالحماية الانجليزية على مصر

أوعزت انجلترا الى أذنابهـا ، ان يحملوا بعض الفـلاحين فى القرى الى طلب الحماية الانجليزية ، وجرى بالفعل توقيع بعض العرائض ، فانتهز أعضاء الجمعية العمومية فرصة انعقادها فى سبتمبر من هذه السنة ، لكى يقف نائب الغربية ويعلن باسم الأعضاء :

« نحن لا يهمنا سواء كانت هذه الاشاعة (اشاعة التوقيع على العرائض لطلب الحماية) مختلقة أو صحيحة وانما الذى يهمنا ونحن نواب البلاد ووكلاء ستة ملايين من النفوس أن نعلن على رءوس الأشهاد ما يخالج صدورنا ، فأنا لذلك أنطق باسم اعضاء هذه الجمعية كلهم ، بأننا جميعا نقاوم سلطة الأجنبى على بلادنا واننا كلنـا نرفض مع الاحتقار : مقاومين وسعنا كل حماية موجهة الى مصر سـواء كانت من قبل انجلترا أو قبل سواها من الدول .. ونحن مصريون أمناء على بلادنا خاضعين لمولانا السلطان الأعظم ووكيله فى هذه الديار الجناب الخديوى ، وبناء على ذلك فانى أطلب تسجيل كلمتى هذه فى سجل الجمعية لتقوم حجة عند اللزوم .

فاستحسن الأعضاء هذه الكلمات وسجلت فى سجل الجمعية وعلقت جريدة المحروسة التى نشرت هذا النبأ فى عدد ٢٤ سبتمبر ١٨٨٥ « فهكذا تكون الشيم ، وهكذا حب الوطن » .

بعثة درمندولف واحمد مختار باشا الى مصر

فى الثلاثين من اكتوبر من هذه السـنة ، وفد الى القاهرة السير درمندولف مبعوثا انجليزيا فوق العادة ووزيرا مفوضا لمهمة متعلقة بالشئون المصرية .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر وصل الى مصر الغازى أحمد مختار باشا مندوبا ساميا من قبل السلطان عبد الحميد .

وكان وصول الرجلين قد حدث بناء على اتفاق عقدته انجلترا مع تركيا فى الرابع والعشرين من أكتـوبر وكانت وزارة غلادسـتون قد سقطت وحلت محلها وزارة المحافظين التى رأت أن تنهج تحت قيادة سالسبورى نهجا جديدا فمالت الى التفاهم مع تركيا أمام دول أوروبا للتعاون سويا على اعادة تنظيم الجيش المصرى وبحث التغييرات التى يحسن ادخالها على نظام الادارة المصرية تمهيـدا لجلاء الجيوش البريطانية عن مصر ، وقد كانت هذه الحركة الانجليزية ، احدى مناورات انجلترا البارعة لكسب الوقت والظهور بمظهر من لا يرغب فى الحصول على مركز خاص فى مصر وان احتلالها مؤقتا .

ولذلك فقد طالت المفاوضات فى هذه القضية واستطالت وتعددت المقترحات ، حتى اذا احست انجلترا بأن الأمر قد استتب لها ، لن تلبث أن تقطع المفاوضات ولا تعود لموضوعها .

ايقاف زحف الدراويش على مصر

فى الثلاثين من ديسمبر (٢٣ ربيع الأول ١٣٠٣) اظهر الجيش المصرى بعد تنظيمه الجديد ، أول فاعلية له ، اذ استطاع أن يهاجم معقل الدراويش فى بلدة حنس ، وهى المركز الذى اتخذه التعايشى للزحف منه على مصر ، ونشبت معركة عنيفة أبلى فيها المصريون بلاء حسنا ، واستردوا بلدة حنس من الدراويش ، ولكن سياسة الانجليز الرامية الى قطع صلة مصر بالسودان ، جعلتهم يصدرون الأوامر للجيش المصرى بالانسحاب من الموقع ، والرجوع الى مدينة واحدى حلفا .

وكان طبيعيا أن يشجع ذلك التعايشى على أستئناف نشاطه بالسير شمالا واحتلال كل ما تخلى عنه المصريون .

انجلترا توزع أسلاب السودان على دول أوروبا :

واذ أخلى المصريون السودان ، فقد اصبح من الناحية الرسمية والقانونية بلادا ليست فى ملك احد ، وشرعت دول أوروبا فى وضع خططها لالتهام أقصى ما تستطع التهامه ، وكانت ايطاليا سباقة الى ذلك ، بتشجيع وعطف من انجلترا لتؤيدها فى سياستها فى مصر ، فاحتلت ايطاليا ميناء مصوع ثم على محافظة مصوع كلها ، وبلاد اريتريا وراس جردفوى اما الانجليز فقد استولوا على محافظتى زيلع وبربره ، والفرنسيون على تاجورة وجيبوتى . وعندما جلا المصريون عن هرر ، عادت الأسرة التى كانت تحكمها قبل الفتح المصرى ، ولكن الأحباش لم يلبثوا أن استولوا عليها فأصبحت جزءا من الحبشة .

ولم يكن ذلك سوى البداية .

١٨٨٦ م ـ ١٣٠٣ هـ ـ بقاء العلم المصرى مرفوعا فى مديرية خط الاستواء :

لم تستطع ثورة المهدى رغم كل ما حصلت عليه من النجاح الكبير فى الشمال والشرق والغرب ، أن تحظى بمثل هذا النجاح فى الجنوب فيما يطلق عليه مديرية خط الاستواء ، وقد كان يقوم على ادارتها الدكتور ادوارد شنتزر الألمانى والذى كان قد أسلم وتسمى باسم محمد أمين الحكيم ثم اشتهر بعد ذلك باسم امين باشا .

وقد استطاع أمين باشا أن يدير مديرية خط الاستواء ادارة حسنة وان يسير سيرة عدل واصلاح ، وأن يقضى على تجارة الرق فى هذه المنطقة الشاسعة فأحبهالناس والتفوا حوله ، فنظم جيشا من الأهالى ، ونهض بالزراعة ، وعلم الأهالى صناعة النسيج والأحذية والصابون والشمع ، وحصن الأهالى ضد الجدرى وانشأ مستشفى لمعالجتهم ، وانشأ مكاتب للبريد ومكاتب لتعليم الأهالى .

وهكذا لم تستطع ثورة المهدى أن تمتد الى الجنوب ، وظل الأهالى متعلقين بقائدهم .

وساء انجلترا ان تحبط خطتها فى اجلاء المصريين عن السودان لنجاح أمين باشا ، وأن يظل العلم المصرى مرفوعا فى قلب افريقيا فأوعزت الى نوبار باشا أن يبلغه بقرار مصر اخــلاء الســودان ، وأن يوعز له بالانسحاب عن طريق زنزبار ، وكانت انجلترا تتصور أن مجرد هذا الايعاز سيجعل أمين باشا يبادر بالانسحاب ، ولكن الرجل آثر البقاء فى موقعه وظلت سيادة مصر على هذه البقاع .

وهكذا انقضى عام ١٨٨٦ كله ومديرية خط الاستواء يخفق فوقها العلم المصرى .

١٨٨٧ م ـ ١٣٠٤ هـ ـ ايفاد ستانلى لاجبار امين باشا على الانسحاب :

ومرة أخرى لجأت انجلترا الى مناوراتها ، فأعلنت على العالم أن أمين باشا سامى فى خطر ، وأنه يتعين على العالم المتمدن انقاذه ، فعهدت الجمعية الجغرافية الانجليزية الى ستانلى الرحالة الأمريكى المشهور بمهمة انقاذه وتخليصه .

واوفدت المستر ستانلى الى مصر ليكون على رأس ما اسمته حملة الانقاذ ، فقابل السير افلين بازنج (كرومر) وتلقى منه التعليمات وزود بخطاب من توفيق باشا الى أمين باشا ، يبشره بأنه أرسل اليه ستانلى لانقاذه ، وخطاب آخر من نوبار باشا بنفس المعنى ولما كانت خطة انجلترا هى التظاهر بأنها تقوم بمهمة انسانية ، فقد حرصت فى خطابات الخديوى ورئيس الحكومة المصرية الى أمين باشا ، أن تنص على حرية أمين باشا فى البقــاء او الرحيل مع تهديده فانه اذا اختار البقــاء فلا ينبغى أن يتوقع أى مساعدة او معاونة اما فى حالة اختيــاره الحضور هو ومن معه من العساكر والجند فسوف تصرف لهم رواتبهم كاملة .

وفى كتاب ضخم مؤلف من ثلاثة مجلدات ، أصدره الأمير عمر طوسون تفصــيل دقيق لكل ما جرى من أحداث حول هذه البعثة التى أرسلها ستانلى لاجلاء أمين باشا عن مديرية خط الاستواء ... وكيف عرض عليه عندما قابله أن يختار اذا شاء البقاء فى موقعه لحساب ملك البلجيك ، أو لحساب انجلترا .

فليرجع الى هــذا الكتاب « تاريخ مديرية خط الاســتواء » من أراد المــزيد من التفصيلات .

وفاة شريف باشا :

فى التاسع عشر من أبريل (٢٥ رجب ١٣٠٤) مات محمد شريف باشا فى أوروبا فحمل جثمانه الى مصر ودفن بها .

وهكذا طويت صفحة سياسى يزين هذه الفترة من حياة مصر ادى واجبــه كاملا لتدعيم الديمقــراطية والحيـــاة الدســتورية منــذ ولى منصب الوزارة فى أيام اسماعيل باشا .

اتفاقية الاستانة لاجلاء الانجليز عن مصر :

فى الثانى والعشرين من شهر مايو من هذه السنة ، انتهت المفاوضات التى ظلت جارية بين انجترا وتركيا لتحديد موعد الجلاء ، بابرام معاهدة تعهدت فيها انجلترا أن تجلو عن مصر بعد ثلاث سنوات واشترطت لنفسها حق ارسال جنود الى مصر واعادة احتلالها اذا اضطرب بها الأمن والنظام ، مع تخويل تركيا نفس هذا الحق .

وقد لخص اللورد ملنر أهمية هذه المعاهدة ، فى انها اعترفت لانجلترا بشرعية احتلال مصر : عند وقوع اضطراب بها وليس يقلل من أهمية هذا الحق انه قد اعترف لتركيا بحق مماثل ، لأن تركيا كانت قد وصلت الى درجة من الضعف لا تمكنها من استغلال هذا الحق ، فيبقى لانجلترا أن تستعمله من الناحية العملية .

ومن عجب ان السلطان عبد الحميد تقاعس عن التصديق على هذه المعاهدة وظل يؤجل توقيعه عليها ، الى أن ضاقت انجلترا ذرعا فطالبت من ممثلها أن ينسحب من الاستانة ، ولما حاول السلطان عبد الحميد بعد ذلك أن يستأنف المفاوضات للتصديق على المعاهدة ... اعتذرت انجلترا بأن هذا الأمر له يعد له محلا .. وهكذا استمر الاحتلال البريطانى .

١٨٨٨ م ــ ١٣٠٥ هـ ــ اقالة وزارة نوبار باشا :

فى السابع من يونيو من هذه السنة ، أقال الخديو وزارة نوبار باشا على اثر خلاف قام بينه وبين نوبار ، وقد جاء فى خطاب الاقالة : انه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس ، وما هو الا تكرار لما حدث أكثر من مرة منذ التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك ، فلهذا قد فصلتك من وظيفتك وعهدت برئاسة الوزارة وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا .

وقد أقدم توفيق باشا على هذه الخطوة دون استشارة انجلترا على ما تقول جريدة المحروسة فى عدد ٢١ يونيو من هذه السنة .

وكان يمكن للسير افلين بارنج (كرومر) أو لوزارة الخارجية البريطية أن تعترض عليها ، ولكن انجلترا لم تجد لنفسها مصلحة فى المحافظة على رجل كان قد أدى المطلوب منه وهو اخلاء السودان ، وقد أصبح بغيضا الى الناس ، وهكذا مر هذا الحادث دون اعتراض .

وزارة رياض باشا :

فى الحادى عشر من شهر يونيو صدر المرسوم القاضى بتشكيل وزارة مصطفى باشا رياض عى الوجه التالى :

رياض باشا ــ للرئاسة والداخلية والمالية .

مصطفى باشا فهمى ــ للحربية والبحرية .

على ذو الفقار باشا ــ للخارجية .

محمد زكى باشا ــ للأشغال .

حسين فخرى باشا ــ للحقانية .

على باشا مبارك ــ للمعارف العمومية .

وقد قوبلت الوزارة الجديدة بالرضاء والارتياح ، فقد كانت البلاد لا تزال تذكر لرياض باشا رفضه تأليف الوزارة بعد استقالة شريف باشا . وكان رياض باشا رغم نزعته الاستبدادية ، قد اشتهر بالاستقامة والنزاهة ، وتوقع الناس أن تخف وطأة السيطرة الانجليزية على يديه .

معاهدة الاستانة وحياد قناة السويس :

فى التاسع والعشرين من أكتوبر عقدت معاهدة الاستانة التى تقررت فيها حيدة قناة السويس ، وقد وقعتها انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا وايطاليا وروسيا واسبانيا وهولندا وتركيا .

وقد طالبت دول أوربا بهذه المعاهدة منذ احتل الانجليز مصر ، وكانت هذه المطالبة تؤلف جزء من المفاوضات التى دارت بمناسبة عقد القرض المضمون ولكن انجلترا نجحت فى اقناع الدول بتوقيع الاتفاقية المالية ، حيث ظلت المفاوضات حول حيدة القناة تتعثر بسبب رفض انجلترا تضمن المعاهدة اى اشارة لجلاء قواتها عن مصر .

واخيرا تم التوقيع على المعاهدة واغفال الاشارة الى الجلاء .

وتتلخص احكام المعاهدة فى بقاء قناة السويس دائما مفتوحة فى وجه جميع السفن التجارية والحربية فى حالتى الحرب والسلم لجميع الدول دون تمييز بينها وتعهدت الدول الموقعة على المعاهدة أن لا تعرقل أو تمنع حرية المرور فى القناة .

وخولت الحكومة المصرية اتخاذ الوسائل الكافية لتنفيذ هذه المعاهدة وفى حالة ما اذا لم يكن لدى الحكومة المصرية الوسائل الكافية لذلك فعليها ان تطلب معاونة الحكومة العثمانية التى عليها أن تتخذ الوسائل لتلبية هذا الطلب .

واكدت هذه المعاهدة حق مصر على منطقة الحياد وأنها ارض مصرية ولمصر حق السيادة عليها ، وحق اجراء كل ما تراه منها للدفاع عن مصر والمحافظة على الأمن والسلام ، على أن لا تتعارض هذه الوسائل مع حرية المرور فى القناة وقد اشترطت انجلترا لنفسها أن لا تعرقل احكام هذه المعاهدة حريتها فى العمل أثناء احتلال جنودها لمصر ، موهمة الدول أن هذا الاحتلال مؤقت ، لا يلبث أن ينتهى فى القريب العاجل .

١٨٨٩ م ــ ١٣٠٦ هـ ــ انتصار المصريين فى موقعة توشكى :

فى الثالث من اغسطس دارت معركة توشكى وكان عزم عبد الله التعايشى خليفة المهدى لم يفتر عن احتلال مصر ، ولذلك فقد وجه قوة كبيرة للقيام بهذه المهمة ووضع

على رأسها عبد الرحمن النجومى ، بطل كل المعـارك التى قادها الدراويش ، وبطل الاستيلاء على الخـرطوم وتقـدم جيش الدراويش لاحتلال مدينة توشكى ، وكانت القوات المصرية بعد تنظيمها من جديد متمركزة فى هـذا الموقع وعلى رأسها السردار الانجليزى جرنفل باشا فصمدت القوة المصرية ودارت الدائرة على الدراويش ، وقتل منهم ١٥٠٠ رجل : ولكن الخسارة الأعظم هى موت بطل الدراويش وهو عبد الرحمن النجـومى وذلك فى الوقت الذى لم يخسر فيـه المصريون سـوى ٢١ قتيلا و ١٣١ جريحا .

وهكذا استرد الجيش المصرى قوته وفاعليته ، فى الوقت الذى فقد فيه الدراويش قوتهم الدافعة الأولى التى كانت تجعلهم ينتصرون على طول الخط .

اخلاء مديرية خط الاستواء :

على أن هذا النصر على الدراويش لم يكن له اى أثر على ايقـاف خطط الانجليز الرامية الى اخلاء السودان من المصريين ، فقد مضى ستانلى بناء على تعليمات انجلترا فى تحقيق ما ذهب من أجـله ، وهو اجلاء أمين باشا ومن معـه من رجالات مصر عن مديرية خط الاستواء ، بأن قادهم الى بحيرة البرت نيانزا جنوبا ومنها الى سواحل زنجبار .

وقبل أن يغادر المصريون هذه المنـاطق ، كان منـدوبو شركة افريقيـا الشرقية الانجليزية الاستعمارية يحاولون الاتفاق معهم ، ومع أعوانهم للرجوع الى حيث كانوا ولكن تحت ادارتهم على أن يعطوا مرتبات مضاعفة .

ظهور جريدة المؤيد :

فى أول ديسمبر من هذه السنة (٨ ربيع الثانى ١٣٠٧) صدر العدد الأول من جريدة المؤيد وكان صاحب امتيازها الشيخ على يوسف وكانت سياستها وطنيـة اسلامية ، مع ولاء لرياض باشا الذى ساعد على اصدارها ، فكان لهذه الجريدة فضل فى بعث الروح الوطنية التى كانت قد ذبلت تحت رد فعل الهزيمة المنكرة التى منيت بها البلاد . وبدأت تنبه الرأى العام الى حقائق الحالة السياسية التى وصلت اليها البلاد ، مما كان له أكبر الأثر فى تطور الحركة الوطنية فى السنوات التالية .

والحق ان ظهور هذه الجريدة بتشجيع من رياض باشا ، وهو الذى ذكرنا من قبل انه صاحب الفضل فى استضافة جمال الدين الأفغانى فى مصر ، ثم كان هو الذى ألقى زمام جريدة الوقائع المصرية للشيخ محمد عبـده بحيث جعل منهـا قبل الثورة العرابية أداة اصـلاح وتربية وايقـاظ للهمم ، يلقى ضـوء على بعض جوانب هذه الشخصية التى لعبت دورا خطيرا فى حياة مصر السياسية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، افترقت حولها الآراء .

الغـاء العونة :

فى التاسع عشر من ديسمبر صدر أمر عال بالغـاء نظـام (العونة) وهو تسخير الأهالى فى اعمال الرى . مع الغاء مهمة خفر وملاحظة جسور النيل على الأهالى كما جرت العادة ، وكذلك تأدية الاعمال المستعجلة فى حالة الخطر اثنان الفيضان . وفى مقابل الغاء العونة فرض الأمر المذكور ضريبة جديدة على الأطيان قيمتها أربعة قروش ونصف على كل فدان ، شريطة أن لا يزيد المبـالغ المتحصل عى ١٥٠ الف جنيه لدفع اجور من يقومون بالعمل الذى كان بالسخرة ، ومعنى هذا الاصلاح أن رياض باشا رفع العبء عن أفراد المزارعين ووضعه على عاتق الملاك .

وهكذا مضى فى سلسلة اصلاحاته الاجتماعية التى بدات فى وزارته الأولى بالغاء الكرباج وابطال تسخير الفلاحين فى خدمة الأمراء وكبار المواطنين والأعيان .

الميزانيـــة :

وقد قدرت الايرادات فى هذه السنة بمبلغ ٩٫٥٦٧٫٠٠٠ والمصروفات ٩٫٥٥٩٫٠٠٠ اى بفائض قدره ٨٫٠٠٠ جنيه .

عودة محمد عبده الى مصر :

فى هذه السنة عاد الشيخ محمد عبده الى مصر ، وكان قد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات كما قدمنا .

ويبـدو انه لم يرجع الى مصر الا بعد أن كان قـد استوثق من أنه لن يكون محل اضطهاد ، وأن سيكون بقدرته أن يسهم فى خدمة بلاده . وفى خلال هذه الفترة ـ كان الشيخ محمد عبده قد اختلف مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ورأى أن سبيل اصلاح المسلمين لن يكون بالثورات والحروب بعد أن ضعف جانب المسلمين ، وانما يكون عن طريق الاصلاح الدينى ، ونشر التربية والتعليم .

ولكن الخديو توفيق رأى أن يبعده عن هذه المجالات ، فاقترح تعيينه فى القضاء وعلى أن يبقى بعيدا عن العاصمة .

١٨٩٠ م ـ ١٣٠٧ هـ ـ انجلترا تبسط نفوذها على مديرية خط الاستواء :

اذا كان نشاط انجلترا كما قدمنا قد بدأ فى مديرية خط الاستواء قبل أن يغادر المصريون العـائدون الى مصر شرق افريقيـا ، فقـد خطت أول خطواتها الرسمية فى يوليو من هذه السنة لالحاق مديرية خط الاستواء بامبراطوريتها اذ عقدت مع المانيا معاهدة اعترفت فيها المانيـا بالمركز الذى ادعته انجلترا لنفسها فى هذه المنطقة ، وهو ان افريقيـا الشرقية البريطانية اصبحت تمتد الى ـحدود مصر والى حدود الكونغو البلجيكية .

حتى اذا انتهت من ابرام هذه المعاهدة ، سيرت حملة على أوغندا لبسط نفوذها فيه .

تخفيض فوائد الدين :

فى ٨ نوفمبر من هذه السنة صدر مرسوم فى مصر بتخفيض فوائد الديون المستحقة على مصر الى ٤ فى المائة وثلاثة ونصف فى المائة واجراء بعض التعديلات لصالح الخزينة المصرية . وقد ترتب على هذا التخفيض وهذه الترتيبات توفير مبلغ ٢٦٥ر٠٠٠ جنيه فى السنة ، وجهت لاصلاح الادارة .

١٨٩١ م ـ ١٣٠٨ هـ ـ تعيين انجليزى مستشارا قضائيا :

فى الخامس والعشرين من فبراير صدر مرسوم خديوى بتعيين المستر جون سكوت مستشارا قضائيا لوزارة الحقانية وبذلك امتد نفوذ الانجليز الى مرفق القضاء بعد امتداده الى مرفق المالية والداخلية والأشغال والجيش والبوليس .

وكان تعيين المستر سكوت فى هذا المنصب الخطير ضد ارادة رياض باشا الذى عارض فيه ، ولكن ازاء اصرار انجلترا لم يسع الخديو الا أن يقبل النصيحة فصدر المرسوم بتعيينه .

ولم يعجب الانجليز موقف الصلابة الذى وقفه رياض باشا ، فقد أصبحوا غير مستعدين لسماع أى معارضة لرغباتهم ... ولذلك فقد توترت العلاقات بينهم وبين رياض باشا ... فأصدر كتشنر باشا على ما يقول احمد شفيق باشا امرا لرؤساء الأقلام فى الداخلية أن يعرضوا عليه جميع الأوراق أولا ، ثم يرى هو ما يجب عرضه منها على رياض باشا وما لا يجب . وكذا وضع كتشنر وسكوت تقريرهما بالاتفاق معا ورفعاه للخديو معا دون علم الناظر المختص فاستاء رياض باشا لذلك أشد الاستياء واعتبر هذا التصرف ماسا بكرامته وكرامة البلاد .

استقالة رياض باشا :

فى الثانى عشر من شهر مايو قدم مصطفى رياض باشا استقالة من الوزارة ، ولكنه لم يشر فى استقالته الى اسبابها الحقيقية وعالها بالأسباب الصحية .

تاليف وزارة مصطفى باشا فهمى :

فى الرابع عشر من شهر مايو من هذه السنة تألفت وزارة مصطفى باشا فهمى بناء على ترشيح اللورد كرومر على الوجه التالى :

مصطفى فهمى باشا ـ للرئاسة والداخلية .

عبد الرحمن باشا رشدى ـ للمالية .

محمد زكى باشا ـ للمعارف والأشغال .

حسين باشا فخرى ـ للحقانية .

يوسف باشا شهدى — للحربية والبحرية .

تيجران باشا — للخارجية .

وقد قال اللورد ملنر فى كتابه : انجلترا فى مصر . ان اختيار اللورد كرومر قد وقع على مصطفى باشا فهمى ، وهو الوزير الذى تنشده انجلترا فمنذ أسندت اليه رئاسة الوزارة تطورت الحكومة المصرية بالنسبة لعلاقاتها معنا فهو أول رئيس وزارة يشارك عواطف الانجليز بلا تحفظ ، ولم تكن العلاقات الانجليزية والمصرية من الصفاء فى عهد مثل ما كانت منذ تولى الوزارة .

الحساب الختامى :

وانتهى الحساب الختامى لهذه السنة على الوجه التالى :

ايرادات ٥١٦ر١٥٩ر١٢ مصـــروفات ٧٠٢ر٣٩٥ر١١ ما خص الاحتيـــاطى ٢٢٨ر١٤٣ر١ .

القبض على عبد الله النديم ونفيه الى الشام :

فى الثانى من أكتوبر من هذه السنة قبض على البطل الأسطورى والزعيم الشعبى عبد الله النديم بعد اختفاء دام تسع سنوات .

وكان الأمر قد انتهى به الى بلدة الجميزة مركز السنطة من مديرية الغربية وكان الاسم الذى ادعاه لنفسه فى هذه المرحلة هو الشيخ ابراهيم الشهاوى .

وشاء الله لكى يكرم رمز الشعب المصرى ، أن يكون وكيل النيابة الذى عهد اليه بالتحقيق معه هو قاسم أمين ، ويقول لنا عبد الله النديم فى مذكراته التى نشرها عن هذا الحادث فى مجلة الأستاذ التى أصدرها فيما بعد ان قاسم أمين قال له : أنت حر فى كلامك فقل ما شئت : فلم يسمع فى أن أحدا من الناس أوانى على أنى عبـــد الله النديم المطلوب للحكومة . بل كنت أدخل البيت بدعوى أدعيها وأخرج خوفا من تفرس صاحب البيت فى وقبضه على .. ولم يكد نبأ القبض على عبد الله النديم يذاع ويشاع ، حتى هاجت الخواطر ، وتحركت النفوس الخامدة ، وانبعث وهج الوطنية وطالبت الصحف بالعفو عنه . وأسرع مجلس الوزراء لمعالجة هذا الطارىء على أحسن وجه لا يثير النفوس والأحقاد .. فقرر فى جلسة ١٢ أكتوبر ابعاد النديم الى الشـــام ومنحه ١٥٠ جنيها ليستعين بها على شئون الحياة ، والافراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء .

ويقف الانسان متأملا فى عجيب صنع الله ، الذى أحاط عبد الله النديم بهـــذه الكرامة جزاء وفاقا لاخلاصه وثباته على مبدئه ، فهو الزعيم الوحيد من زعماء الثورة العرابية الذى لم ينكر جهاده ، وظل ثابتا على ايمانه بمثله العليا فى الحرية وحـــق الشعب فى حكم نفسه ، ولم يستجد العفو من أحد ، ولا ذل لأحد .

وسنرى كيف أن انبعاث الوطنية المصرية فى مرحلتها الجديدة ، كان على ميعـــاد مع عودة عبد الله النديم الى الحياة العاملة ، فلن تبلث أن تبدأ صفحة جديدة .

التحاق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق :

وكان مقدرا أن تكون هذه الصفحة الجديدة على يد شاب صغير لم يكن عمره قد تجاوز السابعة عشرة وفى هذه السنة فى أكتوبر على وجه التحديد كان مصطفى كامل يلتحق بكلية الحقوق لأول مرة مبتدئا بذلك حياته العامة من أجل مصر ، وهكذا لم يكن عبثا ولا هو بمحض الصدفة أن يتم هذان الحادثان فى سنة واحدة وشهر واحد .

١٨٩٢ م — ١٣٠٩ — وفاة الخديو توفيق باشا :

فى السابع من يناير من هذه السنة مات الخديو توفيق بعد مرض لم يمهله أكثر من سبعة أيام ، وكان عمره يوم مات أربعين سنة هجرية الا بعض أيام ، ومدة حكمه ثلاث عشرة سنة الا شهرا .

وسيظل تاريخه رهنا باحتلال الانجليز لمصر بمساعدته لهم فمن المحقق انه لولا هذه المساعدة ، لما أقدموا على هذه المغامرة . وتم تصفية الامبراطورية المصرية فى افريقيا على يديه . ووئد الدستور والحياة النيابية التى كانت قد بدأت نموها فى عهده .

ومع ذلك فان هذه الموسوعة يجب أن تتسع لوجهة نظر رجل عاش فى كنفه ، ويعتبر نفسه ربيب نعمته ، وللرجل وزنه وخطره من حيث عقليته وعلمه وخدماته التى قدمها لمصر ونعنى به أحمد شفيق باشا قال :

كان توفيق باشا محبا لبلاده ، عاملا لتقدم الشعب واسعاده ، يقاسمه السراء والضراء ، فهو أول من تنازل من أعضاء الأسرة الخديوية عن حقوقه وأطيانه لدفع الدين المطلوب من الحكومة .

وكان مهتما بنشر التعليم منذ كان وليا للعهد حيث أوفد بعثة لتلقى العلم فى مدرسة المبتديان ، وأنشأ مدرسة القبة ، فلما ولى الأمر أسس المدرسة العلية . كل ذلك على نفقته الخاصة .

وهو الذى جنح الى تمصير قيادة الجيش تدريجيا فمنح الضباط الثلاثة المصريين احمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى قيادة ثلاثة آلايات وكانت من قبل وقفا على الأتراك والجراكسة .

ولما اشار الانجليز على سموه بالالتجاء الى احدى المدرعات قبل البدء فى تدمير طوابى اسكندرية ، أبى قائلا ان الواجب يقضى عليه أن لا يترك أمته وقت الخطر كما شاطرها وقت السلم

ولما علم بانتصار الانجليز فى التل الكبير عز عليه أن يتم توطيد عرشه على يد الأجانب وعلى حساب بلاده وبذله شعبه ولذا تساقطت دموعه ومن الذى لا يعجب بوطنيته الصادقة حينما يعلم انه عندما تفشت الكوليرا فى البلاد غامر سموه رحمه الله فزار مرضاها فى المستشفيات مواسيا ومعينا رغم نصح الناصحين بعدم المخاطرة بصحته الغالية .

أما خلقه فقد كان الديمقراطية الدمثة (كذا) اذ كان يجالس حاشيته فيتخذ منها بطانته وأصدقاءه لا فرق بين كبار الموظفين وصغارهم . وكان يأذن لهم أن يرسلوا النفوس فى حضرته على سجيتها ، وان يدخن منهم من يدخن حين يكون فى وقت النزهة .

وكان رحمه الله شغوفا بالاطلاع على جلائل أمور الشعب ودقائقها حتى أنه فتح أبوابه يستقبل زائريه فيتحدث معهم فيما يهمهم من الشئون ، كما كان يتتبع ما تكتبه الصحف بعناية دقيقة .

أما أداء الفرائض فكان يقوم به على تقوى الله ، يصوم ويصلى ويأمر بالصلاة والصوم ويعاتب على تركهما ويثيب على فعلهما ، وهو أول من قام بأداء فريضة الجمعة فى المساجد وكان يرسل المعونة سرا الى من يستحقها دون أن يعلم هؤلاء المستحقون مصدرها وكان عفيفا معتدلا فى شهواته لم يتزوج غير واحدة ، ولم يتخذ الخليلات والسرايا : وكان لا يميل الى الغدر حتى بألد أعدائه .

وكان قنوعا اكتفى بما حدد لنفسه من المخصصات ، وقد أراد الانجليز أن يبيعوه حديقة القبارى وما اليها من الأراضى الزراعية الشاسعة بمبلغ يسير من المال ، وأن يبيعوه كذلك قصر الجزيرة وملحقاته بعشرين ألفا من الجنيهات مع أن مصاريف بنائها أربت على ٨٩٨٫٠٠٠ جنيه فأبى خشية أن يقال عنه انه استغل مركزه .

توفيق والدستور والانجليز :

على أن شفيق باشا بكل رغبته فى الدفاع عن توفيق لم يستطع الا ان ينكر عليه أن يكون دستوريا وأن يصفه بأنه عاش تابعا للانجليز واصفا التبعية بكلمة الصداقة .. قال :

ولم تكن سياسة توفيق دستورية بدليل استقالة نظارة شريف باشا بسبب آرائها الدستورية وعدم موافقة توفيق عليها ، لأنه كان يرى أنه ليس من السهل انتقال الشعب من حكومة فردية محضة الى حكومة دستورية نيابية طفرة من غير تدرج .

وقال عن علاقته بالانجليز . نقلا عن حديث أفضى به الخديو الى مراسل التيمس « اننى لم أكن أفكر فى منصب الخديوية وأحسن أيامى عندما كنت بعيدا عن هذا المنصب . وانى لم أقبله الا قياما بالوجب نحو أبى ووطنى مسترشدا بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترا . وان أمامى واحدة من ثلاث خطط للحكم . اما اتباع هذه النصائح ظاهرا والعمل على محاربتها فى الخفاء . واما طاعتها طاعة عمياء أو اناقش نصائحها بكل صراحة وأبدى آرائى فيها فاذا قبلت كان بها والا فأنا مضطر لقبولها . وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة فاعتبرت ضعيفا . فهل كان يمكننى أن أقاوم للنهاية » ؟

يقول شفيق باشا :

وقد استمرت هذه الصداقة (بين توفيق والانجليز) حتى آخر أيام حياته فكان بذلك موضع ثقتهم واحترامهم .

تولى الخديو عباس حلمى الثانى عرش مصر :

فى السادس عشر من يناير ، أقيم فى القاهرة احتفال عام ، وفى ميدان قصرعابدين حيث نودى بتولى عباس حلمى أكبر أولاد محمد توفيق خديويا على مصر ، وذلك بأن تلى رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى برقية الباب العالى وهذا نصها :

« بناء على ما عرضناه على الحضرة الشاهانية من أنه بمقتضى فرمان وراثة الخديوية المصرية ، يؤول سند الخديوية الى حضرة عباس حلمى باشا أكبر أولاد المرحوم محمد توفيق باشا ، وانه لحينما يصل حضرته لمصر ، تكون ادارة الحكومة المصرية بواسطة عطوفتكم بالاشتراك مع هيئة النظار ، وقد صدرت الادارة السنية بذلك فلزم الاخطار » .

وكان جيش الاحتلال الانجليزى ، يصطف فى ميدان سراى عابدين وعلى رأسه قائده العام ، كما وقفت فرق من الجيش المصرى وعلى رأسه سردار الجيش السير جرانفيل .

وصول عباس باشا الى القاهرة :

وكان عباس حلمى قد وصل الى القاهرة قبيل الاحتفال وقد برهن على نشاطه وحيويته واعتزامه القبض على زمام الأمور ، بحضوره صباح هذا اليوم الى الاسكندرية قادما من فيينا ، بصحبة مندوبين بعثت بهما حكومة النمسا تكريما له فلم يمكث فى الاسكندرية الا ريثما يعد له قطار لنقله الى القاهرة ، فوصل القطار الى العاصمة فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وكانت جماهير الشعب تملأ الشوارع والطرقات : التى زينت أجمل زينة ، فاخترق موكب الخديو الجديد الشوارع وسط هتافات الشعب وزغاريده .

وقد أوشك صغر سن عباس حلمى أن يسبب أزمة فى الحكم ، لولا أن بادر العلماء فقرروا بلوغه سن الرشد فى ١٤ يوليو ١٩٠١ حيث أتم ثمان عشرة سنة هجرية وبذلك زالت عقبة صغر السن .

وقد بدأ عباس حكمه بحماس فى مناهضة السياسة الانجليزية فى مصر ، متأثرا فى ذلك بشبابه من ناحية ، وللأثر الذى غرسته فى نفسه البيئة التى تلقى العلم فيها وهى النمسا ، حيث كانت بطبيعتها تناهض سياسة انجلترا .

ومن هنا فقد قرر عباس حلمى منذ اللحظة الأولى ، أن لا يتابع خطوات أبيه فى الخضوع للأوامر والتعليمات الانجليزية .. ودلت تصرفاته الأولى على ذلك .

تعيين محمد توفيق البكرى شيخا لمشايخ الصوفية :

فبعد أربعة أيام فقط من توليه الخديوية أى فى عشرين من يناير عين السـيد محمد توفيق البكرى ، وكان زميله فى الدراسة شيخا لمشايخ الصوفية وضم اليـه نقابة الأشراف ، وهكذا وضـع على رأس الزعامة الروحية فى البلاد أحد أصدقائه وخـلانه .

ويحضر اجتماع الجمعية العمومية :

وفى الثلاثين من يناير حضر الخديو اجتماع الجمعية العمومية والقى خطابا كشف فيه عن برنامجه ومنهاجه .. وقد جاء فى هذا الخطاب :

« يسرنا أن نعلنكم فى اجتماعنا اليوم أول مرة بحضرتكم ، أننا مع غيابنا عـن ديارنا ، كنا نتتبع أعمالكم ، بكل الأهمية مفتخرين بوجود هيئة فى القطر تنـوب عن أهاليه ، فكونوا على يقين أن غاية مقصدنا المحافظة على امتيازات هـذه الهيئة المرتبط بها نجاح مصر ومستقبلها ، ولذلك كان من أول ما اهتممنا به أن جمعناكم حولنا ، ويسرنا أن نبشركم فى أول اجتماعكم هذا أننا بالاتفاق مع هيئة حكومتنـا قد قررنا الغاء الضريبة التى كنتم قـد وافقتم على ربطها فى جلستكم المنعقدة فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩ نظير الغاء المعونة بتمامها ، وتنقيص ثمن المصلح (الملح) » .

تعدد مظاهر النشاط :

ولم يكن حضور عباس حلمى اجتماع الجمعيـة العمومية الا مظهرا من مظاهر نشاط الخديو فى كافة الاتجاهات ، فقد فتح سراى عابدين لاستقبال مختلف موظفى الوزارات المختلفة ، وراح يرأس مجلس الوزراء ، ويدعو الوزراء للغداء على مائدته ، وانتهز فرصة حلول شهر رمضان ، لكى يدعو مختلف الطوائف للافطار على مائدته ، ويعقب ذلك جلسات دينية يفسر فيها القرآن .

العفو عن العرابيين :

وفى الثالث من فبراير أقدم الخديو على خطوة جديدة ليتحبب الى الشعب ، ويعلن عن معارضته السياسة الانجليزية اذ أصدر أول أوامره بالعفو عن بعض زعماء الثورة العرابية وعلى رأسهم عبد الله النديم خطيب الثورة الذى كان منفيا فى الشام والسيد حسن موسى العقاد وآخرين ..

وكان ذلك مقدمة لاصدار عفو عام كما سيجىء بعد :

محاولة صهيونية لتأسيس دولة اسرائيل :

وفى هذا الشهر من السنة (فبراير) كشف القناع عن محاولة صهيونية للشروع فى تأسيس دولة يهودية فى الأراضى المقدسة ، اذ أقدم يهودى المانى يدعى فريد مان على شراء باخرة كبيرة حشد فوقها نفرا من الخبراء ما بين كيمـاويين ومهندسـين

وجغرافيين وثلاثين أسرة يهودية : والجميع مزودون بالسلاح ،والذخيرة والمدفعية ، ونزلوا الى الساحل الشرقى المواجه لمنطقة شرم الشيخ ، عند المويلح والوجه والضبا ونصبوا خيامهم ، وشرعوا فى اخضاع مشايخ الاعراب المحيطين بهم بالاغراء تارة والتخويف تارة أخرى ، وأعلنوا انهم مأذونين فى حكم هذه المنطقة من الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية والحكومة الألمانية معا .

وفى يوم الثلاثاء التاسع من فبراير كشفت جريدة المؤيد النقاب عن هذا الحادث وتابعتها بقية الصحف فنشرت الأهرام فى عددها الصادر يوم الخميس ١١ فبراير مزيدا من التفصيلات .

وقد بادر حاكم الحجاز فأرسل قوة عسكرية لاحتلال قلعة المويلح واجلاء اليهود من هذا المكان ، ولكن فريدمان تصدى لهذه القوة العسكرية وهددها بالحرب فانسحب الضابط العثمانى . وفى نفس الوقت أرسلت مصر من ناحيتها ثلاثين جنديا على رأسهم ضابط انجليزى ، فكان ذلك سببا لقيام أزمة بين الدولة العثمانية والحكومة المصرية ، فقد كانت مصر تعتبر هذا القسم من شبه جزيرة العرب الذى يشمل ساحلها الغربى ابتداء من مدينة العقبة من أملاك مصر وتخضع لسيادتها ، ولكن الدولة العثمانية ردت على ذلك بأنها انما وضعت هذا القسم تحت ادارة مصر لأنه كان يؤلف الطريق البرى لسير المحمل المصرى وقافلة الحجاج ، فأما وقد زال هذا السبب ، وأصبح المصريون يحجون عن طريق البحر والنزول فى جدة ، فقد زال السبب الذى من أجله وضعت هذه الأراضى تحت ادارة الحكومة المصرية ، وطالبت الدولة العثمانية مصر أن ترفع يدها عن هذه المنطقة ولا تتدخل فى شئونها .

وقد ترتب على هذه الأزمة أن أخر الباب العالى اصدار فرمان تولية الخديو عباس لمصر حتى يفصل فى هذا الموضوع .

ورأى الخديو أن لا يبدأ حكمه باحتكاك مع الباب العالى ، فى الوقت الذى اعتزم فيه مواجهة الاحتلال البريطانى ، ولذلك فقد استجاب لمطالب الباب العالى بشأن الحدود بين مصر والدولة العثمانية ، ولم يجد السير بارنج (لورد كرومر) لستر الفضيحة التى استطارت من أثر هذه المحاولة الصهيونية لاستعمار جزيرة العرب وتأسيس دولة اسرائيل بها ، الا أن يوافق على التسوية المطلوبة ، فصدر فى ١٦ فبراير قرار من مجلس الوزراء يقضى بالتخلى عن مدينة العقبة وما حولها جنوبا من شبه جزيرة العرب الى الدولة العثمانية .

اغفال المؤرخين المصريين لهذا الحادث :

ومن عجب أن كتب التاريخ المصرية كلها (فيما وصل اليه علمى) قد اغفلت ذكر حادث فريدمان الذى كان السبب المباشر فى اثارة النزاع بين مصر وتركيا حول الحدود وأن هذه المحاولة الصهيونية المبكرة لتأسيس دولة اسرائيل ، هى السبب فى تأخر صدور فرمان تولية عباس الثانى .. وقد اكتفى عبد الرحمن الرافعى فى كتبه ، وأحمد شفيق فى مذكراته بالحديث عن أزمة الحدود ، دون الاشارة الى حادث فريدمان واحتلال مدينة مدين واتخاذها عاصمة لما أسماه دولة اسرائيل .

تعيين كتشنر سردار للجيش المصرى :

فى الثالث عشر من ابريل صدر أمر عال بتعيين كتشنر سردارا للجيش المصرى حلفا لسير فرنسيس جرانفيل الذى استدعى الى بلاده .

وكان الخـــديو عباس قد ولى أريكة الحكم يولى الجيش عناية زائدة ، فكان يستعرض من حين لآخر مختلف وحداته ، ويديم الطواف على ثكنات الجيش .

وعندما لاحظ فى بعض جولاته أن ضباط جيش الاحتلال الانجليزى لا يحيونه عند مروره احتج على ذلك .. فصدرت الأوامر لجنـود وضباط جيش الاحتـــلال بوجوب تحيته .

حفلة قراءة الفرمان :

وفى الخامس عشر من ابريل أقيمت حفلة تلاوة الفرمان القاضى بتعيين عباس حلمى خديويا على مصر ، بعد أن حلت أزمة الحدود ، وكان المشير أحمـــــد باشا أيوب قد وصل الى الاسكندرية يوم ٤ ابريل ، ولما كانت المفاوضات حول تسوية مشكلة الحدود كانت لم تنته بعد ، فقد ظل مقيما بالاسكندرية حتى سويت المشـــكلة نهائيا فأقيم الاحتفال .

افتتاح كوبرى امبابة :

وفى الخامس من مايو أقيمت حفلة افتتاح كوبرى امبابة وهو اكبر منشئة اريد بها تيسير السفر الى الوجه القبلى من محطة العاصمة ، ولا يزال هذا الكوبرى بعـــد أن أعيد أنشاؤه قائما حتى الآن وهو السبيل الوحيد لربط الوجه البحرى بالقبلى عن طريق السكة الحديد .

عودة عبد الله النديم الى مصر :

وفى التاسع من شهر مايو وصل السيد عبد الله النديم الى مصر ، فوجد الهدوء والاستسلام قد ران عليهـــا ، واستسلم الكبار قبل الصغار للاحتلال الانجليزى ممثـــلا فى شخصية اللورد كرومر الحاكم المطلق غير المتوج .

صدور مجلة الأستاذ :

ولكن عبد الله النديم الذى يعتبر بحق الزعيم الروحى لثورة عرابى ، لم يستســلم كالباقين فلم يمض على وصوله أربعة أشهر ، حتى كان يعود الى بعض نشاطه القديم فأصدر فى ٢٣ أغسطس مجلة الأستاذ وقسم التحرير فيها الى ثلاثة اقسام :

١ — مقالات علمية وطنية بلغة ادبية رفيعة يكتبها للخاصة والمثقفين من قــرائه ، وقصد بهذا القسم أن يكون امتدادا للعروة الوثقى .

٢ — مقالات ومحاورات باللغة العامية بين النديم وواحد من أولاد البلد أو واحدة من بنات البلد ترمى الى تهذيب العامة وترقية مداركهم وفى هذا القسم ينتقد العيوب الاجتماعية بعنف ويصف لها الدواء .

٣ - قسم بأسلوب عربى مبسط قريب الى العامية ، عبارة عن دروس للتلاميذ من البنين والبنات فى صورة محاورات فكاهية ترمى الى تهذيب انصاف العقول .

اتصال النديم بمصطفى كامل :

على أن أعظم ما قام به عبد الله النديم من عمل لاحياء جذوة الوطنية هو اكتشافه لمصطفى كامل وتوسمه فيه النبوغ والوطنية ، فراح يصطفيه ويمده بكل ما لديه من معلومات عن أسرار الثورة العرابية ، وأهدافها : ونقاط ضعفها وأسباب خذلانها ، وهو فى خلال ذلك كله يبث فى مصطفى كامل روح العزة القومية ، بحيث يكون القول على ما قرر الدكتور على الحديدى فى كتابه عن عبد الله النديم أن روح القدرة على تحريك الجماهير التى كان يمثلها عبد الله النديم قد انتقلت الى مصطفى كامل .

صدور مجلة الهلال :

وبعد يومين اثنين من صدور مجلة الأستاذ ، اى فى الخامس والعشرين من أغسطس صدرت مجلة الهلال لصاحبها جورجى زيدان الذى يعتبر بحق أحد أعمدة الثقافة والصحافة الأساسية التى لا تزال آثارها ممتدة حتى عصرنا الحاضر ، حيث أصدر من المؤلفات فى التاريخ العام ، وفى تاريخ الأدب ، وفى اللغة ، والقصص ما يعد مرجعا لكل باحث ومشتغل فى هذه الشئون الآن وفى المستقبل .

بزوغ نجم سلامة حجازى :

وفى هذا الشهر (أغسطس) بزغ نجم الشيخ سلامة حجازى بعد انضمامه الى فرقة اسكندر فرج التى اتخذت مسرحا لها فى شارع عبد العزيز بالقرب من العتبة الخضراء (سينما أوليمبيا) ويحدثنا أحمد شفيق باشا انه شهد على هذا المسرح رواية تليماك ، فأسعده تقدم التمثيل فى مصر .

الخديو ومصطفى كامل :

وفى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر تم أول لقاء بين الخديو عباس ومصطفى كامل فقد كان من بين مظاهر نشاط الخديو عباس أن يزور المدارس ويرتادها ويبحث مناهج التعليم ، وكانت العلوم تدرس باللغة الانجليزية .

وفى هذا اليوم من السنة زار الخديو مدرسة الحقوق ، فألقى مصطفى كامل بين يديه قصيدة ترحيب جاء فيها :

بشرى الحقوق بسيد الأمراء كنز العلا عباس ذو النعماء
بشراك يا دار العدالة والهدى بمليك مصر واوحد العظماء

فكان هذا اللقاء هو الحلقة الأولى من سلسلة العلاقات التى لن تلبث أن تقوم بين الخديو ومصطفى كامل لمقاومة الاحتلال البريطانى .

انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية :

وفى الخامس من ديسمبر وافق مجلس الوزراء على لائحة انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية والتى انشئت من أجل :

١ ـ مساعدة الأسر الفقيرة المستورة التى لا قدرة لها على الكسب .

٢ ـ تعليم أبناء هذه الطائفة بانشاء مدرسة لهم .

وكان على رأس مؤسسى هذه الجمعية الخيرية الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وأدريس راغب وحسن عاصم ، وغيرهم(١) .

وقد قال لنا أحمد شفيق باشا ان الفضل فى انشاء هذه الجمعية يعود أول ما يعود الى أحد الحواة الأجانب يدعى كازانوفا ، وقد وفد الى مصر لعرض ألعابه السحرية . وكان من دأبه أن يهب دخل أول حفلة من حفلاته الى الجمعية الخيرية فى البلد الذى يحل به ، فكان هذا هو نقطة البدء فى انشاء الجمعية . وقد ظلت الجمعية تقيم مهرجانا سنويا فى حديقة الأزبكية لجمع التبرعات .

مجلس شورى القوانين يرفض الميزانية :

وفى العشرين من ديسمبر أعلن مجلس شورى القوانين احتجاجه على سير الأمور العامة فى مصر بأن رفض مناقشة ميزانية الدولة عن عام ١٨٩٣ والتى أعدها المستشار المالى البريطانى بحجة أنها لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح للمجلس بفحصها .

ولم تلق الحكومة بالا لهذا الاعتراض ، واصدرت الميزانية ، ولكن هذا الموقف كشف عن الروح الجديدة التى بدأت تدب فى البلاد عقب تولية عباس حلمى الثانى .

البارون كرومر :

وفى هذه السنة منح السير أفلن بارنج رتبة بارون أوف كرومر .

١٨٩٣ م ـ ١٣١٠ هـ : اقالة وزارة مصطفى باشا فهمى :

استهلت السنة الجديدة بأزمة حادة بين عباس حلمى والسير افلن بارنج (كرومر) فقد انتهز الخديو فرصة مرض رئيس الحكومة مصطفى باشا فهمى الذى كان خاضعا خضوعا تاما لتوجيهات الانجليز لكى يتخلص منه ، فأصدر فى الخامس عشر من شهر يناير امرا عاليا باقالة الوزارة دون أن يستشير السير افلن بارنج (كرومر) وعهد تشكيل الوزارة الجديدة الى حسين باشا فخرى .

واهتزت البلاد من أقصاها لأدناها فرحا بهذه الخطوة الجريئة التى خلصتها من الرجل الذى أصبح رمزا على التسليم المطلق ، وعلقت جريدة المؤيد على هذا التغيير بقولها :

---

(١) يلقى المؤلف أول مراحل تعليمه الابتدائى ، فى واحدة من مدارس الجمعية التى كانت تعددت فيما بعد .

فلهذا تعد الأمة المصرية هذا التغيير الأساسي فى أعمال الحكومة كهجرة من دار دار الى دار لأن فيه خاتمة تاريخ أمير حلت به الرحمة وتولاه الرضوان : وبداية تاريخ عمل أمير كان وجوده غوثا للبلاد ورحمة للعالمين .

وقد تابعت جريدة الأهرام المؤيد فى اعلان ابتهاجها باقالة مصطفى فهمى فى عددها الصادر فى ١٨ يناير .

كرومر يثير الأزمة :

على أن السير افلن بارنج (كرومر) ما كان ليسكت على هذاالاجراء ، فقد كان السكوت عليه يعنى تقويض سلطانه الذى كان قد استقر واستتب باعتباره صاحب الكلمة الأولى فى ادارة البلاد .

فجرى الاتصال بينه وبين وزارة الخارجية البريطانية ، التى فوضته فى اتخاذ ما يراه لازما من الاجراءات ، فقدم للخديو باسم حكومته فى ١٧ يناير المذكرة التالية :

ان الدولة البريطانية كانت تؤمل أن الحكومة المصرية تسلك منهاج نصائحها ومشورتها أثناء مدة الاحتلال فى جميع المسائل ذات الأهمية العظمى . وبما أن تغيير وزارة مصطفى باشا فهمى قد ظهر أنه لا يجدى نفعا بل يضر بمصلحة البلاد ضررا بليغا فهى لا توافق على تعيين وزارة فخرى باشا » .

وقد تضمنت برقية وزارة الخارجية للسير افلن بارنج تهديدا يبدو أن السير بارنج اكتفى بذكره شفويا وهذا نصه كما أوردته الصحف فى ذلك الوقت :

« وينبغى على سعادتكم أن تخبروا الجناب الخديوى بأنه اذا كان لا يزال مصرا على عدم اتباع نصائحكم ومشوراتكم فعلى جنابه أن يقبل تحمل مسئولية العواقب الثقيلة التى تنجم عن عمله . ولابد أن تخبروا حكومة جلالة الملكة بما سيكون من نتيجة هذا البلاد لكى توافيكم بالتعليمات اللازمة » .

ويقول لنا أحمد شفيق باشا الذى كان معاصرا لهذا الحادث ، أن الخديو رد على السير افلن بارنج (كرومر) قائلا :

انه يرى أن التنازل عن العرش أهون عليه من ارجاع مصطفى فهمى .

فقال له كرومر : انه ليس من الانصاف ان يلح عليه بالجواب حالا وانه سيعود فى اليوم التالى للوقوف على رأيه ، وترك له صورة البرقية .

طلبة المدارس العليا تتظاهر :

وعندما وصلت أنباء هذه الأزمة الى جماهير الشعب وقفت الأمة الى جوار الخديو وعبر الشباب لأول مرة عن ارادة الأمة بالتظاهر ... ففى الثامن عشر من شهر يناير أضرب طلاب المدارس العالية وفى مقدمتهم طلبة الحقوق ، وقاموا بمظاهرة احتجاجا على التدخل البريطانى وتأييدا لموقف الخديو ، ومرة أخرى نرى مصطفى كامل على رأس هذه المظاهرة .

ولما كانت جريدة المقطم تمثل فى ذلك الوقت لسـان حال الاحتـلال فقد هاجم المتظاهرون دار المقطم احتجاجا على مسلكها .

تاليف وزارة رياض باشا :

فى يوم الخميس التاسع عشر من يناير انفرجت الأزمة بقبول اللورد كرومر حلا وسطا وهو استقالة وزارة حسين باشا فخرى ، وأن يعهد الى رياض باشا بتشكيل الوزارة الجديدة ، وقد ابرق السير افلن بارنج (كرومر) الى وزارة الخارجية يقول انه سمح لنفسه بقبول هذا الحل الوسط فى مقابل تعهد الخديو بأن ينصاع منذ الآن لسماع نصائحه ومشوراته .

وقد تشكلت وزارة مصطفى باشا رياض على الوجه التالى :

مصطفى رياض ــ الرئاسة والداخلية
محمد زكى باشا ــ اشغال عمومية ومعارف
يوسف شهدى باشا ــ للحربية والبحرية
تكران باشا ــ الخارجية
بطرس باشا غالى ــ للمالية
احمد باشا مظلوم ــ للحقانية

مظاهر شعبية لتاييد الخديو :

واذا كان الخديو عباس فى هذه الأزمة قد تلقى اول صدمة من الاحتلال البريطانى ووعد أن لا ينصرف فى المستقبل الا بعد استشارة (كرومر) فان الشعب أحاطه فى هذه الأزمة بعواطف صادقة دلت على يقظة الأمة ، فمنذ اللحظة الاولى لقيام الازمة وقفت جمهرة الصحف الى جوار الخديو ، وكان فى مقدمتها مجلة الأستاذ لصاحبها عبد الله النديم ، وانهالت عليه برقيات التأييد من انحاء البلاد ، وضاقت سراى عابدين بوفود المؤيدين الذين تقاطروا عليها من انحاء البلاد وليس من العاصمة فقط ، كما طافت المظاهرات فى الشوارع هاتفة بحياة الخديو وحدث أن زار الخديو فى هذه الفترة دار الأوبرا ، فتحولت الى مظاهرة كاد يتعطل فيها التمثيل .

وكادت الجماهير تحتشـد حول عربة الخـديو حيثما سار وأنى اتجه هاتفـة مؤيدة ، واضطرت سلطات الاحتلال للتنبيه على الجنود البريطانيين أن يكون على اهبة الاستعداد بينما أسرع مكاتبو الصحف الأجنبية فأبرقوا الى صحفهم متحدثين عن وجود هياج فى مصر .

الصحف الانجليزية تهاجم الخديو :

واجمعت الصحف البريطانية التى تصدر فى انجلترا على مهاجمة الخديو عباس وراحت تصـفه بأوصاف غير كريمة ممـا جعل جريدة المؤيد تعبر عن سخطها على الصحف الانجليزية بمقال نشرته فى عددها الصادر فى ٢٨ يناير وكان مما جاء فيه :

لم تكن الجرائد الانجليزية التى تطبع فى لندره ويقال عنها أنها لسان الرأى العـام بها بأقل قحة وسفاهة وخروجا عن حد الادب والاعتدال بالنسبة للجناب الخديوى من جريدة الاجبسيان التى علم القراء الافاضل مقدار تهاترها وسخطها وطيشها .

زيادة جيش الاحتلال :

ولم تر الحكومة البريطانية أو بالأحرى السير افلن بارنج (كرومر) سبيلا لاعادة الهيبة الانجليزية فى مصر الا بتقرير زيادة جيش الاحتلال ، اظهارا لعزمها على تأجيل جلائها الموعود فى مصر ، وتنفيذ آرائها فى مصر بالقوة السافرة اذا لزم الأمر .

فكان لهذا العمل رنة احتجـاج فى داخل مصر وخارجها ، فقـد اعترضت عليه فرنسا ، واحتجت عليه تركيا ، ولكن غلادستون رئيس وزارة بريطانيا لم يأبه بشىء من ذلك ، وارسل الى الدول يعلمها بأن زيادة قوة جيش الاحتلال فى مصر لا يقصد من ورائها تغيير خطة انجلترا فى مصر ، ولا وعودها بالجلاء عنها .

تاليف مجمع اهلى للغة العربية :

فى الرابع من فبراير انعقدت أول جلسة لمجمع اللغة العربية الأهلى الذى كان قد تم الاتفاق على تأليفه فى أخريات العام السابق فى دار السيد محمـد توفيق البكرى بالخرنفش ، وكان يتألف منه باعتباره رئيسا والشيخ الشنقيطى الكبير والشيخ محمد عبده والشيخ حمزه فتح الله والشـيخ حسن الطويل وحفنى ناصف ومحمـد بيرم ومحمد المويلحى ومحمـد عثمان جلال ومحمد كمال وكان الغرض من تأليف هـذا المجمع أن يؤدى للغة العربية ما تؤديه الأكاديمية الفرنسية للغة الفرنسية وقد انتخب محمد بيرم سكرتيرا له .

وقد القى محمـد توفيق البكرى فى هـذا الاجتماع بحثا فى عشر كلمات أجنبية وما يقابلها من العربية ، مثل كلمة مرحى فى مقـابل برافو ومسرة للتليفون ، وبهو للصالون وقفاز للجوانتى وهكذا .

وتتابعت جلسات المجمع وتناقلت الصحف كلماته ، فأثار ضجة صحفية وتصدى جورجى زيدان لنقد بعض الكلمات المقترحة فى مجلة الهلال فرد عليه عبد الله النديم فى مجلة الأستاذ .

مصطفى كامل ينشىء مجلة المدرسة :

فى يوم السبت ١٨ فبراير أصدر مصطفى كامل الطالب بكلية الحقوق العدد الأول من مجلة « المدرسة » ووصفها بأنها مجلة وطنية أدبية تهذيبية عامية تصدر مرة فى غرة كل شهر عربى ، وجعل شعارها المطبوع فى صدر كل عدد « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » ولم يكن عمر مصطفى كامل عندما أصدر هذه المجلة يتجاوز التاسعة عشرة من عمره وكان لا يزال طالبـا فى كلية الحقوق ، وهو ما يشـهد له ليس فقط بالنبوغ ولكن بمضاء العزيمة وقوة الارادة .

وقد كتب لأخيه على فهمى كامل وهو يهديه العدد الأول يقول : أبعث فى هـذا البريد بمجلة المدرسة التى انشأتها لخدمة الناشئين لا للربح او الشهرة واستقبل عبد الله النديم مجلة المدرسة احسن استقبال ، واشاد بها فى مجلته الأستاذ مما دل على قوة الصلة والتعاطف الروحى بين الزعيم الكبير وبرعم الزعامة الناشىء .

الفلاحون والاحتلال :

فى الثالث عشر من ابريل نشرت جريدة المقطم ترجمة حديث جرى من مكاتب جريدة النيويورك هرالد الأميركية والمستر سكوت المستشار القضائى يكشف عن حقيقة عواطف الفلاح المصرى بالنسـبة للاحتلال البريطانى بعد عشر سـنوات من الانجازات العظيمة لصالح هذا الفلاح .

وقد عرض الكاتب الأمريكى على المستشار البريطـانى قولا سمعه من صـديق امريكى يقيم فى اسيوط ليبدى رايه فيه ومحصل هذا القول ما يلى :

« ان الفلاحين يعترفون بالفوائد التى نالوها من الاحتلال ، ولا ينكرون أن أثقـال الضرائب قد خفت عن عواتقهم ، وانها تجبى منهم الآن بالقسط والانصاف اكثر من ذى قبل ، وأن أراضيهم تروى بالماء أكثر مما كانت تروى قبلا ، وانهم يعاملون بالعدل، وقضاياهم ينظر فيها بأكثر سرعة وأقل أجرة من الأيام الماضية ، ومع ذلك فهو يقول ان الفلاحين يبغضون الانجليز ... فقال المستر سكوت معلقا على ذلك : ان ذلك هو عين الصواب ، فاننا فعلنا فى مصر كل ما ذكره المستر الكسندر ومع ذلك فالمصريون لا يحبوننا ولا ارى ذلك الا من الأمور الطبيعية ، وعندى اننا لو كنا مكانهم لشـعرنا مثل هذا الشعور .

عرابى يلتمس من الانجليز أن يعيدوه الى مصر :

فى الرابع عشر من ابريل نشر المقطم حديثا جرى مع أحد المراسلين الانجليز مع عرابى فى جزيرة سيلان ، وقد بدأ الحديث بما كان قد اعتاد ان يهيأه من الثناء على انجلترا واصلاحاتها فى مصر : وانها عين ما كان تطالب به ، وضمن حديثه بالعبـارات التالية :

« اننى ابغى أن أموت فى بلادى بين اهلى وخلانى واشتهى أن أرى مصر والذين احبهم قبل دنو حمـامى . فاذا اذنت لى انجلترا فى الذهاب الى مصر فاننى اذهب كصديق لا كعدو مقاوم .. ولتأمر من تشاء من الجند والشرطة بحراستى ومراقبتى فاننى أرحب بذلك مختارا .

واقسم بشرفى اننى لا اتصدى للسياسة بوجه من الوجوه ، واريد ان اعود الى مصر واعيش فيها كواحد من عامة الناس .. هذا ما أسأله من امتكم العظيمة التى عاملتنى بالرفق والشفقة ، فقد عوقبت وتألمت والتمست العفو والآن وقـد عرفت الانجليز التمس الرحمة .

وقد كانت مثل هذه الأحاديث والتصريحات التى تنقل عن عرابى ، تهز صورته هزا أمام الوطنية المصرية الناشئة ، فحيث كانت مصر بدات تفيق من صدمتها عقب الاحتلال البريطانى ، وينشأ اجيل لا يحب الانجليز ويسعى للتخلص منهم كان عرابى يصوغ قلائد المدح للانجليز ويثنى على أعمال الاحتلال فى مصر . فلا عجب اذا ساءت العلاقة بين الشاب مصطفى كامل نجم الوطنية الصاعد وبين عرابى نجم الوطنية الهاوى ... مما سيتحول الى عداء صريح فى قابل الأيام .

اغلاق مجلة الأستاذ ونفى عبد الله النديم :

سكت الانجليز على مضض ازاء جهود عبد الله النديم ومحاولاته لايقاظ الوطنية المصرية وتأليب جماهير الشعب على الاحتلال وكانت سياسة كرومر هى اطلاق الحرية للصحافة وعدم التعرض لها ، ولكن جريدة المقطم ما فتئت تحذر وتنذر من عبد الله النديم ، فلما انضمت اليها الصحف الانجليزية الكبرى من امثال التيمس والديلى تيوز ، لم يسع السير افلن باريج (كرومر) الا أن يضغط على الخديو لاخراجه من البلاد واغلاق جريدته ... وأذعن الخديو ، وطلبت الحكومة من النديم مغادرة مصر .

وفى الثالث عشر من شهر يناير صدر العدد ٤٢ من مجلة الأستاذ ، وفيه ودع النديم قراءه بمقال تحدث فيه عن المؤامرات التى حيكت ضده والتى تحاك ضد البلاد ليظل مستعمرا . وشكر الصحف الوطنية التى وقفت الى جواره ، ولم ينس أن يشكر المقطم لأنها تبهت الأفكار بحربها الوطنية وتأييدها للاستعمار .. وختم مقاله بقوله :

لا يظن شرقى ان ما الاقيه من المشاق والمتاعب فى خدمته يكدرنى أو يؤلمنى فما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ومصادفة النوائب » .

ولم يذكر النديم أنه سينفى من البلاد ، وانما ذكر أنه سيغادر مصر الى حين .. وقد دفعت له الحكومة ٤٠٠ جنيه ليجهز لسفره . ورتبت له ٢٥ جنيها شهريا يعيش بها .

وغادر مصر فى ١٥ يونيه قاصدا يافا ولم يستطع ان يفى للحكومة المصرية بشرطها اذ عاد لمهاجمة الاحتلال ... وبعد متاعب وصعوبات استقر به الهوى فى اسطنبول ، ليكون كأستاذه جمال الدين الأفغانى تحت سمع ومراقبة عبد الحميد .

مصطفى كامل يسافر لأول مرة الى باريس :

فى يوم الجمعة ٢٣ يونيو سافر مصطفى كامل لأول مرة الى باريس ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق وكان قد التحق بكلية الحقوق الفرنسية التى فتحها الفرنسيون فى مصر ، فأدى الامتحان بنجاح .

وقد استفاد من زيارته ووجوده فى فرنسا ، اذ وقف على سير الحضارة الأوروبية وما أصبح الأوروبيون ينعمون به من حياة حرة طليقة نشطة ، فعمق ذلك فى أحاسيسه الوطنية وانضج حبه لمصر وشعبها ، مما سيدفعه أكثر وأكثر للسير فيما رسمه لنفسه من جهاد فى سبيل اجلاء الانجليز عن مصر .

الخديو عباس فى اسطنبول :

فى العاشر من يوليو وصل الخديو عباس الى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية وكان قد رأى أن يوثق صلاته بالسلطان عبد الحميد كمظهر من مظاهر المقاومة للاحتلال الانجليزى ، وقد رحب السلطان عبد الحميد بهذه الخطوة ، ولذلك فقد أحاط الخديو أثناء اقامته فى اسطنبول بشتى مظاهر الحفاوة والتكريم ، وقلده ارفع الأوسمة ، واقام له العديد من المآدب واجلسه على يمينه ، وكان يصرح له علنا : انت عندى بمنزلة عضو عزيز من أعضاء أسرتى فاعتبر نفسك فى بيتك .. وقال له :

ان باب يلدز مفتوح لك كلما اردت مقابلتى بدون وسيط .

مقابلة الخديو لجمال الدين الأفغانى :

يقول أحمد شفيق باشا الذى كان يصاحب الخديو أثناء اقامته فى اسطنبول كان الخديو شديد الرغبة فى مقابلة السيد جمال الدين الأفغانى ، وكان قد وصل الى اسطنبول بناء على دعوة من السلطان عبد الحميد ، الذى رأى بدهائه ان خير طريق لاتقاء شره ، أن يدعوه لاسطنبول ليكون تحت رقابته وملاحظته .

ولما كان الخديو يسمع الكثير عن جمال الدين فى مصر ، وانه رائد النهضة الوطنية والاسلامية ، فقد أرسل اليه يطلب منه تحديد موعد لمقابلته فرد السيد جمال الدين بأن مثل هذه المقابلة لن تتم الا باذن من السلطان فاستأذن السلطان فى ذلك اكثر من مرة ، ولكنه لم يجب الى طلبه .

وذات يوم بينما كان الخديو ممتطيا جواده متنزها فى الكاغدخانة اذ قابل السيد جمال الدين الأفغانى وعرفه بنفسه ، فمكثا نحو ساعة يتجاذبان اطراف الحديث .

وسرعان ما طار الجواسيس بهذا النبأ الى السلطان ، ونفخ الدساسون كما هو شأنهم فى نار الفتنة والوقيعة بين السلطان والسيد جمال الدين ، فأرسل اليه السلطان فلما قابله قال له : اتريد أن تجعلها عباسية أى أن ينقل الخلافة الى الخديو عباس ، ولما كان السيد، جمال الدين خالى الذهن من هذه الفكرة فقد رد قائلا : ان الخلافة ليست خاتما ينقل من أصبع الى آخر ، وفضلا عن ذلك فان بنى العباس قد انقرضوا وبنوا على أولى .

فكان ذلك من المواقف التى جعلت السلطان عبد الحميد يزداد خوفا على خوفه من السيد جمال الدين الأفغانى .

عودة الخديو الى مصر :

فى الثلاثين من يوليو وصل الخديو الى ميناء الاسكندرية عائدا من رحلته الصيفية الى اسطنبول ، فاستقبل فى عرض البحر استقبالا حافلا .

وقد ضاقت الصحف البريطانية بهذه الزيارة فراحت تغض من أهميتها وتصور أن السلطان كان يعامل الخديو عباس كطفل صغير يقدم له الحلوى فى يد والعصا فى اليد الأخرى .

وفاة على باشا مبارك :

فى الرابع عشر من نوفمبر من هذه السنة (د جمادى الأولى ١٣٧٠ هـ) أغمض على باشا مبـارك عينيه للمرة الاخيرة بعـد أن نيف على السـبعين (ولد ١٨٢٤ م ١٢٣٩ هـ) وقد وصف بحق أنه أبو التعليم فى مصر ، وشيعته مصر حكومة وشـعبا الى جوار الخالدين ، وقد قال عنه الدكتور حسين فوزى النجار فى كتابه عنه .

لم يكن على مبارك ممن يتصدرون موكب التاريخ ولكنه يمشى فى ركابه ويبـدو قدرته فى المهارة التى يؤدى بها دوره ، وقد لا يعده من أبطال التاريخ ، وانما نعـده صورة لرجل الدولة الكفء الذى يخدم الجميع عن طريق الدولة فيكون أثره التاريخى بقدر ما يعكس من خير على المجتمع . وتكون قدرته فى اسـتغلال ارادة الحاكم لغير بلده ، وبقدرته ونجاحه تستطيع ان تميزه على رجال عصره ويثبته بنوع من العظمة أو البطولة وتستطيع أن تقول انه قام بالتعبير عن ارادته وابلاغ عصره ارادته وان كان لا يملك المعول الذى يهدم ويشيد .

الخطط التوفيقية :

وسيبقى على باشا مبارك خالدا على مر الزمن بخططه التوفيقية التى هى استمرار وتكملة لخطط المقريزى .

مجلس الشورى يرفض اعتماد جيش الاحتلال :

وفى أول ديسمبر من هذه السنة ، وطوال شهر ديسمبر شغلت البلاد بموقف مجلس شورى القوانين من ميزانية جيش الاحتلال من ناحية واستنكاره لزيارة فريق من أعضائه للسير افلن بارنج (كرومر) من ناحية أخرى . وكان كرومر قد دعا نفرا من أعضاء مجلس الشورى لمقابلته بمناسبة ما نمى الى علمه من عزم المجلس على رفض اعتماد جيش الاحتلال ، ونشرت جريدة الأهرام الخبر فأهاج هـذا النبأ الخواطر ، واستنكر بقية أعضاء المجلس هذا التصرف ... كما بادر من عزى اليهم أنهم قاموا بهذه المقابلة ، فأنكروا حدوثها .

وكتبت جريدة الأهرام معلقة على هذا الحادث بقولها :

ولعل السير افلن بارنج (كرومر) قد رأى رأى العين أنه بعد سـياسة العشر سنوات وأكثر قد عد الرأى العام المصرى الزيارة له خيانة من الزائر » .

وقد أسرع مجلس شورى القوانين فرفض اعتماد جيش الاحتلال وقدره ٨٥ ألف جنيه ، كمظهر من مظاهر الاحتجاج على استمرار الاحتلال . وغنى عن البيان انه كالعادة ضرب بقرار المجلس عرض الحائط ، ومع ذلك فان الحادث أخذ كل قوته وأحدث صداه حتى فى دوائر الحكومة نفسها ، فقد خطب رياض باشا فى المجلس فى جلسة ٢٣ ديسمبر وأعرب عن مشاركته المجلس فى احساساته الوطنية ، وأبان أن المبلغ الذى كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال سنة ١٨٨٥ كان يبلغ ٢٠٠

جنيه فى السنة ، وان هذا المبلغ خفض بالتدريج حتى أصبح ٨٥ الف فقط ، وان الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجيا حتى يمحى بالكلية اعتمادا على عهود ووعود دولة بريطانيا العظمى القاضية بالجلاء عن وادى النيل . وهكذا طويت صفحة هذه السنة بما اعتبر انتصارا مدويا للوطنية المصرية الصاعدة ، ويعد هذا الموقف من الصفحات المشرفة للحياة النيابية فى مصر .

١٨١٤ م ـ ١٣١١ هـ ازمة الحدود

فى التاسع من يناير من هذه السنة سافر الخديو بالقطار متجها صوب الحدود الجنوبية لمصر ليتفقد أحوال الوجه القبلى .

وقد صحب هذه الرحلة منذ بدأ التفكير فيها جو من الأعاصير فقد أصر الخديو على اصطحاب محمد باشا ماهـر وكيل وزارة الحربيـة الذى كان على خلاف مع السردار الانجليزى كتشنر بالرغم من تحذير الحكومة له من مغبة ذلك .

وفى التاسع عشر من يناير ، وصل الخديو فى تجواله الى مدينة وادى حلفـا حيث جرى استعراض للجيش ، ولننقل الآن من مذكرات أحمد باشا شفيق الذى كان مرافقا للخديو وشهد ما حدث :

وبعد الاستعراض فان سموه لقومندان السوارى البكباشى ديجلو ، اننى مسرور جدا مما شاهدته من حركات جنودكم .

وقال لكل من قمندانى البطاريتين : السلاح نظيف ، والمرور منتظم ، وعند مرور الأورطتين الثانية والحادية عشرة التفت الى ماهر باشا الذى كان بجواره وقال له :

ان هذه الجند فى حالة تدعو للخجل .. وقال لقومندان الأورطة الثانية الانجليزى: اننى آسف لأن سير هذه الأورطة ليس حسنا كسير الأورط الأخرى . ولكنى أتمنى أن تحسن جنودك حالتها أكثر من ذلك ، وأبدى سـموه مثل هذه الملاحظات على الأورطة الحادية عشرة ، وصرح بذلك لكتشنر باشا ، وقال له : انى أمدح كل ضابط يقوم بواجباته وألوم كل ضابط يقصر فيما عليه نحو فرقته .

وأسرع كتشنر باشا عقب سماع هذه الملاحظات فقدم استقالته ، ولكن الخديو أفهمه أن لا محل لذلك فهو لم يقصـد من عبارته الا مجرد ملاحظة باعتباره قائد الجيش .

وبدأ ما اشتهر فى التاريخ بأنه ازمة الحدود ، اذ احتج الضباط الانجليز وعلى رأسهم كتشنر واعتبروا أن الخديو قد أهانهم وأوفدوا الى السير بارنج (كرومر) فى القاهرة من عرض عليه الموقف ، فبادر بدوره ونقل ما عرض عليـه الى وزارة الخارجية البريطانية ، التى بعثت اليه بتعليمات مشددة .

وأسرع رياض باشا لمقابلة الخديو عند عودته من الوجه القبلى ، فتقابلا فى مدينة جرجا ، وأبلغ رئيس الحكومة الخديو أن كرومر قد هدد بخلع الخديو اذا لم يسرع

الى تقديم الترضية اللازمة لضباط الجيش ، وحددت الترضية المطلوبة بوجوب اعتذار الخديو وعزل ماهر باشا وكيل الحربية .

واذعن الخديو للضغط والتهديد ، فأرسل فى السادس والعشرين من يناير الى كتشنر باشا سردار الجيش المصرى البرقية التالية : قبل ان أترك الوجه القبلى وأعود الى مصر ، اريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتى للحدود ، وأؤيد حسن رضائى الذى ابديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه ، واننى لمسرور من أن أهنىء الضباط الذين يرأسونه مصريين كانوا أو انجليزا واننى لمرتاح أيضا بأن أقدر الخدمات التى اداها الانجليز لجيشنا حق قدرها ، وأملنا أيها السردار ن تنقلوا امرنا هذا للضباط والعساكر .

وقد نشرت هــذه البرقية بنصها العربى فى جريدة الوقائع المصرية كما نشرت بنصها الفرنسى ، ونقل محمــد باشــا ماهر من وكالة الحربية وعين محافظا لعموم القنال .

وقد انتهزت الصحف الانجليزية هذه المناسبة لكى ترهب الخديو عباس وتزلزل الأرض تحت أقدامه بالتهديد والوعيد ، وقد نشرت جريدة المؤيد فقرات من هــذه المقالات ، وردت الهجوم على الصحف الانجليزية ، ووصفتها بأنها صحف بذيئة وقحة وسفيهة .

جمعية المودة السرية لضباط الجيش :

لم تمر محاولة اذلال الخديو بدون رد فعل فى الجيش ، فقد تألفت على الفور على ما يحدثنا أحمد باشا شفيق جمعية سرية فى الجيش المرابط فى وادى حلفا وفى سواكن أطلقت على نفسها اسم جمعية المودة ، وقد أقسم أعضاؤها من الضباط أن يقفوا الى جانب الخديو وأن ينفذوا أى أمر يصدر منه لهم ، وارسلوا عريضــة وقعوا عليها بامضاءاتهم وأختامهم يستنكرون فيها تصرف الانجليز ويضعون أنفسهم تحت تصرف الخديو لتنفيذ كل ما يأمرهم به . وقد اتفق على عمل شفرة بين هؤلاء الضباط وبين الخديو ، وأن يكون أحمد شفيق باشا هو همزة الوصل .

افتتاح الجمعية العمومية :

فى السادس من فبراير افتتح الخديو الجمعية العمومية ، والقى فيها خطابا سرد فيه أعمال الحكومة خلال العام المنصرم .

استقالة وزارة رياض باشا :

فى الرابع من ابريل قدم مصطفى باشا رياض رئيس الحكومة استقالته من الوزارة ووقع معه على خطاب الاستقالة بطرس باشا غالى وتيجران باشــا وذلك بسبب ما احسوه من عدم ارتياح الخديو لمسلكهم فى الأزمة التى قامت بينه وبين الانجليز ، وكان الخديو يتصور أن الحكومة قد تخلت عنه فى هذه الأزمة ولم تقف الى جواره .

ومع ذلك فقد تردد الخديو فى قبول الاستقالة ، خوفا من أن يفتح عليه باب أزمة جديدة ، وحتى اذا وقع اختياره على أحد صنائع الانجليز الذين لا يمكن أن يعترضوا عليه وهو نوبار باشا قبل الاستقالة وكلف نوبار باشا بتشكيلها .

وزارة نوبار باشا :

فى السادس عشر من ابريل تم تشكيل وزارة نوبار باشا على الوجه التالى :

نوبار باشا	للرئاسة والداخلية
مصطفى فهمى باشا	للحربية
حسين فخرى باشا	للخارجية
بطرس غالى باشا	للخارجية
احمد مظلوم باشا	للمالية
ابراهيم فؤاد باشا	للحقانية

اتفاق انجلترا وايطاليا على تقسيم السودان الشرقى :

فى الخامس من شهر مايو وقعت انجلترا اتفاقا مع ايطاليا ، قسمت فيه الدولتان النفوذ فى شرق السودان فيما بينهما ، بعد أن اعتبر أرضا مباحة عقب اجلاء المصريين عنه فاقرت انجلترا ما أخذته ايطاليا على حدود البحر الأحمر فى الصومال ، ورخصت لها باحتلال كسلا والأراضى المتاخمة لها لغاية نهر عطبرة احتلالا مؤقتا الى أن يتاح للحكومة المصرية استردادها . وأدخلت انجلترا فى املاكها هرر ومعظم اوجادن وبلاد الصومال الى رأس جردفوى ، وأقرت ايطاليا لانجلترا احتلالها زيلع وبربرة .

ومعاهدة مع بلجيكا :

وفى الثانى عشر من شهر مايو عقدت انجلترا مع بلجيكا معاهدة كان الفرض منها الحيلولة بين فرنسا وحوض النيل حتى تأمن من مزاحمتها ، وقد حددت هـــذه المعاهدة الحدود بين ولاية الكونجو التابعة لبلجيكا وبين السودان . واقتطع الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك أقليم اللادو وبحر الغزال وضمهما الى مستعمرة الكونغو بناء على هذا الاتفاق .

رحلة الخديو الى استنبول ثم أوربا :

فى الثانى والعشرين من يونيه سافر الخديو الى استنبول على يخت المحروسة واثير خلال هذه الرحلة موضوع زواج الخديو عباس بابنة السلطان السابق عبد العزيز فلما وصل الأمر الى مسامع السلطان عبد الحميد صرح بأنه على استعداد أن يزوج الخـــديو عباس احدى كريماته هو ، ولكن المشروع لم يلبث أن طوى ، اذ تراجع السلطان عن وعده ، فقد حذره صفيه وخليله أبو الهدى الصيادى صاحب النفوذ والحظوة عنده ، من الاقدام على هذه الخطوة ، لأنه لو أنجبت أبنته من عباس مولودا ذكرا ، فليس هناك ما يمنع الانجليز من ترشيحه للخلافة وبذلك تمحى الخلافة من

تركيا . وعلى ذلك فقد بارح الخديو استنبول دون أن يتم شيء فى هذا الزواج ، وقام برحلة فى أوربا زار فيها النمسا والمانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وغيرها .

الايطاليون يحتلون مدينة كسلا :

فى السابع عشر من يوليو استولى الايطاليون على مدينة كسلا تطبيقا للاتفـــاق المبرم بينهم وبين الانجليز .

قضية الاتجار بالرقيق :

حيث قبض البوليس على على باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين وحسين باشا واصف والدكتور عبد الحميد الشافعى ومحمد باشا الشواربى ، وأودع المعتقلون (ما عدا الأخير) فى قسم عابدين رغم خطورة مراكزهم فى الهيئة الاجتماعية .

وكانت التهمة الموجهة اليهم انهم اشتروا ثلاث جوارى من بعض تجار الرقيق .

وقد انزعج الخديو الذى كان لا يزال فى الخارج لهذا الحادث ، وارسل يعنف وزراءه على هذا الاجراء العنيف .

واصر الانجليز الا أن تأخذ المحاكمة سبيلها ، ولكن المحكمة العسكرية التى شكلت لمحاكمتهم قضت ببراءتهم لأسباب قانونية ، وكان على باشا شريف قد زعم أنه رعية ايطالية فلم يقدم للمحاكمة ، فأصدر الخديو عفوا عنه بعد أن اعترف بخطئه واعتذر واناب وقدم استقالته من رئاسة مجلس شورى القوانين .

وفى السابع والعشرين من أكتوبر صدر عفو عن الدكتور عبد الحميد الشافعى وكان هو الوحيد الذى قضت المحكمة بسجنه ، وهكذا اسدل الستار على هــذه القضية التى شغلت الرأى العام المصرى طوال بضعة شهور وكان يمكن أن يرى الشعب المصرى فى هذه القضية مظهرا رائعا من مظاهر العدالة الجديدة التى لا تفرق بين صغير وكبير ، وما بلغته كرامة الانسان وحريته من حماية ورعاية ، ولكن المطالع لصحف مصر فى هذه الحقبة لا يحس أى أثر لشيء من هذا الابتهاج فقد كان الكافة يرون فى هذه الاجراءات محاولة من الاحتلال لتوطيد أركانه واظهار هيبـــة الادارة الانجليزية وعلوها على كل سلطان .

تعيين الدون غورست مستشارا لوزارة الداخلية :

فى الثالث من نوفمبر صدر أمر عال باعادة تنظيم البوليس وتعيين المستر الدون غورست مستشارا لوزارة الداخلية ، وكان الدون غورست يشغل قبل ذلك وظيفة وكيل وزارة المــالية .

انشاء شركة ترام العــاصمة :

فى الخامس عشر من نوفمبر صادق مجلس الوزراء على منح امتياز لانشاء الترام فى العاصمة فمنح الشركة التى تألفت لهذا الفرض امتيازا لمدة خمسين سنة ، وكان على الشركة ان تبدأ بانشاء ثمانية خطوط لربط أنحاء القاهرة .

مصطفى كامل يحصل على ليسانس الحقوق من فرنسا :

وفى الثامن عشر من نوفمبر أرسل مصطفى كامل الى اخيه على فهمى كامل يبشره بحصوله على ليسانس الحقوق من كلية الحقوق بتولوز وقد جاء فى هذا الخطاب :

« اليوم أحمد الله حمدا كبيرا وأشكره شكرا جزيلا على فك قيد أسرى والمن باطلاقى فى ميدان الحرية فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق ، وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها ، أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبنـاءها الاعزاء ممقوتين غرباء » .

عودة مصطفى كامل الى مصر واتفاقه مع الخديو :

فى السادس من ديسمبر عاد مصطفى كامل الى مصر ، فقيد اسمه فى جـدول المحامين ونشرت جريدة المؤيد النبأ ووصفته بأنه الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة المدرسة وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء .

ويقول لنا أحمد باشا شفيق فى مذكراته :

وفى ٦ ديسمبر عاد مصطفى كامل الى مصر وكان يومئذ فى سن العشرين فقربه عباس اليه وساعده بالنقود والمال ، وتعاهدا سرا على أن يعملا لخلاص البلاد من الاحتلال .

وقد اتفق الخديو مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية من بعض الشـبان المتازين ممن تلقوا التعليم العالى فى مصر والخارج ، وكنت من أعضاء هـذه اللجنة أنا وزميلى روليبه بك واسماعيل الشيمى بك ويوسف صديق بك ومحمود سالم بك القضاة بمحكمة المنصورة المختلطة ومسيو ارشيد جافيو نائب الجالية الفرنسـية بمصر ، وقد كان على اتصال بممثل فرنسا فى مصر ، وكان يعضد سياسة الخديو ضد الاحتلال لاسترداد النفوذ الفرنسى فى مصر .

وقررت هذه اللجنة الدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين بالكتابة فى الصحف الفرنسية فى مصر وباريس بأسماء مستعارة .

مجلس شورى القوانين :

ولم تنته هذه السنة حتى كان مجلس شورى القوانين ، وكان عمر باشا لطفى قد أصبح رئيسا له ، يصدر تقريره الذى ضمنه العديد من الاعتراضات على ما جاء فى الميزانية ، ليس فقط بالنسبة لاعتمادات مصاريف جيش الاحتلال الذى تمسك المجلس بموقفه فى عدم الاعتراف بها : ولكنه زاد على ذلك فانتقد سياسة الحكومة فى التعليم . وكان ذلك حافزا للصحف المصرية كلها ، فبدأت حملة واسعة النطاق لنشر التعليم عن طريق انشاء مدارس خاصة .

حفلة الجمعية الخيرية الاسلامية :

ولما كانت الجمعية الخيرية الاسلامية قد نزلت الى ميدان التعليم ، فقد بدأ مهرجانها السنوى الذى تجمع فيه الأموال ، يأخذ أهمية مضاعفة وليس هناك ما يكشف عن مدى ازدهار الحركة الفنية فى مصر فى هذه الحقبة ، من أن تنقل عن صحف هذا الزمان تفاصيل هذا المهرجان ، فقد كانت رواية هملت تمثل على مسرح الأوبرا كجزء من المهرجان ، فى الوقت الذى كانت فيه فرقة الشيخ سلامة حجازى تمثل على مسرح الأزبكية رواية صلاح الدين وذلك فى الوقت الذى اقيمت فيه السرادقات فى انحاء حديقة الأزبكية ، حيث كان يغنى فى بعضها عبده الحمولى ، ويوسف المنيلاوى ، ومحمد عثمان ، وذلك بالاضافة الى فرق الموسيقى النحاسية والعاب السيرك والحواة وغير ذلك . وكان ثمن التذكرة عشرة قروش .

تقارير اللورد كرومر :

وكان اللورد كرومر يعد كل عام تقريرا عن ادارته يرفعه الى وزير الخارجية البريطانية ، وكانت هذه التقارير تكتب بطبيعة الحال باللغة الانجليزية ، فرأى أن يصدر ترجمة لها باللغة العربية ليطلع المصريون عليها ، ولذلك فان جريدة المقطم وهى لسان حال الاحتلال تطالعنا لأول مرة : بأن لديها كميات من تقارير اللورد كرومر باللغة العربية أعوام ٩١ و ٩٢ و ٩٣ وثمن النسخة خمسة قروش .

١٨٩٥ م ــ ١٣١٢ هـ : محمد عبده واصلاح الأزهر :

فى الثالث من يناير وجه الخديو الى نوبار باشا رئيس الحكومة أمرا عاليا يكلفه بتشكيل لجنة مستديمة يطلق عليها اسم « مجلس ادارة الجامع الأزهر » ، يعهد اليها بالنظر فى ترتيب قواعد التدريس وانتظام الأروقة ومرتباتها ودرجات العلماء ومقرراتهم ، وكيفية حيازة كساوى التشريفة ، وبالجملة كل ما من شأنه « ارتقاء الجامع الأزهر ودوام نجاحه » .

وقد شكل هذا المجلس تحت رئاسة وكيل الأزهر الشيخ حسونة النواوى ومن الأعضاء الخمسة التالية أسماؤهم :

١ ــ الشيخ سليم البشرى شيخ السادة المالكية .

٢ ــ الشيخ عبد الرحمن الشربينى من أكابر علماء السادة الشافعية .

٣ ــ الشيخ يوسف الحنبلى شيخ السادة الحنابلة .

٤ ــ الشيخ محمد عبده القاضى بالمحاكم الأهلية .

٥ ــ عبد الكريم سليمان وكيل ادارة قلم الجرايد الرسمية .

وكان صدور هذا القرار بتأليف مجلس ادارة للازهر بهذا التشكيل السابق هو آية نجاح الشيخ محمد عبده الذى ما فتىء يسعى لاصلاح الازهر ، باعتباره موئل الاسلام وركنه الحصين ، فاذا صلح صلح العالم الاسلامى كله . وقد استغل حماسه

الخديو للاصلاح ورغبته فى الوقوف فى وجه الانجليز لكى يتقرب منه ويدفعه فى هذا الاتجاه . يقول لنا احمد باشا شفيق فى مذكراته : « تقابل محمد عبده والخديو عباس بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق امانيه ، فاقترح عليه الشيخ أن يعمل فى ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الانجليز ولا يعارضون الخديو اذا عمل على اصلاحها لأنها دينية محضة ، وهى الجامع الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، واشار على سموه بأن يبدأ باصلاح الأزهر ، واتفقا على أن يقدم الشيخ الى سموه مذكرة بما يراه من وجوب الاصلاح .

وقد قدم الشيخ محمد عبده المذكرة المطلوبة ، فكان هذا القرار السابق تنفيذا لها ، وقد كان اختيار عبد الكريم سلمان وحسن المرصفى أعضاء فى اللجنة بناء على ترشيحه .

وقد بادر محمد عبده فقدم للخديو ما يعتبر أول قوانين لاصلاح الأزهر فأسرع باعتمادها .

مصطفى كامل يشرع فى كفاحه ضد الاحتلال :

منذ عاد مصطفى كامل الى مصر وتم اتفاقه مع الخديو على ضرورة مواجهــــة الاحتلال ، حتى شرع فى كفاحه السياسى العلنى .

ولقد طالعنا فى جريدة المؤيد فى عددها الصادر يوم ٧ يناير ما يمكن اعتباره أول عمل صحفى سياسى على نطاق واسع قام به مصطفى كامل وان لم يحمل اسمه فقد ذكرت الجريدة ان كاتب المقال هو « أحد أدباء مصر ونجباء شبابها » وهو الوصف الذى اعتادت أن تخلعه على مصطفى كامل فى هذه الفترة ، وكان المقال يدور حــول تعهدات الانجليز (بالجلاء عن مصر) وحق مصر فى المطالبة بالوفاء بها ، وهو الموضوع الأثير على قلب مصطفى كامل والذى ظل يكتب فيه طول حياته : ويذكر به دائما أبدا .

حديث مع ستيفن (كرومر) :

على أن العمل الصحفى الذى جعل اسم مصطفى كامل يفرض نفسه على الحياة السياسية والوطنية فى مصر ، فهو الحديث الذى أجراه مع الكولنيل بارنج (شقيق السير افلين بارنج ـ كرومر) وكان قادما الى مصر على نفس الباخرة التى أقلت مصطفى كامل بعد عودته من فرنسا .

وقد نشرت الاهرام هذا الحديث فى عددها الصادر يوم ٢٨ يناير وقــد أثبت احمد شفيق باشا نص الحـــديث فى مذكراته ، كما بعث به اليه مصطفى كامل فى حينه .

وكان الكولونيل بارنج صريحا فى حديثه ، بل وفظا فى صراحته حتى لقد كشف عن مطامع انجلترا لا فى مصر وحدها ، بل وفى السودان ايضا ، وان انجلترا ستتخذ من السودان وسيلة جديدة للسيطرة على مصر ودوام احتلالها . وكان مما قاله :

ولقد ملكنا السودان وهو كما تعلم روح بلادكم . فقال له مصطفى كامل معترضا : وكيف تملكون السودان وهو لا يزال ملكا لنا ؟ فأجاب يارنج ضاحكا : اذا كان ملكا لكم فلم لم تستردوه ولم ضاعت وادای وکسلا ؟

فقال مصطفى كامل : كان ذلك بدسائسكم ومعارضتكم لنا فى استرجاعه ، ولكن متى خرجتم يسهل علينا استرداد ملكنا .

فأجاب يارنج : ان ملككم قضت عليه المدة ، ولم يعد لكم بل أصبح متـاعا لمن يستولى عليه . وجزى الله نوبار باشا كل خير فلقد سهل لنا فى الماضى سلخ السودان، وسيسهل لنا فى القريب ملكه ملكا نهائيا .

ويقول مصطفى كامل فى الحديث : فاستولت على دهشة عظمى وقلت له :

الى هذا الحد تطمعون فى نوبار باشا ؟

فأجاب : واكثر لان نوبار رجلنا ومحبنا ، وقد اطلق عليه السياسيون فى أوربا اسم نوبار ستون دليلا على شدة اخلاصه لنا .

فقلت له : وما فائدته من خدمتكم ؟

فأجاب : انه يؤمل استقلال ارمينيا على أيدينا ، ولا يخفاك معنى ذلك .

فقلت ودهشتى فى ازدياد : اما تخافون بقية نظارنا ، فأجاب مبتسما : ان بقية النظار لا يهمهم الا قبض مرتباتهم العظيمة ، وبقاؤهم فى أعلى المناصب لا يخالفـون للانجليز رغبة بل يقدسونهم من صغيرهم لكبيرهم خوفا من السقوط والعزل .

الخديو يتزوج احدى جوارى قصره :

وفى التاسع عشر من فبراير عقد زواج الخديو على احدى جوارى القصر تسمى اقبال هانم ، وكان سبب زواجه منها على ما يقول شفيق باشا أنه شغف بها حبا وكانت تمتاز برائع جمالها وساحر قوامها ، وقد حملت منه وانجبت مولودة فى الثانى عشر من فبراير سميت أمينة ، فرأى الخديو أن يعقد قرانه عليها .. وهكذا صح القول أن الزواج قسمة ونصيب ، فحيث كان يرنو ويتفاوض لزواج ابنة السلطان عبد الحميد أو على الأقل السلطان السابق عبد العزيز ــ اذا به يتزوج احدى جواريه .

صدور قانون المحكمة المخصوصة :

فى الخامس والعشرين من فبراير صدر قانون بتشكيل محكمة مخصوصة لتحكم فى الأحوال الخصوصية فيما يقع بين الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال ، أو على بحارة السفن الحربية الانجليزية الراسية فى احدى الموانى المصرية .

وقد نص على أن تؤلف المحكمة من ناظر الحقانية رئيسا والمستشار القضـائى (وهو انجليزى) وقاض انجليزى من محكمة استئناف القاهرة يختاره ناظر الحقانية، ومن يكون قائما بأعمال القضاء والمحاماة فى جيش الاحتلال بالقاهرة أو الاسكندرية ،

ومن يختاره ناظر الحقانية من رئيسى محكمتى مصر والاسكندرية الابتدائيتين . على أن لا تتقيد هذه المحكمة بأحكام قانون العقوبات .

وكان سبب صدور هذا القانون وقوع حادثتين على بعض بحارة الانجليز الذين اعتدوا على بعض الوطنيين . وعلى الرغم من أن المحكمة أصدرت حكمها على سبعة أشخاص لمدد تتراوح بين ثلاث سنين وستة أشهر ، وكان بعض المتهمين من الأحداث الذين لا يجوز الحكم عليهم ، ومع ذلك فقد استندت المحكمة الى أن ظروف الحادث تسوغ هذه الشدة .

وقد أحدث صدور قانون المحكمة المخصوصة ضجة فى الأوساط الوطنية وكتب عنه مصطفى كامل فيما بعد مقالا فى جريدة الاهرام تحت عنوان صواعق الاحتلال .

وقد كانت هذه المحكمة كما سترى هى التى قضت أحكامها الجائرة فى دنشواى ، فكانت محل انعقاد الانجليز قبل المصريين ودفع كرومر ثمن قسوة هذه الأحكام ، وتفكيره فى انشاء هذه المحكمة .

وفاة الخديو السابق اسماعيل باشا :

فى الثانى من شهر مارس توفى الخديو السابق اسماعيل باشا فى اسطنبول ، وكان قد كتب يرجو حفيده أن يسمح له عندما اشتد عليه المرض أن يعود الى مصر ، ولكن حكومة نوبار وقفت فى وجه تحقيق هذه الرغبة وهدد بالاستقالة .

الاحتفال بجنازة اسماعيل باشا :

فى الثانى عشر من شهر مارس ، وكان قد جىء بجثمان اسماعيل باشا بعد وفاته الى مصر ، احتفل بتشييع جنازته رسميا ودفن فى مقابر العائلة المالكة فى الامام الشافعى ، وأعلن عليه الحداد رسميا لمدة أربعين يوما .

استقالة محمد توفيق البكرى من نقابة الاشراف :

دب الخلاف بين مصطفى كامل وبين السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الصوفية ، وأرجف المرجفون أنه يرى نفسه أحق بالخديوية من عباس نفسه لكرم محتده ، وكان أن حمله الخديو فى الثانى من ابريل على الاستقالة من نقابة الاشراف على ما ذكرت جريدة المؤيد ، ولكن أحمد شفيق باشا قرر فى مذكراته ، أنه قد أقيل فى الحقيقة ولم يستقيل .

وقد عين السيد على محمد الببلاوى نقيبا للاشراف خلفا للسيد محمد توفيق البكرى الذى ظل فى منصبه الآخر ونعنى به شيخ مشايخ الصوفية .

الأسطول الانجليزى فى الاسكندرية :

فى السابع والعشرين من شهر مايو وصل الى الاسكندرية ثلاث وعشرون قطعة بقيادة الأميرال سيمور ، فتبادلت قطع الاسطول التحية مع طوابى المدينة ، وعلى اثر

وصولها تشرف الأميرال والضباط بمقابلة الخديو ، وقد قدمهم اليه السير افلين بارنج (كرومر) وكان الخديو قد سافر الى الاسكندرية مبكرا هذا العام . وقد رد الخديو الزيارة لأمير الأسطول ، واقام مأدبة ضخمة فى سراى رأس التين تكريما لضباط البحر الانجليز .

وكتبت جريدة التيمس بمناسبة هذه الزيارة تقول : ان الاميرال سيمور الثانى ما جاء الى مياه الاسكندرية الا ليذكر المصريين بسيمور الأول هادم حصون الاسكندرية التى انشأها محمد على وهادم قلاع الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

مصطفى كامل يوجه نداء الى مجلس النواب الفرنسى :

فى الرابع من يونيه ، وكان مصطفى كامل قد سافر الى فرنسا ، وجه الى البرلمان الفرنسى نداء على شكل صورة رمزية صورت فيها مصر بشكل فتاة ترسف فى قيود الاحتلال ، وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها ، كما عاونت على تحرير أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حرياتها من قبل . وطبع مصطفى كامل من هذه الصورة عدة آلاف من النسخ .

وقد قصد مصطفى كامل مع ستة من المصريين الى سراى مجلس النواب فى هذا اليوم فقابلهم مسيو بريسون رئيس المجلس ، وتسلم الصورة والكتاب الذى اعده مصطفى كامل يناشد فيه فرنسا معاونة المصريين على التحرر من الاحتلال الانجليزى .

وقد أبدى مجلس النواب الفرنسى عطفه على الأمانى القومية لمصر . وقد نوهت الصحف الفرنسية كلها ، وكثير من صحف أوربا وامريكا بهذه المقابلة ونشر بعضها الصورة والكتاب ، فتحققت بذلك أعظم دعاية للقضية المصرية ، بعد أن كانت انجلترا قد نجحت فى افهام أوربا والعالم أن المصريين جميعا راضون بالاحتلال البريطانى .

تابع مصطفى كامل نشاطه فى فرنسا خلال أشهر الصيف ، فخطب فى تولوز حيث تخرج ، وسافر الى فينا ، وبدأت صحف بريطانيا تنشر أخبار نشاطه .

وكان مصطفى كامل يوالى احمد شفيق باشا بالرسائل التى تصور نشاطه الدعائى ضد الاحتلال ، وقد سجل أحمد شفيق باشا الكثير منها فى مذكراته .

رحلة الخديو التقليدية الى اسطنبول :

فى الثامن عشر من يوليو وصل الخديو عباس الى اسطنبول كما اصبحت عادته ، واستقبل بالتكريم والحفاوة المعتادة من لدن السلطان وكبار الدولة ، بعد أن أصبح ذلك كله هو آخر ما بقى من علاقة بين مصر وتركيا .

خطاب من التعايشى خليفة المهدى الى الزبير رحمت باشا :

فى الخامس من أغسطس نشرت جريدة المؤيد خطابا من عبد الله التعايشى خليفة المهدى وأمير السودان ، موجها الى الزبير رحمت باشا . وكان الانجليز قد فكروا فى

استخدام الزبير باشا للاتصال بالتعايشى لتحسين الجو بينه وبين مصر أو بالأحرى بينه وبين الانجليز ، فبعث الزبير باشا بخطاب للتعايشى يشكره فيه على ما وصل الى علمه من شموله بعض اقربائه بالرعاية والحماية ويعرض عليه التوسط بينه وبين الحكومة المصرية لتحسين العلاقات ، فرد عليه التعايشى بخطاب أحدث دويا فى مصر وفى العالم الاسلامى كله — وحملت جريدة المقطم على جريدة المؤيد لنشرها اياه متهمة اياها بالتحريض على الثورة ، ووقفت جريدة الأهرام الى جانب المؤيد . وكان مما جاء فى هذا الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أنك مستعد لأن تكون واسطة فى ربط علاقة المحبة بيننا وبين رجال الحكومة المصرية ، فان كان ذلك بعد اذعانهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله واتباعهم للمهدية مع اسلامهم ظاهرا وباطنا واقلاعهم عن اتباع الكفرة ، وقتل كل من لم يسلم منهم فى عموم القطر المصرى ، فبعد تحققنا من ذلك ، وحصوله منهم فعلا باقامة أحكام الاسلام والتزين بشعار المهدية ومخاطبتهم لنا بالاذعان والوقوف مع الأمر والنهى ، نتقبل توسطك فى ذلك بيننا وبينهم . ونكون لهم مالنا وعليهم ما علينا . والا فليس بيننا وبينهم رابطة أواتصال الا الطعن والضرب بالسيوف الصقال والرماح الطوال ، حتى يذعنوا لأمر الله أو يهلكوا عن آخرهم بقدرة الله . ولا بد من حلول ذلك بهم ، ان داموا على اعراضهم فى الوقت الذى يريده الله » .

مصطفى كامل يبدأ اتصاله بمدام جولييت آدم :

فى الثانى عشر من سبتمبر بدأ مصطفى كامل اتصاله بمدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة ذات النفوذ الكبير فى فرنسا ، مبتدئا هذه العلاقة الروحية ، التى كان لها أعظم الأثر فى ازدهار كفاحه من أجل مصر . واليك صورة هذا الخطاب الذى بعث به اليها من مدينة تولوز فهو قطعة من العاطفة الوطنية المتأججة التى كانت تملأ صدر مصطفى كامل باشا :

سيدتى :

اننى لا ازال صغيرا ، ولكن لى آمالا كبارا ، فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون ان وطنى لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتى انه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى وأجعل حيـــاتى وقفا عليـــــه ..

انى أبلغ من العمر احدى وعشرين سنة ، وقد نلت اجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، واريد ان اكتب واخطب وانشر المحبة والاخلاص اللذين اشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز ، وقد قيل لى أكثر من مرة انى أحاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال ، فأعينينى يا سيدتى ، فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقـدير قولى ، وتقوية عزمى وشد أزرى وتقبلى تحية واحترام ، « مصطفى كامل »

وقد استجابت جولييت آدم لندائه ، ودعته الى مقابلتها ، فوقع من نفسها وقعا حسنا ، واصبحت له منذ هذه اللحظة بمثابة الأم ، وراحت تكتب عنه وتقدمه لكبار رجال الآدب والسياسة من الفرنسيين .

استقالة الوزارة النوبارية :

فى الحادى عشر من نوفمبر قدم نوبار باشا استقالته من الحكومة معتذرا بمرضه ، فقبلها الخديو على الفور . وكانت العلاقات قد ساءت بين الخديو ونوبار باشا لموقفه من عودة اسماعيل باشا الى مصر قبل موته ، وعرض الخديو على السير افلن بارنج (كرومر) رغبته فى أن يعيد الى الوزارة مصطفى باشا فهمى رجل (كرومر) المحبوب ، فرحب (كرومر) بذلك ، فلم يبق أمام نوبار الا أن يستقيل خوفا من أن يغتال .

وزارة مصطفى باشا فهمى الثانية :

والف مصطفى باشا فهمى وزارته الثانية ، فاحتفظ بوزارة نوبار باشا جميعا ، ما عدا منصب وزير الحربية حيث عين فيه عيانى باشا فأصبحت الوزارة مشكلة على الوجه التالى :

مصطفى فهمى باشا – للرئاسة والداخلية .
حسن فخرى باشا – للأشغال والمعارف .
بطرس غالى باشا – للخارجية .
احمد مظلوم باشا – للمالية .
ابراهيم فؤاد باشا – للحقانية .
محمد العيانى باشا – للحربية .

وقد كانت هذه الوزارة هى أطول الوزارات عمرا فى تاريخ مصر الحديث كله .

مصطفى كامل يخطب فى الجمعية الجغرافية فى باريس :

فى الحادى عشر من ديسمبر . عقد مصطفى كامل اجتماعا ضخما بدار الجمعية الجغرافية فى باريس ، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب .

وقد القى مصطفى كامل فى الاجتماع خطابا موضوعه : « الاحتلال الانجليزى فى مصر » وقد نشرت معظم الصحف الفرنسية فقرات من هذا الخطاب وأفردت الصحف المصرية لنشره الصفحات الطوال ، واختصت جريدة المؤيد بنشر الخطاب كاملا على عدة اعداد متوالية .

١٨٩٦ م – ١٣١٤ هـ : بين مصطفى كامل وغلادستون :

فى الثانى من يناير أرسل مصطفى كامل وكان يقيم فى باريس خطابا الى المستر غلادستون رئيس حزب الأحرار فى انجلترا والذى تم احتلال مصر فى ايامه وكان قد اعتزل الوزارة .

وقد ذكر مصطفى كامل غلادستون فى هذا الخطاب بوعوده المتكررة عن ضرورة الجلاء فى مصر ، ومضى يقول فى هذا الخطاب : « فان كنتم الا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد . وفضلا عن ذلك ، فان تصريحا منكم فى مسألة مصر يكون له أعظم قيمة فى هذه الأيام التى يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الاسلام ، والى انتظارى الجواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل ان تتفضلوا بقبول عظيم احترامى .

« مصطفى كامل »

رد غلادستون :

وكان عجبا أن يهتم غلادستون بهذه الرسالة التى جاءته من شاب لم تسبق له به معرفة ، ولا يحتل منصبا رسميا ولا هو مجرد صحفى ، ومع ذلك فقد بادر بالرد عليها ، بل وضمن رده ما اعتبر فى ذلك الوقت قنبلة سياسية ، وهذا هو نص الرسالة :

سيدى العزيز :

انى استحسن ما فهمته من احساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريا ، ولكنى مجرد بالمرة من كل سلطة .

أما آرائى فانها لم تتغير قط ، وهى دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها ، وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى من سنين . ولما كنت فى منصبى أخيرا رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا الى تسوية هذه المسألة المهمة ، والسلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون (سفير فرنسا فى لندن) فى عام ١٨٩٢ شجع أملى ، غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا اذا ذاك ولست أدرى لأى سبب ولقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق شىء أضيفه عليها ، وقد كنت مستعدا لعمل كل ما هو حسن فى سبيل اعطاء آرائى تأثيرها ، الا أننى تركت المنصب بالمرة ولست الآن الا أحد أبناء بلادى الخصوصيين ، وانى أتشرف بأنى لك الخاضع الصادق .

« و . جلادستون »

وقد أحدث هذا الرد هزة فى الأوساط السياسية العالمية والفرنسية بخاصة ، اذ نشرته الصحف الفرنسية وعلقت عليه ، وأشادت بالشاب مصطفى كامل الذى انتزع لبلاده هذا التصريح من شيخ السياسة الانجليزية .

أما فى مصر فقد علا نجم مصطفى كامل فى سماء الوطنية المصرية ، وأسرع مصطفى كامل للعودة الى مصر بعد أن سلح بهذا التصريح الخطير من أن موعد الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين ــ فوصل الى مصر فى الرابع عشر من شهر يناير ، وكله عزم ونشاط لخوض المعركة السائدة ضد الاحتلال ، عن طريق الاتصال المباشر للجماهير .

السينما فى مصر :

فى الثامن والعشرين من شهر يناير ، افتتحت أول دار للسينما فى مصر بالقرب من فندق شبرد فيما كان يسمى « حمام شنيدر » واطلق على عرض السينما الأول اسم « الفوتغراف المتحرك » ومخترعه المسيو لومبير من مدينة ليون . وكانت أجرة الدخول خمسة قروش للكبار ، وقرشين للصغار — يقول أحمد شفيق باشا الذى أورد الخبر ، وكان ممن خفوا لمشاهدة العرض الأول « وقد عرضت جملة مناظر لا بأس بها » .

مصطفى كامل يلقى أول خطاب له فى الاسكندرية :

فى يوم الثلاثاء ٣ مارس ألقى مصطفى كامل أول خطاب سياسى عام فى مدينة الاسكندريه بالمسرح العباسى • فازدحم المسرح برواده من الوطنيين والاجانب ، وبلغت الحماسة اوجها ، ومصطفى كامل يدعو المصريين للتمسك بحقوقهم فى الاستقلال والمطالبة بالجلاء . وقالت جريده المؤيد تلخص مغزى الاجتماع « انها الخطبة الأولى التى اقدم على القائها شاب مصرى غيور ، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال أربعة عشر عاما .

تسيير حملة دنقلة لاسترداد السودان :

فى الرابع عشر من شهر مارس فوجئت البلاد بقرار يصدر من الحكومة المصرية ، بتسيير حملة دنقلة تمهيداً لاسترداد السودان ، وصــدرت الأوامر لجيش مصر المحتشد على حدود مصر الجنوبيه ، والمؤلف من ١٦٦٨٠ مقاتلا منهم سبعمائة ضابط بالزحف نحو الأمام . ولم تكن الحكومه المصريه نفسها بأقل صدمة من الشعب المصرى لعظم المفاجأة اذ لم يعلم رئيس الحكومة نبأ الحملة الا فى اليوم السابق على صدور الأمر لها بالزحف .

فتقول لنا جريدة المؤيد فى عددها الصادر فى ٢٤ مارس : « أن مصطفى فهمى باشا لم يعرف بنبأ هذه الحملة الا الساعة السادسة مساء الجمعة ١٣ مارس فاجتمع على الفور بالخديو فى الساعة الثامنة وانعقد مجلس الوزراء يوم السبت وأصدر قراره بالموافقة على الحملة » .

وقد قيل أن اللورد كرومر ليخفف من وقع المفاجأة على مصطفى فهمى باشا رئيس الحكومة ، زعم أنه هو نفسه قد فوجىء بنبأ الحملة . وذلك كله كذب بطبيعة الحال ، فمن السخف تصور صدور أمر لاحد الجيوش بالزحف دون أن يسبق ذلك معرفة قدرته على هذا الزحف واحاطة قواده بجلية الأمر . وقد ساعد على تدبير اعداد الحملة فى خفية عن الحكومة المصرية نفسها ، ان كتشنر باشا سردار الجيش المصرى وكافة قادة الوحدات كانوا من الانجليز .

وقد راح السير آفلين بارنج (كرومر) يداهن الخديو عباس ليخفف من غضبه ليحمله على مباركة الفرق المسافرة ووداعها عند تحركها من محطة العاصمة حتى لقد

قدم له اعتذارا باسم اللورد سالسبورى عن الخطأ الذى وقع فى الاجراءات ، وانصاع الخديو عباس فى نهاية الأمر للأمر الواقع ، فخطب الجنود المسافرون فى الحملة وطلب منهم ان يحافظوا على شرف الجيش المصرى : وان يعلو من شأنه . ودعا لهم بالتوفيق والسلامة .

وعلى شديد رغبة المصريين فى استعادة السودان ، وايمانهم بأنه جزء لا يتجزأ من مصر ، فقد نظروا لهذه الحملة بعين الريبة ، نظرا لهذه الظروف التى احاطت بها ، وهم لم ينسوا بعد أن الانجليز هم الذين ألحوا على مصر ، بل اضطروها اضطرارا لاخلاء السودان ، فما الذى حولهم فجأة الى متحمسين لاستعادته . وقد دلت الحوادث فيما بعد على صدق المصريين .

ولما كان تسيير مثل هذه الحملة فى حاجة الى نقود ، ولم يكن لدى الحكومة المصرية ما تخصصه لذلك ، فقد اخذت من أموال صندوق الدين على سبيل القرض نصف مليون جنيه .

الرغبة فى اتحاد ايطاليا :

وقد قيل فى الدوائر الانجليزية ، التى تساءلت بدورها عن الدوافع التى أدت الى تسيير هذه الحملة ، أن الحافز على التعجيل بها هو مساعدة ايطاليا فى حربها مع الدراويش ، فقد ضيق الدراويش الخناق على مواقعها الحربية فى مدينة كسلا ، واحس الايطاليون أن لا قبل لهم بمواجهة الدراويش ، فاستنجدوا بانجلترا ، التى وجدت فى ذلك فرصة سانحة لتحقيق مآربها فى السودان .

مجلس شورى القوانين يحتج على اجراءات حملة دنقلة :

لم ينصرم شهر ابريل حتى كان مجلس شورى القوانين يسجل احتجاجه على الاجراءات التى سلكتها الحكومة والسلطة المحتلة لتسيير حملة دنقلة ، حيث أصدر المجلس القرار التالى :

« انه مع تجنب المجلس الحكم على صواب أو خطأ القرار بتسيير الحملة المصرية الى دنقلة يرى أنه كان من الواجب على الحكومة اخذ رأى الجمعية العمومية او المجلس عن تقرير مبلغ الخمسمائة الف جنيه نفقة لها ، كما هو مقتضى النظام الأساسى للمجلسين .

موقعة عكاشة :

فى الثانى من شهر مايو ذكرت الصحف أول انباء عسكرية عن الحملة ، فقيل ان الجيش المصرى قد حصل على نصر على الدراويش فى معركة عكاشة .

واقعة فركة :

وفى السابع من يونيه زحف الجيش المصرى من (عكاشة) وهاجم معسكر الدراويش فى (فركة) فدار قتال شديد انتهى باستيلاء الجيش المصرى على معسكر الدراويش الذين فروا جنوبا .

وتقع فركة بين وادى حلفا ودنقلا . وكان الجيش المصرى يمهد لزحفه للأمام بانشاء سكة حديد لتربط الجبهة بمصر . وقد اعتبر مد الجيش المصرى لهذه السكة الحديد وسط الظروف التى انشئت فيها عملا من الأعمال البطولية التى تشهد للمصرى بالجلد والصبر على مشاق الطبيعة والحياة ، متى وجد القيادة الحازمة .

محاولة ادخال العلوم الحديثة الى الأزهر :

فى أول يوليو صدر قانون اصلاح الأزهر الذى وضعه مجلس ادارته الجديد كما أوصى به الشيخ محمد عبده ، وكان أهم ما جاء فى هذا القانون هو الاشارة الى امكان ادخال العلوم العصرية الى منهاج الأزهر ، والى تنظيم طريقة الدراسة به لأول مرة ، وتحديدها سنوات وتقسيمها الى درجات ومراتب وامتحانات ، واليك ما نص عليه القانون فى هذا الصدد لأهميته وخطورته :

« لمجلس الادارة أن يأذن لغير علماء الأزهر بتدريس العلوم غير المتداول تدريسها الآن فيه ، بشرط أن يكونوا من أهل العلم الحائزين للصفات الملائمة لحال الأزهر من حيث هو مدرسة اسلامية ، وله (أى مجلس الادارة) حق توزيع العلوم التى تدرس فيه على الأساتذة والسنين ولا يجوز لأستاذ منهم أن يتعدى ما يقرره المجلس فى ذلك . وللمجلس أن يعين مباشرة كتبا لجميع العلوم خصوصا فيما لم يتداول الآن تدريسه بالأزهر . ومتى عين كتابا لا يجوز قراءة غيره الا بقرار يصدر منه ولا يباح لأحد أن يختار الكتب المألوف قراءتها فى الجامع الأزهر الا بعد اشعار مجلس الادارة وصدور قرار بذلك .

- تحصيل العلوم غير المتداول تدريسها الآن بالأزهر كتاريخ الاسلام وصناعة الانشاء قولا وكتابة ، وكاللغة متنا وأدبا ، ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان وخلافها من العلوم العقلية والفعلية ، تكون من المرجحات والمميزات الموجبة لتقديم بعض أهل الدرجة الواحدة على بعض .
- مدة طلب العلم فى الجامع الأزهر لمن يريد أن ينال لقب عالم أقلها اثنتا عشرة سنة وأكثرها خمس عشرة سنة .

وخول القانون لشيخ الأزهر سلطة واسعة ، فيما اشتمل عليه القانون من الاجراءات الداخلية والادارية ومسائل الامتحانات والعقوبات وغيرها ، على أن يساعده فى مزاولة هذه السلطة مجلس الادارة لتنفيذ ما ورد فى القانون .

حادث البرقية السرية عن حملة دنقلة :

فى الثامن والعشرين من شهر يوليو نشرت جريدة المؤيد ترجمة تلغراف بعث به السردار الى ناظر الحربية باللغة الفرنسية فى يوم ٢٦ يوليو وهى تتعلق بتفاصيل حملة دنقلة . ولما كانت هذه البرقية تعتبر من الأعمال السرية ، فقد ارتجت الأوساط الحاكمة لتسرب نص البرقية الى جريدة المؤيد التى كان ينظر لها باعتبارها جريدة معادية للحكومة . وفتح تحقيق لمعرفة الكيفية التى وصلت بها البرقية الى الشيخ

على يوسف . وعن تحديد مدى المسئولية الجنائية عن هذا التصرف ، وعمن توجه اليه التهمة . وقد لفظت البلاد على الفور بأن هذه الحركة مقصود بها النيل من جريدة المؤيد وصاحبها ، وقد تأكد ذلك عندما قدم الشيخ على يوسف صاحب الجريدة للمحاكمة عن هذا الحادث كما سنرى .

مصطفى كامل يسافر الى أوربا :

فى يوم السبت أول اغسطس بارح مصطفى كامل ميناء الاسكندرية قاصدا الى أوربا ، كما أصبحت عادته ، ليستأنف جهاده الذى بداه من اجل الدعاية فى أوربا لاجلاء الانجليز عن مصر .

سفر الخديوى الى أوربا :

ولم يلبث الخديوى أن يتبعه فى العاشر من أغسطس على ظهر يخت المحروسة ، فى رحلة الى أوربا ، بعد أن عين مصطفى باشا فهمى رئيس الحكومة ، قائمقاما عنه أثناء غيبته .

تسيير ترام العاصمة :

فى الثامن عشر من أغسطس ، بدأ تسيير عربات الترام الكهربائى فى مدينة القاهرة ، فأحدث تسييره هزة فى النفوس ، التى كانت حتى ذلك الوقت لا تعرف سوى العربات وركوب الخيل أو الحمير وسيلة للمواصلات داخل العاصمة .

واقعتا الحفير ودنقلة :

فى الثالث والعشرين من سبتمبر بلغ الجيش المصرى فى زحفه برا وبحرا الى مدينة دنقلة عاصمة المديرية ، وذلك بعد ان كان قد نجح فى اجلاء الدراويش قبل ذلك عن الحفير . ثم واصل الجيش زحفه بعد احتلال دنقلة ، فاحتل الدبه ومروى على النيل ، وبذلك أصبحت مديرية دنقلة كلها تحت سلطان الجيش المصرى ، وكان الأهلون من أبناء السودان يستقبلون الجيش المصرى أينما حل بالترحاب والتهليل باعتباره محررا ومنقذا ، فقد كان التعايشى على خلاف المهدى ، جهولا باطشا ظالما ، مما جعل السودانيين فى هذه المناطق يتوقون لعودة الحكم المصرى .

عودة الخديو الى مصر :

فى أول أكتوبر عاد الخديو عباس الى الاسكندرية من رحلته فى أوربا ، وقد استوقف الأنظار فى هذه السنة ، عدم توجهه كما أصبحت عادته الى اسطنبول ، فدل ذلك على جفاف العلاقات بينه وبين السلطان .

وفاة عبد الله النديم :

فى ليلة الأحد العاشر من اكتوبر توفى الزعيم المصرى الشعبى الكبير عبد الله النديم فى مدينة الاستانة ، وكان قد استقر بها كما قدمنا ، فاجتمع مع أستاذه القديم

جمال الدين الأفغانى . وقد امضى هذه الحقبة الأخيرة من حياته فى معركة بطولية مع ابى الهدى الصياد الذى كان يعتبر صاحب اكبر نفوذ فى الدولة العثمانية بعد السلطان لشدة تأثيره عليه . وكان الأحرار يعتبرون (ابو الهدى) هو نبع الفساد ، فأطلق عليه عبد الله النديم اسم ابا الضلال ، ووصل به التحدى الى حد ان الف كتابا أسماه « المسامير » صور فيه الشيطان وقد اعلن انهزامه أمام شيطانية أبى الهدى الصياد ، وقد تمكن عبد الله النديم من طبع الكتاب بالفعل فى مصر ، مما كان له أسوأ الأثر على العلاقات بين الخديو وبين السلطان ، وليس هناك ما يكشف عن شجاعة عبد الله النديم التى تجاوزت كل حد من هذا الموقف .

ولم يستطع السلطان اذ علم بوفاة عبد الله النديم الا أن يصدر أمره بتشييع جنازته رسميا ، وسار فى الجنازة وجوه الدولة واعلامها . ولكن كان يرمق من وسط الجميع علم الأعلام وفذ الأفذاذ ، وهو جمال الدين الأفغانى الذى سار دامع العينين حول شعلة الوطنية المصرية الاسلامية التى خبت .

مصطفى كامل يقابل السلطان ثم يعود الى مصر :

وكأن التاريخ يأبى الا أن تنتقل الشعلة من عبد الله النديم الى مصطفى كامل بطريقة حسنة مادية ، ففى نفس الشهر الذى مات فيه النديم ، كان مصطفى كامل بعد أن اتم جولته فى أوربا يصل الى الآستانة فى السابع والعشرين من أكتوبر لأول مرة ، ويقابل السلطان فيحظى من لدنه بكل رعاية والتفات ، حتى لقد أهداه السلطان علبة سجاير من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة . وعاد مصطفى كامل فى الخامس عشر من نوفمبر الى مصر ، ليواصل ما بداه من ايقاظ مصر الفتاة ، فلا يكاد يصل الى مصر حتى يكون السلطان قد منحه النيشان المجيدى الثانى ورتبة المتمايز .

براءة الشيخ على يوسف من قضية التلغراف :

فى التاسع عشر من نوفمبر صدر حكم من محكمة عابدين ببراءة الشيخ على يوسف من تهمة افشاء أسرار الدولة ، وحكم على توفيق كيرلس الموظف بمصلحة التلغرافات بالحبس ثلاثة أشهر . وكانت هذه القضية هى الشغل الشاغل للصحافة المصرية تخاصة والرأى العام بعامة . وبدأت المحاكمة فى ١٧ نوفمبر ، وبلغ من اهتمام الرأى العام بها أن فكرت المحكمة أن تعقد جلسات المحاكمة فى حوش المحكمة وأن تقيم لذلك سرادقا خاصا ليتسع لنظر الراغبين فى حضور الجلسة ، ولكن عدل عن هذا التفكير .

وجرت المحاكمة فى جلسة علنية ترافع فيها ابراهيم الهلباوى بك عن الشيخ على يوسف فصدر الحكم ببراته على الوجه المتقدم .

صندوق الدين يرفع قضية على الحكومة المصرية :

فى السادس من ديسمبر ، صدر حكم المحكمة المختلطة النهائى لصالح صندوق الدين الذى طالب الحكومة المصرية بدفع مبلغ النصف مليون الذى أخذته من

الصندوق لتمويل حملة دنقلة فرفضت الحكومة المصرية .

فلما اصبح الحكم نهائيا ، ولم يكن لدى الحكومة المصرية ما تسدد به المبلغ فقد قدمت الحكومة الانجليزية المبلغ على سبيل القرض للحكومة المصرية .

مجلس شورى القوانين يحتج من جديد على الاحتلال :

شجب مجلس شورى القوانين جيش الاحتلال كعادته فى تقريره السنوى ورفض الاعتمادات المخصصة له فى الميزانية وقالت اللجنة المالية فى تقريرها الذى اعتمده المجلس : مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٢٢٥ جنيها واللجنة لا ترتاب مطلقا فى أن للحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته وباستعداده الذى برهن عليه فى كل المواقع التى دعى اليها ، واستتباب الأمن فى داخلية البلاد وأطرافها مما لا يدعو للاستعانة بجيش أجنبى ، ولذلك فهى ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف .

وقد جاء فى تقرير السير افلين بارنج (كرومر) عن هذه السنة أن مصاريف حملة دنقلة بلغت ٧١٥٠٦٧ جنيها .

وجاء فيه عن التعليم الذى كان نقطة الضعف فى سياسة السير افلين بارنج (كرومر) فى مصر ما يلى :

ان عدد الطلبة بلغ فى العام المنصرم ١٠٧٤٩ مقابل ١٠٩٧٥ فى السنة السابقة ، أى أن مجموع الطلاب قد نقص . وكان من بين هذا العدد ٢٨٠٢ يتعلمون لغة انجليزية و ٣٣٦٩ يتعلمون لغة فرنسية ٤٤١ يدرسون الانجليزى كلغة اضافية و ٢٥٢ يدرسون الفرنسى كلغة اضافية . وفى الوقت الذى نقص فيه عدد الطلاب ، فقد زادت المصاريف المدرسية من ٢٨ الف جنيه الى ٣٣ الف جنيه .

الحساب الختامى للسنة :

وقد انتهى الحساب الختامى لهذه السنة على الوجه التالى :

ايرادات	١١٠١٥٧٠٢	جنيها
مصروفات	١٠٥٤٥٠٢	جنيها
فائض	٤٧٥٢٠٠	جنيها

لطفى السيد يؤلف جمعية سرية :

ومن حوادث هذه السنة ما اخبرنا به أحمد لطفى السيد فى كتابه « قصة حياتى » الذى أملاه على الأستاذ طاهر الطناحى وأصدرته جريدة الهلال ، من انه الف فى هذه السنة وكان يشتغل فى النيابة العمومية جمعية سرية لمحاربة الانجليز ، ولننقل لك نص عبارته :

« أتممت الدراسة سنة ١٨٩٤ وحصلت على شهادة ليسانس الحقوق ، وعينت فى صيف هذا العام أنا وجميع زملائى كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر عينت بعدها سكرتيرا للافوكاتو العمومى حسن باشا عاصم . ثم انتدبت معاونا للنيابة

ببنى سويف . وسرنى ذلك لانى وجدت بها صديقى عبد العزيز فهمى وكيل النيابة وقتئذ .

وفى سنة ١٨٩٦ عينت وكيلا للنيابة بمرتب عشرة جنيهات ، وكان صديقى عبد العزيز ما زال بها أيضا فاقمنا فى هذه المدينة وكنا نفكر فى حالة مصر . وماتعانيه من الاحتلال البريطانى . وفى ذلك العام انشأنا جمعية سرية غرضها تحرير مصر . وكانت الجمعية مؤلفة من عبد العزيز فهمى ، وأحمد طلعت رئيس النيابة وحامد رضوان وكيل النيابة . ومحمد بدر الدين وكيل النيابة . والدكتور عبد الحليم حلمى وأنا ... ثم ضممنا الينا بهجت بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا» .

ثم يمضى احمد لطفى السيد فيحدثنا كيف أن مصطفى كامل اتصل به وأفهمه أن الخديوى على علم بجمعيتهم السرية ، واقترح عليهم الانضمام الى الحزب الوطنى الذى تألف تحت رئاسة الخديو ، وكيف أرسل الخديو لطفى السيد الى سويسرا ليتجنس بالجنسية السويسرية ثم يعود الى مصر لاصدار جريدة تحارب الاحتلال .

١٨٩٧ م — ١٣١٥ هـ — ردم الخليج المصرى وتسيير الترام فيه :

فى أول فبراير من هذه السنة صدر أمر عال بردم الخليج المصرى وكان قناة مائية وتحويله الى طريق عمومى مراعاة للصحة العامة من ناحية ، وتيسيرا للمواصلات فى القاهرة من ناحية ثانية اذ تعهدت شركة الترام أن تقوم بنفقات ردمه ، ومد خط الترام فيه .

منع مندوبى الصحف الوطنية من الدخول لدوائر الحكومة :

فى السادس عشر من فبراير ، بلغ ضيق الحكومة المصرية من انتقادات الصحف الوطنية ، الى حد جعلها تصدر أمرا بمنع دخول مندوبيها الى دواوين الحكومة ، وقد شمل هذا الحظر صحف المؤيد والأهرام والأهالى والجورنال اجيبسيان ، ونبهت على أصحاب الصحف الأخرى على ما ذكرت جريدة المقطم أن يمنعوا مكاتبيهم من مد هذه الصحف بالأخبار .

وراحت جريدة المقطم تهاجم جريدة المؤيد والأهرام باعتبارهما جريدتان عميلتان لفرنسا وخدمة مصالح فرنسا .

الحرب التركية اليونانية :

منذ أول مارس من هذه السنة توالت النذر أن ستقوم حرب بين تركيا واليونان اذ تعددت الحوادث العدوانية بينهما فى جزيرة كريت . وقد سرت موجة من الحماسة بين المصريين وتألفت لجان لجمع التبرعات ترسل لمساعدة الدولة العثمانية . ووضعت هذه الاكتتابات تحت رعاية الخديوى الذى تبوع بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه وتابعه أفراد الأسرة الخديوية وتألفت لجان من الشبان والسيدات ، ووضع فى المساجد وبعض المحال التجارية صناديق مغلقة ، ليضع فيها من يشاء ما تجود به نفسه .

ترقيم منازل القاهرة :

فى السابع والعشرين من شهر مارس صدر أمر بترقيم منازل القاهرة تسهيلا لعملية التعداد التى صدر الأمر باجرائها ، وكان ذلك هو أول العهد بترقيم القاهرة .

الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لدار الآثار :

فى يوم الخميس الأول من أبريل الموافق ٢٩ شوال (١٣١٤ هـ) وضع الخديوى عباس حلمى الثانى الحجر الأول فى أساس متحف الآثار التاريخية المصرية وحضر الاحتفال بذلك أصحاب السعادة مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية وحسين فخرى باشا ناظر الأشغال والمعارف وبطرس غالى باشا ناظر الخارجية وأحمد مظلوم باشا ناظر المالية وابراهيم فؤاد باشا ناظر الحقانية ومحمد عيانى باشا ناظر الحربية وبعد الانتهاء عاد الخديوى ومن معه الى سراى عابدين .

وذلك هو نص المحضر الذى تحرر رسميا بمناسبة اقامة الاحتفال ببناء متحف الاثار ، وقد رسم على جانبى المحضر عمودان مكتوب عليهما أسماء أشهر علماء التاريخ المصرى الذين تجشموا المشاق لتحصيل هذا العلم الجليل وعلى رأسهم شامبليون وماريت وماسبيرو وغيرهم .

وفى قاعدة العمودين أسماء الجهات التى تنقل فيها مبنى المتحف وهو بولاق ثم الجيزة ، ثم قصر النيل حيث اقيم المبنى الجديد .

انشاء جمعية الهلال الأحمر :

فى الثامن والعشرين من ابريل انشئت جمعية الهلال الأحمر لتنشىء مستشفيات خصوصية تقوم بتمريض جرحى الجيش العثمانى وكانت الحرب قد أعلنت رسميا بين تركيا واليونان .

ووضع المشروع تحت رعاية الخديوى ، وتولى المختار باشا الغازى الرئاسة الفعلية للجمعية .

انتصار الجيش التركى على اليونان :

فى السادس والعشرين من أبريل أبرق الصدر الأعظم الى الخديوى يبشره بانتصار الجيش التركى بقيادة أدهم باشا على الجيش اليونانى واحتلال قاعدته الحربية فى مدينة لاريسا . فعم الفرح الخديوى وحاشيته والكثير من الأهالى . فقد كانت اليقظة الوطنية تتمثل فى هذه الحقبة فى الجامعة الأسلامية التى تقف تركيا على رأسها .

وقد اشتد الحنق على هذه الظاهرة بين دوائر الاحتلال ، وعبرت عن ذلك الصحف الانجليزية المحلية ، وجريدة المقطم .

عودة مصطفى كامل الى مصر :

فى الثانى عشر من مايو عاد مصطفى كامل من رحلته الى أوربا وكان قد سافر اليها جريا على عادته فى الثانى عشر من مارس . وقد وافقت عودته عيد الأضحى من

ناحية ، وانتصارات تركيا على اليونان من الناحية الثانية ، فارسل برقية الى باشكاتب المابين السلطانى يهنىء السلطان بالعيد والانتصار ويعرب عن رجائه فى أن يشترط السلطان على دول أوربا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر مقابل جلاء الجيش العثمانى عن اليونان ، فأحدث ذلك رد فعل عند الجالية اليونانية المقيمة فى مصر ، فحملت عليه الصحف اليونانية المحلية واتهمته جريدة « القارد السكندرى » انه يكره اليونان كراهية شديدة وكانت الصحف الأوربية المحلية تحمل حملة شعواء فى هذه الفترة على الأمة المصرية لما أبدته من عطف على تركيا فى الحرب اليونانية . فرأى مصطفى كامل أن يواجه ذلك كله بأن يقيم حفلا عاما فى الإسكندرية ليخطب فيه ، وقد عقد الاجتماع بالفعل فى يوم ٨يونيه ، وليس هناك ما يصور جو الاجتماع وما لقيه مصطفى كامل فيه من نجاح ، بعد أن نثبت نص خطابه لمدام جولييت آدم والذى حدثها فيه عن هذا الاجتماع .

خطاب مصطفى كامل لجولييت آدم :

سيدتى المديرة المبجلة ..

لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى ، والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطن لعظم جلالها ، اذ لم تكد الصحف تعلن عن الخطبةالتى القيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك فى هذه المظاهرة التى حضرها أكثر من ألفى مصرى ، وقد وافقوا بكل سرور، وهم محقون فى هذه الموافقة ، على ما عرضته عليهم أخيرا من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء ، وأن الأوربيين ، حتى اليونانيين منهم لمرتاحون الى تلك المظاهرة وهذا القرار . انك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجبا نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ، ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز .

وانى لا أرتاب فى أن حياة الأمة المصرية النضرة التى تجلت للعيان ستملؤك سرورا، ولذلك كتبت اليك هذه الكلمة ، وأنا أؤمل أن تتفضلى بافراد مقالة فى المجلة أو فى غيرها للوطنية المصرية .

ان مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية ، هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الانجليز فى مصر .

أول مطالبة شعبية بالجلاء :

وقد ختم اجتماع ٨ يونيه بما يمكن اعتباره أول مطالبة شعبية منظمة بجلاء الانجليز عن مصر ، فقد وافق المجتمعون على القرار التالى :

« المصريون المجتمعون فى ٨ يونيه بمدينة الإسكندرية لاظهار أمانيهم ورغائبهم ، يحتجون ضد الاحتلال الانجليزى أشد الاحتجاج ويحققون للنزلاء الأوربيين أنهم

لا يريدون لهم سوء ولا يرغبون الا أن يعيشوا معهم فى سلام ، ويسألون جلالة السلطان الأعظم أن يطلب من دول أوربا الاتفاق مع جلالته فى حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر الى الأبد .

جريدة المقطم ترد :

وقد ردت الصحف التى تنطق بلسان الاحتلال وعلى رأسها جريدة المقطم على هذه المظاهرة الوطنية ، بأن طالبت مصطفى كامل ومناصريه أن يحمدوا الله على الاحتلال البريطانى الذى لولاه لما استطاعوا أن يجتمعوا بمثل هذه الحرية ، وأن يلقوا هذه الخطب ويطالبوا بانهاء الاحتلال ، دون أن يتعرض لهم أحد . وراحت تذكر بما كانت عليه أحوال البلاد قبل الاحتلال .

عيد الملكة فيكتوريا الستون :

فى الثالث والعشرين من يونيه احتفل الانجليز ببلوغ ملكتهم الملكة فيكتوريا سن الستين ، وقد رغب مصطفى فهمى باشا رئيس الحكومة بايعاز من السير افلين بارنج (كرومر) أن يكون هذا العيد عطلة رسمية فى المصالح الحكومية ، ولكن الخديوى ورجال الحاشية عارضوا فى ذلك باعتباره سابقة خطيرة فى العلاقات بين مصر وانجلترا فعدل عن الاقتراح .

مقتل وطنى بيد جندى انجليزى :

فى السابع عشر من يوليو قتل أحد عساكر الانجليز فى الاسكندرية ، صبيا وطنيا ولما مثل أمام المحكمة القنصلية الانجليزية لمحاكمته ، صرح بأنه أطلق الرصاص حقيقة ولكن على سبيل المزاح والفكاهة مع هذا الشاب ولم يكن يعتقد أنه سيصيبه ، وبالرغم من هذا الاعتراف فقد برأته المحكمة .

وقد هاج الرأى العام المصرى ، وتقاطرت الوفود على سراى الخديوى برأس التين محتجة ، ولكن لم يكن لذلك أى أثر ، وانتهزت الصحف الانجليزية هذه الفرصة لتتهم الخديوى بأنه يثير الخواطر ، ويهيج المصريين ويدفعهم للتعصب الدينى ، وقد كانت تهمة التعصب الدينى ، وقذف المصريين بها ، هى الغذاء اليومى للصحافة الأجنبية التى تصدر فى مصر ، أو الصحف البريطانية .

استرجاع أبى حمد وبربر :

فى السابع من اغسطس استولى الجيش المصرى على بلدة أبى حمد بعد ان انتصر على الدراويش فى موقعة أبى حمد ، وكان قد انتصر من قبل على الدراويش عند المثمة فى أول يوليو .

وفى السادس من سبتمبر ، استولى الجيش المصرى على مدينة بربر . وهكذا برهن الجيش المصرى انه فى ظل التنظيم الجديد ، وبأسلحته الجديدة ، أصبح ذا فاعلية وأنه أكثر من ند لمواجهة الدراويش .

افتتاح أول خط ترام بالاسكندرية :

فى الحادى عشر من سبتمبر احتفل فى الاسكندرية بافتتاح أول خط للترام بالاسكندرية حيث ركب الخديوى احدى عربات الترام مكللة بالزهور والرياحين .

الحكم على مصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة :

فى الرابع من ديسمبر أصدرت محكمة جنح السيدة زينب حكمها فى قضية العيب فى الذات الخديوية ، على أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة بالحبس عشرين شهرا وبغرامة قدرها ثلاثون جنيها ، وعلى الأستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى بالحبس مدة سنة وغرامة قدرها عشرون جنيها .

وقد كان ذلك هو ختام هذه القضية التى شغلت الرأى العام فى ذلك الوقت ، وكان أحمد فؤاد صاحب الصاعقة قد نشر قصيدة كلها لعن فى الذات الخديوية بمناسبة عودته الى القاهرة وكان مطلعها :

عيد ولكن لا أقول سعيد	وملك وان طال المدى سيبيد

ومن بين أبياتها :

اعباس ترجو أن تكون خليفة	كما ود آباء ورام جدود
فياليت دنيانا تزول وليتنا	نكون ببطن الأرض حين تسود

وبالرغم من ان احمد فؤاد صاحب الصاعقة ، قد أقر على نفسه منذ اللحظة الأولى انه هو كاتب القصيدة ، فان التحقيق قد كشف ــ على ما يقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته ــ أن ناظمها الحقيقى هو الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى بالاتفاق مع السيد محمد توفيق البكرى ، ولكن العقاد يقول : والذى لا شك فيه أن القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة من المنفلوطى فى بعض أبياتها ، لأن المناظرة بين الآباء والجدود والمقابلة بين الدخيل (الفولى) والأصيل (البكرى) تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر للمنفلوطى .

وقد كشفت هذه القضية عن مدى تدهور العلاقات بين الخديوى وبين محمد توفيق البكرى ، وكيف استحالت صداقتهما الى عداوة ، ويقول الدكتور ماهر حسن فهمى كاتب سيرة محمد توفيق البكرى . ان ذلك الخلاف قد حدث بتأثير السير افلين بارنج (كرومر) الذى اصطفى السيد محمد توفيق البكرى باعتباره من أعلام شيوخ الاسلام فى مصر .

ولم يتأخر الخديوى من ناحيته فى أعمال الدسائس للايقاع بين البكرى وكرومر فاستعان بحفنى ناصف لبلوغ هذه الغاية مما لا يتسع المجال لذكره .

زيارة ملك سيام لمصر :

فى السادس من ديسمبر وصل ملك سيام (وتعرف بتايلاند فى الوقت الحاضر) لزيارة مصر ولعله كان آخر ملك مستقبل فى جنوب آسيا ، فاحتفى به الخديوى احتفاء

يليق بالمناسبة ، وأقام له المآدب والاحتفالات الكبرى ، وزار معه الآثار المصرية حول القاهرة وفى الأقصر .

وفى الخامس عشر من ديسمبر غادر محطة القاهـــرة الى السويس ، ليستقل الباخرة عائدا الى بلاده ، وكانت آخر جملة قالها الملك للخديو وهو يودعه بمحطة القاهرة على ما رواه أحمد باشا شفيق : اننى أقسم لك برءوس اخوتى وأبنـــائى اننى سأذكر دائما فضلك وحفاوتك ، وجميل الأمة المصرية التى تحكمها وهذا أعظم قسم لدى .

تقرير اللورد كرومر :

وقد أصدر اللورد كرومر تقريره السنوى المفصل عن نشاط مختلف الدوائر الحكومية فى مصر .

الحساب الختــامى :

وكان الحساب الختامى لهذه السنة على الوجه التالى :

ايـــرادات	١١ر٠٩٢ر٥٦٤
مصروفات	١٠ر٦٥٩ر٢٥٧
زيادة الايرادات على المصروفات	٤٣٣ر٣٠٧ جنيها

عودة لطفى السيد من سويسرا :

وفى هذه السنة عاد أحمد لطفى السيد من سويسرا دون أن يحصل على الجنسية السويسرية كما كان مخططا ، وذلك لأن الباب العالى لم يوافق على تجنسه بالجنسية السويسرية .

ويقول لنا أحمد لطفى السيد فى كتابه « قصة حياتى » ، انه بمجرد وصوله الى الاسكندرية سلم للخديوى تقريرا ضافيا ، سجل به أبحاثه السياسية فى جنيف ، وقال فى ختام التقرير : ان مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها ، وان المصلحة الوطنية تقضى بأن يرأس سمو الخديوى حركة شاملة للتعليم العام .

١٨٩٨ م — ١٣١٦ هـ مصطفى كامل يخطب فى طلبة المدارس العليا :

فى الثامن من يناير وهو يوم عيد جلوس الخديو عباس الثانى ، اتفق فريق من الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على اقامة حفلة وطنية كبرى ، واختاروا لهـا أحد المطاعم المشهورة فى حـديقة الأزبكيـة ، ودعوا مصطفى كامل ، باعتباره ممثل الوطنية المصرية الجديدة لكى يخطب فيهم .

وقد لبى مصطفى كامل الدعوة ، ودعا الشباب الى الحياة الحرة والاعراض عن مناصب الحكومة حتى لا يقتل المستعمر فى نفوسهم « عواطف الاستقلال ، ويحبس فى نفوسهم الحرية الشخصية والميل الى عظائم الأعمال » وختمها بالدعوة الى الاتحاد فى خدمة الوطن العزيز .

الحكومة تبيع شركة البوستة الخديوية :

فى الثالث والعشرين من يناير أعلن عن بيع شركة بواخر البوستة الخديوية بكل متعلقاتها التى تبلغ احـدى عشرة باخـرة ، الى شركة انجليزية وهى «أ شركة الن واندرسون » وبالرغم من أن بواخر البوستة الخديوية كانت تقوم بثلاثة ملايين من الجنيهات ، فقد بيعت هذه الصفقة بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه ، وتعهدت الشركة أن تنشىء حوضا لتنظيف السفن واصلاحها بالاسكندرية قيل انه يتكلف ثمانية آلاف جنيه .

ودفع المشترى عشرة آلاف جنيه حوالة على أحد البيوتات المـالية وعلقت جريدة المؤيد على هذه الصفقة فى عددها الصادر يوم ٢٥ يناير بقولها : « فاذا صحت هذه الرواية ، أى بيع الشركة بهذه الشروط ، كان عمل الحكومة هذا من أظهر آيات فساد الادارة ، وسوء التصرف : ولذلك فقد تلقينا الخبر بكمال الارتياب وسنفيد القراء بالحقيقة » .

ولمـا كان الخبر حقيقيا بطبيعة الحال ، فقد كان الخديوى نفسه هو مصدره ، فقد عادت جريدة المؤيد وبقية الصحف الوطنية تندد بهذا التصرف وتسائل الحكومة اذا كان قد صح عزمها على البيع ، فلماذا لم تطرح الموضوع فى مزاد عام ، ولمـاذا إختصت شركة انجليزية ، فعقدت لها هذه الصفقة فى الخفاء .

وكانت هذه المعارضة بغير جدوى ، فقد كان الانجليز يحتجون بحاجة الحكومة الى نقود لتمويل حملة السودان ، وكانت بواخر البوستة الخديوية تخسر .

وببيع الحكومة لسفن البوسـتة الخديوية طويت صحيفة البحرية التجـارية المصرية ، بعد أن طوى علم البحرية الحربية .

الشروع فى بيع تفتيش الوادى :

وشرع فى هذه الفترة أيضا ببيع تفتيش الوادى بحجة أن أراضيه قد تلفت من رشح مياه الترعة الاسماعيلية ، ويتطلب اصلاحها نفقات كبيرة لا قبل للتفتيش بها . غير أن المستشار الانجليزى المـالى لم يستطع هذه المرة أن يبت فى الموضـوع بقرار منه ، فقد كان تفتيش الوادى وقفا ، ومسائل الأوقاف تتصل بالدين ، ولمـا كان السير افلين بارنج (كرومر) حريصا على ألا يقدم على أعمال من شأنها المسـاس بالدين فقد أوقف هذا الاجراء بعدحملة الصحف عليه .

استيلاء الجيش المصرى على مدينة شندى :

فى السادس والعشرين من مارس سقطت مدينة شندى فى يد الجيش المصرى الذى كان قد استأنف زحفه لاعادة فتح السودان .

انتصار الجيش المصرى فى واقعة عطبرة :

فى الثامن من ابريل التقى الجيش المصرى بجيش الدراويش عند مدينة عطبرة ، فدارت حولها معركة حامية الوطيس ، انتصر فيها الجيش المصرى ، وهزم فيهـا الدراويش هزيمة منكرة ، فقد قتل منهم ثلاثة آلاف ، وأسر ألفان ، وكان من بين

الاسرى محمود قائد جيش الدراويش . فكانت هذه بداية النهاية لحكم الدراويش فى السودان .

محاولة بيع سكة حديد السودان :

لم تكد انباء هذا النصر تصل الى القاهرة حتى أسرع المستشار المالى الانجليزى يشير على الحكومة المصرية ببيع سكة حديد السودان التى انشأها الجيش بعرقه ودمه فى صحراء العطمور ، والتى اعتبر انشاؤها فى الظروف التى أحاطت بهذا الانشاء لونا من الوان الاعجاز البشرى ، وأن يتم بيعها لشركة انجليزية ، بحجة ان الحكومة لم تعد فى حاجة الى هذهالسكة الحديد بعد انتصار الجيش المصرى ، ولأن ثمنها ضرورى لاستمرار الحملة فى تحقيق أغراضها .

ولكن الخديوى اعترض على هذا البيع ، واستند الى أن هذه السكة الحديد ملك للدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، فلا يجوز لمصر أن تتصرف فيها . ويقول لنا أحمد شفيق باشا ان الأمر قد وصل بالخديوى الى حد القول للسير افلين بارنج (كرومر) انه مستعد أن يستقيل اذا تحرجت المشكلة ، وقد أبرق الخديوى الى السلطان يعرض عليه القضية فجاءه الرد من السلطان يشكره على موقفه وعرض اقراض مصر ثمن السكة الحديد اذا كانت فى حاجة الى المال وطال الأخذ والرد حول هذه القضية ثم عدل عن المشروع .

بيع أملاك الدائرة السنية :

فى الخامس من مايو ، بيعت أراضى الدائرة السنية التى تبلغ ثلثمائة ألف فدان ، يتبعها تسعة مصانع كبيرة لعمل السكر وقد بيعت هذه الصفقة لشركة سوارس وشركاه (شركة مختلطة من الانجليز والفرنسيين وبعض المصريين) وذلك بمبلغ ستة ملايين واربعمائة ألف جنيه وهو مقدار الدين الذى كان على الدائرة السنية فى ذلك الوقت ، وقبضت الحكومة المصرية خمسمائة الف جنيه عربون الصفقة .

ولما كانت الصفقة خاسرة فقد كتب كل من ناظر الدائرة السنية وكروكشنك باشا المراقب الانجليزى بها ، تقريرا يعترض فيه على تصرف الحكومة ، وقدم الرجلان تقريرهما الخديوى ، ولكن التقريرين لم يعمل بهما وتمت الصفقة كما قدمنا على يد المستشار المالى السير الوين بالمر .

الاعتداء على البرنس أحمد فؤاد :

فى السابع من شهر مايو اعتدى البرنس احمد سيف الدين على البرنس احمد فؤاد باشا ، بالاطلاق الرصاص عليه فى كلوب محمد على (نادى) بسبب نزاع جرى بين أحمد فؤاد وزوجته البرنسيس شويكار شقيقة أحمد سيف الدين ، فاستنجدت بأخيها ، فأقدم على هذا التصرف . وقد ظن ان البرنس احمد فؤاد لم يلبث أن يموت ان لم يكن قد مات بالفعل لشدة اصاباته ، فقد ضرب ثلاث رصاصات ، ولكن القدر عافاه منها ، اذ كان مقدرا له أن يصبح ملك مصر فيما بعد .

ويقول لنا احمد شفيق باشا ، انه سمع البرنس حسين كامل يقول : لقد رأينا بين اعضاء اسرتنا المقامر والسكير ، ولم يكن ينقصنا سوى القاتل . وقد قبض على البرنس سيف الدين ، وتولت النيابة التحقيق معه ، وقد أبلغ الخديوى رئيس الحكومة انه يريد تطبيق القانون على الجانى بدون أقل مراعاة لمركزه كأى فرد عادى من الناس .

طلاق البرنسيس شويكار :

وفى الحادى والعشرين من مايو طلق البرنس فؤاد زوجته واعطاها مؤخر الصداق البالغ قدره ثلاثة آلاف جنيه ، وقد نشر المرحوم الشيخ رشيد رضا فى مجلة المنار فى هذه الفترة خطابات البرنسيس شويكار الى احمد فؤاد وهى تستجديه أن يسمح لها بزيارته ، وتتبرأ من عمل أخيها ، وتعلن عن حبها وولهها بأحمد فؤاد .

انشاء البنك الأهلى :

فى الخامس والعشرين من شهر يونيو صدر أمر عال بانشاء البنك الأهلى المصرى ، وكان الذى قام بانشائه جماعة من الماليين الانجليز والأجانب . وقد منحتهم الحكومة امتياز اصدار أوراق النقد التى تدفع لحاملها عند تقديمها ، بدلا من الذهب ، وتعهدت بأن لا تمنح هذا الامتياز لأى بنك آخر طوال مدة بقاء الشركة .

الحكم بحبس البرنس أحمد سيف الدين :

فى الثلاثين من يونيه صدر الحكم بسجن البرنس احمد سيف الدين سبع سنوات ، واعفائه من المراقبة بعد انتهائها ، وقضت للبرنس احمد فؤاد بالتعويض المطلوب وقد حدد بمصاريف العلاج .

مصطفى كامل يكتب لرئيس وزراء انجلترا :

فى الرابع من يوليو ارسل مصطفى كامل خطابا من باريس وكان يقيم بها ، الى اللورد سالسبورى رئيس وزراء انجلترا الذى القى خطابا زعم فيه أن انجلترا فتحت مصر بحد السيف فلها عليها حق الفتح . وقد ندد مصطفى كامل فى خطابه بهذا الادعاء ، وذكر رئيس الحكومة الانجليزية بتصريحاته المتكررة فى وجوب الجلاء عن مصر ، ومن أشهرها قوله لسفير فرنسا فى نوفمبر سنة ١٨٨٦ : « ان بنى قومكم يكونون فى ضلال مبين اذا اعتقدوا أننا نريد ان نمكث فى مصر الى ما شاء الله ، فنحن لا نبحث الا عن الوسائل التى نخرج بها من مصر بشرف وكرامة » .

وختم خطابه بقوله :

« ولا يغيبن عن البال أن مصر كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية ، فانها لا محالة ستكون كذلك فى المستقبل ، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير اذا أصرت على احتلال بلادنا .

مصطفى كامل يشعر بالمرارة :

على أن مصطفى كامل بدأ يشعر بالمرارة ، اذ يجد نفسه وحيدا فى هـذا الميدان الذى اختاره لنفسه ، وقد كتب فى هذه الفترة الى صديقه محمـد فريد يقول على ما نشره عبد الرحمن الرافعى فى كتابه :

« انه ليحزننى حقا أن أرى الفرص مناسـبة لخدمة الوطن ، ولا أجـد غيرك فى المصريين نصيرا يساعدنا ، على ذلك تجدنى ان تكلمت أو دعوت أتكلم كئيبا أسيفا ، وادعو وأنا عارف بأن ليس فى مصر من يساعدنى على القيام بالواجب » .

وهى من لحظات المرارة والشعور باليأس الذى يستولى على جميـع المجاهدين فى فترة من فترات جهادهم ، حتى يتولاهم الله بنصره .

سفر الخديو الى اوربا :

فى السادس من يوليو غادر الخديو عباس ميناء الاسكندرية ، متجها صوب أوربا ، بعد أن كانت العلاقات قد فترت بينه وبين السلطان . وقد قصد الخديو هذه المرة الى مدينة برلين متنكرا ، وكان قد سبقه اليها احمد باشا شفيق ليعرض باسمه على غليوم الثانى امبراطور المانيا برنامجا لزيارة مصر ، ولكن السلطان اعترض على هذه الزيارة كما اعترضت عليها انجلترا ، فلم تتم .. وراح الخـديو بعد ذلك يتنقل فى أرجاء أوربا ، وانتهى به المطاف بعد ذلك فى استنبول .

مارشان الفرنسى يحتل مدينة فاشودة فى السودان :

فى العاشر من شهر يوليو وصـل الكابتن مارشان الى مدينة فاشودة على راس الحملة الفرنسية التى وجهتها الحكومة الفرنسية لاحتلال اعالى النيل . وكان احتلال مدينة فاشودة ينم عن هذه المهمة لأهميتها من الناحية الجغرافية والحربية ، فهى مفتاح النيل الأعلى ، وهى واقعة على ملتقى الطرق الواصلة من الخرطوم أو من الحبشة الى جنوب السودان كما أنها تقع بالقرب من ملتقى روافد النيل به كنهر السوباط ، وبحر الغزال وقد بدأ مارشان على رأس الحملة الفرنسية من الابنجى الأعلى وهى آخر نقطة استعمرتها فرنسا فى الكونغو وراحت الحملة بعد ذلك تضرب فى مجاهل هذه المناطق ، وقد استغرقت قبل أن تصل الى فاشودة عامين من الزمان ، عانت فيهما من المشقات ما يعتبر ضربا من الأساطير ، وقد أبرم مارشان خلال زحفه أربع عشرة معاهدة مع القبائل المختلفة ، كما أقام خمس عشرة نقطة عسكرية .

وقد كلل هذا الزحف البطولى الذى هز أوربا ، بالوصول الى مدينة فاشودا على نهر النيل ، فرفع مارشان عليها العلم الفرنسى ، معلنا حق فرنسا فى الاستيلاء على جنوب السودان .

الانتصار الحاسم على الدراويش فى واقعة أم درمان :

عجل الانجليز بزحف الجيش المصرى الظافر من الشمال ليحبطوا خطط فرنسا فى الوقت المناسب .

وفى يوم الجمعة ٢ سبتمبر دارت المعركة الرهيبة التى اطلق عليها أسم معركة أم درمان والتى تعد بحق ذروة هذه الملحمة البطولية التى بداها شعب السودان تحت زعامة المهدى ، لاعادة مجد الاسلام . واذا كان النصر قد تحقق للجيش المصرى فى هذه المعركة وسحقت قوة الدراويش سحقا عنيفا وقاسيا ، فقد كان مرجع ذلك الى قوة الأسلحة النارية الحديثة ، والتنظيم العصرى الذى تولاه الانجليز . فان الدراويش المنسحقين فى هذه المعركة ، قد سجلوا نصرا روحيا باهرا بايثارهم الموت والاستشهاد على الخضوع والاستسلام . فقد بلغت عدة من قتل من الدراويش فى هذه المعركة ١٠٫٤٠٠ قتيل وعدة الجرحى ١٦٨٠٠ جريح والأسرى اربعة آلاف . حيث لم يزد قتلى الجيش المصرى على مائة جندى من بينهم عشرة من الانجليز .

مما يؤكد ان الاسلحة النارية الحديثة قد سحقت وذبحت الدراويش ذبحا .

شجاعة الدراويش وفدائيتهم كما يسجلها الانجليز :

تقول احدى برقيات شركة روتر التى كانت تنقل أنباء المعركة ساعة ساعة ولحظة لحظة :

مهما وصف الكاتب شجاعة الدراويش وحملتهم وثباتهم فانه لا يعد مبالغا ولا مغالبا ، فقد كنت ترى حاملى الاعلام منهم يجدون فى الزحف وليس بيننا وبينهم سوى مائة ياردة . أما الامراء المتطون صهوات الجياد فكانوا يبذلون أرواحهم عن طيب خاطر ثباتا واستماته .

ويقول مكاتب عسكرى كان يصاحب الجيش المصرى :

ولطالما حاول الدراويش المخلصون أن يقاوموا مقاومة شديدة بكل شجاعة واقدام ، ولكنهم كانوا يسحقون سحقا ويرتدون على أعقابهم المرة بعد المرة ، ومع ذلك فقد كانوا يرفعون أعلامهم بكل زهو وخيلاء ويموتون تحت ظلالها ، ولا ريب أن مثل هذه الاعمال أكثر مما يقدر على مقاومته الجسم البشرى ، اذا كلما محيت كتيبة تقدمت أخرى حتى فنى أكثرهم ، فولى الباقون الفرار تاركين الارض وراءهم مغطاة بالجثث الملتحقة بالمرتفعات .

ويقول مكاتب آخر :

« حتى اذا لم يبق فى الميدان الا فئة قليلة من الفرنسان ، غرست الراية فى الرمال وماتوا جميعا تحت ظلالها »

ويصف انجليزى آخر المعركة فيقول :

وكان الأمراء يقتحمون الأهوال ويدفعون بأنفسهم تنشيطا لاتباعهم حتى كان بعضهم يصل الى صفوفنا قبل أن يخترق جسمه بالرصاص المنصب عليه . وكم من صريع يعالج سكرات الموت ، كان يدير رأسه ليطلق علينا من بندقيته طلقة الوداع .

رواية شاهد عيان :

وليس هذا الذى سقته لك الا نتفا من هذه الأخبار التى امتلأت بها الصحف

المصرية عقب الوقعة . وكان يمكن ان أشك فى صحة هذه الأقوال ، وأرى فيها تهويلا وتضخيما لغرض ارادة قادة الجيش المصرى من الانجليز فى ذلك الوقت . ولكن من حسن الحظ أن أكده لى شاهد عيان لهذه المعركة لا يزال على قيد الحياة حتى هذه الأيام مد الله فى حياته ، وذلك الشاهد هو الأستاذ عبد القادر مختار الذى كان ضابطا فى الجيش المصرى وشهد هذه المعركة فذكر لى من وصفها ما طابق بدقة قول المكاتبين العسكريين حتى لقد ذكر لى أن الدراويش كانت تهجم عليهم حتى يصبحوا على بعد خمسين مترا من الخطوط المصرية ، قبل أن يحصدهم الرصاص حصدا ، فلا يتوقف من خلفهم عن مواصلة الزحف ليموتوا بدورهم .

وعبد القادر مختار من أدق من عرفت من الرجال ، صدقا وتعبيرا واخلاصا فى القول والعمل .

ولا غرابة فى موقف الدراويش لمن يعرف اثر الايمان فى النفوس ، عندما يتحول الموت فى سبيل العقيدة أحلى من الحياة نفسها .

الاستيلاء على أم درمان ونبش قبر المهدى :

وقد استولى الجيش المصرى على مدينة أم درمان عقب هذه الواقعة وأبى كتشنر قائده الانجليزى الا ان يلطخ صفحة هذا النصر ، فارتكب احدى الحماقات التى تلوث صفحة الانجليز فى السودان ، اذ نبش قبر المهدى أخذا بثأر غوردون ، وأخرج جمجمة المهـدى وراحوا يعبثون بها ولم يكن ينقص كتشنر الا أن يبعث بجمجة المهـدى الى مالكتهم فيكتوريا ، كما كان البرابرة والسفاحين يعملون فى كل زمان ومكان .

رفع الراية البريطانية على السودان :

وفى يوم الأحد ٤ سبتمبر بعد واقعة أم درمان بيومين ، عبر كتشنر باشا سردار الجيش المصرى النيل الى مدينة الخرطوم ، ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على اطلال سراى الحاكم العـام . فقوبل رفع الراية الانجليزية بالدهشـة والسخط من الضباط المصريين فى السودان ، واحتجوا ، على ذلك ، فقد دخلوا السودان واستردوه وحاربوا باعتباره أرضـا مصرية ، فغرر بهم الانجليز وافهموهم أن هذا اجراء وقتى لوجود جنود انجليز مع الجنود المصرية . ولكن الحكومة البريطانية سرعان ما ابلغت الحكومة المصرية رسميا أن لانجلترا حق الاشتراك فى السودان بما ضحت من المـال والرجال .

كتشنر يسرع لملاقاة مارشان فى فاشودة :

لم يكد كتشنر يفـرغ من احتلال أم درمان والخـرطوم ويرفع الرايتين المصرية والانجليزية عليها ؟، حتى أسرع بنـاء على تعليمات حكومته الانجليزية ليواجه خطر الاحتـلال الفرنسى لأعالى السـودان ، فبعث لمارشـان فى الثانى عشر من سبتمبر بالخطاب التالى :

« اتشرف بابلاغكم بانى هجمت على الخليفة فى أم درمان وبددت جيشه واسترجعت البلاد ، وبعد قليل تركت أم درمان على رأس خمس طرادات وقـوة عظيمة انجليزية ومصرية قاصـدا قاشودة ، وفى أثناء السير قاتلت قـوة من الدراويش فى رنك وبعد معركة قليلة الأهمية استوليت على معسكرهم وأبورهم وأسرت اميرهم الذى افهمنى بأن الخليفة التعايشى كان قد ارسله الى قاشودة لاستحضار الغلال ، وانه حصلت معـركة بينه وبين رجال افرنج ، فرجع الى رنك وارسل يطلب مددا من أم درمان بقصد طرد هؤلاء الأجانب ، وبينما ينتظر المـدد هاجمناه ، فوجدت من واجبى أن ارسل هذا الخطاب اليكم لاعلامكم بما حصل وبأنى سأحضر قريبا .

رد مارشان :

وفى التاسع عشر من سبتمبر تلقى كتشنر ردا على رسالته من مارشان :

« تشرفت بتسليم خطابكم المؤرخ ١٨ الجارى من بابيو وانى علمت بكل سرور استرداد أم درمان وتبديد شمل عصابات الخليفة وزوال المهديين تماما من وادى النيل ، وربما أكون أول مهنىء فرنسى الى الجنرال كتشنر المشهور اسمه من مدة طويلة فى محاربته لاعداء المدينة المنتصرة ضد الهمجية والتعصب المهدويين للسلام ، فاسمحوا لى يا حضرة الجنرال أن اكرر التهانى أولا لشخصكم ، ثم لجيشكم الباسل الذى تقودونه ، وبعد اداء هذا الواجب اللطيف أخبركم أنه بناء على أوامر حكومتى احتللت بحر الغزال الى المشارق المتصل ببحر الجبل ، ثم بلاد الشلك على يسار النيل الأبيض الى قاشوده ، حيث احتلتها يوم ١٠ يوليو المـاضى . وقد أمضيت فى ٣ سبتمبر معاهدة مع سلطان الشلك ، وبموجب هذه المعاهدة أصبحت بلاده الواقعة على ضفة النيل الأبيض تحت حماية فرنسا بشرط التصديق عليها من الحـكومة الفرنسية . وانى أقدم لكم تحياتى بحضوركم الى أعالى النيل ، وانى فى انتظاركم واكون سعيدا للسلام عليكم باسم حكومتى .

أزمة فاشودة :

ويعتبر هذا الخطاب ، أول صفحة فى صفحات هذه الأزمة الخطيرة التى اشتهرت باسم أزمة فاشودة ، والتى هددت بوقوع حرب فى حينها بين فرنسا وانجلترا لا تعلم عواقبها .

ففى الثانى والعشرين من سبتمبر وصل كتشنر بقوة كبيرة الى فاشودة التى كان مارشان يعتبرها كما رأينا بلادا أصبحت تحت الحماية الفرنسية . ورد كتشنر على هذا القول بأن فاشودة وكل ما يتصل بها هى أرض مصرية ، فلما اختلف الرجلان ، هدد كتشنر باستعمال القوة فأجابه مارشان أن القوة تعنى الحرب ، ولم تكن قوة مارشان تزيد على ثمانية ضباط ومائة وثمانية جندى سودانى .

وأخيرا تم الاتفاق بين الرجلين ، على أن يرفع العلم المصرى على فاشودة وينتظر الطرفان تعليمات حكومتيهما .

الفرنسيون يخلون فاشودة :

فى التاسع عشر من اكتوبر وصلت تعليمات الحكومة الفرنسية الى مارشان وكان قد وصل الى مصر فى انتظار هذه التعليمات ، وكانت هذه التعليمات تقضى بالجلاء عن مدينة فاشودة ، فعاد مارشان الى السودان لتنفيذ هذه التعليمات .

وهكذا انتهت هذه الازمة ، بتسليم فرنسا بوجهة نظر انجلترا . وكان المصريون قد بدأوا يعلقون آمالا جساما على فرنسا ، وانها لم تقدم على هذه المحاولة الا لفتح القضية المصرية ، وتحرير مصر من الاحتلال البريطانى . فاما ان انتهت الأزمة الى ما انتهت اليه ، حدث رد فعل عنيف فى عواطف المصريين المشتغلين بالسياسة والوطنية اذ امتلأوا يأسا من مقاومة الاحتلال البريطانى ، وبدأوا يتقربون الى السير اوفلين بارنج (اللورد كرومر) ويلوذون به ويحتمون بسلطانه ، وكان على رأس الجميع الخديو عباس حلمى نفسه ، فبدأ يعدل سياسته تجاه انجلترا ، وازاء السير افلين بارنج (كرومر) .

وقد نشرت جريدة المؤيد فى عددها الصادر يوم ٨ نوفمبر قصيدة موقعا عليها بامضاء شرم برم ، وفيها سخر الشاعر مر السخرية من فرنسا وسياستها وقد صيغت القصيدة على صورة مسرحية من عدة فصول . ونرجح أن هذه القصيدة من انشاء شوقى الشاعر ، وهى تدل على أن بذوة التأليف المسرحى بالشعر كانت كامنة فيه .

ثبات مصطفى كامل :

وليس الا مصطفى كامل الذى لم تنل الأحداث من نفسه ، فقد كتب الى اخيه على فهمى كامل وكان من ضباط حملة السودان .

« ان الأحوال السياسية للغاية بعد مسألة فاشوده ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن ، وكادوا يخونون بلادا احسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لان اعتقادى أن ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الأول أو الثانى ، فسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا .

عودة الخديو من أوربا ومحاكمة مدير البحيرة :

فى الخامس من نوفمبر حوكم أحمد خيرى باشا ، أمام مجلس تأديب لاقامته زينات لتحية الخديو الذى كان قد عاد الى مصر من سياحته فى أوربا فى الثانى عشر من اكتوبر ، وبارح الاسكندرية الى القاهرة يوم ٢٥ اكتوبر . وقد نسب الى المدير انه ارغم الأهالى على اقامة زينات احتفالا بالخديو ، وجمع نقودا من الأهالى والعمد على سبيل الجبر لهذا السبب مخالفا فى ذلك تعليمات وزارة الداخلية التى حظرت على المديرين جمع اى نقود من الأهالى والفلاحين غير الضرائب الرسمية .

وقد أشار الوزراء على الخديو أن يحيل أحمد خيري باشا على المعاش ولكن الخديو آثر أن يقدم لمجلس التأديب ليتمكن من الدفاع عن نفسه ، ومع ذلك كان مجلس التأديب نص بأحالته على المعاش.

مصرع الخليفة التعايشي وانتهاء حرب السودان :

وكان الخليفة التعايشي قد نجا بنفسه عقب معركة أم درمان ، وفر الى مركز الدعوة الأصلى فى جبل قدير ، ليستأنف جهاده مرة أخرى فجرت بينه وبين الجيش معركة أخيرة فى الحادى والعشرين من نوفمبر ، وكان على رأس الجيش المصرى ونجت باشا . فهزم الدراويش مرة أخرى ، وقتل التعايشي نفسه فى هذه المعركة وأبرق ونجت باشا الى الخديو عباس فى هذا التاريخ ينبئه بمصرع التعايشي وبانتهاء حرب السودان (١) .

الشروع فى انشاء كلية غوردون بالسودان :

فى العاشر من ديسمبر كانت الحكومة الانجليزية قد أنعمت على اللورد كتشنر بلقب لورد فأصبح لورد أوف خارطوم ، دعا الى انشاء مدرسة فى الخرطوم تحمل اسم غوردون وطلب من مواطنيه التبرع بمائة ألف جنيه لهذا الغرض ، وما هى الا أيام حتى غطى الاكتتاب وشرع فى انشاء الكلية التى أريد بها انشاء جيل سودانى يدين للانجليز والثقافة الانجليزية بالولاء .

لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة :

فى الثالث والعشرين من ديسمبر ألقى مصطفى كامل خطابا فى تياترو حديقة الأزبكية بعد عودته من أوربا ، مهاجما روح الناس التى استولت على البلاد بعد حادث فاشودة ، وقد ألقى فى هذا الخطاب حكمته الخالدة التى أصبحت علما عليه وهى « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وقد ندد بالانجليز وتغريرهم بمصر عندما طالبوا باخلاء السودان ليعدوا لفتحه ثانية وينسبوا لأنفسهم حقا فى السودان ، وهاجم وحشية الانجليز وبربريتهم فى نبش مقبرة المهدى ، وتساءل أكل ذلك للثأر من أجل رجل واحد ، وأين دماء الألوف من أبناء مصر . وحمل على كبار رجال الشعب المصرى الذى راح كل انسان يعمل من أجل مصالحه الخاصة .

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل بعد أن أثبت نص هذا الخطاب الطويل المتدفق بالحرارة والحماسة والوطنية :

---

(١) على أنه كان مقدرا لاحد أحفاد المهدى وهو السيد محمد احمد المهدى أن يقوم بحركة احياء دينية وسياسية بتشجيع من الانجليز هذه المرة ، ليقاوموا به النفوذ المصرى ، وفكرة توحيد مصر والسودان وانتهى هذا النشاط باعلان استقلال السودان وعندنا أن هذا الاستقلال الذى عليه السودان ، ليس منبت الصلة عن هذه الحركة المهدية بل و من آثارها .

ثم دعا فى خطبته الى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية ، والى نشر التعليم القومى ، وتربية النشء تربية وطنية دينية .

وكانت هذه الخطبة من أقوى خطبه ، ودلت على مبلغ ما كان يعانية من المتاعب والآلام فى بعث الحركة الوطنية ، فى جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وايثار المصالح الشخصية على المصالح القومية .

استقالة اللورد كتشنر وتعيين ونجت سردار للجيش المصرى :

وفى ذات اليوم الذى كان مصطفى كامل يلقى فيه خطابه ، اى الثالث والعشرين من ديسمبر كان اللورد كتشنر يقدم استقالته من سردارية الجيش المصرى ، لحاجة الحكومة الانجليزية اليه فى حربها ضد البوير فى جنوب افريقيا . وقد عين السير ونجت باشا سردارا على الجيش المصرى وحاكما عاما للسودان خلفا له .

١٨٩٩ م ــ ١٣١٧ هـ : وصول اللورد كرومر الى الخرطوم :

فى مساء الثالث من يناير وصل السير افلين بارنج (كرومر) الى السودان وقد حدثنا شفيق باشا أن الخديو وبالتالى مصر كلها لم تعرف ماذا جرى فى هذه الزيارة فى حينها .

وكان مصدر علم الخديو الوحيد عنها ، كان عن طريق احد أعضاء جمعية المودة السرية المؤلفة من الضباط ، وقد ارسل لأحمد شفيق باشا خطابا بحقيقة ما جرى واليك ما جاء فى هذا الخطاب .

« وصل الى هنا اللورد كرومر وفى صباح ٤ منه عمل له قره قول شرف على شاطىء البحر أمام وابوره وسلم عليه كبار الضباط من مصريين وانجليز ولما خرج من الوابور عزفت الموسيقى سلام الملكة ، وبعدها ركب الى منزل التعايشى الخليفة الهارب(١) ، ثم توجه الى سوق أم دورمان فزاره وتفقده ، كما زار ورشة الآلات الميكانيكية ، ثم توجه يرافقه السردار الى مكان موقعة ٢ سبتمبر الأخيرة ، وعاد الى حفلة عشاء أقامها له السردار والضباط الانجليز ، ولم يدع من المصريين الا ضابط واحد هو ابراهيم فتحى .

وفى يوم ٥ منه ذهب لوضع الحجر الأساسى فى كلية غوردون باسم ملكة انجلترا وامبراطورة الهند وسمو خديو مصر عباس الثانى .

كرومر يحدد مركز السودان :

وقد ألقى اللورد على جمع كبير من الأهالى والضباط وأركان حرب خطبة فى أم درمان وأخرى فى الخرطوم بمعنى واحد ، ومما جاء فى خطبة أم درمان :

---

(١) يتعارض هذا مع ما قدمناه من أن الخليفة التعايشى كان قد مات ، ولعله قيل بعد موته ، انه لم يمت وانما فر وهرب ولا يزال حيا وهو ما يحدث بالنسبة لامثال هذه الشخصيات .

« انى أعد نفسى سعيدا بمقابلتى اياكم لاهنئكم على الخلاص من استبداد حكومة الدراويش ، بفضل ما أظهره السردار وضباطه من الحذق فى تدبير القتال وبما برهنت عليه الجنود البريطانية والمصرية من الشهامة والثبات . ولقد شاهدتم أن العلمين الانجليزى والمصرى يخفقان على هـذا المكان وفى هذا اشارة الى أنكم ستحكمون فى المستقبل بملكة انجلترا وخديو مصر والنائب الوحيد فى السودان عن الحكومتين البريطانية والمصرية ، سيكون سعادة السردار الذى أودعت فيه جلالة الملكة وسمو الخديو تمام ثقتهما . واعلموا ان البلاد السودانية لا تستمد أحكامها فى القاهرة ولا من لندن بل أن السردار وحده هو الذى سيقوم بالعدل فيما بينكم فلا يجب التعويل على أحد غيره . ولست اشك فى أنه يحقق أمانيكم ويحقق لكم كل ما ترجـون . وختم الضابط رسالته بالقول أن جميع المصريين استاءوا من هذه الخطبة وتساءلوا عما اذا كان قد تم شيء من الاتفاق بخصوص السودان حتى قال اللورد هذا الكلام .

اتفاقية السودان لعام ١٨٩٩ :

فى التاسع عشر من يناير نشرت جريدة الوقائع الرسمية نص اتفاقية السودان التى اشتهرت فى التاريخ باتفاقية عام ١٨٩٩ ، واليك نص هذه الاتفاقية :

« وفاق »

بين حكومة جلالة ملكة انجلترا وحكومة الجناب العالى خديو مصر بشأن ادارة السودان فى المستقبل

حيث أن بعض اقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جـلالة ملكة انجلترا والجناب العالى الخديو .

وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال حتى الآن وما تستلزمه كل جهة من الاحتياطات المتنوعة .

وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى الآنف ذكره وفى اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل .

وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصولية الحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لهما .

فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو :

مادة ١ : تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة الى جنوب الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولا : الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ او

ثانيا : الأراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة ، وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو

ثالثا : الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا .

مادة ٢ : يستعمل العلم البريطانى ، والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها ألا العلم المصرى فقط .

مادة ٣ : تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) . ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل من وظيفته الا بأمر عال خديو يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

مادة ٤ : القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها ، يجوز سنها أو فسخها من وقت لآخر بمنشور من الحاكم العام ، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع انحاء السودان أو على جزء معلوم منه ، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو فسخ أى قانون أو ية لائحة من القوانين او اللوائح الموجودة وعلى الحاكم العام ان يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية فى القاهرة والى رئيس نظار الجناب العالى .

مادة ٥ : لا يسرى على السودان أو على جزء منه شىء من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

مادة ٦ : المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوربيين من أى جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اى دولة أو دول .

مادة ٧ : لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية ، الا انه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن ، أو أى ميناء آخر من موانى ساحل البحر الأحمر ، لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على

مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العـــام من وقت لآخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن .

مادة ٨ : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ولا يعترف بما فيه بوجه من الوجوه .

مادة ٩ : يعتبر السودان بأجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

مادة ١٠ : لا يجوز تعيين قناصل أو كلاء قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

مادة ١١ : ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيـــق الى السودان أو تصـــديره منه ، وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

مادة ١٢ : قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوت المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه ســـنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة او الروحية وبيعها أو تشغيلها .
تحريرا فى ١٨٩٩/١/١٩ .

امضـــاءات

كرومر ــ بطرس غالى

املاء الاتفاقية على مصر :

وقد أمليت هذه الاتفاقية على مصر املاء ولم يكن عليها الا أن توقع . فلم يعلم الخديو بأمرها الا فى يوم ١٧ يناير ، وكان كرومر قد قابله بمناسبة عودته من السودان، فعاتبه الخديو على تصريحاته فى السودان التى لم يكن لدى الخديو اى علم سابق بها ، فاعتذر كرومر بأنه لم يكن فى نيته قبل أن يذهب الى الســـــودان أن يلقى أى خطبة أو تصريح . ثم أحاط الخديو علما بأن اللورد سالسبورى بعث اليه بصورة أتفاق انجليزى مصرى ، يختص بالسودان وانه سلم نسخة منه لبطرس غالى باشا ناظر الخارجية .

ولم يكن لدى مجلس الوزراء الذى انعقد يوم ١٨ يناير سوى هـــذه النسخة الوحيدة التى سلمها كرومر لبطرس غالى ، وكان أكثر النظار لم يطلعوا عليها ، وقيل لهم ان توقيعها كما هى أمر حتمى ، فأسرع مجلس الوزراء بالموافقة عليها ونشرت فى الجريدة الرسمية فى اليوم التالى .

السخط على اتفاقية السودان :

ولم يكن السخط على اتفاقية السودان والاسلوب الذى أبرمت به قاصرا على الشعب المصرى أو الصحف المصرية الوطنية التى وصفت ما حدث بأنه انتحار ، بل

أن الصحف الأجنبية التى كانت تصدر فى مصر وعلى رأسها الجورنال اجيبسيان ، حملت حملات منكرة على هذه المعاهدة واعتبرتها ، « أفظع اغتصاب فى هذا الجيل وقع وهو عقد اتفاق بين الغاصب القاهر ، والمغصوب العاجز .

مصر تدفع نفقات الجنود الانجليز فى حملة السودان :

فى التاسع والعشرين من يناير قامت الحكومة المصرية بتسديد مبلغ ٢١٥ الف جنيه الى الحكومة الانجليزية ، قيمة نفقات الجنود الانجليز فى حملة السودان ، فى واقعتى العطبرة وأم درمان . وذلك فى الوقت الذى ادعت فيه انجلترا حقها فى الفتح بما بذلت من أموال .

مصطفى كامل يندد بالسياسة الفرنسية :

وقد كان صوت مصطفى كامل ، هو أعلى أصوات الاحتجاج على هذه المعاهدة ، ورفع صوته فى صحف فرنسا ، فنشرت جريدة الجلوا الفرنسية فى السادس من فبراير خطابا مفتوحا الى مدير الجريدة ، ناقش فيه المعاهدة وبرهن على عدم مشروعيتها ، فليس للحكومة المصرية أن تتنازل عن أى شبر من الأراضى المصرية أو السودانية ، وكشف عن غش انجلترا وخداعها : وانتهى من خطابه بتحميل السياسة الفرنسية مسئولية الضربات التى تنزل على مصر وختم خطابه بقوله :

« وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق ، ان عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا ، ولكن وهو ما نأسف له لم يبق فى قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم ،بعد أن كشفت الأيام خيبة سياستهم فى وادى النيل » .

وضع الحجر الأساسى لخزان أسوان :

فى الخامس عشر من فبراير وصل الى مصر الدوق اوف كونوت نجل جلالة ملكة الانجليز فى طريقه للاحتفال بوضع الحجر الأساسى لانشاء خزان أسوان ثم يتابع سفره بعد ذلك لزيارة السودان . وقد اعتذر الخديو عباس عن الاشتراك فى حفل وضع الحجر الأساسى محافظة على كرامته فى وجود الدوق الانجليزى الذى كان سيتقدمه بحكم النفوذ الانجليزى .

وقد تولى الدوق أوف كنوت وضع الحجر الأساسى بيده ، وأبرق الى الخديو يقول له : ان الاحتفال جرى على ما يرام وانى أهنىء البلاد بافتتاح هذا الخزان الذى سيعود على أهلها بالنفع الكبير .

نجاح كرومر فى تمويل مشروع خزان أسوان :

وقد نجح كرومر ومستشار وزارة الاشغال الانجليزى المستر جارنستون ، فى تدبير الأموال اللازمة لتحقيق هذا المشروع الذى كان يعتبر فى وقته من أضخم مشروعات الرى فى العالم ، دون أن يحملوا الخزينة المصرية التى كانت خاوية أى عبء مالى من أى نوع كان . فقد تم الاتفاق بين الحكومة المصرية وشركة « ايرد وشركاه Aird & Co على الانتهاء من بناء الخزان مقابل مبلغ مليونين من الجنيهات ، بشرع

فى تسديدها على سنتين مقدار القسط ٧٨٦١٣ جنيها ويدفع مرة كل ستة أشهر ، وذلك بعد الفراغ من بناء الخزان الذى كان مقررا له عام ١٩٠٣ .

وكان من المقرر أنه سيترتب على تمام المشروع زيادة فى الضريبة على الأطيان قدرها ٣٨٠٫٠٠٠ جنيه سنويا . وزيادة فى الأراضى الزراعية الحكومية تقدر بمليون جنيه . أما الزيادة فى ثروة البلاد القومية فتقدر بمبلغ ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيها سنويا ، فلا عجب اذا ظل الانجليز طوال مدة الاحتلال ، يتحدثون عن خزان أسوان وجحود المصريين ونكرانهم لجميل كرومر .

مولد ولى العهـــد :

فى العشرين من فبراير ولد للخديو ولى للعهد ، فاحتفل بمولده رسميا واطلقت مائة مدفع ومدفع ، ورفعت الأعلام على دوائر الحكومة وأبلغ القناصل رسميا واقيمت الزينات فى طول البلاد وعرضها ، وانهالت برقيات التهنئة على سراى الخديو ، واطلق على المولود الجديد اسم « البرنس محمد عبد المنعم » .

انشاء مدرسة مصطفى كامل :

فى الثامن والعشرين من شهر مارس أرسل مصطفى كامل الى الصحف المصرية بيانا أعلن فيه أن ملكية مدرسة باب الشعرية الخاصة قد آلت اليه وأنه أطلق عليها اسم مدرسة مصطفى كامل ، وكان مما جاء فى هذا البيان : « وانى أتشرف اليـوم باعلان الجمهور ان التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لأنى أعتقد ان التعليم بلا تربية عديم الفائدة بل ربما كان كثير الأضرار ، وأقصد بالتربية ، التربية الاسلامية المحضة ، لأن أساس التربية الدين : وكل أمة يتربى ابناؤها على غير قـواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط . وقد عولت على جعل الغرض الأول من المدرسـة ترقية الملكة الاسلامية عند التلاميذ وتمكن مبادىء محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم ، وتقديم اللغة العربية على كل لغة مع ترك الحرية لآبائهم فى الاختيار بين اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم بالمجان .

تعيين محمد عبده مفتيا للديار المصرية وعضوا فى شورى القوانين :

فى الثالث من يونيه أسند منصب الافتاء الى الشيخ محمد عبده ، وبوصوله الى هذا المنصب استقرت زعامته الدينية ، ولعب الدور الخطير فى اصلاح الحياة الدينية فى مصر ، وأثار الزوابع والأعاصير بسبب فتاويه الاصلاحية(١) .

وفى الخامس والعشرين من يونيه عين عضوا دائما بمجلس شورى القوانين .

---

(١) من أهم فتاواه التى ارتج لهـا العـــالم الاسلامى ، لمـا تضمنته من جراة واخلاص فى الاجتهاد لمسايرة الحياة التى تزداد تعقـــدا ـ فتواه باباحة اعطاء فوائد على الاموال المودعة فى صـناديق التوفير التى انشأتها الحكومة . والفتوى التى اشتهر باسم الترنسفاليه حيث اجاز مجالسة المسلمين للمسيحيين والاكل من طعامهم ، ولبس القبعة .

وكان الشيخ محمد عبده على ما يقوله لنا تلميذه السيد رشيد رضا يبغض من اعماق قلبه عمر باشا لطفى رئيس المجلس اذ كان يعده منذ أيام الثورة العرابية خائنا لموقفه من مذبحة الاسكندرية والثورة العرابية ، ولذلك فقد أسقط فى يده عندما تلقى نبأ تعيينه ولكن عمر باشا لطفى لم يلبث أن مات فجأة فى ١٧ يوليو ففرح بذلك الشيخ محمد عبده لتخلصه من حرج العمل فى ظل رئاسة من كان يعتبر خائنا .

وأقبل الشيخ محمد عبده بكل همة واقتدار على مزاولة عمله فى مجلس شورى القوانين فلم يلبث أن أصبح قطب الرحى فى المجلس المذكور ، شأنه فى كل عمل يتولاه .

محمد عبده يحبط مشروعا انجليزيا :

واذ كانت العلاقات حتى هذا الوقت بين محمد عبده وبين الخديو عباس لم تبلغ بعد ما انتهت اليه فيما بعد من السوء ، فقد لجأ اليه الخديو عندما ضيق عليه كرومر الخناق فى احدى الأزمات التى كانت تنشب عليهم حول مختلف شئون الحكم والادارة .

وكانت الأزمة تدور حول رغبة الانجليز فى قطع آخر صلة ادارية بين مصر وتركيا ، وهى تولية قاضى قضاة مصر بمعرفة سلطان تركيا ، ورأوا أن الوقت قد حان لعزل قاضى القضاة التركى ، وتعيين أحد علماء الأزهر مكانه .

وأوشك مجلس الوزراء كما هو شأنه أن يصدع بالأمر الذى صدر له من كرومر ، ولم تفلح مقـــالات الصحف ولا احتجاجات العلماء وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوى شيخ الجامع الأزهر ، وما قالوه من أن هذا الاجراء اعتداء على الدين ، نقول يفلح ذلك كله فى ايقاف ما اعتزم الانجليز تنفيذه . فأشـــير على الخديو عبـــاس أن يلجأ الى الشيخ محمد عبده باعتباره الشخص الوحيد القادر على تخليصه من هـــذا المأزق . فالتجأ الخديو الى الشيخ محمد عبده الذى أشار عليه بأنه اذا قابل كرومر وطلب منه تعيين القاضى المصرى بدلا من التركى ، فما على الخديو الا أن يرد عليه بجملة واحدة وهى « أن وجدانى الدينى لا يسمح لى بأن أتولى تعيين القاضى ورئيس الأمور الشرعية ، لأننى اعتقد أن هذا هو حق السلطان ، بما له من صفة الخلافة .

ومضى محمد عبده يقول للخديو : ولست أشك فى أن اللورد بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية ، ومن أصولها احترام الوجدان ، فانه يقبل من أفندينا هذا الجواب ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله هو الآخر ويكون هذا فصل الخطاب .

يقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته : وقد حضر اللورد وأخبره الخديو بذلك فأجابه اذا كانت المسألة مسألة ضمير ووجدان فلا كلام لنا فيها ــ وانتهى الأمر عند هذا الحد .

الانعام على مصطفى كامل برتبة بك :

فى يونية من هذه السنة انعم السلطان برتبة المتمايز على مصطفى كامل فصـــار يدعى مصطفى بك كامل ، وقد اعتبر الوطنيون هذا الانعام تكريما للوطنية فى شخص مصطفى كامل .

عودة سامى البارودى من منفاه :

فى الثانى عشر من شهر سبتمبر وصل محمود باشا سامى البارودى الى مصر عائدا من منفاه فى جزيرة سيلان بعد أن أصبح مهددا بفقد البصر كلية ، ونصح الأطباء بضرورة عودته الى وطنه وكان قد بلغ الستين من عمره .

وكان قد مات من زملائه لعدم ملاءمة مناخ الجزيرة ـ عبد العال حلمى (١٨٩١م) ومحمود فهمى (١٨٩٤ م) .

فكتب محمود سامى البارودى ملتمسا للخديو عباس يطلب منه السماح للعوده للاستشفاء فى بلاده ، ويضع محمد عبده ثقله فى الميزان ـ ويستجيب الخديوى ويعود محمود سامى البارودى . وقد استقبله المفكرون والوطنيون والصحفيون أحسن استقبال ، لا لدوره فى ثورة عرابى ، بمقدار ما كان له من مكانة أدبيـة وشعرية ، باعتباره باعث الشعر العربى الحديث وأستاذه ..

تدهور العلاقات بين الباب العالى والخديو :

وفى الوقت الذى كان مركز مصطفى كامل يعلو عند السلطان ، كانت العلاقات تتدهو وتسوء بين السلطان وبين الخديو ، فيحدثنا أحمد شفيق باشـا كيف أن الخديو انتدبه فى صيف هذا العام للسفر الى الاسـتانة لمحاولة تصفية الجو مما غشاه . وكان الخديو يشكو من أنه رغم تقربه الى السلطان ومحاولة تقوية الروابط بين مصر وتركيا ، فانه لا يجد لذلك صدى من الناحية المقابلة ، بل لقد ذهب الأمر الى حد اضعاف مركز السلطان الشرعية فى مصر ، اذ بدأ السلطان يرفع شكواه من تهجم بعض الصحف المصرية عليه الى انجلترا وليس الى الخديو .

وكان السلطان من ناحيته يشكو من الخديو أن مصر أصبحت مركز الناقمين على حكم السلطان من أعضاء تركيا الفتاة . وقد احتج الخديو بأن هـذه الطوائف انما تدخل مصر وتعيش فيها بتشجيع من الانجليز ولا سلطان له عليهم . ولكن هـذه الحجة لم تقنع السلطان ، الذى نقل اليه أن والدة الخديو عباس بالذات هى التى تساعد هذه الطوائف .

ولذلك فقد فشلت سفارة أحمد باشا شفيق ولم تنجح فى تصفية الجو وعلى ذلك فلم يزر عباس استنبول فى هذا الصيف ، وراح يطوف عواصم أوربا ، حيث قابل امبراطور النمسا فى مدينة فينا فيمن قابل . وعاد الخديو الى مصر بعد انتهاء رحلته فى أول نوفمبر .

انتقال جريدة الاهرام الى القاهرة :

فى أول نوفمبر صدر العدد الأول من جريدة الاهرام بعد انتقالها من الاسكندرية الى القاهرة ، بعد ان لم يعد فى مقدور الاهرام وهى من أمهات الصحف المصرية ان تبقى فى مدينة الاسكندرية ، فى الوقت الذى كانت فيه القوى الصحفية والسياسية والتجارية والنشاط الفكرى قد أصبح فى مدينة القاهرة .

وقد صدر آخر عدد بالاسكندرية فى يوم ٣١ اكتوبر وقد جاء فيه : تودع الاهرام اليوم ثغر الاسكندرية بعد أن قضت فى ظله ٢٥ عاما متقلبة فى نعمته متمتعة بحمايته ، فهى تبرح عاصمة القطر مرتلة على أهله الكرام آيات الثناء ، داعية له ولهم بدوام التقدم فى مدارج العمران ومراتب العلاء . وستصدر الأهرام غدا بحجمها الكبير فى القاهرة ، مخلفة للثغر طبعة الاسكندرية التى تصدر منذ الغد يومية أيضا ، فموعد القطر غدا باهراميه (اذا صح هذا الجمع) الاهرام طبعة القاهرة فى عاصمة البلاد السياسية والأهرام طبعة الاسكندرية فى عاصمة البلاد التجارية وان غدا لناظره قريب .

مصطفى كامل ينبه الأمة الى سر تخلفها :

فى الثامن عشر من ديسمبر ألقى مصطفى كامل الذى كان قد عاد من أوربا خطابا فى التياترو الطليانى بحديقة الأزبكية ، وكان أهم ما جاء فى هذا الخطاب بعد مهاجمة الاحتلال ، وكشف خطط الانجليز للاستيلاء استيلاء كاملا على مصر والسودان ، مضى يقول : « ان المسألة المصرية الحقيقية ليست هى مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الانجليزى الا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فان بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء ، يعرضها الى كافة الأخطار فى سائر الأزمات ، وتقدمها فى طريق العرفان واتفاق بنيها على خدمتها وتعاضدهم على اسعادها ، يحميها من الطوارىء والنوازل ويقيها شر الأعداء . ودعا الى نعيم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة .

وهذا الذى انتهى اليه مصطفى كامل ، هو عين ما كان قد استقر فى خاطر الشيخ محمد عبده ، وهو ضرورة العمل على اصلاح الأمة بالتربية والتعليم واصلاح الأزهر باعتباره قلب العالم الاسلامى الخفاق ، وانشاء المدارس عن طريق الجمعيات الخيرية .

وقد رأى محمد عبده أن لا سبيل لتحقيق ذلك الا من خلال الاعتراف بالأمر الواقع ، وهو أن الأمر والنهى بيد السلطة المحتلة ، فتمثل القاعدة الشرعية التى تقضى بأن الضرورات تبيح المحظورات ، وقبل صداقة كرومر مستخدما هذه الصداقة فى خدمة مواطنيه قدر استطاعته ، وتحقيق شتى ضروب الاصلاح للارتقاء بالمجتمع .

ولما كان مصطفى كامل من ناحيته لا يتسامح مع مجرد التهاون فى خصومه الانجليز واعلان الحرب عليهم . ومن هنا كان الافتراق بين الرجلين ، أو بالأحرى بين المدرستين اللتين كانتا تعملان فى هذه الفترة لاقالة عثرة مصر .

يقول العقاد فى كتابه النفيس عن محمد عبده :

لا موجب للموازنة بين من يعدون الأمم للاستقلال بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم ، فان الأمم تستطيع على الدوام أن تعتمد على كلتا الخطتين ، وان ترشح لكل منهما من هو أصلح لها وأقدر عليها وأرغب فيها ،

وليس ثمة من ضرورة توجب عليها ان تختار هذه وحدها أو تلك وحدها ، منفصلتين غير مجتمعتين » .

ويمضى العقاد فى تحليله الى ان يقول : وأيا كان راى التاريخ فى جدوى الخطتين على قضية مصر ، فلا خلاف فى رجحان كفته على كفة خصومه بميزان الصـــدق والاخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الاصلاح ، لأن آمن بخطته ولم يعطل على احد خطة يؤثرها ويطمئن الى عقباها .

مجلس شورى القوانين وعلاقة مصر بالسودان :

وفى ديسمبر من هذه السنة نظر مجلس شورى القوانين فى ميزانية عام ١٩٠٠ وكان فيها مبلغ ٤١٧ الف جنيه مقدار عجز ايرادات السودان عن مصروفاته ، فقرر مجلس شورى القوانين : التصديق على هذه النفقات « باعتبار ان بلاد السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال » .

وقد أراد المجلس بهذا القرار تأكيد وحدة مصر والسودان وعدم الاعتراف بطريق غير مباشر باتفاقية ١٨٩٩ .

كرومر يؤيد وجهة نظر المجلس :

وقد علق كرومر على هذا القرار فى تقريره عن هذه السنة بقوله : ولقد رأيت فى الملاحظات التى ابداها مجلس شورى القوانين فى تقدير الميزانية للسنة الحاضرة أن المجلس يصادق على مصروفات السودان لانه يحسبه جزء من البلاد المصرية وهذا الرأى صحيح فى جوهره ، ولكن حكومة السودان جارية على مقتضى الاتفاق الذى عقد فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

الحساب الختامى لهذه السنة :

وقد بلغ الحساب الختامى لهذه السنة :

ايرادات	١١٫٤١٥٫٠٠٠ جنيها
مصروفات	١١٫٠١٣٫٠٠٠ جنيها
الزيادة	٣٠٢٫٠٠٠ جنيها

صدور كتاب تحرير المرأة :

على انه قد يكون أهم حادث من حوادث هذا العام (١٨٩٩) هو صدور كتاب « تحرير المرأة » والذى الفه المستشار قاسم أمين القاضى بمحكمة الاستئناف فقد كان مقدرا لهذا الكتاب أن يحدث أكبر ثورة فكرية عرفتها مصر فى هذه الفترة من حياتها ، فقد عرض لأخطر موضوع فى حياة المجتمع فى ذلك الوقت ، وفى كل آن وهو مكانة المرأة فى المجتمع ، فندد بالأفكار السائدة فى عصره من عدم تعليم المرأة ، ودعا

الى وجوب تعليمها كالرجل سواء بسواء ودعا الى التخفيف من حدة الحجاب ، فقد أباح الدين للمرأة أن تسفر عن وجهها وكفيها ، وأباح لها التعامل مع الرجل عند الحاجة والضرورة ، كما دعا الى تقييد تعدد الزوجات فلا يكون الا لضرورة ، وقد كانت هذه الآراء التى هى فى حقيقتها من صميم التعاليم الاسلامية ، بمثابة قنبلة انفجرت ، فاعتبرت جريمة فى حق الدين والأخلاق والتقاليد ، ووصفت بأنها دعوة هدامة ، أريد بها تحطيم الأسرة الاسلامية .

وفكرة تعليم المرأة والدعوة اليها ، لم تكن جديدة ، فقد دعا لها من قبل رفاعة رافع الطهطاوى ، بل ووضع كتاب مرشد البنين والبنات ، وكانت مدارس تعليم البنات قد انشئت منذ عهد اسماعيل . ولكن الجديد فى كتاب تحرير المرأة ، انه عالج قضية المرأة على شمولها واتساع أبعادها ، وقرر تساويها مع الرجل ، وهاجم الأوضاع البالية ، ودافع عن وجهة نظره ، بأسانيد دينية ، فأشعل ذلك النقاش والجدل ، الذى ظل مستعر الأوار طوال السنوات التالية لصدور كتاب تحرير المرأة ، وظلت الصحف تفسح صدرها للمقالات والبحوث المؤيدة والمعارضة ، وقد كانت الكثرة الساحقة هى المعارضة .

وليس قاسم أمين الا أحد تلامذة الشيخ محمد عبده ، ومن الثابت انه تلا عليه فصولا من الكتاب قبل عامين من صدوره ، بل لقد زعم البعض أن محمد عبده هو مؤلفه ، وهو مجرد ادعاء ، فقد تصدى قاسم أمين للدون داركور الفرنسى عندما هاجم الاسلام ، وألف كتابا فى الرد عليه ، دافع عن الاسلام وتعاليمه ، وذهب الى حد الدفاع عن الحجاب ، ولكنه وهو الباحث الأمين ، سرعان ما كشف له واقع الحال ، عن العيوب التى تفشى المجتمع الاسلامى من تعلق بالخرافات والأوهام ونسبها الى الدين والدين منها براء ، فجاء كتابه الجديد ، استمرارا لكتابه القديم ، ومقالاته التى لم تنقطع عن الصحف فى الاصلاح الاجتماعى .

١٩٠٠ م – ١٣١٨ هـ صدور جريدة اللواء :

فى الثانى من يناير أصدر مصطفى بك كامل جريدة اللواء بعد أن استعد لاصدارها طوال العام السابق ، وقد اتخذ مقرا لادارة الجريدة وطبعها المنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق . وكان تليفون الجريدة برقم ١٩٠ وهذا الرقم يكشف عن أن التليفون كان قد دخل الى مصر منذ عهد قريب .

وبدأت جريدة اللواء عملاقة ، فكانت تتألف من أربع صفحات من الحجم الكبير ، وكان حسن تبويبها وعرضها للاخبار ، وجودة ورقها ، وجمال عناوينها ، يجعلها تمثل طفرة فى دنيا الصحافة ، فاذا أضيف الى ذلك الروح الوطنية التى كانت تسرى فى كل حرف من حروف الجريدة مسرى الدم ، فسر لنا ذلك نجاحها العظيم ، اذ أصبحت فى أقل من عام أوسع الجرائد انتشارا وتأثيرا فى قرائها . وكان محمد فريد وجدى أول من كتب الافتتاحيات فى اللواء الى جوار مصطفى كامل .

تمرد فرقتين مصريتين فى السودان :

فى الثامن والعشرين من يناير ، جاءت الأخبار من السودان بتمرد أورطتين من الجيش على اثر صدور أمر مكسويل باشا نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه ، فأبت الأورطتان اطاعة هذا الأمر لما فيه من المساس بكرامتهما ودلالته على عدم الثقة بالجيش ، وقد أطلقت على اثر هذا العصيان بعض الطلقات النارية ، وجرح بعض الجنود ، فقبض على بعض الضباط وصف الضباط وأودعوا السجن ، فأسرع ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان بالسفر الى الخرطوم .

وانتهى الحادث بطرد بعض الضباط المصريين والامباشية من الخدمة بناء على قرار من مجلس التأديب الذى شكل لمحاكمة المتمردين ، كما أحيل البعض الآخر على الاستيداع ، والبعض أنزل درجته واضطر الخديو اضطرارا الى المصادقة على هذه الأحكام فيما بعد .

رحلة الخديو الى الصحراء الغربية :

فى الحادى عشر من فبراير قام الخديو برحلةالى الصحراء الغربية ، وصل فيها الى حدود طرابلس (ليبيا فى الوقت الحاضر) عند مدينة السلوم . وقد أمضى ثلاثة أيام فى مرسى مطروح تفقد فيها الحامية واستقبل مشايخ العربان وعاد الخديو من رحلته فى الثامن من شهر مارس الى القاهرة .

وقد انتهز خصوم الخديو هذه الفرصة لكى يدسوا له عند السلطان عبد الحميد ويفهمونه أن الخديو انما قام بهذه الرحلة ليقابل مندوبا عن السنوسى زعيم طرابلس الروحى للاتفاق معه بشأن الخلافة العربية .

الخديو عباس يزور الملكة فيكتوريا :

فى الحادى والعشرين من شهر يونيو وصل الخديو عباس الى المياه الانجليزية فى زيارة رسمية له للملكة فيكتوريا ، وقد كان هذا الاجراء هو مظهر تحول سياسة الخديو ، وجنوحه الى مصافاة الانجليز ، وبرود العلاقات بينه وبين السلطان عبد الحميد . ولقد أصيب الخديو بمرض حاد رفع حرارته وأخر قيامه بالزيارة فظل على ظهر السفينة التى حملته الى انجلترا ، وأمضى الخديو وحاشيته بضعة أيام فى قلق من أن يكون المرض خطيرا ، ولكن الحمى لم تلبث ان زالت عنه ، وبدأت الزيارة كما كان مقدر لها .

وقد انتهزت الملكة فيكتوريا هذه الفرصة بناء على اشارة حكومتها ، لكى تكسب الخديو الى صف انجلترا ، فأحاطته فى هذه الزيارة بكثير من الرعاية والحفاوة واستقبلته رسميا فى الثامن والعشرين من شهر يونية فى قصر وندسور واهدته وسام فيكتوريا الأكبر وقلدته اياه بيدها وأجلسته على يمينها فى قاعة الطعام .

وتتابعت حفلات التكريم للخديو فى أكثر من مكان وجهة رسمية .

عودة الخديوى الى مصر :

فى الثلاثين من أغسطس عاد الخديوى الى الاسكندرية ، وكان قد أمضى شهور الصيف متنقلا فى ربوع أوربا ، ولم يذهب الى استنبول على الرغم من ابداء السلطان عبد الحميد رغبته فى أن يذهب اليها ، فدل ذلك على امعان الخديو عباس فى انتهاج سياسته الجديدة .

مصر تشترك فى معرض باريس الدولى :

اشتركت مصر فى هذه السنة فى معرض باريس الدولى الذى هز العالم فى ذلك الوقت بمنشئته الكبرى وهى برج ايفل والذى لا يزال حتى اليوم قائما فى باريس وعلما عليها أثرا من آثار هذا المعرض العظيم .

وكان الذى تولى الاشتراك فى هذا المعرض باسم مصر السيد مصطفى الديب الباوردى والمسيو فيليب بولاد .

ولقد أشار أحمد شفيق باشا فى مذكراته عن زيارته لهذا المعرض فى شهر أغسطس وتأثره العميق به . وقد صدر باللغة العربية أكثر من كتاب فى وصف محتويات هذا المعرض ، وقد تأثرت بمطالعة هذه الكتب حتى كانت أكبر حافز لى فيما بعد على زيارة باريس .

الاحتفال فى مدرسة مصطفى كامل :

فى أول أكتوبر أقام مصطفى كامل حفلا فى مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من الطلبة ، وكان قد عاد من أوربا بعد رحلته السنوية للدعاية للقضية المصرية ، وكان هذا الحفل قد أصبح أشبه ما يكون بمؤتمر وطنى ، يدعى اليه الكبار والأعيان ، وتلقى فيه الخطب الوطنية وقد حث مصطفى كامل على وجوب انشاء المدارس فى انحاء البلاد .

جريدة اللواء وحرب البوير :

استمرت حرب الترنسفال فى هذا العام ، حيث قام البوير من سكان جنوب افريقيا بحركة تحريرية ضد السيطرة الانجليزية ، فاتخذ مصطفى كامل من هذه الحركة سبيلا لازكاء الوطنية المصرية ، فراح يفرد الصفحات الطوال يشد فيها أزر ثورة البوير ويندد بانجلترا وأساليبها الهمجية فى محاربة الثوار ، بل ويندد بأوربا كلها لتقاعسها عن مد يد المساعدة الفعالة للبوير .

وتابعت الصحف المصرية اللواء ، فكانت حرب التحرير الترنسفالية واخبارها هى أهم مادة تقدمها الصحف لقرائها .

وقد زاد توزيع اللواء ، فأعلن مصطفى كامل أنه أصبح يطبع عشرة آلاف نسخة وليس الا جريدة المؤيد من كانت تطبع مثل هذا القدر .

مجلس شورى القوانين :

وفى ديسمبر من هذه السنة تابع مجلس شورى القوانين مواقفه المشرفة ، وكان الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية قد أصبح عضوا فيه ، فأصبح بمثابة عموده الفقرى ، وقد تقدم المجلس بمطالب للحكومة بمناسبة عرض الميزانية وقد جاء فى هذه المطالب :

اولا : زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعارف ، وقد لفت المجلس نظر الحكومة الى ما وصل اليه فساد البرامج وسد ابواب المدارس فى وجوه المتعلمين والبحث فى الأسباب التى دعت الى استقالة الكثير من المدرسين .

ثانيا : زيادة ما خصص للمحاكم الشرعية .

ثالثا : طالب المجلس الحكومة أن تدرج فى ميزانية السنة المقبلة ايرادات ومصروفات السودان .

رابعا : طلب أن لا تنقص المصروفات والمرتبات المتعلقة بالكسوة والمحمل ان لم يكن زيادتها ، وطلب مراعاة حرية الحجاج الشخصية فى ذهابهم الى الأقطار الحجازية وايابهم منها والغاء احتكار المؤن التى تباع اليهم فى المحاجر الصحية .

تقرير اللورد كرومر :

وفى هذه السنة كشف اللورد كرومر فى تقريره الذى اعتاد رفعه الى وزير الخارجية عن شئون مصر ، الى تزايد الاهتمام فى مصر بهذا التقرير ، وانه بدأ يترجم الى العربية وينشر فى الصحف ، ولما كان هذا التقرير هو المصدر الوحيد « لايقاف المصريين على بعض المسائل التى يهمهم الوقوف على حقيقتها بالتدقيق والتفصيل سنة بعد أخرى » فقد رأى اللورد كرومر أن يتوسع فى هذا التقرير ، ويفيض فى عرض وشرح مختلف نواحى النشاط الذى بذل فى العام السابق ، والقضايا العامة التى تشغل الأذهان .

الحديث عن التعليم :

وكان من أهم ماتضمنه التقرير ما جاء تعليقا على اهتمام مجلس شورى القوانين بالتعليم ، حيث قال :

« اشار مجلس شورى القوانين حديثا (وليس ذلك بالمرة الأولى) الى حاجة البلاد من حيث التعليم ، ولا حاجة بى الى أن اقول انى سررت جدا بما ابداه اعضاء مجلس الشورى من الاهتمام بهذا الأمر الهام ، وانى موافق قلبيا على كل ما يبذلونه هم وغيرهم لاصلاح التعليم وتوسيع نطاقه فى البلاد . ثم دعا اللورد كرومر فى تقريره الى وجوب اهتمام البلاد بالتعليم الصناعى .

الحساب الختامى :

وقد أسفر الحساب الختامى لهذه السنة عن استمرار التحسن فى المالية المصرية :

الايرادات	١١ر٤٤٧ر٠٠٠ جنيها
المصروفات	١١ر١٠٤ر٠٠٠ جنيها
الاحتيـاطى	٣ر٥٢٩ر٠٠٠ جنيها
الدين العام	١٠٢ر٧١٤ر٠٠٠ جنيها

١٩٠١ م — ١٣١٩ هـ : وفاة الملكة فيكتوريا :

فى الثانى والعشرين من يناير جاءت الأنباء بوفاة الملكـة فيكتوريا ملكة انجلترا وامبراطورة الهند عن ٨٢ سنة حكمت منها انجلترا أربعا وستين سنة ، اذ ارتقت العرش فى عام ١٨٣٧ . وقد نودى بها امبراطورة للهند عام ١٨٦٧ . فكانت بذلك أول من لقب من ملوك الانجليز بهذا اللقب ، وقد كان تلقيب الملكة فيكتوريا بهذا اللقب آية على ما وصلت اليه انجلترا من مجد وسلطان فى ظل حكمها . وقد لمع فى عهدها اسما رجلين من اعظم من عرفت انجلترا من أسماء رجال السياسة ، وهما دزرائيلى رئيس حزب المحافظين ، وغلادستون رئيس حزب الأحرار ، وكانا يتبادلان رئاسـة الوزارة ، ويتنافسان فى تحقيق الأمجاد لانجلترا ، وقد اقترن اسم الرجلين بتاريخ مصر الحديث ، فكان دزرائيلى هو الرجل الذى اشترى أسهم مصر فى قناة السويس وحول انجلترا من محاربة لهذا المشروع الى محتضنة له مما مهـد لاحتـلال مصر ، اما الثانى فقد كان هو الرجل الذى تم احتلال مصر فى أيامه .

وقد ارتقى عرش انجلترا ونودى به ملكا عليها وامبراطورا للهند بعد وفاة ملكـة انجلترا ولى العهد ، والذى أطلق عليه اسم الملك ادوارد السابع .

المراة الجديدة ومصطفى كامل :

فى الحادى والثلاثين من شهر يناير نشر مصطفى كامل فى جريدة اللواء مقـالا جعل منه طرفا فى معركة تحرير المراة التى اشتد أوارها من جديد بمناسبة اصـدار قاسم امين لكتابه الجديد « المراة الجديدة » وقد كان صدور هـذا الكتاب آية فى الشجاعة الأدبية الكبرى التى كان قاسم أمين يتحلى بها ، والتى تضعه بحق فى قائمة المصلحين الصادقين الأمناء .

فمذ اصدر قاسم امين كتابه الأول عن تحرير المراة ، وعواصف النقد تلاحقه لا فى مصر وحدها بل فى طول البلاد العربية وعرضها ، ولقد سطرت مئات المقالات ، وصدرت عشرات الكتب فى الرد على كتابه(١) .

(١) ولعله من ابرز هذه الكتب كتاب « تربية المراة والحجاب » والذى اصدره فى ذلك الوقت محمد طلعت حرب الذى كان مقدرا له ان يصبح بعد ربع قرن من هذا التاريخ زعيم مصر الاقتصادى ومنشىء البنوك والمصانع الوطنية بها .

فجاء قاسم أمين بكتابه الجديد يحاول أن يرد بطريقة موضوعية على كل الاعتراضات التى وجهت، الى فكرته والى كتابه .

وكان مصطفى كامل ممن تصدوا لهذا الكتاب الجديد وللفكرة التى يبشر بها بالنقد ولكن مصطفى كامل وان عارض قاسم أمين فقد كان يحمل له الاحترام والتقدير: وقد عاب على كل من حاول أن ينال منه بالسب والتجريح فقال :

« ان قاسم امين يدافع عن المبدأ الذى أعلنه أمام أمته دفاعا يدل على أنه معتقد تمام الاعتقاد بما يقول، ورأيت من بعض الذين خطأوا رأيه تهورا وخروجا على حد الاعتدال واتهاما بالقصد السيء ، وقد كان من السهل على الجميع ان يناقشوه رأيه ويعارضوه فى فكره بكمال ، لا يضر بقوة حججهم ، بل يزيدها قوة على قوة » .

وكانت وجهة نظر مصطفى كامل هو الابقاء على الحجاب ، ولكنه يدعو الى ضرورة تعليم المرأة وتربيتها ووجوب انشاء المدارس الخاصة بها لهذا الغرض .

تأجيل انعقاد الجمعية العمومية :

فى الثالث عشر من شهر مارس صدر أمر عال بتأجيل انعقاد الجمعية العمومية لمدة سنة لعدم وجود مشروعات جديدة لدى الحكومة تعرضها عليها ، فقد كان من اكبر اختصاصات الجمعية العمومية هو أن لا تفرض الحكومة ضريبة جديدة الا بعد موافقتها ، وقد انقضت سنوات لم تر الحكومة نفسها فى حاجة الى فرض ضرائب جديدة ، بل ان الميزانيات المتوالية كانت تحمل مبلغا سنويا لتخفيف عبء الضرائب واحسان توزيعها .

افتتاح مدرسة وخطاب لمصطفى كامل :

فى الخامس عشر من أبريل أقيم احتفال بافتتاح مدرسة جديدة خاصة للتعليم بالمجان ، أقامها أحد أعيان البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجى فى بلدة « بريم » ودعا مصطفى كامل لافتتاحها ، كما دعا مدير البحيرة الذى كان بدوره من المعجبين بمصطفى كامل . وكان افتتاح هذه المدرسة مظهر اقبال أعيان الأمة على افتتاح المدارس ، وقد ألقى مصطفى كامل خطابا بهذا المعنى اشار فيه الى انتشار التعليم وقيام الجمعيات الوطنية كالعروة الوثقى فى اسكندرية والمساعى المشكورة فى المنوفية والجمعية الخيرية الاسلامية فى أنحاء البلاد مما يدل على حيوية الأمة وشديد رغبتها فى التعليم واللحوق بركب الحضارة .

عرابى يلتمس من ولى عهد انجلترا أن يعيده الى مصر :

فى الثانى عشر من مايو زار جزيرة سيلان ولى عهد انجلترا وهو الملك جورج الخامس (فيما بعد) فقابل عرابى باشا فيمن قابل . يقول عرابى فى مذكراته : فعرضت على سموه أنى أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكا لنا من الأسر ، فتكرم علينا بأنه سيسعى لدى الخديوى فى تحقيق امنيتنا ، ثم جرت المخابرة بين سموه وبين الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية فى هذا الشأن .

الخديوى يصدر العفو عن عرابى :

فى الخامس والعشرين من مايو صدر أمر عال من الخديوى بالعفو عن بقية المنفيين فى سيلان وهما احمد عرابى وعلى فهمى والتصريح بعودتهما الى مصر .

مصطفى كامل يندد بفكرة عودة عرابى :

فى الثالث من شهر يونيه كتب مصطفى كامل فى جريدة اللواء يندد بفكرة عودة عرابى الى مصر ، بعد ان اصبحت هذه العودة رمزا على تصفية حركة الجهاد ضد الاحتلال والاستسلام النهائى له . يقول مصطفى كامل :

« نحن لا نجهل شوق المنفى الى مسقط راسه وحنينه الى وطن آبائه وأجداده ، ولكن كم من شهم احنت الأيام ظهره واشتعل الرأس منه شيبا وهو فى نفيه يتجرع مضض الابتعاد عن الاهل والأحباب ويأبى العودة الى بلاده احتراما لمبدأ لم يتحقق او رعاية لغاية لم تتم ثم راح مصطفى كامل يعدد الأمثال من تاريخ مختلف الأبطال ، وختم مقاله بقوله : « فكيف لا يرى عرابى بعد ان لم ينل هذا الشرف وذلك الفخار . (وهو الاستشهاد فى مكان المعركة) أن الموت فى المنفى خير له من الحياة فى مصر بين رجال الاحتلال وجنود الشقاء والاستعباد » .

مسألة ليون فهمى ونصيحة محمد عبده :

فى يولية من هذه السنة وقعت أزمة ليون فهمى التى كادت تعرض الخديوى لصنوف الاذلال والمهانة ، ولم ينقذه سوى انتصاحه بما نصحه به الشيخ محمد عبده .

وليون فهمى ارمنى ضبطت لديه اختام مزورة ، على ما يقول احمد شفيق فى مذكراته ، باسم رئيس كتاب بلدا غيره من رجال السراى السلطانية . أما الشيخ رشيد رضا فيقول عنه ان الخديوى استخدمه فى بعض أموره السياسية السرية وكان يعطيه مكافآت كثيرة وقد حفظ على سموه أوراقا وأسرارا ، صار يهدده بها لسلب المال الكثير .

كيفما كان الأمر فان الخديوى قرر التخلص من الرجل بطريقة غير مشروعة فاستدرجه الى قصر المنتزه بالاسكندرية واعتقله به ، وبلغ الأمر الى كرومر فاهتم به اهتماما شديدا ، اذ كان قد سبق له أن أعلن انه يمنع اى اعتداء يقع على أى مقيم على أرض مصر .

وكلف كرومر شايمان بك مستشار الداخلية للتحقيق فى هذه الواقعة ، وادرك الخديوى عباس ما سوف يلحقه من المهانة ، فنقل ليون فهمى من قصر المنتزه الى يخت المحروسة خوفا من أن يفتش القصر ، واستنجد بالشيخ محمد عبده ليجد له مخرجا من هذا المأزق ، فأشار عليه الشيخ محمد عبده أنه يجب بادىء ذى بدء ، أن يطلق سراح ليون فهمى سواء كان معتقلا فى القصر أو فى المحروسة ، وبعد اخراجه ، يوجه الخديوى بلاغا الى معتمدى الدول المعترفة باستقلال مصر تحت سيادة الباب العالى بأن سلطة الاحتلال تريد الاعتداء على استقلاله واهانته بتهمة اجرام باطلة ، ويحتج

على سلطة الاحتلال ويحملها تبعة تفتيش قصره اذا هي اقدمت على ذلك ووصمه بهذه التهمة ، وان يبلغ اللورد كرومر انه سيفعل ذلك اذا اجترأ أحد على محاولة تفتيش السراى فصدع الخديو بهذه النصيحة واسترضى ليون فهمى بمبلغ من المال ، وأبعده على باخرة فرنسية من بورسعيد الى مارسيليا ، ولما جاء شايمان لتفتيش السراى قال له الخديوى : انه بصفته خديوى مصر يقرر له أن ليون فهمى غير موجود لا فى السراى ولا فى المحروسة .

يقول لنا كرومر فى كتابه عن عباس الثانى ، انه علم من ذلك القول ان ليون فهمى لا يمكن أن يكون فى القصر والا لما تحدى الخديوى عباس هذا التحدى .. وأوعز الى شايمان بك أن يعدل عن تفتيش القصر ، واعتبر الحادث منتهيا عند هذا الحد .

أما احمد باشا شفيق فيقول لنا : وبذلك انتهت هذه الحادثة التى كادت تزعزع مركز الخديوى بتدخل الانجليز الى حد تفتيش قصره .

الخديوى فى استنبول :

فى السادس من شهر يوليو وصل يخت المحروسة الى استنبول وعلى ظهره الخديو عباس ، والذى عجل بالسفر الى استنبول قبل أن تصله الدعوة المضادة من السلطان بسبب حادث ليون فهمى وما خلفه فى نفسه من آثار ، وقد أجريت له المراسيم والاحتفالات التى أصبحت معتادة فى هذه المناسبة وتناول الغداء على مائدة السلطان ، وتعددت الحفلات التى يشهدها الخديوى بصحبة السلطان . وفى منتصف يوليو بارح الخديوى استنبول عن طريق البر قاصدا فينا فباريس .

محمد عبده وعلى يوسف فى استنبول :

فى العشرين من يوليو وبعد سفر الخديو من استنبول وصل اليها الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، كاد الشيخ محمد عبده أن يقع فريسة للدسائس والمؤامرات التى حيكت له عند السلطان لولا أن تدخل أحمد شفيق باشا فحمى الشيخ محمد عبده مما كان يوشك أن يحل به . يقول لنا أحمد شفيق باشا فى وصف ما حدث : وقد استعان المفتى على زيارة المساجد والمكاتب وغيرها بمراسل المؤيد باستنبول واسمه زكى مغامز وذلك لمعرفته باللغة العربية وجهل الشيخ محمد عبده باللغة التركية . وكان هذا الرجل مسيحيا والمفتى لا يعلم ذلك ، فانتهز أعداء الشيخ محمد عبده هذه الفرصة وبتحريض الشيخ ابى الهدى الصياد وابراهيم المويلحى والسيد محمد توفيق البكرى قدموا فى حقه بعض التقارير فأوغروا صدر السلطان على الشيخ محمد عبده ، فدعى الى مقابلة مدير الشرطة . يقول أحمد شفيق باشا أنه أسرع عندما علم بذلك فكتب تقريرا رفع للسلطان ودافع فيه عن الشيخ محمد عبده ، فأصدر السلطان أمره للشرطة بالكف عن ملاحقة الشيخ محمد عبده وطلب من شفيق باشا أن يوعز للشيخ محمد عبده باختصار اقامته فى استنبول ، وقد استجاب محمد عبده لذلك فكتب للسلطان خطابا مطولا برأ نفسه فيه مما اتهم به

وطلب الاذن له بالسفر ، فجاءه الاذن بالسفر يوم ٤ اغسطس ، فأسرع الى مغادرة استنبول فى اليوم التالى .

وليس هذا الحادث الا صورة لما كانت تغص به استنبول فى هذه الفترة من احاديث الدسائس والمؤامرات والمناورات التى فصل الكثير منها أحمد شفيق باشا فى مذكراته.

عرابى باشا يصـــل الى السويس :

فى التاسع والعشرين من سبتمبر وصل عرابى باشا الى مدينة السويس عائدا من منفاه فى سيلان على ظهر السفينة البرنس هنرى ،بعد تسعة عشر عاما من النفى قضاها بعيدا عن مصر . وقد نشرت جريدة اللواء فى نفس اليوم قصيدة لأحمد شوقى ردد فيها حجج مصطفى كامل فى تنديده بعودة عرابى وكان مطلع القصيدة :

صـــغار فى الذهاب وفى الاياب اهـــذا كل شـــأنك يا عـــرابى

وفى قصيدة اخرى نشرت كذلك فى جريدة اللواء ، ضاعف من حملته على عرابى وحمله مسئولية ايقاع مصر فى ربقة الاستعمار والاحتلال ، وندد بجبنه وفراره فى معركة التل الكبير وقارن بين فراره ، واستبسال الدراويش فى معركة أم درمان حيث آثروا الاستشهاد على الفرار . فكان مما قال :

هـــلا سبقت غـــداة التل ناعيهـــا	الى المنيـــة مسرورا تلاقيهـــا
هـــلا تكفنت بالهيجـــا برايتهـــا	مثـــل الدراويش خانتهـــا عواليهـــا
ما زال جمعهـــم فى الحـــرب ينشرها	حتى أتاها فنـــاء الجمع يطويهـــا
هـــلا أبيت على العـــافين عفـــوهم	اكى يقـــال أبى النفس عاليهـــا
زعمت انك أولى من أعزتهـــا	بهـــا وأحنى عليهـــا من مواليهـــا
وكنت تطرب اذ تتـــلى مدائحهـــا	فأين دمعـــك اذ تتلى مراثيهـــا

يقول عرابى فى مذكراته : غير ان رجوعنا الى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظنا منهم أننا بعنا ذلك الوطن للانجليز على اتفاق بيننا وبينهم ، فأوعزوا الى بعض الجرائد المأجورة وفى مقدمتها جريدة اللواء بالتنديد بنا والخروج علينا ، فوجهت الينا سهام جهلها وضغنها » .

وقد هوجم أحمد شوقى ، وسيظل يهاجم من بعض الناس لموقفه من عودة عرابى فيقول الأستاذ محمود الخفيف فى كتابه « أحمد عرابى المفترى عليه » وقد رأى شوقى شاعر الأمير أن يهجو الزعيم العائد تزلفا الى الأمير وعملا بسنن قديمه للشعراء مؤداها أن يمتدح الشاعر من يرضى عنه أميره ، وأن يذم من يغضب عليه ذلك الأمير دون أن يكون بين الشاعر وبين من يمدح أو يذم اى صلة . وقد تكرر هذا الاتهام من نفر من النقـــاد .

وعندنا أن الخديوى عباس قد استهل حكمه بالعفو عن كل من اشترك فى ثورة عرابى وكانت عودة عرابى بناء على عفو صادر من الخديوى وان كان ذلك بطبيعة الحال بناء على

ايعاز من الانجليز ، فكان يمكن للشاعر أن يتخذ من هذا العفو الظاهرى سبيلا لمدح الأمير والثناء عليه .

فالقول بأن شوقى قد هاجم عرابى نفاقا لعباس مسألة فيها نظر والأصح منها ان يقال ، ان شوقى كان صديقا حميما لمصطفى كامل ، وكان يتبنى سياسته ، فيعبر بالشعر عما يقوله مصطفى كامل بالنثر . وكان مصطفى كامل يحمل على عرابى الحملات الشعواء فكتب فى اللواء على سبيل المثال فى ٢٨ سبتمبر يقول :

« ماعار الاحتلال وعار الجهالة والتأخر وعار الفقر بشىء يذكر اذا قورن بالعار الذى يحمله عرابى ويقرؤه الناس على وجهه أينما سار وحيثما حل » .

وأى عار أكبر وأشهر من عار رجل تهور جبانا واندفع جاهلا ، وساق أمته الى مهواة الموت الأدبى ، والاستعباد الثقيل ثم فر هاربا من ميادين القتال وتوسل الى عدوه المحارب أن يعفو عنه ، وابت عليه نفسه التى لا أكيف شعورها ان يموت فى منفاه ، والا ان يرجع الى وطن هو مرجع شقائه ويمضى مصطفى كامل فى مقاله يشتد فى هجومه أكثر وأكثر .

فأحمد شوقى انما كان يقول شعرا ما يكتبه مصطفى كامل ممثل الوطنية فى هذه الحقبة بالنثر .

وقد تكون لنا اليوم وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر مصطفى كامل وأحمد شوقى فى استحقاق عرابى لكل هذا اللوم والتعنيف ، فهزيمته فى حقيقة الأمر ، لم تكن الا نتيجة المد الاستعمارى الذى بلغ ذروته فى القرن التاسع عشر ، وقد يكون أحمد عرابى قد تصرف بعد هزيمته بما لا يتفق ومواقف البطولة والفداء ، ولكل انسان قدرته وطاقته ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فنحن لا نقر هذه القسوة على عرابى من مصطفى كامل وأحمد شوقى ، ولكن من التجنى فى ذات الوقت أن نتصور دوافع الرجلين كانت شيئا الا كراهية الاحتلال والانجليز ، ونفورهما من كل ثناء على الاحتلال ودوره فى مصر ، وهو ما كان أحمد عرابى لا يفتأ يردده بشتى الطرق والاشكال حتى ليقول فى حديث جرى له مع جريدة المقطم فى ٦ أكتوبر بعد أن راح يطرى الاحتلال الانجليزى :

« فشكرت الله وحمدته لأنه حقق مناى وأرانى قبل مماتى ما طالما كنت أتمناه لبلادى وأبناء وطنى فى حياتى ، وقلت هذا هو الاصلاح الذى كان غايتى من أفعالى الماضية ، وقد شاء الله أن ينعم به على وطنى ، ولكن لحكمة له جل جلاله قضى أن لايتم ذلك على يدى بل على يد الذين نازلناهم فى ساحة القتال ، وكانوا لمصر أعداء فصاروا اليوم خير الأصدقاء » .

وكان طبيعيا ان ينفجر مصطفى كامل والثناء على الانجليز ينهال من عرابى فكتب معلقا على هذه التصريحات : فمن الذى يستطيع أن يدافع عنه بعد الآن وهو الجانى على نفسه بنفسه ، أى مصرى غيور على بلاده لا تثور عواطفه ولا تهيج نفسه اذا قرأ هذه الأقوال ورأى هذا المتبجح يسخر من هذه الأمة الى هذا الحد » .

عـدم مهاجمة البارودى :

وليس أدل على أن مصطفى كامل واحمد شوقى ، لم يكونا يهاجمان احمد عرابى على موقفه القديم بقدر ما كانا يهاجمان موقفه الجديد من الاحتلال انهما لم يتعرضا بكلمة واحدة لمحمود سامى البارودى مع أنه كان شريكه فى هذه الثورة ، وما ذلك الا لأن محمود سامى البارودى قد احتفظ بكرامته ، وأخلد بعد عودته الى مصر الى الانهماك فى الأدب والشعر ، لا يتعرض للحياة العامة .

الخديوى عباس يزور السودان :

فى الثالثمن ديسمبر وصل الخديوى عباس الى مدينة الخرطوم فاستقبل استقبالا رسميا حافلا ، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراى الحاكم العام حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبة علماء البلاد وأعيانها ، وألقى السير ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان خطبة ترحيب بمقدم الخديوى .

وقد رد عليه الخديوى عباس بخطبة ، من المحقق انها أعدت له قبل سفره من مصر ، ولا بد أن كرومر قد شارك فى وضع صيغتها لتكون تكريسا للحكم المشترك فى السودان ، والا لما سمح للخديوى بهذه الزيارة وهذا هو نصها :

« انى أشكر لكم الخطاب الذى حييتمونى به وأؤكد لكم بأنى أعد من أعظم مسراتى رؤيتى اياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتها منا سكة الحديد العجيبة التى ملأتنى ارتياحا وابتهاجا ، والآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التى لاقاها من كانت لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محـو سلطان عبد الله التعايشى واعادة العدل والراحة والسكون فى جميع انحاء السودان .

والعلمان الانجليزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما اشارة الى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفساد ، وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار ، ولقد سرنى أيضا ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران ، واعتقدوا انى سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفالكم بى فى هذه الزيارة الأولى . وانى ليشملنى السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدها بدت فى كل الأرجاء ، هذا وانى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعـد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض لى عنهم سعادة السردار والحاكم العـام بناء على التقارير السنوية التى ترد له من المديريات » .

وقد صعد الخديوى فى النيل الأبيض ، ثم فى النيل الأزرق ، ثم عاد الى الخرطوم وبرحها الى مصر فى ٧ ديسمبر .

مجلس شـورى القوانين :

وقف مجلس شورى القوانين موقف المعارضة للحكومة لتعديلها بعض الرسوم على الخيوط والأقمشة القطنية دون عرض الموضوع على الجمعية العمومية ، وثار بين

المجلس وبين الحكومة خلاف فقهي حول تفسير المادة ٢٤ من القانون النظامي ، وحاولت الحكومة ان تحمل مجلس شورى القوانين على قبول تفسيرها لهذه المادة وقرر المجلس: يرى المجلس انه ليس من اختصاصه النظر في المشروع ويتجنب الدخول في موضوع تبديل او تغيير المادة ٣٤ وكل مادة في القانون النظامي لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية » .

وقد أطرت جريدة اللواء هذا الموقف وعدته من حسنات مجلس شورى القوانين .

تقرير اللورد كرومر وحالة التعليم :

وقد صدرت ترجمة غريبة من تقرير اللورد كرومر متضمنا كل الشئون المصرية ، وقد تضمن التقرير بعض بيانات جزافية عن التعليم في مصر حاول أن يظهره بصورة طيبة ، فقال انه يوجد بمصر عشرة آلاف مكتب لتعليم الصبيان يتعلم فيها نحو ٢٠٠ الف طالب وطالبة .

وهو رقم خيالي من غير شك قام على أساس من الافتراض .

فقد ورد في كتاب اللورد ملنر « انجلترا في مصر » ما يمكن أن يعد صورة أقرب الى الواقع من هذا الذى ذكره كرومر ، فقد قال انه كان يوجد في مصر من الطلاب الخاضعين لتفتيش وزارة المعارف في مدارس القرى ٧٥٠٠ طالب عام ١٨٩٨ أما في عام ١٩٠٣ بعد أن لجأت الحكومة الى اعانة الكتاتيب لتخضعها لتفتيشها فقد ارتفع عدد الكتاتيب المسجلة في وزارة المعارف الى ٢٦٠٠ كتاب تبلغ عدة تلاميذها ٦٧ ألف تلميذ .

وقد اشار اللورد ملنر الى ما جاء في تقرير اللورد كرومر من وجود عشرة آلاف كتاب وعلق قائلا ، ولا بد من انقضاء زمن طويل كبير قبل أن يصبح هذا العدد من الكتاتيب ذا فاعلية ولو متوسطة في اداء رسالة التعليم .

الاعتصابات (اضراب العمال) :

انتقل التقرير بعد ذلك الى التحدث عن وقوع اضرابات في صفوف العمال وكانت تسمى في ذلك الوقت (الاعتصابات) مما يمكن ان يكون نقطة الابتداء في الحركة العمالية بمعناها الحديث واليك ما جاء في التقرير خاصا بذلك : « حدث مؤخرا عدة اعتصابات في القاهرة ، وقد رفع الى لفافو السجاير كتابا في شهر ديسمبر ، فأجبت عليه جوابا أعربت فيه عن النصيحة التى رأيت من واجباتي أن أقدمها للحكومة المصرية وقلت » :

أولا : عندى أن الحكومة تلزم جانب الحياد في المسائل المختصة بأرباب العمل والعمال وتتركهم يتولون حلها بأنفسهم بشرط عدم الاخلال بقوانين البلاد .

ثانيا : يجب المحافظة على الراحة العمومية بأى وجه كان ، ولكن لا يجوز الاستعانة بالقوة الا عند مسيس الحاجة .

ثالثا : يجب على الحكومة ان تبذل كل ما تستطيعه لمنع كل عمل غير قانونى يقصد به مس حرية عامل أو فريق من العمال .

الحســاب الختــامى :

وانتهى الحساب الختامى لهذه السنة مثبتا التقدم المطرد للمالية المصرية وذلك على الوجه التالى :

ايرادات	١٢٫١٦٠٫٠٠٠	جنيه
مصروفات	١١٫٣٩٦٫٠٠٠	جنيه
زيادة	٧٦٤٫٠٠٠	جنيه
الاحتياطى	٣٫٧٩٥٫٠٠٠	جنيه
الدين العام	١٠٣٫٢٦٥٫٠٠٠	جنيه

١٩٠٢م — ١٣٢٠ هـ : الدعوة لانشاء مدرسة محمد على الصناعية :

فى مستهل هذه السنة بدأت دعوة كرومر لانشاء المدارس الصناعية لتوجيه البلاد نحو الصناعة تثير الاهتمام فقويت الدعوة على صفحات الصحف لانشاء مدرسة محمد على الصناعية بمدينة الاسكندرية وبدأت التبرعات تنهال لتحقيق المشروع .

مصطفى كامل يخطب فى الاحتفال السنوى بمدرسته :

فى السابع والعشرين من فبراير أقيم الاحتفال السنوى فى مدرسة مصطفى كامل لتوزيع الجوائز على المتفوقين . وقد أربى الذين شهدوا احتفال هذا العام على اربعة آلاف مواطن ، وراس الاحتفال احد أفراد العائلة الخديوية وهو البرنس محمد ابراهيم أحد أحفاد ابراهيم باشا ، وشهد الاحتفال فيمن شهد ، قاضى قضاة مصر التركى ، والشيخ محمد عبده وشيخ الجامع الأزهر ورئيس مجلس شورى القوانين ، وعشرات ومئات من الباشوات والأعيان وقد ألقى مصطفى كامل خطابا وطنيا ، كما خطب الأمير محمد ابراهيم ، مما كشف عن مدى تعطش البلاد الى نهضة التعليم .

حبس المنشاوى باشا عين أعيان مديرية الغربية :

فى الخامس والعشرين من أبريل أصدرت محكمة طنطا الأهلية حكمها على أحمد باشا المنشاوى عين أعيان مديرية الغربية ، بالحبس لمدة ثلاثة شهور وعلى مأمور مركز طنطا بالحبس شهر ونصف ، وعلى خادمين من خدم المنشاوى بالحبس لمدة شهرين .

وكان سبب هذا الحكم الذى هز البلاد ، ليس فقط لعلو شأن المحكوم عليه باعتباره من كبار الأعيان فى البلاد ، بل لما اشتهر به من أعمال البر والاحسان لا للمسلمين أو المصريين فحسب ، بل للأجانب والمسيحيين بعامة ، فالأوربيون يذكرون له بالحمد والثناء انه كان هو الذى أنقذ أرواحهم ، أيام الثورة العرابية ، عندما همت العامة بذبح الأوربيين غضبا لما حدث من ضرب الاسكندرية .

ولقد شغلت الصحف المصرية بنبأ المحاكمة ونشرت المرافعات المستفيضة التى تمت امام المحكمة ، ولكن احمد شفيق باشا يلخص لنا القضية فى سطور محدودة ننقل النبأ عنه . قال : « سرق من مزارع سمو الخديوى بالرجدية ثوران فى يوم ٢٢ مارس فاهتمت المديرية بالأمر ، ولكنها لم توفق للعثور عليهما ، وعندئذ تقدم المنشاوى باشا الى الخاصة وعرض عليها معاونته فى العمل لاعادة الثورين ، فقبل طلبه ، وقد أمكن التوصل بعد البحث الى معرفة السارقين واسترداد الثورين ، وقبض المأمور على اثنين من بلدة شبرا قاصى انحصرت فيهما التهمة ، فتسلمتهما النيابة للتحقيق وأودعا سجن المركز فى طنطا . وبعد يومين أخذهما المأمور الى القرشية بلد المنشاوى باشا بناء على طلب منه بعد أن أفهم المأمور أن وجودهما بداره يفيد القضية ويعاون فى الكشف عن خباياها ، ثم أعيدا الى السجن ، ولما ذهب رئيس النيابة لسؤالهما ثانية قررا انهما عذبا بالضرب فى دار المنشاوى باشا ، فاحيلا على الكشف الطبى ووجدت بهما آثار الضرب وتقرر لأحدهما علاج خمسة عشر يوما ، وللآخر عشرة أيام ، فأخذت النيابة فى تحقيق الواقعة الجديدة ، وذهب النائب العام الى طنطا والمستر ويلسون مفتش الداخلية ، وانتهى الأمر بالقبض على المنشاوى باشا وقبض على مأمور المركز نفسه لاخراجه مسجونين من السجن بدون اذن من النيابة والانتقال بهما الى القرشية ، وأوقف مدير الغربية لسماحه للمأمور بهذا العمل » . وسرعان ما أصبحت القضية هى الشغل الشاغل للرأى العام فى مصر ، وارتفعت اصوات تتهم الادارة الانجليزية بانهم حولوا القضية الى قضية سياسية ، وانهم يحاولون النيل من الخديو فى شخص صديقه المنشاوى باشا .

محكمة الاستئناف تؤيد الحكم الابتدائى :

فى العاشر من شهر مايو صدر حكم محكمة الاستئناف العليا بتأييد الحكم الابتدائى وكتب مصطفى كامل فى جريدة اللواء يعلق على الحكم تحت عنوان « القول الفصل » « لاريب ولا خلاف فى أن حكم محكمة الاستئناف الأهلية فى قضية القرشية قد دعم العدالة والقضاء ورفع شأن المحاكم الأهلية » .

وهكذا أغلق كتاب هذه القضية التى كان يمكن أن تكون صفحة من أزهى الصفحات المشرفة فى تاريخ مصر الفتية من حيث وصول تقديس حقوق الانسان الى هذه المرتبة ، فقد أقصى مدير من مديريته وسجن مأمور وطرد من وظيفته وحكم بالسجن على أكبر باشوات مصر ، لضربهما لصين من لصوص المواشى على خلاف حكم القانون .

على انه يقال من خلال هذه الصورة ، أنه قد اريد بهذه الاجراءات المساس بشخص الخديو ، باعتبار أن الأساس فى الواقعة يتصل بسرقة ثورين من ثيرانه .

مصطفى كامل يحتفل بمرور مائة عام على تولية الشعب لمحمد على :

فى الحادى والعشرين من شهر مايو (١٣ صفر ١٣٢٠) أقيم احتفال بمسرح زيزينا بالاسكندرية بمناسبة انقضاء مائة عام على تنصيب الشعب المصرى لمحمد على

واليا على مصر . وقد كان مصطفى كامل هو صاحب الفكرة فى الاحتفال ، فقد دعا اليه قبل ذلك على صفحات اللواء . ولذلك فقد ألقى فيه خطابا مستفيضا ، لخص فيه اعمال محمد على الجليلة ، وأظهر كيف ان مصر أيام محمد على قد سبقت فى نهضتها اليابان نفسها . وانتهز مصطفى كامل هذه المناسبة فدعا الى انشاء مجلس نيابى لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد سلطانها .

محمد عبده يهاجم محمد على :

وقد وقف الشيخ محمد عبده على طرف نقيض من مصطفى كامل ، فحمل حملة شعواء على محمد على وذكراه مما سجلناه سابقا عند الحديث على محمد على .

انتهاء حرب الترنسفال :

فى الثانى من شهر يونيه اعلنت انجلترا انتهاء حرب الترنسفال ، بانتصارها انتصار غير مشرف على البوير ، الذين أبدوا فى حربهم ضروبا من البسالة والفدائية ما بهر انظار العالمين ، وما كبد انجلترا خسائر فادحة .

فكان لانتهاء هذه الحرب ، موجة من الحزن والأسى على الصحف الوطنية المصرية وبخاصة جريدة اللواء ، التى كانت تتابع هذه الحرب بروح التأييد والتشجيع .

أزمة جديدة بين الخديو والسلطان حول جزيرة طاشيوز :

فى السادس عشر من أكتوبر عاد الخديو من رحلته فى استنبول ودول أوربا وهو متهيأ العزم للاستعانة بالانجليز ضد السلطان لاستخلاص حقوقه فى جزيرة طاشيوز التى كانت تعتبر منذ أيام محمد على وقفا خاصا بخديو مصر لينفق منه على العمارات الموجودة فى قولة ، فاستولى عليها السلطان وبعث اليها من يديرها باسمه نازعا بذلك سلطة الادارة من الخديو عباس .

وقد عرض الخديو القضية على اللورد كرومر عندما حضر لزيارته بمناسبة عودته فى العشرين من أكتوبر ، وطلب من اللورد كرومر معاونته .

وفى السادس والعشرين من أكتوبر زار ونجت باشا سردار الجيش المصرى الخديو فأطلعه بدوره على مسألة جزيرة طاشيوز وانه محتاج لمعاونة اللورد كرومر ، فأجابه ونجت ان اللورد على استعداد لذلك ، وأن المسألة تنتهى بمجرد ارسال سفينة حربية انجليزية لهذه الجزيرة — فقال له الخديو على ما نقل لنا أحمد شفيق باشا : ولكنى اخشى ان تشجعونى أولا ثم تتخلوا عنى فقال ونجت : ان هذا لا يكون . فقال سموه : سأنتظر الى الشتاء وأرى ماذا يحصل من الدولة العلية ، فان لم تنصفنى طلبت تدخل الانجليز فى الصيف المقبل ، ثم اثنى على اللورد كرومر وأظهر ميله للعمل معه فى وفاق تام وانه لا يعارض الانجليز ولا أعمالهم ولكنه يعارض التصرفات الشاذة .

افتتاح خزان اسـوان :

في العاشر من ديسمبر وضعت الدوقة أوف كنوت الحجر الختامي في بناء خزان اسوان ، في حفل ضخم حضره الخديو واللورد كرومر وممثلو الدول وستمائة من كبار المصريين والأجانب .

وكان مقررا ان يبدأ الخزان عمله من صيف عام ١٩٠٣ .

انشـاء قناطر اسـيوط :

وقد احتاج انشاء خزان اسوان لكي يؤتي ثماره الى انشاء قناطر اسيوط ، فتم انشاؤها في نفس الوقت . وقد بلغت التكاليف النهائية للمشروعين ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه .

تقوية معبد أنس الوجود :

وقد دخل في هذا المبلغ ما انفق على تقوية أسس معبد فيلة (أنس الوجود) وكان مهددا بالتصدع بعد انشاء الخزان ، ولكن عملية الاصلاح التي أجريت له بمناسبة انشاء الخزان ساعدت على تقويته والابقاء على هذا الاثر الحي في حينه .

المؤتمر الطبي الدولي في مصر :

في التاسع عشر من ديسمبر افتتح مؤتمر دولي للطب لأول مرة في مصر ، وقد اقيمت حفلة الافتتاح في دار الأوبرا وتولى الخديو القاء خطبة الافتتاح ، ثم والى المؤتمر بعد ذلك عقد جلساته في مدرسة الطب . وقد حضر المؤتمر ممثلون عن حكومات أوربا ومجامعها العلمية ، وقد ركز المؤتمرون اهتمامهم في الدرجة الأولى على بحث أمراض المناطق الحارة .

انشـاء كليـة فيكتوريا :

وفي هذه السنة أنشئت كلية فيكتوريا بالاسكندرية تحت الرعاية الانجليزية والغرض الأساسي من انشائها انشاء مدرسة عالية لأبناء وجهاء المصريين على اختلاف نحلهم ومللهم .

تقـرير اللورد كرومر :

وقد صدر تقرير اللورد كرومر كما هي العادة في مستهل السنة التالية عن شئون مصر في هذه السنة ، وقد جاء في التقرير بخصوص التعليم ما يشعر بأنه دون الغاية اذ قال :

بلغ ما صرف خلال العشرين سنة الماضية عن التعليم مبلغ ١٫٨٢٢٫٥٤٧ جنيها أو أقل من ١ ٪ من المصروفات العمومية .

انشاء بنك زراعي لتسليف الفلاحين :

وذكر التقرير فيما ذكر انشاء أول بنك زراعى فى يونيه من هذه السنة بمجهود البنك الأهلى ليكون عمله اقراض الفلاحين ، وقد حدد رأسمال البنك بمبلغ ٥٠٠ر٥٠٠ر٢ جنيه دفع منها حتى كتابة التقرير ٠٠٠ر٢٥٠ر١ جنيه وقد ضمنت الحكومة للبنك فائدة لأموالها تقدر بـ ٣ ٪ وخفضت الفائدة الرسمية التى كان الفلاحون يقترضون بها من ١٠٪ الى ٩٪ .

انشاء خط تليفونى بين مصر والاسكندرية :

كما أشار التقرير الى مد خط تليفونى بين مصر والاسكندرية تتولى ادارته احدى الشركات الخصوصية ، وقد جعل اجر المخاطبة خمسة قروش لكل ثلاث دقائق .

تعليق اللورد كرومر على قضية المنشاوى :

وعلق اللورد كرومر على قضية المنشاوى بقوله :

« والأحكام التى صدرت فى هذه الأحوال الثلاثة جنائية ، وقد ألقى بها درس نافع على من يخصهم الأمر وظهر للكافة أن القانون لا يميز بين الناس ، وكان المأمور قد رفت من وظيفته أمام مجلس التأديب ، وقضى كذلك برفت المدير لسماحه باخراج المسجونين من السجن » .

الحساب الختامى :

وانتهى الحساب الختامى لهذه السنة كاشفا عن زيادة فى ايرادات الدولة وزيادة الايرادات على المصروفات وذلك على الوجه التالى :

ايرادات	٠٠٠ر١٤٨ر١٢ جنيه
مصروفات	٠٠٠ر٤٣٢ر١١ «
فائض الايرادات	٠٠٠ر٧١٦ «
احتياطى عام	١٠٠ر٩٣١ر٢ «
الدين العمومى	٠٠٠ر٢٤٥ر١٠٣ «

١٩٠٣ م ــ ١٣٢١ هـ : الخلاف بين الخديو ومختار باشا الغازى :

فى فبراير من هذه السنة ظهر أثر تحول الخديو فى سياسته نحو السلطان وعلاقته بتركيا بصفة عامة ، فقد تنكر لمختار باشا الغازى الذى كان يقيم فى مصر منذ أوائل الاحتلال باعتباره نائبا عن السلطان . وأخر الخديو دوره فى الاستقبالات والاحتفالات الرسمية ، مما أدى الى وقوع أزمة بين الرجلين وتدخل مصطفى كامل لاصلاح ذات البين .

زيارة ملكة البرتغال لمصر :

وفى أبريل من هذه السنة زارت ملكة البرتغال مصر ، وقد سعى مصطفى كامل لمقابلتها ، وتدخل الخديو عند الملكة فقابلت مصطفى كامل وأجرت معه حديثا أعربت فيه عن سرورها بزيارتها لمصر والاستمتاع بجوها وآثارها ، وحسن ضيافة أهلها الكرماء وطلبت منه أن يكون رسولها لابلاغ الشعب المصرى شكرها وتمنياتها الطيبة لمستقبله .

وقد أثارت هذه الزيارة ازمة بين الخديو واللورد كرومر مما كشف عنه مصطفى كامل النقاب فيما بعد .

الخديو يزور لندن زيارة خاصة :

فى الرابع والعشرين من شهر يونيه وصل الخديو عباس الى لندن فى زيارة خاصة لتدعيم سياسته الجديدة فى تحسين العلاقات بينه وبين الانجليز ، وكان الشيخ على يوسف صاحب المؤيد قد سبق الخديو قبل هذه الزيارة ببضعة ايام ليمهد لهـا ، وليكتب لجريدته أنباءها ، فاحتفى به وأحسن استقباله .

وعند وصول الخديو الى لندن استقبله الملك ادوارد السابع فى قصر باكنجهـام . وقد تصادف ان كان الدون جورست مستشار وزارة الداخلية فى مصر يعقد قرانه فى هذه الفترة ، فشهد الخديو حفلة الزواج .

وتعددت الحفلات التى اقيمت للخديو فى لندن ، وقيل ان اللورد بلفور رئيس الوزارة الانجليزية اعجب بالخديو .

وقد علقت جريدة التيمس على هذه الزيارة فى افتتاحية لها فقالت :

وسواء كانت زيارات جنابه رسمية أو غير رسمية فهو لدينا دائما ضيف كريم ترحب به الأمة ، وربما كانت زيارة عادية كهذه أحب الى مجموع الأمة واقرب الى ميول قلوبها ، لأن مثل هذه الزيارات تبرهن على ارتياح قلبى للوجود بيننا وتدل على الثقة بأكثر مما تدل الزيارات الرسمية .

جريدة اللواء تفتتح اكتتابا لسكة حديد الحجاز :

فى الخامس عشر من شهر يوليو افتتحت جريدة اللواء اكتتابا عاما لاعانة مشروع سكة حديد الحجاز ، وهو المشروع الذى كان يرمز الى الجامعة الاسلامية ، والذى دعا السلطان عبد الحميد المسلمين فى أقطاب الأرض أن يساهموا بالتبرعات فى انشائه ، وكان يقوم على مد خط حديدى من دمشق فى سوريا وآخر من مدينة حيفا فى فلسطين لربطهما بالمدينة المنورة ومكة المكرمة . فأخذت جريدة اللواء على عاتقها جمع الاكتتابات لهذا المشروع فى مصر (١) .

---

(١) بلغ مقدار التبرعات التى قدمها المسلمون لانشاء هذا الخط ١٠٣ر٣٤٦ر٥٤٢ قرشا ومد بالفعل من الخطوط الحديدية من دمشق فى اتجاه الجنوب نحو المدينة المنورة ٣٧٠ كيلو مترا .

افتتاح دار الآثار العربية :

فى التاسع والعشرين من ديسمبر جرى الاحتفال بافتتاح دار الآثار العربيـة والاسلامية .

فوضى الاتجار بالرتب والألقـاب :

يقول احمد شفيق باشا فى تعليقاته عن حوادث هذا العام : وفى هذه السنة أخذت فوضى الرتب قمتها وكان لها سوق للاتجار ، وكان ممن يتجرون بها لحساب الخديو الشيخ على يوسف ، واحمد شوقى الشاعر ومصطفى كامل نفسه ، وكان ينفـق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر ، وكان الرتبة الثالثة يدفع فيها ٢٥٠ جنيها والثالثة مع لقب بك ٣٠٠ جنيه والثانية ٤٠٠ جنيه والمتمايز ٥٠٠ جنيه .

ويقول احمد شفيق باشا انه فاتح الخديو فى ذلك ، وحذره من الخطر الذى قد يترتب على هذه الحالة ،وانه قد يجر الى تدخل الانجليز فى أخص خصائصه فرد عليه الخديو بأنه يعرف ماذا يفعل ، وليس لأحد فى المعية ولا غيرها دخل « وأنا لى فئة خاصة يبحثون عنمستحقى الرتب ويعرضون على بعضا منهم وأنا أمنحهم » .

اللورد كرومر يدافع عن حرية الصحافة :

ويستوقف الانسان من تقرير اللورد كرومر فى هذه السنة دفاعه الحار عن حرية الصحافة ووجوب تامين هذه الحرية ، وكان مما جاء فى التقرير : مع ان القانون يخول الحكومة الحق فى أن تطلب من صاحب كل جريدة أن يحصل على رخصة قبل اصدار جريدته الا انها لم تعمل بهذا الحق من مدة طويلة . ونحن اذا نظرنا الى الفائدة الحقيقية التى عادت من حرية الصحافة فى هذه البلاد لا يمكننا أن نشك فى أن هذه الحرية تمنع ضررا كبيرا ، فان خوف نشر الفضائح والمعايب فى الجرائد يمنع تصرفات سـيئة عديدة ، ويساعد على تقليل العيوب الملتصقة بكل نظام لادارة الحكومة سواء كان فى مصر او فى غيرها من البلاد . وبالجملة فان رأيى الشخصى هو أن عمل الصحافة فى مصر افاد البلاد من حيث مراقبته للحكومة والادارة ، ولم تؤثر عيوب الصحافة على المصالح الحقيقية للقطر الا تأثيرا ضعيفا .

كرومر يعترف أن التقدم الأدبى أبطأ من التقدم المادى :

ويعترف كرومر فى هذا التقرير بأن تقدم مصر الأدبى اقل سرعة منه فى المسـائل المادية ثم يمضى فى القول : وعلى كل فقد وضعت الوسائل المؤدية الى التقدم الأدبى ، فأستاذ المدرسة أصبح موجودا ، ووجدت هيئة قانونية بدل السلطة الشخصـية الاستبدادية ، ووضعت نظامات حرة بقدر ما تسمح به الظروف الحالية ، وفى الواقع لقد اعطيت كل التسهيلات والتشجيعات ليسير المصريون الى الأمام فى طريق التقدم الادبى ، ولم يكن فى استطاعة اى حكومة أن تفعـل أكثر من ذلك ، فعلى المصريين أن يستفيدوا من وسائل التحسين المقدمة لهم .

ويعترض على التنفيذ العلنى :

وندد كرومر فى تقريره بالتنفيذ العلنى لحكم الاعدام وهو ما كان يجرى عليه العمل فى مصر فقال :

« ان جمهور المشاهدين كانوا من أدنى الطبقات ، وأن التأثير الناتج من ذلك كان حسب الظاهر مفسد للأخلاق لا مصلحا لها ، هذا فضلا عن أن مشهد الاعدام أعان على احياء احدى الخرافات المضرة ، فقد قيل أن بعض عامة المصريين يزعمون أن المرور تحت المشنقة أو احدى آلات الاعدام ، علاج شاف من العقم . وبناء عليه فقد أصبح تنفيذ الاعدام فى القاهرة والاسكندرية يتم داخل السجن بحضور بعض موظفى الحكومة وأبيح الدخول لمكاتبى الجرائد .

ولكن أبقى على الاعدام علنا فى المديريات .

الطلاق وتعدد الزوجات :

وقد تعرض كرومر فى تقريره لموضوع تعدد الزوجات والطلاق فقال : « وأما الطلاق فقد تسامحت الشريعة المحمدية فى أمره حتى هان على المسلمين كثيرا مع أن صاحب الشريعة نفسه كان ينهاهم عنه (١) .

وأظن ان الطلاق آخذ فى النقصان ، كتعدد الزوجات ، ولكن الذى لا ريب فيه أن كثيرا من المسلمين لا يزالون يتخذون النصوص الشرعيــة وسـيلة للتخلص من زوجاتهم » وقد تم فى عام ١٩٠٣ عقود زواج بلغت ١٧٦٤٧٤ كما جرت حالات طلاق بلغت ٥٢٩٩٢ حالة .

الحساب الختامى لهذه السنة :

بلغت الايرادات	١٢ر٤٦٤ر٠٠٠ جنيها
مصروفات	١١ر٧٢٠ر٠٠٠ جنيها
فائض الايرادات	٧٩٠ر٠٠٠ جنيها
الاحتيــاطى	٢ر٧٦١ر٠٠٠ جنيها

١٩٠٤ م ــ ١٣٢٢ هـ : الاصطدام بين الخديو ومحمد عبده :

وفى أوائل شهر يناير وقع اصطدام بين الخديو ومحمد عبده ، مافتىء يتطور ويشتد حتى انتهى بالفرقة الشديدة بين الرجلين . وبدا الاصطدام على ما يقــول أحمد شفيق باشا عندما أمر الخديو شفويا شيخ الأزهر بتوجيه احدى كســاوى التشريفة الى مفتى المعية ، ولكن مجلس ادارة الأزهر منح هذه الكسوة الى شــيخ

---

(١) يستطيع الانسان أن يلاحظ اثر علاقة الشيخ محمد عبده باللورد كرومر فى ايراده مثل هــذه التقريرات الاسلامية .

آخر أكثر استحقاقا لها بموجب القانون . فلما اجتمع العلماء عند سمو الخديو فى التشريفات النصف شهرية ، قال الخديو لشيخ الأزهر غاضبا ألم آمرك بتوجيه كسوة فلان الى فلان فتلعثم الشيخ معتذرا ، وتدخل الشيخ محمد عبده قائلا : أن الذى قرره مجلس ادارة الأزهر انما هو التنفيذ لأمر أفندينا وهو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم ، وأما الأوامر الشفوية فلا يعتمد عليها المجلس ، فاذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريفة العلية بمقتضى ارادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا يفسخ هذا القانون ، أو مادة قانونية نصها : كساوى التشريفة للعلماء توجه بأمر منا ، فلما سمع الخديو هذا الرد احمر وجهه ووقف ايذانا للحاضرين بالانصراف .

وبدأ الخديو يدبر المؤامرات فى الأزهر بتحريض بعض أعضاء مجلس الادارة على الاستقالة .

وكان السيد محمد توفيق البكرى هو محور هذه الدسائس ، بعد أن كان الخديو قد نجح فى التفريق بينه وبين الشيخ محمد عبده باعادته الى نقابة الاشراف وتقريبه اياه مرة أخرى .

اللورد كرومر يقف الى جوار الشيخ محمد عبده :

وفى الرابع عشر من يناير انتهز اللورد كرومر مقابلته للخديو ليقول له بصريح اللفظ : انه مهما كانت الأحوال فانه لا يوافق على فصل الشيخ محمد عبده من وظيفة الافتاء مادام هو موجودا .

تشهير بعض الصحف بالشيخ محمد عبده :

ولجأ الخديو وحاشيته وبعض الصحف والمجلات لشن حملة تشهير على الشيخ محمد عبده ورميه بالكفر والزندقة ، مستندين على فتواه الترنسفالية التى أفتى فيها مسلمى جنوب افريقيا بجواز لبس القبعة وأكل طعام المسيحيين وبجواز صــلاة الشافعى خلف الامام الحنفى .

ولم تقف هذه الحملة الصحفية عند حد الكلام ، بل لقد لفقت احدى المجــلات (حمارة منيتى) صورة شمسية تمثل الشيخ محمد عبده جالسا وسط جماعة من الرجال والنساء وبعثت بالصورة الى اللورد كرومر مع أحد الرجال المتصلين به ، لاقناعه بوجوب تخليه عن الشيخ محمد عبده ليخرجه الخديو من منصبه مراعاة لشعور المسلمين . فرد عليهم اللورد كرومر وهو يبتسم فى سخرية قائلا ان هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ، والأستاذ الشيخ محمد عبده يزورنا هنا وتحضر مجلسه لأدى كرومر وغيرها من عقائلنا ، فهل يصح أن تعد هذا اهانة له أو لنا ، أو يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبنى عليه عملا مهما كهذا .

الحكم على محررى مجلة الأرنب :

فى الثامن من فبراير صدر حكم مكمة الجنح على صاحب ورئيس تحرير مجلــة الأرنب لتماديها فى الطعن والسباب للشيخ محمد عبده حتى لقد وصفوه بأنه :

— انه حلل ما حرم الله بفتوى أفتى بها .
— انه قليل الاكتراث بالدين .
— انه مالطى المشرب فى الحقيقة وان كان فى الظاهر مسلما مالكى المذهب .
— انه يجالس الكلاب ويلاعبهم اكراما لخاطر الستات الافرنجيات .
— انه يأكل الأشياء التى أفتى بتحليلها .
— انه أفتى بابطال الحج مع أنه ركن من أركان الاسلام .
— انه أنكر القضاء والقدر فى خطبة ألقاها فى قصر الاسكندرية .
— انه أفتى بتحليل الربا وهو محرم شرعا .

وقد وجهت النيابة العمومية تهمتى السب والقـذف لصـاحب المجلة ورئيس تحريرها اللذين لم يجدا دفاعا عن نفسيهما أمام المحكمة الا القول بأن هذا الكلام واشباهه تردده بقية الصحف والمجلات .

فصدر الحكم على المتهم الأول بالحبس ستة شهور وعلى المتهم الثانى بالحبس أربعة شهور .

وكان مما جاء فى حيثيات الحكم : وحيث ان انطلاق الصحف فى ميادين الحرية ، وان كان من الأشياء المرغوب فيها ، وليس له الآن قيود من جهة السلطة الادارية ، حيث أن الصحف والمجلات تصدر بلا رخصة وبدون ضمان وغير خاضعة للمراقبة ، غير انها خاضعة للقانون العام ، فهو الواقف لها بالمرصاد اذا هم خرجوا عن حدود الحرية المعتدلة المعقولة وانتهكوا حرية الآداب .

مجىء مدام جولييت الى مصر :

فى الرابع من شهر مارس ، أتمت مدام جولييت آدم الصحفية الفرنسية الشهيرة رحلتها السياسية فى القطر المصرى ، وغادرت الاسكندرية مشيعة بأعظم مظاهر المودة والحفاوة .

وكانت مدام جولييت آدم قد جاءت الى مصر بناء على دعوة من مصطفى كامل لتشهد مصره العزيزة التى طالما حدثها عنها فى فرنسا ، ولتلمس بيدها زهور الوطنية التى أينعت فيها ، وقد استقبلها مصطفى كامل ولفيف من الوطنيين فى عرض البحر استقبالا حافلا ، واستضافها أعيان البلاد فى طول البلاد وعرضها ، وحضرت الاحتفال السنوى فى مدرسة مصطفى كامل .

وأولم لها الخديو حفلة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير ، مما لم يرض عنه كرومر .

وقد كتبت مدام جولييت آدم فى صحيفة الجولوا الفرنسية بمجرد عودتهـــا مقالا جاء فيه :

« ان أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة وسماء مصر هى أول سماء مزقت فيها

السحب ، حيث سمح ذلك للانسان أن يشعر بوحود الخالق ، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغتــه الأمة المصرية ، حتى صبغت العنــاصر الأخــرى بصبغتها ، وبقيت فى آن واحد فى حالة النظرة الأولى مالكة نفسها على الزمان ، ولم يتحكم الأجنبى فى أمة كما تحكم فيها ، ولم تتخلص أمة من الأجنبى بصورة مستمرة كما تخلصت هى ، وان استرداد مصر لنفسها أمر تكرر الى حد انه صار قانونا فى تاريخها ، وانه ليمكن للانسان أن يؤكد أن مصر ستبقى الى الأبد مصر » .

صــدور قانون صــندوق التوفير :

وفى الخامس عشر من شهر مارس صدر قانون صندوق التوفير الذى سعى اللورد كرومر لاصداره ، لتعويد المصريين ايداع أموالهم لدى الحكومة بدلا من خزنها فى البيوت وتحت البلاط ، وكان صدور هذا القانون خاتمة المطاف للصراع الدينى الذى قام بين الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية من ناحية ، وبين الخديو الذى حشد وراءه نفرا من العلماء ، قالوا بعدم جواز صندوق التوفير ، وقد كان النظام الذى اتبع والذى أقره الشيخ محمد عبده ولم ير فيه حرجا دينيا ــ ان المودع كان يملأ استمارة يوكل فيها مدير صندوق البريد ان يستثمر له أمواله فى الأوجه الجــائزة شرعا ، وكان ما يتقاضاه المودع من فوائد هو نصــيبه من استثمار هذه الأموال ، أى ان العملية أخذت صورة عملية شركة مرابحة لاعملية قرض وفوائد ربوية .

وقد أودع ٩٤ شيخا عالما أموالهم فى صندوق التوفير ــ وارتفع عدد المودعين شهريا الى ٨٢٠ وبلغ جملة من أودعوا أموالهم فى صندوق التوفير فى هذه الســـنة ٢٩ ألف .

الانعام على مصطفى كامل برتبة الباشوية :

وفى هذا الشهر (مارس) أنعم السلطان عبد الحميد على مصطفى كامل برتبــة الباشوية فأصبح يعرف باسم مصطفى باشا كامل ، وكان لذلك الانعام من جانب السلطان أثره العميق فى البلاد ــ لما كان للرتب وخاصة عندما تصدر من السلطان من أثر فى نفوس الناس .

الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا :

فى الثامن من أبريل ، طعنت الحركة الوطنية فى مصر طعنة نجلاء على يد فرنسا التى كانت تبدو حتى هذا الوقت بانها راعية الوطنية المصرية ، فقد ابرمت مع انجلترا اتفاقها الشهير ، الذى أعلنت فيه انها تغسل يدها نهائيا من المسألة المصرية ، وتطلق يد انجلترا فى مصر تفعل فيها ما تشاء ، فى مقابل ان تطلق انجلترا يد فرنسا فى مراكش تفعل فيها ما تشاء .

وقد اشتهر هذا الاتفاق فى التاريخ باسم « الاتفاق الودى » وقد ظل حجر الزاوية فى السياسة الانجليزية الفرنسية طوال نصف قرن تقريبا ، وعلى أساسه وقفت انجلترا وفرنسا فى الحربين العالميتين الى جوار بعضهما كحلفاء .

واليك نص مواد هذا الاتفاق المتعلق بمصر ومراكش(١)

مادة ١ ــ تعلن حكومة ملك بريطانيا انها لا تنوى تعديل حالة مصر السياسية ، وتعلن الحكومة الفرنسية من جانبها انها لا تتدخل فى عمل انجلترا فى مصر ، لا بطلب تحديد أجل الاحتلال البريطانى ، ولا بأية طريقة أخرى . وتوافق على مشروع المرسوم الخديوى الملحق بهذه التسوية والمنطوى على الضمانات الضرورية لانقاذ مصالح حملة أسهم الدين المصرى بشرط ألا يدخل عليه بعد وضعه موضع التطبيق ، أى تعديل بدون موافقة الدول الموقعة على اتفاق لندن سنة ١٨٨٥ .

ومن المتفق عليه ان الادارة العامة للآثار القديمة تظل فى المستقبل كما كانت فى الماضى موكولة الى عالم فرنسى .

وتظل المدارس الفرنسية فى مصر متمتعة بنفس الحرية التى كانت لها فى الماضى .

مادة ٢ ــ تعلن الحكومة الفرنسية ، أنها لا تنوى ادخال تعديل على حالة المغرب السياسية وتعترف بريطانيا ، بانه يعود الى فرنسا بصفتها دولة مجاورة لمراكش حق الاشراف بمنوال واسع على اقرار الهدوء والسكينة فى هذه البلاد ومساعدتها فى جميع الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى هى فى حاجة اليها ، وتعلن انها لا تتدخل فى عمل فرنسا من هذه الناحية بشرط الا يمس هذا العمل مالها من حقوق فى المغرب ، وهى الحقوق التى نالتها بموجب المعاهدات والاتفاقات والتقاليد ، بما فى ذلك حق النقل البحرى بين الثغور المغربية وهو الحق الذى منح للبواخر البريطانية فى سنة ١٩٠١ .

وقد حددت مدة المعاهدة بثلاثين سنة . والحق بالمعاهدة ديكريتو خديوى يخول لمصر الانتفاع بفائض ايراداتها ، بعد أن وضعت الضمانات اللازمة لتسديد الديون وفوائدها السنوية ، بأن خصص لسدادها ضريبة الأطيان التى كانت قد أصبحت تزيد على أربعة ملايين جنيه ، حيث لم تكن تزيد المبالغ اللازمة لخدمة الدين عن ثلاثة ملايين جنيه ونصف ،كما ترك للحكومة المصرية حق التصرف فى المال الاحتياطى المتوفر فى صندوق الدين ، وقدره خمسة ملايين من الجنيهات ونصف .

انتصار اللورد كرومر :

وقد كان اللورد كرومر هو أسعد من فى الأرض بهذا الاتفاق ، واعتبره انتصارا له شخصيا ، فقد كانت علاقته التى بدأت بمصر منذ ثمانية وعشرين سنة تصل الى قمتها بهذا الاتفاق ، الذى أطلق يده نهائيا فى حكم مصر . حكما مطلقا بأكثر مما سار عليه الحال حتى هذاالاتفاق ، كما عبر عن ذلك بجلاء وصراحة فى تقريره عن هذا العام ، والذى لم يخف فيه شماتته بالوطنيين المصريين الذين طالما تعلقوا بأذيال فرنسا تصوروا منهم انها ستساعدهم على اجلاء الانجليز عن مصر .

(١) تتألف المعاهدة من مواد

غضـــبة مصطفى كامل :

وباستطاعتنا أن نتصور مدى خيبة أمل مصطفى كامل وحسرته لوقوع هـــذا الاتفاق ، فأطلق العنان لغضبه على فرنسا ، وراح يندد بها على صفحات اللواء ويلهب عواطف الأمة لقبول التحدى ، والاعتماد على نفسها لتحقيق استقلالها .

الخديو وجمهرة الكبراء ينحازون للانجليز نهائيا :

ولكن مصطفى كامل كان يقف وحيدا فى مسلكه ، فان الخديو سرعان ما أسقط فى يده نهائيا : وقرر الانصياع التام لكرومر وتوجيهات كرومر ، وتابعه على ذلك الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد .

ولكن التحول الأكبر انما ظهر على لسان سياسى كان يعتبر حتى ذلك الوقت بقية المصريين الكبار الذين لا يرضون عن الاحتلال البريطانى وذلكم هو مصطفى باشا رياض الذى انتهز فرصة افتتاح مدرسة محمد على الصناعية لكى يكشف عن مدى التطور الذى حدث فى مصر بعد الاتفاق الودى .

خطبة رياض باشا فى حفل انشاء مدرسة محمد على الصناعية :

فى الثالث والعشرين من شهر مايو أقيم إحتفال ضخم فى الاسكندرية لوضـــع الحجر الأساسى لانشاء مدرسة محمد على الصناعية ، التى كانت الأموال قد جمعت من الأمة لانشائها . وكان الخديو على رأس الاحتفال ، ووقف مصطفى باشا رياض خطيبا بين يدى الخديو فكان مما جاء فى خطابه :

« لقد اعتذر جناب المحتشم اللورد كرومر عن الحضور فى هذا الحفل لتغيبه فى مصر . وكل انسان يعلم ماله من المقام الأرفع ، والنفوذ الشامل فى هذه البلاد ، وبالأخص ما له من اليد الطولى فى كل ما له مساس بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهى التى كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع ، ونثنى عليه أطيب الثناء ولا نبرح نترجاه بأن لا يترك هذا المولود وهو فى المهد حبيسا ، بل يراعيه بعين عنايته ، ويواسيه ويواليه ، الى أن يتربى ويبلغ أشده ويصـــير رجلا قويا يقوم بأود نفسه .

ثم وجه رياض باشا القول الى الخديو فقال :

مولاى : اسمح لى أن أتكلم بما يخالج ضميرى بحرية ، اذا نظرنا وتأملنا الآن الى مجريات الأحوال ، وطبقنا ماضيها على حاضرها ، نجد ان الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيرا كليا ، واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى وبث العلوم والمعـــارف وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد ، فعلينا أن نهنىء أنفسنا ونتهلل بشرا ونسجد لله شكرا على ما وصلنا اليه من التقدم الباهر ، مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر .

حملة الصحف الوطنية على رياض باشا :

وقد حملت الصحف الوطنية وعلى رأسها جريدة اللواء على رياض باشا حملة شعواء وظلت تعالج الموضوع عدة أيام متتالية منددة برياض باشا وكانت جريدة الأهرام ممن أسهمت فى هذه الحملة فكان مما قالته فى احدى مقالاتها :

« وخرج دولته الى المغالاة باطراء جناب اللورد كرومر اذ وصفه فى حضرة سمو الأمير صاحب البلاد وسيدها ومولاها « بصاحب المقام الأرفع والنفوذ الشامل ، وصاحب اليد الفعالة ، ففهموا من ذلك انه يريد الحط من المقام العالى ، وربما لم يرد ذلك ولكن العبارة خانت الفكر ، ثم توجيه دولته الرجاء الى جانب اللورد « ليواسى هذا الطفل فى المهد « أى المدرسة الصناعية ، ويواليه الى أن يتربى ويبلغ أشده ، مع أن العمل وطنى قام به الوطنيون وحدهم فالى خديويهم واليهم يجب توجيه الرجاء اولا ، ثم الى عميد الاحتلال اذا شاء الخطيب » .

ولم تشذ جريدة المؤيد مع اجلالها لرياض باشا عن توجيه اللوم له .

الحرب الروسية اليابانية وكتاب مصطفى كامل :

اصدر مصطفى كامل فى هذا الشهر (مايو) كتابه عن اليابان والذى جعل عنوانه « الشمس المشرقة » وذلك بمناسبة الحرب التى اشتعلت بينها وبين روسيا ، فأظهرت فيها اليابان عظمة بهرت العالمين ، اذ حطمت الاسطول الروسى بضربة واحدة ، وهاجمت الروس فى بورت ارثر ونالت من جيوشهم العريضة .

وهكذا لم يكن مصطفى كامل يدع فرصة محلية أو عالمية لايتخذها سبيلا لتعميق ثقة المصريين بأنفسهم ، ونفث روح المقاومة فى قلوبهم ، فاذا كانت مصر دولة شرقية وانجلترا دولة أوربية عظمى ، فهاهى ذى دولة شرقية كاليابان ، تقهر روسيا احدى دول أوربا العظمى .

حادث زواج الشيخ على يوسف من ابنة السادات :

فى الواحد والعشرين من شهر يوليو عرضت قضية زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد من ابنة الشيخ السادات ، وهى القضية التى هزت مصر فى هذه الفترة من حياتها ، كما لم تهزها قضية اجتماعية من قبل أو بعد ، وقد تحولت القضية الى صراع سياسى بين الخديو والشيخ على يوسف بعد أن أصبحا يدوران فى فلك السياسة الانجليزية ، وبين مصطفى كامل زعيم الوطنية المصرية الذى انتهز فرصة هذه القضية لكى يؤلب مصر على الشيخ على يوسف .

وتتلخص القضية فى أن الشيخ على يوسف وقد كان صديقا للشيخ السادات تعرف الى ابنة هذا الأخير الآنسة صفية فوقع فى حبها رغم انه كان يكبرها فى السن وكانت له زوجة أخرى ، وقد بادلته ابنة السادات عاطفته ولم تر حرجا فى أن تكون زوجة له فتقدم لخطبتها من أبيها الذى قبل فى بادىء الأمر ، ووصل الى حد قبول

المهر والشبكة ومختلف الهدايا التى تقدم بها الشيخ على يوسف ، على أن الشيخ السادات تراجع عن ابرام الزواج ، فلم يستطع الشيخ على يوسف صبرا وأراد أن يضع الشيخ السادات أمام الأمر الواقع فعقد قرانه على السيدة صفية فى الرابع عشر من شهر مايو فى بيت صديقه الشيخ محمد توفيق البكرى ، وتولى الشيخ السقا أمام الجامع الأزهر الوكالة عن السيدة صفية السادات .

وفى يوم ١٦ يوليو نشرت جريدة المقطم نبأ عقد القران ، فثارت ثورة الشيخ السادات وأصدر بيانا نشرته الصحف فى يوم ١٧ يوليو تبرأ فيه من هذا الزواج وانه تم بغير علمه ، وانه سيلجأ الى القضاء لابطاله .. وهكذا بدت هذه القضية التى شغلت الرأى العام .

ابطال عقد الزواج :

فى الحادى عشر من شهر أغسطس أصدرت المحكمة الشرعية تحت رئاسة الشيخ أحمد أبو خطوة حكمها وهو يقضى بعدم صحة عقد الزواج ، وعدم جواز اجتماع الشيخ على يوسف بالسيدة صفية السادات ، لعدم الكفاءة ، فمثل على يوسف ليس كفؤ لابنة السادات .

وقد تعرضت المحكمة لمهنة الشيخ على يوسف وهى الصحافة ، واعتبرت أسلوبه وسلوكه مما يجعل حرفته خسيسة : فالمدعى ليس مشتغلا بالصحافة قائما بها ، وانما هو مشتغل بشىء يشبهها ، اشتغل به لأغراضه ، ملبسا له ثوب الارشاد والمصلحة العامة ، وهو اشتغال يعتبر اشتغالا بأخس الحرف ، فلا يكون محترفا بحرفة شريفة .

محكمة الاستئناف تؤيد :

فى أول أكتوبر صدر حكم الاستئناف فى قضية الشيخ على يوسف مؤيدا للحكم الابتدائى ، وقد كان ذلك متوقعا فقد كان الرئيس الذى نظر الاستئناف هو قاضى القضاة التركى الذى هدد باضراب المحاكم الشرعية اذا لم ينفذ حكم الشيخ أحمد أبو خطوة القاضى بالتفريق بين الزوجين .

وجاء فى حيثيات حكم الاستئناف :

« ولا يمكن المدعى أن يدعى لنفسه مهنة الصحافة لان تقلبه فى المبادىء بغير سبب وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة ، وسكوته عن بعض من يهمه رضاه ، وكثرة أضراره عندما يريد أن ينفع ، وغير ذلك مما هو معروف ، يمنعه من دعوى القيام بمهنة الصحافة لنفسه ، ولا نذهب به بعيدا بسرد شىء من ذلك لانه معروف ومشهور ، ونقف معه فى هذه الحادثة التى هى موضوع النزاع والبحث اليوم ولا نزيد عليها ، فاذن يكون المدعى عليه ليس مشتغلا بالصحافة » .

موقف الرأى العــام :

وقد تقبل الرأى العام الحكم الابتدائى والاستئنافى بالرضا ، والتهليل ، فقــد هز وجدانه أن تهرب فتاة من بيت أبيها وتتزوج بدون موافقته .

وقد وقفت جريدة المقطم الى جوار الشيخ على يوسف ، كما وقفت الى جواره الصحف الانجليزية سواء فى مصر أو انجلترا نفسها .

وانفردت مجلة المنار التى كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، فى اظهار موقف الشرع من هذا الزواج وانه لا غبار عليه .

اللواء وهـــذه القضـــية :

وكانت جريدة اللواء هى قائدة الرأى العام فى هـــذه الملحمة ، وراحت تنشر الرسائل التى تقاطرت عليهـــا من أنحاء البـــلاد ممن كانوا يقـــرأون جريدة المؤيد أو يشتركون فيها ، ثم كفوا عن مطالعتها ، وطالبوا الجريدة بعدم ارسالها . وكان من أطرف ما نشرته جريدة المؤيد من تأييدات للشيخ على يوسف وما يكشف عن روح الرأى العام فى ذلك الوقت ، خطاب جاءها من اسماعيل باشا أباظه ، يذكر فيه أن هذه الزلة من جانب الشيخ على يوسف لا تستحق كل هذه الضجة المفتعلة .

مصطفى كامل يقطع صلاته بالخديو :

فى الخامس والعشرين من أكتوبر نشرت جريدة اللواء خطابا موجها من مصطفى كامل باشا يقطع فيه صلاته بالخديو نهائيا ، ويحدثنا محمد فريد فى مذكراته التى نشرها أخونا الأستاذ محمد صبيح ، ان مصطفى كامل كان يهم بالاقدام على هذه الخطوة منذ تحول الخديو الى جانب الانجليز ، حتى اذا كانت قضـــية الشيخ على يوسف ، ووقف الخديو مساندا للشيخ على يوسف ، فحذره مصطفى كامل من مغبة ذلك ، فسخر الخديو من هذا التحذير ، فاستقر عزم مصطفى كامل على ارســـال هذا الخطاب ونشره .

والخطاب يدور فى الظاهر على رغبة مصطفى كامل فى تجنيب الخديو مغبة محاربة مصطفى كامل الوطنية للاحتلال بالليل والنهار ، ولكنه لا يلبث أن ينتهى بتوجيه اللوم الصريح للخديو لاحتضانه رجال السوء من حاشيته حيث يقول :

وانى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله انى لم أقصد الا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حسابا ، وغير ذاكرين أن عرش الخديو هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد وانه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام والاجلال ، ليقاوم القوتين المحاربتين له الا وهما الاحتلال والزمان » .

ولم يقف مصطفى كامل أن يسجل للخديو وهو يقطع صلاته به أنه كان رائد الوطنية المصرية فى مستهل حكمه فختم خطابه بقوله :

« وانه ليحلوا لى أن أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادما لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين اليها والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين هؤلاء الذين أدعو خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بغير خجل ولا حياء ..

ايمان مصطفى كامل وشجاعته :

وانه لموقف فذ يشهد لمصطفى كامل بالايمان والشجاعة التى لا حد لهما ، فها هو ذا يقطع صلته بآخر سند له فى مصر وهو حاكمها الشرعى ، فيجتمع على عدائه الانجليز والقصر معا ، فى الوقت الذى تخلت فيه فرنسا عن تأييد الحركة الوطنية فى مصر . أى أن مصطفى كامل كان يقف وحيدا فى وجه الاحتلال والفساد الا من ايمانه بالله وقراء جريدته .

ربما كانت هذه الفترة هى من أقسى ما مر به مصطفى كامل فى حياته ، ولكنه هو الذى سعى للمحنة بارادته ، اذ آثر المبادىء المجردة والعمل الخالص من أجل الله والوطن على أى عون آخر يجنيه من هذا الجانب أو ذاك .

حضور الخديو حفل ميلاد ملك انجلترا :

فى التاسع من نوفمبر ، فاجأ الخديو عباس الشعب المصرى ، بحضوره لأول مرة منذ ولى العرش الحفل الذى اعتاد الانجليز ان يقيموه سنويا بمناسبة عيد ميلاد مليكتهم فيكتوريا ، ومن بعدها لملكهم ادوارد السابع ، وكان استعراض الجيش الانجليزى يجرى فى هذا اليوم فى ميدان عابدين ، منذ أيام توفيق باشا . وقد حضر الخديو الحفل مرتديا بدلة التشريفة الكبرى ، ويحيط به ياورانه ، ووقف تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر وشهد العرض حتى نهايته .

وقد استنكر الرأى العام هذا التصرف ، مما جعل الخديو يحاول التخفيف من وقعه بالتنصل منه فأصدرت المعية (أى ديوان الخديو) بلاغا رسميا قالت فيه :

« لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالى الخديو فى صبيحة أمس سراى عابدين العامرة : حيث ينعقد مجلس النظار برئاسة سموه ويتناول حضرات العلماء الاعلام طعام الافطار على المائدة ، ثم يتلو ذلك استقبال المهنئين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم ، وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد جلالة ملك الانجليز ، رأى الجناب العالى حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد اجراؤه سنويا فى رحبة السراى لمناسبة هذا العيد ، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق ، وما أن وصلت هذه النية الى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديو ليستعرض الجنود الانجليزية ، فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح .

وفاة محمود سامى البارودى :

فى يوم الاثنين الثانى عشر من ديسمبر فاضت روح محمود سامى البارودى الى بارئها عن خمس وستين سنة ، وقد أم المصلين عليه الشيخ محمد عبده .

ولقد شغل محمود سامى البارودى بعد عودته الى مصر بعملين بقيا خالدين من بعـده :

الأول : اعادة ترتيب ديوانه على حسب القوافى ومراجعته بالحذف والاضافة والتعديل ، وقد بلغ مجموع أبياته ٥٣١٣ بيتا غير قصيدة « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » (أى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام) وعدد أبياتها ٤٤٧ .

والثانى : مختارات البارودى والتى راى فيها : أن يتحف الأدباء من اهل عصره بمجموعة يختارها من شعر فحول الشعراء المولدين لتكون عونا للناشئة على طبع ملكة البلاغة فى النفس ، فاختار ثلاثين ديوانا ، وانتخب منها ما رق لفظه ودق معناه ، وخلا من الحشو والتعقيد ، ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم ، لا على حسب مكانتهم ، وبدأ ببشار بن برد رائد الشعر العباسى وزعيم المحدثين المجيدين من الشعراء (١٦٧ هـ) وانتهى بهم الى ابن عتيبة المتوفى عام ٦٣٠ هـ وسيبقى ديوان البارودى ومختاراته ، علمين على الاضافة الضخمة التى قدمها البارودى لحركة بعث الشعر العربى وانتشاله من وهدته التى كان قد تردى فيها : والاجمـاع منعقد بين المؤرخين والنقاد والأدباء — على أن البارودى هو رائد هذه المدرسة الشـعرية العظيمة التى رفع لواءها أحمد شوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران وسائر الشعراء الاعلام (١) .

مصر تحتل مدينة السلوم :

وانتهت هذه السنة بأزمة جديدة بين مصر وتركيا حول الحدود ، وكان النزاع هذه المرة حول الحدود الغربية لمصر ، فقد استولى العثمانيون أصحاب السيادة فى طرابلس (ليبيا) على مدينة السلوم وبنوا بها مخزنين ، فأرسلت الحكومة المصرية قوة عسكرية احتلت مدينة السلوم باعتبارها مدينة مصرية وسوى الحادث على هذا الاعتبار .

مجلس شورى القوانين يغير موقفه :

كان طبيعيا أن يحدث الاتفاق الودى الذى حول ساسة مصر الى جانب الاحتلال البريطانى ، أثره فى مجلس شورى القوانين ، فنراه لأول مرة فى هذه السنة يصـدق على ميزانية ١٩٠٥ شاكرا للحكومة جهودها فى مختلف الميادين .

ولم يتردد مصطفى كامل فى الكشف عن هذا التحول ، وهاجم مجلس شورى القوانين .

---

(١) اقرأ كتاب جماعة أبوللو للناقد الكبير الاديب عبد العزيز الدسوقى .

تقرير اللورد كرومر بتفصيل :

وصدر تقرير اللورد كرومر عن أحوال البلاد في هذه السنة ، وقد أخذ شكلا جديدا بعد أن ازدادت أهميته بانفراد انجلترا بحكم مصر فلأول مرة تألف التقرير من ٢٤٣ صفحة ، ولم يدع ناحية كبرت أو صغرت في حياة مصر السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فضلا عن الادارية الا وطرقها .

كرومر والثورة العرابية :

وقد استهل كرومر بعد الاشادة بالاتفاق الودي الذي تم بين انجلترا وفرنسا والفوائد التي ستعود على البلدين وعلى مصر من جراء هذا الاتفاق ، بفذلكة تاريخية عاد فيها الى الوراء ليشرح أسباب الاحتلال البريطاني ، وقد جرى قلمه بما يمكن أن يعتبر انصافا للحركة العرابية اذ يقول :

« حدثت ثورة عظيمة في القطر المصري سنة ١٨٨٢ وانما قلت « ثورة » عن عمد وقصد فقد كان الظن الغالب على كثير من الأذهان في ذلك الزمان ان الحركة العرابية كانت فتنة عسكرية لا غير ذلك ، وذلك خطأ مبين لانها كانت في جوهرها ثورة صحيحة على العسف وسوء الحكم كالثورات التي حدثت في البلدان الأخرى ، وهي تستنكر وتذم أو تجوز وتمدح حسب أدلة الذم والمدح التي تقام عادة على الذين يحاولون تغيير نظام الأحكام في بلادهم تغييرا جوهريا بوسائط العنف والاكراه .

ويمضي كرومر فيدافع عن الثورة العرابية لمساسها بالأوربيين فيقول :

« ثم انه لم يكن بد من انقلابها الى ثورة على الأوربيين في الأحوال التي حدثت فيها ، بل ان الثوار معذورون بعض القدر في انقلابها هذا اذ لا ينكر ان المصريين لم يكونوا قد رأوا من مداخلة الأوربيين في شئون بلادهم الى سنة ١٨٨٢ الا أقبح أشكال المداخلة .

كرومر وحرية الصحافة :

ويمضي كرومر في تقريره مدافعا عن حرية الصحافة وان هذه الحرية تؤدي فوائد جليلة للحكم في مصر ، وذلك بمناسبة مطالبة الجمعية العمومية بأعمال قانون المطبوعات الذي لم يكن يعمل بأحكامه ، فيقول :

« فانا لا أوافق على مراقبة الصحف أو ضغطها أو تقييد حريتها » .

والأمر الوحيد الذي وافق عليه هو أن نعدل مواد قانون العقوبات بحيث تضاف اليه مواد تواجه حالات النصب والابتزاز والسب والقذف عن طريق الصحف .

التعليم :

ويدعو كرومر لضرورة انشاء كتاب في كل قرية من القرى ، وكل حي من أحياء المدن : ثم انشاء مدرسة عربية أعلى من الكتاب درجة في كل مدينة من المدن ، ووجوب

الجمع بين التعليم فى هذه المدارس وبين أعمال الزراعة والصناعة . بتنظيم ما يسهل على التلامذة التمرن على تلك الأعمال وبانشاء مدارس صناعية .

وذكر التقرير أنه أصبح تحت ادارة نظارة المعارف ومراقبتها ما يزيد على ١٤٠ الف تلميذ فى مقابل ٩٢ ألف تلميذ فى السنة السابقة و ٥٤ ألف تلميذ سنة ١٩٠٢ .

وذكر عن تعليم البنات ان الكتاتيب كانت خالية عام ١٩٠٠ من البنات باستثناء عدد محدود أما فى سنة ١٩٠٤ فبلغ عدد الكتاتيب التى يتعلم فيها البنات ١٧٤٨ كتابا وبلغ عدد البنات فيها ١٠٤٦٢ بنتا .

يقول كرومر : « وأبلغ من ذلك ان مائة بنت طلبت دخول المدارس الابتدائية العالية ومدارس تعليم المعلمات بالقاهرة فى السنة الماضية ، فلم يجبن الى طلبهن لعدم وجود أمكنة لهن فيها ، فأحسن خدمة يخدم بها المصريون المعارف فى بلادهم انشاء مدارس أبتدائية منظمة للبنات فى بنادر القطر .

ويهاجم الامتيازات الأوربية :

ويهاجم كرومر نظام الامتيازات الأجنبية الذى يغل يد الحكومة المصرية التى أصبحت هى يد الحكومة الانجليزية عن الانطلاق فى ادارة شئون مصر . فلا تشريع يسرى على الأجانب الا بموافقة دولهم ، ولا ضرائب تسرى على الأجانب الا بموافقة دولهم ، ولا سلطان للقضاء فى مصر على الأجانب .

واقترح كرومر فى تقريره على الدول الأوربية أن تتنازل عن هذه الامتيازات التشريعية لانجلترا فى مصر فى مقابل ايجاد بعض الضمانات للاجانب وفى مقدمتها تأليف مجلس تمثيلى لهم تعرض عليه التشريعات التى يراد اصدارها ويكون فيها مساس بهم .

كرومر يندد بانتشار الخمر فى مصر :

ويكتب كرومر فى تقريره منددا بانتشار الخمور فى مصر فيقول : نبهت الحكومة المصرية حديثا من جهات مختلفة الى ما يقال عن ازدياد السكر والمسكرات فى القطر المصرى ، والمسألة هامة جدا ولا سيما للمسلمين من أهل البلاد ، فان القطر المصرى قد استفاد كثيرا بنوع عام من اتصاله بأوربا ، ولكن اذا كان التمدن الأوربى يوصل اليه ما يزيل الفضيلة الكبرى من فضائل الاسلام : وهى الامتناع عن السكر فذلك عار على أوربا ، ويجب على الحكومة المصرية وعلى مشيريها الانجليز بنوع خاص أن يبحثوا فى هذه المسألة الهامة بحثا مدققا ليعلموا كم امتد هذا الشر فى البلاد ، وأن يشيروا ما أمكن بما يلزم من الأساليب لمنع انتشاره (١) .

---

(١) حدثنى المرحوم الدكتور أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات أنه أنشأها عام ١٩٠٥ وان الذى شجعه على انشائها هو موقف اللورد كرومر ، الذى استجاب لشكوى قدمها له ضد احدى الخمارات فى حى العطارين ، اذا كان السكارى بها يزعجون الطلاب والاهالى ، فأصدر كرومر أمر بغلق هذه الخمارة ونقل مأمور العطارين الايطالى الذى تفوه بكلمات غير لائقة عن الاسلام ومعنه للخمور .

الحســاب الختــامى :

واسفر الحساب الختامى لهذه السنة عن مواصلة التقدم المطرد للمالية المصرية :

الايرادات	١٥٢ر٩٠٦ر١٣ حنيها
المصروفات	٣٣٢ر٧٠٠ر١٢ جنيها
الزيادة	٨٢٠ر٢٠٥ر١ جنيها
الاحتياطى العام	٠٧٢ر٨٤٧ر٥ جنيها
الدين العمومى	٣٤٠ر٢٧٥ر١٠١ جنيها

اى انه نقص بمبلغ ٥٨٠ر٩١١ جنيها عن العام السابق .

١٩٠٥ م ــ ١٣٢٣ هـ : اللورد كرومر يزور الأقاليم :

فى أوائل فبراير من هذه السنة ، بدأ اللورد كرومر يزور عواصم المديريات باعتباره الحاكم الفعلى فى البلاد فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالحفاوة والاكرام ، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول . وكانت أولى زياراته لمدينة الفيوم ، حيث خطب متحدثا عما تبذله الحكومة من مكافحة الجراد وابادة دودة القطن وانشاء صناديق التوفير ، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميرى والمدرسة الأميرية وامتحن بعض تلاميذها ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى والمحكمة الأهلية .

وفى كل مكان كان كبار الموظفين والأعيان يستقبلونه بالتجلة والاحترام ثم زار بعد ذلك المنيا فأسيوط فنجع حمادى .

وقد كتب مصطفى باشا كامل يهاجم هذه الرحلات فى سلسلة من المقالات جاء فى آخر بعضها :

لو كنت بين الجموع التى أصغت لأقوال اللورد كرومر ، لذبت أسى وكمدا ، وقلت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا : لان وقفته هذه ليست الا اعلانا قطعيا بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهى الذى لا يعارض فى شىء .

اصطدام جديد بين المؤيد والشيخ محمد عبده :

وساءت العلاقات مرة أخرى بين الخديو والشيخ محمد عبده وقد اخذت هذه المرة صورة العلنية ، وبدأ النزاع عندما فكر الخديو فى استبدال صفقة من الأطيان الزراعية فى مقابل بعض أراضى البناء الموقوفة فى مدينة الجيزة ، وطلب أن يعطى له ثلاثون ألفا من الجنيهات فوق الأرض الزراعية ، على أساس الا الأرض الزراعيـــة تغل ريعا سنويا ، حيث لا تغل أرض المبانى أى ريع ، وعرض الأمر على مجلس الأوقاف الأعلى وكان من اعضائه الشيخ محمد عبده ، فذكر الحكم الشرعى وهو أن الوقف يقدر بقيمته وليس بغلته ، ووافق على رأيه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديو والممثل الشخصى للخديو فى المجلس ، فألف المجلس لجنة لفحص الموضوع . انتهت بأن قررت انه على الخديو أن يدفع مبلغ عشرين الف من الجنيهات فوق

الأرض الزراعية لتكون مساوية فى القيمة لأرض الوقف . وكان معنى ذلك أن يتكبد الخديو خسارة خمسين الف من الجنيهات قيمة الثلاثين الفا التى كان سيقبضها مضافا اليها هذه العشرين ألفا التى أصبح يتحتم عليه دفعها . وغضب أشد الغضب على رئيس ديوانه .. ولم يلبث أن أحاله الى المعاش . أما بالنسبة للشيخ محمد عبده فقد شرع يشن الحرب عليه فى غير مواربة . فانتهز فرصة تعيين شيخ أزهر جديد وهو الشيخ محمد عبد الرحمن الشربينى بعد أن استقال الشيخ السيد الببلاوى ، لكى يعرض بالشيخ محمد عبده تعريضا سافرا ، بأن هاجم دعاة الاصلاح فى الأزهر باسم التقدم ، وطالب علماء الأزهر أن لا يشتغلوا الا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وتشعب الأفكار لان الأزهر مدرسة دينية قبل كل شيء .

وذكر فى ختام كلمته انه يقبل استقالة كل من يتقدم بها .

وتلقفت الصحف هذه الأقوال ، فبينت أن المقصود بها هو الشيخ محمد عبده وانه لم يعد يصح له ولا يجوز أن يبقى فى ادارة الأزهر بعد هذا الذى قاله حاكم البلاد الشرعى .

واستجاب الشيخ محمد عبده للاشـارة ، وقدم اسـتقالته من مجلس ادارة الأزهر .

اضراب طلبة مدرسة المهندسخانة :

فى التاسع من شهر أبريل اعتصم (أضرب) طلبة مدرسة المهندسخانة لرفت زميل لهم ، ولم يعودوا للدراسة الا بعد أن أعيد الطالب المرفوت .

وفاة الشيخ محمد عبده :

وفى الحادى عشر من شهر يوليو الموافق ٨ من جمادى الأولى ، انتقل الى رحمة ربه الشيخ الامام محمد عبده وكان ذلك بعد مرض عضال انهكه مدة طويلة ، وقد وافاه الأجل المحتوم فى مدينة الاسكندرية عن عمر يناهز الست والخمسين سـنة ميلادية . وقد شيعت جنـازته فى مدينة الاسكندرية ، وقدر عدد من ساروا فيها بعشرة آلاف شخص . ثم نقل جثمانه الى القاهرة ، فكانت جنازته على ما وصفت صحف هذه الأيام شيئا رهيبا ، حيث سدت الطرقات بعشرات الألوف ، وسار وراء النعش العلماء والقضاة والطلاب وضباط جيش الاحتلال والمستشارون الانجليز .

وصدرت الصحف على اختلاف مآربها ومناهجها مجللة بالسواد وهى حافلة بمقالات التأبين والرثاء ، مما جمعه الشيخ محمد رشيد رضا فى مجلد ضخم .

تأبين جريدة اللواء :

وليس هناك ما يكشف عن شخصية الشيخ محمد عبده ، الا ان ننقل ما قالته فيـه جريدة اللواء يوم وفاته ، باعتبارها الجريدة التى كانت تمثـل هى وصاحبها

مصطفى كامل المدرسة المعارضة لمحمد عبده ، والتى كانت ترى فى كل تعاون مع المحتلين جناية كبرى قالت تحت عنوان « خطب جلل » :

« مات الرجل الجليل والأستاذ الكبير العلامة النابغة المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى هذه الديار فى الساعة الخامسة مساء أمس ، وما أن ذاع نعيه بين العالم المصرى، حتى بدت الكآبة على الوجوه وانقبضت النفوس ، واندملت الأفئدة لأن الموت اغتال رجلا وصل بمواهبه الوفيرة وذكائه المفرط وعلمه الغزير الى مركز سام قل أن يناله غيره فى العالم الاسلامى من عظماء الرجال » .

ومضت الجريدة تذكر تاريخ الشيخ محمد عبده الطويل العريض ثم قالت :

« فالذى مات بالأمس ، انما مات بموته العلم المعاصر ، فياله من رزء جسيم ، ومصاب أليم . مات بموته أنفس كان يمد لها فى الظلام من جيبه الخاص يد المعونة والاحسان والله شهيد عليهم ، فالفقيد فقيد البلاد ، فقيد العلم ، فقيد اليتامى ، فقيد البؤساء ، فقيد الاسلام والمسلمين . وقد فقدت بفقده مصالح كثيرة عضوا عاملا عزيزا فالافتاء يرثيه والشورى (مجلس الشورى) تبكيه والجمعية (الجمعية الخيرية الاسـلامية) تندبه ، والأوقاف تتحسر عليه والأزهر يشـهد له . وذلك الجنين (مدرسة القضاء الشرعى والمحامين الشرعيين التى وضع نظامها (حرمت مساعيه .

انا لم نكن مع المرحوم متفقين فى بعض النقاط السياسية ، ولكن الموقف موقف حزن عميق ، وخطب عظيم ، ومهما رثاه الراثى ، فلن يستطيع أن يوفيه حقه من العلم والشهرة والفضل ، فهو آية الأسى ، ومصيبة اليوم » .

الخديو لا يخفى فرحه وشماتته :

ولكن الخـديو عباس الذى كان يقيم خارج مصر فى هذه الفترة كما هى عادته السنوية لم يستطع أن يخفى فرحه وشماتته ، الى حد عدم التأدب أمام جلال الموت ، فقد بلغ الخديو أن أحمد شفيق سكرتيره الخاص قد سار فى جنازة « الشيخ محمد عبده » ، فبعث اليه برسالة ، اثبتها أحمد شفيق بنصها فى مذكراته ، وقد راح الخديو يندد بشفيق باشا ومسيره فى الجنازة دون أن يأخذ اذنا بذلك من الخديو ، ووصف محمد عبده وجنازته بالمثل العامى « الجنازة حارة والميت كلب » .

ثم ختم هذه الرسالة بقوله : ويظهر والله أعلم أنكم انما أردتم بالسير وراء النعش المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه ، عدو الله ، عدو النبى ، وعدو الدين ، وعدو الأمير ، وعدو العلماء ، وعدو المسلمين ، وعدو الأهل ، بل وعدو نفسه ، فلماذا هذه المجاملة .

الخديو يقف وحده :

والخديو عباس كان يقف وحده فى هذا الموقف غير الكريم ، ولم يجد انسـانا واحدا حتى من أقرب المقربين اليه يشاطره اياه .

كتب الشيخ على يوسف رجل الخديو الأول فى جريدة المؤيد يصف جنـــازة الفقيد وهى تنتقل من الاسكندرية الى القـاهرة على احد قطارات السكك الحديدية وكيف خرجت مصر كلها على طول محطات الطريق حكومة وشعبا وعلماء لتـوديع الرجل العظيم ، حتى اذا بدات الجنازة مسيرتها من محطة العاصمة تقدم وراء النعش أولا : حضرات العلماء الأعلام يؤمهم حضرات أصحاب الفضيلة مولانا قاضى قضـاة مصر ، والأستاذان الكبيران الشيخ حسونة النواوى والسيد على الببلاوى شيخا الجامع الأزهر الأسبق والسابق (١) وحضرات العلماء الأعلام اعضاء المحكمة العليا ، وشـيخ علماء الاسكندرية وقاضيها وقاضى قضـاة السودان .. ومضت الجريدة تفصل الطـوائف المختلفة المدنية والعسـكرية الحكومية والشعبية التى سارت فى الجنازة ثم قالت :

ولما وصلت الجنازة الى الجامع الأزهر كان كثير من علمائه وطلبته قد سبقوا اليه استعدادا للصلاة على الفقيد ، فدخل جمع كبير بالنعش الى المسجد بينمـا كان المؤذنون فوق منابر الأزهر يرتلون سورة الأبرار .

هذا ما قالته جريدة الخديو فى وصف الجنازة ، ثم كرست اعدادها التالية كلها لنشر المراثى التى انهالت عليها تأبينا للشيخ محمد عبده .

وليس هناك رد أبلغ من ذلك ، على حقد الخديو عباس الذى جعله يصف الرجل بأنه عدو الله وعدو الاسلام وعدو النبى .. الخ هذا الهذيان .

حفلة التأبين الكبرى :

فى التاسع عشر من اغسطس اقيمت حفلة التأبين الكبرى للشيخ محمد عبـده بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته . وقد تقدم مئات من العلماء الأعلام وقادة الفكر والشباب مظهرين رغبتهم فى القاء كلمات التأبين وخطب وقصائد الرثاء ، ولما كان القاء ذلك كله متعذرا ، وكان انتقاء بعض الكلمات دون البعض مما يؤذى مشاعر الراغبين فى الكلام ، ولذلك فقد أعلن قبل الحفلة بمدة سابقة أن المتكلمين فى الحفلة قد حصروا فى :

١ – حسن باشـا عاصم لذكر ملخص حيـاته ولا سيما عمله فى الجمعية الخيرية الاسلامية الذى كان شريكه فى خدمتها وكذا جمعية احياء الكتب العربية .

٢ – الشيخ احمد ابو خطوة من كبار المدرسين فى الأزهر والعضو فى المحكمة الشرعية الكبرى ، يتوسع فى مسألتى اصلاحه للأزهر والمحاكم الشرعية .

٣ – حسن باشا عبد الرازق أحد أعضاء مجلس شورى القوانين يكون أخص ما يذكره خدمته للأمة والحكومة فى المجلس .

٤ – قاسم بك أمين المستشار فى محكمة الاستئناف والعالم البارع فى علوم الأخلاق والاجتماع ، يكون أخص ما يبينه سمو أخلاقه وفضائله واصلاحه فى الأمة .

٥ – حفنى بك ناصف القاضى فى محكمة مصر الأهلية واحد كبار الأدباء من تلاميذه الذين تخرجوا على يديه فى الأزهر ثم فى دار العلوم يرثيه بقصيدة .

٦ – محمد حافظ ابراهيم شاعر مصر الاجتماعى ومن مريدى الامام فى الأدب يرثيه بقصيدة ايضا .

أكثر من الفى صفحة :

وقد الف المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا كتابا فى ثلاثة أجزاء تقرب من الفين وخمسمائة صفحة من القطع الكبير فى تاريخ الامام ، وما قاله وكتبه وما قيل فيه ، ورثى به نثرا وشعرا ، ولسنا نحسب انه كتب فى القرنين التاسع عشر والعشرين مثل هذا المؤلف عن حياة شخص .

والحق أن حياة الشيخ محمد رشيد رضا فى هذه الفترة الأخيرة من حياة الشيخ محمد عبده قد اندمجت بها اندماجا وثيقا ، حيث أصدر مجلة المنار فكانت لسان حال الشيخ محمد عبده ، وسجلا لآرائه وأفكاره والمدافعة عن خططه وسياسته .

تفسير المنـــار :

ولولا الشيخ رشيد رضا ونشره لتفسير المنار الذى هو على حد قوله : « مجمل ما القاه الشيخ محمد عبده من تفسير القرآن ولم يدونه . لضاعت على المسلمين هذه الثروة الثمينة » .

ولذلك فنحن ننصح كل من اراد ان يلم بالكثير عن الشيخ محمد عبده ، ان يطالع ما كتبه الشيخ رشيد رضا عنه .

تفسير جزء عم :

وبالنسبة لى شخصيا ، فقد اصبحت مرتبطا بالشيخ محمد عبده من خلال كتابه تفسير جزء عم ، فعندما بدات اشتغل بتفسير هذا الجزء من القرآن فى مجلة منبر الاسلام ، استوقفنى ايمان الشيخ محمد عبده وجبروته العقلى كما يكشف عنه هذا التفسير .

تعيين مفتى جديد لمصر :

فى السابع والعشرين من اغسطس أصدر الخديو امرا عاليا بشغل منصب الافتاء وتعيين الشيخ بكرى محمد عاشور الصـــدفى مفتيا للديار المصرية بدلا من المرحوم الشيخ محمد عبده .

الخديو عباس يحتفل بعيد ميلاد ملك الانجليز :

فى التاسع من نوفمبر اقيم الاحتفال السنوى المعتاد بعيـــد ميلاد ملك الانجليز فى ساحة ميدان عابدين ، وقد اشترك الخديو عباس فى الاحتفال . ولاحقته جريدة

اللواء فقالت : « وهى هى المرة الثانية التى وقف فيها سمو الخديو هذا الموقف بصفة رسمية ، ولما جرى ذلك فى العام الماضى ، وشعرت « المعية » بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة فى سياسة مصر نشرت فى الصحف بلاغا (وذكرت الجريدة نص البلاغ) ثم قالت : هذا هو بلاغ السنة الماضية واذا كان من الصعب تحميل المصادفة مسئولية هذا الحادث مرتين فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغا فى هـذا العام ، وتفضل السكوت على الكلام ... »

موضوع السادات وعلى يوسف مرة أخرى :

تحت عنوان « قصة لا تنتهى » نشرت جريدة اللواء فى الثامن عشر من نوفمبر الخبر التالى :

« جاءنا من سماحة الحسيب النسيب أحمد عبد الخالق السادات اعلانا ننشره بحروفه اجابة لطلبه :

« قد أشيع فى العامة أنه حصل صلح بيننا وبين الشيخ على يوسف ، وبما أن هذا الصلح وان كان قد حصـل ، الا أنه عار عن كل شىء يتعلق بأمور الزوجيـة المعلومة ، واننا لا زلنا محافظين على التمسك بما قضاه الحكم الشرعى ودفعا للوهم قد أعلنا ذلك ، حتى لا يقال ان الصـلح حصل أو سيحصل بناء على شىء يتعلق بالزوجية » .

وعلقت جريدة اللواء بعد نشر الاعلان بقولها : هذا اعلان سماحة السيد السادات ، والمشهور عند الناس جميعا أن احد المشايخ ناب عن سماحته فعـلا وعقد زواج الشيخ على يوسف على كريمته ، فهل قدم توكيلا غير صحيح وكيف ذلك . لقـد كنا نظن ان قضية الزوجية قبرت واستراح المصريون منها ، فاذا هى لا تزال حيـة وذيولها كبيرة ، فمتى نتخلص منها ولا نسمع بهذه الأمور المدهشة .

هذا ما قالتـه جريدة اللواء على الرغم من خصومتها للشـيخ على يوسف لم تستطيع أن لا تستنكف موقف الشيخ السادات ، ذلك أن الحقيقة أن الصلح كان قد تم فعلا ، ورضى الشيخ السادات عن زواج ابنته بالشيخ على يوسف فعاشت معه .

انشاء نادى المدارس العليا :

فى الثامن من ديسمبر انعقدت أول جمعية عمومية لنادى المدارس العليا الذى كان مصطفى كامل من اكبر مشجعيه والداعية لانشائه . وقد اجتمعت الجمعيـة التأسيسية للنادى فى احدى قاعات مدرسة الطب ، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة الذين يمثلون مختلف المدارس العليا مائتين ، وقد حضره لفيف من المتخرجين ، وقد حضره المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى الذى كان طالبا يومئذ بكلية الحقوق .

ولقد اختير لرئاسة النادى عمر بك لطفى من أصدقاء مصطفى كامل ، وانتخب مصطفى كامل وعبد الخالق ثروت عضوين بالمجلس عن متخرجى مدرسة الحقوق .

تقرير اللورد كرومر :

وصدر تقرير اللورد كرومر عن هذه السنة فى ٢٣٥ صفحة ، وقد تحدث فيه عما اعتاد ان يتحدث فى كل سنة ، ونقتطف من هذا التقرير ما قاله بمناسبة وفاة الشيخ محمد عبده ، اذ توسع اللورد كرومر فى حديثه عن الاسلام وضرورة النهوض به . قال :

الشيخ محمد عبده :

اختطفت المنية فى السنة الماضية رجلا مشهورا فى الهيئة الاجتماعية والسياسية بمصر ، أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت ان اسطر هنا رأيى الراسخ فى ذهنى ، وهو أن مصر خسرت بوفاته قبل زمنه خسارة عظيمة .

لما أتيت الى مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار زعماء الحركة العرابية ، غير ان المغفور له الخديو السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق ، فعين الشيخ بعد ذلك قاضيا فى المحاكم الأهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة . وفى سنة ١٨٩٩ رقى الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته فى هذا المنصب ذات قيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامى مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن ، وأذكر مثالا على نفع علمه : الفتوى التى أفتاها فى ما اذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم فى صناديق التوفير ، فقد وجد لهم بابا يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير ان يخالفوا الشرع الاسلامى فى شىء .

ومريدو الشيخ محمد عبده واتباعه الصادقون موصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون ، وهم بالنظر الى النهضة المليـة بمنزلة الجيروندست فى الثورة الفرنسية ، فالمسلمون المتنطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج على الصراط المستقيم ، فلا يكان يؤمل انهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم فى سبيلهم ، والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة ، فهم وسط بين طرفين ، ومحل انتقاد الفريقين عن الجانبين كما هى حال كل حزب سياسى متوسط بين حزبين آخرين . غير ان معارضة المحافظين لهم أشد ، وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ أن هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت .

ولا يدرى الا الله ماذا يكون من أمر هذه الفئة التى كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها ، فالزمن هو الذى يظهر ما اذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أو لا ، وعسى أن تتقبل الهيئة الاجتماعية آراءها على توالى الأيام ، اذ لا ريب عندى أن السبيل القويم الذى ارشد اليه المرحوم الشيخ محمد عبده ، هو السبيل الوحيد الذى يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبنى ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقيون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوربيين .

اللورد كرومر والقطن المصرى :

وتحدث اللورد كرومر فى تقريره عن القطن فأبدى أسفه لنقص المحصول عن السنة السابقة ، بل وعن سنوات أخرى سابقة على الرغم من زيادة رقعة الأرض المنزرعة قطنا وذلك على التفصيل التالى :

مقدار محصول عام ١٩٠٥ بلغ ٦٫٣٥٢٫٠٠٠ قنطارا
مقدار محصول عام ١٩٠٤ كان ٦٫٥٠٩٫٠٠٠ قنطارا
مقدار محصول عام ١٨٩٨ كان ٦٫٥٤٣٫٠٠٠ قنطارا

ويعلن اللورد كرومر تحذيره من استمرار هذا الانخفاض ويعزوه الى نتيجة انهاك تربة الأرض ، ويوجه النظر الى ضرورة الدورة الزراعية لتستعيد الأرض قدرتها على الانتاج ، كما أشار بوجوب العناية بالتسميد وانتقاء البذور الصالحة ، وهو ما أخذت الجمعية الزراعية على عاتقها واجب القيام به . وقد كان القطن وبذرته يؤلف ٨٦ ٪ من مجموع الصادرات المصرية وكان ثمن القطن هذا العام ١٥٫٨٠٦٫٤٠٠ جنيها .

الحساب الختامى للسنة :

وأسفر الحساب الختامى عن اطراد زيادة الايرادات :

الايرادات	١٤٫٨١٣٫٠٠٠ جنيها
المصروفات	١٢٫١٢٥٫٠٠٠ جنيها
الفائض	٢٫٦٨٨٫٠٠٠ جنيها

أما الاحتياطى فقد بلغ ١٠٫٠٣٨٫٠٥٥ جنيها وذلك بعد طرح مبلغ ٣٫٠٥٠٫٠٠٠ جنيها دفعت الى صندوق الدين .

مقدار الدين العام ٩٦٫٤٨٤٫٠٠٠ جنيها

عام ١٩٠٦ م — ١٣٢٤ هـ
((عام دنشواى))

انفجار أزمة طابا بين مصر وتركيا :

فى العاشر من يناير وردت الى الخديو برقية من الصدر الأعظم فكان وصولها مفتتح ما سمى فى ذلك الوقت بأزمة طابا ، وطابا موقع على حدود مصر الشرقية بجوار مدينة العقبة وقد بلغ من تفاقم هذه الأزمة الى حد التهديد بوقوع حرب بين تركيا ومصر . واليك نص هذه البرقية الشهيرة :

((علمنا من اللواء رشدى باشا أن الأميراليين سعيد بك رفعت ، وبراملى بك الانجليزى المرسلين من طرفكم على الوابور نور البحر الى طابا ، أنزلا هناك خمسين جنديا نصبوا لهم معسكرا صغيرا ، وانه بالرغم من ان أمير اللواء رشدى باشا أفهمنا بأنه لا محل لاقامتهم تجاه القرقول العثمانى فانهما أصرا على رايهما ، ومن حيث أن هذه الحال ربما جاءت بنتيجة قد لا تتفق مع الرضا العالى ، ومن حيث أنه يفهم انكم لهم تعطوا للآن تنبيهات من قبلكم . فنرجو من حميتكم وديانتكم المسلم بهما العمل بسرعة على ملافاة هذه الحالة)) .

وعلى أثر وصول هذه البرقية سحبت الحكومة المصرية القوة المصرية الى جزيرة فرعون استجابة لهذه البرقية ، ثم ردت الحكومة المصرية بالبرقية التالية .

((من القديم فان موقع طابا تحت ادارة الحكومة المصرية ومن الثابت أن التلغراف الوارد من مقامكم السامى يوم ١١ رمضان ١٣٠٩ هـ الموافق ٩ ابريل سنة ١٨٩٢ بخصوص شبه جزيرة سيناء يقرر حفظ الحالة على ما كانت عليه ، ومن حيث أن قومندان العقبة يمانع فى وجود العساكر المصرية هناك ، فى حين أن الغرض من وجودهم هو منع تهريب الأسلحة ، ولكن منعا لسوء التفاهم أمرنا بسحبهم ، ومن حيث أنى على يقين بأن هذا لا يرضى صاحب الجلالة الخليفة ، فحسما لهذه المشاكل ومنع تكرارها ، أرجو تعيين مندوب من قبلكم ليتفق مع المندوب المصرى على تعيين الحد الفاصل ، وبذلك لا يقع تعرض آخر لاقامة العساكر المصرية الذين تقضى الضرورة بوجودهم)) .

وعلى أثر هذا الرد ، بدأت المراسلات بين تركيا ومصر ، وقد جاء فى بعض هذه الرسائل ان مصر جزء من الدولة العثمانية ، وانه من حق الدولة العثمانية ارسال جنودها لغاية جهة السويس . ورد الخديو بلسان حكومة مصر أن الحدود المصرية فى شبه جزيرة سيناء تنتهى بالعقبة ، ويدخل فى التحديد موقع طابا .

اشتعال حماسة الشعب المصرى :

وسرعان ما أصبحت مسألة طابا هى الشغل الشاغل للصحافة المصرية ، والتركية ووقف المصريون وصحافتهم الوطنية الى جوار تركيا ، وتجددت الآمال فى أن يؤدى هذا النزاع الجديد الى اعادة طرح موضوع الاحتلال الانجليزى لمصر ، فبدأ الرأى

العام المصرى يتابع تطورات الموقف فى حماسة وتأييده للاتراك ، مما سبب خيبة أمل لسلطات الاحتلال ، فبدأ ينتابها الضيق ويداخلها الحنق مما سيظهر أثره فيما بعد .

افتتاح سكة حديد بورسودان :

فى السابع والعشرين من يناير ، احتفل الانجليز فى السودان بافتتاح ميناء بورسودان والخط الحديدى الذى يصلها بالنيل عند الخرطوم . وقد تم الاحتفال برآسة اللورد كرومر ، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية ، وكان كرومر هو نائب الخديو عباس فى الاحتفال .

وقد كانت هذه الحفلة الانجليزية لحما ودما ، هى مظهر السياسة الانجليزية الجديدة فى السودان ، وهى اضعاف الوجود المصرى فى السودان لحساب الوجود الانجليزى وقد أنشأ الانجليز هذا الميناء الجديد « بورسودان » للقضاء على مدينة سواكن المتاخمة له ، فقد كانت سواكن هى المدينة السودانية الوحيدة التى استثنيت من رفع العلم الانجليزى عليها ، حيث لم ينزل عنها العلم المصرى فى أى وقت من الأوقات . فأنشئت مدينة بورسودان الى جوار سواكن ، وجعلوها نهاية الخط الحديدى ، ونقلوا اليها المصالح الحكومية ، فلم تلبث سواكن ان ذبلت بالتدريج حيث ازدهرت بورسودان .

اضراب طلاب الحقوق :

فى السادس والعشرين من فبراير عقد طلبة مدرسة الحقوق اجتماعا فى حديقة الأزبكية أعلنوا فيه عزمهم على الانقطاع عن الدراسة ابتداء من اليوم التالى احتجاجا على النظام الجديد الذى فرضه المستر دانلوب على المدرسة . وقد كان هذا الحادث هو الذى سلط أشعة النور على هذه الشخصية الانجليزية التى لعبت دورا خطيرا فى حياة التعليم فى مصر ونعنى به المستر دانلوب . وقد بدأ المستر دانلوب حياته كمدرس فى المدرسة الخديوية ، ثم رقاه اللورد كرومر فجعله سكرتيرا عاما لوزارة المعارف . فبدأ نشاطه بأن وضع لمدرسة الحقوق نظاما يماثل النظم الموضوعة للمدارس الابتدائية . فما كان من طلبة الحقوق الا أن قرروا الاضراب . ولكن هذا القرار لم يكد يصل الى وزارة المعارف ، حتى قررت من ناحيتها تعطيل الدراسة من يوم ٢٦ فبراير حتى ٣ مارس ، وتوعدت الطلبة أن من يتأخر عن الحضور فى هذا اليوم يفصل من سلك التلاميذ .

وقد كان هذا الحدث أول حادث من نوعه ، وهو ان يضرب الطلاب اضرابا سياسيا

وقد تمت اتصالات خلال الأسبوع الذى تعطلت فيه الدراسة بين الطلاب والمستشار القضائى الانجليزى الذى وعدهم بالنظر فى مطالبهم ، وعلى أثر هذا الوعد عادت الدراسة للانتظام .

دانلوب يرقى مستشارا :

اراد كرومر أن يؤدب الطلاب ومن وقفوا الى جوارهم فى احتجاجاتهم على المستر دانلوب ، فأصدر أمره بترقيته الى منصب مستشار وزارة المعارف ، فأصبح بذلك هو المهيمن على التعليم والآمر الناهى فى كل ما يتصل بوزارة المعارف ، كما كان شأن المستشارين الانجليز .

وقد جاء فى تقرير كرومر عن حوادث هذه السنة :

ومن دلائل الاعتراف بتعاظم شأن التعليم ترقيـة المستر دانلوب الى منصب مستشار لنظارة المعارف ، وهو الرجل الذى أصابه من الانتقاد مالم يصب سـوى القليلين من موظفى الانجليز فى مصر ، ولكنى واثق بمجىء زمان يعترف فيه الجمهور بما اعترف انا به الآن ، من أنه ليس فى موظفى الحكومة المصرية سوى قليلين من الذين قاموا بخدمات كالتى قام بها المستر دانلوب فى ترقية مصالح الأمة الحقيقية وتوفير أسباب سعادتها (١) .

زيارة ولى عهد انجلترا لمصر :

فى التاسع والعشرين من شهر مارس ، حضر الى مصر ولى عهد انجلترا والسيدة قرينته فطلب مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية مقابلتهم ، فاستقبلهم ولى العهد بصفتهم نواب البلاد ، وخطب رئيس الجمعية العمومية مرحبا بالأمير وطلب منه فى خطبته زيادة الجزاء المخصص للتعليم فى الميزانية المصرية ، لأن المقرر للتعليم لا يكفى لسد حاجة البلاد .

البكرى يوجه خطابا الى ولى العهد يطالب بالدستور :

فى الثالث من ابريل نشرت جريدة المؤيد خطابا مفتوحا من السيد محمد توفيق البكرى الى ولى عهد انجلترا ، وكان توجيه هذا الخطاب بهـذه الصـورة بناء على ما ارتآه أعضاء مجلس شورى القوانين . وقد جاء فى هذا الخطاب :

« ولكن الأمة التى كان لها دستورها النيابى قبل عهد الاحتلال : ولم ينشأ مجلس شورى القوانين بشكله الذى هو عليه فى أول عهد الاحتلال الا على وعد من اللورد دوفرين مندوب بريطانيا العظمى اذ ذاك أن يكون هذا المجلس بعد قليل من السنين مجلسا نيابيا كاملا ، يساعد الحكومة على أداء وظيفتها أحسن أداء . لابد وأن تذكر هذا الامتياز الذى كان لها دائما ، كما أنها لا تنسى هذا الوعد بالحصول عليه ، وهى اليوم أكثر ما تكون ذكرى له ، رجاء أن تكون زيارة سموكم سببا كبيرا فى مساعدة

---

(١) ونحن اذ نخط هذه السطور بعد اربع وستين سنة من تقرير كرومر نستطيع أن نؤكد أن الزمن الذى تنبأ كرومر بمجيئه لم يجىء بعد ولا نظن أنه سيجىء فقد نسى دانلوب وكل ما يتصل به . وأما فى النصف الاول من هذا القرن ، فلم يكن فى مصر اسم ابغض الى قلوبهم من اسم دانلوب ، حتى بعد خروجه من وزارة المعارف ولحاقه بربه .

عاجلة من دولة بريطانيا العظمى لنيل المصريين وسـتورا نيابيا شريفـا . ذلك هو الدستور الذى التمسته الجمعية العمومية (وأعضاء مجلس شورى القوانين من جملتهم) من جانب الحكومة الخديوية رسميا قبل سنتين . ذلك ان الدستور الذى قال عنه جلالة والدكم المعظم اخيرا فى البرلمان : ان البلاد التى منحتها الامبراطورية الانجليزية حكومة نيابية ، أدى ذلك الى نموها وتقـدمها وسـعادتها ، كما أدى الى ازدياد روابط الصداقة بينها وبين الامبراطورية . فتفضل يا صاحب السمو الملكى ، واجعل هذه الزيارة الشريفة خير مذكر لدولة بريطانيا العظمى بالوفاء بوعدها فى أول عهد احتلالها ، ليبقى لهذه الزيارة اشرف ذكرى : وادومها لدى المصريين » .

وقد أعادت جميع الصحف المصرية عربية وافرنجية على الســـواء نشر هـذا الخطاب ، واحدث ضجة وأثرا عميقا فى الرأى العام المصرى .

جريدة كرومر ترد :

وقد علقت جريدة البروجريه التى كانت تمثل دار المعتمد البريطانى فقالت : لم يحن الوقت لمصر أن تكون فيها حكومة نيابية ، ونحن لا نرى من الوطنيين واحدا فقط متضلعا فى المعلومات الأساسية اللازمة لهذه الغاية .

وقد كان هذا فى الحقيقة هو راى اللورد كرومر ، بل كان يعتبر احدى محـاور سياسته فى مصر .

وقد ردت جريدة المؤيد على تهجم البروجريه قائلة :

لا يهم المصريين أن يكون بعض الأجانب أو كلهم ضد هذا الاقتراح ، لأن هؤلاء يحبون أن يتوغلوا فى استنزاف ثروة المصريين واستلاب أموالهم واملاكهم بكل العوامل التى فى أيديهم الآن من الامتيازات ، ومبادلة المنافع بين بعضهم البعض وباخلاد الوطنيين الى الفتور العميق الذى لاينبههم فيه منبه .

افتتاح نادى المدارس العليا :

فى الخامس من ابريل افتتح نادى المدارس العليا بعـد أن اتخذ له دارا بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل وهو مبنى فخم تحيط به حديقة غناء وبه غرف واسـعة خصص بعضها للجلوس ، وبعضها لتلاوة الصحف والمجـلات ، وبعضها للبلياردو والألعاب المشروعة : وفيه غرف فسيحة للمكتبة جمعت عددا كبيرا من الكتب العلمية النفيسة . وكان من مبادىء النادى منع الميسر والخمر منعا مطلقا ، وقد كانت حفلة الافتتاح حدثا قوميا شهدها وزير المعارف ومستشارها المستر دانلوب وكبار موظفى الدولة من المصريين والانجليز ونظار المدارس العليا .

وكانت الموسيقى العسكرية تصدح بمختلف الأدوار . وقد تضاعف عدد أعضاء النادى بمجرد افتتاحه فبعد أن كانوا ٢٤٠ عضوا عنـد التأسيس اصـبحوا ٤٧٠

عضوا . ولم يلبث هذا النادى الا أن يتحول الى مركز نابض يشيع الحياة والوعى بين صفوف الطلاب والمثقفين ، ويلعب دورا فى حياة مصر السياسة .

انفجار أزمة طابا :

فى الثانى من شهر مايو ، انفجرت ازمة الحدود المصرية المعروفة بأزمة طابا ، اذ حاولت تركيا الاستيلاء على مدينة رفح ، فرفعوا أعمدة الحدود الموضوعة بها ، فتحركت السلطات الانجليزية بسرعة ، فأرسلت طرادا حربيا الى مياه رفح ووجهت انذارا لتركيا جعلت مدته عشرة أيام ، وطلبت فى هذا الانذار .

١ ــ اخلاء موقع طابا .

٢ ــ عودة عساكر رفح الى حدهم .

٣ ــ اعادة عمودى الحدود الى مكانهما فى رفح .

فأسرع توفيق باشا الصدر الأعظم فى الرابع عشر من شهر مايو بالنزول عند هذا الانذار والاستجابة اليه اذ ارسل الرد التالى الى السفير البريطانى فى استنبول : تشرفت بالمذكرة التى تكرمتم بارسالها الى فى ١٢ الجارى بشأن احتلال طابا : وقد قر الرأى على أن الضباط اركان الحرب الموجودين الآن فى العقبة والموظفين الذين ينتدبون من قبل سمو الخديو ، يمرون معا على الأمكنة اللازمة ليجروا التحريات الفنية على مقتضى القواعد الطبغرافية ، ويعينوا على خريطة النقط الطبيعية التى يكون بها ضمان الحالة الحاضرة ، وبقاء القديم على قدمه فى شبه جزيرة سيناء وأن يرسموا خطا للحدود يبتدىء من رفع بقرب العريش ، ويتجه جنوبا بشرق على خط مستقيم تقريبا الى نقطة على خليج العقبة تبتعد على الأقل ٣ أميال من العقبة وبذلك تكون الرغائب التى أبديتموها سعادتكم فى رسالتكم المشار اليها قد تحققت تماما . هذا ونسأل سعادتكم أن تبلغوا ذلك الى لندن ، ونأمل أن حكومة جلالة الملك ترى بذلك برهانا جديدا على رغبتنا الشديدة فى دوام حفظ العلاقات بيننا على دعائم المودة التامة ، وان فى ابداء حكومة جلالته تمام ارتياحها لذلك دليلا على القيمة التى تعلقها على حفظ وتوطيد العلاقات الحسنة الكائنة لحسن الحظ بين الحكومتين .

خيبة أمل الرأى العام المصرى :

وقد اصيب الرأى العام المصرى بصدمة جديدة من جراء هذا الرد ، كما أصيب من قبل فى حادث فاشودة ، ويعقد الاتفاق الودى ، فقد كانت موجة الحماسة قد ارتفعت بين صفوف الشعب المصرى ، أملا من المصريين فى اعادة فتح القضية المصرية على الصعيد الدولى ، فاذا بتركيا تفاجئهم بهذا التراجع ، كما فاجأتهم فرنسا من قبل . وهكذا كانت الحوادث تتوالى لتوطيد اركان الاحتلال الانجليزى فى مصر عاما بعد آخر ، بل يوما بعد يوم .

موقف الخديو عباس :

ويقول لنا شفيق باشا فى مذكراته ، انه كتب للخـديوى من اسـتنبول يقول له « انتهت مسألة طابا » ثم يمضى فى الحديث عن موقف عباس خلال هذه الأزمة . فيقول انه كان يعمل خلالها بوجهين ، وجه مع الانجليز والثانى مع الأتراك ، وعلم الانجليز بحقيقة موقفه ، فغضبوا عليه غضبا شديدا .

ويذكر شفيق باشا أن البرنس حسين كامل نقل له عن ملك الانجليز قوله : كنت أظن أن الخديو معنا ، ولكنا نعرف الآن انه يظهر لنا غير ما يضمر فلا نثق به .

حادثة دنشـــواى :

فى الثالث عشر من شهر يونيه وقعت حادثة دنشواى التى كان مقدرا لها ان تهز مصر كما لم يهزها حادث من قبل ، والتى هدمت كل ما حاول اللورد كرومر أن يبنيه من جسور طوال ثلاث وعشرين سنة بينه وبين الشعب المصرى بعامة والفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء بخاصة . وقد كان مقدرا لهذا الحادث أن ينزل اللورد كرومر من فوق عرشه ، وأن يرتفع بمصطفى كامل الى الذروة التى لا تعلوها ذروة .

البلاغ الأول عن الحادث :

صدر البلاغ الأول عن هذا الحادث بما لا يكاد يشعر له بأى اهمية او خطـورة غير عادية ، وكان هذا البلاغ يتلخص فى اشارة تليفونية أرسلتها نقطة بوليس الشهداء الى مركز منوف وهذا هو نص هذه الاشارة : « ان ضباطا من الانجليز قصدوا دنشواى للصيد ، فأصابت نار بنادقهم بعض الأهالى ، واشعلت النار فى جرن قمـح فضربهم الأهالى » .

تفاصـيل الحـادث :

ويتلخص تفصيل هذا الذى أوجزته الاشارة التليفونية فى أن خمسة من ضباط الجيش الانجليزى ابلغوا مأمور مركز منوف أنهم يرغبون الصيد فى بلدة دنشواى ، وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطـة بوليس الشـهداء ، فأجرى المأمور لهم الترتيبات اللازمة وأرسلهم بصحبة اونباشى وترجمان مصرى الى قرية دنشواى ، وذهب الأونباشى لاعلام عمدة القرية بنبأ هذه الزيارة ، ولكن الضـباط لم ينتظـروا عودة الاونباشى وشرعوا فى عملية الصيد ، فجاس بعضهم خلال أجران القمح واطلقوا رصاصهم على بعض الحمام ، فأخطأوا المرمى وأصابوا امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبد النبى المؤذن ، كما أصابوا الجرن فاشتعلت به النيران ، بينما سقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمائها ، فأهاج ذلك صاحب الجرن وزوج المرأة ، وبقية الأهالى ، فهاجموا الضباط ، فأسرع الضابط المعتدى وزميل له بالفرار خوفا من نقمة الأهالى ، وظلا يعدوان حتى قطعا ثمانية كيلومترات تحت وهج الشمس فسقط أحدهما وهو الكابتن بول صريعا بضربة شمس .

هياج سلطة الاحتلال :

لم يكد نبأ هذا الحادث يصل الى سماع سلطات الاحتــلال ، حتى جن جنونها ، وفقدت اتزانها ، فقد كانت معبأة بالسخط من الشعب المصرى لموقفــه من الانجليز اثناء ازمة طابا وانحيازه بكل عواطفه لتركيا ثم جاء هذا الحادث الجديد فزاد فى حنقهم وقرروا أن يتخذوا منه فرصة للبطش بالمصريين وارهابهم وتلقينهم درسا ينفعهم فى مقبل الأيام ، فبدأ الجهاز الادارى يتحرك بسرعة وبعنف ، وخف المستر منشـــل مستشار الداخلية الى مكان الحادث ، وألقى القبض على مئات من الأهالى ، وساد بلدة دنشواى وما حولها جو من الارهاب .

وفى ١٨ يونيه اى بعد خمسة أيام فقط من وقوع الحادث نشرت جريدة المقطم ولما ينته التحقيق فى الحادثة بعد ، أن الأوامر قد صدرت باعداد المشانق وارسالها الى مكان الواقعة .

وفى العشرين من يونيه قبل انقضاء سبعة أيام على الحادث ، صدر الأمر بتشكيل المحكمة المخصوصة التى صدر بها الأمر العالى عام ١٨٩٥ وحدد لانعقادها يوم ٢٤ يونيه فى شبين الكوم . وكان أغلبية أعضائها من الانجليز ولم يكن بها من المصريين الا بطرس غالى وزير الحقانية الذى كان يرأس المحكمة بنص القانون ، وأحمد باشا فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية . وكان عدد المتهمين الذى قدموا للمحاكمة اثنين وخمسين متهما قدموا جميعا مقبوضا عليهم . وقد قام بالدفاع عن المتهمين أحمد لطفى السيد ، بينما اختار الانجليز للقيام بدور الادعاء ، محاميا مصريا اشتهر فى ذلك الوقت بقدرته وهو ابراهيم الهلباوى ، فاستخدم براعته الخطابية فى طلب التشديد على المتهمين واستعمال منتهى الشدة والبطش بهم .

صــدور الحــكم :

فى السابع والعشرين من شهر يونيه صدر حكم المحكمة المخصوصة وهو يقضى :

أولا : بالاعدام شنقا لكل من على حسن على محفوظ ، ويوسف حسن ســليم والسيد عيسى سالم ومحمد درويش زهران — على أن يتم التنفيذ علنا فى قرية دنشواى .

ثانيــا : الحكم على اثنين من المتهمين بالاشغال الشاقة المؤبدة .

ثالثــا : الحكم على واحد من المتهمين بالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر سنة .

رابعــا : الحكم بالسجن سبع سنوات على ستة من المتهمين .

خامسا : الحكم بالحبس مع الشغل سنة واحدة على ثلاثة من المتهمين ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة على أن ينفذ حكم الجلد أولا فى دنشواى .

سادسا : الحكم بالجلد خمسين جلدة على خمسة من المتهمين وان ينفذ الحكم فى دنشواى .

سابعا : براءة باقى المتهمين والافراج عنهم فورا .

أى أنه فى مقابل وفاة انجليزى واحد ، ثبت طبيا أن وفاته كانت بضربة شمس وليست نتيجة الاعتداء المباشر عليه ، وذلك فى حادث كان الانجليز هم البادئون فيه بالعدوان قد حكم بالاعدام على اربعة وعلى اربعة عشر متهما آخر باحكام متفرقة ، وهو حكم اعتبره الانجليز قبل المصريين انه قمة فى الظلم والقسوة .

طريقة التنفيذ :

على أنه أيا كانت قسوة الحكم أو ظلمه ، فقد كان يمكن أن تطوى صفحته كما تطوى صفحات أمثاله من الأحكام الظالمة ، ولكن سلطات الاحتلال سرعان ما حولت الحكم من دائرة الظلم والقسوة الى دائرة الوحشية والبربرية التى جعلت الانجليز قبل أى شعب آخر فى العالم ، يحس بالخجل والعار لما أقدم عليه رجالهم فى مصر .

فقد اختار الانجليز أن يكون التنفيذ عقب صدور الحكم فى اليوم التالى فلايفسحون مجالا لمراجعة الحكم ، أو تخفيفه ، ولو بالنسبة لبعض المحكوم عليهم .

ثم نصبوا المشانق فى القرية التعسة وأجروا تنفيذ الحكم فى المتهمين المنكوبين على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأبنائهم : فكانوا يسوقون المحكوم عليه بالاعدام وينفذون الحكم فيه ثم يتركونه معلقا بالمشنقة وجسده يترنح ريثما ينفذون حكم الجلد فى أحد المحكوم عليهم فيضج المحكوم عليه بالصراخ ، وينفجر الدم من أثر السياط ، ويظل مربوطا على آلة التعذيب حتى يجىء بمنكوب آخر ينفذون فيه حكم الاعدام .. وهكذا تحول الأمر الى مجزرة بشرية ، استمرت ساعتين متواصلتين من الواحدة حتى الثالثة .

يقول أحمد حلمى مندوب جريدة اللواء الذى كتب وصفا للحادث تعليقا على ما جرى : كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة فلم استطع الوقوف بعد الذى شاهدته ، فقفلت راجعا وركبت عربتى ، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح هؤلاء المحكوم عليهم والجلاد يُلهب اجسادهم بسوطه ، ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى فى عدم وصف مافى البلدة من مآتم عامة وكآبة مدت رواقها فى كل بيت ،وحزن بسط ذراعيه حول الأهالى : حتى أن الجران غلالهم ، كان يدوسها بأقدامهم من حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية ، وتأكل فيها الدواب والانعام بلا معارض وممانع . كأن لا أصحاب لها ، ومعذرتى واضحة لانى لم اتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع الا بهذا المقدار من الوصف والايضاح » .

قاسم امين يصف حالة الشعب المصرى :

واذا كانت صحف هذه الفترة قد تضمنت الوصف التفصيلى لمأساة دنشواى وكيفية تنفيذ الحكم ، فقد حفظ لنا قاسم امين ، صورة قلمية رائعة لحالة الشعب المصرى فى هذه المحنة يقول :

« رايت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت : وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت ارواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

وانطلق مصطفى كامل كالاعصار :

ولم يكن مصطفى كامل ينتظر الا هذه القارعة لكى ينطلق كالصاروخ أو الاعصار متحديا الانجليز فى عقر دارهم ، وملطخا صفحة حكمهم فى مصر بالخزى والعار .

كان مصطفى كامل يقيم فى باريس عندما وصلته انباء هذه المجزرة فى دنشواى ، وكان قد سافر من مصر فى يوم ١٣ يونيه بعد وقوع حادث دنشواى بستة أيام ، وبدأ حملته بتوجيه رسالة مفتوحة على صفحات جريدة الفيجارو الفرنسية « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » .

وليس باستطاعتنا ان نثبت هنا هذا المقال الخالد الذى يمكن ان يعد احد معالم التاريخ فى حياة مصر الحديثة فليرجع اليه من اراد الى كتاب مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ، او لصحف هذه الفترة والذى يعنينا أن نعلق به على هذه الرسالة المفتوحة ، انها تستمد عظمتها من بساطتها فى سرد الوقائع كما حدثت ، وقد كانت تغنى بنفسها عن كل شىء : ومع ذلك فان ذكر هذه الحقائق المجردة كان شيئا رهيبا فزع الضمير الانجليزى وأقلقه وكان أبرع ما فى الرسالة المفتوحة بعد ذلك ، هى الضربة التى وجهها الى اللورد كرومر ، فى أكثر ما قال فى تقاريره وأعاد انه صديق الفلاحين من أصحاب الجلاليب الزرقاء وأنهم محبون للاحتلال البريطانى وهم أصدقاؤه فاذا كان الأمر كذلك ، الا يكون الحكم قد بلغ منتهى درجات البشاعة فى القسوة على الأصدقاء والمحبين للاحتلال . واذا كان الفلاحون قد فعلوا ما فعلوا بدافع من وطنيتهم وكراهيته الاحتلال البريطانى ، أفلا يتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بافلاس سياسته ، أن تكون هذه هى نتيجتها بعد ثلاث وعشرين سنة ؟ » .

أجل كانت هذه الحجة التى صاغها مصطفى كامل ببراعة ومهارة هى التى أصبح الانجليز يرددونها ، أصدقاء اللورد كرومر قبل خصومه .

مصطفى كامل فى انجلترا :

واسرع مصطفى كامل الى عرين الأسد الى انجلترا نفسها ، يتابع حملته ويؤجج نيران السخط التى كان الأحرار من الانجليز قد أشعلوها بمجرد وقوع الحـادث ، اذ وجهوا الى وزير الداخلية الأسـئلة التى تدل على الاستنكار : وبذل رئيس الحكومة الانجليزية جهدا كبيرا للحيلولة دون مناقشة مجلس النواب الانجليزى للحادث ، حتى لا يكون ذلك سببا فى ايقاد نار الفتنة فى مصر ، وسكت الأحرار على مضض .

ولكن حضور مصطفى كامل الى لندن ، اعاد جذوة المعارضة وفتحت له الصحف الانجليزية صفحاتها فأدلى بأحاديث ونشر المقالات وعقدت الاجتماعات التى شهدها بعض الأحرار من نواب الانجليـز ، وكان مصطفى كامل هو قطب الرحى فى هـــذه الاجتماعات .

اهتزاز مركز كرومر وزيادة جيش الاحتلال :

اهتز مركز اللورد كرومر فى مصر ، وهو الذى ظل ثابتـا كالطود والعملاق طوال ثلاث وعشرين سنة . وقد نجح فى بادىء الأمر فى حمل اللورد جراى وزير الخارجيـة أن يقف الى جواره ويسانده ، ولكن الحقائق المفزعة التى راح مصطفى كامل ينشرها ويروجها ، نبهت الأذهان الى أن كرومر قد حكم مصر طويلا حكما مطلقا كان فيه الآمر الناهى الذى لا يجد من يراجعه ، وقد حان الوقت لمراجعة هذه السياسة .

وقد تعثر كرومر عثرة جديدة جعلت مراجعة هـذه السياسة أمرا ضروريا : اذ طلب زيادة جيش الاحتلال ورفع عدد جنوده وضباطه من ٢٩٠٦ جندى وضابط الى ٤٧٥٨ جنديا وضابطا وزادت بذلك نفقات جيش الاحتلال التى يتعين على مصر دفعها من ٨٥ الف جنيه الى ١٤١ر٣٧٥ جنيها .

فكانت هذه الزيادة فى جيش الاحتلال ، مظهر اتساع الهوة بين الاحتلال والشعب المصرى ، وبالتالى ضرورة تغيير الأسلوب الذى ظل متبعا طوال حكم كرومر .

مصطفى كامل يدعو لانشاء الجامعة المصرية :

اكبرت الأمة المصرية جهاد مصطفى كامل الذى احست بعمـق تأثيره لأول مرة ، فتألفت لجنة برئاسة محمـد بك فريد لجمع اكتتابات عامة من الأمة المصرية لتكريمه عند عودته فلمـــا أن بلغ النبأ الى مصطفى كامل وكان قد عاد من انجلترا الى باريس ارسل فى ٢٤ سبتمبر خطابا يعتذر فيه عن قبول هذا التكريم ويطلب أن تقوم اللجنـة بدعوة الأمة الى انشاء كلية جامعة (أهلية) وان تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع .

ولم تكن هذه اول مرة يدعو فيها مصطفى كامل لانشاء الجامعة . فقد سبق أن دعا له على صفحات اللواء فى أكتوبر عام ١٩٠٤ ثم أعاد الدعوة بمناسبة الاحتفـال بمرور مائة عام على تولية محمد على ، وكتب عدة مقالات شرحا وتأييدا للمشروع . وكانت الدعوة لانشاء الجامعة قد بدأت تتردد على صفحات الجرائد المصرية ، وقد

اثار احمد حافظ عوض سلسلة من المقالات على صفحات المؤيد طرح فيها للمناقشة ايهما انفع للقطر المصرى فى حالته الحاضرة ، انشاء الكتاتيب أم مدرسة كلية عالية ، وقد استدرجت المناقشة عددا كبيرا من الكتاب : فراحوا يدبجـون المقـالات على صفحات الجرائد المختلفة حول هذا الموضوع .

تبرع مصطفى الغمراوى لانشاء الجامعة :

على أن هذه الدعوة المتكررة لانشاء الجامعة . كان يمكن ان تظل فى دور المناقشة والمناظرات ، لو لم يتقدم مصرى بخطوة كريمة كانت هى نقطة البدء فى اخراج مشروع الجامعة من القوة الى الفعل ، وذلك المصرى هو مصطفى الغمراوى من أعيان مدينة بنى سويف . وقد نشرت له جريدة اللواء فى ٣٠ سبتمبر الاقتراح التالى تحت عنوان :

« اقتراح من مصطفى الغمراوى من بنى سويف الذى اكتتب بخمسمائة جنيـه لانشاء مدرسة جامعة مصرية على الشروط الآتية :

١ ـ ان لا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم واديانهم ، وتكون واسطة للألفة بينهم .

٢ ـ أن تكون ادارتها فى السنين الأولى على أيدى من يصلحون لادارة مثـل هـذا المعهد العلمى الكبير .

٣ ـ أن يكتتب على الأقل ألف مصرى بمبلغ لا يقل عن مائة جنيه .

٤ ـ ان يقام بناء هذه المدرسة الجامعة فى بقعة خلوية من أجمل بقاع مصر على شاطىء النيل ، ويعمل له حديقة من أجمل الحدائق وغير ذلك من الأمور التى يقررها المكتتبون .

توالى الاكتتابات لانشاء الجامعة :

ولم يكد الاقتراح ينشر حتى توالت اكتتابات المكتتبين على الجريدة حتى بلغت فى اقل من اسبوع ٢٦٢٥٠ جنيها .

وليس من شك أن هذه الاستجابة السريعة والقوية لانشاء الجامعة ، كانت أثرا من آثار المشاعر الوطنية التى أذكاها حادث دنشواى وما اتبع فيه ، ولم تجد طريقة كما يقول « قاسم أمين » للتعبير عما يجيش فى نفسها : فجاء هذا المشروع الذى يحمل الأمل فى مستقبل أفضل ، بمثابة تنفيس عما يجيش فى الصدور ، بحيث يمكن القول بحق ، ان نكبة دنشواى ، قد ادت الى تأسيس الجامعة .

توقيع اتفاقية الحدود بين مصر وتركيا :

فى أول أكتوبر تم توقيع اتفاقية بين مصر وتركيا ، لتحديد حدود مصر الشرقيـة وتعيين أراضى الدولة العثمانية . وفى هذه الاتفاقية عين خط فاصل ادارى بين ولاية الحجاز من ناحية ومصرفية القدس من ناحية ثانية وتتألف منهما الدولة العثمانية ،

ومن شبه جزيرة سيناء التى اصبحت تتبع مصر ، وذلك على الأساس الذى تمسكت به الحكومتان الانجليزية والمصرية ، طبقا للاتفاق المبرم فى أبريل سنة ١٨٩٢ .

البيان التاسيسى للجامعة :

فى الثامن عشر من أكتوبر اجتمع نفر من كبراء الأمة المتحمسين لانشاء الجامعة فى منزل عزتلو سعد زغلول بجهة الانشاء وأصدروا البيان التالى : فى هذه السنة هب فى الرأى العام تيار لتحقيق مشروع الجامعة المصرية لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ودائرته ضيقة وتنتهى بالطالب عند بلوغ الغاية . وان من وراء الحدود التى انحصر فيها (التعليم) معارف سامية ، وحقائق عالية ، وقضايا جليلة ، ومشكلات غامضة تشتاق النفوس الى حلها ، واختراعات جديدة وتجارت بديعة واختبارات كثيرا ما شغلت وتشغل عقول العلماء فى أوربا ولا يصل الينا الا صداها الضعيف .

ومضى البيان على هذا الوتيرة ، وجاء فى ختامه ، أن المجتمعين قرروا بعد المداولة :

انتخاب لجنة تحضيرية مؤلفة من سعد بك زغلول وكيلا للرئيس العام .

وانتخاب قاسم بك أمين سكرتير للجنة ، وحسين بك سعيد وكيل البنك الألمانى أمينا للصندوق ، ومحمد عثمان أباظة : ومحمد بك راسم — وحسن بك جمجوم وحسين سيوفى باشا ، واحنوخ أفندى فانوس ، وزكريا أفندى نامق ومحمد بك الشيتى ، ومصطفى بك كامل الغمراوى أعضاء .

وقد بلغ ما دفعه هؤلاء المكتتبون ٤٨٨٥ جنيها .

وبهذا البيان والمبالغ التى دفعت ، تألفت نواة الجامعة المصرية ، بجهود الأفراد الخاصة لا بجهد من الحكومة ، وهو ما كان متبعا فى كل المجتمعات المتمدنة والمتحضرة فى هذا الوقت ، حيث كانت الجامعات تنشأ بمعرفة المواطنين لا الحكومة .

وقد اتهم الوطنيون اللورد كرومر فى ذلك الوقت أنه كان ينظر لمشروع الجامعة نظرة عدم رضاه وأنه بذل جهده لاحباط المشروع : واعتبروا تعيينه سعد زغلول وزيرا للمعارف قد أريد به ابعاده عن المشروع لاحباطه ، ولكنا من ناحية أخرى نجد كرومر متحمسا فى تقريره لمشروع الجامعة ، بل انه ساق بعض الاقتراحات البناءة التى من شأنها أن تزيد فى فاعلية الجامعة المزمع انشاؤها واليك نص ما قال :

« تألفت لجنة من أعيان المصريين أخيرا للنظر فى انشاء جامعة وطنية ، وقد قرات المنشور الذى أذاعه سكرتير اللجنة (قاسم بك أمين) بامعان وتدقيق ، فلم أجد فيه مالا يطابق آرائى ، فقد ورد فى المنشور المذكور أن أسلوب التعليم المتبع فى مدارس الحكومة الآن ناقص — وهو قول يوافق عليه الجميع — وبعد أن سرد كرومر ما جاء فى المنشور — لاحظ عليه أن هدف الجامعة المقترحة هو استخدام عدد من

الاساتذة لالقاء الدروس (على كل راغب فى التعليم — يريد درسا ليتقنه فى العـــلم ، ويقضى وقته فيما يفيد « ومضى يقول : وان جامعة هذا غرضها يقصر عن ادراك الغاية المنصوص عليها » واقترح اللورد كرومر أن يكون للجامعه كيان ، وان يمتحن الذين يطلبون الانضمام اليها ، حتى يثبت انهم قابلون للاستفادة من دروسها : وان يشترط على الطالب حضور عدد معين من الدروس ، وأن تعد لها قوانين لحفظ النظام بين التلاميذ . والمفهوم أن طلبة الجامعة يتألفون من جميع الذين يرغبون فى ادراك منزلة من الحذق الفنى تفوق المنزلة التى يستطاع بلوغها فى الكليات الموجودة ، والذين يتوقون الى ترقية مداركهم بتلقى التعليم العالى بأعم معانيه .

وانتهى من ملاحظاته بقــوله :

« وليس غرضى من الاشارة الى هذه الأمور تثبيط همة القائمين بأمر هذا المشروع فان ذلك بعيد جدا عن مرادى ، وانما قصدت توجيه بعض النصائح لهم فى الخطة التى يجدر بهم اتباعها وتحويل هممهم اليها ، ومع أنى قلت أنه لابد من مضى زمان ماقبل اخراج المشروع من القوة الى الفعل فلست أرى مانعا يحــول دون اتمــامه ، وخير ما يتفاءل به فى حل الصعوبات التى قد تعترضه القاء مقاليد نظارة المعارف الى رئيس اللجنة السابق » .

تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف العمومية :

أما رئيس لجنة الجامعة السابق الذى يرى كرومر أن يعينه وزيرا للمعــارف من شأنه أن يوحى بالتفاؤل فى مستقبل الجامعة ، فهو سعد بك زغلول الذى صــدر أمر عال فى الثامن والعشرين من أكتوبر بتعيينه وزيرا للمعارف ، وقد تم تعيينه بناء على اقتراح من اللورد كرومر . كمحاولة منه لادخال عنصر جديد فى السياســـة المصرية : يترضى به مشاعر المصريين بعد أزمة انعدام الثقــة التى أحدثتها مأســاة دنشواى .

يقول لنا أحمد شفيق باشا فى مذكراته :

زار اللورد كرومر الجناب العالى فى يوم ٢٦ أكتوبر وأبلغــه أنه اتفق مع ناظــر الخارجية الانجليزية على توسيع اختصاص النظار ، والتمس منه تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف . ولم يرتح الخديو لتعيين سعد زغلول .

يقول أحمد شفيق باشا ، ولكنى تعاونت مع الدكتور صادق رمضان طبيب المعية ومن أصدقاء مصطفى كامل على تحسين العلاقات وازالة سوء التفاهم الذى يرجع أكثره الى اختلاط سعد بك بالمرحوم الشيخ محمد عبده » .

مصطفى كامل يرحب بتعيين سعد زغلول :

وقد رحب مصطفى باشا كامل فى جريدة اللواء فى عددها الصادر يوم ٢٨ أكتوبر بقوله : « وان ما يعرفه الناس فى أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو فى المحــاماة

أولا ، وفى القضاء ثانيا ، يحملهم على الارتياح لهذا التعيين الذى صـادف مصريا مشهورا بالكفاءة والدراية والعلم الغزير ، وحب الانصاف والعدل ، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت الى اليوم منصبا لا عمل فيه ، وكان المستشارون الانجليز أصحاب السيطرة التامة فى النظارات ، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعد بك زغلول فى وزارة المعارف : هل يكون كبقية الوزراء ــ أمره وأمر المعارف بيد المستر دانلوب ــ أم يكون وزيرا اسما وعملا ويحيى سلطة الوزراء المصريين ؟ اللهم اننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه ، وأكثرهم انتقادا على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم ، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كبارا كانوا أو صغارا ، فاذا بقى سعد زغلول فى وظيفته الجديدة كما هو وكما كان ــ وهو ما نعتقد ــ أملنا خيرا كبيرا للمعارف ورجونا سريان هذه الروح الى بقية النظار وعودة الحياة المصرية الى الوزارة .

اللورد كرومر وتعيين سعد زغلول :

وقد علق اللورد كرومر فى تقريره السنوى على تعيين سعد زغلول بقوله :

« عين من رجال الجامعة الوطنية المصرية بمعناها الحقيقى رجل من أشهرهم وهو سعادة سعد باشا زغلول ناظرا للمعارف العمومية ، والسبب فى تعيينه ليس عـدم الرضاء عن ادارة تلك النظارة خلافا لما زعم قوم ، ولا الرغبة فى تغير أمر جوهرى فى سياسة التعليم التى جرت عليها النظارة ، وانما الرغبة فى اشراك رجل كفء بارع ومصرى مستنير الذهن من رجال هذه الفئة فى عمل الاصلاح المصرى . وتعيينه تجربة، وهذه التجربة ستراقب بمزيد من الاهتمام ، فاذا صحت كما هو أملى واعتقادى شددت العزيمة للانتقال خطوة أخرى فى هذا السبيل .

الخديو لا يحضر حفلة عيد ميلاد ملك الانجليز :

فى التاسع من نوفبر أقام الانجليز حفلهم السنوى احتفالا بعيد ميلاد الملك ادوارد السابع : حيث يجرى استعراض الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين ، فلم يجرؤ الخديو على شهود الاحتفال كما فعل فى العامين الماضيين ، بعد الذى وقع من الانجليز فى حادث دنشواى . وقد غضب اللورد كرومر لتخلف الخديو غضبا شديدا ولكنـه لم يستطع أن يفعل أو يقول شيئا .

انشاء شركة لاصدار صحيفتين وطنيتين بالانجليزية والفرنسية :

فى الرابع عشر من نوفمبر أعلن مصطفى كامل على صـفحات اللواء اعـلانا عن تأسيس شركة صحفية بعشرين ألف جنيه ، وقد اتخذت هذه الشركة من قانون شركة جريدة الطان الفرنسية الخطيرة نموذجا تصدر على أساسه جريدتان باللغة الانجليزية والفرنسية ومهمة الجريدتين « الدفاع عن مصالح مصر والمصريين والمطالبة باستقلال القطر المصرى كما قررته الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ومنح

أهله دستورا كالدستور الذى تتمتع به الدول الراقية ، وبرد كل فرية أو تهمة تلقى على المصريين وانتقاد الأعمال الفاسدة الضارة بالأمة ، سواء صدرت من الحكام أو المحكومين وتأمين مبادىء العدالة والحرية وازالة كل سوء تفاهم من المصريين والنزلاء وكافة الأجانب القاطنين فى هذا القطر ، وتوطيد عرى المودة من الجميع وانصاف كل انسان ، والأخذ بناصر الضعيف والمظلوم من أى جنس ومن أى دين ».

علاقة لخديو عباس بالمشروع :

وقد أسرعت الصحف الانجليزية فى انجلترا ومصر بايعاز من اللورد كرومر بالحملة على هذا المشروع ، وذكرت أن الخديو هو الذى دفع مبلغ العشرين جنيه لانه عدو الاصلاح الانجليزى ، وقد ردت عليها الصحف المصرية الوطنية مكذبة هذا الادعاء ونشر مصطفى كامل قائمة المساهمين وما دفعه كل واحد منهم .

ولكن ذلك لم يمنع اللورد كرومر من مقابلة الخديو للاعتراض على مسلكه فى هذا المشروع ، فأنكر الخديو أن تكون له أى علاقة بالمشروع ، ولكن كرومر لم يقتنع بقول الخديو وخرج من لدنه غاضبا على ما يقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته . والمطالع لكتاب مصطفى كامل للاستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى ، يرى محاولة قوية لنفى كل علاقة بين الخديو وبين هذا المشروع بالفعل ، ولكن أحمد شفيق باشا يقول لنا :

« ان الاتفاق كان قد تم بين سمو الخديو ومصطفى باشا كامل على تأليف هذه الشركة بعد أن حدث التقارب بينهما مرة أخرى عقب حادث دنشواى . وأن الخديو أوعز سرا الى الكثير من الأغنياء بالمساعدة ومنهم البرنس جميل طوسون ، وأحمد مدحت يكن باشا ، وعمر سلطان بك ومحمد بك فريد كما وعد الخديو بالمساعدة » .

وجاء فى مذكرات محمد فريد :

« وفى أثناء ذلك أسسنا شركة الاتندار برأس مال قدره عشرون ألف جنيه دفعت أنا منها خمسمائة ، وأوعز الخديو الى الكثيرين من الأغنياء بالدفع فدفعوا مثل الأمير جميل طوسون ومدحت باشا يكن وغيرهما ، مما أخبرنى عنه مصطفى عند وفاته ، ومصطفى اكتتب بألف جنيه ، ولكنى لا أدرى اذا كان الخديو دفع له مساعدة فى المشروع أم لا ، لانه رحمه الله — كان يخفى على كل ما يختص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها سواء كان من الخديو أو من السلطان عبد الحميد . على أنه اعترف بأخذ مساعدات كثيرة من الخديو ولكنه لم يعترف لى مطلقا بأخذ شىء من عبد الحميد » .

وذكر محمد فريد قبل ذلك :

« انه فى خريف سنة ١٩٠٦ توسط الدكتور صادق رمضان ومهد السبيل للمقابلة مع الخديو . وفعلا اجتمعنا أنا ومصطفى كامل والدكتور صادق رمضان ولطيف باشا سليم . وقابلنا الخديو ليلا فى عزبة ... وفى هذه الليلة اتفقنا على تأسيس الحزب الوطنى والنادى وجرائد الاتندارد الفرنسية والاستاندارد الانجليزية وكنا مختلفين هل يكون الحزب سريا أو علنيا ، وكان من رأى الخديو أن يكون سريا ، ولكننا تغلبنا

على رأيه واتفقنا على جعله علنيا ، ولا بأس من تشكيل لجنة سرية فيما بعد من بين الأعضاء العاملين المخلصين » .

فمعاونة الخديو لمشروع اذن واقعة محققة مؤكدة .

مصطفى كامل ومحمد فريد يسافران الى أوربا :

فى ديسمبر من هذه السنة ، سافر مصطفى كامل ومحمد فريد الى أوربا لاختيار المحررين اللازمين لتحرير الصحيفتين الانجليزية والفرنسية واستحضار المعدات ، فقصدا الى باريس أولا ، ثم الى مدينة لندن ثم عادا الى باريس .

تقرير اللورد كرومر :

وقد صدر تقرير اللورد كرومر عن هذه السنة حافلا بكل ما يتصل بشئون مصر ، وقد نقلنا عنه فيما سبق فقرتين عن الجامعة وسعد زغلول . وربما كان أهم ما انطوى عليه تقرير هذه السنة هو اشارته الى حادث دنشواى ، ولهجة الأسى والمرارة التى تنضح بها هذه الفقرة من تقريره بعد أن أحس بآثارها السيئة عليه قال :

دنشواى :

لا أقصد أن أطيل الكلام فيما يعرف بمسألة دنشواى ، اذ قلت كل ما أريد قوله من هذا القبيل فى مذكرة مؤرخة فى ١٢ يوليو سنة ١٩٠٦ وقد طبعت وانما أزيد على ذلك انه لا أحد يأسف من حدوث هذه الحادثة المشئومة أكثر منى أو من رجال الحكومة التى اقتضت وظائفهم أن يفعلوا شيئا فيها . فقد كانت نتائجها سيئة مشئومة من وجهين : الأول انى وان كنت لم أشك قط فى وجوب اتخاذ التدابير الفعالة السريعة لمعاقبة الذين تعدوا على الضباط البريطانيين ، أو فى عدالة الأحكام التى حكمت بها المحكمة المعينة لنظر القضية المرفوعة على أولئك الجانين ، لكنى لم أكن لأجهل أن تلك الحادثة ستوهم القليلى المعرفة بأمور مصر ، بخلاف الحقيقة فى حكمهم على أحكام البلاد وادارتها ، وهذا الخطأ مما يقضى بالأسف .

والثانى أن هذه الحادثة حدثت قبل سكون الصحافة الذى حدث بسبب حادثة الحدود بين تركيا ومصر ، فتوهم الناس أن بين الحادثتين علاقة ، والحال انه لم يكن بينهما علاقة ولا حدثتا فى زمان واحد : فان مسألة الحدود انحلت فى ١٥ مايو حين كتب سفير بريطانيا العظمى كتابه الأخير الى ناظر الخارجية العثمانية ، أما حادث دنشواى فلم يحدث الا فى ١٣ يونيه .

ولم يكن لحادث دنشواى علاقة بموضوع آخر خارج عنها الا ما ذكرته فى مذكرتى المؤرخة ١٢ يوليو ووجهت الأنظار اليه مرارا فى السنين الماضية وهو شاهد من شواهد كثيرة على أن روح التمرد على القانون آخذ فى الازدياد ، وأن السبب فيه ليس السياسة ، بل صعوبة حفظ القانون والنظام فى مصر خلال انتقالها من الحكم الاستبدادى الى الحكم القانونى فى هذه السنين ، أما كيفية معاقبة الذين يعتدون على جيش الاحتلال

فى المستقبل فموضوعه الآن تحت النظر ، وهى مسألة وعرة كبيرة العقد ســواء من الناحية القانونية أو العملية .

تحذير كرومر للموظفين الانجليز :

ثم وجه اللورد كرومر تحذيرا للموظفين البريطانيين ، أن يراعوا مشاعر المصريين وختم تحذيره بقوله : « فليتذكر كل موظف انجليزى ، أن كل ازدراء أو استخفاف يقع منه فى المعاشرات الاجتماعية يؤدى بكل تأكيد الى اخفاق المسعى : وان كل كلمة تقال بلا ترو ، وكل فعل يفعل بلا تأن واعتبار ، يمكن أن يجرح العواطف حيث لا يقصــد جرحها ،ويفضى الى عواقب لا يعلم الا الله مؤداها » .

وليس هذا التحذير بدوره الا ثمرة من ثمار المناخ الذى انشأته حادثة دنشواى والتى جعلت الانجليز يفكرون مرتين قبل أن يستهينوا بعواطف هذا الشعب .

الحساب الختامى :

وواصلت المــالية المصرية نموها كما كشف عن ذلك الحساب الختامى :

الايرادات	١٥ر٣٧٧ر٠٠٠ جنيها
المصروفات	١٣ر١٦٢ر٠٠٠ جنيها
الفــــائض	٢ر١٧٥ر٠٠٠ جنيها
الاحتياطى العــام	١١ر٠٥٥ر٠٠٠ جنيها
مقدار الدين	٩٦ر١٨١ر٠٠٠ جنيها

١٩٠٧ م – ١٣٢٥ هـ
عام سقوط كرومر

عودة الجفاء بين الخديو واللورد كرومر :

يقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته : انتهى العام الماضى وبين المحتلين والخديو سوء تفاهم مستحكم الحلقات ، يعود بالأخص الى مسألة طابا وموقف الخديو منها ، وعدم حضور سموه حفلة عيد الملك .

واستهلت سنة ١٩٠٧ والجو قاتم والاحتكاك يضطرم بين الخديو وكرومر ورجال الاحتلال ، وقد امتدت آثاره الى كل المشروعات العامة والخاصة ، كمشروع الجامعة : ومسائل الأزهر ، ومدرسة القضاء الشرعى والى علاقة الخديو بنظاره ولا سيما سعد زغلول باشا .

تعيين شيخ جديد للأزهر :

فى الثانى والعشرين من يناير تم الاتفاق بين الخديو وكرومر على تعيين الشيخ حسونة النواوى شيخا للأزهر ، وهكذا فرض كرومر نفسه على أخص الخصائص التى بقيت للخديو ، وهو الاشراف على الأزهر .

تبرع أحمد بك شريف للجامعة :

فى التاسع من فبراير حصل مشروع الجامعة على دفعة قوية جديدة بأن تبرع أحمد بك الشريف للجامعة بمائة فدان يقدر ثمنها بثلاثين الف جنيه وأوقفها على « المدرسة الكلية المزمع انشاؤها فى القطر المصرى المسماة بالمدرسة الجامعة » فدل ذلك على أن مشروع الجامعة قد استقر فى وجدان الأمة وأصبح حقيقة مقررة .

وكان قاسم أمين قد حل محل سعد زغلول فى رئاسة اللجنة الفعلية .

انشاء مدرسة القضاء الشرعى :

فى الخامس والعشرين من فبراير تمت موافقة مجلس الوزراء على انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، ولم تتم هذه الموافقة الا بعد وقوع مصادمة بين الخديو وسعد زغلول باشا فقد حاول الخديو أن يبدى عدم ارتياحه لهذا المشروع لعدم رضاء العلماء عنه ، وطالب بأن لا تكون هناك علاقة بين الأزهر والمدرسة المراد انشاؤها .

فاحتد سعد زغلول ، فى رده على هذا القول ، حتى لقد ضرب المائدة بيده ، وكان مما قاله أثناء احتداده : حينئذ لا يستطيع الانسان أن يتكلم هنا ، انه اذا فصلت مدرسة القضاء الشرعى عن الأزهر ولم تنسب اليه ، لقيل أن القاضى المتخرج منها « كافر » .

وقد تأثر سمو الخديو على ما يقول أحمد شفيق باشا من موقف سعد زغلول تأثرا عظيما وصرح لرجال حاشيته أنه لن يحضر جلسات مجلس النظارة اذا كان سيرغم

على الموافقة على مشروعات لا يريدها ، ثم ينسب له الرضاء عنها .

صدور جريدتي لايتندارد ودى اجبشيان استاندرد :

فى يوم ٢ مارس أقام مصطفى كامل احتفالا بفندق الكونتننتال ، لمناسبة ظهـور جريدتي لايتندارا الفرنسية والاجبشيان ستاندرد الانجليزية وكان ظهـور هاتين الجريدتين من أعظم مظاهر حيوية مصطفى كامل وقدرته الصحفية التى لا حد لها ، وتفانيه فى العمل الوطنى ، فقد أصبح مشرفا على ثلاث صحف تصدر بثلاث لغـات مختلفة .

صدور صحيفة الجريدة لصاحبها أحمد لطفى السيد :

وفى التاسع من شهر مارس صدر العدد الأول من الجريدة لصاحبها أحمـد لطفى السيد ، وقد اتخذت شعارا لها تكتبه على رأس كل عدد من أعدادها احدى عبارات ابن حزم الأندلسى وهى قوله : من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمته أول صـدمة ، كان اغتباطه بذم النـاس اياه ، أشـد وأكثر من اغتباطه بمدحهم اياه .

وقد كتب أحمد لطفى السيد مقالا افتتاحيا بخطه للجريدة وأهدافها ، ثم ذيل الافتتاحية بأسماء الأعضاء الذين ساهموا بانشاء الشركة التى أصدرت الجريدة وعلى رأسهم محمود باشا سليمان رئيس الشركة ، وحسن باشا عبد الرازق نائب الرئيس ، ثم مائة اسم من الأعيان ومن قادة الرأى العام ، سواء فى دوائر الحكومة أو خارجها .

وقد جاء فى المـادة الثالثة من عقد تأسيس الشركة ما يحدد الأهداف التى صدرت من أجلها الجريدة « الجريدة مصرية بحته غرضها الدفاع عن الصوالح المصرية على اختلاف أنواعها بارشاد الأمة بأسرها الى منافعها الحيوية الصحيحة ونشر ما فيـه فائدة مادية أو أدبية ، ونقد كل عمل له مساس من أى جهـة كانت بتلك المنافع والصوالح ، سواء كان ذلك العمل عاما أو خاصا ، مهما كان مصدره ، ومهما كانت صفة القائم أو الآمر به ، وبيان صالح ذلك العمل من فاسده ، وقول الحق فى الحالتين ، وبهـذا يتكون رأى عام قائم على أساس متين من صدق النظر وحسن التفكير ، يقول قوله بلسانها ، ولا تنطق هى الا عنه ، ليتأيد حينئذ جانب المنفعة للأمة كلها ، ويصـل هذا الصوت الصادر من نظر مجرد عن كل غرض الى الهيئة الحاكمة ، فيحل محـل الثقة منها ، وتتضافر الهيئتان على خدمة تلك الصوالح والمنافع ، لافرق فى ذلك بين الأديان ، ولا تمييز بين الأجناس ، هذا مع نبذ الشخصيات وعدم الخوض فى المنازعات الدينية المحضة ، وأن لا تستأجر فى غرض ، وأن لا تستخدم لأحد مع التزام الاعتدال فى جميع الأحوال .

اسهام الجريدة فى اليقظة القومية :

وايا كان القول فى الدوافع التى حدت بالأعيان الى اصدار هذه الجريدة فالحقيقة المؤكدة ، أنها أسهمت بمجرد صدورها فى تعزيز النهضة الصحفية فى مصر ، ليس

فقط من حيث جودة طبعها وحسن تنسيقها ، بل من حيث جدة الموضوعات التى بدات تطرقها وارتفاع مستواها ، حتى نراها تنشر أحدث قصة علمية صدرت فى أوربا ، وهى قصة العلامة الكبير جول فرن ، والتى تدور حول السفر الى القمر فى ٩٨ ساعة ، وقد قام بترجمتها أحمد بك زكى الكاتب الثـــانى لاسرار مجلس الوزراء . وهكذا قدمت الجريدة فى أول عدد من اعدادها لقرائها العالم الروائى الفرنسى الذى سبق العـــلم بخياله خمسا وستين سنة ، كما قدم أحمد زكى العالم المصرى الذى سيكون مقدرا له أن يصبح أحد أقطاب النهضة الثقافية من خلال بعث التراث العربى والاسلامى .

طلعت حرب :

واذا كان نجم طلعت حرب قد أشرق لأول مرة فى سماء الحياة العامة عندما أصدر كتابه « تربية المرأة » والذى رد فيه على دعوة قاسم أمين .

فأن طلعت حرب الذى كان مقدرا له أن يبنى اقتصاد مصر الحديث بدأ جولاته فى هذا الميدان على صفحات الجريدة ، حيث أخذ على برنامج الجريدة اقتصاره على الأمور السياسية واغفاله مالا يقل خطرا أن لم يزد وهى الأمور الاقتصادية وما يتعلق بها من زراعة وصناعة ومضاربة بالمحصولات وديون الأهالى والحكومات ، وحالة البلاد الأدبية والأخلاقية .

مناقشات فى الجمعية العمومية حول التدريس باللغة العربية :

شغلت الصحافة والدوائر الوطنية طوال شـــهر مارس ، بما دار فى الجمعيـــة العمومية من مناقشات حول الاقتراح الذى تقدم به بعض أعضائها وهو يقضى بوجوب جعل تعليم المواد فى الدروس العربية فورا . وقد تبنى ســـعد زغلول باعتباره وزيرا للمعارف وجهة نظر الحكومة التى لا توافق على هذا الراى ، وان كان قد استعمل لباقته الخطابية فى تملق عواطف أعضاء الجمعية ، اذ قال لهم :

« اننى بصفة كونى مصريا أتمنى أن يكون التعليم فى المدارس جميعا بلغة بلادنا ، ولكن ما كل مايتمناه المرء يدركه ، لأن هناك صعوبات كبيرة بيننا وبين بلوغ هـــذه الأمنية ، وهذه الصعوبات ، وان كان يجب السعى لتذليلها ، وصرف العناية لتسهيلها الا انه يلزم أن نحسب حسابها .

ثم مضى سعد زغلول فى خطابه ، فراح يفند القول القائل ، بأن الاحتلال البريطانى هو الذى قضى بأن تكون الدراسة فى المدارس باللغة الانجليزية ، فقد كان على باشـــا مبارك هو أول من سعى الى ذلك ونفذه عام ١٨٩٨ ، وأنه فعل ذلك لمساعدة أبنـــاء الشعب فى منافسة طلاب المدارس الأجنبية الذين أصبحت لهم ميزة التفوق على طلاب المدارس الحكومية ، فسيقودهم الى احتلال مختلف الوظائف سواء فى دوائر الحكومة أو الشركات .

وقد رد الشيخ على يوسف على خطاب سعد زغلول نيابة عن اعضـــاء الجمعية بقوله :

« أشكر سعادة ناظر المعارف العمومية على الاحساسات التى أبداها وأشكره على أنه وافق على أن مصلحة الأمة كائنة فى التعليم باللغة العربية ، على أن يكون تنفيذ ذلك بالتدريج سنة فسنة لا ابتداء من السنة المقبلة .

مصطفى كامل يهاجم سعد زغلول :

فى التاسع من مارس نشر مصطفى كامل أول هجوم له على سعد زغلول فى جريدة لتندار اجبشيان فكتب تحت عنوان « فشل وزير » ان الناس قد فهموا الان بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف ، صهر رئيس الوزراء (مصطفى باشا فهمى) الأمين على وحيه ، الخادم لسياسته ، وفهموا أيضـــا لماذا قامت الصحف الانجليزية ، والصحف المتحزبة للانجليز ، وذرت الرماد فى العيون قائلة أن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى ، فى حين أن كل شىء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله للسلطة ، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ، ولو كان وزيرا أوربيا يتكلم أمام برلمـــان ، لكان قد استقال فى الحال ، ولكنه وزير فى مصر، يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته ، الا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ، ليأسفون على حاضره كل الأسف ، وليخافون على مستقبله كل الخوف ، ويفضلون ما ضيه كل التفضيل ، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف » .

وجريدة اللواء :

ومضت الحملة على سعد زغلول ، على صفحات اللواء ، فاتهمته بأن افترى على على باشا مبارك عندما نسب اليه أنه صاحب الفكرة فى تعليم المواد باللغة الانجليزية فى المدارس الحكومية ، ونشرت اللواء تقرير على باشا مبارك فى هذا الشـــأن ، وكيف ختمه بوجوب الاهتمام بتعليم اللغة العربية فى المدارس ، ومن عجب أن هذا التقرير الذى نشرته جريدة اللواء ، وهو ما يشهد لها بالأمانة الصحفية قد حوى بالفعل ما يؤكد ما قاله سعد زغلول فقد تضمن الفقرة التالية :

« فلازالة هذا المحظور بقدر الامكان ، تقرر أن مواد العلوم الجارى تدريسها للآن باللغة العربية ، يصير تعليمها من الآن فصاعدا بمعرفة مدرس اللغات الاجنبية أما باللغة الفرنسية أو الانجليزية ، وبذلك اذا درس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات اجنبية ، وضم هذا على تعليم اللغة المقصودة بالذات ، لكمل بذلك تعليم هذه اللغة » .

وهذه الفقرة من تقرير على باشا مبارك والتى نقلناها عن جريدة اللواء نفسها تنفى عن سعد زغلول تهمة الافتراء على على باشا مبارك .

الجريدة تدافع عن سعد زغلول :

ووقفت الجريدة الى جوار سعد زغلول تدافع عنه وعن موقفه بحرارة ، وراحت تهاجم اللواء والحزب الوطنى ، حتى لقد خرجت عن جادة الاعتدال التى التزمت بها فى ميثاقها ، فنجدها تقول فى عدد ٢٧ مارس عن أصحاب اللواء وكتابه وانصاره :

« انهم قوم أضر على الوطن من أعدائه الحقيقيين : وهل يبلغ منا العـدو بسعيه ، ما يبلغه فينا بسعى هؤلاء السفهاء الذين اتخذوا الوطنية ســلاحا يطعنون به فى كل حر ، ويدفعون به فى صدر كل من لم يجارهم فى هوسهـم ، ولم يؤمن بكذبهم ، وبهتانهم ، ولم ينحط الى ما انحطوا اليه من عبادة الأوهام وغش الأمة » .

الجمعية العمومية تطالب بالدستور :

ومن مفاخر الجمعية العمومية فى هذا الدور من انعقادها ، اثارتها موضـوع الدستور من جديد ، وضرورة انشاء مجلس نيابى كامل ، والى أن يتحقق ذلك فقـد دعت الجمعية الى ضرورة توسيع سلطة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

وكان هذا التطور الجديد ، من آثار الحيوية المصرية والروح الوطنية التى أعقبت حادث دنشواى ، والتى راحت تعبر عن نفسها بشتى الصور والأشكال .

استقالة اللورد كرومر :

فى أول ابريل من هذه السنة ، وعلى أثر فراغ اللورد كرومر من تقـديم تقريره السنوى عن عام ١٩٠٦ لوزير الخارجية والسابق الاشارة اليه ، قدم كرومر استقالته من منصبه . وكان السبب فى هذه الاستقالة ان رئيس الوزارة البريطانية كامل بانرمان طلب من اللورد كرومر عقب حادث دنشواى أن يغير من سياسته فى مصر أو أن يستقبل فآثر كرومر أن يستقيل من منصبه على أن يعدل عن سياسته ولم يذع نبأ تقـديم الاستقالة فى مصر الا بعد انقضاء فترة على تقديمها وقبولها بالفعل .

مصطفى كامل يعلق :

فى الثانى عشر من ابريل ..

كتب مصطفى كامل أول تعليق على هذا الحدث الضخم فى جريدة اللواء فكان مما قال :

ما حدثت حادثة دنشواى ودوى دويها فى العالم كله ، وقامت لها قيامة الاحرار فى انجلترا وعرف المتحدثون فى أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها ، حتى ذاع وشاع أن مدة اقامة اللورد كرومر فى مصر قد أصبحت محدودة ، وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته ، لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل .

ثم راح مصطفى كامل يعدد مثالب الاحتلال البريطانى لمصر ، كما مثلها كرومر وكان رمزها الحى ، حيث حكم مصر حكما مطلقا استبداديا طوال ربع قرن تقريبا .

كلمة انصاف :

ولن تتجلى عظمة مصطفى كامل الروحية ، كما تتجلى فى انصافه للورد كرومر فى ساعة اندحاره وهزيمته فقد ختم مقاله الملىء بالطعن الجارح لكرومر وسياسته بالفقرة التالية التى أشاد فيها بنزاهته ، حيث يقول :

هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين ، ولكنا نذكر له بكل انصاف ، انه لبث طول حياته مثالا للنزاهة الذاتية ، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هــذه الوجهة لكافة الحكام ، وذرى السلطة ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض ، بما فى قبضته من جاه ونفوذ ، ولكنه فضل الشرف الذاتى على المـال ، وخيرا فعل .

جريدة الأهرام وكرومر :

وعلقت جريدة الأهرام فى نفس اليوم على استقالة كرومر فكان مما قالته :

« فاذا اعتبرنا اللورد كرومر فى سياسة ماليتنا بارعا وجريئا ومقداما ، فانا نعتبره فى سياسة ادارتنا المصرية هداما بطاشا ، أو جبارا دكاكا . هدم السودان المصرى فبناه سودانا انجليزيا ، وهدم الوزارة المصرية فبناها استشارة انجليزية ، ودك أسس عابدين ليبنى قصر الدوبارة ، ومحا صندوق الدين ليشيد على اركانه البنك الأهلى ، فرق اسطول مصر ليكون لمصر الاسطول الانجليزى أو بالأحرى لتكون مصر لهــــذا الأسطول ، وقطع أطراف مصر كالارتيرية والصومال ليبقى له منها القلب . وهكذا فعل فى كل مصلحة مصرية بعد ما أرسخ قدم الاحتــــلال فى امانة مشروع درمندولف فى الجـــلاء .

جريدة المؤيد واللورد كرومر :

وحاولت جريدة اللواء أن تكون أكثر موضوعية ، فتحلل موقف اللورد كرومر وما له وما عليه وأسباب فشله ونجاحه فى مصر .. فقالت بعد أن أثنت على اصـــلاح مالية البلاد على يديه : ويظهر لنا أن أكثر ما وقف بجانب اللورد فى طريقة ترقية البلاد ادبيا كما فعل لترقيتها ماديا ثلاثة أمور .

١ ــ حبه للاستئثار بالسلطة .

٢ ــ جهله لغة البلاد .

٣ ــ محاولته ان يذهب بمصر فى طريق يؤدى الى نظمها فى سلك المستعمرات .

ولهذه الأسباب لم تنل مصر علي يديه حصة من الرقى الأدبي توازي أو تقــارب الرقي المــادي الذي نالته .

مقابلة عاصفة بين اللورد كرومر والخديو :

فى السابع والعشرين من ابريل زار اللورد كرومر الخديو عباس زيارة الوداع : وقد سجل لنا أحمد شفيق باشا هذه المقابلة العاصفة كما رواها لهم الخديو بعد انتهائها ، وقد هاجم فيها اللورد كرومر الخديو هجوما عنيفا ، ووصفه بأنه يلعب بالنار ، وحذره من مغبة قيام ثورة جديدة فى مصر ، ففى ذلك نهاية حكم أسرة محمد على .

وقرر عباس على أثر هذه الزيارة ، وما أبداه كرومر من الغلظة والعنف أن لا يرسل مندوبا من لدنه لحضور حفلة الوداع التى ستقام له مكتفيا بزيارة اللورد وعقيلته فى الوكالة البريطانية زيارة شخصية .

جورست المعتمد البريطانى الجديد :

وفى نفس اليوم الذى قابل فيـــه اللورد كرومر ، جاء لمقابلته السير جورست المستشار المـالى والذى وقع اختيار الحكومة البريطانية عليه ليكون خلفا للورد كرومر فى مصر .

وقد أبدى الخــديو ارتياحه لتعيين جورست ، خلفـا لكرومر ، اعتبر هـذا التعيين التفاتا وترضية من جلالة الملك وحكومته له باختيارها لرجلا عرفه واشتغل معه : وهو صديق له . ومضى الخديو يقول للسير دون جورست .

فأؤمل ياسير جورست أن تكون فى المستقبل نفس الرجل الذى عرفته فى الماضى .

فأجابه السير جورست أنه يؤكد لسموه أن خطته لا تتغير وأنه سيكون دائمـا الصديق القديم . فرجاه الخديو لمعرفته بشئون البلاد الداخلية والمـالية ، ولمعرفته بالاكثر باللغة العربية ، ألا يعتمد فى معلوماته على واسطة وقال له الخديو : عندما يبلغك شىء فلا تغضب ، قل أحضر عندى فى أى وقت كان ، وتادث معى حتى لا يقع ســوء تفاهم بيننا،وأؤكد لك اننى أريد خدمة بلادى باستقامة ، ولا أميل الا للحق ، ولتكن وجهتنا واحدة الا وهى العمل النافع لمصر .

الاحتفال بتوديع كرومر :

فى الرابع من شهر مايو أقام مصطفى باشا فهمى رئيس الحكومة المصرية حفـــل توديع كبير بدار الأوبرا ، حضره حشـــد كبير من الأمراء والوزراء وكبار الموظفين والأجانب والاعيان من مؤسسى صحيفة الجريدة وعلى رأسهم محمود باشا سليمان .

وقد تبارى الخطباء سواء من الأجانب أو المصريين وعلى رأسهم رئيس الحكومة فى الثناء على اللورد كرومر وما استفادته البلاد على يديه من الاستقرار وأمن وازدهار فى ماليتها .

وقد رد كرومر على هذه الخطب بكلمتين القى احداهما بالفرنسية وقد اعرب فيها عن شكره لمن اثنوا عليه ، ثم انتقل بعد ذلك الى اللغة الانجليزية فالقى خطابا مطولا ،

تحدث فيه بصراحة كما كان شأنه طول حياته ، وراح يدافع عن سياسته ، ويهاجم المعترضين عليها ، والخطاب طويل نشرته الصحف المصرية فى ذلك الوقت ، ولكن واجب الأمانة التاريخية يقتضينا اقتباس بعض فقرات من هذا الخطاب .

انجليزى مصرى :

كنت أقول فى نفسى دائما أن أول واجب على هو فعل كل ما يطلب فعله منى للدفاع عن مصالح بلادى ومصالح مصر ، وانما وضعت بريطانيا العظمى ومصر فى كفة واحدة : لانى أرفض أن أعتبر كل منهما على حدة ، اذ كل من يدرك حقيقة مصالحهما يعدها مصالح واحدة .

على أنه علاوة على كونى انجليزيا ، بل انجليزيا مصريا ، فلم أنس قط اننى أوربى أيضا ، وأن رغد عيش الجاليات العديدة النازلة فى هذا القطر تعد مصلحة مصرية ، وبالتالى بريطانية من الطبقة الأولى .

الرقى الأدبى والمادى :

اننى أسمع ما يقولونه من أن مصر ارتقت ارتقاء ماديا عجيبا فى الأعوام الأخيرة ، **ولكن لم يعمل فيها لترقية أهلها أدبيا وعقليا .**

عجبا أيها السادة ، كيف يقال أن مصر لم ترتق أدبيا : هل الحكم اليوم للكرباج وحده ، كما كان فى الايام الغابرة ، هل السخرة باقية فيها ولم تسط الأيام عليها . هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها ولم تزل عنها ، أليس كل شخص فيها من الأمير الى الصعلوك الحقير سواء أمام القانون ، ألم ينشط الناس الى السعى والكسب ، أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ويتمتعون بما يحصلونه من عرق جبينهم .

أليس من المقرر أن العدالة لا تشترى ولا تباع اليوم ، وان كل انسان حر بل ربما ظن أقوام انه حر بأكثر مما يجب .

وانطلق كرومر يتحدث عن ضروب الاصلاحات التى عمت البلاد ، وكيف أن مياه النيل أصبحت توزع بالعدل : وان المستشفيات قد أنشئت فى طول البلاد وعرضها ، وكيف ان المجرمين فى السجون لم يعودوا يعاملون معاملة الوحوش ، حتى الرفق بالحيوان لم تقف عنه عناية المصلحين ، وان اشتراك الحكام والحكوميين فى المصالح أصبح أمرا مقررا عند الفريقين عملا وقولا .

والضرائب أصبحت تصرف فى الأعمال النافعة ، لا فى بناء قصور لا منفعة لها .

التعليم :

وتحدث عن تقدم التعليم وبخاصة تعليم البنات ، ولكنه لم يستطع أن ينكر أن ذلك دون ما تطمع فيه البلاد ، فقال :

نعم لو تسنى للحكومة المـال الوفير منذ عشرين سنة لكان قد تم أكثر مما تم الآن كثيرا ، ولست أنكر أن البلاد لا تزال مفتقرة الى تقدم كثير أدبيا وعقليا .

ثم حمل على الخديو حملة شعواء ، وأشار عليه أن يصلح من حال المصالح التى لا يزال أمرها بيده وهى الأوقاف والمحاكم الشرعية وان يبعد من حوله المتزلفين .

ديمومة الاحتـلال :

أما بالنسبة للاحتلال فقد حرص كرومر فى ساعة خروجه من مصر بالذات ان يؤكد ديمومته الى الأبد فقال :

وبالنسبة للاحتلال فيجب أن يكون واضحا الحقائق الآتية :

أولا : الاحتلال البريطانى يدوم الى ما شاء الله وهو ما أكدته حكومة جـلالة الملك رسميا .

ثانيا : ما دام الاحتلال باقيا ، فالحكومة البريطانية مسئولة عن الخطـة التى تجرى عليها الادارة المصرية لا تفصيلا ولكن اجمالا .

هجومه على المجلس النيابى :

وانتقل كرومر بعد ذلك فراح يهاجم المجلس النيابى بكل قوة فقال :

« اننى لا أستحسن تغييرا فى نظام الحكم : ولا أشير بالخروج على المناهج الحالية واذا اقتضى الأمر فسأطلب ملحا مقاومة هذه الحركة المفتعلة الكاذبة التى تريد انشاء مجلس نيابى ، وهى حركة اذا سألتمونى عنها ، قلت انها لا تستحق أدنى التفات ، اذ هى لا تعبر عن رأى المتنورين من سكان القطر المصرى أوربيين أو مصريين . ومتى زال هذا الهذيان ، صار الاختلاف بينى وبين خصومى فى الطريق لا فى الفكرة ، اذ هم يريدون أن يعدوا عدوا سريعا جدا ، وأنا أرى ضد ما يريدون لاقتناعى بأنهم اذا أسرعوا عثر الجواد وانكسر .

أصحاب الجلاليب الزرقاء :

وفى ختام خطابه وجه الحديث الى الفلاحين اللابسين الجلاليب الزرقاء ، الذين يتوقف عليهم تقدم البلاد فى الثروة واليسر على تعبهم : وانه يعـد نفسه صـديقهم الحقيقى ، وطلب منهم أن لا يتأثروا بالأقوال النظرية المهيجة .

غضب الرأى العـام على كرومر :

وقد أحنقت هذه الخطبـة ، من كان لا يزال يحسن الظن بعض الشىء بكرومر ، فانطلقت الصحف الوطنية من جديد تحمل عليه وتشهر به ، وليس هناك ما يرمز لروح السخط التى ملأت الشعب المصرى ، من قصيدة أحمد شوقى الرائعة والتى يؤسفنا أن لا ننقلها هنا بكمالها ، ونكتفى بايراد بعض أبيات منها تتحدث عن باقيها :

أيامكم أم عهـد اسـماعيلا	أم أنت فرعون يسوس النيـلا
ام حـاكم فى أرض مصر بأمـره	لا سـائلا أبدا ولا مسـئولا
لمـا رحلت عن البـلاد تشـهدت	فكأنك الداء العيـاء رحيـلا
أوسـعتنا يـوم الـوداع اهـانة	أدب لعمرك لا يصيب مثيـلا
انذرتنا رقـا يـدوم وذلـة	تبقى وحـالا لا ترى تحـويلا
أحسبت أن الله دونك قـدرة	لا يملك التغيـير والتبـديلا
فرعون قبلك كان أعظم سـطوة	وأعز بين العـالمين قبيـلا
قالوا جلبت لنا الرفاهـة والغنى	جحـدوا الاله وصـنعه والنيلا
كم منـة موهومة أتبعتهـا	منـا على الفطن الخبـير ثقيـلا
فى كل تقـرير تقـول خلقتكم	أفهـل ترى تقـريرك التنزيـلا
انـا تمنينـا عـلى الله المنى	والله كـان بنيلهن كفيـلا
من سب دين محمـد فمحمـد	متمـكن عنـد الاله رسـولا

الدوق غورست يقدم أوراق اعتماده :

فى السادس عشر من شهر مايو قدم السير غورست أوراق اعتماده للخـديو وقد جرت مقارنة بين الخطبة التى ألقاها بين يدى الخديو والخطبة التى ألقاها اللورد كرومر منذ أربعة وعشرين سنة مضت ، فاذا بالخطبتين تتطابقان : الا من عبارة واحدة أشار فيها غورست الى الأعوام التى أمضاها فى خدمة الحـكومة المصرية بنظارة ماليتها .

سـياسة الوفاق :

وقد كان مجرد تبديل كرومر بجورست ، علما على رغبة الحكومة الانجليزية فى الاقدام على تجربة جديدة فى مصر ، ولن تلبث هذه التجربة أن تشتهر باسم سياسة الوفاق ، وقصد بها سياسة الوفاق بين الانجليز والخديو .

ولذلك فقد بدأ غورست منذ اللحظة الأولى لاضطلاعه بمهام منصبه يكثر من زيارة الخـديو ، وينتقد أسلوب اللورد كرومر ومنهاجه ، وراح يعرض على الخديو اسماء الانجليز الذى يرغب فى تعيينهم بدل القائمين منهم ، فأقره الخديو على وجهة نظـره .

ولم يكن للانجليز من هدف فى سياستهم الجديدة الا أن يتخذوا من الخديو سبيلا لمقاومة الحركة الوطنية الصاعدة ، ولذلك فقـد أوعز جورست الى الخديو أن لا يعترف بوجود أحزاب فى مصر : وبخاصة الحزب الوطنى .

الدعوة للافراج عن مسجونى دنشواى :

كانت استقالة كرومر بهذا الشكل أو بالأحرى سقوطه ، سببا كافيا لان تقوم فى البلاد دعوة للافراج عن مسجونى دنشواى ، بعد أن ثبت للكافة والانجليز قبل المصريين أن الحكم على المتهمين كان سياسيا ، وحملت اللواء عبء هذه الحملة فى الدرجة الأولى ، فأعدت عرائض لتوقع عليها جماهير الشعب وترفعها للخديو ، وقد بلغ عدة من وقعوا على هذه العرائض ١٢٦٧٠ من المصريين .

وترددت الدعوة فى انجلترا نفسها ، حيث كتب بعض كتابها الأحرار بأنه لا يصلح الخطأ الذى وقعت فيه السياسة الانجليزية فى مصر الا بالافراج عن مسجونى دنشواى .

ويبدو أن السير غورست نفسه ، لم يعارض هذه الخطوة لتكون آية على سياسته الجديدة ، ورغبته فى ارضاء المصريين ، على أن الأمر احتاج الى بضعة شهور قبل أن يتحقق بالفعل .

الاحصاء العام :

نشر فى منتصف شهر مايو الأرقام المؤقتة التى أسفر عنها الاحصاء العام لمجموع سكان القطر المصرى — وقد بلغ عدد السكان ١١٫١٩٢٫٠٠٠ بزيادة قدرها ١٫٤٥٧٫٥٩٥ نسمة عن احصاء سنة ١٨٩٧ .

ويبلغ عدد سكان مدينة القاهرة ٦٤٠٫٠٠٠ نسمة .

وعدد سكان مدينة الاسكندرية ٣٧٦٫٨٣٣ نسمة .

تأليف حزب الأمة :

فى الحادى والعشرين من سبتمبر ، تم تأليف حزب الأمة ، وقد نشرت صحيفة الجريدة الصادرة فى هذا اليوم ما جرى فى الاجتماع التأسيسى ، ونشرت خطاب حسن باشا عبد الرازق ، الذى شرح فيه أهداف الحزب ومنهاجه فكان مما قال :

اسم الحزب :

وقد اقترح بعضنا أن نسمى حزبنا هذا حزب الأمة ، وصادفت هذه التسمية ميلا من كثير منا ، فاتفقنا عليه ، لأن هذا الاسم يؤذن باستقلال الحزب عن كل جهة فى آرائه وأفكاره ، ويعلن أن المراد من تكوينه تكوين شخصية الأمة تستعين بها على الوصول الى مطالبها من الترقى فى سبيل المدنية والاستقلال .

ممن يتكون الحزب :

ان حزبنا يضم بين طرفيه أغلبية رؤساء العائلات فى هذا الشعب ونوابه ، فاذا

عمل أحدنا خيرا لمصلحة الشعب ، فانما يعمل لمصلحته هو وعائلته وذويه ، ان لم نقل انه يعمل لمعنى أرقى من ذلك ، وهو خير الانسانية كلها .

أهـــداف الحــزب :

ان ما نصبو اليه هو الاستقلال ، ولكنه لا يتحقق بالكلمات ولكنه مرتبة لاتدرك الا بقوى متعددة تدفع اليه . وان خطتنا تنحصر فى الصور الآتية :

١ ـ تعضيد التعليم وجعل التعليم الابتدائى مجانيا واجباريا .

٢ ـ الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة بتوسيع اختصـــاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية حتى تصل بالتدريج الى المجلس النيابى الذى يوافق حالتنا السياسية .

٣ ـ ترقية الزراعة عن طريق ترقية الجمعية الزراعية .

٤ ـ عدم اهمال الصناعة والعمل على ترقيتها بفتح المدارس الحرة والأميرية الصناعية

٥ ـ السهر على المصالح التجارية .

مصطفى كامل ينشيء الحزب الوطنى :

فى الثانى والعشرين من أكتوبر ألقى مصطفى كامل خطبته الكبرى التى اعتبرت تاريخيا البدء الرسمى للحزب الوطنى ، فعلى الرغم من أن الحزب الوطنى كان موجودا مذ بدأ مصطفى كامل نشاطه الوطنى ، وتألف من هذا النفر الذى احتاط به وراح يؤيده ويدعمه . وعلى الرغم من أن ظهور جريدة اللواء ، قد زادت فى بلورة هـؤلاء المؤيدين وأوجدت لهم كيانا ، ولكن الحزب بصورته التنظيمية لم يكن قد نشأ بعد ، وعندما برز حزب الأمة فى الوجود ... أصبح لزاما على الحزب الوطنى أن يأخـذ الشكل التنظيمى فكان هذا الاجتماع الكبير الذى عقده مصطفى كامل فى الاسكندرية ، بمجرد عودته من أوربا .

وقد قدر عدد الذين احتشدوا لسماع خطابه التاريخى بهذه المناسبة سـبعة آلاف وقد نشر عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل نص الخطبة ، واعتبرها أعظم ما ألقاه مصطفى كامل فى حياته . وكأنه كان يشعر أنها ستكون آخر خطبة له فى حياته ، ولذلك فقد راح يدفع كل التهم التى وجهت الى حركته الوطنية : من انها حركة جنونية ، أو متطرفة ، أو انها تدعو للتعصب الدينى ، أو لتبعية مصر لتركيا ، أو لاهدار حقوق الأجانب المقيمين فى مصر .

وانتقل من الدفاع الى الهجوم على الاحتلال البريطانى والفوائد المزعومة التى تنسب اليه والتى طالما تشدق بها كرومر وأشباله فكان مما قال :

« يفاخرنا الانجليز بأنهم أغنوا البـلاد وملأوها ذهبا ، فما قيمـة الثروة التى

يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية ، والحرية العمومية وسيادة المصرى فى بلاده واستقلاله فى وطنه .

هل يستطيع الانجليز أن يدعوا انهم رقوا الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء . ونشروا أنوار المعارف بينهم ، وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم .

هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على مجانية التعليم ابتـداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه بعد أن بلغت ميزانية مصر خمسة عشر مليونا من الجنيهات ، على حين كان التعليم كله مجانا فى مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية مصر تزيد على مليونين .

وعلى هذه الوتيرة مضى مصطفى كامل فى خطابه ، وقد احتلت الدعوة للافراج عن مسجونى دنشواى جزء كبيرا من الخطاب .

وقد امتلأت هذه الخطبة بالكثير من جوامع الكلم التى اوثرت عن مصطفى كامل وظلت شعارات ورموز للوطنية تتردد حتى الآن . من ذلك قوله :

— بلادى بلادى لك حبى وفؤادى(١) ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى وعقلى ولسانى ، لك لبى وحياتى ، فانت أنت الحياة ولا حياة الا بك يامصر .
— لو لم أكن مصريا لوددت ان أكون مصريا .
— أن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .
وهكــذا . .

صحيفة الجريدة والبدء فى الخصومة :

وقد بلغ البدء فى الخصومة من رجال حزب الأمة للحزب الوطنى الجديد أن نشرت الجريدة ملخصا لخطاب مصطفى كامل فى هذا الاجتماع تحت عنوان « ناقل الكفر ليس بكافر » .

الشيخ على يوسف يؤلف حزب الاصلاح :

فى التاسع من ديسمبر تألف حزب ثالث أطلق عليه اسم حزب الاصلاح . وكان من الواضح أن الخـديو كانت سياسته الجـديدة تفترق عن سياسة الحزب الوطنى ، كما كانت فى تصادم مع سياسة حزب الأمة ، رأى أن يؤلف حزبا خاصا به فكلف بتأليفه الشيخ على يوسف وقد تألف مجلس ادارة الحزب من على يوسف رئيسا ، وحسن رفقى باشا وأحمد حشمت وكيلين ويوسف بك صديق أمين صندوق ومحمد أفندى مسعود سكرتيرا وحافظ عوض مدير أعمال بالاضافة الى عشرة أعضاء كان من أبرزهم السيد عبد الحميد البكرى وأحمد بك تيمور .

وقد وضع للحزب قانون أساسى مؤلف من أربع مواد :

المادة الأولى : يشكل فى القطر المصرى حزب سياسى يسمى « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » يكون مركزه القاهرة وليست له فروع فى مدن القطر .

المادة الثانية : الغرض من تأليف الحزب ــ تكوين رأى عام بين المصريين مبنى على المبادىء المذكورة فى المادة الثالثة ويكون على الحزب أيضا مساعدة جميع القائمين فى الأعمال السياسية والادارية المنطبقة على تلك المبادىء بكل طرق المساعدة المشروعة .

المادة الثالثة : مبادىء هذا الحزب تنحصر فيما يلى :

أولا : تأمين السلطة الخديوية فيما منحتها اياه الفرمانات الشاهانية من استقلال ادارى لمصر .

ثانيا : الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيقها وفاء بها .

ثالثا : المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

رابعا : أن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجانا .

خامسا : أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس المصرية .

سادسا : أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة والاستحقاق مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان حتى يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم .

سابعا : أن تكون محاكمة الأجانب المقيمين فى مصر جنائيا أمام المحاكم المختلطة الى أن يتم توحيد المحاكم المصرية لجميع سكانها تحقيقا لاعظم مبدأ فى اقامة العدل بين سكان البلد الواحد وهو المساواة أمام القانون .

المادة الرابعة : لا يجوز لهذا الحزب خلط الدين بالسياسة ترويجا لها ، ولكن له الحق فى ابداء رأيه فى أعمال المصالح الدينية ونقدها بما يؤدى الى اصلاح ادارتها كعمل ضرورى للهيئة الاجتماعية .

صحيفة الجريدة تهاجم :

وقد انبرت الجريدة لسان حزب الأمة تهاجم الحزب الجديد ، وما تضمنه برنامجه من تأييد سلطة الخديو ، قائلة ان ذلك هو واجب كل المصريين ، والخديو كأى ملك يجب أن يكون فوق الأحزاب .

الجمعية العمومية للحزب الوطنى :

فى السادس والعشرين من ديسمبر انعقدت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى

دار اللواء ، وبلغ عدد الحاضرين ١٠١٩ عضوا وعدد من أرسلوا يعتذروا مع موافقتهم على ما يتقرر فى الاجتماع ٨٤٦ وبدأ الاجتماع فى الساعة الثالثة ، وتم انتخاب اللجنة الاداريه للحزب فأختير مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، وتألفت اللجنة وقد انتخبا ليكونا وكيلين للحزب ، كما انتخب عمر بك سلطان أمينا للصندوق ، الادارية للحزب من ثلاثين عضوا كان من أبرزهم محمد فريد بك وأحمد باشا فايق محمد حافظ رمضان وغيرهم .

مراسل التيمس والأحزاب :

وقد استوقف قيام ثلاث أحزاب فى مصر فى عام واحد فى مصر ، اهتمام مراسل جريدة التيمس فى مصر فكتب يقول :

ان الحرب الصحفية التى دارت رحاها بين ما يدعى أحزاب الوطنيين لا تزال قائمة بحدة وشدة .

أما الحزب الوطنى الذى تألف فى الواقع عام ١٩٠٦ فقد انقسم الى قسمين حزب المتطرفين برئاسة مصطفى كامل ، وحزب المعتدلين برئاسة الشيخ على يوسف .

وانك لا تجد فرقا بين ما عرضه هذان الصحفيان المتناظران من المشروعات الاصلاحية ولكنهما اختلفا فى أمر واحد وهو ان كامل باشا يطلب جلاء الانجليز عن مصر فى الحال ، وينتقد مخالفيه والحكومة المصرية بلهجة عنيفة .

أما مناظره ــ وهو أوفر حكمة وأكثر خوفا وتدبرا فى سوء العواقب فانه يرى الآن أو يتظاهر أن مسألة الجلاء خارجة عن دائرة السياسيين الممكن تنفيذها ، وينكر على زعيم المتطرفين وأنصاره حدة لهجتهم (وقد كانت لهجته من قبل) ولكن يصح أن يقال أن المؤيد والمنبر وهما لسان حال المعتدلين قد أظهرا تعقلهما السياسى وحكمتهما بسعيهما أخيرا وراء ايجاد تفاهم أفضل وأنفع مع الأمة المحتلة (الانجليز) وأما حزب الأمة الذى تألف حديثا فانه حتى الآن لم يقم بعمل يستحق الذكر ، ولعله أقرب الى المحافظين فى تأثيره على طبقة الملاك لا على طبقة الموظفين والشبان والطلبة والمحامين ، فان من اهتم من هؤلاء الأخيرين بالسياسة كان مناصرا لمصطفى كامل باشا .

تقرير الدون جورست :

تابع الدون غورست سنة كرومر فى رفع تقرير سنوى عن مظاهر النشاط السياسى والادارى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر الى وزير الخارجية اللورد جراى . وعلى الرغم من أن جورست قد خاض فى كل الموضوعات التى كان كرومر يتعرض لها ، ومع ذلك فقد جاء تقريره موجزا نسبيا عن تقريرات كرومر الأخيرة حيث لم تتجاوز صفحات التقرير ٨٦ صفحة ، ويكتسب هذا التقرير أهمية خاصة

من حيث كونه من السير دون غورست عن نتائج الأعمال التى قام بها سلفه اللورد كرومر من قبله وقد أثبت فى التقرير القول الذى لن يلبث أن يصبح مأثورا فى مصر « وهو انجليزى يروح وانجليزى يجىء » فقد استهل تقريره وختمه بالثناء على اللورد كرومر وعلى أعماله العظيمة وأنه لا تبديل أو تغيير فى منهاجه أو مسلكه أو أهدافه .

واليك ما قاله فى مطلع التقرير :

مولاى ..

أتشرف برفع تقريرى عن التقدم الذى تم فى مصالح الحكومة المصرية عام ١٩٠٧ وقد بسط اللورد كرومر الكلام فى تقاريره الثلاثة الأخيرة عن الخطـة العامة التى اتبعت فى ادارة هذه البلاد . نعم ان ذهابه حرم مصر خبرته الادارية العظيمة ومعرفته الدقيقة بحاجات الأهالى ورغباتهم : ولكن لم يغير شـيئا من المبـادىء العومية فى سياسة الاصلاح الادارى التدريجى . التى نالت الاستحسان والمصادقة من الوزارات الانجليزية المتعاقبة ، وعليه فلست أنوى فى تقريرى تكرار ما سبق من الكلام عنـه ، بل حسبى أن أتناول الحديث حيث تركه اللورد كرومر ، وأن أصف بالايجاز التقدم الذى تم منذ ذلك العهد .

وأبى الدون غورست ألا أن يشيد مرة أخرى بكرومر فى ختام تقريره فقال : ان ذهاب اللورد كرومر فى شهر مايو الماضى بعد ما قضى أربعا وعشرين سنة معتمدا لجلالة الملك فى هذه البلاد يعد تاريخا تؤرخ منه الحوادث فى تاريخ مصر الحديث ، وأمست العظائم التى نمت فى تلك المدة من جملة الحوادث والأنباء المسطورة فى تاريخ الدهور . وأقطع دليل على متانة الأساس الذى قام عليه ، ذلك العمل ، ان كل الذين تعاونوا عليه هم واللورد كرومر عقدوا النية على حفظ البناء الذى بنوه بارشاده وتحت ادارته .

واليك بعض ما جاء فى التقرير مما يلقى ضوء على أحوال مصر فى هذه الفترة .

القطن :

بلغت قيمة صادرات مصر فى هذه السنة من القطن المصرى ٦٨٥٩٠٠٠ قنطارا بمبلغ ٢٣٫٥٩٨٫٠٠٠ جنيها وذلك بزيادة ١٦٣ ألف قنطار عن العام السابق .

وبلغ مقدار ما صدر من بذرة القطن ٣٫٩١٩٫٠٠٠ اردب بلغ ثمنها ٢٫٥٥٥٫٠٠٠ جنيها .

التعـــليم :

احتل التعليم ــ وكان قد أصبح الشغل الشاغل للبلاد ــ مكانا هاما ورئيسيا فى التقرير .

وقد بلغ عدد الطلبة الذين تحت ادارة نظارة المعارف راسا أو مراقبتها ٠٠٠ر١٩٢٥ر١ طالب فى مقابل ٢٣٧ر٨٨٢ فى العام السابق .

اهتمام الشعب بالتعليم :

وقد أشاد التقرير بالجهود التى راح الأهالى يبذلونها لتعميم التعليم فذكر أن مقدار ما أنشىء من الكتاتيب باحسان ذوى البر من الأفراد وأريحية أهالى المدن والقرى ١٥٠١ كتابا ثلثيها كبير يسع الواحد منه مائة تلميذ ، وبنى فى مديرية الدقهلية ٣٠٠ كتاب كلفت ١٥٠ ألف جنيه .

وفضلا عن ذلك فقد حركت الغيرة العمومية ذوى الاريحية للوقف على الكتاتيب فبلغ ما دفعه بعض الأفاضل فى القطر المصرى خلال السنوات الأخيرة ٥٥٤ فدانا .

الحساب الختامى :

وواصلت الايرادات ارتفاعها كما ظهر ذلك من الحساب الختامى لهذه السنة :

الايرادات	٠٠٠ر٣٦٨ر١٦ جنيها
المصروفات	٠٠٠ر٢٨٠ر١٤ جنيها
الفائض	٠٠٠ر٠٨٧ر٢ جنيها
مقدار الدين العام	٠٠٠ر٨٣٤ر٩٥ جنيها

١٩٠٨ م – ١٣٢٦ هـ

عام وفاة مصطفى كامل

الافراج عن مسجونى دنشواى :

فى السابع من يناير نفذ أمر الافراج عن مسجونى دنشواى وكان الخديو عباس قد أصدر بناء على طلب الانجليز عفوا عن مسجونى دنشواى فى آخر السنة الماضية وهذا نصه : « بما لنا من سجايا الرأفة والشفقة وبعد أخذ رأى ناظر الحقانية طبقا للمادة ٦٨ من قانون العقوبات وبناء على قبول الحكومة الانجليزية . قد وافق ارادتنا العفو عن التسعة أشخاص المبين أسماؤهم بهذا عن مدة العقوبات المحكوم بها عليهم فى ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٦ من المحكمة المخصوصة التى شكلت بموجب الأمر العالى الصادر فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ واصدرنا أمرنا هذا لعطوفتكم للعمل بمقتضاه .

وكان قد حدد لتنفيذ هذا الأمر عيد جلوس الخديو عباس الذى يقع فى السابع من يناير .

وقد اعتبر الافراج عن مسجونى دنشواى بمناسبة عيد قومى للبلاد اذ أحس الشعب بأنه انتصر ، وان كرامته قد ردت اليه بعد الاذلال . وقد هرع المفرج عنهم الى دار اللواء ليقابلوا مصطفى كامل صاحب الفضل الأول والأكبر فى الافراج عنهم ولكن مصطفى كامل كان طريح الفراش فلم يستطيعوا مقابلته .

وقد اعتبر الافراج عن مسجونى دنشواى بداية سياسة الوفاق التى شرع الدون غورست فى اتباعها لتحسين العلاقات بين السلطات المحتلة والشعب المصرى .

الخديو يدافع عن جورست :

وكانت بعض الصحف الوطنية كالأهرام والمنبر فضلا عن اللواء : لا تفتأ تنتقد أعمال المعتمد البريطانى ، وكانت صحيفة الجريدة بخاصة التى كان يضايقها التقارب بين سلطات الاحتلال والخديو ، ادراكا منها ان ذلك سيكون على حساب أعيان البلاد ، فكانت تستند فى الهجوم على الدون غورست ، وتتهمه بأنه لم ينهج غير سياسة سلفه وهى الحقيقة المؤكدة . كما ذكر هو فى تقريره .

وقد علق الخديو على هذه الحملات ، على ما يقص علينا أحمد شفيق باشا بقوله :

ان الرجل كانت نيته ولا تزال طيبة النسبة لمصر والمصريين ، ولهذا فقد طلب العفو عن مسجونى دنشواى ، ثم انه أظهر للموظفين الانجليز رغبته فى أن يحسنوا معاملة المصريين ، وكذلك ساعدنا على اصلاح الأزهر ، ثم أضاف قائلا : فاذا أفكار المعتمد الجديد بدأت تتغير فذلك من جراء سعد باشا وتشجيعه طلبة الحقوق وغيرهم على التدخل فى الأمور السياسية وانضمامهم للاحزاب ، حتى لقد قال لى جورست : اذا كانت أفكار الطلبة بهذا الشكل فماذا يكون حالهم بعد تقلدهم الوظائف العامة .

وفاة مصطفى كامل :

فى يوم الاثنين العاشر من فبراير الساعة الرابعة مساء ، فاضت روح مصطفى كامل الى بارئها وبهذا هوى نجم الوطنية الذى أطلقه مصطفى كامل فى سماء مصر . وكانت علة المرض قد اشتدت عليه قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال ، فألقى خطابه الخالد فى الاسكندرية مقاوما المرض ، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة اللواء ، وألقى خطبة كأقدر وأقوى خطيب ، واشتد به المرض عقب الاجتماع ، فعاد الى غرفته ولم يغادرها حتى أدركته الوفاة .

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل أو التفكير فيه لحظة ، فأرسل قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير ادوارد حراى فى مجلس العموم البريطانى ، اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيرا من الأمم الأوربية ، وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها .

جنازة مصطفى كامل كحدث قومى :

وقد اعتبرت جنازة مصطفى كامل التى سارت فى اليوم التالى ١١ فبراير حدثا قوميا رهيبا فى حياة مصر ، كشف عن عمق الشعور بالوطنية ومدى تأصله فى مختلف طبقات الشعب .

وحسبنا أن نتصور أن هذا الشعور الجارف ، قد اكتسح فيما اكتسح عداوة حزب الأمة لمصطفى كامل ، فكانت صحيفة الجريدة التى نقلت عنها أكثر من عبارة متطرفة فى التنديد به أثناء حياته ، تتحول فجأة الى أكبر باك ونادب على وفاته ، حتى لتكون هى السابقة فى دعوة الأمة لاقامة تمثال لمصطفى كامل وبدأ صاحبها لطفى السيد بافتتاح الاكتتاب . وليس هناك ما يصور قوة الشعور الدافعة الذى غمر مصر عقب هذه الوفاة .

قالت الجريدة فى عددها الصادر يوم ١٦ فبراير أى بعد انتهاء الجنازة بخمسة أيام ، وهو ما يجعل للقوة دلالة أكبر :

حركة وطنية عالية ومظاهرة قومية مؤثرة شريفة طاهرة تجلت أول أمس فى سماء مصر بأسرها ودلت بالحجة الواضحة على أن الأمة المصرية متضامنة أفرادها ، ولو اختلفوا فى بعض الآراء السياسية أو التحال أو المذاهب ، ولسنا فى حاجة الى ان نرجع بالقارىء لذكرى المشهد العظيم الذى رآه أول أمس ، كيف كانت الأحزاب السياسية كلها مشخصة بأكبر رجالها ، لا يلوى أحدهم عن القيام بأقدس واجب عليه وهو الاعتداد بفضل شهيد العمل لخير البلاد ورافع لواء الحرية فيها مصطفى كامل .

كان مصطفى كامل باشا وشعاره الوطنية ووسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتاباته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى ، فاذا ذكرت مصطفى كامل باشا بخير فانما تطرى الوطنية ، واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل كأنما هو الوطنية والوطنية هو ، وأول شيء على صدق هذه القصة المظاهرة التى لا تعرف لها مثلا ولم نسمع لها بمقارب فى بلادنا . أن يشترك كل أفراد الأمة فى أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة ، مع اختلافهم فيما عداه فهذا هو الدليل على ان الشعور الذى كان يقودهم لم يكن مذهبا سياسيا بل هو أعلى من ذلك بكثير ، وهو التضامن القومى والجامعة الوطنية .

ذلك ما كتبته صحيفة الجريدة عدوة مصطفى كامل ، وأعقبته كما قدمنا بافتتاح اكتتاب لانشاء تمثال له .

وباستطاعتنا أن نتصور ما الذى قالته فى رثائه وتأبينه الصحف الأخرى .

عبد الرحمن الرافعى وجنازة مصطفى كامل :

ولقد ضمن عبد الرحمن الرافعى كتابه عن مصطفى كامل ، وصفا دقيقا شاملا لجنازة مصطفى كامل ، التى اشتركت فيها كل طوائف الأمة ، وقدر عدد المشيعين فيها بـ ٢٥٠ ألف عدا الألوف الذين كانوا على جانبى الطريق وفى نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها وأسطحها ، وفى المنعطفات المترامية الأطراف ، وجملة القول « أن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد ، كانت العين لا تقع فيها الا على أجسام متراصة من المشيعين أو كتعبير المسيو ريمون كولر رئيس تحرير جريدة « ايجبت » فى وصف الجنازة أن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت كأنها فرشت ببساط أحمر ، اشارة الى الطرابيش الحمراء على رؤوس كل المشيعين المتراصة .

قاسم أمين وجنازة مصطفى كامل :

على أن قاسم أمين الذى صور لنا حالة مصر فى حادث دنشواى ، قد لخص لنا مرة أخرى أحاسيسه ومشاعره يوم جنازة مصطفى كامل فقال :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر فى فرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من احشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل .

حفلات ومهرجانات :

وسرعان ما انغمرت مصر فى موجة من حفلات التأبين التى لم تكن فى حقيقتها الا مهرجانات للوطنية الجديدة فى مصر ، وارتفع صوت الشعر كما لم يرتفع من قبل أو من بعد ، ولن تجد مرثية فى تاريخ الشعر العربى الحديث تصل الى مرثية حافظ ابراهيم ، فضلا عن مرثية أحمد شوقى فى مصطفى كامل ، ولم تكن هاتان القصيدتان الا قطرة من بحر الشعر الذى تدفق بهذه المناسبة .

يقول حافظ ابراهيم :

أيا قبــر هــذا الضــيف آمال أمة	فكبر وهلل والقى ضــيفك جاثيــا
أيا قبر لــو انا فقــدناه وحــده	لكان التآسى من جوى الحزن شافيا
ولكننــا فقدنا كل شيء بفقــده	وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيــا

ويمضى الشعر الحزين الهادر ، ولكن صوت الأمل لا يلبث أن يعلو على الصــوت الحزين فيقول حافظ فى قصيدته :

شهيد العــلا لا زال صوتك بيننا	يرن كمــا قد كان بالأمس داويا
يهيب بنــا هذا بنــاء أقمتــه	فــلا تهــدموا بالله ما كنت بانيــا
يناشـــدنا الله الا تفــرقوا	وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا

ويصل حافظ ابراهيم الى الذروة عندما يقول :

بنــاؤك محفوظ وطيفــك ماثل	وصوتك مسموع وان كنت نائيــا
عهــدناك لا تبكى وتنكر أن ترى	اخو البــأس فى بعض المواطن باكيــا
فرخص لنــا اليوم البكاء وفى غد	ترانا كمــا تهــوى جبــالا رواســيا
فيا نيــل ان لم تجر بعــد وفاته	دما أحمرا لا كنت يا نيــل جاريا

ومرثية شوقى :

والحق أن الانسان ليحار اذ يتصور أن حافظ ابراهيم قد وصل فى مرثيته الى حد الاعجاز من حيث عمق الشعور ورقته ، فماذا يقول فى مرثية احمد شوقى ، وكأنها شيء يعلو على القول والتحليل . وتبدأ القصيدة متثاقلة بالرغم من ضخامة معانيها وجزالة ألفاظها عندما يقول :

المشرقان عليــك ينتحبــان	قاصــيهما فى مأتم والــدان
يا خادم الاســلام أجر مجــاهد	فى الله من خلــد ومن رضــوان
لمــا نعيت الى الحجاز مشى الأسى	فى الزائرين وروع الحــرمان

ولكن عاطفة شوقى لا تلبث أن تتدفق فيلحق بركاب حافظ ابراهيم عندما يقول :

جار التـــراب وأنت أكرم راحـل — ماذا لقيت من الوجـــود الســانى
ابكى صـــباك ولا أعاتب من جنى — هـــذا عليـــه كرامـة للجــانى
يتســاءلون أبالســـلال مضيت أم — بالقـــلب أم هـل مت بالسرطان
الله يشـــهد أن موتك بالحجـــا — والجـــد والاقـدام والعـــرفان
يا طاهر الغـــدوات والروحات — والحظـرات والاسرار والاعـلان
هل قام قبـــلك فى المـدائن فاتح — غاز بغـــير مهنـــد وســـنان

ثم يكتسح شوقى لا حافظ ابراهيم فحسب ، بل كل من سبقه أو لحقـه من شعراء العربية ، عندما يصور لنا الأيام الأخيرة لمصطفى كامل :

ولقـــد نظرتك والردى بك محدق — والداء ملأ معـــالم الجثمـــان
يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل — قلق وساعات الرحيـــل دوانى
ونواظر العـــواد عنـــك أمالها — دمع تعـــالج كتمــــه وتعـــانى
تملى ونكتب والمشـــاغل جمـــة — ويداك فى القرطاس ترتجفـــان
فهششت لى كأنـــك عائـــدى — وأنا الذى هد الســـقام كيـانى
وجعلت تســـألنى الرثاء فهـاكه — من أدمعى وسرائرى وجنـــانى
لولا مغـــالبة الشجون لخاطرى — لنظمت فيـــك يتيمـة الأزمان
وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت — فتعـود ســـيرتها الى الدوران

دقات قلب المرء :

واذا كانت قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل من أعظم ما عرف الشعب العربى فلم يكن عجبا أن يحار النقاد أى أبياتها هو بيت القصيد .

ومع ذلك فقد ارتفع فى القصيدة بيتان يمكن أن يعتبرا من أعظم ما قيل فى الشعر العربى على مر العصور وهما :

دقات قلب المرء قـــائلة لـــه — ان الحيـــاة دقـائق وثـــوان
فارفع لنفسك بعـد موتك ذكرها — فالـــذكر للانســـان عمـر ثان

فهرس عام

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع

ان كان في العمر بقية

أحمد حسين

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الرابع

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

رقم الايداع بدار الكتب ٥٨٨٥ / ١٩٧٨
الترقيم الدولى x – ١٣٠ – ٢٩٦ – ٩٧٧ ISBN

مقدمة
الجزء الرابع
من موسوعة تاريخ مصر

عندما أصابنى مرض الشلل الكلى فى أكتوبر ١٩٦٩ لم أتصور أننى سأعيش فضلا عن أن يكون فى قدرتى أن أمضى فى اكمال الموسوعة التى كانت قد وصلت الى فبراير ١٩٠٨ ولكن ها قد شاءت ارادة السميع العليم أن أمسك القلم من جديد فى ابريل سنة ١٩٧٤ لأستأنف الكتابة فى الموسوعة من حيث توقفت .

فما دام الله قد شاء لى الحياة حتى الآن وأبقى لى عقلى والقدرة على الكتابة سليمين فقد أصبح ذلك بمثابة تكليف أن أواصل العمل ، ومع ذلك فقد ترددت كثيرا فى محاولة اكمال الموسوعة ، الى ان كان يوم العاشر من رمضان (٦ أكتوبر) ومعركة العبور المجيدة فردت الى كل حيويتى الفكرية وتفاؤلى وتذوقى لنعمة الحياة فاستقر رأيى على أن أستأنف العمل فى الموسوعة ما شاء الله لى أن أعمل .

النقص والتعويض :

أما الذى كان يجعلنى أتردد فى اكمال الموسوعة من حيث توقفت فذلك أننى كنت قد قررت بالنسبة لتاريخ مصر الحديث أن أعتمد اعتمادا كليا على الصحف وهو ما يتجلى أثره فى الجزء الثالث فى المدة من أيام محمد على . وقد كان الاطلاع على الصحف يتطلب منى رحلة يومية الى (القلعة) حيث شاءت دار الكتب ان تخزنها هناك . فلما أن أصبت بالشلل أصبح من المتعذر أن أواصل الاطلاع على الصحف ، ونظرا لشديد حرصى على أن يكون عملى محققا لهدفه قدر الامكان ، فقد رأيت فى عدم اطلاعى على الصحف نقصا يحرمنى من « الجو » الذى كانت تعيش فيه مصر فى تلك الأعوام ومن هنا كان التردد ، ولكن عندما صح منى العزم بعد ٦ أكتوبر على المضى فى الموسوعة ، سرعان ما تبينت ان هذا النقص فى الاطلاع على الصحف ، يعوضه أننى لن ألبث أن أولد (٨ مارس ١٩١١) أى اننى سأصبح معاصرا للاحداث، واذا كانت السنوات الأولى من طفولتى من شأنها ألا تجعلنى واعيا لما يجرى من حولى فمن حسن الحظ أن الصحف الوطنية باعتبارها مرآة الراى العام كانت قد توقفت بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وفرضت الرقابة العسكرية على الصحف ، وتجمدت الحياة فى مصر طوال مدة الحرب ، فلما أن انتهت وشبت فى مصر ثورة سنة ١٩١٩ المجيدة كنت قد بلغت ثمانى سنوات وكنت طالبا فى المدرسة

الابتدائية ، فساهمت بهذه الصفة فى الأحداث الجارية ومما زاد فى احاطتى بمـا يجرى ان أصحاب الحرف والدكاكين الذين كانوا يجاورون منزلنا انتـدبونى لأقرأ لهم الصحف يوميا (نظرا لجهلهم القراءة) وهكذا منـذ وقت مبكر جدا أى منـذ قرابة ستين عاما كنت منخرطا فى الحياة العامة ملما بما يدور فى صحف هذه الفترة (النظام ــ الأهالى ــ الأفكار ــ وادى النيل ــ الأخبار ــ السيف والمسامير) وظللت اتابع المسيرة ، مختلطا بكل احداث مصر وتطوراتها السـياسية والاجتماعية ، فاستمعت الى سعد زغلول خطيبا فى السرادق المقام الى جوار بيت الأمة ، وشهدته وهو يدير مجلس النواب بصفته رئيسه ، وفجعت كملايين المصريين يوم وفاته ، وصفقت مع المصفقين لخليفته مصطفى النحاس حتى بلغ بى الأمر أن أقول مع القائلين بأن مصطفى النحاس أعظم من سعد زغلول فلما أن وصلت الى التعليم العالى بدات اشارك بطريق مباشر فى الحيـاة العامة فجعلنى ذلك بطريقة آلية أتصل بأحداث ما قبل سنة ١٩١٩ اذ اعتبر الكثيرون فى مصر أن حركة مصر الفتـاة هى بعث أو امتداد لحركة مصطفى كامل فهو القائل (أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة) وعندما أردنا أن نحصل على جريدة بهذا الاسم كان علينا أن نحصل على تنازل عن هذا الاسم من اولاد « سيد على » (١) احد تلامذة مصطفى كامل وكان يصدر جريدة بهـذا الاسم .

وقد شاءت الظروف ان يكون الأستاذ « عبد الخالق فريد » ابن الزعيم محمد فريد من زملائى فى كلية الحقوق والأستاذ ناصر شاويش ابن عبد العزيز شاويش من معارفى ، أما على الغاياتى والذى كان محور الأحداث السياسية عامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ فقد أصبح من أعز أصدقائى ، وقد جمعنى الكفاح السياسى بكل رجالات مصر الذين اشتغلوا بالحياة العامة فى هذه الفترة التى يفتتح بها هذا الجـزء من الموسوعة من أمثال لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعبد الرحمن الرافعى ومحمـد رشيد رضا من ناحية وعزيز المصرى وعبد الرحمن عزام وصالح حرب ، ومحمـد على الطاهر من ناحية أخرى .

حتى الأحداث البارزة والتى تمت فى طفولتى لا تزال ذاكرتى تختزن صورها ، فعندما مات السلطان حسين فقد شهدت جنازته وكذلك محمد فريد مما سـوف اسجل خواطرى حياله فى موضعه ، حتى خلع الخديو عباس وتعيين السلطان حسين كامل فلست أذكره فحسب بل وكان لنا نصيب فى حكمه اذ ألحق والدى باعتباره كاتب حسابات « بالمعية » وبهذه الصفة كنا نسافر صيف كل عام الى الاسكندرية ، وعندما عين أحمد فؤاد سلطانا نقل والدى الى وزارة المـالية .

---

(١) والد المذيع المشهور « احمد سعيد » منشىء صوت العرب .

أحداث الحرب :

ولقد عشت كل تأثيرات الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها على مصر ، ابتداء من ترقب حضور الخديو على راس حملة تركية لغزو مصر ، فقد كانت لعبتنا المفضلة آنذاك أن نتصايح « الله حى .. عباس جى » كما كانت روح الوطنية تتجلى فى الصيحة الأخرى « يا عزيز كبه تاخذ الانجليز » .

وما زال الحديث عن مشاكل التموين « والبصاصين » اى رجال البوليس السرى ، والتحاق الشباب للعمل ابان الحرب « فى السلطة العسكرية » اما على سبيل الجبر أو الاختيار ليس بعيدا عن ذاكرتى فقد كان أخى الشقيق مصطفى أحد هؤلاء الذين غادروا المدرسة (بعد حصوله على الكفاءة) ليلتحق بالسلطة .

وهكذا رأيت أن ما نقص من اطلاعى على الصحف يعوضه أننى عاصرت الأحداث بالفعل على ان ما لا يدرك كله لا يترك جله كما يقولون فقد حرصت ان احصل عن طريق الكتب ما يشير الى حركة الصحافة فى الفترة التى سبقت ميلادى ووعيى بعد ذلك فوجدت بغيتى فى ثلاثة مصادر :

١ - كتب المرحوم عبد اللطيف حمزة استاذ الصحافة ، وخاصة كتابه عن الشيخ على يوسف ، وكم أحسست بالخجل بعد ان فرغت من مطالعة الكتاب وتذكرت كيف ان القدر جعلنى فى مستهل حياتى السياسية أبدأ نشاطى فى ذات المكان الذى كان الشيخ على يوسف يزاول عمله فيه باصدار جريدة المؤيد (عمارة المؤيد بشارع محمد على) فلم يكن هذا القول يحرك أى خلجة فى نفسى ، وليس الا بعد هذا العمر وبعد الاطلاع على التاريخ لجريدة المؤيد وللشيخ على يوسف بالذات ما يشعرنى بمدى ما كنت عليه من جهل وتقصير .

٢ - اما المصدر الثانى لمتابعة سير الصحافة فى هذه الفترة فكتاب الدكتور ابراهيم عبده عن جريدة الأهرام .

٣ - موسوعة الأستاذ أنور الجندى عن الحياة الأدبية والفكرية فى مصر (القسم الخاص بهذه الفترة) . وأخيرا - كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن محمد فريد حيث سجل أهم المقالات .

بيان لا بد منه :

بقيت مسألة لا مناص من الاشارة اليها ، وهى أنه باقتراب التاريخ الى احداث عاصرتها فقد بدأت استفيض فى تسجيل وجهة نظرى ولكنى كنت حريصا كل الحرص على أن أسوق أولا الوقائع مجردة وأن أسجل وجهات النظر المتعارضة وبعد ذلك أقول رأيى ، وعلى كل فما من مؤرخ مهما ادعى التجرد الا وهو متأثر بوجهة نظره ومزاجه وهذا حقه شريطة أن لا يخفى أية حقيقة تاريخية وقعت تحت انظاره .

ولست اعرف الى اى مدى سيقدرنى الله على المضى فى هـذه الموسوعة ولكن الشىء المحقق أنها يجب أن تقف عنـد أكتوبر سنة ١٩٣٣ ففى هـذا التاريخ أنشئت مصر الفتاة ، وبدأت أقوم بدور مباشر فى الحياة المصرية فأصبحت أنظر الى الأمـور من وجهة نظرى ٠

ولذلك فهـذا القسم يغطيه ما أكتبه عن تاريخ حيـاتى السياسية أما المدة منذ عام ١٩٥٦ فهذه تغطيها مذكراتى التى رحت أكتبها بانتظـام منذ هـذا التاريخ حتى اليوم ٠

أحمد حسين

* * *

الروضة ١٩٧٨/١١/٢١

عام ١٩٠٨

كان أهم حدث فى مستهل العام كما رأينا هو وفاة مصطفى باشا كامل باعث الوطنية المصرية بصورتها الحديثة لمقاومة الاحتلال الانجليزى ، ولم يغادر مصطفى كامل الحياة الا بعد أن كان قد تألف فى مصر أحزاب سياسية ثلاثة :

١ ــ الحزب الوطنى وكان مصطفى كامل يرأسه وكان يعتمد على صحف الحزب وعلى رأسها جريدة اللواء .

٢ ــ حزب الاصلاح وكان الشيخ على يوسف يرأسه ويعتمد على جريدة المؤيد

٣ ــ حزب الأمة وكان رئيسه محمود باشا سليمان ، ويعتمد الحزب على جريدة « الجريدة » وكان يرأس تحريرها لطفى السيد (١) .

١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ :

محمد فريد ومصطفى كامل :

كان على محمد فريد بصفته الصديق الصدوق لمصطفى كامل من ناحية ، وبصفته وكيل الحزب الوطنى من ناحية أخرى أن يكون هو أول من ينعيه للأمة ويقيم دوره الوطنى والسياسى وهو ما فعله محمد فريد بالفعل . ولما كانت المعانى التى تضمنها هذا البيان قد تكررت بتطويل وتوسع فى الخطاب الذى ألقاه محمد فريد بعد ذلك بأيام بمناسبة انتخابه رئيسا للحزب فنحن نكتفى باثبات نص هذا الخطاب التاريخى فى حينه منعا للتكرار .

١٤ فبراير : انتخاب محمد فريد رئيسا للحزب الوطنى :

توفى مصطفى باشا كامل فى ١٠ فبراير كما قدمنا ، وكان الشغل الشاغل بطبيعة الحال هو هذه الجنازة التى لم تشهد البلاد مثيلا لها من قبل ، والتى اعتبرت بحد ذاتها مظهر يقظة الأمة وتمسكها بكل ما دعا اليه مصطفى كامل ، وليس أدل على ذلك

---

(١) راجع فى تفاصيل ذلك كله « الجزء الثالث » وكل ما يتصل بحادث وفاة مصطفى كامل .

من اجماع الحزب الوطنى على انتخاب محمد فريد رفيق جهاده وحامل لوائه ولم تمض أربعة أيام على وفاة مصطفى كامل ، حيث اجتمعت الجمعية العمومية للحزب بدار اللواء وانتخبت محمد فريد رئيسا للحزب بالاجماع ، وحـل فى مركز الوكالة على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ، وقد كان أول عمل قام به محمد فريد بعد انتخابه رئيسا للحزب ان طلب من الجمعية العمومية ، ان تعدل فى قانون الحـزب النص الذى يقضى بأن رئاسة الحزب « مدى الحياة » واعتبر ان هـــذا النص كان خاصا بمصطفى كامل وطلب ان تكون رئاسة الحزب لمدة ثلاث سنوات كبقية اعضاء اللجنة الادارية . وكان محمد فريد قد ألقى عند افتتاح الجمعية العمومية خطـابا نرى ان نثبته بنصه باعتباره وثيقة هامة تلخص كفاح مصطفى كامل ومدى العـلاقة الوثيقة التى ربطت بين الرجلين وكان عمر محمد فريد يوم انتخابه رئيسا للحزب ٤٢ سنة فقد ولد عام ١٨٦٨ فى ٢٠ يناير من هذه السنة (٢٥ رمضان ١٢٨٤) قبل ميلاد مصطفى كامل بنحو سبع سنوات وكان والده أحمد باشا فريد من كبراء رجالات مصر المعدودين وقد أختير عام ١٨٨٦ ليكون ناظرا للدائرة السنية وهو احد المراكز الحساسة كما مر بنا .

نص خطاب « محمد فريد »

اخوانى الأعزاء : ان هذه لهى المرة الأولى التى أتشرف بالوقوف فيها امام مثل هذا المجتمع الرهيب ، وكنت أود ان لا اقفه بل كنت افضل انى لم أكن فى يومنا هذا شيئا مذكورا ، لأنه ما حدا بى الى هذا الموقف الا وفاة صـــديقى الحميم (رئيسى ورئيس الحزب الوطنى ، المغفور له مصطفى باشا كامل) قضى رحمه الله فى عنفوان شبابه ، بعد ان حرك من الأمة كل ساكن ، وبث الأمل فى قلب كل يائس ، حتى قامت معه الأمة تطالب بحقوقها المهضومة وما كان ليجرؤ احد قبله أن يقول بلادى ، فقام هو ولم يتجاوز التاسعة عشرة ، واتى بما لم يخطر على قلب كل مصرى من الشجاعة والاقدام ، فى وجه الحكومة الانجليزية ولم ترهبه سطوة عميد الاحتلال فى جبروته ، ولم يقعده عن المسير فى الخطة الشريفة التى رسمها لنفسه التهـديد بالنفى ، أو الانتقام منه فى شخص أعز عزيز لديه وهو شقيقه على بك فهمى : وحادثته معلومة مشهورة ، كتب الى اللورد كرومر يطلب منه الانتقام منه شخصيا ولا يؤاخذ أخاه بجبروته ، ان كانت المطالبة بحقوق الوطن تعتبر جريرة لا تغتفر فى نظره .

عرفت المرحوم أيام انشأ مجلته الصغيرة (المدرسة) ، ثم تأكدت الصداقة بيننا منذ سنة ١٨٩٥ ، حيث تقابلت معه ببـاريس قبل أن يلقى أول خطبه السياسية فى مدينة تولوز فى ٤ يولية من تلك السنة ، ومن ذلك العهد الى آخر نسمة من حياته لم يكدر صفو صداقتنا حادث .

فان بكيته اليوم فانى أبكى أعز صديق لدى ، وان تكلمت عنـه فانى اتكلم عن معـاشرة دامت خمســة عشر عاما بلا فاصل ، وكنت أرافقه الى أوروبا فى أغلب

أسفاره ، وقد عرفنى بأصدقائه ومراسليه من رجال السياسة بأوروبا وكانت آخر سياحة لى معه فى الشتاء الماضى (١) حيث سافرنا الى باريس ولوندره لانتقـــاء محررين لجريدتى اللواءين الفرنساوى والانجليزى ، وتعيين مراسلين لهما ، والاتفاق مع أشهر الكتاب على التحرير فيهما ، وفى هذه الرحلة دب الى جسمه دبيب المرض فلازم الفراش مدة ، عاده فيها الدكتور روبان الشهير ، ونصحه أمامى بعدم اجهاد قواه فى العمل ، وأن يتقى الله فى نفسه ، فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، وفى أمته فلا يحرمها من وجوده حتى يتم مهمته التى وقف حياته عليها ، ولكن اتت نصيحة الطبيب بعكس ما كنا ننتظره ، فانه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واســتعداده للأمراض الفاتكة أسرع الخطى وضاعف الجهود ، فأتم معدات اللواءين الفرنساوى والانجليزى حتى ظهرا فى ٢ مارس سنة ١٩٠٧ ، وأخذ يستعد لتنظيم الحـزب الوطنى ووضعه على قوائم ثابتة ، حتى اذا لم يكن فى عمره متسع لا يخشى عليه من الانحلال لا سمح الله ، ولما عاد من أوروبا وقد زادت علامات الضعف ظهورا على محياه ، القى بالاسكندرية فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ خطبته المشهورة التى أعلن فيها مبادىء الحزب ، فدوى صداها فى الخافقين ، واهتزت لها قلوب المصريين ، وأظهرت الأمة ميلها ورغبتها فى الالتفاف حوله حتى لم يأت موعد انعقاد الجمعية العمـومية للحزب الا ولديها طلبات للانضمام تعد بالألوف ، وفى هذه الأثناء زاد عليه المرض ، وكلما شعر بازدياده زاد اهتماما ، مضحيا حياته لاتمام العمل الذى بدا فيـه من خمس عشرة سنة . فخطب يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ آخر خطبة له ، ولم يزل صدى صوته الجهورى يرن فى أعماق قلوبنا ، كأنه يخطب بيننا الآن ، ومن ذلك اليوم عاد الى غرفته ، ولم يفارقها الا محمولا على الأعناق ، تشيعه زفرات الباكين وعويل المنتحبين من جميع طبقات الأمة رجالا ونساء .

نعم ان ألم فراقه لشديد ، وكيف لا يكون كذلك وقد كان لا يفتر وهو عـلى سرير مرضه عن الاهتمام بشئون الحزب وجرائده ، فيكتب حتى اذا ما خانته قواه كان يملى على شقيقه أو أحد أصدقائه ما يريد ، فرحمة الله عليه .

نعم ان ألم فراقه لشديد ، ولكن لنا فى احتفال الأمة جميعها بجنـــازته بعض التأسى ، اذ ثبت للخافقين أنها كلها متحدة على الولاء له متضافرة على تنفيذ مبادئه .

ومما يجعل الأمل فى المستقبل وطيدا قيام هاتيك الشبيبة ، شـبيبة المدارس على اختلاف طبقاتها ، من عاليه وثانوية وابتدائية ، وهجرها دور المدارس بلا تأثير خارجى أو باعث سوى جزعها على من كان قائدها وقائدنا فى المطالبة بحقوق البلاد ، ورغبتها فى اظهار تعلقها بمبادئه الشريفة ، ولم يقعد هؤلاء الشبان رجال المستقبل عن تشييع جنازته وعيد أو ارهاب أو مخافة عقاب .

---

(١) ديسمبر سنة ١٩٠٦ .

ان جميع من رأوا هؤلاء الطلبة سائرين جماعات منتظمة أمام كل جماعة منها العلم مجللا بالسواد ، ومن سمع زفرات الجموع وعويلها فى دار الفقيد عند خروج نعشه ، وعلى امتداد الطريق ، وعند وضعه فى قبره ، تأكدوا أن البذور التى ألقاها رئيسنا المرحوم منذ خمسة عشر عاما قد نبتت ونمت ، واننا سنجنى ثمار أتعابه فى زمن أقرب مما كنا نؤمل باذن الله .

نعم ان الدموع التى سكبت من يوم وفاته الى اليوم والتى روت جدثه يوم دفنه لكافية لارواء هذا النبت وتغذيته ، فهى اقوى سماد طبيعى ، مات رئيسنا فى ساحة الوغى ، كالقائد يعالج سكرات الموت ، ويده تشير الى جنده بالتقدم الى الأمام ، ولسان حاله يقول : لا ينسينكم موتى مركزنا الصعب ، بل سيروا بكل شجاعة واقدام واحملوا من يعترضكم فى طريقكم ، حملة الأسد يدافع عن عرينه ، والوالدة عن فلذة كبدها ، ولا يصدنكم عن التمسك بحقوقكم والمطالبة باستقلال بلادكم وعد او وعيد ، ولا تفرقوا فتفشلوا ، وكونوا عباد الله اخوانا .

أيها الرئيس الغائب بجسمه ، الحاضر معنا بروحه ، قد سمعنا قولك وانتصحنا بنصحك ، فاجتمعنا اليوم لنبرهن للعالم أجمع ان عملك دائم باذن الله وأنا سائرون فى الطريق التى فتحتها أمامنا ، وضحيت زهرة شبابك فى تمهيدها ، فنم فى أمان الله ورضوانه ، وفى الختام هلموا بنا نبتهل الى الله ان يمدنا بروح منه ، ويوفقنا الى ما فيه الخير والفلاح ، وقولوا معى : لتحيى الأمة : ليحيى الوطن لتحيى ذكر مصطفى كامل باشا » .

مذكرات محمد فريد :

وقد تحدث محمد فريد عن واقعة انتخابه للرئاسة ، وأن الخديوى عباس الثانى قد بذل جهدا للحيلولة دون ذلك واليك نص ما قال :

من يوم وفاته (أى مصطفى كامل) ابتدأ الخديوى يدس دسائس لانتخاب رئيس يكون طوع أمره ليستعمله فى أموره الشخصية وليحارب به الانجليز فأرسل رجاله فى الجنازة والمأتم وحتى الشيخ على يوسف عدو مصطفى والمنافس له فى جميع أموره حضر المأتم فى الليالى الثلاث الأول وكذا عرفى باشا ورجاله أيضا وأخذوا يرشحون من يتوسمون فيهم الطاعة من الرؤساء مثل يوسف المويلحى أو عرفى باشا وبعضهم رشح الشيخ على يوسف نفسه ، كل هذا لم يفد .

وفى يوم انعقاد الجمعية العمومية التى كانت دعوتها يوم ١٤ فبراير أى بعد الوفاة بأربعة ايام انتخبت بالاجماع . وممن لعبوا دورا مهما فى هذه المسألة بايعاز الخديوى على بك فهمى كامل فانه كان يريد أن ينتخب بصفته اخا للفقيد فجهز أوراقا مكتوبا عليها اسمه ووزعها على بعض الحضور وادخل فى الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة من وضعهم عند الباب من رجاله ، ولكنه لما راى التيار قويا ضده حول الدفة وخطب فى الحضور مرشحا لى بناء على جواب كان كتبه له أخوه من أوروبا

يوصيه فيه بانتخابى رئيسا لو فاجاه القدر المحتوم ، كان رجال الخديوى اثناء هذه الحركات يترددون على على فهمى (اخو مصطفى كامل) ويشجعونه على السعى فى أن ينتخب واعدينه بمساعدة الخديوى المادية والأدبية وهو لطمعه وحبه للمال كان يميل الى وساوسهم ولكنه خاب .

يوم انتخابى طلبنى الخديو عباس الثانى بالتليفون فتوجهت الى سراى عابدين بعد الظهر فقابلنى على الفور وهنأنى بكل لطف مؤملا الخير الكثير من وجودى فى مراكز الرئاسة ، من عباراته هذه الجملة أو معناها « ان وجود مثلك على رأس الحركة الوطنية مفيد جدا لأنك لست محتاجا ولا طالبا للمال ، ولأنك من عائلة خدمت البلاد ووالدك كان مشهورا بالعفة والصدق والاخلاص ، ولايمكن للانجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة .. الخ من هذه العبارات اللطيفة ، ثم سألنى عن الجرائد فأخبرته بأنها ستسير باذن الله واننا وضعنا نظاما يساعد على بقائها ، ثم عرض على استعداده للمساعدة بالمال فرفضت حتى لا أكون أسيره وطوع أمره وانصرفت .

رأى الرجل عقب ذلك بأننى لست من يطيعون أوامره اطاعة عمياء فأخذ يدس الدسائس لاسقاطى من جهة ويظهر لى التودد من جهة أخرى مما سيأتى شرحه تفصيلا .

عبد الرحمن الرافعى ومذكرات محمد فريد :

تجاهل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى مذكرات محمد فريد ، وحرص على ان يصفها انها مكتوبة فى « خمسة كراريس » بل وحرص على ان يقول انها تنتهى عام ١٨٩٧ م ورجح ان تكون بقيتها قد فقدت .

وعبد الرحمن الرافعى لقرب عهده من هذه الحوادث التى ساهم فيها كتب ما كتب من تاريخ الوطنية المصرية الحديثة هادفا من وراء ذلك الى ابقاء جذوة الجهاد ضد الانجليز متقدة فقد كانوا لا يزالون محتلين للبلاد ، وقد كنت أنا واحدا ممن تأثروا بكتبه وأسهمت فى تكوين مزاجى الوطنى ، أما الآن وقد أوشك أن ينقضى قرن على ميلاد محمد فريد ، وقد جلا الانجليز عن مصر ولم تعد قضية الاحتلال الانجليزى هى شغل مصر الشاغل ، فنحن نستميح استاذنا الرافعى فى ان نعتمد على مذكرات محمد فريد من الآن والى قبيل وفاته ، وليس يقلل من شأن هذه المذكرات أو يضعف من حجيتها ما نحسه فيها من مرارة ومعاناة وتشكك فى اخلاص كثير من الأسماء اللامعة فى تاريخ الوطنية المصرية ، بل لعلها لو لم تكن كذلك لشككنا فى صحتها ، فلسنا نحسب أن كثيرين لاقوا ما لاقاه محمد فريد فى حياته ، وظل هو كالطود الراسخ لا يتزعزع ولا يلين ولا ينثنى ، وهو فى نهاية الأمر بشر فلا لوم عليه ولا تثريب اذا راح يسكب فى مذكراته خلجات نفسه ، وهى آية ما كانت تنطوى عليه نفسه من صدق واستقامة .

مذكرات احمد شفيق باشا :

انظر الى محمد فريد وهو يسجل فى مذكراته اقوال الخديو عباس الثانى ، وهو يهنئه بمناسبة انتخابه رئيسا للحزب الوطنى ، وما سجله احمد شفيق باشا الذى كان لصيقا بالخديو ، فى مذكراته عن هذه المقابلة ، تجد تطابقا عجيبا يصل الى حد استعمال نفس الألفاظ ، ولقد كتب كلا من الرجلين ما كتب ، كلا فى منأى عن الآخر فى الزمان والمكان والهدف من الكتابة ، فعندما يتطابق القولان فهذا هو الدليل على أمانة الرجلين ، ودقة سردهما للوقائع من ناحية أخرى .

قال شـــفيق باشـــا :

وبعد وفاة مصطفى اهتم الخديو بانتخاب من يخلفه فى رياسة الحزب الوطنى حتى كان يوم ١٤ فبراير حيث عقدت الجمعية العمومية للحزب فانتخب محمد فريد بالاجماع وطلبه الخديو فهنأه وشجعه على الاستمرار فى خطة سلفه منوها بحســن مركز عائلته المـادى والأدبى وأنه ليس فى حاجة الى منصب أو مادة وبهـــذا سيكون وجوده فى رياسة الحزب مفيد جدا . وقد هنأته بدورى ايضا .

الدعـــوة الى الجـلاء :

لم يضيع محمد فريد يوما ، بل ساعة واحدة فى اظهار عدائه للاحتلال البريطانى فكان اول عمل قام به هو ارساله برقية احتجاج للسير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا لاحتلالها مصر وهذا هو نص البرقية :

لنـــــدن

الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا وكلفتنى بأن أجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى انجلترا بعهودها .

محمـد فريد

رئيس الحزب الوطنى

وهذه البرقية بكل بساطة افهمت الحكومة البريطانية ان موت مصـــطفى كامل قد أزكى لهيب المطالبة بالجلاء ولم يضعفه كما كانت تتصور .

٢٤ فبراير : طلب الغاء المحكمة المخصوصة :

كان الاحتلال قد حمل الحكومة المصرية على اصدار ديكارتو (قانون) بتـأليف محكمة مخصوصة ، لمحاكمة من يتهم بالتعدى على جنود الاحتلال ، وقد كانت هذه هى المحكمة التى لعبت هذا الدور الشاذ فى دنشواى ، مما ترتب عليه كل هذا الذى تحدثنا عنه تفصيلا فى حينه (١) ، هـــذه هى المحكمة التى طالب الحزب الوطنى بالغائها ، وقد كانت هذه الطلبات والاحتجاجات تنشر فى الصحف ويتلقفها الناس فتؤجج حماسهم ، واليك النص .

(١) راجع الجزء الثالث

مولای (یعنی الخدیو) :

اتشرف بأن ارفع الى مقامكم السامى أن اللجنة الادارية للحزب الوطنى كلفتنى فى جلستها المنعقدة بتاريخ أمس أن نلتمس من سموكم باسم الحزب الوطنى اصدار أمركم العالى بنسخ (٢) (الدكريتو الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتشكيل المحكمة المخصوصة التى لها فى نفوس المصريين وقع اليم ، خصوصا بعد حادثة دنشواى المشئومة ، حتى يمحى ذكرها ويزول أثرها وقد شمل عفوكم الباقين من شهدائها على قيد الحياة ، فليكن فى الغائها بعض السلوى والعزاء لأقارب من شنقوا بناء على حكمها فتندمل كلومهم ، وترتاح نفوسهم ، وبكل أدب واحترام ارفع هذا الالتماس الى مقامكم الرفيع ومازلت المخلص .

محمد فريد
رئيس الحزب الوطنى

٢٦ – فبراير المسألة الدستورية :

كان مما يشغل الأذهان المسألة الدستورية بمعنى ان تحكم البلاد بواسطة ممثلى الشعب واذا كان الحزب الوطنى قد ركز اهتمامه فى المطالبة بالجلاء فقد كان الحزبان الآخران (حزب الاصلاح ورئيسه الشيخ على يوسف ، وحزب الأمة وزعيمه الروحى لطفى السيد) قد ركزا اهتمامهما بالدرجة اولى على الدستور ومن هنا سنرى الحزب الوطنى بدوره سرعان ما أدخل هذا الموضوع فى دائرة اهتمامه وسيلة لمقاومة الاحتلال فنرى فى ٢٦ فبراير على صفحات اللواء نص عريضة اعتزم الحزب الوطنى أن يرفعها الى الخديو للمطالبة بالدستور بعد أن يوقع عليها عشرات الألوف من المصريين من أصحاب الرأى والفكر ، وقد كان السبب المباشر الذى أدى الى تحريك هذه القضية وتقرير الحزب الوطنى ان يقوم باجراء واسع النطاق هو ما تسرب الى الصحف من موقف الحكومة المصرية حيال هذا المطلب وهو يقوم على رفضه بحجة أن البلاد لم تتهيأ بعد للحكم الدستورى ، وهو رأى ما فتىء الانجليز يكررونه منذ احتلوا البلاد ، ورسم لهم اللورد دوفرين كيف يحكمون البلاد فكان من بين اقتراحاته تشكيل ما يسمى بالجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، وقد جعل اختصاصهما استشاريا بل وما هو دون ذلك ، ولكن الكفاح الوطنى سرعان ما نفخ من روحه فى اعضاء هاتين الهيئتين . ففى شهر مارس ١٩٠٧ على سبيل المثال اصدرت الجمعية العمومية قرارا طالبت فيه بانشاء مجلس نيابى كامل السلطات ، فردت الحكومة رسميا على هذا الطلب فى ٧ فبراير ١٩٠٨ وكان مما جاء فى ردها :

« ترى الحكومة ان الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام الذى ينتظر من المجالس النيابية ، ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات » .

---

(١) اقرا الجزء الثالث .

(٢) أى الغاء .

فلما آن تسرب نبأ هذا الرأى وصيغته للرأى العام ، هاج وماج للحكم عليه بعدم النضج السياسى ، فكان ان نزل الحزب الوطنى بهذا الأسلوب القوى الفعال، أسلوب جمع ألوف التوقيعات على عرايض ترفع للخديو وهذا نصها :

مولاى

انى بكل اخلاص وثقة بميولكم السامية التمس من لدنكم أن تمنحوا رعيتكم المخلصة ما منحها أبوكم الكريم فى سنة ١٨٨١ وهو انشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم على نشر العلوم والمعارف ويساعدكم على ترقية البلاد تحقيقا لميولكم الطاهرة .. وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قدره لأنك نشأت نشأة عصرية ضاعفت محبتك لرعيتك التى رقيها أجل أمنيتك .

وطبع الحزب الوطنى عشرات الألوف من هذه العريضة وسرعان ما انتشرت فى طول البلاد وعرضها ، وأقبلت طبقات الأمة المختلفة على توقيعها .

٧ مارس : تقرير الدون جورست

وفى ٧ مارس ١٩٠٨ رفع الدون جورست المعتمد البريطانى الجديد الذى حل محل كرومر التقرير السنوى الذى كان كرومر قد اعتاد أن يرفعه سنويا شارحا أحوال مصر . ونرى أن خير ما يطلعنا على أحوال مصر فى هذه الفترة هو فى أن نثبت هنا بعض فقرات من هذا التقرير بنصها ، والبعض الآخر ملخصا وذلك لكى يكون بما اشتمل عليه من احصاءات مجالا للمقارنة .

وقد بقى أن نلفت نظر القارىء الى أن التقرير يمثل وجهة نظر الانجليز المحتلين . ومع ذلك فقد كانت فقرات منه نصائح ليطلع عليها المصريون .

٧ مارس ١٩٠٨ : تقرير الدون جورست

بهذا التاريخ من هذه السنة أذيع على المصريين باللغة العربية نص التقرير الذى رفعه الدون جورست الى السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا ، وقد اشرنا اليه فى ختام سنة ١٩٠٧ ولكنا نعرضه هنا عرضا كاملا ونثبت ما جاء فيه من احصائيات هامة واشارات لمختلف الأنشطة فى مصر مما يعطى صورة عن حياتها آنذاك .

مقدمة التقرير :

مولاى

اتشرف برفع تقريرى عن التقدم الذى تم فى مصالح الحكومة المصرية سنة ١٩٠٧ وقد بسط اللورد كرومر الكلام فى تقاريره الثلاثة الأخيرة عن الخطة العامة التى اتبعت فى ادارة هذه البلاد ، نعم ان ذهابه حرم مصر خبرته الادارية العظيمة ومعرفته الدقيقة بحاجات الأهالى ورغائبهم ولكنه لم يغير شيئا من المبادىء

العمومية فى سياسة الاصلاح الادارى التدريجى التى نالت الاستحسان والمصادقة من الوزارات الانجليزية المتعاقبة عليه ، وعليه فلست انوى فى تقريرى هذا تكرار ما سبق من الكلام عنه بل حسبى أن أتناول الحديث حيث تركه اللورد كرومر وأن أصف بايجاز التقدم الذى تم من ذلك العهد وأشهر التدابير التى تنظر الحكومة فيها الآن .

ومضت مقدمة التقرير فتحدثت عن الامتيازات الأجنبية وكيف نغل أحيانا يد الانجليز عن حرية الادارة .

ثم راح يتحدث عن الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين وعن عدم موافقته على تطويرها لعدم صلاحية المصريين واستعدادهم للنظم النيابية ، (وهو ما رأينا صداه فى رسالة الحكومة المصرية لمجلس شورى القوانين) .

وتحدث عن اشتغال الحكومة بتوسيع اختصاص مجالس المديريات (وهو ما نوهت عنه الحكومة فى الخطاب السالف الذكر) .

الحالة المالية :

وانتقل التقرير بعد ذلك فتحدث باسهاب عن الحالة المالية ووصف ما تعانيه البلاد من أزمة فى هذه الناحية ، وكيف ان الادارة أحجمت (بارشاد الانجليز طبعا) عن مد أى يد للتخفيف من الأزمة أو المساعدة بأى وجه من الوجوه ، خوفا كما يقول جورست من حصول ارتباك فى الميزانية العامة .

ثم تحدث عن الميزانية الخاصة بسنة ١٩٠٧ وكيف ان الحساب الختامى فى نهاية العام قد جاء بزيادة فى الايرادات مقدارها ١٦٢٨٠٠٠ جنيه ، وراح يعدد مصادر هذه الزيادة .

ميزانية ١٩٠٨ :

وذكر أن المقدر فى ميزانية ١٩٠٨ على الوجه التالى :

الايرادات :

١٥ مليون جنيه و ٣٠ الف فى مقابل ١٤٧٤٠٠٠٠ جنيه فى عام ١٩٠٧

المصروفات

١٤٧٣٠٠٠٠ جنيه فى مقابل ١٤٢٤٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٠٧

قانون المعاشات

ثم تحدث عن اشتغال الحكومة بتعديل قانون المعاشات بما يضمن بعض التحسينات وكذلك الحال بالنسبة لمرتبات الموظفين وجعل ساعات العمل بالنسبة لهم ستا .

وقد جاء فى هذه الفقرة من التقرير النص التالى :

«والصعوبة فى أمر رواتب صغار المستخدمين هى أن قيمة عملهم لا تستحق اكثر مما يأخذون فى كثير من الأحوال وهذا خلل يجب تلافيه اذ لا يتيسر ان تزداد الرواتب الا اذا زيد مقدار الشغل ونقص عدد المستخدمين على نسبة زيادته وفى نية الحكومة أن تضع تحت تصرف رؤساء المصالح جميع ما يستطيعون توفيره بهذه الواسطة فى السنوات الثلاث القادمة لتحسين حال مستخدميهم » .

أى ان التقرير يشير بفصل اكبر عدد ممكن من صغار الموظفين لصالح كبارهم الذين كانوا من الانجليز .

وتحدث التقرير بعد ذلك عن المال الاحتياطى ، وعن البدل العسكرى وهى المتحصلات المالية التى كانت تجبى من افراد الشعب نظير تخلفهم عن أداء الخدمة العسكرية ، وتحدث بعد ذلك عن تعديل ضريبة الأطيان وعن مصلحة الدومين (أى الأراضى المملوكة للدولة) .

وعن ايراد الجمارك وسير التجارة وعن البنك الزراعى ، وعن الصادرات والواردات ــ ومصلحة البوستة أى البريد والتلغراف والموانى .

الاحصاء العام :

ولعل أهم ما اشتمل عليه التقرير فى هذه النواحى هو نتائج الاحصاء العام الذى أجرى عام ١٩٠٧ عدد سكان مصر أحد عشر مليونا و ١٩٢ الف نسمة .

شئون الرى :

خصص التقرير بابه الثالث بعد ذلك عن شئون الرى وهو أهم ما كانت الادارة الانجليزية تعنى به أشد العناية اذ أصبحت مصر بمثابة ضيعة خاصة تنتج القطن لحساب مصانع الغزل والنسج لانجلترا ولذلك نرى التقرير يتحدث باستفاضة عن موسم القطن . فقدر أن محصوله عام ١٩٠٧ لن يتجاوز ٧ مليون قنطار .

مشاريع الرى :

وتحدث التقرير بعد ذلك عن الاستفادة بمياه خزان اسوان لأول مرة والشروع فى تعليته ، وتحدث عن استمرار العمل فى قناطر اسنا وعن تحويل رى الحياض فى مديرية الجيزة الى رى دائم وأثنى التقرير على اسماعيل باشا سرى مفتش عموم المشروعات المستجدة التى تولاها منذ بدايتها فان اتمامها على الوجه المطلوب عائد الى كفاءته وهمته » .

وخصص الباب الرابع من التقرير لما اسماه « الأشغال العمومية » فتحدث عن المبانى الحكومية التى تم انشاؤها ، وعما خص مدينة القاهرة منها ــ كانشاء كوبرى الروضة (عباس سابقا والآن كوبرى الجيزة بعد ان جدد عام ١٩٧٠) . وتحدث عن مصلحة الآثار وعن الأعمال القيمة التى يقوم بها مسيو ماسبيرو مدير

المصلحة وعن دار الآثار العربية وعن حديقة الحيوان وكيف أصبحت تغص بالطيور والحيوانات المتعددة .

البـــاب الخامس :

وتحدث الباب الخامس من التقرير عن حالة الأمن العام بعامة وأفرد جزءا خاصا للتحدث عن البوليس جنودا وضباطا وكونستبلات وعن السجون والعمد وموسم الحج وقد بلغ عدد الحجاج فى هذا العام ١٨١٧٠ حيث كان مجموع الحجاج الذين توافدوا من خارج الجزيرة العربية ٤٣٢٧١ حاجا . وفى هذا العام تم توسيع محجر الطور ليتسع لثمانية آلاف حاج .

ومضى التقرير الذى يعدد مناشط وزارة الداخلية فتحدث عن المجالس البلدية وبلدية اسكندرية بخاصة ثم تحدث عن تداول المسكرات (وهو ما اعتاد كرومر أن يندد به) كما تحدث عن الجهود التى تبذل لمقاومة الحشيش ؛ والقمار .

المستشفيـــات :

بلغ عدد المرضى فى مستشفيات الحكومة ٣١٨٠٠ وتحدث عن مستشفى المجاذيب (الأمراض العقلية) ثم مستشفيات الرمد .

وقد أصيب فى هذه السنة ٨٣٨ اصابة ولم تصل الكوليرا الى مصر فى هذا العام رغم انتشارها فى جنوب روسيا وتركيا والحجاز .

وانتهى هذا القسم بالتحدث عن شبكة المجارى الجارى انشاؤها والتوســع فى مد شبكة مياه الشرب لتعم الجزء الأكبر من القاهرة .

وزارة الحقانية (أى العدل)

بلغت عدد الجنايات ٣٣٠٥ وعـدد الجنح ٦٠٠٩٦ ـ اما المخالفـات فعـددها ٨٦٧٥٧

ثم تحدث التقرير عن المحاكم الشرعية وعن المحاكم المختلطة .

الباب الثامن فى التعليم :

كانت قضية القضايا منذ الاحتلال البريطـانى هى وجوب نشر التعليم واذا كان ثمة خلاف بين المصريين حول هذه المسألة أو تلك فقد كان الاجماع منعقدا حول ضرورة التوسع فى التعليم وصيحة قاسـم أمين فى كتابيـه « تحرير المـرأة » ، « والمرأة الجديدة » كان أهم ما فيه هو الدعوة الى التعليم والذين خالفوه فى دعوته الى السفور اتفقوا معه على وجوب التعليم ومن هنا فان تقرير جورست وقف طويلا امام التعليم مجاراة للشعور العام .

وحيث كان التعليم فى مصر قبل الاحتلال البريطانى بالمجان فى جميع مراحـله

فقد أحدث الانجليز هذه البدعة بدعة التعليم بمصاريف فى مدارس الحكومة مما جعل الأمة تنهض بفتح المدارس الخاصة ليتم التعليم فيها بالمجان وقد جاء التقرير مشيرا الى هذه الحقيقة بقوله :

« وبهذه الطريقة يتيسر اجتناب مبادىء التعليم المجانى التى كانت ذائعة فى مصر (١) »

وأورد التقرير بعد ذلك بيانات واحصاءات ليدلل انه بالرغم من جعل التعليم بالمصروفات فان الضغط يتزايد على المدارس الحكومية وراح التقرير يكيل الثناء لسعد باشا زغلول وزير المعارف ويدافع عن المستشار الانجليزى المستر دنلوب مهندس سياسة التعليم فى مصر . واليك بعض ماتضمنه التقرير من احصائيات :

التعليم الابتدائى (الكتاتيب)

بلغ عدد ما انشىء من الكتاتيب باحسان ذوى البر ١٥٠١ ثلثها كبير يتسع الواحد منه لمائة تلميذ وبنى فى مديرية الدقهلية ٣٠٠ كتاب تكلف انشاؤها (١٥٠٠٠ جنيه) وتبرع المحسنون بثلاثة آلاف جنيه لتخريج المعلمين اللازمين لهذه الكتاتيب .

تعليم البنات :

جاء فى التقرير « يميل الناس الآن ميلا شديدا الى تعليم البنات وقد غصت مدارس البنات الأميرية بالطالبات والهمة مبذولة لانشاء مدارس للبنات فى انحاء البلاد بواسطة الأفراد والجمعيات »

احصاء :

عدد البنات فى الكتاتيب سنة ١٩٠٠ ، ١٦٤٠ بنتا فى ٢٢٥ كتابا

أما فى سنة ١٩٠٧ فقد بلغ عدد البنات فى كتاتيب الحكومة ٢٨٣٩ بنتا ، فى الكتاتيب الخاصة ١١٧٤٥ بنتا .

الشهادة الابتدائية :

بلغ عدد الذين تقدموا لامتحان الشهادة الابتدائية ٣٨٠٦

المدارس الثانوية :

عدد تلاميذ المدارس الثانوية الأربعة ١٩١٠ حيث كان فى العام السابق ١٣٨٠ وبلغ عدد الذين تقدموا لامتحان الشهادة الثانوية ٣٤٦ .

(١) انظر الى هذه الحضارة التى كانت ذائعة فى مصر .

المدارس العليـا :

تحدث التقرير بعد ذلك عن مدرســة الطب وكان الانجليز يثنون عليهــا وبلغ عدد من تخرجوا منها فى هذا العام ٢٢ طبيبا ، ثم تحــدث عن مدرســة الحقوق ومدارس المعلمين الذى بلغ عددها تسعا . ثم تحدث عن مدرسة القضاء الشرعى التى كانت من انجازات سعد باشا زغلول .

الأزهــــر :

أشاد التقرير بالجهود التى تبذل لتحسين حال الأزهر وأشاد بجهود الخديو فى هذا الصــدد .

ومعلوم أن مقاومة الأزهر للاحتلال البريطانى اخذت شكل الامتناع عن تقبل أية حركة اصلاحية حتى يسدوا على الانجليز اى تدخل بطريق مباشر أو غير مباشر عن قرب أو بعد .

التعليم الزراعى والصناعى :

وتحدث التقرير بعد ذلك عن التعليم الزراعى والصناعى .

الجامعة المصرية :

وتضمن التقرير بعد ذلك فقره كاملة عن الجامعة المصرية تحت التأسيس نرى أن نثبتها بنصها :

« انضم يعقوب ارتين باشا الوكيل الســابق لنظارة المعارف العمومية وحسين رشدى باشا مدير عموم الأوقاف والمسيو مسبيرو مدير عموم الآثار الى اللجنة التى تألفت برئاسة دولة البرنس احمد فؤاد باشا للنظر فى انشــاء جامعــة وطنية وفى (اسماء هؤلاء الثلاثة ذوى الخبرة الواســعة فى أمور التعليــم كل ضــمان على ان المشروع يقوم على قواعد ثابتة ويؤدى الى توسيع آفاق التعليم العــالى فى هــذه البلاد) .

ولم يوضع بروجرام نهائى للتعليم فى الجامعة بعد واللجنة صارفة قصارى جهدها فى جمع الأموال التى لا بد منها لادراك غرضها ولكن الأعضاء اتفقوا على المبــادىء العمومية الآتية والجرى بحسبها فى اجراءاتهم فى المستقبل .

١ ـ اعلاء شــأن الأهالى الأدبى والعقلى بنشر العلوم لا سيما العلوم الحديثـة ودرس آداب اللغة وايجاد معهد للعلم والفلسفة متصل بالمعاهــد التى على نمطه فى أوربا .

٢ ـ استثناء المواضيع السياسية والدينية من ســياق الدروس والمســاواة بين المذاهب والأجناس .

٣ ـ اقامة مداولات عمومية للبحث فى القضية العلمية والمواضيع الادبية والتاريخية .

٤ ـ تدبير مال خاص للانفاق على عدد معين من التلامذة يرسلون الى أوربا ليدرسوا دروسا خصوصية .

٥ ـ ترقية شأن المدارس المختلفة تدريجيا على قدر ما يتيسر من الأموال لذلك .

٦ ـ استقدام أساتذة أوربيين فى أول الأمر واستبدالهم تدريجيا بأساتذة مصريين متى تدرب الأساتذة الوطنيون الأكفاء .

٧ ـ بقاء الجامعة مشروعا خصوصيا تقوم موارده بنفقاته .

٨ ـ تكون ادارة الجامعة مطابقة لرأى الحكومة المصرية .

ولا يعترض على شيء من هذه المبادىء العمومية التى ينوى الجرى عليها ولا ريب عندى فى أن الحكومة تنشط هذا المشروع العظيم بكل طاقتها وتمده بمعونتها .

المكتبة الخديوية :

يقول التقرير أنه أضيف الى المكتبة فى هذا العام ٢٧٥٩ مجلدا وبلغ عدد الذين دخلوا غرفة المطالعة ١٨٨٣٠ وعدد المجلدات التى استعارها الجمهور ٢١٩٣٤ مجلدا .

خاتمة :

وانتهى التقرير باستعراض عام لأهم حوادث ١٩٠٧ فتحدث عن اعتزال اللورد كرومر بعد خدمة دامت خمسة عشر عاما متصلة وراح بطبيعة الحال يكيل الثناء لسلفه الراحل ويعلن انه قد تعاهد مع كل الانجليز العاملين فى مصر أن يتابعوا السياسة التى سار فيها كرومر ، وتحدث عن وفاة مصطفى كامل ولم يجرؤ على تسميته بغير « زعيم الحزب الوطنى » ولم تفته ملاحظة وفاة مصطفى كامل وهو لا يزال شابا فذكر أنه لم يتجاوز الرابعة والثلاثين ولم يستطع الفكاك من الاشارة الى ضخامة الجماهير التى شيعت جثمانه الى القبر .

تقرير عن السودان :

ولما كان السودان باعتراف كرومر هو جزء لا يتجزأ من مصر وان كان قد أصبح خاضعا للادارة الثنائية فقد شفع التقرير عن أحوال مصر بتقرير مفصل مماثل عن أحوال السودان .

الحزب الوطنى يرد :

وسنرى فى وقائع آخر هذا العام أن الحزب الوطنى قد وضع تقليدا جديدا

وهو أن يصدر من ناحيته تقريرا مفصلا بأحوال البلاد ومفندا بطبيعة الحـال مزاعم ومفتريات سلطة الاحتلال .

٧ مارس ـ ويصا واصف يخطب فى الاسكندرية :

أقام الحزب الوطنى (فرع الاسكندرية) اجتماعا سياسيا بمسرح زيزنيا وهـو المسرح الذى خطب فيه مصطفى كامل خطبة الوداع التى أعلن فيها تأليف الحزب الوطنى رسميا . وقد عنينا بتسجيل هذه الواقعة اذ أنها أعظم شاهد على ان مصر لم تعرف حتى ذلك الوقت اى خلاف بين الأقباط والمسلمين ، فقد كان نجم هذا الاجتماع هو الأستاذ ويصا واصف وقد كان عضوا فى اللجنة الادارية للحزب الوطنى ، وألقى بهذه الصفة خطابا رائعا باللغة الفرنسـية حيث كان المدعوون للحفل أفرادا من الجالية الأجنبية وقد جعل محور خطابه استنكار هذه النغمة الجديدة نغمة التفريق بين الأقباط والمسلمين وسـنرى كيف ان جورست كاد يشعل نار الفتنة بالفعل ولكن البلد الطيب لا يلبث أن يحاصرها حتى اذا كانت ثورة ١٩١٩ أجهز عليها الى الحد الذى سنرى فيه ويصا واصف هذا هو رئيس مجلس نواب مصر الاسلامية .

٢١ مارس ـ محمد فريد يحتج :

أرسل محمد فريد الى وزير حربية انجلترا على تصريحات كان قد تكلم بها فى البرلمان الانجليزى وقال فيها ان وزارة الحربية لا تنوى انقـاص قواتها فى مصر « لاحتمال وقوع خلافات جنسية أو دينية فى مصر » فأرسل محمد فريد له البرقية التالية :

« يحتج الحزب الوطنى على ما ادعيتموه من امكان حدوث اختلافات جنسية أو دينية فى مصر ويصرح بأنه لا يخشى أبدا حدوث أمر من هذا القبيل وأن الأمة كلها متحدة فى طلب الجلاء عن البلاد » .

حفلة التأبين الكبرى :

على أن أعظم مظاهر النشاط السياسى والوطنى على الاطلاق فى شهر مارس كان هو حفلة التأبين الكبرى التى أقيمت بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة مصطفى كامل حيث عبئت مشاعر الأمة من جديد حول ما عاش مصطفى كامل ومات من أجله وأعنى به مقاومة الاحتلال البريطانى .

لائحة المعاشات الجديدة :

يقول أحمد شفيق باشـا فى مذكراته : فى ٢ ابريل حضر المستشار المـالى (الانجليزى) الى سراى عابدين فقدم للخديو مشروع لائحة المعاشـات للموظفين الملكيين وطلب أخذ رأى سموه فيها فكلفنى بالاطلاع عليها مع اسماعيل باشا أباظة وموسى غالب باشا فاجتمعنا وقارنا هذا المشروع بلائحة توفيق باشا . وفى اليـوم التالى توجهت صباحا للمعية وعرضت على الخديو خلاصـة البحث فى مشروع اللائحة فكان الفرق بين اللائحتين ما يأتى :

أولا : ان اقصى المعاش صار بمقتضى المشروع الجديد ٨٠٠ جنيها سنويا بدلا من ستمائة

ثانيا :ان معاش البنت أو الولد ينقطع بعد بلوغ احدهما سن الثامنة عشرة بدل السادسة عشرة .

لم يعجب الدن جورست :

واللطيف أن هذا التعديل (المتواضع جدا) لم يعجب الانجليز الذين كانوا يتقاضون عشرات الالوف فنرى الدن جورست ينعى فى تقريره السنوى على مجلس شورى القوانين موافقته على هذا القانون فيقول « ومما يستحق الذكر أن هذه التعديلات لم تكن فى مصلحة الممولين الذين ينوب المجلس عنهم (كذا ؟!) ولا لتأييد مبدأ الاقتصاد فى المصروفات العمومية بل كان الغرض من كل واحد منها تحسين أحوال الذين يستحقون المعاش ، **ولو قبلتها الحكومة** كما هى لترتب عليها تحميل الخزينة عبئا ماليا يبلغ نحو مائة ألف جنيه مصرى فى السنة .

الجهاد من أجل الدستور :

كان أبرز مظاهر النشاط الوطنى خلال شهر ابريل هو الالحاح فى المطالبة باصدار الدستور .

ففى ١٧ ابريل اقام الحزب الوطنى اجتماعا بدار التمثيل العربى وهو مسرح الشيخ سلامة حجازى حيث القى محمد فريد رئيس الحزب أول خطاب سياسى جامع كان موضوع الدستور هو محوره الأساسى .

٢٥ ابريل : مقابلة مع الخديو

مضى الحزب الوطنى فى جميع التوقيعات على العرائض التى تطلب من الخديو اعلان الدستور حتى اذا اكتمل للحزب جمع ٤٥ الف توقيع من كل صاحب رأى وفكر فى البلاد قابل محمد فريد الخديو لاعلامه بذلك فطلب منه أن يحضر له هذه العرائض وأن يسلمها لشفيق باشا رئيس الديوان الخديو ، فقدمها اليه فى ٢٩ ابريل بخطاب هذا نصه :

رئيس ديوان الخديو سعادتلو

أفندم حضرتلو

اتشرف باحاطتكم علما بأنه عندما تشرفت بمقابلة الجناب العالى الخديوى يوم السبت الماضى عرضت على سموه العمل الذى قام به الحزب الوطنى بخصوص طلب مجلس نيابة من سموه فأمرنى حفظه الله بتقديم ما جمع للآن من العرائض لسعادتكم لعرضها على اعتابه السنية فبناء على الأمر السامى أقدم لسعادتكم هذه العرائض فى أربعة مجلدات تحتوى على ٦٩٠ عريضة عليها ما يزيد عن ٤٠ الف

توقيع وانى سأداوم تقديم كل ما يجمع منه أولا بأول لسعادتكم سائلا المولى عز وجل ان يحفظ لحضرة الفخيمة الخديوية بحط آمال الأمة وان يوفقها الى منح مصر هذا المطلب المقدس الذى برهنت الأمة على رغبتها فيه وشدة احتياجها اليه وفى الختام أقدم لسعادتكم أجل تحيات ،

المخلص

رئيس الحزب الوطنى

محمد فريد

ماذا دار فى الاجتماع بين الخديو ومحمد فريد

وقد كشف محمد فريد الستار عما دار بينه وبين الخديو فى المقابلة التى جرت بينهما فى أواخر شهر ابريل ، وكان ذلك بمناسبة سفر محمد فريد الى أوربا فى أوائل مايو ، واليك نص المذكرات :

« وفى مايو عزمت على السفر الى أوربا وقابلته (الخديو) قبل السفر بيومين ودار بينى وبينه الحديث التالى :

الخديو : ماذا عزمت عليه ياسى فريد ؟

فريد : سأسافر الى أوربا وأسير فى طريق مصطفى كامل حتى لا يقال ان الحركة ماتت بموته ولأظهر للعالم أن حركتنا قوية لا تقوم بقيام شخص ولا تسقط بموته .

الخديو : عظيم .. عظيم سافر نجح الله مقاصدك

فريد : سأسافر ان شاء الله وانما أطلب من أفندينا ألا يعاكسنى فى مساعى والا يرسل من خلفى من يسعى ضدى أو يعرقل مساعى كما فعل افندينا فى العام الماضى (١٩٠٧) حينما أرسل حافظ عوض وأباظة باشا والشيخ على يوسف الى لوندرة لمعاكستى .

الخديو : لا والله يا فريد لا تخف .. مصطفى نوع وانت نوع ، ومع ذلك فأنا لم أرسل حافظ عوض فى العام الماضى .

فريد : ان أمر ارساله مثبوت وانك أعطيته ٣٠٠ جنيه مصاريف سفريته

الخديو : لا والله ١٥٠ جنيه فقط (ثم تعلثم وتغير لونه) فقمت وانصرفت مودعا .

وكنت قبلها قد كلمته فى أمر عرايض مجلس النواب فأمرنى بتقديمها الى ديوان الخديو فقدمتها قبل سفرى الى شفيق باشا بجواب رسمى من الحزب ذكرت فيه أن هذا التصريح بناء على أمر الخديو .

العلاقات تسوء بين الخديو ومحمد فريد :

تكشف لنا هذه الاقوال الصريحة الواضحة ان سياسة الوفاق التى اختطها المعتمد البريطانى الجديد الدون غورست كانت قد بدأت تؤتى ثمارها فها نحن نشهد بذور الشك فى نفس فريد من ناحية الخديو . ولن تلبث هذه البذور أن تنمو فسوف نرى أن الخديو نفسه سيسافر الى لندن فى مسعى لتحسين علاقته مع الانجليز ، وبعد ذلك سيسافر وفد على رأسه اسماعيل باشا أباظه ليسعى فى الحصول على مجلس نيابى . ولكننا قبل أن نتحدث عن هذه الرحلات كل فى حينه نشير الى عمل قام به محمد فريد قبل سفره سيكون له أكبر الأثر على سير الحوادث .

٢ مايو ١٩٠٨ — الشيخ عبد العزيز شاويش :

فى هذا التاريخ ظهر أول مقال للشيخ عبد العزيز شاويش بصفته رئيسا لتحرير جريدة اللواء وكان محمد فريد على ما يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عنه قد تعرف بالشيخ عبد العزيز شاويش لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين الذين انعقد فى الجزائر عام ١٩٠٥ وعرفه مصطفى كامل بباريس سنة ١٩٠٦ فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية ، فلما ان مات مصطفى كامل واختار محمد فريد لنفسه أن يستبقى لنفسه حرية الحركة والانتقال رأى أن يعهد برئاسة تحرير اللواء الى شخص كفء وطنى متفرغ فعرض رئاسة التحرير على الشيخ عبد العزيز شاويش وكان يشغل منصب مفتش فى المعارف ، فلم يتردد فى قبول العرض وأسرع بالاستقالة من وظيفته وهو عمل ينطوى فى ذلك الوقت على أقصى درجات الشجاعة والتضحية ، فمن وظيفة كبيرة مرموقة يحف فيها بكل صنوف الاجلال والتوقير ، الى عمل محفوف بالمخاطر على ما قال هو نفسه فى هذا المقال الذى أشرنا اليه ، ولكنه علق على هذه الحياة الجديدة بقوله :

الحى لا يموت الا مــــرة
والموت أحلى من حياة مرة

وسنرى كيف ان عبد العزيز شاويش سوف يلهب المشاعر ويصبح فى العامين أو الثلاثة القادمة هو بؤرة النشاط السياسى داخل مصر ، وقد لخص برنامج جريدة اللواء فى هذه الفترة بالعبارة التالية :

« وسيظل اللواء كما كان عليه خادما للامة المصرية ، مدافعا عن الأريكة الخديوية ، ما حرصت على مصلحة رعاياها ، مجاهدا الانجليز ما بقوا فى بلادنا ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة داعيا الى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها وتباين مشاربها ولهجاتها » .

رحلة محمد فريد فى أوربا :

والآن فلننقل ملخصا لنشاط محمد فريد فى أوربا كما جاء فى مذكراته باعتبار أن مجريات هذا النشاط كانت تنشر بالتفصيل على صفحات اللواء ، كما كانت جريدة الأهرام تنشر ما توافيها بها شركات الأنباء الأجنبية عن هذا النشاط ، وكذلك جريدة المؤيد . يقول محمد فريد فى مذكراته :

« سافرت من باريس الى لوندرة (١) وأقمت بها بضعة أيام وزرت المستر «بلنت» وقابلنى روبرتسون من أعضاء مجلس النواب والمستر برمسلفورد وتناولنا الغداء معا فكلمونى فى ضرورة السكوت عن الاحتلال وعدم المطالبة بالجلاء وهم يساعدوننا على نوال ما نطلب من الاصلاح الداخلى والدستورى . فرفضت طبعا لثقتى أنها خدعة يراد بها اسقاط الحزب من أعين الأمة فيصبح آلة فى يدهم كحزب الأمة أو كحزب حكومة .

بعدها سافرت الى أدنبرة حيث أقمت يومين أقام لى الطلبة المصريون مع الجمعية الاسلامية بها مأدبة حضرها اللورد حاكم المدينة وخطبت فيها بضرورة الجلاء حتى تصبح الأمة المصرية صديقة للامة الانجليزية تكون معها لا عليها اذا قامت بينها وبين دولة أخرى حرب عظمى » .

٣١ مايو ـ سفر الخديو الى انجلترا :

قال شفيق باشا فى مذكراته : « فى ٣١ مايو سافر الخديو للاستانة ومكث بها اسبوعا ثم بارحها الى فينا فباريس ولندرة ثم رجع الى أوربا وأمضى بها بضعة اسابيع ورحل نهائيا الى الاستانة ثانية وقال شفيق باشا عن نفسه : وبقيت فى مصر لمباشرة الأعمال والاتصال بالنظار .

ولكنا قبل أن نتحدث عن هذه الأعمال التى تتصل بالأحداث ننقل ما ذكره الدكتور ابراهيم عبده عن موقف جريدة الاهرام بخصوص هذه الرحلة قال :

زيارة الخديو للندن :

كان من سياسة الوفاق التى بنى دعامتها غورست أن يحدث تقارب بين القصرين ، قصر عابدين حيث ينزل الخديو ، وقصر الدوبارة حيث يربض العميد البريطانى ، ومن آيات هذا التقارب فى وجهات النظر أن يزور الخديو عباس الثانى عاصمة الانجليز وقد تم هذا فى صيف ١٩٠٨ واستقبلت الصحف الانجليزية خديو مصر استقبالا حسنا الا أنها ذكرت فى معرض الحفاوة به « انه صديق الانجليز وقد استطاع أن يصرف الشعور الوطنى عن مكافحة الاحتلال بالثورة والهياج » فهبت الاهرام تندد بهذا القول وكان مما قالته فى عددها الصادر فى ٢٤ يونيو ١٩٠٨ :

---

(١) أى مدينة لندن كما يسميها الفرنسيون .

« وليسموها ثورة ونحن لا نسفك دماء ولا نخرب بيتا ، وليسموها هياجا ونحن لا نهين احدا ولا نناهض احدا ، وليسموها بما شاءوا من الأسماء وليقـــاوموها بما شاءوا من القوات ، فان الشرق سائر الى التقدم ، سائر الى الحضارة ، سائر الى العمران ، سائر الى الاستقلال رغم كل معارض وكل قيل وقال » .

ومضت جريدة الاهرام تفند تلك الصحف الانجليزية وتهلهل رأيها في الخديو الذى زعمته صديقا للاحتلال . (انتهى كلام الدكتور ابراهيم عبده ولكنا سوف نرى ان هذه المرحلة ستعجل بالفرقة بين محمد فريد والخديو) .

تعيين الشيخ مصطفى المراغى قاضى قضاة السودان :

فى ٩١ يوليو تمت الموافقة بين الخديو والانجليز على تعيين الشيخ محمدمصطفى المراغى (١) فى منصب قاضى قضاة السودان وجاء فى قرار تعيينه « ان تكون الأحكام الشرعية التى يصدرها القاضى منطبقة على مايجرى فى المحاكم الشرعية فى القطر المصرى » .

٢٤ يوليو ١٩٠٨ ـ اعلان الدستور فى تركيا :

فى هذا اليوم أعلن الدستور فى تركيا على اثر ثورة قامت بها جمعيـــة الاتحاد والترقى وكان يتزعمها الضابطان أنور بك ونيازى بك من العسكريين وكان يساعدهما طلعت بك . وقد تحدث شفيق باشا طويلا فى مذكراته عن هذه الحركة ، ولكننا نكتفى بايراد أول رسالة وصلته فى ٢٨ يوليو من شاهد عيان لمـا راى وهو مرافق « للوالدة » (٢) التى كانت تقيم فى الاستانة ويدعى محمد بك عزت ، قال : « فى اليومين الماضيين ابتدأت المظاهرات من الصبح الى المغرب والمجتمعون لا يقلون عن خمسين ألف رجل بين عالم وضابط وكاتب وتاجر وكثير من العوام وكل منهم يحمل علما ، وقد طافت المظاهرات بالوزارات جميعا والموسيقى تصدح أمامهم وحلفوا جميع الوزراء على مبادىء الانقلاب بما فيهم شيخ الاسلام ، وبعد ذلك توجهوا لسراى يلدز وكنت بين المتفرجين عليهم من تكية الشيخ ظافر واستمر الموكب أربع ساعات بالضبط يمر من أمامى وتصوركم ألفا تمر فى هذا الوقت شارع يلدز وكلهم يصيحون هاتفين للدستور والحرية والمساواة ، مما لم يكن يخطر على بال أحـد فسبحان مقلب الأحوال فى طرفة عين ، وقد أصبحت الجرايد حرة وجوازات السفر كذلك والأهالى يتحدثون فى الشئون السياسية ملأ أفواههم وطلبة الحقوق وغيرهم كانوا فى مقدمة الجميع وقد خرج طلاب مدرستى الطب والبحرية رغم أنف ضباطهم ، والنهاية أن الواقع هنا يكاد الانسان لا يصدقه ويعتبر نفسه فى حلم من الأحلام .

---

(١) وهو الذى سيصبح فى عهـد الملك فاروق شيخا للجامع الازهر .

(٢) هو اللقب الذى كان يطلق على أم الخديو عباس الثانى .

رد الفعل فى مصر :

كان طبيعيا أن يحدث اعلان الدستور فى تركيا ردا عنيفا فى مصر ، وقد رأينا فيما سبق مدى النشاط الذى يبذله الوطنيون فى هذا السبيل وسنرى ان العام لن ينتهى قبل ان يتخذ مجلس شورى القوانين موقفا محددا ، ونكتفى بايراد ابيات من قصيدة نشرتها جريدة اللواء فى ذلك الوقت ، وقد تضمنها كتاب وطنيتى للشاعر المجاهد على الغاياتى والذى لن يلبث كما سنرى يطفو على وجه الأحداث واليك الآن هذه الأبيات التى تلخص الموقف كله فى مصر آنذاك :

منحت (١) الدولة الدستور عدلا	فخابت من أعاديها الظنون
فما للنيل ليس له نصيب	من الدستور وهبه قمين
أيمنعنا بنوا التاميز حقا	وانت امامنا الملك الأمين
لعمرك ان فى مصر أميرا	تراه ليس يحمل ما يشين
فمره يمنح الدستور مصرا	فان لأمرك الباغى يدين

عودة محمد فريد ومحاكمة الشيخ عبد العزيز شاويش :

عاد محمد فريد بعد جولته فى أوربا ليرى الحزب الوطنى بل الأوساط الوطنية كلها مشغولة بمحاكمة الشيخ شاويش ، وقد كان امثال هذه القضية فى ذلك الوقت يصبح هو مركز الاهتمام .

ويبدأ موضوع القضية بأن نشرت اللواء فى ٢٨ مايو تحت عنوان « دنشواى أخرى فى السودان ــ ٧٠ مشنوقا و ١٣ سجينا » ويدور الخبر حول ثورة قامت فى بلدة « الكاملين » فى السودان وقد أخمد الانجليز الحركة وقبضوا على زعيمها وكان يدعى الشيخ عبد القادر وحوكم هو ونفر من زملائه وحكم عليه وعلى أحد عشر ممن قاموا معه بالاعدام ، كما حكم ، على ثمانية آخرين بالسجن المؤبد ومصادرة أموال المحكوم عليهم ، ولكن الحاكم العام خفف الحكم فيما بعد الى السجن المؤبد . وكان طبيعيا أن يصل الخبر الأول الى مصر مضخما جدا ، ولم تصدر الحكومة المصرية بلاغا بحقيقة ما جرى فكان أن نشر اللواء ما نشر .

وهنا فقط اصدرت نظارة الحربية بيانا بحقيقة ما حدث فنشرته جريدة اللواء اسوة ببقية الصحف ولكنها عقبت عليه بعد بضعة أيام بشكها فى صحة الوقائع كما أوردها البيان فكان ان قدمت الحكومة الشيخ عبد العزيز شاويش للمحاكمة بتهمتى اهانة وزارة الحربية ، كما اعتبرت المقال ينطوى على نشر خبر كاذب من شأنه تكدير السلم . وفى ٤ أغسطس صدر حكم محكمة عابدين الجزئية وهو

---

(١) الحديث موجه الى السلطان عبد الحميد .

يقضى بتبرئة الشيخ عبد العزيز شاويش من تهمة نشر خبر كاذب والحكم عليه بغرامة قدرها ٢٠ جنيه عن التهمة واستأنفت النيابة هذا الحكم ولكن محكمة الاستئناف قضت ببراءته من التهمتين ولك أن تتصور مقدار فرح الوطنيين بهذا الانتصار ومن هنا فسوف ترتب عليه سلطات الاحتلال بعض اجراءات كانت فى وقتها من قبيل صب الزيت على النار بحيث تعرض لها جورست طويلا فى تقريره بالنقد على الرغم من تقديس الانجليز لأحكام القضاء .

نص ما جاء فى التقرير :

واليك نص الفقرة التى وردت فى التقرير :

« اما فيما يختص بقانون العقوبات فقد تبين فعلا ان المواد الحالية فيه لا تمنع الشطط الذى هو موضوع الشكوى كما ظهر أخيرا من نتيجة محاكمة الشيخ شاويش محرر « اللواء » فان اللواء نشر مقالا اتهم فيه حكومة السودان بالحكم على سبعين رجلا بالاعدام وباعدام أربعين منهم فى قضية « الكاملين » وحشا مقاله طعنا وقدحا فى الانجليز على هذا الذنب الذى عده آخر ذنوبهم والحقيقة ان الاعدام نفذ فى واحد فقط من الذين قبض عليهم وهم يحاربون جنود الحكومة وهو عبد القادر الذى كان السبب فى قتل المستر سكوت منكريف والمأمور أمامه وهما أعزلان فلما حوكم محرر اللواء أمام المحكمة الابتدائية حكم عليه القاضى بتهمة فرعية وهى القذف فى نظارة الحربية المصرية ولكنه برأه من التهمة الأصلية بحجة انه لم يثبت كذب الخبر الذى نشره اللواء ولما استؤنفت القضية حكمت المحكمة ببراءة الشيخ شاويش من المتهمتين فهذه القضية وسواها حملت الجمهور على الاعتقاد بأن المحاكم لا تحسن النظر فى جرائم الصحافة . (انتهى بعض ما جاء فى التقرير وسنرى فى حوادث العام القادم (١٩٠٩) الاجراءات التى اتخذت لعلاج هذه الحالة من وجهة نظر الانجليز .

١٧ سبتمبر ١٩٠٨ ـ عودة الخديو الى مصر :

عاد الخديو من رحلته خارج مصر والتى استغرقت نيف وثلاثة شهور وبعودته وانتهاء فصل الصيف بدأ نشاط الدولة والنشاط السياسى بخاصة يستأنف دوره وكان موضوع الدستور هو الموضوع الذى يشغل كافة الأذهان وخصوصا بعد اعلان الدستور فى تركيا ، فى ذات الوقت الذى قام وفد من جمعية شورى القوانين وعلى رأسه اسماعيل باشا أباظة الى لندن للمطالبة بمجلس نيابى واليك ما قاله أحمد شفيق باشا بهذا الصدد .

الحركة الوطنية وطلب الدستور فى مصر :

فى هذا العام ازدادت قوة الحركة الوطنية وتنبه الشعب الى حقوقه السياسية ويرجع ذلك الى اسباب منها التنافس بين الأحزاب السياسية الثلاثة التى تألفت

فى العام الماضى (١) . واتساع دائرة المناقشات فى حقوق الشعب وما اليها . ومنها اعلان الدستور فى تركيا وأخبار الاستانة التى كانت تصور الانقلاب العثمانى تصويرا واضحا وتبين قوة الشعب وأثرها مما كان له وقع عميق فى مصر وأثر قوى فى اذكاء الشعور الوطنى . ومنه احساس المصريين بتراجع الانجليز واضطرارهم لتغيير عميدهم فى مصر اللورد كرومر امام قوة الوطنية المصرية . وقد كان من الأعضاء البارزين فى مجلس شورى القوانين ، أمثال حسن عبد الرازق باشا ومحمود سليمان باشا واسماعيل اباظة باشا وعلى شعراوى باشا واحمد يحيى باشا من يعمل بكل قواه لتتمتع مصر بدستور يشرك الأمة مع الحكومة فى تصريف الأمور وكان الخديو لا يكره مثل هـذا الطلب على أن تتبع فى تحقيقه طريق معقولة هادئة . وكان يرى ان اسماعيل اباظة باشا هو خير من يستطيع السير فى هذا الطريق بعيدا عن الأحزاب لهذا شجع اسماعيل اباظة باشا عندما فكر فى السفر الى لندن لتقديم مذكرة لوزير الخارجية يشرح بها الحالة فى مصر ويطلب المزيد من الاشتراك بين الشعب والحكومة فى تصريف الشئون ، بل زاد على ذلك (أى الخديو) فطلب من السير الدون جورست التوصية عليه لدى وزارة الخارجية ، وقد فعل عملا بسياسة الوفاق . وسافر الباشا ومعه محمد الشريعى باشا والسيد حسين القصبى ومحمد عثمان اباظة بك وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك . وكان الدكتور ابراهيم الشوربجى متطوعا لمساعدتهم والترجمة لهم طوال اقامتهم فى لندن ، وكان سفرهم أثناء وجود الخديو فى أوربا . فلقى (أى الوفد) من وزير الخارجية الرعاية وحسن الاستقبال وعاد الى مصر فى منتصف اغسطس وكانت وصاية جورست لهم أن يحصروا كلامهم فى مسألة توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين دون الكلام عن الجلاء .

(انتهى كلام احمد شفيق)

محمد فريد يهاجم :

وقد التزم الوفد بهذا التوجيه فلم يتحدثوا عن موضوع الجلاء ومن هنـا فقد أثاروا على أنفسهم ثائرة محمد فريد الذى اعتبر سكوتهم عن المطالبة بالجلاء وقصر حديثهم (المطالبة باصلاحات مما تنشره الجرايد كل يوم) اعتبر هـذا المسلك من ناحيتهم تفريطا فى حق الوطنية المصرية ووصل هجومه عليهم الذروة فى خطاب سياسى جامع القاه فى الاسكندرية فى ١٥ اغسطس ثم خطب مرة أخرى بنفس المعنى فى القاهرة بمناسبة تاريخ دخول الانجليز الى مصر فى ١٤ سبتمبر :

(١) يقصد الحزب الوطنى والذى ألفه مصطفى كامل وحل محمد فريد فى رئاسته بعد وفاته وحزب الاصلاح الذى كان يرأسه الشيخ على يوسف وحزب الامة الذى كان يرأسه محمود باشا سليمان .

خلاف محمد فريد مع الخديو :

وقد أدى ذلك الى وقوع الفرقة نهائيا بين محمد فريد وبين الخديو ولأنقل لك نص مذكراته فى هذا الموضوع :

« وكان من نتيجة رفض الاتفاق مع الانجليز وطعنى على الوفد الأباظى تغيظ الخديو منى ، لأنه كان ابتدأ فى سياسة الوفاق (مع الانجليز) وعضده فى هذا بطرس باشا . وكنت قد انتقدت هذه السياسة فى خطبة ابريل سنة ١٩٠٨ وحذرت الخديو من سوء نتيجتها . ولكن بطرس تغلب عليه واقنعه بان الحركة الوطنية لا شيء والاحسن استعمال التشدد معها وسافرا معا الى لوندرة وهناك تقوت سياسة الوفاق وعاد الخديو لمصر مصرا على محاربتنا ، واتتنا أخبار ذلك من باريس ممن قابلوه من الاخوان .

ولما عاد الى مصر سافرت الاسكندرية وقابلته فى المقابلة العمومية التى حصلت بمناسبة عودته وبمناسبة شهر رمضان فسألنى ماذا فعلت فى أوربا ياسى فريد ؟

ج : اشتغلت فى تنفيذ البروجرام الذى اتفقنا عليه يا افندينا ..

فظهر عليه التغير وانصرفت من هذا اليوم ايقنت أن الرجل خاننا واتفق مع الانجليز بواسطة بطرس باشا والسير الدون غورست على محاربتنا فكتب فى اللواء مقالة شديدة ضده بعنوان « ماذا يقولون » كانت سببا فى طعن جرائد المؤيد والأهرام التى تأتمر بأوامر المعية .

وزاد الخلف بيننا نحن معشر الحزب الوطنى وبين الخديو ورجاله .

٣١ أكتوبر ١٩٠٨ : مجلس شورى القوانين والدستور :

وفى ٣١ أكتوبر اجتمع مجلس شورى القوانين فى موعده المعتاد فظهر فيه اجماع الأمة على المطالبة بالدستور . فقد تقدم اقتراح للمجلس هذا نصه :

« يطالب المجلس الحكومة بأعداد قانون يخول الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى ادارة شئون البلاد الداخلية وفى القيام بالشئون المحلية بحيث يكون قرار الأمة نافذ المفعول فى الشرائع والقوانين التى تسرى على الوطنيين » .

ومن الواضح كما يظهر فى تقرير الدون جورست أنه لم يجر خلاف بين جميع أعضاء المجلس على موضوع القرار وانما جرى خلاف حول موعد تقديمه حيث كان من رأى الأكثرية تأجيل اتخاذه لمدة شهرين ، ولكن حتى هذا تصدى له عدد غير قليل (١٠ اعضاء) بالرفض — على أن المجلس انعقد بعد الشهرين (ديسمبر) ووافق بالاجماع ، وقد ادى ذلك الى هياج المعتمد البريطانى (الدون جورست) فراح يحمل على مجلس شورى القوانين فى تقريره السنوى ويصف بالانحراف، وانه خيب الامال التى كانت معقودة عليه ، كما راح يندد بالشعب المصرى وانه غير

صالح للنظام البرلمانى ولكنا سنرى أن ذلك كله لم يكن له سوى أثر واحد وهو زيادة تمسك الأمة بالدستور .

١١ نوفمبر ١٩٠٨ : استقالة مصطفى باشا فهمى :

على أن أعظم حدث شهده عام ١٩٠٨ قبيل نهايته هو إستقالة مصطفى باشا فهمى الذى كان رئيسا للوزارة المصرية مدة ثلاثة عشر عاما متصلة ولسنا نرى ما نقوله خيرا من أن نثبت ما قاله عنه الدون جورست فى تقريره قال :

« وفى نوفمبر أستقال مصطفى باشا فهمى من رئاسة مجلس النظار بسبب اعتلال صحته منذ زمان طويل وقد أفاد عطوفته فى الثلاث عشرة سنة التى تولى فيها الوزارة بلاده وبريطانيا العظمى فائدة دائمة لا تزول بحسن مساعيه الدائمة الصادرة من نية خالصة فى التوفيق بين العنصرين الانجليزى والمصرى وتعاونهما واتحادهما على خدمة الحكومة فان معظم التقدم والنجاح المادى والأدبى وهو ما لم تره فى تاريخها كله فيحق لمصطفى فهمى وزملائه أن يهنئوا بالراحة التى نالوها بعد الجد والاجتهاد شاعرين بأنهم أحسنوا صنعا لبلادهم وأهل بلادهم » .

هذا وقد أنعم ملك الانجلترا على مصطفى باشا فهمى بنشـــان الحمام من الدرجة الأولى اعترافا بخدماته الجليلة .

صفية زغلول :

وكل الذى سمعناه نحن ابناء الجيل التالى لهذا الجيل هو أن مصطفى فهمى زوج ابنته لسعد زغلول وانه رفعه الى كرسى الوزارة لهذا السبب ، وقد كان ذلك دائما من أكبر المطاعن التى تساق ضد سعد زغلول . ولكن من الناحية العملية ، فقد وقف سعد زغلول على رأس ثورة ١٩١٩ كما سوف نرى ووقفت صفية زغلول (ابنة مصطفى فهمى) كخير ما تقف الزوجة المخلصة واستمرت بعد وفاته احدى زعيمات النهضة الوطنية .

١٢ نوفمبر وزارة بطرس باشا غالى :

فى مذكرات أحمد باشا شفيق تفصيل واف لكل ما دار وراء الستار بين الخديو ودون جورست حول استقالة مصـــطفى فهمى مما يدل على أنهـــا بترتيب من الانجليز ، وما تظاهر به بعد ذلك دون جورست من انه شديد الرغبة فى أن لا يتداخل فى مســـألة اختيار رئيس الوزراء الجديد ولكن الخديو لم ينطل عليه هذا المظهر وحرص على أن يختار بطرس غالى نهائيا الا بعد أن تأتى موافقة لندن وقد جاءت على الفور فانفذ الخديو عزمه بتعيين بطرس غالى رئيسا للحكومة وقد كان الخديو (فيما يبدو) متحمسا لهذا الاختيار الذى تم بنـــاءا على ترشيح اسماعيل باشا أباظة الذى كان الخديو لا يبرم كثيرا من الأمور الا بعد استشارته واللطيف أن هذين المسلمين لم يريا بأسا فى أن يتولى غالى الوزارة وكان الدون جورست (على ما يقول

شفيق باشا فى مذكراته) هو الذى تساءل عما اذا كان تعيين رئيس وزراء مسيحى لا يثير اعتراض المسلمين فأجاب الخديو على الفور أن مصر شهدت نوبار باشا رئيسا للحكومة ، وقد كان مسيحيا واجنبيا اما بطرس غالى فهو على الأقل مصرى وعندنا أن هذه المقارنة غير سليمة فقد كان نوبار يفرض على مصر فرضا بضغط من انجلترا وفرنسا ، بل أن الوزارة المصرية اشتملت على وزير انجليزى وآخر فرنسى ، ولما اجترأ اسماعيل باشا على تغيير هذا الوضع فقد عرشه كما رأينا (١) ، فلا محل للمقارنة بين بطرس غالى ونوبار ، وهو اذ كان قد وصل الى هذا المنصب فقد وصل اليه بكفاءته البحته واخلاصه يدل على ذلك استقبال الصحافة المصرية ، على اختلاف مشاربها ، لحكومته استقبالا حسنا كما سنرى .

حوار حول سعد زغلول :

ونكون مقصرين فى حق التاريخ اذا لم نسجل هنا حوارا دار حول سعد زغلول بين الخديو وبين دون جورست وكلا الرجلين لا يرضيان عن سعد زغلول ويتمنيان لو تخلصا منه ولكن شخصيته الجبارة فرضت نفسها عليهما فرضا وهو موقف فريد لا نحسب أن له مثيلا فى التاريخ مما يدل على أن زعامة سعد زغلول للامة المصرية بعد ذلك لم تكن وليدة الصدفة وانما كانت بجدارة واستعداد .

قال شفيق باشا رئيس ديوان الخديو فى مذكراته :

« ثم تكلم جورست عن سعد باشا ، فقال انه مستاء جدا منه بالنسبة لجفاء اخلاقه فهو متكبر قاس مثل الحجر ، ولكنه اذا خرج مع الخارجين فربما يحصل منه ما يسؤونا ــ يعنى أنه خائف من لسانه وأعماله ــ فاذا استصوب الخديو يبقى مدة شهرين أو ثلاثة ثم تعمل طريقة لاخراجه .

قال الخديو : أن بطرس قال لى اذا الانجليز طلبوا ابقاء سعد فأتركه لى وأنا أعرف ما افعله لخروجه .

ومن هذا الذى قاله بطرس غالى يتضح أنه كان (يصبر) الخديو ويدعوه أن ينحى مؤقتا عداءه لسعد زغلول اذا اصر الانجليز على وجوب ادخاله الوزارة واعدا اياه بأن يخلصه من سعد زغلول بعد ذلك وبطرس غالى وهو يعد ذلك كان يعرف أن سعد زغلول يضع كرامته فوق كل اعتبار .

فانظر الى هذا المصرى الأصيل ابن الفلاح وخريج الأزهر الذى يجعل كرامته فوق المنصب ورئيس الوزراء والخديو والانجليز معا .

---

(١) راجع الموسوعة الجزء الثالث .

تشكيل الوزارة :

تشكلت وزارة بطرس باشا غالى على الوجه التالى :

بطرس غالى	رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية
أحمد باشا حشمت	ناظر للمالية
محمد باشا سعيد	ناظرا للداخلية
حسين باشا رشدى	ناظرا الحقانية
سعد باشا زغلول	ناظرا للمعارف
اسماعيل باشا سرى	ناظرا للاشغال والحربية

حسن استقبال الأمة للوزارة الجديدة :

وقد تحدث جورست فى تقريره السنوى عن الترحيب العام الذى استقبلت به الوزارة ، قال :

« وقد رحبت الصحف العربية بهذه الوزارة واعربت عن سرورها بتشكيلها وارتاح الجمهور اليها وأبدى ثقته بها واعتبر تشكيلها عربونا لدوام السياسة التى تقضى باشراك المصريين فى حكم بلادهم جهد الطاقة » .

والمعتمد البريطانى لم يعد الصواب فى تسجيل الارتياح العام الذى قابل به الرأى العام الوزراة الجديدة ولن انقل لك ما قاله الشيخ يوسف فى جريدة المؤيد فقد اختير وكيل حزب الاصلاح (١) (أحمدحشمت) ليكون وزيرا المالية .

ولن انقل كلام الأهرام أو الجريدة بل سأنقل لك من جريدة اللواء ومن مقــال لمحمد فريد بالذات والذى رأيناه لا يجامل ولا يحابى . قال فى مقال طويل ندد فىمستهله بوزارة مصطفى المستقيلة ثم قال :

« كل اعضاء هذه الوزارة من رجال العصر المتعلمين فمنهم اربعة من حائزى الشهادات العليا فى العلوم الحقوقية وهم حسين رشدى وسعد باشا زغلول ومحمد بك سعيد وأحمد باشا حشمت وواحد من أكبر مهندسى العالم بشهادة الخاص والعام وهو اسماعيل باشا سرى ، أما رئيسهم فانهوأن لم يكن من حائزى الشهادات الا انه ممن يشهد لهم بالنباهه والذكاء والدهاء فالوزارة الحالية فى مجموعها من أحسن ما يتمنى لمصر والمصريين » . ومضى محمد فريد فى اداء واجبه فراح يطالبهم بأن يكونوا عونا للمصريين على نيل الدستور .

---

(١) كان الشيخ على يوسف هو رئيس حزب الاصلاح .

مصر لا تعرف التعصب :

وهكذا سقط ما كان جورست يتخوف منه فلم يحدث فى كل تاريخ مصر الحديث أن استقبلت حكومة بكل هذا الرضا وهذا التفاؤل فاذا حـــدث بعد ذلك أن انقلب الرأى العام على هذه الوزارة الى الحد الذى انتهى الى اغتيال بطرس غالى فلم يكن ذلك نتيجة التعصب الدينى كما زعم الزاعمون آنذاك وانما نتيجة سلسلة الأعمـال التى تورطت فيها الوزارة كما سوف نرى .

الحــركات الطـلابية :

بلغ نشاط الطلبة الوطنى ذروته فى شهرى نوفمبر وديسمبر من هـــذا العام ويتضح ذلك من سخط المعتمد البريطانى على هذا النشاط الى الحـد الذى جعله يتبرم من نشر التعليم فى مصر واليك ما قال : « وأصبح الآن الركن الأعظم الذى يعتمد الحزب الوطنى عليه تلاميذ المدارس .. على أن التلاميذ بذلوا قصـــارى جهدهم ليعتاضوا بالاكثار من الحركة السياسية مما ينقصهم بسبب حداثة سنهم وقلة اختبارهم فانتهزوا فى الأشهر الأخيرة كل فرصة سواء كانت موافقة او غـير موافقة للصياح بطلب الدستور ، وقد اختاروا طرقا لا تجدى فى انجاح مسعاهم وادراك امنيتهم ولكنها زادت متاعب رجال البوليس فى حفظ النظام فى شـــوارع القاهرة على أن ميل التلاميذ هذا الى الاشتغال بالسياسة والقيـام بالمظـاهرات العمومية أمر يستحق أشد الانتباه فان عددا كبيرا من الشبان المصريين الذين يجب أن تناط بهم الآمال فى سير البلاد وتقدمها فى ســبيل الاستقلال اختل نظـامهم باشتراكهم فى هذا التحريض الأحمق فأهملوا دروسهم وجعلوا النظام المدرسى على شفاف جرف ينهار ومعظم الذنب فى ذلك على قليل من الجرائد العربية الساقطةالتى جعلت دأبها استصراخ التلاميذ واستنهاض هممهم » .

واحسب أن ليس هناك ما يكشف عن مدى ما بلغ اليه الطلبة من تأثير فى الحياة العامة أكثر من هذه الشكوى .

بعض أعمال الطلبة :

ولقد سجل عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد بعض وقائع هـــذا النشاط ، فعندما أضرب عمال مطبعة اللواء تحت تحريض المحرضين من خصــــوم الوطنية ليعطلوا صدور اللواء تطوع الطلاب لاصدار الجـــريدة بحيث لم يتعطـــل صدورها يوما واحدا ــ وكان الانجليز يقيمون احتفالا سنويا فى ٩ نوفمبر احتفـالا بعيد ميلاد ملكهم فانتهز طلاب مدرسة الحقوق هذه المناسبة وقد كانت مدرستهم تقع فى ميدان عابدين لكى يهتفوا مطالبين بالدستور .

ويقول لنا شفيق باشا عن هذه الواقعة « وقد أعجب الجميع بنظـــام الطلبة والترتيب بحيث كان يخيل للرائى والسامع أن هذه الظاهرة كانت ضـــمن برنامج الاحتفال الانجليزى » .

ثم يحدثنا فيما يحدث أن الخديو تلقى رسالة تهدده بنسفه فى عربته ، » وكان رأى الخديو أن محرر هذا الخطاب هو أحد رجال الحزب الوطنى من أتباع محمد فريد » . ويمضى فيحدثنا عن شتى صنوف الاضطرابات فى اوساط الطلبة واغـلاق مدرسة المهندسخانة شهرين ، وعن موجة الفزع التى غمرتهم جميعا مما قد يقـع من الطلاب والخديو متوجه لصلاة الجمعة فى مسجد السيدة زينب .

أول ديسمبر — مجلس شورى القوانين :

يتحدث شفيق باشا عما جرى فى مجلس شورى القوانين بخصـــوص طلب الدستور الذى كان قد تأجل كما ذكرنا من قبل الى هذه الدورة وصدر القرار الذى أشرنا اليه سابقا .

المشادة بين الخديو والحزب الوطنى :

تحت هذا العنوان يختم احمد شفيق باشا مذكراته عن عام ١٩٠٨ وكيف انه سمع الخديو فى ١١ ديسمبر يشكو شكوى مرة للشيخ على يوسف من حملة جريدة اللواء عليه واتهامه بالخيانة وكان مما قاله « كيف امضى خمسة عشر عاما فى حروب عنيفة مع الانجليز ثم ينسى هؤلاء المفترون ذلك ويقولون أنى خائن — ولو أدعــو شيئا آخر لـما صعب على ولكن لا يمكن أن اكون خائنا » .

١٣ ديسمبر اسقاط لطفى السيد :

فى هذا اليوم جرت انتخابات عامة لملأ بعض المقاعد الشاغرة فى الجمعية العمومية ويحدثنا لطفى السيد أن الخديو عمل على اسقاطه وهو ما يعترف به شفيق باشا فى مذكـراته .

٢٥ ديسمبر — الاحتفال بمرور سنة على انشاء الحزب الوطنى :

عقد الحزب الوطنى بدار اللواء (شارع نوبار) جمعيته العمومية بمناسبة مرور عام على أجتماعها الأول والقى محمد فريد خطابا اضافيا عما قام به الحزب من جهود عقب وفاة مصطفى كامل واستعرض احوال البلاد استعراضا كاملا خـــلال العام المنصرم .

وقد سن الحزب الوطنى تقليدا جديدا نافعا ، وهو أن يصدر تقريرا اضـافيا يشمل كل نواحى الحياة المصرية معارضا بذلك التقرير الانجليـــزى وفى كتـــاب عبد الرحمن الرافعى عن محمد فريد تفصيل عن مواد هذا التقرير وكان اهم ماتحدث عنه محمد فريد فى خطابه هو حركة المطالبة بالدستور التى قويت واشتدت بعـد

انضمام مجلس شورى القوانين اليها ثم تحدث عن مدارس الشعب التى شرع الحزب بالتعاون مع نادى المدارس العليا بانشائها .

قرارات الجمعية العمومية :

وقد انتهت الجمعية العمومية باصدار قرارين :

١ ـ تجديد الاحتجاج على الاحتلال الانجليزى .

٢ ـ طلب الدستور من الخديو .

الميزانية والحساب الختامى لعام ١٩٠٨ :

جاءت نتيجة الحساب الختامى لعام ١٩٠٨ كما حرص الانجليز منذ عهد كرومر ان يفعلوا وهو ان ينتهى الحساب الختامى بفائض فى الميزانية فحيث قدرت الميزانية ان ايرادات عام ١٩٠٨ سوف تكون ١٥٠٣٠٠٠٠ جنيه فقد كانت الايرادات الحقيقية فى نهاية العام ١٥٥٢٢٠٠٠ جنيه ، وحيث قدرت المصروفات فى الميزانية ب ١٤٧٣٠٠٠٠ فان ما صرف بالفعل كان ١٤٤٠٨٠٠٠ جنيه أى أن الحساب النهائى كان بزيادة قدرها ١١١٤٠٠٠٠ جنيه .

* * *

عام ١٩٠٩

عيد الهجرة عطلة رسمية :

كان من أهم القرارات التى اتخذتها وزارة بطرس غالى فى مستهل العام الجديد هو اعتبار أول السنة الهجرية يوم عطلة رسميا ففى عشرين يناير صـــدر ملحق للوقائع المصرية يتضمن القرار التالى : « بمناسبة أول السنة الهجرية الجـــديدة ستقفل نظارات الحكومة ومصالحها يوم السبت أول محرم سنة ١٣٢٧ ــ ٢٣ يناير سنة ١٩٠٩ » . وهكذا تقررت العطلة الرسمية فى أعظم مناسبة اسلامية فى عهـــد رئيس وزارة قبطى ، وليس ذلك الا دليل على عمق مصريته ، فما دامت أغلبيـــة البلاد مسلمة فعلى رئيس حكومتها أن يحس بشعور هـــذه الأغلبية المسلمة لو كان مســيحيا .

الحزب الوطنى يحتفل :

وكان الحزب الوطنى هو الذى استن هذه السنة منذ العـــام الماضى وأقام الاحتفال هذا العام بدار التمثيل العربى (مسرح الشيخ سلامة حجازى) . ويهمنا من الاحتفال قصيدة حافظ ابراهيم التى تعتبر تلخيصا وتصويرا للاحداث الجارية وعلى ذكر حافظ ابراهيم ، ففى الأعوام السابقة كان أحمـــد شوقى شاعر الخديوى يقف الى جوار مصطفى كامل فكل ما يقــوله مصطفى كامل نثرا يردده أحمـــد شوقى شعرا حتى اذا مات مصطفى كامل من ناحية وتمت القطيعة بين الخديو والحـــزب الوطنى من الناحية الأخرى فقد غاب شوقى عن حفلات الحـــزب الوطنى ، وبرز حافظ ابراهيم فاحتلت دره احتفالات الحـــزب الوطنى . واليك بعض أبيات من هذه القصيدة الرائعة والتى تشير الى هجرة الرسول من ناحية وتشير الى الأحداث الجارية من الناحية الأخرى ، قال فى مطلعها :

اطل على الأكوان والخلق تنظـر
هـــلال رآه المســلمون فكبـــروا

وقال عن هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهاجر فيه خير داع الى الهدى
يحف به من قـــــوة الله عســـكر

يماشـــيه جبـــريل وتسعى وراءه
ملائـكة ترعى خطـــاه وتخفـــر

يبشـــــراه برهـــان من الله ســـاطع
هدى وبيمينـــه الكتـــاب المطهـــر

فكان عـــلى ابواب مكة ركبـــــه
وفى يثـــــرب أنـــواره تتفجـــر

حركة المطالبة بالدستور :

وتمضى القصيدة فى عشرات من الأبيات الرائعة تستعرض تاريخ الأحداث ، ثم تعكس الروح العارمة التى كانت تغمر مصر آنذاك ونعنى بها روح المطالبة بالدستور قـــال :

ويا طالبى الدستور لا تســكنوا ولا
تبيتوا عـــلى يأس ولا تتضـــجروا

أعدوا له صـــــدر المكان فاننى
اراه عـــلى ابوابكم يتخطـــــر

ولا تنطقـــوا الا صـــوابا فاننى
اخاف عليـكم ان يقـــال تهوروا

لقد ظفر الأتراك عـدلا بســؤالهم
ونحـن عـلى الآثار لا شك نظفـر

وقد عمت الفرحة ارجاء البلاد بأن أصبح الاحتفال بعيد الهجرة رسميا فأقيمت الاحتفالات فى طول البلاد وعرضها .

٣٠ يناير ١٩٠٩ تعيين الأمير حسين كامل رئيسا لمجلس الشورى :

فى ٣٠ يناير صدر أمر عال بتعيين الأمير (البرنس كما كان يقال وقتها) حسين كامل رئيسا لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فكان تعيينه فى هذا المنصب بمثابة الاعلاء من مكانة المجلس وزيادة مكانته .

أول فبراير ـ انعقاد الجمعية العمومية :

وعقدت الجمعية العمومية فى أول فبراير برئاسة الأمير لأول مرة وكان قـرار تعيينه رئيسا للجمعية قد أحيا الآمال فى قرب تحويلها الى مجلس نيابى ولذلك كانت خيبة أملهم كبيرة عندما خلت خطبة الافتتاح التى القاها الخديو من الاشارة الى مجلس النواب من قرب أو بعـــد ، ولذلك أعرب أعضـاء الجمعية عن استيائهم فى الجلسة الختامية .

١١ فبراير ١٩٠٩ ـ ذكرى مصطفى كامل :

كان يوم الذكرى الأولى لوفاة مصطفى كامل فى ١١ فبراير من هذه السنة رجة

فى حياة البلاد الوطنية ، فعندما خرجت مصر كلها فى جزع ووله يوم وفاة مصطفى كامل ، وكان من بين الحزانى من بنوا شهرتهم على أساس الهجوم عليه واعنى به لطفى السيد محرر الجريدة ، والذى نشر على سبيل المثال آخر خطاب القاه مصطفى كامل قبل موته تحت عنوان « ناقل الكفر ليس بكافر » فلما ان مات مصطفى كامل كان من أشد الناس حزعا عليه حتى لقد ارتدى السواد وكان هوالذى دعا لاقامة تمثال لمصطفى كامل وبلغ من حزنه العميق الى حد ان الدكتور محمد حسين هيكل يحدثنا فى مذكراته ان هذا التصرف من (خاله) لم يعجبه وراى فيه تناقضا ، وليس ذلك الا صورة من الاحساس بالفجيعة ، وقد كان قاسم أمين هو الذى أدرك أن هـــذا التفجع هو آية الوطنية المصرية التى بعثت ، وعبر عما حدث بأن قلب مصر قـــد خفق ، ولكن الانجليز تصوروا ان ما حدث لا يزيد عن رد الفعل العاطفى الذى يحدث عند المصريين لدى أى وفاة ، فلمــا ان حال الحــول على وفاة مصطفى كامــل وجاء يوم ذكراه كانت هذه فرصة الحزب الوطنى ليظهر ان ما حدث يوم وفاة مصـــطفى كامل لم يكن مجرد انفعال وقتى ، وانما هــو آية مشاعر وطنية عميقـــة ، فراحت الصحف بعامة وجريدة اللواء بخاصة تذكر الأمة بهذا الحدث وكتب محمــد فريد مقالا نرى أن نقتبس منه فقرة تصور الأسس والأهداف التى احتفل بذكر مصطفى كامل للتعبير عنها قال فى اليوم السابق على الذكرى : ان الحفلات التى تقام غدا فى أغلب البنادر والقرى لأكبر دليل على نماء الشعور الوطنى فى البلاد واكبر مشجع لنا على السير فى هذا الطريق القويم طريق خدمة الوطن والسعى المتواصل لنيـــل الدستور والحصول على الجلاء مهما اعترضنا من العقبات . ان الشعور الحقيقى ينمو كلما كان الطريق وعرا قد مهد منه جزء ليس بالقليل وأصبح الدستور على الأبواب بعد اتحاد مجلس الشورى والجمعية العمومية على طلبــــه ومؤازرة الأمة لهما ، ، وبعد نيل اخواننا العثمانيون له ، فثابروا .. الخ) .

وهكذا نرى ان المطالب الوطنية قد تحددت فى مطلبين :

١ ــ الدســـــتور ٢ ــ الجـــلاء

ومن هنا فان المظاهرة التى قامت فى اليوم التالى وعمت البلاد لم تكن مجــرد انفعال احدثته وفاة مصطفى كامل وانما كانت مظاهرة قومية للتعبير عن تأييد هذين المطلبين ، ولندع الآن لعبد الرحمن الرافعى يصف لنا هذه المظاهرة الوطنية الكبرى فقد كان شاهد عيان لها ، بل ربما كان احد منظميها قال :

« سار الموكب يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ من دار اللواء بشارع الدواوين الى مدفن الزعيم الأول فكان موكبا رهيبا أعاد الى الأذهان جلال موكب الجنـــازة ، احتشدت فيه طوائف الشعب وطلبة المدارس جميعها واللجان الفرعية للحـــزب الوطنى ، وكل طائفة تحمل علمها مجللا بالسواد ، وسار الموكب على الترتيب الذى وضعته لجنة الاحتفال ، وكان النظام كاملا والسكون شاملا ، واخترق الشـــوارع المؤدية الى المدفن فزخرت بالجموع الحاشدة ، وكان لا يمر فى طريق الا ويســـود

السكون الواقفين على الجوانب . وعطلت قطارات الترام والعربات فى كل مكان مر فيه ، ورفعت المحال التجارية التى مر بها شارات الحداد اشتراكا فى الاحتفال وانتهى الموكب الى مدفن الزعيم . ووقف على القبر شاعر النيل حافظ ابراهيم فألقى قصيدته التى جاء فى مطلعها :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا
واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

ويبلغ حافظ ذروة الموسيقى والعاطفة الجياشة ورقة التعبير فيقول :

انى أرى وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف بها الاكبار والعظم
أرى جلالا ، أرى نورا أرى ملكا
أرى محييا يحيينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا الفرد المعلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم
واقسموا ان تزودوا عن مبادئه
فنحن فى موقف يحلو به القسم

يقول عبد الرحمن الرافعى (ولا بد انه كان واحدا من الحاضرين) وعند وصول حافظ ابراهم الى هذا البيت الذى دعا فيه الى القسم فضج الحاضرون بالهتاف أقسمنا أقسمنا ، فكان هذا اليوم يوما مشهودا فى تاريخ الحركة الوطنية .

٣ مارس ١٩٠٩ جعل جلسات مجلس الشورى علنيا :

كان محالا أن لا يتجاوب الانجليز مع الرغبة العارمة فى أن يكون للأمة مجلس نواب ، فسمحوا للحكومة أن تقوم باجراء شكلى متصورين أنه لن يقدم أو يؤخر من الناحية العملية ، ولكنا سنرى ان هذا الاجراء الذى تصوره الانجليز شكليا ، سيحول الجمعية العمومية بالفعل الى مجلس نواب يصدر قرارا حاسما فى قضية مصرية ، أما هذا القرار الذى نتحدث عنه فهو جعل جلسات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية علنية بعد ان كانت سرية منذ انشائها سنة ١٨٨٣ فصدر القانون رقم ٣ لسنة ١٩٠٩ وهو يقضى بذلك .

٢٥ مارس ــ بعث قانون المطبوعات :

فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ أقدمت حكومة بطرس باشا غالى على اجراء أقام الدنيا

وأقعدها وقد أعتبر الاجـــراء بمثابة لطمة كبيرة وجهت الى الحـــركة الوطنية ، وقد كان صدوره بمثابة مفترق الطرق بالنسبة لحكومة بطـــرس غـــالى والتى استقبلتها الأمة كما رأينا استقبالا حسنا ، فلم يكد هـــذا الاجراء يقع حتى فقـدت الحكومة ثقة العناصر الوطنية كلها على اختلاف مناهجها .

اما هذا الاجراء الذى نعنيه فهو احياء قانون قديم للمطبوعات كانت حـــكومة الثورة العرابية قد أصدرته عام ١٨٨١ لحماية الثورة آنذاك ، فلما أن احتل الانجليز مصر توقف العمل بهذا القانون ، وكان كرومر من المؤمنين بحرية الصحافة ويقـول أن حرية الصحافة تطلعه على تيارات ما كان ليطلع عليها لو لم تكن هناك حـــرية للصحافة ، وهكذا كان مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يطالبان بتقييـد الصحافة وكرومر يرفض ، فلما ان ذهب كرومر وحل محله جـــورست ، وحلت سياسة الوفاق واشتدت الحركة الوطنية ، اتفقت الأطراف المعنية (الخـــديو والانجليز والحكومة على بعث القانون ، فأصدر مجلس الوزراء فى ٢٥ مارس القرار التالى : « ان الحكومة منذ سنة ١٨٩٤ لم تنفذ قانون المطبوعات الصـــادر فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ وحيث أن الجمعية العمومية طلبت من الحكومة فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٢ ردع الجرائد عن تجاوزها الحدود وعن الفوضى التى وصلت اليهـــا وأرسل اليها مجلس شورى القوانين طلبا مثل ذلك فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٤،وحيث ان عدم تنفيذ قانون المطبوعات لم يزد هذه الجرائد الا تماديا فى التطرف والخروج عن الحد حتى ادى ذلك الى شكوى الناس بلسان الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين من هذه الحالة التى أضرت بمصالح البلاد ضررا بليغا ، فقـــد قرر مجلس الوزراء ما يأتى : يعمل بأحكام قانون المطبوعات فيما يتعلق منها بنشر الجرائد فى القطر المصرى » .

مذكرات شفيق باشا وقانون المطبوعات :

ولقد حدثنا شفيق باشا طويلا عما جرى وراء الستار قبل اصدار هذا القرار وكان الخديو على ما يبدو وهو صاحب الاقتراح فصدع بطرس غالى بهذا التوجيه ، فاتصل بجورست الذى لا بد ان يكون رحب به كل الترحيب ، ولـكن المحيطـــين بالخديو خوفوه عاقبة هذا الأمر وقد سجل لنا شفيق باشا فيما سجل مقـــابلة عاصفة بين الشيخ على يوسف وبين الخديو حول هذا الموضوع مما جعل الخـديو بالفعل يتراجع عن هذا الاجراء ، ولمـا كان الوزراء (محمد سعـــيد وسعد زغلول وحسين رشدى ، كانوا معارضين فى الموضوع منذ البداية فقـــد عملوا على ايقاف الموضوع ولكن بطرس غالى الذى كان قد اتفق مع الانجليز ظل متمسكا بالقرار الأول وعلى هذا الأساس صدر القرار .

صـدى القـانون :

ويجمل لنا شفيق باشا رد فعل هذا القرار تحت العنوان السابق ويقــول : نشرت الوقائع الرسمية فى ٢٧ مارس قرار مجلس النظار بتنفيذ قانون المطبـوعات لسنة ١٨٨١ على الصحف والمطابع والقرار الخاص بتكليف ناظر الداخليـة باحالة المتهمين على القضاء ما لم يقرر مجلس النظار تطبيق مادة ١٣ من القانون المـذكور فثارت لذلك جميع الصحف وحملت اللواء على القانون بعنف ووردت تلغـــرافات للمغية وللحكومة بالاستياء منه ، وفى اليوم التالى ذهب الخديو الى المحطـة لتوديع الدوق أوف كنت ، وفى أثناء ذهابه وعودته الى عابدين لاحظ ان بعض الطلبة الذين ينتمون الى الحزب الوطنى كانوا جالسين على قهوة الشيشة وغيرها وهم فى حالة عدم اكتراث ، ولمـا مر عليهم لم يتحركوا ولم يقفوا لأداء السـلام بل بالعكس رفعوا ساقا فوق ساق ونظروا اليه ، وقد شعر سموه انه لا بد وأن يكون الحزب كلفهم بتنظيم هذه المظاهرة انتقاما منه بسبب قانون المطبوعات والصحافة .

وفى يوم ٢٩ مارس حضر للسراى سكرتير الحزب الوطنى وسلمنى خطابا باسم الخديو وفيــه احتجاج من لجنة ادارة الحزب الوطنى ، وبلغنى من ســموه بعد ذلك أنه ورد للنظار انذار بأن عشرة من الطلبة سينتقمون منهم ويقتلونهم .

٢٧ مارس تقرير الانجليز :

فى هذا اليوم تم نشر وتوزيع التقرير السنوى الذى يرفعه المعتمـد البريطانى الى وزير خارجية انجلترا (السير ادوارد جراى) وجاء فى أوله : أتشرف برفع تقريرى عن التقدم الذى تم فى مصالح الحكومة المصرية عام ١٩٠٨ .

وقد استعرضنا بالتفصيل فيما سبق تقرير سنة ١٩٠٧ ولا يعدو هذا التقرير أن يكون نسخة مكررة ، وقد اقتبسنا منه بعض التعليقات على شتى المسائل ، وأرى أن انقل نص ما جاء فى هذا التقرير عن الجامعة وذلك المولود الجـــديد الذى أقامته الأمة تعبيرا عن ارادتها فى مقاومة الانجليز بالاستزادة من العلم . واليك نص ما جاء فى التقــرير :

الجامعــة المصرية :

ذكرت فى تقرير السنة الماضية المبادىء العمومية التى اقترح اتباعها فى ادارة هذا المعهد العلمى وقلت : أن الحكومــة مستعدة لأن تنشط المشروع بكل طاقتها وتمده بمعونتها . وأقول الآن أن سمو الخديو فتح الجامعة فى شهر ديسمبر المــاضى فدخلت فى سنتها الأولى فى أحوال تبشر بالنجاح وأهم الأغراض التى ترمى اليها الجامعة هى:

١ ـــ أن يكون فيها اساتذة قادرون على القاء خطب بالعربية عن اخص العلوم التى تدرس فى أوروبا ، وتوصلا الى هـــذا الغرض أرسلت ١١ تلميـــذا الى أوروبا

ليدرسوا دروسا عالية فى جامعات لندن وباريس وليون وقد جاءت التقارير عن نجاح هؤلاء التلامذة بما يشرح الصدر .

٢ ـ اطلاع الجمهور فى مصر على احدث ما وصلت اليه العلوم والآداب فى أوروبا وذلك بالقاء محاضرات فى آداب اللغة الانجليزية واللغة الفرنساوية وتاريخ الحضارات الشرقية القديمة وتاريخ حضارة الاسلام وعلاقة العالم الاسلامى بالغرب ، والأساتذة خمسة ثلاثة أوربيون ومصريان ومتوسط عدد الذين يحضرون هذه المحاضرات ١٢٠ وهو عدد كبير يفوق ما كان منتظرا . وقد بلغ عدد الذين قيدوا أسماءهم بين طلاب الجامعة ٧٥٤ منهم ٦٧٨ من المصريين بينهم ٥٠٨ مسلمون وبين الطلاب ٢٤٣ من مستخدمى الحكومة و ٣١ من النساء .

أول ابريل ـ المظاهرات تصل الى الذروة :

مذ صدر الأمر ببعث قانون المطبوعات حتى عمت الدوائر الوطنية وبخاصة من الشباب موجة من السخط أشار شفيق باشا الى بعض منها ، ولكن الذى لم يتوقعه الانجليز بحال هو أن ينظم الشباب مظاهرات صاخبة رغما من تحذيرات وزارة الداخلية ، ووصلت هذه المظاهرات الى ذروة لم تشهدها البلاد من قبل فى أول أبريل حيث احتشد أكثر من عشرة آلاف شخص على ما يروى عبد الرحمن الرافعى اجتمعوا فى حديقة الجزيرة (حيث توجد أرض المعارض الآن) وساروا فوق كوبرى قصر النيل قاصدين ميدان الأوبرا، وهناك تصدى لهم البوليس تحت رئاسة الحكمدار الانجليزى هارفى باشا ، وهنا نشبت معركة لأول مرة بين المتظاهرين والبوليس فأصيب الكثيرون ، واعتقل البوليس العشرات وقدم الزعماء الى المحاكمة فحكم على البعض بالحبس .

ومن المحقق ان هذه الظاهرة كانت شيئا جديدا فى حياة مصر السياسية منذ الاحتلال البريطانى بحيث أنها كانت أول شىء يقص على الخديو وهو بعد لا يزال فى محطة السكة الحديد وقد وصل اليها عائدا من السودان حيث كان يفتتح ميناء بور سودان واليك ما قاله شفيق باشا فى مذكراته :

مظاهرة الطلبة :

ولما عاد سموه الى القاهرة فى ٥ ابريل بعد افتتاح بور سودان كان النظار فى انتظاره مع البرنس محمد على باشا فعلمنا منهم انه وقعت اثناء غياب سموه مظاهرة كبيرة قام بها الطلاب المنتمون للحزب الوطنى ، وأن هارفى باشا الحكمدار الذى كان مشرفا على تشتيتهم سقط عن جواده ولكن البوليس تمكن من القبض على ناصية الحال وقبض على عدد من المتظاهرين لتقديمهم للمحاكمة ، وعلمنا أن جيش الاحتلال كان على استعداد لأول اشارة ، وأن القائد العام كان يراقب بنفسه المظاهرة فى ميدان

الأوبرا . وقد لامهم على عـــدم ارسال الأخبار اليه مدة غيابه ولا سيما فى أمر بهـذه الخطـــورة .

ثم يحدثنا شفيق باشا كيف اثير موضوع قانون المطبوعات فى مجلس شـــورى القوانين حيث اقترح على باشا شعراوى الغاء القانون فعارضه اسماعيل باشا أباظة؛ لأن المجلس لا يملك سلطة الالغاء والأصح أن يطلب المجلس من الحكومة عمل قانون جديد يكون صالحا . فتقدم أحد اعضاء المجلس وهو مقار باشا عبد الشهد للموافقة على القانون بحالته فكان أن حصل اقتراحه على أغلبية ، ويعلق شفيق باشا على هذه النتيجة بقوله :

« وقد كانت هذه النتيجة سيئة المغزى بالنســبة للأمة المصرية وتقـــديرها لحرياتها وحقوقها ، ولكن الذنب فى ذلك يرجع الى الخلاف بين أباظة باشا وشعراوى باشا ، فمكن عبد الشهيد باشا من أحراز الأغلبية » .

١٢ ابريل محمد فريد وانقلاب فى الاستانة :

فى الثانى عشر من أبريل حدث حادث من هــذه الحـوادث التى تثبت ما فى الكون من أسرار غامضة ، فلاول مرة وفى غير الوقت الذى اعتادت الناس فيـه أن تسافر الى استنبول قرر محمد فريد ان يسافر اليها فلا يكاد يصل حيث يشــهد عزل السلطان عبد الحميد بحيث يتصور الكثيرون أنه كان ضالعا فى هــذا العمل ، ولانقل نص ما قاله هو فى مذكراته :

« فى تسعة أبريل من السنة المذكورة سافرت الى الآستانة لأول مــرة فى حياتى فوصلتا فى يوم ١٢ منه وفى صبيحة ١٣ منه حصلت « الحركة الارتجاعية » المشهورة التى انتهت بعزل السلطان عبد الحميد بقوة حزب الاتحاد والترقى وهمــة البطل محمد شوكت باشا . ومن غريب المصادفات أنها حصلت صبيحة وصولى فأخذت أرسل الأخبار تلغرافيا للواء فى اليوم مرتين أو ثلاثا وكانت أخبارى أصدق أخبار الجرايد لانى كنت استقيها من أصدق المصادر حتى قال بعضهم : اننى كنت على علم بما سيحصل هناك ، ولذلك سافرت فجأة والحقيقة ان سفرى كان لتوطيد الروابط بين حزبنا ورجال حزب الاتحاد . ولقد حضرت صلاة الجمعة مع السلطان عبد الحميد بجامع حميدية قبل عزله وحضرت الصلاة فى أول يوم جمعة عقب تولية محمـد رشاد الخامس فى جامع أيا صوفيا وكنت أنشر كل ما رأيته مفصلا فى مقالاتى التى كان ينشرها اللواء حينئذ ثم عدت الى القاهرة فى أوائل مايو بعد أن أمضيت فى الآستانة ثلاثة أســابيع فقط .

٢٠ ـ مايو الشيخ سلامة حجازى فى أوج مجده :

والآن فلندع حـديث السياسة والادارة مؤقتا لنتحدث عن الجانب الفنى فى حياة القاهرة فى تلك الأيام ، وقد مرت بنا الاشارة أكثر من مرة الى أن الحزب الوطنى أصبح يقيم اجتماعاته فى مسرح الشيخ سلامة حجازى المسمى (دار التمثيل العربى)

وقد حدث هذا التلاحم بين بطل الغناء والتمثيل ونعنى به الشيخ سلامة حجازى وبين الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل حيث بادر الشيخ سلامة فراح يغنى مرثية احمد شوقى فى مصطفى كامل « المشرقان عليك ينتحبان (١) » ولا عجب فى ذلك فشأن الفنان الأصيل أن يكون نبض مجتمعه ، وليس هنا مجال الحديث باستفاضة عن الشيخ سلامة ، وربما عدنا للحديث عنه بمناسبة وفاته . ولكننا فى حدود هذه الفترة الزمنية المحدودة التى نتحدث عنها (مايو ١٩٠٩) فقد كان الشيخ سلامة حجازى قد بلغ أوج مجده فى دنيا الغناء المسرحى والتمثل ، وفى هذا التاريخ الذى نشير اليه كان قد أتم موسمه وسافر على رأس فرقته ليعرض فنه فى بلاد الشام واليك ما نشرته جريدة الأهرام بهذا الخصوص فى عددها الصادر فى ٢١ مايو :

مساء اليوم يسافر حضرة الممثل البارع والمطرب المتفنن الشيخ سلامة حجازى مع جوقته الى ربوع الشام (٢) بناء على طلب أهل الأدب ومحبى هذا الفن فى هاتيك البلاد ولاشك أنه سيصادف من الشاميين ما يصادفه عندنا من الاحتفاء والاقبال لأن الجميع قد عرفوا ما يبذله حضرته من العناية فى فن التمثيل حتى أصبح جوقه من خيرة أجواقنا العربية فندعو له بالنجاح والتوفيق ورجوعه الينا سالما . ليحيى برواياته الشائقة ، وقد طلب منا حضرته أن نشكر بلسانه جميع الذين أزروه ونشطوه فى مصر سواء كان بكتاباتهم أو باقبالهم على مسرحه » .

بعض التمثيليات :

ونذكر على سبيل المثال أسماء بعض مسرحياته التى اشتهرت : صلاح الدين .(١) شهداء الغرام (روميو وجولييت) . هملت . السيد أجاممنون – الجرم الخفى – تسبا – مطامع النساء – ثارات العرب – صاحبة الشرف – عواطف البنين – عظة الملوك – حمدان – الأفريقية – سارقة الأطفال – العفو القاتل – صاحب معامل الحديد – ضحية الغواية – السر المكنون – عيشة القسامر – ملك المكامن – غانية الأندلس – الظلوم – البرج الهائل – مظالم الآباء – اللص الشريف – القضية المشهورة . وليس ذلك الا نموذجا لبعض ما كان يعرض على مسرح الشيخ سلامة ولقد شاهدنا فى الثلاثينيات بعض هذه المسرحيات وتصورنا وقيل لنا أن عرضها على المسرح يعتبر فتحا جديدا . وقد أثار عرض مسرحتى عظة الملوك ، وتيليماك زوبعة دينية فى وقتها اذ كان فيهما مشاهد تمثيل الجحيم والزبانية والملائكة .

وللشيخ سلامة حجازى ما يزيد على أربعين أسطوانة . ومن أراد المزيد فى التعرف على الشيخ سلامة وفنه فعليه بمطالعة كتاب الدكتور الحفنى الذى أصدرته

(١) راجع الجزء الثالث من الموسوعة .

(٢) ربوع الشام كانت تغنى فى ذلك الوقت ما يعرف الان باسم سوريا ولبنان وأجزاء من الاردن .

(٣) كنت فى صباى المبكر أشترك مع قرنائى فى تمثيل هذه المسرحية وأشدو بأغانيها ولعل ذلك يكشف لك عن مدى انتشار فن سلامة حجازى .

وزارة الثقافة فى مجموعة الألف كتاب ومن ناحيتنا فقد تحدثنا عن رحلة الشيخ سلامة الى الشام باعتبارها ذروة ما وصل اليه فلا يلبث أن يصاب فى الشام بالفالج (الشلل) .

٣٠ مايو سفر الخديو الى الاستانة :

أشرنا فيما سبق أثناء التحدث عن سفر محمد فريد الى الآستانة عن خلع السلطان عبد الحميد ، وتولية محمد رشاد ، وكان طبيعيا أن يسافر الخديو لتهنئة السلطان الجديد ، فسافر فى ٣٠ مايو فوصل فى أول يونيو ونشرت الوقائع المصرية بلاغا يتحدث عن الحفاوة الكبيرة التى استقبل بها الخديوى .

٢٨ يونيو مقال عنيف للشيخ عبد العزيز شاويش :

فى يوم ٢٨ يونيو ١٩٠٩ نشرت جريدة اللواء بمناسبة ذكرى دنشواى مقالا عنيفا كتبه الشيخ عبد العزيز شاويش طعنا فى بطرس غالى رئيس الحكومة مذكرا اياه بأنه جلاد دنشواى فقد كان هو رئيس المحكمة المخصوصة التى أصدرت الأحكام القاسية على ما مر بنا . وقد رأينا كيف تناست الأمة ذلك عند تشكيل الوزارة حتى كتب محمد فريد نفسه يرحب بالوزارة الجديدة ، ولكن بعث قانون المطبوعات لم يلبث أن أعاد الى الذاكرة هذا الموقف ، فكان ان كتب عبد العزيز شاويش ما كتب ، فأوعزت الحكومة الى النيابة العمومية بتقديم عبد العزيز شاويش للمحاكمة .

٤ يوليو صدور قانون النفى الادارى :

ويقضى هذا القانون بحق السلطة الادارية فى نفى الأشخاص الذين ترى أنهم خطر على الأمن العام الى جهة نائية بالقطر المصرى ، وقد اختيرت الواحات (١) لتكون هذه الجهة . وقد فتح هذا القانون الباب أمام عمد البلاد ورجال الادارة للانتقام أو عقاب بعض من لا يرضون عنه مما ترتب عليه كثير من المظالم .

الحكم على الشيخ شاويش :

فى الخامس من أغسطس صدر حكم محكمة عابدين الجزئية وهو يقضى بالغرامة (٤٠ جنيها) فأستأنفت النيابة الحكم . وفى ٢٥ أغسطس صدر حكم محكمة الجنح المستأنفة ، وكانت مشكلة من (برغوص أغوبيان بك وعضوية مستر كلابكوت وأبراهيم يونس بك) . فعدلت الحكم الى الحبس ٣ شهور .

انذار جريدة اللواء :

وفى ذات اليوم الذى صدر فيه حكم المحكمة الذى يقضى بحبس الشيخ عبد العزيز شاويش انذرت الحكومة جريدة اللواء الانذار الأول تهيدا لاغلاقها كما يقضى قانون المطبوعات ؛ وذلك بحجة أنه نشر مقالا عن شاب هندى يدعى « دنجرا » كان قد اغتال فى لندن السير كيرزون ويلى احد حكام الهند السابقين وقد اعتبر المقال تحريضا على الجرائم . فكان لصدور الحكم بالحبس على الشيخ شاويش

(١) ما أعجب أن تعود الواحات بالذات فى الستينات لتكون معتقلا .

وتوجيه الانذار في يوم واحد موجة اســـتياء غمرت البـــلاد حتى ان الاســتاذ على الغاياتي في كتاب وطنيتي يحدثنا عن قيام مظاهرة ضخمة في حديقة الازبكيــه يوم ٣٠ اغسطس أي بعد الحكم على الشيخ شاويش بخمســة أيام وألقيت في المظاهــرة الخطب الوطنية . وتمت الموافقة على اقتراح بانشــاء وســـام شعبي يطلق عليه اسم « وسام الشعب » ليتقلده عبد العزيز شــاويش يوم خروجه من الســجن ، مما سنعود اليه في حينه .

أفول نجــم :

في غضون شهر أغسطس كانت احدى المآسي الانسانية تتكامل ونعني بها مرض السيد محمد توفيق البكري مرضا عقليا ، والسيد محمد توفيق البكري هو احد نجوم المجتمع المصري في هذه الحقبة فهو أحد كبار المطالبين بالدستور وهو مؤلف أول مجمع شعبي للغة العربية وهو صاحب كتاب « صهاريج اللؤلؤ » الذي كان مدرسة كاملة ، وكان مصطفى المنفلوطي قــد اعترف ببعض أبيــات من الشعر فيها تهجم على الخديوي وحكم عليه بالحبس من أجلها ولكن الاســتاذ عباس محمــود العقاد يرى ان صاحب هذه الأبيات الحقيقي هو محمد توفيق البكري ، وعلى أية حال فقد كانت نقطة شعور محمد توفيق البكري ان الخديو يضطهده هي عقــدة الاضطراب الذهني الذي ألم به ، فيحدثنا شفيق باشا في مذكراته حـــديثا مستفيضا عن هذا الموضوع يبدؤه بحديث الشيخ على يوسف بحزن ومرارة عن صـــديق عمره ، ويختمه بقوله : « وقد زرته فوجـــدته في حالة يرثى لهــا من التطورات المؤلمة . وبذلت كل جهد لطمأنته وأبلغته رضاء الخــديو عنه وعمله على معونته . وخرجت من عنده بعد أن قمت بكل ما أمكنني لراحته » .

وبعد ذلك تمت مسألة السلفة وسافر البكري للاستشفاء بالعصفورية (١) .

١٣ سبتمبر : قانون مجالس المديريات :

كان لامناص بعد أن اشتد تعلق الجماهير بالدستور باعتباره السبيل لاشراك الأمة في تسيير شئونها ، ان يخطو الانجليز (وهم الدســتوريون بطبعهم) خطــوة يذرون بها الرماد في أعين المصريين ، فأعلنوا عن اهتمامهم بتدعيم الحــكم المحلي كمـا تمثله مجالس المديريات ، وعلى ذلك فقد صــدر في هذا التــاريخ (١٣ ســـبتمبر) القانون رقم ٢٢ لســنة ١٩٠٩ وهــو يقضي بتعــديل النظــام الاســاسي لمجالس المديريات (٢) ، فأصبح لكل مركز من مراكز المديرية عضوان وخولت هــذه المجالس سلطة قطعية في فرض ضريبة اضافية على الأطيـــان لا تتجاوز في مجموعها ٥ ٪ من الضرائب الأصلية وذلك لانفاقها على المنافع العمومية وبخاصة التعليم . وخول المجلس بعد ذلك كثيرا من الاختصاصات التي كانت من اختصاص وزارة الداخلية ، وانقص شرط المال الذي يجب أن يدفعه كل عضو على ســـبيل الضرائب من خمسين جنيها في السنة الى ٢٥ جنيها اذا كان حائزا على شهادة عليا .

(١) مستشفى الامراض العقلية بلبنان وستدخلها بعد حين من الزمان الاديبة الشهيرة « مي » .
(٢) المديريات هي التي أصبح يطلق عليها الان اسم محافظات .

جورست ومجالس المديريات :

وقد أفاض جورست طويلا فى تقريره السنوى عن هذه الخطوة الجديدة ، وننقل آخر فقرة من حديثه المستفيض لانها تصور ما جرى فى انتخابات هذه المجالس وتصور من ناحية أخرى طنطة الانجليز بهذه الخطوة : كان عدد الأعضاء المطلوب انتخابهم ٨٢ فتقدم ٢٤٧ مرشحا للانتخاب ومما يجدر ذكره ان عدد الناخبين كلهم كان ٢٤٨٠ وان ٢١٩٤ منهم أشتركوا فى الانتخابات وقد اشتدت المناظرة بينهم جدا فى أحوال كثيرة وقد طعن فى صحة انتخاب ٤٢ من الـ ٨٣ الذين انتخبوا وأهم أسباب الطعن بأن المنتخبين لم يستوفوا شرط ادراج اسمائهم منذ خمس سنوات . ذلك ان الكثيرين لما علموا ان الحكومة تنوى توسيع اختصاص مجالس المديريات ادرجوا اسماءهم عام ١٩٠٨ وختم جورست هذه الفقرة من تقريره بقوله : « ان هذا القانون سيكون على توالى الزمن خطوة ذات شأن فى اعداد المصريين لحكم انفسهم بأنفسهم » .

محمد فريد فى مؤتمر جنيف للطلبة المصريين :

اكتسبت مؤتمرات الطلبة المصريين فى أوربا أهمية غير عادية على عهد محمد فريد نظرا للتضييق الذى بدأت الحركة الوطنية تلقاه داخل مصر من ناحية ، ولرسوخ تقاليد العمل الوطنى فى أوربا والذى بدأ ونما فى عهد مصطفى كامل وازدهر فى عهد محمد فريد وارى أن اثبت برنامج أحد هذه المؤتمرات كنموذج « للجد والدراسة » .

افتتح المؤتمر يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ واستمر منعقدا ثلاثة أيام وتلقيت فيه رسالة من مستر ولفرد بلنت اعتذر فيها عن عدم حضوره المؤتمر وطعن فى سياسة الاحتلال البريطانى وخطب به من احرار الانجليز المستر كير هاردى والمستر بارنس والمستر هارتون معربين عن تأييدهم للقضية المصرية . وهذه خلاصة بقية المواضيع التى القيت بالمؤتمر أو قدمت له وجعلها برنامجا له .

مواضيع باللغة الفرنسية :

١ ـ نظام الحكم فى مصر ـ لرئيس الحزب الوطنى محمد فريد بك .

٢ ـ مركز مصر الدولى للجنة المؤتمر .

٣ ـ نهضة الشرق ومصر للاستاذ محمد لطفى جمعه .

٤ ـ السودان للأستاذ على الشمسى .

٥ ـ التعليم العام فى مصر .

٦ ـ تعليم الشعب (الدكتور سيد مرعى) .

٧ ـ حرية الصحافة للجنة .

٨ ـ مسألة حيدة مصر للجنة

٩ ـ انقضاء على الحرية السياسية فى مصر والخطر الذى يهدد وادى النيل (لصادق افندى ميخائيل) .

١٠ ـ ساسة الانجليز فى مصر للأستاذ أحمد لطفى السيد بك .

مواضيع باللغة الانجليزية :

١ ـ سيئات الاحتلال ـ الأستاذ عثمان صبرى .
٢ ـ الحركة الوطنية ، ومستقبلها ـ مسيو تيودور روورستين .
٣ ـ مصلحة الصحة ـ الدكتور منصور رفعت .
٤ ـ المقارنة بين المسألة المصرية والمسألة الايرلندية حامد العلايلى .
٥ ـ مصر والاحتلال ـ الأستاذ محمد .

مواضيع باللغة العربية :

١ ـ تقرير عن مدرسة المهندسخانة المصرية .
٢ ـ السودان المصرى ـ الأستاذ مصطفى الشوربجى .
٣ ـ مصلحة السكة الحديد .
٤ ـ تقرير عن الجيش ـ لفيف من الضباط .
٥ ـ نظرة تاريخية عن السياسة الانجليزية فى مصر والخطة التى يجب اتخاذها نحو بريطانيا بقلم الأمير أفندى العطار .
٦ ـ حل المسألة المصرية ـ عبد السلام .
٧ ـ فضائح مصلحة خفر السواحل .
٨ ـ نهضة المصريين وواجباتهم ـ محمد لطفى جمعه .
٩ ـ مدرسة الحقوق الخديوية ـ أمين افندى الرافعى .
١٠ ـ الاحتلال والدستور فى مصر ـ محمود حمدى السخاوى أفندى .
١١ ـ الجيش المصرى قبل الاحتلال وبعده .
١٢ ـ مصلحة البريد .
١٣ ـ اشتراك جيش الاحتلال فى تهريب الحشيش ـ فهمى أفندى الاسكندرانى .
١٤ ـ تقرير عام عن مسألة التعليم فى مصر برنامج للتعليم ـ الدكتور سامى كمال .

اكتوبر ١٩٠٩ : مسألة امتياز قناة السويس :

نصل الآن الى أخطر مسألة لا نقول شغلت الرأى العام ، وانما استغرقت الرأى العام واتخذ منها المصريون سبيلا لاظهار ارادتهم فى مواجهة الانجليز والأجانب فلم يعنهم أن يتقصوا فى دقة حقيقة ما قد يعود على مصر من نفع مالى بقدر ما أصبح يعنيهم أن يرفضوا عرضا تقدت به شركة قناة السويس ووافق عليه الانجليز ، وتحولت المسألة الى مسألة حياة أو موت ودفع بطرس غالى حياته بالفعل وانتهى الموضوع

برمته الى انتصار للارادة المصرية ، وكان يجدر بالانجليز أن يروا فيما حدث صلابة هذا الشعب ومدى عزمه وتصميمه بحيث لا يمكن أبدا ثنى ارادته ولكن الانجلز الذين لم يكن من مصلحتهم استيعاب الدروس لم يقفوا أمامه طويلا ، ولنبدأ الآن القصة من بدايتها كما وردت فى مذكرات شفيق باشا فقد بسط الموضوع فى بساطة ووضوح وكشف عما كان يجرى وراء الستار .

قال شفيق باشا فى مذكراته :

لما شعرت شركة قناة السويس بحاجة الحكومة المصرية الى المال انتهزت هذه الفرصة وعرضت على الحكومة المصرية أن تصرح لها بمد امتياز القناة أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين جنيه وكان المستشار المالى (١) يميل للاخذ بهذه الفكرة وكذلك السير جورست وبطرس باشا ، الا أن الرأى العام كان ضدها وكذلك بعض النظار كسعد باشا وحسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا وكتبت الصحف بهذه المناسبة كتابات شديدة وتماطرت البرقيات والاحتجاجات على السراى من الأعيان والأحزاب والهيئات المختلفة ووردت لنا برقيات من محمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا وأحمد يحيى باشا يطلبون فيها طرح المشروع على الجمعية العمومية ، وكذلك جاءنا مثل هذا الطلب من الحزب الاصلاح (٢) وأرسلت احتجاجات لناظر الخارجية البريطانية ولرئيس النظار بطرس باشا ، وقد كلفنى الخديو أن اسلم بطرس باشا هذه البرقيات وان افهمه ان سموه يخشى ان تكون هذه الحركة ضده شخصيا فيلزمه ان يحترس منها . وأن سموه لا يرى مانعا بعد هذه الحركة القوية أن يعرض المشروع على الجمعية العمومية حتى تخف مسئولية النظارة . وقد قابلت قبلها محمد سعيد باشا وفهم مهمتى فالح على فى القيام بها خير قيام واقناع بطرس باشا اقناعا تاما . ولما قابلته ابلغته رأى الخديو وزدت عليه « اننا نجتهد الآن يا باشا فى ازالة ما علق بالنفوس من حادثة دنشواى بدلا من ان نضيف اليها أمرا جديدا تقع مسئولته عليك ، فقال لى : حينئذ « يلزم ان يتفاهم أفندينا مع جورست » قلت له : وأنت ايضا فوعد بذلك ، وظهر لى انه اقتنع بطرح المسألة على الجمعية العمومية وتوجهت للمنتزه يوم ٣١ أكتوبر فعرضت على الخديو كل ما سمعت من الأحاديث ، وبينما كنت معه حضر محمد سعد باشا وأخبرنا ان الرئيس تقابل مع جورست وأقنعه بضرورة استشارة الجمعية العمومية فقبل . وبالفعل حضر جورست فى صباح اليوم التالى وقابل سموه فى سراى رأس التين وتحادثا طويلا فى الموضوع واتفقا على عرض المشروع على الجمعية على شرط ان يدافع عنه سعد زغلول ، ويكون راى الجمعية قاطعا ، وقال جورست : انه اذا لم توافق الجمعية فسيكتب لحكومته لتصرف نظرها عن المشروع ، وقد اطمأنت النفوس عندما اذيع قرار الحكومة بصفة رسمية .

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن مد امتياز قناة السويس ريثما نرجع اليه فى السنة القادمة حيث سيكون هو أهم أحداث عام ١٩١٠ .

(١) الانجليزى وقد كان هو الكل فى الكل فى ادارة الحكومة .

(٢) حزب الاصلاح هو حزب الخديوى الذى كان يرأسه الشيخ على يوسف .

١٥ نوفمبر – حق سؤال الوزراء :

كان شغل مصر الشاغل (كما رأينا) هو تدعيم سلطان الأمة الدستورى ، وقد خطت الحكومة خطوة جديدة بعد تقريرها علنية الجلسات وهو أن يكون لأعضاء مجلس شورى القوانين حق سؤال الوزراء عن الشئون الجارية ، فأصدر مجلس النظار فى ١٥ نوفمبر قرارا هذا نصه :

« ان مجلس النظار يميل لاجابة مجلس شورى القوانين عن الأسئلة التى يوجهها أعضاؤها الى الوزراء فيما يختص بالمسائل الادارية ذات المصلحة العامة ، وقد ظهر هذا الميل فى عدة ظروف سابقة ، لهذا رأى تقرير خطة للسير عليها فى السؤال والجواب .

ومضى القرار بعد ذلك يحدد القواعد التى تحكم الموضوع .

جورست يندد بالمجلس :

لم يكن جورست يدع فرصة لا يندد فيها بمجلس شورى القوانين وأنه يثبت عدم أهلية المصريين للحكم النيابى ، فمن ذلك استشهاده بما تم فى المجلس بمناسبة هذا الموضوع فقال فى تقرير ١٩٠٩ : « ومنها أنه لما أبلغت الوزارة المجلس استعدادها للاجابة على الأسئلة التى يسألها الأعضاء عن الشئون العمومية وهو امتياز لا ينطوى تحت القانون النظامى ولا تخفى قيمته على الواقفين على تاريخ المجالس النيابية – اقتصر الأخذ والرد فى المجلس على ما اذا كان بعد هذا الامتياز منحة من الحكومة أو حقا من حقوقه القديمة ولم ترد اشارة تدل على تقديره المزايا الفعلية التى يجنيها من تبرع النظر بهذا الأمر حق قدره . انتهى ما جاء فى التقرير .

وهذا الذى رواه جورست هو ما يقطع بأهلية المصريين ، بل بكفاءتهم واقتدارهم على مزاولة العمل البرلمانى فها هو ذا جورست نفسه يتحدث عن تبرع الحكومة بهذا الامتياز ، ومن قبل ذلك تحدث قرار مجلس الوزراء عن « ميل الحكومة » وبدت المسألة كلها فى صورة « تفضل من الحكومة » . ومن هنا يتجلى نضج ووعى أعضاء المجلس حيث رفضوا قبول هذا التصور وقرروا ان ذلك حق أصيل من حقوق المجلس ، وذلك كله تفاديا من أن تعود الحكومة لسحب هذا الحق باعتباره منحة ، وهكذا ترى ان ما ينعاه جورست على المجلس هو عين ما يشهد لهذا المجلس من كفاءة واقتدار ، ولا عجب فى ذلك فهو صراع بين المستعمر والأمة التى تقاوم الاستعمار .

٢٢ نوفمبر تقليد عبد العزيز شاويش وسام الشعب :

فى يوم الاثنين ٢٢ نوفمبر (٩ ذى القعدة ١٣٢٧) خرج عبد العزيز شاويش من السجن بعد أن أتم مدة الحبس الصادرة عليه فاستقبله الشعب فى مظاهرة ظلت أصداؤها تتردد حتى سمعت عنها شخصيا فيما سمعت أن الشباب المتحمس أبى الا أن يجر العربة التى كان يمتطيها بدلا من الخيل وانى أروى ما سمعت والشىء

المحقق انه كان أول شيء من نوعه فى مصر أن يكتتب الشعب لانشاء وسام يهدى الى عبد العزيز شاويش يوم الافراج عنه يطلق عليه اسم وسام الشعب . وقد أهدى له فى حفل أقيم فى فندق (شبرد القديم) وكان الوسام يتألف من ثلاث قطع ذهبية نقش على الأولى رسم الأهرام وكتب تحت الرسم « تذكار الشعب الى الشيخ عبد العزيز شاويش اعترافا بوطنيته الصادقة » والثانية هى اكبر حجما رسم عليها صورة نبات كان الأقدمون يتخذونه رمزا للفوز والنصر ونقشت عليها هذه الآية الكريمة « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » والثالثة هلال فى وسطه نجم ، وقد نيطت هذه القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض وكانت كل واحدة منها مرصعة بالأحجار الكريمة .

قصيدة على الغاياتى :

وقد نشرت جريدة اللواء فى صبيحة الافراج عن شاويش قصيدة رائعة لعلى الغاياتى استهلها بقوله :

عادت الى القلم المشهود سيرته
ولاح بدر « اللوا » من بعد ما احتجبا

وكان مما جاء فيها :

عبد العزيز كفاك السجن منقبة
يزيدك الفضل من آثارها لقبا

وختمها بقوله :

هذا وسامك قد صاغت حشاشته
وفى ثناياه سر الحب قد كتبا

الى أن قال :

وانشر لواءك فى مصر يؤيده
نصر من الله انى جاء أو ذهبا

ديسمبر رحلة الخديو الى الحج :

كان أهم حدث ختمت به سنة ١٩٠٩ هو قيام الخديو برحلة الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وقد رافقته فى الرحلة السيدة والدته « والده باشا » وقد تحدث شفيق باشا عن تفاصيل الرحلة ، وألف محمد لبيب بك البتانونى عليها كتابا .

وقائع تسجيل لعام ١٩٠٩ :

وثمة بعض الوقائع التى يجدر بنا ان نسجلها لعام ١٩٠٩ ففى هذه السنة بدأ

التنقيب عن البترول يأخذ أهمية فاكتشفت آبار للزيت فى منطقة « جمسة » ولكن البئر بعد ان تم اكتشافها اغلقت (١) .

أول تشريع عمالى :

وفى هذه السنة صدر أول تشريع عمالى وذلك بخصوص تشغيل الأحداث فى المحالج دون سن التاسعة وأن يقتصر عملهم على ثمان ساعات فى اليوم الواحد ولا يعملوا بالليل ويعتبر ذلك كما قدمنا هو أول تدخل من الدولة فى مسائل العمل وفى كتابنا « علاقات العمل وهيئة التحكيم » تفصيل كامل عن هذا التشريع وظروف اصداره .

تألق نجم جديد فى دنيا الأدب .. المنفلوطى :

واذا كان عام ١٩٠٩ قد شهد أفول نجم السيد محمد توفيق البكرى على ما قدمنا ، فقد شهد فى ذات الوقت تألق نجم مصطفى لطفى المنفلوطى وذلك بمناسبة ظهور كتابه الشهير « النظرات » وهو مجموعة المقالات التى كان ينشرها تباعا فى جريدة الشيخ على يوسف « المؤيد » ويحدثنا احمد حسن الزيات كيف كان هو وزميله طه حسين ينتظران فى لهفة هذه المقالات ولكن بصدور هذه المقالات مجتمعه فى كتاب النظرات كان بمثابة انتهاء مدرسة المويلحى والبكرى وهى مدرسة تنهج نهج مقامات الحريرى حيث الالتزام بالسجع وحلت محل هذه المدرسة مدرسة المنفلوطى وهى المدرسة التى نشأنا فى صبانا نرى فيها المثل الأعلى للكتابة .

المقاهى ــ أندية أدبية :

ويحدثنا على الغايات فى مذكراته التى كتبها عند أقامته فى القاهرة فى هذه الفترة المحددة بالذات (١٩٠٩ ــ ١٩١٠) عن مقاهى القاهرة الشهيرة وكيف أصبحت منتديات تختص كل مقهى بفريق من الأدباء والساسة . واليك ما قال :

« كنا أوقات الفراغ نلتقى مع بعض الاخوان فى بعض المقاهى ان لم نذهب لاجتماع أو محاضرة فى نادى الحزب الوطنى بشارع المغربى أو نادى المدارس العليا بشارع ابراهيم باشا ، وكانت قهوة ماتتيا (٢) تجمعنا أحيانا بالسادة عبد الحميد الزهراوى، وعبد القادر المغربى ومصطفى لطفى المنفلوطى ومحمد الههياوى ومحمد امام العبد ومحمد رشيد رضا ومحمد كرد على . وكان بجانبها قهوة جراسيمو ، وكان يجلس بها عادة حافظ ابراهيم ومحمود الجبالى والشيخ حامد المحرر بالمؤيد أما قهوة دى لابيه بميدان الأوبرا فكنا نقابل بها ابراهيم دسوقى اباظة وفؤاد حسيب وخليل مطران وحسين فتوح أما قهوة البورصة فكانت ملتقى اخواننا أدباء دمياط وكان من روادها ايضا الأديب الكبير عبد الرحمن شكرى . (٣) وكنا نزور من وقت لآخر

(١) لم يكن الانجليز فى عجلة من أمرهم لاكتشاف البترول فقد قامت عظمتهم على الفحم وكان كل شىء لا يزال يسير بالفحم .

(٢) فى العتبة الخضراء أمام حديقة الازبكية .

(٣) هو أحد الادباء الثلاثة الذين ألفوا الديوان وهم عباس محمود العقاد وابراهيم المازنى .

ابراهيم الوردانى (١) بصيدليته بشارع عابدين بالقرب من قسم البوليس ، وكان جم الحياء والأدب . (انتهى) .

الحساب الختامى لسنة ١٩٠٩ :

كان مقدرا فى ميزانية ١٩٠٩ أن تكون ايرادات الدولة :

١٥٫١٠٠٫٠٠٠ خمسة عشر مليونا فأسفر الحساب الختامى عن ايرادات قدرها ١٥٫٤٠٢٫٠٠٠ خمسة عشر مليونا وأربعمائة و ٢ ألف .

وقدرت المصروفات فى الميزانية ١٤٫٨٥٠٫٠٠٠ أربعة عشر مليونا وثمانمائة وخمسين ألفا ، فانتهت الحسابات الختامية بمصروفات قدرها ١٤٫٢٤١٫٠٠٠ أربعة عشر مليونا وواحد وأربعين ألف ومائتين ، أى أن السنة انتهت بفائض قدره ١٫١٦١٫٠٠٠ واحد وستين ألف ومليون جنيه أضيفت للاحتياطى الذى بلغ فى هذه السنة ٥٫٧٨١٫٠٠٠ جنيه .

* * *

(١) وهو الذى سيغتال بطرس غالى كما سنرى.

عام ١٩١٠

واستهل العام الجديد والحياة العامة تبدو فى سيرها العادى فى الدواوين وفى المزارع والمصانع وكان الخديو منذ أخريات العام المنصرم يؤدى فريضة الحج فى بلاد الحجاز ، وهكذا كان المظهر العام على السطح يبدو هادئامستقرا ، ولكن الأمور فى الدوائر الوطنية كانت تغلى غليانا مذ تقرر مشروع مد شركة قناة السويس لمدة أربعين عاما تبدأ من سنة ١٩٦٨ موعد انتهاء امتيازها وقد كان ما تم عليه الاتفاق من جعل قرار الجمعية العمومية قاطعا ونهائيا فى هذا المشروع كان ذلك انتصارا جديدا للمطالبين باعلان سلطان الأمة وكان تتويجا لسلسلة الاجراءات التى اتبعت أخيرا لسلطان مجلس شورى القوانين ونعنى بها علنية الجلسات (اذ جعلت الأعضاء يمارسون نشاطهم تحت نظر الأمة وسمعها) وتدعيم حق الأعضاء فى سؤال الوزراء وجاءت مناسبة قناة السويس لتظهر قوة الارادة المصرية وسط هذا الجو المتفائل عقد الحزب الوطنى جمعيته العمومية التى اعتاد عقدها فى أول السنة والتى أصبحت مهرجانا قوميا .

٧ يناير ١٩١٠ :

مؤتمر الحزب الوطنى

اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى يوم الجمعه ٧ يناير ١٩١٠ فى دار اللواء برئاسة رئيس الحزب محمد بك فريد حيث ألقى خطابا ضافيا يمكن اعتباره بحق تقريرا كاملا شاملا عن أحوال مصر بعامة وسير الحركة الوطنية بخاصة وفى كتاب محمد فريد (للرافعى) نص هذا الخطاب ولكننا نكتفى هنا بايراد العناوين الرئيسية لفقرات الخطاب :

١ – اضطهاد الوزارة للحركة الوطنية

٢ – الحكومة ومجلس شورى القوانين

٣ – تعميم التعليم الابتدائى

٤ – التعليم الثانوى والعالى

٥ ـ حق سؤال النظار

٦ ـ مجالس المديريات

٧ ـ الميزانيـــة

٨ ـ دفاع عن الفلاح

٩ ـ الرسوم الجمركيـة

١٠ ـ تشريع العمل والنقابات

١١ ـ مدارس الشعب (١)

١٢ ـ مسألة قناة السويس

١٣ ـ الأحياء الوطنية والصحة العامة

١٤ ـ المطالبة بالدستور

ولعل هذا الاستعراض السريع يظهر مدى شمول الخطاب واستيعابه لكافة النواحى الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن السياسة .

خطبـــاء آخرون :

وقد تحولت الجمعية العمومية الى ما يشبه المؤتمر فعقدت ثلاث جلسات فى يومين متعاقبين وكان ممن خطبوا : **أحمد بك لطفى** وتحدث عن **استقلال القضاء** ، ومحمد بك على علوبه (٢) فى **فوضى التشريع** وخطب **مصطفى الشوربجى (بك)** فى **سياسة العنف** . والشيخ عبد العزيز شاويش فى مشروع **البعثة الأزهرية** ومشروع **مدرسة روضة الأطفال** . وخطب (بالفرنسية) مسيو كورتلمون مندوب جريدة (الفيجارو الفرنسية) ومدموازيل (بييه) سكرتيرة جمعية النســـاء الفرنسيات بباريس .

---

(١) هى مدارس ليلية انشأها الحزب الوطنى لنشر الوعى والثقافة .

(٢) كان محمد على علوبة بعد أن أصبح باشا **نصيرا** لحركتنا فى مصر الفتاة وكثيرا ما وقف خطيبا فى اجتماعاتنا الحاشدة .

قصيدة الشيخ على الغـــاياتى :

وقد ألقى صديقنا الشيخ على الغاياتى قصيدة جاء فى نهايتها :

أيهـا الشعب أفق ولى الظـــــلا
م ولاح النــــور للمســـتبصر
فـدع النـــوم وقف مستجبرا
هل لمصر فى الـورى من خـــبر

الى أن قال :

فانهض اليــوم ولا ترقب غــــدا
وادفــع الشر بسيف الحـــذر
انمــــا الآلام آمال وفـــــى
قــدرة الشعب مدار القـــدر

١٢ ينـــاير : الاحتفــال بالعام الهجرى

كان احتفال الشباب المصرى بمطلع العام الهجرى الجديد (١٣٢٨) قد أصبح تقليدا وزاد فى رسوخه ما أشرنا اليه فى وقائع العام السابق من جعله عيدا رسميـا تعطل فيه مصالح الحكومة والمدارس وقد عقد الاحتفال هذه المرة تحت رئاسة احمد بك لطفى فى أحد مسارح عماد الدين ، وخطب فيه عن طلاب مدارس الثانوى حفنى محمود (١) (بك فيما بعد) وألقى شاعر النيل حافظ ابراهيم قصيدة من روائع الشعر التى كانت تلهب المشاعر ولخص حوادث العام الماضى وأشار الى شغل مصر الشاغل فى هذه الفترة وهو « مد امتياز شركة قناة السويس » فقال :

وأتى يســـاوم فى القنــاة خديعة
ولو أنهـــا تمت لتم بهـــا الشقا
إن البليـــة ان تبـــاع وتشــترى
مصر وما فيهـا وان لا تنطقـــا

ومضى يدعو الشباب الى الاغتراف من العلم وشتى التوجيهات الوطنية والتربوية

٢٥ يناير وصول الخديوى :

فى الخامس والعشرين من يناير عاد الخديوى الى مصر بعد حج بيت الله الحرام وهكذا تكاملت عناصر المشهد الذى يوشك أن يرفع عنه الستار ونعنى به **عرض مشروع مد امتياز شركة قناة السويس** .

(١) حفنى محمود وهو شقيق محمد باشا محمود وكلاهما نجل محمود باشا سليمان .

لم يكد الخديوى يصل الى مصر يوم ٢٥ يناير حتى أصدر أمره يوم ٢٧ ينـاير بدعوة الجمعية العمومية للانعقاد فى يوم الأربعاء ٩ فبراير للنظر فى هذا الأمر الخطير. ومذ تحدد اليوم حتى تم الاجتماع وقد تحول الرأى الوطنى الى مرجل يغلى .

٩ فبراير انعقاد الجمعية العمومية :

فى يوم ٩ فبراير على ما يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « محمـد فريد » ويوم ٧ فبراير على ما يقول أحمد شفيق باشا ويؤسفنا أننا لم نجد سبيلا للتحقق من أصح التاريخين ولذلك أثبتنا كلا القولين . وقد ألقى الخديوى خطبة افتتاح الدورة التى كان يرؤسها الأمير (البرنس) حسين كامل ، وهذا هو نص الخطاب :

أيها السـادة :

نهدى لكم تحياتنا ونبدى لكم سرورنا من اجتماعكم فى هـذا اليوم ، دعوناكم لأخذ رأيكم فى الاتفاق الذى يراد عقده مع شركة قناة السويس فان هذه الشركة قد عرضت على حكومتنا منذ سنة امتداد أجل امتيازها وبعد المخابرة الطويلة أمكن الوصول الى المشروع المطروح أمامكم . وقد علمتم أن حكومتنا مجمعة الرأى اذا رضيت الشركة بالتعديلات التى اقترحتها الحـكومة عليها . فالفرض اذن من اجتماعكم انما هو البحث فيما اذا كان من مصلحتنا مد أجل الامتياز الى أربعين سنة مع اقتسام الأرباح فى هذه المدة بين الحكومة والشركة مناصفة . وفى مقابل اعطاء الشركة نصف الأرباح عن المدة الجـديدة تدفع للخزينـة مبالغ موزعة على الستين سنة الباقية من مدة الامتياز الحالى وقد قدر هـذه القيمة بعد البحث الدقيق أشخاص من ذوى الخبرة فى الشئون المـالية ، وهم يرون اذا حصلت الموافقة على التعديلات المذكورة تكون الفائدة التى تنالها مصر موجبة لتمام الرضاء وان ذلك غاية ما يصح طلبه من الشركة ولا يخفاكم ان هذه المسألة ليست من المسائل التى يقضى القانون بأخذ رأى الجمعية فيها ولكن نظرا لأهميتها الاستثنائية بالنسبة الى الحاضر والأجيال المقبلة قرر مجلس النظار الا يبت فيها برأى قبل أن يعلم اذا كانت الجمعيـة العمومية توافق على مد الامتياز . ونظـار حكومتنا مستعدون لاعطائكم البيانات التى ترونها لازمة فى هذه المسألة ، ونحن واثقون ان كل واحد منكم يشعر بالمسئولية التى يتحملها أمام بلاده عند نظر هذا المشروع المهم ، والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه خير البلاد .

لجنـة خاصـة :

وقد بادرت الجمعية فانتخبت خمسة عشر عضوا لدراسة الموضوع وتقـديم تقرير عنه وتألفت هذه اللجنة من كل من :

محمود باشا سليمان . اسماعيل أباظة باشا . حسن مدكور باشا . ابراهيم مراد باشا . أحمد يحيى باشا . على شعراوى باشا . محمود بك عبد الغفار .

حسن بك بكرى فتح الله بك بركات . عبد اللطيف بك الصوفانى . جاد بك مصطفى . سعد بك مكرم . دياب أفندى محمد سليم . امين بك العارف . اسماعيل افندى كريم .

ويصف لنا شفيق باشا الحالة العامة فى هذه المرحلة فيقول : « وفى هذا الوقت كانت المظاهرات تطوف شوارع العاصمة هاتفة ضد المشروع وضد الاستبداد وضد جريدة الاهرام لأنها تروج للمشروع (١) وكانت صحف الحزب الوطنى والجريدة تكتب بلهجة حادة ضد مروجى المشروع وتتهم بطرس باشا خاصة والنظار عامة بالخيانة والاجرام فى حق الوطن . حتى لقد امتد اتهامها الى الخديو نفسه بعد القاء خطبته السابقة . وكان الجو مكهربا من جراء هذه الحملات وتوالت هذه المظاهرات الحماسية عدة أيام وانتهت بمقتل بطرس باشا كما سيأتى :

ملاحظتان :

وقبل أن نتحدث عن مقتل بطرس باشا نريد أن نسجل ملاحظتين :

الأولى : خاصة بجريدة الاهرام فلأول مرة يجرى التصادم بينها وبين الرأى العام فحيث كانت تهاجم الانجليز بدون انقطاع وتطالب بالجلاء نراها هنا تقف ضد الرأى العام حيث يتصل المشروع بمصلحة فرنسية ، مما دل على ان موقفها ضد الانجليز والاحتلال تابع من هذه الصفة .

الثانية : اما الملاحظة الثانية فهى ان شفيق باشا قد اغفل جريدة المؤيد ودورها فى معارضة المشروع فى غير كلل ويحدثنا عبد اللطيف حمزة أستاذ الصحافة فى جامعة القاهرة عن سلسلة المقالات التى تضمنها المؤيد خلال شهر يناير وفبراير ضد المشروع بل ويعزو الى الشيخ على يوسف شخصيا الدور الرئيسى فى حمل الجمعية العمومية على الرفض وهو ما لا نوافقه عليه ، فالاتفاق كان على أن الشيخ على يوسف كاتب أكثر منه خطيب ، أضف الى ذلك أن صلته الوثيقة بالخديو تحول بينه وبين تزعم حركة الرفض وكفاه فخرا أنه كان من الرافضين .

٢٠ فبراير : مقتل بطرس باشا غالى :

لعل شفيق باشا هو ادق واكمل من يروى لنا تفاصيل هذا الحادث فى ايجاز واحاطة شاملة فيقول : فى يوم ٢٠ فبراير وصل الينا فى السراى نبأ خطير وهو اطلاق الرصاص على بطرس باشا رئيس النظار من فتى يدعى ابراهيم ناصف الوردانى المنتمى للحزب الوطنى وذلك عند مغادرة الرئيس لنظارة الخارجية فى الساعة الواحدة بعد الظهر وتفصيل الخبر هو أن بطرس باشا اعتاد أن يغادر الخارجية كل يوم فى الساعة الواحدة . وفى هذا اليوم نزل من الديوان ومعه حسين رشدى باشا وعبد الخالق ثروت باشا (النائب العام) واحمد فتحى زغلول باشا وكل الحقانية وأرمولى بك التشريفاتى بالخارجية ثم فارق من كانوا معه عند

السلم الخارجي . وبينما هو يهم بركوب عربته اذ دنا منه هـذا الفتى « الورداني » متظاهرا بأنه يريد أن يرفع له عريضة وأطلق عليه رصاصتين اصابته احداهما فى خاصرته والأخرى فى صدره ، وما كاد يلتفت خلفه ليرى صاحب هذه الفعلة حتى اطلق عليه الفتى ثلاث رصاصات اخرى اصابت احدهما عنقه من الخلف واثنتان فى كتفه ، وأطلق رصاصة سادسة أصابت ثيابه .

وكان خلف القاتل أحد سعاة النظارة فقبض عليه . بينما كان الناظر قد سقط الى الأرض أمام عربته ، فحمله الحاضرون الى فناء الوزارة ، وحضر على الأثر الدكتور سعد بك الخادم فأخرج الرصاصات من العنق والكتف ، وأفاق الجريح قليلا ، ثم نقل الى مستشفى الدكتور ملتون بباب اللوق ، وهنـاك وافاه الأطباء وقرروا اجراء علمية لاخراج الرصاصات الباقية .

ولمـا وقف الخـديو على هذا النبأ بلغ منه التأثر ومن رجال الحاشـية مبلغه . نظرا لمـا كان يتمتع به بطرس باشا من ثقة الجناب العالى ومحبته له . وأصـدر سموه أوامره فى الحال تلفونيا الى فتحى باشا زغلول باتخاذ جميع الوسائل الممكنة بكل سرعة للعناية بالجريح . ثم أوفدنى سموه وأحمد خيرى باشا للسؤال عن صحته وابلاغه أسف سموه وتمنياته فى الشفاء وأن نرسل لسموه أخبار الجريح حتى يزوره فى المستشفى بنفسه . وبعد قليل من وصولنا حضر سموه ودخل على بطرس باشا فى غرفته ثم دنا منـه وقبله والدموع تنسكب من عينيه ودعا له بالشـفاء . وكان الجريح أثناء ذلك يقول « العفو يا أفندينا ــ مرسى .. مرسى » . ثم غادر سموه المستشفى أسفا متأثرا بعد ان شجع الجريح وحث الأطبـاء على بذل كل ما فى وسعهم لانقاذه ، وأمر أن تبلغ له الأخبار لحظة بلحظة . وبقيت أنا بالمستشفى لهذا الفرض . وبعد ذلك حضر البرنس حسـين كامل ودنا من الجريح وقال له « تشجع » فرد عليه بطرس باشا بقوله : أنا لا ألوم نفسى على شيء فقد أديت ما يجب على للوطن .

وبعد انتهاء العملية لاخراج الرصاص ارتاح الجريح نوعا ولكن الألم ازداد بعد قليل وارتفعت الحرارة وأصبح فى خطر قريب . ولم تأت الساعة الثامنة والربع مساء حتى أسلم الروح بين بكاء الحاضرين .

وفى صباح ٢١ فبراير أصدر الجناب الخديوى الأمر بأن يكون الاحتفال بجنازة المرحوم بطرس باشا رسميا وفى الساعة العاشرة والنصف صباحا سارت الجنازة من مستشفى الدكتور ملتون الى كنيسة بطريركية الأقباط ثم الى المدفن .

التحقيق والجـــانى :

وكان المحققون قـد تسلموا الجانى منـذ ساعة الجريمة ، وهو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، تلقى العلوم فى المدارس المصرية حتى حصل على شـهادة البكالوريا وتوفى والده فقام بتربيته الدكتور ظيفل باشا حسن وأرسله الى سويسرا

لتلقى علوم الصيدلة فمكث فى لوزان سنتين . ثم ذهب الى انجلترا فقضى بها سنة وعاد الى مصر فافتتح بها صيدلية فى شارع عابدين واتصـل بالحزب الوطنى وهو شاب عصبى المزاج شديد الانفعال .

وقبل أن يفتح معه محضر التحقيق الرسمى سأله وكيل الحقانية : لماذا فعلت فعلتك بالباشا ، فأجاب غاضبا : لأنه خائن للوطن . فرد عليه بقوله : يا مسكين لو عرفت أنه أكبر وأصدق وطنى فى خدمة البلاد ما فعلت فعلتك .

وقد تولى النائب العمومى ثروت باشـا التحقيق وسئل عـدة اشـخاص ممن لهم صلة بالجانى والذين وجدت أسماؤهم أو صورهم فى أوراقه وأوراق أعضـاء الحزب الوطنى وفى مقدمتهم محمـــد بك فريد والذى قرر : انه عرف الجانى منـذ سـنة ١٩٠٦ فى جنيف حيث كان أمينا لصـندوق جمعية الطلبة المصريين بها ، وان هذه الجمعية أسست لمساعدة الطلبة المصريين الذين يفدون الى جنيف . وان علاقته بكل عضـــو من أعضاء الحزب الوطنى . وقبض على شفيق منصـور وعباس حسنى ومحمـد الصباحى الطالب بمدرسة رأس التين وعبد الله حلمى المهنـدس بالأوقاف ومحمـد زكى افندى على الذى تولى رياسة المظاهرة ثم قبض بعد ذلك على اثنى عشر آخرين .

وقد خلت مذكرات محمد فريد رئيس الحزب الوطنى عن هذا الحادث وقت وقوعه عن بعد فضلا عن قرب ، وهذا يشعر بمدى الصدمة التى لحقت بالحزب من جراء وقوع الحادث . ويبدو عمق هذه الصدمة على عبد الرحمن الرافعى حتى بعد أكثر من ربع قرن فلا ترى فى كتابه الضخم عن محمد فريد سوى أقل من صفحتين عن هذا الحادث الضخم والبعيد الأثر فى حياة البلاد والذى كاد يفرق وحـدتها الى دهر من الزمان لولا أن كانت ثورة ١٩١٩ فجمعت شمل المسلمين والأقباط كأوثق ما يكون .

عمق أثر الحـادث :

وقد بلغ من عمق هذا الحادث وترسبه فى وجدان الأمة أن ظل صداه يتردد حتى بلغ سامعى فى صباى المبكر وربما اكـون سمعته من والدتى التى لم تكن من القـاهرة فضلا عن تكون سياسية ولابد أن تكون قد حدثتنى عما كان الشـعب يتناقله فى طول البلاد وعرضها عن بطولة الوردانى الاسطورية وكيف انه راح يطلق الرصاص على بطرس غالى وهو يقول له : هذه من أجل السودان ، وهذه من أجل دنشواى وهكذا واليوم وأنا أعد هذه الموسوعة وبالتالى أعود الى المراجع تبين لى انه قال ذلك بالفعل فى التحقيق وليس ساعة اطلاق النار التى لا تحتمل مثل هذا القول .

ولقد ذكرت هذه القصة لاظهر عمق تأثير ما فعله الوردانى لعدة سنوات تالية .

وسيمر بنا عندما نصل الى حوادث ثورة ١٩ وما بعدها أنه عندما (أريد اغتيال رئيس وزراء قبطى وهو « يوسف وهبه » اختير للتنفيذ شاب قبطى (عريان سعد)

حتى لا يترتب على الحادث أزمة بين المسلمين والأقباط ، كما حدث عقب اغتيال بطرس غالى .

الصحافة المعاصرة :

ولقد روت الصحف المعاصرة بطبيعة الحال أدق تفاصيل الحادث وكيف ان حسين باشا رشدى لطم الوردانى بعد ان كبلوه ونحن نجتزىء عن ذلك كله بتسجيل قصيدة على الغاياتى عن هذا الحادث :

ماذا جرى فى ساحة الديوان
فدوى نذير الموت فى الأركان

ماذا وهى شيخ الوزارة فارتمى
فوق الثرى يشكو الردى ويعانى

ما لى أراه مضرجا بدمائه
وأرى الرغام بموضع النيشان

وافاه ابراهيم مجترئا على
ما كان من بأس ومن سلطان

ورماه عن كثب بست عجلت
خطوات عزرائيل بالاكفان

الى أن قال :

ما لى أراهم مهرعين الى الفتى
وأراه لا يبغى فرار جبان

نالوه بالشر الذى يرضيهمو
وجنوا عليه وهو ليس بجان

ومضت يد منهم اليه بلطمة
ويداه فى الأغلال موثقتان

وجاء فى ختام القصيدة :

سألوه فى التحقيق عن أسباب ما
نكروه من مقتل ومن عدوان

فأجابهم أما القتيل فانه
فيما أراه خائن الأوطان

فى مصر والسودان آثار روت
عنه خيانة مصر والسودان

ولعل نشر هذه القصيدة فى جريدة اللواء فى ذلك الوقت تظهر مدى ما كانت عليه الصحافة الوطنية من حرية فى النشر وعدم تردد فالقصيدة يفوح منها رائحة التشفى من ناحيه ، والزهو والخيلاء ببطولة الوردانى من ناحيه أخرى .

جـريمة سـياسية :

واذا كان حادث قتل بطرس غالى على هذه الصورة هو أول حادث من نوعه فى مصر منذ قرن ونيف عندما قتل سليمان الحلبى كليبر فقد كان من الطبيعى أن يتصور البعض ان القتل كان لأسباب دينية ، وان يحاول البعض بسوء نية ترويج هذه الفكرة مما سنرى ذروته فى العام القادم حيث سيعقد الأقبـاط مؤتمرا فى أسيوط ، ويحدثنا الدكتور حسين هيكل فى مذكراته السياسية عن الجو الذى ساد أوربا عقب هذا الحادث وقد كان طالبا فى باريس ، والصعوبة التى كانت تواجهه فى أحاديثه مع الفرنسيين .

ويهمنا أن نقول كلمتنا بعد ان أحطنا بكل ملابسات الموضوع :

أولا : فقد أشرنا من قبل كيف أن الخـديو الذى كان يمثل فكرة الجـامعة الاسلامية هو الذى اختاره ولما حاول جورست أن يلفت نظره الى ان دين بطرس غالى ليس هو دين الأغلبية ازداد الخديو أصرارا على تعيينه رئيسا للحكومة .

ثانيا : وهو الأهم ان الحزب الوطنى استقبل وزارة بطرس غالى اسـتقبالا حسنا ورأينا كيف ان محمد فريد نفسه كتب فى معرض الترحيب بالحكومة ان الأمة على استعداد على نسيان الماضى وفتح صفحة جديدة ، فاذا كان بطرس غالى قد فقد بعد ذلك الوطنيين فلا جدال انذلك يرجع الى سياسته وليس الى ديانته .

ثالثا : وهذه ملاحظة تتصل بى ، فقد نشأت انا ولاأعرف شيئا عن بطرس غالى ولكن الذى كان يستوقفنى دائما التحدث بكل احترام واعزاز من كل المصريين عن « واصف باشا غالى » وزير خارجية مصر فى وزارات الوفد منذ أيام سعد زغلول . وكان الحديث يدور دائما عن وطنيته وكفاءته وأدبه ، وليس واصف غالى فى نهاية الأمر الا ابن بطرس غالى ، فالمسألة اذن ليست مسألة دين بل سياسة .

جورست يؤبن بطرس غالى :

وآخر ما نختم به حديثنا عن هذا الحادث الجلل هو ان نورد ما ذكره المعتمد البريطانى الدون جورست عن هذا الحادث فى تقريره السنوى وقد أشار الى تاريخ بطرس غالى فى حياة مصر قال : جورست فى هذه القضية :

« ومن غرائب الأقدار أن تقع الضربة التى نجمت عن تحريض أولئك الذين يلقبون أنفسهم بالوطنيين على أول رجل من صميم المصريين بلغ أرفع منزلة فى خدمة بلاده ».

تقلد منصب الوزارة فى سنة ١٨٩٣ فعين ناظرا للمالية . وفى السنة التالية عين ناظرا للخارجية وبقى فيها الى يوم وفاته ولما اعتزل مصطفى فهمى باشا رئاسة مجلس النظار فى نوفمبر ١٩٠٨ كلفه الخديو فألف الوزارة التى انتهت على غير انتظار بوفاته وأرانى فى غنى عن تعداد الخدمات الجليلة التى خدم بلاده بها ووصف الولاء والأمانة اللذين أظهرهما فى أحوال صعبة ومآزق حرجة فان ذلك كله معروف ومشهور فموته الآن خسارة على مصر لا تعوض ، وسينقض زمان طويل قبل أن يجد الخديو خادما يفوقه اخلاصا ومقدرة وولاء (انتهى) .

٢٣ فبراير وزارة محمد سعيد باشا :

فى نفس اليوم الذى مات فيه بطرس كلف الخديو محمد سعيد باشـــا وزير الداخلية أن يشكل الوزارة الجديدة وفى يوم ٢٣ فبراير أعلن عن تشـــيكلها على الوجة التالية :

محمد سعيد باشا	الرئاسة والداخلية
سعد زغلول باشا	الحقانيـــة
حسين رشدى باشا	الخارجيـــة
أحمد حشمت باشا	للمعـــارف
اسماعيل سرى باشا	للاشغال والحربية
يوسف سابا باشا	للمالية

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد تعليقا على تأليف هذه الوزارة « وبالرغم من أن الآمال كانت معقودة على أن الوزارة الجديدة تساير الحركة الوطنية لما عرف عن محمد سعيد باشا قبل ان يتولى الوزارة الســابقة عن ميوله الوطنية . الا أن وزارته كانت شرا على الحركة الوطنية من وزارة بطرس غالى التى كان عضوا فيهـــا » .

ولا شك عندنا أن هذا هو رأى عبد الرحمن الرافعى عضو الحزب الوطنى عندما كان لا يزال فى عنفوان شبابه مترسبا فى نفسه حتى كتب ما كتب فى شيخوخته ، والا فلسنا نعرف عن حكومة محمـــد سعيد شيئا شاذا ، وحسبها أن الجمعية العمومية رفضت مشروع مد امتياز شركة قناة السويس فى عهدها .

استقالة (البرنس حسين كامل) :

عقب اغتيال : بطرس غالى ، قدم الأمير حسين كامل استقالته من رئاسة مجلس شورى القوانين واذا جاز لنا بعد هذا العمر الطويل أن نتصور الدافع الذى حمله على الاستقالة فأغلب الظن هو انه ما عرف عنه من ميل للموافقة على مشروع مد امتياز

شركة قناة السويس ، حيث كان التيار الجارف فى البلاد ضد هذا فلما أن قتل بطرس باشا آثر حسين كامل الاستقالة لينأى بنفسه عن بركان السياسة وآثر التفرغ لما كان مشتغلا به من رئاسة للجمعية الزراعية التى كانت فى ذلك الوقت مؤسسة ضخمة سبقت انشاء وزارة الزراعة فى تقديم خدماتها للفلاح . على أن هذا ليس الا من قبل الحدس والتخمين الذى لا يستند الى أى دليل .

٧ مارس : تعيين محمود فهمى باشا لمجلس شورى القوانين :

فى السابع من مارس صدر القرار الخديو بتعيين محمود فهمى باشا الذى كان رئيسا لديوان الخديوى ليكون رئيسا لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

صدور جريدة العلم بدلا من اللواء :

على انه فى ذات الوقت الذى كان يصدر فيه قرار تعيين محمود فهمى باشا أى فى ٧ مارس كان حدث آخر أعظم اثارة يجرى فى البلاد وهو ظهور جريدة العلم لتحل محل اللواء باعتبارها لسان حال الحزب الوطنى وقد كان ذروة خلاف جرى بين ورثة مصطفى كامل وعلى رأسهم شقيقه على فهمى كامل وبين محمد فريد ، وقد تحدث محمد فريد فى مذكراته باستفاضة عن هذا الخلاف ، فليرجع من شاء البحث والاستقصاء الى هذه المذكرات كما نشرها الاستاذ محمد صبيح فى كتابه :

اما نحن فنكتفى هنا بنقل ما كتبه عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد كما ننقل ما كتبه على الغاياتى فى كتاب وطنيتى هذا الكتاب المعاصر لهذه الحوادث والذى سيكون هو محور الحوادث القادمة ، حيث سيترتب عليه هجرة الغاياتى من مصر . وحبس محمد فريد وهجرته بدوره من مصر بعد خروجه من السجن .

ولنبدأ أولا بنقل ما كتبه عبد الرحمن الرافعى :

ظهور جريدة العلم :

« قام فى سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية (اللواء) (١) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل طرح امره على القضاء فعين يوسف المويلحى حارسا قضائيا على اللواء واراد ان يتداخل فى تحريره فرفض الفقيد (اى محمد فريد) هذا التدخل بكل شمم واباء . وأنشاء جريدة العلم وجعلها لسان حال الحزب الوطنى واتخذ لادارتها الدار رقم ١١٦ شارع محمد على (٢) ثم انتقلت الى شارع الصنافيرى رقم

---

(١) المقصود بـ « اللواء » هو الجريدة العربية أما النسخة الفرنسية وزميلتها الانجليزية فقد كانتا أغلقتا فى السنة الاولى لتولى محمد فريد رئاسة الحزب وقد فاتنا أن نذكر ذلك فى موضعه .

(٢) هى ذات الدار التى أصدرنا منها جريدة الصرخة عام ١٩٣٣ وأسسنا مصر الفتاة وهى بعينها دار المؤيد ولست أدرك لماذا أغفل عبد الرحمن الرافعى الاشارة الى ذلك .

١٨ خلف قشلاق عابدين وابتدأ صدورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠ فأقبل عليها الرأى العام اقبالا شديدا وحلت محل اللواء فى المكانة السياسية والصحفية .

ماذا يقول على الغاياتى شعرا ونثرا :

حديث الغاياتى :

جاء فى كتاب « وطنيتى » للاستاذ على الغاياتى بمناسبة قصدينه التى قالها تحية للعلم بمناسبة صدوره لأول مرة ما يلى :

« حدث ما حدث بين ورثة المرحوم مصطفى كامل فأدى الأمر اخيرا الى حكم قاضى الأمور المستعجلة فى المحكمة المختلطة بتعيين حارس قضائى على شركة « اللواء» يوم الأحد ٢٧ فبراير سنة ١٩١٠ ولما حل هذا الحارس بدار اللواء فى اليوم الثانى اراد ان يتداخل فى شأن التحرير فعارضه رئيس الحزب الوطنى فريد بك محتجا بأن له وحده الاشراف على تحرير اللواء الذى كان حينئذ لسان حال الحزب الوطنى . وقد اشتد الخلاف وانتهى فى مساء هذا اليوم بقرار من الحزب الوطنى يقضى بأن اللواء لم يصبح لسان حاله وقد نشرت الصحف هذا القرار فى اليوم التالى (الثلاثاء أول مارس) وانذر اللواء به بواسطة المحكمة وانسحب من ادارة سياسته الدكتور منصور رفعت وامتنع المحررون عن العمل واستقالوا حينما رأوا ان اللواء أصبحت جريدة أشخاص ولم تعد تلك الجريدة الوطنية التى كانوا يخدمون بها مبادىء الحزب الوطنى . وقرر الحزب اصدار جريدة لتكون لسان حاله باسم العلم تصدر فى الصباح مؤقتا واخذ فى اعداد عدتها وتأليف شركتها وقد تم أمرها وصدرت صباح الاثنين ٢٥ صفر سنة ١٣٢٨ — ٧ مارس ١٩١٠ فقابلتها الامة بالقلوب قبل الأيدى واحلتها محل اللواء بل انها كانت خيرا منه فى خير أيامه . وقد حييتها بهذه القصيدة التى نشرت بالعدد الأول منها . ومما اذكره هنا مع الأسف ان « اللواء » بعد انفصال الحزب عنه أصبح أكثر الطاعنين فى رئيس الحزب ولجنته الادارية وخير رجاله وكتابه فلاقى من الأمة ما يستحق من الاهمال والاحتقار (انتهى) .

وقد جاء فى قصيدة تحية العلم :

هوى « اللواء » فصاح بعده العلما
وسر به فى حمى القطرين معتصما
الك القلوب جنود لا يزحزحها
عن موقف النصر خطب هان او عظما

الى أن قال يخاطب محمد فريد :

يا ايها القائد المشهود موقفه
لا بات جندك يوم النصر منهزما

هل يحسب النفر المشئوم طالعهم

انا بما صـــــنعوا نستدبر الهمما

ومضت القصيدة تتحدث عن الجناية التى ارتكبت فى حق مصطفى كامل بموقف اللواء الجديد . ودعا الامة ان تنصرف عن اللواء الى العلم وختمها بقوله :

وهل راى الشرق ذاك النور منبعثا

وادرك الشــعب من آياته حــــكما

لا زال فى مصر خفــــاقا يؤيـــــده

روح الســــــلام اذا ما حادث دهما

رئيس الوزراء يساعد على اصدار العلم :

ومن حق محمد سعيد باشا رئيس الوزراء ان نثبت ما قاله عنـــه محمـد فريد (وهو الضنين بثنائه) فى هذه المناسبة ، قال محمد فريد فى مذكراته بعد حـديثه المستفيض عن الخلاف السابق الذكر : « وأسست جريدة العلم وظهر اول عدد منها يوم ٧ او ٨ مارس اى بعد اسبوع وساعدنا محمد باشا سعيد اذ ذاك بالحصول على رخصة العلم وتساهل معنا فى التأمين .. وباختصار قام فى هذه الحادثة بما يجب عليه لأنه كان محتاجا لتعضيد الحزب الوطنى له .

٢٣ مارس اعظم حدث فى تاريخ القضاء المصرى :

متولى غنيم يضرب الخطط الانجليزية :

عندما وقع حادث اغتيال بطرس باشا تصور الانجليز ان هذه فرصتهم لتصفية الحزب الوطنى فاعتبروا ان هذه الجريمة ليست حادثا فرديا وانما هى حصـيلة سياسة الحزب الوطنى وتحدثوا عن جمعية سرية ليس الوردانى الا احد اعضائها ، وبالفعل عثروا على أوراق تثبت وجود جمعية اتفقت على القيام بأعمـــال العنف والاغتيال السياسى . ولكن التحقيق أثبت أن الجماعة لم تتفق بالفعل على قتل بطرس غالى وبالتالى لم تشترك مع الوردانى فى اى عمل من اعمالها ومن هنا فعندما عرضت القضية على قاضى الاحالة الأستاذ متولى غنيم ، حيث ترافـع امامه النائب العام عبد الخالق باشا ثروت ممثلا الادعاء وذلك يوم ٢٢ مارس وتولى الدفاع عن المتهمين احمد بك لطفى ومحمود بك ابو النصر وعبد العزيز بك فهمى (باشا فيما بعد) وابراهيم بك الهلباوى وعمر بك لطفى واسماعيل بك الشيمى ومحمود بك فهمى حسين ومحمد على علوية (باشا) والأستاذ محمود بسيونى وآخرون .

وبعد أن سمع القاضى مرافعة النيابة والدفاع اصدر حكمـــه الجرىء الخالد والذى يعتبر اعظم حكم اصدره قاضى فى مصر فى كل العصر الحديث ويقضى هـــذا الحكم باحالة الوردانى (وحده) الى محكمة الجنايات . وان لا وجه لاقامة الدعوى

قبل المتهمين . فبالرغم من انهم اتفقوا على تأليف جمعية سرية بالفعل ، الا انهم لم يتفقوا على هذه الجريمة ، واصدر القاضى حكمه بذلك يوم ٢٣ مارس .

الدولة تنصاع :

وعلى الرغم من أن الانجليز من ناحية والخديو من الناحية الأخرى قدروا خطورة هذا الحكم فقد انصاعوا له وتم الافراج بالفعل عن الثمانية متهمين الذين اعتبروا شركاء للوردانى . ولم يصب القاضى الذى أصدر الحكم بأى ضرر الامر الذى يجعلنا نقرر بكل امانة ان هذه الفترة كانت هى العصر الذهبى الذى لا يطاوله عصر آخر فى حكم القانون وسيادته .

الغاياتى يمجد القاضى :

قلنا من قبل ان ديوان على الغاياتى المنشور تحت اسم وطنيتى هو اعظم سجل لحوادث هذه الفترة ، ومن هنا فسنراه لا يغفل هذه المناسبة فتنشر له جريدة العلم قصيدة تفيض تمجيد المتولى غنيم مما يعكس مشاعر الرأى العام :

حكمت فأرضيت البلاد واهلها
وحياك عيسى بعد موسى واحمدا

وختمها بقوله :

سلام عليك يا خير عادل
اعاد عهود الراشدين وجددا

٢٦ مارس ــ صدور تقرير جورست :

تحت هذا التاريخ نشر كما اصبح النظام المتبع التقرير الذى اعتاد المعتمد البريطانى (الدون جورست) أن يرفعه لوزير خارجية انجلترا (ادوارد جراى) والأصل ان التقرير يشمل ادارة البلاد عن السنة السابقة (١٩٠٩) ولكن التقرير اعتاد أن يتناول فى مقدمته العامة أهم ما جرى فى البلاد من أحداث فى مطلع العام ومن هنا فباستطاعتنا ان نتصور خيبة الأمل والمرارة التى يعكسها التقرير بعد مقتل بطرس غالى وما ينبىء باحتمال رفض الجمعية العمومية لمشروع مد امتياز شركة قناة السويس . والتقرير يفيض بالدفاع عن سياسته (سياسة الوفاق) وراح يدلل ان لا جديد فيها فهدف السياسة البريطانية ثابت لا يتغير (١) .

وقد اخترنا العام القادم (١٩١١) باعتبارها السنة التى ولد فيها المؤلف وبدأ يعاصر الأحداث ان نصور حالة مصر بالأرقام من واقع هذا التقرير اما هذه السنة

---

(١) وهو بطبيعة الحال تدعيم الحكم الانجليزى يوما بعد يوم كما سنرى ذلك بعد أربع سنوات .

فنكتفى بنقل الفقرة الخاصة بالجامعة هـذا المولود الجديد الذى كانت الأمة قد بدأت تعلق عليه أعظم الآمال جاء فى التقرير

٥٦ ـ الجامعـة المصرية :

زادت أنواع المحاضرات التى تلقى فى هذه الجامعة الآن من ٥ الى ٧ وفى الجدول التالى مواضيع المحاضرات واللغات التى تلقى بها وعدد الطلبة الذين يحضرونها :

المواضيع	اللغـة	عدد الحضور
آداب اللغة العربية	بالعربية	١٣٣
الرياضيات العليا	بالعربية	٦٣
الطبيعيـــات	بالعربية	٩٣
الفلك والعلوم الطبيعية عند العرب	بالعربية	٥١
الأدب الانجليزى	بالانجليزية	٣٩
الأدب الفرنسى	بالفرنسية	٧٧
الاقتصاد السياسى	بالفرنسية	١٣٧

محاضرات للسيدات بالفرنسية .

ومما يستحق الذكر بنوع خاص تنظيم حلقة المحاضرات للسيدات . والسيدات اللواتى يواظبن على الحضور ٣٥ مصريات و ٢٣ أوربيات .

وقد كان من حظ الجامعة انها لقيت مساعدة كبيرة من البلدان الأجنبية فأهدت اليها الحكومة الايطالية آلات كاملة مما يلزم للتجارب الطبيعية وقبلت فرنسا ان تعلم مجانا ثلاثة من الشبان المصريين الذين ترسلهم الجامعة .

تعليـــــق :

واذا كانت مهمة المؤرخ العادى ان يكتب الحقائق دون أن يعلق عليها فانى اعترف اننى لا اكتب التـاريخ لاستخلاص ما فيـه من عبر أضعها أمام نظار الباحثين . ومن هنا فلست استطيع ان أتمالك نفسى من تسجيل ما دار فى نفسى من خـواطر وأنا اطالع هذه الفقرة ، فما اكثر الضجيج الذى قام فى ايامنا عندما دخلنا الجامعة لأول مرة (١٩٣٠) ففى هذه السنة دخل كلية الآداب بضع آنســات لا يتجاوزن العشرة ، فما اكثر ما ملأوا الدنيا ضجيجا عن هـذا الفتح المبين وهـذا الاجراء (التقدمى) الكبير الذى قام به الدكتور طه حسين عميد الآداب بموافقة لطفى السيد مدير الجامعة ، وهاهى الحقائق تكشف ان قبل هذا التاريخ بعشرين سـنة كانت ابواب الجامعة مفتوحة للنســاء وخلال هذه العشرين سنة قامت فى الدنيا حـرب عالمية قلبت كل المفاهيم وقامت فى مصر ثورة سنة ١٩١٩ ، فلم يكن هناك محل لكل

هذا الصباح والادعاء بادخال المرأة الى الجامعــة وكانت هذه الحقيقة البسيطة من حصول الفتيات على (البكالوريا) اى التوجيهية بلغة العصر ، اقول ان هذه الحقيقة وحدها كانت تكفى لاثبات ان الفتاة المصرية قد دخلت الجامعة نتيجة التطور الطبيعى والبطىء جدا ولكن هكذا شاء القائمون بالأمر سنة ١٩٣٠ ان ينسبوا لأنفسهم انهم محرروا المرأة وانهم ادخلوها الجامعة لأول مرة وهانحن نرى الآن مدى صحة هذا الادعـــــاء .

واذا كان أحد سنن الحياة هو « كما تدينوا تدانوا » فقد عشنا حتى راينا عصرا يدعى لنفسه انه هو خالق الوطنية والتقدم فى مصر بل خالق مصر نفسها .

٢٩ مارس : مظاهرات الاحتجاج ضد المستر روزفلت :

زار مصر فى هذه الفترة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق المستر تيودور روزفلت الذى كان رئيسا للولايات المتحدة من سنة ١٩٠١ — ١٩٠٨ ، قادما عن طريق السودان ، ويبدو أن الانجليز تصوروا أن يستعينوا به لتثبيط عزائم المصريين عن المطالبة بالدستور واستجاب لهم الرجل بكل بلاهة او حماقة فهو لا يمكن الا ان يكون موصوفا باحدى الصفتين ، فما كان لعابر سبيل كائنا ما كانت صفته ان يتكلم عن شعب يجهل عنه كل شيء وعن عدم اهلية هذا الشعب لنيل الدستور ومع ذلك فقد كان هذا هو ما فعله تيودور روزفلت ، وفعله بتعمد واصرار وتحد . فألقى قبل مجيئه الى مصر خطبة فى مدينة الخرطوم مجد فيها الاحتـــلال البريطانى ودعا الى الخضوع لحكمه ، وسبقته هذه الأخبار الى مصر .

ومع ذلك فلم يتردد عن تكرار هذا الكلام فى القاهرة حيث هيأت له الجامعـــــة المصرية مناسبة لالقاء خطاب منحته فى نهايته درجة الدكتوراه . وقد كتب الكثـير عما قاله . والذى يهمنا ان نسجله هنا هو صدق القول القائل « رب ضارة نافعة » فقد كان حادث مصرع بطرس غالى قد اصاب الحركة الوطنية بما يشبه (الوقفة) فجاء تيودور روزفلت ببلاهته او حماقته ليلهب المشاعر المصرية من جديد ويخرجها من حالة الجمود التى رانت عليها فتألفت المظاهرات عقب القائه المحاضرة مبـاشرة اى فى امسية ٢٩ مارس ولاحقته فى فندق (شبرد) حيث كان يقيم وراحت تهتف بسقوطه وعندما سافر فى اليوم التالى الى الاسكندرية ليبرح منها الى أوربا كانت المظاهرات الصاخبة تهتف بسقوطه ووقفت مصر كلها على قلب رجل واحد فى التنديد بالرجل الأحمق فنرى صحف الحزب الوطنى وحزب الأمة (الجـريدة) وحزب الاصلاح (المؤيد) ووصلت انباء الحملة الى امريكا فارتجت لها ، وبلغ من تعطش الشعب الأمريكى لسماع التنديد به ان ابرقت احدى الصحف الامريكية الى الشيخ على يوسف ان يكتب لها خصيصا تحقيقا صحفيا فى ٢٥٠٠ كلمة عن الموضـــــوع فأجابها الشيخ الى ما تريد وفى كتاب الدكتور عبد اللطيف حمـزة نص المقـال الذى غمر امريكا ولمـا كان من اخلاق تيودور روزفلت العناد على ما يقولون فقـــد ازداد تشبثا بموقفه فلم يكد يصل الى لندن حتى كرر اقـواله ، ولـكن لعـل الانجليـــز

انفسهم أصبحوا يندمون على حملة على قول ما قال ، وقد رأوا رد الفعل العنيف لأقـــواله .

لمحـات شـعرية :

وسيبقى الشعر اقوى تعبير عن المشاعر العامة والخاصة وكما اجمعت صحف مصر كلها فكذلك فعل الشعراء على ميولهم واتجاهاتهم فنرى احمد شوقى شـاعر الأمير والذى كان قدكف عن الشعر السياسى موقفا يخرج منعزلته ويكتب لروزفلت خطابا مفتوحا يفيض ادبا ورقة باعتباره (موظف) عند الأمير وهو يفيض بالعتـاب ثم ألف قصـيدة من أعظم قصائده استعرض فيهـا تاريخ مصر المجيـد عبر الوف السنين ، معرضا بذلك بأمريكا التى لا تاريخ لها والقصيدة والخطاب النثرى المفتوح لروزفلت منشورين فى ديوان شوقى الجزء الثانى تحت عنوان قصر أنس الوجود .

اما حافظ ابراهيم فكان بطبيعة الحال اكثر انطلاقا ووجه كلامه الى روزفلت مباشرة مذكرا اياه بما كان بين امريكا وانجلترا على ان على الغاياتى كان على العهد به فى هذه الفترة قمة الشعر الوطنى فقال قصيدة نارية حسبنا ان نثبت مطلعها :

لعمرك لست بالرجـــل الهمـــام
اذا عـــد الهمـــام من الـــكرام
كرام النـــاس أصـــدقهم حديثا
وابعـــد عن اكاذيب اللئـــــام

وعندما خطب فى انجلترا بعد ذلك ما خطب لاحقه على الغاياتى بقصيدة قال فى مطلعهـــا :

ماذا تحـاول يا روزفلت من خطب
ترمى بها مصر عن حقد وعن غضب

وقد اغلق كتاب روزفلت عندما نددت به صحف الأحرار فى فرنسا وانجلتـرا فضلا عن صحف بلاده .

٧ ابريل موقف الجمعية العمومية الخالد :

وقفنا فى هذا الموضوع عند حد احالة المشروع المقدم من الحكومة بالموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس اربعين سنة تبدأ بعد نهاية امتياز الشركة القـائم الذى ينتهى عام ١٩٦٨ ، قضت الجمعية باحالة المشروع الى لجنة خاصة لدراسته، وقد ذكرنا اسماء اعضاء هذه اللجنة الموقرة ، وقد قامت اللجنة بدراسة المشروع من جميع زواياه الاقتصادية والمـالية والفنية والسياسية ، وانتهت برفض المشروع بالاجماع وقدمت تقريرا مســهبا يشرف اعرق المجـالس النيابية فى أرقى الأمم الدستورية عندما تتصدى لدراسة اى موضوع من الموضوعات فتوفى البحث حقه ،

وقد كان محمد طلعت حرب أحد الخبراء الذين بحثوا المشروع من الناحية المــالية ووضع خبرته تحت تصرف اللجنة . وهكذا يطالعنا طلعت حرب من جديد متألقــا فى ميدان المــالية والاقتصاد بعد ان طالعنا من قبل وهو يصدر كتابا للرد على قاسم أمــين (١) .

وقد أورد عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد ملخصا لهذا التقرير ، وهو منشور بالكامل فى صحف تلك الأيام .

وقد عقدت الجمعية العمومية جلسة فى ٣١ مارس حيث تلى التقرير فصــفق له الأعضاء وتأجلت الجلسة الى ٥ ابريل لتاح الفرصة لدراسة تقرير اللجنة ، وفى جلسة ٥ ابريل القى محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار بالتصريح التالى :

« ان الحكومة حين قررت عرض المشروع على الجمعية قررت كذلك ان يكون رأيها فيه قطعيا بصفة استثنائية والحكومة تقرر لهم ذلك قبل النظر فى المشروع حتى يكون لهم كل الحرية فى قرارهم الذى يصدرونه ، وحتى يقدروا مسئوليتهم امام هذا الجيل والأجيال القادمة والراى العام الأوربى » .

يقول شفيق باشا فى مذكراته : « وبعد ان ألقى رئيس الوزراء هــذا البيان » وقف بعده سعد زغلول باشا فدافع عن المشروع حسبما تقرر .

أستاذنا عبد الرحمن الرافعى وهذا الموقف :

حاول استاذنا عبد الرحمن الرافعى ان يغض بقدر الامكان عن موقف محمــــد سعيد باشا فى هذا الموضوع فلم يشر الى بيان محمد سعيد الســـابق حيث ندد ببطرس غالى لأنه رفض ان يدلى بهذا البيان ، ولكن امانة عبـــد الرحمن الرافعى كمؤرخ حالت بينه وبين اغفال الحقائق المــادية فأشار الى الموضـــوع فى الهامش اشارة عابرة بالخط الدقيق فقال : « رئيس الوزراء محمد سعيد باشا » وقد اعلن بالجلسة ان راى الجمعية فى مسألة قناة السويس قطعى وستعمل به الحكومة اما بالنسبة لسعد باشا زغلول فلم يشر عبد الرحمن الرافعى من قرب أو من بعد الى أن دفاعه عن المشروع كان تنفيذا للصفقة التى ابرمت مع الانجليز (جورست) وهى ان يرافقوا على جعل قرار الجمعية نهائيا وقاطعا فى مقابل أن يقوم سعد زغلول بالدفاع عن المشروع وهو اتفاق لم يفتأ شفيق باشا يؤكده كلما عرض لذكر الموضوع ويبدو أن عبد الرحمن الرافعى لم يأخذ بأقوال شفيق باشا وهو الحجة فى هذه القضية اذ يحدثنا عما كان يجرى وراء الستار .

شـــاهد الحـال :

على أن شاهد الحال يقطع بأن سعد زغلول كان يدافع استكمالا للشكل ولا بد انه كان معروفا ومشهورا آنذاك هذا الموقف فقد كانت مصر قد تحــولت كلها الى

(١) راجع الجزء الثالث .

اتون نار ضد المشروع رفضته اللجنة بالاجماع وسترفضه الجمعية العمومية بالاجماع وهو ما لم يحدث من قبل أو من بعد ، وقد رأينا كيف أن رئيس الوزراء بادر مع علمه بأن الجمعية سترفضه ان يؤكد ان الحكومة ستحترم القرار ، وكان مصرع بطرس غالى لموافقته على المشروع ماثلة للعيان فمن غير المعقول أو المقبول أن ينفرد سعد زغلول من دون الأمة كلها بالحماس للمشروع فليس هناك تفسير لهذا الذى حدث الا قول شفيق باشا من ان ذلك كان تنفيذا لصفقة متفق عليها ، وتكاد كل كلمة من الأقوال التى نشرها عبد الرحمن الرافعى باعتبارها ملخص دفاع سعد زغلول تنطق بذلك وهكذا يجب ان يسجل هذا الموقف لسعد زغلول وليس عليه ، وعندنا أنه ارهاص لما سيكون عليه سعد زغلول بعد عشر سنوات من أنه زعيم هذا الشعب زعامة لم يشهد لها التاريخ المعاصر مثيلا .

الجمعية ترفض المشروع :

وفى يوم ٧ ابريل تم التصويت على المشروع بالنداء على الأعضاء بالاسم فكان الرفض بالاجماع ما عدا عضو واحد وهو مرقص سميكة باشا حيث أعلن موافقته على المشروع بعد ادخال بعض التعديلات عليه .

لماذا مرقص سميكه :

وقد حرصنا على ذكر موقف سميكه بالذات لأنه يظهر عظمة الاجماع على القرار فقد قيل فى ذلك الوقت ان اعضاء الجمعية قد رفضوا المشروع بدافع من الخوف على انفسهم فقد كان بعض طلاب المدارس يطوفون على الاعضاء ليناشدونهم اداء واجبهم الوطنى ، فعندما رفض الأعضاء المشروع فقد رفضوه خوفا من أن يحل بهم ما حل ببطرس غالى فاذا صح هذا الافتراء فلماذا شذ مرقص سميكه ولم يداخله الخوف ، أيمكن أن يستسيغ عقل أنه لم يكن فى الجمعية رجل شجاع الا مرقص سميكه الحق أن مرقص سميكه قد انفرد بابداء رأيه المخالف للاجماع ليؤكد القاعدة التى تقول « ان الاستثناء يؤكد القاعدة » فلو لم يكن هناك مرقص سميكه لجاز التحدث عن الخوف والارهاب اما وقد ابدى مرقص سميكة رايه بكل حرية ولم يقع له اى مكدر من اى نوع كان فهذا هو الدليل على كذب الادعاء .

وذلك كله بالاضافة الى ان التهديد سلاح ذو حدين فهو كما انه يرهب فهو من الناحية الاخرى قد يثير فى بعض العناد والتحدى .

الدكتور هيكل والقرار :

وقد ابدى الدكتور محمد حسين هيكل رايا فى هذا الموضوع لا اظنه ساقه للتقليل من عظمة القرار ، قال هيكل فى مذكراته عن الحياة السياسية وقد كان طالبا فى أوربا ، انه يتصور ان انجلترا لم تكن ترغب فى تحقيق المشروع فجعلته يأخذ هذا الاتجاه ، ونحن لا يهمنا مناقشة هذا الراى . ولكن الشىء المؤكد انه لا اعضاء

الجمعية ولا الشباب ولا الحكومة ولا كائنا من كان ، كان يعرف بنوايا الحكومة الانجليزية ، ومن هنا فقد تصرف الجميع على اساس تحدى رغبة الانجليز .

صــــوت الشــعر :

ونرى أن نثبت بعض أبيات من قصيدة الغاياتي تعليقا على هذا الحدث وسيكون هذا آخر عهدنا به فسوف يصبح كتابة هذا حدث فى حد ذاته يشغل البلاد عدة شهور ، اما هو فسوف يغادر مصر ، وبالتالى ينقطع عقد هذه القصائد التى تتابع احداث هذين العامين ، قال :

ماذا يقــولون عنا بعد ما شــهدوا
من نهضة النيل ما يغنى عن الخبر
هل جاءهم نبأ النواب اذ رفضوا
مشروعهم بسـديد الراى والنظـر
عبد اللطيف (١) واسماعيل (٢) فى ملأ
من الــكرام اداروا دفة القــدر
لن ينكروا بعد هـذا اليوم نهضتنا
ففى غد تلتقى الأعمــال بالفـكر

تعليــــق :

وفى راينا ان ما حدث فى موضوع مد امتياز شركة قناة الســويس هو احد المواقف الخالدة فى تاريخ هذا الشعب عندما يتحول الى قوة الهية تفاجىء المراقبين ، ولا شك أن انجليز هذا الزمان قد ذهلوا لهذه الحماسة والوحدة التى تجلت فى الأمة وسواء كان الانجليز كانوا يرغبون فى عقد الاتفاق او عدم عقده فلا شك انهم اسـفوا أشد الأسف لهذا التطور الجارف الذى ألم بالبلاد وسنرى انهم سيشرعون فى تجربة « العصا الغليظة » .

١٨ مايو ــ صدور الحكم على الوردانى :

قدمنا ان قاضى الاحالة أحال ابراهيم الوردانى (وحده) الى محكمة الجنايات فانعقدت فى يوم ١٨ مايو برئاسة قاضى انجليزى حسب النظام المتبع فى هذه الأيام وجلس فى كرسى الادعاء النائب العام عبد الخالق ثروت باشــا ، وقام بالدفاع عن المتهم احمد بك لطفى وابراهيم بك الهلباوى ومحمــود بك ابو النصر ، وقد أثار الدفاع نظرية ان بطرس غالى لم يمت نتيجة رصاصــات الوردانى وانما نتيجة

(١) عبد اللطيف الصوفانى .
(٢) اسماعيل باشا اباظة .

التداخل الجراحى فيما بعد ، ولكن تقرير الطب الشرعى نفى ذلك وبعـــد احالة اوراق المتهم على المفتى طبقا للاجراءات المعتادة اجاب المفتى كما اعتـــاد ان يجيب دائما من ان الأدلة المقدمة لا تجيز الحكم بالاعدام . وقد استغرقت هذه الاجـراءات عدة جلسات بطبيعة الحال ، ولكن فى هذا اليوم المذكور (١٨ مايو) نطقت المحكمة بحكمها وهو يقضى باعدام الوردانى شنقا فقابل الوردانى هذا الحكم بالابتسام كمـا كان شأنه فى كل اجراءات القضية وقد سجل ذلك كله على الغاياتى فى قصيدة نشرت بالعلم ، وضمها كتاب وطنيتى .

٢٠ مايو ١٩١٠ عودة جريدة العلم للظهور :

كانت وزارة الداخلية قد عطلت جريدة العلم شهرين (لخـــروجها عن جادة الاعتدال) والمهم أن الذى عطل هو مجرد (اسم العلم) ذلك ان الحـــزب الوطنى اصدر بدلا عنه جريدة الشعب ، ولمـا كانت رخصة جريدة الشعب اسبوعية ، فقد تمكن صاحبها من الحصول على تصريح من الداخلية بجعلها يومية فراحت تصـدر بانتظام محل العلم حتى اذا انتهت مدة الشهرين استأنف العلم نشاطه .

سفر محمد فريد الى أوربا :

الشىء المحقق الذى يستطيع المؤرخ المصرى ان يرصده بعد هذا الوقت الطويل، أن الفضل كل الفضل فيما انتهت اليه الأمور فى موقف الجمعية العمومية الخـالد انما يرجع فى الدرجة الأولى الى الحزب الوطنى وبخاصة جهاد رئيسه محمد فريد واذا كان ذروة نجاح مصطفى كامل تتجلى فيما حدث فى مصر عقب حادثة دنشواى، فان ما حدث فى مصر من تطورات سنة ١٩١٠ يعتبر ذروة ما وصل اليه محمد فريد من نجاح وقد استتبع هذا النجاح اكفهرار الجو من حـــوله ولا بد انه احس بأن السلطة تضيق الخناق عليه وتتعقبه ، ومن هنا نراه يعجل بالسفر الى أوربا ، فيبرح مصر فى أوائل مايو على ما يقول عبد الرحمن الرافعى ، ولكنا نرى أول أثر رسمى له على صورة مقال نشر فى فرنسا فى ٢٧ مايو ، ومنذ هذا التاريخ انخرط محمد فريد فى نشاط مكثف متصل سنذكره فى حينه حتى آخر شهر فى السنة .

٧ مايو ١٩١٠ — وفاة ملك انجلترا :

يعلم الذين يتتبعون موسوعتنا اننا درجنا على ان نسجل بها قيام وســـقوط قياصرة روما وبيزنطه ثم سلاطين تركيا لمـا كان يحدثه ذلك من آثار عـلى مصر ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لانجلترا اذ لمـا كان ملك انجلترا ملكا دســـتوريا يملك ولا يحكم ، فان موته لم يكن له أى تأثير فى مصر سوى نشر البرقيات فى الصحف بأن ادوارد السابع ملك انجلترا قد توفى . ويحدثنا شفيق باشا فى مـذكراته أن الخديو الذى كان قد سافر الى الاسكندرية بعث للمعتمد البريطانى برقية عزاء يقول فيهـا انه لو كان فى القاهرة لحضر بنفسه معزيا . وقد اقامت السلطات الانجليزية صلاة قداس على روح الملك الذاهب وكان هذا كل شىء .

١١ يونيو ـ اعـدام الوردانى :

فى هذا اليوم أعدم الوردانى بعد ان كان طعنه امام النقض والابرام قد رفض ، وهكذا طويت صفحته اخيرا ، ولكن نفوذه الروحى والمعنوى ازداد قوة بعد اعدامه حيث اعتبر بطلا شعبيا فتـألفت باسمه عشرات المواويل الشعبيـة راح الشعب يتداولها سرا واحيانا فى العلن .

١٦ يونيو ١٩١٠ ـ صدور قوانين جديدة :

كان حفظ الدعوى بالنسبة لمن اعتبرتهم النيابة شركاء للوردانى صدمة عنيفـة لسلطات الاحتلال اذ فوت عليها فرصة البطش بالحزب الوطنى وقـــد رأينا كيف انصاعت على الفور فأفرجت عن السجناء نزولا عند سلطان القانون . ثم راحت تعمل على سد الثغرة فى القانون القائم فاذا كان القانون لا يعاقب الشركاء فى اتفاق جنائى الا اذا كانت الجريمة التى تمت هى عين ما اتفقت عليه ، فليصدر قانون يجعل الاتفاق الجنائى جريمة فى حد ذاته . وعلى ذلك فقد صدر قانون الاتفاق الجنائى المشـهور والذى يجرم مجرد اتفاق اثنين أو أكثر على ارتكاب الجنح والجنايات حتى ولو لم تقع بالفعل ، ولقد وضع هذا القانون فى لحظة انفعال وتسرع فجاء بصيغة فجة غير مقبولة ولقد شقيت أنا شخصيا طوال حياتى كمحام يترافع عن المتهمين السياسيين حيث استعمل هذا القانون فى الخمسينات والستينات بصورة شاذة مرعبة وما ذلك الا لأن عبارات القانون جاءت مطاطة غير محكمة ولا يزال هذا القانون الشاذ ٢٨ لسنة ١٩١٠ الصادر فى ١٦ يونيو سنة ١٩١٠ معمولا بجوهره وما نص عليه من جريمة حتى وقتنا هذا .

واذا كان مجلس شورى القوانين عندما عرض عليه هذا المشروع قد أجازه بعد اجراء بعض التعديلات عليه احساسا منه بالمسئولية ، فانه رفض قانونا آخر يقضى باحالة جرائم الصحافة على محكمة الجنايات رأسا بالرغم من انها مجرد جنح على أن الحكومة آنذاك لم تعبأ برفض أحد القانونين وتعديل القانون الآخر وأصدرتهما كما وضعتهما . والقانون الخاص بنظر محكمة الجنايات لجنح الصحافة هو القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠ وصدر فى نفس اليوم الذى صدر فيه القانون الآخر أى ١٦ يونيو

تغير الظروف بدل النقمة الى نعمة :

على أن هذا القانون الخاص بالاجراءات يثبت نسبية الأمور حيث تحولت نقمة هذا القانون وقت اصداره بحيث رفضه مجلس شورى القوانين كما رأينا ، فقد تحول هذا القانون نفسه الى نعمة فى أيامنا نحن فقد كان قضاة محاكم الجنح فى هذه الفترة التى صدر فيها القانون هم من الشباب الوطنى فكانوا يقضون بالبراءة أو بأحـــكام بسيطة ، أما محاكم الجنايات فقد كان يرأسها فى الأغلب والأعم انجليزى ومن هنـــا فسوف تكون أحكامها قاسية كما سنرى . وتبدل الحال فى الثلاثينات فكانت أقصى امانينا هو أن تفرغ النيابة من التحقيق وأن تحيل القضية الى محكمـة الجنايات لأننا

كنا على ثقة مؤكدة من الافراج عنا وهو أمل لم يخب أبدا ولقد وقفت متهما أمام محكمة الجنايات بتهم صحفية عشرات المرات فقضى دائما بالبراءة أو بأحكام خفيفة جـدا كالغرامة أو الحبس مع ايقاف التنفيذ وما ذلك الا لأن محكمة الجنايات أصبحت خالية من الانجليز وأن شاغلها ممن لا سلطان عليهم الا ضمائرهم ، وهكذا حول القانون كما قدمنا من نقمة الى نعمة ومن هنا فقد أثار زوبعة من النقد عند صدوره واعتبر حرمانا للصحفيين من درجة من درجات التقاضى وستؤيد الحوادث التالية حدس الجمهور.

تقييد التمثيل :

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « محمد فريد » وتدخلت الوزارة أيضـا فى حرية التمثيل فمنعت تمثيل الروايات التى ورد فيها لفظ الحرية والاستقلال كمـا منعت اخراج بعض الروايات التمثيلية ، ووضعت لائحة للمسارح هى اشـبه اللوائح بقانون المطبوعات القديم . (انتهى) .

احتجاب الشيخ سلامة بسبب المرض :

وعلى ذكر التمثيل وما يجرى فى المسارح فقد احتجب فى هذه السنة نجم الغناء والتمثيل ونعنى به الشيخ سلامة حجازى . فقد كان آخر عهدنا به هو مايو من العام السابق حيث قام برحلة الى ربوع الشام وهناك أصيب بالفالج (الشلل) فلم يستطع بطبيعة الحال ان يواصل عمله وعبثا حاولت فرقته ان تواصل العمل فى غيابه فتعثرت وظل هو قعيد بيته فريسة للوحدة والفقر والمرض .

كتاب وطنيتى ــ أواخر يونية :

ومع اقتراب شهر يونية من آخره صدر كتاب على الغاياتى « وطنيتى » وهو عبارة عن مجموعة القصائد التى قالها تعليقا على شتى الحوادث من وجهـة النظر الوطنية ونشرت فى صحف الحزب الوطنى وقد أشرنا الى هذه المواقف فى حينها ، وقد كان مقدرا لهذا الكتيب الصغير ان يكون قنبلة فى الحياة السياسية المصرية .

يقول على الغاياتى نفسه فى مقدمة الطبعة الثانية التى طبعها منه بعد أربعين سنة تقريبا (١٩٤٧) ظهرت الطبعة الأولى من « وطنيتى » فى الاسبوع الأخير من شهر يونية سنة ١٩١٠ ولم يكد يصدر حتى صودر وهاجر صاحبه سرا فى ٦ يوليو .

فرار الغاياتى من مصر وهجرته بعد ذلك :

ولنتابع قصة الغاياتى كما يرويها بنفسه فى مذكراته فهى تصور لنا جو تلك الأيام وظروفها ، قال : « وصح منا العزم على جمع ما ننشره من الشعر السياسى فى ديوان فاستخرنا الله واخترنا اسم وطنيتى بعد استشارة الشيخ عبد العزيز جاويش الذى وعد بكتابة مقدمة الديوان ، كما وعد محمد فريد بك بكتابة مقدمة أخرى ، وفعلا كتبت المقدمتان واخذنا فى اعداد العدة للجمع والطبع بمطبعة رجل فرنسى اسمه « كستيولا » بجوار البوستة ، وكان ذلك لحكمة يعلمها الله . ولم يصدر من هذا الكتاب أو الديوان الا جزء واحد انتهى تحريره فى يوم الجمعة ٢٤ يونية سنة ١٩١٠

وتم طبع ألف نسخة وبدأنا نعلن عن الكتاب ، واخـذنا كذلك نقدمه للصحف ، وكنا بدار المؤيد حيث كان يخرج العلم كما قدمنا ، فجاء سليمان فوزى (١) وصحبنا الى الدور العلوى حيث كان الشيخ على يوسف صاحب الدار لنقـدم له نسخة من الكتاب فقدمناها اليه مع ما فيها مما يتعارض مع سياسته وطلبنا منه أن يقول فيها ما يراه من تقريظ أو توجيه بعد الاطلاع عليها . فلم يكد يقرأها حتى نشر صفحة اتهام ضدها وضد صاحبها فتنبهت الحكومة وتحركت النيابة واستعد البوليس واتانا النبأ اليقين بقرب المصادرة والاعتقال والمحاكمة فصممنا فى بادىء الأمر على احتمال ما يراد بنا فى سبيل المبدأ والعقيدة ، ثم قبلنا اشارة المشيرين علينا من كبار المجاهدين بالفرار من وجه الظلم قبل نزوله فهاجرنا الى تركيا ثم الى سويسرا حيث بقينا فيها سبعة وعشرين عاما أسسنا فى خلالها الأسرة وأنشأنا « منبر الشرق » وتتضمن المذكرات بعد ذلك تفاصيل الهرب من مصر خطوة خطوة مما نرى ذكره عند التحدث عن خروج محمد بك فريد بعد عام واحد من هذا التاريخ لأن الأسلوب يكاد يكون واحدا فى الحالتين .

شفيق باشا وكتاب « وطنيتى » :

فاما وقد أثبتنا وقائع كتاب وطنيتى كما سجلها بطل الواقعة فلنثبت ما جاء فى **مذكرات شفيق باشا اذ تصور لنا الموضوع من وجهة نظر السلطة . قال :**

قضية ديوان وطنيتى :

وفى يوم ١٢ يوليو علمت ان النيابة تحقق فى قضية سياسية خلاصتها ان الشيخ على الغاياتى المحرر فى جريدة العلم المنتمى للحزب الوطنى طبع ديوان شـعر بعنوان «وطنيتى» فيه حط من شأن الحكومة وتحريض على العبث بالنظام فاستدعته لتحقق معه ولكنه فر الى تركيا فاستحضرت الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه كتب مقدمـة للديوان أثنى على موضوعاته وصاحبه . واسماعيل حافظ صاحب العلم لسؤاله عن سبب مدحه واطرائه لهذا الديوان . وبعد التحقيق أحالتهما مع آخرين الى محكمة الجنايات فحوكموا فى جلسة ٩ أغسطس بتهمة التحريض على جناية القتل السياسى وكراهية الحكومة والازدراء بها وتحبيذ الجرائم والعيب فى حق الذات الخديوية . وقد حكم على الشيخ الغاياتى (غيابيا) بالحبس سنة مع الأشغال ، وعلى الشيخ جاويش بالحبس البسيط ثلاثة أشهر وحكم على الآخرين بشهرين مع ايقاف التنفيذ.

ومما جاء بالديوان فى مهاجمة الخديوى :

أعباس هـذا آخر العهـد بيننا
فلا تخش منا بعـد ذاك عتـابا

وفيه من الدعوة الى الثورة :

هـل سـال فى مصـر الدم
أم ثـار فيهـا النـوم

(١) صاحب مجلة الكشكول فيما بعد بمعنى الواحة .

٢٤ سبتمبر – قرارات المؤتمر الوطنى فى بروكسيل :

مذ غادر محمد بك فريد مصر فى أوائل مايو من هذه السنة وهو يبذل جهودا جبارة لتحريك المسألة المصرية فىصحف أوربا وبدأت أحاديثه فى شتى الصحف الفرنسية تظهر من حين لآخر وقد انتهز فرصة انعقاد مؤتمر دولى للسلام فىاستكهولم لكى يحضره بصفته صحفيا ثم يبذل نشاطا جما للدعاية لمصر وقضيتها ضد الانجليز على أن جهود محمد فريد وصلت القمة عندما نجح فى عقد مؤتمر مصرى دولى لمناقشة القضية المصرية ، وقد بلغ من اهتمام انجلترا بهذا المؤتمر ان أحست فرنسا بضيق انجلترا به فقررت منع انعقاده مع أن باريس كانت تعتبر معقل الحرية . فبلغ من همة محمد فريد ان لم يفت هذا المنع المفاجىء فى عضده فاذا به يعقد المؤتمر فى الوقت المحدد له فى بروكسل عاصمة بلجيكا بعد أن اضفى عليه قرار المنع مزيدا من الأهمية، وضاعف فى حماسة المشتركين فيه وهم خلاصة شباب مصر فى جامعات أوربا ، وقد حضر المؤتمر وخطب رجال من كبار ساسة انجلترا الأحرار وعلى رأسهم زعيم حزب العمال آنذاك كما بعث المستر بلنت برسالة فياضة تليت فى المؤتمر ، كما حضر المؤتمر وخطب فيه رجال من المانيا ومن سائر انحاء اوربا وانتهى المؤتمر الى اصدار القرارات التالية :

أولا : عدم شرعية الاحتلال وضرورة الجلاء العاجل .

ثانيا : وجوب رد الدستور الى مصر .

ثالثا : بطلان اتفاقية السودان .

رابعا : وجوب الغاء :

– قانون المطبوعات .

– وقانون الاتفاقات الجنائية .

– وقانون النفى الادارى .

٢٧ سبتمبر صدور قانون جديد لاصلاح الأزهر :

يحدثنا شفيق باشا عن قانون جديد صدر لاصلاح الأزهر وعن جهوده فى هذا السبيل وقد كان قانون سابق للاصلاح قد توقف بسبب هياج الطلاب والمشايخ عليه. وقد كان رجال الأزهر وطلابه شديدى الحساسية ضد أى حركة لاصلاح الأزهر خوفا من ان يكون ذلك سبيلا لتدخل الانجليز . وقد أدى ذلك لانشاء مدرسة دار العلوم أو لاعداد مدرس اللغة العربية ، ثم أنشئت مدرسة القضاء الشرعى لاخراج قضاة متخصصين فى الشريعة وقد أحدث انشاء هذه المدرسة معارضة واحتجاج شديدين، وأخيرا رأى الأزهريون أن يقبلوا أن يسيروا قدما فى طريق الاصلاح فصدر القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩١٠ فى السابع والعشرين من سبتمبر .

١٩ أكتوبر صدور جريدة الأهالى :

كانت القاهرة قد أصبحت مركز جميع الصحف الوطنية تقريبا فكان يصدر بها المؤيد والعلم والجريدة وذلك الى جوار الأهرام والمقطم .

ولما كان رئيس الوزارة الجديد محمد سعيد باشا هو من رجالات الاسكندرية الوطنيين ، فيبدو ان ذلك شجع رجالاتها أن يكون للاسكندرية صوت فى الحوادث الجارية ولا بد أن محمد باشا سعيد شجع هذه الحركة سرا ليكون له لسان حال ، كيفما كان الأمر فقد تألفت شركة فى الاسكندرية لاصدار صحيفة يومية عهد برئاسة تحريرها الى الاستاذ عبد القادر حمزة وهو محام اجتذبته الصحافة عام ١٩٠٩ فراح يكتب لجريدة الجريدة رسائله من الاسكندرية فلما انشأ رجالات الاسكندرية جريدة الأهالى اختاروه ليكون رئيس التحرير وفى ١٩ أكتوبر صدر العدد الأول وقد تضمن المقال الافتتاحى ما يمكن اعتباره برنامجا حزبيا لحزب قائم لم يشأ أن يعلن عن نفسه وليس يسعنا الا أن ننقل جزءا من هذا المقال لأنه يغنى بنفسه عن كل حديث وقد بدأ المقال بالحديث عن التربية والتعليم ومحاربة الأمية وعن تنشيط الانتاج والاصلاح ثم قال :

وعلى هذا الاعتبار ستنهج الأهالى فى الوطنية المصرية نهجا نرجو ان يكون معتدلا قويما وتسير فيها سيرا رفيقا حكيما جاعلة نصب عينها أمرين خطيرين :

أحدهما : احترام الأريكة الخديوية وحقوقها الشرعية المتوقف عليها استقلال مصر بمقتضى الفرمانات والمعاهدات الدولية .

الثانى : بلوغ الحكم الذاتى مبتدئة فى ذلك منذ الآن بالمطالبة بحق اشتراك الأمة مع الحكومة فى أمورها الداخلية وشئونها المحلية بايجاد هيئة نيابية يكون لها القول الفصل فى تلك الأمور والشئون مع عدم المساس بالارتباطات الدولية والاتفاقات السالفة المبرمة مع الحكومة الخديوية وتعلن الأهالى ان الاحتلال حالة استثنائية لا دوام لها .. وتدافع الأهالى عن حرية القول والكتابة .

ومضت الجريدة فى تعهداتها معلنة انها ستأخذ بأسلوب النقد (البناء كما يقولون فى وقتنا الحاضر) .

رحلة طويلة فى عالم الصحافة :

وبصدور العدد الأول من الأهالى بدأ عبد القادر حمزة رحلته الطويلة والطويلة جدا مع الصحافة المصرية والتى أخذت ربع القرن الأخير صورة جريدة حيث وقفت بجوارى فى فترة من الفترات وفى رحلة قمت بها للدعاية للقضية المصرية فى أوربا كان عبد القادر حمزة هو الذى وجه نداء على صفحات البلاغ للأمة ان تكتتب بالمال اللازم

لهذه الرحلة وعندما قمت بها كان هو أحد رجلين (١) ، فى وداعى على محطة مصر . وقد ذكرت هذه الواقعة المتأخرة (١٩٣٥) لأنها تكشف عن معدن هذا الرجل الذى بدأ يكتب فى جريدة الأهالى ابتداء من ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٠ أى قبل أن أولد بخمسة أشهر ومع ذلك ظلت شعلة الوطنية تتأجج فى نفسه حتى ليأخذ بساعد شاب مبتدىء .

٢٤ نوفمبر — قضية طنطا :

بينما كان الخديو عائدا من الاسكندرية الى القاهرة اذ هتف طلاب المدارس الذين حشدوا لتحيته يحيا الخديو — تحيا مصر — يحيا الدستور .

وليس هناك ما يصور حالة الذعر التى استولت فى ذلك الوقت على السلطات، من أن هذا الهتاف روع الجميع فقبض على العشرات والمئات بدأ التحقيق معهم فى أخطر التهم ولم تلبث ان تمخضت بعد ان ارتج لها الرأى عن اتهام محدود لبعض الطلاب ، برىء الأكثرون منهم وحكم على قلة بغرامات يسيرة .

صدور كتاب خراب مصر :

وفى أواخر شهر نوفمبر أيضا صدر فى أوربا كتاب « خراب مصر » للمستر تيودور روزستين وكتب مقدمة هذا الكتاب صديق مصر الحر المستر « ويلفرد بلنت» الذى كان قد ألف بدوره عام ١٩٠٨ كتاب « التاريخ السرى للاحتلال » وقد ذكرت كتاب « خراب مصر » لأنه كان أحد الكتب التى جعلت النار تغلى فى عروقى ابان شبابى ضد الانجليز ، وملأتنى حنقا وغضبا عليهم .

٢٨ ديسمبر — عودة محمد فريد بك :

وقد أبت سنة ١٩١٠ ان تطوى صفحاتها وتلفظ آخر أنفاسها قبل ان تسجل حدثا سيكون له أثره فى مطلع العام الجديد وأثره المستمر بعد ذلك فى حياة محمد بك فريد ، ذلك أنه عاد فى هذا التاريخ (٢٨ ديسمبر) من جولته فى أوربا والتى مكث بها قرابة ثمانية أشهر اذ أنه غادر مصر فى شهر مايو . وعلى الرغم من ان محمد فريد لم يضيع يوما واحدا لم يخدم فيها القضية المصرية خير خدمة فيبدو ان مصر امتلأت فى ذلك الوقت بالقيل والقال فى سر هذا الغياب .

وقد سجل لنا عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد وثيقة رائعة تشرف كاتبها كما تشرف من جاء بهذه الكاتبة لهذه الدنيا وجعلها تحيا فى الجو الذى مكنها من كتابة هذه الرسالة وليس هذا الانسان الا محمد فريد نفسه .

كتبت اليه كبرى كريماته بتاريخ ١٤ أغسطس ، على ما يروى لنا عبد الرحمن الرافعى تلميذ محمد فريد ومخلد ذكراه فى كتاب من أروع الكتب . قالت : « ولنفرض

---

(١) كان الرجل الثانى هو محمد على علوبة باشا .

انهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا على الشيخ عبد العزيز جاويش فان ذلك أشرف من أن يقال ، هربتم وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم وختمت خطابها بقولها : « وأختم جوابى بالتوسل اليكم باسم « الوطنية والحرية التى تضحون كل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن » .

وأهم ما فى هذا الخطاب أنه يكشف عن الجو الذى نجح الانجليز وأشياعهم فى تصوير موقف محمد فريد حتى لتكتب له ابنته مثل هذا الخطاب .

والذى لا شك فيه عندنا كما يدل عليه ظاهر الحال ان محمد فريد لم يكن خائفا ولا هاربا بدليل أنه عاد بالفعل وواجه الموقف فى المحكمة كما سوف نرى بكل شجاعة وتحد ، ولكنا نعتقد من ناحية أخرى أن محمد فريد كان يؤمن بجدوى العمل الوطنى خارج مصر لمصلحة مصر ولا بد أن مزاجه كان يتلاءم مع جو أوربا والا لما استطاع أن يحتمله لأى سبب من الأسباب .

الحساب الختامى :

الايرادات : كان مقدرا لها فى الميزانية : ٠٠٠ر٥٣٥ر١٥ جنيه .

فأسفر الحساب الختامى عن ايرادات فعلية مقدارها ٠٠٠ر٩٦٥ر١٥ جنيه .

وكان مقدرا للمصروفات فى الميزانية ٠٠٠و١٥٠ر١٥ .

فاسفر الحساب الختامى عن مصروفات حقيقية ٠٠٠ر٤١٤ر١٤ جنيه .

فأصبح فائض الايرادات ٠٠٠ر٥٥١ر١ جنيه أضيفت الى الاحتياطى .

الجو العـام :

حيث كانت حياة الشعب المصرى شعب الكادحين من الفلاحين والصنايعيـة تمضى فى طريقها الذى ألفته عبر القرون وهـو أن تنتج فى صمت وفى صبر ومعاناة ، كانت الحياة على السطح ، حياة المثقفين والطلاب ورجال الأحزاب والقادرين من سكان المدن وقلة من رؤساء الريف من ناحية ورجال الحكم سواء كانوا شرعيين أو غـير شرعيين (الانجليز) من ناحية أخرى يعيشون فى حالة من الغليان الروحى والنفسى وذلك تحت تأثير عاملين :

١ ــ اشتداد الحركة الوطنية وما انتهت اليه من تيار معارض للحكام .

٢ ــ محاولة اثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط .

وقد تصدت الدولة بسلطانها للقضاء على المعارضة عن طريق ارهابها ، ولما كان الحزب الوطنى يشكل رأس الرمح لهذه المعارضة فقد تصور الحكام (كما هى العادة) أن الضرب على محمد فريد رئيس الحزب يحقق هذه الأغراض .

عام ١٩١١

التحقيق مع محمد فريد :

رأينا كيف أن محمد فريد قد عاد الى مصر فى أواخر ديسمبر من العام الماضى، فلم يكد يصل حتى تلقفته النيابة العمومية للتحقيق معه فى المقدمة التى كتبها لكتاب « وطنيتى » والتى حكم على الشيخ شاويش كما رأينا لكتابته مقدمة ثانية للكتاب وقد تولى التحقيق مع محمد بك فريد ، محمد توفيق نسيم الذى سيقابلنا بعد بضع سنوات رئيسا للوزارة ولكنه كان لا يزال فى هذا الوقت الذى نتحدث عنه رئيسا للنيابة فقط وقد استدعى محمد فريد للتحقيق معه يوم ٤ يناير واذ كان كل شىء معدا ومبينا فقد حدد لمحاكمته أمام محكمة الجنايات يوم ٢٣ يناير ، الأمر الذىمكن محمد فريد من حضور الجمعية العمومية للحزب الوطنى والتى كان مقررا لانعقادها

يوم الجمعة ٢٠ يناير ــ الاجتماع السنوى للحزب الوطنى :

انعقدت الجمعية العمومية التى أصبحت بمثابة مؤتمر وطنى والقى محمد فريد خطابه الشامل الذى يلخص من ناحية نشاط الحزب فى العام المنصرم والذىيسجل من ناحية أخرى تقصير الحكومة فيما كان يجب ان تقوم به من اصلاحات .

وقد كانت مدة انتخاب محمد فريد رئيسا للحزب قد انتهت (٣ سنوات) ولكن الجميع أصروا على اعادة انتخاب محمد فريد مرة ثانية « مدى الحياة » هذه المرة ، وعلى الرغم من أن محمد فريد كان هــو صاحب الاقتراح بقصر الرئاسة على ثلاث سنوات فقد قبل أن يعاد انتخابه مدى الحياة ولعله رأى فى هذه الخطوة ردا على الاجراءات التى عمدت اليها السلطات الحاكمة وعلى رأسها هذه المحاكمة امام محكمة الجنايات التى كانت تنتظره بعد ثلاثة أيام والتى كانت نتيجتها كانت معروفة مقدما .

الاثنين ٢٣ يناير ــ محاكمة محمد فريد :

واخيرا انعقدت محكمة الجنايات لمحاكمة محمد فريد ، وقد سهل لهم محمد فريد مهمة الحكم عليه بالادانة فرفض أن يترافع عنه المحامون اكتفاء بأقواله فى التحقيق فلم تسمع المحكمة سوى مرافعة الاتهام التى القاها محمد توفيق نسيم ،وقد لخص أحمد شفيق باشا مجريات المحاكمة فى مذكراته مما نرى اثباته تسجيلا لهذا الحدث الكبير ، وهذا ما قاله :

عقدت الجلسة لمحاكمته يوم ٢٣ يناير برياسة القاضى دولبرغلو الأرمنى وعضوية احمد ذو الفقار بك وأمين بك على وممثل النيابة محمد توفيق نسيم رئيس نيابة الاستئناف وسأل فريد بك عن التهمة الموجهة اليه فقال ما ملخصه « ان الكتاب ظهر وهو فى اوربا وانه كتب المقدمة قبل سفره، كمقالة يحبذ فيها الجهاد فى سبيل الأوطان وانها تصلح مقالة مستقلة كما تصلح مقدمة للديوان ، وقد اعترضت عليه المحكمة بأنه قد قرأ معظم ما حواه الديوان منشورا فى الصحف وبما أنه مطلع على القانون وفاهم المسئولية فلا بد ان يكون قد عرف أن هذا القول مما يعاقب عليه القانون فرد عليه (أى محمد فريد) فى أن هذا القول يعد غدرا له لأن سكوت الحكومة على المؤلف لنشره القصائد فى الصحف يعتبر رضا منها به ويبيح له تقريظه وبعد تمام المناقشة ترافع رئيس النيابة ثم حكمت المحكمة على محمد فريد بالحبس البسيط لمدة ستة أشهر ولكن هذا الحكم لم يزد أعمال التهييج الا شدة .

سخط الرأى العام :

وعلى الرغم من أن الحكم على محمد فريد كان متوقعا ، فانه بعد أن أصبح حقيقة واقعة بالفعل ، وزج بمحمد فريد فى سجن الاستئناف (١) ، فقد أثار ذلك عاصفة من الغضب والاستنكار بحيث ندمت السلطات على فعلتها ويحدثنا عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمد فريد ، عن المحاولات التى بذلها الانجليز من ناحية والخديو من ناحية أخرى لكى يصدر العفو فى مقابل ان يلتمسه ولكن محمد فريد رفض ذلك كله فى اباء وشمم وكان أحمد لطفى السيد يوالى المطالبة فى « الجريدة » بالعفو عنه ، فأرسل له يشكره ويطلب منه الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع ولام محمد فريد عثمان بك غالب عندما زاره فى السجن موفدا من قبل الخديو ليعرض عليه تقديم طلب للحصول على العفو وقال له « أنا لا أطلب العفو ولا أسمح لأحد من عائلتى بطلبه نيابة عنى واذا صدر العفو فلا أقبله » .

وهكذا قدم محمد فريد الدليل الحى على صلابته واستعداده لاحتمال كل صنوف المكاره فى سبيل عقيدته .

١٠ فبراير – الذكرى الثالثة لوفاة مصطفى كامل :

وليس أدل على أن السلطات عملت ألف حساب لغضبة الشعب أنها لم تعترض على الجنازة الصامتة التى اعتاد الحزب الوطنى أن ينظمها كل عام فى ذكرى وفاة مصطفى كامل . فقام الموكب المهيب من دار الحزب الوطنى حتى مدفن مصطفى كامل حيث قام الخطباء وعلى رأسهم على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ووكيل الحزب وتبارى الشعراء وعلى رأسهم خليل مطران فى القاء المراثى وكان سجن محمد فريد كان هو الخليفة لكل ما قيل من خطب وأشعار .

---

(١) لا يزال هذا السجن قائما على حالته وفى مكانه فى باب الخلق بجوار محكمة مصر وقد كان لى شرف السجن فيه أكثر من مرة .

الفتنة بين المسلمين والأقباط :

الشيء المحقق انه خـلال الفترة التى قاد فيهـا الدون جورست السياسة الانجليزية فى مصر قد اتسمت بالخلافات والانشقاقات بين صفوف المصريين فحدث الخلاف بين الخديو والحزب الوطنى وما تبع ذلك من انشقاق الوطنيين (الحزب الوطنى وجريدته اللواء من ناحية وحزب الاصلاح ـ على يوسف ـ وجريدته المؤيد من من ناحية أخرى) .

وقد نسب اليه ايقاع الفرقة بين المسلمين والأقباط ، وعلى الرغم من أن تقرير جورست السنوى قد اشتمل على ما يعتبر استهجانا لمطالب الأقبـاط ودحض لكل ما أثاروه من شكاوى ، مثبتا بالأرقام أن الأقباط لهم نصيب فى وظائف الحكومة يفوق بكثير نسبتهم العددية أقـول انه على الرغم من ذلك فان المؤرخ لا يستطيع تجاهل ما أجمع عليه المصريون فى هذه الفترة من أن جورست هو المسئول الأول عن هـذه الفتنة وقد لخص لنا شفيق باشا فى مذكراته تطورات هذه الفتنة قال :

« سمعنا بفكرة عقد مؤتمر قبطى لبحث مطالب الأقباط وشكواهم قبل مقتل بطرس باشا وقد أخذ بعض أعيان الطائفة بعمل سرا لعقد هذا المؤتمر ويبث روح السخط بين الأقباط ويصور لهم أنهم مغبونون فى الوظائف والحقوق العامة وكانت صحيفتا « الوطن ومصر » تنفثان فى هذه الروح .

وقد قابلت بطرس باشا وتحدثت معه فى أمر هذه الحركة وعواقبها الخطيرة وتفريقها الأمة ، فطمأننى أنه لا خوف منها وأنه لا يسمح باستفحالهـا ، وقد كان بالفعل معارضا لها حتى أرسل انذارا الى جريدة الوطن بسبب هذه الحركة ولما حدثت حادثة اغتياله زادت الحركة قوة وبدأ الكثيرون من الأقباط يزيدون على الكتـابة فى الصحف المصرية الشكوى الى الصحف الانجليزية .

ولذلك أخذ اسماعيل اباظة باشا فى تأليف لجنـة من التوفيـق بين المسـلمين والأقباط قبل استفحال الخطر الطائفى وكتبت جريدة الريفورم منوهة بهذا المجهود فكتب لها واصف غالى (ابن بطرس غالى) كلمـة بتاريخ ٢٣ يناير ملخصها أن الوفاق تام بين العنصرين فلا يحتاج الى لجان ومؤتمرات وأنه هو شخصيا قد تناسى الحملات التى وجهها بعض الكتاب فى الصحف للمرحوم والده لانها لا تعبر عن رأى عقـلاء الأمة وذكر فى رسالته أن الخديو قال له بعد مقتل والده « كما أن الشيء الناصع لا تشوبه شائبة فان عمل المرحوم بطرس باشا مسجل فى التاريخ لا يمسه شيء » وأن شيخ الأزهر قال له فى اليوم التالى « ان ذلك المسيحى قد عمل من الخير للمسلمين ما لم يقـدر على عمله كثير منهم » وانتهى من كلمته بقوله : هلموا اذن يا معشر المسلمين والأقباط لنضم بعضـنا الى بعض كالبنيان المرصـوص حتى لا يمـيز فى المستقبل بين مصرى ومصرى والعمل باخلاص لما فيه خير البلاد .

هذا ما قاله شفيق باشـا وهو من رجال الخديو الذين عاصروا هـذا الحدث ليمهد للحديث عن المؤتمر الذى عقـده الأقباط من ناحية فرد عليهم المسلمون من

الناحية الاخرى ، ولانقل لك الآن ما قاله مؤرخ لم يشهد هذا الحادث وانما استشفه استشفافا من مطالعاته لصحف هذه الفترة واعنى به الدكتور حسين فوزى النجار فى كتابه عن احمد لطفى السيد الذى قام بدور رئيسى فى هذه المعمعة كما سوف نرى قال : « ثم تعرضت وحده الامة القومية لخطر الانقسام أثر اغتيال بطرس باشا غالى ناظر النظار فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ فقد اعتقد كثير من الأقباط أن الجريمة لم ترتكب الا بدافع من التعصب الدينى وان بطرس غالى لم يقتل الا لأنه قبطى واتهموا الحزب الوطنى بانه هـو الذى حرض على قتله وتهيج الراى العـام عليه وكان الأقباط يعدون بطرس غالى رئيسا لهم فأوغر قتله صدورهم على اخوانهم المسلمين كما يقول جوروست فى تقريره عن عام مصرعه ، وبدأت الصحف القبطيـة وعلى رأسها صحيفتا مصر والوطن تنبش رماد النار الخابية بين المسلمين والأقباط وتنفخ فى سعيرها من جديد فتنشر صحيفة مصر سيلا من البرقيات بعنوان « قلق الأقباط العظيم » وتكتب عما يجب على الأقباط فتطالب بالالتجاء الى دولة قوية « لتكون عونا لنا فى المستقبل » وعدم منح المصريين الدستور والالتجـاء الى عمـوم الدول الأوروبية للنظر فيما آلت اليه حالتهم ثم تنقـل عن صحيفة « الاجبشيان جازيت » افتتاحيتها التى هاجمت فيها مدارس الشعب التى يديرها الحزب الوطنى واتهمتها باثارة الفتنة والتعصب الدينى وايغار صدور العامة ضد الحكم الحالى والمحتلين والنصارى ، وتحمـل « الوطن » على « اللواء » المرذول جـريدة « حـزب الخراب والشر » ثم تنقل حملاتها الى مكان آخر فتعارض فى طلب الدستور وتشير الى تخويف الأقبـاط منه وتستعدى الانجليزى على محـررى اللواء . ولا تقف حمـلة الأقباط عند هذا الحد بل يبعثون بقرياقص أفندى ميخائيل (١) الى لندن ليشرح مطالبهم للانجليز ويدعو لأغراضهم فى الصحافة الانجليزية . ويستفحل الخلاف بين الفريقين فتضيع بينهم مساعى العقلاء لكبح جماح المتطرفين ويدعـو جمـاعة من الأقباط بزعامة مطران اسيوط وعلى غير هوى البطريرك لعقد مؤتمر للاقباط فى اسيوط .. (انتهى)

٥ ـ ٨ مارس ـ انعقاد المؤتمر القبطى :

ولنرجع الآن الى شفيق باشا لنتابع تلخيصه لمؤتمر اسيوط ، وعلى الرغم من انه حدد تاريخ ٤ ابريل لانعقاد المؤتمر فان جميع المصادر الأخرى أجمعت على أن المؤتمر انعقد فى المدة من ٥ مارس الى ٨ مارس وعلى رأس هذه المصادر تقرير الدون جورست الذى يرفع لوزارة الخارجية الانجليزية فى أواخر مارس من كل عام وقـد تضمن الحديث عن هذا المؤتمر وعدد من حضروه والمواضيع التى دار الكلام فيها ، ومن هنا فلسنا نعرف تعليل هذا التاريخ الذى ذكره شفيق باشا ونعنى به ٦ ابريل ومع ذلك فقد اثبتناه وربما يكون خطأ مطبعيا . قال شفيق باشا :

---

(١) أتيح لى مقابلة الاستاذ قرياقص عنـدما سافرت الى لندن للدعاية للقضية المصرية عام ١٩٣٥ فأشهد لقد كان لى نعم المعين .

انعقاد المؤتمر ومطالبه :

وعلى الرغم من جهود عقلاء المسلمين والأقباط ، فان فكرة عقد المؤتمر القبطى لم تضعف وتولى الدعوة له مطران أسيوط وجماعة من أعيان الوجه القبلى وقد خطب فيه توفيق دوس بك ومرقص حنا أفندى وأخنوخ فانوس المحامى . وتتلخص المطالب التى انتهى اليها طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة وأن تكون قاعدة التوظف هى الكفاءة وحدها . ووضع نظام لمجالس المديريات يكفل تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الاسلامى وحده ، ووضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية » وكانت هذه بالفعل القرارات التى انتهى اليه المؤتمر وقد ذكر جورست فى تقريره أن عدد الذين حضروا المؤتمر لا يتجاوز عددهم ٥٠٠ يمثلون على الأكثر ١٢ ألف قبطى من مجموع الأقباط البالغ عددهم ٧٠٠ ألف وقد أحدث مجرد انعقاد مؤتمر قبطى رد فعل عنيف فى وسط المسلمين ، وقد ضاعف فى خطورة الحدث الايمان بأنه لعبة انجليزية يخطط لها الانجليز لتحقيق هدف يسعون لتحقيقه ، ومن هنا رأينا الصحف الوطنية كلها (العلم المؤيد الجريدة الأهالى) تقف صفا واحدا ضد هذه القراراتوتشجبها شجبا ، ومن رأى عبد الرحمن الرافعى أن الحكومة نفسها هى التى أوعزت بعقد مؤتمر اسلامى ليرد على هذا المؤتمر ، ويسوق دليلا على هذا ان رياض باشا قبل أن يرأس المؤتمر وهو ما كان يفعل ذلك الا بايعاز من الحكومة . وأما أن وزارة سعيد باشا كانت موافقة وربما محبذة لعقد المؤتمر فمسألة لا جدال فيها واما أنها كانت هى الموعزة بعقد المؤتمر فمسألة فيها نظر فقد كانت فكرة الرد على المؤتمر القبطى رغبة جماعية التقت عندها الأحزاب التى كانت قائمة وقتذاك وسنرى أن من بين نجوم هذا المؤتمر أعلامالأحزاب المصرية كلها من أمثال أحمد لطفى السيد والشيخ على يوسف والشيخ عبد العزيز شاويش وغيرهم وغيرهم ممن سترد أسماؤهم عندما نتحدث بالتفصيل عن وقائع المؤتمر ، وأما الاستدلال برئاسة رياض باشا للمؤتمر على أنه عقد بايعاز من الحكومة فهو لا يصلح أن يكون دليلا . فقد كان الرجل فى أخريات حياته وكل الذى أصبح يطمع فيه هو ان يخلف وراءه ذكرى حسنة ، وهو ما حققه بالفعل فقد نسى له المصريون كل شىء الا رئاسته لهذا المؤتمر .

٨ مارس ـ ميلاد المؤلف :

وقد شاء القدر أن يكون ميلاد المؤلف فى هذه الحقبة من تاريخ مصر التى استطارت فيها هذه الفتنة ولعله من الأسرار التى لا تعلل أن عاش المؤلف طول حياته يكره التعصب الدينى ويدعو دوما وباستمرار الى التآخى بين المسلمين والأقباط بخاصة والمسيحيين بعامة حتى لقد استهل دعوته لشباب مصر بقوله « صل لربك وأم المسجد يوم الجمعة أن كنت مسلما والكنيسة يوم الأحد ان كنت مسيحيا » فهل من علاقة بين مولده ابان انعقاد مؤتمر أسيوط ٥ ـ ٨ مارس ١٩١١ وبين مولده يوم ٧ مارس واستخراج شهادة ميلاد له بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩١١ وبين

المبادىء التى كرس لها حياته طول عمره ؟ هذا هو السر الذى لا يستطيع المؤلف أن يجيب عليه ويكتفى بتسجيل الملاحظة .

ولا شك أن احد مصادر التاريخ الكبرى هو ما يشاهده المؤرخون ويسمعونه ولذلك فسوف نورد فى ختام هذه السنة لمحة من كيفية الحيـاة فى مصر فى أحـد أحيائها ، ثم نتدرج بعد ذلك تبعا لمرور الزمن .

٢٩ ابريل ــ المؤتمر المصرى :

ونعود لما ذكرناه من أن عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط قد أحدث رد فعل عنيف وسط المسلمين فاجمعوا على ضرورة عقد مؤتمر اسلامى للرد عليه ولكن سرعان ما تغلبت الحكمة على العاطفة وتنادى عقلاء المسلمين أن الأقباط أو بالأحرى فريق منهم اذا كان قد أخطأ فان هذا لا يبرر خطأ المسلمين وهى الأكثرية الساحقة ، ومن هنا تم الاتفاق على تسمية المؤتمر بالمؤتمر المصرى . ويحدثنا الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه عن جريدة الاهرام أنها كانت صاحبة هذا الاقتراح وقد جاء فى كتابه بنصوص من جريدة الأهرام تظهر مدى رصانتها ابان هذه الأزمة وكيف انها انفكت تعمل على اطفاء الفتنة ولقد استطاعت كتب كثيرة حديثة أن تتحدث عما جرى فى المؤتمر وعن خطبائه والموضوعات التى طرقوها نقلا عن صحف هذا العصر بطبيعة الحال فوجدنا أن شفيق باشا وهو المعاصر يلخص الموضوع على الوجه الأكمل ولذا ننقل ما قال :

المؤتمر المصرى ومباحثه :

« أحدث مؤتمر الأقباط ثغرة فى الأمة وتنافرا بين العنصرين واخذت صحف الفريقين تتنابذ تنابذا خطرا لذلك رأى جماعة من عقـلاء الأمة تلافى هـذه الحالة باجتماع مؤتمر مصرى يبحث فى شئون المصريين جميعا بمـا فيهـا مطالب الأقباط باعتبارهم جزءا من وحدة الأمة ورأس هذه الحركة رياض باشا فنسبت الأمة اخطاءه السياسة والتفت قلوبها حوله وقد اجتمع المجلس لأول مرة ٢٩ ابريل بواحة عين شمس (هليوبوليس) وحضره خمسة آلاف من جميع المديريات والطبقات وافتتحه رياض باشا بخطبة جاء فيها :

« دعوناكم وفيكم صفوة الكتاب والمفكرين لتتشاوروا فى بعض المسائل العمومية الشاغلة للرأى العام فى الحالة الحاضرة ومن بين هذه المسائل مسألة ما كنا نود لها وجودا وهى ما سموه مطالب الأقباط لأن حالة البلاد لا تسمح بتقسيم المصـالح بين ابنائها تبعا لانقساماتهم الدينية وسنعرض عليكم موضـوعات أخـرى أدبيـه واقتصادية لتقرروا فيها الوسائل التى تساعد على رقى حالة التعليم ونمو الثروة العمومية وانى لا أشك فى أنكم ستحكمون فى مزاولاتكم ورغباتكم روح العدل والميل الى تأييد الروابط الوطنية بينكم وبين سائر اخواننا وأبنائنـا من أبنـاء الديانات الأخرى الا أن ذلك لايمنعنى من أن أوصيكم بأن تراعوا فى محادثاتكم وطلباتكم روح العدل والانصاف روح التسامح والانعطاف الذى عرفت به ديانتنا السمحاء ، ثم

تلاه احمد لطفى السيد بك فألقى تقرير اللجنة التحضيرية للمؤتمر (١) ، وعقدت الجلسة الثانية بعد الظهر فخطب فيها الدكتور « أباتا باشا » خطبة موضوعها ان عناصر الجنس المصرى كلها من أصل واحد وخطب بعده محمود (بك) أبو النصر فى موضوع « عطلة يوم الأحد » وبعده محمد حافظ رمضان بك (٢) فى « العوامل الاجتماعية فى الحركة القبطية » .

وفى ٣٠ ابريل عقدت الجلسة الثالثة وخطب فيها الأستاذ أحمد بك عبد اللطيف المكباتى عن « الأقلية والمجالس النيابية » ثم الشيخ عبد العزيز جاويش فى جعل الخزانة المصرية مصدرا للانفاق على جميع المرافق المصرية بالسواء « وابراهيم الهلباوى بك فى اسناد الوظائف للاكفاء » . وفى ٢ مايو انعقدت الجلستان الرابعة والخامسة وخطب محمد أبو شادى بك والشيخ على يوسف عن التعليم فى مصر وعلى الشمسى أفندى عن التعليم العملى وابراهيم رمزى بك عن الصناعة فى مصر وعبد الخالق مدكور باشا عن وسائل ترقية التجارة والصناعة وعمر لطفى بك فى التعاون المالى والنقابات الزراعية . وفى ٤ مايو عقد المؤتمر جلسته السادسة والأخيرة وكتب مذكرة عن المسألة القبطية تتلخص فى ان المؤتمر لا يرى امكان قسمة الحقوق السياسية فى مصر بين طوائفها الدينية المختلفة وأنه ليس من حقوق أبناء أية طائفة دينية أخرى أن تطلب عطلة يوم الأحد أو غيره من الأيام وأن تظل العطلة الرسمية هى يوم الجمعة فقط وان قاعدة التعيين فى وظائف الحكومة هى الكفاءة من جميع وجوهها عملية وادارية وأخلاقية معا وانه لا يرى تعديل قانون الانتخاب بما يجعل لكل طائفة دينية مصرية دائرة انتخابية خاصة وعدم الموافقة على اعطاء كل طائفة من طوائف الأمة المصرية ما تجنيه منها مجالس المديريات تنفقه كما تشاء وقد وافق على معظم الاقتراحات التى عرضت عليه خاصة بحالة الأمة الاجتماعية والاقتصادية كانشاء بنك وطنى (٣) وعقد مؤتمر للتعليم وتأسيس النقابات الزراعية .

ويضف الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن عبد القادر حمزة وجريدة الأهالى الى قائمة المتكلمين الأستاذ محمد يوسف المحامى وخطب فى موضوع « ترك بدع المآتم والمقابر » وعبد العزيز فهمى فى موضوع السلف الاجنبية . ويضيف القول بأنه « فى ختام المؤتمر تبرع السباعى المصرى بك بعشرين فدانا للمصرف الوطنى (بنك مصر) فضلا عن مائة وخمسين فدانا اخرى جعلها ضمانا لها وتبرع اثنان من أسرته بعشرة فدادين لكل منهما لنفس الغرض .

ولما كان الدكتور عبد اللطيف حمزة ينقل مباشرة عن جريدة الأهالى والمؤيد فى الفترة التى عاصرت المؤتمر ، فقد استوقفنا اغفال شفيق باشا للاشارة الى بنك مصر وقيام طلعت حرب بالدعوة له فى المؤتمر .

(١) من رأى الدكتور حسين فوزى النجار فى كتابه عن لطفى السيد أن هذا التقرير كان من عمله وانشائه .

(٢) وهو الذى سيصبح رئيسا للحزب الوطنى بعد وفاة محمد بك فريد .

(٣) لا نستطيع أن ندرك السبب فى اغفال ذكر شفيق باشا لخطاب طلعت باشا حرب وانه كان الداعى لانشاء البنك ، ولا يمكن أن نتصور أن ذلك حدث بطريق السهو .

أحمد لطفى السيد والمؤتمر :

أشرنا من قبل الى أن تقرير اللجنة التى أعدت للمؤتمر كان فى رأى البعض من وضع أحمد لطفى السيد والشىء المحقق أن لطفى السيد لعب دورا كبيرا فى المؤتمر ولذلك فنحن ننقل كلام الدكتور حسين فوزى النجار فى الموضوع فى كتابه عن لطفى السيد قال :

« ويلهب انعقاد المؤتمر القبطى أوار المعركة الصحفية بين الفريقين فتقف المؤيد والجريدة والعلم والأهالى فى الناحية الاسلامية وتقف « الوطن ومصر » فى الناحية القبطية وبجوارهما أكثر الصحف الأجنبية التى أخذت جانب الأقباط كالاجبشيان جازيت .

وينزل لطفى السيد الى الميدان مفندا مزاعم الأقباط على صفحات الجريدة فى عنف لم يؤثر عنه من قبل وان لم يتخل عن منطقه المتزن وأسلوبه العف الرصين فيأخذ على الأقباط تلك الحركة التى تفسد وحدة الأمة وينعى عليهم « المسألة القبطية » والأمة القبطية وتفريقهم الوحدة القومية ويشتد فى حملته ويتهم القائمين بالحركة بالتعصب وبأنهم يريدون التحكم فى الأكثرية ، ويسخف مطالبهم بأجازة يوم الأحد كيوم الجمعة وينكر أن يكون يوم الراحة الاسبوعية لعامل دينى ولا يعقل أن يكون هناك يومان للراحة فليس للاعتبار الدينى أى دخل فى هذا وليست صلاة الجمعة هى السبب فى اتخاذ يوم الجمعة يوما للراحة الأسبوعية ويناقش مبدأ المساواة بين المسلمين والأقباط فى الوظائف وجملة المرتبات ويثبت فى النهاية أن الأقباط فائزون بنصيب الأسد ثم يعرض الشرط الكفاءة فيقول : انه ليست من شروط الكفاءة أن يكون الموظف قبطيا .

ولم يجرف هذا التيار الطائفى النابهين من المسلمين فدعوا الى مؤتمر مصرى يضم المصريين من المسلمين والأقباط برئاسة مصطفى رياض رئيس مجلس النظار الأسبق وتولى لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وأحمد عبد اللطيف سكرتارية المؤتمر وتلا لطفى السيد تقرير اللجنة التحضيرية وخلاصته ان المؤتمر يتوخى التوفيق بين العناصر التى تتألف منها الوحدة المصرية التى تصدع بناؤها بعقد المؤتمر القبطى وأن الدين ليس هو الأساس الذى تقوم عليه الأقلية والأكثرية ولكنها لمذاهب السياسة ، فالأمة كائن سياسى يتألف من عناصر سياسية وأيما مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عددا وأثرا كان أكثر به وكان الآخر أقلية وعلى هذا يكفى فيهم الأكثرية والأقلية فى كل أمة وليس للدين فى ذلك دخل وعطف التقرير الى استناد هؤلاء الأقباط بالانجليز وبين ما تنطوى عليه من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية مما يدعو الى الاسترابة فى حسن نية القائمين بالمؤتمر القبطى والذين أرادوا أن يصلوا بمعاونة انجلترا المسيحية الى أن يكون لهم فى مصر وهم أقلية حق السيادة على الأكثرية اعتمادا على الاحتلال الانجليزى ..

والشيخ على يوسف :

ويمضى الدكتور حسين فوزى النجار فى تبيان دور لطفى السيد فى المؤتمر وسبب ذلك ، ومن ناحية أخرى يرسم لنا الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن الشيخ على يوسف ما يكاد يشبه شريطا سنمائيا لخطاب الشيخ على يوسف والنجاح العظيم الذى انتهى اليه والحق أن خطاب على يوسف كان بحثا تاريخيا فى أوله مدروسا بالأرقام والاحصاءات فى آخره معتدل اللهجة فى مجموعه .

تراجع الانجليز أزاء نجاح المؤتمر :

وكان لموقف المسلمين الحكيم أثره فى اطفاء الفتنة أو بالأحرى حصرها فى أضيق نطاق وابعادها عن أحداث أى تأثير على وحدة الأمة ، ومن هنا رأى الانجليز انه من حسن السياسة أن يتبرأوا من الحركة وكانت جريدة التيمس اللندنية أول من حمل لواء التراجع فنشرت رسالة لمكاتبها فى القاهرة راح يثنى فيها على المؤتمر ويفند دعاوى الأقباط وكان مما قاله : « لو كان بطرس غالى حيا لما ترك أبناء طائفته يثيرون هذا الهياج لخدمة مصالحهم ولكان أقنعهم أن خدمة تلك المصالح لا تكون بتوسيع مسافة الخلف بين المسلمين والأقباط ولا بالمخاطرة بالشكوى من الحكومة المصرية والمعتمد البريطانى والشعب الاسلامى فى مصر والحكومة البريطانية والرأى العام الانجليزى . ان عدد الموظفين فى الحكومة المصرية يبلغ ثمانية عشر ألف من الأقباط فى حين ان عددهم يعادل ٦ ٪ فقط بالنسبة لافراد الشعب المصرى كله . وأما مسألة التعليم الدينى فانه مسموح بتعلم المسيحى لديانته متى طلب ذلك اهله بشرط ان يبلغ عدد الطلبة خمسة عشر تلميذا (١) وأما مسألة تمثيل الأقباط فى المجالس النيابية فللأقباط أربعة نواب من مجموع العدد الكلى (١٤ نائبا) فلا وجود اذن للخوف من هذه الناحية » .

تقرير الدون جورست :

وجاء تقرير الدون جورست فاجهز نهائيا على تطلعات فريق من الأقباط كانوا يتصورون أن انجلترا المسيحية ستكون عونا لهم على التحكيم فى الأكثرية المسلمة وهكذا تلقوا أول درس فى أن الاستعمار يضع مصلحته فوق أى اعتبار فلما رأى أنه لن يكسب شيئا من هذه الفتنة وأنها على العكس قد وحدت المسلمين دون ان تجمع الأقباط جميعا الى صفها رأت أن تتراجع فجاء تقرير جورست يندد بالحركة القبطية ويتعقب مطالبها بالمناقشة والتمحيص وأورد فى تقريره العديد من الاحصائيات سواء فى وظائف الحكومة أو دور التعليم ما يثبت أن للأقباط حصة الأسد وخلص من استعراضه بتسفيه الوهم « بأن انجلترا المسيحية ستعمل على تمكين الأقلية المسيحية من حكم الأغلبية الاسلامية » .

---

(١) أدركت (أنا) هذا النظام فى مدرسة محمد على الابتدائية ، حيث كان الطلبة الاقباط يتلقون درسا فى الدين الخاص بهم .

وقد اعتدنا أن نشير الى تقرير المعتمد البريطاني فى حوادث شهر مارس وهو التاريخ المثبت فى صدر هذه التقارير ولكن المراجع العربية كلها تتحدث عن صـــدوره فى شهر مايو فلابد أن ترجمة التقرير بالعربية تم طبعه بعد ذلك فى « مطبعة المقطم » كان يستغرق شهر ابريل وصدر فى ١٠ مايو .

المؤتمر المصرى فى الميزان :

وليس للمؤرخ الا أن يعتبر المؤتمر المصرى أحد معـــالم الطريق نحو التطور والنجاح وهو ما ظهر أثره الرائع فى ثورة سنة ١٩١٩ على ما سوف يجىء ولذلك فنحن لا نذهب الى ما ذهب اليه أستاذنا عبد الرحمن الرافعى من تقليله من شأن هذا المؤتمر بل وصل الى حد التنديد به بمقولة انه لم يهاجم الاحتلال غير أنه أخذ فى اعتباره أن مجرد انعقاد المؤتمر تحت اسم « مؤتمر المصريين » كان ضربة فى الصميم للاحتلال الذى سعى من جراء هذه الفتنة الى الاستفادة الى أقصى حد من قاعدة « فرق تسد » اذ وجدها لا تفرق بل تجمع فاذا لطفى السيد الى جوار عبد العزيز شاويش الى جوار على يوسفو على رأس الكل مصطفى رياض باعتباره أبا للجميع .

والد المؤلف يلعب دورا فى هذه الأزمة :

بقى لكى تكمل صورة مصر فى هذه الحقبة ان أسجل حديثا طالما كان والدى يتفنى به أيام صباى وشبابى ، فقد كان والدى رحمة الله عليه أحد كتاب الحسابات القلائل من المسلمين فقد كانت حرفة كتابة الحسابات تكاد تكون حكرا للاقبــاط وخاصة فى الوجه القبلى ، فلما أن استطارت هذه الفتنة ، عين فى وظيفة باشكاتب حسابات فى دائرة البرنس يوسف كمال فى مدينة نجع حمادى وقد كان تقلده لهذا المنصب يعتبر حدثا وخرقا للتقاليد وحذره الكثيرون من انه قد يفقد حياته ويحدثنى والدى عن مقاطعة الموظفين له (وقد كانوا جميعا من الأقباط) ثم يحدثنى عن ضروب المكايد والسعايات والوشايات ولكنه بشىء من الحزم والشجاعة وفوق ذلك كله خلوه من روح التعصب والتحلى بسعة الصدر والتسامح استطاع أن يسيطر على الموقف وأن يسير العمل على الوجه الأكمل ولكن ظل والدى فى منصبه يشكل خرقا للتقاليد ، فلما أن انتهت الفتنة على الوجه الذى قدمنا عزل مفتش الدائرة المسلم الذى عين والدى وأرجع المفتش القبطى وبالتالى أقصى والدى عن منصب الباشكاتب وجىء بآخر قبطى ولعل هذه الحادثة وأمثالها قد كشفت للاقباط انهم عاشوا القرون فى أخاء مع المسلمين ، وان الربح كل الربح فى استمرار هذه الأخوة .

١٠ مايو بيانات من تقرير المعتمد البريطانى :

	جنيـــه
ذكرنا أن التقرير البريطانى صدر	
بلغت الايرادات الفعلية	١٦٧٦٣٠٠٠
بلغت المصروفات الفعلية	١٤٨٧٢٠٠٠

أى أن زيادة الايرادات على المصروفات	١٩٢١٠٠٠
بلغ مقدار الاحتياطى	٥٨٤٧٦١٢
مقدار الدين المصرى (١)	٩٤٦٢١٦٦٠
مقدار الصادارات	٢٨٥٩٩٠٠٠
مقدار الواردات	٣٧٢٢٧٠٠٠

فى هذه السنة انشئت مصلحة الزراعة لتقوم بالعمليات التى كانت تقوم بهـا الجمعية الزراعية ومصلحة الزراعة التى تطورت فيما بعد لتكون وزارة الزراعة .

عدد تلامذة الكتاتيب	٢١١٤٨٥	تلميذا
عدد التلاميذ الذين تقدموا لامتحان الابتدائية	٩٢٩٥	تلميذا

التعليم الثانوى :

عدد من تقدم لامتحان الكفاءة	١٦٨٤
عدد من تقدم للبكالوريا	١٢٢

تعليم البنات :

أن من يطالع ثورة الرأى العام المصرى على قاسم أمين عندما دعا الى تعليم المرأة يتولاه العجب عندما يطالع فى تقرير المعتمد البريطانى مـدى تهافت المصريين على تعليم البنات فلم تعد مدارس الحكومة تتسـع للراغبات فى التعليم بحيث أصبحت هناك مشكلة معلمات لفتح مدارس جديدة تتسع لهذا التيار الجارف .

بعث التراث :

يحدثنا التقرير عن حركة الأحياء للتراث العربى التى حمل لواءها أحمد زكى باشا وشرعت دار الكتب فى تنفيذه ابتداء بكتاب « الأصنام » .

عدد الجنايات :

بلغ عدد الجنايات	٣٨٧٤	جناية

القضاء الوطنى :

وقد تضمن التقرير أعظم شهادة للقضاء الوطنى فسجل أن الكثيرين من الأجانب أصبحوا يتفادون الالتجاء الى المحاكم المختلطة حيث القضاة الأجانب ويفضلون الالتجاء الى المحاكم الوطنية بعد أن اطمأنوا لعدالتها وسرعة الفصل فى القضايا .

(١) الذى احتل الانجليز مصر لضمان سداده.

١٥ مايو :

سافر الخديو قاصدا استنبول وعين محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار قائم مقام نيابة عنه أثناء غيابه .

٤ يونية عقد مجلس الأزهر الأعلى :

كان اصلاح الأزهر شغل مصر الشاغل وفى هذه الفترة صدر القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ بعد أن دارت حوله مناقشات حامية فى مجلس شورى القوانين وفى هذا التاريخ (٤ يونية) اجتمع أول مجلس أعلى للأزهر طبقا للنظام الجديد برئاسة الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع وعضوية الشيخ بكرى عاشور الصدفى المفتى والشيخ سليمان العبد شيخ السادة الشافعية وأحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية وأحمد ذهنى باشا ناظر مدرسة المهندسخانة ، كما كان أحمدشفيق باشا عضوا فيه باعتباره مديرا لديوان الأوقاف وقد حدثنا هو نفسه كيف افتتح بهذه الصفة مسجدا جديدا فى (مصر الجديدة) ونرى ايراد الخبر لأنه يشير الى انشاء ضاحية هليوبوليس .

٤ يونيــة ــ مسجد مصر الجديدة :

فى ٤ يونيو دعيت لحضور الاحتفال بافتتاح مصر الجديدة الذى أسسته شركة واحة عين شمس برياسة البرنس حسين كامل باشا وكان المدعوون أحمد حشمت باشا ناظر المعارف واسماعيل سرى باشا ناظر الأشغال وقاضى مصر وشيخ الجامع الأزهر والمفتى ومستشار الداخلية وابراهيم فؤاد باشا ويعقوب ارتين باشا وابتدأت الحفلة بتلاوة آى القرآن ثم وقف بوغوص نوبار باشا فألقى كلمة الشركة بالفرنسية منوها بمعاونة الجناب الخديوى للشركة فى مشروعها شاكرا لسموه انابة البرنس حسين كامل فى حفلة الافتتاح ثم عرض لأعمال الشركة فى بناء مســاكن للعمال وانشاء ترام سريع [١] وتدرج الى انشاء هذا المسجد للمسلمين وهم غالبية سكان مصر الجديدة .

٨ يونيو ــ عودة الشيخ سلامة الى المسرح :

تركنا الشيخ سلامة حجازى بعد أن أصيب بالشلل قعيد بيته فى بركة الفيل ولكن بمجرد أن تحسنت صحة الرجل بحيث أصبح قادرا على الحركة ، ولما كان الله سبحانه وتعالى قد حفظ عليه صوته فقد عاد لتأليف فرقته (جوقته بلغة ذلك الزمان) واقتصر على الغناء بين (الفصول) فى قصائد صاغها له خليل مطران .

---

(١) من اللطيف أننى أفهم الآن فقط كلمات كنت أرددها فى صباى كبقية أفراد الشعب دون أن أفهم لها معنى ، من ذلك أننا كنا نطلق على ترام مصر الجديدة « الوزيرى » والآن فقط أدرك أن ذلك كان نسبة الى الكلمة الفرنسية «وازير» بمعنى الترام.

وفى جريدة الأهرام الصادرة صباح الخميس ٨ يونيو يطالعنا الخبر التالى :

« يبرح اليوم جوق الشيخ سلامة حجازى الى سوريا لتبديل الهواء والتمثيل فى عواصمها الشهيرة رافقتهم السلامة فى الحل والترحال » . وقد بدا يظهر « أولاد عكاشة » فى هذه المرحلة باعتبارهم العمود الفقرى لفرقته ، وسنرى فيما بعد أنهم سيكونون هم الذين يواصلون رسالته .

١٧ يونيو – وفاة مصطفى رياض باشا :

شاء القدر أن يبقى رياض حيا حتى يرأس المؤتمر المصرى ثم يموت بعد ذلك ففى مساء ١٧ يونيو بمدينة الاسكندرية ونقل جثمانه الى القاهرة يوم ١٩ يونيو حيث احتفل بتشييع جنازته الى مدفنه بمقابر الامام الشافعى ، وكان الاحتفال رسميا وشعبيا يقول شفيق باشا : « وظلت الصحف تنشر الفصول فى مآثر الفقيد وتاريخه والقصائد فى رثائه .

ومن ناحيتنا نسجل له أنه وقف وراء الشيخ محمد عبده يدعمه فى نقده لسير الأحوال فى دوائر الحكومة عندما عينه محررا لجريدة الوقائع . ولما احتج الوزراء على الشيخ محمد عبده لحدوده ، وقف رياض باشا الى جانبه (٢) .

١٢ يوليو – ١٤ يوليو : وفاة جورست وتعيين كتشنر :

كانت صحة الدون جورست قد ساءت فغادر مصر قاصدا لندن للعلاج وفى يوم ١٢ يوليو وردت الأخبار البرقية منبئة بوفاته . وفى يوم ١٤ يوليو جاءت البرقيات بتعيين اللورد كتشنر معتمدا لبريطانيا فى مصر خلفا للدون جورست فكان تعيينه ايذانا برغبة انجلترا فى تغيير أسلوب جورست الى نقيضه ولندع شفيق باشا يصور لنا وقع هذا الخبر على القصر ورجاله ، قال :

« وقد كان تعيين كتشنر مثارا للقلق فى دوائر السراى لأنه رجل عسكرى معروف بالشدة من جهة وبعدائه للخديو من ناحية أخرى منذ حادثة الحدود (١) ، فارتقينا أن يكون تعيينه بدء سياسة جديدة غير سياسة الوفاق التى سار عليها الدون جورست . وتوقعنا أن تعود المصادمات بين المعتمد البريطانى والخديو » .

ولما كان كتشنر لم يصل الى مصر الا فى سبتمبر فلنترك باقى تعليق شفيق باشا الى هذا التاريخ .

تعليق جريدة الاهرام :

وقد نشرت جريدة الأهرام مقالا قيما لا تنقصه الصراحة نقتبس منه ما يلى :

(١) راجع الجزء الثالث .
(٢) راجع الجزء الثالث .

« قالوا لنا اللورد كتشنر قادم فارتعدت أقلام واصطكت ركب وارتجفت أيد فهذا يذكر سيفه البتار وذلك يذكر البطل المغوار ، الى أن يقول ساحرا . قوى القلب عزيز النفس ، بل هبه كتشنر العسكرى الفتاك فقد تقدمه فينا سيمور يدك حصون الاسكندرية ومنازلها دكا ، وولزلى يهدم معاقل التل الكبير هدما ويمحو سطر الجيش العرابى محوا ، ولكنهما بما أتياه من بطش وفتك لم يتجاوزوا بالجيش الجرار والأسطول المغطى البحار والمدافع المرعدة الجبال قصد الأمة بطرف من أطرافها وظفر من اظافرها فليقل من شاء فى كتشنر ما شاء وليجعلوا لهذه الكاف والتاء والشين والراء من ضخامة النبرات ورجة الأصوات ما شاءوا فانى لا أزيد على قولى منذ الآن بأقصر عبارة وأخف الأصوات ، ان كتشنر عين قنصلا واذا ما حل فى ارضنا فى آخر سبتمبر لا أزيد على قولى وصل القنصل وهو ككل القناصل الانجليز فى مصر » .

جريدة الأهرام تصف سياسة جورست :

وكانت جريدة الأهرام قد كتبت قبل ذلك مقالا آخر بديعا تحت عنوان « خلف جورست » قالت فيه :

« أما الشعب المصرى فهو غير الحاكمين فرأيه فى الاثنين واحد (أى كرومر وجورست) فسخطه على سياسة جورست أشد منه على سياسة كرومر لأن كرومر عطل قانون المطبوعات وجورست أعاده وكرومر ترك الشعب وشأنه يفعل ما يريد وجورست فرق بين الطوائف وأثار كوامن الأحقاد وكرومر حصر همه فى استمالة الشعب وجورست حصر همه فى استمالة الحاكمين وكرومر كان يرى من مفاخره حفر مصرف جديد وترعة نافعة وجورست كان يرى من مفاخره أن يكم أفواه الخطباء والكتاب وأن يقتل الحركة الوطنية فى أفحوصها وكلاهما كان يعمل لتأييد الاحتلال والاستزادة من السلطة الا أن عصر كرومر كان عصر عمل واستبداد وعصر جورست كان عصر تعطيل مقرون بالدسائس »

١٧ يوليو ــ الافراج عن محمد فريد :

أفرج عن محمد فريد بك من السجن بعد قضائه الشهور الستة التى حكم عليه بها وقد أقيم له احتفال ضخم بمناسبة الافراج عنه ، حيث لم يتردد فى أن يعلن أنه خرج من سجن ، الى سجن وهو معنى ما فتىء يكرره فى مقالاته مما كشف عن أن السجن لم يزده الا صلابة ، وحيث روع الحكام فى مصر بتعيين كتشنر معتمدا بريطانيا لم يرده ذلك الا اصرارا على التحدى فى المطالبة بالجلاء والتنديد بالاحتلال وكل من يتعاون معه وقد تجلى ذلك منه فى الدرجة الأولى .

١٤ سبتمبر ــ ذكرى احتلال الانجليز لمصر :

ففى هذا اليوم أقام الحزب الوطنى فى دار جريدة العلم اجتماعا ضخما زاد عدد حاضريه على أربعة آلاف احتشدوا لسماع محمد فريد بعد خروجه من السجن

وبعد أن لم يبق سوى أيام قلائل على مقدم كتشنر الذى كثر التخويف به ولكن محمد فريد ارتفع الى ذروة المسئولية فقال فى خطابه كل ما اعتاد أن يقوله فى مثل هذا الظرف . وعرض لموضوع كتشنر وأن طلاب المنافع على حساب أوطانهم هم وحدهم الذين يفزعون ، أما الأمة الصابرة المجاهدة فالأمر لا يزيد عندها على ما قاله كرومر من أنه انجليزى يروح وآخر يجىء ، أما السياسة فواحدة لا تتغير وفى نهاية الاجتماع أرسلت برقيات الاحتجاج المعتادة ، ولكن ارسالها فى ظل الظروف الجديدة كان يحمل فى طياته أنه لا بسجن محمد فريد ولا التخويف بكتشنر قد نال من الوطنيين .

٢٧ سبتمبر ـ وصول كتشنر :

وفى ٢٧ سبتمبر وصل كتشنر الى مدينة الاسكندرية فى مظاهرة عسكرية اذ جاء على ظهر بارجة حربية ولندع شفيق باشا فى مذكراته يحدثنا عن هذه اللحظات :

اتجاه السياسة الجديدة :

« لم يكد اللورد يصل الى مصر يوم ٢٧ سبتمبر حتى كتبت جريدة « المورننج بوست » تقول : « ان اللورد كتشنر قد عين فى هذا المنصب لأنه من أعظم الذين وضعوا أساس مركزنا فى مصر واشتغل فى عمل عظماء رجال الادارة الذين كانوا قبله فيها . ولكن كانت النتيجة السقوط فى هاوية الارتباك والتشويش بسبب سياسة السير جورست الذى كان قد أرسل لاتباع سياسة اعترف هو فى تقريره الأخير بخطئها (١) . فمهمة اللورد كتشنر أن يقلل هذا الارتباك ويعيد النظام وأن يعود للارهاب مع نشر التمدن وايجاد حكومة جيدة » .

وكتبت جريدة الديلى جرافيك عن صعوبة مهمة اللورد كتشنر تقول :

« ان هذا الشعب ساخط على الدوام وجاحد ومرتكن على ما يعتبره حقا له ، وهو شعب حرر من رق العبودية ولكنه يعادى المصالح الانجليزية ، والذى يجب أن يعرفه المصريون انه مهما كانت الظروف والأحوال لا يمكن الرضا عن أمانيهم بالنسبة لمصالحنا العديدة التى ألجأتنا اليها حالة وجودنا فى مصر ثلاثين سنة وربما يمكن التفاهم حينما يدرك المصريون الحدود الواجبة فى تدبير آمالهم السياسية وان اللورد كتشنر حائز لكل الصفات اللازمة لهذا الحل » .

وكتبت صحف انجليزية أخرى مقالات لا تخرج عن هذا المعنى .

ويمضى شفيق باشا فيقول :

« وقد أخذت سياسة كتشنر تتضح بعد قدومه مباشرة فى اهتمامه بأبسط

---

(١) لا أثر لهذا الاعتراف فى التقرير المشار اليه (المؤلف) .

المسائل وتدخله فى كل كبيرة وصغيرة وقيامه برحلات للاقاليم والاتصـــال بالفلاحين مباشرة مما سنأتى على ذكره فيما بعد » .

والدى لم يقله شفيق باشا ان الخديو عاد من رحلته (١) فى منتصف أغسطس على غير العادة ليستقبل كتشنر بمجرد وصوله وهو ما حدث بالفعل حيث قابله غداة وصوله وخطب كتشنر بين يديه ما صرح فيه بانه ينتوى السهر على مصالح الشعب المصرى بمساعدة الخديو .

٢٩ سبتمبر ــ تحرش ايطاليا بتركيا لاحتلال طرابلس :

على أن كتشنر لم يكد يطأ أرض مصر حتى كانت الأحداث تأخذ شـــكلا غير متوقع لم يخطط له كتشنر ، أو ربما كان يعرف بقرب وقوعه ، والمهم انه واجه ظروفا من نوع جديد سببت لهنوعا من الارتباك أما هذا الحادث فهو عدوان ايطاليا على ما كان يسمى ولاية طرابلس (ليبيا حاليا) وما أحدثه ذلك من غليان فى مصر لم يكن موجها ضد انجلترا مباشرة ولعل ذلك سبب الارتباك الذى أصاب خطط كتشنر فى أول مقدمه .

خطاب ايطـــالى :

فى التاسع والعشرين منسبتمبر وبعد أن كانتايطاليا قد استكملت استعدادها للانقضاض على طرابلس حتى لا تكون دون فرنسا التى احتلت الجزائر وتونس وكانت فى سبيلها لاحتـــلال مراكش واذ كانت انجلترا فى مصر ، فلم يكن باقيـــا الا طرابلس رأت ايطاليا أن تكون من حصتها ، فراحت تستعد وتتجهز حتى اذا كمل كل شىء بعثت بانذارها الغريب الى تركيا والذى تدعى فيه أن ما يجرى فى طرابلس وبنى غازى يهدد مصالحها بالخطر وختمت مذكرتها أو بيانها أو سمها ما شئت بالانذار العجيب التالى :

« وقد صدرت الأوامر للسفير الايطالى فى الآستانة أن يلتمس جوابا حازما فى هذه المسألة من الحكومة العثمانية فى ٢٤ ساعة منذ تسليمه هذا البلاغ حتى اذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الايطالية مضطرة أن تنفذ المشروعات المدبرة لضمان الاحتلال . ونرجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى ٢٤ ســـاعة لنـــا عن يد السفير العثمانى فى رومة .

ماذا كانت ايطاليا تطلب ؟

بقى أن نتساءل عن هذا الذى كانت تطلبه ايطاليـــا وتريد قبوله فى خلال ٢٤ ساعة . انه لم يكن أقل من : « ترى الحكومة الايطالية حرصا على شرفها ومصالحها

---

(١) كان من وقائع هـــذه الرحلة زيارته لملكايطاليا حيث نظم له هذه الرحلة وصاحبه فيهـــا البرنس أحمد فؤاد .

أن تحتل طرابلس وبنى غازى احتلالا عسكريا ، والحكومة الملكية الايطالية تنتظر من الحكومة السلطانية العثمانية أن تصدر أوامرها حتى لا تصادف ايطاليا فى الاحتلال أية معارضة والا تجد صعوبة فى تنفيذ ما تريد انفاذه .. »

الرد الذليـــل :

وبمقدار ما يتولانا العجب من هذا الانذار حيث يطلب القاتل من ضحيته أن يمكنه من قتله فى هدوء وفى غير ضجة ، فان أعجب منه أن تعتبر الحكومة العثمانية أن هذا كلام يرد عليه ،نراها تبعث برد قبل الموعد المقرر وتسترحم وتستجـدى وتتوسل وتختم ردها بالعبارة التالية :

« فاذا تبين ذلك لا يبقى الا عدم وجود الضمانة التى تضمن للحكومة الطليانية توسع مصالحها الاقتصادية فى طرابلس وبنى غازى فاذا كانت الحـكومة الملكيـة (الايطاليا) لا تعمد الى عمل خطير كالاحتلال العسكرى فان الباب العالى عاقد النية على ازالة هذا الخلاف والحكومة السلطانية تطلب من الحكومة الملكية أن تبين لها نوع الضمانات المطلوبة .. »

ونحسب أن ذلك يكشف عن مدى الهوان الذى كانت تركيا قد تردت فيه .

استغاثة السلطان بملوك أوروبا :

يقول شفيق باشا فى مذكراته : وقد استغاث السلطان بملوك أوربا فرد ملك الانجليز معربا عن أسفه لعدم استطاعته التدخل ، وأجاب امبراطور المـانيا بأنه أصدر تعليمات لسفيره ليتوسط فى الأمر ، ولكن انفراد المانيا جعل وساطتها غير مجـدية .

غضبة المصريين :

وليس من مهمتنا أن نتحدث عن ردفعل هذا العدوان فى تركيا ، ولكنه فى مصر كان عنيفا جدا ، بحيث أن البـلاد تحولت من الناحية الشـعبية الى غضـبة راح الشعب يعبر عنها بشتى الطرق ، مما سنعرض له فى حينه ، والمهم ان قضية دفـع العدوان الايطالى عن طرابلس أصبح شغل مصر الشاغل حتى نهاية العام ومطلع العام الجديد .

وكان أول ما فعلته مصر أن أسس الشيخ على يوسف جمعية الهلال الأحمر لتقوم بكل عمليات « جمعيات الصليب الأحمر » وسنعود للحـديث عنها عندما نباشر نشاطها على أوسع نطاق . كما تشكلت منذ اللحظة الأولى لجنـة برئاسة البرنس عمر طوسون لجمع التبرعات وسرعان ما تشكلت لها لجان فرعية فى سائر أنحاء البلاد وانهالت التبرعات بعشرات الألوف من الجنيهات الذهبية . وسنرى فيما بعد كيف شرعت مصر ترسل فلذات أكبادها ليشتركوا اشتراكا مباشرا فى الحرب .

سفر محمدفريد الى أوربا :

كان محمد فريد معتزما الاشتراك فى مؤتمر السلام الذى كان مقررا عقده فى باريس فى أوائل أكتوبر فغادر مصر على ما يقول عبـد الرحمن الرافعى فى أواخر سبتمبر وقد أورد فى كتابه صورة يرى فيها واقفا الى جوار محمدفريد وكتب تحتها « أخذت فى أواخر سبتمبر بباريس » وقد أوردنا هذه الواقعة لتظهر مدى الصلة الوثيقة التى ربطت بين عبد الرحمن الرافعى ومحمد فريد وأشهد لقد ظل عبد الرحمن الرافعى أمينا لأستاذه حتى آخر نسمة فى حياته أما الملاحظة الثانية فهى أن الحرب الطرابلسية بين تركيا وايطاليا فاجأت محمد فريد فلم يتخذ لنفسه منذ اللحظة الأولى موقفا منحازا ، فقد حاول فى بادىء الأمـر أن يربطها بعدوان الانجليز على مصر كما يرى ذلك فى أول خطاب القاه فى لندن ولكنه لم يسعه بعد ذلك الا أن يساير التيار فيجعل محور خطبه التنديد بايطاليا وأن ظل شديد الحرص على اعتبار الاستعما وحدة لا تتجزأ سواء كان انجليزيا أو ايطاليا .

٢٢ نوفمبر – مرور ملك الانجليز فى قناة السويس :

اذا كانت المهانة التى وصلت اليها تركيا قد تجلت فى ردها الذى أشرنا اليه فقد تجلت بالأكثر عندما انتهز السلطان رشاد فرصة مرور ملك انجلترا فى قنـاة السويس لكى يبعث بأكبر انجاله « ضياء الدين أفندى » الى مصر كى يحييه ، وغنى عن البيان أنه فعل ذلك كنوع من الزلفى لملك الانجليز ، كيفما كان الأمر فقد شغلت الحكومة المصرية وعلى رأسها الخديوى ابتداء من ١٩ نوفمبر بابن السلطان ثم اشتغلوا جميعا وعلى رأسهم ابن السلطان بملك الانجليز لدى وصوله لبور سعيد يوم ٢٠ الى أن بارحها يوم ٢٢ وظل ابن السلطان محل حفاوة وتكريم فوق العادة الى ان غادر مصر يوم ٢٦ نوفمبر الأمر الذى جعل السلطان يعبر عن شكره العميق لـما لاقاه ابنه فى مصر من حفاوة وتكريم .

١١ – ١٤ ديسمبر تدفق بعثات الهلال الأحمر :

قدمنا أن الشيخ على يوسف منذ قامت العمليات الحربية فى طرابلس أسرع بأنشاء جمعية الهلال الأحمر وبادرت على الفور بأداء خدماتها بارسـال الأطباء والمرضيين والأدوية فسافرت أولى البعثات فى ٧ نوفمبر ثم توالى ارسال البعثات بعـد ذلك ولم يسـتطع الحـزب الوطنى الا أن يكون على راس التيار فيحـدثنا عبد الرحمن الرافعى عن بعثة مؤلفة من أطباء كانوا أعضاء فى الحزب الوطنى من أمثال الدكتور نصر فريد وسيد شكرى وحافظ عفيفى ومحمد كمال سافروا من محطة مصر وسط توديع جماهير حار يوم ١١ ديسمبر ولكن البعثات ظلت تتوالى وكانت تضم فيمن تضم محجوب ثابت ، وعلى ابراهيم (باشا فيما بعد) .

كتشنر وسياسته مع المصريين :

بقى أن ننقل ما كتبه شفيق باشا عن موقف كتشنر من الأزمة التى وجد نفسه فيها بمجرد وصوله الى مصر حيث شاهد انفجارا عاطفيا من المصريين ورغبتهم فى

دفع العدوان الايطالي مع رغبته هو أو بالأحرى رغبة انجلترا في صرفهم عن ذلك بالحسنى ليحافظوا على الوجه المزيف الذى اسموه بالحياد والذى التزمته السلطات الرسمية فى مصر قال شفيق باشا تحت العنوان الذى اثبتناه آنفا :

« فى اوائل هذه الحرب ذهب وفد من كبار المسلمين الى اللورد كتشنر وطلبوا منه ارسال بعض (أورط) فرق من الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، فأجابهم قائلا : هذه فكرة صائبة ولكن لما كان من الصعب أن نجد جنودا آخرين ليحلوا محل المطلوب سفرهم فانى سأضطر فى هذه الحالة ان اطلب من حكومتى أن ترسل لمصر جنودا من الانجليز فانصرف الوفد دون الحاح ، وفى ذات يوم ذهب أيضا جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع فى الجيش التركى ، فقال لهم : لا أرى مانعا من اجابة هذا الطلب ولكننى اقول لكم مقدما اذا سافرتم فمن الضرورى ملأ مراكزكم من الجيش بصغار الضباط فعند عودتكم تجدون أنفسكم فى كشف الاستيداع ، وجاء أيضا وفد من مشايخ العربان واستأذنوه فى جمع المتطوعين لكى ينضموا للجيش التركى فقال لهم : انه يهنئهم على الشجاعة والبسالة فى تقديم هذا الطلب ولكن من الحرام أن تفقد مصر رجالا مثلهم ذوى شجاعة وبسالة فان حكومة مصر ستضطر أن تطبق عليهم حين عودتهم قانون القرعة العسكرية المعافين منه حتى الآن ، وبعد المشاورة انصرفوا من عنده ولم يرجعوا اليه مرة ثانية وبذلك تخلص اللورد من اجابة هذه الطلبات تخلصا من مسئولية حياد مصر » .

١٩ ـ ديسمبر تعطيل جريدة العلم بسبب حرب طرابلس :

وليس ادل على أن مشاعر مصر كلها كانت ملتهبة بسبب الحرب الدائرة فى طرابلس مما كان يهدد بأشد المخاطر من أن الحكومة المصرية اقدمت على تعطيل جريدة « العلم » لسان الحزب الوطنى لمدة ثلاثة أشهر بحجة « سلوكها مسلك الطعن فى الحكومة بما يحمل الناس على كراهيتها اذ نسبت اليها فى عدد (١٨ ديسمبر) النكاية بتركيا فى الحرب الطرابلسية وانتقدت الاحتلال واتهمته بأنه (أوعز للحكومة الامتناع عن ايصال التلغرافات التى كانت القوة التركية المحاربة فى طرابلس ترسلها الى الآستانة عن طريق مصر . »

الشعب بدلا من العلم :

ولم يضيع الحزب الوطنى يوما واحدا ومن الواضح أنه كان مستعدا لمثل هذه اذ أصدر على الفور جريدة الشعب (١) فظهرت يوم ٢٠ ديسمبر

انتهاء العام :

وانتهى العام وحرب طرابلس هى الشغل للمصريين ، فأصبحت هى القضية الأولى ومن خلالها كان المصريون يعبرون عن حيويتهم عن أطماحهم ويمارسون دورهم القيادى فى المنطقة رغم كل الظروف .

---

(١) انظر الى مدى كان سلطان القانون قويا فى هذه الايام فقد شهدنا فيما بعد الحكومات المصرية تعتبر مثل هذا التصرف تحايلا فتعطل الجريدة الجديدة ، ولكن ذلك لم يحدث .

عام ١٩١٢

الاشاعات حول البرنس أحمد فؤاد :

منذ أن لعبت الحرب الاستعمارية فى طرابلس وقد شاعت الشائعات حول البرنس احمد فؤاد وانه ضالع فيها واتفق مع ملك ايطاليا أن يوليه امارة طرابلس بعد احتلالها ويستدلون على ذلك بأنه عمل على التقريب بين الخديو وملك ايطاليا فتمت الزيارة فى الصيف الماضى (حيث كانت ايطاليا قد أتمت استعداداتها لغزو طرابلس) فلا بد أن تكون هذه المقابلة أحد أجزاء الخطة .

١٠ يناير — البرنس أحمد فؤاد يكذب :

وصلت هذه الاشاعة الى حد ان رددتها بعض الصحف الفرنسية فنشر البرنس أحمد فؤاد تكذيبا لها فى ١٠ يناير سنة ١٩١٢ وعندنا ان هذا التكذيب يمكن أن ينصب على تعينه « أميرا » ولكن تصرفات الخديو اللاحقة تكشف عن تقارب بين الخديو وايطاليا ، أما بالنسبة لاحمد فؤاد فسوف نرى أن تاريخ حياته كله سيظل مرتبطا بالتعاون مع ايطاليا .

١٤ يناير — السيد أحمد الشريف السنوسى :

اذا كانت طرابلس ولاية عثمانية فلم يكن ذلك الا من الناحية الرسمية فقط وكان سلطانها لا يمارس الا فى المدن الساحلية أما فى الداخل فقد كانت الزعامة الروحية والمادية معا هى للسنوسية وكبيرهم السيد أحمد الشريف السنوسى (الكبير) وفى أوائل يناير (١٤ يناير) وصلت الأنباء بأنه أعلن الجهاد واستنفر الأعراب وسكان الزوايا لحرب الايطاليين .

المصريون فى الميدان : عزيز المصرى وعزام وصالح حرب :

أشرنا من قبل الى البعثات الطبية التى أرسلتها جمعية الهلال الأحمر ولكن ذلك كان فى الادوار الأولى حيث كان يظن ان الجيش التركى سيدفع العدوان ولكن بعد ان هزم الجيش ، وشرع السنوسى فى القتال بدأ العنصر المصرى يتصدر المجاهدين فلمعت أسماء عزيز المصرى وعبد الرحمن عزام وصالح حرب ، فأما الأول فكان ضابطا فى الجيش التركى النظامى ، وأما الثانى (عبد الرحمن عزام)

فقد تطوع فى جيش السنوسى . وأما الثالث (صالح حرب) فقد كان ضـــابطا من ضباط الحدود بين مصر وليبيـــا وحيث كانت الأوامر المعطـــاة له ان يمنع امداد السنوسيين بالأسلحة والذخائر والمتطوعين فقد جند نفسه لعمل العكس تماما ولـمـا اكتشف امره انحاز نهائيا للسنوسى وغادر وظيفته وهاجر اليه .

ومن عجيب الصدف واحاسنها أننى تعرفت بهؤلاء الأبطال الثلاثة وارتبطنـا برباط الصداقة حتى اللحظة الأخيرة لاثنين منهم (عزيز المصرى ـ صالح حرب) . أما الثالث (عبد الرحمن عزام) فليطل الله فى حياته (١) فصداقتى به لا تزال قائمة وقد سمعت من أفواههم دور كل منهم بالتفصيل فى الميدان الذى كان يعمل فيه .

موقف الخديو من حرب طرابلس :

وقد كتب لنا أحمد شفيق باشا وهو أحد رجالات الخديو المخلصين تحت عنوان « تذبذب الخديو » ما يلى :

« وقد سهل الخديو فى أول الأمر ارســــال الاعانات والبعثات ومنها ما كان يحمل مدافع مفككة وسلاحا وذخيرة ومئونة بعد أن أرسل رشدى باشا الى كتشنر للتفاهم معه قبل منح التسهيلات اللازمة بدون مسئولية عليه أو على حكومته ، ولما توالت انتصارات الايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب فتغير موقف المساعدات فامتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ما سمح بارسالها أولا ، وانتهى الأمر بأن يقال ان البعوث الأخيرة ضلت الطريق وقـد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى » .

١٩ يناير ـ حادث بين الخديو ومحمد فريد :

فى هذا التاريخ وقعت حادثة بين الخديو وبين محمد فريد واقعة اعتبرها السبب الرئيسى لما سوف يحل بمحمد فريد مما سوف نذكره فى حينه ، ولسنا ندرك الحكمة فى اغفال ذكر عبد الرحمن الرافعى لهذه الواقعة التى حتى ولو لم تكن صحيحة فهى لا تشين محمد فريد وانما على العكس تظهر قوة شكيمته واعتزازه بنفسه ، فكيف والحادثة كما رواها شفيق باشا لا يمكن الا أن تكون صحيحة والقول بغير ذلك يهدم مذكرات شفيق باشا جملة وتفصيلا مع أن دراستنا لهذه الحقبة جعلتنا نشهد له بالأمانة والدقة فى كل ما يروى واليك تفاصيل هذه الواقعة كما رواها شفيق باشا :

« وفى ١٩ يناير من هذا العام أقيمت حفلة لرعاية الأطفال بدار الأوبرا تحت رعاية سمو الخديو حضرها مندوب من قبل سموه وقد حدث عند دخول المندوب وعزف الموسيقى بالنشيد الخديو ان وقف جميع الحاضرين حسب المعتاد ما عدا محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى مما استرعى أنظار الحاضرين جميعـــا ، ولما كانت هذه هى الحادثة الاولى من نوعها فتناقلتها الألسن والصحف وكانت لها ضجة فى داخل السراى وقد خاطب حسين رشدى باشا فريد بك فى هذا الشأن فأجابه بأن

(١) مات بعد كتابة هذه الفقرة

ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف . وكانت هذه الظاهرة بمثابة اعلان حرب على الخديو والخروج على الاحترام اللائق به » .

هذه هى رواية شفيق باشا وهى تحمل فى سياقها ان جوهرها صحيح على الأقل ولذلك نكرر عدم فهمنا سبب اغفال عبد الرحمن الرافعى لهـا الذى مضى فى سرد حوادث العام على النهج الذى اعتاده بذكر الاحتفال بذكرى وفاة مصطفى كامل .

٩ ــ فبراير ــ ذكرى مصطفى كامل الرابعة :

تحرك الموكب الذى اعتاد الحزب الوطنى ان ينظمه بهذه المناسبة بنفس النظام الذى اتبع فى الأعوام السابقة .

الشيخ رشيد رضا ينشىء معهد الوعظ والارشاد :

وفى هذه الفترة أقدم الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار التى كانت أحد محاور النهضة الاسلامية ، على انشاء « دار الدعوة والارشاد » وهى كلية اسلامية « تدرس فيها جميع العلوم والفنون التى تدرس فى الكليات مع التربيـة الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية وتنشأ اقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسـم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام » .

وفى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ افتتحت المدرسة رسميا فى جزيرة الروضة .

ويعتبر انشاء هذا المعهد بعد تأسيس مجلة المنار استقطابا للاصلاح الدينى الذى حمل لواءه الأفغانى ثم محمد عبده ثم كان رشيد رضا تلميذ محمـد عبده والأمين على تراثه العلمى فليس تفسير المنار الشهير الا دروس الشيخ محمد عبـده فى التفسير ، وسنرى بعد قليل ان محمد بك فريد سيرى فى انشاء هذا المعهد جزءا من مؤامرة ضافية الذيول .

٢٢ مارس ــ مؤتمر الحزب الوطنى السنوى :

تأخر عقد الجمعية العمومية للحزب الوطنى عن موعدها الذى اعتادت ان تجتمع فيه كل سنة وقد عزا محمد فريد فى مستهل خطابه الى تعطل جريدة العلم فقـد آثر الحزب ان ينتظر حتى تعاود الصدور ، فلما أن عادت دعيت الجمعية العمومية واليك عناصر الخطبة الرئيسية كما جاءت فى كتاب عبد الرحمن الرافعى :

ــ ثبات الحركة الوطنية أمام الاضطهاد .

ــ مشروع الجامعة المصرية

ــ الحركة التعاونية

ــ نقابات العمـال

— الفلاح والعامل

— مدارس الشعب

— الحث على الجهاد

— سلطة المعتمد البريطانى

— المطالبة بالدستور

وقد استوقفنا أنه بالرغم من كون الحرب الطرابلسيه كانت هى شغل مصر الشاغل كما قدمنا وعلى الرغم من مساهمة الوطنيين فى هذه الحرب بشتى الطرق فان محمد فريد لم يشر لها بكلمة واحدة وربما كان ذلك من اغفال عبد الرحمن الرافعى .

اتخاذ محمد فريد قرار الهجرة من البلاد :

واذا كان شفيق باشا قد ربط بين حادث الأوبرا وبين محاكمة محمد فريد الثانية ، فقد ربط محمد فريد محاكمته بخطابه فى الجمعة السنوية ، وسنرى كيف اتخذ القرار (المصرى) الحاسم وأعنى به مغادرة مصر نهائيا ليعمل فى الخارج ، ولأنقل لك بعض عبارات محمد فريد كما دونها فى مذكراته قال تحت عنوان :

« ترك مصر »

القيت خطابى السنوى فى جمعية الحزب الوطنى العمومية يوم الجمعة ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ ونشرت صورته حرفيا فى اللواء والعلم وكانت خفيفة اللهجة بالنسبة للخطب السابقة وفى يوم الأحد ٢٤ منه لما عدت الى منزلى ليلا أخبرنى الجناينى أن أحد رجال البوليس حضر لمقابلتى فأفهمه انى عدت للجريدة بعد الغداء فطلب منه أن يخبرنى عند عودتى ان انتظره لأنه يريد مقابلتى لأمر خاص فانتظرته حتى حضر وبعد جلوسه افهمنى انه مكلف بتوصيل خطاب من رئيس نيابة مصر الى ، فدهشت لأنه لم يخطر لى على بال مطلقا ان خطبتى بها شيء يعاقب عليه وزادت دهشتى لما اطلعت على الجواب فوجدته يدعونى لحضور صباح الاثنين لاستجوابى عما جاء بها ، حينئذ وعدته للتوجه غدا الى النيابة فطلب منى كتابة ذلك على الظرف ففعلت وانصرف . وفى هذه الحظة صممت على ترك مصر ولكنى لم اخبر زوجتى بل لما سألتنى عما يريده هذا الضابط قلت لها انه صاحبى ويريد استشارتى بصفتى محام فى مسأله شخصية » .

ويمضى محمد فريد فى تفاصيل الواقعة وكيف عرض الموضوع على أخص أخصائه ثم يمضى الى القول .

« وعندما وصلنا الى النيابة وقابلنا على بك توفيق رئيس النيابة فقال لنا ان المكلف باستجوابى هو على بك ماهر بنيابة الاستئناف فقصدته الى الدور الثانى

ورافقنا هو ومعه الدوسيه وأخذ على بك ماهر يتأفف من هــذه المأمورية ومن ظلم الحكومة واضطهادها الى غير ذلك (١) . وكان أخى ابراهيم بك وكيل النيابة بهــا موجودا ثم حضر أحمد لطفى المحامى وأحمد عبد اللطيف وعبد العزيز فهمى المحاميان وحضروا الاستجواب وأخيرا بعــد الظهر بنصف ســاعة أذن لى على بك ماهــر بالانصراف .

ويمضى محمد فريد فى ذكر أدق تفاصيل هذه الفترة وكيف وصل الى علمه أن الحكومة طلبت من على ماهر القبض فراح يراوغها وقد زاد ذلك من تصميم محمــد فريد وأخصائه على ضرورة السفر ورسمت الخطة على أن يكون المسافر الرسمى هو اسماعيل لبيب حيث يقطع تذكرة سفر على باخرة كانت ســتغادر الاســكندرية الى استنبول صبيحة اليوم التالى « الثلاثاء » وعلى أن يصحبه محمد فريد كأنه مسافر الى الاسكندرية للمرافعة فى احدى القضايا ، ثم يقول :

« وعند حضور مفتش الكورنتينا (على ظهر السفينة) دخلت الى محل الأدب واختفيت فيــه نحو عشرة دقــائق وخرجت لمــا نادانى اســماعيل لبيب واخبرنى بانصرافه وبعد قيام السفينة دفعت أجرة السفر ولم أعلم (الكمسارى) باسمى (٢) واظنه هو ومن فى الوابور لم يعلموا اسمى . ولما اقتربنا من بيريه ثغر بلاد اليونان التى اعتزمنا النزول فيه للتوجه الى أثينا لحضور مؤتمر المستشرقين الذى كان سينعقد بعد أسبوع وكنا مشتركين به نحن الاثنان رأى اسماعيل بك أن لا أنزل الى البر بل استمر فى السفر الى الآستانة نظرا لأن حكومة اليونان صغيرة ومليئــة بالانجليز ولا يبعد عليها أن تسلمنى فاستحسنت لرأيه وبقيت فى السفينة لحين اقلاعها . أما هو فنزل الى البر بضع ساعات ثم عاد ولما وصلنا أزمير نزلنا معا الى البر وأرسلت تلغرافا الى الشيخ عبد العزيز شاويش أخبره بحضــــورنا ووصل محمد فريد بعد قليل الى الآستانة .

ولا جدال أنه لم يدر بخلده ساعتئذ أن ذلك سيكون آخر عهده بمصر التى لن يراها ثانية ، ويصف عبد الرحمن الرافعى هذا الجزء من حياة محمد فريد بأن حياته « فى المنفى » وهو تجوز فى التعبير من غير شك والوصف الصحيح هو الهجرة فقد غادر محمد فريد مصر باختياره .

ولا شك أن اختيار محمد فريد لهذا المسلك هو اجتهاد منه لما هو أنفع وأجدى لمواصلة الجهاد وليس لأحد أن يقول انه كان يجب أن يفعل هذا أو ذاك . فرجل مثل محمد فريد لم تكن تنقصه الشجاعة ولا القدرة على الاحتمال والتضحية التى تصل الى حد الفدائية فنحن لا نقر الذين ذهبوا الى حد تخطئته فى هذا التصرف ولكننا فى هذا الموطن لا نملك الا أن نتساءل :

---

(١) وهكذا بدأ على باشا ماهر حياته العامة بهذا الموقف الرائع وسيظل على ماهر يلعب فى تاريخ مصر أخطر الادوار . وقد أتيح لى أن أتصل به اتصالا وثيقا عندما بدات حياتى السياسية .

(٢) لاحظ خلو السفر من أى اجراءات سوى دفع أجرة الباخرة .

ـ هل كان موضوع زعامة الشعب فى ثورته القادمة يتغير بوجود محمد فريد عند اندلاع الثورة .

ـ التساؤل الثانى هل كان محمـد فريد يقدم على ما أقدم عليه لو لم يكن يستطيب الحياة فى أوربا ؟

ولنا عودة الى الموضوع من غير شك .

أول ابريل ـ سعد زغلول يقدم استقالته :

فى أول ابريل قدم سعد زغلول استقالته من وزارة الحقانية وقد فوجئت الأمة بهذا الاجراء الذى ليست له سابقة لقد سمعت عن رئيس وزارة يستـقيل ، وربما سمعت عن وزير اعتذر عن قبول الوزارة لأنه كان يرى نفسه الأحق برئاسة الوزارة وسمعت عن اعادة تشكيل الوزارة لاخراج وزير منها ، ولكنها لم تسمع عن وزير يستقيل وهو فى أوج سلطانه لأى سبب من الأسباب ، وهكذا قـدر لهـذا المصرى الصميم الوافد من الريف أن يستوقف المصريين من حين لآخر ، استوقفهم وهو يشترك فى تحرير الوقائع مع الشيخ محمد عبده ، واستوقفهم وهو يشتغل محاميا ، ويحصل على ليسانس الحقوق من فرنسا ، واستوقفهم وهو يعين مستشارا فى محكمة الاستئناف وهو يصهر الى مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء الدائم فى ذلك الوقت واستـوقفهم وهو يعين وزيرا ، وهو يصـطدم بدانلوب (ديكتاتور وزارة المعارف ، وهاهو ذا يفاجئهم بهـذا الشىء الذى لا عهد لهم به وهو أن يستقيل من الوزارة .

ويبدو أن هـذا الاجراء الفذ قد أعلى من أسـهم سعد زغلول لدى الشـعب وخاصة فى الأوساط الوطنية جدا فقد علم أن التحقيق مع محمدفريد وتحويله الى المحاكمة قد تم بغير علمه فقد كان محمد سعيد باشا رئيس الحكومة هو الذى اتصل مباشرة بالنائب العام من وراء ظهره فعجل ذلك بتقديم سعد زغلول لاستقالته ولم يستطع عبد الرحمن الرافعى الا أن يسجل هذه الواقعة (وان كان قـد سجلها فى هامش الكتاب) وسنرى ان محمد فريد وهو من هو فى تشدده وتزمته فى تقـدير الرجال سوف يرشح سعد زغلول ليكون وكيلا للحزب الوطنى أى الرئيس الفعلى له بسبب غيابه هو فى أوربا ، والمهم فى ذلك كله ان استقالة سعد باشـا مـن وزارة الحقانية قد رفعت اسهمه لدى الشعب الأمر الذى جعل رجل الخديو الأول سليمان أباظة باشا يحاول النيل من سعد زغلول فراح يكتب فى جريدة الأهرام مقالات بامضاء « عارف » راح يغمز فيها سعد زغلول وينسب اليه أمورا غير صحيحة ويشـيد الدكتور ابراهيم عبده فى كتابه عن جريدة الأهرام كيف انها مع صداقتها الوطيدة بسعد زغلول ، قد رفضت الكشف عن اسم « عارف » ومرة أخرى فاجأ سـعد زغلول الأمة بقبول التحدى فطلب من النيابة التحقيق مع سليمان باشا أباظة عندما كشف القناع عن شخصيته ، وفى مذكرات شفيق باشا تفصيل واف عن هذه الواقعة التى كانت شغل الأوساط الحاكمة الشاغل وحيث شـهد الشعب لأول مرة وزيرا

سابقا يتحدى السلطة فى انه على استعداد للكشف عن أسباب استقالته الحقيقية فترى السلطة الفعلية (كتشنر) والسلطة الشرعية (الخديو) انه خير لهما أن يغلقا هذا الباب .

وفى كتاب العقاد عن سعد زغلول « سيرة وتحية » تفصيل هذا الخلاف الذى دب بين كتشنر وسعد زغلول حول موقف رفض فيه سعد أن يحابى أحد محاسيب كتشنر والخديو معا مما جعل الاثنين يقفان ضـــده ، ويعنينا من ذلك كله حقيقة الاستقالة فى حد ذاتها كحدث فذ ، وهكذا انتقل سعد من صفوف الحاكمين الى صفوف المحكومين ، وقد مرت حياته حتى الآن بعد أن صـــار فى طبقة الوزراء فى ثلاث مراحل :

١ ـ مرحلة التعاون المطلق مع الانجليز مع الاعتداد بشخصيته والاعتزاز بكرامته ، وهى المرحلة التى عاصر فيها كرومر .

٢ ـ مرحلة تجاوز فيها مجرد الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالكرامة الى مرحـــلة الاستقلال بالرأى فى حدود الارتباط بالسلطة . وذلك فى عهد دون جورســت ووصلت القمة فى عهد كتشنر .

٣ ـ وبدأت المرحلة الثالثة التى سيقف فيها سعد زغلول موقف المعارضة للسلطة ، ولكنها معارضة كما سوف نرى لا تمثل الاصطدام .

وهكذا كانت الأقدار تتطور بسعد زغلول ليلعب دوره الخالد كما سوف يجىء .

٣٠ ابريل محاكمة محمد فريد غيابيا :

فى يوم ٣٠ ابريل انعقدت محكمة الجنايات لمحاكمة محمـــد فريـــد (غيابيـــا) واسماعيل حافظ مدير جريدة العلم وعلى فهمى كامل ، شقيق مصـــطفى كامـــل والمسئول عن تحرير اللواء لنشرهما خطاب محمد فريد الذى يتضمن الحض على الكراهية للحكومة والدعوة الى الثورة ، وجلس فى مقعد النيابة محمد زكى الأبراشى أفندى (الذى يلعب فى تاريخ مصر فى أيامنا دورا خطيرا) .

وفى كتاب عبد الرحمن الرافعى عن محمد فريد تفصـــيل كامل عـــن مجريات الجلسة ونص مرافعة عبد العزيز فهمى ، وصدر الحكم بالحبس سنة مع الشغل على فريد بك والحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر على المتهمين الحاضرين . وواضح أن الحكم على محمد فريد كان حكما تهديديا ذلك أنه فى جرائم النشر المسئول عن التحرير هو الفاعل الاصلى .

ولكن الحكم بهذا الأسلوب كان كافيا لاقناع محمد فريد فوق اقتناع أن لن

يكون امامه سبيل لمزاولة نشاط يعود بالفائدة على قضية مصر بالبقاء فى مصر ذاتها (١) .

١٨ مايو صدور تقرير كتشنر :

فى هذا اليوم نشرت الترجمة العربية لتقرير المعتمد البريطانى الذى اعتاد رفعه الى وزير خارجية انجلترا فى مارس من كل عام . وقبل ان نعرض لما كتبه كتشنر عن الأحوال العامة فى مصر نرى أن نسجل ما كتبه شفيق باشا أولا عن كتشنر لأنه يصور لنا بعين معاصر كيف كانت الأمور تجرى ، قال :

« كتشنر فى مصر »

فى يوم ٩ فبراير قرأت فى جريدة المورننج بوست كلمة عن اللورد كتشنر فى مصر جاء فيها :

« انه يختلف كل الاختلاف عن اللورد كرومر والسير الدون جورست ويزيد فى مزاياه عن سلفيه أنه فاتح الخرطوم ، وقاهر المهدى والسردار السابق ، والعارف لكل من خدم فى الجيش المصرى والمعروف عند (أبسط) (٢) الطبقات المصرية أنه يتكلم اللغة العربية كما يتكلمها ابن مصر ويعرف كل مركز من مراكز الوجهين ويلم بكل مسألة تقع فى البلاد ويذهب فى كل مكان . وقال عن علاقته بالخديو « أنها حسنة وصريحة وكل منهما يعرف حدود صاحبه ونفوذه وكلاهما راض بما عنده » » ويمضى شفيق باشا فيقول : « وهذا الذى ذكرته الصحيفة الانجليزية عن كتشنر صحيح فى عمومه فانه منذ عين معتمدا فى مصر لم يفتأ يهتم بأبسط المسائل ويزور البلاد ويتحدث مع أهلها ويسمع اقتراحاتهم كأنه الحاكم الشرعى للبلاد ، وكانت استقبالاته من الحكام ومن ذوى الحاجات لا تدع مجالا للشك فى انه قابض على السلطة فى مصر ومن أمثلة ذلك أن يطلب اليه سكان أسيوط انشاء مدرسة ثانوية ويطلب أهالى فوة خطا حديديا بينها وبين دسوق .. الخ كما أنه كان يبذل أشد الاهتمام بشئون الفلاح فانفذت باشارته عدة مشروعات خاصة بهم كقانون خمسة الأفدنة الذى حمى الفلاح من أيدى المرابين الذين يعيشون فى الأقاليم من الفساد ، وبذلك القانون انقذ هؤلاء الفلاحين الذين يكونون اربعة اخماس تعداد القطر المصرى . كذلك أنشأ ميدان صلاح الدين بالقلعة ووسع ميدان باب الحديد وأنشأ كذلك صناديق للتوفير فى القرى وتكوين لجنة لبحث آفات القطن وانتقاء البذور ومحاكم الأخطاط وقد ساعد تحت ضغط اليقظة القومية على تقرير التدريس باللغة العربية فى المدارس الثانوية من العام القادم وختم شفيق باشا

---

(١) قدمنا أن ذلك كان اجتهادا من محمد فريدوهو أدرى بظروفه ومن ناحيتنا فقد اتخذنا عندما حان الحين اتجاها آخر فكنا نخرج من سجن لندخل سجنا جديدا ، وقد ظهر انه كان فى ذلك تربية للشباب .

(٢) النص الاصلى (أحط) ولكننا لا نتصور أن الكاتب قصد هذا .

تعليقه بقوله : « ومن الصراحة أن نقول أن الخديو عندما رأى تغلغل نفوذ كتشنر فى البلاد وانه لم يبق له اية سلطة اعتكف فى سراى القبة وامتنع عن التدخل فى شئون البلاد ولم ينزل الى سراى عابدين الا للضرورة القصوى ، ولم يرأس مجلس النظار الا نادرا وترك العمل لكتشنر ثم محمد سعيد ، وسنرى فيما بعد كيف وثب من رقدته لاسترداد نفوذه ــ انتهى ــ .

فقرات من تقرير كتشنر :

استهل كتشنر تقريره بالثناء على جورست وتأبينه ثم قال : « بعد ما غبت احدى عشرة سنة عن مصر حيث خدمت مدة مديدة فى وظائف عسكرية وشبيهه بالعسكرية ، سررت سرورا عظيما عند عودتى اليها بتجديد معاشرة كثيرين من المصريين الذين ، تقادم عهد الصداقة بينى وبينهم . وتيسر لى ادراك التقدم والتغير الذى تغيرته مصر أكثر على ما اظن مما يدركه الذين استمرت اقامتهم فيها تلك المدة ، فلا جرم انه يحق لسمو الخديو ونظاره وسائر موظفى دواوين الحكومة ومصالحها المختلفة قبول التهانى بنجاح سعيهم فى تحسين حالة الأهالى وتوفير السرور والخير لهم » .

ثم أشار الى حرب طرابلس فقال : « اتفق حين وصولى الى مصر تقريبا أن الحالة السياسية فى الشرق الأدنى اضطربت كلها اضطرابا بما فعلته ايطاليا على غير انتظار قط حيث شهرت الحرب على السلطنة العثمانية وشنت اغارة على طرابلس الغرب وبرقة . ولا غرابة أن أثارت هذه الحرب عواطف الميل الشديد فى صدور أهل مصر الى أهل تلك البلاد المحاربين المسلمين فذلك طبيعى نظرا الى قرب تلك البلاد من بلاد مصر جغرافيا والى الصلات والروابط الشديدة بين أهلها وعربان القطر المصرى والعلاقات الدينية والتجارية بين الفريقين ولذلك كان هيجان الخواطر فى بر مصر شاملا متسعا وشديدا أيضا . ولكن اهل مصر اظهروا مع ذلك من الجلد وضبط النفس ما يستحقون عليه أعظم مدح رغما عن سوء اغراء بعض الجرائد الوطنية التى لا تحاسب ولا تقدر للعواقب » .

ثم راح يتحدث عما بذله الشعب من معونات وعلى رأسها الهلال الاحمر ومختلف صنوف المعونات المالية ثم تحدث عن الخلافات الحزبية والخلاف الطائفى وكيف ان الأمر كله انتهى الى خير فعدل الاقباط والمسلمون عن عقد مؤتمرهم لثانى مرة .

وأشار الى ان رقى مصر سيكون نتيجة الرقى الزراعى ونشر التعليم . ولهجة مقدمة التقرير بصفة عامة تفيض بالتفاؤل والدعوة الى كل ما فيه تحقيق الخير لجماهير الفلاحين .

ثم راح التقرير يستعرض الأبواب التى اعتاد التعرض لها كل سنة ابتداء من المالية العامة فالرى فالزراعة فالتعليم فالحقانية وانتهاء بتقرير مفصل عن أحوال السودان والمهم ان الأيام والحوادث اثبتت أن الصورة المخيفة التى رسمت لكتشنر لم تكن كذلك وقد رأينا كيف رأى شفيق باشا نفسه على الرغم من كونه أحد رجال الخديو أن يتحدث عن أصلاحاته التى ستصل الى الذروة فى العام القادم بانشاء

الجمعية التشريعية مما سوف نفصله فى حينه ، وبقى أن نضيف انه حتى هـذا الوقت الذى أكتب فيه بعد أن قامت فى مصر ثورتان وبعد أن حرص المصريون على محو كل أثر للانجليز لا يزال أكبر مصرف للرى فى شمال الدلتا يحمل اسم كتشنر يسير الى جواره المسافر الى بلطيم عشرات الكيلومترات .

يوليو ١٩١٢ ـ قضية التآمر على كتشنر :

واذا كان لابد ان يكون هناك قضية سياسية تثير الرأى العام كل سنة ويتخـذ منها الاحتلال فرصة ليروع الوطنيين ويحاول النيل منهم فقد كانت قضية هـذه السنة ما وصف بأنه مؤامرة على اغتيال كتشنر والخديو ورئيس النظار محمـد سعيد ، واذا كان المثل الشعبى الدارج يقول : « ايش عرفك انها كدبة ، قال من كبرها » فقد كان من الواجب الشك فى هذه التهمة لضخامتها ، ولكن الاحتلال كما قدمنا كان فى حاجة الى مظاهرة يكشر بها عن أنيابه فابتلع هذه الكذبة التى تقدم بها مأمور الضبط وكان يدعى فيليبيدس ، فكان هو الذى وجه الاتهـام وكان هو الشاهد الوحيد عليه ، وقد ظهر فيما بعد (١٩١٧) ان هـــذه القضية كانت من تلفيق فيليبيدس الذى حوكم هو نفسه بتهمة الافساد والرشوة ولكنه فى هـذا الوقت الذى نتحدث عنه كان هو الكل فى الكل ففتشت منازل المئات وقبض على العشرات وانتهى الأمر بتوجيه تهمة الاتفاق الجنائى بناء على القانون الجديد الى ثلاثة شـبان هم محمد عبد السلام وامام واكد ومحمود طاهر العربى .

١١ ـ اغسطس ـ المحاكمة :

وانعقدت محـكمة الجنـــايات فى ١١ أغسطس لمحاكمتهم وحضر للدفاع عنهم ابراهيم بك الهلباوى (١) ومصطفى الشوربجى وعبد الوهاب البرعى . وجلس فى كرسى الاتهام عبد الخالق باشا ثروت النائب العام وكانت المحكمة برئاسة على باشا ذو الفقار . وفى اليوم التالى أى فى ١٢ أغسطس صدر حكم المحـكمة وهـو يقضى بالسجن مع الأشغال الشاقة ١٥ سنة على امام واكد وبالسجن مع الشغل لمدة ١٥ سنة على محمد عبد السلام ومحمود طاهر العربى (٢) .

٢٠ أغسطس ـ محمد فريد يتهم الخديو :

لم يتوقف محمد فريد عن النشاط بعد مغادرته مصر بطبيعة الحال ، فهو انما غادرها لهذا السبب ، وقد استقر فى بادىء الأمر فى ضاحية من ضواحى الآســتانة وينشر مقالاته وبحوثه فى مجلة كان يصدرها فى استنبول الشيخ عبد العزيز شاويش.

---

(١) يلاحظ أن ابراهيم الهلباوى عاش ما بقى من حياته محاولا التكفير عن موقفه فى قضـــية دنشواى فراح يتطوع للحضور فى كل القضـــاياالوطنية .

(٢) التحق محمود طاهر العربى بمصر الفتاة بعد أن خرج من السجن وله معى قصـــة طويلة ، والمهم انه تحول من النقيض الى النقيض .

وذلك بالاضافة الى رسائله التى كانت لا تنقطع عن جريدة العلم ، وفى هـذا التاريخ الذى نتحدث عنه نشر فى جريدة « السيكل » الفرنسية التى تصـدر فى باريس مقالا لم يلبث أن تبعه بمقال ثان وفيهما يتهم الخديو بأنه يتآمر مع الانجليز لتنصيبه خليفة على المسلمين تحت الحماية الانجليزية على ان تضم الى مصر،سورية وبرقة وجزيرة العرب وقد اعتبر انشاء مدرسة الدعوة والارشاد التى أسسها الشيخ رشيد رضا ، أحد مظاهر هذا التآمر، وكان سفر رشيد رضا بزيارة لمسلمى الهند مما قوى لديه الشبهة ، ودعا الدول وعلى رأسها تركيا وفرنسا لمراقبة الحالة عن كثب .

وكان طبيعيا ان تغضب هذه المقالات الخديو فحرض اعضـاء اللجنة الادارية للحزب الوطنى (على ما يقول لنا شفيق باشا) على عزل محمد فريد من رئاسة الحزب كما يحدثنا عبد الرحمن الرافعى من ناحية أخرى عن محاولات جرت وراء الستار لفصل محمدفريد من عضوية نادى المدارس العليا ، ولكن كلتا المحاولتين باءتا بالفشل ، وان كان على بك المنزلاوى ومحمود بك فهمى سكرتيرا للحزب استقالا احتجاجا على هذه التهمة التى وجهت للخديو .

٢٤ ـ أغسطس ـ احضار الشيخ شاويش مقبوضا عليه :

فى يوم ٢٤ اغسطس ضبط بوليس جمرك الاسكندرية مع الشـاب القادم من استنبول « أحمد مختار » حقيبة بها منشورات ثورية مطبوعة فى مطبعة الهـلال العثمانى التى يصدرها الشيخ عبد العزيز شاويش فى استنبول وهى تتضمن قدحا شديدا فى الخديو وتدعو لانشاء الجمعيات السرية للفتك والاغتيال .

يقول شفيق باشا : وظهر فى الوقت نفسه منشورات ثورية فى الاسـكندرية وطنطا ، وتكررت المقالات المثيرة فى اللواء والعلم فصدر أمران باغلاقهما اللواء فى ٣١ اغسطس أما العلم (فبعد ذلك) مما سوف نذكره فى حينه على أن المهم فى ذلك كله انه بلغ من هوان الدولة العثمانية أنها قبضت على الشيخ عبـد العزيز شاويش وارسلته الى مصر مقبوضا ليحقق معه فى موضوع المنشورات التى أشرنا اليها ، ولا نحسب أن هناك مثيلا لهذا الحادث من قبل وهو أن تسلم دولة لسلطات دولة أخرى انسـانا لتحقق معه فى تهمة نشر هى فى طبيعتهـا وجوهرها ان صحت (جريمة سياسية) خصوصا وان الشيخ عبد العزيز شـاويش كان من أكبر المخلصين للدولة العثمانية ولكن هكذا كان الهوان قد وصل بتركيا وصيرورتها ذنبا لانجلترا وكيفما كان الحال فان هذه (السقطة) ما كانت لتقع لو لم تسقط حكومة الاتحاد والترقى (الوطنية) ويرتقى الى الوزارة من يدعى كامل باشا الذى اشتهر بالدعوة الى مسايرة السياسة الانجليزية .

كان فريد بك هو المقصــود :

ويبدو ان محمد فريد كان هو المقصود بكل هذه الاجراءات ولكن (حاســته السادسة ، كما يقولون) جعلته يغادر الاستانة الى باريس قبل القبض على الشيخ شاويش ، ويقول لنا محمد فريد فى مذكرته انه حذر الشيخ عبد العزيز شاويش من هذا المصير فاستبعد عبد العزيز شاويش هذا الاحتمال .

واذ كان المقصود كما قدمنا هو محمــد فريد من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان محمد فريد يحدثنا عن خلافه مع الشيخ شاويش اذ لم يكن يوافق على الهجوم على الخديو . ولذلك فانه على الرغم من انه جيء بالشيخ شاويش مقبوضا عليه الى مدينة الاسكندرية يوم ٨ أغسطس ، وعلى الرغم من تفرع التحقيق وتشعبه فان عبد الخالق باشا ثروت النائب العام نفســه اضطر لحفظ القضية بالنسبة لعبد العزيز شاويش ووجهت التهمة لاحمد مختار فقط .

كتشنر ورأيه فى القضيتين :

جاء فى تقريره عن حوادث عام ١٩١٢ عن هاتين القضيتين ما يلى :

« أريد أن أشير بايجاز الى ما فعله قوم ضلوا سبيلا من المتعصبين الذين أثرت فيهم قدوة الوردانى فأرادوا الاقتداء به فى فعلتهم فتآمروا على قتل أكابر الموظفين فى هذا القطر ولو تم لهم ما ارادوه من مؤامرتهم لمـا كانت العــــاقبة غير الضرر العظيم على مصر وتأخيرها عن التقدم أعواما طوالا ولكن مؤامرتهم كشفت فى وقتها وحوكموا وعوقبوا وعقب مؤامرتهم سعى قوم فى اذاعة منشــورات ارسلت من الخارج للتحريض على الفتنة وانشاء جمعيات سرية لاستئصال شأفة ذوى المقامات العليــا فى الحكومة فوجدت هذه المنشورات مع شــاب مصرى من تلاميذ المكتب الحربى بالاستانة فضبط وحكم عليه بالسجن مدة واكتسبت هــذه المسألة شهرة لا تستحقها باتهام الشيخ عبد العزيز شاويش بالاشتراك فيها وهذا الرجل من كبار المهيجين فى الحزب الوطنى وكان حينئذ مقيما فى الاستانة فجيء به الى مصر بهذه التهمة ولكن البيانات لم تثبت التهمة عليه اثبـــاتا يكفى لمحاكمته فاطلق سراحه » .

ولعل هذا الحديث يصور لنا خيبة الأمل من كونهم لم يســتفيدوا شيئا من اجراء هذه الزوبعة التى أثاروها ولم يحصدوا منها الا اثارة الرأى العام ضدهم .

٢٣ سبتمبر — ورود أول أنباء عن حرب البلقان :

قدمنا ان ما حدث فى طرابلس يمثل منتهى الضعف والانحلال الذى آلت اليهما الدولة العثمانية ولذلك فلم تكد هذه الحرب تضع أوزارها باستســـلام تركيا لايطـــاليا التى استقرت نهائيا فى طرابلس ، حتى قامت دول البلقـــان بلغـــاريا

والصرب (١) والجبل الأسود (١) تطالب بالاستقلال (الذاتى) وتغيب الادارة التركية، أما اليونان التى كانت قد حصلت على استقلالها منـــذ القرن التاسع عشر (على ما مر بنا) فقد انتهزت هذه الفرصة وقامت تطالب بضم كل جزر الأرخبيل (فى بحر ايجة) .

٢٧ أكتوبر – تركيا تعلن الحرب :

وانتهى الأمر بأن أعلنت تركيا الحرب وبهذا بدأ ما يسمى بـ « حرب البلقان » ومرة أخرى قام المصريون بكل عواطفهم مع الأتراك وغنى عن البيان أنهم كانوا يفعلون ذلك ليس فقط بدافع الاشتراك فى الدين كما حاول كتشنر أن يصور الأمر وانما كان الشعب يرى فى ذلك لونا من ألوان التعبير عن عدم رضاه عن الانجليز .

ولذلك فلم تكد تتألف لجنة برئاسة البرنس عمر طوسون ورعاية البرنس محمد على لجمع التبرعات ، وراحت تطوف الأقاليم حتى انهالت عليها التبرعات بينما وعد الخديو بأن تقطع الحكومة المصرية علاقتها بدول البلقان الأربع .

وجمعيـــة الهلال :

وقامت جمعية الهلال الأحمر بقيادة الشيخ على يوسف لتمارس نشاطها وبدأت تجمع الاكتتابات لهذا الغرض ، فحاول لطفى السيد فى الجريدة أن يعترض كما فعل (وحده) من قبل فى حرب طرابلس ولكن الشيخ على يوسف رد عليه بعنف ومضت جمعية الهلال الأحمر تقدم الخدمات للدولة العلية .

٧ نوفمبر – تعطيل جريدة العلم نهائيا :

فى ٧ نوفمبر ســنة ١٩١٢ قررت الوزارة تعطيل جريدة العلم نهائيا ، ولسنا نستطيع بعد هذا الزمن الطويل الا أن نلاحظ مدى التهافت الشديد لهذا السبب الذى أدى الى تعطيل الجريدة ، مما يدل على أن الرغبة فى تعطيلها كانت مبيتــة على تعطيل جرائد الحزب الوطنى ففى ختام شهر أغسطس وسط ضجيج قضية المؤامرات والمنشورات صدر قرار بتعطيل جريدة اللواء نهائيا ثم جاءت الآن لتعطل جريدة العلم اللسان الرسمى للحزب الوطنى لا بسبب تعرضها للسياسة المصرية أو انتقادها أحد الحاكمين بالباطل أو الحق ولكن مجرد نشرها مقالا لفريد بك حمل فيه صدر تركيا الأعظم كامل باشا مسئولية الهزائم التى منيت بها تركيا فى حرب البلقان ، ولمـا كان كامل باشا هذا مشايعا للسياسة الانجليزية فقد كان انتقاده كافيا لتعطيل جريدة العلم نهائيا ، واليك ما قيل فى قرار التعطيل :

« وحيث أن هذه المقالة ختمت بالطعن الشديد فى ولاة الأمور العثمانيين الذين القى عليهم تبعة ما أصاب الجيش العثمانى ، انما هى مقالة من شأنها اثارة الخواطر

(١) تؤلف الان أجزاء من يوجوسلافيا .

ايغار صدور المسلمين نحو ولاة الأمور المذكورين فى هذه الظروف التى تستلزم الهدوء والسكينة وحيث ان هـــذه الجريدة اعتادت نشر ما يكدر صفو الراحة العمومية ، فضلا عن انها لسان حال حزب اتخذ رئيسه لنفسه خطة التهييج ، وحيث انه قد سبق صدور قرارين بتعطيل هذه الجريدة مرتين الأولى لمدة شهر بتاريخ ١٩ مارس سنة ١٩١٠ والثانية لمدة ثلاثة شهور بتاريخ ١٩ ديسمبر سنة ١٩١١ فلهذه الأسباب ومحافظة على النظام العام تقفل جريدة (العلم) التى تصدر بالقاهرة من تاريخه .

وقد عادت جريدة الشعب للظهور كلسان للحزب الوطنى وتولى رئاسة تحريرها أمين بك الرافعى والذى كان يرأس تحرير العلم منذ فبراير ١٩١٢ .

١٦ نوفمبر ــ صدور الحكم فى قضية المنشورات :

قدمنا أن قضية المنشورات التى اتهم فيها عبد العزيز شاويش قـد انتهت بالحفظ قبله وآخرين وحصرت التهمة فى أحمد مختار (١) الطالب بالكلية الحربيـة وقد انعقدت محكمة جنايات اسكندرية لمحاكمته وقضت عليه بالسجن عشر سنوات على ما أشار كتشنر فى تقريره .

٢٢ ديسمبر ــ تمام تعلية خزان اسوان :

كان انشاء خزان أسوان يعتبر من مفاخر كرومر وقد شاءت الظروف أن تتم تعليته فى أيام كتشنر وكلا الرجلين (كرومر وكتشنر) ركزا جهودهما على ترقية الزراعة كما وكيفا .

وقد أقيمت بمناسبة تمام التعلية حفلة كبيرة حضرها الخديو وكتشنر ، وبهذه المناسبة ارسل ملك انجلترا البرقية التالية للخديو بواسطة اللورد كتشنر :

« أرغب اليكم فى هذه الفرصة المباركة أن تعربوا للجناب العالى الخديو عن تهنئتى القلبية لسموه بمناسبة انتهاء الأثر الجليل الذى يتصل باسم عمى الدوق أوف كونوت ، واذا كنت أواصل بنظرى مع الاهتمام الشديد نجاح القطر المصرى فانى أشاطر سموه الاغتباط باتمام ذلك الأثر الجليل » .

ديسمبر ــ مؤتمر لنـدن :

وفى أواخر ديسمبر عقد مؤتمر لندن لتسوية حرب البلقان ووضع حـد لها وسوف تصدر قراراته فى مستهل العام الجديد .

الحركة الأدبيـة عام ١٩١٢ :

كانت مجلة البيان التى أسسها عبد الرحمن البرقوقى فى أواخر العام الماضى قد اشتد ساعدها وأصبحت هى محور الحياة الأدبية وبدأ يبزغ نجم مصطفى صادق

(١) ظل أحمد مختار مكافحا حتى التقينـا فى مصر الفتاة وكان هو على رأس جمعية دينية وطنية.

الرافعي من ناحية ، والثالوث المشكل من « العقاد ، المازنى ، عبد الرحمن شكرى » من ناحية أخرى ، وبداوا نواة مدرستهم فى تجديد أساليب الكتابة بعد ان أصبحوا يطالعون الانتاج الأوربى ويأثرون به .

عملاق الصحافة العربية يطوى سجله :

ولسنا نستطيع أن نختم حوادث هذه السنة دون أن نشير الى الحدث العظيم الذى تم فى مطلعها ونعنى به اعتزال الشيخ على يوسف عمله فى الصحافة واختياره أن يكون شيخا للسادة الوفائية ، وفى كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة عن الشيخ على يوسف تفصيل هذا الحدث والدوافع التى ادت اليه من وجهة نظره ، ونكتفى هنا بايراد البيان الذى أنهى به على يوسف حياته الصحفية ، قال :

« الى سادتى واخوانى ورصفائى قراء المؤيد بعد ثلاث وعشرين سنة انشأت فيها المؤيد ، وقمت بتحريره مسئولا عنه قد اضطررت منذ أمس بمقتضى أسباب عائلية قوية أن أودع مهنة الصحافة التى احترمها واعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة للهيئة الاجتماعية . بل اضطررت أن أودعكم راجيا أن تكونوا حفظة كراما خيرين .. تذكرون الحسنة وتنسون السيئة « ان الحسنات يذهبن السيئات » ..

على اننى مع هذا الوداع انما أترك وظيفة التحرير فى المؤيد ، وقد صار قوة كبرى فى خدمة الأمة ، بحيث لم أصبح فيه الا عاملا من جملة عمال كثيرين وكاتبا بين كاتبين ، فهو لا يخلو يوما واحدا من آثار أقلام عشرات من كبار الكتاب والمفكرين ولا يضيره الا يكون فيه واحد من هؤلاء ، ولن تتخلى عنه الأمة التى أصبح هو وديعة فى ذمتها أن تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين .

وفضلا عن هذا اننى اذا تركت قلمى بجانبى فلم أكسره ، وان عطلت وظيفة لى فى المؤيد فلم أعطل فكرى وضميرى ، وسأقوم بما يجب على لوطنى كلما دعانى هذا الواجب بقدر ما استطيع .. كما اننى سأبذل جهدى للقيام بأعباء « جمعية الهلال الأحمر » لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدى وظيفتها المقدسة التى تطلبها منها عواطف الانسانية الروحية . أسأل الله أن يوفقنى واياكم فى خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه .

الحساب الختامى لسنة ١٩١٢ :

كانت النتيجة النهائية لحسابات هذه السنة الختامية كالآتى :

الايرادات :	٠٠٠ر٥١٥ر١٧
المصروفات :	٠٠٠ر٤٧٠ر١٥
الزيـــادة :	٠٠٠ر٠٤٥ر٢

* * *

عام ١٩١٣

تمهيـــــد :

وأهلت السنة الجديدة على المصريين الطيبين وهم ماضون فى عملهم ، ملايين الفلاحين والعمال يتوجهون الى أعمالهم فى المزارع والمصـانع مع شروق الشمس ينتجون القمح والقطن والذرة والأرز والقصب ، العمال ينتجون ومئات المتطلبات لسير الحياة ، الحياة التى ظلت تتدفق عبر آلاف السنين ، حيث الأسرة هى نواة المجتمع الأولى ، وليس يهمهم من الحاكمين الا أن يدعوهم وشأنهم .

حرب البلقـــــان :

وكما كان شغل مصر الشاغل فى مطلع العام المنصرم هو حرب طرابلس ، فكذلك كانت حرب البلقان هى شغلها فى مطلع عام ١٩١٣ ، وعلى الرغم من انقضاء بضـع سنوات على هذه الحرب بعد أن شببت عن الطوق ، فمازلت أذكر عشرات الصور الملونة التى كنت أراها داخل المنازل لقادة الجيش التركى فى هذه الحرب .

٢٣ يناير ــ قرارات مؤتمر لنـــدن :

وفوجىء المصريون بقرارات قيل لهم انه ما جرى الاتفاق عليه فى مؤتمر لندن وان النظارة التركية برئاسة كامل باشا قد قبلتها ، وكان أسوأ ما فى هذه القرارات هو تنازل تركيا عن مدينة ادرنة آخر مدينة بقيت للدولة العثمانية فى أوربا ، كما تنازلت عن جزر الأرخبيل لليونان كما طلبت .

سقوط وزارة كامل باشا :

واذا كانت هذه الأنباء قد أزعجت المصريين مرة ، فقد ازعجت العثمانيين مرات ومن هنا فقد اسقطوا وزارة كامل باشا والفت جمعية الاتحاد والترقى حكومة جديدة رأسها شوكت باشا واستأنفت الحرب ، وفى بادىء الأمر أحرزت جيوشهم الانتصار حتى فرح المصريون وقامت مظاهرات عارمة فى الاسـكندرية ، الأمر الذى أحنق السلطات الانجليزية فقبض على بعض شباب الحزب الوطنى ومنهم حامد المليجى وحوكموا وحكم عليهم .

سقوط ادرنة :

ولكن الأخبار لم تلبث أن جاءت تعلن عن هزيمة الجيش التركى وسقوط مدينة

ادرنة بعد حصار دام أربعة شهور وكان قائد حاميتها البطل شكرى باشا . يقول شفيق باشا : فكان لسقوطها رنة حزن وأسى فى أنحاء العالم الاسلامى لأنها طريق الاستانة (١) . انتهى .

ولقد رثى أحمد شوقى مدينة ادرنة بقصيدة من أروع قصائده التى يتضمنها ديوانه « الشوقيات » والتى يقول فى مطلعها :

يا أخت اندلس عليك ســــلام
هوت الخلافة عنك والاســـلام

فبراير — انكماش نشاط الحزب الوطنى :

كان سفر محمد فريد الى أوربا من ناحية ، واضطهاد الحكومة غير العادى لكل انشطة الحزب أن توقف بالفعل كل المظاهر المعتادة فلأول مرة منذ انشاء الحزب لم تدع الجمعية العمومية للانعقاد ولم يسر الموكب المعتاد فى ذكرى وفاة مصطفى كامل ، وأغلق نادى الحزب الوطنى ابوابه ، بعد أن لم يدفع العديد من الأعضاء على ما يقول عبد الرحمن الرافعى ،اشتراكاتهم لانسحابهم من الحزب تحتتحريض الحكومة واجتذابهم لصفها ، كما لم تصرح الحكومة باقامة السرادق الذى اعتاد الشباب أن يقيموه كل عام احتفالا بذكرى المولد النبوى الشريف . أى أنه لم يبق للحزب الوطنى الا جريدة الشعب (التى حلت محل العلم) . وسنرى ان أمين الرافعى رئيس تحريرها سيعطلها فى العام التالى للاسباب التى سوف نتعرض لها فى حينها ، وستظل معطلة وكذلك كل نشاط للحزب الوطنى طوال مدة الحرب .

نشاط محمد فريد فى أوربا :

وقد كان أهم ما فعله محمد فريد فى أوربا هو اصداره فى جنيف مجلة ترقى الاسلام لتكون لسان حال جمعية اسلامية تحمل ذات الاسم وفى مذكرات محمد فريد الأمينة الدقيقة ما يحدد حجم هذه الجمعية والمجلة وكيف كان الايرانى (ميرزا بك سعيد) هو مساعده الأول .

ولعل آخر جهد محسوس نجح فيه محمد فريد هو عودته الى الاستانة فى اواخر فبراير بعد سقوط وزارة كامل باشا وقيام وزارة محمود شوكت باشا واستطاع أن يعيد فتح النادى المصرى الذى كان كامل باشا قد أغلقه وراح يطارد اعضاءه ومضى بعد ذلك محمد فريد يحدثنا فى مذكراته عن جولات عقيمة راح يقوم بها ذارعا أوربا من الشرق الى الغرب (من الاســـتانة حتى لندن مرورا بلاهاى وباريس وبالعكس) ولكن شخصيته الجبارة كانت قد تحولت فى حد ذاتها الى رمز على مقاومة مصر للاحتلال البريطانى فكان يقابل حيث سار بالتجله والاحترام والتكريم .

---

(١) ما زلت أذكر كيف كنا نترنم فى طفولتى بأغنية حزينة تبدأ وتنتهى بعبارة « يا ادرنه » .

أول مارس — صدور قانون الخمسة افدنة :

فى أول مارس من هذه السنة صدر ما يمكن اعتباره مأثرة كتشنر الكبرى وعندنا انه قام بها لسببين :

الأول : وقد احتكر لنفسه السلطة وجعل همه الأول اضعاف الحركة الوطنية، فقد أراد من ناحية اخرى أن يتقرب الى سواد الشعب من الفلاحين .

الثانى : فأما وقد اصبحت مصر مزرعة لبريطانيا فلا مناص من انتظام الزراعة بها، وأول عناصر الانتظام استقرار المزارعين ولما كانت الجمهرة العظمى للملاك الزراعيين فى مصر هم الذين يملكون خمسة فدادين فأقل وكانت هذه الطائفة نهبا للمرابين الذين كانوا يتقاضون أرباحا ربوية تناهز الثلاثين والأربعين فى المائة ، وكان صغار الملاك يعجزون بطبيعة الحال عن تسديد ديونهم فكان يحجز عليهم وتباع أرضهم ومواشيهم بأبخس الأثمان بل ويطردون من بيوتهم فكان أن أوعز كتشنر بوضع قانون يحول دون الحجز على أى مزارع يمتلك خمسة فدادين أو أقل او أدوات الزراعة أوعلى دابتين من دوابه .

وفى تقرير كتشنر عن عام ١٩١٢ شرح كامل لهذا القانون والدوافع التى حدت الى اصداره وان له شبيها فى الهند وفى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية حيث يحمى القانون صغار الملاك . ومن ناحيتى فقد درسنا هذا القانون عندما كنا طلابا فى كلية الحقوق ولكن أحدا لم يقل لنا (ولو على سبيل الخطأ) ان كتشنر كان خلف هذا القانون والموعز به حتى لنجد أن محمد فريد ينتقد السرعة التى صدر بها هذا القانون لأنه ارادة كتشنر حيث تتعثر القوانين الأخرى العديد من السنوات ولم يسلم القانون من الانتقاد والتجريح فى موضوعه كأن يقال انه لم يحم من زادت ملكيته على خمسة افدنة ، وانه اكتفى بالحماية ضد الحجز وليس ضد البيع مما يفتح السبيل أمام التلاعب ، كما قيل انه اقفل الباب أمام صغار الزراع عن الاقتراض دون أن يهيىء لهم بابا آخر ، ولقد ردد عبد الرحمن الرافعى كل هذه المآخذ فى كتابه ، ولكن واجب الانصاف يقتضينا أن نسجل أن ذلك كله لم يفت واضعى القانون فأشار كتشنر فى تقريره الى أن التطبيق سوف يكشف عن بعض المعايب والثغرات فيصبح لا مناص من علاجها بتشريع لاحق وخلاصة القول أن هذا القانون عمل يشكر .

١١ يونية — مقتل شوكت باشا الصدر الأعظم :

فى ١١ يونية قتل شوكت باشا الصدر الأعظم فى تركيا فتألفت وزارة جديدة برئاسة امير من عائلة محمد علي وهو سعيد حليم باشا وسنرى فيما بعد أن كتشنر سيهدد بتعيينه خديو مصر .

البرنس أحمد فؤاد وعرش البـانيا :

تردد اسم البرنس احمد فؤاد أثنـاء حرب طرابلس (كما رأينا) انه يسعى ليصير حاكم برقة ، ومرة اخرى تردد اسمه أثناء حرب البلقان ايكون ملكا على البانيا ، وكانت صحف ايطاليا وفرنسا هى المتحدثة فى ذلك ، واذا كانت هـذه الأقاويل كلها قد انتهت الى غير شىء ، فسنرى ان عرش مصر هو الذى سيئول أليه فى خاتمة المطاف اليه .

يوليو ١٩١٣ ــ صدور قانون الجمعية التشريعية :

كان شهر يوليو هو الشهر الذى انتصرت فيه الأمة باضطرار الانجليز ان يخطو خطوة يقابلون بها رغبتها فى أن يكون لها دستور ومجلس نيابى كامل ، وهو ما فتئت تطالب به وأخيرا رأى كتشنر ومعاونوه انه لامناص من عمل شىء فى هذا الاتجاه فهداهم تفكيرهم الى وضع نظام جديد لا يخرج فى جوهره عن النظـام القديم من حيث كون الجمعية الجديدة ليس لها راى قطعى . ومن هنـا فقـد قابلت الأمة الموضوع بعدم الاكتراث ، ولكنا سنرى ان رجلا واحدا وهو سعد زغلول قد نفخ من روحه فى هذا النظام الجديد فجعله يستأثر بكل اهتمام الأمة وقد مهد كتشنر فى تقريره السنوى عن هذا المشروع بذكر تاريخ مفصل للحياة الدستورية منذ أيام محمد على حتى وصل الى تفاصيل مشروعه ولما كان شفيق باشا قد لخص المشروع واحكامه فنحن ننقل لك ما قاله :

صدور قانون الجمعية :

وفى ٢١ منه صدر هذا القانون وهو يقضى بانشاء جمعية تشريعية تحل محل مجلس الشورى والجمعية العمومية وتأليف مجلس فى كل مديرية .

ولأهمية هذا الموضوع أوردنا بعض ما جاء فيه والجمعية تؤلف من أعـضاء قانونيين وأعضاء منتخبين وأعضاء معينين ويكون النظار أعضاء قانونيين . وحدد عدد المعينين بسبعة عشر عضوا : أحـدهم رئيس والثانى وكيل والخمسـة عشر يعينون على نحو يكفل النيابة عن الأقليـات والمصـالح التى لا تنـال نصـيبا من الانتخابات وأما المنتخبون فيوزعون حسب النظام الآتى :

ـ للقاهرة أربعة وللاسكندرية ثلاثة وللغربية سبعة ولكل من المنوفية والدقهلية والبحيرة والشرقية وأسيوط خمسـة وكل من المنيا وجرجا وقنا أربعة وكل من القليوبية والجيزة والفيوم ثلاثة ولبنى سويف اثنان ولكل من بور سعيد ودمياط والسويس وأسوان واحد . والمعينون يوزعون هكذا .

للاقباط أربعة وللعرب البدو ثلاثة ولكل من التجار والاطباء ورجال التربية العامة والدينية اثنان وللمهندسين والمجالس البلدية عضو واحد ويأخـذ المعينون والمنتخبون مكافأة قدرها خمسة وعشرون جنيها فى الشهر .. ومدة عضوية الاعضاء

ست سنوات ويسقط منهم الثلث فى كل سنتين . ولايجوز عزل العضو الا بأمر عال بناء على مجلس النظار بعد قرار بأغلبية ثلاثة أرباع الجمعية . ويجوز حل الجمعية فى أى وقت بأمر خديوى بناء على طلب مجلس النظار وتجرى الانتخابات الجديدة فى هذه الحالة فى ظرف ثلاثة أشهر .

١٩١٣ : اختصاصات الجمعية :

أما اختصاصاتها فهى أنه لا يجوز اصدار أى قانون ما لم يتقدم أولا للجمعية لأخذ رأيها . ويعتبر قانونا كل تقنين يتعلق بأمور مصر الداخلية وله مساس بتنظيم سلطات الحكومة ، أو يقرر بطريقة عامة أمرا متعلقا بحقوق سكانها المدنية والسياسية ، وكل أمر عال يشتمل على لائحة ادارة عمومية . وللجمعية حق تحضير مشروعات القوانين ، عدا ما يتعلق منها بالقوانين النظامية ولمجلس النظار أن يوافق على المشروعات التى تقترحها أو يرفضها ، وفى حالة الرفض يذكر الاسباب ، ولا يجوز للجمعية مناقشة هذه الاسباب . واذا لم تقتنع الجمعية بالاسباب التى ابداها المجلس فانها تنعقد هى والنظار فى هيئة مؤتمر ، فاذا لم تقتنع بما يبديه النظار فانها تحل . ولايجوز ربط أموال أو رسوم الا بعد موافقة الجمعية وتستشار فى كل سلفة عمومية وفى كل مشروع عام متعلق بجملة مديريات وخاص بانشاء أو ابطال ترعة أو مصرف أو خط من خطوط السكك الحديدية ، وفى فرز اطيان القطر لتقدير درجات أموالها . وليس من اختصاصها النظر فى مخصصات الخديوى وويركو الاستانة والدين العمومى وكل الواجبات والالتزامات الناتجة من قانون التصفية أو الاتفاقات الدولية والمسائل المتعلقة بالدول الأجنبية وعلاقات مصر بهذه الدول والمسائل المتعلقة بتعيين أحد موظفى الحكومة أو أحد مأموريها أو بترقيته او نقله او فصله ، وكل عمل آخر تجريه الحكومة بالنسبة لأحد موظفيها أو مأموريها . وترسل ميزانية ايرادات ومصروفات الحكومة للجمعية قبل انتهاء السنة المالية بأربعين يوما .

قانون الانتخاب :

وقد صدر كذلك قانون الانتخاب وهو يعطى حق انتخاب مندوبى الدرجة الاولى لكل مصرى بلغ من العمر عشرين عاما ، واشترط لانتخاب المندوب أن يكون سنه ثلاثين عاما ، والمندوبون يختارون النائب .

كتاب ابيض لكتشنر :

وقد نشر قانون الجمعية وقانون الانتخاب فى لندره يوم ٣١ يوليو مع كتاب أبيض للورد كتشنر يحوى ايضاحا للاسباب التى بنى عليها هذان القانونان ومما جاء فيه :

أن الجمعية العمومية كانت اجتماعاتها قليلة ولم يكن لها عمـل غير اعتمـاد القوانين الجديدة الخاصة بالاموال المقررة والمستخدمين والضرائب ، أما المجلس الشورى فانه وأن كانت وظيفته استشارية محضة الا انه اشترك اشتراكا فعليا فى تنقيح القوانين .

«ولذلك رؤى أنه من المناسب توسيع سلطة هذا المجلس واضافة اختصاص الجمعية العمومية الى اختصاصاته . ومع ذلك فقد أعطى للجمعية الجديدة شىء من حق الاقتراح وابداء الراى مع الوسائل التى بها تضطر الحكومة الى اطالة النظر فى درس القوانين التى لا تصدق عليها الجمعية بكل اعتناء وتدقيق» .

كتبت « التيمس » تقول :

« انفذ اللورد كتشنر مشروعا من شأنه توسيع حرية الأمة المصرية توسيعـا كبيرا .. وهذه الاصلاحات التى كان اللورد واسطتها تستحق أكثر من الالتفـات العادى لانها رد واضح على الدعـوى التى كررت مرارا . وقيل فيها أن النفـوذ الانجليزى ضغط مطامح المصريين ضـغطا يفوق الحـد ، فان كثيرا من الحـرية والنفوذ اللذين يتمتع بهما سكان مصر الان هو نتيجة الاحتلال الانجليزى رأسـا وأن تكن الشبيبة المصرية تتجاهل التاريخ عند اجتماعها فى جنيف وغيرها ، لان ذلك يصادق هوى فى فؤادها . (انتهى) .

تقييم الجمعية التشريعية :

يقول فقهاء الدساتير ، أن المسئولية الوزارية امام مجالس الشعب ، هى التى تحدد قيمة هذه المجالس ، فكلما كان باستطاعة أى مجلس أن يحاسب الوزراء وأن يسقطهم اذا لزم الامر يكون لهذا المجلس قيمة ، وبهذا لا يكون للجمعية التشريعية أى قيمة تزيد على الجمعية العمومية ومجلس القوانين وفى رأينا أن الخطوة الجديدة ليست كامنة فى توسيع هذا الاختصاص أو ذلك وانما هى كامنة فى طريقة الانتخاب اذ أصبح يتم بواسطة الشعب مباشرة ، حقيقة انه كان يتم على خطوتين ، ولكن الاساس انه اصبح لكل مصرى بلغ من العمر سنا معينه أن يسهم فى ادارة شئونه بطريقته .

دور سعد زغلول :

ويرجع الى سعد زغلول جعل مصر كلها تتلفت صوب هذا التشكيل الجـديد وتعلق عليه أكثر الآمال ، فلأول مرة يتقدم رجل فى وزن سعد زغلول يخاطب (رجل الشارع كما يقولون) ويقول له انتخبنى ، واذا انتخبتنى فسوف افعل (كذا وكيت) وقد كان هذا شيئا جديدا لا عهد للناس به ، ويحدثنا الدكتور ابراهيم عبـده فى كتابه جريدة الاهرام ، كيف راحت تثير اهتمام الناس بعملية الانتخاب وعندنا أن ذلك وأكثر منه ما كان يأتى بأية نتيجة لو لم ينزل سـعد زغلول الى المعمعة ، لقد

اقتدى به من هم اقل شأنا منه من المثقفين والسياسيين واصحاب الرأى وسرعان ما شهدت مصر معركة انتخابية من الطراز الأول ، ونثبت نص أول منشور انتخابى تقدم به سعد زغلول ، ولم يلبث بعض الآخرين ان نسجوا على منواله قال سعد زغلول يخاطب الناخبين :

اذا شاء أهل وطنى أن ينتخبونى نائبا عنهم فاننى أعاهدهم على أن أقف على خدمتهم وقضاء مصلحتهم والسعى فى تحقيق أمانيهم وازالة شكاواهم واذكر على سبيل الاستشهاد الامور التالية :

١ — قرأت فى الجرائد مقالات وفصولا متعددة فى انتقاد قوانين المحاكم المصرية من جنائية ومدنية وغيرها ، وما فيها من وجوه النقص وما يشكو المتقاضون منه من فداحة الرسوم القضائية وزيادة التطويل فى سير القضايا وما شكل ذلك، فاذا شاء ابناء وطنى أن ينتخبونى عنهم فأنا أعدهم بأن أجد فى خدمتهم بالبحث عن كل العلل والأسباب التى يشكون منها وجمع الشواهد وابراز الادلة والحجج التى أتوسل بها الى اقناع زملائى فى المجلس حتى يؤيدونى فيما أقترحه على الحكومة من التعديل والتغيير لخير الأمة والى اقناع الحكومة بصحة اقتراحنا واستمالتها الى قبوله والعمل به حبا بخير الامة وزوال شكوى الاهالى .

٢ — انى اختبرت أحوال المدارس والدرس والتدريس زمانا طويلا وعرفت حاجات الأمة الكثيرة الى المعارف فاذا انتخبت عضوا فى الجمعية التشريعية فانى اعاهد الأمة على افراغ الجهد فى توسيع نطاق التعليم حتى يعم جميع طبقات الأمة وحتى يتيسر لأبناء الفقراء ان ينبغوا كأبناء الأغنياء .

٣ — انى لا أزال مقيما على رأيى المعلوم فى اعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة نجاحها وارتقائها فى خدمة الأمة . فاذا شاء أبناء وطنى أن ينتخبونى فأنا أعاهدهم ان ىأدرس هذه المسألة درسا دقيقا وأجمع الأدلة والحجج التى تقنع زملائى وتقنع الحكومة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة ويصان به النظام العام من ضرر شططها من جهة أخرى .

٤ — اقرأ فى الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة ولا سيما سكان الشوارع الوطنية ، تارة من قلة النور ، وتارة من قلة الكنس والرش ، وتارة من قلة التنظيم والرصف فاذا انتخبت فى الجمعية التشريعية فانى لا ادخر وسعا فى عمل ما استطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على ازالة شكوى الأهالى من هذا القبيل .

٥ — اذا انتخبت فى الجمعية التشريعية فانى اجعل حاجات معظم الاهالى نصب عينى وخصوصا حاجات المزارعين فأسعى فى تسهيل وسائل الزراعة والرى

ومد السكك الحديدية والزراعية فى البلاد وادرس اسعار القطن درسا دقيقا وابذل جهدى فى اتخاذ الوسائل التى تحمى بها مصالح المزارع ولا يذهب ربحه من قطنه طمعا للتاجر وغيره من الذين يشترون قطنه بالثمن الرخيص ويبيعونه محوكا ومنسوجا بالثمن الغالى .

وهذه بعض الامور التى اسعى فيها لخدمة بلادى وقضاء مصلحة أهل وطنى واعد انى لا ادخر فى القيام بواجب الخدمة واستخدام الوسائل التى يبيحها لى قانون الجمعية التشريعية لاقناع الحكومة بعمل ما أرى عمله واجبا لخير الأمة .

فلندع الان مصر تضطرب بمعركتها الانتخابية لنتابع بقية شئونها ، ريثما نعود اليها بعدتمام عملية الانتخاب .

فضيحة أرض المطاعنة :

يحدثنا شفيق باشا عن احدى فضائح الخديو عباس حيث كان يحاول الكسب من جراء عقد بعض الصفقات ، أو الحصول على مبالغ باهظة فى مقابل تيسير بعض العمليات .

يقول شفيق باشا أن الخديو اخرجه من مصلحة الأوقاف ليتمكن من عقد صفقة أطيان فى بلدة المطاعنة فى « مقابل سمسرة قدرها ستون ألف جنيه » ولما علم كتشنر بهذا الموضوع صمم على جعل ديوان الأوقاف نظارة مما سنعود اليه .

٥ أكتوبر ـ وفاة الشيخ على يوسف :

وجاءت الساعة التى طويت فيها صفحة الشيخ على يوسف اذ وافاه الأجل فى أكتوبر ، ولا شك عندنا فى أن الشيخ على يوسف كان عملاق الصحافة المصرية فى كل عصورها حيث استطاع عن طريق القلم أن يرتفع بنفسه الى أعلى عليين ، وحسبنا ان ننقل عنه صورتين لاثنين من معاصريه ، احدهما الد أعدائه وهو محمد فريد حيث راح يتحدث عنه فى مذكراته فلا يتحرج عن وصفه بأخس النعوت ومع ذلك فان الحقائق لا تلبث أن تفرض نفسها من خلال أقواله ليظهر منها كم كان قويا ، وكان عملاقا ، وكم خدم بلاده ، أما الصورة الثانية فقد رسمها له الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتبه الشهير « فى المرآة » .

اما من اراد المزيد فى معرفة الشيخ على يوسف ، فعليه بكتاب عبد اللطيف حمزه .
قال محمد فريد فى مذكراته فى أوربا عندما وصله نبأ وفاة على يوسف :

على يوسف والمؤيد :

توفى الشيخ على يوسف يوم ٢٥ اكتوبر بداء القلب وهو فى نحو الستين سنة ، فانهد بموته ركن النفاق والذبذبة .. هذا الرجل نشأ فقيرا حقيرا فى بلصفورة بصعيد مصر ، تعلم شيئا قليلا بالازهر ، ثم دخل فى خدمة رجل اديب من رجال الحكومة اسمه على بك رحمى بصفة خادم ثم أخذ يقول الشعر للاستجداء كل ذلك

ثبت رسميا فى الحكم الذى أصدره الشيخ أحمد ابو خطوة ضده فى قضية زوجيةمع صفية بنت السيد عبد الخالق الســـادات . أخيرا أسس مجلة صغيرة اسماها « الآداب » وكنت أكتب فيها فى سنتى ١٨٨٧ و ١٨٨٨ ، أو عقب خروجى من مدرسة الحقوق ولكن بغير اسمى بل بتوقيع م . ف . لأن والدى كان ينهانى دائما عن الكتابة فى الجرائد والاشتغال فى السياسة ، خوفا علىّ من أن يصلنى أذى الانجليز والحكومه (وقد حصل ما كان يخشاه رحمه الله) .

ثم فى سنة ١٨٨٩ أراد المرحوم رياض باشا انشاء جريدة يومية اسلامية لمحاربة الاحتلال والمقطم وكلف ابراهيم باشا مصطفى ناظر مدرسة دار العلوم اذ ذاك وحسن رفقى بك طبيب شرعى المحاكم ، فقدم له هذا الشيخ الفقير الرث الثياب فساعـده بالمال ، وأسس المؤيد ، وكان له فيه شريك يدعى الشيخ احمد ماضى توفى بعد ذلك ، فاستقل الشيخ على بالجريدة ، وكان فى حالة فقر مدقع ، وكثيرا ما جمعنا له التبرعات بواسطة المرحومين على بك فخرى وحسن باشا عاصم ، بالاشتراك مـع محمود بك سالم وغيرهم لدفع ديونه ورفع الحجز الذى كان أوقعه أحمد نجيب المحامى بطنطا على المطبعة . سار الشيخ على يوسف وطنيا خديويا وكلنا كنا معه . ثم لما أثرى قليلا وظهر اسمه ، أخذ يزاحم مصطفى كامل عند الخديو ، ويعاكسه بعدم نشر مقالاته التى كان يرسلها من أوربا عن يدى . وأخـــيرا قررنا انشاء جريدة وطنيـــة لنتخلص من معاكسات الشيخ على . فأسس مصطفى كامل اللواء ، وظهر العـــدد الأول فى أول رمضان (مارس ١٨٩٩) وفى وقت قليل انتشر الجرنال وذاع اسم مصطفى بمصر وأوربا ، والتف حوله الطلبة وسارت الحركة الوطنية خطوات واسعات .

ولمــا تم اتفاق فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، تغيرت سياسة الشيخ على ، وعدل عن المطالبة بالجلاء صراحة ، وأصبح أميل الى الانجليز .. وسافر الى لوندرة وهناك اجتمع مع حافظ عوض وأباظة باشا و « موزلى » وغيرهم وأقاموا وليمة خطب فيها الشيخ على ، وقال مخاطبا المصريين بما معناه «يجب أن تكون لندن كعبتهم من الآن» فسخط الشعب عليه واصبح مكروها مرذولا ، ولكن الخديو لم يزل يساعده حتى فى قضية الزوجية المشهورة التى حكم فيها الشيخ أحمد أبو خطوة حكما أصبح تاريخيا . وبعد انفصال الحزب الوطنى عن الخديو ، أخذ الشيخ على يحارب الحزب .. فهــاج الطلبة ضده ، وكذلك الأزهريون ، وتظاهروا أمام بيته ورشقوه بالحجارة .

ولما توفى الشيخ السادات ـ والد صفية زوجته ـ عينه الخديو شيخ سجادة السادة الوفائية ، ولقب بالسيد فى أمر تعيينه رغما من حكم المحكمة الشرعية بأنه وضيع وليس من الاشراف ، ولكن حب الخديو له أعماه عن ذلك .

على يوسف فى المرآة :

أما الصورة الأخرى فنقتبس منها الفقرة التالية :

ومضى عبد العزيز البشرى يصف الشيخ عليا فقال : « فاننى لا أعرف رجلا سياسيا عظيما كان أقل الناس انصارا وأكثرهم خصوما كما كان الشيخ على يوسف .

وخصومه على كثرتهم لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات . وانهم ليحيطون به احاطة الطوق من كل جانب ، وكلهم عامل على اسقاطه ، جاهد ما امتد به الجهد فى هدم المؤيد ، فدك عليه الاقلام والألسن من كل ناحية . يدمغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا اشفاق .. ثم اذا الشيخ يتجمع ، واذا هو يشرع القلم شرع الرمح الرديني ، واذا هو يطعن الطعنة البكر هاهنا مرة وها هنا مرة، فلا يصيب الا الكلى والمفاصل .. واذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، واذا المؤيد يرن فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه وقد عرفت ان الشيخ على كان مبغضا الى الكثرة فى البلاد ، وان هذا البغض ليرجع فى الأكثر الى أسباب صناعية ، منها المناقشات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولى الأمر ، ومنها انه كان هناك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر، وكان هؤلاء لا يستريحون الى سياسة القصر ، فهم بالضرورة ينقمون من كل رجل يواليه القصر ، وخاصة اذا كان رجلا كالشيخ على يوسف جبار العقل ، جبار القلم .

ومع هذا كله ففى يوم الجلى ، يوم تحدث الأحداث القومية ينفض الناس قلوبهم حتى يتساقط منها كل ما علق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، يلوون اعناقهم نحو المؤيد ، شاخصة أبصارهم ، مرهفة آذانهم معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ فاذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبتة فلا يزال يوسعها تمزيقا بمخلبه ، وضغطا بأنيابه ، حتى ما يدعها الا عظما وجلودا .

ورثى الشاعر الكبير حافظ ابراهيم قلم الفقيد وجريدة المؤيد بقصيدة منها :

صونوا يراع على فى متاحفكم
وشاوروه لدى الارزاء والنوب
واستلهموه اذا ما الرأى اخطأكم
يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوة مصر فى مكارهها
وكان جمرة مصر ساعة الغضب
فى شقه ومراميه وريقته
ما فى الأساطيل من بطش ومن عطب
كم رد عنا وعين الغرب طامحة
من الرزايا وكم جلى من الكرب

٢١ نوفمبر — تحويل ديوان الاوقاف الى نظارة :

أشرنا فيما سبق الى موضوع أرض المطاعنة وكيف قرر كتشنر على أثرها أن يحول ديوان الأوقاف الى نظارة لتدخل الأوقاف تحت رقابة الحكومة ، وهو مشروع عجز عن تحقيقه مع شديد رغبته فيه كرومر فكان يوقفه القول بأن ذلك موضوع دينى حساس، فلما أراد كتشنر أن يحقق هذا الاصلاح رأى أن يتسلح أولا بالفتوى الدينية فأرسل بطريقة غير رسمية يستفتى شيخ الاسلام فى تركيا ويحصل على موافقة الصدر

الأعظم وفى ذات الوقت راح يهدد الخديو على ما يقول شفيق باشا « بأن يخلعه ويعين فى خديوية مصر ابن عمه سعيد حليم » وجاء رد تركيا بالموافقة بعد أن طلبه منها رسميا وهكذا لم يكن أمام الخديو الا أن ينصاع ، وصدر أمر مجلس النظار يوم ٢١ نوفمبر بتحويل ديوان الأوقاف الى نظارة على أن يعين لها مجلس أعلى برئاسة الناظر وعضوية شيخ جامع الأزهر والمفتى وثلاثة أعضاء آخرين ونقل أحمد باشا حشمت من وزارة المعارف ليكون أول وزير للاوقاف . وفى كتاب لمحات من حياة العقاد للاستاذ عامر العقاد حوار لطيف دار بين عباس محمود العقاد وكان يشتغل فى هذه الفترة موظفا فى ديوان الأوقاف وبين السكرتير الشرقى فى دار المعتمد البريطانى ، وطرافة هذا الحوار تتجلى فى ان العقاد تكلم فيه بأسلوبه الذى يستعمله طول حياته واليك هذا الحوار :

قال له السكرتير الشرقى « استوزر » الا ترى معى ان حرمان الأوقاف من الرعاية الأجنبية هى علة هذه المفاسد التى شاعت فيها ؟

فيرد العقاد أ « ان المجلس البلدى بالاسكندرية يتمتع برقابة اجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونه مثلا من أمثلة النزاهة والنظام (١) » .

١٣ ديسمبر ــ نتيجة انتخابات الجمعية التشريعية :

فى اكتوبر جرت انتخابات الدرجة الأولى أى مندوب عن كل خمسين ناخب وفى ١٣ ديسمبر تمت انتخابات الدرجة الثانية فأسفرت عن فوز سعد زغلول عن دائرتين فى القاهرة (السيدة زينب وبولاق) أى نصف القاهرة ، كما فاز عبد الخالق مدكور باشا عن دائرة الدرب الأحمر (٢) والشيخ عبد الرحيم الدمرداش عن الجمالية ، وكان عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى من أبرز أعضاء الجمعية وفى كتاب عبد الرحمن الرافعى القائمة الكاملة لأسماء الأعضاء حيث يلمس الانسان أنهم مجموعة الأعيان وكبار الملاك الذين ظلوا هم وآباؤهم من بعدهم يحتلون هذه المجالس .

وقد استوقفنا أن لايكون اسماعيل باشا أباظة رجل الخديو الأول ، وأبرز شخصيات جمعية شورى القوانين أحد رجال الجمعية الجديدة ، ولم نحاول تقصى السبب . وقد سقط لطفى السيد فى هذه الانتخابات . ويحدثنا فى كتابه « حياتى » أن ذلك جاء نتيجة لتدخل الادارة ، ولكننا نتصور ان موقفه من حرب طرابلس وحرب البلقان من بعدها ، حيث انفرد من بين المصريين جميعا ، (بما فى ذلك أعضاء حزبه) الى دعوة المصريين للوقوف على الحياد ، الأمر الذى أثار عليه سخط الجميع حتى وجد نفسه مضطرا الى الانسحاب الى « برقين » مسقط راسه .

سعد زغلول مرة أخرى :

وليس بوسعنا الا أن نقف مرة أخرى مع سعد زغلول الذى فاز فى كلتا الدائرتين اللتين رشح نفسه فيهما وقياسا على ذلك فلو كان القانون يصرح له بالترشيح عن اكثر من دائرتين لفاز كذلك ، مما يدلنا على مدى النجاح الذى بدا

(١) لمحات من حياة العقاد .

(٢) مما يشرف مصر الفتاة انضمام هذا الرجل الى عضويتها فيما بعد

يحوزه لدى جماهير الشعب ، ويفتخر محمد فريد فى مذكراته بأن هذا النجاح كان نتيجة مؤازرة الحزب الوطنى وهذا فى حد ذاته لا يغض من شأن هذه الظاهرة وهو تصاعد نجم سعدزغلول من الناحية الوطنية حتى ليرشحه محمد فريد ليكون وكيلا للحزب الوطنى ، (أى الرئيس الفعلى مادام محمد فريد سيظل غائبا عن مصر)

ويستوقفنا نجاح الرجل بالرغم من عداء الخديو له وعداء كتشنر ورئيس الحكومة ولا بد انهم جميعا استخدموا كل وسائل الاغراء والارهاب (فى حدود القانون) لاسقاطه ومع ذلك فقد نجح هذا النجاح الساحق وكان يجب أن يستخلص الانجليز درسا من هذه الواقعة فيقدرون صلابة الشعب المصرى ، ولكنا سنرى ان الحرب العالمية الأولى لا تكاد تشتعل ، حتى يظل الانجليز يهبطون بمستوى تصورهم للشعب المصرى ، حتى ليصل الأمر بهم الى معاملته معاملة العبيد كما سوف نرى ، فيرد عليهم الشعب المصرى فى عنف ، ويتصورون خلال اربعين سنة بعد ذلك ان بقدرتهم احتواء هذا الشعب بأسلوب أو بآخر حتى يشاء السميع العليم ان تكون خاتمة امبراطوريتهم فى مصر (١) .

١٩ ديسمبر — تعيين رئيس الجمعية ووكيلها :

صدر قرار الحكومة بتعيين أحمد مظلوم باشا ناظر المالية سابقا ليكون رئيسا للجمعية ، كما عرض على عدلى يكن باشا ان يكون وكيل الجمعية المعين فاشترط لذلك ان يكون بمرتبة النظار فأجيب الى طلبه فعين وكيلا ، وسنرى فيما بعد ان ذلك كان بدأ التنافس بينه وبين سعد زغلول .

وفى ذات الوقت صدر أمر الخديو بدعوة الجمعية للانعقاد فى مستهل العام الجديد .

ابراهيم الهلباوى أول نقيب للمحامين فى مصر :

ولعل من أبرز حوادث هذه السنة لا أستطيع اغفالها بصفتى محاميا تشرفت بالانتساب لهذه المهنة ، ان نقابة المحامين (٢) التى استكملت وجودها القانونى هذه السنة بانتخاب ابراهيم الهلباوى رئيسا لها ، ويحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل كيف ان اتجاه المحامين كان نحو اختيار عبد العزيز فهمى لهذا المنصب فلم يكد الدكتور هيكل يفاتحه فى احقية ابراهيم الهلباوى لهذا المنصب حتى بادر على الفور بالموافقة قائلا « استاذنا وشيخنا » وتحول من المرشح المختار الى داعية لانتخاب الهلباوى وهكذا اصبح الهلباوى أول نقيب للمحامين فى مصر .

الحساب الختامى :

وأسفرت الحسابات الختامية لهذه السنة عما يأتى :

الايرادات	١٧ر٣٦٨ر٠٠٠	جنيه
المصروفات	١٥ر٧٢٩ر٠٠٠	جنيه
زيادة الايرادات عن المصروفات	١ر٦٣٩ر٠٠٠	جنيه

(١) ظلت روح الوطنية متأصلة فى نفس عبد الخالق باشا مدكور حتى قامت مصر الفتاة عام ١٩٣٣ فلم يتردد فى مناصرتنا والانضمام الى صفوفنا .

عام ١٩١٤

استهلت السنة الجديدة استهلالا عاديا ولم يكن فى الدنيا كلها من يتصور انها ستكون احد السنين الحاسمة فتشتعل فيها نار حرب مخيفة سوف تشقى العالم أربع سنوات كاملة ، حقا ان النذر كانت تظهر من حين لآخر وكانت سحب الحرب والاستعداد لها يجرى على قدم وساق ومع ذلك فكان المظنون بل شبه المؤكد ان جهود السلام هى التى ستنتصر .

٨ يناير — الاحتفال بعيد جلوس الخديو :

وهكذا تم الاحتفال (لآخر مرة فى مصر دون أن يدرى أحد)

ظهور أول طيارة فى سماء مصر :

وقد زاد من بهجة الاحتفال هذا العام ان تصادف قدوم ثلاث طائرات الى مصر فى سباق دولى فاز فيه طيار فرنسى يدعى « فدرين » وقد انتهز هذا الطيار فرصة عيد الجلوس لكى يقوم باستعراض لا بد أن يكون قد خلب لب القاهريين فى ذلك الوقت حيث حلق بطائرته فى سماء ميدان عابدين واسقط على المحتشدين علما مصريا ، ولاشك ان الجمهور كاد يجن من الفرح والدهشة ، ونرى انعكاس ذلك فى قصيدة لاحمد شوقى يقول فيها :

قم سليمان بساط الريح قاما	ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم	اسرجوا الريح وساموها اللجاما

٢٢ يناير — افتتاح الجمعية التشريعية :

على ان الحدث الاكبر فى تقدير البلاد يومئذ كان من غير شك هو افتتاح الجمعية التشريعية فسار الخديو من قصر عابدين فى موكب مهيب الى المكان المعد لانعقاد الجمعية ، حيث احتشدت الجماهير على صفى الطريق تهتف بحياة الخديو وحياة الدستور وقد القى الخديو خطاب الافتتاح وهو ينطوى على اظهار سروره بهذه الخطوة الجديدة وطلب من النواب ان يرتفعوا الى مستوى المسئولية .

سعد زغلول مرة اخرى :

وقفز اسم سعد زغلول مرة أخرى بمجرد افتتاح الجمعية كأبرز شخصية سياسية أصبحت البلاد (بطريقة غامضة) تعلق عليها أكبر الآمال ، فقبل أن تفتتح

الجمعية شرع الوطنيون وأصحاب الفكر والرأى يتنادون فى الصحف بضرورة انتخاب سعد زغلول وكيلا للجمعية حيث طالب آخرون بأن يبقى بعيدا عن المناصب الادارية ليظل متفرغا لزعامة المعارضة وهكذا أجمعت الآراء على خطورة الدور الذى ينبغى على سعد زغلول ان يلعبه ، ولم تكد الجمعية العمومية تزاول نشاطها حتى تم اختيار سعد زغلول لوكالة الجمعية بما يشبه الاجماع ، وبدا انقسام الجمعية فى كتلتين عندما بدا النقاش حول من يتولى رئاسة الجمعية عندما يغيب رئيسها هـو الوكيل المعين أم الوكيل المنتخب ، وقد انتقد عبد الرحمن الرافعى الجمعية لاشتغالها بهذا الموضوع (كأن جوهر القضية المصرية هو فى تعرف أى الوكيلين احق بالرئاسـة) وعبد الرحمن الرافعى يتحدث بوجهة نظر معينة ، والا فهذا الخلاف كان حقيقا ان يثار فهو جوهر الحياة الدستورية كلها والتى تدور حول مصـدر السـلطة ، أهو الأمة ، أم هى الحكومة ، ولقد عبر سعد زغلول عن هذه القضية أحسن تعبير (على ما روى عباس العقاد فى كتابه عـن سـعد زغلول) حيث قال : ان الأمـر لا يتعلق بشخصه والا فمن ناحيته فهو راض بتقديم عدلى يكن على نفسه ، ولكن القضية ، هى الامة أو الحكومة ، وليس أدل على ان الحكومة نظرت للقضية بهذا المنظار انها حشدت كل قوتها واستخدمت شتى المناورات لتصل الى اقرار وجهة نظرها بأن الوكيل الذى تعينه هى هو الأول .

سعد زغلول زعيم المعارضـة :

وتراس سعد زغلول كتلة من النواب المستنيرين أصحاب الرأى مؤلفـا مهم ما يمكن اعتباره بحق أول تكتل برلمانى معارض ، ولكن نقطة العجب ان هذا الأزهرى الفلاح النشأة فهم من المعارضة وقام بدوره فيها ما يمارسـه الانجليز أعرق الامم فى ممارسة الحياة البرلمانية حيث يطلقون على المعارضة (معارضة جلالة الملك) اى ان المعارضة وهى تزاول نشاطها فهى مسئولة تماما كمسئولية الحكومة ، وفى كتاب العقاد الذى نوهنا عنه تفصيل لهذه الحقبة ، غير ان تجربة الجمعية التشريعية لم تستمر طويلا فلم تلبث ان نشبت الحرب العظمى فصدر الأمر بتأجيلها كمـا سوف ترى .

نشاط الحزب الوطنى :

كانت الجمعية التشريعية والأعداد لها وانتخاب اعضائها هـو محور نشـاط الحزب الوطنى فى هذه السنة فلم يقم بنشاط خاص يسـتقل به كانعقاد جمعيته العموميـة أو الاحتفـال خاصـا بذكرى مصـطفى كامل ، وسـنرى أن أمين الرافعى سيعطل جريدة الشعب (لسان الحزب الوطنى) لسبب سنذكره فى حينه فى اخريات العام ، ينتهى آخر مظهر رسمى لنشاط الحزب .

٥ فبراير – بيع سكة حديد مريوط :

كان الخديو عباس قد انشأ لحسابه الخاص فى الصحراء الغربية سكة حديد مريوط تصورا منه أنه سوف يجنى من وراء انشائها مكاسب وفيرة ولكن المشروع خيب آماله فجعل كل همه فى كيفية التخلص منها حتى لقد فكر فى بيعها للايطاليين لولا أن حال كتشنر دون ذلك وأخيرا تم بيعها فى ٥ فبراير للحكومة المصرية بمبلغ ٣٩٠ ألف جنيه ، وقد اعتبر الخديو نفسه قد غبن فى هذه الصفقة بسبب موقف محمد باشا سعيد رئيس الحكومة المتخاذل حيثساير توجيهات كتشنر فى هذه المسألة فشرع يكيد لمحمد سعيد ويعمل على اسقاطه ، حتى لقد قيل انه شرع يتودد الى سعد زغلول ويثنى على معارضته لمحمد سعيد ، وظل يسعى الى ان نجح فى مسعاه كما سوف يجىء .

٣٠ مارس – وضع الحجر الاساس للجامعة المصرية :

مافتئت الجامعة المصرية منذ انشائها (١) عام ١٩٠٨ والمصريون جميعا يعتبرونها محط آمالهم فى حياة أفضل ، وقد ظل أعيان البلاد وسراتها يزودونها من حين لآخر بالهبات ، ثم حدث أن تبرعت لها الأميرة فاطمة اسماعيل ابنة اسماعيل باشا الخديو الأسبق بأعظم هبة من نوعها ، اذ أوقفت أطيانها لينفق ريعها على الجامعة ومنحتها ستة أفدنة فى (الدقى) لتقيم عليها مبنى الجامعة ووهبتها كل حليها ومجوهراتها لتقيم به المبنى . وقد كان ذلك بمثابة تأكيد لرسالة الجامعة ودورها فى بناء مصر الحديثة . وفى ٣٠ مارس اقيم احتفال كبير لوضع الحجر الاساسى حضره الخديو والأمراء والكبراء وتكلم فى الاحتفال احمد زكى باشا بصفته سكرتيرا لمجلس الوزراء ، كما خطب حسين باشا رشدى الذى كان قد أصبح رئيسا لمجلس الادارة. وشاءت الظروف أن يعطل قيام الحرب اتمام هذا المبنى ، لتبنى بعد ذلك (١٩٢٨) فى موقعها الحالى .

الجمعة ٣ ابريل – سقوط وزارة محمد سعيد :

قدمنا ان الخديو حلق على محمد سعيد باشا واعتبره مسئولا عما أصيب به من خسائر فى سكة حديد مريوط فعمل جاهدا للتخلص منه فقيل انه اوعز لكتشنر انه يفضل مصطفى باشا فهمى حيث كان يطلعه أولا بأول على نوايا ورغبات المعتمد البريطانى فلا يحدث تصادم فى الرأى ، ولما كان مصطفى فهمى باشا هو رجل الانجليز الأول فى مصر ، فقد رضى بتنحية محمد سعيد باشا عن الوزارة لافساح الطريق أمام مصطفى فهمى ، فأوعز الى سعيد باشا لتقديم استقالته فقدمها ، وفوجىء كتشنر بعد ذلك بمصطفى فهمى يتشدد فى قبول شخص معين فى الوزارة ويعتذر عن

(١) راجع الجزء الثالث .

تأليف الوزارة ، ويسقط فى يد كتشنر فهو بعد ان وافق على اسقاط محمد سعيد ، لم يوفق مع مصطفى فهمى وعندنا ان ذلك الموقف من جانب مصطفى فهمى يعود فى الدرجة الاولى لاعتلال صحته ، ولابد بعد ذلك ان يكون لسعد زغلول وهو زوج ابنته ومن سوف يكون المتصرف الفعلى فى الوزارة من تأثير ، ولا بد أن يكون هذا التأثير الجديد لسعد فى تشكيل الوزارة الجديدة هو السبب الذى جعل كتشنر بدوره يتراجع عن تأليف مصطفى فهمى للوزارة والشىء المحقق ان كتشنر لجأ الى الخديو وترك له اختيار الرئيس الجديد فاختار .

٥ ابريل — تشكيل وزارة حسين رشدى باشا :

تشكيل وزارة حسين رشدى باشا على الوجه التالى :

حسين رشدى باشا	للرئاسة والداخلية
اسماعيل سرى باشا	للاشغال والحربية
احمد حلمى باشا	للمعارف
يوسف وهبه باشا	للمالية
محمد محب باشا	للاوقاف
عدلى يكن باشا	للخارجية
عبد الخالق ثروت باشا	للحقانية
اسماعيل صدقى باشا	للزراعة

وهكذا دخل الوزارة الاشخاص الذين سيتبادلون رئاسة الوزارة فى العشرينيات ومطلع الثلاثينات .

٥ مايو — الخديو يسجل انتصاره على كتشنر :

مذ وصل كتشنر الى مصر عمل على ان يكون الحاكم الحقيقى والفعلى لمصر ، وقد مكنه من ذلك بالاكثر استسلام الخديو وانزوائه على ما قرره شفيق باشا وراح يستغل نشاطه فى عقد الصفقات التجارية على ما مر بنا ، فلما ان وقع هذا التطور الأخير الذى ظهر منه أن الخديو لا يزال قادرا على اسقاط الوزارة واختيار الوزراء ، فقد رأى الخديو من ناحيته ان يستثمر هذا النجاح الذى احرزه ، والوزراء من ناحيتهم رأوا ان يساهموا فى تعزيز سلطة الخديو فاستقر الرأى على أن يقوم الخديو

بجولة واسعة النطاق فى الوجه البحرى يزور مديريات القليوبية والمنوفية والدقهلية والغربية والبحيرة ، ابتداء من يوم ٢٨ ابريل ، ومن عجب ان يكون باستطاعة الخديو أن يقوم بهذه الجولة المرهقة فى هذه المدة القصيرة ، فقد راحت المديريات تتنافس فى اقامة الحفلات والزينات والهب الخديو المشاعر بأن راح يزور أعيان البلاد فى دورهم وقراهم ، فكان الجميع يتسابقون للخطوة لهـذا الشرف الكبير ويبذلون كل مرتخص وغال لارضاء الخديو ، حتى ليحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته كيف صدم فى مشاعره عندما رأى لطفى باشـا السيد يقف كغيره فى المنصـورة ليكون فى استقبال الخديو . وخلاصة القول ان هذه الجولة بدت كما لو كانت غزوة يعيد بها الخديو سلطانه المفقود وظهر فيها كتشنر بمظهر المخذول ، فقد كان يتصور أنه قضى نهائيا على كل نفوذ للخديو فاذا به يخرج من هذه الجولة عملاقا جبارا ان لم يكن من الناحية الفعلية فعلى الأقل من الناحية الروحيـة ، وليس أدل على ان الرجلين (الخديو وكتشنر) نظرا للموضوع هذه النظرة ان الخديو لم يحاول ان يخفى مشاعره أو ان يصرف النظر عن انتصاره فوجه فى هذا اليوم (٥ مايو) ارادة سنية وجهها الى حسين رشدى يسجل فيها ابتهاجه ورضاءه عما حدث وامتلأت مصر بالأقاويل ان كتشنر آلى على نفسه ان لا يألوا جهدا فى لندن فى صيف هـذا العام عن خلع الخديو .

ونحن اليوم نعلم ان القدر كان يضحك من الرجلين معا ، فعنـدما غادرا مصر الخديو الى استنبول وكتشنر الى لندن كان ذلك آخر العهد بهما فلم يرجع الى مصر لا هذا ولا ذاك .

٣٠ مايو ــ الخديو يعين حسين رشدى قائمقاما :

وكما جرت العادة اصدر الخديو امره فى ٢٠ مايو وهو يبرح مصر الى اسـتنبول ان يكون حسين رشدى باشا قائمقاما عنه فى حكم مصر اثناء غيابه ولاشك انه لم يمر بخاطره ولو لحظة واحدة ان هذا القائمقام سيكون هو الذى يكرس خلعه ويقوم هو دون غيره على بناء النظام الجديد الذى سوف يوضع لمصر .

بزوغ نجم طه حسـين :

وقد شهد مايو كذلك من هذه السنة بزوغ نجـم الدكتور طه حسـين والذى سيقدر له ان يصبح احد أعاجيب مصر حيث قدر له وهو القروى (الضرير) خريج الأزهر ، ان يصبح فى مقبل الأيام عميد الادب العربى ورئيس المجمع اللغوى وقبـل ذلك عميدا لكلية الآداب فوزيرا للمعارف وليس ذلك كله هو المهـم بقدر ما كانت حياته سلسلة من المعارك العنيفة والتحديات ومصادمة مشاعر الجماهير والحكام . هذا الرجل (الأعجوبة) بزغ نجمه كأكمل ما يكون عندما كان هـو أول من تقـدم للحصول على درجة الدكتوراة من جامعة مصر الوليدة فحصل عليها بدرجة جيـد جـدا وكان موضوعها العملاق (الضرير) أبو العـلاء المعرى ومن ناحيتى فقد قرأت

الكثير من كتب طه حسين فكانت احدى لزومياته انه لا يكتب بحثا أو دراسة وانما هى اراء وخواطر يكتبها (على عجل) ولكن الأمر لم يكن كذلك فى رسالته عن أبى العلاء حيث يلمس الانسان فيها الجهد الذى يبذل عاده فى أى رسالة دكتوراة .

٢٨ يونيو ١٩١٤ ــ مقتل ولى عهد النمسا :

ووقع فى هذا اليوم المشئوم الذى مهما قيل فى شناعته فلم يكن احد يتصور أنه سيكون هو الذى سيقلب العالم رأسا على عقب بعد شهر واحد من هذا التاريخ ويتلخص هذا الحادث فى ان ولى عهد النمسا الأرشيدوق ماكسمليان قد اغتيل فى مدينة سيراجيفو بمعرفة احدى جمعيات الصرب السرية المتعصبة ولا يبعد ان المصريين كغيرهم قد تناقلوا انباء هذا الحادث المثير دون ان يتوقعوا ما وراءه ، ولم يلبث ان وقع حادث خاص بهم فى الاستانه سرعان ما أنساهم لمدة اسبوعين فقط ما يجرى فى أوربا ، وكان هذا الحادث هو :

٢٥ ــ يوليو ــ الاعتداء على الخديو :

اعتدى شاب مصرى يدعى محمود مظهر كان طالبا بالمدرسة البحرية فى استنبول فأطلق على الخديو عدة رصاصات اثناء خروجه من مقر الصدر الأعظم فى استنبول ، وقد اصابته أربع رصاصات اصابات بالغة دون ان تكون احداها فى مقتل وقد بادر البوليس التركى بقتل الجانى فذهب سره معه ، الأمر الذى جعل البعض يستريب فى ان يكون ما حدث بتحريض من سعيد حليم الصدر الاعظم الذى طالما قيل عنه انه يطمع فى ان يكون خديويا على مصر واهتزت مصر بكل عواطفها مع الخديو ، وكان فرحها عظيما بنجاته وانهالت برقيات التهنئة بالالوف وتقاطرت الوفود الرسمية وغير الرسمية من مصر الى الآستانة للاطمئنان على الخديو ، حتى أن محمد فريد نفسه الذى لم يكن له هم فى هذه الفترة سوى كتابة المقالات الشديدة طعنا على الخديو وتنديدا به ، رأى نفسه مضطرا ان يبرق له مهنئا ، على ان قارعة الحرب العالمية الاولى لم تلبث ان تقع وتطغى انباؤها على ماحدث .

٢٨ يونيو ــ نشوب الحرب العظمى :

فى ٢٨ يوليو أعلنت النمسا الحرب على الصرب ، ومن كان لا يزال فى شك ان ذلك يعنى قيام الحرب على اوسع نطاق فان الايام التالية قد تكفلت بدحض كل شك فان روسيا لم تلبث ان اعلنت الحرب على النمسا فردت على ذلك المانيا باعلان الحرب على روسيا وفرنسا معا وشرعت بالهجوم الكاسح على فرنسا عن طريق بلجيكا التى كانت قد تعهدت بالمحافظة على حيادها فلما ان ذكر غليوم بهذه المعاهدة قال كلمته المشهورة « ان هى الا قصاصة ورق » يعنى بذلك معاهدة ضمان حياد بلجيكا، وهكذا لم ينته شهر يوليو ويستهل شهر اغسطس عام ١٩١٤ حتى كان اتون الحرب العالمية الاولى قد اشتعل .

الخديو يتهيأ للعودة الى مصر :

وعندما اشتعلت هذه الحوادث كان الخديو لايزال يعالج من جراحاته الخطيرة ، ومع ذلك فقد فكر فى العودة وأبرق الى حسين رشدى باشا يطلب منه عمل الترتيبات اللازمة لعودته ، وكم كانت مفاجأته وخيبة أمله معا عندما تلقى ما يفيد بأن انجلترا ترى ان يؤجل هذه العودة .

انجلترا تعلن الحرب ـ ٥ أغسطس ١٩١٤ :

كان من الواضح منذ الدقيقة الأولى لاندلاع الحرب ان انجلترا قررت ابتلاع مصر وضمها لامبراطوريتها نهائيا ولكنها لم تكن فى عجلة من أمرها لتحديد صورة الضم ، أتعلنها محمية أو مستعمرة أو حتى دون ذلك ، تركت انجلترا تحديد الشكل يقرره الأمر الواقع ، ولكن الشيء الذى كان واضحا عندها كل الوضوح هو ان تمارس من خلال جيشها فى مصر السلطة المطلقة ، ومن هنا كان مما يلائم هذه الخطة ان تبقى الخديو عباس خارج مصر اطول مدة ممكنة ريثما تتبلور سياستها وقرارها بالنسبة لمصر .

انجلترا تتصرف من خلال مجلس النظار :

بدأت انجترا تمارس سلطانها فى هوادة ، فى الوقت الذى كانت تعمل فيه على حشد قواتها فى مصر ، فشرعت تنقل الى مصر قوات هندية ضخمة ، وفى انتظار وصول هذه القوات ، وكانت تعمل من خلال مجلس النظار فأصدر فى ٥ اغسطس قرارا يقضى بمنع التعامل مع المانيا ، واعتبار سفنها سفنا معادية ، وحجز الموجود منها فى الموانى المصرية ، ومن ناحية أخرى خولت القوات البريطانية البرية والجوية حقوق الحرب فى الاراضى والموانى المصرية ، على أن اسوأ ما فى الموضوع هو ديباجة هذا القرار حيث دلت على ان مصر أصبحت من الناحية الواقعية تابعة لبريطانيا وان ظل نوع هذه التبعية غير محدد كما قدمنا واليك ما جاء فى هذه الديباجة :

« بما انه قد قضى لسوء الحظ باعلان الحرب بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والملحقات البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند وبين إمبراطور المانيا ، ونظرا لأن وجود جيش الاحتلال فى القطر المصرى يجعل هذا القطر عرضة لهجوم اعداء صاحب الجلالة البريطانية ، وبما انه من الضرورى نظرا لهذه الحالة الفعلية التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الهجوم على القطر المصرى ، وبما أنه أشير على الحكومة المصرية تحقيقا لهذا الغرض أن تتخذ الاجراءات الآتية وراح القرار يعدد الاجراءات السابق الاشارة اليها » .

ومع توافد الجيوش الهندية راح الانجليز يشددون قبضتهم فأعلن فى ٢٠ اغسطس قرارا يقضى بفرض الرقابة على البرقيات المرسلة من مصر واليها .

وتوالت القرارات والاجراءات فصدر قانون التجمهر الذى يجعل مجرد اجتماع خمسة اشخاص جريمة كبرى متى امر البوليس المتجمهرين بالتفرق فعصوا الأمر .

اضطراب الحياة الاقتصادية :

وقد اضطربت الحياة الاقتصادية كأشد ما يكون الاضطراب فصدر أمر بتأجيل الدفع (موراتوريم) وهبطت اسعار القطن هبوطا فاحشا الأمر الذى اضطر الفلاحين لبيع مواشيهم وحلى نسائهم وفشى التعطل بين العمال بصورة لا عهد للبلاد بها من قبل وبالجملة فقد أصيبت البلاد بصدمة عنيفة فى حياتها الاقتصادية والسياسية معا

٥ سبتمبر ـ سردار الجيش المصرى يتخطى الحكومة :

حدث فى هذا اليوم ما يدل على ممارسة الانجليز للسلطة مع رغبتهم فى المحافظة على بعض الشكليات فجعلوا السيرونجت سردار الجيش المصرى يصدر أمره الى قنصل المانيا والنمسا بمغادرة القطر المصرى ، دون ان يرجع فى هذا الطلب للحكومة المصرية التى هو أحد موظفيها .

وعلى هذه الوتيرة راح الموظفون الانجليز فى الحكومة المصرية يتخذون ما يرونه من الاجراءات بأوامر مباشرة يصدرونها .

٨ اكتوبر ـ أول تأجيل للجمعية التشريعية :

كان مقررا لانعقاد الجمعية التشريعية التى رأينا كم علقت عليها الأمة من الآمال باعتبارها خطوة نحو الحياة الدستورية الكاملة ، كان مقررا لعقدها يوم ١٧ نوفمبر فصدر قرار فى ٨ اكتوبر بتأجيلها الى أول يناير سنة ١٩١٥ بناء على طلب الانجليز ، ولم يكن ذلك سوى بداية لسلسلة التأجيلات التى انتهت بتأجيلها الى اجل غير مسمى .

الخديو وموقف الانجليز منه :

فى مذكرات شفيق باشا تفصيل كامل ودقيق لموقف الخديو فى استنبول وتحركاته ونشاطه وتحرقه للعودة الى مصر ، وفى بادىء الأمر طلب منه الانجليز كما رأينا أن يرجىء عودته الى مصر ، ثم طلبوا منه أن يغادر الآستانة ليقيم فى ايطاليا ويبين من مذكرات شفيق باشا انه لو كان مطمئنا انه سيعيش فى ايطاليا فعلا لما تردد فى الانصياع للأمر محافظة على مركزه ومصالحه ولكنه كان على ثقة انه لا يكاد يركب (المحروسة) قاصدا ايطاليا حتى يعتقله الانجليز ويسوقونه الى حيث يريدون والمهم فى ذلك كله انه ما بقيت تركيا خارج الحرب فقد حرص الانجليز على ابقاء هذا الخيط الواهى ونعنى به كون الخديو هو الحاكم الشرعى للبلاد ، فلما ان انخرطت تركيا فى الحرب ، انتهت هذه اللعبة وأسفر الانجليز عن نواياهم كما سوف نرى .

اول نوفمبر — الحكومة العثمانية تعلن الحرب على روسيا

كان معلوما ومقررا منذ قامت الحرب ان تركيا ستخوض الحرب الى جوار المانيا باعتبار أن روسيا عدوةتركيا التقليدية ستكون فى حرب ضد المانيا ، ومع ذلك فقد تأخرت تركيا عن الاشتراك فى الحرب مذ نشبت ، لتتهيأ لهـا فى روية من ناحيـة ولترقب تطورات الحرب فى مراحلها الأولى ، وقد كانت هـذه المرحلة فى جانب المانيا ، فلما ان حل فصل الشتاء وتجمدت المعارك فى ساحاتها الشـمالية ، بدات تركيـا عملياتها العسكرية فى جنوب روسيا (البحر الاسود وقفقاسيا) .

وعلى الرغم من أن تركيا لم تعلن الحـرب على انجلترا فى اول نوفمبر مكتفية باعلانها ضد روسيا وفرنسا فقد كان هذا يجعلها آليا فى صف أعداء انجلترا . ولم يكن الانجليز ينتظرون الا هذا لكى يشرعوا فى تنفيذ خطتهم فيما يتصل بمصر وهو تحويلها الى حكمهم المباشر وهكذا فوجىء المصريون بالانجليز يخاطبونهم مباشرة معلنين أن السلطة اصبحت فى أيديهم بموجب الحكم العسكرى (العرفى) الذى أعلنه ماكسويل قائد الجيوش الانجليزية فى مصر فى (٢ نوفمبر) وان كان لم ينشر الا فى (٣ نوفمبر) وكانت الصحف المصرية أول من تأثر بالحكم العرفى اذ فرضت عليها الرقابة ، فأصبح لا ينشر فيها الا ما تسـمح الرقابة بنشره ، ولم ترد أى اشـارة فى قرار فرض الأحكام العسكرية الى انه يوجد فى مصر شىء اسمه حكومة ، أو ان هناك أشكال وأوضاع لا بد من مراعاتها ولو على سبيل الشكل أو (الذوق ، على الأقل) ومن الواضح أن الانجليز أولا أرادوا أن يظهروا للمصريين منتهى الاستهانة والبطش فى بادىء الأمر . وغنى عن البيان أنهم لم يشرعوا فى عمل ذلك الا بعد أن استجلبوا الى مصر عشرات الألوف من جنود الامبراطورية هنود أو غير هنود ، واليك الآن نص اعلان الأحكام العرفية :

« ليكن معلوما أنى أمرت من حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بأن آخذ على عاتقى مراقبة القطر المصرى العسكرية لكى نضمن حمايته ، فبناء على ذلك قـد صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى من تاريخه .

الامضاء مكسويل الفريق قائد الجيوش بمصر — تحرير فى ٢ نوفمبر سـنة ١٩١٤

وهكذا تقرر بضربة واحدة وفى أقصر عبارة ممكنة تجريد الدولة المصرية من شخصيتها وكل مقوماتها ، واشعار المصريين جميعا وبدون استثناء ابتداء من رئيس الحكومـة حتى آخر فلاح فى أبعد قرية مصرية أنهم قـد أصبحوا منذ لحظـة هـذا القرار تحت رحمـة هذا القائد الانجليزى يمارس سـلطانه عليهم أنى يشاء كيف يشاء ، ولمـا كان ذلك شيئا مخيفـا قـد يرج البـلاد رجا فزعا وخوفا من هذا « المجهول » فقـد تفضل قائد الجيوش وارفق بقـراره منشـورا يهدىء الخواطر ويحدد مدلول المنشـور الأول وبعـد كل من يواصل عمـله فى هدوء وسكينة راضيا بهذا الوضع الجديد الا خوف عليهم ولا هم يحزنون واليك نص هذا المنشور .

« انا جون جرنفل مكسويل لفتننت جنرال قومندان الجيوش البريطانية فى القطر المصرى المنوط بتنفيذ الأحكام العرفية أعلن بهذا ما يأتى :

أولا : ان السلطة التى تستعمل تحت اشرافى بمعرفة الادارة العسكرية ليس الغرض منها الحلول محل الادارة الملكية بل تعتبر تكميلا لها . وعلى كل الموظفين فى خدمة الحكومة المصرية الاستمرار على أداء واجباتهم بكل دقة فى وظائفهم .

ثانيا : ان أحسن ما يمكن للاهالى عمله للصالح العام هو الامتناع عن كل عمل من شأنه تكدير صفو السلام العام أو التحريض على التنافر ومساعدة أعداء ملك بريطانيا وخلفائه والمبادرة باتباع جميع الأوامر التى تعطى لحفظ السلام العام وحسن النظام عن طيب خاطر . ومتى اتبعوا ذلك لا يكونون معرضين لأى تداخل فى شئونهم من السلطة العسكرية .

ثالثا : جميع الطلبات التى ربما تلزم للاحكام العسكرية من خدمات الأفراد أو مما يملكون تكون قابلة للتعويض التام وتحدد قيمتها بمعرفة سلطة مستقلة ان لم يحصل الاتفاق عليها بين الطرفين .

مصر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

الامضاء

(ج.ج.مكسويل)

المصريون والموقف :

كان المصريون منذ نشبت الحرب يقفون موقف المتفرج والمترقب ، وهذا هو شأنهم فى كل عصور التاريخ وهو ما حفظهم وأبقى عليهم عبر الأجيال ، لقد تعلموا عبر تاريخهم الطويل أن الدنيا لا تدوم لأحد وان القوى لن يبقى على قوته ، ومن هنا أصبح الصبر واحتمال المكاره غريزة متأصلة فى طبعهم ، ثم لا يلبثون أن يتحركوا على قلب رجل واحد فاذا بهم يفاجئون أعتى خصومهم والمتحكمين فيهم واذا هذا الشعب الهادىء المطواع يبدو وكأنه قد استسلم نهائيا يضطرب كأشد ما يكون الاضطراب ويثور ويفرض ارادته ولم تستطع أى قوة فى الدنيا الا أن تخضع لهذه الارادة ، نقول ذلك بمناسبة موقف الشعب المصرى من هذه التغيرات التى بدأت تجرى على صعيد مصر والتى لم يكن اعلان الأحكام العرفية الا أول فصل فيها ، فسوف تتوالى الفصول وتعلن الحماية على مصر ، وسوف يخلع الخديو ويعين سلطان جديد ، بل سوف يتصور الانجليز ان مصر قد تحولت الى ضيعة لهم وان المصريين لا يزيدون عن كونهم قطيعا من الماشية ، وسنرى كيف ردت مصر على ذلك كله فى خاتمة المطاف بما أذهل الدنيا كلها وملأها بالأعجاب وقد دفعنا الى كتابة هذه الملاحظة رغبتنا أن يطالع القارىء المصرى ما هو آت من الأحداث المؤسفة فى

هدوء وسكينة فلا يقطع نفسه حسرات كما فعل عبد الرحمن الرافعى وهو يرى تصرفات الانجليز المتالية وهى تفيض بكل التحدى وغطرسة القوة ، دون أن يحرك المصريون ساكنا .

٧ نوفمبر منشورات عسكرية وخطابات متبادلة :

بعد أن فرض الانجليز الأحكام العرفية بارادتهم الخاصة شكلا وموضوعا ، أعلنوا بعد ذلك عدائهم لتركيا ورسم قائد الجيوش الانجليزية للمصريين أولا حدود الحالة الجديدة ، تذكروا أنه لا يزال فى مصر حكومة وانه قد يكون من الخير ادخالها فى الصورة بصفتها حكومة ، فنرى ممثل انجلترا السياسى يخطر حكومة مصر ما قرره حاكم مصر العسكرى . وفيما يلى نص هذه الوثائق التاريخية :

قطع العلائق بين انجلترا والدولة العلية :

« أنا اللفتننت جنرال جون غرانفل مكسويل قائد جيوش صاحب الجلالة البريطانية فى القطر المصرى قد كلفت بأن أعلن أنه من يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ أصبحت بريطانيا العظمى وتركيا فى حالة حرب » .

ولو انه منذ ابتداء الحرب الفاشية بين جلالته وبين امبراطورى المانيا والنمسا قد أقدمت الحكومة العثمانية مرارا تحت تأثير نفوذ أعداء جلالته على خرق حرمة الحقوق المكتسبة لجلالته بمقتضى القوانين الدولية والمعاهدات فان حكومة جلالته قد تحاشت مقابلة هذه الأعمال بمثلها تحاشيا دقيقا حتى أرغمت على ذلك . ليس فقط بسبب الاستعدادات الحربية فى سوريا التى لا يمكن الا أن تكون موجهة ضد القطر المصرى بل بسبب خرق حرمة الحدود المصرية بواسطة عصابات مسلحة وباعتداء قوات الدولة العثمانية البحرية على أملاك أحد حلفاء جلالته تحت قيادة ضباط المانيين بدون سبب يحملها على هذا الاعتداء . فان بريطانيا العظمى تحارب الآن لغرضين وهما الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى كسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال واستمرار هذا القطر على التمتع بالسلم والرخاء اللذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطانى فى ٣٠ سنة .

ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصرية أية مساعدة . ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالى وتطلب اليهم الامتناع على اى عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو أداء اى مساعدة لاعدائها .

الامضاء

(ج.ج.مكوسويل)

فريق قائد الجيوش البريطانية بالقطر المصرى

فأرسل القائم بأعمال معتمد بريطانياالعظمى بمصر الى رئيس النظار الخطاب الآتى :

فأرسل القائم بأعمال معتمد بريطانيا العظمى بمصر الى رئيس النظار الخطاب

« القاهرة فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٤

« يا عطوفة الوزير

« اتشرف بأن ارفع لعطوفتكم مع هذا صورة المنشور الذى اصدره جناب قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى

« وترون عطوفتكم من هذا المنشور ان السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن القطر المصرى وبالتدابير التى يستدعيها هـذا الدفاع أصبحت منحصرة فى يد القائد العام وان حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافظـا للسلطة التى له فى الأمور الملكية الخاصة بنظارته .

الامضاء

(ملن شيتهام)

فأجابه عطوفة رئيس مجلس النظار بالخطاب الآتى :

« القاهرة فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٤

« الى جناب المحترم المستر ملن شيتهام نائب معتمد بريطانيا العظمى فى مصر

« يا جناب الوكيل

« علمنا ما جاء فى منشور جناب قائد الجيوش البريطانية العام فى القطر المصرى الذى بعثتم به الى .

« ونظرا لغياب سمو الجناب الخديو الذى نستمد منه سلطتنا اتشرف بابلاغكم بأننا سنستمر انا وزملائى على ادارة أعمال نظارتنا الملكية تجنبا للمضار التى تلحق بالبلاد اذ تعطلت حركة ادارتها الداخلية .

الامضاء

(حسين رشدى)

واليك صورة المنشور المنوه عنه فى هذه المكاتبات :

« أنا جون جرنفل مكسويل . نظرا لما لدى من السلطة وبصفتى فريق قائد الجيوش البريطانية فى القطر المصرى أقرر ما يأتى :

« انه لمناسبة الأحوال التى اقتضت اعلان الحرب بين بريطانيا العظمى وتركيا يقتضى أن كل ما جاء فى قرار مجلس نظار الحكومة المصرية الصـــادر بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ لمـا نشبت الحرب مع جلالة ملك بريطـــانيا العظمى وبين امبراطور المانيا يسرى مفعوله على الدولة العثمانية فيما يختص بالسفن التجـارية العثمانية التى تكون داخل الموانىء المصرية أو داخلة اليها فانه لا يسمح لها بأى وقت لمبارحة الميناء الموجودة فيه .

الامضاء

الخديو وتركيا واعداد حملة لدخول مصر :

مذ اشتعلت نيران الحرب فى أغسطس من هذا العام والاتجاه فى تركيا كان ينحو نحو الاشتراك فى الحرب الى جوار الألمـان وكانت المـانيا قد بذلت قبل الحرب قصارى جهدها لضم تركيا الى جبهتها فلما ان قامت الحرب بالفعل تضاعفت هذه الجهـود فأمدت تركيا بالكثير من السـلاح والخبراء العسكريين والمـال لتدعيم قوتها العسكرية . وقد اتجه هم تركيا بتشجيع من الألمان نحو اعداد حملة لغزو مصر ولذلك فعلى الرغم من أن تركيا لم تدخل الحرب رسميا الا فى نوفمبر فاننا نرى الحديث عنها يدور منذ اليوم الأول لنشوب الحرب ، نرى ذلك فى مذكرات الزعيم محمد فريد أولا ثم فى مذكرات شفيق باشا ثانيا .

ووقف الخديو فى بادىء الأمر مترددا بطبيعة الحـال ، ولكنه عندما تأكد من نوايا الانجليز حيـاله وأنهم لن يرضـوا بغير عزله ، فقـد غادر كتشنر مصر فى اجازته الصيفية وكله عزم وتصميم على خلع الخديو ، ولم يحل دون ذلك الا قيام الحرب وتعيين كتشنر بالذات وزيرا للحربية ، ولم تكن انجلترا فى عجلة من أمرها كما هو شـأنها دائما فاكتفت كمـا رأينا فى ابقاء الخديو خارج مصر ، ثم رأت أن تبعـده عن الاستانة فطلبت منه الاقامة فى ايطاليا على ما مر بنا ، ولكن الخديو رفض ذلك وبهذا تحددت المواقف ورأى عباس نفسه مضطرا للانحياز الكامـل الى جانب اعداد حملة تركية تدخل مصر وقد تعلق أمله فى بادىء الأمر بهذه الحملة واسرع فى تنظيم صفوف المصريين خارج مصر وكان على رأسهم محمد بك فريد الذى لم يتردد فى مصالحة الخديو ووضع يده فى يده ، بعد أن أصبح الخـــديو يمثل فى نظره رمز استقلال مصر ، ومنذ اللحظة الأولى وقف فريد بك موقفا واضحا صريحا محـــددا يتفق مع مبادئه التى جاهد وتشرد فى سبيلها ، فهو مع تسيير حملة تركية لاجلاء الانجليز عن مصر ، ولكنه فى نفس الوقت لم يشـأ أن يستبدل احتلالا انجليزيا بآخر تركى ، فرفع شـعار مصر للمصريين وارتدى شـارة تحمل هذا الشعار ، ومن هنـا كان صلحه مع الخـــديو بعد أن اشترط عليـه أن يعلن الدستور ، وقـد استجاب الخديو لهذا الشرط ، فوقع منشورا يقضى باعلان الدستور وسنجىء بنص هـــذا المنشور والذى لم يقدر له أن يشهد النور ، وقد أغضب هذا الموقف الاتراك من

محمد فريد وشكوا من شعار مصر للمصريين ولكن محمد فريد لم يبال بهم وغادر الاستانة حتى يحتفظ بحريته .

حديث عن الحملة :

فى مذكرات شفيق باشا حديث طويل ومسهب بل و (ممل) عن الأقاويل التى دارت بين الحكومة العثمانية وبين الخديو حول هذه الحملة ، وعندما كانت فى دور التفكير لم يتردد الأتراك فى بذل الوعود السخية للخديو من ان الغرض منها سيكون هو اجلاء الانجليز وإعادة الخديو الى أريكته ، ولكن عندما بدأ الاستعداد الجدى لتنظيم الحملة بدأ اغفال شأن الخديو ، حتى اذا شرعت الحملة فى السير تجاهل الرئيس الذى عين لقيادتها وهو جمال باشا الخديو جملة وتفصيلا فاعتذر عن مجرد مقابلة الخديو قبل سفره محتجا بضيق الوقت ، وفعل ما هو أكثر دلالة من ذلك بأن اصطحب معه بعض المصريين الذين اشتهروا بعدائهم للخديو ، وعندما أرسل الخديو بضعه من ركاله ليكونوا بانتظاره فى أماكن معينة ، طلب منهم جمال باشا مغادرة هذه الأماكن وهكذا وضحت النيات بما لا يدع مجالا للشك ان الأتراك لا يستهدفون من وراء حملتهم الى مصر الا استعادة نفوذهم الكامل بعد احتلالها وانتهى الأمر بأن خشى الخديو على حياته ، فترك الاستانة ليعيش فى فيينا ، وبانتقاله الى فيينا كان الستار يسدل نهائيا عليه باعتباره شخصا يؤثر عن قرب أو بعد فى سير الحوادث فى مصر ولكننا قبل أن نطوى صفحته نريد ان نسجل ما شعرنا به ونحن نطالع مذكرات شفيق باشا بمدى الهم والقلق اللذين كان يعيش فيهما الخديو وكل من يحيط به فلأول مرة تضطرب مذكرات شفيق باشا وتصبح مجرد ثرثرة بلا هدف أو غاية مهوشة مضطربة ، لا تتضمن أى حوادث ذات بال .

نص منشور الخديو الذى أعلن به الدستور :

وعدنا من قبل باثبات نص المنشور الذى كان محمد فريد قد نجح فى حمل الخديو على توقيعه وهو يقضى باعلان الدستور وقد قدمنا بأنه لم يشهد النور وكان الخديو هو الذى أمر بايقاف توزيعه بل واحراقه ، فليس له والحالة هذه اى قيمة تاريخية من أى نوع كان ولكننا نثبته لأنه آية على صلابة محمد فريد ووضوح اهدافه فيا طالما طالب الخديو باعلان الدستور ، وها هو ذا ينجح فى خاتمة المطاف لحمل الخديو على هذا الاعلان واليك نص المنشور :

« أبناء مصر والسودان الأعزاء !

« ها قد أتت الساعة لخلاصكم من احتلال أجنبى وطىء البلاد من ٣٢ سنة مضت بدعوى انه مؤقت ، وانه لتأييد الأريكة الخديوية كما تدل عليه تصريحات الحكومة الانجليزية ، ووعود رجالها الرسميين العلنية ، ولكنه ما مضت عليه الاعوام حتى نسى الوعود بالجلاء . وتداخل فى شئون البلاد الادارية والسياسية ، فتصرف

فى مالية الحكومـــة تصرف المالك المبذر ، واعتدى على حقوقنا فى السودان ، واحل أبناءه مكان الوطنيين فى الوظائف العمومية . وسلب استقلال القضـــاء ، وسن القوانين الماسة بالحرية الشخصية والمضيقة على حرية الفكر والخطـابة والكتـــابة والاجتماع ، وقاوم رغباتنا ورغبات رعايانا فى انتشار التربية والتعلم الصحيح فى أرجاء القطر ، وفى منح البلاد دستورا كاملا يتناسب مع أحوال التقدم العصرى ،

ولمـا أعلنت الحرب الحاضرة بين الدول العظمى ، جاءت الحكومة الانكليزية فمنعتنا عن الرجوع الى مصر ، مقر العرش الخديوى ، ودعتنا لترك الاستانة والرحيل لايطاليا فرفضنا هذا الطلب رفضا باتا ، واعتبرناه أقصى ما تتعـدى به هـذه الدولة على حقـوق الخديوية المصرية ، واعتبرته الدولة العليـة صاحبة السيادة على مصر اعتداء على الفرامانات الشاهانية ، ولمـا كانت رغبات جلالة الخليفة المعظم وحكومته السنية ، هى تأييد هذه الفرامانات لتمام رفاهية البلاد المصرية والسودانية ، فقد اقتضت ارادة أمير المؤمنين تسيير جيش عثمانى عديد مظفر على القطر المصرى لاعادة الحالة الى ما كانت عليه قبل سنة ١٨٨٢ ، وقـد رأينا أن نسير مع هذا الجيش حتى يتم له النصر بمعاونتكم بعضكم البعض وقيامكم بتمهيـــد كل الوسائل لتسهيل مأموريته ، واستعدادكم لاستقبالنا واســـتقباله بما هو معهود فيكم من الحميـة الوطنية والاخلاص لجلالة الخليفة المعظم ، ولنا ولبلادكم وبما ان الامل وطيـد فى نجاحنا بمعونته تعالى ، فاننا نعلن من الآن منحكم الدستور الكامل والغاء القوانين المنافية للحرية واعادة الضمانات لاستقلال القضاء والعفو عن المجرمين السياسيين، ومن صدرت ضدهم أحكام أو رفعت عليهم دعاوى بسبب الحوادث الأخيرة والعمل على تعميم التعليم وترقيته وكل ما فيه تقدم البلاد المـادى والأدبى والسهر على راحة سكانها وتوفير أسباب سعادتهم ، ها هى الفرصـة فانتهزوها . وليكن شعاركم خلاص مصر ، مع احترام أرواح وأموال سكانها الأجانب ، فانه ليس لنا مقام فيها غير جيش الاحتلال ، حقق الله الآمال » .

الزلزال السياسى فى مصر – ديسمبر ١٩١٤ – اعلان الحماية :

خلع الخديوى – حسين كامل سلطانا :

بينما كان الخديو يعيش فى حلمه الكبير بقرب عودته الى مصر بعد طرد الانجليز منها ، وكان الأتراك يعدون أنفسهم لدخول مصر واستعادة سلطانهم بها بعـــد طرد الانجليز . كان الانجليز يضربون ضربتهم التى طال انتظارها ، فأعلنوا الحماية على مصر رسميا ، وخلعوا الخديو وأقاموا البرنس حسين كامل سلطانا على مصر ، واليك نصوص هذه الوثائق التى كانت بمثابة الزلزال السياسى الذى حل بالبلاد .

اعلان الحماية البريطانية

١٨ ديسمبر ١٩١٤

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته فأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها .

(جريدة الوقائع المصرية ١٨ ديسمبر)

— ٢ —

خلع الخـــديو

عبـــاس الثـــانى

يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لاقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر السابق على الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الامير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على (١) فقبله .

كتاب السلطان حسين كامل الى حسين رشدى باشا :

« عزيزى رشدى باشا : ان الحوادث السياسية التى وقعت فى هـذه الأيام ادت الى بسط بريطانيا العظمى حمايتها على مصر ، والى خلو الأريكة الخـديوية وبهذه المناسبة ارسلت الحكومة البريطانية الينا رسالة نبعث بصورتها اليكم لنشرها على الأمة المصرية موجهة فيها نداءها الى ما انطوى عليه فؤادنا من عواطف الاخلاص نحو بلادنا لكى نرتقى عرش الخديوية المصرية بلقب « السلطان » وستكون السلطنة وراثية فى بيت محمد على طبقا لنظام يقرر فيما بعد .

« وقد كان لنا بعد أن وقفنا حياتنا كلها الى اليوم على خدمة بلادنا أن يكون الاخلاد الى الراحة من عناء الأعمال مطمع أنظارنا الا اننا بالنظر الى المركز الدقيق الذى صارت اليه البلاد بسبب الحوادث الحالية قد رأينا القيام بهذا العبء الجسيم وأن نستمر على خطتنا الماضية فنجعل كل ما فينا من حول وقوة وقفا على خـــدمة

---

(١) البرنس حسين كامل هو أحد أبناء الخديو اسماعيل .

الوطن العزيز ، هذا هو الواجب المفروض علينا لمصر ولجدنا المجيد محمد على الكبير الذى نعمل على تخليد الملك فى سلالته .

« وبما فطرنا عليه من الاهتمام بمصالح القطر سنوجه عنايتنا على الدوام الى تأييد السعادة الحسية والمعنوية لجميع أهاليه ، مواصلين خطة الاصلاحات التى بدىء العمل فيها ، لذلك ستكون همة حكومتنا منصرفة الى تعميم التعليم واتقانه بجميع درجاته ، والى نشر العدل وتنظيم القضاء بما يلائم أحوال القطر فى هذا العصر ، وسيكون من أكبر ما نعنى به توطيد أركان الراحة والأمن العام بين جميع السكان وترقية الشئون الاقتصادية فى البلاد .

« أما الهيئات النيابية فى القطر فسيكون من أقصى أمانينا أن نزيد اشتراك المحكومين فى حكومة البلاد زيادة متوالية .

« ونحن على ثقة بأننا فى سبيل تحقيق هذا المنهاج سنجد لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية خير انعطاف فى تأييدنا ، واننا لموقنون بأن تحديد مركز الحكومة البريطانية فى مصر تحديدا واضحا بما يترتب عليه من ازالة كل سبب لسوء التفاهم، يكون من شأنه تسهيل تعاون جميع العناصر السياسة بالقطر لتوجيه مساعيها معا الى غاية واحدة . واننا لنعتمد على اخلاص جميع رعايانا لتعضيدنا فى العمل الذى أمامنا ، ولوثوقنا فى كمال خبرتكم وبما تحليتم به من الصفات العالية واعتمادا على وطنيتكم ، نطلب منكم مؤازرتنا فى المهمة التى أخذناها على عاتقنا وندعوكم بناء على ذلك الى تولى رياسة مجلس وزرائنا والى تأليف وزارة تختارون أعضاءها لمعاونتكم وتعرضون اسماءهم على تصديقنا العالى ونسأل الحق جلت قدرته ان يبارك لنا جميعا فيما نبتغيه من نفع الوطن وبنيه .

١٩ ديسمبر ١٩١٤

حسين كامل

نص الرسالة
التى بعثت بها انجلترا
الى السلطان حسين

« يا صاحب السمو » كلفنى ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أن أخبر سموكم بالظروف التى سببت نشوب الحرب بين جلالته وبين سلطان تركيا وبما نتج عن هذه الحرب من التغيير فى مركز مصر .

كان فى الوزارة العثمانية حزبان ، أحدهما معتدل ، لم يبرح عن باله ما كانت بريطانيا العظمى تبذله من العطف والمساعدة لكل مجهود نحو اصلاح فى تركيا ، ومقتنع بأن الحرب التى دخل بها جلالته لا تمس مصالح تركيا فى شىء ، ومرتاح

لمـا صرح به جلالته وحلفاؤه من ان هذه الحرب لن تكون وسيلة للاضرار بتلك المصالح، لا فى مصر ولا فى سواها ، وأما الحزب الآخر فشرذمة جند بين أفاقين ، لاضمير لهم، ارادوا اثارة حرب عدوانية بالاتفاق مع أعداء جلالته ، معللين أنفسهم أنهم بذلك يتلافون ما جروه على بلادهم من المصائب المالية والاقتصادية ، اما جلالته وحلفاؤه فمع انتهاك حرمة حقوقهم قد ظلوا الى آخر لحظة وهم يأملون ان تتغلب النصـــائح الرشيدة على هذا الحزب ، لذلك امتنعوا عن مقابلة العدوان بمثله حتى أرغموا على ذلك بسبب اجتياز عصابات مسلحة للحدود المصرية ، ومهاجمة الأســـطول التركى بقيادة ضباط المانيين ثغورا روسية غير محصنة .

« ولدى حكومة جلالة الملك أدلة وافرة على أن سمو عباس حلمى باشا خديو مصر السابق قد انضم انضماما قطعيا الى أعداء جلالته منذ أول نشوب الحرب مع المانيا ، وبذلك تكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخـديو السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت الى جلالته » .

ولما كان قد سبق لحكومة جلالة الملك أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته فى مصر انها اخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة ، فقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الاخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية .

فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعه تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت اليها بالصفة المذكورة ، وكذلك جميع الحقوق التى استعملتها فى البلاد مدة سنى الاصلاح الثلاثين الماضية وقد رأت حكومة جلالته أن أفضل وســـيلة لقيام بريطانيا العظمى بالمسئولية التى عليها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا ، وأن تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العـائلة الخديوية طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد .

« بناء عليه قد كلفتنى حكومة جلالة الملك أن ابلغ سمـــوكم أنه بالنظر لسن سموكم وخبرتكم قد رؤى فى سموكم اكثر الأمراء من ســلالة محمد على اهلية لتقلد منصب الخديو مع لقب « سلطان مصر » واننى مكلف بأن أؤكد لســموكم صراحــة عند عرضى على سموكم قبول عبء هذا المنصب أن بريطانيا العظمى اخــذت على عاتقها وحدها كل المسئولية فى دفع أى تعد على الأراضى التى تحت حكم سموكم ، مهما كان مصدره ، وقد فوضت لى حكومة جلالته أن أصرح بأنه بعد اعلان الحماية البريطانية يكون لجميع الرعايا المصريين أينما كانوا الحق فى أن يكونوا مشمولين بحماية حكومة جلالة الملك .

وبزوال السيادة العثمانية تزول أيضا القيود التى كانت موضوعة بمقتضى الفرمانات العثمانية لعدد جيش سموكم وللحق الذى لسموكم فى الانعام بالرتب والنياشين .

وأما فيما يختص بالعلاقات الخارجية ، فترى حكومة جلالته ان المسئولية الحديثة التى أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها تستدعى أن تكون المخابرات من الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الاجنبية بواسطة وكيل جلالته فى مصر .

وقد سبق لحكومة جلالته أنها صرحت مرارا بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد ولكن من رأى حكومة جلالته أن يؤجل النظر فى تعديل المعاهدات الى ما بعد انتهاء الحرب .

« وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية على أن أذكر سموكم بأن حكومة جلالته طبقا لتقاليد السياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها فى حماية الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية والتدرج فى اشراك المحكومين فى الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة فى الرقى السياسى . وفى عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد بل انها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا العظمى فى البلاد تحديدا صريحا يؤدى الى سرعة التقدم فى سبيل الحكم الذاتى . وستحترم عقائد المصريين الدينية احتراما تاما ، كما تحترم الآن عقائد نفس رعايا جلالته على اختلاف مذاهبهم ، ولا أرى لزوما لأن أؤكد لسموكم بأن تحرير حكومته لمصر من ربقة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية فى الاستانة لم يكن ناتجا عن اى عداء للخلافة ، فان تاريخ مصر السابق يدل فى الواقع على أن اخلاص المسلمين للخلافة لا علاقة له البتة بالروابط السياسية التى بين مصر والاستانة ، وأن تأييد الهيئات النظامية الاسلامية فى مصر والسير بها فى سبيل التقدم هو بالطبع من الأمور التى تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الاهتمام ،وستلقى من جانب سموكم عناية خاصة ، ولسموكم أن تعتمدوا فى اجراء ما يلزم لذلك من الاصلاحات على كل انعطاف وتأييد من جانب الحكومة الانجليزية ، وعلى أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على اخلاص المصريين ورويتهم واعتدالهم فى تسهيل المهمة الموكولة الى قائد جيوش جلالته المكلف بحفظ الأمن فى داخل البلاد ومنع كل عون للعدو ، وانى انتهز هذه الفرصة ، فأقدم لسموكم أجل تعظيماتى .

(ملن شيتهام)

جواب رشدى باشا

« مولاى : أقدم لسدة عظمتكم السلطانية مزيد الشكر على ما أوليتمونى من الشرف السامى اذ تفضلتم على بأمركم الكريم الذى فوضتم به الى تأليف هيئة الوزارة » .

نعم اننى وكيلا عن ولى الامر السابق ولكننى مصرى قبل كل شيىء ، وبصفتى مصريا قد رأيت من المفروض على أن أجتهد تحت رعايتكم السلطانية فى أن اكون نافعا لبلادى ، فتغلبت مصلحة الوطن السامية التى كانت رائدى فى كل أعمالى على جميع ما عداها من الاعتبـارات الشخصية لهذا فانى اقبل المهمة التى تفضلت عظمتكم السلطانية بتفويضها الى ، ولمـا كان زملائى بالأمس الموجودون الآن بمصر متشربين بنفس هذه العواطف وهم لذلك مستعدين للاستمرار فى معاونتهم لى ، فاننى أتشرف بأن أعرض على تصديق عظمتكم السلطانية رفق هذا المشروع المرسوم السلطانى بتشكيل هيئة الوزارة الجديدة واننى بكل احترام لعظمتكم السـلطانية العبد الخاضع المطيع المخلص (١) .

تحريرا فى ٢ صفر سنة ١٣٣٣ (١٩ دسمبر ١٩١٤)

(حسين رشـــدى)

وقوع الزلزال :

وهكذا تم ما اعتبرناه زلزالا فى حيـاة مصر السياسية ، فتغير وضع مصر السياسى من الناحية الشكلية من دولة تنتسب (بالاسم) الى دولة الخلافة العثمانية مع استقلالها بادارة شئونها (٢) الى دولة تحت الحماية الانجليزية تتنسب الى الامبراطورية البريطانية اسميا وعمليا ، ولقد قدمنا أن مصير مصر كان معروضا على بساط بحث انجلترا منذ قامت الحرب ولم تشأ انجلترا أن تتعجل الحوادث ، وكان ثمة رأى قوى فى انجلترا يرى أن تضم مصر نهائيا الى الممتلكات البريطانية وان تحكم مباشرة من لندن بمعرفة وزارة المستعمرات (٣) ولكن رؤى أخـيرا الابقاء على شخصية مصر مع تحويل الوضع الذى كان قائما من الناحية الفعلية الى وضع رسمى ، وعندنا أن ذلك قد تم تحت ضغط التطورات العسكرية فقد كانت قوة المانيا لاتزال متفوقة فيما يشبه الاكتساح لفرنسا فى الغرب وروسيا فى الشرق ، وكانت تركيا تعبىء قواتها لغزو مصر ولم يكن يؤخرها الا اعلان الحرب وها هى ذى قـد أعلنتها ، ولكل هذه الأسباب رأت انجلترا أن تضمن وقوف السلطة المصرية الحاكمة الى جوارها وهى ما كانت لتفعـل ذلك لو اعلنت ضم مصر الى الممتلـكات البريطانية ، ولا بد ان حسين رشدى باشا بالذات قد لعب فى ذلك دورا حاسما فوعد باستعداده للتعاون مع انجلترا اذا هى وقفت عند حـــد اعلان الحماية ، واستمرار الأحوال على ما هى عليه وكذلك فعـل السلطان حسين كامل ، فلا بد ان يكون قـد علق قبوله للعمل تحت امرة الانجليز على الاحتفاظ بشخصية مصر والتدرج بها فى سبيل الاصلاح من كافة النواحى ، بما فى ذلك الناحية الدستورية كما يبين ذلك فى خطابه الى حسين رشدى

---

(١) مجموعة القرارات والمنشورات سنة ١٩١٤ ، ص ٣٧٧ .

(٢) وان كان الاحتـلال الانجليزى هو الذى أصبح يدير هذه الشئون .

(٣) كشف حسين رشدى بنفسه هذه المعلومات فيما بعد .

ورد هذا الاخير عليه ، ووعود انجلترا كما سجلت فى رسالة ممثلها فى مصر . وبالجملة فنحن نتصور أن الامر كله قد تم باتفـاق الانجليز مع الحكومـة المصرية بدليل ان هذا التغيير على ضخامته مر بكل هدوء بمجرد اعتلاء السلطان حسين كامل العـرش ، وهو وضع غير طبيعى ما كان ليتم لولا أن الامر كان متفقا عليه بكل تفاصيله مقدما .

رد فعل الحوادث فى تركيا :

يحدثنا شفيق باشا على أن خلافا حدث بين الدوائر الحاكمة فى تركيا حـول المكان الذى سيشنقون فيه حسين كامل بعد أن يدخلوا مصر ويقبضون على هـذا (الخائن) فأقترح بعض الوزراء أن يشنق فى ميدان معين فى استنبول فأعترض وزير آخر بأن المارة فى هذا الميدان قليلون والأفضل أن يشنق على الجسر ليراه كل الناس .

رد الفعل عند عباس :

أما الخديو عباس فقد كان وقع الخبر عليه لأول مرة ، كما لو كان يتوقع ما هو اسوأ منه اذ راح يردد (على ما قاله شفيق باشا الذى نقل اليه الخبر) عبارة « فى محله » وليس الا بعد أن زال عنه الروع ، أن راح يفكر فى مصير ممتلكاته فى مصر وكيف يتوصل لرفع ابنه عبد المنعم على العرش ونحن نتصور أن الخديو كان قد يئس أخيرا من عودته الى عرش مصر أيا كانت نتيجة الحرب .

رد الفعل فى مصر :

أما عن رد الفعـل فى مصر فقد كان هو الوجوم المطلق والتجهم ، وقد قدمنا ان انجلترا قد مهدت لهذه الاجراءات باعلان الأحكام العرفية وبالتالى اوقفت العمـل بالقوانين العـادية ، وفرضت الرقابة على الصحف حتى ليحدثنا الدكتور محمـد حسين هيكل فى مذكراته ان الرقابة منعت نشر مقال له فى الجريدة وترك عبد الحميد حمـدى (١) الذى كان يشرف على الجريدة بعد انسحاب لطفى السيد من الاشراف على تحريرها ، فراغا أبيض بدلا من المقـالة بعد أن وضع توقع هيكل فى نهايتها أى أنه عندما اعلنت الحماية وخلع عباس حلمى كانت مصر تحت الأحـكام العرفية والرقابة على الصحف مفروضة والاجتماعات فضلا عن المظاهرات ممنوعة والجمعية التشريعية معطلة فكان من الطبيعى ان يمر كل شىء فى هدوء .

ولا يعجب هذا الموقف استاذنا عبد الرحمن الرافعى فيعلن اسفه ان كان هـذا هو موقف الشعب المصرى ، ويرى فى تصرف أخيه الأستاذ أمين الرافعى الذى أوقف صدور جريدة الشعب (٢) (لسان الحزب الوطنى) ابتداء من يوم ١٧ نوفمبر حتى لا يكون مضطرا لنشر قرار وضع مصر تحت الحماية الذى بات صدوره متوقعا .

---

(١) اشتغل عبد الحميد حمدى معنا فى مصر الفتاة عام ١٩٣٦ .

(٢) يقول لنا عبد الرحمن الرافعى أن أخاه اتخذ هذا القرار بعد مشاورته .

ونحن مع تقديرنا للدوافع النبيلة التى أوحت بهذا القرار نشك فى صوابه .

وقد كان هذا الأسلوب السلبى هو الذى عزل الحزب الوطنى عن قيادة الجماهير عندما جد الجد وتحركت هذه الجماهير فى الوقت المناسب .

رأينا فى الموضوع :

والذى نراه نحن بوحى من تجارتنا الخاصة وعبر رصدنا لتاريخ مصر الطويل انه لا الأحكام العرفية ، ولا الرقابة على الصحف ولا قوة الانجليز الباطشة هى التى أرهبت المصريين وحالت بينهم وبين اظهار الاحتجاج وانما تعلم المصريون بغريزتهم ان يدعو للقدر اولا ان يقول كلمته وعلى ذلك فقد احسوا جميعا بوجوب الانتظار الى ما سوف تسفر عنه الحرب من انتصار هذا الجانب او ذاك ، هـذا من ناحية الطبقات المشتغلة بالسياسة ، اما من ناحية سواد الشعب العامل فقد قدمنا انه لم يكن يعنيه من امر الحكم الا ان يعمل وينتج فى سلام وامن وعدل ، وقد ظل هـذا متوفرا حتى ساعة وقوع هذاالزلزال السياسى بل وبعده مباشرة وقد اشتهر البرنس حسين كامل قبل تعيينه سلطانا بأنه « ابو الفلاح » اى ان الانجليز احسنوا الاختيار .

وهكذا مر هذا التغيير فى « القمة » فى هدوء ونعومة كما قدمنا وهـذا هو شأن مصر فى كل الأزمات الرهيبة التى تتعرض لها وقد كان هذا هو عين موقف مصر عند قيام الحرب العالمية الثانية .

ولقد أثبت الشعب المصرى وجوده وحيويته فحقق ارادته فى أعقاب الحربين بطريقة معجزة .

ارتباط طفولتى بالأحداث الجارية :

بقى أن أشير الى أن القدر شاء أن يربطنى فى طفولتى بهذه الأحداث الجارية فاذا بوالدى « محمود افندى حسين » يعين كاتبا للحسابات فى ديوان هذا السلطان الجديد وهكذا تعلمت فى طفولتى حب هذا السلطان الذى يعمل والدى فى ديوانه ، وستشهد الأعوام التالية تمتعنا بهذه المكانة التى وصلنا اليها ، حيث كنا ننتقل فى صيف كل عام الى الاسكندرية ولحى (الأنفوشى) بالذات لنكون الى جوار مكان عمل أبى فى سراى رأس التين ، غير أنى أرجىء الحديث عن ذلك مؤقتا ، لأتناول بالحديث بيتنا فى القاهرة لصلة ما كان يجرى حولنا بالحوادث الجارية .

بيت (الأفندى) فى حارة الجمالة :

أحسب ان الاضافة التى يتعين على ان اساهم فيها فى تاريخ مصر الذى عشته، ان أصور الحياة التى كنا نحياها ، وان أسجل المشاعر والأحاسيس التى كانت تحيط بنا ، ليكون فى ذلك الى جوار الحوادث التاريخية المحددة ما يعطى صورة بقـدر

الامكان عن حياة مصر وسوف يقتصر حديثى فى هذه الفترة عن المحيط الضيق الذى كنت أتحرك فيه باعتبارى طفلا يوشك ان يتم الرابعة عند وقوع هـــذه الأحداث واول ما اتحدث عنه هو بيتنا فى حارة الجمالة الواقعة فى احشاء حى طولون .

فقد استطاع هذا الرجل الحصيف المدبر القادم من كفر البطيخ الذى هو والدى ان يشترى بيتا صغيرا لسكناه فى هذا الموقع من طولون وربما اشتراه بمائة جنيه او دون ذلك ، وقد كان هذا البيت المتواضع يتناسب مع كاتب الحسابات الذى يعمل فى مختلف دوائر الكبراء والعظماء من امثال (السيد بك عبد العال فى سمنود ــ او عزيز باشا او البرنس كمال الدين حسين) ولكنه بعد ان اصبح فى ديوان الســلطان كان لا مناص من جعل البيت متناسبا مع هذا المنصب الجديد وهكذا اعيد تشــكيل البيت ، ليكون بيتا انيقا نظيفا يتألف من ثلاث طوابق فى كل طابق ثلاث حجـــرات وصالة ما عدا الدور الارضى حيث كانت به حجـــرتان فقط احداهما لاســـتقبال الضيوف (مندرة) وباقى المساحة تؤلف فناء الدار .

هذا هو بيت الأفندى الذى لم يكن ينافسه بل ويزيد عليه فى الشهرة والاهمية، الا بيت الشيخ ضيف والذى كان يكتسب اهميته من كون صاحبه شيخ طريقة فى بعض جهات الأرياف ، وما كان يستتبعه ذلك من تدفق انواع الخيرات عليه من غلال وطيور وأغنام وأبقار وفواكه وكان الى جوار بيتنا الكتاب الذى يذهب اليه صـــبية الحارة لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وكان الى جوار بيتنا الطـريق الذى يوصلنا الى ما كنا نسميه « الجبل » . والجديد الذى دخـل دنيانا نحن الأطفال بعد نشوب الحرب ان راحت تتكرر امامنا كلمة « البصاصين » اشـــارة الى انتشـــار جواسيس الحكومة فى كل مكان ليقبضوا على كل من يتكلم فى السياسة ، ولكن الصورة التى كانت ترمز لتطلعـــات الجماهير فى هـــذه الفترة هى صورة شيخ وصف بأنه « مجذوب » كان يمسك بسيف من الخشب وبوق ينفخ فيه ويجمعنا نحن الاطفـال والغلمان لتهتف وراءه « الله حى ، عباس جى » .

وقد بقى لكى تكمل صورة الحياة « فى حارة الجمالة » ان أسجل اننا لم نــكن نعرف المياه الجارية فى البيوت ، وكنا نستجلب الميـاه عن طريق (السقاء) وكان يملأ قربته من عربة محملة بالمـاء وقد كان من اعظم الاصلاحات التى شهدتها الحـــارة فيما بعد عندما جىء بحنفية مياه عامة حيث تعين الشركة موظفـــا من طرفها يجلس فى (كشك) ويبيع المـاء ، ولا بد أن الحارة كانت يوما ما مقرا لسكنى أصـــحاب الجمال ، ولكن فى الوقت الذى اتحدث عنه كان قد اصبح يقيم فى (حوش) الجمالة من يشتغلون بنقل الأحجار اللازمة للمبانى . وفى الطرف الآخر من الحـــارة حيث تتصل الحارة بالطريق العام فكانت دنياى كطفل تنتهى عنده ولكنه كان يقع عنـــد هذه النهاية « الزيات » وهو التعبير الذى كان يطلق فى هاتيك الأيام على البقـــال

وكنت أتردد عليه كل يوم لنحصل على حاجتنا من الفول (والزيت الحار) والليمون بنصف قرش أو أقل من ذلك ولندع الحديث عن وصف الحياة خارج هــذه المنطقة الى مناسبة أخرى عندما سيتاح لى ان انتقل من الكتاب الى مدرسة «صرغتمش» الأولية وهى احد الكتاتيب المتطورة التى انشئت لترقية التعليم كما تصوروا عنــدئذ فكانت هى أول العلة فيما أصابنا حتى الآن من سيادة الأمية .

الضــائقة المــالية :

وقد انتهى عام ١٩١٤ بضائقة مالية خانقة سببها قيام الحرب وما صحب ذلك من غلق الأسواق وتعذر النقل ، ونرى ان نرجىء الحديث عنها بالتفصيل الى مطلع العــام الجــديد .

***

عام ١٩١٥

الأحوال العامة ١٩١٥ :

منذ اشتعلت نيران الحرب العامة فى أغسطس عام ١٩١٤ وقـد تلاحقت الأحداث على ما قدمنا واصبح ما يشغل الناس هو تدبير معاشهم يوما بعد يوم واذا كان سكان المدن لم يتأثروا كثيرا فى حياتهم اليومية الا بمقدار ارتفاع سعر هذه السلعة أو تلك أو ندرة بعضها فى الأسواق فـلم يكن الأمر كذلك فى الريف حيث أحـدث نشـوب الحرب توقف شحن القطن مؤقتا فتدهورت أسـعاره بطريقة مخيفة اذ وصل سـعر القنطار الى ما دون الجنيه وأصرت الحكومة على تحصيل ضرائبها بالكامل فـلم يكن لدى الفلاحين ما يفعلونه الا أن يبيعوا حلى نسـائهم بثمن بخس مما حـدا بالحكومة أن تعين من قبلها أشخاصا تكون مهمتهم تقدير ثمن عادل للذهب يسدد الفلاحون على أساسه الضرائب .

ولعل هذه الصورة تكشف عن مدى الضيق الذى تعرض له الفلاحون فى السنة الأولى من سنين الحرب ولم يكن ذلك الا أول الغيث .

الأمل فى الحملة التركية :

ولا شك أن جماهير الشعب الطيب سواء فى المدينة أو الريف كلمـا اشتد بهم الضيق راحوا يتطلعون الى هذه الحملة التركية الزاحفة الى مصر باعتبارها معقـد الرجاء وقبل أن نعرف مصير هذه الحملة نرى أن نشير الى مجريات الحرب باعتبارها أصبحت العنصر الحاسم الذى يؤثر على الشعوب المشتركة فيها وقد رأينا كيف فرض على مصر فرضا أن تربط مصيرها بالامبراطورية الانجليزية .

الموقف العسكرى فى مطلع عام ١٩١٥ :

لخص كتشنر الذى عين وزيرا لحربية انجلترا كمـا قدمنا الموقف العسكرى فى مطلع عام ١٩١٥ ، فكتب الى السير جون فرنش الذى كان قائدا للحملة الانجليزية فى فرنسـا فقال :

« اننى أرى أنه يتوجب علينـــا الآن أن نعترف بأن الجيش الفرنسى عاجز عن اختراق خطوط الجبهــة الألمــانية المقابلة كما انه حتى لو اخترقها عاجز عن ان يفتح فيها صدعا كافيا لاتخاذه نقطة ارتكاز فعــالة فى اجبار الألمــان على التراجــع ومعنى هــذا انه من الواجب الاعتراف بأن الجبهــة الألمــانية فى شــمال شرق فرنســا قلعة لايمكن أخذها بالقوة كما لايمكن زحزحتها . أى أن أى هجوم تقوم به لن يكون الهجوم الحاسم فى الحرب .

هذا الذى كتبه كتشنر فى الثانى من يناير سنة ١٩١٥ يلخص مجريات الحــرب التى استمرت بعد ذلك أربع سنوات حيث تحولت المعــارك الى مجرد مجازر دموية يموت فيها مئات الألوف دون الوصول الى أية نتيجة حاســـمة وقد كان هــذا هو التطور الذى طرأ على الحرب مذ عرفت الدنيا الحروب ، فقبـــل حرب سنة ١٩١٤ كانت الدول تتصادم بأقوى ما عندها فى معركة يتوقف على نتيجتها سير الحــرب اذ تستسلم الدولة التى هزمت على الفور ، أما هذه المرة فقـــد انتهى ذلك وبدأ نمط جــديد للحرب فقد استطاع الألمــان أن يقوموا بهجوم كاسح أوصلهم الى أبواب باريس ولكن الفرنسيين أوقفوهم على نهر المارن وعبثا حاول الألمــان أن يتقــدموا بعــد ذلك بوصة واحدة ، وها هو ذا كتشنر يقول لنا ان ما يصدق على الألمــان فى عدم استطاعتهم زحزحة الفرنسيين ، فانه يصدق على الفرنسيين من عدم قدرتهم على زحـــزحة الألمــان .

الجبهة الشرقية !

على أن الأمور لم تكن كذلك فى الجبهة الشرقية ، وكانت مصر الآن قــد أصبحت أحد عناصر هذه الجبهة الشرقية اذ سرعان ما سوف تتحول الى قاعدة عســكرية تحشد فيها انجلترا جيوشها من سائر أنحاء الامبراطورية كما سنشير الى ذلك فى حينه ، وقد بدأت مصر تأخذ دورها الخطير بعــد فشــل الحملة التركية الفشل الذريع الذى منيت به .

٣ فبراير : فشل الحملة التركية :

أو على وجه التحقيق والدقة ليلة ٣ فبراير طويت صفحة هــــذه الحملة التركية التى أرجفوا بها طويلا والتى اعتبر الأتراك أن نجاحها شىء مؤكد الى الحد الذى رأينا كيف أن احدى المشاكل كانت اختيار المكان الذى سيشنقون فيه السلطان حسين .

أما الخديو فكلما مضى استعدادهم للحملة قدما الى الأمام كلما أبعدوه عن أن يكون له أى صوت فيها .

وأخيرا وصلت الحمــلة الى شاطىء قناة السويس الشرقى فى أواخر يناير وكانت تتألف من عشرين ألف جندى جهزتهم ألمــانيا بأجـــود الأسلحة التى كانت متاحــة

فى هاتيك الأيام ، واذا كان القائد الرسمى لهذه الحملة هو من عرف فى تاريخ العرب بـ « جمال باشا السفاح » فقد كانت القيـادة الفعلية لمن أسـموهم « المستشارون الألمـان » وفى ليلة ٣ فبراير تصور الأتراك بقدرتهم عبور القناة فمدوا كوبريا محملا على الزوارق تجاه مدينة الاسماعيلية ، ومن المحقق أن الانجليز كانوا على علم بالخطة وموعد تنفيذها فاستعدوا لها .

يقول لنا شفيق باشا فى مذكراته : « ان ضابطا مصريا يدعى محمد توفيق كان على رأس فرقة من الجيش المصرى (سـلاح المدفعيــة) رفض أن يكون له دور فى مواجهة القوة القادمة فنحى من مكانه وحل محله ضابط مصرى آخر يدعى احمـد حلمى ، كان هو الذى تربص بالقوة المهاجمة حتى مدت الكوبرى فى هدوء حتى اذا بدأت القوة فى العبور أصلاها نارا حامية من مدفعه الرشاش فى الوقت الذى صوبت فيـه المدفعية نيرانها على الكوبرى فمزقته واستشهد أحمد حلمى فى هـذه المعركة ولم يلبث الأتراك ان كفوا عن محاولة العبور واعتبرت المسألة منتهية وسحبوا حملتهم دون أن يفكروا فى استئناف المحاولة بأسلوب آخر وهكذا انتهت هـذه الحملة التى تعلق بها الألمـان أنفسهم . والحق أن السبب الأكبر لفشـل هذه الحمـلة هو سوء نية الأتراك تجاه مصر وما كانوا يضمرونه لهـا وقد رأينا مـدى ضيق الحكومة التركية بالخديو ، ومدى ضيقهم بمحمد فريد وشعاره مصر للمصريين حتى ليحدثنـا فى مذكراته ان الشيخ عبد العزيز شاويش وقد كان وثيق الصلة بالأتراك نصـحه بأن يخلع عن صدره شارة « مصر للمصريين » اذ هى قذى فى عين الأتراك فـرد عليــه محمد فريد ردا عنيفا وازداد اصرارا وتمسكا بالشارة على سبيل التحدى ، ولم يلبث بدوره أن غادر الآستانة تحرزا من بطش الأتراك به .

وهكذا عندما وصلت الحمـلة التركية على أبواب مصر لم تكن تنطوى الا على مجرد قوة عسكرية غاشمة فكان هذا مآلها وللشعب المصرى غريزة تهـدى تصرفاته فلم يتجاوب بطريقة عملية مع هذه الحملة .

راى الدكتور محمد حسين هيكل :

ويرى الدكتور محمد حسين هيكل الذى عايش هذه الأحداث بحس مرهف ان السبب فى فشل هذه الحملة الذريع يرجع الى ان الأتراك كانوا يتوقعون أن يقـوم الشعب المصرى بثورة متى سمع بوصول الأتراك على ضفة القناة بينما كان المصريون يؤقتون انتفاضتهم ضد الانجليز بعد آن يعبر الأتراك القنـاة فلما آن فشل الأتراك فى تعدية القناة اعتبر الموضوع مؤجلا للدورة الثانية ، ونحن نعـلم الآن ان لم تكن هناك جولة ثانية ، وسنرى كيف قامت مصر بثورتها غداة صيرورة انجلترا سـيدة الدنيا كلها وستراها تقوم بثورتها غير مستعينة بأحد الا الله عز وجل .

جهل المصريين بفشل الحملة :

واذا كان الانسان لا يصدق الا ما يجب أن يصدقه فلن تجد فى مذكرات محمد فريد أية اشارة الى مصير هذه الحملة أما شفيق باشا والذى قدم مذكراته للطبع بعد انتهاء الحرب ومعرفة نتائجها فقد تحدث عن الحملة وما انتهت اليه ولكن ذلك كله حدث فيما بعد حتى لتراه ينشر صورة للكوبرى الذى حاول الأتراك ان يعبروا القناة عليه نقلا عن مجلة اللطائف المصورة ولكنك تحس من مذكراته التى كان يكتبها فى هذه الفترة أنه ظل هو والخديو وسائر المصريين فى الخارج يجهلون كل شىء عما حدث فى داخل مصر .

أما المصريون داخل مصر فلم يصدقوا حرفا واحدا مما قيل لهم ، فضلا عن أن يطربوا لما قيل من أن فرقة الطوبجية الخامسة من الجيش المصرى قد اشتركت فى القتال وكانت هى بالذات أو بالأخرى لرئيسها (أحمد حلمى الذى استشهد) الفضل فى افشال العملية كلها .

ولما هنأ السلطان حسين الجنود المصريين على دورهم الباهر وقلدهم الأوسمة والنياشين ، لم يزد ذلك المصريين الا انكارا واستنكارا لكل شىء وسنرى أول مظهر لذلك بعد قليل .

عرض الزوارق التركية :

ولقد أتيح لى وأنا طالب صغير أن أشهد ثلاثة أو أربعة زوارق معروضة فى حديقة الحيوان وقيل لنا أنها الزوارق التركية التى غنمها الانجليز فى معركة القناة وأذكر أن ذلك لم يبهجنى والمهم الآن أن الصدمة التى لحقت بالمصريين عقب اعلان الحرب وما تلا ذلك من تطورات متلاحقة (اعلان الأحكام العرفية ـ اعلان الحماية ـ خلع الخديو ـ تعيين السلطان حسين (وقد زال بعد أن انتهت الحملة التركية الى ما انتهت اليه ، وبدأ الرأى العام يستأنف التعبير عن مشاعره ، وستظل هذه المشاعر تأخذ صورا فردية أو طائفية حتى تتدفق فى نهاية الحرب على صورة طوفان .

عبــور وعبــور :

ولست أستطيع وأنا أكتب هذا التاريخ الآن (١٩٧٤) أن أحبس نفسى عن مقارنة محاولة الأتراك عبور القناة منذ قرابة ستين سنة ، حيث كان عرض القناة قد لا يصل الى نصف عرضها الحالى وكانت مكشوفة امامهم بامتدادها ومن ورائها شعب يتوق لمساعدتهم ومع ذلك فقد فشلوا هذا الفشل المزرى أقارن ذلك بعبور الجيش المصرى على امتداد مائة وعشرين كيلو مترا حيث كان على الشاطىء الشرقى أقوى تحصينات عرفتها الدنيا المسماة بخط بارليف .

موقف وموقف :

ولقد ذكرنى قول الدكتور هيكل من أن المصريين كانوا ينتظرون نجاح الأتراك فى عبور القناه وصيرورتهم فى الضفة الشرقية لكى يقوموا بالثورة ، فلما لم تقم الثورة ، ذكرنى ذلك بما كنا اعتزمناه للقيام بثورة مسلحة ضد الانجليز فى الحرب العالمية وخططنا لذلك بقدر امكانياتنا ثم حددنا الوقت (ساعة الصفر كما يقولون) بهجوم ألمانيا على الجزر البريطانية الذى كان متوقعا من يوم لآخر ، فلما لم يقع هذا الهجوم ، وعلى عكس ذلك هاجمت ألمانيا روسيا ، حبط مشروع الثورة المسلحة نهائيا ــ ذلك أننا قدرنا أن هجوم الألمان على الجزر البريطانية سيجعل قواتها فى مصر عاجزة ومشلولة وبغير أمل فى أن تصلها نجدات .

ولذلك فاننى أفهم تماما هذا الذى قاله الدكتور هيكل من ان بعض المصريين فى مطلع الحرب العالمية الأولى قد وقتوا ثورتهم على الانجليز بحدث معين فلما لم يقع هذا الحدث لم تقم الثورة .

١٨ فبراير ــ أول مظاهر الاحتجاج :

حيث تنفس السلطان حسين كامل الصعداء لفشل الأتراك فى عبور القناة وبالتالى استقرار الأرض تحت أقدامه فراح يتحرك فأعلن عن عزمه على زيارة مدرسة الحقوق ولكن الطلاب كانوا يفكرون ويقدرون على خلاف تقديره فانتهزوا فرصة زيارة السلطان حسين لمدرسة الحقوق لكى يقوموا بما يمكن اعتباره أول حركة جماعية عكست مشاعر الرأى العام ضد السلطان حسين باعتباره صنيعة الانجليز وأداتهم فى فرض الحماية على مصر .

وقد اختار الطلاب وسيلة رائعة تحقق ارادتهم فى اعلان الاحتجاج وفى ذات الوقت لا تعرضهم لبطش السلطات الانجليزية ، فاتفقوا على أن يتغيبوا عن المدرسة فى يوم الزيارة ، ويبدو ان الخطة نجحت نجاحا عظيما بحيث لم يشهد السلطان عند زيارته سوى عدد قليل .

ونستنتج هذا النجاح من عنصرين : الأول ضيق السلطات بما حدث ضيقا عظيما حتى لنراها تفصل أعدادا ضخمة من الطلبة لتغيبهم فى هذا اليوم ، وقد أثبت أستاذنا عبد الرحمن الرافعى أسماء الطلاب المفصولين فى كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩ .

الثانى : سعد زغلول يحدثنا عن هياج السلطان :

على أن ما علنا نستنتج نجاح الحركة نجاحا غير عادى هو ما أثبته سعد زغلول فى مذكراته فقد أتيح له أن يقابل السلطان حسين عقب هذه الزيارة بعدة أسابيع (٨ مارس) واليك ما قال :

كان « السلطان) يتأوه من الأحوال العامة ومن أحوال تلامذة الحقوق والمعلمين الخديوية ، وقال انه يئس من صلاحهم وأنهم تجاوزوا كل حد فى الوقاحة وقلة الأدب

وأن قلبه أصبح كسيرا من الأمة وشدة جهالتها وسوء أخلاقها وأنه عزم ألا يهتم بأمرها وأن يتركها وشـأنها تعبث الحـوادث بها ، فأخذت (أى سـعد باشا) استعطفه بأنه لا ينبغى أن ييئس ولا أن يأخذ كل الأمـة بما صدر من بعض صغار أبنائها فقـال ان الكبار كذلك سفهاء وأحلامهم طائشة ، انظر كيف فعل أحمد بك عبد اللطيف المحامى فانى دعوته ضمن من عزمته من المحامين عندى فحضر قبل اليوم المعين الى هنا وقال لسعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء انه لا يعترف بسـلطنة البرنس حسين ولا ينبغى له أن يعرفه كسلطان كما لا ينبغى أن يعرف الحماية الانجليزية ولا أن يتردد عليها .

قال السلطان وكنت أقدر أن أطلب من مكسويل قائد جيش الاحتـلال نفيه الى مالطة لكونه ثوريا ولكنى لم أقبـل ذلك . ومنذ جلوسى وأنا أسـدى المبرات وأوالى النعم وأواسى ذوى الحاجات ولكن ليس فى الأمـة من يعرف ذلك ولا من يقـدره ، تلامذة الحقـوق لم يفعلوا ما فعلوا الا باغراء أشـخاص معلومين فان مرسى بدر أحـدهم قريب الصوفانى وقـد كنت أعرف قبل زيارتى مدرسة الحقوق بثلاث أيام ما عزم التلاميذ عليـه ولكنى ما باليت ولن أبالى وقـد كنت سعيت فى عـزل دنلوب من المعارف ولكنى عدلت عن هـذا العزم واستبقيته ولم أفاتح السير مكماهون الا قليلا من المرات وسأقابله وأرى أن طـرق التعليم الجارية غـير ملائمة وكذلك لا ينبغى أن تعقد الجمعية التشريعية ولا أن يكون لهـا صوت قطعى فى أمور الأوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسبية لأن الأوقاف تحت سلطتى ولا وجه لأن اتنازل عنهـا . فقلت مهلا مولاى لا تترك اليأس يستولى على نفسك فان حياتك ليست لك ولكنها للأمـة وأنت سلطان وهـذه رعيتك فاصبر عليها وقابل ما يبـدو من بعض الطائشين من أبنائها بالحلم والرفق . وسياسة الأمم تقتضى كثيرا من التحمل وسعة الصـدر ، وبمناسبة الجمعية التشريعية أعرض لعظمتكم أن اعطاءها سـلطة الرأى فى المسـائل السالف ذكرها مع القيود التى علمنا بها من الجرائد ومن بعض النظار غير مناسبة خصوصا وقـد علمت من هؤلاء أنهم هم الذين وضعوا هذه القيود فقاطعنى الحديث وقال : أنه لا يحسن الآن اعطاء أى شىء ما وعاد الى حـدته الأولى فقلت اذا كان أحمد عبد اللطيف خرج عن حـده فبقية المدعوين من المحـامين وهم قريبا من الثلاثين عرفوا لعظمتكم جميل اكرامها واذا كان بعض تلامذة الحقوق وهم القليل فان اكثرهم وجميع تلاميذ مدرسة القضاء ومدرسة المعلمين الناصرية اظهروا من الاحترام ماسر قلبكم فلماذا يتغلب شر القليل على خير الكثير وانصرفت وقلبى مملوء اسفا من هذه الحالة وشعرت بأن هذه الحدة تبدو من السلطان تعليلا لعجزه عن فعل الخير بصـفة كونه سلطانا لأنه من عهد جلوسه لغاية الآن لم يأت بعمل عام ترتاح اليه الأمة ولكنه أتى بأعمـال شخصية كايلام الولائم والاحسان على بعض المحتاجين وغـير ذلك (انتهى ما قاله سـعد زغلول) .

دلالة هذه الوثيقة :

وعندنا ان هذه الوثيقة التى أوردها الأستاذ محمود سليمان غنـام فى كتابه عن سعد زغلول لا تكشف لنا فقط عن مدى تأثير مظاهرة الطلاب فى نفس السـلطان

حسين ولكنها تكشف كذلك عن نفسية سعد زغلول وموقفه من الأحداث الجارية فقد قرر عباس محمود العقاد على طريقته من التدليل ان سعد زغلول كان ضد اعلان الحماية بدليل عدم عقد الجمعية التشريعية خوفا من أن تعلن رفضها للحماية ومن ناحية أخرى أصدر الأستاذ محمود غنام كتابا بذل فيه جهدا مشكورا ليدفع عن سعد زغلول ما تصور أنه يغض من شأن سعد زغلول لقبوله الحماية . مع أن ما يجعل سعد زغلول عظيما فوق العظماء هو تحريضه على ثورة سنة ١٩١٩ كما سوف نرى ثم استطاعته بعد ذلك أن يصبح علما على الثورة وأن يقودها بكل شجاعة حتى تحقق أهدافها .

فكل محاولة للغض من عظمة سعد زغلول بمقولة أنه كان يساير الانجليز ، قول لا غناء فيه ويعلى من قدر وقفته بعد ذلك هذه الوقفه الباسلة فى وجه الانجليز فليس يقلل من عظمة غاندى أنه وقف الى جوار انجلترا فى الحرب العالمية الأولى فلما تنكرت انجلترا لعهودها مع الهند وقف غاندى فى وجه انجلترا وتحداها وقد سبقه الى ذلك سعد زغلول وكونه ساير الانجليز مسألة ليست محل شك أو جدل وموقفه من الحماية وموافقته عليها تنطق بها كل كلمة فى هذا الحوار الذى دار بينه وبين السلطان حسين ، اذ كان يطالبه بالصبر ويلفت نظره الى مظاهر الرضا به .

فاذا كانت قلة من الشر « طلبة الحقوق » قد أبدوا عدم رضائهم فان أغلبية الطلاب انحازوا الى جانب الخير .

واذا كان أحد المحامين قد أعلن أنه لا يعترف بالسلطان فان الكثير من المحامين عرفوا فضله .

وهذا كلام من يعتبر نفسه والسلطان حسين كامل فى (قارب واحد) .

ولا يمكن لقائل أن يقول أن سعد زغلول كان يجامل السلطان ، فهو لم يتردد فى اعلان عدم موافقته على بعض قيود يراد فرضها على سلطات الجمعية التشريعية ولو لم يكن من صناع هذا النظام الجديد لما راح يطالب السلطان حسين بالثبات مكررا عبارة « لا تيأس » . وبقى أن نلفت النظر الى أن سعد زغلول يكتب فى مذكراته التى يبثها الانسان خلجات نفسه فلو كان يستنكر الحماية لظهر ذلك فى تعبيراته بل ان تصرف سعد زغلول عند نهاية الحرب يظهر أنه تصرف تصرف الرجل الذى اعتبر نفسه قد خدع عندما صدق القول بأن الحماية ضرورة تزول بزوال مقتضياتها ، فلما أن تنكر الانجليز لعهودهم حاربهم سعد زغلول محاربة النمر الكاسر كما سنرى أما ما استنتجه العقاد فقد كان عكس ما أستنتجه هو الصحيح فقد دافع حسين رشدى عن نفسه فيما بعد أنه حال دون عقد الجمعية التشريعية حتى لا يصدر عنها قرار تعترف فيه بالحماية .

٨ ابريل الاعتداء على السلطان حسين :

كان تغيب الكثيرين من طلبة مدرسة الحقوق عند زيارة السلطان حسين لها هو أول مظاهر الاحتجاج على السلطان حسين ولكن هذه المظاهر لم تلبث أن تعددت

وبدأت تأخذ مظهرا أشد خطورة وهو محاولة الاعتداء على حياته ففى يوم الخميس ٨ أبريل أطلق شاب ما مدينة المنصورة يدعى محمد خليل يشتغل تاجر خردوات ، أطلق النار على موكب السلطان أثناء مروره بشـــارع عابدين ولم يزد ما أطلقه على رصاصة واحدة لم تصب السلطان بطبيعة الحال واستقرت فى جلد العربيـــة ، وفى تصورى أن الجانى لم يكن يتصور أنه بهـذه الرصاصة سيقتل السلطان فالأمر لا يعدو ان يكون مظاهرة للاحتجاج والارهاب .

وقبض على المتهم وحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم قبل انقضاء نفس الشهر وقد حوكم بمعرفة مجلس عسكرى بريطانى .

٢٥ ابريل معركة الدردنيل :

على أن ما كان يشغل الجماهير فى الدرجة الأولى هو ما كان يدور من المعارك فى ميادين الحرب احساسا من الجماهير بغريزتها أن أحوال مصر فضلا عن مستقبلها أصبح مرتبطا أشد الارتباط بنتيجة الحرب ولعل من أعظم المعـارك التى تتبعهـــا المصريون معركة الدردنيل لشدة ارتباطها بمصر من أكثر من ناحية :

ــ فقد كانت تدور ضد الدولة العثمانية التى تتعلق بها عواطف المصريين وكانت المعركة تتجه الى قلب تركيـا فى الصميم فلو قدر للانجليز أن يحتلوا الدردنيـل ومنطقته التى كانت تسمى « غاليبولى » لاتصلوا بالروس ولأطبقوا على عنق تركيا .

ــ على أن معركة الدردنيل كانت تتصل بمصر والمصريين اتصالا مباشرا ذلك أن مصر كانت هى القاعدة البحرية والبرية لحملة الدردنيل فقـد حشـدت انجلترا الأعداد الضخمة من الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين فى القاهرة واسـكندرية وبورسعيد فارتكبوا الكثير من الفظائع مما سنعرض له فى ختام السنة .

وليس من مهمتنا أن نخوض فى سير الوقائع الحربيـة وتفاصيلها وحسبنا أن نشير الى أن كتشنر وتشرشل هما اللذان خططا لهذه الحملة التى فشلت ذريعا بعد أن كبدت انجلترا خسائر جسيمة فى الأرواح ولقد كانت مصر أسبق من بريطانيا فى الاحســـاس بفشل العملية للأعداد الوفيرة من الجرحى الذين تدفقوا على مصر ففصت بهم المستشفيات بل وانشئت لهم عشرات المستشفيات الميدانية ، وذلك فضلا عن الكآبة التى كانت تسود العائدين وازدياد لهفة السلطان على حشد من كانوا يسمونهم (المتطوعون) مما سنتحدث عنه عند الاستعراض العام لحوادث السنة .

الجمعة ٩ يونيو ــ تكرار الاعتداء على السلطان :

بينما كان السلطان حسـين فى طريقه من سراى رأس التين الى المسجد لأداء فريضة الجمعة اذ ألقيت على عربته قنبلة من أحد النوافذ وقد شاءت المقـادير أن لا تنفجر القنبلة وقد قبض فى هذا الحادث على تسعة شبان من بينهم شفيق منصور وأحد أولاد عنايت ولكن التهمة وجهت الى اثنين وهما نجيب الهلباوى ومحمد شمس الدين وقد حوكما أمام محكمة عسكرية بريطانية فأصدرت عليهما الحـكم بالاعدام

شنقا ، ولكن السلطان حسين الذى كان قد بدأ فى التطور الذى سيقربه الى قلوب الأمة أبدل عقوبة الموت بالأشغال الشاقة وهكذا نجا نجيب الهلباوى ليقابلنا فيما بعد (١٩٢٥) باعتباره شاهد الاثبات الأول فى قضية مقتل « السير لى ستاك » .

٤ سبتمبر – الشروع فى قتل الوزير ابراهيم باشا فتحى :

فى الرابع من سبتمبر وبينما كان ابراهيم باشا فتحى الذى عين وزيرا للاوقاف فى ٢٠ مايو بدلا من اسماعيل باشا صدقى الذى استقال ، بينما كان الباشا المذكور يقف فى محطة مصر فى انتظار قطار الوجه القبلى اذ انقض عليه شاب يدعى صالح عبد اللطيف وهو يعمل موظفا بوزارة المالية ، فطعنه بخنجر ثلاث طعنات أصابته بجروح بالغة ولكنها لم تسفر عن موته وقبض عليه وحوكم وحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم وكان يتعين على الانجليز أن يفهموا من هذه الحوادث وتنوع أساليبها وشخصيات القائمين فمن تاجر خردوات من المنصورة يستعمل مسدسا الى شباب من الاسكندرية يستعملون قنبلة الى موظف يستعمل خنجرا ان الأمر هو سخط عام يعبر عن نفسه بشتى الأشكال وأن هذه الحركات التى تشبه أن تكون فقاقيع هى نذير الغليان ، ولكن الانجليز لم يلقوا بالا لشىء من هذا وسيزدادون فى عسفهم .

رشدى باشا يفزع :

ولكن هذه الحوادث المتتالية لم تؤثر على الانجليز بحكم ظروفهم فقد كانت كافية لاخراج حسين باشا رشدى عن صمته فيدافع عن نفسه وعن عظمة السلطان ويكشف الستار لأول مرة عن اتجاه انجلترا فى مستهل الحرب الى ضم مصر الى ممتلكات بريطانيا ، وليس الا جهوده وجهود عظمة السلطان من انقذ مصر من هذا المصير ونحن نرى أن نثبت الحديث بنصه باعتباره صورة من حياة مصر السياسية فى هذه الفترة .

١٥ سبتمبر حديث حسين رشدى :

تحدث حسين باشا رشدى رئيس الوزراء مع صاحب جريدة الأهرام ومدير الجورنال دى كير بالحديث التالى الذى نشر فى الجريدتين فى آن واحد بالعربية والفرنسية :

« ان انتصار الألمان وحلفائهم انتصار تام فى أوربا قد يمكن أن يحمل – مع الفرض الضعيف – على الظن بأن انجلترا تحمل على ترك مصر .

« الا أن الذين يتصورون أن نتيجة انتصار الألمان ستكون تسليم مصر الى ابنائها ما هم الا سذج بله . فاذا ما انتصر الألمان لا تكون النتيجة عندنا سوى قيام دولة مقام أخرى أى حلول المانيا محل انجلترا وبعبارة أخرى أن تحل محل دولة معروفة بحريتها الواسعة وهى انجلترا أمة عرفت بالسلب وأعمال الحديد والنار وهى المانيا : أكثر الأمم جشعا فى امتصاص دماء المستعمرات تفيض علينا من زاد عن بلادها الغاصة بالسكان وتحل أبناءها محلنا فى تنظيم شئوننا الخ .. وكل تاريخ المانيا

وكل أعمالها وكل كتابات كتابها المشهورين تدل على أنها لا تعمل الا لغرض واحد وذلك الفرض هو « أن تمحو الشعوب لتحـــكم فوق جثثها » ثم قال : « ألم تمح أمة الهيروروس التعساء حتى آخر واحد منهم لأن جريمتهم فى نظرنا كانت أنهم أرادوا فى أفريقيا الجنوبية أن يحفظوا الى جانبها مظهرا بسيطا من مظاهر الاستقلال » .

ثم قال : « ان هذه المكائد والمؤتمرات فضلا عن أنها غباوة وحماقة فانها ليست أقل منها قتلا لمصلحة الوطن . فانه لو قضى سوء الحظ بأن تفقـد سلطان البلاد كانت تفتح ثانية مسألة ضم مصر التى لم يكد بابها يقفل والتى كان لها فى انجلترا أنصار أقوياء ولا يزال لها هناك مثل هؤلاء الدعاة والأنصار » .

« الا أن أولئك الضالين الذين سلحوا أيديهم بسلاح الشر والآثام يجهلون الطور الشديد الخطر الذى اجتازته مصر منذ بضعة أشهر . وهم لا يعرفون الهوة البعيدة القرار التى كاد يهوى اليها وجود مصر السياسى »

« الا أنه متى كتب التاريخ الصحيح الفترة التى تقدمت بسط الحماية الانكليزية على مصر يرى الجميع ويعرفون أن حسين الأول اذا كان قد قبل عرش مصر فانما هو قد قبله بدافع وطنى محض . وهذا المثال العالى السامى الوطنية هو الذى حمل الوزارة التى أتشرف برياستها على أن تعقد العزيمة على العمل مع عظمته » .

ثم تكلم دولته عن مسألة محاولة اغتيال الوزراء فقال : « انهم لو نجحوا فى ابعادنا عن الوزارة فانهم ولا شك يكون لهم وزراء من الانجليز .

ثم قال : « ان صالح عبد اللطيف بدوى (المعتدى على فتحى باشا) عزا الى أننى قلت العبارة الآتية : « يجب سحق الأمة المصرية بضرب ناشئتها » .

وانى لأبرأ الى الله من هذا القول . أأنا أريد سحق الشعب المصرى وانا مصرى وأجدادى سفكوا دماءهم فى سبيل استقلال مصر ؟

وان أحد أجدادى انتصر على الجنرال فريزر الانجليزى فقابله بعـــد انتصاره الرجل الخطير الشأن محمد على فترجل ونزل عن جواده وقبله وكلما تذكرت ذلك تأخذنى هزة الفخر .

واذا كان جدى قد قاتل الانجليز حبا فى مصلحة مصر فان هـذه المصلحة نفسها تحملنى أنا اليوم على أن أماشيهم واضعا يدى بيدهم .

٢٧ اكتوبر تأجيل الجمعية التشريعية :

قدمنا أن الفصل الوحيد الذى انعقدت فيه الجمعية التشريعية هو فى مطلع عام ١٩١٤ وقد انتهى هذا الفصل التشريعى فى يونية ١٩١٤ على ان تعود للانعقاد فى أول نوفمبر من نفس السنة ، ولكن الحرب اندلعت فى أغسطس كما رأينا فتأجل الاجتماع الى أول يناير ١٩١٥ وجاء فى ديباجة الأمر بالتأجيل « نظرا للظروف الحالية التى من شأنها أن توقف وضع منهاج خاص للاصلاحات التشريعية فضلا عن أن تلك الظروف

قد تضطر السلطة التنفيذية فى كل حين الى اتخاذ تدابير استثنائية ومستعجلة » .

وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتأجيل الانعقاد الذى كان مقررا له شهر يناير ومن يناير الى فبراير ثم الى ابريل ثم الى أول نوفمبر بموجب مرسوم ٢٧ أكتوبر الذى نحن بصدده الى أجل غير مسمى ، وقد قدر لها ألا تعود الى الانعقاد أبدا حتى أعلن الدستور سنة ١٩٢٣ .

ما نفهمه من التأجيلات المتعددة :

ولقد قدمنا أن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد قد عزا هذه التأجيلات المتلاحقة الى خوف الانجليز من ألا تعترف الجمعية بالحماية ، ودافع حسين رشدى سنة ١٩٢٧ بأنه كان يؤجلها خوفا من أن تعترف بالحماية ، وعندنا أنه لو كانت حقيقة الأمر هذا أو ذاك لما كانت هناك مشكلة ولصدر أمر التأجيل الى أجل غير مسمى منذ وقت مبكر ولكن سلسلة التأجيلات القصيرة والمتلاحقة تظهر بوضوح أنه كان هناك رأى يوافق منذ البداية على تعطيل الجمعية التشريعية عن ممارسة نشاطها ، وغنى عن البيان أن هذا الرأى لا يمكن الا أن يكون هو رأى سعد زغلول فقد كان يعتبر نفسه باعتباره وكيل الجمعية المنتخب أنه أحق من يتكلم باسم الأمة ، ولو كان الأمر خالصا للانجليز لما قاموا وزنا لرأى سعد زغلول ، ولكن حسين رشدى والسلطان حسين كانا طرفين فى الموضوع وكلاهما كان لا غنى له عن مساندة سعد زغلول ، ومن هنا كان هذا الرأى الوسط بين التأجيل الى أجل غير مسمى، والتأجيل الى أجل محدد والى فترة قصيرة فلما ان اطمأن الانجليز نهائيا الى استقرارهم فى مصر بعد فشل الحملة التركية ، تغيرت سياستهم فعدلوا عن الملاينة ومن هنا كان التأجيل الى أجل غير مسمى فى ٢٧ اكتوبر .

نوفمبر وديسمبر ــ غزو السنوسى مصر :

تركنا الحديث عن حرب ايطاليا مع تركيا فى طرابلس عام ١٩١٢ واذا كانت هذه الحرب قد انتهت بهزيمة تركيا واتفاقها مع ايطاليا بالانسحاب من طرابلس ، فان الحرب لم تنته مع شعب ليبيا والذى كان يتزعمه «السيد أحمد الشريف السنوى» الملقب بالكبير ، رفض الاذعان لايطاليا وظل هو الحاكم الروحى والفعلى لاقليمى ليبيا (برقة وطرابلس) وانحصر نفوذ الايطاليين وسلطانهم على بعض المدن الساحلية وبخاصة طرابلس ، فلما أن قامت الحرب كان من الطبيعى أن تتعاون تركيا والمانيا مع السنوسى ، ولما أن فشلت حملة الأتراك على مصر من الشرق فكروا فى تحريض السنوسى على غزوها من الغرب ، وليس أدل على انعدام أى سلطان لايطاليا على ليبيا فى هذه الفترة هو استطاعة السيد أحمد الشريف السنوسى أن يعد هذه الحملة على مصر وأن يسلك بها طريق الساحل بالذات ونجحوا فى احتلال مدينة السلوم وسيدى برانى حيث انسحبت الحاميات منهما وتحصن الانجليز فى مرسى مطروح حيث دارت سلسلة من المعارك لم تكن حاسمة وقعت احداها عند « بير ماجدة »

فى ٢٥ ديسمبر وانتهى عام ١٩١٥ والانجليز مشغولون بدفع هذا الزحف السنوسى على مصر عن طريق الغرب .

مكماهون فى مصر :

وقبل أن تختم الحديث عن عام ١٩١٥ بذكر أحوال مصر العامة نرى أن نشير الى المعتمد البريطانى الذى كان يمثل السلطة الانجليزية فى مصر فى هذه الفترة وقد سجل اسمه فى التاريخ الحديث للعرب حيث كان هو الرجل الذى اتصل بالشريف حسين ليشجعه ويحرضه على الثورة على الأتراك ، اذ دخل معه فى مراسلات لهذا الغرض . ويعتبر « السير هنرى مكماهون » فريدا بين كل من شغل منصب المعتمد البريطانى فى مصر ابتداء من كرومر حتى ونجت مرورا بالدون جورست وكتشنر فالجميع كان قد سبق لهم العمل فى مصر والاحاطة بأحوالها باستثنائه هو الذى كان يجهل كل شىء عن مصر وقيل ان كتشنر هو الذى اختاره خصيصا لهذا المنصب ليظل هو صاحب الكلمة فى كل ما يتصل بشئون مصر .

وكان تقلده لوظيفته فى أوائل يناير من هذه السنة فلم يشارك فى الأحداث الخطيرة بمناسبة اعلان الحماية ومع ذلك فقد أدى جهله بأحوال مصر الى الاصطدام مع السلطان حسين كما سوف نرى ، الأمر الذى سيحمل انجلترا على تغييره واستبداله بالسير ونجت الذى سبق له العمل فى مصر .

الأحوال العامة فى مصر :

أحدث مجرد نشوب الحرب أسوأ تأثير على أحوال البلاد والشعب والآن وقد انقضى على نشوب القتال عام ونصف فقد بدأت هذه الآثار تتفاقم وبعد اطمئنان انجلترا الى رد الحملة التركية بدأت السلطة العسكرية تنهال على البلاد بالمظالم متذرعة بضرورات الحرب ومتطلباتها .

الاعتقال والمعتقلين :

وكان من أول ما فعلوه ليخلو لهم الجو هو اعتقال العناصر الوطنية النشطة من أعضاء الحزب الوطنى وليس المهم فى الاعتقال كثرة عدد من يعتقل ولكن المهم هو فى مبدأ الاعتقال ذاته اذ أنه يرهب الجماعة بمجرد الاعلان عن اعتقال انسان واحد وهو ما لمسته بنفسى عندما اعتقلت ونفر من زملائى ابان الحرب العالمية الثانية فقد كان عدد المعتقلين جميعا لا يتجاوز الخمسين معتقلا ولطالما تساءلت فى دهشة « أهذا العدد الضئيل خطر يهدد انجلترا » ولكنى سرعان ما اكتشفت أن وجود هذه القلة فى الاعتقال هو تحذير وانذار لكل من تحدثه نفسه بمضايقة السلطات وفى كتاب عبد الرحمن الرافعى عن ثورة سنة ١٩١٩ اسماء من اعتقلوا أو نفوا من مصر من أعضاء الحزب الوطنى ولكن أخى المجاهد الكبير محمد على الطاهر (١) وقد

(١) توفى فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٤ .

كان أحد الذين اعتقلوا فى هذه الحرب حدثنى عن زملائه المعتقلين من كل لون وطراز وهو نفسه كان فلسطينيا ، ولم تكن انجلترا قد دخلت فلسطين بعد فاعتقاله يبرهن لك على أن الانجليز كانوا يرهبون من يبذل اى نشاط سياسى .

نفى أمير الشعراء :

وقد كان أحمد شوقى أمير الشعراء أحد الذين نفوا من مصر باعتباره من رجال الخديو فأبعد الى أسبانيا ، حيث نظم قصيدته السينية الخالدة والتى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وايام انسى

وجاء فيها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

تسخير العمال :

ولقد تحدثنا عن الضائقة الاقتصادية التى ألمت بالبلاد وكيف ان الفلاحين باعو قطنهم بأبخس الأثمان وقد قدر ما نقص من ثمن القطن فى موسمى سنة ١٩١٤ و ١٩١٥ بمبلغ عشرين مليون جنيه وهو مبلغ جد باهظ فى تلك الأيام وقد رأينا كيف اضطر الفلاحون لبيع حلى النساء وبيع المواشى لسداد الضرائب ولكن ذلك كله لا يقاس الى النكبة الجديدة التى حلت بالشعب كله وهو سوق مئات الألوف من شباب ورجال الأمة بمقولة أنهم متطوعون للعمل فى السلطة العسكرية ، بينما كان واقع الحال انهم يساقون باكراه حتى لكانوا يربطون بالحبال فى بعض الأحيان ولما كان جمع هؤلاء قد عهد به الى عمد القرى ومشايخها فقد استغلوا هذه السلطة فى النكاية والتشفى ممن يخالفونهم ، وطريقا للرشوة والابتزاز لكى يتغاضوا عن بعض المتطوعين وقد ظلت هذه العملية تنمو وتتزايد مع استمرار الحرب حتى وصل من جمعوا بهذه الطريقة وحشدوا بالاكراه للعمل مع السلطة ١٢٠ر١٢٠٠٠ عامل وقد لا يتصور الكثيرون مدى ضخامة هذا العدد الا اذا استحضروا الحقائق التالية :

١ ــ ان عدد سكان مصر كانوا لا يزيدون عن اثنى عشر مليونا .

٢ ــ ان الأناث والأطفال والصبيان والشيوخ قد يصلون الى ثلاثة أرباع هذا العدد. ويكون معنى ذلك أنهم حشدوا كل القادرين على العمل تقريبا .

والآن فلننقل لك نص ما كتبته جريدة « الرائد العمالية » الانجليزية فى ٣ ابريل سنة ١٩١٩ بعد اندلاع الثورة فى مصر للكشف عن أسباب الثورة فراحت تصف نظام التطوع الذى سيقت به رجال مصر وشبابها . قالت المجلة :

« وضع نظام للتطوع ظهر عدم كفايته ، فصدرت الأوامر بأخذ العمال من الحقول بالاكراه وطريقته أن يدخل رجال الحكومة القرية وينتظروا رجوع الفلاحين

الى منازلهم فى الغروب فيحدقون بهم كالأنعام ، وينتقون خيرهم للخدمة ، فاذا رفض أحدهم هذا « التطوع الاجبارى » جلد حتى الاقرار بالقبول ، وعلى هـذا النحو ساقوا أطفالا من سن ١٤ سنة ، وشيوخا من سن السبعين ويزيد !

فأما الكشف الطبى فكان حديث خرافة ، فكانت تساق الجموع المريضـة من هؤلاء المساكين لتأدية الأعمال الحربية ، والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب فى الأعمال الشاقة ، وأصبح الجلد من الأعمال اليومية ، وكلف الأطباء بتنفيذ الجلد والكشف على المريض فى بقعة واحـدة ، حتى خاف المرضى الخلط بين صـفوفهم وصفوف المقدمين للجلد ، وان سوء الغذاء ورداءة الكسـاء وقلة الغطاء ، فضلا عن عدم وجود الخيام ، حيث يلتحف هؤلاء المساكين السماء ويفترشون الغبراء ، جعل هؤلاء الآدميين فريسة الأمراض الوبائية ، كالتيفوس وغيره ، وضاعف فى تأثير ذلك الجوع والبرد ، فكانوا يموتون كالذباب فى الصحراء ، وان كشف شهداء الأمراض والموتى لضخم ، ولكن من أين لنا به ؟ . .

وقد بلغت قسوة المعاملة حدا لم يأمن معه المرضى التقدم لطلب العلاج ، وكثيرا ما أعيد عمال القرى بعد أن أرجعوا لعدم لياقتهم ، وذلك بواسطة نظام « التطوع الاجبارى » وكثيرا ما رفض السماح لهؤلاء العمال بالعودة الى بلادهم عند انتهاء مدتهم حسب الوعود المعطاة لهم ، فنشأ عـن ذلك عدم قيام البريطانيين بالوفاء بعهودهم ، وبجانب مصادرتنا لهؤلاء الناس قد أعددنا مصـادرة جمالهم وحميرهم ودوابهم أيضا (الجيد منها على الأقل) فأصبحت الأعمال الزراعية متعذرة ، وارتفعت أثمان الحاجيات بمصادرتنا للمحصولات الزراعية ، فعم الغلاء ، وأصبح العيش متعسرا ، وأجور العمال كما هى ، فساءت حالة الفقراء والعمال بدرجة عظيمة لم تتمالك الصحف رغم الرقابة الحربية من الاشارة اليها ، فهل بعد هذا نستغرب اذا بلغ الكره لنا والحقد علينا مبلغهما فى قلب المصريين ! وهل يرضى كل هـذا جماعة الاستعمار ؟ » .

جمع الحمير وكل دواب الحمل :

وقد تحدث المقال فى ختامه عن الكارثة الأخرى التى ستظل تزيد وتتفاقم الى حد أوشك على تعطيل الزراعة فى مصر حيث كان الانجليز فى حاجة لدواب الحمل من حمير وبغال وجمال لاعداد حملتها عبر شبه جزيرة سينا لمحاربة الأتراك وقبل ذلك لخدمة الحشد الضخم فى معارك الدردنيل .

وعلينا ان نتصور فوق ذلك كله انه فرض على الفلاحين ان يقدموا قدرا معينا بثمن بخس من التبن والدريس وبقية الأعلاف .

وسـكان المـدن :

هذا هو الحال فى ريف مصر أما الأحوال فى مدن مصر القاهـرة والاسكنـدرية وطنطا ومدن القناة فقد أحدث تدفق القوات الوافدة من أنحاء الامبراطورية بعد أن أصبحت مصر قاعدة الحرب الرئيسية فى الشرق لونا جديدا من المصائب والكوارث،

وقد لا نعانى منها نحن سكان حى طولون والأحياء الوطنية المماثلة ولكن عانى منها كل من كان يسكن فى الاماكن التى يغشاها هؤلاء الجنود ومرة اخرى سنكتفى هنا لتصوير الحالة من هذه الناحية بنقل فقرتين احداهما وردت فى كتاب حوليات مصر لشفيق باشا . والثانية مقال لانجليزية عملت فى هذه الفترة ونشر مقالها فى الصحف الانجليزية عقب اندلاع ثورة سنة ١٩١٩ واليك أولا ما جاء فى حوليات شفيق باشا .

« وهو انه لسبب ما اتفق جماعة منهم (استراليون) على الدخول الى بيت من بيوت الدعارة بشارع وجه البركة فى رابعة النهار ولم يلبث المارون والجالسون الى المشارب فى ذلك الشارع الكثير الحركة ان رأوا النساء يلقين من نوافذ أعلى طابق من ذلك البيت الى الشارع . وبعد يسير من الوقت رأوا هؤلاء الجنود يصبون البترول على جدران الدار ثم يشعلون فيه النيران . كل هذا والناس ينظرون هم ورجال الشرطة الى هذا المنظر الذى يمثل القسوة والوحشية فى أجلى معانيها ولا يجرءون على الدنو من هؤلاء التعيسات لاسعافهن أو اطفاء ما أوقد هؤلاء الجند من لهب .

وأخيرا حضر رجال المطافىء والحكمدار ورجال الاسعاف فقام كل منهم بما فرض عليه .

وانسحب مرتكبو هذه الجرائم المنكرة آمنين مطمئنين .

ولقد كان هؤلاء العساكر وبخاصة عساكر المستعمرات يعاملون المصريين بشىء من الغلظة والاحتقار كما انهم كانوا يكثون من التعدى على بضائع الباعة المتجولين ويأخذونها نهبا بلا ثمن .

واليك الوثيقة الثانية لالقاء المزيد من الضوء على ما كان يقع فى هذه الأيام .

قالت « مس درهام » فى عدد ٢ ابريل سنة ١٩١٩ بجريدة الديلى نيوز :

« أقمت فى مصر من نوفمبر سنة ١٩١٥ الى ابريل سنة ١٩١٦ ، وانى أؤيد رأى الدكتور (؟) اذ يقول : بأن هذا الاضطراب يرجع الى سوء معاملتنا للمصريين ، ولقد ارتكب ولاة الامور فى مصر أسوأ الاغلاط ، اذ أتوا بجنود من المستعمرات الى البلاد المصرية منغير أن يذكروا لهم شيئا عنالسكان الذين سيعيشون بين ظهرانيهم ، وقد بلغ من جهل هؤلاء الجنود ان كانوا يظنون ان مصر بلاد انجليزية ، وان المصريين قوم دخلاء ، ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا الى هذه الديار ، ولقد سمعت غير واحد من الاستراليين يقول : « لو كان الأمر بيدى لما ابقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد ! » وكانوا يعاملون المصريين بأشد أنواع القسوة والاحتقار ، ولقد رأيت بعينى فى الكنتين الذى كنت به ، جنديا يضرب بقدمه خادما مصريا أمينا لا لشىء سوى أنه لم يفهم أمرا أصدره اليه ، وأبصرت مرة أخرى جنديا يلكم شابا متعلما فى صدره ، ويغتصب منه عصا ثمينة اشتهتها نفسه ، وسمعت كثيرا من النزلاء الانجليز يقولون والاسف ملء قلوبهم : ان ما أحدثه هؤلاء الجنود فى مصر لا يمحى أثره فى قليل من السنين ، وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس

والنفيس لطرد الانجليز من مصر ، وانى والحق يقـال كنت أخجل أشـد الخجل لانتسابى لبلادى ، وكثيرا ما أنبت الجنود الانجليز تأنيبـا مرا ، واكدت لهم انهم بأعمالهم هذه يبرهنون على أنهم أعداء الانجليز ، فان كان الالمان يسيئون الى انفسهم فيجعلون من كانوا أصدقاءهم بالامس أعداء لهم اليوم . وكان عجبهم من قولى هذا شديدا ، لأنهم كانوا يجهلون الحالة جهلا تاما ، ومما زاد الطين بلة ان الجنود عند مجيئهم وجدوا الحانات كلها مفتحة الأبواب ليـل نهار ، فأدى ذلك الى حدوث مخاز اشمأزت منها نفوس المصريين وملأت قلوبهم غيظا واحتقارا ، وقد شـاع فى ذلك الوقت ان الجنود السكارى يأخذون البراقع عنـوة من فـوق وجـوه السـيدات المصريات .

جمع الأموال باسم الصليب الأحمر :

وعلى غرار سوق الناس للعمل بالاكراه باسم التطوع فكذلك جمعت النقود باسم التبرع للصليب الأحمر فكان يقرر على كل مـدير ان يجمع مبلغا معينا وهـو بدوره يوزعه على مرءوسيه وهكذا واذا كان الذى يصل الى الصليب الأحمر عشرات الألوف التى ظلت تتزايد فان الذى كان يجمع بالفعل يقدر بمئات الألوف يذهب الى جيوب الطغاة والبغاة .

وستظل هذه التبرعات الاجبارية تتزايد وتتضاعف حتى لتصل الى ربع مليون جنيه واذا كان هذا ما وصل بالفعل الى يد السلطات الانجليزية فعلينا ان نتصور كم الذى وصل الى جيوب الوسطاء .

وانتهى العـــام :

وانتهى العام على هذه الصورة الكئيبة .

* * *

عام ١٩١٦

نظرة خاطفة على مجريات الحرب :

نحن لا نؤرخ للحرب العالمية الأولى فلا يتوقع منا القارىء الكريم أن نتوسع فى ذكر تفصيلاتها عندما يتصل أمرها بمصر ، ومع ذلك فلا مناص من اشارة خاطفة الى مجرياتها التى أصبحت تشد اهتمام سكان الكوكب فكيف بالمصريين الذين كانوا قد تحولوا كما قدمنا الى أهم قاعدة عسكرية للامبراطورية البريطانية .

الجبهة الغربية حرب خنادق ومجازر :

أما بالنسبة للجبهة الغربية حيث كانت الجيوش الألمانية تحت قيادة « فولكنهاين » تواجه الفرنسيين تحت قيادة جوفر والانجليز تحت قيادة فرنش ثم هايج ، كان الموقف فى مستهل عام ١٩١٦ هو بذاته الموقف الذى لخصه كتشنر فى أول ١٩١٥ من أن كلا من الطرفين أصبح يتعذر عليه زحزحة الفريق الآخر ، فضلا عن أن يحصل على انتصار حاسم .

كانت الجنود ترابط فى الخنادق وفى الربيع او الخريف يعد هذا الطرف او ذاك هجوما عاما ينتهى الى صيرورته مجرد « مجزرة بشرية » لا تنتهى الى شىء .

الجبهة الشرقية فى أوربا :

على أن الصورة لم تكن كذلك فى الجبهة الشرقية حيث الجيوش الروسية فقد كانت المانيا تحصل على انتصارات ساحقة ، بدأت فى سنة ١٩١٤ حيث أمكن بقيادة هندنبرج طردهم من بروسيا الشرقية بعد معركة رهيبة « معركة تاننبرج » وتسمى فى بعض الأحيان معركة « البحيرات المازورية » وفى عام ١٩١٥ نجح فلكنلهاين فى شن هجوم قاتل عليهم أدى الى انسحابهم بعد خسائر باهظة الى داخل روسيا

ضربة مدوخة للصرب :

واستطاعت المانيا بضربة واحدة أن تحتل الصرب وهى البلد التى كانت السبب المباشر فى اشعال نار الحرب كما قدمنا .

هزيمة الانجليز فى الدردنيل :

وكان الانجليز كما قدمنا يتصورون أنهم قادرون على ضرب تركيا فى الصميم بسيطرتهم على مضيق الدردنيل فالبوسفور وبهذا تقع الآستانة فى أيديهم ويتصلوا

بحلفائهم الروس ولكن الانجليز منوا بفشل ذريع ولمع نجم مصطفى كمال الذى سمى فيما بعد « أتاتورك » حيث كان هو القائد التركى الذى حال بين الانجليز وبين احتلال الدردنيل واضطر الانجليز وأنفهم راغم أن ينسحبوا من شبه جزيرة « غاليبولى » التى اتخذوها موطئا لأقدامهم يستولون منها على القمم التى تشرف على المضايق والتى لم يمكنهم الأتراك تحت قيادة مصطفى كامل باحتلالها وصدر الأمر الانجليزى الذليل بالانسحاب فى مطلع عام ١٩١٦ .

الموقف فى مصر :

ولقد مر بنا كيف فشلت الحملة التركية على مصر فى مستهل العام المنصرم كما شهد آخر العام غزو السنوسى لمصر واحتلاله السلوم وسيدى برانى بينما تراجع الانجليز الى مرسى مطروح وعلى هذه الصورة استهل عام ١٩١٦ .

استدعاء الرديف المصرى :

من الواضح من استقراء الحوادث بعد هذا الوقت الطويل أن هجوم السنوسى على ساحل البحر الأبيض الغربى لم يكن يشكل أى خطر على مصر من الناحية العسكرية البحتة ، بدليل ان السنوسيين لم يطوروا هذا الهجوم الذى وصلوا فيه الى سيدى برانى وعندما لم يحدث هذا الغزو أى رد فعل لدى الشعب المصرى فلم يكن الانجليز فى عجلة من امرهم لدحر هذا الغزو ومضوا على طريقتهم فى الاستعداد البطىء ، وظل اهتمامهم الأكبر موجها نحو الشرق ، نحو سينا وفلسطين والبلاد العربية، وكانت انجلترا منذ اشتركت تركيا فى الحرب أصبح اهتمامها موجها لاثارة العرب ضد تركيا واشراكهم فى الحرب ضدها ومذ وضع ماكماهون قدمه على أرض مصر وقد دخل فى مراسلات مع الشريف حسين أمير مكة بقصد أن يعلن الثورة على تركيا فى مقابل اعتراف الحلفاء بحق العرب فى الاستقلال واستعادة الخلافة الاسلامية ، وسوف نعود لاثبات أهم هذه الرسائل فى حينه ، والذى يهمنا الآن ان انجلترا مضت قدما فى الاستعداد لحملتها الشرقية وقد كان العمال المصريون الذين حشدوا على ما بينا هم أقوى ركيزة لهذه الحملة ولكن الانجليز سرعان ما اكتشفوا أنهم بحاجة الى عنصر عسكرى يتولى ادارة هذه الفرق الضخمة من العمال ففكروا فى دعوة الرديف المصرى للقيام بهذه المأمورية ، ومن الواضح ان الحكومة المصرية كانت متعاونة معهم الى أقصى حدود التعاون ، ومن هنا نرى اسماعيل باشا سرى وزير الحربية يرفع الى حسين رشدى باشا المذكرة التالية :

الخميس ٢٠ يناير — دعوة الرديف :

« أتشرف بأن أعرض على مسامع مجلس الوزراء ان قائد عموم القوات البريطانية بمصر يشتغل الآن بتنظيم فروع للتشهيلات اللازمة للدفاع عن القنال وهو كما يعلم حضرات اعضاء المجلس قد نال معاونة كثيرة من فروع الادارة المدنية المصرية . وقد أخطرنى الآن ان الضرورات التى يدعو اليها تنظيم تلك التشهيلات تجعله فى حاجة

الى طائفة من العمال متعودين النظام العسكرى مثل الذين يمكن الحصول عليهم من أفراد رديف الجيش » .

« وقد استشرت حضرة صاحب المعالى السردار فى هذا الموضوع وبعد تمام الاتفاق بينى وبينه على ذلك أتشرف بأن أرفع الى دولتكم برفق هذه المذكرة مشروع قرار وزارى بطلب أفراد الرديف من جميع الفرق للخدمة العسكرية ما عدا الموجودين منهم فى خدمة الحكومة راجيا عرض هذا المشروع على مجلس الوزراء » .

٢٩ ، ٣٠ يناير مظاهرات الرديف :

لم تكد المذكرة السابقة الذكر تعرض على مجلس الوزراء حتى تمت الموافقة عليها فى غير تردد ، ولعله يبين من نص المذكرة أن الرديف يجمعون تلبية لحاجات العسكرية البريطانية وفى ذات الوقت فهم فى حقيقتهم يتبعون الجيش المصرى ومن هنا فلا عجب أن يعتمد كل جانب على الجانب الآخر انه سيكون هو الذى يتكفل باعاشة الرديف وقد كان الأمر الوحيد الذى اتفق عليه الجانبان هو سرعة الاستدعاء ومكانه (ثكنات فى عين شمس) أما كيف ومن أين يأكل هذا الجيش ، فقد كانت هـذه مسألة لم تنظم بعد ، وهكذا وجدت هذه الجموع نفسها بغير طعام ، وهنا نرى ومضة من طبيعة هذا الشعب ، فلم يتردد الرديف فى أن يقوم بمظاهرة وصلت حتى ساحة قصر عابدين ، وأخذ رجال القصر والحكومة بهذه المفاجأة غير المتوقعة وطلبوا من المتظاهرين مندوبين عنهم لعرض شكايتهم ، ووعدوا بطبيعة الحال بازالة شكواهم على الفور ولكن من الواضح أن شيئا من الوعود لم يتحقق ، ومن هنا فقد تجددت المظاهرة فى اليوم التالى (٣٠ يناير) على التعاقب ولكن السلطة هذه المرة كانت على استعداد لاستقبالهم بوسائل القمع والبطش بحيث أصيب بعض أفراد الرديف بجروح بالغة . وتوقفت الحركة عند هذا الحد فلا بد ان الأمر سوى وعرفت الجهة التى ستكون مسئولة عن اعاشتهم وباشرت ذلك على وجه السرعة . ومن المحقق كذلك ان السلطات استخدمت أقصى أشكال العنف .

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩ ان هذه الحادثة كان لها دوى كبير وأصبحت حديث المجالس وليس أدل على صحة هذا القول انه بالرغم من كونى طفلا فى ذلك الوقت (٥ سنوات) فما زلت أذكرها حيث تحدث عنها والدى واخوتى الكبار .

٢٦ فبراير — انتصار الانجليز على السنوسيين :

قدمنا ان الانجليز كانوا يستعدون لمواجهة حملة السنوسى على مصر فلما أن اطمأنوا الى أن قوتهم أصبحت من حيث العدد والعدة أضعاف قوة خصمهم انقلبوا من الدفاع الى الهجوم فدارت بينهم وبين جيش السنوسى معركة فى الموقع المسمى « العقاقير » وانتهت بفوز الانجليز .

يقول أمين سعيد مؤرخ العرب فى العصر الحديث فى كتابه ثورات العرب ، ان الانجليز أسروا فى هذه المعركة جعفر العسكرى الذى قاد السنوسيين فى جميع

المعارك التى انتصروا فيها على الانجليز وقادوه أسيرا الى المعادي ولكنهم لم يلبثوا أن تفاهموا معه فانضم الى ثورة الشريف حسين ضد الأتراك كما سوف يجىء .

٢٨ فبراير ــ زحف العمال المصريين فى سينا :

لم يشأ الانجليز عقب نجاحهم فى صــد الأتراك عن عبور القناة الى الضفة الغربية أن يعبروا القناة من ناحيتهم ، ولكنهم شرعوا فى اعداد العدة لهجوم كبير على الأتراك فى فلسطين ، وكانت شبه جزيرة سينا الجرداء المقفرة تقف حائلا طبيعيا بين تحقيق هذا الفرض الا أن يشق فيها طريق وتمد سكك الحديد ومواسير الميــاه وشبكات التلفون والتغراف وتلك مهمة اضطلع بها العمال المصريون بجدارة وكفاءة وقد رأينا كيف استدعى الرديف بالذات ليشرف على هذه العمليات باعتباره عنصرا عسكريا ويبدو أن النجاح فى هذه الناحية كان مذهلا الى الحد الذى لم تتمالك القيــادة الانجليزية نفسها عن الاعلان هذا النجاح ويبدو من ناحية أخرى أنها أرادت أن تظهر لحكام مصر المصريين مدى العون الثمين الذى يقدمه هؤلاء العمال حتى يشجعوهم على جمع المزيد من العمال فنراهم يدعون وزير الحربية ووكيل الداخلية ورئيس الجمعية التشريعية وأعضاءها فلبوا الدعوة فى ٢٨ فبراير ولما عادوا من رحلتهم راحوا يشيدون بروعة الانجازات التى قام بها المصريون تحت اشراف السلطة العسكرية الانجليزية .

٢٤ مارس ــ استرداد مدينة السلوم :

واصل الانجليز تقدمهم على ساحل البحر فى الصحراء الغربية فأحتلوا السلوم فى ٢٤ مارس ورأى السنوسى أن يتحولوا عن الشريط الساحلى الى عمق الصحراء فراحوا يهاجمون مصر الوسطى عن طريق الواحات أى الفرافرة والداخلة وسيوة .

مراسلات حسين ــ مكماهون :

ولكن شهر مارس ١٩١٦ سيظل علما فى الدرجة الأولى على تمام هذه السلسلة من الرسائل الشهيرة فى تاريخ العرب باسم حسين ــ مكماهون وهى الرسائل التى تبودلت بين الشريف حسين أمير مكة وبين السير مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر وقد بدأت هذه الاتصالات شفوية بين كتشنر والحســـين عن طريق ابنه الأمير عبد الله الذى جاء الى مصر فى طريقه الى أستنبول وكان ذلك قبل نشوب الحرب الكبرى ومن هنا كان كتشنر يقوم بدور المستمع لشكاية عبد الله من سوء معاملة تركيا لأبيه ، وربما كان للسير رونالد ستورس السكرتير الشرقى آنذاك والذى كان يجيد التكلم بالعربية دورا أبعد من دور كتشنر الذى كان متحفظا نظرا لأن انجلترا كانت تقف رسميا موقف الصديق من تركيا ، فلما أن قامت الحرب ضــد تركيــا تبدل ذلك كله بطبيعة الحال وتحول كل نشاط انجلترا لضم المحكومين بتركيا الى جانبهم ويحدثنا الشيخ رشيد رضا صاحب المنار كيف اتصل به الانجليز منذ اليوم الأول لقيام الحرب ليكون وسيطا بينهم وبين العرب . وليس الا نموذجا لجهود الانجليز فى هذا الميدان . ولمــا كان عرب المشرق يتململون من حــكم تركيا وليس

سوى الدين ظل هو الرباط الوحيد الذى يربط بين العرب وتركيا ومن هنا فقد كان أحرار العرب فى حيرة من امرهم ، فلما ان دب الخلاف بين أمير مكة والدولة العثمانية لاذ أحرار العرب فى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق بالشريف حسين باعتباره قمة الزعامة الاسلامية ، ومن هنا قويت الآمال فى نفس الشريف حسين فى أن يؤلف مملكة عربية اسلامية تعيد الخلافة الى العرب بمساعدة الانجليز الذين كانوا يتوقون فى الدرجة الأولى لثورة الشريف حسين ضد تركيا ليس فقط لزعزعة الأرض من تحت أقدام تركيا فى هذا الوطن الكبير والحيوى ، بل للتأثير المعنوى الذى يحدثه ثورة شريف مكة حامى الحرمين فى العالم الاسلامى فى الهند بصفة خاصة .

وعرض الشريف حسين شروطه على انجلترا فى مقابل اعلان الثورة وسوف نثبت نص رسالته الى مكماهون المتضمنة هذا العرض لنرى الى أى حد كانت خطة طموحة .

كما سوف نثبت رد مكماهون على هذه الرسالة وسنرى فيها الأساليب والتعبيرات الانجليزية المطاطة التى تحتمل كل تأويل وتعليل ولا بد أن انجلترا كانت تبذل فى الأحاديث الشفوية أوسع الوعود فى الوقت الذى شرعت تقدم فيه الذهب للشريف حسين ليستعين به على اعلان الثورة ، وفيما يلى نص الرسالتين المنوه عنهما :

بعث أول رسالة يوم ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ (٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣) الى نائب الملك بمصر انطوت على مذكرة بمطالب العرب وهى :

١ — تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين — ادنة — حتى الخليج الفارسى (خليج العرب) شمالا ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا ، وتستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى ومن البحر الأحمر ، والبحر المتوسط حتى سيناء غربا على أن توافق انجلترا أيضا على اعلان خليفة عربى للمسلمين .

٢ — تعترف حكومة الشريف بأفضلية انجلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية ، اذا كانت الشروط متساوية .

٣ — تتعاون الحكومتان الانجليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تجابه أحد الفريقين وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية وتأمينا لأفضلية انجلترا الاقتصادية فيها ، على أن يكون هذا التعاون فى كل شىء : فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

٤ — اذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها عراك .. فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدى اذا رغب فى اشراك الفريق الآخر معه .. ففى وسع الفريقين أن يجتمعا معا ويتفقا على الشروط

٥ — مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة ١٥ سنة واذا شاء أحد الفريقين تجديدها ، فعلية أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

تلك هى المطالب التى تقدم بها الحسين للانجليز ، مشترطا قبولها والموافقة عليها للانضمام اليهم وإعلان الثورة على الترك .

ونثبت نص المكاتبة الرابعة ، وهى صادرة من مكماهون نائب الملك بمصر يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ (١٥ الحجة ١٣٣٣) ففيها الجواب على مذكرة الحسين :

« أرسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية ، وانه ليسرنى أن أرسل اليكم البيانات الآتية التى أثق كل الثقة بأنها ستفوز برضائكم . ان مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة غربى دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال عنها انها عربية محضة ، فيجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ، ونحن مستعدون للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على أن تنقص شيئا من اتفاقنا مع الزعماء العرب . »

أما الأراضى التى تستطيع انجلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع حذرا بحليفتها فرنسا ، فان لى السلطة التامة باسم صاحب الجلالة ان أعطيكم التأكيدات التالية :

١ — ان انجلترا مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

٢ — تحمى بريطانيا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا عند الحاجة كل مساعدة للعرب او نصيحة تلزمهم فى تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكم فى مختلف البلاد العربية .

ويوافق العرب على الاقتصار على استشارة ومعونة وادارة بريطانيا وحدها ويرضون أن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم لتنظيم دوائر ممتلكاتهم من الرعايا الانجليز . أما بشأن ولايتى البصرة وبغداد فان العرب يعرفون أن مراكز الانجليز ومصالحهم فيها تتطلب شكلا اداريا خاصا ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها الخ الخ .

٩ أبريل — معركة فردان فى الذروة :

فى هذا اليوم وصلت معركة فردان فى فرنسا أكبر معارك الحرب على الاطلاق وأشهرها الى ذروتها ، حتى اذ انتهى اليوم كانت محنة فرنسا الكبرى قد انتهت.

لقد أعلن بيتان الذى أصبح فيما بعد ماريشال فرنســا أعلن عند بداية المعركة فى فبراير من هذه السنة ان الألمـان لن يمروا وكان هذا تحديا للالمـان فقرروا أن يمروا بأى ثمن ، وهكذا وقعت معركة من أعنف معارك الحرب العالمية الأولى وكتب تاريخ هذه الحرب تفيض برسم الصور الوحشية لهذه المعركة المخيفة وليس هنــا مجالها وحسبنا أن نسجل الأرقام النهائية لخســـائر الطرفين اما المعركة التى استمرت ستة أشهر فلم يكن لها أية نتيجة غير هذه الخسائر .

من الجانب الفرنسى : ١٨٠ ألف قتيل ، ٢٨٠ ألف جريح ، ٣٠ ألف اسير

من الجانب الالمانى : ٤٧ ألف قتيل ، ٢٠٠ ألف جريح ، ٢٠ ألف أسير

٦ مايو – شنق شهداء العرب :

فى ٦ مايو (آيار) أقدم أحمد باشا جمال الذى اشتهر بعد هذا الحادث باسم جمال السفاح ، على شنق أحرار العرب فى بلدة « عاليه » فى جبل لبنان وكانت احدى المحاكم العسكرية التركية ، قد حاكمتهم ووجهت اليهم « تهمة خيانة الدولة لاتصالهم بالفرنسيين وحكمت عليهم المحكمة بالاعدام ، وعبثا شفع لهم الكثيرون من قادة العرب ، وكان الشريف حسين أحد المستشفعين ، وربما عجل جمال بشنقهم ليضع حدا لهذه الجهود ولكنه بفعلته هذه كان يضع حدا لآخر ما يربط العرب بتركيا كما سوف نرى فلن تلبث الثورة أن تعلن ، وبقى ان نذكر القارىء ان جمال باشا هذا هو قائد هذه الحملة الفاشلة على مصر . »

١٦ مايو – اتفاق سايكس – بيكو السرى :

فى الوقت الذى كانت انجلترا تتصل بالعرب على الوجه الذى رأيناه ، وكانت فرنسا تفعل مثل ذلك مع الســوريين واللبنانيين كانت الدولتان تتفقان سرا على تقسيم البلاد العربية باستثناء شبه الجزيرة العربية فيما بينهما ، وســـايكس هو مستشرق انجليزى أما بيكو فهو فرنسى وقد مثل الرجلان بلديهما فى عقد معاهدة سرا فى « بطرسبورج » عاصمة روسيا حيث اعطيت بدورها جزءا من تركيا نفسها، وقد ظلت هذه المعاهدة فى طى الكتمان حتى قامت الثورة فى روسيا فأذاعتها ، ولكن الثورة العربية كانت قد قامت وقضى الامر . واليك ما جاء فى هذه المعاهدة خاصا بالبلاد العربية .

* ان تحصل فرنسا على القطاع الساحلى المشتمل على سوريا وولاية أطنة والمنطقة التى يحدها جنوبا الخط الممتد من عينتاب وماردين الى الحـدود الروسية المقبلة ، وشـمالا الخط الممتد من الاداغ والمار بقيسرية واق داغ ويلدز داغ وزارة الى أجين خربوط (وهى المنطقة المعروفة اعتياديا باسم كيليكية) .
* أن تحصل بريطانيا على القسم الجنوبى من بين النهرين مع بغداد وعلى مينائى حيفا وعكا فى فلسطين .

* أن يتألف من المنطقة الكائنة بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية اتحاد لدول عربية صغيرة أو دولة عربية واحدة .

وان تقسم هذه المنطقة من جديد الى منطقتى نفوذ فرنسية وبريطانية .

وتتألف المنطقة الفرنسية من داخلية سورية وولاية الموصل من بلاد ما بين النهرين ، أما المنطقة البريطانية فتمتد ما بين فلسطين والحدود الايرانية .

* ان تعلن الاسكندرونة ميناء حرا .

* ان تدول فلسطين .

٣١ مايو ــ موقعة جتلند البحرية :

شهد هذا اليوم أعظم معركة بحرية شهدتها الحرب الكبرى وهى معركة جتلند حيث تصادم الاسطولان الألمانى والانجليزى بكامل قوتيهما وليس يجزم أحد حتى الآن من مؤرخين الحرب العسكريين من الذى انتصر فى هذه المعركة ومن الذى انهزم ذلك انه من المقرر فى المعارك البحرية ان الاسطول الذى ينسحب هو المنهزم وقد انسحب الاسطول الألمانى وفى ذات الوقت كانت خسائر الاسطول الانجليزى هى الأفدح ، فحيث خسر الألمان طرادا واحدا ومدرعة واحدة وخمس نسافات وأربع طرادات صغيرة ومن الأرواح ٢٥٠٠ بحارا أما الانجليز فكانت خسائرهم ٦١٠٠ بحار و٣ طرادات و ٣ مدرعات و ٨ نسافات وهكذا اعتبر كل طرف نفسه منتصرا وان كان الذى حدث بعد ذلك بالفعل ان كلا من الاسطولين احجم عن مواجهة الآخر .

٥ يونيو ــ غرق كتشنر :

فى هذا اليوم غرقت المدمرة التى كانت تحمل كتشنر الذى كان يقوم بمحاولة للاتصال بالروس وهكذا طويت صفحة الرجل الذى ارتبط تاريخه بمصر وظل حتى آخر لحظة يتلفت صوبها حتى قيل كما قدمنا أنه كان هو الذى اختار مكماهون ليمكن ازاحته فى الوقت المناسب .

بدء التمرد الفعلى للشريف حسين :

وفى نفس اليوم الذى غرق فيه كتشنر أى ٥ يونيه ١٩١٦ بدأت الثورة العربية من الناحية العملية ، ويبدو أن ذلك افراط حرص من الشريف حسين فلعله أراد أن يتأكد أولا من رد فعل لدى الجيوش التركية المرابطة فى الحجاز فلما أن مر بضعة أيام لم تحرك فيها هذه الجيوش ساكنا والتزمت موقف الدفاع والتربص تشجع الشريف حسين وأعلن الثورة ببيان رسمى .

وقد وصف جورج طنوس فى كتابه « اليقظة العربية » ما حدث فى هذه المناسبة التاريخية ننقله فيما يلى تصويرا لهذا الحدث الضخم :

« وعند شروق الشمس فى اليوم الخامس من حزيران « يونية » ركب الاخوان (فيصل وعلى ابنا الشريف حسين) الى قبر حمزة (خارج المدينة) حيث احتشد ١٥٠٠ جندى فى معسكرهم الذين جندهم الشريف وأعلنا باسم الشريف حسين امير مكة استقلال العرب عن الحكم التركى ، ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما خلفهما أولئك الجنود وانضموا الى رجال البدو فى المكان المتفق عليـــه الى الجنوب الشرقى من المدينة » .

السبت ١٠ يونيو (حزيران) اعلان الثورة رسميا :

وفى يوم السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ الموافق ١٠ يونيه اذاع الشريف حسين بيانا مطولا دعا فيه العرب حيثما كانوا الى شد ازر الثورة والانضواء تحت علمها باعتبارها ثورة عربية أعلنت لتحرير العرب واحياء الدولة العربية التى قضى عليها التـــرك .

١٦ يونيو ـ سقوط مدينة جدة :

وكانت مدينة جدة أول مدن الحجاز التى سقطت فى ايدى الثورة فقد رفعت حاميتها الراية البيضاء لتستسلم وكانت تتألف من ١٣٤٦ ضابطا وجنديا ، وغنم العرب ١٠ مدافع ميدان ، و ٤ مدافع جبلية و ٤ رشاشات وكانت هذه الأسلحة أكبر عون لهم للاستيلاء على ثكنة الجيش التركى وقلعة فى مكة .

٤ يوليو (تموز) استسلام حامية مكة :

وكان للاتراك مركزان محصنان فى مكةومن هنـــا فقد ظلا يقاوما وكانت قلعة اجياد هى التى سقطت أولا وتبعتها ثكنة جرول ، ويبلغ عدد افراد القـــوة التى استسلمت ١١٠٠ ضابط وجندى وكان ذلك فى ٤ يوليو .

معركة السوم الكبرى :

وبينما كانت هذه الحوادث تقع فى الساحة العربية ،كانت تجرىفى أوروباوعلى أرض فرنسا وعلى وجه التحقيق معركة أخرى أو بالأحرى مجزرة أخرى من نوع مجزرة فردان مع فارق واحد وهو أن الانجليز هذه المرة كانوا هم المهاجمون وكذلك الفرنسيين والألمـــان هم المدافعون وقد بدأت معركة السوم بكل عنفها فى أول يوليو وظلت مفتوحة بعد ذلك لبضعة شهور وعلى الرغم من خسائر الطرفين الفادحة والتى قدرت بمئات الالوف من القتلى فى كل جانب أما الجرحى فكانوا اضـــعاف ذلك ، نقول أنه على الرغم من هذه الخسائر الفادحة فلم تكن لهذه المعركة أى نتيجة حاسمة بدليل أن الحرب ظلت مستمرة لمدة عامين آخرين .

ظهور سلاح الدبابات :

وقد شهدت معركة السوم ميلاد سلاح الدبابات لأول مرة وكان الانجليز هم الذين اخترعوه .

٤ اغسطس موقعة الرمانة فى سينا :

بينما كانت هذه المجازر الرهيبة تدور فى أوربا كانت معارك صغيرة تقع فى المشرق العربى وكانت هى التى تقلب ميزان القوى وتغير فى الخرائط السياسية .

كان آخر عهدنا بجهود الانجليز العسكرية فى مصر هو شروعهم فى مد خط سكة حديد فى شبه جزيرة سينا بواسطة العمال المصريين ، وقد كان هؤلاء العمال يعملون تحت قصف مدافع الاتراك ورشاشاتهم ، وكان عدد الجنود الانجليز التى تحميهم عددا محدودا فى بادىء الأمر نظرا لأن الخط الحديدى كان لا يزال فى أوله ولكن مع تطور العمل وطول الخط الحديدى المنشأ بدأ الأتراك يهاجمونه ، وكان جيش الانجليز يرابط دائما بطبيعة الحال عند آخر نقطة يصل اليها الخط. فهـاجم الاتراك هذه القوة بنجاح أكثر من مرة كان آخرها عند نهاية الخط الحديدى فى قطيه، ولكنهم عندما حاولوا أن يكرروا الهجوم عندما عرف بموقـع « الرمانة » والكتب الأوروبية تسميها « رومانى » استطاع الاستراليون أن يحطموا الهجوم بفضـل الامدادات السريعة التى وصلتهما بالقطارات ورأى الاتراك أن ينسحبوا من سينا نهائيا بحيث واصل الانجليز مد السكة الحديد حتى اصبحوا على ابواب العـريش ولكنهم أثروا التريث فى الهجوم عليهم .

٢٧ أغسطس ـ انضمام رومانيا للحلفاء :

عند هذا الحد من تطورات الحرب رات رومانيا أن من صالحها أن تعلن الحرب الى جانب الحلفاء ضد (المـانيا ـ النمسا ـ بلغاريا ـ تركيا) ولكن رومانيا سرعان ما دفعت ثمنا باهظا لفعلتها فقد اجتاحتها الجيوش الالمـانية .

٢٢ سبتمبر ـ استسلام حامية الطائف :

ومرة أخرى حيث اسوأ الانباء عن سير الحرب فى أوربا بالنسبة للحلفاء (انجلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا) كانت الحركات الصغيرة من الشرق العربى تأتى مشجعة ففى ٢٢ سبتمبر استسلم الوالى التركى الذى كان لا يزال يقاوم حتى هذا التاريخ حيث كان لديه أكبر قوة من الجيش التركى فى الحجاز ، وبسقوط الطائف تحـرر نهائيا جنوب الحجاز بمدنه الثلاث (جدة ـ مكة ـ الطائف) بحيث لم يبق فى يـد الاتراك سوى المدينة المنورة التى حشدوا فيها ٢٠٫٠٠٠ جندى يساعدهم على ذلك خط سكة حديد الحجاز الذى كان يصل الى المدينة .

أكتوبر ـ ظهور الخلاف بين السلطان حسين والانجليز :

كان آخر عهدنا بالسلطان حسين هو ازورار الشعب عنه لمشايعته الانجلز ، وقد رأينا ضيق السلطان بالشعب كما حدثنا سعد زغلول فى مذكراته ولكن لما كان السـلطان بالفعل امينـا فى أنه لم يقبل العرش الا لمصـلحة مصر التى كان يراها من وجهة نظره فى ابقاء الملك فى أسرة محمد على وكان الانجليز قد استقدموا الى مصر

فى مستهل الحرب (أغا خان) (١) الزعيم الهندى واشاعوا أنهم سينصبونه سلطانا على مصر فى حالة رفض السلطان حسين للعرش الأمر الذى جعل السلطان حسين يقبل العرش مكرها . هذا يقال للدفاع عن السلطان حسين ولكن أحدا لم يصدقه، كما يجد السلطان حسين تاريخه السابق فى خدمة جماهير المزارعين حتى عرف بأبى الفلاح ، كما لم ينفعه تقربه بعد أن أصبح سلطانا للاعيان ورؤساء الطوائف حيث راح يولم لهم الولائم ويوزع الرتب والأوسمة كل هذا لم يفد السلطان فى قليل أو كثير ، وليس الا بعد أن شاع ان السلطان على خلاف مع المعتمد البريطانى السنيور هنرى مكماهون أن ارتفعت أسهم السلطان حسين لدى الشعب وعزز هذه الشائعات بالفعل ان رأوه يعتزل فى قصره الخاص ومزارعه ويكف عن مزاولة ما اعتاد مزاولته من مهام، وانتقل الخلاف من السر الى العلن، فراحت الصحفالانجليزية والأمريكية تنقل عنه الأحاديث التى تكشف عن زهده فى منصبه ، وانه لم يقبل أن يكون سلطانا الا بعد وعد من الانجليز أن يكونوا فى عونه على كل ما يعود على مصر وشعبها بالخير واليك ملخصا لبعض هذه الأحاديث التى أدلى بها الشركة الأنباء الأمريكية المتحدة (الاسيو) :

« لما عرضت على السلطنة المصرية رفضتها فى بادىء الأمر لأن الحالة يومئذ كانت حرجة معقدة ، وأنا لا مطمع لى فى الملك ولكنى بعد أعمال الروية رأيت أن فى وسعى خدمة مصر بقبول منصب السلطنة . فصافحت بريطانيا العظمى ووضعت فيها ثقتى . وسأقوم بعهودى حتى النهاية » .

« ولولا ثقتى بالحكومة البريطانية واعتقادى ان حقوق الحكم الذاتى ستزداد زيادة تدريجية ما أخذت على عاتقى القيام بالعمل .

ولا يخفى انه لم يكن فى ذلك ربح شخصى لى . لأننى لما كنت أميرا كنت سعيدا جدا أواصل أعمالى الزراعية والخيرية وانا غير مثقل بأعباء الحكم » .

نوفمبر — عزل مكماهون وتعيين ونجت :

استجابت الحكومة البريطانية لعتاب السلطان حسين ورأت أن تنحى الرجل الذى أساء الى العلاقات مع السلطان ونعنى به مكماهون خاصة بعد ان ذهبالرجل القوى الذى قيل أنه هو الذى أشار بتعيينه ونعنى به كتشنر وأحلت انجلترا بدلا عنه السير رجنالد ونجت ، وهو رجل سبق له العمل طويلا فى مصر وكان يعرف السلطان حسين معرفة شخصية ، وكان يشغل عند تعيينه وظيفة حاكم السودان وسردار الجيش المصرى ، وقد بقى محتفظا بهذين المنصبين حتى بعد ان عين فى منصبه الجديد وذلك رغبة من انجلترا أن تجمع بين يديه أكبر قدر من النفوذ

---

(١) يوجد قبره فى مدينة أسوان .

والسلطة واكتفت بتعيين نائب له فى ادارة السودان والجيش المصرى وهو السير لى ستاك الذى كان مقدرا له أن يغتال سنة ١٩٢٤ أما السير ونجت فقــد كان الرجل الذى سيكاد يصعق بعد عامين فقط عندما يشهد ثورة سنة ١٩١٩ وقــد اعتبر السلطان حسين ان عزل ماكماهون وتعيين ونجت بمثابة ترضية له فعــاد الى العاصمة (وكان قد هجرها) وعاد يزاول ما اعتاد أن يزاوله من مهام .

١٣ نوفمبر — الطائرات الالمانية تغير على القاهرة :

فوجىء سكان القاهرة فى هذا اليوم بشىء جديد طالما سمعوا عنه منــذ قامت الحرب دون أن يروه ، فهاجمت بضع طائرات المــانية ســـماء العاصمة فى رابعة النهار والقت تسع قنابل على الشوارع المزدحمة ، وليس أدل على عدم فاعليــة هذا السلاح فى ذلك الوقت ان هذه الغارة لم تتسبب فى قتل أكثر من ١٤ وجرح ٢٥ ولكن ذلك كان كافيا لنشر الذعر ، وتدل هـــذه الغارة على أن الألمــان كانوا قــد يئسوا نهائيا من قيام الشعب المصرى بثورة ضد الانجليز ، ولقد تحدثت فى ذكرياتى عن طفولتى التى نشرت فى (مجلة آخر ساعة) عن تأثرى كطفل بهذه الغارة وليس ذلك الا مثالا على الأثر العميق الذى أحدثته هذه الغارة .

الأسلحة الجديدة :

وعلى ذكر الطيران فليس الا واحدا من أسلحة جديدة شهدت الحرب مولدها .

فلأول مرة فى هذه الحرب استعملت الغازات السامة كما استخدم ســـــلاح الدبابات لأول مرة فى معركة السوم كما رأينا وكذلك استخدم ســلاح الطيران بدون فاعلية . والسلاح الوحيد الجديد الذى استخدمه الألمــان على نطاق واسع وسوف يتصورون فى العام المقبل (١٩١٧) انه سيكسب لهم الحرب هو ســلاح الغواصات وقد تطور سلاحا الدبابات والطيران بعد انتهاء الحرب بحيث كانا هما الســـــلاحان الأساسيان فى معارك الحرب العالمية الثانية وقد كان الســلاح الوحيـــد الذى لم يستعمل الا فى الحرب العالمية الأولى هو الغازات السامة .

اســترداد الواحات :

وفى شهر نوفمبر كذلك استرد الانجليز بمعاونة الجيش المصرى الواحات الداخلة والفرافرة ولم يبق فى يد السنوسيين الا واحة سيوة التى سيجلون عنهــا فى مطلع العــام الجــديد .

الشريف حسين يعلن نفسه ملكا :

وفى هذا الشهر أيضا كانت ثورة الشريف حســـين أمير مكة ضد تركيا قـــد استقرت بل قويت فأعلن الشريف حسين نفسه ملكا على كل العرب ، وشرع ينظم جيشا بمساعدة الانجليز للاستيلاء على المدينة المنورة والزحف بعدها الى الشام وقد كانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها (الكابتن لورنس) على مسرح الأحداث ، كمــا شهدت كذلك انسحاب عزيز المصرى من الثورة العربية .

٢٠ ديسمبر الاستيلاء على مدينة العريش :

قدمنا ان الطريق الى حدود مصر بات مفتـــوحا عقب هزيمة الأتراك فى رمانة ولكن الانجليز لم يعاودوا الزحف الا بعد شهرين وبعد ان فرغ العمال المصريون من مد السكة الحديد الى قريب من العريش ، بحيث أن الانجليز عنـدما وصلوا الى المدينة وجدوها خاوية على عروشها فاحتلوها ثم واصلوا الزحف شمالا فى طريقهم الى فلسطين وليس شك ان الانجليز لم يحصلوا على هذا النصر الا بسبب قيـــام الثورة العربية التى شغلت الأتراك بل أربكتهم وهم يرون الأرض التى يقفون عليهـا وقد اشتعلت كلها .

ذكـريات شخصـية :

وارى قبل ان اطوى صفحة ١٩١٦ ان اسجل ذكـــرياتى الشخصية وسأكتفى بذكر المعلومات التى بقيت سائدة بعد ذلك لعدة سنوات بحيث اصبحت اعيهـــا تمـــام الوعى .

العملة النقــدية :

فى هذا التاريخ الذى اتحدث عنه ظل التعامل بين الأفراد على اساس الجنيـــه الذهب . حقا ان الحكومة صرحت للبنك الأهلى ان يصدر عملة ورقية ، ولكنه كان يكتب على كل ورقة تعهدا ان يدفع ذهبا عند الطلب .

وهكذا ظل الجنيه الذهب هو العملةالوحيدة التى يعترف بها الأفراد العاديون ويتعاملون وكثيرا ما سمعت الحديث يتردد حولى عن (البندقى والمجيدى والبنتو) ولكننى لم ار شيئا منها فضلا عن ان اعرف شيئا عن قيمتها ولكنى اعرف الآن ان البندقى نسبة الى مدينة البندقية ومعنى هذا ان عملة هذه المدينة الايطالية ظلت مسيطرة منذ العصور الوسطى حتى هذا التاريخ الذى اتحدث عنه وان كان المجيدى وأخيرا الجنيه الانجليزى أصبح هو الجنيه الذهب المتاح ، ولا بد أن يكون المجيدى هو العملة الذهبية التى صكها السلطان عبد المجيد وحازت شهرة فى التعامل . أما البنتو والأصل فيه « الونتو » فاعترف اننى لا اعرف عنه شيئا .

العملة الفضية والبرونزية :

كان الأصل فى العملة سواء كانت ذهبية او فضية او برونزية ان تحمـــل من المعدن ما يساوى قيمتها ولكن مع قيام الحرب اولا واعلان الحماية وتولية السلطان حسين ثانيا فقد الغيت هذه القاعدة واصبحت النقود تتـــداول فى داخـل الدولة بسلطان الدولة وعلى ذلك فقد ظهر لأول مرة قرش (الصاغ) من النيــكل وكذلك نصف القرش (تعريفه) وكان هناك المليم ، وكل هذا من النيكل وكان هناك نصف المليم (عشرين خردة) وربع المليم (عشرة خـــردة) ونصف المليم وربع المليم كانا مصنوعين من البرونز والاشارة الى الخردة هو اشارة الى العملة السابقة التى كان

يجرى التعامل بها قبل هذا النظام الجديد كما كان يقال عن القرشين وربع القرش (مائة فضة) اشارة الى العملة السابقة وكان مكتوبا على العملة اسم السلطان حسين كما كان القرش ونصف القرش والمليم مثقوبين من الوسط ومكتوب عليهم قيمتهم بالعربى والانجليزى ولقد سحبت العملات المتداولة قبل ذلك من السوق .

وسوف أتحدث عن قوة هذه النقود الشرائية فى نهاية العام القادم حيث سيتاح لى ان ألتحق بمدرسة اولية بعيدة عن المنزل ولما كان مصروفى اليومى هو « مليم » فسوف احدثك عن قوة المليم الشرائية اما الآن فالى ذكرياتى عن مدينة الاسكندرية فقد كنا نسافر اليها صيف كل عام باعتبار والدى موظفا فى ديوان السلطان .

الاسكندرية او حى الأنفوشى :

وفى رأسى صور من الاسكندرية لا يمكن الا ان تكون فى خلال الحرب وفى عهد السلطان حسين بالذات فقد نقل والدى من ديوان السلطان الى وزارة المالية وبالتالى لم نعد نسافر الى الاسكندرية واول هذه الذكريات ان حى الأنفوشى بالذات كان هو اهم احياء اسكندرية على الاطلاق وفى راسى صورة لكازينو الانفوشى وما كان يقام به من حفلات موسيقية وتمثيلية وفى راسى صورة صيادى الأسماك وقد اصطادوا « ترسة » ضخمة وشرعوا يقطعونها ويبيعونها للناس .

على ان اهم ما فى راسى من صور ترتبط بالحرب هو صورتى فوق سطح قصر رأس التين بالذات وانا ارقب فى بعض (المناظير المكبرة) الى عرض البحر وكانت هذه المراقبة تجرى باستمرار ليل نهار وقد خصص لها اشخاص معينون ، ولا بد أن يكون والدى قد اصطحبنى معه الى السراى وكان هذا المكان فوق سطح السراى مما رؤى ابعادى اليه .

ومن الذكريات والصور وفاة اخى الكبير « محمد » بحمى التيفود وكان فى خطرفة الحمى يتكلم عن الحرب والمدافع والطائرات التى تتعمد قتله .

ولعل اخى هذا يصور ادق تصوير عادات هذا الزمان ، فعلى الرغم من كونه كان موظفا بوزارة الأوقاف فقد ظلت والدتى تتحدث بعد وفاته وهى تنفجع عن مدى أدبه وطاعته وكيف انه لم يرفع بصره فى ابيه فضلا عن صوته مهما وجه اليه من قوارص الكلم او ضربه فى بعض الأحيان . وقد كان اخى هذا يصطحبنى فى زياراته لأصدقائه وعلمنى مقطوعة شعرية لألقيها أمامهم ، ومطلعها جدير بالتسجيل ، لأنه وقد كان يقال منذ ستين سنة فكأنه لسان حال الآباء هذه الأيام (١٩٧٤) :

ألا بالله قل لى يا فتى العصر
ماذا تركت لربة الخدر

***

عام ١٩١٧

ومع مطلع عام ١٩١٧ فقد وصلنا الى السنة التى تغير فيها وجه العـــالم او بالأحرى بدأ فيه تغير العالم الى الصورة التى تحياها اليوم فاذا كنا نتحـدث الآن عن القوتين ففى هذه السنة قامت الثورة فى روسيا وظهر لينين صانع روســـيا الحديثة ، كما خرجت الولايات الأمريكية المتحدة من عزلتها وانخرطت فى الحـرب تحت زعامة ولسون وسوف يحتاج التاريخ لأكثر من ربع قرن والى حرب عالميـة ثانية حتى تتأكد الحقيقة الجديدة من ان روسيا وامريكا وليس انجلترا وفرنســا هما اصحاب الكلمة الأولى فى شئون العالم .

ونحن نشهد اليوم يقظة العالم العربى ولعل سنة ١٩١٧ هو العام الذى يعــد اللمسات الأخيرة او كأنه يعد آخر الترتيبات لقيام ثورة سنة ١٩١٩ بعد عام واحد فقد مات السلطان حسين وتولى السلطنة احمد فؤاد ، ولندع الآن هـذا الحديث العام الى ذكر الحوادث بتفصيل وبترتيب وقوعها ولكننا نرى قبل ان نبدا فى هـذا السرد ان نثبت نص تقرير لقائد القوات الانجليزية فى شرق البحر الأبيض المتوسط يسجل فيه ما قدمته مصر من خدمات لكسب الحرب ، وما اصدق القول « التاريخ يعيد نفسه » ففى عام ١٩٤٧ على اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية أصـدرت فى نيويورك كتيبا بالانجليزية عن مجهـــود مصر الحـــربى
مستندا الى تصريحات وتقارير من مثل ما جاء فى هذا التقرير واليك نصه :

« يسرنى كثيرا ان ارفع اليكم الخدمات التى قام بها جناب الجنرال ف . ر . ونجت والجيش المصرى لقوات البحر الأبيض المتوسط والقطر المصرى منـذ نشوب الحرب . وانى اعبر عن امتنانى من المساعدة التى تقدمت لى بكل اريحية فى جميـع الأوقات : فقد خدم ٢٨ ضابطا و ١٢ موظفا من حكومة السودان مع قوات البحـر الأبيض المتوسط وكانت مدة خدمة السواد الأعظم منهم قصيرة تعادل فقط مقدار أجازاتهم التى يستحقونها فى الاحوال العادية . ومن هؤلاء مات ستة ضـــباط بين قتلى ومن الاصابات . وجرح احد عشر واستعيدت خدمات ستين ضابطا وسبعة وعشرين موظفا من حكومة السودان فى أوقات شتى للخدمة مع القوات البريطانيـة فى القطر المصرى . واستخدم بعض افراد الجيش فى أزمنة مختلفة كحراس عـلى كبارى السكة الحديدية وحاميات لنقط عديدة مهمة فى داخلية البلاد » .

« وقد قـــدم الجيش المصرى ما يلزم من مدافع وطوبجية لتســـليح قطـارين مدرعين لاستخدامهما فى الدفاع عن القطر المصرى . والحق بسلاح هجانة البكانير

صنف من الهجانة المكسيم وفصيلة مسلحة من ادارة اشغال العسكرية واشتركوا في الوقائع الحربية ضـــد السنوسي (واشترك ايضا هذه الوقائع أجى بلوك من السوارى المصرية) وفى الهجوم على السويس فى شهر ابريل ســنة ١٩١٥ . وكان بلوكان من ٢ جى اورطة بيادة مصرية . واشتركوا فى الوقائع التى حصلت بعد هــذا التاريخ فى تلك المقاطعة . وقد كانت حامية ابو زنيمة من الجيش المصرى لبضعة اشهر فى خلال سنة ١٩١٥ . وطلب ٢٢٣٠ جنديا من رديف الجيش المصرى واستخدموا فى الأشغال الخاصة بالدفاع عن القتال . وقد تطوع عدد من الضباط ارباب المعاشــات والمستودعين للخدمة مع الرديف وأدوا خدمات ذات قيمة .

وفى شهر مايو سنة ١٩١٥ جمعت اورطة من الأشغال مؤلفة من ســتة بلوكات للخدمة فى الدردنيل واستلم قيادة الأورطة والبلوكات ضباط انكليز فى خدمة الجيش المصرى . وقد قامت هذه الأورطة مدة الأربعة الاشهر التى خدمتها فى شبه الجزيرة بخدمات فائقة تحت وابل مستمر من القنابل » .

« وعلاوة على هذه المساعدة من الأفراد فقد وضع الجيش المصرى بكل اريحية تحت تصرف قوات البحر الأبيض المتوسط والقطر المصرى معدات الراحة ومهمات حربية وجمال للحملة » .

« واخص بالذكر تقـــديم اسبتالية الجيش بالقاهرة بكامل معداتها الى فرقة النيوزيلانديين وشراء ما ينوف عن ١٤٠٠٠ جمل بين ركوب وحملة من السودان مع ما كلف جمعها والكشف عليها طبيا وترحيلها من المشقة والزمن لمستخدمى المديريات . وتقديم ١٧٤٠٠٠ قنبلة لقوات البحر الابيض . وتسليم القاطرات والفولاذ للدفاع عن القتال وصنع مقادير عظيمة من المهمات والملبوسات وتصليحها فى ادارة المهمات . فلهذه الخدمات وجميع الخدمات الأخرى التى انجزت علاوة على الأشغال الاعتيادية فالجيش المصرى وحكومة السودان يستحقان فائق التشكرات الودية » .

أخص بالثناء بعض الضباط والصف ضباط والعساكر لتفوقهم فى الخـــدمات التى وكلت اليهم او لبلائهم فى الحرب احسن البلاء .

السلطان حسين يجوب الأقاليم :

شهد شتاء هذه السنة جولة السلطان حســـين فى اقاليم الوجه القبلى حيث استخدام فى تنقلاته باخرة نيلية ، وكأن الله سبحانه وتعالى رأى أن يرى السلطان قبل موته كيف تحول سخط الجماهير عليه فى مستهل حكمه الى رضـا عنه بحيث انه سيموت قرير العين ؛ وليس من شك ان هذا التحول فى عواطف الأمة لا يرجــع الى أعمال السلطان حسين الخيرة فقد كان السلطان حسين طول حياته رجلا خيرا ، ولكن عواطف الجماهير التى انصرفت عنه لدى توليه الحكم ، سرعان ما اقبلت عليه عندما ترامى الى سمعها انه لا يساير السياسة الانجليزية وانه على العكس من ذلك يعارض ما فيه أذى للمصريين والفلاحين بخاصة وبدات الجماهير تخفق بحبه ممــا سينجلى بعد حين عند وفاته .

٢٤ يناير ــ الأمير فيصل يستولى على مدينة الوجه :

كان الملك حسين قد اصبح له الآن ثلاثة جيوش وضـــــع على راس كل منها واحـــدا من أبنائه الثلاثة ، فيصل وعبـد الله وعلى وكان جيش فيصل هو اهم هذه الجيوش الثلاثة بسبب وجود ضابط انجليزى به وهو الكابتن لورنس الذى اعلن أسلامه (ظاهرا) ليكون بقدرته ان يتغلغل الى ادق اسرار العرب ، وقد كان وجود لورنس الى جوار فيصل كان اهم سبب دعا عزيز المصرى الى الانسحاب من الثورة حيث كان اكبر داعية لها .

والذى يعنينا الآن أن نسجله ان جيش فيصل استطاع ان يحتل ميناء «الوجه» على ساحل البحر الأحمر وبذلك أصبح جيشه فى شـمال الحجاز على اتصال مباشر بالأسطول البريطانى . وقد كان بقدرة فيصل أن يصفى المقاومة التركية نهائيـــا ولكن الخلافات الحادة بين القبائل العربية شغلته عن كل شىء الا محاولة التوفيق بينهـــا .

٣١ يناير ــ المــانيا تعلن حرب الغواصات بدون قيد :

ولم يلفظ شهر يناير سنة ١٩١٧ أنفاسه قبل أن تصدر المانيا القرار الذى طال ترددها فى اصداره وهو أن تشن حربا شـاملة بالغواصات دون التفرقة بين سفينة وسفينة ، فحتى ذلك الوقت كانت لا تتعرض للسفن المحايدة وعلى راسها امريكا وقد حدث أن أغرقت بعض السفن الأمريكية ولكنها أبدت أسفها وأعلنت أن ذلك تم بطريق الخطأ ولكن الالمان انتهوا الى الاقتناع انه لا سبيل لفرض حصار على انجلترا الا باغراق كل السفن على الاطلاق حتى ولو غضبت امريكا وهكذا صدر قرار المانيا الذى أشرنا اليه ، ولا يمكن ان نذكر حرب الغواصات فى سنة ١٩١٧ دون ان نذكـر معها حقيقتين :

الأولى : ان هذه الحرب نجحت الى الحد الذى افزع انجلترا وشـــعبها وكاد يدخل اليأس الى نفوسهم اذ وصل عدد السفن الغارقة فى شهر واحد عندما بلغت حرب الغواصات ذروتها مليون طن .

الثانية : ان الفضل فى تغلب انجلترا على هذه الأزمة يرجع الفضـل فيـه الى « لويد جورج » رئيس وزراء انجلترا الذى اقترح تسيير السـفن فى قوافل تحت حراسة المدمرات وبالرغم من معارضة رجال البحرية فقد تشبث لويد جـــورج باقتراحه الى ان تحقق فاذا به ينجح نجاحا فاق كل ما كان متوقعا بحيث هبطت نسبة السفن الغارقة من ٢٥ الى ١ وهكذا نجت انجلترا وتعزز موقفها نهـائيا ، وهذا الذى احتاج الى ثلاث سنوات والى جدل ومعارضة قد جرى العمل به منـذ اليوم الأول لقيام الحرب العالمية الثانية .

٢ فبراير — الولايات المتحدة تقطع العلاقات مع المانيا :

احدث اعلان المـانيا فى ٣١ يناير من انها ستغرق كل سفينة فى شرق الاطلنطى رد فعل سريع فى أمريكا فقد كانت هى المقصودة بهذا القـــرار فأمريكا تكاد ترتبط ارتباطا عضويا بغرب اوربا وكان انتصار المـانيا يشكل خطرا على مصالحها ولذلك فان ويلسون يعلن باسم بلاده قطع العلاقات الدبلوماسية مع المـانيا وبات من المحقق أنها لن تلبث أن تنخرط فى سلك الحرب .

الثورة فى روسيا وخلع القيصر :

واذا كان شهر فبراير ١٩١٧ شهد أول خطوات امريكا فقد كان يشـــهد من الناحية الأخرى الحدث الأعظم الذى لن يؤدى الى خروج روسيا من الحرب فحسب بل وقيام الثورة الشيوعية التى لا تزال مستمرة حتى اليوم .

ولسنا هنا نؤرخ للثورة الروسية ومع ذلك فلا مناص من الاشارة الى هـــذه الأحداث الضخمة ، فقد كان المصريون يتابعونها وليس باستطاعتنا ان نفسر ثورة مصر العجيبة سنة ١٩١٩ الا على ضوء ما كان يجرى فى العالم من احداث وسـوف نرى ان الانجليز عندما يفاجأون بثورة سنة ١٩١٩ وعنفها وشمولها ودقة تنظيمها ، فسوف يدعون ان التنظيم الالمـانى والشيوعى يقف خلفها وهو كلام من نوع الهذيان ولكنه يظهرك على مدى محاولة الربط بما كان يقع من احداث فى أنحاء العالم .

خمســـة ايام .

تحت هذا العنوان طالعت ما كتبه تروتسكى رفيق لينين فى الثورة الشـــيوعية حيث راح يصف لنا هذه الأيام الخمسة من فبراير سنة ١٩١٧ والتى نقلت روسيا من قيصرية عاتية الى جمهورية ليبرالية لن تلبث ان تتحول الى ثورة شيوعية كمـا سوف يجىء ، وقد قامت الحركة اول ما قامت فى مدينة بطرسبرج عاصمة روسيا فى ذلك الوقت وكان القيصر يوم بدات الحركة يقيم مع الجيش فى الجبهة وانقلبت الحركة من اضراب عمالى فى اليوم الثانى الى ثورة عندما جاء فرسان القوازق الذين اعتادوا ان يمزقوا بسياطهم وتحت سنابك خيولهم ، جماهير الشعب فاذا بهم ولأول مرة فى تاريخهم المرعب لا يضربون وقد كان ذلك كافيا لتحـــول الاضراب الى ثورة وعندما ارسلت الجنود من حامية المدينة للتصدى للثوار انضموا اليهم وهـكذا لم يعد الجميع يقنعون فى اليوم الخامس بأقل من تنازل القيصر نفسه وسرعان ما نزل القيصر بالفعل عن العرش ولكن الغفلة وصلت بالحكام الجـــدد الى حد انهم لم يتصوروا أن الشعب الروسى فعل ما فعل كراهة فى الحـــرب التى أرهقت ارواح الملايين واجاعت الباقين ، وعلى ذلك فقد مضى السادة الجدد يواصلون الحـرب ، تاركين بذلك الفرصة للينين ليكون هو الذى يخرج روسيا من الحرب وبهذا يكسب الشعب الروسى الى جانب حزبه ولكن لا تزال امامنا بضعة شهور قبل ان يتحقق ذلك ولا يزال لينين عندما وقعت هـــذه الأحداث خارج روسيا ولا يزال حـــزبه

(البلشفيك) يؤلف اقلية فى هذه اللجان السوفييت ، التى الفت من الفلاحين والعمال والجنود لقيادة روسيا فى هذه المرحلة .

١٠ مارس — الانجليز يستولون على بغداد :

منذ اليوم الأول لقيام الحرب وقد فتحت انجلترا جبهة للحرب فى العراق فاحتل الانجليز ميناء البصرة بجيوش هندية تحت حماية الأسطول واتجهوا زاحفين نحو الشمال وتقلبت الحرب بينهم وبين الأتراك بين مد وجزر واصيب الانجليز بهزيمة منكرة عند كوت العمارة ولكن الموقف تبدل بعد أن اعلنت الثورة العربية وبعد الزحف الانجليزى عن فلسطين بحيث سقطت مدينة بغداد ودخلتها الجيوش الانجليزية فى ١٠ مارس .

شهر ابريل — اخطر القرارات :

وبحلول شهر أبريل عام ١٩١٧ كان أخطر شهور السنة من حيث الحدثين الحاسمين اللذين أثرا على سير الحوادث ، فقد أعلنت الولايات المتحدة الحرب رسميا على ألمانيا (١) وان كانت جيوشها لم تصل الى أوربا الا بعد بضعة شهور ولكن اسطولها القوى اشترك فورا فى الحرب فكان لذلك اثره فى تغلب انجلترا على حرب الغواصات .

١٢ ابريل — وصول فرقة عمال مصريين الى فرنسا :

ذكرنا من قبل أن مصر ساهمت فى المجهود الحربى بفرق عمالها الذين اربوا على المليون ، وقد كان المظنون فى مصر حتى ذلك الوقت ، أن عمل هؤلاء العمال قاصر على الجبهة الشرقية فى آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط اى من بغداد شرقا حتى الدردنيل غربا ولكن جريدة الأهرام والتى كانت سجلا دقيقا لسير الحرب فاجأت المصريين بما كشف عن ان الحلفاء اصبحوا لا يستغنون عن العمال المصريين فى كل ساحات القتال ، فنشرت جريدة الاهرام ما يفيد وصول العمال المصريين الى فرنسا نفسها حيث كانت تدور اعنف المعارك ، او بالأحرى المجازر . واليك نص هذا الخبر كما نشر فى حينه :

« نزلت فى فرنسا حديثا فرقة من قسم الاشغال المصرى قادمة اليها من مصر للاشتغال بأعمال مختلفة فيها بأجور طيبة . وقد وصفها كاتب ممن حضروا حفلة استقبالها فى فرنسا فقال : جاءتنا فرقة من العمال المصريين للعمل معنا هنا فى أعمال مختلفة مؤلفة من رجال ممتلئين صحة وقوة ونشاطا . وقد قوبلت مقابلة حافلةعند نزولها الى البر . واعجبنا جميعا من حسن هندامها ونظامها ودلتنا هيأتها بلباس الحاكى على انها فرقة جد وعمل ولاحظنا على وجوه رجالها السرور بالمناظر الحديثة التى وقعت عليها ابصارهم فى البلاد » .

---

(١) فى ٦ ابريل .

« والمفهوم أن هذه الفرقة تمضى فى فرنسا ستة اشهر ثم تعود الى مصر قبل حلول فصل الشتاء » .

١٦ ابريل ــ وصول لينين الى بطرسبرج :

وبينما كانت الولايات المتحدة تعلن الحرب على المانيا ، كانت ثمة حادث ظهر فى وقتها كما لو كان مجرد حادث شخصى ونعنى به وصول لينين الى بطرسبورج عاصمة روسيا ، ولكن سرعان ما سوف يثبت التاريخ أنه بوصول لينين ، سيتغير مسار الحوادث لا فى روسيا ودورها فى الحرب باخراجها منها بعد بضعة شهور بل فى تاريخ الدنيا كلها حتى هذه اللحظة ، ولعل الألمان هم وحدهم الذين قدروا خطورة شأن لينين فى هذه الظروف فيسروا له سبيل العودة وكان يقيم فى سويسرا فنقلوه فى قطار خاص مغلق سار عبر المانيا دون أن يقف حتى وصل الى بطرسبورج وقد استقبلته المدينة الثائرة اعظم استقبال ، وقد حاولت السلطات الحاكمة آنذاك أن تغمز فى سلوك لينين لتعاونه مع الأعداء لينقلوه الى روسيا ، ولكن لينين لم يلق باله لهذه المطاعن ووضع نصب عينيه هدفا محددا وهو اخراج روسيا من الحرب أولا ثم بلشفة روسيا ثانيا حسب تعبير ذلك الزمان . وقد نجح فى كلاهما كما سوف يجىء .

مايو ــ نظرة الى الأحوال فى مصر :

حتى هذا الوقت الذى نتحدث عنه كان قد مضى على اشتعال نار الحرب قرابة ثلاث سنوات كانت الصدمة الأولى التى نتجت عن اعلان الحرب وما صاحبها من تحولات فى حياة مصر قد خفت ، وبدأ الناس يتكيفون مع ظروف الحياة الجديدة يهونهم على احتمالها ما كانوا يسمعونه ويطالعونه فى الصحف من الأهوال التى كانت تقع فى ميادين الحرب فى أوروبا واذا كان الناس قد فوجئوا فى مراحل الحرب الأولى بخطف رجالهم ومواشيهم وحميرهم وأعلاف بهائمهم ، فقد ألفوا ذلك وأصبح من قبيل الروتين وان كان احساسهم بالظلم ازداد تمكنا وعمقا ، وهكذا استقرت الأحوال فى الظاهر .

ارتفاع الأسعار واختفاء بعض السلع :

على أن الجديد الذى لم يألفه الناس هو ارتفاع الأسعار والغلو الفاحش الذى عانى منه ذوو الدخل المحدود وعلى راسهم الموظفون مما جعل الحكومة تعد العدة لصرف اعانات الغلاء كما راحت من ناحية أخرى تنشىء أول منظمة للتموين سوف نتحدث عنها بعد قليل .

ارتفاع اجور السكة الحديد :

كانت السكة الحديد فى هذه الفترة من حياة مصر تكاد تمثل بعد الجمارك اكبر

مصادر الايراد للدولة (١) وكانت مصاريف التشغيل قد زادت فرفعت الحكومة أسعار السفر بنسبة ٥٠٪ ثم لم تلبث بعد فترة قليلة ان رفعتها ٥٠٪ مرة أخرى، ولعل ذلك يعطيك فكرة عن ارتفاع الأسعار فى سائر المواد وقد بلغت الزيادة نسبا تتراوح بين ٣٠٠٪ ومائة فى المائة .

٣٠ مايو ـ صدور قانون نزع السلاح :

وكأنما احس الانجليز انه يكمن تحت هذا الهدوء والاستقرار الظاهرى براكين من الغضب ونظرا لما كانوا يضمرونه لمصر من نوايا بمجرد الانتهاء من الحرب ، فقد اصدروا قانونا لتجريد الأفراد من اى سلاح يمكن ان يكون فى حوزتهم فصدر قانون يلغى رخص حمل السلاح السابق الترخيص بها لبعض الفئات التى تفرض عليها ظروفها حمل السلاح ، وكان معنى ذلك تجريد الأخيار الذين يحترمون القانون لصالح الأشرار الذين لن ينفذوا القانون بطبيعة الحال .

يونية ـ أزمة الورق وصحيفة الأهرام :

ونقف هنا قليلا بمناسبة بيان أصدرته جريدة الأهرام فى ٢١ يونية ، تعلن فيه قراءها أنها ستصدر فى أربع صفحات على أن يكون ثمنها خمسة مليمات ، وكانت الصحف تصدر فى هذه الفترة فى صفحتين من الورق الملون احيانا ، وكثيرا ما كانت هاتان الصفحتان (كما فى حالة جريدة الأهالى) تصدران واكثرهما ابيض نتيجة لعمل الرقابة التى لم تكن تصرح احيانا كثيرة بنشر انباء المعارك الحربية ونتائجها حتى ولو جاءت بها شركة الأنباء الانجليزية حتى ولو كانت تنقل عن الصحف الانجليزية .

تعيين الجنرال اللينبى قائدا للجيش الانجليز الزاحفة على فلسطين :

وفى شهر يونيه من هذه السنة عين الجنرال اللينبى قائدا للجيش الانجليزى الزاحف على فلسطين ولقد تركناه على أبواب مدينة غزة .

والآن جاء الانجليز باللينبى وعهدوا اليه بمهمة الزحف شمالا واكنه لم يشرع فى ذلك الا بعد أن ينجح العرب فى الاستيلاء على ميناء العقبة كما سوف يجىء والجنرال اللينبى هذا هو الذى سيرقى بعد حين الى مرتبة فيلد ماريشال وسيعينه الانجليز بعد اشتعال ثورة سنة ١٩١٩ مندوبا ساميا فى مصر او بالأحرى حاكما عسكريا ليرهبوا به المصريين ولكن ذلك لم يزد النار الا ضراما كما سوف نرى بحيث يتحول اللنبى الذى جىء به لاخافة المصريين الى الرجل المدافع عن حق المصريين فى التحرر من الحماية واعلان استقلالهم .

---

(١) قارن ذلك بما يجرى الآن (١٩٧٤) حيث تتكبد الحكومة الخسائر) .

يوليو ـ احداث ضخمة فى ميادين القتال :

شهد يوليو معارك رهيبة سواء فى الجبهة الغربية (فرنسا) او الجبهة الشرقية (روسيا) فأما فى الجبهة الغربية فقد شن الانجليز هجوما ضخما فيما يعــرف بمعركة الايبر والتى اشتهرت باسم معركة الوحل ، ولم يحقق الهجوم شــيئا من اهدافه الا ان يكون ذبح مئات الالوف هو الهدف .

وليس كذلك فى الجبهة الشرقية :

على ان الأمور لم تكن كذلك فى الجبهة الشرقية حيث كانت الأحداث تتطــور بسرعة لصالح الألمـان .

كان يوجد الآن على راس السلطة فى روسيا من يدعى « كيرنسكى » وهو زعيم اشتراكى قديم كان يرأس منظمة تعلق بها أمل الفــلاحين الروس وكانت تسمى « الاشتراكيون الثوريون » .

ومن ناحية أخرى فقد كان الحزب الشيوعى الروسى قد انقسم منذ وقت مبكر الى أغلبية (متشفيك) والى أقلية (بلشفيك) ولما أن زالت القيصرية من روسيا وحل محلها حكم (السوفيت) أى اللجان ، كانت أغلبية مندوبى هذه اللجان الذين تألف منهم المؤتمر الحاكم من الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك اما البولشفيك وزعيمهم لينين فقد كانوا أقلية ، وعلى ذلك فقد تشكلت الحكومة الروسية من الاشــتراكيين الثوريين ومن المنشفيك برئاسة كيرنسكى ولم تفكر هذه الحكومة الجديدة فى اراحــة الشعب الروسى من ويلات الحرب بل قررت المضى فيها حتى النهاية وكان شهر هذا الذى نحن بصدده هو الذى قرب هذه النهاية ، فقد حشــد الجيش الروسى آخر ما لديه من امكانيات لشن هجوم سرعان ما انقلب الى نكبة جديدة ولم يحل دون تقدم الجيش الألمانى الى حيث يريد الا انعدام وسائل المواصلات وكان من شأن هذا التطور الجديد أن ارتفع الموقف من جديد فى عاصمة الروس وخيف من خطر لينين الذى لم يكن يكف عن التنديد بالاستمرار فى الحرب . ومن هنا فقد صدر الأمر مــن حكومة كيرنسكى بتوقيفه ولكن لينين نجح فى الاختفاء من جديد ، ومن موقعه الجديد وبتشجيع من الظروف الجديدة المواتية راح يعمل بكل صراحة ووضوح على اشــعال نار الثورة الشيوعية وسنرى أنه سوف ينجح فى ذلك بعد اقل من ثلاثة أشهر .

أغسطس ـ استيلاء قوات الثورة العربية على مدينة العقبة :

فى أوائل شهر اغسطس استولى شيخ قبيلة الحويطات باسم الثورة العربيــة وبتوجيه من فيصل على ميناء العقبة ، وبعد ان استولى على كل النقط العســكرية التركية فى الطريق اليها ورافعا فوقها كلها علم الثورة العربية وبالاستيلاء على ميناء العقبة كانت الثورة العربية قد خرجت لأول مرة من الحدود السياسية لما كان يعرف بامارة الحجاز الى نطاق ما كان وقتها « بالشام » وقد ادى الاستيلاء عــلى العقبة الى تطوير حملة الانجليز بقيادة اللنبى على فلسطين .

انشاء مصلحة التموين :

أشرنا من قبل الى المصاعب التى بدأ المواطنون يلقونها فى الحصول على ما ألفوا الحصول عليه بأيسر الطرق وقد كان مرجع ذلك هو تكاثر الجنود فى مصر وما يستهلكونه سواء فى مصر أو ميادين القتال المحيطة بها وعلى ذلك فقد انشئت مصلحة التموين ووضع على رأسها أمين بك يوسف (١) وقد اشتهر بأنه حقق النجاح فى مهمته . وقد ذهبت وانا صغير مع والدى الى متجر المصلحة وكان يوجد حيث تقوم محكمة عابدين الآن ولا تزال فى رأسى صورة (الزكايب) الممتلئة (بياميش رمضان) .

الحكومة المصرية تبتاع الحمير :

ومرة أخرى رأت السلطة العسكرية الانجليزية أن تحصل على مزيد من الحمير لحاجتها اليهم ، ولكنها لجأت هذه المرة للحكومة المصرية لتحصل لها على ما تريد فأذاعت وزارة المالية اعلانا عن رغبتها فى الحصول على الحمير « للخدمة العمومية » وذلك فى ٢٥ اغسطس .

سبتمبر — الاحداث التى أدت الى استيلاء البلاشفه على السلطة فى روسيا :

وفى شهر سبتمبر وقعت الاحداث التى كانت السبب المباشر الى نجاح الثورة البلشفية فى الاستيلاء على السلطة ففى هذا الشهر استأنف الألمان زحفهم فى الجبهة الروسية حتى وصلوا مدينة ريجا ، وبدلا من ان يواصل الجيش الروسى تراجعه الى مناطق جديدة بدافع عنها اذا بالقائد العام كورنيلوف يدير ظهره للالمان ويتجه صوب بطرسبورج ليقضى على عناصر الثورة بها ويقول « البلاشفة » ان كورنيلوف اقدم على هذا العمل بتحريض من كيرنسكى نفسه تصورا منه ان كورنيلوف سيقضى على البلاشفة فقط ، ولكنه سرعان ما تبين له ان كورنيلوف اذا وصل بالجيش الى بطرسبرج فسوف يقضى على الثورة بكافة عناصرها بلشفيك ، ومانشفيك واشتراكيون ثوريون) ومن هنا فقد أطلق النذير ودعا العمال الى التسلح ومقاومة الثورة المضادة كما يمثلها كورنيلوف .

ولم يكن لينين ينتظر الا هذا فعاد من مخبئه (فى فنلندا) وراح يدعو بكل قوته وحماسة (الملهم) العمال فى ان يستولوا على السلطة ، ولكن ذلك لم يتم الا فى اكتوبر ، ولكنا يجب ان نعرف قبل ذلك مصير جيش كورينلوف . لم يكد هذا الجيش يقترب من بطرسبورج حتى كان الجزء الاكبر من الجنود قد غادروه عائدين الى قراهم ، ومن بقى من الجيش متماسكا فقد انضم الى الثوار — وهكذا سقط كورنيلوف وقبض عليه وأودع السجن .

اكتوبر — ثورة روسيا — وموت السلطان فى مصر :

حتى اذا جاء شهر اكتوبر سنة ١٩١٧ كان الحدث الاكبر الذى هز الدنيا كلها ولا يزال يهزها يقع فى روسيا ، ونعنى به استيلاء البلشفيك بقيادة لينين على السلطة .

---

(١) والد الصحفيين البارزين على ومصطفى أمين

وشهد شهر أكتوبر فى مصر حدثا هاما يؤلف حلقة فى سلسلة الأحداث التى انتهت باشتعال ثورة سنة ١٩١٦ وأرى قبل أن نتفرغ لأحداث مصر المباشرة ان تشير الى احداث اكتوبر فى روسيا .

ثورة اكتوبر فى روسيا :

يختلف التاريخ العام مع النظام التاريخى الذى اختار البلاشفة الأخذ به فحيث تجعل الكتب المؤلفة فى الغرب هذه الأحداث فى شهر نوفمبر أو على وجه التحديد فى ٦ نوفمبر ١٩١٧ فان البلاشفة أطلقوا على ثورتهم ثورة أكتوبر . وقبل أن نعرض لما حدث فى اليوم المحدد فلا مناص من اشارة لتوضيح الموقف .

الفارق بين العبقرية والفكر النظرى :

لعل ما حدث فى روسيا فى اكتوبر ١٩١٧ يظهر الفارق الضخم بين عبقرية الفرد وتفوقه بنظره الثاقب على عشرات ومئات الموهوبين بل على جيل بأكمله . مذ وصل لينين الى بطرسبورج فى ابريل سنة ١٩١٧ وقد ادرك ان هذه هى فرصة الشيوعيين للاستيلاء على الحكم الذى أصبح فى متناول أصابعهم بعد زوال القيصرية وسيطرة العمال على العاصمة ومن عجب انه وجد معارضة قوية ليس فقط من الاشتراكيين الثوريين باعتبارهم ممثلى الفلاحين ويؤلف الاغلبيــة فى مجلس السوفييت الأعلى ولا من المنشفيك الذين يمثلون غالبية الشيوعيين بل من أعضاء حزبه هو نفســه (البلشفيك) حتى كان القــول المتواتر فى الفترة الأولى عقب عودته مــن الخــارج « ان لينين يقف وحده » أما لماذا كان اعضاء حزبه فضلا عن الاحزاب الاشــتراكية تخالفه فى الرأى فيرجع ذلك الى ان القوم كانوا يعبدون ماركس وينزلون اقواله منزلة الأقوال الربانية وقد قال ماركس ان الثورة الشيوعية ستقوم فى أوربا الغربية فى انجلترا وفرنسا والمانيا فهذه هى الدول الصناعية الكبرى وقد تكونت فيها طبقات عماليه واعيه (بروليتاريا) فأصبح باستطاعة هؤلاء العمال ان ينتقلوا من العصر الرأسمالى الى العصر الاشتراكى ، أما روسيا عنوان التخلف فى أوربا والتى كانت لاتزال غارقة فى الاقطاع والكثرة الغالبة من شعبها فلاحون يمثلون الرجعية بطبيعة تكوينهم فهم آخر مجتمع أوروبى تقوم فيه ثورة شــيوعية ، هكذا كان يفكر أقرب المقربين الى لينين . وتكمن عبقرية لينين أنه قدر أن تكون الخطوة الأولى هى الاستيلاء على السلطة وذلك ممكن تماما نتيجة الظروف التى خلقتها الحرب والكوارث التى الحقتها بروسيا ، كان الشعب عن بكرة ابيه يتوق للتخلص من الحرب حتى لقــد أطاح بالقيصر الهه المعبود ليضع نهاية للحرب فكم كانت فجيعة الشعب عندما وجد السادة الجدد يواصلون الحرب ومن هنا ادرك لينين أن الشعب ســوف يتبع أى ثورة تضع نهاية للحرب ، أما عن كسب ولاء الفلاحين بعد ذلك الثورة فســهل وميسور .

وما على الثورة الا ان توزع الارض على الفلاحين لكى يموتوا دفاعا عن الثورة . هكذا فكر لينين وقدر ، ولكن زملاءه رفضوا هذا التفكير فى بادىء الأمر بالرغم من

محاولة لينين صب هذا التفكير العملى فى قوالب نظرية لكى تساير التفكير الماركسى وتطورت الحوادث على الصورة التى أشرنا اليها .

ووجد البلشفيك انفسهم من الناحية العملية هم أصحاب السلطة فى بطرسبورج بعد ان تسلح العمال ، فهل يتركون للسلطة لهذا الشبح المسمى كيرنسكى ويدعونه يهدد حرياتهم بل وأرواحهم ؟ كان القول بذلك يعد تخريفا ومن هنا دعا لينين أعضاء حزبه للاستيلاء على السلطة وكانت اللجنة المركزية للحـزب تتألف مـن اثنى عشر عضوا ، وافق عشرة منهم على الاستيلاء على السلطة وظل اثنـان يعارضـان بل ويحتجان بمقولة ان ذلك يخالف نظرية كارل ماركس .

الشرارة :

ومن سخرية الأقدار أن كيرنسكى هـو الذى اعطى اشارة البدء اذ أصـدر أمره بمصادرة « البرافدا » لسان حال الحزب البلشفى ، فأصدر تروتسكى أوامره للحرس الاحمر بمقاومة الامر .

وفى المساء كان الحرس الأحمر يحتل قصر الشتاء ويعتقل وزراء حكومة كيرنسكى الذى نجا هو نفسه من الاعتقال اذ تمكن من الهرب ، ليلقى على حد تعبير تروتسكى (ذراع لينين الأيمن) فى مزبلة التاريخ .

وهكذا استولى لينين ورفاقه على الحكم فى روسيا ، وفى يوم واحد كان يجمع البلاد حوله باعلانه عن عزمه القاطع لتخليص البلاد من الحـرب وجعل الفلاحين اكبر أنصار استيلاء الحزب البولشفى على الحكم باعلانه مبدأ « الأرض لزارعيها » .

ولندع الآن لينين ريثما نعود اليه والمهم ان الحرب كانت قد انتهت عمليا مع روسيا بوصول لينين الى الحكم .

الهزيمة المذلة لايطاليا :

بمجرد انتهاء الحرب فعليا مع روسيا اسـتطاع الألمان ان ينقلوا بعض فرقهـم لمواجهة ايطاليا فأصابوها بما يوصف فى التـاريخ بأنه معركة « مذلة » وهى موقعة « كابيروتو » وحيث راح الايطـاليون متراجعين مسافات شاسعة أذهلت الألمـان والنمسويين واعجزتهم عن متابعة الفارين .

٩ اكتوبر — وفاة السلطان حسين :

غير انه لانجاح الثورة فى روسيا ولا هزيمة الايطاليين المنكرة التى وصلت أنباؤها الى مصر على الفور وانما كان الحدث الذى هز مصر من الأعماق هو وفاة السلطان حسين ، وفاة الأجل بعد مرض قصير .

وقـد كانت وفاته مناسبة لهذا الشعب لاظهـار عنصرهالأصيل وغريزته التى لا تخطىء والتى أحست أن السلطان حسين تحول فى أخريات حياته الى حارس على

مصالح الأمة وحريتها واستقلالها فكلف رئيس حكومته حسين رشدى أن يشرع فى مساءلة الانجليز ما الذى سيفعلونه من أجل مصر وتطورها ، ولكن المنيةعاجلته قبل الشروع فى هذا الاجراء ورأى السلطان الجديد أن يرجىء هـذا الاجراء وغنى عن البيان ان الشعب لم يعرف فى ذلك الوقت بهذا الشعب ، ومع ذلك فقد عم الحزن البلاد ، وقد أتيح لى أن أشهد جنازة السلطان حسين وكانت الجنـازة ستسير فى شارع محمد على فراح أصحاب البيوت المطلة على الشارع يؤجرون نوافذ بيوتهم وشرفاتها لمشاهدة الجنازة ، وكنا نحن ممن استأجرنا نافذة ، وأشهد لقد كان ما رأينا شيئا رهيبا ، وقد سارت الفرق الانجليزية فى الموكب بأسلحتها وموسـيقاها وقد جللت بالسواد ، وطبعا كانت كتائب الجيش المصرى والحرس السلطانى فى المقدمة وكانت جماهير الشعب على جانبى الطريق وفى الشرفات والنوافـذ تبكى وتولول وقد كان حسين رشدى باشا رئيس الحكومة أول من نعى السلطـان حسـين الى الأمة فى عبارات مؤثرة صادقة واليك نص هذا البيان التاريخى :

« داهمت مصر مصيبة عظمى اذ فقدت مليكها المحبوب . فقد اختار ذو العرش والجلال الى جواره فى دار النعيم المقيم صاحب العظمـة السلطانية المغفول له حسين الأول . فلفظ النفس الأخير من حياته فى ظهر هذا اليوم » .

« ان الراحل الكريم لفائق تفانيه فى محبة بلاده وبديع اخلاصه للمصلحة العامة أثناء المدة الوجيزة التى تبوأ فيها عرش مصر — ويا أسفا على قصرها — بل فى جميع ادوار حياته المباركة قد استحق شكران الوطن » .

« امتاز رحمه الله بمدارك العقل السامى وبعواطف القلب الرحيم . فكان على الدوام موضع المحبة والتوقير فى نفوس المصريين بل فى قلوب جميع المتوطنين على ضفاف النيل . فلا غرو أن بكته مصر بكاء من يندب كارثة وطنيـة . ولا ريب انه فى جميع أنحاء القطر فى بيوت الله ومساكن الناس من أحقر الدور الى أفخر القصور ستنبسط أكف الضراعة والابتهال الى مولى البرايا أن يتغمد برحمته ورضوانه ذلك الذى سيلقبه التاريخ حقا وعدلا بهذا اللقب الجليل « أبو الأمة » (وانعى أنعى اليكم هذه الفادحة الكبرى وقلبى يتفتت من الحزن) .

الانجليز يشاركون المصريين فى الحزن :

ولم يبخل الانجليز من الناحية الرسمية سواء فى مصر أو انجلترا نفسها . ففى نفس اليوم الذى مات فيه السلطان أصدرت دار الحماية البلاغ الرسمى التالى :

« بأمر جلالة الملك يلبس القومسير العالى البريطانى وجميع موظفى دار الحماية الحداد اسبوعا كاملا من اليوم (٩ أكتوبر) وذلك بمناسبة وفاة السلطان حسين » .

هذا فى مصر ، أما فى لندن فقد أبنته واشادت به الصحف الانجليزية ونثبت هنا ما نشرته جريدة التيمس والديلى تلغراف التى قالت :

« وجدنا فى شخص السلطان حسين ، فى وقت كان من أشد الأوقات حرجا ، رجلا ممتازا بالاخلاص التام والشجاعة المطلقة . ولا يمكن تمجيد ذكره بأحسن وافضل من متابعة انفاذ المشروعات الكبرى التى كان مرتبطا بها ارتباطها صادقا » .

وقالت جريدة التيمس : « ان الامبراطورية قد فقدت صديقا حقيقيا صادقا فى شخص السلطان حسين . وان اخلاصه الصادق الذى لا جدال فيه وسمو مداركه معرفته التامة للفلاح كل ذلك قد جعله المستشار المعول على رأيه الموثوق به من جميع كبار الاداريين الانكليز الذين كانت لهم يد فى انشاء مصر الحديثة » .

« وان أحسن ما يمكن ان نتمناه لرعاياه هو أن يتمكن خلفه من اتباع مناهجه بعزيمة صادقة واخلاص .

ومن حسن الحظ ان سجايا الامير أحمد فؤاد وحياته الماضية تجعلنا نتوقع بثقة ان يتبع المثال الحكيم الوطنى الذى صار عليه اخوة الشهيد .

ابن السلطان حسين يرفض العرض :

كان للسلطان حسين ابن واحد يعزه كل الاعزاز ويحبه حتى ليؤثر عن السلطان حسين انه اذا لم يقسم بالقرآن الذى كان يحمله دائما فقد كان يقسم اما بحياة ابيه اسماعيل باشا أو بحياة ابنه كمال الدين حسين ، فلا عجب اذا رغب السلطان حسين ان يخلفه ابنه على العرش واتفق مع الانجليز على ذلك ، ولكن العجب أن يعتذر كمال الدين حسين عن قبول العرش ويسجل ذلك فى وثيقة رسمية تعتبر احدى عجائب تاريخ مصر الحديث فما سمعنا عن انسان يرفض عرشا ، وقد حفظ المصريون هذا الموقف لكمال الدين حسين ما بقى حيا فكان يذكر بكل تجلة واحترام واليك نص هذا الخطاب المؤرخ ٨ اكتوبر أى قبل يوم واحد من وفاة السلطان حسين :

« ياصاحب العظمة السلطانية » :

ذكرتمونى عظمتكم بما اتفقتم عليه مع الحكومة البريطانية الحامية وقت ارتقاء عظمتكم عرش السلطنة المصرية من تأجيل وضع نظام وراثة العرش السلطانى الى ما بعد بحثه وقد تفضلتم عظمتكم فأعربتم لى عن رغبتكم فى أن تكون وراثة عرش السلطنة المصرية منحصرة فى الاكبر من الابناء ثم بعده لاكبر ابنائه وهكذا على هذا الترتيب .

وانى لاذكر لعظمتكم هذه المنة الكبرى لما فى هذه الرغبة من التشريف لى . على انى مع اخلاصى التام لشخصكم الكريم وحكمكم الجليل مقتنع كل الاقتناع بأن بقائى على حالتي الآن يمكننى من خدمة بلادي باكثر مما يمكن ان أخدمها به فى حالة اخرى .

لذلك أرجو من حسن تعاطفاتكم أن تأذنوا لى أن أتنازل عن كل حق أو صفة أو دعوة كان من الممكن لى أن أتمسك به فى ارث عرش السلطنة المصرية بصفتى ابنكم الوحيد ، وانى لا أزال لعظمتكم السلطانية النجل المخلص والعبد الكثير الاحترام

٩ اكتوبر ـ انجلترا تنصب السلطان أحمد فؤاد :

من الواضح والمحقق ان أمر من سيخلف السلطان بعد وفاته كان معروفا بل ومتفقا عليه ، ولاشك ان كمال الدين قد كلف بكتابة ما كتب منعا لأى قيل وقال فى المستقبل فنحن نرى فى أول برقية بعثت بها دار الحماية الى لندن لتخبرها بوفاة السلطان حسين تتحدث عن أحمد فؤاد كخلف له ، وهاهو قرار انجلترا بتولية السلطان أحمد فؤاد يبلغ اليه فى نفس يوم وفاة السلطان حسين واليك نص هذا التبليغ :

« يا صاحب العظمة السلطانية »

« بأمر جناب وزير الخارجية لحكومة صاحب الجلالة البريطانية أتشرف بأن اعرب لعظمتكم عن فائق الاسف الذى شمل حكومة جلالة الملك حينما وصل الى علمها نعى المغفور له صاحب العظمة السلطانية حسين كامل الذى اكبرت الامة المصرية جميعها اخلاصه لكل ما فيه خيرها اخلاصا لا يعتريه فتور وقدرته حق قدره فكانت وفاته لديها كارثة وطنية . وانني أتشرف بابلاغ عظمتكم السلطانية بأنه لما كان نظام الوراثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للآن وكنتم عظمتكم بعد طبقة البنين الوارث الشرعى المتعين تبعا لوراثة العرش فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبؤ هذا العرش السامى . على أن يكون لورثتهم من بعدكم حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانى وبين عظمتكم » .

وان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تريد أن تجدد لعظمتكم بهذه المناسبة التأكيدات التى أعطتها لسلفكم عند ارتقائه العرش . وهى مقتنعة أن فى استطاعتها أن تعتمد فى العمل مع عظمتكم ، على تلك الصداقة التى كانت شعارا لحكم السلطان المرحوم وعادت وثمراتها على البلاد بازدياد الرفاهية والتقدم ، ذلك الامر الذى له من المكانة فى نفس الحكومة البريطانية مالا تقل منزلته لدى عظمتكم .

وانى انتهز هذه الفرصة فأقدم لعظمتكم السلطانية أجل احتراماتى ،

القاهرة فى ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ « رجنالد ونجت »

حسين رشدى وراء ذلك كله :

ومن استقراء الواقع يثبت ان حسين باشا رشدى كان وراء هذه الترتيبات حتى أدق تفاصيلها فقد تم كل شيء تماما كما حدث عند خلع عباس حلمى وتولية السلطان حسين اذ كان أول ما فعله السلطان حسين هو أقرار حسين رشدى فى الوزارة وهو عين ما حدث الآن اذ كان اقرار حسين رشدى فى الوزارة هو أول ما يفعله أحمد فؤاد الامر الذى يقطع بأن حسين رشدى هو العنصر الثابت والاهم فيها نحن

تراه رئيس حكومة لسلاطين ثلاثة : عباس حلمي وحسين كامل وأحمد فؤاد ونحسب ان ذلك ما كان ليكون لولا أن هذه رغبة الانجليز واليك الآن نص هـذه الرسائل المتبادلة بين أحمد فؤاد وحسين رشدي :

« يعلم رعايانا أنه سبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول الذى اختطفته المنية قبل الأوان وملأت القلوب حزنا عليه قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنـا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها » .

« منذ ثلاث سنوات كانت حدود بلادنا يظهر انها مهددة . وكانت ثروتها الزراعية توشك ان تصاب فى مصادرها . ولقد لبى سلفنا رحمة الله نداء الواجب وتفانى فى اخلاصه لمرافق البلاد . فكم يتردد فى تحمل أعباء السلطنة مع ما كان يحف بها من المصاعب . واعتمادا على ولاء رعاياه وعلى تأييد الدولة الحامية وقف نفسه مدة هذه السنوات الثلاث (كذا) على تنفيذ المنهاج الذى اختطه فى المرسوم الصادر منه الى دولتكم عند ارتقائه عرش السلطنة . وقد صـار وضـع أسس تعميم التعليم وبحث موارد ثروة البلاد والشروع فى الوسائل التمهيدية التى من شأنها احلال مصر فى مكانة الكرامة اللائقة بها فى العالم الذى سيتحدد على اثر انعقاد الصلح .

« ونحن اليوم ننشد ذلك الولاء نفسـه من رعايانا فى ظروف هى أكثر يمنـا وتوفيقا . فقد زالت الاخطار التى كان يظهر انها تهدد بلادنا ، وعادت ثروة القطر الى ما كانت عليه .

وبقى علينا ان نخصص انفسنا بالاشتراك مع نواب الامة اشتراطا يزداد على الدوام لاتمام تنفيذ ذلك المنهاج الذى اختطه سلفنا .

وان تحقق فى جميع الفروع الاصلاحات التى من شأنها ضمان التقدم المـادى والأدبى فى بلادنا .

« ولمـا كنا على يقين من خبرتكم ومن صفاتكم السامية فاننا نوجه الى عهدتكم مهام تأليف الوزارة » .

« ومن الله نلتمس الاعانة على ما نحن قادمون عليه من العمل » .

« فؤاد »

فقبل صاحب الدولة حسين رشدى باشا الاستمرار فى دست الاحـكام هو وزملاءه وأجاب عظمة السلطان الاجابة الآتية :

يا صاحب العظمة السلطانية

« انى لأشعر بالشرف العظيم الذى أوليتمونى اياه بما تفضلتم عظمتكم به على دلائل الثقة الكبرى بتكليفى بتأليف الوزارة الجديدة » .

« فبالرغم من اعتلال صحتى لما تحملته من الاجهاد منذ ثلاث سنوات ولما نالنى من الصدمة العنيفة بفقد سيد ، كان فى آن واحد صديقا لى . فانى وفاء الى النهاية بالواجب المفروض على ، بصفتى مصريا ، أقدم فى ظل عظمتكم لخدمة بلادى القليل الباقى لى من القدرة على العمل .

وبناء على ذلك فاننى آخذ على عهدتى تأليف هيئة الوزارة الجديدة فاعرض على تصديق عظمتكم السلطانية تجديد الهيئة السابقة كما كانت .

« وانى بكل احترام واجلال لعظمتكم السلطانية » .

القاهرة فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩١٧

العبد الخاضع المطيع المخلص
« حسين رشدى »

الاستقرار الظاهرى :

وهكذا بدأ كل شيء على السطح كما لو كانت الأمور قد استقرت نهائيا لانجلترا فى مصر تسير أمورها كيف تشاء وتختار . وبدأ الانجليز المحليون يضعون أعجب الخطط لحكم مصر وفق هواهم ومشتهياتهم .

التطوع السلطة الانجليزية عن طريق الحكومة :

رأينا من قبل كيف أقدمت السلطة العسكرية على جمع الناس بالاكراه للعمل فى متطلبات الحرب ، وكان من الواضح ان الحكومة المصرية تركت للسلطات الانجليزية ان تعمل بطريقة مباشرة فكان من أثر ذلك ان وقع من المظالم ما وقع ، ولكن بمضى المدة واستقرار الامور راى الانجليز ان يشركوا الحكومة المصرية فى عمل ما يحتاجونه ومن هنا رأيناهم كما قدمنا يلجأون الى الحكومة المصرية لجمع المزيد من الحمير وسائر دواب العمل . ونراهم يلجأون اليها مرة أخرى لجمع المتطوعين فنراها تصدر مرسوما سلطانيا يعد فيه المتطوعين للعمل فى الجيش الانجليزى بكثير من الامتيازات (١) .

٢ نوفمبر — وعد بلفور المشهور :

حتى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه كان العرب قد انخرطوا نهائيا فى القتال ضد تركيا بحيث لم يعد باستطاعتهم التوقف فضلا عن الرجوع ، ومن هنا فلم يعودوا يأبهون كثيرا لهم وكانت الجيوش الانجليزية قد أصبحت قريبة من مدينة القدس . وهنا ظهر النشاط اليهودى على أشده وكان على رأس الصهيونية من يدعى « حاييم وايزمن » وقد اسفر اتفاق الصهيونية مع انجلترا عما اشتهر باسم « وعد بلفور »

(١) كان لى شقيق يدعى مصطفى وهو نموذج لطبقة جديدة من الشباب الذين تأثروا بوعود الحكومة المصرية فالتحق بالملك .

والذى كان هـــو اللبنة الأولى لقيام دولة اسرائيل وزرع هذا الجسم الغريب الشاذ فى جسد الامة العربية . واليك نص هذا التصريح .

فجيعة العرب :

ورغم العبـــارات الهينة التى سيق بها الوعد لليهود فقد أدرك العرب منذ الوهلة مغزاة فوقع عليهم وقع الصاعقة ، فقد فهموا منه أن الصهيونية نجحت أخيرا فيما كانت تسعى لتحقيقـــه حتى الآن بغير نجـاح مع الأتراك والذلك فقـــد انقلب التقدم الانجليزى الذى كان بالامس يطربهم ، الى غم ومصدر للقلق وهكذا تلقوا نبأ احتلال الانجليز لغزة ومن بعدها ،ى يافا (١) بدون ابتهاج .

٩ ديسمبر ـ الانجليز فى القدس :

فى التاسع من ديسمبر ســنة ١٩١٧ دخلت الجيوش الانجليزية مدينـــة بيت المقدس بعد انسحاب الاتراك منها ولم يستطع الجنرال اللنبى الذى كان على رأس الجيش الانجليزى ، أن يخفى مشاعره التى هى مشاعر الانجليز جميعا فقال قولته المشهورة التى تنم عن التعصب فضلا عن الغرور والجهل حيث قال : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

١٩ ديسمبر ـ تعديل الوزارة المصرية :

واقترب عام ١٩١٧ فى مصر باستقالة الوزير ابراهيم باشا فتحى وزير الأوقاف ودخل الوزارة لأول مرة أحمـــد زيور والذى سيصبح رئيسا للوزارة بعـــد بضع سنوات وهكذا انتهى عام ١٩١٧ وعلى رأس مصر ســلطان جديد هو أحمد فؤاد ، اما الوزارة فكانت على الوجه التالى :

حسين رشـــدى	الرئاسة والداخلية
اسماعيل سرى	للاشغال والحربية
أحمد باشا حلمى	للزراعة
يوسف وهبه باشا	للماليـــة
عدلى يكن باشا	للمعـــارف
عبد الخالق ثروت باشا	للحقانيـــة
أحمد زيور باشـــا	للاوقاف

وسوف يقابلنا الأربعة الاخيرون رؤساء للوزارات القامة .

---

(١) لا تحسب أن الكثيرين يعرفون ـ أن تل ابيب فى ذلك الوقت كانت هى الاسم الذى يطلق على حي اليهود فى يافا .

وفاة الشيخ سلامة حجازى :

وفى اكتوبر من هذه السنة مات الشيخ سلامة حجازى سيد الغناء فى عصره والدعامة الكبرى للنهضة المسرحية فى مصر ولكنه لم يغادر الحياة الا بعد ان بزغ فى سماء الفن كوكب جديد أو بالأحرى نجم ما يزال يتألق حتى الآن ونعنى به :

سيد درويش :

ففى هذه السنة بالذات انتقل سيد درويش من الاسكندرية مسقط رأسه الى القاهرة حيث لحن لفرقة جورج أبيض أوبريت فيروز شاه » .

ذكريات شخصية :

وفى هذه السنة نقلت من كتاب حارة الجمالة الى احدى المدارس الأولية التى انشئت على الطراز الحديث وهى مدرسة صرغتمش الأولية نسبة الى الأمير المملوكى صرغتمش (١) .

وكان معنى هذه النقلة أن ارتدى « بدلة » وكان ثمن « البدلة » بضع عشرات من القروش كما أصبح لى مصروف مقداره « مليم » . وقد كان حصولى على مصروف يومى يعتبر حدثا جديدا لم ينعم به أحد من اخوتى من قبل ، وطالما ذكرتنى والدتى بهذه النعمة وكان هذا « المليم » يمكننى من الحصول على قطعة من « البسبوسة » تملأ طبقا صغيرا بعد تقطيعها وكان طلبنا المستمر من البائع هو أن يغرقها « بالسمن » كما كان يمكن بالمليم الحصول على طبق من « الدندرمة باللبن والفراولة » أو كوب من شراب الخروب ، أما العرقسوس فالمليم يحصل على عدة أكواب ، وكان يحصل على قرطاس كبير من الحمص واللب والسودانى . فهذا فيما يختص بى ، أما بصفة عامة فقد كان يمكن الحصول به على « بيضة » وكانت والدتى تشكو من ذلك مر الشكوى وتترحم على أيام زمان حيث كانت تحصل على بيضتين وأحيانا ثلاثة بالمليم ، وكان باستطاعة أى انسان أن يحصل على نصف رغيف وطعمية بالمليم .

قصة بناء بيت :

وكان لى عم لا يتجاوز راتبه أربعة جنيهات فى الشهر ومع ذلك فقد استطاع بتدبيره أن يدخر ما مكنه من بناء بيت من دورين ، سكن فى أحدهما وأجر الآخر بمائة وخمسين قرشا وهو مبلغ جد باهظ فى تلك الأيام وما جعل الايجار مرتفعا الى هذه الدرجة ان البيت كان يقع على شارع العمرى ، وقد اعتدنا أن نقول يومئذ عندما نذهب الى هذا البيت اننا أصبحنا على « وش الدنيا »

---

(١) راجع سيرته فى الجزء الثانى.

ومن الألعاب التى كنا نلعب بها فى هذه الفترة وتكشف لك عن الروح السائدة « لعبة الضباط والحرامية » « أو العبة » « الحرب » والمهم فى الموضوع اننا كنا تستعمل سيوفا ونرتدى شارات وملابس عسكرية كانت تباع فيما يسمى « سوق العصر » . وعلى ذكر بيت عمى فقد يجاوره بيت يسكن فيه من أصبح فيما بعد من أكبر أدبائنا وأعنى به الاستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة وكان يتردد عليه فى هذا البيت طه حسين الذى أصبح فيما بعد عميد الأدب العربى .

جولة فى الريف :

وقد اعتادت والدتى أن تصحبنى فى جولتها الريفية التى تزور فيها والدتها فى مدينة سمنود أو أقارب أبى فى « بهبيت الحجارة » (١) أو بلقاس ولست اعرف الآن كيف يعيش الفلاحون ولكن الثابت فى راسى عن هذه الأيام ان اى بيت كنا ندخله كان يقدم لنا فى وجبة الفداء دجاجة محمرة فيما يقدم ، وفى العشاء البيض المقلى وفى الصباح طاجن القشدة .

الشـــاعر فى سمنود :

ولعل أهم ما يعلق بذاكراتى من هذه الجولات الريفية هو هذا الشاعر الذى يروى على الربابة قصة « أبو زيد الهلالى سلامة » وكان القوم يحفلون بها أشد الاحتفال وقد كان من حسن حظى ان المقهى الذى كان الشاعر يروى فيه قصة أبى زيد كان يقع أسفل بيت جدتى فى سمنود فكنت أسعد بمتابعة القصة .

وماتت جدتى وماتت والدتى وانقطعت صلتى بسمنود ثم يشاء القدر أن يكون الرجل الذى اصطدم به سياسيا بعد عشرين سنة من هذا التاريخ هو رجل سمنود الأول وأعنى به مصطفى باشا النحاس والذى اعتدت أن أسمع من والدى اننا نمت له بصلة القرابة .

***

عام ١٩١٨

بحلول هذا العام كان قد مضى على الحرب قرابة أربعة أعوام وكانت الشعوب المحاربة قد وصلت الى درجة اليأس من الحصول على انتصار من أى نوع كان ولم تعد الحرب تعنى بالنسبة للشعوب الا أنها خراب وتدمير وتقتيل زهرة الشباب بمئات الألوف فى اى معركة حتى اصبح الموتى يربون على عشرة ملايين ، وجاع الناس حتى أصبح من المألوف أن ترى البعض يبحثون فى مستودعات القمامة عن فضلات يقتاتون بها ، ويبدو أن الطبيعة البشرية تألف كل شىء وتعتاده حتى صنوف الويلات والعذاب يعتادها الناس ومن هنا فقد استهلت سنة ١٩١٨ وليس هناك ما يدل على أن الحرب سوف تنتهى فى ختام العام فاذا كانت روسيا تحت قيادة لينين الحكيمة قد خرجت من الحرب فى الشرق فان أمريكا قد دخلت بنشاط جديد فى الغرب . والحق ان دخول امريكا فى الحرب هو الذى عجل بنهايتها لا عن طريق جيوشها ولكن طريق « مبادىء ويلسون الأربعة عشر » فهذه المبادىء المثالية والتى سنعرض لأهم ما فيها مما يتصل بمصر وثورتها وأعنى به مبدأ تقرير المصير ، ولم يكن ذلك الا أحد المبادىء بين مبادىء اخرى لا تقل مثالية أو روعة كأن لا يحصل المنتصر على ضم أراضى جديدة أو يحصل من المغلوب على ما كانوا يسمونه غزامة ، وكان من أهم المبادىء التى نادى بها حرية البحار وحرية التجارة وتأليف عصبة الأمم لتحل كل المنازعات الدولية عن طريق السلم . كل هذه المبادىء وأمثالها جعل الشعوب المتحاربة وبخاصة الشعب الألمانى يتساءل وفيم وعلام نحارب اذن وهذا الذى يعرضه ولسون هو منتهى أمانينا ومن هنا فقد كانت مبادىء ولسون هى التى وضعت نهاية للحرب ولكن فى هذا الوقت الذى نتحدث عنه وأعنى به مستهل عام ١٩١٨ كانت هذه النهاية لا تزال مجهولة حتى ان رجلا واسع الاطلاع والنفوذ وهو اللورد نورثكلف صاحب أقوى مجموعة من الصحف الانجليزية عندما سئل متى تظن أن الحرب ستنتهى ، أجاب « لا اظن أن أحدا من جيلنا سوف يشهد نهايتها » .

ولعل ذلك يصور لك مدى الضياع الذى كان يعيش فيه المسئولون .

الحال فى مصر :

أما فى مصر فباستثناء حالة الغلاء التى لم يألفها المصريون والتى كانت مثار الشكوى بطبيعة الحال كانت الأحوال قد استقرت وبدأ الاقتصاد المصرى الذى عانى من الانهيار فى مستهل الحرب كان قد استعاد ثباته وقوته . وكان دخول أمريكا الحرب ومبادىء ولسون التى أعلنت أمريكا انها تحارب من أجلها قد وصلت مصر واستوعبها الشعب الذكى . وتوقف زعماؤه طويلا أمام القول الذى يقول « ان من حق الشعوب كبيرها وصغيرها على السواء أن تكون هى التى تقرر مصيرها بمحض حريتها واختيارها » كان لمثل هذا القول الذى شرعت الصحف تنشره على لسان ويلسون الذى اعتبر « نبى الانسانية » . كانت هذه المبادىء قد بدأت تلفح وجه الشعب المصرى فتشعره بنسمات حلوة من الأمل والرجاء وعندنا انه اذا كان سعد زغلول وصحبه قد تقابلوا مع ونجت بعد يومين فقط من انتهاء الحرب فان ذلك كان ثمرة اعداد طويل لا بد أن يكون قد بدأ منذ عدة شهور سابقة .

وليس أدل على أن الناس فى مصر بدأت من جديد تراجع شئونها العامة ان سخطها الذى واجهت به السلطان حسين لدى توليه منصبه ولم يلبث ان تطور على النحو الذى أشرنا اليه عند وفاته لم يلبث أن عاد أشد عنفا على السلطان الجديد فلم يستقبله الناس بقبول حسن خاصة وان الثورة سيقدر لها أن تشتعل فى أيامه مما سيحدث بينه وبين الشعب جفوة اذ سيكون مضطرا لمسايرة السلطة الانجليزية ولكن لا نسبقن الحوادث فنحن لا نزال فى مطلع العام وكل شىء لا يزال فى عالم الغيب .

٨ يناير ـ ويلسون يعلن آخر مبادئه :

كان ويلسون يحدد المبادىء التى دخلت أمريكا الحرب على أساسها وبالتالى فهى تحارب من أجل تحقيقها فكان مما اذاعه فى خطاب له يوم ٨ يناير المبدأ الأخير من مبادئه :

« وجوب انشاء جمعية أمم لوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسلامة الأملاك لجميع البلدان كبيرها وصغيرها على السواء » .

الانجليز وفلسطين :

ذكرنا فى حوادث العام المنصرم كيف تعهدت انجلترا بموجب وعد بلفور (٢ نوفمبر) أن تجعل من فلسطين « وطنا قوميا » لليهود وقد أثار هذا التصريح ثائرة العرب، ولما كانت الحرب لم تنته بعد وكان قد أصبح للعرب جيش يحارب فقد بادرت انجلترا الى محاولة طمأنة العرب فأوفدت فى شهر يناير ١٩١٨ الى الملك حسين فى مدينة جدة رئيس المكتب العربى فى القاهرة ، وهو القومندان « هوجارث » الذى كان يشغل قبل الحرب مركز أستاذ فى جامعة اوكسفورد ، ونقل الى الملك حسين تصريحا لانجلترا باللغة العربية تلاه عليه وأفهمه أن باستطاعته أن يكتبه بخط يده وأن يحتفظ به ، فانظر الى هـذا الأسلوب العجيب من المراوغة . واليك نص هذا التصريح :

« بالنسبة لقضية فلسطين نحن مصممون على ألا يخضع شعب لآخر ولكن بالنظر الى :

(أ) انه توجد فى فلسطين مقامات وأوقاف وأماكن مقدسة للمسلمين وحـــدهم ولليهود وحدهم وللمسيحيين وحدهم وبالنظر لاهتمام جماهير عديدة خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الأماكن فيجب أن يقام نظام خاص يقره العالم لهذه الأماكن .

(ب) بالنسبة للمسجد الأقصى يعتبر أمره من شأن المسلمين وحدهم ولن يوضع مباشرة أو غير مباشرة فى أيدى سلطة غير مسلمة .

(جـ) كما انه بالنظر لان الرأى العام اليهودى بعد عودة اليهود الى فلسطين وبالنظر الى أن حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف لتحقيق هذا المطمح فهى مصممة فى حدود عدم تعارض هذا مع حرية السكان الموجودين من الناحيتين السياسية والاقتصادية على تحقيق هذا الغرض .

وهذا كلام نشهد انه واضح وصريح فى تحديد سياسة انجلترا والتى اتبعتها بعد ذلك فى فلسطين وهو عمل كل ما من شأنه أن يجعل من فلسطين وطنا قوميا لليهود .

أول فبراير — سريان اعانة الغلاء :

قدمنا ان السمة البارزة فى حياة مصر فى هذه الفترة كانت هى موجة الغـلاء فارتفعت اصوات ذوى الدخل المحدود وعلى رأسهم الموظفون بالشـكوى فقررت الحكومة لصغار الموظفين اعانة غلاء رصدت فى الميزانية على أن تسرى ابتداء من أول فبراير وقدرت بمبلغ ٣٢٧٥٣٥ جنيها ولعل هذا الرقم يكشف لك عن الفـارق الضخم بين القوة الشرائية للنقود فى هذه الأيام ووقتنا الحاضر فهذا المبلغ الذى اعتمد للتوسعة على عشرات الألوف من صغار الموظفين لا يكاد يكفى اليوم لرصف شارع .

٢٢ فبراير — روسيا تفضح الحلفاء :

فى ٢٢ فبراير تلقت انجلترا وفرنسا أول ضربة سياسية لخططهم ومشروعاتهم على يد لينين فقد أذاع راديو موسكو الوثائق السرية التى كان الحلفاء أبرموها فيما بينهم وأغلب هذه الوثائق يدور حول تقسيم تركيا والبلاد العربية بخاصـــة بين انجلترا وفرنسا وحتى ايطاليا وقد أثبتنا من قبل نص اتفاقية انجلترا وفرنسا التى اشتهرت باسم « سايكس — بيكو » .

وهكذا نرى انه فى هذا الوقت المبكر جدا (فبراير ١٩١٨) حتمت المتغيرات السياسية على روسيا أن تقف فى صف العرب حيث يهـــددهما معـا « المعسكر الامبريالى » وقد كان لينين هـو الذى صاغ تعبير « الاستعمار ذروة الرأسمالية » وغنى عن البيان أن لينين عندما كشف عن هذه الوثائق السرية فاضحا بذلك الحلفاء لم يكن موضوع القضية العربية وخدمة القومية العربية فى ذهنه ، وانما كان المقصود

هو كشف القوى الاستعمارية وخداعها . والمهم الذى يعنينا اليوم (١٩٧٤) انه منذ اللحظة الاولى لقيام الاتحاد السوفيتى بدأ نشاطه السياسى يظاهر العرب .

تخبط انجلترا :

كان لاذاعة الوثائق السرية التى عقدها الحلفاء خلال الحرب وقع الصاعقة على الشعوب العربية ، وبادر الملك حسين الى انجلترا بأن تقدم له تفسيرا ، ولم تستطع انجلترا أن تنفى أو تكذب فقد أذهلتها الفضيحة وليس الا بعد بضعة شهور أن تلقى الملك حسين رسالة من انجلترا لم تستطع فيها أن تتنصل من الاتفاقات ولكنها حاولت أن تفسرها وتهون من خطرها واليك نص هذا الرد الانجليزى أ

« ان البولشفيك لم يجدوا فى بتر وجراد معاهدة بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انجلترا وفرنسا وروسيا فى اوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الأتراك وذلك قبل النهضة العربية وان جمال باشا اما عن جهل أو خبث غير فى مقصدها الأساسى وأهمل شروطا بها تقضى بضرورة رضا الأهالى وحماية مصالحهم ، وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى عما كانت من قبل بالكلية » .

وابتلع الملك حسين هذه الأكذوبة الجديدة وليس باستطاعتنا بعد هذا العمر الطويل أن نعرف هل كان ابتلاعه لها عن اقتناع أم انه لم يكن امامه الا أن يقتنع .

٣ مارس — لينين يأمر بابرام صلح برست ليتوفسك :

كانت روسيا قد اوقفت الحرب نهائيا مذ تولى البولشفيك زعامتها فى أكتوبر عام ١٩١٧ ومع ذلك لم تنته رسميا بعقد معاهدة صلح وذلك لأن الألمان بالغوا فى فرض الشروط القاسية فتوقف تروتسكى عن قبولها ، وعندما زحف الألمان واقتربوا من بطرسبرج (بتروجراد) نقل السوفيت مقر الحكومة الى موسكو والمهم ان لينين ضغط لعقد الصلح مهما كان الثمن فأبرم فى ٣ مارس سنة ١٩١٨ فى مدينة برست ليتوفسك ويروى عن لينين أنه أمر ممثليه أن يوقعوا شروط الصلح مهما كانت ودون قراءتها وقال بعد ذلك « الآن انتهينا من حرب خارجية لنلتفت الى حرب داخلية نعلنها على الحياة الطبقية وأوضاع القرون الوسطى . الآن يبدأ التصنيع (وكهربة الاتحاد السوفييتى) وبعد أن قال ذلك تساءل عن شروط الصلح وليس هنا مجال عرض شروط هذا الصلح المجحف ، ولكن لا مناص من الاشارة أن ثمة صلح مجحف كذلك عقد مع رومانيا ، وهكذا تصورت المانيا ان الحرب انتهى نهائيا على الجبهة الشرقية ، ولكنا سوف نرى أن تسليمها العسكرى سيكون بسبب هذه الجبهة .

٣ — مايو — اذاعة نبأ تبرع مصر لانجلترا بثلاثة ملايين جنيه :

كان قد تراكم على انجلترا ديون لمصر وهى عبارة عن خدمات أديت للجيش

الانجليزى كقيام السكة الحديد بنقل الجنود وفى أوائل سنة ١٩١٨ أعد المستر برونيت المستشار المالى كشوفا بهذه المبالغ فوصل قدرها الى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه وكان مقدرا أن يصل المبلغ الى ثلاثة ملايين جنيه حتى نهاية العام ، ففوجىء المصريون فى ٣ مايو بنبأ وزعته شركة روتر الانجليزية وهذا نصه :

« ان الحكومة البريطانية قد قبلت مع الشكر والامتنان تبرع الحكومة المصرية العاجل بثلاثة ملايين جنيه من نفقات الحرب وتعهدها بتقديم نصف مليون جنيه آخر فى ميزانية السنة المالية الحاضرة » .

واذا كان هذا الأمر قد عرف مما اذاعته شركة روتر فى مطلع شهر مايو ، فحقيقته ان مجلس الوزراء قد اتخذ قراراته فى ٩ مارس « اعترافا بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات » وغنى عن البيان ان وزارة حسين رشدى والسلطان الجديد قد أرادا مواصلة السياسة التى سارت عليها الحكومة منذ اليوم الأول لقيام الحرب وهو الوقوف بجانبها على طول الخط وسوف نرى بماذا كافأت انجلترا مصر على كل ذلك مما أشعل ثورة سنة ١٩١٩ وليس الا بعد قيام هذه الثورة أن تذكرت انجلترا هذه الخدمات فترى اللورد ملنر وزير المستعمرات الذى أوفد الى مصر للتحقيق فى أسباب الثورة يقول فى تقريره :
« ان حكومة السلطان أبدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون حبى ، والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن ثلاثة ملايين جنيه من حساب الأمانات والعهد التى كانت قد اقرضنها اياها وكان يحق لها المطالبة بها . »

وقد بقى لكى يدرك القارىء أبعاد هذا الموضوع أن نذكره بما قلناه سابقا انه للتفريج عن موظفى الدولة التعساء الذين نكبوا بنكبة الغلاء ، لم يحتج الأمر الا لأقل من ثلث مليون جنيه تنفق كاعانة غلاء على مدار العام .

صيف عام ١٩١٨ :

قام الالمان فى هذا الصيف بما نعرف الان أنه كان أخرهجوم لهم وقد اقتربوا من باريس بأكثر مما اتيح لهم فى مطلع الحرب حتى بدأ الباريسيون ينزحون من مدينتهم وقد اتيح لى أن أشهد فيلما يصور تلك الأيام فكان مما استعرضه الفيلم كيف هرعت سيارات الاجرة « التاكسى » وهى تنقل جنود الاحتياطى الذين لم يكن لديهم أو لدى الحكومة ، الوقت الكافى لارتداء الملابس العسكرية فذهبوا بالملابس المدنية ، ولكن الاعياء قد وصل بالجيوش الى حد الزهد فى كل شىء حتى الحياة نفسها واذا كانت الجيوش الألمانية قد هاجمت فليس ذلك الا لأن لودندرف الذى كان قد أصبح قائدا عاما رأى أن يلقى بأخر سهم ، فلما لم يأت هذا السهم بنتيجة ، فسيكون أى لودندرف بالذات من سوف يضع نهاية للحرب .

فشل الهجوم الألمانى فى الوصول الى نتيجة حاسمة أو شبه حاسمة الا أن يكون ازهاق بضع مئات من ألوف الأرواح .

مدفـع برتا :

وقنع الألمان بتركيب مدفع عملاق أطلق عليه اسم « برتا » وكان بقـدرته أن يصب قذائفه على باريس ذاتها وقد أحدث ذلك ذعرا فى بادىء الأمر ولكن سرعان ما تبين أن هذه القذائف لا فاعلية لها واعتادها الناس وألقوا عليها النكات حتى قالوا انهم يضبطون ساعاتهم على هذا المدفع .

وفيما خلا قصة هـذا المدفع لم تعد ميادين القتال تقدم شيئا مثيرا وبدات المؤشرات كلها تدل على أن الحرب أوشكت على نهايتها .

٤ أغسطس — تركيا تعرض الاستقلال على العرب :

وكانت تركيا أول من اعترفت بالهزيمة النهائية ، وكان اعترافها على صـورة عرض تقدموا به للعرب وهو أن يعترفوا باستقلالهم الداخلى فى اطار الدولة العثمانية وكان الذى تقدم بالعرض هو قائد الجيش التركى الرابع الذى حل محـل جمال باشا « السفاح » ومن الصدف أنه كان يسمى « جمال باشا » أيضا ، ولكنه هـذه المرة يسمى « جمال باشا المرسينى » واعتاد عرب تلك الايام أن يطلقوا عليه اسم « جمال الصغير » تمييزا له عن جمال السفاح .

الملك حسين يعرض الامر على الانجليز :

تقدم جمال باشا المرسينى بهذا العرض نيابة عن الحكومة التركية بطبيعة الحال الى الامير فيصل نجل الحسين ، الذى كان يحارب فى منطقة معان على خط سـكة حديد الحجاز فأسرع فيصل بارسال العرض الى ابيه الذى بدلا من أن يرد على ابنه مكلفا اياه أن يعرف حدود هذا العرض وما هى وسائل تنفيذه وما هى ضماناته فى المستقبل ، نقول بدل ان يفعل ذلك كما هو واجب أى سياسى مسئول أشعل ثورة من أجل هدف معين وهو استقلال العرب وها هو عدوه يذعن لمطلبه ويبدى استعداده لتحقيق هذا الهدف ولكن الملك حسين ارسل هذا العرض الى انجلترا لتبدى رأيها فيه . ان اقصى ما يمكن أن يقال فى الدفاع عن الملك حسين ، أن تركيا قد تقدمت اليه بهذا العرض وهى فى حالة النزع وبدا من الواضـح أن كفة انجلترا والحلفاء هى الراجحة فلم يشأ بعد أن قطع هذا الشوط الكبير فى مساندة انجلترا أن يفسـد علاقاته معها ولكن انجلترا حتى ذلك الوقت قد كشفت عن نياتها حيال الحرب أولا بوعد بلفور الذى منحت فيه فلسطين لليهود لتكون وطنا قوميا لهم ، وثانيا باتفاقهم مع فرنسا « سايكس بيكو » على تقسيم العالم العربى الى منطقتى نفوذ بينهمـا (سوريا ولبنان لفرنسا والعراق لانجلترا) فكان أقل ما يتعين على الملك حسين أن يأخذ حذره من الانجليز ويحاول أن يبدأ فى وضع أسس سياسية عربية مسـتقلة ولكن يظهر أن الوقت كان قد فات أو انها خطوة كانت تسبق التاريخ فلسنا نريد أن نقع فى الخطأ الذى يقع فيه الكثيرون وهو أن يحكموا على الماضى بمعطيات عصرهم وعلى ذلك فحسبنا الآن أن نقرر أن الملك حسين أطلع انجلترا على عرض تركيا . وقد

وقفت انجلترا مرتبكة لا تستطيع ان تتصرف فهى من ناحية لا تريد أن تتورط فتدخل فى مزايدة مع الأتراك ، ومن ناحية أخرى تخشى من ان أى قول تقوله أو تصرف تتصرفه قد يؤدى الى ما لا تحمد عقباه فاذا بها تلوذ بالصمت ليس الا بعد ستة أشهر من تاريخ هذه الرسالة . وكان قد انقضى ثلاثة أشهر على انتهاء الحرب كلها ، فأرسلوا الى الملك حسين فى ٨ فبراير ١٩١٩ ، يبدون ارتياحهم وتقديرهم لحسن تصرفه ويسرفون فى الكلمات المعسولة فى حسن نواياهم نحو العرب . ونحن نعرف اليوم أن العرب فى مفهومهم هم سكان قلب جزيرة العرب فحسب واليك نص هذه الرسالة التى يتحدثون فيها فى فبراير سنة ١٩١٩ بعد أن انتهت وقائع فى أغسطس ١٩١٨ حيث كانت الحرب لا تزال فى ذروتها ولا يعرف متى ولا كيف تنتهى ولا تفسير لذلك الا ما قدمناه من أنهم ارتبكوا ولم يعرفوا كيف يتصرفون .

نص الرســالة :

« ان الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم وارسالكم الكتب التى أرسلها القائد التركى فى سوريا الى جناب نائب الملك بمصر فان لها أحسن التأثير لدى حكومة ملك بريطانيا ، وان الاجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن الا رمزا يعبر عن تلك الصداقة التى كانت دائما تساند العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة ملك بريطانيا » .

ومما لا يحتاج الى دليل أن السياسة التى تسير عليها تركيا هى ايجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين بذلوا الهمة الشماء ليظفروا باعادة حريتهم القديمة .. أن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء ترغب فى امتلاك الاراضى العربية وتلقى بأذهان دول الحلفاء ، انه يمكن ارجاع العرب عن مقاصدهم ، ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على ايجاد الشقاق بين الذين أتجهت عقولهم الى فكر واحد وغرض واحد .

أن حكومة بريطانيا وحلفاءها ما زالوا واقفين موقف الثقات لكل مهمة تؤدى الى تحرير الامم المظلومة ، وهم مصممون على أن يقفوا بجانب الشعوب العربية فى جهادها حتى تبنى عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع ، بدل الظلم العثمانى ، وتجنب التنافس المصطنع الذى أحدثته السلطات الرسمية التركية وقد سلكت حكومة بريطانيا سياسة التحرير ، وستواصل السير عليها بكل استقامة وتصميم فتصون العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم .

سبتمبر ١٩١٨ ــ أو كيف جاءت نهاية الحرب :

واذا كان لكل شىء نهاية فتلك هى سنة الوجود فهذا الذى تصور المتصورون فى مطلع العام سرعان ما تجلت نهايته فى الأفق فى سبتمبر واذا كانت الهدنة أى التوقف الرسمى عن القتال لم يتم الا بعد ذلك فى نوفمبر فلم تكن هذه الفترة الا الوقت اللازم لتصفية هذه العجلة الضخمة التى كادت أن تتحول الى عملية آلية لا دخل للبشر

فى ايقافها واحتاج الأمر الى المدة من منتصف سبتمبر الى ١١ نوفمبر كى يستعيد البشر ارادتهم يقاف الحرب أو بالأحرى ليستعيد قدرتهم على تصور هذه الارادة

١٥ سبتمبر — هجوم الحلفاء فى سلانيك :

وجاءت النهاية على أهون سبب كما يقال ، وجاءت من حيث لم يتوقع الالمان ، جاءتهم من الميدان الذى اطمانوا اليه نهائيا ، وهو الجبهة الشرقية التى احـــرز الالمان فيها انتصاراتهم الرهيبة والتى انتهت باخراج الروس والرومانيين من الحرب ، ومع ذلك فمن هــذه الناحية وان كانت الى الجنوب أقرب جاءت الضربة القاضية التى وان لم تمس المــانيا أو جيشها عن قرب أو بعــــد فقــد كانت كافيــــة لاشعار العسكريين الألمــان ان الأمر قد انتهى وقد كانوا أحصف من هتلر (المخبول) الذى ظل يتصور أنه سينتصر حتى دخل الروس مدينة برلين ولكن لودندروف وبقيـة من العسكريين فى الحرب العالمية الأولى أدركوا فى الوقت المناسب أن ما يحفظ لألمانيا هيبتها وكرامتها أن يتوقفوا عن القتال وجيوشهم تحتل بلجيكا وجزء من فرنســـا وتسيطر على شرق أوربا ، وقد بقى أن نعرف من أين جاءت هــذه الضربة التى أحدثت كل هذه الآثار ، لقد جاءت من سلانيك هذا الميناء اليونانى الذى انزل الحلفاء فيه جنودهم فى مطلع الحرب ثم تجمدوا هذه القوة المجمدة التى طالما افتخر الالمان بأنهم يجمدون نصف مليون جندى فى هذه البقعة هم الذين شرعوا فى التقدم صوب الشمال حيث كان يواجههم الجيش البلغارى فلم يقو على الصمود بضعة أيام وأسرعت حكومة بلغاريا تطلب الهدنة . وفى ٢٩ سبتمبر أعلنت أنها تنسحب من الحرب ، وبهذا انفتح الطريق أمام جيوش الحلفاء حتى نهر الدانوب وقــد وصلوا اليه بالفعل فى خلال شهر . وأسرع لودندرف يطلب عقد الهدنة مع الحلفاء وهكذا جاءت النهاية .

٢٩ سبتمبر — أعلان استقلال سوريا العربية :

قلنا أن كل شىء بدأ يتداعى فحيث انسحبت بلغاريا من الحرب ، كانت الجيوش التركية تنسحب من دمشق بدون قتال مع الجيش الانجليزى الزاحف عليها تحت قيادة اللنبى .

وتألفت حكومة عربية مؤقتة تحت رئاسة الامير سعيد الجزائرى حفيد الزعيم الجزائرى الكبير عبد القادر الجزائرى ، وقد اسعدتنى الظروف أن اتعرف بالامير سعيد الجزائرى وأن أصبح صديقه وأن اسمع منه شخصيا قصة هذا اليـــوم المجيد الذى تسلم فيه مدينة دمشق رسميا من الاتراك وكيف رفع بيده علم سوريا المستقلة ولكن الانجليز دخلوا فى اليوم التالى ودخل وراءهم الجيش العربى وجــاء فيصل بعد ذلك بيوم آخر أى فى أول اكتوبر .

٣٠ أكتوبر تركيا تستسلم :

كانت الجيوش التركية تواصل انسحابها فقد كانت هى نفسها أو بالاحـــرى عاصمتها قد دخلت فى نطاق الخطر المباشر فواصلت تراجعها بعد انســـحابها من

دمشق وقد راح الجيش العربى يطاردها برغم ارادة الانجليز الذين وقد اطمأنوا الى نتيجة الحرب لم يعودوا ينظرون بعين الرضا الى جيش عربى ولكن الجيش العربى راح يلاحق الجيش التركى فاستولى على حمص وحماة وحلب .

معركة خان طومان :

حاول الاتراك أن يضعوا حدا لتراجعهم فاختاروا موقعا جنوب حلب ليقاتلوا فيه ويسمى خان طومان ولكن العرب هزموهم وارتد الجيش التركى ٦٠ كيلو مترا نحـــو الشمال وتحصنت فى خط اقامته بجوار المسلمية . ويرى أمين سعيد مؤرخ العرب الحديث ان معركة خان طومان هى الرد على معركة مرج دابق (١) حيث انتصر الأتراك على العرب فى شمال حلب حيث تقع « خان طومان » جنوب حلب .

والذين يؤرخون لمصطفى كمال الذى اصبح فيما بعد كمال اتاتورك منشىء تركيا الحديثة ، ينسبون اليه أنه هو الذى أشرف على سحب الجيش التركى من شمال سوريا وانه هو الذى نجح أخيرا فى تثبيت أقدام هذا الجيش عند الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا ولكننا لا نستطيع التثبت من هذه الحقيقة فقــد دارت معركة خان طومان فى ٢٥ اكتوبر وفى ٣٠ أكتوبر كانت تركيا تستســلم نهائيــا لأميرال من الاسطول الانجليزى الذى أسرع الى احتلال الاستانة ووضعها تحت ادارته .

نوفمبر المجيد للعالم بعامة ومصر بخاصة :

وشهر نوفمبر هو الذى انتهت فيه الحرب نهائيا وتنفس العــالم الصــعداء وتحركت مصر على اثر ذلك حركة هزت العالمين وكانت رائدة لما نسميه اليوم بالعالم الثالث اذ اضاءت الطريق بثورتها أمام كل شعوب الأرض المستضعفة والمغلوبة على امرها وعلى رأسها الهند كما سوف نرى .

ولنبدأ فى سرد الحوادث بترتيب وقوعها لنرى كيف اسدل الستار على دراما الحــرب المخيفة .

٣ نوفمبر ــ انهيار امبراطورية النمسا :

فى الثالث من نوفمبر وقعت القيادة العسكرية النمساوية الهنغارية شروط وقف القتال . وعلى اثر ذلك كانت هذه الامبراطورية العتيدة تنفك وتتحلل ذاتيا ، فقد اعلنت تشيكو سلوفاكيا وجودها كدولة مستقلة وكذلك هنجاريا (المجـــر) واللطيف ان الدولتين الجديدتين اعلنتا الحرب على المانيا بمجرد قيــامها ، وحتى النمسا خلعت امبراطورها بعد أيام واعلنت نفسها جمهورية ولكن المانيا كانت قد سبقتها الى ذلك .

---

(١) راجع جزء الموسوعة الثانى والثالث .

٧نوفمبر – المانيا تطلب وقف القتال :

ففى السابع من نوفمبر تقدمت المـانيا رسميـا بطلب وقف القتـال وبدأت المفاوضات على الفور بين مندوب المـانيا الذى اختير من المدنيين وبين المـاريشال فوش الفرنسى الذى كان قد اصبح قائدا عاما لجيوش الحلفاء وجرت المبـاحثات فى عربة سكة حديد .

٩نوفمبر – خلع امبراطور المانيا :

عندما حـــاول امبراطور المانيا الذى كان يوما ما معبود الجماهير أن يعترض طلب الهدنة واصدر قرارا بعزل لودندورف كان رد لودندورف أن وقع ورقة بعزل الامبراطور فكانت ورقة دندورف هى التى نفذت وقد علقت جريدة المانيـة على هذا القرار فكتبت تقول :

« لقد رات القيادة العامة ان المانيا الأم فى خطر وانه ينبغى الاقـــدام على أى خطوة قد تدرأ هذا الخطر ، ولما كان الحلفاء قد يقنعون بتبديل نظام الحكم فى البلاد، فقد اصبح ذلك أمرا مرغوبا فيه ، وقد قارنت القيادة بين القيصر والمانيا وبالطبع رجحت كفة الوطن واذن فالى الجحيم بويلهم (غليوم) انه ليس أول ملك مخـلوع ولن يكون أخرهم . »

وقد صاحب طرد الامبراطور اعلان جمهورية المانيا .

١١ نوفمبر – توقيع الهدنة :

وجاءت النهاية اخيرا فى الساعة الحادية عشر من اليوم الحادى عشر من نوفمبر الذى هو الشهر الحادى عشر ولك أن تتصور مقدار فرح الدنيا بهذا الحدث .

ملك انجلترا يتبادل التهانى مع سلطان مصر :

زف ملك انجلترا البشرى بتوقيع الهدنة الى كافة انحاء الامبراطورية وكان سلطان مصر احمد فؤاد واحدا ممن تسلموا البشرى واليك نص البرقية :

« الى حضرة صاحب العظمة سلطان مصر بالقاهرة » .

فى هذه الفرصة السعيدة ، التى قد اعترف فيها آخر أعدائنا بالانهزام ، أوجه لعظمتكم تهانى القلبية وشكرانى على خالص مساعدتكم »

« فلتثق مصر واهلها بنيل نصيب كامل فيما سيكون للامبراطورية البريطانية من العظمة والرجاء فى المستقبل » .

فرد عظمته على جلالة الملك بالبرقية الآتية فى اليوم التالى :

« الى حضرة صاحب الجلالة الملك بلندن »

ان تلغراف جلالتكم الذى تفضلتم بتوجيهه الى بمناسبة الانتصار النهائى على الأعداء قد قوبل من شعبى ومنى بعظيم الابتهاج . وأى شهادة يبتهج لها قلبى أعظم من اعتراف جلالتكم بالخدمة التى فرضتها مصر على نفسها وقامت بها تلقاء القضية المشتركة » .

« وانى مع ابداء اجلالى العظيم للاعمال الفاخرة التى قامت بها الجيوش البريطانية فى البر والبحر فى هذه الحرب العديمة المثيل . أود أن أعرب لجلالتكم عما يقوم بنفسى من الابتهاج تلقاء التأكيدات الطيبة التى تفضلتم بابدائها نحو مستقبل مصر » .

١٣ نوفمبر ـ عيد الجهاد الوطنى :

وفى ١٣ نوفمبر أى بعد يومين اثنين من اعلان الهدنة توجه ثلاثة من رجالات المعتمد البريطانى السير ونجت وكان هو الذى حدد هذا الموعد فقد أبدى الرجال الثلاثة رغبتهم فى مقابلته قبل ذلك ليتحدثوا عن مستقبل مصر وكان حسين باشا رشدى هو الذى توسط بينهم وبين السير ونجت لاتمام هذه المقابلة . وقد ظل هذا التاريخ (١٣ نوفمبر) عيدا قوميا يحتفل به كل عام حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو فتوقف الاحتفال به . والحق أن أى مؤرخ لا يستطيع الا أن يعتبر ١٣ نوفمبر هو أول صفحة فى كتاب ثورة سنة ١٩١٩ ولذلك نرجىء التحدث عنه الى السنة التالية .

ذكرياتى عن مصر عام ١٩١٨ :

فى هذه السنة ادخلت الى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية فى « سنة تحضيرى » وهى سنة كانت تسبق السنة الأولى الابتدائى ومدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية هى احدى المدارس التى أنشأتها الجمعية فى طول البلاد وعرضها لنشر التعليم وكان الشيخ محمد عبده هو الذى انشأها ، وكان التعليم فيها بالمجان ، وكانت المدرسة تقع حيث توجد الآن مدرسة الخديوية قريبا من باب الخلق وكان شارع درب الجماميز يمتد من السيدة حتى باب الخلق وكانت المدرسة تحتل قصر احدى الاميرات تبرعت به ليكون مقرا للمدرسة وقد كان القصر شيئا فاخرا جدا وكان يتبعه فناء تبلغ مساحته عدة أفدنة وكان هناك حديقة مثمرة تبلغ مساحتها عدة افدنة وكانت ملحقة بالمدرسة ومازلت اذكر محصول « الجوافة » الضخم الذى كانت تنتجة هذه الحديقة فيما تنتج .

وللوصول من بيتنا فى طولون الى المدرسة عدة طرق جعلتنى ارتاد هذا القطاع من القاهرة ما بين (المنشية) حى القلعة حتى السيدة زينب وهو قسم القاهرة « المملوكة » فحيث سرنا كانت أسماء المماليك تتردد فى ذكر هذا المسجد أو ذاك أو هذا « السبيل » وهذا المستشفى والسبيل مؤسسة خيرية تكاد تنقرض أو لعلها انقرضت وهى عبارة عن تقديم الماء لعابرى السبيل وكان أشهر سبيل فى هذه الايام هو سبيل « أم عباس » اى الخديو عباس ، وكان أحب طريق الى للوصول الى المدرسة

كان هو الطريق الذى يمر بى فى بركة الفيل حيث بيت السادات .

ولأدع لمناسبات أخرى التحدث عن المزيد من احياء القاهرة .

الحمير وعربات سوارس :

وكانت دولة الحمير باعتبارها وسيلة المواصلات لا تزال قائمة وان كانت عربات « سوارس » قد بدأت تهدد هذه الدولة وعربات « سوارس » هو « الاتوبيس » ولكنه يجر بالبغال وليس بالبنزين وكانت أجرة الركوب مليمين . وكان باستطاعة الانسان أن يستأجر الحمار لمدة ساعة بقرشين صاغ .

أما عربات « الحنطور » فقد كانت شيئا « ارستقراطيا » لا يستعمله سوى القادرين .

هبوط القوة الشرائية للنقود :

ولقد تحدثت من قبل عن المليم وعن قوته الشرائية ، ولكنى عندما دخلت مدرسة الجمعيــة الخيرية كانت قدرة المليم الشرائية قد هبطت وما كان يحتاج الى مليم أصبح يحتاج الى مليمين .

والدى ينقل الى وزارة المالية :

وكان من التغييرات التى حدثت أن نقل والدى من ديوان السلطان الى وزارة المالية . وقد قيل أن السلطان الجديد (أحمد فؤاد) لا يريد موظفا لا يكون من حملة الشهادات ولما كان والدى ليس منهم فقد نقل الى وزارة المالية .

وشقيق فى السلطة :

وكنت قد ذكرت أن أخا لى كان قد اشتغل فى السلطة العسكرية والآن وقـد انتهت الحرب فقد أخذ يبحث عن وظيفة واذا كان أخى محمد الذى مات هو أول أستاذ لي فسوف يكون مصطفى هو أعظم من أثر فى حياتى فى هذه الحقبة .

* * *

عن ثورة ١٩١٩

كلمة عامة

عن ثورة ١٩١٩

اذا كنا قد درجنا حتى الآن أن نبدأ بسرد الوقائع تاركين ملاحظاتنا وتعليقاتنا الى ما بعد الفراغ من تسجيل الوقائع ولكنى بالنسبة لثورة سنة ١٩١٩ لا أستطيع الا أن أبدأ بكلمة عامة عن ثورة سنة ١٩١٩ باعتبارها أعظم حدث مر بمصر والعـالم العربى والاسلامى فى القرن العشرين وليس يطاوله يوم فى تاريخ مصر فى القرن العشرين الا يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ عندما نجح الجيش المصرى فى عبور القناة والاستيلاء على خط بارليف وبالرغم من اختلاف الظروف فى كلتا المناسبتين فثمة جامع بينهما :

أولا : كان كل من الحدثين مفاجأة لخصم مصر الذى تصور أن شعبها مات وانتهى وقضى أمره وانه أصبح لا يشكل خطرا من أى نوع كان .

ثانيا : قامت عظمة الشعب فى كلتا المناسبتين على اقدام الشـباب بالتضحية بأرواحهم فى سبيل تحقيق هدفهم ففى ثورة سنة ١٩١٩ كان اعظم سلاح تصدى به الشباب لقوة انجلترا الغاشمة هو استعداده لأن يموت وسوف نرى أن انجلترا التى انثنت تحت ارادة الشعب المصرى لم تفعل ذلك نتيجة لمن قتل من رجالها ولكن نتيجة لمن قتل من المصريين ، فحيث تصورت انجلترا أن قتل بضعة أفراد سيرهب الآخرين اذ بالموقف يزداد اشتعالا فتضطر لقتل العشرات فيزداد الهياج والاضطراب فتقتل المئات فلا يزداد المصريون الا اصرارا وهنا خشيت انجلترا أن تتصاعد بالموقف فغيرت سياستها هذه الروح الفدائية هى التى كانت سر النصر الحقيقى فى معركة اكتوبر .

ثالثا : ترتب على كلا الحادثين تغيير شمل الدنيا كلها . لقد خرجت انجلترا وفرنسا كأعظم قوة فى العالم وتصورتا أنه أصبح بقدرتهما ان يفعـلا ما يشاءان فى الشعوب والأمم ، فكانت مصر هى التى قلبت هذا التفكير وتبعتها شعوب العالم كما سوف نرى فقامت الحركات فى الهند وفى المشرق والمغرب العربيين حتى تركيا اقتدت بخطوة مصر فى تحدى ارادة انجلترا وهو عين ما حدث بعد أكتوبر فى أمريكا .

أسلوبنا لتأريخ ثورة ١٩١٩ :

وسيكون أسلوبنا فى تأريخ ثورة سنة ١٩١٩ هو أن تقدم صورة عامة للحركة بقلم من عاصروها وفى مقدمة هذه الصور ما كتبه محمد فريد وثانية مما كتب العقاد وثالثة مما كتب الدكتور محمد حسين هيكل .

ثم نشفع ذلك بتسجيل الوقائع كما حدثت يوما بعد يوم ثم نقول كلمة فى موضوعين طال حولهما الجدل : كيف بدأ التفكير فى تأليف الوفد .

ما هو دور سعد زغلول ؟

اكانت الثورة موجة ركبها كما يحلو للبعض أن يقول أم انه كان هو وبالذات أحد العوامل التى فجرت الثورة .

محمد فريد يتحدث عن ثورة سنة ١٩١٩ :

تاه محمد فريد فى خضم أحداث الحرب العالمية وبعد ان فشلت الحملة التركية، ازداد نشاطه جمودا الا من مقابلات مع الخديو ومقابلة لهذا السفير أو ذاك والشىء الوحيد الذى لم يخبو فى نفسه هو ايمانه بحق مصر فى الحرية والاستقلال فلما ان سمع بأنباء ثورة سنة ١٩١٩ كان ذلك ليقر الله عينه فلا يموت الا بعد ان يرى يقظة الشعب المصرى ونهوضه كالمارد العملاق بعد أن تصور الانجليز أنهم قد فرغوا منه وغنى عن البيان أن ثورة سنة ١٩١٩ هى حصاد البذور التى زرعها محمد على وعرابى ثم مصطفى كامل ومحمد فريد . واليك ما قال محمد فريد :

« من الأمور التى كانت غير منتظرة ما حصل بمصر فى شهر مارس وابريل من هذه السنة (١٩١٩) وهو قيام ثورة عامة ، اشتركت فيها الأمة بجميع طبقاتها ، واتحد فيها الاقباط والمسلمين مطالبين باستقلال مصر التام وخلاصة ظهورها ان حسين رشدى باشا طلب من الانجليز عقب التوقيع على الهدنة مع المانيا ، أن يسافر الى لندرة مع عدلى باشا ناظر المعارف، لشرح حالة مصر لوزارة الخارجية البريطانية، والاتفاق معها على مصالح الوطن المصرى ، فوعده الانجليز بالسفر ، ولكنهم ابلغوه فى شهر مارس سنة ١٩١٩ ان رجال الحكومة الانجليزية مشتغلون الآن بمسألة المؤتمر ولا يمكنهم التفرغ لمناقشة الوزراء المصريين فاستقال فى ديسمبر سنة ١٩١٨ وبقى مصرا على استقالته ، رغما من الحاح الانجليز والسلطان عليه ، ثم قبلوا أن يسافر مع عدلى باشا ولكنه طلب ان يصرح للوفد ، الذى الف أثناء ذلك من سعد زغلول باشا وزملائه ليسافر الى لوندرة وباريس مطالبا باستقلال مصر ، فرفض الانجليز بتاتا ، ثم قبل السلطان استقالة الوزارة فى أول مارس سنة ١٩١٩ ، وفى ٦ منه استدعى الجنرال وطسون قائد الحامية الانجليزية سعد باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا الى مركزه وأظهر لهم استياء حكومته من تدخلهم فى سياسة البلد ، واتهمهم بعرقلة مساعى الحكومة الاصلاحية ، وهددهم بمحاكمتهم عسكريا ، ثم قبض عليهم فى مساء نفس ذلك اليوم ، وقرر اعتقالهم فى جزيرة مالطة، وارسلوا اليها فعلا ، فكان خبر القبض عليهم ونفيهم الى خارج القطر سببا لمظاهرات فى مصر وطنطا وغيرهما مؤلفة من طلبة المدارس العليا والثانوية والأزهريين وكثير من الشباب الموظفين والمحامين ، بل والقضاة وقد انتهت هذه المظاهرات بسلام ولكن حصل فى بعضها تصادم مع رجال البوليس وجيش الاحتلال ، استعملت فى أثنائها

البنادق ، فقتل وجرح كثيرون فى مصر وطنطا والاسكندرية وغيرها ، فزاد غضب الأمة لهذه الفظائع وشكلت فى الحال عدة جماعات لتخريب السكك الحديدية ، وحرق المحطات وقطع أسلاك التلغراف والتليفون فى جميع انحاء القطر ، من الاسكندرية الى أسوان ، وامتدت الحركة الى جميع المديريات ، وبما أن الجنرال (اللنبى) كان وقتئذ فى باريس ، صدر اليه الأمر بالعودة بأسرع ما يمكن ، مندوبا ساميا للحكومة الانجليزية بدل الجنرال ونجت باشا ، واعطى سلطة مطلقة فى ادارة القطر المصرى عسكريا ومدنيا فعاد مسرعا ، ولكنه أراد مزج اللين بالشدة ، فمع اصداره أوامر مشددة بمجازاة البلاد والقرى ، التى يحصل بجوارها تخريب فى السكك الحديدية ، بحرقها بواسطة الطيارات وتشكيله جملة فرق سيارة لتمنع الحركات الثورية فى البلاد ، وتأليفه عدة محاكم عسكرية لمحاكمة القائمين بالحركة أصدر أمرا بارجاع سعد باشا ورفاقه من المنفى وبالتصريح لهم ولمن يريد السفر الى أوروبا ، فحصلت مظاهرات فرح كبيرة فى العاصمة بهذه المناسبة ، ولكنها انتهت بتدخل الجنود الانجليز الى قتل وجرح كثيرين: كذلك استرضى رشدى باشا بوعود (لا نعلم ما هى) حتى قبل تشكيل وزارة جديدة فى ابريل ١٩١٩ دخل ضمنها عدلى باشا وعبد الخالق ثروت باشا وحسن حسيب باشا وجعفر ولى باشا ومدحت يكن باشا ، وبالطبع لا يتيسر ذكر تفاصيل كل ما حصل بمصر أثناء ذلك فى هذه المذكرات الصغيرة ولكن الذى يمكن قوله أن هذه الحركة لم تكن فى الحسبان وان ما أظهره المصريون من التضامن والاتفاق ما كان أحد ليحلم به، خصوصا اشتراك السيدات فى المظاهرات ، واتفاق الاقباط والمسلمين لدرجة أن قسوسهم كانوا يزورون علماء المسلمين فى الجامع الأزهر ، والشيخ بخيت نفسه زار بطريرك الأقباط . وصنع الاهالى بمناسبة هذا الوئام أعلاما جديدة وضعوا بها الصليب مع النجمة من الهلال ، وكان المتظاهرون يحملون أعلام جميع الدول حتى المحايدة ماعدا العلم الانجليزى « . وممن أتى من المصريين عقب هذه الحوادث (الدكتور) سليم أفندى القلعاوى الطالب فى كلية جنيف ، وكان قد سافر الى سعد فى أوائل صيف سنة ١٩١٤ ، ولما أعلنت الحرب منع من العودة مثل كثير غيره فقص علينا تفصيلات هذه المظاهرات بصورة احيت الأمل فى قلوبنا ، وأوجدت عندنا الاعتقاد اليقين بأن هذه الأمة العريقة فى القدم لن تموت مطلقا ، وانها لابد حاصلة على استقلالها يوما » .

اما الدكتور محمد حسين هيكل فقد كتب لنا فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية ما يمكن اعتباره (فيلما) تسجيليا عن أول يوم من أيام الثورة فى ميدان الفلكى واليك ما قال :

« وصعدت الى الطابق الأول (١) فالفيت محمد بك وجيه سكرتير الجامعة بغرفته المطلة على الميدان . وكانت سراى البستان ، حيث يقيم السلطان فؤاد ، تجاور الجامعة وتطل عليها نوافذ مكتب وجيه بك ، فلما دخلت عليه حيانى وعلى

(١) فى مبنى الجامعة وكان يلقى بها بعض المحاضرات .

ثغره ابتسامة وقال : ان طلبة الجامعة وطلبة جميع المدارس العليا والثانوية مضربون احتجاجا على اعتقال رئيس الوفد واعضائه .

جلست اليه اتحدث معه وأشرب القهوة عنده . واننا لنتحدث اذ رأينا من نافذة الغرفة منظرا يأخذ بالأبصار فقد امتلأ ميدان الأزهار كله بالمتظاهرين من جميـــع الطبقات طلابا وعمالا وافندية ، وفى أيدى كثيرين منهم فروع اشجار اقتلعوها من الشوارع التى مروا بها واذا هم يميلون على عربات الترام التى تمر بالميدان يحطمونها ويقلبونها .

هنالك قلت : لقد اطلق الحيوان الناطق من جميع قيوده ولم تمض لحظات بعد ذلك حتى رأينا قوة من الجنود الانجليز تحاصر قصر البستان مخـــافة ان يدخل المتظاهرون افنيته . ولبث المتظاهرون بميدان الأزهار (ميدان الفلكى ــ حاليا) ثم اندفعوا الى ناحية شارع قصر العينى ، فلما خلا الميدان تركت الجامعـة ، وذهبت اتصل باخوانى فى الحزب الديمقراطى وأصدقائى وغيرهم ولأقف على ما أستطيع الوقوف عليه من أنباء الموقف . ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى جاءت الأنباء بأن الاضطراب ساد البلاد المصرية كلها ، من الاسكندرية الى اسوان ، وان ثورة عجبـا انتشرت فى كل مكان وان خطوط السكة الحديدية اتلفت وكثيرا من خطوط التلغراف قطعت ، وان الانتقال من العاصمة واليها اصبح مستحيلا ، وان الأوامر العســكرية صدرت بحظر الانتقال الا بترخيص خاص ، واننى وقد قطعت السكة الحديدية ، لا أستطيع العودة الى المنصورة حيث تركت زوجى وحيدة مع خدمها ، لا تعـرف شيئا من اخبارى ولا أعرف شيئا من اخبارها ، لأن المواصلات التليفونية بين مصر والمنصورة قد قطعت كذلك .

اما عباس محمود العقاد فقد اجمل الحديث عن الثورة فى كتابه عن سعد زغلول « سيرة وتحية » ــ فكان مما قال :

سرى نبأ الاعتقال بطيئا متناقضا فى اليوم الأول ، لأن القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره والتلميح اليه ، فعلم به أعضاء الوفد واصـدقاؤه وموظفوه فى يومه ، وعلم به طلبة المدارس العليا فى اليوم التالى لأنهم يجتمعون فى امكنة متقاربة وينتمى بعضهم الى اعضاء الوفد واصدقائه بصلة القرابة او المعـرفة وتسامعت به احياء القاهرة شيئا فشيئا ، وانتقل منها الى الأقاليم بمثل ذلك البطء والتناقض ، فلم يسر الى القطر كله الا بعد يومين او ثلاثة .

أضرب طلاب المدارس العليا فى صباح اليوم العـاشر من شهر مارس عن تلقى الدروس وخرجوا من مدارسهم فى مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاج على اعتقال الزعماء وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحـــق فى ابداء مشيئتها وهى تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة الى بيان حقها وتقرير مصيرها واضرب عمال الترام بعد الظهر ، ثم اضرب الحوذية فى اليوم الحـــادى عشر ، واصبحت

الدكاكين مغلقة فى معظم أنحاء المدينة الا الدكاكين الأوربية ، وتجددت المظاهرات من طلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائف شتى من الجمهور ، فقابلها الجنود البريطانيون باطلاق المدافع الرشاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ، ولا بين مشــــترك او غير مشترك فى المظاهرة .

وكانت نقابة المحامين قد أعلنت الاضراب فانقطع المحامون عن المحاكم الا من كان يوفدهم المجلس اليها لطلب تأجيل القضايا واستثارت القسوة فى قمع المظــاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلا من ان تقل واضطرت وقدتها بدلا من أن تخمــد .

وطاش صواب الحراس العسكريين من جراء هذه المفاجأة فأصبحوا لا يميزون بين جمع وجمع ولا يطيقون النظر الى حشد من الناس ، ففى يوم الجمعــة الرابع عشر من شهر مارس أطلقت السيارات المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسينى فقتلت منهم بضعة عشر وجرحت خلقا كثيرين ، ولم يكونوا فى مظــاهرة ولا قصدوا الى التظاهر ، ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد اداء الصـــلاة ، وضابط الفرقة يجهل كل شىء الا انهم قوم متجمعون وعنده امر صريح باطلاق النار على كل قوم متجمعين ! وتعددت المظاهرات فى مدن القطر فقوبلت بمثل ما قوبلت به فى القاهرة وشاع خبر القتل واطلاق الرصاص فى أنحاء الأقاليم ، فانفجر كمين السخط الذى طال كظمه فى الصدور ، وانفجرت الثورة فى كل مكان .

اما استاذنا ومؤرخ تاريخ مصر القومى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، فقـــد كان بدوره ممن عاصروا الثورة بل واسهموا فيها وله كتاب من جـــزئين عن ثورة ١٩١٩ تكاد اوراق الكتاب تحترق من وصف احداث الثـــورة وتسجيل وقائعها وأحسب ان القارىء وقد اخذ الآن فكرة عامة فقد اصبح باستطاعتنا ان نبـدا فى سرد الوقائع بترتيب وقوعها وسوف يرى القارىء ان كل ما قيل على سبيل الاجمال لا يرقى الى مستوى ذكر الوقائع مجردة عن اى تعليق .

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ — الشرارة :

تبدأ ملحمة ثورة ١٩١٩ منذ يوم ١٣ نوفمبر بلا جدال او شبهه فقد تسلسلت الوقائع وأخذت كل خطوة يترتب عليها خطوة حتى اندلعت نيران الثورة ، من ذلك على سبيل المثال ان المعتمد البريطانى السير ونجت قال لرشدى باشا رئيس الحكومة كيف سوغ سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى لأنفسهم ان يتحـــدثوا باسم الشعب المصرى ، فكان ان اوحى هذا الاعتراض للوفد عمل صيغة لتوكيل للوفـد ليتحدث باسم الأمة فكانت العرائض التى وزعت فى طول البلاد وعرضها واقبـــل الشعب بمختلف طوائفه على توقيعها رغم مصادرة السلطة لها فكان ذلك هو أول تحدى للسلطة وكان يتعين على الانجليز ان يفهموا معنى ذلك ، ولكن الله كان يريد الثورة سنة ١٩١٩ ان تكون ، فجعل الانجليز يتصرفون بغباء مطلق .

ماذا يعني مقابلة الثلاثة لونجت في ١٣ نوفمبر :

وقبل ان نثبت نص ما دار في مقابلة « الثلاثة » للسير ونجت حيث تحرر عن هذه المقابلة محضر رسمي يعتبر اول وثيقة من وثائق ثورة سنة ١٩١٩ نريد ان نقف قليلا ما معنى ان يقدم الثلاثة طلبا لمقابلة السير ونجت بمجرد توقيع الهدنة في يوم ١١ نوفمبر وان يحدد السير ونجت للمقابلة يوم ١٣ وان يكون ذلك بناء على توصية من حسين رشدي باشا رئيس الحكومة ان معناه أولا وقبل كل شيء أن التفاهم كان تاما وكاملا بين حسين رشدي باشا رئيس الحكومة وبين سعد زغلول على القيام بهذه الخطوة وان الاعداد لها لا بد وأن يكون قد بدأ منذ وقت طويل سابق على ١٣ نوفمبر ولعل اقدم تاريخ محقق لبدء التفكير بصورة جماعية هو دعوة سعد زغلول لمحمد باشا محمود ولطفي بك السيد وعبد العزيز فهمي بك للالتقاء به في مسجد وصيف (ضيعة سعد زغلول) فلبى الدعوة محمد محمود ولطفي السيد واعتذر عن تلبيتها عبد العزيز فهمي .

وفي هذه الزيارة جرى اول حديث جماعي عما يحسن عمله بمجرد انتهاء الحرب بالنسبة لمستقبل مصر السياسي لكن عبد العزيز فهمي يحدثنا في كتابه « هذه حياتي » التي اصدرته دار الهلال ان محمد باشا محمود كان هو اول من فكر في هذا الموضوع ، ويقص علينا كيف تصادف ان تواجدوا ذات يوم في مستهل سبتمبر بالجامعة المصرية (سعد زغلول ولطفي السيد ومحمد محمود وهو) فاعترض محمد محمود سبيلهم عند خروجهم وطلب منهم ان يفكروا في مستقبل مصر السياسي بمجرد اعلان الهدنة وما الذي يجب عليهم ان يفعلوه ويمضي عبد العزيز فهمي فيقول انه هو ولطفي السيد تجاوبا مع محمد محمود ولكن سعد زغلول أنكر عليهم ذلك وسفه الفكرة على أساس أن انجلترا المنتصرة القوية لن تصغى لشيء من ذلك، ويمضي عبد العزيز فهمي في قصته فيقول ثم فتح لنا بيته بعد ذلك على مصارعة ورحب بنا للعمل في القضية . ثم يتساءل عبد العزيز فهمي « ما الذي حدث ، ايتحول سعد زغلول هذا التحول » ويجيب على هذا السؤال بأن سعد زغلول قص على حسين رشدي ما حدث ، فلامه حسين رشدي على موقفه وأفهمه ان هذا هو ما يجب عمله ، ومن هنا تحول سعد زغلول هذا التحول .

وعندما يحدثنا عبد العزيز فهمي عما سمع وما رأى فهو الصادق الامين فمثله لا يكذب ولا يمكن أن يكذب ولكن عندما يحدثنا عن استنتاجه وتصوراته فهو هنا يخضع للطبيعة البشرية التي تفرض على كل انسان ان يفهم الامور بما يتفق ووجهة نظرة والشيء المحقق ان عبد العزيز فهمي كانت له وجهه نظر خاصة في سعد زغلول غير طيبة أو كريمة ولم يحاول عبد العزيز فهمي ان يخفيها طول حياته .

وليس فيما قص عن سعد زغلول الا كل ما يشرف وينطق بعظمته العجيبة .

فان يتحفظ سعد زغلول عندما يفتح امامه الحديث في موقف مصر من انجلترا فشيء لا غرابة فيه أو شذوذ فالرجل حتى ذلك التاريخ كون شخصيته بالتعاون مع

الانجليز وقد كان كرومر هو الذى اختاره كمــا رأينا (١) ، وليس الا قوة شخصيته واعتداده المفرط بكرامته ما جعله يصطدم مع الانجليز المحليين فى بعض المناسبات ، ثم كان حبه للعدل هو الذى جعله يختلف مع كتشنر الأمــر الذى جعــله يقــدم استقالته ، ولكنه حتى بعد ان انتخب للجمعية التشريعية ووقف فى صف المعارضة فقد ظل يتصرف باعتباره جزء من النظام والسلطة القائمين وقد رجحنا فيما مضى أن يكون سعد زغلول قد شجع حسين رشدى على البقاء فى الحكم بعد قيام الحرب وبالتالى فقد كان شريكا بالرأى فى كل ما مر بمصر من احداث ، ومن هنا فنحن نصدق عبد العزيز فهمى فيما قاله عن سعد زغلول وكيف تصرف عندما فاجأهم محمد محمود بأفكاره ، ولا نرى فيه ما يستغرب وانما العجب يبدأ فى أن الرجل الذى كان هذا رأيه حسبما يقول عبد العزيز فهمى ، يتحول بعد ذلك كل هــذا التحول فيكون هو الذى يتحدى الانجليز بأعنف ما تحداهم به مصرى لمجرد أن الامة وكلته عنها فى هذا التحدى وخطت توكيلها فى بادىء الأمر بالمداد ثم خطته بعد ذلك بالدم القانى وظل يتصاعد فى تحديه وشجاعته وفق تضحيات الشعب المصرى وفدائيته .

وأن يكون سعد زغلول قد استأنس برأى حسين رشدى فوجد منــه التأييــد لفكرة مطالبة الانجليز للاستجابة لأمانى مصر القومية فهو ما تعززه الوقائع الثابتة فمن المحقق كما سوف نرى أن التعاون والتنسيق كان كاملا بين سعدزغلول والوفد من ناحية وبين حسين رشدى رئيس الحكومة من ناحية أخرى .

عمر طوسون وتأليف الوفد :

ومن ناحية اخرى حرص أقوام على ان يعزو فضل التفكير لاول مرة لتأليف وفد لعرض القضية على مؤتمر الصلح للبرنس عمر طوسون والشىء المحقق الذى اثبته سعد زغلول نفسه فى مذكراته ان البرنس عمر طوسون فاتحه فى هذا الموضــوع بمناسبة حفلة أقامها رئيس الوزراء فى الاسكندرية فى شهر اكتوبر بمناسبة عيد جلوس السلطان احمد فؤاد على العرش وقد علق سعد زغلول على كلام عمر طوسون بقوله « وهى فكرة طيبة ، كانت قد دارت فى بعض الرؤوس » .

والحق انه من العسف ان يحاول محاول ان يحصر التفكير فى الموضــوع على شخص معين بالذات فقد كان المسئولون فى الحكومة وأعنى بهم حسين رشدى وعدلى يكن بالذات وعلى رأسهم السلطان نفسه معنيون بهذه القضــية . وقــد حدثنى مصطفى النحاس (خليفة ســعد) أنه كان يفكر فى هذا الموضوع كلما اقتربت نهــاية الحرب وانه كان يتحادث مع زملائه فى نادى المدارس العليا فيه .

والدكتور هيكل يحدثنا فى كتابه عن رأى عبد الرحمن الرافعى فى القضية وكيف كان فى منتهى التفاؤل فمن العبث محاولة القــول أن مرجع الفكرة يجب ان ينسب

(١) راجع الجزء الثالث

لهذا الشخص او ذاك فالأفكار التى تنطلق بمصير الأمم تدور فى عديد من الرؤوس فى آن واحد فلا تكاد تظهر حتى تتجاوب الجماعة معهـا تجاوبا سريعا وهذا سر نجاحها وهو عين ما حدث فى فكرة تأليف وفد يمثل مصر فى مؤتمر الصلح . ولنا الحقائق المجمع عليها وهى :

١ ــ ان التفكير كان عاما وشائعا .

٢ ــ ان من شرع فى اخراج الفكرة الى حيز العمل كان هو ــ البرنس عمر طوسون من ناحية يظاهره فى ذلك محمد باشا سعيد ورجال الحزب الوطنى ــ والجماعة التى كانت تنتمى لحزب الامة .

٣ ــ كلا الفريقين استقرا على انه لا غناء عن سعد زغلول فى هذه المهمة ويبقى بعد ذلك ما أسفر عنه ذلك كله من تأليف الوفد المصرى بالفعل تحت رئاسة سـعد زغلول ، وانه هو وعلى باشا شعراوى وعبد العزيز فهمى بك هم الذين قابلوا السير ونجت بالفعل يوم ١٣ نوفمبر مبتدئين بذلك السطر الأول من سـطور الملحمة . وكان سـعد زغلول هو الذى فتح بيته وهـو الذى سيطلق عليـه بيت الأمة ، وسنرى كيف أصبح فى وجه المدفع كما يقولون فاذا كانت الثورة قد اشتعلت فى مارس على اثر اعتقال سعد زغلول فلا جدال أو شبهة أن نشاط سعد زغلول السـابق على اعتقاله وموقف التحـدى الذى وقفـه من السلطات العسكرية البريطانيـة ، كان أهم عنصر لتفجير الثورة على الانجليز فالجماعات تتأثر بالقدوة اكثر من أى شىء آخر ، ولاشك ان ما قدمه سـعد زغلول هذا الشيخ الجليل ، الذى كان قد جاوز سن الشباب لا جدال ان تحديه للانجليز كان هو القدوة التى حاول كل فرد من الشعب ان يحتذ بها .

وبعد هذا التمهيد نشرع فى تسجيل الوقائع ، وبمقدار ندرة الوقائع المصرية « البحتة » أثناء الحرب بحيث اضطررنا الى تسجيل وقائع الحرب البارزة باعتبارها ذات تأثير مباشر على تفكير المصريين وأحوالهم ، فسـوف نرى كيف ينعكس هـذا الوضع ابتداء من ١٣ نوفمبر ولا تكاد الثورة تندلع فى مارس حتى تصبح وقائعها حديث العالم .

نص ما جـرى

من الحديث بين الوفد وونجت

من حسن الحظ ان سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى قد تركوا لنا محضرا رسميا بما جرى والاتفاق على أن عبد العزيز فهمى هو الذى حرر هـذا المحضر وبالطبع قد راجع كل واحد من الثلاثة بدقة مانسب اليه قبل أن يعتمدوا الوثيقة ويعتبرونها الاساس الذى قام عليه الوفد ومنطلق نشاطه :

حديث ١٣ نوفمبر ١٩١٨ :

بدأ السيد ونجت الحديث بقوله :

ان الصلح اقترب موعده وان العالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمنا طويلا وان مصر سينالها خير كثير ، وان الله مع الصابرين ، وان المصريين هم أقل الأمم تألما من اضرار الحرب ، وانهم مع ذلك استفادوا منها أموالا طائلة ، وان عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت سببا فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم فأجابه سعد باشا : ما تكون انجلترا فعلته خيرا لمصر فان المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر وخرج من ذلك الى القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق الا تنظيف آثاره وانه يظن ان لا محل لدوام الاحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، وان الناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم اكثر من اربع سنين فقال السير ونجت ، حقا انه ميال لازالة المراقبة المذكورة وانه تخابر فعلا مع القائد العام للجيوش البريطانية فى هذا الصدد ، ولما كانت هذه المسألة عسكرية فانه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية ويأمل الوصول الى ما يرضى ، ثم استمر قائلا : يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنهمتى فرغت انجلترا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الامر الا خيرا .

فقال سعد باشا : ان الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم .

فقال : يجب ألا تتعجلوا وان تكونوا متبصرين فى سلوككم فان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة .

فقال سعد باشا : ان هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد عنها

فقال : أريد أن اقول ان المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر .

فقال سعد باشا : لا أستطيع الموافقة على ذلك فانى ان وافقتك أنكرت صفتى . فانى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من اقسام القاهرة ، وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى انتخابى وكذلك كان الامر مع زميلى على شعراوى باشا وعبد العزيز بك فهمى .

فقال السير ونجت : انه قبل الحرب كثيرا ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى . وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها ، فما هى اغراض المصريين ؟

فقال على شعراوى باشا : اننا نريد ان نكون اصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر .

فقال السير ونجت : اذا أنتم تطلبون الاستقلال ؟ !

فقال سعد باشا : ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الامم المستقلة ؟ .

فقال السير ونجت : ولكن الطفل اذا أعطى من الغذاء ازيد مما يلزم أتخم .

فقال عبد العزيز بك فهمى : نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم ان الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد ، فأقول لجنابكم أن الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال وغاية الامر ان طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان منها ما يؤخذ علينا ، وذلك راجع الى طبيعة الشبان فى كل جهة ، فلأجل ازالة الاعتراض الوارد على طريقة الحزب الوطنى فى تنفيذ مبدئه الاساسى الذى هو مبدأ كل الأمم ، وهو الاستقلال التام قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف فى الاجراءات واسسوا حزب الامة وأنشأوا صحيفة « الجريدة » وكان مقصدهم هم ايضا الاستقلال التام ، وطريقتهم أخف فى الحدة من طريقة الحزب الوطنى وذلك معروف عند الجميع والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض .

فقال السير ونجت : ولكن نسبة الأميين فى مصر كبيرة لا كما فى البلاد التى ذكرتها الا الجهل الأسود والألبان على ما أظن .

فقال عبد العزيز بك فهمى : ان هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم فان لمصر تاريخا قديما باهرا وسوابق فى الاستقلال التام وهى قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوفرة فى مصر ومن جهة نسبة الأميين للمتعلمين ، فهذه مسألة لا دخل لها فى الاستقلال كما قدمت لان الذين يقودون الامم فى كل البلاد افراد قلائل ، فانى اعرف ان لانجلترا وهى بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبيرة بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهى تتبعهم بلا مناقشة فى كثير من الاحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم ، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل افرادهم العاملين ، وانما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفى ان يكون فيها ألف متعلم ، ليقوموا بادارتها كما ينبغى وهى مستقلة استقلالا تاما — ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل ان أولى الحل والعقد تسمع عنهم فى كثير من الاحيان ان التعليم زاد فى البلد حتى صار فيها طائفة من المتعلمين العاطلين ، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم اذا غذى بأزيد من اللازم فاسمحوا لى أن أقول ان حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه ، بل الواقع اننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الاطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه . بل هو نفسه الذى يحس بألم الداء ويرشد اليه ، فالمصرى وحده هو الذى يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده فى الاشغال العمومية وفى القضاء ، وغير ذلك . فالاستقلال التام ضرورى لرقينا .

فقال السير ونجت : الظنون ان بلاد العرب وقد اخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها .

فقال عبد العزيز بك : ان معرفة ذلك راجعة الى المستقبل ، ومع ذلك فاذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك .

فقال السير ونجت : قد كانت مصر عبدا لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبدا لانجلترا ؟

فقال شعراوى باشا : قد اكون عبدا لرجل من الجعليين وقد أكون عبدا للسير ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلى ، ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالتين ، لان العبودية لا نرضاها ولا تحب نفسى ان تبقى تحت ذلها ، ونحن كما قدمت نريد ان نكون أصدقاء لانجلترا صداقة الاحرار لا صداقة العبيد .

فقال السير ونجت : ولكن مركز مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا .

فقال سعد باشا : متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام . فاننـا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين أى دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة فنعطيها ضمانة فى طريقها للهند وهى قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عنـد الاقتضاء بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة مـن الجنود .

ثم قال شعراوى باشـا : يبقى أمر آخر عند هـذا الحـد وهو حقوق أرباب الديون من الاجانب فيمكن بقاء المستشار الانجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى .

فقال سعد باشا : نحن نعترف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العـالم وأوسعها حرية واذا نعترف لها بالاعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر ، فنطلب باسم هـذه المبادىء ان تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر ، واننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخصا لهذه الدولة العظيمة ، وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الأمور فى انجلترا ، ولا نلتجىء هنـا لسواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة انجليزية ، ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر مطلعا على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب .

فقال السير ونجت : قد سمعت أقوالكم وانى أعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفة حبية فانى لا أعرف شيئا عن افكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد وعلى كل فانى شاكر زيارتكم واحب لكم الخير .

فشكره الثلاثة على حسن مقابلته ، وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانية عشرة .

وقفة وتامـل :

وليس يسع المطالع لهذه الوثيقة الا أن يعجب لما قاله عبد العزيز فهمى بعد ذلك بسنوات ، من انهم عندما ذهبوا لمقابلة السير ونجت فقد كان ذلك بهدف « تنظيم

الحماية » ان فى هذا القول تجنى شديد على عبد العزيز فهمى فى الدرجة الأولى فقد كان « رائعا » ولم ترد كلمة الحماية على لســـان أحد وانمـا دار الحديث بكل صرحة ونصاعة حول « الاســتقلال التام » حقا ربما كانت فكرة تنظيم الحماية هى ما يدور فى خلد حسين رشدى والسلطان باعتباره (اضعف الايمان) اذا فشلت جهود الوفد كما ذكر ذلك الدكتور هيكل فى كتابه حيث قال :

« واستغرق التفكير فى هذا الامر شعورى الشاب ، وعزمت ان أسأل استاذى لطفى بك السيد فيه ، فانتهزت الفرصة وذهبت يوما الى منزل سعد باشا وطلبت مقابلة لطفى بك ، وصارحته بما يدور بخلدى وســألته عن مبلغ اقتناع الوفد بما لسعيه من حظ فى النجاح . وكان الرجل صريحا فى اجابتى قال لى : ان خطتنا ان نسافر الى باريس وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وان نطالب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان . فان أجبنا الى مطلبنا فان ذلك ما نبغى والا ذهب رشدى وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانيـــة فى تنظيم العــلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية ، تنظيما اساسه قيام الحكم الدستورى الصحيح فى البلاد . فقيام هذا الحكم يرفع منا ما ننوء به من سلطة مطلقة فى شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الاســتقلال اذ يتيح لنــا فرصـة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى ، فاذا بلغ أشده لم يكن لغيره عليه سلطان . »

كان لهذه الاجابة أثرها فى تفكيرى ، فالوفد اذن يريد ان يذهب الى باريس ليحاج الحلفاء بمبادئهم . وهو مع ذلك ليس مؤمنا كل الايمان بأن هؤلاء الحلفاء مقتنعون بهذه المبادىء فاذا تبين أنهم يريدون تطبيقها تشبث بها ودافع عن قضية البلاد على أساسها . أما اذا خذله الحلفاء فانه لا يحسب أن الثورة أو النضال الشعبى يحقق للبلاد استقلالها وسيادتها كاملين وهو لذلك يدع لرشدى ولعـدلى ان يحـملا عبء التحدث الى الدولة التى أعلنت الحماية على مصر لتنظيم علاقتها بمصر فى حـدود الاعتراف لمصر باستقلال ذاتى ، يهيىء لها التمتع فى شـؤونها الداخلية بالنظـام الدستورى .

لم أطالع أحدا بما سمعت من ذلك . فلو أنه عرف لهوجم الوفد وأعضاؤه على أساسه ، ولأدى ذلك الى فرقة فى البلاد وشقاق . ومن الخير ان تبقى وحدة البلاد سليمة فى هذا الظرف الدولى الدقيق الذى تمر به .

وقد بقيت هذه الخطة سرا مكتوما عن الناس فى مصر بالفعل سنين عدة فلم يذع عنها أحد شيئا ، حتى بدأ المتحدثون يؤرخون لعام ١٩١٩ ، ويطلبون الى الرجال الذين تألف منهم الوفد فى ذلك الوقت ان يدلوا بما لديهم . عند ذلك ، وبعد عشرين سنة أو نحوها من تأليف الوفد ذكر محمد على علوبة باشا ما كان مقررا من هذه الخطة . فلما اطلع الجمهور عليه رآه عجبا ، ولم يكن من العجب فيه شىء .

واذن فموضوع تنظيم الحماية كان فى الحسبان . ولكن الحديث دار كما رأينا حول الاستقلال التام ، واذا كان فريق من الوفد سيجنح الى الاعتدال وقبول نوع من الاستقلال الشكلى والحماية من الناحية الفعلية فان سعد زغلول قد رفض ذلك

واصر على موقفه من ان يكون الاستقلال تاما وكاملا وهنا تكمن عظمة سعد زغلول العجيبة ، فهذا الرجل الذى عاش طول عمره واقعيا يرتبط بالواقع وبالتالى كان معتدلا قد تحول الى ثائر يعبر عن مصر الثائرة تمسكا منه بنص التوكيل المعطى له من الامة .

فكرة التوكيل ونصــه :

لم يكن لدى الثلاثة الذين ذهبوا لمخاطبة السير ونجت شك فى أنهم يتكلمون باسم مصر ولكننا أشرنا من قبل ان السير ونجت ابدى دهشته لحسين رشدى رئيس الحكومة كيف سمح هؤلاء الثلاثة لانفسهم ان يتحدثوا باسم الامة ، فكان أن ثبتت فكرة التوكيلات ..

(صيغة التوكيل الأولى)

وضع الوفد صيغة أولى للتوكيل ، أذاعها فى البلاد ، وهذا نصها :

« نحن الموقعين على هذا ، قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا واحمد لطفى السيد بك ، ولهم ان يضموا اليهم من يختارون فى ان يســعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعى سبيلا فى استقلال مصر تطبيقا لمبادىء الحرية والعدل التى تنشر رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب » .

وعند هذه المرحلة كان الامر قد استقر نهائيا حول ضرورة توحيد الجهود ، فسعى ممثلو الحزب الوطنى الذين كانوا يسعون لتأليف وفــد برئاسة عمر طوسون ، الى سعد زغلول محاولة منهم للتعرف على ما يجرى تمهيدا لتوحيد الجهود .

بيت الأمــة :

ودارت المناقشات واحتــدت وعلت الاصــوات وأبدى ســعد زغلول دهشــته واحتجاجه على ان يهان فى منزله فاذا بواحــد من ممثلى الحــزب الوطنى يرد على سعد زغلول بكل قوة « هذا ليس بيتك انما بيت الامة » وكأنما كان المتكلم ينطق باسم القدر اذ أصبح بيت سعد زغلول منذ هذه اللحظة يسمى بيت الامة وأصبح حقا وصدقا مقصد الجماهير ومعقد آمالهم ، وغاية كل تحركاتهم وقد عشنا طول حياتنا السياسية نعرف ان قائل هذه الكلمة التاريخية هو مصطفى الشــوربجى ولكن عبد الرحمن الرافعى ذكر فى كتابه أن قائلها هو محمد زكى على ولا يمكن الا أن يكون قد تثبت من هذه النقطة فكلا الرجلين زملاءه واصدقاءه وقد كانا كلاهما حاضرين هذه المقابلة العاصفة والتى تمخضت عن اجراء بعض التعديل فى صــيغة التوكيل فأصبح نصه :

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات ... فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما » .

ويتضح من هذا النص انه قد رفعت منه بعض الكلمات الرخوة على ما يقــول عبد الرحمن الرافعى . وقد كان من ثمار هذه المقابلة ، ان قرر الوفد ان يضـــم شخصيتين اشتهرا بأنتمائهما للحزب الوطنى وهما مصطفى النحاس الذى سيقدر له ان يكون خليفة لسعد أما الشخص الآخر فهو الدكتور حافظ عفيفى والذى سينتهى به القدر الى اختيار المعسكر المضاد للشعب .

وقبل ان نذكر قصة هذه التوكيلات ، نرى أن نثبت أولا قانون الوفد الاساسى الذى تمسك به سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس .

١ ــ تألف وفد باسم (الوفد المصرى) من حضرات ســعد زغلول باشــا وعلى شعراوى باشا وعبد العــزيز فهمى بك . ومحمد على بك وعبــد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد واسماعيل صدقى باشا وسينوت حنا بك وحمد الباسل باشا وجورج خياط بك ومحمود أبو النصر بك ومصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفى بك .

٢ ــ مهمة هذا الوفد السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للســعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما .

٣ ــ يستمد الوفد المصرى قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها رأســا أو بواسطة مندوبيهم بالهيئات النيابية .

٤ ــ يدوم هذا الوفد ما دام العمل الذى انتدب لأجله قائما وينفض بانقضائه .

٥ ــ لا يسوغ للوفد ان يتصرف فى المهمة التى انتدب لها . فليس للوفد ، ولالأحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود الوكالة التى يستمد منها قوته وهى : « استقلال مصر استقلالا تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل » .

٦ ــ يقسم كل واحد من أعضاء الوفد على قضاء مهمته على الوجه الذى انتدب له ، وعلى التضامن فى العمل وعدم افشاء أسرار الوفد .

٧ ــ اذا طرأ ما يستدعى انفصال احد الاعضاء فيكون ذلك بقرار من ثلاثة ارباع الوفد على الاقل . وللعضوان يستقيل فى أى وقت شاء دون ان يكون له حق الرجوع فى المبالغ التى يكون قد دفعها .

٨ ــ للوفد أن يضم اليه أعضاء آخرين مراعيا فى انتخابهم الفائدة التى تنجم عن اشتراكهم معه فى العمل .

٩ ــ يسافر الوفد الى أى جهة يرى فى التوجه اليها فائدة للقضية المصرية وله ان ينتدب بعض اعضائه للسفر الى أى جهة كانت متى وجد لذلك فائدة .

١٠ ــ تصدر القرارات بأغلبية الاراء . واذا تساوت يرجح رأى الفريق الذى فيه الرئيس .

١١ ــ يعين الوفد رئيسا وسكرتيرا وامينا للصندوق . يصح ان يكون لكل منهم مساعدون من الاعضاء .

١٢ ــ للوفد ان يعين من يراه من أعضائه بوظائف معينه . وله ان يعين لجانا يحدد عدد أعضائها واختصاصاتهم .

١٣ ــ الرئيس يشخص الوفد ويرؤس جلساته ويحافظ على نظامه ويشرف على اعمال اللجان والاعضاء ذوى الوظائف وعلى عمل السكرتارية وأمانة الصندوق .

١٤ ــ السكرتير يتولى العمل الكتابى للوفد ويكون فى عهدته المحفوظات والمحاضر والكتب وغيرها من أوراق الوفد غير ما يتعلق بأوراق الحسابات .

١٥ ــ أمين الصندوق يحفظ النقود المجموعة على ذمة مصروفات الوفد العمومية ، أما لديه أو بالبنك الذى يعينه الوفد ، ويشرف على الاعمال الحسابية وهو مسئول عن كل تصرف فى نقود الوفد .

١٦ ــ يعتبر الوفد فى حالة دائمة للانعقاد . وتنعقد جلساته النظامية بدعوة من الرئيس وعند الضرورة يجوز ان يتخذ ما يراه من القرارات المستعجلة . وعليه فى هذه الحالة ان يعرضها فى أول جلسة نظامية لادراجها ضمن المحضر .

١٧ ــ محاضر الجلسات تتضمن ، مع التلخيص ، جميع المداولات والقرارات ويجب ان تعمل أيضا مذكرات بكل حديث ذى شأن يتعلق بمهمة الوفد .

١٨ ــ يتصدق على المحضر بالجلسة التالية . ويمضى بعد التصديق عليه من الرئيس والسكرتير .

١٩ ــ فضلا عن المحاضر يتخذ السكرتير سجلا يقيد فيه يوميا جميع ما يهم من الحوادث والانتقالات والاعمال ويؤشر على هذا السجل يوميا من الرئيس .

٢٠ ــ ليس لاحد اعضاء الوفد أن يحادث أى شخص من الاشخاص العموميين باسم الوفد ، الا اذا عرض على الرئيس الموضوع الذى سيدور حوله الحديث . وعليه ان يدون كتابة بعد انتهائه ويقدمه للرئيس . واذا لم يتمكن العضو من احاطة الرئيس قبل الحديث ، فيجب ان يبين لمخاطبة انه لا يشخص الوفد فى حديثه .

٢١ ــ كل عضو يقوم بنفقاته الخاصة من سفر واقامة . وليس له أن يطلب الا ما ينفقه فى شؤون متعلقة بمهمة الوفد . ولا ينفق شىء من نقود الوفد الا فى فائدة الوفد .

٢٢ ــ لا يصرف شىء من نقود الوفد الا بقرار من الوفد ، ويمضى إذن الصرف من الرئيس وأمين الصندوق . ويقرر الوفد مبلغا بصفة سلفة مستديمة للصرف

منه على الشئون المستعجلة بشرط أن يصدق الوفد على ما يصرف بعد نفاذ مبلغ السلفة وطلب تقرير غيره .

٢٣ ـ للوفد ان يصطحب عمالا مأجورين للمساعدة فى الاعمال الادارية والكتابية ويكونون بحسب طبيعة عملهم وتحت اشراف السكرتير أو أمين الصندوق والجميع تحت ادارة الرئيس . ويحلف الموظفون اليمين بأن لا يفشوا سرا يتصل بهم بحسب وظائفهم .

٢٤ ـ نقود الوفد تكون مما يتحصل من التبرعات التى يدفعها أعضاؤه أو غيرهم ممن يريدون المساعدة فى عمل الوفد .

٢٥ ـ ما يتبقى من نقود الوفد بعد انقضاء مهمته يصرف فى شأن فى الشئون المصرية العامة بحسب ما يقرره ، اذ ذاك ، الوفد .

٢٦ ـ يعين الوفد لجنة تسمى باللجنة المركزية للوفد المصرى يختار أعضاءها من ذوى المكانة والغيرة . ومهمتها جمع التبرعات على ذمة الوفد وارسالها اليه ومراسلة الوفد بما يهم من الشئون الخاصة بمهمته .

٢٣ نوفمبر ١٩١٨ ـ تصدى السلطة العسكرية للتوكيلات :

لم تكد صيغة التوكيل توضع حتى اقبلت طوائف فى حماس منقطع النظير على توقيعها فكان ان أصدر مستشار وزارة الداخلية الانجليزى أمره للمديرين بحظر تداول هذه التوكيلات والتوقيع عليها ، فشرع الناس يتداولونها ويوقعون عليها سرا فأصدر المستشار أمره بمصادرة ما تم التوقيع عليه فعلا ، فاقتحم البوليس بعض الدور والمكاتب للاستيلاء عليها ، فكان ذلك أول حماقة انجليزية بدأت تلهب النفوس وكشفت عن أن الوفد يعمل بالتضامن مع حكومة رشدى باشا ، واليك نص الرسائل المتبادلة بين سعد زغلول وحسين رشدى حول هذا الموضوع :

« حضرة صاحب الدولة ورئيس الحكومة ووزير الداخلية

التمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم المشروع . واذا كانت هناك ضرورة قصوى ألجأت الحكومة على هذا المنع ، فانى أكون سعيدا لو كتبتم لى بذلك حتى نكون على بصيرة من أمرنا ونساعد الحكومة بما فى وسعنا على الكف عن امضاء تلك التوكيلات « وفى انتظار الرد ، وتفضلوا يا دولة الرئيس بقبول شكرى سلفا على تأييد مبادىء الحرية الشخصية وعظيم احترامى لشخصكم الكريم .

« الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية »
ورئيس الوفد المصرى
سعد زغلول

حضرة صاحب الدولة :

« الحاقا لما حررت لكم أمس . أتشرف بأخبار دولتكم ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه الى مصادرة ما تم التوقيع عليه منها كما يتبين لدولتكم من صورة الخطاب طيه . فألفت نظر دولتكم الى هذه المعاملة التى يأباها عدلكم ومبادىء العصر الحاضر .

وتفضلوا ... الخ »

« حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا

اجابة على كتابيكم المؤرخين ٢٣ ، ٢٤ الجارى . أتشرف باحاطتكم علما انه اذا كانت صدرت أوامر من جناب مستشار الداخلية لمنع أمضاء التوكيلات المشار اليها فى كتابيكم المذكورين . فانما كان ذلك لأن القطر لا يزال تحت الأحكام العرفية ولأن مثل هذه التوكيلات قد اعتبرت مما يدعو الى الاخلال بالنظام العام .

وتفضلوا ... الخ »

الامضاء
رئيس مجلس الوزراء
حسين رشدى

ملاحظات على الخطابات المتبادلة :

لما كانت هذه الخطابات هى أول نشاط رسمى يقوم به سعد زغلول بصفته رئيسا للوفد فمن الخير أن نسجل ملاحظاتنا على هذه الخطابات .

أولا : يكشف الخطاب الأول الذى بعث به سعد زغلول عن روح المسالمة والرغبة الصادقة فى التعاون مع السلطة وان كان مجرد اثبات الوقائع الخاصة بمنع التوكيلات يحمل معنى الاحتجاج فى أرق صورة .

ثانيا : يلاحظ انه عندما انتقلت السلطة من مجرد المنع الى مصادرة ما تم توقيعه فعلا ، تصاعد مظهر الاحتجاج من الناحية الأخرى ، فخلا الخطاب الثانى الا من تسجيل الواقعة فحسب .

ثالثا : حرص سعد زغلول فى كلا الخطابين على اثبات صفته النيابية الرسمية عن الأمة من حيث كونه « الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية » وسنرى بعد ان تقوم الأمة بثورتها فى شهر مارس من العام التالى فسوف يسقط عند التوقيع صفته كوكيل للجمعية التشريعية بعد ان كرست الثورة رئاسته للوفد .

رابعا : من الواضح ان تبادل هذه الخطابات تم بالاتفاق مع حسين رشدى الذى حرص أن يتنصل بصفته وزيرا للداخلية من التصرفات التى وقعت حيال هذه التوكيلات ومنعها ثم مصادرتها ، وأن يعزوا هذه التصرفات لمستشار الوزارة الانجليزى مما يعلن بطريقة ضمنية عن عدم موافقته على هذا الاجراء .

٢٩ نوفمبر ــ الانجليز يمنعون الوفد من السفر :

واذا كانت حماقة الانجليز واستهانتها المطلقة بالشعب المصرى قد تجلت فى منعها للتوكيلات ثم مصادرتها فقد تجلت مرة أخرى فى منعها أعضـــاء الوفد من السفر الى حيث يعقد مؤتمر الصلح فى باريس ، وما كان المؤرخ حتى ولو عاش طول عمره يكافح الانجليز أن يصف عمـلا من أعمالهم بالحماقة وعليه أن يثبت « العمل » وكفى لولا أن وصف التصرف بالحماقة ليس من عنـدياتى بل هو ما وصف به الانجليز أنفسهم سلسلة التصرفات التى قاموا بها فى هذه الفترة ، وهم اذا كانوا لم يوردوا هذا النص « حماقة » فى مكاتبة رسمية ، فقد قالوه عمليا بعد انفجار الشعب بأن تراجعوا بغير انتظام عن هذه التصرفات . ومن حسن حظ التاريخ ان خطاب سعد زغلول الى السير ونجت المعتمد البريطانى يسجل الخطوة الجديدة بكل دقة واليك نص هذا الخطاب :

« الى صاحب الفخامة السير ريجنلد ونجت المندوب السامى
لحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى

يا صاحب الفخامة :

أتشرف بأن أعرض لفخامتكم أنه قد تألف وفد برياستى بقصـــد السـفر الى انجلترا للمفاوضة مع أولى الحل والعقد البريطانيين بشأن مستقبل مصر . وقد أرسلت لرياسة الجيش الانجليزى بتاريخ ٢٠ الجارى خطابا التمست فيه اعطائى أنا وزملائى جوازات السفر . فتفضلت السلطة العسكرية باجابتى فى اليوم التالى بأن طلبنا سينظر فيه فى أقرب وقت ممكن . ولـما كانت المهمة التى أخذناها على عاتقنا تقضى بوجودنا بلندرة من غير تأخير . فقـد حررنا أمس طالبين النظر فى ملتمسنا واليوم ورد لنا خطاب من السلطة العسكرية يتضمن أنه قد حـــدثت بعض صعوبات لم يتيسر معها اجابة طلبنا الى اليوم . وانه بمجرد تذليل هذه الصعوبات تسارع الى أجابتنا الى موضوع طلبنا .

تلقاء هذه الاجابة ونظرا الى انه من الضرورى أن يكون وفدنا بلندرة قبل الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ، جئنا بهذا راجين من فخامتكم أن تتفضلوا باستعمال ما لكم من النفوذ لدى السلطة العسكرية لحصولنا على جوازات السفر سريعا وفى الوقت المناسب .

انا معتمدون كثيرا على تقاليد بريطانيا العظمى التى مازالت تقدم للعالم كثيرا من الأمثلة على تمسكها بمبادىء الحرية الشخصية اعتمادا يجعل لنا الثقة فى أن طلب التصريح لنا بالسفر سيفصل فيه عاجلا .

وانا فى انتظار اجابة ملتمسنا ، نقدم لفخامتكم عظيم الاحترام والتبجيل .

وكيل الجمعية التشريعية المنتخب
رئيس الوفد المصرى
الامضاء

أول ديسمبر ١٩١٨ — الرد الانجليزى :

وتلقى سعد زغلول أول مكاتبة مما كان يسمى « دار الحماية » ردا على خطابه ، ولكن الخطاب الذى تلقاه لم يكن ممهورا بتوقيع « السير ونجت » ولكنه كان صادرا من سكرتيره الخاص وقد كان الحافز على كتابته هو التذكير بأن مصر قد وضعت الحماية وانتهى الامر بغير رجعة وأن كل حديث يجب أن يدور فى حدود الحماية وأن يتم هنا فى مصر عن طريق تقديم المذكرات والاقتراحات واليك نص الخطاب :

« القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩١٨ »

عزيزى زغلول باشا

كلفت من قبل فخامة المعتمد السامى البريطانى باحاطتكم علما بوصول خطابكم المؤرخ فى ٢٩ نوفمبر الماضى . وبأخباركم بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك ، أنه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية فى هذا الموضوع .

وأضيف الى ذلك أنكم اذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم فى مصر ، مما لا يخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل ، فالافضل أن مثل هذه الاقتراحات تقدم كتابة الى فخامته . وبهذه المناسبة ألفت نظركم الى خطاب السير ميلن شيتهام الذى ارسله بناء عن امر حكومته جلالة الملك الى المرحوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر .

المخلص

ج . س . سيمس

السكرتير الخصوصى بالنيابة

٣ ديسمبر — سعد زغلول يرد :

وارسل سعد زغلول رده على هذا الخطاب الى السير ونجت بطبيعة الحال حيث سجل سعد زغلول لأول مرة عن كونه أصبح سعد زغلول جديدا لا يعبر عن نفسه وانما عن الأمة التى وكلته ، وها تجلت صفة سعد زغلول الأصيلة فى نفسه من كونه محاميا متى وكل فى قضية لم يعد يستطيع التصرف الا فى حدود الوكالة ، وما دامت الأمة قد وكلته فى السعى للحصول على الاستقلال التام فلم يعد بوسعه أن يترخص أدنى ترخص فى هذا المطلب واليك نص الرسالة :

« جناب الخ ..

أتشرف باخباركم بأنى تلقيت الكتاب المؤرخ فى اول ديسمبر الجارى المرسل الينا من سكرتيركم الخاص ردا على خطابنا المؤرخ فى ٢٩ نوفمبر بشأن جوازات السفر المطلوبة لأعضاء الوفد المصرى .

وقد جاء بالكتاب المذكور ان سعادتكم مستعدون لقبول اقتراحات كتابية عن

طريقة الحكم المطلوبة فى مصر بشرط أن لا تتعارض تلك الاقتراحات مع الخطط السياسية الموضوعة من حكومة جلالة الملك .

وردا على ذلك أبادر بابلاغ سعادتكم بأنه ليس فى وسعى ، ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد ، أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الأمة المصرية المعبر عنها فى التوكيلات التى أعطيت لنا .

وانى أعرض على أنظاركم أن هذه التوكيلات قد أقبل على التوقيع عليها بشغف كثير من كبراء الأمة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات الأخرى النيابية

وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال الى الاجماع لولا تداخل الادارة فى منع تداولها ومصادرتها .

على أن سفرنا الى انجلترا لا نريد منه الا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للامة الانجليزية . وبالأشخاص الذين يتولون توجيه الرأى العام الانجليزى الذين لا شك فى تأثيرهم على القرارات الحكومية .

وسنعنى على الخصوص بأن نجعل وجهتنا ذلك الرأى العام . ونحن واثقون بأن نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على روح العدالة والحرية وحماية حقوق الضعفاء التى امتاز به الرأى العام الانجليزى .

وتلاحظون سعادتكم أنه فى هذه الظروف يكون من المستحيل علينا ان نصل الى غايتنا بواسطة مخابرات بسيطة تعمل فى مصر وحسب .

فان القضية التى ندافع عنها يجب أن تعرض بادىء ذى بدء على الرأى العام الانجليزى الذى لا شك فى انه للاستنارة فيها ، فى حاجة الى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبديها الا الممثلون الطبيعيون الموكلون من الأمة المصرية ذاتها .

والصعوبات التى وضعت فى سبيل سفرنا تجعل المأمورية التى أخذناها على عاتقنا غير محققة النفاذ . وهى مأمورية اظهار ارادة الأمة ومن الصعب أن يلتئم هذا الموقف مع مبادىء الحرية والعدالة التى فتح انتصار بريطانيا العظمى وحلفائها طريقها لخير الانسانية ولتحقيق أمانى الأمم .

وتنازلوا .. الخ » .

٦ ديسمبر ـ الوفد يخاطب الدول :

وفى السادس من ديسمبر خطا الوفد خطوة جديدة ، فالى ما قبل هذا التاريخ قصر أحاديثه واتصالاته اما برئيس الحكومة المصرية أو المعتمد البريطانى وتم ذلك سرا بطبيعة الحال فى حدود المكاتبات أما خطوته الجديدة فقد كانت اتصالات مع الدول الأجنبية كلها وبذلك انتقل الموضوع من المحلية الى العالمية ومن السر الى العلن . واليك النص :

نــداء

لحضرات معتمدى الدول الأجنبية بمصر

ايمانا بالتصريحات المذكورة التى أعلنها ساسة الحلفاء عند نشوب الحرب ولا زالوا يجاهرون بها فى انتصارهم للحرية والحق .

واعتمادا على تلك الروح الجديدة التى تدفع أمم العالم وديموقراطياتها نحو ذلك المثل الأعلى مثل الحياة المطمئنة فى كنف العدل وبحبوحة السلام . وثقة على الأخص بأن دخول جمهورية الولايات المتحدة الفاصل فى المعترك العالمى . لم يكن لها فيه من قصد سوى صيانة حقوق الأمم الضعيفة . واستفتاح عصر عدل مجرد عن الهوى ، تبور فيه الى الأبد صفة من لا ينظر الا الى ارضاء مطامعه الشخصية ، ولا يهمه غير بسط سلطته على بنى الانسان اعتمادا على القوة والجبروت .

« فمصر » التى تعرف واجباتها وتهتم بمصالح نفسها — وقد دخل ذلك الايمان قلبها وجعلت ذلك الاعتماد وهذه الثقة سندها — رأت بمجرد عقد الهدنة الأخيرة، أنها ، بعد ان لبثت طول مدة الحرب على اكمل حال من السكينة وحسن الوفاء ، قد آن الأوان لتجهر ، علىهذا المنوال من السكينة والوفاء بما لها من حق فى أن تحيى حياة حرة خالصة من القيودو الأغلال .

كل مصرى يمازج فؤاده هذا الشعور . وكل مصرى كان يضبط شعوره حتى وأتت هذه الفرصة فتفتحت أفئدة الأمة جمعاء واندفعت من ذاتها تطلب لمصر الاستقلال الذى كان دائما هو ضالتها المنشودة والذى من أجله سفكت تارة دم ابنائها فى ميادين القتال وتارة كانت تهب للمعارضة بغاية الشدة كلما عرض من الحوادث ما من شأنه اقصاؤها عنه .

مصداق هذا الشعور الراسل ان الوفد ، الذى تألف من الموقعين عليه للقيام بمطالب البلاد الحقة والدفاع عنها فى الخارج ، لم يكد يتم تأليفه حتى تقبلت الأمة مهمته بالارتياح وأيدته فيها بالاجماع . ولقد كان لهذا الوفد الذى من بين رجاله كثير من أعضاء الجمعية التشريعية أن يستغنى عن أى توكيل خاص لأداء مهمة ، هى من بديهيات الحق الطبيعى للحكومات فكر فى أنه لو حصل على رأى الأمة فى صورة توكيل يمضيه أفرادها ، وخصوصا ممن يكونون منهم قائمين بوظائف نيابية ، لكان ذلك أبلغ فى الدلالة على مشيئة البلاد وأقوم فى بنيان كنه شعورها لدى من ليسوا عالمين بحقيقة حالها .

لم تكد هذه الفكرة تظهر حتى أخذ الجمهور على نفسه أمر تحقيقها . ولم تكن الا برهة من الزمان يسيرة حتى امتلأت التوكيلات بألوف الامضاءات من بينها عدد عظيم للعلية من فراد الأمة كأعضاء الجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس

البلدية وغيرهم . ومما لا ريب فيه ان هذه الحركة لو تركت وشأنها لأجمعت الأمة بهذا الشكل على مطابقة مأموريتنا لما يخامر كل فؤاد من أفئدة ابنائها .

ولكن مبادىء الحق والعدل التى انتشرت فى العالم انتشارا لا يقاوم بدليل ما يرن فى آذاننا من أصدائها المتواصلة الينا من أوربا وأمريكا ، وما نقرأه عنها فى تصريحات كبار الرجال أولى الشأن فى التعبير عن آرائهم ، هذه المبادىء يظهر ان أمتنا بالغت فى الاعتداد بها .

نقول هـذا لأنه كانت تصـدم أفكارنا الأخبار التى تتوارد علينا تباعا عن الاجراءات التى تباشرها السلطة لمنع تداول التوكيلات ثم مصادرة ما تم التوقيع عليها فعلا .

تظلم وفدنا لدولة رئيس الوزراء من هذه الاجراءات . فكان جوابه ان الأوامر الخاصة بذلك قد كان صدورها من جناب مستشار الداخلية وان التوكيلات التى تداولت اعتبرت مما يدعو للاخلال بالنظام العام .

الله شهيد ان البلاد لم تكن قط ، أكثر منها سكينة ورزانة عندما أهاب بها الداعى واستوقفها لتجهر برأيها فى هذا المشهد الرهيب فالمصريون شبابا وشيوخا، سكان مدن وقرى ، أغنياء وفقراء كلهم قد نسوا ما بينهم من الفوارق والمذهبية والحزبية وقاموا جميعا بدافع الاخلاص والوطنية ، قومة رجل واحد ، ملبين دعوة الداعى يزينهم الاعتدال فى القول والفعل .

ولقد كنا نعتقد أن تداخل السلطات فى هذا الشأن لا يتجاوز حد عمل احتياطى من اعمال رجال الضبط .

وان ما فيهـا من التعسف ليس منبعثا الا عن افراط فى السلطة ولم يدر قط بخلدنا ان استنكار السلطات لمهمتنا يبلغ بها الى المعاملات الجديدة التى عاملتنا بهـا وهى منعنا عن السفر لأوروبا لأداء موجب التوكيل الذى أخذناه على عاتقنا .

ذلك ان قدمنا طلبا كتابيا لفخامة المندوب السامى البريطانى نرجوه منه ان يتوسط لدى السلطة العسكرية لمنحنا جوازات السفر فورد الينا الجواب ، فى أول ديسمبر سنة ١٩١٨ من السكرتير الخصوصى ، يبلغنا أن فخامته ، بعد أن استشار حكومة جلالة ملك بريطانيا ، لا يستطيع التوسط المطلوب .

نظرا لأن تلك الاجراءات يصعب التوفيق بينها وبين الروح السـائدة فى الأمم والحكومات التى سيأخذ مندوبوها مجالسهم فى مؤتمر الصلح .

لان هذه الاجراءات مناقضة على خط مستقيم للتأكيدات المتكررة على رؤوس الملأ من ان صوت الشعوب وافصحها بالحرية عن ميولها القوميـة سيكون لهما الأثر الفاصل فى تقرير مستقبلها .

ونظرا لتلك المعاملات الاستثنائية التى عوملت بها الأمة المصرية حتى لم يسلم منها الوزراء المصريون أنفسهم ، من الاستهتار بمبـدأ الحرية الشخصية ومن غمط مبدأ الحق الطبيعى لكل أمـة فى أن تسمع قبل من عاداها صـوتها بالسبة للمسائل الجوهرية الخاصة بها . تلك المسائل التى لا يمكن الوقوف عليها الا بعد اعطاء الأمة كامل الحرية فى التعبير عن رأيها فيه .

ونظرا لكلما تقدم ..

اننا محتجين لدى حضرات نواب الدول الصديقة التى يهمها أمر مصر ، على الخطة التى صار اتخاذها معنـا ، وعلى كل قرار بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى الأمة المصرية فيه .

« امضاء أعضاء الوفد المصرى »

مطالب مصر كما وردت فى هذا النداء :

هذا هو نص النداء كما أورده شفيق باشا فى حولياته ، ولكنه أغفل كما يبدو مطالب مصر المحددة كما اثبتها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه ولا لوم ولا تثريب على شفيق باشا فقد كان غائبا عن البلاد من ناحية ولم يرجع الا بعد انتهاء هذه الحوادث من ناحية ومن ناحية أخـرى لم تكن الصحف تنشر شـيئا عن ذلك ومن هنـا كان عبد الرحمن الرافعى أثبت وأصح فقد كان يعايش هذه الأحداث فضلا عن انه بذل جهدا صادقا بل مضنيا للتثبت من كل واقعة وتحقيقها ، واليك هذه المطالب الستة كما اثبتها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه :

١ — تطلب مصر الاستقلال التام .

(أ) لان الاستقلال حق طبيعى للامم .

(ب) لان مصر لم تهمل قط امر المطالبة بهذا الاستقلال ، بل هى قد سكبت فى سبيله دم ابنائها . ولقد كان ما حازته من النصر فى ميدان القتال كافيا لرد السيادة اليها لولا اجماع الدول العظمى فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ واكراهها على تقليل مطامعهـا الى ادنى حـد ممكن ، وجعلهـا تكتفى بالاستقلال الداخلى فقط وهو مع ذلك واسـع النطاق يـكاد يبلغ حد الاستقلال العام .

(ج) لان مصر تعتبر نفسها الان خالصة من آخر رباط كان يربطها بتركيا وهو رباط السيادة الاسمية ، اذ تركيا اصبحت بسبب نتائج الحرب تنطلع للتمسك بهـذه السيادة .

(د) لان مصر ترى أن الوقت قد حان لان تعلن استقلالها التام الذى يؤيده مركزها الجغرافى وأحوالها المادية والادبية .

٢ ـ تريد مصر ان تكون حكومتها دستورية وأن تراعى فى تفاصيل النظام حالة البلد الخصوصية من جهة ما للاجانب فيها من المصالح وأن تقوم بعمل اصلاحات اقتصادية وادارية واجتماعية تستعين على تحقيقها بذوى العلم من أهل البلاد الغربية كما كانت تلك عادتها فيما مضى .

٣ ـ تعلن مصر أن امتيازات الاجانب فيها ستحترم بكل دقة ، واذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحوير أليق بمقتضيات الأحوال فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر وغاية فى الاخلاص والمجاملة .

٤ ـ تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقل فى أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعا قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤ ، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى .

٥ ـ تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات مفيدا للمحافظة على حياد قناة السويس .

٦ ـ تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف بوضع استقلالها تحت ضمانة جمعية الأمم ، وأن تشترك بهذه المثابة بقدر ما لديها من الوسائل فى تحقيق مبادىء العدل والحق على النمط الحديث .

مدى اتساع هذه المطالب :

وباستطاعة اى قارىء أن يلاحظ كيف اصبح الاستقلال التام بتطبيقاته يسرى فى كل كلمة من كلام الوفد وقد اخرجت هذه المطالب مصر نهائيا من دائرة العلاقة الخاصة بين مصر وانجلترا الى الدائرة الدولية كما يتمثل ذلك فى البندين الخامس والسادس .

٣٠ ديسمبر ـ استقالة حسين رشدى الثانية :

أشرنا فى أكثر من مناسبة الى دور حسين رشدى رئيس الحكومة فى تفجير ثورة ١٩١٩ واقتناعنا كامل فى أن تحركات سعد زغلول الأولى لم تتم فقط بالاتفاق مع حسين رشدى ، بل وبتشجيع منه وفى تصورنا أن حسين رشدى حمل ضميره الشىء الكثير عندما قبل استمرار تعاونه مع الانجليز فى مناسبتين خطيرتين كانتا توجبان على كل رجل شريف أن يكف عن التعاون ليبرىء ذمته على الأقل اما أولى هاتين المناسبتين فعندما خلع الانجليز الخديو عباس وكان يقوم مقامه بمعنى أنه كان نائبه ووكيله وبالتالى موضع ثقته وائتمانه وقد برر حسين رشدى هذا الموقف بأنه بين ولائه للخديو وبين الولاء لمصر فقد اختار جانب مصر أما المناسبة الثانية فعندما رأى الانجليز ان يبسطوا الحماية على مصر بكل ما استتبع ذلك من نتائج ومن المحقق

ان حسين رشدى كان فى أشد حالات القلق ولكن لابد أن يكون الانجليز قد أغرقوه بالوعود والعهود أن الحرب لا تكاد تنتهى حتى تحصـــل مصر على أمانيها أو القسم الأكبر منها على الأقل وفى تصورنا انه كان فى كل هـــذه الخطوات يلقى التأييـــد بل التشجيع من سعد زغلول ، بحيث لا يضيع الرجلان ساعة واحدة بعد انتهاء الحرب رسميا ، ففى الوقت الذى طلب فيــه سعد زغلول وزميلاه موعدا لمقابلة السير ونجت فحدد للمقابلة يوم ١٣ نوفمبر بناء على توسط حسين رشدى بالذات ، كان هو ، أى حسين رشدى يرفع الى السلطان طلبا ليؤذن له بالسفر الى لنـــدن للتباحث مع الانجليز فى شأن مستقبل العلاقات بين مصر وانجلترا واليك نص الخطاب :

حضرة صاحب العظمة السلطانية

« أن الحوادث تتوالى بسرعة ، وقد أوشكت مفاوضات الصلح أن تبتدىء ، وعما قريب يشرع فى تسوية جميع المسائل التى نشأت عن الحـــرب ، وأنه لمن الأهمية بالمكانة العظمى ان تعرض بطريق مباشر على حكومة صاحب الجلالة البريطانية رغائب عظمتكم ورغائب حكومتكم فيما يختص بمستقبل مصر السياسى ، ولهذا اعرض على عظمتكم ان تعهدوا الى والى زميلى عدلى باشا فى القيام بهذه المأمورية ، وفى اثنـــاء غيابنا ينوب عنى سرى باشا فى رئاســـة مجلس الوزراء ، وثروت باشـــا فى وزارة الداخلية ، وينوب زيور باشا عن عدلى باشا فى وزارة المعارف » .

وقد وافق السلطان احمد فؤاد على هذا التقرير وعهد الى حســـين رشـــدى وعـــدلى يكن بهذه المهمة . وكانت مفاجأة حسين رشـــدى قوية وعنيفة عندما جاء رد انجلترا برفض التصريح للوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول بالسفر ، وبالنسبة لحسين رشدى وعدلى فلا محل لسفرهما فى الوقت الحاضر لأن وزير خارجية انجلترا (بلفور صاحب الوعد المشهور) سيكون مشغولا بمؤتمر الصلح . هنا يمكن أن نقول أن حسين رشدى هاج وكتب استقالة مسببة للسلطان ، اليك نصها وهى تنطق بكل ما قدمناه :

« عندما أخذت على عاتقى أمام ضميرى وأمام وطنى وامام التاريخ مسئولية منصبى فى عهد النظام الجديد ، وقـــد عاهدت نفسى عهدا أســـاسيا أن أطلب من الحكومة الانجليزية عند الشروع فى مفاوضات الصلح أكثر ما يمكن من الحرية لمصر ، والآن ، وقد أوشكت هذه المفاوضات أن تبتدىء طلبت من الحكومة الانجليزية بعد تصديق عظمتكم أن تسمع أقوالى فكان جوابها بمثابة التسويف الى ما بعد الصلح على أننى بالعكس أرى أن الوقت الحاضر هو الذى ينبغى فيه عرض ما لمصر من الأمانى القومية وتأييده . فلهذه الأسباب أتشرف بتقديم استعفائى بين يدى عظمتكم من رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية وأن زميلى عدلى يكن باشا الذى عينتموه لمرافقتى فى مهمتى يتمسك بمشاركتى فى هذا الرأى فهو يقدم شخصيا استعفاءه من وزارة المعارف العمومية » .

وكانت هذه الاستقالة بهذا النص أول لطمة تتلقاها انجلترا المنتصرة من حكومة مصر .. وقد كان من رأى السير ونجت أن لندن قد تجاوزت كل الحدود فهو نفسه قد اشار على حكومته بوجوب استقبال الوزيرين ، ولذلك طلب من السلطان احمد فؤاد أن يرفض الاستقالة ريثما يراجع حكومته ولكن الحكومة الانجليزية أصرت على موقفها فعاد رشدى باشا وكتب فى ٢٣ ديسمبر ما يلى :

« ولكن رفع الرجاء الى عظمتكم الا تقبلوا هذه الاستقالة الا بعد مراجعة لندرة فلم يكن جوابها الجديد الا مزيدا للجواب الاول ، لهذا أصررت على الاستقالة ، ومن ذلك الحين لم ترد تبليغات رسمية ولكن حدثت مساع ومخابرات أخرى بغير هذه الصفة لم توصل الى نتيجة ما ، فى هذه الاثناء تألفت وفود من اعضاء الهيئات النيابية فى البلاد ، وطلبوا إن يسمح لهم بالسفر الى لندرة للمدافعة عن مصـــلحة مصر فنصحت أن يؤذن لهم فى ذلك وأن نسمع أقوالهم فلم يصغ لنصحى ، ولم يكتفوا بذلك، بل أبوا على أنا نفسى أن تسمع أقوالى فيما عساه أن يكون لنظام الحماية ، لهـــذا التصرف ستحرم مصر دون غـــيرها من الأمم من أن يسمع صوتها الذى يبت فيه فى مصيرها .

« فبناء على هذه الاعتبارات يلزمنى أن أعود فالح لدى عظمتكم مع الاحترام بقبول استعفائى » .

ثم عاد فى ٣٠ ديسمبر يستعجل السلطان فى قبول استقالته بالخطاب التالى :

« يا صاحب العظمة السلطانية ، أن التأجيل فى قبول استعفائى قد يكون من عواقبه تحميلى المسئولية التى أردت والتى اريد قطعيا اجتنابها ، وهى مســـئولية قيامى بمنصب الوزير الأول لمصر وعـدم اهتمامى مع ذلك بمصيرها فى الوقت الذى سيحصل فيه البت فى أمرها نهائيا ، فأتوسل الى عظمتكم بقبول ذلك الاستعفاء بدون ارجاء ، ولكى لا أجعل سبيلا الى تجديد التسويف اجاهر انه قطعى لا رجـوع فيه ، فلم يعد محل للمفاوضات فيما يتعلق به ولم يبق ســوى الاشـــتغال بتأليف وزارة جديدة ، وانى لعظمتكم يا مولاى .. الخ » .

أثر موقف حسين رشدى فى تطور الحوادث :

كان من الطبيعى بالرغم من عدم نشر كل ذلك فى الصحف أن يشيع ويذاع فكان له أعظم الأثر فى الهاب المشاعر وتعبئة النفوس ، فقد علم ما لم يكن يعلم من رجال الادارة أن الحكومة من رأى الشعب الذى أصبح يمثله الوفد وسوف يكون لذلك أكبر الأثر عندما يقع الانفجار على أنه فى موضوع الاســتقالة فقد بقيت معلقة حتى ربيع العام الجديد وسنرى كيف كان قبولها هو الشرارة التى أدت الى اعتقال زغلول ومن ثم وقعت الحوادث الدامية .

عام ١٩١٩

واستهل العام الجديد وقد وصل النشاط السياسى الى ذروته واصـــبح من الواضح أن قادة البلاد حكومة وشعبا أصبحوا لا يرضون عن الأوضاع الســـائدة واصبح الحديث عن الاستقلال التام على كل لسان وبعد ان كان الحـديث يدور فى الخفاء مع السلطات الانجليزية ، خرج عن هذا النطاق الى الساحة العالمية فبـــدا الوفد يتوجه بندا،اته ويتقدم بمطالبه الى الدوائر الأجنبية ، وقد امطر الوفـــد الرئيس ولسون بالبرقيات يستصرخونه لنصرة المبادىء التى رفع لوءها ويحتجون على المعاملة الظالمة التى يلقونها حيث يحال بينهم وبين مغـــادرة البلاد لاسماع صوتهم ولكن الانجليز قابلوا ذلك كله بالاستخفاف كما رأينا فرأى الوفد أو بالأحرى ســعد زغلول ان يتطوروا بنشاطهم خطوة فيعلنوا فى اجتماعات عامة مطالب البلاد وما يكسب هذه الخطوة خطوره ان الاجتماعات كانت لا تزال محظورة فاقدام الوفد على عقـد اجتماع عام وتصدى سعد زغلول للخطابة فى هذا الاجتماع يعتبر تصعيدا للتحدى، ولكنا قبل ان نأتى على حديث هذا الاجتماع يجب ان نثبت أولا نص برقية بعث بها سعد زغلول الى لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية وهى ان ظلت تتضـــــمن عبارات مدح وثناء على تصرفات لويد جورج الشخصية (خلال الحـــرب) فهى فى الوقت نفسه تحمل نغمة جديدة اذا كان محمد فريد قـــد تكلم بمثلها فى المـاضى فالناطق بها اليوم هو سعد زغلول الرجل المعتدل الذى عاش حتى الآن فى نطـــاق التعاون مع الانجليز فان يتحول ويتبدل كل هذا التبدل فكان بالانجليز ان يتنبأوا بالاعصار القادم ولكن الانجليز الذين كانوا سكارى بنشوة انتصارهم فى الحـــرب اغفلوا هذه النذر واليك الآن نص هذه البرقية :

القاهرة فى ١٢ يناير سنة ١٩١٩

صاحب السعادة المستر لويد جورج كبير وزراء بريطـانيا العظمى — دوننج — ســتريت لندن .

« يا صاحب السعادة

تشرفت بأن أرسلت لسعادتكم تلغرافا فى ٤ ديسمبر الماضى بسطت فيه ما وقع من رجالكم فى مصر من العسف ومصادرة الحرية الشخصية . وقد مضى على ذلك شهر كامل ولا تزال الحال كما كانت . حتى ان الأمة المصرية بأسرها من أكبر وزير

الى اصغر فلاح محبوسون داخل حدود بلادهم لا يسمح لاحد بالخروج من هـــذا الحصار الشديد .. تلك هى حالنا التى ليست ظروفها مجهولة لديكم . ولا ندرى اى مسوغ من القانون العام أو من القواعد الاجتماعية أو من أساليب السياسة المعقولة يسوغ للانجليز أن يتعمدوا هذه المعاملة المهينة لأمة تاريخية كأمتنا .

أجل ان امتنا العريقة فى المدنية ، مهما ضعفت قوتها ، فان لها عند العالم كرامة المعلم الأول وفضل السبق فى المدنية .

بل أنكروا عليها السبق فى المدنية ، وأطمسوا آياته الناطقات واكفروا بصنيعها على العالم . ولعبوها لفيفا من المتوحشين الذين نظامهم الفـــوضى وقانونهم الاعتداء ، افلا حفظتم لها حق المساعد الأمين ؟

انتفعتم فى هذه الحرب ، برجالها وأمـــوالها وصرحتم فى مواطن شتى بأن ذلك كان من اكبر العوامل فى احراز النصر فى الشرق . فبينما مصر المســاعدة تنتظر ان تعامل بما يتفق مع حالها اذا هى تراكم ، غداة الهدنة ، قـــد قلبتم لها ظهر المجن وحبستم اهلها بين حدودها على الذل والهوان . بل هبوا هذه الأمة لا متمدنة ولا مساعدة فهلا عاملتموها بما اتفقتم عليه مع الدكتور ولسن — من انكم تعـدلون فى الذين تحبون ان تعدلوا فيهم وفى الذين لا تحبون ان تظلموهم — فاذا كنا لا نجـد هنا للعدل ظلا فيما يتعلق بحرية السفر والاقامة فأجدر بنا ان لا ننتظر عدلا نعامل به فى أكبر من الحرية الشخصية خطرا ، وأعلى منـــه فى التقـــدير أثرا ، وهو حرية البلاد السياسية وعلى أى وجه قلبنا أسباب حبســنا فى بلادنا لا نجد له مبررا فى الشرائع الانسانية ولا موجبا فى الأعمال العسكرية الا احتمال واحد لا يزال بنـــا بقية من حسن الظن تصرفنا عن الاعتداد به وهو انه يراد تقديم سكوتنا الاكراهى فى مؤتمر الصلح دليلا على انه رضى بحالنا السياسية الحـــاضرة ، اى الحماية . ويشهد الله اننا ما ظننا يوما واحدا منذ اعلنت الحماية ، انها نظام يراد اقامته فى مصر . بل كل ما فهمناه انها ضرورة حربية ينتهى اجلها بانتهاء الحرب . ولم نكن نظن ان انجلترا تنوى التمسك بحماية صادرة منها وحدها ، من تلقاء نفسها وبدون اتفاق بينها وبين الامة المصرية . فاسمحوا لنا سعادتكم ان نسائل شخصكم الرجل الحر ، هل يستطيع ان يقنع ضميره المملوء حرية بأن ما يقع فى مصر باسمه وبأمره غير مناف تمام المنافاة للحرية التى اختارها شعارا تفنى العمر فى خـــدمتها وبلغ اسمها أعلى مركز يتمناه الانسان ، كلا ، فان مبادىء الحـــرية وحبس ثلاثة عشر مليونا ، أمة واحدة ، أمران لا يجتمعان ، لذلك نتجور أن نصرح بحقيقـــة ، وان كانت مرة ، وهى أن أعلى مركز يتبوءه رئيس حكومة انما هـــو التوفيق التام بين ضـــميره وبين قوله وعمله فالى الرجل الحر نترك الحـــكم لنفسه أو عليها فى هذه القضية .

واســمحوا لنا ان نســائل رجل الســياسة « هل يعرف الشعب الانجليــزى الشريف شيئا عن حبس المصريين فى بلادهم ؟ أم كان الحبس كما هـــو الظاهر اجراء من الســلطة التنفيذية وعلى مســـئوليتها من غـــير أن يعــلم الشعب من أمره شيئا ؟

وهل تغتفر تقاليد الشعب الانجليزى الحر مثل هذا التصرف مهما جرت فى ظاهر الأمر من المنافع ؟ وما علمنا جورا يجنى من ورائه الا الخسران .

الى أى مبدأ ترجع الوزارة هذا العسف ، واذا استطعت أن تتخلص من هذه المسئولية بالقائها على عاتق السلطة العسكرية فهل يستطيع سعادة الرئيس ان يقنع ضميره الحر بأن فى حبس الأمة ادنى فائدة للاعمال العسكرية ان بقى الى الآن معنى لما يسمى اعمالا عسكرية فى مصر بعد الهدنة بشهرين ؟

لقد عرفتك منابر الحرية والمساواة خطيبا فياضا وطالما اهتزت أعوادها اعجابا بصراحتك . وترنحت طربا بانتصارك للفقراء على الأغنياء وللضعفاء على الأقوياء ، وللسوقة على الشرفاء ، فهل هى لا تزال على عهدها ، تعرف فيك حامى أشرف المبادىء ؟ أم هل اصبحت تنكرك ، بعد أن ألبست أمة بأسرها ثوب الحداد على الحرية الشخصية ؟

مسموح على المبادىء القديمة لرجل السياسة أن يكون استعماريا . غير انه لا يعلم أحد الى اليوم ان حب الاستعمار أجاز لدولة حصر أمة ليس بينها وبينها حرب . واذا كان حب الاستعمار لا يبيح للمستعمرين والمحافظين مثل هذا التصرف فكيف بالأحرار ؟

ان الحكومة الانجليزية التى استطاعت ما استطاعت لا يعجزها شىء ولكنها لا تستطيع بغميط الحق وتعمد الاذلال ، أن تكسب شيئا من قلوب المصريين .

وتفضلوا يا سيدى الرئيس بقبول عظيم الاحترام ..

من الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية ورئيس الوفد المصرى .

١٣ يناير ١٩١٩ ـ اول خطاب عام لسعد زغلول :

فى ١٣ يناير دعا حمد باشا الباسل بضع مئات من كبراء الأمة وقادة الرأى فيها للحضور الى منزله حيث ألقى فيهم أول خطاب عام بدأ به سلسلة الحشود التى سوف يتبارى فيها الخطباء وهو السمة المميزة لثورة سنة ١٩١٩ حيث قامت على الخطب ثم المظاهرات والمنشورات واستشهاد فريق برصاص الانجليز فى خاتمة المطاف . ومن حق التاريخ أن نسجل أول خطاب لسعد زغلول فهو يحمل « عبق » هذه الأيام ، وهو يصور لنا الجو والتحركات الأولى وهو فوق ذلك كله كيف يصور هذا الشيخ الوقور بالمهمة التى عهدت اليه الأمة بها :

نص خطاب سعد زغلول الأول

أيها السادة أنى أشكر حمد الباسل على أن هيأ هذه الفرصة التى انتهزها لأحدثكم عن تفاصيل هذه الأزمة التى تجتازها مصر فى الوقت الحاضر . حتى لايفوت بعض أولي الرأى عندنا شىء من أعمال الوفد الذى شرفته البلاد بتوكيلها للسعى فى قضيتها الكبرى .. قضية الاستقلال .

ليست فكرة الاستقلال جديدة فى مصر بل هى قديمة يتأجج فى قلوب المصريين الشوق الى تحقيقها كلما بدت بارقة أمل فيه . وتخبو ناره كلما استطاعت القـــوة أن تخمد أنفاس الحق . ولقد كان الوقت الحاضر أنسب فرصة لتحقيق هذه الفكرة لأن رابطة السيادة التركية أخذت تتضاءل حتى لم يبق شك فى انقطاعهـــا . وان الاحتلال الفعلى لا يجد فرصة انسب عن هذه الفرصـــة لتحقيـــق رجاء اللورد سالسبورى الذى قال فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٦ « نحن لا نبحث الا عن الخــروج من مصر . بشرف » . قلب هذا الاحتلال الذى لم يكن له حق فى البقاء الى حمـاية من بادئ رأى الانجليز ومن غير اتفاق مع مصر . ولكنها هى أيضا أمر باطـل بطلانا اصليا أمام القانون الدولى . ومخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجـــديدة التى خرجت بها الانسانية من هذه الحرب الهائلة .

« فنحن أمام القانون الانسانى ، أحرار من كل حكم أجنبى ، فلا ينقصـنا الا أن يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال فتزول العوائق التى تقف بيننا وبين التمتـع به بالفعـل .

لهذا الغرض السامى المطابق لمـا فى نفوس المصريين جميعا ألفت أنا وأصحابى ، الوفد المصرى لنسعى فى الوصول الى الاعتراف بهـذا الاستقلال وتشرفنا بتوكيل الأمة ايانا . وما ضرنا ان أمرت الحكومة الناس بالكف عن التوكيلات ومصادرتها لأن ما لدينا منها ومن خطاب الوزير الأول الذى تعترف فيه الحكومة بعملها . يكفى فى افادة ان الأمة مجمعة على طلب الاستقلال . . . هل أمـة كمصر مدنيتها أقدم المدنيات وفضائلها الاجتماعية التى تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل ظاهرة الأثر من حيث وداعة الأخلاق وحب احترام القوانين والتماثل التام فى الميـــول يمكن ا نتسأل فى أمر استقلالها من غير ان تجرح عواطفها المدنية بهذا السؤال ؟ وهل ابنـــاء المدنيـــة الفرعونية والمدنية العربية غريب عليهم ان يستقلوا فيشاطروا فى تقـدم المدنية فى خطواتها الى الأمام . غير اننا كنا مضطرين الى هذا التوكيل لأنه قد عزى الينا اننا لا نطلب من الحياة الا الدرك الأسفل ، ان نعيش آمنين طاعمين كاسيين . فكان توكيل الامة الجواب القاطع على هذا الاتهام . منعنا عن السفر وصـــودرت الحرية فى اشخاصنا وفى المصريين جميعا فلم نغادر مرجعـا من المراجع الا احتججنا لديه على هذا التصرف وها نحن أولاء . لا نزال نطمع فى أن يخلى بيننا وبين القيـــام بمهمتنا بأنفسنا وان ما أؤكده لكم هو ان هـذا المنع لم يزد زملائى الا حبـا فى التقدم الى الغرض العام وحده فى تضحية كل ما يستدعيه من الضحايا سالكين سـبل الحـق والعدل . وما لنا غيره من سبيل .

« كان فى عرف السياسة ، مباحا ان تضحى مبادئ الحق والعدل قربانا عـلى مذبح المنفعة وقليلا ما كانت تخدم الا اذا اتفقت مع هذه المعبودة السياسة العامة . ولكننا ندخل الآن بمبادئ الدكتور ولسن فى عصر من السياسة جديد ، عصر العدل المجرد عن الهوى وكفيلته عصبة الأمم . عصر فيه منفعة الضعفاء تكال بنفس الكيل

الذى اتخذ لمنفعة الأقوياء عصر احترام الانسانية فى الشعوب الضعيفة والقوية على السواء فلا سيادة لقوى على ضعيف . بل الكل اعضاء حقوقهم متساوية فى الاخاء الانسانى . من الناس من يرون هذا المذهب السياسى الجديد . أجمل من ان يتبع فى هذه الحياة الدنيا من حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنـــافع ... نعم مذهب جميل . ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتور ولسن فى تطبيقــــه بحــزمه المعروف وانه لجاد . بل ارتقى الى ان أقول ان تطبيقــه سهل متى صحت نيـــات اكثرية الدول التى أقرته بالاجماع . ذلك لأن هـــذا المذهب غـير مخالف لمـا ألف الانسان من الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية . ثم هو متفــق مع الأفق الذى وصلت اليه الانسانية فى تطورها الجديد . الا ترون ان مبادىء الديموقراطية التى أوجدت هــذا المذهب تنتشر على جميع صورها الممكنة فى أرجاء البلاد المتمدنة بقوة هائلة وبسرعة لم يعهد لها نظير فى تاريخ المبادىء الانسانية ؟

الا ترون ان أفكار الشعوب فى هذا الوقت متجهة الآن الى الاستعاضة عن مظهر هذه المزاحمة الوحشى بمظهر انسانى صرف . مزاحمة الأسواق التجارية ؟ بمعنى انه عوضا عن ان كانت التجارة يسيرها المدفع وتحميها حدود المستعمرات تصــبح التجارة تسيرها الحرية وتروجها جودتها وفضلها على غيرها . وبذلك تتحقـــق المزاحمة . لكنها على صورة اكثر تمشيا مع روح الديمقراطية الحاضرة . « ثقوا ، كل الثقة بهذه المبادىء الجديدة . فانه لا مناص من تنفيذها ولا تقولوا كيف ننــال الاستقلال وما أعددنا لنيله العدة المعروفة ؟ » كلا ، ان بلادنا ، كما قلت لكم ، خلو الآن امام القانون الدولى ، من كل سيادة اجنبية ، وبعيد على مؤتمر السلام أن لا يرتب سيادة جديدة للاقوياء على غيرهم . بل ما وجد الا ليقرر احترام الحقــوق ويحرر الامم من الاستعباد . ان ايماننا بقواعد الحق والعدل هى عدتنا . وكفى بها عدة . وان اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمــة . ولا تنقصنا الا ان يسمع مؤتمر السلام صوت الامة . ولكن سيصله ولو من بعيد . يصله فينصت اليه على رغم ما يقال من ان مؤتمر السلام الذى يعقد اليوم اشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات هــذا هو النحو الذى ننحوه فى قضيتنا وأما خطة مصر المستقلة فهى :

أولا : تريد مصر ان تكون حكومتها دستورية وان تراعى فى تفاصـــيل النظام حالة البلد الخصوصية من جهة ما للاجانب فيها من المصالح وان تقـــوم بعمـــل اصلاحات اقتصادية وادارية واجتماعية تستعين على تحقيقها بذوى العــلم من أهل البلاد الغربية كما كانت تلك عادتها فيما مضى .

ثانيا : تعلن مصر ان امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة ، واذا كان العمل أظهر ان بعضها يدعـــو الى تحوير اليق بمقتضيات الأحوال ، فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصـــــالح المنظور فيها . وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر غـــاية فى الاخـــلاص والمجـــاملة .

ثالثا : تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المـالية لا تقل فى اهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات/المصلحة عما كان متبعا قبل اتفاقية ســـنة ١٩٠٤ ويكون اهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى .

رابعا : تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات مفيـــدا للمحافظة على حياد قناة السويس .

خامسا : تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف لوضع استقلالها تحت ضمانة جمعية الأمم وان تشترك بهذه المثابة بقدر ما لديها من الوسائل فى تحقيق مبـادىء العدل والحق على النمط الحديث .

« وان من الفضيلة ان نقرر بأن ما نقوله عن مصر ينسحب على السودان ، لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة بل هو كما قال المستشار المـالى فى تقريره سنة ١٩١٤ « ألزم لمصر من الاسكندرية » .

« قد يضيق الفهم فيظن ان هناك منافاة بين طلب الاستقلال والرضا بامتيازات الأجانب . كلا ، لا منافاة بين الاثنين فى الوجود . وان كان فيه تضـــــييق لدائرة السيادة التامة التى يقتضيها الاستقلال فلنكن عمليين . ولنطرح المناقشات العقيمة التى لا طائل تحتها والتى لا يعتبر الاصرار عليها الا ضربا من المـكابرة والمـكابرة فى القضـــية العامة خروج على الوطنية الصادقة . ولنقبل على عملنا اقبال العالمين بما ينفــع الأمة .

أن تحبيب الأجانب فى الاقامة بمصر وتسهيل سبل العمل لهم مفيد للبلاد اكبر فائدة . فلنقدم عن طيب خاطر ، مرغبات هذه الاقامة ، ولنسهل بما فى طاقتنــا ، سبل المزاحمة التعليمية والتجارية والصناعية فانكم لا تفكرون ان هــــذه القرون الأخيرة عزلتنا عن الحركة العالمية بعض الشىء وأن الأجانب فى مصر صـلة ، أنعم بها من صلة ، بيننا وبين ينابيع العلم ومواطن الاختراع والاكتشاف ، وان مصر المستقلة لا بد لها من الدخول فى المسابقة العالمية . ولا شك فى انه يهمها جدا ان تكون باكورات هذه المسابقة فى بلادنا .

« تعلمون أن حالتنا الاجتماعية الخاصة مانع شـــديد من مخالطة الأجانب فى بلادنا ، المخالطة التامة التى من شأنها ان تولد فى النفوس الصداقة الأكيدة التى نغنى فى البلاد الأوربية ، عن الامتيازات وقد نتج عن ذلك ان الأوروبى يقيم فى بلادنا بين ظهرانينا شطر عمره ولا يزال مع ذلك أجنبيا عنا لا يعرف منا الا الوجه الخـارجى لصفات المعاملات دون ان يعلم مناحينا الداخلية . ودون ان نعلم منه هذه المنـاحى أيضا ، لأن بيوتنا غير مفتوحة لهم فبيوتهم غير مفتوحة لنا بحكم المقابلة . فلا بد لهم من أداة تحبب لهم الاقامة بيننا . وهذه الأداة هى الامتيازات .

« كذلك تعلمون ، كما ألمحت لكم ، ان من الضرورى لنا جعل بلادنا ميـــــدانا

للمسابقة العلمية والتجارية والصناعية . وهذه المسابقة مترتبة على كثرة وفود الأجانب الى مصر المتوقف فى ذاته على ثقتهم باكرام وفادتهم وضمانة طيب الاقامة لهم . ولا سبيل الى ذلك الآن ، مع الاعتبارات الاجتماعية التى أشرت اليها ،الا ببقاء الامتيازات .

« وانى شديد الثقة بأن ، بعد زمان ما ، سيرى الأجانب أنفسهم ألا حاجة لهم بهذه الامتيازات بل سوف يحبون أن ينزلوا عنها متى خالطونا أو عرفونا معرفة تامة بعد نيلنا الاستقلال .

« بهذه المناسبة أروى لكم ، على سبيل الفكاهة ، انى قد اطلعت على ورقة مطبوعة مهملة التوقيع ينصح كاتبها فيها بالا نقبل الامتيازات الأجنبية الا بطريقة المساومة ولا نرضى بضمانات حقوق الدائنين الا بأخذ ورد على طريقة المساومة أيضا . ينصحنا أن نجعل أمر استقلالنا ميدانا للمساومات التى لا تليق بصراحة الأحرار ! والناس عدد رءوسهم آراء ! ويظهر ، لحسن الحظ، أن كاتب هذه الورقة ليس مصريا ، وانه شاعر بأن الرأى العام المصرى ضده ولذلك كتم اسمه ولم يجرؤ على اظهاره . عجبا ! كيف يظن ذلك الكاتب بنا ان تسمح لأنفسنا بالخوض فى أمر حقوق ثابتة للغير عندنا وتقضى علينا الذمة باحترامها وتدعونا المصلحة الى تسهيل السبل لتنفيذها . أغرب من ذلك داخل فى باب الوهم ولكن من وجه آخر ان من المسرفين على أنفسهم من يكاد يصل بنياتنا التى صرحت بها لكم ، نية أخرى وهى المساس بحقوق العائلة الحاكمة عائلة محمد على ، ذلك الرجل العظيم الذى هو أول عامل لاستقلال مصر فى تاريخها الحديث وأول بناء فى صرح مدنيتها الجديدة . نية لا وجود لها فى السنة الذين يدعونها رجما بالغيب . أو لوصم حركة الأمة للاستقلال بوصمة انكار الحقوق . وعلى ان تعلق الأمة بهذه العائلة الكريمة اظهر من ان يكون محلا للشكوك . كلا فلسوف يعرف هؤلاء وهؤلاء ان مصر الحرة ستحترم كل حق لديها لأنها ستكون باستقلالها مدينة للحق والعدل .

« أرانى قد بلغت بكم ما كنت أريد أن أحدثكم به من حيث وجهتنا فى عملنا . وخطتنا التى أعلناها الى الدول . فلم يبق على الا أن أردد ثناء الانسانية على الدكتور ولسن واعترافنا ، نحن المظلومين بجميله على ما يعانى فى الدفاع عن قضيتنا وأدعوكم ، بمناسبة هذا اليوم الذى هو أول يوم لانعقاد مؤتمر السلام ، الى أن نظهر احساساتنا الأكيدة نحو محرر الشعوب بأن ارسل اليه ث بعد موافقتكم تلغرافا يتضمن آيات ثنائنا عليه واعتدادنا بفضله على الانسانية بالنص الآتى :

« فى اجتماع عقد اليوم ، حضره كثيرون من اعضاء الجمعية التشريعية وبقية الهيئات النيابية لمناسبة افتتاح مؤتمر الصلح : الى رئيس الولايات المتحدة ذلك الرجل العظيم الذى قاد امته فى خوضها غمار المعترك الأوروبى ، لمجرد خدمة الانسانية وتخليص العالم فى المستقبل مما يعانى من أهوال الحرب ، نرسل آيات الولاء وعبارات الاحترام .

« الى الفيلسوف الكبير السياسى القدير ، الذى يتبوأ اليوم أعلى مركز بين قادة الأمم وتسمو مبادئه أمن رجال السياسة فى جميع الأقطار ، نقدم واجب التحية ومنتهى الاعجاب .

« الى رجل الديمقراطية الكبرى الأمريكية ، الذى غادر بلاده لينشر على العالم لواء السلام المقيم يرفعه العدل الشامل وتحوطه عصبة الأمم بحمايتها ، نعرض قضية مصر التى يتسلط عليها الأجنبى تسلطا يأباه أهلها أجمعون .

« فلتحى الولايات المتحدة وليحيى الدكتور ولسن

وقد وافق المجتمعون ، بين دوى التصفيق الشديد ، على ارسال هذه البرقية الى الرئيس ولسن . وهتف الجميع ، ثلاث مرات هتافا شديدا اهتزت له أركان المكان وبلغ دويه عنان السماء صارخين ليحى الرئيس ولسن ! لتحى أمريكا ! لتحى مصر وليحى الاستقلال » .

اشتد نشاط الوفد بارسال الرسائل لأساطين السياسة وأعضاء مؤتمر السلام وذوى الكلمة فيه . وأخذ يخابرهم بشأن مصر وأمانى مصر .

ماذا ذكرت جريدة الأهرام عن الاجتماع :

ولعله من الطريف ومن حقائق التاريخ التى ترتبط ارتباطا وثيقا بسير الحوادث ، ان نسجل ما نشرته جريدة الأهرام عن هذا الاجتماع التاريخى ، قالت فى عـــددها الصادر يوم ١٤ يناير ١٩١٩ :

« دعا بالأمس حمد باشا الباسل العضـو فى الجمعية التشريعية جماعة كبيرة من أعيان العاصمة والأقاليم الى تناول الشاى فى منزله بشارع الداخلية فلبى دعوته نحو ١٥٠ ذاتا ووجيها وأديبا . وضرب فى حديقة داره الواسعة سرادقا جميلا نسقت فيه الكراسى والمقاعد والأخونة على أجمل طراز . ثم قـدمت الحلوى وأطايب المآكل على الحاضرين مع الشاى والقهوة فقضوا جميعا من الساعة الرابعة الى السادسة بأطيب الأحاديث ثم انصرفوا رويدا رويدا وجماعات جماعات وهم يتحدثون بفخامة هـذا الاجتماع بفضل الداعى وكرمه وكان سعادته وشقيقه وآله يقابلون المدعوين بما فطروا عليه من اللطف والكرم العربى يمتعون اسماعهم مع أصدقائهم صحبهم بما يشنفها ، تمنى الكل لو كثر مثل هـــذا الاجتماع الكبير » . أى ان الرقابة التى كانت لا تزال مفروضة على الصحف بكل شدة لم تكتف بحظر الاشارة الى خطاب سعد زغلول ، ولكنها أبت الا أن تصور الاجتماع على انه مجرد حفلة « أنس وطرب » .

سلاح المنشورات :

ولكن عبثا كانت السلطات تحاول طمس الحقيقة فاذا كانت الصحافة لا تنشر فقد نزل الى الميدان سلاح المنشورات حيث تكونت جماعات من الشباب لتذيع عن طريق المطابع الصغيرة كل ما يصدره الوفد من بيانات أو احتجاجات أو خطب ، وسرعان

ما أصبحت هذه المنشورات السرية قوة تكشف للانجليز عن مدى العزم والتصميم لدى الشعب المصرى بحيث لم يعد التهديد والارهاب يروعه ، فقد فرضت السلطات عقوبات صارمة تنخلع لها القلوب لمجرد ذكرها لكل من يضبط منشور فى حوزته فضلا عمن يقوم بتوزيعه ناهيك بمن يقوم بطبعه وتوزيعه ومع ذلك فقد ظلت هذه المنشورات تتوالى وتتداول فى غير خوف أو رهبة وعلى ذلك فقد كانت مصر كلها تعرف فى اليوم التالى ماذا جرى فى اجتماع حمد باشا الباسل وماذا قال سعد زغلول .

لماذا حمد باشا الباسل :

وقد تساءل أقوام لماذا كان حمد باشا الباسل رابع المعتقلين الى مالطة فيما بعد وعندنا ان السلطات لم تغتفر له أنه كان أول من فتح بيته لعقد اجتماع عام يخطب فيه سعد زغلول . وعندنا انسعد زغلول لم يوافق على أن يكون أول خطاب عام له فى بيت حمد الباسل لمجرد أنه جاره أو لمجرد انه عضو الجمعية التشريعية ولكن لما له من عزوة فباعتباره زعيما لقبائل البدو فى الفيوم يجعل له ثقلا أكثر من أى انسان آخر وسوف نرى عندما تدلهم الحوادث أن الانجليز سيوقعون ببدو الفيوم ما يشبه ان يكون مذبحة فقتلوا منهم فى اصطدام واحد ٤٠٠ شهيد .

٢١ يناير ــ لندن تستدعى السير ونجت :

عند هذا الحد وبدأت لندن تحس تحت تأثير رجالها من غير شك ان فى مصر موجة نشاط لا يمكن تجاهلها فقررت ان تستدعى رجلها فى مصر لا لتتشاور معه ولكن لتقف على جلية الخبر فكان سفره فى هذا الوقت على غير ما جرت به العادة بمثابة دفعة جديدة للنشاط فقرر الوفد ان يعقد اجتماعا جديدا وان يكون هذه المرة فى بيت سعد زغلول نفسه .

٢٧ يناير ــ قائد الجيوش البريطانية يمنع الاجتماع :

بمجرد أن شاع عزم سعد زغلول على عقد اجتماع فى بيته وأرسلت بهذا المعنى بعض رقاع الدعوة تلقى سعد زغلول من قائد القوات البريطانية فى مصر الخطاب التالى :

القاهرة فى ٢٧ يناير ١٩١٩
يا صاحب السعادة

علمت أن سعادتكم تعدون اجتماعا فى منزلكم فى ٣١ الجارى يحضره نحو الستمائة أو السبعمائة شخص وانى أرى أن مثل هذا الاجتماع يحدث منه اقلاق للأمن .

فبناء على الاعلان الصادر تحت الأحكام العرفية سنة ١٩١٤ أرجو أن تتكرموا بالعدول عن اقامة هذا الاجتماع .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،

قائد القوات البريطانية فى مصر
الجنرال هـ . د . واطسون

فلما وصل هذا الخطاب الى سعد زغلول ، ارسل الى القائد يسأله اذا كان لديه مانع من أن يرسل سعد زغلول اخطارا لكل من وجهت اليه الدعوة بأن الاجتماع قد منع بناء على أمر السلطة العسكرية فجاءه الرد بأن لا مانع من ذلك فقد كان الانجليز قد اذاعوا النبأ فى الصحيفة الانجليزية « الاجيبشيان جازيت » ولعل هذا يدلك على ان الانجليز ارادوا بالذات ان يعلنوا انهم سيقمعون هذا النشاط بالقوة .

٧ فبراير ١٩١٩ ـ سعد زغلول يتحدى :

من يتتبع تاريخ سعد زغلول فى هذه الحقبة يتضح له بجلاء انه كان يتحدى الانجليز بروح جديدة لا تمت الى تاريخه فضلا عن سنه مما لا يفسره الا أن روح مصر قد حلت به ، مصر التى سوف تثور وتدهش الدنيا بثورتها ، ولن نستطيع أن نفهم تصرفات سعد الا على هذا الضوء . فها هى ذى السلطة العسكرية البريطانية تكشر عن انيابها وتخطر سعد بأن الاجتماعات ممنوعة ،وسعد يعلم انها ليست ممنوعة لذاتها بل لما يقوله هو فيها من هجوم على الحماية ودعوة الى الاستقلال التام ، واذن فلينقل سعد زغلول أقواله الى اجتماع يعقده الانجليز أنفسهم ، ليحول سعد زغلول اجتماعا نظمه الانجليز لتحقيق اغراضهم الى اجتماع يسمعهم فيه ما يكرهون ويتحداهم به وكان ذلك فى جمعية الاقتصاد والتشريع يوم ٧ فبراير ، وعندنا أن ما فعله سعد زغلول فى هذا اليوم وهو الشيخ الوقور والوزير السابق عمل يتردد فيه الشباب المتحمس مما يجعلنا نصفه بأنه عمل الى الفدائية أقرب . ويحلو لبعض الناس وقد مضى على هذه الواقعة نصف قرن ان يقولوا وماذا فيها وهل تزيد عن كونها مجرد خطاب وينسون الظروف والكيفية التى ألقى بها هذا الخطاب وان سعد زغلول لم يكن يعرف ساعة أن أقدم على هذا التحدث ماذا سيكون رد الانجليز عليه والآن الى تفاصيل ماحدث ولكننا لنتتبع ماحدث ، يجب أن نرجع الى الوراء قليلا لنتحدث عما سمى مشروع برونيت .

مشروع برونيت :

اشرنا من قبل أكثر من مرة الى الانجليز قد استهانوا بالمصريين الى حد جعلهم يتصورون أن المصريين مستعدون لقبول كل شىء يفرضه عليهم الانجليز ليس فقط بالرضا بل بالشكر والحمد وأصبحت مشكلة الانجليز الكبرى هى فى الطريقة التى يستثمرون بها خضوع المصريين ، ففكروا فى بادىء الحرب لضم مصر كاحدى مستعمراتهم لم رأوا ان يكتفوا من حيث الشكل الى اعلان الحماية على ان يكون مضمونها كل ما تعنيه السيطرة التامة المطلقة وعلى توالى سنوات الحرب استغل الانجليز ظروف الحرب واعلان الأحكام العرفية لفعل كل الذى يريدون ولم يدر فى حسابهم هاجس ولو بطريق الخطأ أن المصريين وقد انتهت الحرب قد يكون لهم رأى حتى كل الذى مر بنا حتى الآن من أحداث لم يكن له أى تأثير فى تعديل تصوراتهم، وليس أدل على ذلك من انه فى هذا التاريخ الذى نحن بصدده (٧ فبراير ١٩١٩) بلغت بهم الصفاقة أو بالأحرى التحدى الى حد الاعلان عن مشروع برونيت بل والترويج

له . والسير وليم برونيت كان مستشارا لدار الحماية فى الوقت الذى كان يتولى اكبر منصب فى الحكومه المصريه وهو مستشار الماليه . وقد اشترك فى لجنه راحت تعد ما اسموه وضع تشريعات لتطبق فى حاله الغاء الامتيازات الاجنبيه وهى فى حقيقتها راحت تعد القوانين التى تحـــول مصر الى مستعمره والى ما دون المستعمره . وفى نوفمبر ١٩١٨ قدم برونيت مشروعه الى حسين باشا رشدى رئيس الحكومه ، وقد صعق حسين رشدى لهذا المشروع ، ولم يخف غضبه واشمئزازه من المشروع ولم يصطنع فى رده الالفاظ التقليديه فى امثال هذه المكاتبات الرسميه بين الحكومه المصرية والانجليز ، فاستهل رده بالعبارات التالية :

« ان الانسان ليستغرق فى الذهول كانه فى حلم عميق ويبهت من الدهشة التى تصدمه عندما يطلع على مشروع .... ثم راح ولا أقول يناقش المشروع بل ينسفه كل كلمـة فيه بل كل حرف ولا عجب فى ذلك ففى الوقت الذى كان يتطلع فيه حسين رشدى الى ان تكون اقل مكافاة لمصر هو الاستقلال الذاتى والتمتع بنظام دستورى شبه كامل اذا بالسير برونيت يريد ان يجعل القضاء فى مصر انجليزيا وان يكون النائب العام انجليزيا وان يتولى التشريع فى مصر مجلس أغلبية أعضائه من الأجانب والأعضاء المعينين كالوزراء والمستشارين الانجليز هذا هو المشروع الذى ظل الانجليز متمسكين به وتولى أحد المستشارين الانجليز الترويج فراح يلقى عدة محاضرات فى جمعيـــة الاقتصاد والتشريع ويدعو لسماعها كبار رجال القضاء والوزراء والمسئولين ، والقى محاضرته الأولى ومرت بطبيعة الحال فى هدوء وكان موعد المحاضرة الثانية فى ٧ فبراير وقرر سعد زغلول كما قدمنا أن ينقل المعركة الى ساحة العدو كما يقولون فذهب ونفر من أعضاء الوفد لشهود المحاضرة ، وعقب فراغ المحاضر طلب سعد كلمة نتصور أنها أول صفعة حقيقية على وجه انجلترا وما تدبره لمصر من خطط واليك ما قال سـعد زغلول : —

« أيها السادة .. انى أشكر حضرة المحاضر على ما قاله من انه يريد أن يكون لمصر فى المستقبل شرع خاص ، ولكنى أقول لحضرته ان هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد ان أمتنا المصرية ليست من قبيل الاقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة وانما بلد كبلدنا تكون له حياة عريقة فى القوانين والشرائع فان من الخطر ان يعمد الى تغيير كلى لشريعته بدون ان تدعو الضرورة لذلك او تهدى اليه التجربة والاختبار .

« ان قانون العقوبات المصرى المأخوذ عن القانون الفرنسى جرى عليه العمل منذ زمن طويل ، فهو جزء من محصولنا القانونى تشربته أفئدة قضاتنا ومحامينا وسرى فى أخلاق الامة سير الدم فى الجسد ، قد يكون فى المشروع الذى تكلم عنه حضرة المحاضر بعض نصوص صالحة فى ذاتها ؛ ولكنى لا أرى محلا لقلب التشريع الموجود الآن رأسا على عقب من الأرض الى السماء ومن السماء الى الأرض ، ان فى ذلك ضررا عظيما بما ألفه الناس فى هذه البلاد من المعلومات القانونية ، ولكن يظهر ان المراد هو التخلص من النظريات والتقاليد المؤسسة عليها هذه المعلومات لأجل وضع نصوص قانونية مكان

أخرى موجودة من قبل ، ينبغى أولا أن هـذه النصوص الجديدة تتفق مع أخلاق البلاد وعاداتها ومألوفاتها العلمية . ثانيا ان تقوم الادلة على ضرورة وضعها بالاحصائيات وقضاء المحاكم وآراء أهل الفن . لست انكر الفائدة من مناقشة مشروع جديدبهذه الجمعية ، ولكنى الاحظ أن موضوع المناقشة الآن ليس مجرد مذهب علمى فى مسألة بعينها ، وانما هـو أعظم من ذلك بكثير هو أمر يمس حالنا السياسية والاجتماعية مما لا يصح ان يتخذ هنا المنبر أداة له .

أستميحكم القول بأنى أخشى كثيرا أن يكون فى بحث هذا الموضوع فى هذهالجمعية العلمية خروج بها عما وضعت له ، وان يتخذ ذلك وسيلة للقول برضاء الأمة بهـذا التقنين ، وان يستغنى به عن مناقشات الجمعية التشريعية التى هى الأدلة التشريعية النظامية فى البلاد .

« أشار حضرة المحاضر الى انه تحول على الجمعية التشريعية مشروع يتضمن تعديلا فى نصوص القانون الخاصة بالضربات والجروح ولم تفعل فيه شيئا ، نعم ان هذا المشروع تحول على لجنة الحقـانية التى أنا رئيسها فرأت أنه يلزمها للاقتناع بضرورة التعديلات المعروضة بيانات واحصاءات طلبت من وزارة الحقانية تقديمها اليها وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى انتهى دور انعقاد الجمعية ، ولم ترد هـذه البيانات .

« رأيت انه من واجبى أن أبدى لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات ، ولكن هناك أمرا آخر هو أهم ما يجب التنبيه اليه ، قد تكلم حضرة المحاضر عن الباب الثانى من الكتاب الثانى من المشروع ، وفى هذا الباب ما يتعلق بحالة سياسية لا وجود لها الآن بمصر ، وان بلادنا لها استقلال ذاتى ضمنته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ واعترفت به جميع المعاهدات الدولية الأخرى ، وعبثا يحاولون الاعتماد على ما حصل من تغيير هذا النظام السياسى أثناء الحرب ، انكم أيها السادة تعلمون وكل علماء القانون الدولى يقررون أن الحماية لا تنتج الا من عقد بين أمتين ، تطلب احداهما أن تكون تحت رعاية الأخرى ، وتقبل الأخرى تحمل أعباء هذه الحماية ، فهى نتيجة عقد ذى طرفين موجب وقابل ، ولم يحصل من مصر ولن يحصل منها أصلا .

« فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهى حماية باطلة لا وجـود لها قانونا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن ثورة سنة ١٩١٩ وقد كان معاصرا لهذه الأحداث :

« ولم يكد سعد ينتهى من خطبته ويختمها ببطلان الحماية حتى فعلت هـذه الكلمة فعل السحر فى النفوس فدوى المكان بالتصفيق الحاد وكأن الحاضرين جاءوا لسماع سعد فى التدليل على بطلان الحماية . ويختم عبـد الرحمن الرافعى تعليقه

بقوله : وكانت هذه الخطبة من العوامل الفعالة فى اذكاء الحماسة فى النفوس » .

وغنى عن البيان أن الصحف لم تنشر شيئا مما حدث ، ولكن عبارة واحدة أمكن لجريدة وادى النيل التى تصدر بالاسكندرية ان تنشرها عن هـــذا الحادث واليك ما قالت :

« ألقى المستر بريسفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية بعد ظهر الجمعة الماضية بقية محاضرته الخاصة بالتشريع المصرى الجديد فى جمعية الاقتصاد والتشريع وبعد ان انتهى من القائها وقف أحـــد السامعين وبسط بعض ملاحظات ثم انفض الاجتماع » .

ولكن الصحف اذا كانت لم تنشر شيئا فهذا لا يمنع أن مصر كلها قد تسامعت بما حدث والتهبت كما يقول عبد الرحمن الرافعى بالحماسة ، فليس هنـاك ما يلهب النفوس أكثر من الشجاعة ، وقد وصل سعد زغلول بما فعل قمة الشجاعة .

نطفئها ببصقة :

ولقد ظل هذا الموقف يترنم به وخاصة بعد قيام الثورة ، وقد عشت طول حياتى السياسية أردد بعض ما قيل من مبالغات عن هذا الموقف فكنت أقول فى خطبى أن سعد زغلول سأل فى هذه الليلة المحاضر « ألا تخشون اذا طبقتم هذا المشروع ان يقوم الشعب المصرى بثورة . فرد المستشار الانجليزى « لو قام الشعب المصرى بثورة فنحن نطفئها ببصقة » . وطبعا ليس لهذه العبارة أساس ولا بد أنها صيغت بعد الثورة ولكنها أصدق تصوير لموقف الانجليز فى هذه الفترة حيث لم يبق ســوى شهر واحد على اندلاع نيران الثورة التى لم يستطيعوا اطفاءها الا بأن ينحنوا امامها ، ومع ذلك فهاهم أولاء يتكلمون علنا عن هذه السخافات التى أسموها تشريعات جديدة .

١٠ فبراير – رشدى باشا يتمسك بالاستقالة :

وليس أدل على ما أحدثه موقف سعد زغلول ، من أن معين الصبر نفد نهائيا عند حسين رشدى باشا فتراه للمرة الثالثة يكتب الى السلطان متمسكا بالاستقالة التى تقدم بها فى ٢ ديسمبر ثم عززها فى ٣٠ ديسمبر واليوم عاد يؤكد ويلح فى طلب قبولها – واليك نصها :

« يا صاحب العظمـة السلطانية – على اثر كتابى المرفوع الى سدتكم العلية بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ الذى ألححت فيه ذلك الالحاح على عظمتكم بقبول استعفائى قد كنت رضيت عن باب التوفيق بالاتفاق الآتى بيانه :

وهو أن صاحب المقام الجليل المندوب السامى ينتهز فرصة سفره الى لندره فيشرح شفهيا للحكومة البريطانية أننى بعد وصـــول الحالة الى الحد الذى بلغته أصبحت لا أكتفى بما عرض على وقتئذ من سفرى أنا وزميلى عدلى باشا الى لوندره فى النصف الأول من فبراير وأننى اشترط لسحب استعفائى شرطا أساسيا وهو اباحة

السفر الى اوروبا لمن يطلب من المصريين . وكان من ضمن ذلك الاتفاق ورود جواب الحكومة البريطانية بالتلغراف فى بحر مدة مناسبة من وصول المندوب السامى الى انجلترا ، وانه اذا كان هذا الجواب سلبيا فان عظمتكم تقبلون استعفائى فورا ، واننى فى أثناء هذه الفترة أباشر بصفة وقتية محضة تسيير الامور المستعجلة الأمر الذى دعانى للتوقيع على مرسوم تجديد المحاكم المختلطة منعا لوقوف سير القضاء ، على انه قد مضى عشرة أيام على الأقل بعد الوقت الذى لا بد أن يكون المندوب السامى وصل فيه الى لوندرة ومع ذلك فلم يصلنى جواب ما .

« يستحيل على أن أقبل أى تأخير جديد ، وأننى أعتبر فى حل من القيام ولو مؤقتا بأى عمل ، حتى ولو كان مستعجلا فأعود الى التمسك بكتابى المشار اليه المؤرخ فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١٨ والتمس من عظمتكم بكل الحاح انهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها » .

٢٤ فبراير ــ ذروة ما بلغ اليه الانجليز من غفلة :

أرأيت كيف تتطور الحوادث وتتصاعد ولم يبق على اندلاع الثورة الا أقل من ثلاثة أسابيع ومع ذلك فان الوثائق الانجليزية تكشف عن مدى الغفلة التى كان الانجليز يتعمدون أن يظلوا غارقين فيها ، فقد كتب المسير ملن شتهام الذى كان قائما بأعمال دار الحماية الى الحكومة الانجليزية يصور الحالة العامة فى مصر على الوجه التالى :

« أن الوزيرين رشدى وعدلى فقدا الشهرة الموقوته التى عادت عليهما من الاستقالة ، وان زغلولا لا يثق به احد ، وأن هناك قلقا يسيرا بين أفراد الطبقة العليا الذين يطمعون فى تعظيم مكانتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتية ، ولكن « الحالة لا تختلف فى لبابها عن الحالة التى طرأت فى سنة ١٩١٤ عندما رفض الأمير حسين وكبار الوزراء طويلا أن يقبلوا الحماية ما لم تكن مشفوعة ببعض المنح التى لم تكن على استعداد لاعطائها ، وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتى تضارع حركة مصطفى كامل أو بالتى يصح أن تؤثر فى قرارات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل الدستورية والوضع الذى توضع فيه الحماية » .

ومع بداية شهر مارس أى منذ يومه الأول بدأت الأحداث المثيرة التى أدى تلاحقها وتواليها الى الانفجار فى اليوم العاشر والذى لا شك فيه أنه حتى فى ذلك اليوم الذى عمت فيه المظاهرات القطر من أقصاه الى أدناه لم يتصور الانجليز ان ذلك بدء الثورة والا لتصرفوا بغير ما تصرفوا به .

والآن الى الأحداث بتاريخ وقوعها .

أول مارس ــ قبول استقالة رشدى باشا :

رأينا فيما تقدم كيف بلغ سوء التقدير بملن شتهام القائم بأعمال دار الحماية الى حد أن كتب لحكومته يقول لها أن حسين رشدى وعدلى قد فقدوا شعبيتهما ولم يعد

لهما ولا لزغلول باشا أدنى تأثير فلا عجب اذا رأينا السلطان فؤاد الذى رفض استقالة حسين رشدى رفعها فى ٢ ديسمبر ثم عززها فى ٣٠ ديسمبر ثم أصر عليها فى العاشر من فبراير وغنى عن البيان أنه وقف هذا الموقف تلبية لتوصية الانجليز ، فلما أن تصور الانجليز أن حسين رشدى لم يعد له قيمة فضلا عن خطر ، أوعزوا الى السلطان بقبول الاستقالة فقبلها وفوجئت الأمة فى أول مارس بالنبأ فى صورة الخطاب التالى الموجه من السلطان :

عزيزى رشدى باشا

ان استقالتكم التى رفعتموها الينا كانت من أشد بواعث الأسف لدينا . فمع الشكر لدولتكم ولحضرات زملائكم على ما قمتم به من الخدمات الصادقة أرجو الاستمرار فى ادارة الأعمال الى ان يتم تأليف الوزارة الجديدة والله المستعان .

أول مارس ١٩١٩

الشرارة :

وعندنا أنه اذا كان ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ هو البدء التاريخى لثورة سنة ١٩١٩ فيجب اعتبار أول مارس هو الشرارة التى فجرت الثورة بالفعل فقد توالت الحوادث فى اتصال مباشر حتى وقع الانفجار .

٢ مارس ــ الوفد يعترض ويتهم ويتحدى السلطان :

فمن ذلك أن الوفد المصرى لم يكد يسمع بنبأ قبول السلطان للاستقالة وعزمه على تأليف « وزارة جديدة » حتى بعث اليه برسالة تعتبر فى حد ذاتها ثورة على التقاليد التى ظلت مرعية فى مخاطبة الجالس على عرش مصر فوصفوه بأنه خادم الأمة واتهموه بأنه بفعلته هذه قد انحاز الى الانجليز الذين يعملون على اذلال مصر ، وبالجملة فان الخطاب وان تضمن بضع عبارات هنا وهناك لاتزال ترعى أدب الحديث مع السلطان فالخطاب فى حقيقته بمثابة اعلان الحرب على السلطان أن لم يتضامن مع الأمة ضد الانجليز وقد أشير اليهم فى الرسالة باعتبارهم مستشارى السلطان . واليك نص هذا الخطاب :

« يا صاحب العظمة

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى أن يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

« لما اتفق المتحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحرية والعدل أساسا للصلح ، وأعلنوا ان الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها ، أخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن حق الأقوى قد زال من ميدان السياسة وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة

التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التى اعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب .

اعتمادا على هذه الظروف وعلى أن مصر عزمت كل ما قدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحماية حرية الأمم الصغرى لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها .

« عرضنا رغبتنا فى السفر على كبير وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه أننا انما نعبر عن رأى الامة كافة ، فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا ، بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة ، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء فى منصبه فى حين أن الشعب يصادر فى مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

« ولقد كان الناس يظنون انه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم ، لذلك لم يكن ليتوقع أحد فى مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا ، وتمكينا للعقبة التى ألقيت فى سبيل الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضا بحكم الأجنبى علينا الى الأبد .

« قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين ، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لارادة الأمة لايمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم ، والاعتداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا الى أن الأمة فى هذا الظرف العصيب انما تطلب منكم يا ارشد أبناء محررها الكبير محمد على — أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها ، مهما كلفكم ذلك — فان همتكم أرفع من أن تحدها الظروف ، كيف فات مستشاريكم ان عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟

« عفوا يا مولانا ، قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر وفى غير هذا الظرف غير لائقة ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار الا منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين .

« ان لمولانا اكبر مقام فى البلاد ، فعليه اكبر مسئولية عنها ، وفيه اكبر رجاء

أما دأبنا لا تكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الأزمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية أنه لم يبق أحد فى رعاياه من أقصى البلاد الى أقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الامة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة ، لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى الآن أشد ما نكون رجاء فى استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدى حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ، ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها ، وانه على ذلك قدير .

واننا نتشرف بأن نرفع عبارات الاخلاص الى مقام عظمتكم الكريم .

١٩١٩/٣/٢ — توقيعات أعضاء الوفد

٤ مارس — الوفد يحتج لدى الدول :

واتبع الوفد خطابه للسلطان باذاعة بيان جديد وزعه على معتمدى الدول الأجنبية بالمعانى المتقدمة ، وتحدى الوفد السلطة الانجليزية رسميا هذه المرة فتولى هو بنفسه وعلى مسئوليته طبع خطابه للسلطان واحتجاجه لدى الدول وقام بنشر هذه المطبوعات فى طول البلاد وعرضها فأثارت حماسة الجماهير » وتوالت الوفود على بيت الأمة ودارى الوزيرين المستقيلين (رشدى وعدلى) تعلن تأييدها للوفد والوزيرين .

٦ مارس — ونفذ صبر الانجليز فأنذروا :

رأى الانجليز أن هيبتهم قد وصلت الى الحضيض فقرروا أن يتحركوا ويرهبوا ليذكروا من يكون قد نسى أنهم هناك وأن صبرهم قد نفذ . ففى يوم الخميس ٦ مارس استدعى الميجر جنرال واطسون قائد القوات البريطانية فى مصر بالنيابة رئيس الوفد واعضاءه للحضور بمركز القيادة بفندق سافواى بميدان سليمان باشا فى الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم وهناك القى عليهم البلاغ التالى بالانجليزية « علمت انكم تضعون مسألة وجود الحماية موضع المناقشة وانكم تقيمون العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة وحيث ان البلاد لا تزال تحت الأحكام العسكرية لذلك يلزمنى أن انذركم ان أى عمل منكم يرمى الى عرقلة سير الادارة يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية » ولما كان الانجليز يعرفون ان سعد زغلول لا يعرف الفرنسية ، فقد تلى الانذار مرة أخرى بالفرنسية ، ولما حاول بعض الحاضرين ان يتكلم قال القائد « لا مناقشة » وغادر قاعة الاجتماع ، وطلب الوفد ان يسلموا نسخة الانذار فأعطوا نسخة من الانجليزى ..

لابد من قارعـة :

يروى عباس محمود العقاد فى كتابه عن سعد زغلول « سيرة وتحية » انه كان لا يفتأ هذه الأيام من تكرار عبارة « لابد لنا من قارعة » ومن يتصدى لرواية التاريخ عليه بقدر الامكان ان يمحص كل شيء ولما كان العقاد زغلوليا فقد يكون ترخص فى هذه الرواية ، والشيء الذى لاشك فيه أن سعد زغلول اذا كان لم يقل هذه العبارة بلسانه فقد كانت كل أعماله تنطق بها ، فقد كان يتصرف لا بروح التحدى فحسب ، بل وبروح الاستفزاز بشأن من يبحث عن قارعة بالفعل والقارعة عنـده أن يتصرف الانجليز ضده تصرفا فيه حماقة ولذلك نراه عقب هذا الانذار وفى نفس اليوم اى فى ٦ مارس يرسل برقية احتجاج لرئيس الحكومة البريطانية لم يقصد من ورائهـا الا الامعان فى التحدى ان لم يكن الاستفزاز فاذا كان القائد البريطانى قد حذرهم ان لا يجعلوا الحماية على مصر موضع مناقشة فليكن موضوع الحماية بالذات والاعتراض عليها هو أهم ما ينطوى عليه هذا الاحتجاج حيث ختم العبارات التالية :

« ان السلطة العسكرية أنذرتنا اليوم بأننا نضع الحماية موضع البحث ونعرقل تأليف الوزارة الجديدة ووعدتنا بأشد العقاب العسـكرى . على أنها تجهـل اننا نطلب الاستقلال التام ونرى الحماية غير مشروعـة كما تعـلم بالضرورة اننا قـد أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن ادائه بالطرق المشروعة مهما كلفنا ذلك ، وحسبنا ان نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذى يجر سخط العالم المتمدن حتى تفكروا فى حل هذه الأزمة بسفر الوفد فيرتاح بال الشعب » .

٨ مارس ــ اعتقال سعد وصحبه :

وهكذا تحـــدى ســعد زغلول الانذار العســكرى ليس فقط بشجب الحماية البريطانية ووصفها بأنها « غير مشروعة » بل ووصف التصرفات الانجليزية بأنها تثير سخط العالم المتمدن . وكان على انجلترا ان تتحـرك بسرعة اذا ارادت ان لا تمتهن اكثر من ذلك فلم يحتج الأمر الا ريثما يتم تبادل البرقيات بين القـاهرة ولنـــدن بالاجراءات التى ستتبع والتى كان جوهرها يقوم على اعتقال سعد زغلول ونفيه من مصر وجرى التساؤل على أى اساس اختير من اعتقلوا مع سـعد زغلول ونحـن نستطيع ان نفهم لماذا اختير اثنين من ثلاثة كان لهم شرف الاعتقال والنفس مع سعد زغلول ، فأما أول هذين الاثنين فهو أحمد باشا الباسل فالانجليز لا يمكن ان يغتفروا له أنه كان أول من فتح بيته لعقد اجتماع عام خطب فيه سعد زغلول متحديا الانجليز ومن ناحية أخرى فقد كان زعيما بدويا ولما كان البدو يشكلون القوة المسلحة فان أى محاولة للارهاب يجب أن تبدأ من هذه الناحية .

أما ثانى الرجلين الذى لا يشكل تفسير اختياره للاعتقال مع سعد زغلول أى صعوبة فهو محمد باشا محمود فقد اجمعت روايات المتحدثين عن هذه الفترة انه كان أنشط عناصر الوفد وقد دلت الأعمال بعد ذلك على انه كان كذلك فسوف نرى أن الوفد سيعهد له دون غيره السفر الى أمريكا للدعاية للقضية المصرية ، ومن ناحية

اخرى فلا بد ان انجلترا هذا الزمان كانوا يعتبرونه جاحدا بأفضالهم فهو ابن رجلهم محمود باشا سليمان فى مصر وهو خريج أعظم جامعات لندن وقد عينوه رغم صغر سنه مديرا للبحيرة ومنح رتبة الباشوية كأن يكون هو الدينمو المحرك خلف الجهود التى تحاول النيل من سلطان الانجليز فى مصر فهذه مسألة لا يمكن أن تغتفر .

وهكذا نستطيع ان نفهم لماذا اختير محمد محمود وحمد الباسل ولكنا نعترف اننا لم نفهم سر اختيار اسماعيل صدقى .

وقد القى القبض على الرجال الأربعة عصر يوم ٨ مارس وساقتهم الى ثكنات قصر النيل (معسكر جيش الاحتلال) وقضوا به الليل وفى الساعة الحادية عشرة من اليوم التالى (٩ مارس) نقلوا بالقطار الى بور سعيد ومن هناك أقلتهم احـدى البواخر الى جزيرة مالطة التى اختيرت لتكون منفى لهم . وهكذا وقعت القـارعة التى كان يتمناها سعد زغلول ولكن الشيء المحقق أنه لم يكن يتصور او يطـوق له فى خيال انها ستكون بهذا المدى وبهذه السرعة ومن هذه الجهة ونعنى بها جهة الشعب ومن هنا فنحن نصدق ما قيل من ان تعليق سعد زغلول على نبأ طالعه فيما بعد فى جريدة المقطم يشير الى وقوع مظاهرات ، فكان تعليق سعد زغلول (على ما روى محمد محمود فيما بعد) ان هذا الخبر قد نشر عمدا لتبرير استمرار اعتقال سعد ومن معه .

بقية اعضاء الوفد يقبلون التحدى :

وكانت أول مفاجأة لانجلترا أن هذا الاجراء الذى أريد به الارهاب والتخويف لم ينجح فى ارهاب احد فقد اجتمع الوفد على الفور برئاسة وكيله على باشا شعراوى ذلك الشيخ الوقور وأسن رجال الوفد وقرر استمرار الوفد على النهج والاسـلوب لتحقيق الأهداف التى قام من أجلها .

فضـل صفية زغلول فى هذا الموقف :

والله وحده يعلم مدى ما اسهمت به صفية زغلول زوجة سعد زغلول لكى يقف الوفد عقب اعتقال سعد زغلول مباشرة هذا الموقف المشرف فمن يدرى ماذا يمكن ان يكون تصرفهم لو لم تبادر بفعل ما فعلت . يحدثنا العقـاد كيف انها كانت فى الخارج عندما اعتقل سعد فلما ان رجعت وعلمت بالخبر ارسلت على الفور الى شعراوى باشا وكيل الوفد تعلنه ان البيت سيظل مفتوحا وتحت تصرفهم كما كان فى وجود سعد ودعتهم الاجتماع فى اليوم التالى وتناول العشاء فردوا عليها شاكرين وبقبول الدعوة الى الاجتماع واعتذروا عن العشـاء وفى الاجتماع قرروا ارسـال برقية احتجاج الى رئيس الحكومة الانجليزية ، ورسالة الى السلطان يعتبر مجرد ارسالها فضلا عن نشرها أمعانا فى التحدى :

« يا صاحب العظمة »

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصري برفع ما يلي لمقام عظمتكم السامي .

« قبلتم استقالة الوزيرين رشدي باشا وعدلي باشا ، فلما فهمنا أن هذا ربما كان الحل الوحيد لمسألة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلدكم الأسيفة ، وانه حل لا يسمح لرجل مصري ذي كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة ما دام الوزيران المستقيلان علقا سحب استقالتهما على أمر سفر الوفد عرضنا لسدتكم العلية متضرعين ان تتعرفوا رأي الامة قبل البت نهائيا في هذا الأمر، وأن تعيدوا النظر في الخطة التي اختطها مستشاروكم ، وأن تبدو للامة آيات ما جبلتم عليه من حبها ، فتكونوا في صفها مدافعين عنها لتنال غرضها ، تضرعنا بذلك الى مولانا ، ولبثنا متطلعين بكمال الثقة في ان ابن اسماعيل الجالسين على عرش محمد على الكبير سيرينا من نفحاته ما يحقق الأمل .

« غير انه لم يمض الا يومان حتى استدعتنا السلطة العسكرية في ٦مارس ، وابلغتنا أنها علمت اننا نضع مسألة وجود الحماية موضع البحث ، وأننا نلقي العراقيل في سبيل الحكومـــة المصرية تحت الحمـــاية بمحاولة منع تشـــكيل الوزارة وانذرتنا بالعقاب العسكري الشديد ان أتينا عملا يرمي الى تعطيل سير الادارة ، ثم (منعتنـــا من مناقشتها في هذا البلاغ ، لم تصب السلطة في رأيها ، فان هذه الحماية باطلة ، ولكل انسان الحق المطلق في ان يضعها تحت البحث والمناقشة القانونية ، وأما عدم نجاح الحكومة في تشكيل الوزارة فانما هو النتيجة الطبيعية للخطة التي اتخذت في مسألة سفر الوفد ، فان كل مصري ذي كرامة لايمكنه حقيقة ان يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده .

« ولم يقف الأمر عند هذا الانذار ، بل قبضت السلطة أمس على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا محمد محمود باشا وحمـــد الباسل باشا واسماعيل صـــدقي باشا ، وزجوهم في قصر النيل ، ثم سيق بهم الى بور سعيد ، فالى حيث لا نعلم، وذنبنا في ذلك اننا نطلب حريتنا السياسية طبقا للمبادىء الشريفة التي اتخـــذت قاعدة للسياســـة العالمية الجـــديدة ، والتي قبلتها انجلترا نفسها ، وبينا اننا لم نتعد حدود القانون ، فلم نهج في البلاد طائرا ، ولم نحرك ساكنا ، بل قبلنا توكيل الشعب ايانا ان نصدع بأمره ونسعى لتحقيق مشيئته عند الذين يقولون انه لم يبق في العالم شعب سيد وشعب مسود ، بل العالم الانساني في الاخاء الانساني ســـواء

« على هذه الاعتبارات يصعب علينا يامولانا أن نفهم مبررا لهذه الخطة القاســية التي جرت عليها السياسة الانجليزية تحت ثوب الأحكام العسكرية ، تلك الأحـــكام التي لا ندري ما يسوغ وجودها الى الآن بعـــد الهدنة بأربعة أشهر ، وبعد أن امتحنت مصر في أشد ظروف الحرب حرجا فلم يكن منها الا طاعة الاوامر العسكرية من غير بحث ، واخلاد الى سكينة لم يوجد مثلها في بريطانيا العظمى نفسها .

« والبكم يا صـــاحب العظمـــة ، وأنتم تتبوؤن اكبر مقام فى مصر وعليكم اكبر مسئولية فيها ، نرفع باسم الأمة هذا التصرف القاسى . فان شعبكم الآن يحق له أن يعتبر هـــذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا فى صفه مدافعين عن قضيته العادلة .

« واننا مع كمال الاحترام نتشرف برفع آيات اخلاصنا الى مقام عظمتكم الكريم

٩ مارس سنة ١٩١٩ توقيعات اعضاء الوفد

الاحد ٩ مارس ــ الطلبة يضربون ويتظاهرون :

كان طلبة المدارس العليا أول من اظهر رد فعل لاعتقال سعد زغلول ومن معـه وكان الجميع لم يتصوروا بعد ما سوف تؤول اليه الأمور . لقد كان واضحا جدا فى اذهانهم (أذهان طلبة مدرسة الحقوق) ان يضربوا عن تلقى الدروس احتجاجا على ما حدث ، اما أن يتحركوا الى أبعد من ذلك كأن يقوموا بمظاهرة ، فقد وجد بينهم من رأى أن يستشير فى هذه النقطة رجال الوفد ويحدثنا العقاد حديثا مفصـلا عما دار بين عبد العزيز فهمى وبين الطلاب الذين ذهبوا لاستشارته وكيف غضب وثار فى وجه الطلاب وطلب منهم ان يتركوهم (أى يتركوا رجال الوفد) ليعملوا ، وانصرف الطلاب غاضبين ، ونحن ما كنا لنشير الى هذه الواقعة لولا انها سجلت فى تقـــرير قدمه الوفد للورد اللنبى بناء على طلبه وقد كان عبد العزيز فهمى بالذات هو محـــرر بيانات الوفد وسواء كان هو محرر البيان أو غيره فقد حرص كاتب البيـــان على أن يسجل ان أعضاء الوفد قد نصحوا الطلاب عندما استشاروهم ان لا يقوموا بأى مظاهرة . والذى يعنينا انه حتى بعد اعتقال سعد زغلول تصور من جاءوا بعده أن الأمر لا يعدو كتابة مذكرة وارسال احتجاج .

واذا كان هذا هو تصور عبد العزيز فهمى ، فلا يجب ان ندهش لتصـــور المستر والتون الانجليزى ناظر مدرسة الحقوق عندما نراه يحاول ثنى الطلاب عن عزمهم ببضع كلمات ولكنه سرعان ما اكتشف ان الأمر أبعد غورا من ذلك فاستعان بشخصية أكبر منه تصور ان الطلاب سيتأثرون بها وهى شخصية نائب المستشار القضائى وكان يدعى موريس شالدون ايموس فجاء على عجل لتهدئة الطلاب فاذا به يزيد الطين بلة فعندما قال لهم دعوا السياسة لآبائكم ارتفعت حمـــاستهم وردوا عليـه قائلين لقد سجنتم آباءنا ، وأضافوا لسنا نريد أن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون . وهكذا رأى الانجليزى الكبير انه بازاء شئ لاعهد له به فانسحب وعند هذا الحد كانت الرؤيا قد اتضحت فى رؤوس طلبة الحقوق من وجوب التظاهـر فنسـوا أنهم قد أرسلوا فريقا منهم ليستشير ، وان هذا الفريق لم يرجع بعد . لقد صح عزمهم على وجوب التظاهر ولكنهم حتى هذه اللحظة لم يدركوا أن خروجهم سوف يكون بدء ثورة جارفة ، ولذلك فقد خرجوا بكل بساطة فى هدوء ونظام كما اعتادوا أن يفعلوا فى ســـابق العصر والأوان وانضمت اليهم مدرســـة المهندسخانة

فالزراعة والمدارس الثلاث تقع فى منطقة الجيزة ثم اتجهوا الى مدرسة الطب فى القصر العينى ، ومرة أخرى وقف المستر كيتنج ناظر المدرسة الانجليزية متصورا انه يمكن ان يهدىء الطلاب ببضع كلمات ويبدو انه لم يكن لبقا فى حديثـــه فعبـــد الرحمن الرافعى يحدثنـــا عن وقوعـــه على الأرض ويحدثنى أخى الدكتور محمـــد ابراهيم الذى كان حاضرا هذا اليوم باعتباره أحد طلاب المدرسة أن ذلك كان آخر العهد بالمستر كيتنج فلم يره بعد ذلك فى المدرسة .

وتطورت المظاهرات بعد ذلك وانضم اليها الشعب واعتقل الانجليز ٣٠٠ طالب ولم يستطيعوا تفريق المظاهرات الا بعد عناء وعندما حل المساء والشيء المحقق ان كل من بيدهم السلطة ادركوا انهم يواجهون شيئا جديدا لا عهد لهم به ، ومع ذلك فلم يكن بوسعهم ان يتصوروا مدى هذا البعد فقد انقضى اليوم فى النهاية بســلام فلم يقع جرحى فضلا عن قتلى وليس الا اليوم التالى ما اكد للقوم نهائيا أن الأمـــر أبعد وأعمق مما قدروا وانه لم يعد ثمة مناص من الجرح والقتل .

١٠ مارس ــ اشتداد المظاهرات فى القاهرة وامتدادها للاقاليم :

وبدأت العجلة تدور عجلة ثورة سنة ١٩١٩ والتى اذهلت أول ما اذهلت الانجليز المحليين ثم انجليز لندن الحاكمين واذهلت الدنيا كلها ولم تلبث ان اصبحت قـــدوة لها .

تصور الانجليز ان الشعب المصرى ليس الا قطيعا من الفلاحين المستعدين لقبول اى نظام يفرض عليهم وان ليس لهم رأى فضلا عن ارادة . ومن هنا اقدموا على اعتقال سعد زغلول تصورا منهم انه قد تحول الى مشاغب ولم يتصوروا أن ســعدا لم يتحول هذا التحول الا لأنه أصبح يعكس ارادة الأمة ، ارادة كل فرد فيها أو بالاحرى ارادة الأغلبية الساحقة ، ومن هنا فقد اعتبر كل فرد فى الشـــــعب تقريبا أن اعتقال سعد هو اعتداء مباشر عليه فسعد زغلول انما كان يتكلم باعتباره وكيـــلا عنـــه .

هذا هو تفسير هذه الغضبة الشاملة العارمة بمجرد العلم بنبأ اعتقال سعد واذا كانت القاهرة قد تحركت فى نفس اليوم الذى كانت فيه السفينة تتجه صوب مالطة فكان لابد من انقضاء ٢٤ ساعة على الاقل كى يصل الخبر الى حيث يتمكن المسافرون من القاهرة لايصاله الى كافة ارجاء مصر فلا يكاد الخبر يصل حتى يكون الغضب هو رد الفعل على الفور .

وقد سجلت أحكام المحاكمات التى اجريت فيما بعد أن المظاهرات والاحتجاجات السلمية عمت أغلب البنادر حيث توجد تجمعات للطلاب واذا كانت هذه المظاهرة والاحتجاجات لم تأخذ صورة العنف يوم ١٠ مارس فليس ذلك الا لأن الســلطة لم تصطدم بالمتظاهرين وكان هذا هو السر فى انه على الرغم من اضراب الطلبة فى

المنيا واسيوط وقيامهم بمظاهرات احتجاج فلم يقع فى هذين البلدين ولا فى غيرهما ما يكدر الأمن .

أما فى القاهرة :

فقد كانت الثورة قد بدأت بالفعل فسقط القتلى وأصيب الجرحى ودمرت بعض عربات الترام وافتلعت الأشجار ، بحيث بادر الطلاب الذين لم يكونوا قدروا بعد ما سوف يحدث انتابهم الجزع مما حدث بالفعل ، فراحوا يناشدون الجماهير ان يلزموا جانب الهدوء والسكينة واليك نص أحد المنشورين اللذين وزعاهما على الشعب فى اليوم التالى :

« الى الشعب المصرى الكريم »

يستحلف طلبة المدارس العليا مواطنيهم الأعزاء باسم مصر البلد الأمين ان ينفذوا ما يوجهونه اليهم اليوم من الرغبة الشديدة فى التزام الهدوء والسكينة التامة فان مركز مصر يتطلب ذلك . فمن كان مصريا صادقا فليلب هذه الدعوة الصادقة . وان خير وسيلة لتحقيق الهدف المطلوب هى فى اجتماع القلوب على محبة البلاد فى اخلاص تام ، والذى يلجأ الى مثل ما حدث مما يؤسف له كثيرا نكون بريئين منه ، وكذلك مصر والمصريون « . ومن ناحية أخرى اذاعوا بيانا يعتذرون فيه للاجانب ويبدون اسفهم لوقوع بعض الحوادث وينسبونها الى « الغوغاء » .

ويستطيع الانسان ان يدرك بعد مرور خمس وخمسين على هذه الحوادث ان لا بد أن تكون قد تألفت وعلى وجه السرعة لجنة اخذت على عاتقها توجيه الطلاب وهى التى سوف تتطور فيما بعد الى ما أطلق عليه لجنة الطلبة التنفيذية العليا والتى سيتولى رئاستها فيما بعد ابراهيم عبد الهادى وحسن يس .

والشىء المحقق الثانى ان اعضاء هذه اللجنة قد استوحوا فيما كتبوه كبار اعضاء الوفد الذين لم يظنوا حتى هذه اللحظة ان الثورة قد نشبت وانتهى الأمر وان كل حديث عن الهدوء والتزام السكينة وترك « الآباء » يعملون فى روية وحكمة ، كل ذلك قد فات أوانه وانتقلت القيادة الى الجماهير الى رجل الشارع الذى بدأ يستلهم روح الجماعة التى سوف تندفع لتحقيق مصلحتها وليس أدل على أن الثورة كانت قد بدأت من مقارنة ما حدث فى يوم ٩ بما حدث فى يوم ١٠، فحيث بدأت الحركة وسط طلاب مدرسة الحقوق الذين لم يكونوا يعرفون فى بادىء الأمر ما الذى يتعين عليهم أن يفعلوه بالضبط ، وعلى الرغم من ان اليوم قد انتهى باعتقال ٣٠٠ طالب فان يوم العاشر لم يكد يبدأ حتى كان طلاب القاهرة جميعا وبدون استثناء على رأس الكل طلاب الأزهر يضربون ويؤلفون مظاهرات عارمة بعد ان انضم اليها سواد الشعب فى كل مكان ، وبعد ان كانت الهتافات فى اليوم السابق هينة لينة تقف عند حد المناداة بحياة مصر والوطن وسعد ، اذا بها تتحول الى هتافات عدائية تنادى بسقوط الحماية ، وهكذا لم تعد المسألة ان سعدا ومن معه يناقشون الحماية ، وانما أصبحت مسألة شعب برمته يعلن سخطه على الحماية .

موضوع القتلى :

وقد دار جدل حول وقوع قتلى فى هذا اليوم فقال البعض أن القتل بالرصاص قد بدأ فى اليوم التالى بينما أصر آخرون على أن أول القتل وسقوط أول شهداء قد حدث فى هذا اليوم (١٠ مارس) وقد حسم أستاذنا عبد الرحمن الرافعى هذه القضية ، حيث تحرى الأمر بنفسه فبحث فى غير كلل أو ملل حتى عثر فى دفاتر وفيات القصر العينى على وفاة مجهول بعد اصابته بالرصـــاص كما عثر فى دفتر وفيـــات قسم السيدة زينب على وفاة شخص آخر مضروب بالرصاص كذلك فدل ذلك على صحة قول من قال أن ضرب المتظاهرين بالرصاص وموت البعض قد بدأ أول ما بدأ يوم (١٠ مارس) وهو الأمر الطبيعى والمنطقى ما دام قد وقعت هذه الوقائع التى أعلن الطلبة هم أنفسهم انهم يأسفون عليها ، وغاية ما يقال أنه حتى يوم ١٠ مارس لم يصـــدر الانجليز أمرا بالضرب العشوائى وفى الطلبة بالذات ، تصورا منهم أنه لا يزال فى الامكان السيطرة على الموقف باجراءات قمع محـــدودة فلما خاب فألهم قرروا ان يضربوا ليرهبوا وهكذا حل يوم الثلاثاء .

١١ مارس ـ اضراب الهيئات والطوائف :

فى كتاب لتروسنكى يتحدث فيه عن الثورة البولشفية وكيف تطورت من حالة احتجاج الى ثورة شاملة فى خمسة ايام ، وقد اشرنا الى هذه الواقعة فى حينها ، وجاءت مصر لتضرب هذا الرقم القياسى (خمسة أيام) فمصر لم تحتج الا لثلاثة أيام لكى تتحول حالة احتجاج الى ثورة شاملة فقد حكم الانجليز مصر مدة ثلاثين سنة فى يسر وسهولة ، حقا لقد رفع مصطفى كامل صوته منددا بالاحتلال ومن بعده محمد فريد ولـكن ذلك كله لم يكن الا حمـلات فى الصحف وخطب فى مئات مـن المثقفين ومظاهرات منظمة الى المواكب أقرب ، وليس الا عقب مأساة دنشواى ان خفق قلب مصر كما قال قاسم أمين ، ولكن لم يحدث اى اضطراب او خلل بالنظام فضلا عن الأمن وظل كل شيء يسير فى مصر كأنه ساعة دقاقة ، فأن يختل النظام فجأة ويضطرب حبل الأمن ويظهر عجز البوليس الذى يقـوده الانجليز عن حماية الممتلكات فضلا عن الأرواح ، وان يصبح لا مناص من الاســتعانة بفصائل الجيش البريطانى التى لا تمتلك سلاحا الا الذى يقتل بالجملة فهذه هى الثـورة وهى التى تأكدت منذ صباح اليوم الثالث من أيام الاحتجاج . لقد بدأ مترددا فى صفوف بعض الطلاب يوم ٩ وأصبح عاما بين الطلاب يوم ١٠ وانضم الشعب الى مظاهرات الطلبة فلما ان حل اليوم الثالث ١١ مارس أصبح الاحتجاج عن طريق الاضراب هو شـغل مصر كلها فمنذ الصباح المبكر لهذا اليوم وكان يوم ثلاثاء بدا وجه القاهرة مكفهرا وشكل المدينة غير مألوف .

اضراب عمال الترام :

ذلك ان عمال الترام وقد كان احدث وسائل النقل وانجحها توقفوا عن العمـــل فتوقفت حركة النقل فى المدينة خاصة وقد صاحب اضراب عمال الترام .

اضراب الحوذية وسائقى الحمير :

كان النقل من مكان الى آخر لا يزال يعتمد الى حد كبير على الحمير وعربات (الحنطور) التى تجر بواسطة الخيول وقد كان هؤلاء وهؤلاء يقدرون بعشرات الألوف كما توقف سائقو التاكسى وسيارات النقل فبدت القاهرة فى الصباح المبكر وكأنها مدينة مهجورة ، ولم تلبث ان سدت طرقاتها بالمظاهرات .

اضراب المحامين :

على أن التطور الذى أزعج الانجليز فى الدرجة الأولى هو اعلان المحامين الاضراب عن مزاولة اعمالهم وما فتىء الانجليز يعتبرون أنفسهم سدنة القانون فان يحتج عليهم رجال القانون بأعنف صور الاحتجاج فقد كان ذلك ضربة قاصمة لادارتهم ، أما كيف كان احتجاجا عنيفا فذلك لانهم لم يكتفوا فقط بعدم الحضور فى الدعاوى المنظورة بل قرروا أن يتقدموا بطلبات لنقل أسمائهم من جدول المشتغلين الى جدول غير المشتغلين واليك نص أول قرار اتخذه بعض المحامين الذين تواجدوا فى محكمة الاستئناف ولم يلبث مجلس النقابة ان صدق عليه واعتمده ونفذه جميع المحامين .

« أجمعت الامة المصرية على طلب استقلالها والسعى لدى مؤتمر السلام للاعتراف بهذا الاستقلال .

ولكن الحكومة الانجليزية رأت ان ذلك لا يتفق مع مصالح حرب الاستعمار البريطانى فمنعت المصريين الذين انتدبوا للقيام بهذه المهمة من السفر .

ولم تكتف بذلك ، بل عمدت الى طريقة الارهاب ، فقبضت على أربعة منهم وأودعتهم السجن .

وبما أن هذا العمل اعتداء على حرية امتنا . وحرمان لها من اسماع صوتها .

لذلك نعلن احتجاجنا نحن المحامين الموقعين على هذا بامتناعنا عن العمل ونطلب نقل أسمائنا من جدول المشتغلين الى جدول غير المشتغلين » .

اغلاق المتاجر :

وحيث كان اضراب المحامين بمثابة اعلان عام للثورة فقد كانت القاهرة فى حالة ثورة (سلبية) بالفعل فالى جوار اضراب عمال النقل بكافة الوانه ، اغلقت المتاجر الوطنية أبوابها مشاركة فى الاحتجاج حيث اغلق الكثير من أصحاب المحلات الاجنبية متاجرهم خوفا عليها من التدمير والاتلاف الذى كانت بوادره قد ظهرت فى اليوم السابق .

وحصيلة ذلك كله ان الثورة على الانجليز وحكمهم فى مصر كانت قد بدات ، ولم يعد ذلك محل شك عند الانجليز أنفسهم فقرروا أن يبطشوا حتى لا تتفاقم الأمور

باكثر من تفاقمها وكانت وسيلة الانجليز للانذار ان يلصقوا منشورات على الجدران ما زلت اذكر منظرها الرهيب وهى مكتوبة بأحرف غليظة سوداء . واليك نص أول تحذير الصق على جدران الشوارع والميادين :

« جناب قائد عموم القوات البريطانية فى القطر المصرى يلفت الجمهور الى أنه لما كانت البلاد لا تزال تحت الحكم العرفى فلا يجوز القيام بأى اجتماع عمومى او اية مظاهرة وكل شخص يخالف هذا الأمر يحاكم بصفة مستعجلة » .

دوريات الجيش الانجليزى :

وشفع القائد الانجليزى انذاره بارسال دوريات من العربات المصفحة تحمل ما كان يسمى بـ (المترليوزات) وهى المدافع سريعة الطلقات فراحت تطوف انحاء العاصمة .

لكن لا الانذارات ولا منظر عربات الجيش التى يتخلع لمرآها القلب كان لها ادنى تأثير على الشباب الذى اصر على التظاهر فاصطدم به الانجليز عند الجسر الموصل من شبرا الى باب الحديد (محطة مصر) وسقط العديد من القتلى والجرحى . ولما كانت خطة الانجليز هى القتل والتخويف بالقتل فقد اذاعت أول بلاغ عسكرى نشرته الصحف واعترفت فيه بعدد من القتلى والجرحى اقل من الحقيقة بطبيعة الحال ولكنه يكفى للارهاب فى تصورهم ، وهذا هو نص أول بلاغ كان مجرد صدوره يعنى ان الامر لم يعد يكفى فيه التكشير عن الانياب .

« نظم الطلبة فى القاهرة مظاهرة يوم ١١ الجارى فانتهز الرعاع فى الحال هذه الفرصة للتدمير والنهب فتدخل الجنود ومنعوا هذا العمل وحدثت مشاغبات مختلفة فى هذا اليوم والأيام التالية قمعت بأقل ما يمكن من استخدام القوة فلم تحدث غير ست وفيات واحدى وثلاثين اصابة منها ٢٢ بنيران البنادق » .

وقد كان هذا الاسلوب الذى كتب به هذا البلاغ الاول هو الذى ظل متبعا فيما بعد كأن يطلق على الشعب اسم « الرعاع » وان يعزى سبب القتل التدمير والنهب وأن يقلل من عدد الجرحى والقتلى .

ألوان الفــداء :

واذ عمدت الحركة بالدماء فسرعان ما أصبح هذا شعار الحركة « نموت ويحيا الوطن » وبدأت البلاد تتناقل أحاديث الفداء والتضحية ، وكيف ان حامل العلم لم يكد يسقط صريعا حتى تقدم شاب آخر وأمسك بالعلم ومضت المظاهرة كأن لم يحدث شيء ، وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح ، فقد كان هذا القول الذى تتناقله الجماهير وتستلهم منه آيات التضحية والفداء . والشيء المحقق والثابت ان حصد المتظاهرين بالجملة وفى مقدمتهم حامل العلم بالذات لم يحل دون تجدد المظاهرات وسيرها بدون انقطاع كما سوف نرى وقد كان التنافس يدور بكل شدة حول من يرفع العلم مع اليقين بأنه أول هدف لرصاص الانجليز .

فى شـــبين الكوم :

عمت المظاهرات ارجاء القطر كما قدمنا وامتدت الى أصغر القرى ومع ذلك فقد كانت أحيانا تبلغ من الضخامة حدا تتسامع به القــاهرة ويرتد أثره عليهــا فى مضاعفة الحماس والاندفاع وفى هذا اليوم احتلت شبين الكوم مركز الصدارة بانباء مظاهراتها العارمة ، وان كان احدا لم يصطدم بها فانتهت بسلام .

الأربعاء ١٢ مارس ــ قطع أول خط حديدى ــ ماذا فى الصحف ؟

قبل أن نمضى فى سرد وقائع اليوم الرابع من أيام الثورة جــدير بنا أن نتساءل ماذا كان موقف الصحف المصريه من تسجيل هذه الحوادث لقد تصورت السلطة الانجليزية وهى لا تزال غارقة فى أوهامها فى اليومين الأولين ان بقدرتها اســتغلال الرقابة على الصحف لاخفاء حقيقة ما حدث فلما أن تطورت الحوادث الى ما تطورت اليه رأت السلطة انه من العبث اخفاء الحقائق وانه من الأفضــل اذاعتها بطريقة مخففة لأن اغفال التحدث عما أصبح الجميع لا أقول يشاهدونه وانما يعانونه على اختلاف فى الصور فضلا عن أنه أفسح المجال للمبالغات والاشاعات فانه سيفقد الثقة نهائيا فى الصحف وما تنشره ويحرم الانجليز أنفسهم من استخدام الصحف كوسيلة للتخويف والتحذير ومن هنا بدأنا نطالع على صفحات جريدة الاهرام يوم ١٠ مارس نبأ اعتقال سعد زغلول وصحبه الذى تم يوم ٨ مارس ومنعت الرقابة الصحف من نشره يوم ٩ مارس والسر فى نشره بعد ذلك جد واضح فمن العبث تجاهل ما عرفته الجماهير فى طول البلاد وعرضها وان تطمئن الجماهير الغاضبة أن الأمر لم يزد عن حد الاعتقال وقد تكون قصدت من وراء النشر أن تخيف الآخرين. وكيفما كان الأمر فقد نشر الخبر مجردا من أى تعليق أو ايضاح من أنه تم اعتقال سعد زغلول وثلاثة من الوجهاء وهم محمد محمود واســماعيل صدقى وحمــد الباسل ثم اضطرت السلطة وانفها راغم ان تنشر بلاغات عسكرية تلخص ما حــدث كهذا البلاغ الذى تحدث عن مظاهرات يوم ١١ واعترف بسقوط ٦ من القتلى و ٣٨ من الجرحى كما سمح للصحف أن توجه المظاهرات توجيها سلميا فبــدأنا نطالع النصائح على صفحات الجرائد فى شكل دفاع عن الطلبة وانهم من العقل والحكمة بحيث لا يمكن أن يرتكبوا أى مخالفة للقانون .

استمرار الحال فى القاهرة :

وقد استمر الحال فى القاهـــرة على ما كان عليه فى اليوم السابق من حيث توقفت الحياة العادية تماما فالمحلات التجارية مقفلة والمواصلات متوقفة والمدارس بالاجماع حتى الابتدائى منها مضربة والمظاهرات تملأ القاهرة .

صــــورة فى رأسى :

وفى ذاكرتى صورة عن موقفى فى هذه الأحداث ، ولا بد أن تكون وقعت فى هذا اليوم فقبل هذا التاريخ أى فى اليومين الســـابقين لا أظن أن أحدا فكر فى اشراك

المدارس الابتدائية فى الاضراب فضلا عن التظاهر ولانى بعد ذلك حجزت لعشرات الالوف من الصبية فى البيت ، فلا بد أن يكون هذا الحادث الذى أرويه قد حدث يوم ١٢ أو ١١ . ويتلخص هذا الحادث وقد كنت طالبا فى السنة الأولى الابتدائية بمدرسة الجمعية الخيرية بدرب الجماميز أن جاء التلاميـذ (الكبار) كما كنـا نسميهم وأخرجونا من المدرسة (ولا بد أن يكون هؤلاء التلاميذ هم طلبة المدرسة الخديوية) وسرت معهم فى المظاهرة اهتف بهتافهم ، ولست اعـرف كم من الوقت مضى منذ بدأت المظاهرة ولكن الذى أدريه أنه فى مكان ما سرت موجة من التحذير « الانجليز .. الانجليز » وظهرت عربة مصفحة وأطلقت سـاقى الريح ، وأول ما تنبهت لنفسى وجدتنى تحت (السرير) فى غرفة نوم فى أحد المنازل وأصحاب البيت يخرجوننى بكل عطف ومحبة ويهـدئون من روعى ، ولعل ذلك يصـور لك الاحساس العام فى تلك الأيام فمن ناحيتى سواء كنت طفلا أو غير طفل فلم اتردد فى الالتجاء الى أول بيت مفتوح يصادفنى واقتحم المكان حتى اختبأ تحت السرير ، ومن ناحية أصحاب البيت فقد قدروا هذا المنظر الفريب تماما منظر صبى يقتحم بيتهم فلم يغضبوا فضلا عن ان يخافوا بل كان همهم الوحيـد هو التسرية عنى واشاعة الطمأنينة فى نفسى .

فى الاسـكندرية :

ولأمر ما تأخر الاصطدام الدموى فى اسكندرية رغم استمرار المظاهرات السلمية واضراب طلبة المدارس ، ولكن السلطة رأت أن تتحرك أخيرا فاعتقلت خمسين من الطلاب ، وتوقفت الحياة العامة فأغلقت المتاجر أبوابها واكفهر وجه المدينة .

الحدث الأكبر من طنطا :

ولكن الحدث الأكبر جاء يوم ١٢ من طنطا ففى هذا اليوم أضرب طلاب المعهد الأحمدى (وهو أزهر صغير) وأضرب معهم بقية طلاب طنطا والتف حولهم الشعب وسار الجميع فى مظاهرة عارمة حتى اذا وصلوا الى ميدان المحطة أطلق الانجليز النار عليهم بطريقة عشوائية خالية من أى معنى انسانى بحيث قتل سـتة عشر شهيد وجرح ٤٩ بحيث كان الموقف أشبه بمجزرة ، وقد سارع الانجليز باذاعةهذه المجزرة فى بلاغ رسمى ليدافعوا عن أنفسهم فى سبب وقوعها من ناحيـة ، ولكى يستغلوها فى الارهاب والتخويف من ناحية أخرى ، أما ما قيل تبريرا لهذه المجزرة فهى أن المتظاهرين كانوا يقصدون تدمير المحطة وسواء اصح هذا الاتهام او لم يصـح فقد كان مجرد الاشارة اليه بمثابة تنبيه للجماهير لما يجب عمله حيث تكرر فى الأيام التالية الهجوم على المحطات وتدميرها .

قطع السكة بين طنطا وتلا :

وفى هذا اليوم (١٢ مارس) وقع أول تطور فى أحداث الثورة سيكون له شأن كبير فى مسيرتها الا وهو قطع السكة الحديد بين طنطا وتلا ، ولم يلبث أن أصبح

قطع خطوط السكك الحديدية هو أقوى ظواهر ثورة سنة ١٩١٩ وقد أقدمت عليه الجماهير فى كل مكان بتلقائية عجيبة فلم يحدث ان كان هناك تنظيم وجههم لفعل ما فعلوا بل انه من المحقق ان التنظيم السياسى الذى كان موجوداً آنذاك ونعنى به الوفد بعد اعتقال سعد زغلول كان قد أصبح فى حالة فزع من تطور الموقف الى هذه الصورة مما سوف تكشف عنه بياناتهم المقبلة والتى لم يقفوا فيها عند حد التنصل مما حدث بل راحوا يندون به باعتباره شرا محضا ، وذلك فى الوقت الذى أدركت فيه الجماهير بغريزتها ان هذه الأعمال فضلا عن انها دفاع عن النفس فقد كانت قطارات السكة الحديد هى وسيلة الانجليز الوحيدة للوصول الى أى جزء من مصر ليعتدوا على الأهلين ، أقول فضلا عن ذلك كان هذا العمل هو الذى اسمع الدنيا كلها صوت مصر واسبغ على الشعب المصرى الكرامة والعزة .

فى بركة السبع :

وقال الانجليز أن جماعة من المتظاهرين هموا بتدمير كوبرى السكة الحديد فى بركة السبع فأطلقوا عليهم النار فقتلوا من قتلوا وجرحوا من جرحوا .

احصـــاء رسمى :

قدمت أن الانجليز رأوا من مصلحتهم ان يذيعوا بلاغات يومية فكان مما اذاعوه رسميا انه حتى يوم ١٢ مارس كان القتلى والجرحى فى القاهرة على الوجه التالى :

قسم الموسكى ٨ جرحى قسم السيدة قتيل واحد و ٦ جرحى ، قسم عابدين ٣ قتلى و ١٦ جريح قسم الأزبكية ٢ قتيل وجريح .

الخميس ١٣ مارس ـ معجزة الشعب المصرى :

وكان كل يوم يمضى والشعب المصرى ماض فى اضراباته ومظاهراته رغم الموت الذى ينتظر المتظاهرين والعقوبات الصارمة التى توقع على المضربين يظهر مدى صلابة الشعب وعناده فى اثبات ارادته .

تخبط السلطة الانجليزية :

وبدأت السلطة الانجليزية ترتبك وبالتـــالى تتخبط ، من ذلك ان جمهور الموظفين لم يطف له فى خيال أنه يمكن أن يتوقف عن العمل لا من قبيل الخوف أو أنهم لا يشاطرون بقية المصريين آراءهم ، ولكن لأن الفكرة لم تطرأ على رؤوسهم فجاء الانجليز يضعون هذه الفكرة فى رؤوسهم بأن ينذروا ويحذروا كل من يحاول تحريض الموظفين على الاضراب واليك نص البلاغ الصادر بهذا الصدد :

« جناب القائد العام للقوات فى القطر المصرى ينبه جميع مستخدمى الحكومة باجتناب الحركات السياسية والاستمرار فى محال عملهم حيث يكونون تحت حماية السلطة العسكرية ويعلن الجميع أن كل من يحاول التعرض لهم أو يؤخرهم عن أداء الأعمال المفروضة عليهم يعرض نفسه للعقاب الشديد بمقتضى الأحكام العرفية » .

وهكذا لفت القائد العـــام الموظفين الى خطورة اضرابهم وسوف نرى كيف سيضربون عندما يكون اضرابهم صفعة على وجه وزير خارجية انجلترا وتحـديا « للنول » الذى سترسل به لندن بعد ايام ليدك مصر ويجعل عاليها اسفلها .

قطع السكك الحديدية اصبح عاما :

وفى هذا اليوم (١٣ مارس) اصبح قطع خطوط السكك الحديدية ظاهرة عامة واضطر الانجليز وأنفهم راغم أن يشيروا الى هذه الظاهرة فى معرض التهديد باعدام من يقدم عليها :

« جناب القائد العام للقوات فى القطر المصرى ينذر الجمهور ان كل من يتلف مواصلات السكك الحديدية أو التلغراف او التليفون يعرض نفســه للاعدام رميا بالرصاص بمقتضى الأحكام العرفية » .

وسنرى كيف أن الأثر الوحيد لهذا التهديد بالاعدام ، هو اشـــتداد الحركة وبالتالى توقف الانتقال بالسكك الحديدية نهائيا مما سيجعل الانجليز يجن جنونهم فيهددون بحرق القرى ويحرقون بعضها بالفعل .

الانجليز يحتلون مدينة تلا :

قدمنا كيف كانت مدينة شبين الكوم عاصمة المنوفية سبـــاقة الى الاضراب والتظاهر ولـمـا كانت المواصلات لم تقطع بعد فقد بادرت قوة انجليزية الى احتلال المدينة فاذا بالاضطراب يسرى فى بقية المراكز وهكذا اضطر الانجليز ان يختصوا مدينة تلا بقوة انجليزية ترابط فيها لتوقف سيل المظاهرات المتدفق .

الحالة فى العاصمة :

ولقد كان لهـذا الجو العاصف فى طول البلاد وعرضها رد فعله فى القاهـرة ، فأضرب من لم يكن أضرب فاذا كان الترام وعربات (الحنطور) والحمير والسيارات قد اضربت فقد ظلت عربات (الامنبوس) وهى عربات عامة تجرها البغال ، تعمل يوما آخر ولكنها سرعان ما توقفت .

عربات الكارو :

وظهر فى الميدان عربات الكارو كوسيلة للنقل لا لأن سائقيها اقل وطنية من غيرهم ولكن لأن مجرد ظهور هذا الأسلوب الشاذ فى عملية النقل هو فى حد ذاته مظهر احتجاج مستمر .

الأزهـــــر :

وبدأ الأزهر يبرز من جديد فى الميدان بما يتفق ودوره التقليدى فى قيـــادة الشعب .

الجمعة ١٤ مارس ـ مذبحة عند سيدنا الحسين وأخرى فى السيدة :

كان التاريخ قد قال كلمته وهو أن يتغير وجه مصر وتقوم فيها ثورة ضد الحكم البريطانى تصبغ أرض مصر بالدم وأن يكون تساقط الشهداء بالعشرات هو وعود هذه الثورة الذى يزيدها اضطراما .

مذبحة بعد صلاة الجمعة :

نقول ذلك بمناسبة ما حدث يوم الجمعة عقب خروج المصلين من مسجد سيدنا الحسين فجاءت سيارتان من سيارات الانجليز المصفحة وأطلقت الرصاص على جموع المصلين من المسجد فسقط ١٢ قتيل و ٢٤ جريح وقد اقنع هذا الحادث الشعب ان لا فكاك لهم من الموت سواء تظاهروا أو لا ، وهكذا كان كل يوم يمر وكل حادث يقع يزيد الشعب اصرارا على وجوب التخلص من الانجليز .

قتلى آخرون فى أحياء أخرى :

وفى نفس الوقت الذى جرت فيه هذه المذبحة فى سيدنا الحسين كانت مذابح أخرى تقع فى أنحاء متفرقة فى القاهرة التى كانت تغمرها المظاهرات استخفافا بالموت تحديا للانجليز ، وسجل البلاغ مقتل ١٣ واصابة ٧٢ جريح وجاء فى البلاغ تبريرا لهذه المذبحة « ان الغوغاء أطلقوا النار على نقطة عسكرية فى قسم السيدة زينب فقابلت النقطة النار بالنار فقتلت ١٣ وجرحت ٢٧ » .

ولقد حار الانجليز وربما سيظل تاريخهم حائرا فى معرفة من الذى كان يوجه المصريين ليقوموا بهذه الأعمال فى طول البلاد وعرضها فى وقت . ولقد بلغ التخبط فى تقرير لجنة ملنر على سبيل المثال ان تتصور ان المصريين قطعوا السكك الحديدية طبقا لخطة كانت موضوعة منذ أيام الحرب ومحاولة الجيش التركى غزو مصر .

الانجليز هى التى كانت توجه :

أما نحن وعلى ضوء تجربتنا الخاصة فى معرفة هذا الشعب فنحن نعرف انه يصل فى بعض الظروف الى حالة من التعبئة يكون معها قادرا على فعل أى شىء وليس ينتظر الا لاشارة كى يقدم على أعمال يتصور الذين يجهلونه انه يستحيل عليه القيام بها . ومن دراستنا بالتفصيل وقائع ثورة سنة ١٩١٩ يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة ان الشعب المصرى وقد وصل الى حالة التعبئة التى أصبح فيها مستعدا لعمل أى شىء كان الانجليز هم الذين أصبحوا يشيرون عليه بما ينبغى عليه عمله وذلك عن طريق بلاغاتهم التى كانوا يذيعونها للارهاب فعندما صدرت البلاغات تحذر من المظاهرات ، عمت البلاد المظاهرات .

وعندما يحذرون من قطع السكك الحديدية يقطعها الناس فى كل مكان وها هو بلاغ يتحدث عن أطلاق النار على نقطة عسكرية فسوف نرى ان ذلك سيكون اشارة لاستخدام السلاح بالفعل .

حرق محطة قليوب :

وعلى هذا الغرار فقد رأينا كيف حذر الانجليز من الاعتداء على المحطات فيجىء الرد على الفور بحرق المحطات ، ولعل أضخم حريق اعتبرته السلطة خطيرا جدا هو ما أقدم عليه سكان مدينة قليوب ولم يخفهم قربهم من القاهرة وامكان سرعة وصول الانجليز اليهم فقاموا بمظاهرة جبارة انتهت باشعال النار فى المحطة فدمرتها تدميرا تاما .

المنصورة تطل برأسها :

ابتدأت مدن القطر ينافس بعضها بعضا وبدأ الشعب فى كل مكان شديد الرغبة فى دفع نصيبه من ضريبة الدم ، واذا كانت القاهرة قد بدات وتبعتها طنطا فقد كان على المنصورة أن تقوم بدورها ولقد قامت بها المظاهرات منذ اليوم الأول ولكن يبدو ان رجال الادارة كانوا متعاطفين الى الحد الذى جعلها تنقضى بسلام ولكن مظاهرة يوم الجمعة ١٤ مارس يظهر أنها أخذت طابعا جديدا من التحدى ونفد صبر الانجليز ومن هنا فقد تربصوا بها وسوف يأتينا نبؤها بعد حين .

أطباء مصر ينزلون الى الميدان :

ظل أطباء مصر حتى هذا اليوم الخامس من أيام الثورة مقبلين على أعمالهم ، وقد أصبح واجبهم يحتم عليهم هذا الاستمرار بعد ان بدات مستشفى القصر العينى تتلقى يوميا مئات المصابين برصاص الانجليز ومن ناحية أخرى فالأطباء هم فى طليعة هذا الشعب وهم من حشاسته وصفوته ، فضربوا الانجليز أول ضربة تسىء الى دعايتهم فى العالم كله باعتبارهم رسل الحضارة فقد ملأت انجلترا الدنيا دعاية ضد وحشية الألمان طوال سنوات الحرب وكان مما قالوه ان الألمان يستعملون نوعا من الرصاص يطلق عليه اسم « دم ، دم » والآن جاء دور أطباء مصر لكى يقذفوا فى وجه انجلترا كل ما قالوه ضد اعدائهم بعد دمغهم بأنهم ابشع واشد وحشية فاذا كان الألمان قد استخدموا رصاص دم دم فقد استخدموه فى الحرب وضد اقوام لا يترددوا فى الرد عليهم بالمثل اما فى مصر فالانجليز يستخدمونه ضد قوم عزل من كل سلاح .

وقال أطباء القصر العينى الكبار بالاجماع لم يشذ فيهم واحد عن الآخر ان عشرات القتلى ماتوا نتيجة ضربهم برصاص دمدم وانه لا يسعهم الا أن يحتجوا على هذا العمل البربرى ويشهدون العالم كله على هذه الهمجية ووقع على الاحتجاج كل الاسماء التى كانت تدوى فى تلك الايام وارسلوا باحتجاجهم الى الحكومة والى السلطان والى دار الحماية وطيرت شركات الأنباء الخبر . وهكذا تلقت انجلترا صفعة جديدة ولن تستطيع ان تفهم كيف ستنجح ثورة سنة ١٩١٩ فى تحطيم كبرياء الامبراطورية البريطانية واجبارها لأول مرة على التراجع بغير نظام الا بأن نقف طويلا امام هذه الأعمال الأدبية التى كانت تحرجها امام نفسها اذ تظهر ما هى عليه من

نفاق ولمجيء ذلك على السنة اشخاص تتصور انهم اصدقاؤها وان يتسامع العـــالم بذلك كله .

السبت ١٥ مارس تطور الثورة فى الوجه القبلى :

رأينا كيف تطورت الثورة منذ اعتقال سعد زغلول فى ٨ مارس يوما بعد آخر بل ساعة بعد ساعة حتى تحولت بعد أسبوع فقط الى شعلة ملتهبة من العداء للانجليز بعد أسبوع وقد ساعدت الدماء المراقة على تأجيج هذه الشعلة وشهد يوم السبت ١٥ مارس وهو ختام أيام الاسبوع اعصارا رهيبـــا تحولت فيه الثورة الى العنف وهو الأسلوب الوحيد الذى يفهمه الانجليز وبدأ الأمر بمصرع انجليزى هنا أو هناك وكان ذلك شيئا جديدا دل عن الحركة تتصاعد ولم يجد القتل بالجملة فى ارهاب المصريين بل زادهم ضراوة واصرارا على التحدى .

اضراب عمـــال العنـــابر :

واستهل اليوم بما اعتبر اكبر الأحداث فى ذلك الزمان وهو اضراب عمال العنابر، والعنابر هى الاسم الذى كان يطلق على ورش صيانة السكك الحديدية واصلاحها وقد كان عمال العنابر البالغين بضعة ألوف هم اكبر تكتل عمالى فى مصر بل وربما كان الوحيد بهذه الضخامة وكان اضرابهم يعنى توقف العمل نهائيا على الســـكك الحديدية وما زلت اذكر كيف كنا نردد فى صبانا عن عمال العنابر كما لو كنا نتحدث عن مارد عمـــلاق .

تدمير المحطات والهجوم عليها فى الصعيد :

وشهد اليوم تدمير محطات الجيزة فى البدرشين والحوامدية وبولاق الدكرور وهاجمت الجماهير المحطات فى مركزى الواسطة والرقة فحرقتهما ، وعندما غادر قطار القاهرة المتجه نحو الوجه القبلى كل صباح لم يلبث أن عاد الى القاهرة بعد أن حطمت نوافذه وأبوابه وكان ذلك أخر العهد بالسفر الى الصعيد عن طريق السكة الحديد وعاد السفر عن طريق النيل الى سابق عهده .

قتل الانجليز ومطاردتهم :

على أنه لا اضراب العنابر ولا تدمير المحطات وحرقها وتوقف النقل كان شيئا جديدا ، وانما الجديد كان قتل المستر ارثر سميثأحد كبار موظفى السكة الحديد، وذلك فى الوقت الذى هاجم فيه المتظاهرون فى بنى سويف دار المحكمة بحثا خلف القاضى الانجليزى بها لقتله ولكنه تمكن من الهرب ، واضطر الانجليز للتجمع فى ثلاثة منازل احاطوها بالأسلحة ليدافعوا عن انفسهم .

اضراب المحامين الشرعيين واغلاق المحكمة :

ذكرنا من قبل ان المحامين أمام المحاكم الوطنية قد أضربوا منذ يوم ١١ مارس

وطلبوا نقل أسمائهم الى جدول غير المشتغلين ، وجاء دور المحامين أمام المحكمة الشرعية ، وهاجم المتظاهرون دار المحكمة (فى شارع نور الظلام) حيث كانت المناقشة المعتادة فى مثل هـــذه الحالة بين رئيس الجلسه وبين المحامى الذى جاء يسجل الاضراب باسم زملائهم ، ولم تكتف الجماهير بايقاف الجلسة بل أبت الا أن توصل رئيس المحكمة الى بيته فامتطى عربته ورفع فوقها العلم وسارت الجماهير حول العربه فى مظاهرة عارمة حتى أوصلوا رئيس المحكمة الى بيته . ولم يلبث العمل أن توقف كلية بالمحكمة وأغلقت ابوابها وكانت أنباء هذه الحوادث تسرى فى البلاد مسرى الكهرباء وما زالت أذكر حتى الآن النشوة التى كان كل من حولى يتحدثون بها عن واقعة المحكمة الشرعية فى نور الظلام وعن امين عز العرب نقيب المحامين الشرعيين.

المظاهرات الكاسحة وتراجع الانجليز :

وتردد الانجليز لأول مرة منذ بدأت الثورة بعد أن رأوا العنف لا يزيد النار الا اشتعالا فرأوا ان لا يصطدموا بالجماهير واصبحت المظاهرات أشبه بالطوفان ولم تعد وقفا على الشباب أو الطلبة او مظاهرات طوائف بل اصبحت مظاهرات الشعب كله بشيبه وشبابه بأغنيائه وفقرائه ، واذ كانت النساء لا يزلن محجبات ، فقد بقين طوال الاسبوع الأول بمنأى عن الثورة فسوف تشهد الايام التالية خروجهن من خدورهن . نقول انه رغم ضخامة هــذه المظاهرات فقد كف الانجليز عن اطلاق الرصاص عليها وقد كان ذلك أول مظهر من مظاهر انثناء الخطط الانجليزية امام الارادة المصرية .

بدء الافراج عن الطلبة المعتقلين :

وتمشيا مع سياسة التهدئه شرعوا يفرجون عن الطلبة الذين اعتقلوا يــوم ٩ مارس فى مقابل اخذ تعهد على ولى امر الطالب أن لا يعود للتظاهر مرة اخرى .

محكمة عسكرية فى قسم الأزبكية :

ولعله مما يتصل بهذا التراجع ما بدأت تصدره المحكمة العسكرية الانجليزية التى بدأت تزاول نشاطها بقسم الأزبكية منذ هذا اليوم ، حيث لم تتجاوز احــكامها الحبس شهرين أو ثلاثة أو الجلد من خمس الى عشر جلدات على من أدانتهم بحمل العلم ، وتحسب أن شهرين أو ثلاثة من الحبس لم تكن تعنى التهديد والارهاب الذى كانت الانذارات العسكرية تتحدث عنه . وفى تصورنا أن ذلك يعكس التردد والحيرة لدى السلطات الانجليزية فى هذه المرحلة .

الأحد ١٦ مارس ـ فى القاهرة مظاهرة السيدات وقتل :

استقبلت مصر الاسبوع الثانى من اسابيع الثورة وقد بعثت من جديد قــوة جبارة راحت تهز الامبراطورية الانجليزية هزا ، وما كان يظن أنه شعب ضعيف مغلوب على امره قد تحول الى شعب عنيف جبار وسوف نذكر بعد يومين أخرين نص ما ذكرته لجنة التحقيق التى ارســلت من لندن برئاسة اللورد ملنر ما الذى قالته عن هذه الأيام .

في أسبوع واحد انتقلت البلاد من نموذج على الدقة كل شيء يسير فيها كالساعة الدقاقة لمصلحة الانجليز أولا والأجانب ثانيا ثم تأتي مصلحة مصر ثالثا تحولت مصر في أسبوع واحد الى التوقف عن كل شيء والفوضى في كل شيء . السكك الحديدية معطلة ، التلغراف .. التليفون مقطوع وابتدأت مصلحة البريد تعلن أنها لن تقبل خطابات مسجلة اما البريد العادي والتلغرافات فقد تطوعت السلطة العسكرية بنقله الى بعض المناطق بالطائرات الحربية ولم تقف السلطة العسكرية عند حد نقل البريد والتلغرافات بالطائرات بل حاولت أن تقوم بشتى الخدمات فسيرت بعض عربات الترام تحت الحراسة المسلحة ففوجئت بأن احدا من الجمهور لا يقبل على ركوبها وأنقلب الموقف الذي أراد الانجليز به كسر الارادة المصرية الى موقف يعلن عن هذه الارادة ومدى قوتها وتصميمها وعدل الانجليز عن هذه الخطة بعد أن اصبحت العربات القليلة التي يسيرونها تروح وتجيء فارغة الا من الجنـــود الذين عينـــوا لحراستها وظل الشعب يواصل ركوب العربات «الكارو» بعد ان اصبح ركوبها رمزا على الوطنية والمقاومة .

مذبحة منيا القمح :

اذا كان الانجليز قد قرروا أن لا يتعرضـــوا للمظاهرات فقد كان الموقف في بعض اجزاء من القطر قد تحول من مجرد مظاهرات يراد بها اعلان مطالب الشعب ، الى تحد السلطة والاصطدام بها ومن ذلك وعلى سبيل المثال شن المتظاهرون في منيا القمح هجوما على السجن العمومي لاطلاق سراح المسجونين وكانت مذبحة قتل فيها ثلاثين وجرح ١٩ .

في كفر الشيخ ــ عبد القادر مختار :

وحدثني عبد القادر مختار شخصيا عما بدأ يجري في مركز كفر الشيخ وذاع (سيطه) أي ذاعت شهرة ما يقع فيه كان صديقي المجاهد الكبير عبد القادر مختار « مأمور البوليس » في كفر الشيخ رجل صادق الوطنية ولعله كان أسعد الناس طرا بقيام الثورة وقاد الجماهير في كفر الشيخ بالرغم من وظيفته وذلك بأن امتطى جواده وسار في طليعة المتظاهرين بحجة المحافظة على النظام وراح يحذرهم من ان يحرقوا المحطة ، فلا يكاد الجمهور يتلقف هذه الفكرة حتى ينفذها على الفور فيحرق المحطة ولو اقتصر عبد القادر مختار على هذا القدر لكان مركزه كمركز كثير غيره من رجال البوليس الذين غلبوا على أمرهم ولكنه كان كما قلت يلتهب وطنية وثورة على الانجليز وكان لفارس نمر صاحب جريدة المقطم (عزبة) ضـــيعة بالقرب من مدينة كفر الشيخ، وفارس نمر كان يعتبر رجل الانجليز رقم ١ في مصر ورأى عبد القادر مختار ان الوقت قد حان لتأديب امثاله فأوعز للجمـاهير بأسـلوبه الذي يفهموه تمـاما « اياكم والاقتراب من عزبة فارس نمر الويل لكم اذا حرقتموها » وحرقت عزبة فارس نمر وقامت الدنيا وقعدت فيجب أن يعطى الانجليز درسا لمن يتعرض لرجالهم فوصلت قوة بريطانية بعد حين وكان أول أعمالها أن قبضت على عبد القادر مختار

وقدمته لمحاكمة عسكرية وحكم عليه بالاعدام ولكن شاءت عناية الله أن لا ينفذ الحكم فقد غيرت انجلترا سياستها كما سوف يرد فى حينه وعاش بعد ذلك سنوات وسنوات حتى يدرك جهادنا الذى استأنفناه فى الثلاثينات ويصبح هو الرجل الذى تجاوز الستين يعلمنا نحن الشباب دروسا فى الوطنية والفدائية وانكار الذات .

اقامة المتاريس وعمل الخنادق :

ان أعظم قوة للشعوب فى ابان الثورات هى قدرتها السريعة على التعلم والتكيف لمواجهة الظروف الجديدة لما كان المصريون صمموا على مواجهة التحدى الانجليزى حتى النهاية ، فقد بدأوا يفكرون فى الدفاع عن انفسهم ، وكان ابسط اساوب للدفاع هو عرقلة هذه السيارات المسلحة التى تصل الى اى مكان فى خلال دقائق فبدأ الشعب فى الأحياء الوطنية يحفر الخنادق ويقيم المتاريس واصبح على الانجليز اذا هاجموا أن يهاجموا مشاه ، ولكن الانجليز كانوا كما قدمنا قد قرروا أن يدعوا الشعب وشأنه بما فى ذلك تسيير المظاهرات .

اضراب عمال النور :

كان اضاءة القاهرة بالليل تتولاه احدى الشركات الاجنبية باستعمال غاز الاستصباح الذى يحتاج لمئات العمال لاشعالها كل ليلة ، وكانوا لم يشاركوا فى الاضراب حتى ذلك الوقت بفكرة ان عملهم لا يبدأ الا فى الليل ولكن لما كان كل مصرى بات شديد الرغبة فى ان يقوم بنصيب وعلى ذلك فقد لحق عمال النور بالركب واضربوا عن العمل ابتدا من هذا اليوم وبدات القاهرة تعيش بالليل فى الظلام .

ويحدثنا شفيق باشا فى حولياته كيف سارت بعض المظاهرات على ضوء المشاعل

مظاهرة السيدات :

على أن أحد معالم الثورة البارزة تجلى فى هذا اليوم (١٦ مارس) الا وهو خروج سيدات مصر لأول مرة فى التاريخ الحديث لمشاركة الرجال فى جهادهم والمراة المصرية تقف عاملة فى الحقل الى جوار زوجها ولكن بانتشار الثقافة التركية لزمت السيدات خدورهن وقد مر بنا الثورة العاصفة التى أثارها قاسم أمين على نفسه عندما نشر كتابه « تحرير المراة » و « المراة الجديدة » وليس الا ثورة سنة ١٩١٩ من بدات مسيرة تحرير المراة بمعناها المألوف فى الوقت الحاضر وفى كتاب عبد الرحمن الرافعى عن ثورة ١٩١٩ قائمة ببعض من اشتركن فى هذه المظاهرة ووصف تفصيلى ممتع لنظامها وخط سيرها ونصوص الاحتجاجات التى وزعتها على ممثلى الدول الأجنبية ولكن ما لا بد من تسجيله هنا أن الانجليز تعرضوا لهذه المظاهرة عندما وصلت الى

بيت الأمة وحاصروا السيدات تحت الشمس ساعتين كاملتين وقد صوبوا البنادق الى صدورهن فما كان من احداهن (١) الا أن تحدت رئيس القوة الانجليزى وعرضت صدرها وتحدته أن يطلق عليها النار لتكون « مسر كامل » أخرى (٢) . ومن حسن حظ التاريخ أن سجل لنا حافظ ابراهيم صورة شعرية لهذا اليوم الخالد ، فقال :

خـــرج الغـــوانى يحتججن	ورحـــت أرقـــب جمعهنـــــــه
فاذا بهن تخـــــــذن مـــن	ســـود الثيـــاب شـــعارهنه
فطلعـــن مثـــل كواكـــب	يسطعن فى وسط الدجنـــة
واخـــذن يجتـــزن الطـــريق	ودار « ســـعد » قصـــدهنه
يمشـــين فى كنف الوقـــا	ر وقـــد ابن شـــعورهنه
واذا بجيش مقبـــــــــل	والخيـــل مطلقـــة الأعنـــة
واذا الجنـــود ســـيوفها	قـــد صـــوبت لنحورهنـــه
واذا المدافـــع والبنـــــــا	دق والصـــوارم والأســـنة
والخيـــل والفرســـان قـــد	ضربت نطـــاقا حولهنـــه
والـــورد والريحـــــان فى	ذلك النهـــار سلاحهنـــه
فتطـــاحن الجيشـــان ســـا	عات تشيب لهـــا الأجنـــة

١٧ مارس ـ المظاهرة الكبرى :

قلنا أن الارتباك وقع فى صفوف الانجليز بعد أن فاجأهم الشعب بما لم يتصوروه فحيث ظنوا أن استعمال الشدة سينهى الأمور اذا بها تتفاقم وكأنهم يصبون على النار المشتعلة ما يزيدها اشتعالا . فرأوا أن يجربوا اطلاق الحرية المظاهرات كما رأينا ، فتقدمت احدى الهيئات فأبلغت مقدما انها ستتظاهر يوم ١٧ مارس فوافق الحكمدار راسل بك (باشا فيما بعد) على سيرها وأخذ على عاتقه فيما يظهر أن يشرف بنفسه على عدم وقوع ما يكدر فركب سيارة فى طليعـــة المظـاهرة ولا شـــك أن الانجليز كانوا يتصورون أن هذا الأسلوب من الملاينة سوف ينهى الحالة التى أربكتهم فما راعهم الا أن يروا أمة تسير فى مظاهرة وراعهم بالأكثر روعة الشعب المصرى وما أظهره فى هذه المظاهرة الضخمة جدا من النظام المنقطع النظير الذى لو حـدث مثله فى انجلترا نفسها لكان مدعاة لفخارها وبلغ من روعة الشعب وضبطه لأعصابه أن بعض عناصر من أجانب (السوء) رأوا أن يخلو بنظام المظاهرة ويحولونها

(١) السيدة سيزا نبراوى .

(٢) كان الانجليز قد ملأوا الدنيا تشهيرا بالالمان لانهم قتلوا سيدة تدعى بهذا الاسم .

الى فتنة مدمرة فأطلقوا الرصاص من بعض النوافذ وسقط بعض القتلى بالفعل ولكن الشعب العجيب الذى يصعد فى لحظة الى قمم شامخة ضيع على المتآمرين مقصدهم فنحى جثث شهدائه وواصلت المظاهرة الجبارة مسيرتها وليس ادل على ان هذه المظاهرة كانت بذاتها أحد معالم ثورة سنة ١٩١٩ أن صدر بها بلاغ رسمى خلد تاريخها وخلد معها معجزة هذا الشعب عندما يتحول فى لحظة الى ذروة النظام قال البلاغ العسكرى :

« فى ١٧ الجارى حدثت مظاهرة منظمة فى القاهرة باذن من السلطة العسكرية فسار الموكب من بضعة آلاف من الناس فى شوارع المدينة ولم يقع حادث سيء بفضل الاحتياطات التى اتخذها كل من ولاة الأمور ومن منظمى المظاهرة » .

وسرعان ما اسقط فى أيدى الانجليز فقد تجاوزت المظاهرة كل ما قدروه لها من حيث الحجم والنظام وتمثيل الأمة ورأوا انها تسقط كل ادعاءاتهم عن عدم وعى المصريين وعن مما اعتادوا ان يقولوه فى هذه الأيام ، ولذلك فقد كانت فضيحة ان يبادر الانجليز باعلان افلاسهم فى اليوم التالى بأن يعودوا الى منع المظاهرات وقتل الناس كما سوف يجىء : وليس وراء هذا تخبط .

جريدة الأهرام تصف المظاهرة :

وكان طبيعيا وقد صرحت السلطات بالمظاهرة ان تترك الصحف لتتحدث عنها فتقول لنا الاهرام تحت عنوان : « الاهرام جريدة مصرية للمصرية » .

« مرت أمس بنا مواكب المتظاهرين من ناشئة الأمة العزيزة وعلمائها ومن أدبائها وعمالها ومن صناعها وكل مرتبة فيها ، فتجلت وهى تمر مواكب مواكب يخفق فوق رؤسها العلم المحبوب وتكرم كل موكب منها بتحية « الاهرام » والدعاء لها . تحية قرعت الآذان فهبطت الى القلوب وتمشت بأجزاء النفس التى نبتت فى هذا الوادى الخصيب والبلد الطيب الأمين . فنشأت على حبه والاخلاص له ، بل هى نبتت على ذلك الحب والاخلاص طفلة فيافعة فكهلة ووقفت حياتها من يوم نشأتها على خدمته. فاذا نحن قضينا من الواجب المفروض المحتم على كل مصرى قضاؤه لوطنه بمستحقين جزاء ولا شكرا . وانما تلك التحيات الطيبة هى افاضة نفوس شريفة .

« واذا كانت تلك التحيات الطيبة قد هزت نفوسنا وأثلجت صدورنا فانها تذكرنا اليوم بحياة طويلة صرفناها ونحن نماشى هذه الأمة العزيزة الكريمة وتسايرها فى تطورها الجميل وترقيها العظيم نصف قرن كامل . فنحمد الله ونشكره على التوفيق فى مرضاة الأمة بل فى خدمتها الحقة » .

ولم تستكمل الأهرام مقالها ، فقد وقف عند الذى ذكرنا ، أما بقيته فقد أتى عليها الرقيب وفرض ظهورها بيضاء .

الهلال والصليب :

ولعل أروع ما ابرزته هذه المظاهرة الكبرى هو هذه المظاهرة التى سيطرت على الأحداث منذ اللحظة الأولى وهى ظاهرة التضامن الوثيق بين المسلمين والاقباط بعد أن تصور الانجليز انهم نجحوا فى التفرقة بين عنصرى الأمة ، فاذا بالمفاجأة (وكم لثورة سنة ١٩١٩ من مفاجآت) تظهر كيف ساد التلاحم بين المصريين فى لحظة وأصبحت الكلمة التى تتردد على الشفاه « الدين لله والوطن للجميع » وظهرت الاعلام فى هذه المظاهرة الكبرى وقد رسم عليها الصليب مع الهلال وحسبنا ان ننقل بعض ما امتلأت به جريدة من اشعار هذه الأيام التى تتحدث عن هذا الوئام من خلال اشادتها بجريدة الاهرام فيقول الشاعر الكبير أحمد نسيم :

أجريدة الاهرام خطى واكتبى ... آى الثناء على بنى الاهرام
أنت الصديقة فى زمان غابر ... تاريخه باق على الأيام
الناشئون على الطهارة والتقى ... والقائمون بمصر خير قيام
والخالدون الى السكينة كلما ... جاء الزمان بشدة وعرام
برح الخفاء وبان أنا أمة ... لم تبغ غير محبة ووئام
انا لنرجو أن نعيش بغبطة ... توحى السلام وتنتهى بسلام

وقال فيها أيضا محمد محمد عبد الرازق قصيدة من الشعر تضمنت :

يا آل عيسى اننا اخوانكم ... فدعوا الوشاة وكذبوا النماما
هذى أيادينا وذاك ذمامنا ... وجميعكم لا تنقضون ذماما
يا مصرانا فيك قوم واحد ... نحيى المسيح ونرفع الاسلاما
عار علينا والبلاد بلادنا ... أن لا نصون النيل والأهراما

وجاء فى قصيدة اخرى :

(يا صاحب الأهرام) ان محمد ... من ولد (هاجر) زوج ابراهيما
قبطية من آل مصر أنجبت ... فينا (رسولا) هاديا ورحيما
نشر الوئام وروض القوم الا ... لم يستطع أحد لهم تقويما
فالمسلمون اليوم أن نزعوا الى ... رعى القرابة كان ذاك قديما
نصب يزيد العنصرين تآلفا ... وينيل مصر معزة ونعيما
ضم الهلال الى الصليب فمرحبا ... بالشارتين تعانقا تسليما
والله ربك ان اتاح لأمة ... خيرا غدا فيها الوفاق عميما

استشراء العنف فى الأقاليم :

وكانت عجلة الثورة الآن فى أوج دورانها لا يوقفها ان تستعمل معها الشدة او اللين ، فليس يوقفها الا أن تتراجع انجلترا وأن تنثنى أمام ارادة الشعب المصرى وهو ما لم تكن انجلترا تفكر فيه بطبيعة الحال

مذبحة اسكندرية :

فى الوقت الذى فكرت فيه السلطة ان تجرب الملاينة فى القـــاهرة بعد ان لم تنفع الشدة كانت السلطة فى اسكندرية تجرب العكس فحيث لم توقف الملاينة تيار المظاهرات الجارف رؤى ان تجرب الشدة فكان التصادم واطلاق النار فسقط ١٦ شهيد و ٢٤ جريح .

حرق مركز الادارة فى رشيد :

وفى رشيد وصل العنف الى قمته اذ هاجم المتظاهرون مبنى الحكومة (المركز) وحرقوه وهرب مأمور المركز ليجىء بقـــوات بريطانية وكان قتـــل وكان قبض ومحاكمات عسكرية وقد أصبح من الواضح أن مدن القطر دخلت فى منافسة .

فى دمنهور كاد المدير يقتل ضرباً بالنعال :

ولم يكن الأمر يخلو بطبيعة الحال من أفراد يخرجون على اجماع الأمة ومن هذا النفر على ما جاء فى كتاب عبد الرحمن الرافعى ابراهيم باشـــا حليم مدير مديرية البحيرة وقد تصور بحماقته انه لا يزال فى عهد ما قبل الثورة حيث كانت القلوب تنخلع لمجرد ذكر اسم المدير (أى مدير) فكيف اذا واجههم شخصيا وزاد على ذلك أن يتحداهم علنا بأن « ليس فيهم رجل » ودفع الأحمق ثمن تحديه وغفلته اذ انقض عليه المتظاهرون وأبوا الا أن يقتلوه بالنعال وتركوه بالفعل عندما تصوروا انه مات ومن ناحية أخرى فقد انهال عليهم ضرب الرصاص فبلغ عدد من قتل ١٢ .

ونقل المدير الى المستشفى وشاء له الله أن يظل على قيد الحياة وفرض على المدينة منع التجول فى بعض ساعات الليل . وكانت محاكمات واعتقالات .

ظهور البدو كعنصر مسلح :

وفى البحيرة وفى مركز كوم حمادة بالذات ظهر البدو اذ هاجموا المركز فأسرعت الجنود البريطانية لصدهم وقمعهم ولكنهم لن يلبثوا أن يتحركوا فى أماكن أخرى .

الثلاثاء ١٨ مارس ــ اعتراف الانجليز أن مصر فى ثورة :

عند هذا الحد اضطر الانجليز وانفهم راغم ان مصر فى حالة ثورة وعلى لنـــدن أن تتصرف بسرعة فترسم لهم النهج الذى يتبعونه وسنرى أن لندن فكرت وقدرت ثم تصرفت بآخر ما فى قدرتها وهو أن ترســـل الى مصر الى عجل أعظم قوادها

العسكريين مجدا وشهرة وشراسة فى ذات الوقت وحسبك أن تعلم انه كان يطلق عليه لفظاظته وشراسته اسم «الثور» ونعنى به الجنرال اللنبى لتبعث به الى مصر مزودا بكل السلطات اللازمة لقتل نصف الشعب المصرى اذا لزم الأمر ، وبالطبع لم يكن هذا الذى يجرى خلف الستار معروفا فى تلك الأيام ، أما عن اعتراف انجلترا بالثورة فلم يظهر مكتوبا الا فى تقرير لجنة ملنر الذى نشر بعد هذه الحوادث ببضعة عشر شهرا ، جاء فى هذا التقرير :

« فى ١٦ مارس قطعت السكك الحديدية والأسلاك التلغرافية بين القاهرة وبين الوجهين البحرى والقبلى ولم يأت يوم ١٨ حتى كانت مديريات البحيرة والغربية والدقهلية والمنوفية قد جاهرت بالثورة » .

وهذا كلام قد كتبته لجنة ملنر فى تقريرها وهى التى جاءت الى مصر فى آخر العام اى بعد ان كانت الثورة قد هدات بعض الشىء لاحساسها بالانتصار بالأمل والرجاء مما سنعرضه فى حينه ، والذى يعنينا الآن ان ملنر قد سجل ما سجل فى تقريره نقلا عن السلطات الانجليزية فى مصر من انه لم يحل يوم ١٨ ديسمبر حتى كانت الثورة كاملة فى كل مديريات الوجه البحرى وسوف نرى ان يوم ١٨ بالذات لم يكد ينتهى حتى كان يصدق على الوجه القبلى ما قيل على الوجه البحرى ولكن بصورة اشد عنفا نتيجة لطبيعة المنطقة .

الجيش البريطانى فى طول الوجه البحرى وعرضه :

اما ما حدا الانجليز الى أن يقرروا ان الوجه البحرى أصبح فى حالة ثورة فذلك لشعورهم بالحاجة الى اعادة فتح مدنه مدينة مدينة ، فمن دسوق الى كفر الشيخ الى قلين فسمنود فالمحلة الكبرى وغيرها كان لا بد من ان تدهمها الجيوش البريطانية وان تقتل وتنهب وتدمر ، على أن أكثر القتل فى هذا اليوم كان فى سمنود والمنصورة وقد بلغ عدد القتلى فى المنصورة وحدها فى هذا اليوم طبقا لما جاء فى البلاغ العسكرى ١٩ قتيلا وهو دون الواقع بكثير جدا .

عبد الرحمن الرافعى والمنصورة :

وقد قص علينا عبد الرحمن الرافعى ذكرياته الشخصية عن حوادث هذه الأيام وعلاقته بالمنصورة وليس هناك ما يصور الروح التى غمرت مصر فى تلك الأيام من قصة عبد الرحمن الرافعى فوجبت الاشارة اليها بايجاز .

فقد حملت السلطات البريطانية ما حدث فى المنصورة على عاتق اربعة منهم عبد الرحمن الرافعى مع انه كان فى القاهرة منذ اندلاع الحوادث وحال تقطيع السكك الحديدية دون عودته ، وهدد قائد الجيش الانجليزى فى المنصورة انه اذا قامت اى مظاهرة فسوف يعدم على الفور الأربعة الذين سماهم وعلى رأسهم عبد الرحمن الرافعى ، فما كان منه بمجرد سماعه هذا النبأ الا ان يقرر العودة الى المنصورة بأى ثمن . وفى كتابه يحدثنا بالتفصيل عن رحلة العودة الى المنصورة على ظهر مركب

شراعية سارت في النيل ويصف لنا المراكب الانجليزية المسلحة التي كانت تعترض هذا المركب الشراعي وأخيرا وصل الى المنصورة فذهل أهلها لهذا الرجل الذى انذر بأنه سيعدم لدى أول مظاهرة يقتحم كل هذه المصاعب لكي يجيء الى حيث يعدم فلا عجب أن حفظت المنصورة هذا الموقف الفدائي لعبد الرحمن الرافعي فانتخبته في أول مجلس نيابي . وعلى الرغم من ان الشعار الذى كان ساريا هذه الأيام من انه « لو رشح سعد حجرا لانتخبناه » وبالرغم من ان شعب المنصورة زغلولي وفدى حتى النخاع ومع ذلك فقد نجح عبد الرحمن الرافعي في البرلمان عرفانا بقدر الرجل وتقديرا لهذا الموقف في ثورة ١٩١٩ وهى شهادة للشعب المصرى في المنصورة بأنه بلغ في هذا الموقف ذروة ما يمكن ان تصل اليه جماعة من الوعى والوطنية الصادقة .

هل اعلنت مدينة زفتى الجمهورية ؟

ونعود الآن الى سرد أحداث أيام الثورة ، فقد كان من مظاهرها في ١٨ مارس أن أعلنت الاستقلال التام وألفت لجنة يرأسها يوسف الجندى لحكم المدينة ووضع مأمور المركز نفسه بكل قوات البوليس تحت تصرف اللجنة الحاكمة التي راحت تباشر كل مهام الدولة المستقلة فتجبي الضرائب وتؤدى للمواطنين شتى الخدمات وأهم من ذلك كله أن صنعوا للدولة الجديدة علما خاصا بها ، ولقد عشنا طول عمرنا نتحدث عن جمهورية زفتى ولكن عبد الرحمن الرافعي لم يذكر في تاريخه كلمة الجمهورية واكتفى بالتحدث عن الدولة المستقلة وربما كان ذلك لتحاشي تحدى النظام الملكي الذى كان سائدا وقت الكتابة عن ثورة ١٩١٩ .

هذا في الوجه البحرى فماذا عن الوجه القبلي :

منذ اليوم الأول لقيام الثورة ووصول انباء ما يجرى في القاهرة وقد أخذت الحركة طابعا أشد عنفا في الوجه القبلي وقد اشرنا من قبل الى مقتل المستر ارثر وأشرنا الى محاولة القاضي الانجليزى في بني سويف على أن ذلك كله كان قاصرا على المدنيين ولم يدر بخلد أى انجليزى أن الجرأة والتحدى سيصلان الى حد مهاجمة العساكر والضباط الانجليز انفسهم ومع ذلك فقد حدث الغير متصور .

في دير مواس وديروط :

حدث ان تحرك قطار من الأقصر قاصدا القاهرة فلم يكد يصل الى ديروط حتى هاجمته الجماهير وحدث ان كان في القطار ثلاثة ضباط وخمسة جنود فما كان من الجماهير الا أن قتلتهم في ديروط وقيل انه مثل بجثثهم في ديرمواس .

وقام الانجليز الدنيا واقعدوها على ما وصفوه بأنه وحشية وهمجية كأن الذى فعلوه هم من قتل العشرات والمئات هو عين المدنية ، ولعل ذلك يريك كيف ان القوى يبيح لنفسه كل شيء ويعتبر احتجاج الضعيف وحشيا . والأمر المحقق أن الإنجليز

أفزعهم أن تهدر كرامتهم الى هذا الحد وان تمرغ هيبتهم فى التراب فبدأوا يراجعون حسابهم بسرعة .

منع مجرد مشاهدة المظاهرات فى القاهرة :

جاء فى بلاغ عسكرى صدر يوم ١٨ مارس :

« وعقد القائد العام النية على اعادة النظام وعلى اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لوضع حد للاحوال الحاضرة واتباعا لهذه الخطة أصدر أوامر مشددة بأنه لا يسمح فى ابان القلق الحالى باجتماعات عمومية أو مظاهرات أو مواكب وحذر القائد العام الجمهور من « الاشتراك فى المظاهرات أو مشاهدتها » .

الشعب يتحدى فى بولاق :

وكما أصبحت هى العادة تحدث الجماهير هذا الانذار من جديد فقامت مظاهرة من بولاق قاصدة الأزهر فتصدى الانجليز لها وقتلوا من قتلوا ولم يصدر بلاغ بعدد القتلى بعد أن رأوا أن ذلك لا يخيف أحد فضلا عن أنه يعلن عن تحدى الشعب لهـم .

١٩ ـ مارس ـ معركة فى الفيوم :

قدمنا أن الأمور كانت تتطور من سىء الى أسوأ وفى هذا اليوم (١٩ مارس) وقع مالا يمكن تصوره الا أنه معركة حربية بكل معنى الكلمة فى مدينة الفيوم حيث وقع اصطدام مسلح بين البدو والجيش الانجليزى ولا بد ان كان البدو مصممين على القتال انتصافا لاعتقال زعيمهم حمد الباسل ولا بد أن راى الانجليز من ناحيتهم أن يعاملوا البدو معاملة الأعداء الذين يجب ابادتهم فليس يفسر ما حدث من بلوغ عدد القتلى ٤٠٠ (أربعمائة) الا أن يكون هذا هو التفسير وقد صدر بلاغ انجليزى مقتضب عن هذا الحادث :

« فى ١٩ الجارى هاجمت قوة كبيرة من البدو فى مدينة الفيوم على رجال الحرس ولكنها صدت بعد أن تكبدت خسارة ٤٠٠ من القتلى والجرحى » .

وهكذا تطور الموقف فأصبح الانجليز فى موقف دفاع بحيث يفخرون بأنهم صدوا الهجوم وكبدوا المهاجمين خسائر فادحة . وسنرى أنه طبقا للقاعدة التى قد مناها من أن أى بلاغ يشير الى بادرة جديدة فسرعان ما يكون ذلك ايحاء للجماهير بما ينبغى عليهم أن يعملوه ولذلك فسوف يتكرر هذا الهجوم كلما سنحت الفرصة وظهرت قوة بريطانية .

قتلى فى قليوب وفى طوخ وقها :

واذ بدات أحداث الوجه القبلى تصل الى القمة فقد مضت مدن الوجه البحرى فى الاعراب عن غضبها بالأسلوب الوحيد المتاح لجماهير عزلاء من كل سلاح الا أن

تخرب وتدمر وصدر البلاغ الانجليزى يتحدث عن اصطدام الجماهير به فسقط ٧ من القتلى فى قليوب و ٥ فى طوخ وقها ولم يشر البلاغ كما اعتاد الى عدد الجرحى مما يدل على انهم كثيرون جدا .

الجمعة ٢١ مارس ــ تعيين الجنرال اللينبى :

ومضت أيام الثورة صورة متكررة من حيث مظاهرات التحدى فى ارجاء البلاد والتخريب والتدمير وبعد ان كان قائد الجيش البريطانى ينذر كل من فعل كذا أو كذا ، أصدر بلاغا فى يوم ٢٠ مارس أى اليوم السابق ينذر بحرق القرى التى تقع أقرب من غيرها بجوار قطع فى السكك الحديد او اسلاك التلغرافات وأعمدتها ، واستدعى القائد بعض من أسموهم « الكبراء والأعيان » وقال لهم انه حتى هذه اللحظة قد وقف موقفا دفاعيا بحتا ، أما اذا استمرت الأحداث بهذا الاسلوب فسوف يدك المبانى فوق رؤوس أصحابها وسوف يقع من جراء ذلك تخريب كبير وسفك للدماء وازهاق للارواح اكثر وأكثر وكان من المحقق أن لندن قررت سحق الثورة بأى ثمن .

تعيين اللنبى مندوبا ساميا :

ولما كان منصب المعتمد البريطانى فى مصر شاغرا منذ أن استدعى السير ونجت الى انجلترا فى ٢١ يناير ١٩١٩ ، فلم تر الحكومة البريطانية أن تعيده الى مصر ، كما اقتنعت أن « ملن شتهام » القائم بالأعمال معه وقائد الجيوش البريطانية لم يعودا قادرين على مواجهة الحالة بما تستحق من البطش وقررت الحكومة البريطانية أن تعين رجلا يكفى ذكر اسمه لكى تنخلع القلوب ، ليس فقط لشهرته العسكرية والتى جعلته أعظم قائد انجليزى تمخضت عنه الحرب العالمية الأولى بل لما اشتهر به من فظاظة ونعنى به «اللورد اللنبى » والذى اطلقوا عليه اسم فاتح القدس اشارة لأنه فعل ما لم يفعله ملك انجلترا ريكاردوس « قلب الأسد » منذ عدة قرون عندما جاء الى الشرق ليسترد بيت المقدس من صلاح الدين ، وقد كانت كل هذه المعانى تدور فى رأس اللنبى من غير شك وهو يقول غداة دخوله بيت المقدس « اليوم انتهت الحروب الصليبية » ولا شك عندى الآن انه لا تفسير لمسلك اللنبى فيما بعد الا أنه كان يستلهم تصرفات ملك انجلترا القديم وما كانت عليه تصرفاته من استقامة وشهامة ورغبة فى تحقيق السلام ، على أن ذلك كله لم يكن فى حساب حكومة انجلترا عندما أرسلته الى مصر ، وانما الذى دار فى حسابها أنها ترسل رجلا أطلق عليه أصدقاؤه لقب « الثور » ليس فقط لضخامة جسمه وشكله المهيب ولكن انفجاراته العصبية التى لم يكن يوقر فيها احدا او يترفق به . كان هذا الرجل الذى بعثت به انجلترا الى مصر لتخيف به المصريين وليس أدل على أن الحكومة الانجليزية كانت فى ورطة وأنها وجدت فى اسم اللنبى حبل النجاة انها كانت قد استدعت اللنبى الى باريس ليشهد مؤتمر الصلح باعتباره أحد القادة الذين صنعوا النصر فوصل الى باريس يوم ١٩ ، وصدر قرار تعيينه يوم ٢١ أى انه شارك فى مؤتمر الصلح

يوما واحدا ثم طلب منه أن يسرع الى مقر عمله الجديد وسوف نرى أن ذلك لم يستغرق سوى الوقت اللازم لقطع الطريق من فرنسا الى مصر . واذاعت الحكومة الانجليزية بلاغا بتعيين اللورد اللنبى مندوبا ساميا فى مصر وأنها قد زودته بكافة السلطات اللازمة لاتخاذ كافة الاجراءات لاعادة الأمن الى نصابه واقتراح ما يراه من الحلول المناسبة « والعادلة » لمنع تكرار ما حدث ، واللطيف ان كلمة « عادلة » قد حذفت من النص العربى الذى أعلن فى مصر ، فدل ذلك على انها انما وضعت للتمويه واليك نص هذا البلاغ :

« ليعلم انه بالنظر الى الحالة الحاضرة المهمة فى القطر المصرى وبالنظر الى غياب فخامة نائب الملك قد تعطف جلالة الملك بتعيين فخامة الجنرال السير ادمند اللنبى نائبا خاصا عن جلالته فى مصر والسودان . ولهذا النائب السلطة المطلقة فى جميع الأمور العسكرية والملكية ، وعليه أن يتخذ الاجراءات التى يراها لازمة ومناسبة لارجاع مراعاة القوانين وحفظ النظام فى تلك البلاد ، وأن يدير ويدبر فى كل الأمور على حسب احتياج حفظ حماية جلالة الملك فى مصر على أساس ثابت وأمين » .

فى بور سعيد قتلى وجرحى :

ولندع اللنبى فى عرض البحر ريثما يصل الى مصر بعد بضعة أيام ، ونعود الى احداث الثورة فى مصر فقد كان لابد أن يكون لبور سعيد نصيبا من القتلى والجرحى وهو ما حدث يوم ٢١ بالذات حيث قامت بها المظاهرات العاصفة وكانت التعليمات الجديدة هو عدم السماح بأى مظاهرة وأعلن البلاغ عن مقتل ٧ وجرح ١٧ .

انخلاع قلب الأعيان والباشوات والقادة :

كان لنبأ تعيين اللنبى رد فعل سريع وقوى على ثلاث جبهات :

١ — جبهة الجيش الانجليزى وقائده فى مصر فقد راى أنه يتعين عليه أن يعمل بسرعة وحزم وبطش فى نفس الوقت حتى لا يتعرض لسخط اللنبى وغضبه ولذا فقد شرع بعد العدة لعمل هجوم شامل فى كل انحاء القطر فزحفت كتائبه فى القطارات المسلحة مع فرق الاصلاح ومعداته لاعادة تصـــليح ما تقطع من خطوط السكك الحديد واسلاك التلغراف بحيث لن يأتى يوم ٢٥ مارس حتى يكون الهجوم عاما وشاملا فى الوجهين البحرى والقبلى كما سوف نرى .

٢ — اما رد الفعل لدى الشعب فقد ادرك ما فى هذا التعيين من تحدى ومحاولة للارهاب فرد على التحدى بمزيد من التحدى والاصرار على مواصلة اسلوبه فى النضال ، وسوف نرى أن الفريق الوحيد الذى ظل حتى هذه اللحظة فى منأى عن الاشتراك فى الثورة فسوف يشترك فيها لأول مرة ونعنى به فريق الموظفين ، أما جماهير الشعب فى الصعيد فسوف تهاجم السفن الحـــربية الانجليزية التى ارسلت عبر مياه النيل لاخماد الثورة .

٣ ـ كانت الجهة الوحيدة التى ارهبها اللنبى وخافت من مغبته هم الكبراء والأعيان والباشوات وكل من كانت له صدارة ووجاهة فى تلك الأيام وعلى راسهم اكبر شيوخ الدين الاسلامى والمسيحى على السواء من ناحية وزعماء قادة الوفد من الناحية الأخرى . لقد قابلنا قادة الوفد هؤلاء فى مطلع الثورة وفى يوم ٩ مارس على وجه التحديد وهم ينتهرون الطلاب على تفكيرهم للقيام بمظاهرة سلمية على سبيل الاحتجاج ثم كان ما كان وأفلت من أيديهم زمام الأمـور واصبح الشعب هو المتصرف بتلقائه عجيبة فلما ان اعلن عن مقدم اللنبى كانوا هم الذين انخلعت قلوبهم فأذعوا بيانا أعدوه يوم ٢٤ مارس عرف طريقه الى الصحف بعد مقدم اللنبى ، وفى كتاب الرافعى اسماء من وقعوا البيـــان ولا ينقص الكشف الا اسم السلطان فؤاد حتى يمكن القول انه لا يوجد فى مصر كبير لم يتسابق لتوقيع هذا البيان . واليك نص هذا البيان الذى نعتبره أضعف افرازات ثورة سنة ١٩١٩ ، وهكذا اثبتت الجماهير أنها كانت تتصرف بوعى كامل وغريزة لا تخطىء حيث خطأت حسابات القادة وتقديراتهم .

« أصدرت السلطة العسكرية انذارا بأنها ستتخذ أقسى ما يكون من الوسائل الحربية عقابا على ما يقع من الاعتداء على طرق المواصلات والاملاك العمومية .

« ولا يخفى على أحد أن الاعتداء سواء كان على الأنفس أو على الأملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية ، وان قطع طرق المواصلات يضر اهل البـلاد ضررا واضحا اذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حـركة نقـل المحاصيل والأرزاق ، ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء ويسبب العسر وسوء الحال ، على أن العقاب عليه يعرض بعض القرى للتخريب ويعرض الأنفس البريئة الى أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب ، وينبغى أن يلاحظ أن مثل هذا الاعتداء يضيع على المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم بما يسبب من رواج اشاعات السوء عنهم .

« من أجل ذلك راى الموقعون على هـذا من اقـدس الواجبات الوطنيـة ان يناشدوا الشعب المصرى باسم مصلحة الوطن أن يجتنب كل اعتداء وان لا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين حتى لا يسد الطريق فى وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة .

« كما اننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيسارعوا الى اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد .

وانا شديدو الرجاء فى أن الأمة المصرية بما عرفت به من التعقل والروية تصغى الى هذا النداء وتلزم طريق الحكمة فى سلوكها والله الهادى الى سواء السبيل » .

٢٤ مارس سنة ١٩١٩ .

الموقعون :

وقد وقع على هذا النداء كما قدمنا كل ذى حيثية ابتداء من شيخ الازهر والمفتى والبطريك وشيخ مشايخ الطرق الصوفيه ورئيس المحكمه الشرعيه ، وهؤلاء بمفردهم كانوا كفيلين فى كل وقت وان أن يشـــيروا فيطاعوا فكيف اذا انضم لهم رجال من عينة حسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت وجميـــع الوزراء الســـابقين واللاحقين واعضـــاء الجمعيه التشريعية واعضـــاء الوفد وعلى راسهم شعراوى وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وحتى مصطفى النحاس الذى ســيصبح زعيما للامه فى مقبل الايام كان من بين الموقعين ولعل هذا يظهر مدى الهلع الذى ألم بهؤلاء الكبراء لمجرد سماعهم بمقدم اللنبى .

وسوف نرى أن لا مقدم اللنبى ولا هذا النداء بالذى جعل الشعب يتردد لحظة عن المضى فى طريقه فلم يكد اللورد كيرزون يلقى فى مجلس اللوردات الانجليـــزى خطـــابا عده المصريون ماســـا بهم حتى أقدموا على ما لم يكونوا قد أقدموا عليه حتى الآن وهو اضراب الموظفين ولكننا قبل أن نشـــير الى ما قاله كيرزون وما وصل الى مصر متأخرا ، نثبت أولا ما حدث يوم مقدم اللنبى الى مصر .

٢٥ مارس ــ وصول اللنبى :

وصل اللورد اللنبى الى محطة القاهرة يوم ٢٥ مارس وقد حرص قائد الجيوش البريطانية المقيم فى مصر أن يجعل هذا اليوم حاسما بحيث يستطيع أن يعلن فيه القضاء على الثورة نهائيا وعودة الأمن والنظام الى نصابيهما نهائيا فبدأ منذ الحادى والعشرين على ما قدمنا يرسل بقطاعات من الجيش الى كل مكان وعمد الى تسيير القطارات المسلحة فى صحبة فرق الاصلاح بحيث استطاع أن يعلن فى بلاغ شامل أصدره فى يوم ٢٢ مارس عن سيطرته على الموقف فيما خــلا بعض نقط اعتــرف البلاغ بأن الحالة فيها لا تزال سيئة وكانت مدينة اسيوط احدى هـــذه النقط حيث استطاعت جموع الشعب ان تتسلح باستيلائها على أسلحة مركز البوليس المصرى وهاجموا الانجليز الذين يعملون فى اسيوط وكانوا قد تجمعــوا منــذ الأيام الأولى للثورة فى بضعة بيوت متجاورة واقاموا حولهم المتاريس وتحصنوا فى حماية بعض الجنود الانجليز ولكن الشعب الذى سلك منذ اليوم الاول مسلكا عنيفا حتى لقد بادر بحرق أكبر تجمع للتبن الذى كان الجيش الانجليــزى يســتولى عليه لســد حاجاته وكان هذا التبن يكبس بالآلات فى أسيوط تسهيلا لنقله فما كان من الجماهير الساخطة الا ان اشعلت النار فى هذا التبن فظلت تشتعل لعدة ايام فكان منظر النار مخيفـــا .

فلا عجب وهذا مسلك شعب مدينة اسيوط ان يقرروا الاجهاز على الانجليز فى أسيوط فكان استيلاؤهم على الأسلحة على ما أشرنا وزحفهم على الانجليز المتحصنين وكادوا ان ينجحوا فى الوصول اليهم فقد تخطوا خط التحصينات الأول وأوشكوا على

اختراق خط التحصينات الأخير لولا ان كانت النجدات التى ارسلت من القاهرة عن طريق النيل على ظهر المراكب الحربية وصلت فى الوقت المناسب فأمكن انقاذ الانجليز وتسفيرهم للقاهرة ولعله لا يظهر مدى الخطورة لتطور الثورة ودخولها مرحلة جديدة اكثر من تسجيل ما تعرضت له هذه السفينة الحربية قبل وصولها الى اسيوط حيث تعرضت لهجوم الجماهير عليها فى ثلاث نقاط وطبعا كان من المتعذر ان ينال هجوم عشوائى باخرة مسلحة بكل انواع الأسلحة وممتلئة بالجنود وهى فوق ذلك كله فى عرض النيل ولا عجب ان تكبد المهاجمون الخسائر الفادحة ، ولكن العجب ان يتكرر هذا الهجـــوم مثنى وثلاث وأن يعرف من بين القتلى موظف انجليزى كبير وأخفى الانجليز خسائرهم من الجنود .

فى الوجه البحرى والجيزة :

وحيث كانت هذه الحركات تجرى فى الصعيد لاعادة الأمن ، فقد عمد الانجليز فى الشمال ليس فقط لاعادة الأمن بل للانتقـــام والارهاب فسارت القطارات الانجليزية المسلحة تقتل العشرات لأوهى الأسباب بحيث قتلت فى ميت قرش وميت غمر بحجة انضمامهما لحكومة زفتى مائة قتيل بخلاف الجرحى الذين لم يعن البلاغ الصادر هذه المذبحة باحصائهم واكتفى بالاشارة اليهم مع القتلى ، واليك نص هذا البلاغ لأنه يحمل فى طياته تصويرا للاحداث فى هذه الفترة :

« حدث فى جوار ميت غمر وهى التى ذكرت أمس انها لا تزال مع زفتى وميت القرش مركزا للتمرد والفتن ان قطارا كان يشتغل باصلاح الخط يوم ٢٢ الجارى فجعله الغوغاء بمعزل بقطع الخط من امامه ومن خلفه ووصل الى مكان الحادث لاسعافه قطار مسلح لاسعافه يوم ٢٣ الجارى فهاجمه المشاغبون بدوره ولكنهم تكبدوا خسارة تزيد على مائة من القتلى والجرحى » .

العزيزية والبدرشين :

على أن أشنع حركات القمع التى ارتكبها الانجليز فى هذه الفترة هو ما حدث فى بلدتى العزيزية والبدرشين من أعمـــال مديرية الجيزة مما اعتبر فضيحة للجيش الانجليزى الذى هجم على اهالى البلدتين فى جنح الليل وفعل بهما الأفاعيل ممـــا سنعود الى ذكره فى شهر ابريل عندما نعرف هذه الحادثة وتشيع عندما سجلها مدير الجيزة آنذاك (حمدى سيف النصر) فى محضر رسمى ارسله الى الجهـــات المختصة على سبيل الاستنكار والاحتجاج .

شخصية اللنبى :

هكذا تصور قائد الجيش البريطانى فى مصر أن يكون مقدم اللنبى الى مصر دمويا وان يكون مجرد وصوله ايذانا بسحق الثورة المصرية ولكن الأمر المحقق والذى لاشك فيه ان الأمور لا تجرى فى هذه الدنيا وفق ارادة البشر وانما وفق ارادة علوية سماوية هى التى تريد وتسير الأمور وفق ارادتها هى لا ارادة البشر وانما تنفذ ارادة البشر

افرادا او جماعات عندما تكون متفقة مع هذه الارادة الربانية . وآية ذلك ماحدث في موضوع اللنبى فقـــد اختير هو بالذات من دون الانجليز اجمعين لارهاب المصريين لا لأمجاده وشهرته العسكرية فحسب ، وانما لما اشتهر عنه من فظاظة ، ناذا بهذا الانجليزى يكون هو الشخص الانجليزى الوحيد الذى يقف الى جوار المصريين بشرف واستقامة فلا يستخدم العنف الا كارها ، وعندما تقع الأعمال الوحشية من الجنود كما اعتادوا لا يتردد عن اعلان اسفه واعتذاره علنا ، ولم تمض ايام على مقدمه الى مصر حتى اقدم على الاجراء الذى كان بمثابة تكريس للثورة وتتويجا لها ونعنى بهذا الاجراء الافراج عن سعد زغلول وهى اللطمة المدوخة التى أصابت الهيبة البريطانية فى الصميم كما سوف نرى ، وسيكون هو فى خاتمة المطاف من يجعل لثورة سنة ١٩١٩ نهاية ناجحة باعلان استقلال مصر ، كل ذلك فعله اللنبى كعسكرى شريف كلفته بلاده بأداء مهمة محدودة فنفذها بأمانة وظل متمسكا بالأمانة حتى النهاية لا يعرف مراوغة الساسة او نفاقهم وقد حدد هذه المهمة بنفسه منذ اليوم الأول لوصوله .

٢٦ مارس ـ مهمة اللنبى كما حددها :

استدعى اللنبى غداة وصوله عديدا من الكبراء والأعيان وألقى امامهم التصريح التالى بالانجليزية وترجمه السكرتير الشرقى الى العربية (ربما لأول مرة) واليك نص التصريح :

« لقد تعطف جلالة الملك بتعيينى نائبا عن جـلالته فى مصر ، ورغبتى وواجبى يقضيان على بأن أساعد على اعادة السلام والأمن والراحة الى البلاد ، ولى اغراض ثلاثة ، وهى :

أولا : أن أضع حدا ونهاية للاضطرابات الحالية .

ثانيا : أن أعمل تحريات دقيقة فى جميع الأسباب التى حملت أهل البلاد على الشكاوى .

ثالثا : أن ازيل كل الشكاوى التى تستوجب العدالة ازالتها .

« وأن فى استطاعتكم انتم أن تقودوا الشعب المصرى ، والواجب يقضى عليكم أن تعملوا معى لمصلحة بلادكم ، ولست أظن أن أحدا منكم يحجم عن مساعدتى بكل ما فى طاقته لأدرك الأغراض التى اسعى اليها وانى مستعد ان القى اتكالى عليكم لتبدؤا بالعمل حالا بقصد تهدئة الخواطر المنهجية الآن .

« وبعد اعادة الأمن الى البلاد فان لى ملء الثقة بأنكم تعتمدون على بأن انظـر بلا محاباة فى جميع اسباب الشكاوى ، وبأن اوصى باجراء كل ما يلزم لســعادة الشعب المصرى وراحته .

ولعل القارىء يلاحظ ان التصريح قد خلا من أى عبارة يشتم منها التهـــديد والترويع وانه على العكس من ذلك قد تضمن الفاظا جديدة طيبة،ولاشك ان المصريين

لم يتخيلوا أن يكون اللنبى بالذات هو أول انجليزى يعنى ما يقول ويرى شرفه منوطا بصدق كلامه وعندنا ان اللنبى دون أى انسان آخر هو الذى يمكن أن يقف مثل هذا الموقف الكريم وهو الأمر الذى لم يتبينه الذين ارسلوه فالرجل كان قد وصل الى قمة المجد العسكرى بحيث لم يعد فى حاجه الى المزيد منه بقتل أبرياء ضعفاء .

وفى سلم المناصب كان مرشحا للحصول على اعظم رتب الجيش وسيحصل عليها بعد بضعه أشهر (يوليو) واعنى بها رتبه « الفيلد مارشال » واذا كان المطلوب هو خدمة الامبراطورية فالرجل ليس اقل من أى انجليزى مهما كبر حرصا على هذه المصلحه وفهما لها ، وللرجل باعتباره عسكريا عظيما اجتهاده وقد ادى به هذا الاجتهاد ان ما يحقق مصلحة الامبراطورية هو محاسنة المصريين وكسب مودتهم وليس بتأصيل العداوة فى نفوسهم .

وبالطبع لم يكن هذا فى حساب لندن من ناحية ، ولم يتصور المصريون ان اللنبى واللنبى بالذات سيكون هو الرجل الذى يعطف على امانيهم ويحاول أن يقابلهم فى منتصف الطريق ، أما أن ما كان اللنبى يعتزمه فقد كان خارجا عن حسابات لندن فينجلى ذلك فى خطاب ألقاه اللورد كيرزون ، رئيس ما يسميه الانجليز « المجلس المخصوص » وقد القى الخطاب فى مجلس اللوردات وجاء منطويا على كل الغرور والصلف الانجليزى والروح الاستعمارية مما سوف يضم الى السخط العام طائفة الموظفين كما سوف نرى ، ولا بد ان يكون هذا الخطاب قد أثار فى نفس اللنبى نفسه الاشمئزاز فقد كان أول تصرف أشار به يناقض على طول الخط ما قاله كيرزون معبرا عن رأى الحكومة الانجليزية وخطتها وعندنا ان هذا الخطاب يمثل التحدى الذى اعلنته الامبراطورية الانجليزية فى وجه الشعب المصرى فلم ينخلع قلبه ومضى فى تأكيدارادته واليك نص خطبة كيرزون :

خطبة كيرزون عن مصر :

وردت الأنباء البرقية من مجلس العموم بلندن أن اللورد كيرزون صرح فى المجلس بأقوال بشأن الحالة فى مصر أكد فيها أن الأخبار الواردة منها تدل على أن الحالة أقل خطورة من ذى قبل . ثم أطرى موظفى الحكومة المصرية ورجال البوليس والجيش لاخلادهم الى السكينة وحسن سلوكهم فى أثناء هذه الاضطرابات . وقال ان هؤلاء هم صفوة المتعلمين من الأمة واستشهد بسلوكهم على أن عقلاء الأمة لم يشتركوا فى هذه الاضرابات والاضطرابات . ثم أبدى أمله فى أن الأعيان الذين يشعرون اكثر من سواهم بما قدمه الانجليز لهم من الخدمات يبذلون ما فى وسعهم لتهدئة الحالة .

ثم قال : « بودى أن أبين حقيقة نقطة ربما كانت سببا لسوء التفاهم الا وان حكومة جلالة الملك لم تبد قط أدنى معارضة أو سوء نية نحو مجىء اثنين من الوزراء المصريين وهما رشدى باشا وعدلى باشا الى انجلترا . بل على النقيض من ذلك . فان وجودهما هنا يقابل بمنتهى الرضا والارتياح وانى شخصيا احترم هذين الرجلين

السياسيين اللذين قدما لمصر وللامبراطورية ، مدة الحرب خدمات ذات قيمة . وان الطلب الذى عرض عليهما فى نهاية السنة الماضية بالرغبة فى تأجيل زيارتهما لهـذه البلاد مدة ، لم يكن مبنيا الا على اعتبار انه فى مدة اجتماع مؤتمر الصلح لا يمكن العناية الكافية ببحث المسائل المهة الخاصة بعلاقاتنا المستقبلة بمصر . وبالاصلاحات الدستورية المرغوب فيها فى البلاد . كما انه لا يمكن اعطاء هذه المناقشات الوقت اللازم لها .

« ولا يسعنى الا تكرار القول بأن زيارة هذين الوزيرين أو سواهما من رجال السياسة المصريين الذين يكونون مزودين بتحمل المسئولية العموميـة كانت تقابل ، وسوف تقابل كذلك ، بملء الرضا والارتياح .

واننا نرى دائما انه من أهم الأمور أن نتفق واياهم على تحديد الشـكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الأيام . »

ثم عطف على القول بأن « الحال مع سعد زغلول باشا تختلف كل الاختلاف عنها مع هؤلاء لانه هو وأعوانه هم الذين دبروا هذه الاضطرابات . وهم قوم غيرمسئولين. وغرضهم طرد الانجليز من مصر .

وقد اختاروا وقت انعقاد مؤتمر الصلح بباريس موعدا للقيام بهـذه الحركة الثورية فلا سبيل للمناقشة معهم » .

ملاحظات على خطبة كيرزون

ويهمنا أننتوقف قليلا أمامخطبة كيرزونلنراه يركز على الهجوم على سعدزغلول ويعتبره عدو بريطانيا الذى يكيد لها وانه تعمد احراج بريطانيا فى وقت انعقاد مؤتمر الصلح بالذات ويشير الىالحماية باعتبارها مسألة لا رجعةفيها وليست محلا للناقشة وانما المناقشة الجائزة هو ماذا يمكن عمله داخل نطاق هذه الحماية . الأمر الوحيد يمكن أن يعده الانسان تراجعا فى السياسة الانجليزية هو التحدث بحرارة عن حسين رشدى وعدلى يكن والاشادة بخدماتهما ومحاولة الاعتذار عن عدم استقبالهما عندما أبديا الرغبة فى ذلك ويؤكد أن الحكومة الانجليزية ترحب بهما فى كل وقت وآن .

وليس أدل على التطور الخطير الذى حدث فى مصر ، ان حسين رشدى وعدلى لم يسرعا بالاستجابة لهذا التملق والاشادة بهما فيقبلا تشـكيل الوزارة التى كانت خالية ، ولا بد أنهما اشترطا شروطا صعبة ، ولما شكلاها فيما بعد كما سوف نرى فقد حملتهما هذه الدنيا التى كانت قد تغيرت على الاستقالة قبل انقضاء شهر واحد على تأليف الوزارة كما سوف يجىء .

اعلان الموظفين عن عزمهم على الاضراب :

نشر خطاب كيرزون صبيحة ٢٧ مارس فشعر الموظفون بما ينطوى عليه من المهانة لمشاعرهم الوطنية فقد فسر كيرزون موقفهم بأنه اعلان عن عدم تضامنهم مع بقيـــة طوائف الأمة رضا منهم بالحماية ولما كان هذا أبعد الأشياء عن تصورهم فقد قرروا أن

يكتبوا عريضة للسلطان يعلنون فيها تضامنهم مع باقى طوائف الأمة فى الاحتجاج على استمرار الحماية ومطالبتهم بالاستقلال التام وأن يضربوا لمدة ثلاثة أيام كرمز على هذا التضامن . ورفعوا عريضتهم الى السلطان فى قصر عابدين يوم الثلاثاء أول ابريل وبدأ الاضراب عمليا فى اليوم الثانى من ابريل ولكنه ظـــل جزئيا ولم يكد يوم الخميس ٣ ابريل يحل حتى كان الاضراب عاما وشاملا وكان المفروض ان الثلاثة أيام تنتهى يوم الأربعاء ، ولكن الحماسة التى استقبلت بها البلاد اضراب الموظفين وعودة الطوائف الأخرى الى الاضراب وتجدد المظاهرات العارمة واصـــطدامها بالسلطات ووقوع العشرات من جديد ما بين قتيل وجريح ، كل ذلك جعل الموظفين يمدوا اضرابهم .

السبت ٥ أبريل ــ اجتماع فى مسجد طولون :

يعتبر الاجتماع الحاشد الذى لم يسبق له مثيل والذى عقد فى مسجد ابن طولون هو ذروة ما وصلت اليه الأحداث فى ابريل سنة ١٩١٩ سواء بالنسبة للظروف التى سبقته أو عاصرته أو لحقته فى اليوم التالى ونقول اليوم التالى على التحديد ذلك لأنه بعد ذلك حدث الواقع الجديد الذى أقدم عليه اللنبى وهو الافراج عن سعد فانقلبت عوامل الاحتجاج والسخط الى مظاهر الفرح والابتهاج .

مظاهرات عارمة :

قدمنا ان أضراب الموظفين كان بمثابة تأجج النار من جـــديد فأغلقت المتاجر أبوابها وتوقفت الطوائف كلها عن العمل ولما كانت المواصلات من قبل معطلة وأضيف الى ذلك كله أن أصبحت دواوين الحكومة مهجورة ، فقـــد خرج الناس جميعا الى الشوارع وسرعان ما أصبحوا كتلة بشرية تسير فى مظاهرة متصـــلة واحدة لفرط ضخامتها تبـــدو ثابتة مع انها فى حقيقتها متحركة وحسبنا ان نثبت نص البلاغين العسكريين اللذين صدرا فى مساءى ٣ ، ٤ ابريل لكى نأخذ فكرة عما كان يقع فى مصر من أحداث وصلت ذروتها فى اجتماع ابن طولون كما قدمنا :

« اجتمع اليوم (الخميس ٣ ابريل) جمهور من الغوغاء المخلين بالراحة والنظام فى جوار ميدان عابدين وفى شارع محمد على بالقاهرة وقد قتل المستر ديكسون الموظف بالسكة الحديدية المصرية برصاصة بندقية فى ميدان عابدين فى الساعة الحادية عشرة وقتل الغوغاء يونانيا فى شارع محمد على فى الساعة الثانية واطلق الرصاص من منزل فى ميدان عابدين فأفضى الى وقوع اضطراب جـــديد احرق الغوغاء فى خلاله المنزل المذكور وقد أعيد النظام فى الساعة الثالثة بعد الظهـــر ووردت الأنباء بوقوع بعض خسارة من القتلى والجرحى والمعروف الى الآن أن ستة قتلوا وان عددا معينا من الناس جرحوا ولكن لم تصل التفاصيل بعد » .

وجاء فى بلاغ اليوم التالى ما يأتى :

« اضطرت الدوريات فى خـــلال الاضطرابات التى وقعت أمس (٣ ابريل) فى القاهرة ان تطلق النار بضع مرات بسبب الخطة العدائية التى سلكها الغوغاء ويرجع

الفضل فى تحديد الخسارة الى نظام الجنود وضبط أنفسهم وقد أثبت ولاة الأمور من رجال البوليس الآن ان تسعة قتلوا و ٥٦ جرحوا بعضهم بجراح بليغة والآخرون بجراح خفيفة ويعزى عدد معين من هذه الخسارة الى العمل الذى قام به أحد السكان فى عابدين فانه اطلق الرصاص جزافا . واستتبت السكينة اليوم (الجمعة) فى القاهرة وتولت السلطة العسكرية أعمال التلغرافات نظرا لاعتصاب مستخدمى التلغرافات فأمكن المحافظة بذلك على القيام بخدمة الجمهور الى درجة محدودة » .

ولعله قد اتضح الآن من هذين البلاغين صورة القاهرة ، ولقد كان المفروض كما قدمنا أن يعود الموظفون الى أعمالهم بعد انتهاء مدة الاضراب التى حددوها وهى ثلاثة أيام ولكن الذى حدث أن حماسهم تزايد واصرارهم على التحدى تضاعف فدعوا الى عقد اجتماع بمسجد ابن طولون مساء السبت ٥ ابريل وقد كانت الاجتماعات تعقد قبل ذلك فى الأزهر الذى تحول كما هو شأنه دائما الى بؤرة ثورية ولكن الانجليز كانوا قد ضيقوا الخناق عليه وحاصروه بعرباتهم المسلحة وذهبوا الى حد أن طلبوا اغلاقه فرفض شيخ الأزهر (أبو الفضل الجيزاوى) وظل مصرا على الرفض حتى بعد أن حددوا طلبهم بأن يكون الاغلاق فى غير مواعيد الصلاة . وهكذا ظل الأزهر مفتوح الأبواب ومع ذلك فقد أملت الروح الثورية التى تملكت الجماهير ان يكون اجتماع الموظفين فى مسجد بن طولون والذى يقع فى موقع يصعب على سيارات الجيش الانجليزى اقتحامه وخاصة بعد أن حفروا الخنادق فى الطريق المؤدى اليه وهكذا كانت الجماهير فى أقل من شهر قد بدأت تتمرس على خطط الدفاع .

واحتشدت عشرات الألوف فى مسجد ابن طولون ولما كنا من سكان حى طولون آنذاك فقد اصطحبنى اخواى معهما فاشتركت فى هذا الحشد التاريخى الذى يعتبر بحق أحد معالم ثورة ١٩١٩ وتوالى الخطباء والشعراء مسلمين وأقباط على السواء وكان التفكير يدور حول أن يؤلف الموظفون لجنة دائمة تتولى الاشراف على اضرابهم وتنظيمه وعمل كل ما من شأنه أن يزيد فى فاعليته . وهذه هى اللجنة التى تزعمها فيما بعد على ماهر باشا وقد حدثنى بعد ان تعارفنا بعد ذلك بعدة سنوات ، كيف أبلغوه أنه حكم عليه بالاعدام فقال لمبلغه فى هدوء وثبات « هذا فيما يختص بى فماذا عن مطالب الأمة التى تقدمت بها لجنة الموظفين ؟ » .

كيف انتقم الانجليز :

ونعود الى موضوع الاجتماع فى مسجد ابن طولون فقد فوجئت سيارات الانجليز المدرعة بالخنادق والمتاريس تسد عليهم الطريق واذ كانت الدنيا ليلا فقد خشوا من عواقب المجازفة فارتدوا خائبين ، وهكذا مضى الاجتماع العظيم دون أن يعكره معكر وكان هذا يعد انتصارا عظيما .

وجاء الانجليز فى الصباح المبكر ورابطوا الى جوار الخنادق والمتاريس وراحوا يجبرون كل عابر سبيل تحت تهديد السلاح ان يعمل فى ردم الخنادق وازاحة العوائق التى تكون المتاريس .

واللطيف انهم لم يستثنوا احدا ابدا وهكذا اشتغل أخواى فى عملية الردم وكذلك أبى الذى رأى انه مما لا يتفق مع الوقار أن يحدثنا عن تفصيل ما حدث وكل الذى علمناه من والدتى أن العسكرى الانجليزى أشهر عليه البندقية عندما حاول ان يمتنع .

٦ ابريل ــ جنازة بن القباقيبى :

وكان من المستحيل ان يمر ما حدث فى طولون بغير واقعة تخلده وتهز البلاد هزا فقد حدث فى اليوم السابق عندما تسامع الانجليز بنبأ اشتغال الأهالى باقامة المتاريس وحفر الخنادق أن اسرعوا ليوقفوا هـــذه العملية فما كان الا ان رجمهم الجمهور بالحجارة وطبعا رد الانجليز بالرصاص فجرح من جرح وسقط صبى (١٠ سنوات) كان أبوه صانع قباقيب ، فاشتهر الولد «بابن القباقيبى» وأقيمت له جنازة فى يوم ٦ ابريل من أروع وأشهر ما أقيم من جنازات فى ثورة سنة ١٩١٩ وقد ظللنا عدة سنوات نمر أمام « الربع الكبير » الذى كان يقطن فيه القباقيبى والد الشهيد فى شارع « الركبية » ولا حديث لنا الا عن ابن القباقيبى وجنازة ابن القباقيبى . وقد صدر بلاغ عسكرى فى يوم ٦ ابريل يشير الى مقتل هذا الصبى ويسجل الأسف لوقوع الحادث :

« فى ٦ ابريل ان جمهورا معاديا هجم صباح أمس على داورية فى حى السيدة زينب فاضطرت الى اطلاق النيران وقد قتل لسوء الحظ ولد فى العاشرة او الثانية عشرة من عمره كان بين الجماهير » .

٧ ابريل ــ انتصار الثورة ــ الافراج عن سعد :

وانتصرت الثورة والفضل دائما لله ثم للتضحيات الجسيمة التى قدمها الشعب المصرى ولكن الله سبحانه وتعالى يمارس مشيئته من خلال الأسباب ولا شك عندنا انه على رأس هذه الأسباب شخصية « اللنبى » والذى أبرق لحكومته بعد أقل من أسبوع من وصوله الى مصر يقترح أو بالأحرى يطلب الافراج عن سعد زغلول باعتباره مفتاح الحال الموقف وقد أسقط فى يد الحكومة البريطانية على ما أخبرنا كيرزون فيما بعد فى خطاب ألقاه فى مجلس اللوردات ويفهم منه أن الحكومة البريطانية استجابت على مضض لهذا الاقتراح اذ كان من غير المعقول على ما قال كيرزون ان نرسل اللنبى الى مصر وان نزوده بالسلطات المطلقة لعمل كل ما يراه مناسبا ثم نرفض أول اقتراح يتقدم به الينا . هذا هو نص كلام كيرزون لقــد أرسلت الحكومة الانجليزية اللنبى وخولته ان يفعل أى شىء وفى ذهنها أن « أى شىء » هذه تعنى قتل الالوف من المصريين وكان آخر ما تتصوره أن يكون « أى شىء » هذه تعنى المطالبة بالافراج عن سعد ، ومن هنا لم تستطع وانفها راغم الا أن تلبى الطلب ووصلت موافقة لندن فيما يبدو يوم ٦ ابريل بعد الظهر فأسرع بابلاغ الخبر الى السلطان فؤاد الذى رأى أن يتقرب للشعب بهذه المناسبة السعيدة فأذاع منشورا فى مساء ٦ ابريل سنأتى على نصه وقــد خلا

البيان من أى اشارة للافراج عن سعد فقد ترك اذاعة النبأ للنبى ولكن البيان كان يفيض بعبارات من البشر والتفاؤل والتودد للشعب مما جعل الجميع على ما يقول عبد الرحمن الرافعى يتوقعون أمرا سعيدا وان لم يعرفوا ما هو . وفى يوم ٧ ابريل اذاع اللنبى النبأ على الأمة وبلغ من لهفته لاحاطة الأمة علما بالنبأ السعيد أن جعل الطائرات تلقى المنشورات المتضمنة للنبأ فى أنحاء البلاد .

عبد الرحمن الرافعى واللنبى :

نستبعد جدا ان لا يكون عبد الرحمن الرافعى قد قرأ الكتـــاب الابيض الذى أصدرته الحكومة الانجليزية بمناسبة تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى اعلن الغـاء الحماية واعلان استقلال مصر والجهود التى بذلها اللنبى للوصول الى هذه النتيجة بل نقطع انه طالع هذا الكتاب بدليل انه اشار الى ابراق اللنبى فى يوم ٣١ مارس الى حكومته ناصحا لها بالافراج عن سعد وما كان لعبد الرحمن الرافعى ان يعلم بهــذه الواقعة الا من خلال اطلاعه على الكتاب الأبيض المذكور ولكن عبد الرحمن لأســباب نفهمها تماما ونقدرها كل التقدير ، فقد كانت مصر لا تزال فى نضالها ضد الاحتلال الانجليزى (١٩٤٦) ومن هنا فلم يشأ أن يختص اللنبى بأى ميزة خاصة واعتبر ما حدث هو سياسة الحكومة الانجليزية وانها رأتأن تعدل عن مواجهة الثورة وأن تهادنها مع أن هذا كان أبعد الأشياء عن تفكيرها كما سوف يتضح من تصرفاتهـا المقبلة ، فالافراج عن سعد هو تفكير اللنبى خاصة لم توافق عليه الحكومة الانجليزية الا كارهة وما كانت لتوافق لولا شخصية اللنبى الكبيرة وكونه أحرجهم بهذا الطلب اذ فوضوه قبل ارساله بعمل اى شىء يراه لمعالجة الموقف ، وسوف نســجل بعض آراء كبار الانجليز وكيف ظلوا يعتبرون الافراج عن سعة غلطة لا تغتفر حتى بعــد انقضاء سنوات عديدة كان اللنبى قد مات أثناءها ولكننا قبل ان نثبت آراء الانجليز فيما اعتبروه غلطة من اللنبى نثبت اولا منشور السلطان الذى هيأ الأذهان عشـية ٦ ابريل لترقب سماع نبأ طيب ثم النبأ الطيب كما اذاعه اللنبى فى اليوم التالى :

منشــور الســلطان :

« انى انشر بين قومى هذه الكلمات التى كانت تختلج بصدرى من الوقت الذى أخذت تتوارد الى فيه ملتمسات الأمانى القومية نحو مستقبل البلاد ، وانى بالطبع لا أعنى بالبلاد الا بلادنا المباركة ، لا أعنى بالبلاد الا وطننا العزيز ، هذا الوطن الذى اقتضت حكمة الله ان يكون جدى الأكبر محمد على الكبير اكرم الله مثواه صـاحب عرشــــه . .

« جلس جدى رحمه الله على عرش مصر والوقت عصيب والفتن سائدة والقوم فى شقاء ، بين ظلم الحكام وظلمات الجهالة ، فتعب فى راحة الوطن العزيز وســـهر على أمنه وسعادته ، ونشر فى أرجائه رايات العدل وانوار العرفان ، فضرب لنـــا بذلك مثلا شريفا لا يجدر بنا ان نضل بعده ابدا .

« فكلما شعرت بدم هذا النابغة العظيم يجرى فى عروقى اشعر بمحبة هـــذا الوطن العزيز الذى لا نرضى نفسى بأن يكون محبوبا لغيرى أكثر منى فيزداد اهتمامى بما يعود عليه من الخير والسعادة بعون الله » ولمـا كنت عاملا على هـــذا المبدأ الشريف بكل ما فى وسعى فانى اطالب ابنائى المصريين بما لى من حق الابوة عليهم أن يتناصحوا بعدم الاستمرار على المظاهرات التى كانت عواقبها غير محمودة فى بعض الجهات وأن يخلدوا الى الراحة والسكون وانصراف كل الى عمله ؟ وهـذه هى يد المساعدة التى اطلبها منهم « وأسأل الله القدير ان يمدنا فى جميع أحوالنا بتوفيقـاته الصمدانية وان يهيىء لنا فى أعمالنا من أمرنا رشدا . »

القاهرة فى ٥ رجب سنة ١٣٣٧ ـ ٦ ابريل سنة ١٩١٩

(فؤاد)

منشـــور اللنبى :

« الآن وقد عاد النظام بنجاح عظيم ، فبالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة اعلن أنه لم يبق حجر على السفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية ، وقد قررت علاوة على ذلك ان كلا من ســـعد زغلول باشـــا . واسماعيل صدقى باشا . ومحمـد محمود باشا . وحمد الباسل باشا . يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر ..

٧ ابريل سنة ١٩١٩

نائب جلالة الملك الخاص

أ . هـ . هـ . اللنبى

ماذا قال الانجليز عن الافراج عن سعد :

والآن فلننقل لك بعض عبارات صرح بها الانجليز تعليقا على هذا التصرف ونحن الآن وبعد أن خرج الانجليز من مصر لم نعد نشعر بما كنا نشعر به من حرج ونحن نكافحهم ، واحسب انه من حق اللنبى على التاريخ ان يسجل له انه كان انجليزيا شريفا قال ممثل لوزارة الخارجية الانجليزية بعد صدور القرار : « وعلى ذلك فقد حقق اسبوعان من العنف ما لم تحققه اربعة شهور من الاقناع ولن ينسى قط مغزى هذا الدرس لا فى مصر ولا فى أى مكان آخر من الشرق » .

وكتب بريطانى مقيم فى مصر وله بها معرفة طويلة : « ان اعلان ٧ ابريل كان له وقع القنبلة علينا فمن حيث توقير مركز بريطانيا وسلامته يعتبر عمل اللنبى هـذا احدى المصائب اذ بات على من كانوا قبل ذلك مستعدين للوقوف بجانبنا أن يذهبوا الى الجانب الآخر حماية لأنفسهم » .

وقال جورج لويد (١) فى كتابه « مصر منذ كرومر » وقد نشر بعد ذلك الوقت بزهاء اربعة عشر عاما « ان من الصعب تبرير هذا الاستسلام بعامل الفوضى فمهما بدا نفى الزعماء وعدم السماح لهم بالسفر غير حكيم أو بدا ظالما فان نقض هـذا القرار وفى مثل تلك اللحظة كان له من المؤكد تفسير واحد وتفسير واحد فقط هو ان القوة نجحت حيث فشلت الطرق الدستورية » .

وقال الجنرال ويفل قائد القوات البريطانية فى مصر ابان الحرب العالمية الثانية ما كشف النقاب بوضوح عن موقف الحكومة البريطانية من اقتراح اللنبى الافراج عن سعد وذلك فى كتابه عن اللنبى ، قال :

« وابرق اللنبى فى ٣١ مارس ولما يمض عليه اسبوع الى الوطن ينصح باطلاق سراح زغلول وزملائه والسماح لهم بالسفر الى أوربا فكانت هذه التوصية منه صدمة للحكومة البريطانية . لقد ارسلوا رجلا قويا ليخضع لهم شعبا عاصيا فكان أول اقتراح قدمه لهم تساهلا سبق ان رفضوا مرتين وراحت وزارة الخارجية تستشير ونجت الذى سبق أن أشار عليهم بهذا السماح عاد الآن يلح فى تذكيرهم بأن أى تساهل فى الظروف الراهنة سيعد ضعفا منهم لا يليق . ولكن من الصعب على الحكومة البريطانية أن تتغاضى عن نصيحة الرجل الذى أعطته كل السلطات التامة لمعالجة الموقف فوافقت على اقتراحه على مضض » .

لماذا كان هذا الاجراء نجدة للثورة :

والآن حان ان نتساءل لماذا اجمع الانجليز على ان الافراج عن سعد يعتبر كارثة على سياستهم ولماذا قبلته وزارة الخارجية على مضض ذلك انه مهما قيل فى قدرة الشعب المصرى على التضحية والفداء فقد كان مصير ثورته ان عاجلا أو آجلا الى الخمود فما كان بقدرة شعب اعزل أن يمضى فى مجابهة أقوى قوة عسكرية الى ما لا نهاية وقد رأينا أن زعماء مصر وقادتها وكبراءها قد بدأوا يعترضون على استمرار الأحداث التى شهدتها البلاد وراحوا يدعون الشعب الى الهدوء والسكينة والاخلاد الى القانون والنظام والذى كان سوف يحدث هو اقتناع الكثيرين بأنه لاجدوى من هذه الاعمال فليس من المعقول ان تنثنى ارادة انجلترا سيدة البحار والتى لا تغيب عن امبراطوريتها الشمس ، محال ان تنحنى ارادة انجلترا هذه امام الشعب المصرى ، وفجأة تم هذا الاجراء اجراء الافراج عن سعد ، سعد الذى اعتقلته انجلترا لمجرد انه تحداها وراح يناقش مبدأ الحماية ، فها هى ذى تفرج عنه وتسمح له بالسفر الى حيث ينعقد مؤتمر الصلح بعد ان اتضحت ارادة مصر كلها ليس فقط فى الغاء الحماية بل وفى المطالبة بالاستقلال التام وزادت على ذلك كله ان تحدت انجلترا الى حد الهجوم على رجالها وقتل من استطاعت قتله .

---

(١) المندوب السامى الذى خلف اللنبى .

فالافراج عن سعد زغلول بعد ذلك لا يعنى الا أن ارادة الشعب المصرى هزمت ارادة الحكومة الانجليزية — وهو درس وعاه الشعب المصرى فى عمق فلن يلبث أن يكرره فى وجه لجنة ملنر عندما قاطعها هذه المقاطعة العجيبة التى أذهلت الانجليز وكررها مرة ثالثة عندما انتهى الأمر بانصياع انجلترا نهائيا لارادة مصر فأعلنت الغاء الحماية واعترفت بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وسوف يقابلنا اللنبى مرة أخرى متبينا وجهة نظر المصريين وكما قبلت وزارة الخارجية مشورته للافراج عن سعد على مضض فسوف تقبل مشورته الثانية على مضض أشد تحت التهديد بالاستقالة .

لماذا وقف اللنبى هذا الموقف :

والسؤال الذى يفرض نفسه لماذا وقف اللنبى هذا الموقف أهو أقل اخلاصا للامبراطورية الانجليزية أو تمسكا بها عن أى انجليزى آخر ؟

والجواب بالنفى لقد فعل ما فعل من أجل الحفاظ على الامبراطورية التى قاتل وانتصر من أجلها . ان المسألة عنده لم تكن قتل أكبر عدد من المصريين فذلك أمر سهل وميسور على من هو أقل شأنا منه وقد رأينا بالفعل ان الجيش بدأ يسيطر على الموقف وبدأت عملية اصلاح السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبالتالى ارجاع النظام وهيبة القانون . فقمع المصريين لم يكن يشكل مشكلة عسكرية ولانجلترا فى مصر مائة الف جندى أو يزيدون ، ولكن المشكلة هى فى اعادة الثقة الى المصريين فى الانجليز وحسن نواياهم واكتساب ثقة الفلاحين « أصحاب الجلاليب الزرقاء » الذى اعتاد كرومر وكتشنر على غرارة ، ان يتودد اليهم وان يقنعهم بأن انجلترا تعمل على حمايتهم وتأمين مصالحهم ، لقد انتهى هذا فى لحظة وأصبح كل من فى مصر فلاحون وعمال وطلاب وموظفون يتنافسون فى التعبير عن كراهيتهم للانجليز ولم ير اللنبى أى فائدة للمحافظة على مصالح الانجليز فى ذلك الا أن يكون الغرور والعناد فى حمق وهنا تجلت حكمة القدر فى أن يكون اللنبى بالذات هو الذى يعالج هذا الموقف فليس هناك ما يدمر القائد اكثر من ان يكون مغرورا أو عنيدا فقد يتعين على القائد الحصيف أن يتراجع عن بعض المواقف التى يكون ضررها أكثر من نفعها ، وهو ما فعله اللنبى فلم ير بأسا فى التراجع وسوف نرى أن أعتى السياسيين « اللورد ملنر » سيسير فى هذا الطريق فاللورد اللنبى وقف وقفته انطلاقا من حرصه على مصالح الامبراطورية ولا شك عندنا انه مد فى عمر الاحتلال البريطانى ثلاثين سنة أخرى الى ان زال عام ١٩٥٢ ومع يقيننا بذلك فان هذا ما كان يحول بيننا وبين ان نسجل لرجل شريف شرفه واستقامته ، تماما كما فعل مصطفى كامل فقد وقف طول حياته لكرومر بالمرصاد وألب عليه الدنيا كلها عقب فضيحة دنشواى حتى اضطرت انجلترا وأنفها راغم أن تسحب رجلها الكبير من مصر فما كان من مصطفى كامل على ما اثبتناه فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، الا أن سجل الرجل نزاهته وترفعه عن استغلال النفوذ .

٨ أكتوبر — انفجار بركان الفرح :

احس الشعب بفريزته المعنى الذى ينطوى عليه الافراج عن سعد وهو انتصار ارادة الشعب وتراجع انجلترا أمام هذه الارادة فلا عجب ان انفجرت مشاعر الشعب بمجرد سماعها النبأ ، فخرجت الى الشوارع على الفور وتالفت فى القاهرة عشرات بل مئات المظاهرات من كل حجم ومن كل نوع ، ولكن عبقريه الشعب أبت الا أن تعبر عن نفسها فى أعظم مسيرة لا نحسب ان بلدا من بلدان العالم قد شهدت لهـا مثيلا ، ليس فقط من حيث عدد الذين اشتركوا فيها وكونها ضمت القضاة من ناحية والعمال من ناحية ، ولكن العبقريه تجلت فى النظام الدقيق بل المعجز حيث تساءل المراقبون الاجانب أين وكيف احتشدت هذه الطوائف المختلفة المتباينة بحيث سارت كل طائفة فى تجمع خاص بها فبينما ترى المستشارين (كبار القضاة) بأوسمتهم الخضراء الحمراء اذ بالقضاء يتلونهم بالاوسمة الحمراء ، وهم يسيرون تحت اعلامهم فى وقار وتؤده ، وهذه طائفة المشايخ والعلماء بعمائمهم البيضاء والقساوسة بملابسهم السـوداء ، وأصـحاب المهن كالمحامين والأطبـاء والمهندسين والطـلاب والموظفـين وأصحاب الحرف والعمال وربات البيوت وفتيات المدارس حتى طلبة المدرسة الحربية ومدرسة البوليس اين .. أين أمكن حشد كل هذه الجماعات وهى تسـير تحت اعلامها هذه الأعلام التى راحت كل طائفة تتنافس فى صنع علمها من أجود الاقمشة وأفخرها وأغلاها وتزركشها بالقصب المذهب والأهلة الفضية فى قمة العصى التى تحملها ، والمدينة الى جوار ذلك كله تؤلف الخلفيه لهذه المظاهرة العجيبة فمن أين جاءت كل هذه الاعلام ومتى صنعت ، وكل هذه الزهور والرياحين وسعف النخل من أين جاءت هذه الكميات التى لاحد لها ، بحيث زينت كل المحلات وكل الشرفات وكل النوافذ وكل عربات الترام التى عادت للسير وركبها الجمهور بالمجان وانطلقت منها الهتافات والزغاريد والبعض منها ركبته الفرق الموسيقية تعزف اناشيد الفرح والسرور ، حتى التماثيل وفى مقدمتها تمثال ابراهيم باشا فى ميدان الأوبرا زين بالأعلام ، ولعله لا يوجد ما يصور الروح التى غمرت مصر فى هذه المناسبة اكثر من هذا البيان الذى لا نحسب ان له مثيلا من قبل ولا من بعد فى أى أمة من الامم وأعنى به البيان الذى أذاعه (النشالون) من انهم رغبـة منهـم ان لا يعـكروا على الشعب افراحه ورغبة منهم فى التعبير عن فرحهم فقد قرروا التوقف ثلاثة أيام عن النشل والخلاصة ان الكاتب فضلا عن المؤرخ يحتاج الى كتاب كامل ليصف موجة الفرح الطاغية التى سرت الى اصغر قرية مصرية وكيف عبرت كل طائفة بل كل انسان عن فرحه بهذا النصر كيف لا وقد هزمت ارادة الشعب المصرى الأعزل من كل سلاح ارادة الامبراطورية البريطانية .

الامبراطورية البريطانية ترد :

وكما أحس الشعب المصرى بما أحرزه من نصر ، فقـد أحست الامبراطورية ممثلة فى جنودها فى مصر بما أصابها من خـذلان فاذا بالجنـود الانجلـيز يضربون

الرصاص ويقتلون لحسابهم الخاص تعبيرا عن غيظهم وكمدهم مما يشهدون من مناظر الابتهاج بالنصر حيث هم لم يغلبوا أو يقهروا وسيظلون قادرين على قتل هذا الشعب ، وكأنما سمعوا من رؤسائهم ان الافراج عن سعد زغلول قد تم على مضض فأرادوا ان يفسدوا السياسة التى هدف اليها اللنبى من جراء التودد الى الشعب فاذا بهم يعكرون صفوة هذه الافراح ويقتلون الناس لمجرد القتل، وصدرت البلاغات تندد بفعل هذه الجنود وتسجل استنكار اللنبى لهذا الاجرام ، وطبعا لم يفهم الناس معنى لهذه البيانات وكل الذى فهموه ان الانجليز يواصلون سياستهم حتى استاذنا الرافعى وقد كتب عن ثورة ١٩١٩ بروح ازكاء المقاومة للانجليز ، لم ير فى هذين البلاغين الصادرين فى يومى ٨ ، ٩ ابريل الا صورة من خداع الانجليز وريائهم أما نحن اليوم بعد ان فرغنا من الاحتلال الانجليزى وبعد ان اصبح وجودهم فى ذمة التاريخ فباستطاعتنا ان نرى فى هذين البلاغين الخلاف المحقق بين اللنبى وبين الفريق الآخر من غلاة المستعمرين الذين كانوا يرون الأسلوب الوحيد للتعامل مع الشعب المصرى هو قمعه وقهره بالقوة الغاشمة واليك نص البلاغين :

« قام الوطنيون منذ شهور عديدة بحركة سياسية . وبعد ان استمروا على التهييج العنيف القى عليهم القبض وأرسلوا الى مالطة . وهذا الاعتقال هو سبب الاضطراب الحاضر وقد استدعى الجنود لرد الأمن والنظام » .

وقد تغيرت الحالة فجأة وإطلقت الحكومة البريطانية الزعماء المعتقلين فى مالطة .. وأذنت للمصريين ان يرسلوا مندوبيهم الى انجلترا ليعرضوا شكواهم . وقد سر المصريون لذلك بالبداهة وسمح لهم ان يقيموا الاحتفالات كما يسمح لأبناء انجلترا بالاحتفال بأى نصر سياسى » . « ومن سوء الحظ أن الجنود لا يفهمون هذا على ما يظهر ولذلك حدث مرة أو مرتين أن نفرا من الجنود قاموا بمظاهرات ضد المصريين الذين كانوا قد أقاموا احتفالا غير موجه ضد سلطتنا بالمرة . وقد أدى عمل هؤلاء الجنود الى اضطرابات خطيرة والى خسارة فى الأنفس من الجانبين على أن المأمول الآن ان يلوذ الجنود بالهدوء ويلزموا السكينة ويتركوا القانون والنظام القائد العام ومما يجب ان يفهم ان كل عمل مستقل يقوم به الجنود يضاعف صعوبة مركزنا عشر مرات » .

بلاغ ٩ ابريل :

« وصل الى مسامع فخامة نائب الملك الخاص مع الأسف الشديد ما وقع من بعض الحوادث الموجبة للاسف فى خلال مظاهرات أمس ، فأمر بتأليف لجنة التحقيق فى الحال عن هذه المسائل حتى يحال المجرمون فيها على العدالة ليعاقبوا » .

الاربعاء ٩ أبريل :

تشكيل حسين رشدى وزارة جديدة

اعتبر حسين رشدى وبحق أن الافراج عن سعد زغلول والسماح بالسفر لمن يريد السفر انتصارا لوجهة نظره فلم ير بأسا من أن يلى الحكم مرة ثانية ولا بد أن يكون اللنبى قد استطاع أن يؤكد له أن انجلترا قد غيرت سياستها فضلا عن ثناء اللورد كيرزون عليه قد أكد ذلك وعلى هذا فقد رأينا السلطان أحمد فؤاد يوجه له يوم الأربعاء ٩ ابريل خطاب تكليفه بالوزارة وغنى عن البيان ان هذا الخطاب لم يوجه الى حسين رشدى الا بعد أن تم الاتفاق عليه بين الأطراف الثلاثة بدليل ان اليوم (٩ ابريل) لم ينقض الا وتم تشكيل الوزارة بالفعل . وفيما يلى وثائق التشكيل :

« عزيزى رشدى باشــا »

انه بما لى من الثقة الكاملة فى دولتكم قد عهدت لدولتكم تأليف الوزارة الجديدة وعرضها علينا لصدور أمرنا باعتمادها وانى أرجو الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا لما فيه خير البلاد .

« فؤاد »

صدر بسراى البستان فى ٩ ابريل ١٩١٩

وأجاب رشدى باشا فى نفس اليوم بالخطاب التالى :

« يا صاحب العظمة »

أتقدم لعظمتكم بالشـكر الفائق على ما تفضلتم به نحوى من دلائل استمرار الثقة بالأمر الكريم الذى اصدرتموه لى فى هذا اليوم تكلفوننى فيه بتشكيل الوزارة الجديدة ، فنظرا لما فى الظروف الحاضرة من المصاعب وأملا فى حل يرضى الأمة ارى من واجبى قبول المهمة التى اقتضت ارادتكم السنية احالتها على عهدتى ولذلك أعرض على نظركم العالى المرسوم السلطانى المرفق بجوابى هذا لصــدور الأمر باعتماده واذا كنت لم أحفظ لنفسى سوى رياسة مجلس الوزراء فذلك لأن أعباء الحمل الملقى على عاتقى فى الحال والمستقبل القريب لا تسمح لى أن أتولى أيضـا ادارة وزارة أخرى ، وانى لعظمتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص ،

« حسين رشــدى »

القاهرة ٨ رجب ١٣٣٧ ــ ٩ ابريل سنة ١٩١٩

وصدر فى ذات اليوم المرسوم القاضى بتشكيل الوزارة على الوجه التالى :

حسين رشدى باشــا	للرئاسة والمعارف مؤقتا
يوسف وهبه باشــا	للمالية
عدلى يكن باشـــا	للداخلية
عبد الخالق ثروت باشا	للحقانية
جعفر والى باشــا	للاوقاف
احمد مدحت يكن باشا	للزراعــة
حسن حسيب باشا	للاشغال والحربية

الانتصار الثانى للثورة :

رأى المصريون فى عودة حسين رشدى للحكم انتصارا آخر للثورة كالافــراج عن سعد زغلول تماما ولا عجب فى ذلك فقد كان حسـين رشــدى أول من حرك القضية من غير شك وكانت استقالة وزارته هى المفجر للأحـــداث التى ادت الى قيام الثورة فمن هنا فقد كان احساس الشعب صادقا عندما تصور فى عــودته للوزارة دفعة جديدة للثورة وهو ما لم يدركه حسين رشدى كما ســوف نرى اذ تصور انه لايكاد يؤلف الوزارة حتى يسود الهدوء البلاد وتستأنف حياتها العادية تاركة لسياسة المذكرات والمحادثات انتزاع بعض التنظيمات التى يرضى عنهــا حسين رشدى . ولم يدرك حسين رشدى ان الشعوب عندما تستيقظ لا يعــود يرضيها الا أن تتحقق ارادتها كاملة .

تعدد مظاهر اصرار الشعوب على الثورة :

وعلى ذلك فقد شهدت البلاد بمجرد عودة حسين رشدى الى الحكم عديدا من المظاهر الدالة على توهج شعلة الارادة الشعبية .

جنازات الشهداء :

وقد تمثل ذلك أول ما تمثل فى تنظيم مواكب للشهداء الذين سقطوا برصاص الانجليز فى مظاهرات يومى ٧ و ٨ ابريل ابتهاجا بالافراج عن سعد زغلول . فأقيم فى العاشر من ابريل موكب لتشييع ١٤ شهيدا لم تشهد له البلاد مثيلا من قبــل فقد اريد بالموكب أن يكون صيحة شعبية جديدة لاعــلان ارادة مصر فى الاســتقلال التام .

الموظفون يحملون اللواء :

واذا كان الطلبة والعمال والفلاحون قد سبقوا فى اظهار التمرد على السلطة حيث تأخر الموظفون عن فعل ذلك الأمر الذى جعل اللورد كيرزون يثنى عليهم فرأوا فى ذلك اهانة لمشاعرهم الوطنية فقرروا الاضراب ثلاثة ايام على ما مر بنا ولكن لم تكد

وزارة حسـين رشـدى تتألف حتى كان الموظفون هم الذين حملوا اللواء وراحوا يترجمون عن مطالب الأمة . ونظم الموظفون أنفسهم بصـورة رائعة ككل شيء كان يحدث فى مصر فى هـذه الثورة فكان الموظفون فى أى تجمـع وظيفى فى المصـالح والوزارات ينتخبون مندوبا عنهم وقد شكل المندوبون (٣٢ منـدوب وصلوا فيما بعد الى ٥٧) ما أطلقوا عليه « لجنة مندوبى موظفى وزارات الحكومة ومصـالحها » وتلك هى اللجنـة التى كان على باشـا ماهر (على ما حدثنيـه شخصـيا) أبرز أعضائها واجتمعت اللجنة فى وزارة الحقانية يوم ١٠ ابريل أى فى اليوم التـالى لتأليف الوزارة مباشرة وقررت اضراب الموظفين اضرابا عاما ابتداء من يوم السبت ١٢ ابريل وذلك الى أن تجاب المطالب الآتية :

أولا : أن تصرح الوزارة بصفة الوفد الرسمية .

ثانيا : أن تعلن الوزارة أن تشيكلها لا يفيد الاعتراف بالحماية .

ثالثا : الغاء الأحكام العرفية وسحب الجنود البريطانية المسلحة من الشوارع والبنادر والقرى وتفويض حفظ الأمن والنظام للبوليس المصرى .

ولا جدال أن هذه المطالب كانت تعكس الارادة الشعبية فى هذه الفترة فلم يكن الشعب قد فعل ما فعل وضحى ما ضحى لمجرد أن يعود حسـين رشـدى الى الوزارة ، بل انهم رأوا فى هذه العودة انتصارا لهم على ما قدمنا فرأوا أن يبلوروا مطالب مصر التى يجب أن تتبناها الحكومة الجديدة ومن عجب أن أستاذنا عبدالرحمن الرافعى ينعى على الموظفين هـذا الموقف ويصفه بالتعنت ويأخـذ عليهم أنهم لم يكرروا هذا الموقف مع الوزارات القـادمة وينسى عبد الرحمن الرافعى أن لكل وقت ظروفه وملابساته ، والشيء المحقق أن الموظفين عندما تقدموا بهذه المطالب كانوا يمثلون الارادة الشعبية فهم قطاع من الشعب ولا يمكن نسبة أى غرض لهم وراء هذه المطالب الا حمل مشعل المقاومة ، فلم يبق لتفسير موقف عبـد الرحمن الرافعى الا أنه رأيا ابداه بروح حزبية أحسن بها فى تلك الأيام التى يتحدث عنها .

تدفق الأموال على الوفد :

وكان من مظاهر شعور امة بالانتصـار أن بدأت التبرعات المـالية تنهـال لمساعدة الوفد على أداء مهمته وكان بدراوى باشا عاشور أول من تبرع بمبلغ ضخم وهو عشرة آلاف جنيه وقد ولا يتصور الكثيرون ماذا كانت تساوى عشرة آلاف جنيه فى ذلك الوقت ولكننا نستطيع باطمئنان ان نقدرها بأكثر من مائتى ألف جنيه فى وقتنا الحاضر وتبرع البرنس يوسف كمال بألفين جنيـه وبدأت الأموال تتدفق من سائر أنحاء البلاد وكانت تجمع فى القاهرة من المقاهى والنوادى وسنرى كيف تضيق السلطة البريطانية بهذا المظهر فتصدر قانونا بتحريمه .

مظاهرة الجنود الأسترالية :

على ان أعظم رد فعل لانتصار الشعب المصرى تجلى فى غضب الجنود الاستراليين ، فاذا بهم يتجمعون فى حديقة الازبكية ويخرجون منها فى مظاهرة احتجاج وجعلوا من الشعب المصرى فريسة لهم فراحوا يطلقون النار على المارة وعلى المتاجر قاتلين بذلك عشرات من القتلى وأغلب الظن انهم كانوا شديدى اللهفة للعودة الى بلادهم فكانوا يوعدون بقرب تسريحهم من الجيش عندما تهدأ الاحوال ولكن الافراج عن سعد زغلول وتأليف وزارة حسين رشدى ألهب المشاعر كما رأينا فخرج الاستراليون يصبون جام غضبهم على المصريين .

الجمعة ١١ ابريل ـ سفر الوفد المصرى :

عندما صدر الأمر بالافراج عن سعد زغلول ومن معه من جزيرة مالطة والسماح لهم بالسفر حيث شاءوا كان من الطبيعى أن يكونوا فى أشد الشوق لمغادرة الجزيرة فى نفس اليوم ولكن السلطات البريطانية احتجت بعدم وجود سفن من هنا فقد ظلوا بالجزيرة وفى هذه الأثناء صح عزم الوفد بعد هذه الاحداث المشجعة ان ينفذوا ما قاموا من أجله وما كان السبب فى كل هذه الأحداث واعنى به السفر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح وعمل كل ما يمكن عمله لتحقيق مطالب الأمة فى الاستقلال التام ولابد أن تكون المراسلات قد دارت بين القاهرة ومالطة ولو عن طريق البرق بحيث تم الاتفاق على أن يسافر أعضاء الوفد الموجود ، القاهرة على احدى المراكب المسافرة الى فرنسا على أن تجعل خط سيرها بحيث تتوقف فى مالطة ليستقلها سعد ومن معه وعلى ذلك فقد غادر أعضاء الوفد الذين كانوا موجودين فى مصر وهم على باشا شعراوى وعبد العزيز بك فهمى وأحمد بك لطفى السيد ومصطفى بك النحاس والدكتور حافظ عفيفى وحسين واصف باشا ومحمود بك أبو النصر على أن يلحق بهم فيما بعد عبد الخالق باشا مدكور . وقد مرت السفينة بالفعل على مالطة حيث استقلها سعد باشا زغلول ومحمد باشا محمود واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا ، وهكذا تجمع الشمل من جديد وكانت لحظة انتصار تفوق كل تقدير وحسبان والسفينة تغادر مالطة فى طريقها الى فرنسا وقد كان سفر الوفد من القاهرة فرصة ليعرب الشعب عن وقوفه صفا واحدا خلف الوفد المعبر عن ارادته فى الحرية والاستقلال فخرجت جموع الشعب تودع المسافرين واحتشد فى المحطة ممثلون عن كل طبقات الأمة وطوائفها وهكذا قوبل القطار فى كل محطة وقف عليها حتى محطة الوصول فى بورسعيد حيث كانوا سيستقلون الباخرة.

وغنى عن البيان ان القوم قد حدثوا سعد زغلول عن كل ذلك فمهما كانت « نتف » الأخبار التى وصلت سعد عن الأحوال فى مصر فهى لا يمكن أن تقارن بما قصه عليه اخوانه من الاحداث المجيدة التى وقعت فى مصر منذ اعتقاله حيث أشبه الشعب المصرى المارد خرج من القمقم بارادته وتصميمه واستعداده للتضحية ولقد كان سعد زغلول هو الوحيد الذى وعى هذا التطور الجديد الذى هز بريطانيا

هزأ وجعلها تعنو لارادة الشعب المصرى فتفرج عنه وتأذن بالسفر حيث أرادوا كان سعد زغلول هو الوحيد من بين زملائه من وعى التطور جيدا فنراه منذ هذه اللحظة وقد خلف وراءه كل عناصر الاعتدال والواقعية التى أشتهر بها طول حياته فضـلا عن صداقته للأنجليز وجعل كل ولائه للشعب وتجلت فيه شخصية المحامى عندما يتقمص شخصية موكله . فعل ذلك سعد حيث ظل الاخرون حيث هم بكل افكارهم ومعتقداتهم القديمة ومن هنا فسوف تنشأ المصاعب وتقع الخلافات كما سـوف ترى .

١٦ أبريل مؤتمر فى الأزهر لتأييد الموظفين :

لندع السفينة تمخر البحر الأبيض فى طريقها الى فرنسا ولنتابع الأحداث التى كانت تغلى كالمرجل فى مصر كان الموظفون قد قرروا الاضراب العام كما قدمنا ابتداء من يوم السبت ١٢ ابريل وقدموا المطالب السياسية التى قدمناها ، فكان ممـا قالته بعض الصحف الأجنبية أن هذه المطالب لا تعبر عن الرأى العـام ومن ناحية أخرى فقد اذاعت الحكومة بيانا فى يوم ١٣ هذا نصه :

« الآن وقد رخص للمصريين بالسفر وتألفت وزارة شعارها الاخلاص التام فى خدمة الوطن ومشاطرة الأمة شعورها ، فان الحكومة تدعو الامة الى الهدوء والسكينة كما انها تدعو الموظفين وغيرهم ممن اضربوا عن العمل تأييـدا للمطالب القومية الى العودة لأعمالهم » . وان الاصرار على الاضراب فى الحالة الحاضرة يؤدى الى ارتبـاك الأعمال وانتشار الفوضى . فليتدبر المضربون عن العمل فى المسئولية الهائلة التى تقـع عليهم بازاء بلادهم اذا ما اصروا على موقف يعرض البلاد الى مثل تلك الأخطار » .

والحكومة على يقين من ان الكافة يذكرون ان اهتمام عظمة السلطان بتأليف الوزارة كان أول باعث عليه وضع مقاليد الامور فى يد السلطة المدنية مقدمة لاناطة المحافظة على النظام والأمن برجال السلطة المصرية والرجوع الى الحالة العادية .

رئيس مجلس الوزراء

فلما تصفح الموظفون والناس اجمعون هذا المنشور القوة لا يحـوى أى تصريح بأى مطلب من مطالبهم . فلم يسع الموظفون الا أن يعقدوا اجتماعهم فى ذلك اليوم .

ولما تم الاجتماع أعادوا انتخاب لجنتهم وجعلوها مكونة من ٥٤ عضوا . فظلت هذه اللجنة مجتمعة زهاء اربع ساعات من الظهر تتناقش فى منشور الوزير وتبحث فى الاحوال .

ثم أصدرت قرارها باستمرار الاضراب لان المنشـور لم يجب واحـدا مـن طلباتهم وصممت على أن لا يعود موظف الى عمله حتى تجاب المطالب بأكملها .

وفى صبيحة يوم ١٥ أصدر دولة رشدى باشا منشـورا ثانيا للموظفين يعتبر تهديدا لهم هذا نصه :

« ان الحكومة تكرر الدعوة الى الموظفين بالرجوع الى عملهم غدا (الاربعاء) وتلقى عليهم مسئولية عواقب الاستمرار على الاضراب عن العمل » .

ولم ير الموظفون فى هذا البيان اجابة لشىء من مطالبهم فقد دعـوا الى عقد مؤتمر وطنى فى الجامع الأزهر فأجتمع به ثمانون الفا يمثلون مختلف طوائف الأمة حيث خصص لكل طائفة مكان مخصوص ورأس المؤتمر شيخ الجامع الأزهر آنذاك . وانتهى المؤتمر ليس فقط باقرار الموظفين على الاستمرار فى أضرابهم بل بدعـوة باقى طوائف الأمة الى الاضراب العام فأصبحت القـاهرة وقد أصبحت اشـبه بمدينة مهجورة تعطلت فيها كل اسباب الحيـاة حتى اضـطرت الحـكومة الى استخدام المساجين للقيام ببعض أعمال النظافة التى لا غنى عنها كما استخدمت السلطة الانجليزية عساكر الجيش ومختلف امكانياته لأداء بعض الخدمات .

من ١٧ الى ٢٠ أبريل : اجراءات السلطة العسكرية :

ومضت الحركات الشعبية مما وصف فى مجمـوعه بأنه ثورة سنة ١٩١٩ فى طريقها ، فالاضراب والمظاهرات وسقوط الشهداء واقامة المواكب لم تنقطع وظهر فى الافق ظاهرة جديدة وهو صدور بلاغات عسكرية تتحدث عن سـقوط بعض الجنود الانجليز قتلى فقد بدأ الشعب بتصيد أى جندى يتمكن من قتله .

البوليس الخاص وحظره :

قلنا ان الثورة كانت تنظم نفسها بنفسها ساعة بعد أخرى ويوما فى اثر يوم وسجلنا لها التنظيم الرائع الذى بهر الجميع فى المظاهرات ومواكب الشـهداء وقد كان ذلك يحدث تلقائيا بمعاونة نفر معين من الشباب فلما تكررت المظاهرات والمواكب تبلور هذا النفر الذى تخصص فى التنظيم والأعداد فرؤى أن يحول الى جهاز دائم تحت اسم البوليس المخصوص ، فانزعجت السلطات الانجليزية وحق لها ان تنزعج (من وجهة نظرها طبعا) فقد كان ذلك يمثل تأليف هيئة نظامية اذا ابتدأت مسالمة فسوف تنتهى حتما الى قوة مسلحة وهو ما حدث بالفعل بعد ان حظرها الانجليز وانتقلت من العلن الى السر واليك نص الأمر الانجليزى .

« ان القائد العام فى القطر المصرى بمقتضى السلطة الممنوحة له لتطبيق الاحكام العرفية يأمر بما هو آت :

« اتصل بعلم ولاة الامور انه انشئت جمعية باسم جمعية البوليس الوطنى وغرضها الظاهر صون القانون وحفظ النظام » .

وقد وزعت هذه الجمعية على أعضائها شارة يلبسونها ونظمتهم على شكل قوة بوليس .

« ومع ان الواجب يقضى على كل شخص ان يساعد البوليس فى حفظ النظام فان الجمعية كالجمعية التى تقدم ذكرها لا يمكن أن يسمح لها » .

« فتأليف هذه الفرقة وما يماثلها من الفرق محظور وكل من يعثر عليه متقلدا اشارة هذه الفرقة أو سواها من الفرق المماثلة لها بعد الساعة السادسة من صباح غد ١٨ ابريل يقبض عليه ويعامل بمقتضى الأحكام العرفية » .

٢١ أبريل ــ استقالة وزارة حسين رشدى :

واقتنع حسين رشدى أخيرا وصاحبه عدلى يكن أن فى مصر دنيا جديدة غير تلك التى الفاها فقد كان فى تصورهما انه بحسبهما أن يعودا الى الوزارة لكى تهدأ الأحوال ويعود الشعب لمزاولة حياته العادية تاركا لحكامه أن يجتهدوا ماوسعهم الاجتهاد . وبهذا المعنى تكلم حسين رشدى فى حديث له مع جريدة الاهرام وراح يندد بالاضرابات والمظاهرات وأن ضررها أصبح أكثر من نفعها وأنها تزيد من غضب الانجليز والأجانب.

ولكن أحدا لم يصغ لحسين رشدى ومضى الموظفون فى اضرابهم الى الحد الذى جعل حسين رشدى يصرح انه أرسل بيانا ليطبع فى الجريدة الرسمية فلم تصدر الجريدة فتصور أن الانجليز هى التى منعت أصدارها ولكنه سرعان ما علم انها لم تصدر لأنه لم يكن هناك موظفون أو عمال لاصدارها ولما وجه ما يشبه الانذار الى الموظفين بوجوب العودة الى أعمالهم ولم يلق استجابة من أى نوع كان ، من الناحية الأخرى رأى نفسه عاجزا ان يحقق أى شىء من مطالب الأمة حتى فى أبسط المسائل كسحب الجنود البريطانيين من الشوارع وترك المحافظة للبوليس المحلى ، يقول حسين رشدى : « اننى كنت اتفقت مع اللنبى على أن يسحب جنوده من الشوارع وجاء اضراب الموظفين فقال لى اللنبى اذا كنت عاجزا عن ادارة موظفيك فكيف ستقدر على حفظ الأمن ولذلك فاننى أسحب وعدى بأعادة الجنود الى ثكناتهم . وهكذا وجد حسين رشدى نفسه بين شقى الرحا ، فآثر الاستقالة . وعندنا أن هذه الاستقالة الجديدة تعد فى قائمة حسنات رشدى فهو لم تأخذه العزة بالاثم ويتصدى للموظفين الذين لم يلبوا نداءه للعودة لاعمالهم ولم ير ان يمد يد المعاونة للانجليز فآثر الانسحاب من الميدان بالاستقالة .

واليك نص هذه الاستقالة :

« يا صاحب العظمة أن حالتى الصحية الآن لا تمكننى من القيام بأعباء مهمتى لذلك أراني مضطرا الي تقديم استقالتي واني أرفع لعظمتكم خالص الشكر علي العطف

والمعاونة اللذين لقيتهما على الدوام من جانب سيادتكم العلية وانى لعظمتكم العبـــد الخاضع الأمين والخادم المخلص المطيع .

حسين رشـــدى

١ الرد بقبول الاستقالة

عزيزى رشدى باشا

ان اضطرار دولتكم للاستقالة بناء على عدم مساعدة حالتكم الصحية للقيام بأعباء مهمتكم كما ورد بكتابكم المرفوع الينا بتاريخ ٢١ أبريل سنة ١٩١٩ قد استلزم مزيد الأسف لدينا فقد أصدرت أمرى هذا لدولتكم شاكر لكم ولحضرات زملائكم على الهمم الصادقة التى بذلتموها فى سبيل مهمتكم وأسأل الله أن يمكن عليكم بالصحة والعافية من فضله وكرمه .

« فؤاد »

وجهة نظـر :

اتفق شفيق باشا فى حولياته مع عبد الرحمن الرافعى فى كتابه أن المتاعب التى لقيها حسين رشدى هى التى أدت الى استقالته ولم يعتبر اى منهما أن الحدث الذى زلزل البلاد فى اليوم التالى لاستقالة الوزارة كان له أى تأثير فى هذه الاستقالة ونعنى بهذا الحدث اعتراف ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالحماية وفى تصورنا أنه اذا كانت القنصلية الأمريكية فى مصر قد تمكنت من ارسال خطاب مكتوب للمعتمد البريطانى تعلنه فيه بقبول ويلسون للحماية وذلك فى يوم ٢٢ أبريل فلابد أن يكون النبأ وصلها قبل ذلك على اية حال فمثل هذا الاجراء الخطير لا بد وان يكون اللنبى قد علم بنبأه قبل ابلاغ قنصل امريكا به رسميا ولابد أن يكون تحدث بشأنه مع السلطان وربما مع حسين رشدى شخصيا فكانت هذه المسألة صدمة كبيرة لحسين رشدى جعلته يعجل باستقالته كما جعلت السلطان يعجل بقبول الاستقالة فى نفس اليوم استعدادا للحالة الجديدة . ويقوى هذا الاحتمال فى تصورنا أن عباس محمود العقاد يقول لنا فى كتابه عن سعد زغلول أن الوفد المصرى لم يكد يضع أقدامه على ارض فرنسا حتى صدم يوم ١٩ ابريل بنبأ اعتراف ويلسون بالحمـــاية على مصر ، وما عرفه الوفد فى يوم ١٩ لا يمكن أن يظل خافيا على حسين رشدى حتى يوم ٢١ وقد كانت شركات الأنباء وعلى رأسها رويتر تقوم بواجبها خير قيام ، ولنسرد الآن وقائع هذا الحدث الخطير :

٢٣ ابريل ــ اعلان نبأ اعتراف أمريكا بالحماية :

اذا كان وفد مصر المسافر الى فرنســـا قد فوجىء بكارثة اعتراف ويلسون بالحماية فى ١٩ أبريل واذا كان هذا النباء المحزن قد علمت به السلطات المصرية فى

ذات الوقت فان الشعب المصرى لم يعلم به الا فى يوم ٢٣ ابريل عن طريق منشور اذاعه اللورد اللنبى ضمنه نص الخطاب الذى بعث به اليه ممثل امريكا فى مصر اليه ونشرته جميع الصحف الصادرة صبيحة يوم ٢٣ واليك نصه :

« تلقى فخامة نائب الملك الخاص الكتاب التالى من جناب المعتمد السياسى والقنصل الجنرال لدولة الولايات المتحدة فى القطر المصرى وهو : « وكان أميركا السياسية وقنصليتها الجنرالية » .

القاهرة مصر فى ٢٢ ابريل سنة ١٩١٩

« يا صاحب الفخامة « أتشرف بأن أقول ان حكومتى أمرتنى أن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعترف بالحماية البريطانية على القطر المصرى وهى الحماية التى بسطتها حكومة جلالة الملك فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ » .

هذا وان الرئيس باعترافه هذا يحفظ بالضرورة لنفسه حق البحث فيما بعد فى تفاصيل هذا الاعتراف مع مسألة تعديل حقوق الولايات المتحدة التعديل الذى يقتضيه هذا الأمر » .

« وقد كلفت بهذا الصدد أن أقول ان رئيس الجمهورية والشعب الأمريكى يعطفان كل العطف، على أمانى الشعب المصرى المشروعة للحصول على قسط آخر من الحكم الذاتى . ولكنهما ينظران بعين الأسف الى كل مسعى لتحقيق هذه الأمانى بالالتجاء الى العنف » .

« همسون جارى »

رد فعل البيان :

ويكون من المكابرة الادعاء بأن هذا البيان لم يقع موقع الصاعقة على الشعب المصرى وبخاصة المثقفين الذين يتابعون الأحداث العالمية ويرصدون تأثيرها على قضية مصر لقد كان نفر من أعضاء الوفد الذى وصل الى فرنسا يفكر فى العودة الى مصر لعدم جدوى الذهاب الى باريس فقد كان جل أملهم فى تحقيق مطلب مصر فى الاستقلا التام يعتمد على ويلسون نبى الحرية للشعوب فى تقرير مصيرها وها هو النبى المزعوم يتضح أنه كان نبيا زائفا ، ومن هنا جاءت فكرة العودة الى مصر لولا ان عادت الارادة المصرية لاثبات وجودها فغيرت من أسلوب عملها كما سوف نرى .

انحسار ثم استئناف الجهاد :

هذا الذى حدث فى فرنسا من الارتباك لدى الصدمة الأولى أعقبه الاصرار على المضى فى الطريق حدث مثله تماما فى مصر فقد ترنحت الأمة تحت وقع الصدمة فى بادىء الأمر ولكنها لم تلبث بعد حين ان استردت عافيتها واستأنفت جهادها فى التعبير عن ارادتها التي لا تنثنى عن المطالبة بالاستقلال التام .

عودة الموظفين وما قبل حولها :

وكان أول رد فعل لهذه الصدمة هى عودة الموظفين للاستقرار فى أعمالهم ، ولقد قيل الكثير حول هذه العودة فقيل ان قادتهم علموا على اثر استقالة حسين رشدى ان اللنبى سوف يصدر انذارا بفصل كل موظف لا يعود الى عمله صبيحة يوم ٢٣ ويهدد بانزال عقوبات صارمة بكل من يدعو وينظم اضراب الموظفين فاجتمع عشرة من لجنة الموظفين فى منتصف ليل (٢١ - ٢٢ ابريل) على أثر شيوع نبأ استقالة حسين رشدى ودعوا الموظفين للعودة الى أعمالهم يوم ٢٣ ابريل على اعتبار أن استقالة الحكومة تعتبر تلبية لمطالب الأمة فقد كان حسين رشدى قد اتفق مع الموظفين انه اذا لم ينجح فسوف يستقيل . وصدر انذار اللنبى للموظفين بوجوب العودة يوم ٢٣ وعندنا أنه لا استقالة ولا تهديد اللنبى هو الذى أعاد الموظفين الى اعمالهم وانما اعادهم اليها خيبة الأمل العنيفة التى أصابتهم من جراء الموقف المخزى الذى وقفه ويلسون من قضية مصر .

موقف لرجال القضاء وآخر للاطباء :

وعلى ذكر اضراب الموظفين فقد كان بعض العقوبات التى نزلت بالموظفين أن تخصم أيام الاضراب من رواتبهم وشاء الانجليز جريا على سياستهم فى التفريق بين الصفوف أن يستثنوا رجال القضاء من خصم أيام الاضراب من مرتباتهم فأبى القضاة ذلك وكان الأطباء بناء على قرار الموظفين أنفسهم ظلوا يمارسون أعمالهم ومع ذلك فقد طلبوا مساواتهم باخوانهم .

الاسبوع الأخير من ابريل :

وتوالت عودة الطوائف والعمال الى اعمالهم فعاد المحامون وقدموا الطلبات لاعادة درج اسمائهم فى جدول المشتغلين . على أن الحدث الأكبر الذى شهده الاسبوع الأخير من شهر ابريل أو بالاحرى فى يوم ٢٨ على وجه التحديد هو صدور قرار من اللورد اللنبى يستغنى به فى حكم البلاد بمجلس الوزراء وخول وكلاء الوزراء الموجودين سلطة الوزراء ولما كانت بعض مناصب الوكلاء خالية فقد أصدر قرارات بشغلها ببعض الانجليز وجعل تعيينهم بأثر رجعى ليضفى على كل أعمالهم الشرعية ، أى أن مصر أصبحت تحكم كما لو كانت ضيعة لانجلترا وناظر زراعتها هو اللنبى . وغنى عن البيان أن خيانة ويلسون للشعب المصرى باعترافه بالحماية هو الذى شجع الانجليز على تجاهل الارادة المصرية الى هذا الحد .

استمرار الشباب فى المقاومة :

على أنه اذا كانت مختلف طوائف الأمة قد صدمت وبالتالى رات أن لا جدوى فى الاستمرار فى الاضراب فان الشباب ممثلا فى جماهير الطلاب لم يكن من هذا

الرأى وظل على ايمانه بالكفاح والجهاد وأبقى شعلة النضال متقدة ريثما استردت باقى الطوائف أنفاسها وعاودتها الثقة بنفسها فاستأنفت النضال بصورة جديدة .

٧ مايو — اغلاق المدارس :

وجه اللنبى انذارا أخيرا للطلاب انهم اذا لم يعودوا لمدارسهم يوم ٧ مايو فان المدارس سوف تغلق لأجل غير مسمى ولا يسمح للطلاب بتأدية امتحان آخر العام ولم يحفل الطلبة بالانذار فأغلقت المدارس وبذلك تفرغ الطلبة لأعباء الجهاد بكل أشكاله وألوانه ابتداء من توعية الجماهير حتى تأليف الجمعيات السرية مما سوف يظهر أثره فى الحياة العامة بعد قليل .

احتجاج على عيد جلوس ملك انجلترا :

وكان من أبرز الحركات فى هذه الفترة ان مجلس الوكلاء أعلن بتكليف من الانجليز ان مصالح الحكومة ستعطل يوم ٦ مايو احتفالا بعيد جلوس ملك بريطانيا فسارت المظاهرات احتجاجا على ذلك وعقد مؤتمر ضخم بالأزهر لاستنكار هذه الفعلة ، وهكذا أحس الانجليز ان الشعلة لا تزال متقدة .

الاعتراف بالحماية فى معاهدة الصلح :

واذا كانت انجلترا قد نجحت فى حمل ويلسون على الاعتراف بالحماية فقد أصبح الطريق معدا أمامها لجعل حمايتها على مصر جزءا لا يتجزأ من معاهدة الصلح مع المانيا والتى ستوقع عليها كل الدول المحاربة ، وفى ٧ مايو ١٩١٩ أعلن النص الخاص بالاعتراف بالحماية فى معاهدة الصلح واليك نص المادة ١٤٧ من القسم الرابع الخاص بمصر :

« تصرح المانيا بأنها تعترف بالحماية التى أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وتتنازل عن نظام الامتيازات الأجنبية فى القطر المصرى ويكون هذا التنازل اعتبارا من أغسطس ١٩١٤ » .

ومضت المواد التالية تنظم ما يتصل بذلك .

١٢ مايو — الوفد ينشط فى باريس ويحتج :

قدمنا ان الوفد المصرى صدم صدمة شديدة لدى وصوله الى فرنسا باعلان ويلسون اعترافه بالحماية وكان من نتيجة ذلك ان وجد الوفد كل الأبواب الرسمية موصدة فى وجهه الى الحد الذى جعل ويلسون يعتذر عن مقابلة سعد زغلول .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد الوفد ورأى أن يمضى فى طريقه الذى بدأه منذ اليوم الأول لتأليفه وهو المثابر على اعلان ارادة الشعب المصرى عن طريق البيانات المكتوبة خاصة وقد انفتح الباب على مصارعه لمخاطبة الشعوب التى أرسلت ممثليها الى باريس لشتى الأغراض وكان أهم ما بدأ به من هذا القبيل هو ارساله احتجاجا

الى جورج كليمنسو رئيس وزراء فرنسا ورئيس مؤتمر السلام وقد وقع سعد زغلول هذا الاحتجاج بصفته رئيسا للوفد المصرى وقد جاءت عبارات البيان متناهية فى القوة وهى تندد بانجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ومؤتمر السلام كله الذى تنكر لكل المبادىء التى قيل ان الحلفاء يحاربون من أجلها وابرز الاحتجاج مكانة مصر منذ أقدم العصور . وغنى عن البيان أن هذا الاحتجاج لم يقدم أو يؤخر بل لقد حدثنا محمد على علوبة باشا عضو الوفد كيف ان المندوب الانجليزى فى المؤتمر أعاد الى الوفد أحد بياناته التى أرسلت اليه بعد أن (شطب) عليها وكتب كلمة « مردود » باعتباره كلاما فارغا . ولكن كلمة الحق لا يمكن أن تذهب هباء أبدا فسرعان ما بدأت الصحف تشير الى بيانات الوفد ويتردد صداها فى أكثر من دولة .

سقطة لسعد زغلول :

غير اننا لا نستطيع أن ننهى تعليقنا على أيام الوفد الأولى دون ان نسجل على سعد زغلول سقطة تخدش الصورة الكبيرة التى رسمناها له فى ذهننا وما نحاول أن نسطرها على الورق وقد تعمدنا أن نستعمل هذا التعبير « سقطة » رغم قسوته لأننا لم نستطع وصف ما حدث الا بهذه الكلمة ذلك ان قديس الوطنية بحق والذى عانى من أجل قضية مصر لم يكد يسمع بنبأ وصول الوفد المصرى الى باريس فى أواخر ابريل حتى أرسل الى سعد زغلول محييا ومتمنيا للوفد أطيب التمنيات فلم يرد عليه سعد زغلول بأى نوع من الرد ونحن نتصور أن أمر هذه البرقية قد عرض على هيئة الوفد مجتمعة .

ونتصور ان لا بد وأن تكون الأغلبية (وجلها من حزب الأمة) قد أشارت بعدم الرد ولكننا لا نعفى سعدا من تحمل المسئولية الكاملة عن هذا التصرف الذى نعتبره لا انسانى ومفهوم أن يقف الآخرون من محمد فريد هذا الموقف أما سعد زغلول الذى كان قد اصبح التجسيد الحى لمشاعر الشعب المصرى فما كان يليق به بأى حال من الأحوال ولأى سبب من الأسباب أن يقف هذا الموقف من محمد فريد لقد حاول العقاد ان يدافع عن تصرف سعد زغلول بمقولة انه لم يشأ ان يزود الانجليز بحجة اتصال الوفد بمعسكر الأعداء وقد كان محمدفريد متصلا بالألمان .

وهو قول مرفوض جملة وتفصيلا وما كان يليق بالعقاد أيا كانت (حزبيته) أن يسوق هذا القول السخيف فمحمد فريد قد اتصل بالألمان فذلك لظروف قاهرة وهو اندلاع الحرب ووجوده فى أوربا آنذاك وقد كان عدوا لانجلترا وهو اذا كان فعل ما فعل فمن أجل مصر وحبا فى حريتها واستقلالها فاذا جاز للانجليز أن يقفوا من محمد فريد موقفا معاديا فلا يمكن أن يكون ذلك موقف مصريين ينادون بالحرية والاستقلال فكيف وقد وقفت السلطة الانجليزية موقف العداء من الوفد وتجاهلته بل وحاربته . الحق اننا لا نجد ما نقوله مرة أخرى عن هذا التصرف ونعنى به

عدم الرد على تحية محمد فريد الا أنه سقطة نحمل وزرها لسعد زغلول حتى لو كان فى ذلك ينفذ قرار الأغلبية .

١٥ مايو خطاب اللورد كيرزون :

أعتبرت انجلترا نفسها قد انتصرت نهائيا على الحركة الوطنية المصرية فوقف اللورد كيرزن مزهوا بنفسه وبلاده خطيبا فى مجلس اللوردات فذكر تفصيلات ما مر بنا من أحداث . وكان أهم ما حرص على تأكيده هو أبدية « الحماية » البريطانية على مصر وأن كل جهد يبذله الشعب المصرى لمقاومة الحماية مفضى عليه بالفشل المحقق ولن يعود على الشعب الا بمزيد من الكوارث والويلات .

ايفاد لجنة ملنر الى مصر :

على أن أهم ما تضمنه خطاب كيرزون هو اعلانه عن قرب ايفاد لجنة برئاسة اللورد ملنر وزير المستعمرات للتحقيق فى الأسباب التى ادت الى قيام الاضطرابات فى مصر وتقديم الاقتراحات لتنظيم علاقة مصر المقبلة مع انجلترا فى حدود الحماية .

وقد أحدثت هذه الخطبة رد فعل سىء جدا فى مصر كما أحدثت خطبته الأولى بحيث يمكن أعتبار ما تضمنته من استفزاز قد أدى الى عكس المطلوب تماما .

٢١ مايو — تأليف وزارة محمد سعيد باشا :

على أن كيرزون لم يلق خطابه الا بعد أن كانت انجلترا فيما يبدو قد نجحت فى كسب السلطان أحمد فؤاد الى جانبها نهائيا واستعداده للمجاهرة بالوقوف ضد الثورة اذ لم تمض أيام حتى أعلن عن تأليف وزارة محمد سعيد باشا ، ولا بد أن يكون قد سبق تأليفها مفاوضات ومشاورات فمنذ استقال حسين رشدى فى ٢١ أبريل لم يجرؤ وزير واحد على تأليف وزارة فقبول محمد سعيد باشا بعد شهر أن يؤلف وزارة هو مظهر لحقيقتين : **الأولى :** انسلاخ السلطان نهائيا من مظهرية وقوفه مع الشعب . **الثانية :** حصول محمد سعيد على وعد من اللنبى ان يقدم له كل التسهيلات والمعاونات الممكنة التى تقدره على تبرير قبوله للوزارة وعلى هذا الأساس تلقى محمد سعيد خطاب تكليفه بالوزارة فى يوم ٢٠ مايو ورد عليه بالقبول فى يوم ٢١ مايو واليك نص هذين الخطابين :

كتاب السلطان — ٢٠ مايو سنة ١٩١٩ :

« عزيزى محمد سعيد باشا »

« انه لكمال وثوقنا بدولتكم ولما نعهده فيكم من مزايا الجدارة والقدرة فى القيام بمهام الأمور قد اقتضت ارادتنا السنية السلطانية توجيه مسند رآسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرآسة الجليلة لعهدة لياقتكم ، واصدرنا أمرنا هذا لدولتكم لبذل الهمة فى انتخاب وتشكيل هيئة الوزارة وعرضه لجانبنا لصدور مرسومنا

العالى به ، والله المسئول أن يمدنا فى كل الأمور بعونه وعنايته ، وان يوفقنا جميعا للعمل بما ينفع البلاد والعباد ان شاء الله »

« فؤاد »

جواب سعيد باشا — ٢١ مايو سنة ١٩١٩

« يا صاحب العظمة

« بيد الاجلال تلقيت أمركم الكريم الذى تفضلتم فيه بتكليفى بتشكيل الوزارة الجديدة ، فأقدم لعظمتكم شعائر الشكر والامتنان على ما تعطفتم به نحوى من دلائل الثقة العالية المقرونة بالاحسان برتبة (الرياسة) الجليلة ، ومع علمى بصعوبة المركز وما يحف به من المشاق لم يكن فى وسعى الا امتثال امركم السامى لكى اقوم بما هو مفروض علينا جميعا فى خدمة الوطن تحت ظلكم الكريم ، وبحسن رعايتكم الفخيمة ، وانى أتشرف بأن اعرض على انظاركم العالية اسماء حضرات الوزراء الذين اخترتهم لمعاونتى على القيام بهذه المهمة ، وقد حفظت لنفسى مسند وزارة الداخلية ، فاذا صادف هذا الانتخاب قبولا لدى عظمتكم فالتمس التكرم باصدار المرسوم السلطانى باعتماده . ولا زلت لمولاى ، العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الأمين »

« محمد سعيد »

تشكيل الوزارة :

وتشكلت الوزارة على الوجه التالى :

محمد سعيد باشا	للرئاسة والداخلية
اسماعيل سرى باشا	للاشغال والحربية
يوسف وهبة باشا	للمالية
أحمد زيور باشا	للمعارف
عبد الرحيم صبرى باشا	للزراعة
أحمد ذو الفقار باشا	للحقانية
محمد توفيق نسيم باشا	للاوقاف

الاحتجاج على تاليف الوزارة :

ادرك الشعب على الفور ما فى تأليف الوزارة من خروج على ارادته فقامت من جديد المظاهرات الضخمة احتجاجا على قيام الوزارة ولابد انه كان مما اتفق عليه

سعيد مع اللنبى أن لا يتعرض الجيش البريطانى للمتظاهرين فقد مرت هذه المظاهرات بسلام بصفة عامة وليس الا فى الاسكندرية (مسقط رأس محمد سعيد) ان قامت مظاهرات عارمة ضد الوزارة وتدخل الجنود البريطانيون فكان أن جرح ضابط بريطانى وقتل أحد المتظاهرين ولعل هذه النتيجة تكشف بنفسها عن الأوامر الشديدة التى أعطيت للجنود البريطانيين بعدم التعرض للمظاهرات والا لسقط القتلى بالعشرات .

٢٤ مايو قران السلطان :

فى يوم السبت ٢٤ مايو الموافق ٢٤ شعبان سنة ٣٣٧ هـ تم عقد قران السلطان أحمد فؤاد على ابنة وزير الزراعة عبد الرحيم صبرى باشا « نازلى » وذلك فى قصر البستان بحضور العلماء والوزراء والأمراء .

آخر مايو ــ الاحتفال باحياء رمضان :

كان اتمام قران السلطان أحمد فؤاد هو طليعة السياسة التى تقرر انتهاجها لاغراء البلاد أن تعود الى حياتها العادية فلم تمض أيام حتى اذاعت الحكومة منشورا بمناسبة حلول شهر رمضان ترى ان نثبته بنصه لأنه يكشف عن هذا التعاون بين الحكومة وسلطات الاحتلال بهدف اعادة الأمة الى مألوف عادتها من الهدوء والاستكانة :

اهتمام الوزارة باحياء رمضان :

« أرادت الوزارة أن تتودد الى الجمهور بعمل يخفف من تيار الاستياء والسخط الذى كان يكتنفها ، فأذاعت منشورا طويلا فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٩ لمناسبة قرب حلول شهر رمضان (أول رمضان سنة ١٣٣٧ ــ ٣٠ مايو سنة ١٩١٩) قالت فيه :

ان وزير الداخلية (رئيس الوزارة) قد انتهى الى الاتفاق مع السلطة العسكرية على ازالة بعض القيود لأجل زيادة التسهيل على المسلمين فى التفرغ أثناء هذا الشهر المبارك الى احياء لياليه ، بقراءة القرآن الكريم ، واستماع الذكر الحكيم ، وتأدية سائر العادات التى ألفوها فى مثل هذا الشهر المبارك ، وان الأوامر المؤكدة صدرت الى رؤساء المناطق العسكرية المختلفة فى القطر المصرى بعدم التضييق على المسلمين فى استعمالهم لأنوار مساكنهم ، وعدم التعرض لهم فى غدوهم ورواحهم ، للتزاور خارج بيوتهم ، مع احترام ما جرت به عادة الكثير منهم من حيث تمضية ليالى هذا الشهر المبارك كلها او بعضها فى المطاعم والقهوات ، كل ذلك لكى يتمكن المسلمون كل التمكن من الاجتماع ، وتأدية الصلوات المفروضة والمسنونة ، وتلاوة القرآن الكريم واستماعه ، وقراءة ما جرت به العادة من الأدعية والأحزاب والأوراد ونحوها فى مساكنهم » .

الافراج عن بعض المعتقلين :

واعلن محمد سعيد منذ اليوم الأول لتوليه ان حكومته حكومة ادارية ستعمل على تسيير الشئون الادارية البحته وعلى راسها تحسين احوال الموظفين بزيادة مرتباتهم ، وانها لن تتدخل فى المسائل السياسيه كتنظيم العلاقه بين مصر وانجلترا، ولكن ذلك كله ما كان يخيل على الناس فى قليل أو كثير لو لم يكن مصحوبا ببعض الاجراءات التى تخفف التوتر ومنها الافراج عن بعض المعتقلين الذين سبق للسلطة البريطانية ان احتجزتهم فى مناسبات مختلفه وقد التقيت باثنين صارا فيما بعد من اعز اصدقائى وهما المرحومان احمد غلوش وعبد القادر مختار فقد استفادا من مجىء وزارة محمد سعيد فافرج عن أولهما من الاعتقال اما الثانى (عبد القادر مختار) والذى تحدثت عن دوره كمأمور فى مدينة كفر الشيخ فقد كانت احدى المحاكم العسكرية البريطانية قد حكمت عليه بالاعدام ولكن مجىء الوزارة أوقف تنفيذ الحكم .

٢ يونيو ــ انشاء وزارة المواصلات :

فى الثانى من شهر يونيو صدر مرسوم بانشاء وزارة المواصلات ونقل اليها أحمد زيور باشا وعين أحمد باشا طلعت فى وزارة المعارف بدلا منه .

٢٨ يونيو ــ امضاء معاهدة الصلح :

وانتهى مؤتمر السلام الذى كان منعقدا فى (فرساي) لعقد الصلح النهائى مع المانيا والذى اشرنا فيما سبق انه تضمن اعتراف ألمانيا بالحماية على مصر ، وقد احتفلت انجلترا بهذه المناسبة السعيدة بالنسبة لها فأطلقت المدافع (١٠٠ مدفع) وانتهزت انجلترا هذه الفرصة لتقوم ببعض اجراءات تساعد على تخفيف التوتر فى مصر فأوقفت الرقابة على الصحف من الناحية الرسمية (ظلت من الناحية العملية) . كما أوقفت المحاكم العسكرية ، وأوقفت الرقابة على البريد وأعيد اباحة السفر الى سائر جهات القطر وأصلحت السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبالجملة فقد توقفت الاضطرابات العنيفة وان ظلت ارادة الشعب لا تتزعزع فى مطالبته بالحرية والاستقلال وتمثل ذلك فى مضاعفة اهتمامه بتتبع نشاط وفده فى فرنسا ، فلنلق نظرة على نشاط هذا الوفد .

نشاط الوفد فى باريس :

قدمنا ان الوفد صدم صدمة عنيفة بمجرد وصوله الى باريس بما اعلن عنه من اعتراف ويلسون بالحماية وبالتالى قفل باب المؤتمر فى وجوههم ، ولكن بعد زوال الصدمة نشطوا فى الاتصال بالصحف والأحزاب وفى بادىء الأمر افسحت بعض الصحف الفرنسية صدرها لأنباء الوفد ولكن انجلترا التى افلحت فى حمل ويلسون نفسه على الاعتراف بالحماية ما كان يعجزها ان تصل بطريقة ما الى الصحف

الفرنسية . ومن هنا بدأت الصحف تصمت ولكن الوفد بتوجيه من سعد زغلول مضى فى مثابرته على اتصالاته وبيـــاناته واحتجاجاته ، وسرعان ما انفتحت أمامه كوة من الأمل ممثلة فى الصحافة الأمريكية ومجلس الشيوخ الأمريكى والذى كانت سياسته معارضة لسياسة ولسون فبدأت أحداث مصر وقضيتها تؤلف مادة لخدمة هذه السياسة المعارضة فبدأت بعض الأصوات ترتفع فى الكونجرس الأمريكى سواء فى مجلس النواب أو الشيوخ بالدفاع عن وجهة النظر المصرية ، وهكذا خرجت دعاية الوفد من الحصار الذى فرض عليها وبدا الوفد يفكر جـــديا فى مد نشـــاطه الى الولايات المتحـدة .

ولسون وبادرة جديدة :

وكان الموقف قد بدأ يسوء فى أمريكا بالنسبة لويلسون فقد بدأ الشعب الأمريكى يحس أنه لم يعد المحرك الأول فى السياسة وان ساسة انجلترا وفرنسا وعلى رأسهم لويد جورج ، وكليمنسو قد اســتطاعوا أن يتغلبوا على رجلهم وان يحققوا كل أغراضهم وشعر ويلسون بهذا التبدل فى الرأى العام الأمريكى فانتهز فرصة أن بعث اليه سعد زغلول بصفته رئيسا للوفد المصرى طلبـا جـديدا لتحديد موعدا للاجتماع به حتى بادر هذه المرة على خلاف المرة الاولى بأن رد على الرســـالة (عن طريق سكرتيره) معتذرا عن المقابلة بكثر مشاغله ولكنه يرجو ان تمكنه الظروف من ذلك فى المســتقبل القريب . ولم يفت هذا التحول فى موقف ويلســون عن انظـار الوفد المصرى فكتب سعد زغلول يسجل على ويلسون هذا الوعد ويرجو أن يتحقق اللقاء فى أسرع وقت ، وقد كان ذلك مؤشرا الى أن أمريكا هى ميدان النشاط فبدأ الوفد يرسم الخطط لسفر فريق منه الى امريكا .

بدء الخلاف بين صفوف الوفد :

ولكن عند هذا الحد كان الخلاف بين أعضاء الوفد قد تعمق بحيث بدأ يظهـر على السطح وتتسرب أنباؤه الى الرأى العام المصرى وقد كان من الطبيعى جدا أن ينشأ هذا الخلاف منذ صدم الوفد باعتراف امريكا بالحماية واغلاق مؤتمر الصـلح فى وجه الوفد فقد أحس فريق باليأس منـذ اللحظة الأولى واقترحوا العودة الى مصر ولكن فريقا آخر وعلى رأسه سعد زغلول آثر التريث لئلا يكون معنى العودة هو الاقرار بالفشل التام وقد بدأ وجود الوفد فى فرنســـا يمثل للمصريين شعلة الأمل ومن هنا انتصر الرأى الذى طالب بعدم العودة وان يواصل الوفد نشـاطه الدعائى فى أوربا وأمريكا بين الشعوب ولكن نفرا من أعضـاء الوفد وعلى رأسهم اسماعيل صدقى باشا لم يلبث أن ضاق ذرعا وقرر العودة الى مصر فاتخذ الوفد منه موقفـا .

النحاس باشا يحدثنى عن صدقى باشا :

وبمناسبة اسماعيل صدقى وانه سيكون أول من يجاهر بالخـلاف حـدثنى

مصطفى باشا النحاس فيما بعد عن هذه الفترة وكان الخلاف بينه وبين اسماعيل صدقى الذى أصبح رئيسا للحكومة (١٩٣٠) فى الذروة قال النحاس متحدثا عن كفاءة اسماعيل صدقى وقدرته قال : « كنـا نستيقظ فى باريس البعض منـا فى الساعة التاسعة وآخرون فى العاشرة ثم نجتمع فى بهو الفندق فمنا من يكون قرأ جريدة أو جريدتين ومنـا من لا يكون قرأ شـيئا على الاطلاق فيفاجئنا اسماعيل صدقى بأنه استيقظ فى الساعة السابعة صباحا واطلع على كل الصحف وترجم كل ما قد يكون فيها خاصـا بمصر كما لخص كل ما يكون مهما فيها وظل اسماعيل صدقى منفردا بهذا العمل القيم ، ويمضى مصطفى النحاس باشا فى حديثه عن كفاءة الرجل ثم يضيف أن ذلك بغير أخلاق أو وطنية فكان أسرع الجميع الى الضعف ثم الانهيار . »

يوليو ـ فصل اسماعيل صدقى وآخرين :

وكان القرار الذى اتخذه الوفد هو فصل اسماعيل صـدقى باشـا وحسين واصف باشا ومحمود بك أبو النصر من عضـوية الوفد وكان هـذا أول صدع فى صفوف الوفد ولذلك فقد بقى فى ظل الكتمان أطول مدة ممكنة . واذا كان الوفد قد فصل هؤلاء الثلاثة فان بعض أعضاء آخرون رأوا أن ينسحبوا فى هدوء مثل على شعراوى باشا فعاد الى مصر بحجة القيام ببعض المهمات العائلية .

ولكن عودة هذا النفر الى مصر بالفعل أيدت هذه الأشاعات التى كانت قـد استفاضت عن حدوث الخلافات بين أعضاء الوفد .

نشاط الدعاية فى أمريكا :

ولا شك ان ما ابقى على الوفد تماسكه فى هذه الفترة الحرجة هو انباء المشجعة التى بدأت تصل من الولايات المتحدة والتى وصلت ذروتها فى :

٣١ أغسطس ـ قرار لجنة الشئون الخارجية :

نشرت الصحف المصرية برقية وردت من سعد زغلول من باريس تفيد ان لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى قد أصدرت قرارا فيما يتعلق بمصر قالت فيه بمناسبة عرض معاهدة الصلح عليها :

« ان مصر ليست تابعة لتركيا ولا لبريطانيا العظمى ويجب أن تكون صـاحبة الأمر فى تقرير مصيرها » .

وقد ترنحت السلطـات البريطـانية تحت وطأة هــذا التصريح وحاولت أن « تشوشر » عليه بزعم انه خاطىء ولكن ابلاغه للشعب عن طريق سعد زغلول نفسه كان كافيا لادخال الفرح على النفوس وتزويد الجميع بشحنـة جـديدة من الثقة

والأمل ولا شك ان الوفد نفسه رأى فى قرار اللجنة بارقة امل فى نجاح مســاعيه وقضى فكرة عودته الى مصر وحل محلها فكرة مضاعفة جهـود الوفد فى امريكا . فبعد التفكير فى سفر سعد زغلول نفسه الى امريكا ولكن صحته لم تسعفه لذلك رؤى أن يقوم محمد باشا محمود بهذا الدور وفى انتظار ذلك واصل «المستر فولك» المحامى الأمريكى الكبير تحدثه باسم الوفد فى الولايات المتحدة الامريكية والحق يقال انه اضطلع بالمهمة على خير وجه (١) .

٢ سبتمبر ـ الاعتداء على محمد سعيد باشا :

اذا كانت انجلترا قد نجحت (اولا) بفضل الافراج عن سعد زغلول والسماح لمن شاء بالسفر و (ثانيا) بموافقة ولسون على الحمايه فى ان تعيد الهدوء الى مصر وان تضم السلطان أحمد فؤاد وبعض العناصر الى جانبها فقد كان ذلك كله لفترة مؤقتة ريثما يلتقط الشعب أنفاسه وقد استغلت السلطات البريطانية هذه الفرصة لمواصله ارهابها وانتقامها فعقدت المحاكم العسكرية فى طول البلاد وعرضها للعقاب بشدة وقسوة فأصدرت أحكاما رهيبة على من زعمت انهم مرتكبوا الحوادث التى مرت بنا فى شهرى مارس وابريل فكان ان بدات الجمعيات السرية تتألف فى البـــلاد على نطاق واسع لم تشهده البلاد من قبل ، وكان من ثمار ذلك وقوع اعتداء على محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فى الثانى من شهر سبتمبر ١٩١٩ اثناء خروجه من بيته فى الاسكندرية الى مقر الوزارة فى بولكلى حيث ألقى عليه من يسمى « سـيد على محمد » من أهالى كفر الزيات قنبلة أخطأته . وقد كتب بطل الحادثة تفصيلا كاملا عن الحادث وملابساته وكيفية وقوعه فى الكتـاب الذى اصـــدره الأســتاذ مصطفى أمين صاحب أخبار اليوم عن ثورة سنة ١٩١٩ ولعل أطرف ما يروى عن هذه الحادثة أن محمد سعيد نفسه عندما ذهب الى المحكمة للادلاء بشهادته طلب من المحكمة ان تستعمل الرأفة مع المتهم لأنه كان واقعا تحت تأثير نظرة الراى العام لوزارته . وسوف نرى ان هذا الحادث قد انتج آثاره بعد قليل فلن يلبث محمـد سعيد ان يستقيل من الوزارة .

١٤ سبتمبر ـ آخر رسالة للزعيم محمد فريد :

اعتاد الحزب الوطنى بمناسبة ذكرى الاحتـلال البريطانى لمصر ان يصدر بيانا يذكر فيه المصريين بهذا اليوم المشئوم ويتحدى الانجليز بالاحتجاج عليهم . وقـد توقف هذا التقليد مع توقف كل نشاط للحزب الوطنى بسبب الحـرب كما راينا ، ولكن بقيام ثورة سنة ١٩١٩ عاد اعضاء الحزب القدامى يجمعون من جديد شتاتهم فاستأنفت لجنة الحزب العليا واصدرت بيانها ولكن ابلغ من هذا البيان واقوى منه فى الدلالة ما بعث به محمد فريد من سويسرا وكان المرض قد استبد به والنـــداء

(١) عاصرنا نحن فيما بعد مطالبة مستر فولك بمبالغ جديدة غير المتفق عليها على سبيل «الاتعاب»

يكشف عن نغمة البهجة فى روح محمد فريد وانى لأحمد الله سبحانه وتعالى ان ابقى محمد فريد على قيد الحياة حتى اقر عينيه بأنباء ثورة سنة ١٩١٩ وطالما قلت ان ما حدث فى ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ هو شبيه بما حدث سنة ١٩١٩ وفى نداء محمد فريد اشارة لما حدث للمصريين فى الخارج من حيث رفعهم لرؤوسهم عزة وفخارا وهو عين ما حدث للمصريين بعد ٦ اكتوبر . واليك هذا النداء الذى وأن كتبه محمد فريد فى سبتمبر فلم يأخذ طريقه الى النشر على صفحات الصحف الا فى (١٦ اكتوبر) حيث نشرته جريدة (الأفكار) وقد نشرته تحت عنوان « صوت من وراء البحار » وفيما يلى نصه :

« صوت من وراء البحار »

اخوانى المصريين الأعزاء :

« ان الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر من نحو سبع سنوات ، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا سواء قبل هذه الحرب أو فى اثنائها او بعدها! .

« ان صوت هذا الضعيف لم يخفت يوما واحدا ، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة ونشاطا كلما تراكمت امامه الموانع وتكدست العقبات .

« ان هذا الصوت يناجيكم اليوم من وراء البحار ليهنىء الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها فى المطالبة بحق امتنا المظلومة « مصر » لا فرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها ، مسلمين واقباط مما كان له دوى فى أوروبا اخرس المتهمين اياهم بالتعصب الدينى ، وهم يعلمون انهم كاذبون وقضى القضاء الأخير على دعوى ان المصريين اتفقوا على ان لا يتفقوا .

« اننى لعاجز عن وصف ما شملنا من السرور نحن معاشر المصريين المقيمين خارج الديار عند وصول هذه الأخبار المنعشة الينا ، ولو انها كانت تأتينا مقتضبة مبتورة حتى أصبح المصرى فى أوروبا عالى الراس مفتخرا بمصريته اضعاف ما كان يفخر بها قبل الآن .

« اننا كنا ننتظر صحف مصر انتظار الظمآن للماء ، لنقف منها على أخبار هذه الحركة المباركة ، وهاتيك المظاهرات السلمية ، ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأرض الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ، ثم أزهر وظهرت ثماره الشهية التى قد قرب زمن جنيها ، كل ذلك بفضل نشاط الشبيبة العاملة ، وارشاد الشيوخ لها الى احسن طريق لجنى اشهى تلك الثمار ، وهو الاستقلال التام ، بفضل جهود الامة بلا تباطؤ

او تواكل او اعتماد على الغير ، لا يؤثر فيها غدر السياسيين ، او نكرانهم لما اعلنوه واذاعوه من مبادىء عادلة ، استعملت ستارا لاخفاء مطامع اشعبية تغريرا او تضليلا للوصول الى استعباد شعوب كريمة لا تطلب الا ان تعيش فى بلادها آمنة مطمئنة ، صديقة لسواها من الامم ، وأن تعاملها تلك الأمم معاملة الند بالند ، والقرن لقرنه ، طبقا لحقوق الأمم الطبيعية والقانون الدولى ، لكن لا تتطيروا أو تفرحوا لكل ما يصل اليكم ، حتى اذا ما تقشعت سحب الأوهام ، ظهرت شمس الحقيقة ، لا تكون حالكم كالمسافر فى الصحراء ، يرى السراب فيظنه واحات غناء فاذا ما وصل اليه لا يجده شيئا ، واياكم ان تنسوا عبر التاريخ ، وليكن دائما امام أعينكم ، فمنه تعلمون الحقيقة ، ولتنتظروا خاتمة الأعمال لاصدار حكمكم عليها .

أيها الأعزاء

« أكتب هذه السطور اليوم وذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ تملأ فؤادى حزنا واسى على مصرنا العزيزة ، وما انتابها من الحوادث القاضية على استقلالها ، ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطا من النور اللامع ، نأمل ان يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو .

« فسلام عليك أيها الوطن المفدى ! سلام على النيل وواديه ! سلام على الأهرام وبانيه ! سلام على خدام مصر المخلصين ! سلام على شهداء الحرية » .

((محمد فريد))

تريشته فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩

٢٢ سبتمبر ــ تأليف لجنة ملنر رسميا :

كان من الطبيعى ان يتوق الانجليز لمعرفة الأسباب التى ادت الى انقلاب الشعب المصرى الذى تصوروه شعبا خانعا مستلما بل وزادوا على ذلك فاعتبروه راضيا ، الى شعب يتحداهم بكل هذه الضراوة ولا يرهب تهديدهم ولا يستطيع موت العشرات بل المئات ان يلين من قناته ، ولكن بعد ان وصل اللنبى الى مصر ونجاحه فى اعادة الهدوء وسير الحياة الطبيعية ، لم يعد الانجليز فى لهفة لتقصى الأسباب فعلى الرغم من ان كيرزون اعلن عن اعتزام الحكومة البريطانية تأليف لجنة لتقصى أسباب الاضطرابات فى مصر فلم تشكل هذه اللجنة واغلب الظن ان هذا التصريح اريد به الايهام بأن الحكومة الانجليزية معنية بالأمر ومع ذلك فقد مضت عدة شهور دون ان تشكل اللجنة ، وليس الا بعد ان نجح الوفد المصرى فيما يبدو فى دعايته الى الحد الذى انتهى بمجلس الشيوخ الأمريكى الى اصدار ما أصدر من قرار على لسان لجنة الشئون الخارجية ، هنا ورأى الانجليز ان ينظروا الى الموضوع بشىء من الجد فأعلنوا عن تشكيل اللجنة الموعودة برئاسة اللورد ملنر وزير المستعمرات ولا شك أن الانجليز قد قصدوا قصدا الى جعل هذه اللجنة تحت رئاسة وزير المستعمرات ليشعروا المصريين بطبيعة العلاقات المقبلة بين مصر وبريطانيا ، وقدكانت

هذه الخطوة الاستفزازية بمثابة عود ثقاب جديد أشعل العواطف المصرية مرة أخرى فانفجرت المظاهرات التى كانت قـــد توقفت وعادت الاضرابات والاحتجاجات من مختلف الطوائف بينما طلب محمد سعيد رئيس الوزارة رسميا تأجيل وصول هذه اللجنة وبالجملة فقد كان موضوع لجنة ملنر فصلا جديدا مشرقا من فصول ثورة سنه ١٩١٩ وكما انتصرت اراده مصر على انجلترا بالافراج عن ســعد زغلول بعد اعتقاله فكذلك انتصرت ارادة مصر مرتين بمناســبة لجنه ملنر عنــدما نجحت فى مقاطعتها كما سوف نرى ثم حولتها من لجنة تحقيق الى لجنــة مفاوضــة لوكلاء الشعب لتحقيق استقلال مصر فى الدرجة الأولى .

من أكتوبر الى منتصف نوفمبر :

تعتبر الفترة منذ الاعلان عن لجنة ملنر فى أواخر سبتمبر حتى منتصف نوفمبر فترة تشبه الى حد كبير ما حدث فى شهرى مارس وابريل من حيث قيام المظاهرات الجبارة فى القاهرة والاسكندرية وبقية عواصم المديريات والفارق الوحيد هو عــدم قطع السكك الحديدية والتلغراف والسبب فى ذلك هو وجود وزارة محمد ســعيد فى الحكم فلم ينفرط عقد الادارة ومن ناحية أخرى فقد كان الانجليز وعلى رأسهم اللنبى قد استفادوا من الدرس الســابق ورأوا ان افراطهم فى العنف لن يؤدى الا زيادة الاشتعال فتركوا الى السلطات المصريه على قدر الامكان مواجهة الموقف ولم يتدخلوا الا عندما يطلب منهم البوليس المصرى التدخل ولمــا كان رؤساء البوليس المصرى من الانجليز فقد كانوا يستدعون الجيش الانجليزى كلما عجزوا عن مواجهة الموقف ومع اصطدام الجيش الانجليزى بالمتظاهرين يسقط عشرات القتلى والجرحى. ولمــا كانت الحكومة وعلى راسها الســلطان لا زالت تقيم فى الاسكندرية فقد قامت بها أعنف الحركات وخاصة فى أيام ٢٤ و ٢٥ و ٣١ أكتــوبر ومرة اخــرى اقيمت المتاريس فى الشوارع وحفرت الخنادق وسارت مواكب الشهداء الرهيبة ومظاهرات السيدات واعرب المسلمون والأقباط عن تكتلهم بتبادل الزيارات فيما يشــــبه المظاهرات وعادت نقابة المحامين تحتج وتعلن الاضراب وهكذا تكررت نفس المشــاهد التى شهدتها البلاد فى شهرى مارس وابريل وأخيرا جاءت القشة التى قصمت ظهر البعير فاستقالت وزارة محمد سعيد ، اما هذه القشة فكانت اعلانا صدر من دار الحماية يعلن عن قرب وصول لجنة ملنر وتحديد اغراضها واليك نص البيان :

« ان سياسة بريطانيا العظمى فى القطر المصرى هى المحافظة على حكومته الذاتية تحت الحماية البريطانية وانشاء نظام حكومة ذاتية تحت حــكم سلطان مصرى (١)

---

(١) نشرت صحيفة « المقطم » البلاغ وفيــه عبارة « تحت رآسة حاكم وطنى » وكلمة « سمو » بدل « عظمة » وقالت : انه هو النص الذى تلقته من دار الحماية وارسل الى الصحف الاخرى ، ثم صدر بلاغ عن ادارة المطبوعات بتصحيح عبارة « تحت رآسة حاكم وطنى » بعبارة « تحت حكم سلطان مصرى» وكلمة « سمو » بـ « عظمة » ، وهذا معناه أن الكلمات التى صححت كانت واردة فى البلاغ أصلا .

وغرض بريطانيا العظمى الدفاع عن مصر من كل خطر خارجى او من تدخل اى دولة اجنبية ، وغرضها فى الوقت نفسه تأسيس نظام دستورى تحت ارشاد بريطانيا العظمى على قدر الحاجة،النظام الذى يمكن عظمة السلطان ومعالى وزرائه وحضرات مندوبى الأمة فى دوائرهم الخاصة من الاشتراك فى ادارة الأمور المصرية ،وذلك على أسلوب يزيد فيه نفوذهم على مرور الأيام ، وعليه فقد قررت حكومة جـلالة الملك ارسال لجنة الى مصر ، مهمتها تقرير نظام الحكم للوصول الى تلك الغاية ، وبعد أن تستشير عظمة السلطان ومعالى وزرائه وأصحاب الرأى والشأن من المصريين تباشر الأعمـال الأولية اللازمة ، قبل وضـع قانون الحكومة المستقبلة نهائيا ، وليس من اختصاص اللجنة أن تستقل بوضع شكل الحكومة على مصر ، فان مهمتها هى ان تدرس الأحوال درسا دقيقا وتبحث مع أصحاب الشأن فى البـلاد فى الاصـلاحات اللازمة ، وأن تقترح نظام الحكم الذى يمكن تنفيذه فيها فى النتيجة ، والمأمول أن يكون ذلك بالموافقة التامة مع عظمة السلطان ومعالى وزرائه الكرام » .

أثار هذا البلاغ احتجاج الهيئات والطوائف والأفراد ، وجـددت عهـدها على استمرار الجهاد حتى تنال البلاد استقلالها التام ، ومقاطعة لجنة ملنر .

١٥ نوفمبر ــ استقالة وزارة محمد سعيد :

وعلى أثر صدور هذا البيان قدم محمد باشا سعيد استقالته من رئاسة الحكومة بخطاب مسبب ، ولمـا كان السلطان لا يزال فى الاسكندرية فقد أبقى الاستقالة سرا وأسرع بالعودة الى القاهرة واليك نص الاستقالة :

« يا صـاحب العظمة

« حينما تفضلتم عظمتكم فطلبتم معاونتى فى تأليف الوزارة قد رأيت ان الواجب المفروض على أمام وطنى يقضى على بقبول هذه المهمة التى ما كنت أتجاهل أعباءها الثقيلة فمع تعضيد عظمتكم وتأييدها قد بذلت كل ما فى وسعى للتغلب على المتاعب المتجددة فى كل يوم بقصد ايجاد ما كان مرغوبا فيه من تهدئة الخواطر فى البـلاد ، على أنه قد حدث الآن اختلاف فى النظر بشـأن ملاءمة حضـور اللجنـة المعلن عن مجيئها الى مصر كما قد عرضته على مسامع عظمتكم ، وهذا الاختلاف من شـأنه أن يجعل استمرارى فى العمل عديم الفائدة بالمرة للبـلاد ولعظمتكم ، لذلك أرانى مضطرا للتقدم بين يدى عظمتكم راجيا التكرم بقبول استقالتى من رئاسة الوزارة . مع خالص الشكر لمـا كنت الاقيه على الدوام من التعطف العالى الذى كنتم تتفضلون به على ذلك الذى لا يزال لعظمتكم الخاضع الخادم المطيع والعبد المخلص الأمين » .

« محمد سعيد »

عودة السلطان الى القاهرة :

وعاد السلطان الى القاهرة فى يوم ١٦ نوفمبر وكانت تموج بالمظاهرات وكشف

عن تعاونه الكامل مع اللورد اللنبى ولذلك لم تمض ايام حتى تم تشـــكيل وزارة جـــديدة .

٢١ نوفمبر ـ تأليف وزارة يوسف وهبة باشا :

كان يوسف وهبة وزير المالية فى وزارة محمـد سعيد هو الذى قبل تأليف الوزارة فى هذا الجو العاصف وهو ما كان يجرؤ بطبيعة الحال على هذه الخطوة لولا تحريض السلطان احمد فؤاد واللورد اللنبى وقد احتمى يوسف وهبة وراء الفكرة التى ابتدعها محمد سعيد فكرة الوزارة الادارية التى تتلخص مهمتها فى تسيير شئون الدولة وهو اقصى ما يتمناه الانجليز بطبيعة الحال . وقد تشكلت الوزارة عـــلى الوجـه التـالى :

يوسف وهبة باشـا	الرئاسة والمـالية
اسماعيل سرى باشـــا	للأشـغال والحربية
احمد ذو الفقـار باشـا	للحقـــانية
محمد توفيق نسيم باشـا	للداخليـة
احمـد زيـور باشـا	للمواصـلات
محمـد شـفيق باشـا	للزراعـة
يحيى باشـــا ابراهيـم	للمعـــارف
حسـين درويش باشـا	للأوقـــاف

اسـتقبال الوزارة بالسخط العام :

ظل تشكيل الوزارة على الكتمان بضعة أيام ولعل هذا يكشف عن مدى استنكار الرأى العام لتأليفها وكان الأقباط هم اشد المصريين نكيرا فعقدوا اجتماعا ضخما فى الكنيسة المرقصية الكبرى وبعثوا فى نهايته بالبرقية التالية نثبتها بنصـــها لأنهـا تصور الروح الجليلة التى كانت تسود البلاد :

« الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيســة الكبرى تحتج بشدة على اشاعة قبولكم الوزارة اذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ، ومقاطعة اللجنة ، فنستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى اجدادنا العظام ان تمتنعوا عن قبول هـــذا المنصب الشائن » .

جـو عاصف يســود البلاد :

وساد مصر جو عاصف اضطر معه اللنبى الى يكشر عن انيابه فعاد يمسك بزمام الأمور فى يديه ووزع الجيش الانجليزى فى الميادين والشوارع وبخاصـــة الأحيـاء

الأوربية وراح يذيع الانذارات والتحذيرات ، بل ووصل الامر فى الاسكندرية الى حد منع التجول بالليل ولكن من المحقق أن تعليمات مشددة قد أعطيت للجند أن لا يتعرضوا للمظاهرات الا اذا هاجمتهم .

ومن ناحية أخرى رؤى التمهيد لمجيء لجنة ملنر بنشر موجة من الارهاب فطلب من محمود باشا سليمان وابراهيم باشا سعيد وكانا قائمين بأعمال لجنة الوفد المركزية أن يبرحا القاهرة ويقيما فى أرضايهما فى الريف فلما ان لم يفعلا طواعية أجبرا على ذلك بالقوة وتم اعتقال من تصورت السلطة انهم محرضون .

٢٣ نوفمبر — مجلس النواب الأمريكى يرفض :

على ان الصحف المصرية نشرت فى صبيحة يوم ٢٣ نوفمبر خبرا نستطيع بعد هذا التاريخ ان نتصور انه كان له اكبر الأثر فى شد العزائم ورفع معنوية المصريين وهو نبأ رفض مجلس النواب الأمريكى لمعاهدة الصلح ولما كانت هذه المعاهدة تتضمن الاعتراف بالحماية على مصر فقد اعتبر رفض مجلس النواب الأمريكى التصديق على المعاهدة بمثابة زعزعة اليقين الذى حاولت انجلترا أن تثبته وتؤكده من أن الحماية على مصر شيء أبدى . وغنى عن البيان ان مجلس النواب الأمريكى لم يرفض التصديق على معاهدة الصلح لشيء يتصل بمصر عن قرب أو حتى عن بعد ولكن مجرد الرفض أنعش آمال المصريين .

٧ ديسمبر — وصول لجنة ملنر :

ووصلت اللجنة الموعودة اخيرا ولكن جو الارهاب الذى سبقها لم يرهب احدا واستقبلتها البلاد بموجة عارمة من الاستنكار والتواصى بالاجماع العجيب على مقاطعتها بحيث مهما كان ما سمعه ملنر وبقية اعضاء اللجنة قبل قدومهم الى مصر عن الجو المعادى الذى ينتظرهم ، فلم يطف لهم فى خيال بعض هذا الذى صادفوه مذ وطأت اقدامهم ارض مصر ، يقول ملنر فى تقريره :

« وكانوا قد اتخذوا جميع الاحتياطات للمحافظة على سلامتنا نظرا لروح العداء للجنة الذى اشتد فى النفوس بالتحريض والاغراء ، فبلغنا الفندق المعد لنزولنا فيه دون ان يحدث حادث ما »

ولعل هذه العبارة الأخيرة تشعرك بالجو الذى احاط بوصول اللجنة وقد بقى ان تعرف ان الباخرة وصلت الى بور سعيد وركبوا منها قطارا الى القاهرة كان يتقدمه قطار آخر كشاف وكانت الطائرات تحلق فوق القطار وعندما وصل القطار الى محطة شبرا انزل اعضاء اللجنة واستقلوا السيارات الى الفندق ووصل القطار الى محطة العاصمة التى كانت تضج بالمستنكرين والغاضبين ، خاليا . ومع ذلك فلم يعجز الشباب عن ايصال صيحات الاستنكار الى سماع ملنر ولجنته فقد

نزلت اللجنة فى فندق سميراميس وطبعا سدت كل الطرق المؤدية اليه ، ولكن الذى غاب عن خطط الانجليز نهر النيل وانه يجرى امام الفندق واذا بهم يفاجأون بالشباب يستقلون الزوارق ويحتشدون امام الفندق ليهتفوا بطلب الاستقلال التام وسقوط الحماية وسقوط لجنة ملنر بالجملة . وطبعا كان فى استطاعة الجنود البريطانيين أن يردوا بعض هؤلاء الهاتفين قتلى بالرصاص ولكن ذلك لم يحدث وربما كان ذلك بناء على تعليمات من ملنر نفسه والا لحبطت مهمته منذ اللحظة الاولى .

١٥ ديسمبر — الاعتداء على رئيس الحكومة :

كان الأمر الثابت عند الأمة هو ان السلطان وحكومته قد خرجا على اجماع الامة وتحالفا مع الانجليز لكسر ارادتها ، وجاء حضور لجنة ملنر الى مصر مصداق ذلك، فلا عجب ان قررت الجمعية السرية اغتيال رئيس الوزراء ، ولما كان يوسف وهبة قبطيا فقد خشى ان تتكرر المأساة التى اعقبت مقتل بطرس غالى فاختير لقتله شاب قبطى « عريان يوسف سعد » فألقى على سيارته قنبلة لم تصبه ولكنها كانت كافية للتعبير عن موجة السخط التى تجتاح البلاد وبالطبع لم يغب ذلك عن ملاحظة ملنر ولجنتــه .

فشل لجنة ملنر :

ويمكن تلخيص ما حدث للجنة ملنر انه فشل ذريع على طول الخط مما جعل انجلترا تهزم للمرة الثانية امام ارادة الشعب المصرى وكان حضور هذه اللجنة الى مصر فرصة جديدة اتاحت للشعب المصرى ان يستأنف ثورته بصورة تبهر الانجليز انفسهم هذه المرة واذا كانت ثورة الشعب فى مارس قد فسرت على انهــا نتيجة السخط لعديد من الشكاوى ، الأمر الذى جعل انجلترا توفد لجنة ملنر لتحقق فى هذه الشكاوى فقد ظهرت عظمة الشعب المصرى وهو يصفع هذه اللجنة عندما لا تجد مصريا واحدا يتقدم اليها بشكوى من أى نوع كان ، وانما هى صيحة واحدة تقابل بها فى كل مكان « فلتسقط لجنة ملنر — يحيا الاستقلال التام » . ونحن عنــدما نقول « لا نجد مصريا واحداً » فنحن نعنى هذا التعبير بكل دقته ، اذ لم يجد مصريا من اى طرز أو طبقة يتقدم اليه بصفة رسمية ليدلى أمام اللجنة بأى قول من اى نوع كان وكان الانجليز قد الفوا قبل حضور اللجنة هيئة اطلقت على نفسها « الحزب الحر المستقل » وجمعوا فيه كل صنائعهم وتصوروا ان هذه الجماعة تحت حمــاية الانجليز وتشجيع السلطان والحكومة أن يلعب دورا ما فلم تكد اللجنة تصل الى مصر حتى تبخر هذا الحزب الحر المستقل ولم يجرؤ اى شخص ينتسب اليه أن يخرج على اجماع الأمة، وقد كان هذا شىء لا يكاد يصدق ، بحيث اضطر ملنر وبقية أعضاء اللجنة أن يقوموا هم بزيارة بعض معارفهم القدامى من المصريين وجل اعضائها ممن سبق له العمل فى مصر وكون له بعض المعارف ، وما كان كرام المصريين يرفضون استقبال ضيف يطرق بابهم ، فكان يستقبل من رب البيت بكل أدب ومودة ليسمعه بعد ذلك انه لا جدوى الا باجابة المصريين الى مطلبهم وهو الإستقلال التام ، وكان

يحدث ان يتسلل اليه بعض صنائع الانجليز ولكن ليقول لهم ان لم يعد احد فى مصر يطيق سماع كلمة الحماية وان الأمة كلها اصبحت لا تعترف الا بسعد زغلول ليتحدث باسمها ووصل الأمر الى حد ان اصبحت (النكات) تتحدث عن ان الغريب اذا سأل عابر سبيل عن الطريق قال له اسأل سعد زغلول وكذلك لو سأله عن صحة أولاده فالرد هو « اسأل سعد زغلول » وليست هذه النكات الا تصويرا لهذا الجو الرهيب من المقاطعة العامة الشاملة التى لا نحسب انه كان لها مثيـــل فى اى مكان او زمان وليس سوى الشعب المصرى من يقوم بمثل هذه الأعجوبة .

اول انتصـــار الشعب :

وحصل الشعب على اول انتصار له على اللجنة عندما اضطر ملنر وأنفه راغم ان يذيع بيانا يترضى فيه المصريين ولا يشير فيه الى كلمة « الحماية » عن قرب أو عن بعد ، ولكن بغير جدوى ونرى قبل ان نثبت نص هذا البيان التاريخى اذ انه خلا مما حرصت عليه كل البيانات السابقة وهو تأكيد الحماية على مصر وان كل حديث او مناقشة يجب ان يدور فى اطارها فجاء هذا البيان خاليا من هــذه النغمة ولكنا نرى قبل اثبات هذا النص ان نشير الى حادث ضخم سبق صدور هذا البيان ولابد انه كان عنصرا فى اصداره .

١١ ديسمبر ـ جنود الانجليز يقتحمون الأزهر :

قدمنا ان منذ وصلت لجنة ملنر الى مصر وقد قوبلت بشتى مظاهر الإستنكار فمن مظاهرات الى اضرابات الى ارسال برقيات الاحتجاج ، وقد حاولت السلطات الانجليزية كما قدمنا ان تواجه ذلك « باعتدال » ولكن **العساكر الانجليــز ضـــاقوا** بكل ذرعا فلم تكد احدى المظاهرات تخرج من جامع الأزهر يوم الخميس ١١ ديسمبر حتى هاجموا المتظاهرين وطاردوهم فحاول المتظاهرون ان يحتموا داخل المســجد فاقتحم العساكر الانجليز الجامع بأحذيتهم واقتحموا مكاتب الادارة وحاولوا كسر الأبواب ففزع الموظفون وحدثت ضجة كبيرة داخل الجامع وخارجه وسرعان ما عمت الشعب موجة من الغضب عبر عنها شيخ الأزهر وسائر علمائه فى مذكرة احتجاج وقع عليها جميع علماء الأزهر ، وقد أسرع اللنبى فاعتذر عن وقوع الحادث واعلن اسفه وان تحقيقا سيجرى فى الموضوع ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقـــد فوجىء ملنر ببيان من علماء الأزهر ينضمون فيه الى موكب المطالبة بالاستقلال التام ويعلنون أن لا سبيل أمام انجلترا لكسب رضاء المصريين الا عن هــذا الطريق وقد أعرب ملنر عن شديد ألمه لهذا الموقف فى حديث اجراه مع الشيخ بخيت مفتى الديار فى زيارة قام بها الى الشيخ . وكانت هذه المرة الاولى التى يعرب فيها العلماء عن راى فى السياسة منذ أيام نابليون على ما تردد فى تلك الأيام وهكذا راى ملنر نفســـه ولجنته فى حالة حصار كامل فأصدر هذا البيان الذى اعتبرناه اول نصر فى هــذه القضية احرزه الشعب المصري واليك نص البيان :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من حقوقها التى كانت لها الى الآن . ولا اساس على الاطلاق لهـذا الاعتقاد . فان اللجنة اوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمـان البريطانى لأجـل التوفيق بين امانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة التى لبريطانيا العظمى فى مصر مع المحافظة على الحقوق المشروعة التى لجميع الأجانب القاطنين فى البلاد .

« ونحن على يقين من انه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية من الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودى يزيل اسباب الاحتكاك ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شئون البلاد فى ظل انظمة حكم ذاتى .

« وتنفيذا لهذه المهمة تود اللجنة أن تقف على كل الآراء سواء صدرت من هيئات نيابية او اشخاص يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم ، ويمكن ابداء كل راى بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة فى تقييد حدود المناقشة ، كما انه لا داعى لأن يخشى كل فرد ان يعتبر مقابلة اللجنة تنازلا منه عن معتقداته ، فانه لا يعد متنازلا عن معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هى متنازلة بسماعها ، وبغير الصراحة التامة فى المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم والوصول الى الاتفاق » .

مصر فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ .

رفض الأمة للبيان الجديد :

وعلى الرغم من أن صيغة هذا البيان الجديد قد خلت من أى اشارة لكلمـة الحماية او ان مهمة اللجنة لم تعد التحقيق فى أسباب الاضطرابات وانما هى التوفيق بين « الأمانى المصرية » والمصالح البريطانية فان الأمة التى كانت قد وصلت الى ذروة الوعى واليقظة لم تنطل عليها الحيلة وأن كل المقصود هو ابطال مقاطعة لجنة ملنر واستدراج المصريين للتحدث معها لالغاء صفة الوفد وأنه هو وحده الذى له حق التحدث باسم الأمة فأصدرت لجنة الوفد المركزية بيانا بهذا المعنى ، كما اصـــدر الحزب الوطنى بيانا أكثر تطرفا ولقد عبر سعد زغلول عن راى الأمة فى نداء وجهه اليها من فرنسا ولكنه لم ينشر فى الصحف الا بعد أن استهل العام الجديد ومن هنا فسوف نثبته فى حينه بعد أن ننهى القول عن سنة ١٩١٩ هذه السنة المجيدة المشرقة فى حياة مصر الحديثة .

وفاة محمد فريد :

وشهدت سنة ١٩١٩ قرب ختامها وفاة البطل محمـــد فريد وتلك هى سنة الحياة ولعل ما يدخل العزاء على نفوسنا هو ما ذكرناه سابقا من أن الرجل وقد عانى

فى حياته ما عانى وهو ثابت كالطود لا يتزعزع او يلين فهو لم يفارق الدنيا الا بعد نهضة مصر وقد يختلف أقوام حول تشدد محمـد فريد وتصلبه الذى جعله فى مذكراته يحس بخيبة الأمل فى كل من كان معه ، ومع ذلك فان فى حاجة الى المثـل العليا تكون بمثابة المشعل يضىء لها الطريق ويرشدها الى القيم الثابتة التى ينبغى التمسك بها ولقد كان محمد فريد واحدا من هؤلاء .

وكانت وفاته فى برلين (١) يوم ١٥ نوفمبر ١٩١٩ وجىء بجثمانه فى يونيـة سنة ١٩٢٠ فاحتفلت به الأمة احتفالا عظيما كما سيجىء فى حينه ، وقد كانت لمحمـد فريد كلمة تتلخص حياته اجمل تلخيص « نحن قوم نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لا نعرف التسليم فى مطالبنا أو التنازل عن حقوقنا » .

عام ١٩٢٠

واستهل عام ١٩٢٠ العام الثانى للثورة وروح الشعب المعنــوية فى ذروتهـا وانجلترا فى قمة حيرتها وخيبة أملها لقد كان من المحقق أن بقدرتها أن تقتل وتسرف فى القتل ، وكان باستطاعتها ان تحكم المصريين بالحديد والنار ولكنها لم تكن تعرف الى أين يوصلها ذلك وكم يكلفها وهى فى مصر لتكسب لا لتخسر ومن هنا كانت الحيرة وخيبة الأمل .

٢ يناير ــ امراء العائلة المالكة ينضمون للامة :

لم يبق فى مصر كما قدمنا انسان واحد لم يناد بالاستقلال التام وكان علمــاء الأزهر هم آخر من عبروا عن هـــذه الارادة ولم يكد ملنر ولجنته يفيقان من هذه الصدمة حتى جوبها بصدمة أقوى ، فقد كان آخر سند للانجليز فى مصر هو السلطان بما له من نفوذ فاذا بأمراء الأسرة الحاكمة وعلى رأسهم كمال الدين حسين يعلنون تضامنهم للشعب فيذيعون بيانا نشر فى الصحف بهذا المعنى ، كمـا ارسـلوا الى اللورد ملنر رسالة تؤكد هذا المعنى وهذا نصها :

« بما ان جميع طبقات الأمة المصرية أعلنت شعورها نحو وطنها وعبرت عن أمانيها طالبة الاستقلال التام لبلادها ، وبما ان هذا العمل الصادر من الشعب المصرى برهان ساطع قاطع على اخلاصه الذى لا يدع مجالا لأحد أن يتهمه بأنه يعمل تحت تأثيرات شخصية أو عوامل خاصة ، وفضلا عن ذلك بما ان جميع أعمال الأمة المصرية المتحدة اتحادا صادرا من أعماق قلوبها تبرهن بكل جلاء على أنها منبعثة عن شعور حقيقى لم يدفعها اليه سوى عواطفها الحارة نحو الوطن ، فاننا نقدم اليكم هـذه المذكرة لتحيطوا علما اننا لا نقتصر على الموافقة التامة على جميع مطالب الأمة المصرية بل ننضم اليها ليكون منا جسم واحد للمطالبة بحقوق وطننا والتمسك بالاستقلال التام لمصر ، وتفضلوا بقبول فائق احتراماتنا . »

كمال الدين حسين	عمر طوسون	محمد على ابراهيم
يوسف كمـال	اسماعيل داود	منصـور داود

وهكذا وجد ملنر انه لم يبق سوى شخص السلطان وأشخاص الوزراء يعملون تحت حراسة الجيش الانجليزى ، واصبح السؤال الى كم يستمر ذلك ؟

١٣ يناير ــ نداء سعد زغلول :

ومنذ وصول انباء مقاطعة الشعب الرائعة للجنة ملنر ، الى اســـماع الوفد فى باريس وسعد زغلول يباركها فضلا عن يؤيدها وارسل من باريس نداء بهـذا المعنى نشرته الصحف فى يوم ١٣ يناير وهذا نصه :

« الى أبناء وطنى الأعزاء :

« يحاول الأقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم ليزدادوا قوة ويزيدكم ضعفا ، فلا تنخدعوا اذا ما دعوكم ولا تخافوا اذا هـددوكم وأثبتـوا على التمسك بحقكم فى الاستقلال التام فهو امضى سلاح فى ايديكم واقوى حجة لكم . فان لم تفعلوا ــ وليس فى قوة ايمانكم الوطنى ما يجعل احتمالا لذلك ــ خذلتم نصراءكم واهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم وانكرتم حاضركم ومددتم للرق اعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزلتم مأمنكم ذلا لا يرفع منه عز . وان تفعلوا ــ كما هو اكبر ظنى فى عظيم اخلاصكم ومتين اتحادكم وقوة وطنيتكم ــ فقد استبقيتم لأنفسكم عزة الحق وأعددتم لنصرتكم قوة العدل . فلا تذلوا وان قهرتم ، ولا تخشوا وان ظلمتم . ولابد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصـومكم وتتحقق باذن الاله القدير آمالى وآمالكم فى الاستقلال التام » .

« سـعد زغلول »

بدء التفكير فى مفاوضة سعد زغلول :

لم يبق لدى ملنر وكل من معه شك فى أن مفتاح الموقف كله فى يد سعد زغلول اذا أريد الوصول الى حل يرضى به الشعب ولكن كان لا يزال لديه ورقة ليلعب بها وهى هؤلاء الوزراء الذى أدى عدم التفاهم معهم والاستماع لنصحهم الى حدوث هذا الذى حدث ونعنى بهم حسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت بعد أن انضم اليهم اخيرا محمد سعيد الذى استقال عندما حضرت اللجنة الى مصر على غير ارادته وكان ملنر هو الذى سعى اليهم فقام بزيارتهم كما حرص الجميع على ابراز ذلك ، فكان أن اكدوا لملنر ان لا جدوى من عمل اى خطوة بدون موافقة سعد زغلول فطلب منهم ملنر ان يتوسطوا بينه وبين سعد زغلول وان يدعوه للعودة الى مصر للتفاوض مع ملنر على الأساس الذى يريده وصوروا له الأمر بصورة وردية وان ما عليه الا ان يجىء كى تتحقق الآمال ولكن سعد زغلول الذى كان قد ارتفع الى مستوى الأحداث وتبلورت فيه مشاعر الأمة الجديدة بكل ما وصلت اليه من عزم واصرار على تحقيق الاستقلال التام جعلته لا يقع فى الفخ الذى نصبه له ملنر بأن يعيده الى مصر ويسمع أقواله لتغطيه مهمته من حيث الشكل ولذلك فقد رفض العودة الا أن تبدأ انجلترا بالغاء الحماية واعلان استقلال مصر ، أما اذا كان المقصود مجرد التفاوض فلا مانع

أن يكون ذلك فى أوربا وليس فى مصر حتى تسقط صفة اللجنة من انها لجنة تحقيق أوفدت الى مصر .

وهكذا حبطت آخر محاولات ملنر ، ولم يبق أمام اللجنة الا ان تحزم أمتعتها وترحل ولكنها لانقاذ ماء وجهها راحت تشتغل بجمع المعلومات التى كانت متوفرة لدى دار الحماية فى المظالم التى ارتكبت أثناء الحرب والتى ادت الى الاستياء العام .

١١ فبراير ـ ميلاد فاروق :

ولكن اللجنة شهدت قبل مبارحتها مصر حدثا كان لها فيه من غير شك أثر فى الكيفية التى تصرفت بها انجلترا حياله وهذا الحدث هو ميلاد ابن للسلطان فؤاد من زواجه بالسيدة نازلى وقد أطلق عليه اسم «فاروق» وهو الذى صار فيما بعد ملكا بعد وفاة أبيه وقد اصدر الديوان السلطانى بلاغا بالنبأ وأسرع مجلس الوزراء فوزع النبأ رسميا على دوائر الحكومة وأبى مجلس الوزراء الا أن يظهر مدى تبعيته لانجلترا فقرر ابلاغ الخبر رسميا للمندوب السامى ولوزارة الخارجية البريطانية وقد كان لهذا التصرف ان استقبل الشعب هذا المولود الجديد بالاستنكار وما زلت اذكر الشائعات السيئة التى أثيرت حول مولد فاروق وظهر بهذه المناسبة اسم بيرم التونسى لأول مرة على مسرح الحوادث حيث اتهم بالعيب فى السلطان وأبعد من مصر باعتباره (تونسى) فكانت اقامته فى باريس حيث لمع كأديب وفنان برسائله (السيد ومراته فى باريس).

٦ مارس ـ عودة لجنة ملنر الى انجلترا :

وجاء اليوم الموعود الذى قررت فيه لجنة ملنر أن تعلن عن عودتها الى انجلترا مدعية أنها حصلت على ما تريد من معلومات وأنها ستضع تقريرها النهائى فى لندن . ولم تستطع السلطة الانجليزية ان تخفى غيظها من فشل اللجنة فاعادت الرقابة على الصحف فكان أن أضربت الصحف عن الصدور يوم ٦ مارس احتجاجا على هـــذا القرار .

٩ مارس ـ اجتماع الجمعية التشريعية :

كان المصريون يدهشون الانجليز انه كلما تصوروا ان الحركة الوطنية قد هدات بعض الشيء فاذا بهم يفاجأون بتصرف لم يكن فى الحسبان يذكر بمدى اجماع المصريين واصرارهم على المطالبة بالاستقلال التام ومن ذلك ان الجمعية التشريعية التى لم تنعقد منذ قيام الحرب (أغسطس ١٩١٤) اذا بها تجتمع فجأة فى بيت سعد زغلول فى التاسع من شهر مارس وأصدرت القرارات الخطيرة التالية :

أولا : ان الجمعية التشريعية تعتبر الحماية التى أعلنتها انجلترا من تلقاء نفسها على مصر عملا باطلا لا قيمة له من الوجهة القانونية .

ثانيا : تقرر الجمعية ان البلاد المصرية التى تشمل مصر والسودان مســتقلة

استقلالا تاما وفقا لقواعد الحق والعدل والقانون وكل مظهر من مظاهر اعتداء القوة على هذا الاستقلال لا يؤثر فى وجوده من الوجهة القانونية وليس من شأنه الا ان يزدنا تمسكا به .

ثالثا : تحتج الجمعية على تعطيلها وعلى كل القوانين والنظامات التى وضعت فى أثناء تعطيلها لصدورها من غير عرضها عليها .

رابعا : تحتج على كل الاعتداءات التى أصابت البلاد وأبناءها سواء كان الاعتداء واقعا على النفس أو المال أو أى نوع من أنواع الحرية .

خامسا : تحتج على البدء فى مشروعات رى السودان وتطلب وقف هذه المشروعات وقفا تاما حتى يبت فى المسألة المصرية ويعرض الأمر على الهيئة النيابية التى تمثل البلاد بجميع اجزائها .

سادسا : قررت ان كل عمل قامت او تقوم به الهيئة الحاكم ويكون فيه مساس بالاستقلال التام لمصر والسودان او مصالحهما يعد لغوا ولا يلزم الأمة فى شيء .

اعلان العداء للسلطان :

ولعل أخطر قرارات الجمعية التشريعية والذى كان له دلالة خاصة هو تقرير الجمعية ابلاغ قراراتها الى كل الجهات الرسمية وغير الرسمية سواء فى مصر أو فى الخارج ما عدا جهة واحدة تعمدوا تجاهلها وهى «السلطان» فكان لهذا الاغفال المقصود دلالته .

غضب السلطة الانجليزية :

وكان طبيعيا أن يغضب الانجليز لهذا التحدى وان يخشوا من عواقب تكراره ولما كان من غير المعقول أن يعتقل اعضاء الجمعية التشريعية جميعا فقد وقف اللنبى عند حد حظر اجتماع الجمعية هى أو غيرها من المجالس الشعبية بغير الطريق الرسمى الذى يرسمه القانون الصادر بانشائها وأنذر بأن من يخالف ذلك سيكون عرضة للمحاكمة العسكرية .

سعد زغلول والنظام الملكى :

ولقد جهد أقوام أنفسهم بعد اعلان الجمهورية فى مصر أن يتحدثوا عن ميول سعد زغلول الجمهورية وانه كان يسعى لاعلان الجمهورية وعندنا أن هناك حقيقتان ثابتتان :

الأول : ان سعد زغلول كان قد تحول الى التجسيد الحى لمشاعر الجماهير وقد كانت الجماهير فى هذه الفترة تمقت احمد فؤاد وتعتبره صنيعة الانجليز فى مصر ولقد نشأنا جميعا على هذه المشاعر .

الثانية : اما الحقيقة الثانية فهى ان تأييد الشعب لسعد زغلول وصل الى مرتبة التالية فكان من الطبيعى أن يحس سعد زغلول بهذه المكانة فلا يعترف بأى انسان يعلوه وكان دائب السعى اذا امكن للتخلص منه . وعندما أصبح رئيسا للحكومة مارس حقه كرئيس وزراء انجلترا فى علاقته بالملك .

هذه حقائق ثابتة وهى ظاهرة للعيان ولكن ذلك لا يعنى ان سعد زغلول كان يفكر فى الأخذ بالنظام الجمهورى فلم يكن النظام الجهورى قد تفشى فى العالم فى ذلك الوقت وليس أدل على كراهية الأمة للسلطان فؤاد من الاحتجاج على اعتراف انجلترا بفاروق وليا للعهد .

١٥ ابريل ــ اعتراف انجلترا بفاروق وليا للعهد :

كان من الطبيعى وقد وضــع السلطان كل ثقله فى تحقيق أغراض الانجليز أن يكافئوه على ذلك فتلقى من اللورد اللنبى فى ١٥ ابريل التبليغ البريطانى الذى ينظم وراثة العرش وقد استقبله السلطان فؤاد بالبشر والترحاب وأسرع بشــكر ملك انجلترا والتعهد له بأنه سيظل « فى الخدمة » واليك هذه النصوص التاريخية :

« دار الحماية فى ١٥ ابريل سنة ١٩٢٠ »

« يا صاحب العظمة . ان الحادث السعيد الجديد ألا وهو ميلاد نجل لعظمتكم قد دعا حكومة جلالة الملك الى النظر فى نظام وراثة السلطنة المصرية . وعليه فقد أمرت من لدن جلالة الملك بأن ابلغ عظمتكم الاعتراف بنجل عظمتكم الأمير فاروق ونسله من الذكور على قاعدة الأكبر من الأولاد فالأكبر من أولاده وهكذا وان لم يوجد فيمن يولد لعظمتكم من الذكور ومن يتناسل منهم من الذكور على نفس تلك القاعدة كأولياء عهد لعظمتكم فى حق تقلد السلطنة المصرية .

« وانى مع تقديمى التهانى لعظمتكم بهذه المناسبة السعيدة أسمح لنفسى بانتهاز هذه الفرصة للاعراب عن اعتقادى الخالص بأن المحافظة على العــلاقات الودية التى تقتضيها مصالح بريطانيا العظمى ومصر ستكون دائما محل اهتمام عظمتكم ومن يخلفكم من السلاطين .

« ولى الشرف بأن أكون على الدوام لعظمتكم بكل احترام واخلاص .

القاهرة فى ١٥ ابريل سنة ١٩٢٠ .

« اللنبى . فيلد مارشال »

وقد ارسل السلطان فؤاد الى الملك جورج الخامس برقية شكر على هذا البلاغ، قال :

« القاهرة فى ١٦ ابريل سنة ١٩٢٠

« صاحب الجلالة الملك ــ لندرة

« أرجو جلالتكم التفضل بقبول فائق تشكراتى على البلاغ الذى قدمه الى اليوم بأمر جلالتكم الفيكونت اللنبى نائب جلالتكم بمصر بحصول الاعتراف بنجلى الأمير فاروق ونسله من الذكور على قاعدة الأكبر من الاولاد فالأكبر من أولاده ، وهكذا وان لم يولد فيمن يولد لى من الذكور ومن يتناسل منهم من الذكور على نفس تلك القاعدة ، كأولياء عهد لى فى حق تقلد السلطنة ، وانى أنتهز هذه الفرصة لأؤكد لجلالتكم ان المحافظة على العلاقات الودية التى تقتضيها مصالح بريطانيا العظمى ومصر ستكون دائما محل اهتمامى أو أعتقد بأننى سأستطيع دائما الاعتماد على معاضدة جلالتكم الثمينة وجميل صداقتكم .

« فؤاد »

فرد عليه الملك جورج ببرقية وجيزة ، أعرب فيها عن سروره لبرقية السلطان قال :

« لندرة فى ١٨ ابريل سنة ١٩٢٠

« الى عظمة السلطان

« قرأت مع خالص السرور برقيـة عظمتكم ، وانى أؤكد لعظمتكم اهتمـامى وتأييدى لكل ما يعود على مصر لتوفير أسباب السعادة ، كما انى أؤكد صـادق ما أتمناه شخصيا لذات عظمتكم ولأسرتكم من العز والهناء ».

« جورج »

تحية للرافعى :

ولست أملك نفسى من أن أبعث بالتحية الى أستاذنا الرافعى الذى علق على ذلك كله بقوله :

« وفى الحق ان هذه الوثائق الثلاث ليست مما يشرف التاريخ القومى » . أما لماذا نحييه فلأنه قال هذا القول فى عهد فاروق بالذات ولكننا نخالفه فى الرأى . فقد كانت هذه الواقعة بالذات محل اعتراض الأمة واستنكارها وقد عبرت اللجنة المركزية للوفد عن ذلك كما عبر الحزب الوطنى ومن هنا فان شرف التاريخ القومى بخير وليس يضيره أن يتصرف السلطان فؤاد الذى رفعه الانجليز على العرش بهـذا الأسلوب . واليك نص احتجاج لجنة الوفد المركزية .

« ان الأمة المصرية مع تمسكها الشديد بعائلة محمد على ، مصلح مصر الكبير ، وبأن يكون على عرش مصر أحد أفراد هذه العائلة المجيدة بطريق الوراثة ، ترى أن فى تقرير نظام هذه الوراثة بواسطة حكومة انجلترا اعتداء على حقـوق مصر الشرعية المقدسة لأن الأمة المصرية وحدها بما لها من الحق فى تقرير مصـيرها هى صاحبة الحق فى تقرير نظام وراثة الحكم فيها ، وعلى ذلك فاللجنة المركزية للوفد المصرى تحتج على هذا العمل ، وهى بذلك تعبر عن رأى الأمة » .

١٩ مايو ــ اســتقالة وزارة يوسف وهبة :

وكان أول شيء فعله السلطان احمد فؤاد مستغلا دوره الجديد أن اظهر عدم رضاءه عن يوسف وهبة باشا لاظهاره عدم التحمس لاقتراح ساقه محمد توفيق نسيم للسلطان باعتباره وزيرا للداخلية وهو أن يسوق أكبر عدد من الأعيان والعمـــد الى السراى للتهنئة بولاية فاروق للعهد وأظهر تخوفه من عدم نجاح هذه الخطة فلما أن نجح توفيق نسيم فى مشروعه رأى السلطان أن يكافئه بجعله هو رئيسا للوزارة ، ولما لم يكن لدى الانجليز أى مانع فيوسف وهبة قد استنفد اغراضـــه وأظهر توفيق نسيم مواهبه فى خدمة الانجليز حتى قبل أن يلى الوزارة فقد كان أحد اثنين من قضاة مصر رفض التوقيع على التوكيل للوفد المصرى وكان لا يفتأ يقول « انه لم يصب بحمى الوطنية » .

وقدم يوسف وهبة استقالته معللا اياها بسوء حالته الصحية واحتياجه الى الراحة .

٢٢ مايو ــ تأليف وزارة محمد توفيق نسيم :

وصدر المرسوم بتأليف وزارة نسيم يوم ٢٢ مايو (بغير برنامج) على الوجــه التالى :

محمد توفيق نسيم باشا ــ للرئاسة والداخلية
أحمد زيور باشا ــ للمواصلات
أحمد ذو الفقار باشا ــ للحقانية
محمد شفيق باشا ــ للاشغال والحربية
حسين درويش باشا ــ للاوقاف
محمد توفيق رفعت باشا ــ للمعارف
محمود فخرى باشا ــ للمالية
يوسف سليمان باشا ــ للزراعة

احيه يا نسيم أبو عقل تخين :

وحدث عن السخط الذى استقبلت به الوزارة الجديدة وما زلت اذكر المظاهرات العارمة التى اشتركت فيها فى صباى ونحن نهتف من أعماق قلوبنا « أحيه يا نسيم يا أبو عقل تخين » وثمة هتاف آخر انحدر الى الجماهير منذ مطلع القرن التاسع عشر حيث كانت الجماهير تصب أستنكارها على البرديسى شيخ المماليك فكنا نردد فى سنة ١٩٢٠ ما كان يردد فى سنة ١٨٠٠ فكنا نقول « يا نسيم ياوش القملة مين قالك تعمل دى العملة » وليس الا عندما كتبت هذه الموسوعة أن عرفت قدم هذا الهتاف.

وقد اتيح لمجد توفيق نسيم هذا ان يشكل حكومة بعد هـذا التاريخ الذى نحن بصدده بخمسة عشر عاما . فكان ان فجر ثورة شعبية جديدة كان لى شرف المساهمة فيها .

١٢ يونية ــ الاعتداء على نسيم باشا :

غير ان نسيم باشا كان قد وطد نفسه على عدم رضاء الجماهير عنه مكتفيا برضاء السلطان والانجليز ولكنه لا يمكن الا أن يكون قد أقام أكبر الوزن لمحاولة الاعتداء عليه ولم يكن أمضى بعد فى الحكم ثلاثة أسابيع فألقيت عليه قنبلة وهى وان كانت لم تصبه ولكنها حطمت نوافذ السيارة وأصابت السائق بجرح بالغ وقد انتهز السلطان هـذه الفرصة ليظهر عطفه وتضامنه على وزيره الأول فزاره فى بيته وعندما ذهب نسيم ليشكر السلطان قلده بيده قلادة محمد على أكبر نياشين الدولة . وقد حوكم الجانى، وحيث حكم على عريان يوسف سعد الذى قام بعمل مماثل على يوسف وهبة باشا بعشر سنوات فقد حكم على ابراهيم حسن مسعود صاحب هذا الحادث بالاعدام ونفذ فيه الحكم على الفور فدل ذلك على الروح الجديدة التى يراد بها حكم البلاد .

يونية ــ وصول الوفد المصرى الى لندن :

منذ عاد ملنر ولجنته الى انجلترا وقد استقر رأيهم على انه لا أمل امام انجلترا لكى تستعيد مكانتها فى مصر ونعنى بهذه المكانةانه تحكم فى هدوء وتعاون مع العناصر المصرية الممتازة وبأقل قدر من استعمال العنف ، الا بالاتفاق مع الوفد المصرى الموجود فى باريس والا اذا حصل على موافقة سعد زغلول بالذات وقد حاول ان يستدرج سعد زغلول الى مصر كما رأينا مستخدما عدلى باشا يكن ولكن سعد زغلول اشترط لذلك اعلان استقلال مصر والغاء الحماية ولما كان ذلك هو أبعد الأشياء عن خاطر اللورد ملنر فقد فشلت المحاولة واضطر ملنر كما قدمنا الى مبارحة مصر واستقر الرأى بعـد عودته الى لندن بالاتفاق مع سائر الحكومة الانجليزية بطبيعة الحـال على استقدام سعد زغلول الى لندن للتفاوض معه ونحن نستطيع أن نتصور على ضوء ما جرى بعد ذلك من أحداث انه لم يكن فى عزم الانجليز ولا فى نيتهم منذ اللحظة الأولى ان يبرموا أى اتفاق من اى نوع كان فقد بدأوا يعتبرونه خصما عنيدا وليس من شك أنهم كانوا قد رسموا خططهم حول ما ينوون عمله بالفعل فى مصر ، ولكنهم نصحوا أن يجروا سعدا الى لندن والى مائدة المفاوضات أولا لما فى ذلك من اعترافه بأن الانجليز هم سادة الموقف وانهم وحدهم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة بالنسبة لمستقبل مصر، فقد كان مجرد وجود الوفد فى فرنسا مظهر على عدم اعترافه بأن باب انجلترا هو الباب الوحيد المفتوح للتحدث عن مستقبل مصر . ولا شك أن انجلترا كانت تهدف من ناحية أخرى من دعوة الوفد للتفاوض فى لندن الى أحداث انقسام فى الجبهة الوطنية المصرية التى أصـبحت متمثلة فى الوفد ولم يغب عن عيون الانجليـز وجواسيسهم أن عوامل الخلاف والفرقة قد دبت الى الوفد حيث يئس فريق من

امكان التوصل الى شيء باستمرار وجودهم فى باريس بعد أن سدت فى وجوههم الأبواب واعترفت الدول بالحماية . ولولا سعد زغلول (فيما نتصور) لأقر الوفد بفشله ولعاد ادراجه الى مصر منذ شتاء سنة ١٩١٩ . لقد كان أقصى ما حققه الوفد فى باريس هو عقد اجتماع فى أحد الفنادق حضره نفر من رجالات السياسة الفرنسيين وعلى رأسهم وزير فرنسى سابق وكان من خطباء الاجتماع أديب فرنسى (فيكتور مرجريت) والذى ألف كتابا عن القضية المصرية (صوت مصر) وكان أعظم ما فى الكتاب أن قدم له أعظم أدباء فرنسا فى هذه الحقبة (ادمون روستان) وقد تليت هذه المقدمة فى هذه الحفلة التى نوهنا بها (أغسطس ١٩١٩) وكان قرار لجنة الشئون السياسية الأمريكية الذى أثبتناه فيما سبق فى شهر أغسطس كذلك من سنة ١٩١٩ ومن هنا قلنا انه كان محتما على الوفد أن يعلن انتهاء مهمته بالفشل فى شتاء سنة ١٩١٩ وفى تصورنا أنه لم يحل دون ذلك الا ما أعلنته انجلترا عن اعتزامها ارسال لجنة ملنر الى مصر فرؤى الانتظار لرؤية ما تسفر عنه هذه الخطة ثم كانت هذه الوقفة العجيبة من الأمة حيال هذه اللجنة وكيف أجمع الشعب بكل طوائفه وطبقاته على احالة ملنر الى سعد زغلول فى باريس اذا أراد أن يعرف رأى مصر وهكذا أخذ بقاء الوفد فى باريس صورة جديدة ترمز للمقاومة ، وكان ذلك من العوامل التى أطالت فى استمرار بقاء سعد زغلول فى باريس ولكن مذ عاد ملنر الى انجلترا لم يعد هناك ما يعمله الوفد ومن هنا فقد كانت دعوة ملنر لسعد زغلول للحضور الى لندن للتفاوض بمثابة نجدة الهية لمد الوفد بأسباب البقاء والحيوية ، وقد مهد لدعوة الوفد للتفاوض عدلى يكن الذى استدعاه سعد زغلول الى باريس فسافر اليها فى ابريل ١٩٢٠ ولما استوثق ملنر ان لا اعتراض من سعد زغلول على المفاوضة فى لندن أرسل أحد أعضاء اللجنة (مستر هرست) الى باريس فدعا الوفد برئاسة سعد زغلول للتوجه الى لندن لبدء المفاوضات .

سعد زغلول يحتاط :

ولم يشأ سعد زغلول ان يبادر بتلبية الدعوة قبل ان يستوثق من فائدتها المحققة فأوفد ثلاثة من أعضائه وهم : محمد محمود وعبد العزيز فهمى وعلى ماهر لمقابلة اللورد ملنر ومعرفة نواياه ولما كان كل ما يهدف اليه ملنر هو جر سعد زغلول الى مائدة المفاوضات فى لندن فلم يتردد فى بذل أقصى ماكانوا يطمعون فيه من وعود فالمفاوضات ستدور بغير قيد أو شرط وان ليس هناك ما يمنع انجلترا من الاعتراف باستقلال مصر التام اذا اطمأنت انجلترا على سلامة مصالحها ، وليس ادل على أن ذلك كله لم يكن سوى (محض كلام) انه عندما طلب من ملنر أن يدون ذلك بالكتابة راوغ فى الموضوع بحجة أن العبرة بالنتائج ، وعلى هذا الأساس أبرق الأعضاء الثلاثة يستقدمون الوفد الى لندن ويستبشرون خيرا فى النتائج ولم يبق مناص أمام سعد زغلول الا أن يلبى الدعوة فأرسل الى لجنة الوفد المركزية فى القاهرة البرقية التالية :

« لقى زملاؤنا فى لندن قبولا حسنا وتلقوا من التأكيـــدات ما يبعث الامـــل فى التوصل بالمفاوضات الى حل مرضى ولهذا عزمنا ان نتوجه جميعا اليهم بحول الله يوم السبت القادم (٥ يونيو ١٩٢٠) للدخول فيها مستمدين القوة من اتحاد الامة وحكمة ابنائها والحجة من وضوح الخطة والمعونة من الله ناصر الضعفاء » .

اعتراضات غير ذى موضوع :

ولم يكد سعد يصل الى لندن حتى بدأت اصوات ترتفع فى مصر بانكارهذه الخطوة، بعضها بحسن نية وصدق وامانة وهى أصوات الحزب الوطنى الذى كان شـــعارهم « لا مفاوضة قبل الجلاء » عقيدة يساوى التفريط فيها الكفر بالله ، على أن ثمة أصوات اخرى ارتفعت بالاستنكار وهى لا تهدف من وراء ذلك الا النيل من مـــكانة سعد فرفعوا القول بأن قبول ذهاب سعد زغلول الى لندن للتفاوض مع الانجليز هو تحويل « لدولية القضية المصرية » الى التسليم بسلطان الانجليز على مصر ، وليس هناك ما هو أقرب الى السفسطة من هذا القول فالمجتمع الدولى كان قد نفض يديه نهائيا مخليا بينها وبين انجلترا بل ذهب الى ابعد من ذلك فاعترف بتبعية مصر عن طريق اقرار الحماية فالتشدق بعد ذلك بالمجتمع الدولى هو مجرد كلام كانت انجلترا نفسها تقف وراءه وتعمد الى ترويجه لاشاعة البلبلة والتأثير على مكانته لدى الشعب ، حيث كان الشعب يدرك بغريزته حقيقة الموقف وهو ان ارادته انتصرت مرة أخرى على انجلترا حيث اضطرت وأنفها راغم (للمرة الثـــانية) ان تعترف بسعد زغلول وتجلس معه على مائدة المفاوضـــات وهى التى ظلت طوال بضعة عشر شهرا تنكر عليه صفته للتحـــدث باســـم الشعب ، ولقـــد كانت هـــذه (التراجعات) من جانب انجلترا هى التى كانت تقوى من عزائم الشعب وتقوى ارادته واصراره على نيل حقوقه .

يونيو ـ يوليو ـ المفاوضات مع ملنر :

وقد سارت المفاوضات فى الطريق الذى رسمه لها الانجليز وبدأت بأن عرض ملنر على الوفد مشروع معاهدة رفضها الوفد للوهلة الأولى وقدم الوفد من ناحيته مشروعا رفضه الانجليز بدورهم للوهلة الاولى كذلك ويستوقفنا فى مشروع الوفد انه نص على الغاء الحماية والغاء الاحتلال واعلان الاستقلال التام وسمح لانجلترا أن تحتفظ بقوة عسكرية على نفقتها فى شرق القناة (أى فى صحراء سينا) وكان ذلك فى عام ١٩٢٠ حيث ارتضى مصطفى باشا النحاس أن يبرم سنة ١٩٣٦ معاهدة تسمح للانجليز ان يبقوا حيث هم فى القاهرة والاسكندرية على ان يبنى لهم ثكنات فى غرب القناة على نفقته وان يشق لهم طرق معينة اذا اراد أن يجلو عن القاهرة بعد عشر سنوات . والسر فى هذا الفارق بين ما عرضـــه سعد زغلول عام ١٩٢٠ وما قبله مصطفى باشا النحاس عام ١٩٣٦ يمثل الفرق بين ما كان عليه الشعب المصرى فى كلا التاريخين .

وانتهت مفاوضات سعد زغلول ـ ملنر فى ١٧ يوليو ـ وانقطعت ثم استؤنفت من جديد حيث تقدم ملنر بمشروع جديد رأى الوفد أن لا يبت فيه برأى الا بعد اخذ رأى الأمة ويمكن ان نعتبر هذه الحركة البدء الفعلى لانشقاق الوفد ومحاولة هذا الفريق من رجال السياسة الذين سموا أنفسهم « معتدلون » ان يمسكوا هم بدفة السفينة .

١٨ أغسطس ـ مشروع ملنر الأخير :

ذكرنا فيما تقدم ان المفاوضات بين الوفد بزعامة سعد زغلول واللورد ملنر كانت قد توقفت فى شهر يوليو ولكنها لم تلبث أن استؤنفت نتيجة توسط عدلى باشا يكن (المعتدل) فأرسل له اللورد ملنر يوم ١٨ أغسطس ١٩٢٠ خطابا مشفوعا بمشروع نهائى لمقترحاته رجاء عرضها على الوفد . وفيما يلى نص الخطاب والمشروع :

« أن المذكرة المرسلة مع هذا هى نتيجة المحادثات التى دارت بلندن فى شهر يونيو الى شهر أغسطس سنة ١٩٢٠ ، بين اللورد ملنر وأعضاء اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر ، وبين زغلول باشا فى تلك المفاوضات أيضاً ، وهى عبارة عن رسم سياسة يقصد بها تسوية المسألة المصرية على أحسن وجه لمصلحة بريطانيا العظمى ومصلحة مصر كلتيهما ، فأعضاء اللجنة مستعدون لأن يشيروا على الحكومة البريطانية بقبول السياسة المبينة فى هذه المذكرة اذا اقتنعوا أن زغلول باشا وأعضاء الوفد مستعدون ايضا للدفاع عنها والترغيب فيها وانهم يستعملون كل نفوذهم ليحصلوا على مصادقة جمعية وطنية مصرية على عقد معاهدة كالمعاهدة المقترحة المبينة فى المادتين ٣ ، ٤ وواضح أنه اذا كان الفريقان لا يتحدان قلبيا على تأييد الخطة المقترحة هنا فأتباعها لا يصادف نجاحا » .

١٨ اغسطس سنة ١٩٢٠ « أمضاء (ملنر) »

« نص المشروع »

١ ـ لكى يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقا ، ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتيازات فى مصر من المزايا وأحوال الاعفاء وجعلها أقل ضررا بمصالح البلاد .

٢ ـ لا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الأول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية ، وآخرين معتمدين من الحكومة المصرية ومفاوضات تحصل للغرض الثانى بين الحكومة البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتيازات .

وهذه المفاوضات ترمى الى الوصول الى اتفاقات معينة على القواعد الآتية :

٣ – **أولا** : تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى ، تعترف بريطانيا العظمى بموجبها بأستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ولتمكينها من تقديم الضمانات التى يجب أن تعطى للدول الأجنبية لتحقيق تخلى تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات .

ثانيا : تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى ومصر تعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر فى الدفاع عن سلامة أرضها وتتعهد مصر بأنها فى حالة الحرب حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة أرضها تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التى فى وسعها الى بريطانيا العظمى ومن ضمنها استعمال مالها من الموانى وميادين الطيران ووسائل المواصلات للأغراض الحربية .

٤ – تشمل هذه المعاهدة أحكاما للأغراض الآتية :

أولا : تتمتع مصر بحق التمثيل فى البلاد الاجنبية وعند عدم وجود ممثل مصرى معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل البريطانى وتتعهد مصر بالا تتخذ فى البلاد الأجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى وتتعهد كذلك بألا تعقد مع دولة أجنبية أى اتفاق ضار بالمصالح البريطانية .

ثانيا : تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية وتعين المعاهدة المكان الذى تعسكر فيه هذه القوى وتسوى ما تستتبعه من المسائل التى تحتاج الى التسوية ، ولا يعتبر وجود هذه القوة بأى وجه من الوجوه احتلالا عسكريا للبلاد كما انه لايمس حقوق حكومة مصر .

ثالثا : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشارا ماليا يعهد اليه فى الوقت اللازم بالاختصاصات التى لاعضاء صندوق الدين الآن ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته فى جميع المسائل الأخرى التى قد ترغب فى استشارته فيها .

رابعا : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الاتصال بالوزير ويجب احاطته علما بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضاء فيما له من مساس بالاجانب ويكون ايضا تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته فى اى امر مرتبط بتأييد القانون والنظام العام .

خامسا : نظرا لما فى النية من نقل الحقوق التى تستعملها الى الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى فى التدخل بواسطة ممثلها فى مصر لتمنع أن يطبق على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها بألا تستعمل هذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون مجحفا بالاجانب .

صيغة أخرى لهذه الفقرة :

« نظرا لما فى النية من نقل الحقوق التى تستعملها الى الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى فى التدخل بواسطة ممثلها فى مصر لتمنع أن يطبق على الاجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الأجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها بألا تستعمل هذا الحق الا فى حالة القوانين التى تتضمن تمييزا مجحفا بالاجانب فى مادة فرض الضرائب أولا تتفق مع مبادىء التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات » .

سادسا : نظرا للعلاقات الخاصة التى تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطانى مركزا استثنائيا فى مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

سابعا : الضباط والموظفون الاداريون من بريطانيين وغيرهم من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية فى أى وقت خلال سنتين بعد العمل بالمعاهدة وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذى يمنحه الموظفون الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالى . وفى حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظف الحالية بغير مساس .

٥ — تعرض هذه المعاهدة على جمعية تأسيسية ، ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول الأجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ المراسيم المعدلة لنظام المحاكم المختلطة .

٦ — يعهد الى الجمعية التأسيسية فى وضع قانون نظامى جديد تسير حكومة مصر فى المستقبل بمقتضى أحكامه ويتضمن هذا القانون النظامى أحكاما تقضى بجعل الوزراء مسئولين أمام الهيئة التشريعية وتقضى أيضا باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الأجانب .

٧ — تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذات الامتيازات وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية لكى يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية (ومنه التشريع الذى يفرض الضرائب) على جميع الأجانب فى مصر .

٨ — تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة بمقتضى نظام الامتيازات وتشمل أيضا أحكاما تقضى بما يأتى :

أولا : لا يسوغ العمل على التمييز المجحف برعايا أى دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بنفس المعـاملة التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون .

ثانيا : يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الأولاد الذين يولدون فى مصر لأجنبى بجنسـيـة أبيهم ، ولا يحق اعتبارهم رعايا مصريين .

ثالثا : تخول مصر موظفى قنصليات الدول الأجنبية نفس النظام الذى يتمتع به القناصل الأجانب فى انجلترا .

رابعا : المعاهدات والاتفاقات الحالية التى اشتركت مصر فى التعاقد عليها فى مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغـراف تبقى نافذة المفعول . أما فى المسائل التى ينالها مساس من جراء ابطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفـارين ، وكذلك المعاهدات التى لها صبغة سياسية سواء أكانت معقودة بين أطراف عدة أم بين طرفين كاتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفا فيها .

خامسا : تضمن حرية ابقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الأجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوربية بمصر .

سادسا : تضمن أيضـا حرية ابقـاء أو انشاء معاهد دينية وخيرية كالمستشفيات .. الخ وتنص المعاهدات أيضـا على التغييرات اللازمة فى صندوق الدين وعلى أبعاد العنصر الدولى عن مجلس الصحة فى الاسكندرية .

٩ ـ التشريع الذى تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفى الوقت عينه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التى اتخذت بمقتضى الأحكام العرفية صحيحة .

١٠ـ تقضى المراسم المعـدلة لنظـام المحاكم المختلطة بتحويل هـذه المحاكم كل الاختصاص الذى كان مخولا الى الآن للمحاكم القنصلية الأجنبية ، ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس .

١١ـ بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها فى البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الأجنبية وتعضد الطلب الذى تقدمه مصر للدخول عضوا فى جمعية الأمم .

الســـودان

« حضرة صاحب المعالى عدلى باشـــا يكن

« ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠

« عزيزى الباشا : بخصوص الحديث الذى جرى بيننا امس أعود فأقول مرة أخرى أنه ليس بين أجزاء المذكرة التى أنا مرسلها اليك الآن جزء يقصد تطبيقه على السودان كما هو ظاهر من المذكرة نفســها ، ولكنى أرى اجتنــابا لكل خطأ وسوء فهم فى المستقبل أنه يحسن بنا أن ندون رأى اللجنة ، وهو ان موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه قط نحن وزغلول باشا وأصحابه خارج بالكليــة عن دائرة الاتفاق المقصود لمصر ، فان البلدين يختلفان اختلافا عظيما فى أحوالهما ، ونحن نرى أن البحث فى كل منهما يجب أن يكون على وجه مختلف عن وجه البحث فى الاخر .

« ان السودان تقدم تقدما عظيما تحت ادارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاق سنة ١٨٩٩ فيجب والحالة هـــذه أن لا يسمح لأى تغيير يحصل فى حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب فى توسيع نطاق تقدم السودان وترقية على نظام انتج مثل هذه النتائج الحسنة ، على اننا ندرك من الجهة الآخرى أن لمصر مصلحة حيوية فى ايراد المـاء الذى يصل اليها مارا فى السودان ، ونحن عازمون أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك الايراد لحاجاتها الحالية والمستقبلة » .

(الامضاء)

« ملنر »

انقسام الوفد حول المقترحات :

نجح الانجليز فى مناورتهم فقد تصدع الوفد نتيجة عرض هـــذا المشروع ، فأعضاء الوفد وجلهم من أعضاء حزب الأمة القديم الذى كانت سياسته تقوم على موالاة الانجليز رأوا فى المشروع غنما كبيرا أو حسب ما جاء فى بيان الوفد « مزايا لا يستهان بها » ولكن ســعد زغلول الذى كان قــد ارتفع الى مستوى الشعب والأحداث ، لم ير فى المشروع الا حقيقته وانه الحمــاية وقــد نظمت تحت اسم الاستقلال ، ولقد أسرف خصوم سعد فيما بعد فى اتهامه بالاستبداد بالرأى وانه لا ينصاع لرأى الأغلبية ولا جدال فى أن أى شخصية قوية تستأثر برأيها خاصة اذا كانت فى ذلك تمثل الجماهير ولكن موقف سعد زغلول حيال مشروع ملنر يمثل ذروة ما يمكن أن يصل اليه زعيم ديمقراطى يخضع لرأى الاغلبية فعلى الرغم من أنه شخصيا رفض المشروع وكان يرى فيه تنظيما للحماية فقد نزل عند رأى الأغلبية ورأوا عرض المشروع على الأمة لتبدى هى رأيها فيه وبصفته رئيسا للوفد فقــد

تضمن بيانه للامة وجهتي النظر في المشروع فكشف عن حقيقته وانه لا يحقق آمال الأمة وأمانيها كما سجل الرأى الآخر القائل بان المشروع به « مزايا لا يستهان بها » وأما عن رأيه الشخصى فقد كاشف به ثلاثة من أعضاء الوفد الذين كانوا موجودون فى مصر ورؤى ضمهم الى الأربعة الذين أوفدوا الى مصر لعرض المشروع وهم (على ماهر وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود ولطفى السيد) وأما الثلاثة الموجودن فى مصر فهم (مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى) فلهؤلاء الثلاثة كتب سعد زغلول كتابا شخصيا ضمنه رأيه الخاص .. وفيما يلى نص هاتين الوثيقتين .

«اخواننا الكرام

« نهضت الامة المصرية للمطالبة باستقلالها فى ظروف علت فيها الاصوات بالحق والعدل وحرية الامم ، واجتمع اقطاب السياسة لتقرير قواعد السلام ومصير الاقوام ، على حسب ما تتعلق به ارادتهم ويقتضيه اختيارهم . « وندبت من ابنائها أعضاء الوفد المصرى ليعبروا عن رأيها ، ويسعوا بكل الطرق المشروعة للحصول على مطلوبها ، حيثما وجدوا للسعى سبيلا ، فتحملوا هذه الامانة الكبرى وخصصوا جميع أوقاتهم وأعمالهم للوفاء بها ، وبذلوا فى سبيلها من المجهودات ما تعلمون وما لا تعلمون ، وصادفوا من الصعوبات ما شعرت به الأمة ولقد أمدهم أبناؤها على اختلاف اديانهم وتباين أهوائهم وفى جميع المواقف بمظاهر اتحادهم وتضامنهم ، وضحوا فى سبيل نصرهم بكل مرتخص وغال ، وكان أول ما وجه الوفد اليه أهتمامه أن يعرض القضية المصرية على مؤتمر السلام مدعمة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ، ولكنه لم يجد من رجال المؤتمر سوى الاعراض عنه اذا أوصدوا أبوابهم دونه ولم يريدوا أن يعرفوا صفته ولا وجوده ، وبعد قليل قرروا الاعتراف بحماية انجلترا على مصر ، فلم يكن منه الا أن بذل كل جهده فى نشر القضية المصرية فى العالم القديم والحديث على طريقة أظهرت حقيقتها لكثير من الافهام وعرفتها لكثير من الشعوب التى لم تكن لها معرفة بها من قبل ، حتى استفز بيانه الكثير من الاحرار فى البلاد المتمدنة الى الانتصار لها والدعوة لاجراء العدل فيها .

« فرأت الحكومة الانجليزية أن تعين لجنة لتحقيق أمرها ، والوقوف على أسباب الاضطرابات التى عمت بسببها ، فاتفقت كلمة الأمة ان تقاطعها ، لعلمها ان الغرض منها لم يكن سوى تأييد الحماية ووضع نظام للبلاد فى دائرتها ، وأبت أن تقف منها موقف المسئول من السائل وأحالت أمر المفاوضات الى عهدة وفدها ، فالتزمت اللجنة أن تعود الى حيث أتت ، ثم دعته للمناقشة بقصد الوصول الى وضع قواعد اتفاقية توفق بين استقلال مصر ومصالح انجلترا فيها ، فأبى أن يجيب الدعوة حتى يتأكد من حسن استعداد الحكومة الانجليزية بالنسبة لاستقلال البلاد ، وأرسل لهذه الغاية كما تعلمون ثلاثة من أعضائه الى لوندرة فتأكدوا من حسن هذا الاستعداد حيث صرح لهم أنه ليس فى مصالح انجلترا بمصر ما يعارض استقلالها ولهذا لم نجد

بدا من الذهاب الى لوندرة للدخول فى المفاوضة ، ولقد باشرناها منذ وصلنا اليها ومكثنا نزاولها الى ١٦ اغسطس ، وانتهت المناقشة بوضع ثلاثة مشروعات ، أولها من لجنة ملنر ورفضناه بتاتا ، والثانى منا ورفضته هذه اللجنة كذلك ، والثالث منها وهو الاخير ، وقد صرح رئيسها لنا عند البحث فيه أنه غير قابل للمناقشة فى الأساسات التى بنى عليها ، وأنه يلزم اما أخذه كله أو تركه لانه تضمن فى اعتباره اقصى ما يمكن لانجلترا الاتفاق مع مصر عليه ، بل زاد انهناك شكا فى صواب التساهل فى بعض ما اشتمل عليه ، ولكنا وجدناه مع ذلك معلقا تنفيذه على غير ارادتنا ، وغير واف بمطالبنا ؛ فلم يسعنا قبوله لخروجه عن حدود توكيلنا وأظهرنا للجنة ملنر عدم رضانا به . « غير أنه نظرا لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، وتغير الظروف التى حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الامة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التى بينه وبين أمانيها ، رأى اخواننا معنا خروجا من كل عهدة ، وحرصا على كل فائدة ، واستبقاء لكل فرصة ، الا يبتوا فيه رسميا بما يقتضيه توكيلهم قبل عرضه عليكم انتم نواب الامة المسئولين وأصحاب الرأى فيها ، وبناء عليه اتفقنا مع لورد ملنر على تأجيل القرار النهائى الى ما بعد هذه الاستشارة ، وتعين كل من حضرات محمد باشا محمود . وعبد اللطيف بك المكباتى . ولطفى السيد . وعلى بك ماهر . وويصا بك واصف . وحافظ بك عفيفى . ومصطفى بك النحاس لهذه الغاية وليشرحوا لكم بالنزاهة المعلومة فيهم والدقة المعروفة عنهم الحقائق والوقائع التى ترون الوقوف عليها لازما لتكوين اعتقادكم حتى تبدوا بعد استشارة ضمائركم والتأمل فى حاضركم وقابلكم رأيكم فيه بالرفض أو القبول . فاذا رفضتم أعلن الوفد رسميا رفضه . واذا قبلتم دخلت المسألة فى دورها النهائى ووضعت معاهدة على القواعد التى تتضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظام دستورى للبلاد .

« أرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمكم الصواب فى ترديكم ، وأن يكلل بالنجاح مساعيكم أمين » .

« سعد زغلول »

« أهديكم أطيب تحياتى وبعد فانكم تجدون طى هذا بلاغا لنواب الامة وأرباب الرأى فيها تعلمون مضمونه من تلاوته ، واصنكم تستشفون منه انى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الامة انتم والقادمون اليكم من اخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لانه (وأريد أن يكون بينى وبينكم) مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها ، ففيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشىء الكثير ، كالقوة العسكرية ، والتدخل فى التشريع للاجانب ، وفى القضاء المختص بهم ، والتدخل فى المالية وفى الحقانية بواسطة موظفين انجليز ، وجعل المعتمد الانجليزى ذا مقام خاص وله التقدم على غيره من وكلاء الدول الاخرى ، وتقييد

حرية مصر فى عقد المعاهدات وفى اختيار وكلائها السياسيين وفى التجاء هؤلاء لممثلى انجلترا ، وتولى انجلترا دون مصر عقد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الاخرى ، وفضلا عن ذلك فان ما اشترطه من تعليق على قبول الدول لالغاء المحاكم القنصلية ، وصدور الدكريتات باعادة تنظيم المحاكم المختلطة يجعل الفوائد التى تعود منه على المصريين وهمية . اذ قد ينقضى الدهر ولا تقبل الدول ذلك الالغاء ولا تصدر الدكريتات بذلك التنظيم ، ولكن اخوانى لا يرون فيه رأيى ، ولم ارد أن اظهر الخلاف بينى وبينهم حرصا على الوحدة التى هى قوتنا ، لكيلا يشمت الاعداء بنا ، ولو أن أخوانى اصغوا الى قولى أو لم أكن اخشى على هذه الوحدة من الانقسام لفارقت لندرة فى يوم ٢٢ يوليه الماضى ، وهو اليوم الذى ورد لنا فيه خطاب من لورد ملنر عن مشروع سابق وضعته لجنته ورفضناه لكونه كان يرمى الى ما يخالف مبدأنا وتوكلنا ، وكان رفضنا له بالاجماع ومن الغريب أن المشروع الثانى جاء ابلغ فى باب الحماية لاشتماله على كثير من مميزاتها ، ومع ذلك رأى الاخوان صلاحيته لرضه على نواب الأمة ، ولا أريد أن أشكو منهم اليكم لانهم انما رأوا ذلك لأسباب قامت عندهم واقنعتهم بصحة آرائهم أهمها تغيير ظروف الحال وعدم وجود السند والنصير لنا فى الخارج ، وانفراد الدولة الانجليزية بالعزة والسلطان ، وعدم قدرة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة ، وانى أعترف بأهمية هذه الأسباب ، ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية الى استقلال ، ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته ، وقمنا للمطالبة ببطلانه ، وما ضحت به الأمة فى سبيل النفور منه والقضاء عليه من دماء الكثير من أبنائها وحرية العدد العديد من شيوخها وفيتاتها ، ولا يحملنا نحن دعاة الاستقلال وحملة ألويته والصائحين به فى كل صقع وفاء على أن نتحول الى تأييد ما هو بعيد عنه فى الواقع وأن كان قريبا منه فى الظاهر .

واما اذا قبله غيرنا وكانت الاغلبية معهم ، فذلك شىء آخر لا تقع تبعته علينا ، ولهذا رأيت ان اكتب لكم بفكرى حتى تكونوا فى مستوى واحد مع أخوانكم الذين ستشتركون معهم فى عرض المشروع ، وأن يكون مركزكم (اذا استحسنتم) من الذين تستشيرونهم مركز الشارح للحقائق العارض للوقائع من غير تأويل ولا تفسير ، لكيلا يجد خصومكم سبيلا للطعن عليكم ولا حسادكم حجة يقيمونها ضدكم ، وسوف تطلعون على جميع المكاتبات التى دارت بيننا وبين لجنة ملنر وعلى المشروعات الثلاثة التى ورد فى البلاغ ذكرها ، وتقفون من الاخوان على جميع المعلومات التى يهمكم الوقوف عليها فى هذا الشأن ، وانى على ثقة تامة بأنكم ستكونون فى عرض هذا المشروع مثال الدقة والنزاهة والبعد عن مزالق القدم ، وانى مستعد لان ارسل اليكم كل ما تشاءون من الاوراق ، ولان أجيبكم عن كل ما تشاءون الوقوف عليه من المسائل . والله يكون فى عونكم ويقيكم شر خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

((سعد زغلول))

الأمة ترتفع الى ذروة الوعى السياسى :

وكان عرض المشروع على الأمة فرصـــة جديدة لرفع معنوياتها وتدعيم ثقتها بكفاحها وأنها سائرة على الطريق نحو تحقيق أمانيها فأمتلات صفحات الصـحف بالأبحاث العميقة المدروسة وتصاولت الأقلام والافكار وعقدت مئـات الاجتماعات فى طول البلاد وعرضها من مختلف الطوائف والهيئات رسمية وغير رسمية ابتـداءا من الجمعية التشريعية ومجالس المديريات حتى نقابات المحامين والقضـــاة والأطباء والمهندسين وطلبة المدارس العليا وحتى الأمراء أبدوا رأيهم فى المشروع وهو يقضى برفضه . وهنا يتجلى نضج الأمة وعظيم وعيها فهى لم ترفض المشروع ولم تقبله بصورته بل وضعت له تحفظات تزيل منه كل لبس وغموض وتضطر انجلترا للكشف عن نواياها الحقيقية ازاء مصر والمصريين .

فارق ما بين سعد وبين المعتدلين :

وحول هذه التحفظات اتسعت شقة الخلاف بين سعد زغلول وجماعة المعتدلين فحيث نظر سعد الى تحفظات الأمة بأعتبارها أوامر من موكل الى وكيله لا مناص له من الانصياع لها وعدم التحرك خطوة واحدة الا فى نطاقها ، فان الاخرين وقـد اعتادوا على أن يعتبروا أنفسهم سادة فلم يحفلوا كل هذا الاحتفال بهذه التحفظات واليك نصها :

التحفظات على المشروع :

وأما التحفظات التى ارتأى ذوو الراى ادخالها على المشروع فانهـــا تتلخص فيما يلى :

١ ــ الاعتراف صراحة بالغاء الحماية .

٢ ــ اعتراف الدول باستقلال مصر لا انجلترا وحدها .

٣ ــ تعيين مدة التحالف بين انجلترا ومصر وكيفية سريانه اذا ما انتهت هـذه المدة .

٤ ــ عدم ذكر عبارة (تتعهد مصر بأن تتخذ خطة أو تعقد محالفة تضر بمصالح انجلترا) حيث أن ذلك من موجبات التحالف .

واذا كان لا بد من النص على ذلك فليكن بهذه العبارة (على كل طرف من المتحالفين الا يتخذ خطة أو يعقد محالفة تضر بمصالح الطرف الآخر) .

٥ ــ تكون مصر حكومة دستورية ملكية تستمد سلطانها من الأمة وحدها ووزارتها مسئولة أمام هيئاتها النيابية .

٦ ــ النص على التحكيم وتعيينه فى حالة ما اذا خالف الممثل البريطانى الحكومة المصرية . ورأى أن تنفيذ أحـــد القوانين مجحف بالأجنبى حتى لا يكون القانون فى حكم العدم .

٧ — حذف ما جاء بالعبارة : (ونظرا للعلاقات الخاصة .. يمنح الممثل البريطاني مركزا استثنائيا) . حيث قد نص بالمادة الخامسة من البند الرابع على كل ماله من حق . واذا كان المقصود من المركز الاستثنائي ما جاء بعد (وهو ما لم نعتقده) فليقل بأنه يخول حق التقدم في الرسميات على باقي الممثلين الآخرين . اذا كان هذا من اللائق .

٨ — النص على الغاء صندوق الدين وبالتالي وظيفة المستشار متى قامت مصر بسداد ما عليها للاجانب .

٩ — تشترك مصر وبريطانيا العظمى في مخابرة الدول للتنازل عما لهـا من الامتيازات وانابة ممثل بريطانيا العظمى منابها فيما هو مخول لهـا بنص المعاهدة المصرية الانجليزية . ولا يترتب تنفيذ المعاهدة على رفض دولة أو أكثر للموافقة على هذا الطلب .

١٠ — تحديد المساعدة الحربية التي تتعهد مصر « بالاشتراك » فيها مع بريطانيا العظمى داخل الحدود المصرية . وجعل حق اعلان الأحكام العرفية للسلطات المصرية وحدها .

١١ — الا يكون لانجلترا في السودان نصيب الأسد . بل تكون الشركة فيه على قاعدة التساوى . وأخذ الضمانات الكافية ليكون المـاء كافيا لمـا يزرع وما سيزرع في مصر . وفي حالة ما اذا لم تكف المياه مصر والسودان فيكون لمصر حق الأولوية عليه . مع ذكر انه ، في حالة عدم الاتفاق ، لا تعتبر المفاوضة في مسألة السودان اعترافا بمشروعية اتفاقية سنة ١٨٩٩ .

١٢ — تزاد لفظة مستقل على البند الحادى عشر من المـادة السادسة بأن يقـال (بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها .. وتعضيد الطلب الذى تقدمه مصر للدخول في عصبة الأمم كعضو (مستقل) .

١٣ — النص على التحكيم في حالة الخلاف في تفسير نص الاتفاقية .

أكتوبر — الحكم في قضية عبد الرحمن فهمى :

فلندع الآن أعضاء الوفد يحملون تحفظات الأمة الى بقية أعضاء الوفد في باريس لنعود الى الوراء قليلا لنشير الى قضية سارت جنبا الى جنب مع سير المفاوضات واراد الانجليز بها ان يظهروا وجههم الآخر فاذا كانوا يفاوضون فهم على استعداد في نفس الوقت أن يبطشوا ، ونرجو أن لا يخطىء أحد في فهم كلمة الانصاف التي قلناها بصدد اللورد اللنبى فالرجل في كل تصرفاته كان يعمل لمـا يراه موفقا لمصلحة انجلترا . وكان من حسن حظ مصر ان افادت من تصوره ذلك عندما رأى ضرورة الافراج عن سعد بمجرد قدومه الى مصر ولكن الاعتراض الشديد الذى قوبل به هذا الاجراء في الدوائر الانجليزية لم يلبث أن احدث رد فعله في نفس اللنبى فحاول

جاهدا أن يثبت أن هذا الاجراء لا يعنى تراخيا أو لينا من جانبه وسوف نرى انه سيشير هو شخصيا بضرورة اعتقال سعد زغلول ونفر من صحبه حتى يمكن انتهاج السياسة التى أقرها وشارك فى وضع خطوطها . وهذه القضية التى أخذت شهرتها باسم « قضية عبد الرحمن فهمى » وكانت شغل مصر الشاغل فى وقتها ، لا شك انها كانت بموافقة اللنبى وتشجيعه ان لم تكن بالهامه .

وقد بدأت فى ذات الوقت الذى عرف فيه ان ستكون مفاوضات بين سعد زغلول وملنر أى فى مايو ١٩٢٠ حيث قبضت السلطة العسكرية الانجليزية على ٢٨ متهم كان على رأسهم وأهمهم بطبيعة الحال عبد الرحمن بك فهمى الذى كان يشغل منصب سكرتير اللجنة المركزية للوفد فى مصر وكان الاتهام الذى وجه اليهم أنهم ألفوا جمعية سرية باسم « الانتقام » وجاء فى قرار الاتهام :

« المتهم عبد الرحمن بك فهمى وآخرون متهمون بارتكاب جريمة تقع تحت الاحكام العرفية وهى التآمر — ذلك أنهم كانوا أعضاء فى جمعية تسمى جماعة الانتقام غرضها خلع عظمة السلطان وقلب حكومته واحداث هيجان والتحريض على القتل وتوزيع الأسلحة وقتل عظمة السلطان ووزرائه وآخرين » .

وقد ذكرنا من قبل ان بيانات السلطة العسكرية هى التى كانت تقود الجماهير فى شهر مارس لما ينبغى عمله ، وهذا الاتهام الجديد سيكون بدوره بمثابة المرشد الجديد لما ينبغى عمله ، فلن تلبث الجمعيات السرية أن تكون هى عمل الساعة وعقدت محكمة عسكرية انجليزية لمحاكمتهم فى شهر يوليو وعقدت على ما يقول شفيق باشا ٩٩ جلسة فى ٧٨ يوما وانتهت باصدار حكمها فى ٦ أكتوبر وأن لم يعلن الا بعد أن صدق عليه الحاكم العسكرى بعد ذلك ببضعة شهور وكان يقضى بالأعدام على عديد من المتهمين وعلى رأسهم عبد الرحمن فهمى ، غير انه لما كانت هذه القضية قضية سياسية ، فقد اقتضت التطورات السياسية ان يخفف حكم الاعدام الى السجن مددا متفاوتة وقد انتهى الأمر بالافراج عنهم كما سوف نرى .

عبد الرحمن فهمى والتنظيم السرى :

وقد أصبح الاجماع منعقدا بين كل من كتبوا عن ثورة سنة ١٩١٩ ان الأحداث لم تلبث ان تمخضت عن تكون جهاز سرى كان عبد الرحمن فهمى يرأسه ولا شك ان هذا الجهاز كانت له أنشطة مختلفة ، كنقل المعلومات ، وتوزيع المنشورات وتبليغ أوامر القيادة الى ما ينبغى فى هذا الأمر أو ذاك ولا بد أن كان هناك فرع أشد سرية وأكثر استقلالا (الى حد ما) لاعداد القنابل والقيام بعمليات الاغتيال السياسى .

علاقة سعد زغلول بالجهاز السرى :

وقد تصور أقوام (فى فترة ما) أنهم يرفعون من شأن سعد زغلول عندما

يثبتون انه كان على راس الجهاز السرى ولا نحسب ان عظمة سعد فى حاجة لهذا الزعم وما كان لرجل بلغ مكانته « الاسطورية » فى تعلق الشعب به ، يكون فى حاجة الى استخدام أساليب يلجأ اليها أقوام لا سبيل لهم للتعبير عن شخصيتهم ووطنيتهم الا من خلال هذه الأساليب أما سعد زغلول الذى وصل الى القمة خطوة خطوة بكفاءته وقوة شخصيته لا نتصور انه وقد جاوز الستين واصبح أعظم شخص فى مصر يقوم باعمال هى من أخص خصائص الشباب ، وفى مذكرات سعد زغلول الخاصة تنديد واستنكار مسبب لعمليات الاغتيال السياسى والقاء القنابل وما كان لمؤرخ أن يدع ما يقوله سعد زغلول فى مذكراته ليجرى وراء تصورات وأوهام .

وسنرى بعد قليل ان سعد زغلول نفسه سيكون ضحية لجهاز الاغتيالات السرى عندما يصبح رئيسا للحكومة حيث أطاحت جريمة اغتيال السردار (لى ستاك) بحكومته .

مراسلات سرية من سعد زغلول :

وقد كانت الشبهة التى حاول القائلون بهذا الزعم استغلالها أن سعد زغلول كان يبعث برسائل الى عبد الرحمن فهمى من باريس مكتوبة بالحبر السرى . وشتان بين خطابات ترسل من فرنسا الى رجل الوفد فى مصر بطريقة تجعلها فى منأى عن عين الرقيب الانجليزى ، وهو أمر طبيعى جدا وبين ان يكون سعد زغلول على رأس الأنشطة السرية التى تجرى فى مصر .

٩ نوفمبر انتهاء مفاوضات سعد ــ ملنر بالفشل :

ولنرجع الى حيث وقفنا فى موضوع المفاوضات فقد عاد الأعضاء الذين ارسلوا الى مصر لأخذ رأى الأمة فى مشروع ملنر فأسفرت المناقشات والمداولات عن ابداء التحفظات التى ذكرناها وعاد اعضاء الوفد الى باريس فى اكتوبر ومنذ اللحظة الاولى وجد سعد زغلول فى تحفظات الأمة أمرا ملزما وبخاصة ما كان منها خاصا بوجوب النص على الغاء الحماية نصا صريحا قاطعا ، ودخل سعد زغلول فى مراسلات ومناقشات مع ملنر وانتهى ذلك كله بالاخفاق ومن رأى شفيق باشا أن ملنر نفسه كان شديد الرغبة فى اجابة المصريين الى مطلبهم ولكن باقى أعضاء الحكومة عارضوا فى ذلك وقد تجلت هذه الروح العدائية لفكرة التساهل مع المصريين فى مناقشة جرت فى مجلس اللوردات الانجليزى حول المسألة المصرية وكل ملابساتها حيث تجلت الروح الاستعمارية على أشدها ، وكيفما كان الامر فقد انتهى ذلك كله فى ٩ نوفمبر حيث دعا اللورد ملنر الوفد للاجتماع مع اعضاء لجنة المفاوضة من الانجليز ووسط الوجوم والتوتر أعلن ملنر انتهاء المحادثات وأن لا سبيل لمناقشة ما سمى بالتحفظات فضلا عن قبولها وأن الأمر كله يمكن أن يكون محل مفاوضات رسمية بين الحكومتين الانجليزية والمصرية . ثم فض الاجتماع وتبادل الطرفان مذكرات سجل فيها كل من

الطرفين وجهة نظره وكان أن أكد سعد زغلول تمسك الجانب المصرى عدم قبوله الدخول فى أى مفاوضات الا على أساس الاعتراف بتحفظات الأمة .

وبادر الوفد الى مغادرة لندن الى باريس فى اليوم التالى وأرسل سعد زغلول بيانا ونداء الى الامة من باريس ، يختم هذا الفصل من الجهود وهذا نصه :

« أيها المواطنون الأعزاء ، لقد رفعتم منذ عامين عن كبريائكم القومى ذلك العبء الذى كان يثقل كاهله ، وبصيحة الاستقلال أعلنتم فى وجه العالم بأسره حقكم فى الحياة ومازلتم منذ ذلك اليوم تثبتون انكم جديرون بأمانيكم الوطنية ، وجاءت نتيجة الاستشارة برأيكم فى مشروع الاتفاق مثبتة ان الاستقلال ليس فى نظركم كلمة تردد فى الفضاء بغير معنى ، بل أنتم تريدونه استقلالا حقيقيا خليقا بكم وبمستقبلكم الذى سيرسل أشعته الوضاءة على مصر الحرة وهذا الاستقلال سنحصل عليه باتحادنا وبروح التضحية والايمان بأنفسنا وبعدالة قضيتنا المقدسة ايمانا هادئا صادقا »

« سعد زغلول »

الانشقاق فى الوفد :

وعند هذا المنعطف فى سير الحوادث لم يستطع الوفد الاحتفاظ بوحدته والمطالع لما كتب عن هذه الفترة يلاحظ الجهود المضنية التى بذلت للمحافظة على مظهر الوحدة على الأقل ، ولكن ذلك كله كان مقضيا عليه بالفشل لانه يخالف طبائع الاشياء والتى تقضى انه فى جميع القضايا المصرية لابد أن ينشأ من يسمون « بالمتشددين » ومن يسمون « بالمتساهلين » أو بتعبير آخر : « متطرفون معتدلون » ومنذ بدات المحادثات مع ملنر برز عدلى يكن باشا كراغب فى التوفيق بين وجهة نظر سعد زغلول وبين ملنر وقد اشترك فى المفاوضات بهذه الصفة ، وسرعان ما بدأ ينحاز الى وجهة نظره من كانوا من أعضاء الوفد ذوى ميول لحزب الأمة ولم يؤخر حدوث الانشقاق علنا وأخذه صورة المجابهة والاصطدام الا شخصية عدلى يكن فمن الواضح انه لم يكن كما يقولون « كبش نطاح » ولم يكن ير نفسه قادرا على تحدى سعد زغلول فى هذه المرحلة على الأقل .

٩ ديسمبر — ملنر يقدم تقريره :

وفى التاسع من ديسمبر قدم اللورد ملنر تقريره المنتظر ولم ينشر الا فى فبراير من السنة التالية ولكن النتيجة التى انتهى اليها عرفت فى وقتها وقد نشرت الصحف المصرية نص التقرير عندما نشر فى لندن وفى حوليات شفيق باشا الجزء الثانى نص التقرير الكامل وهو يؤلف كتابا من عشرات الصفحات وقد لخص الحوادث التى مرت بنا ولعل القارىء يلاحظ اننا كنا من حين لآخر نشير الى ما ورد فى التقرير حول هذا الحادث ولذلك نكتفى بايراد التلخيص المركز لعناصر التقرير كما ورد فى الرافعى :

بسط اللورد ملنر فى هـــذا التقرير عمـــل لجنته فى مصر ، وما صادفته من صعوبات بسبب المقاطعة والهياج اللذين قاما فى وجهها ، وخلاصة الحوادث التى جرت اثناء اقامة اللجنة ، وشرح أسـباب ثورة سـنة ١٩١٩ من وجهـة النظـر البريطانية ، وتكلم عن تطـور الحوادث فى مصر منذ اعلان الهدنة الى قيام الثورة ، وذكر بعض وقائها ، ثم تكلم على الحركة الوطنية والمطالب المصرية ، ورسـم قواعد السياسة المقبلة التى اقترحها على حكومته ، فقـال ما خلاصته انه يرى العـدول عن السياسة القديمة التى كانت تتبعها قبل (الحرب من فرض حماية) وقد سماها وصاية) على مصر تستأثر بشؤون الحكم فى البلاد ، وأن حالة الهياج الذى شاهده فى مصر لا يمكن معالجته بالرجوع الى هـذا النظام القديم ، ولا باصـلاح ادارى فى أداة الحكم ، بل يرى احداث تغيير جوهرى يناسب الحالة الجديدة ، واقترح أن يكون حل المسألة المصرية بعقـد معاهدة يرضاها الفريقان (انجلترا ومصر) توفق بين أمانى مصر فى الاستقلال ومصالح انجلترا الجوهرية فى مصر ومصالح الاجانب فيها ، وذكر النقط البارزة التى تكفل المصالح البريطانية ، وهى ان تسترشـد مصر ببريطانيـا العظمى فى علاقاتها الخارجية ، وأن تعطيها حقوقا معينة فى الأراضى المصرية ، وهذه الحقوق فى نظره وبحسب تسـميته على نوعين ، أولهما أن يكون لبريطانيا العظمى الحق فى ابقاء قوة عسكرية فى أرض مصر لتحمى سلامة مواصـلاتها الامبراطورية ، وثانيهما أن يكون لها نصيب من المراقبة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيما يختص بمصالح الأجانب المشروعة ، وأن تترك انجلترا لمصر شؤونها الداخلية فيما عدا ذلك تتولاها بنفسها ، وقال انه اذا استثنيت هذه الضمانات للمصالح البريطانية والمصالح الأجنبية ، فانه يرى أن تعاد حكومة مصر فعلا الى ما كانت عليه نظريا مدة الاحتلال أى حكومة مصرية للمصريين ، وأشار بأن تعترف انجلترا لمصر باسـتقلالها مقيدا بهذه القيود ، مع استبعاد السودان اطلاقا من هذه التسوية ، وابقاء الحالة فيه على ما هى عليه طبقا للوضع الذى أوجده اتفاق ١٩ يناير سـنة ١٨٩٩ ، كما أوضحه فى خطابه المرافق لمشروعه (ص ١٢٣) واشترط ان تقر المعاهدة جمعيـة وطنية تنوب عن الأمة المصرية نيابة حقيقية .

ملاحظـة :

وقد كانت هذه المقترحات التى وضعها ملنر هى الاطار الذى سوف تدور فيه السياسة الانجليزية فى السنوات المقبلة وسوف نرى ان جميع مشروعات الاتفاق القادمة والتى انتهت بالفعل بعقد معاهدة الصداقة والتحالف عام ١٩٣٦ لم تخرج عن هذه الدائرة ولكن فى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه لم يكن الجو مناسـبا لعقد هذه المعاهدة سواء من الجانب المصرى الذى لم يعد يرضى بغير الاستقلال التام بديلا شكلا وموضوعا أو الجانب البريطانى الذى كان فى أوج الاحســاس بالامبراطورية الإنجليزية التي يجب أن تفرض سيادتها كما تشاء وتختار ، بحيث لم يسع اللورد

ملنر الا أن يقدم استقالته ليحل محله كوزير المســـتعمرات ونستون تشرشل الذى لن يلبث أن يثير ثائرة المصريين .

وانتهى عام ١٩٢٠

ووسط هـذا الجو المليء بخيبة الأمل والرجاء انتهى عام ١٩٢٠ وعلى رأس مصر السلطان أحمد فؤاد وفى دست الحكومة محمد توفيق نسيم وكلا الرجلين خاضعين خضوعا كاملا لتوجيهات انجلترا ممثلة فى رجلها فى مصر اللورد اللنبى ، ولكن روح ثورة ١٩١٩ كانت متوهجة وكان من العبث ان تتجاهلها انجلترا أنها قادرة على اعادة الاحوال العامة فى مصر الى سابق عهدها حيث لم يكن مطلوبا من الانجليزى أن يأمر فيطاع على كافة المستويات ابتداء من السلطان حتى آخر عمدة فى قرية ومما زاد فى الصعوبات امام الحكومة الانجليزية انه أصبح بين يديها تقرير من لجنــة اختــارت اعضاءها ووضعت على رأسهم واحدا من بناة الامبراطورية وقد حذرت هذه اللجنة وانذرت بوجوب تغيير السياسة القائمة وهى حـكم المصريين بالعصا الغليظة . ولذلك فسوف نشهد ان العام القادم لا يكاد يبدا حتى تتطور الحوادث الى ما يمكن اعتباره انتصار الشعب المصرى الساحق .

ذكرياتى :

ولكنى وقبل أن انتقل الى العام الجديد أسجل ذكرياتى عن هذا العام وقــد أشرت فيما سبق اننى دخلت مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية وكانت تقع فى درب الجماميز ولكننا فى هذا العام (١٩٢٠) نقلنا الى مـكان آخر ، بسبب خلل فى مبنى درب الجماميز ، وكان المكان الجديد يقع فى حى « القربية » وهو قسم أساسى من قاهرة الفاطميين حيث القربية والسروجية والخيمية والكحكيين .. الخ فكان على أن أقطع الطريق من بيتنا فى طولون حتى القربية سيرا على الاقدام فيما يزيد على الساعة ولم يكن فى ذلك أى غرابة وكنت فى طريقى كل يوم الى المدرسة اجتاز باب زويلة والشيء الجديد الذى دخل فى حياتى هو اشتراكى لأول مرة فى فرقة اناشيد الجمعية الخيرية الاسلامية حيث كانت تقيم مهرجانا سنويا فى حديقة الأزبكية وكان حدثا فنيا ترتج له مصر من أقصاها لأدناها فقد كان المديريون يوزعون تذاكر هــذا المهرجان بواسطة المآمير والعمد بحيث لم يكن فى مصر قادر لا يساهم بقدر ما فى اكتتاب الجمعية ، أما المهرجان ذاته داخل حديقة الأزبكية فكان يجمع كل صفوف الفنون وكانت تحشد له كل الامكانيات والطاقات المختلفة فكنت ترى موسيقى الجيش فالبوليس فالحرس السلطانى فجميع المطربين المشهورين (عبد الحى ، عبــد اللطيف البنا ، زكى مراد أبو العلا) وكانت هناك فرق السيرك (البهلوانات) والفنون السحرية (الحواة) وفرق مسرحية صغيرة (فهيم الفار ويوسف عز الدين) وكان هناك الطبل البلدى والإسكندرانى (النقرزان) أما الفن الرفيع فكان يقدم بالليل على مسرحى

حديقة الأزبكية ودار الأوبرا . وقد ترك ذلك كله تأثيره فى نفسى حتى نفذته بعد ان كبرت فأقمت فى حديقة الازبكية مهرجانا على هذا المنوال لجمع الاكتتابات لمشروع القرش :

ازدهار الحان سيد درويش :

ولم أعرف الا بعد أن كبرت وتقدمت بى السن أن ما كنت أشدو به من الحان فى هذه الفترة هو من تلحين سيد درويش ، ولك ان تتصور كيف ذاعت هذه الألحان وغمرت البلاد مع أن الاذاعة لم تكن عرفت فى ذلك الوقت ، وليس ادل على فاعلية هذه الالحان تنطق بضخامة التأثير الذى احدثته ثورة ١٩١٩ فى الفن وان سيد درويش هو الثمرة الناضجة لهذه الثورة . اننى منذ شرعت أكتب فى هذا الجزء من الموسوعة وأنا استعيد الاغانى والالحان التى كنت أترنم بها فى صباى فأراها تتضمن اشارات الى جميع الوقائع التى مرت بنا ابتداء من قيام الحرب حتى نهايتها وما عاناه الشعب خلالها مما كان يسمى « بالسلطة » فكنا نترنم :

يا عزيز عينى والسلطة خدت ولدى

وستجد نهاية الحرب فى أغنية :

اقرأ يا شيخ قفاعه تلغراف آخر ساعة

اللى فى جرنال البورص

الى أن تقول الأغنية :

« الحرب خلاص فنش »(١)

ثم تروح تتحدث عن متاعب التموين والتى وصلت الى حد أكل طعام الخيل . وتتحدث الأغانى عن الثورة ودور التلاميذ :

« يا عم حمزة ــ احنا التلامذة »

حتى الخلاف الطائفى تستغيث مصر من شره فى أحد الاغانى :

وأنا أعلم اليوم ان سيد درويش وبديع خيرى كانا واضعى هذه الاغانى هذا بقلمه وذاك بألحانه وسأعود للتحدث عن هذه النهضة فى الأعوام القادمة حيث أثرت على أنا شخصيا وجرفتنى فى تيارها .

---

(١) أى انتهت باللغة الانجليزية

عام ١٩٢١

واستهلت سنة ١٩٢١ وسط هذا الجو الكئيب ، وحقا ان شدة الظلمة تسبق الفجر فبينما الأمة غارقة فى وساوسها وقلقها بشـأن الفرقة التى بدأت تدب فى صفوف الوفد واستمرار انجلترا فى استعلائها وصلفها بدات الاحــداث تتدافع فى سبيل الانفراج ، ومن عجب ان كانت الاحداث كلها من النوع السىء وكان أول هذه الاحداث انخفاض اسعار القطن انخفاضا رهيبا فبعد ان كان قد بلغ الاربعين جنيها فى العــام السابق ظل ينحدر أو بالأحرى يتدعور حتى بلغ عشرة جنيهات وقد حاول بعض من أرخوا لهذه الفترة أن ينفى أن يكون لهذا الهبوط أى صلة بالموقف السياسى ومعتبرا أن هذا الهبوط هو لأسباب تجارية بحته ، ولكننا لا نستطيع أن نجاريهم فى هذا التصور ولا نستبعد ان يكون الى جوار العوامل الاقتصادية عامل سـياسى أريد به الضغط على المصريين لاقناعهم بخطر مغاضبة الانجليز .

٦ يناير — استقالة اللورد ملنر :

وفى السادس من يناير اعلن رسميا نبأ استقالة اللورد ملنر وقد أدرك المصريون على الفور العــلاقة بين هذه الاستقالة والقضية المصرية فسارعت الحكومة الانجليزية تدحض هذا التصور ولكننا نعلم اليوم أن غريزة المصريين كانت صـادقة فقد وقع الخلاف بين اللورد كيرزون وزير الخارجية وبين اللورد ملنر بمناسبة اقتراحاته لحل القضية المصرية باعتبارها مفرطة فى التساهل وليس أدل على ذلك من أن الذى حل محله فى وزارة المستعمرات واحد من غلاة المستعمرين وهو تشرشل . وسنرى أنه سينتهز أول فرصة ليتحدث عن مصر بأعتبارها أحد أجزاء الامبراطورية .

٢٦ يناير — عودة فريق من الوفد :

فى السادس والعشرين من يناير عاد الى مصر من اعضاء الوفد كل من محمد باشا محمود وعبد العزيز بك فهمى ولطفى بك السيد وحمد باشا الباسل وعبد اللطيف بك المكباتى ، ورغما عن أن الأمة احتفت بمقدمهم واستقبلتهم سواء فى الاسكندرية أو القاهرة أحسن استقبال ، وأعلنوا هم من ناحيتهم أن عودتهم لا تعنى بحال وقوع خلاف فى الوفد ، ولكن ذلك كله أكد الشائعات التى بدأت تغمر البلاد من ان وحدة الصف بين اعضاء الوفد قد تصدعت من الناحية العملية خاصــة وكان قد سـبق وصولهم الى مصر برقية من سعد زغلول يتحدث فيها « عن فكرة نبتت فى بعض

النفوس » ويحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عما احدثته هذه البرقية من دوى وكيف اشتهرت وذاعت باسم « فكرة نبتت » وخلاصة هذه الفكرة ان الوفد مع احتفاظه بموقفه لا يتفاوض مع الانجليز الا اذا قبلت التحفظات فان هذا لا يمنع ان يسمح لغيره بالتفاوض تحت مراقبته وقد ندد سعد زغلول بهذه الفكرة وسرعان ما تبرأ منها كذلك الاعضاء العائدون وأعلنوا تأييدهم لسعد زغلول على طول الخط وهكذا انقذت وحدة الصف لآخر مرة لو من حيث الشكل على الأقل وغنى عن البيان أن الذى أبقى على هذه الوحدة عاملان .

الأول : ماشاهـدوه من تأييد عنيف لسعد زغلول وانه عنـد الأمة هو الكل فى الكل .

الثانى : وهو الأهم ان لم تكن هناك مفاوضات معروضة بالفعل فلم تكن انجلترا قد تحركت بالفعل فى الطريق الذى وعدت به والتى لابد أن تكون قد اتفقت عليـه بالفعل مع عدلى يكن .

١٥ فبراير — عودة الأمة الى الاتحاد :

والقى تشرشل تصريحاته التى أشرنا اليها فيما سبق وقال فيها أن أى ترتيبات تتخذ فى ايرلندا أو فى مصر يجب أن تتم داخل الدائرة المرنة للامبراطورية ، وهاجت القيادة السياسية المصرية بكافة أشكالها والوانها ابتداء من عدلى يكن وحسين رشدى وحتى من عدد من الوزراء كان الانجليز يتصورون انهم أشد العناصر المصرية تعاونا مع الانجليز ، مرورا بمختلف الطوائف والهيئات والصحف وانتهاء بلجنة الوفد المركزية وأعضاء الوفد الذين عادوا الى مصر والذين تصور الانجليز ان خلافهم مع سعد زغلول سيتيح لهم سبيل المناورة ، فجاءت تصريحات تشرشل لتستشير غضب الجميع فانهالت برقيات الاحتجاج وفجأة وجدت الحكومة الانجليزية نفسها من جديد امام ظاهرة من ظواهر سنة ١٩١٩ والتى خيل لها انها مرت وانتهت فاذا بتصريح طائش يكشف عن رغبة انجلترا فى الاستهانة بمطالب المصريين يلهب الجو مرة أخرى ، وكانت انجلترا قد تعلمت ان لا تستخف بالمصريين وأدركت أن ملنر كان على حق عندما أوصى بوجوب معاملة المصريين معاملة جديدة ، وعلى ذلك فقد تحركت الحكومة الانجليزية بسرعـة هذه المرة فاذا بمصر تفاجأ فى أقل من شهر بما نعتبره مفاجأة سارة توجت كفاح الشعب المصرى حيث اعترفت انجلترا المتغطرسة التى طالما تحدت المصريين بأن لا فكاك لهم من « الحماية » وقـد رأينا كيف سعت حتى حصلت على اعتراف دولى بالحماية ، وأخيرا اضطرت وأنفها راغم « ان الحماية أصبحت علاقة غير مرضية » ودعت مصر للتفاوض على أساس الغاء الحماية وضع الترتيبات الجـديدة . واليك نص هذا التبليغ الرسمى الذى رفعه اللنبى لعظمة السلطان .

٢٦ فبراير ــ سقوط الحماية :

((دار الحماية))

« القاهرة فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١

« الى حضرة صاحب العظمة السلطان بسراى عابدين

« يا صاحب العظمة

« لم أتأخر عن ابلاغ حكومة جلالة الملك الرأى الذى ابديتموه عظمتكم مرارا عن ضرورة وصول الحكومة الى قرار فى موضوع اقتراحات اللورد ملنر يتفق مع أمانى مصر والشعب المصرى تلك الأمانى التى اشتهر عطف عظمتكم عليها .

« ويسرنى الآن أن أبلغ عظمتكم قرار حكومتى . وانى متأكد ان هذا القرار يطابق راى عظمتكم ويسهل المهمة العظيمة الشأن التى عهد فيها الى عظمتكم وهى تعيين وفد رسمى لأجل المشروع فى تبادل الآراء مع حكومة جلالته فيما يختص بالاتفاق المنوى عقده .

« وانى أود بصفة خاصة أن اوجه نظر عظمتكم الى روح حسن النية الذى أظهرته حكومتى بقبولها التساهل فى أمر الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية .

« وستقدرون عظمتكم ان هذا التساهل العظيم دليل صريح على الأهمية التى تعلقها حكومتى على اقامة علاقات مع الشعب المصرى على أساس ودى دائم .

« وهذا هو نص قرار حكومتى الذى كلفت ابلاغه الى عظمتكم :

« ان حكومة جلالة الملك ، بعد درس الاقتراحات التى اقترحها اللورد ملنر ، استنتج ان نظام الحمـــاية لا يكون علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجـــاه بريطانيا العظمى .

ومع ان حكومة جلالته لم تتوصل بعد الى قرارات نهائية فى ما يختص باقتراحات اللورد ملنر فانها ترغب فى الشروع فى تبادل الآراء فى هذه الاقتراحات مع وفد يعينه السلطان للوصول ، اذا أمكن الى ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصـــية التى لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبيـــة وتطابق الأمانى المشروعة لمصر والشعب المصرى » .

« وانى أغتنم هذه الفرصة فأكرر لعظمتكم تأكيد احترامى الفائق » .

« اللنبى »

٥ مارس ــ اذاعة القرار :

وليس أدل على أن السلطان أحمد فؤاد خشى من عواقب هذا التبدل فى سياسة انجلترا على مركزه أنه لم يسارع فى اذاعة النبأ ولا بد أن يكون قد طلب بعض الايضاحات والتأكيدات ولا بد أنه عرض بعض المطالب ولكن استقراء الحوادث التالية يقطع بأنه لم يحصل على ما اراد فقد اجبر على استقالة رجله محمد توفيق نسيم ، وان يعهـد

بالوزارة الى عدلى يكن ، ولا تحسب أنه كان موافقا على كلا الأمرين ومن هنـــا فقد تأخر اذاعة هذا النبأ الخطير جدا من ٢٦ فبراير الى ان نشر فى الصحف يوم ٥ مارس وهو أجراء خطير يدل على أن أحمد فؤاد لم يكن متعاطفا معه .

١٥ مارس – استقالة وزارة توفيق نسيم :

وكان قرار الغاء الحماية كما نشرته الصحف هو أول الغيث فقد أعقبه سقوط وزارة محمد توفيق نسيم وقد اعتبر الشعب هذا السقوط نصرا مبينا فى حد ذاته ولا نحسب انه فى تاريخ الوزارات المصرية كلها قد شيعت وزارة باللعنات كما شيعت وزارة توفيق نسيم ولقد ذكرت من قبل كيف استقبلت بـ « احيه يا نسيم يا ابو عقل تخين » وقد كان تعيينه تحديا للشعب وكانت السلطة المصرية والانجليزية فى خـدمته فعليك أن تتصور الآن مركزه بعد ان جرد من السلطتين معا فكانت المظاهرات تسـير حاملة نعش ميت تشيعه باللعنات أو جيفة حيوان ، ولم تتوقف مظاهر لعن الجماهـير لتوفيق نسيم الا بعد أن أنستها الفرحة بتعيين عدلى يكن رئيسا للوزارة . ونثبت فيما يلى الخطابات المتبادلة بين توفيق نسيم والسلطان بمناسبة الاستقالة :

« يا صاحب العظمة

« لما رأى مولاى ، ورأيه الموفق على الدوام ، أن يعهد الى خادمه المطيع بتأليف حكومة فى وقت لم تكن سكنت فيه عاصفة . صدعت بالأمر وقمت وزملائى بخـــدمة الأمة بصدور وسعت هموم العمل أداء للواجب المفروض على أبناء البلاد » .

« حملنا هذه الأمانة عالمين ما كان عليه الناس من مختلف القول ففزعنا الى عملنا بصدق من نياتنا ، وأمسكنا الأمر ما استمسك حتى بدأت الحقوق تؤخـذ متممة . ولله مصائر الخلق وعواقب الأمر . « بدأت هذه الحكومة عهدها فبدأت من المفاوضات الغير الرسمية بشأن أمانى الأمة ومصالح الغير بين رؤوس مدبرة وعقول مفكرة وهى وتتمة ظهور آيات البشرى على يد سيد البلاد وسلطانها فكانت خاتمة الماضى وبشير فاتحـة المستقبل . أخذ الله بقلوبنا الى مواطن الحق لينمو المستقبل العظيم للوطن الكريم فى أيدى العاملين لخير البلاد واسعادها » .

« ولقد أعلنت حكومة عظمتكم جهرة أثر تشكيلها أنها تسلمت الأعمال لتكون امانة فى يدها وأن لا تبت فى نظامات القطر الســياسية حتى يفصـــل نهائيا فى حالة مصر السياسية . كما انى قبلت وقتئذ الرياسة معلنا ارتياحى لبدء تلك المفاوضات . مقدما حينئذ تنازلى عن الرياسة لمن يقـــع اختيار عظمتكم عليـــه اذا وفق الله وجاء دور المفاوضات الرسمية .

« ولما كان مولاى وصل بفضل مسعاه الى ما وصل اليه بشأن الحالة السياسية للبلاد من قبول الحكومة الانجليزية التساهل فى أمر الحماية قبل المفاوضات الرسمية ووجوب تعيين وفد رسمى لأجل الشروع فى تبادل الآراء مع الحكومة المذكورة فيما يتعلق بالاتفاق المنوى عقده . فانى أتقدم لعرشكم المجيد رافعا استقالتى بقلب ملؤه

الاخلاص لذاتكم السنية ومفعم بالاجلال والاعظام لسدتكم العلية . واضعا هـــذه الأمانة بين يدى المليك المعظم الأمين على البلاد والذى هو للكل وليس للفرد والمتعالى بمقامه الأسمى فوق الأحزاب ولا زلت يا مولاى عبدكم الامين » ..

« محمد توفيق نسيم »

فصدر الى دولته الأمر الكريم التالى :

« عزيز محمد توفيق نسيم باشا

« ان ما أوضحتموه دولتكم بكتاب استقالتكم المرفوع الينا بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٩٢١ من صحيح الاخلاص نبالة المقصـــد فوق ما نعلمه من تفانيكم فى خدمة مصلحة البلاد وخير الأمة ، فان له لدينا أحسن وقع .

« فمع ابداء عظيم اسفنا على استقالتكم نشكركم وحضرات الوزراء زملائكم على ما ابديتموه جميعا من الخدمات الصادقة التى تحفظ لكم دوام الثقة من لدنا » .

« وقد أصدرنا أمرنا هذا لدولتكم بذلك »

(٦ رجب سنة ١٣٣٩) ١٦ مارس سنة ١٩٢١

« فؤاد »

١٧ مارس ـ تأليف وزارة عدلى يكن :

يحدثنا عبد الرحن الرافعى ان السلطان أحمد فؤاد حاول أن يستبقى توفيق نسيم فى الوزارة وان يحصر مهمة عدلى يكن فى المفاوضات بمعنى ان يعينه رئيسا لهيئة المفاوضات مع استبقاء نسيم باشا فى الوزارة ولكن عدلى يكن رفض ذلك ، واذ كان متفقا مع الانجليز على الخطوات التى سوف تتبع . فلم يكن بوسع السلطان أحمـــد فؤاد الا أن ينصاع فكلف عدلى باشا يكن فى ١٧ مارس بتشكيل الوزارة . ونرى قبل أن نثبت وثائق تشكيل الوزارة ان نلفت النظر الى ان خطاب عدلى باشا للسلطان هو وثيقة فخار لعدلى باشا ولمصر كلها ولثورتها التى نجحت أخيرا فى ان ترفع الى كرسى الوزارة رجلا يتحدث عن الغاء الحماية واستقلال مصر والغاء الأحكام العرفية ووضع الدستور ، فخطاب عدلى يكن للسلطان يسجل كل أمانى مصر القوميـــة . واذا كان ذلك كله لم يتحقق على يد عدلى هذه المرة فسوف نرى أنه سيتم على يد واحد من وزرائه فى العام التالى وهو عبد الخالق ثروت ، وعندنا ان تصريح ٢٨ فبراير وما اشـــتمل عليه من الغاء الحماية واعتراف انجلترا بمصر دولة مستقلة ذات ســـــيادة ليس الا تحقيقا لبرنامج وزارة عدلى يكن ، وغنى عن البيان أنه ما كان باستطاعة عدلى يكن باشا أن ينادى بهذا البرنامج وان ينتزعه عبـــد الخالق ثروت من انجلترا فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الا لقيام الشعب المصرى بثورته سنة ١٩١٩ والتى أصبح سعد زغلول رمزا لها وناطقا باسمها وهو ما لم يفت عدلى يكن فى برنامجه فنص عـــلى أنه سيعمل بالتعاون مع سعد زغلول واليك الآن تشكيل الوزارة .

« عزيز عدلى يكن باشا

« لقد كان من اقوى بواعث السرور لدينا ابلاغ امتنا المحبوبة قرار الحكومة البريطانية الذى تبلغ الينا بواسطة حضرة صاحب المقام الجليل مندوبها السامى فيما يتعلق بالغاء الحماية وتعيين وفد رسمى من جانبنا للمفاوضة فى وضع اتفاق بين البلدين . وانا لنبتهج بهذ القرار الذى فتح الطريق لتحقيق الأمانى القومية .

« وبما لنا فى ذاتكم من الثقة الكاملة قديما وما نعهده فيكم من الروية الصائبة التى تستدعيها مهام الامور قد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدة لياقتكم » .

« وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للاخذ بتأليف هيئة وزارة جديدة تقوم باتخاذ الوسائل السياسية التى تقتضيها الظروف الحاضرة وعرض مشروعه لجانبنا لصدور مرسومنا العالى به » .

« وانى أضرع الى الله عزوجل بأن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة بحوله تعالى وقوته » .

« فؤاد »

(٦ رجب سنة ١٣٣٩) ١٦ مارس سنة ١٩٢١

فأجاب صاحب الدولة على هذا الأمر الكريم بخطاب بسط فيه منهج سياسته وذكر فى صلبه اسماء الوزراء الذين اختارهم لمؤازرته فى مهمته وهذا نص الكتاب :

« يا صاحب العظمة

« أتقدم لعظمتكم بجزيل الشكر على ما أوليتمونى من الثقة العالية اذ تفضلتم بتكليفى بتاليف الوزارة فى الظروف الحاضرة . وشرفتمونى بتقليدى رتبة الرياسة .

« ولقد كان لى من جليل عواطف عظمتكم اكبر مشجع على قبول تلك المهمة ووضع اخلاصى كله فى خدمتكم وفى خدمة البلاد » .

« لذلك اتشرف بأن اعرض على عظمتكم اسماء الوزراء الذين تتألف منهم هيئة الوزارة وقد قبلوا مشاركتى فى العمل حتى اذا صادف ذلك الاستحسان العالى يصدر الكريم بالتصديق عليه »

« حسين رشدى باشا نائب رئيس مجلس الوزراء . وعبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية . واسماعيل صدقى باشا وزير المالية . وأحمد زيور باشا وزير المواصلات. وجعفر ولى باشا وزير الاشغال العمومية والحربية والبحرية . ونجيب بطرس غالى باشا وزير الزراعة . وعبد الفتاح يحيى باشا وزير الحقانية .

« ان الوزارة ستجعل نصب عينيها فى المهمة السياسية التى ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر الوصول الى اتفاق لا يجعل محلا للشك فى استقلال مصر . وستجرى فى هذه المهمة متشبعة بما تتوق اليه البلاد ومسترشدة بما رسمته ارادة الأمة وستدعو الوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول باشا الى الاشتراك فى العمل لتحقيق هذا الغرض .

« ومما يوجب الارتياح ان تصريح الحكومة البريطانية بأن المفاوضات ستجرى على أساس الغاء الحماية من شأنه أن يسهل مهمة الوزارة من هـــذه الوجهة فان ذلك التصريح الذى يدل على حسن اســـتعداد بريطانيا العظمى مما يدعو الى الأمل بأن المفاوضات التى ستحصل بهذه الروح ستقضى الى اتفاق محقق للامانى الوطنية ويكون فاتحة عصر جديد بين البلدين شعاره المودة وتبادل الثقة . وسيكون للامة على لسان المثلين لها فى الجمعية الوطنية القول الفصل فى هذا الاتفاق .

« وبما ان هذه الجمعية ستكون أيضا بمثابة جمعيةتأسيسية فان الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير مشروع دستور موافق للمبادىء الحـديثة للانظمـة الدستورية وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضـــمانات التى تكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل رأى الأمة تمثيلا صحيحا .

« وفى هذا المقام تعرب الوزارة عن اعتقادها بأن الظروف الحاضرة تبرر الاسراع فى الرجوع الى النظام العادى بأنها ستتمكن ، بفضل نفوذ عظمتكم من رفع الأحكام العسكرية والغاء الرقابة فى القريب العاجل وانا نعتمد على حكمة الأمة فى تســهيل هذا العمل الذى يحقق نجاحه أمانى الوزارة .

« اننا لندرك حق الادراك ما تحتاجه البلاد من الاصلاحات الكبرى . بيد أننا لتمسكنا باشتراك الأمة فى وضعها نمتنع عن كل تغيير جوهرى قبل تنفيـذ النظـام النيابى الجديد . على اننا بتأييد عظمتكم لنا ، سنعنى بادارة امور البلاد وتنشط بها فى خـير الطرق وأصلحها للمحافظة على مرافقها وتوسيع نطاق رقيها وستكون المسألة الاقتصادية الحاضرة موضع اهتمامنا العظيم » .

« هذا وان الوزارة لعلى يقين من ان هذا المنهاج يوافق المقاصد التى ما زالت عظمتكم تصبو اليها لخير رعاياها وهى ، مع ما نشعر به من عبء المســئولية الملقاة على عاتقها ، تأمل الوصول بمهمتها الى النجاح المنشود معتزة بعطف وتعضـــيد عظمتكم ومعتمدة على ثقة البلاد » .

« وانى لعظمتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الأمين » .

(٧ رجب سنة ١٣٣٩) ١٧ مارس سنة ١٩٢١ .

« عدلى يكن »

وزارة الثقة :

وتصور ما شئت من الحفاوة التى استقبلت بها الوزارة وما أعلنته من برنامج لقـد امتلأت القاهرة بمظاهرات الفرحة والابتهاج وانهالت عشرات الألوف من برقيات التأييد وجاءت الوفود من كل فج عميق لتحيى وتؤيد « وزارة الثقة » وقد كانت هذه التسمية من وضع سعد زغلول فى مراسلة جرت بينه وبين عدلى يكن عندما كان اللورد

ملنر فى مصر وتصـور سعد امكان ان يشـكل عدلى يكن « وزارة الثقة » فلا عجب أن استعادت الأمة هذه التسمية وخاصة وقد تضمن برنامج الوزارة مطالب الأمة القومية وأشار الى تعاون الحكومة مع سعد زغلول ، فاطلقت على الوزارة هذه الصفة واستقبلتها على هذا الأساس واحتفلت بها احتفالا لم تشهده من قبل او من بعد الا أن تكون وزارة سعد زغلول عندما تألفت عام ١٩٢٤ .

دعوة سعد ورجوعه الى مصر :

كان من الطبيعى جدا أن يكون اول عمل تقوم به وزارة الثقة ان تدعو سعد زغلول ليعود الى مصر بجانبها ويتعاون معها والحق يقال ان عدلى باشا كان مؤمنا بوجوب هذا التعاون واذا كانت الحوادث قد سارت فيما بعد فى غير هذا الاتجاه فلا شك عندنا ان مرجع ذلك هو السلطان أحمد فؤاد من ناحية وهذا النفر من أعضاء الوفد الذين سيلتفون حوله ويحرضونه على الخلاف مع سعد زغلول مما سيجىء أوان تفصيله ، اما الآن فقد كان أول ما فعله عدلى هو أن أبرق الى سعد زغلول بحيث تسلم منه ردا فى ١٩ مارس ينبئه فيه باعتزامه العودة الى مصر فورا وغادر باريس يوم ٢٩ مارس ووصل الاسكندرية فى

٤ أبريل ــ عودة سعد الى مصر :

تعتبر عودة سعد زغلول الى مصر بعد تأليف وزارة عدلى يكن هو ذروة ما وصل اليه كفاح الشعب المصرى فى كفاحه الذى امتد عبر عامين كاملين . ان كتب التاريخ تتحدث عن الاحتفال بمقدم سعد ولكننا نرى ان ذلك انما كان يرمز لارادة الأمة الجبارة فى أن تكون سيدة نفسها ورأت فى استقبال سعد على هذه الصورة تعبيرا عن هـــذه الارادة .

ماذا قال عبد الرحمن الرافعى :

« وقوبل فى الاسكندرية وفى الطريق منها الى القاهرة وفى العاصمة بأعظم مظاهر الفرح والحماسة بحيث كانت مقابلته سلسلة لا نهاية لها من الزينات والمظاهـــرات والحفلات والأفراح مما لا مثيل له فى تاريخ مصر الحديث .

ماذا قال الدكتور محمد حسين هيكل :

واذا كان عبد الرحمن الرافعى قد أوجز هذا الايجاز فان الدكتور محمد حسين هيكل الذى كان آخر رئيس لحزب الأحـــرار الدستوريين أفاض بحاسته الأدبية والصحفية بعض الشىء ، قال :

« وكان استقبال سعد فى ذلك اليوم منقطع النظير ، فما أحسب فاتحا من الفاتحين ولا ملكا من الملوك حظى بأعظم منه فى أوج مجده . خفت القاهرة كلها ، شبابها وشبانها رجالها ونسائها حتى المحجبات منهن ، الى الطرقات التى سيمر بها يحيونه ، ويهتفون

باسمه هتافات تشق عنان السماء ، وجاء الى القاهرة من أقصى الأقاليم وأريافها ألوف وعشرات الألوف ، يشتركون فى هذا الاستقبال الذى جمع بين رجال الحكم من وزراء ووكلاء وزارات ومن دونهم ، وبين طبقات الشعب المثقفة وغير المثقفة . ورأى سعد ذلك بعينى رأسه ، فوقف فى سيارته التى سارت الهوينى من محطة القاهرة الى داره يحيى بكلتا يديه هذه الجموع الزاخرة الهاتفة ، المولية وجههـــا الى الرجل الذى اجتمعت فيه آمال الأمة كلها .

والى جوار دار سعد أقيم سرادق فسيح ، نزل به سعد يحف به الرسميون وغير الرسميين من عظماء الامة وذوى المكانة فيها ، وهو منهم جميعا محل الاعظـــام والاجلال .

ترى « اقدر للاسكندر الأكبر او لتيمور لنك او لخالد بن الوليـد او لنابليـون بونابرت أن يرى مشهدا أجل وأروع من هذا المشهد ! وماذا كان يجول بنفس سعد ، وهو يرى هذا المنظر الرائع يمر امامه وعيون الناس كلهم مشــدودة اليه ، وافئدتهم متعلقة به ، وقلوبهم ممتلئة باكباره واعظامه ؟ وعم يتمخض هذا اليوم العظيم فى حياة سعد ، بل فى حياة مصر ؟ وماذا خبأ القدر لهذا اليوم فى لوحه من نتائج ؟ !

ماذا قال شفيق باشا فى حولياته :

اما شفيق باشا فى حولياته (الجزء الثانى) فقد قال وأفاض وجاء بعديد من الصور ونكتفى بنقل فقرة واحدة عبر فيها عن مشاعره حيال الاستقبال المذهل قال :

« لقد روى لنا التاريخ كثيرا من روايات القواد والملوك الذين يعودون الى بلادهم ظافرين فيحتفل القوم احتفالا باهرا باستقبالهم ولكن لم يرد لنا التاريخ ان أمة بأسرها تحتفل برجل منها احتفالا جمع بين العظمة غير المحدودة والجلال المتناهى لم يفترق فيه كبير عن صغير . احتفالا لا تقوى على اقامته بهذا النظام اكبر قوى الأرض لولا ان الأمة المصرية ارادت ان تأتى العالم بمعجزة لم يعرف لها التاريخ مثيلا » .

تصوير العقاد :

ولكن العقاد هو الذى استطاع بسيطرته على التعبير ان يرسم لنا صورة معبرة فى أقل قدر من الكلمات قال :

« ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله الى شاطىء الاسكندرية ، وثبت فى عالم العيان لمن كان فى شك من الأمر ان هذا الرجـــل أقوى قوة فى سياسة مصر القومية ، وان كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم على الرغم من هذا الرجل أو مع اغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل لقد كان اليوم الرابع من ابريل — يوم وصـــوله الى الاسكندرية ويوم الجيل بأسره فى العالم بأسره ، ولك ان تقول وانت آمن من الغلوان استقبال الرجال فى أوائل القرن العشرين فقد انتظمت مصر موكبا واحدا للحفاوة به من شاطىء البحر ، بل من مدخل الميناء ، الى عاصـــمة الديار المصرية . وارتفعت

الزينات واقواس النصر من سلم الباخرة الى حجرته فى فندق « كلاردج » الذى نزل فيه ، وكان الناظر لا يرى فى كل مكان الا صورة سعد ولا يسمع الا الهتاف باسمه واناشيد المترنمين بذكره . وانقضى اسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم على الاسكندرية من اقصى القطر الى اقصاه حتى تعذر المبيت فى الفنادق ولجأ الناس الى البيوت يسألون اصحابها ان يدلوهم الى مكان يسكنون اليه ريثما يحين اليوم الموعود ولم تبق شرفة فى الطريق الا غالى المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتى نيفت اجرة الشرفة على اجرة البيت ، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات واوشكت ان تضيق عن مسير الأقدام من مجاز الى مجاز ولما استقبل القطار من الاسكندرية الى القاهرة تلاحقت الجموع على طول الطريق تأبى الا ان تستوقفه مرات فى غير مواضع الوقوف ، ومنهم من كانوا يترامون على القضبان فى بعض القرى الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها على المستقبلين .

وخرج كل مستطيع الخروج فى مدينة القاهرة الى الطريق ما بين باب الحديد الى بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس فى نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم فى سيارته نسوا انفسهم أفرادا وذكروا انفسهم قوما واحدا لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان على الارادة أن اناسا كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك الأيدى من خطر الوقوع ... ولا خطر فى الحقيقة من الوقوع ، حيث لا أرض فى طول الطريق الا وقد غشاها الوف الواقفين .

وتمشت السيارة الهوينا وهى تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيى المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه . وتلك طبيعة فيه اذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهذا الجمهور .

ولا نطيل فى سرد اسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال قائما اردنا الأثر الطبيعى المفاجىء الذى كان لاستقبال سعد فى ضمير الأمة مما له دلالة قومية . ولم نرد المراسم والأشكال التى قد تتكرر فى كل يوم بغير دلالة . ويكفى أن نقول أن مصر لم تتمثل تمثلا فى موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع اليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصرى واحد قادر على حضوره أو المشاركة فيه ، وانقضى يوم الوصول الى الاسكندرية ويوم الوصول الى القاهرة ولم يحدث فى المدينتين الحافلتين بألوف الألوف من اهلهما والوافدين اليهما ولا فى طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن فى سائر الأيام . كانما غاب الأفراد فى غمار « أمة واحدة » فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء .

ذكرياتى :

أما بالنسبة لى فطالما ذكرت ان والدى رحمة الله عليه كان يهىء لوالدتى ولى مشاهدة هذه المناسبات القومية وعلى ذلك فقد كان يستأجر لنا دائما احدى النوافذ

المطلة على سير الموكب وهكذا رأيت جنازة السلطان حسين ومحمـد فريد وغيرها .
أما هذه المرة فقد اعتذر والدى بأن الأمر سيكون أشبه بيوم الحشر وان الحكمة تقضى بأن نلازم بيتنا فضــلا عن غلاء اسعار النوافذ المطلة على طريق عودة سعد غــلاء فاحشا ، ومع ذلك فقد اصطحب والدى اخواى واياى الى «سينما اولمبيا» لمشاهدة فيلم سنمائى عن هذه العودة وظل الفيلم يدور الى ما يقرب من الساعة او بعضها وكان الشيء المتميز فى الفيلم هو قطار السكة الحديد المزين بالزهور والاعلام وهـو مغطى بألوف من الناس .

انتهى المجلد الرابع ويليه الخامس ان شاء الله

ان كان فى العمر بقية

((شــكر))

لا يستطيع المؤلف الا أن يشكر لدار الشعب حفاوتها بهذه الموسـوعة ويشكر بصفة خاصة أخاه الأستاذ/طارق البشرى لـما زوده به من مراجع كانت خير عون على اعداد هذا الجزء .

أحمد حسين

موسوعة
تاريخ مصر

الجزء الخامس

مطابع دار الشعب بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الخامس

فى مقدمة الجزء الرابع كتبت ما يفهم منه انه قد لا يوجد جزء خامس ، تصورا منى انى قد لا اعيش لاكتبه ، ومع ذلك فهانذا بعد ليلة ليلاء امضيتها بين الحياة والموت ، حيث بلغت حرارتى على ما يقول الاطباء (فقد كنت فى غيبوبة) ٤١ درجة ، واستيقظت لارى الموقف اشبه ما يكون بالحريقة ، ورجال الاطفاء يحاولون اطفاءها بأى ثمن ، فقد كنت غارقا فى الثلج والماء المثلج ومروحة ضخمة تدور بكل قوة وهى مركزة على وجسدى شبه عار تماما .

ومع ذلك فهانذا اجلس لأكتب . حقا أننى أكتب بصعوبة بالغة ، والمهم اننى أكتب .

وفى مقدمة الجزء الرابع تحدثت عن عجزى للرجوع الى المرجع الاول لتلك الفترة ، وهى الصحف والمجلات فقد كانت تنشر كل شيء ، الراى وضده والتعليق على الاحداث من أوجه النظر المختلفة (فقد كانت الاحزاب المتصارعة على الحكم تحت رعاية الانجليز قد وجدت) ولكن يعوض هذا النقص عاملان ، أولهما أنى قد كبرت فى السن والادراك ، اى اننى كنت معاصرا للاحداث ، وثانيهما ، هو أن المرجعين الاساسيين لهذه الفترة وهما كتب عبد الرحمن الرافعى (فى اعقاب الثورة) لم يغفل الإشارة الى المهم منهما ، اما المرجع الثانى « حوليات احمد شفيق باشا » فهو يقوم أبتداء على نصوص الخطب والمقالات والوثائق ، وعلى هذا فقد شرح الله صدرى لان اشرع فى الكتابة ولست أعرف بطبيعة الحال ، اذا كنت سأتم هذا الجزء ام لا ، فالامر كله منوط بارادة الله .

دراسة الدكتور عبد العظيم رمضان : على أنه من حسن الحظ ، أن وجد عن هذه الفترة ، مرجع ثالث وهو رسالة الدكتور عبد العظيم رمضان لنيل درجة الماجستير ، وهى دراسة جامعية جامعة ، وبالرغم من أن لصاحبها (أفكار خاصة) فالرسالة مفيدة فى انها تنقل نصوصا باستطاعة اى قارىء أن يقيمها ، وأن يفهم ما يشاء منها ، وعلى ذلك فقد قررت أن أشرع فى كتابة جزء خامس وبالله التوفيق ، ، ،

مدينة الوفاء والامل

فى ١٩٧٩/٤/١٩

احمد حسين

صورة مصر فى طفولتى
وشخصية مصر

تمهيد

أشرت فى الجـزء الرابع بمناسبة أحـداث عام ١٩١١ الذى ولدت فيـه على ما تقول شهادة الميـلاد كيف اننى ولدت فى طولون فيما يسـمى « حارة الجمالية » وأضيف هنا ونحن بصدد ذكر أحداث عام ١٩٢١ صورة مصر كما كنت قد بدات أن أعيها فعمرى فى هذا التاريخ قد ناهز العشر سنوات ، وقد كنت قـد صرت طالبا فى السنة الثانية الابتدائية بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وأنا أعلم الآن أن الشيخ محمد عبده هو مؤسس هذه الجمعية لنشر التعليم ، وقد التحقت بها وكان مقر المدرسة الابتدائية ، فى أحد قصور « الأميرة بهية البرهانية » ويبـدو أن الجمعية قامت فى الدرجة الاولى على أموالها ، فقد سميت مدرسة البنـات الابتدائية باسمها مبـاشرة ، وكان النشـيد الذى نترنم به نحن طـلاب المدرسـة الابتدائية للبنين فى حفلة الجمعية التى كانت تقيمه سنويا فى حديقة الازبكية ، وقد كانت هذه الحفلة تمثل « حدثا قوميا » (١) فكنا نرتل نشيدا مطلعه :

أنا بنت البـر أم الفقـراء
ليس دونى ملجأ للقاصـدين

وفى هذا اشارة واضحة لهذه المحسنة الكبيرة التى قامت مدارس الجمعيـة بأموالهـا .

وقد قدمت اننى أول ما التحقت بالمدرسة كانت فى أحـد قصـور الاميرة فى شارع درب الجماميز (بالقرب من المدرسة الخديوية الآن) ولابد أن تكون أحداث ثورة ١٩١٩ (راجع الجزء الرابع) قد وقعت وأنا فى هذه المدرسة ، أما الآن ، فى مطلع عام ١٩٢١ ، فقدكان مبنى المدرسة قد أصيب بتصـدع ، فنقلنا الى مبنى آخر للجمعية فى « حى القربية » وهكذا كنت أقطع يوميا الطريق من حارة الجمالة بطولون ، حتى القربية فى القاهرة « المعزية » الى قاهرة الفـاطميين ، وقـد كان هذا يفرض على أن اجتاز قاهرة المماليك بما يدخل فى نطاقه قلعة صلاح الدين الايوبى (فوق جبل المقطم) وميدان « الرميلة » الذى كان يعرف فى هـذا الوقت

---

(١) راجع الجزء الرابع .

باسم « المنشية » والجلال الرائع الذى يحيط بالميـــدان ، ويصل الى ذروته فى مسجد « السلطان حسن » ولما كنت فى هــذه الفترة من حياتى لم اتجاوز هـــذا النطاق (تقريبـا) فاننى اقصر حــديثى على مصر واحوالها على هذه الزاوية ، تاركا بقيــة الحديث الى أعوام قادمة ، أكون فيها قد انتقلت الى مسكن جــديد فى بيئة جديدة .

كيف كنا نخرج « على (وش) الدنيا » :

حارة الجمــالة (حيث ولدت) هى صميم صميم طولون ، فليس وراءها الا الجبل ، وهى حارة « ســـد » على ما قــدمت ، ولا نكاد نبرحهـا ، حتى نرى أنفسنا فى شوارع عمومية ، بمعنى انها متصله من طرفيهـا ، بما يخرجنـا من أحشاء طولون ، لنتصل ببــاقى اجزاء المدينــة ، ولست أعرف ماذا جرى لهذا التخطيط الذى سوف أسرده ، ولست أعرف بطبيعة الحال الاسماء الجديدة التى اصبحت تطلق على ما سوف ارويه .

فقد كنا إذ نصـــل الى نهاية « حارة الجمالة » نكون قــد أصبحنا فى شــارع « العمرى » نسبة الى ضريح الشيخ العمرى الذى يتصـــل بمسجد صغير يقــع فى الشـــارع ، وكان بالاستطاعة دائما ان نتصل بالدنيا ، عن طريق اى طرف من طــرفى الشارع ، ولكن الطريق المعتاد والأقصر ، هو الذى كان يؤدى بنا الى ما يســـمى بـ « الدحدورة » وهو منحدر من الارض كان يوصل الى الشارع الرئيسى القادم من السيدة زينب لى ميدان القلعة (المنشية) أما طرف الشارع (العمرى) الآخر ، فكان يوصل الى نفس الطريق ، ولكن عن طريق أكثر طولا وازدحــاما بالحــركة والحياة ، وبه محــلات عامة ومقاهى وتقع به المدرســة الاولية التى كنت اذهب اليها ، وأشرت اليها فيما سبق (مدرسة ضرغتمش) على ان أهم ما كان يقــع فى هذا الشارع هو « الحمام العام » وهو أحد مظاهر حضارة القاهرة الاســلامية ، حيث كان باستطاعة أى فرد من الشعب ، مهما كانت درجته ، أن ينعم فى مقابل قرش واحد ، بقضاء ساعات من النعيم ، ليخرج نظيفا نشــيطا طــاهرا ، وليس باستطاعة الا أغنى الاغنياء فى أيامنا الحاضرة ، أن يحصل على مثل هذه الفرصة ، فى أعظم الفنادق على ما قيل لى ، ولطالما كنت اتردد فى طفولتى مع أخــوتى الكبار على هذا الحمام ، على أننى قلما كنت استعمل هــذا الشــارع فى رحلتى اليومية نحو المدرسة ، والتى كان على قبل أن أصل اليها ، أن أجتاز مناطق من امثال : السيوفية ، والخيمية ، والسروجية ، والركبية .. الى آخره وفى ذلك الوقت كنا ننظر الى ذلك كله باعتباره رمزا لـــما صرنا اليه من تخلف (هكذا شاء الانجليز أن يعلمونا) اما الآن وأنا أخط هذه السطور ، فانى أدرى كيف تشــير هذه الاسماء الى ما كنا عليه من اكتفاء ذاتى من مختلف فروع الصـــناعات اللازمة للحرب والسلام على أن هذا الطريق اليومى نحو المدرسة ، لم يكن يطلعنا على القاهرة

المتفرنجة ، وليس فى غـير عربات (سوارس) أى عربات (الامنوبيس التى تجرها البغال) ما كان يعتبر شيئا وافدا .

حقا كان قـد تأسس فى مصر شركات للترام والمياه والكهرباء وغاز الاستصباح ولكن ذلك كله كان بعيدا عن هذه المنطقة ، فيما خلا غاز الاستصباح حيث كانت الفوانيس بالليل تضاء به ، وكان يشـعلها رجـال كنا نطلق عليهم اسم « عفريت الليل » ولم تستطع شركة المياه أن تلغى حرفة « السقايين » والتغيير الذى حدث فى هذه الحرفة ، هو انه بدلا من ان يستجلب السقايين الماء من النيل ، فقد أقامت شركة المياه « حنفيات » ماء عمومية ، كان السقايون يأخذون منها الماء ثم يوزعونه على عملائهم ، ولكن الذى لا شك فيه ، ان حرفة السقايين ، كانت فى عهدها الأخير، تماما كحرفة « الحمارين » أى نقـل الناس على ظهور الحمير ، فحقا كان لا يزال للحرفة صولتها وجولتها ، وحيث ترى الآن « محطات البنزين » فقـد كنت ترى أماكن « شرب الحمير » .

المســـمط :

وقد بقى لتكامل صورة قاهرة هذه الأيام ، أن أشير الى مؤسسة أخرى لهـا شهرتها ، وفاعليتها فى الحياة الحضارية لمصر كما هو الشأن بالنسبة « للحمامات العمومية » وهذه المؤسسة هو ما كان يعرف « بالمســمط » حيث يستطيع أفقـر انسان فى الشعب ان يحصـل فى مقابل نصـف قرش على افخم وجبة سـاخنة متصورة وذلك هو الثريد الفاخر ، والمسمط هو المطعم الذى تسـلق فيـه رءوس الغنم واكارعها واحشاء الغنم (كبد وطحال وقلب ، وكرشة وممبار) ويسـلق ذلك كله فى اناء واحد ضخم ، فينشأ عن ذلك أفخر حساء متصور ، وهذا الحساء « المرق » هو الذى يصب على الخبز ويوضع فوقهما الأرز ، ويضاف الى الجميع « صلصة » اعدت لهذا الغرض فيصبح الثريد من اشهى وافخر ما يؤكل وكل هذا فى مقابل نصف قرش ، وكثيرا ما يصحب البعض الخبز معه ، فلا يعود باقى صنع الثريد يكلفه اكثر من مليمين اما اذا اراد أن ينعم بباقى الأطايب مما عددناه سابقا ، فما عليه الا ان يبذل نصف قرش آخر .

والذى يهمنى أن اذكره لتصوير القاهرة هو أن هـذا النوع من المطاعم كان منتشرا فى ربوع القاهرة ، فى متناول كل أفراد الشعب ، حيث انقرض تقريبا هـذا النوع من المطاعم ، فان وجد واحد ، لم يعد يقدر على استعماله سوى الأغنياء .

محلات بيع السمك المقلى :

وعلى ذكر الأطعمة ، فقــد كان يوجد فى كل حى تقريبا أكثر من محل لبيــع السمك المقلى ، وكان يعـــد من طعــام الفقراء ، لأن الأقل فقرا كانوا يقلون الســمك فى منازلهم ، وطالما أرسلت فى طفولتى لأشترى السمك المقلى من السماك ، وبالرغم من اننى كنت أحبه بأكثر من هذا الذى نصنعه فى بيتنا فقد كنت اشعر بالخجــل وأنا فى طريقى لشرائه ، فقد كان لا يفعل هذا سوى الفقراء ، الفقراء جدا ، قارن ذلك بما هو حاصل الآن (١٩٧٩) حيث لا يشترى الســمك المقلى من الســوق سوى الأغنياء .

ثورة ١٩١٩

أين تكمن ذروتها

تحدثنا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة عن ثورة الشعب المصرى فى سنة ١٩١٩ وكيف انها شىء رهيب لم يسبق له مثيل ، حيث استطاع شعب أعزل (الا من حقه) ان يتحدى أقوى قوة فى الدنيا (الامبراطورية الانجليزية) والتى كان لها فى مصر بالذات بضع مئات من الوف الجند الذين جعلتهم الحرب أقرب الى الهمج والوحوش ، منهم الى البشر المتمدينين ، ومع ذلك فلم يرهب الشعب المصرى ذلك كله ، وعندما زادته انجلترا تقتيلا وارهابا ، لم يزده ذلك ، الا ثباتا واصرارا ، ورأينا كيف تصورت انجلترا ان سوف تخلع قلب الشعب المصرى بأن تبعث الى مصر الجنرال اللينبى ، الذى لا يعرف سوى البطش والتنكيل ، فاذا بالشعب المصرى يحصل على أول انتصاراته بينما تمنى انجلترا بأول هزائمها (الافراج عن سعد) .

كل ذلك فصلناه فى الجزء الرابع ، وانتهى هذا الجزء بما اعتبرناه الثمرة الناضجة لثورة سنة ١٩١٩ وهو أعلان انجلترا وانفها راغم ، الغاء الحماية الانجليزية على مصر ، وهى الحماية التى حصلت على موافقة الدنيا كلها عليها ، بما فى ذلك رئيس أمريكا « ويلسون » الذى وصف فى ذلك الوقت بأنه نبى لدفاعه عن حق الشعوب فى الحرية وتقرير المصير ، ومع ذلك فقد دفعته انجلترا دفعا للاعتراف بالحماية على مصر .

وكانت انجلترا تعتبر مجرد المناقشة فى مشروعية الحماية على مصر جريمة منكرة ، هذه الحماية ، هى التى أعلنت انجلترا انها لم تعد صالحة لتنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا (راجع الجزء الرابع) وتألفت وزارة برئاسة عدلى يكن بأسها التفاوض مع الانجليز لنيل استقلال مصر ، وعاد سعد زغلول الى مصر فاستقبل بأعظم ما يستقبل الغزاة والفاتحون ، وكانت الحكومة والشعب صفا واحدا ، حقا ان نذر الخلاف بين أعضاء الوفد كانت قد بدأت تلوح على الأفق ، ولكننا وقفنا فى الجزء الرابع والصف لا يزال مؤتلفا والأمة كتلة واحدة ، وسوف نرى فى مستهل هذا الجزء ، وقبل ان ينصرم عام ١٩٢١ على وجه التحقيق ، أن الانشقاق بين صفوف الوفد لن يلبث ان يصبح حقيقة واقعة ، ويتبع ذلك خلاف بين الشعب بزعامة سعد زغلول وبين الحكومة بزعامة عدلى يكن ، وسوف نستعرض الأحداث وفقا لمنهجنا ، شهرا بشهر ، وأحيانا اسبوعا بأسبوع ، ويوما بيوم ، وسنرى كيف أن الأمور قد وصلت الى حد نفى سعد زغلول مرة أخرى ،

ولكن من الناحية المقابلة ، فقد صدر فى ٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ ذلك التصريح الانجليزى الشهير باعلان استقلال مصر وصيرورتها دولة مستقلة ذات سيادة ، ويكون السؤال ، ما هى السنة التى وصلت فيها ثورة ١٩١٩ الى ذروتها ، بحيث شرعت بعدها فى التدهور .

الغاء الحماية أم اعلان الاستقلال :

كرسنا الجزء الرابع كله لاظهار عظمة الشعب المصرى كما كشفت عنه ثورة ١٩١٩ ولم نزد فيما فعلناه عن تسجيل وقائع هذه الثورة يوما بعد يوم ، مما كان محل ذهول العالم (وليس انجلترا فقط) فكيف يستطيع شعب أعزل ان يتحدى الامبراطورية البريطانية التى خرجت منتصرة فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ومع ذلك فهذا الذى كان .

وشهد العالم انتصار ارادة الشعب المصرى على الامبراطورية الانجليزية ، فحيث اعتقلت انجلترا سعدا وابعدته الى مالطة وانكرت عليه حق التحدث باسم الشعب المصرى ، فقد اضطرت ان تنحنى امام ارادة الشعب المصرى فتفرج عنه ، بل وتتفاوض معه باعتباره ممثل الشعب المصرى .

وبعد أن كانت تعتبر الحديث فى حماية انجلترا لمصر هو كبرى الجرائم ، فقد تقدمت ببلاغ لسلطان مصر تعلن فيه أن الحماية لم تعد علاقة مرغوبا فيها .

وعاد سعد الى مصر واستقبل استقبالا لم يظفر به أحد من قبله فهل يمكن أن يكون ذلك هو ذروة ما وصلت اليه ثورة سنة ١٩١٩ من نجاح ؟ من الممكن ان يقال ذلك ، فحتى هذا التاريخ ظلت مصر متحدة متماسكة ، وقد كانت هذه الوحدة هى الصخرة التى تحطمت عليها ارادة انجلترا ، حيث ظل موقفها فى مصر من الناحية الفعلية ، كما لو كان شيئا ما لم يقع ، وليس الا بعد ظهور الخلاف والفرقة على امتداد عام ١٩٢١ ، بل وعودة انجلترا الى نفى سعد زغلول ان صدر فى مطلع عام ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبراير والذى قرر لأول مرة على لسان الانجليز ان مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

اننى أرى ان ادع لكل قارىء ان يفصل فى هذه القضية ، لنتابع نحن أسلوبنا ومنهاجنا فى هذه الموسوعة ، فنذكر أولا الوقائع المتفق عليها ، تاركين للقارىء أن يستخلص لنفسه ما يشاء أولا ، ثم نبدى راينا ثانيا ، وبعد هذا التمهيد نقول وبالله التوفيق .

١٩٢١

انشقاق الوفد

مطلع السنة :

فصلنا فى ختام الجزء الرابع من هذه الموسوعة مجريات الأحداث فى مطلع عام ١٩٢١ وكيف ابلغت انجلترا عظمة السلطان « أحمد فؤاد » على لسان « الجنرال اللينبى » ممثلها فى مصر « أن الحماية البريطانية لا تكون علاقة مرضية للعلاقات بين مصر وانجلترا » .

ودعيت مصر لايفاد وفد للتفاوض فى تنظيم العلاقات الجديدة .

وقد حاول السلطان أن يقنع انجلترا بأن يحتفظ برجله محمد توفيق نسيم فى الوزارة ، ولكن انجلترا رفضت ذلك لتعارضه مع خططها ، التى كانت تقضى بأن يتولى عدلى باشا يكن الوزارة ، وعلى ذلك فقد قدمت وزارة محمد توفيق نسيم استقالتها فى ١٥ مارس فقبلها السلطان على الفور كما أعلن فى ١٦ مارس وكلف عدلى باشا يكن فى نفس اليوم بتشكيل الوزارة الجديدة ، وكان من أبرز وزرائها ، دولة حسين باشا رشدى فى منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ، وعبد الخالق باشا ثروت وزيرا للداخلية ، واسماعيل باشا صدقى وزيرا للمالية .

ولما كان برنامج هذه الوزارة كما أعلنه عدلى باشا يكن فى خطابه للسلطان ، هو ذات برنامج الوفد المصرى : الوصول الى اتفاق لا يجعل مجالا للشك فى استقلال مصر ، وتعهد عدلى باشا فى خطابه : أن يسترشد بارادة الأمة وان يدعو الوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول باشا الى الاشتراك فى العمل لتحقيق هذا الغرض .

وزاد برنامج الحكومة على ذلك الغاء الأحكام العرفية ، ورفع الرقابة على الصحف ، ووضع دستور للبلاد .

وزارة الثقة :

فلا عجب وهذا برنامج الوزارة ، أن اعتبر الشعب مجرد قيامها هو انتصار كامل لأمانيه ، فانفجر فى مظاهرات غامرة من الابتهاج مطلقا على الوزارة تسمية كان سعد زغلول قد اطلقها عليها من قبل ، عندما دعا اللورد ملنر لتأليف وزارة من عدلى باشا يكن يكون برنامجها هو ذات البرنامج المعلن ، ووصف هذه الوزارة بأنها ستكون « وزارة ثقة » وهى ذات التسمية التى اطلقها الشعب على الوزارة الجديدة

وكان من اول ما فعله عدلى باشا يكن أن ابرق لسعد باشا زغلول الذى كان لايزال فى باريس يطلب منه العودة ، ولم يكن سعد زغلول ينتظر الا ذلك فقد كانت عودته فى هده الظروف تعنى انتصارا كاملا للأمة وبالتالى لشخصه باعتباره وكيلا للامة ، وانتصار لما جاهد هو شخصيا من اجله ، وعلى هذا فقد استجاب على الفور لدعوه عدلى باشا يكن ، وانبأه عن طريق برقية تسلمها عدلى يكن يوم (١٩ مارس) وانهى سعد باشا زغلول أعماله وارتباطاته فى فرنسا ، وغادر مرسيليا فى يوم ٢٩ مارس ، فوصل الى القاهرة فى يوم ٤ أبريل وفى ختام الجزء الرابع تحدثنا عن هذا الاستقبال « الخرافى » أو فلنقل الاسطورى الذى استقبلت به مصر سعدا حكومة وشعبا ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان ابراز هذه المشاعر واتخاذها سعد زغلول رمزا لها كان هو اسلوب الأمة فى التعبير عن ارادتها ، وقد استمرت الاحتفالات بعودة سعد زغلول تنجلى لعديد من الايام فى الوفود التى هرعت من انحاء البلاد لتحية سعد وكان الى جوار بيت الأمة أرض فضاء (المقام فيها ضريح سعد (وفى هذه الأرض أقيم سرادق ضخم لجلوس هذه الوفود وكان سعد زغلول من حين لاخر ، يطلع على المحتشدين ويخطب فيهم .

رد فعل استقبال الأمة لسعد زغلول :

واذ كان من نواميس الطبيعة ، أن يكون لكل فعل رد فعل ، فلابد أن كان لهذا الاستقبال « الخرافى » رد فعل فى مختلف الأوساط المعادية للشعب ، وفى الشعب وفى نفس سعد زغلول على السواء ، فأما اعداء الشعب وعلى راسهم انجلترا فلابد أن يكون الاستقبال قد افزعها ، وزعت ما ينطوى عليه من معان ، حيث تضامن الشعب وتكتل خلف الرجل الذى اصبحت انجلترا تعتبره خصما لدودا لها ولابد أن يكون السلطان احمد فؤاد قد افزعه بدوره ان يصبح فى مصر انسان بكل هذه القوة ، وهؤلاء الرجال من أعضاء الوفد الذين اعجبتهم كثرتهم ، وبدأوا يختلفون مع سعد وهم فى باريس ، لابد أن يكون قد أسقط فى أيديهم ، لهذا التأييد الكاسح لسعد زغلول ، ولابد ان يكون الحسد (وهو طبيعة بشرية) قد داخهم ووجدوا أنه لم يعد أمامهم خيار ، اما ان يستسلموا لسعد زغلول تماما فلم يعودوا قادرين على مناقشته فضلا عن مخالفته ، أو ان يخرجوا عليه ، ولما كانوا جميعا من الشخصيات التى تعتز بنفسها ، وتعتبر نفسها لطول مزاملتها لسعد زغلول انهم انداد له فقد قرروا ، أن يخرجوا على سعد زغلول ، كما سوف نرى .

وقد فاتهم فى ذلك أمران ، الأول هو تغير الظروف تماما وتغير سعد زغلول بمقدار هذا التغير ، والامر الثانى هو انعكاس هذا الاستقبال عليه ، فقد راى فيه أن أسلوبه الذى اعتبره الآخرون « تطرفا » هو الاسلوب الوحيد الذى يمكنه من الاحتفاظ بثقة الشعب ، وهو ما لم يعد يرتضى به بديلا ، خاصة وقد راى فى وعى الشعب ويقظته ما بهره هو شخصيا وفاق كل تقدير وحساب .

التفاف العناصر المناوئة حول عدلى يكن :

والأمر الذى لا يمكن ان يكون محل شـك هو ان جميع العناصر المناوئة التى فزعت من قوة سعد زغلول (الانجليز والسراى ورصفاء سعد زغلول) قد تكتلوا خلف عدلى يكن وراحوا يحرضونه للوقوف فى وجـه سعد زغلول وعلى ذلك فقـد رأينا شهر العسل بين وزارة الثقة وبين سعد زغلول لا يكاد يكمل أسبوعين بعـد عودة سعد زغلول الى مصر .

٢٢ ابريل ــ سعد زغلول يحتكم الى الشعب :

انتقلت الاحتفالات بعودة سـعد الى مختلف أحياء القـاهرة ، فأقيم له فى السيدة زينب احتفال وهنا نرى سعد زغلول يخرج من سرية مفاوضاته مع الوزارة الى العلن فنراه يعلن شروطه للتعاون معها فى موضوع المفاوضات وغنى عن البيان ، انه اراد باعلان شروطه على الشعب أن يضغط بذلك على الحكومة التى لابد أن تكون قد رفضت بعض هذه الشروط وهى :

أولا : ان تكون الغاية من المفاوضات ، الوصول الى الغاء الحماية بوجه عام ، أى فيما يختص بعلاقة مصر بالدول جميعا لا بعلاقتها مع الدولة الانجليزية فقط .

ثانيا : الوصول الى الاعتراف بالاستقلال التام الدولى الداخلى والخـارجى مع ملاحظة ارادة الأمة التى أبدتها فى التحفظات التى قدمها الوفد للجنة ملنر .

ثالثا : الغاء الاحـكام العرفية والرقابة على الصـحافة قبل الدخـول فى المفاوضـات .

رابعا : أن تكون للوفد أغلبية المفاوضين وأن تكون له الرئاسـة وان يصـدر بتحديد مأمورية المفاوضين على هـذا الوجه وهذه الكيفية مرسـوم سلطانى يبين ويحدد هذه المأمورية .

ومن الواضح أن سعد زغلول لم يجهر بهذه الشروط ويجعلها علنية ، الا بعـد أن فشل فى الحصول على موافقة حكومة عدلى يكن عليها ، فرأى أن يلجأ الى السهم الأخير وهو عرض الموضوع على الشعب .

٢٥ ابريل ــ عدلى يكن يتحدى سعد زغلول :

فى هذا اليوم نشرت جريدة الأهرام حديثا مع عدلى يكن أعلن فيه تمسـكه برئاسة الوفد وانه سيمضى فى المفاوضة بسعد وبغير سعد .

خطبة سعد زغلول :

قال سعد عن تمسكه برئاسة المفاوضات ردا على ما قاله عدلى يكن فى حديثه من أن التقاليد جرت بأن رئيس الحكومة تكون له رئاسة بعثة المفاوضات .

« هذه دعوى منهم لم يقيموا عليها دليلا فلا اعتبار لها ، على أنه اذا صح فى البلاد الاوروبية ان رئيس الحكومة يجب أن تكون له الرئاسة دائما فلا يصح ذلك فى مصر مطلقا بالنسبة للمهمة السياسية التى نحن بصددها ، فان مصر ليست بلدا دستوريا ، ووزارته لم ينتخبها الشعب ، بل هى معينة من طرف الحاكم ، فلا يمكنها ان تدعى أنها وزارة دستورية نائبة عن الأمة فهى معينة من عظمة السلطان ، بل أجاهر بالحقيقة التالية : المندوب السامى أيضا .

ومتى كان المرسوم السلطانى ممضى من رئيس الوزراء والوزراء فانهم يكونون هم المسئولين عنه لأن عظمة السلطان يمثل سلطة الحماية المفروضة عليكم رغم انوفكم ، ليس لمصر وزارة خارجية الآن وسياستها الخارجية بيد الدولة الحامية ، فلا يمكن لرئيس الوزارة أن يدعى انه يدير سياسة مصر الخارجية حتى يكون له وجه ان يكون رئيسا للمأمورية سياسية متعلقة بسياسة الأمة وعلاقتها مع الحكومة الانجليزية ورئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية ، يسقط ويرتفع باشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه ان يكون بازاء رئيسه وزير خارجية انجلترا حرا فى الكلام ، لأنه مدين له بمركزه ، فاذا طلبنا الرئاسة فاننا نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة لا تهاب شيئا مطلقا فى المطالبة بحقوقها وهى قوة الأمة ، لا ان يكون مرتكزا على قوة مستمدة من الحكومة الانجليزية ، لان ذلك يجعل المفاوضة بين الاصل وفرعه ، أى بين الحكومة الانجليزية والحكومة الانجليزية أيضا .

ليست هذه اول مرة ذكرت فيها هذا المعنى الذى تشرفت بعرضه عليكم الآن ولكنى رفعت الصوت به فى وزارة المستعمرات الانجليزية ، فقلت للجنة ملنر فى جلسة ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢٠ : من الذى يعين المفاوضين المصريين فأجاب : الحكومة المصرية ، فقلت : اذن جورج الخامس يتفاوض مع جورج الخامس .

ان الوزارة تريد أن تظهر أمام الأمة فى بيانها بأنها تريد أن تسير بارادتها وتشترك مع الوفد فى المفاوضات ، ولكن المحيطين بها ورجال الصحافة الموالين لها يعملون ليل نهار ، على منع الوفد من الاشتراك فى المفاوضة ، هذا أمر لا نقبله مطلقا ، أن الوزارة التى قالت انها تتمشى مع ارادة الأمة وتشترك مع الوفد فى المفاوضات وفرحت بها الامة ، هى التى تأتى فى الوقت نفسه وتعمل على ابعاد الوفد عن المفاوضة ، ويشتغل اتباعها بطرق شتى لهذه الغاية ، لا يمكننى أن أقبله ، واقول ان مهمتى فيكم هى ان افضح كل ما يحصل من خديعة أو غش لكم وان يسير كل أمر طبق ارادتكم ، اذا تمكنت من ذلك فحسبى والا فقد قمت بواجبى ، والسلام » .

وأعلن سعد فى هذه الخطبة عدم ثقته بالوزارة .

انفجار الموقف وانشقاق الوفد :

وهكذا أعلن عدلى باشا يكن تحديه لسعد زغلول بقوله انه سيمضى فى المفاوضات بسعد أو بغير سعد ، ولم يضيع سعد زغلول وقتا فى الرد على التحدى بالتحدى وكان مقررا ان يخطب فى نفس الوقت ، فأعلن بعد انشرح لماذا يتمسك برئاسة الوفد انه لم يعد يثق بوزارة عدلى ، فانفجر الموقف وبدأ انفجاره من داخل الوفد ذاته .

٢٨ أبريل ـ استقالة أغلبية الوفد :

كان مقررا عقد اجتماع للوفد فى هذا اليوم لبحث موقف الوفد من المفاوضات والوزارة ، وكان من رأى الاغلبية مخالفة سعد زغلول فى اعلانه عدم الثقة بالوزارة ، كما لم يروا رأيه فى وجوب تمسكه بالرئاسة ، فلما أصر سعد زغلول على رأيه واغلظ القول لمخالفيه ، بادروا فاستقالوا من الوفد ، ونشروا نص استقالتهم فى الصحف وهذا نصها وهو صريح كل الصراحة فى تحديد الموقف :

« قضت مصلحة البلاد التى اخذنا انفسنا بالقيام عليها ، ان نصارحكم القول اننا لا نستطيع أن نقركم على جعل القضية المصرية قضية شخصية يصح أن يكون للميول الذاتية فى أمرها محل من الاعتبار .

نقول والأسف يملأ قلوبنا انكم بغير أجازة من الوفد بل خلافا لقراراته الصريحة قد أعلنتم عدم الثقة بالوزارة بعد أن اجابت كل طلباتكم ما عدا شرط الرئاسة الذى لا نراه يقدم أو يؤخر شيئا فى حسن سير المفاوضات فعلتم ذلك فلما عرض الامر اليوم على الوفد ولم تقركم أكثريته على هذه الخطة الضارة صممتم عليها واستهنتم برأى الاكثرية مرة أخرى ، وجئتم بمثال من ذلك فى معاملتكم لاحدنا عبد اللطيف بك المكباتى .

تلقاء هذا الاستئثار بالرأى والانفراد بالعمل لا يسعنا حقا وعدلا الا أن نبرأ الى الله والى الامة من تبعة « الشقاق » الذى نجم عن انتحاء هذا النحو والذى طالما سعينا فى اتقائه الى حد مجاراة بعضنا اياكم على دخول الوفد فى المفاوضات خلافا لخطته .

والآن نرى ان الواجب الوطنى يقضى علينا ان نعلن ثقتنا بوزارة نزلت على ارادة الأمة ووافقت الوفد على كل ما اشترط من حيث مهمة المفوضين الرسميين والأغراض التى يجب عليهم السعى لبلوغها فان الوزارة لا تستطيع أن تصل الى تحقيق آمال البلاد الا اذا كانت متينة المركز فى الأمة معضدة الخطة من أولى الرأى فيها ، ولا نخال خذلانها الا خذلانا للغرض الاسمى الذى عاهدت الامة على الوصول اليه .

نعلن رأينا هذا ونصرح تلقاء الخلاف القائم فى الرأى العام بأن الخطة المثلى هى عدم دخول الوفد فى المفاوضات الرسمية اتباعا لخطة الوفد الاولى منبهين الوزارة الى أن كل اتفاق ليس شاملا للتحفظات التى ابدتها الامة والتى تتمسك بها كل التمسك لا يقابل من الجمعية الوطنية الا بالرفض الصريح .

ولقد نشعر أن الذين صبروا الى اليوم حقيق بهم ان يصبروا ويقدموا قربانا جديدا على مذبح الاتحاد فى هذا الموقف ، ولكن الأمر أجل من ان يحتمل تساهلا ، وأعجل من أن يقبل أناة ، والاتحاد اوشك أن يكون مقصورا لذاته لا لثمراته ، والله نسأل اهدى الفريقين منا سبيلا الى تحقيق آمال البلاد .

وتقبلوا فائق احترامنا .

الامضاءات : حمد الباسل . عبد اللطيف المكباتى . محمد محمود . احمد لطفى السيد . محمد على علوبة .

وكان على باشا شعراوى قد سبق هؤلاء فى الاستقالة ، ولكنه لم يوقع على البيان .

٢٩ ابريل — سعد زغلول يرد ويفصل الأغلبية :

وقد رد سعد زغلول على هذا البيان ردا سريعا حاسما فى يوم ٢٩ ابريل واليك النص :

« استحسن بعض حضرات اعضاء الوفد أن ينشروا فى الجرائد خلافهم وأن يقولوا فينا غير الحق وقد افرغت جميع الوسائل فى تلافى هذا الخلاف وحسمه ابتعادا عن الانقسام واستبقاء للوحدة ، فلم انجح وأبوا الا الاستمرار فيه واظهاره على طريقة تبين منها جليا عدم وجود تضامن فى العمل ، وهو المبدأ الذى وضعه الوفد وأقسم الاعضاء الايمان على احترامه ، ويرى الوفد ان مخالفة هذا المبدأ تعد بطبعها خروجا عنه ، وانفصالا منه ، لانه يستحيل انتظام العمل فى هيئة لم تربط أعضاءها رابطة من ثقة ولا من اتحاد فى غرض ، ولا ارتباط بقاعدة ، لهذا فاننا اعتمادا على الثقة التى شرفتنا الامة بها وأبدتها عند كل مناسبة ، وعلى الاخص فى المظاهرات التى قابلتنا بها ، وعلى التشجيعات التى لا تزال تبديها والتأكيدات الوثيقة التى تأتينا من كل الجهات مؤيدة لتوكيلنا ومحبذة لخطتنا ، نؤكد بأن الوفد الممثل للامة بعد انفصال المخالفين عنه يستمر فى العمل رئيسه وأعضاؤه المتفقون فى المبدأ والغاية ، وفى تبادل الثقة والاخلاص واحترام القواعد التى وضعوها والايمان التى اقسموها ، ويسعون بكل ما فى وسعهم للقيام بما عاهدوا الامة عليه حتى بلوغ الغاية ، فلا تهنوا ولا تحزنوا فان قضيتكم عادلة ومصركم خالدة والله معكم .

سعد زغلول

المنشقون ورأينا الخاص :

لابد ان القارىء الكريم قد تبين أن خطاب من أطلقت عليهم الامة فيما بعد اسم المنشقين قد خلا من التحدث عن الاستقالة من الوفد ولكن موضوعه فضلا عن عباراته لم تدع مجالا للشك فى أنهم يخرجون على الوفد ، فهم لم يكتفوا باعلان مخالفتهم فى الرأى لكل ما يقوله سعد زغلول ويتبرأون منه ، بل انهم هاجموا سعد زغلول شخصيا واتهموه بما اتهموه به مما يفيد تعذر التعاون معه ، وهو ما لم يفت سعد زغلول بدوره ، فاعتبر ما فعلوه يهدم الثقة فى امكان التعاون ، ولذلك أشار لما فعلوه بأنه انفصال منهم عن الوفد والشىء المحقق ، ان الامر كله كان معروفا ومتفقا عليه أو شبه متفق بين كافة الاطراف ، فعدلى يكن ما كان ليخاصم سعد زغلول فضلا عن أن يتحداه الا بعد ان يطمئن لتصور مساندة أغلبية الوفد له ، وما كانت هذه الاغلبية لتسارع باعلان هذا التحدى لسعد زغلول الا تنفيذا لاتفاق سابق تم بينهم وبين عدلى يكن ، ومن رأى عبد الرحمن الرافعى الذى كان معاصرا لهذه الفترة ، وأرخ لها ، ان هذا النفر من أعضاء الوفد هم الذين كانوا يحرضون عدلى يكن للوقوف فى وجه سعد ولم يكد هذا النفر يجهر بالخصومة لسعد زغلول حتى نزعت عنهم جماهير الشعب ثقتها وأطلقت عليهم اسم « المنشقون » واللطيف ان مادة « الشقاق » الذى اشتقت منه كلمة المنشقين ، وردت فى بيان أعضاء الوفد الذين هاجموا فيه سعد زغلول حيث تبرأوا الى الله والامة من تبعة « الشقاق » فكانوا هم المنشقون .

وقد انضم اليهم عبد العزيز بك فهمى والدكتور حافظ عفيفى وعبد الخالق باشا مدكور واستقال رسميا من الوفد جورج بك خياط فاعتبروا بطريقة آلية من المنشقين ، وانى لأذكر الآن كيف كانت هذه الكلمة تتردد فى بيتنا دون كبير سخط عليهم فبحكم كون والدى كان قريب عهد بوظيفته فى « المعية » فلم يكن فى يوم من الايام « زغلوليا » وعلى هذا فلم أكن أسمع لعنات تصب عليهم ، فضلا عن أن تصب على الحكومة ولكنى بعد هذا العمر الطويل (ستون سنة منذ هذه الأحداث) فانى أتبين بوضوح حقيقة ما كان يجرى فقد حاول المنشقون وحاولت الحكومة قبلهم أن يظهروا سعدا بمظهر المتعنت المستبد برأيه ، حيث لم تكن هذه هى القضية ، اذ لا جديد فيها ، فمنذ كان سعد زغلول وهو سعد زغلول اعتدادا بنفسه وبرايه وكرامته ، الى درجة لم يسبقها مثيل ، وانما الشىء الذى جهله المنشقون وعلى راسهم حكومة عدلى يكن ، أو ربما علموه ولم يستطيعوا أن يطوروا أنفسهم للتلاؤم معه ، هو التطور الذى بلغه الشعب الى هذه الدرجة « المذهلة » التى جعلته لا يرضى بغير « الاستقلال التام » ويرى فى سعد زغلول رمزا على هذا الاستقلال ، وتتلخص عظمة سعدزغلول فى أنه وعى هذا التطور ووصل الى مستواه فتحول من رجل أثنى عليه كرومر فى خطبة الوداع بعد أن سب المصريين جميعا (راجع الجزء الثالث) الى رجل يناصب الانجليز العداء

ولا يقيم لامبراطوريتهم وزنا ، بازاء ارادة الشعب المصرى وبدأ يجد فى التساهل مع الانجليز خروجا عن توكيل الشعب له ، حيث كان سعد زغلول يتطور هذا التطور كان زملاء الامس يجمدون عند نظرتهم القديمة بالامس وهو الرضاء بما تجود به انجلترا ايمانا منهم بقوتها التى لا تغلب .

٢٩ ابريل — انفجار عدائى فى طنطا ضد الحكومة :

وسرعان ما تلقت الوزارة نذيرا أنها لا تستطيع المضى فى الحكم فى هدوء واستقرار فضلا عن ان تفاوض الانجليز باسم مصر ، بعد أن أعلن سعد زغلول انه ينزع الثقة من الوزارة .

وقد جاء الانذار والتحذير من طنطا ، اذ حدث اشتباك بين جموع المتظاهرين الذين انطلقوا يهتفون الهتافات العدائية ضدالوزارة بينهم وبين البوليس ، وكان التحدى والاحتكاك ، واستعمل البوليس الاعيرة النارية ، فجرح أربعون وقتل اربعة ولك أن تتصور ما الذى يحدثه هذا الخبر فى جماهير الشعب الناضب على الوزارة ، الذى رأى فى هذه الفعلة محاولة لاستمرار حكم البلاد بالحديد والنار ، وقد حاول عدلى باشا يكن أن يهدىء من غضب الشعب فأعلن أن الوزارة لم تأمر باطلاق النار واستنكر تصرف البوليس وان الحكومة ستجرى تحقيقا لمعرفة المتسبب فى هذا العمل واحالته الى مجلس عسكرى وانه أوقف حكمدار البوليس الذى اصدر أمر اطلاق النار وأحاله الى المحاكمة العسكرية ، كل ذلك بطبيعةالحال لم يكن له أى أثر فى تهدئة الحالة التى زادت اضطرابا ونحن بعد هذا العمر الطويل وما تكشف من أحوال عدلى ومن كانوا معه ندرك طيبة قلبه التى تصل الى حد السذاجة التى يتصور أنه الآمر الوحيد الذى يسير الحكومة ، غير مدخل فى حسابه ان الانجليز من ناحية والسلطان فؤاد من الناحية الثانية كانوا يسبقونه فى ادارة الحكومة ولا سيما فيما يتصل بالأمن العام ، بل أن من بين زملائه فى الوزارة من ينظرون نظرة عدائية للشعب ، وربما كانوا يسعون لتوسيع شقة الخلاف بين الحكومة والشعب .

ماذا جاء فى مذكرات الدكتور حسين هيكل :

والدكتور محمد حسين هيكل الذى سيصبح فيما بعد رئيسا لحزب الأحرار الدستوريين الذى أسسه عدلى باشا مذكرات قيمة تلقى ضوءا كاشفا على أفكار بعض زملاء عدلى باشا فى الوزارة (ثروت واسماعيل صدقى) فأما ثروت فقد أخذ مكانه وشهرته من كونه نائبا عاما عمل دائما تحت سلطان الانجليز .

أما الثانى وهو اسماعيل ، فسنراه طوال العشر سنوات القادمة ، خلف أى عمل قمعى ضد الشعب ، ولنر الآن ماذا قال هيكل :

وسرعان ما اندلع لهب الخلاف وانطلقت المظاهرات فى الشوارع منادية بحياة

سعد . ورأت الوزارة أن من الواجب عليها أن تعيد الأمن الى نصابه وان تقمع الفوضى فنشأ عن ذلك اشتباك متكرر بين البوليس و « بولك الخفر » وبين المتظاهرين كثيرا ما كان ينجلى عن جرحى من الفريقين وقتل فى أثنائه بعض الافراد . وكان سعد بطبيعة الحال يشجع هذه المظاهرات علنا ويتخذها عنوانا صادقا على تأيد الامة له ونبذها من لا يسلمون بزعامته .

بل لقد ذهب فى التشجيع مرة الى ان ذهب الى حيث قتل أحد المتظاهرين وغمس منديله فى دمه ، ونادى الناس بأن عدلى هو الذى يحمل وزر هذا الدم . وامتدت الفوضى من القاهرة الى الاقاليم وذهبت ضحيتها فى الاسكندرية مصالح للاجانب جعلت الانجليز يفكرون فى التدخل لاعادة النظام بوصفهم المسئولين عن مصالح الاجانب وأرواحهم . ترى اتترك هذه المآسى تسير فى طريقها الى نهايته ؟ ام يجب أن يعالج الامر علاجا سياسيا يخفف من حدة الاحوال ويعيد الطمأنينة الى النفوس ؟

تحدثت فى هذا الامر الى بعض أصدقائى الشبان فى الحزب الديمقراطى وكان لصديقى محمود عزمى صلة خاصة بعدلى باشا . فلما قلبت معه وجوه الرأى اتجهنا الى أن استقالة الوزارة . وتكليف سعد بتأليف وزارة جديدة قد يعالج الموقف . وعاد الى عزمى فى اليوم التالى لحديثنا يخبرنى بأنه طالع به عدلى باشا بحضرة ثروت باشا وصدقى باشا فرأى من الرجلين معارضة أساسها أن قبوله معناه ترك حكم البلاد فى أيدى الغوغاء ، وانه اذا لم تتمكن الحكومة من القضاء على الفوضى وأفلت الزمام من يدها كانت الطامة الكبرى وليس فى مقدور أحد ان يعرف ما يترتب على ذلك من نتائج .

هذا رأى له من غير شك قيمته . وقيمته حاسمة فى ظروف الحياة العادية لكنى ترددت مع ذلك فى قبوله . فحكومة عدلى باشا انما تألفت لتتولى المفاوضة ، ولتتولى هذه المفاوضة مع دولة قوية أقرتها الدول الكبرى على الحماية التى فرضتها على مصر .

وانما اعترفت انجلترا بأن الحماية علاقة غير مرضية بين البلدين حين وقفت مصر كلها صفا واحدا تصدر فى رأيها عن كلمة واحدة هى أنها لا تريد الحماية ولا تريد بالاستقلال بديلا .

فاذا شغلت البلاد عن مطلبها هذا بالخلافات الداخلية ثم ترتب على هذه الخلافات انتشار الفوضى واخلال الغوغاء بالنظام كان ذلك حجة لانجلترا تجعلها تبالغ فيما تطلبه من مصر مقابل اعترافها لمصر باستقلالها وسيادتها .

فاذا كان فى تولى سعد باشا الحكومة وقيامه بالمفاوضة ما يعيد الى البلاد كلمتها موحدة فذلك خير من أن تبقى الفوضى تسود والاضطراب يسرى ثم لا يعرف أحد ما يكون من أثر ذلك كله فى مطالب البلاد .

٣٠ أبريل — الأمير طوسون ودعوته :

ونعود الى سرد الاحداث بترتيبها الزمنى فبمجرد حدوث ما حدث فى طنطا ادرك الأمير طوسون ما سوف يكون له من آثار ، ولقد رأينا فى الجزء الرابع كيف كانت له مشاركة فعالة فى الأحداث الوطنية ، ولذلك فقد اذاع بيانا فى ٣٠ ابريل اقترح فيه ما تصور أنه يرأب الصدع ويوحد الصف مرة أخرى .

فاقترح أن تقوم فى البلاد جمعية وطنية ، عن طريق الانتخاب العام لتقرر باسم مصر الأمور الآتية :

١ — هل تدخل مصر المفاوضات ام لا .

٢ — اذا قررت دخول المفاوضات فعليها أن تضع قواعدها وتعين من يقومون بها .

٣ — انغاء الرقابة على الصحف فورا ورفع الأحكام العرفية .

٤ — ان تجرى المفاوضات فى مصر وليس فى انجلترا ليكون فى قدرة المفاوض الاتصال المستمر بالأمة .

ومرة أخرى نستشعر بعد هذا العمر الطويل مدى القوة التى كان عليها الشعب المصرى ، بحيث كان قادة الراى قد اسقطوا نهائيا الانجليز من حسابهم ، وان لهم أى دور صغر أو كبر فى تسيير الأمور .. ولذلك فلا عجب ، ان ذهب اقتراح عمر طوسون مع الريح .

١٥ مايو — رفع الرقابة عن الصحف :

غير أن عدلى باشا يكن كان لابد له أن يفعل شيئا وكان على الانجليز ان يؤازروه اذا ارادوا أن يستمر فى الحكومة ، فوافقوا على رفع الرقابة عن الصحف ابتداء من ١٥ مايو وصدر بذلك اعلان من « اللورد اللنبى » بوصفه قائد القوات البريطانية فى مصر وكانت الوزارة من ناحيتها قد اذاعت بيانا بهذا المعنى واضافت على سبيل الاعتذار أنها اذا كانت لم تلغ الأحكام العرفية ، فليس ذلك الا لان الانجليز هم الذين اعلنوها فى نوفمبر سنة ١٩١٤ ووعدت الحكومة بأنها ستواصل سعيها لالغائها .

وحدث الأثر الذى هدف اليه الانجليز من وراء موافقتهم على الغاء الرقابة اذ اشتدت حملات الصحف الوطنية على عدلى باشا يكن وحكومته .

١٩ مايو — تشكيل الوفد الرسمى :

من المحقق ان عدلى باشا يكن ، كان يخضع لضغوط ليمضى فى سبيله على غير ارادته ، ولسنا نستبعد بطبيعة الحال ، أن يكون قد رأى أن مصلحته الشخصية هي فى أن يمضى ، ولذلك ترى فى ١٩ مايو صدور الأمر السلطانى بتشكيل الوفد الرسمى

للمفاوضات برئاسة عدلى باشا يكن وعضوية حسين باشا رشدى واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا وهؤلاء من أعضـاء الوزارة وأحمد طلعت باشـا وكان رئيسا لمحكمة الاستئناف ويوسف سليمان باشا من الوزراء السابقين واصـطحب الوفد مجمـوعة من المستشارين الفنيين من الموظفين امثال عبد الحميد بدوى وتوفيق دوس وشريف صبرى وعبد الحميد سليمان وعبد المجيد عمر ويوسف نحاس واللواء محمود عزمى والاستاذ ابراهيم دسوقى اباظة والاستاذ محمد خطاب والاستاذ حامد العلايلى ، والاستاذ أحمد محمد حسنين ، والمهندس عبد القوى أحمد والاستاذ عباس سيد أحمد وقد حرصت على ذكر هذا النفر لأننا سنقابلهم فى مقتبل الأيام وزراء وقادة .

صب الزيت على النار :

وقد كان هذا الاجراء بمثابة صب الزيت على النار ، فقد رأى فيه سعد زغلول ومن ورائه الأغلبية الساحقة للشعب تحديا لارادتهم ، فاندلعت المظاهرات فى عنف وشدة ، واذ كان سعد زغلول قد وصف يوما فى احدى خطبه من يفاوض الانجليز بدون اذنه وبعيدا عن رئاسته بأنهم « برادع الانجليز » فان تحديد المفاوضين بالفعل قد جسد هذه البرادع فراح الشعب يهتف بسقوطهم واحـدا واحـدا بل ويهتف بسقوط كل من يخالف سعد زغلول وتطور الموقف الى استعمال العنف ، فهاجمت الجماهير الغاضبة بيوت المخالفين لسعد ورجمتها بالاحجار .

٢١ مايو ــ نداء من الأمير عمر طوسون :

وليس هناك ما يصور الحالة العامة التى سادت البلاد من هذا النداء الذى وجهه الأمير عمر طوسون للامة فى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٢١ حيث قال :

« يا أبناء بلدى الاعزاء بلغنى مع أشد الاسف ما حدث من بعض أشخاص غير المسئولين فى أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم فى الرأى والتقاذف بالأحجار فى الشوارع الامر الذى ما كنا ننتظر صدوره من اى مصرى ونحن قوم نريد الاسـتقلال ونطلب الحرية وأساس هـذا المبدأ احترام كل فـريق رأى الآخر وعدم الحظر على احد وان شذ فى رأيه واذا لم نحترم هـذا المبدأ فلماذا نشكو من ضغط الانجليز على حريتنا ومصادرتهم لنا فى آرائنا وكيف بعد هـذا تريد طائفة منا ارغام مخالفيها على اتباع رأيها بالقوة فأرجوكم أشد الرجاء الاقلاع عن هذه الخطة التى تضر قضيتنا المقدسة أكبر ضرر وتشـين سمعتنا وتحط من كرامتنا ، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبلاده أن يجتهد فى منع ما يثير شـبه الأجانب فينا ويبعد عطفهم ويخلق التهم الباطلة لنا لأقول هـذا واننى لا انحيازا الى جانب الوزارة لأنى غير موافق على خطتها كما أظهرت فى اقتراحى ولكن الواجب هـو الذى دفعنى أن أبين لكم الخطر الذى ينجم عن سلوك طائفة منا غير المسلك القويم ، هدانا الله جميعا الى الصواب » .

٢٢ مايو ـ اضطرابات الاسكندرية الخطيرة :

وكما ذهب اقتراح عمر طوسون لتأليف جمعية وطنية فى الهواء ، فان هـذا النـداء الجديد كان بمثابة دعوة لمزيد من العنف والاضطراب فى نفس المدينـة التى اتخذها موطنا له ونعنى بها مدينة الاسكندرية ففى يوم ٢٢ مايو اى اليوم التالى لندائه ، اندلعت المظاهرات فى الاسكندرية ، أشد ما تكون عنفا وزاد فى خطورتها أن وقع اشتباك بين المتظاهرين والأجانب فى حى « الهماميل » وهو ذات الحى الذى وقع فيه فى يونية سنة ١٨٨٢ ما يعرف باسم مذبحة الاسكندرية ، وهو ما اتخذته انجلترا ذريعة احتلال مصر . وبلغ العنف منتهاه فنهبت بعض المتاجر واحـرقت بعض الدور وقتل كثير من الأشخاص وفشل البوليس المصرى والجيش المصرى فى السيطرة على الموقف ، وفى خاتمة المطاف تدخل الجيش الانجليزى وفرض قائده على المدينة منع التجول .

وقد أسفرت هـذه الحوادث عن قتل ٤٣ مصريا وجرح ١٢٩ كما قتل من الأوروبيين ١٥ شخصا وجرح ٧١ .

تشرشل يستغل الموقف :

وقد أسرع ونستون تشرشل وزير المستعمرات (وعهدنا به من غلاة المستعمرين) ينتهز هذه الفرصة ليعلن بأنه لا يرى أن الوقت قد حان لجلاء الجيوش الانجليزية عن مصر : « خشية ان يقضى الرعاع فى القاهرة والاسكندرية على حياة الجاليات الأجنبية وينهار صرح الاصلاحات التى تمت على يد الادارة البريطانية » وقد أثار هذا التصريح استنكار الكافة فى مصر : الحكومة قبل الوفد ، ولم يكن قـد فات سعد زغلول ما سوف تسببه هذه المظاهرات من خطر على مصر فوجه الى الشعب نداءين ، دعا فى ثانيهما الى ايقاف المظاهرات جملة .

بيـان سعد زغلول :

لم يتردد سعد زغلول فى استنكار ما حدث وتوالت بياناته ودعـا فى ختـام بيان أصـدره فى ٢٤ مايو مخاطبا الشـعب : « ايها المصريون اناشـدكم الوطنية الصادقة والاخلاص الصحيح لبلادكم ان تقابلوا هـذه الحادثة بما عهد فيكم من الرزانة والسكينة وان تستمروا فى اكرام ضـيوفكم من الأوروبيين وفى حسن الرعاية لهم ولو اعتدوا عليكم فذلك ابقى لمودتهم واليق بكرم أخلاقكم واحفظ لقضيتكم العادلة من أن يعوق سيرها عوامل الاضطراب » .

ثم نشر فى اليوم التالى نداء الى الشعب بوقف المظاهرات : « وان يقف اظهار سخطه على الوزارة عن طريق التظاهر اتقاء لما يرتكبه القسـاة فيها من الفظـائع المفزعة واكتفاء بما اظهره لغاية الآن من شدة سخط الأمة على الوزارة .

استغلال الانجليز للحادث :

على ان انجلترا التى كانت تقف متفرجة على تحول المصريين الى الحرب فيما بينهم ، ومتربصة للانقضاض فى كل لحظة ، ما كان ليفوتها استغلال هذا الحادث ، وقد رأينا كيف أسرع تشرشل بتصريحه ، ولكن الأخطر من ذلك كله انها راحت فى الداخل : من وراء الستار ، تؤلب الجاليات الأجنبية ضد الشعب المصرى ، وكانت الجالية الايطالية أكثر الجاليات استجابة ، فكتبت تقريرا مطولا تحدثت فيه عن وحشية المصريين واعتداءتهم البربرية على غير المسلمين من قبيل التعصب الأعمى ، بحيث شغل هذا الموضوع وعلاجه بحمل الاجانب المنصفين باستنكار هذا التهجم على الشعب المصرى الذى يعيشون فى ظله فى أمان ودعه وكانت الجالية اليونانية على راس المدافعين عن الشعب المصرى ولكننا قبل أن ننهى شهر مايو سنة ١٩٢١ الحافل بالأحداث المؤسفة لتحول الصراع بين المصريين . وبعضهم ، ينبغى أن نشير الى موقف الحكومة من الموظفين الذين أيدوا سعدا .

اجراءات ضد الموظفين الذين أيدوا سعد زغلول :

اقام الموظفون حفل تكريم لسعد زغلول بعد ان هاجم الوزارة ونزع منها الثقة ووصل فى هجومه الى حد نعت الوزراء بأنهم « برادع الانجليز » فذهبت كما يقولون مثلا ، وأصبح لا يتحدث عن الوزراء الا بهذا الوصف بأنهم « برادع الانجليز » وما كنت لاثبت هذا النص لولا أننى كنت ممن يلوكونه أيام صباى ، فلا عجب ان غضبت الحكومة على من اقاموا لسعد زغلول حفل تكريم فقدموهم الى مجالس التأديب فصدرت عليهم أحكام خفيفة ان لم تكن تافهة ، مما يدل على تعاطف مجالس التأديب نفسها ، ولما كان هؤلاء الموظفون ممن سيلعبون دورا فى حياة البلاد فلا مناص من ذكر أسمائهم : مكرم عبيد واحمد محمد خشبة : وزارة الحقانية صادق حنين ومحمود فهمى النقراشى : وزارة الزراعة فؤاد شيرين وحسين فتوح وزارة المعارف نجيب اسكندر بمصلحة الصحة ولم تزد العقوبة عن الانذار وكان من بينهم قاض وهو سلامة ميخائيل فبرأته الجمعية العمومية بمحكمة الاستئناف ، وقد حاول بعض الزغلوليين استغلال هذا الحادث باعتباره بمثابة حكم بعدم الثقة بالوزارة ، فكان ان تقدم قضاة محكمة الاستئناف بعريضة الى رئيس المحكمة يعلنون فيها ثقتهم بالحكومة ورئيسها عدلى باشا يكن .

٧ يونية — برقية سعد زغلول احتجاجا على تشرشل :

ارسل سعد زغلول برقية الى المستر لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية هذا نصها :

« باسم الشعب المصرى انهض محتجا بكل قوة على ما جاء فى خطبة المستر تشرشل وزير المستعمرات الانجليزية من أنه لا يرى الوقت قد حان لجلاء الجنود البريطانية عن مصر اذ ليس من الكرم ولا من العدل ان تتخذ حوادث الاسكندرية

حتى قبل ظهور نتائج التحقيق فيهـا ، فرصـة للقضاء على شـعب بتمامه تبريرا للأغراض الاستعمارية فقد وقعت هذه الحوادث بغتة ولم تتجاوز بعض الاحياء فى المدينة ، فى حين أن الأجانب فى سائر جهـات القطر لم ينقطعوا لحظة واحـدة عن التمتع بلطف جميع المصريين وحسن مودتهم .

ومضى شهر يونية ١٩٢١ :

وانقضى شهر يونية ، بين محاولة استنكار ما قاله تشرشل من جميع الجبهات، واذاعت الحكومة بيانا من ان رئيسها عدلى يكن قابل المندوب السامى وتلقى منه التأكيدات عن انه لا تأثير لهذه التصريحات على سير المفاوضات المقبلة على أن شغل البلاد الشاغل ، اصبح يتلخص فى محاولة سعد زغلول اظهار الوزارة انها لاتؤتمن على قضية البلاد ، وانها لا تمثل شيئا فى مصر ، بينما مضت الحكومة تسـتقبل الوفود من شتى الجهات والهيئات ، واصلى سعد من ناحيته هـذه الوفود نارا حامية وانها تساق سوقا لاظهار هذا التأييد ، والى جـوار الوفود كانت عرائض الثقة تتوالى على سعد زغلول من ناحية وعلى الحكومة من الناحية الأخرى ، بحيث تهكم وزير بريطانى على المصريين فى مجلس النواب الانجليزى ، فقال : حيث لايزيد تعداد مصر عن ١٤ مليونا ، فان عدد من وقعوا على عرائض الثقة سواء لهذا الجانب أو ذاك سبعة عشر مليون توقيع .

وقد كان الأمر كله مأساة ، فبعد أن كانت الامة صفا واحدا كالبنيان المرصوص مما أذهل الدنيا كلها ، وجعـل الامبراطورية البريطانية كلها ممثلة فى اللورد ملنر ولجنته ، تنحنى امام ارادة الشـعب المصرى ، اما الآن فقـد انتهى ذلك كله وانقسمت البـلاد .

أول يوليو سنة ١٩٢١ ـ سفر الوفد الرسمى :

وسافر الوفد الرسمى أخيرا برئاسة عدلى يكن فى أول يوليو من هـذه السنة من مدينة الاسكندرية على ظهر احدى البواخر (لم يكن السفر بالطائرات قـد عرف بعد) ليظهر ويظهر الانجليز معه مدى تصميمهما على الوصول الى اتفـاق وكان من سيتولى المفاوضات من الجانب الانجليزى هو اللورد كيرزون وكان الانقسام الذى حدث فى صفوف الأمة ينذر بأن الطرفين لن يصلا الى اتفاق ، ولكن الشىء المحقق ، انه لا عدلى يكن ولا زميله حسين رشدى كانا يتصوران أن اللورد كيرزون أو بالأحرى الانجليز سيخذلانهما الى هذه الدرجة .

وليس هناك ما يقال عن مجريات الامور فى بقية شهر يوليو وشهر اغسطس ، فقد كانت المفاوضات تجرى فى سرية تامة ، ولم تلبث أن توقفت فى شهر اغسطس ابان عطلة البرلمان الانجليزى .

وفى مصر استمرت حملة الصحف الوفدية على وفد المفاوضات بكل ضراوة وعنف ، وارسل سعد زغلول الأستاذ وليم مكرم عبيد وانضم اليه فى لندن الدكتور حامد محمود ، ليعرضا وجهة نظر سعد زغلول فى هجومه العنيف على عدلى يكن واظهاره أمام الانجليز بأنه الرجل الخارج على ارادة الأمة ، المقيد لحرياتها .

وكان عبد الخالق باشا ثروت هو الذى يدير الحكومة والبلاد نيابة عن عدلى باشا يكن .

وقد استطاع فيما يبدو وكما سوف يتضح من الأحداث القادمة أن يثبت أنه الرجل الوحيد الذى لا رجل غيره الذى تستطيع أن تتعاون معه انجلترا ، وكان اللورد اللنبى هو صاحب هذا الاعتقاد .

بقية شهر يوليو وكل اغسطس عام ١٩٢١ :

ومضى شهرا يوليو واغسطس فيما لا يخرج عن حدود المفاوضات فى لندن وكانت تجرى فى سرية تامة كما قدمنا ، ولم تلبث ان تباطأت فى شهر اغسطس ، ثم توقفت تماما فى شهر سبتمبر ، حيث كانت الوزارة الانجليزية والبرلمان فى عطلة .

وكانت الأحوال هادئة فى مصر شأنها فى هذه الايام كل صيف ، حتى سعد باشا زغلول كان فيما يشبه الاجازة فقصد عزبته فى « مسجد وصيف » ولم يعد منها الا فى ختام الشهر (٢٩ اغسطس) حيث ألقى خطابا عاما ندد فيه كما كان شأنه فى هذه الفترة بحكومة عدلى يكن بفرعيها ، سواء المفاوضات التى كانت تجرى فى لندن ، أو فرعها فى مصر والذى كان يقوده عبد الخالق باشا ثروت ، فكان ذلك اشارة ، بعودة النشاط الى الحركة السياسية .

١٩ سبتمبر ١٩٢١ ــ وصول لجنة سوان :

قدمنا ان سعد باشا زغلول أوفد الأستاذ مكرم عبيد الى لندن ، ليهاجم عدلى باشا واظهاره بمظهر الخارج على الأمة ، الذى لا يثق به أحد ، وبالتالى فليس له أن يتفاوض باسم مصر ، حيث وكلت الأمة لهذا الغرض سعد زغلول ، وانضم لمكرم عبيد الدكتور حامد محمود ، فكان ان اتصلا بنواب من حزب العمال وعلى رأسهم « مستر سوان » .

وهكذا انتقل الخلاف الذى كان يجرى فى مصر الى صفحات الصحف الانجليزية وامطر المستر سوان وصحبه الوزراء الانجليز بوابل من الاسئلة التى تحوى ادق التفاصيل عن مجريات الشئون فى مصر ، وقد أشرنا فيما سبق ، الى واحد من هذه الاسئلة الخاصة بعرائض الثقة والتى بلغ عدد الموقعين عليها أكثر من الشعب المصرى . ولم يدخر سعد زغلول وسعا فى اظهار رضائه على هذا النفر من النواب الانجليز ، وأخيرا أرسل للمستر سوان دعوة للحضور الى مصر هو ومن يريد من

زملائه ، للاطلاع بنفسه على مدى التفاف الشعب المصرى حوله ، وعدم ثقته بالوزارة التى تتفاوض باسمه مع الانجليز تحت رئاسة عدلى باشا يكن ، وقد لبى المستر سوان وثلاثة من النواب العمال ورابع من حزب الأحرار أى أن البعثة كانت تتألف من خمسة نواب وقد أقاموا فى لندن احتفالا قبل مغادرتهم لها ، ليفصحوا عن الغرض من هذه الرحلة ، ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (تطور الحركة الوطنية فى مصر) ان عبد الخالق باشا ثروت : القائم بأعمال رئيس الوزراء فى مصر ، ادرك ما سوف يكون لهذه الزيارة من عواقب ضارة فسعى لدى الانجليز للحيلولة دون حصولها ، ولكن الحكومة الانجليزية رفضت ذلك الا أن يطلب منها رسميا ، ولم يشأ عدلى باشا يكن رئيس الحكومة أن يتحمل هذه المسئولية فلم يطلب ذلك رسميا ، وعلى هذا فقد سافرت البعثة الى مصر ، فوصلت الى الاسكندرية فى ١٩ سبتمبر ١٩٢١ وبمجرد دخول الباخرة الى الميناء كانوا محل حفاوة تكريم من الشعب المصرى الذى أراد ان يظهر مدى التفافه حول سعد زغلول وعندما وصلوا الى القاهرة قصدوا الى بيت الامة حيث قابلوا سعد زغلول الذى لم يدخر وسعا فى أكرامهم وفى مجلات هذا الوقت (اللطائف المصورة) سترى صورة سعد زغلول والنواب الانجليز يمتطون الجمال أثناء زيارتهم لمنطقة الاهرام ، ولكنهم لما كانوا قد جاءوا لمصر لهدف سياسى ، فقد راح سعد زغلول يطوف بهم بعض الاحياء فكانوا يستقبلون بأعظم مظاهر الحفاوة التى تظهر مدى التفاف الجماهير حول سعد زغلول .

وقد شاء سعد زغلول بعد ذلك ، أن يستغل وجودهم فى مصر وعدم تعرض السلطة البريطانية لهم لكى يطوف بهم البلاد ، فتلقى هو والضيوف دعوة من شعب مدينة طنطا ممثلا فى بعض أعيانه ، وقبلت الدعوة على الفور ، ولكن السلطة المصرية (بالاتفاق طبعا مع السلطة البريطانية) قررت منع هذه الزيارة ، وتبادل سعد زغلول وأحمد باشا على وكيل وزارة الداخلية آنذاك رسائل حول هذا المنع وقد حاول سعد زغلول ان يوعز من طرف خفى لشعب طنطا ، أن يخلوا بالامن من جراء هذا المنع : « وربما ترتب على هذا المنع احراج صدور الناس واخراجهم عن حالة السكينة التى هم متلبسون بها الآن وعلى كل حال فانى اتخلى عن كل مسئولية تنجم عن هذا المنع » .

وعلى الرغم من هذا الايعاز باحداث القلاقل فانه لم يقع أى شىء على الاطلاق بالرغم من حب الشعب لسعد ، وانه رهن اشارته . وعمد سعد زغلول بعد ذلك ، الى الطواف مع ضيوفه بدون ترتيبات سابقة يعلن عنها ، فسافر مع ضيوفه الى بور سعيد حيث قوبلوا بمظاهرات عارمة من الحفاوة ، ثم كانت زيارة للمنصورة ولكن يبدو ان الامر كان قد عرف مسبقا فاذا ببعض الهتافات العدائية ترتفع ضد سعد وضيوفه ، وكتب الدكتور محمد حسين هيكل مقالا فى جريدة الاهرام يندد بهذه الزيارة وختمه بقوله : « الا يصح لنا بعد ذلك كله ان نقول ان لجنة المستر

ســوان قــد مثلت فى مصر رواية مضحــكة (انجليزية مصرية) تذكرنا بقول ابى الطيب

وكم ذا بمصر من المضحكا

ت ولكنــه ضــحك كالبكاء

٧ أكتوبر ١٩٢١ ـ رجوع بعثة سوان الى انجلترا :

وفى السابع من أكتوبر قفلت بعثة سوان عائدة الى لنــدن ، وودعت فى محطة مصر ، وفى سائر المحطات حتى الاسكندرية بما يليق ويتفق مع مكانة سعد زغلول، وأرسلت البعثة فى اليوم التالى من الاسكندرية أى قبيل مفادرتهم لها الى ســعد زغلول البرقية التالية :

حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا

فى لحظة قيامنا الى انجلترا نريد أن نعبر لمعاليكم وللامة المصرية بواسطتكم ، عن شكرنا الفائق على ما أظهرتم واظهرت لنا مدة اقامتنا القصيرة من حسن الضيافة وجميل الحفاوة ونسأل الله أن يحفظ لكم صــحتكم حتى تواصــلوا جهــادكم الى أن تروا مصر متمتعة بحريتها واستقلالها التام وهو ما يبتهج له فى يقيننا كل من يغــار على مصلحة أمته الحقيقية من الانكليز والمصريين على السواء .

توقيعـــات

بعثة سوان فى الميزان :

ولقد حدث اختلاف كبير بين جمهور المثقفين وقتها حول صواب هذه البعثة وجدواها ، وقد ترامت الى سمعى ابان صباى المبكر ، اصداء هذا الخلاف ولكنى ككل من حولى لم نكن نحفل به ، واليوم وبعد نصف قرن اذ أدون هذا الحادث فلا استطيع أن اعلق عليه الا بأنه صفحة من صفحات جهاد سعد زغلول آنذاك .

١١ أكتوبر ١٩٢١ ـ رحلة سعد زغلول فى صعيد مصر على ظهر باخرة نيلية :

عندما ننظر الى الاحداث وتعاقبها بعد هذا العمر الطويل نستطيع أن نستنتج أن اعضــاء بعثة سوان لابد أن يكونوا قــد نصحوا بتقصــير اقامتهم فى مصر والعودة الى انجلترا ، ولمــا كان النــاصح لهم هم انجليز مثلهم فقــد تقبلوا النصيحة وسافروا ولما كان الوفد قد سبق واستأجر باخرة نيلية لضيوف الانجليز ليصلوا على ظهرها الى الاقصر ، على أن يلبوا دعوة شعب أســيوط وهم فى الطريق ، كما يلبوا دعوة فخرى عبد النور فى جرجا ، ولذلك فلم يكد يغادر الضــيوف مصر فى ٨ أكتوبر حتى اقلعت الباخرة النيلية بسعد زغلول بمفرده للقيام بالرحلة وكانت هذه فرصة الادارة ، فعملت بأسلوبين الأول أن تمكن لخصوم سعد بالاحتشاد على بعض

الشواطىء (ديروط مســاء ١٣ أكتوبر وقبلها فى ملوى) أن يهتفوا بحيــاة عــدلى وسقوط سعد .

أما الاسلوب الثانى الذى لجـأت اليه الادارة فهى أن تحول بين ســعد وبين أن ينزل الى الشاطىء ، حيث اراد سعد زغلول ان يلبى دعوة من دعوه واقاموا لذلك سرادقا ضخما ، وزينات ، ولكن الادارة تذرعت بأن فريقــا آخر يعــارض فى دعوة سعد وأن فتنة توشك أن تقع فى البلد ، وعلى هذا فقد حيل بين سعد وبين النزول الى البر ، وبالرغم من ذلك فقد وقعت الفتنة ، ومات ثلاثة نفر وجــرح خمســة وثلاثون ، وتكرر مثل ذلك فى ســوهاج ، وفى غيرها من بلاد الصعيد وأخيرا قررت الحكومة منع الاستمرار فى الرحلة بهذا الاسلوب ، وعاد سعد زغلول الى القاهرة فى آخــر اكتوبر ، وقد ترك ما حدث له جرحا عميقا فى نفسه ضد عبد الخالق ثروت باشا بخاصة حيث اعتبره مسئولا عن كل ما حدث .

١٣ نوفمبر ــ احتفالات بعيد الجهاد :

وأخيرا تكرس الخلاف وأصبح كما لو كان شيئا مقدسا فأقيم لاول مرة احتفالان فى ذكرى عيد الجهاد (١٣ نوفمبر) وهكذا تحدد بصورة قاطعة نواة الحزب الآخر ، الذى كان يطلق عليه ، حتى هذه الساعة « العدليون » ولكنه لن يلبث أن يطلق على نفسه «الاحرار الدستوريون » .

١٩ نوفمبر ١٩٢١ ــ فشل المفاوضات رسميا :

فى هذا التاريخ صدر فى لندن بلاغ رسمى من وفد المفاوضــات المصرى يفاجىء المصريين بفشل المفاوضات واليك نصه :

« سلم اللورد كيرزون الوفد المصرى مشروع معاهدة وضعتها الوزارة البريطانية وقد أجاب الوفد عليها بمذكرة صرح فيها بأن المشروع لا يسمح بالوصول الى اتفاق وعلى ذلك قرر الوفد العودة الى مصر وسيغادر لندرة غدا صباحا وقد قابل دولة الرئيس اليوم اللورد كيرزون لآخر مرة مودعا . وقد غادر الوفد بالفعل لندن الى باريس ، ولكن عودته الى مصر قد تأخرت بعض الشىء لعدم وجود أماكن خالية فى السفن .

وارسلت الحكومة البريطــانية النصوص الى اللورد اللنبى ليذيعها فى مصر فأعلنت يوم ٣ ديسمبر ولكننا نرى ان نثبت نص المعاهدة التى عرضتها انجلترا على مصر ، وقد نشأنا ودرجنا على « تسميتها » مفاوضات عدلى وكيرزون ، ولما كانت الوثيقة الثالثة لا تعدو أن تكون حديثا من انجلترا توجهه الى الشــعب المصرى ، فنحن نرجىء التعرض لها حتى يأتى أوان نشرها .

الوثيقة الأولى

((مشروع اتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر))

وهو الذى قدمه كيرزون الى الوفد الرسمى المصرى

انتهـــاء الحماية

١ ــ فى مقابل ابرام المعاهدة الحالية والتصــديق عليهــا تقبل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى رفع الحماية المعلنة على مصر فى ١٩ ديسمبر ســـنة ١٩١٤ والاعتراف بمصر من ذلك الحين دولة متمتعة بحقوق الســيادة تحت امرة ملوكية دستورية فبمقتضى هذا قد أبرمت وتستمر باقية بين حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وشعبه من جهة وبين حكومة مصر والشعب المصرى من الجهة الاخرى معاهدة دائمة ورابطة سلام ووداد وتحالف .

العلاقات الاجنبية :

٢ ــ تتولى الشئون الخارجية لمصر وزارة الخارجية المصرية تحت ادارة وزير معين لذلك .

٣ ــ يمثل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى فى مصر قومســير عال، يكون له فى جميع الاوقات وبسبب مســئولياته الخاصــة مركز استثنائى ويكون له حق التقدم على ممثلى الدول الاخرى .

٤ ــ يمثل الحكومة المصرية فى لندرة وفى أية عاصمة أخرى ترى الحكومة المصرية أن المصالح المصرية يمكن أن تستدعى هذا التمثيل فيها ، معتمدون سياسيون يكون لهم لقب ومرتبة وزير .

٥ ــ بالنظر للتعهدات التى أخذتها بريطـــانيا العظمى على نفسها فى مصر وعلى الخصوص فيما يتعلق بالدول الأجنبية يجب أن توجد أوثق الصلات بين وزارة الخارجية المصرية والقوميسير العالى البريطـانى الذى يقدم كل المســاعدة الممكنة للحكومة المصرية فى ما يتعلق بالمعاملات والمفاوضات السياسية .

٦ ــ لا تدخل الحكومة المصرية فى اى اتفاق ســـياسى مع دولة أجنبية بدون أن تستطلع رأى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بواسطة القوميســير العالى البريطانى .

٧ ــ تتمتع الحكومة المصرية بحق تعيين ممثلين قنصليين فى الخارج حسب مقتضيات مصالحها .

٨ – لأجل تولى الشئون السياسية بوجه عام والقيام بالحماية القنصلية للمصالح المصرية فى الاماكن التى لا يوجد فيها ممثلون سياسيون أو قناصل مصريون ، يضع ممثلو جلالة ملك بريطانيا العظمى أنفسهم تحت تصرف الحكومة المصرية ويقدمون لها كل مساعدة فى قدرتهم .

٩ – تستمر حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى على تولى المفاوضة على الغاء الامتيازات الحالية مع الدول ذوات الامتيازات . وتقبل مسئولية حماية المصالح المشروعة للأجانب فى مصر وتتداول حكومة جلالة الملك مع الحكومة المصرية قبل البت فى هذه المفاوضات رسميا .

النصوص العسكرية :

١٠– تتعهد بريطانيا العظمى بمساعدة مصر فى الدفاع عن مصالحها الحيوية وعن سلامة أراضيها ولاجل القيام بهذه التعهدات ولحماية المواصلات الامبراطورية البريطانية الحماية اللازمة تكون للقوات البريطانية حرية المرور فى مصر ولها أن تستقر فى أى مكان فى مصر ولأى مدة يحددنها من وقت لآخر ويكون لها أيضا فى كل وقت مالها الآن من التسهيلات واستعمال الثكنات وميادين التمرين والمطارات والترسانات الحربية والمين الحربية .

استخدام الموظفين الاجانب :

١١– بالنظر للمسئوليات الخاصة التى تتحملها بريطانيا العظمى وبالنظر للحالة القائمة فى الجيش المصرى والمصالح العمومية تتعهد الحكومة المصرية بألا تعين ضباطا أو موظفين أجانب فى أى مصلحة منها قبل موافقة القوميسير العالى البريطانى .

الادارة المالية :

١٢– تعين الحكومة المصرية بعد استشارة حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيرا ماليا توكل اليه فى الوقت المناسب ، الحقوق التى يقوم بها الآن أعضاء صندوق الدين ويكون هذا القوميسير المالى مسئولا بوجه أخص عن دفع المطلوبات الآتية فى مواعيدها :

١ – المبالغ المخصصة لميزانية المحاكم المختلطة .

٢ – جميع المعاشات والسنويات الأخرى المستحقة للموظفين الأجانب المحالين على المعاش وورثتهم .

٣ – ميزانية القوميسيرين المالى والقضائى والموظفين التابعين لهما .

١٣– لأجل أن يؤدى القوميسير المالى واجباته كما ينبغى يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الامور الداخلة فى دائرة وزارة المالية ويكون له فى كل وقت التمتع بحق الدخول على رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية .

١٤- ليس للحكومة المصرية عقد قرض خارجى أو تخصيص ايرادات مصلحة عمومية بدون موافقة القوميسير المالى .

الادارة القضـــائية :

١٥- تعين الحكومة المصرية بالاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيرا قضائيا يكلف بسبب التعهدات التى تحملتها بريطانيا العظمى القيام بمراقبـة تنفيذ القانون فى جميع المسائل التى تمس الأجانب .

١٦ - لأجل ان يؤدى القوميسير القضائى واجبـاته كمـا ينبغى يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الأمور التى تمس الأجانب وتكون من اختصاص وزارتى الحقانية والداخلية ويكون له فى كل وقت التمتع بحق الدخـول على وزيرى الداخليـة والحقانية .

السودان :

١٧- حيث أن رقى السودان السلمى هو من الضروريات لأمن مصر ولدوام مورد المياه لها تتعهد مصر بأن تستمر فى أن تقدم لحكومة السودان نفس المساعدات الحربية التى كانت تقوم بها فى الماضى أو أن تقـــدم بدلا من ذلك لحكومة السودان اعانةمالية تحدد قيمتها بالاتفاق مع الحكومتين . تكون كل القوات المصرية تحت أمر الحاكم العام وغير ذلك تتعهد بريطانيـا العظمى بأن تضمن لمصر نصيبها العادل منمياه النيل ولهذا الغرض قد تقرر أن لا تقام اعمال رى جديدة على النيل أو روافده جنوبى وادى حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أمناء يمثل أحدهم مصر والثانى السودان والثالث أوغندا .

قروض الجزية :

١٨- المبالغ التى تعهد خديو مصر فى أوقات مختلفة بدفعها للبيوت المـــالية التى أصدرت القروض التركية المضمونة بالجــزية المصرية تستمر الحكومة المصرية على تخصيصها كما كان فى المـاضى لدفع الفوائد والاســتهلاك لقرض سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ الى أن يتم استهلاك هذين القرضين . تســتمر الحكومة المصرية أيضا فى دفع المبالغ التى كان جاريا دفعها لسداد فوائد قرض ســنة ١٨٥٥ المضمون عندما يتم استهلاك قروض سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٥٥ تنتهى مسئولية الحكومة المصرية فيما يتعلق بأى تعهد ناشىء عن الجزية التى كانت تدفعها مصر لتركيا سابقا .

اعتزال الموظفين والتعويض المستحق لهم :

١٩- للحكومة المصرية الحق فى أن تستغنى عن خدمة الموظفين البريطانيين فى أى وقت كان بعد نفاذ هذه المعاهدة بشرط أن يمنح هؤلاء الموظفون تعويضا ماليا كما سيأتى بيانه وذلك زيادة على المعاش او المكافاة التى يستحقونها بمقتضى

أحكام استخدامهم . ويكون للموظفين البريطانيين الحق بنفس هـذه الشروط فى الاستعفاء من الخدمة فى أى وقت بعد نفاذ هذه المعاهدة .

تسرى جميع هذه الاحكام على الموظفين الذين لهم الحق فى المعاش والذين ليس لهم الحق فى المعاش وأيضـا على موظفى البلديات ومجالس المديريات والهيئات المحلية الاخرى .

٢٠- الموظفون المرفوتون أو المحالون على المعاش طبقا لنص المادة السابقة تعطى لهم زيادة على التعويض ، اعانة اياب لبـلادهم تكون كافيـة لسد نفقات ترحيل الموظف نفسه وعائلته ومتاعه المنزلى الى لوندرة .

٢١- تدفع التعويضات والمعاشات بالجنيهات المصرية باعتبار سعر ثابت قدره ٩٧ قرش ونصف للجنيه الانكليزى .

٢٢- يوضع جدول عن التعويضات :

١ - للموظفين الدائمين .

٢ - للموظفين المؤقتين .

بمعرفة رئيس جمعية خبراء حسابات التأمين .

حماية الاقليـــات :

٢٣- تتعهد مصر بأن النصـوص الوارد ذكرها فيما بعـد تعتبر قوانين أسـاسية والا يتضارب معها أو يؤثر عليها أى قانون أو لائحة أو عمل رسمى والا ينقض مفعولها قانون أو لائحة أو عمل رسمى .

٢٤- تتعهد مصر بأن تضمن لجميع سكان مصر الحماية التـامة الكاملة لارواحهم وحريتهم من غير تميز بسبب مولدهم أو تبعيتهم الدولية أو لغتهم أو جنسهم أو دينهم . يكون لجميع سكان مصر الحق فى أن يقوموا بحرية تامة علانية أو غير علانية بشعائر أية ملة أو عقيدة ما دامت هذه الشعائر لا تنافى النظام العـام أو الاداب العمومية .

٢٥- جميع الحائزين للرعوية المصرية يكونون متساوين أمام القانون ويكون لكل منهم التمتع بما يتمتع به الآخرون من الحقوق المدنية والسـياسية من غـير تمييز بسبب الجنس أو اللغـة أو الدين . اختلاف الأديان والعقائد والمذاهب لا يؤثر على أى شخص حائز للرعوية المصرية فى المســائل الخاصـة بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية مثل الدخول فى الخدمات العموميـة والتوظف والحصول على ألقاب الشرف أو مزاولة المهن أو الصناعات .

لا يسوغ فرض أى قيد على أى شخص متمتع بالرعوية المصرية فى حرية استعماله لأية لغة فى معاملاته الخصوصية أو التجارية او فى الدين أو فى الصحف أو فى المطبوعات من أى نوع كانت أو الاجتماعات العمومية .

٢٦ـ الاشخاص الحائزون للرعوية المصرية التابعون للاقليات القومية أو الدينية أو اللغوية يكون لهم الحق فى القانون . وفى الواقع فى نفس المعاملة والضمانات التى يتمتع بها غيرهم من الحائزين للرعوية المصرية وعلى الخصوص يكون لهم حق مساو لحق الآخرين فى ان ينشئوا أو يديروا أو يراقبوا على نفقتهم، معاهد خيرية أو دينية أو اجتماعية أو مدارس أو غيرها من دور التربية ويكون لهم الحق فى ان يستعملوا فيها لغتهم الخاصة وأن يقوموا بشعائر دينهم بحرية فيها .

٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ ـ وصول عدلى باشا ومن معه الى مصر :

احدث فشل المفاوضات ، وما أعقبه من نشر الوثائق التى قدمناها بعد ان اضيف لها وثيقة ثالثة بتوقيع اللورد اللنبى لا تعدو أن تكون مذكرة تفسيرية وراحت تكرر الكلمات البالية من فصل انجلترا على مصر وانها (أى انجلترا) لا تهدف من كل ما تفعل الا خير المصريين ، نقول ان ذلك كله قد احدث فى نفس المصريين الشعور بالمرارة وأدركوا أنه لم يوصلهم الى هذا الموقف سوى الانقسام والفرقة ، فتنادى الكل وعلى رأسهم سعد زغلول ، بوجوب العودة الى الاتحاد ولكن هذه الدعوة لم تكن صادقة فيما يبدو فلم تصل الى الجماهير ولذلك فقد استقبل عدلى يكن عند عودته استقبالا رسميا حافلا كريما ، ولكن الشعب لم يدخر وسعا فى اعلان ازوراره عنه ، بل وانكاره ، وقد اكتشفت محاولة لقلب القطار الذى أوصله من الاسكندرية الى القاهرة ، اذ نزعت القضبان ، ولولا أن اكتشفت لوقعت الكارثة ، وحيث كانت الحفاوة الرسمية تصل الى القمة ، على المحطات التى يقف عليها ، فقد كانت جموع الشعب تعبر عن استنكارها بشتى الوسائل ، حتى بلغ الامر فى القاهرة الى حد القذف بالطماطم والبيض مما جعل سعد زغلول نفسه يذيع بيانا على الامة يدعوها الى نبذ الخلاف ، والوقوف صفا واحدا ولكن عجلة الأحداث كانت أسرع من كل شيء .

٨ ديسمبر ١٩٢١ ـ استقالة وزارة عدلى باشا يكن :

وصل عدلى يكن الى القاهرة فى السادس من ديسمبر وفى يوم ٨ ديسمبر كان يرفع استقالته الى السلطان مشفوعة بتقرير مفصل بسير المفاوضات ، وكيف لم يكن بوسعه وهو الذى تعهد للامة أن يأتيها باستقلال غير منقوص ، ان يقبل المشروع الانجليزى وهو لا يعدو ان يكون فى حقيقته الحماية بكل معناها ، ولم يفت عدلى يكن ان يسجل كيف ان حسين باشا رشدى أصيب بالشلل من جراء ما أحس به من صدمة .

ولم يقبل السلطان الاستقالة على الفور ، وان كان التقرير قد نشر يوم ١٣ ديسمبر .

٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ـ اعتقال سعد زغلول :

فى هذا التاريخ ، أقدمت بريطانيا بناء على اقتراح تقدم به اللورد اللنبى وكان قد شرع فى تنفيد خطوته الاولى ، وهى اعتقال سعد زغلول ، ثم نفيه بعد ذلك وفريق من معاونيه الى جزيرة « سيشل » فى المحيط الهندى ، واذ كانت هذه الخطوة قد أعادت الضرام واللهب للثورة المصرية ، فالأمر الذى لاشك فيه ، انها خطوة خاطئة بكل المقاييس للسياسه الانجليزية ، اذ هى ضد ما كانت تهدف اليه فى مصر وهو استعادة الثقة بها ، على الاقل فى أوساط المستوزرين ، ومن يطلقون عليهم أصحاب المصالح الحقيقية ، فقد أحرجهم إقدام انجلترا على اعتقال سعد زغلول ، وأدركوا ما سوف يحدثه ذلك من رد فعل عند الشعب ، ولذلك فقد بادرت هذه الجماعة التى كانت أنشقت على سعد ، بالذهاب الى بيت الأمة ، حيث اجتمعوا مع السيدة صفية زغلول حرم سعد زغلول ، التى وقفت فى هذه المحنة موقفا اصيلا ، يليق بزوجة زعيم كبير جدا فعرضت فى بادىء الامر على السلطات البريطانية أن ترافق زوجها فى المعتقل ، فلما رفضت السلطات ، قامت بحمل الامانة ، فتكتلت حولها مختلف طوائف الامة للاعراب عن شديد استنكارها لما اقدمت عليه بريطانيا، ولقد أوقع اللورد اللنبى انجلترا فى هذا الخطأ ، كما أوقعها قبل ذلك ، فى خطأ مماثل (من وجهة نظر انجلترا) عندما طلب الافراج عن سعد زغلول ، من منفاه فى مالطة (راجع الجزء الرابع) فاستجابت الحكومة البريطانية لطلبه على مضض فكان فى ذلك أقوى دفعة لثورة سنة ١٩١٩ ، اذ أشعرت الشعب المصرى أنه اقوى بحقه واتحاده من كل جيوش بريطانيا ، وأساطيلها .

ومن الواضح الآن أن اللنبى (كانجليزى) أحس بخطأ تصرفه بعد فوات الأوان ، فظلت نفسه تساوره باعتقال سعد مرة اخرى ، ولكن حال دون ذلك قيام وزارة عدلى باشا والمفاوضات التى دخلت فيها مع انجلترا ، فلما فشلت هذه المفاوضات ، وقدم عدلى باشا يكن استقالته ، وعاد الموقف بين مصر وبريطانيا الى ما كان عليه ، رأى اللنبى أن هذا هو الوقت المناسب لمحاربة سعد زغلول بما فى ذلك اعتقاله وبدأ تحرشه بسعد زغلول ، بأن أصدر أمره بمنع اجتماع دعا سعد الى عقده بنادى « سيروس » ولازال اسم هذا النادى يدوى فى ذاكرتى بعد هذا العمر الطويل ، واحتج سعد زغلول على هذا المنع فى بيان عام اصدره للأمة ، فرد اللنبى على ذلك بأن أرسل تحذيرا الى سعد زغلول يحظر عليه القيام بأى نشاط سياسى ، ويطلب منه التوجه الى الريف وملازمة عزبته تحت اشراف مدير المديرية .

للقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفرادا أو جماعات :

وليس يسعنى الا أن اثبت هنا نص رد سعد زغلول على هذا التحذير ، فقد عشبت طول عمرى اترنم به واعتبره ذروة مايمكن أن يصل اليه زعيم أمة مجاهدة ، قال:

« اتشرف باخباركم انى استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذى تبلغوننى فيه أمر جناب الفيلد مارشـال اللنبى بمنعى من الاشتغال بالسياسة والزامى بالسـفر الى عزبتى بلا تاخير للاقامة بها تحت مراقبة المدير وهو أمر احتج عليه بكل قـوتى انه ليس هناك ما يبرره ، وبما انى موكل من قبل الامة للسعى فى اسـتقلالها فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس لهذا سابقى فى مركزى مخلصا لواجبى وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء افرادا وجماعات فاننا جميعا مستعدون للقاء ما تاتى به بجنان ثابت وضمير هادىء ، علما بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة انما يساعد البلاد على تحقيق أمانيها فى الاستقلال التام وارجو أن تقبلوا فائق احترامى .

سعد زغلول

ولم يكن اللورد اللنبى ينتظر الا مثل هذا الرد لكى يسرع باعتقال سعد زغلول وخمسة من رفاقه ردوا على اللنبى بمثل ما رد سعد زغلول وهم مصطفى النحاس — سينوت حنا — فتح الله بركات وعاطف بركات — ووليم مكرم عبيد .

وقد اقتيدوا الى معسكر بريطانى فى العباسية ومن العباسية الى معسكر آخر فى السويس ، ومنها بعد عدة أيام ، الى عدن فسيشل ، وقبل أن نشير الى يـوم الرحيل ، وما أعقب اعتقال سعد من أحداث شبيهة بما حدث عقب اعتقال سعد لاول مرة ، نرى أولا ان نثبت قبول استقالة عدلى يكن .

٢٤ ديسمبر ١٩٢١ — قبول استقالة عدلى يكن :

ذكرنا من قبل أن عدلى باشا يكن قدم استقالته عقب عودته من لندن بعد فشل المفاوضات ، وذلك فى ٨ ديسمبر، ولكن السلطان أرجأ قبول الاستقالة ، فلما ان اعتقل سعد ووقع ما وقع من احداث خشى عدلى أن يحمل مسئولية ما يجرى ، فكرر للسلطان اصراره على الاستقالة وطالب بقبولها فلم يســع السلطان الا قبولها ، وأعلن ذلك رسميا فى يوم ٢٤ ديسمبر فدل ذلك ضمنيا على السلطة البريطانية التى كانت قد اعتقلت سعد زغلول فى اليوم السابق .

٢٩ ديسمبر — ابحار سعد زغلول وصحبه الى منفاهم :

فى هذا اليوم تم ترحيل سعد زغلول واصحابه الخمسة الى منفاهم ، وكان اللنبى قد اقترح أن يكون ذلك فى سيلان ، ولكن ذلك كله لم يكن معروفا آنذاك ، والكننا نعرف اليوم ، أن السفينة قصدت بهم عدن وبعد قضاء فترة قصيرة بها نقلوا الى جزيرة سيشل .

تكرار ثورة سنة ١٩١٩ :

يقول المؤرخون ، وعلى رأسهم أحمد شفيق باشا فى حولياته ، ان ثورة الشعب المصرى عقب اعتقال سعد زغلول فى المرة الثانية : لم تكن بمثـل قوتها وفاعليتها فى

مارس ١٩١٩ (راجع الجزء الرابع) وذلك بسبب انقسام الامة وتناقص حماسة المصريين ، ولكننا نخالف هذا الرأى ، فانقسام الامة تحول من جديد الى وحدة ، وعاد المنشقون الى الوفد وأذيع نبأ استقالة الوزارة ، واندلع بأقوى صوره ، منذ اللحظة الاولى فحطمت مصابيح الإضاءة وقلعت وقلبت عربات الترام واحرقت ، وقطعت السكك الحديديه ، وأضرب الطلاب والعمال والموظفون ، واحتجت مختلف الهيئات ، وسارت المظاهرات ، واغتيل بعض أفراد من الانجليز واستشهد من استشهد من الشباب وجرح من جرح ، وحدث ذلك كله وسعد زغلول لا يزال على الارض المصرية ، اى انه بدا يحدث بكل هذا العنف ابتداء من مساء ٢٣ ديسمبر أى انهم بدأوا بما تطوروا اليه طوال شهر مارس سنة ١٩١٩ ، ولكن الذى كان قد تغيرهم الانجليز أنفسهم ، فحيث أخذوا على غرة سنة ١٩١٩ حيث كانوا ينامون فى العسل نوم ، (كما يقال) تصوروا ان الشعب المصرى جثة بلا حراك ، فلما ان تحرك الشعب ، عادوا فتصوروا انه يمكن ارهابه بقتل بعض أفراد منه ، فاذا قتل الافراد يتطور الى وجوب قتل العشرات فالمئات بغير جدوى ، كان الانجليز يتعزون بعدم اضراب الموظفين ، فلا يكادون يعلنون ذلك ، حتى يضرب الموظفون وهكذا اما هذه المرة فقد كان الانجليز متهيئين لكل ذلك نفسيا وماديا ، وخطط اللنبى للمعركة كقائد عسكرى ، فلما أن أكمل استعداده ، بدأ فى اجراءاته بحيث سارت الامور أقل من المتوقع ، فيبدو ذلك نجاحا ، وكانت كل برقيات اللنبى الى انجلترا تتحدث بهذا الأسلوب .

« بالرغم من أن الاضراب عام فالحالة هادئة »

« وقع اصطدام بين المظاهرات فى القاهرة والاقاليم ، ومع ذلك فلم يتجاوز عدد القتلى ثلاثة .. الى آخره فلم يكن ثمة تغيير فى الشعب المصرى ولكن التغيير حدث فى سلوك الانجليز ، ليس فقط فى أنهم لم يفاجأوا واستعدوا سلفا لمواجهه أسوأ الاحتمالات ، وأمنوا بأن الاسراف فى قتل الناس لا يرهب المصريين ، بل يستفزهم فجعلوا يواجهون الجماهير بأقل درجة من العنف ، على أن ذلك كله كان يمكن ان لا يؤدى الى أى نتيجة ، لولا ان ممثل الانجليز فى مصر (اللورد اللنبى) كان قد عقد العزم ، على وجوب انتهاج بريطانيا ، لسياسة جديدة تقابل المصريين فى منتصف الطريق، ووجد فى عبدالخالق باشا ثروت ، المصرى الذى يتعاون معه على هذه السياسة ، التى ستتبلور كما سوف نرى فى تصريح ٢٨ فبراير من السنة القادمة والذى سنتعرض له بالتفصيل فى حينه .

انتقالنا الى بيت جديد بالقرب من السيدة زينب :

وسط هذا الجو المشتعل بالثورة على السطح والملىء من الباطن بمحاولة ارضاء المصريين انصرم عام ١٩٢١ ، ولما كانت هذه الاحداث تجرى وقد أصبحت انا على قيد الحياة ، وبلغت من العمر حد الوعى (١٠ سنوات) فلا مناص من ذكر أحوالى الخاصة ، فهى فى نهاية الامر صورة مما كان يقع من بعض الاشخاص ويجرى فى

بعض البيئات قدمت فيما سبق ، اننا كنا نعيش فى حى طولون فى حارة داخلة تسمى « حارة الجمالة » وكانت تقع على حافة ماكنا نسميه آنذاك « الجبل » وكان يطلق على بيتنا « بيت الافندى » .

والآن فان هذا « الافندى » قد قرر أخيرا بيع هذا البيت وشراء بيت جديد أكبر واكثر (عصرية) بالقرب من ميدان « السيدة زينب » وعلى وجه التحديد على بعد حوالى ١٥ مترا من شارع ماراسينة وقد كان هذا المدخل يتألف من بضعة حوانيت ، ثم سور مدرسة محمد على ، ثم سور بيت لأحد كبراء مصر فى العهد القديم ، وهو « المناسترلى » ثم يأتى بيتنا .

والأمر المحقق اننا انتقلنا الى هذا البيت فى صيف ١٩٢١ فالذكريات المحققة المختزنة فى راسى تتصل بأحداث هذا التاريخ ، كما اننى شاهدت كما سوف أروى مسرح بعض العمليات التى وقعت على اثر اعتقال سعد زغلول وترتبط ارتباطا وثيقا بوجودى فى هذا البيت .

انتصارات الغازى مصطفى كمال :

لست أعرف : ماذا كان يجرى فى الأوساط السياسية فوالدى رحمة الله عليه ، ربما بحكم اشتغاله فى ديوان السلطان (أيام حسين كامل) كان عزوفا عن الحديث فى السياسة ، وكذلك كان شقيقاى اللذان يكبراننى ، فلست أذكر شيئا خاصا بالأحداث التى سبق ذكرها ، ولكن الأمر المؤكد ، اننى كنت اتابع حرب تركيا التى كانت تشنها ضد اليونان التى ارادت (بتشجيع وتحريض ومؤازرة الحلفاء) ان تلتهم تركيا ، وبالفعل احتلت أجزاء كبيرة من الاناضول ، وطبعا كل هذه معلومات لم اعرفها بهذا الوضوح الا فيما بعد : أما فى هذا الوقت الذى اتحدث عنه ، فلم أكن أعرف الا ان حربا تدور بين الأتراك واليونانيين وبرز اسم الغازى مصطفى كمال كبطل عملاق اسطورى ، وكان يقع أسفل بيتنا الجديد ، دكانان (يدفعان لنا الايجار) أحدهما لبقال وهو الاسم العصرى لما كنا نسميه فى حارة الجمالة « الزيات » أما الدكان الثانى ، فكان يسكنه صانع « شباشب » وكان بعض الجيران يجتمعون عند صانع الشباشب وينتدبوننى لمطالعة الجرائد (الافكار او الاخبار أو وادى النيل) وكان شغل الجميع الشاغل ، هو تتبع سير المعارك فى الاناضول ، وكانت الانباء حديثا متصلا عن انتصارات تركية ومازلت اذكر حتى اليوم الانباء المثيرة التى كنا نطالعها حول المعارك الدائرة على نهر « سقاريا » والانتصارات الساحقة التى كان يحرزها الاتراك .

بعد نفى سعد زغلول :

أما الصورة الثانية المحفورة فى ذاكرتى ، فقد سرت (بدافع حب الاستطلاع) لرؤية آثار الثورة التى اندلعت إثر نفى سعد زغلول ، فقصدت ميدان السيدة

(وكان قريبا جدا من البيت كما قدمت) ومن الميدان الى شارع خيرت حتى وصلت الى ميدان لاظاوغلى (منطقة الوزارات) وكانت المنطقة شبه مهجورة ، وقد لاحظت على الفور بعض اشجار الطريق وهى منزوعة ، كما لاحظت احد مصابيح غاز الاستصباح محطما والنار مشتعلة من الغاز المتدفق .

وفيما انا واقف اتفرج على هذه الآثار اذ سمعت غمغمة وهمهمة تدور فى الشارع « شاهين .. شاهين » ولما كان مجرد ذكر هذا الاسم وقتها تنخلع له القلوب ، فقد اختفى الافراد القليلون الذين كانوا هنا وهناك ، وقبل ان اتبين أى شيء ، وجدت كوكبة من « السوارى » العساكر الراكبين الجياد يشقون الشارع وهم يعدون محدثين ، صلصلة مخيفة ، وفى مقدمتهم رئيس لهم ، ومرت الكوكبة من امامى دون أن يقع أى شيء غير عادى .

وهكذا كان نصيبى من احداث مارس ١٩١٩ أن اشتركت فى مظاهرة على غير وعى منى وعندما دهمنا الانجليز كان منى ما كان وما سبق أن فصلته ، اما فى احداث ديسمبر ١٩٢١ (وكنت قد ازددت وعيا) فقد وقفت منها موقف المتفرج .

وانى أرجىء الحديث عن بيئتى الجديدة الى نهاية العام المقبل ، فان وصف هذه البيئة يعتبر جزءا من تاريخ مصر .

١٩٢٢

عام تصريح ٢٨ فبراير

سيظل عام ١٩٢٢ بارزا فى تاريخ مصر تحت اسم تاريخ آخر ، وهو ٢٨ فبراير ، ففى هذا اليوم من هذه السنة صــدر تصريح من انجلترا الدولة المحتلة بجيوشها لمصر ، اعلنت فيه الغاء الحمــاية التى سبق لها أن اعلنتها سنة ١٩١٤ بسبب قيــام الحرب العالمية الاولى ، كما أعلنت استقلال مصر وانها سيدة نفسها ، واعترفت بحق شعب مصر أن يحكم دستوريا ، أى بواسطة حكومة تكون مسئولة أمام نواب الشعب اذا ارادت واتصور ان مصر لم تستقبل فى كل حياتها ، أمرا يتصل بكيانها ، بكل هذا الفتور الذى استقبلت به هذا التصريح ، ولست أصدر هذا الحكم بعد مطالعتى ما طالعت من أحوال مصر كما تعكسها بكل دقة وأمانة حوليات شفيق باشا حيث نشر أهم البيانات ، والمقالات والوثائق الخاصــة بالموضوع ، ولكنى فى ذلك استقرىء نفسى ، فقد كنت فى هذا التاريخ ، قد دخلت فى مرحلة الصبا ، وكنا قد انتقلنا الى حى الســيدة زينب ، وكان يحيط بى أفــراد عائلتى (أبى وأمى واخواى) بعد أن أضيف اليهم جيراننا فى السكن ، ومع ذلك فليس فى ذاكرتى ، أى همسة أو اشارة ، فضلا عن قول ، يتصل بهذا التصريح مما يقطع بدقة الوثائق التاريخية التى طالعتها عن هذه الفترة ، والتى تصف الفتور واللامبالاة التى استقبل بها الشعب المصرى فى قطاعاته العريضة هذا التصريح .

والسر فى ذلك ، ان الشعب المصرى ، كان قد اتخذ من سعد باشا زغلول رمزا لكل ما يؤمل فيه ، ولمــا كان سعد زغلول قد نفى من مصر تمهيدا لاعلان هــذا التصريح فيما يبدو ، فان الشعب لم ير فيه الا تدليسا ومحاولة لخداعه ، ولذلك فقد رفض كل ما قيل له عن المكاسب التى حققها له التصريح بدون أن يخسر شيئا ، حيث ان التصريح صدر من جانب واحد ، أى من جانب انجلترا دون أن ترتبط مصر بأى ارتباط ، الامر الذى جعل عبد الخالق باشــا ثروت ، المســاهم الاكبر فى صدور التصريح يقول : « عندما قال قائل ، ان على بريطانيا ان تعلن قبل الدخول فى مفاوضات الغاء الحماية والاحكام العرفية ، وان تعلن استقلال مصر ، عندما قيل هذا القول وصف قائله بالجنون ، ومع ذلك فان هــذا الذى كان يعــد جنونا منذ عام واحد ، هو الذى أصبح واقعا اليوم » .

على أن هذه النظرة التى شــكل ثروت باشا الحكومة على أساسها ، واعتمدها السلطــان فؤاد الذى سيتحول بموجب التصريح الى ملك ، لم يقم لهــا الشعب المصرى أدنى التفات معتمدا على حقيقتين :

١ – أى قبس هذا من الحرية ، الذى يمهد له بخنق الحرية (نفى سعد زغلول) .
٢ – كيف يقوم استقلال فى ظل الاحتلال .

ويبدو لنا بعد هذا العمر الطويل ، ان الاستقلال كان قد تلخص فى وجدان الشعب ، انه لا يعنى شيئا الا بجلاء الانجليز عن مصر ، ولا جدال فى ان سعد زغلول بعد ثورة ١٩١٩ اعتنق هذا المبدأ ، ونجح فى اقناع الشعب المصرى بعدم التزحزح عن هذه القاعدة » الاستقلال التام أو الموت الزؤام « وان لا يتفق استقلال مع احتلال .

وعلى ذلك فعندما لم يجد الشعب فى التصريح جلاء انكر ان يكون هناك استقلال وعندما قيل له : ان التصريح خطوة للامام ، لم ير فيه الا نكسة للوراء فقد اعتقل سعد زغلول والمؤرخ اذ يسجل الأحداث : يجب ان يقف منها موقفا محايدا بقدر الامكان ، ولكنى وقد كنت صاحب دور فيما تلا ذلك من نشاط سياسى ، فاشهد انى عندما سافرت انجلترا عام ١٩٣٥ لكى اطالب الانجليز بالجلاء عن مصر ، كان تصريح ٢٨ فبراير هو عدتى وسلاحى ، فكنت اصيح فى وجه الانجليز ، لقد اعترفتم بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، فاحتلالكم ارضها هو العدوان فى أبشع صوره: وعندما سافرت الى جنيف فى مطلع عام ١٩٣٦ لانادى بحق مصر فى عضوية عصبة الامم ، كان هذا التصريح باستقلال مصر وسيادتها هو سندى وعمادى ومع ذلك فعندما صدر هذا التصريح لم يعتبره الشعب مساويا للحبر والورق الذى كتب به، وربما كانت هذه المعارضة التى قابل بها الشعب التصريح هى التى نفخت فى صورته ، وحولته من مجرد ابهام وخداع الى خطوة حقيقية فى بناء استقلال مصر .

لمن يعزى فضل صدور هذا التصريح :

ولقد قلنا وكررنا ، ان كل ما حققته مصر أو يمكن أن تحققه ، انما يعود فى الدرجة الأولى الى الشعب المصرى فلولا ثورته فى سنة ١٩١٩ ما كان تصريح ٢٨ فبراير ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعمل دائما مشيئته من خلال أسباب ، وما بعض الاشخاص الا هذه الاسباب ، ولا يكاد تصريح ٢٨ فبراير يذكر ، الا ويرد اسم عبد الخالق باشا ثروت على الفور ، فقد علق قبوله للوزارة على صدور مثل هذا التصريح ، غير انه كان لثروت أو لغير ثروت أن يشترط ما يشاء دون أن تعنى انجلترا بمجرد الالتفات اليه ، ولكن شاءت الظروف أن يكون ممثل انجلترا فى مصر رجل له وزنه ولا تستطيع انجلترا ان تتجاهل رأيه ، وهو الفيلد مارشال اللورد اللنبى ولأمر ما تصور هذا الرجل ان مصر لا تحكم الا بثروت باشا ، وأن لا صلاح للعلاقات الانجليزية المصرية الا بالاخذ بوجهة نظر عبد الخالق ثروت ، فتبنى اللينبى وجهة النظر هذه ، وهدد بالاستقالة اذا لم تستجب الحكومة الانجليزية لوجهة نظره.

وقد اصدرت الحكومة الانجليزية كتابا أبيض بمناسبة هذا التصريح ويبين منه الموقف المتشدد الصلب الذى وقفه اللورد اللينبى لاصدار هذا التصريح ، الى الحد

الذى جعله يرفض ارسال بعض كبار موظفى الانجليز الى انجلترا لاستشارتهم فلم يسع الحكومة الانجليزية الا أن تستدعيه هو لعرض وجهة نظره ، وسافر اللينبى الى انجلترا بالفعل فى شهر فبراير ، وقال لمودعيه انه لن يعود الى مصر الا اذا اقرت الحكومة البريطانية وجهة نظره ، فلما اعلن فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢٢ ان اللورد اللينبى قد غادر لندن فى طريقه الى مصر دل ذلك بنفسه ، على أنه انتصر وحقق وجهة نظره ، التى كان متفقا عليها مع عبد الخالق باشا ثروت ، ولذلك كان مجرد وصوله الى القاهرة ايذانا ، بانتهاء الازمة العنيفة ، التى اختتم بها عام ١٩٢١ ، وقد مر بنا كيف ان عدلى باشا يكن قد أصر على وجوب اعلان استقالة وزارته التى قدمها رسميا فى ٨ ديسمبر ، وقد قبلت الاستقالة بالفعل يوم ٢٤ ديسمبر ، ومنذ هذا التاريخ ظلت مصر بدون وزارة من الناحية الرسمية والفعلية ، ولم يحاول السلطان ، ان يكلف احدا من المستوزرين بتشكيل وزارة فقد وقف الشباب بالمرصاد لكل من تحدثه نفسه بتشكيل حكومة ، وطافت وفود من الشباب والسيدات ، على كل من رشحته الاشاعات لتشكيل حكومة جديدة ، ولما كان قد اشيع عن عبد الخالق ثروت ، انه على استعداد لتأليف الوزارة اذا اجيبت شروطه، فقد قصدته الوفود سابقة الذكر ، ولما كان يائسا من استجابة بريطانيا لشروطه، فلم يجد أى صعوبة فى ان ينفى نفيا قاطعا استعداده لتشكيل حكومة فى ظل الأوضاع القائمة ، ولذلك لم يكن كاذبا عندما تولى الوزارة فى أول مارس ، فقد كانت الأوضاع قد تغيرت تغيرا كاملا من الناحية الرسمية فى اليوم السابق على تشكيل الوزارة وهو يوم :

٢٨ فبراير ــ تصريح انجلترا باستقلال مصر :

وصل اللينبى الى محطة العاصمة ظهر يوم ٢٨ فبراير ١٩٢٢ عائدا من انجلترا وقد استقبل استقبالا حسنا ، بل وحياه الكثيرون على طريقه نحو بيت المندوب السامى فى قصر الدوبارة ولم يكد يستريح من عناء السفر حتى قصد قصر عابدين فى الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم ، وكان السلطان أحمد فؤاد فى انتظاره ، فسلمه التصريح الذى أعلن بمقتضاه استقلال مصر ، والذى سيتغير لقب السلطان بموجبه ويصبح « ملك مصر » كما سلمه تبليغا صادرا منه يعتبر بمثابة مذكرة ايضاحية للتصريح واليك نص هاتين الوثيقتين التاريخيتين :

تصريح لمصر :

بما ان حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التى جاهرت بها ترغب فى الحال الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر اهمية جوهرية للامبراطورية البريطانية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية :

١ ــ انتهت الحماية البريطانية على مصر وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكنى مصر تلغى الأحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ فبراير سنة ١٩١٤ .

٣ — الى أن يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالامور الآتى بيانها وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الامور وهى :

(أ) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تداخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .

(جـ) حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور على ما هى عليه الآن .

((تبليغ))

من المندوب السامى الى حضرة صاحب العظمة السلطان

دار الحماية ـ القاهرة فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

يا صـــــاحب العظمة :

١ ـ اتشرف بأن أعرض لمقام عظمتكم أن الناس قد ذهبوا فى تأويل بعض عبارات المذكرة التفسيرية التى قدمتها لعظمتكم فى الثالث من شهر ديسمبر مذاهب تخالف افكار الحكومة البريطانية وسياستها وهو ما آسف له اشد الأسف .

٢ ـ وقد يخال المرء مما نشر عن هذه المذكرة من التعليقات العديدة ان كثيرا من المصريين القى فى روعهم ان بريطـــانيا العظمى توشك أن ترجع فى نواياها القـــائمة على التسامح والعطف على الامانى المصرية وانها تنوى الانتفـاع بمركزها الخاص بمصر لاستبقاء نظام سياسى ادارى لا يتفق والحريات التى وعدت بها .

٣ ـ غير انه ليس شىء أبعد عن خاطر الحكومة البريطانية من هذه الفكرة بل ان الأساس الذى بنيت عليه المذكرة التفسيرية هو أن الغاية من الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمى ليست ابقاء الحمـــاية حقيقة أو حكما وقـــد نصت المذكرة على ان بريطانيا العظمى صـــــادقة الرغبة فى ان ترى مصر متمتعة بما تتمتع به البلاد المستقلة من ميزات أهلية ومن مركز دولى .

٤ ـ واذا كان المصريون قد رأوا فى هـــذه الضمانات انها تجاوزت الحـــد الذى يلتئم مع حالة البلاد الحرة فقد غاب عنهم أن انكلترا انما الجـــأ الى ذلك حرصها على سلامة نفسها تلقاء حالة تتطلب منها اشد الحذر خصوصا فيما يتعلق بتوزيع القوات العسكرية . على ان الاحوال التى يمر بها العالم الآن لن تدوم ولا يلبث كذلك أن يزول الاضطراب السائد فى مصر منـــذ الهـــدنة والامل وطيد فى أن الاحوال العالمية صائرة الى التحسن هذا من جانب ومن جانب آخر فكما قيل فى المذكرة سيجىء وقت تكون فيه حالة مصر مدعاة الى الثقة بما تقدمه هى من الضمانات المصرية لصيانة المصالح البريطانية .

٥ ـ أما ان تكون انكلترا راغبة فى التدخل فى ادارة مصر الداخلية فذلك ما قالت فيه الحكومة البريطانية ولا تزال تقول ان أصدق رغبتها واخلصها هو ان يترك للمصريين ادارة شؤونهم ، ولم يكن يخرج مشروع الاتفاق الذى عرضته بريطانيـــا العظمى عن هـــــذا المعنى . واذا كان قد ورد فيه ذكر موظفين

بريطانيين لوزارتى المالية والحقانية فان الحكومة البريطانية لم ترم بذلك الى استخدامهما للتداخل فى شؤون مصر وكل ما قصدته هو أن تستبقى اداة اتصال تستدعيها حماية المصالح الاجنبية .

٦ ـ هذا هو كل مرمى الضمانات البريطانية ولم تصدر هذه الضمانات قط عن رغبة فى الحيلولة بين مصر وبين التمتع بحقوقها الكاملة فى حكومة أهلية .

٧ ـ فاذا كانت هذه هى نوايا انجلترا فلا يمكن لاحد أن ينكر أن انجلترا يعز عليها أن ترى المصريين يؤخرون بعملهم حلول الأجل الذى يبلغون فيه مطمحا ترغب فيه انكلترا كما تتوق اليه مصر . أو أن ينكر انها تكره أن ترى نفسها مضطرة الى التدخل لرد الامن الى نصابه كلما ادركه اختلال يثير مخاوف الاجانب ويجعل مصالح الدول فى خطر . وانه ليكون مما يؤسف له أن يرى المصريون فى التدابير الاستثنائية التى اتخذت أخيرا أى مساس بمطمحهم الاسمى أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التى سبق بيانها فان الحكومة البريطانية لم يعد غرضها أن تضع حدا لتهييج ضار قد يكون لتوجيهه الى أهواء العامة نتائج تذهب بثمرة الجهود القوميـة المصرية ولذلك كان الذى روعى بوجه خاص فيما اتخذ من التدابير مصلحة القضية المصرية التى تستفيد من أن البحث فيها يجرى فى جو قائم على الهدوء والمناقشة باخلاص .

٨ ـ والآن وقد بدت تعود السكينة الى ما كانت عليه بفضـل الحكمة التى هى قوام الخلق المصرى والتى تتغلب فى الساعات الحاسمة فاننى لسعيد أن أنهى الى عظمتكم أن حكومة جلالة الملك تنوى أن تشير على البرلمان باقرار التصريح الملحق بهذا ، واننى على يقين بأن هذا التصريح يوجد حالة تسود فيها الثقة المتبادلة ويضع الأساس لحل المسألة المصرية حلا نهائيا مرضيا .

٩ ـ وليس ثمة ما يمنـع منذ الآن من اعادة منصـب وزير الخارجية والعمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر .

١٠ ـ أما انشاء برلمان يتمتع بحق الاشراف والرقابة على السـياسة والادارة فى حكومة مسؤولة على الطريقة الدستورية فالأمر فيه يرجع الى عظمتكم والى الشعب المصرى .

واذا أبطأ لأى سبب من الأسباب انفـاذ قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) السارى على جميع ساكنى مصر والذى أشير اليه فى التصريح الملحـق بهذا ، فاننى أود أن أحيط عظمتكم علما بأننى الى أن يتم الغاء الاعلان الصادر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ سأكون على استعداد لايقاف تطبيق الأحكام العرفية فى جميع الأمور المتعلقة بحرية المصريين فى التمتع بحقوقهم السياسية

١١ — فالكلمة الآن لمصر وانه ليرجى انها وقد عرفت مبلغ حسن استعداد الحكومة البريطانية ونواياها تسترشد فى أمرها بالعقل والروية لا بعامل الاهواء .

« ولى مزيد الشرف الخ »

« اللنبى (فيلد مارشال) »

اول مارس : تكليف ثروت باشا بتاليف الوزارة :

واذ كان كل شيء متفقا عليه : فقد ابستدعى السلطان فؤاد ثروت باشا فى نفس الليلة وكلفه بتشكيل الوزارة التى لم يتردد فى قبولها بطبيعة الحال ، وصدرت وثائق الأمر بالتشكيل والقبول ، وهى تحمل تاريخ اول مارس ، اى اليوم التالي مباشرة لصدور التصريح واليك النص :

من السلطان فؤاد الى عبد الخالق ثروت :

عزيزى عبد الخالق ثروت باشا ..

ان القرار الذى أبلغنا اياه حضرة صاحب المقام الجليل المندوب السامى لدولة بريطانيا العظمى فيما يختص بانهاء الحمـــاية البريطانية على مصر وبالاعتراف بهـا دولة مستقلة ذات سيادة يحقق أعز أمنية لنا ولشعبنا العزيز وهو ثمرة الجهـاد القومى الذى تعهدناه على الدوام بالتشجيع والتأييد ولا ريب عندنا فى أن استمساك الأمة بروابط الوئام والاتحاد والتزامها جانب الحكمة فى هـذا الدور الجـديد من حياتها السياسية كفيل بتحقيق كامل أمانيها .

نظرا لمـا نعرفه لكم من الجهد المشكور فى خدمـــة القضية المصرية ولمـا لنا من الثقة التامة بكم وما نعهده فيكم من الجدارة الكاملة للقيام بمهام الأمور ، وقد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه مســند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم . وقد اصدرنا هذا لدولتكم للاخذ فى تأليف وزارة جديدة يكون من بينها وزير الخارجية وعرض المشروع لجنابنا لصدور مرسومنا العالى به ولمـا كان من أجل رغباتنا أن يكون للبلاد نظام دستورى يحقق التعاون بين الأمة والحكومة لذلك يكون اول ما تعنى به الوزارة اعداد مشروع ذلك النظام .

وانا نسأل الله العلى القدير أن يجعـل التوفيق رائدنا فيما يعـود على بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة وهو المستعان .

« صدر بسراى عابدين فى ٢ رجب سنة ١٣٤٠ وأول مارس سنة ١٩٢٢ » .

وهذا هو جواب صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا :

يا صاحب العظمة ..

اتقدم الى سدة عظمكم بفائق الشكر على ما تفضلت فأولتنى من الثقة السامية إذ عهدت الى تأليف الوزارة الجديدة ووجهت لى رتبة الرياسة الجليلة .

وانى لأتشرف بأن اعرض على عظمتكم اسماء الوزراء الذين تتألف منهم هـذه الوزارة وقبلوا مشاركتى فى العمل وهم :

اسماعيل صدقى باشا — لوزارة المالية

وابراهيم فتحى باشا — لوزارة الحربية والبحرية

وجعفر والى باشا — لوزارة الأوقاف

ومصطفى ماهر باشا — لوزارة المعارف العمومية

ومحمود شكرى باشا — لوزارة الزراعة

ومصطفى فتحى باشا — لوزارة الحقانية

وحسن وأصف باشا — لوزارة الأشغال العمومية

وواصف سميكة بك — لوزارة المواصلات

وقد احتفظت بوزارتى الداخلية والخارجية .

فاذا وقع الاختيار موقـع الاستحسان لدى عظمتكم يصدر المرسـوم العالى بالتصديق عليه .

يا صاحب العظمة ..

لم يكن لزملائى ولى ، ونحن نشـاطر الأمة امانيها فى الاستقلال ، الا ان نقـر الوفد الرسمى ، الذى تولى المفاوضات لعقد اتفاق مع بريطانيا العظمى على ما فعل . فلم يكن يسعنا أن نتولى أعباء الحكم ما دامت المبادىء التى تسترشد بها الحكومة البريطانية فى سياستها نحو مصر هى تلك التى كانت تظهر من مشروع ١٠ نوفمبر من العام الماضى ومن المذكرة التفسيرية التى تلته . فان تولى الحكم فى ظل مثل هذه المبادىء قد يكون فيه معنى القبول بها .

غير أن الكتاب الذى رفعـه فخامة المنـدوب السـامى البريطانى الى عظمتكم وتصريح الحكومة البريطانية فى البرلمان قـد أحدثا فى الحالة تغييرا كثيرا فأصبح من الممكن أن تتألف هذه الوزارة . اذ أنها ترى أن الشعور القومى أصاب ترضية من هاتين الوثيقتين ، لا من ناحية الاعتراف باستقلال مصر حالا وقبل أى اتفاق فحسب بل ولأن المفاوضات المقبلة ستكون حرة غير مقيدة بأى تعهد سابق .

اما وقد خبرنا هـذا الدور بجد فلم يبق على مصر الا ان تثبت لبريطانيا العظمى بأن ليس لها فى سبيل ضمان مصالحها من حاجة للتشدد فى طلب ضمانات قد يكون فيها مساس باستقلالنا ، وأن خير الضمانات فى هذا الصدد وأجلها أثرا هى حسن نية مصر ومصلحتها فى حفظ العهود .

على أن الوزارة ترى أنه لكى تكون جهود البلاد فى سبيل تحقيق كامل أمانيها بحيث تؤتى جميع ثمرها ، يجب أن تؤلف بين عمل الحكومة وبين عمل هيئة تنوب عن الأمة وأن تسعى الهيئتان متساندتين لاغراض متحدة .

ولذلك فان الوزارة عملا بأوامر عظمتكم ، ستأخذ فى الحال فى اصدار مشروع دستورى طبقا لمبادىء القانون العام الحديث ، وسيقرر هذا الدستور مبدأ المسئولية الوزارية ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل .

وغنى عن البيان أن انفاذ هذا الدستور يقتضى الغاء الأحكام العرفية ، وانه على اى حال يجب ان تجرى الانتخابات فى أحوال عادية وفى ظل نظام تمنع معه جميع التدابير الاستثنائية ، الا قد سلمت بهذا الوثيقتان اللتان أبلغتا أخيرا الى عظمتكم

وستتخذ الوزارة بلا امهال ما يدعو اليه الأمر فى ذلك من التدابير ، كما انها ستبذل جهدها اعتمادا على حسن موقف الأمة فى الحصول على الرجوع عما اتخذ من التدابير المقيدة للحرية عملا بالأحكام العرفية .

هذا وان اعـادة منصب وزير الخـارجية سيعين على العمـل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر فى الخارج ونظرا لان النظام الادارى الحالى لا يتفق مـع النظام السياسى الجديد ومع الانظمة الديموقراطية التى ستمنحها البلاد فان الوزارة قد اعتزمت أن تتولى الأمر بنفسها وبلا شريك فى الحكم الذى ستتحمل كل مسئوليته أمام الهيئة النيابية المصرية ، وسـيكون رائدها فى ادارة شـئون الأمة توجيهها الى المصلحة القومية دون غيرها .

والوزارة موقنة بأن أكبر عامل لنجاح مصر ، فى تسوية المسائل التى بقى حلها وأقوى حجة تستعين بها فى تأييد وجهة نظرها ، هو أن تقبل على هذا الدور الجديد متحدة الكلمة مؤتلفة القلوب وأن تأخذ بدواعى النظام وتلزم جانب الحكمة .

والوزارة تحيى العصر الجديد الذى كان لعظمتكم أجل أثر فى طلوعه على الأمـة بفضل ما بذلته عظمتكم من المساعى الوطنية العالية وهى واثقة أن ستلقى من لدن عظمتكم ، كل تأييد فى عمل الغد وأنها لترجو أن يجىء مكملا لمجهود البلاد .

واننى لا ازال لعظمتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الأمين .

القاهرة فى ٢ رجب سنة ١٣٤٠ أول مارس سنة ١٩٢٢ .

فصدر المرسوم السلطانى بتأليف الوزارة الجديدة فى نفس هذا اليوم .

الموقف العام عقب التصريح :

لا مناص من كلمة يقولها المؤرخ من كتب التاريخ والوثائق المعاصرة لهذا الحدث، عما جرى عقب حـدوثه فى ثلاث جبهات : الانجليزية والأجنبية والمصرية ، فأما عن الجبهة الانجليزية فقد أيدت الصحف الانجليزية على اختلاف نزعاتها الحزبية ،تصريح ٢٨ فبراير ، أى السياسة الانجليزية الجـديدة فى مصر ، واختلفت ما بين متشائم ومتفائل بالنسبة للعلاقات الجديدة بين مصر وانجلترا ، وبنى المتشائمون رأيهم على ان استمرار اعتقال سعد زغلول سوف يفسد كل شىء .

وقد انعكست هذه الآراء كلها فى مجلس النواب الانجليزى فى مناقشة دارت حول التصريح فى يوم ١٤ مارس وانتهت بالموافقة على التصريح فأبرقت وزارة الخارجية البريطانية لمندوبها فى مصر ، بموافقة مجلس النواب على السياسة الجديدة ، ومن هنا اعتبر يوم ١٥ مارس هو عيد استقلال مصر ، وسترد عليك وثائق ذلك .

الدول الأجنبية :

قدرت الدول الأجنبية وخاصة دول الامتيازات وعلى راسها فرنسا وأيطاليا واليونان ، ما فى التصريح من تغيير فى صورة مصر ، وحقا لقد أعلنت انجلترا أنها تحتفظ بالأمر الواقع ، وحذرت الدول من التدخل فى الشئون المصرية ، ولكن بقيت بعد ذلك وقبل ذلك ، الحقيقة المادية ، من ان الحكومة المصرية ، أصبح لها وزارة خارجية وانها سوف تتبادل التمثيل السياسى مع دول العالم ، وتأرجحت تعليقات الصحف الأجنبية ، بين الترحيب بما تم ، وابداء التحفظ على سير العلاقات فى المستقبل .

ماذا حدث فى مصر :

قدمت فيما سبق ، استنادا على تجربتى الشخصية أن مصر قد استقبلت التصريح (ما عدا الطبقات العليا) بفتور ، ولكن حوليات شفيق باشا السياسية ، التى سجلت فى أكثر من مائة صفحة تفاصيل ما أشرنا اليه بايجاز ، تحدثنا عن مظاهرات قامت فى القاهرة ، ووجدت صداها فى بعض الاقاليم ، وخاصة فى طنطا ، حيث وقع اصطدام بين البوليس والأهالى سقط فيه الجرحى وبعض القتلى ، وتحدثنا الحوليات أيضا عن اجتماعات كانت تعقد فى الأزهر ، واصدرت الحكومة أمرا بمنعها ، ذلك أن الشعب لم تكن تشغله سوى قضية واحدة ، وهى ضرورة الافراج عن سعد زغلول ، ولا شك ان كل ما سجله أحمد شفيق فى حولياته كان ولكن الذى لا شك فيه أيضا ، ان ذاكرتى (وقد كنت طالبا بمدرسة محمد على) لا تحوى أى اشارة لما حدث أو كان يحدث هذه الأيام ، وحيث اختزنت ذاكرتى صورا عن ثورة سنة ١٩١٩ وصورا عقب اعتقال سعد زغلول لثانى مرة (١٩٢١) فلا يوجد شىء على الاطلاق فى ذاكرتى ، عن هذا الحدث ، لا فى المدرسة ، ولا فى الشارع ، ولا فى داخل البيت .

ميلاد جيل جديد هو التفسير :

ولا تفسير عندى لهذا الفراغ العجيب ، الا اننا كنا جيلا جديدا بدأ ينشأ فى عزلة نفسية أو روحية عن الاحداث السياسية التى بدأت تصطبغ بالحزبية فى صورة سعديين وعدليين .

١٥ مارس ــ ملك مصر يعلن استقلال مصر :

فى ١٥ مارس ، أرسل السلطان احمد فؤاد ، خطابا الى رئيس الحكومة يطلب منه ابلاغ الشعب المصرى اولا ، ودول العالم ثانيا ، باستقلال مصر مع صيرورته ملكا عليها ، ولما كانت هذه وثيقة تاريخية فاليك نصها :

الى شعبنا الكريم

لقد من الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا ، وانا لنبتهل الى المولى عز وجل بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك ، ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ، ونتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية .

وها نحن نشهد الله ونشهد أمتنا فى هذه الساعة العظيمة ، اننا لن نألو جهدا فى السعى بكل ما أوتينا من قوة وصدق وعزم لخير بلادنا المحبوبة والعمل على أسعاد شعبنا الكريم .

وانا ندعو المولى القدير أن يجعل هذا اليوم فاتحة عصر سعيد يعيد لمصر ذكرى ماضيها المجيد .

صدر بسراى عابدين فى ١٦ رجب سنة ١٣٤٠ ــ ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ .

((فـؤاد))

١١ أبريل ١٩٢٢ ــ اجتماع لجنة وضع الدستور :

لم يكد استقلال مصر يعلن رسميا ، حتى بادرت الوزارة ، أو بالأحرى عبد الخالق ثروت شخصيا باعتباره وزيرا للخارجية والداخلية معا ، باتخاذ سلسلة من الاجراءات فى الداخل والخارج لتجسيد التحول الذى طرأ على وضع البلاد فاعتبر يوم ١٥ مارس هو عيد الاستقلال يحتفل به كل عام وأقيمت الزينات فى طول البلاد وعرضها ، وقام الملك فؤاد باستعراض الجيش المصرى فى ميدان الرصدخانة بالعباسية ، وأقيمت استعراضات مماثلة فى عواصم المديريات ، وبادر عبد الخالق ثروت باعلام الدول الأجنبية ، بما تم ، وانهالت برقيات التهنئة من مختلف الملوك ورؤساء الدول على الملك أحمد فؤاد ، بما فى ذلك تهنئة من ملك انجلترا وامبراطور الهند على أن أعظم هذه الأعمال بلامراء أو شبهه ، كانت هى دعوة ثروت باشا لجنة الثلاثين لوضع الدستور وقد سميت كذلك لانها كانت تتألف من ثلاثين عضوا ، وقد اطلق سعد زغلول على هذه اللجنة من منفاه ((لجنة الأشقياء)) كما وصف تصريح ٢٨ فبراير بأنه ((نكبة وطنية)) ولسعد زغلول الذى اعتدى عليه بالابعاد عن مصر

ونفيه في جزيرة قاحلة (وهي سيشل) ان يستريب ويطعن في كل اجراء اتخذ في غيبته، وعلى يد عدوه اللدود عبد الخالق ثروت ، ولكننا سنرى بعيد عامين ، كيف سيستفيد سعد زغلول من كل ذلك فتصبح له الاغلبية الكاسحة في مجلس النواب ويصبح اول رئيس حكومه مصرية بارادة الشعب ، وطبعا لم يعد واضعو الدستور لجنة من الاشقياء ، وأصبحت مبادىء الدستور على أحدث النظم العصرية ، بل أن عبد الخالق ثروت نفسه ، سوف يرأس حكومه يدعمها سعد زغلول رئيس مجلس النواب وزعيم أغلبيته والأمة كلها ، بل أن عبد الخالق ثروت سوف يدخل في مفاوضات مع انجلترا بتشجيع سعد ومباركته ، ولكن لنرجىء الحديث في ذلك كله حتى يجيء اوانه ، فلا يزال يفصلنا عنه أربع سنوات ، وكان عالم الغيب بكل ما يحمله في طياته مجهولا ، وحسبنا ان نتابع الأحداث بترتيب وقوعها ، واذ كان انعقاد أول جلسة لاعداد الدستور التى انعقدت في قاعة الجمعية التشريعية هو اهم واخطر احداث هذه الحقبة ، فنحن نقف امامه ، وسوف نرصد من هذا الحدث ، واقعتين فقط ، وهما أسماء أعضاء هذه اللجنة التى رأسها الرجل الذى لا حد لتقديرنا لوطنيته وأخلاصه وهو حسين باشا رشدى ، أما الواقعة الثانية فخطاب عبد الخالق باشا ثروت الذى ألقاه في جلسة الافتتاح فمن حق الرجل على هذه الموسوعة ، أن نثبت نص خطابه في هذه المناسبة الفريدة ، أما ما دار بعد ذلك في هذه اللجنة حتى تمام وضع الدستور،الذى سيقدر له أن يسمى دستور ١٩٢٣ لأنه لن يصدر الا في العام المقبل ، فلذلك مصدران بالغا الأهمية ، أما اولهما فمجموعة الأعمال التحضيرية للجنة وضع الدستور ، وهو وثيقة ضخمة ومطبوعة وسيجدها اى باحث في مكتبة مجلس النواب (الشعب حاليا) ، أما المصدر الثانى ، ويمكن وصفه بانه المصدر السياسى ، فمذكرات الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد صاحب اللجنة منذ يومها الأول باعتباره أحد الخبراء الفنيين الذين ألحقتهم الحكومة بلجنة وضع الدستور ليكونوا تحت تصرفها ، وقد تحدث الدكتور هيكل بما فيه الكفاية عن سير العمل داخل اللجنة والتيارات المختلفة التى كانت تتجاذبها .

دراسة قيمة :

واذا كانت الأعمال التحضيرية للجنة الدستور ، ومذكرات الدكتور هيكل يؤلفان وثائق تاريخية ، فثمة دراسة جادة ودقيقة عن هذه الحقبة ، قام بها الدكتور عبد العظيم رمضان لنيل درجة الماجستير (فيما نتصور) والمهم انها دراسة جيدة على كل راغب في الأحاطة بالاحداث التى سبقت تصريح ٢٨ فبراير ، وعاصرته ولحقته ، ان يطلع على هذا المرجع ، وهو يسمى : « تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ — ١٩٣٦ » .

أعضاء اللجنة

حسين باشا رشدى (رئيسا) أحمد حشمت باشا (نائب الرئيس) يوسف سابا باشا ، أحمد طلعت باشا ، محمد توفيق رفعت باشا ، عبد الفتاح يحيى باشا ،

السيد عبد الحميد البكرى ، الشيخ محمد بخيت ، الانبا يؤنس ، قلينى فهمى باشا، اسماعيل أباظة باشا ، محمد أبو حسين باشا ، منصور يوسف باشا ، يوسف أصلان قطاوى باشا ، ابراهيم أبو رحاب باشا ، على بك المنزلاوى ، عبد اللطيف المكباتى بك، محمد على علوبة بك ، زكريا نامق بك ، ابراهيم الهلباوى بك ، عبد العزيز فهمى بك ، محمود أبو النصر بك ، الشيخ محمد خيرت راضى بك ، حسن عبد الرازق باشا ، عبد القادر الجمال باشا ، صالح لملوم باشا ، الياس عوض بك ، على ماهر بك ، توفيق دوس بك ، عبد الحميد مصطفى بك ، حافظ حسن باشا ، عبد الحميد بدوى بك .

رفض الوفد والحزب الوطنى الاشتراك فى اللجنة :

وكان الوفد قد دعى للاشتراك فى اللجنة بثلاثة أعضاء (على ما يروى العقاد) كما دعى الحزب الوطنى للاشتراك كذلك ، ولكنه رفض ، وكانت الحجة التى استند عليها للرفض ، هى أن الدستور يجب أن يكون من عمل جمعيه وطنيه وقد رد ثروت فى خطابه الافتتاحى بوجهة نظره فى هذا القول ، ولما كان هذا الخطاب من ناحية أخرى يعكس حالة البلاد السائدة ، فلهذا ولما قلناه من قبل نثبت نص الخطاب :

نص خطاب عبد الخالق ثروت باشا فى افتتاح لجنة وضع الدستور :

« انى باسم حكومة جلالة ملك مصر المعظم فؤاد الأول أحييكم فى هذا الاجتماع الذى هو أول اجتماع للجنتكم الموقرة ، كما احيى فيكم الغيرة الوطنية والرغبة الصادقة فى خدمة بلادكم العزيزة اذ قبلتم ان تشاركوا الحكومة فى مهمة وضع مشروع الدستور للمملكة المصرية بعد اعلان استقلالها . ان الحكومة أيها السادة تقدر كل التقدير خطورة المهمة التى وكلت اليها من جانب مليك البلاد ، وتعلم حق العلم عظيم مسئوليتها عن حسن القيام بها أمام ضميرها وأمام الأمة والتاريخ .

كذلك أن تعلم مهمة وضع دستور للبلاد لا يكفى فى ادائها على الوجه الصالح ، أن ينقل ما وضع لغيرها من البلاد بغير تمحيص وتدقيق ، بل يجب أن يلاحظ ان فى تقرير أحكام هذا الدستور تقاليد البلاد المحلية وعاداتها ومختلف الاعتبارات الاجتماعية فيها ، وأن يستفاد فى وضع نصوصه من تجاريب الأمم الأخرى لذلك أيها السادة لم تتردد الحكومة منذ أن طلب اليها القيام بهذه المهمة فى أن لا تستأثر فى أدائها برايها وان لا تكتفى فى ذلك بما لرجالها من الخبرة الخاصة بحالة البلد والأنظمة العامة ، بل صحت عزيمتها على الاستعانة فى ذلك بخبرة ذوى الكفاءات من أبناء البلاد .

وقد كان من حسن حظها أن لبيتم دعوتها ، ورضيتم أن تشاركوها فى مسئوليتها وأن تفسحوا من وقتكم وراحتكم شيئا كثيرا فى سبيل تحقيق التعاون بين الأمة والحكومة ، ووضع الحجر الأساسى لحياة مصر المستقلة ، لذلك لا يسعنى الا أن أهنئكم بهذا الشعور وأن أسديكم خالص الشكر على العون الجليل الذى لا أشك فى أن الحكومة ستناله من اشتراككم معها ، وان شكرى لكم ليزداد اذا ذكرت الضجة

التى اقيمت حول مسألة وضع الدستور وانها لم تصرفكم عن سماع نداء الضمير والواجب .

أن الحكومة لم تقتصر فى الدعوة الى معاونتها على فريق دون آخر بل وجهتها ايضا الى من قضت عليهم الظروف بأن يعتبروا أنفسهم خصوما سياسيين لها غير انهم للاسف لم يريدوا أن يصافحوا اليد التى مدت اليهم ، وابوا أن يتقدموا الى المشاركة فى هذا العمل الوطنى الخطير . ولعمرى ان فى تصرفهم ما يقضى بالعجب . فان مصير الدستور أن يطبق على الأمة جميعها لا على طائفة دون غيرها وكنت استبعد أن تدخل الشخصيات فى شأن يجب بطبيعته ان يعلو على كل تلك المناقشات .

ولقد اعجب اكثر من ذلك أن اراهم يخطئون النظر حتى من وجهة مصلحتهم الخصوصية ، فلقد كان اشتراكهم فى عمل اللجنة يسمح لهم بالاطلاع على كل ما يجرى فيها ويمكنهم من الوقوف على حقيقة ما جرت به السنة السوء ، وليتبينوا أن ليست هناك أمورا مقررة من قبل تعرض على اللجنة لمجرد الشكل ولقد فاتتهم لرفضهم الدخول فى اللجنة ، فرصة ما كان أحقهم بالحرص عليها ، فرصة عرض ارائهم والادلاء بحججهم ، واللجنة بين ان تأخذ بها فيتضح لهم أنها لم تكن متحيزة او صادرة عن غرض أو هوى وأن ترفضها فيكونوا قد أراحوا ضمائرهم والحساب بعد ذلك بيد الأمة .

لا أدرى مقدار ارتباط هذا الرفض بالحركة التى روجت منذ أيام للدعوة الى عقد جمعية وطنية وما اذا كانت سببا أو نتيجة ، على أن ذلك لا يعنينى الآن وانما يعنينى تمحيص هذه الآراء . خصوصا وأن تلك الدعوة كان ينطوى فيها شىء ليس بالقليل من سوء الظن بالحكومة وتهمتها فى اخلاصها .

انى أترك جانبا ذلك الفريق الذى يدأب على تحدى الحكومة ومناوأتها واقامة العراقيل فى وجهها مهما جر ذلك على البلاد من الشر والوبال .

أما الفريق الثانى فانه يحكم على الأشياء حكما نظريا صرفا ، ويخطىء تطبيق النظريات على الواقع ، أولئك هم الذين يزعمون أنه لم يوضع دستور الا على يد جمعية وطنية وأنه لا يصح دستور الا اذا كان كذلك . علمنا أن القوانين الدستورية وتواريخها ومبادئها معروفة ومنتشرة بين جميع الناس وفى وسع كل انسان أن يرجع اليها ليعرف مقدار نصيب تلك النظريات من الصحة ، ويمكننى أن أقول لحضراتكم أن الأمر فى وضع القوانين الدستورية ليس على ما يذكرون فان كثيرا من البلاد الأوروبية وغير الأوروبية لم تكن قوانينها الدستورية وليدة جمعية وطنية ، واذكر على سبيل الاستدلال، تلك الأمة العظيمة التى قطعت شوطا كبيرا فى سبيل الحضارة والمدنية واعنى بها الامة اليابانية وهى تلك البلاد التى أصبحت فى مركز لا أريد أن اغالى فأقول أن أمم أوروبا تحسدها عليه ولكن مركزها على كل حال مما تغبط عليه .

اما امم اوروبا فان بعضها كان الدستور فيها من عمل جمعية وطنية ولكنها الاقل عددا ، والسبب فى تولى الجمعية الوطنية هذا العمل يرجع الى ظروف استثنائية خاصة ، كالثورة أو زوال السلطة الشرعية فيها وحلول سلطة مؤقتة محلها .

اما الامم الأخرى فقد سارت فى وضع دساتيرها على الطريق العادى وصدرت دساتيرها من ملوكها وأذكر على سبيل المثال ايطاليا والنمسا والبرتغال وتركيا .

فيجب أن لا يغيب عن اذهان أولئك القائلين بنظرية الجمعية الوطنية تلك الفروق بيننا وبين من اضطرتهم احوالهم الاستثنائية الى الالتجاء لجمعية وطنية لفرض نظام حكوماتهم ، اذ أننا والله الحمد ، لسنا فى حالة من تلك الاحوال على أنه فيما يتعلق بمصر يجب لاجل تعيين السلطة التى تتولى وضع الدستور ، الرجوع الى قانوننا العام ، وقد جرى الأمر فيه على أن تصدر القوانين النظامية من ولى الامر سواء كان ذلك فى انشاء مجلس الوزراء وهو أول حجر وضع فى بنيان النظام الديمقراطى فى مصر ، أو فى ما تلا ذلك من النظم النيابية التى أوجدت نوعا من الاشتراك بين الأمة والحكومة ، وهى قانون مجلس شورى النواب وقانون مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والقانون الذى انشأ الجمعية التشريعية . واذا كان قانون سنة ١٨٨٢ قد شذ عن هذا القياس فان ذلك يرجع الى انه فى ذلك العهد كانت ثورة على العرش دعت الى اغتصاب وضع الدستور من صاحب السلطة فى وضعه . وهذا يؤيد ما ذهب اليه من أن وضع الدستور بطريق ولى الأمر ليس فيه افتئات على حقوق الامة أو خروج عن القواعد المعروفة قد يقول قائل : اذا لم يكن الدستور من وضع جمعية وطنية فان فى وسع ولى الأمر أن يسترده فى أى يوم من الايام ، وهو قول لا يقول به الا كل رجل يجهل مبادىء القانون الحديث وتطوراته لأنه مهما يكن من طريقة وضع الدستور واصداره فان استرداده بعد ذلك محال اذ أن مجرد صدوره يصبح حقا مكتسبا للامة .

انهم يقولون أن الجمعية الوطنية هى الوسيلة الوحيدة للوقوف على رغبات الامة وحاجاتها ، وأخشى ان اقول فى هذا انه حق يراد به باطل ، ذلك لانه حتى مع التسليم جدلا بأن المبادىء العامة فى مصر تسمح بأن مثل هذا العمل تتولاه جمعية وطنية ، فان هناك أشخاصا يعملون منذ زمن على ترويج سوء الظن بالحكومة وعلى التقليل من اهمية ما وصلت اليه البلاد ، وعلى التشكيك فى ما نحن قادمون عليه ، بحيث اذا اجتمعت جمعية وطنية سادت فيها تلك الآراء والنزعات وانقلب العمل فيها الى معارضة وتهويش وتعطيل تمتنع معه كل نتيجة صالحة بل يخشى أن ينقلب وبالا على البلاد ، ذلك انه بالرغم من ان البلاد نالت فوزا عظيما باعلان استقلالها واعتراف الدول به الا أن المسألة المصرية لم تسو بعد تسوية تامة نهائية . اذ لايزال أمامنا مفاوضات يجب أن تمكن مصر من الوصول الى دورها موفورة القوة تامة النظام لم تفسد عليها عوامل الشر والفوضى آمال النجاح فيها يدعون أننا بعملنة هذا نرمى الامة بالعجز والقصور عن تقدير مصلحتها فالله يعلم أننا نجل أمتنا كل الاجلال ونشفها

فوق كل اعتبار ، وان هذا نفسه هو الذى يدعونا ان نقيها فى هـذه الاونة الدقيقة من عوامل الفساد ودواعى التضليل . ولعمرى لان نتهم تهمة يستجلى وجه الحق فيها بعد قليل خير لنا من أن نترك البلاد تسود فيها الفوضى ويجرى الشغب فيها مجراه ، فان التهمة اذا اصطدمت بالواقع المحسوس زائلة ، ولكن أضرار الشـغب والفوضى هائلة وأثارها باقية .

واريد هنا أن اتساءل عن قيمة المخاوف والشكوك التى يريد بعضهم أن ينشرها بين الناس ويحيط بها عمل الحكومة واللجنة .

يزعمون اننا نخشى الجمعية الوطنية لأنها لو دعيت للاجتماع لاتخذت من القرارات ما لا يتفق مع ميول الحكومة وان الحكومة تريد بالاقتصار على تأليف لجنة ان تتحكم فى النظام الدستورى وان تحول بين الامة وبين ابداء رغباتها واقول ان بيننا وبـين الأمة عهدا يحدد جوهر ما يختلف فيه الآن ، لنا برنامج قطعنا فيه على أنفسنا اننا سنراعى فى الدستور الذى نضعه احدث مبادىء القانون العام وعلى الاخص المسئولية الوزارية امام البرلمان اترى يشكون فى مبادىء القانون العام الحديث نفسها أم يجهلون ان مبدأ المسئولية الوزارية هو محور النظام الدستورى وجوهره ولبابه والامـان الكافى ضد خروج السـلطات عن حدودها والأساس الصـالح للتعاون بين الامـة والحكومة ؟ أو يجهلون ان ما خلا هذا المبدأ لا يبلغ أهميته وان هذا المبدأ ضـابط لأحكام الدستور نفسه ؟

قالوا أن وضع الدستور بهذه الطريقة لن يجعل للامة سبيلا الى تغيير شىء من احكامه . على أننى لاأدرى مبلغ هذا التكهن من الصحة ، فان ما أعلمه من القـواعد الدستورية ، وهى التى أشرت اليها فى برنامج الوزارة ، ان الدستور يشتمل عـادة على نص يحتفظ فيه بسبيله يكون من حق الامة مشخصة فى ادخال ما يرى ضرورة ادخاله من تعديلات وسيرى الناس اذا انتظروا قليلا ، ان محاولة عرقلة الحـكومة فى أعمالها لم يكن من مصلحة البلاد فى شىء . وان الحكومة ما توخت ، ولن تتوخى شيئا غير مصلحة الوطن الدائمة التى تتلاشى أمامها الاغراض الزائلة والاوهام الباطلة.

سيرى الناس يوم يصبح الدستور حقيقة واقعة أن التهمة التى وجهت للحكومة غير صادقة ، اذ يرون انفسهم أمام نظام يسمح للادارة العامة بأن تكون مظهرا حقيقيا واثرا فعليا فى تصريف الأعمال العامة وفى كل شىء يتعلق بمستقبل البلاد .

قالوا اننا خرجنا من برنامج وزارة عدلى باشا الذى كنا متضامنين معه فيه ، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن مهمة الجمعية الوطنية بحسب ذلك البرنامج ، لم تكن فى الاصل وضع دستور للبلاد وانما كانت مهمتها النظر فى الاتفاق الذى تألفت وزارة عدلى باشا للمفاوضة فيه . ثم وضع الدستور المبنى على نصوص هـذا الاتفـاق بعـد ذلك .

فالمهمتان لا تقبلان التجزئة ، وكان يجب على الجمعية ، اذا هى اقرت الاتفاق ان تراعى فى وضع الدستور ما يكون قد تضمنه من الشروط والقيود .

أما اليوم فان وضع الدستور متقدم على الاتفاق ، واذا كان لا ينبنى عليه فانه يجب على اى حال ان لا يسد الطريق للوصول اليه .

هذه هى الحقائق التى اردت أن أبسطها أمام حضراتكم وان ما تعرفه الحكومة فى حضراتكم من الكفاءة والكفاية لهذا العمل أحسن ضمان لأن عملكم خير مرشد وهاد الى رغبات البلاد وحاجاتها .

ولا اريد أن أختم كلامى بغير اشارة الى التضحية الكبيرة التى قدمها حضرة صاحب الدولة رشدى باشا بقبول الاشتراك فى عمل هذه اللجنة . ولا اخفى على حضراتكم ان فكرة اسناد الرياسة لدولته قد خطرت مرارا على بالى من أول يوم فكرت فيه الحكومة فى تأليف اللجنة ، ولكن علمنا بمقدار ما يبذله من نفسه وصحته فى اداء الواجبات التى يدعوه اليها الوطن ومصلحته وحبنا لشخصه ورغبتنا فى تمتعه بالصحة التامة كل ذلك جعلنا نتردد فى مخاطبته فى الأمر . غير أننى ما خاطبت بعد ذلك أحدا من حضراتكم الا وسألنى عما اذا كان رشدى باشا مشتركا فى عمل اللجنة واظهر رغبته فى ان يراه على رأسها فلم اجد بدا امام هذا الاجماع من ايصال هذه الرغبة الى علمه .

فتقدم كعادته الى الخدمة الوطنية غير ملتفت الى ما يكلفه ذلك من تحميل صحته هذه المتاعب الجديدة ولكنه اشترط شرطا لم يكن فى وسعى قبوله وتركت لدولته الحرية فى أن يقدمه بنفسه لحضراتكم لتتصرفوا فيه كما تريدون .

واختم القول بتكرار التحية لحضراتكم وتوجيه الرجاء الى المولى عز وجل ان يلهمكم السداد وأن يوفقنا جميعا الى ما فيه الخير للبلاد .

ما حققته وزارة ثروت من مظاهر الاستقلال :

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « فى أعقاب الثورة » وبذلت وزارة ثروت سعيا محمودا فى تحقيق مظاهر الاستقلال ، فأنشأ وزارة للخارجية تولاها ثروت باشا بعد ان كانت ملغاه طيلة عهد الحماية (١٩١٤ — ١٩٢٢) .

وكانت العادة الجارية فى عهد الحماية تعطيل مصالح الحكومة يوم عيد جلوس ملك انجلترا وعيد ميلاده ، فأبطل ثروت باشا هذه العادة .

وقرر مجلس الوزراء عدم تعطيل المصالح فى هذين اليومين وأصدر بلاغا رسميا بذلك .

والغيت وظيفة مستشار وزارة الداخلية ، وكان آخر المستشارين البريطانيين لها البرجادير جنرال السير جلبرت كلايتون .

وكف المستشار المالى البريطانى عن حضور جلسات مجلس الوزراء بعد ان كان متمتعا بهذا الحق فى عهد الاحتلال والحماية .

وعينت الوزارة وكلاء مصريين لوزارات الداخلية (للصحة) والمالية والأشغال والزراعة والمواصلات بدلا من الوكلاء الانجليز ووكيلا مصريا لوزارة الخارجية ، كما عينت بعض الموظفين المصريين بدلا من كبار الموظفين الانجليز فى الحكومة وعنيت الوزارة عناية موفقة بايفاد البعثات العلمية الى الخارج فأوفدت عددا كبيرا من خريجى المدارس العليا وطلبتها الى جامعات اوروبا وامريكا لتخريج مصريين اخصائيين يشغلون الوظائف الفنية ويضطلعون بالأعمال المتصلة بنهضة مصر ويحلون محل البريطانيين والاوروبيين فى الوظائف التى احتكروها فى عهد الاحتلال والحماية ، وانشأت « المجلس الاقتصادى » للعناية بأمور مصر الاقتصادية وسوف نرى ان ثروت باشا ضمن خطاب استقالته هذه الأمور وغيرها ، ولكنا أردنا أن ننقلها من أقوال عبد الرحمن الرافعى ، فوطنيته واخلاصه فوق كل شبهة .

١٣ ابريل ـ صدور الأمر الملكى بنظام وراثة العرش :

كان الانجليز (على ما مر بنا) قد اعترفوا للسلطان احمد فؤاد ، فى عهد الحماية، بحق ابنه فاروق بتولى السلطة من بعده ، وقد رأى الملك فؤاد فى عهد الاستقلال ، أن يعيد تقرير هذا الحق بأمر ملكى صادر منه هو ، فجعل الملك وراثيا فى اسرة محمد على ، على ان ينتقل الحكم الى الابن الاكبر للجالس على العرش ، وعلى ذلك فقد نصت المادة الثانية من الأمر المذكور : فولاية الحكم من بعدنا لولدنا المحبوب « الأمير فاروق » .

وقد امتدح المرحوم أحمد شفيق باشا فى حولياته ، هذا القانون ، وكيف أنه لم يغلق الباب أمام تولى العرش ، امراء يمتون الى الخديو عباس (المخلوع) ولم يعش شفيق باشا ، ليرى بعينى رأسه « الأمير محمد على توفيق » وكان الملك فؤاد على غير علاقات طيبة به ، ومع ذلك فقد صار بمجرد تولى فاروق الملك ، وليا للعهد ، وبعد موته أصبح الأمير عبد المنعم ، ابن عباس الاول وليا للعهد ، الى أن انجب فاروق ولدا ذكرا ، هو « أحمد فؤاد الثانى » وجاءت ثورة يوليو (١٩٥٢) فقضت على كل ذلك .

ثم صدر فى وقت متأخر من هذا العام (١٩٢٢) أمر ملكى آخر ، بنظام الأسرة الملكية .

وصدر بعد ذلك قرار ملكى باقرار السلطة الانجليزية على ما فعلته فى تصفية املاك الخديو السابق « عباس الأول » وحظر عودته الى البلاد المصرية ، ولكن هذا الأمر لم يحظ بموافقة عباس أبدا باعتباره صادرا من طرف واحد ، وليس الا فى عهد وزارة اسماعيل صدقى باشا (١٩٣٠) أن تم الاتفاق مع الخديو على هذه القضية .

٢٥ يوليو ـ السلطة الانجليزية تقبض على أعضاء الوفد :

لا جدال فى ان عبد الخالق باشا ثروت رجل وطنى من الدرجة الأولى ، وسوف يذكر اسمه قرين أول خطوة من خطوات استقلال مصر ، واذا كان قد بدأ شكليا بحتا ، فان تحويله الى حقيقة وواقع ، فقد كانت هذه مهمة اجيال اخرى تالية ، ولم تتردد هذه الأجيال فى الاضطلاع بمسئوليتها ، وقد كان الجيل الذى اضطلع بثورة سنة ١٩١٩ ويرمز له ويلخصه سعد زغلول ، هو الذى يحرك سير الحياة فى مصر وما يحسن أن يكون أو لا يكون .

وقد تألفت وزارة ثروت فى أعقاب القبض على سعد زغلول ونفيه وبعض زملائه ، الى عدن أولا ، ثم الى سيشل ثانيا ، فأصبح ضمير الشعب المصرى رهنا باطلاق سراح سعد زغلول ورده الى الحرية ، وأصبح الافراج عن سعد زغلول هو مقياس الشعب ، يحكم به على أى من الأمور يجرى فى مصر ، ومن هنا لم يلق باله كثيرا لما قيل له عن استقلال مصر ، وما صاحب ذلك من احتفالات او اجراءات .

ولما كانت عمليات الاغتيال السياسى ، قد أصبحت تلخص مقاومة الشعب المصرى للانجليز ، فقد مضت هذه العمليات ، فى طريقها ، لا تلوى على شىء ، وحتى قبل أن يشكل ثروت باشا وزارته ، فقد كانت الاشاعات ترشحه لتولى رئاسة الوزارة ، بل ونشرت الصحف ما وصف بأنه شروط ثروت لتولى الوزارة ، وهى ما استجاب لها الانجليز فى تصريح ٢٨ فبراير ، ولكن الشعب المصرى ، لم يكن يعنيه من ذلك كله الا اطلاق سراح زعيمه ، فلما لم يحدث ذلك مضت عمليات الأغتيال فى طريقها المرسوم ، وكان أولها فى بداية هذا العام (يناير ١٩٢٢) محاولة لاغتيال ثروت باشا نفسه للحيلولة بينه وبين تأليف الوزارة ، ولكن المحاولة اجهضت قبل وقوعها وقبض على من قيل انهم سيقومون بها ، وضبط فى حوزتهم قنابل ومسدسات ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية بريطانية ، وحكم على بعضهم بالادانة فى مارس ١٩٢٢ ، ولكن حوادث الاغتيالات لم تتوقف وكان بعضها ينجح مائة فى المائة بمعنى أن يقتل المعتدىعليهم وهم من الانجليز، وكان من أهم هذه الاحداثاصابة مستر ماكنتوش أحد كبار الموظفين بالسكة الحديد امام منزله بالزيتون اصابة بالغة، ولعل اجرا العمليات طرا هو اغتيال المستر كيف ، مساعد الحكمدار الانجليزى وعلى الرغم من أن هذه العمليات ناهزت سبعة فى أول عهد الوزارة ، وبالرغم من اعلان الوزارة عن مكافآت ضخمة (١٠٠٠ جنيه بحساب ذلك الزمان) لكل من يدل على الفاعلين ، فقد ظل مرتكبو هذه الأحداث طلقاء احرارا ، ومضت الاغتيالات تتوالى .

ففى ٣ يوليو اكتشفت مؤامرة لاغتيال المستر برت الموظف بالسكة الحديد ، وفى ١٥ يوليو ، وقع اعتداء على الكولونيل « بيجوت » وهو موظف بالجيش البريطانى ، ولما كان قد سبق للورد اللنبى أن احتج على هذه الحوادث ، دون جدوى، فيبدو أن صبره كان قد نفد فيضرب استقلال مصر الوليد (وقد كان هو مهندسه) ضربة تقوضه وتثبت كل ما قيل عنه من انه استقلال شكلى ، بل وهمى ، فاذا

بالسلطة الانجليزية تقبض على من شكلوا الوفد المصرى بعد اعتقال سعد زغلول وهم :

حمد الباسل باشا ، الاستاذ ويصا واصف ، مرقص بك حنا ، واصف بطرس غالى ، علوى بك الجزار ، جورج خياط بك ، مراد الشريعى بك . وقد سجنوا واودعوا ثكنة قصر النيل ، وقدموا لمحاكمة عسكرية بريطانية ، بتهم مصرية بحتة ، كأن يقال انهم حرضوا على كراهية الحكومة المصرية ، وقد رأى المصريون بحق ما فى هذا التصرف من هدم مشين للسيادة المصرية وقد انعقدت محكمة عسكرية بريطانية لمحاكمتهم بدار الاستئناف العالى بباب الخلق ، ووقف المتهمون موقفا مشرفا فى هذه المحاكمة ، او بالاحرى موقفا تاريخيا ، ظللنا نترنم به بعد ان كبرنا ، فقد رفض المتهمون أن يتكلموا فضلا عن ان يدافعوا عن انفسهم ، وقال حمد باشا الباسل كلمته الخالدة نيابة عن جميع زملائه : « لكم ان تحكموا علينا ، ولكن ليس لكم ان تحاكمونا » وعندما صدر عليهم الحكم فى ١١ أغسطس « بالأعدام » هتف المتهمون فى صوت واحد « نموت وتحيا مصر » وقد خفف الحكم بعد ذلك لبضع سنوات من السجن وغرامة نقدية ولم يلبث أن يفرج عنهم فى العام القادم كما سوف نرى .

ذروة الوطنية :

وعندما قبض على من سبق ذكرهم وكانوا يؤلفون هيئة الوفد العاملة بعد اعتقال سعد زغلول ، حل محلهم على الفور طبقة جديدة مؤلفة من عبد الرحمن فهمى بك والشيخ مصطفى القاياتى ، وفخرى بك عبد النور ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى ، والاستاذ محجوب ثابت ، والاستاذ محمد نجيب الغرابلى ، والدكتور نجيب اسكندر ، وعبد الستار الباسل بك والأستاذ حسن يسن .

فأسرعت السلطة البريطانية باعتقالهم ، تصورا منها أنها بذلك تقضى على الوفد ، فاذا بها تفاجأ بطبقة جديدة تتألف من :

المصرى بك السعدى (من العرب) السيد حسين القصبى ، الاميرالاى محمود حلمى اسماعيل بك ، الأستاذ راغب اسكندر ، سلامة بك مخائيل ، الأستاذ عبد الحليم البيلى .

وقد دل ذلك كله ، وما كان قد سبقه من اجراءات قمع منافية للحرية كمنع الاجتماعات السياسية المناهضة للحكومة ، وتعطيل بعض الصحف الوطنية نهائيا (كجريدة الأهالى التى كان يصدرها عبد القادر حمزة فى الاسكندرية) وجريدة اللبرتيه (أى الحرية) والتى كانت تصدر بالفرنسية ، وتعطيل (جريدة الأمة) لمدة ثلاثة أشهر ، واصدار التعليمات للصحف كلها بعدم ذكر اسم سعد زغلول .

نقول أن ذلك كله أضعف من شأن الاستقلال الجديد وبالتالى أوهن من شأن وزارة عبد الخالق ثروت فى جميع الجبهات ، فقد خيبت أمل الانجليز ، أو بالأحرى

اللورد اللنبى الذى تصور عهدا جديدا من التفاهم بين المصريين والانجليز ، واستهان باغضاب المصريين لاعتقال سعد زغلول ، وبذلك حبطت كل خططه ، وتدخل هذا التدخل السافر فى شئون مصر الداخلية ، وهكذا هدم كل ما حاول ان يبنيه

٢١ اكتوبر ١٩٢٢ – ثروت باشا يتسلم نص الدستور :

فى هذا اليوم تمت اعظم أعمال ثروت باشا وهو انتهاء لجنة الدستور من وضع مشروعه الكامل ، وهو الذى سوف يذهب فى التاريخ باسم دستور « سنة ١٩٢٣ » ونشأنا جميعا نقدس هذا الدستور ونقيس حياتنا ، بمقدار قربنا أو بعدنا عن تطبيق هذا الدستور نصا وروحا . وحول هذا الدستور وتقييمه ، بدأ الافتراق ، فيما يبدو ، بيننا نحن أبناء الجيل الجديد ، الذين سنحمل مشعل الوطنية بمفاهيمها الجديدة فيما بعد ، فقد وصف سعد زغلول لجنة واضعى الدستور بأنهم لجنة الأشقياء ، وبالتالى فقد أنكر وأبطل كل ما يتصل باللجنة وعلى راسها الدستور ، ولكنا سوف نرى فى قادم الاحداث ، عندما استفاد سعد زغلول من هذا الدستور ، فرفعه الى الحكم باعتباره أول رئيس وزارة شعبية ، وصل الى الحكم على غير ارادة الانجليز والملك ، فسيقول عنه : « وضع على احدث النظم العصرية » حيث وصفه أكثر المتحمسين له وهو عبد العزيز فهمى ، بأنه ثوب فضفاض ، ولكن ذلك كله كان لا يزال فى عالم الغيب .

وفى هذا التاريخ الذى نتحدث عنه (٢١ اكتوبر ١٩٢٢) تسلم ثروت باشا نص الدستور ، وكان المظنون أن يصدر على الفور بالصيغة التى وضعته بها اللجنة ، ولكن الانجليز اعترضوا على نص به يصف الملك بأنه « ملك مصر والسودان » بمقولة أن للسودان وضعا خاصا لم يتحدد بعد ، والحقيقة انهم كانوا يضعون الخطط ويعدون العدة لفصل السودان عن مصر .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان الملك أحمد فؤاد يرى وجوب تعديل الدستور ، بحيث يؤكد اطلاق يده فى شئون مصر .

وعلى ذلك فلم يعلن الدستور ، وقد احتاج الأمر الى سقوط وزارة ثروت باشا ، وتأليف وزارة جديدة ، هى وزارة توفيق نسيم باشا ، الذى لا يلبث بدوره أن يسقط لتتألف وزارة ثالثة ، هى وزارة يحيى ابراهيم ، التى أصدرت الدستور كما تسلمته من اللجنة ، بعد أن حذف منه النص « ملك مصر والسودان » ليصبح فقط « ملك مصر » وغنى عن البيان أن انجلترا ممثلة فى اللورد اللنبى ، كانت خلف ذلك كله ، فقد كان الأمر كله بالنسبة لها مجرد تجربة وكان لابد للتجربة أن تمضى حتى نهايتها .

٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ – تأسيس حزب الأحرار الدستوريين :

فى هذا اليوم اجتمع مؤسسو حزب الأحرار الدستوريين فى فندق شبرد تحت رئاسة عدلى يكن باشا ، وكان نواة هذا الحزب لجنة وضع الدستور وقادة حزب

الأمة القدامى . وفى مذكرات الدكتور حسين هيكل حديث عن تأليف الحزب باعتباره احد مؤسسى الحزب ومن اختير ليكون رئيسا لتحرير جريدة « السياسة » اليومية لتكون لسان حال للحزب ، وهو يحدثنا فى مذكراته ، كيف آثر رئاسة تحرير « السياسة » على رئاسة تحرير جريدة الاهرام التى عرضت عليه فى نفس الوقت ، فلا عجب أن تدور الأيام ليصبح الدكتور رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، على أن ذلك كان لايزال فى عالم الغيب ، ولابد من انقضاء ربع قرن واكثر قبل أن يتحقق .

ومن رأى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ، ان عدلى يكن باشا ، لم يقبل رئاسة الحزب ، الا تحت ضغط الآخرين ، وهى مسألة فيها نظر ، ولا ينبغى ، أن يقاس تصرف عدلى يكن عام ١٩٢٢ ، بتصرف سوف يصدر منه بعد هذا التاريخ .

والذى نطمئن اليه ان المنافسة بين الرجلين ، جد قديمة منذ ايام الجمعية التشريعية وما تلاها ، ومنذ مفاوضات « سعد ــ ملنر » ثم « عدلى ــ كيرزون » .

ومن هنا فلسنا ندرك ، ان تأليف حزب الأحرار الدستوريين ، فضلا عن رئاسته ، لم يكن من تفكير عدلى يكن وسعيه (الا ان يكون عبد الرحمن الرافعى ، قد سمع هذا الرأى شخصيا ، من عدلى يكن ، وليس هناك ما يمنع ذلك فقد كانا متعاصرين .

وقد مضى عبد الرحمن الرافعى ، بأفكاره المثالية التى املتها عليه عقيدته « كحزب وطنى » الى انتقاد مسلك حزب الأحرار الدستوريين فى مقبل الايام .

والذى نرجحه والله اعلم ان الحملة الشعواء التى شنها سعد زغلول وبالتالى الوفد ، على الدستور وواضعيه الى حد تسميتهم « بالاشقياء » جعل من نسميهم بالساسة المعتدلين وزعيمهم بلا مراء هو عدلى باشا يكن ، يتصورون بحق ، أن سعد زغلول والوفد سيقاطعان الانتخابات التى ستجرى وفقا لأحكام الدستور ، ومن هنا تأسس حزب الاحرار الدستوريين ، ورأسه عدلى يكن حتى لا يكون هناك فراغ ، ويكون هناك دعم للوزارة التى سيكون رئيسها عدلى باشا يكن ومن يطالع مذكرات الدكتور هيكل يستشف ذلك ، بمعنى ان الأحرار الدستوريين ، تصوروا أن ستكون لهم اغلبية المجلس القادم ، وغنى عن البيان أن لا محل لهذا التصور ، الا على اساس مقاطعة سعد زغلول والوفد للانتخابات .

ومن هنا كان اشتراك الوفد وسعد زغلول بالذات ، مفاجأة لحزب الاحرار الدستوريين ، ولما ان فاز الوفد بهذه الاغلبية الكاسحة وتقلد سعد زغلول الوزارة « شخصيا » كما سوف نرى ، هنا وهنا فقط استقال عدلى يكن باشا من رئاسة الأحرار الدستوريين .

١٦ نوفمبر ــ مصرع حسين زهدى وحسن باشا عبد الرازق :

لم يكد حزب الأحرار الدستوريين يعلن ، حتى وقع رد الفعل الشعبى بكل عنف، اذ تحولت الجمعية السرية ، التى اقضت مضاجع الانجليز ، الى اظهار النقمة على

حزب الأحرار ، فتربص الجناة ، على باب جريدة السياسة بشارع المبتديان بالسيدة زينب ، مساء ١٦ نوفمبر ، حيث كان مجلس ادارة الحزب منعقدا ، وعند تمام السابعة والنصف ، كان حسن باشا عبد الرازق ، وحسين بك زهدى ، عضوا مجلس ادارة الحزب ، أول من خرجا ، فاغتالهما الجناة وفروا هاربين .

وقد كان هذا هو الحادث الوحيد من أحداث هذا العام الذى وصلت أصداؤه لى ، لسبب بسيط جدا ، وهو ان والدى يرحمه الله كان يعمل تحت رئاسة حسن باشا عبد الرازق فى ديوان السلطان ، وكان دائم الثناء عليه ، فكان طبيعيا أن يحزن والدى لهذا الحادث ، وهذا هو سر اهتمامنا بالخبر فيما يبدو .

٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ ـ استقالة وزارة ثروت باشا :

وجاءت النتيجة المحتومة لفقدان ثروت باشا لثقة الانجليز ، أو بالأحرى فقدانهم الحماس لاستمراره فى الوزارة ، فرأى نفسه مضطرا للاستقالة ، وقد سارع الانجليز فى بعض صحفهم لاعلان انه لا دخل لهم فى استقالة الوزارة وانها مسألة داخلية بحتة ، بين السلطان ورئيس حكومته ، ومن عجب أن أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، قد جارى هذا الزعم وراح ينعى فى كتابه « فى أعقاب الثورة » على السلطان أحمد فؤاد ، ويحمله كل المسئولية فى استقالة ثروت باشا ، وأنه لم يكن يرغب فى تعيينه من بادىء الأمر وكان يؤثر رجله الطيع توفيق نسيم ، ويمضى عبد الرحمن الرافعى فى حملته على احمد فؤاد فيقول انه كان ضيق الصدر بما تفعله لجنة الدستور من تضييقها لسلطانه ، وأنه كان برما بالدستور جملة ، فاصطنع اشاعة فحواها ان مقابلة جرت بين ثروت باشا وبين الخديو السابق ، وان قائل هذه الرواية هو حسن بك صبرى المحامى الخاص بالخديو (وهو الذى سوف يصبح فيما بعد رئيسا للوزارة عام ١٩٤١) .

ويضيف عبد الرحمن الرافعى ، انه نمى الى علم ثروت باشا ان السلطان دبر مظاهرة تقع فى الأزهر ، وتهتف بسقوط ثروت باشا فى مواجهته ، حيث كان مقررا أن يرافق السلطان ، للصلاة يوم الجمعة بالأزهر الشريف ، ونحن باستثناء الحملة على السلطان احمد فؤاد ، نخالف ما ذهب اليه عبد الرحمن الرافعى ، من أن سقوط عبد الخالق ثروت ، كان بارادة السلطان ، ونرى أن الاسباب التى ذكرها هى التى تؤكد أن الانجليز كانوا وراء استقالة عبد الخالق ثروت ، وعلى وجه الدقة ، اناروا الضوء الأخضر أمام السلطان أحمد فؤاد ليتخلص من ثروت اذا اراد فكان هذا الذى كان ، ونستبعد كلية الرواية التى تقول أن السلطان دبر مظاهرة ضد ثروت باشا فى الأزهر لان السلطان فؤاد كان يعرف كم هو مكروه شخصيا ، فمن غير المعقول أن يدبر مظاهرة لا يعرف أين تنتهى وكيفما كان الأمر فلو لم يقدم ثروت باشا استقالته ، لما جرؤ السلطان على المساس به ، وبدل قبوله الاستقالة على الفور انه كان يعلم مسبقا أن ذلك يوافق رغبات الانجليز ، والا لما أقدم على ذلك

واليك نص الاستقالة لانها بدورها وثيقة تاريخية هامة من حيث تسجيلها للخطوات التى أقدمت عليها وزارة ثروت باشا لتحقيق بعض مظاهر الاستقلال الوليد :

مولاى صاحب الجلالة :

تفضلت جلالتكم فشرفتنى بثقتها العالية ودعتنى الى تأليف الوزارة فتمكنت بمعونتها السامية من السعى فى تغيير الحالة السياسية للبلاد بالغاء الحماية التى ضربت عليها ، فلما اذن بالنجاح ذلك السعى الذى تعهدته جلالتكم بالرعاية والعطف شرفتنى بان عهدت الى رسميا بتأليف الوزارة وكان اسعد افتتاح لعهدها ما اعلنته جلالتكم على ملأ العالم من استقلال البلاد الذى اعترفت به الدول فانتقلت بذلك مصر الى مصاف الأمم الحرة المستقلة وتوطد ملكها على دعائم ثابتة مكينة .

ولقد كان من الواجب على فى تلك الظروف أن آخذ على نفسى بين يدى جلالتكم ويدى البلاد عهدا بما اختطه من وجوه تحقيق امانيها لذلك رفعت الى سدتكم الملكية فى الكتاب الذى أنهيت فيه الى جلالتكم بقبولى تأليف الوزارة بيانا عن خطتها كان فى مقدمة ما جاء فيه أنها تنفيذا لارادة جلالتكم ستعمل على اعداد مشروع دستور طبقا لمبادىء القانون العام الحديث يقرر مبدأ المسئولية الوزارية ويمكن الهيئة النيابية من الاشراف على العمل السياسى المقبل وأنها ستتولى حكم البلاد بنفسها وتوجهه الى المصلحة القومية دون غيرها كما أنها ستعمل على الغاء الأحكام العرفية ومن دواعى الغبطة للوزارة انها وفقت فى ظل عطف جلالتكم الى تحقيق ما اختطته لنفسها فقد فرغت اللجنة التى نيط بها وضع مشروع الدستور من عملها وقدمت مشروعا حاويا لما ترجوه الوزارة للبلاد من مبادىء الحكم وهو الآن تحت النظر كذلك نجحت الوزارة فى وضع أساس ادارة البلاد بواسطة حكومتها الوطنية دون غيرها فألغيت وظائف المستشارين فى وزارات الحكومة ولم يستبق منهم الا مستشارا المالية والحقانية مع قصر مهمتهما على ابداء الرأى والمشورة، الا فيما يتعلق بالديون العمومية بالنسبة لأولهما ، وابطل ما جرى عليه العمل من حضوره جلسات مجلس الوزراء كذلك أصبح الموظفون الأجانب تابعين لسلطة الوزير المصرى دون سواه ، واخذت الحكومة بعد ذلك فى احلال المصريين محل من يخرج من أولئك الموظفين الأجانب ثم أوفدت بعثات عدة الى أوروبا لتكوين الكفاءات اللازمة بين المصريين وليتسنى تعيينهم فى وظائف الحكومة التى تقتضى كفاءة خاصة ، وعلى العموم فقد جرت الوزارة فيما يتعلق بمرافق الأمة ومصالحها على خطة توخت فيها المصلحة القومية دون غيرها .

أما ما يتعلق بألغاء الاحكام العرفية فقد وفقت الوزارة فيه أيضا اذ اتفق على قانون « اقرار الاجراءات العسكرية » الذى اشترط لالغائها واصبح أمر ذلك الالغاء مرهونا بارادة حكومة جلالتكم .

ولقد عرضت فى أثناء تولى الوزارة لعملها ان ادى تغير الأحوال الى تعديل معاهدة « سيفر » فطلبت الحكومة من الدول ذات الشأن أن تدعوها لحضور مؤتمر

لوزان كي لا يقرر فيه شيء يمس مصر دون أن يسمع صوتها وعرضت على جلالتكم برنامجها فيما يتعلق بتعديل ما يهمنا من نصوص تلك المعاهدة تعديلا يحقق أمانى البلاد ، وقد كنت أرجو أن أمضى مع زملائى فى تنفيذ برنامجنا حتى تمامه ولكن أرى أن أترك الأمر لغيرى .

لذلك أتشرف بأن أرفع استقالتى الى أعتاب جلالتكم شاكرا ما لقيته فى عملى من العطف والتعضيد ، سائلا المولى عز وجل أن يفى لبلادنا العزيزة من أمرها رشدا وأن يحقق فى ظل جلالتكم كل ما ترجوه من الخير والسعادة .

وانى لجلالتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الأمين .

القاهرة فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ (٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢) .

٣٠ نوفمبر ــ تكليف توفيق نسيم بتشكيل الوزارة :

لم يكد السلطان أحمد فؤاد يتسلم استقالة عبد الخالق باشا ثروت حتى بادر بقبولها فى نفس اليوم ، وكلف رجله توفيق نسيم (وكان رئيسا للديوان) بتشكيل الوزارة الجديدة واليك النصوص :

عزيزى محمد توفيق نسيم باشا :

لما نعلمه فى دولتكم من عظيم الخبرة وكامل الكفاءة لادارة أمور البلاد وما تحققناه فى شخصكم من الاستقامة والولاء وما لنا فيكم من كامل الثقة اقتضت ارادتنا توجيه مسند رئاسة مجلس وزرائنا اليكم .

واصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للاخذ فى تأليف هيئة الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالى .

واننا نبتهل الى الله القدير أن يوفقنا جميعا للعمل بما فيه خير بلادنا المحبوبة وسعادتها وأن يعيننا على تحقيق آمال شعبنا العزيز انه سميع مجيب .

(فــؤاد)

(صدر بسراى عابدين فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٣٤١ ، ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢)

وهذا هو نص عريضة حضرة صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا بقبــول الوزارة وعرض أسماء زملائه الوزراء .

مولاى صاحب الجلالة .

لما كنت فى سعة دائمة من فضل مولاى . تعطف ودعانى لتولى الحــكم والبلاد ترى وضع نظامها وفق ما أنالها وأخطاها . وما أنا الا عبــد من رعاياه فرضت على طاعته .

وكان حقا على ان اخدم أمتى بما تصل اليه قوتى ولا قوة الا بالله فاذا قضيت بالعدل حق بلادى وبالولاء والطاعة حق مليكى قمت بواجبى واديت امانتى تلك التى ما حملت عبئها يوما الا على مضض وانا اعلم أن حساب الله اعظم من حساب الناس فبذلك القلب الوفى اتقدم الى سـدته العلية رافعا آيات الشكر على ما أولانى من الثقة السامية متقبلا سند الرياسة وانا على منهج الحق الذى سلكته من قبل مستعينا بالله فى امورنا على ما يكون راجيا سيدى ومولاى ادامه الله عزا لبلاده وشرفا لأمته اذا وافق رأيه العالى أن يصدر المرسوم الملكى بتقليدى وزارة الداخلية وباسناد الوزارات الأخرى حسب البيان المذكور بعد الى الزملاء الذين اخترتهم لمشاركتى ومؤازرتى فى العمل وهم :

اسماعيل سرى باشا ــ للاشغال العمومية

أحمد ذو الفقار باشا ــ للحقانية

يحيى ابراهيم باشا ــ للمعارف العمومية

محمد توفيق رفعت باشا ــ للمواصلات

محمود فخرى باشا ــ للخارجية

يوسف سليمان باشا ــ المالية

احمد على باشا ــ للزراعة

محمد ابراهيم باشا ــ للاوقاف

محمود عزمى باشا ــ للحربية والبحرية

وانا نسأل الحق جل شأنه ان يوفقنا وقومنا الى ما فيه رضاه من الاقامة على العدل وخير البلاد .

٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ :

اغتيال مستر روبسون ــ ومركز الوزارة خالفنا استاذنا عبد الرحمن الرافعى فى تصوره ، أن استقالة عبد الخالق باشا ثروت كانت مسألة داخلية بحتة بين الملك ورئيس وزرائه ، وقلنا ان الانجليز لو كانوا يرغبون فى استمراره فى الحكم لاستمر ، ولكن توفيق نسيم وقد كان رئيسا لديوان الملك فلابد انه دخل فى محادثات سرية مع المندوب السامى ولابد انه وعد باسم الملك ، ان لو ذهب ثروت باشا ، فسيكون الأمر اكثر سرا لانجلترا فى مصر ، وسوف يحذف من الدستور النص على أن ملك مصر هو ملك مصر والسودان ، وان حوادث القتل للانجليز ، سوف تتوقف ، ولما كان هذا هو ما يعنى الانجليز فى الدرجة الاولى ، فقد توقفوا عن تأييد استمرار ثروت باشا فى الحكم ، وتركوا للملك ان يختار رئيس حكومته الجديد ، ولم يكن احمد فؤاد ينتظر الا هذا ، فاحرج عبد الخالق ثروت على تقديم الاستقالة كما قدمنا ، فلم يكد يقدمها حتى قبلت على الفور وكلف توفيق نسيم بتشكيل الوزارة

الجديدة وليس أدل على انه لم يكن يتم اى اجراء خاص بتشكيل الوزارة وسقوطها الا بأمر الانجليز وتبعا لمصالح الانجليز ، وان الاغتيالات السياسية ، وعدم قدرة وزارة ثروت على ايقافها هو السبب المباشر لسقوطها انه لم تكد هذه الحوادث تستأنف بعد اقل من شهر من تولى توفيق نسيم ، حتى ابرق الانجليز وارعدوا ، ولم يمض سوى شهر آخر حتى سقطت وزارة نسيم ، ولما كان سقوطها قد تم فى فبراير من العام الجديد ، فنحن نرجىء الحديث عنها ، وكيف انها لم تفعل شيئا على الاطلاق سوى الاستجابة لطلب انجلترا ، وهو أن يحذف من الدستور النص على ان ملك مصر هو فى نفس الوقت ملك السودان ، وسوف نرى أن نسيم باشا قد فعل ذلك حتى بعد ان قدم استقالته ، ولما كان ذلك كله قد وقع فى مستهل العام الجديد ، فنحن نرجىء التعليق العام على الوزارة .

ونكتفى هنا باثبات هذا الحادث الذى زلزل الارض تحت اقدام الوزارة الجديدة، فلم ينفعها كون رئيسها هو عبد الملك المطيع ، ولا ما علقه الشعب عليها من آمال فى اطلاق سراح سعد زغلول .

الحـــادث :

ففى ٢٧ ديسمبر اغتيل المستر روبسون المدرس بمدرسة الحقوق ، واهتزت الدنيا ، أو بالأحرى اهتز الانجليز المحليون قبل البعيدين وراحوا يتهيأون لاسقاط الحكـومة .

ذكرياتى :

وقد تحدثت عن انتقالنا الى بيتنا الجديد بالقرب من السيدة زينب والتحاقى بمدرسة محمد على الأميرية ، وقد كانت بجوار بيتنا ، على ان الباب الذى كان يقع على نفس شارعنا (مراسينا) فقد كان باب الادارة بمعنى أنه غير مخصص لدخول الطلاب ، وكان على ان ادور دورة كبيرة ، لأدخل مع الطلاب من الباب الخلفى الذى كان يقع على (حوش المدرسة) وقد كان هذا « الحوش » أو الفناء يتألف من مساحة كبيرة جدا يؤلف ملعب كرة القدم جزءا منه وكانت دورتى للوصول الى هذا الباب تصل بى الى نهاية شارع « مراسينا » حيث ميدان السيدة ، ومن ميدان السيدة الى شارع البغالة (بجوار قسم السيدة زينب) ولم يكن ميدان السيدة باتساعه الحالى ، اذ لم يتوصل الى هذا الاتساع الا بعد توسيع شارع الخليج المصرى فقد كان يتفرع من ميدان السيدة حتى باب الخلق شارعان « درب الجماميز والخليج المصرى » وكانا يضمان بينهما صفا من البيوت فرئى أن تهدم هذه البيوت ويصبح الشارعان شارعا واحدا وسوف أعود الحديث عن شارع الخليج عند تحدثى باستفاضة عن صداقة العمر مع الاستاذ فتحى رضوان . وكان يسمى وقتئذ « سيد فتحى رضوان » قلت اننى لكى أدخل المدرسة أصل الى ميدان السيدة ،

ومنه الى شارع البغالة وبعد ربع الطريق انحرف يسارا للوصول الى باب المدرسة الخلفى وكان السير فى هذا الشارع الذى يقع عليه باب مدرسة محمد على الخلفى ، يؤدى الى سلالم ضخمة تصل بنا الى ما كنا نسميه « جبل طولون » وكانت المنطقة فى أعلى السلم تسمى « قلعة الكبش » وانا أذكر ذلك لهواة الخطط فلست اعرف الآن ما حل بهذه المناطق والاسما .

والأمر الجدير بالتسجيل ، انه كان يوجد على باب المدرسة من يعد «السندوتشات» لافطار الطلبة ، وكان « السندوتش » يتألف من رغيف « فينو » وبيضتين وكل هذا بخمسة مليمات ، وهو ما لم يكن يقدر عليه سوى الاغنياء ، ومع ذلك فما زلت أذكر أننى تناولت هذا السندوتش أكثر من مرة ، وسوف اتحدث ان شاء الله باستفاضة عن شئون المدرسة فى ختام العام القادم ، ففى هذا العام كنت لا ازال « مستجدا » كما كانوا يسموننا ومن الاشياء الجديدة التى دخلت حياتى فى هذه البيئة الجديدة « شوكولاتة نسلة » ونوع آخر يسمى « فيكتوريا » وكانا يباعان بنصف قرش ، أما فى داخل بيتنا فقد أعد أخى مصطفى (الأكبر منى) دولابا ليكون مكتبه ، وجاء اليها بمجلدات انجليزية ضخمة تصور أحداث الحرب العالمية الاولى وكان التقليب فيها متعة ما بعدها متعة .

أما الكتب العربية فكانت مسلسلات « ستكلر » وكان عنوان هــذه المسلسلة « اللص الشريف » ومسلسلة « نقولا كارتر » وهو بوليس سرى أمريكا ، ثم كانت مسلسلة « أرسين لوبين » وهو لص ظريف كما كان يوصف ، وسوف تتسع دائرة مطالعاتى فى العام التالى وانتهى العام وقد كان الشغل الشاغل هو ما أحرزته تركيا من انتصارات ســاحقة على اليونان التى يقف خلفها الحلفاء ، وكانت قــد دخلت دورها النهائى فى مؤتمر لوزان .

١٩٢٣

عام قطف الثمرات

يعتبر هذا العام هو عام قطف ثمرات تصريح ٢٨ فبراير بحق ، واذا كان عبد الخالق ثروت هو الرجل الذى حصل على التصريح وبدأ الخطوات الاولى لتحقيقه فان الذى لاشك فيه عندى ، أن يحيى باشا ابراهيم هو رئيس الحكومة التى وليت حكم مصر فى هذا العام فاستطاعت فى هدوء وبساطة عجيبين ، أن تجتاز أعتى ازمات مصر وان تنقلها من حال الى حال ففى أيامها صدر الدستور الذى ظل يسمى باسم السنة التى صدر فيها (١٩٢٣) وسيظل محورا للنشاط السياسى فى مصر قرابة ثلاثين سنة ، وقد كان يحيى باشا ابراهيم هو الذى أجرى أنزه انتخابات فى تاريخ مصر انتجت بما يشبه الثورة حيث رفعت سعد زغلول العائد من المنفى الى منصة الحكم وسحقت كل خصومه سحقا ، وبلغ من نزاهة الانتخابات وخلوها من أى مظهر من مظاهر الانحراف والتحايل والضغط فضلا عن الاكراه ، ان سقط رئيس الحكومة نفسه ، ولكن لندع ذلك كله الى حينه ، ولنبدأ من البداية .

شهر يناير ووزارة نسيم باشا :

بدأ العام ووزارة نسيم باشا فى الحكم وكان العام الماضى لم ينصرم الا وقد وقع فى آخره مصرع الانجليزى « روبسون » والذى كان يعنى مصرع الحكومة المصرية ، فنحن نرى من هذا البعد ، أن هذه الاغتيالات كانت محور قيام الوزارات المصرية وسقوطها أن بعض من أرخوا لهذه الفترة يتصورون ان النزاع الذى دار حول السودان وتمسك مصر بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر ، هو السبب الأساسى لسقوط حكومة ثروت ، وحقا لم يكن الانجليز يخفون أطماعهم فى السودان ، حتى لقد سافر اللينبى الى السودان بمجرد أن تألفت وزارة ثروت ، وراح فى جولاته وتصريحاته يكشف عن نواياه انجلترا ، مما أهاج الرأى العام المصرى ، وانعكس ذلك على لجنة وضع الدستور ، فوصفت ملك مصر بأنه ملك مصر والسودان ، واثبتت فى مادة أخرى « ان السودان جزء لا يتجزأ من مصر » وان كانت ارجأت وضع نظام لحكمه الى ما بعد الاتفاق النهائى مع انجلترا ، وقد بادر الانجليز فاعترضوا على هاتين المادتين ، وأصروا على ضرورة رفعهما ، وما كان لثروت ولالغير ثروت أن يعارض مشيئة الانجليز ، ومن هنا قلنا أن انجلترا ما كانت تدع أحمد فؤاد يتآمر علنا لأسقاط ثروت باشا ، حتى ليتودد للوفد ، ويشيع أنه رتب معهم الهتاف ضد ثروت باشا عند زيارته للازهر فبادر ثروت بالاستقالة قدمنا أن ذلك كله ما كان ليحدث لولا أن رفع الانجليز يدهم عن تأييده .

وقد كانت حوادث الاغتيال هى السبب المباشر لهذا التخلى ، ومن هنا قلنا ، انه بمجرد وقوع حادث روبسون كان مصير وزارة نسيم باشا قد تقرر ، وما على الانجليز الا أن ينذروا ويهددوا ، لكى يجابوا الى كل طلباتهم .

٣١ يناير — الوفد يندد بالوزارة :

لا يحتاج الانسان الى كبير عناء ليدرك أن الانجليز لم يتخلوا عن ثروت الا بعد أن أكد لهم توفيق نسيم باسم مولاه (وقد كان رئيس الديوان) أنهم لو تركوا الأمر للملك أحمد فؤاد لرفع من الدستور المواد الخاصة بالسودان ، ولابد أن يكون توفيق نسيم قد تعهد للوفديين من ناحية أخرى باطلاق سراح المنفيين والمبعدين وكمربون لذلك ، استقبل الملك أحمد فؤاد « المصرى السعدى » الرئيس المؤقت للوفد ومن هنا اعتبر الوفد المصرى سقوط وزارة ثروت وتقلد توفيق نسيم الحكم تساوى تماما عودة سعد زغلول ، ولذلك شيعوا وزارة ثروت باللعنات ، واستقبلوا وزارة توفيق نسيم بالترحيب ، وراح الوفديون يعدون الساعات التى سوف يسمعون بعدها الانباء الطيبة ، ولكن الأيام مرت تتلوها الاسابيع دون أن يسمعوا شيئا عن الافراج عن أحد من المعتقلين ، أوعودة أحد من المنفيين فضلا عن سعد زغلول وعلى العكس من ذلك ترامى الى سمعهم عزم الوزارة على العبث بنصوص الدستور فى كل ما يتعلق بسيادة الأمة كالنص على أن الامة مصدر السلطات ، فقررت حذف هذه المادة وتضمين الدستور كل ما من شأنه أن يقوى سلطة الملك ، وقد كان الأحرار الدستوريون ، يستغلون ذلك كله فى جريدتهم التى اصدروها وهى « السياسة » فلما أن فشلت وزارة توفيق نسيم فى تحقيق وعودها للوفديين ، فتحوا عليها النيران ، واذاع الوفد بيانا أولا فى ٢٠ يناير ، واعاد نشر بيان أشد لهجة وتنديدا بالوزارة ، وهكذا فقدت الوزارة سند الانجليز من ناحية وسند الشعب من الناحية الأخرى ، ولم يبق لها غير سند الملك أحمد فؤاد وهو ما كان ليسمن أو يغنى من جوع .

٥ فبراير — استقالة وزارة نسيم باشا :

وجاءت النهاية المحتومة عندما قدم اللورد اللنبى الى الملك فؤاد ما يشبه ان يكون انذارا ، ومنحت بريطانيا الملك مهلة ٤٨ ساعة للاستجابة لمطلبها الخاص برفع المواد التى تعتبر السودان جزءا من مصر ونحن مثبتو نص استقالة نسيم باشا فهى خير عرض لمجريات الأحداث .

مولاى :

مرت على البلاد ظروف عدة أثناء تطورها السياسى وهى تتوقع فى كل يوم حكومة تطأ بها الطريق السوى . فلما شرفنى مولاى أنا وزملائى بخدمة الأمة قبلنا العمل لتحقيق آمالها التى جعلت امانة فى أيدينا .

ولما كانت البلاد تجتاز دورا من أدوارها لحل جملة من مسائلها العامة المتعلقة بمؤتمر لوزان واعلان الدستور والفصل فى قانون التضمينات توطئة لالغاء الأحكام العرفية وما يترتب عليها أقدمنا على تجنب هذه المسائل وابتغينا الوسائل متلمسين الخطا مبتدئين بمسألة لوزان التى تشعبت فيها آراء الناس بشأن التمثيل والممثلين ولما لم تكن قد وصلت الى الحكومة المصرية دعوة رسمية لحضور هذا المؤتمر سعت وزارة الخارجية المصرية على أثر تسلمنا ادارة البلاد للحصول على هذه الدعوة لدى الدول ذات الشأن فى ارسال هذه الدعوة ولكنها لم توفق ولم يقبل البروجرام كيف قبلت هذه الحكومة أن تنفذ المؤتمر على مقتضاه .

وفى أثناء هذه المفاوضات كانت اللجنة التشريعية تفحص مشروعى قانون الانتخاب والدستور فلما فرغت منهما رفعتهما الى الحكومة فبحثتهما وأزالت من قانون الانتخاب بعض عباراته وأدخلت على بعض النصوص تعديلا وكان من وراء ذلك عدم حرمان المنفيين والمعتقلين أو المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية البريطانية أو بأحكام فى جرائم معينة من التمتع بحقوق الانتخاب ولم تحذف من الدستور ما يمس بحقوق الامة بل أثبتت فيه ما يضمن اشتراكها فى الحكم اشتراكا فعليا وتركت لها الاشراف ومسئولية الوزارة أمام مجلس النواب ولقد كان محل البحث والتعديل الى آخر لحظة وهى على وشك الصدور مطابقا لغيره من دساتير الأمم المتمدينة لولا ما صادفته الحكومة من اعتراض الحكومة الانجليزية على النصين الواردين فيه بشأن السودان طالبة تحوير أحدهما وقصر الآخر على تلقيب الملك بملك مصر وليس بملك مصر والسودان وقد كان البحث مقصورا فى أول الأمر على المادة ١٤٥ وقد اقتضى تبادل الرأى فيما تقدم الى مناقشة طويلة البت فى غضونها بالحجج القانونية والأدلة العقلية [illegible] على [illegible] بنص المشروع وكان من أهم مالاحظته أن المادة ١٤٥ المقصود بتبادل الرأى الأخرى على شىء ما يخالف الحالة السائدة الآن فيما يتعلق بالسودان من حيث الواقع والقانون بل ان كل ما تحتويه انما هو مجرد تقرير ما [illegible] من الحقوق الشرعية دون ادخال تغيير على الحالة الراهنة .

وفى نهاية الأمر اقترحت دار المندوب السامى نصا جديدا طرح على بساط البحث والمناقشة فبعد تحويره تحويرا طفيفا حاز الموافقة أبلغ الى وزارة الخارجية .

والخلاصة ماورد فيه أن الدستور يتناول تطبيقه على الاقطار المصرية ماعدا السودان [illegible] لا يمس [illegible] بسيادة مصر على السودان ولا بحقوقها الأخرى فيه [illegible] بشأن تلقيب الملك بملك مصر والسودان وعرضت وزارة خارجية بريطانيا العظمى نصين آخرين يقضى أحدهما بحذف لقب مصر والسودان وقصره على ملك مصر والآخر [illegible] المادة ١٤٥ تعديلا جوهريا ولما كان ذلك ماسا بحقوق البلاد ماوسعنى قبوله ولا تحمل مسئوليته . وقدمت مذكرة لفخامة المندوب السامى مبينا وجهة النظر والأسانيد فى هذا الموضوع .

ولكن مع الأسف الشديد لم تصادف قبولا لدى الحكومة الانجليزية التى قدمت [illegible] لجلالتكم مذكرات [illegible] كانت حكومتكم تتوقع صدورها خصوصا وقد كانت

المفاوضات دائرة بينها وبين دار المندوب السامى بروح الوفاق والوئام فلما اطلعنا على هذه المذكرات لم أقبل تحمل تبعتها وعرضت فى الحال على جلالتكم استقالتى .

ولما كان المركز خطرا والوقت المضروب للاجابة على هـذه المذكرات محـدودا بالساعات صار مده ريثما يجتمع بقية الوزراء فى الصباح .

ولقد جرت مخابرات بين الحكومة ودار فخامة المندوب السامى كانت نتيجتها وضع نصين ورد فيهما أن هذا اللقب يقرر وقت الفصل النهائى فى نظام السـودان بواسطة الممثلين المفوضين وأن تطبيق الدستور لا يمس حقوق مصر فى السـودان ورفع فخامة المندوب السامى النصين الى وزارة خارجية انجلترا منتظرا الرد الذى لم يصل بعد ونظرا لما أكده فخامة المندوب السامى فى هذه المذكرات التى قدمهـا لجلالتكم بأن الحكومة البريطانية لا ترغب قط فى أن تتعرض لحقوق مصر فى السودان ولا لحقوقهـا فى مياه النيل . وصرح بأنه اذا لم تقبل وجهة نظر حـكومته فى أربع وعشرين ساعة فان الحكومة البريطانية تسترد حريتها فى العمل بازاء الحالة السياسية فى السودان ومصر وأورى بأنها تلجأ عند الضرورة الى أى تدبير يراه مناسبا .

ونظرا للاخطار الجسيمة التى تستهدف لها البلاد فى الحال من جراء هذا الانذار فى حالة الرفض القطعى عند حلول الميعاد وما كانت تدعو اليه الحالة والظروف تلافته الحكومة الأمر ووافقت على أن تكتب لجلالتكم بقبول هذين النصين المراد وضعهما فى الدستور الذى لم يرفع لجلالتكم الى الآن ريثما يرد رد الحكومة الانجليزية ، وقد مضى ميعاد الاربع والعشرين ساعة المفروضة لوصوله .

بقيت الوزارة غير قابلة الى آخر لحظة محدودة للرد المطلوب من مصر وهى اذا أجابت نداء الواجب نحو العرش فانها أجابت أيضا من أول الازمة الى الآن واجبها نحو البلاد فقدمت استقالتها قبل ان تسجل فى الدستور ما وافقت جلالتكم عليه تحت تأثير الحوادث محافظة على العرش فى أحرج المواقف وعلى حقوق البلاد .

أما قانون التضمينات الذى علقت الحكومة الانجليزية عليه رفع الاحكام العرفية التى تئن منها البلاد منذ تسع سنوات شاكية آلامها وشدة وطأتها كل هذا الزمن فقد تباحثنا أيضا فيه وطلبنا لاقراره من الكفالات والضمانات ما يحفظ حقوق البلاد من الوجهتين المدنية والجنائية .

وقد خطونا فى هذا السبيل خطوات واسعة ولكننا وقفنا وسط الطريق لاختلاف رأى الحكومة الانجليزية فيما حددنا من الطلبات الخاصة بحفظ الحقوق المصرية ذلك من جهة ولعدم اتمام البحث من جهة اخرى .

ولقد جعلنا للمنفيين والمسجونين والمعتقلين حظا كبيرا ولكن كان يحدث ما يحول دون اتمام النجاح تارة ولتعلق بعض الحالات على انهاء تلك المسائل العامة أو بعضها تارة اخـرى .

وما رجونا من وراء جهادنا جزاء ولا شكرا وتحملنا الم السكوت ونقد الناقدين ريثما تنتهى المفاوضات الى نتيجة حسنة وما وهنت ارادتنا ولا نفوسنا لأننا ما كنا نبغى المحال بل نسعى جهدنا لتحقيق آمال بلادنا وللتوفيق بين مصالح قومنا ومصالح غيرنا مؤملين ادراك النجاح ، فلما أبطأ علينا نزعت يدى من ولاية الحكم قبل أن يتم شيء بلا تثريب علينا سائلين الرحمن ان يكلأ جلالتكم بعنايته وأن يهيىء للأمة حكومة قديرة على تحقيق أمانيها فتتبوأ فى مجلس الحكم مقاما محمودا راجيا قبول استقالتى ولازلت لجلالتكم العبد الخاضع والخادم الأمين .

صباح الاثنين ٥ فبراير سنة ١٩٢٣ .

محمد توفيق نسيم

١٥ مارس ـ تاليف وزارة يحيى ابراهيم

أعادت الفترة من ٥ فبراير وهو تاريخ سقوط وزارة توفيق نسيم حتى ١٥ مارس عندما أعلن عن تشكيل وزارة يحيى ابراهيم ، أعادت الى الأذهان ثورة سنة ١٩١٩ بكل أمجادها من حيث صلابة الشعب المصرى ووقوفه صفا واحدا بازاء سياسة انجلترا رغم انقساماته الخطيرة بين سعدى وعدلى ، اذ لم يكد يشاع أن عدلى يكن سوف يؤلف الوزارة الجديدة ، حتى أسرع الوفد لمهاجمته فى بيان عنيف ، وأسرع اللنبى من ناحيته فأصدر أمرا باغلاق بيت الأمة (كان سعد زغلول قد نقل من منفاه فى سيشل الى جبل طارق ولحقت به زوجته) ولكن الطبقة الثالثة من الوفد برئاسة المصرى السعدى باشا ظلت تنعقد به ، فلما أغلقت السلطة البريطانية ، بيت الأمة وأنذرت الاعضاء راحوا يجتمعون فى بيت المصرى السعدى وكانت باكورة أعمالهم الاحتجاج والتنديد بالتصرفات الانجليزية .

ومن الناحية الأخرى رفض عدلى باشا يكن أن يؤلف الوزارة الا بشروط صعبة التحقيق ان لم تكن مستحيلة فقد كان أولها أن تعود للشعب وحدته لشد أزر الحكومة وان تلغى الاحكام العرفية وان يصدر الدستور كما وضعته اللجنة أى بدون الحذف والتعديل ، وغنى عن البيان أن ذلك كله كان شبه مستحيل فلم يشكل عدلى الوزارة، ولذلك ظلت مصر بغير حكومة من أوائل فبراير حتى منتصف أغسطس وكان من الممكن ان تستمر الأزمة الى ما شاء الله لولا ان تراجع الانجليز ، وليس أدل على تراجعهم من نجاح يحيى ابراهيم كما سوف نرى ، اذ صدر الدستور والغيت الأحكام العرفية ورجع سعد زغلول ، حيث تحول الى أسطورة ، وكل هذا ما كان ليحدث لولا تراجع الانجليز ، وقد كانت حوادث الاغتيالات والقاء القنابل هى التى جعلت الانجليز يتراجعون عما كانوا قد اعتزموه ، وأن يمضوا قدما فيما اعتزموه من تسليم السلطة للشعب .

وترجع شدة تأثير حوادث الاغتيال لا لكثرتها أو عدد ضحاياها ، ولكن لعجز سلطات الاحتلال عن التوصل الى مرتكبيها من ناحية ، رغم أنها كانت ترتكب فى وضح

النهار ، ورغم الجوائز الضخمة التى كانت تبذل (٥٠٠٠ جنيه) وهو ما يســاوى (خمسون الف جنيه على الأقل فى الوقت الحاضر ١٩٧٩) .

ومن الناحية الثانية فقد كانت هذه الحوادث تزداد جراة عجيبة كلما اشتدت السلطة البريطانية فى اجراءاتها ، حتى انتهى الأمر بأن تلقى القنبلة على الجنود الانجليز الذين جاءوا فى منطقة ما لترويع اهلها وفرض غرامة جماعية على أهلها ، بل وصــل الى حــد القاء القنابل على عساكر الجيش البريطانى ، من اماكن كايدين بالاس ، حيث المخـابرات ، فلم يسع الانجليز الا أن يدركوا أنهم يلعبون بالنار وانهم يجلسون فى مصر فوق برميل من البارود فكتب مراسل التيمس فى مصر يعلن افلاس الأحكام العرفية وانتقل ذلك الى مناقشــات مجلس النواب الانجليزى ، وهكذا انتهى الأمر بالانجليز المحليين وعلى راسهم اللورد اللنبى والحكومة الانجليزية نفسـها ، ان سياسة التهديد فى مصر لم تعد تجدى ، بل ان ممارسة الشدة بالفعل تزيد الأمور تفاقما ، فقرروا التراجع كما قدمنا ، ولابد انهم يكونوا قد اتصلوا بالملك فؤاد وافهموه ذلك ، وأن خطتهم المقبلة ستكون هى السير مع الشعب وعلى راسه سعد زغلول ، وانه من الخير له أن يتعاون معهم على تحقيق هذه السياسة ، ولابد أن يكون يحيى ابراهيم نفسه قد أحيط علما بهذا التبدل فى السياسة والا لما أقدم على تأليف الوزارة ، ولو أنه الفها لمـا حظى بهذا النجاح العجيب وفى أحاديثه الصحفية قرر ذلك كله .

وثائق تشكيل الوزارة :

وجه الملك فؤاد ليحيى باشا ابراهيم خطاب التكليف بتشكيل الوزارة والفها فى نفس اليوم ، واليك نص ذلك كله .

عزيزى يحيى ابراهيم باشا

انه لما نعهده فيكم من صدق الرأى وكمال الروية ولما عرفناه عنكم من تمام الخبرة لادارة أمور البلاد قد اقتضت ارادتنا بتوجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة اليكم .

وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم الاخذ فى تاليف هيئة الوزارة وعرض المشروع علينا لصدور مرسومنا العالى به .

وانا نسأل الله العلى القدير ان يوفقنا جميعا لما يعود على بلادنا بالخير والسعادة فهو نعم المولى ونعم النصير .

صدر بسراى عابدين فى ٢٧ رجب سنة ١٣٤١ هـ (١٥ مارس سنة ١٩٢٣ م) .

(فؤاد)

جواب حضرة صاحب الرياسة يحيى ابراهيم باشا

يا صـاحب الجلالة

اتقدم الى عرش مولاى المفدى ملتمسا قبول آيات شكرى على ما أولانى من الثقة بتكليفى تشكيل الوزارة والانعام على برتبة الرياسة الجليلة ومع علمى بما يكتنف البلاد الآن من المصاعب وما يحوط مهمتى هذه من المشاق لم يكن فى وسعى، امام ثقة مولاى السامية وقياما بما يجب على من خدمة الوطن الا أن أصـدع بالأمر مستعينا بالله عز وجل معتمدا على تعضيد جلالتكم فى اداء كل ما يعود على البلاد من خير ورفاهية .

انى اتشرف بأن اعرض على العتبات العالية أسماء حضرات الوزراء الذين وقع اختيارى عليهم لمعاونتى على القيـام بهذه المهمة محتفظـا لنفسى بمنصب وزارة الداخلية وهم : —

احمد حشمت باشا	لوزارة الخارجية
محمد محب باشا	لوزارة المـالية
احمد زيور باشا	لوزارة المواصلات
محمد توفيق رفعت باشا	لوزارة الأوقاف
احمد على باشا	لوزارة المعارف
محمود عزمى باشا	لوزارة الحربية والبحرية
حافظ حسن باشا	لوزارة الأشغال العمومية
فوزى جورجى المطيعى بك	لوزارة الزراعة

فاذا ما صادف ذلك قبولا لدى مولاى رجوت من جلالته التفضل باصدار المرسوم الملكى باعتماده سائلا من الله التوفيق .

ولازلت لمولاى العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص الأمين .

يحيى ابراهيم

القاهرة فى ٢٧ رجب سنة ١٣٤١ هـ (١٥ مارس سنة ١٩٢٣ م) .

خطاب من عزيز باشا فهمى

لم تكد الوزارة تشكل حتى وجه عبد العزيز باشا فهمى (أبو الدستور ، كما لقبه الدكتور حسين هيكل فى مذكراته) خطابا مفتوحا الى رئيس الحكومة يطالبه فيه بعدم مسخ الدستور لصالح الملك ، ثم الحقه بعد شهر بخطاب مفتوح آخر أشد قسوة ، وفى تصورنا انه لابد ان يكون الأحرار الدستوريون (قد كان أحد اقطابهم) قد علموا بعزم الانجليز على تغيير سياستهم لمصلحة الشعب ، والا لما كتب عبد العزيز

فهمى هذا الخطاب الذى يفيض بالتحدى للجالس على العرش ، ولو فرضنا ، أن عبد العزيز فهمى يكتبه ، لما كانت هناك جريدة تنشره ، وقبل ان نأتى على نص هذا الخطاب الخالد الذى يشرف قائله وناشره ، والشعب الذى كتب له ، نريد أن نلفت النظر الى اننا دخلنا فى فترة غزيرة المصادر حيث أصبح من المستطاع أن نتابع الأحداث يوما بعد يوم عن طريق الصحف بعد أن انضمت اليها صحيفة السياسة لسان حال الاحرار الدستوريين وكان برأس تحريرها الدكتور هيكل ويعاونه الدكتور طه حسين ، وقد لخص الدكتور هيكل انطباعاته عن هذه الفترة فى كتاب « مذكرات فى السياسة المصرية » ومن الناحية المقابلة (الوفد) كان عبد القادر حمزة ، صاحب الأهالى فى الاسكندرية) قد وفد الى القاهرة وأصدر جريدة البلاغ « المسائية » وكانت جريدة الوفد الأولى ، وكانت هناك جريدة الأخبار لصاحبها « أمين الرافعى » وكان معنيا أشد العناية بالدستور وكان هناك قبل ذلك وبعد ذلك جريدة الأهرام وجريدة المقطم ، وقد نقل شفيق باشا فى حولياته العظيمة كل المقالات الهامة فى اى صحيفة من الصحف ، ولما كان للصحف الانجليزية ولأقوال مراسليها فى مصر أهمية كبيرة فقد عنى شفيق باشا بتسجيلها ، ونحن اذ نثبت ذلك لندل الراغبين فى معرفة التفاصيل انهم سيجدون بحرا من المعلومات فى هذه المصادر .

نص الخطاب

سيدى الرئيس

رجل يجلك ويتفاءل خيرا بوزارتك يرى واجبا عليه أن يوجه اليك هذا الخطاب بلاغا وتبصيرا .

لست أشك فى أن أول ما يهمك كما يهم البلاد من أقصاها الى أقصاها هو أمر الدستور الذى رأت مصر بارقة فى عمرها مرة سنة ١٨٨١ والذى تشرف البلاد الآن بفضل كفاح بنيها وظروف الأحوال وحسن توجهات مليكها على أن تنعم به للمرة الثانية نعيما مرجوا دوامه ان شاء الله ويعلم سيدى الرئيس أن هذا الدستور قد وضعت مشروعه لجنة رأسها أحد أعضاء وزارتكم وكان فيها وزيران آخران من زملائكم سل ثلاثتهم يخبروك أن هذه اللجنة قد قامت بعملها مراعية فيه وجه الله والوطن ووجه مليك البلاد فأقرت كل شىء فى نصابه وأعطت كل ذى حق حقه فلم تغمط الأمة حقها فى أن لها السيادة وأنها مصدر كل سلطة ، ولم تغمط العائلة المباركة العلوية حقها الثابت فى أن الملك فيها الى ما شاء الله ولم تخرج فى أى أمر من الأمور التفصيلية عما تقتضيه قواعد القانون العام الحديث وما يتفق مع حال البلاد ، ولقد بلغ بها التحرج فى عملها حدا أخذها به كثير من الكتاب فلم يحجم بعضهم عن وصفها تارة بأنها حكومية وأخرى بأنها رجعية لكنها صبرت على هذا وهى مؤمنة بأنها أدت لوطنها ومليكها ما كان عليها من الواجب والآن أخشى كثيرا كما يخشى كل من يغار على الحق فى بلده أن يصدر الدستور لا كما وضعته تلك اللجنة بل مشوها بالتعديلات التى يتناقل الناس أن وزارة دولة نسيم باشا أدخلتها عليه ، لست أدرى يا سيدى

مبلغ مطابقة الاشـــاعات للواقع ولكن أرجوك أن تسمح لى فأقص عليـــه ما يتناقله الناس من أمر هذه التعديلات :

أولا

عنيت لجنة الدستور عناية تامة بالبحث فى شأن السيادة على البلاد فرأت أنهـا تمخضت للأمة ، وأن كل سلطة قد أصبحت الأمـة مصدرها ، وأن سـلطانها أضحى فوق كل سـلطان ، فجعلت هـذا المبدأ أساسا للدستور ودونتـه بالمادة ٢٣ من مشروعها ، لكن الناس يتناقلون أن دولة نسيم باشا غفر الله له قد حذف هذه المادة من مشروع الدستور فقلبه بهذا الحذف راســا على عقب وأصبح الدســتور الذى أشار باعطائه للبلاد مجرد منحة من العرش على اعتبـــار أن لا حق فى الأصل للأمة ولا سلطان للأمة ولا سيادة للأمة ! ! مذهب ان كان قد صح فى نظر دولة نسيم باشا غفر الله ذنبه وستر عيبه فعهدى بك يا سيدى الرئيس وقد كنت كبير القضاة انك فى حق وطنك أكثر معدلة واشد انصافا ، وانك لابد قائل معى ومع كل من لا يلهيه نعيم يومه عن شقاء غده أن السيادة هى للأمة والسلطان للأمة ومصـدر كل ولاية فى البلاد هو الأمة وان كنت يا سيدى محتاجا لشىء من البيان فى هذا الصدد فما عليك الا ان تأمر فأفصله لك فى خطاب آخر تفصيلا .

ثانيـــا

يتناقل الناس أن دولة نسيم باشا بعد أن عدل قوانين الرتب والنياشـــين بأن جعل أعطاءها للأعيان من حقوق صاحب العرش وحده بلا مشـاركة للوزارة ، وقد كانت تلك المشاركة واجبة بمقتضى القوانين التى وضعها المغفور له السلطان حسـين سنة ١٩١٥) خشى أن البرلمان لا يقر هذه الجريمة وأن يعدل تلك القوانين أو يلغيهـا فأراد أن يسد الباب على البرلمان ويسلبه حق المراقبة فى هذا الشأن ، فعمد غفر الله ذنبه وستر عيبه الى المادة (٤١) من مشروع اللجنـــة (وكانت تقضى كما هو الحق والواجب وحسن النظام بأن منح جلالة الملك للرتب وأوسمة الشرف يكون فى حدود القوانين أى بأن لنواب الأمة السلطة فى المراقبـة عليهـا وعلى القوانين الخاصة بهـا وتعديل تلك القوانين بما يوافق مصلحة البلاد) أقول عمد دولتـه الى المادة المذكورة فعدل نصها تعديلا يجعل قوانين الرتب التى وضعها دولته قوانين دستورية ، ونتيجة ذلك أن يكون للملك انشاء الرتب وأوسمة الشرف كما يشاء ومنحها لمن يشـاء من الأعيـان بدون أى تدخل للحكومة ولا للبرلمان ولا مراقبـة لأيهما ، وسيدى الرئيس يعلم أن لا حق لدولة نسيم باشا فى شىء من هذا بل انه بجملته وتفصيله سلب جرىء لحقوق البـــلاد الثابتة لها ثبوتا لا ريب فيـه ، وفتح لباب واسع من أبو ب الفوضى والاخلال بالنظام .

ثالثـــا

سمعت يا سيدى انه حصل تعديل فيما للملك من حق حل البرلمان فبعد ان كان

مشروع اللجنة يقصر هذا الحق على مجلس النواب رأى دولة الباشا سامحه الله أن يكون للملك حق حل المجلسين معا أو بالانفراد ، اى أن له ان يحل مجلس النواب متى شاء أو يبقيه ويحل مجلس الشيوخ كما يشاء أو أن يحلهما كليهما انى شاء ، سلطة فى غاية الخطر يا سيدى ليست من مصلحة الأمة ولامن مصلحة الملك ، ولا أدرى كيف انساق دولة نسيم باشا لتقريرها فانه ما من متنبه فى البلاد الا ويدرك مبلغ مثل هذا التعديل من الخطر خصوصا وأن بمجلس الشيوخ أعضاء معينين فالحل فيه تهديد شديد لهم .

رابعــا

سمعت انه حصل تعديل فى المادة (٧١) من مشروع اللجنة فبعد أن كانت تقضى بجعل عدد أعضاء الشيوخ المعينين ثلاثين لا يزيدون أو ينقصون قد جعل دولته هذا العدد مساويا لعدد المنتخبين ، وفى هذا انتقاص ظاهر لحق الأمة ، وخطره فى العمل لا يخفى على البصير خصوصا وأن دولته كما فى الوجه السابق جعل مجلس الشيوخ عرضة للحل كمجلس النواب .

خامســا

سمعت أن دولة نسيم باشا لم يكتف بتعديل كيفية تأليف مجلس الشيوخ بل انه عمد الى المادة (٧٥) من مشروع اللجنة فعدلها بأن جعل تعيين رئيس الشيوخ من حق الملك وحده لا رأى فيه لهذا المجلس ، وهو افتئات على حق المجلس لا يتفق مع مصلحة البلاد ولا مع كرامة المجلس بل ولا كرامة العرش لأنه ليس من كرامة العرش فى القرن العشرين أن يلزم وجوه البلاد وكبراءها بقبول رياسة رجل قد لا يرضونه ، ولا أدرى كيف انساق دولة نسيم باشا الى تقرير مثل هذا الافتئات .

سادسا

سمعت انه عدل المادة (٣٩) من المشروع بأن جعل للملك حق اصدار مراسيم يكون لها قوة القانون حتى ولو أثناء دور انعقاد البرلمان وهذا خطر لا يجوز مطلقا متابعة دولته عليه .

سابعا

سمعت انه عدل المادة (٤٢) فأخرج بعض معاهدات التجارة والملاحة من مراقبة البرلمان وهذا غير جائز لما قد يكون من الخطر .

ثامنا

سمعت انه عدل المادة (١٢٦) بان رسم طريقة خاصة لكيفية تقرير الميزانية وهذا حجر غير مقبول أصلا بل يجب ترك ذلك للوائح الداخلية تقرره كما يراه النواب .

تاسعاً

سمعت مما يتناقله الناس ان دولته قد اضاف الى الدستور مادة حاصلها أن هذا الدستور لا يخل بالامتيازات المخولة للملك بصفته ولى أمر البلاد فيما يتعلق بمعاهد تعليم الدين الاسلامى وبالأوقاف التى فى ادارة وزارة الاوقاف ، ولئن صح ما سمعت لكان دولة نسيم باشا قد أراد أن يخلق للملك حقا دستوريا فيما يتعلق بالتعليم الدينى الاسلامى ، وحقا دستوريا فيما يتعلق بالاوقاف العمومية وأن يحرم نواب البلاد من تنظيم الحقوق التى قد تكون القوانين الحالية خولتها عرضا للملك ، هذا شيء هائل جـدا كان يجب أن يتمعنه نسـيم باشـا قبـل أن يتورط فى الاشارة به .

عاشراً

يقال أنه عدل المادة (١٤٧) من المشروع وهى الخاصة بطريقة تنقيح الدستور فصعبها من وجهين : الأول زيادة الأغلبية اللازم توفرها لاقرار التعديل والثانى ضرورة تداخل الملك للتصديق على التعديل حتى فى المرحلة الاولى ، ومقتضى ذلك أن كل ما ابتكره دولة نسيم باشا من التعديلات التى سلبت الأمة شيئا من حقها سيبقى أبديا لا سبيل الى التحلل منه .

تلك يا سيدى الرئيس أمور اساسية من بين أمور اخرى يقول الناس ان دولة نسيم باشا عدل بها مشروع الدستور ، ولاحتمال أن يكون ما يتناقله الناس فى هذا الصدد صحيحا رأيت من واجبى المسارعة الى تنبيهكم لما فى تلك التعديلات وأمثالها من الخطر على حقوق البلاد ، حتى اذا كنتم على أهبة اصدار الدستور – كما يقال اليوم – قدمتم تقوى الله على تقوى خلق الله ، وعملتم بما توجبه الذمة – والضمير الطاهر واصدرتموه لا على انه مجرد منحة بل على أنه حق ثابت للامة يصدر على شكل اتفاق بين الأمة بواسطة الوزراء الذين هم منها وبين جلالة الملك اى بصيغة عرض من مجلس الوزراء وقبول من الملك ، مع الغاء التعديلات التى تكون وزارة نسيم باشا ادخلتها على مشروع اللجنة تلك التى تقدمت الاشارة اليها .

« ها قد بلغتكم فاديت ما على من الواجب والأمانة الآن فى عنقكم أن شئتم اديتموها ولكم الشكر ، وأن شئتم أهملتموها وعليكم وحدكم الوزر .

« ولم أرد ان اذكركم بمسألة السودان فشأنها معروف لكم وللخاص والعام ، وقد أصبح من المقرر ان الأمة لا تقبل فيها هوادة ، ولا تبغى عما قررته بشأنها اللجنـة حولا .

« على اننى لا يفوتنى فى هذا المقام أن أخاطب من زملاء سيدى الرئيس من كانوا أعضاء بلجنة الدستور ، وهم أصحاب المعالى حشمت باشا الذى رأس تلك اللجنـة زمنا طويلا ، وتوفيق رفعت باشا وحافظ حسن باشا وهؤلاء قد أجد ما يحملنى على

التشدد فى خطابهم فأقول لهم بالصراحة اما ان يصدر الدستور كما قررته اللجنة واما ان تعتزلوا مراكزكم فذلك هو الاصلح لبلادكم ومليككم والاليق بكرامتكم والأشرف لأنفسكم والسلام .

وتفضل ياسيدى الرئيس بقبول فائق الاحترام .

القاهرة فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ .

المخلص

عبد العزيز فهمى بك

خطاب آخر :

وقد ارسل عبد العزيز فهمى بعد هذا التاريخ بنحو شهر خطابا مفتوحا آخر اشد عنفا ، وكان يجدر بنا ان نذكره فى وقته التاريخى ، وسوف نشير اليه عندما يحين أوانه ، ولكنا راينا اثبات نصه هنا لنبين من أين استحق عبد العزيز فهمى ان يوصف بأنه « أبو الدستور » .

الرافعى

١٠٦ — ١١٣

« **سيدى الرئيس**

« ذلك الرجل الذى يجلك لا يزال يحسن الظن بك ويتفاءل خيرا بوزارتك ، غير أنه قلق أرق لا يهدأ له بال ولا يستقر به مضجع ، أنه ليرى أشباحا تطوفك أنت وأخوانك حول الدستور تغريكم بأن تمسوا حماه المحرم بسوء وتنالوا منه بظلم ، تحقيقا لما أراد البعض من قبلكم ، وانه ليتخيل اليه أنكم عاكفون من حول هذا الدستور الاعزل تصوبون اليه سهما بيد ، وتحبسونه باخرى ، يدفعكم الى الرمى حب المجاملة وتمنعكم منه الذمة ومراقبة الله والناس ، ولأنه يعلم ان من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، فتراه يا سيدى هلوعا يخاف هذا الشر المستطير على نفسه وعلى أهل وطنه كما يخشى عليكم نار الله الموقدة وفيكم أهله واصدقاؤه ، ولأنه سمع فوق ما بلغكم اياه فى المرة الأولى ويخشى ان تجتزئوا بالنظر فيما ظهر من التشويه مما يظن منه ، فها هو ذا فرارا من وخز ضميره يسارع الى تنبهكم لشىء من التعديلات الاخرى التى يتحاكى بها الخاصة ويألون لها ، ولئن كان دولة نسيم باشا قد نزع من نسبة ماظهر منها اليه وما فتىء المدافعون عنه يبرئونه من وصمتها ، فأنى أحمد له الله اذ وافقنى بوجومه على انها فى الحق نكبات مفزعات لا يأتيها الا كل ظالم لنفسه ، كما أشكر لدولته ولمناصريه على تبرئهم واقنع به قضية سالمة وحقيقة أعتبارية غير معقب ولا منقب فما كنت ممن يتلمسون عثرات الناس . لا لا

« **أولا** — كانت المادة ٤١ من مشروع اللجنة تنص على أن « الملك (أى السلطة التنفيذية) يرتب المصالح العامة ويولى ويعزل جميع الموظفين المدنيين والعسكريين وذلك على الوجه المبين بالقوانين » أى أن هذا الترتيب وتعيين الموظفين ومنهم ضباط الجنـد وعزلهم تعمله الحكومة ولكن وفق القوانين التى يصنعها البرلمان وتحت مراقبة النواب ، فيقول الراوى ان يد العبث بعد أن سعت فحذفت من المادة قولها « المدنيين والعسكريين »عمدتالى المادة ٤٢ فحشرت فيها عقب خاص بشخص الملك عبارة : « ويعين الضباط ويعزلهم » فصارت المادة هكذا : « الملك هو القائد الأعلى للقـوات البرية والبحرية وهو الذى يعين الضباط ويعزلهم وهو الذى يعلن الحرب ويعقـد الصلح الخ » .

« صحيح ان المادة ٥٧ تقضى بان توقيعات الملك فى شئون الدولة يجب لنفاذها أن يوقع عليها رئيس مجلس الوزراء والوزراء المختصون . وصحيح أن اوامر الملك الخاصة بتعيين الضباط وعزلهم هى توقيعات فى شئون الدولة فمن شأنها أن لا تنفذ الا اذا وقع عليها الرئيس والوزر المختص ولكن كثيرا من الموظفين كوكلاء الوزارات والقضاة والمديرين وغيرهم من عمال الحكومة الذين تنطبق عليهم المادة ٤١ يعينون هم أيضا بأوامر موقع عليها من الملك فاخراج الضباط من حكم هذه وافرادهم بالذكر فى مادة أخرى عقب حق شخصى للملك قد يفتح الباب الى أن يدعى رجال السراى فى المستقبل ان تعيين الضباط وعزلهم من حقوق الملك وحده لا مراقبة عليه لأحد أو أن يدعوا على الاقل أن للملك أن يرفض التوقيع على تعيين ضابط أو عزل ضابط تطلب الوزارة تعيينه أو عزله تنفيذا للقوانين وفى هذا من الخطر على البلاد وعلى العرش نفسه ما فيه ، نحن لا يضيرنا نقل ما يتعلق بالضباط من مادة بالدستور الى مادة أخرى ولكن الذى يضير هو حذف القيد الوارد بالمادة ٤١ وهو كون التعيين أو العزل حاصلا على الوجه المبين بالقوانين فان كان يلذ للمعدلين ابقاء التعديل فليوضعهذا القيد عقبة مباشرة اتقاء للخطر فى المستقبل ، وليعلم ان الصراحة فى التقنين احفظ للحقوق وأنفى للشك وابعد لسوء التأويل .

« **ثانيا** — من حقوق الملك الخاصة بمقتضى المادة ٤٥ تعيين الوزراء واقالتهم ، فيقال انه صار اشراك الممثلين السياسيين مع الوزراء فى هذا الحكم ونتيجة ذلك ان يصبح سفراء مصر فى الخارج ألعوبة فى أيدى رجال السراى يسعون فى تولية من شاؤا واخراج من شاؤا لا رقيب عليهم فى هذا ولا حسيب وان تصبح سياسة مصر الخارجية هى سياسة السراى لا سياسة الحكومة المصرية ! كانما ضحى المصريون بما ضحوا لفائدة رجال السراى وكانما تنازل الانجليز عن الحماية واعترفوا لمصر بحق التمثيل الخارجى لفائدة رجال السراى .

« **ثالثا** — يقولون ان اليد التى سطت على الدستور حذفت من مشروع اللجنة المادة ٥٦ القاضية بان « تكون الصلة بين الملك والوزراء راسا وبالذات » وهى كمـا يرى تقرر حقا اساسيا للوزراء تمتنع معه الوساطة السيئة وسوء التفاهم ، وفى

حـذفها ترك الباب مفتوحا لرجال السراى يضربون من أنفسهم نطاقا حـول العرش ويستبدون بالشورى على صاحب العرش وهذا من أسوأ الأمور وأضرها بمصـالح البلاد

« رابعا — يقولون أن تلك اليد عدلت المادة ٤٠ بأن جعلت افتتاح الملك للبرلمان سنويا بخطاب منه أمرا اختياريا أى أن شاء فعله وان شاء تركه ، وهذا غير جائز البتة لانمن تتملكه الشهوة الشخصية من الملوك — والعصمة لله وحده قد يتخذ هذه الفرصة ذريعة لاظهار غضبه على البرلمان بالامساك عن خطابه ، وفى هـذا من دواعى التأذى والاضطراب ما فيه وانما لنفضل حذف المادة برمتها ، على ابقائها وفيها مثل هذا التعديل المعيب .

«خامسا — تقضى المادة ٥٩ من المشروع بان اوامر الملك شفهية كانت او كتابية لاتخلى الوزراء ولا غيرهم من عمال الدولة من المسئولية بحال ، فيقال انه صار حذف عبارة « ولا غيرهم من عمال الدولة » .

« صحيح أن مسئولية الوزارة تكفى ولكن فى بلدنا حديث العهـد بالديمقراطية والنظام الدستورى يلزم ان نحث جميع عمال الحكومة بان الواجب عليهم الخضـوع للقوانين ليس الا ، فاثبات هذه العبارة فى دستورنا من الزم ما يكون .

« سادسا — تقرر المادة ١٠٠ من مشروع اللجنة لاعضاء البرلمان حق استجواب الوزراء وتقضى بأن لا تجرى المناقشة فى استجواب الا بعد ثمانية ايام على الاقل من يوم تقديمه وذلك فى غير حالة الاستعجال او موافقة الوزير ، فيقال : أولا ان هذه المادة عدلت العبـارة الأخيرة منها بأن صارت « وذلك فى غـير حالة الاسـتعجال وموافقة الوزير » بدل « او موافقة الوزير » ومقتضى هذا التعديل ان يكون لكل الوزراء محو كل أثر للاستعجال ، وجعل المجلس مضطرا لانتظار ثمانية ايام على الاقل لتجوز له المناقشة فى الاستجواب ولو كان متعلقا بأمر من امور الدولة الهامة التى تقلق بال النواب ويحبون تعرفها ومناقشة الحكومة فيها فى أقرب وقت وتلك نتيجة لا يرضاها احد » . « ثانيا — يقال انه فوق الميعاد الذى قررته المادة المذكورة قد اضيف نص يقضى بأن اقتراح الاقتراع بعـدم الثقة بالوزارة (وهـو فى العادة يحصـل عقب المناقشة فى الاستجواب) لا ينظر فيه هو ايضا الا بعد ثمانية ايام اخرى . « انمثل هذا النص لا معنى له الا تهيئة الوقت للمساعى والدسائس التى تستعمل فى الخفاء لعدم المساس بالوزارة ، وفى هذا من افساد اخلاق النواب ، وتقليل اهمية المسئولية الوزارية ما فيه . « قد نفهم ان يقال ان اقتراح عدم الثقة اذا اتى غير مسبوق باستجواب فربما كان نظره فى الحال من عدم الانصاف اذ قد ينتهز خصوم الوزارة غياب انصارها فيأخذونها بهذا الاقتراح على غرة ، ولكن لا يجوز البتة بناء على مثل هذا القول ان يعطى للوزارة الا الميعاد اللائق لجمع انصارها وهذا أمر قد تتكفل به اللائحة الداخلية .

« **سابعاً** ـ تقضى المادة ١٢٥ بأن الاحتكارات والالتزامات لا تعطى الا بتصريح البرلمان، فيقال انه صار تعديل هذه المادة تعديلا يجعل هذا الاعطاء من حقوق الحكومة وفق القوانين بدون حاجة لاشتراط تصريح البرلمان مقدما ، وفى هذا التعديل خطر كلى على حقوق البلاد ويكفى ما قاسته فى الماضى من التفريط فى هذا الموضوع . « تلك يا سيدى أمور يتناقلها الناس ، ولابد أنك رأيت أيضا مما نشر ببعض الصحف ما نستدل منه على أن زميلك معالى ذى الفقار باشا اقترح على اللجنة التشريعية بجلسة ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ جعل قانون الأسرة المالكة (٢٥ سنة ١٩٢٢) خارجا من سلطة الحكومة ، والبرلمان لا يمكن مساسه بأى تعديل ، ويقال انه يراد تعديل الدستور بما يوافق هذا الاقتراح ولست أدرك كيف أن هذا الافتئات المحصن على حقوق البلاد يجوز فى مذهب معالى ذى الفقار باشا ، لقد كنت أنت يا سيدى رئيس المجلس الحسبى الحالى وكان معاليه عضوا فيه معك ولقد حضرتكما تحكمان فيه على الأمراء كما تحكمان على عامة الناس ، فالقضاء المصرى العادى مكتسب من زمن طويل حق الحكم فى الاحوال الشخصية على هؤلاء الأمراء ، فبأى مسوغ يراد سلبه الآن هذا الحق نهائيا ؟ وبأى مسوغ يمنع نواب البلاد من الاشتراك فى التقنين للأمراء فى هذا الشأن ومن تعديل مثل ذلك القانون أو الغائه بالمرة اذا تراءى لهم فى وقت ما أن العدل والمصلحة يقضيان بذلك ، أنك يا سيدى لن ترضى بهذا السلب ولن توافق عليه .

« وسمعت أنهم يقولون ـ فى معرض الدفاع عن حذف المادة ٢٣ الخاصة بسلطة الأمة ـ أن سيادة الأمة أمر بديهى لا ريب فيه ولكن من الاليق عدم التنصيص عليها والاكتفاء بمظاهرها وآثارها المبينة فى الدستور وأخصها مسئولية الوزراء لان فى التنصيص جرحا لاحساس صاحب العرش ، فهل يجوز عليك مثل هذا الدفاع السخيف ؟ أن الانجليز لم يعلنوا استقلال سلطان مصر ولا سيادة سلطان مصر على شعبه وانما تصريحهم كان باستقلال مصر نفسها وبسيادة مصر نفسها فهم لم يحرروا السلطان ويستعبدوا له الشعب وانما هم بما أطلقوا للشعب من بعض حقوقه المغتصبة أظهروا ميلهم لتحرير هذا الشعب نفسه على شرط حق مسلم به من الجميع وهو بقاء الامارة للسلطان وخلفائه من العائلة المباركة العلوية ، واذا كانت سيادة الامة وكونها مصدر كل سلطة هى أهم ما تسعى الشعوب لحمل أمرائها على الاقرار به لها وهى التى تقوم الثورات وتثل العروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الأمراء فما معنى أن تكون هذه السيادة آتية لمصر من تحت أنياب الانكليز بعد الجهود والتضحيات الكبرى التى قام بها المصريون فى وجه الانكليز ثم يأتى أناس من المصريين أنفسهم فيهبونها غنيمة باردة لأمراء البيت المالك بتلك العلة عدم جرح الاحساس ؟ اللهم أن هذا كلام المستهزئين الذين يستضعفون هذه الأمة فيضيعون أهم حق لها

بمثل هذا التعليل السخيف ! أيكفي يا سيدى اعتراف هؤلاء المستهزئين شفهيا بأن سيادة الأمة أمر تغنى بداهة عن تدوينه فى الدستور ؟ ما أشبه هذا بحال من يعترف فى كل صقع وناد بحق غريمه الا بالكتابة او فى مجلس القضاء اعتراف لا يضر المقسر ولا ينفع الغريم ، انما هى خديعة كبرى وتخدير لاعصاب الناس عن البحث فى موقفهم وتعرف حقوقهم ، خديعة يلمسها سيدى الرئيس بأصابعه اذا قارن بين حذف المادة ٢٣ الخاصة بسيادة الامة وسلطتها وبين المادة التى أرادوا اضافتها للدستور وهى التى تنص على امتيازات للملك فى المعاهد الدينية والاوقاف باعتباره سيد البلاد وصاحب الولاية العامة فيها ، انهم يا سيدى رأوا أن بقاء المادة ٢٣ يتنافر مع السيادة وحقوق الخلافة التى يحاولون تقريرها للملك بتلك المادة الاضافية فحذفوا المادة ٢٣ وأبقوا مادتهم الاضافية ، وبين هذا الحذف وتلك الاضافة ثبتت أصالة السيادة الدينية والدنيوية لملوك مصر ودستوريا وقتلت اصالة سيادة الأمة دستوريا وساغ جعل الدستور منحة من الملك الأصيل السيادة الى الأمة الأصيلة العبودية وعوضوا الأمة عن هذا التعدى ذلك الكلام الشفهى النظرى السخيف الذى لا يسمن ولا يغنى .

« يبثون أيضا بين الناس أن من عدم اللياقة الخوض فى مسألة الرتب والنياشين التى يراد جعلها الى الابد من حقوق الملك الخاصة قائلين أن التعرض لها مما يجرح احساس جلالته ، يا عجبا كل العجب اذا كان أهم موضوعات الدستور تحديد العلاقة بين الشعب وملوكه فنغمة جرح الاحساس ان أقيم لها وزن قضت على حقوق الشعب ومنعته من التمسك بشىء منها وعلى الاخص بالمسئولية الوزارية لان أشد ما يجرح الاحساس أن وزراء الدولة يكونون مسئولين أمام النواب ويضطرهم النواب الى الاستقالة ولو كانوا من أعز صنائع العرش .

« على أن من وراء ترويج هذه السخافة ايقاعكم وايقاع صاحب العرش نفسه فى حظر خفر الذمة ونكث العهد ، ذلك بأن حكومة مصر عاهدت الأمة المصرية عهدا رسميا علنيا ممضى من قائم مقام الخديو ومن الوزراء — وهو دكريتو ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ — على أن كل قانون يصدر أثناء تعطيل الجمعية التشريعية يجب عرضه عليها عند افتتاحها لابداء رأيها فيه والا كان باطلا حتما ، فكل القوانين التى صدرت أثناء تعطيلها انما هى مؤقتة ومنها قانون الرتب والنياشين الأخير وقانون الاسرة المالكة الذى سبقت الاشارة اليه ، واذا كان عرض هذه القوانين وأمثالها على الجمعية التشريعية واجبا فعرضها على البرلمان أوجب ، وكل من سعى فى اعتبار هذه القوانين نهائية نافذة بدون رأى نواب الأمة فهو رجل يحتقر أمته ويدوس احساسها ويخفر ذمته وينكث عهده اذ يعتبر العهد الرسمى الذى كان بين الحكومة المصرية قصاصة ورق لا قيمة لها وهى نظرية مشئومة ملأت الارض دما وعويلا .

« ياسيدى . . أن الله لا يستحى من الحق ، والحق الصريح ان معظم التعديلات التى يراد ادخالها على مشروع لجنة الدستور سلب من حقوق الأمة بالباطل واضافة لجانب ملوك مصر فى زمن من الله علينا فيه بملك دستورى جم المروءة شريف النفس

يكره أن ينال الوزراء له ولخلفائه الأكرمين من حقوق الامة ولا يعوزه الا مجرد لفت نظره العالى الى الحق فيسارع الى احقاقه والمضى فيه .

« فهل انت أيضا يا سيدى ستكون على الامة لا لها ، كلا كلا ان عهدى بك أنك اقوم خلقا واكبر نفسا من أن تسعى فيما ليس بحق ، غير انى كما ذكرت لك فى بدء خطابى مضطرب البال لأنك ياسيدى أغرقت فى الابهام وتركت الناس حيارى لا يدرون ان كنت حقا ستعمل لاصدار الدستور خاليا من التشويه أم لا ، فاسمح لى أن أرجوك فى أن تعلن للناس رأيك بالصراحة وان تكاشفهم بكل أعمالك فى الدستور قبل أن تفجأهم به نهائيا واجب التنفيذ ، ولا تظن يا سيدى أنك غير مكلف باجابة رجائى بل انك متى تأملت فى حقيقة مركزى وحددت صفتك واهليتك قانونا ادركت حتما أن اجابة طلبى أمر واجب عليك لا تملك التحلل منه بحال ، ذلك بأن الانجليز بعد أن اعترفوا لمصر بالاستقلال والسيادة قالوا لعظمة مولانا السلطان ما حاصله أن الدستور متروك أمر وضعه لعظمته وللشعب المصرى ، فالشعب المصرى سيد صاحب حق أصيل فى الدستور ومتعاقد أصيل فيه ، ومن ثم فلا يملك أحد كائنا من كان اصدار الدستور بدون اشتراك هذا الشعب رجالا ونساء كهولا وفتيانا حتى الأجنة فى بطون أمهاتهم ، ولما لم يكن من استطاعة هؤلاء الأربعة عشر مليونا ان يتعاقدوا بأشخاصهم لزم أن يوكلوا من يناضل لهم ويدلى بحججهم ويتعاقد عنهم ، أدرك ثروت باشا هذه الحقيقة القانونية فتطوع للوكالة عن الشعب فى أمر الدستور واشترط هذا فى صك قبوله للوزارة ، وقبل عظمة السلطان منه هذه الوكالة وقد استقالت وزارته بعد ان وضع فى عهدها مشروع عمل هو بما توجبه الوكالة فأعلن انه يرتضيه ثم انتظر رأى الشعب فأظهر الناس أنهم لا يقنعون بأقل منه ، ثم أتت وزارة نسيم باشا ووزارتكم من بعد وأعلنت ان أهم أعمالها النظر فى الدستور ، فصفتك يا سيدى أنت وزملاؤك فيما يتعلق بالدستور صفة الوكلاء عن الشعب وليس لكم فى هذا الشأن أدنى صفة فى الوكالة عن جلالة الملك ، واهليتكم لا تعدو أهلية الوكلاء ، وواجباتكم انما هى واجبات الوكلاء .

« متى كان الأمر كذلك فلتحكم أنت على نفسك — وأنت سيد العارفين بالقانون بأن من واجبك الاكيد أن تطالع الشعب موكلك على ما جل وقل من أمور الدستور وأن لا تكتم عنه شيئا منها وان لا تتنازل عن ذرة من حقه وأن تكون فى أقوالك صريحا مبينا لامبهما مربكا وان لا تصغى لما يقوله بعض العوام من أن مسألة الدستور من الأسرار الداخلية التى لا يصح ان يطلع عليها أحد فما كان للوكيل أن يعتبر شيئا من أمور التوكيل سرا جائزا حجبه عن موكليه ، الا أن الحلال بين والحرام بين والحق

أحق أن يتبع وليس بعد الهدى الى الضلال فبيضوا بأيديكم صحيفة تاريخكم ولاتدعوا شيطان الاهواء وعوامل الضعف والاستكانة تكدرها عليكم فى العالمين .

« وانى الى هنا قد أديت ما كان يشغل ضميرى من واجب التبصير وجعلت الله شهيدا بينى وبينكم ، ومن بعد اليوم لا تحسبوا انى أخاطبكم فقد مللت فكسرت قلمى وحبست لسانى وفوضت الأمر لله وهو أحكم الحاكمين ، والسلام ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

١٥ ابريل ١٩٢٣

المخلص

عبد العزيز فهمى

٣٠ مارس ــ مظاهر تراجع الانجليز

الافراج عن سعد باشا زغلول

قدمنا أن مجرد تأليف وزارة يحيى باشا ابراهيم ، كان يعنى تراجع انجلترا عن سياستها ، واقتناع اللورد اللنبى بذلك ، ولذلك فلم تكد تمضى عليها أيام فى الحكم حتى بدأت طلائع القبول تتجلى ، فأطلق سراح سعد باشا زغلول من جبل طارق ، وكانت زوجته قد لحقت به ، واذاعت انجلترا أنها فعلت ذلك لأسباب صحية بحتة ، وعلى الرغم من أن هذا القرار اتخذ فى ٢٧ مارس ولم يذعه اللنبى فى مصر الا يوم ٣١ مارس وبموجب هذا القرار صار سعد زغلول حرا فى تنقلاته ، ولكن كان على عودته الى مصر أن تتأخر بعض الوقت .

ابريل ــ الافراج عن المعتقلين فى مصر

قدمنا أن السلطة البريطانية فى معرض استعمالها الشدة والتهديد والوعيد كانت قد اغلقت بيت الأمة ، ثم اعتقلت الطبقة الرابعة من الوفد ، فلما لم يوقف ذلك حركة الاعتداءات قررت أن تحاكمهم باعتبارهم مسئولين عن هذه الحوادث بنشاطهم ، ولكن لم تكد تمضى أيام على تأليف حكومة يحيى باشا ابراهيم ، حتى أعلن عن صرف النظر عن هذه المحاكمة ، ثم لم تلبث السلطة العسكرية ان أفرجت عنهم هم وآخرين .

وكان اللورد اللنبى ، قد عين حاكما عسكريا انجليزيا عاما لمدينتى القاهرة والاسكندرية ، فأصدر منشورا جديدا يلغى منشوره السابق .

١٥ ابريل ــ رسالة عبد العزيز فهمى الثانية

اثبتنا فيما سبق نص رسالة عبد العزيز باشا فهمى الثانية ، ووعدنا بأن نشير اليها فى تاريخها ، لنظهر مدى الترابط بينها وبين صدور الدستور الذى لن يلبث ان يظهر بعد بضعة أيام ، وعندنا أن عبد العزيز باشا فهمى لابد أن يكون قد تلقى اشارة بذلك ، اما من الانجليز واما من أصدقائه الوزراء ، ولابد أن يكون قد قيل له ان أحمد فؤاد يريد جعل نفسه فوق الأمة حتى انه كتب ماكتب .

واخيرا صدر الدستور الذى طال التحدث عنه وسقطت وزارتان (وزارة ثروت ووزارة نسيم) دون ان تتمكنا من اصداره وقد صدر بالنص الذى وضعته لجنة الدستور ، فيما عدا المادتين اللتين اعترضت عليهما انجلترا ، ولما كان هذا الدستور قد لعب دورا كبيرا فى الثلاثين المقبلة ، وأصبح اسمه اصطلاحا « دستور ١٩٢٣ » فقد رأينا أن نثبت نصه بالكامل بالرغم من طوله واتصال نصه بالقوانين .

امر ملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣

بوضع نظام دستورى للدولة المصرية

« نحن ملك مصر »

« بما اننا مازلنا منذ تبوأنا عرش أجدادنا واخذنا على انفسنا أن نحتفظ بالأمانة التى عهد الله تعالى بها الينا نتطلب الخير دائما لأمتنا بكل ما فى وسعنا ونتوخى ان نسلك بها السبيل التى نعلم انها تفضى الى سعادتها وارتقائها وتمتعها بما تتمتع به الامم الحرة المتمدينة » .

« ولما كان ذلك لا يتم على الوجه الصحيح الا اذا كان لها نظام دستورى كأحدث الانظمة الدستورية فى العالم وأرقاها تعيش فى ظله عيشا سعيدا مرضيا وتتمكن به من السير فى طريق الحياة الحرة المطلقة ويكفل لها الاشتراك العملى فى ادارة شئون البلاد والاشراف على وضع قوانينها ومراقبة تنفيذها ويترك فى نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها مع الاحتفاظ بروحها القومية والابقاء على صفاتها ومميزاتها التى هى تراثها التاريخى العظيم » .

« وبما أن تحقيق ذلك كان دائما من أجل رغباتنا ومن أعظم ما تتجه اليه عزائمنا حرصا على النهوض بشعبنا الى المنزلة العليا التى يؤهله لها ذكاؤه واستعداده وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة وتسمح له بتبوأ المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممه أمرنا بما هو آت » .

نص الدستور

الباب الأول

الدولة المصرية ونظام الحكم فيها

١ ـ « مصر دولة ذات سيادة وهى حرة مستقلة ملكها لا يجزأ ولا ينزل على شيء منه وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى » .

الباب الثانى

فى حقوق المصريين وواجباتهم

٢ ـ « الجنسية المصرية يحددها القانون » .

٣ ـ « المصريون لدى القانون سواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين واليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية ولا يولى الأجانب هذه الوظائف الا فى أحوال استثنائية يعينها القانون » .

٤ ـ « الحرية الشخصية مكفولة » .

٥ ـ « لا يجوز القبض على أى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون » .

٦ ـ « لا جريمة ولا عقوبة الا بناء على قانون ولا عقاب على الافعال اللاحقة لصدور القانون الذى ينص عليها » .

٧ ـ « لا يجوز ابعاد مصرى من الديار المصرية . ولا يجوز أن يحظر على مصرى الاقامة فى جهة ما ولا أن يلزم الاقامة فى مكان معين الا فى الاحوال المبينة فى القانون » .

٨ ـ « للمنازل حرمة فلا يجوز دخولها الا فى الأحوال المبينة فى القانون وبالكيفية المنصوص عليها فيه » .

٩ ـ « للملكية حرمة . فلا ينزع من أحد ملكه الا بسبب المنفعة العامة فى الاحوال المبينة فى القانون وبالكيفة المنصوص عليها فيه وبشرط تعويضه عنه تعويضا عادلا » .

١٠ ـ « عقوبة المصادرة العامة للأموال محظورة » .

١١ ـ لا يجوز افشاء أسرار الخطابات والتلغرافات والمواصلات التليفونية الا فى الاحوال المبينة فى القانون .

١٢ ـ « حرية الاعتقاد مطلقة » .

١٣ ـ « تحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقا للعادات المرعية فى الديار المصرية على أن لا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب .

١٤ ـ « حرية الرأى مكفولة ولكل انسان الاعراب عن فكره بالفعل أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون » .

١٥ ـ « الصحافة حرة فى حدود القانون والرقابة على الصحف محظورة وانذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الادارى محظور كذلك الا اذا كان ذلك ضروريا لوقاية النظام الاجتماعى » .

١٦ ـ « لا يسوغ تقييد حرية أحد فى استعماله اية لغة اراد فى المعاملات الخاصة أو التجارية أو فى الامور الدينية و فى الصحف والمطبوعات أيا كان نوعها أو فى الاجتماعات العامة » .

١٧ ـ « التعليم حر مالم يخل بالنظام العام أو ينافى الآداب » .

١٨ ـ « تنظيم أمور التعليم العام يكون بالقانون » .

١٩ ـ « التعليم الأولى الزامى للمصريين من بنين وبنات وهو مجانى فى المكاتب العامة » .

٢٠ ـ « للمصريين حق الاجتماع فى هدوء وسكينة غير حاملين سلاحا وليس لأحد من رجال البوليس ان يحضر اجتماعهم ولا حاجة بهم الى اشعاره . لكن هذا الحكم لا يجرى على الاجتماعات العامة فانها خاضعة لاحكام القانون . كما أنه لا يقيد او يمنع اى تدبير يتخذ لوقاية النظام الاجتماعى » .

٢١ ـ « للمصريين حق تكوين الجمعيات وكيفية استعمال هذا الحق يبينها القانون » .

٢٢ ـ « لأفراد المصريين أن يخاطبوا السلطات العامة فى ما يعرض لهم من الشئون وذلك بكتابات موقع عليها بأسمائهم . أما مخاطبة السلطات باسم المجاميع فلا تكون الا للهيئات النظامية والأشخاص المعنوية » .

الباب الثالث

السلطات

الفصل الأول

أحكام عامة

٢٣ – « جميع السلطات مصدرها الأمة واستعمالها يكون على الوجه المبين بهذا الدستور » .

٢٤ – « السلطة التشريعية يتولاها الملك بالاشتراك مع مجلسى الشيوخ والنواب » .

٢٥ – « لا يصدر قانون الا اذا قرره البرلمان وصدق عليه » .

٢٦ – « تكون القوانين نافذة فى جميع القطر المصرى باصدارها من جانب الملك ويستفاد هذا الاصدار من نشرها فى الجريدة الرسمية » .

وتنفذ فى كل جهة من جهات القطر المصرى من وقت العلم باصدارها ويعتبر اصدار تلك القوانين معلوما فى جميع القطر المصرى بعد نشرها بثلاثين يوما ويجوز قصر هذا الميعاد أو مده بنص صريح فى تلك القوانين » .

٢٧ – « لا تجرى أحكام القوانين الا على ما يقع من تاريخ نفاذها ولا يترتب عليها أثر فيما وقع قبله ما لم ينص على خلاف ذلك بنص خاص » .

٢٨ – « للملك ولمجلسى الشيوخ والنواب حق اقتراح القوانين عدا ما كان منها خاصا بانشاء الضرائب أو زيادتها فاقتراحه للملك ولمجلس النواب » .

٢٩ – « السلطة التنفيذية يتولاها الملك فى حدود الدستور » .

٣٠ – « السلطة القضائية تتولاها المحاكم على اختلاف انواعها ودرجاتها » .

٣١ – « تصدر أحكام المحاكم المختلفة وتنفذ وفق القانون باسم الملك » .

الفصـــل الثاني

الملـك والوزراء

الفـرع الأول .. الملك

٣٢ ــ « عرش المملكة المصرية وراثى فى أسرة محمد على . وتكون وراثة العرش وفق النظام المقرر بالأمر الكريم الصادر فى ١٥ شعبان سنة ١٣٤٠ ــ ٣ أبريل سنة ١٩٢٢ » .

٣٣ ــ « الملك هو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس » .

٣٤ ــ « الملك يصدق على القوانين ويصدرها » .

٣٥ ــ « اذا لم ير الملك التصديق على مشروع قانون أقره البرلمان رده اليـه فى مدى شهر لاعادة النظر فيه . فاذا لم يرد القانون فى هذا الميعاد عد ذلك تصـديقا من الملك عليه وصدر » .

٣٦ ــ « اذا رد مشروع القانون فى الميعاد المتقدم وأقره البرلمان ثانية بموافقـة ثلثى الأعضاء الذين يتألف منهم كل من المجلسين صار له حكم القانون واصدر . فان كانت الاغلبية أقل من الثلثين امتنع النظر فيه فى دور الانعقاد نفسـه فاذا عاد البرلمان فى دور انعقاد آخر الى اقرار ذلك المشروع بأغلبية الآراء المطلقة صار له حكم القانون وأصـدر » .

٣٧ ــ « الملك يضع اللوائح اللازمة لتنفيذ القوانين بما ليس فيه تعديل أو تعطيل لها أو الغاء من تنفيذها » .

٣٨ ــ « للملك حق حل مجلس النواب » .

٣٩ ــ « للملك تأجيل انعقاد البرلمان . على انه لا يجوز أن يزيد التأجيل على ميعاد شهر ولا أن يتكرر فى دور الانعقاد الواحد بدون موافقة المجلسين » .

٤٠ ــ « للملك عند الضرورة أن يدعو البرلمان الى اجتماعات غير عادية وهـو يدعوه أيضا متى طلب ذلك بعريضة تمضيها الاغلبية المطلقة لأعضاء أى المجلسـين ويعلن الملك فض الاجتماع غير العادى » .

٤١ ــ « اذا حدث فيما بين أدوار انعقاد البرلمان ما يوجب الاسراع الى اتخاذ تدابير لا تحتمل التأخير للملك ان يصدر فى شأنها مراسيم تكون لها قوة القانون بشرط أن لا تكون مخالفة للدستور ويجب دعوة البرلمان الى اجتماع غير عادى وعرض هذه المراسيم عليه فى أول اجتماع له فاذا لم تعرض أو لم يقرها أحـد المجلسين زال ما كان لها من قوة القانون » .

٤٢ — « الملك يفتتح دور الانعقاد العادى للبرلمان بخطبة العرش فى المجلسين مجتمعين يستعرض فيها أحوال البلاد . ويقدم كل من المجلسين كتابا يضمنه جوابه عليهـا » .

٤٣ — « الملك ينشىء ويمنح الرتب المدنية والعسكرية والنياشين والقاب الشرف الأخرى وله حق سك العملة تنفيذا للقانون كما أن له حق العفو وتخفيض العقوبة » .

٤٤ — « الملك يرتب المصالح العامة ويولى ويعزل الموظفين على الوجه المبين بالقوانين » .

٤٥ — « الملك يعلن الأحكام العرفية . ويجب أن يعرض اعلان الاحكام العرفية فورا على البرلمان ليقرر استمرارها أو الغاءها فاذا وقع ذلك الاعلان فى غير دور الانعقاد وجبت دعوة البرلمان للاجتماع على وجه السرعة » .

٤٦ — « الملك هو القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية وهو الذى يولى ويعزل الضباط ويعلن الحرب ويعقد الصلح ويبرم المعاهدات ويبلغها البرلمان متى سمحت مصلحة الدولة وأمنها مشفوعة بما يناسب من البيان » .

« على أن اعلان الحرب الهجومية لا يجوز بدون موافقة البرلمان . كما أن معاهدات الصلح والتحالف والتجارة والملاحة وجميع المعاهدات التى يترتب عليها تعديل فى أراضى الدولة أو نقص فى حقوق سيادتها أو تحميل خزانتها شيئا من النفقات أو مساس بحقوق المصريين العامة او الخاصة لا تكون نافذة الا اذا وافق عليها البرلمان » .

« ولا يجوز فى أى حال أن تكون الشروط السرية فى معاهدة ما مناقضة للشروط العلنية » .

٤٧ — « لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر أمور دولة أخرى بغير رضاء البرلمان ولا تصح مداولة أى المجلسين فى ذلك الا بحضور ثلثى اعضائه على الأقل ولا يصح قراره الا بأغلبية ثلثى الاعضاء الحاضرين » .

٤٨ — « الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه » .

٤٩ — « الملك يعين وزراءه ويقيلهم . ويعين الممثلين السياسيين ويقيلهم بناء على ما يعرضه عليه وزير الخارجية » .

٥٠ — « قبل أن يباشر الملك سلطته الدستورية يحلف اليمين الآتية أمام هيئة المجلسين مجتمعين : « أحلف بالله العظيم انى احترم الدستور وقوانين الأمة المصرية واحافظ على استقلال الوطن وسلامة اراضيه » .

٥١ — « لا يتولى أوصياء العرش عملهم الا بعد أن يؤدوا لدى المجلسين مجتمعين اليمين المنصوص عليها فى المادة السابقة مضافا اليها « وأن نكون مخلصين للملك » .

٥٢ ــ أثر وفاة الملك يجتمع المجلسان بحكم القانون فى مدى عشرة أيام من تاريخ اعلان الوفاة . فاذا كان مجلس النواب منحلا وكان الميعاد المعين فى أمر الحل للاجتماع يتجاوز اليوم العاشر فان المجلس القديم يعود للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه» .

٥٣ ــ « اذا لم يكن من يخلف الملك على العرش فللملك أن يعين خلفا له مع موافقة البرلمان مجتمعا فى هيئة مؤتمر . ويشترط لصحة قراره فى ذلك حضـور ثلاثة أرباع كل من المجلسين واغلبية ثلثى الاعضاء الحاضرين » .

٥٤ ــ « فى حالة خلو العرش لعدم وجود من يخلف الملك أو لعدم تعيين خلف له وفقا لأحكام المادة السابقة يجتمع المجلسان بحكم القانون فورا فى هيئة مؤتمر لاختيار الملك . ويقع هذا الاختيار فى مدى ثمانية أيام من وقت اجتماعهما ويشترط لصحته حضور ثلاثة أرباع كل من المجلسين وأغلبية ثلثى الاعضاء الحاضرين » .

« فاذا لم يتسن الاختيار فى الميعاد المتقدم ففى اليوم التاسع يشرع المجلسان مجتمعين فى الاختيار أيا كان عدد الاعضاء الحاضرين وفى هذه الحالة يكون الاختيار صحيحا بالأغلبية النسبية . واذا كان مجلس النواب منحلا وقت خلو العرش فانه يعود للعمل حتى يجتمع المجلس الذى يخلفه » .

٥٥ ــ « من وقت وفاة الملك الى أن يؤدى خلفه أو أوصياء العرش اليمين تكون سلطات الملك الدستورية لمجلس الوزراء يتولاها باسم الأمة المصرية وتحت مسئوليته » .

٥٦ ــ « عند تولية الملك تعين مخصصاته ومخصصات البيت المالك بقانون وذلك لمدة حكمه . ويعين القانون مرتبات أوصياء العرش على أن تؤخـذ من مخصصات الملـك » .

الفرع الثانى ــ الوزراء

٥٧ ــ « مجلس الوزراء هو المهيمن على مصالح الدولة » .

٥٨ ــ « لا يلى الوزارة الا مصرى » .

٥٩ ــ « لا يلى الوزارة أحد من الأسرة المالكة » .

٦٠ ــ « توقيعات الملك فى شئون الدولة يجب لنفاذها أن يوقـع عليها رئيس مجلس الوزراء والوزراء المختصون .

٦١ ــ « الوزراء مسئولون متضامنين لدى مجلس النواب عن السياسة العامة للدولة وكل منهم مسئول عن أعمال وزارته » .

٦٢ ــ « أوامر الملك شفهية او كتابية لا تخلى الوزراء من المسئولية بحال » .

٦٣ ـ « للوزراء أن يحضروا أى المجلسين ويجب أن يسمعوا كلما طلبوا الكلام ولا يكون لهم رأى معدود فى المداولات الا اذا كانوا أعضــاء ولهم أن يستعينوا بمن يرون من كبار موظفى دواوينهم أو ان يستعينوهم منهم ولكل مجلس ان يحتم على الوزراء حضور جلساته » .

٦٤ ـ « لا يجوز للوزير أن يشترى أو يستأجر شيئا من أملاك الحكومة ولو كان ذلك بالمزاد العام كما لا يجوز له أن يقبل اثناء وزارته العضوية بمجلس ادارة أية شركة ولا أن يشترك اشتراكا فعليا فى محل تجارى أو مالى » .

٦٥ ـ « اذا قرر مجلس النواب عــدم الثقة بالوزارة وجب عليهــا أن تستقيل فاذا كان القرار خاصا باحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة » .

٦٦ ـ « لمجلس النواب وحده حق اتهام الوزراء فيما يقع منهم من الجرائم فى تأدية وظائفهم ولا يصدر قرار الاتهام الا بأغلبية ثلثى الآراء » .

٦٧ ـ « ولمجلس الأحكام المخصوص وحده حق محاكمة الوزراء عما يقع منهم من تلك الجرائم ويعين مجلس النواب من أعضائه من يتولى تأييد الاتهام أمام ذلك المجلس » .

٦٨ ـ « يؤلف المجلس المخصوص من رئيس المحكمة الاهلية العليا رئيسا ومن ستة عشر عضوا ثمانية منهم من أعضاء مجلس الشــيوخ يعينون بالقرعة وثمانية من قضاة تلك المحكمة المصريين بترتيب الأقدمية وعند الضرورة يكمل العــدد من رؤساء المحاكم التى تليها ثم قضاتها بترتيب الأقدمية كذلك

٦٩ ـ « يطبق مجلس الاحكام المخصوص قانون العقوبات فى الجرائم المنصوص عليها فيه . وتبين فى قانون خاص أحوال مسئولية الوزارة التى لم يتناولها قانون العقوبات » .

٧٠ ـ « تصدر الأحكام بالعقوبة من مجلس الاحكام المخصوص بأغلبية اثنى عشر صوتا » .

٧١ ـ « الى حين صدور قانون خاص ينظم مجلس الاحكام المخصوص بنفسه طريقة السير فى محاكمة الوزراء » .

٧٢ ـ « الوزير الذى يتهمه مجلس النواب يوقف عن العمــل الى أن يقضى مجلس الاحكام المخصوص فى أمره . ولا يمنع استعفاؤه من اقامة الدعوى عليه أو الاستمرار فى محاكمته » .

٧٣ ـ « لا يجوز العفو عن الوزير المحكوم عليه من مجلس الأحكام المخصوص الا بموافقة مجلسى النواب » .

الفصل الثالث

البرلمـــان

٧٤ ــ « يتكون البرلمان من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب » .

الفرع الأول ــ مجلس الشيوخ

٧٥ ــ « يؤلف مجلس الشيوخ من عدد من الأعضاءيعين الملك خمسيهم وينتخب الثلاثة الاخماس الباقون بالاقتراع العام على مقتضى أحكام قانون الانتخاب » .

٧٦ ــ « كل مديرية أو محافظة يبلغ عدد أهاليها مائة وثمانين ألفا أو اكثر ينتخب عضوا عن كل مائة وثمانين الفا أو أكثر من هذا العدد لا يقل عن تسعين ألفــا وكل مديرية أو محافظة لايبلغ عدد أهاليها مائة وثمانين ألفا ولكن لايقل عن تسعين ألفا تنتخب عضوا وكل محافظة يقل عدد أهاليها عن تسعين الفا تنتخب عضوا ما لم يلحقها قانون الانتخاب بمحافظة اخرى او بمديرية .

٧٧ ــ « تعتبر دائرة انتخابية كل مديرية أو محافظة لها حق انتخاب عضو بمجلس الشيوخ وكذلك كل قسم من مديرية أو محافظة له حق انتخاب عضو بهذا المجلس » .

تحدد الدوائر الانتخابية بقانون يكفل بقدر الامكان مساواة الدوائر فى المديريات والمحافظات التى لها حق انتخاب اكثر من عضو بمجلس الشيوخ ــ على انه يجوز ان يعتبر القانون عواصم المديريات التى لا يبلغ عدد أهاليها مائة وثمانين ألفا ولكن لا يقل عن تسعين ألفا دائرة انتخابية مستقلة . وفى هذه الحالة تعتبر جهات المديرية الاخرى كانها مديرية مستقلة فيما يتعلق بتحديد عدد الأعضاء التى لها حق انتخابهم وبتحديد الدوائر الانتخابية . »

٧٨ ــ « يشترط فى عضو مجلس الشيوخ زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب أن يكون بالغا من السن اربعين سنة على الأقل بحساب التقويم الميلادى .

٧٩ ــ « يشترط فى عضو مجلس الشيوخ منتخبا او معينا ان تكون من احــدى الطبقات الآتية : ــ

أولا ــ « الوزراء ، الممثلين السياسيين ، رؤساء مجلس النواب ، وكلاء الوزارات رؤساء ومستشارى محكمة الاستئناف او اية محكمة اخرى من درجتها او أعلى منها ، النواب العموميين ، نقباء المحامين ، موظفى الحكومة من درجة مدير عام فصاعدا ــ سواء فى ذلك الحاليون والسابقون »

ثانيا ــ « كبار العلماء والرؤساء الروحيين ، كبار الضباط المتقاعدين من رتبة لواء فصاعدا ، النواب الذين قضوا مدتين فى النيابة ، الملاك الذين يؤدون ضريبة لاتقل عن

مائة وخمسين جنيها مصريا فى العام ، من لا يقل دخلهم السنوى عن الف وخمسمائة جنيه من المشتغلين بالاعمال المالية او التجارية او الصناعية وبالمهن الحرة ، وذلك كله مع مراعاة عدم الجمع بين الوظائف التى نص الدستور أو قانون الانتخاب على عدم جواز الجمع بينها . »

« وتحدد الضريبة والدخل السنوى فيما يختص بمديرية أسوان بقانون الانتخاب .

٨٠ — « مدة العضوية فى مجلس الشيوخ عشر سنوات » .

« ويتجدد اختيار نصف الشيوخ المعينين ونصف المنتخبين كل خمس سنوات ومن انتهت مدته من الاعضاء يجوز اعادة انتخابه او تعيينه » .

٨١ — « رئيس مجلس الشيوخ يعينه الملك وينتخب المجلس وكيلين ، ويكون تعيين الرئيس والوكيلين لمدة سنتين ، ويجوز اعادة انتخابهم » .

٨٢ — « اذا حل مجلس النواب توقف جلسات مجلس الشيوخ » .

الفرع الثانى — مجلس النواب

٨٣ — « يؤلف مجلس النواب من أعضاء منتخبين بالاقتراع العام على مقتضى احكام قانون الانتخاب » .

٨٤ — « كل مديرية او محافظة يبلغ عدد اهاليها ستين الفا فاكثر تنتخب نائبا واحدا لكل ستين الفا أو كسر من هذا الرقم لا يقل عن ثلاثين الفا . وكل مديرية او محافظة لا يبلغ عدد اهاليها ثلاثين الفا يكون لها نائب ما لم يلحقها قانون الانتخاب بمحافظة اخرى أو بمديرية » .

٨٥ — « تعتبر دائرة انتخابية كل مديرية أو محافظة لها حق انتخاب نائب ، وكذلك كل قسم من مديرية او محافظة له هذا الحق » .

« وتحدد الدوائر الانتخابية بقانون يكفل بقدر الامكان مساواة الدوائر فى المديريات والمحافظات التى لها حق انتخاب أكثر من نائب ، وللقانون مع ذلك أن يعتبر عواصم المديريات التى لا يبلغ عدد أهاليها ستين الفا ولا يقل عن ثلاثين الفا دائرة انتخابية مستقلة . »

« وفى هذه الحالة تعتبر جهات المديرية الاخرى كانها مديرية مستقلة فيما يختص بتحديد عدد الاعضاء الجائز انتخابهم وتحديد الدوائر الانتخابية » .

٨٦ — « يشترط فى النائب زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب أن يكون بالغا من السن ثلاثين سنة على الأقل بحساب التقويم الميلادى » .

٨٧ — « مدة عضوية النائب خمس سنوات » .

٨٨ ــ « ينتخب مجلس النواب رئيسا ووكيلين سنويا فى أول دور انعقاد عادى ورئيس المجلس ووكيلاه يجوز اعادة انتخابهم » .

٨٩ ــ « اذا حل مجلس النواب فى أمر فلا يجوز حل المجلس الجديد من أجل ذلك الأمر » .

٩٠ ــ « الأمر الصادر بحل مجلس النواب يجب أن يشتمل على دعوة المندوبين لاجراء انتخابات جديدة فى ميعاد لا يتجاوز الشهرين وعلى تحديد ميعاد اجتماع المجلس الجديد فى العشرة الايام التالية لتمام الانتخاب » .

الفرع الثالث ــ أحكام عامة للمجلسين

٩١ ــ « مركز البرلمان مدينة القاهرة . على انه يجوز عند الضرورة جعل مركزه فى جهة اخرى بقانون . واجتماعه فى غير المكان المعين له غير مشروع وباطل بحكم القانون . »

٩٢ ــ « عضو البرلمان ينوب عن الأمة كلها ولا يجوز لناخبيه ولا للسلطة التى تعينه توكيله بامر على سبيل الالزام » .

٩٣ ــ « لا يجوز الجمع بين عضوية مجلس الشيوخ ومجلس النواب وفيما عدا ذلك يحدد قانون الانتخاب أحوال عدم الجمع الاخرى » .

٩٤ ــ « يجوز تعيين امراء الاسرة المالكة ونبلائها اعضاء بمجلس الشيوخ ولا يجوز انتخابهم باحد المجلسين » .

٩٥ ــ « قبل أن يتولى أعضاء مجلس الشيوخ والنواب عملهم يقسمون أن يكونوا مخلصين للوطن وللملك مطيعين للدستور ولقوانين البلاد » .

وان يؤدوا اعمالهم بالذمة والصدق . »

« وتكون تأدية اليمين فى المجلس علنا بقاعة جلساته » .

٩٦ ــ « يختص كل مجلس بالفصل فى صحة نيابة اعضائه . ولا تعتبر النيابة باطلة الا بقرار يصدر باغلبية ثلثى الاصوات ويجوز ان يعهد القانون بهذا الاختصاص الى سلطة اخرى . »

٩٧ ــ « يدعو الملك البرلمان سنويا الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر فاذا لم يدع الى ذلك يجتمع بحكم القانون فى اليوم المذكور » .

« ويدوم دور انعقاده العادى مدة ستة شهور على الاقل . ويعلن الملك فض انعقاده . »

٩٨ ــ « ادوار الانعقاد واحدة للمجلسين فاذا اجتمع احدهما او كلاهما فى غير الزمن القانونى فالاجتماع غير شرعى والقرارات التى تصدر فيه باطلة بحكم القانون » .

٩٩ ــ « جلسات المجلسين علنية على ان كلا منهما ينعقد بهيئة سرية بناء على طلب الحكومة وعشرة من الاعضاء . ثم يقرر ما اذا كانت المناقشة فى الموضوع المطروح امامه تجرى فى جلسة علنية ام لا . »

١٠٠ ــ « لا يجوز لاى المجلسين ان يقرر قرارا الا اذا حضر الجلسة اغلبية اعضائه » .

١٠١ ــ « فى غير الاحوال المشترط فيها اغلبية خاصة تصدر القرارات بالاغلبية المطلقة وعند تساوى الاراء يكون الأمر الذى حصلت المداولة بشأنه مرفوضا . »

١٠٢ ــ « تعطى الاراء بالتصويت شفهيا أو بطريقة القيام والجلوس واما فيما يختص بالقوانين عموما وبالاقتراع فى مجلس النواب على مسألة الثقة فان الآراء تعطى دائما بالمناداة على الاعضاء باسمائهم وبصوت عال . ويحق للوزراء دائما ان يطلبوا من مجلس النواب تأجيل المناقشة لمدة ثمانية أيام فى الاقتراع على عدم الثقة بهم » .

١٠٣ ــ « كل مشروع قانون يجب قبل المناقشة فيه أن يحال الى احدى لجان المجلس لفحصه وتقديم تقرير عنه . »

١٠٤ ــ « كل مشروع قانون يقترحه عضو واحد او اكثر يجب احالته الى لجنة لفحصه وابداء الرأى فى جواز نظر المجلس فيه فاذا راى المجلس نظره اتبع فيه حكم المادة السابقة » .

١٠٥ ــ « لا يجوز لأى المجلسين تقرير مشروع قانون الا بعد اخذ الراى فيه مادة مادة . وللمجلسين حق التعديل والتجزئة فى المواد وفيما يعرض من التعديلات . »

١٠٦ ــ « كل مشروع قانون يقرره احد المجلسين يبعث به رئيسه الى رئيس المجلس الآخر . »

١٠٧ ــ « كل مشروع قانون اقترحه احد الاعضاء ورفضه البرلمان لا يجوز تقديمه ثانية فى دور الانعقاد نفسه » .

١٠٨ ــ « لكل عضو من اعضاء البرلمان ان يوجه الى الوزراء اسئلة او استجوابات وذلك على الوجه الذى يبين باللائحة الداخلية لكل مجلس ولا تجرى المناقشة فى استجواب الا بعد ثمانية أيام على الاقل من يوم تقديمه وذلك فى غير حالة الاستعجال وموافقة الوزير » .

١٠٩ ــ « لكل مجلس حق اجراء التحقيق ليستنير فى مسائل معينة داخلة فى حدود اختصاصه » .

١١٠ ــ « لا يجوز مؤاخذة أعضاء البرلمان بما يبدون من الأفكار والآراء فى المجلسين » .

١١١ ــ « لا يجوز أثناء دور الانعقاد اتخاذ اجراءات جنائية نحو أى عضو من اعضاء البرلمان ولا القبض عليه الا باذن المجلس التابع هو له . وذلك فيما عدا حالة التلبس بالجناية » .

١١٢ ــ « لا يمنح اعضاء البرلمان رتبا ولا نياشين اثناء مدة عضويتهم . ويستثنى من ذلك الأعضــاء الذين يتقلدون مناصب حكومية لا تتنافى مع عضـــو البرلمان كما تستثنى الرتب والنياشين العسكرية » .

١١٣ ــ « لا يجوز فصل أحد من عضوية البرلمان الا بقرار صــادر من المجلس التابع له هو ويشترط فى غير أحوال الجمع وأحوال السقوط المبينة بهذا الدستور وبقانون الانتخاب أن يصدر القرار بأغلبية ثلاثة أرباع الاعضاء الذين يتألف منهم المجلس» .

١١٤ ــ « اذا خلا محل احد اعضاء البرلمان بالوفاة او الاستقالة اوغير ذلك من الأسباب يختار بدله بطريق التعيين أو الانتخاب على حسب الاحوال وذلك فى مــدى شهرين من يوم اشعار البرلمان الحكومة بخلو المحل . ولا تدوم نيابة العضو الجديد الا الى نهاية مدة سلفه . »

١١٥ ــ « تجرى الانتخابات العامة لتجديد مجلس النواب فى خلال الستين يوما السابقة لانتهاء مدة نيابته وفى حالة عدم امكان اجراء الانتخابات فى الميعاد المذكور فان مدة نيابة المجلس القديم تمتد إلى حين الانتخابات المذكورة » .

١١٦ ــ « يجب تجديد نصف مجلس الشيوخ سواء أكان التجديد بطريق الانتخاب او بطريق التعيين فى خلال الستين يوما السابقة على تاريخ انتهاء مدة نيابة الاعضــاء الذين انتهت مدتهم فان لم يتيسر التجديد فى الميعاد المذكور امتدت نيابة الاعضاء الذين انتهت مدتهم الى حين انتخاب أو تعيين الأعضاء الجدد » .

١١٧ ــ « لا يسوغ لاحد مخاطبة البرلمان بشخصه ، ولكل مجلس أن يحيل الى الوزراء ما يقدم اليه من العرائض وعليهم أن يقدموا الايضاحات الخاصة بما تتضمنه تلك العرائض كلما طلب المجلس ذلك اليهم . »

١١٨ ــ « كل مجلس له وحده المحافظة على النظام فى داخله ويقوم بها الرئيس ولا يجوز لاية قوة مسلحة الدخول فى المجلس ولا الاستقرار على مقربة من أبوابه الا بطلب رئيسه . »

١١٩ ــ « يتناول كل عضو من أعضاء البرلمان مكافأة سنوية تحدد بقانون » .

١٢٠ ــ « يضع كل مجلس لائحته الداخلية مبينا فيها طريقة الســير فى تأدية أعماله . »

الفرع الرابع

احكام خاصة با نعقاد البرلمان بهيئة مؤتمر

١٢١ — « فيما عدا الاحوال التى يجتمع فيها المجلسان . بحكم القانون فانهما يجتمعان بهيئة مؤتمر بناء على دعوة الملك . »

١٢٢ — « كلما اجتمع المجلسان بهيئة مؤتمر تكون الرياسة لرئيس مجلس الشيوخ » .

١٢٣ — « لا تعد قرارات المؤتمر صحيحة الا اذا توفرت الأغلبية المطلقة من اعضاء كل من المجلسين الذين يتألف منهما المؤتمر . ويراعى المؤتمر فى الاقتراع على هذه القرارات احكام المادتين المائة والاولى بعد المائة . »

١٢٤ — « اجتماع المجلسين بهيئة مؤتمر فى خلال ادوار انعقاد البرلمان العادية او غير العادية لا يحول دون استمرار كل من المجلسين فى تأدية وظائفه الدستورية . »

الفصل الرابع

السلطة القضائية

١٢٥ ـ « القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون وليس لأية سلطة فى الحكومة التداخل فى القضايا . »

١٢٦ ـ « ترتيب جهات القضاء وتحديد اختصاصها يكون بقانون . »

١٢٧ ـ « تعيين القضاة يكون بالكيفية والشروط التى يقررها القانون »

١٢٨ ـ « عدم جواز عزل القضاة أو نقلهم تتعين حدوده وكيفيته بالقانون » .

١٢٩ ـ « يكون تعيين رجال النيابة العمومية فى المحاكم وعزلهم وفقا للشروط التى يقررها القانون . »

١٣٠ ـ « جلسات المحاكم علنية الا اذا امرت المحكمة بجعلها سرية مراعاة للنظام العام او للمحافظة على الآداب . »

١٣١ ـ « كل متهم بجناية يجب أن يكون له من يدافع عنه . »

١٣٢ ـ « يوضع قانون خاص شامل لترتيب المحاكم العسكرية وبيان اختصاصها والشروط الواجب توفرها فيمن يتولون القضاء فيها . »

الفصل الخامس

مجالس المديريات والمجالس البلدية

١٣٣ — « تعتبر المديريات والمدن والقرى فيما يختص بمباشرة حقوقها اشخاصا معنوية وفقا للقانون العام بالشروط التى يقررها القانون . »

« وتمثلها المديريات والمجالس البلدية المختلفة . »

« ويعين القانون حدود اختصاصها » .

١٣٤ — « ترتيب مجالس المديريات والمجالس البلدية على اختلاف انواعها . واختصاصاتها وعلاقاتها بجهات الحكومة تبينها القوانين — ويراعى فى هذه القوانين المبادىء الآتية :

أولا — « اختيار اعضاء هذه المجالس بطريق الانتخاب الا فى الحالات الاستثنائية التى يبيح فيها القانون تعيين بعض اعضاء غير منتخبين . »

ثانيا — « اختصاص هذه المجالس بكل ما يهم اهل المديرية او المدينة او الجهة وهذا مع عدم الاخلال بما يجب من اعتماد اعمالها فى الاحوال المبينة فى القوانين وعلى الوجه المقرر بها » .

ثالثا — « نشر ميزانياتها وحساباتها . »

رابعا — « علنية الجلسات فى الحدود المقررة بالقانون »

خامسا — « تداخل السلطة التشريعية او التنفيذية لمنع تجاوز هذه المجالس حدود اختصاصاتها او اضرارها بالمصلحة العامة وابطال ما يقع من ذلك . »

الباب الرابع

فى المــــالية

١٣٥ ـ « لا يجوز انشاء ضريبة ولا تعديلها او الغاؤها الا بقانون » .

ولا يجوز تكليف الأهالى بتأدية شىء من الأمــوال أو الرســوم الا فى حــدود القانون . »

١٣٦ ـ « لا يجوز اعفاء احد من اداء الضرائب فى غير الأحوال المبينة فى القانون »

١٣٧ ـ « لا يجوز تقرير معاش على خزانة الحكومة او تعويض او اعانة او مكافأة الا فى حدود القانون » .

١٣٨ ـ « لا يجوز عقد قرض عمومى ولا تعهد قد يترتب عليه انفاق مبالغ من الخزانة فى سنة أو سنوات مقبلة الا بموافقة البرلمان » .

« وكل التزام موضوعه استغلال مورد من موارد الثروة الطبيعية فى البلاد او مصلحة من مصالح الجمهور العامة وكل احتكار لا يجوز منحه الا بقانون والى زمن محــدد » .

« يشترط اعتماد البرلمان مقدما فى انشاء او ابطال الخطوط الحديدية والطرق العامة والترع والمصارف وسائر اعمال الرى التى تهم اكثر من مديرية . وكذلك فى كل تصرف مجانى فى أملاك الدولة » .

١٣٩ ـ « الميزانية الشاملة لايرادات الدولة ومصروفاتها يجب تقديمها الى البرلمان قبل ابتداء السنة المالية بثلاثة شهور على الأقل لفحصها واعتمادها . والسنة المالية يعينها القانون . وتقر الميزانية بابا بابا » .

١٤٠ ـ « تكون مناقشة الميزانية وتقريرها فى مجلس النواب أولا » .

١٤١ ـ « لا يجوز فض دور انعقاد البرلمان قبل الفراغ من تقرير الميزانية » .

١٤٢ ـ « اعتمادات الميزانية المخصصة لسداد اقساط الدين العمومى لا يجوز تعديلها بما يمس تعهدات مصر فى هذا الشأن . وكذلك الحال فى كل مصروف وارد بالميزانية تنفيذا لتعهد دولى » .

١٤٣ ـ « اذا لم يصدر القانون بالميزانية قبل ابتداء السنة المالية يعمل بالميزانية القديمة حتى يصدر القانون بالميزانية الجديدة » .

« ومع ذلك اذا أقر المجلسان بعض أبواب الميزانية أمكن العمل بها مؤقتا » .

١٤٤ – « كل مصروف غير وارد بالميزانية أو زائد على التقديرات الواردة بهـا يجب أن يأذن به البرلمان . ويجب استئذانه كذلك كلما أريد نقل مبلغ من باب الى آخر من أبواب الميزانية » .

١٤٥ – « الحساب الختامى للادارة المالية عن العام المنقضى يقدم الى البرلمان فى مبدأ كل دور انعقاد عادى لطلب اعتماده » .

١٤٦ – « ميزانية ايرادات وزارة الأوقاف ومصروفاتها وكذلك حسابها الختامى السنوى تجرى عليها الأحكام المتقدمة الخاصة بميزانية الحكومة وحسابها الختامى » .

الباب الخامس
القوة المسلحة

١٤٧ ـ « قوات الجيش تقرر بقانون » .

١٤٨ ـ « يبين القانون طريقة التجنيد ونظام الجيش وما لرجاله من الحقوق وما عليهم من الواجبات » .

١٤٩ ـ « يبين القانون نظام هيئات البوليس وما لها من الاختصاصات » .

الباب السادس

أحكام عامة

١٥٠ – « الاسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية » .

١٥١ – « مدينة القاهرة قاعدة المملكة المصرية » .

١٥٢ – « تسليم اللاجئين السياسيين محظور وهذا مع عدم الاخلال بالاتفاقات الدولية التى يقصد بها المحافظة على النظام الاجتماعى » .

١٥٣ – « العفو الشامل لا يكون الا بقانون » .

١٥٤ – « ينظم القانون الطريقة التى يباشر بها الملك سلطته طبقا للمبادىء المقررة بهذا الدستور فيما يختص بالمعاهد الدينية وبتعيين الرؤساء الدينيين وبالأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف – وعلى العموم بالمسائل الخاصة بالأديان المسموح بها فى البلاد. واذا لم توضع أحكام تشريعية تستمر مباشرة هذه السلطة طبقا للقواعد والعادات المعمول بها الآن » .

« تبقى الحقوق التى يباشرها الملك بنفسه بصفته رئيس الأسرة المالكة كما قررها القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٢ الخاص بوضع نظام الأسرة المالكة » .

١٥٥ – « لا يخل تطبيق هذا الدستور بتعهدات مصر للدول الأجنبية ولا يمكن أن تمس ما يكون للأجانب من الحقوق فى مصر بمقتضى القوانين والمعاهدات الدولية والعادات المرعية » .

١٥٦ – « لا يجوز لأية حال تعطيل حكم من أحكام هذا الدستور الا أن يكون ذلك وقتيا فى زمن الحرب أو أثناء قيام الأحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون » .

« وعلى أى حال لا يجوز تعطيل انعقاد البرلمان متى توفرت فى انعقاده الشروط المقررة بهذا الدستور » .

١٥٧ – « للملك ولكل من المجلسين اقتراح تنقيح هذا الدستور بتعديل أو حذف حكم أو أكثر من أحكامه أو اضافة أحكام أخرى ومع ذلك فان الأحكام الخاصة بشكل الحكومة النيابى البرلمانى وبنظام وراثة العرش وبمبادىء الحرية والمساواة التى يكفلها هذا الدستور لا يمكن اقتراح تنقيحها » .

١٥٨ « لأجل تنقيح الدستور يصدر كل من المجلسين بالأغلبية المطلقة لاعضائه جميعا قرارا بضرورته وبتحديد موضوعه » .

« فاذا صدق الملك على هذا القرار يصدر المجلسان بالاتفاق مع الملك قرارهما بشأن المسائل التى هى محل للتنقيح . ولا تصح المناقشة فى كل من المجلسين الا اذا حضر ثلثا أعضائه ويشترط لصحة القرارات أن تصدر بأغلبية ثلثى الآراء » .

١٥٩ ـ « لا يجوز احداث اى تنقيح فى الدستور خاص بحقوق سند الملكية مدة قيام وصاية العرش » .

١٦٠ ـ « تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية بدون أن يخل ذلك مطلقا بما لمصر من الحقوق فى السودان » .

الباب السابع

أحكام ختامية وأحكام وقتية

١٦١ ــ « يعين اللقب الذى يكون لملك مصر بعد أن يقرر المندوبون المفوضون أمام الحكم النهائى للسودان » .

١٦٢ ــ « مخصصات جلالة الملك هى ١٥٠٫٠٠٠ جنيه مصرى ومخصصات البيت المالك هى ١١١٫٥١٢ جنيها مصريا وتبقى كما هى لمدة حكمه ويجوز زيادة هذه المخصصات بقرار من البرلمان » .

١٦٣ ــ « يكون تعيين من يخرج من أعضاء مجلس الشيوخ فى نهاية الخمس السنوات الأولى بطريق القرعة ومدة نيابة هؤلاء الشيوخ والنواب المنتخبين الأولى تنتهى فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٨ » .

١٦٤ ــ « يعمل بهذا الدستور من تاريخ انعقاد البرلمان » .

١٦٥ ــ « تتبع فى ادارة شؤون الدولة وفى التشريع الخاص بها من تاريخ نشر هذا الدستور الى حين انعقاد البرلمان القواعد والاجراءات المتبعة الآن » .

ومع ذلك يجب مراعاة عدم مخالفة ما يوضع من الأحكام للمبادىء الأساسية المقررة بهذا الدستور » .

١٦٦ ــ « تعرض على البرلمان عند انعقاده ميزانية سنة ١٩٢٣ ــ ١٩٢٤ المالية ولا يسرى القانون الذى يصدر بميزانية السنة المذكورة الا عن المدة الباقية منها من يوم نشره ، أما الحساب الختامى للادارة المالية عن سنة ١٩٢٢ ــ ١٩٢٣ فيعتبر كانه مصدق عليه من البرلمان بالحالة التى صدق عليه بها مجلس الوزراء » .

١٦٧ ــ « اذا استحكم الخلاف بين المجلسين على تقرير باب من ابواب الميزانية يحل بقرار يصدر من المجلسين مجتمعين بهيئة مؤتمر بالأغلبية المطلقة » .

« ويعمل بذلك الى أن يصدر قانون بما يخالفه » .

١٦٨ ــ « كل ما قررته القوانين والمراسيم والأوامر واللوائح والقرارات من الأحكام وكل ما سن أو اتخذ من قبل الأعمال والاجراءات طبقا للأصول والاوضاع المتبعة يبقى نافذا بشرط أن يكون نفاذها متفقا مع مبادىء الحرية والمساواة التى يكفلها هذا الدستور وكل ذلك بدون اخلال بما للسلطة التشريعية من حق الغائها وتعديلها فى حدود سلطتها على أن لا يمس ذلك بالمبدأ المقرر بالمادة السابعة والعشرين بشأن عدم سريان القوانين على الماضى » .

١٦٩ — « تعتبر أحكام القانون رقم ٢٨ سنة ١٩٢٢ الخاص بتصفية أملاك الخديوى السابق عباس حلمى باشا وتضييق ما له من الحقوق كان لها صبغة دستورية لا يصح اقتراح تنقيحها » .

١٧٠ — « القوانين التى يجب عرضها على الجمعية التشريعية بمقتضى المادة الثانية من الأمر العالى الصادر بتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٣٢ (١٨ أكتوبر سنة ١٩١٤) تعرض على مجلسى البرلمان فى دور الانعقاد الأول فإن لم تعرض عليهما فى هذا الدور بطل العمل بها فى المستقبل » .

١٧١ — « على وزرائنا تنفيذ هذا الدستور كل منهم فيما يخصه » .

(صدر بسراى عابدين فى ٣ رمضان سنة ١٣٤١ — ١٩ أبريل ١٩٢٣) .

(فؤاد)

٣٠ ابريل — صدور قانون الانتخابات

ولم ينته شهر أبريل حتى كان قانون الانتخابات قد صدر ، وقد كان من أوائل ما فعلته وزارة سعد باشا زغلول أن غيرت هذا القانون ، ولم يرجع أبدا الى نظامه الذى كان قائما على أن يختار كل ثلاثين ناخبا مندوبا منهم وهؤلاء المندوبون هم الذين يختارون النائب وقد أطلق عليهم اسم « المندوبين الثلاثين » .

١٤ مايو — الافراج عن أعضاء الوفد المحكوم عليهم

قدمنا فيما سبق أن أعضاء الوفد الذين تزعموا الوفد بعد اعتقال سعد زغلول ، كان قد قبض عليهم وحوكموا أمام محكمة عسكرية انجليزية ، حيث رفضوا ان يعترفوا بها فضلا عن أن يدافعوا عن أنفسهم وقال حمد باشا الباسل عبارته الخالدة « لكم أن تحكموا علينا ، لا أن تحاكمونا » ولما صدر الحكم بعد ذلك بالاعدام هتفوا بحياة مصر ، وقد عدل الحكم فيما بعد الى سبع سنوات من السجن ، فلما ان صدر الدستور وبدأت انجلترا تغير سياستها كما رأينا ، أفرجت عن هؤلاء السجناء وهم :

حمد الباسل باشا ، مرقص حنا بك ، الاستاذ ويصا واصف ، الاستاذ واصف بطرس غالى ، علوى بك الجزار ، مراد بك الشريعى ، جورج بك خياط ، كما أفرج عن كثير من المعتقلين السياسيين .

٩ مايو — انتخاب حافظ بك رمضان رئيسا للحزب الوطنى

اشتملت هذه الموسوعة فى جزئيها الثالث والرابع على تفصيلات نشاط الحزب الوطنى ، فى ظل رئيسيه السابقين مصطفى كامل باشا ومحمد بك فريد ولكن بموت هذين الزعيمين من ناحية واندلاع ثورة ١٩١٩ من ناحية اخرى انتقل النشاط الوطنى الى الوفد وزعامة سعد باشا زغلول ، وليس أدل على ذلك من بقاء رئاسة الحزب الوطنى شاغرة حتى ذلك التاريخ « ٩ مايو ١٩٢٣ » حيث اجتمعت اللجنة الادارية

للحزب الوطنى واختارت الاستاذ محمد حافظ رمضان ليكون الرئيس الثالث للحزب الوطنى بعد مصطفى كامل ومحمد فريد ، ولما كنت معـاصرا لهذه الاحـداث ، بل واتصلت بالرئيس الجديد بان اشتغالى بالسياسة وأشهد أن الرئيس الجديد لم يكن على مستوى سابقيه او حتى نصف هذا المستوى ولست أدرى حتى بعد هذا العمر الطويل فيم كان اختياره ، لقد كان هناك رجلان يصلح كلاهما لرئاسة الحزب ، أحدهما على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل والذى اضطهد واخرج من الجيش بسببه ، والثانى هو الشيخ عبد العزيز جاويش وهو المصرى الأول والاخير الذى أكتتب الشعب المصرى لكى يقلده وساما ، حقا أن الرجلين كانا مبعدين خارج مصر بسبب انتمائهما للحزب الوطنى ، ولكنهما لم يلبثا أن عادا وانا نفسى شهدت حفلا انتخابيا (سأعود للتحدث عنه فى ذكرياتى) للاستاذ على فهمى كامل ، وكان قد رشح نفسـه ضـد سعد زغلول ، وقد كان ذلك يعتبر قمة الثقة بالنفس والشجاعة والجرأة ان لم يكن الفدائية .

وكيفما كان الأمر فقد أصبح حافظ رمضان رئيسا للحزب الوطنى ، وكان من أوائل ما عمل أن أرسل برقية مجاملة رقيقة لسعد باشا زغلول فى أوربا ، وتلقى عليها ردا رقيقا ولكنه كان مختصرا جدا .

٣٠ مايو ـ صدور قانون الاجتماعات

ومضت الحكومة فى اصدار حلقة جديدة من سلسلة القوانين التى يبـدو ان الانجليز اشترطوا صدورها قبل الغاء الأحكام العرفية فصدر القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ خاصا بالاجتماعات والمظاهرات فى الطرق العمومية ، وسوف نرى أن البوارج البريطانية ستأتى الى مصر مهددة منذرة اذا حدث مساس بهذا القانون .

٣١ مايو ـ الافراج عن المنفيين فى سيشل

وكان نفر من اعضاء الوفد وهم :

فتح الله باشا بركات ، الأستاذ مكرم عبيد ، مصطفى بك (باشـا) النحاس ، عاطف بك بركات ، سينوت بك حنا .

كل هؤلاء كانوا قد اعتقلوا مع سعد زغلول ونفوا معه الى جزيرة سيشل ، وقد رأينا أن سعد زغلول كان قد نقل الى جبل طارق ثم أفرج عنه فى ٢٧ مارس ولكن زملاءه السابقى الذكر ظلوا رهن الاعتقال الى أن أخبرهم حاكم جزيرة سيشل فى ٣١ مايو انهم أصبحوا أحرارا .

٢ يونيو ـ صدور قانون الأحكام العرفية :

وصدور قانون ينظم أعلان الأحكام العرفية فى حالة الخطر الخارجى أو الداخلى ، وقد ندد عبد الرحمن الرافعى فى تاريخه باصدار هذا القانون الذى كان يجب على البرلمان ، وهى مثالية مارسها عبد الرحمن فى كل ما كتب نشـكره عليها بطبيعة

الحال ، أما نحن الذين ندرك ان الانجليز اشترطوا هذا ليلغوا هم الأحكام العرفية فنشكر يحيى باشا ابراهيم الذى عمل بكل جد وهمة لازالة كل المعوقات التى تحول دون الغاء الحكم العسكرى الانجليزى واجراء الانتخابات التى سوف تجىء بسعد زغلول رئيسا لمجلس الوزراء .

٥ يوليو ــ صدور قانون التضمينات :

وكان أخطر القوانين الذى اشترطت انجلترا صدوره لالغاء الاحكام العسكرية هو « قانون التضمينات » الذى يقرر حصانة لكل ما قامت به السلطة الانجليزية فى ظل هذا القانون ، واصدرته الحكومة فى « ٥ يوليو » وقابل الرأى العام صدوره باستنكار شديد .

٥ يوليو ــ الغاء الانجليز للأحكام العرفية :

وبرت انجلترا بوعدها أو بالأحرى مندوبها السامى فى مصر الفيلد مارشال اللورد اللنبى كما وقع قرار الغاء الأحكام العرفية ، وأفرجت السلطة الانجليزية عن بعض المحكوم عليهم وفى ١٨ يوليو اصدرت الحكومة قانونا ينظم طريقة تعويض الأجانب عند اعتزال وظائفهم وقد قوبل بدوره بعاصفة من الاستنكار الشديد ، وما زالت ذاكرتى تختزن منذ ذلك العهد كيف كان يقال انه يراد بهذا القانون افلاس مصر .

٢٠ يوليو ــ القرار بامكان عودة المبعدين :

وأعلن مجلس الوزراء أخيرا ، القرار الذى طال شوق الجماهير اليه ، وهو حرية المواطنين المبعدين (وعلى راسهم سعد زغلول بطبيعة الحال) بأمر السلطة الانجليزية ، فى العودة الى مصر ، وفى راينا أن لو عجلت الوزارة بهذا الاعلان لوفرت على نفسها تسعة اعشار النقد الذى وجه اليها ، ولكنها لم تفعل الا أن اذن لها الانجليز أن تفعل ، وسوف تنتظر مصر قرابة شهرين قبل أن يعود سعد زغلول باشا من تلقاء نفسه .

٢٤ يوليو ــ النصوص الخاصة بمصر فى معاهدة لوزان :

قدمت فى ذكرياتى عن طفولتى عام ١٩٢١ كيف شغلت حرب تركيا وانتصاراتها المدوية على اليونان ، اذهان الشعب المصرى وكيف كنت اطالع لجيراننا من اصحاب الدكاكين جريدة الأفكار التى كانت تتوسع فى تفاصيل هذه المعارك .

ولقد مضت الحرب حتى نهايتها بانتصار تركيا الساحق على اليونان ، والذى توج بالانتصار على الحلفاء وعلى راسهم انجلترا نفسها ، فقد خيل اليها انها تستطيع ارهاب « الغازى مصطفى كمال » بأن تعلن أن اساطيلها الرابضة فى مياه

الاستانة سوف تتصدى لمقاومته اذا هو زحف على استنبول (الاستانة) ولكن الجيوش التركية مضت فى زحفها المظفر ودخلت الاستانة ، وهنا تراجع الانجليز والحلفاء ودخلوا فى مفاوضات جديدة مع تركيا لتعديل معاهدة « سيفر » .

وعقد فى « لوزان » بسويسرا مؤتمر جديد فى العام السابق (١٩٢٢) أى فى عهد وزارة ثروت باشا ، بذل جهودا لاشراك مصر فى هذا المؤتمر ولكن وزارته سقطت قبل امكان التنفيذ ، وأرسل الشعب المصرى من ناحيته وفدين للاشتراك فى المؤتمر وكان الحزب الوطنى هو مرسل أحد الوفدين ، حيث ارسل الوفد المصرى ، وفدا آخر برئاسة حسن باشا حسيب ، وقد اتحد الوفدان ، ثم اختلفا وتوجه كل منهم الى الغازى مصطفى كمال فى تركيا ، واخيرا لم تشترك مصر فى المؤتمر ، ومع ذلك فقد جاء تعديل معاهدة سيفر الى معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ، لصالح مصر ، فبدلا من اعتراف تركيا بالحماية الانجليزية على مصر ونزولها عن سيادتها على مصر والسودان لانجلترا ، اصبح هذا التنازل لشعب البلدين على ما اعلن هذا عصمت اينونو رئيس الوفد التركى ، واليك نص مواد المعاهدة المتعلقة بمصر :

المادة ١٧ — يسرى مفعول تنازل تركيا عن كل حقوقها على مصر والسودان من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

المادة ١٨ — صارت تركيا محررة من كل تعهداتها الخاصة بالقروض العثمانية المضمونة بالجزية المصرية ، وهى القروض المعقودة فى سنوات ١٨٥٥ و ١٨٩١ و١٨٩٤ وصارت المدفوعات السنوية التى تدفعها مصر لوفاء هذه القروض الثلاثة جزءا من مدفوعات الدين المصرى العام ، وصارت مصر محررة من كافة التعهدات الأخرى المتعلقة بالديون العثمانية .

المادة ١٩ — ان المسائل الناتجة عن الاعتراف بالدولة المصرية التى لا تسرى عليها الاحكام الخاصة بالاملاك المنسلخة من تركيا بمقتضى هذه المعاهدة ستسوى فيما بعد باتفاقات بين الدول صاحبات الشأن فى الظروف التى تعينها .

المادة ٩٩ — ابتداء من نفاذ هذه المعاهدة وبدون مساس بالنصوص الواردة فيها تنفذ من جديد المعاهدات والاتفاقات التى لها صبغة اقتصادية او فنية المبينة فيما يلى بين تركيا والدول المتعاقدة فيها .

١٧ سبتمبر — عودة سعد زغلول الى مصر :

منذ أفرج عن سعد زغلول من جبل طارق والشعب المصرى يترقب عودته ولكن حالته الصحية جعلته يبقى فى أوروبا للاستشفاء فقصد فرنسا ثم استقر به المطاف فى « اكس ليبان » فلما صدر فى يوليو من هذا العام قرار رفع الحظر عن المبعدين ، زاد تطلع الشعب لعودة سعد زغلول ، ولكنه لم يرجع على الفور ومضى

قرابة شهرين وسعد زغلول خارج مصر وغنى عن البيان أنه كان محور النشــاط السياسي وهو خارج مصر ، وكانت الصحف الفرنسية والانجليزية والمصرية تقصده لاستطلاع رايه فى شتى الأمــور ولابد أن الانتخابات المصرية التى كانت قادمة فى الطريق ، كانت شغل سعد زغلول الشاغل ، ولابد انه أدرك بثاقب فكره وتجربته انه لكى يفوز فى هذه الانتخابات بالاغلبية ، فلابد له من تحسين علاقته بالسراى ، وقد كان توفيق نسيم منذ وزارته هو صاحب فكرة التقريب بين الوفــد والقصر ويبدو أن توفيق نسيم مضى حتى بعد خروجه من الحكم على مواصلة هذه المساعى التى كان من شأنها ان تعود بالخير ، وعلى كل الاطراف المعنية وبالتالى على مصر ، ومن هنا فنحن نتصور ، أن سعد زغلول لم يعد الى مصر الا بعد نجاح المفاوضات بينه وبين ملك مصر احمد فؤاد ، فنرى سعد زغلول يقصد بمجرد ان وطأت قدماه ارض الاسكندرية الى سراى رأس التين ليوقع فى سجل التشريفات ، ويدعى لمقابلة الملك ويمكث فى حضرته مدة طويلة ، وكل ذلك لا يمكن الا ان يكون بترتيب سابق ، ذلك ان سعد زغلول لم يتردد فى أن يرفض علنا فكرة تســـجيل اسمه فى دفتر التشريفات عقب عودته من منفاه فى المرة الاولى .

وكانت عودة سعد زغلول باشا من أوروبا على ظهــر الباخرة اللوتس (نفس الباخرة التى استعملتها فى سفرى وعودتى من أوروبا بعد هذا التاريخ بنيف وعشرة أعوام) ولن نسهب كثيرا فى وصف عظمة الاستقبال الشعبى الذى قوبل به ســعد زغلول سواء فى الاسكندرية او على طول الطريق من الاسكندرية الى مصر او فى محطة مصر حتى وصــل الى بيته فان شرح ذلك يطول وستراه مســجلا بكل تفصيله فى صحف تلك الأيام ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان دون استقباله عنــدما عاد من المنفى فى المرة الأولى فحيث ظل سعد زغلول هو رجل الشعب الأول فقد كان الشعب فى المرة الأولى ثائرا أما هذه المرة فقد كانت الثورة قد هــدأت ومازلت اذكر أننى ذهبت هذه المرة (١٢ سنة) لسماع خطبة من خطب سعد زغلول عقب عــودته فى السرادق الذى اقيم فى الارض الفضاء المجاورة لبيت الامــة (ضريح سعد فى الوقت الحاضر) .

ولما كنت فى آخر السرادق فلم اســمع من سعد زغلول سوى جملة واحــدة (دى خبطتين فى الراس توجع) اشارة الى أنه كان قد خطب قبل ذلك ولكى تكمل صورة هذا الاجتماع فمازلت اذكر ان الفنان « حسن فايق » القى (مونولوجا) .

٢٧ سبتمبر — نجاح الوفد الساحق فى الانتخابات :

كان قانون الانتخاب يجــرى الانتخابات على دورتين كما قدمنا ، فقســـم الناخبون الى كشوف يتضمن كل كشف ثلاثين ناخبا عليهم أن يختاروا مندوبا منهم يكون هو الذى ينتخب نائب الدائرة ، ومن الواضــح أن سعد زغلول قــد عاد فى الوقت المناسب ليضع كل ثقله وما تحدثه الاحتفالات بعودته من تأثير على هــذه

الانتخابات ، وقد كان لسعد زغلول ما أراد فقد أسفرت انتخابات المندوبين عن نجاح ساحق ماحق للوفد ، ومازلت اذكر الاخبار التى كانت تتداول من أن طباخ عدلى باشا الخاص هو الذى انتخب مندوبا حيث سقط عدلى ، وما ذلك الا لأن طباخ عدلى باشا الخاص كان وفديا ، واحسب ان هذه الشائعة سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة تكشف لك عن الروح التى كانت تسود البلاد ، ولما كانت الجولة الثانية والأخيرة لاختيار نواب الامة قد جرت فى مستهل عام ١٩٢٤ (١٢ يناير) فنحن نرجىء الحديث عن النتائج النهائية لهذا العام .

وقد حضرت اجتماعا انتخابيا لعلى فهمى كامل وكان قد رشح نفسه ضد سعد زغلول . وعقد الاجتماع فى أرض فضاء فى (درب الشمس) وكان مجاورا لبيتنا ومازلت اذكر اننى تأثرت كثيرا بما قال على فهمى كامل مما لا اذكر منه الآن حرفا واحدا ، غير ان الاجتماع مر هادئا ولم يعكره معكر .

تبادل الرسائل بين ثروت وسعد زغلول :

انتهت شهور أكتوبر ونوفمبر وديسمبر وعملية الانتخابات هى الشغل الشاغل للبلاد والأحزاب ، ويقول الدكتور حسين هيكل فى كتابه « مذكرات فى السياسة المصرية » ان حزب الاحرار الدستوريين ، كان يؤمل فى الفوز بعدد كبير من المقاعد وكذلك الحزب الوطنى (وانهم فوجئوا بعد ذلك بنجاح الوفد الساحق) مع ان بحسب الدكتور هيكل أن يتذكر الواقعة التى قررها هو من حيث اعتذار عدلى يكن نفسه عن قيادة الحملة الانتخابية بحيث لم يلق خطاب الحزب عن الانتخابات ليظهره هذا الحادث البسيط لمن قوة سعد الكاسحة التى لم يشأ عدلى يكن نفسه ان يتصدى لها .

وعندما حاول عبد الخالق ثروت ان يذكر بنفسه وأنه صاحب الفضل فيما شرع سعد زغلول يجنى ثمراته ، ومع ذلك فما انفك منذ عودته يندد بتصريح ٢٨ فبراير ويصر على أنه نكبة للبلاد ودعا ثروت سعد زغلول الى اسدال ستار على الماضى وفتح صفحة جديدة يسودها الاتحاد ، فرد عليه سعد زغلول ردا قاسيا ممعنا فى القسوة فى هجاء عبد الخالق ثروت ، وقد فكرنا فى أن نثبت نص سعد زغلول على هذا الرأى بل نحن نخالفه كل المخالفة ، فعبد الخالق ثروت ومن بعده يحيى ابراهيم هما أصحاب الفضل فى أعلان استقلال البلاد وحصول الشعب على الدستور .

انما أردنا تسجيل الخطاب لبلاغته الرائعة بحيث يمكن اعتباره تحفة بيانية يتيه بها عصر سعد زغلول على النثر العربى فى كل عصوره ، كما يتيه بشعر شوقى على كل العصور

ذكريات الصبا عن هذه السنة :

كتاب ضخم طويل عريض أستطيع بعون الله ان اكتبه تحت هذا العنوان ، ذلك أن هذه السنة من تاريخ حياتى ، هى من أخصبها ففيها خرجت الى الوجود

عن طريق النشر الفكرة التى لخصت حياتى فى العمل من اجلها وهى « نصر الدين الاسلامى » ولما كنت مصريا والاسلام لا ينتصر ويعز الا بانتصارها وعزها فقد تلخصت حياتى فيما بعد لتحقيق « مجد مصر » وعزها ليكون ذلك سبيلا لعز الاسلام ونصره .

« ونصر الدين الاسلامى » اسم للجمعية التى أسستها هذا العام بمعاونة صديقى سيد فتحى رضوان ، وحررت منشورها الاول واجرى عليه فتحى رضوان تعديلا بحذف فقرات منه راى فيها تطويلا وحشوا بدون مبرر ، وصدر المنشور الأول ممهورا بتوقيعنا نحن الاثنين وثلاثه آخرين انضموا الينا وجمعنا من انفسنا عشرة قروش طبعنا بها المنشور (٣٠٠ نسخة) وقدمته مزهوا لمدرس الديانة (الشيخ مصطفى عجاج) باعتبار ان هذه الحركة من غرس يديه واعددت المنشور الثانى متضمنا لاركان الاسلام الخمسة ، ولكننا هذه المرة طبعناه على ورق اجود ولدى مطبعة أشهر (مطبعة ظاظا) ولكن الجمعية توقفت بعد ذلك ، فقد استدعانا ناظر المدرسة (محمد توفيق البرادعى) وراح يندد بنا وكيف نفكر ونحن احداث صغار ان نقوم بما ينبغى أن يقوم به كبار الشيوخ والعلماء ، والقصة طويلة وضافية الذيول ، ولكن حسبنا هذا القدر .

ونعود الى صداقتى بسيد فتحى رضوان فقد بدأت من العام السابق (ثانية ابتدائى) ولكنها نمت واشتدت فى هذا العام ، بحيث أصبحنا لا نرى الا معا ليس فقط فى فترة الدراسة ، بل وبعدها ، بحيث كنا لا نفترق بعض الاحيان الا عند النوم .حيث يذهب هو الى بيته او اذهب انا فقد كنا لا نفترق ، وكان بيتهم فى شارع الخليج المصرى قرب ميدان السيدة (الذى لم يكن بالاتساع الحالى كما قدمت) وكان فى الميدان القديم موقف للحمير وحوض لشرب الدواب وكان بالميدان سبيل لارواء ظمأ عابرى السبيل ، وكان به نهاية الترام وعربات سوارس التى تجرها البغال (بدلا من الاوتوبيس اليوم) وكان ثمن التذكرة مليمان .

ولا أظن ان هناك لونا من ألوان النشاط الادبى أو الفنى أو الرياضى لم نكن نمارسه ، فالملاكمة وكان بطلاها العالميان فى ذلك الوقت هما كاربنتيه الفرنسى ، ودمبس الأمريكى وسرعان ما هوينا الملاكمة واصبح عندنا القفازات الجلدية الخاصة وتسميت باسم دمبس حيث تسمى فتحى باسم كاربنتيه الفرنسى ، وهوينا المصارعة ومارستاها وفى كرة القدم الفنا فريقا سداسيا واقمنا مباريات عامة ، وكان مركز نشاطنا هذا « الحوش » فى درب الشمس وكان ينافسنا فى الدرجة الاولى ويتفوق « حوش أيوب بك » .

ولم يكن اشتغالنا بالادب اقل من ذلك فقد كنا نطالع المجلات ونتصل ببعضها فقد كان هناك مجلة تسمى « النديم الروائى » وهى مجلة انبثقت من مجلة النديم واكثر شهرة وهى مجلة « الروايات المصورة » ونشرت لى مجلة النديم مرة أو

مرتين شذرات تحت عنوان « هل تعلم » وطبعا كنت أنقل هذه المعلومات من كتب أو مجلات أقدم عهدا .

وكانت هناك مجلة أخرى أكثر جاذبية عن السينما تسمى « الصور المتحركة » وهذه بدورها ، أراسلها وثمة مجلة ثالثة مصورة رياضية لا أحسب أن مصر شهدت مثيلا لها من قبل أو من بعد وكانت تسمى « المضمار الرياضى » وأنا اليوم اعلم أن محررها « أسعد داغر » كان من الأدباء والصحفيين المرموقين ، وقد كان يحرر فيما بعد السياسة الخارجية بجريدة الاهرام فكنت اطالع بشغف ما يكتبه، ولم اكن أعرف أنه صاحب المجلة التى فتنت بها صغيرا على ان نشاطنا الاكبر كان دينيا واشترينا (قباقيب) لنضعها أمام المصلى ليستعملها الطلاب عند الوضوء كما رحنا نتنافس فى صلاة النفل وانى لأذكر الآن ، اننى صليت فى يوم وليلة مائة ركعة على سبيل التباهى والتفاخر .

سيد درويش ونشاطنا الفنى :

ولم يكن نشاطنا الفنى (تمثيل وغناء وانشاد) يقل عن كل ذلك ، تحت تأثير ما أشاعه سيد درويش ، غير انى ارجىء هذا الحديث الى ختام العام التالى فبى شوق للاسراع الى عام ١٩٢٤ ووزارة سعد زغلول .

عام ١٩٢٤

تمهيد ــ بين يدى حوليات شفيق باشا :

قبل أن أمضى فى تسجيل الوقائع الثابتة لاحداث عام ١٩٢٤ لا يسعنى الا أن أسجل ما اشعر به من دين كبير لحولية احمد شفيق باشا عن عام ١٩٢٤ فقد بعثت امامى هــذا العام بكل تفاصيله ومقالاته وما ألقى فيه من خطب ، ولما كنت فى هذا التاريخ قد استكملت وعيى الذى جعلنى أشارك فى الأحــداث عن وعى وادراك حتى لادفع ثمن هذا ضربا وايذاء مما سأعرض له فى ختام حــديثى عن السنة ، وأنا أروى ذكرياتى الخاصة . ولذلك فقد كفانى أن اطالع كتاب شفيق باشا كى أعيش فى الجو الذى ساد هذا العام وما على المؤرخ بعد ذلك الا ان يطلع على أفكار المعارضين لسعد زغلول بعد ان تبلورت فى كتب ، صيغت بعد تقادم العهد كمذكرات الدكتور محمد حسين هيكل (لسان حال الأحــرار الدستوريين) وعبد الرحمن الرافعى (فى اعقاب الثورة) ففضلا عن كونه من الحزب الوطنى فهو شقيق أمين بك الرافعى محرر « الأخبار » وقد كانت أكبر خصم لسعد ، فاذا أضاف الانسان الى ذلك مطالعة ذروة الدفاع عن سعد زغلول وهو الاستاذ عباس محمود العقاد الذى كان يكتب **يوميا** فى جريدة البلاغ وبناديه سعد زغلول : ب ياذا **القلم الجبار** (على ما روى العقاد نفسه) .

وأخيرا مطالعة كتاب أو أثنين لبعض المستقلين فان ذلك يعطى الانسان طمأنينة ضمير المؤرخ الذى قرأ مختلف الزوايا للعصر الذى يكون قد عاصره وعاشه .

كلمة عامة عن وزارة سعد زغلول

وليس باستطاعتى وأنا أكتب هذه السطور وقد بلغت من الكبر عتيا (٧٠ سنة) وبعد أن مر على ما مر وشهدت من الأحداث ما شاهدت ان أقاوم تسجيل ما مر فى خاطرى من تصور لشخصية سعد زغلول ووزارته الأولى بعد أن طالعت ما طالعت ، مما استثار كلمات كانت مخزونة فى ذاكرتى ، وأصبحت بعد هذا الوقت الطويل ، أكثر وضوحا من حيث دلالتها على مدى ما كان عليه سعد زغلول من عظمة انسانية ، بعد أن تحول الى رمز مصر وضمير شعبها ، مما عبر عنه توفيق الحكيم فأحسن التعبير عندما قال عنه « الكل فى واحد » .

هل يلى الحكم أو لا يلى ؟

لقــد دارت المناقشات فى طــول مصر وعرضها منذ ظهر على الأفق ان نجــاح الوفد آت لا شك فيه ، هل يتولى منصب رئيس الوزارة وقد أصبح زعيم الأغلبية البرلمانية أم يترك منصب رئاسة الوزارة لغيره من أعضاء الوفد ، ليظل هو القائد الأعلى المراقب والموجه والزعيم ، وقد أدى هذا اللون من التفكير الى أن يبتعد الوفد فى مجموعه عن الحكم لتقوم وزارات ادارية ويظل الوفد يمثل فى البرلمان ذروة الوطنية والمثالية .

ومن عجب أن هذه الأبحاث امتدت الى كتب المتأخرين بعد أن تمت الأحـداث بالفعل ، فنرى رجلا كبيرا كأستاذنا عبد الرحمن الرافعي يقول في كتابه « وليته ما فعل » أى انه كان يتمنى أن لا يرأس سعد زغلول الوزارة ، ويخطىء أحد الدارسين لهذه الفترة ، اختيار سعد زغلول لرئاسة الحكومة ، أى أن تقلد سعد زغلول للوزارة بالفعل ، وكون ذلك أصبح حقيقة واقعة ، لا سبيل لتغييرها لم يمنع المناقشـة التى بدأت فى آخريات عام ١٩٢٣ وامتدت حتى أواخر يناير عام ١٩٢٤ عندما حسم سعد زغلول القضية وألف أول وزارة دستورية شعبية فى تاريخ مصر برئاسته .

وعندنا ، انه فضلا عن ان ما كان فقد كان ولابد من التعامل على أساسه فما الحاضر ، أى حاضر الا ابن الماضى وسير الأمور على هذا الوجه أو ذاك ، نقول فضلا عن ذلك ، فان الذين شغلوا نفسهم بهذه المناقشات قد اسقطوا من البحث الطبيعة البشرية من اساسها ، فلم يتصوروا ان سعد زغلول فى نهاية الأمر انسان ، والطبيعة البشرية تقوم على تحسين كل ما يحبه الانسان وتصوير الخير كل الخير فيما اختاره الانسان ، ليس فقط بالنسبة لشخصه بل وبالنسبة للنفع العام .

وها نحن فى مستهل عام ١٩٢٤ وأمامنا رجل قد بلغ السبعين ، عائد من النفى والابعاد ، أنكرت عليه السلطة المحلية والانجليزية ، ان يكون صاحب شأن فى تسيير دفة الأمور فى مصر ، ثم لاحت الفرصة لأن يكون كل شىء فى حياة مصر ، الزعيم الشعبى الاوحد ورئيس الحكومة فى ذات الوقت من يستطيع مجابهة كل الذين اضطهدوه من مصريين وعلى رأسهم الملك أحمد فؤاد أو الانجليز وعلى رأسهم اللورد اللنبى ، الحق اننا بعد هذا العمر الطويل لانتصور أن يفكر مفكر فى أن لايلى سعد الحكم (لأى سبب)الا أن يكون خصما لسعد أو على أقل تقدير لا يحبه ، واذا كان هـذا تفكير بعض انصاره فهو تفكير نظرى بحت ، أو هو سفسطائى ، أما الواقع الانسانى ، أيا كانت الظروف والملابسات ، فهو أن يشبع سعد زغلول طموحه فى أن يجمع سعد زغلول الى الزعامة رئاسة الحكومة وخاصة بعد أن أصبح ذلك هو تدعيم القـواعد الدستورية باعلاء سلطان الأمة ، وانها هى وليس الملك من يقيم الوزارات ويسقطها وسوف نرى عند استعراض النصوص كيف دارت هذه المعركة الصامتة منذ اللحظة الأولى بين الملك أحمد فؤاد وبين سعد زغلول ، فحيث رفض أحمد فؤاد الاشـارة عن قرب أو بعد للشعب فى خطاب تكليفه لسعد زغلول بتشـكيل الوزارة ، وجعل الأمر كله مرهونا بارادته ، نرى أن سـعد زغلول فى خطابه الذى اعلن فيه قبوله لتشكيل الوزارة ، أن قبوله هذا يستند الى ارادة الشعب الذى جعله زعيم الأغلبية وسوف نرى أن هذه الحرب الصـامتة قد تحولت الى ناطقة فيما بعد ، حتى اذا أسعفت الظروف الملك أحمد فؤاد بأن قلب الانجليز ظهر المجن لسعد زغلول فقدحاول أحمد فؤاد أن يجهز على سعد زغلول ، ولكنه لن ينجح كما سوف نرى ، ولسنا نملك انفسنا بعد أن طالعنا كل صفحات حكومة سعد زغلول ، الا أن نسـجل انطباعتنا .

وأول هذه الانطباعات هو احساس سعد زغلول بمدى ما وصل اليه من مكانة وقدر عند الشـعب ، ولم يمنعه تواضـعه أن يصرح بذلك فى عبارات مدوية ، كان

يقول مخاطبا النواب « لا تحرجونى لأنكم اذا احرجتمونى فقد أحرجتم الأمة » أو أن يقول انه كان يتمنى لو يجعلها (أى الحكومة) « زغلولية دما ولحما » .

وقال لمن خاطبه فى ايقاف هجوم الشعب على صحف المعارضة (كالأخبار والكشكول والسياسة) « أفتريدنى أن أحمى خصومى » كما استوقفنا انه برغم مروره فى فترتين ، الأولى حاول ان يقتصد ما استطاع الى ذلك سبيلا فى العبارات الحماسية المثيرة أما فى الفترة الثانية وهى التى تبدأ بعد الشروع فى اغتياله على يد شاب مجنون فقد أصبحت تصريحات سعد زغلول أشد تطرفا مما كان فى يوم من الأيام ، حتى ليلخص مفاوضته مع ماكدونالد رئيس الحكومة الانجليزية فى جملةواحدة « دعينا الى الانتحار فابينا أن ننتحر » وهذا الذى وصفه سعد زغلول على أنه انتحار، قد قبل خليفته ما هو أسوأ منه بمراحل ، ووصفه بأنه الشرف والاستقلال ، ولما حاولت مصر الفتاة أن تخالف هذا الرأى اتهمت « بالمروق والخيانة » .

وأشهد أمام الله انه فى كلتا المرحلتين التى اجتازهما سعد زغلول فى وزارته كان ممثل شعب مصر القوى الذى لا يهاب ولا يقبل المساس بكرامته ، وكان لا يتردد فى اظهار عذره علنا ازاء بعض تصرفات الانجليز كأن يقول للنائب « هل عندكم تجريدة » ولقد عيب عليه ذلك فى وقته ، وقال له عبد الرحمن الرافعى فى مجلس النواب : كنا نؤمل فى زعيم الأمة أن يقوى عزائمنا لا أن يدخل اليأس الى نفوسنا .

ولكننا بعد هذا العمر الطويل وبعد أن رأينا ما رأينا ، نرى فى هذه العبارة « هل عندكم تجريدة » آية صدق سعد زغلول واستقامته ، وقوته فى نفس الوقت فعندما يعلن سعد زغلول أنه مضطر لقبول هذا الشىء أو ذاك لأنه لا يملك جيشا ينفذ به ارادته ، فهذا هو صفعة فى وجه انجلترا وهى انما تعتمد على قوتها السافرة — وبعد هذا التمهيد نمضى فى سرد أحداث العام .

١٢ يناير ١٩٢٤ — انتخابات مجلس النواب

استهلت سنة ١٩٢٤ ووزارة يحيى باشا ابراهيم فى الحكم فقد كانت تمارس مهمتها التى اضطلعت بها وهى ادخال مصر تحت دائرة الحكم الدستورى ، فأعلنت الدستور كما رأينا وشفعته باعلان قانون الانتخاب الذى كان يتم على درجتين ، وأجرت المرحلة الأولى بالفعل لاختيار المندوبين « الثلاثيين » وقد عرف بمجرد اتمام هذه الخطوة أن الأغلبية ستكون للوفد ، ذلك أن الوفد كان هو الوحيد الذى له لجان فى كل مدينة بل فى كل قرية ، وكان هو وحده الذى رشح فى كل دوائر القطر ، حيث لم يجد حزبا الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى مرشحين عنهم فى كل الدوائر وفى الدوائر التى رشح فيها المستقلون أنفسهم ، كانوا يعلنون أنهم وفديون فلم يكن هناك شك فى أن الوفديين كانوا سيحصلون على الأغلبية ، ولكن التقدير كان يدور حول حصول حزبى المعارضة وغيرهم على عدد لا بأس به من المقاعد يجعل لهم وجودا مؤثرا ، فلما كان يوم الانتخابات بالفعل جاءت المفاجأة الكبرى لأحزاب المعارضة وللملك والانجليز ، حيث كان نجاح الوفد ساحقا الى درجة تشبه الاجماع وفى مذكرات

الدكتور هيكل وصف شيق لهذه الليلة التى جلسلوا فيها فى جريدة السياسة ، يتلقون انباء سقوط زعمائهم واقطابهم فى دوائر كانوا يتصورونها وقفا عليهم ، وفى حوليات شفيق باشا أسماء جميع النواب الذين فازوا ، بل صور الكثيرين منهم ، وقد فاز بعض المستقلين كما قد منا ، فلم يكادوا ينجحوا حتى أعلنوا انطواءهم تحت لواء سعد زغلول .

ولا يطمع القارىء أن أذكر أسماء جميع الناجحين ولكنى أثبت أسماء غير الوفديين فهم جديرون بالتسجيل اذ كانوا يؤلفون أول معارضة وطنية .

من الحزب الوطنى : فاز كل من عبد اللطيف الصوفانى بك ، وعبد الرحمن الرافعى وعبد الحميد سعيد وعبد العزيز الصوفانى .

من الأحرار الدستوريين : محمد محمود باشا ومحمود عبد الرازق باشا وعبد الله بك أبو حسين وعبد الجليل بك أبو سمرة وعبد الحليم العلايلى بك وتوفيق بك اسماعيل .

وحتى هذا العدد القليل ، لم ينجح الا لمعاونة الوفديين لهم لسبب أو لآخر ولابد انهم كانوا خلال الانتخابات يعلنون عدم عدائهم لسعد زغلول والا لما نجح أى واحد فيهم ، وفى كتاب عبد الرحمن الرافعى وفى مذكراته ما يدل على عظمة هذا الشعب ووعيه العجيب ، فقد وقفت لجان الوفد الى جواره تقديرا منها لوطنيته مما تحدثنا عنه فى ثورة ١٩١٩ وقد حفظ عبد الرحمن الرافعى هذا الجميل للوفديين ، واعترف انه بالرغم من انه كان يخالف سعد زغلول ويناقشه ويستجوبه ، ومع ذلك فقد كان يلقى دائما أذنا صاغية واحتراما وتقديرا لما يقول ، ايمانا من الجميع باخلاصه وصدقه وقد بقى لتكمل صورة أول مجلس نواب أن نسجل كيف سقط رئيس الحكومة نفسه (يحيى ابراهيم) دائرة منيا القمح حيث فاز عليه وفدى ، هو أحمد مرعى (والد المهندس الزراعى سيد مرعى) وهذا يشهد ليحيى باشا ابراهيم بنزاهة لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل أو من بعد .

كما أن محمد باشا محمود الذى كان قد انتخب كما قدمنا ، قد تقدم طعن فى انتخابه وقبل المجلس الطعن واسقطت عضوية محمد باشا محمود واعيد اجراء الانتخابات ، وأرسلت الحكومة الاستاذ عبد القادر مختار وكيلا لمديرية اسيوط ليعمل على اسقاطه (كما يروى الدكتور هيكل فى مذكراته) فآثر محمد محمود باشا أن لا يعيد ترشيح نفسه وقد شاءت الظروف ان تتوطد معرفتى بكلا الرجلين بعد ذلك بنيف وعشر سنوات .

١٧ يناير ١٩٢٤ — يحيى ابراهيم يقدم استقالته

من الواضح أن يحيى باشا ابراهيم كان يرغب فى أن تستمر وزارته لاجراء انتخابات مجلس الشيوخ كما أجرت انتخابات النواب ولابد أن تكون المناقشات التى دارت حول ما سوف يفعله سعد زغلول قد جعلت بعض الاحلام يدور فى ذهن الحكومة ، ولكن حديثا أجرته شركة روتر (للانباء) الانجليزية ، مع سعد زغلول عقب ظهور

الانتخابات ونشرته الصحف ، كان كافيا ليحيى ابراهيم أن يقدم استقالته ، ذلك أن سعد زغلولا قال فى الرد على سؤال وجه اليه ، قال :

« لو أتبعت القواعد الدستورية ، وجب على يحيى باشا ابراهيم أن يستقيل أمام حقيقتين كبيرتين : الأولى أن البلاد أوضحت رأيها بشكل لا يمكن الشك فيه ، والثانية أن رئيس الوزارة قد هزم فى الانتخابات وفاز عليه مرشح الوفد » .

وهكذا أسفر سعد زغلول عن رأيه فى ما سوف يكون فى المستقبل ، فان الوزارة يجب أن تستقيل ، واذ كان يحيى باشا ابراهيم قد قطع هذا الشوط للوصول بمصر الى الحكم الدستورى فلم يتطلب الأمر منه سوى يومين أو ثلاثة ليرفع للملك استقالته، فرفعها فى ١٧ يناير ، ولكن لابد أن يكون الملك أحمد فؤاد قد عدل فى خطاب الاستقالة وبدل ، حتى لا يبدو الأمر ، ان بقاء الوزارة وسقوطها رهن بارادة الأمة ، ومن هنا فسوف نرى فى آخر خطاب الاستقالة اشارة لذلك ، كما أن الملك أحمد فؤاد لم يقبل الاستقالة على الفور ، ولم يكلف سعد زغلول بتشكيل الوزارة الا بعد ذلك بأكثر من عشرة أيام ، واليك نص استقالة يحيى باشا ابرهيم :

« مولاى صاحب الجلالة »

» أوليتمونى جلالتكم ثقتكم الغالية باسناد رياسة مجلس وزرائكم فى وقت كانت فيه البلاد تجتاز أزمة لا تزال ذكراها حاضرة فى الأذهان فصدعت بالأمر قياما بواجبى نحو الوطن مستعينا بالله عز وجل ومعتمدا على تعضيد جلالتكم وقمت بتأليف الوزارة على الوجه الذى حاز القبول وقد أتمت الوزارة فى عهدها مهمة الدستور وقانون الانتخاب اللذين كانت تتوق اليهما الأمة فى عصركم السعيد ومهدت السبيل لتنفيذهما برفع الأحكام العرفية عقب اصدار قانون التضمينات الذى روعيت فيه مصلحة البلاد وتلا ذلك تحقيق جملة أمانى أعادت الى البلاد حريتها الشخصية فسادت بذلك الطمأنينة والسكينة واتخذت لدوام هذه الحالة الوسائل المشروعة التى تلجأ اليها الحكومات المتمدينة ، وتوصلا الى تحقيق مبدأ احلال المصرى محل الأجنبى عالجت الوزارة مشكلة خروج الموظفين الأجانب من وظائف الحكومة بكيفية تضمن عدم الاخلال بسير العمل وبالحالة الاقتصادية والمالية فى البلاد وذلك باصدار قانون التعويضات الذى خفف كثيرا من وطأة الطريقة التى رسمت لتعويض الموظفين الذين يعتزلون خدمة الحكومة ودفع مضار خروجهم دفعة واحدة بما كان يترتب عليه وقوف حركة الأعمال فى مختلف الادارات ، ولما تمهد السبيل لانفاذ الدستور جرت الحكومة فى اجراء الانتخابات على مبدأ الحياد التام فأحاطت الانتخابات فى جميع أدوارها بالضمانات الكافلة لتحقيق حرية الآراء الى أن تمت عملية الانتخاب لمجلس النواب ويسعد الوزارة أن تكون عملية الانتخاب قد انتهت مقرونة بمظاهر الارتياح والرضا العام ، وقد كان فى عزم الوزارة أن تتم عملها فى انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ بوسائل الحياد والضمانات التى اتبعت فى انتخاب أعضاء مجلس النواب غير أن فريقا من الأعضاء المنتخبين لهذا المجلس أظهروا نزوعا الى الرغبة فى تغيير الوزارة قبل تمام

عملية الانتخاب لمجلس الشيوخ ، ولو أن هذه الرغبة ليس من شأنها أن تؤدي الى تغيير الوزارة الا انى رايت أنا وزملائى عملا بمبدأ الحياد الذى لزمناه الى الآن ان نرفع الى جلالتكم هذه الاستقالة .

« وانى لجلالتكم على الدوام العبد الخاضع والخادم الأمين » .

يحيى ابراهيم

القاهرة فى ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ هـ (١٧ يناير سنة ١٩٢٤ م) .
وقبل الملك استقالته فى ٢٧ يناير .

٢٨ يناير — تكليف سعد زغلول بتشكيل الوزارة :

بقيت وزارة يحيى باشا ابراهيم بعد استقالتها ولم يكن لذلك أى مبرر سوى رغبة الملك فى تأكيد سلطته ، غير انه لما كان الأمر كله هو تجربة انجليزية ، فربما كان سعد زغلول زعيم الأمة والحكومة معا أقدر من فى مصر لقبول الصيغة الانجليزية ، فقد كان لا مناص من تكليفه بتشكيل الوزارة ، فلم يكد سعد يكشف عن رغبته فى تولى الوزارة بنفسه ، وعلم الانجليز بهذا العزم ، حتى أشاروا على الملك أن يخطو الخطوة الواجبة والمرغوبة فى ذات الوقت ، وهى تكليف سعد زغلول بتشكيل الوزارة، ولكنا سنرى أن خطاب التكليف قد خلا من أى اشارة الى الانتخابات ، فضلا عن ارادة الأمة ، وانما كان أحمد فؤاد يختار سعد زغلول كما يختار أى انسان آخر على هواه ، واليك نص التكليف :

« عزيزى سعد زغلول باشا »

« ولما كانت آمالنا ورغائبنا متجهة دائمة نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهته وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهدا جديدا من أسمى أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجوه لها من رفعة الشأن وسمو المكانة ولما أنتم عليه من الصدق والولاء وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأى فى تصريف الأمور وبما لنا فيكم من الثقة التامة قد اقتضت ارادتنا توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للاخذ فى تأليف هيئة الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالى به ، ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا بالخير والسعادة انه سميع مجيب » .

صدر بسراى عابدين فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ هـ (٢٨ يناير ١٩٢٤)
ومما يلاحظ فى كتاب الملك انه لم يجعل من أسباب تكليفه سعدا بتأليف الوزارة انه

نال ثقة الأمة فى الانتخابات ، بل لم يشر اليها اطلاقا ، واقتصر الكتاب على العبارات التقليدية التى تكتب لمن يختاره ولى الأمر لتأليف الوزارة ، ولعل الملك اراد بهذا

الاغفال المتعمد ان لا يعترف بالأساس الدستوري لقيام الوزارات وسقوطها ولا يعترف بسلطة الأمة وبحقها فى اختيار حكامها ، وقد أكمل سعد هذا النقص فى جوابه الى الملك ، اذ جعل أول سبب لولايته الحكم احترام ارادة الأمة وارتكاز الحكومة على ثقة وكلائهـا .

سعد زغلول يجعل ((الأمة مصدر السلطات))

ورد سعد على خطاب التكليف ردا مطولا حرص فيه كل الحرص على اعلاء سيادة الأمة وأن قبوله تشكيل الوزارة ، انما ينبع من أعماله لمشيئة الأمة التى أولته ثقتها الغالية فى الانتخابات ، ورغبة من سعد زغلول فى تأكيد هذا المعنى وتعميقه ، فقد راح يكرره بأكثر من معنى وأسلوب كما تتجلى قوة الرجل واستقامته ، انه تمسك بكل ما سبق له أن رفضه أو أنكره ، واعتبر ان قبوله الوزارة لا يعنى شيئا من ذلك ، كما لا يعنى تنازل حكومته عن الاستقلال التام لمصر والسودان ، واليك النص :

((مولاى صاحب الجلالة))

« ان الرعاية السامية التى قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف توجب على والبلاد داخلة فى نظام نيابى يقضى باحترام ارادتها وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها الا أتنحى عن مسئولية الحكم التى طالما تهيبتها فى ظروف أخـرى وأن أشكل الوزارة التى شاءت جلالتكم تكليفى بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائهـا اعترافا بأية حالة أو حق اسـتنكره الوفـد المصرى الذى لا ازال متشرفا برياسـته .

« أن الانتخابات لاعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جـلاء اجماع الأمة على تمسكها بمبادىء الوفـد التى ترمى الى ضرورة تمتع البـلاد بحقهـا الطبيعى فى الاستقلال الحقيقى لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسيا ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التى صدرت بعد ايقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدت من حرية أفرادها وشـكواها من سوء التصرفات المالية والادارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الامن وتحسين الاحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقـدم والعمران ، فكان حقا على الوزارة التى وهى وليدة تلك الانتخابات وعهدا مسئولا منها ان توجـه عنايتها الى هذه المسـائل ، الأهم فالمهم منها ، وتحصر أكبر همها فى البحث على احكم الطـرق واقربها الى تحقيق رغبات الامة فيها وازالة أسباب الشكوى منها وتلافى ما هناك من الاضرار مع تحديد المسـئوليات عنها وتعيين المسئولين فيها وكل ذلك لا يتم على الوجـه المرغوب الا بمساعدة البرلمان ، ولهذا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد ما يلزم لانعقاده فى القريب العاجل وتحضير ما يحتاج الامر اليه من المـواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمته خطيرة الشأن .

« ولقد لبثت الأمة زمانا طويلا وهى تنظر الى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديرا يدبر الكيد لها لا وكيلا أمينا يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيرا سيئا فى ادارة البلاد وعاق كثيرا من تقدمها ، فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة فى الحكومة ، وعلى اقناع الكافة بأنها ليست الا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام ، ولذلك يلزمها أن تعمل ما فى وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الأفراد وبين العائلات واحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، كما يلزمها أن تبث الروح الدستورية فى جميع المصالح وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه وذلك انما يكون بالقدوة الحسنة وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها أو الاخلال بما تقتضيه .

« هذا هو بروجرام وزارتى وضعته طبقا لما أراه وتريده الأمة ، شاعرا كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهينات خصوصا مع ضعف قوتى واعتلال صحتى ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمانا طويلا ، ولكنى أعتمد فى نجاحه على عناية الله وعطف جلالتكم وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهالى البلاد ونزلائها » .

« فأرجو اذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامى بتشكيل الوزارة على الوجه الآتى مع تقليدى وزارة الداخلية : محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، محمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، أحمد مظلوم باشا لوزارة الاوقاف ، حسن حسيب باشا لوزارة الحربية والبحرية ، محمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة ، مرقص حنا بك لوزارة الاشغال العمومية ، مصطفى النحاس بك لوزارة المواصلات ، واصف بطرس غالى أفندى لوزارة الخارجية ، محمد نجيب الغرابلى أفندى لوزارة الحقانية .

« وأدعو الله أن يطيل فى أيامكم ويمد فى ظلالكم حتى تنال البلاد فى عهدكم ما تتمناه من التقدم والارتقاء ، وانى على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » .

سعد زغلول

تحريرا فى ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٢ (٢٨ يناير ١٩٢٤)

وصدر المرسوم الملكى يوم ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ ، وتألفت الوزارة على النحو الوارد فى كتاب سعد .

٥ فبراير — الوفد يذيع بيانا لتأكيد سلطان الأمة :

لا تحسب ان المؤرخ فى حاجة لان يطيل فى كيف استقبلت الامة حكومة الشعب ، فعلى الرغم من ان سعد زغلول وجه منذ اليوم الاول نظر المديرين ان يكفوا عما

اعتادوا عمله من تأليف الوفود لتأييد الوزارة ، فان شعور الجماهير الطاغى من الاسكندرية حتى أسوان جعل ساحة مجلس الوزراء مظاهرة دائمة بغير انقطاع ، واخيرا اضطر سعد ان يوجه للجماهير نداء ان بحسبها ما أظهرت من مشـاعر ، ومع ذلك فقد حرص سعد زغلول من ناحية أخرى أن يسجل هذه الظاهرة ، وان حكومته وليدة ارادة الشعب ، فجعل حمد الباسل باشا يصدر بيانا باعتباره وكيلا عن الوفد فأصدره ونشرته الصحف فى يوم ٥ فبراير .

٨ فبراير ــ الافراج عن المسجونين السياسيين :

اعتبر سعد زغلول بحق ان أول واجبات حكومته الشعبية هـو الافراج عن المسجونين السياسيين حتى لقـد اشار فى خطاب وزارته التى قبل الحـكم على اساسها ان الانتخابات العامة قد كشفت عن حرص الأمة على الافراج عنهم ولماكان قانون التضمينات الذى الغيت على أثره الاحكام العرفية يحوى نصا يشرك الانجليز فى موضوع الافراج عن المسجونين السياسيين ، فقد أرسل سعد زغلول يطلـع رمزى ماكدونالد رئيس الحكومة الانجليزية ، وكان سعد زغلول يعرفه شخصيا ويرغب فى بقاء حبل الود متصلا ، على رغبته فى الافراج عن المسجونين السياسيين، فلم يكد يتسلم ردا وديا من مستر ماكدونالد فى يوم ٨ فبراير ، حتى اصدر سعد زغلول فى ذات اليوم قرار الافراج عن عبد الرحمن فهمى الذى (كان سكرتيرا للوفد) وصحبه ممن حكم عليهم فى قضية المؤامرة الكبرى (١) .

ولا يزال فى ذاكرتى ، اننى كنت واحدا ممن ذهبوا الى بيت عبد الرحمن فهمى فى شارع القصر العينى لتهنئته ، ومازلت أذكر كيف كان الزحام شديدا ليلتئذ »..

ثم توالى الافراج عن المسجونين السياسيين .

١٨و١٩ فبراير ــ انتصار الكرامة المصرية فى كشف ((توت عنخ آمون)) :

اذا كان ابرز أعمال وزارة الشعب فى ايامها الاولى هو افراجها عن المسجونين السياسيين فان هذا لا يعنى أنها لم تكن تعمل كثيرا ، بل كانت تعمل عملا متصلا ، حتى لأوشك مجلس الوزراء ان يكون فى حالة انعقاد كامل وفى اقل الاحوال فقد كان يجتمع مرتين ، واذا كان لم يتعرض لانقاص مرتبات الموظفين كما اشيع ، فقد زاد عملهم الى ست ساعات بدلا من خمسة ولم يلبث أن جوبه مجلس الوزراء بأول أزمة حقيقية ، وما جعلها أزمة هى أن احد طرفيها ، كان يتألف من الليدى كارنرفون (انجليزية) ومستر كارتر (امريكى) والموضوع كان يشغل الصحافة العالمية وعلى راسها جريدة التيمس الانجليزية ، وكان موضوع النزاع يدور حول اكتشـاف مقبرة توت عنخ آمون ، فقد كان هذا الاكتشاف يهز الدنيا هزا ، فقد كانت أول مقبرة فرعونية تكتشف كاملة سليمة ، ولم تمتد لها يد السراق ومن هنا فقد حوت الكنوز التى لم يشهدها البشر من قبل أو من بعد ، وقد تم اكتشاف المقبرة قبل تولى سعد زغلول الوزارة وكان التصريح الصادر بالتنقيب ، قد صدر باسـم

(١) راجع الجزء الرابع .

اللورد كارنرفون الانجليزى وكان كارتر عالم الآثار الأمريكى يعمل لحسابه ، ولكن اللورد كارنرفون مات بعد اكتشاف المقبرة وقبل فتح الناووس (التابوت) المدفون فيه توت عنخ آمون ومازلت اتذكر أن الحديث يومها دار حول لعنة الفراعنة وان ناموسة قتلت كارنرفون . والمهم أن كارتر كان قد اعتاد أن يتصرف كما لوكان هو مالك المقبرة ، وفاته أن وزارة الشعب ، شيء جديد فلما حاول أن يمضى فى أسلوبه فى التصرف وقفت منه موقفا يصون حقوق مصر بل وكرامتها ، وأن حكومة مصر وليس السيد كارتر هى صاحبة الكلمة الاولى والأخيرة ، وحاول المستر كارتر أن يتقوى بالانجليز ويستعديهم على حكومة مصر ، ورفع قضية مستعجلة أمام المحكمة المختلطة معتمدا على جنسيته الأمريكية ضد وزير الاشغال المصرى .

ولكن الحكومة المصرية أو بالأحرى سعد زغلول ، اصدرت قرارا من مجلس الوزراء بمجرد انتهاء الانذار الذى كانت وجهته للمستر كارتر والذى كان ينتهى فى ١٨ فبراير وكان القرار يقضى بالغاء التصريح الممنوح للورد كارنرفون لوفاته ، وان الحكومة المصرية على استعداد لمنح ليدى كارنرفون تصريحا جديدا بشروط جديدة . وهذا سقطت صفة كارتر ، ولم يبق أمامه الا أن يتكلم بأدب واحترام لمصر وكرامة مصر وهو ما حدث بعد ذلك ، فصينت ليس فقط كرامة مصر من الناحية المعنوية ، بل وكنوز مصر التى لا مثيل لها فى العالم ، وانى اذ أخط هذه السطور قرب ختام (١٩٧٩) يطاف بكنوز توت عنخ آمون (المكتشفة فى ذلك الوقت) وتقف شعوب العالم شرقا وغربا (هى الآن فى أمريكا) امام هذا الفنى والفن والعبقرية . ومازلت اذكر الآن كيف انتابت الدنيا آنذاك (١٩٢٤) مايمكن ان يوصف بأنه حمى توت عنخ آمون فأصبحت الاقمشة والملابس والعطور والاثاثات والمجوهرات (وكنا نستورد كل ذلك من الخارج) وفاتنى أن أنص بصفة خاصة على المصنوعات الجلدية فكل ذلك أخذ طابع توت عنخ آمون من حيث الالوان والنقوش والخطوط .

رواية توت عنخ آمون :

وثمة معلومة عرفتها بعد عام من هذا التاريخ ، وهى ان الأستاذ محمود مراد مدرس التمثيل فى المدرسة الخديوية ، الف « اوبريت » عن توت عنخ آمون ملأها بالأناشيد والاغانى الوطنية والباهرة ، وقد مثلت فرقة المدرسة الخديوية هذه المسرحية على مسرح الكورسال وحضرها سعد زغلول بالذات ، وهو ما سمعت أصداءه عندما التحقت بالخديوية عام ١٩٢٥ .

٢٤ فبراير ـ حل أزمة تسليم الطرابلسيين :

فى يوم ٢٤ فبراير أصدرت الحكومة بلاغا رسميا انهت به احدى المشاكل التى تعرضت لها منذ اليوم الأول بخصوص عشرة من ثوار طرابلس كانوا قد التجأوا الى مصر فطالبت ايطاليا المعتدية على طرابلس تسليمهم لها ، وغنى عن

البيان ان ايطاليا ما كانت لتجرؤ على هـذا الطلب لولا وجود الانجليز فى مصر ، فصدر البلاغ الآتى نصه :

« انه تقرر بشأن الأشخاص الذين وفدوا على الأراضى المصرية من حدود برقة ، وأوقفوا بناء على طلب الوكالة السياسية لدولة ايطاليا فى القطر المصرى ان ينطلقوا فى أقرب وقت الى حيث يريدون » .

وقد قابلت الأمة هذا البلاغ بالبشر والترحاب وقد اعتبرته انتصـارا كاملا لحكومة الشعب ، حيث الامر فى حقيقته كان نصف انتصار ، فقد فهم الشـعب من عبارة « ان ينطلقوا الى حيث يريدون » ان اللاجئين الطرابلسيين سـيكونون أحرارا ، حيث الحقيقة ، أن الحكومة وقد رفضت تسليمهم لنص الدستور الذى يرفض تسليم اللاجئين السياسيين ، وطبقا لتقاليد مصر التى كانت ترفض تسليم الطرابلسيين ، حتى فى عهد تركيا التى كان لها السيادة على مصر وطرابلس فى ذات الوقت، وأخيرا وهو الأهم مراعاة شعورالمصريين الذين كانوا يرون فى مقاومة الايطاليين فى طرابلس ، حربا مقدسة ، كانوا يساهمون فيها بالمال والرجال ، على ما قدمنا بالتفصيل فى الجزء الرابع ومنهم فريق ممن صـاروا بعد ذلك زعماء فى مصر من أمثال عبد الرحمن عزام باشا وصـالح حرب باشـا وعزيز المصرى باشـا وغيرهم وغيرهم .

فلا عجب ان لم يفهم الشعب من البلاغ الرسمى الا معناه الذى يتبادر على الذهن لأول مـرة ، حيث الحقيقة انه وان كانت الحكومة قد رفضت تسـليم اللاجئين السياسيين ، ولكنها فى ذات الوقت طلبت منهم ، ان يغادروا البلاد الى حيث يشاءون ومن هنا أبحنا لأنفسنا ان نصف هذا التصرف بأنه نصف انتصار .

ذكرى ٢٨ فبراير :

وجاءت ذكرى ٢٨ فبراير لأول مرة فى عهد حكومة الشعب التى تعبر عن ارادة الامة التى طالما أعلنت استنكارها لهذا التصريح ، ولابد أن هذه الذكرى وقعت يوم خميس ، فلن أروى هنا سوى ذكرياتى الخاصة ، فلم أجد فى أى كتاب من كتب التاريخ التى أرجع اليها اشـارة لهذه الذكرى التى تمثل فى حياتى أحـد معالم الطريق .

ففى هذا اليوم أضربت كل المدارس حتى مدرستنا نحن الابتدائية ، ومازلت اذكر كيف استولينا على احد قطارات الترام ، وطلبنا من السائق أن يكون تحت تصرفنا ، وان يطوف بنا القاهرة فلم يتردد الرجل ، وهكذا الفنا مظاهرة راكبة، راحت تهتف ما حلا لها الهتاف بحياة الشعب وحكومة الشعب وسقوط تصريح ٢٨ فبراير ، وبحياة الاستقلال التام لمصر والسودان ، والاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ومازلت أذكر أننى من وقت لآخر كنت ممن يتولى زمـام الهتافات وكانت

مظاهرتنا تقابل عشرات المظاهرات من أمثالها ، وكلها تستعمل مركبات الترام ولم يتعرض الانجليز ، فضلا عن رجال البوليس المصرى لهذه المظاهرات وعدت الى البيت فى خاتمه المطاف وقد بح صوتى ، ولكنى كنت مغتبطا قرير العين ولم أكن ادرى ما الذى ينتظرنى فى المدرسة يوم السبت عندما نعود اليها . كانت الحصة الأولى ألعاب رياضية وكان مدرسنا فيها ، هو أهم مدرس فى المدرسة على الاطلاق (حسين أفندى سليمان) وكان يدرس لنا اللغة الانجليزية وكان فوق ذلك (وهو الأهم) مدرب ، أو قل المسئول عن فريق الكرة لمدرسة محمد على الاميرية ، وقد كان الفريق شيئا رهيبا طبق مصر آنذاك شهرة باعتباره من فرق مصر الاولى ذات الأهمية بعد فريق « حجازى » .

قاد حسين أفندى سليمان ، فصلنا الى حيث اعتاد ان يوقفنا فى نهاية (حوش المدرسة) وكانت تطل عليه بعض النوافذ الخلفية لبعض المساكن الملاصقة للمدرسة ، وبعد ان أوقفنا صفا واحدا ، راح يندد فى سخرية بما فعلناه فى يوم الخميس ، فأين « العيال » صغار أن يفهموا فى امور السياسة وأقسم أن لا أحد منا يعرف شيئا عن تصريح ٢٨ فبراير ، ولذلك فقد قرر ان يسأل كل واحد منا عن هذا التصريح ومن لا يعرف فسوف يضربه خمس « خرازانات » أى عصى على يده . وبدأ السؤال من أول الصف ، وطبعا لم يكن أحد يدرى من الطلبة ، فثمة من يقول أن الجميع يهتفون بسقوط التصريح ، ومن يقول إنه سمع ذلك من أبيه أو اخيه الأكبر وهكذا، وكان كل واحد منهم يتلقى نصيبه من الخرزانات الخمس ، ووقفت أنا (قرب نهاية الصف) وأنا شديد الاغتباط ، فقد كنت أعرف الاجابة جيدا ، فلما وصلنى الدور ووجه الى حسين أفندى سليمان السؤال انطلقت أرد : أنه التصريح الذى أخذ بالشمال ما أعطاه باليمين ، فحيث يقرر استقلال مصر ، فقد راح من خلال تحفظات أربعة يهدم هذا الاستقلال وأول هذه التحفظات .. ولم اتم الجملة فقد انهال على حسين أفندى صفعا وركلا وقد تملكه الغيظ وراح يصرخ فى وجهى: انت حتتفلسف ، وهكذا لم اضرب الخمس عصى ، ولكنى ضربت وأهنت بما فيه الكفاية .

ولعل ذلك يصور لك الجو العام الذى كانت تعيش فيه مصر وكيف لم يمنع هذا من وجود أفراد يرون غير ما ترى الأغلبية الساحقة .

الصراع بين سعد زغلول والملك وتحكيم أجنبى :

قدمنا أنه منذ ظهور نتيجة الانتخابات وقد قام صراع خفى بين سعد زغلول وبين الملك احمد فؤاد على أيهما الرجل الاول فى حكم الدولة ، وسرعان ما تفجرت الأزمة لتبدو جلية على السطح ، فلم تكد انتخابات مجلس الشيوخ تتم فى ٢٣ فبراير لنجاح الوفديين النجاح الساحق ، وجاء أوان تعيين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ وينص الدستور على ان الملك هو الذى يعين هذا القدر ، وتصور الملك فؤاد أن

حقه مطلق فى هذا التعيين ، غير ان الدستور من الناحية الأخرى يحتم على الملك ان يمارس سلطاته من خلال الوزراء المختصين ، فهم المســئولون أمام البرلمان ، وتاسيسا على ذلك فقد تمسك سعد زغلول ، ان تكون حكومة الشعب هى التى ترشح أعضاء الشيوخ الذين يصدر أمر تعيينهم من الملك .

وتمسك كل من الرجلين بوجهة نظره ولم يكن هناك اى سبيل امام احمد فؤاد ليعادى سعد زغلول فى معركة لا تعرف عواقبها ، فقوة سعد زغلول فى الشعب كانت جارفة والانجليز كانت تؤيد هذه التجربة الجديدة ، ولذلك فلم يكد ســعد زغلول يعرض فكرة التحكيم على الملك حتى قبلها على الفور ، ولما كان الدســتور المصرى مأخوذا من الدستور البلجيكى ، فقد اقترح سعد زغلول ان يكون الحــكم هو البارون فان دن بوش النائب العام للمحاكم المختلطة باعتباره بلجيكيا وأن الدستور المصرى قد استمد مبادئه من الدستور البلجيكى ، وقد أصدر فان دن بوش فتواه لجانب سعد زغلول ، فقد كان الدســتور البلجيكى يقــوم على قاعدة الملك يملك ولا يحكم ، وقد انصاع أحمد فؤاد لنتيجة التحكيم ، فهو رجل يعرف كيف يحنى رأسه أمام العاصفة ، وقد كان صوت الجماهير المحتشدة فى ميدان عابدين تهتف كما لو كانت راعدا « سعد أو الثورة » .

وقد نقل لنا أستاذنا عبد الرحمن الرافعى فى كتابه ما ذكره البارون فان دن بوش فى كتابه « عشرون عاما فى مصر » عن قصة التحكيم ونحن بدورنا ننقل عنه شاكرين هذه الصفحات النابضة بالحياة ، قال :

« كنت جالسا أمام مكتبى بالنيابة العمومية فى ظهر يوم سبت من أيام شهر فبراير سنة ١٩٢٤ ، فدق جرس التليفون فجأة وكان المتكلم سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء ، ودعانى للذهاب الى مكتبه فى اليوم التالى الساعة الرابعة مساء ، فأجبته اننى سأسافر الى القاهرة صباح الخميس التالى ، ورجوته تأجيل الموعد الى ذاك اليوم نظرا الى كثرة أعمالى القضائية ، ولكن رئيس الوزراء أجاب « هذا مستحيل فالأمر مستعجل وهام » وقد تبينت خطورة الموضوع من لهجة حديثه « لم تمض عشر دقائق حتى دق جرس التليفون مرة ثانية ، وكان المتكلم حسن نشأت باشــا موضع ثقة الملك فؤاد ، سألنى عما اذا كنت سأحضر فى الموعد الذى حدده رئيس الوزراء ، فأجبت : نعم ، وعقب على اجابتى قائلا : « هذا أمر ضرورى » .

« وفى صباح اليوم التالى قمت من الاسكندرية الى القاهرة بأول قطار وعند وصولى الى محطة بنها صعد فى العربة مواطن هو الأستاذ جورج مرزباخ المحامى ودخل الديوان الذى كنت جالسا فيه كأنه البرق الخاطف ، وأخذ يحادثنى ، قال لى : « انه جاء بالسيارة خصيصا ليبلغنى ما سمعه من أحد الوزراء ، وهو اننى دعيت الى القاهرة الفصل فى خلاف دستورى خطير بين الملك وسعد زغلول باشا ، وان مصير الحكومة وهدوء الحالة فى مصر قد يتأثران من طريقة فض هذا الخلاف » .

« تظاهرت بعدم الاكتراث للأمر ولكننى كنت مقـدرا لخطورة الحالة لمعرفتى نفسية الطرفين اللذين نشأ بينهما الخلاف »

« وصلت الى رياسة مجلس الوزراء فى تمام الساعة الرابعة ، وكانت الحديقة غاصة بالوفود ، والاعلام الخضراء والحمراء ترفرف عليها ، وكنت أسمع هتافات طويلة حادة « فليحيى سعد » « أما قاعة الانتظار فكانت ملأى بالزائرين ، وعلى الرغم من كثرتهم دعانى السكرتير لمقابلة سعد زغلول باشا بمجرد وصولى ، دخلت على الرئيس ، فرأيته جالسا أمام مكتبه ، ولكنه ما كاد يقع نظره على حتى نهض وقدم لى يده مصافحا ثم قال : « أهلا وسهلا اننا فى حاجة اليك » ثم سرد لى الموضوع بلا مقدمة ، قال لى أن خلافا جوهريا نشب بين الملك والوزارة على تفسير مادة من مواد الدستور المصرى ، ومطلوب منى أن أبدى رأيى فيها اذ انها مأخوذة من الدستور البلجيكى ، وهى المادة ٧٤ من الدستور التى تنص على أن الملك يعين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ ، فهل هذا حق خاص من حقوق الملك يستعمله بدون أن يشرك وزارته؟ أم هو معلق على نص المادة ٤٨ من الدستور التى تقضى بأن الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه ، ثم ختم رئيس الوزراء حديثه بحركة قوية وقال : « هذا هو الموضوع ، ويجب أن يفصل فيه فى ظرف أربع وعشرين ساعة » .

« بدأت أعتذر بضعف ذاكرتى محاولا التخلص من الموضوع ، ثم رجوت دولته أن يترك لى وقتا لمراجعة النصوص وللتروى ، وأثناء ذلك كانت المناقشة مستمرة فكم أعجبت يومئذ بقوة الذاكرة ومتانة الحجة وبلاغة البيان التى يمتاز بها هـذا الشـيخ السبعينى من العمر ، على الرغم من آلام المرض والنفى ، بل كم دهشت لارادته التى لا تقاوم .

« وكانت الجموع الحاشدة تهتف آونة بعد أخرى ، وتطلب سعدا ، فخرج مرة ثم مرة أخرى ، وشكر المتظاهرين ، واخيرا تهيجت أعصابه فانحنى الى النافذة وصاح بصوت الآمر : « دعونى أشتغل لمصلحتكم » ، ثم أغلق النافذة بعنف وختم حديثه معى قائلا : « اذن الى الغد الساعة العاشرة فى سراى عابدين » .

« آذنت الشمس بالغروب ، ووجدت صعوبة فى أن أفسـح لنفسى طريقا بين جموع المتظاهرين المحتشدين عند خروجى من رياسة مجلس الوزراء ، وكانت الاعلام تهتز يمينا وشمالا والانظار متجهة نحو النافذة المطل منها الشيخ الطويل القامة ومد يده الى الامام كأنه يطرح بركته على الجموع » .

« وعندما دخلت صباح اليوم التالى الى مكتب الملك ، كان يداعب مسطرة صغيرة لقطع الورق ، وكل حركاته تدل على التأثر ، أما سعد زغلول باشا فكان جالسا أمامه متملكا لحواسه ، يتحدث بهدوء وسكينة .

« استمر الحديث بحضورى ، فأدركت فى الحال خطورة الأمر : مليك ربى حسب التقاليد الشرقية وما تمتاز به تلك التقاليد من صفات الحكم الفردى يحاول المحافظة على البقية الباقية من السلطة ، وأمامه رئيس وزراء متمسك تمسكا شديدا بالامتيازات

التى يضمنها له الدستور ، ولمحت من خلال العبارات الرقيقة فى الحديث أن تنافرا يوشك أن ينقلب الى كارثة اذا لم يعالج بغير ابطاء ، وسمعت زغلول باشـا أثنـاء المناقشة التى كان يتزايد نشاطها يقول :

« اذا أستشير الشعب .... »

« نظرت من الشباك الزجاجى العريض الى الفناء الواسع بميدان عابدين ، الى الرمل الأصفر الذهبى تحت أشعة الشمس ، فرأيت الرجال ذاهبين بهدوء الى أعمالهم والأولاد يمرحون ، ثم قلت فى نفسى : كلمة واحدة من هذا الرجل السياسى الذى يملك اليوم مصر كلها روحا وجسدا ـ كلمة واحدة منه تكفى لتحويل تلك الحيـاة الهادئة الى منظر رهيب من مناظر غضب الشعب .

« وفى تلك اللحظة تنبهت الى صوت سعد زغلول باشا وهو يقول :

« أتقبل يا مولاى أن يفصل جناب النائب العام فى الموضوع ، وان يكون حكمه غير قابل للمناقشـة ؟ » .

« فكر الملك هنيهه ثم قال فى لهجة تشف عن الاذعان : « لا بأس » .

« التمست أن يصرح لى بالاعتكاف قليلا ، فقادنى أحد الأمناء الى قاعة مطلة على الحدائق الملكية ... منظر جميل . هناك على بعد أرى قمة جبال المقطم مكسوة بأشعة الشمس ومحاطة بقباب المساجد ومآذنها الرشيقة ، وأمام ناظرى والى جوارى حديقة متسعة اختلطت فيها الزهور بأشجار النخيل واكتست أرضها بالخضرة .. أمام الأفق جلست وكتبت بعض كلمات بالقلم الرصاص « ثم عدت الى مكتب جلالة الملك ، فوجدت المتناظرين فى نفس موقفهما الذى تركتهما فيه ، فأبديت التصريح الآتى وقلبى يخفق من شدة التأثر : ليس لى الحق بأن أقيم نفسى قاضيا على النظام الدستورى الذى ينظم الآن مصير مصر ، ان عدم مسئولية الملك يعتبر أساسا لهذا النظام الذى يقضى بأن الملك لا يتولى سلطته الا بواسطة وزرائه ، وهو مبدأ لا يحتمل أى استثناء من الوجهة القانونية ، بل يمتد الى جميع أعمال الملك فاذا استثنى عمل واحد فان هذا استثناء يصيب النظام الدستورى فى روحه وأساسه ، لذلك أرى اذن أن تعيين أعضاء مجلس الشـيوخ يجب أن يكون بناء على ما يعرضـه مجلس الوزراء » ثم أضفت الى ذلك ما يأتى : « وحيث اننى نلت اليوم الحظوة بأن أكون حكما فى هذا الموضوع بصفتى بلجيكيا ، ولتشابه الدستورين ، فلتسمح لى جلالتكم بأن أذكر بكل احترام أن ثلاثة ملوك تولوا عرش بلجيكا فى ظل هذا النظام الدستورى ، فالأول وضع أسسا متينة لاستقلالنا فى ظروف حرجة ، والثانى صبغ حياتنا القومية بصبغة عبقريته على الرغم من القيود التى وضعت فى سبيله ، أما الثالث فجلالتكم تعلم أن النظام الدستورى لم يمنعه من أن يكون جنديا عظيما ! ووطنيا عظيما ! » .

« وفى الحال قدم لى الملك يده وصافحنى قائلا : « اننى موافق على رأى يبدى بهذا الشكل » فعقب زغلول باشا على ذلك بقوله : « وانا أيضا » وانتهت المقابلة ،

وعندما رافقت رئيس الوزراء فى السيارة أخذ يدى بين يديه بعطف شديد ثم شكرنى قائلا : لقد انقذت مصر من أزمة شديدة ... وشديدة جدا » .

وليس يخفى ان التحكيم عقد يلتزم به الطرفان النزول على حكم المحكم ، وقد رضى الملك فؤاد حكم البارون فان دن بوش ، وكان حكمه قاطعا وصريحا فى أن تعيين الشيوخ من خصائص الوزارة ، وصدر المرسوم الملكى بتعيين الشيوخ الذين عرضت الوزارة أسماءهم على أن هذه المسألة التى كان يجب أن يكون مفروغا منها بهذا التحكيم، قد اثيرت بعد ذلك غير مرة ، وكانت سببا لأزمات هائلة بين الوزارة والقصر ، كان لم يحصل فيها اتفاق أو تحكيم .

١٥ مارس ـ افتتاح البرلمان

اذا كان تقلد سعد زغلول الوزارة فى مطلع هذا العام هو انتصار لارادة الشعب المصرى فان حفل افتتاح مجلس نواب الشعب وشيوخه فى ١٥ مارس هو ذروة هذا الانتصار وسوف نرى أن هذه الذروة لن تلبث طويلا ، وسوف تنتكس الأمور وتعود انجلترا وحليفهـا الملك المصرى فى أن تصبح ولها اليد الطولى فى حـكم مصر ولكن لا نسبقن الحوادث فنحن لا نزال فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، وقد اعتبر هذا اليوم منذ اعلان تصريح ٢٨ فبراير ، هو عيد استقلال مصر فجاء سعد زغلول وحوله بالفعل الى عيد انتصار الشعب المصرى فقد اختار الشعب ممثليه بالفعل سنة ١٨٨١ ، ابان ثورة عرابى (راجع الجزء الثالث) وعندما احتل الانجليز مصر الغوا هذا المجلس عام ١٨٨٣ ، وراحوا ينشئون هيئات وتنظيمات ، كان آخرها الجمعية التشريعية وهى كلها هيئات ليست لها سلطة اصدار القرارات ، وها هو أول مجلس نيابى بمعنى الكلمة يقرر سلطة الشعب الكاملة ، فلا عجب ان ارتجت الأمة يوم الافتتاح ، ولقد كنت واحدا ممن شهدوا هذا اليوم العظيم حيث اصطفت عساكر الجيش على جانبى الطريق من قصر عابدين حتى دار مجلس النواب وكان يدعى (البرلمان) ووقفت موسيقات الجيش المختلفة فى الميادين ومفارق الطـرق ، وراحت تعزف أنغامهـا الشجية والحماسية معا ، وفرش الرمل الأصفر على طول الطـريق من عابدين الى البرلمان ، وحدث ما شئت عن جمال موكب الملك وروعته ، وكان الملك أحمد فؤاد يجلس وعلى يمينه سعد باشا زغلول وهو بملابس التشريفة الكاملة المقصبة المذهبة المزركشة وكانا يمتطيان العربة الملكية الحمراء المذهبة والتى يجرها ستة جياد ، وتسبق العربة وتلحقها عربات أصغر ولكنها لا تقل فخامة ولا رواء وفيها كبار موظفى القصر وبعض الأمراء وكان الحرس الملكى الملقب بالسوارى يختال بالعشرات والمئات على صافنات الجياد وهو يحمل الاعلام المركبة على الرماح وبالجملة منظر يجل عن الوصف ولا يقربه الى ذهن القارىء الا استعراضات التليفزيون الملون الرائعة .

على أنه لم يفتنى رغم حداثة سنى (١٣ سنة) منظر ضـايقنى وأرقنى ، ولم أفهم له سببا ولا تبريرا ، وهو هذا النفر من (السياس) أى قادة الخيل ، وهم يعدون الى جوار خيل المركبات ، ورغم بزتهم الفاخرة فقد كانت أقدامهم عارية أى

حفناه ، وكان ذلك نشازا وسط هذا الجمال وهـذه الفخامة ، ومازلت أذكره كنوع من الكابوس .

وفى المجلس جلس الملك على عرش خصص لذلك وناوله سعيد باشا ذو الفقار كبير الأمناء خطاب العرش الذى كانت الحكومة قد أعدته من قبل فناوله الملك بدوره لسعد زغلول الذى راح يتلوه على اسماع النواب والشيوخ ، وبعد الانتهاء من القاء خطاب العرش ، انصرف الملك ، وافترق الشيوخ عن النواب واجتمعوا فى المكان المخصص لهم ، فى حديقة وزارة الأشغال حيث كانت الجمعية التشريعية تجتمع ، وكان الملك قد اختار خمسى الاعضاء الذين يعهد اليه الدستور باختيارهم ، كما عين أحمد زيور باشا رئيسا لمجلس الشـيوخ ، وأما مجلس النواب فقد انعقـد بعد انصراف الملك وانتخب رئيسا له أحمد مظلوم باشـا وكان وزيرا للاوقاف فى وزارة سـعد زغلول غير أنه كان رئيسا للجمعية التشريعية فكان اختياره للرئاسة رمزا لوحدة المجالس النيـابية .

واليك نص خطاب العرش باعتباره وثيقة تاريخية لأول خطاب من نوعه تلقيه أول حكومة شعبية ، وسوف نلاحظ أنه جاء بعبارات عامة ، كانت فى وقتها محل اعتراض وانتقاد ولا شك عندنا أن سعد زغلول اراد أن يثبت فى هذا الخطاب كم هو رجل دولة مسئول ، وانه على أتم الاستعداد أن يكون « معتدلا ومعقولا » .

خطـاب العرش

وبعد تأدية اليمين قـدم سعيد ذو الفقار باشـا كبير الامناء الى الملك خطاب العرش ، وهو الخطاب الذى تضعه الوزارة فى مستهل الدورة البرلمانية وترسم فيه سياستها العامة وتلقيه باسم الملك ، فأخذه الملك وناوله سعدا فألقاه ، وهو أول خطاب عرش ألقى طبقا لدستور سنة ١٩٢٣ قال :

« حضرات الشيوخ حضرات النواب :

« اهديكم أطيب سلامى ، واحيى فيكم ممثلى شعبى الكريم ، واهنئكم منتخبين ومعينين بالثقة العظمى التى حزتموها لتؤلفوا أول برلمان مصرى تأسس على المبادىء المصرية ، واحمد الله ان تحققت بتأسيسه أمنية من أعز امانى واول رغبة من رغبات أمتى الشريفة .

« اليوم تدخل فى دور التنفيذ النظامات النيابية التى قررها الدستور ولا ريب فى انها تبشر باقبال عصر جديد من القوة والسعادة على بلادنا المحبوبة .

« لقد وضعت البلاد فيكم ثقة عظمى ، والقت بها عليكم مسئولية كبرى ، فأمامكم مهمة من ادق المهمات واخطرها ، اذ يتعلق بها مسـتقبل البلاد وهى مهمة تحقيق استقلالها التام بمعناه الصحيح ، ولا شك أنكم ستعالجونها بروح من الحزم والحكمة والروية ، وأنكم ستجدون من أهم مسهلاتها الاتحاد المقدس الذى لا انفصام له بين العرش والأمة . والذى توثقت اليوم عراه بالقسم العظيم الذى أقسمناه وستؤدونه أنتم عما قليل .

« لهذا يحق لى ان اصرح علنا باسمى وباسمكم أن حكومتى مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية فى مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان مملوءة من الرجاء فى ابهما بقوة حقنا وعناية الله القدير ، ومن اهم وظائفكم أيضا أن تساعدوا الحكومة وتشتركوا معها فى ادارة البلاد على الطريقة التى رسمها الدستور وهى الطريقة المؤسسة على التعاون بين سلطات الدولة ، وعلى مبدأ المسئولية الوزارية ، ولقد وضعت هذه الطريقة على الحكومة وعلى البرلمان واجبات، فعليها تنفيذ مبادىء الدستور وتطبيق أحكامه بروح تامة من الحرية والديمقراطية ، وعليه أن يتمم التشريع بوضع القوانين الناقصة التى اشار الدستور اليها ، وان يعيد النظر فى القوانين المعمول بها خصوصا ما لم يعرض منهـا على الجمعية التشريعية بسبب ايقاف اعمالها ، وان ينظر فى قانون الانتخاب بما تمليه عليه نتيجة الاختبار .

« وستعرض عاجلا على مجلس النواب ميزانية الحكومة للسنة القادمة ويتبين منها ان الايرادات والمصروفات متعادلة ، وأن المال الاحتياطى زاد زيادة عظيمة سيكون لها أحسن أثر فى سمعة البلاد المالية ، غير أن هـذا لا يعفى من التزام الحزم فى السياسة المالية ، بل يجب اجتناب كل ما من شأنه تكليف الخزينة بنفقات لا ضرورة لها ولا يكون من وراء انفاقها تحسين فى الادارة ، ورعاية الاقتصاد فى الوظائف حتى لا يكون منهـا ما هو فوق الحاجة ، وفى المرتبـات حتى لا تزيد على قيمة العمـل المقررة لهـا .

« ويجب اصلاح الادارة الداخلية بتقسيم المصـالح المختلفة وتوزيع الوظائف المتنوعة وتحديد اختصاصها على وجه يضمن سهولة العمل وسرعته وانتظامه ويبعث فى نفوس الموظفين روح الجد والنشاط ، والشعور بالمسئولية والحرص على النظام كما يضمن لهم حقوقهم ويكفل السير على طريقة عادلة فى التعيينات والترقيات .

« أما الضرائب المالية فيجب تجنيب الزيادة فيهـا ، غير أنه ينبغى النظـر فى مراجعتها وتكميل نظامهـا ، لا لمجرد زيادة دخلها وتوزيعه توزيعا أعدل بل أيضـا لتقرير رسوم على الايرادات المعفاة من الضرائب فى الوقت الحاضر .

« وغير خاف أن مراقبة المصروفات العامة بالدقة وحسن الانتباه وتقوية نظام الضرائب يضمنان انتظام الميزانية وثباتها ويسمحان باستئناف مشـاريع الأعمـال العامة التى أهملت من سنوات .

« ومن اللازم حماية ثروة البلاد الزراعية وتنميتها بنسبة زيادة السكان ، وهذا يستلزم المبادرة الى حل المسائل الخاصة بتحسين طرق الرى والصرف وتوسـيع نطاقهـا .

« ومن الواجب تحسين طرق المواصلات وتنمية التجارة على اختلاف أنواعهـا واستثمار المناجم وتشجيع الصناعات المصرية الحديثة العهد والاستفادة من مركز البلاد الجغرافى واصلاح حالة الأمن والصحة العمومية وترقية المرأة أدبيا واجتماعيا وحماية الامومة والعناية بالأطفال واتخاذ التدابير الاجتماعية اللازمة لحماية العمال ، ونشر التعليم بنوعيه الأولى والراقى .

« وعلى مصر أن تنبوأ مكانها بين الدول بايجاد علاقات الوداد وتوكيدها مع جميع الدول من غير تفضيل ولا امتياز يخالف مبدأ استقلالنا التـام والأمل وطيد فى ان تتوج حريتنا السياسية بدخول مصر فى جمعية الأمم كدولة تامة الاستقلال .

« أيها الشيوخ والنواب

« ان مهمة الحكومة والبرلمان كبيرة خطيرة شاقة ، منها ما أشرت اليه ومنهـا ما هو معروف لكم من كل ما فيه خير البلاد وتقدمها ، ولكنى عظيم الثقة فى أن هذه المهمـة تتم تدريجا بفضـل الروح القومية التى بعثت فى شعبى الكريم قوة جديدة وملأته حمية للعمل وغيرة على خير الوطن .

« ويملأ قلبى سرورا أن أفتح الدور الأول للبرلمان وادعوكم للبدء فى أعمالكم داعيا الله تعالى أن يسدد خطواتكم وأن يوفقنى واياكم لما فيه خير البلاد » .

وبعد أن انتهى سعد من تلاوة خطاب العرش هتف رئيس المؤتمر بحياة الملك فردد الأعضاء هتافه ، ثم نهض الملك للانصراف فوقف الأعضاء وهتفوا قائلين (ليحيى جلالة الملك ليحيى ملك مصر والسودان) ، ثم غادر الملك القاعة وانتهت بذلك حفلة افتتاح البرلمان .

اجتمع مجلس النواب عقب انفضاض جلسة المؤتمر برآسة أكبر النواب سـنا وهو محمد سعيد بك نائب الكوم الطويل ، وحلف الأعضـاء اليمين الدسـتورية ، وبجلسة ١٦ مارس انتخب أحمد مظلوم باشا رئيسا للمجلس ، وأحمد محمد خشبة بك (باشا) وحمد الباسل باشا وكيلين ، وكان ثلاثتهم من الوفديين ، وفى جلسـات أخرى انتخب اعضاء هيئة مكتب المجلس ولجانه .

واجتمع مجلس الشيوخ يوم ١٥ مارس ايضا برآسة المصرى السعدى باشا ، وفى جلسة أخرى انتخب احمد زكى ابو السعود باشا وعلوى الجزار بك وكيلين .

ثم انتخب هيئة مكتب المجلس ولجـانه ، واخـذ كلا المجلسين يواليان عقـد جلساتهمـا .

الحياة البرلمانية وزعامة سعد فى الميزان :

المعارضة هى ظاهرة الحياة البرلمانية وحكم الشعب بالشعب ولذلك فلا نحسب أنه فى تاريخ مصر الحـديث أزدهرت المعارضـة للحاكم ، كما أزدهرت فى عام ٢٤ ابان حكم وزارة سعد زغلول وذلك تحت تأثير ثورة الشعب العارمة فى سنة ١٩١٩، وقد كان يقود المعارضة الحـزب الوطنى بنوابه الأربعـة فى مجلس النواب وعلى رأسهم عبد الرحمن الرافعى وعبد اللطيف الصوفانى أما حزب الأحرار الدستوريين ومن استطاعوا استقطابه من المستقلين فقد ناهزوا العشرين ، ولكن المظهر الاكبر والفعال للمعارضة كان يتمثل فى الصـحف خارج المجلس فكانت جريدة الأخبـار لصاحبها وكاتبها « أمين الرافعى » مدفعية ثقيلة فى الهجوم على الحكومة ، وكانت

السياسة لسان حال « الأحـرار الدستوريين » هى جيش الهجـوم الاكبر ، وكان كتابها هم الدكتور محمد حسين هيكل وتوفيق دياب والدكتور طه حسين ، وهذان الاخيران تحولا فى عهـد مصطفى النحاس الى وفديين على أن المعارضـة الكبرى واللاذعة كانت تتولاها مجلة الكشكول ، ومازلت أذكر كيف كنا نترقب صدورها ، وكانت صورها الهزلية بألوانها الجـذابة محل الاعجاب الشـديد وكانت تبلور ما أرست جريدة السياسـة قواعده من مثل : حزب الستمائة أو أريدها زغلولية لحما ودما او هل عندكم تجريدة مما سنعود لمناقشته .

وفى كتاب الدكتور هيكل « مذكرات فى السياسة المصرية » حديث مستفيض عما كان يقوله أو يفعله فى هذه الحقبة فليرجع اليه من اراد التفصيل ، كما أن فى كتاب عبد الرحمن الرافعى « فى أعقاب ثورة ١٩١٩ » الجزء الأول تقييم لتجربته فى هذا البرلمان ، ومجمل ما نلاحظه أن اجـراءات الحـكومة التى اقامت الدنيا واقعدتها لم تكن تتجاوز حرمان مندوب جريدة السـياسة من شهود جلسـات البرلمان أو ابلاغ النيـابة للتحقيق مع الكتاب المعارضين ، وقـد حكمت محكمة الجنايات بغرامة قدرها ثلاثون جنيها على هيكل ولما عرض الأمر على محكمة النقض قضت بالبراءة وكان هذا هو أقسى ما تعرض له الدكتور هيكل ، ولكن الشـعب من الناحية الأخرى كان يعتدى على الصحف المعارضة اعتداءات شديدة كما حدث لجريدة الاخبار .

وكانت المعارضة تدور حول محورين :

الأول : تصريحات لسعد زغلول كان يقولها وهو فى المعارضة ثم اغضى عنها ، أو أعترف بها بعد ان اصبح فى الحكم كقوله عن تصريح ٢٨ فبراير انه نكبة وطنية ثم قبوله الحكم على اساسه ، أو قوله عن الدستور انه من وضع لجنة اشقياء ثم وصفه بعد أن صار فى الحكم بعكس ذلك وهكذا ، والرد على ذلك سهل وميسور فهو قد قال . ما قال فى كلتا الحالتين معبرا عن الشعب المصرى الذى كان يثق فيه ثقة مطلقة ولا لوم ولا تثريب ولا هو خروج عن المنطق ان يوصف الشيء الواحد بوصفين متناقضين لمجرد اختلاف الظروف فالسلاح فى يد المجـرم هو اداة عدوان فاذا انتقل الى يد رجل الشرطة ، اصبح هو بذاته أداة اقرار الأمن والنظام ، ونحن لا نقول ذلك دفاعا عن سـعد زغلول فنحن فى معرض كتاب تاريخ يسجل الوقائع وقد سجلنا مآخذ المعارضة على سعد زغلول ولكن من حقنا كذلك أن نلاحظ ما فى الحجة من تهافت .

أما المحور الثانى للمعارضة فعبارات كان يصرح بها سعد زغلول فتتخذ ذريعة للهجوم العنيف عليه مما أشرت له سابقا من مثل قوله :

ـ أريدها زغلولية لحما ودما .

ـ هل عندكم تجريدة .

ـ من احرج سعدا فقد احرج الأمة .

وقد كنت شخصيا فى صباى من احفظ هذه العبارات وارددها واتلهف على قراءة « الكشكول » من أجلها .

ولكنى اليوم بعد أن جربت ما جربت ومارست ما مارست ، وأمامى الصيغ الكاملة التى انتزعت منها هذه العبارات . أحس بمدى التجنى الذى كانت تتجناه المعارضة لسعد زغلول .

أريدها زغلولية لحما ودما : ولنأخذ العبارة الاولى وقد قالها سعد زغلول لجريدة ليبرتيه وهى جريدة كانت تصدر بالفرنسية وعرفت بانحيازها الى الوفد، وكانت قد وجهت اليه سؤالا صريحا عما يوجه اليه من مطاعن حول المحسوبية ، وما قيل من انه يحابى اقرباءه فكان رد سعد زغلول قاطعا فى انه يأسف ان ليس له أقارب من ذوى المؤهلات أو الكفاءة ليحتلوا أى منصب من المناصب ثم يقول على سبيل الجدل انه عندما تتساوى مؤهلات وكفاءة أى انسان غريب فانه فى هذه الحالة يفضل قريبه لأن من يعرفه خير ممن لا يعرفه ، فأنت ترى ان سعد زغلول ينفى من الناحية الفعلية والواقعية أن له أقرباء من ذوى المؤهلات والكفاءات التى تخول لهم التعيين فى الحكومة ، ثم يسوق من الناحية الجدلية مبدأ متفقا عليه « الأقربون أولى بالمعروف » عند التساوى فى الظروف بطبيعة الحال فكان على المعارضة لو كان متصفة أو على حق فى دعواها من انه يحابى أقاربه أن تسمى أسماء يتضح منها مخالفة سعد زغلول للقاعدة التى استنها ولكن لأن لا وجود لهذه الحالة ، فتروح تتعلق بأمنية ساقها على طريق الفرض والجدل .

هل عندكم تجريدة :

وننتقل الى عبارة أخرى طالما قيلت للتنديد بسعد زغلول واعنى بها عبارة « هل عندكم تجريدة » وقد قال سعد زغلول هذه العبارة فى احدى مناقشاته مع المعارضة ، ، كانوا يطالبونه بايقاف أعماله فى السودان وفى ذات الوقت يحرمون عليه الدخول فى مفاوضات ، فكان الرد الطبيعى أن يقول لهم سعد : لا تريدوننى أن أفاوض وفى ذات الوقت تطالبوننى ان أوقف الأعمال فماذا أفعل ؟ « هل لديكم تجريدة » واحسب أن لا منطق على هذا المنطق .

موقف حكومة الشعب الرائع مما يجرى فى السودان :

يمكن تسمية حكومة سعد زغلول بحق أنها كانت حكومة مصر والسودان معا حيث يمكن القول ان اهتمام مصر بمشاكل السودان وعلاقات مصر بالسودان كان يشغل معظم نشاط الحكومة واذا كان الشعب المصرى قد استفرغ جهده لمقاومة انجلترا فى عام ١٩١٩ فقد قام الشعب السودانى بمثل ذلك عام ١٩٠٤ ومن

يطالع صحف هذه الفترة سيرى السودان وتأكيد كونه جزءا لا يتجزأ من مصر هـو شغلها الشاغل وقـد اذكى من هـذه الحـركة كون انجلترا قـد وصلت الى قمة جشعها الاستعمارى وكانت شديدة اللهفة لفصل السودان عن مصر وضـمه الى مستعمراتها مستعملة هذه الحجة السمجة من أن استقلال الشعب السودانى امانة فى يدها وانها تعمل من أجل رخائه وتقدمه ، حيث لم تكن تضمر الأضمه لمستعمراتها وممتلاكاتها ، ولذلك كانت أول مواجهة بين حكومة مصر وحكومة انجلترا حول السودان ، جاءت فى مطلع حكم الوزارة وكانت انجلترا قد اقامت معرضا امبراطوريا لمستعمراتها ، واقامت جناحا للسودان ، واحتجت مصر وارسلت لحاكم السودان تسأله كيف سمح لنفسه وهو الموظف المصرى ان يفعل ذلك دون الرجوع الى مصر وقد ارتبك حاكم السودان فقد كان نسى هذه الحقيقة على ما يبدو منذ أمد بعيد، وأرسل خطاب الحكومة الى المندوب السامى فى مصر كما أصبحت تجرى العادة ، ولكن الحكومة المصرية عادت لتعنف الحاكم وتذكره بأنه عندما ترسـل له خطابا فيجب ان يرد عليها مباشرة وأرسلت فى نفس الوقت احتجاجا لانجلترا عن طريق السفير المصرى عزيز باشا عزت ولما كان رئيس الحكومة رمزى ماكدونالد زعيم حزب العمال يعتبر نفسه صديقا شخصيا لسعد زغلول وكان قد ولى الحكم فى نفس الوقت الذى وصل سعد زغلول الى الحكم فقد أرسل اعتذارا الى سعد زغلول ونفى أن يكون لانجلترا هدف خاص فى السودان ، وان سياستها تقوم على المحافظة على الأوضـاع القائمة ريثما تسـوى المفاوضـات ما بين مصر وانجلترا ، وهكذا اعتبرت مسألة تمثيل الســودان فى معرض ومبلى الامبراطورى منتهية ، ولكن موضوع السودان ظل محلا للتراشـق بين مصر وانجلترا فى برلمان كلا البلدين ، كان مركز ماكدونالد يضعف فى انجلترا فتزداد اطماع انجلترا سفورا حتى وصـل ذلك الى ذروته عندما منعت حكومة السودان وفدا سودانيا من الحضور الى مصر ليعلن ولاءه لملك مصر فى الوقت الذى قامت فيه السلطة الانجليزية فى الســودان باستكتاب عرائض ثقة بانجلترا وسياستها الرامية الى فصل السودان عن مصر ، فكان لذلك صداه فى مجلس نواب مصر فأثار نواب الحزب الوطنى الموضوع وكان ذلك بجلسة ٢٣ يونية سنة ١٩٢٤ وانضم سعد زغلول رئيس الحكومة الى نواب المعارضة فى استنكار هذا الذى يجرى فى السودان ، فما كان من الحكومة البريطانية الا أن دفعت بممثلها فى اللوردات (اللورد بارمور) فألقى خطابا كشـف نهائيا عن نوايا انجلترا حيال السودان ، وأن حكومة العمال الانجليزية لا تقل جشعا عن حكومة المحافظين ، وكان من بين ما قال :

« ان الحكومة البريطانية لا تترك السودان بحال واستطيع أن أقول بغير تردد أن نظام السودان لن يسمح بتغييره ... الى آخر ما قال (ارجع الى الصـــحف المصرية وبخاصة الأهرام يوم ٢٦ يونية) » .

وقد رد سعد زغلول على هذا الكلام ردا عنيفا بجلسة ٢٨ يونيو ونزل أخيرا عن هذا التحفظ الذى حاوله فى الأسابيع الاولى من حكمه وراح ينعت انجلترا بأنها قوة غاصبة غاشمة وان مصر لن تتردد فى الجهاد وتوصية أبنائها وابناء ابنائها على مواصلته حتى يتحقق حقها فما ضاع حق وراءه مطالب ، واليك فقرات مما قال :

« انى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه وفى حضرتكم الموقرة أصرح بان الأمة لا تتنازل عن السودان ما حييت وما عاشت (استحسان وتصفيق طويل) ، فهى تسعى للتمسك بحقها ضد كل غاصب ، ضد كل معتد ، تتمسك بهذا الحق فى كل فرصة وفى كل زمن ، تسعى بكل طريق مشروع سلكه كل مهضوم الحق لاجل أن تحفظ هذا الحق وتصل الى التمتع به ، وان كنا فى حياتنا لا نصل الى ان نتمتع بحقنا فاننا نوصى أبنـــاءنا وذريتنا أن يتمسكوا به ، ولا يفرطوا فيه قيد شعرة ، وهكذا يوصون هم ابناءهم وأبناء ابنائهم ، ولابد أن يأتى يوم يفوز فيه حقنا على باطل غيرنا ، ان حقوق الأمم لا تضيع ولا تتأثر بمجرد أن يقول الغاصب انى أريد ان أتمتع بها دون أصحابها ، كلا ، ليست هذه طبيعة الوجود ، بل كل حق يبقى حيا ولا يموت ما دام وراءه مطالب ، ونحن ما دمنا مطالبين بهذا الحق ، وما دمنا نوصى أبناءنا بالتمسك به ، وما دام ابناؤنا يقتفون خطواتنا فلابد أن نتمتع به نحن أو هم ان شاء الله تعالى (تصفيق) الى أن قال : « اما فيما يتعلق بالمفاوضات فقد جاء فى هذه التصريحات أنها ستكون على أساس تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ » وقد صرحت غير مرة بأننى استنكر هذا التصريح،استنكرته خارج الحكومة واستنكرته فى البيان الوزارى ، واستنكرته فى كل منا‌ســبة ، ولا ازال استنكره الى الآن ، وأقول أنهم وان قالوا اننا نتفاوض على قـاعدة تصريح ٢٨ فبراير ســـنة ١٩٢٢ فوزارتنا لا تقبل بحال من الاحوال أن نتفاوض على أساس هذا التصريح ، ولقـد سبق أن قلت لكم انى لم أجد طريقة للمفاوضة على غير هذا الاساس فانى لا ادخل فى المفاوضات أصلا وانا عند قولى ، وقلت لكم أيضا انى اذا لم اصل الى هـذا فانى اتخلى عن الحكم وأنا مستعد لهذا التخلى (أصوات ــ أبدا ــ حاشا) .

هذا ما عزمت عليه والرأى لكم (تصفيق متواصل) .

جمعية اللواء الأبيض وعلى عبد اللطيف :

وقد عرض سعد زغلول استقالته على الملك يوم ٢٩ يونيو ولكنه رفضها ، وكان لذلك كله اثره فى السودان الملتهب ، وكانت قد تألفت به حـركة وطنية يتزعمها الضابط السودانى الشجاع على عبد اللطيف وقد اطلق على الحركة اسم اللـواء الأبيض وسرعان ما انتشرت فروعها فى كل مدن السودان المهمة الى جوار الخرطوم وأم درمان ، أى فى عطبرة ووادى مدنى وبورسودان ، وقد قامت المظاهرات فى كل هذه المدن وهى تهتف بوحدة مصر والســودان ، وحياة ملك مصر والســودان ، وتصدت لها السلطات الانجليزية بطبيعة الحال وقمعتها وفرقتها بكل قسوة وقبضت

على الزعيم علىَ عبد اللطيف وحاكمته وقضت عليه بالسجن ثلاث سنوات ثم حاكمته بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم فى السودان وحكم عليه بالاشغال الشاقة سبع سنوات اخرى ، ولأمر ما أودع مستشفى الامراض العقلية ونقل الى مصر فى منتصف الاربعينيات ، وقد كانت زوجته ، وهى سيدة مصرية فاضلة تتردد على دار مصر الفتاة وكانت تقص علينا كيف راحوا يخوفونها من ملازمتها لزوجها فقد كانت له نوبات خطيرة فكان ردها الدائم (هل سمعتم على أسد أضر بأنثاه) ولعل ذلك يريك مقدار الصلابة التى ربطت دائما مصر بالسودان ولن يكون القبض على ، على عبد اللطيف ومحاكمته هو آخر العهد بالتحرك فى السودان بل لقد كان وقودا لاشعال مزيد من النار وستقابلنا من جديد فى شهر اغسطس ولكننا قبل أن نعرض لها نريد أولا أن نشير الى حادث الاعتداء على سعد زغلول وسفره للمفاوضات .

١٢ يوليو ــ الاعتداء على سعد زغلول :

كان مجلس النواب قد قرر ان لا تسافر الحكومة فى الصيف الى الاسكندرية توفيرا للنفقات وسافر الملك أحمد فؤاد فقط ، وكان سعد زغلول رئيس الحكومة يتردد عليه فى الاسكندرية اذا لزم الأمر ، وفى صبيحة يوم السبت ١٢ يوليو كانت الوزارة كلها مسافرة الى الاسكندرية لتهنىء الملك بعيد الأضحى وعندما وصل سعد زغلول الى مواجهة الصالون الذى كان سيركبه خرج شاب من بين الجموع (علم فيما بعد أن اسمه كان عبد الخالق عبد اللطيف) واطلق على سعد زغلول رصاصة وكاد يطلق الثانية لولا أن الجموع أحاطت به وكادت أن تمزقه ولولا أن البوليس انقذه من أيديهم ، وقد ظل سعد زغلول ثابت الجنان وروى من يحيطون به أنه هتف « نموت ويحيا الوطن » ولكن الرصاصة لم تصب الا ذراعه ، وقد نقل على الفور الى مستشفى على ابراهيم رامز فى الروضة ، حيث عرف ان لا خطر يهدد حياته ، كما عرف ان الجانى طالب طب ينتمى الى الحزب الوطنى مما جعل التحقيق يتجه صوب البحث عن شركاء له ، ولكن سرعان ما تبين ان الجريمة فردية بل وان المتهم مختل القوى العقلية فأودع مستشفى الامراض العقلية ولم يحاكم غير ان هذا الحادث كان مناسبة لاظهار مدى مكانة سعد عند الشعب المصرى باجماع اتجاهاته ، فبادر الملك بالغاء التشريفات وابرق خصوم سعد الالداء وعلى رأسهم عبد الخالق ثروت واسماعيل صدقى يهنئونه بالنجاة ، اما عدلى يكن فقد زار المستشفى وامضى وقتا على انفراد مع سعد زغلول ، وباستطاعتك بعد ذلك ان تتصور مدى فرحة الشعب بنجاته ومشاعرها ازاء هذا الحادث مما تفص به صحف هذا الزمان وتتضح فى البيان الذى اذاعه سعد زغلول عقب مغادرته المستشفى حيث لم يمكث سوى بضعه أيام ، ويشاهد سعد فى صوره فى تلك الأيام وقد علق ذراعه برقبته ، وقد عاد لمزاولة نشاطه قبل أن تلتئم جراحه .

وكان محور بيان سعد زغلول يدور حول فكرة « رب ضارة نافعة » فقد اعاد هذا الحادث للشعب وحدته وحماسه ولكن لأمر ما ضغط كثيرا على تأثره من

مشاعر الأجانب حياله ، وربما كان يعنى بالأجانب الانجليز فقد كان وشيك الدخول معهم فى مفاوضات .

وبالفعل غادر سعد زغلول الاسكندرية فى طريقه الى باريس فى ٢٥ يوليو ، وكانت رحلته بالقطار الى الاسكندرية فرصة ليظهر الشعب عواطفه نحوه ، مماتكفى الاشارة اليه ، فلندع سعدا فى طريقه الى فرنسا ، لنعود مرة أخرى الى السودان الذى انفجر بالأحداث .

١١ اغسطس — بيان من الحكومة المصرية :

ولا نجد خيرا من أن نثبت هنا بيان الحكومة المصرية عن أحداث السودان ، حيث تظاهر طلبة المدرسة الحربية وأعلنت اورطة الجيش المصرى فى سكة حديد عطبرة تمردها ، فقد اجمل البيان هذه الأحداث التى وقعت يوم ٩ أغسطس وتصرف الحكومة ازاءها ، ورد فعل الانجليز ، ونلفت النظر الى ان سعد زغلول ، كان قد سافر الى فرنسا ، وقد شاءت حكمته ان يلوذ بالصمت فلا يعلق على الأحداث مكتفيا بما تقوم به الحكومة فى مصر ولما ضغطت عليه شركات الانباء فى باريس ان يقول شيئا اجاب : « بأن الانجليز يفهمون من الصمت ما لا يفهمونه من الكلام ولذا فهو يؤثر الصمت ، واليك بعد ذلك بلاغ الحكومة المصرية فى ١١ أغسطس وقد نقلنا ما حدث بعد ذلك من الانجليز من كتاب أستاذنا عبد الرحمن الرافعى وهو يسجل موقف انجلترا الثابت حيال السودان :

« فى يوم ١١ اغسطس والأيام التالية ابلغت الحكومة انه فى صباح يوم السبت ٩ الجارى خرج تلاميذ المدرسة الحربية فى الخرطوم من المدرسة حاملين البنادق والحراب والعلم الأخضر واخترقوا المدينة بنظام ووقفوا أمام السجن هاتفين للضابط عبد اللطيف وفى أثناء ذلك أخذت الذخائر من المدرسة فلما عاد التلاميذ اليها امتنعوا عن تسليم أسلحتهم ما لم ترد اليهم الذخائر وهددوا باستعمال هذه الأسلحة اذا استعملت معهم القوة وأن قوة بريطانية أحاطت بالمدرسة وانتهى الأمر بانتهاء المقاومة وتسليم الاسلحة فى المساء وأنه ألقى القبض على رؤساء الحركة ، وقيل أن هذه المظاهرات وقعت احتجاجا على طريقة اعطاء الشهادات النهائية وعلى مشروع الجزيرة ، وابلغت الحكومة ايضا ان أورطة السكة الحديد بالعطبرة خرجت فى اليوم نفسه بمظاهرة غير منتظمة واحدثت اتلافا وان فصيلتين من الجيش البريطانى قامتا لقمع هذه المظاهرة وان هذه المظاهرة استؤنفت فى اليوم التالى ولما حاصرتها الجنود استعمل رجال الأورطة الحجارة واخترقوا خط الحصار دفعتين وكانوا مسلحين بالنبابيت وقضبان الحديد . وأتلفوا السيارات والآلات الميكانيكية ومركبات سكة الحديد وأشعلوا النار فى مكاتب السكة الحديد فأطلق الجنود النار لقمع المظاهرة وأسفر ذلك عن قتل اثنين ماتا متأثرين بجراحهما واصابة أحد عشر باصابات خطيرة وخمسة بجراح خفيفة واصابة غلامين كانا بالثكنة باصابات خفيفة فاجتمع مجلس الوزراء وبحث فى الأمر واتخذ الاجراءات الآتية :

أولا ـ الاستعلام من حاكم السودان العام طالبا منه البيانات التفصيلية عن هذه الحوادث وما وقع فيها وأسبابها والدوافع اليها والاجراءات التى اتخذت في شأنها واخطار الحكومة أولا فأول بما يحصل فيها .

ثانيا ـ أبلغت الحكومة الأمر لوزير مصر المفوض بلندرة وكلفته بتبليغ احتجاجها للحكومة البريطانية على هذه التصرفات وضمنت كتاب الاحتجاج وجوب ايقاف المحاكمات والمبادرة الى تشكيل لجنة مصرية سودانية لفحص الحالة وتحديد المسئوليات والعمل على تهدئة الخواطر حقنا للدماء .

« وان الحكومة لتشعر بشعور الأمة تلقاء هذه الحوادث المشؤومة وهى ساهرة على معالجتها بما يحفظ كرامة البلاد ويصون حقوقها » .

وفى الوقت نفسه أرسلت الحكومة البريطانية الى حكومة مصر مذكرة تشتمل على ما يأتى :

أولا ـ « ان الحكومة الانجليزية تؤيد حكومة السودان فى خطتها وتفوض لها حفظ النظام .

ثانيا ـ ان الحكومة البريطانية تفوض حكومة السودان فى أن تبعد أورطة السكة الحديدية المصرية وكل قوة ترى أن الظروف الحالية تستلزم ابعادها .

ثالثا ـ « ان الحكومة البريطانية تعتبر البرلمان المصرى والصحافة المصرية مسؤولين عن حوادث السودان » .

٣ أكتوبر ـ انقطاع المحادثات بين سعد وماكدونالد

منذ ولى سعد زغلول كرسى الوزارة وقد تصورت الأمة انها ستحقق أمانيها القومية التى تعلق الشعب بها وهى الاستقلال التام لمصر والسودان ، وقد قوى هذه التصورات ان وصل الى الحكم لأول مرة فى انجلترا حكومة للعمال بزعامة رامای (رمزى) مكدونالد وان كان ذلك بمعاونة حزب الأحرار ولم يتردد سعد زغلول فى اعلان تفاؤله فى حفل أقيم لتكريمه (٢٥ يناير) وقد بادر المستر ماكدونالد فى تهنئة سعد زغلول بمناسبة افتتاح البرلمان المصرى وأعلمه أن الحكومة البريطانية مستعدة فى كل وقت للتفاوض مع مصر لحل الأمور المعلقة بينهما وقد كانت هذه الدعوة المفتوحة هى التى حملت سعد زغلول فى الشهرين الأولين من حكمه ان يلزم جانب الاعتدال فى تعبيراته وتصريحاته العلنية ، ولكنا رأينا كيف أن موضوع السودان كان هو الصخرة التى تحطمت عليها موجة التفاؤل ، وفترت حماسة سعد للمفاوضات وليس الا حادث الاعتداء عليه ما يبدو انه دفعه للتحرك ، فسافر للاستشفاء فى فرنسا ولا شك ان الاتصالات دارت بينه فى باريس وبين الحكومة الانجليزية ، وأخيرا غادر سعد زغلول باريس الى لندن فى ٢٣ سبتمبر مصطحبا معه مصطفى النحاس ، وبعض الموظفين والسكرتاريين ، ولم يشأ سعد زغلول أن يدخل فى مفاوضات رسمية اقتناعا

منه بعد أن ظهر من حكومة العمال ما ظهر ، انها ستنتهى الى فشل محقق فآثر ان يظل الأمر فى دائرة المحادثات فقابل المستر ماكدونالد فى مقر رئاسة الوزارة ١٠ دونئج ستريت) ثلاث مرات على انفراد فى أيام ٢٥ ، ٢٩ سبتمبر ثم جلسة أخيرة للوداع على ما يبدو فمنذ اللحظة الأولى لتلاقى الرجلين ظهر البعد بين موقف مصر وبريطانيا، فحيث تطالب مصر باستقلال مصر والسودان ، فقد كانت انجلترا تخطط لالتهام مصر والسودان معا ، ومن هنا فلم تعد المباحثات فى ٢٥ سبتمبر (مقابلة تحية القدوم) يتم الاتفاق فيها على جلسة تعقد بعد أربعة أيام (٢٩ سبتمبر) حتى كان كل شىء ينتهى فى (٣ أكتوبر) وقد التزم سعد زغلول الصمت المطلق وكان تصريحه الوحيد عن هذه المحادثات جملة مقتضبة « دعينا الى الانتحار فأبينا أن ننتحر » أما ما هو هذا الانتحار فهذا هو ما علمته مصر من :

الكتاب الأبيض الذى اذاعته انجلترا فى ٧ اكتوبر :

وجه المستر ماكدونالد رسالة الى المندوب السامى فى مصر يطلعه على مجريات الأمور فى هذه المحادثات ونشر هذه الرسالة فى كتاب أبيض رسمى جريا على التقاليد الانجليزية ، واليك نص الرسالة .

« فى أثناء محادثاتى مع رئيس الوزارة المصرية أوضح لى سعد زغلول باشا ما هى التعديلات التى لا يرى بدا من ادخالها فى الحالة الحاضرة فى مصر ، فاذا كنت قد فهمته حق الفهم فهذه التعديلات هى كما يأتى :

أولا — سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية .

ثانيا — سحب المستشار المالى والمستشار القضائى .

ثالثا — زوال كل سيطرة بريطانية عن الحكومة المصرية ولا سيما فى العلاقات الخارجية التى ادعى زغلول باشا أنها تعرقل بالمذكرة التى أرسلتها الحكومة البريطانية الى الدول الأجنبية فى ١٥ مارس ١٩٢٢ قائلة أن الحكومة البريطانية تعد كل مسعى من دولة أجنبية أخرى للتدخل فى شئون مصر عملا غير ودى .

رابعا — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب والأقليات فى مصر .

خامسا — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك بأى طريقة كانت فى حماية قناة السويس .

« أما فى شأن السودان فأننى ألفت النظر الى البيانات التى فاه بها زغلول باشا بصفته رئيس مجلس الوزراء أمام البرلمان فى الصيف فى ١٧ مايو ، ويؤخذ مما علمته فى هذا الصدد أن زغلول باشا قال ان وجود قيادة الجيش المصرى العامة فى يدضابط أجنبى وابقاء ضباط بريطانيين فى هذا الجيش لايتفق مع كرامة مصر المستقلة فابداء مثل هذا الشعور فى بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصرية المسئول لم يقتصر على وضع السير لى ستاك بصفته السردار فى مركز صعب ، بل وضع جميع الضباط البريطانيين

الملحقين بالجيش المصرى أيضا فى هذا المركز ولم يفتنى أيضا أنه قد نقل لى أن زغلول باشا ادعى لمصر فى شهر يونيه الماضى حقوق ملكية السودان العامة ووصف الحكومة البريطانية بأنها غاصبة .

« فلما حادثت زغلول باشا فى ذلك قال لى ان الأقوال السابقة التى قالها لم يكن مرددا فيها صدى رأى البرلمان المصرى فقط ، بل رأى الأمة المصرية أيضا ، فاستنتجت من ذلك أنه ما زل متمسكا بهذا الموقف » .

كان موقف سعد قويا سليما فى هذه المحادثات ، وبذلك قال كلمته المأثورة : « لقد دعينا الى هنا لكى ننتحر ولكننا رفضنا الانتحار وهذا كل ما جرى » وكان هذا الموقف بلا مراء تصميما لموقفه فى مفاوضاته مع اللورد ملنر سنة ١٩٢٠ ، ولم يقبل ما كان يتوقعه الكثيرون من خصومه من التسليم للانجليز فى طلباتهم من المفاوضة، وقف هذا الموقف المشرف فى الوقت الذى كان يتوقع فيه بعد قطع المحادثات ان تستهدف وزارته للتحدى من جانب الانجليز ومن جانب السراى ، وعاد الى مصر يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

١٥ نوفمبر — استقالة سعد زغلول :

ان التفاصيل الدقيقة لهذه الحقبة يراها أى باحث فى صحف هذا الزمان بعد ان أصبح للوفد جريدة مسائية هى البلاغ وفى مواجهتها تقف الأخبار والسياسة ويتوسط لاثنين الأهرام ، ولذلك فنحن لاستعراضنا هنا للاحداث نقفز الى أهمها لنقف أمامه ومنذ فشلت المحادثات مع انجلترا بهذا الأسلوب ، فقد تقرر مصير حكومة سعد زغلول فلم يكن الملك أحمد فؤاد ينتظر الا هذا ففنى عن البنيان أنه كان ضيق الصدر بسعد زغلول والحياة النيابية كلها ، ولكنه كان مغلوبا على أمره ، فحلفاؤه الانجليز كانوا يطمعون أن يكون سعد زغلول هو الذى « يسلمهم البضاعة » وهو تعبير شاع فى هذه الأيام وحفظناه فى وقتها ، فلما ان رفض تسليم « البضاعة » كما رأينا ، فقد علم أحمد فؤاد ان هذه هى فرصته لاسقاط حكومة سعد زغلول ، فشرع يخطط لذلك (ويتكتك) كما يقولون ، فلم يكد سعد زغلول يعود الى مصر فى عشرين أكتوبر، وتدل دلائل الانتخابات فى انجلترا على قرب سقوط حزب العمال ونجاح حزب المحافظين الذين يكرهون سعدا كراهة التحريم ، حتى دبر الملك أحمد فؤاد ضربته ففوجئت البلاد وسط الذهول العام بطلبة الأزهر يعلنون الاضراب العام فى أوائل نوفمبر ، ويخرجون فى مظاهرة عارمة تهتف هتافا له معنى ومغزى (لا رئيس الا الملك) وكان هذا هو سر ذهول الشعب ، فقد كان طلاب الأزهر هم الصف الأول بين طلاب مصر الذين كان هتافهم « لا رئيس الا سعد » ولابد أن يكون الملك أحمد فؤاد قد بذل الكثير من المال والوعود من خلال رجله الجديد القوى حسن نشأت (وكيل الديوان) حتى يصل لهذه النتيجة، حقا لقد أشيع فى وقتها ان حكومة الشعب تقف فى وجه المطالب الأزهرية ، ولكن ذلك ما كان يكفى لحدوث ما حدث ، ومن هنا فقد اعتزم سعد زغلول أن يقدم استقالته .فهو كما صرح فيما بعد لا يستطيع العمل

وسط الدسائس ، وفى يوم ١٢ نوفمبر افتتح البرلمان فى دورته الثانية وسط الاحتفالات المألوفة ، ويبدو ان سعد زغلول كان فى انتظار تمام هذه الخطوة قبل أن يقدم استقالته ، اما هذه الدسائس التى كان يشير اليها فكانت فى تعيين الملك حسن نشأت الذى كان وكيلا لوزارة الأوقاف ويبدو أنه كانت له يد فى تنظيم حركة الأزهر فنقله الملك الى وكالة الديوان الملكى وانعم عليه بوسام وذلك كله يوم ٨ نوفمبر اى عقب مظاهرة الأزهر ، وقد تم هذا النقل والتعيين بدون علم الوزارة ، ورأى فيه سعد زغلول مكافأة لحسن نشأت ومن هنا فقد انتظر سعد زغلول حتى افتتح الملك البرلمان فقدم له استقالته ظهر يوم السبت ١٥ نوفمبر ، وعندما اذاع سعد زغلول النبا فى المجلسين ، الف كل منهما لجنة طلبت من الملك رفض الاستقالة ، ولما كان الملك فؤاد أحد دهاقنة السياسة فقد أدرك الصعوبات التى يمكن أن يكبدها له سعد زغلول اذا استقال فى هذه المناسبة فأعلن اعضاء المجلسين انه يشاطرهما الرأى فى رفض استقالة سعد زغلول ورأى سعد أن لا يسترد استقالته الا بعد أن يوافق الملك على أن تعيين كبار الموظفين فى الديوان الملكى لا يكون الا بموافقة الحكومة وكذلك منح الأوسمة والنياشين وذلك كله اعمالا لنص المادة ٤٨ من الدستور التى تنص على أن الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه ووافق الملك على هذا الطلب ، فلم يسع سعد زغلول الا أن يعلن فى المجلسين يوم ١٧ ديسمبر انه سحب الاستقالة ، وعين على الشمسى وزيرا للمالية بدلا من توفيق الذى كان قد استقال (كجزء من الدسائس) وقد تم ذلك كله يوم ١٩ نوفمبر فى الصباح ولم يكن سعد زغلول يعرف بطبيعة الحال ان الدنيا سوف تتزلزل عليه فى المساء بل سوف تتزلزل على مصر كلها وتلقى عليها ظلا كثيفا مما يشبه أن يكون ردة فى حياتها السياسية ، وسيرغم سعد زغلول على الاستقالة فى ظروف سيئة بعد يومين اثنين

١٩ نوفمبر ـ مقتل السردار ـ السير لى استاك باشا :

فى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ خرج سردار الجيش المصرى (وحاكم السودان فى ذات الوقت) من مكتبه بوزارة الحربية، قاصدا بيته بالزمالك بعد انتهاء عمله اليومى ، فأطلق الرصاص عليه خمسة اشخاص كانوا متربصين له فى شارع الطرقة الغربية (سمى فيما بعد اسماعيل باشا أباظة) فأصيب اصابات خطرة ، افضت الى موته فى منتصف الليل التالى وقد فر الجناة ، ولكن قبض على السيارة وسائقها الذى كان ينتظر الجناة ، وقد كان هذا هو طرف الخيط الذى سيؤدى فى خاتمة المطاف الى القبض على الجناة بعد أن اعلنت الحكومة مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه للتوصل الى الفاعلين ، ولعل ذلك يطلعك على مدى انزعاج الحكومة لما حدث وقد ادرك سعد زغلول منذ سمع بالنبأ انه هو المقصود بهذه الرصاصة ، وقد احست مصر كلها بهول ما سوف يقع ، ولكن ما وقع بالفعل ، كان شيئا فاق كل تصور .

٢٢ نوفمبر ــ انذارات انجليزية تهدم الاستقلال :

شيعت جنازة السيرلى ستاك فى صباح يوم السبت ٢٢ نوفمبر ، وكانت جنازة رسمية كبرى بناء على طلب الانجليز ، فسار جميع المشيعين بملابس التشريفة الكبرى وبعد انتهاء الجنازة وفى الساعة الخامسة بعد الظهر قصد اللورد اللنبى فى مظاهرة عسكرية كبرى (قصد بها الارهاب) وكانت تتألف من خمسمائة خيال انجليزى من حملة الرماح ، وراحت تدك الارض بحوافر الجياد وصلت وعلى رأسها اللورد اللنبى الى مقر مجلس الوزراء حيث خاطب سعد زغلول بمنتهى الخشونة وسلمه انذارين ، احتوى احدهما على الفاظ لا اظن انها ذكرت من قبل فى أى تعامل بين حكومتين (يعرض مصر كما هى محكومة الآن لازدراء الشعوب المتمدينة) وحتى بعد هذا العمر لا أستطيع أن انتفض من الغيظ ، وليس يعزينى ويهدىء من نفس لأمضى فى كتابة التاريخ ، الا أن كل هذه الاحداث مرت وانتهت وزالت الامبراطورية الانجليزية نفسها من الوجود ، واستقلال مصر والسودان الذى اريد ازهاقه بهذين الانذارين هو أحد حقائق اليوم .

وقد قيل فى وقتها ان الانذارين كتبا تحت تأثير الانفعال الذى نجم عن الحادث ولكن الطلبات الانجليزية الواردة فى الانذارين تقطع بأنها كانت امورا مدروسة من قبل وكانت تتحين الفرصة لتنفيذها ، فلما قتل السردار بهذا الأسلوب رات انجلترا فرصتها فى ازهاق استقلال مصر واطلاق يدها فى السودان واليك نص الانذارين :

الانذار الأول

« دار المندوب السامى القاهرة فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ »

« الى حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء ..

« يا صاحب الدولة أقدم لدولتكم من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالى : ــ الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى الذى كان أيضا ضابطا ممتازا فى الجيش البريطانى قد قتل قتلا فظيعا فى القاهرة ، فحكومة حضرة صاحب الجلالة تعد هذا القتل الذى يعرض مصر كما هى محكومة الآن ، لازدراء الشعوب المتمدينة ، نتيجة طبيعية لحملة عدائية ضد حقوق بريطانيا العظمى وضد الرعايا البريطانيين فى مصر والسودان ، وهذه الحملة القائمة على انكار الجميل انكارا مقرونا بعدم الاكتراث للأيادى التى أسدتها بريطانيا العظمى لم تعمل حكومة دولتكم على تثبيطها بل اثارتها هيئات على اتصال وثيق بهذه الحكومة .

« ولقد نبهت دولتكم حكومة حضرة صاحب الجلالة منذ أكثر من شهر الى العواقب التى تترتب حتما على العجز عن وقف هذه الحملة ، ولاسيما فيما يتعلق

بالسودان ولكن هذه الحملة لم توقف ، والآن لم تستطع الحكومة المصرية أن تمنع اغتيال حاكم السودان العام وأثبتت أنها عاجزة عن حماية أرواح الأجانب أو انها قليلة الاهتمام بهذه الحماية .

« فبناء على ذلك تطلب حكومة حضرة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية :

١ ـ ان تقدم اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .

٢ ـ أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص البحث عن الجناة وأن تنزل بالمجرمين أيا كانوا ومهما تكن سنهم أشد العقوبات .

٣ ـ أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .

٤ ـ أن تدفع فى الحال الى حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه .

٥ ـ ان تصدر فى خلال أربع وعشرين ساعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان مع ما ينشأ عن ذلك من التعديلات التى ستعين فيما بعد .

٦ ـ أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان الى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحاجة .

٧ ـ أن تعدل عن كل معارضة لرغبات حكومة حضرة صاحب الجلالة فى الشئون المبينة بعد المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية فى مصر .

« واذا لم تلب هذه المطالب فى الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة على الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها فى مصر والسودان وانى اغتنم هذه الفرصة لاجدد لدولتكم عظيم احترامى » .

الامضاء : اللنبى (فيلد مرشال)

المندوب السامى

الانذار الثانى

« دار المندوب السامى ـ القاهرة فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ » .

« يا صاحب الدولة ، الحاقا ببلاغى السابق أتشرف باحاطة دولتكم علما من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية أن مطالبها الخاصة المتعلقة بالجيش فى السودان وحماية مصالح الأجانب فى مصر هى الآتية :

١ — بعد أن يسحب الضباط المصريون والوحدات المصرية البحتة للجيش المصرى تحول الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة مسلحة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها وتحت قيادة الحاكم العليا وباسمه تصدر العرائض (البراءات للضباط) .

٢ — أن القواعد والشروط الخاصة بخدمة الموظفين الأجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية وتأديبهم واعتزالهم الخدمة وكذلك الشروط المالية لتسوية معاشات الموظفين الاجانب الذين اعتزلوا الخدمة يجب أن يعاد النظر فيها طبقا لرغبات حكومة حضرة صاحب الجلالة .

٣ — من الآن الى أن يتم اتفاق بين الحكومتين بشأن حماية المصالح الأجنبية فى مصر تبقى الحكومة المصرية منصبى المستشار المالى والمستشار القضائى وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليها عند الغاء الحماية وتحترم أيضا نظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية واختصاصاته الحالية كما سبق تحديدها بقرار وزارى وتنظر بعين الاعتبار الوافى الى ما قد يبديه مديره العام من المشورة فيما يتعلق بالشئون الداخلة فى اختصاصه .

وانى أغتنم هذه الفرصة لاجدد لدولتكم عظيم احترامى .

الامضاء : اللنبى (فيلد مرشال)

المندوب السامى

كيف تصرف سعد زغلول :

سنرى أن سعد زغلول قبل بعض المطالب التى رأى انها لا تغير واقع الامور وهى المطالب الأربعة الاولى ، ثم استقال بعد ذلك ، وفى هذا الوقت وكنت واعيا تماما لكل ما يجرى ، انتقدت سعد زغلول ، فما دام الرجل قد اعتزم الاستقالة فكان يجدر به أن لا يقبل شيئا ، ويترك لمن يجيئون بعده القبول ، اما اليوم وانا أكتب للتاريخ وامامى الوثائق ، فلست استطيع الا ان أحيى شعور سعد بالمسئولية كما تتجلى فى رده على الانذارين ، بعد ان أستجاب لما رأى امكان قبوله ، ولما رأى ما فى بقية المطالب من مساس بسيادة مصر وحقوقها فى السودان فقد رفضها بكل عزة وكرامة واليك هذا الرد :

« رياسة مجلس الوزراء القاهرة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

« الى حضرة صاحب الفخامة المندوب السامى البريطانى :

« يا صاحب الفخامة ردا على المذكرتين اللتين سلمتا الى نهار أمس من فخامتكم باسم حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية أتشرف بأن أرجو فخامتكم اولا أن تتكرموا فتعربوا لحكومتكم مرة أخرى من قبل الحكومة المصرية عما خالج هذه

الحكومة والأمة بأجمعها من شعور الألم والاستفظاع بسبب الاعتـداء الشنيع الذى وقع على حياة المأسوف عليه السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام ، على أنه لا يمكن اعتبار الحكومة المصرية مسئولة بوجه من الوجوه عن هذه الجريمة المنكرة التى ارتكبها مجرمون تمقتهم الأمة بالاجماع ، وذلك لأنها حدثت فى ظروف لم يكن فى الاستطاعة معها توقع ارتكابها أو منعها ، ومن جهة أخرى فان الحكومة لا يمكنها أن تقبل التـأكيد الذى تضمنتـه المذكرة الأولى من أن هذه الجريمة هى نتيجة طبيعية لحملة سياسية لم تعمل الحكومة المصرية على تثبيطها بل أثارتها هيئات على اتصال وثيق بها ، لأن هذه الحكومة كانت تلجأ وتدعو دائما الى استعمال الطرق السلمية المشروعة فى المطالبة بحقوق البلاد ، ولم تكن على اتصـال من أى نوع كان بهيئات تشير باستعمال العنف .

« ان المسئولية الوحيدة التى تعترف بها الحكومة وتأخذها على عاتقها انما هى اقتفـاء أثر المجرمين ، وقد اتخذت اجراءات سريعـة وفعـالة لهذا الغرض ، وأن النتيجة المرضية التى ادت اليها هذه الاجراءات تجعلنـا واثقين تمام الثقة من أن الجناة لن يفلتوا من القصاص العادل .

« على أنه لاثبات ما أثارته هذه الجنـاية فى البـلاد من الأسف البليغ وارضـاء لحكومة صاحب الجـلالة البريطانيـة ، أتشرف بأن أصرح لفخامتكم بأن الحكومة المصرية تقبل أن تقدم اعتذارها ، كما أنها تقبل أن تدفع مبلغ خمسمائة ألف جنيه ، وتصرح الحكومة أيضا بأنها قد اعتزمت أن تمنع ، بجميع ما لديها من الطرق القانونية كل مظاهرة شعبية يكون من شأنها الاخلال بالنظام العام وبأنها سترجع عند الحاجة الى البرلمان للحصول على سلطة أوسع مما لها الآن .

« أما فيما يتعلق بالطلب الوارد فى الفقرة الخامسـة من المذكرة الأولى والمفصل فى المذكرة الثانية فأتشرف بأن الاحظ لفخامتكم أن ما أقترح من ترتيب جديد للجيش المصرى بالسودان لا يعد فقط تعديلا للحالة الحاضرة التى سبق للحكومة الانجليزية أن صرحت برغبتها فى المحافظة عليها بل هو مناقض تماما لنص المـادة (٤٦) من الدستور المصرى التى تنص على أن الملك هو القـائد الأعلى للجيش وهو الذى يولى ويعـزل الضـباط .

« وأما فيما يتعلق بالطلب الوارد فى الفقرة السادسة فانى الاحظ لفخامتكم أن مسألة ادخال تعديل منذ الآن على المقدار المحدد لمساحة الأراضى التى تروى بالجزيرة هى على الآن سابقة لأوانها ، ويجب طبقا للتصريحات المتكررة التى أبدتها الحكومة البريطانية ، أن تحل باتفـاق الطرفين مع مراعاة المصالح الحيوية للزراعة المصرية

« وأخيرا فيما يتعلق بالطلب الوارد فى الفقـرة السـابقة اتشرف بأن الاحظ لفخامتكم أن حالة الموظفين الأجانب فى مصر خاضعة الآن لأحكام قانون واتفاق سياسى لا يمكن تعديلهما من غير اشـتراك البرلمان ، وعلى أى حال فان مذكرة الحـكومة البريطانية لم تبين قط التعديلات التى يراد ادخالها على النظام الحـالى ، ولذلك

لا نرى فى وسعنا الرد على هذه المسألة ، وأما فيما يتعلق بحماية المصالح الأجنبية بوجه عام فان الحكومة المصرية اتخذت على الدوام أكثر الخطط تسامحا بالقدر الذى يتفق مع حرمة مبدأ الاستقلال ، ومع ذلك فان الدول الأجنبية لم تقدم أى اعتراض فى هذا الشـــأن .

« وانى لواثق كل الثقة من أن حكومة صاحب الجلالة البريطانيـة ستجد هذا الجواب مرضيا تماما ، وعلى أى حال فقد أملته علينـــا الرغبة الخالصة فى ابقـاء وتوطيد أحسن العلاقات مع الحكومة البريطانية ، بما يتفق مع حقوق مصر .

« وأنتهز هذه الفرصة لأكرر لفخامتكم الاعراب عن عظيم احترامى .

رئيس مجلس الوزراء

سعد زغلول

٢٤ نوفمبر ــ قبول استقالة سعد زغلول :

عقب ارسال هذا الرد فاتح سـعد زغلول الملك بعزمه على الاستقالة ، ثم تبادل بعض الرســائل مع اللنبى فكان هذا الأخـير يرد بردود من نوع ما دار بين الذئب والحمل . وقدم سعد زغلول اسـتقالته رسـميا فى يوم ٢٣ نوفمبر ولكن يبدو أن التنسيق كان كاملا بين الملك والمندوب السامى البريطانى ، ولما كان لايزال فى جعبة اللورد اللنبى اجراء يكيد به سعد زغلول ومصر كلهـا من ورائه فقد أصـدر أوامره للجيش البريطانى باحتلال الجمارك فى اسكندرية ، فعاد سعد زغلول يطلب من الملك قبول استقالته ، وهنا وهنا فقط قبل الاستقالة واليك نصوص ذلك :

« مولاى . تشرفت من يومين بأن عرضت لجلالتكم شـفها عزمى وعزم زملائى على الاستقالة وشرحت الأسباب التى حملتنا عليها ، وفى الساعة ٦ من مساء أمس قدمت عريضة الاسـتعفاء والححت فى قبولهـــا ، وطوعا للأمر الكريم انتظرت الى اليوم ، وعقب التشرف بهذه المقابلة فورا وردنى خطـاب من فخـامة اللورد اللنبى ينبئنى فيه بأنه أعطى فيه أوامر لحكومة السودان :

أولا ــ بأن تخرج من السودان جميـع الضباط المصريين والوحــدات المصرية الممعنة فى الجيش المصرى مع التغييرات المعينة التى تترتب على ذلك .

ثانيا ــ أنها مطلقة الحرية فى زيادة المساحة التى تروى فى الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان الى مالا نهاية .

« وزاد بأنه سيبلغ الحكومة فى الوقت المناسب العمل الذى ستتخذه حكومتـه لحماية مصـالح الأجانب فى مصر وبأنه يطلب دفع مبلغ الخمسمائة الف جنيه قبل ظهر اليوم ، فأرسلت الحكومة الى فخامته تحويلا على البنك الأهلى مصحوبا بكتاب يشتمل على الاحتجاج ضد هذه التصرفات .

« ثم تشرفت بمقابلة جلالتكم وكررت الالتماس لقبول الاستعفاء ، وعقب خروجى من حضرتكم الشريفة تلقيت خطابا من جنـابه بأن أول عمل اتخذته حكومته هو أن أمرت قوة عسكرية بريطانية باحتلال جمارك الاسكندرية .

« ازاء هذه الاعتداءات المتكررة على استقلال البـلاد وحقوقهـا لا يسعنى الا الالحاح على جلالتكم لتتفضلوا بالاسراع فى قبول الاسـتعفاء لأن هذا فيما أرى قد يكون خير وسيلة لوقاية البـلاد من الشرور المتواليـة ، ولا زلت الداعى على الدوام بالتوفيق لجلالتكم والشاكر لنعمتكم » .

٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

(سعد زغلول)

٢٤ نوفمبر ــ تأليف وزارة أحمد زيور :

ليس أدل على أن كل شىء كان يسـير بتنسيق بين الملك أحمـد فؤاد والمندوب السامى ، انه فى نفس الوقت الذى قبلت فيه استقالة سـعد زغلول ، كانت وزارة جديدة تتألف برئاسـة أحمـد باشا زيور رئيس مجلس الشيوخ ، ولابد أن يكون الملك فؤاد قد استغل شعور سعد زغلول بالمسـئولية وضرورة عمل كل شىء ممكن لاخراج مصر من هذه الأزمة فحصل منه على موافقة على تولى أحمد زيور الوزارة ، والوعد بتأييدها فى مجلس النواب بل وذهب سـعد زغلول الى الحد الذى جعـله يقبل انضمام بعض الوفديين المشهورين الى وزارة زيور ، وعنـدما اجتمع مجلس النواب فى يوم ٢٤ نوفمبر ليحتج على انجلترا مرددا ما قاله سعد زغلول فى رده على اللنبى ، وقف سعد زغلول فى هذه الجلسة وصرح التصريح التالى :

« بما اننـا لم نستعف من الوزارة الا لأجل المصلحة العـامة فانى مستعد مع أصدقائى الكرام من أعضاء هذا المجلس أن نؤيد كل وزارة تشتغل لمصلحة البـلاد أى المصلحة نفسها التى قبلنا الحكم لخدمتها والتى تركنا لخدمتها » .

ولكن الأمر كله كان قد سوى بليل كما قدمنـا ليس فقط بين الملك والمنـدوب السـامى ، بل هذا الأخير وبين حكومتـه التى كانت قد ضاقت بالحركة الوطنية فى مصر والسودان فرأت أن تضربها مستغلة هذا الحادث وقد صرح اللورد اللنبى بعد ذلك بسنوات كان قد أحيل فيها على التقاعد ، ان نص الانذارين كانا فى مكتبه قبل الحادث بمدة طـويلة لاستخدامهما ، فلمـا أن وقع حادث مقتل السردار ، لم يزد اللنبى الا أن زاد على أحدهما بعض العبارات القاسية .

وتألفت وزارة زيور :

وعلى الرغم من أن وزارة زيور قد تألفت فى أخريات عام ١٩٢٤ وقـد جرينا فى هذه الموسوعة على تناول السنين سنة بعد أخرى ، ولكننا نسمح لأنفسنا أن نخرج عن هذه القاعدة هنا بأن نختم احداث هذا العام عند هذا القـدر فنثبت ذكرياتنـا

الشخصية لما فيها من وصف بعض الأجواء التى كانت تدور فى ظلهـــا الأحـــداث ، مرجئين الحديث عن وزارة زيور الى العام القـــادم عام ١٩٢٥ ذلك ان حكومة زيور تؤلف وحدة منذ قامت حتى سقطت ، ويمكن وصف عهد هذه الحكومة بانها نكسة وردة ، حاولت فيها انجلترا أن تســترد الأرض التى فقدتها وحاول الملك بالتبع أن يقوى سلطانه ، جاعلا من نفسه مرجع الامور كلها .

ذكريات خاصـــة :

ساقتصر فى ذكرياتى على ما يتصل بالتـــاريخ من حيث الجو العـــام الذى كنا نعيش فى ظله وذكر بعض المعالم والأسعار .

وسأقسم ذكرياتى عن عام ٢٤ الى قسمين فلا أتحدث الا عن صيف ١٩٢٤ ذلك انه بعد ذلك كنت قد حصلت على شـــهادة الابتدائية وبالتالى التحقت بالمدرســـة الخديوية الثانوية وسوف أرجىء الحديث عنها حتى الصيف القـــادم صـــيف عام ١٩٢٥ وقد تحدثت عن شتى المناشط التى زاولناها أنا وصديقى سيد فتحى رضوان وكيف تعددت هذه المناشط ما بين دينية وأدبية ورياضية وكيف تنوعت الرياضة من كرة القدم حتى المصارعة والملاكمة ، ولكن فى صيف ١٩٢٤ كان نشاطنـــا (أو نشاطى أنا على الاكثر) قد تصاعد بشكل حاد فى ميدان التمثيل والمسرح ، وقد أدى ذلك الى ترددى على مسرح حديقة الأزبكية حيث كانت فرقة عكاشة تقوم بالتمثيل ، وكان طلعت حـــرب مؤسس بنك مصر هـــو مؤسس شركة ترقية التمثيل العربى ، وكانت هى التى انشأت تياترو حديقة الأزبكية وأنشأته على الطراز العربى ، وكان بيت الشعر الذى صاغه أحمد شوقى الشاعر .

انمـــا الأمـــم الأخـــــلاق ما بقيت

فان همـــو ذهبت أخلاقهـــم ذهبـــوا

وكانت صلتى بهذا المسرح على ما قدمت جاءت نتيجة تعرف والدى الى رئيس حسابات فرقة عكاشه فكنت أقصده وكان يمكننى من مشاهدة المسرحيات ، ولقد ذكرت كيف كان يفتتنى كل ذلك ، فلا عجب أن تحول (حوش) بيتنـــا الى مسرح نمثل عليه ، وكان ثمة مسرحيات الشيخ سلامه حجازى مطبوعة فكنا نمثل مشاهد منهـــا ، ومازلت أذكر بعـــد هـــذا العمر الطويل بيتا من الشعر يجرى على لسان صـــلاح الدين .

ان لم أصـــن ملـــكى بمهنـــدى

فلســـت اذن صـــــلاح الـــدين

ولما كانت أغانى الشيخ سلامه حجازى وأناشيد الشيخ سيد درويش ، تجرى على كل لسان فقد كنت واحدا ممن يحفظون هذا الأغانى والأناشيد وكان يطلب منى ان أغنيها أينما ذهبت ، فكنت أستجيب للطلب ، وسرعان ما أكدت مكانتى فى بيت

صديقى سيد فتحى رضوان بسبب هذه الأغانى ، ومازلت اذكر كيف صعدنا فى ليلة قمرية الى سطوح المنزل واقمنا حفلة ســمر اشركنا فيها جيران المنزل وكانوا على سطوح منزلهم الملاصق .

وكان قد دخل فى حياتى شخصية جديدة لطيفة هى سيد فؤاد المناسترلى ، وعائلة المناسترلى من أشـــهر وأكبر العائلات القديمــة من أيام الحكم العثمــانى ، وبمجرد شرائنا لبيتنا الجديد أصبحنا جيرانا لهم ، ولكن بطبيعـــة الحال كانوا من الغنى والضخامة بحيث لا نختلط بهم .

ولكن بعد أن وصلت الى السنة الرابعة ، وكان مكانى فى (رابعة أول) وقــد اختص بتدريس اللغة الانجليزية (حسين أفندى سليمان) وكان مشرفا على فريق كرة القدم ، ومن هنا كان (سيد فؤاد المناسترلى) طالبا فى هذا الفصل الذى كان يضم اعضاء فرقة كرة القدم الذين وصلوا الى السنة الرابعة وتصادقنا انا وســيد فؤاد وأصبحت اتردد عليه فى (السراى) كل يوم تقــريبا ، ولم يكن لعب الكرة ، ولا مجلس سيد فؤاد هو الذى يجذبنى ، قدر ما كانت تجذبنى (صينية العشــاء التى كانت ترسل لسيد كل ليلة وعليها ما لذ وطاب بحيث كانت الوان الطعـــام لا تقل كل مرة عن أربعة أو خمسة أصناف ، وكان ذلك كله جديدا على ولكى تكمل صورة هذه الأيام ، فقد حدث أن تزوجت احدى شقيقات سيد فؤاد وأذكر اننى رأيت فى هذه المناسبة شيئا كنت اسمع عنه ولم أره وهو « البدرة » وهى نقود كانت تنثر على رأس المدعوين أثناء « زفة العروسة » ولما كان الزمن قد تغير فلم تكن هذه (البدرة) من الدنانير أو الجنيهات الذهبية ، ولكنها كانت قطعا فضية من ذوات القرشين ولكنها طليت بالذهب لتحدث التأثير فى الوهلة الأولى ، ولقــد استطعت أن أجمع عشر قطع على الأقــل ، لاننى استنكفت أن اتزاحم على التقاطها فأكتفيت بما وقع تحت قدمى وفى هذه الليلة سمعت مغنيا على النظام القديم (نظام التخت) حيث كان يقــام للمغنى ومن معه (دكتين) مرتفعتين ، وكان مطــرب تلك الليلة « عبد اللطيف البنا » .

وعلى ذكر المطربين والمغنين ، فقد كانت المــرة الأخرى التى شــهدتها ، كانت لام كلثوم وكانت شهرتها قد بدأت تذيع ، وعلمنا انها ستغنى فى أحد الافراح فذهبنا للاستماع اليها ، وكانت لا تزال ترتدى « العقال » وكان والدها وبقية أفراد أسرتها يساندونها ويؤلفون بطانتها .

على أن بيتنا شهد بدوره حفلات غنائية فقد كان لى عم (محمد أفندى حسين) ناظر وقف فى احدى قرى مدينة السنبلاوين ، وكان الشيخ المقرىء (المرتب) يدعى الشيخ صــادق فكنا نقيم (والدى) حفلات ، ينشــد فيها الشيخ صادق المدائح النبوية وكنت أطرب لها كل الطرب .

وفيض الذكريات لا ينتهى ولكنى اختار ما يصور الجو ، وثمة حادثة لا مناص من ذكرها ، فقد كان بحوش منزلنا « مندرة » وسـكنها أحد زملائى الطلبة وكان يدعى « عبد الجليل شلبى » من بلدة وردان من بلاد الجيزة وقد دعانى لأمضى بضعة أيام فى بيتهم بالفلاحين فى أجازة نصف السنة ، واذكر اننى خشيت أن لا يأذن لى والدى فسافرت بدون اذنه ، ولما عدت اخذت (علقة سخنة) .

على الكســار :

على أننى ابقيت أهم عنصر دخل فى حياتى فقد تصادف أن المزين (الحـلاق) الذى كنت اتعامل معه له صديق (متعهد حفلات) أى يستأجر حفلة مسرحية بقدر معلوم ثم يوزع تذاكرها ، وكان متخصصا فى حفـلات الكســار وكان يعرض بعض التذاكر عند الحلاق ، وكنت أحصل على تذكرة من كل حفلة (بالنقد طبعا) وهكذا أصبحت زبونا دائما لمشـاهدة حفلات على الكســار وأصبحت أعرف رواياته من امثال « البربرى فى الجيش » « وعثمان حيخش دنيا » وكان مسرح الكسار فكاهيا (شخصية الكسار) وغنائيا (الشيخ حامد مرسى) واستعراضيا (فرق انشــاد ورقص) .

وهكذا حاصرنى التمثيل المسرحى من كل جانب ، فلا عجب أن أصبح هوايتى الوحيدة ، ولكنى أدع تفصيل ذلك للعام القادم .

واذا جاز لى أن استنتج من اهتماماتى واهتمام أقرانى بشىء ، فهو انصرافنا عن السياسة باعتبارها محور حياتنا .

ديسمبر ١٩٢٤ ثم عام ١٩٢٥

تأليف وزارة زيور :

فى يوم ٢٤ نوفمبر وهو نفس اليوم الذى قدم فيه سعد زغلول ما يدل على اصراره على الاستقالة التى قدمها فى اليوم السابق وفى ذات اليوم تشكلت وزارة زيور باشا بعد قبول استقالة سعد زغلول مما دل على أن كل شىء كان مرتبا مع سعد زغلول نفسه ، الذى كان قد فقد توازنه (فيما يبدو) فشارك فى مسئولية تأليف الوزارة الجديدة بحيث لم يوافق على اختيار رئيسها الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ وكان يذاع ان ميوله وفدية ، بل لقد حرص سعد زغلول على أن يظهر مدى استعداده لتأييد الوزارة الجديدة ، فقبل أن يدخل وكيل مجلس النواب الوفدى المنتخب أحمد محمد خشبة (بك وباشا فيما بعد) وزيرا مؤقتا للحقانية والمعارف وعثمان محرم وزيرا للاشغال .

٣٠ نوفمبر وأول ديسمبر — استقالة الوزيرين :

على أنه لم يمض أسبوع واحد حتى كان الوزيران الوفديان يستقيلان ، ودل ذلك على أن سعد زغلول نفسه ، كان فى حاجة الى هذا الأسبوع كى يلتقط انفاسه، ويدرك حقيقة هذا الذى يجرى أمامه وحقيقة ابعاده ، وأنه ليس فقط هدما لكل ما حصلت عليه مصر فى تصريح ٢٨ فبراير بل محاولة من انجلترا لا عادة الساعة الى الوراء وكان ثورة سنة ١٩١٩ لم تقع ، وعلى البلاد أن ترضى بالذل والامتهان على أيدى الانجليز .

وبالغ الانجليز فى تصرفاتهم ، وبالغت الوزارة المصرية فى الاستسلام والرضاء بتنفيذ اتفه نزوات أى انجليزى حتى ولو كلف ذلك مصر الكثير ، ولقد احتمل سعد زغلول واحتمل الشعب معه هذا البغى والطغيان لمدة ثلاثة أو اربعة ايام ، ولكن ذلك لم يزد الأمر الا سوءا ، وتفتحت شهية الاستعمار أكثر وأكثر ، وتفاقم بغى وطغيان أى موظف انجليزى أو أجنبى ، وساعد ذلك كله على أن يذهب الروع عن سعد زغلول والشعب ، فكان التقاط الانفاس والتنبه لهذا الذى يجرى ، فكان التوقف ثم المواجهة كما تمثلت فى استقالة هذين الوزيرين ثم استئناف النضال ، ولنبدأ القصة من أولها .

وزارة انقاذ ما يمكن انقاذه :

لخص زيور باشا برنامج وزارته فى خطابه المرفوع الى جلالة الملك يعلن فيه قبوله لتشكيل الوزارة ، فى جملة واحدة وهى « انقاذ ما يمكن انقاذه » وهو تعبير

أريد به تخفيف الواقع الذى جاءت وزارة زيور بالاتفاق بين المندوب السامى والملك (وسط ذهول سعد زغلول) لتحقيقه وهو « تسليم ما يجب تسليمه » ولذلك ففى المدة من مساء ٢٤ نوفمبر حتى أول ديسمبر (استقالة الوزير الوفدى الثانى) كانت قد حدثت الاهوال التالية :

١ — ٢٥ نوفمبر :

تأجيل مجلس النواب شهرا ، وعلى الرغم من أن الوزارة وعدت بأن تقـــدم برنامجها لمجلس النواب ، فقد كان أول عمل لها هو تأجيل انعقاد مجلس النواب شهرا ، وسنرى انها ستحله بعد هذا الشهر .

٢ — ٢٧ نوفمبر :

اعتقال عضوى مجلس النواب الوفديين البارزين مكرم عبيد ، وعبد الرحمن فهمى ، ثم محمود فهمى النقراشى الذى كان وكيلا لوزارة الداخلية ، وقد تلت هذه الدفعة الأولى ، دفعة ثانية لنواب مثل (شفيق منصور) ومصطفى القاياتى وراغب اسكندر وحسن يسين وغيرهم ، ولم يكن مجـرد القبض على هـــذا النفر وهم متمتعون بالحصانة النيابية ، هو موضع الشذوذ ، بل أن القبض عليهم تم بمعرفة الجنود البريطانية ، ولما أحس الانجليز مدى هيـاج الرأى العـام سـلموا المقبوض عليهم للسلطات المصرية .

٣ — ٢٨ نوفمبر — السودان — السودان :

لم يكد حادث اغتيال السردار يحدث حتى كان هم انجلترا الأول هو الانفراد بالسودان كما رأينا ، ولذلك فقد وجه هدلستون باشا نائب حاكم السودان وقتئذ تعليماته للجيش المصرى المرابط فى السودان بالعـودة الى مصر وأنه أعد القطارات اللازمة لذلك وحدد وقت التحرك ، ولكن قيادة الجيش المصرى رفضت الانصياع لهذا الأمر وقالوا بأنهم لا ينفذون الا أوامر حكومتهم المصرية ، وما أصدق المثل القـائل (قالوا للكذاب — أو الحرامى « أحلف » قال جاء الفرج) فلم يكن أيسر على الانجليز بأن يأتوا بهذا الأمر — واصـدر الملك أوامره لوزير الحربية صـادق باشا يحيى ، وقامت بالاوامر طائرة انجليزية تحمل ضابطا مصريا وهـــو أمين هيمن الذى ابلغ ضباط الجيش المصرى فى السودان (بكل شهامة) ان جلالة الملك يأمرهم بالعودة الى مصر ، وانصاعوا للامر وبدأوا فى الانسحاب ، ولكن ذلك لم يتم بدون أحداث أرتكبت فيها انجلترا ما يندى له الجبين ، مما سوف نشـير اليه بعد تعداد هــذه الأحـداث .

٤ — ٣٠ نوفمبر — قبول جميع المطالب :

وفى الثلاثين من نوفمبر رأت حكومة انقاذ ما يمكن انقاذه أن تختصر الطريق وأن تسلم كل شىء فأرسل زيور باشا خطابا الى المندوب السامى ، هذا نصه :

يا صاحب الفخامة

اتشرف باحاطة فخامتكم علما بأنى تسلمت المذكرة التى تكرمتم بارسالهـا الى فى هذا اليوم وذكرتم فيها المطالب الثمانية التى علقت حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية اخلاء جمرك الاسكندرية على قبول الحكومة المصرية لهـا ، فأتشرف بأن أخبر فخامتكم بأن مجلس الوزراء قد فوضنى فى ابلاغ فخامتكم أن الحكومة المصرية **قبلت هذه الشروط بأكملها** بدون قيـد مذعنة فى ذلك الى حكم الضرورة ومدفوعة بالرغبة الأكيدة فى المسالمة وحسن التفـاهم ــ وتفضـلوا يا صاحب الفخامة بقبول فائق احترامى .

رئيس مجلس الوزراء

أحمد زيور

٣٠ نوفمبر ١٩٢٤ :

قبلت الوزارة المطالب كلهـا بدون قيد أو شرط وسحبت انجلترا جنودها من جمرك الاسكندرية يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « فى أعقاب الثورة المصرية » : فكان لهذا التسليم الشائن وقع أليم فى أرجاء البلاد .

اطلاق يد المستر كين بويد ورسل باشا :

وكان فى الحكومة المصرية موظفان انجليزيان يهيمنان على وزارة الداخليـة ، أحدهما هو « المستر كين بويد » مدير القسم الأوروبى بوزارة الداخليـة ، فأطلقت يده فى كل ما يتعلق بشئون الداخلية ، فكتب يخاطب المديريين مبـاشرة متخطيـا وزير الداخلية ، ومقررا انه انما يتلقى تعليماته من المنـدوب السامى البريطـانى واليك ما قال :

أمرنى فخامة المندوب السامى أن أطلب الى سـعادتكم اتخـاذ التدابير اللازمة للمحافظة على أرواح الأجانب فى دائرة اختصاصكم ... الى آخره .

وقد ظل كين بويد هذا هو الذى يسيطر على وزارة الداخلية بشكل أو بآخـر حتى عام ١٩٣٣ عندما بدأت جهادى فى حركة مصر الفتـاة ، فقد هددنى وحذرنى ، ولولا خوفى من أن أخرج عن السياق لأثبت المناقشة التى دارت بينى وبينه وحسبى أن أثبت قولى له : اسمع يا مستر كين بويد ، اذا كنت تستطيع شنقى الآن وأنا لا أزال صغيرا فى أول الطريق فلا تتردد ، لأنه اذا ضاعت منك هذه الفرصة وتركتنى حتى أنمو وأقوى ، فلن أتردد أنا فى شنقك وقد ضحك الرجل وقتها ، ولكننا لانزال فى عام ١٩٢٤ حيث عاد الرجل الى كامل سطوته عقب مقتل السردار .

أما الموظف الانجليزى الثانى فكان هو « رسل باشا » حكمدار بوليس القاهرة ، فقد كتب لمأمورى الأقســام انه المرجع الرئيسى لهم ، وان عليهم أن يتلقوا منـه

التعليمات وأن ينفذوها . وهكذا عادت الأمور الى أسوأ مما كانت من حيث تحكم الانجليز فى كل شىء ، كبر أو صغر .

٩ ديسمبر — تعيين اسماعيل صدقى وزير للداخلية :

رأينا كيف ان الوزارة سارعت غداة تشكيلها بارجاء انعقاد البرلمان شهرا ، ينتهى فى ٢٤ ديسمبر ولكن كان من الواضح ، ان الوزارة كانت قد بيتت النية على حل مجلس النواب منذ اللحظة الأولى ، ولكن نظرا لأن الامور كانت تتم بالاتفاق مع سعد زغلول فقد رئى الاكتفاء بالتأجيل ولكن بتوالى الأيام ، وخاصة بعد استقالة الوزيرين الوفديين بدأت هذه النية تزداد وضوحا ، وكشفت عن نفسها بطريقة جلية يوم ٩ ديسمبر اذ صدر مرسوم بتعيين اسماعيل صدقى باشا وزيرا للداخلية ، وهو أحد أساطين حزب الأحرار الدستوريين ، الذين لم يترددوا لحظة فى اعلان سخطهم على مجلس النواب ، فكان ذلك ايذانا بحل مجلس النواب ولكنهم لم يكونوا فى عجلة من أمرهم ، اذ كانت لا تزال أمامهم أيام ، وفى مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل السياسية ، وكان فى ذلك الوقت أحد محاور الأحرار الدستوريين الكبرى ، لم يخف امتعاضه فى دخيلة نفسه ، أن يكون أحد أقطاب الأحرار الدستوريين ، ممن يكيدون للحياة النيابية الوليدة ، ولكن زملاءه فى الحزب على حد قوله استطاعوا أن يسكتوه بما فعلته الأغلبية الوفدية بهم وبحزبهم ، وبه هو شخصيا .

٢٤ ديسمبر — حل مجلس النواب :

كان البرلمان هو المقصود منذ اليوم الأول لتأجيله ، وقد جاء تعيين اسماعيل باشا صدقى (الذى تخصص منذ هذا الوقت لمحاربة الوفد) دليلا على ذلك ، ولهذا فقبل أن ينتهى موعد تأجيل انعقاد البرلمان بيوم واحد صدر مرسوم بحل البرلمان فى يوم ٢٤ ديسمبر ودعوة البرلمان الجديد للانعقاد يوم ٦ مارس ، على أن تجرى الانتخابات الجديدة قبل هذا الموعد بطبيعة الحال .

على أن الحكومة أرادت أن تظهر استهانتها بالدستور والقانون ، وانها ستفعل ما تشاء لتنفيذ ارادتها ، وكان مجلس النواب المنحل قد أصدر القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ وهو يلغى قانون الانتخاب الصادر فى سنة ١٩٢٣ والذى كان يجعل الانتخابات على درجتين ، الدرجة الأولى وينتخب كل ثلاثين ناخبا مندوبا عنهم ، وهؤلاء المندوبون هم الذين ينتخبون عضو مجلس النواب ، فلما جاء مجلس النواب ألغى هذا القانون وأصدر قانونا جديدا ينص على الانتخاب المباشر (على درجة واحدة) وعندما حلت الوزارة مجلس النواب دعت المندوبين الثلاثين الى انتخاب المجلس الجديد ، ولكن لما كانت الوزارة ، لا تريد هؤلاء المندوبين وقد كانوا يعودون (آليا) بمجرد عودة القانون الجديد الى الحياة ، كما تقضى نصوصه ، ولكن الحكومة قررت انتخاب مندوبين جدد ، أى أنها ألغت قانونا قائما ، وأعادت قانونا ملغى

دون أن تأخذ بكل احكامه ، وقد كان هذا الاستهتار بالدستور والقانون مقدمة لما سوف يقع .

وانتهى عام ١٩٢٤

وهكذا انتهى عام ١٩٢٤ بنكسة رهيبة ، فهذا العام الذى ابتدأ وسط الآمال المشرقة والذى ترجمت فيه « حكومة الشعب » ثورة سنة ١٩١٩ ونقلتها الى الحكومة وتصرفاتها ، انتهى وقد حل البرلمان ، فلم يعد للشعب نواب ، وفى دست الحكم وزارة من أسوأ ما عرفت مصر من وزارات ، وقد عاد الانجليز الى ذروة غطرستهم ، ولولا أن مصر ليست بذات فائدة لهم بعد ان أعلنت فى ثورة ١٩١٩ أن لحمها مر لضموها صراحة الى ممتلكاتهم ، ولكن لعابهم كان يسيل بالأكثر على السودان فوجهوا اليه أكبر جهودهم وضاعفوا اجراءاتهم لفصله عن مصر لينفردوا به ، وقد رأينا كيف عملوا على اجلاء الجيش المصرى ، وكان يمكن أن يتم ذلك فى يسر وهدوء ، مما يقرب الانجليز من تحقيق أهدافهم ، ولكن أبت مشيئة الله الا أن يفضحهم ويزلزل الأرض تحت أقدامهم .

ماذا حدث فى السودان ؟

طالما قلنا وكررنا أن عام ١٩٢٤ كان عام ثورة السودان على انجلترا وقد تكررت الاحداث الدالة على ذلك ، ولكن أخطر هذه الاحداث على الاطلاق ، كان عندما قرر الانجليز طرد الجيش المصرى من السودان ، فقد تصدت أقسام من أورطة الجيش المصرية السودانية ، فحاولوا أن يقاوموا بالقوة المسلحة انسحاب الجيش المصرى فى ٢٧ نوفمبر واشتبكوا مع القوات الانجليزية فأسقطوا منهم من أسقطوا وتحول الأمر بالنسبة للانجليز الى مسألة حياة أو موت ، وكان العساكر السودانيون قد تحصنوا بمستشفى القوات المسلحة ، فما كان من الانجليز الا أن دكوا المستشفى دكا بالمدافع ، فانهارا على ن فيه من المرضى ، وهو عمل فى منتهى الوحشية والبربرية فالمستشفيات لا تهدم لأن بعض الثوار يحتمون بها ، ولو تركوا وشأنهم لما كان لهم كبير خطر ، ولكن الانجليز انتهزوا الفرصة ليعطوا السودانيين درسا ولكن أحمد الله أن السودانيين ، وعوا الدرس الصحيح وهو أن لا يأمنوا أبدا الى جانب الانجليز الذين يتحولون فى الوقت المناسب الى وحوش وبرابرة .

١٩٢٥

١٠ يناير ١٩٢٥ ــ تأليف حزب الاتحاد

انتهت سنة ١٩٢٤ وبدأت سنة ١٩٢٥ وقد بدأت معالم النكسة تتحدد ، فقد ظهر جليا ، أن الانجليز عندما ضاقوا ذرعا بحكومة الشعب (سعد زغلول) وبالحكم النيابى الدستورى ، لجأوا الى حليفهم التقليدى فى مصر وهو الملك احمد فؤاد الذى لم يكن يهمه الا أن يضاعف سلطانه الشخصى فى شئون البلاد ، فحل البرلمان ليجىء ببرلمان جديد على هو » ، ولم يشأ أحمد فؤاد ان يكون « ضرب الوفديين » لحساب الانجليز والأحرار الدستوريين ، وانما لحسابه الشخصى ، ففكر وخطط ، أو بالأحرى خطط له حسن باشا نشأت ، أن يؤلف حزبا ، يكون مرجعه هو الملك شخصيا ، ولكن من خلال حسن نشأت وعن طريقه فكان العمل على انشاء « حزب الاتحاد » واذيع وأشيع فى طول البلاد وعرضها ، أن هذا الحزب هو حزب الملك خاصة ، ولسنا هنا بصدد مناقشة أن الملك يجب أن يكون فوق الأحزاب فولاء كل مصرى هو للملك الذى يقرر الدستور « أن ذاته مصونة لا تمس » وهو لا يمكن أن يكون الا اذا ظل رمزا لمصر كلها (ناقشت كل هذه النظريات فى تحقيقات النيابة معى فيما بعد) ولكننا نتحدث الآن فى عام ١٩٢٥ حيث كان هذا هو اتجاه الملك أحمد فؤاد وراح حسن باشا نشأت ، يخطط له بنجاح .

حــزب الاتحــاد

اجتمع من أريد لهم أن يكونوا مؤسسى الحزب بفندق « سيمرميس » يوم ١٠ يناير واختاروا لرئاسته يحيى باشا ابراهيم ، واطلقوا على الحزب اسم « حزب الاتحاد » وتألف المؤسسون من أفراد انســلخوا من الهيئة الوفدية ومن الأحرار الدستوريين على السواء ، ومن هنا يحدثنا الدكتور هيكل فى مذكراته على الحرج الذى أحس به منذ اللحظة الأولى لتأليف الحزب وقد رأى الكثيرين من اساطين الأحرار الدستوريين ينضمون الى هذا الحزب الجديد ، وحدثنا بالاكثر عن حرجه لصيرورة صديقه وزميله فى تحرير السياسة وهو الدكتور طه حسين هو من اختير ليكون الرئيس الفعلى لجريدة الاتحاد التى قرر الحزب تأسيسها لتكون لســان حال الحزب ، وقد ذكرت « الرئيس الفعلى » ذلك أن الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ذكر فى كتابه أن مؤسسى حزب الاتحاد قد اختاروا الاستاذ عبد الحليم البيلى ليكون رئيسا للتحرير الرسمى ، والدكتور حسين هيكل فى هذه المسألة حجة الحجج فالدكتور طه حسين صديقه وكان زميله فى تحرير السياسة ، وهو يحدثنا عن الحرج الذى أحسه وظل يحسه ، وليس هذا بالأمر الجديد فى حياة الدكتور طه حسين ، فقد كان يكتب وهو طالب فى اللواء (الحزب الوطنى) وفى الجريدة (حزب الأمة) فلا جديد فى أن ينفصل طه حسين من جريدة السياسة ليشرف على الاتحاد ، وغنى عن البيان أن بدأ حزب الاتحاد متحالفا مع حزب الأحرار الدستوريين ، يجمعهما العداء للسعديين ، أو بالأحرى الوفد وسعد زغلول ولكنا لن نلبث أن نرى الأحرار

الدستوريين يدفعون الثمن باهظا ، ولكن كما اعتدنا أن نقول : لا نسبق الحوادث .

حتى آخر يناير :

فلندع الملك احمد فؤاد مشغولا بتوطيد سلطانه ، والأحرار الدستوريين يعماون على أخذ الثأر من السعديين ، ومن الحياة النيابية التى يعتبرونها من صنعهم ، فلم يغنم منها الا سعد زغاول ، لندع كل هذه الخلافات بعد أن زاد حزب الاتحاد نفمه ، ولنرجع الى المستفيد الأكبر من كل هذا وأعنى بهم الانجليز فقد كانوا لا يضيعون يوما واحدا ، بل ساعة ، دون العمل فى سبيل تحقيق برنامجهم الذى أصبح يتلخص فى هدف كبير وهو « فصل السودان عن مصر » تمهيدا لابتلاعه .

تعيين حاكم جديد للسودان :

وكان يمكن أن يعينوا بجرة قلم حاكما للسودان من الحكومة الانجليزية مباشرة ، ولكنهم رأوا أن يحتفظوا بالمظاهر من ناحية ، وأن يبقوا صلة مصر بالسودان من الناحية الرسمية لتظل تدفع ما قد يحتاجه السودان ، وعلى هذا الأساس عينوا حاكما جديدا للسودان فى أواخر العام المنصرم أى فى شهر ديسمبر ، وهو « السير جوفرى ارشر » وكان حاكما لأوغندا ، وجعلت تعيينه بمرسوم من ملك مصر حسبما جرت العادة ، بينما عمدت من الناحية العملية للاقدام على الخطوة التى تفصل السودان عن مصر وذلك بانشاء :

قوة الدفاع السودانية المنفصلة عن مصر :

أعلن الحاكم الجديد فى أوائل يناير فى منشور رسمى انشاء قوة دفاع عن السودان من السودانيين لتحل محل الجيش المصرى بعد انسحابه وتدين فى ولائها لحاكم السودان .

واليك نص المنشور :

عملا بالسلطة العسكرية والملكية السامية المخولة لى بمقتضى شروط تعيينى انا السير جوفرى فرنسيس آرشر حامل نيشان القديسين ميخائيل وجورج من درجة فارس حاكم السودان العام أعلن ما يأتى : —

بما انه بسبب انسحاب الجيوش المصرية من السودان قد أصبح من الضرورى انشاء قوة للسودان وبما انه من المرغوب فيه ازالة ما قد يوجد فى أذهان الضباط من اهالى السودان الذين خدموا فى الجيش المصرى والمزمع نقلهم قريبا الى قوة السودان من ارتياب من أجل مراكزهم فبناء على ما تقدم أعلن الآن ما يأتى : —

أولا : تسمى القوة الجديدة المراد انشاؤها كما تقدم « جيش دفاع السودان » وتدين بالولاء لحاكم السودان العام .

ثانيا : يعين الحاكم العام ويعزل جميع الضباط وتمنح جميع البراءات باسمه .

ثالثا : بما أن الحكومة المصرية غير قادرة بعد الآن على استخدام ضباط الجيش المصرى الذين هم من أهالى السودان فسيقبل من جميع هؤلاء الضباط من رأى فيهم الجدارة فى خدمة « جيش دفاع السودان » بموجب الشروط المنظمة لاصدار البراءات فى هذا الجيش والتى ستبلغ فى هذا اليوم الى أولئك الضباط .

رابعا : عند اصدار البراءات الجديدة تتولى حكومة السودان مسئولية الرواتب والمعاشات والمكافآت المستحقة الآن لأولئك الضباط بمقتضى شروط الخدمة فى الجيش المصرى .

ولاء ضباط السودان

ولقد رأينا فى كل ما مضى كيف كانت مشاعر السودانيين هى ذات المشاعر المصرية فوقفوا فى وجه الخطط الانجليزية الى حد الاشتباك المسلح ، وبنفس الروح رفض عشرات من الضباط السودانيين أن يقسموا يمين الولاء لحاكم السودان ، وجاءوا الى مصر فاستقبلتهم بالترحاب والحقتهم بوظائف مصرية مدنية وعسكرية .

أول فبراير – تعديل الدوائر الانتخابية :

صدر مرسوم يهيىء لتزوير الانتخابات القادمة وتوجيهها لخدمة السلطة ، ويقضى هذا المرسوم الجديد بتعديل ١٠٦ دائرة من أصل مجموع الدوائر الانتخابية وعددها ٢١٤ دائرة ، ولابد من كلمة توضح معنى تعديل الدوائر الانتخابية ، وكيف يستخدم لانجاح أشخاص واسقاط أشخاص على ضوء ما ظهر من نتائج سابقة ، فكل دائرة انتخابية ، تتألف من عدة دوائر فرعية ، فاذا اظهرت الانتخابات التى تمت قوة أى مرشح الكاسحة فى احدى هذه الدوائر الفرعية ، فباخراجها من دائرته الانتخابية فانه يفقد سندا قويا ولنضرب لذلك مثلا ، فان بلدة أى مرشح فى الانتخابات فان كل اصواتها تقريبا تذهب للمرشح ، فاذا ضمت هذه البلدة الى دائرة انتخابية أخرى ، خسر المرشح الذى يقيم بها أصوات الناخبين التى كانت مضمونة ، وهكذا ولقد عدلت الدوائر طبقا للمرشحين الذين سينافسون مرشحى الوفد .

يقول عبد الرحمن الرافعى فى « أعقاب الثورة » وكان اسماعيل صدقى هو أول من استن هذه السنة السيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها حتى يوم القيامة، أما الدكتور حسين هيكل ، والذى ينتمى اسماعيل صدقى الى حزبه فيقول ان الرجل (أى اسماعيل صدقى) كان فى لهفة لأن يصبح رئيسا للوزارة باثبات كفاءته فى كيف يحارب الوفديين .

ودار الحديث عن هزيمة الوفديين المقبلة وعزل من عزل من رجال الادارة ، ونقل من نقل ، وهدد من هدد ، ودارت المعركة الجديدة حول أن من يختار نائبا سعديا فذلك معناه عدم الولاء للعرش أولا وتعريض البلاد الى مالا تحمد عقباه ثانيا .

١٢ مارس ــ اجراء الانتخابات :

واجرت الحكومة الانتخابات ، بعد أن فعلت الممكن وغير الممكن ، لانجاح مرشحى حزبى الاتحاد والأحرار الدستوريين ، فى يوم ١٢ مارس ، ولم تكد النتائج تعرف حتى كان الوفد قد حصل على الأغلبية (١١٦) وذلك فى مقابل (٨٧ مقعدا) حصل عليها حزبا الحكومة والمستقلون ، ولكن لما كان اسماعيل صدقى وحسن نشأت ، لا يزالان يحملان فى جعبتيهما الكثير من الكيد والتدليس ، فقد اذاعت الحكومة بيانا فى ١٣ مارس تعلن فيه انها حصلت على الأغلبية ، وأنها ستعيد التشكيل على ضوء ما أسفرت عنه الانتخابات .

١٣ مارس ــ تشكيل حكومة زيور الثانية :

رفعت الحكومة استقالتها الى الملك ، فكلف زيور باعادة تشكيلها على ضوء ما أسفرت عنه الانتخابات فأدخل الى الوزارة ثلاثة من الاحرار الدستوريين وهم عبد العزيز فهمى (الحقانية) وتوفيق دوس (للزراعة) ومحمد على علوبة (للاوقاف) بالاضافة الى اسماعيل صدقى (الداخلية) الذى أثبت اقتداره فصاروا أربعة ، وكذلك ضم من الاتحاديين أربعة وهم يحيى أبراهيم (المالية) اللواء موسى فؤاد (الحربية) يوسف قطاوى (وقد كان يهوديا ــ للمواصلات) وعلى ماهر (المعارف) وظل رئيس الوزارة أحمد زيور يعتبر نفسه مستقلا واحتفظ لنفسه الى جوار الرئاسة بوزارة الخارجية ، كما ضم وزيرا مستقلا آخر هو اسماعيل سرى (للاشغال) .

وغنى عن البيان ، أن كل هؤلاء « باشوات » من حيث الرتبة ، ومن لم يكن باشا ، فقد أنعم عليه الملك بالرتبة فيما بعد .

٢٣ مارس ــ اجتماع مجلس النواب وحله فى نفس اليوم :

انعقد مجلس النواب الجديد ومجلس الشيوخ بهيئة مؤتمر برئاسة محمد توفيق نسيم باشا الذى كان قد صدر مرسوم بتعيينه رئيسا لمجلس الشيوخ ، وبعد أن القى خطاب العرش وانصرف الملك ، اجتمع مجلس النواب على انفراد لانتخاب رئيسه ، وقد تقدم سعد زغلول للرئاسة ، وقدمت الحكومة فى مواجهته عبد الخالق باشا ثروت ، ولم تكن الحكومة تشك فى النتيجة وأنها ستكون فوزا لثروت باشا فقد كان اسماعيل صدقى باشا (قد سوى الهوائل كما يقولون) فمن يفلح فيه التهديد من النواب فقد هدده ومن كان يفلح فيه الاغراء بأى نوع من الاغراء فقد أغراه .

ويحدثنا الدكتور هيكل عن المفاجأة أو بالأحرى الصدمة التى صدمت بها الحكومة عندما أسفر التصويت على منصب الرئاسة الذى اعتبر علامة قاطعة على هوية المجلس الجديد ، فقد فاز سعد زغلول بـ ١٢٣ صوتا حيث لم يحصل ثروت باشا على أكثر من ٨٥ صوتا .

استقالة الوزارة وعودتها على أساس حل المجلس :

كان طبيعيا أن تستقيل الوزارة الى غير رجعه وان يتأكد الجميع (انجلترا وملكا وأحزابا غير وفدية) أن الأمة المصرية تعرف طريقها وهى مصممة عليه ، ولكن لما كان المطلوب هو ضرب هذه الأمة بالذات فقد رفعت الحكومة استقالتها ، ولكن هذه الاستقالة تحمل التوجيه للخطوة الثانية وهى حل مجلس النواب واليك ما جاء فى هذه الاستقالة :

« بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذى تضمنه خطاب العرش ظهرت فى المجلس روح عدائية تدل على الاصرار على تلك السياسة التى كانت سببا لتلك النكبات التى لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية فى ان المجلس اختار لرئاسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها » .

ولما كان هذا الكلام لا يكتب الا بناء على اتفاق سابق ، فقد رفض الملك الاستقالة وطلب من الوزارة حل مجلس النواب ثانية ولما يبدأ عمله ، وعلى ذلك فقد دخل زيور باشا على النواب وكانوا قد انعقدوا لمواصلة عملية انتخاب مكتب المجلس وكان قد اختار الوكيلين (على الشمسى وويصا واصف) واختار السكرتيرين الأربعة (أحمد ماهر — على حسين — راغب فودة — وعبد اللطيف سعودى) وفيما يهم النواب بانتخاب المراقبين ، وانسحب سعد من الرئاسة وراس الجلسة على الشمسى فقال زيور : أتشرف بابلاغ المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها الى جلالة الملك فأشارت على جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم التالى ، ثم تلا المرسوم وهو يقضى بحل مجلس النواب ويدعو المندوبين لانتخاب أعضاء جدد فى ٢٣ مايو وانعقاد المجلس الجديد فى أول يونية .

وهكذا حل المجلس الجديد الذى لم ينعقد الا بضع ساعات ، ولما يستكمل تشكيله بعد ، وغنى عن البيان ، ان هذا العدوان السافر ينطق بيقين الملك فؤاد انه لا يستطيع أن يحكم بالدستور وما هذا الحديث عن انتخابات جديدة الا ذرا للرماد فى العيون ، وفى قبول عبد العزيز فهمى وبقية وزراء الأحرار الدستوريين لهذا الاجراء كشفا لكل ادعاء اتهم انهم حماة الدستور وفى قبول عبد العزيز فهمى بالذات لهذا الاجراء — وهو الذى كان يجب أن يوصف بأنه هو « أب الدستور » — فضيحة كاملة فى حياة الرجل لن يلبث أن يدفع ثمنها غاليا كما سوف نرى ، بحيث يعترف هو شخصيا بارتكابه لما أسماه خطأ فاحشا كاد أن يذهب بكرامته ، ويتبرأ الدكتور هيكل فى مذكراته من هذا الاجراء المنكر ويقول لنا أن أسماعيل باشا صدقى كاد أن يقنعه بأن ذلك قد حدث لمصلحة البلاد ، ولكنه (أى هيكل لم يقتنع) .

٢ مايو ١٩٢٥ — استقالة اللورد اللنبى :

أصبح من الواضح أن سياسة اللورد اللنبى العنيفة ضد مصر وضد سعد زغلول شخصيا قد انتهت الى هذا التدهور ، وحقا أن الملك فؤاد حليف قوى لبريطانيا ،

ولكن الأحداث بدأت تتصاعد لتثبت ، ان الملك فؤاد وحكومته أعجز من ان يحكما البلاد الا بالحديد والنار وبالاجراءات البوليسية والاستثنائيه والتى لا تعترف بدستور أو قانون ، وقد رأينا على سبيل المثال كيف وعدت الحكومة فى ٢٢ مارس وهى تحل مجلس النواب انها ستجرى انتخابات جديده فى مايو لينعقد البرلمان فى أوائل يونيه ، ومع ذلك فلم تمضى أيام حتى صدر فى (٢٦ مارس) مرسوم يقضى بوقف عملية الانتخابات كلها ، ريثما يعاد النظر فى موضوع الانتخابات ، ولما كان لم يعين لذلك أجل ، فقد كان معنى ذلك أن الملك قرر نهائيا أن يحكم بغير البرلمان .

قضية اخطاب :

ولما كنت اعاصر هذه الأحداث ، فقد التهبت البلاد فى هذه الفترة ، بما سمى «قضية اخطاب» وهى تتلخص فى خروج أحد ضباط البوليس (ملاحظ نقطة أخطاب)الى تجاوز كل قانون أو عرف أو آداب عامة فى محاربة الناس فى هذه البلدة يوما يجاورها (دائرة محمود باشا الاتربى الانتخابية) وذلك كله لصرف الناس عن وفديتهم ، فانتهك الضابط المذكور الحرمات وفعل الافاعيل ولكن دون جدوى ، ولم يكن ذلك الا نموذجا صارخا حادا لما أصبح يجرى فى مصر كلها مما عبرنا عنه ان مصر أصبحت تحكم بالحديد والنار .

ونعود الى قضيتنا مع اللورد اللنبى ، وقد أشدنا به واعطيناه حقه ، وأنه كان صاحب فضل على مصر وثورة ١٩١٩ عندما اقترح على حكومته فى بادىء الأمر الافراج عن سعد زغلول وعن دوره الكبير فى حصول مصر على تصريح ٢٨ فبراير ، غير أن الذى لا شك فيه انه وقف بعد ذلك موقف العداء لحكومة الشعب وانتهز فرصة مقتل السردار لكى يطلق لغضبه العنان وقدم انذاره العنيف بهذا الاسلوب الاستفزازى وفى كتاب الدكتور عبد العظيم رمضان الخاص بهذه الفترة ما يفيد (بعد اطلاعه على المراجع البريطانية) ان الحكومة الانجليزية كانت على خلاف معه ، فأرسلت المستر نيفل هندرسون ليكون وزيرا مفوضا فى مصر دون استشارته لينفذ السياسة التى تريدها وزارة الخارجية البريطانية ويزيد الدكتور عبد العظيم رمضان بالاستناد الى مراجعه ، أن الأمر قد وصل الى حد الايعاز للورد اللنبى بالاستقالة ويبدو أن اللورد اللنبى بعد أن اطمأن لانه ثأر لنفسه ، واعاد لانجلترا سلطانها فى مصر والسودان رأى أن يقدم استقالته فقدمها فى ٢ مايو وان لم يبرح البلاد الا بعد ذلك بأكثر من شهر .

٧ يونيو ــ الحكم فى قضية مقتل السردار :

ما كنت لأمضى فى كتابة هذا التاريخ ، على الرغم من حالة العجز التى اعانيها ، وانتظارى الموت من ساعة لأخرى ، أقول لا يشجعنى على المضى الا كونى كنت معاصرا لهذه الأحداث وأذكر ان الحكومة قبضت على أفراد الجهاز السرى الذى ارتكب هذا الحادث ، وان من دل عليهم هو من يسمى « نجيب الهلباوى » وعندما انتهى التحقيق

وقدمت القضية لمحكمة الجنايات كانت المحكمة مشكلة برئاسة احمد عرفان باشا وعضوية مستر كيرشو (الانجليزى) ومحمد بك مظهر ، وانعقدت المحكمه بباب الخلق واستجوبت المتهمين تفصيلا ، ثم سمعت اقوال الشهود من رجال البوليس الانجليز وغيرهم ، ثم سمعت مرافعة النيابة فالدفاع ،وتم ذلك فى عشرات من الايام ، وانا أذكر ذلك كله بهذا التفصيل فقد عشنا جميعا فى هذه الأيام ، مع هـذه القضية وكانت الصحف كلها تنشر حرفيا كل ما يدور فى الجلسات ، على اعتبار ذلك كله من صفحات مصر المجيدة ، وقد تبين من سير التحقيق والمحاكمة ، أن هذا النفر من المتهمين ، كانوا هم الذين قاموا بجل الحوادث السابقة ، التى اكرهت الانجليز عام ١٩٢٢ على الاعتراف باستقلال مصر وكانوا هم الذين عجزت انجلترا على التوصل الى واحد منهم ، واذا كانوا قد وقعوا فى نهاية الأمر ، فليس ذلك الا لارتكابهم هـذا الحادث الذى اودى بحكومة الشعب واعاد مصر الى ظلام التحكم الانجليزى واستغلال القصر ذلك ليحكم حكما مطلقا وبالرغم من كل شىء فقد كنا ننظر الى المتهمين نظرتنا الى أبطال عظام ، وان انسى فلست انسى موقفا يشبه أن يكون اسطوريا لمن يسمى محمود اسماعيل ، فلا يزال فى ذاكرتى كيف القى قنبلة فى شـارع يلاصق حديقة الأزبكية على عساكر الانجليز ، فلما انتهى الانفجار وعثر عليه الانجليز بالقرب منه أوهم أنه عابر سبيل ، وكان عليه ان يلقى قنبلة ثانية (كان يحملها له آخر) فى آخر هذا الطريق بالذات ، فلم يتردد والقى القنبلة الثانية التى انفجرت بدورها واصابت من اصابت ، وعندما عثر عليه الانجليز هذه المرة ايضا بعد الانفجار راحوا يهنئونه على نجاته مرتين من الموت بأعجوبة وانا اذكر هذه الواقعة لأدلل كيف ان مر السنين (أكثر من خمسين سنة) لم ينسنى انفعالى وقتها .

واخيرا صدرت الأحكام فى ٧ يونيو وهى تقضى بأعدام هذا النفر من شباب مصر ورجالاتها والذين خاطبوا انجلترا (قبل هذا الحادث الأخير) باللغة الوحيدة التى يفهمونها وقـد فهموها وهم : عبد الفتاح عنايت ــ عبد الحميد عنايت (وكانا اخوين) وكانا طالبين فى كليـة الحقـوق ــ ٣ ابراهيم موسى عـامل خراط بورش السـكة الحديد ــ ٤ محمود راشد المهندس بالتنظيم ــ ٥ على ابراهيم محمد عامل برادة بورش السكة الحديد ٦ ــ راغب حسن نجار بمصـلحة التلغرافات ٧ ــ الاسـتاذ شفيق منصور المحامى ــ٨ محمود أحمد اسماعيل موظف بوزارة الاوقاف (وقـد كان صديقا لحسن نشأت) وقد استبدل حكم الأعدام بالنسبة لعبد الفتاح عنايت من الأعدام الى الاشغال الشاقة المؤبدة وقد قيل لنا وقتها ان المحكمة لم تشـأ أن تعدم شقيقين ، ولكن الحقيقة ان عبد الفتاح عنايت تعاون معاونة كاملة فى التحقيق والمحاكمة فكان لابد من مكافآته ، وقد عاش عبد الفتاح عنايت حتى خرج من الليمان وقد اتصل بنا فى مصر الفتاة واحتفلنا به ، كما شوهد أخـيرا مع رئيس الجمهورية (أنور السادات) وهو يضرب المعول الأول لهدم ليمان طرة ثم اعقبه عبد الفتاح عنايت مما يدل على أنه على مشارف الثمانين فسبحان من بيده الحياة والموت .

بقى أن نذكر أنه كان قد قبض عقب مقتل السردار مباشرة على سائق اجـرة (محمود صالح) وقد اثبت التحقيق ان لا علاقة له لمرتكبى الحادث ومع ذلك فقد حكم عليه بالحبس سنتين .

سبتمبر ـ اقالة عبد العزيز فهمى وكتاب الاسلام واصول الحكم :

كانت سقطة من الأحرار الدستوريين ، ان انسـاقوا وراء حقدهم الاعمى على سعد زغلول فشاركوا فى واد الدستور ، ولقد نوهنا فيما سبق أنهم سيدفعون الثمن وسنرى كيف دفعوه .

كتاب الاسلام وأصول الحكم :

وتبدا القصة عندما نشر الشيخ على عبد الرازق القاضى بالمحكمة الشرعية كتابه « الاسلام وأصول الحكم » وهو كتاب يدور حول اثبات أن الخلافة ليست من أصول الاسلام الذى ترك المسلمين احرارا فى اختيار نظم الحكم التى تلائمهم ويقول الدكتور هيكل أنه قرظ الكتاب بكل بسلطة فى جريدة السياسة ونوه بالثقافة المستنيرة لمؤلف الكتاب ولم يدر بخلده لحظة ان الدنيا سوف توشك ان تندك وتتزلزل تحت أقدام الحزب بسبب هذا الكتاب ذلك أن الملك أحمد فؤاد وكانت شهيته للحكم المطلق قد تفتحت رأى فى الكتاب ما يناقض رغباته ، فقد كانت الأطماع قد بدأت تساوره فى أن يكون « خليفة للمسلمين ، وكان منصب الخلافة الاسلامية شاغرا منذ ألغاها مصطفى كمال فى تركيا بعد اعلانه الجمهورية وقوله أن الخلافة الاسلامية كانت عبئا على تركيا ، وتنادى المسلمون فى بقاع الارض لاعادة الخلافة الاسلامية وارتفع صوت مسـلمى الهند بخاصة ، ورشح البعض ملك مصر والسودان لهذا المنصب ، ولم يكن يضايق انجلترا أن يكون ثمة خليفة للمسلمين تحت سلطانهم ، فلا عجب أن تفتحت شهية أحمد فؤاد لأن يصير خليفة ، وتألفت فى مصر بالفعل عدة جمعيات من علماء مصر تدعو لخلافة ملك مصر ، فلما صدر كتاب « الاسـلام وأصول الحكم » ليثبت أن الخلافة ليست من تعاليم الاسلام ، وبالتالى (وان لم يصرح بذلك) فلا ضرورة لهذه الضجة التى تنادى بوجوب اقامة الخلافة ، ولم ير الملك فؤاد فى الكتاب وجهة نظر دينية ، يرد عليها بكتاب ، أو سلسلة مقالات ، ولكنه وجد فيه تحـديا صـارخا لمشيئته وخططه ، فرأى أن يكون الرد الوحيد عليه ، هو فصل القاضى الشرعى من هيئة العلماء وبالتالى اخراجه من وظيفته ، وبالفعل قررت الهيئة فى شهر أغسطس تجريد الشيخ على عبد الرازق من صفته كعالم اسلامى ، ولو ان الأمر وقف عند هذا الحد ، لما وصل الموضوع الى الابعاد التى وصل اليها ، ولكن الملك فؤاد تطلع الى اكثر من ذلك وهو أن يطرد الشيخ على عبد الرازق من منصبه كقاض شرعى فى محكمة المنصورة والوصول الى ذلك كان لابد من اشراك عبد العزيز باشا فهمى فى الموضوع باعتباره وزير الحقانية الذى تبعه القاضى ، ولما كان عبد العزيز فهمى هو رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، الذى تؤلف (عائلة عبد الرازق) التى ينتمى اليها على عبد

الرازق احد دعائم الحزب ، فقد كان من غير المعقول ، أن لا يحصل احد افراد الأسرة على حماية القانون ، ومن هنا فان عبد العزيز فهمى رد على يحيى باشا ابراهيم (رئيس الوزراء بالنيابة) لغياب زيور باشا في أوروبا ، بأنه سيبحث الموضوع مع لجنة قضايه وزارة الحقانية وعرض ما ينتهى الأمر اليه على السراى ، وقد رأى الملك فؤاد فى ذلك عدم انصياع لمشيئته ، فطلب من يحيى ابراهيم أن يبلغ عبد العزيز فهمى استحالة التعاون معه ، فلما لم يستقل عبد العزيز باشا فهمى ، صدر مرسوم فى شهر سبتمبر يقضى بطرد عبد العزيز فهمى من الوزارة وذلك بتكليف على ماهر باشا وزير المعارف « بالقيام بأعباء وزير الحقانية الى أن يعين لها وزير بدلا من عبد العزيز فهمى » .

وفى مذكرات الدكتور حسين هيكل تفاصيل وقع هذه الضربة المهينة فى صفوف الحزب وكتبت الصحف تقول أن ما حدث لو انه حدث لعمدة أو خفير لكان عملا مهينا ، فكيف بحدوثه لوزير ورئيس حزب مشترك فى الوزارة ، وقرر الحزب استقالة وزيريه الآخرين ، محمد على علوبة باشا وتوفيق دوس باشا ، فاستقالا بالفعل ، وعلى الرغم من أن اسماعيل صدقى باشا لم يكن عضوا رسميا فى الحزب ، وبالرغم من أنه كان لا يزال فى أوروبا (للاصطياف) فقد أرسل بدوره يستقيل ، ولم يأبه الملك بذلك كله بل لعله اغتبط لينفرد أكثر واكثر بالسلطة فأسرع لسد الفراغات فى الوزارة برجال من حزب الاتحاد فعين أحمد ذو الفقار باشا وزيرا للحقانية ، ومحمد توفيق رفعت باشا وزيرا للمواصلات وللاوقاف مؤقتا ونخلة جورجى المطيعى باشا وزيرا للزرعة ، ومحمد حلمى عيسى باشا وزيرا للداخلية ، وصدر المرسوم بهذه التعيينات فى ١٢ سبتمبر — واللطيف أن ذلك كله حدث وزيور باشا رئيس الوزارة يصطاف فى فرنسا — « فيشى » ، دون أن يكون له دخل فى شىء من ذلك كله ، وان كان قد اخطر به بطبيعة الحال ولم يحدث فى تاريخ الوزارات المصرية أن تولاها انسان بكل هذه السلبية واللامبالاة ومن الأقوال التى كانت شائعة عن زيور باشا ومازلت احفظها منذ هذه الفترة « انهم حطوه فى الوزارة فانحط » .

أكتوبر – حضور جورج لويد المندوب السامى الجديد :

قدمنا ان اللورد اللينبى استقال فى مايو من هذه السنة ، ولكنه لم يغادر مصر الا فى شهر يونية ، وكانت وزارة الخارجية البريطانية قد عينت بدلا منه المستر جورج لويد ، أحد حكام الولايات الهندية ، وبالتالى فهو من غلاة المستعمرين ولكنه لم يكن فى عجلة من أمره للحضور الى مصر فقد كان الفصل فصل الصيف (أى الأجازات) ولأنه كان فى مصر (وهو الأهم) المستر نيفل هندرسون ، الذى بعثته وزارة الخارجية وزيرا مفوضا على ما قدمنا ، وكان كل دور هندرسون فى غياب جورج لويد ، هو عدم خلق اى ازمة من اى نوع كان ، ومن هنا رأى الملك فؤاد انه مطلق اليدين ففعل هذا الذى فعل واصبح يحكم مصر من خلال حسن نشأت حكما مباشرا ، وقد انضم الوزراء الجدد الى حزب الاتحاد فأصبحت الوزارة كلها اتحادية تحت نفوذ السراى .

موقف الوفد من طرد الدستوريين :

غنى عن البيان ان الوفديين وعلى رأسهم سعد زغلول كانوا أكثر الناس شماتة لما أصاب الدستوريين ، وقد أصاب عبد العزيز فهمى (خصم سعد زغلول اللدود) بالذات ، ولكن اللصعة كشفت فى نفس الوقت عن مدى رغبه الملك بالانفراد بحكم مصر ، وكان كل مابدله الشعب من جهود وتضحيات، وماعاناه من الام أنما كان لينتهى ذلك كله لصالح انسان فرد ، وهو أحمد فؤاد ، ان من يستقرىء التاريخ لايستطيع الا ان يجزم ان سعد زغلول قد صرخ فى أعماق نفسه فى وجه هذا التطور الذى آلت له الامور « لا وألف مرة لا » فمنذ هذه اللحظة سنرى أنفسنا امام سعد زغلول جديد ، انه ليس سعد زغلول الذى يرمز للشعب فى ثورته وتطلعاته التى لا يحدها حد « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » سنرى أمامنا سعد زغلول جديد او واقعيا الى أقصى حدود الواقعيه ، وان الدرسين اللذين تعلمهما ، من محنة ١٩٢٥ ، أن جموع الشعب والتفافه حوله ، لا يغنى شيئا عند عدم الوحدة مع بقية العناصر السياسية القوية (الاحرار الدستوريين) ان تجاهل الانجليز ودورهم فى مصر لا يستفيد منه سوى الملك . ومن هنا فسوف نرى أن سعد زغلول الذى عاش منذ ثورة سنة ١٩١٩ يزدرى من يسميهم بالمعتدلين ، سيصبح هو شيخ المعتدلين ، والرجل الذى رفض دائما كل دعوة الى الائتلاف والتعاون مع أحزاب الأقلية سيكون هو الساعى الى هذا التعاون والائتلاف وسينتهى هذا العام والذى يليه فى استعراض ما تم من هذا القبيل ، ولكنا قبل ذلك نرى أن نشير الى تبدل سياسة سعد زغلول حيال الانجليز .

يترك بطاقته لجورج لويد المندوب السامى الجديد :

لأمر ما يلغز أستاذنا عبد الرحمن الرافعى من هذه الواقعة فيحدثنا فى كتابه (فى أعقاب الثورة) عن الكبار الذين خفوا لتحية المندوب السامى الجديد ، وهو يقصد سعد زغلول من غير شك ، وربما رأى (بمثاليته المطلقة فى السياسة) ان يجنب تاريخ مصر ما اعتبره سبه ، وهو ليس كذلك من غير شك ، فقد راى الرجل، أن مصر كلها (وليس هو فقط) تدفع ثمن خشونته مع الانجليز ، فعاد الرجل الى طبيعته ، ولم ير حرجا فى أن يمر على دار المندوب السامى الجديد وان يترك له بطاقة على سبيل التحية ، أن أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، يرى فى ذلك تدهور الثورة المصرية ، وهذا حق ، وعندى أن سعد زغلول كان يلام أشد اللوم لو تجاهل هذا الواقع ، ولكنه دال على شعوره بالمسئولية .

٢٧ اكتوبر ــ اصدار قانون الجمعيات والهيئات السياسية :

امعنت الوزارة فى اجراءاتها المقيدة للحرية فأحاطت بيت سعد زغلول بالجند لتحول دون وصول الجماعات اليه ، ووصل بها الأمر الى حد ان وزعت منشورا على رجال البوليس تلفت نظرهم الى ايقاف كل من يشتبهون انه يحمل منشورات ويفتشونه ، ومنعت اجتماعات الحزب الوطنى السياسية ولكنها فى الوقت الذى

حظرت فيه اجتماعات الوفد والحزب الوطنى صرحت باجتماع لحزب الاحرار الدستوريين ، تصوروا منها استبقاء بعض الود ، على ان اجراءات الحكومة ما بقيت تضيق على الحريات بصفة عامة وما بقى تعاملها ، مع جماهير الشعب العريضة التى لم يكن لديها توجيه معين ، فقد ظلت الأمور تسير ، واذ كنت كما اسلفت معاصرا لهذه الاحداث ، فقد كانت الايام تمضى تلو الايام ، دون أحداث أو وقائع بارزة ، مما شجع الحكومة ، أو بالأحرى الملك فؤاد على أن يزحف لاخضاع حزب الوفد وغيره من الاحزاب التى يمكن ان تعترض مشيئته فأوعز الى الحكومة فأصدرت فى ٢٧ أكتوبر مرسوما بقانون يسمى قانون الجمعيات والهيئات السياسية وخلاصة هذا القانون أنه يجعل انشاء أحزاب جديدة رهنا بالحصول على اذن من الحكومة ويخضع الأحزاب القائمة بالفعل الى سلسلة من الاجراءات يتعين عليها القيام بها والا عرضت نفسها للحل . هنا وكانت هذه القشة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون . وبدأ الصراع الذى أخذ صورة التحدى اذ أعلنت الأحزاب الثلاثة ، الحزب الوطنى والوفد والأحرار الدستوريون وأصدروا بيانات يتحدون فيها الحكومة ويعلنون عدم الاعتراف بهذا القانون ، ونرى ان نثبت هنا نص بيانى الحزب الوطنى والوفد فهما من ناحية يظهران أهداف القانون ومراميه ، ومن ناحية أخرى ، يظهران روح الكتابة السياسية واسلوبها فى هذه الفترة :

أولا ـ بيان الحزب الوطنى

اجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى فى يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر ١٩٢٥ الساعة العاشرة والنصف صباحا وتباحثت فى القانون الذى أصدرته الحكومة خاصا بالجمعيات السياسية وقررت باجماع الآراء ما يأتى :

أصدرت الحكومة فى يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٥ قانونا للجمعيات السياسية ترمى به الى وضع الأحزاب والهيئات السياسية تحت رحمتها فحتمت على الأحزاب أن تبلغ عن لجانها وفروعها وأماكنها وأسماء الأشخاص الذين تتألف منهم وأسماء باقى أعضائها ومجال اقامتهم وانتحلت لنفسها أن تحل كل جمعية سياسية بحجة أن أغراضها ضارة بمصالح الدولة الى غير ذلك مما لا يدع شكا فى أن الحكومة تريد أن تضع تحت رقابتها سياسة الأحزاب الأخرى وأن تسيطر على برامجها وتراقب اشخاصها .

ولم تجرؤ حكومة من الحكومات التى قامت فى عهد الاحتلال وعلى رمح الغاصب أن تمد يدها الى صميم الحركة الوطنية بمثل ما اجترأت عليه الحكومة الحاضرة .

أن المبدأ الوطنى أو الفكرة السياسية عقيدة راسخة يلتف حولها كل مؤمن بها ويقوم بنصرتها أفراد يكونون لجانها ويقومون بنشر دعايتها ولا سلطان للحكومات عليهم الا فيما يقع منهم مخالفا للقانون العام أو مهددا للنظام الاجتماعى ، غير أن حكومة اليوم التى لا ترتكز على ارادة الشعب والتى تامرت على الحياة الدستورية

واستسلمت لشهوات الحكم ونزعات الهوى تريد أن تغتصب حق التشريع فى أهم امر من أمور حياتنا السياسية ، تريد حكومة هذا الوقت أن تدعى لنفسها حق السيطرة على برامج الأحزاب وتحل ما تريد حله منها بحجة المنافاه لمصلحة الدولة (المادة السابعة) ولا شك أن الحكومة التى تقوم على سيف المحتل تعتبر منافية لمصلحة الدولة وجود أحزاب تنادى بالجلاء تحقيقا للاستقلال الفعلى ، تريد حكومة هذه الساعة ان تقف على أسماء الأعضاء ومحال اقامتهم ولو كانوا من غير اللجان العاملة ، تريد ذلك وهى تعلم استحالة ما تطلب واية هيئة سياسية قائمة على فكرة وطنية صحيحة يعتنق مبادئها كل يوم الآلاف من الناس وهى لا تجمع منهم مالا ولا توزع عليهم جاها ، اية هيئة سياسية هذا شأنها تستطيع أن تجيب الحكومة الى ما تطلب ؟ وأية هيئة سياسية صادقة فى جهادها انحطت مداركها الى هذا الحضيض الذى يجعلها ترضى أن تكون تحت هذه الرقابة الخطرة ، تقبل أن تكون عرضة لتحكم الحكومة فى بقائها أو حلها ؟ وأية سياسة للحكم هذه السياسة التى تريد القضاء على الهيئات السياسية ولا تخشى أن تحل محلها الجمعيات السرية والنزعات الثورية ؟

ان الحزب الوطنى الذى عمل طول حياته لايقاد جذوة الوطنية فى القلوب ورفع راية الوطن المجردة عن الهوى ووضع سياسة البلاد على المبادىء الصحيحة التى أيدتها وتؤيدها الظروف كل يوم وحارب الغاصب وأعوان الغاصب لا يمكن أن يرضخ لتحكم حكومة تتخبط فى دياجير الجهل بسياسة الحكم .

لذلـــك

يعلن الحزب الوطنى صراحة أن هذا القـانون يرمى الى حكم البـلاد بسلطة استبدادية ترتكز على قوة الغاصبين وتنفذ سياستهم وتجر البلاد الى خطر الفتن والاضطرابات ، ويقرر عدم رضوخه لأحكام هذا القانون الباطل ، تاركا للحكومة أن تستخدم سلطتها من حل واغلاق ومصادرة ، فهى وان استطاعت أن تغتصب حق التشريع وتغتصب سيادة الشعب فلن تستطيع أن تغتصب عقـائد الناس الكامنة بين جوانحهم » .

ثانيا — قرار الوفد المصرى

واصدر الوفد القرار الآتى :

اجتمع الوفد المصرى فى الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الأربعاء ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ببيت الأمة تحت رئاسة حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا وتناقش فى موضوع المرسوم بقانون الجمعيات السياسية وأصدر فيه القرار الآتى :

من يوم أن قامت بمصر حكومة منظمة ، وحق تأليف الجمعيات السياسية طليق لم يقيده قانون ، وما حده حكم ، وقد تمتعت البلاد به تحت الحكومات المختلفة ، قبل الاحتلال وبعده ، وفى عهد الحماية ، وتحت سلطان الأحكام العرفية ، فلم تعارض أية حكومة من هذه الحكومات فى تأليف الجمعيات السياسية التى قامت فى

الأزمنة المختلفة حتى تمكن في النفس احترام هذا الحق ، وجاء الدستور فأقره في صراحة تامة ، فقد نص في المادة (٢١) منه على ان « للمصريين حق تكوين الجمعيات » وخشية أن تعتدى السلطة التنفيذية عليه بما يقيد استعماله قرر في هذه المادة ان كيفية استعماله تكون بقانون ، أى باقرار البرلمان لأنه لا يكون القانون قانونا الا بهذا الاقرار .

غير أن الوزارة الحالية لاستيلاء النزعة الحزبية عليها ، وميلها الى الاستبداد المطلق ، أعطت نفسها سلطة وضع ذلك القانون ، وأصدرته بنصوص ترمى في مجموعها ، لا الى بيان كيفية استعمال ذلك الحق المقدس ، بل الى اعدامه . فقد علقت وجود الجمعيات بارادتها مع أنها هي المدينة بذلك الحق ، اذ هي التي تملك القوة على معارضته ، فهي التي يجب عليها بمقتضاه الا تعارض الناس في التمتع به ، ولا معنى لحق يكون استعماله معلقا بمشيئة المدين به ، لأنه اذا جاز له أن يعارض في استعماله كلما شاء المعارضة لم يكن هذا الحق حقا عليه ، بل عارية يستردها كلما أراد .

والوزارة الحالية تريد بأحكام ذلك المرسوم الرجعية ان تقضى على كل حزب يخاصمها حتى تستقل هي بحكم البلاد ، وتقيم فيها دولة الظلم والاستبداد ، وبهذا تحقق ما خشيه الدستور وتبطل ما قرره من حق وضمان وفضلا عن كون هذا المرسوم صادرا من هيئة لا تملك سلطة التشريع ، وملغيا للحق الذى جاء لبيان كيفية استعماله فانه مخالف مخالفة صارخة للمادة الواحدة والأربعين من الدستور التى استند اليها ، فلم يصدر بين أدوار انعقاد البرلمان التى يكون فيها موجودا واجتماعه ممكنا ، ولم يحدث ما يوجب الاسراع باتخاذ التدابير التى اشتمل عليها ، ولم تكن هذه التدابير مما لا يحتمل التأخير ، بدليل المدد المحدودة لتنفيذ بعض احكامه . ولا يمكن الوفاء بالضمانة التى أوجبتها هذه المادة من دعوة البرلمان الى الاجتماع فورا بصفة غير عادية .

وفوق هذا فان الوزارة تذرعت بهذا التشريع الجائر للجمعيات الى تشريع غادر بالأفراد ، فحرمت وعاقبت أفعالا لا يصح تحريمها ولا العقاب عليها الا بقانون ، أى تشريع يقره البرلمان ، كما أباحت مصادرة الأموال التى نص الدستور على أنها محظورة ، فجاء أجمع تشريع لأنواع الظلم والاستبداد وأشأم نذير بما تنويه حكومة « الاتحاد » لهذا استفظعه جميع الناس ، واستنكره قريبهم وبعيدهم ، وعده الكل نكبة على الدستور ونقمة على الحرية ، واعتبره الذين قرأوه انتقاما من خصوم الحزب الحاكم وسهما مصوبا على الأخص الى قلب الوفد بقصد تمزيق شمله وتفريق جمعه ، ولكنه سهم طائش وقصد خائب ، لأن الوفد يمثل فكرة رسخت في الأمة رسوخ الايمان ، ومبدأ انبث في نفوس أبنائها انبثاث الروح في الأجسام ، والنور في الظلام ، ذلك هو مبدأ الاستقلال التام ، الذى أصبحت لا تقبل فيه تغييرا ولا تعديلا ، فمثل هذا المبدأ باق مادام الاحتلال موجودا ، ومادام الاستقلال منشودا ، واذ عطلت القوة منه أعضاء أعملت الأمة مكانهم آخرين ، ولقد تألف من عدة سنين ، وأعضاؤه

معلومون لكل وزارة فى كل حين ، وتولوا هم الحكم بأنفسهم عدة شهور ، وهم وأن كانوا محصورين فى عدد محدود ، يمثلون عددا من الأمة غير محــدود بل أغلبيتهــا الكبرى ، فمن غير المفهوم ولا القابل للفهم أن يحمل وهذه حاله على الغــاء حياته الماضية وانكار صفته الحاضرة وأن يبتدىء حياة جديدة يتعلق بقاءها بمشيئة خصومه الذين يريدون بالقضاء عليه ، القضاء على الحركة القومية والنهضة الاستقلالية التى اعتبرته الأمة رمزها ، وجعلته حامل لوائها .

ولقد أقسم أعضاؤه على هذا كما أقسم ولاة الأمور امام الله والناس على الاخلاص للوطن والطاعة للدستور .

فبرا بهذا القسم الأعظم ، يستنكر الوفد المصرى ذلك المرسوم ، ويعد تنفيذه جرما كبيرا والرضا بأحكامه حنثا اثيما ، ويعلن فى عزة المحق وشهم الأبى ، إهماله ، ويترك للقوة أعماله ، وبينه وبينها حد الله وارادة الأمة وعدل القضاء » .

٢١ نوفمبر ــ اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه :

قدمنا انه منذ اقيل عبد العزيز فهمى بهذه الصورة الشائنة وأصبح حزب الاحرار الدستوريين فى المعارضة ، حتى أدرك جميع الوطنيين وعلى رأسهم سعد زغلول ، أن دوام الفرقة والخلاف لن يفيد أحدا الا الانجليز والملك فبدأ التقارب بين الأحزاب الثلاثة (الوطنى والوفد والدستوريين) وقد بدأ بطريقة ضمنية بأن خفت الحملات الصحفية ، فضلا عن التراشق بالتهم الذى توقف تماما ، ويحدثنا الدكتور هيكل فى مذكراته أن سعد زغلول هذه المرة كان هو البادىء بهذا السعى ، وأيا ما كان الأمر فان الجو بدأ يصفو الى الحد الذى جعل رجلا مثل « أمين الرافعى » صاحب جريدة الأخبار التى حرقها الوفديون ذات يوم ، ومع ذلك فقد كتب أن مجلس النــواب « المنحل » يجب أن ينعقد من تلقاء نفسه يوم ٢١ نوفمبر وراح يكتب فى أيام متوالية ، الأساس الذى تقوم عليه فكرته وهى المادة ٩٦ من الدستور التى تقول :

يدعو الملك البرلمان الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شــهر نوفمبر فاذا لم يدع الى ذلك يجتمع المجلس بحكم القانون .

ومضى أمين الرافعى يؤسس دعوته قائلا : وبما أن حل مجلس النواب الاخير كان باطلا بنص الدستور (لا يجوز حل المجلس لسبب واحد مرتين) وبناء على ذلك فان المجلس يكون قائما ، ويجب أن يجتمع ، وعلى رئيسى مجلسى النواب والشيوخ ، أن يدعوا الأعضاء للاجتماع فى اليوم المذكور .

ومضى أمين الرافعى يكتب مقالاته بهذا المعنى من يوم ٨ نوفمبر حتى يوم ١٢ حيث كتب تحت عنوان « اذا لم ندافع عن الدستور مضت الوزارة فى ثورتها عليه » .

ومع ما فى هذه الدعوة من ثورية واضحة ضد الملك فؤاد الذى كان خلف كل ما حدث من اجراءات ، فقد استجابت الأحزاب الثلاثة لهذه الدعوة ، وكان طبيعيا أن تدرك الحكومة كل ذلك ، فلم تقف عند أخذ عدتها ، كاحاطة مجلس النواب بجنود

الجيش ، وسد منافذ الطرقات المؤدية اليه ، بل انها وصفت هذا العمل بانه يؤلف ثورة كاملة ، ولذلك فقد راحت تصدر البيانات التى تنذر وتحـذر ، وأن التعليمات لدى جنود الجيش والبوليس هى ضرب الرصاص (فى المليان) لكل من يقترب من دار البرلمان فى هذا اليوم ، كما حظرت الاجتماعات والمظاهرات ، وطلبت من أولياء أمور الطلبة ان يمنعوا أبناءهم من الاضراب فى هذا اليوم فسيكون الطرد من المدارس هو جزاء كل طالب يمتنع عن تلقى الدروس فى هذا اليوم ، وسنرى مصير ذلك كله بعد ان نثبت قرار الحزب الوطنى والذى حذا الحزبان لآخران حذوه :

« اجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى يوم الجمعة ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ وقررت ما يأتى : —

اعتدت الحكومة على الدستور اعتداء صارخا وعطلت الحياة البرلمانية وحرمت البلاد من ممثليها الذين يشرفون على أعمال السلطة التنفيذية ، ثم انتهزت فرصة حل البرلمان فاجلت الانتخابات وجعلت مسألة تعديل قانون الانتخاب كمرآة تنعكس فيها الوعود الباطلة والمواعيد المتكررة على غير طائل ، مع أن الدستور يحتم اجراء هذه الانتخابات فى خلال شهرين وعقد المجلس الجديد بعد عشرة أيام من انتهائها طبقا للمادة (٨٩) من الدستور وعمـلا بأحكام نفس المرسوم الذى صدر بحل المجلس ، ولقد انقضت المواعيد المبينة فى الدستور وفى مرسوم الحل دون اجراء انتخابات وعقد المجلس الجديد .

لذلك أصبح من الواجب أن يجتمع المجلس القديم فى الحال بعد أن صار أمر حله باطلا وملغيا وكان من الواجب على الحكومة أن تدعو المجلس القديم للانعقاد .

غير أن الحكومة توارت خلف تأجيل الانتخابات للاستمرار فى حكم البلاد بطريقة استبدادية متذرعة بأن هـذا التأجيل ضرورى لتعديل قانون الانتخاب فى حين أنها لا تملك حق هذا التعديل كما أنها لا تملك تأجيل اجراء الانتخابات ولقد أظهرت الأمة أنها لا تستطيع أ نتتحمل استمرار تعطيل الحياة البرلمانية وطالبت بحقها فى التشريع وبالاشراف على أعمال السلطة التنفيذية لتضع حدا لتصرفات الحكومة ،تلكالتصرفات الجائرة التى تبدو كل يوم فى شكل قانون استثنائى جديد مما لم تعهد البلاد مثله فى أى زمن آخر .

ولما كان الدستور قد احتاط لمثل هذه الحالة وفرض حدوث اعتداء من السلطة التنفيذية على الحياة البرلمانية وحتم من أجل هذا فى المادة (٩٦) اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه فى يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر اذا لم تدعه الحكومة للانعقاد قبل ذلك ، ولما كان أقل واجب لأعضاء البرلمان أن ينفذوا أحكام الدستور الذى أقسموا يمين الطاعة له .

لذلك

يدعو الحزب الوطنى أعضاءه فى مجلسى النواب والشيوخ ولكل من ينحو نحوهم ويسير سيرتهم أن يذهبوا الى البرلمان فى يوم السبت ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ الساعة

العاشرة صباحا حتى يؤدوا واجبهم الوطنى حيال أمتهم ، وحيال وطنهم وحيال دستور البلاد وحيال حزبهم وحيال مبادئهم ، فاذا حالت قوة بينهم وبين الاستمرار فى أداء واجبهم فليرفعوا صوتهم بالاحتجاج على هذا العدوان الجديد ، وليشهدوا العالم على انتهاك حرمة الدستور ، وليسجلوا على العابثين عبثهم حتى يحاسبوا عليه يوم تزول دولة الاستبداد وتعود الحياة البرلمانية الى البلاد » .

وأصدر الوفد وحزب الأحرار الدستوريين قرارات بهذا المعنى .

الاجتماع بفندق الكونتننتال :

قلنا أن الحكومة ابرقت وارعدت ، واحاطت مجلس النواب بالجيش وامرت باطلاق النار على كل من يقترب من المجلس لاقتحامه وترامى كل ذلك الى علم النواب والشيوخ فبيتوا أمرهم مساء الجمعة أن يكون اجتماعهم فى اليوم التالى بفندق الكونتننتال ، وغنى عن البيان أن مثل هذا العزم لابد أن يكون قد وصل الى الحكومة فلم تشأ أن تلاحقهم لمنع الاجتماع هناك ، اما تصورا منها ، انه حتى لو تم فسيكون بغير فاعلية ، وأما أن تكون الحكومة قد بلغت من الضعف والهوان ، بحيث لم تر أن تصطدم فى هذا الوطن .

اجتماع المجلس وقراراته :

كشفت مجريات الأحداث صبيحة السبت ٢١ نوفمبر عن افلاس الحكومة ، فقد أضرب اكثر طلاب المدارس فى ذلك اليوم ، واجتمع النواب والشيوخ كما كان مقررا فى فندق الكونتننتال ومن اللطيف أن زيور باشا رئيس الحكومة يقيم فى نفس الفندق، ويجمع كل من كتب عن تاريخ هذه الحقبة ، انه حيا النواب الذين مر عليهم ، وهو جاهل لما يجرى ، وقد دفعهم لهذا الاستنتاج معرفتهم لطبيعة زيور وانه لا يدرى مما يحيط به شيئا ، ونحن نرى أن هذه الطبيعة ذاتها هى التى جعلته يعرف (ثم لا يكترث) فمن غير المعقول أن لا يكون نبأ هذا الاجتماع قد تسرب الى البوليس ، كما انه من غير المعقول كذلك أن لا تخطره ادارة الفندق بما سيجرى .

قرارات البرلمـــان :

وقد اصدر النواب والشيوخ بمجرد اجتماعهم القرار التالى :

تنفيذا لأحكام المادة ٩٦ من الدستور اجتمع أعضاء البرلمان اليوم (السبت ٢١ نوفمبر ١٩٢٥) وأرادوا عقد المجلسين فى دار البرلمان فمنعتهم القوة من الوصول اليه وعلى ذلك اجتمعوا اليوم فى فندق الكونتننتال وتكامل عددهم القانونى ، وبعد المناقشة فى الحالة الحاضرة قرروا بالاجماع ما يأتى : ــ

أولا ــ الاحتجاج على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور وعلى منع الأعضاء من الاجتماع فى دار البرلمان بقوة السلاح .

ثانيا ـ قرر مجلس النواب عدم الثقة بالوزارة طبقا للمادة ٦٥ من الدستور .

ثالثا ـ اعتبار دور الانعقاد موجودا قانونا واستمرار اجتماعات المجلسين فى المواعيد والأمكنة التى يتفق عليها الأعضاء .

رابعا ـ نشر هذه القرارات فى جميع الصحف » .

ووقع جميع الأعضاء على هذه القرارات .

وعقب الاجتماع انفصل الشيوخ عن النواب واجتمع النواب بمفردهم وانتخبوا سعد زغلول بالاجماع رئيسا للمجلس ، كما اختاروا محمد باشا محمود ، (الحر الدستورى) وكيلا للمجلس ، والدكتور عبد الحميد سعيد ، حزب وطنى) وكيلا ثانيا للمجلس ، وهكذا تحقق الوفاق والتعاون بين الأحزاب الثلاثة ، وسنرى كيف أن توحيد الصفوف كان وسيبقى هو الطريق المؤدى الى النصر .

٢٣ نوفمبر ـ أمراء البيت المالك ينضمون الى الشعب :

وكما هو الشأن فقد كان أمراء البيت المالك أول من عزز هذه الحركة الجديدة آخذين جانب الأمة فاجتمعوا وتشاوروا وانتهوا الى ارسال طلب الى الملك باعادة الحياة الدستورية السليمة الى مصر وهذا هو نص مارفعوه الى جلالة الملك :

« نتشرف نحن الموقعين على هذه أعضاء عائلة جلالتكم نرفع التماسنا الى ذاتكم الجليلة يا صاحب الجلالة لما تراءى لنا أن الحالة السياسية قد بلغت فى وطننا مبلغا من الخطورة يوجب الاهتمام بصفة خاصة ، جئنا نلتمس من جلالتكم اعادة النظام النيابى الى البلد طبقا لنص الدستور الذى تكرمتم بمنحنا اياه ، هذا مع ما يليق بذاك المقام الأعلى من الاجلال والتعظيم والاحترام » .

٢٣ نوفمبر ١٩٢٥

امضاءات : عمر طوسون ـ كمال الدين حسين ـ محمد على ـ يوسف كمال ـ اسماعيل داود ـ عمر حليم ـ سعيد داود ـ سليمان داود ـ عمرو ابراهيم ـ سعيد طوسون ـ حسن طوسون ـ على فاضل ـ عثمان فاضل ـ عباس ابراهيم حليم .

ديسمبر ـ تسليم واحة جغبوب لايطاليا :

حاولت الوزارة أن تهز كتفيها ، استهانة بكل ما حدث ، فأجرت تعديلا تافها فى المناصب الوزارية ، لا يقف التاريخ أمامه ، وساعدها على هذا الاستخفاف أن كانت مقدمة على عمل يرغب فيه الانجليز ، وهو تسليم واحة جغبوب للايطاليين فعقدت اتفاقية وقعتها يوم ٦ ديسمبر وهى تنص على هذا التنازل لايطاليا عن واحة جغبوب .

٨ ديسمبر ـ اصدار قانون جديد للانتخابات :

وتصورت الوزارة انها وقد استجابت للانجليز بتسليم جغبوب للايطاليين انها قد عززت مركزها وأصبح باستطاعتها أن تمضى فى خططها وهى اصطناع مجلس نواب

على مزاجها وهواها فأصدرت فى ٨ ديسمبر قانونا جديدا للانتخاب ، يجعل الانتخاب على درجتين ، ويحرم عددا كبيرا ممن كان يحق لهم الانتخاب ويضع قيودا وشروطا مالية فيمن يحق له أن يكون مندوبا ، الى آخر ما تصورت الوزارة انه بقدرها على اصطناع مجلس .

وقد قابلت الأحزاب بخاصة والأمة بعامة هذين التصرفين بعاصفة من الاحتجاج ونشرت الصحف بيانات ملتهبة تندد بتسليم جغبوب وبقانون الانتخاب الجديد ولكن ذلك ما كان ليؤدى الى نتيجة ، فقد كان الملك فؤاد سادرا فى غوايته ، لولا أن ذلك لم يكن هو رأى الانجليز .

٩ ديسمبر — جورج لويد يطالب باقصاء حسن نشأت :

ولم يكن هناك ما يؤرق الانجليز أكثر من أن يروا التقارب بين الأحرار الدستوريين (المعتدلين فى نظر الانجليز) وبين الوفديين وما قد يجره ذلك من المتاعب ، ولم يروا سببا لهذا التقارب الا تصرفات حسن نشأت وتأليفه حزب لاتحاد والاصطدام بالدستوريين ، فرأى جورج لويد أن يستهل عهده فى مصر بالتقرب الى الشعب ، واستعادة الأحرار الدستوريين الى حظيرة التعاون مع الانجليز ، وقدر جورج لويد أن ذلك كله يتحقق باقصاء حسن نشأت عن القصر ، ولهذا فقد قابل الملك يومين متواليين ، ٨ ، ٩ ديسمبر) لهذا الغرض ، ويبدو أن الملك تلكأ بعد المقابلة الأولى ، فقابله جورج لويد فى اليوم الثانى ولم تكد تمضى ساعات على المقابلة حتى صدر مرسوم بتعيين حسن نشأت سفيرا لمصر فى مدريد ، وعلمت مصر كلها أن ذلك تم بناء على طلب الانجليز ، ومع هذا فقد تنفس الشعب الصعداء وأدرك انه بات قاب قوسين من عودة الحياة الدستورية السليمة .

١٤ ديسمبر — تعيين توفيق نسيم رئيسا للديوان الملكى :

وأسرع الملك يصحح مركزه ، فعين محمد توفيق نسيم باشا ، الذى كان رئيسا لمجلس الشيوخ ، رئيسا للديوان الملكى وهو المنصب الذى كان يتولاه حسن نشأت وكيل الديوان بالنيابة ، ولم يكف القصر عن التدخل فى شئون الحكم ، بل لقد علمتنا الأيام التالية ، أن تولى توفيق نسيم لهذا المنصب هو المؤشر على قرب حدوث انقلاب فى السياسة

حتى آخر العام — حركة العمد وائتلاف الأحزاب :

ومضت الفترة حتى آخر سنة ١٩٢٥ فيما اشتهر باسم « حركة العمد » فقد اضربوا عن تنفيذ قانون الانتخاب بأعداد الكشوف اللازمة ، وهو نوع من ثورة الادارة وهو ما كان يتم لولا التقارب بين الأحزاب ، وسنتحدث عن كل هذا بالتفصيل فى مستهل العام القادم **لأتحدث عن ذكرياتى .**

فى صيف العام السابق كنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية ، وعلى هذا فقد استهل على هذا العام وأنا فى المدرسة الخديوية الثانوية ، أقدم المدارس الثانوية على الاطلاق (فالسعيدية فالتوفيقية فمدرسة فؤاد) وقد كنا نعتبر أنه بالالتحاق بالتعليم الثانوى ، فان المرء يكون قد دخل مرحلة الرجولة ، وقد كانت شهرة المدرسة الخديوية فى فن التمثيل قد سبقتها ، ولذلك نستطيع أن ندرك خيبة أملى عندما علمت بمجرد التحاقى بالمدرسة أن الأستاذ محمود مراد خالق النهضة التمثيلية بها ، لم يعد مدرسا بالمدرسة وانه نقل الى وزارة المعارف ليصبح مراقبا للتمثيل فى المدارس كلها ، وقد جاء الى المدرسة الخديوية ، واختص المدرسة بتمثيلية من نوع الدرام « فى سبيل المبدأ » ووزع أدوارها على أربعة أو خمسة من تلامذته الأقدمين ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ـ وادع اكمال باقى ذكرياتى الى ختام العام المقبل .

عام ١٩٢٦

مقدمة : استهلت سنة ١٩٢٦ والهدوء يسيطر على البلاد الا ما تبـذله الأحزاب الثلاثة (الوفد والأحرار الدستوريون والحزب الوطنى) من نشـاط نرى أثره فى الصحف واخبارها ، وكان ما يشغل البلاد وما اذكره تماما هو تقارب الاحزاب نحو الائتلاف وما ترتب على ذلك من حركة اضراب العمد عن مباشرة اعداد دفاتر الانتخاب، وقد بدأت الحركة فى مدينة « تلا » ولم ادرك الا بعد أكثر من عشر سـنوات لمـاذا ابتدأت الحركة من هذه المدينة بالذات ، فقد كان نائبها الحر الدستورى (أحمد بك عبد الغفار) رجلا شهما قويا عاملا فى الحقل العام بكل همة ونشاط وشجاعة ، فكانت « تلا » هى السباقة لهذا العمل الفريد من نوعه وقد بدأت الحكومة بتهديد العمد الرافضين أنها ستفصلهم فاستقال عشرة من العمد واستقال الآخرون تضامنا معهم ، فلجأت الحكومة الى تقديمهم الى القضاء بتهمة التمرد الجماعى الذى يقع من الموظفين، ولكن القضاء قضى بتبرئة العمد ، وكانت الحركة قد سرت فى أنحاء البلاد ووقفت الحكومة عاجزة عن فعل شىء .

أواخـــر ينـــاير :

قدمنا أن التقارب كان يزداد يوما بعد يوم بين الأحزاب حتى انتهى الى ائتلاف كامل فأصدرت الأحزاب المؤتلفة بيانا بعد مرور شهرين على انعقـاد البرلمان فى ٢١ نوفمبر وهو ما يصل بنا الى بعد ٢١ يناير ولما كان البيان المذكور ليس موجودا بين أيدينا ، فلم نذكر تاريخا محددا له وان كان أستاذنا الرافعى قـد أثبت نصه فى كتابه واليك هذا النص الذى يغنى عن كل شىء وينقلك كما نقلنى الى جو تلك الأيام :

« تجتاز البلاد فى الوقت الحاضر دورا من الادوار العصيبة فى حياتها السياسية انها جاهدت ما جاهدت حتى حصلت على الدستور الذى قرر سيادتها وجعل أمورها شورى بين أبنائها ، غير أنها ما كادت ترسخ فيها قدم الحكم النيابى حتى امتدت اليها يد الاستبداد تعبث بدستورها ، وهبت عليها ريح الحكم المطلق تلعب بتشريعها وادارتها .

« تلكأت الحكومة فى عقد مجلس النواب ، وأمتنعت عن دعوته وانقضى الميعـاد المحدد فى الدستور لانعقاده وظهرت نزعة الاعتداء عليه فى صور مختلفة ، وأسـاليب منوعة ، فوجم الناس واضطربت الافئدة لهذا الخطر المحـدق بالحياة النيابية ، وسارع نواب البلاد الى الاجتماع فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ من تلقاء أنفسهم كحكم الدستور ووحى ضمائرهم ، وجددوا يمينهم باحترام الدستور وانقاذ الحياة النيابية وأظهر معانى هذا الاجتماع الذى أيدته الأمة من كل ناحية أنه كان بمثابة انذار للحكومة لتراجع نفسها وتكف عن التمادى فى أخطائها وتقـدر نتائج اعتدائها وتخفف عبء مسئوليتها بالمبادرة الى الرجوع للحياة النيابية ، ولكن قد مضى على هذا الاجتماع

شهران كاملان وتلك الحكومة سائرة فى طريقها مقيمة على خطتها غير مكترثة بارادة الشعب ولا متعظة باجتماع نوابه ولا حافلة بآرائهم بل هى مصرة على الاستمرار فى انتهاك حرمة الدستور والاستخفاف بارادة الامة .

« ازاء هذه الحالة الخطيرة وفى غمار هذا الاعتداء الصارخ ، وأمام الايمان التى اقسمت قد اتفقت كلمة الاحزاب المؤتلفة :

اولا — على مقاطعة الانتخابات تنفيذا لقراراتها السالفة التى تلقتها الأمة بكل تأييد فأمتنع كثير من عمدها ونوابها عن الاشتراك فى مهزلة الانتخابات وأصر باقى الأفراد على مثل هذا الاباء .

ثانيا — على عقد مؤتمر يجمع شيوخ الأمة ونوابها وذوى الرأى والمكانة فيها لبحث هذه الحالة وتقرير ما يراه مناسبا للخروج منها ، ومستوى الحكومة ان هى استمرت فى عملها قيمة ذلك بالاجماع ، كما ان المؤتمر سيبحث فى الحالة الحاضرة ويقرر ما يناسب لمعالجتها ويثبت بكل الدلائل أن الأمة كتلة واحدة ، فى الدفاع عن مصالحها اذا ما جد الجد واشتد الخطر .

والله وحده الموفق لما يشاء » .

عن الوفد المصرى : سعد زغلول ، فتح الله بركات ، مرقص حنا ، مصطفى النحاس ، واصف غالى ، محمد نجيب الغرابلى ، حسن حسيب ، على الشمسى ، حمد الباسل ، مكرم عبيد ، محمد علوى الجزار ، فخرى عبد النور ، سلامة ميخائيل ، راغب اسكندر ، حسين هلال ، حسين القصبى ، ويصا واصف ، سنيوت حنا ، جورج خياط ، عطا عفيفى ، ابراهيم راتب ، مصطفى القاياتى ، مصطفى بكير .

عن الحزب الوطنى : محمد حافظ رمضان ، أحمد لطفى ، عبد الحميد سعيد ، الدكتور محمود ناشد ، محمد فؤاد المنشاوى ، عبد الرحمن الرافعى ، أحمد وجدى ، محمد فؤاد حمدى ، فكرى أباظة ، عبد المقصود متولى ، أحمد وفيق ، اسماعيل العسبلى ، محمد زكى على ، ابراهيم رياض .

عن حزب الأحرار الدستوريين : عبد العزيز فهمى ، محمد محمود ، السيد عبد الحميد البكرى ، توفيق دوس ، ابراهيم الهلباوى ، على المنزلاوى ، صليب سامى ، عباس أبو حسين ، عبد المنعم رسلان ، عبد الجليل أبو سمرة ، كامل بطرس ، نعمان الاعصر ، محمد حسين هيكل ، أحمد عبد الغفار ، محمد على علوبة ، سيد خشبة ، الدكتور حافظ عفيفى ، عيسوى زايد ، حسين عبد الرازق ، صالح لملوم ، حامد فهمى ، ابراهيم دسوقى أباظة ، على اسلام ، محمد سامى كمال ، محمد محفوظ ، الدكتور أحمد رشيد عبد الله .

واذ رأت الحكومة تصميم الأحزاب على مقاطعة الانتخابات على أساس القانون الذى أصدرته ، اضطرت الى الاذعان لضغط الرأى العام ، وقرر مجلس الوزراء

فى ١٨ فبراير سنة ١٩٢٦ ايقاف العمل بقانون الانتخاب الجديد واجراء الانتخابات على مقتضى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ وهو قانون الانتخاب المباشر .

١٩ فبراير — اجتماع المؤتمر الوطنى :

لم تستطع الحكومة الا أن تذعن لضغط الرأى العام الذى اجمع على اظهار نفوره ومقاطعته للانتخابات على أساس قانون الانتخاب الجديد الذى أعلنته الحكومة ، فقرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة يوم ١٨ فبراير : ايقاف العمل بالقانون الجديد واجراء الانتخابات على مقتضى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ أى قانون الانتخاب المباشر وقد ارادت الحكومة باصدارها هذا القرار عشية اجتماع المؤتمر الوطنى الذى دعى اليه من قبل وكان مقررا لاجتماعه يوم ١٩ فبراير ان توقع الفرقة بين المؤتلفين ولكن ذلك أدى الى عكس ما توقعته الحكومة :

فقد اجتمع المؤتمر الوطنى على أوسع نطاق حضره نواب آخر مجلس ونواب المجلس الذى قبله والشيوخ وأعضاء مجالس ادارات الأحزاب الثلاثة وأعضاء مجالس المديريات وسائر الهيئات التمثيلية الأخرى والوزراء السابقون ، وبالجملة كل من له وزن وقدر فى طول البلاد وعرضها وقد بلغ عددهم ١٠٩٧ وقد عقد المؤتمر فى بيت محمد باشا محمود حتى يمكن أن يقال أنه اجتماع خاص ، وغنى عن البيان أنه لو لم يكن الانجليز راغبون فى عقده لاعترضت عليه الحكومة ومنعت عقده ، ولكن الحكومة وعلى رأسها الملك بطبيعة الحال ، تركت المؤتمر ينعقد وانفها راغم واصدر المؤتمر القرارات التالية :

١ — تأييد الأحزاب المؤتلفة فى الاحتجاج على الوزارة فيما يختص بالتصرفات التى صدرت منها مخالفة للدستور .

٢ — دعوة الأمة الى الدخول فى الانتخابات على حسب القانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٤ (قانون الانتخاب المباشر) وان يهتم كل موظف وكل فرد بالقيام بواجبه فى التعجيل بهذه الانتخابات واتمامها لتعود الى البلاد الحياة النيابية التى حرمت منها زمنا طويلا .

٣ — يجب الى أن تتألف وزارة موثوق بها من الأمة وينعقد البرلمان توقيف اجراء أى عمل تشريعى وتوقيف النظر فى ميزانية الدولة للسنة الحالية ١٩٢٦ — ١٩٢٧ وعدم صرف أى اعتماد لا يكون واردا فى ميزانية الدولة ، وتوقيف مباشرة كل من يحمل الخزانة نفقات ليست واردة فى تلك الميزانية أو يترتب عليه نقص فى حقوق الدولة أو فى أراضيها

٤ — انتخاب لجنة للقيام بما يلزم عمله لتنفيذ القرارات التى أصدرها المؤتمر الآن وبحث الاقتراحات التى تقدمت أو تقدم بحثا دقيقا وعرضها على المؤتمر مع رأيها فيها فى الوقت الذى تحدده لذلك وقد تألفت هذه اللجنة من كل من : عبدالخالق

ثروت ، فتح الله بركات ، محمد محمود ، واصف غالى ، مصطفى النحاس ، محمد على علوبة ، ويصا واصف ، على الشمسى ، حافظ عفيفى ، أحمد عبد الغفار ، حافظ رمضان ، عبد الحميد سعيد ، أحمد لطفى ، محمد زكى على ، أحمد وجدى.

٢٢ فبراير ـ الحكومة تصدع بقرار المؤتمر :

وليس أدل على أن الانجليز كانت وراء فكرة انعقاد المؤتمر أو على الأقل عدم الاعتراض على عقده والانصياع لما يسفر عنه ، اذ لم تكد قرارات المؤتمر تعلن حتى أصدرت الحكومة مرسوما ملكيا يقضى بأن تكون الانتخابات القادمة انتخابات مباشرة طبقا لما يقضى به القانون ٤ لسنة ١٩٢٤ وهو قرار المؤتمر .

٢٢ مايو ـ اجراء الانتخابات الجديدة :

مضت الأسابيع والاشهر التالية فى محاولات وراء الستار لتنظيم الاوضاع القادمة ، وكان من الواضح أن سعد زغلول قد غير أسلوبه تماما من التعالى ورفض أى تفاهم مع الأحزاب المعارضة أو الانجليز الا بشروطه ، تغير ذلك وأصبح سعد زغلول لين العريكة ، فأمكن الاتفاق على خوض المعركة الانتخابية فى تآلف وتعاون على أن يعطى للسعديين ١٦٠ عضوا وللدستوريين ٤٥ عضوا وللحزب الوطنى ٩ دوائر .

وأجريت الانتخابات بالفعل يوم ٢٢ مايو وأسفرت عن فوز ١٦٥ عضوا للوفد و٥ من الحزب الوطنى و١٠ من النواب المستقلين و٥ من حزب الاتحاد و٢٩ من الأحرار الدستوريين ، ولعل هذه النتيجة تبرز مدى سيطرة الوفد على الشعب حيث لم يحصل حزب الحكومة (الاتحاد) على أكثر من ٥ نواب وحزب الأحرار الذى ترك له الوفد ٤٥ دائرة لا ينافسه فيها ، لم يفز بأكثر من ٢٩ نائبا وذهب الباقى الى حزب الاتحاد (٥ نواب) والى المستقلين (١٠ نواب) .

٢٥ مايو ـ صدور الحكم ببراءة رجال الوفد :

لم يلبث الوفد بعد نجاحه الساحق فى الانتخابات ان احرز فوزا فى ميدان آخر لايقل خطورة فقد كان للانجليز رغبة منهم للكيد للوفد وتشويه سمعته، أن قبضوا على بعض شخصياته البارزة (الدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى) وسط اشخاص آخرين بتهمة ان كان لهم دور فى عمليات الاغتيالات السياسية التى انتهت بمصرع السردار ، وقد كان لهذه المحاكمة ، شأن وأى شأن فى تاريخ البلاد ، ومازلت اذكر اللهفة التى كان الشعب يبديها فى متابعة مجريات القضية ، وكيف كانت المرافعات تتوالى من دهاقنة المحامين وأساطينهم ولكنى مازلت اذكر ان فارس المحامين الأكبر كان هو الاستاذ أحمد لطفى (الحزب الوطنى) .

واخيرا صدر الحكم فى يوم ٢٥ مايو وهو يقضى ببراءة أحمد ماهر والنقراشى وبقية العدد الأكبر من الوفديين المقول بانتمائهم للوفد ـ وكانت محكمة الجنايات التى

أصدرت الحكم برئاسة « كيرشو » الانجليزى وعضوية مستشارين مصريين وسرعان ما قدم كيرشو استقالته بحجة انه لم يكن موافقا على براءة أحمد ماهر والنقراشى ، وهكذا خالف القاضى الانجليزى أهم القواعد القضائية التى أقسم على احترامها وهو افشاء سر المداولة وزاد على ذلك ان استقال .

٧ يونيه ـ استقالة زيور وتأليف عدلى يكن الوزارة :

فى كتاب الدكتور عبد العظيم رمضان عن تاريخ هذه الحقبة اشارة لكل ما كان يجرى خلف الستار ، وهو قد درس جميع المراسلات التى دارت بين اللورد جورج لويد (رجل انجلترا فى مصر) ويفهم منها ان كل شيء كان يدار بمعرفة الانجليز حتى استمرار وزارة زيور باشا فى الحكم ارادها الانجليز حتى يضعوا اللمسات النهائية لشكل الحكومة الجديدة وكان جورج لويد ممثلا فى ذلك « غلاة المحافظين » يصر على ان لا يتولى سعد زغلول رئاسة الوزارة ، وتبادل فى ذلك عديدا من الرسائل مع وزارة الخارجية البريطانية التى لم تكن من رأى رجلها فى مصر ولكنه استطاع فى خاتمة المطاف ، أن يتلقى تفويضا بأن يفعل ما يراه ، حتى وصل الأمر به الى حد انه دعا سعد زغلول باعتباره زعيم الأغلبية للاجتماع به ، وعلى الرغم من أن سعد زغلول ، كان قويا كالعهد به فتمسك بحقه فى رئاسة الوزارة ، ولكنه من الناحية الأخرى ، وقد كان شديد اللهفة على انتصار الحياة الدستورية الصحيحة فى مصر ، لم يشأ أن يعكر سير القافلة ، فأخطر عدلى يكن باشا بأنه يوافق على أن يكون رئيسا للوزارة الجديدة وأن يكتفى هو برئاسة مجلس النواب ، ولكنه رأى أن لا يبدو الأمر أمام الأمة وامام العالم ، أن ذلك قد تم نتيجة ضغط الانجليز ، فأقام مسرحية يجتمع فيها النواب لتكريمه ، ثم يناشده الأطباء ويؤيدهم نواب حزبه ، أن يرأس الحكومة مراعاة لصحته الغالية وأن يتركها لمن يثق فيه تحت مراقبته .

ونزل سعد زغلول على رأى انصاره وقبل أن يتنازل عن رئاسة الوزارة ، وقد تم هذا كله فى حفلة التكريم التى أقيمت فى ٣ يونيو ، وأرسل كل ذلك الى انجلترا وجاء الامر ، بأن لا اعتراض على كل هذا الذى يجرى ، وهنا وهنا فقط تتوالى الأحداث بسرعة ، فيستقيل أحمد زيور باشا فى يوم ٧ يونية وتتألف وزارة عدلى يكن بتشكيلها الكامل فى نفس اليوم فتولى هو الرئاسة ووزارة الداخلية وتولى عبد الخالق ثروت باشا وزارة الخارجية ومحمد باشا محمود وزارة المواصلات وتولى باقى الوزارات ، وزراء من الوفد وهم : فتح الله بركات باشا للزراعة ، محمد نجيب الغرابلى باشا للاوقاف ، أحمد محمد خشبة بك للحربية والبحرية ، احمد زكى أبو السعود باشا للحقانية ، مرقص حنا باشا للمالية ، على الشمسى للمعارف ، عثمان محرم بك للاشغال .

الخميس ١٨ نوفمبر ١٩٢٦ ـ انعقاد الدورة الثانية للبرلمان :

انعقد مجلس النواب الجديد المؤتلف فى ١٠ يونية وانفض دوره الأول فى ٢ سبتمبر ، ثم عاد للاجتماع فى دورته الثانية قبل السبت الثالث من نوفمبر ،

وافتتحه الملك فؤاد بالاحتفالات المعتادة ، وقد اتيح لى ان اشهد احدى جلسات المجلس ، حيث كان سعد زغلول يرأس الجلسة ، وكان قد اختير للرئاسة منذ الجلسة الأولى بعد ان تولاها حسين رشدى باشا ، باعتباره رئيسا لمجلس الشيوخ، ولا يجد المؤرخ ما يقوله عن سير الاحداث فقد سارت رتيبة عادية بدون مفاجآت ، وكان المسيطر على الجميع وعلى رأسهم سعد زغلول هو المحافظة على الائتلاف ، وعدم الاصطدام بالانجليز . وذلك لتدعيم الحياة النيابية السليمة ، ورئى أن يلتفت لترتيب البيت من الداخل ، فأصدر البرلمان بعض القرارات فى مسائل داخلية كمحصول القطن ، وثمنه ومساحة ما يزرع منه ، ويحدثنا الدكتور حسين هيكل باستفاضة عن لجنتين الفهما البرلمان فى موضوع اللامركزية فى الادارة ، وتحديد عدد الموظفين ، ولم تصل اللجنتان الى شىء فى هذين الميدانين ، ولا عجب فى ذلك فحتى اليوم (١٩٨٠) لازالوا يحدثوننا عن اللامركزية فى الادارة ، ولاتزال مسألة الموظفين فى الدولة هى الشغل الشاغل وأقصى ما يمكن ان يقال انه اذا كانت سنة ١٩٢٥ قد شاهدت ردة دستورية ورجعية السلطة ، فقد شهد عام ١٩٢٦ حياة نيابية بدون مهاترات أو فرقعات ، أو مصادمات من أى نوع كان — ولما كان هذا كله غير طبيعى فسوف نراه ينقلب رأسا على عقب فى العام التالى .

وانتهى هذا العام بغير احداث مهمة الا أن يكون وفاة المرحوم على فهمى كامل فى آخر يوم من السنة ١٢/٣١ بدار سينما متروبول حيث كان يحتفل بذكرى محمد فريد فسقط الرجل ميتا وهو يخطب .

ذكرياتى الخاصة :

لم أذكر فى ختام الماضى الا اشارة عابرة عن انتقالى للمدرسة الخديوية حيث التطورات التى ألمت بحياتى كانت شيئا طويلا عريضا فقد كان والد أخى فتحى رضوان باعتباره مهندسا للرى قد نقل الى أسيوط وبالتالى انتقل معه سيد فتحى رضوان والتحق بمدرسة أسيوط الثانوية ، ورحنا نتبادل رسائل أسبوعية ورحت (ولا ادرى لماذا) أوقع رسائلى باسم « هارون » ويوقع هو رسائله بامضاء جعفر ، وبعد فترة غيرنا هذين التوقيعين بسقراط (لى أنا) وارسطو (لفتحى) وبلغ من شدة ترابطنا وتعلقنا ببعضنا ، ان سافرت له فى اجازة نصف السنة وامضيتها فى أسيوط .

مقاطعة البضائع الانجليزية :

وفى محفوظاتى صورة تذكارية لأخ زاملنى فى المدرسة الخديوية وهو (عباس حلمى مصطفى) وما يهمنى فى هذه الصورة اننى كنت أرتدى « منديلا محلاوى » بدلا من ربطة العنق ، وقد ذكرنى ذلك ، بما ساد انذاك بدعوة لمقاطعة البضائع الانجليزية وتشجيع الصناعات المحلية ، واذ كانت المنسوجات هى أعظم تجارة لانجلترا ، فقد دعى فى ذلك الوقت لاستعمال المنديل المحلاوى ، وسيظل ذلك هو محور تفكيرى بعد

سنوات وسنوات ، عندما انضممت لجمعية « المصرى للمصرى » ثم ناديت بمشروع القرش لاحلال الصناعات الوطنية بدلا من الأجنبية ، حتى صفت ذلك مبدأ عاما : لا تشترى الا من مصرى ولا تلبس الا ما صنع فى مصر ولا تأكل الا طعاما مصريا .

مطارحة الشعر :

وثمة ظاهرة جديرة بالتسجيل لأول التحاقى بالمدرسة الخديوية ، ففى بعض « الفسح » وجدت فى (حوش المدرسة) لفيفا من الطلبة الكبار — طلبة السنين العليا — وكان يقومون بأمر عرفت فيما بعد ان اسمه « مطارحة الشعر » وخلاصته أن يروى أحد الطلاب بيتا من الشـعر ينتهى بحرف الباء مثلا « القافية » فيروح بقية الطلاب يروون اشعارا تنتهى بنفس القافية ، حتى يقال بيت شعر جديد بقافية أو نهاية جديدة ، وليكن الحرف الجديد ، حرف الراء أو السين مثلا فيتبارى الطلاب فى ذكر الأشعار من هذه القافية الجديدة وهكذا ، وقد شاقتنى هذه العملية جـدا واحسست بقصورى عن فعل ذلك ، فقيل وقتها ، أو لعلى قلت لنفسى اننى عندما أكبر وأصير مثل هؤلاء الطلاب (فى سنة ثالثة أو رابعة) سأصير قادرا مثلهم ولكن ذلك كان آخر عهدى بهذه الظاهرة ، ظاهرة مطارحة الشعر .

برامج التعليم الجديدة :

وقد اقترن دخولى الى المدرسة الخديوية بتولى على باشا ماهر لوزارة المعارف فأحدث ما يمكن وصفه بأنه ثورة تعليمية ، كان من اكبر مظاهرها تعليم اللغـة الفرنسية الى جوار الانجليزية ، على ان يبدأ تدريسها من العـام التالى وجاءوا بمدرسين من فرنسا ، وكان من نصيبنا من يسمى « المسيو ديدوى » وكان رجـلا كبير السن وبطبيعة الحال لم نكن نفهم شيئا على الاطلاق الا اننى كنت (على عكس باقى الطلاب) مؤدبا مع الرجل وكنت اشفق عليه ، من تمرد الطلاب عليه وشقاوتهم معه ، فحفظ الرجل لى ذلك الجميل ودعانى أنا وصاحبى وتلميذ ثالث لتناول الشاى فى بيته .

وقد ظل الدور الذى قام به على باشا ماهر فى التعليم يؤثر على فى مقبل حياتى، وقد تلخص هذا الأثر فى أمرين :

الأول — اكبارى للرجل وتعلقى به .

الثانى — الايمان بان اى رجل مقتدر يستطيع ان يعمل كل شىء لاصلاح الاحوال فى مصر ، دون أن يعترضه الانجليز كما كانوا يشيعون

التمثيل ودورى فى رواية ((مجد رمسيس)) :

تحدثت فى العام المنصرم عن خيبة أملى فى فرقة التمثيل لانتقال محمود مراد منها واستهل العام الدراسى الجديد ، وجاء رئيس فرقة التمثيل الطالب (عبد اللطيف

شاش) بالاستاذ الكبير عزيز عيد ليعلمنا وبدأ الرجل معنا من البداية فتلخصت رغبته فى ان يعلمنا فن القراءة ليتدرج منه الى فن الألقاء وعلى ذلك فلم اكن الا واحدا كبقية زملائى ، وضاع ما تصورته من اننى ممثل « موهوب » ولم ينفعنى استعراضى لقدرتى امامه ، عندما كان يحاول أن يعرفنا فجثوت على ركبتى ورحت اناجى طيفا ما ، لم يفدنى ذلك ، ولم يقل عزيز عيد لى شيئا .

ومضينا نطالع ، لولا ان القدر كان يدبر شيئا آخر ، فقد مات محمود مراد ورأى تلامذته وادارة المدرسة (لبيب بك الكردانى ــ ناظر المدرسة ان يحيوا ذكراه بتمثيل رواية « مجد رمسيس » وان يهبوا دخلها لأسرة الفقيد ، واستغنى عن خدمات عزيز عيد ، وقرر عبداللطيف شاش (رئيس فرقة التمثيل) وابراهيم زين العابدين (رئيس فرقة الموسيقى) اخراج اوبريت مجد رمسيس ، وقد الفها محمـــود مراد لتكون « أوبرا كاملة » اى تغنى من أولها لآخرها ، ولكن مشهدا او مشهدين ظلا بدون تلحين فأصبحت « مجد رمسيس » اوبريت اى مصغر الاوبرا وكان بالرواية قائدان لرمسيس هما (سينو واونا) يغنى احدهما وهو سينو ولا يغنى الثانى ، واختارونى لأداء هذا الدور ، وهكذا اصبحت احد نجوم فرقة التمثيل ، واقيمت الحفلة على مسرح حديقة الازبكية ، وهكذا تحقق حلمى فى ان امثل على خشبة المسرح ووصل النجاح « الاوج » عندما كتب الناقد المسرحى الشـــهير « الاحنف » فى مجلة المسرح الكبيرة الواســعة الانتشار نقدا أو قال حديثا عن الرواية ووصفنى بأننى « الشمضلى » وللمجلة المسرح وللتمثيل بعامة دور أعظم من كل ذلك فى حياتى أبقيه حتى نهاية السنة التالية .

عام ١٩٢٧

الائتلاف والبرلمان ووزارة عدلى يكن :

استمر الهدوء الذى ساد مصر فى أخريات العام السابق ، الربع الأول من عام ١٩٢٧ ولا عجب فى ذلك فقد ائتلفت الأحزاب فكفت عن المصادمات فيما بينها ورأس مجلس النواب سعد زغلول الذى كان قد حنكته التجارب وآثر الاعتدال وكبح جماح أعضاء حزبه فى مجلس النواب عن أن يتفوهوا بشىء متطرف ، ضد القصر أو الانجليز أو الحكومة التى كان يرأسها عدلى باشا يكن ، محل احترام الجميع ، ولذلك فلم يكد سعد زغلول يتغيب عن جلسة بسبب مرضه وتولى رئاسة المجلس مصطفى باشا النحاس (وكيل المجلس) حتى حدث ما يشبه ان يكون زلزالا مفاجئا لا مقدمات له وهو :

١٩ ابريل ــ استقالة وزارة عدلى باشا :

أعلن عدلى باشا يكن لمجلس النواب فى جلسة ١٨ ابريل عن عزمه على الاستقالة وعبثا حاول مصطفى النحاس والمجلس كله من ورائه ان يثنى عدلى باشا عن عزمه وانه محل ثقة المجلس الاجماعية ، ولكن عدلى باشا أصر على قراره وقدم استقالته فى اليوم التالى للملك فعلا ، أما الموقف الذى رتب عليه عدلى باشا وجوب استقالته فيتلخص فى أن أحد النواب طلب ان يتضمن بعض الاقتراحات المعروضة على المجلس « شكر الحكومة » فرفضت اغلبية المجلس توجيه هذا الشكر على اساس ان الحكومة قامت بواجبها ، فاعتبر عدلى باشا هذا القرار بمثابة عدم الثقة بوزارته واعلن المجلس بذلك ، وأسرع سعد زغلول بالعودة من عزبته فى مسجد وصيف ، ولكن جهوده لم تفلح فى رجوع عدلى يكن عن عزمه ، ولكنه نجح فى شىء واحد وهو ان يحمل عبد الخالق ثروت أن يعيد تشكيل الوزارة برئاسته بدلا من عدلى يكن ، بنفس أشخاص الوزراء ولما كانوا قد نقصوا واحدا بخروج عدلى باشا فقد رشح الأحرار الدستوريون حافظ باشا عفيفى ، ولكن السراى اعترضت عليه فعين جعفر والى باشا بدلا منه ، وهكذا عادت الوزارة برئاسة عبد الخالق باشا ثروت ، ولا يسع المؤرخ الا ان يتساءل ما الذى حمل عدلى يكن على الاستقالة ، وعندى ان لا جواب على ذلك غير « السأم » بعد ان حقق عدلى يكن هدفه من تولى رئاسة الحكومة باقرار سعد زغلول ، لطالما طعن سعد زغلول فى عدلى وبالأكثر فى زميله ثروت ، لقد وصفهم بالخيانة وانهم براذع الانجليز ، وجاء الوقت الذى اقتنع فيه سعد أن لاحياة للدستور والحياة النيابية السليمة فى مصر بغير التعاون مع عدلى وثروت فكان هذا الذى مر بنا ، وهكذا حقق عدلى يكن هدفه من ان يعود الى الحكومة بمباركة سعد زغلول ، ولم يعد استمراره فى الوزارة يفيده الا فى أن يحمل الغمز واللمز من نواب الأغلبية ، فرأى ان يستقيل محافظة على كرامته ، وواصل عدلى باشا انتصاره عندما وافق سعد على تولى عبد الخالق ثروت الوزارة خلفا له ، فان بعض الروايات تقول أنه كان قد عاهد عدلى يكن أن لا يلى الوزارة من

بعده ، ولكن يقال ان سعد زغلول نجح فى اقناع الرجلين فى العدول عن هذا الاتفاق وعندى أن ذلك كله كسب للرجلين وتصحيح لاعتبارهما .

٢٦ ابريل ــ تاليف وزارة ثروت :

قبل الملك استقالة عدلى فى يوم ٢١ ابريل وفى يوم ٢٦ استدعى ثروت باشا لتأليف الوزارة فشكلها على الوجه التالى :

عبد الخالق ثروت ــ للرئاسة والداخلية .
جعفر والى باشا ــ للحربية والبحرية .
أحمد زكى أبو السعود ــ للحقانية .
فتح الله بركات باشا ــ للزراعة .
مرقص حنا باشا ــ للخارجية .
محمد نجيب الغرابلى باشا ــ للاوقاف .
على الشمسى باشا ــ المعارف .
أحمد محمد خشبة باشا ــ للمواصلات .
عثمان محرم باشا ــ للاشغال .
محمد محمود باشا ــ للمالية .

مايو ــ يونية ــ أزمة الجيش :

لم تكن حكومة ثروت الا استمرارا لحكومة عدلى يكن ، باسلوبها فى الحكم وهدفها منه ، وكان يمكن ان يستولى « السأم » على ثروت باشا ، بعد ان حقق غرضه من تولى رئاسة الحكومة بمباركة سعد زغلول وما زلت أذكر كيف استوقفنى ، واثار دهشتى فى ذات الوقت ثناء سعد زغلول المستطاب على ثروت باشا ، بل وعلى اسماعيل صدقى (وكان رئيس اللجنة المالية فى مجلس النواب) ، اقول كان من الممكن ، ان ينهج ثروت نهج عدلى فلا يلبث ان يستقيل لولا ان القدر كان قد اعد له دورا طويلا عريضا سوف ترى كيف يتشعب ، وبدأت الأحداث عنـــدما حاول وزير الحربية استجابة لرغبة الأمة أن ينهض بالجيش فى العدد والعدة وتقليص هيمنة الانجليز عليه ، وقد هاج اللورد لويد وماج ، وطالب لندن بارسال بعض قطع الأسطول فأرسلتها بالفعل وحدث ما رحنا جميعا نتابعه تحت اسم « أزمة الجيش » وقد انتهت الأزمة بهزيمة مصر بطبيعة الحال ، ولكنها فتحت الطريق لبدء محادثات جديدة يجريها ثروت مع الانجليز كما سوف ترى ، ولما كان أستاذنا عبد الرحمن الرافعى قد لخص هــذه الازمة والمذكرات المتبادلة بين الحكومتين المصرية والانجليزية ، اكمل تلخيص ، فنحن نرى أن ننقل من كتابه فى اعقاب الثورة ــ الجزء الثانى ــ ما قاله عن أزمة الجيش اعترافا بفضله :

أزمة الجيش

مايو – يونية سنة ١٩٢٧

وقعت فى اواخر شهر مايو واوائل شهر يونية سنة ١٩٢٧ أزمة سياسية حادة بين مصر وانجلترا سميت « أزمة الجيش » ، وكانت صورة متكررة للاعتراف البريطانى بازاء مصر ، كما دلت على نية مبيتة من انجلترا على ان لا تمكن مصر من ان يكون لهـا جيش أو قوة دفاعية اطلاقا .

وبيان ذلك ان ميزانية الدولة عن سنة ١٩٢٧ ــ سنة ١٩٢٨ كانت معروضة على مجلس النواب ، واتباعا للاوضاع البرلمانية احيلت على اللجنة المالية بالمجلس لبحثها وتقديم تقرير عنها للمجلس ، وقد استأنست اللجنة بآراء لجان المجلس المختلفة وطلبت اليها ابداء ملاحظاتها عنها ، وكانت لجنة الحربية منوطا بها ابداء ملاحظاتها على ميزانية وزارة الحربية ، فألفت لجنة فرعية لفحصها انتهت الى ابداء عدة مقترحات خاصة باصلاح الجيش المصرى وترقيته ، منها الغاء منصب السردار ، وكان شاغرا منذ مقتل السير لى ستاك ، ومنها تحسين أسلحة الجيش ومهماته ، وترقية التعليم فى المدرسة الحربية ، واقترح بعض أعضاء اللجنة تعديل قانون مجلس الجيش بحيث لا يـكون المفتش العام للجيش وقتئذ وكان بريطانيا (اسبنكس باشا) عضوا فيه ، وذلك على غرار مجلس الجيش فى انجلترا ، وابدت أيضا بعض ملاحظات على مصلحة الحدود ومصلحة خفر السواحل وعن المناطق التى كانت باقية تحت الحكم العرفى سواء فى محافظتى الصحراء أو الواحات .

قدمت اللجنة الفرعية تقريرا بهذه المقترحات والملاحظات الى لجنة الحربية ، وقبل أن تفحصها هذه وتبت فيها برأى وصل نبأها الى دار المندوب السامى والصحف البريطانية ، فهبت ترعد وتبرق ، وتتهدد وتتوعد ، ونشأت هذه الأزمة، وكان مظهرها توجيه مذكرة من الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية بواسطة دار المندوب السامى فى ٢٩ مايو سنة ١٩٢٧ ، خلاصتها :

ان الحكومة البريطانية ترى انه يجب على مصر ان تساعد بريطانيا العظمى على صيانة مصر من الاعتداء الأجنبى ، وعلى حماية المواصلات الامبراطورية ، وترغب ان يكون جيش مصر صالحا مستعدا للاشتراك فى الدفاع عن البـلاد ، وهى لذلك على استعداد لان تقدم لمصر كل مساعدة للعمل على ايجاد مثل هذه القوة بشرط ان تكون مدربة طبقا للقواعد البريطانية وباقل عدد من الاشخاص البريطانيين ، اذ ان هذه القوة ستدعى للتعاون مع الجنود البريطانية فى مصر ، وانه لوحظ فى الأيام الأخيرة أن هناك اتجاها مقلقا يرمى الى ادخال النفوذ السياسى فى الجيش المصرى ، واصطحب هـذا الاتجاه بمحاولات اكيدة لتقليل اختصاص المفتش العـام للجيش والضباط البريطانيين الذين يعملون فى المصالح المختلفة التابعة لوزارة الحربية ، وهذه المحاولات لقيت اخيرا تأييدا فى بعض ما اوصت به لجنة الحربية البرلمانية فى تقريرها الذى نشر

حديثا وسيطرح للمناقشة قريبا فى البرلمان ، وترى الحكومة البريطانية ان الموافقة على هذه التوصيات تقلل كثيرا من الفرص التى تتهيأ للتسوية الودية لهذه المسألة الهامة بين مصر وبريطانيا العظمى ، ولذلك فانها تدعو الحكومة المصرية الى اعادة النظر فى موقفها بغير ابطاء ، وخلصت المذكرة الى طلبات الحكومة البريطانية وهى :

١ — وجوب تمكين المفتش العام للجيش المصرى (اللواء اسبنكس باشا) من ان يؤدى فى حرية وعلى الوجه المناسب اختصاصاته كما تسلمها من اللواء هدلستن باشا فى يناير سنة ١٩٢٥ ، اذ هى لم تلغ قط ، ولهذا الفرض يجب أن يمنح رتبة فريق مع المرتب المتناسب وواجباته ، ويجب ان يعطى عقدا على الاقل لمدة ثلاث سنوات فى أول الامر .

٢ — اذا بقيت لجنة الضباط على شكلها الحاضر فيجب على وزير الحربية الا يتأخر عن أن يرفع الى صاحب الجلالة ملك مصر توصيات هذه اللجنة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات ومنح الأوسمة ومسائل النظام عامة .

٣ — ان يعين ضابط بريطانى كبير برتبة لواء ليكون مساعدا للمفتش العام ينوب عنه فى غيابه ، ويقوم بالأعمال التى يقوم بها المفتش العام نفسه ، وهذا الضابط يحل محله فى غيابه ، أو عندما يكون قائما باعمال المفتش العام اقدم ضابط بريطانى يكون موجودا .

٤ — يجب أن تكون مصلحة الحدود (ومصلحة خفر السواحل اذا نفذ الادماج الذى تقرر اخيرا) ، تحت اشراف المفتش العام البريطانى للجيش او نائبه فى غيابه ، ويمكن بدلا من ذلك أن يكون المدير العام لهذه المصلحة ضابطا بريطانيا ، كما كان الحال حتى ابريل سنة ١٩٢٥ .

٥ — ان تظل المراكز التى يشغلها الان ضباط أو رجال بريطانيون فى المصالح التابعة لوزارة الحربية وكذلك فى مصلحة خفر السواحل اذا ادمجت فى مصلحة الحدود محفوظة فى ايد بريطانية ، ولا ينبغى أن تمس اختصاصاتهم لا مبـــاشرة ولا بالواسطة .

٦ — وفيما يتعلق بالاختصاص القضائى تبقى الحالة الحاضرة على ما هى عليه فى الجهات الداخلة فى اختصاص مصلحة الحدود ، أى يبقى النظام العرفى فيها .

وظاهر من هذه المذكرة ان الفرض منها استبقاء الاشراف البريطانى كاملا على الجيش المصرى ، كما كان فى عهد الاحتلال والحماية لم تنشر الحكومة نص المذكرة بأكمله فى حينه ، واكتفت الصحف بنشر خلاصات مما وصل الى علمها عنها ، وارادت الحكومة بعدم نشرها التهوين من خطرها وتهدئة الخواطر .

وقد رد ثروت باشا على هذه المذكرة فى ٣ يونية سنة ١٩٢٧ ردا مفزعا فى قالب الود والتسليم بمعظم المطالب البريطانية ، ذكر فيه ان الحكومة المصرية تشاطر المندوب

السامى وجهة نظره فى منع ادخال السياسة فى الجيش وانها تتوق ابدا الى ان تجو كل شك عن الجيش المصرى فى هذه الناحية ،ولم يكن ليفوتها اجراء التحقيق اذا قدمت لها حوادث معينة ، وذكر عن التقرير الذى اشار اليه المندوب السامى فى مذكرته انه ليس من عمل لجنة الحربية البرلمانية ، بل ان لجنة فرعية منها تألفت لبحث مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى انشأ مجلس الجيش ولجنة الضباط ، فكلفت اثنين من اعضائها وضع تقرير فى الموضوع ، وان مشروع هذا التقرير هو الذى نشر بغير ان يقـدم لا للجنة الحربية ولا للجنة الفرعية نفسها ، وقال ان الحكومة المصرية على استعداد لان تستقبل بكل ترحاب الاقتراح الذى ينحو نحو المفاوضة لايجاد الترتيبات التى من شانها ان تسهل التعاون المذكور ، ولكن فى انتظار الزمن الملائم للقيام بهذه المفاوضات ترى الحكومة المصرية انه حتى تعمل هذه الترتيبات يمكن أن يحتفظ بالموقف فيمايتعلق بأداء مأمورية الجيش المصرى كما كانت حتى الآن وبغير عائق ، وانه منذ اعلان مرسوم سنة ١٩٢٥ المذكور آنفا الذى ادخل المفتش العام فى عضوية مجلس الجيش ولجنة الضباط ، منذ هذا المرسوم والخدمات المختلفة للجيش تسير سيرا عاديا ، ومع ان بعض خلافات نشأت حول توصيات لجنة الضباط فما كانت الا نادرة وعرضية وكانت تدور غالبا حول مدة الترقية الوقتية ، على انه يمكن القول بان الوزير (لمصلحة الدقة وحسن النظام) سيقبل بصفة عامة آراء اللجنة التى ألفت لمساعدته على القيام بما عليه من مسئوليات والتى يتخذ منها سندا لقراراته ، وفيما يتعلق بمد خدمة المفتش العام من سنتين الى ثلاث ترى الحكومة ان عقد المفتش العام لما يكد يبدأ مدته ومن ثم فان هذه المسألة الشخصية ليس لها اهمية حالية ، ومثل هذا يقال عن اقتراح الانعام عليه برتبة الفريق ورفع راتبه ، على ان وزير الحربية سيبحث من جهة اخرى مسألة تعيين ضابط بريطانى عظيم ليكون مساعدا للمفتش العام على اداء اعباء منصبه او ليحل محله عند غيابه وما دامت حاجة العمل تقتضى هذا التعيين فلن يتاخر عن القيام به فى حدود السلطة المخولة له لتعيين أجنبى فى منصب فنى ، وهذا الضابط سيحل محله متى دعت الحاجة أثناء غيابه أو نيابته عن المفتش العام أقدم ضابط بريطانى ، وفيما يختص بمصلحة الحدود فان هذه المصلحة التى تشتغل بأعمال الادارة الداخلية البحتة ومنع التهريب قد ألحقت بوزارة الحربية بمرسوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٢٥ المنشىء لمجلس الجيش يكون المدير العام لهذه المصلحة عضوا فى ذلك المجلس بحكم وظيفته ، هذا الى أنه ما دامت المسائل المرتبطة بالدفاع عن البلاد داخلة فى اختصاص مجلس الجيش فان هناك كل ما يدعو الى الثقة بأن شئون مصلحة الحدود المتصلة بالمسائل العسكرية ستنجز بكل ما يرغب فيه من ضمان وطبقا لمقتضيات الخدمة .

وفوق ما تقدم فان الضباط البريطانيين الذين يشغلون مناصب فى هـذه المصلحة قد انتفعوا بالقانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ .

ونظر مجلس الوزراء فى يناير الماضى فى مسألة هؤلاء الضباط عندما انتهت مـدة عقودهم فقرر — لمصلحة العمل — ان يستبقيهم فى مناصبهم ، وقد اعطيت لهم عقود

جديدة لمدد تتراوح بين سنة وسنتين ، وهذه العقود تثبتهم فى الاعمال التى كانوا يقومون بها ولا يزالون مستمرين على القيام بها ، وانما يكون عند انتهاء هذه العقود البحث فى هل يبقى هؤلاء الضباط فى مراكزهم أم لا ، وعند بحث هذه المسألة ستكون الحكومة المصرية طبعا خاضعة لمصلحة العمل فقط لا لأى إعتبار آخر مهما كان ، أما النظام القضائى المنفذ فى المناطق الواقعة تحت سلطة مصلحة الحدود فما هو فى الحقيقة اكثر من سلطان من المبادىء التى وضعتها الحكومة المصرية سنة ١٩١١ لشبه جزيرة سيناء قبل الحاقها بمصلحة الحدود حتى يشمل هذا السلطان مثل هذه المناطق جميعها ، ومرسوم سنة ١٩٢٢ يقضى ببقاء هذا النظام الى الوقت الذى يمكن أن يحل محاله نظام أوفى ، ومنذ هذا الوقت لم تدع الأسباب الحكومة المصرية الى النظر فى وضع النظام الجديد ، ويرجع على الاقل الى اسباب تتصل بالاحوال الخاصة ودرجة التقدم فى منطقة العريش التى تتبع منطقة الحدود الشرقية ان الحكومة تدرس مسألة اعادة محكمة اول درجة باختصاصها الاصلى وهذه المحكمة هى التى كانت موجودة فى الاصل قبل وجود الادارة محل البحث .

« وأعرب ثروت باشا فى ختام رده عن رجائه فى أن الايضاحات والتأكيدات المتقدمة ستبدد كل سوء تفاهم بين الحكومتين فى موضوع الجيش المصرى ، وعن رغبة الحكومة المصرية فى أن تقوى العلاقات بين البلدين يوما فيوما وأن يظل حسن التفاهم سائدا بينهما وأن تكلل بالنجاح مجهودات الطرفين فى الوصول الى اتفاق يقوى روابط الصداقة ويوحد بين البلدين كما يضمن مصلحتهما .

ولم ينشر الرد فى حينه ، لكى لا يثير الرأى العام على الوزارة .

وبينما كان الأخذ والرد متبادلين بين الجانبين ، اذا بالازمة تأخذ شكلا حادا ، فقد أذاعت أنباء لندن البرقية أن ثلاث بوارج بريطانية أمرت بالسفر من مالطة الى المياه المصرية ، ثم ألقى السير أوستن تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا بيانا فى مجلس العموم عن الأزمة قال فيه أن الحكومة البريطانية انما تدخلت فى هذه المسألة لان فريقا من الساسة المصريين ذوى الكلمة النافذة أراد استعمال الجيش أداة معادية لانجلترا ، وان الدليل على ذلك هو ما اقترحته اللجنة الحربية (الفرعية) لمجلس النواب من زيادة وحدات الجيش وأسلحته (تأمل !) واضاف الى ذلك ان الحكومة البريطانية مستعدة لفتح باب المفاوضات فى المسائل المعلقة ، ولكن الى أن يتم الاتفاق عليها يجب الاحتفاظ بأسباب الامن فى مصر وأن الحكومة البريطانية قد تلقت تقارير من مصر بأن هناك سعيا يبذل للتحريض والهياج ، وهذا هو ما أدى الى ارسال البوارج الثلاث الى مصر .

وقد جاءت هذه البوارج فعلا الى ميناء الاسكندرية وبورسعيد ! فكان لحضورها وقع أليم فى النفوس .

وانتهت الأزمة بأن قررت الحكومة مد مدة خدمة اسبنكس باشا المفتش العام

للجيش ، ومنحته رتبة فريق ، وقبلت تعيين وكيل انجليزى له وهو اللواء بالمر باشا وعينت ضباطا انجليز جددا بالجيش .

واستبان من ملابسات هذه الأزمة أن انجلترا لا تريد أن يكون لمصر جيش قوى يعول عليه فى الدفاع عنها ، وقد أفصح المحرر الحربى لجريدة الديلى تلغراف عن هذه النية بقوله :

« اذا ما قبلت زيادة عـدد الجيش المصرى وجبت زيادة جيش الاحتلال ، واذا ما قبلت زيادة سـلاح الجيش المصرى وجبت زيادة سلاح الجيش لمحتل » .

وارادت انجلترا من ناحية أخرى الضغط على الحكومة المصرية واكراهها على الدخول فى مفاوضات لعقد المعاهدة التى تربط مصر بانجلترا ، وانذارها بأنها ما لم تقبل المعاهدة فستظل انجلترا على سياسـتها فى احراجها واثارة الأزمات فى وجهها والتدخل فى شئونها الداخلية ، وقد اتضح فيما بعد أن عقد المعاهدة لم يضع حدا لهذا التدخل ، بل كانت بابا جديدا من نوع جديد لاستدامة البغى والعدوان .

٤ يوليو ــ مأدبة للملك فؤاد فى قصر بكنجهام بانجلترا :

لعل أبرز الأحداث فى وزارة ثروت باشا حتى هذا التاريخ هـو رحلة الملك الى أوروبا والتى بدأت فى شهر يونية من هذا العام ويبدو أن الملك فؤاد أحب ان يعود الى أوروبا وبخاصة الى ايطاليا ملكا وهى التى رأته من قبل أميرا ، ولما كان يعتبر أن وزارة ثروت قد فرضت عليه ، فلم يدخر وسـعا فى اظهار عدم رضـائه عن ثروت ، ولذلك فقد اعترض على أن يصحبه فى الرحلة ، ولكن سعد زغلول أصر على ان يصحبه مادامت الرحلة رسمية وستدفع نفقاتها الدولة .

وهدد بأن لا يعتمد البرلمان النفقات فأستجاب الملك لذلك ، ووصل الى لنـدن واستقبل بها رسـميا ، وكان فى انتظاره على المحطـة جورج الخامس ملك انجلترا والمستر بولدوين ، رئيس الوزراء ، ومازلت اذكر كيف كنا نتابع أنباء هـذه الرحلة بكل فخر واعتزاز بشخصيتنا ، وقد اقام ملك الانجليز مأدبة عشاء رسمية فى قصره الملكى (بكنجهام) .

وقد انتهز الانجليز هذه الفرصـة لكى يعرضـوا على ثروت باشـا مباحثات لحل المشاكل المعلقة بين البلدين ، ولابد أن يكون ثروت باشا قد عرض الأمر على سـعد زغلول فأذن له ومنذ ذلك الوقت بدأ ما يسمى « بمفاوضات ثروت وتشمبرلين » ولم يكن يذاع شيء عن تفاصـيلها ، ولندع الآن الملك فـؤاد فى زيارته لأوروبا ، ومحادثات ثروت مع أوستين تشمبرلين وزير خارجية انجلترا ولنسرع الى مصر حيث وقع حادث مفاجىء رجها رجا وهزها من الاعماق وهو حادث :

٢٣ اغسطس ــ وفاة سعد زغلول :

ولم يكن هـذا الحادث الا وفاة سـعد زغلول ولقد صور أحمد شوقى الشاعر هذه المصيبة وضخامتها عندما استهل رثاءه بالقول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانحنى الشرق عليهـا فبكاها
شــيعوها حـــرة عـلوية
كست المـوت جـلالا وكسـاها

ومازلت أذكر (وكنا قد انتقلنا الى بيتنا فى المنيرة) وقد خرجت والها هلعا بعد أن طالعت النبأ فى جريدة الأهرام ، وكان الجو غائما ، فرحت سـيرا على الاقـدام نحو بيت سعد وكان يدهشنى أن أرى كل شيء يسير بطبيعته كأن لم يحدث شيء ، وزاد فى دهشتى عندما بلغت بيت سعد فلم أر أى شيء غير عادى وكان السـكون يخيم على المكان ، فانهلت بالسخط والشتائم على الناس والايام ، ذلك أننى كنت متصورا أنه وقد مات سـعد زغلول فيجب أن يتوقف كل شيء ولكن كل شيء كان يسير كأن لم يحدث شيء ، وظل هذا السخط والعجب والدهشة يلازموننى طول النهار ، وهم يحدثونى عن ضخامة الجنازة ولم يسر عنى ويخفف من لوعتى الا عندما ذكروا لى أن حبل النظام قـد اختل واضطرب عنـدما اقتربت الجنازة من مدفن الفقيد فى الامام الشافعى وان الجماهير ازدحمت بصورة غير عادية فاختلط الحابل بالنابل وانفرط عقد الجنازة ، هنا وهنا فقط اطمأن خاطرى الى أنه كان يجب أن يحدث شيء غير عادى وقد مات سعد .

منظر آخر لا تزال ذاكرتى تختزنه ، عندما زرت قبر سعد المؤقت الذى بنوه له على عجل ، وكانت باقات الورد مكدسة فوق المقبرة بغير نظام وكأنها التل ، وقـد ارضانى هذا المنظر ، وقد بقى لانهاء هذه النبذة عن وفاة سعد زغلول أن اثبت نص نعى الحكومة له:

((مجلس الوزراء ينعى الى الأمة المصرية مع الاسف الشـديد والحزن العميق حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل وزعيم الامة العظيم ورئيس مجلس النواب سعد زغلول باشا فقد وافاه القدر المحتوم حوالى الساعة العاشرة من مسـاء يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧ عقب مرض لم يمهله طويلا ولم يعطف على مستودع آمال الامة ومحل رجائها وقائد نهضتها وحامل لواء الدفاع عن حقوقها ، والى الله مرجعه وله منه الرحمة والرضوان ، والى الشعب المصرى جميل العزاء ، وستشيع الجنازة فى الساعة الرابعة بعد ظهر الاربعاء الموافق ٢٤ اغسطس سـنة ١٩٢٧ من بيت الأمة الى مدفن الفقيد بالامام الشافعى)) .

وهذا وقد قرر مجلس الوزراء اقامة ضريح لسعد باشا على الارض الفضـاء المجاورة لبيت الأمة وتحويل هـذا البيت الى متحف واقامة تمثالين له فى مصر والاسكندرية .

وقد تابعنا سعد زغلول فى هذه الموسوعة وقلنا رأينا فى شتى مواقفه ، ومن أراد

موجزا لتاريخه ففى كتاب الرافعى ، ولكن من اراد تاريخا موسعا فعليه بكتاب عباس محمود العقاد « سيرة وتحية » .

٢٦ سبتمبر ــ الهيئة الوفدية تؤيد مصطفى النحاس خليفة لسعد زغلول :

بمجرد وفاة سعد زغلول فى أواخر شهر اغسطس بادر كبراء مصر الذين اعتادوا الاصطياف فى أوروبا ، الى العودة ، وكان عبد الخالق باشا ثروت مشتغلا بالمفاوضات مع انجلترا حول مشروع معاهدة ، ولا جدال ان وفاة سعد زغلول قد أحدثت له صدمة فعلى الرغم من العداء الذى استحكم بين الرجلين فى وقت من الأوقات ، فقد انتهى الامر بوقوف سعد زغلول خلف ثروت باشا يدعمه ، فلما ان مات سعد أيقن ثروت باشا أنه خسر مركزه فكان أن عاد الى مصر فى ١٠ سبتمبر ثم توالى قدوم الغائبين ، وقد اجتمع الوفد المصرى لاختيار خليفة لسعد ، وكان الاجماع على ان أحدا لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذى نشأ عن وفاة سعد ، ومع ذلك فقد كان لا مناص من اختيار خليفة له ، وكان الحديث يدور فى الدرجة الاولى حول اختيار فتح الله باشا بركات خليفة لسعد زغلول ليس فقط لانه ابن أخته ومستشاره الأول فى كل مناشط الوفد داخليا وخارجيا ، ولكن اعضاء الوفد كان لهم رأى فى اختيار مصطفى باشا النحاس الذى كان سكرتيرا للوفد رئيسا له ، وكان مما قيل فى تبرير العدول عن اختيار فتح الله بركات أنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولكن الشائعات التى راجت فيما بعد أن الاقباط وعلى رأسهم الاستاذ وليم مكرم عبيد هم الذين اختاروا مصطفى النحاس ليكون « اسلس قيادا » وكيفما كان الأمر فقد أختير مصطفى النحاس لرئاسة الوفد ، وأختير مكرم عبيد (باشا فيما بعد) ليكون سكرتيرا للوفد ، واجتمعت الهيئة الوفدية فى يوم ٢٦ سبتمبر لتكريس هذا الاختيار فوافقت عليه بالاجماع .

١٧ نوفمبر ــ افتتاح البرلمان فى دورته الجديدة :

ظل الائتلاف الذى كان بين الأحزاب قائما وتجلى ذلك فى حفل الاربعين لوفاة سعد زغلول فرثاه مندوبون عن الأحزاب ورئى أن خير ما يصنع هو أن تستمر الأمور كما كانت فى اخريات أيام سعد ، ولما كان ثروت باشا قد بدأ فى مفاوضات مع الانجليز ، فقد رئى أن يعود لاستكمالها فسافر الى لندن فى شهر أكتوبر ، ثم عاد لافتتاح البرلمان فى دورته الجديدة فى يوم ١٧ نوفمبر ، وألقى ثروت باشا خطاب العرش الذى تضمن اشارة الى المفاوضات بغير دخول فى أى تفصيلات وإذ كان البرلمان ينعقد لأول مرة بعد وفاة سعد زغلول ، فقد عاد ممثلو الاحزاب المؤتلفة لتأبينه ، ثم اختير مصطفى النحاس باشا ليكون رئيسا لمجلس النواب خلفا لسعد زغلول باعتباره رئيسا للوفد المصرى .

وعلى هذه الصورة من الهدوء الذى يسبق العاصفة مضى عام ١٩٢٧ الى نهايته وكل الأطراف ــ (الانجليز ــ الملك ــ أحزاب الاقلية) تسعى لاستثمار الموقف الذى

نجم عن غياب سعد زغلول ، وسـوف ينكشف ذلك كله فى مستهل العام الجـديد فلنختم الآن أحداث ١٩٢٧ بسرد موجز لذكريتنا الخاصة عنه .

ذكريات خاصـة :

ذكرياتى عن هذا العام طويلة عريضة ستكون الصعوبة فى تلخيصها فى سـطور ففى هذا العام انتقلنا الى بيت جديد فى حى المنيرة ، وقد كان ذلك قفزة جديدة لنا ، كانت والدتى قد توفيت وتزوج والدى بسيدة جديدة والبيت الجديد الذى نقلنا له هو عمارة حديثة من اربعة ادوار ، كل دور مؤلف من شقتين ، وقد استدان والدى الفى جنيه أو ثلاثة آلاف ، لست أدرى على وجه التحقيق ، وقد خسر العمارة كلها بسبب ذلك ، ولكنا فى هذا الوقت كنا ملاكا ، وقد كنت انا من ساعدت والدى فى الاشراف على بناء العمارة ، وفى هـذه السنة توفى اخى مصطفى عن سن لا يتجاوز الثلاثين ،وهو بحق يعتبر أول أستاذ تأثرت به وافدت منه الكثير وفى هذه السـنة مات سعد زغلول كما مر بنا ، وقد سهل لى كوننا نسكن المنيرة ان أقصد منزل سعد زغلول فى الانشا عند سماعى نبأ موته ، اما العنصر الحاسم فى حياتى فقد كان انهماكى فى المسرح والتمثيل الى الحد الذى جعلنى افكر فى ترك التعليم والتفرغ للتمثيل ، حتى وصل الأمر بى الى ان لا أدفـع مصاريف المدرسـة وهجرت بيت والدى ، واشهد ان والدى تصرف بحكمة حتى استعادنى الى البيت والمدرسة ، وادى نجاحى غير المتوقع فى شهادة « الكفاءة » وهى الشهادة العامة التى تحصل عليها بعد ثلاث سنوات من التعليم الثانوى ، الى تغيير مصيرى فانتظمت فى التعليم ، اما سبب هذا الاستغراق فى التمثيل الذى استحوذ على الى هـذا الحد ، فكان هو انضمامى الى مسرح يوسـف وهبى (رمسيس) كهاو ، ولاننى أصبحت الشخصية الأولى فى فرقة التمثيل فقد قدمت رواية من تأليفى ، أو بالأحرى اقتباسى وكان اسمها « أبو مسلم الخرسانى » وكانت مقتبسة من رواية جورجى زيدان التى تحمل نفس الاسـم ، ومثل دور « أبو مسلم » الأستاذ حسن جلال العروسى رئيس الفرقة ، ولكن دورى فى الرواية « شبيب » زعيم الخوارج كان هو الأقوى والأكبر واشرف على اخـراج الرواية الممثل الكبير احمد علام .

ومثلنا الرواية على مسرح حديقة الأزبكية واستحضرنا الملابس من فرقة رمسيس ليكون بقدرتى ان ألبس نفس الملابس التى يرتديها يوسف وهبى فى رواية «الصحراء» وكنت قد فتنت بيوسف وهبى فرحت أقلده الى الحد الذى جعل « الاحنف » عندما نقد الرواية مما نشر على صفحات مجلة المسرح يقول انه تصور انه قد ضل الطريق ودخل مسرحية ليوسف وهبى ، وعلى ذكر مجلة المسرح فهـذه المجلة كانت قـد نجحت نجاحا منقطع النظير حتى لقـد تصورنا نحن الشـباب ان ليس فى الدنيا الا المسرح والتمثيل ، وهكذا انقضت هذه السنة الحرجة من حياتى ، وسـترى ان العام المقبل سيشهدنى اكثر انخراطا فى التمثيل ، ولكن الأولوية أصبحت للتعليم .

عام ١٩٢٨

عجيبة هذه الحياة وعجيبة أسرارها ، فبحلول عام ١٩٢٨ تدخل احوال مصر الجارية فى دائرة وعيى مائة فى المائة ، ولن البث بعد عامين (بمناسبة مشروع القرش) انى سوف أصبح على المسرح ويكون لى رأى شخصي فى كل ما يجرى فى مصر من الامور ، ولذلك فسوف تتوقف هذه الموسوعة ، لتبدأ بعدها مذكراتى ، والفارق بين كتابة التاريخ والمذكرات ان المؤرخ يقدر الامكان يحاول أن يكون موضوعيا ، بمعنى ان يجتهد فى أن يكون مراقبا محايدا ، اما عندما يتحول هو الى احد الشخوص التى تتحرك على المسرح فالأمر يصبح ذاتيا يعبر فيه الانسان عن نفسه فى كل الاحداث الجارية ، وتسقط عنه صفة المؤرخ المحايد ، وهو ما سوف أصل اليه بعد عامين ، عندما انزل الى الحياة العامة ، ولذلك فيجب ان تتوقف هذه الموسوعة كما قدمت .

ويعتبر عام ١٩٢٨ هو بدء وعى كامل بما يجرى حولى وان كنت لم انخرط تماما فى الحياة العامة الا فيما بعد ، وانى لاذكر تماما كيف كنت راضيا كل الرضا عن حكومة مصطفى النحاس ، واذكر الان صورتى بعد هذا العمر الطويل وانا اقول لزميل لى فى الفصل ان مصطفى النحاس اثبت أنه أعظم من سعد زغلول ، وقد اختلفت فى مقبل الأيام أشد ما يكون الخلاف مع مصطفى النحاس وتضاءل رأيى فيه ، ومع ذلك فقد قلت عنه هذا القول ، وسوف تصل الامور الى حد ان اخطب فى حضرة محمد باشا محمود ، ومع ذلك فقد قلت فى حضرته كلاما لا يتصل بما هو جارى بمقدار ما يتصل بما هو آت ، وكيفما كان الأمر فلا يزال امامنا ثلاثة اعوام ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ لنمضى فى هذه الموسوعة على قدر مؤكد من الحياد والموضوعية .

٤ مارس ــ فشل المفاوضات واستقالة ثروت :

كانت وفاة سعد زغلول فى العام السابق هى الشغل الشاغل للناس وتم اختيار مصطفى النحاس ليكون خليفة له كما راينا ، ولقد اختير لرئاسة مجلس النواب وسرعان ما ضغطت الأحداث وعلى رأسها المفاوضات بين مصر وبريطانيا ، والتى كان يجريها ثروت باشا تحت اشراف سعد زغلول فلما ان مات سعد تصورت انجلترا ان العقبة الكأداء فى سبيل ابرام معاهدة أى معاهدة ، بين مصر وانجلترا قد زالت فأصبح ابرام المعاهدة ممكنا ، فطلبوا من ثروت باشا ، أن يمضى فى ابرام المعاهدة ، هل كان ثروت باشا موافقا على ماتم التوصل اليه أم لا ، مسألة لانستطيع أن ندلى فيه برأى ، والحقائق الثابتة تاريخا أن مصطفى النحاس رفض المشروع من أساسه ، ورأى ان لا يعرض على البرلمان اكتفاء بعرضه على مجلس الوزراء (اغلبية وفدية) فرفضه مجلس الوزراء وذلك فى جلسة ٤ مارس وقد جاء الرفض مسببا « المشروع فى أساسه ونصوصه لا يتفق مع استقلال البلاد وسياستها ويجعل الاحتلال البريطانى شرعيا » وقد بادر ثروت باشا فأبلغ دار المندوب السامى برفض مجلس الوزراء للمشروع ، وقد أخذ عليه عبد الرحمن الرافعى انه نسب الرفض لزملائه ، ونحن لا نسايره

فى ذلك ، واعتبر ثروت باشا أن مهمته قد انتهت ، ولذلك فقد بادر بتقديم استقالته فى نفس اليوم واذ كنت قد بدات اعى كل ما يدور حولى فلا زلت اذكر كيف صعقت عندما اطلعت على نصوص المشروع فى حينها ، وكان السر فيما الم بى ، ان ذلك كان يجرى بعلم سعد زغلول ، ولقد راجت اشاعات وقتها انه كان موافقا عليه ..

واذ نودع وزارة ثروت باشا ، فيجب ان نذكر لها انه شرع فى ايامها (٢٨ فبراير سنة ١٩٢٨) فى وضع حجر الأساس لمبانى الجامعة الجديدة فى الجيزة ، والتى سيكون مقدرا علينا أن نلتحق بها قبل عامين ، مبتدئين بذلك انخراطنا فى الحياة العامة .

١٧ مارس ــ تاليف وزارة مصطفى النحاس :

كان طبيعيا أن تمضى عدة ايام بعد استقالة ثروت باشا ، قبل أن يعهد الملك احمد فؤاد الى مصطفى النحاس باعتباره زعيم الاغلبية يوم ١٦ مارس بتاليف الوزارة ، ومضى كل شيء كما لو كان ما يحدث هو أمر طبيعى ، حيث ما كان يجرى أشبه بالزلزال بدأ بطبيعة الحال بوفاة سعد ، ووصل الذروة برفض المعاهدة مع الانجليز الذين غضبوا وتركوا للملك فؤاد حرية التصرف مع النحاس باشا ، ولابد أن تكون خطة كاملة قد رسمت فى هذه اللحظات للتخلص جملة وتفصيلا من مصطفى النحاس وكان للسطر الأول من هذه الخطة أن يسمح له بتشكيل وزارة فشكلها على الوجه التالى :

مصطفى باشا النحاس	الرئاسة والداخلية
جعفر والى باشا	الحربية
واصف بطرس غالى باشا	الخارجية
محمد نجيب الغرابلى باشا	الأوقاف
على الشمسى باشا	المعارف
احمد محمد خشبة باشا	الحقانية
محمد محمود باشا	المالية
محمد صفوت باشا	الزراعة
ابراهيم فهمى كريم باشا	الأشغال
الاستاذ مكرم عبيد	المواصلات

أزمة مستمرة وحكومة وطنية :

كان الانجليز من ناحيتهم والملك فؤاد من ناحيته يعدان العدة للقضاء على هذه الوزارة والروح الوطنية معا ، تصورا منهما ، انه وقد مات سعد زغلول فقد ماتت

معه الروح الوطنية ، ففوجئنا منذ اليوم الاول لتشكيل الوزارة كل فيما يخصه ، فاذا فإن الملك أحمد فؤاد تصور أنه سوف يحكم منفردا وقد غاب سعد زغلول فقد كانت صدمته لا حد لها ، ومصطفى النحاس يحدثه عن الدستور والبرلمان ونواب الامة واليك نص ما جاء فى خطاب النحاس للملك بمناسبة تأليف الوزارة

« وانى لأقدر يا مولاى تبعة الاضطلاع بأعباء الحكم فى هذا الظرف الدقيق ، ولكنى أقبل عليه ملبيا داعى الوطن والضمير ، مستعينا بالله جلت قدرته على تحمل هذه المسئولية الخطيرة ، جاعلا نصب عينى الاحتفاظ بحقوق البلاد وخدمة مليكها ، الذى كان له بما جبل عليه من حب الخير لشعبه اكبر الفضل فى صياغة الدستور وتمكين تقاليده ، مما ربط الامة بمليكها رباطا وثيقا تزيده الشدائد احكاما ، وانى لاستمد يامولاى من تعضيد جلالتكم وسامى رعايتكم وما ارجو أن يمنحنى اياه ممثلو الامة من ثقة وتأمين وما يحبونى به الرأى العام من امداد وتشجيع قوة استعين بها على ضعف شخصى واشد بها أزرى ، معتمدا على توفيق الله وعنايته » .

وهكذا سمع احمد فؤاد من يحدثه عن « ممثلى الامة » وعن الرأى العام .

والانجليز :

واذا كان أحمد فؤاد قد صدم مرة ، فقد صدم الانجليز مرتين ، فقد كانوا يتصورون أن غياب سعد زغلول عن الساحة ، سوف يطلق أيديهم فاذا بهم يرون الوزارة الجديدة ، اشد صلابة وعنفا ، وتجلى ذلك فى رد الحكومة على مذكرة بريطانية كانت قد قدمتها للحكومة المصرية فى ٤ مارس ، عندما ادركت انجلترا ان الحكومة المصرية فى طريقها الى رفض عقد المعاهدة التى انتهت اليها مفاوضات « ثروت — تشمبرلن » واستقالت وزارة ثروت باشا فى ٤ مارس كما قدمنا ، وغنى عن البيان انها تركت عناء الرد على المذكرة للوزارة التى تليها ، ولم تتردد حكومة النحاس فى الرد على المذكرة ، وإليك نص المذكرة والرد عليها ورد الانجليز عليها :

« لاحظت حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعين القلق بعض الاعمال التشريعية التى اقرها البرلمان والتى اذا عمل بها اضعف اضعافا جديا من سلطة الهيئات الادارية المسئولة عن حفظ الامن وحماية الاشخاص والاموال .

« وطالما كان هناك محل للامل فى عقد محالفة بين البلدين تحدد مسئوليات وحقوق كل منهما امسكت حكومة جلالة الملك عن ابداء اية ملاحظة ، املا منها فى أن تعتمد باطمئنان على الحكومة المصرية لاجتناب كل تشريع يحول بين الادارة المصرية والقيام بنجاح بالمسئوليات الكبيرة التى يستلزمها النظام الذى توجده المحالفة .

« ولكن لما كانت هذه المحادثات مع الحكومة المصرية لم تنجح فى تحقيق غرضها فان حكومة جلالة الملك البريطانية ليس فى وسعها ان تسمح بأن تتعرض مسئولياتها الناشئة عن تصريح ٢٨ فبراير للخطر سواء بتشريع شبيه بذلك الذى أشرنا اليه أو بأى

تصرف ادارى ، فتحتفظ لنفسها بالحق فى اتخاذ اى اجراء ترى فى نظرها أن الحالة تقتضيه »

« أتشرف باحاطة فخامتكم علما بانى اطلعت على مذكرة سلمتموها الى سلفى عن بعض مقترحات تشريعية معروضة على البرلمان مما رايتموه حقيقا بان يضعف بصورة جدية سلطة الهيئات الادارية المسئولة عن حفظ النظام وحماية الأرواح والأموال فى مصر ، وبعد ما اشرتم الى ما ادرك الحكومة البريطانية من القلق بسبب ذلك ذكرتم فى ختام تلك المذكرة انه بما ان المحادثات التى دارت بين حضرة صاحب السعادة السير أوستن تشمبرلين وحضرة صاحب الدولة ثروت باشا لم تفض الى الغاية التى اريدت منها فان حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية لا يسعها أن تسمح بأن يكون اضطلاعها بما يفرضه عليها تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من المسئوليات معرضا لأى خطر يأتى من تشريع مصرى من نوع التشريع الذى سبقت الاشارة اليه أو من أى عمل ادارى وتحفظ لنفسها الحق فى اتخاذ أى تدبير ترى ان الحالة تستدعيه » .

« ولا يسع الحكومة المصرية فى الجواب على هذه المذكرة الا ان تبدأ بالاعراب عن شديد أسفها لان تجد نفسها أمام مذكرة ٤ مارس التى لا تطابق ما للحكومة المصرية من رغبة صريحة فى تنمية وتوثيق صلات الصداقة التى يجب أن تسود العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر .

« فان تلك المذكرة اذا نظر فيها من ناحية القانون الدولى تبين انها ظاهرة الخروج على القواعد المسلم بها فيه بشان التدخل السياسى اذ ان هذا التدخل — ما لم تتغير طبيعته ووجهته تغيرا كليا — لا يجيز للدولة المتدخلة حق الرقابة على أعمال الدولة الاخرى .

ومن جهة الواقع فان الحكومة المصرية كانت ولا تزال تحرص على أن تلقى فى نفوس الرعايا البريطانيين ونفوس الاجانب بوجه عام كل الثقة بانها ساهرة على أمنهم وراحتهم ، وانها قد وضعت حماية مصالحهم موضعا خاصا من رعايتها ، هذا ولو لم تكن تلك الحماية من نزعات الحكومة المصرية وتقاليدها الثابتة لكانت نزعات البرلمان المبينة المعروفة كفيلة بان توجبها عليها ايجابا ، ولقد دلت الحكومة على الدوام بتصريحاتها وأعمالها على ان للاجانب ان يثقوا بان ما يتمتعون به فى مصر من حسن المعاملة لا يقل بوجه من الوجوه عما يلقونه فى أى بلد آخر ، هذا فضلا عما يجدونه فيها من كريم الضيافة التى امتاز بها الشعب المصرى واصبحت من مناقبه . « يضاف الى ما تقدم ان المذكرة المشار اليها تهيىء السبيل لتدخل مستمر فى ادارة شئون البلاد الداخلية ، مما يشل سلطة البرلمان فى التشريع وفى الرقابة على اعمال الادارة ، ويجعل مهمة الحكم مستحيلة على اية حكومة جديرة بهذا الاسم ، ولا ريب لدينا فى أن الحكومة البريطانية لم تقصد الى شىء من هذا .

ولذلك لا يسع الحكومة المصرية ان تقبل تدخلا لو انها سلمت بمبدئه لاسلمت ذاتها وانكرت وجودها ، بل انها كحكومة دولة مستقلة ذات سيادة لتدرك حق الادراك ما عليها من واجبات ، وتعتزم بعون الله وتوفيقه ان تنهض باعبائها فى حرص وذمة وعلى وجه مرض للجميع .

٣٠ مارس سنة ١٩٢٨ .

رئيس مجلس الوزراء

مصطفى النحاس

رد المندوب السامى

وقد رد المندوب السامى البريطانى فى ٤ ابريل سنة ١٩٢٨ على هذا الرد بخطاب احتفظ فيه بوجهة نظر الحكومة البريطانية ، قال ما تعريبه :

« لقد ابلغت حكومتى المذكرة التى وجهتها دولتكم الى فى ٣٠ مارس وقد كلفت ان ابلغكم ان حكومة جلالة الملك لا تستطيع ان تعد مذكرة دولتكم بيانا صحيحا للعلاقات الموجودة بين بريطانيا العظمى ومصر او لتعهداتهما المتبادلة ، وقد اعلنت حكومة جلالة الملك استقلال مصر بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ مع تحفظات اربعة اشتمل عليها .

وارفقت حكومة جلالة الملك تبليغ قرارها هذا الى الدول ببيان ذكرت فيه ان رفاهية مصر وسلامتها ضروريتان لسلم الامبراطورية البريطانية وامنها وانها لذلك ستحتفظ دائما ــ باعتبار ذلك مصلحة بريطانية جوهرية ــ بالعلاقات الخاصة بينها وبين مصر وهى التى اعترفت بها الحكومات الاخرى منذ زمان طويل .

وذكرت حكومة جلالة الملك حينما وجهت الانظار الى هذه العلاقات الخاصة كما هى مبينة فى تصريح فبراير انها لا تسمح لاية دولة اخرى أن تنازع أو تناقش فيها وانها تعد كل محاولة للتدخل فى شئون مصر من جانب دولة اخرى عملا غير ودى وانها تعد كل اعتداء على ارض مصر عملا تدفعه بكل ما لديها من الوسائل

« وبالنظر الى هذه المسئولية التى تحملها بازاء الدول الأخرى والى ما للمصالح البريطانية فى مصر من الاهمية الحيوية للامبراطورية البريطانية ، فقداحتفظت حكومة جلالة الملك بمقتضى التصريح السالف الذكر احتفاظا مطلقا ــ أولا ــ بسلامة المواصلات الامبراطورية فى مصر ــ ثانيا ــ بالدفاع عن مصر ضد كل اعتداء خارجى او تدخل بالذات او بالواسطة ــ ثالثا ــ بحماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات ــ رابعا ــ بالسودان ــ وذلك الى ان تسوى هذه المسائل باتفاقات تعقد بين الحكومتين البريطانية والمصرية .

« وقد سعت حكومة جلالة الملك لوضع تسوية كهذه واعتقدت انها وفقت اليها بواسطة المعاهدة التى جرت فيها المفاوضات مع رئيس الوزراء المصرية السابق .

واذ كانت الحكومة المصرية قد رفضت هذه المعاهدة فان الحالة السابقة للمفاوضات تستمر وعلى ذلك يعود المركز اليوم الى مثل ما كان حين حبطت المفاوضات التى دارت بين المستر رمزى مكدونالد وزغلول باشا الا بمقدار ما طرأ عليها من التعديل بمقتضى المذكرات التى تبودلت فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

« اما النقط المحتفظ بها فتبقى محتفظاً بها على صورة مطلقة بواسطة حكومة جلالة الملك ، وللحكومة المصرية ان تستعمل سلطتها المستقلة على شرط ان يكون ذلك على وجه مرض لحكومة جلالة الملك فى هذه المسائل » .

٢٩ ابريل — الانجليز يثيرون ازمة قانون الاجتماعات :

قدمنا انه بمجرد رفض مصر ابرام المعاهدة التى حملها ثروت باشا بعد مفاوضاته مع اوستين تشمبرلن ، التقى صالح الانجليز مع صالح السراى ، مع صالح الاقلية ، فى ضرب الوفد بعد أن أصبح على رأسه مصطفى النحاس ، فلم تكد الأزمة الأولى التى مرت بنا تنقضى ، حتى أثاروا أزمة جديدة ، فطالبوا باسقاط قانون الاجتماعات ، الذى كان فى مراحله الاخيرة مجلس الشيوخ ، وارسلوا المذكرة الآتية :

« اتشرف باخبار دولتكم بان حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية فى بريطانيا العظمى قد راقبت بمزيد الاهتمام من يوم أن قدمت لدولتكم مذكرتى المؤرخة ٤ ابريل ما يبدو من رغبة الحكومة المصرية رغبة متزايدة فى المضى فى تشريع يؤثر فى الأمن العام ، وهذا التشريع . كما لابد ان تكونوا دولتكم قد علمتم تمام العلم ليس فقط من الرسالة الشفهية التى تشرفت بابلاغها الى دولتكم فى ١٩ الجارى ، بل أيضا من الرسائل السابقة المماثلة لها التى أبلغت الى دولة سلفكم والى دولتكم قبل تاريخ المذكرة التى تشرفت بتقديمها لدولة ثروت باشا فى ٤ مارس الماضى وبعده — داخل فى نطاق التحفظ الذى ابدته مذكرتى المؤرخة ٤ أبريل .

« وانى الآن مكلف من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بان اطلب الى دولتكم كرئيس للحكومة المصرية ، أن تتخذوا فى الحال الاجراءات اللازمة لمنع مشروع القانون المنظم للاجتماعات العامة والمظاهرات من ان يصبح قانونا ، وانى مكلف بان اطلب من دولتكم اعطائى تأكيدا قاطعا بانه لن يستمر فى نظر المشروع المذكور ، فاذا لم يصلنى هذا التأكيد قبل الساعة السابعة من مساء يوم الاربعاء ٢ مايو فان حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية تعد نفسها حرة فى أن تقوم بأى عمل ترى ان الحالة تستدعيه .

« وانى انتهز هذه الفرصة لاجدد لدولتكم عظيم احتراماتى .

٢٩ ابريل سنة ١٩٢٨ .

« لويد »

المندوب السامى

٣ مايو — رد الحكومة المصرية :

« تشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٢٩ ابريل ١٩٢٨ الذى تصرحون فيه بانمشروع قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات داخل فى نطاق التحفظ الذى اشارت اليه المذكرة البريطانية المؤرخة ٤ مارس وايدته المذكرة المؤرخة ٤ ابريل سنة ١٩٢٨ وبانكم مكلفون من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بان تطلبوا الى كرئيس للحكومة المصرية ان اتخذ فى الحال الاجراءات اللازمة لمنع هذا المشروع من أن يصبح قانونا وان اعطيكم تأكيدا كتابيا قاطعابانه لن يستمر فىنظر مشروع القانون المذكور ، واذا لم يصلكم هذا التأييد قبل الساعة السابعة من مساء يوم الاربعاء ٢ مايو فان حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية تعتبر نفسها حرة فى القيام بأى عمل ترى أن الحالة تستدعيه ، وردا على خطاب فخامتكم اتشرف بابلاغكم ان الحكومةالمصرية فى ردها بتاريخ ٣٠ مارس على المذكرة البريطانية المؤرخة ٤ مارس قد اوضحت وجهة نظرها التى ترى انها كفيلة بالاحتفاظ بحقوق البلاد وباستبقاء صلات المودة بين بريطانيا العظمى ومصر ، وقد عادت الحكومة فاكدت وجهة نظرها هذه امام البرلمان فى بيانها الذى القته بتاريخ ٥ أبريل اجابة على المذكرة البريطانية المؤرخة ٤ أبريل .

« ولا يسع الحكومة المصرية امام واجبها فى صيانة حقوق البلاد كاملة والمحافظة على دستورها أن تسلم بما تضمنه الانذار البريطانى الاخير من حق بريطانيا العظمى فى التدخل فى التشريع المصرى ارتكانا على تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فان هذا التصريح كان ولا يزال تصريحا من جانب واحد وقد قصدت الحكومة البريطانية ان تكون له فعلا هذه الصفة ، فهو بطبيعته لا يلزم الطرف الاخر ولا يقيده ولقد صرح بذلك المستر رمزىماكدونالد بصفته رئيسا للحكومة البريطانية فى الخطاب الذى أرسله اللورد النبى بتاريخ ٣ يوليه سنة ١٩٢٤ الى المغفور له سعد زغلول باشا رئيس الحكومة المصرية وقتئذ وقد جاء فى ذلك الخطاب ما يأتى نصه : « لقد أبدى المستر ماكدونالد بعبارة صريحة لوزير مصر المفوض فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ أن كل تصريح من احد الطرفين يبين موقفه لا يلزم مطلقا الطرف الاخر باعتراف بهذا الموقف » ولقد اوضحت الحكومة المصرية مرارا وجهة نظرها هذه بكل صراحة واخلاص للحكومة البريطانية ولفخامتكم فلم تأل جهدا فى اثبات ما انطوت عليه من حسن النوايا وقد كان لى الشرف ان اوضح لفخامتكم فى اوقات متعددة بصدد مشروع قانون الاجتماعات والمظاهرات انه ليس فىمقدور اية حكومة دستورية انتعبث بالمبدأ الدستورى القاضى بفصل السلطات فتسحب مشروع قانون وافق عليه المجلسان والحكومة معهما فلم يبق منه امام مجلس الشيوخ الا فقرة تتعلق بالشكل سقطت عرضا .

« ثم سمحت لنفسى ان ابين لفخامتكم ان مشروع القانون بما تضمنه من نصوص وما اقترن به من تصريحات الحكومة بالبرلمان ومناقشات المجلسين المثبتة فى مضابط جلساتهما لايعرض امن الاجانب للخطر ، بل يرمى الى تنظيم الحريات الدستورية مع صيانة الامن العام صيانة تامة .

« كما انى صرحت مرارا انه اذا دل العمل على نقص فى القانون بعد اصـــداره فالحكومة على اتم استعداد لاقتراح تعديله بما يتفق ومقتضيات النظام العام ، تلقاء ما تقدم جميعه.من المظاهر الجلية لصدق النية وحسن الاستعداد لا يسع الحكومة المصرية الا ان تبدى اسفها الشديد على ان الحكومة البريطانية لم تقدر رغبة الحكومة المصرية الأكيدة ومجهوداتها الصادقة المتوالية فى توطيد العلاقات الطيبة بين البلدين .

« ولذلك لا يسع الحكومة المصرية ان تسلم بما جاء فى ذلك الانذار ، فتعبث بحق مصر الأزلى عبثا خطرا بل وما كان لها أن تعتقد أن الحكومة البريطانية بما عرف عنها من ميول حرة تبغى اذلال أمة عزلاء من كل سلاح الا قوة حقها وصدق طويتها .

« ولهذا فان الحكومة المصرية مدفوعة فى ذلك برغبتها الصادقة فى التفاهم والمسالة التى كانت على الدوام رائدها قد طلبت بالامس فى حدود حقها الدستورى الى مجلس الشيوخ ان يؤجل المناقشات فى مشروع القانون الى دور الانعقاد القادم وقد وافقها المجلس على ذلك ، وهى تأمل أن تقدر الحكومة البريطانية تلك الخطة الودية وان يمهد بذلك السبيل الى تذليل المصاعب الحالية فى ضوء الثقة المتبادلة التى يجب ان تسود العلائق بين البلدين وان يعقبها عهد من التفاهم الحقيقى والمودة والعدل » .

فقبلت دار المندوب السامى هذا الرد واعتبرت الأزمة قد انتهت .

ومن هذا الرد تتبين قوة شكيمة الحكومة المصرية ، فهى لم تقبل الانذار البريطانى باسقاط حق مصر فى التشريع ، واكتفت لمواجهة الواقع بتأجيل النظر فى القانون لدورة قادمة ، ولما كان الانجليز ، على علم بما هو آت ، فقد وقفوا عند هذا الحد مؤقتا ، ولا بد ان تكون هذه السلسلة من البيانات ، هى التى ملأتنى فى وقتها اعجابا حتى دفعتنى الى قول « النحاس اعظم من سعد زغلول » .

٣٠ مايو ــ معاهدة صداقة بين الأفغان ومصر :

كان يمكن أن يكون هذا حدثا عابرا لا يسجل ، ولكن ما يجرى فى هـذه الايام (ساعة كتابة هذه السطور) فى الافغان (حيث تتصدى للروس) يجعل من هـذا التاريخ حدثا عظيما ففى هـذا الوقت المبكر كان التاريخ يقول : لقد ولدت دولتان اسلاميتان عظيمتان سوف تجددان شباب الاسلام ولكن فى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه (٣٠ مايو ١٩٢٨) لم يأخذ الموضوع كل هذه الأهمية وربما علت بعض الشـفاه ابتسامة سخرية من هـذه المعاهدة التى تؤكد الود والصـداقة بين مصر المستقلة والافغان المستقلة حقا وصدقا .

١٧ يونية ــ بدا تنفيذ المؤامرة ــ استقالة محمد محمود :

بعد أن تم التفاهم والاتفاق بين الجبهات الثلاثة : الانجليز والسراى والأحـرار الدستوريين على ضرب حكومة مصطفى النحاس باشـا باعتبارها ممثلة للشـعب

والحياة الدستورية الديمقراطية ، بدأ تنفيذ المؤامرة فاستقال محمد باشا محمود وكان وكيل حزب الأحرار الدستوريين وكانت استقالته فى يوم ١٧ وبعدها بيومين أى فى يوم ١٩ يونية ، استقال عضو آخر من الأحرار فى الوزارة وهو جعفر والى باشا.

زوبعة قضية سيف الدين :

ثم اثير ما أريد به ان يكون فضيحة تلطخ سمعة مصطفى النحاس باشا فنشرت الصحف ما سمى وقتها « وثائق سيف الدين » وسيف الدين احد امراء البيت المالك وكان محجورا على املاكه فعهد فى فبراير سنة ١٩٢٧ ، الى مصطفى باشا النحاس ، وكان محاميا فى ذلك الوقت ومعاونة ويصا واصف بك وجعفر فخرى بك للمرافعة عنه واستخلاص حقوقه ، وبالرغم من ان مصطفى النحاس تنازل عن التوكيل بمجرد صيرورته رئيسا للوزارة ، فقد اتخذ من هذا الاتفاق أداة للتشهير بمصطفى النحاس بحجة أن الاتعاب المتفق عليها مبالغ فيها وباهظة ، حيث لا يرى المؤرخ « المحامى » عبد الرحمن الرافعى وهو عنوان النزاهة والشرف ، أى غبار على هـذا الاتفاق ، ولكنى مازلت أذكر الحملة العاصـفة التى أثيرت وقتذاك ، وأسرع وزير كان يعتبر حتى ذلك الوقت وفديا وهو أحمد خشبة باشا للاستقالة ، ثم وزير رابع وهـــو ابراهيم فهمى كريم باشا وهكذا وصلت المؤامرة الى قمتها وضرب الملك أحمد فؤاد ضربته المقصودة وهى :

٢٥ يونية ١٩٢٨ ــ اقالة وزارة مصطفى النحاس :

عزيزى مصطفى النحاس باشا ..

لما كان الائتلاف الذى قامت على اساسه الوزارة قد أصيب بصدع شـديد فقد رأينا اقالة دولتكم ، شاكرين لكم ولحضرات زملائكم ما أديتم من عمل فى خدمة البلاد.

فـــؤاد

٧ محرم ١٣٤٧ ــ ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨

٢٧ يونية ــ تأليف وزارة محمد باشا محمود :

وغنى عن البيان أن الاقالة عمل يجـافى الدستور نصـا وروحا ، فما كان للملك ان يسقط حكومة متمتعة بثقة البرلمان ودل ذلك على أن هذا هو الفصل الأول من رواية اتفق على تأليفها الملك والانجليز والأحزاب غير الوفدية ولذلك وقبل انقضاء ٤٨ ساعة كانت وزارة محمد باشا محمود تتألف من الأحرار الدستوريين وحـزب الاتحاد أى حزب الملك ، بمباركة الانجليز ، ولقد دارت الايام دورتها ، وسوف يبين لى أن محمد باشا محمود (من أحسن من عرفت من السياسيين القدامى ان لم يكن أحسنهم على الاطلاق) ولكننى كمؤرخ لا يمكن الا أن أشـجب تصرف محمد محمود باعتباره مخالفة صارخة للدستور نصا وروحا .

أعضاء الوزارة :

محمد محمود باشا ــ الرئاسة والداخلية

جعفر والى باشا ــ الحربية والاوقاف مؤقتا

عبد الحميد سليمان باشا ــ للمواصلات

احمد محمد خشبة ــ الحقانية

نخلة المطيعى باشا ــ للزراعة

على ماهر باشا ــ للمالية

ابراهيم فهمى كريم باشا ــ للاشغال

حافظ عفيفى بك ــ الخارجية

أحمد لطفى السيد بك ــ المعارف

انقلاب كامل ضد الدستور :

وسرعان ما كشفت الوزارة عن هويتها وهو عداؤها للدستور والنظام النيابى ، ففى اليوم التالى لتشكيل الوزارة أى فى ٢٨ يونية اصدرت مرسوما بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ، وقبل انقضاء الشهر أى فى ١٩ يوليو صدر مرســوم بحل مجلس النواب والشيوخ وتعطيل الدستور والعمل بأحكامه لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وفى مقابل حرمان الامة من الدستور وعدت الوزارة الامة ان تكرس كل جهدها للعمل والبناء فأعلنت انها سترد البرك والمستنقعات وانها ستبنى مساكن للعمال وستوزع املاك الحكومة من الاراضى الزراعية على صغار المزارعين وغير ذلك من المشروعات المماثلة .

ومما هو جدير بالذكر فى هذه المناسبة أن الملك فؤ د وكان قد اختار (اسماعيل صدقى باشا) للقيام بهذه المغامرة ، ولذلك فعندما ذهب صدقى باشا قبيل الانقلاب يستأذن فى السفر الى أوروبا للاصطياف ، طلب منه أن لا يسافر ولكن اللورد جورج لويد المندوب السامى البريطانى وقد كان زميلا لمحمد محمود فى احدى كليات انجلترا، نجح فى اقناع الملك فؤاد ، ان يكون محمد محمود وليس اسماعيل صدقى من يقوم بهذا الانقلاب ولما كان أحمد فؤاد بحاجة للانجليز لتدعيم الانقلاب ، فقد رضى بمحمد باشا محمود مؤقتا ، وادخر اسماعيل صدقى للمستقبل كما سوف نرى .

رد فعــل الأمــة :

ولم يكن رد الأمة عنيفا بقدر العدوان الذى وقع على الدستور مما دل بالفعــل على أن روح ثورة ١٩١٩ وما تلاها قد ضعف ، لقد اصــدر الحزب الوطنى بيــانا (راجع نصه فى كتاب عبد الرحمن الرافعى) كما اصدر الوفد بيانا يندد فيه بأقوى

عبارات بهذا الذى حدث ، وقامت بضع مظاهرات ولكن البوليس استطاع أن يفرقها ويخمد صوتها بسهولة وبساطة .

التنظيم الوفدى فى عنفوانه :

ولكن لما كانت التنظيمات الوفدية وعلى راسها الهيئة البرلمانية فى كامل قوتها ، فقد قامت بدورها كاملا وبكل فاعلية فعندما تلى على مجلس النواب والشيوخ فى يوم ٢٨ يونية مرسوم تأجيل انعقاد البرلمان شهرا قرر المجلسان العودة الى الانعقاد يوم ٢٨ يوليو أى بمجرد انتهاء الشهر ، وعندما صدر المرسوم القاضى بحل البرلمان اعتبر باطلا ، واجتمع النواب والشيوخ فى النادى السعدى يوم ٢٤ يوليو وقرروا عدم الاعتراف بما وقع من اجراءات ووجوب الاجتماع حسبما كان مقررا فى يوم ٢٨ يوليو ، وارسل الاستاذان ويصا واصف (رئيس مجلس النواب) ومحمود بسيونى (رئيس الشيوخ) خطابا لوزير الداخلية بهذا المعنى .

وبالرغم من محاولة الحكومة بواسطة الجيش والبوليس الحيلولة دون عقد الاجتماع فى اى مكان ، فقد تمكن الوفديون من عقد الاجتماع بدار مراد بك الشريعى واصدروا بيانا وقرارات مدوية نثبتها فيما يلى فهى تغنى بذاتها عن كل شيء :

« نظرا لان الوزارة حالت بقوة الجيش والبوليس دون اجتماع البرلمان فى داره اجتمع كل من مجلسى الشيوخ والنواب بدار آل الشريعى بشارع محمد على فى الساعة السادسة مساء من مساء السبت ٢٨ يلية سنة ١٩٢٨ وصادق كل منهما على ما يأتى :

« لقد جاهد الشعب المصرى من نصف قرن مضى فى سبيل الدستور الذى هو حقه المقدس حتى ناله فكان اول ثمرة لجهاد متتابع وتضحيات متواليات وابتدات الامة تعيش فى ظله عيشا سعيدا مرضيا ، وتسير فى طريق الحياة المطلقة بعد أن كفل لها الاشتراك العملى فى ادارة شئون البلاد والاشراف على وضع قوانينها ومراقبة تنفيذها واصبحت تحس فى نفسها شعور الراحة والطمأنينة على حاضرها ومستقبلها مع الاحتفاظ بروحها القومية والابقاء على صفاتها ومميزاتها التى هى ميراثها القومى العظيم .

« وبينما مجلسا الامة ، وهما مظهر سيادتها وعنوان سلطانها ، يعملان لاصلاح ما افسده الماضى وتطهير اداة الحكم مما اعتراه بسبب الحكومات المطلقة التى حكمت مصر قبل الدستور أو أثناء تعطيله سنتى ١٩٢٥ — ١٩٢٦ والاشراف على ماليتها وفحص أبواب ميزانيتها ومراقبة حكومتها ووضع التشريع الصالح لها وصيانة حقوقها وضمان سيادتها والنهوض بالشعب المصرى الى المنزلة العليا التى يؤهله لها ذكاؤه واستعداده وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة وتسمح له بتبوء المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين وأممه .

« وبينما ظل السلام والطمأنينة يرفرف على الأمة اذ ببضعة أشخاص هم أعضاء الوزارة الحالية يقومون فى ١٩ يولية سـنة ١٩٢٨ بثورة على دسـتورها وانظمتها ويحدثون انقلابا خطيرا فى حياتها السياسية والاجتماعية ويطعنونها فى صميم حريتها ويشوهون أمام العالم نهضتها فعطلوا الدستور وعطلوا البرلمان وقضوا على الحريات لتى كفلها الدستور واغتصبوا سلطة التشريع وأعلنوا فى البلاد حكم ارهاب واستبداد وحالوا بين البرلمان وبين الانعقاد فى داره .

«ولما كان الأمر الذى استصدره الوزراء فى ١٩ يولية سنة ١٩٢٨ بتعطيل بعض أحكام الدستور وحل المجلسين باطلا أصليا اذ ان مجلس الشيوخ لا يجوز حله مطلقا (مادة ٨١ من الدستور) ومجلس النواب لا يكون حله صـحيحا الا اذا كان الامر الصادر بحله مشتملا حتما على دعوة الناخبين لاجراء انتخابات جديدة فى ميعـاد لا يتجاوز شهرين وعلى تحديد ميعاد لاجتماع المجلس الجديد فى العشرة الايام التالية لتمام الانتخابات (مادة ٨٩ من الدستور) فاذا خلا امر الحل من كل هذا وقع باطلا .

« وبما أن تعطيل البرلمان مدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مخالف للمادة الاولى من الدستور التى تقضى بأن يكون شكل الحكومة نيابيا وللمادة ٥٥ من الدسـتور التى تقضى بعدم جواز تعطيل اى حكم من أحكامه الا فى زمن الحرب أو أثناء قيام الاحكام العرفية وأنها لا تكون قائمة الا بعد اذن البرلمان (مادة ٤٥ من الدسـتور) وعلى أى حال لا يجوز تعطيل انعقاد البرلمان متى توفرت فى انعقاده الشروط المقررة فى الدستور (مادة ١٥٥ فقرة ثانية) .

« ولما كانت المادة ٢٥ من الدستور تنص على أن السلطة التشريعية يتولاها الملك بالاشتراك مع مجلسى الشيوخ والنواب كما تنص المادة ٢٥ على انه لا يصدر قانون الا اذا قرره البرلمان وصدق عليه الملك .

لهـذا :

« يقر المجلس ما يأتى :

« أولا ــ ان البرلمان قائم وله حق الاجتماع حسب أحكام الدستور .

« ثانيا ــ يقرر المجلس ان هذه الوزارة ثائرة على الدستور ويعلن عدم الثقة بها ووجوب تخليها عن الحكم .

« ثالثا ــ أن كل تشريع تستصدره هذه الوزارة يقع باطلا .

« رابعا ــ أن كل ما يبرمه الوزراء من الاتفاقات السياسية أو التجارية أو المالية مع الدول الأجنبية أو غيرها خصوصا ما نص عليه فى الباب الرابع من الدسـتور أو أى اجراء تتخذه يعتبر باطلا غير ملزم للأمة .

« خامسا – يؤجل المجلس من تلقاء نفسه اجتماعاته الى السبت الثالث من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٨ الا اذا طرأ ما يدعو للانعقاد قبل هذا التاريخ فيدعوه الرئيس للاجتماع » .

وقرر مجلس الشيوخ نفس القرار الذى أصدره مجلس النواب مع اختلاف فى صيغة عدم الثقة بالوزارة . فقد جعلها (عدم تأييد المجلس للوزارة) لان اعلان عدم الثقة بالوزارة هو من حق مجلس النواب وحده طبقا للدستور وأقسم كل عضو من الشيوخ والنواب اليمين على أن يحافظ على الدستور ويدافع عنه بكل ما أوتى من جهد وعزم الى آخر رمق من حياته .

٢٧ اغسطس – توقيع ميثاق كيلوج للسلام :

اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة للسلام بين الدول تكون بمثابة ميثاق للسلام ونبذ للحروب بين الدول المستقلة وكانت مصر ممن دعوا للتوقيع على هـذه المعاهدة فتم التوقيع عليها فى باريس فى ٢٧ أغسطس وقد حاولت انجلترا عنـد التوقيع أن تحتفظ بحقوق مدعاة لها فى مصر ، ولكن مصر عندما وقعت الميثـاق ، قالت انها لا تعترف بأى تحفظات تكون احدى الدول قد اتخذتها ، فدل ذلك على استقلال مصر على الصعيد الدولى مما كان له رنة سرور فى مصر مازلت اذكرها .

١٨ نوفمبر – عودة البرلمان للانعقاد :

مر بنا ، ان البرلمان عندما انعقد رغم انف الحكومة فى دار مراد الشريعى أعتبر أن الامر الصادر بحله هو قرار باطل واعلن عدم ثقته بالحكومة ثم ارجأ اجتماعاته الى ما قبل السبت الثالث من نوفمبر حيث يتعين عليه الاجتماع بنص الدستور ، واجتمع المجلسان بالفعل بدار جريدة البلاغ متحديا الحكومة وانتخب كل من المجلسين رئيسهما السابق ونددا بالحكومة واجراءاتها ، وجددوا عدم الثقة بها ، وقـررا بطلان كل ما يصدر من قوانين أو يتخذ من اجراءات .

وانتهت السنة وسط اجراءات القمع :

وانتهت السنة كما بدأت فى عهد وزارة محمد محمود وسط سلسلة من اجراءات القهر والمنع ، من ذلك على سبيل المثال ان النواب والشـيوخ لكل مديرية كانوا يتوجهون الى ساحة الملك فى قصر عابدين ليقدموا عرائض يطالبون فيها بعودة الحياة النيابية ، فكانوا يمنعون بقوة البوليس من الوصول الى القصر ، وقد اعتدى عليهم بالضرب فى بعض المرات ، ولكن الشىء المؤكد (وقد كنت معاصرا بكل وعيى وادراكى) أن جمهور الأمة وقف يشهد هذه المبارزة بين الملك والحكومة من ناحية والوفد من الناحية الاخرى ، اما الطلبة الذين كانوا من قبل هم جيش الوفد العامل فقد وقفوا بدورهم موقفا سلبيا ، الى الحد الذى كان فى مدرستنا (الخديوية) نجل محمد باشا محمود ، وكان يدعى « همام محمد محمود » فلا اذكر انه سمع يوما ما كدره ، وعلى

العكس من ذلك ، لم يكن يسمع من زملائه الطلبة ، فضلا عن مدرسيه ، الا ثناء عليه وعلى ادبه وحسن اخلاقه ولست اشك لحظة أن هذا الجو العام من سلبية الجماهير وبخاصة الشباب تجاه الوفد واساليبه ، هو سيرسم لى طريقى فى مقبل الأيام .

ذكرياتى الخاصـة :

وتتلخص ذكرياتى الخاصـة عن هـذا العام فى استغراقى حتى الاذقان فى التمثيل حتى لقد بنيت مسرحا خاصا فى المدرسة على غرار المسارح العمومية ، ولما كان قد اقيم فى حجرة ضيقة ، فقد عمل لبيب بك الكردانى ناظر المدرسة على توسيع الحجرة بمعرفة مصلحة المبانى وهكذا وجد فى المدرسة مسرح دائم أصبحت وزارة المعارف تتباهى به وتحضر الى المدرسة ، كل الضيوف الأجانب وقد كان الوفد الزائر فى احدى المرات هى طلبة فلسطين (لم تكن اسرائيل انشئت) وكان على رأس الوفد الزائر اسعاف بك النشاشيبى ، وقد علق فى خطاب له على مقطوعة تمثيلية ، وقد كان لما قال اثر عظيم فى حياتى **(راجع كتابى نصف قرن مع العروبة)** .

المليونير :

ولعل هذه الشهرة الضخمة للتمثيل فى المدرسة الخديوية قد بلغت الذروة هذا العام ، عندما الفت رواية « المليونير » لأحاكى فيها بعض مواقف أعجبتنى فى روايات ليوسف وهبى ، وقد مثلنا الرواية لأول مرة على « مسرح رمسيس » ثم اعدنا تمثيلها على مسرح المدرسة بعد توسيعه .

واذا كان عام ١٩٢٧ قد شهد جنونى المسرحى حتى لقد كدت أهجر التعليم فان عام ١٩٢٨ قد شهد اقبالى على مواصلة التعليم ، وحصر الجنون المسرحى داخل جدران المدرسـة .

عام ١٩٢٩

والآن وقد آن لهذه الموسوعة ان تنتهى ، فان قدرتى على الكتابة (٢١ مارس سنة ١٩٨٠) توشك على نهايتها كذلك ، أما لماذا يجب أن تنتهى هذه الموسوعة فلاننى بدأت كتابتها عن عصر ما قبل التاريخ ، بل ما قبل العصور الجيولوجية نفسها ، مذ كانت « السموات والأرض رتقا ففتقناهما » وبدأت موسوعتنا من هذه البداية وتوالت بعد ذلك العصور والازمنة ، فمن قبل ان يبدا التاريخ ثم التاريخ ، فالعصر الفرعونى بشقيه قبل «الاسرات» وبعد الاسرات فالغزو الفارسى فاليونانى فالرومانى فالتح الاسلامى فالغزو التركى فالعصر الحديث ، ثم الحديث جدا ، ولقد كتبت كل هذ نقلا عن كتب سابقة فى هذه التواريخ «بموضوعية كاملة» فلم يكن لى وجود فى هذه الدنيا ، ووصل التاريخ الحديث الى زمن ولادتى (٨ مارس ١٩١١) ولكننى مع ذلك ظللت أكتب بموضوعية (أى لا دخل مباشر لذاتى) فقد كنت طفلا فصبيا ، دون الوعى والادراك ، ولكن بوصولنا الى عام (١٩٢٩) فقد اصبح عمرى (١٨ سنة) أى اننى اصبحت شابا وفى هذا العام اكملت تعليمى الثانوى ودخلت الجامعة أى اننى أصبحت ممتزجا بالتاريخ الذى أكتب عنه ، بل ان عام ١٩٢٩ شهد تحولا أساسيا فى حياتى ، جعلنى واحدا ممن يساهمون فى صنع التاريخ ولهم رأى فى كل ما يدور حولهم ويقدمونه على أى رأى آخر .

وقد كنت قبل هذا العام منخرطا بالتمثيل حتى الاذقان ، حتى لقد فكرت فى هجر التعليم واحتراف التمثيل (١٩٢٧) فلما نجوت من هذا المصير ، استقر رأيى على ان احصر نشاطى الفنى بين جدران المدرسة فحولت فرقة التمثيل بها الى مايشبه المسرح الدائم ، على ان بعض الوقائع والأحداث جعلتنى اعتزل التمثيل وكل نشاط مدرسى .

وفى اجازة نصف السنة من هذا العام (١٩٢٩) وربما كان ذلك فى فبراير من هذه السنة ، اشتركت فى رحلة كشفية فى الأقصر وأسوان ، وقد كتبت بالتفصيل عن هذه الرحلة فى كتاب « ايمانى » باعتبارها نقطة البدء لايمانى بما يجب أن تكون عليه مصر فى مقبل الايام وهو ما لخصته فى خطاب القيته فى حضرة محمد محمود احتفالا بعودته (اغسطس ١٩٢٩) حاملا مشروع معاهدة بين مصر وانجلترا ، وقد جاءت خطبتى (وهى منشورة فى كتاب ايمانى) ابعد ما تكون عن الجو الذى كان سائدا يوم القائها ، ومع ذلك فهى تمثل هذا المولود الجديد ، الذى دخلت به الى الحياة المصرية ، والذى سيصل بى الى حد مخاصمة الوفد واعتباره « القوة المتخلفة »

أى اننى منذ الآن لن استطيع ان امضى مرتديا ثوب المؤرخ المحايد ، بعد ان اصبحت أنا احد اللاعبين فى الملعب ، ومن هنا فقد كتبت « حياتى السياسية » وهو ما يمكن ان يغطى الأحداث الآتية :

معاهــدة مع انجلترا :

وقد بقى لنستكمل احـداثنا التاريخية عن عام ١٩٢٩ أن اسجل ان حكومة المحافظين سقطت فى الانتخابات ، وجاء حـزب العمـال ، وتولى وزارة الخارجية البريطانية « أرثر هندرسون » وكان لابد لوزارة العمال الانجليزية ان تظهر عـدم رضائها عن تعطيل الدستور فى مصر ، فأوعزت الى اللورد جورج لويد ممثلها فى مصر ان يستقيل فاستقال وأوفدت « السير برسى لورين » بتعليمات جديدة ، فدل ذلك على قرب نهاية محمد محمود ، ولكن لامر ما ، تفاوضت الوزارة الانجليزية الجديدة مع محمد محمود ، فتوصل الطرفان الى مشروع معاهدة ، وقد اذكر أنا شخصيا من هذه المعاهدة مادتها الأولى «انتهى الاحتلال البريطانى لمصر»وقد طالعت فيما بعد انهذه المادة هى مظهر عبقرية عبد الحميد باشا بدوى التشريعية فقد ورد هذا التعبير عن انتهاء الاحتلال البريطانى لمصر فى مادة متأخـرة وفى ثنايا كلام كثير ، فما كان من عبد الحميد بدوى الا أن اقتطع هذه الجملة وجعلها مادة مسـتقلة ، بل وبدأ بهـا المعاهدة كمادة أولى ، واشهد لقد سحرنى هذا التعبير وجعلنى « من انصار المعاهدة» خاصة واننا فى ذلك الوقت ، بدأ يستهوينا الانضمام لعصبة الامم (قدمت فيما بعد مذكرة بطلب هذا الانضمام وكانت المعاهدة تنص على حق مصر فى ذلك ، وكان تمتع الأجانب بالامتيازات فى مصر بات هو مايؤرقنا فى الدرجة الاولى وكانت المعاهدة تتحدث عن وجوب ذلك ، وهكذا وجدتنى من انصار المعاهدة .

بقية أحــداث العام :

واكتب الآن من الذاكرة ، فقد كنت كما قدمت مشـاركا فى الاحداث ، فقـد أخذنى الأستاذ حسن صبحى (وكنت معجبا به فى هــذه الفترة) أخــذنى الى الاسكندرية واشركنى فى استقبال محمد باشا محمود العائد بمشروع المعاهدة ، وكنا فى شهر أغسطس ، وقد رفض مصطفى باشا النحاس وقتها أن يبدى الرأى فى المعاهدة « الا تحت القبة » اشارة الى وجوب اجراء الانتخابات أولا ، وطبعا لم يرق لى ذلك وقلت مع القائلين ان النحاس يؤثر الصالح الخاص على العام ، وذلك لا يعدو أن يكون تجنيا ، فقـد كان فى مصر وضـع خاطىء فكان لزاما أن يصحح قبل كل شىء ، واقـام شـباب الأحـرار الدستوريين الذين يرأسـهم حسن صبحى حفـل تكـريم لمحمـد محمـود فى ناديهـم ودعيت للخطـابة بصـفتى سـكرتير « الشباب الحر انصار المعاهدة » وكان خطابى هو بذرة مصر الفتاة التى تألفت فيما بعد (نص الخطـاب فى كتاب ايمانى) وفى نهاية خطابى طلبت من الحاضرين وعلى رأسهم محمد محمود ان يقفوا ليهتفوا « مصر فوق الجميع » .

استقالة وزارة محمد محمود :

ولابد أن كان الانجليز على صـلة بالوفد الذى ظل متمسـكا ان لا يبدى رأيه

الا تحت القبة ، واستقال محمد محمود ، وألف عدلى باشا يكن وزارة محايدة لاجراء الانتخابات ، وقد قاطعها الأحرار الدستوريون ليخفوا فشلهم المحتـوم ، ولكن حزب الاتحاد الذى يمثل الملك خاضها فلم يظفر بأكثر من ثلاثة مقاعد حيث أحرز الحزب الوطنى خمس مقاعد ، وبضعة مقاعد أخرى للمستقلين ، وما بقى بعد ذلك وهـو يزيد بكثير على مائتى مقعد فاز بها الوفديون وألف مصطفى النحاس وزارة جديدة ، وتفاوض مع انجلترا حول المشروع المقترح ، وفشلت المفاوضات ومرة أخرى اطلق الانجليز يد الملك المتصرف مع الوفد ، فأقيل مصطفى النحاس أو استقال (لست أذكر) ودعا الملك ، اسماعيل باشا صدقى (أبو السباع) ليفترس الوفد والحياة الدستورية معـا .

والمهم انه يبدو اننى كنت طليعة « جيل جديد » قد سئم كل ذلك وأصبح أهم ما يهمه هو بناء مصر ، فدعوت الى « مشروع القرش » تحت شعار « تعاون وتضامن فى سبيل استقلال مصر الاقتصادى » .

وقد حاول مصطفى النحاس ان يتصدى لهذه الدعوة ، ولكنه فشل وقد كان ذلك هو آية التحول الذى طرأ على البلاد واننى وأخوانى دعاة مشروع القرش رمز ذلك ، وهو ما يجعلنى أخلع عن نفسى ثوب المؤرخ المحايد فأختم هذه الموسوعة ليبدأ بعد ذلك كتابى « حياتى السياسية » وهناك بعد ذلك مذكراتى التى رحت أكتبها بانتظام منذ عام ١٩٥٥ حتى اليوم (مارس ١٩٨٠) .

تـم بعـــون الله

٢٢ مـــارس ١٩٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٥٨٨٥
ISBN ٩٧٧–٢٩٦–١٣٠–٨ الترقيم الدولى